

تفسير السجدة

وبها مشه
المنهل الروي المسند من صحيح التفسير النبوي

أفصح وأقرب وأعم وأفضل الشيخ الدكتور
أبي السامع سليم بن عبد الله بن السليمان الفهري
كان الله له بمنه وكرمه



دار النشر والدراسات الإسلامية

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

تفسير السجدة
تفسير السجدة

يمنع منعاً باتاً تنزيل الكتاب على شبكة ومواقع الانترنت

جميع حقوق النشر والطبع والتوزيع
والحقوق المادية والفكرية والأدبية وحقوق
النسخ والتصوير الضوئي والألكتروني
والترجمة لجميع اللغات محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م



النشر والتوزيع والدعاية والإعلان

الكويت - شارع الصحافة - مقابل مطابع الرأي العام التجارية

هاتف: ٢٤٨١٩٠٣٧ - ٢٤٨٤٤٧٤٣ - فاكس: ٢٤٨٣٨٤٩٥

الكويت - الخالدية - ص.ب: ١٧٠١٢ - الرمز البريدي: ٧٢٤٥١

فرع القاهرة: الأزهر - شارع البيطار - خلف الجامع الأزهر

هاتف: ٠٠٢٠٢٢٤٩٩٨٣٥٦ - ٠٠٢٠١٢٦٣٠٤٠٧٥

E-Mail info@gheras.com

Website www.gheras.com

 [@gheras1](https://twitter.com/gheras1)

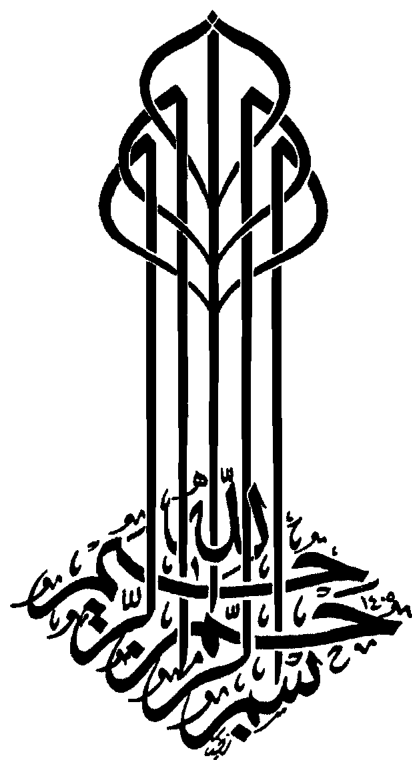
تَفْسِيرُ السَّجْدِ وَبِهَامِشِهِ

الْمَنْهَلُ الرَّوِّيُّ الْمُسْنَدُ مِنْ صَحِيحِ التَّفْسِيرِ النَّبَوِيِّ

افْضَلُهُ وَهَيْبُهُ وَقَرَّبُهُ وَأَعَدُّهُ فَضِيلَةُ السَّجْدِ لِدَوْدِ

لَا بِي (السَّاجِدِ) سَالِمِ بْنِ حَبِشٍ الْهَدَلِيِّ السَّافِي الْهَدَرِيِّ
كَأَنَّ اللَّهَ لَهُ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

إن الحمد لله؛ نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله؛ فلا مضل له، ومن يضلل؛ فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. أما بعد:

فإن علم التفسير علم يتوصل به العبد إلى معرفة مراد الله ﷻ، ويعين على تدبر كتاب الله وفهمه، واستنباط ما فيه من خيرات وعظات وأحكام وحكم، ولذلك؛ فهو علم يقوم عليه منهج الحياة؛ لأن القرآن الكريم والسنة النبوية منهج حياة. ولذلك قال الإمام الطبري رَحِمَهُ اللهُ: «إني لأعجب ممن قرأ القرآن، ولم يعلم تأويله كيف يتلذذ بقراءته».

ولقد تكاثرت تفاسير أهل العلم لكتاب الله ﷻ، وتنوعت طرائقها، واختلفت مناهجها؛ فكان من أحسنها فائدة، وأكثرها عائدة: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» المشهور بـ: «تفسير السعدي» نسبة إلى الشيخ الإمام العلامة العلم عبد الرحمن بن ناصر السعدي المتوفى سنة (١٣٧٦هـ) رَحِمَهُ اللهُ.

حيث كان لهذا التفسير الميسر خصائص كثيرة؛ منها:

- ١- سهولة العبارة، ووضوح الإشارة؛ حيث يفهمها الراسخ في العلم، ويستوعبها من دونه في الفهم.
- ٢- تجنب الحشو والتطويل؛ فهو: يعتني بتوضيح المقصود من الآية بكلام مختصر

مفيد، مستوعب لمقاصد الآية، ومعناها الإجمالي.

٣- الابتعاد عن مسائل الخلاف؛ إلا ما دعت الحاجة إلى ذكره، وهذا يعين على تثبيت المعنى الصحيح المراد في ذهن المتعلم.

٤- اهتم بترسيخ العقيدة السلفية؛ حيث سار على منهج السلف الصالح، وبخاصة في آيات الصفات خلافاً لمن يؤولها تأويلاً باطلاً، ويخالف مراد الله ورسوله وطريقة السلف الصالح.

٥- دقة الاستنباط فيما تدل عليه الآيات من الفوائد والعبر، والأحكام والحكم.

٦- اعتمد على كتب التفسير السلفية الموثوقة اعتماداً كبيراً، وصاغها بأسلوب العصر الذي يناسب جميع طبقات الناس: المتعلم وغير المتعلم، والمتخصص في العلوم الشرعية وغيرها، حتى المرأة في قعر بيتها تستفيد منه؛ فهو كتاب تفسير، وعقيدة، وتربية.

وقد كتب الله لهذا التفسير القبول؛ فهو من أوسع التفاسير الميسرة انتشاراً، وأكثرها نفعاً للأمة الإسلامية.

ولكن الجهد البشري لا بد أن يعتريه شيء من النقص والخطأ والوهم؛ ولذلك لم يخل هذا التفسير من ذلك، ومن ذلك:

١- اختصار بعض الآيات اختصاراً مخللاً.

٢- طوى ذكر بعض الآيات؛ فلم يفسرها، أو يشر إليها.

٣- تفسير الآيات تفسيراً إجمالياً؛ فيجمع أكثر من آية في موضع واحد، ولذلك تغيب معاني بعض الآيات ومقاصدها في زحمة الجمع.

٤- خلا من الأحاديث الصحيحة - إلا القليل - التي فسر بها رسول الله ﷺ كثيراً من الآيات، وكذلك غابت عنه آثار السلف الصالح من الصحابة والتابعين الذين نزل بين ظهرانيهم الكتاب؛ فهم أعلم بتأويله؛ لأنهم نقلته، وحملته، وشهوده.

٥- وقع الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ فِي بعض الأخطاء؛ كذكر بعض الروايات الضعيفة بل الموضوعة، وأشار إلى معان مأخوذة من روايات إسرائيلية، وخالف أحياناً ما اتفق عليه المفسرون من علماء أهل السنة والجماعة المحققين. من أجل ذلك؛ فقد شرح الله صدرى بعد استخارة الله مولاي الحق، واستشارة إخوان كرام من أهل العلم وطلابه؛ فقامت باستدراك جميع ذلك، وتصفية هذا التفسير السلفي مما عكر صفوه، وشاب جماله.

وقد سلكت المنهج الآتي:

١- الآيات التي لم يذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ وَلَمْ يفسرها؛ فسرتها من «تفسير الطبري»، و«تفسير ابن كثير»، و«تفسير البغوي»، وهذه أمات التفاسير السلفية النقية.

٢- الآيات التي اختصرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ اختصاراً مخلاً؛ أصلحت تفسيرها من التفاسير المتقدمة.

٣- جعلت التفسير زبدة؛ فجعلت كل معنى ومقصد مرتبط بلفظه في الآية؛ ليسهل على المبتدئ فهمه واستيعاب المراد منه.

٤- حذفت كل ما أخطأ فيه الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ، ووضعت مكانه الصحيح المتفق عليه بين أهل العلم من أهل السنة والجماعة.

٥- زينته بحاشية من الأحاديث النبوية الصحيحة والآثار السلفية الصريحة التي لها ارتباط وثيق بالآية، سواء أكان في تفسيرها، أو سبب نزولها، أو بيان فضلها. وبذلك أكون بحمد الله وتوفيقه ومنته قد حققت رغبة مشروعة لكثير من المسلمين، وأمنية لجمع من العلماء الربانيين، وهو ما أشار إليه شيخنا فقيه الزمان محمد الصالح العثيمين رَحِمَهُ اللهُ؛ حيث قال في «لقاء الباب المفتوح» (شريط ٣٢/ب).

«أنا أرى أن خير التفاسير تفسير الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رَحِمَهُ اللهُ، على ما

فيه من بعض الآيات التي يختصر فيها اختصاراً مخلاً، أو ربما يطويها ولا يتكلم عليها، لكن هذا قليل، إنما فيه فوائد ما تكاد تجدها في غيره؛ فهو صالح لطالب العلم، والنقص الذي فيه يمكن للإنسان أن يتلافاه بمراجعة «تفسير ابن كثير» أو غيره؛ كـ«فتح القدير» للشوكاني، وإن كان فيه ما فيه لكنه طيب».

وسميته: «تقريب تفسير السعدي»؛ فإن أصبت ووفقت؛ فذلك فضل من الله ومثته، وإن أخطأت وقصرت؛ فمن نفسي والشيطان، وأسأل الله ﷻ أن يتقبل مني جهد المقل بقبول حسن، وأن يدخر لي ثوابه إلى يوم لقائه: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾، والله الهادي.

وكتبه

حامداً لربه ومصلياً ومسلماً على رسول الله

أبو أسامة سليم بن عيد الهلالي

ضحى يوم السبت (١٠/٥/١٤٣١هـ)

الموافق (٢٤/٤/٢٠١٠م)

في عمان البلقاء عاصمة جند الأردن في بلاد الشام المحروسة.

تفسير السجدة

وبها مشه

المنهل الروي المسند من صحيح التفسير النبوي

افنصره وهديه وقرية وأمنه فضيلة الشيخ الدكتور

أبي الساجد سليم بن جبر الهمداني السلفي الهندي

كان الله له بمنه وكرمه



سورة الفاتحة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ①
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ ③ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑤
اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑥ صِرَاطَ
الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ⑦

والتدبير والنعم، وكمال غناه، وتمايم فقر العالمين إليه، بكل وجه واعتبار.

﴿مَلِكِ﴾ المالك؛ هو: من اتصف بصفة الملك، التي من آثارها أن يأمر وينهى، ويثيب ويعاقب، ويتصرف بمماليكه بجميع أنواع التصرفات ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾: يوم القيامة، يوم

(١) ﴿بِسْمِ﴾: أبتدئ بكل اسم لله تعالى؛ لأن لفظ «اسم» مفرد مضاف، فيعم جميع الأسماء الحسنى. ﴿اللَّهُ﴾؛ هو: المألوه المعبود، المستحق لإفراده بالعبادة. ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾: اسمان دالان على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة، التي وسعت كل شيء، وعت كل حي.

(٢) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ هو: الثناء على الله بصفات الكمال، وبأفعاله الدائرة بين الفضل والعدل. ﴿رَبِّ﴾ الرب؛ هو: المربي جميع العالمين، المدبر لجميع شؤون حياتهم الدنيوية، وهو المنعم عليهم بجميع النعم الظاهرة والباطنة، وتربيته تعالى لخلقه نوعان: عامة، وخاصة؟ فالعامة هي: خلقه للمخلوقين، ورزقهم، وهدايتهم. والخاصة: تربيته لأوليائه، فيربيهم بالإيمان، ويوفقهم له، ويكملهم، ويدفع عنهم الصوارف، والعوائق الحائلة بينهم وبينه. ﴿الْعَالَمِينَ﴾ هم جميع ما خلق الله. فدل قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على انفراده بالخلق

(١) في «سنن أبي داود» بإسناد صحيح، عن عبد الله بن عباس ؓ قال: «كان رسول الله ﷺ لا يعرف ختم السورة، حتى ينزل عليه «بسم الله الرحمن الرحيم». أخرجه الدارقطني والبيهقي بإسناد صحيح، عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأتم ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فاقروا ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فإنها أم القرآن، والسبع المثاني، و﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ إحداها».

(٢) في «صحيح مسلم»، من حديث أبي هريرة ؓ عن رسول الله ﷺ: «يقول الله - تعالى - : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي، ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل، إذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. قال: حمدني عبدي. وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قال: أثني علي عبدي. وإذا قال: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قال: مجدني عبدي. وإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل. وإذا قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾. قال: «هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل».

العبادة مع دخولها فيها؛ اهتماماً بتقديم حقه - تعالى - على حق عباده، وبيان احتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله - تعالى -، فالتوفيق كله بيد الله وحده.

(٦) ﴿أَهْدِنَا﴾؛ أي: دلنا وأرشدنا ووفقنا إلى ﴿الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ﴾: الطريق الواضح الموصل إلى الله وإلى جنته، وهو: معرفة الحق والعمل به، وهذا يتضمن طلب الهداية إلى لزوم دين الإسلام، وترك ما سواه من الأديان، والهداية لجميع التفاصيل الدينية علماً وعملاً، فهذا الدعاء من أجمع الأدعية وأنفعها للعبد.

(٧) ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. ﴿غَيْرِ﴾ صراط ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾: الذين عرفوا الحق وتركوه؛ وهم اليهود ﴿وَلَا﴾ صراط ﴿الضَّالِّينَ﴾: الذين تركوا الحق على جهل وضلال؛ وهم النصارى.

سورة البقرة

(١) ﴿الْعَمَّ﴾: الحروف المقطعة في أوائل السور؛ الأسلم فيها: السكوت عن التعرض لمعناها من غير مستند شرعي، مع الجزم بأن الله - تعالى - لم ينزلها عبثاً، بل لحكمة لا نعلمها.

(٢) ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾: هذا الكتاب العظيم، المشتمل على ما لم تشتمل عليه كتب المتقدمين والمتأخرين من العلم العظيم، والحق المبين ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: لا شك فيه بوجه من الوجوه ﴿هُدًى﴾: ما تحصل به الهداية من الضلالة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْم ١ ذَلِكِ الْكِتَابُ لَارِيبَ فِيهِ هُدًى
لِّلْمُتَّقِينَ ٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ
الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ٣
وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ
قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤ أُولَئِكَ عَلَى
هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٥

يدان الناس فيه بأعمالهم؛ خيرها وشرها، وأضاف الملك ليوم الدين - مع أن غيرها من الأيام كلها ملكه -؛ لأن في ذلك اليوم يظهر للخلق، تمام الظهور، كمال ملكه وعدله وحكمته، وانقطاع أملاك الخلائق.

(٥) ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؛ أي: نخصك وحدك بالعبادة. و«العبادة»: اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال، الظاهرة والباطنة، والعبادة لا تكون عبادة إلا إذا كانت مأخوذة عن رسول الله ﷺ، مقصوداً بها وجهه الله ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ «الاستعانة»؛ هي: الاعتماد على الله - تعالى - في جلب المنافع ودفع المضار، مع الثقة به في تحصيل ذلك، وذكر الاستعانة بعد

(٧) أخرج أحمد والترمذي بإسناد صحيح، عن عدي بن حاتم رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «المغضوب عليهم: اليهود، وإن الضالين: النصارى».

مثقل، بل ينتفعون هم بإنفاقه، وينتفع به إخوانهم. وفي قوله: ﴿رَزَقْنَهُمْ﴾: إشارة إلى أن هذه الأموال التي بين أيديكم ليست حاصلة بقوتكم ومللكم، وإنما هي رزق الله الذي خولكم، وأنعم عليكم، فكما أنعم عليكم وفضلكم على كثير من عباده؛ فاشكروه بإخراج بعض ما أنعم به عليكم، وواسوا إخوانكم المعدمين.

وكثيراً ما يجمع الله بين الصلاة والزكاة في القرين؛ لأن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة متضمنة للإحسان على عبده، فعنوان سعادة العبد إخلاصه للمعبود وسعيه في نفع الخلق، كما أن عنوان شقاوة العبد عدم هذين الأمرين، فلا إخلاص ولا إحسان.

(٤) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾: هو: القرآن والسنة ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾: يشمل الإيمان بجميع الكتب السابقة، ويتضمن الإيمان بالكتب الإيمان بالرسول، وبما اشتملت عليه، خصوصاً التوراة والإنجيل والזبور، وهذه خاصة بالمؤمنين؛ يؤمنون بالكتب الإلهية كلها، وبجميع الرسل، فلا يفرقون بين أحد منهم ﴿وَبِالْآخِرَةِ﴾: اسم لما يكون بعد الموت، وخصه بالذكر؛ لأن الإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان، ولأنه أعظم باعث على الرغبة والرغبة والعمل ﴿يُؤْفِقُونَ﴾: اليقين؛ هو: العلم التام، الذي ليس فيه أدنى شك، والموجب للعمل.

(٥) ﴿أُولَئِكَ﴾: أي: الموصوفون بتلك الصفات

والشبه، وما به الهداية إلى سلوك الطرق النافعة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾: هم المنتفعون بالآيات القرآنية، والآيات الكونية.

(٣) ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾: حقيقة الإيمان: هو التصديق التام بما أخبر به الرسل، المتضمن لانقياد الجوارح؛ فإننا نؤمن بشيء لم نره ولم نشاهده، وإنما نؤمن به لخبر الله وخبر رسوله ﷺ، فالمؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله به، أو أخبر به رسوله؛ سواء شاهده أو لم يشاهده، وسواء فهمه وعقله، أو لم يهتد إليه عقله وفهمه.

ويدخل في الإيمان بالغيب: الإيمان بجميع ما أخبر الله به من الغيوب الماضية والمستقبلية، وأحوال الآخرة، وحقائق أوصاف الله، وكيفيتها، وما أخبر به الرسل من ذلك، فيؤمنون بصفات الله ووجودها، ويتيقنونها؛ وإن لم يفهموا كيفيتها ﴿وَيَقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾: أي: إقامتها ظاهراً؛ بإتمام أركانها، وواجباتها، وشروطها. وإقامتها باطناً؛ بإقامة روحها، وهو: حضور القلب فيها، وتدبير ما يقول ويفعله منها. ويدخل في الصلاة فرائضها، ونوافلها. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَهُمْ يُقْفُونَ﴾: يدخل فيه النفقات الواجبة؛ كالزكاة، والنفقة على الزوجات والأقارب والمماليك ونحو ذلك، والنفقات المستحبة بجميع طرق الخير، ولم يذكر المنفق عليه؛ لكثرة أسبابه، وتنوع أهله، ولأن النفقة من حيث هي قرينة إلى الله، وأتى بـ: «من» الدالة على التبعية؛ لينبههم أنه لم يرد منهم إلا جزءاً يسيراً من أموالهم، غير ضار لهم ولا

(٥) في «الصحيحين» من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي، ورجل مملوك أدى حق الله وحق مواليه، ورجل أدب جاريته؛ فأحسن تأديبها، ثم أعتقها وتزوجها».

﴿وَعَلَىٰ أَنْصَرِهِمْ غَشَوَةٌ﴾: غشاء وغطاء وأكنة تمنعها عن النظر الذي ينفعهم، وهذا عقاب عاجل، ثم ذكر العقاب الآجل؛ فقال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: وهو عذاب النار، وسخط الجبار المستمر الدائم.

(٨) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَاذِيرُ الْآخِرِ﴾؛ يعني: المنافقين، فإنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم؛ فأكذبهم الله بقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾؛ لأن الإيمان الحقيقي ما تواطأ عليه القلب واللسان والأركان، وإنما هذا مخادعة لله ولعباده المؤمنين.

(٩) ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾: المخادعة: أن يظهر المخادع لمن يخادعه شيئاً، ويبطن خلافه، فهؤلاء المنافقون سلكوا مع الله وعباده هذا المسلك، ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾: فعاد خداعهم على أنفسهم، كأنهم يعملون ما يعملون من المكر لإهلاك أنفسهم وإضرارها وكيدها؛ لأن الله - تعالى - لا يتضرر بخداعهم شيئاً، وعباده المؤمنون لا يضرهم كيدهم شيئاً، فلا يضر المؤمنين أن أظهر المنافقون الإيمان؛ فسلمت بذلك أموالهم، وحقت دماؤهم، وصار كيدهم في نحورهم، وحصل لهم بذلك الخزي والفضيحة في الدنيا، والحزن المستمر بسبب ما يحصل للمؤمنين من القوة والنصرة، ثم في الآخرة لهم العذاب الأليم الموجه المفجع؛ بسبب كذبهم، وكفرهم، وفجورهم، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾؛ أي: أنهم لجهلهم وحمقتهم لا يشعرون بذلك.

(١٠) ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: مرض الشك، والشبهات، والتناق. وذلك أن القلب يعرض له

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَرِهِمْ غَشَوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَاذِيرُ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٤﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَّا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ لَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿٦﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٧﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ الْأَشْفَهَاءُ ﴿٨﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْأَشْفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ وَإِذْ لُعُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شُيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ ﴿١٠﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ فَمَا رَاحَتْ يَجْزُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٢﴾

الحميدة ﴿عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾: على هدى عظيم، وأي هداية أعظم من تلك الصفات المذكورة المتضمنة للعقيدة الصحيحة، والأعمال المستقيمة؟ ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: الفلاح؛ هو: الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب.

(٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: اتصفوا بالكفر، وانصبغوا به، وصار وصفاً لهم لازماً، لا يردعهم عنه رادع، ولا ينجع فيه وعظ ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: إنهم مستمرون على كفرهم؛ فسواء عليهم أنأنذرتهم، أم لم تنذرهم؛ لا يؤمنون؛ فهؤلاء الكفار لا تفيدهم الدعوة؛ إلا إقامة الحجة عليهم.

(٧) ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: طبع عليها بطابع لا يدخلها الإيمان، ولا ينفذ فيها؛ فلا يعون ما ينفعهم ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾: ولا يسمعون ما يفيدهم

ومعاداة الكفار، والعقل عندهم يقتضي ضد ذلك؛ فنسبواهم إلى السفه. وفي ضمن ذلك: أنهم هم العقلاء، أرباب الحجا والنهي!! ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فرد الله ذلك عليهم، وأخبر أنهم هم السفهاء على الحقيقة؛ لأن حقيقة السفه: جهل الإنسان بمصالح نفسه، وسعيه فيما يضرها، وهذه الصفة منطبقة عليهم، وصداقة عليهم، كما أن العقل والحجا: معرفة الإنسان بمصالح نفسه، والسعي فيما ينفعه، وفي دفع ما يضره، وهذه الصفة منطبقة على الصحابة والمؤمنين، وصداقة عليهم؛ فالعبرة بالأوصاف والبرهان، لا بالدعاوى المجردة، والأقوال الفارغة.

(١٤) ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا﴾ أنهم إذا اجتمعوا بالمؤمنين؛ أظهروا أنهم على طريقتهم. وأنهم معهم ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شُيَاطِينِهِمْ﴾ رؤسائهم وكبرائهم بالشر ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ في الحقيقة ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ بالمؤمنين بإظهارنا لهم أننا على طريقتهم، فهذه حالهم الباطنة والظاهرة، ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله.

(١٥) ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ﴾ وهذا جزاؤهم على استهزائهم بعباده: أن زين لهم ما كانوا فيه من الشقاء والحالة الخبيثة ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾: يزيدهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾: فجورهم وكفرهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾: حائرون مترددون.

(١٦) ﴿أُولَٰئِكَ﴾: المنافقون الموصوفون بتلك الصفات ﴿الَّذِينَ اشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾: رغوا في الضلالة رغبة المشتري بالسلعة، وهذا من أحسن الأمثلة؛ فإنه جعل الضلالة التي هي غاية الشر كالسلعة، وجعل الهدى الذي هو غاية الصلاح

مرضان يخرجانه عن صحته واعتداله: مرض الشبهات الباطلة، ومرض الشهوات المردية، فالكفر، والنفاق، والشكوك، والبدع؛ كلها من مرض الشبهات. والزنا، ومحبة الفواحش والمعاصي وفعلها؛ من مرض الشهوات ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾: بسبب ذنوبهم السابقة، يبتليهم بالمعاصي اللاحقة الموجبة لعقوبتها، فعقوبة المعصية: المعصية بعدها، كما أن من ثواب الحسنة: الحسنة بعدها.

(١٧) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ إذا نُهي هؤلاء المنافقون عن الإفساد في الأرض، وهو: العمل بالكفر والمعاصي، ومنه: إظهار سرائر المؤمنين لعدوهم، وموالاتهم للكافرين ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ فجمعوا بين العمل بالفساد في الأرض، وإظهارهم أنه ليس بإفساد بل هو إصلاح؛ قلبا للحقائق، وجمعًا بين فعل الباطل واعتقاده حقًا.

(١٨) ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ فإنه لا أعظم فسادًا ممن كفر بآيات الله، وصد عن سبيل الله، وخادع الله وأوليائه، ووالى المحاربين لله ورسوله، وزعم مع ذلك أن هذا إصلاح، فهل بعد هذا الفساد فساد؟! ﴿وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لا يعلمون علمًا ينفعهم، وإن كانوا قد علموا بذلك علمًا تقوم به عليهم حجة الله.

(١٩) ﴿وَإِذَا قِيلَ لِلْمُنافِقِينَ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ﴾ كإيمان الصحابة - رضي الله عنهم - وهو: الإيمان بالقلب واللسان والأركان ﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ﴾؛ يعنون - قبحهم الله -: الصحابة - رضي الله عنهم -؛ لزعمهم: أن سفههم أوجب لهم الإيمان، وترك الأوطان،

المحرقة، فذهب ما فيها من الإشراق، وبقي ما فيها من الإحراق، فبقي في ظلمات متعددة: ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمة المطر، والظلمة الحاصلة بعد النور، فكذلك هؤلاء المنافقون: استوقدوا نار الإيمان من المؤمنين - ولم تكن صفة لهم -، فاستضاءوا بها مؤقتاً وانتفعوا؛ فحققت بذلك دماؤهم، وسلمت أموالهم، وحصل لهم نوع من الأمن في الدنيا، فبينما هم كذلك؛ إذ هجم عليهم الموت، فسلبهم الانتفاع بذلك النور، وحصل لهم كل هم وغم وعذاب، وحصل لهم ظلمة القبر، وظلمة الكفر، وظلمة النفاق، وظلمة المعاصي، على اختلاف أنواعها، وبعد ذلك ظلمة النار وبئس القرار.

(١٨) ﴿مُتَّكُمْ﴾ عن سماع الخير ﴿بِكُمْ﴾ عن النطق به ﴿عُمِّي﴾ عن رؤية الحق ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ لأنهم تركوا الحق بعد أن عرفوه، فلا يرجعون إليه.

(١٩) ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾: كصاحب المطر الذي ينزل بكثرة ﴿فِيهِ ظُلُمَاتٌ﴾: ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمات المطر ﴿وَرَعْدٌ﴾: الصوت الذي يسمع من السحاب ﴿وَبَرْقٌ﴾: الضوء اللامع المشاهد من السحاب ﴿يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِيءَآذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾: فهكذا حالة المنافقين إذا سمعوا القرآن، وأوامره ونواهيها، ووعدته ووعيده؛ جعلوا أصابعهم في آذانهم، وأعرضوا عن أمره ونهيها، ووعدته ووعيده، فيروعههم وعيده، وتزعجههم وعوده، فهم يعرضون عنها غاية ما يمكنهم، ويكرهونها كراهة صاحب الصَّيْب، الذي يسمع الرعد،

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِينَ اسْتَوْفَدُوا نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِينَ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِيءَآذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ تَكَادُ الزُّقُ يُخَفِّفُ أَفْصَهُمْ كَمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَثْوَاهُ وَإِذَا ظَلَمَ عَلَيْهِمْ فَأَمَّوْا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ عَبْدًا تُرَكُّمُ الَّذِينَ خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِينَ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾

بمنزلة الثمن، فبدلوا الهدى؛ رغبة عنه بالضلالة؛ رغبة فيها ﴿فَمَا رِيحَتْ يَحْدَرْتُهُمْ﴾: فهذه تجارتهم، فبئس التجارة، وبئس الصفقة صفقتهم ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾: لم يحصل لهم من الهداية شيء. (١٧) ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِينَ اسْتَوْفَدُوا نَارًا﴾: مثلهم المطابق لما كانوا عليه؛ كالذي استوقد ناراً في ظلمة عظيمة، وحاجة إلى النار شديدة، فاستوقدها من غيره، ولم تكن عنده معدة، بل هي خارجة عنه ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾: فلما أضاءت النار ما حوله، ونظر المحل الذي هو فيه، وما فيه من المخاوف وأمنها، وانتفع بتلك النار، وقرت بها عينه، وظن أنه قادر عليها، فبينما هو كذلك ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾: زال عنه النور، وذهب معه السرور ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾؛ أي: بقي في الظلمة العظيمة والنار

والنجوم ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ والسماء: السحاب، فأنزل منه تعالى ماء ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ كالحبوب، والثمار؛ من نخيل، وفواكه، وزروع وغيرها ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ به ترتزقون، وتقوتون، وتعيشون، وتفكهنون.

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾: نظراء وأشباهًا من المخلوقين؛ فتعبدونهم كما تعبدون الله، وتحبونهم كما تحبون الله، وهم مثلكم مخلوقون مرزوقون مدبرون، لا يملكون مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض، ولا ينفعونكم ولا يضرون ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن الله ليس له شريك ولا نظير؛ لا في الخلق والرزق والتدبير، ولا في الألوهية والكمال. فكيف تعبدون معه آلهة أخرى مع علمكم بذلك؟! (٢٣)

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ﴾ يا معشر المعاندين للرسول، الرادين دعوته، الزاعمين كذبه ﴿فِي رَبِّ مِمَّا زَلَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ في شك واشتباه، مما نزلنا على عبدنا ﴿فَأَنذَرُكُمْ يَوْمَ مِثْلِهِ﴾ وأذعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صديقين ﴿استعينوا بمن تقدرون عليه من أعوانكم وشهداءكم، فإن هذا أمر يسير عليكم، خصوصًا وأنتم من أهل الفصاحة والخطابة والعداوة العظيمة للرسول، فإن جئتم بسورة من مثله، فهو كما زعمتم.

﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَكِنْ تَفْعَلُوا﴾ وإن لم تأتوا بسورة من مثله وعجزتم غاية العجز؛ ولن تأتوا بسورة من مثله، ولكن هذا على وجه الإنصاف

فيجعل أصابعه في أذنيه خشية الموت ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ هو تعالى محيط بهم قدرة وعلمًا، فلا يفوتونه ولا يعجزونه، بل يحفظ عليهم أعمالهم، ويجازيهم عليها أتم الجزاء.

(٢٠) ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾؛ لشدة وقوته في نفسه، وضعف بصائرهم، وعدم ثباتها للإيمان ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمُ﴾ البرق في تلك الظلمات ﴿مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾؛ أي: وقفوا. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ﴾: الحسية، ففيه تخويف لهم، وتحذير من العقوبة الدنيوية؛ ليحذروا؛ فيرتدعوا عن بعض شرهم ونفاقهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا يعجزه شيء، ومن قدرته: أنه إذا شاء شيئًا فعله من غير مناع ولا معارض.

(٢١) ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ عِبْدًا رَبِّكُمْ﴾ العبادة الجامعة لامثال أوامر الله واجتناب نواهيه وتصديق خبره ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ بعد العدم ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ وخلق الذين من قبلكم من الأمم. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ بعبادتكم الله وحده، واتقائكم سخطه وعذابه.

(٢٢) ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَشًا﴾ تستقرون عليها، وتنتفعون بالأبنية، والزراعة، والحراثة، والسلوك من محل إلى محل، وغير ذلك من وجوه الانتفاع بها ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾: جعل السماء بناء لمساكنكم، وأودع فيها من المنافع ما هو من ضروراتكم وحاجاتكم، كالشمس، والقمر،

(٢٢) أخرج ابن ماجه بإسناد صحيح من حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رجل للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت. فقال: «أجعلني لله نداء؟ قل ما شاء الله وحده».

(٢٣) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من الأنبياء من نبي من الأنبياء إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة».

بجوارحهم، فصدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّتٍ﴾: بساتين جامعة للأشجار العجيبة، والثمار الأنيقة، والظل المديد، والأغصان والأفنان، وبذلك صارت جنة، يجتن بها داخلها، وينعم فيها ساكنها ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: أنهار الماء واللبن والعسل والخمر، يفجرونها كيف شاءوا، ويصرفونها أين أرادوا، وتسقى منها تلك الأشجار؛ فتنبت أصناف الثمار ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ هذا من جنسه وعلى وصفه، كلها متشابهة في الحسن واللذة، ليس فيها ثمرة خاصة، وليس لهم وقت خال من اللذة، فهم دائماً متلذذون بأكلها.

﴿وَأَنؤُوا بِهِ مُتَشَبِهَاتٍ﴾: يشبه بعضه بعضاً في الحسن والحسن واللذة والفكاهة ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ يشمل جميع أنواع التطهير؛ فهن مطهرات الأخلاق، مطهرات الخلق، مطهرات اللسان، مطهرات الأبصار. فأخلاقهن؛ أنهن عرب متحبات إلى أزواجهن بالخلق الحسن، وحسن التبعل، والأدب القولي والفعل، ومطهر خلقهن من الحيض والنفاس والمني، والبول والغائط، والمخاط والبصاق، والرائحة الكريهة، ومطهرات الخلق أيضاً بكمال الجمال، فليس فيهن عيب ولا دمامة خلق، بل هن خيرات حسان، مطهرات اللسان والطرف، قاصرات طرفهن على أزواجهن، وقاصرات ألسنتهن عن كل كلام قبيح.

(٢٦) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾:

وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنؤُوا بِهِ مُتَشَبِهَاتٍ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ فَمَا قُوَّهَا قَامًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أُمُوتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

والتنزل معكم؛ فهذا آية كبرى، ودليل واضح جلي على صدقه، وصدق ما جاء به؛ فيتعين عليكم اتباعه ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ واتقاء النار التي بلغت في الحرارة العظيمة والشدة، أن كان وقودها الناس والحجارة، ليست كنار الدنيا التي تنقد بالحطب، ﴿أَعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ وهذه النار الموصوفة معدة ومهيأة للكافرين بالله ورسوله، فاحذروا الكفر برسوله بعد ما تبين لكم أنه رسول الله. وهذه الآية ونحوها يسمونها: آية التحدي؛ وهو: تعجيز الخلق عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن.

(٢٥) ﴿وَبَشِّرِ﴾ أيها الرسول، ومن قام مقامك ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بقلوبهم ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾

(٢٦) أخرج الترمذي بإسناد صحيح من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء».

ينقضونها، ويتركون أوامره، ويرتكبون نواهيه، وينقضون العهود التي بينهم وبين الخلق ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾؛ هذا يدخل فيه أشياء كثيرة: فإن الله أمرنا أن نصل ما بيننا وبينه؛ بالإيمان به، والقيام بعبوديته. وما بيننا وبين رسوله؛ بالإيمان به، ومحبته، وتعزيره، والقيام بحقوقه. وما بيننا وبين الوالدين، والأقارب، والأصحاب وسائر الخلق؛ بالقيام بحقوقهم التي أمر الله أن نصلها.

فأما المؤمنون؛ فوصلوا ما أمر الله به أن يوصل من هذه الحقوق، وقاموا بها أتم القيام، وأما الفاسقون؛ فقطعوها ونبذوها وراء ظهورهم، معتاضين عنها بالفسق والقطيعة والعمل بالمعاصي؛ وهو الإفساد في الأرض ﴿أُولَئِكَ﴾؛ أي: من هذه صفته ﴿هُمُ الْخَسِرُونَ﴾ في الدنيا والآخرة، ليس لهم نوع من الربح؛ لأن كل عمل صالح شرطه الإيمان، فمن لا إيمان له؛ لا عمل له، وهذا الخسار؛ هو: خسار الكفر.

(٢٨) ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾: كيف يحصل منكم الكفر بالله ﴿وَكُنْتُمْ أَمُوتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ الذي خلقكم من العدم، وأنعم عليكم بأصناف النعم، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند استكمال آجالكم، ويجازيكم في القبور ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بعد البعث والنشور ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم الجزاء الأوفى؟! فإذا كنتم في تصرفه وتدبيره وتحت أوامره الدينية، وبعد ذلك تحت جزائه؛ أفيلق بكم أن تكفروا به؟! وهل هذا إلا جهل عظيم وسفه كبير؛ بل الذي يليق بكم أن تتقوه، وتشكروه، وتؤمنوا به، وتخافوا عذابه، وترجوا ثوابه.

أي مثل كان ﴿بِعُوضَةٍ فَمَا فَوْقَهَا﴾؛ لاشتمال الأمثال على الحكمة وإيضاح الحق، والله لا يستحي من الحق، وكأن في هذا جواباً لمن أنكر ضرب الأمثال في الأشياء الحقيرة، واعتراض على الله في ذلك، فليس في ذلك اعتراض؛ بل هو من تعليم الله لعباده ورحمته بهم، فيجب أن تتلقى بالقبول والشكر ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾: فيفهمونها ويتفكرون فيها، فإن علموا ما اشتملت عليه على وجه التفصيل؛ ازداد بذلك علمهم وإيمانهم، وإلا علموا أنها حق، وما اشتملت عليه حق، وإن خفي عليهم وجه الحق فيها؛ لعلمهم بأن الله لم يضربها عبثاً، بل لحكمة بالغة، ونعمة سابغة.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾: فيعترضون ويتحIRON؛ فيزدادوا كفراً إلى كفرهم، كما ازداد المؤمنون إيماناً على إيمانهم، ولهذا قال: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾. فهذه حال المؤمنين والكافرين عند نزول الآيات القرآنية ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾: الخارجين عن طاعة الله، المعاندين لرسول الله، فاقتضت حكمته تعالى إضلالهم؛ لعدم صلاحيتهم للهدى، كما اقتضت حكمته وفضله هداية من اتصف بالإيمان وتحلى بالأعمال الصالحة.

(٢٧) ثم وصف الفاسقين فقال: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾؛ وهذا يعم العهد الذي بينهم وبين ربهم، والذي بينهم وبين الخلق؛ الذي أكد عليهم بالمواثيق الثقيلة والإلزامات، فلا يبالون بتلك المواثيق؛ بل

ويعلم السر وأخفى. فخلقه للمخلوقات أدل دليل على علمه وحكمته وقدرته.

(٣٠) ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾: هذا شروع في ابتداء خلق آدم ﷺ أبي البشر وفضله، وأن الله - تعالى - حين أراد خلقه أخبر الملائكة بذلك، وأن الله مستخلفه في الأرض. ﴿قَالُوا﴾ فقالت الملائكة عليهم السلام: ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ بالمعاصي ﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ وهذا تخصيص بعد تعميم؛ لبيان شدة مفسدة القتل، وهذا بحسب ظنهم أن الخليفة المجمعول في الأرض سيحدث منه ذلك، فنزهوا الباري عن ذلك وعظموه، وأخبروا أنهم قائمون بعبادة الله على وجه خال من المفسدة، فقالوا: ﴿وَنَحْنُ سُبْحِحُ بِحَمْدِكَ﴾؛ أي: ننزهك التنزيه اللائق بحمدك وجلالك ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾: ونقدس لك أنفسنا، ونطهرها بالأخلاق الجميلة؛ كمحبة الله وخشيته وتعظيمه، ونطهرها من الأخلاق الرذيلة ﴿قَالَ﴾ الله - تعالى - للملائكة: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ﴾ من هذا الخليفة ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ لأن كلامكم بحسب ما ظننتم، وأنا عالم بالظواهر والسرائر، وأعلم أن الخير الحاصل بخلق هذا الخليفة أضعاف أضعاف ما في ضمن ذلك من الشر.

(٣١) ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾؛ أي: أسماء الأشياء، وما هو مسمى بها، فعلمه الاسم والمسمى؛ أي: الألفاظ والمعاني، حتى المصغر

وَالَّذِي قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ سُبْحِحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَكَةِ فَقَالَ أُنِيبُوا بِي أَمْ لَا قَالُوا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَتْلُو آيَاتِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَتَاهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ابْنِي وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤) وَقُلْنَا يَتْلُو آيَاتِنَا مَنْ لَمْ يَنْصَرِفْ عَنْهَا فَلَمَّا تَلَا مِنْهَا آيَةً وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٥) فَازْهَبْ عَنْهَا فَإِنَّهَا تَفْجَرُهَا مَاءٌ كَانَتْ فِيهَا نَارٌ وَنَارُهَا أَهْبَطُوا بِعَصَاكَ لِيُعَذِّبَكَ فِي الْأَرْضِ مَسْفُورًا وَمَنْعَ الْإِنْسَانِ (٣٦) فَتَلَقَّى آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧)

(٢٩) ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾؛ أي: خلق لكم جميع ما على الأرض؛ للانتفاع والاستمتاع، والاعتبار. وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن الأصل في الأشياء الإباحة والطهارة؛ لأنها سيقف في معرض الامتنان، فتخرج بذلك الخبائث؛ لما فيها من ضرر.

﴿ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ لما خلق تعالى الأرض؛ ارتفع إلى السماء ﴿فَسَوَّيْنَهَا سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ فخلقها وأحكمها وأتقنها ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ فيعلم ما يلج في الأرض، وما يخرج منها، وما ينزل من السماء، وما يعرج فيها،

(٣٠) في «صحيح مسلم»، عن أبي ذر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل: أي: الكلام أفضل؟ قال: «ما اصطفى الله لملائكته: سبحان الله وبحمده».

(٣١) في «الصحيحين»، من حديث أنس رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يجتمع المؤمنون يوم القيامة، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا؟ فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس، خلقت الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء...» الحديث.

أمر الله وعلى آدم، ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ وهذا الإباء منه والاستكبار نتيجة الكفر الذي هو منطوق عليه؛ فتبينت حينئذ عداوته لله ولآدم، وكفره واستكباره.

وفي هذه الآيات من العبر والآيات؛ إثبات الكلام لله - تعالى -، وأنه لم يزل متكلمًا؛ يقول ما شاء، ويتكلم بما شاء، وأنه عليم حكيم.

وفيه: أن العبد إذا خفيت عليه حكمة الله في بعض المخلوقات والأمورات؛ فالواجب عليه التسليم واتهام عقله، والإقرار لله بالحكمة.

وفيه: اعتناء الله بشأن الملائكة، وإحسانه بهم؛ بتعليمهم ما جهلوا، وتنبههم على ما لم يعلموه. وفيه فضيلة العلم من وجوه؛ منها: أن الله تعرف لملائكته بعلمه وحكمته.

ومنها: أن الله عرفهم فضل آدم بالعلم، وأنه أفضل صفة تكون في العبد.

ومنها: أن الله أمرهم بالسجود لآدم؛ إكرامًا له، لما بان فضل علمه.

ومنها: أن الامتحان للغير إذا عجزوا عما امتحنوا به، ثم عرفه صاحب الفضيلة؛ فهو أكمل مما عرفه ابتداء.

ومنها: الاعتبار بحال أبوي الإنس والجن، وبيان آدم، وأفضال الله عليه، وعداوة إبليس له، إلى غير ذلك من العبر.

(٣٥) ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا﴾: لما خلق الله آدم وفضله، أتم نعمته عليه بأن خلق منه زوجة؛ ليسكن إليها، ويستأنس بها، وأمرهما بسكنى الجنة والأكل منها ﴿رَعْدًا﴾؛ أي: واسعًا هنيئًا ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾؛ أي: من أصناف الثمار والفواكه ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾:

من الأسماء والمكبر؛ كالقصعة، والقصيعة ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾؛ أي: عرض المسميات ﴿عَلَى الْمَلَكِ﴾؛ امتحانًا لهم، هل يعرفونها أم لا؟ ﴿فَقَالَ أَتَيْتُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في قولكم وظنكم: أنكم أفضل من هذا الخليفة.

(٣٢) ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ﴾؛ أي: ننزهك من الاعتراض منا عليك، ومخالفة أمرك ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ بوجه من الوجوه ﴿إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ إياه، فضلًا منك وجودًا ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ﴾ الذي أحاط علمًا بكل شيء، فلا يغيب عنه ولا يعزب مثقال ذرة في السماوات والأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ﴿الْحَكِيمُ﴾: من له الحكمة التامة، التي لا يخرج عنها مخلوق، ولا يشذ عنها مأمور. فما خلق شيئًا إلا لحكمة، ولا أمر بشيء إلا لحكمة، والحكمة: وضع الشيء في موضعه اللائق به.

(٣٣) ﴿قَالَ يَتَّادُمُ اتِّبَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾: أسماء المسميات التي عرضها الله على الملائكة؛ فعجزوا عنها ﴿فَلَمَّا أَتَاهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ تبين للملائكة فضل آدم عليهم، وحكمة الباري وعلمه في استخلاف هذا الخليفة ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ وهو: ما غاب عنا فلم نشاهده، فإذا كان عالمًا بالغيب؛ فالشهادة من باب أولى ﴿وَأَعْلَمُ مَا بُدُونُ﴾؛ أي: تظهرون ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْنُونُونَ﴾؛ أي: تخفون.

(٣٤) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾: ثم أمرهم تعالى بالسجود لآدم؛ إكرامًا له وتعظيمًا، وعبودية لله - تعالى - ﴿فَسَجَدُوا﴾ فامتثلوا أمر الله، وبادروا كلهم بالسجود ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾: امتنع عن السجود، ﴿وَأَسْتَكْبَرَ﴾ عن

أن مدة هذه الحياة مؤقتة عارضة، ليست مسكنًا حقيقيًا، وإنما هي معبر يتزود منها لتلك الدار، ولا تعمر للاستقرار.

(٣٧) ﴿فَلَقَّ أَدَمُ﴾: تلقف وتلقن، ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾ وألهمه الله ﴿كَلِمَاتٍ﴾ وهي قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾؛ فاعترف بذنبه وسأل الله مغفرته ﴿فَنَابَّ﴾ الله ﴿عَلَيْهِ﴾ ورحمه ﴿إِنَّهُ هُوَ الْتَوَّابُ﴾ لمن تاب إليه وأناب، وتوبته نوعان: توفيقه أولاً، ثم قبوله للتوبة إذا اجتمعت شروطها ثانياً ﴿الرَّجِيمُ﴾ بعباده، ومن رحمته بهم: أن وفقهم للتوبة وعفا عنهم وصفح.

(٣٨) ﴿قُلْنَا أَهْبَطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ كرر الإهباط؛ ليرتب عليه ما ذكر، وهو قوله: ﴿فَأَنَّا يَا بَنِيَّكَم مِّنِّي هُدًى﴾؛ أي: رسول وكتاب يهديكم لما يقربكم مني، ويدينكم من رضائي ﴿فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ﴾ منكم؛ بأن آمن برسلي وكتبي، واهتدى بهم، وذلك بتصديق جميع أخبار الرسل والكتب، والامتثال للأمر، والاجتناب للنهي؛ ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وفي الآية الأخرى: ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ فرتب على اتباع هداه أربعة أشياء: نفي الخوف والحزن، والفرق بينهما: أن المكروه إن كان قد مضى أحدث الحزن، وإن كان منتظراً أحدث الخوف، فنفاهما عن اتباع هداه، وإذا انتفيا حصل ضدتهما، وهو الأمن التام، وكذلك نفي الضلال والشقاء عن اتباع هداه، وإذا انتفيا ثبت ضدتهما؛ وهو الهدى والسعادة، فمن اتبع هداه؛ حصل له الأمن والسعادة الدنيوية والأخروية والهدى، وانتفى عنه كل مكروه، من الخوف،

قُلْنَا أَهْبَطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَأَنَّا يَا بَنِيَّكَم مِّنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ يَلْذَكِّرُوا نَعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَازِهُبُونَ ﴿٤٠﴾ وَإِمْؤُا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرِينَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوا لِلْحَقِّ وَالْأَنفِ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقَاوَرَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيَّ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ يَلْذَكِّرُوا نَعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَصَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

نوع من أنواع شجر الجنة، الله أعلم بها. وإنما نهاهما عنها؛ امتحاناً وابتلاء، أو لحكمة غير معلومة لنا ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ دل على أن النهي للتحريم؛ لأنه رتب الظلم عليه.

(٣٦) ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾؛ أي: حملهما على الزلل بتزيينه ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ من النعيم والرغد، وأهبطوا إلى دار التعب والنصب والمجاهدة ﴿وَقُلْنَا أَهْبَطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾؛ أي: آدم وذريته أعداء إبليس وذريته، ومن المعلوم أن العدو يحدُّ ويجهتد في ضرر عدوه، وإيصال الشر إليه بكل طريق، وحرمانه الخير بكل طريق، ففي ضمن هذا تحذير بني آدم من الشيطان ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾: مسكن وقرار ﴿وَسَعَتْ إِلَيْنَا جَنَّتُ﴾: انقضاء آجالكم، ثم تنتقلون منها للدار التي خلقتكم لها، وخلقت لكم، ففيها

﴿مُصَدِّقًا﴾: موافقًا ﴿لِمَا مَعَكُمْ﴾ من الكتب، لا مخالفًا ولا مناقضًا، وأيضًا؛ فإن في قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ إشارة إلى أنكم إن لم تؤمنوا؛ عاد ذلك عليكم، بتكذيب ما معكم؛ لأن ما جاء به هو الذي جاء به موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -، فتكذيبكم له تكذيب لما معكم. وأيضًا؛ فإن في الكتب التي بأيديكم صفة هذا النبي الذي جاء بهذا القرآن والبيارة به، فإن لم تؤمنوا به؛ كذبتكم بعض ما أنزل إليكم، ومن كذب ببعض ما أنزل إليه؛ فقد كذب بجميعه، كما أن من كفر بالرسول؛ فقد كذب الرسل جميعهم، فلما أمرهم بالإيمان به نههم وحذرهم عن ضده؛ وهو: الكفر؛ فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾؛ أي: بالرسول والقرآن. وقوله ﴿أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾؛ أبلغ من قوله: (ولا تكفروا به)؛ لأنهم إذا كانوا أول كافر به كان فيه مبادرتهم إلى الكفر، عكس ما ينبغي منهم، وصار عليهم إثمهم وإثم من اقتدى بهم من بعدهم ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا يَابَتَى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: وهو ما يحصل لهم من المناصب والمأكَل التي يتوهمون انقطاعها إن آمنوا بالله ورسوله، فاشتروها بآيات الله واستحبوها وآثروها ﴿وَلِئَلَّا﴾؛ أي: لا غيري ﴿فَاتَّقُونَ﴾ فإنكم إذا اتقيتم الله وحده؛ أوجب لكم تقواه تقديم الإيمان بآياته على الثمن القليل، كما أنكم إذا اخترتم الثمن القليل؛ فهو دليل على ترحل التقوى من قلوبكم.

﴿٤٢﴾ ﴿وَلَا تَلْسُبُوا﴾: تخلصوا ﴿الْحَقَّ بِالْبَطْلِ

والحزن، والضلال والشقاء، فحصل المرغوب، واندفع عنه المرهوب، وهذا عكس من لم يتبع هداة، فكفر به، وكذب بآياته.

﴿٣٩﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾؛ أي: الملازمون لها ملازمة الصاحب لصاحبه، والغريم لغريمه ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: لا يخرجون منها، ولا يفتر عنهم العذاب، ولا هم ينصرون.

﴿٤٠﴾ ثم شرع تعالى يُذَكِّر بني إسرائيل نعمه عليهم وإحسانه، فقال: ﴿يَبْنَیْ إِسْرَءِیْلَ﴾؛ هو: يعقوب عليه السلام، والخطاب مع فرق بني إسرائيل الذين بالمدينة وما حولها، ويدخل فيهم من أتى بعدهم ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾: أمرهم بأمر عام، وهو يشمل سائر النعم التي سيذكر في هذه السورة بعضها، والمراد: ذكرها بالقلب اعترافًا، وباللسان ثناء، وبالجوارح باستعمالها فيما يحبه ويرضاه ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾: وهو ما عهده إليهم من الإيمان به وبرسوله، وإقامة شرعه؛ ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ﴾: وهو المجازاة على ذلك. ﴿وَلِئَلَّا فَازَهُبُون﴾ ثم أمرهم بالسبب الحامل لهم على الوفاء بعهده؛ وهو: الرهبة منه تعالى، وخشيته وحده؛ فإن مَنْ خشيته؛ أوجبت له خشيته امتثال أمره، واجتناب نهيه.

﴿٤١﴾ ﴿وَمَا آمَنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ﴾؛ وهو: القرآن الذي أنزله على عبده ورسوله محمد عليه السلام، فأمرهم بالإيمان به واتباعه، ويستلزم ذلك الإيمان بمن أنزل عليه، وذكر الداعي لإيمانهم به، فقال:

(٤١) أخرج أبو داود وابن حبان وأحمد حديث أبي هريرة الصحيح؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعلم علمًا مما ينبتني به وجه الله، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا؛ لم يرج راحة الجنة يوم القيامة».

عالمًا بذلك قد قامت عليه الحجة .

وهذه الآية وإن كانت نزلت في سبب بني إسرائيل، فهي عامة لكل أحد، وليس في الآية أن الإنسان إذا لم يقم بما أمر به أنه يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنها دلت على التوبيخ بالنسبة إلى الواجبين، وإلا؛ فمن المعلوم أن على الإنسان واجبين: أمر غيره ونهيه، وأمر نفسه ونهيه، فترك أحدهما لا يكون رخصة في ترك الآخر؛ فإن الكمال أن يقوم الإنسان بالواجبين، والنقص الكامل أن يتركهما، وأما قيامه بأحدهما دون الآخر؛ فليس في رتبة الأول، وهو دون الأخير. وأيضًا؛ فإن النفوس مجبولة على عدم الانقياد لمن يخالف قوله فعله، فاقتداؤهم بالأفعال أبلغ من اقتدائهم بالأقوال المجردة.

(٤٥) ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾ أمرهم الله - تعالى - أن يستعينوا في أمورهم كلها بالصبر بجميع أنواعه؛ وهو: الصبر على طاعة الله حتى يؤديها، والصبر عن معصية الله حتى يتركها، والصبر على أقدار الله المؤلمة؛ فلا يتسخطها، فبالصبر وحبس النفس على ما أمر الله بالصبر عليه معونة عظيمة على كل أمر من الأمور، ومن يتصبر يصبره الله ﴿وَالصَّلَاةَ﴾ وكذلك الصلاة التي هي ميزان الإيمان، وتنهى عن الفحشاء والمنكر، يستعان بها على كل أمر من الأمور ﴿وَأَنفُسَهُمْ﴾؛

وَتَكُنُوا لِلْحَقِّ ﴿فَنَهَايَهُم عَنْ شَيْئَيْنِ: عَنْ خَلط الحق بالباطل، وكتمان بيان الحق ﴿وَأَنفُسَهُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ومن لبس الحق بالباطل فلم يميز هذا من هذا، مع علمه بذلك، وكتم الحق الذي يعلمه، وأمر بإظهاره؛ فهو من دعاة جهنم؛ لأن الناس لا يقتدون في أمر دينهم بغير علمائهم.

(٤٣) ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ ظاهرًا وباطنًا ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ مستحقيها ﴿وَأَزْكُوا مَعَ الزَّكَاةِ﴾: صلوا مع المصلين، فإنكم إذا فعلتم ذلك مع الإيمان برسول الله وآيات الله؛ فقد جمعتم بين الأعمال الظاهرة والباطنة، وبين الإخلاص للمعبود والإحسان إلى عبده، وبين العبادات القلبية والبدنية والمالية.

وقوله: ﴿وَأَزْكُوا مَعَ الزَّكَاةِ﴾ فيه: الأمر بالجماعة للصلاة ووجوبها، وفيه: أن الركوع ركن من أركان الصلاة؛ لأنه عبر عن الصلاة بالركوع، والتعبير عن العبادة بجزئها يدل على فرضيته فيها.

(٤٤) ﴿أَتَأْتُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾؛ أي: بالإيمان والخير ﴿وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾: تتركونها عن أمرها بذلك، والحال ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ سمي العقل: عقلاً؛ لأنه يعقل ما ينفعه من الخير، وينعقل به عما يضره، فمن أمر غيره بالخير ولم يفعله، أو نهاه عن الشر فلم يتركه؛ دل على عدم عقله وجهله، خصوصًا إذا كان

(٤٤) أخرج أحمد حديث أنس الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «مرت ليلة أسري بي على قوم شفاهم تقرض بمقاريض من نار». قال: «قلت: من هؤلاء؟ قالوا: خطباء من أهل الدنيا، ممن كانوا يأمرون الناس بالبر، وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون».

وأخرج الطبراني، والخطيب في «الاعتضاء»، والأصفهاني في «الترغيب» حديث جندب بن عبد الله الصحيح، قال رسول الله ﷺ: «مثل العالم الذي يعلم الناس الخير، ولا يعمل به؛ كمثل السراج، يضيء للناس، ويحرق نفسه».

وَأَذِجْنَكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ٥١ وَأَذِجْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَذِجْنَكُمْ وَأَعْرِفْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ٥٢ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَخَذْنَا الْعِجْلَ مِنْ يَدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ٥٣ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٥٤ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىَ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ٥٥ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يُقَوْمُ إِنِّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ٥٦ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذْنَاكُمُ الصَّبْعَةَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ٥٧ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ بِمُوسَىٰ وَهَارُونَ بِآيَاتِنَا لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٥٨ وَظَلَلْنَا عَلَىٰكُمْ الْقَتَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلَّوَمِنْ طَيْبَتِ مَارَزَقْتُمْ وَمَا ظَلَمْتُمْوَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٥٩

٨

أي: الصلاة ﴿لَكِبْرَةٌ﴾؛ أي: شاقة ﴿إِلَّا عَلَى الْخَشِيعِينَ﴾ فإنها سهلة عليهم خفيفة؛ لأن الخشوع وخشية الله ورجاء ما عنده يوجب له فعلها منشرحاً صدره؛ لترقبه للثواب، وخشيته من العقاب، بخلاف من لم يكن كذلك؛ فإنه لا داعي له يدعوه إليه، وإذا فعلها صارت من أثقل الأشياء عليه، والخشوع هو: خضوع القلب وطمأنينته، وسكونه لله - تعالى -، وانكساره بين يديه؛ ذلاً وافتقاراً، وإيماناً به وبلقائه.

(٤٦) ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾؛ أي: يستيقنون ﴿أَنَّهُمْ مُّلتَقُوا رَبَّهُمْ﴾ فيجازيهم بأعمالهم ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾؛ فهذا الذي خفف عليهم العبادات، وأوجب لهم التسلي في المصيبات، ونَفَسَ عنهم الكربات، وزجرهم عن فعل السيئات، فهو لا لهم النعيم المقيم في الغرفات العالية، وأما من لم يؤمن ببقاء ربه؛ كانت الصلاة وغيرها من العبادات من أشق شيء عليه.

(٤٧) ﴿يَبْنَىٰ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾: كرر على بني إسرائيل التذكير بنعمته؛ وعظماً لهم، وتحذيراً وحشاً ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ على سائر الأمم من أهل زمانهم.

(٤٨) ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا﴾ خوفهم بيوم القيامة الذي ﴿لَا تَجْزَىٰ﴾: لا تغني ﴿نَفْسٌ﴾ ولو كانت من الأنفس الكريمة؛ كالأنبياء، والصالحين ﴿عَنْ نَفْسٍ﴾ ولو كانت من العشيرة الأقربين ﴿شَيْئًا﴾ لا كبيراً ولا صغيراً، وإنما ينفع الإنسان عمله الذي قدمه ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا﴾؛ أي: النفس ﴿شَفَعَةٌ﴾ لأحد بدون إذن الله، ورضاه عن المشفوع له، ولا يرضى من العمل إلا ما أريد به وجهه، وكان على السبيل والسنة ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾: فداء

﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾: يدفع عنهم المكروه، فنفي الانتفاع من الخلق بوجه من الوجوه.

فقوله: ﴿لَا تَجْزَىٰ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ هذا في تحصيل المنافع ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ هذا في دفع المضار، فهذا النفي للأمر المستقبل به النافع وقوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ هذا نفي للنفع الذي يطلب ممن يملكه بعوض كالعدل، أو بغيره كالشفاعة، فهذا يوجب للعبد أن ينقطع قلبه من التعلق بالمخلوقين؛ لعلمه أنهم لا يملكون له مثقال ذرة من النفع، وأن يُعَلِّقَهُ بالله الذي يجلب المنافع ويدفع المضار؛ فيعبده وحده لا شريك له، ويستعينه على عبادته.

(٤٩) ﴿وَأَذِجْنَكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ من فرعون وملكه وجنوده، وكانوا قبل ذلك ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ يذيقونكم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾: أشده؛ بأن كانوا

تَشْكُرُونَ ﴿٥٣﴾ الله .

(٥٣) ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ ؛ يعني: التوراة ﴿وَالْفُرْقَانَ﴾ وهو ما يفرق به بين الحق والباطل، والهدى والضلالة ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ؛ لكي تهتدوا من الضلالة .

(٥٤) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوْمِ إِنِّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ بعبادتكم العجل واتخاذها إلها من دون الله ﴿فَتَوْبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ﴾ فتوبوا إلى خالقكم ﴿فَأَقِمْ وَفْقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وتوبتهم تتحقق بأن يقتل بعضهم بعضا ﴿فَتَابَ عَلَيْهِمْ﴾ فتاب على القاتل والمقتول، فللحي توبة، وللमित شهادة .

(٥٥) ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ : لن نصدقك في أن الكلام الذي نسمعه هو كلام الله ﴿حَتَّىٰ زَرَىٰ اللَّهُ جَهْرَةً﴾ ؛ أي: علانية، وهذا غاية الجراءة على الله وعلى رسوله ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ ؛ إما الموت، أو الغشية العظيمة ﴿وَأَنْتُمْ نَظَرُوتُمْ﴾ وقوع ذلك، كل ينظر إلى صاحبه .

(٥٦) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ﴾ ثم أحياكم الله بعد موتكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لعلكم تذكروا نعمته عليكم، وتشكروه على ما من به عليكم .

(٥٧) ثم ذكر نعمته عليهم في التَّيِّهِ والبرية الخالية من الظلال وسعة الأرزاق فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَكُمْ كُلِّ آلَةٍ مِّنْ رِّزْقٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَ وَادِيَيْنِ ذُرِّيَّتِكُمْ أَنْهَارٌ يَّجْرُونَ﴾ وهو: اسم جامع لكل رزق حسن يحصل بلا تعب . ومنه: الزنجبيل، والكمأة، والخبز، وغير ذلك ﴿وَالسَّكَوْنُ﴾ : طائر

﴿يَذْبَحُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ خشية نموكم ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَهُمْ﴾ : فلا يقتلونهن، فأنتم بين قتيل ومُدْلَل بالأعمال الشاقة، مستحيي على وجه المنة عليه والاستعلاء عليه، فهذا غاية الإهانة، فَمَنْ الله عليهم بالنجاة التامة وإغراق عدوهم وهم ينظرون؛ لتقر أعينهم ﴿وَفِي ذَٰلِكُمْ﴾ الإنجاء ﴿بَلَاءٌ﴾ : إحصان ﴿مِّن رَّيْبِكُمْ عَظِيمٌ﴾ فهذا مما يوجب عليكم الشكر والقيام بأوامره .

(٥٨) ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ﴾ لما خرج موسى ببني إسرائيل إلى البحر أوحى الله إلى موسى: أن اضرب البحر بعصاك . فضربه؛ فانفلق، فكان كل قسم كالجبل العظيم، ثم سار موسى ومن معه ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَظَرُوتُمْ﴾ وأتبعهم فرعون وقومه في طريقهم، حتى إذا تماموا فيه؛ أطبقه الله على آل فرعون وأغرقهم، ونجا الله موسى وأتباعه، وموسى ينظر هو وبنو إسرائيل إلى آل فرعون يغرقون .

(٥٩) ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ : ثم ذكر مثته عليهم بوعده لموسى أربعين ليلة؛ لينزل عليهم التوراة المتضمنة للنعم العظيمة والمصالح العميمة ﴿ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ ثم إنهم لم يصبروا قبل استكمال الميعاد حتى عبدوا العجل ﴿مِّن بَعْدِهِ﴾ ؛ أي: ذهابه ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ عالمون بظلمكم، قد قامت عليكم الحجة، فهو أعظم جرماً، وأكبر إثماً .

(٦٠) ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ ثم إنه أمركم بالتوبة على لسان نبيه موسى؛ بأن يقتل بعضكم بعضاً، فعفا الله عنكم بسبب ذلك ﴿لَعَلَّكُمْ

صغير، يُقال له: السمانى، طيب اللحم ﴿كُلُوا مِنْ طَبِئَتِ مَا رَزَقْنَكُمْ﴾؛ أي: رزقاً لا يحصل نظيره لأهل المدن المترفين، فلم يشكروا هذه النعمة، واستمروا على قساوة القلوب، وكثرة الذنوب ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾؛ يعني: بتلك الأفعال المخالفة لأوامرنا؛ لأن الله لا تضره معصية العاصين، كما لا تنفعه طاعات الطائعين ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فيعود ضرره عليهم.

(٥٨) ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾: أمرهم بدخول قرية تكون لهم عزاً، ووطناً، ومسكناً، ويحصل لهم فيها الرزق الرغد ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾؛ أي: يكون دخولهم على وجه خاضعين لله فيه بالفعل؛ وهو دخول باب القرية سجداً؛ أي: خاضعين ذليلين، وبالقول؛ وهو أن يقولوا: ﴿حِطَّةٌ﴾؛ أي: أن يحط عنهم خطاياهم بسؤالهم إياه مغفرته ﴿تَمَفَّرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ﴾ بسؤالكم المغفرة ﴿وَسَرَّيْذُ الْمُحْسِنِينَ﴾ بأعمالهم؛ أي: جزاء عاجلاً وأجلاً. (٥٩) ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾، ولم يقل: فبدلوا؛ لأنهم لم يكونوا كلهم بدلوا ﴿قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ فقالوا بدل حطة: حبة في حنطة؛ استهانة بأمر الله واستهزاء، وإذا بدلوا القول مع خفته؛ فتبدلهم للفعل من باب أولى وأحرى، ولهذا دخلوا يزحفون على أديبارهم ﴿فَارْتَأَيْنَا عَلَى﴾: ولما كان هذا الطغيان أكبر سبب لوقوع عقوبة الله بهم؛ قال: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾

وَأَذْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَمَفَّرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَرَّيْذُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْزَأْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ يَمَا كَانُوا يُفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذْ أَسْتَشْفَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ كُفُلًا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوِفِ الْأَرْضُ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا يَسْمُوحٌ لَنْ نَصْرِحَ عَلَى طَعَامٍ وَاجِدٍ فَادْعُ لِنَارِكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَتَدْيِسُهَا وَيَصْلِيهَا قَالَ أَسْتَدِيرُوكَ الَّذِي هُوَ أَذَنٌ بِالَّذِي هُوَ عِزٌّ أَهْطُوا وَمَضَرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَأْسَأَتَهُمْ وَضُرَّتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبِ رَبِّهِمْ وَاللَّهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِعَاقِبَتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

منهم ﴿رِجْزًا﴾: عذاباً؛ وهو: الطاعون ﴿وَبَنَ السَّمَاءِ يَمَا كَانُوا يُفْسُقُونَ﴾؛ بسبب فسقهم وبغيهم. (٦٠) ﴿وَإِذْ أَسْتَشْفَى مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾: طلب لهم ماء يشربون منه ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾؛ إما حجر مخصوص معلوم عنده، وإما اسم جنس ﴿فَإِنْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ وقبائل بني إسرائيل اثنتا عشرة قبيلة ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مِنْهُمْ مَشْرِبَهُمْ﴾؛ أي: محلهم الذي يشربون عليه من هذه الأعين، فلا يزاحم بعضهم بعضاً، بل يشربونه متعشئين لا متكدرين، ولهذا قال: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾ الذي آتاكم من غير

(٥٩) في «الصحيحين»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «قيل لبي إسرائيل: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ فدخلوا يزحفون على أستاههم، فبدلوا. وقالوا: حطة حبة في شعرة».

في «صحيح مسلم» من حديث سعد بن مالك وأسماء بن زيد وخزيمة بن ثابت رضي الله عنهم قالوا: قال رسول الله ﷺ: «الطاعون رجز، عذاب عذب به من كان قبلكم».

﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ﴾: وهم الذين ذكر الله قصتهم مبسطة في «سورة الأعراف»، في قوله: ﴿وَسَأَلْتَهُم عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ إِذْ يَدْعُونَ فِي السَّبْتِ﴾ الآيات.

﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا﴾، فأوجب لهم هذا الذنب العظيم؛ أن غضب الله عليهم وجعلهم ﴿قُرْدَةً خَاسِيَةً﴾: حقيرين ذليلين.

(٦٦) ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾: وجعل الله هذه العقوبة ﴿نَكَلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾: لمن حضرها من الأمم وبلغه خبرها ممن هو في وقتهم ﴿وَمَا خَلَفَهَا﴾: من بعدهم فتقوم على العباد حجة الله، وليرتدعوا عن معاصيه؛ ﴿وَمَوْعِظَةً﴾؛ ولكنها لا تكون موعظة نافعة إلا ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وأما من عداهم؛ فلا ينتفعون بالآيات.

(٦٧) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْتِيكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾؛ أي: واذكروا ما جرى لكم مع موسى حين قتلتم قتيلاً، وادارأتم فيه؛ أي: تدافعتم واختلفتم في قاتله؛ حتى تفاقم الأمر بينكم، وكاد - لولا تبين الله لكم - يحدث بينكم شر كبير، فقال لكم موسى في تبين القاتل: اذبحوا بقرة، وكان من الواجب المبادرة إلى امتثال أمره وعدم الاعتراض عليه؛ ولكنهم أبوا إلا الاعتراض، ف﴿قَالُوا﴾ المعترضون: ﴿أَنَّا نَحْنُ حَرُورٌ﴾؟ ف﴿قَالَ﴾ نبي الله: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَن أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾؛ فإن الجاهل هو الذي يتكلم بالكلام الذي لا فائدة فيه، وهو الذي يستهزئ بالناس، وأما العاقل؛ فيرى أن من أكبر العيوب المزرية بالدين والعقل استهزاء بمن هو آدمي مثله، فلما قال لهم موسى ذلك؛ علموا أن ذلك صدق.

وأما من كفر منهم بالله ورسله واليوم الآخر؛ فهو بضد هذه الحالة، فعليه الخوف والحزن. والصحيح: أن هذا الحكم بين هذه الطوائف من حيث هم، لا بالنسبة إلى الإيمان بمحمد ﷺ؛ فإن هذا إخبار عنهم قبل بعثة محمد ﷺ، وأن هذا مضمون أحوالهم، وهذه طريقة القرآن: إذا وقع في بعض النفوس عند سياق الآيات بعض الأوهام؛ فلا بد أن تجد ما يزيل ذلك الوهم، وذلك أنه لما ذكر بني إسرائيل وذمهم وذكر معاصيهم وقبائحهم؛ ربما وقع في بعض النفوس أنهم كلهم يشملهم الذم، فأراد الباري تعالى أن يبين من لا يلحقه الذم منهم بوصفه، ولما كان ذكر بني إسرائيل خاصة يوهم الاختصاص بهم؛ ذكر - تعالى - حكماً عاماً يشمل الطوائف كلها؛ ليتضح الحق، ويزول التوهم والإشكال.

(٦٨) ﴿وَ﴾؛ أي: واذكروا ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾: وهو العهد الثقيل ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾: أكد هذا العهد بالتخويف لهم، برفع الطور فوقهم، وقيل لهم: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ من التوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾: بجهد واجتهاد، وصبر على أوامر الله ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾: ما في كتابكم، بأن تتلوهم وتعلموه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله وسخطه، أو لتكونوا من أهل التقوى.

(٦٩) ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ﴾: أعرضتم بعد هذا الميثاق العظيم والتأكيد البليغ ﴿فَقُولَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ﴾ بتوبته عليكم، وإرساله النبيين والمرسلين إليكم؛ ﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ بنقضكم ذلك الميثاق في الدنيا والآخرة.

(٧٠) ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾: ولقد تقرر عندهم حالة

إليها، ولو لم يقولوا: إن شاء الله؛ لم يهتدوا إليها.

(٧١) ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ﴾: مذلة بالعمل ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ بالحرارة ﴿وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾: ليست بسانية ﴿مُسْلَمَةً﴾ بريئة من العيوب، أو معفاة من العمل ﴿لَا شَيْءَ فِيهَا﴾ لا لون فيها غير لونها الموصوف المتقدم ﴿قَالُوا أَلَكُنْ حِثٌّ بِالْحَقِّ﴾ بالبيان الواضح! وهذا من جهلهم، وإلا؛ فقد جاءهم بالحق أول مرة، فلو أنهم اعترضوا أي بقرة لحصل المقصود، ولكنهم شددوا بكثرة الأسئلة؛ فشدد الله عليهم ﴿فَذَبَحُوهَا﴾؛ أي: البقرة التي وصفت بتلك الصفات ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ بسبب التعنت الذي جرى منهم.

(٧٢) ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا﴾: اختلفتم واختصمتم فيها، فقال بعضهم لبعض: أنتم قتلتموها، وقال آخرون: بل أنتم قتلتموها ﴿وَاللَّهُ يُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾: تغيبون.

(٧٣) ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾: فلما ذبحوها، قلنا لهم اضربوا القاتل ببعضها؛ أي: بعض من أحياء الله، فأخبر بقاتله ﴿كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى﴾: وكان في إحيائه - وهم يشاهدون - ما يدل على إحياء الله الموتى ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: تخرجون عن ما يضركم.

(٧٤) ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾: اشتدت وغلظت، فلم تؤثر فيها الموعظة ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾: من بعد ما

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾: أي: ما سنها ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسْلَمَةً لَا شَيْءَ فِيهَا قَالُوا أَلَكُنْ حِثٌّ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٧١) ﴿فَقَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (٧٢) ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٧٣) ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْقَى فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٧٤) ﴿أَتَنْظُرُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَلْحِقُوكُمْ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَحْسَبُونَ﴾ (٧٥) ﴿وَإِذَا قَالُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُدُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا اتَّخَذُوا آلَهُم بِمَفَاحٍ اللَّهُ عَلَيْهِمْ إِيحَاؤُكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٧٦)

(٦٨) ﴿فَذَبَحُوهَا﴾: بعد قيام الحجة عليهم ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾: أي: ما سنها ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ﴾: أي: كبيرة ﴿وَلَا يَكْرُ﴾: أي: صغيرة ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾: أي: متوسطة بين السنين، المذكورين سابقاً: وهما الصغر والكبر ﴿فَأَفْعَلُوا مَا تَأْمُرُونَ﴾: واتركوا التشديد والتعنت.

(٦٩) ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْثُهَا﴾: أي: شديد ﴿تَسْرُ الْأَنْظِيرِ﴾: من حسنها.

(٧٠) ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾: أي: ما سنها ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسْلَمَةً لَا شَيْءَ فِيهَا قَالُوا أَلَكُنْ حِثٌّ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٧١) ﴿فَقَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (٧٢) ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٧٣) ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْقَى فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٧٤) ﴿أَتَنْظُرُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَلْحِقُوكُمْ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَحْسَبُونَ﴾ (٧٥) ﴿وَإِذَا قَالُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُدُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا اتَّخَذُوا آلَهُم بِمَفَاحٍ اللَّهُ عَلَيْهِمْ إِيحَاؤُكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٧٦)

(٦٨) أخرج الطبري، وابن أبي حاتم بإسناد صحيح، عن ابن عباس ؓ قال: «لو أخذوا أدنى بقرة اكتفوا بها، ولكنهم شددوا؛ فشدد الله عليهم».

أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيْكُم بِالنَّعْمِ الْعَظِيمَةِ، وَأَرَاكُمَ الْآيَاتِ
(فهي) ثم وصف قسوتها بأنها ﴿كَالْحِجَارَةِ﴾ التي
هي أشد قسوة من الحديد؛ لأن الحديد والرصاص
إذا أذيب في النار ذاب، بخلاف الأحجار، وقوله:
﴿أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً﴾؛ أي: إنها لا تقصر عن قساوة
الأحجار، وليست (أو) بمعنى بل.

ثم ذكر فضيلة الأحجار على قلوبهم، فقال: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَفْجَرُ مِنْهُ الْآتَنُورُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَمْشَقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ فبهذه الأمور فضلت قلوبكم.

ثم توعدهم تعالى أشد الوعيد، فقال: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بل هو عالم بها، حافظ للصغيرها وكبيرها، وسيجازيكم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

(٧٥) ﴿أَنْتُمْ مَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ هذا قطع لأطماع المؤمنين من إيمان أهل الكتاب؛ أي: فلا تطمعوا في إيمانهم، وأخلافهم لا تقتضي الطمع فيهم ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرِفُونَ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَكْفُرُونَ﴾ فإنهم كانوا يحرفون كلام الله من بعد ما عقلوه وعلموه، فيضعون له معاني ما أرادها الله؛ ليوهموا الناس أنها من عند الله، وما هي من عند الله.

(٧٦) ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا﴾ ؛ ذكر
 حال منافقي أهل الكتاب: أنهم إذا لقوا المؤمنين
 أظهروا لهم الإيمان قولاً بالسنتهم ما ليس في
 قلوبهم ﴿وَإِذَا خَلَا بِعَضُّهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ فلم يكن
 عندهم أحد من غير أهل دينهم، قال بعضهم
 لبعض: ﴿أَتَحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ :
 أظهرون لهم الإيمان وتخبرونهم أنكم مثلهم
 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا فَقُلُوا سَلَامٌ﴾ : فيكون ذلك حجة

أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾
وَمِنْهُمْ أَيْتُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانٍ وَإِنْ هُمْ
إِلَّا يَنْظُرُونَ ﴿٧٨﴾ قَوْلٌ لِلَّذِينَ يُكْتَبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ
ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْرَوْا بِهِ فَمَنْ قَلِيلًا
قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كُتِبَتْ أَيْدِيهِمْ وَقَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كُتِبَ
﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَنْ نَمْسَنَ الْكُتُبَ إِلَّا أَلْفًا مَا تَقْدِرُونَ قُلْ
أَتُخَذَ مِنْكُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ثُمَّ يَقُولُونَ
عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً
وَأَخْطَأَ بِهِ فِي عِلَاقَتِهِ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ
أَخَذْنَا مِنْهُ بَيعَ إِسْرِهِمْ لَئِنْ لَمْ يَنْبَذُوا إِلَاءَ اللَّهِ وَيَالُو الْوَاقِعِينَ
إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا
لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ
تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

لهم عليكم؟ يقولون: إنهم قد أقروا بأن ما نحن عليه حق، وما هم عليه باطل، فيحتجون عليكم بذلك عند ربكم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا يكون لكم عقل فتركون ما هو حجة عليكم؟! هذا يقوله بعضهم لبعض.

(٧٧) ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فهم وإن أسروا ما يعتقدونه فيما بينهم، وزعموا: أنهم بإسرارهم لا يتطرق عليهم حجة للمؤمنين؛ فإن هذا غلط منهم وجهل كبير؛ فإن الله يعلم سرهم وعلمهم، فيظهر لعباده ما هم عليه.

(٧٨) ﴿وَمَنْهُمْ﴾؛ أي: من أهل الكتاب ﴿أَمْتُونَ﴾: عوام، وليسوا من أهل العلم ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي﴾: ليس لهم حظ من كتاب الله إلا التلاوة فقط، وليس عندهم خبر بما

مع هذا أنهم يزكون أنفسهم، ويشهدون لها بالنجاة من عذاب الله، والفوز بثوابه، وأنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة؛ أي: قليلة تعد بالأصابع! فجمعوا بين الإساءة والأمن، ولما كان هذا مجرد دعوى؛ رد الله - تعالى - عليهم، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا أيها الرسول: ﴿أَتَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ أي: بالإيمان به وبرسوله وبطاعته، فهذا الوعد الموجب لنجاة صاحبه الذي لا يتغير ولا يتبدل ﴿أَمْ نَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمَلُونَ﴾ فأخبر تعالى أن صدق دعواهم متوقف على أحد هذين الأمرين اللذين لا ثالث لهما: إما أن يكونوا قد اتخذوا عند الله عهداً؛ فتكون دعواهم صحيحة، وإما أن يكونوا متقولين عليه؛ فتكون كاذبة، فيكون أبلغ لخزيهم وعذابهم، وقد علم من حالهم أنهم لم يتخذوا عند الله عهداً؛ لتكذيبهم كثيراً من الأنبياء حتى وصلت بهم الحال إلى أن قتلوا طائفة منهم، ولنكولهم عن طاعة الله، ونقضهم المواثيق؛ فتعين بذلك أنهم متقولون مختلقون، قائلون عليه ما لا يعلمون، والقول عليه بلا علم؛ من أعظم المحرمات، وأشنع القبيحات.

(٨١) ﴿بَلَى﴾ أي: ليس الأمر كما ذكرتم؛ فإنه قول لا حقيقة له، ولكن ﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾

عند الأولين الذين يعلمون حق المعرفة حالهم ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾: وهؤلاء إنما معهم ظنون وتقاليد لأهل العلم منهم. فذكر في هذه الآيات علماءهم وعوامهم ومنافقيهم، ومن لم ينافق منهم؛ فالعلماء منهم متمسكون بما هم عليه من الضلال، والعوام مقلدون لهم، لا بصيرة عندهم، فلا مطمع لكم في الطائفتين.

(٧٩) ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ﴾ توعّد تعالى المحرفين للكتاب الذين يقولون لتحريفهم وما يكتبون: ﴿هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وهذا فيه إظهار الباطل وكنم الحق، وإنما فعلوا ذلك مع علمهم ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ والدنيا كلها من أولها إلى آخرها ثمن قليل، فجعلوا باطلهم شركاً يصطادون به ما في أيدي الناس، فظلموهم من وجهين: من جهة تلبيس دينهم عليهم، ومن جهة أخذ أموالهم بغير حق؛ بل بأبطل باطل؛ ولهذا توعدهم بهذين الأمرين، فقال: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من التحريف والباطل ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ من الأموال. والويل: شدة العذاب والحسرة، وفي ضمنها الوعيد الشديد.

(٨٠) ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾: ذكر تعالى أفعالهم القبيحة، ثم ذكر

(٨٠) أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم، فقال رسول الله ﷺ: «اجمعوا لي من كان من اليهود ها هنا». فقال لهم: «من أبوكم؟» فقالوا: فلان. قال: «كذبتم، بل أبوكم فلان» فقالوا: صدقت وبررت. ثم قال لهم: «هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟». قالوا: نعم، يا أبا القاسم! وإن كذبتك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟» فقالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفوننا فيها. فقال لهم رسول الله ﷺ: «اخسؤوا، والله لا نخلفكم فيها أبداً» ثم قال لهم رسول الله ﷺ: «هل أنتم صادقي عن شيء إذا سألتكم عنه؟» قالوا: نعم، يا أبا القاسم! فقال: «هل جعلتم في هذه الشاة سمّاً؟» فقالوا: نعم. قال: «فما حملكم على ذلك؟» فقالوا: أردنا إن كنت كاذباً أن نستريح منك، وإن كنت نبياً لم يضرك.

والمراد به: هذا الشرك؛ بدليل قوله: ﴿وَأَحْطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾: أحاطت بعاملها، فلم تدع له منفذاً؛ وهذا لا يكون إلا الشرك ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾؛ أي: هالكون فيها أبداً.

(٨٢) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ولا تكون الأعمال صالحة إلا بشرطين: أن تكون خالصة لوجه الله، متبعاً بها سنة رسوله ﷺ ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ فحاصل هاتين الآيتين: أن أهل النجاة والفوز؛ هم أهل الإيمان والعمل الصالح، والهالكون أهل النار؛ هم المشركون بالله، الكافرون به.

(٨٣) ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾؛ هذا من قسوتهم، أن كل أمر أمروا به استعصوا؛ فلا يقبلونه إلا بالآيمان الغليظة، والعهود الموثقة ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾: هذا أمر بعبادة الله وحده، ونهي عن الشرك به، وهذا أصل الدين، فلا تقبل الأعمال كلها إن لم يكن هذا أساسها، فهذا حق الله - تعالى - على عباده ﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: أحسنوا بالوالدين إحساناً، وهذا يعم كل إحسان قولِي وفعلِي مما هو إحسان إليهم، وفيه النهي عن الإساءة إلى الوالدين، أو عدم الإحسان والإساءة؛ لأن الواجب الإحسان، والأمر بالشيء نهي عن ضده. وللإحسان ضدان: الإساءة؛ وهي أعظم جرماً وترك الإحسان بدون إساءة؛ وهذا محرم، لكن لا يجب أن يلحق بالأول (وذِي القربى واليتامى والمساكين) وكذا يقال في

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرَجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ ثُمَّ أَقَرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْسِلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرَجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِينِهِمْ تَظَاهِرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أُسْرَى تَفْذَرُوهُمْ وَهُمْ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أشدَّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَحْفَظُهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

١٣

صلة الأقارب واليتامى والمساكين.

ثم أمر بالإحسان إلى الناس عموماً، فقال: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾؛ ومن القول الحسن: أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليمهم العلم، وبذل السلام، والبشاشة، وغير ذلك من كل كلام طيب ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ ثم أمرهم بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة؛ لما تقدم أن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة متضمنة للإحسان إلى العبيد^(*) ﴿ثُمَّ﴾؛ أي: بعد هذا الأمر لكم بهذه الأوامر الحسنة التي إذا نظر إليها البصير العاقل؛ عرف أن من إحسان الله على عباده أن أمرهم بها وتفضل بها عليهم، وأخذ المواثيق عليهم ﴿تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا

(*) تقدم في أول سورة البقرة (آية: ٣، ص: ١٢).

ذلك، فقال: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ﴾: وهو فداء الأسير ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾: وهو القتل والإخراج؟ ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وقد وقع ذلك؛ فأخزاهم الله، وسلط رسوله عليهم، فقتل من قتل، وسبى من سبى منهم، وأجلى من أجلى ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾: أعظمه ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ .

(٨٦) ثم أخبر تعالى عن السبب الذي أوجب لهم الكفر ببعض الكتاب والإيمان ببعضه، فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ توهموا أنهم إن لم يعينوا حلفاءهم حصل لهم عار؟ فاختاروا النار على العار؛ فلهذا قال: ﴿ثَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾، بل: هو باق على شدته، ولا يحصل لهم راحة بوقت من الأوقات ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾؛ أي: يدفع عنهم مكروهه.

(٨٧) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يمتن تعالى على بني إسرائيل أن أرسل لهم كليمه موسى، وآتاه التوراة ﴿وَفَقَيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ ثم تابع بعده بالرسول الذين يحكمون بالتوراة ﴿وَوَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ إلى أن ختم أنبياءهم بعيسى ابن مريم عليه السلام، وآتاه من الآيات البينات ما يؤمن على مثله البشر ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾: قواه الله بروح القدس. قال أكثر المفسرين: إنه جبريل عليه السلام ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ ثم مع هذه النعم التي لا يُقَدَّرُ قدرها، لما أتوكم ﴿بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان بهم ﴿فَفَرِّقَبَا﴾ منهم ﴿كَذَّبْتُمْ وَفَرِّقَبَا تَقْتُلُونَ﴾ فقدمتم الهوى على الهدى، وآثرتم الدنيا على الآخرة، وفيها من التوبيخ والتشديد ما

مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ على وجه الإعراض؛ لأن المتولي قد يتولى وله نية رجوع إلى ما تولى عنه، وهؤلاء ليس لهم رغبة ولا رجوع في هذه الأوامر لأنه قد ذكر ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أنفأ أما هذا فاستئناف، وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ﴾ هذا استثناء؛ لثلاثيهم أنهم تولوا كلهم، فأخبر أن قليلاً منهم عصمهم الله وثبتهم.

(٨٤) - (٨٥) ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تُشْهِدُونَ﴾ ﴿٨٥﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتَخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِلَافَةِ وَالْعَدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَقْتُلُوهُمْ وَهِيَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ هذا الفعل المذكور في هذه الآية، فعل للذين كانوا في زمن الوحي بالمدينة؛ وذلك أن الأوس والخزرج - وهم الأنصار - كانوا قبل بعث النبي ﷺ مشركين، وكانوا يقتتلون على عادة الجاهلية، فنزلت عليهم الفرق الثلاث من فرق اليهود - بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع -، فكل فرقة منهم حالفت فرقة من أهل المدينة، فكانوا إذا اقتتلوا أعان اليهودي حليفه على مقاتله الذين يعينونهم الفرقة الأخرى من اليهود؛ فيقتل اليهودي اليهودي، ويخرجه من دياره إذا حصل جلاء ونهب، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها، وكان قد حصل أسارى بين الطائفتين؛ فدى بعضهم بعضاً.

والأمور الثلاثة كلها قد فرضت عليهم: ففرض عليهم ألا يسفك بعضهم دم بعض، ولا يخرج بعضهم بعضاً من ديارهم، وإذا وجدوا أسيراً منهم وجب عليهم فداؤه. فعملوا بالآخر وتركوا الأولين، فأنكر الله عليهم

لا يخفى .

(٨٨) ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ اعتذروا عن الإيمان لما دعوتهم إليه يا أيها الرسول بأن قلوبهم غلف، أي: عليها غلاف وأغطية، فلا تفقه ما تقول. يعني: فيكون لهم بزعمهم عذر لعدم العلم، وهذا كذب منهم، فلهذا قال تعالى: ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾؛ أي: أنهم مطرودون ملعونون؛ ﴿يَكْفُرْهُمْ﴾: بسبب كفرهم ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ فقليلًا المؤمن منهم، أو قليلًا إيمانهم، وكفرهم هو الكثير.

(٨٩) ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾؛ أي: ولما جاءهم كتاب من الله على يد أفضل الخلق وخاتم الأنبياء ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ الكتاب المشتمل على تصديق ما معهم من التوراة ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلِ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقد علموا به وتيقنوه على أنهم إذا كان وقع بينهم وبين المشركين في الجاهلية حروب؛ استنصروا بهذا النبي، وتوعدوهم بخروجه، وأنهم يقاتلون المشركين معه ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا﴾: فلما جاءهم هذا الكتاب والنبي الذي عرفوا ﴿كَفَرُوا يَوْمَ﴾ بغيا وحسداً أن ينزل الله من فضله على من

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٨﴾ يَسْمَا أَشْرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ قَبْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءَ وَبِعْضِبَ عَلَى عَضْبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٨٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَأْوِينَا إِنَّا آمِنُوكَ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَنَكْفُرُكَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩١﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَنشَرُونَا فِي قُلُوبِهِمْ آلِ عِجْلٍ يَكْفُرْهُمْ قُلْ يَسْمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٢﴾

يشاء من عباده ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فلعنهم الله، وغضب عليهم؛ لكثرة كفرهم، وتوالي شكهم وشركهم.

(٩٠) ﴿يَسْمَا أَشْرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾: بشس ما استعاضوا واستبدلوا من الإيمان بالله وكتبه ورسله الكفر به وبرسله، مع

(٨٩) أخرج الإمام أحمد في «المسند» بإسناد حسن عن سلمة بن سلامة بن وقش - وكان من أصحاب بدر - قال: كان لنا جاز من يهود في بني عد الأشهل - قال: فخرج علينا يوماً من بيته قبل مبعث النبي ﷺ يسير، فوقف على مجلس عبد الأشهل، قال سلمة: وأنا يومئذ أخذت من فيه سناً، علي بُرْدَةٌ مضطجعا فيها بقاء أهلي -، فذكر البعث والقيامة والحساب والميزان والجنة والنار، فقال ذلك لقوم أهل شرك، أصحاب أوثان، لا يرون أن بعثاً كائن بعد الموت، فقالوا له: ويحك يا فلان! ترى هذا كائناً أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار، يُجْزَوْنَ فيها بأعمالهم؟! قال: نعم، والذي يُخْلَفُ به لود أن له بحظه من تلك النار أعظم ثور في الدنيا يحمونه، ثم يدخلونه إياه فيطبق به عليه، وأن ينجو من تلك النار غداً. قالوا له: ويحك، وما آية ذلك؟ قال: نبي يبعث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده نحو مكة واليمن، قالوا: ومتى تراه؟ قال فظفر إلي وأنا من أحدهم سناً، فقال: إن يستنفذ هذا الغلام عمره يدركه. قال سلمة: فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله تعالى رسوله ﷺ وهو حي بين أظهرنا، فأمنّا به، وكفر به بغياً، وحسداً، فقلنا: ويلك يا فلان! أأنت بالذي قلت لنا فيه ما قلت؟ قال: بلى، وليس به.

إليهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: إن كنتم صادقين بدعواكم الإيمان بما أنزل إليكم؛ فلم قتلتم الأنبياء الذين جاءوكم بتصديق التوراة التي بأيديكم والحكم بها، وعدم نسخها وأنتم تعلمون صدقهم؟ فقتلتموهم بغيا وعنادا واستكبارا على رسل الله.

(٩٢) ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالأدلة الواضحات المبينة للحق ﴿ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ عبدتم العجل بعد مجيئه ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ في ذلك، ليس لكم عذر.

(٩٣) ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ يعدد سبحانه وتعالى عليهم خطأهم ومخالفتهم للميثاق، وعتوهم وإعراضهم عنه، حتى رفع الطور عليهم حتى قبلوه، ثم خالفوه! ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا﴾: سماع قبول وطاعة واستجابة ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾؛ أي: صارت هذه حالتهم ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ صبغ حب العجل وحب عبادته في قلوبهم وتشربها، ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ بسبب كفرهم ﴿قُلْ يَسْمَا بِأَمْرِكُمْ بِهِ إِيمَنُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: أنتم تدعون الإيمان وتتمدحون بالدين الحق، وأنتم قتلتم أنبياء الله، واتخذتم العجل إلها من دون الله لما غاب عنكم موسى، نبي الله، ولم تقبلوا أوامره ونواهيه إلا بعد التهديد ورفع الطور فوقكم، فالتزمتم بالقول، ونقضتم بالفعل، فما هذا الإيمان الذي ادعيتم؟ وما هذا الدين؟! فإن كان هذا إيمانا على زعمكم؛ فيبس الإيمان الداعي صاحبه إلى الطغيان والكفر برسل الله، وكثرة العصيان.

علمهم وتيقنهم، فيكون أعظم لعذابهم ﴿بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾؛ أي: فعلوا ذلك كله بغيا وحسدا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده؛ فلعنهم الله، وغضب عليهم غضبا بعد غضب ﴿وَاللَّكَفْرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾: مؤلم موجه؛ وهو صلي الجحيم وفوت النعم المقيم، فيبس الحال حالهم.

(٩١) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾: وإذا أمر اليهود بالإيمان بما أنزل الله على رسوله، وهو القرآن، استكبروا وعتوا، وقالوا ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَنَكْفُرُ بِمَا وَرَاءَهُ﴾: بما سواه من الكتب، مع أن الواجب أن يؤمنوا بما أنزل الله مطلقا، سواء أنزل عليهم أو على غيرهم، وهذا هو الإيمان النافع: الإيمان بما أنزل الله على جميع رسله، وأما التفريق بين الرسل والكتب، وزعم الإيمان ببعضها دون بعض؛ فهذا ليس بإيمان، بل هو الكفر بعينه؛ ولهذا رد عليهم تبارك وتعالى ردا شافيا، وألزمهم إلزاما لا محيد لهم عنه، فرد عليهم كفرهم بالقرآن بأمرين، فقال: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾، فإذا كان هو الحق في جميع ما اشتمل عليه من الإخبارات والأوامر والنواهي، وهو من عند ربهم؛ فالكفر به بعد ذلك كفر بالله، وكفر بالحق الذي أنزله.

ثم قال: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾: موافقا له في كل ما دل عليه من الحق، ومهيئا عليه، فلم يؤمنون بما أنزل عليكم وتكفرون بنظيره؟! هل هذا إلا تعصب، واتباع الهوى لا الهدى؟ ثم نقض عليهم تعالى دعواهم الإيمان بما أنزل

(٩٤) ﴿قُلْ﴾ لهم على وجه تصحيح دعواهم: ﴿إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾؛ يعني: الجنة ﴿خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ﴾ كما زعمتم: أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصاري، وأن النار لن تمسكم إلا أيامًا معدودة، فإن كنتم صادقين بهذه الدعوى: ﴿فَتَمْنُوا أَلَمُوتَ﴾ إن كنتم صدقون. وهذا نوع مباهلة بينهم وبين رسول الله ﷺ؛ إما أن يؤمنوا بالله ورسوله، وإما أن يباهلوا على ما هم عليه بأمر يسير عليهم، وهو: تمنى الموت الذي يوصلهم إلى الدار التي هي خالصة لهم، فامتنعوا عن ذلك.

(٩٥) ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكفر والمعاصي؛ لأنهم يعلمون أنه طريق لهم إلى المجازاة بأعمالهم الخبيثة، فالموت أكره شيء لهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أنهم في غاية المعاندة والمحاداة لله ورسوله، مع علمهم بذلك. ﴿بِالظَّالِمِينَ﴾؛ أي: علم كل أحد أنهم ظالمون؛ لأنهم لو كانوا جازمين بما هم فيه لكانوا أقدموا على ذلك.

(٩٦) ﴿وَلَنَجْذِثُنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوتِهِمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾: هم أحرص على الحياة من كل أحد من الناس؛ حتى من المشركين الذين لا يؤمنون بأحد من الرسل والكتب ﴿يُودُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وهذا أبلغ ما يكون من الحرص، تمنوا حالة هي من المحالات ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزَجِهِ﴾ مَنْ

الْمَاءُ الْغَائِقُ

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمْنُوا أَلَمُوتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾

وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَنَجْذِثُنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوتِهِمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يُوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزَجِهِ

مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَنْ كَانَتْ عَدُوًّا لِّجَبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيَّنَّتَ بِهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ

وَمِيكَدَلْ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

٩١

١٥

أَعَذَابٍ أَنْ يُعَمَّرَ. والحال أنهم لو عمروا العمر المذكور؛ لم يغن عنهم شيئًا، ولا دفع عنهم من العذاب شيئًا. ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ تهديد لهم على المجازاة بأعمالهم.

(٩٧) ﴿قُلْ مَنْ كَانَتْ عَدُوًّا لِّجَبْرِيلَ﴾ قل لهؤلاء اليهود الذين زعموا أن الذي منعهم من الإيمان بك أن وليك جبريل عليه السلام، ولو كان غيره من ملائكة الله لآمنوا بك وصدقوا: إن هذا الزعم منكم تناقض وتهافت، وتكبر على الله ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى

(٩٤) في «الصحيحين» من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به؛ فإن كان لابد متمنيًا؛ فليقل: اللهم أحييني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفي إذا كانت الوفاة خيرًا لي».

(٩٧) في «صحيح البخاري» عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمع عبد الله بن سلام بمقدم رسول الله ﷺ، وهو في أرض يخترف، فأثنى النبي ﷺ فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشرار الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو أمه؟ قال: «أخبرني بهن جبريل آنفًا». قال: جبريل؟! قال: «نعم». قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة. فقرأ هذه الآية ﴿مَنْ كَانَتْ عَدُوًّا لِّجَبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ...﴾ الحديث.

لله ولرسله وملائكته؛ فإن عداوتهم لجبريل لا لذاته، بل لما ينزل به من عند الله من الحق على رسل الله، فيتضمن الكفر والعداوة للذي أنزله وأرسله، والذي أرسل به والذي أرسل إليه، فهذا وجه ذلك.

(٩٩) يقول لنبيه ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ تحصل بها الهداية لمن استهدى، وإقامة الحجة على من عاند، وهي في الوضوح والدلالة على الحق، قد بلغت مبلغاً عظيماً ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾: لا يمتنع من قبولها إلا من فسق عن أمر الله، وخرج عن طاعة الله، واستكبر غاية التكبر.

(١٠٠) ﴿أَوْكَلِمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ وهذا فيه التعجب من كثرة معاهداتهم وعدم صبرهم على الوفاء بها ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ والسبب: أن أكثرهم لا يؤمنون، فعدم إيمانهم هو الذي أوجب لهم نقض العهود.

(١٠١) ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾: ولما جاءهم هذا الرسول الكريم بالكتاب العظيم بالحق الموافق لما معهم، وكانوا يزعمون أنهم متمسكون بكتابهم ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ الذي أنزل إليهم؛ أي: طرحوه رغبة عنه ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ وهذا أبلغ في الإعراض، كأنهم في فعلهم هذا من الجاهلين ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهم يعلمون صدقه وحقيقة ما جاء به.

(١٠٢) ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ

لِلْإِنسَانِ﴾ وَأَتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنَ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَذُوتَ وَمُرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَآئِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا يَادُّنِ اللَّهُ وَيَسْعَىُٰونَ مَا يَشْرُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَآتَقَوْا لِمَوْثِقِهِ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَرَّ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٤﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رِيعًا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٥﴾ مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يُنْزَلَ عَلَيْكَ مِنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكَ وَاللَّهُ يَخْصُصُ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٦﴾

قَلْبِكَ يَادُّنِ اللَّهُ﴾ فإن جبريل ﷺ هو الذي نزل بالقرآن من عند الله على قلبك، وهو الذي ينزل على الأنبياء قبلك، والله هو الذي أمره وأرسله بذلك، فهو رسول محض، مع أن هذا الكتاب الذي نزل به جبريل ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بِيَدِهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ مصدقاً لما تقدمه من الكتب، غير مخالف لها ولا مناقض، وفيه الهداية التامة من أنواع الضلالات، والبشارة بالخير الدنيوي والأخروي لمن آمن به.

(٩٨) ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ فالعداوة لجبريل الموصوف بذلك كفر بالله وآياته وعداوة

(١٠٢) في «صحيح مسلم» عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن الشيطان يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه في الناس، فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة، ينجي أحدهم فيقول: ما زلت بفلان حتى تركته وهو يقول: كذا وكذا، فيقول إبليس: لا والله ما صنعت شيئاً. وينجي أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله. قال: فيقربه ويدنيه ويلتزمه، ويقول: نعم أنت».

﴿فَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَآئِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ﴾: ثم ذكر الحق - تبارك وتعالى - مفساد السحر، وأنه يفرق بين الرجل وزوجته، مع أن محبة الزوجين لا تقاس بمحبة غيرهما، فيتعلمون من الأفاعيل ما فيه ضرر وتفريق بينهما، وفي هذا دليل على أن السحر له حقيقة، وأنه يضر بإذن الله، وأن الأسباب مهما بلغت في قوة التأثير؛ فإنها تابعة للقضاء والقدر.

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾؛ أي: أن علم السحر مضره محضة، ليس فيه منفعة؛ لا دينية ولا دنيوية، كما يوجد بعض المنافع الدنيوية في بعض المعاصي، فهذا السحر مضره محضة؛ فليس له داع أصلاً ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ اليهود ﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ رغب في السحر رغبة المشتري في السلعة ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾: نصيب، بل هو موجب للعقوبة ﴿وَلَيْسَ مَا سَكَّرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾؛ علماً يثمر العمل؛ ما فعلوه.

(١٠٣) ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾: لو أنهم آمنوا بالله ورسوله، واتقوا المحارم؛ لكان مثوبة الله على ذلك خيراً لهم مما استماروا لأنفسهم ورضوا به.

(١٠٤) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَءَيْنَا﴾: كان المسلمون يقولون حين خطابهم للرسول ﷺ عند تعلمهم أمر الدين: ﴿رَءَيْنَا﴾؛ أي: راع أحوالنا، فيقصدون بها معنى صحيحاً، وكان اليهود يريدون بها معنى

سُلِّمَنَ: ولما كان من العوائد القدرية والحكمة الإلهية أن من ترك ما ينفعه، وأمكنه الانتفاع به ولم ينتفع؛ ابتلي بالاشتغال بما يضره، فكذلك هؤلاء اليهود، لما نذوا كتاب الله اتبعوا ما تتلوا الشياطين وتخلتق من السحر على ملك سليمان، حيث أخرجت الشياطين للناس السحر، وزعموا: أن سليمان عليه السلام كان يستعمله، وبه حصل له الملك العظيم! وهم كذبة في ذلك؛ فلم يستعمله سليمان، بل نزهه الصادق في قوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ﴾ بتعلم السحر، فلم يتعلمه ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ في ذلك ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّ النَّاسَ لَلسَّحَرِ﴾؛ من إضلالهم وحرصهم على إغواء بني آدم ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هُنُوتَ وَمُرُوتَ﴾ وكذلك اتبع اليهود السحر الذي أنزل على الملكين الكائنين بأرض بابل من أرض العراق، أنزل عليهما السحر امتحاناً وابتلاءً من الله لعباده، فيعلمانهم السحر ﴿وَمَا يَعْلَمَانِ مِنَ أَحَدٍ حَقٌّ يَنْصَحَاهُ﴾ ويقولان: إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ؛ أي: لا تتعلم السحر؛ فإنه كفر؛ فينهانه عن السحر، ويخبرانه عن مرتبته.

فتعليم الشياطين للسحر على وجه التدليس والإضلال، ونسبته وترويجه إلى سليمان عليه السلام، وتعليم الملكين امتحاناً مع نصحهما؛ لئلا يكون لهم حجة، فهؤلاء اليهود يتبعون السحر الذي تعلمه الشياطين، والسحر الذي يعلمه الملكان، فتركوا علم الأنبياء والمرسلين وأقبلوا على علم الشياطين، وكل يصبو إلى ما يناسبه.

(١٠٤) أخرج الإمام أحمد بإسناد حسن عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت بين يدي الساعة بالسيف، حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم».

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآيَاتِ وَالْآيَاتِ كُنُوزٍ مِّنْهَا أَوْ يُنْفِقُهَا
 أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ
 مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ
 وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ
 كَمَا سَأَلْتُمْ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ الْإِبْرَئِيلِيَّ
 فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ
 الْكِتَابِ لَوْ رَدُّوهُم إِلَىٰ دِينِهِمْ لَوْ رَدُّوهُم إِلَىٰ دِينِهِمْ لَوْ رَدُّوهُم إِلَىٰ دِينِهِمْ
 مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَمُوا
 وَاصْطَبُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
 ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تَقَدَّمُوا لَكُمْ مِنَ
 مِّنْ خَبَرٍ فَجُدُّوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ
 ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ
 تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ
 صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ
 قَالَهُ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾

ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون، فله الحمد والمنة.
 (١٠٦) ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ النسخ: هو
 النقل، فحقيقة النسخ: نقل المكلفين من حكم
 مشروع إلى حكم آخر - أو إلى إسقاطه -، وكان
 اليهود ينكرون النسخ، ويزعمون أنه لا يجوز! مع
 أنه مذكور عندهم في التوراة؛ فإنكارهم له كفر،
 وهوى محض ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ ننسها العباد، فنزيلها
 من قلوبهم ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ وأنفع لكم ﴿أَوْ
 مِثْلَهَا﴾؛ فدل على أن النسخ لا يكون لأقل
 مصلحة لكم من الأول؛ لأن فضله تعالى يزداد،
 خصوصاً على هذه الأمة التي سهل عليها دينها
 غاية التسهيل، وأخبر أن من قدح في النسخ؛ فقد
 قدح في ملكه وقدرته، فقال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ
 عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(١٠٧) ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ﴾: فإذا كان مالكا لكم، متصرفا فيكم
 تصرف المالك البر الرحيم في أقداره وأوامره
 ونواهيته؛ فكذلك لا يعترض عليه فيما يشرعه
 لعباده من الأحكام، فالعبد مدبر مسخر تحت
 أوامر ربه الدينية والقدرية، فما له والاعتراض؟!
 ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾:
 فهو ولي عباده ونصيرهم؛ فيتولاهم في تحصيل
 منافعهم، وينصرهم في دفع مضارهم، فمن

فاسداً، فانتهزوا الفرصة، فصاروا يخاطبون
 الرسول بذلك، ويقصدون المعنى الفاسد، فنهى
 الله المؤمنين عن هذه الكلمة؛ سداً لهذا الباب،
 ففيه: النهي عن الجائر إذا كان وسيلة إلى محرم،
 وفيه: الأدب واستعمال الألفاظ التي لا تحتمل إلا
 الحسن، وعدم الفحش، وترك الألفاظ القبيحة أو
 التي فيها تشويش واحتمال لأمر غير لائق، فأمرهم
 بلفظة لا تحتمل إلا الحسن، فقال: ﴿وَقُولُوا
 أَنْظَرْنَا﴾ فإنها كافية يحصل بها المقصود من غير
 محذور ﴿وَأَسْمِعُوا﴾ لم يذكر المسموع؛ ليعم ما
 أمر باستماعه، فدخل فيه سماع القرآن، وسماع
 السنة التي هي الحكمة، لفظاً ومعنى واستجابة،
 ففيه: الأدب والطاعة ﴿وَالْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾
 توعد الكافرين بالعذاب المؤلم الموجه.

(١٠٥) ﴿مَا يَوْزُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ

اللَّهُ بالاستغلال بالوقت الحاضر؛ بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وفعل كل القربات ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ ووعدهم أنهم مهما فعلوا من خير؛ فإنه لا يضيع عند الله، بل يجدونه عنده وافراً موفراً قد حفظه ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

(١١١) ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا﴾؛ أي: قال اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى. فحكموا لأنفسهم بالجنة وحدهم ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: وهذا الادعاء مجرد أمانى غير مقبولة إلا بحجة وبرهان، فأتوا بها إن كنتم صادقين، فالبرهان: هو الذي يصدق الدعوى أو يكذبها، ولما لم يكن بأيديهم برهان؛ علم كذبهم بتلك الدعوى.

(١١٢) ثم ذكر الله البرهان الجلي العام لكل أحد، فقال: ﴿بَلَى﴾؛ أي: ليس بأمانيتكم ودعاويكم، ولكن ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾: أخلص لله أعماله، متوجّهاً إليه بقلبه ﴿وَهُوَ﴾ مع إخلاصه ﴿مُحْسِنٌ﴾ في عبادة ربه، بأن عبده بشرعه؛ فأولئك هم أهل الجنة وحدهم ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِ﴾: وهو الجنة بما اشتملت عليه من النعيم ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فحصل

ولايته لهم: أن يشرع لهم من الأحكام ما تقتضيه حكمته ورحمته بهم.

(١٠٨) ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾: ينهى الله المؤمنين - أو اليهود - بأن يسألوا رسولهم ﴿كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ أسئلة التعنت والاعتراض، فهذه ونحوها هي المنهي عنها، وأما سؤال الاسترشاد والتعليم؛ فهذا محمود قد أمر الله به، ولما كانت المسائل المنهي عنها مذمومة، قد تصل بصاحبها إلى الكفر؛ قال: ﴿وَمَنْ يَتَّبِدْ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

(١٠٩) ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾: ثم أخبر عن حسد كثير من أهل الكتاب، وأنهم بلغت بهم الحال أنهم ودوا ﴿لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ وسعوا في ذلك، وعملوا المكاييد ﴿حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾، وهذا من حسدهم الصادر من عند أنفسهم ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾: فأمرهم الله بمقابلة من أساء إليهم غاية الإساءة بالعفو عنهم والصفح ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ: وقد كان ذلك، فقد أتى أمر الله إياهم بالجهاد، فشفى الله أنفس المؤمنين منهم، فقتلوا من قتلوا، واسترقوا من استرقوا، وأجلوا من أجلوا. (١١٠) ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾: ثم أمرهم

(١٠٨) أخرج مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وإن نهيتكم عن شيء فاجتنبوه».

(١٠٩) أخرج ابن أبي حاتم في «تفسيره» بإسناد صحيح - وأصله في «الصحيحين» - عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب. كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى؛ قال الله تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وكان رسول الله ﷺ يتأول في العفو ما أمره الله به، حتى أذن الله فيهم بقتل، فقتل الله به من قتل من صناديد قريش.

(١١٤) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾: لا أحد أظلم وأشد جرمًا ممن منع مساجد الله عن ذكر الله فيها، وإقامة الصلاة وغيرها من أنواع الطاعات ﴿وَسَعَى﴾: اجتهد وبذل وسعه ﴿فِي خَرَابِهَا﴾: الحسي والمعنوي، فالخراب الحسي: هدمها، وتخريبها، وتقديرها. والخراب المعنوي: منع الذاكرين لاسم الله فيها، ونشر البدع والضلالات، وإماتة السنة فيها ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾: فجازاهم الله بأن منعهم دخولها شرعًا وقدرًا، إلا خائفين ذليلين، فلما أخافوا عباد الله؛ أخافهم الله. واستدل العلماء بالآية الكريمة على أنه لا يجوز تمكين الكفار من دخول المساجد ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾: فضيحة ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: على ما انتهكوا من حرمت بيوت الله.

(١١٥) ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾: خصهما بالذكر؛ لأنهما محل الآيات العظيمة في مطالع الأنوار ومغاربها، فإذا كان مالكا لها؛ كان مالكا لكل الجهات ﴿فَأَيْنَمَا تُولَّوْا﴾: وجوهكم من الجهات إذا كان توليكم إياها بأمره: إما أن يأمركم باستقبال الكعبة بعد أن كنتم مأمورين باستقبال بيت المقدس، أو تؤمرون بالصلاة في السفر على الراحلة ونحوها؛ فإن القبلة حيثما توجه العبد، أو تشبه القبلة؛ فيتحرى الصلاة إليها ثم يتبين له الخطأ، أو يكون معذورا بصلب. أو مرض، ونحو ذلك؛ فهذه الأمور إما أن يكون العبد فيها

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٤﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَوَجَّهُ اللَّهُ إِلَيْكُمْ وَرَاسُ اللَّهِ وَسِعَ عَلَيْهِ ﴿١١٦﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَمْ يَكُنْ لِمَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلِّ لَهٍ فَنَشْتُونَ ﴿١١٧﴾ بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشْتَهُتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِلْعَوْمِ بِقُوتِ ﴿١١٩﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْتَلْ عَنْ أَهْبَابِ الْحَرِيمِ ﴿١٢٠﴾

لهم المرغوب، ونجو من المرهوب. (١١٣) ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَالنَّصْرَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾: وذلك أنه بلغ بأهل الكتاب الهوى والحسد إلى أن بعضهم ضلل بعضًا، وكفر بعضهم بعضًا ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾: كما فعل الأميون من مشركي العرب وغيرهم، فكل فرقة تضلل الفرقة الأخرى ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾: ويحكم الله في الآخرة بين المختلفين، بحكمه العدل الذي أخبر به عباده.

(١١٤) أخرج الإمام أحمد بإسناد حسن عن بسر بن أرطاة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يدعو: «اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة».

(١١٥) أخرج الترمذي وابن ماجه، حديث أبي هريرة الصحيح لغيره، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين المشرق والمغرب قبلة».

(١١٧) ﴿يَدْعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: خالفهما على وجه قد أنقنهما وأحسنهما على غير مثال سبق ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ فلا يستعصي عليه، ولا يمتنع منه.

(١١٨) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾: قال الجهلة من أهل الكتاب وغيرهم: هلاً يكلمنا الله كما كلم الرسل؟! ﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾: يعنون: آيات الاقتراح التي يقترحونها بعقولهم الفاسدة، وآرائهم الكاسدة التي تجرؤوا بها على الخالق، واستكبروا على رسله ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ شَتَّيْتُمْ قُلُوبَهُمْ﴾: فهذا دأبهم مع رسلهم؛ يطلبون آيات التعنت لا آيات الاسترشاد، ولم يكن قصدهم تبين الحق، فإن الرسل قد جاؤوا من الآيات بما يؤمن على مثله البشر، ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فكل موقن فقد عرف من آيات الله الباهرة، وبراهينه الظاهرة، ما حصل له به اليقين، واندفع عنه كل شك وريب.

(١١٩) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾: فهذا مشتمل على الآيات التي جاء بها، وهي ترجع إلى ثلاثة أمور: الأول: في نفس إرساله، والثاني: في سيرته وهديه ودله، والثالث: في معرفة ما جاء به من القرآن والسنة، فالأول والثاني قد دخلا في قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ والثالث في قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾. قوله ﴿بَشِيرًا﴾؛ أي: لمن أطاعك بالسعادة الدنيوية والأخروية ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن عصاك

معذورًا أو مأمورًا، وبكل حال؛ فما استقبل جهة من الجهات خارجة عن ملك ربه ﴿فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ: فيه إثبات الوجه لله - تعالى - على الوجه اللائق به - تعالى -، وأن لله وجهًا لا تشبهه الوجوه، وهو تعالى واسع الفضل والصفات عظيمها، عليم بسر أتركهم ونياتكم.

(١١٦) ﴿وَقَالُوا﴾؛ أي: اليهود والنصارى والمشركون، وكل من قال ذلك: ﴿أَتَأْخُذُ اللَّهُ وَلَدًا﴾؛ فنسبوه إلى ما لا يليق بجلاله، وأساءوا كل الإساءة، وظلموا أنفسهم، وهو - تعالى - صابر على ذلك منهم، قد حلم عليهم وعافاهم، وورزقهم مع تنقصهم إياه ﴿سُبْحَنَهُ﴾: تنزهه وتقدس عن كل ما وصفه به المشركون والظالمون مما لا يليق بجلاله، فسبحان من له الكمال المطلق من جميع الوجوه، الذي لا يعتره نقص بوجه من الوجوه، ومع رده لقولهم أقام الحجة والبرهان على تنزيهه عن ذلك، فقال: ﴿بَلْ لَّكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: جميعهم ملكه وعبيده، يتصرف فيهم تصرف المالك بالمماليك ﴿كُلُّ لَكُمْ قَانُونٌ﴾: وهم قانتون له مسخرون تحت تدبيره، فإذا كانوا كلهم عبيده مفتقرين إليه، وهو غني عنهم؛ فكيف يكون منهم أحد يكون له ولدًا؟!!

والقنوت نوعان: قنوت عام؛ وهو: قنوت الخلق كله تحت تدبير الخالق. وقنوت خاص؛ وهو: قنوت العبادة.

(١١٦) أخرج البخاري في «صحيحه» من حديث ابن عباس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «قال الله - تعالى -: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي؛ فيزعم أنني لا أقدر أن أعيده كما كان. وأما شتمه إياي؛ فقلوه: لي ولد، فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولدًا».

كان لرسول الله ﷺ؛ فإن أمته داخله في ذلك؛ لأن الاعتبار بعموم المعنى لا بخصوص المخاطب.

(١٢١) ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ﴾: يعبر - تعالى - أن الذين آتاهم الكتاب ومنّ عليهم به مئة مطلقاً، انهم ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾؛ أي: يتبعونه حق اتباعه، والتلاوة: الاتباع؛ فيحلون حلاله، ويحرمون حرامه، ويعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، وهؤلاء هم السعداء من أهل الكتاب؛ الذين عرفوا نعمة الله وشكروها، وآمنوا بكل الرسل، ولم يفرقوا بين أحد منهم ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾، فهؤلاء هم المؤمنون حقاً؛ لا من قال منهم: نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه. ولهذا توعدهم بقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

(١٢٢) ﴿يَبْنَىٰ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (١٢٣) وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَخْرِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلَ مِنهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُكَ شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُصْرُونَ﴾ (١٢٤). قد تقدم نظير هذه الآية في صدر السورة^(*)، وذكرت هاهنا للتأكيد والحث على اتباع الرسول النبي الأمي الذي يجدون صفته في كتبهم ونعته واسمه وأمره وأمته، فحذرهم من كتمان هذا، وكتمان ما أنعم به عليهم، وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم، من النعم الدنيوية والدينية ولا يحسدوا بني عمهم من العرب على ما رزقهم الله من إرسال الرسول الخاتم منهم. ولا يحملهم ذلك الحسد على مخالفته وتكذيبه والحادثة عن موافقته، صلوات

وَلَنْ رَضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَى حَتَّى تَبْعَ مِنْهُمْ قُلُوبًا
هَذِي اللَّهُ هُوَ الْهَدَى وَلَيْنَ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ
مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٢﴾ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ
الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ وَأُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ
فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَافِرُونَ ﴿١٢٣﴾ يَتَّبِعِ الْإِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا يَعْمَى إِلَهُهُ
أَتَعْمَى عَلَيْكُمْ إِنِّي مَقْصُودٌ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَأَتَقُوا يَوْمًا
لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا
شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ
فَاتَمَّتْ قَالَ إِبْنِي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ
لَا يَتَّبِعُكَ فِي هَذِهِ السُّلَيْمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ
وَأَمْنَا وَمُحَدًّا مِّن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ
السُّجُودِ ﴿١٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ
أَهْلَهُ مِنَ الشَّرْبِ مِّنْ ءَمَنِ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ
فَاعْتَبَهُ فَيَلَا ثُمَّ أَصْطَرَّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبَشِّرِ الْمَصِيدَ ﴿١٢٨﴾

بالشقاوة والهلاك الدنيوي والأخروي ﴿وَلَا تَسْأَلْ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾: لست مسئلاً عنهم، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب. (١٢٠) ﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ﴾ يخبر - تعالى - رسوله: أنه لا يرضى منه اليهود ولا النصارى إلا باتباعه دينهم؛ لأنهم دعاة إلى الدين الذي هم عليه، ويزعمون أنه الهدى! فقل لهم: ﴿إِنَّ هَذَى اللَّهِ﴾ الذي أرسلت به ﴿هُوَ أَلْهَىٰ﴾، وأما ما أنتم عليه؛ فهو الهوى، وقوله: ﴿وَلَنْ أَتَّبَعَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾: فهذا فيه النهي العظيم عن اتباع أهواء اليهود والنصارى، والتشبه بهم بما يختص به دينهم. والخطاب وإن

(*) تقدم نظير هاتين الآيتين برقم (٤٧ و ٤٨).

وَأَذِيقَهُمْ إِبْرَاهِمَ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْيَتَامَىٰ وَاسْمِعِلْ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٤﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ دُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٥﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٦﴾ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ صَاطَفَتْنِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ الْمَلَائِكَةُ بِمَنْ صَلَّيْتُ عَلَيْهِمْ أَذْ قَالَ لَهُ رَبِّي أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهُكَ وَاللَّهُ عَابَادُكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُنَا وَحَدًّا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٢٩﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُشْئَلُونَ عَنْهَا كَانُوا أَتَمَلُونَ ﴿١٣٠﴾

(١٢٥) ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْيَتَامَىٰ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ ؛ أي : مرجعاً يثوبون إليه ؛ لحصول منافعهم الدينية والدنيوية ، يترددون إليه ، ولا يقضون منه وطراً ، ﴿و﴾ جعله ﴿أُمَّةً﴾ يأمن به كل أحد ؛ حتى الوحش ، وحتى الجمادات كالأشجار ﴿وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ المراد بذلك : المقام المعروف الذي قد جعل الآن مقابل باب الكعبة ، وأن المراد بهذا : ركعتا الطواف ، فيكون معنى قوله : ﴿مُصَلًّى﴾ ؛ أي : معبداً ، فاقتدوا به في شعائر الحج ﴿وَعَهْدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهْرًا بَيْنِي﴾ : أوحينا إليهما وأمرناهما بتطهير بيت الله من الشرك والكفر والمعاصي ، ومن الرجس والنجاسات والأقذار ؛ ليكون ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ فيه ﴿وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعَ

الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين .
(١٢٤) ﴿وَإِذْ أَبَتَ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ : يخبر - تعالى - عن عبده وخليله إبراهيم عليه السلام أن الله ابتلاه وامتحنه بكلمات ؛ أي : بأوامر ونواه ؛ كما هي عادة الله في ابتلائه لعباده ؛ ليتبين الكاذب الذي لا يثبت عند الابتلاء والامتحان من الصادق ، الذي ترتفع درجته ، ويزيد قدره ، ويزكو عمله ، ويخلص ذنبه ، وكان من أجلهم في هذا المقام : الخليل عليه السلام ، فأتى ما ابتلاه الله به وأكمل له ووفاه ، فشكر الله له ذلك ، ولم يزل الله شكوراً ، ﴿قَالَ﴾ الله عز وجل : ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ ؛ أي : يقتدون بك في الهدى ، ويمشون خلفك إلى سعادتهم الأبدية ، ويحصل لك الثناء الدائم ، والأجر الجزيل ، والتعظيم من كل أحد ، وهذه - لعمر الله - أفضل درجة تنافس فيها المتنافسون ، وأعلى مقام شمر إليه العاملون ، وأكمل حالة حصلها أولو العزم من المرسلين ﴿قَالَ وَمِنْ دُرِّيَّتِي﴾ ؟ فلما اغتبط إبراهيم بهذا المقام وأدرك هذا ؛ طلب ذلك لذريته ؛ لتعلو درجته ، ودرجة ذريته ، وهذا - أيضاً - من إمامته ونصحه لعباد الله ، ومحبه أن يكثر فيهم المرشدون ، فله عظمة هذه الهمم العالية ، والمقامات السامية ! فأجابه الرحيم اللطيف ، وأخبر بالمانع من نيل هذا المقام ، فقال : ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ ؛ أي : لا ينال الإمامة في الدين من ظلم نفسه وضرها وخط قدرها ؛ لمنافاة الظلم لهذا المقام .
ودل مفهوم الآية أن غير الظالم سينال الإمامة ، ولكن مع إتيانه بأسبابها .

السُّجُودِ؛ أَي: المصلين، قَدَّم الطواف؛ لاختصاصه بالمسجد الحرام، ثم الاعتكاف؛ لأن من شرطه المسجد مطلقاً، ثم الصلاة.

(١٢٦) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾؛ أَي: وإذ دعا إبراهيم لهذا البيت أن يجعله الله بلداً آمناً، ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ ويرزق أهله من أنواع الثمرات ﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ثم قيد ﴿الَّذِينَ﴾ هذا الدعاء للمؤمنين؛ تأدباً مع الله، إذ كان دعاؤه الأول فيه الإطلاق، فجاء الجواب فيه مقيداً بغير الظالم؛ فلما دعا لهم بالرزق وقيدته بالمؤمنين، وكان رزق الله شاملاً للمؤمن والكافر والعاصي والطائع؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾؛ أَي: أرزقهم كلهم مسلمهم وكافرهم: أما المسلم؛ فيستعين بالرزق على عبادة الله، ثم ينتقل منه إلى نعيم الجنة. وأما الكافر؛ فيتمتع فيها قليلاً ﴿ثُمَّ أَصْطَرُّهُ﴾: ألجئه وأخرجه مكرهاً ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ نَّارٍ وَفِي السَّعِيرِ﴾. (١٢٧) ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ أَي: واذكر إبراهيم وإسماعيل في حالة رفعهما القواعد من البيت - الأساس -، واستمرارهما على هذا العمل العظيم ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وكيف كانت حالهما من الخوف والرجاء؛ حتى إنهما مع هذا العمل دعوا الله أن يتقبل منهما عملهما، حتى يجعل فيه النفع العميم. (١٢٨) ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً

مُسْلِمَةً لَكَ﴾: ودعوا لأنفسهما وذريتهما بالإسلام، الذي حقيقته: خضوع القلب وانقياده لربه، المتضمن لانقياد الجوارح ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾: علمناها على وجه الإراءة والمشاهدة؛ ليكون أبلغ والمراد بالمناسك: أعمال الحج كلها؛ كما يدل عليه السياق والمقام، ويحتمل أن يكون ما هو أعم من ذلك، وهو الدين كله، والعبادات كلها؛ كما يدل عليه عموم اللفظ، تغليبا عرفياً، فيكون حاصل دعائهما يرجع إلى التوفيق للعلم النافع والعمل الصالح، ولما كان العبد مهما كان لا بد أن يعتريه التقصير، ويحتاج إلى التوبة؛ قال: ﴿وَبِّعْنَا نِكَائَكَ أَنْتَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾.

(١٢٩) ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ﴾؛ أَي: في ذريتنا ﴿رُسُلًا مِنْهُمْ﴾ ليكون أرفع لدرجتهم، ولينقادوا له، وليعرفوه حقيقة المعرفة ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ لفظاً، وحفظاً، وتحفيظاً ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾: القرآن ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ السنة ﴿وَيُزَكِّيهِمُ﴾ بالتربية على الأعمال الصالحة، والتبري من الأعمال الردية؛ التي لا تتركو النفس معها ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾؛ أَي: القاهر لكل شيء، الذي لا يمتنع على قوته شيء ﴿الْحَكِيمُ﴾: الذي يضع الأشياء مواضعها.

(١٣٠) ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ﴾؛ أَي: ما يرغب ﴿عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ بعد ما عرف من فضله ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ جهلها وامتهنها، ورضي لها بالدون، وباعها بصفقة المغبون، كما أنه لا أرشد وأكمل

(١٢٦) في «الصحاحين» من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «إن إبراهيم حرّم مكة ودعا لها، وحرّم المدينة؛ كما حرّم إبراهيم مكة، ودعوت لها في مذبحها وصاعها، مثل ما دعا إبراهيم لمكة».

(١٢٩) أخرج الإمام أحمد وابن حبان والطبري والطبراني وغيرهم حديث العرياض بن سارية الصحيح لغيره قال: قال رسول الله ﷺ: «إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأبنيكم بأول ذلك: دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهات النبيين يرين».

أعطوا من الكتب والشرائع، وفيها: دلالة على أن الأنبياء مبلغون عن الله ووسائط بين الله وبين خلقه في تبليغ دينه، ليس لهم من الأمر شيء. وفي قوله: ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾؛ إشارة إلى أنه تعالى من كمال ربوبيته لعباده أن ينزل عليهم الكتب ويرسل إليهم الرسل، فلا تقتضي ربوبيته تركهم سدى ولا هملاً. ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ بل نؤمن بهم كلهم، هذه خاصية المسلمين التي افردوا بها عن كل من يدعي أنه على دين.

﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾: خاضعون لعظمته، منقادون لعبادته بباطننا وظاهرنا، مخلصون له العبادة. (١٣٧) ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنُتُمْ بِهِ﴾ فإن آمن أهل الكتاب بمثل ما آمنتم به يا معشر المؤمنين من جميع الرسل وجميع الكتب، الذين أول من دخل فيهم وأولى خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ والقرآن، وأسلموا لله وحده، ولم يفرقوا بين أحد من الرسل؛ ﴿فَقَدْ أَهْتَدُوا﴾ للصراط المستقيم، الموصل لجنت النعيم، فلا سبيل لهم إلى الهداية إلا بهذا الإيمان، لا كما زعموا بقولهم: كونوا هودًا أو نصارى تهتدوا، والهدى هو العلم بالحق والعمل به ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾: فإن أعرضوا عن هذا الإيمان؛ فهم في ضلال، ضلال عن العلم، وضلال عن العمل بعد العلم، وهو الشقاق الذي كانوا عليه لما تولوا وأعرضوا، فالمشاق: هو الذي يكون في شق والله ورسوله في شق، ويلزم من المشاقة المحادة

الدخول في دينهم؛ زاعمين: أنهم هم المهتدون وغيرهم ضال! ﴿قُلْ﴾ لهم مجيبًا جوابًا شافيًا: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾؛ أي: مقبلاً على الله، معرضاً عما سواه، قائماً بالتوحيد ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تاركاً للشرك والتنديد، فهذا الذي في اتباعه الهداية، وفي الإعراض عن ملته الكفر والغواية.

(١٣٦) ﴿قُولُوا﴾ بألستكم، متواطئة عليها قلوبكم، وفيه إشارة إلى الإعلان بالعقيدة والصدع بها والدعوة لها؛ إذ هي أصل الدين وأساسه ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ بأنه واجب الوجود، واحد أحد، متصف بكل صفة كمال، منزه عن كل نقص وعيب، مستحق لإفراده بالعبادة كلها، وعدم الإشراك به في شيء منها بوجه من الوجوه ﴿وَمَا أَنزَلْنَا﴾: يشمل القرآن والسنة، فيدخل فيه الإيمان بما تضمنه كتاب الله وسنة رسوله؛ من صفات الباري، وصفات رسله، واليوم الآخر، والغيوب الماضية والمستقبلية، والإيمان بما تضمنه ذلك من الأحكام الشرعية، وغير ذلك ﴿وَمَا أَنزَلْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ فيه الإيمان بجميع الكتب: المنزلة على جميع الأنبياء، والإيمان بالأنبياء عمومًا وخصوصًا، فالواجب في الإيمان بالأنبياء والكتب أن يؤمن بهم على وجه العموم والشمول، ثم ما عرف منهم بالتفصيل وجب الإيمان به مفصلاً.

﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾: أمرنا أن نؤمن بما

(١٣٦) أخرج البخاري في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا».

(١٣٧) أخرج ابن نصر في «السنة» بإسناد صحيح لغيره عن عتبة بن غزوان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن من ورائكم أيام الصبر، للمتمسك فيهن يومئذ بما أنتم عليه أجر خمسين منكم» قالوا: يا نبي الله أو منهم؟ قال: «بل منكم».

المعاند، ويوضح الحق ويبين الباطل، فإن خرجت عن هذه الأمور؛ كانت ممارسة ومخاصمة لا خير فيها، وأحدثت من الشر ما أحدثت.

فكان أهل الكتاب يزعمون أنهم أولى بالله من المسلمين! وهذا مجرد دعوى تفتقر إلى برهان ودليل ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾، فإذا كان رب الجميع واحداً ليس رباً لكم دوننا ﴿وَلَنَّا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ وكل منا ومنكم له عمله ﴿وَنَحْنُ لَمْ نُخْلُصُونَ﴾ فاستوينا نحن وأنتم بذلك؛ فهذا لا يوجب أن يكون أحد الفريقين أولى بالله من غيره؛ لأن التفريق مع الاشتراك في الشيء من غير فرق مؤثر دعوى باطلة، وتفریق بين متماثلين، ومكابرة ظاهرة، وإنما يحصل التفضيل بإخلاص الأعمال الصالحة لله وحده، وهذه الحالة وصف المؤمنين وحدهم، فتعين أنهم أولى بالله من غيرهم؛ لأن الإخلاص هو الطريق إلى الخلاص، فهذا هو الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان بالأوصاف الحقيقية التي يسلم لها أهل العقول، ولا ينازع فيها إلا كل مكابر جهول، ففي هذه الآية إرشاد لطيف لطريق المحاجة، وأن الأمور مبنية على الجمع بين المتماثلين والفرق بين المختلفين.

(١٤٠) ﴿أَمْ نَقُولُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ هذه دعوى أخرى منهم، ومحاجة في رسل الله؛ زعموا أنهم أولى بهؤلاء الرسل المذكورين من المسلمين ﴿قُلْ﴾ فرد الله عليهم بقوله: ﴿إِنَّهُمْ أَتَمَّ

والعداوة البليغة، التي من لوازمها بذل ما يقدرون عليه من أذية الرسول ﴿سَيَكْفِيكُمْ اللَّهُ﴾ فلماذا وعد الله رسوله أن يكفيه إياهم ﴿وَهُوَ أَلْسَمِيحٌ﴾ لجميع الأصوات باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات ﴿أَلْعَلِمُ﴾ بما بين أيديهم وما خلفهم بالغيب والشهادة، بالظواهر والبواطن.

(١٣٨) ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾؛ أي: الزموا صبغة الله؛ وهو دينه، وقوموا به قياماً تاماً بجميع أعماله الظاهرة والباطنة، وجميع عقائده في جميع الأوقات؛ حتى يكون لكم صبغة وصفة من صفاتكم، فإذا كان صفة من صفاتكم؛ أوجب ذلك لكم الانقياد لأوامره طوعاً واختياراً ومحبة، وصار الدين طبيعة لكم بمنزلة الصبغ التام للثوب الذي صار له صفة ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً﴾؛ أي: لا أحسن صبغة من صبغته ﴿وَنَحْنُ لَمْ نَعْبُدْكُمْ﴾: بيان لهذه الصبغة؛ وهي القيام بهذين الأصلين: الإخلاص، والمتابعة؛ لأن العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، ولا تكون كذلك حتى يشرعها الله على لسان رسوله.

(١٣٩) ﴿قُلْ أَتَمَّاجُونًا فِي اللَّهِ﴾ المحاجة؛ هي: المجادلة بين اثنين فأكثر، يكون كل من الخصمين يريد نصرة قوله وإبطال قول خصمه، فكل واحد منهما يجتهد في إقامة الحجة على ذلك، والمطلوب منها أن تكون بالتي هي أحسن، بأقرب طريق يرد الضال إلى الحق، ويقيم الحجة على

(١٣٨) أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في «العظمة» والضياء في «المختارة» بإسناد حسن عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: إن بني إسرائيل قالوا: يا موسى، هل يصبغ ربك؟ قال: اتقوا الله. فناده ربه: يا موسى، سألوكم: هل يصبغ ربك؟ فقل: نعم؛ أصبغ الألوان: الأحمر، والأبيض، والأسود، والألوان كلها في صفتي. فأنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَمْ نُخْلُصُونَ﴾.

أحد. كما إذا قيل: الليل أنور أم النهار؟ والنار أحر أم الماء؟ والشرك أحسن أم التوحيد؟ ونحو ذلك، وهذا يعرفه كل من له أدنى عقل، فكتموا هذا العلم وهذه الشهادة؛ فلهذا كان ظلمهم أعظم الظلم ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَرَ شَهَادَةً عِنْدُ اللَّهِ مِنَ اللَّهِ﴾ فهي شهادة عندهم مودعة من الله، لا من الخلق؛ فيقتضي الاهتمام بإقامتها، فكتموها وأظهروا ضدها! جمعوا بين كتم الحق وعدم النطق به، وإظهار الباطل والدعوة إليه!! أليس هذا أعظم الظلم؟ بلى والله، وسيعاقبهم عليه أشد العقوبة، فلهذا قال: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بل قد أحصى أعمالهم وعدّها، وادخر لهم جزاءها، فبئس الجزاء جزاؤهم.

وهذه طريقة القرآن في ذكر العلم والقدرة عقب الآيات المتضمنة للأعمال التي يجازى عليها؛ فيفيد ذلك الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، ويفيد - أيضاً - ذكر الأسماء الحسنى بعد الأحكام: أن الأمر الديني والجزائي أثر من آثارها، وموجب من موجباتها، وهي مقتضية له. (١٤١) ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: تقدم تفسيرها^(*)، وذكرها هاهنا؛ لقطع التعلق بالمخلوقين، وأن المعول عليه ما اتصف به الإنسان؛ لا عمل أسلافه وآبائه، فالنفع الحقيقي

سَيَسْأَلُ الشَّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَنْ قِبَلِهِمْ أَلِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَبْتَغِ الرِّسُولَ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عَمَّا يَتَّبِعُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا نَذِيرًا ﴿١٤٣﴾ قَدْ رَأَى ثَقَلُفٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُورِيَنَّكَ قِبْلَتَكَ رَضَيْنَاهَا قَوْلَ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَيْنَ أَتَيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَكِنْ لِنَنْجِعَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَمْدٍ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾

أَعْلَمُ أَرَأَيْتُمْ؟! فالله يقول: ﴿وَمَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وهم يقولون: بل كان يهوديًا أو نصرانيًا؛ فإما أن يكونوا هم الصادقين العالمين، أو يكون الله - تعالى - هو الصادق العالم بذلك؟ فأحد الأمرين متعين لا محالة، وصورة الجواب مبهم وهو في غاية الوضوح والبيان؛ حتى إنه من وضوحه لم يحتج أن يقول: بل الله أعلم وهو أصدق، ونحو ذلك؛ لانجلاته لكل

(*) عند الآية (١٣٤) من هذه السورة.

(١٤٢) في «الصحيحين» عن البراء بن عازب رضي الله عنه: أن النبي ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا، أو سبعة عشر شهرًا، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر، وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن كان صلى معه، فمر على أهل المسجد وهم راكعون، فقال: أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قبل مكة، فداروا كما هم قبل البيت، وكان الذي مات على القبلة قبل أن تحول قبل البيت رجالاً قتلوا لم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله ﻋَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عَمَّا يَتَّبِعُ﴾.

فهذا يوجب التسليم لأمره بمجرد ذلك، فكيف وهو من فضل الله عليكم وهدايته وإحسانه أن هداكم لذلك، فالمعترض عليكم معترض على فضل الله حسداً لكم وبغيًا.

ولما كان قوله: ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ مطلقاً، والمطلق يحمل على المقيد، فإن الهداية والضلال لهما أسباب أوجبتها حكمة الله وعدله، وقد أخبر في غير موضع من كتابه بأسباب الهداية التي إذا أتى بها العبد حصل له الهدى، كما قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٦]؛ ذكر السبب الموجب لهداية هذه الأمة مطلقاً بجميع أنواع الهداية، ومنة الله عليها، فقال:

(١٤٣) ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾: عدلاً خياراً، وما عدا الوسط فأطراف داخله تحت الخطر، فجعل الله هذه الأمة وسطاً في كل أمور الدين: وسطاً في الأنبياء بين من غلا فيهم كالنصارى وبين من جفاهم كاليهود؛ بأن آمنوا بهم كلهم على الوجه اللائق بذلك؛ ووسطاً في الشريعة؛ لا تشديدات لليهود وأصارهم، ولا تهاون النصارى، فلهذه الأمة من الدين أكمله، ومن الأخلاق أجلها، ومن الأعمال أفضلها، ووهبهم الله من العلم والحلم والعدل والإحسان ما لم يهبه لأمة سواهم؛ فلذلك كانوا ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾: كاملين معتدلين؛ ليكونوا ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ بسبب

بالأعمال، لا بالانتساب المجرد للرجال. (١٤٢) ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾: أخبر تعالى أنه سيعترض السفهاء من الناس - وهم الذين لا يعرفون مصالح أنفسهم، بل يضيعونها ويبيعونها بأبخس ثمن؛ وهم اليهود والنصارى، ومن أشبههم من المعترضين على أحكام الله وشرائعه - ويقولون: ﴿مَا وَلَهُمْ عَن قَوْلِهِمْ أَتَى كَاؤًا عَلَيْهَا﴾: وهي استقبال بيت المقدس؛ أي: أي شيء صرفهم عنه؟ وفي ذلك الاعتراض على حكم الله وشرعه، وفضله وإحسانه، فسلاًهم وأخبر بوقوعه، وأنه إنما يقع ممن اتصف بالسفه؛ قليل العقل والحلم والديانة، فلا تبالوا بهم؛ إذ قد علم مصدر هذا الكلام، فالعاقل لا يبالي باعتراض السفیه، ولا يلقي له ذهنه.

ودلت الآية على أنه لا يعترض على أحكام الله إلا سفیه جاهل معاند، وأما الرشيد المؤمن العاقل؛ فيتلقى أحكام ربه بالقبول والانقياد والتسليم ﴿قُلْ﴾ لهم محبيًا: ﴿لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: فإذا كان المشرق والمغرب ملكاً لله، ليس جهة من الجهات خارجة من ملكه، ومع هذا يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، ومنه هدايتكم إلى هذه القبلة التي هي ملة أبيكم إبراهيم، فلا شيء يعترض المعترض بتوليتكم قبلة داخله تحت ملك الله؟! فأنتم لم تستقبلوا جهة ليست ملكاً له،

(١٤٣) وفي «صحيح البخاري» من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل، والنبي ومعه الرجلان، وأكثر من ذلك فيدعى قومه، فيقال لهم: هل بلغكم هذا؟ فيقولون: لا. فيقال: هل بلغت قومي؟ فيقول: نعم. فيقال: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمه، فيدعى بمحمد وأمه. فيقال لهم: هل بلغ هذا قومي؟ فيقولون: نعم، فيقال: وما علمكم؟ فيقولون: جاء نبينا ﷺ فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا. فذلك قوله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال: عدلاً: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

عدالتهم وحكمهم بالقسط يحكمون على الناس من سائر أهل الأديان، ولا يحكم عليهم غيرهم، فما شهدت له هذه الأمة بالقبول فهو مقبول، وما شهدت له بالرد فهو مردود.

فإن قيل: كيف يقبل حكمهم على غيرهم، والحال أن كل مختصمين غير مقبول قول بعضهم على بعض؟ قيل: إنما لم يقبل قول أحد المتخاصمين لوجود التهمة، فأما إذا انتفت التهمة وحصلت العدالة التامة كما في هذه الأمة؛ فيقبل قولها، فإن شك شاك في فضلها وطلب مزكياً لها؛ فهو أكمل الخلق نبياً ﷺ؛ فهذا قال: ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ ومن شهادة هذه الأمة على غيرهم: أنه إذا كان يوم القيامة، وسأل الله المرسلين عن تبليغهم والأمة المكذبة عن ذلك، وأنكروا أن الأنبياء بلغتهم؛ استشهد الأنبياء بهذه الأمة، وزكاهما نبياً، وفي الآية دليل على أن إجماع هذه الأمة حجة قاطعة، وأنهم معصومون عن الخطأ؛ لإطلاق قوله: ﴿وَسَطاً﴾، فلو قدر اتفاقهم على الخطأ؛ لم يكونوا وسطاً إلا في بعض الأمور، وفيها اشتراط العدالة في الحكم والشهادة والفتيا، ونحو ذلك.

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾: وهي استقبال بيت المقدس أولاً ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ علماً يتعلق به الثواب والعقاب، وإلا؛ فهو تعالى عالم بكل الأمور قبل وجودها، والمعنى: شرعنا تلك القبلة؛ لنعلم ونمتحن ﴿مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ﴾ ويؤمن به، فيتبعه على كل حال، فالمنصف الذي مقصوده الحق مما يزيده ذلك إيماناً وطاعة للرسول ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ وأما من انقلب على عقبيه، وأعرض عن الحق واتبع هواه؛ فإنه

يزداد كفرًا إلى كفره، وخيرة إلى خيرته ﴿وَإِنْ كَانَتْ﴾ أي: صرفك عنها ﴿لَكِبَةً﴾ أي: شاقة ﴿إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ فعرفوا بذلك نعمة الله عليهم وشكروا وأقروا له بالإحسان، حيث وجههم إلى هذا البيت العظيم، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾: ما ينبغي له ولا يليق به تعالى، فأخبر أنه ممتنع عليه ومستحيل أن يضيع إيمانكم، ودخل في ذلك من مات من المؤمنين قبل تحويل القبلة، فإن الله لا يضيع إيمانهم؛ لكونهم امتثلوا أمر الله وطاعة رسوله في كل وقت؛ بحسب ذلك.

وفي هذه الآية دليل لمذهب أهل السنة والجماعة، أن الإيمان تدخل فيه أعمال الجوراح.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾: شديد الرحمة بهم عظيمها، ومن رأفته ورحمته بهم: أن يتم عليهم نعمته التي ابتدأهم بها، وأن ميز عنهم من دخل في الإيمان بلسانه دون قلبه، وأن امتحنهم امتحاناً زاد به إيمانهم، وارتفعت به درجاتهم، وأن وجههم إلى أشرف البيوت وأجلها.

(١٤٤) ﴿فَقَدْ رَأَى نَفْلًا وَجْهًا فِي السَّمَاءِ﴾ أي: كثرة تردده في جميع جهاته؛ شوقاً وانتظاراً لنزول الوحي باستقبال الكعبة. وقال: ﴿وَجْهًا﴾ ولم يقل: بصرك؛ لزيادة اهتمامه؛ ولأن قلبه الوجه مستلزم لتقلب البصر ﴿فَلَوْلَيْسَكَ﴾: نوجهك؛ لولايتنا إياك ﴿قِبْلَةً رَضَئَهَا﴾: تحبها؛ وهي: الكعبة، وفي هذا بيان لفضله وشرفه ﷺ؛ حيث إن الله تعالى يسارع في رضاه، ثم صرح له باستقبالها؛ فقال: ﴿قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ والوجه: ما أقبل من بدن الإنسان ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ﴾: من بر وبحر، وشرق

وغرب، جنوب وشمال ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾؛ أي: جهته، ففيها اشتراط استقبال الكعبة للصلوات كلها - فرضها ونفلها -، وأنه إن أمكن استقبال عينها، وإلا؛ فيكفي شطرها وجهتها. وأن الالتفات بالبدن مبطل للصلاة؛ لأن الأمر بالشيء نهي عن ضده.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ ثم ذكر أن أهل الكتاب والعلم منهم يعلمون أنك في ذلك على حق واضح؛ لما يجدونه في كتبهم، فيعترضون عنادًا وبغيًا، فإذا كانوا يعلمون بخطئهم فلا تبالوا بذلك؛ فإن الإنسان إنما يغمه اعتراض من اعترض عليه إذا كان الأمر مشتبهًا، وكان ممكنًا أن يكون معه صواب، فأما إذا تيقن أن الصواب والحق معه، وأن المعارض معاند عارف ببطلان قوله؛ فإنه لا محل للمبالاة، بل ينتظر بالمعارض العقوبة الدنيوية والأخروية، ولهذا قال: ﴿وَمَا اللَّهُ بِفَعْلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ بل يحفظ عليهم أعمالهم ويجازيهم عليها. وفيها وعيد للمعارضين وتسلية للمؤمنين. (١٤٥) ولما كان من الكفار من تمرد عن أمر الله، واستكبر على رسل الله، وترك الهدى عمدًا وعدوانًا - منهم: اليهود والنصارى، أهل الكتاب الأول، الذين كفروا بمحمد ﷺ عن يقين لا عن جهل -، أخبره الله تعالى، فقال: ﴿وَلَكِنْ آتَيْنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ﴾؛ أي: بكل برهان ودليل يوضح قولك ويبين ما تدعو إليه ﴿مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾؛ أي: ما تبعوك؛ لأن اتباع القبلة دليل على اتباعه، ولأن السبب هو شأن القبلة، وإنما كان الأمر كذلك؛ لأنهم معاندون، عرفوا الحق وتركوه، والآيات إنما تفيد وينتفع بها من يتطلب الحق وهو

سُورَةُ النِّسَاءِ

الْأَنْعَامِ

الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَمَنْ يَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلِّ وُجْهَةٍ هُومٌ لَهَا فَاسْتَقِمْ وَالْخَيْرَ بَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِفَعْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ إِلَّا بَلَا تَكُونَنَّ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَئِنَّمْ بَغَيْتُمْ عَلَيَّ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَمُزَكِّمَةً وَمُعَلِّمَةً الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ وَمُعَلِّمَةً مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَأَذَرْنَا فِي ذِكْرِكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ ﴿١٥٢﴾ بَنِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾

٢٣

مشتبه عليه، وأما من جزم بعدم اتباع الحق؛ فلا حيلة فيه، ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ﴾ إخبار عن شدة متابعة الرسول ﷺ لما أمره الله تعالى به، وأنه كما هم مستمسكون بآرائهم وأهوائهم؛ فهو أيضا مستمسك بأمر الله وطاعته واتباع مرضاته، وأنه لا يتبع أهوائهم، في جميع أحواله، وما كان متوجهًا إلى بيت المقدس لأنها قبلة اليهود، وإنما ذلك عن أمر الله تعالى، وقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ﴾ أبلغ من قوله: «ولا تتبع»؛ لأن ذلك يتضمن أنه ﷺ اتصف بمخالفتهم، فلا يمكن وقوع ذلك منه، ولم يقل: ولو أتوا بكل آية؛ لأنهم لا دليل لهم على قولهم، وكذلك إذا تبين الحق بأدلة اليقينية لم يلزم الإتيان بأجوبة الشبه الواردة عليه؛ لأنه لا حد لها. ﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾: وبعضهم غير تابع قبلة بعض، فليس بغريب ألا يتبعوا قبلك يا

محمد، وهم الأعداء حقيقة الحسدة ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ إنما قال: ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ ولم يقل: دينهم؛ لأن ما هو عليه مجرد أهوية نفس ﴿وَمِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ أَلْعَلِّمْ﴾ بأنك على الحق، وهم على الباطل؛ ﴿إِنَّكَ إِذَا﴾: إن اتبعتهم ﴿لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: داخل فيهم، ومندرج في جملتهم، وأي ظلم أعظم من ظلم من علم الحق والباطل، فأثر الباطل على الحق؟

(١٤٦) ﴿الَّذِينَ عَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾: يخبر تعالى: أن أهل الكتاب قد تقرر عندهم وعرفوا أن محمدًا رسول الله، وأن ما جاء به حق وصدق، وتيقنوا ذلك كما تيقنوا أبناءهم بحيث لا يشتبهون عليهم بغيرهم، فمعرفتهم بمحمد ﷺ وصلت إلى حد لا يشكون فيه ولا يمترون، ولكن فريقًا منهم وهم أكثرهم الذين كفروا به، كتموا هذه الشهادة مع تيقنهم، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

(١٤٧) ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾؛ أي: هذا الحق الذي هو أحق أن يسمى حقًا من كل شيء؛ لما اشتمل عليه من المطالب العالية والأوامر الحسنة، وتزكية النفوس، وحثها على تحصيل مصالحها، ودفع مفاسدها؛ لصدوره من ربك، الذي من جملة تربيته لك أن أنزل عليك هذا القرآن الذي فيه تربية العقول والنفوس، وجميع المصالح ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُخَلَّفِينَ﴾: فلا يحصل لك أدنى شك وريبة فيه، بل تفكر فيه وتأمل حتى تصل بذلك إلى اليقين.

(١٤٨) ﴿وَلِكُلِّ وُجْهٍ هُوَ مُوَلِّيًا﴾: كل أهل دين وملة له وجهة يتوجه إليها في عبادته، وليس

ويستدل بهذه الآية الشريفة على الإتيان بكل فضيلة يتصف بها العمل، كالصلاة في أول وقتها، والمبادرة إلى إبراء الذمة، من الصيام، والحج والعمرة، وإخراج الزكاة، والإتيان بسنن العبادات وآدابها، فله ما أجمعها وأنفعها من آية!!

ولما كان أقوى ما يحث النفوس على المسارعة إلى الخير وينشطها ما رتب الله عليها من الثواب؛ قال: ﴿إِن مَّا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيجمعكم ليوم القيامة بقدرته، فيجازي كل عامل بعمله.

(١٤٩) ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ في أسفارك وغيرها، وهذا للعموم ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾؛ أي: جهته. ﴿وَرِأْتَهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أكدته؛ لئلا يقع لأحد فيه أدنى شبهة،

﴿وَاحْشَوْنِي﴾: أمر تعالى بخشيته التي هي رأس كل خير، فمن لم يخش الله؛ لم ينكف عن معصيته، ولم يمتثل أمره. ولما كان توليته لنا إلى استقبال القبلة نعمة عظيمة، وكان لطفه بهذه الأمة ورحمته لم يزل يتزايد، وكلما شرع لهم شريعة فهي نعمة عظيمة؛ قال: ﴿وَلَا تَمَّ يَمَعِيَ عَلَيْكُمْ﴾ فأصل النعمة: الهداية لدينه بإرسال رسوله، وإنزال كتابه، ثم بعد ذلك النعم المتممات لهذا الأصل لا تعد كثرة ولا تحصر، منذ بعث الله رسوله إلى أن قرب رحيله من الدنيا، وقد أعطاه الله من الأحوال والنعم وأعطى أمته ما أتم به نعمته عليه وعليهم وأنزل الله عليه: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم... دينا﴾ فله الحمد على أعلى فضله، الذي لا يبلغ له عداً، فضلاً عن القيام بشكره ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾؛ أي: تعلمون الحق وتعملون به. فالله - تبارك وتعالى - من رحمته بالعباد قد يسر لهم أسباب الهداية غاية التيسير، ونبههم على سلوك طرقها، وبينها لهم أتم تبين، فله الحمد على ذلك.

(١٥١) ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾؛ أي: إن إنعامنا عليكم باستقبال القبلة وإتمامها بالشرائع والنعم المتممة ليس ذلك ببدع من إحساننا ولا بأوله، بل أنعمنا عليكم بأصول النعم ومتمماتها، فأبلغها؛ إرسلنا إليكم هذا الرسول الكريم منكم، تعرفون نسبه وصدقه وأمانته وكماله ونصحه ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾: وهذا يعم الآيات القرآنية وغيرها، فهو يتلو عليكم الآيات المبينة للحق من الباطل، والهدى من الضلال، التي دلتكم أولاً على توحيد الله وكماله، ثم على صدق رسوله ووجوب الإيمان به، ثم على جميع

ولئلا يظن أنه على سبيل التشهي لا الامتثال ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بل هو مطلع عليكم في جميع أحوالكم؛ فتأدبوا معه، وراقبوه بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فإن أعمالكم غير مغفول عنها، بل مجازون عليها أتم الجزاء: إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

(١٥٠) ﴿وَمِنْ حَيْثُ حَرَجْتَ قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أعاده الله - تعالى - لتأكيد النسخ ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ وهذا خطاب للأمة عموماً ﴿لَّئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾؛ أي: شرعنا لكم استقبال القبلة المشرفة؛ لينقطع عنكم احتجاج الناس من أهل الكتاب والمشركين، فإنه لو بقي مستقبلاً لبيت المقدس لتوجهت عليه الحجة؛ فإن أهل الكتاب يجدون في كتابهم أن قبلته المستقرة هي الكعبة البيت الحرام، والمشركين يرون أن من مفاخرهم هذا البيت العظيم، وأنه من ملة إبراهيم، وأنه إذا لم يستقبله محمد ﷺ توجهت نحوه حججهم، وقالوا: كيف يدعي أنه على ملة إبراهيم، وهو من ذريته وقد ترك استقبال قبلته؟! فباستقبال القبلة قامت الحجة على أهل الكتاب والمشركين، وانقطعت حججهم عليه ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾؛ أي: من احتج منهم بحجة هو ظالم فيها، وليس لها مستند إلا اتباع الهوى والظلم؛ فهذا لا سبيل إلى إقناعه والاحتجاج عليه ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾؛ لأن حججهم باطلة، والباطل كاسمه مخذول، مخذول صاحبه. وهذا بخلاف صاحب الحق؛ فإن للحق صولة وعزاً يوجب خشية من هو معه.

تعالى المؤمنين بالاستعانة على أمورهم الدنيوية ﴿بِالصَّبْرِ﴾؛ فالصبر هو: حبس النفس وكفها عما تكره، فهو ثلاثة أقسام: صبرها على طاعة الله حتى تؤديها، وعن معصية الله حتى تتركها، وعلى أقدار الله المؤلمة فلا تتسخطها ﴿وَالصَّلَاةَ﴾ وأمر تعالى بالاستعانة بالصلاة؛ لأن الصلاة هي عماد الدين، ونور المؤمنين، وهي الصلة بين العبد وبين ربه، فإذا كانت صلاة العبد صلاة كاملة، مجتمعاً فيها ما يلزم فيها وما يسن، وحصل فيها حضور القلب الذي هو لبها، فصار العبد إذا دخل فيها استشعر دخوله على ربه ووقوفه بين يديه موقف العبد الخادم المتأدب، مستحضراً لكل ما يقوله ويفعله، مستغرقاً بمناجاة ربه ودعائه؛ لا جرم أن هذه الصلاة من أكبر المعونة على جميع الأمور؛ فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولأن هذا الحضور يوجب للعبد في قلبه وصفاً وداعياً يدعوه إلى امتثال أوامر ربه واجتناب نواهيه ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾؛ أي: مع من كان الصبر لهم خلقاً وصفة وملكة، وهذه معية خاصة تقتضي محبته ومعونته ونصره وقربه، وهذه منقبة عظيمة للصابرين، فلو لم يكن للصابرين فضيلة إلا أنهم فازوا بهذه المعية من الله؛ لكفى بها فضلاً وشرفاً، وأما المعية العامة؛ فهي معية العلم والقدرة، وهي عامة للخلق.

ما أخبر به من المعاد والغيوب؛ حتى حصل لكم الهداية التامة، والعلم اليقيني ﴿وَيُزَكِّكُمْ﴾: يظهر أخلاقكم ونفوسكم بتربيتها على الأخلاق الجميلة، وتنزيهاها عن الأخلاق الرذيلة ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ﴾: القرآن؛ ألفاظه ومعانيه ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾: هي السنة ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾؛ لأنهم كانوا قبل بعثته في ضلال مبين، لا علم ولا عمل، فكل علم أو عمل نالته هذه الأمة فعلى يده ﷺ، وبسببه كان. فهذه النعم هي أصول النعم على الإطلاق، وهي أكبر نعم ينعم بها على عباده، فوظيفتهم شكر الله عليها والقيام بها، ولهذا قال:

(١٥٢) ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾: فأمر تعالى بذكره، ووعد عليه أفضل جزاء؛ وهو ذكره لمن ذكره، وذكر الله تعالى أفضله: ما تواطأ عليه القلب واللسان، وهو الذكر الذي يثمر معرفة الله ومحبته، وكثرة ثوابه ﴿وَأَشْكُرُوا لِي﴾؛ أي: على ما أنعمت عليكم بهذه النعم، ودفعت عنكم صنوف النقم، والشكر يكون بالقلب: إقراراً بالنعم واعترافاً. وباللسان: ذكراً وثناءً. وبالجوارح: طاعة لله، وانقياداً لأمره، واجتناباً لنهيه ﴿وَلَا تَكْفُرُوا﴾ المراد بالكفر هنا ما يقابل الشكر، فهو كفر النعم وجحدها، وعدم القيام بها.

(١٥٣) ﴿يَتَأْتِيَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَسْتَعِينُوا﴾ أمر الله

(١٥٢) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه».

(١٥٣) في «صحيح مسلم» من حديث صهيب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء فصرير كان خيراً له».

(١٥٤) ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾: لما ذكر -تبارك وتعالى- الأمر بالاستعانة بالصبر على جميع الأحوال؛ ذكر نموذجاً مما يستعان بالصبر عليه؛ وهو الجهاد في سبيله، وهو أفضل الطاعات البدنية، وأشقها على النفوس؛ لمشقته في نفسه، ولكونه مؤدياً للقتل وعدم الحياة، فأخبر تعالى: أن من قتل في سبيله بأن قاتل في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا، ودينه الظاهر، لا لغير ذلك من الأغراض؛ فإنه لم تفته الحياة المحبوبة، بل حصل له حياة أعظم وأكمل مما تظنون وتحسبون، فالشهداء ﴿أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ ولهذا لا يتمنى الشهداء بعدما عاينوا من ثواب الله وحسن جزائه إلا أن يردوا إلى الدنيا؛ حتى يقتلوا في سبيله مرة بعد مرة.

(١٥٥) ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾: أخبر تعالى أنه لا بد أن يبتلي عباده بالمحن؛ ليتبين الصادق من الكاذب، والجازع من الصابر، وهذه سنته تعالى في عباده، وحكمة الله تقتضي تمييز أهل الخير من أهل الشر، هذه فائدة المحن ﴿شَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ﴾ من الأعداء ﴿وَالْجُوعِ﴾: أي: بشيء يسير منهما؛ لأنه لو ابتلاهم بالخوف كله أو الجوع؛ لهلكوا، والمحن تمحص لا تهلك ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ﴾: وهذا يشمل جميع النقص المعتري للأموال؛ من جوائح سماوية، وغرق،

وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالْعُرْسِ وَبَشِيرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِلَيْهِ رَجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْتَخِرُونَ ﴿١٥٧﴾ إِذَا الصَّاعِقُ وَالْمُرْوَةُ مِنْ سَعَابِ اللَّهِ فَمَنْ حَمَّ الْإِبْتِيتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مَن يَكْفُرْ مَا بَيَّنَّ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاوْلَئِكَ أَنُوبَ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَحْفَظُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَاللَّهُ كَرِيمٌ ﴿١٦٣﴾

وضياع، وأخذ الظلمة للأموال من المملوك الظلمة، وقطع الطريق، وغير ذلك ﴿وَالْأَنْفُسِ﴾: أي: ذهاب الأحباب من الأولاد والأقارب والأصحاب، ومن أنواع الأمراض في بدن العبد أو بدن من يحبه ﴿وَالْعُرْسِ﴾: أي: الحبوب وثمار النخيل والأشجار كلها والخضر ببرد أو برد، أو حرق، أو آفة سماوية من جراد ونحوه ﴿وَبَشِيرِ الصَّابِرِينَ﴾: بشرهم بأنهم يوفون أجرهم بغير حساب.

(١٥٤) في «صحيح مسلم» من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى قتاديل معلقة تحت العرش، فاطلع عليهم ربك اطلاعة، فقال: ماذا تبغون؟ فقالوا: يا ربنا، وأي شيء نبغي، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ ثم عاد إليهم بمثل هذا، فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا. قالوا: نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا، فنقاتل في سبيلك، حتى نقتل فيك مرة أخرى، لما يرون من ثواب الشهادة. فيقول الرب ﷻ: إني كتبت أنهم إليها لا يرجعون».

أن وفقهم للصبر الذي ينالون به كمال الأجر ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾: الذين عرفوا الحق وهو في هذا الموضع: علمهم بأنهم لله وأنهم إليه راجعون، وعملوا به؛ وهو هنا: صبرهم لله. ودلت هذه الآية على أن من لم يصبر؛ فله ضد ما لهم، فحصل له الذم من الله، والعقوبة والضلال والخسار، فما أعظم الفرق بين الفريقين! فقد اشتملت هاتان الآيتان على توطین النفوس على المصائب قبل وقوعها، وبيان ما تقابل به إذا وقعت، وبيان ما يعين على الصبر، وما للصابرين من أجر، وأن هذا الابتلاء والامتحان سنة الله التي قد خلت ﴿وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾، وبيان أنواع المصائب.

(١٥٨) ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ﴾ وهما معروفان ﴿مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾؛ أي: أعلام دينه الظاهرة، التي تعبّد الله بها عباده، وإذا كانا من شعائر الله؛ فقد أمر الله بتعظيم شعائره، فقال: ﴿وَمَنْ يُضْمِرْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، فدل مجموع النصين أنهما من شعائر الله، وأن تعظيم شعائره من تقوى القلوب، والتقوى واجبة على كل مكلف، وذلك يدل على أن السعي بهما

(١٥٦) فالصابرون هم الذين فازوا بالبشارة العظيمة، والمنحة الجسيمة، ثم وصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ﴾: وهي كل ما يؤلم القلب، أو البدن أو كليهما مما تقدم ذكره ﴿قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ﴾؛ أي: مملوكون لله، مدبرون تحت أمره وتصريفه، فليس لنا من أنفسنا وأموالنا شيء، فإذا ابتلانا بشيء منها؛ فقد تصرف أرحم الراحمين بمماليكه وأموالهم، فلا اعتراض عليه، بل من كمال عبودية العبد علمه بأن وقوع البلية من المالك الحكيم الذي هو أرحم بعبده من نفسه، فيوجب له ذلك الرضا عن الله والشكر له على تدبيره لما هو خير لعبده، وإن لم يشعر بذلك، ﴿و﴾ مع أننا مملوكون لله؛ ف ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ يوم المعاد، فمجاز كل عامل بعمله، فإن صبرنا واحتسبنا وجدنا أجرنا موفراً عنده، وإن جزعنا وسخطنا؛ لم يكن حظنا إلا السخط وفوات الأجر، فكون العبد لله وراجعاً إليه؛ من أقوى أسباب الصبر.

(١٥٧) ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بالصبر المذكور ﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: ثناء وتنسيه بحالهم ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ عظيمة، ومن رحمته إياهم:

(١٥٦) في «صحيح مسلم» من حديث أم سلمة، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ اللهم أجرني في مصيبي، واخلف لي خيراً منها؛ إلا أجره الله في مصيبيته، واخلف له خيراً منها».

(١٥٨) في «الصحيحين»، عن عروة، قال: سألت عائشة فقلت لها: رأيت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ قلت: فوالله ما على أحد جناح ألا يطوف بهما؟ فقالت عائشة: بنسما قلت يا بن أختي، إنها لو كانت على ما أولتها عليه كانت: فلا جناح عليه ألا يطوف بهما. ولكنها إنما أنزلت في الأنصار كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية، التي كانوا يعبدونها عند المشلل. فكان من أهل يتحرج أن يطوف بالصفاء والمروة، فلما أسلموا سألوا عن ذلك رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، إنا كنا نتحرج أن نطوف بالصفاء والمروة في الجاهلية، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ قالت عائشة: وقد سن رسول الله ﷺ الطواف بينهما، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما.

(١٥٩) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا﴾ هذه الآية وإن كانت نازلة في أهل الكتاب وما كتموا من شأن الرسول ﷺ وصفاته؛ فإن حكمها عام لكل من اتصف بكتمان ما أنزل الله ﴿مَنْ أَلْيَنْتَ﴾ الدالات على الحق، المظهرات له ﴿وَأَلْهَدَى﴾ وهو العلم الذي تحصل به الهداية إلى الصراط المستقيم، ويتبين به طريق أهل النعيم من طريق أهل الجحيم؛ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّكَ لِلنَّاسِ﴾ (لخصناه) ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ (التوراة) فإن الله أخذ الميثاق على أهل العلم بأن يبينوا للناس ما من الله به عليهم من علم الكتاب ولا يكتُموه، فمن نبذ ذلك وجمع بين المفسدتين كتم ما أنزل الله، والغش لعباد الله؛ ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾؛ أي: يبعدهم ويطردهم عن قربهِ ورحمته ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ﴾: وهم جميع الخليقة، فتقع عليهم اللعنة من جميع الخليقة؛ لسعيهم في غش الخلق وفساد أديانهم، وإبعادهم من رحمة الله، فجُوزوا من جنس عملهم.

(١٦٠) ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾؛ أي: رجعوا عما هم عليه من الذنوب؛ ندماً وإقلاعاً، وعزماً على عدم المعاودة ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ ما فسد من أعمالهم، فلا يكفي من أحدهم ترك القبيح حتى يفعل الحسن ﴿وَيَبْتَئُوا﴾ ويبين ما كتمه، ويبيد ضد ما أخفى ﴿فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ فهذا يتوب الله عليه؛ لأن توبة الله غير محجوب عنها، فمن أتى بسبب التوبة؛ تاب الله عليه؛ لأنه ﴿التَّوْبُ﴾: الرجاء على عباده بالعفو والصفح بعد الذنب إذا تابوا، وبالإحسان والنعم بعد المنع إذا رجعوا ﴿الرَّجِيمُ﴾: الذي اتصف بالرحمة العظيمة، التي وسعت كل شيء، ومن رحمته: أن وفقهم

فرض لازم للحج والعمرة. ﴿فَمَنْ حَجَّ أَلْيَتْ أَوْ أَعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾: هذا دفع لوهم من توهم وتخرج من المسلمين عن الطواف بينهما؛ لكونهما في الجاهلية تُعبد عندهما الأصنام، فنفى تعالى الجناح لدفع هذا الوهم، لا لأنه - أي: الطواف - غير لازم، ودلّ تقييد نفي الجناح فيمن تطوف بهما في الحج والعمرة: أنه لا يتطوع بالسعي مفرداً إلا مع انضمامه لحج أو عمرة، بخلاف الطواف بالبيت. وقوله: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ﴾؛ أي: فعل طاعة مخلصاً بها لله تعالى، ﴿خَيْرٌ﴾ من حج، وعمرة، وطواف، وصلاة، وصوم، وغير ذلك؛ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهِ﴾ فدل هذا: على أنه كلما ازداد العبد من طاعة الله؛ ازداد خيره وكماله، ودرجته عند الله، لزيادة إيمانه، ودلّ تقييد التطوع بالخير: أن من تطوع بالبدع التي لم يشرعها الله ولا رسوله؛ أنه لا يحصل له إلا العناء، وليس بخير له، بل قد يكون شراً له؛ إن كان متعمداً عالمًا بعدم مشروعية العمل، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ﴾: الشاكر والشكور من أسماء الله تعالى، الذي يقبل من عباده اليسير من العمل، ويجازيهم عليه العظيم من الأجر، الذي إذا قام عبده بأوامره وامتنل طاعته؛ أعانه على ذلك، وأثنى عليه ومدحه، وجازاه في قلبه نوراً وإيماناً وسعة، وفي بدنه قوة ونشاطاً، وفي جميع أحواله زيادة بركة ونماء، وفي أعماله زيادة توفيق ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق الثواب الكامل بحسب نيته، وإيمانه، وتقواه ممن ليس كذلك، عليم بأعمال العباد فلا يضيعها، بل يجدونها أوفر ما كانت، على حسب نياتهم التي اطلع عليها العليم الحكيم.

دليل على قدرته وعظمته ووحدانيته وسلطانه العظيم ﴿وَتَصْرِيفَ الرِّيحِ﴾ باردة وحارة، وجنوباً وشمالاً، وشرقاً ودبوراً، وبين ذلك، وتارة تثير السحاب، وتارة تؤلف بينه، وتارة تلقحه، وتارة تدره، وتارة تمزقه وتزيل ضرره، وتارة تكون رحمة، وتارة ترسل بالعذاب، فمن الذي صرفها هذا التصريف، وأودع فيها من منافع العباد ما لا يستغنون عنه، وسخرها ليعيش فيها جميع الكائنات؛ إلا العزيز الحكيم، الرحيم اللطيف بعباده، المستحق لكل ذل وخضوع، ومحبة وإنابة وعبادة؟! ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾: وفي تسخير السحاب بين السماء والأرض على خفته ولطفته يحمل الماء الكثير، فيسوقه الله إلى حيث شاء، فيحيي به البلاد والعباد، ويروي التلول والوهاد، وينزله على الخلق وقت حاجتهم إليه؛ ﴿لَا يَتَّخِذُ﴾ أي: أدلة على وحدانية الباري وإلهيته، وعظيم سلطانه ورحمته ﴿لَقَوْمٍ يَقُولُونَ﴾: لمن لهم عقول يُعْمِلُونَهَا فيما خلقت له.

والحاصل: أنه كلما تدبر العاقل في هذه المخلوقات، وتغلغل فكره في بدائع المبتدعات، وازداد تأمله للصنعة وما أودع فيها من لطائف البر والحكمة؛ علم بذلك أنها خلقت للحق وبالحق، وأنها صحائف آيات وكتب دلالات على ما أخبر به الله عن نفسه ووحدانيته، وأنه الغني بالذات عن جميع المخلوقات؛ فلا إله إلا الله، ولا رب سواه.

(١٦٥) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ لما بين تعالى وحدانيته وأدلتها القاطعة وبراهينها الساطعة، الموصلة إلى

واستحقاقه أن يفرد بالعبادة؛ لانفراد بالخلق والتدبير والقيام بشؤون عباده. ﴿وَفِي﴾ ﴿أَنزِلَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾: وهو تعاقبهما على الدوام، إذا ذهب أحدهما خلفه الآخر، وفي اختلافهما في الحر والبرد والتوسط، وفي الطول والقصر والتوسط، وما ينشأ عن ذلك من الفصول التي بها انتظام مصالح بني آدم وحيواناتهم، وجميع ما على وجه الأرض من أشجار ونوابت؛ كل ذلك بانتظام وتدبير وتسخير تنبهر له العقول؛ ما يدل ذلك على قدرة مصرفها وعلمه وحكمته، ورحمته الواسعة ولطفه الشامل، وتصريفه وتدبيره الذي تفرد به، وعظمته؛ مما يوجب أن يؤله ويعبد، ويفرد بالمحبة والتعظيم، والخوف والرجاء، ﴿وَفِي﴾ ﴿وَأَلْفُكُلِكَ أَلَّتْ يَجْرَى فِي الْبَحْرِ﴾: وهي السفن والمراكب ونحوها، مما ألهم الله عباده صنعتهما، وخلق لهم من الآلات الداخلية والخارجية ما أقدرهم عليها، ثم سخر لها هذا البحر العظيم والرياح التي تحملها بما فيها من الركاب والأموال والبضائع ﴿يَمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾، التي هي من منافع الناس، وبما تقوم مصالحهم وتنتظم معاشهم ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن سَمَاءٍ مِّن مَّاءٍ﴾: وهو المطر النازل من السحاب ﴿فَأَخْجَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: فأظهرت من أنواع الأقوات وأصناف النباتات، ما هو من ضرورات الخلائق، التي لا يعيشون بدونها، أليس ذلك دليلاً على قدرة من أنزله، ورحمته ولطفه بعباده! وقيامه بمصالحهم وشدة افتقارهم إليه؟ أما يوجب ذلك أن يكون هو معبودهم وإلههم؟ ﴿وَبَشِّرْ فِيهَا﴾: في الأرض ﴿مَن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ أي: نشر في أقطار الأرض من الدواب المتنوعة، ما هو

وعجزها، لا كما اشتبه عليهم في الدنيا وظنوا أن لها من الأمر شيئاً وأنها تقربهم وتوصلهم إليه؛ فخاب ظنهم، وبطل سعيهم، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ وحق عليهم شدة العذاب، ولم تدفع عنهم أندادهم شيئاً ولم تغن عنهم مثقال ذرة. (١٦٦) ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾؛ أي: تبرأ المتبعون من التابعين، وتقطعت بينهم الوصل التي كانت في الدنيا، وتبين لهم أنهم كانوا كاذبين.

(١٦٧) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنتَ لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنْهُمْ﴾: يتمنى التابعون أن يردوا إلى الدنيا؛ فيتبرؤوا من متبوعهم، بأن يتركوا الشرك بالله، ويقبلوا على إخلاص العمل لله! وهيهات؛ فات الأمر وليس الوقت وقت إمهال وإنظار، ومع هذا فهم كذبة؛ فلو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، وإنما هو قول يقولونه، وأما من يتمنونها ﴿كَذَلِكَ يُرِيدُهُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَتْ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾: أعمالهم التي يؤملون نفعها وحصول نتيجتها انقلبت عليهم حسرة وندامة، وأنهم خالدون في النار لا يخرجون منها أبداً، فهل بعد هذا الخسران خسران؟ ذلك بأنهم اتبعوا الباطل وعملوا العمل الباطل، ورجوا غير مرجو، وتعلقوا بغير متعلق؛ فبطلت الأعمال ببطلان متعلقها، ولما بطلت وقعت الحسرة بما فاتهم من الأمل فيها، فضرتهن غاية الضرر.

وهذا بخلاف من تعلق بالله وأخلص العمل لوجهه ورجا نفعه؛ فهذا قد وضع الحق موضعه، فكانت أعماله حقاً لتعلقها بالحق.

(١٦٨) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِنَّا فِي الْأَرْضِ﴾: هذا

علم اليقين، المزيله لكل شك؛ ذكر أن ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ مع هذا البيان التام ﴿مَن يَتَّخِذْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: من المخلوقين ﴿أنداداً﴾؛ أي: نظراء ومثلاء ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ يساويهم في الله بالعبادة والمحبة، والتعظيم والطاعة، ومن كان بهذه الحالة بعد إقامة الحجة وبيان التوحيد؛ علم أنه معاند لله مشاق له، أو معرض عن تدبر آياته، والتفكر في مخلوقاته، فليس له أدنى عذر في ذلك، بل حقت عليه كلمة العذاب.

فالمخلوق ليس ندأ لله؛ لأن الله هو الخالق والرب الرازق ومن عداه مخلوق مرزوق، والله هو الغني وأنتم الفقراء، وهو الكامل من كل الوجوه والعبيد ناقصون من جميع الوجوه، والله هو النافع الضار والمخلوق ليس له من النفع والضرر والأمر شيء؛ فعلم علماً يقيناً، بطلان قول من اتخذ من دون الله آلهة وأنداداً سواء كان ملكاً، أو نبياً، أو صالحاً، أو صنماً، أو غير ذلك، وأن الله هو المستحق للمحبة الكاملة والذل التام، فلهذا مدح الله المؤمنين بقوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ من أهل الأنداد لأنادهم؛ لأنهم أخلصوا محبتهم له، وهؤلاء أشركوا بها؛ ولأنهم أحبوا من يستحق المحبة على الحقيقة، الذي محبته هي عين صلاح العبد وسعادته وفوزه ﴿وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ باتخاذ الأنداد والانقياد لغير رب العباد، وظلموا الخلق بصددهم عن سبيل الله، وسعيهم فيما يضرهم ﴿إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ﴾ يوم القيامة عياناً بأبصارهم ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ لعلموا علماً جازماً: أن القوة والقدرة لله كلها، وأن أندادهم ليس فيها من القوة شيء، فتبين لهم في ذلك اليوم ضعفها

خطاب للناس كلهم مؤمنهم وكافرهم فامتَنَ عليهم بآن أمرهم أن يأكلوا من جميع ما في الأرض: من حبوب، وثمار، وفواكه، وحيوانات؛ حالة كونها ﴿حَلَالًا﴾: محللاً لكم تناوله، ليس بغصب ولا سرقة، ولا محصلاً بمعاملة محرمة، أو على وجه محرم، أو معيناً على محرم ﴿طَيْبًا﴾: ليس بخبيث؛ كالميتة، والدم، ولحم الخنزير، والخبائث كلها ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا﴾ ولما أمرهم باتباع ما أمرهم به، إذ هو عين صلاحهم؛ نهاهم عن اتباع ﴿خُطُوبِ الشَّيْطَانِ﴾: طرقة التي يأمر بها، وهي جميع المعاصي: من كفر، وفسوق، وظلم. ويدخل في ذلك تحريم السوائب والحام ونحو ذلك، ويدخل فيه أيضاً تناول المأكولات المحرمة ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾: ظاهر العداوة، فلا يريد بأمركم إلا غشكم، وأن تكونوا من أصحاب السعير، فلم يكتف ربنا بنهينا عن اتباع خطواته حتى أخبرنا -وهو أصدق القائلين- بعداوته الداعية للحذر منه.

(١٦٩) ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ﴾؛ أي: بالشر الذي يسوء صاحبه، فيدخل في ذلك جميع المعاصي ﴿وَالْفَحْشَاءِ﴾؛ أي: ما تنهى قبحه مما يستفحشه من له عقل ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فيدخل في ذلك القول على الله بلا علم في شرعه وقدره، فمن وصف الله بغير ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله، أو نفى عنه ما أثبتته لنفسه، أو أثبت له ما نفاه عن نفسه؛ فقد قال على الله بلا علم، ومن زعم أن لله نداً وأوثاناً تقرب من عبدها من الله؛ فقد قال على الله تعالى بلا علم، ومن قال: إن الله أحل كذا، أو

وَأِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوْ لُوكَاتِ ءَابَاءِهِمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَبْعُثُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عَمِي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَتَّبِعُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيُسْخَرُونَ بِهِ، مَتَاعٌ قَلِيلٌ أُولَٰئِكَ مَا يَكُونُونَ فِي بُلُوذِهِمْ إِلَّا النَّارُ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اسْتَرَوْا الصَّلَاةَ بِالْهَدْيِ وَالْعَدَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ سَرَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَشِقَاقٌ بَعِيدٌ ﴿١٧٦﴾

حَرَّمَ كذا، أو أمر بكذا، أو نهى عن كذا، بغير بصيرة؛ فقد قال على الله بلا علم، ومن قال: إن الله خلق هذا الصنف من المخلوقات لليلة الفلانية، بلا برهان له بذلك؛ فقد قال على الله بلا علم.

ومن أعظم القول على الله بلا علم: أن يتأول المتأول كلامه أو كلام رسوله على معاني اصطلاح عليها طائفة من طوائف الضلال، ثم يقول: إن الله أرادها! فالقول على الله بلا علم من أكبر المحرمات وأشملمها، وأكبر طرق الشيطان التي يدعو إليها.

(١٧٠) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾: أخبر تعالى عن حال المشركين إذا أمروا باتباع ما أنزل الله على رسوله مما تقدم وصفها، رغبوا عن ذلك، ﴿وَقَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾

بأكل الطيبات من الرزق، والشكر لله على إنعامه؛ باستعمالها بطاعته، والتقوى بها على ما يوصل إليه، فالشكر في هذه الآية هو العمل الصالح وهنا لم يقل «حلالا»؛ لأن المؤمن أباح الله له الطيبات من الرزق خالصة من التبعة، ولأن إيمانه يحجزه عن تناول ما ليس له، وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾؛ أي: فاشكروه، فدل على أن من لم يشكر الله لم يعبد وحده، كما أن من شكره فقد عبده، وأتى بما أمر به، ويدل أيضًا على أن أكل الطيب سبب للعمل الصالح وقبوله، والأمر بالشكر عقيب النعم؛ لأن الشكر يحفظ النعم الموجودة، ويجلب النعم المفقودة.

(١٧٣) ولما ذكر تعالى إباحة الطيبات ذكر تحريم الخبائث، فقال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾؛ وهي: ما مات بغير تذكية شرعية؛ لأن الميتة خبيثة مضرّة لردائها في نفسها، واستثنى الشارع من هذا العموم: ميتة الجراد، وسمك البحر، فإنه حلال طيب، ﴿وَالَّذِمَّ﴾ المسفوح؛ كما قيّد في الآية الأخرى ﴿وَمَا أَهْلَ بِهِ لغيرِ اللَّهِ﴾؛ أي: ذبح لغير الله؛ كالذي يذبح للأصنام والأوثان من الأحجار والقبور ونحوها ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ﴾: ألجئ إلى المحرم؛ بجوع، وعدم، أو إكراه ﴿غَيْرِ بَاطِلٍ﴾: غير طالب للمحرم مع قدرته على الحلال، أو مع عدم جوعه ﴿وَلَا عَادٍ﴾: متجاوز الحد في تناول ما أبيح له اضطرارًا؛ ﴿فَلَا إِنَّمِ عَلَيْهِ﴾؛ أي: جناح وذنب ﴿إِنَّ اللَّهَ

فاكتفوا بتقليد الآباء، وزهدوا في الإيمان بالأنبياء، ومع هذا؛ فأبأؤهم أجهل الناس، وأشدّهم ضلالًا، فهذا دليل على إعراضهم عن الحق، ورغبتهم عنه، وعدم إنصافهم، فلو هدوا لرشدهم وحسن قصدهم؛ لكان الحق هو القصد، ومن جعل الحق قصده ووازن بينه وبين غيره؛ تبين له الحق قطعًا واتباعه إن كان منصفاً.

(١٧١) ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَدْعُو بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾: لما بيّن تعالى عدم انقيادهم لما جاءت به الرسل، وردّهم لذلك بالتقليد، علم من ذلك أنهم غير قابلين للحق ولا مستجيبين له؛ أخبر تعالى أن مثلهم عند دعاء الداعي لهم إلى الإيمان كمثّل البهائم التي ينق لها راعيها، وليس لها علم بما يقول راعيها ومناديها، فهم يسمعون مجرد الصوت الذي تقوم به عليهم الحجة، ولكنهم لا يفقهونه فقهاً ينفعهم؛ ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُتَىٰ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ فلهذا كانوا صمًا لا يسمعون الحق سماع فهم وقبول، عميًا لا ينظرون نظر اعتبار، بكما فلا ينطقون بما فيه خير لهم، والسبب الموجب لذلك كله أنه ليس لهم عقل صحيح، بل هم أسفه السفهاء، وأجهل الجهلاء.

(١٧٢) ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾: هذا أمر للمؤمنين خاصة بعد الأمر العام وذلك أنهم هم المنتفعون على الحقيقة بالأوامر والنواهي بسبب إيمانهم، فأمرهم

(١٧٢) في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَتَأْتِيَ الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]. وقال: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، أنى يستجاب له».

عَفُورٌ: أخبر أنه غفور، فيغفر له ما أخطأ فيه في هذه الحال؛ خصوصاً وقد غلبته الضرورة، وأذهبت حواسه المشقة ﴿رَجِيمٌ﴾: إذ أحل له الحرام في الاضطرار.

(١٧٤) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيُسْتَرُونَ بِهِ ثُمًّا قَلِيلًا﴾: هذا وعيد شديد لمن كتم ما أنزل الله على رسله من العلم الذي أخذ الله الميثاق على أهله أن يبينوه للناس ولا يكتمونه، فمن تعرض عنه بالحطام الدنيوي، ونبذ أمر الله؛ ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُوتُ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا أَنْثَارٌ﴾؛ لأن هذا الثمن الذي اكتسبه إنما حصل لهم بأفحج المكاسب، وأعظم المحرمات، فكان جزاؤهم من جنس عملهم ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ بل قد سخط عليهم وأعرض عنهم، فهذا أعظم عليهم من عذاب النار ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي: لا يطهرهم من الأخلاق الرزيلة، وليس لهم أعمال تصلح للمدح والرضا والجزاء عليها، وإنما لم يزكهم؛ لأنهم فعلوا أسباب عدم التزكية، التي أعظم أسبابها العمل بكتاب الله والاهتداء به والدعوة إليه ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: موجه مفجع.

(١٧٥) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾: فهؤلاء نبذوا كتاب الله وأعرضوا عنه، واختاروا الضلالة على الهدى، والعذاب على المغفرة؛ فهؤلاء لا يصلح لهم إلا النار ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾: فكيف يصبرون عليها؟ وأتى لهم الجلد عليها؟! توجع لهم بشدة صبرهم على النار، لعملهم بالأسباب التي يعلمون أنها موصلة لها.

(١٧٦) ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور؛ وهو: مجازاته

لَيْسَ إِلَهَ إِلَّا أَنْ تُولُوا وَتُؤْهِمَكُمْ قَدْ الشَّرِيفِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنْ أَلَيْسَ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَأَنَّى السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ فِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنِينَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَتْلُوهُمْ الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبِ وَالْخُرْقِ وَالْعَبْدِ وَالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاةُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ خَفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ رَحْمَةً فَمَنْ أَعْدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتْلُو أَلَا لَيْتَ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا ضَرَأْتُمْ أَحَدَكُمْ الْمَوْتَ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَلَدَيْنِ وَالْآقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقَّ عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنْ بَدَلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾

بالعدل، ومنعه أسباب الهداية ممن أبأها واختار سواها ﴿يَأْنِ اللَّهُ تَرَكَّ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾: أنزله لهداية خلقه، وتبيين الحق من الباطل، والهدى من الضلال، فمن صرفه عن مقصوده؛ فهو حقيق بأن يجازى بأعظم العقوبة، ومن الحق: مجازاة المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ﴾ أي: وإن الذين اختلفوا في الكتاب؛ فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه، والذين حرفوه وصرفوه على أهوائهم ومراداتهم ﴿لَنِي شِقَاقٌ﴾: محادة ﴿بَعِيدٌ﴾ من الحق؛ لأنهم قد خالفوا الكتب الذي جاء بالحق، الموجب للاتفاق وعدم التناقض؛ فمرج أمرهم، وكثر شقاقهم، وترتب على ذلك افتراقهم، فتضمن ذلك أن كل من خالفه؛ فهو في غاية البعد عن الحق، والمنازعة والمخاصمة، والله أعلم.

(١٧٧) ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾: ليس هذا هو البر المقصود من العباد، فيكون كثرة البحث فيه والجدال من العناء الذي ليس تحته إلا الشقاق والخلاف ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ بأنه إله واحد، موصوف بكل صفة كمال، منزّه عن كل نقص ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: وهو كل ما أخبر الله به في كتابه، أو أخبر به الرسول مما يكون بعد الموت ﴿وَالْمَلَائِكَةِ﴾: الذين وصفهم الله لنا في كتابه، ووصفهم رسوله ﷺ ﴿وَالْكِتَابِ﴾؛ أي: جنس الكتب التي أنزلها الله على رسله، وأعظمها القرآن، فيؤمن بما تضمنه من الأخبار والأحكام ﴿وَالنَّيِّبِينَ﴾: عموماً؛ خصوصاً خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ ﴿وَعَائِ الْمَالِ﴾: وهو كل ما يتموله الإنسان من مال، قليلاً كان أو كثيراً. أي: أعطى المال ﴿عَلَىٰ حُبِّهِ﴾؛ أي: حب المال، بين به أن المال محبوب للنفوس، فلا يكاد يخرج العبد، فمن أخرجه مع حُبِّه له تقريباً إلى الله تعالى؛ كان هذا برهاناً لإيمانه، ومن إتياء المال على حبه: أن يتصدق وهو صحيح شحيح، يأمل الغنى ويخشى الفقر.

ثم ذكر المنفق عليهم، وهم أولى الناس ببرك وإحسانك؛ من ﴿ذَوِي الْقُرْبَىٰ﴾ فمن أحسن البر وأوفقه: تعاهد الأقارب بالإحسان المالي والقبولي، على حسب قربهم وحاجتهم ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾: الذين لا كاسب لهم، وليس لهم قوة يستغنون بها ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾: وهم الذين

أسكنتهم الحاجة وأذلهم الفقر، فلهم حق على الأغنياء بما يدفع مسكنتهم أو يخففها، بما يقدرون عليه، وبما يتيسر ﴿وَأَنَّ السَّيْلَ﴾: وهو الغريب المنقطع به في غير بلده ﴿وَالسَّائِلِينَ﴾: الذين تعرض لهم حاجة من الحوائج توجب السؤال ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾: فيدخل فيه العتق والإعانة عليه، وبذل مال للمكاتب ليوفي سيده، وفداء الأسرى عند الكفار أو عند الظلمة ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَعَاقَىٰ الزَّكَاةَ﴾ قد تقدم مراراً أن الله تعالى يقرن بين الصلاة والزكاة؛ لكونهما أفضل العبادات، وأكمل القربات، عبادات قلبية وبدنية ومالية ﴿وَالْمُؤْتَىٰ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ العهد: هو الالتزام بالزام الله، أو إلزام العبد لنفسه؛ فدخل في ذلك حقوق الله كلها وحقوق العباد التي أوجبها الله عليهم، والحقوق التي التزمها العبد؛ كالإيمان والنذور، ونحو ذلك. ﴿وَالصَّادِقِينَ فِي الْبُيُوتِ﴾؛ أي: الفقر، لأن الفقير يحتاج إلى الصبر من وجوه كثيرة؛ لكونه يحصل له من الآلام القلبية والبدنية المستمرة ما لا يحصل لغيره ﴿وَالضَّرَّاءَ﴾؛ أي: المرض على اختلاف أنواعه، فإنه يحتاج إلى الصبر على ذلك؛ لأن النفس تضعف والبدن يألَم، وذلك في غاية المشقة على النفوس، خصوصاً مع تطاول ذلك ﴿وَحِينَ الْيَأْسِ﴾: وقت القتال للأعداء المأمور بقتالهم ﴿وَأُولَئِكَ﴾ المتصفون بما ذكر من العقائد الحسنة والأعمال والأخلاق ﴿الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في إيمانهم؛ لأن أعمالهم صدقت

(١٧٧) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تأمل الغنى وتخشى الفقر».

إساءة فعلية أو قولية، فهل جزاء الإحسان إليه بالعفو إلا الإحسان بحسن القضاء؟ وفي قوله: ﴿أَخِيهِ﴾ دليل على أن القاتل لا يكفر؛ لأن المراد بالأخوة هناك أخوة الإيمان، فلم يخرج بالقتل منها ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ﴾؛ أي: بعد العفو ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة؛ لأنه بعد عفو أولياء المقتول احتقن دم القاتل، وصار معصوماً منهم ومن غيرهم.

(١٧٩) ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾؛ أي: تنحقر بذلك الدماء، وتنقمع به الأشقياء؛ لأن من عرف أنه مقتول إذا قتل لا يكاد يصدر منه القتل، وإذا رثي القاتل مقتولاً اندعر بذلك غيره وانزجر، فلو كانت عقوبة القاتل غير القتل؛ لم يحصل انكفاف الشر الذي يحصل بالقتل، وهكذا سائر الحدود الشرعية فيها من النكابة والانزجار ما يدل على حكمة الحكيم الغفار. ونكر «الحياة»؛ لإفادة التعظيم والتكثير ﴿يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ ولما كان هذا الحكم لا يعرف حقيقته إلا أهل العقول الكاملة، والألباب الثقيلة؛ خصهم بالخطاب دون غيرهم: وهذا يدل على أن الله تعالى يحب من عباده أن يعملوا أفكارهم وعقولهم في تدبر ما في أحكامه من الحكم والمصالح الدالة على كماله وكمال حكمته وحمده وعدله ورحمته الواسعة.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: وذلك أن من عرف ربه، وعرف ما في دينه وشرعه من الأسرار العظيمة والحكم البديعة والآيات الرفيعة؛ أوجب له ذلك أن ينقاد لأمر الله، ويعظم معاصيه فيتركها؛ فيستحق بذلك أن يكون من المتقين.

إيمانهم ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾؛ لأنهم تركوا المحظور، وفعلوا المأمور.

(١٧٨) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾: المساواة فيه، وأن يقتل القاتل على الصفة التي قتل عليها المقتول؛ إقامة للعدل والقسط بين العباد، وتوجيه الخطاب لعموم المؤمنين؛ فيه دليل على أنه يجب عليهم كلهم، حتى أولياء القاتل، حتى القاتل بنفسه، وأنه لا يجوز لهم أن يحولوا بين هذا الحد ويمنعوا الولي من الاقتصاص كما عليه عادة الجاهلية ﴿أَنفَرُوا بِالْحَرْبِ﴾ يدخل بمنطوقها الذكر بالذكر، والأنثى بالأنثى، والأنثى بالذكر، والذكر بالأنثى، فيكون منطوقها مقدماً على مفهوم قوله: ﴿وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى﴾ مع دلالة السنة على أن الذكر يقتل بالأنثى، وخرج من عموم هذا الأبوان وإن علوا، فلا يقتلان بالولد؛ لورود السنة بذلك، وخرج من العموم أيضاً الكافر بالسنة، مع أن الآية في خطاب المؤمنين خاصة، وليس من العدل أن يقتل ولي الله بعدوه ﴿وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾ ذكرًا كان أو أنثى، تساوت قيمتهما أو اختلفت ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾؛ أي: عفا ولي المقتول عن القاتل إلى الدية أو عفا بعض الأولياء، فإنه يسقط القصاص، وتجب الدية، وتكون الخيرة في القود واختيار الدية إلى الولي، فإذا عفا عنه؛ ﴿فَأُولَئِكَ﴾ وجب على ولي المقتول أن يتبع القاتل ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾؛ من غير أن يشق عليه، ولا يحمل ما لا يطيق، بل يحسن الاقتضاء والطلب، ولا يخرجه. ﴿وَعَلَى الْقَاتِلِ﴾ وادّاءة إليه بإحسان؛ من غير مظل ولا نقص، ولا

منسوخ بالسنة، فقد صح عنه ﷺ أنه قال: «لا وصية لوارث»، وقال هذا في حجة الوداع، فلا وجه لمن تعلق بهذه الآية على جواز الوصية للوالدين والأقربين.

(١٨١) ﴿فَمَنْ بَدَلَهُ﴾ أي: الإيصاء للمذكورين، أو غيرهم ﴿بَعْدَمَا سَمِعَهُ﴾: بعد ما عقله، وعرف طريقه وتنفيذه؛ ﴿فَأَنبَأَ إِتْمَعَهُ عَلَى الَّذِينَ يَدُلُّونَهُ﴾، وإلا؛ فالموصي وقع أجره على الله، وإنما الإثم على المبدل المغير ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾: يسمع سائر الأصوات، ومنه سماعه لمقالة الموصي ووصيته، فينبغي له أن يراقب من يسمعه ويراه، وألا يجور في وصيته ﴿عَلِيمٌ﴾: بنيته، وعليم بعمل الموصى إليه، وفيه التحذير للموصى إليه من التبديل؛ فإن الله عليم به مطلع على ما فعله، فليحذر من الله.

(١٨٢) ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِتْمَعَهُ عَلَيْهِ﴾: الوصية التي فيها حيف وجنف وإثم ينبغي لمن حضر الموصي وقت الوصية بها أن ينصحه بما هو الأحسن والأعدل، وأن ينهائه عن الجور والجنف، وهو: الميل بها عن خطأ من غير تعمد. والإثم وهو: التعمد لذلك، فإن لم يفعل ذلك؛ فينبغي له أن يصلح بين الموصى إليهم، ويتوصل إلى العدل بينهم على وجه التراضي والمصالحة، ووعظهم بتبرئة ذمة ميتهم، فهذا قد فعل معروفًا عظيمًا، وليس

فَمَنْ خَافَ مِنْ مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِتْمَعَهُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨١﴾ تَابَهَا الَّذِينَ أَمْؤَاتَيْبَ عَلَيْكُمْ أَلَصِيَامَ كَمَا كَتَبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٢﴾ أَيَا مَا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَ ذِيَةَ طَعَامٍ مَسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٣﴾ شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٤﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِلَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٥﴾

(١٨٠) ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾: فرض الله عليكم يا معشر المؤمنين ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ﴾؛ أي: أسبابه، كالمرض المشرف على الهلاك، وحضور أسباب الهلاك ﴿إِنْ رَكَ خَيْرًا﴾: وهو المال الكثير عرفًا ﴿الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ فعلية أن يوصي لوالديه وأقرب الناس إليه بالمعروف، على قدر حاله؛ من غير سرف، ولا اقتصار على الأبعد دون الأقرب.

وقوله: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾؛ دل على وجوب ذلك؛ لأن الحق هو الثابت، وقد جعله الله من موجبات التقوى؛ لكن الوصية للوالدين والورثة

(١٨٠) في «السنن» من حديث عمرو بن خارجة الصحيح، قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب، وهو يقول: «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث».

وفي «الصحيحين»: أن ابن عباس قال: لو أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع، فإن رسول الله ﷺ قال: «الثلث والثلث كثير».

التخفيفات ﴿وَلِتُكْمِلُوا أَلَمَدَةً﴾؛ لئلا يتوهم متوهم أن صيام رمضان يحصل المقصود منه ببعضه، دفع هذا الوهم بالأمر بتكميل عدته ﴿وَلِتُكْمِلُوا أَلَمَدَةً عَلَى مَا هَدَيْتُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: يُشكر الله تعالى عند إتمامه على توفيقه وتسهيله وتبيينه لعباده وبالتكبير عند انقضائه.

(١٨٦) ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ يعني بذلك جل ثناؤه : وإذا سألك يا محمد عبادي عني ﴿فَأِنِّي قَرِيبٌ﴾؛ لأنه تعالى الرقيب الشهيد المطلع على السر وأخفى، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فهو قريب أيضاً من داعيه بالإجابة، ولهذا قال: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ فمن دعا ربه بقلب حاضر، ودعاء مشروع، ولم يمنع مانع من إجابة الدعاء كأكل الحرام ؛ فإن الله قد وعده بالإجابة ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾: الاستجابة لله تعالى بالانقياد لأوامره ونواهيه القولية والفعالية ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ الإيمان الموجب للاستجابة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾؛ أي: يحصل لهم الرشd، الذي هو الهداية للإيمان والأعمال الصالحة، ويزول عنهم الغي المنافي للإيمان والأعمال الصالحة.

(١٨٥) ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ أي: الصوم المفروض عليكم هو شهر رمضان، الشهر العظيم الذي قد حصل لكم فيه من الله الفضل العظيم؛ وهو القرآن الكريم: المشتمل على الهداية لمصالحكم الدينية والدنيوية، وتبيين الحق بأوضح بيان، والفرقان بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وأهل السعادة وأهل الشقاوة، فحقيق بشهر هذا فضله، وهذا إحسان الله عليكم به، أن يكون موسماً للعبادة مفروضاً فيه الصيام ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾؛ أي: هذا فيه تعيين الصيام على القادر الصحيح الحاضر ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا﴾؛ أي: ومن كان به مرض في بدنه يشق عليه الصيام معه أو يؤذيه؛ ﴿أَوْ﴾ كان ﴿عَلَى سَفَرٍ﴾ أي: في حالة سفر؛ فله أن يفطر، فإذا أفطر ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ فعليه عدة ما أفطر من الأيام ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾: يريد الله تعالى أن ييسر عليكم الطرق الموصلة إلى رضوانه أعظم تيسير، ويسهلها أبلغ تسهيل؛ ولهذا كان جميع ما أمر الله به عباده في غاية السهولة في أصله، وإذا حصلت بعض العوارض الموجبة لثقله؛ سهله تسهياً آخر: إما بإسقاطه، أو تخفيفه بأنواع

ليلة القدر إلى هذه السماء الدنيا جملة واحدة، فجعل في بيت العزة، وكان الله يحدث لنيه ما يشاء في عشرين سنة. (١٨٦) في «الصحيحين» و«مسند الإمام أحمد» - واللفظ له - عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فجعلنا لا نصعد شرفاً، ولا فعلو شرفاً، ولا نهبط وادياً؛ إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير. قال: فدنا، منا فقال: «يا أيها الناس، أربعوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً بصيراً، إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق رحلته، يا عبد الله بن قيس، ألا أعلمك كلمة في كنوز الجنة؛ لا حول ولا قوة إلا بالله».

الْحَيَّ الْيَقِينُ ﴿١٨٧﴾ أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةُ الصَّيَامِ أَرْفَتْ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِيَّاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَّاسٌ لَهُنَّ ﴿١٨٨﴾ كَانَ فِي أَوَّلِ فَرَضِ الصَّيَامِ يَحْرَمُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الْأَكْلَ وَالشَّرْبَ وَالْجَمَاعَ فِي اللَّيْلِ بَعْدَ النَّوْمِ؛ فَحَصَلَتْ الْمَشَقَّةُ لِبَعْضِهِمْ، فَخَفَّفَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ ذَلِكَ وَأَبَاحَ فِي لَيْلَالِي الصَّيَامِ كُلِّهَا الْأَكْلَ وَالشَّرْبَ وَالْجَمَاعَ، سِوَا نَامٍ أَوْ لَمْ يَنْمَ؛ ﴿عَلَّمَ اللَّهُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ﴾ لِكُونِهِمْ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ بِتَرْكِ بَعْضِ مَا أُمِرُوا بِهِ ﴿فَنَابَ﴾ اللَّهُ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بِأَنْ وَسَّعَ لَكُمْ أَمْرًا كَانَ لَوْلَا تَوْسِعَتُهُ مُوجِبًا لِلْإِثْمِ ﴿وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ مَا سَلَفَ مِنَ التَّخَوُّنِ ﴿فَالْتَنَ﴾ بَعْدَ هَذِهِ الرِّخْصَةِ وَالسَّعَةِ مِنَ اللَّهِ ﴿يَشْرُوهُمْ﴾ وَطَنًا، وَقَبْلَةَ، وَلَمَسًا، وَغَيْرَ ذَلِكَ ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾؛ أَي: انْوُوا فِي مَبَاشَرَتِكُمْ لِرُؤُوسِكُمْ التَّقَرُّبَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَالْمَقْصُودُ الْأَعْظَمُ مِنَ الْوُطْءِ، وَهُوَ حَصُولُ الذَّرِيَّةِ، وَإِعْفَافُ فَرْجِهِ وَفَرْجُ زَوْجَتِهِ، وَحَصُولُ مَقَاصِدِ النِّكَاحِ، وَمِمَّا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ: لَيْلَةُ الْقَدْرِ الْمَوَافِقَةُ لِلْيَالِي صِيَامِ رَمَضَانَ، فَلَا يَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ تَشْتَغَلُوا بِهِ هَذِهِ اللَّذَّةَ عَنْهَا وَتَضِعُوهَا؛ فَاللَّذَّةُ مَدْرَكَةٌ، وَلَيْلَةُ الْقَدْرِ إِذَا فَاتَتْ لَمْ تَدْرِكْ ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْحَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْحَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾: هَذَا

أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةُ الصَّيَامِ أَرْفَتْ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِيَّاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَّاسٌ لَهُنَّ ﴿١٨٨﴾ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ بِتَرْكِ بَعْضِ مَا أُمِرُوا بِهِ ﴿فَنَابَ﴾ اللَّهُ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بِأَنْ وَسَّعَ لَكُمْ أَمْرًا كَانَ لَوْلَا تَوْسِعَتُهُ مُوجِبًا لِلْإِثْمِ ﴿وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ مَا سَلَفَ مِنَ التَّخَوُّنِ ﴿فَالْتَنَ﴾ بَعْدَ هَذِهِ الرِّخْصَةِ وَالسَّعَةِ مِنَ اللَّهِ ﴿يَشْرُوهُمْ﴾ وَطَنًا، وَقَبْلَةَ، وَلَمَسًا، وَغَيْرَ ذَلِكَ ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾؛ أَي: انْوُوا فِي مَبَاشَرَتِكُمْ لِرُؤُوسِكُمْ التَّقَرُّبَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَالْمَقْصُودُ الْأَعْظَمُ مِنَ الْوُطْءِ، وَهُوَ حَصُولُ الذَّرِيَّةِ، وَإِعْفَافُ فَرْجِهِ وَفَرْجُ زَوْجَتِهِ، وَحَصُولُ مَقَاصِدِ النِّكَاحِ، وَمِمَّا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ: لَيْلَةُ الْقَدْرِ الْمَوَافِقَةُ لِلْيَالِي صِيَامِ رَمَضَانَ، فَلَا يَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ تَشْتَغَلُوا بِهِ هَذِهِ اللَّذَّةَ عَنْهَا وَتَضِعُوهَا؛ فَاللَّذَّةُ مَدْرَكَةٌ، وَلَيْلَةُ الْقَدْرِ إِذَا فَاتَتْ لَمْ تَدْرِكْ ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْحَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْحَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾: هَذَا

غَايَةُ لِلْأَكْلِ وَالشَّرْبِ وَالْجَمَاعِ. وفيه: أَنَّهُ إِذَا أَكَلَ وَنَحَوَهُ شَاكًا فِي طُلُوعِ الْفَجْرِ؛ فَلَا بَأْسَ عَلَيْهِ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِحْبَابِ السَّحُورِ، وَأَنَّهُ يَسْتَحِبُّ تَأْخِيرَهُ. وفيه دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَدْرِكَهُ الْفَجْرُ وَهُوَ جَنْبٌ مِنَ الْجَمَاعِ قَبْلَ أَنْ يَغْتَسِلَ، وَيَصِحُّ صِيَامُهُ؛ لِأَنَّهُ لَا زَمَّ لِإِبَاحَةِ الْجَمَاعِ إِلَى طُلُوعِ الْفَجْرِ أَنْ يَدْرِكَهُ الْفَجْرُ وَهُوَ

(١٨٧) فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ إِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَائِمًا، فَحَضَرَ الْإِفْطَارَ، فَنَامَ قَبْلَ أَنْ يَفْطُرَ؛ لَمْ يَأْكُلْ لَيْلَتَهُ وَلَا يَوْمَهُ حَتَّى يَمْسِيَ، وَإِنْ قِيسُ بْنُ صَرْمَةَ الْأَنْصَارِيُّ كَانَ صَائِمًا، فَلَمَّا حَضَرَ الْإِفْطَارَ؛ أَتَى امْرَأَتَهُ، فَقَالَ لَهَا: أَعِنْدَكَ طَعَامٌ؟ قَالَتْ: لَا. وَلَكِنْ أَنْطَلِقُ فَأَطْلُبُ لَكَ، وَكَانَ يَوْمُهُ يَعْمَلُ، فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ، فَجَاءَتْهُ امْرَأَتُهُ، فَلَمَّا رَأَتْهُ؛ قَالَتْ: خِيَّةٌ لَكَ؛ فَلَمَّا انْتَصَفَ النَّهَارُ؛ غَشِيَ عَلَيْهِ؛ فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ؛ فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةُ الصَّيَامِ أَرْفَتْ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾؛ فَفَرَحُوا بِهَا فَرَحًا شَدِيدًا، وَنَزَلَتْ: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْحَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْحَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَنْزَلَتْ ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْحَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْحَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ وَلَمْ يَنْزِلْ ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾؛ فَكَانَ رِجَالٌ إِذَا أَرَادُوا الصَّوْمَ؛ رَبَطَ أَحَدُهُمْ فِي رِجْلِهِ الْخَيْطَ الْأَبْيَضَ وَالْخَيْطَ الْأَسْوَدَ، وَلَمْ يَزَلْ يَأْكُلُ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُ رُؤْيَاهُمَا؛ فَانْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَ ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ فَعَلِمُوا أَنَّهُ إِنَّمَا يَعْنِي اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ.

ماله كما يحترم ماله، وأن أكله لمال غيره يجرى غيره على أكل ماله عند القدرة ﴿يَبْطُلُ﴾ ولما كان أكلها نوعين: نوعاً بحق، ونوعاً بباطل، وكان المحرم إنما هو أكلها بالباطل؛ قيده تعالى بذلك، ﴿وَتَذُلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: حتى ولو حصل فيه النزاع والارتفاع إلى حاكم الشرع، وأدلى من يريد أكلها بالباطل بحجة غلبت حجة المحق، وحكم له الحاكم بذلك، فإن حكم الحاكم لا يبيح محرماً، ولا يحلل حراماً، فمن أدلى إلى الحاكم بحجة باطلة وحكم له بذلك؛ فإنه لا يحل له، ويكون آكلًا لمال غيره بالباطل والإثم، وهو عالم بذلك؛ فيكون أبلغ في عقوبته وأشد في نكاله.

(١٨٩) ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ﴾: جمع هلال؛ أي: ما فائدتها وحكمتها؟ أو عن ذاتها ﴿قُلْ هِيَ مَوْقِيتٌ لِلنَّاسِ﴾: جعلها الله تعالى بلطفه ورحمته على هذا التدبير، يبدو الهلال ضعيفاً في أول الشهر، ثم يتزايد إلى نصفه، ثم يشرع في النقص إلى كماله... وهكذا؛ ليعرف الناس بذلك مواقيت عبادتهم: من الصيام، وأوقات الزكاة، والكفارات، وأوقات الحج، ولما كان الحج يقع في أشهر معلومات، ويستغرق أوقاتاً كثيرة؛ قال: ﴿وَالْحَجَّ﴾، وكذلك تعرف بذلك أوقات الديون المؤجلات، ومدة الإجازات، ومدة العِدِّد

جنب ﴿ثُمَّ﴾ إذا طلع الفجر ﴿أَتَمُّوا الصِّيَامَ﴾؛ أي: الإمساك عن المفطرات ﴿إِلَى الْإِيلِ﴾: وهو غروب الشمس.

ولما كان إباحة الوطء في ليالي الصيام ليست إباحة عامة لكل أحد، فإن المعتكف لا يحل له ذلك، استثناء بقوله: ﴿وَلَا تُبَيِّرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَدِيقُونَ فِي الْمَسْجِدِ﴾: وأنتم متصفون بذلك ﴿تِلْكَ﴾؛ أي: المذكورات، وهو: تحريم الأكل والشرب والجماع ونحوه في الصيام، وتحريم الفطر لغير المعذور، وتحريم الوطء على المعتكف ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ التي حدّها لعباده، ونهاهم عنها، فقال: ﴿فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ أبلغ من قوله: «فلا تفعلوها»؛ لأن القربان يشمل النهي عن فعل المحرم بنفسه، والنهي عن وسائله الموصلة إليه ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾؛ أي: بين الله لعباده الأحكام السابقة أتم تبين، وأوضحها لهم أكمل إيضاح؛ فإنهم إذا بان لهم الحق اتبعوه، وإذا تبين لهم الباطل اجتنبوه، فإن الإنسان قد يفعل المحرم على وجه الجهل بأنه محرم، ولو علم تحريمه لم يفعله، فإذا بين الله للناس آياته؛ لم يبق لهم عذر ولا حجة، فكان ذلك سبباً للتقوى.

(١٨٨) ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ﴾؛ أي: ولا تأخذوا أموال غيركم، أضافه إليهم؛ لأنه ينبغي للمسلم أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ويحترم

(١٨٨) في «الصحيحين» عن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «ألا إنما أنا بشر، وإنما يأتيني الخصم فلعل بعضكم ألحن بحجته من بعض فأقضي له، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هي قطعة من نار، فليحملها أو يذرها».

(١٨٩) في «الصحيحين» عن البراء بن عازب رضي الله عنه؛ قال: نزلت هذه الآية فينا، فكانت الأنصار إذا حجوا، فجأوا؛ لم يدخلوا من قبل أبواب بيوتهم، ولكن في ظهورها، فجاء رجل من الأنصار فدخل من قبل بابه، فكانه غير بذلك؛ فنزلت: ﴿وَلَيْسَ آلِئُرُ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾.

والحمل ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ : وهذا كما كان الأنصار وغيرهم من العرب إذا أحرموا لم يدخلوا البيوت من أبوابها؛ تعبدًا بذلك، وظنًا أنه بر! فأخبر تعالى أنه ليس من البر؛ لأن الله تعالى لم يشرعه لهم، وكل من تعبد بعبادة لم يشرعها الله ولا رسوله؛ فهو متعبد ببدعة ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ : أمرهم أن يأتوا البيوت من أبوابها؛ لما فيه من السهولة عليهم، والتي هي قاعدة من قواعد الشرع ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ : هذا هو البر الذي أمر الله به، وهو: لزوم تقواه على الدوام؛ بامتنال أوامره، واجتناب نواهيه ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ ؛ فإنه سبب للفلاح: الذي هو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب، فمن لم يتق الله تعالى؛ لم يكن له سبيل إلى الفلاح، ومن اتقاه فاز بالفلاح والنجاح.

(١٩٠) ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هذه الآيات تتضمن الأمر بالقتال في سبيل الله، وهذا كان بعد الهجرة إلى المدينة، وفي تخصيص القتال ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ حث على الإخلاص، ونهي عن الاقتتال في الفتن بين المسلمين ﴿الَّذِينَ يَقْتُلُونَكُمْ﴾ : الذين هم مستعدون لقتالكم، وهم المكلفون (من الرجال)؛ غير الشيوخ الذين لا رأي لهم ولا قتال ﴿وَلَا تَعْدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا

الْحَقَّ بِكُمْ﴾ : ولا تعدوا، ولا تقتلوا وليدًا. (١٩١) في «الصحيحين» من حديث أبي شريح العدوي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض. فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، ولم يحل لي إلا ساعة في نهار. وإنها من ساعتى هذه حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعصده شجره، ولا يختلى خلاه، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لکم».

يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ : والنهي عن الاعتداء يشمل أنواع الاعتداء كلها؛ من قتل من لا يقاتل من النساء، والمجانين، والأطفال، والرهبان، ونحوهم، والتمثيل بالقتلى، وقتل الحيوانات، وقطع الأشجار ونحوها، لغير مصلحة تعود للمسلمين.

(١٩١) ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْبَلُونَهُمْ﴾ : هذا أمر بقتالهم وإخراجهم أينما وجدوا في كل وقت وفي كل زمان، قتال مدافعة وقتال مهاجمة ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ

(١٩٠) في «صحيح مسلم» عن بريدة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اغزوا في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا».

(١٩١) في «الصحيحين» من حديث أبي شريح العدوي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض. فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، ولم يحل لي إلا ساعة في نهار. وإنها من ساعتى هذه حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعصده شجره، ولا يختلى خلاه، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لکم».

وهو المراد بالفتنة، فإذا حصل هذا المقصود؛ فلا قتل ولا قتال ﴿فَإِنْ أَنهَوْا﴾ عن قتالكم عند المسجد الحرام؛ ﴿فَلَا عُذْرَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: فليس عليهم منكم اعتداء، إلا من ظلم منهم؛ فإنه يستحق المعاقبة بقدر ظلمه.

(١٩٤) ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾؛ المعنى أنكم إن قاتلتموهم في الشهر الحرام فقد قاتلوكم فيه، وهم المعتدون، فليس عليكم في ذلك حرج. وعلى هذا، فيكون قوله: ﴿وَالْحُرُمَتُ قَصَاصٌ﴾؛ من باب عطف العام على الخاص؛ أي: كل شيء يحترم، من شهر حرام، أو بلد حرام، أو إحرار، أو ما هو أعم من ذلك جميع ما أمر الشرع باحترامه، فمن تجرأ عليها، فإنه يقتص منه ﴿فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعْدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ﴾: هذا تفسير لصفة المقاصة، وأنها هي المماثلة في مقابلة المعتدي ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ولما كانت النفوس في الغالب لا تقف على حدها إذا رخص لها في المعاقبة لطلبها التشفي؛ أمر تعالى بلزوم تقواه؛ التي هي الوقوف عند حدوده وعدم تجاوزها ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾: بالعون، والنصر، والتأييد، والتوفيق.

ومن كان الله معه حصل له السعادة الأبدية، ومن لم يلزم التقوى: تخلى عنه وليه، وخذله فوكله إلى نفسه؛ فصار هلاكه أقرب إليه من حبل الوريد.

حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ وذلك لأنهم أخرجوا المسلمين من مكة، فقال: أخرجوهم من ديارهم كما أخرجوكم من دياركم؛ من بلادهم التي أخرجوكم منها قصاصاً، ﴿وَلَا تُقْبِلُوهُمْ﴾ ثم استثنى من هذا العموم قتالهم ﴿عِنْدَ الْحَرَامِ﴾ وأنه لا يجوز ﴿حَتَّى يُقْتُلُوَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾، إلا أن يبدووا بالقتال، فإنهم يقاتلون جزاء لهم على اعتدائهم، فليس عليكم أيها المسلمون حرج في قتالهم وهذا مستمر في كل وقت.

﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾: ولما كان القتال عند المسجد الحرام يتوهم أنه مفسدة في هذا البلد الحرام؛ أخبر تعالى أن المفسدة بالفتنة عنده بالشرك والصد عن دينه أشد من مفسدة القتل، ويستدل بهذه الآية على القاعدة المشهورة، وهي: أنه يرتكب أخف المفسدتين لدفع أعلاهما.

(١٩٢) ﴿فَإِنْ أَنهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ أي: حتى ينتهوا عن كفرهم؛ فيسلموا، فإن الله يتوب عليهم.

(١٩٣) ﴿وَقَبِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ ثم ذكر تعالى المقصود من القتال في سبيله، وأنه ليس المقصود به سفك دماء الكفار وأخذ أموالهم؛ ولكن المقصود به أن يكون الدين لله ﴿وَيَكُونَ لِلَّهِ الْبَيْنُ﴾ تعالى، فيظهر دين الله تعالى على سائر الأديان، ويدفع كل ما يعارضه من الشرك وغيره؛

(١٩٤) أخرج الطبري وابن أبي حاتم بإسناد حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿أَعْدَى عَلَيْكُمْ﴾ قال: هذا ونحوه نزل بمكة، والمسلمون يومئذ قليل، وليس لهم سلطان يقهر المشركين، وكان المشركون يتعاطونهم بالشتم والأذى؛ فأمر الله والمسلمين من يجازي منهم أن يجازي بمثل ما أوتي إليه، أو يصبر، أو يعفو؛ فهو أمثل، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وأمر الله سلطانه؛ أمر المسلمين أن ينتهوا في مظالمهم إلى سلطانهم. وأن لا يعدو بعضهم على بعض؛ كأهل الجاهلية.

(١٩٦) يستدل بقوله: ﴿وَاتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ﴾ على أمور:

أحدها: وجوب الحج والعمرة، وفرضيتهما.
الثاني: وجوب إتمامهما بأركانهما وواجباتهما، والأمر بإتقانهما وإحسانهما، وهذا قدر زائد على فعل ما يلزم لهما.

الثالث: أن الحج والعمرة يجب إتمامهما بالشروع فيهما، ولو كانا نفلاً.

الرابع: الأمر بإخلاصهما لله تعالى.

الخامس: أنه لا يخرج المحرم بهما بشيء من الأشياء حتى يكملهما؛ إلا بما استثناه الله، وهو الحصر، فلهذا قال: ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ﴾: منعتهم من الوصول إلى البيت لتكميلهما؛ بمرض، أو ضلالة، أو عدو، ونحو ذلك من أنواع الحصر الذي هو المنع؛ ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾: فاذبحوا ما تيسر من الهدى؛ وهو سُبُع بدنة، أو سُبُع بقرة، أو شاة يذبحها المحصر، ويحلق ويحل من إحرامه بسبب الحصر.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِفُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾: وهذا من محظورات الإحرام: إزالة الشعر بحلق أو غيره؛ لأن المقصود من ذلك حصول الشعث والمنع من الترفه بإزالته، وقاس كثير من العلماء على إزالة الشعر تقليد الأظفار بجامع الترفه، ويستمر المنع مما ذكر حتى يبلغ الهدى محله، وهو يوم النحر.

(١٩٥) ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: يأمر تعالى عباده بالنفقة في سبيله، وهو: إخراج الأموال في الطرق الموصلة إلى الله، وهي كل طرق الخير؛ من صدقة على مسكين أو قريب، أو إنفاق على من تجب مؤنته، وأعظم ذلك الإنفاق في الجهاد في سبيل الله؛ فإن النفقة فيه جهاد بالمال، وهو فرض كالجهاد بالبدن، فالجهاد في سبيل الله لا يقوم إلا على ساق النفقة، فالنفقة له كالروح، لا يمكن وجوده بدونها، وفي ترك الإنفاق في سبيل الله إبطال للجهاد وتسليط للأعداء وشدة تكاليفهم، فيكون قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ كالتعليل لذلك، والإلقاء باليد إلى التهلكة يرجع إلى أمرين: ترك ما أمر به العبد إذا كان تركه موجباً أو مقارباً لهلاك البدن أو الروح، وفعل ما هو سبب موصل إلى تلف النفس أو الروح، فيدخل تحت ذلك أمور كثيرة: فمن ذلك ترك الجهاد في سبيل الله، أو النفقة فيه...

ومن الإلقاء باليد إلى التهلكة: الإقامة على معاصي الله واليأس من التوبة ومنها ترك ما أمر الله به من الفرائض التي في تركها هلاك للروح والدين، ولما كانت النفقة في سبيل الله نوعاً من أنواع الإحسان أمر بالإحسان عموماً، فقال: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾: وهذا يشمل جميع أنواع الإحسان؛ لأنه لم يقيد بشيء دون شيء.

(١٩٥) أخرج أبو داود والترمذي وغيرهما، عن أسلم أبي عمران قال: حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى فرقه، ومعنا أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه، فقال ناس: ألقى بيده إلى التهلكة! فقال أبو أيوب: نحن أعلم بهذه الآية، إنما نزلت فينا، صحبتنا رسول الله ﷺ وشهدنا معه المشاهد ونصرناه، فلما فشا الإسلام وظهر، اجتمعنا معشر الأنصار نجياً، فقلنا: قد أكرمنا الله بصحبة نبيه ونصره، حتى فشا الإسلام وكثر أهله. وكنا قد آثرناه على الأهلين والأموال والأولاد، وقد وضعت الحرب أوزارها، فترجع إلى أهلينا وأولادنا فقيم فيهما، فنزل فينا: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾.

والأفضل أن يكون الحلق بعد النحر؛ كما تدل عليه الآية.

﴿فَن كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ سُلْكٍ﴾: إذا حصل الضرر للمحرم بأن كان به أذى من مرض ينتفع بحلق رأسه له، أو قروح، أو قمل ونحو ذلك؛ فإنه يحل له أن يحلق رأسه، ولكن يكون عليه فدية من صيام ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين، أو نسك ما يجزى في أضحية، فهو مخير؛ والنسك أفضل، فالصدقة، فالصيام.

ومثل هذا كل ما كان في معنى ذلك، من تقليص الأظافر، أو تغطية الرأس، أو لبس المخيط، أو الطيب فإنه يجوز عند الضرورة مع وجوب الفدية المذكورة؛ لأن القصد من الجميع إزالة ما به يترفع.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾: بأن قدرتم على البيت من غير مانع عدو وغيره ﴿فَن تَمَعَ بِالْعَمَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ بأن توصل بها إليه، وانتفع بتمتعته بعد الفراغ منها: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾؛ أي: فعلية ما تيسر من الهدى، وهو ما يجزى في أضحية وهذا دم نسك مقابلة لحصول النسكين له في سفره واحدة، ولإنعام الله عليه بحصول الانتفاع بالتمتع بعد فراغ العمرة وقبل الشروع في الحج.

ودلت الآية على جواز بل فضيلة المتعة، وعلى جواز فعلها في أشهر الحج ﴿فَن لَّمْ يَجِدْ﴾ الهدى أو ثمنه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾: أول جوازها من حين الإحرام بالحج، وآخرها ثلاثة أيام بعد النحر، أيام رمي الجمار، والمبيت بـ«منى» ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾: فرغتم من أعمال الحج؛ فيجوز فعلها في مكة، وفي الطريق، وعند وصوله إلى أهله ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ تأكيد أنها بتمامها وكمالها تجزئ عن الهدى ﴿ذَلِكَ﴾: المذكور من وجوب الهدى على المتمتع ﴿لَمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، وأما من كان أهله من حاضري المسجد الحرام؛ فليس عليه هدي؛ لعدم الموجب لذلك ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: في جميع أموركم؛ بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، ومن ذلك: امتثالكم لهذه المأمورات واجتناب هذه المحظورات المذكورة في الآية. ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾: لمن عصاه، وهذا هو الموجب للتقوى؛ فإن من خاف عقاب الله: انكف عما يوجب العقاب، كما أن من رجا ثواب الله عمل لما يوصله إلى ثوابه. وأما من لم يخف العقاب ولم يرج الثواب؛ اقتحم المحارم، وتجراً على ترك الواجبات.

(١٩٧) في «صحيح البخاري» عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: هي شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة.

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من حج هذا البيت؛ فلم يرفث، ولم يفسق؛ خرج من ذنوبه؛ كيوم ولدته أمه».

وأخرج البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، كان أهل اليمن يحجون، ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون. فإذا قدموا مكة؛ سألوا الناس، فأنزل الله - تعالى -: ﴿وَسَكَرُودُوا فَإِنَّكَ خَيْرٌ لِّزَادِ النَّفْسِ﴾.

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ ﴿١٩٧﴾ يَخْبِرُ تِلْكَ أَنْ
الْحَجَّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ فَمَنْ وَضَّ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفْتَ
وَلَا سُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ
يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْسُ ﴿١٩٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ
تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ
عَرَفَاتٍ فَإِذْ ذُكِرُوا لِلَّهِ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ
وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ
لَيْنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٩﴾ ثُمَّ أَفِضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ
النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠٠﴾
فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ سَكَكُكُمْ فَإِذْ ذُكِرُوا لِلَّهِ كَذِكْرِكُمْ
ءَابَاءَكُمْ أَوْ اسْتَذْكِرُوا فَمِنْ النَّاسِ مَنْ
يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ
خَلْقٍ ﴿٢٠١﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا
حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠٢﴾
أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٣﴾

﴿وَتَزَوَّدُوا﴾: أمر تعالى بالتزود لهذا السفر المبارك، فإن التزود فيه الاستغناء عن المخلوقين، والكف عن أموالهم سؤالاً واستشراقاً، وفي الإكثار منه نفع وإعانة للمسافرين، وزيادة قربة لرب العالمين.

﴿فَاتَّبَعُوا خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾: وأما الزاد الحقيقي المستمر نفعه لصاحبه في دنياه وآخره؛ فهو زاد التقوى، الذي هو زاد إلى دار القرار، وهو الموصل لأكمل لذة، وأجل نعيم دائماً أبداً، ومن ترك هذا الزاد، فهو المنقطع به، الذي هو عرضة لكل شر، وممنوع من الوصول إلى دار المتقين، فهذا مدح للتقوى.

﴿وَاتَّقُوا يَتَأُولَىٰ أَلْبَابٍ﴾: أي: يا أهل العقول الرزينة! اتقوا ربكم، الذي تقواه أعظم ما تأمر به العقول، وتركها دليل على الجهل وفساد الرأي.

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ﴾: يخبر تلك أن الحج واقع في أشهر معلومات عند المخاطبين، مشهورات بحيث لا تحتاج إلى تخصيص كما احتاج الصيام إلى تعيين شهره، وكما بين تعالى أوقات الصلوات الخمس، وأما الحج؛ فقد كان من ملة إبراهيم التي لم تزل مستمرة في ذريته معروفة بينهم، والمراد بالأشهر المعلومات: شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة، فهي التي يقع فيها الإحرام بالحج غالباً ﴿فَمَنْ وَضَّ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾: أحرم به؛ لأن الشروع فيه يصيره فرضاً، ولو كان نفلاً، وقوله: ﴿فَلَا رَفْتَ وَلَا سُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾: أي: يجب أن تعظموا الإحرام بالحج، وتصونوه عن كل ما يفسده أو ينقصه، من الرفث: وهو الجماع، ومقدماته الفعلية والقولية، خصوصاً عند النساء بحضرتهن.

والفسوق: وهو جميع المعاصي، ومنها محظورات الإحرام.

والجدال: وهو المماراة والمنازعة والمخاصمة؛ لكونها تثير الشر، وتوقع العداوة، والمقصود من الحج: الذل والانكسار لله، والتقرب إليه بما أمكن من القربات، والتنزه عن مقارفة السيئات، فإنه بذلك يكون مبروراً ﴿وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾: فكل خير وقربة وعبادة داخل في ذلك؛ فإن الله به عليم، وهذا يتضمن غاية الحث على أفعال الخير، خصوصاً في تلك البقاع الشريفة والحرمان المنيفة، فإنه ينبغي تدارك ما أمكن تداركه فيها: من صلاة، وصيام، وصدقة، وطواف، وإحسان قولي وفعلي.

(١٩٨) ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾: أخبر تعالى أن ابتغاء فضل الله بالتكسب في مواسم الحج وغيره ليس فيه حرج؛ إذا لم يشغل عما يجب إذا كان المقصود هو الحج، وكان الكسب حلالاً منسوباً إلى فضل الله لا منسوباً إلى حذق العبد، والوقوف مع السبب ونسيان المسبب، فإن هذا هو الحرج بعينه. وفي قوله: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾؛ دلالة على أمور:

أحدها: الوقوف بعرفة، وأنه كان معروفاً أنه ركن من أركان الحج، فالإفاضة من عرفات لا تكون إلا بعد الوقوف. والثاني: الأمر بذكر الله عند المشعر الحرام وهو المزدلفة. الثالث: أن الوقوف بمزدلفة متأخر عن الوقوف بعرفة.

الرابع، والخامس: أن عرفات ومزدلفة كلاهما من مشاعر الحج المقصود فعلها وإظهارها. السادس والسابع: أن مزدلفة في الحرم كما قيده بـ ﴿الْحَرَامِ﴾، وعرفات في الحل؛ كما هو مفهوم التقييد بمزدلفة.

﴿وَاذْكُرُوا كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾؛ أي: اذكروا الله تعالى كما منّ عليكم بالهداية بعد الضلال، وكما علمكم ما لم تكونوا تعلمون.

(١٩٩) ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾: ثم أفيضوا من مزدلفة، من حيث أفاض الناس من لدن إبراهيم عليه السلام إلى الآن، والمقصود من هذه الإفاضة كان معروفاً عندهم؛ وهو: رمي الجمار، وذبح الهدايا، والطواف والسعي، والمبيت بمنى ليالي التشريق، وتكميل باقي المناسك ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: ولما كانت هذه الإفاضة يقصد بها ما ذكر؛ أمر تعالى عند الفراغ منها باستغفاره والإكثار من ذكره، فالاستغفار للخلل الواقع من العبد في أداء عبادته وتقصيره فيها، وذكر الله شكر الله على إنعامه عليه بالتوفيق لهذه العبادة العظيمة والمنة الجسيمة.

(٢٠٠) ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مِنْاسِكُكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾. وهكذا ينبغي للعبد كلما فرغ من عبادة أن يستغفر الله عن التقصير، ويشكره على التوفيق، لا كمن يرى أنه قد أكمل العبادة، ومنّ بها على ربه،

(١٩٨) أخرج البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كانت عكاظ ومجنة وذو الجاز أسواقاً في الجاهلية، فتأثموا أن يتجروا في المواسم؛ فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

(١٩٩) في «صحيح مسلم» قالت عائشة: الحمس هم الذين أنزل الله عز وجل فيهم: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾؛ قالت: كان الناس يفيضون من عرفات، وكان الحمس يفيضون من المزدلفة، يقولون: لا نفيض إلا من الحرم، فلما نزلت: ﴿أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾؛ رجعوا إلى عرفات.

(٢٠٠) أخرج الضياء المقدسي وابن أبي حاتم بإسناد حسن عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم، يقول الرجل منهم: كان أبي يطعم، ويحمل الحملات، ويحمل الديات، ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم؛ فأنزل الله ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾.

وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَلِمَنِ اتَّقَىٰ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَمَنْ أَتَىٰ مِنَ يَوْمَيْكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ ۖ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسَافِرَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذْ أَيْدِيكُمْ أَعْلَىٰ فَمَا آتَىٰ اللَّهُ أَخْذَهُ الْغَرَّةَ بِالْأَيْمَنِ فَحَسَبُهُمْ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ إِلَهُهُمْ ﴿٢٠٤﴾ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ أُتْبَعَاءً مَرَضَاتٍ اللَّهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٥﴾ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَذْهَبُوا إِلَىٰ آلِ الْفِرْعَوْنَ أَتَاكُمْ عَدُوُّكُمْ قَالُوا لَا نَفَعُ الْإِسْرَءِيلَ مِنْ بَدِّ مَا جَاءَهُمْ أَنْ يَرْجِعُوا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَفُضِي الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢٠٦﴾

وجعلت له محلاً ومنزلة رفيعة، فهذا حقيق بالمقت ورد الفعل، كما أن الأول حقيق بالقبول والتوفيق لأعمال آخر.

ثم أخبر تعالى عن أحوال الخلق، وأن الجميع يسألونه مطالبهم؛ ولكن مقاصدهم تختلف: فمنهم ﴿مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا﴾؛ أي: يسأله من مطالب الدنيا ما هو من شهواته، ﴿وَمَا لُبُّ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ وليس له في الآخرة من نصيب؛ لرغبته عنها، وقصر همته على الدنيا.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقَنَا عَذَابُ النَّارِ﴾ يدعو الله لمصلحة الدارين، ويفتقر إليه في مهمات دينه ودنياه فيقول: ﴿رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ والحسنة المطلوبة في الدنيا يدخل فيها كل ما يحسن وقعه عند العبد؛ من رزق هني واسع حلال، وزوجة سالحة، وولد تقر به العين، وراحة، وعلم نافع، وعمل صالح. ﴿وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقَنَا عَذَابُ النَّارِ﴾ وحسنة الآخرة هي: السلامة من العقوبات في القبر والموقف والنار، وحصول رضا الله، والفوز بالنعيم المقيم، والقرب من الرب الرحيم، فصار هذا الدعاء أجمع دعاء وأكملة، وأولاه بالإيثار، ولهذا كان النبي ﷺ يكثر من الدعاء به، والحث عليه.

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ وكل من هؤلاء وهؤلاء لهم نصيب من

كسبهم وعملهم، وسيجازيهم تعالى على حسب أعمالهم وهماتهم ونياتهم، جزاء دائراً بين العدل والفضل.

﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ﴾: يأمر تعالى بذكره في الأيام المحدودات، وهي: أيام التشريق الثلاثة بعد العيد؛ لمزيتها وشرفها وكون بقية المناسك تفعل بها، فللذكر فيها مزية ليست لغيرها؛ بل إنه يستحب فيها التكبير المطلق كالعشر ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ﴾: خرج من منى، ونفر منها قبل غروب شمس اليوم الثاني؛ ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ﴾: بأن بات ليلة الثالث،

(٢٠١) في «صحيح البخاري» من حديث أنس: «كان أكثر دعاء النبي ﷺ ربنا آتانا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار».

(٢٠٣) أخرج أحمد والترمذي والنسائي بإسناد صحيح من حديث عقبة بن عامر، قال: قال رسول الله ﷺ: «يوم عرفة، ويوم النحر، وأيام التشريق عيدنا أهل الإسلام، وهي أيام أكل وشرب».

وتنقص، وتقل بركتها بسبب العمل في المعاصي ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ فإذا كان لا يحب الفساد؛ فهو يبغض العبد المفسد في الأرض غاية البغض، وإن قال بلسانه قولاً حسناً.

(٢٠٦) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ﴾: هذا المفسد في الأرض بمعاصي الله إذا أمر بتقوى الله ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾: تكبر وأنف؛ فيجمع بين العمل بالمعاصي والتكبر على الناصحين ﴿فَحَسْبُ جَهَنَّمَ﴾ التي هي دار العصاة والمستكبرين ﴿وَلَيْسَ الْبِرَّ بِمَا كَسَبْتُمْ﴾: المستقر والمسكن؛ عذاب دائم، وهم لا ينقطع، ويأس مستمر، لا يخفف عنهم العذاب ولا يرجون الثواب.

(٢٠٧) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ﴾: هؤلاء هم الموفقون الذين باعوا أنفسهم وأرخصوها وبذلوها؛ ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ طلباً لمرضاة الله، ورجاءً لثوابه، ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ فهم بذلوا الثمن للمليء الوفي، الرءوف بالعباد الذي من رأفته ورحمته أن وفقهم لذلك، وقد وعد الوفاء بذلك.

(٢٠٨) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا﴾ هذا أمر من الله تعالى للمؤمنين أن يدخلوا ﴿فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾؛ أي: في جميع شرائع الدين، ولا يتركوا منها شيئاً، وأن لا يكونوا ممن اتخذ إلهه هواه؛ إن وافق الأمر المشروع هواه فعله، وإن خالفه تركه، وأن يفعل كل ما يقدر عليه من أفعال الخير، وما يعجز عنه يلتزمه وينويه فيدركه بنيته.

ولما كان الدخول في الإسلام كافة لا يمكن ولا يتصور إلا بمخالفة طرق الشيطان؛ قال: ﴿وَلَا

ورمى من الغد؛ ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾؛ وهذا تخفيف من الله تعالى على عباده في إباحة كلا الأمرين ولكن من المعلوم أنه إذا أبيح كلا الأمرين؛ فالتأخر أفضل؛ لأنه أكثر عبادة.

ولما كان نفي الحرج قد يفهم منه نفي الحرج في ذلك المذكور وغيره، والحاصل أن الحرج منفي عن المتقدم والمتأخر؛ قيده بقوله: ﴿لَيْنَ اتَّقَى﴾؛ أي: اتقى الله في جميع أموره وأحوال الحج، فمن اتقى الله في كل شيء؛ حصل له نفي الحرج في كل شيء، ومن اتقاه في شيء دون شيء؛ كان الجزء من جنس العمل ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بامتنال أوامره، واجتناب معاصيه ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾؛ فمجازيكم بأعمالكم، فالعلم بالجزاء من أعظم الدواعي لتقوى الله، فلهذا حث تعالى على العلم بذلك.

(٢٠٩) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ أي: إذا تكلم راق كلامه للسامع، وإذا نطق ظننته يتكلم بكلام نافع، ﴿وَيُؤْكَدُ مَا يَقُولُ﴾ بأنه: ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾: بأن يخبر أن الله يعلم أن ما في قلبه موافق لما نطق به، وهو كاذب في ذلك؛ لأنه يخالف قوله فعله، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾؛ أي: إذا خاصمته وجدت فيه من اللدد والصعوبة والتعصب، وما يترتب على ذلك ما هو من مقابح الصفات.

(٢١٠) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ﴾ هذا الذي يعجبك قوله؛ إذا حضر عندك - ﴿سَكَتَ فِي الْأَرْضِ يُقْسِدُ فِيهَا﴾: يجتهد على أعمال المعاصي: التي هي إفساد في الأرض ﴿وَيُهْلِكُ﴾ بسبب ذلك ﴿الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ فالزروع والثمار والمواشي تلتف



حقيقة ما هو عليه .

وهذه الآية وما أشبهها دليل لمذهب أهل السنة والجماعة المثبتين للصفات الاختيارية، كالاستواء، والنزول، والمجيء ونحو ذلك من الصفات التي أخبر بها تعالى عن نفسه أو أخبر بها عنه رسوله ﷺ، فيثبتونها على وجه يليق بجلال الله وعظمته، من غير تشبيه ولا تحريف؛ خلافاً للمعطلة من الجهمية والمعتزلة والأشعرية، ممن ينفي هذه الصفات ويتأول لأجلها الآيات بتأويلات ما أنزل الله عليها من سلطان، بل حقيقتها القدح في بيان الله وبيان رسوله، وهؤلاء ليس معهم دليل نقلي؛ بل ولا دليل عقلي .

فإن زعموا أن إثباتها يدل على التشبيه بخلقه؛ قيل لهم: الكلام على الصفات يتبع الكلام على الذات، فكما أن لله ذاتاً لا تشبهها الذوات؛ فله

تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿٢٠٩﴾ : في العمل بمعاصي الله ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ : ظاهر العداوة، والعدو المبين لا يأمر إلا بالسوء والفحشاء وما به الضر عليكم .

(٢٠٩) ولما كان العبد لا بد أن يقع منه خلل وزلل؛ قال تعالى: ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ﴾؛ أي: أخطأتم ووقعتم في الذنوب ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾؛ أي: على علم ويقين ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، وفيه من الوعيد الشديد، والتخويف، ما يوجب ترك الزلل؛ فإن العزيز القاهر الحكيم إذا عصاه العاصي قهره بقوته، وعذبه بمقتضى حكمته، فإن من حكمته تعذيب العصاة والجناة .

(٢١٠) ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾؛ هذا فيه من الوعيد الشديد والتهديد ما تنخلع له القلوب: هل ينتظر الساعون في الفساد في الأرض، المتبعون لخطوات الشيطان، النابذون لأمر الله، إلا يوم الجزاء بالأعمال الذي حُشي من الأهوال والشدائد والفظائع ما يقلقل قلوب الظالمين، ويحق به الجزاء السيئ على المفسدين؟ وذلك أن الله تعالى يطوي السموات والأرض، وتنتثر الكواكب، وتكور الشمس والقمر، وتنزل الملائكة الكرام فتحيط بالخلائق، وينزل الباري تبارك وتعالى ﴿فِي ظُلُلٍ مِنْ الْفَمَاوِ﴾ ليفصل بين عباده بالقضاء العدل ﴿وَالْمَلَكُ﴾ تأتي كذلك ﴿وَفُضِيَ الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ فتوضع الموازين، وتنشر الدواوين، وتبيض وجوه أهل السعادة، وتسود وجوه أهل الشقاوة، ويتميز أهل الخير من أهل الشر، وكل يجازى بعمله؛ فهناك بعض الظالم على يديه إذا علم

وامتحان، وإنما الشأن كل الشأن والتفضيل الحقيقي في الدار الباقية، فلهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾: فيكون المتقون في أعلى الدرجات، متمتعين بأنواع النعيم والسرور والبهجة والحبور، والكفار تحتهم في أسفل الدرجات، معذبين بأنواع العذاب والإهانة، والشقاء السرمدي الذي لا منتهى له، ففي هذه الآية تسلية للمؤمنين، ونعي على الكافرين.

ولما كانت الأرزاق الدنيوية والأخروية لا تحصل إلا بتقدير الله، ولن تنال إلا بمشيئة الله؛ قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: فالرزق الدنيوي يحصل للمؤمن والكافر، وأما رزق القلوب من العلم والإيمان، ومحبة الله وخشيته ورجائه، ونحو ذلك؛ فلا يعطيها إلا من يحبه.

(٢١٣) ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ﴾ كانوا مجتمعين على الهدى، وذلك عشرة قرون بعد نوح عليه السلام فلما اختلفوا في الدين، فكفر فريق منهم، وبقي الفريق الآخر على الهدى وحصل النزاع؛ بعث الله الرسل ليفصلوا بين الخلائق ويقيموا الحجة عليهم، فرحمهم الله تعالى بإرسال الرسل إليهم ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ من أطاع الله بثمرات الطاعات؛ من الرزق، والقوة في البدن والقلب، والحياة الطيبة

صفات لا تشبهها الصفات، فصفاة تبع لذاته، وصفات خلقه تبع لذواتهم، فليس في إثباتها ما يقتضي التشبيه بوجه.

(٢١١) ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ آيَاتِنَا﴾ تدل على الحق - يعني الآية البينة - وعلى صدق الرسل، فتيقنوها وعرفوها، فلم يقوموا بشكر هذه النعمة التي تقتضي القيام بها؛ بل كفروا بها، وبدلوا نعمة الله كفراً؛ فلهذا استحقوا أن ينزل الله عليهم عقابه ويحرمهم من ثوابه ﴿وَمَنْ يُدِلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ﴾: سمي الله تعالى كفر النعمة تبديلاً لها؛ لأن من أنعم الله عليه نعمة دينية أو دنيوية؛ فلم يشكرها، ولم يقر بواجبها، اضمحلت عنه وذهبت، وتبدلت بالكفر والمعاصي، فصار الكفر بدل النعمة، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وقد توعد الله تعالى من فعل ذلك بأشد العقاب وأقوى العذاب.

(٢١٢) ﴿زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْعَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: يخبر تعالى أن الذين كفروا بالله وبآياته ورسله ولم ينقادوا لشرعه، أنهم زينت لهم الحياة الدنيا، فزينت في أعينهم وقلوبهم، فرضوا بها واطمأنوا بها؛ فصارت أهواؤهم وإراداتهم وأعمالهم كلها لها، فأقبلوا عليها وأكبوا على تحصيلها، وعظموها، واحتقروا المؤمنين واستهزؤوا بهم! وهذا من ضعف عقولهم ونظرهم القاصر؛ فإن الدنيا دار ابتلاء

(٢١٣) أخرج الطبري وابن أبي حاتم والحاكم بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «كان بين نوح وأدم عشرة قرون، كلها على شريعة في الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين».

وفي «صحيح مسلم» عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من الليل يصلي يقول: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه في الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم».

عدلاً منه تعالى، وإقامة حجة على الخلق،
وهدى - بفضلله ورحمته، وإعانتة ولطفه - من
شاء من عباده؛ فهذا فضلله وإحسانه، وذلك عدله
وحكمته تبارك وتعالى.

(٢١٤) ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ
مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾: يخبر - تبارك وتعالى -
أنه لا بد أن يمتحن عباده بالسراء والضراء والمشقة
كما فعل بمن قبلهم، فهي سنته الجارية التي لا
تتغير ولا تتبدل: أن من قام بدينه وشرعه لا بد أن
يبتليه، فإن صبر على أمر الله، ولم يبال بالمكاره
الواقفة في سبيله؛ فهو الصادق، ومن جعل فتنة
الناس كعذاب الله: بأن صدته المكاره عما هو
بصدده، وثنته المحن عن مقصده؛ فهو الكاذب
في دعوى الإيمان، فإنه ليس الإيمان بالتحلي
والتمني ومجرد الدعاوى، حتى تصدقه الأعمال
أو تكذبه، فقد جرى على الأمم الأقدمين ما ذكر
الله عنهم: ﴿مَسَّيْتُمْ الْأَسْأَءَ وَالضَّرَّاءَ﴾: الفقر،
والأمراض في أبدانهم ﴿وَزُلْزَلُوا﴾: بأنواع
المخاوف؛ من التهديد بالقتل، والنفي، وأخذ
الأموال، وقتل الأحبة، وأنواع المضار ﴿حَقَّ﴾
وصلت بهم الحال، وآل بهم الزلزال إلى أن
استبطؤوا نصر الله، مع يقينهم به، ولكن لشدة
الأمر وضيقه: ﴿يَقُولُ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى
نَصْرُ اللَّهِ؟﴾ فلما كان الفرج عند الشدة، وكلمها
ضاق الأمر اتسع؛ قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ
قَرِيبٌ﴾. فهكذا كل من قام بالحق فإنه يمتحن،

﴿وَمُنْذِرِينَ﴾ من عصى الله بثمرات المعصية؛
من حرمان الرزق، والضعف والإهانة والحياة
الضيقة.

﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾: وهو الإخبارات
الصادقة، والأوامر العادلة، فكل ما اشتملت عليه
الكتب فهو حق يفصل بين المختلفين في
الأصول والفروع، وهذا هو الواجب عند
الاختلاف والتنازع: أن يرد الاختلاف والتنازع
إلى الله وإلى رسوله، ولولا أن في كتابه وسنة
رسوله فصل النزاع؛ لما أمر بالرد إليهما.

﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ
إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا
بَيْنَهُمْ﴾: لما ذكر نعمته العظيمة بإنزال الكتب
على أهل الكتاب، وكان هذا يقتضي اتفاقهم
عليها واجتماعهم، فأخبر تعالى أنهم بغى بعضهم
على بعض، وحصل النزاع والخصام وكثرة
الاختلاف، فاختلّفوا في الكتاب الذي ينبغي أن
يكونوا أولى الناس بالاجتماع عليه، وذلك من
بعد ما علموه وتيقنوه بالآيات البينات، والأدلة
القاطعات، وضلوا بذلك ضلالاً بعيداً.

﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من هذه الأمة ﴿لِمَا
اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ﴾: فكل ما اختلف فيه أهل
الكتاب وأخطؤوا فيه الحق والصواب؛ هدى الله
للحق فيه هذه الأمة ﴿يَاذِينِ﴾ تعالى وتيسيره لهم
ورحمته ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾:
فعم الخلق تعالى بالدعوة إلى الصراط المستقيم؛

(٢١٤) في «صحيح البخاري» عن خباب بن الأرت رضي الله عنه؛ قال: قلنا: يا رسول الله ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ فقال: «إن من
كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفرق رأسه فيخلص إلى قدميه، لا يصرفه ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما
بين لحمه وعظمه. لا يصرفه ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت؛ لا يخاف إلا
الله، والذئب على غنمه، ولكنكم قوم تستعجلون».

عليهما. ومن بعد الوالدين الأقربون، على اختلاف طبقاتهم، الأقرب فالأقرب، على حسب القرب والحاجة، فالإنفاق عليهم صدقة وصلة ﴿وَالْيَتَمَى﴾: وهم الصغار الذين لا كاسب لهم، فوصى الله بهم العباد؛ رحمة منه بهم ولطفًا ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾: وهم أهل الحاجات وأرباب الضرورات، الذين أسكنتهم الحاجة، فينفق عليهم؛ لدفع حاجاتهم وإغنائهم ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾؛ أي: الغريب المنقطع به في غير بلده، فيعان على سفره بالنفقة التي توصله إلى مقصده. ولما خصص الله تعالى هؤلاء الأصناف لشدة الحاجة؛ عمّم تعالى، فقال: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾: من صدقة على هؤلاء وغيرهم، بل ومن جميع أنواع الطاعات والقربات؛ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾: فيجازيكم عليه، ويحفظه لكم؛ كل على حسب نيته وإخلاصه، وكثرة نفقته وقلتها، وشدة الحاجة إليها، وعظم وقعها ونفعها.

(٢١٦) ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾^١
 في هذه الآية أمر الله تعالى المؤمنين بالقتال،
 وأخبر أنه مكروه للنفوس؛ لما فيه من التعب
 والمشقة، وحصول أنواع المخاوف والتعرض
 للمتألف، ومع هذا فهو خير محض؛ لما فيه من
 الثواب العظيم، والتحرز من العقاب الأليم،
 والنصر على الأعداء، وغير ذلك مما هو مُرَبٍّ
 على ما فيه من الكراهة ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا
 وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾^٢: وذلك مثل القعود عن الجهاد

الْحَرْبُ النَّبَاتِيَّةُ

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣١﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْفَحْرِ الْحَرَامِ وَقِتَالِ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدْعَنْ سَبِيلَ اللَّهِ وَكُفْرُ بِهِ وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ يَفْتَنُونَكُم حَتَّى يَرُدَّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْطَلَعُوا وَمَنْ يَزِدْكُمْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ - فِيمَتٌ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٣﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْمَغْفُورُ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٣٤﴾

٣٤

فإذا صابر وثابر؛ انقلبت المحنة في حقه منحة،
والمشقات راحات، وأعقبه ذلك الانتصار على
الأعداء.

(٢١٥) ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾: يسألونك عن النفقة، وهذا يعم السؤال من المنفق والمنفق عليه، فأجابه عنهما فقال: ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾؛ أي: مال قليل أو كثير ﴿فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ فأولى الناس به وأحقهم بالتقديم: أعظمهم حقاً عليك؛ وهم الوالدان الواجب برهما، والمحرم عقوقهما، ومن أعظم برهما: النفقة عليهما. ومن أعظم العقوق: ترك الإنفاق

(٢١٥) أخرج الإمام أحمد بإسناد حسن من حديث أبي رُمثة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يد المعطي العليا، أمك وأباك وأختك وأخاك، ثم أدناك أدناك».

(٢١٦) في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات ولم يغز، ولم يحدث نفسه بالغزو؛ مات على شعبة من نفاق».

﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا﴾: ثم أخبر تعالى أنهم لن يزالوا يقاتلون المؤمنين، وليس غرضهم في أموالهم وقتلهم، وإنما غرضهم أن يرجعوه عن دينهم، ويكونوا كفارًا بعد إيمانهم؛ حتى يكونوا من أصحاب السعير، فهم باذلون قدرتهم في ذلك ساعون بما أمكنهم

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِمِثَّتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾: أخبر تعالى أن من ارتد عن الإسلام بأن اختار عليه الكفر، واستمر على ذلك حتى مات كافرًا؛ ﴿فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ لعدم وجود شرطها؛ وهو الإسلام ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

(٢١٨) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَّهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: هذه الأعمال الثلاثة هي عنوان السعادة، وقطب رحي العبودية، وبها يعرف ما مع الإنسان من الريح والخسران: فأما الإيمان؛ فلا تسأل عن فضيلته، وهو الذي إذا كان مع العبد قبلت أعمال الخير منه، وإذا عدم منه؛ لم يقبل له صرف ولا عدل، ولا فرض ولا نفل. وأما الهجرة؛ فهي مفارقة المحبوب المألوف لرضا الله تعالى، فترك المهاجر وطنه وأمواله، وأهله وخلانه، تقريبًا إلى الله ونصرة لدينه. وأما الجهاد؛ فهو بذل الجهد في مقارعة الأعداء، والسعي التام في نصرة دين الله وقمع دين الشيطان، وهو ذروة الأعمال الصالحة، فمن قام بهذه الأعمال الثلاثة على لأوائها

لطلب الراحة، فإنه شر؛ لأنه يعقب الخذلان وتسلط الأعداء على الإسلام وأهله، وحصول الذل والهوان. وهذه الآية عامة مطردة في أن أفعال الخير التي تكرها النفوس خير بلا شك، وأن أفعال الشر التي تحبها النفوس - لما تتوهمه فيها من الراحة واللذة - شر بلا شك، وعلى المرء أن يعلم أن الله تعالى أرحم بالعبد من نفسه، وأقدر على مصححة عبده منه، وأعلم بمصلحته منه؛ كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فاللائق بكم أن تتمشوا مع أقداره، سواء سرتكم أو ساءتكم.

(٢١٧) ولما كان الأمر بالقتال لو لم يقيد لشمّل الأشهر الحرم وغيرها؛ استثنى تعالى القتال في الأشهر الحرم، فقال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾؛ أي: يسأل المشركون - على وجه التعبير - عن القتال في الأشهر الحرم، وكانوا في تعييرهم ظالمين؛ إذ فيهم من القبائح ما بعضه أعظم مما عيروا به المسلمين، قال تعالى في بيان ما فيهم: ﴿وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾: صد المشركين من يريد الإيمان بالله وبرسوله، وفتنتهم من آمن به، وسعيهم في ردهم عن دينهم، وكفرهم الحاصل في الشهر الحرام والبلد الحرام ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ﴾: أهل المسجد الحرام؛ وهم النبي ﷺ وأصحابه؛ لأنهم أحق به من المشركين، وهم عُمره على الحقيقة، فأخرجوهم ﴿مِنْهُ﴾ ولم يمكنوهم من الوصول إليه؛ فهذه الأمور كل واحد منها ﴿أَكْبَرُ مِنْ الْقَتْلِ﴾ في الشهر الحرام، فكيف وقد اجتمعت فيهم؟! فعلم أنهم فسقة ظلمة في تعييرهم المؤمنين.

(٢٢٠) ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ لكي تستعملوا أفكاركم في أسرار شرعه، وتعرفوا أن أوامره فيها مصالح الدنيا والآخرة.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّتِي قُلَ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ حَيْرٌ﴾: أخبر تعالى المسلمين أن المقصود إصلاح أموال اليتامى؛ بحفظها وصيانتها، والاتجار فيها ﴿وَإِنْ تَخَاطَوْهُمْ فَأَوْخُواهُمْ﴾ وأن خلطتهم إياها في طعام وغيره جائز، على وجه لا يضر باليتامى؛ لأنهم إخوانكم، ومن شأن الأخ مخالطة أخيه، والمرجع في ذلك إلى النية والعمل: فمن علم الله من نيته أنه مصلح لليتيم وليس له طمع في ماله، فلو دخل عليه شيء من غير قصد؛ لم يكن عليه بأس، ومن علم الله من نيته أن قصده بالمخالطة التوصل إلى أكلها وتناولها؛ فذلك الذي حُرِّجَ وأُثم، والوسائل لها أحكام المقاصد. وهذه الرخصة لطف من الله تعالى وإحسان وتوسعة على المؤمنين، وإلا؛ فلو ﴿شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾: شق عليكم بعد الرخصة بذلك، فحرجتم وشق عليكم وأثمتم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾: له القوة الكاملة، والقهر لكل شيء ﴿حَكِيمٌ﴾: لا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته الكاملة وعنايته التامة، فأفعاله وأحكامه تابعة لحكمته، فلا يخلق شيئاً عبثاً؛ فلا يأمر إلا بما فيه مصلحة خالصة - أو راجحة-، ولا ينهى إلا عما فيه مفسدة خالصة - أو راجحة-.

(٢٢١) ﴿وَلَا تَنْكِحُوا﴾ النساء ﴿الْمُشْرِكَاتِ﴾ ما دمن على شركهن ﴿حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَأَمَّةٌ مُؤْمِنَةٌ حَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾؛ لأن المؤمنة - ولو بلغت من الدمامة ما بلغت - خير من المشركة - ولو بلغت من الحسن ما بلغت -، وهذه عامة في جميع النساء المشركات، خصصتها آية المائدة في إباحة نساء أهل الكتاب. ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾: وهذا عام لا تخصيص فيه، ودلّ قوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا﴾ على اعتبار الولي في النكاح ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ حَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ المؤمن ولو كان عبداً حبشياً خير من المشرك ولو كان رئيساً سرياً.

ثم ذكر تعالى الحكمة في تحريم نكاح المسلم، أو المسلمة، لمن خالفهما في الدين، فقال: ﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾؛ أي: في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، فمخالطتهم على خطر منهم، والخطر ليس من الأخطار الدنيوية؛ إنما هو الشقاء الأبدي.

ويستفاد من تعليل الآية النهي عن مخالطة كل مشرك ومبتدع؛ لأنه إذا لم يجز الزوج مع أنه فيه مصالح كثيرة، فالحلطة المجردة من باب أولى، وخصوصاً الخلطة التي فيها ارتفاع المشرك على المسلم.

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ﴾؛ أي: يدعو عباده لتحصيل الجنة والمغفرة التي من آثارها دفع

(٢٢٠) أخرج أبو داود والنسائي والترمذي بإسناد صحيح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً؛ فإنها نذهب المال والعقل. فنزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ التي في سورة البقرة، فدعي عمر، فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً. فنزلت الآية التي في سورة النساء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾ فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقام صلاة نادى: «أن لا يقرن الصلاة سكران»؛ فدعي عمر، فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً. فنزلت الآية التي في المائدة؛ فدعي عمر، فقرئت عليه، فلما بلغ ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنْهَوْنَ﴾ قال عمر: انتهينا انتهينا.

الْعَقُوبَاتِ ﴿يَاذِيهِ﴾ بشرعه، وما أمر به وما نهى عنه ﴿وَيَسِّرْ أَيْتَهُ﴾: أحكامه وحكمها ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾؛ فيوجب لهم ذلك التذكر لما نسوه، وعلم ما جهلوه، والامثال لما ضيعوه.

(٢٢٢) ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾: يخبر تعالى عن سؤالهم عن المحيض: هل تكون المرأة بحالها بعد الحيض كما كانت قبل ذلك، أم تجتنب مطلقاً كما يفعله اليهود؟
﴿قُلْ هُوَ أَذَى﴾ فأخبر تعالى أن الحيض أذى، وإذا كان أذى؛ فمن الحكمة أن يمنع الله تعالى عباده من الأذى وحده ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾؛ أي: مكان الحيض؛ وهو الوطء في الفرج خاصة، فهذا هو المحرم إجماعاً ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ﴾؛ أي: لا تجامعوهن. وأما الملامسة والمضاجعة فجائزة. وحدّ هذا الاعتزال وعدم القربان للحيض ﴿حَتَّى يَظْهَرْنَ﴾؛ أي: ينقطع دمهن، فإذا انقطع الدم زال المنع الموجود وقت جريانه ﴿فَإِذَا ظَهَرْنَ﴾ أي: اغتسلن ﴿فَأَتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾؛ أي: في القبل لا في الدبر؛ لأنه محل الحرث: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

التَّوَّابِينَ﴾ من ذنوبهم على الدوام ﴿وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾: المتزهين عن الآثام، وهذا يشمل التطهر الحسي من الأنجاس والأحداث، ويشمل التطهر المعنوي عن الأخلاق الرذيلة والصفات القبيحة، والأفعال الخسيسة.

(٢٢١) في «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك».

(٢٢٢) في «صحيح مسلم» عن أنس رضي الله عنه: «أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوها في البيوت، فسأل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم؛ فأنزل الله تعالى ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ حتى فرغ من الآية، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح» فبلغ ذلك اليهود، فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع شيئاً إلا خالفنا فيه!

(٢٢٣) في «الصحيحين»، عن جابر رضي الله عنه قال: كانت اليهود تقول: إذا جامعها من ورانها جاء الولد أحول. فنزلت: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾.

وأخرج الترمذي وأحمد بإسناد حسن عن ابن عباس رضي الله عنه؛ قال: جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، هلكت. قال: «ما الذي أهلكك؟» قال: حولت رحلي الباردة! قال: فم يرد عليه شيئاً. قال: فأوحى الله إلى الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الآية: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾: «أقبل وأدبر واتق الدبر والحيضة».

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ شُحُورٍ وَلَا يُحِلُّ لهنَّ أَنْ يَكُنَّ مِمَّا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَنْفُسِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَهُنَّ مُعَوَّلَتٌ أُنْحَرِيزُهُنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ وَلَا يُحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا خَلَقْتُمْ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يُحَاقَا الْإِيقِيمَا حَدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ذَٰلِكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٨﴾ إِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَتَكَحَّلَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٢٩﴾

(٢٢٦) ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ : هذا من الأيمان الخاصة بالزوجة في أمر خاص؛ وهو حلف الرجل على ترك وطء زوجته مطلقاً، أو مقيداً بأقل من أربعة أشهر، أو أكثر. فمن آلى -حلف- من زوجته خاصة، فإن كان لدون أربعة أشهر؛ فهذا مثل سائر الأيمان: إن حنث كفر، وإن أتم يمينه؛ فلا شيء عليه، وليس لزوجه عليه سبيل. وإن كان أبداً -أو مدة تزيد على أربعة أشهر-؛ ضربت له مدة أربعة أشهر من يمينه إذا طلبت زوجته؛ لأنه حق لها، فإذا تمت أمر بالفئة -وهو

واندفاع كل ضير رُتب على الإيمان؛ فهو داخل في هذه البشارة.

(٢٢٤) ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ : كان الله تعالى قد أمر بحفظ الأيمان، وكان مقتضى ذلك حفظها في كل شيء؛ ولكن الله تعالى استثنى من ذلك إذا كان البر باليمين يتضمن ترك ما هو أحب إليه، فنهى عباده أن يجعلوا أيمانهم عرضة مانعة وحائلة عن أن يبروا؛ أي: يفعلوا خيراً، ويتقوا شراً، أو يصلحوا بين الناس ثم ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين، فقال: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لجميع الأصوات ﴿عَلِيمٌ﴾ بالمقاصد والنيات، ومنه سماعه لأقوال الحالفين وعلمه بمقاصدهم هل هي خير أم شر، وفي ضمن ذلك التحذير من مجازاته، وأن أعمالكم ونياتكم قد استقر علمها عنده.

(٢٢٥) ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ : أي: لا يؤاخذكم بما يجري على ألسنتكم من الأيمان اللاغية، التي يتكلم بها العبد من غير قصد منه ولا كسب قلب؛ ولكنها جرت على لسانه، وإنما المؤاخذة على ما قصده القلب، وفي هذا دليل على اعتبار المقاصد في الأقوال كما هي معتبرة في الأفعال ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لمن تاب إليه ﴿حَكِيمٌ﴾؛ بمن عساه؛ حيث لم يعاجله بالعقوبة، بل حلم عنه وستر وصفح مع قدرته عليه.

(٢٢٦) في «الصحيحين» عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ : «إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللته».

(٢٢٥) أخرج أبو داود بإسناد صحيح عن عطاء: في اللغو في اليمين، قال: قالت عائشة: إن رسول الله ﷺ قال: «هو كلام الرجل في بيته: كلا والله، وبلى والله».

خَلَقَ اللَّهُ فِي أَنْفُسِهِمْ وَحَرَّمَ عَلَيْهِمْ كِتْمَانُ ذَلِكَ
 مِنْ حَمَلٍ أَوْ حَيْضٍ؛ لِأَنَّ كِتْمَانُ ذَلِكَ يَفْضِي إِلَى
 مَفَاسِدَ كَثِيرَةٍ ﴿إِنْ كُنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾
 فَصُدُّوا كِتْمَانُ مَنْهَنْ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ إِيْمَانِهِمْ
 بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَإِلَّا؛ فَلَوْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
 الْآخِرِ، وَعَرَفْنَ أَنَّهُنَّ مُجْزِيَاتٌ عَنْ أَعْمَالِهِنَّ؛ لَمْ
 يَصْدُرْ مِنْهِنَّ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ
 عَلَى قَبُولِ خَبَرِ الْمَرْأَةِ عَمَّا تَخْبِرُ بِهِ عَنْ نَفْسِهَا
 مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي لَا يَطْلُعُ عَلَيْهِ غَيْرُهَا - كَالْحَمَلِ
 وَالْحَيْضِ، وَغَيْرِهَا - ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي
 ذَلِكَ﴾؛ أَيُ: لِأَزْوَاجِهِنَّ مَا دَامَتْ مُتْرِبِصَةً فِي
 تِلْكَ الْعِدَّةِ أَنْ يَرُدَّوْهُنَّ إِلَى نِكَاحِهِنَّ ﴿إِنْ أَرَادُوا
 إِصْلَاحًا﴾: رَغْبَةً وَأَلْفَةً وَمُودَةً ﴿وَلَهُنَّ﴾: وَلِلنِّسَاءِ
 عَلَى بُعُولَتِهِنَّ مِنَ الْحَقُوقِ وَاللُّوَاظِمِ ﴿مِثْلُ الَّذِي
 عَلَيْهِنَّ﴾ لِأَزْوَاجِهِنَّ مِنَ الْحَقُوقِ الْإِلَازِمَةِ
 وَالْمُسْتَحَبَةِ ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾، وَمَرْجِعُ ذَلِكَ إِلَى
 الْمَعْرُوفِ، وَهُوَ: الْعَادَةُ الْجَارِيَةُ فِي ذَلِكَ الْبَلَدِ
 وَذَلِكَ الزَّمَانِ مِنْ مِثْلِهَا لِمِثْلِهِ، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى
 أَنَّ النِّفْقَةَ وَالْكُسُوءَ وَالْمَعَاشِرَةَ وَالْمَسْكَنَ وَالْوِطَاءَ
 الْكُلَّ يَرْجِعُ إِلَى الْمَعْرُوفِ ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾:
 رَفْعَةٌ وَرِيَاسَةٌ، وَزِيَادَةُ حَقِّ عَلَيْهَا ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾: لَهُ
 الْعِزَّةُ الْقَاهِرَةُ وَالسُّلْطَانُ الْعَظِيمُ، الَّذِي دَانَتْ لَهُ
 جَمِيعُ الْأَشْيَاءِ؛ ﴿حَكِيمٌ﴾ وَلَكِنَّهُ - مَعَ عِزَّتِهِ - حَكِيمٌ
 فِي تَصَرُّفِهِ.

الوطء -، فَإِنْ وَطِئَ فَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ إِلَّا كِفَارَةٌ
 الْيَمِينِ، وَإِنْ امْتَنَعَ أُجْبِرَ عَلَى الطَّلَاقِ. وَلَكِنْ
 الْفَيْئَةُ وَالرَّجُوعُ إِلَى زَوْجَتِهِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى،
 وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَإِنْ قَاءُوا﴾: رَجَعُوا إِلَى مَا حَلَفُوا
 عَلَى تَرْكِهِ - وَهُوَ الْوِطَاءُ -؛ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ﴾: يَغْفِرُ
 لَهُمْ مَا حَصَلَ مِنْهُمْ مِنَ الْحَلْفِ بِسَبَبِ رَجُوعِهِمْ
 ﴿رَحِيمٌ﴾؛ حَيْثُ يَجْعَلُ لِأِيْمَانِهِمْ كِفَارَةً وَتَحْلَةً،
 وَلَمْ يَجْعَلْهَا لِأَزْمَةِ لَهُمْ غَيْرَ قَابِلَةٍ لِلانْفِكَاحِ،
 وَرَحِيمٌ بِهِمْ - أَيْضًا - حَيْثُ فَاءُوا إِلَى زَوْجَاتِهِمْ
 وَحَتُّوا عَلَيْهِمْ وَرَحِمُوهُمْ.

(٢٢٧) ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾؛ أَيُ: امْتَنَعُوا مِنْ
 الْفَيْئَةِ؛ فَكَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى رَغْبَتِهِمْ عَنْهِنَّ،
 وَعَدَمِ إِرَادَتِهِمْ لِأَزْوَاجِهِمْ، وَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا عِزْمًا
 عَلَى الطَّلَاقِ؛ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فِيهِ وَعِيدٌ
 وَتَهْدِيدٌ لِمَنْ يَحْلِفُ هَذَا الْحَلْفَ، وَيَقْصِدُ بِذَلِكَ
 الْمُضَارَّةَ وَالْمِشَاقَّةَ.

(٢٢٨) ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ﴾: النِّسَاءُ اللَّاتِي طَلَّقَهُنَّ
 أَزْوَاجُهُنَّ ﴿يَرْجِعْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ﴾: يَنْتَظِرْنَ وَيَعْتَدِدْنَ
 مَدَّةَ ﴿ثَلَاثَةِ قُرُوءٍ﴾ أَيُ: حَيْضٍ، أَوْ أَطْهَارٍ؛
 عَلَى اخْتِلَافِ الْعُلَمَاءِ فِي الْمُرَادِ بِذَلِكَ، مَعَ أَنَّ
 الصَّحِيحَ أَنَّ الْقُرْءَ: الْحَيْضَ، وَالْحِكْمَةُ مِنْ هَذِهِ
 الْعِدَّةِ: الْعِلْمُ بِبِرَاءَةِ الرَّحِمِ، إِذَا تَكَرَّرَتْ عَلَيْهَا
 ثَلَاثَةُ الْأَقْرَاءِ؛ عِلْمٌ أَنَّهُ لَيْسَ فِي رَحِمِهَا حَمَلٌ،
 فَلَا يَفْضِي إِلَى اخْتِلَاطِ الْأَنْسَابِ ﴿وَلَا يَحِلُّ لهنَّ أَنْ
 يَكْتُمْنَ﴾؛ أَيُ: يَجِبُ عَلَيْهِنَّ الْإِخْبَارُ عَنْ ﴿مَا

(٢٢٦) أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: إِذَا آلَى الرَّجُلُ مِنْ أَمْرَاتِهِ لَمْ يَقَعْ عَلَيْهِ طَلَاقٌ وَإِنْ مَضَتْ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ،
 حَتَّى يَوْقِفَ، فَإِمَّا يَطْلُقُ، وَإِمَّا أَنْ يَفِي.

(٢٢٨) فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِي خُطْبَتِهِ فِي حُجَّةِ الْوُدَّاعِ: «فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ
 أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَلَّا يَوطئنَ فَرْشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ
 فَضَرْبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرِحٍ، وَلَهُنَّ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ».

الحرام، فلم يسعه ما أحل الله؟
 (٢٣٠) ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ الطلقة الثالثة؛ ﴿فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ نكاحاً صحيحاً ويطؤها؛ لأن النكاح الشرعي لا يكون إلا صحيحاً، ويدخل فيه العقد والوطء؛ وهذا بالاتفاق.

ويتعين أن يكون نكاح الثاني نكاح رغبة، فإن قصد به تحليلها للأول؛ فليس بنكاح ولا يفيد التحليل، ولا يفيد وطء السيد؛ لأنه ليس بزواج ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ فإذا تزوجها الثاني - راغباً ووطأها - ثم فارقها وانقضت عدتها؛ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ على الزوج الأول والزوجة ﴿أَنْ يَتَرَاجَعَا﴾: يجدا عقداً جديداً بينهما، ﴿إِنْ طَنَّا﴾: يشترط في التراجع أن يظنا ﴿أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾؛ بأن يقوم كل منهما بحق صاحبه؛ وذلك إذا ندما على عسرتهم السابقة الموجبة للفراق، وعزما أن يبدلاها بعشرة حسنة، فهنا لا جناح عليهما في التراجع ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾؛ لأنهم هم المنتفعون بها، النافعون لغيرهم، وفي هذا من فضيلة أهل العلم، ما لا يخفى؛ لأن الله تعالى جعل تبينه لحدوده خاصاً بهم وأنهم المقصودون بذلك، وأن الله تعالى يحب من عباده معرفة حدود ما أنزل على رسوله والتفقه بها.

(٢٢٩) ﴿الطَّلَاقُ﴾ الذي تحصل به الرجعة ﴿مَرَّتَانٍ﴾؛ ليتمكن الزوج - إن لم يرد المضارة - من ارتجاعها، ويراجع رأيه في هذه المدة، وأما ما فوقها؛ فليس محلاً لذلك؛ لأن من زاد على الثنتين فيما متجرئ على المحرم، أو ليس له رغبة في إمساكها، بل قصده المضارة ﴿فَلَمَسَاكُ﴾: أمر تعالى الزوج أن يمسك زوجته ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾؛ أي: عشرة حسنة ﴿أَوْ تَشْرِيحٍ﴾: وإلا يسرحها ويفارقها ﴿يَا حَسَنُ﴾ ومن الإحسان: ألا يأخذ على فراقه لها شيئاً من مالها؛ لأنه ظلم وأخذ للمال في غير مقابلة بشيء، فلهذا قال: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْنَاهُمْ شَيْئًا﴾ أي: لا يحل لكم أن تضاجروهم وتضيقوا عليهن ليفتدين منكم بما أعطيتموهن من الأصدقة أو ببعضه ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾: وهي المخالعة بالمعروف، بأن كرهت الزوجة زوجها لخلقه أو خلقه أو نقص دينه، وخافت ألا تطيع الله فيه، ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾؛ لأنه عوض لتحصيل مقصودها من الفقرة، وفي هذا مشروعية الخلع إذا وجدت هذه الحكمة ﴿تِلْكَ﴾؛ أي: ما تقدم من الأحكام الشرعية ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾: أحكامه التي شرعها لكم، وأمر بالوقوف معها ﴿فَلَا تَعْدُوهَا﴾ فلا تجاوزوها ﴿وَمَنْ يَعْصِ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾: وأي ظلم أعظم ممن اقتحم الحلال، وتعدى منه إلى

(٢٢٩) أخرج أحمد والترمذي وابن ماجه بإسناد صحيح، عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أيما امرأة سألت زوجها طلاقها من غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة».

(٢٣٠) في «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ سئل عن المرأة يتزوجها الرجل فيطلقها، فتزوج رجلاً فيطلقها قبل أن يدخل بها: أنحل لزوجها الأول؟ قال: «لا. حتى يذوق عسيتها».

وأخرج أحمد بإسناد صحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: «لعن المحلل والمحلل له».

المقصود: العلم بها والعمل، والوقوف معها وعدم مجاوزتها لأنه تعالى لم ينزلها عبثاً، بل أنزلها بالحق والصدق - نهى عن اتخاذها هزواً؛ أي: لعباً بها؛ وهو التجرؤ عليها، وعدم الامتثال لواجبها ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: عمومًا باللسان حمداً وثناءً -، وبالقلب اعتراقاً وإقراراً، وبالأركان بصرفها في طاعة الله ﴿وَمَا أَرْزَلْ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ الْقُرْآنَ وَالْحِكْمَةَ﴾: أي: السنة ﴿يُعْظِرُكُمْ بِهِ﴾: بما أنزل عليكم، يأمركم وينهاكم ويتوعدكم على ارتكاب المحارم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: في جميع أموركم ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: فلا يخفى عليه شيء من أموركم السرية والجهرية، وسيجازيكم على ذلك؛ فلهذا بين لكم هذه الأحكام بغاية الإتيان والإحكام، التي هي جارية مع المصالح في كل زمان ومكان، فله الحمد والمنة.

(٢٣٢) ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَجْلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَضَوْا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾: هذا خطاب لأولياء المرأة المطلقة دون الثلاث إذا خرجت من العدة، وأراد زوجها أن ينكحها ورضيت بذلك؛ فلا يجوز لوليها - من أب وغيره - أن يعضلها؛ أي: يمنعها من الزواج به؛ حقاً عليه وغضباً واشتمزازاً لما فعل من الطلاق الأول، وذكر أن ﴿ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: فإيمانه يمنعه من العضل ﴿ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾: وأطيب مما يظن الولي أن عدم تزويجه هو الرأي واللائق وأنه يُقَابِلُ بطلاقه الأول بعدم

إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَجْلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَضَوْا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضَرَارًا لِعْتِدَآؤٍ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَرْزَلْ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يُعْظِرُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَجْلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَضَوْا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةُ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ وِثْرًا لَهَا وَلَا نَفْسًا وَرِزْقُهَا وَلَدُهُ بَرْئًا وَلَا ذِمَّةً وَلَوْلَا ذَلِكَ لَفَسَدَتِ السُّلُوكُ وَالْأَرْوَاقُ وَثَلَّ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَ فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَفَشَادٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِضُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمُ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾

(٢٣١) ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾: طلاقاً رجعيًا بواحدة أو اثنتين ﴿فَلَنْ أَجْلَهُنَّ﴾: قاربن انقضاء عدتهن؛ ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾: إما أن تراجعوهن ونبيتكم القيام بحقوقهن، أو تتركوهن بلا رجعة ولا إضرار ولهذا قال: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضَرَارًا﴾: مضارة بهن ﴿لِعْتِدَآؤٍ﴾: في فعلكم هذا الحلال إلى الحرام، فالحلال الإمساك بالمعروف، والحرام المضارة ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾: فكون الحق يعود للمخلوق فالضرر عائد إلى من أراد الضرر، ويكون ظالمًا لنفسه بمخالفة أمر الله ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾: لما بين تعالى حدوده غاية التبسين، وكان

(٢٣٢) أخرج البخاري عن معقل بن يسار رضي الله عنه؛ قال: زوجت أختاً لي من رجل؛ فطلقها، حتى انقضت عدتها؛ جاء يخطبها، فقلت له: زوجتك وأفرشتك وأكرمتك، فطلقها، ثم جئت تخطبها! إلا والله لا تعود إليك أبداً. وكان رجلاً لا بأس به، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه؛ فأنزل هذه الآية ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾؛ فقلت: الآن أفعل يا رسول الله. قال: «فزوجه إياه».

تزويجه، فإن كان يظن أن المصلحة في عدم تزويجه، فالله ﴿يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فامتثلوا أمر من هو عالم بمصالحكم، مريد لها، قادر عليها، ميسر لها من الوجه الذي تعرفون وغيره. وفي هذه الآية دليل عليّ أنه لا بد من الولي في النكاح؛ لأنه نهى الأولياء عن العضل، ولا ينهاهم إلا عن أمر هو تحت تدبيرهم، ولهم في الحق.

(٢٣٣) ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ﴾: هذا خبر بمعنى الأمر، تنزيلا له منزلة المتقرر، الذي لا يحتاج إلى أمر، ولما كان الحول يطلق على الكامل وعلى معظم الحول؛ قال: ﴿كَامِلَيْنِ﴾ ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّ الرِّضَاعَةَ﴾ فإذا تم للرضيع حولان؛ فقد تم رضاعه، وصار اللبن بعد ذلك بمنزلة سائر الأغذية؛ فلهذا كان الرضاع بعد الحولين غير معتبر، ولا يُحَرِّم. ﴿وَعَلَى الْوَالِدِ لَهُ﴾: الأب ﴿رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾: وهذا شامل لما إذا كانت في حباله أو مطلقة، فإن على الأب رزقها: نفقتها وكسوتها، وهي الأجرة للرضاع ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾: فلا يكلف الفقير أن ينفق نفقة الغني، ولا من لم يجد شيئا بالنفقة حتى يجد: ﴿لَا تُضَاكَّرُ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لُمٌّ بِوَلَدِهِ﴾: لا يحل أن تضار الوالدة بسبب ولدها؛ إما أن تُمنع من إرضاعه، أو لا تعطى ما يجب لها من النفقة والكسوة، أو الأجرة، ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لُمٌّ بِوَلَدِهِ﴾: بأن تمتنع من إرضاعه على وجه المضارة له، أو تطلب زيادة عن الواجب، ونحو ذلك من أنواع الضرر. ودل قوله: ﴿مَوْلُودٌ لُمٌّ﴾؛ أن الولد لأبيه؛ لأنه

وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مِنْكُمْ ذَرَوْنَ أَرْوَاجًا يَرَوْنَ بِأَنْفُسِهِمْ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغَ أَجَلُهُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْتُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْكُمْ سَتَذَكَّرُونَ هُنَّ وَلَكِنْ لَا تُؤْأَعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْرِضُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ ﴿١٣٥﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرَهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَصِفْهُمَا فَرِضَتُهُمَا إِلَّا أَنْ يَتَمَوَّعَا أَوْ يَتَمَوَّعَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَقُولُوا اقْرَبُوا لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٣٧﴾

٢٨

موهوب له، ولأنه من كسبه، فلذلك جاز له الأخذ من ماله، رضي أو لم يرض، بخلاف الأم.

﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾: على وارث الطفل إذا عدم الأب، وكان الطفل ليس له مال، مثل ما على الأب من النفقة للمرضع والكسوة. فدل على وجوب نفقة الأقارب المعسرين على القريب الوارث الموسر.

﴿فَإِنْ أَرَادَا الْأَبْوَانَ﴾: فصلا؛ ﴿فَطَامَ الصَّبِيَّ قَبْلَ الْحَوْلَيْنِ﴾: عَنْ رَاضٍ مَتَّعًا؛ بأن يكونا راضيين ﴿وَتَشَاوَرًا﴾: فيما بينهما؛ هل هو مصلحة للصبي، أم لا؟ فإن كان مصلحة ورضيا؛ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ في فطامه قبل الحولين.

(٢٣٣) أخرج الترمذي بإسناد صحيح من أم سلمة ؓ؛ قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يحرم في الرضاع إلا ما فتق الأمعاء في الثدي، وكان قبل العظام».

التصريح لا يحتمل غير النكاح، فلهذا حرم خوفاً عن استعجالها، وكذبها في انقضاء عدتها؛ رغبة في النكاح، وأما التعريض - وهو: الذي يحتمل النكاح وغيره -؛ فهو جائز للباثن، كأن يقول: إني أريد التزويج، وإني أحب أن تشاوريني عند انقضاء عدتك، ونحو ذلك، فهذا جائز؛ لأنه ليس بمنزلة الصريح، وفي النفوس داع قوي إليه، وكذلك إضمار الإنسان في نفسه أن يتزوج من هي في عدتها إذا انقضت ولهذا قال: ﴿أَوْ أَكُنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهَا وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ أي: يعرض لها بالقول المعروف، وهذا التفصيل كله في مقدمات العقد ﴿وَلَا تَقْرَبُوا عَهْدَ الْنِكَاحِ﴾: وأما عقد النكاح فلا يحل ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾: حتى تنقضي العدة ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ فانووا الخير، ولا تنووا الشر؛ خوفاً من عقابه ورجاء لثوابه ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ﴾ لمن صدرت منه الذنوب، فتابع منها ورجع إلى ربه ﴿حَلِيمٌ﴾ حيث لم يعاجل العاصين على معاصيهم، مع قدرته عليهم.

(٢٣٦) ﴿لَا﴾: ليس عليكم يا معشر الأزواج ﴿جُنَاحٌ﴾: إثم ﴿إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾: بتطليق النساء قبل الميسس وفرض المهر ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ﴾ بأن تعطوهن شيئاً من المال جبراً لخواطرن ﴿عَلَى الْوُسْعِ﴾ الغني ﴿قَدَرُهُ وَعَلَى الْمَقْتَرِ﴾: المعسر (الفقير) ﴿قَدَرُهُ﴾ في حال السعة، وهو إمكانه وطاقته، وهذا يرجع إلى العرف وأنه يختلف باختلاف الأحوال ﴿مَتَّعًا﴾

﴿وَلِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ سَتَرْتُمْ عَنْ أَوْلَادِكُمْ﴾: تطلبوا لهم الأمراض غير أمهاتهم على غير وجه المضارة؛ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا بَيْنَكُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ للمرضعات ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: فمجازيكم على ذلك بالخير والشر.

(٢٣٤) ﴿وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ إذا توفي الزوج مكثت زوجته متربصة أربعة أشهر وعشرة أيام وجوباً، والحكمة في ذلك ليتبين الحمل في مدة الأربعة، ويتحرك في ابتدائه في الشهر الخامس، وهذا العام مخصوص بالحوامل، فإن عدتهن بوضع الحمل، وكذلك الأمة، عدتها على النصف من عدة الحرة، شهران وخمسة أيام. ﴿فَإِذَا بَلَغَنَّ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: انقضت عدتهن ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ﴾: من مراجعتها للزينة والطيب ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾: على وجه غير محرم ولا مكروه، وفي هذا وجوب الإحدا مدة العدة على المتوفى عنها زوجها دون غيرها من المطلقات والمفارقات؛ وهو مجمع عليه بين العلماء ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾: عالم بأعمالكم؛ ظاهرها وباطنها، جليها وخفيها، فمجازيكم عليها.

(٢٣٥) ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ هذا حكم المعتدة من وفاة، أو المبانة في الحياة: فيحرم على غير مبينها أن يصرح لها في الخطبة، وهو المراد بقوله: ﴿وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ وأما التعريض؛ فقد أسقط تعالى فيه الجناح، والفرق بينهما: أن

(٢٣٤) في «الصحيحين» عن أم حبيبة وزينب بنت جحش ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث؛ إلا على زوج؛ أربعة أشهر وعشراً».

بِالْمَعْرُوفِ ﴿٢٣٧﴾ فهذا حق واجب ﴿عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ ليس لهم أن يبخسوهن، فكما تسبوا لتشوفهن واشتياقهن وتعلق قلوبهن، ثم لم يعطوهن ما رغبن فيه؛ فعليهن في مقابلة ذلك المتعة، فله ما أحسن هذا الحكم الإلهي وأدله على حكمة شارعه ورحمته! ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَافِ يُوقُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]. فهذا حكم المطلقات قبل المسيس وقبل فرض المهر، ثم ذكر حكم المفروض فقال:

﴿وَأِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَرْصُفَ مَا فَرَضْتُمْ﴾: إذا طلقتم النساء قبل المسيس وبعد فرض المهر؛ فللمطلقات من المهر المفروض نصفه، ولكم نصفه ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾: أن تعفو عن نصفها لزوجها؛ إذا كان يصح عفوها ﴿أَوْ يَعْفُوا الَّذِي يَبْدُوهُ عَقْدَةُ الزَّكَاحِ﴾: هو الزوج، وقيل: إنه الأب، وهو الذي يدل عليه لفظ الآية الكريمة ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾: رغب في العفو، وأن من عفا كان أقرب لتقواه؛ لكونه إحساناً موجباً لشرح الصدر، ولكون الإنسان لا ينبغي أن يهمل نفسه من الإحسان والمعروف ﴿وَلَا تَنْسُوا أَلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾: ولا ينسى الفضل، الذي هو: إعطاء ما ليس بواجب والتسامح في الحقوق، والغض مما في النفس، فلا ينبغي للإنسان أن ينسى هذه الدرجة التي هي أعلى درجات المعاملة ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: لا يخفى عليه

حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجًا لَا أَرْكَبُنَا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتْنَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْتُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتْنَعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَلِكَ يبينُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَفَتَنَّاوْا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يَفْرِضُ اللَّهُ فَرَضًا حَسَنًا فَضْلَعُوهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

شيء من أموركم وأحوالكم وسيجزي كل عامل بعمله.

(٢٣٨) ﴿حَفِظُوا﴾: يأمر تعالى بالمحافظة ﴿عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ عمومًا ﴿وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾: وهي العصر خصوصًا؛ والمحافظة عليها: أداؤها لوقتها، وشروطها، وأركانها، وخشوعها، وجميع مالها من واجب ومستحب ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾: ذليلين مخلصين خاشعين؛ فإن القنوت دوام الطاعة مع الخشوع.

(٢٣٩) ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾: حذف المتعلق ليعم الخوف من العدو والسبع وغيرها، والمعنى: إن

(٢٣٨) في «الصحيحين» من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: «شغلونا عن الصلاة الوسطى: صلاة العصر؛ ملاأ الله قلوبهم وبيوتهم نازًا».

وفي «الصحيحين» عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: كنا نتكلم في الصلاة، يكلم الرجل صاحبه، وهو إلى جنبه في الصلاة؛ حتى نزلت: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾؛ فأمرنا بالسكوت، ونهينا عن الكلام.

الآية بهذين الاسمين العظيمين الدالين على كمال العزة وكمال الحكمة؛ لأن هذه أحكام صدرت عن عزته، ودلت على كمال حكمته؛ حيث وضعها في مواضعها الثلاثة بها. وأكثر المفسرين على أن هذه الآية منسوخة بما قبلها وهي: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾.

(٢٤١) ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: إن كل مطلقة لها على زوجها أن يمتعها ويعطيها ما يناسب حاله وحالتها، وأنه حق إنما يقوم به المتقون، فهو من خصال التقوى الواجبة أو المستحبة.

(٢٤٢) ﴿كَذَلِكَ يبينُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ﴾؛ حدوده، وحلاله وحرامه، والأحكام النافعة لكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ فإن القصد من بيانه لعباده أن يعقلوا عنه ما بيّنه، فيعقلونها حفظاً وفهماً وعملاً بها؛ فإن ذلك من تمام عقلها.

(٢٤٣) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾؛ أي: ألم تسمع بهذه القصة العجيبة الجارية على من قبلكم من بني إسرائيل، حيث حلّ الوباء بديارهم؛ فخرجوا

خفتهم بصلاتكم على تلك الصفة؛ ﴿رَجَالًا﴾: ماشين على أرجلكم ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾ على الخيل والإبل وسائر المركوبات، ويلزم على ذلك أن يكونوا مستقبلين القبلة وغير مستقبلين ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾: زال الخوف عنكم ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾: وهذا يشمل جميع أنواع الذكر، ومنه الصلاة على كمالها وتامها ﴿كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾: مثلما أنعم عليكم وهداكم وعلمكم ما ينفعكم في الدنيا والآخرة، فقابلوه بالشكر والذكر.

(٢٤٠) ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾: الأزواج الذين يموتون ويتركون خلفهم أزواجاً، فعليهم أن يوصوا ﴿وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَّتَّعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾: وصية من الله لأهل الميت أن يبقوا زوجة ميتهم عندهم حولاً كاملاً، وأن يستوصوا بها ويمتعوها ولا يخرجوها؛ جبراً لخطورها، وبراً بميتهم. فإن رغبت أقامت في وصيتها، وإن أحببت الخروج فلا حرج عليها، ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾: أحببت الخروج من قبل نفسها؛ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الأولياء ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ﴾ من التجميل واللباس ﴿مِنْ مَعْرُوفٍ﴾؛ بشرط أن يكون بالمعروف الذي لا يخرجها عن حدود الدين والاعتبار ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ختم

(٢٤٣) أخرج الشيخان وأحمد واللفظ له: عن عبد الله بن عامر بن ربيعة: أن عبد الرحمن بن عوف أخبر عمر - وهو في الشام - عن النبي ﷺ: «إن هذا السقم عذب به أمم قبلكم، فإذا سمعتم به في أرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا فراراً منه». قال: فرجع عمر في الشام.

وأخرج الطبري ووكيع وابن مردويه والضياء والحاكم بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ قال: كانوا أربعة آلاف؛ خرجوا فراراً من الطاعون. وقالوا: نأتي أرضاً ليس بها موت. حتى إذا كانوا بموضع كذا وكذا، قال الله لهم: موتوا؛ فماتوا، فمر عليهم نبي من الأنبياء. فدعا ربه أن يحييهم حتى يعيدهم، فأحياهم.

بهذه الكثرة فرارًا من الموت، وقيل: خرجوا من ديارهم خوفًا من الأعداء، وجبتا عن لقاءهم، فلم ينجحهم الفرار ولا أغنى عنهم من وقوع ما كانوا يحذرون، فعاملهم بنقيض مقصودهم، وأماتهم الله عن آخرهم، ثم تفضل عليهم؛ فأحياهم: إما بدعوة نبي، وإما بغير ذلك؛ ولكن ذلك بفضلته وإحسانه، وهو لا يزال فضله على الناس، وذلك موجب لشكرهم لنعم الله بالاعتراف بها وصرفها في مرضاة الله، ومع ذلك؛ فأكثر الناس قد قصرُوا بواجب الشكر.

(٢٤٤) ﴿وَقَاتِلُوا﴾: أمر الله بالقتال في سبيله بالمال والبدن ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: حث على الإخلاص فيه، بأن يقاتل العبد لتكون كلمة الله هي العليا، فإن الله ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ للأقوال، وإن خفيت ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بما تحتوي عليه القلوب من النيات الصالحة وضدها، وإذا علم المجاهد في سبيله أن الله سميع عليم؛ هان عليه ذلك، وعلم أنه لا بد أن يمدهم بعونه ولطفه.

(٢٤٥) ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾: هذا حث لطيف على النفقة، وإن المنفق قد أقرض الله الملي الكريم قرضًا حسنًا، وهو: ما جمع أوصاف الحسن؛ من النية الصالحة، وسماحة النفس بالنفقة، ووقوعها في محلها، وألا يتبعها المنفق منًا ولا أذى. ووعد المضاعفة الكثيرة ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي وَيَبْطِئُ﴾: ولما كان المانع الأكبر من الإنفاق خوف الإملاق؛ أخبر تعالى أن الغنى والفقر بيد الله، وأنه يقبض الرزق على من يشاء، ويبسطه على من يشاء، فلا يتأخر من يريد الإنفاق خوف الفقر ولا يظن أنه ضائع ﴿وَاللَّهُ

الْمَلِكُ الْقَائِمُ﴾
أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ أَهْبِثْ لَنَا مَلِكًا نُفْتَلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾
لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُومَ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾
وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آءَالُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

تَرْجِعُونَ﴾: بل مرجع العباد كلهم إلى الله، فيجد المنفقون والعاملون أجرهم عنده مدخرًا أحوج ما يكونون إليه.

(٢٤٦) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ أَهْبِثْ لَنَا مَلِكًا نُفْتَلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: أخبر تعالى أن أهل الرأي من بني إسرائيل وأصحاب الكلمة النافذة ممن جاءوا بعد موسى عليه السلام تراودوا في شأن الجهاد، واتفقوا على أن يطلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكًا؛ لينقطع النزاع بتعيينه، وتحصل الطاعة التامة، ولا يبقى لقائل مقال ﴿فَكَالَ﴾ لهم نبيهم ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ أي: لعلكم تطلبون شيئًا إذا كتب عليكم لا تقومون به، فعرض عليهم العافية؛ فلم يقبلوها واعتمدوا على عزمهم ونيتهم، ف﴿قَالُوا وَمَا لَنَا

عَلَيْكُمْ؛ فلزمكم الانقياد لذلك ﴿وَزَادُمْ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾: آتاه الله من قوة العلم بالسياسة، وقوة الجسم، اللذين هما آلة الشجاعة والنجدة وحسن التدبير ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَكُمْ مَن يَشَاءُ﴾: أي: هو الحاكم الذي ما شاء فعل، ولا يسأل عما يفعل، وهم يسألون؛ لعلمه وحكمته ورأفته بخلقه، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ أي واسع الفضل، كثير الكرم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بمن يستحق الفضل فيضعه فيه.

(٢٤٨) ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ ذكر لهم نبيهم أيضًا آية حسية يشاهدونها؛ وهي إتيان التابوت الذي قد استولت عليه الأعداء، وفقدوه زمانًا طويلًا، ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وفي ذلك التابوت سَكِينَةٌ تسكن بها قلوبهم، وتطمئن لها خواطرهم ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾: يعني موسى وهارون أنفسهما، كان فيه شيء من تركتهما، قيل: عصا موسى، ورضاض الألواح التي تكسرت، وقيل غير ذلك، ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ فأتت به الملائكة حاملة له وهم يرونه عيانًا. فلم يكتفوا بالصفات المعنوية في طالوت، ولا بتعيين الله له على لسان نبيهم حتى أيد ذلك بهذه المعجزة، ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾؛ فحينئذ سلّموا وانقادوا.

أَلَا تُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا: أجابوا نبيهم بالعزم الحازم، وأنهم التزموا ذلك التزامًا تامًا، وأن القتال متعين عليهم؛ حيث كان وسيلة لاسترجاع ديارهم، ورجوعهم إلى مقرهم ووطنهم.

﴿فَلَمَّا كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا﴾: جبنوا عن قتال الأعداء وضعفوا عن المصادمة، وزال ما كانوا عزموا عليه، واستولى على أكثرهم الخور والجبن ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾؛ فعصمهم الله وثبتهم وقوى قلوبهم، فالتزموا أمر الله ووطنوا أنفسهم على مقارعة أعدائه، فحازوا شرف الدنيا والآخرة ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾: الذين ظلموا أنفسهم، وتركوا أمر الله.

(٢٤٧) ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ مجيبًا لطلبهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلَكًا﴾ فكان هذا تعيينًا من الله لطالوت ملكًا، يقودهم في هذا الأمر الذي لا بد له من قائد يحسن القيادة. ﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾ استغربوا، وأبوا إلا الاعتراض؛ كيف يكون ملكًا وهو دوننا في الشرف والنسب ونحن أحق بالملك منه، ومع هذا فهو فقير ليس عنده ما يقوم به الملك من الأموال؟! وهذا بناء منهم على ظن فاسد، وهو أن الملك ونحوه مستلزم لشرف النسب وكثرة المال، ولم يعلموا أن الصفات الحقيقية التي توجب التقديم مقدمة عليها، فهذا ﴿قَالَ﴾ لهم نبيهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ

(٢٤٨) أخرج الطبري وابن أبي حاتم بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ قال: عصاه ورضاض الألواح.

(٢٤٩) ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾: فلما ترأس فيهم طالوت، وجندهم ورتبهم وفصل بهم إلى قتال عدوهم، وكان قد رأى منهم من ضعف العزائم والهمم ما يحتاج إلى تمييز الصابر من الناكل، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾ تمرّون عليه وقت حاجة إلى الماء ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾؛ أي: لا يتبعني؛ لأن ذلك برهان على قلة صبره ووفور جزعه ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ﴾: لم يشرب منه: ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾: لصدقه وصبره ﴿إِلَّا مَنْ أَغْرَفَ عُقْرَةً يَدِيهِ﴾؛ فإنه مسامح فيها.

﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ﴾: فلما وصلوا إلى ذلك النهر، وكانوا محتاجين إلى الماء شربوا كلهم منه الشرب المنهي عنه، ورجعوا على أعقابهم، ونكصوا عن قتال عدوهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾: فإنهم صبروا ولم يشربوا.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ﴾ أي النهر: ﴿هُوَ﴾ أي طالوت ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾: وهم الذين أطاعوا أمر الله ولم يشربوا من النهر الشرب المنهي عنه فرأوا قتلهم وكثرة أعدائهم ﴿قَالُوا﴾ أي: قال كثير منهم: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾: لكثرتهم وعددهم وغددهم ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّكَلَّفُوا اللَّهَ﴾ أي: يستيقنون ذلك، وهم أهل الإيمان الثابت واليقين الراسخ، مثبتين لباقهم، ومطمئنين لخواطريهم، وأمّرين لهم بالصبر: ﴿كَمْ مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً يَأْذِنُ اللَّهُ﴾ أي: بإرادته ومشئته، فالأمر لله

لِلْإِنْفَاقِ ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْرَقَ عُقْرَةً يَدِيهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّكَلَّفُوا اللَّهَ كَمْ مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً يَأْذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أَقْدَامُنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ يَأْذِنُ اللَّهُ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مَا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْزِيلُهَا عَلَيْكَ يَا حَقُّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

تعالى، والعزیز من أعزه الله، والدلیل من أدله الله، فلا تغني الكثرة مع خذلانه، ولا تضر القلة مع نصره، ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالنصر والمعونة والتوفيق، فأعظم جالب لمعونة الله صبر العبد لله، فوقعت موعظته في قلوبهم وأثرت معهم.

(٢٥٠) ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾: لما واجه حزب الإيمان وهم قليل من أصحاب طالوت عدوهم أصحاب جالوت وهم كثير ﴿قَالُوا﴾ جميعهم: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾: قوّ قلوبنا، وأوزعنا الصبر ﴿وَثَبَّتْ أَقْدَامُنَا﴾ عن التزلزل والفرار ﴿وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

(٢٤٩) في «صحيح البخاري» عن البراء بن عازب؛ قال: «كنا - أصحاب محمد ﷺ - نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت: الذين جاوزوا معه النهر، ولم يجاوز معه إلا مؤمن، بضعة عشر وثلاثمائة».

الْأَرْضُ ﴿٢٥٢﴾: لولا أنه يدفع بمن يقاتل في سبيله كيد الفجار وتكالب الكفار؛ لفسدت الأرض باستيلاء الكفار والفجار، وأهل الشر والفساد وإقامتهم شعائر الكفر، ومنعهم من عبادة الله تعالى وإظهار دينه، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾: ذو من عليهم ورحمة بهم؛ حيث لطف بالمؤمنين ودافع عنهم وعن دينهم بما شرعه وبما قدره.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْزِلُهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ بالصدق الذي لا ريب فيها، المتضمن للاعتبار والاستبصار وبيان حقائق الأمور ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فهذه شهادة من الله لرسوله برسالته التي من جملة أدلتها: هذه القصة؛ حيث أخبر بها حيا من الله مطابقا للواقع.

﴿تِلْكَ آيَاتُ الرُّسُلِ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾: يخبر الباري أنه فاوت بين الرسل في الفضائل الجليلة والتخصيصات الجميلة؛ بحسب ما من الله به عليهم، وقاموا به من الإيمان الكامل واليقين الراسخ، والأخلاق العالية والآداب السامية، والدعوة والتعليم والنفع العميم، فمنهم ممن اتخذ خليلا؛ ومنهم من كلمه تكليما، ومنهم من رفعه فوق الخلائق درجات ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ الدالات على نبوته، وأنه عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه

تِلْكَ آيَاتُ الرُّسُلِ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْشَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَقَلَّ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتِ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْشَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَقَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٍ وَلَا شَفِيعَةٍ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لِمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾

﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: غلبوهم بنصر الله، ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ وكان مع جنود طالوت، ﴿جَالُوتَ﴾، باشر قتل ملك الكفار، وحصل بذلك الفتح والنصر على عدوهم ﴿وَأَتَيْنَاهُ اللَّهُ﴾: أتى الله داود ﴿الْمَلِكَ وَالْحِكْمَةَ﴾: من عليه بتملكه على بني إسرائيل، مع الحكمة؛ وهي النبوة ﴿وَعَلَّمَهُ مَا يَشَاءُ﴾: من العلوم الشرعية والعلوم السياسية النافعة، فجمع الله له الملك والنبوة. ﴿وَلَوْ لَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ

(٢٥٣) في «الصحاحين» عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال اليهودي في قسم يقسمه: لا والذي اصطفى موسى على العالمين. فرفع المسلم يده فطمع بها وجه اليهودي، فقال: أي خبيث! وعلى محمد ﷺ! فجاء اليهودي إلى رسول الله ﷺ، فاشتكى على المسلم، فقال رسول الله ﷺ: «لا تخيروني على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فأجد موسى باطشا بقائمة العرش، فلا أدري أفاق قبلي، أم جوزي يصعقة الطور، فلا تفضلوا بين أنبياء الله».

إخبارهم أن هذه النفقات مدخرة عند الله في يوم لا تفيد فيه المعاوضات بالبيع ونحوه ولا التبرعات ولا الشفاعات، فتقطع الأسباب كلها إلا الأسباب المتعلقة بطاعة الله والإيمان به ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩] ﴿وَمَا تَقْصِرُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٧٣].

﴿وَالْكَافِرُونَ هُمْ الظَّالِمُونَ﴾؛ وذلك لأن الله خلقهم لعبادته، ورزقهم وعافاهم؛ ليستعينوا بذلك على طاعته، فخرجوا عما خلقهم الله له، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، واستعانوا بنعمة الله على الكفر والفسوق والعصيان، فلم يُبقوا للعدل موضعاً؛ فلهذا حصر الظلم المطلق فيهم.

(٢٥٥) ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾: الذي له جميع معاني الألوهية، وأنه لا يستحق الألوهية والعبودية إلا هو ﴿الْحَيُّ﴾: الذي له جميع معاني الحياة الكاملة، من السمع والبصر والقدرة والإرادة ﴿الْقَيُّومُ﴾: الذي قام بنفسه، واستغنى عن جميع مخلوقاته، وقام بجميع الموجودات فأوجدتها وأبقاها وأمدّها بجميع ما تحتاج إليه في وجودها وبقائها. ومن كمال حياته وقِيُومِيَّتِهِ أنه ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ﴾؛ أي: نعاس ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾؛ لأن

﴿وَأَيَّدَتْهُ بُرُوجُ الْقُدُسِ﴾؛ أي: بالإيمان واليقين الذي أيده الله به، وقواه على ما أمر به. وقيل: إن روح القدس جبريل عليه السلام، أيده الله بإعانه ومؤازرته ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَلِ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾: الموجبة للاجتماع على الإيمان: ﴿وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ فكان موجب هذا الاختلاف التفرق والمعاداة والمقاتلة، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَلُوا﴾: ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فما اختلفوا، ولو شاء الله أيضاً بعد ما وقع الاختلاف الموجب للاقتتال ما اقتتلوا ﴿وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾: ولكن حكمته اقتضت جريان الأمور على هذا النظام بحسب الأسباب، فهو فعال لما يريد، فليس لإرادته ومشيتته ممانع ولا معارض ولا معاون.

(٢٥٤) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾: يحث الله المؤمنين على النفقات في جميع طرق الخير، ويذكرهم نعمته عليهم بأنه هو الذي رزقهم ونوع عليهم النعم، وأنه لم يأمرهم بإخراج جميع ما في أيديهم؛ بل قال: ﴿مِنْ﴾ الدالة على التبعض، فهذا مما يدعوهم إلى الإنفاق ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ﴾: ومما يدعوهم أيضاً للإنفاق:

(٢٥٥) في «صحيح مسلم» عن أبي بن كعب: أن النبي ﷺ سأله: «أي آية في كتاب الله أعظم؟» قال: الله ورسوله أعلم. فرددها مراراً. ثم قال أبي: آية الكرسي. قال: «ليهنك العلم أبا المنذر». روى ابن أبي شيبة في «كتاب العرش» وغيره حديث أبي ذر الصحيح لغيره عن رسول الله ﷺ قال: «ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة في فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة».

وفي «صحيح مسلم» عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه؛ قال: قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات؛ فقال: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل، وعمل الليل قبل عمل النهار، حجابه النور - أو النار - لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه».

جزء يسير جدًا مضمحل في علوم الباري ومعلوماته .

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ : أخبر تعالى عن عظمته وجلاله، وأن كرسیه - وهو موضع القدمين - وسع السموات والأرض ﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ ؛ أي: لا يثقله حفظهما؛ لكمال عظمته واقتداره، وسعة حكمته ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ بذاته على جميع مخلوقاته، وهو العلي بعظمة صفاته، وهو العلي الذي قهر المخلوقات ﴿الْعَظِيمُ﴾ : الجامع لجميع صفات العظمة والكبرياء .

فأية احتوت على هذه المعاني التي هي من أجل المعاني يحق أن تكون أعظم آيات القرآن، كما أخبر ﷺ ويحق لمن قرأها متدبرًا متفهمًا أن يمتلئ قلبه من اليقين والعرفان والإيمان، وأن يكون محفوظًا بذلك من شرور الشيطان .

(٢٥٦) ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ : هذا بيان لكمال هذا الدين الإسلامي، وأنه لكمال براهينه، واتضح آياته، وكونه دين العقل والعلم، ودين الفطرة والحكمة، ودين الصلاح والإصلاح، ودين الحق والرشد؛ لا يحتاج إلى الإكراه عليه؛ لأن الإكراه إنما يقع على ما تنفر عنه القلوب، ويتنافى مع الحقيقة والحق، أو لما تخفى براهينه

السنة والنوم إنما يعرضان للمخلوق الذي يعتريه الضعف والعجز والانحلال، ولا يعرضان لذي العظمة والكبرياء والجلال .

﴿لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ : أخبر أنه مالك جميع ما في السموات والأرض، فكلهم عبيد لله ممالك لا يخرج أحد منهم عن هذا الطور .

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ : من تمام ملكه أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، فكل الوجهاء والشفعاء عبيد له ممالك، لا يقدمون على شفاعته حتى يأذن لهم، والله لا يأذن لأحد أن يشفع إلا فيمن ارتضى، ولا يرتضى إلا توحيده واتباع رسله، فمن لم يتصف بهذا؛ فليس له في الشفاعه نصيب .

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ : أخبر عن علمه الواسع المحيط، وأنه يعلم ما بين أيدي الخلائق من الأمور المستقبلية التي لا نهاية لها ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من الأمور الماضية التي لا حد لها، وأنها لا تخفى عليه خافية ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾ : لا يحيط أحد من الخلق بشيء من علم الله ومعلوماته ﴿إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ منها؛ وهو ما أطلعهم عليه من الأمور الشرعية والقدرية، وهو

(٢٥٦) في «الصحيحين» عن قيس بن عباد؛ قال: كنت في المسجد، فجاء رجل في وجهه أثر من خشوع، فدخل فصلى ركعتين أوجز فيهما، فقال القوم: هذا رجل من أهل الجنة، فلما خرج اتبعته حتى دخل منزله، فدخلت معه، فحدثته فلما استأنس قلت له: إن القوم لما دخلت قبل المسجد قالوا كذا وكذا؟ قال: سبحان الله! ما ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم، وسأحدثك ليم: إني رأيت رؤيا في عهد رسول الله ﷺ فقصصتها عليه: رأيت كأنني في روضة خضراء، وسطها عمود حديد، أسفله في الأرض، وأعلاه في السماء، في أعلاه عروة. فقلت لي: اصعد عليه. فقلت: لا أستطيع، فجاءني منصف فرفع ثيابه من خلفي فقال: اصعد، فصعدت حتى أخذت بالعروة، فقال: استمسك بالعروة، فاستيقظت وإنها لفي يدي، فأتيت رسول الله ﷺ فقصصتها عليه، فقال: «أما الروضة فروضة الإسلام، وأما العمود فعمود الإسلام، وأما العروة فهي العروة الوثقى، أنت على الإسلام حتى تموت» .

وآياته: ﴿قَدْ بَيَّنَّ الرُّشْدَ مِنَ الْغَيِّ﴾: فلم يبق لأحد عذر ولا حجة إذا رُدَّ ولم يقبله، وهو إنما يفعل ذلك لعناده.

﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾؛ هو: كل ما ينافي الإيمان بالله من الشرك وغيره ﴿وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ وحده لا شريك له؛ ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾؛ أي: بالدين القويم، الذي ثبتت قواعده ورسخت أركانه، وكان المتمسك به على ثقة من أمره؛ لكونه استمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها لا انقطاع لها دون دخول الجنة، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات ﴿عَلِيمٌ﴾ بما أكتته الصدور وما خفي من خفايا الأمور، فيجازي كل أحد بحسب ما يعلمه من نيته وعمله.

(٢٥٧) ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: هذه الآية مرتبة على الآية التي قبلها، فالسابقة هي الأساس، وهذه هي الثمرة - ثمرة الإيمان -، فأخبر تعالى أن الذين آمنوا بالله، وصدقوا إيمانهم بالقيام بواجبات الإيمان وترك كل ما ينافي به، أنه وليهم، يتولاهم بولايته الخاصة، ويتولى تربيتهم ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ﴾ ظلمات الجهل والكفر والمعاصي والغفلة والإعراض، ﴿إِلَى النُّورِ﴾ نور العلم واليقين، والإيمان والطاعة، والإقبال الكامل على ربهم، فينور قلوبهم بما يقذفه فيها من نور الوحي والإيمان.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾: وأما الذين كفروا؛ فإنهم لما تولوا غير وليهم: ولأهم الله ما تولوا لأنفسهم وخذلهم، ووكلمهم إلى رعاية من ليس عنده نفع ولا ضرر ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ﴾ إلى

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُبْعَثُ يُمِيتُ قَالَ أَنَا أَنبِيءُ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالنَّفْسِ مِنَ الشَّرْقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٩﴾ أَوَكَلَّيْكَ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنِّي يُبْعَثُ هَذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى أَنْظَارِكُمْ كَفَىٰ نَبِئُهُمُاءَ تُكْسِمُهَا لَحْمًا فَلَمَّا نَبَتْ لَهَا قَالَ أَلَمْ أَنْتَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦٠﴾

الظُّلُمَاتِ؛ فأصلوهم وأشقوهم، وحرموهم هداية العلم النافع والعمل الصالح، وحرموهم السعادة ﴿أُولَئِكَ﴾ الكفرة ﴿أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: صارت النار مثواهم خالدين فيها مخلدين (اللهم تولنا فيمن توليت).

(٢٥٨) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾: أخبر تعالى عن خليفه إبراهيم عليه السلام، حيث حاج هذا الملك الجبار المنكر لرب العالمين في أمر لا يقبل شكًا ولا إشكالًا ولا ريبًا؛ وهو توحيد الله وربوبيته، الذي هو أجلى الأمور وأوضحها، وما حمله على ذلك إلا ﴿أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾: هذا الجبار الذي غرَّه ملكه وأطغاه؛ حتى وصلت به الحال إلى أن نفاه - أي توحيد الله وربوبيته - ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ مناظرًا له: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُبْعَثُ﴾

وَيُمِيتُ؟ أي: هو المنفرد بالخلق والتدبير والإحياء والإماتة ﴿قَالَ﴾ ذلك الجبار مباهتاً: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾؛ أي: أنا أقتل من أردت قتله، وأستبقي من أردت استبقائه! ومن المعلوم أن هذا تمويه وتزوير عن المقصود؛ فإن المقصود: أن الله تعالى هو الذي تفرد بإيجاد الحياة في المعدومات وردها على الأموات، وأنه هو الذي يميت العباد والحيوانات بأجلها، بأسباب ربطها، وبغير أسباب.

فلما رآه الخليل ممّوها تمويهاً ربما راج على الهمج الرّعاع ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ ملزماً له بتصديق قوله إن كان كما يزعم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ﴾ أي: عياناً، يُقرّ به كل أحد، حتى ذلك الكافر؛ ﴿فَأَتَتْ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ أي: إذا كنت كما تزعم من أنك تحيي وتميت! ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ أي: وقف وتحير، فلم يرجع إليه جواباً، وانقطعت حجته واضمحلت شبهته.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ بل يبقئهم على كفرهم وضلالهم.

(٢٥٩) ثم ذكر تعالى دليلاً آخر على توحده بالخلق والتدبير والإماتة والإحياء، فقال: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾: هذا دليل عظيم محسوس في الدنيا قبل الآخرة على البعث والجزاء، أجراه الله على يد رجل شك «وقيل إنع عزيز النبي عليه السلام، وقيل غير ذلك» في البعث، فهذا الرجل مرّ على قرية قد دمرت تدميراً وخوت على عروشها، قد مات أهلها، وخربت عمارتها، فقال على

ومن تمام رحمة الله به وبالناس أنه أراه الآية عياناً؛ ليقنع بها، فبعد ما عرف أنه ميت قد أحياه الله؛ قيل له: ﴿فَأَنْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾؛ أي: لم يتغير في هذه المدد الطويلة، وذلك من آيات قدرة الله؛ فإن الطعام والشراب لا يلبث أن يتغير، وهذا قد حفظه الله مائة عام، وقيل له: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ﴾؛ فإذا هو قد تمزق وتفرق، وصار عظاماً نخرة ﴿وَلَيَجْعَلَنَّكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ دليل على المعاد ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾؛ أي: نرفع بعضها إلى بعض، ونصل بعضها ببعض بعدما تفرقت وتمزقت ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا﴾ بعد الالتئام ﴿لَحْمًا﴾ ثم نعيد فيه الحياة ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ رَأَى عَيْنٍ لَا يَقْبَلُ الرِّيبَ بوجه من الوجوه؛ ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فاعترف بقدرة الله على كل شيء وصار آية للناس؛ لأنهم قد عرفوا موته وموت حماره، وعرفوا قضيته، ثم شاهدوا هذه الآية الكبرى.

(٢٦٠) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْزُقْنِي كَيْفَ تَحْيِ الْمَوْتَى﴾: هذا برهان آخر على البعث والجزاء، فإن إبراهيم عليه السلام قال طالباً من الله أن يريه كيف يحيي الموتى، فقال الله له: ﴿أَوَلَمْ تَوْمَنْ﴾ ليزيل الشبهة عن خليفه ﴿قَالَ﴾ إبراهيم: ﴿بَلَى﴾ يا رب قد آمنت أنك على كل شيء قدير، وأنت تحيي الموتى؛ ﴿وَلَكِنْ لِيُطَمِّنَ قَلْبِي﴾: ولكن أريد أن يطمئن قلبي، وأصل إلى درجة عين اليقين. فأجاب الله دعوته؛ كرامة له، ورحمة بالعباد ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾، ولم يبين أي الطيور هي؛ والآية حاصلة بأي نوع منها ﴿فَصُرْهُمْ إِلَيْكَ﴾: أي: ضمهم واذبحهم ومزقهم ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُمْ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُمْ يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا﴾؛ ففعل ذلك، وفرق أجزاءهن على الجبال التي حوله، ودعاهن بأسمائهن، فأقبلن إليه سريعات؛ لأن السعي السرعة، وليس المراد: أنهن جئن على قوائمهن، وإنما جئن طائرات على أكمل ما يكون من الحياة، وخصَّ الطيور بذلك؛ لأن إحياءهن أكمل وأوضح من غيرهن، وأزال في هذا كل وهم ربما يعرض للنفوس المبطلّة، فجعلن متعديّات أربعة ومزقهن جميعاً، وجعلن على رؤوس الجبال؛ ليكون ذلك ظاهراً علناً يشاهد من قرب ومن بعد، ونحاهن عنه كثيراً؛ لئلا يظن أن يكون عاملاً حيلة من الحيل، فصارت هذه الآية أكبر برهان على كمال عزة الله وحكمته ﴿وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ ذو قوة عظيمة سخر بها

وَأِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْزُقْنِي كَيْفَ تَحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تَوْمَنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيُطَمِّنَ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُمْ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُمْ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُمْ يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا وَاعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَعَ سَبَائِلَ فِي كُلِّ سُبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ عَنَى حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَتَّبِعُوا صَدَقَتَكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَةً لِلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ رَأْبٌ فَاصَابُهُ وَابِلٌ فَتَرَكَّهُ صَلْدًا لَا يَنْفَعُ رِثَةً عَلَى شَيْءٍ وَمِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾

المخلوقات، ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يفعل شيئاً عبثاً. (٢٦١) ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ في طاعته ومرضاته وطريقه الموصول إليه؛ فيدخل في هذا: إنفاقه في العلوم النافعة، والاستعداد للجهاد في سبيله، وتجهيز المجاهدين، وجميع المشاريع الخيرية النافعة، والإنفاق على المحتاجين والفقراء والمساكين ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَعَ سَبَائِلَ فِي كُلِّ سُبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ﴾: فهذه النفقات مضاعفة هذه المضاعفة بسبعمائة، إلى أضعاف أكثر من ذلك، فهذا حث عظيم من الله لعباده في إنفاق أموالهم في سبيله ﴿وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾؛ وذلك بحسب ما يقوم بقلب المنفق من الإيمان

(٢٦٠) في «الصحاحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم. إذ قال: ﴿رَبِّ ارْزُقْنِي كَيْفَ تَحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تَوْمَنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيُطَمِّنَ قَلْبِي﴾».

وعن جميع عبادہ ﴿حَلِيمٌ﴾ مع كمال غناه وسعة عطاياه، يحلم عن العاصين ولا يعاجلهم بالعقوبة، بل يعافيههم ويرزقهم ويدبر عليهم خيره، وهم مبارزون له بالمعاصي!

(٢٦٤) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا بُطْلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ ينهى تعالى عباده أشد النهي، - رحمة بهم ولطفًا - عن إبطال صدقاتهم بالمن والأذى، وضرب لذلك مثلاً، فقال: ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِيقَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: كحال الذي يرائي الناس بنفقته، وليس معه إيمان بالله ولا احتساب لثوابه ﴿فَعَسَلُهُ﴾: مثل قلب هذا المرائي ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ وهو الحجر الأملس الشديد ﴿عَلَيْهِ تَرَابٌ﴾ يظن الرائي أنه إذا أصابه المطر أنبت كما تنبت الأراضي الطيبة؛ ﴿فَأَصَابَهُ وَابِلٌ﴾ مطر شديد ﴿فَفَرَّكَهُ صُلْدًا﴾: فأذهب ما عليه من التراب.

وهذا مثل مطابق لقلب المرائي الذي ليس فيه إيمان، بل هو قاس لا يلين ولا يخشع، فهذا أعماله ونفقاته لا أصل لها تؤسس عليه، ولا غاية لها تنتهي إليه، بل ما عمله فهو باطل ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾؛ لانعدام شرط قبول العمل ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾: صرف قلوبهم عن الهداية، وحرهم التوفيق.

والإخلاص التام، وبحسب حال النفقة وثمرتها ونفعها ووقوعها موقعها ﴿وَاللَّهُ يُضْعِفُ﴾ أكثر من هذه المضاعفة ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾: فيعطيههم أجرهم بغير حساب ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ الفضل، واسع العطاء، لا ينقصه نائل ولا يحفيه سائل ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق هذه المضاعفة ومن لا يستحقها.

(٢٦٢) ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: ذكر تعالى ثواباً آخر للمتقين أموالهم في سبيله نفقة صادرة مستوفية لشروطها منتفية موانعها ﴿ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا﴾: فلا يتبعون المنفق عليه منّا منهم عليه وتعداداً للنعم، ﴿وَلَا أَذَى﴾: ولا أذية له قولية أو فعلية؛ فهؤلاء ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ بحسب ما يعلمه منهم، وبحسب نفقاتهم ونفعها ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: نفى عنهم المكروه الماضي بنفي الحزن، والمستقبل بنفي الخوف عليهم، فقد حصل لهم المحبوب واندفع عنهم المكروه.

(٢٦٣) ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾: هو الإحسان القولي بجميع وجوهه، الذي فيه سرور المسلم، والاعتذار من السائل، وغير ذلك ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لمن أساء إليك بقول أو فعل ﴿خَيْرٌ﴾ أفضل ﴿مِنَ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى﴾؛ لأنه كدر إحسانه، وفعل خيراً وشرّاً. وفي هذا تحذير عظيم لمن يؤذي من تصدق عليه؛ كما يفعله أهل اللؤم والحق والجهل ﴿وَاللَّهُ غَفِيٌّ﴾ عن صدقاتهم،

(٢٦٢) في «صحيح مسلم» من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكهم، ولهم عذاب أليم: المنان بما أعطى، والمسبل إزاره، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب».

(٢٦٥) ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾: قصدهم بذلك رضا ربهم والفوز بقربه، لصدوره عن الإيمان والإخلاص التام ﴿وَتَكْسِبُتَا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾؛ أي: ينفقون وهم ثابتون على وجه السماحة والصدق، فمثل هذا العمل ﴿كَمَثَلِ جَنَّتِكَ بِرَبْوَةٍ﴾؛ وهو المكان المرتفع؛ لأنه يتبين للرياح والشمس ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾؛ وهو: المطر الغزير؛ ﴿فَتَأْتَتْ أَكْثُلَهَا ضَعْفَتٌ﴾؛ أي: تضاعفت ثمراتها ﴿فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا﴾: ذلك الـ ﴿وَابِلٌ﴾ الغزير؛ ﴿فَطَلَّ﴾: حاصل لها طل، أي: مطر قليل كاف؛ لطيب منبتها وحسن أرضها، وحصول جميع الأسباب الموفرة لنموها وازدهارها وإثمارها، وهذه الجنة التي على هذا الوصف هي أعلى ما يطلبه الناس، فهذا العمل الفاضل بأعلى المنازل. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: يعلم عمل كل عامل.

(٢٦٦) ﴿أَيُّدُ أَحَدِكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾: هذا مضروب لمن أنفق لله ثم أتبع نفقته مثلاً وأدى، أو عمل عملاً فأتى بمبطل لذلك العمل، فهذا مثله مثل صاحب هذه الجنة بما فيها من ثمار وخيرات وأنهار؛ لكن سلط عليها ﴿إِعْصَارٌ﴾؛ وهو الريح الشديدة ﴿فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾: أحرقت ثمار وأشجار تلك الجنة، وله ذرية ضعفاء وهو ضعيف قد أصابه الكبر،

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَكْسِبُتَا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّتِكَ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَتَأْتَتْ أَكْثُلَهَا ضَعْفَتٌ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥) أَيُّدُ أَحَدِكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضَعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦) يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْغِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِتَاجِرِيهِ إِلَّا أَنْ تُخِصُّوا فِيهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ عَنَىٰ حَيْدُ السَّيِّئِينَ يُعَذِّبُكُمْ أَلْفَرُّو يَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يُعَذِّبُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٧) يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَوَّلَ مَا آتَاكُمْ (٢٦٨)

فهذه الحال من أفضل الأحوال، ولهذا صدر هذا المثل بقوله: ﴿أَيُّدُ أَحَدِكُمْ﴾؟ بالاستفهام المتقرر عند المخاطبين فظاعته، فإن تلقها دفعة واحدة بعد زهاء أشجارها وإيناع ثمارها مصيبة كبرى، ثم حصول هذه الفاجعة وصاحبها كبير قد ضعف عن العمل، وله ذرية ضعفاء لا مساعدة منهم له ومؤنتهم عليه فاجعة أخرى، فصار صاحب هذا المثل الذي عمل لله ثم أبطل عمله بمناف له يشبه حال صاحب هذه الجنة التي جرى عليها ما جرى حين اشتدت ضرورته إليها.

(٢٦٦) في «صحيح البخاري» عن ابن عباس؛ قال: قال عمر بن الخطاب يوماً لأصحاب النبي ﷺ: فيمن ترون هذه الآية نزلت: ﴿أَيُّدُ أَحَدِكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾؟ قالوا: الله أعلم. فغضب عمر فقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين. فقال عمر: يا بن أخي قل ولا تحقر نفسك. قال ابن عباس: ضربت مثلاً لعمل. قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: لعمل. قال عمر: لرجل غني يعمل بطاعة الله، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لِمَلَّكُمْ تَنْفَكُوا﴾
تعتبرون وتفهمون الأمثال، وتنزلونها على المراد منها.

(٢٦٧) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ يحث الباري عباده المؤمنين على الإنفاق من طيبات ما يسر لهم من المكاسب في التجارات وغيره ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ من الحبوب والشمار ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾: أمر تعالى أن يقصدوا الطيب منها ولا يقصدوا الخبيث، وهو الرديء الدون، يجعلونه لله ﴿وَلَسْتُمْ بِكَافِرِينَ﴾: ولو بذله لهم من لهم حق عليه لم يرتضوه ولم يقبلوه ﴿إِلَّا أَنْ تُنْفِقُوا فِيهِ﴾: إلا على وجه المغاضاة والإغماض. فالواجب إخراج الوسط من هذه الأشياء، والكمال إخراج العالي، والممنوع إخراج الرديء ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَاقِبُ﴾ عن جميع المخلوقين، وهو الغني عن نفقات المنفقين، وعن طاعات الطائعين، ومع كمال غناه وسعة عطاياه؛ فهو ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله التي لا تخرج عن الفضل والعدل والحكمة، وحميد الأوصاف؛ لأن أوصافه كلها محاسن وكمالات.

(٢٦٨) ﴿الشَّيْطَانُ يُعِدُّكُمْ لِلْفَقْرِ﴾: لما حثهم

على الإنفاق النافع؛ نهاهم عن الإمساك الضار، وأخبر أن الشيطان يحثهم على الإمساك، ويخوفهم إن أنفقوا أن يفتقروا ﴿وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ مع نهيه إياكم عن الإنفاق خشية الإملاق يأمركم بالمعاصي والمآثم والمحارم ومخالفة الخلق، فهو يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً﴾ لذنوبكم ﴿وَفَضْلًا﴾ إحسانًا وخيرًا وثوابًا عاجلاً وأجلاً، وإخلاف ما أنفقوا ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ واسع الفضل، كثير الهبات ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يصدر منكم من النفقات، قليلها وكثيرها، سرها وعلنها، فيجازيكم عليها من سعته وفضله وإحسانه.

(٢٦٩) ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾: لما ذكر أحوال المنفقين للأموال، وأن الله أعطاهم ومنهم عليهم بالأموال؛ ذكر ما هو أفضل من ذلك، وهو أنه يعطي الحكمة من يشاء من عباده، ومن أراد بهم خيرًا من خلقه.

والحكمة: هي العلوم النافعة، والمعارف الصائبة، والعقول المسددة والألباب الرزينة، وإصابة الصواب في الأقوال والأفعال، وهذا أفضل العطايا وأجل الهبات، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾؛ لأنه خرج من ظلمة الجهالات إلى نور الهدى،

(٢٦٧) أخرج الطبري وابن ماجه والحاكم بإسناد صحيح من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه في قول الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ الآية. قال: نزلت في الأنصار، كان الأنصار إذا كان أيام جذاذ النخل، أخرجت من حيطانها أفناء البسر، فعلقوه على حبل بين الأسطوانتين في مسجد رسول الله ﷺ فيأكل فقراء المهاجرين منه، فيعمد الرجل منهم إلى الحشف - الرديء من التمر -، فيدخله مع أفناء البسر، يظن أن ذلك جائز، فأنزل الله فيمن فعل ذلك: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾.

(٢٦٨ و ٢٦٩) في «الصحيحين» عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا حسد إلا في اثنين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة؛ فهو يقضي بها ويعلمها».

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ هُدُوءٌ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا يُنْفِسْكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْمِ وَاللَّهُارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

ومن حمق الانحراف في الأقوال والأفعال إلى إصابة الصواب فيها وحصول السداد، ولأنه كمل نفسه بهذا الخير العظيم، وجميع الأمور لا تصلح إلا بالحكمة ﴿و﴾ لكن ﴿وما يتذكر﴾ هذا الأمر العظيم، وما يعرف قدر هذا العطاء الجسيم ﴿إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾؛ وهم أهل العقول الوافية والأحلام الكاملة، فهم الذين يعرفون النافع فيعملونه، والضرار فيتركونه.

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا﴾: يخبر تعالى أنه مهما أنفق المنفقون أو تصدق المتصدقون، أو نذر المنذرون؛ فإن الله يعلم ذلك، ومضمون الإخبار بعلمه يدل على الجزاء، وأن الله لا يضع عنده مثقال ذرة، ويعلم ما صدرت عنهم من نيات صالحة أو سيئة ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾: الظالمون الذين يمنعون ما أوجب الله عليهم، أو يقتحمون ما حرم عليهم ليس لهم من دونه أنصار ينصرونهم ويمنعونهم، وأنه لا بد أن تقع بهم العقوبات.

﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ﴾: إن أبدأها المتصدق وأظهرها؛ ﴿فَنِعْمًا هِيَ﴾: فهي خير، ونعم الشيء هي؛ لحصول المقصود بها ﴿وإن تخفوها﴾: وإن أخفاها وأسرها ﴿وتؤتوها﴾

الْفُقَرَاءَ: وسلمها للفقير؛ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾: كان أفضل؛ لأن الإخفاء على الفقير إحسان آخر، وهو يدل على قوة الإخلاص. وفي هذه الآية فائدة لطيفة: وهي أن إخفاء الصدقة خير من إظهارها؛ لكن ربما كان الإظهار خيراً؛ لحصول الأسوة والافتداء، وتنشيط النفوس على أعمال الخير. والمرجع في ذلك إلى قواعد الشرع التي تدل على مراعاة المصلحة. ﴿وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾

(٢٧١) أخرج أبو داود والترمذي والنسائي وأحمد بإسناد صحيح، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الجاهر بالقرآن كالمجاهر بالصدقة، والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة».

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يرجع إليه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعت امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه».

سَيَأْتِيَكُمْ: في هذا أن الصدقات يجتمع فيها الأمران: حصول الخير وهو كثرة الحسنات والثواب والأجر، ودفع الشر والبلاء بتكفير السيئات ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾؛ فيجازي كلاً بعمله، بحسب حكمته.

(٢٧٢) ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾: يقول تعالى لنبيه ﷺ: ليس عليك هدى الخلق، وإنما عليك أيها الرسول البلاغ، وحث الناس على الخير، وزجرهم عن الشر، وأما الهداية؛ فبيد الله تعالى ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ قَلِيلٌ أَوْ كَثِيرٌ عَلَىٰ أَیِّ شَخْصٍ كَانَ، مِنْ مُّسْلِمٍ وَكَافِرٍ؛ ﴿وَلَا تُنْفِقُوا﴾؛ أي: نفعه راجع إليكم ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا لَأَنْفُسِكُمْ﴾: يخبر تعالى عن المؤمنين حقاً أنهم لا ينفقون إلا لطلب مرضاة ربهم واحتساب ثوابه؛ لأن إيمانهم يدعوهم إلى ذلك، وهذا يتضمن التذكير لهم بالإخلاص ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُّوفَّ إِلَيْكُمْ﴾ يوم القيامة تستوفون أجوركم، وكرر علمه تعالى بنفقاتهم؛ لإعلامهم أنه لا يضيع عنده مثقال ذرة ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَظْلُمُونَ﴾؛ أي: تنقصون من أعمالكم شيئاً، كما لا يزداد في سيئاتكم.

(٢٧٣) ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾: يعني: أنه ينبغي أن تتحروا بصدقاتكم الفقراء ﴿الَّذِينَ أَحْصَرُوا

ف سَبِيلِ اللَّهِ: الذين حبسوا أنفسهم في سبيل الله وعلى طاعته ﴿لَا يَسْأَلُونَ ضَرْبًا﴾ في الأزغب: ليس لهم إرادة في الاكتساب، أو ليس لهم قدرة عليه ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾: إذا رآهم الجاهل ظن أنهم أغنياء؛ لتعففهم وعدم سؤالهم، وهذا بيان لصدق صبرهم وحسن تعففهم ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾: بالعلامة التي ذكرها الله في وصفهم ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾: فهم لا يسألون بالكلية، وإن سألوا اضطراباً لم يلحفوا في السؤال ولم يلحوا ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾: فالإنفاق في طرق الإحسان وعلى المحاويع خير وأجر وثواب عند الله، وهو يعلم ذلك كله ويعلم نياتكم ومقاصدكم، لا يخفى عليه شيء، فيجازيكم عليه.

(٢٧٤) ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْمِ وَالْزَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾: أجر عظيم من خير عند الرب الرحيم، وتخصيص ذلك بأنه ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يدل على شرف هذه الحال ووقوعها في الموقع الأكبر ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: ويدفع عنهم الأحزان والمخاوف والكربها.

(٢٧٣) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده التمرة والتمران، واللقة واللقتان، والأكلة والأكلتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يظن له فيتصدق عليه، ولا يسأل الناس شيئاً».

(٢٧٤) وفي «الصحيحين» عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازدادت بها درجة ورفعة حتى ما تجعل في في امرأتك».

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي
يَخْطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ
مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ
مِّنْ رَبِّهِ فَاسْتَمَعَهَا فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ
فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧٥﴾ يَمْحَقُ
اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيهِ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٧٦﴾
إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَأَتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٧٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ
وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا
فَأَنذَرُا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتِغُوا فَلََكُمْ رَأْسُ
أَمْرٍ لَّكُمْ لَا تَظْلُمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٧٩﴾ وَإِن كَانَتْ
ذُوعُسُوفَ نَظَرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ
إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى
اللَّهِ تَمَّ نُفُوكَ كُلِّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٨١﴾

زمانه ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ بعد بيان الله وتذكيره وتوعده
لأكل الربا إلى تعاطي الربا، ولم تنفعه الموعظة؛
بل أصر على ذلك؛ ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ﴾: فالربا موجب لدخول النار
والخلود فيها؛ وذلك لشناعته.

(٢٧٦) ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾: يذهب مكاسب
المرابين، ويذهب بركتها، ذاتاً ووصفاً ﴿وَيُزِيهِ
الصَّدَقَاتِ﴾: ينميها وينزل البركة في المال الذي
أخرجت منه، وينمي أجر صاحبها، عكس ما

(٢٧٥) ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ لما ذكر الله
حالة المنفقين وما لهم من الله؛ ذكر الظالمين:
أهل الربا، والمعاملات الخبيثة، وأخبر أنهم
يجازون بحسب أعمالهم، فكما كانوا في الدنيا في
طلب المكاسب الخبيثة كالمجانين؛ عوقبوا في
البرزخ والقيامة أنهم: ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ من قبورهم
إلى يوم بعثهم ونشورهم ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي
يَخْطُهُ الشَّيْطَانُ﴾: يصرعه الشيطان ﴿مِنَ
الْمَسِّ﴾؛ أي: من الجنون والصرع، وذلك عقوبة
وخزي وفضيحة لهم، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ وجزاء
لهم على مراتبهم ومجاهرتهم بقولهم: ﴿إِنَّمَا
الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾؛ فجمعوا -بجرائتهم- بين ما
أحل الله وبين ما حرم الله، واستباحوا الربا.

﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾: أباح وشرع الله البيع ﴿وَحَرَّمَ
الرِّبَا﴾؛ فإنه كسب خبيث، ثم عرض تعالى التوبة
على المرابين وغيرهم، فقال: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ
مِّنْ رَبِّهِ﴾: أنه وعظ وتذكير وترهيب عن تعاطي
الربا، على يد من قيضه الله لموعظته؛ رحمة من
الله بالموعوظ، وإقامة للحجة عليه، وهذا بيان
مقرون به بالوعد والوعيد ﴿فَأَنتهى﴾ عما كان
يتعاطاه من الربا؛ ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ مما تجرأ عليه
وتاب منه، وهي ما تقدم من المعاملات التي فعلها
قبل أن تبلغه الموعظة؛ جزاء لقبوله للنصيحة
﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ في مجازاته، وفيما يستقبل من

(٢٧٥) في «صحيح البخاري» عن سمرة بن جندب رضي الله عنه في حديث المنام الطويل: «فأتينا على نهر أحمر مثل الدم، وإذا في النهر
رجل سابح يسبح، وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة، وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح، ثم يأتي الذي قد
جمع عنده الحجارة فيفغر له فاه فيلقمه حجراً فينطلق يسبح ثم يرجع إليه، كلما رجع إليه فغرفاه فألقمه حجراً». ثم ذكر
تفسيره: «وأما الرجل الذي أتينا عليه يسبح في النهر ويلقم الحجر فإنه أكل الربا».

(٢٧٦) أخرج أحمد وابن ماجه بإسناد صحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «ما أحد أكثر من الربا إلا كان
عاقبة أمره إلى قلة».

﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فهم يوم القيامة عن التبعات آمنون، وفي الجنات مطمئنون.

(٢٧٨) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: وجه تعالى الخطاب للمؤمنين، وأمرهم أن يتقوه ويذروا ويتركوا ما بقي من معاملات الربا التي كانوا يتعاطونها قبل ذلك.

(٢٧٩) ﴿فَإِن لَّمْ تَقْعَلُوا﴾: من لم ينزجر بموعظة الله، ولم يقبل نصيحته في ذلك؛ ﴿فَأَذْنُوبُ يَحْرِبِ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: فإنهم محاربون لله ورسوله، وهذا من أعظم ما يدل على شناعة الربا؛ حيث جعل المصر عليه محارباً لله ورسوله ﴿وَإِن تَبَيَّنْتُمْ﴾ من المعاملات الربوية؛ ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾: انزلوا عليها ﴿لَا تَظْلِمُونَ﴾ الناس بأخذ الربا ﴿وَلَا تَظْلُمُونَ﴾ بنقص رؤوس أموالكم.

(٢٨٠) ﴿وَإِن كَانَتْ﴾ الذي عليه الدين ﴿ذُو عُسْرٍ﴾: معسراً لا يقدر على الوفاء؛ ﴿فَنَظَرَةٌ﴾: وجب على غريمه أن ينظره ويمهله ﴿إِلَى مِيسَرَةٍ﴾ حتى يجد ما يوفي به، ويتيسر حاله ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا﴾: إن تصدق غريمه بإسقاط الدين كله أو بعضه؛ فهو ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنكم راجعون إلى ربكم؛ فمجازيكم على أعمالكم وصدقاتكم.

(٢٨١) ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وهذه الآية من آخر ما نزل من القرآن وتعني: أنه ينبغي على العبد أن يعلم أنه راجع إلى الله فمجازيه على الجلي والخفي، وأن الله لا يظلمه مثقال ذرة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا دَاخِلْتُمْ بَيْتًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاسْكُتُوا وَلْيَكُنْ بَيْنَكُمْ كَلِمَاتٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْب كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكُتَبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَمَنَّى اللَّهُ رَبِّهِ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْطِيعُ أَن يُمْلِهُهُوَ فَلْيَمْلِكْ لِيهِ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَادَةِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبُ الشَّهَادَةُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَن تَكْتُمُوا صُغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلٍ ذَلِكُمْ أَفْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِن لَّا تَكُونُوا تِجْرَةً حَاضِرَةً يُدْرِكُونَهَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ فَلْيَسْ عَلَى رِجَالِكُمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُشْهِدُونَ وَأَشْهَدُوا إِذَا بَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَقْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَبِعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

يتبادر لأذهان كثير من الخلق: أن الإنفاق ينقص المال، وأن الربا يزيده! فإن مادة الرزق وحصول ثمراته من الله تعالى، وما عند الله لا ينال إلا بطاعته وامتثال أمره ﴿وَاللَّهُ لَا يُجِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾: كفر نعمة الله، وجحد مئة ربه ﴿أَتَيْمٍ﴾ بإصراره على معاصيه.

(٢٧٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: أدخل الله تعالى هذه الآية بين آيات الربا؛ لبيان أن أكبر الأسباب لاجتناب ما حرم الله من المكاسب الربوية تكميل الإيمان وحقوقه، خصوصاً ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾؛ فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾؛ فإيتاء الزكاة إحسان إلى الخلق، ينافي تعاطي الربا الذي هو ظلم لهم وإساءة عليهم

عليه الحق، وأن الذي يملئ من المتعاقدين من عليه الدين.

﴿وَلَا يَبْخَسُ مِنْهُ شَيْئًا﴾: أمره أن يبين جميع الحق الذي عليه، ولا يبخص منه شيئاً ﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِيعَ هُوَ فَلْيُمِيعْ وَلِيُّهُ﴾: أن من لا يقدر على إملاء الحق لصغره أو سفهه أو خرسه، أو نحو ذلك؛ فإنه ينوب وليه منابه في الإملاء والإقرار ﴿بِالْعَدْلِ﴾ أنه يلزم الولي من العدل ما يلزم من عليه الحق من العدل ﴿وَأَشْهَدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ أنه مأمور بالإشهاد على العقود ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنْ الشَّهَدَاءِ﴾ نصاب الشهادة في الأموال ونحوها: رجلان، أو رجل وامرأتان؛ ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾: إن نسيت واحدة منهما ﴿فَتُذَكَّرْ

(٢٨٢) ﴿يَتَابُهَا الَّذِي إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ﴾؛ فيها جواز جميع أنواع المداينات من سلم وغيره ﴿إِلَّا أَجَلَ مُسَكَّنٍ﴾ وأنه لا بد للسلم من أجل، وأنه لا بد أن يكون معيناً معلوماً. ﴿فَأَكْتُبُوهُ﴾: فيها الأمر بكتابة جميع عقود المداينات، إما وجوباً، وإما استحباباً؛ لشدة الحاجة إلى كتابتها ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ﴾: أمر الكاتب أن يكتب ﴿بِالْعَدْلِ﴾: بالقسط ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾؛ أي: لا يمتنع من من الله عليه بتعليمه الكتابة أن يكتب بين المتدائنين، فكما أحسن الله إليه بتعليمه؛ فليحسن إلى عباد الله المحتاجين إلى كتابته، ولا يمتنع من الكتابة لهم. ﴿فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمِيعِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾: أمر الكاتب ألا يكتب إلا ما أملاه من

(٢٨٢) أخرج الترمذي والنسائي في «الكبرى» وابن حبان وغيرهم بإسناد صحيح لغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله آدم ونفخ في الروح؛ عطس، فقال: الحمد لله، فحمد الله بإذن الله، فقال له ربه: يرحمك ربك يا آدم! اذهب إلى أولئك الملائكة - إلى ملائمتهم جلوس - فسلم عليهم. فقال: السلام عليكم. فقالوا: وعليكم السلام ورحمة الله. ثم رجع إلى ربه، فقال: هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم! وقال الله - جل وعلا - ويداه مقبضتان: اختر أيهما شئت. فقال: اخترت يمين ربي، وكلتا يدي ربي يمين مباركة. ثم بسطهما، فإذا فيهما آدم وذريته فقال: أي رب! ما هؤلاء؟ فقال: هؤلاء ذريتك، فإذا كل إنسان منهم مكتوب عمره بين عيني، فإذا فيهم رجل أضوؤهم - أو من أضوؤهم - لم يكتب له إلا أربعين سنة، قال: يا رب! ما هذه؟ قال: هذه ابنك داود، وقد كتب الله عمره أربعين سنة، قال: أي رب! زده في عمره، قال: ذاك الذي كتبت له. قال: فإني قد جعلت له من عمري ستين سنة، قال: أنت وذاك، اسكن الجنة، فمسكن الجنة ما شاء الله، ثم أهبط منها، وكان آدم يعد لنفسه، فأناه ملك الموت، فقال له آدم: قد عجلت، قد كتب لي ألف سنة، قال: بلى؛ ولكنك جعلت لابنك داود منها ستين سنة، فجحد؛ فجحدت ذريته، ونسي؛ فنسيت ذريته، فيومئذ أمر بالكتاب والشهود».

وأخرج مسلم في «صحيحه» عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يا معشر النساء، تصدقن، وأكثرن الاستغفار؛ فإني رأيتكن أكثر أهل النار». فقلت امرأة منهن جزلة: وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟ قال: «تكثرن اللعن، وتكفرن العشير، وما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لدي لب منكن». قالت: يا رسول الله وما نقصان العقل والدين؟ قال: «أما نقصان العقل؛ فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل؛ فهذا نقصان العقل، وتمكث الليالي ما تصلي، وتفطر في رمضان؛ فهذا نقصان الدين».

وأخرج مسلم في «صحيحه» عن زيد بن خالد الجهني: أن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بخير الشهداء؟ الذي يأتي بشهادته قبل أن يسأله».

جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا» : فيه الرخصة في ترك الكتابة إذا كانت التجارة حاضراً بحاضر؛ لعدم شدة الحاجة إلى الكتابة ﴿وَأَشْهَدُوا﴾ إذا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ : النهي عن مضارة الكاتب بأن يدعى وقت اشتغال وحصول مشقة عليه، وكذلك النهي عن مضارة الشاهد أيضاً بأن يدعى إلى تحمل الشهادة أو أدائها في مرض أو شغل يشق عليه أو غير ذلك، هذا على جعل قوله : ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ مبنياً للمجهول، وأما على جعلها مبنياً للفاعل؛ ففيه نهي الشاهد والكاتب أن يضارا صاحب الحق بالامتناع أو طلب أجره شاقة ونحو ذلك، وأن ارتكاب هذه المحرمات من خصال الفسق؛ لقوله : ﴿وَأَنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ أن الأوصاف كالفسق والإيمان والنفاق والعداوة والولاية ونحو ذلك تتجزأ في الإنسان، فتكون فيه مادة فسق وغيرها، وكذلك مادة إيمان وكفر؛ لقوله : ﴿فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾، ولم يقل : فأنتم فاسقون أو فساق ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ : خافوه وراقبوه ﴿وَيَعْلَمُكُمْ اللَّهُ﴾ : يجعل الفرقان لكم، ويجعل لكم نوراً تستدلون به وتسترشدون ﴿وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءٍ عَلَيْهِ﴾ : عالم بالحقائق كلها.

(٢٨٣) ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ﴾ : إن كنتم مسافرين ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾ يكتب بينكم ويحصل به التوثق؛ ﴿فَرِهْنِمْ مَقْبُوضَةً﴾ يقبضها صاحب الحق، وتكون وثيقة عنده حتى يأتيه حقه ﴿فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ بِضَةً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِنَ أَمْنَتَهُ﴾ : فإن كان صاحب

وَأِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنِمْ مَقْبُوضَةً فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ بِضَةً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِنَ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ أُمٌّ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَنِفُوا فِيهِ آخِذِينَ بِرِيسَالِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

إِحْدَهُمَا الْآخَرَى﴾ أي : يحصل لها ذكرى بما وقع به الإشهاد ﴿وَلَا يَأْبُ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ : أنه يجب على الشاهد إذا دعي للشهادة، وهو غير معذور؛ فإنه لا يجوز له أن يأبى.

﴿وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهَا صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلٍ﴾ : النهي عن السأمة والضجر من كتابة الديون كلها من صغير وكبير وصفة الأجل. ﴿ذَلِكَمُ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ : أعدل ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ : أقرب إلى عدم الريبة، والشهادة المقتنة بالكتابة تكون أقوم وأكمل وأبعد من الشك والريب والتنازع والتشاجر ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ

(٢٨٣) أخرج البخاري في «صحيحه» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ : «أنه ذكر رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار، فقال : اتني بالشهداء أشهدهم. فقال : كفى بالله شهيداً، قال : فأتني بالكفيل، قال : كفى بالله كفيلاً. قال : صدقت. فدفعها إليه إلى أجل مسمى؛ فخرج في البحر؛ ففضى حاجته، ثم التمس مركباً يركبها يقدم عليه =

إليه ﴿وَيَعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾؛ وهو المُصِرُّ على المعاصي في باطنه وظاهره ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ فمن تمام قدرته محاسبة الخلائق، وإيصال ما يستحقونه من الثواب والعقاب.

(٢٨٥) ﴿وَأَمَّا الرُّسُلُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ يخبر تعالى عن إيمان الرسول والمؤمنين معه ﴿كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَيْكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفِرُّ بَيْنَ يَدَيْ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ فأخبر أنهم آمنوا بالله وبملائكته وجميع الرسل، وجميع الكتب، ولم يصنعوا صنيع من آمن ببعض وكفر ببعض؛ كحالة المنحرفين المغضوب عليهم والضالين من أهل الأديان المنحرفة، وهذا يدل على عظم شرفهم ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾: هذا التزام من المؤمنين عام لجميع ما جاء به النبي ﷺ من الكتاب والسنة، وأنهم سمعوه سماع قبول وإذعان وانقياد ﴿عُفْرَانَاكَ رَبَّنَا﴾: نسألك مغفرة لما صدر منا من التقصير في الواجبات، وما ارتكبنا من الذنوب والمحرمات ﴿وَإِلَيْكَ

الحق آمنا من غريمه، وأحب أن يعامله من دون رهن؛ فعلى من عليه الحق أن يؤدي إليه حقه كاملاً، غير ظالم له ولا باخس حقه ﴿وَلَيَتَّقِ اللَّهَ رَبُّهُ﴾ في أداء الحق، ويجازي من أحسن به الظن بالإحسان ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾؛ لأن الحق مبني عليها لا يثبت بدونها، فكتمها من أعظم الذنوب ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾: في حقه وحق من عليه الحق ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ بكل ما يعمل به العباد كالترغيب لهم في المعاملات الحسنة، والترهيب في المعاملات السيئة.

(٢٨٤) ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: يخبر تعالى بعموم ملكه لأهل السماء والأرض، الجميع خلقهم ورزقهم ودبرهم لمصالحهم الدينية والدنيوية ﴿وَإِنْ تُبَدُّوْا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾: أحاط تعالى علمه بما أبداه العباد، وما أخفوه في أنفسهم واستقر فيها وثبت من العزائم والأوصاف، وأنه سيحاسبهم به ﴿فَيَقْفَرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾؛ وهو المنيب إلى ربه الأبواب

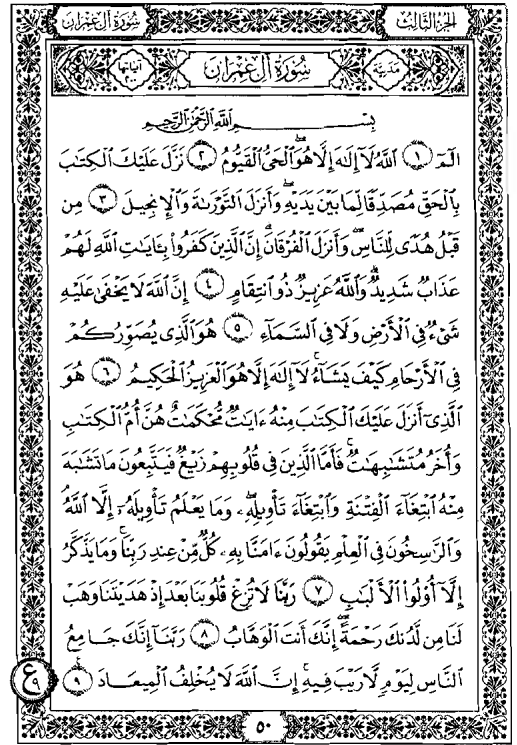
للأجل الذي أجله فلم يجد مركباً، فأخذ خشبة، فنقرها، فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبه، ثم زجج موضعها، ثم أتى بها إلى البحر، فقال: اللهم إنك تعلم أنني كنت تسلفت فلاناً ألف دينار، فسألني كفيلاً فقلت: كفى بالله كفيلاً، فرضي بك، وسألني شهيداً فقلت: كفى بالله شهيداً فرضي بك، وأني جهدت أن أجد مركباً أبعث إليه الذي له، فلم أقدر، وإني أستودعكها. فرمي بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف، وهو في ذلك يلتمس مركباً يخرج إلى بلده، فخرج الرجل الذي أسلفه ينظر لعل مركباً قد جاء بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطباً، فلما نشرها وجد المال والصحيفة، ثم قدم الذي كان أسلفه، فأتى بالألف دينار، فقال: والله ما زلت جاهداً في طلب مركب لآتيك بمال، فما وجدت مركباً قبل الذي آتيت فيه. قال: هل كنت بعثت إلي بشيء؟ قال أخبرك أنني لم أجد مركباً قبل الذي جئت فيه. قال: فإن الله قد آذى عنك الذي بعثت في الخشبة، فانصرف بالألف دينار راشداً.

(٢٨٤) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تكلم أو تعمل».

(٢٨٥) في «الصحيحين» من حديث أبي مسعود؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه». وأخرج أحمد من حديث أبي ذر الصحيح عن رسول الله ﷺ: «أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعطهن نبي قبلي».

قال: وقالوا: لا تكلفنا إلا وسعنا. فاستجاب الله تعالى دعاءهم، وفعل ذلك؛ فأخبر أنه لم يكلفهم أمرًا يشق عليهم، بل ضمن قدراتهم وطاقاتهم ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من الخير ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَت﴾ من الشر ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾: سألوا الله تعالى أن يرفع عنهم المؤاخذه في الخطأ والنسيان ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾: وأن يسهل الله عليهم شرعه غاية التسهيل، وألا يحملهم من المشاق والآصار والأغلال ما حملة على من قبلهم ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾: وألا يحملهم أمورًا فوق طاقتهم من التكاليف والمصائب والبلاء.

وقد فعل الله تعالى ذلك كله، فإن الله خفف عن هذه الأمة من الطهارات وأحوال العبادات ما لم يخففه على غيرها ﴿وَأَعْفُ عَنَّا﴾ تقصيرنا ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ ذنوبنا وخطايانا ﴿وَارْحَمْنَا﴾: ادفع المكاره والشرور، وأصلح الأمور ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾: ربنا وإلهنا ومليكننا ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ الذين كفروا بك وبرسلك، فانصرنا عليهم بالحجة



الْمَصِيرِ: المرجع لجميع الخلائق، فتجزئهم بما عملوا من خير وشر.

(٢٨٦) ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾؛ ظاهر الآية قضاء الحاجة، وفيها إضمار السؤال، كأنه

(٢٨٦) أخرج مسلم وأحمد - واللفظ له - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَيْدِيكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله ﷺ، ثم جثوا على الركب، وقالوا: يا رسول الله، كلفنا من الأعمال ما نطبق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزل عليك هذه الآية ولا نطقها. فقال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير». فلما أقر بها القوم وذلت بها ألسنتهم، أنزل الله في أثرها ﴿وَمَنْ أَلْسِنُوا يَمَّا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَرُقُ بِرَبِّ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾. فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ إلى آخره.

ورواه مسلم متفرداً ولفظه: «فلما فعلوا ذلك نسخها الله، فأنزل: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال: «نعم»، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ قال: «نعم»، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قال: «نعم»، ﴿وَأَعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قال: «نعم».

والبيان، والسيف والسنان.

تفسير سورة آل عمران وهي مدنية

(١) ﴿الْعَرَبُ﴾ من الحروف التي لا يعلم معناها إلا الله.

(٢) ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ : أنه الإله الذي لا معبود بحق سواه، الذي لا ينبغي التأله والتعبد إلا لوجهه ﴿الْحَيُّ﴾ كامل الحياة ﴿الْقَيُّومُ﴾ : القائم بنفسه؛ فاستغنى عن جميع خلقه، المقيم لأحوال خلقه؛ فافتقرت إليه جميع مخلوقاته.

(٣) ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ﴾ : نزل على رسوله محمد ﷺ الكتاب المشتمل على الحق ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب السابقة؛ أي : شهد بما شهدت به ووافقها، وصدق من جاء بها ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ﴾ على موسى ﴿وَالْإِنْجِيلَ﴾ على عيسى.

(٤) ﴿مِّن قَبْلُ﴾ إنزال هذا القرآن ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ ؛ فهدى الله بها الخلق من الضلالات واستنقذهم بها من الجبهالات، وفرق بها بين الحق والباطل، والسعادة والشقاوة، والصراط المستقيم وطريق الجحيم، ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ : الحجج والبيّنات والبراهين القاطعات. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ : جحدوا بها وأنكروها، وردوها بالباطل بعد ما بينها ووضحها في كتابه وعلى لسان رسوله ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لا يقدر قدره، ولا يدرك وصفه ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ : قوي، لا يعجزه شيء ﴿ذُو أَنْفَالٍ﴾ : ممن عصاه.

(٥) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي

السَّمَاءِ ﴿٥﴾ : من تمام قيوميته تعالى أن علمه محيط بالخلائق كلها؛ جليها وخفيها، ظاهرها وباطنها، حتى ما في بطون الحوامل. يدبرها بألف تدبير، ويقدرها بكل تقدير؛ فلهذا قال : ﴿هُوَ﴾ فهو ﴿الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ من كامل الخلق وناقصه، وحسن وقبيح، وذكر وأنثى ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فمن هذا شأنه مع عباده، واعتناؤه العظيم بأحوالهم، لا مشارك له في ذلك؛ فيتعين أنه لا يستحق العبادة إلا هو ﴿الْعَزِيزُ﴾ : الذي قهر الخلائق بقوته، واعتز عن أن يوصف بنقص أو ينعت بدم ﴿الْحَكِيمُ﴾ في خلقه وشرعه.

(٧) ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ : هو الذي تفرد بإنزال هذا الكتاب العظيم، الذي لم يوجد ولن يوجد له نظير، أو مقارب، في هدايته وبلاغته وإعجازه وإصلاحه للخلق ﴿وَمِنْ آيَاتِ مُحْكَمَاتٍ﴾ : يحتوي على المحكم الواضح المعاني، البين الذي لا يشبهه بغيره ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ : أصله الذي يرجع إليه كل مشابه، وهي معظمه وأكثره ﴿وَمِنْ آيَاتٍ أُخْرَىٰ مُتَشَبِهَاتٍ﴾ : تحتل بعض المعاني ولا يتعين منها واحد من الاحتمالين بمجردا حتى تُضم إلى المحكم.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم رِّيبٌ﴾ : ميل عن الاستقامة بأن فسدت مقاصدهم، وصار قصدهم الغي والضلال، وانحرفت قلوبهم عن طريق الهدى والرشاد. ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ﴾ : يتركون المحكم الواضح ويذهبون إلى المتشابه، فيستدلون به على مقالاتهم الباطلة وآرائهم الزائفة ﴿ابْتِغَاءَ الْقَسَصِ﴾ : طلباً للفتنة

(٧) في «الصحيحين» من حديث عائشة رضي الله عنها : قالت : تلا رسول الله ﷺ : ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرَىٰ مُتَشَبِهَاتٌ﴾ إلى قوله : ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ قالت : قال رسول الله ﷺ : «إذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم».

لهم العقوبات الدنيوية ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فإياكم أن تستهونوا بعقابه فيهون عليكم الكفر والتكذيب .
(١٢) ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتُونَ﴾ في هذه الدنيا ﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ مع ما يدخر لكم من العذاب في جهنم يوم القيامة ﴿وَيَسِّرُ لِلْمُهَادِّ﴾ الذي مهدوه وقدموه لأنفسهم ، فيئس الجزاء جزاؤهم . ففي هذه الآية بشارة للمؤمنين بالنصر والغلبة ، وتحذير للكفار ، وقد وقع كما أخبر تعالى ، فنصر الله المؤمنين على أعدائهم منكفئهم المشركين واليهود و﴿النصارى﴾ سيفعل بعباده وجنده المؤمنين إلى يوم القيامة .

(١٣) ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ : عبرة عظيمة ﴿فِي فَتْنِ الْفِتْنَةِ﴾ : وهذا يوم بدر ﴿فَتَةً تَقْبَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ : وهم الرسول ﷺ وأصحابه ﴿وَأُخْرَىٰ كَافَّةٌ﴾ : كفار قريش الذين خرجوا من ديارهم بطرا وفخرا ورتاء الناس ﴿يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَهُمْ رَأَىٰ الْعَيْنُ﴾ : يرى المؤمنون الكافرين يزيدون عليهم زيادة كثيرة ، تبلغ المضاعفة وتزيد عليها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ : أصحاب البصائر النافذة والعقول الكاملة .
(١٤) ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ : أخبر تعالى عن حالة الناس في إثثار الدنيا على الآخرة ، وأخبر أن الناس زينت لهم هذه الأمور فرمقوها بالأبصار

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ائْتِنَا آمَنًا فَاغْوِرْنَا دُونِ بَاقِي عَذَابِ النَّارِ ﴿١١﴾ الصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالْمُفْقِرِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالسَّحَارِ ﴿١٢﴾ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ لَإِيسَاءُ مَا أَخْلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ أَلْهَمُوا لِقَاءَ بَيْنَهُمْ وَمِنْ كَثْرٍ يَأْتِيَتِ اللَّهُ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٤﴾ فَإِنْ جَاحَوْكَ فَقَدْ أَكَلَتْ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنْ أَتْبَعَنَ قُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ أَهْنَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ يُصِيرُ بِالْعِصْيَانِ ﴿١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ يَأْتِيَتِ اللَّهُ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَخْفَوْنَ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَيَّرَهُمْ بِعَذَابِ الْيَمِّ ﴿١٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرٍ ﴿١٧﴾

واستحلوها بالقلوب ، وعكفت على لذاتها النفوس ، كل طائفة من الناس تميل إلى نوع من هذه الأنواع ﴿ذَٰلِكَ مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ : هذا متاع قليل مُنْقَضٍ في مدة يسيرة ، ومع ذلك جعلوها أكبر همهم ومبلغ علمهم ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ : حسن المرجع والثواب .

(١٥) ﴿قُلْ أُوْنِيتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ﴾ : هل أخبركم وأدلكم على خير من هذه اللذات ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾

(١٢) أخرج أبو داود والبيهقي في «دلائل النبوة» بإسناد حسن لغيره عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ؛ قال : لما أصاب رسول الله ﷺ قريشاً يوم بدر ، وقدم المدينة ، جمع اليهود في سوق بني قبيقاع ، فقال : «يا معشر اليهود ، أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشاً» . قالوا : يا محمد ! لا يغرنك في نفسك أنك قاتلت نفرأ من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال ، إنك لو قاتلتنا ؛ لعرفت أننا نحن الناس ، وأنك لم تلق مثلنا ؛ فأنزل الله ﷻ : ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَقْسُ إِلَيْهَا﴾ .

(١٤) في «الصحيحين» في حديث أسامة بن زيد ، عن رسول الله ﷺ : «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء» .

أجل مشهود عليه؛ وهو توحيد الله وإفراده بالعبودية والاعتراف بانفراده بصفات العظمة والكبرياء ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ فلم يزل متصفًا في أوامره ونواهيه وأحكامه وجزائه بالقسط والعدل؛ لا ظلم فيها ولا جور بوجه من الوجوه، بل هو في غاية الحكمة والإحكام، وله جل ثناؤه الكمال المطلق في ذلك ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تأكيد على ما سبق ﴿الْعَزِيزُ﴾: الذي لا يرام جنباه، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

وفي هذه الآية فضيلة العلم والعلماء؛ لأن الله خصهم بالذكر من دون البشر، وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وجعل شهادتهم من أكبر الأدلة والبراهين على توحيده ودينه وجزائه.

(١٩) ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ لَمَّا قَرَّرَ أَنَّهُ إِلَهٌ الْحَقُّ الْمَعْبُودُ؛ بَيْنَ الْعِبَادَةِ وَالْدِينِ الَّذِي لَا دِينَ لَهُ سِوَاهُ وَلَا مَقْبُولَ غَيْرِهِ هُوَ ﴿الْإِسْلَامُ﴾؛ وهو: الانقياد لله وحده ظاهرًا وباطنًا بما شرعه على ألسنة رسله ثم ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا أَلْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾: أخبر تعالى أن أهل الكتاب يعلمون ذلك، وإنما اختلفوا فانحرفوا عنه عنادًا وبغيًا وحسدًا، وإلا؛ فقد جاءهم العلم المقتضي لعدم الاختلاف، الموجب للزوم الدين الحقيقي. ثم بين سبب ذلك، فقال: ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: أن الحسد والبغي والكفر بآيات الله من قبل أنفسهم هي التي صدتهم عن اتباع الحق ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾: من كفر

أخبر بأن المتقين لله القائمين بعبوديته لهم أصناف الخيرات والنعيم المقيم في الجنات العالية والأنهار الجارية ﴿وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ من كل آفة ونقص وعيب وقذر ودنس ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ ولهم رضوان الله الذي هو أكبر من كل شيء، فلا يسخط عليهم أبدًا ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾: يعطي كلًّا منهم بحسب ما يستحقه من العطاء.

(١٦) ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمَكْنَا فَأَغْفِرْ لَنَا دُؤُنَيْكَ وَفِيْنَا عَذَابُ النَّارِ﴾: هؤلاء الراسخون في العلم يتوسلون إلى ربهم بإيمانهم لمغفرة ذنوبهم ووقايتهم عذاب النار. ثم وصفهم تعالى بأجمل الصفات:

(١٧) ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ على طاعة الله، وعن معاصيه وعلى أقداره المؤلمة، وأصل الصبر: هو حبس النفوس على ما يحبه الله؛ طلبًا لمرضاته ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ بالأقوال والأحوال، والإيمان القنوت: ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾؛ هو دوام الطاعة، مع مصاحبة الخشوع والخضوع ﴿وَالْمُسْتَغْنِينَ﴾ في سبيل الخيرات وعلى الفقراء وأهل الحاجات ﴿وَالْمُسْتَفْتِينَ بِالْأَسْخَارِ﴾: لما بين صفاتهم الحميدة؛ ذكر احتقارهم لأنفسهم وأنهم لا يرون لأنفسهم حالًا ولا مقامًا، بل يرون أنفسهم مقصرين مذنبين، فيستغفرون ربهم، خصوصًا بالليل وقت السحر.

(١٨) ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾: هذه أجل الشهادات الصادرة من الملك العظيم ومن الملائكة وأهل العلم على

(١٦) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالى في كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فأستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له...» الحديث.

(١٩) في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار».

سُورَةُ النِّسَاءِ

أَلَا تَرَى إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ
اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً وَعَرَّهَمُ
فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَفَى إِذَا جُمِعَتْهُمْ
يَوْمَ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمَالِ تُؤْتِي الْمَالِ
مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَالِ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ
مَنْ تَشَاءُ يُبَدِّلُ الْعَرْشَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ
فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ
وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِعَجْرِ حَسَابٍ ﴿٢٧﴾
لَا يَخِذُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ الْكَافِرِينَ آوِيَةً مِّنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ
يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ
تَقَةً وَيُحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلِ
إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ وَاتَّبِعُوا مَا يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمَ اللَّهُ مَا فِي
السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

٥٣

وَالْآخِرَةَ ﴿٢٣﴾: بطلت أعمالهم بما كسبت أيديهم
﴿وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ﴾: ليس لهم ناصر من
عذاب الله، ولا متخذ من عقوبته.

(٢٣) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى﴾: ألا تنظر وتعجب من
هؤلاء ﴿الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾: الذين
أنعم الله عليهم بكتابه ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ﴾: إلى
حكم الله الذي يصدق ما أنزله على رسله ﴿ثُمَّ
يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾: بأبدانهم وقلوبهم
عن اتباع الحق، فذكر لذلك سببين:

(٢٤) ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا
مَّعْدُودَةً﴾: أمنهم وشهادتهم الباطلة لأنفسهم
بالنجاة، وأن النار لا تمسهم إلا أيامًا معدودة!
حدّوها بحسب أهوائهم الفاسدة، وكأن تدبير
الملك جل ثناؤه راجع إليهم.

والسبب الثاني: ﴿وَعَرَّهَمُ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا

بالحق بعد ما تبين له ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ
الْحِسَابِ﴾: فلينتظر ذلك فإنه آت وسيجزيه الله
بما كانوا يعملون.

(٢٥) ﴿فَإِنَّ حَاجُوكَ﴾: يا محمد،! إن حاجك
النصارى وغيرهم ممن يفضل غير دين الإسلام؛
﴿فَقُلْ أَتَلْبَثُ وَجْهِي لِلَّهِ﴾: أمره الله تعالى أن يقول
ويعلم أنه قد أسلم وجهه ظاهره وباطنه لله ﴿وَمَنْ
اتَّبَعَنِي﴾: ومن اتبعه كذلك قد وافقوه على هذا
الإذعان الخالص.

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾: من النصارى واليهود
﴿وَالْأُمِّيَّةِ﴾: الذين ليس لهم كتاب، من مشركي
العرب وغيرهم ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ لفظة استفهام ومعناه:
أمر؛ أي: أسلموا. كما قال تعالى ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾
المائدة: ٩١] أي، انتهوا ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا﴾: بمثل ما
أسلمتم عليه ﴿فَقَدْ أَهْتَدَوْا﴾؛ أي: فأنتم على الطريق
المستقيم والهدى والحق ﴿وَلِنْ تَوَلَّوْا﴾: عن الإسلام،
ورضوا بالأديان التي تخالفه؛ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ﴾؛
فحسابكم على الله، وأنا ليس عليّ إلا البلاغ، وقد
أبلغتكم وأقمت عليكم الحجة ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ
بِالْعِبَادِ﴾: هو عليم بمن يستحق الهداية ممن
يستحق الضلالة.

(٢١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ
النَّبِيَّاتِ بَعْدَ حَوْثٍ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ
بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾: أي: الذين جمعوا بين
هذه الشرور: الكفر بآيات الله، وتكذيب رسله،
والجناية العظيمة على أعظم الخلق وهم الرسل
وأئمة الهدى الذين يأمرون الناس بالقسط والعدل
الذي اتفقت عليه الأديان والعقول؛ ﴿فَقَبِضْهُمْ
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: مؤلم بالغ الشدة.

(٢٢) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا

يَقْتَرُونَ ﴿١٠﴾: زين لهم الشيطان سوء عملهم، واغترروا بذلك وترأى لهم أنه الحق؛ عقوبة لهم على إعراضهم عن الحق.

(٢٥) ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ : كيف يكون حالهم إذا جمعهم الله يوم القيامة ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ : ووفى العاملين ما عملوا وجرى عدل الله في عبادہ؟

(٢٦) يقول الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ﴾ أي: أنت الملك المالك لجميع الممالك، وصفة الملك المطلق لك، والمملكة علوها وسفليها لك، والتصريف والتدبير كله لك، ثم فصل بعض التصاريف التي انفرد الباري تعالى بها، فقال: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ حصول الملك ونزعه تبع لمشيئة الله تعالى ﴿وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ﴾ بطاعتك ﴿وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ بمعصيتك، فليس الأمر بأمني أهل الكتاب ولا غيرهم، بل الأمر أمر الله والتدبير له ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾؛ أي: الخير كله منك، ولا يأتي بالحسنات والخيرات إلا الله، وأما الشر؛ فلا يضاف إلى الله تعالى، لا وصفًا ولا اسمًا ولا فعلاً ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: فليس له معارض في تدبيره ولا معاون في تقديره.

(٢٧) ﴿تَوَلَّجَ آلَيْدَ فِي النِّهَارِ وَتَوَلَّجَ النِّهَارَ فِي آيَلٍ﴾ :
كما أنه المتصرف بمدولة الأيام بين الناس؛ فهو
المتصرف بنفس الزمان: فيدخل الليل على
النهار، ويحل هذا محل هذا، ويزيد في هذا ما
ينقص من هذا؛ ليقيم بذلك مصالح خلقه
﴿وَتُخْرِجُ آلِيَّ مِنَ آلِيَّتِ﴾ كالفرخ من البيضة،
والمؤمن من الكافر ﴿وَتُخْرِجُ آلِيَّتِ مِنَ آلِيَّ﴾ :
كالبيضة من الطائر، وكالكافر من المؤمن.

﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: تَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ
 رَزَقًا وَاسِعًا مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَلَا يَكْتَسِبُ.

(٢٨) ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ
الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا نهى من الله تعالى وتحذير
للمؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياء من دون
المؤمنين بالمحبة والنصرة، والاستعانة بهم على
أمر من أمور المسلمين.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ التولي ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ :
فهو بريء من الله، والله بريء منه، ﴿إِلَّا أَنْ
تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً﴾ : إِلَّا أَنْ تَخَافُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ
في إبداء العداوة للكافرين، فلكم في هذه الحال
الرخصة في المسالمة والمهادنة ما تعصمون به
دماءكم من النَّفْيَةِ باللسان؛ لا في التولي الذي هو
محبة القلب ﴿وَحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ ؛ أي: فخافوه

(٢٦) أخرج الإمام أحمد والعراقي في «محنة القرب إلى محبة العرب» بإسناد حسن عن النعمان بن بشير قال: كنا قعوداً في المسجد - وكان بشير رجلاً يكف حديثه - فجاء أبو ثعلبة الخشني. فقال: يا بشير بن سعد، أتَحفظ حديث رسول الله ﷺ في الأمراء؟ فقال حذيفة: أنا أحفظ خطبته، فجلس أبو ثعلبة، فقال حذيفة: قال رسول الله ﷺ: «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم يكون ملكاً عاصياً، فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكاً جبرئياً، فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة»، ثم سكت.

(٢٨) أخرج البخاري تعليقاً ووصله أبو الشيخ في «طبقات المحدثين» وأبو نعيم في «حلية الأولياء» وابن عساكر في «تاريخ دمشق» من طرق حسنة بمجموعها عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «إنا لنكسر في وجوه أقوام وقلوبنا لنعظمهم».

واخشوه وقدموا خشيته على خشية الناس، فإنه هو الذي يتولى شؤون العباد ﴿وَالِىَ اللَّهُ الْمَصِيرُ﴾ مرجع الناس ومصيرهم إليه؛ فيجازي من قدم خوفه ورجاءه على غيره بالشواب، ويعاقب الكافرين ومن تولاهاهم بالعذاب.

(٢٩) ﴿قُلْ إِنْ تَخْشَوْنَ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾: يخبر تعالى بإحاطة علمه بما في الصدور؛ سواء أخفاه العباد أو أبدوه ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: علمه محيط بكل شيء في السماء والأرض، فلا تخفى عليه خافية ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ فهو القدير على كل شيء، الذي لا يمتنع عن إرادته وجود.

(٣٠) ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ ولما ذكر لهم من عظمتهم وسعة علمه ما يوجب للعباد أن يراقبوه في كل أحوالهم؛ ذكر لهم أيضًا داعيًا آخر إلى مراقبته وتقواه، وهو: أنهم كلهم صائرون إليه، وأعمالهم حينئذ منخير وشر محضرة فحينئذ يغبط أهل الخير؛ بما قدموا لأنفسهم، ويتحسر أهل الشر إذا وجدوا ما عملوه محضرا، يودون أن بينهم وبينه أمدًا بعيدا.

فإذا عرف العبد أنه ساع إلى ربه، وأنه لا بد أن يلاقه ويلاقى سعيه؛ أوجب له أخذ الحذر والتوقي من الأعمال التي توجب الفضيحة والعقوبة، والاستعداد بالأعمال الصالحة التي توجب السعادة والمثوبة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ وذلك بما يبدي لكم من أوصاف عظمتهم وكمال عدله وشدة نكاله، ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾: ومع شدة عقابه، فإنه رؤوف

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُعَذِّبُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٩﴾ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٠﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣١﴾ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ ذُرِّيَّتُهُم بِعِزٍّ وَأَلْفَاظٍ سَمِيعٍ عَلَيْهِمْ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٣﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٤﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ نَحْمَدُكَ إِنِّي لَأَبْهَمٌ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٥﴾

رحيم، ومن رأفته ورحمته أنه خَوْفُ العباد وزجرهم عن الغي والفساد.

(٣١) ثم ذكر الله تعالى الميزان الذي يُعرف به من أحب الله حقيقة، ومن ادعى ذلك دعوى مجردة، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾: إن ادعيتم محبة الله؛ ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾؛ علامة الصدق: اتباع محمد ﷺ، الذي جعل متابعتة وجميع ما يدعو إليه طريقًا إلى محبته ورضوانه ﴿يُحِبُّكُمُ اللَّهُ﴾؛ فمن فعل ذلك أحبه الله؛ وجزاه جزاء المحبين، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ وغفر له ذنوبه وستر عليه عيوبه.

(٣٢) ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾: حقيقة اتباع الرسول وصفتها؛ بامتثال الأمر، واجتناب النهي،

وتصديق الخبر ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾: أعرضوا عن ذلك؛ فهذا هو الكفر، واللّه ﴿لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾؛ بل ييغضهم ويمقتهم.

(٣٣) ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أخبر الله أنه اصطفى آدم واختاره على سائر المخلوقات، واصطفى نوحًا فجعله أول رسول إلى أهل الأرض حين عبدت الأوثان، واصطفى آل إبراهيم وهو إبراهيم خليل الرحمن الذي اختصه الله بخلته، ويدخل في آل إبراهيم جميع الأنبياء الذين بعثوا من بعده؛ لأنهم من ذريته، واصطفى الله آل عمران وهو والد مريم بنت عمران، أو والد موسى بن عمران عليه السلام، فهذه البيوت الكبار التي ذكرها الله وما احتوت عليه من كُمل الرجال هي صفوته من العالمين.

(٣٤) ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾: الفضل والخير تسلسل في ذرايبهم، وحصل التناسب والتشابه بينهم، وشمل ذكورهم ونساءهم ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: يعلم من يستحق الفضل والتفضيل، فيضع فضله حيث اقتضت حكمته.

(٣٥) ولما ذكر فضائل هذه البيوت الكريمة وذكر ما جرى لمريم وابنها عيسى صلى الله عليه وسلم وكيف تسلسلا من هذه البيوت الفاضلة، وكيف لطف الله بمريم بنت عمران في تربيتها ونشأتها، فقال: ﴿إِذْ قَالَتِ أَمْرَأْتُ عِمْرَانُ﴾ والددة مريم لما حملت: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾: جعلت ما في بطني خالصًا لوجهك، محررًا

لخدمتك وخدمة بيتك ﴿فَتَقَبَّلَ مِنِّي﴾ هذا العمل؛ أي: اجعله مؤسسًا على الإيمان والإخلاص ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾: تسمع دعائي، وتعلم نيتي وقصدي.

(٣٦) ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾ في كلامها نوع تضرع وانكسار نفس؛ فإنها تشوفت أن يكون نذرهما ذكرًا ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ لا يحتاج إلى إعلامها، بل علمه متعلق بها قبل أن تعلم أمها ما هي ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾ في القوة والعبادة وخدمة المسجد ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ كانت التسمية وقت الولادة ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾: دعت لها ولذريتها أن يعيذها الله من الشيطان الرجيم.

(٣٧) ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾: فجبر الله قلبها وتقبل نذرهما، مع أنها أنثى، وحصل بها من المقاصد أعظم مما يحصل بالذكر ﴿وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾؛ أي: ربّيت تربية عجيبة دينية، أخلاقية، أدبية؛ كملت بها أحوالها، وصلحت بها أقوالها وأفعالها، ونما فيها كمالها ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾: يسره الله كافلًا لها؛ فهو زوج أختها ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾: كلما دخل مصلاها وجد عندها رزقًا من غير كد ولا تعب، وإنما هو كرامة أكرمها الله به، وفيه إشارة إلى كثرة صلاتها وملازمتها لمحرابها ﴿أَنَّىٰ لَكَ هَٰذَا﴾: من أين لك هذا؟! ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾: فضلًا وإحسانًا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ

(٣٦) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخًا من مسه إياه، إلا مريم وابنها» ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

(٣٧) في «الصحيحين» من حديث أنس رضي الله عنه - حديث المعراج المشهور - عن النبي ﷺ: «إذا يحيى بن زكريا وعيسى وهما ابنا الخالة».

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي نَحْزَنُ الْكَوْبَ وَأَمْرَاتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ أَتُكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا زَمَرًا وَذَكَرَ رَبِّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَمْرُؤُا اقْنِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَمْ يَأْتِهِمْ بِكِتَابٍ مَرِّمٌ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ بِكُم مِّنْ أَسْمَاءٍ نَّسِخَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُفَرِّقِينَ ﴿٤٥﴾

ينحس لسانك عن كلامهم من غير آفة ولا سوء، فلا تقدر إلا على الإشارة والرمز، فامتنع من الكلام ثلاثة أيام ﴿٤٠﴾ وأذكر ربك كثيرًا وسبح بالعشي والإبكار ﴿٤١﴾: أمره الله أن يشكره ويكثر من ذكره بالعشي والإبكار، وكونه لا يقدر على مخاطبة الآدميين ولسانه منطلق بذكر الله وتسيحه آية من آيات الله، فالقادر على فعل هذه الآية قادر على خلق الولد من بين الشيخ الكبير والمرأة العاقر. ﴿٤٢﴾ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ بِهَ الْمَلَائِكَةِ مَرْيَمَ ﴿٤٣﴾ يَمْرُؤُا اقْنِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٤﴾: من الأخلاق الرذيلة ﴿٤٥﴾ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾: فضلك على

حساب ﴿٣٨﴾: من غير حسابان من العبد ولا كسب. ﴿٣٩﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴿٤٠﴾: لما رأى زكريا هذه الحال، والبر واللفظ من الله بها؛ ذكره أن يسأل الله تعالى حصول الولد على حين اليأس، فقال: ﴿٤١﴾ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴿٤٢﴾: طاهرة الأخلاق، طيبة الآداب ﴿٤٣﴾ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٤٤﴾: أي كثير الفضل والهبات.

﴿٣٩﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ ﴿٤٠﴾: بينما هو قائم في محرابه يتعبد لربه ويتضرع نادته الملائكة: خاطبته الملائكة شفاهها وهو قائم يصلي في محراب عبادته ﴿٤١﴾ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى ﴿٤٢﴾ أي: بولد يوجد لك من صلبك اسمه يحيى ﴿٤٣﴾ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ ﴿٤٤﴾: اسمه - أي: الكلمة التي من الله - عيسى ابن مريم، فكانت البشارة بيحيى تتضمن البشارة بعيسى ابن مريم والتصديق له والشهادة له بالرسالة ﴿٤٥﴾ وَسَيِّدًا ﴿٤٦﴾ من فضلاء الرسل وكرامهم ﴿٤٧﴾ وَحَصُورًا ﴿٤٨﴾: أي: لا شهوة له في النساء ﴿٤٩﴾ وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ الذين بلغوا في الصلاح ذروته العالية.

﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي نَحْزَنُ الْكَوْبَ وَأَمْرَاتِي عَاقِرٌ ﴿٤١﴾: كل واحد من الأمرين مانع من وجود الولد؛ فكيف وقد اجتماعاً؟ ﴿٤٢﴾ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٣﴾: كما اقتضت حكمته جريان الأمور بأسبابها المعروفة؛ فإنه قد يخرق ذلك؛ لأنه الفعال لما يريد.

﴿٤٤﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴿٤٥﴾: علامة على وجود الولد؛ ليحصل السرور والاستبشار، قال: ﴿٤٦﴾ أَتُكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا زَمَرًا ﴿٤٧﴾:

(٤٢) في «الصحيحين» من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خير نساها مريم بنت عمران، وخير نساها خديجة بنت خويلد».

لما ذهبت بها أمها إلى من لهم الأمر على بيت المقدس؛ تخاصموا واختلفوا؛ لأنها بنت إمامهم ومقدمهم، حتى وصلت بهم الخصومة إلى أن اقتصروا عليها، فألقوا أقلامهم مقترعين، فأصاب القرعة زكريا؛ رحمة من الله به وبها.

(٤٥) ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ يخبر تعالى أن الملائكة بشرت مريم عليها السلام بأعظم بشارة، وهو كلمة الله عبده ورسوله عيسى ابن مريم ﴿وَجِيئًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ له الوجهة والعجاء العظيم في الدنيا والآخرة عند الخلق، وهو عند الله ﴿مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾: الذين هم أقرب الخلائق إلى الله وأعلاهم درجة، وهو عَلَيْهِ السَّلَامُ من سادات المقربين.

(٤٦) ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾: يكلم قومه في المهدي؛ ليكون آية عظيمة وحجة على المعاندين، ﴿وَكَهْلًا﴾ وفي حال كهولته ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الذين أصلح الله قلوبهم بمعرفته وحبّه، وألستهم بالثناء عليه وذكره، وجوارحهم بطاعته.

(٤٧) ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾: الولد في العادة لا يكون إلا من مس البشر، وهذا استغراب منها؛ لاشك في قدرة الله تعالى ﴿قَالَ كَذَلِكَ﴾: هكذا أمر الله عظيم، لا يعجزه شيء ﴿اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾: فأخبرها أن هذا أمر خارق للعادة؛ ليعلم العباد أنه على كل شيء قدير، وأنه

سورة آل عمران
وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾
قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ
اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾
وَيَعْلَمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْحِيدَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾
وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ
أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنْ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ
فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُرْسِلُ الْأَكْصَمَ وَالْأَبْرَصَ
وَأُخِي الْمَوْنُ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَكُونُونَ وَمَا تَخْرُجُونَ
فِي يَوْمِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾
وَمَصْرُفًا لِمَا بِيَدِي مِنَ التَّوْحِيدِ وَلَا حِجْلَ لَكُمْ
بَعْضَ الَّذِي حَرَّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَفِيعُ دَرَجَاتٍ فَاعْبُدُوهُ
هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ فَلَمَّا أَحْسَبَ عِيسَىٰ مِنْهُمْ
الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ
أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾

سائر نساء العالمين.

(٤٣) ﴿يَمْرَيْمُ أَفَتُنِي لَرَبِّكَ﴾؛ أي: أكثرني من الطاعة والخضوع والخشوع لربك، وأديمي ذلك ﴿وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ خص السجود والركوع؛ لفضلهما، ودلالتهما على غاية الخضوع لله.

(٤٤) ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾: لم تحضر تلك الحالة لتعرفها فتقصها على الناس، إنما أنبأك الله بها، وهذه القصة من أكبر الأدلة على رسالة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصدق نبوته؛ حيث أخبر بها مفصلة محققة، لا زيادة فيها ولا نقص ﴿إِذْ يَقُولُ أَفْلَمَ تَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ يَكْفُرُونَ بِرَبِّهِمْ﴾:

(٤٤) أخرج أحمد (٢٨٧/٤) بإسناد صحيح من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤٦) أخرج الشيخان عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لم يتكلم في المهدي إلا ثلاثة عيسى ابن مريم، وصاحب جريج، وبينما صبي يوضع من أمه... الحديث».

قال أبو أسامة الهلالي - عفا الله عنه - المراد هؤلاء الثلاثة من بني إسرائيل؛ وإلا فالذين تكلموا في المهدي أكثر من ذلك والله أعلم.

رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَكْرُوهًا وَمَكْرُوهًا وَاللَّهُ خَبِيرٌ الْمَكِينُ ﴿٥٣﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيُوسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلَ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ قُلُوبَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا أَلَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَاغْدِثْ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٦﴾ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٧﴾ إِنَّكَ مُثَلَّهِ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كُنْثَىٰ أَدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٨﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُنْكَرِينَ ﴿٥٩﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْبَيِّنَاتِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦٠﴾

٥٧

﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ موصل إلى الله وإلى جنته .
 (٥٢) ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ﴾ : لما رأى منهم عدم الانقياد له ، والاتفاق على ردّ دعوته وقالوا : هذا سحر مبين ، وهموا بقتله وسعوا في ذلك ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ : من يعاونني ويقوم بنصرة دين الله ؟ ﴿قَالَ الْخَوَارِجُونَ﴾ : وهم الأنصار : ﴿مَنْ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ انتدبوا معه وقاموا بذلك ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ : وهذا من منه الله عليهم وعلى عيسى حيث ألهم هؤلاء الحواريين الإيمان به والانقياد لطاعته والنصرة لرسوله .
 (٥٣) ﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ : هذا التزام تام للإيمان بكل ما أنزل الله ، ولطاعة رسوله ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ لك بالوحدانية ، ولنيك بالرسالة ، ولدينك بالحق والصدق .
 (٥٤) ﴿وَمَكْرُوهًا﴾ : الكفار وهم جمهور بني

لا ممانع لإرادته .
 (٤٨) ﴿وَيَعْلَمُ الْكُتُبَ﴾ : أي : جنس الكتب السابقة ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ : الحكم بين الناس ﴿وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ خصصا بالذكر بعد ذكر الكتب ؛ لشرفهما وفضلهما .
 (٤٩) ﴿وَرَسُولًا﴾ : ويعطيه النبوة ، ويجعله رسولا ﴿إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ : الشعب الفاضل في زمانهم ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ تدلّكم أني رسول الله حقا ﴿أَنِّي آخُلُقُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ : أصوره على شكل الطير ﴿فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ : طيرا له روح تطير بإذن الله ﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ﴾ : الذي يولد أعمى ﴿وَالْأَبْرَصَ﴾ : الذي يصاب بجلده ببقع بيض ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ : الذين فارقت أرواحهم أجسادهم ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ : أخبركم بما أكل أحدكم في بيته ، وما هو مدخر ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ : آية عظيمة للمؤمنين .
 (٥٠) ﴿وَمُصَدِّقًا﴾ : مقرا ومثبتا ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ : أتيت بجنس ما جاءت به التوراة ، وما جاء به موسى عليه السلام ﴿وَلَا حِجْلَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ : أي : ولا أخفف عنكم بعض الآصار والأغلال ﴿وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ : تدل على صدقي ووجوب اتباعي ، وهي ما تقدم من الآيات ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بفعل ما أمر به ، وترك ما نهى عنه ﴿وَأَطِيعُوا﴾ : وأطيعوني ، فإن طاعة الرسول طاعة لله .
 (٥١) ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ : أنا وأنتم سواء في العبودية له ، والخضوع والاستكانة إليه ﴿هَذَا﴾ : عبادة الله وتقواه ، وطاعة رسوله

والعقوبات المشاهدة والقتل والذل، وأما عذاب الآخرة فهو عذاب النار، وغضب الجبار، وحرمانهم ثواب الأبرار ﴿وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ﴾: ينصرونهم من عذاب الله.

(٥٧) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ورسوله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ القلبية والقلوية والبدنية، وقصدوا بها رضا رب العالمين، ﴿فَيُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ﴾: يحصل لهم في الدنيا ثواب لأعمالهم من الإكرام والإعزاز والنصر والحياة الطيبة، وإنما توفية الأجور يوم القيامة، يجدون ما قدموه من الخيرات محضراً موفراً، فيعطى منهم كل عامل أجر عمله ويزيدهم من فضله وكرمه ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾؛ بل يبغضهم ويحل عليهم سخطه وعذابه.

(٥٨) ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾: ننبئك به يا محمد! من القرآن المحكم المفصل لأخبار الأنبياء، وما أجرى الله على أيديهم ﴿مِنَ الْآيَاتِ﴾ البينات والمعجزات الباهرات ﴿وَالذِّكْرِ﴾؛ وهو الذي يذكر العباد كل ما يحتاجونه ﴿الْحَكِيمِ﴾:

إسرائيل بإرادة قتل نبي الله ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ بهم جزاء لهم على مكروهم ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ﴾: رد الله كيدهم في نحورهم فانقلبوا خاسرين.

(٥٥) ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعْسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾: هو النوم ﴿وَرَفَعُكَ إِلَيَّ﴾: فرفع الله عبده ورسوله عيسى إليه ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾؛ أي: الطائفة التي آمنت به ونصرهم الله على من انحرف عن دينه، فلم يزلوا قاهرين حتى بعث الله نبينا محمداً ﷺ، فكان المسلمون هم المتبعين لعيسى حقيقة، فأيدهم الله ونصرهم على اليهود والنصارى وسائر الكفار ﴿ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ﴾ مصير الخلائق كلها ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ كل يدعي أن الحق معه، وأنه المصيب وغيره مخطئ، وهذا مجرد دعاوى تحتاج إلى برهان.

(٥٦) ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله وآياته ورسوله؛ ﴿فَاعَذِّبْنَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾: أما عذاب الدنيا؛ فهو ما أصابهم الله به من القوارع

(٥٥) أخرج النسائي في «الكبرى» وسعيد بن منصور والضياء وابن عساكر والطبري وابن أبي حاتم بإسناد حسن عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: لما أراد الله عز وجل أن يرفع عيسى عليه السلام إلى السماء؛ خرج على أصحابه وهم في بيت، اثنا عشر رجلاً، ورأسه يقطر ماء، فقال: أيكم يلقي شئبي عليه فيقتل مكاني، فيكون معي في درجتي؟ فقام شاب من أحدهم سناً، فقال: أنا، فقال: اجلس، ثم أعاد عليهم، فقام الشاب، فقال: أنا. فقال: اجلس. ثم أعاد عليهم الثالثة، فقال الشاب: أنا، فقال عيسى عليه السلام: نعم أنت. فألقي عليه شبه عيسى عليه السلام، ثم رفع عيسى من روضة - فتحة في السقف - كانت في البيت إلى السماء، وجاء الطلب من اليهود، فأخذوا الشاب للشبه، فقتلوه ثم صلبوه؛ ففترقوا ثلاث فرق؛ فقالت فرقة: كان فينا الله عز وجل ما شاء، ثم صعد إلى السماء. وهؤلاء: اليعقوبية. وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء الله، ثم رفعه الله إليه. وهؤلاء: النسطورية. وقال طائفة (وفي رواية: فرقة): كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله، ثم رفعه الله؛ فهؤلاء المسلمون، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوا، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمد ﷺ، فأنزل الله عز وجل: ﴿فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَرَّهَتْ طَائِفَةٌ﴾؛ يعني: الطائفة التي كفرت في زمان عيسى عليه السلام، والطائفة التي آمنت في زمان عيسى ﷺ ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾؛ بإظهار محمد ﷺ دينهم على دين الكفار ﴿فَأَصْحَابُ ظَهْرَيْنَ﴾.



الموجودات ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها.

(٦٣) ﴿إِنْ تَوَلَّوْا﴾: إن أعرضوا عن الحق؛ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ وسيجازيهم على ذلك، فيعاقبهم أشد العقوبة، والمفسد: من عدل عن الحق إلى الباطل.

(٦٤) ﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾: قل لأهل الكتاب من اليهود والنصارى: ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾: هلموا نجتمع عليها، وهي الكلمة التي اتفق عليها الأنبياء والمرسلون، مشتركة بيننا وبينكم: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾: فنفرد الله بالعبادة، ونخضعه بالحب

المحكم صادق الأخبار، وحسن الأحكام. (٥٩) ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ مثل خلق عيسى من غير أب كآدم من غير أب ولا أم، وفي هذا حجة على النصارى الزاعمين بعيسى عليه السلام ابن الله أو شريكاً لله في الربوبية، فآدم عليه السلام خلقه الله من تراب لا من أب ولا أم، فإن صح ادعاء البنية والإلهية في المسيح؛ فادعائها في آدم من باب أولى.

(٦٠) ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُنْكَرِينَ﴾: لا تكن من الشاكرين في شيء مما أخبرك به ربك.

(٦١) ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ﴾ جادلَكَ في عيسى عليه السلام وزعم أنه فوق منزلة العبودية، بل رفعه فوق منزلته ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ بأنه عبد الله ورسوله، وبينت لمن جادلَكَ ما عندك من الأدلة الدالة على أنه عبد أنعم الله عليه؛ ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾: فأمر الله نبيه أن ينتقل إلى مباہلته وملاعنته، فيدعون الله ويبتهلون إليه أن يجعل لعنته وعقوبته على الكاذب من الفريقين، هو وأحب الناس إليه من الأولاد والأبناء والنساء.

(٦٢) ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾: الذي قصه الله على عباده ﴿لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾؛ أي: الذي لا ريب فيه ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾: فهو المألوه المعبود حقاً، الذي لا تنبغي العبادة إلا له ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾: الذي قهر بقدرته وقوته جميع

(٦٤) أخرج البخاري ومسلم عن ابن عباس عن أبي سفيان في قصة دخوله على قيصر، ثم ذكر كتاب رسول الله ﷺ إليه، فقرأه فإذا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى. أما بعد، فأسلمت تسلم. وأسلم يؤتكَ الله أجرَكَ مرتين، فإن توليت؛ فإن عليك إثم الأريسيين» ﴿يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَامٍ﴾ الآية.

ومن ولايتهم ﴿وَلَكِنْ كَانَتْ خَفِيفًا مُّسْلِمًا﴾؛ لأن دينه الحنيفية السمحة التي فيها الإيمان بجميع الرسل وجميع الكتب ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ برأ الله خليله من اليهود والنصارى والمشركين، وجعله حنيفًا مسلمًا.

(٦٨) ﴿إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ أخبر الله تعالى أن أحق الناس بإبراهيم من آمنه به من أمته ﴿وَهَذَا النَّبِيُّ﴾ يعني محمد ﷺ ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ من أصحابه المهاجرين والأنصار ومن بعدهم ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾: والله تعالى وليهم وناصرهم ومؤيدهم.

(٦٩) ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضْلِكُوا﴾ يحذر تعالى عباده المؤمنين من مكر هذه الطائفة الخبيثة من أهل الكتاب، وأنهم يودون أن يضلوكم، وأنها تسعى في رد المؤمنين وإدخال الشبه عليهم بكل طريق ﴿وَمَا يُضْلِكُوا إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ سعيهم في إضلال المؤمنين زيادة في ضلال أنفسهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك أنهم يسعون في ضرر أنفسهم وأنهم لا يضروركم شيئًا.

(٧٠) ﴿يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ ما الذي دعاكم إلى الكفر بآيات الله مع علمكم بأن ما أنتم عليه باطل، ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ بل تشهدون به ويسر به بعضكم إلى بعض في بعض الأوقات؟

والخوف والرجاء، ولا نشرك به نبيا ولا ملكا ولا وليا ولا صنما ولا وثنا ولا حيوانا ولا جمادا ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾: وأن نعتقد أن البشر وجميع الخلق كلهم في طور البشرية، لا يستحق منهم أحد شيئا من خصائص الربوبية ولا من نعوت الألوهية ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ أَشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾: فإن تولوا؛ فهم معاندون، فأشهدوهم أنكم مسلمون.

(٦٥) ﴿يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ لِمَ تَحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أَزَلَّتْ أَلْوَرْنَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾: اليهود ينتسبون إلى أحكام التوراة، والنصارى ينتسبون إلى أحكام الإنجيل، والتوراة والإنجيل ما أنزلا إلا من بعد إبراهيم؛ فكيف ينسبون إبراهيم إليهم، وهو قبلهم متقدم عليهم؟! فلهذا قال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: فلو عقلتم ما تقولون؛ لم تقولوا ذلك.

(٦٦) ﴿هَكَانَتْمْ هَتُولَاءَ حَبَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾: هب أنهم حاجوا فيما لهم به علم من أحكام التوراة والإنجيل، سواء أخطأوا أم أصابوا ﴿فَلَمْ تَعَاجُزُوا فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾: فلم تحاجون في هذا الأمر - أي: جدالكم في إبراهيم -، الذي يعلم به كذبكم وافتراؤكم ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ الأمور على حقائقها وجلياتها ﴿وَأَنْتُمْ﴾: أيها اليهود والنصارى ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾.

(٦٧) ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾: إبراهيم عليه السلام بريء من اليهود والنصارى والمشركين

(٦٨) أخرج الترمذي والبخاري والطحاوي في «مشكل معاني الآثار» بإسناد صحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن لكل نبي ولادة من النبين، وإن وليي منهم أبي وخليل ربي عز وجل» ثم قرأ: ﴿إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

يَتَّاهِلُ الْكِتَابَ لِمَ تَلْسُوتُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ
وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا
بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامِنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَآخِرُ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تَتُومِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ
الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ
عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ
عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْصُصُ رَحْمَتَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنَ إِن تَأْمَنُوا بِقِطَارٍ
يُودُهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنَ إِن تَأْمَنُ بِدِينَارٍ لَا يُوَدُّهُ إِلَّا
مَا دُمْتُ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِ
سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾
بَلْ مَن أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَآتَقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ
الَّذِينَ يَسْتُرُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَيَأْمِنُنَّهِمْ مِّنَّا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ
لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

وصل إليه علمه .

﴿٧٥﴾ وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ يخبر تعالى عن حال
أهل الكتاب في الوفاء والخيانة في الأموال، لما
ذكر خيانتهم في الدين ومكرهم وكتهم الحق،
فأخبر أن منهم ﴿مَنَ إِن تَأْمَنُ بِقِطَارٍ﴾: أن منهم
طائفة أمناء، بحيث لو أمنتهم على المال الكثير
﴿يُودُهُ إِلَيْكَ﴾ وهو على أداء ما دونه من باب
أولى ﴿وَمِنْهُمْ﴾ طائفة خونة ﴿مَنَ إِن تَأْمَنُ بِدِينَارٍ
لَّا يُوَدُّهُ إِلَيْكَ﴾ وهو على عدم أداء ما فوّه من
باب أولى ﴿إِلَّا مَا دُمْتُ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ بالمطالبة
والملازمة والإلحاح في استخلاص حَقِّك ﴿ذَلِكَ﴾
والذي أوجب لهم الخيانة وعدم الوفاء إليكم
﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ زعموا قائلين: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي
الْأُمِّيَّتِ سَبِيلٌ﴾: ليس علينا جناح وإثم إذا خُناهم
واستبحنا أموالهم؛ لأنهم - أي: الأميون،

(٧١) ثم وبخهم على إضلالهم الخلق فقال:
﴿يَتَّاهِلُ الْكِتَابَ لِمَ تَلْسُوتُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾: وبخهم
على لبس الحق بالباطل، ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ
تَعْلَمُونَ﴾ وعلى كتمان الحق، مع علمهم بالحق.
(٧٢) ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي
أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامِنُوا وَجْهَ النَّهَارِ﴾: ادخلوا في
دينهم - على وجه المكر والكيد أول النهار - فإذا
كان آخر النهار؛ فاخرجوا منه، وارجعوا عنه
﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: فإنهم إذا رأوكم راجعين، وهم
يعتقدون فيكم العلم؛ استرابوا بدينهم، وقالوا:
لولا أنهم رأوا فيه ما لا يعجبهم، ولا يوافق
الكتب السابقة لم يرجعوا.

(٧٣) ﴿وَلَا تَتُومِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ﴾: لا تثقوا ولا تطمئنوا ولا
تصدقوا إلا من تبع دينكم فرد الله عليهم فقال:
﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ﴾: الله تعالى هو الذي
يهدي من يشاء ﴿أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ
يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾؛ يعني أن الذي حملهم على
هذه الأعمال المنكرة الحسد والبغي وخشية
الاحتجاج عليهم بما في أيديهم.

﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾: الله هو الذي يحسن
على عباده ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ ممن أتى بأسبابه
﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ واسع الفضل، كثير الإحسان
﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يصلح للإحسان فيعطيه، ومن لا
يستحقه فيحرمه إياه.

(٧٤) ﴿يَخْصُصُ رَحْمَتَهُ مَن يَشَاءُ﴾ خص هذه
الأمة رحمة منه عليها بما لم يخص به غيرهم من
نعمة الدين ومتمماته ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
الْعَظِيمِ﴾: الذي لا يصفه الواصفون، ولا يخطر
بقلب بشر، بل وصل فضله وإحسانه إلى ما

خلقه، فإن هذا هو المتقي، والتقوى تكون في هذا الموضع ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ فمن كان كذلك؛ فإنه من المتقين الذين يحبهم الله تعالى. (٧٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾؛ أي: إن الذين يشترون الدنيا بالدين، ويختارون الحطام القليل من الدنيا، ويتوسلون إليها بالأيمان الكاذبة والعهود المنكوثة؛ فهؤلاء ﴿لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾: لا نصيب لهم من الخير ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْفِتْمَةِ﴾ غضباً عليهم وسخطاً ﴿وَلَا يَزْكِيهِمْ﴾: لا يطهرهم من ذنوبهم، ولا يزيل عيوبهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ﴾ قد حق عليهم عقابه، وحرموا ثوابه ﴿أَلَيْسَ﴾: موجه للقلوب والأبدان، وهو عذاب جهنم.

(٧٨) ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا﴾؛ أي: وإن من أهل الكتاب فريقاً محرفون لكتاب الله ﴿يَلُونُ﴾ أَلَسْتَهُمْ بِالْكَذِبِ: يميلونه ويحرفونه عن المقصود، وهذا يشمل التحريف اللفظي والمعنوي ﴿لِيَحْسَبُوهُ مِنَ الْكُتُبِ﴾: هم مع هذا التحريف الشنيع يوهمون أنه من الكتاب ﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكُتُبِ﴾ وهم كذبة في ذلك.

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبُ﴾: هؤلاء يقولون على الله الكذب، فيجمعون بين نفي المعنى الحق وإثبات المعنى الباطل، وتنزيل اللفظ الدال على الحق

وَأَنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُونُ أَلَسْتَهُمْ بِالْكَذِبِ لِيَحْسَبُوهُ مِنَ الْكُتُبِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكُتُبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِشَرِّ أَنْ يُؤْيِيَهُ اللَّهُ الْكُتُبَ وَالْحَكْمَ وَالنُّصُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعْلَمُونَ الْكُتُبَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَعَبَرْتُمْ يَوْمَ اللَّهِ يَصْبُوتُ وَلَهُ أَسْلَمَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

ويعنون بهم: العرب - لا حرمة لهم ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبُ﴾؛ كذبوا على الله في هذا الزعم، واختلقوا هذه المقالة وافعلوها من قبل أنفسهم ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ذلك، ليس كمن فعل ذلك جهلاً وضلاً.

(٧٦) ﴿بَلَى﴾؛ ليس الأمر كما تزعمون: أنه ليس عليكم في الأميين حرج، بل عليكم في ذلك أعظم الحرج وأشد الإثم، ولكن ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَأَتَىٰ﴾؛ أي: قام بحقوق الله وحقوق

(٧٧) أخرج أحمد والنسائي في «الكبرى» بإسناد صحيح عن عدي بن عميرة الكندي؛ قال: خاصم رجل من كندة، يقال له: امرؤ القيس بن عباس رجلاً من حضرموت إلى رسول الله ﷺ في أرض، ففضي على الحضرمي بالبينة، فلم يكن له بينة، ففضي على امرؤ القيس باليمين، فقال الحضرمي: إن أمكنته من اليمين يا رسول الله. ذهبت ورب الكعبة أرضي، فقال النبي ﷺ: «من حلف على يمين كاذبة ليقطع بها مال أحد لقي الله ﷻ وهو عليه غضبان». وتلا رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ فقال امرؤ القيس: ماذا عن تركها يا رسول الله؟ فقال: «الجنة» قال: فاشهد أنني قد تركتها له كلها.

(٧٨) أخرج البخاري تعليقاً عن ابن عباس رضي الله عنهما: «إنهم يحرفون ويزيدون».

رَسُولٌ: أَنَّهُ إِنْ بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا، وَهَذَا الرَّسُولُ ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾: بُعِثَ بِمَا بُعِثُوا بِهِ مِنْ التَّوْحِيدِ وَالْحَقِّ وَالْقِسْطِ، وَالْأَصُولِ الَّتِي اتَّفَقَتْ عَلَيْهِمُ الشَّرَائِعُ ﴿لَتُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾ وَلَتَنْصُرَنَّهُ: أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَنْصُرُونَهُ ﴿قَالَ أَأَفَرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَيَّ ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾: عَهْدِي ﴿قَالُوا أَأَفَرَرْنَا﴾ أَي: قَبَلْنَا مَا أَمَرْتَنَا بِهِ عَلَى الرَّأْسِ وَالْعَيْنِ ﴿قَالَ﴾ اللَّهُ لَهُمْ: ﴿فَاسْهَدُوا﴾ عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَعَلَى أُمَّمِكُمْ بِذَلِكَ، قَالَ: ﴿وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أَي: وَشَهِدَ عَلَيْهِمْ.

(٨٢) ﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ﴾ : من تولى عن اتباع محمد ﷺ ممن يزعم أنه من أتباعهم بعد هذا العهد والميثاق المؤكد بالشهادة من الله ومن رسله ؛ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون عن طاعة الله ، المكذبون للرسول الذي يزعم أنه من أتباعه ، مخالف لطريقه .

(٨٣) ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَمْعُونَ﴾: أيرغب الراغبون في غير دين الله؟ فمن زهد عنه ورغب عنه فأين يذهب؟ ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: الخلق كلهم منقادون بتسخيره، مستسلمون له ﴿طَوْعًا﴾ اختيارًا، وهم المؤمنون المسلمون المنقادون لعبادة ربهم، ﴿وَكَرْهًا﴾ لا خروج لهم عنه، ولا امتناع لهم منه ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾: وإليه مرجع الخلائق كلها، فيحكم بينهم ويجازيهم بحكمه الدائر بن الفضل والعدل.

على المعنى الفاسد، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ حالهم
وسوء مغبتهم.

(٧٩) ﴿مَا كَانَ لِإِبْرَاهِيمَ﴾ ؛ أي : يتمتع ويستحيل كل الاستحالة لبشر ﴿أَنْ يُؤَيَّتَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ﴾ : أَنْ يَمَنَّ اللَّهُ عليه بالوحي والكتاب والنبوة ويعطيه الحكم الشرعي ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ : ثم يأمر الناس بعبادته من دون الله ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّاتِنَ يَمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَيَمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ ولكن يأمرهم بأن يكونوا ربانيين : علماء حكماء حلما ، معلمين للناس ومربيهم بصغار العلم قبل كباره ، عاملين بذلك .

(٨٠) ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ وهذا تعميم بعد تخصيص، لا يأمركم بعبادة نفسه ولا بعبادة أحد من الخلق من الملائكة والنبيين وغيرهم واتخاذهم أرباباً ﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾؛ لأن هذا هو الكفر، فكيف وقد بعث بالإسلام المنافي للكفر من كل وجه؟ فكيف يأمر بضده؟! هذا من الممتنع والمحال.

(٨١) ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق النبيين وعهدهم المؤكد، بسبب ما أعطاهم من كتاب الله المنزل والحكمة الفاصلة بين الحق والباطل والهدى والضلال ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ

(٧٩) أخرج البخاري معلقا عن ابن عباس رضي الله عنهما : «كونوا ربانيين» حلماء، فقهاء، علماء. ويقال: الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره».

(٨١) أخرج أحمد والبزار وأبو يعلى والدارمي بإسناد حسن لغيره عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء؛ فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وإنكم إما أن تصدقوا بباطل، وإما أن تكذبوا بحق، وإنه - والله - لو كان موسى حيًّا بين أظهركم ما حلَّ له إلا أن يتبعني».

والضلال بعدما عرفوا الإيمانى ودخلوا فيه
﴿وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾
وشهدوا أن الرسول حق بما جاءهم به من الآيات
البيّنات والبراهين القاطعات ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ﴾ فهؤلاء ظلموا وتركوا الحق بعدما
عرفوه، واتبعوا الباطل مع علمهم بطلانه؛ ظلماً
وبغياً واتباعاً لأهوائهم، فهؤلاء لا يوفقون
للهداية.

(٨٧) ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ
وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ يلعنهم الله ويلعنهم
خلقه.

(٨٨) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ في اللعنة والعذاب ﴿لَا
يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ لا يفر عنهم العذاب ساعة
ولا لحظة؛ لا بإزالته، أو بإزالة بعض شدته،
﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾: يمهلون.

(٨٩) ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ من بعد
كفرهم ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ حسن إسلامهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ
عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وهذا من لطفه ورأفته: أن من تاب
تاب عليه ورحمه.

(٩٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ يخبر تعالى
أن من كفر بعد إيمانه ﴿ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا﴾ ثم
ازداد كفرًا إلى كفره بإصراره وتماديه في الغي
والضلال، واستمراره على ترك الرشيد والهدى؛
أنه ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾: لا يوفقون لتوبة تقبل،
بل يمدهم الله في طغيانهم يعمهون ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ
الضَّالُّونَ﴾ عن طريق الهدى، السالكون لطريق
الشقاء.

قُلْ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرٰهٖمَ
وَإِسْمٰعٖلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ
مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ
مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُّسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ عِوَاذَ الْإِسْلَامِ
دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾
كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا
أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ
وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَخَفُفُ
عَنَّهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ
بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَّنْ يُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ
وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ
كُفَّارًا فَلَن يُمْسِكَ مِنْ أَحَدِهِمْ قِلْعَةُ الْأَرْضِ ذِكْرًا وَلَوْ
أَفْتَدَىٰ بِمَالِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٩١﴾

(٨٤) ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ
إِبْرٰهٖمَ وَإِسْمٰعٖلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ
مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ
أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُّسْلِمُونَ﴾ تقدم نظير هذه
الآية في سورة البقرة آية رقم (١٣٦).

(٨٥) ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ عِوَاذَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾:
من يدين لله بغير دين الإسلام الذي ارتضاه الله
لعبادته؛ فعمله مردود، وليس له دين يعول عليه
﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخٰسِرِينَ﴾؛ لأنه لم يأت
بسبب النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه.

(٨٦) ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾
يبعد كل البعد أن يهدي الله قوماً اختاروا الكفر

(٨٦ - ٨٩) أخرج النسائي وأحمد وابن حبان بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه؛ قال: كان رجل في الأنصار أسلم ثم ارتد
ولحق بالشرك، ثم ندم؛ فأرسل إلى قومه: سلوا رسول الله ﷺ. فقالوا: «إن فلاناً ندم، وإنه قد أمرنا أن نسألك: هل له من
توبة؟ فنزلت: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ إلى ﴿عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فأرسل إليه قومه؛ فأسلم.

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٦٧﴾ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ الْتَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٨﴾ فَمَنْ أَفْرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٩﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٠﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٢﴾ قُلْ يَتَاهِلُ الْكِتَابُ لَمْ تَكْفُرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ﴿٧٣﴾ قُلْ يَتَاهِلُ الْكِتَابُ لَمْ تَصُدِّقُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ بَيْنِ أَعْيُنِنَا وَانْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ يَتَابِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَطَاعُوا فَوَيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ عَلَيْكُمْ فَكَيْفَ ﴿٧٥﴾

﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ﴾: إلا أشياء يسيرة حرمها إسرائيل؛ وهو: يعقوب عليه السلام ﴿عَلَى نَفْسِهِ﴾: من غير تحریم من الله تعالى ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾: أي: قبل

(٩١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾: هؤلاء الكفرة إذا استمروا على كفرهم إلى الممات؛ ﴿فَلَنْ يُفْعَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِثْلُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾: تعين هلاكهم وشقاؤهم الأبدي، ولم ينفعهم شيء، فلو أنفق أحدهم ملء الأرض ذهبًا ليفتدي به من عذاب الله ما نفعه ذلك ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: بل لا يزالون في العذاب الأليم ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾: لا شافع لهم ولا ناصر من عذاب الله.

(٩٢) ﴿لَنْ تَنَالُوا﴾: تدرکوا وتبلغوا ﴿الْبِرَّ﴾؛ الذي هو اسم جامع للخيرات، الموصل لصاحبه إلى الجنة ﴿حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبُّونَ﴾: من أطيب أموالكم النفيسة وأزكاها، التي تحبها نفوسكم ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ﴾: مهما أنفق العبد من نفقة قليلة أو كثيرة، من طيب أو غيره؛ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾: وسيجزى كل منفق بحسب عمله؛ سيجزيه في الدنيا بالخلف العاجل، وفي الآخرة بالنعيم الآجل.

(٩٣) ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾: جميع أنواع الأطعمة كانت حلالاً لبني إسرائيل

(٩١) أخرج الشيخان وأحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: رأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به؟ قال: فيقول: نعم» قال: «فيقول الله: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا أن تشرك».

(٩٢) أخرج الشيخان عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة مالاً، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء - وكانت مستقبلة المسجد - وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، فلما نزلت: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبُّونَ﴾ قال أبو طلحة: يا رسول الله، إن الله يقول: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبُّونَ﴾ وإن أحب أموالي إلي بيرحاء، وإنها صدقة لله وأرجو برها وذخرها عند الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله تعالى. فقال النبي ﷺ: «بخ! ذاك مال رابح، ذك مال رابح، وقد سمعت، وأنا أرى أن تجلعه في الأقربين» فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله. فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه.

(٩٣) أخرج عبد الرزاق والطبري وابن أبي حاتم في «تفسيرهم» والحاكم واليهقي بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كان إسرائيل أخذه عرق النساء، فكان يبيت له زقاء، فجعل لله عليه إن شفاه ألا يأكل العروق؛ فأنزل الله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ قال سفيان: له زقاء. صباح.

البركات وأنواع الهدايا وتنوع المصالح والمنافع الشيء الكثير الدينية والدنيوية ﴿وَهْدَى لِلْعَالَمِينَ﴾؛ والهدى نوعان: هدى في المعرفة، وهدى في العمل.

(٩٧) ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾: أدلة واضحة ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ المراد به: المقام المعروف؛ وهو الحجر الذي كان يقوم عليه الخليل لبنان الكعبة لما ارتفع البنيان والآية فيه: وقيل: أثر قدمي إبراهيم قد أثرت في الصخرة، وهذا من الخوارق، ويحتمل: أن المراد بمقام إبراهيم: أنه مفرد مضاف، يراد به: مقاماته في مواضع المناسك كلها، فيكون على هذا جميع أجزاء الحج ومفرداته آيات بينات، والآية في ذلك: ما جعله الله في القلوب من تعظيمها واحترامها ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾: أن من دخله كان آمناً شرعاً وقدرًا ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾: يجب على الناس الحج ﴿مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾: وهو الذي يقدر على الوصول إليه بأي مركوب يناسبه وزاد يتزوده ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ فلم يلتزم حج بيته - وهذا على سبيل التهديد والزجر -، أو جحد فريضة الحج؛ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ ثم عظم الشأن، وأكد الوعيد بإخباره

نزول التوراة ﴿قُلْ﴾ لهم إن أنكروا ذلك: ﴿قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ﴾ أمر الله رسوله إن أنكروا ذلك أن يأمرهم بإحضار التوراة؛ ﴿فَأَتَوْهَا﴾ فإنها ناطقة بما قلناه ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ بزعمكم أنه لا نسخ ولا تحليل ولا تحریم، وهذا من أبلغ الحجج؛ أن يحتج على الإنسان بأمر يقوله ويعترف به ولا ينكره.

(٩٤) ﴿فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾: بعد هذا البيان؛ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وأي ظلم أعظم من ظلم من يدعى إلى تحكيم كتابه؛ فيمتنع من ذلك عناداً وتكبراً وتعجباً.

(٩٥) ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ في كل ما قاله وأخبر به وحكم ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾: أمرهم باتباع ملة أبيهم إبراهيم عليه السلام؛ من توحيد الله وحده لا شريك له، وتصديق كل الرسل والكتب، والإعراض عن الأديان الباطلة المنحرفة ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: كان معرضاً عن كل ما يخالف التوحيد، متبرئاً من الشرك وأهله.

(٩٦) ﴿إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ يخبر تعالى بعظمة بيته الحرام، وأنه أول بيت وضعه الله في الأرض لعبادته وإقامة ذكره ﴿مُبَارَكًا﴾: فيه من

(٩٦) أخرج الشيخان عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله ﷺ، أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: «المسجد الحرام» قلت: ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى» قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة» قلت: ثم أي؟ قال: «ثم حيث أدركت الصلاة فصل، فكلها مسجد».

(٩٧) أخرج الطبري وابن أبي حاتم بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ قال: «الحرم كله مقام إبراهيم». أخرج مسلم وأحمد واللفظ له عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس، قد فرض عليكم الحج؛ فحجوا» فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت، حتى قالها ثلاثاً، فقال رسول الله ﷺ: «لو قلت نعم؛ لوجبت، ولما استطعتم». وفي رواية لأحمد وأبي داود والنسائي وابن ماجه بإسناد صحيح عن ابن عباس مرفوعاً: «لو قلتها لوجبت، ولو وجبت لم تعملوا ولم تستطيعوا أن تعملوا بها، الحج مرة، فمن زاد؛ فهو تطوع».

أخرج البيهقي والإسماعيلي بإسناد صحيح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «من أطاق الحج، فلم يحج، فسواء عليه يهودياً مات أو نصرانياً».

ما يستغنى به عنه.

(٩٨) ﴿قُلْ يَتَاهِلَ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾: ويخ تعالى المعاندين من أهل الكتاب على كفرهم بآيات الله التي أنزلها الله على رسله ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾: يعلم أحوالهم، وسيجازيهم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

(٩٩) ﴿قُلْ يَتَاهِلَ الْكِتَابُ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُوتَهَا عَوجًا﴾: فهو لاء الكفرة جمعوا بين الكفر بآيات الله وصد من آمن بالله عنها، وتحريفها وتعويجها عما جعلت له ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾: شاهدون بذلك ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بل محيط بأعمالكم ونياتكم ومكركم السيئ.

(١٠٠) ﴿يَتَايَأُ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ نُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ﴾: حذر تعالى عباده المؤمنين عن الاغترار بأهل الكتاب، وبين لهم أن هذا الفريق منهم حريصون على إضرارهم وردهم إلى الكفر بعد الإيمان.

(١٠١) ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ﴾: إن الكفر بعيد عنكم وحاشاكم منه؛ فإن آيات الله تنزل على رسوله ليلاً ونهاراً، وهو يتلوها عليكم ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾: رسول الله الذي أرشدكم إلى جميع مصالحكم ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ﴾؛ أي: يتوكل عليه ويحتمي بحماه ﴿فَقَدْ هَدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾: موصل له إلى غاية المرغوب.

(١٠٢) ﴿يَتَايَأُ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٩٨﴾ يَتَايَأُ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٩٩﴾ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا عَمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَكِنْ يَنْهَكُمُ اللَّهُ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٢﴾ يَوْمَ نَبِضُ وُجُوهٌ وَنَسُودُ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٣﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ ففِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٤﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ بِرَبِّدٍ ظَلَمَ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٥﴾

مُوتُونَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾: هذا أمر من الله لعباده المؤمنين أن يتقوه حق تقواه، وأن يستمروا على ذلك، ويشبثوا عليه ويستقيموا إلى الممات، فإن من عاش على شيء مات عليه، وتقوى الله حق تقواه كما قال ابن مسعود وهو أن يُطاع فلا يُعصى، ويُذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر.

(١٠٣) ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾: ثم أمرهم تعالى بما يعينهم عن التقوى؛ وهو الاجتماع والاعتصام بدين الله، وكون دعوى المؤمنين واحدة مؤتلفين غير مختلفين.

(١٠٣) أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويسخط لكم ثلاثاً: يرضى لكم: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا. وأن تناصحوا من ولاد الله أمركم. ويسخط لكم ثلاثاً: قيل وقال: وكثرة السؤال، وإضاعة المال».

وفي «الصحيحين» من حديث عبد الله بن زيد رضي الله عنه أن الرسول ﷺ خاطب الأنصار يوم حنين، فقال: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي. وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي؟».

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً﴾ : ذكرهم ما هم عليه قبل هذه النعمة ؛ وهو أنهم كانوا أعداء متفرقين يقتل بعضهم بعضاً ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ ؛ فجمعهم بهذا الدين ، وألف بين قلوبهم ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ﴾ بالإسلام ﴿إِخْوَانًا﴾ في الدين ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرٍ مِنَ النَّارِ﴾ : قد استحيقتم النار ولم يبق بينكم وبينها إلا أن تموتوا فتدخلوها ﴿فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ بما منَّ عليكم من الإيمان بمحمد ﷺ .

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ : يوضحها ويفسرهما ، ويبين لكم الحق من الباطل ، والهدى من الضلال ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلى شكر الله والتمسك بحبله .

(١٠٤) ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ﴾ وليكن منكم أيها المؤمنون الذين منَّ الله عليهم بالإيمان والاعتصام بحبله ﴿أُمَّةٌ﴾ : جماعة وطائفة يحصل فيها الكفاية ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ ؛ وهو الدين ، أحكامه وشرائعه ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ : وهو ما عرف بالعقل والشرع حسنه ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ : وهو ما عرف بالشرع والعقل قبحه ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالمطلوب ، الناجون من المرهوب .

(١٠٥) ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ : نهاهم عن التشبه بأهل الكتاب في تفرقهم واختلافهم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ الموجبة لقيامهم به واجتماعهم ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ : استحقوا العقاب البليغ .

(١٠٦) يخبر تعالى عن حال يوم القيامة وما فيه من آثار الجزاء بالعدل والفضل ، ويتضمن ذلك الترغيب والترهيب الموجب للخوف والرجاء ، فقال : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ : وجوه أهل السعادة ؛ الذين آمنوا بالله ، وصدقوا رسله ، وامتلأوا أمره ، واجتنبوا نهيه وهم أهل السنة والجماعة ، ﴿وَسَوْدُ وُجُوهٌ﴾ : وجوه أهل الشقاوة ، الذين كذبوا رسله ، وعصوا أمره ، وفرقوا دينهم شيعاً ، وهم أهل الفرقة والبدعة ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَتْ وُجُوهُهُمْ﴾ : فيقال لهم على وجه التوبيخ والتقريع : ﴿أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ : كيف أترتم الكفر والضلال على الإيمان والهدى ؟ ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فليس يليق بكم إلا النار .

(١٠٧) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ﴾ : فيهنئون أكمل تهنئة ، ويبشرون أعظم بشارة ، وذلك أنهم

(١٠٤) أخرج الترمذي وأحمد - والسياق له - بإسناد صحيح لغيره عن حديث حذيفة بن اليمان رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال : «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً في عنده ، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم» . (١٠٥) أخرج أبو داود وأحمد بإسناد حسن عن أبي عامر عبد الله بن لحي : قال : حججنا مع معاوية بن أبي سفيان ، فلما قدمنا مكة قام حين صلى الظهر ، فقال : إن رسول الله ﷺ قال : «إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة - يعني : الأهواء - كلها في النار إلا واحدة ، وهي الجماعة ، وإنه سيخرج في أمتي أقوام تجارى بهم تلك الأهواء ؛ كما يتجارى الكلب بصاحبه ، ولا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله» . والله يا معشر العرب ، لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم ﷺ لغيركم في الناس أخرى أن لا يقوم به» .

(١٠٦ و ١٠٧) أخرج الترمذي وابن ماجه وأحمد بإسناد حسن عن أبي غالب : قال : رأى أبو أمامة رؤوساً منصوبة على درج دمشق ، فقال أبو أمامة : «كلاب النار ، شر قتلى تحت أديم السماء ، خير قتلى من قتلوه» ، ثم قرأ : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَسَوْدُ وُجُوهٌ﴾ إلى آخر الآية . قلت لأبي أمامة : أنت سمعته من رسول الله ﷺ ؟ قال : «لو لم أسمعته إلا مرة أو مرتين أو ثلاثاً أو أربعاً حتى عذ سبعا ما حدثكموه» .

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٨﴾ كُتِبَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٠٩﴾ لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى ضَرَبْتُمْ وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلَوْكُمْ أَلَا ذَبَّارْتُمْ لَا يُصِرُّونَ ﴿١١٠﴾ ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الدَّلِيلَةُ أَنْ مَا تُفْعَلُونَ إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ وَءَاءَ وَبَعْضُ مِنَ اللَّهِ وَضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١١﴾ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ إِنَّهٗ أَتَى إِلَيْهِمْ وَهُمْ يَكْفُرُونَ ﴿١١٢﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآيَاتُ الْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُمْ مُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٣﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿١١٤﴾

وجهادهم على ذلك، وبذل المستطاع في ردهم عن ضلالهم وغيهم وعصيانهم ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ بمثل ما آمنتم به؛ ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾؛ لا هتدوا، لكن ﴿مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ﴾؛ لم يؤمن منهم إلا القليل ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾؛ أي: خارجون عن طاعة الله وطاعة رسوله، محاربون للمؤمنين، ساعون في إضرارهم بكل مقدورهم. ﴿لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ غايبة ما يصلون إليه من الأذى أذية اللسان، الذي لا سبيل إلى السلامة منه من كل مُعاد ﴿وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلَوْكُمْ أَلَا ذَبَّارْتُمْ﴾: فلو قاتلوا المؤمنين لولوا الأدبار

يبشرون بدخول الجنات ورضا ربهم ورحمته ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وإذا كانوا خالدين في الرحمة فالجنة أثر من آثار رحمته تعالى، فهم خالدون فيها بما فيها من النعيم المقيم والعيش السليم، في جوار أرحم الراحمين.

(١٠٨) ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ﴾ التي حصل بها الفرقان بين الحق والباطل، وبين أولياء الله وأعدائه ﴿تَتْلُوهَا﴾: نقصها ﴿عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾: العدل الخالي من الظلم ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾: مقتضى عدله وحكمته أنه لم يظلم عباده ولم ينقصهم من أعمالهم، أو يعذب أحداً بغير ذنبه، أو يحمل عليه وزر غيره.

(١٠٩) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ﴾: هو المالك لما في السموات وما في الأرض، الذي خلقهم ورزقهم، ويتصرف فيهم بقدره وقضائه، وفي شرعه وأمره ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾؛ فيجازي المحسنين بإحسانهم، والمسيئين بعصيانهم.

(١١٠) ﴿كُتِبَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾: يمدح تعالى هذه الأمة، ويخبر أنها خير الأمم التي أخرجها الله للناس؛ وذلك بتكميلهم لأنفسهم بالإيمان المستلزم للقيام بكل ما أمر الله به، وبتكميلهم لغيرهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ المتضمن دعوة الخلق إلى الله

(١١٠) أخرج البخاري عن أبي هريرة: ﴿كُتِبَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: خير الناس للناس؛ تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام.

وأخرج الترمذي وابن ماجه وأحمد بإسناد حسن عن بهز بن حكيم عن أبي عن جده، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنتم توفون سبعين أمة، أنتم خير ما، وأنتم أكرم على الله عز وجل».

فرازا، ثم تستمر هزيمتهم ويدوم ذلهم ﴿ثُمَّ لَا يُفْصَرُونَ﴾ في وقت من الأوقات.

(١١٢) ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تُوَفَّقُوا﴾: أخبر تعالى أنه عاقبهم بالذلة في بواطنهم والمسكنة على ظواهرهم، فحيث ما حلوا؛ فلا قرار لهم ولا اطمئنان ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ﴾: إلا معاهدة وسبب يأمنون به ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ فيرضخون لأحكام الإسلام ويعترفون بالجزية، ﴿وَلَا يُفْصَرُونَ﴾: أو ﴿وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ إذا كانوا تحت ولاية غيرهم، فهاهم في عصرنا هذا لم يتمكنوا من الملك المؤقت في فلسطين إلا بنصر الدول الكبرى وتمهيدهم لهم كل سبب، ﴿وَلَا يُفْصَرُونَ﴾: قد ﴿وَبَاءُوا﴾ مع ذلك ﴿بِعَضْبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ وهذا أعظم العقوبات، والسبب الذي أوصلهم إلى هذه الحال ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ التي أنزلها الله على رسوله محمد ﷺ الموجبة لليقين والإيمان، فكفروا بها بغيا وعنادا ﴿وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ يقابلون أنبياء الله الذين يحسنون إليهم أعظم إحسان بأشر مقابلة؛ وهو القتل، فهل بعد هذه الجراءة والجنائية شيء أعظم منها؟ ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾: وذلك كله بسبب عصيانهم واعتدائهم.

(١١٣) ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾: أخبر الله أنهم لا يستون عنده، بل بينهم من الفرق ما لا يمكن وصفه، منهم ﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾: مستقيمة على دين الله، قائمة بما أزمها الله به من المأمورات

﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ عِندَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾: وهذا بيان لصلاتهم في أوقات الليل وطول تهجدهم وتلاوتهم لكتاب ربهم، وإيثارهم الخضوع والركوع والسجود له.

(١١٤) ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ كإيمان المؤمنين، إيمانا يوجب لهم الإيمان بكل نبي أرسله، وكل كتاب أنزله الله، وخص الإيمان باليوم الآخر؛ لأن الإيمان الحقيقي باليوم الآخر يحث المؤمن به على ما يقربه إلى الله، ويثاب عليه في ذلك اليوم، وترك كل ما يعاقب عليه في ذلك اليوم ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ فحصل منهم تكميل أنفسهم بالإيمان ولوازمه، وتكميل غيرهم بأمرهم بكل خير ونهيهم عن كل شر ﴿وَأَنَّهُمْ يَسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾: يبادرون إلى فعل الخيرات وتكميلها بكل ما تتم به، فينتهزون الفرصة فيها ويفعلونها في أول وقت إمكانها، وذلك من شدة رغبتهم في الخير ومعرفتهم بفوائده وحسن عوائده ﴿وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾: الذين يدخلهم الله في رحمته، ويتغمدهم بغفرانه، وينيلهم من فضله وإحسانه.

(١١٥) ﴿وَمَا يَفْعَلُوا﴾: يم بين تعالى أن كل ما فعلوه ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ قليل أو كثير؛ ﴿فَلَن يُكْفَرُوا﴾؛ أي: لن ينكر ما عملوه ولن يهدر ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾: عليم بما يقوم بقلب صاحب الأعمال من الإيمان والتقوى، فيكون الثواب على قدره.

(١١٣) أخرج أحمد والنسائي في «التفسير» وأبو يعلى والبخاري وابن حبان بإسناد حسن عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ ليلة صلاة العشاء، ثم خرج إلى المسجد؛ فإذا الناس ينتظرون الصلاة، فقال: «أما إنه ليس من هذه الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم» قال: وأنزلت هذه الآية: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ عِندَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾
 مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۖ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾
 يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ۖ وَدُوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾
 هَٰئَانَتْ أُولَٰءِ حُبُّوهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ۚ وَإِذَا الْقَوْمُ فَخَرُوكُمْ فَخَرُوا ۚ وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَصَاكُمْ آلَ نَائِلٍ مِنَ الْعِزِّ ۚ لَقَدْ مَوَّأُوا بِغَيْظِكُمْ إِنْ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾
 إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً سَوْءُهُمْ وَإِنْ تَبِغْتُمْ سِنَةً يَبْغُوا بِهَا وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾
 تَبُوءُ الْمُسْلِمِينَ مَقْعِدًا لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾

(١١٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بآيات الله وكذبوا رسله ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾: لا ينقذهم من عذاب الله منقذ ولا ينفعهم نافع، وأن أموالهم وأولادهم التي كانوا يعدونها للشدائد والمكاره لا تفيدهم شيئاً ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ بل تكون زادا للخلود في نار جهنم بسبب كفرهم.

(١١٧) ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾: ضرب تعالى مثلاً لما ينفقه الكفار من أموالهم التي يصدون بها عن سبيل الله، ويستعينون بها على إطفاء نور الله بأنها تبطل وتضمحل؛ كمن زرع زرعاً يرجو نتيجته ويؤمل إدراك ريعه، فبينما هو كذلك؛ إذ أصابته ريح فيها برد شديد محرق، فأهلك زرع، ولم يحصل له إلا التعب والعناء وزيادة الأسف؛ فكذلك هؤلاء الكفار ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ بإبطال أعمالهم ﴿وَلَٰكِنْ﴾ كانوا ﴿أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾: هذه الأمور هي التي أحبطت أعمالهم وذهبت بأموالهم.

(١١٨) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾: هذا تحذير من الله للمؤمنين عن ولاية الكفار واتخاذهم بطانة أو خصيصة وأصدقاء يسرون إليهم ويفضون لهم بأسرار المؤمنين ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾؛ أي: حريصون غير مقصرين في إيصال الضرر بكم ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾: ودوا عنتكم؛ أي: يتمنون لكم العنت والشر في دينكم وما يسوءكم ولا يسركم ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ من كلامهم وفلتات ألسنتهم ﴿وَمَا

تُخْفِي صُدُورُهُمْ﴾ من البغضاء والعداوة ﴿أَكْبَرُ﴾ مما ظهر لكم من أقوالهم وأفعالهم ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾: قد وضح الله لكم أمرهم ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾: إن كانت لكم فهم وعقول.

(١١٩) ﴿هَٰئَانَتْ أُولَٰءِ حُبُّوهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾: أنتم تبذلون لهم من الشفقة والمحبة ما لا يكافئونكم على أقل القليل منه؛ فكيف تحبونهم وهم لا يحبونكم؟! ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾: تؤمنون بكل رسول أرسله الله، وبكل كتاب أنزله الله، وهم يكفرون بأجل الكتب وأشرف الرسل، وهم يداهنونكم وينافقونكم، ﴿وَإِذَا الْقَوْمُ فَخَرُوكُمْ﴾ يداهنونكم وينافقونكم ﴿وَإِذَا خَلَوْا﴾ مع بني جنسهم ﴿عَصَوْا عَلَيْكُمْ آلَ نَائِلٍ﴾: أطراف الأصابع

(١١٨) أخرج البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالسوء وتحضه عليه، والمعصوم في عصمه الله».

النصر وهي الصبر والتقوى؛ لم يضركم كيد أعدائكم شيئاً، بل يجعل الله مكرهم في نحورهم ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾: محيط بهم وبأعمالهم وبمكائدهم التي يكيدونكم فيها.

(١٢١) ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ الغدو هاهنا: مطلق الخروج، ﴿تَبَوَّءُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعَدًا لِلْقِتَالِ﴾؛ فنزلهم من منازلهم، ورتبهم في مقاعدهم، ونظمهم تنظيمًا عجيبًا؛ يدل على كمال رأيه وبراعته الكاملة في علوم السياسة ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: لا يخفى عليه شيء من أموركم.

(١٢٢) ﴿إِذْ هَمَّتْ طَافِقَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾؛ هم: بنو سلمة، وبنو حارثة ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾؛ لكن تولاهما البارئ بلطفه ورعايته وتوفيقه ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فإنهم إذا توكلوا عليه كفاهم وأعانهم وعصمهم من وقوع ما يضرهم.

(١٢٣) ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ﴾ هذا امتنان منه على عباده المؤمنين، وتذكير لهم بما نصرهم به يوم بدر ﴿وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ في قلة عدديكم وعدديكم مع كثرة عدد عدوكم وعددهم ﴿فَأَنْقَا اللَّهُ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: قوموا بطاعة من أنعم عليكم بنصره.

(١٢٤) ﴿إِذْ تَقُولُ﴾ مبشراً ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ مثبتاً لجنانهم: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّدَ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزْلَيْنِ﴾.

(١٢٥) ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ تصبروا على مصابرة عدوكم، وتتقوني وتطيعوا أمري ﴿وَيَا تُوَكَّلُ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا﴾: من مقصدهم هذا، وهو وقعة بدر ﴿يُمِدُّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ

سُورَةُ آلِ اْاِمْرَانِ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّتْ طَافِقَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَأَنْقَا اللَّهُ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّدَ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزْلَيْنِ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَا تُوَكَّلُ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمِدُّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلَعَلَّكُمْ يَفْقَهُونَ وَمَا أَنْتُمْ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَعْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَتَابَعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ٦٦

﴿مِنَ الْغَيْظِ﴾ من شدة الغيظ والبغض لكم ولدينكم ﴿قُلْ مُؤْتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾؛ أي: سترون من عز الإسلام وذل الكفار ما يسوءكم، وتموتون بغيظكم فلن تدرکوا شفاء ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بما تنطوي عليه صدور أعداء الدين من البغض والحسد للمؤمنين.

(١٢٠) ﴿إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً﴾: عز ونصر وعافية وخير ﴿سَوْهَتُمْ﴾: تغمهم وتحزنهم ﴿وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ﴾ من إدالة العدو، أو حصول بعض المصائب الدنيوية ﴿يَفْرَحُوا بِهَا﴾؛ لشدة عداوتهم ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾: فإذا أتيتم بالأسباب التي وعد الله عليها

(١٢٢) في «الصحاحين» عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: فينا نزلت ﴿إِذْ هَمَّتْ طَافِقَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ فقال: نحن الطافتان: بنو حارثة، وبنو سلمة، وما نحب أنها لم تنزل؛ لقول الله: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾.

جری، وجرى على النبي ﷺ مصائب، وجعل يدعو على رؤساء من المشركين مثل أبي سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام؛ أنزل الله تعالى على رسوله هذه الآية نهياً له عن الدعاء عليهم باللعنة والطرده من رحمة الله؛ ليدل ذلك على كمال عدل الله وحكمته، حيث وضع العقوبة موضعها ولم يظلم عبده، بل العبد هو الذي ظلم نفسه.

(١٢٩) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من الملائكة والإنس والجن والحيوانات والأفلاك والجمادات كلها، وجميع ما في السموات والأرض، والكل ملك لله، مخلوقون مدبرون، متصرف فيهم تصرف المماليك ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ بأن يهديه للإسلام؛ فيغفر شركه، ويمن عليه بترك العصيان؛ فيغفر له ذنبه ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾: بأن يكفه إلى نفسه الجاهلة الظالمة المقتضية لعمل الشر، فيعمل الشر ويعذبه على ذلك ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾: عام المغفرة ﴿رَحِيمٌ﴾: واسع الرحمة.

(١٣٠) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ﴾

مُسَوِّمِينَ: معلمين بعلامة الشجعان.

(١٢٦) ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾: إمداده لكم بالملائكة ﴿إِلَّا بُشْرَى﴾ تستبشرون بها وتفرحون ﴿وَلِنُطْمِئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾ ما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بإنزالهم إلا بشارة لكم، وتطمئناً لقلوبكم ﴿وَمَا أَنْصُرُ إِلَّا مَن عِنْدَ اللَّهِ﴾: أما النصر الحقيقي الذي لا معارض له ﴿مِن عِنْدَ اللَّهِ﴾ فهو مشيئة الله لنصر من يشاء من عباده ﴿الْعَزِيزُ﴾: فلا يمتنع عليه مخلوق، بل الخلق كلهم أذلاء مدبرون تحت تدبيره وقهره ﴿الْحَكِيمُ﴾: الذي يضع الأشياء مواضعها، وله الحكمة في إدالة الكفار في بعض الأوقات على المسلمين إدالة غير مستقرة.

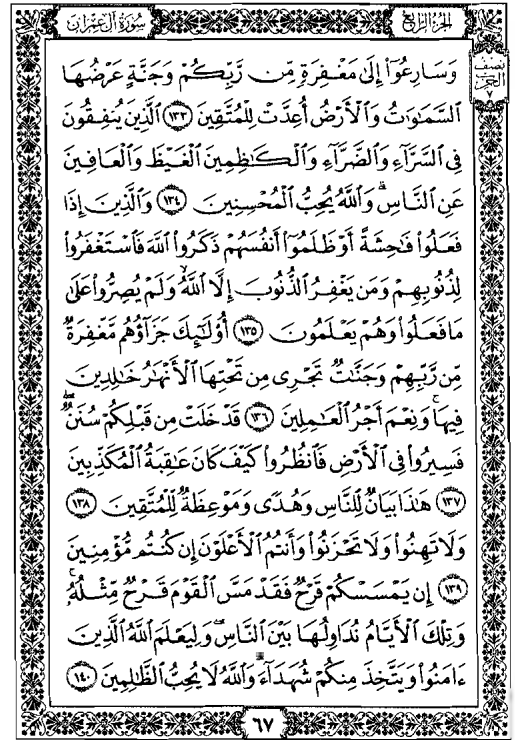
(١٢٧) ثم يخبر تعالى أن نصره عباده المؤمنين لأحد أمرين: ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: جانباً منهم وركناً من أركانهم؛ إما بقتل، أو أسر، فيقوى بذلك المؤمنون، ويذل الكافرون ﴿أَوْ يَكْتَسِبُهُمْ فِتْنًا يُغْلَبُوا خَائِبِينَ﴾: يرددهم خائبين لم ينالوا مقصودهم.

(١٢٨) ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾: لما جرى يوم أحد ما

(١٢٨) وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول حين يفرغ من صلاة الفجر من القراءة ويكبر ويرفع رأسه: «سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد» ثم يقول وهو قائم: «اللهم انج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر، وأجعلها عليهم كسني يوسف، اللهم العن لحيان ورعلاً وذكوان وعصية؛ عصت الله ورسوله»، ثم بلغنا أنه ترك ذلك؛ لما أنزل: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾.

وفي الباب عن أنس، وعبد بن عمر، والحسن مرسلًا.

(١٣٠) أخرج أبو داود والحاكم بإسناد حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه أن عمرو بن أقيش كان له رباً في الجاهلية، أنكره أن يسلم حتى يأخذه، فجاء يوم أحد، فقال: أين بنو عمي؟ قالوا: بأحد. قال: أين فلان؟ قالوا: بأحد. قال: فأين فلان؟ قالوا: بأحد، فلبس لأمته وركب فرسه، ثم توجه قبلهم؛ فلما رآه المسلمون؟ قالوا: إليك عنا يا عمرو! قال: إني قد أمنت. فقاتل حتى جرح؛ فحمل إلى أهله جريحاً فجاء سعد بن معاذ، فقال لأخته: سلية حمية لقومك، أو غضباً لهم، أم غضباً لله؟! فقال: بل غضباً لله ولرسوله. فمات فدخل الجنة، وما صلى لله صلاة.



نهى الله تعالى عباده المؤمنين عن أكل الربا
أضعافاً مضاعفة، وذلك هو ما اعتاده أهل
الجاهلية ومن لا يبالي بالأوامر الشرعية ﴿أَضْعَفًا
مُضَاعَفَةً﴾: تنبيه على شدة شناعته بكثرتة، وتنبيه
لحكمة تحريمه، وأن تحريم الربا حكمته: أن الله
منع منه لما فيه من الظلم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ﴾: الفلاح متوقف على التقوى.

(١٣١) ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ بترك
ما يوجب دخولها من الكفر والمعاصي، على
اختلاف درجاتها؛ لأن المعاصي كلها تجر إلى
الكفر، بل هي من خصال الكفر الذي أعد الله
النار لأهله.

(١٣٢) ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ بفعل الأوامر
امتثالاً، واجتناب النواهي ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾:
فطاعة الله وطاعة رسوله من أسباب حصول
الرحمة.

(١٣٣) ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾:
أمرهم تعالى بالمسارعة إلى مغفرته، ﴿وَجَنَّةٍ
عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ وإدراك جنته التي
عرضها السموات والأرض فكيف بطولها؟
﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ التي أعدها الله للمتقين، فهم
أهلها، وأعمال التقوى هي الموصلة إليها.

(١٣٤) ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي سَرَائِ وَالصَّرَائِ﴾: في
حال عسرهم ويسرهم ﴿وَالْكُطَيْبِ الْغَيْظِ﴾: إذا
حصل لهم من غيرهم أذية توجب غيظهم وهو:
امتلاء قلوبهم من الحنق، الموجب للانتقام
بالقول والفعل، هؤلاء لا يعملون بمقتضى الطباع
البشرية، بل يكظمون ما في القلوب من الغيظ،
ويصبرون عن مقابلة المسيء إليهم. ﴿وَالْعَافِينَ

(١٣٣) أخرج البزار وابن حبان والحاكم وإسحاق بن راهويه في «المستند» بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: جاء رجل إلى
رسول الله ﷺ فقال: أرأيت قوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ فأين النار؟ قال: أرأيت الليل إذا جاء لبس على
كل شيء فأين النهار؟ قال: حيث شاء الله. قال: وكذلك النار تكون حيث شاء الله عز وجل.

(١٣٤) أخرج أبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد بإسناد حسن عن معاذ بن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من كظم غيظاً
وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يخيره من أي الحور شاء».

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا
عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله».

﴿وَجَنَّتْ تَجَرَّى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فيها من النعيم المقيم، والأنهار الجارية في تلك المساكن الطيبات، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾: لا يحولون عنها، ولا يبيعون بها بدلاً، ولا يغير ما هم فيه من النعيم ﴿وَيَعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾ عملوا لله قليلاً فأجروا كثيراً.

(١٣٧) ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾: يعزي تعالى عباده المؤمنين ويسليهم ويخبرهم أنه مضى قبلهم أجيال وأمم كثيرة امتحنوا، وابتلي المؤمنون منهم بقتال الكافرين، فلم يزلوا في مداولة ومجادلة حتى جعل الله تعالى العاقبة للمتقين، والنصر لعباده المؤمنين ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بأبدانكم وقلوبكم ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ فإنكم لا تجدونهم إلا معذبين بأنواع العقوبات الدنيوية، قد خوت ديارهم، وتبين لكل أحد خسارهم، وذهب عزهم وملكهم، وزال بذخهم وفخرهم.

(١٣٨) ﴿هَذَا بَيَّانٌ لِلنَّاسِ﴾: دلالة ظاهرة، تبين للناس الحق من الباطل، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، وهو الإشارة إلى ما أوقع الله بالمكذبين.

﴿وَهَذَى﴾ إلى سبيل الرشاد، ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾

عَنِ النَّاسِ العفو: ترك المؤاخذه مع السماحة عن المسيء، وهو أبلغ من الكظم، وهذا إنما يكون ممن تحلى بالأخلاق الجميلة وتخلى عن الأخلاق الرذيلة، وممن تاجر مع الله وعفا عن عباد الله رحمة بهم، وإحساناً إليهم، وكراهة لحصول الشر عليهم ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ الإحسان نوعان: الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلى المخلوق وذلك بإيصال النفع الديني والدنيوي إليهم، ودفع الشر الديني والدنيوي عنهم.

(١٣٥) ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾: صدر منهم أعمال سيئة؛ كبيرة، أو ما دون ذلك؛ بادروا إلى التوبة والاستغفار ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ﴾: ذكروا ربهم وما توعد به العاصين ووعد به المتقين، ﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ ذُنُوبَكُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ فسألوه المغفرة لذنوبهم، والستر لعيوبهم، مع إقلاعهم عنها وندمهم عليها، فلهذا قال: ﴿وَلَمْ يَصُرُوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا﴾: تابوا من المعصية ولم يستمروا عليها ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: أن من تاب تاب الله عليه.

(١٣٦) ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿جَزَاءُهم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهم﴾ تزيل عنهم كل محذور

(١٣٥) في «الصحاحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن رجلاً أذنب ذنباً، فقال: رب. إني أذنبت ذنباً؛ فاغفره لي. فقال الله: عبيدي عمل ذنباً، فعلم أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ به، قد غفرت لعبدي، ثم عمل ذنباً آخر، فقال: رب إني عملت ذنباً؛ فاغفره لي. فقال تبارك وتعالى: علم عبيدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي. ثم عمل ذنباً آخر، فقال: رب إني عملت ذنباً؛ فاغفره لي، فقال عز وجل: علم عبيدي أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ به، قد غفرت لعبدي، ثم عمل ذنباً آخر، فقال: رب إني عملت ذنباً؛ فاغفره، فقال عز وجل: عبيدي علم أن له رباً؛ يغفر الذنب، ويأخذ به، أشهدكم أنني قد غفرت لعبدي؛ فليعمل عبيدي ما شاء».

أخرج البخاري في «الأدب المفرد» والإمام أحمد بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال، وهو على المنبر: «ارحموا ترحموا، واغفروا يغفر لكم، ويل لأقلام القول، ويل للمصربين، الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون».

فَرِحَ فَقَدَ مَسَّ الْقَوْمَ فَتَرَحَّ مَثَلُهُ ﴿١٤١﴾ أَنْتُمْ وَإِيَاهُمْ قَدْ تَسَاوَيْتُمْ فِي الْقَرْحِ أَيُّ: الجراح والقتل؛ ولكنكم ترجون من الله ما لا يرجون ﴿١٤٢﴾ وَتِلْكَ الْآيَاتُ تُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴿١٤٣﴾: فيداول الله الأيام بين الناس؛ يوم لهذه الطائفة، ويوم للطائفة الأخرى؛ لأن هذه الدار الدنيا منقضية فانية، وهذا بخلاف الدار الآخرة؛ فإنها خالصة للذين آمنوا.

﴿وَلْيَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: يبتلي الله عباده بالهزيمة والابتلاء ليتبين المؤمنين من المنافق ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾: وهذا أيضا من بعض الحكم؛ لأن الشهادة عند الله من أرفع المنازل، ولا سبيل لنيلها إلا بما يحصل من وجود أسبابها ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم، وتعاقدوا هم عن القتال في سبيله.

(١٤١) ﴿وَلْيُمَخِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: وهذا أيضا من الحكم؛ أن الله يمحص المؤمنين من ذنوبهم وعيوبهم، وهذا يدل على أن الشهادة والقتال في سبيل الله يكفر الذنوب ويزيل العيوب، وليميز الله أيضا المؤمنين من غيرهم من المنافقين ﴿وَيُمَحِّقَ الْكُفْرِينَ﴾ وليكون سببا لمحققهم واستئصالهم بالعقوبة.

(١٤٢) ﴿أَمَرُ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الْقَادِرِينَ﴾: هذا استفهام إنكاري؛ أي: لا تظنوا ولا يخطر ببالكم أن تدخلوا الجنة من دون مشقة واحتمال المكاره في سبيل الله وابتغاء مرضاته.

(١٤٣) ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ

وَلْيُمَخِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيُمَحِّقَ الْكُفْرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمَرُ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الْقَادِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَدَّلًا وَمِنْ بُرْدَةٍ قُوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَتُبْ عَلَيْنَا أَلَمْ نَكُنْ مِنَ الْفَاقِينَ ﴿١٤٧﴾ فَكَاتَبَهُمُ اللَّهُ قُوَابَ الدُّنْيَا وَحُسِّنَ ثَوَابَ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

تزجرهم عن ارتكاب المحارم والمآثم ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾؛ لأنهم هم المنتفعون بالآيات فتهدىهم إلى سبيل الرشاد وتعظمهم وتزجرهم عن طريق الغي.

(١٣٩) ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾: لا تهنوا وتضعفوا في أيدانكم ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ في قلوبكم ﴿وَأَنْتُمْ أَلْعَلُونَ﴾ في الإيمان، ورجاء نصر الله وثوابه، فالؤمن المتيقن ما وعده الله من الثواب الدنيوي والأخروي لا ينبغي منه ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

(١٤٠) ثم سلاهم بما حصل لهم من الهزيمة، وبين الحكم العظيمة منها؛ فقال: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ

(١٤٣) في «الصحيحين» من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف».

رسوله ﷺ .

(١٤٥) ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَلْبًا مُؤَجَّلًا﴾: أخبر تعالى أن النفوس جميعها متعلقة بأجلها بإذن الله وقدره وقضائه، فمن حتم عليه بالقدر أن يموت؛ مات ولو بغير سبب.

ثم أخبر تعالى أنه يعطي الناس من ثواب الدنيا والآخرة ما تعلق به إراداتهم، فقال: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾.

﴿وَسَيَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾: لم يذكر جزاءهم؛ ليدل ذلك على كثرتهم وعظمتهم، وليعلم أن الجزاء على قدر الشكر؛ قلة، وكثرة، وحسنا.

(١٤٦) ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ﴾: وكَم من نبي ﴿قَتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرًا﴾: جماعات كثيرون من أتباعهم، الذين قد ربتهم الأنبياء بالإيمان والأعمال الصالحة، فأصابهم قتل وجراح وغير ذلك ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا﴾: ما ضعفت قلوبهم، ولا وهنت أبدانهم، ﴿وَمَا اسْتَكَاثُوا﴾: ذلوا لعدوهم ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾: الذين صبروا وثبتوا، وشجعوا

تَلَفَّوهُ: وبخهم تعالى على عدم صبرهم بأمر كانوا يتمنونه ويودون حصوله، وذلك أن كثيرا من الصحابة رضي الله عنهم ممن فاته بدر يتمنون أن يحضرهم الله مشهدا يبذلون فيه جهدهم ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾: رأيتم ما تمنيتم بأعينكم ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾؛ فما بالكم وترك الصبر؟ هذه حالة لا تليق ولا تحسن، خصوصا لمن تمنى ذلك وحصل له ما تمنى.

(١٤٤) ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾: ليس ببدع من الرسل؛ بل هو من جنس الرسل الذين قبله، وظيفتهم تبليغ رسالات ربهم وتنفيذ أوامره، ليسوا بمخلدين، وليس بقاؤهم شرطا في امتثال أوامر الله ﴿أَفَايُنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾: بترك ما جاءكم من إيمان، أو جهاد، أو غير ذلك.

﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنِ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾؛ إنما يضر نفسه، وإلا؛ فالله تعالى غني عنه، وسيقيم دينه ويعز عباده المؤمنين ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ والشكر لا يكون إلا بالقيام بعبودية الله تعالى في كل حال، والثبات مع

(١٤٤) أخرج البخاري عن ابن سلمة، أن عائشة ؓ أخبرته؛ أن أبا بكر ؓ أقبل على فرس من مسكنه بالسنع حتى نزل فدخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فتييم رسول الله ﷺ وهو مغشي بثوب حبرة، فكشف عن وجهه ﷺ، ثم أكب عليه وقبله وبكى، ثم قال: «بأبي أنت وأمي، والله! لا يجمع الله عليك موتتين؛ أما الموتة التي كتب عليك؛ فقد مئها». وعن ابن عباس؛ أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس فقال: اجلس يا عمر. فأبى عمر أن يجلس، فأقبل الناس إليه وتركوا عمر، فقال أبو بكر: أما بعد، من كان يعبد محمدا؛ فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله؛ فإن الله حي لا يموت؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ إلى قوله ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ قال: فوالله! لكان الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها الناس منه كلهم، فما سمعها بشر من الناس إلا تلاها. وعن سعيد بن المسيب أن عمر قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها؛ ففقرت حتى ما تقلني رجلاي، وحتى هويت إلى الأرض.

(١٤٨) ﴿فَقَانَهُمُ اللَّهُ تَوَابَ الدُّنْيَا﴾ من النصر والظفر والغنيمة ﴿وَحَسَنَ تَوَابِ الْآخِرَةِ﴾: وهو الفوز برضا ربهم، والنعيم المقيم الذي قد سلم من جميع المنكذات ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ في عبادة الخالق ومعاملة الخلق، ومن الإحسان أن يفعل عند جهاد الأعداء كفعل هؤلاء المؤمنين.

(١٤٩) ﴿يَتَّيْنَاهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَزِيدُكُمْ عَلَىٰ عَقَبِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَسِرِينَ﴾ هذا نهى من الله للمؤمنين أن يطيعوا الكافرين من المنافقين والمشركين، فإنهم إن أطاعوهم لم يريدوا لهم إلا الشر، وهم قصدهم ردهم إلى الكفر الذي عاقبته الخيبة والخسران.

(١٥٠) ﴿بَلِ اللَّهِ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾: أخبر أنه مولاهم وناصرهم، ففيه إخبار لهم بذلك وبشارة بأنه سيتولى أمورهم بلطفه، ويعصمهم من أنواع الشرور.

(١٥١) ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾: وعدمهم أنه سيلقي في قلوب أعدائهم من الكافرين الرعب؛ وهو: الخوف العظيم الذي يمنعهم من كثير من مقاصدهم ﴿يَمَّا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾؛ وقد فعل تعالى ذلك بسبب ما اتخذوا من دونه من الأنداد والأصنام، التي اتخذوها على حسب أهوائهم وإرادتهم الفاسدة، من غير حجة ولا برهان، وانقطعوا من ولاية الواحد الرحمن، ﴿وَمَا أُوْنَهُمُ النَّارُ﴾: مستقرهم الذي يأوون إليه وليس لهم عنها خروج ﴿وَيَبْسُ

يَتَّيْنَاهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَزِيدُكُمْ عَلَىٰ عَقَبِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَسِرِينَ ﴿١٤٨﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٤٩﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ يَمَّا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا أُوْنَهُمُ النَّارُ وَيَبْسُ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَغَصِبْتُمْ مِنْ بَدْمَاءِ أَتْرَاكِكُمْ مَا تَحْبِبُونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْأَدْنَىٰ وَمَنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَنْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥١﴾ إِذْ تَضَعُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَانِكُمْ فَأَتْبَعَكُمْ غَنًا بَعْرًا لِكَيْ لَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٢﴾

أنفسهم.

(١٤٧) ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ﴾ في تلك المواطن الصعبة ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا آغْنِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ والإسراف: هو مجاوزة الحد إلى ما حرم، علموا أن الذنوب والإسراف من أعظم أسباب الخذلان، وأن التخلي منها من أسباب النصر، فسألوا ربهم مغفرتها.

﴿وَتَكُنَّ أَقْدَامُنَا وَأَنْصُرَنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ثم إنهم لم يتكلوا على ما بذلوا جهدهم به من الصبر؛ بل اعتمدوا على الله وسألوه أن يثبت أقدامهم عند ملاقات الأعداء الكافرين، وأن ينصرهم عليهم.

العاصي، وليكفر الله عنكم بهذه المصيبة ما صدر منكم، فلماذا قال: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾: عفا عن المؤمنين سيئاتهم، وأثابهم على مصيبتهم ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾: ومن فضله على المؤمنين أنه لا يقدر عليهم خيراً ولا مصيبة إلا كان خيراً لهم؛ إن أصابتهم سراء فشكروا جازاهم جزاء الشاكرين، وإن أصابتهم ضراء فصبروا جازاهم جزاء الصابرين.

(١٥٣) ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾: تَجِدُونَ في الهرب ﴿وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ﴾: لا يلوي أحد منكم على أحد ولا ينظر إليه؛ بل ليس لكم هم إلا الفرار والنجاء عن القتال.

﴿وَالرُّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجِكُمْ﴾ يقول: «إلى عباد الله»، فلم تلتفتوا إليه، ولا عرجتم عليه، ﴿فَأَنْتَبِهْكُمْ﴾: جازاكم على فعلكم ﴿غَمًّا يَغْمِرُ﴾: غمًا يتبعه غم؛ غم بفوات النصر وفوات الغنيمة، وغم بانهزامكم، وغم أنساكم كل غم؛ وهو: سماعكم: أن محمداً ﷺ قد قتل!

مَتَوَى الظَّالِمِينَ: بسبب ظلمهم وعدوانهم، صارت النار مثواهم.

(١٥٢) ﴿وَلَقَدْ مَكَّكُمُ اللَّهُ وَعَدَهُ﴾: بالنصر، فنصركم عليهم ﴿إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾: طفقتهم فيهم قتلاً بقدره الله وإذنه ﴿حَتَّى إِذَا فُشِلْتُمْ﴾ حصل منكم الفشل؛ وهو الضعف والخور ﴿وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ الذي فيه ترك أمر الله بالائتلاف وعدم الاختلاف، فاختلفتم ﴿وَعَصَيْتُمْ﴾ فعصيتهم الرسول، وتركتم أمره ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾: وهو انخذاً أعدائكم.

﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾: وهم الذين أوجب لهم ذلك ما أوجب ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾: وهم الذين لزموا أمر رسول الله ﷺ وثبتوا حيث أمروا.

﴿ثُمَّ مَكَّكُمُ عَنْهُمْ﴾: بعدما وجدت هذه الأمور منكم؛ صرف الله وجوهكم عنهم، فصار الوجه لعدوكم ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ ابتلاء من الله وامتحاناً؛ ليتبين المؤمن من الكافر، والطائع من

(١٥٢. ١٥٣) أخرج البخاري عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال: جعل النبي ﷺ على الرجالة يوم أحد - وكانوا خمسين رجلاً - عبد الله بن جبير، فقال: «إن رأيتمونا تخطفنا الطير؛ فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأنهم، فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم». فهزموهم، قال: فأنا والله رأيت النساء يشددن، قد بدت خلاخلهن وأسوقهن، رافعات ثيابهن، فقال أصحاب ابن جبير: الغنيمة - أي قوم! - الغنيمة! ظهر أصحابكم؛ فما تنتظرون؟! فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟! قالوا: والله لنائين الناس؛ فلنصيب من الغنيمة. فلما أتوهم؛ صرفت وجوههم، فأقبلوا منهزمين؛ فذاك إذ يدعوهم الرسول في أخراهم، فلم يبق مع النبي ﷺ غير اثني عشر رجلاً، فأصابوا من سبعين. وكان النبي ﷺ وأصحابه أصاب من المشركين يوم بدر: أربعين ومائة؛ سبعين أسيراً وسبعين قتيلاً، فقال أبو سفيان: أفي القوم محمد؟ ثلاث مرات؟ فنهاهم النبي ﷺ أني يجيبوا. ثم قال: أفي القوم ابن أبي حنيفة؟ ثلاث مرات. ثم قال: أفي القوم ابن الخطاب؟ ثلاث مرات ثم رجع إلى أصحابه؛ فقال: أما هؤلاء؛ فقد قتلوا. فما ملك عمر نفسه؛ فقال: كذبت والله يا عدو الله! إن الذين عدت لأحياء كلهم، وقد بقي لك ما يسوؤك. قال: يوم بيوم بدر. والحرب سجال، إنكم ستجدون في القوم مثلة؛ لم آمر بها، ولم تسؤني. ثم أخذ يرتجز: اعل هبل، اعل هبل. قال النبي ﷺ: «ألا تجيبونه؟»، قالوا: يا رسول الله، ما نقول؟ قال: «قولوا: الله أعلى وأجل». قال: إن لنا العزى ولا عزى لكم. فقال النبي ﷺ: «ألا تجيبونه؟» قالوا: يا رسول الله، ما نقول؟ قال: «قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم».

تَعْمَلُونَ ﴿١٥٤﴾ كُلُّ هَذَا صَادِرٌ عَنْ كَمَالِ خَبْرَتِهِ وَعِلْمِهِ بِأَعْمَالِكُمْ وَظَوَاهِرِكُمْ وَبِوَاطِنِكُمْ .

(١٥٤) ﴿ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْفَعْرِ الَّذِي أَصَابَكُمْ﴾ ﴿أَمْنَةً نَافَسًا يَنْفُثُ طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾ : ولا شك أن هذا رحمة بهم ، وإحسان وتثبيت لقلوبهم ، وزيادة طمأنينة ؛ لأن الخائف لا يأتيه النعاس لما في قلبه من الخوف ، فإذا زال الخوف عن القلب أمكن أن يأتيه النعاس .

وهذه الطائفة التي أنعم الله عليها بالنعاس ، هم : المؤمنون الذين ليس لهم هم إلا إقامة دين الله ورضا الله ورسوله ، ومصلحة إخوانهم المسلمين .

﴿وَطَائِفَةٌ﴾ : وأما الطائفة الأخرى الذين ﴿أَهْمَتَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ : فليس لهم هم في غيرها ؛ لنفاقهم ، أو ضعف إيمانهم ، فلهذا لم يصبهم من النعاس ما أصاب غيرهم ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة ، وأن الإسلام قد باد وأهله . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح : ١٢]

ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْفَعْرِ نَافَسًا يَنْفُثُ طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٥﴾ إِنْ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٦﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّتُ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٧﴾ وَلَنْ يُفْلِتَكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ تَمُوتَ لِمَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٍ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٨﴾

﴿لِيَكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ من النصر والظفر ﴿وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ من الهزيمة والقتل والجراح ، إذا تحققت أن الرسول ﷺ لم يقتل ؛ هانت عليكم تلك المصيبات ، واغبتكم بوجوده المسلي عن كل مصيبة ومحنة ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا

(١٥٤) أخرج الطبري وابن أبي حاتم بإسناد حسن عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال : النعاس في القتال من الله ، وفي الصلاة من الشيطان .

وأخرج البخاري عن أبي طلحة رضي الله عنه قال : كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد ، حتى سقط سيفي من يدي مراراً ؛ يسقط وأخذه ، ويسقط وأخذه .

وأخرج الترمذي والنسائي بإسناد صحيح عنه ؛ قال : رفعت رأسي يوم أحد ، وجعلت أنظر وما منهم يومئذ أحد إلا يميل تحت حجبته من النعاس .

وأخرج الطبري وابن أبي حاتم والبخاري في «دلائل النبوة» بإسناد حسن عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال : قال الزبير : لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا ، فأرسل الله علينا النوم ؛ فما منا من رجل إلا ذقته في صدره . قال : فوالله إني لأسمع قول معتب بن قشير ما أسمعُه إلا كالحلم : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا ، فحفظها منه ، وفي ذلك أنزل الله : ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾ لقول معتب .

الشَّيْطَانُ ﴿١٥٥﴾، وأنه من تسويل الشيطان ﴿بَعْضُ مَا كَسَبُوا﴾ وأنه تسلط عليهم ببعض ذنوبهم، فهم الذين أدخلوه على أنفسهم، ومكنوه بما فعلوا من المعاصي ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾: أخبر أنه عفا عنهم بعدما فعلوا ما يوجب المؤاخذه، وإلا؛ فلو أخذهم لاستأصلهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ﴾ للمذنبين الخطائين، بما يوفقهم له من التوبة والاستغفار والمصائب المكفرة ﴿حَلِيمٌ﴾: لا يعاجل من عصاه، بل يستأني به، ويدعوه إلى الإنابة إليه والإقبال عليه.

(١٥٦) ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾: ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يشابهوا الكافرين، الذين لا يؤمنون بربهم ولا بقضائه وقدره، من المنافقين وغيرهم ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾: ينهاهم عن مشابهتهم في كل شيء، وفي هذا الأمر الخاص؛ وهو أنهم يقولون لإخوانهم في الدين أو في النسب ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾: سافروا للتجارة ﴿أَوْ كَانُوا غُرَى﴾: غزاة، ثم جرى عليهم قتل أو موت، يعارضون القدر، ويقولون: ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ وهذا كذب منهم، ولكن هذا التكذيب لم يفدهم ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾: يجعل الله هذا القول وهذه العقيدة حسرة في قلوبهم، فتزداد مصيبتهم ﴿وَاللَّهُ يُخَيِّئُ وَيُمَيِّتُ﴾ هو المتفرد بذلك، فلا يغني حذر عن قدر.

﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم بأعمالكم وتكذيبكم، علمه وبصره نافذ في جميع خلقه، لا يخفى عليه من أمورهم شيء.

(١٥٧) ﴿وَلَكِنْ قُلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٍ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾: أخبر تعالى أن القتل في سبيله أو الموت فيه ليس فيه نقص ولا

﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وهذا استفهام إنكاري؛ ما لنا من الأمر - أي: النصر والظهور - من شيء؟! فأساءوا الظن بربهم وبدينه ونبيه، وظنوا أن الله لا يتم أمر رسوله، وأن هذه الهزيمة هي القاضية على الدين، قال الله في جوابهم: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾: الأمر يشمل الأمر القدري، والأمر الشرعي، فجميع الأشياء بقضاء الله وقدره، وعاقبة النصر والظفر لأوليائه وأهل طاعته، وإن جرى عليهم ما جرى.

﴿يُخْفُونَ﴾: يعني: المنافقين ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ ثم بين الأمر الذي يخفونه، فقال: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَان لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾: لو كان لنا في هذه الواقعة رأي ومشورة؛ ﴿مَا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾ وهذا إنكار منهم وتكذيب بقدر الله، وتسفيه منهم لرأي رسول الله ﷺ، ورأي أصحابه، وتزكية منهم لأنفسهم ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ التي هي أبعد شيء عن مظان القتل ﴿لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ فالأسباب وإن عظمت إنما تنفع إذا لم يعارضها القدر والقضاء، فإذا عارضها القدر لم تنفع شيئاً، بل لا بد أن يمضي الله ما كتب في اللوح المحفوظ من الموت والحياة ﴿وَلَيَبْتَغِي اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾: يختبر ما فيها من نفاق وإيمان وضعف إيمان ﴿وَلَيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾: من وساوس الشيطان، وما تأثر عنها من الصفات غير الحميدة.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بما فيها وما أكنته، فافتضى علمه وحكمته أن قدر من الأسباب ما به تظهر مخبات الصدور وسرائر الأمور.

(١٥٨) ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ يخبر تعالى عن حال الذين انهزموا يوم أحد وما الذي أوجب لهم الفرار ﴿إِنَّمَا أَسْرَأَهُمْ

أَلَنْتَ لَهُمْ جَانِبَكَ، وخففت لهم جناحك، وترفت عليهم وحسنت لهم خلقك؛ فاجتمعوا عليك وأحبوك، وامثلوا أمرك ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا﴾: سيئ الخلق ﴿غَلِظَ الْقَلْبُ﴾: قاسيه؛ ﴿لَا تَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾: لأن هذا ينفرهم ويبغضهم لمن قام به هذا الخلق السيئ ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾: أمره الله تعالى بأن يعفو عنهم ما صدر منهم من التقصير في حقه ﷺ، ويستغفر لهم في التقصير في حق الله، فيجمع بين العفو والإحسان ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾: الأمور التي تحتاج إلى استشارة ونظر وفكر ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾: على أمر من الأمور بعد الاستشارة فيه، إن كان يحتاج إلى استشارة؛ ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾: اعتمد على حول الله وقوته، متبرئاً من حولك وقوتك ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ عليه، اللاجئين إليه.

(١٦٠) ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ﴾: إن يمددكم الله بنصره ومعونته ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾؛ لأن الله لا مغالب له، وقد قهر العباد وأخذ بنواصيهم؛ فلا تتحرك دابة إلا بإذنه، ولا تسكن إلا بإذنه ﴿وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ﴾ ويكلكم إلى أنفسكم؛ ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُم مِّنْ بَعْدِهِ﴾ فلا بد أن تنخذلوا ولو أعانكم جميع الخلق ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾: على الله توكلوا لا على غيره، وأنه بحسب إيمان العبد يكون توكله.

(١٦١) ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ الغلول؛ هو: الكتمان من الغنيمة، والخيانة في كل مال يتولاه الإنسان، وهو محرم إجماعاً، فأخبر الله تعالى

وَلَكِنْ مِّمَّنْ أَوْفَيْتُمْ لِآلِهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِظَ الْقَلْبُ لَا تَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاغْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمِنْ أَنْتُمْ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَا بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا لَهُمْ بِهِمْ وَيَسْتَخِطُّ هُمْ دَرَجَتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرَتِهِمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٦٢﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَزَكَاةً مِنْهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٣﴾ أَوَلَمْ أَصْطَبْكُمْ مَّصِيبَةً قَدْ أَصَابَكُمْ مِثْلُهَا فَلَمَّ أَنْ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٤﴾

محذور، وإنما هو مما ينبغي أن يتنافس فيها المتنافسون؛ لأنه سبب مفوض وموصل إلى مغفرة الله ورحمته، وذلك خير مما يجمع أهل الدنيا من دنياهم.

(١٥٨) ﴿وَلَكِنْ مِّمَّنْ أَوْفَيْتُمْ لِآلِهِ تُحْشَرُونَ﴾: الخلق إذا ماتوا أو قتلوا، بأي حالة كانت؛ فإنما مرجعهم إلى الله، وما لهم إليه، فيجازي كلاً بعمله، فأين الفرار إلا إلى الله؟ وما للخلق عاصم إلا الاعتصام بحبل الله؟

(١٥٩) ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ﴾؛ أي: برحمة الله لك ولأصحابك، مَنْ الله عليك أن

(١٥٩) أخرج الإمام أحمد بإسناد جيد عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: أخذ بيدي رسول الله ﷺ فقال: «يا أبا أمامة، إن من المؤمنين من يلين لي قلبه».

(١٦١) أخرج أبو داود والترمذي بإسناد حسن لغيره عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه؛ قال: نزلت هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ في قطيفة حمراء، فقدت يوم بدر؛ فقال بعض الناس: لعل رسول الله ﷺ أخذها، فنزلت.

تعالى بصير بأعمالهم، لا يخفى عليه منها شيء، بل قد علمها وأثبتها في اللوح المحفوظ.

(١٦٤) ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا﴾: هذه المنّة التي امتن الله بها على عباده أكبر النعم، بل أصلها؛ وهي الامتنان عليهم بهذا الرسول الكريم، الذي أنقذهم الله به من الضلالة، وعصمهم به من الهلكة.

﴿مَنْ أَنْفُسِهِمْ﴾: يعرفون نسبه وحاله ولسانه، من قومهم وقبيلتهم ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾: القرآنية وغيرها، فهو يتلو عليهم الآيات المبينة للحق من الباطل، والهدى من الضلال.

﴿وَيُرَكِّبُهُمْ﴾: من الشرك، والمعاصي، والرذائل، وسائر مساوئ الأخلاق.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾: جنس الكتاب؛ وهو القرآن ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾: السنة، التي هي شقيقة القرآن ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ﴾: بعثة هذا الرسول ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾: لا يعرفون الطريق الموصل إلى ربهم، ولا ما يزكي النفوس ويطهرها.

(١٦٥) ﴿أَوْ لَمَّا أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ﴾: هذا تسليية من الله تعالى لعباده المؤمنين حين أصابهم ما أصابهم يوم أحد وقتل منهم نحو سبعين ﴿قَدْ أَصَابَكُمْ﴾ من المشركين ﴿وَمَثَلِهَا﴾: يوم بدر؛ فقتلتم سبعين من كبارهم، وأسرتم سبعين ﴿قُلْتُمْ أَيْنَ هَذَا﴾: من أين أصابنا ما أصابنا وهزمنا؟ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾: حين تنازعتم وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، فعودوا على أنفسكم باللوم، واحذروا من الأسباب المردية ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: فإياكم وسوء الظن بالله، فإنه قادر على نصركم؛ ولكن له أتم الحكمة في ابتلائكم ومصيبتكم.

أنه ما ينبغي ولا يليق بنبي أن يغفل؛ لأن الغلوط من أعظم الذنوب، وقد صان الله تعالى أنبياءه عن كل ما يندسهم ويقدرح فيهم، وجعلهم أفضل العالمين، فبمجرد علم العبد بالواحد منهم يجزم بسلامتهم من كل أمر يقدرح فيهم؛ لأن معرفته بنبوتهم مستلزم لدفع ذلك؛ ولذلك أتى بصيغة يمتنع معها وجود الفعل منهم، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلُّ﴾ يمتنع ذلك ويستحيل على من اختارهم الله لنبوته ثم ذكر الوعيد على من غل، فقال: ﴿وَمَنْ يَغُلُّ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْفِتْمَةِ﴾: يأت به حامله على ظهره، حيوانا كان أو متاعا أو غير ذلك ليعذب به يوم القيامة ﴿ثُمَّ تَوُفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾: الغال وغيره، كل يوفى أجره ووزره على مقدار كسبه، ﴿وَهُمْ لَا يَظُنُّونَ﴾: لا يزداد في سيئاتهم، ولا يهضمون شيئا من حسناتهم. وتأمل حسن هذا الاحتراز في هذه الآية الكريمة؛ لما ذكر عقوبة الغال وأنه يأتي يوم القيامة بما غله، ولما أراد أن يذكر توفيته وجزاءه، وكان الافتصار على الغال يوهم - بالمفهوم - أن غيره من أنواع العاملين قد لا يوفون؛ أتى بلفظ عام جامع له ولغيره.

(١٦٢) ﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يخبر تعالى أنه لا يستوي من كان قصده رضوان ربه والعمل على ما يرضيه، كمن ليس كذلك ممن هو مكب على المعاصي، مسخط لربه، هذان لا يستويان في حكم الله وحكمة الله وفي فطر عباده الله.

(١٦٣) ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرُ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾: كل هؤلاء متفاوتون في درجاتهم ومنازلهم، بحسب تفاوتهم في أعمالهم، والله



(١٦٦) ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ فَيَا ذِي السَّلَافِ﴾ : أخبر أن ما أصابهم يوم التقى الجمعان : جمع المسلمين ، وجمع المشركين ، في أحد من القتل والهزيمة ، أنه بإذنه وقضائه وقدره ، لا مرد له ولا بد من وقوعه .

(١٦٧) ﴿وَلِعَلَّمُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٦٦) ﴿وَلِعَلَّمُ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ :

ليتبين بذلك المؤمن من المنافق الذين لما أمروا بالقتال ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَنَلِّكُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ذباً عن دين الله ، وحماية له ، وطلباً لمرضاة الله ، ﴿أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْلَا عَلَّمُ قَاتِلَا لَا تَبْعَنَكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ (١٦٨) ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا وَإِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٦٩) ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَّهُمْ لَمْ يُخَلِّفُوا فِي هَذَا هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ﴾ .

﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ وهذه خاصة المنافقين ، يظهرون بكلامهم وفعالهم ما يبطنون ضده في قلوبهم وسرائرهم ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ فيديه لعباده المؤمنين ، ويعاقبهم عليه .

(١٦٨) ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا﴾ : جمعوا بين التخلف عن الجهاد ، وبين الاعتراض والتكذيب بقضاء الله وقدره ، قال الله ردّاً عليهم : ﴿قُلْ فَأَدْرُؤْهُ﴾ : ادفعوا ﴿عَنْ أَنْفُسِكُمْ أَلَمْ تَكُنْ مِنْهُمْ يَوْمَ أَقَامُوا الْقِتَالَ وَكُنْتُمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ يَكْبِتُونَ عَنْ مَا قَالُوا﴾ (١٦٩) ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَّهُمْ لَمْ يُخَلِّفُوا فِي هَذَا هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ﴾ .

(١٦٩) ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَّهُمْ لَمْ يُخَلِّفُوا فِي هَذَا هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ﴾ .

(١٦٩) أخرج مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ؛ قال في قوله : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَّهُمْ لَمْ يُخَلِّفُوا فِي هَذَا هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ﴾ : أما إنا قد سألنا عن ذلك ؛ فقال : «أرواحهم في جوف طير خضر ، لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى تلك القناديل ، فاطلع إليهم ربهم اطلاعاً ؛ فقال : هل تشتهون شيئاً؟ قالوا : أي شيء نشتهي؟ ونحن نسرح في الجنة حيث شئنا . ففعل ذلك بهم ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا ، قالوا : يا رب ، نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا ؛ حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى . فلما رأي أن ليس لهم حاجة تركوا» .

وأخرج الترمذي وابن ماجه بإسناد حسن عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه ؛ قال : لقيني رسول الله ﷺ ؛ فقال لي : «يا جابر ، ما لي أراك منكسراً؟» قلت : يا رسول الله ، استشهد أبي ، قتل يوم أحد ، وترك عيلاً وديناً . قال : «أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟» قال : قلت : بلى يا رسول الله ! قال : «ما كرم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب ، وأحيا أباك فكلمه كفاحاً ، فقال : يا عبدي ، تمن علي ؛ أعطك . قال : يا رب ، تحييني فأقتل فيك ثانية . قال الرب - عز وجل - : إنه قد سبق مني أنهم إليها لا يرجعون» . قال : وأنزلت هذه الآية : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَّهُمْ لَمْ يُخَلِّفُوا فِي هَذَا هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ﴾ .

فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ مِنْهُمْ شَيْءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسَدِّعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنَبَصَرُوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنَبَصَرُوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَحْسِنُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّمَا لِيَ لَهُمْ خَيْرٌ لَّا يَفْقَهُونَ إِنَّمَا تَمْلِكُ لَهُمْ يَدًا وَمَا أَنَا بِمُفْعِلٍ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٨٠﴾ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَتَابِعُوا اللَّهَ وَرُسُلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَتَقَبَّلَكُمْ أَجْرُ عَظِيمٍ ﴿٨١﴾ وَلَا يَحْسِنُ الَّذِينَ يَخْلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُمْ خَوِّفُوا هُمْ بَلْ هُمْ شَرُّهُمْ سَطَوْنَ مَا يَخْلُوْنَ يَوْمَ الْقِسْمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨٢﴾

٧٣

ما بهم من الجراح استجابة لله ولرسوله، وطاعة لله ولرسوله، فوصلوا إلى «حمراء الأسد».

(١٧٣) ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ وجاءهم من جاءهم، وقال لهم: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ وهموا باستئصالكم؛ ﴿فَاخْشَوْهُمْ﴾ تخويفاً لهم وترهيباً، ﴿فَرَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ فلم يزددهم ذلك إلا إيماناً بالله واتكالا عليه ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾: كافينا كل ما أهمنا ﴿وَيَعْمَ الْوَكِيلُ﴾: المفوض إليه تدبير عباده، والقائم بمصالحهم.

(١٧٤) ﴿فَانْقَلَبُوا﴾: رجعوا ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ

جهاد أعداء الدين، قاصدين بذلك إعلاء كلمة الله ﴿أَمْوَاتًا﴾: لا يخطر ببالك وحسابك أنهم ماتوا وفقدوا ﴿بَلْ﴾ قد حصل لهم أعظم مما يتنافس فيه المتنافسون، فهم ﴿أَحْيَاءُ﴾ في دار كرامته ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يقتضي علو درجاتهم، وقربهم من ربهم، ﴿يَرْزُقُونَ﴾ من أنواع النعيم الذي لا يعلم وصفه إلا من أنعم به عليهم.

(١٧٥) ﴿فَرَحِينَ﴾ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ: مغتبطين بذلك، قد قرت به عيونهم، وفرحت به نفوسهم؛ وذلك لحسنه وكشرفته وعظمته ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾: يبشر بعضهم بعضاً بوصول إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم، وأنهم سينالون ما نالوا، ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: يستبشرون بزوال المحذور عنهم وعن إخوانهم، المستلزم كمال السرور.

(١٧٦) ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾: يهنئ بعضهم بعضاً بأعظم مهناً به، وهو: نعمة ربهم، وفضله، وإحسانه، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بل ينميه ويشكره، ويزيده من فضله ما لا يصل إليه سعيهم.

(١٧٧) ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرَ عَظِيمٍ﴾ لما رجع النبي ﷺ من أحد إلى المدينة، وسمع أن أبا سفيان ومن معه من المشركين قد هموا بالرجوع إلى المدينة؛ ندب أصحابه إلى الخروج، فخرجوا على

(١٧٨) أخرج الشيخان -واللفظ للبخاري- أن عائشة رضي الله عنها قالت لعروة: يا ابن أخي، كان أبواك؛ منهم: الزبير وأبو بكر. لما أصاب رسول الله ﷺ ما أصاب يوم أحد وانصرف عنه المشركون؛ خاف أن يرجعوا. قال: «من يذهب في إثرهم؟» فانتدب منهم سبعون رجلاً. قال: كان فيهم أبو بكر والزبير.

(١٧٩) أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَرَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

العذاب الأليم في الأخرى؛ من هوانهم على الله وسقوطهم من عينه، وإرادته ألا يجعل لهم نصيباً في الآخرة من ثوابه.

(١٧٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾: أخبر أن الذين اختاروا الكفر على الإيمان، ورغبوا فيه رغبة من بذل ما يحب من المال في شراء ما يحب من السلع ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ بل ضرر فعلهم يعود على أنفسهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. (١٧٨) ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُُمِّلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: لا يظن الذين كفروا ببرهم وناذبوا دينه وحاربوا رسوله: أَنَّ تَرْكَنَا إِيَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وعدم استئصالنا لهم، وإملاءنا لهم خير لأنفسهم ومحبة منا لهم؛ كلا، ليس الأمر كما زعموا؛ ﴿إِنَّمَا نُمِّلِي لَهُمْ لِيَزِدَّادُوا إِثْمًا﴾ وإنما ذلك لشئ يريد الله بهم، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ وزيادة عذاب وعقوبة إلى عذابهم.

(١٧٩) ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾؛ أي: ما كان في حكمة الله أن يترك المؤمنين على ما أنتم عليه من الاختلاط وعدم التميز؛ ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَيْبَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾، والمؤمن من المنافق، والصادق من الكاذب. ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظِلَّكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ ولم يكن في حكمته أيضاً أن يُظِلَّ عباده على الغيب الذي يعلمه من عباده. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَتَوُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ فاقتضت حكمته الباهرة أن يتلي عباده، ويفتنهم بما به يتميز الخبيث من الطيب، من أنواع الابتلاء والامتحان، فأرسل الله رسله، وأمر بطاعتهم والانقياد لهم، والإيمان بهم، ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ووعدهم على الإيمان والتقوى الأجر العظيم.

وَفَضَّلَ: رجع المؤمنون بنعمة من الله وفضل، حيث مَنْ عليهم بالتوفيق للخروج بهذه الحالة والاتكال على ربهم، ومنَّ عليهم بعافية لم يلقوا عدواً ﴿وَفَضَّلَ﴾ تجارة وربح، وهو ما أصابوا في السوق ﴿لَمْ يَمَسَّهُمْ سُوءٌ﴾ لم يصبهم أذى ولا مكروه ﴿وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ ثم إنه قد كتب لهم أجر غزاة تامة، فبسبب إحسانهم بطاعة ربهم وتقواهم عن معصيته، ورضي عنهم ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ وهذا فضل الله عليهم.

(١٧٥) ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ﴾: يعني: ذلك الذي قال لكم ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَبَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ من فعل الشيطان ألقى في أفواههم ليرهبوهم ويجبنوا عنهم، ﴿يَخَوْفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾؛ أي: يخوفكم بأوليائه ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾: فلا تخافوا المشركين أولياء الشيطان؛ فإن نواصبهم بيد الله، لا يتصرفون إلا بقدره، بل خافوا الله الذي ينصر أوليائه الخائفين منه المستجيبين لدعوته.

وفي هذه الآية وجوب الخوف من الله وحده، وأنه من لوازم الإيمان، فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفه من الله، والخوف المحمود: ما حجز العبد عن محارم الله.

(١٧٦) كان النبي ﷺ حريصاً على الخلق، مجتهداً في هدايتهم، وكان يحزن إذا لم يهتدوا، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يَسْتَرْعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ من شدة رغبتهم فيه، وحرصهم عليه ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فالله ناصر دينه، ومؤيد رسوله، ومنفذ أمره من دونهم، فلا تبالهم ولا تحفل بهم، إنما يضرون ويسعون في ضرر أنفسهم، بفوات الإيمان في الدنيا، وحصول

(١٨٠) ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾: ولا يظن ﴿الَّذِينَ﴾
يَبْطُلُونَ﴿، يمنعون ما عندهم﴾ يَمَّا ءَاتَتْهُمْ
اللَّهُ﴿ مما آتاهم الله ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ من المال
والجاء والعلم وغير ذلك مما منحهم الله،
وأحسن إليهم به، وأمرهم ببذل ما لا يضرهم منه
لعباده، فبخلوا بذلك وأمسكوه، وضمنوا به على
عباد الله، ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ﴾ وظنوا أنه خير لهم؛
بل هو شر لهم في دينهم ودنياهم، وعاجلهم
وآجلهم ﴿سَيَطُوفُونَ مَا بِخَلُوعِهِ﴾ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴿:
يجعل ما بخلوا به طوقاً في أعناقهم، يعذبون به
يوم القيامة ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي:
هو تعالى مالك الملك، وترد جميع الأملاك إلى
مالكها، وينقلب العباد من الدنيا ما معهم درهم
ولا دينار، ولا غير ذلك من المال.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾: فإذا كان خبيراً بأعمالكم جميعها - ويستلزم ذلك الجزاء الحسن على الخيرات، والعقوبات على الشر-؛ لم يتخلف من في قلبه مثقال ذرة من إيمان عن الإنفاق الذي يجزى به الثواب، ولا يرضى بالإمساك الذي به العقاب.

(١٨١) ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَوِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: يخبر تعالى عن قول هؤلاء المتمردين، الذين قالوا أقبح المقالة وأشنعها وأسمجها، فأخبر أنه قد سمع ما قالوه، وأنه سيكتبه ويحفظه مع أفعالهم الشنيعة؛ وهو: قتلهم

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ
سَنَكُفُّ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ
دُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٣١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ
وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٣٢﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ
اللَّهَ عَهْدُ الْيَمِينِ أَلا تَأْتُونَنَا لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْآنٍ
تَأْكُلُهُ النَّارُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ
وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣٣﴾
فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءَهُ بِالْبَيِّنَاتِ
وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ
وَلَا نُمَوِّتُ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَن زُجِرَ
عَنِ النَّارِ وَأَدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٣٥﴾ تَسْلُبُونَ فِي أَمْوَالِكُمْ
وَأَنْفُسِكُمْ وَلَسْتُمْ عَنْ مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ
مِن قَبْلِكُمْ وَمِن الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى كَثِيرًا
وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٣٦﴾

الأنبياء الناصحين، وأنه سيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة ﴿وَنَقُولُ﴾ وأنه يُقال لهم بدل قولهم: إن الله فقير ونحن أغنياء: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِّ﴾: المحرق النافذ من البدن إلى الأفتدة.

(١٨٢) ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيكَ﴾ وَأَنْ عَذَابُهُمْ لَيْسَ ظَلَمًا مِنَ اللَّهِ لَهُمْ؛ فَإِنَّهُ ﴿لَيْسَ بِظُلَامٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ فهو منزّه عن ذلك، وإنما ذلك بما قدّمت أيديهم من المخازي والقبائح، التي أوجب استحقاقهم العذاب، وحرمانهم الثواب.

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدُ إِلَيْنَا﴾؛
أي: تقدم إلينا وأوصى ﴿أَلَا تُؤْمِنُ رِسُولَ حَقِّ

(١٨٠) أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «من آتاه الله مالاً، فلم يود زكاته مُثْلَ له شجاعاً أقرع له زبيبتان، يطوقه يوم القيامة، يأخذ بلهزمتيه، - يعني بشدقيه -، يقول: أنا مالك، أنا كنزك» ثم تلا هذه الآية: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ إلى آخر الآية.

(١٨٣) أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه : قال : قال رسول الله ﷺ : « غزاني من الأنبياء فقال لقومه : لا يتبعني رجل ملك بضع =

اشتملت عليه من المحاسن العقلية، ومنير أيضًا للأخبار الصادقة.

(١٨٥) ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾: هذه الآية الكريمة فيها التزهيد في الدنيا؛ بفنائها وعدم بقائها، وأنها متاع الغرور، تفتن بزخرفها وتخدع بغرورها، وتغر بمحاسنها، ثم هي منتقلة ومنتقل عنها إلى دار القرار، التي توفى فيها النفوس ما عملت في هذه الدار، من خير وشر.

﴿فَمَنْ رُحِّجَ﴾: أخرج ﴿عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾: حصل له الفوز العظيم من العذاب الأليم، والوصول إلى جنات النعيم؛ التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾؛ أي منفعة ومتعة تزول ولا تبقى.

(١٨٦) ﴿لَتَبْلُوكَ فِي أَمْوَالِكُمْ﴾: يخبر تعالى ويخاطب المؤمنين أنهم سيبتلون في أموالهم من النفقات الواجبة والمستحبة، ومن التعريض

يَأْتِيَانَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ فجمعوا بين الكذب على الله وحصر آية الرسل بما قالوه من هذا الإفك المبين، وأنهم إن لم يؤمنوا برسول لهم يأتيهم بقربان تأكله النار؛ فهم - في ذلك - مطيعون لرهبهم، ملتزمون عهده! ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِ يَأْتِيَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الدالات على صدقهم ﴿وَبِالْأَذَى قُلْتُمْ﴾: بأن أتاكم بقربان تأكله النار؛ ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِ يَأْتِيَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ في دعواكم الإيمان برسول يأتيكم بقربان تأكله النار؟!

فقد تبين بهذا كذبهم، وعنادهم، وتناقضهم. (١٨٤) ﴿إِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ﴾؛ هذه عادة الظالمين ودأبهم: الكفر بالله، وتكذيب رسل الله، وليس تكذيبهم لرسل الله عن قصور ما أتوا به أو عدم تبين حجة؛ بل قد ﴿جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ﴾: الحجج العقلية، والبراهين النقلية ﴿وَالزُّبُرِ﴾: الكتب المزبورة المنزلة من السماء، التي لا يمكن أن يأتي بها غير الرسل ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ للأحكام الشرعية، وبيان ما

- امرأة وهو يريد أن يبيي بها ولما بين بها، ولا أحد بنى بيتاً ولم يرفع سقفوها، ولا أحد اشترى غنماً أو خِلْفَات - أي الحوامل من الإبل - وهو ينتظر ولادها. فغزا فدنا من القرية صلاة العصر، أو قريباً من ذلك، فقال للشمس: إنك مأمورة وأنا مأمور اللهم احبسها علينا. فحبست حتى فتح الله عليه، فجمع الغنائم فجاءت - يعني النار - لتأكلها فلم تطعمها، فقال: إن فيكم غلولاً، فليبايعني من كل قبيلة رجل، فلزقت يد رجل بيده، فقال: فيكم الغلول، فلتبايعني قبيلتك، فلزقت يد رجلين أو ثلاثة بيده، فقال: فيكم الغلول، فجاءوا برأس مثل رأس بقرة من الذهب، فوضعوها، فجاءت النار، فاكلتها، ثم أحل الله لنا الغنائم؛ رأى ضعفنا وعجزنا، فأحلها لنا».

(١٨٥) أخرج الترمذي وأحمد وغيرهما بإسناد حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها؛ اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَمَنْ رُحِّجَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾».

(١٨٦) أخرج أبو داود بإسناد صحيح عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه - وكان من أحد الثلاثة الذين تيب عليهم: أن كعب بن الأشرف اليهودي كان شاعراً وكان يهجو النبي ﷺ، ويحرض عليه كفار قريش في شعره، وكان النبي ﷺ قدم المدينة وأهلها أخلاط؛ منهم المسملون، ومنهم المشركون، ومنهم اليهود. فأراد النبي ﷺ أن يستصحبهم، فكان المشركون واليهود يؤذونه ويؤذون أصحابه أشد الأذى؛ فأمر الله - تعالى - نبيه ﷺ بالصبر على ذلك وفيهم أنزل الله: ﴿وَلَسْتُمْ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ الآية.

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُغِضَ مَا يُشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِي سَمَاءٍ وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطُلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّا أَسْمَعُ مَا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾

لاتلافها في سبيل الله ﴿وَأَنْفُسَكُمْ﴾ من التكليف بأعباء التكاليف الثقيلة على كثير من الناس؛ كالجهاد في سبيل الله، والتعرض فيه للتعب والقتل والأسر والجراح، وكالأمراض التي تصيبه في نفسه، أو فيمن يحب. ﴿وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ من الطعن فيكم وفي دينكم وكتابتكم ورسولكم ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا﴾: على ما نالكم في أموالكم وأنفسكم من الابتلاء والامتحان، وعلى أذية الظالمين، ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الله في ذلك الصبر بأن تنووا به وجه الله والتقرب إليه؛ ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾: من الأمور التي يعزم عليها وينافس فيها، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم والهمم العالية.

(١٨٧) ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾ الميثاق: هو العهد الثقيل المؤكد، وهذا الميثاق أخذه الله تعالى على كل من أعطاه الله الكتب وعلمه العلم؛ أن يبين للناس ما يحتاجون إليه مما علمه الله، ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ ولا يكتُمهم ذلك ويبخل عليهم به، خصوصاً إذا سألوه. ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ وأما الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى ومن شابههم؛ فنبذوا هذه العهود والمواثيق وراء ظهورهم، فلم يعبثوا بها، فكتموا الحق، وأظهروا الباطل، وتجرؤوا على محارم الله، وتهاونوا بحقوق الله وحقوق الخلق ﴿وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: واشتروا بذلك الكتمان

ثمنًا قليلًا؛ وهو ما يحصل لهم إن حصل من بعض الرياسات والأموال الحقيمة، من سفلتهم المتبعين أهواءهم، المقدمين شهواتهم على الحق ﴿فَبُغِضَ مَا يُشْتَرُونَ﴾ لأنه أخس العوض، والذي رغبوا عنه - وهو بيان الحق الذي فيه السعادة الأبدية، والمصالح الدينية والدنيوية - أعظم المطالب وأجلها، فلم يختاروا الدنيء الخسيس وتركوا العالي النفيس؛ إلا لسوء حظهم وهوانهم، وكونهم لا يصلحون لغير ما خلقوا له.

(١٨٨) ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾ من القبائح، والباطل القولي والفعلي ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ

(١٨٧) أخرج أبو داود وابن ماجه وأحمد بإسناد صحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «من سئل عن علم فكتمه؛ ألجم بلجام من نار يوم القيامة».

(١٨٨) أخرج مسلم عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ: «المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور».

وأخرج الشيخان عن أبي سعيد الخدري: أن رجلاً من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ كان إذا خرج رسول الله ﷺ إلى =

يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا بِالْخَيْرِ الَّذِي لَمْ يَفْعَلُوهُ،
والحق الذي لم يقولوه، فجمعوا بين فعل الشر
وقوله والفرح بذلك، ومحبة أن يحمّدوا على فعل
الخير الذي ما فعلوه ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّكُمْ يَمْفَازِقِرَ مِنَ
الْعَذَابِ﴾: بمحل نجوة منه وسلامة، بل قد
استحقوه وسيصيرون إليه، ولهذا قال: ﴿وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: موجه للقلوب والأبدان وهو عذاب
جهنم.

(١٨٩) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: هو
المالك للسموات والأرض وما فيهما، من
سائر أصناف الخلق ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ﴾: المتصرف فيهم بكمال القدرة وبديع
الصنعة، فلا يمتنع عليه منهم أحد، ولا
يعجزه أحد.

(١٩٠) يخبر تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ﴾ وفي

ضمن ذلك حث العباد على التفكير فيها،
والتبصر بآياتها، وتدبر خلقها، وأبهم قوله
(آيات) إشارة لكثرتها وعمومها؛ وذلك لأن
فيها من الآيات العجيبة ما يبهر الناظرين،
ويقنع المتفكرين، ويجذب أفئدة الصادقين،
وينبه العقول النيرة على جميع المطالب
الإلهية، فأما تفصيل ما اشتملت عليه؛ فلا
يمكن لمخلوق أن يحصره ويحيط ببعضه،
وفي الجملة: فما فيها من العظمة والسعة،
وانتظام السير والحركة؛ يدل على عظمة
خالقها، وعظمة سلطانه وشمول قدرته.
وما فيها من الإحكام والإتقان، وبديع الصنع،
ولطائف الفعل؛ يدل على حكمة الله، ووضعه
الأشياء مواضعها، وسعة علمه.

وما فيها من المنافع للخلق؛ يدل على سعة
رحمة الله، وعموم فضله، وشمول بره،

الغزو؛ تخلفوا عنه وفرحوا بمقدمهم خلاف رسول الله، فإذا قدم رسول الله ﷺ اعتذروا إليه، وحلفوا، وأحبوا أن يحمّدوا بما
لم يفعلوا؛ فنزلت

وأخرج الشيخان عن علقمة بن وقاص الليثي: أن مروان قال لبوابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس، فقل: لئن كان كل امرئ
فرح بما أوتي وأحب أن يحمّد بما لم يفعل معذباً؛ لنعذبن أجمعين! فقال ابن عباس: وما لكم ولهذه؟ إنما دعا النبي ﷺ يهود
فسألهم عن شيء؛ فكنتموه إياه، وأخبروه بغيره، فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم، وفرحوا بما أوتوا من
كنماهم. ثم قرأ ابن عباس ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ كذلك حتى قوله ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُجْحَدُونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ
يَفْعَلُوا﴾

(١٩٠) أخرج ابن حبان وأبو الشيخ في «أخلاق النبي ﷺ» بإسناد جيد عن عطاء بن أبي رباح؛ قال: دخلت أنا وعبيد بن عمير على
عائشة فقالت لعبيد بن عمير: قد آن لك أن تزور. فقال: أقول يا أمه كما قال الأول: زُرْ غُيًّا تَزِدُّ حُبًّا. قال: فقالت: دعونا من
بطالتكم هذه. قال ابن عمير: أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ. قال: فسكتت، ثم قالت: لما كان ليلة من
الليالي؛ قال: «يا عائشة، ذريني أتعبد لربي» قلت: والله إني لأحب قربك، وأحب ما يسرك. قالت: فقام فطهر ثم قام
يصلي. قالت: فلم يزل يبكي؛ حتى بل حجره، قالت: وكان جالسا فلم يزل يبكي ﷺ حتى بل لحيته. قالت: ثم بكى
حتى بل الأرض، فجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي؛ قال: يا رسول الله، تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من
ذنوبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟ لقد نزلت عليّ الليلة آية؛ ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها» ﴿إِنَّ فِي

خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية كلها.

لحصوله على السخط من الله ومن ملائكته وأوليائه، ووقوع الفضيحة التي لا نجاة منها، ولا منقذ منها ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ ينقذونهم من عذابه.

(١٩٣) ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾: وهو محمد ﷺ؛ ﴿يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ أي: يدعو الناس إليه ويرغبهم فيه، في أصوله وفروعه ﴿فَقَامْنَا﴾: أجبناه مبادرة، وسارعنا إليه ﴿رَبَّنَا فَاعْفُ رُبَّنَا دُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾: وفي هذا إخبار منهم بمنة الله عليهم، وتبجح بنعمته، وتوسل إليه بذلك أن يغفر ذنوبهم ويكفر سيئاتهم؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات، والذي من عليهم بالإيمان سيمنهم عليهم بالأمان التام.

﴿وَتَوْفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾: يتضمن هذا الدعاء التوفيق لفعل الخيرات وترك الشر الذي به يكون العبد من الأبرار، والاستمرار عليه والثبات إلى الممات.

(١٩٤) ﴿رَبَّنَا وَإِنَّا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ولما ذكروا توفيق الله إياهم للإيمان، وتوسلهم به إلى تمام النعمة، سألوه الثواب على ذلك، وأن ينجز لهم موعدهم به على السنة رسالة من النصر، والظهر في الدنيا، ومن الفوز برضوان الله وجنته فغي الآخرة «إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ» ﴿١٩٤﴾ فإنه لا يخلف الميعاد، فأجاب الله دعاءهم وقيل تضرعهم، فهذا قال:

ووجوب شكره.

وكل ذلك يدل على تعلق القلب بخالقها ومبدعها، وبذل الجهد في مرضاته، وأن لا يشرك به سواه ممن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

﴿لَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ خص الله بالآيات أولي الأبواب وهم أهل العقول؛ لأنهم هم المنتفعون بها، الناظرون إليها بقولهم لا بأبصارهم.

(١٩١) ﴿الَّذِينَ﴾ ثم وصف أولي الأبواب بأنهم ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾ في جميع أحوالهم: ﴿وَقِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ وهذا يشمل جميع أنواع الذكر بالقول والقلب، ويدخل في ذلك الصلاة قائماً، فإن لم يستطع فقاعداً، فإن لم يستطع فعلى جنب.

﴿و﴾ أنهم ﴿وَبَتَّكُرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ ليستدلوا بها على المقصود منها، ودل هذا على أن التفكير عبادة من صفات أولياء الله العارفين، فإذا تفكروا بها؛ عرفوا أن الله لم يخلقها عبثاً، فيقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلاً سُبْحَانَكَ﴾ عن كل ما لا يليق بجلالك، بل خلقتها بالحق وللحق، مشتملة على الحق ﴿فَقَتَا عَذَابَ النَّارِ﴾ بأن تعصمنا من السيئات، وتوفقنا للأعمال الصالحات، لننال بذلك النجاة من النار.

(١٩٢) ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ﴾؛

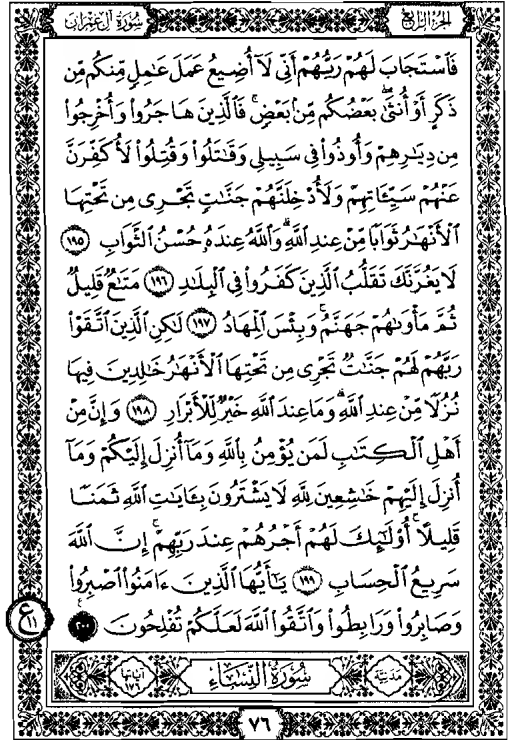
(١٩٣) أخرج البخاري عن جابر بن عبد الله ؓ يقول: «جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم، فقال بعضهم: إنه نائم. وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان. فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلاً فاضربوا له مثلاً. فقال بعضهم: إنه نائم. وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: مثله كمثل رجل بنى داراً وجعل فيها مائدة؛ وبعث داعياً، فمن أجاب الداعي دخل الدار، وأكل من المائدة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار. ولم يأكل من المائدة، فقالوا: أولوها له يفقهها. فقال بعضهم: إنه نائم. وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان. فقالوا: فالدار الجنة، والداعي محمد ﷺ، فمن أطاع محمداً ﷺ، فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً ﷺ، فقد عصى الله، ومحمد ﷺ فرق بين الناس».

الأوطان والأموال؛ طلباً لمرضاة ربهم، وجاهدوا في سبيل الله؛ ﴿لَا كُفْرَانَ عَنْهُمْ سِيَئَاتِهِمْ وَلَا دُخْلَهُمْ جَنَّتِ بَحْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ الذي يعطي عبده الثواب الجزيل على العمل القليل، ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

(١٩٦) ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾: هذه الآية المقصود منها التسلية عما يحصل للذين كفروا من متاع الدنيا وتنعمهم فيها، وتقلبهم في البلاد بأنواع التجارات والمكاسب واللذات، وأنواع العز والغلبة في بعض الأوقات فإن هذا كله:

(١٩٧) ﴿مَتَّعَ قَلِيلٌ﴾: ليس له ثبوت ولا بقاء، بل يتمتعون به قليلاً ﴿ثُمَّ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمَ وَيَسَّسَ الْمُهَادُّ﴾ ويعذبون عليه طويلاً، هذه أعلى حالة تكون للكافر، وقد رأيت ما تؤول إليه.

(١٩٨) ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ وأما المتقون لربهم، المؤمنون به؛ فمع ما يحصل لهم من عز الدنيا ونعيمها ﴿لَهُمْ جَنَّتُ بَحْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ فلو قدر أنهم في دار الدنيا قد حصل لهم كل بؤس وشدة، وعناء ومشقة؛ لكان هذا بالنسبة إلى النعيم المقيم؛ والعيش السليم؛



(١٩٥) ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾: أجاب الله دعاءهم: دعاء العبادة، ودعاء الطلب، وقال: ﴿إِنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذِكْرٍ أَوْ أُنْتَى﴾، فالجميع سيلقون ثواب أعمالهم كاملاً موفراً ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾: كلكم على حد سواء في الثواب والعقاب ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقَتِّلُوا﴾ فجمعوا بين الإيمان والهجرة، ومفارقة المحبوبات من

(١٩٥) أخرج الترمذي وسعيد بن منصور في «سننه»، وعبد الرزاق، والطبري، والحميدي، والحاكم بإسناد صحيح لغيره عن أم سلمة، قالت: يا رسول الله، لا أسمع الله - عز وجل - ذكر النساء في الهجرة بشيء؟ فأنزل الله هذه الآية، قال: قالت الأنصار: هي أول طعينة قدمت علينا.

(١٩٦، ١٩٧) أخرج البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: جئت فإذا رسول الله ﷺ في مشربة وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة من آدم حشوها ليف، وإن عند رجله قرطاً مصبوراً، وعند رأسه أهب معلقة، فرأيت أثر الحصير في جنبه، فبكت، فقال: «ما يبكيك؟» فقلت: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هم فيه وأنت رسول الله؟! فقال: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة».

والسرور والحبور والبهجة؛ نَزَرًا يَسِيرًا، ومنحة في صورة محنة ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْآزِلِينَ﴾: وهم الذين برت قلوبهم، فبرت أقوالهم وأفعالهم، فأثابهم البر الرحيم من بره أجرًا عظيمًا، وعطاءً جسيمًا، وفوزًا دائمًا.

(٢٠٠) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا﴾: ثم حض المؤمنين على ما يوصلهم إلى الفلاح، وهو: لزوم الصبر؛ الذي هو حبس النفس على ما تكرهه من ترك المعاصي، ومن الصبر على المصائب، وعلى الأوامر الثقيلة على النفوس، فأمرهم بالصبر على جميع ذلك.

﴿وَصَابِرُوا﴾ والمصابرة: الملازمة والاستمرار على ذلك على الدوام، ومقاومة الأعداء في جميع الأحوال.

﴿وَرَابِطُوا﴾ والمرابطة: هي لزوم المحل الذي يخاف من وصول العدو منه، وأن يراقبوا أعداءهم، ويمنعوه من الوصول إلى مقاصدهم ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: تفوزون بالمحسوب الديني والدنيوي والأخروي، وتنجون من المكروه كذلك.

(١٩٩) ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾: طائفة موفقة للخير ﴿لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ يؤمنون بالله، ويؤمنون بما أنزل إليكم وما أنزل إليهم ﴿خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ ولهذا لما كان إيمانهم عامًا حقيقيًا صار نافعًا فأحدث لهم خشية الله، وخضوعهم لجلاله، الموجب للانقياد لأوامره ونواهيه، والوقوف عند حدوده.

ومن تمام خشيتهم لله، أنهم ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِعَاقِبَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ فلا يقدمون الدنيا على الدين، كما فعل أهل الانحراف.

﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّكَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فأثابهم الله على ذلك بأن وعدهم الأجر الجزيل والثواب الجميل،

(١٩٩) أخرج النسائي في «التفسير» والطبراني في «الأوسط»، والضياء في «المختارة» والبخاري في «الأفراد» بإسناد صحيح عن أنس رضي الله عنه؛ قال: لما جاء نعي النجاشي؛ قال رسول الله ﷺ: «صلوا عليه»، قالوا: يا رسول الله، نصلي على عبد حبشي؟! فأزل الله - عز وجل - : ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾.

(٢٠٠) أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا، ويرفع الدرجات؟ إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط».

وأخرج البخاري عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها». وأخرج مسلم عن سلمان الفارسي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمل، وأجرى عليه رزقه، وأمن الفتان».

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾: أخبر بأنه رقيب؛ أي: مطلع على العباد في حال حركاتهم وسكونهم، وسرهم وعلنهم، وجميع أحوالهم، مراقباً لهم فيها مما يوجب مراقبته وشدة الحياء منه بلزوم تقواه.

وفي الإخبار بأنه خلقهم من نفس واحدة، وأنه بثهم في أقطار الأرض، مع رجوعهم إلى أصل واحد؛ ليعطف بعضهم على بعض، ويرقق بعضهم على بعض. وقرن الأمر بتقواه بالأمر ببر الأرحام والنهي عن قطيعتها؛ ليؤكد هذا الحق، وأنه كما يلزم القيام بحق الله كذلك يجب القيام بحقوق الخلق، خصوصاً الأقربين منهم، بل القيام بحقوقهم هو من حق الله الذي أمر به.

وتأمل كيف افتتح هذه السورة بالأمر بالتقوى، وصلة الأرحام والأزواج عمومًا، ثم بعد ذلك فصل هذه الأمور أتم تفصيل، من أول السورة إلى آخرها، فكانها مبنية على هذه الأمور المذكورة، مفصلة لما أجمل منها، موضحة لما أبهم.

(٢) ﴿وَأَتُوا آلَ الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾: هذا أول ما أوصى به من حقوق الخلق؛ وهم اليتامى: الذين فقدوا آباءهم وهم صغار ضعاف، فأمر الرءوف الرحيم عباده أن يحسنوا إليهم، وأن يؤتوهم أموالهم إذا بلغوا ورشدوا كاملة موفرة ﴿وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ﴾؛ أي: الذي هو أكل مال اليتيم بغير حق ﴿بِالطَّيِّبِ﴾: وهو الحلال الذي ما فيه حرج ولا تبعة ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾؛ أي: مع أموالكم، ففيه تنبيه لقبح أكل مالهم بهذه الحالة التي قد استغنى بها الإنسان بما جعل الله له من الرزق في ماله، فمن تجرأ على هذه الحالة؛ فقد أتى ﴿حُوبًا كَبِيرًا﴾: إثمًا عظيمًا،



تفسير سورة النساء وهي مدنية

(١) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ افتتح تعالى هذه السورة بالأمر بتقواه، والحث على عبادته والأمر بصلة الأرحام، والحث على ذلك، وبين السبب الداعي الموجب لكل من ذلك وأن الموجب لتقواه أنه ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ ورزقكم، ورباكم بنعمه العظيمة، التي من جملتها خلقكم ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ليناسبها؛ فيسكن إليها، وتتم بذلك النعمة، ويحصل به السرور، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي سَاءَ لَوْلَا يَهْدِيهِ وَالْأَرْحَامُ﴾ وكذلك من الموجب الداعي لتقواه: تساؤلكم به وتعظيمكم، حتى إنكم إذا أردتم قضاء حاجاتكم ومآربكم توصلتم لها بالسؤال بالله

ووزراً جسيماً.

ومن استبدل الخبيث بالطيب أن يأخذ الولي من مال اليتيم النفيس، ويجعل بدله من ماله الخسيس.

وفيه الولاية على اليتيم؛ لأن من لازم إيتاء اليتيم ماله ثبوت ولاية المؤتى على ماله.

ومن الأمر بإصلاح مال اليتيم، وعدم تعريض للمخاوف والأخطار.

(٣) ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾: إن خفتُم ألا تعدلوا في يتامى النساء اللاتي تحت حجوركم وولايتكم، وخفتُم ألا تقوموا بحققهن لعدم محبتكم إياهن ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ فاعدلوا إلى غيرهن، وانكحوا: ما وقع عليهن اختياركم من ذوات الدين، والمال، والجمال، والحسب، والنسب، وغير ذلك من الصفات الداعية لنكاحهن، فاختاروا على نظركم، ومن أحسن ما يختار من ذلك صفة الدين كما قال النبي ﷺ: «تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولجمالها ولحسبها، ولدينها؛ فاظفر بذات الدين تربت يمينك»

ثم ذكر العدد الذي أباحه من النساء، فقال: ﴿مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ﴾ أي: من أحب أن يأخذ اثنتين فليفعل، أو ثلاثاً فليفعل، أو أربعاً فليفعل، ولا يزيد عليها ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُعَدِّلُوا فَوَجَدَ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ فإن خاف على نفسه الجور والظلم، وعدم القيام بحقوقهن؛ فليقتصر على واحدة، أو على ملك يمينه، فإنه لا يجب عليه القسم في ملك اليمين ﴿ذَلِكَ﴾؛ أي: الاقتصار على واحدة، أو ما ملكت اليمين ﴿أَذْنَ أَلَّا تَعُولُوا﴾: تظلموا.

(٤) ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ﴾: أمرهم وحشهم على إيتاء النساء ﴿صَدُقَتِهِنَّ﴾: مهرهن ﴿نَحْلَةً﴾: فريضة؛ ﴿فَإِنْ طَبِخَ لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ مِنْهُ﴾: من الصداق ﴿نَفْسًا﴾ بأن سمحن لكم عن رضا واختيار بإسقاط شيء منه، أو تأخيرها، أو المعاوضة عنه؛ ﴿فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾: لا حرج عليكم في ذلك ولا تبعة.

(٥) ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ السفهاء: جمع سفيه؛ وهو: من لا يحسن التصرف في المال؛ إما لعدم عقله كالمجنون والمعتوه، ونحوهما، وإما لعدم رشده كالصغير

(٣) أخرج الشيخان عن عائشة ؓ أن رجلاً كانت له يتيمة؛ فنكحها، وكان لها عذق وكان يمسكها عليه، ولم يكن لها في نفسه شيء؛ فنزلت فيه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ أحسبه قال: كانت شريكته في ذلك العذق وفي ماله.

أخرج أحمد وابن حبان وأبو يعلى بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمر ؓ أن غيلان بن سلمة الثقفي أسلم وتحتة عشر نسوة، فقال له النبي ﷺ: «اختر منهن أربعاً» فلما كان في عهد عمر طلق نساء، وقسم ماله بين بنيه، فبلغ ذلك عمر فقال: إني لأظن الشيطان فيما يسترق من السمع سمع بموتك فقفذه في نفسك، ولعلك لا تلبث إلا قليلاً، وأيم الله لتراجعن نساءك، ولترجعن في مالك أو لأورثن منك، ولأمرن بقبرك فيرجم كما رجم قبر أبي رغال.

(٥) أخرج البيهقي والحاكم والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» بإسناد صحيح عن أبي موسى ؓ قال: قال رسول الله ﷺ:

«ثلاثة يدعون الله فلا يستجاب لهم: رجل كانت له امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها، ورجل أعطى ماله سفيهاً وقد قال: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾، ورجل كان له على رجل دين فلم يشهد عليه».

وروي موقوفاً، ولكن له حكم المرفوع، فمثله مما لا يقال بالرأي والقياس أبداً.

هو : الاختبار والامتحان، وذلك بأن يدفع لليتيم المقارب للرشد، الممكن رشده، شيئاً من ماله، ويتصرف فيه التصرف اللائق بحاله، فيتبين بذلك رشده من سفيهه ﴿فَإِنْ ءَاسَمْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ : فإن تبين رشده وصلاحه في ماله وبلغ النكاح ﴿فَادْعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ كاملة موفرة ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا﴾ : مجاوزة للحد الحلال الذي أباحه الله لكم من أموالكم، إلى الحرام الذي حرمه الله عليكم من أموالهم ﴿وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾ : ولا تأكلوها في حال صغرهم التي لا يمكنهم فيها أخذها منكم ولا منعكم من أكلها؛ تبادرون بذلك أن يكبروا فيأخذوها منكم ويمنعوكم منها.

﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ من كان في غنية فليستعفف عن مال اليتيم، ولا يأكل منه شيئاً، ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ له أن يأكل أقل الأمرين: أجرة مثله، أو قدر حاجته ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ أي: بعد بلوغهم الحلم وإيناسكم الرشد منهم فحينئذ سلموا إليهم أموالهم فإذا دفعتموها إليهم ﴿فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ﴾ ثلثا يقع جحود وإنكار لما قبضه وسلمه ﴿وَكُفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي: وكفى بالله محاسباً وشاهداً وربيّاً على الأولياء في حال نظرهم للأيتام وحال تسليمهم لأموالهم .

(٧) ﴿لَرِجَالٍ نَصِيبٌ﴾: قسط وحصّة ﴿وَمِمَّا تَرَكَ﴾: خلف ﴿الْأَوْلَادَانِ﴾: الأب والأم ﴿وَالْأَقْرَبُونَ﴾: عموم بعد خصوص ﴿وَاللِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَلَدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ .

فكأنه قيل: هل ذلك النصيب راجع إلى العرف

لِلرَّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْضُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلِيَخَشَّ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُؤْمِرُكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كُرِّمِلْ حِطَّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأُيُوبَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُّسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ الشُّدُّسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ فُجُوبًا أُولَئِكَ أَبَاءُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيْهَمُ أَقْرَبُ لَكُمْ نَعْتَفَرُ بِضَةِ تَرَبَّ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾

وغير الرشيد؛ فنهى الله الأولياء أن يؤثروا هؤلاء أموالهم؛ خشية إفسادها وإتلافها، لأن الله جعل الأموال قياماً لعباده في مصالح دينهم ودنياهم، وهؤلاء لا يحسنون القيام عليها وحفظها ﴿وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾: فأمر الولي ألا يؤثريهم إياها، بل يرزقهم منها ويكسوهم، ويبدل منها ما يتعلق بضرورتهم وحاجاتهم الدينية والدنيوية ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّرْفُوعًا﴾: وأن يقولوا لهم قولاً معروقاً؛ بأن يعدوهم إذا طلبوها أنهم سيدفعونها لهم بعد رشدهم، ونحو ذلك، ويلطفوا لهم في الأقوال جبراً لخواطريهم.

(٦) ﴿وَابْتَلُوا أَلْسِنَهُ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ * الابتلاء؛

(٦) أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه : أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: ليس لي مال، ولي يتيم؟ فقال: «كل من مال يتيمك؛ غير مسرف، ولا مبذر، ولا متأثل مالاً، من غير أن تقي -أو قال تفيء- مالك بماله».

(٩) ﴿وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعْفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾؛ المراد بذلك: أولياء السفهاء من المجانين، والصغار، والضعاف؛ أن يعاملوهم في مصالحهم الدينية والدينية بما يحبون أن يعامل به من بعدهم من ذريتهم الضعاف ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ﴾ في ولايتهم لغيرهم؛ أي: يعاملونهم بما فيه تقوى الله؛ من عدم إهانتهم، والقيام عليهم، وإلزامهم لتقوى الله ﴿وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾؛ أي: سدادًا موافقًا للقسط والمعروف.

(١٠) ولما أمرهم بما سبق؛ زجرهم عن أكل أموال اليتامى، وتوعد على ذلك أشد العذاب، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾: بغير حق، فمن أكلها ظلماً؛ ﴿فَإِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾: فإن الذي أكلوه نار تتأجج في أجوافهم، وهم الذين أدخلوها في بطونهم ﴿رَسِيمًا لِّنَّارٍ سَعِيرًا﴾: ناراً محرقة متوقدة.

(١١) ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾؛ أي: أولادكم يا معشر الوالدين، عندكم ودائع، قد وصاكم الله

والعادة وأن يرضخوا لهم ما يشاءون، أو شيئاً مقدراً؟ فقال تعالى: ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾: قد قدره العليم الحكيم وسيأتي - إن شاء الله تقدير ذلك..

وأيضاً فها هنا تَوَهَّم آخر: لعل أحداً يتوهم أن النساء والولدان ليس لهم نصيب إلا من المال الكثير، فأزال ذلك بقوله: ﴿وَمِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾، فتبارك الله أحسن الخالقين.

(٨) ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾: قسمة الموارث ﴿أُولُوا الْقَرْبَى﴾: الأقارب غير الوارثين ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ﴾ المستحقون من الفقراء ﴿فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾: أعطوهم ما تيسر من هذا المال الذي جاءكم بغير كد ولا تعب، ولا عناء ولا نصب؛ فإن نفوسهم متشوفة إليه، وقلوبهم متطلعة، فاجبروا خواطرهم بما لا يضرهم وهو نافعهم.

﴿وَقُولُوا لَهُمْ﴾: فإن لم يكن ذلك لكونه حق سفهاء، أو ثم أهم من ذلك فليقولوا لهم ﴿قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾: يردوهم ردًا جميلاً، بقول حسن غير فاحش ولا قبيح.

(٩) في «الصححين» أن رسول الله ﷺ لما دخل على سعد بن أبي وقاص يعوده، قال: يا رسول الله، إني ذو مال ولا يرثني إلا ابنة، أفأتصدق بثنتي مالي؟ قال: «لا» قال: «فالشطر؟» قال: «لا» قال: «فالثلث؟» قال: «الثلث، والثلث كثير؛ إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من تلزمهم عالة يتكفون الناس».

(١٠) أخرج ابن ماجه والنسائي في «الكبرى» وابن حبان والحاكم وأحمد بإسناد حسن عن أبي هريرة رضى الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «أخرج مال الضعيفين: المرأة واليتيم».

(١١) أخرج أبو داود والترمذي وابن ماجه بإسناد حسن عن جابر عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه؛ قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع بابتها من سعد إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك يوم أحد شهيداً، وإن معهما أخذ مالهما؛ فلم يدع لهما مالاً، ولا تنكحان إلا ولهما مال، قال: «بقضي الله في ذلك» فنزلت آية الميراث، فبعث رسول الله ﷺ إلى عمهما، فقال: «أعط ابنتي سعد الثلثين، وأعط أمهما الثمن، وما بقي فهو لك».

وأخرج البخاري عن ابن عباس رضى الله عنهما؛ قال: كان المال للولد، وكانت الوصية للوالدين، ففسخ الله من ذلك ما أحب، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس والثلث، وجعل للمرأة الثمن والربع، وللزوج الشطر والربع.

وأما الأب؛ فمع الذكور منهم لا يستحق أزيد من السدس، فإن كان الولد أنثى أو إناثاً ولم يبق بعد الفرض شيء كأبوين وابنتين؛ لم يبق له تعصيب، وإن بقي بعد فرض البنت أو البنات شيء أخذ الأب السدس فرضاً، والباقي تعصياً.

﴿فَإِنْ لَّمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ والباقي للأب؛ لأنه أضاف المال إلى الأب والأم إضافة واحدة، ثم قدر نصيب الأم؛ فدل ذلك على أن الباقي للأب ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾ أشقاء، أو لأب أو لأم، ذكوراً أو إناثاً، وارثين أو محجوبين بالأب أو الجد؛ ﴿فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ مما ترك ﴿وَمِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ أي: هذه الفروض والأنصبة والموارث إنما ترد وتستحق بعد نزع الديون التي على الميت لله أو للآدميين، وبعد الوصايا التي قد أوصى الميت بها بعد موته، فالباقي عن ذلك هو التركة الذي يستحقه الورثة.

﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾: لا تدرُونَ أي: الأولاد أو الوالدين أنفع لكم، وأقرب لحصول مقاصدكم الدينية والدنيوية، فلو ردّ تقدير الإرث إلى عقولكم واختياركم؛ لحصل من الضرر ما الله به عليم. ﴿فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾: فرضها الله الذي قد أحاط بكل شيء علماً، وأحكم ما شرعه، وقدر ما قدره على أحسن تقدير؛ لا تستطيع العقول أن تقترح مثل أحكامه الصالحة الموافقة لكل زمان ومكان وحال.

(١٢) ﴿وَلَكُمْ﴾ أيها الأزواج ﴿يُصَفُّ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾: إذا متن من غير ولد ويدخل في مسمى الولد المشروط وجوده أو عدمه: ولد الصلب، أو ولد الابن

وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كَلَّةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُنَّ أَوْ أَحْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٣) ذَلِكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٤) وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٥)

عليهم؛ لتقوموا بمصالحهم؛ فتعلمونهم، وتؤدبونهم، وتكفونهم عن المفاسد، وتأمرونهم بطاعة الله، وملازمة التقوى على الدوام ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾: الأولاد للصلب والأولاد للابن، للذكر مثل حظ الأنثيين؛ إن لم يكن معهم صاحب فرض، أو ما أبقت الفروض يقتسمونه كذلك، وقد أجمع العلماء على ذلك ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾: بنات صلب، أو بنات ابن؛ ثلاثاً فأكثر: ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثًا مِمَّا تَرَكَ﴾.

﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً﴾: بنتاً، أو بنت ابن؛ ﴿فَلَهَا النِّصْفُ﴾ وهذا إجماع ﴿وَلَا يُورِثُ﴾: أبوه وأمه ﴿لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي: ولد صلب، أو ولد ابن، ذكراً كان أو أنثى، واحداً أو متعدداً. فأما الأم؛ فلا تزيد على السدس مع أحد الأولاد،

﴿وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ﴾ عهد من الله إليكم فيما يجب لكم من ميراث من مات منكم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمصالح خلقه ومضارهم، ومن يستحق أن يُعطى من أقرباء من مات منكم وأنسبائه من ميراثه، ومن يحرم ذلك منهم، ومبلغ ما يستحق به كل من استحق منهم قسماً، وغير ذلك من أمور عبادته ومصلحتهم ﴿حَلِيمٌ﴾ ذو حلم على خلقه، وذو أناه في تركه معاجلتهم بالعقوبة على ظلم بعضهم بعضاً.

(١٣) ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾: تلك التفاصيل التي ذكرها في الموارث حدود الله؛ التي يجب الوقوف معها وعدم مجاوزتها، ولا القصور عنها. ثم ذكر طاعة الله ورسوله ومعصيتهما عموماً؛ ليدخل في العموم لزوم حدوده في الفرائض أو ترك ذلك، فقال: ﴿وَمَن يَطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: بامتنال أمرهما الذي أعظمه طاعتهما في التوحيد، ثم الأوامر على اختلاف درجاتها، واجتناب نهيهما الذي أعظمه الشرك بالله، ثم المعاصي على اختلاف طبقاتها ﴿يُدْخِلُهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾: فمن أدى الأوامر واجتنب النواهي؛ فلا بد له من دخول الجنة، والنجاة من النار ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي حصل به النجاة من سخطه وعذابه، والفوز بثوابه ورضوانه بالنعيم المقيم الذي لا يصفه الواصفون.

(١٤) ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾: ويدخل في اسم المعصية: الكفر فما دونه من المعاصي، فلا تكون فيها شبهة

الذكر والأنثى، الواحد والمتعدد، الذي من الزوج أو من غيره، ويخرج عنه ولد البنات إجمالاً.

﴿فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيَنَّ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ فإن كان لهن ولد؛ فلكن الربع مما تركن من بعد الوصية أو الدين، والدين مقدم على الوصية وهو أمر مجمع عليه ﴿وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكْنَ إِنْ لَّمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ وسواء في الربع أو الثمن الزوجة والزوجات الاثنتان والثلاث والأربع يشتركن فيه.

﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ من أم، كما هي في بعض القراءات، وأجمع العلماء على أن المراد بالإخوة هنا: الإخوة للأُم، فإذا كان يورث كلاله؛ أي: ليس للميت والد ولا ولد، أي: لا أب ولا جد، ولا ابن ولا ابن ابن، ولا بنت ولا بنت ابن وإن نزلوا، وهذه هي الكلاله. ﴿فَلِكُلٍّ وَّاحِدٌ مِّنْهُمَا﴾: من الأخ والأخت ﴿الْثُدُسُ﴾، ﴿فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾: من واحد ﴿فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾: لا يزيدون على الثلث؛ ولو زادوا عن اثنين ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيَنَّ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ﴾ لتكون وصيته على العدل، لا على الإضرار والإضرار في الوصية، هو: أن يدخل الضرر على الورثة بمجاوزته الثلث فيها، والإضرار في الدين أن يوصي بدين ليس عليه

الْفَحْشَةَ: الزنا، ووصفها بالفاحشة؛ لشناعتها وقبحها ﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ﴾: من رجالكم المؤمنين العدول ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَامْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾: احبسوهن عن الخروج الموجب للريبة، وأيضا فإن الحبس من جملة العقوبات ﴿حَتَّى يَتَوَفَّهِنَّ الْمَوْتُ﴾ هذا منتهى الحبس ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾: طريقا غير الحبس في البيوت، فكان هذا الأمر في أول الإسلام كذلك حتى جعل الله لهن سبيلا؛ وهو رجم المحصن، وجلد غير المحصن، وهذه الآية منسوخة وهو أمر متفق عليه.

(١٦) ﴿و﴾ كذلك ﴿الَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا﴾ أي: فاحشة اللواط - وقيل: والزنا - ﴿مِنْكُمْ﴾: من الرجال، - وقيل والنساء - ﴿فَعَاذُوهُمَا﴾: بالقول، والتوبيخ، والتعيير، والضرب الرادع عن هذه الفاحشة.

فعلى هذا يكون الرجال إذا فعلوا الفاحشة يؤذون، والنساء يُحْبَسْنَ ويؤذِن. فالحبس غايته إلى الموت، والأذية نهايتها إلى التوبة والإصلاح؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنْ تَابَا﴾: رجعا عن الذنب الذي فعلاه، وندما عليه، وعزما على ألا يعودا ﴿وَأَصْلَحَا﴾: العمل الدال على صدق التوبة؛ ﴿فَعَاذُوا عَنْهُمَا﴾: عن أذاهما ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾: كثير التوبة على المذنبين الخطائين، ﴿رَّحِيمًا﴾ عظيم الرحمة

وَالَّتِي يَأْتِيَتِ الْفَحْشَةَ مِنْ نِّسَاءِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَامْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّهِنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿٥٥﴾ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَعَاذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٥٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُدِّئْتُ الْكَفْرَ وَلَا أَلِدِينَ يُمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٥٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَجِدُ لَكُمْ أَنْ تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا يُتَبَلَّوْنَ لِيَنْتَهَبُوا بَعْضَ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحْشَةٍ مُّبِينَةٍ وَعَايَرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسَّ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيجعل الله فيه خيرا كثيرا ﴿٥٩﴾

للخوارج القائلين بكفر أهل المعاصي؛ فإن الله تعالى رتب دخول الجنة على طاعته وطاعة رسوله، ورتب دخول النار على معصيته ومعصية رسوله فمن أطاعه طاعة تامة دخل الجنة بلا عذاب، ومن عصى الله ورسوله معصية تامة يدخل فيها الشرك فما دونه؛ دخل النار وخلد فيها، ومن اجتمع فيه معصية وطاعة؛ كان فيه من موجب الثواب والعقاب بحسب ما فيه من الطاعة والمعصية.

(١٥) ﴿وَالَّتِي﴾: والنساء اللاتي ﴿يَأْتِيَتِ﴾

(١٥) أخرج مسلم وأصحاب السنن وأحمد عن عبادة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا نزل الوحي عرف ذلك في وجهه، فلما أنزلت: ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ وارفع الوحي قال رسول الله ﷺ: «خذوا خذوا، قد جعل الله لهن سبيلا، البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة، والثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة».

(١٦) أخرج أبو داود والترمذي والنسائي في «الكبرى» وابن ماجه بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من رأيتموه يعمل عمل قوم لوط؛ فاقتلوا الفاعل والمفعول به».

والإحسان، الذي من إحسانه وفقهم للتوبة وقبلها منهم، وسامحهم عن ما صدر منهم.

(١٧) ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾: توبة الله على عباده نوعان: توفيق منه للتوبة، وقبول لها بعد وجودها من العبد، فأخبر هنا: أن التوبة المستحقة على الله حق أحقه على نفسه، كرمًا منه وجودًا ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ﴾ لمن عمل السوء، أي: المعاصي ﴿بِجَهَالَةٍ﴾: جهالة منه بعاقبتها وإيجابها لسخط الله وعقابه، وجهل منه بنظر الله ومراقبته له، وجهل منه بما تؤول إليه من نقص الإيمان أو إعدامه، فكل عاص لله فهو جاهل بهذا الاعتبار وإن كان عالمًا بالتحريم ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ﴾ قبل معاناة الموت؛ فإن الله يقبل توبة العبد إذا تاب قبل معاناة الموت والعذاب قطعًا ﴿مِنْ قَرِيبٍ﴾؛ أي: قريب من فعلهم للذنوب الموجب للتوبة، وما كان دون الموت وبلوغ الغرغرة فهو قريب ﴿فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: من بادر إلى الإقلاع من حين صدور الذنب، وأناب إلى الله وندم عليه؛ فإن الله يتوب عليه

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾؛ فمن علمه: أنه يعلم صادق التوبة وكاذبها، فيجازي كلًا منهما بحسب ما يستحق بحكمته، ومن حكمته: أن يوفق من اقتضت حكمته ورحمته توفيقه للتوبة، ويخذل من اقتضت حكمته وعدله عدم توفيقه.

(١٨) ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾: المعاصي فيما دون الكفر ﴿حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ﴾، وذلك أن التوبة في هذه الحال توبة اضطرار لا تنفع صاحبها، إنما تنفع توبة الاختيار، فمن استمر على ذنوبه وأصر على عيوبه، حتى صارت فيه صفات راسخة؛ فإنه يعسر عليه إيجاد التوبة التامة ﴿وَالَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾: إن الكافر إذا مات على كفره وشركه لا ينفعه ندمه ولا يقبل منه فدية، ولا بملء الأرض ﴿أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾: موجعًا شديدًا مقيمًا.

(١٩) ﴿يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْ تَبْلُغَ إِلَىٰ آلِيسَاءِ كُرْهًا وَلَا تَقْضُلُوهُنَّ﴾: كانوا في الجاهلية إذا مات أحد

(١٧) أخرج عبد الرزاق بإسناد صحيح عن قتادة؛ قال: اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ؛ فأروا أن كل شيء عصي الله به؛ فهو جهالة، عمدًا كان أو غيره.

وأخرج الترمذي وابن ماجه وأحمد بإسناد حسن عن عبد الله بن عمر رضيهما عن النبي ﷺ قال: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر».

(١٩) أخرج البخاري عن عبد الله بن عباس رضيهما؛ في قوله: ﴿يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْ تَبْلُغَ إِلَىٰ آلِيسَاءِ كُرْهًا وَلَا تَقْضُلُوهُنَّ﴾: قال: كانوا إذا مات الرجل؛ كان أولياؤه أحق بامرأته: إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاءوا زوجه، وإن شاءوا لم يزوجه، وهم أحق بها من أهلها؛ فزلت هذه الآية في ذلك.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن جرير بإسناد حسن عن عبد الله بن عباس رضيهما؛ قال: كان الرجل إذا مات وترك زوجة؛ ألقى عليها حميمه ثوبه؛ فمئنها من الناس، فإن كانت جميلة؛ تزوجه، وإن كانت ذميمة؛ حبسها حتى تموت؛ فيرثها.

وأخرج مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «لا يفرق مؤمن مؤمنة؛ إن سخط منها خلقاً رضي منها آخر».

كالزنا، والكلام الفاحش، وأذيتها لزوجها: فإنه في هذه الحال يجوز له أن يعضلها؛ عقوبة لها على فعلها؛ لتفندي منه إذا كان عضلاً بالعدل. ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾: وهذا يشمل المعاشرة القولية والفعلية، فعلى الزوج أن يعاشر زوجته بالمعروف؛ من الصحبة الجميلة، وكف الأذى، وبذل الإحسان، وحسن المعاملة، ويدخل في ذلك: النفقة، والكسوة، ونحوهما. فيجب على الزوج لزوجته المعروف من مثله لمثلها في ذلك الزمان والمكان، وهذا يتفاوت بتفاوت الأحوال.

﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسَّ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾: ينبغي لكم أيها الأزواج أن تمسكوا زوجاتكم مع الكراهة لهن؛ فإن في ذلك خيراً كثيراً، من ذلك: امتثال أمر الله، وقبول وصيته التي فيها سعادة الدنيا والآخرة، وغيرها. وهذا كله مع الإمكان في الإمساك وعدم المحذور، فإن كان لا بد من الفراق، وليس للإمساك محل؛ فليس الإمساك بلازم.

(٢٠) ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَاتٍ زَوْجٍ﴾: تطليق زوجة وتزوج أخرى، فلا جناح عليكم في ذلك ولا حرج ﴿وَلَكِنْ إِذَا ءَاتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ﴾: المفارقة، أو التي تزوجها ﴿قِنْطَارًا﴾: مالا كثيراً؛ ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ بل وفروه لهن، ولا تمطلوا بهن وفي هذه الآية دليل على عدم تحريم كثرة المهر، مع أن الأفضل واللائق الاقتداء بالنبي ﷺ في تخفيف المهر.

وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَاتٍ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَن تَأْخُذُوا مِنْهُ بَهْتِكُنَّ وَإِنَّمَا مُمِيتَا ٢٠ وَكَيْفَ تَأْخُذُوا مِنْهُ وَقَدْ أَقْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُمْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ٢١ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّكُمْ كَانْتُمْ فِجْشَةً وَمَقْتًا ٢٢ وَسَاءَ سَبِيلًا ٢٣ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ الَّتِي أَزْجَعْتُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرُّضْعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبَتْكُمْ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمُوهُنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمُوهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَخَلِيلُ آبَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ٢٤

عن زوجته، رأى قريبه - كأخيه وابن عمه، ونحوهما - أنه أحق بزوجه من كل أحد، وحماها عن غيره، أحببت أو كرهت.

فإن أحبها تزوجها على صداق يحبه دونها، وإن لم يرضها؛ عضلها، فلا يزوجه إلا من يختاره هو، وربما امتنع من تزويجها حتى تبذل له شيئاً من ميراث قريبه، أو من صداقها، وكان الرجل أيضاً يعضل زوجته التي يكون يكرهها ليذهب ببعض ما آتاها، فنهى الله المؤمنين عن جميع هذه الأحوال إلا حالتين: إذا رضيت واختارت نكاح قريب زوجها الأول كما يفهم من قوله: ﴿كَرِهَهَا﴾، و﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾؛

(٢٠) وفي «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال للمتلاعنين بعد فراغهما في تلاعنهما: «الله يعلم أن أحكما كاذب؛ فهل منكما تائب؟» ثلاثاً. فقال الرجل: يا رسول الله مالي - يعني: ما أصدقها - قال: «لا مال لك؛ إن كنت صدقت عليها؛ فهو بما استحللت من فرجها، وإن كنت كذبت عليها؛ فهو أبعد لك منها».

الأخت: الآيتان: هاتان الآيتان الكريمتان مشتملتان على المحرمات بالنسب، والمحرمات بالرضاع، والمحرمات بالصهر، والمحرمات بالجمع، وعلى المحلات من النساء:

فأما المحرمات في النسب؛ فهن السبع اللاتي ذكرهن الله: الأم؛ يدخل فيها كل من لها عليك ولادة وإن بعدت.

ويدخل في البنت: كل من لك عليها ولادة.

والأخوات الشقيقات أو لأب، أو لأم.

والعمة: كل أخت لأبيك أو لجديك وإن علا.

والخاله: كل أخت لأمك أو جدتك وإن علت، وارثة أم لا.

وبنات الأخ، وبنات الأخت؛ وإن نزلت.

فهؤلاء هن المحرمات من النسب بإجماع العلماء؛ كما هو نص الآية الكريمة، وما عداهن فيدخل في قوله: «وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ»، وذلك كبنات العمة والعم، وبنات الخال والخالة.

«وَأَمَّا الرضاعة» وأما المحرمات بالرضاع؛ فقد ذكر الله منهن الأم والأخت وفي ذلك تحريم الأم مع أن اللبن ليس لها، إنما هو لصاحب اللبن، دل بنبهه على أن صاحب اللبن يكون أباً للمرتضع، فإذا ثبتت الأبوة والأمومة ثبت ما هو فرع عنهما

ثم قال: «أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَنًا وَإِنَّمَا مُبِينًا» فإن هذا لا يحل، ولو تحيلتم عليه بأنواع الحيل؛ فإن إثمه واضح.

(٢١) وقد بين الله تعالى حكمة ذلك بقوله: «وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ» فكيف تأخذون الصداق من المرأة، وقد أفضيت إليها وأفضت إليك، وباشرتها المباشرة التي كانت حراماً عليك قبل ذلك، والتي لم ترض ببذلها إلا بذلك العوض؟ هذا من أعظم الظلم والجور «وَأَخَذْتَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا»: وكذلك أخذ الله على الأزواج ميثاقاً غليظاً بالعقد والقيام بحقوقها.

(٢٢) «وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ» لا تتزوجوا من النساء ما تزوجهن آباؤكم؛ أي: الأب وإن علا، «إِنَّكُمْ كَانُمْ فَجِئَةً»: أمراً قبيحاً يفحش ويعظم قبحه «وَمَقْتًا» من الله لكم ومن الخلق؛ بل يمقت بسبب ذلك الابن أباه والأب ابنه، مع الأمر ببره «وَسَاءَ سَبِيلًا»: بسئ الطريق طريقاً لمن سلكه؛ لأن هذا من عادات الجاهلية التي جاء الإسلام بالتنزه عنها والبراءة منها.

(٢٣) «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ

(٢١) في «صحيح مسلم» عن جابر في خطبة حجة الوداع: أن رسول الله ﷺ قال فيها: «واستوصوا بالنساء خيراً، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله».

(٢٢) أخرج الطبري بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس ؓ؛ قال: كان أهل الجاهلية يحرمون ما حرم الله؛ إلا امرأة الأب والجمع بين الاختين؛ فأنزل الله: «وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّكُمْ كَانُمْ فَجِئَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا».

(٢٣) في «الصحيحين» عن عائشة ؓ عن النبي ﷺ: «إن الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة»، وفي لفظ لمسلم: «يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب».

الثلاث يحرم من بمجرد العقد. والرابعة: الربيبة؛ وهي بنت زوجته وإن نزلت، فهذه لا تحرم حتى يدخل بزوجه كما قال هنا: ﴿وَرَبِّبُكُمْ أَلَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾

وأما المحرمات بالجمع، فقد ذكر الله الجمع بين الأختين وحرمه، وحرم النبي ﷺ الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، فكل امرأتين بينهما رحم محرم لو قدر إحداهما ذكراً والأخرى أنثى حرمت عليه؛ فإنه يحرم الجمع بينهما؛ وذلك لما في ذلك من أسباب التقاطع بين الأرحام من المحرمات في النكاح.

(٢٤) ﴿وَمِنَ الْمُحَرَّمَاتِ فِي النِّكَاحِ﴾ من المحرمات في النكاح ﴿الْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ ذوات الأزواج، فإنه يحرم نكاحهن ما دمن في ذمة الزوج حتى تطلق وتنقضي عدتها ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ بالسبي، فإذا سبيت الكافرة ذات الزوج؛ حلت للمسلمين بعد أن تستبرأ، وأما إذا بيعت الأمة المزوجة أو وهبت؛ فإنه لا يفسخ نكاحها؛ لأن المالك الثاني نزل منزلة الأول، ولقصة بريرة حين خيرها النبي ﷺ.

وقوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: الزموه واهتدوا به؛ فإن فيه الشفاء والنور، وفيه تفصيل الحلال من الحرام.

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَأَجَلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَن تَتَعَمَّوْا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ١١ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَيْمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَصَاتٍ غَيْرَ مُسْفِحَاتٍ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْبُرُوقِ فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ أَتَيْنَ بِفَنَاحِشٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٢ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٣

كأخوتهما وأصولهما وفروعهما. فينتشر التحريم من جهة المرضعة ومن له اللبن كما ينتشر في الأقارب، وفي الطفل المرتضع إلى ذريته فقط؛ لكن بشرط أن يكون الرضاع خمس رضعات في الحولين؛ كما بينت السنة.

وأما المحرمات بالصهر؛ فهن أربع: حلائل الآباء وإن علوا، وحلائل الأبناء وإن نزلوا، وارثين أو محجوبين، وأمهات الزوجة وإن علون؛ فهؤلاء

(٢٤) أخرج مسلم في «صحيحه» عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ يوم حنين بعث جيشاً إلى أوطاس؛ فلقوا عدواً فقاتلوه، فظهروا عليهم، وأصابوا لهم سبايا، فكان ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ تخرجوا من غشيانهم من أجل أزواجهن من المشركين؛ فأنزل الله - عز وجل - في ذلك: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾؛ أي: فهن لكم حلال إذا انقضت عدتهن.

أخرج مسلم في «صحيحه» من حديث سبرة بن معبد الجهني رضى الله عنه: أنه غزا مع رسول الله ﷺ يوم فتح مكة، فقال: «يا أيها الناس إني كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء، وإن الله حرم ذلك إلى يوم القيامة، فمن كان عنده منهن شيء؛ فليخل سبيله، ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً».

وَدَخَلَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾: كل ما لم يذكر في هذه الآية، فإنه حلال طيب؛ فالحرام محصور، والحلال ليس له حد ولا حصر؛ لطفًا من الله ورحمة، وتيسيرًا للعباد. ﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ﴾: تطلبوا من وقع عليه نظركم واختياركم من اللاتي أباحهن الله لكم حالة كونكم ﴿مُحْصِنِينَ﴾: مستعفين عن الزنا، ومعفين نساءكم ﴿غَيْرَ مُسْتَفْحِينَ﴾ والسفح: سفح الماء في الحلال والحرام، فإن الفاعل لذلك لا يحصن زوجته؛ لكونه وضع شهوته في الحرام، فتضعف داعيته للحلال، فلا يبقى محصنًا لزوجته ﴿فَمَا اسْتَمْتَعُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾: أي: كما تستمتعون بهن ﴿فَعَنَائُهُنَّ أَجُورُهُنَّ﴾: أي: المهور في مقابلة الاستمتاع، ولهذا إذا دخل الزوج بزوجه تقرر عليه صداقها ﴿فَرِيضَةً﴾: إتيانكم إياهن أجورهن فرض فرضه الله عليكم، ليس بمنزلة التبرع الذي إن شاء أمضاه وإن شاء رده.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرْضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾: بزيادة من الزوج، أو إسقاط من الزوجة عن رضا وطيب نفس ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾: كامل العلم واسعه، كامل الحكمة؛ فمن علمه وحكمته شرع لكم هذه الشرائع، وحد لكم هذه الحدود الفاصلة بين الحلال والحرام. (٢٥) ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ

(٢٥) أخرج أبو داود والترمذي وأحمد بإسناد صحيح عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «أيما عبد تزوج بغير إذن مواليه؛ فهو عاهر».

وأخرج مسلم في «صحيحه» عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه خطب فقال: يا أيها الناس، أقيموا على أرفائكم الحد: من أحصن ومن لم يحصن؛ فإن أمة لرسول الله ﷺ زنت؛ فأمرني أن أجدها؛ فإذا هي حديث عهد بنفاس، فخشيت إن جلدها أن أقتلها، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: «أحسن، اتركها حتى تمأثل».

وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
الشَّهَوَاتِ أَنْ يُقِيلُوا مِثْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ
عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ
آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ
تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ
إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عَدُوًّا
وُظْلَمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ
يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِنْ تَحْتَبِئُوا كَافِرًا مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ تُكْفِرُوا
عَنكُمْ سِيعَاتِكُمْ وَتُدْخِلُكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾
وَلَا تَتَّبِعُوا مَا أَفْضَلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ
نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبْنَ
وَسَعَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيًّا وَمَا تَرَكَ الْوَالِدَانِ
وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَتَأْتُوهُمْ
نَصِيبُهُمْ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾

٨٣

﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ومع هذا: فالصبر عن
نكاحهن أفضل؛ لما فيه من تعريض الأولاد للرق،
ولما فيه من الدناءة والعيب، وهذا إذا أمكن الصبر،
فإن لم يمكن الصبر عن المحرم إلا بنكاحهن؛
وجب ذلك ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: ختم هذه الآية
بهذين الاسمين الكريمين؛ لكون هذه الأحكام رحمة
بالعباد وكرما وإحسانا إليهم، فلم يضيق عليهم، بل
وسع غاية السعة. ولعل في ذكر المغفرة بعد ذكر
الحد إشارة إلى أن الحدود كفارات، يغفر الله بها
ذنوب عباده.

(٢٦) ثم أخبر تعالى بمنته العظيمة ومنحته
الجسيمة، وحسن تربيته لعباده المؤمنين، وسهولة
دينه؛ فقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُخَفِّفَ لَكُمْ﴾ جميع ما
تحتاجون إلى بيانه من الحق والباطل، والحلال
والحرام ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾:

الذين أنعم الله عليهم من النبيين وأتباعهم؛ في
سيرهم الحميدة، وأفعالهم السديدة، وشمائهم
الكاملة، وتوفيقهم التام، فلذلك نفذ ما أراد،
ووضح لكم وبين بيانا، كما بين لمن قبلكم،
وهذاكم هداية عظيمة في العلم والعمل.

﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾: يلطف لكم في أحوالكم وما
شرعه لكم؛ حتى تتمكنوا من الوقوف على ما
حده الله، والاكتفاء بما أحله، فتقل ذنوبكم
بسبب ما يسر الله عليكم، فهذا من توبته على
عباده ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: كامل العلم واسع،
كامل الحكمة: فمن علمه: أن علمكم ما لم
تكونوا تعلمون، ومنها هذه الأشياء والحدود ومن
حكمته: أنه يتوب على من اقتضت حكمته
ورحمته التوبة عليه، ويخذل من اقتضت حكمته
وعدله من لا يصلح للتوبة.

(٢٧) ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾: توبة تلم
شعثكم، وتجمع متفرقكم، وتقرب بعيدكم
﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾: يميلون معها
حيث مالت، ويقدمونها على ما فيه رضا
محبوبهم، ويعبدون أهواءهم؛ من أصناف الكفرة
والعاصين، المقدمين لأهوائهم على طاعة ربهم،
فهؤلاء يريدون ﴿أَنْ يُقِيلُوا مِثْلًا عَظِيمًا﴾: أن
تنحرفوا عن الصراط المستقيم إلى صراط
المغضوب عليهم والضالين، يريدون أن
يصرفوكم عن طاعة الرحمن إلى طاعة الشيطان.

(٢٨) ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ بسهولة ما
أمركم به وما نهاكم عنه، ثم مع حصول المشقة
في بعض الشرائع أباح لكم ما تقتضيه حاجتكم؛
كالميتة، والدم، ونحوهما للمضطر ﴿وَخُلِقَ
الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ من جميع الوجوه؛ ضعف

(٣٠) ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾: من يتعاطى ما نهاه الله عنه من أكل الأموال بالباطل وقتل النفس ﴿عُدُونَا﴾: متعدياً منه ﴿وَوَلَمَّا﴾: ظالمًا في تعاطيه، لا جهلاً ونسياناً؛ ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ﴾: ندخله في الآخرة ﴿نَارًا﴾ يَصْلَى فيها ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾: هيناً.

(٣١) ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾: هذا من فضل الله وإحسانه على عباده المؤمنين، وعَدَمهم أنهم إذا اجتنبوا كبائر المنهيات؛ غفر لهم جميع الذنوب والسيئات، وأدخلهم مدخلاً كريماً كثير الخير، وهو: الجنة.

وأحسن ما حُدَّت به الكبائر، أن الكبيرة: ما فيه حد في الدنيا، أو وعيد في الآخرة، أو نفي إيمان، أو ترتيب لعنة، أو غضب عليه.

(٣٢) ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾: ينهى تعالى المؤمنين عن أن يتمنى

البنية، وضعف الإرادة، وضعف العزيمة، وضعف الإيمان، وضعف الصبر؛ فناسب ذلك أن يخفف الله عنه ما يضعف عنه، وما لا يطيقه إيمانه وصبره وقوته.

(٢٩) ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾: ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل، وهذا يشمل: أكلها بالغصب والسرقات، وأخذها بالقمار والمكاسب الرديئة ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾: ثم إنه لما حرم أكلها بالباطل أباح لهم أكلها بالتجارات والمكاسب الخالية من الموانع، المشتملة على الشروط من التراضي وغيره ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾: لا يقتل بعضكم بعضاً، ولا يقتل الإنسان نفسه ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾: ومن رحمته أن صان نفوسكم وأموالكم وعصمها، ونهاكم عن إضاعتها وإتلافها وانتهاكها، ورتب على ذلك ما رتبته من الحدود.

(٢٩) أخرج أبو داود وأحمد بإسناد صحيح عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال: لما بعثه النبي ﷺ عام ذات السلاسل قال: احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتميمت ثم صليت بأصحابي صلاة الصبح. قال: فلما قدمت على رسول الله ﷺ ذكرت ذلك له، فقال: «يا عمرو، صليت بأصحابك وأنت جنب!» قال: قلت: يا رسول الله، إني احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فذكرت قول الله - عز وجل - : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾، فتميمت ثم صليت. فضحك رسول الله ﷺ - ولم يقل شيئاً.

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قتل نفسه بحديدة فحديده في يده، يجأ بها بطنه يوم القيامة في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن قتل نفسه بسهم، فسمه في يده، يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن ترذى من جبل فقتل نفسه، فهو مترد في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً».

(٣١) أخرج النسائي وأحمد بإسناد صحيح لغيره عن سلمان الفارسي رضي الله عنه؛ قال: قال لي النبي ﷺ: «أتدري ما يوم الجمعة» قلت: هو اليوم الذي جمع الله فيه أباكم قال: «لكن أدري ما يوم الجمعة، لا يتطهر الرجل فيحسن طهوره، ثم يأتي الجمعة فينصت حتى يقضي الإمام صلاته، إلا كان كفارة له ما بينه وبين الجمعة المقبلة، ما اجتنبت المقتلة».

(٣٢) أخرج الترمذي وأحمد بإسناد صحيح عن أم سلمة رضي الله عنها؛ أنها قالت: يغزو الرجال ولا يغزو النساء، وإنما لنا نصف الميراث؛ فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ﴾، قال مجاهد: فأنزل فيها: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وكانت أم سلمة أول طعينة قدمت المدينة مهاجرة.

منهم لا يناله غير ما كسبه وتعب فيه ﴿وَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾: من جميع مصالحكم في الدين والدنيا ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَتْ يَكُلُ شَيْءٍ عَلَيْكُمْ﴾: فيعطي من يعلمه أهلاً لذلك، ويمنع من يعلمه غير مستحق.

(٣٣) ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنَ النَّاسِ جَعَلْنَا مَوَالِيَّ﴾: يتولونه ويتولاهم؛ بالتعزز، والنصرة، والمعاونة على الأمور ﴿مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾: وهذا يشمل سائر الأقارب من الأصول والفروع والحواشي، هؤلاء الموالى من القرابة ﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَنُكُمْ﴾: حالفتموهم بما عقدتم معهم من عقد المحالفة على النصرة والمساعدة والاشتراك بالأموال وغير ذلك ﴿فَقَاتِلُوهُمْ نَصِيبُهُمْ﴾: آتوا الموالى نصيبهم الذي يجب القيام به من النصرة والمعاونة والمساعدة على غير معصية الله، والميراث للأقارب الأدين من الموالى، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾: مطلعاً على كل شيء؛ بعلمه لجميع الأمور، وبصره لحركات عبادته، وسمعه لجميع أصواتهم.

(٣٤) يخبر تعالى أن ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى

الرِّجَالِ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَأَصْدَلُ رَحْمَتُ قَدِئْتُمْ حَفِظْتُكَ لِلْعَمِي بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَالَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ فَعُظُّهُمْ وَأَهْجُرُوهُمْ فِي الْمَصَاجِعِ وَاضْرِبُوهُمْ فَإِنْ أَطَعَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٣﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْغُوا حُكْمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحُكْمًا مِنْ أَهْلِهِمَا إِنْ يُرِيدَ إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٤﴾ وَأَعِدُّوا لَهُمْ نَصِيبًا مِمَّا كَسَبُوا وَالَّذِينَ يَتَّبِعُوا النَّبِيَّ يَتْلُوا الْفَرْقَى وَالْيَتَمَى وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجَنْبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَفِيًّا لَا قُوَّةَ لَهُ ﴿٣٥﴾ الَّذِينَ يَخْلَوْنَ وَبِأَمْوَالِهِمْ النَّاسُ بِالْخَلِ وَيَكْسِبُونَ مَا أَنْتَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٣٦﴾

بعضهم ما فضل الله به غيره من الأمور الممكنة وغير الممكنة؛ فلا تتمنى النساء خصائص الرجال التي بها فضلهم على النساء، ولا صاحب الفقر والنقص حالة الغني والكمال تمنياً مجرداً ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا﴾ من أعمالهم المنتجة للمطلوب ﴿وَاللِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبْنَ﴾ فكل

(٣٣) أخرج البخاري عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَّ﴾؛ قال: ورثة ﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَنُكُمْ﴾؛ قال: كان المهاجرون لما قدموا على النبي ﷺ المدينة؛ ورث المهاجر الأنصاري دون ذوي رحمه؛ للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم، فلما نزلت: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَّ﴾؛ نُسخَتْ، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَنُكُمْ﴾؛ إلا النصر والرفادة والنصيحة - وقد ذهب الميراث - ويوصي له.

(٣٤) أخرج أحمد والنسائي والطبري وابن أبي حاتم والطائسي والحاكم بإسناد صحيح لغيره عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «خير النساء امرأة إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك» قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ إلى آخرها.

وأخرج مسلم عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ: أنه قال في حجة الوداع: «اتقوا الله في النساء؛ فإنهن عندكم عوان، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف».

﴿وَأَهْرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾: وإلا فيهجرها الزوج في المضجع؛ بأن لا يضاجعها ولا يجامعها بمقدار ما يحصل به المقصود.

﴿وَأَضْرِبُوهُنَّ﴾: وإلا ضربها ضرباً غير مبرح، فإن حصل المقصود بواحد من هذه الأمور وأطعنكم؛ ﴿فَلَا تَبْعُوا عَلَيَّ سَبِيلًا﴾: فقد حصل لكم ما تحبون؛ فاتركوا معاتبته على الأمور الماضية، والتنقيب عن العيوب التي يضر ذكرها ويحدث بسببه الشر.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَاتِبٌ عَلَيْكَ﴾: له العلو المطلق بجميع الوجوه والاعتبارات؛ علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر، ﴿كَبِيرًا﴾ الكبير الذي لا أكبر منه ولا أجل ولا أعظم، كبير الذات والصفات.

(٣٥) ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾: وإن خفتم الشقاق بين الزوجين والمباعدة والمجانبة، حتى يكون كل منهما في شق؛ ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾: رجلين مكلفين مسلمين عدلين عاقلين، يعرفان ما بين الزوجين، ويعرفان الجمع والتفريق.

﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا﴾: فينظران ما ينقم كل منهما على صاحبه، ثم يلزمان كلاً منهما ما يجب، فإن لم يستطع أحدهما ذلك؛ قنعا الزوج الآخر بالرضا بما تيسر من الرزق والخلق، ومهما أمكنهما الجمع والإصلاح فلا يعدلا عنه، فإن وصلت الحال إلى أنه لا يمكن اجتماعهما وإصلاحهما إلا على وجه المعادة والمقاطعة

النساء: قوامون عليهن بالزامهن بحقوق الله تعالى؛ من المحافظة على فرائضه، وكفهن عن المفساد، والرجال عليهم أن يلزموهن بذلك، وقوامون عليهن أيضاً بالإنفاق عليهن والكسوة والمسكن ﴿يَمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾؛ أي: بسبب فضل الرجال على النساء وإفضالهم عليهن، فتفضيل الرجال على النساء من وجوه متعددة: من كون الولايات مختصة بالرجال، والنبوة، والرسالة، واختصاصهم بكثير من العبادات؛ كالجهاد، والأعياد، والجمع، وبما خصهم الله به من العقل، والرزانة، والصبر والجلد الذي ليس للنساء مثله ﴿وَيَمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾: وكذلك خصهم بالنفقات على الزوجات؛ بل وكثير من النفقات يختص بها الرجال ويتميزون عن النساء.

﴿فَالْفَصْلُ حَدٌّ قَدِ انْتَهَى﴾: مطيعات لله تعالى ﴿حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ﴾: مطيعات لأزواجهن، حتى في الغيب تحفظ بعلمها بنفسها وماله، ﴿يَمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ وذلك بحفظ الله لهن وتوفيقه لهن؛ لا من أنفسهن.

﴿وَالَّذِي تَخَافُونَ سُوءَ ظَهْرِهِ﴾: ارتفاعهن عن طاعة أزواجهن، بأن تعصيه بالقول أو الفعل؛ فإنه يؤدبها بالأسهل فالأسهل:

﴿فِعْطُوهُنَّ﴾: ببيان حكم الله في طاعة الزوج ومعصيته، والترغيب في الطاعة، والترهيب من معصيته، فإن انتهت فذلك المطلوب.

(٣٥) أخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم وابن جرير بإسناد صحيح عن عبيدة قال: شهدت علياً وجاءته امرأة وزوجها، مع كل واحد منهما فنام من الناس، فأخرج هؤلاء حكماً وهؤلاء حكماً، فقال علي للحكمين: أتدريان ما عليكما؟ إن عليكما أن رأيكما أن تجمعما؛ جمعتما. فقالت المرأة: رضيت بكتاب الله لي وعلي، وقال الزوج: أما الفرقة فلا. فقال علي: كذبت، والله لا تبرح حتى ترضى بكتاب الله عز وجل لك وعليك.

ودنياهم ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾: وهم الذين أسكنتهم الحاجة والفقر، فلم يحصلوا على كفايتهم ولا كفاية من يُمونون، فأمر الله تعالى بالإحسان إليهم؛ بسد خلتهم، ودفع فاقتهم ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى﴾: الجار القريب، الذي له حقان: حق الجوار وحق القرابة، فله على جاره حق وإحسان راجع إلى العرف ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾: الذي ليس له قرابة، وكلما كان الجار أقرب باباً؛ كان أكد حقاً، فينبغي للجار أن يتعاهد جاره بالهدية والصدقة والدعوة، واللطافة بالأقوال والأفعال، وعدم أذيته بقول أو فعل ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾: صاحب مطلقاً، فعلى صاحب لصاحبه حق زائد على مجرد إسلامه؛ من مساعدته على أمور دينه ودنياه، والنصح له، والوفاء معه في اليسر والعسر، والمنشط والمكره، وأن يحب له ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه، وكلما زادت الصحبة تأكد الحق وزاد ﴿وَأَنَّ السَّبِيلَ﴾: الغريب الذي احتاج في بلد الغربة أو لم يحتج، فله حق على المسلمين؛ لشدة حاجته، وكونه في غير وطنه ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ من الأديمين والبهائم؛ بالقيام بكفايتهم، وعدم تحميلهم ما يشق عليهم، وإعانتهم على ما يتحملون، وتأديبهم لما فيه مصلحتهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً﴾: معجباً بنفسه، متكبراً على الخلق ﴿فَخُورًا﴾: يثني على نفسه ويمدحها على وجه الفخر والبطر على عباد الله.

ومعصية الله، ورأيا أن التفريق بينهما أصلح؛ فرقا بينهما.

﴿يُوفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ بسبب الرأي الميمون، والكلام الذي يجذب القلوب ويؤلف بين القريين ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾: عالماً بجميع الظواهر والبواطن، مطلعاً على خفايا الأمور وأسرارها، فمن علمه وخبره: أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة، والشرائع الجميلة.

(٣٦) ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ﴾: يأمر تعالى عباده بعبادته وحده لا شريك له، والانقياد لأوامره ونواهيه؛ محبة، وذلاً، وإخلاصاً له في جميع العبادات الظاهرة والباطنة ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾: وينهى عن الشرك به شيئاً؛ لا شركاً أصغر ولا أكبر، لا ملكاً ولا نبياً، ولا ولياً ولا غيرهم من المخلوقين، الذين لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ﴿وَيَاؤُلِيَّانِ إِحْسَانًا﴾: أحسنوا إليهم بالقول الكريم، والخطاب اللطيف، والفعل الجميل؛ بطاعة أمرهما واجتناب نهيهما، والإنفاق عليهما، وإكرام من له تعلق بهما.

﴿وَبِذَى الْقُرْبَى﴾ أيضاً إحساناً، ويشمل ذلك جميع الأقارب، قربوا أو بعدوا؛ بأن يحسن إليهم بالقول والفعل، وألاً يقطع برحمه بقوله أو فعله ﴿وَالْيَتَامَى﴾: الذين فقدوا آباءهم وهم صغار، فلهم حق على المسلمين، سواء كانوا أقارب أو غيرهم؛ بكفالتهم، وبرهم، وجبر خواطرهم، وتأديبهم وتربيتهم أحسن تربية في مصالح دينهم

(٣٦) أخرج أحمد والطبراني في «الكبير» وابن أبي حاتم بإسناد صحيح عن مطرف؛ قال: كان يبلغني عن أبي ذر حديث كنت أشتهي لقاءه، فلقيته فقلت: يا أبا ذر. بلغني أنك تزعم أن رسول الله ﷺ حدثكم: «إن الله يحب ثلاثة ويبغض ثلاثة؟ قال: أجل، فلا أخالني أكذب على خليلي. ثلاثاً. قلت: من الثلاثة الذين يبغض؟ قال: المختال الفخور، وأوليس تجدونه عندكم في كتاب الله المنزل؟ ثم قرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾...».

(٣٧) ﴿الَّذِينَ يَبْتَغُونَ﴾ : يمنعون ما عليهم من الحقوق الواجبة ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ بأقوالهم وأفعالهم ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ : من العلم الذي يهتدي به الضالون ويسترشد به الجاهلون، فيكتمونه عنهم، ويظهرون لهم من الباطل ما يحول بينهم وبين الحق؛ فجمعوا بين البخل بالمال والبخل بالعلم، وبين السعي في خسارة أنفسهم وخسارة غيرهم، وهذه هي صفات الكافرين، ولذا قال : ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ : أهانهم بالعذاب الأليم، والخزي الدائم.

(٣٨) ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ﴾ : ليروهم، ويمدحوهم، ويعظموهم ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ : ليس إنفاقهم صادراً عن إخلاص وإيمان بالله ورجاء ثوابه، فهذا من خطوات الشيطان وأعماله التي يدعو حزبه إليها ليكونوا من أصحاب السعير، وصدرت منهم بسبب مقارنته لهم وأزهم إليها؛ فلهذا قال : ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ : بسئس المقارن والصاحب الذي يريد إهلاك من قارنه ويسعى فيه أشد السعي.

(٣٩) ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ : أي : أي شيء عليهم وأي حرج ومشقة تلحقهم لو حصل منهم الإيمان بالله الذي هو الإخلاص

وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعَفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْتَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُؤْذَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَوَّبَ الرُّسُلَ أَوْشَوْا بِهِنَّ الْأَرْضُ لَا يَكْتُمُونَ اللَّهُ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُودًا لِعَارِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْفُوا نَفْسِيًّا مِنْ آلِ كَثَبٍ يَنْشُرُونَ النُّفُلَ وَرِيدُونَ أَنْ تَضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾

ورجاء موعود الآخرة لمن أحسن عملاً ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ : وأنفقوا من أموالهم التي رزقهم الله وأنعم بها عليهم، فجمعوا بين الإخلاص والإنفاق.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ : ولما كان الإخلاص سرّاً بين العبد وبين ربه، لا يطلع عليه إلا الله؛ أخبر تعالى بعلمه في جميع الأحوال، فقال : ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ .

(٤٠) ثم أخبر تعالى عن كمال عدله وفضله،

(٣٧) أخرج أبو داود وابن حبان والحاكم بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إياكم والشح؛ فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا» .

(٤٠) في «الصحيحين» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في حديث الشفاعة الطويل : «فيقول الله عز وجل : ارجعوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان؛ فأخرجوه من النار» - وفي لفظ : «أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان، فأخرجوه من النار . فيخرجون خلقاً كثيراً» ثم يقول أبو سعيد : اقرؤوا إن شئتم : «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعَفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا» .

الذي جمع أن مَنْ حَكَمَ به كامل العلم، كامل العدل، كامل الحكمة، بشهادة أركى الخلق وهم الرسل على أممهم مع إقرار المحكوم عليه؟ فهذا - والله - الحكم الذي هو أعم الأحكام وأعدلها وأعظمها.

(٤٢) ﴿يَوْمَذِي يُؤْذِي الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ﴾، أي: جمعوا بين الكفر بالله وبرسوله، ومعصية الرسول ﴿لَوْ سُوِّيَ بِهِمُ الْآرْضُ﴾: تبتلعهم ويكونون تراباً وعدماً ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾: إخبار عنهم بأنهم يعترفون ويقرّون بجميع ما فعلوه، ولا يكتُمون منه شيئاً.

(٤٣) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ

وتنزهه عما يضاد ذلك من الظلم القليل والكثير، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظِلُّهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾؛ أي: ينقصها من حسنات عبده، أو يزيدها في سيئاته ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَعِفَهَا﴾ إلى عشرة أمثالها، إلى أكثر من ذلك؛ بحسب حالها، ونفعها، وحال صاحبها؛ إخلاصاً، ومحبة، وكمالاً، ﴿وَيُؤْتِي مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾: زيادة على ثواب العمل بنفسه، من التوفيق لأعمال آخر، وإعطاء البر الكثير والخير الغزير.

(٤١) ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾: كيف تكون تلك الأحوال؟ وكيف يكون ذلك الحكم العظيم،

(٤١) أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ قال: قال لي النبي ﷺ: «اقرأ عليّ» قلت: يا رسول الله، اقرأ عليك عليك أنزل؟ قال: «نعم، إني أحب أن أسمعه من غيري» فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ قال: «حسبك الآن»؛ فإذا عيناه تذرفان.

(٤٢) أخرج البخاري معلقاً، ووصله ابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم عن سعيد بن جبيرة، قال: أتى رجل ابن عباس، فقال: سمعت الله - عز وجل - يقول - يعني إخباراً عن المشركين يوم القيامة أنهم قالوا- ﴿وَاللَّهُ رَيْنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، وقال في الآية الأخرى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ فقال ابن عباس: أما قوله: ﴿وَاللَّهُ رَيْنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فإنهم لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام قالوا: تعالوا فلنجد. فقالوا: ﴿وَاللَّهُ رَيْنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فختم الله على أفواههم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم ﴿فَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾.

(٤٣) أخرج أبو داود والترمذي وأحمد بإسناد صحيح عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ قال: دعانا رجل من الأنصار قبل أن تحرم الخمر، فتقدم عبد الرحمن بن عوف وصلى بهم المغرب، فقرأ: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُونَ﴾ [الكافرون: ١٠٩]؛ فالتبس عليه فيها؛ فنزلت: ﴿لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾.

وفي رواية: أنه كان هو وعبد الرحمن بن عوف ورجل آخر يشربون الخمر، فصلى بهم عبد الرحمن بن عوف فقرأ: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُونَ﴾؛ فخلط فيها؛ فنزلت: ﴿لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾.

أخرج أبو داود والترمذي والنسائي وأحمد بإسناد صحيح عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الصعيد الطيب طهور المسلم، وإن لم يجد الماء عشر حجج، فإذا وجدت الماء، فأمسسه بشرتك؛ فإن ذلك خير».

أخرج البخاري عن أبي جهيم قال: أقبل النبي ﷺ من نحو بئر جل، فلقى رجل فسلم عليه، فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى أقبل على الجدار فمسح بوجهه ويديه ثم رد السلام.

أخرج البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها: أنها استعارت من أسماء قلادة؛ فهلك، فبعث رسول الله ﷺ رجلاً فوجدها، فأدرتهم الصلاة وليس معهم ماء، فصلوا، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ؛ فأنزل الله آية التيمم، فقال أسيد بن حضير -

أحدث الإنسان ببول أو غائط، أو ملامسة النساء؛ فإنه يباح له التيمم إذا لم يجد الماء، حضراً وسفراً، كما يدل عليه عموماً الآية .
والحاصل: أن الله تعالى أباح التيمم في حالتين: حال عدم الماء وهذا مطلقاً في الحضر والسفر، وحال المشقة باستعماله بمرض ونحوه .

واختلف المفسرون في معنى قوله: ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ هل المراد بذلك الجماع فتكون الآية نصاً في جواز التيمم للجنب، كما تكاثرت بذلك الأحاديث الصحيحة أو المراد بذلك مجرد اللمس باليد وقيد ذلك بما إذا كان مظنة خروج المذي، وهو المس الذي يكون لشهوة، فتكون الآية دالة على نقض الوضوء بذلك؟ .

﴿صَعِيداً طَيِّباً﴾ هو كل ما صعد على وجه الأرض، سواء كان له غبار أم لا؛ فيدخل فيه التراب، والرمل، والحجر .

﴿فَأَمْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾: هذا محل المسح في التيمم: الوجه جميعه، واليدان إلى الرسغين، ويستحب أن يكون ذلك بضربة واحدة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾؛ أي: كثير العفو والمغفرة لعباده المؤمنين؛ بتيسير ما أمرهم به، وتسهيله غاية التسهيل، بحيث لا يشق على العبد امتثاله،

شُكْرِي حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يقربوا الصلاة وهم سكارى؛ حتى يعلموا ما يقولون، فإنه لا يجوز للسكران صلاة ولا عبادة؛ لاختلاط عقله، وعدم علمه بما يقول .

وهذه الآية الكريمة منسوخة بتحريم الخمر مطلقاً .

ويشتد تحريم شربها وقت حضور الصلاة؛ لتضمنه هذه المفسدة العظيمة بعد حصول مقصود الصلاة الذي هو روحها ولبها وهو: الخشوع وحضور القلب .

﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِ سَبِيلٍ﴾: لا تقربوا الصلاة حالة كون أحدكم جنباً؛ إلا في هذه الحال: وهو عابر السبيل ﴿حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ فإذا اغتسلتم؛ فهو غاية المنع من قربان الصلاة للجنب .

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَجَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾: فأباح التيمم للمريض مطلقاً مع وجود الماء وعدمه، والعلة: المرض الذي يشق معه استعمال الماء، وكذلك السفر؛ فإنه مظنة فقد الماء، فإذا فقد المسافر أو وجد ما يتعلق بحاجته من شرب ونحوه؛ جاز له التيمم . وكذلك إذا

= لعائشة: جزاك الله خيراً، فوالله ما نزل بك أمر تكرهينه؛ إلا جعل الله ذلك لك وللمسلمين فيه خيراً .

وفي رواية: خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، حتى إذا كنا البيداء - أو بذات الجيش -؛ انقطع عقد لي، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه، وأقام الناس معه، وليسوا على ماء؛ فأتى الناس إلى أبي بكر الصديق، فقالوا: ألا ترى ما صنعت عائشة؟ أقامت برسول الله ﷺ والناس، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء! فجاء أبو بكر ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام، فقال: حَبَسَتْ رسول الله ﷺ والناس وليسوا على ماء، وليس معهم ماء! فقالت عائشة: فعاتبني أبو بكر، وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعنني بيده في خاصرتي، فلا يمتنعني من التحرك إلا مكان رسول الله ﷺ على فخذي . فقام رسول الله ﷺ حين أصبح على غير ماء؛ فأنزل الله آية التيمم، فتيمّموا، فقال أسيد بن الحضير: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر . قالت: فبعثنا البعير الذي كنت عليه، فأصبنا العقد تحته .

ما اشتملوا عليه من الضلال والإضلال، ولهذا قال:

(٤٥) ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾؛ أي: هو يعلم بهم ويحذرهم منهم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾: يتولى أحوال عباده ويلطف بهم في جميع أمورهم، ويسر لهم ما به سعادتهم وفلاحهم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾: ينصرهم على أعدائهم، ويبين لهم ما يحذرون منهم ويعينهم عليهم، فولايته تعالى فيها حصول الخير، ونصره فيه زوال الشر.

(٤٦) ثم بين كيف ضلّاهم وعنادهم وإيثارهم الباطل على الحق، فقال: ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا﴾؛ أي: اليهود، وهم علماء الضلال منهم ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ﴾؛ أي: الكلام ﴿عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾؛ إما بتغيير اللفظ أو المعنى، أو هما جميعاً ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾: سمعنا قولك وعصينا أمرك، وهذا غاية الكفر والعناد والشرود عن الانقياد، وكذلك يخاطبون الرسول ﷺ بأقبح خطاب وأبعده عن الأدب، فيقولون: ﴿وَأَسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ﴾؛ قصدهم: اسمع منا غير مسمع ما تحب، بل مسمع ما تكره ﴿وَرَعْنَا﴾؛ قصدهم بذلك: الرعونة بالعيب القبيح ﴿كَيْتًا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ﴾ ويطنون أن اللفظ لما كان محتملاً لغير ما أرادوا من الأمور أنه يروج على الله وعلى رسوله، فتوصلوا بذلك اللفظ الذي يلوون ألسنتهم إلى الطعن في الدين والعيب للرسول ويصرحون بذلك فيما بينهم؛ فلهذا قال:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمِعْ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾؛ وذلك لما تضمنه هذا الكلام من حسن الخطاب والأدب اللائق في مخاطبة الرسول، والدخول تحت طاعة الله والانقياد

لِللَّهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾
مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَعْنَا لَيْتًا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمِعْ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ أَوتُوا الْكِتَابَ آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْغَسَ وُجُوهَ قَوْمٍ هَٰؤُلَاءِ عَلَىٰ أَذْبَارِهَا أَوْ لَعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ النَّبِيِّ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ دَلَّ اللَّهُ بِرَبِّكَ مِنْ يَشَاءُ وَلَا يَنْظُرُونَ قِيلًا ﴿٤٩﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُتُبُ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَنَّةِ وَالطَّغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾

فيحرج بذلك، ومن عفوه ومغفرته: أن رحم هذه الأمة، بشرع طهارة التراب بدل الماء عند تعذر الاستعمال. ثم أرشدتهم إلى ما هو خير لهم من ذلك فقال

(٤٤) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى﴾؛ أي: ألا تنظر وتعجب من هؤلاء ﴿الَّذِينَ أَوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾: وهم اليهود، وهذا ذم لهم، وتحذير من الاغترار بهم، والوقوع في شركهم ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ﴾: يحبونها محبة عظيمة، ويؤثرونها إيثار من يبذل المال الكثير في طلب ما يحبه؛ فيؤثرون الضلال على الهدى، والكفر على الإيمان، والشقاء على السعادة، ﴿وَمَعَ هَٰذَا﴾ مع هذا ﴿يُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ فهم حريصون على إضلالكم غاية الحرص، باذلون جهدهم في ذلك، ولكن لما كان الله ولي عباده المؤمنين وناصرهم؛ بين لهم

بطمس وجوههم كما طمسوا الحق، وردّها على أدبارها؛ بأن تجعل في أفقائهم، وهذا أشنع ما يكون ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعْنَا أَعْتَبَ السَّبْتِ﴾ بأن يطردهم من رحمته، ويعاقبهم بجعلهم قرده؛ كما فعل بإخوانهم الذين اعتدوا في السبت ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾: إذا أمر بأمر فإنه لا يخالف ولا يمانع.

(٤٨) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾: يخبر تعالى: أنه لا يغفر لمن أشرك به أحداً من المخلوقين، ويغفر ما دون الشرك من الذنوب صغائرها وكبائرها، وذلك عند مشيئته مغفرة ذلك إذا اقتضت حكمته مغفرته ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾: افتري جرماً كبيراً، وأيّ ظلم أعظم ممن سوى المخلوق من تراب - الناقص من جميع الوجوه، الفقير بذاته من كل وجه، الذي لا يملك لنفسه، فضلاً عن عبده، نفعا ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً - بالخالق لكل شيء، الكامل من جميع الوجوه، الغني عن جميع مخلوقاته!

(٤٩) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ هذا تعجب من الله لعباده، وتوبيخ للذين يزكون أنفسهم من اليهود والنصارى ومن نحا نحوهم من كل من زكى نفسه بأمر ليس فيه، وهذا مجرد

لأمره، وحسن التلطف في طلبهم العلم بسمع سؤالهم، والاعتناء بأمرهم، فهذا الذي ينبغي لهم سلوكه ﴿وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، ولكن لما كانت طبائعهم غير زكية؛ أعرضوا عن ذلك، وطردهم الله بكفرهم وعناده، ولهذا قال:

(٤٧) ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ أَتَوْا آلَ كَتَبَ ءَامِنُوا إِنَّمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾: يأمر تعالى أهل الكتاب من اليهود والنصارى أن يؤمنوا بالرسول محمد ﷺ وما أنزل الله عليه من القرآن العظيم، المهيمن على غيره من الكتب السابقة التي قد صدقها؛ فإنها أخبرت به، فلما وقع المخبر به كان تصديقاً لذلك الخبر.

وأيضاً: فإنهم إن لم يؤمنوا بهذا القرآن؛ فإنهم لم يؤمنوا بما في أيديهم من الكتب؛ لأن كتب الله يصدق بعضها بعضاً، ويوافق بعضها بعضاً؛ فدعوى الإيمان ببعضها دون بعض دعوى باطلة لا يمكن صدقها.

ولهذا توعدهم على عدم الإيمان، فقال: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾ وهذا جزاء من جنس ما عملوا، كما تركوا الحق، وآثروا الباطل، وقلبوا الحقائق: فجعلوا الباطل حقاً، والحق باطلاً؛ وجوزوا من جنس ذلك

(٤٨) أخرج أحمد والنسائي والحاكم بإسناد صحيح عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل ذنب عسى الله أن يغفره؛ إلا الرجل يموت كافراً، أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً».

أخرج أبو يعلى والبخاري وابن عدي بإسناد جيد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما؛ قال: كنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر؛ حتى سمعنا رسول الله ﷺ يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾؛ وقال: «إني ادخرت شفاعة لأهل الكبائر من أمتي»، قال: فأمسكنا عن كثير مما كان في أنفسنا، ثم نطقنا بعد ورجونا.

(٤٩) أخرج البخاري ومسلم عن أبي بكره رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يثني على رجل، فقال: «ويحك قطعت عنق صاحبك» ثم قال: «إن كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة، فليقل: أحسبه كذلك، ولا أزكي على الله أحداً».

يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ: وهذا من قبائح اليهود وحسدكم للنبي ﷺ والمؤمنين؛ أن أخلاقهم الرذيلة وطبعهم الخبيث، حملهم على ترك الإيمان بالله ورسوله، والتعوض عنه بالإيمان بالجبت والطاغوت؛ وهو: الإيمان بكل عبادة لغير الله، أو حكم بغير شرع الله. ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾: أي: لأجلهم، تملقاً لهم ومداينة، وبغضاً للإيمان: ﴿هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾: طريقاً؛ فما أسمى جهنم، وأشد عنادهم، وأقل عقولهم!! هل ظنوا أن هذا يروج على أحد من العقلاء، أو يدخل عقل أحد من الجهلاء؟! فهل يُفَضَّلُ دين قام على عبادة الأصنام والأوثان والكفر بالله ورسله وكتبه، واستقام على تحريم الطيبات وإباحة الخبائث، وإقامة الظلم بين الخلق، على دين قام على عبادة الرحمن، والإخلاص لله، والكفر بما يعبد من دون الله، وعلى صلة الأرحام، والإحسان إلى جميع الخلق، وإقامة العدل، والقسط بين الناس، وتحريم كل خبيث؟!!

(٥٢) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾: أي: طردهم من رحمته، وأحل عليهم نقمته ﴿وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ نَجْعِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾: يتولاه ويقوم بمصالحه ويحفظه من المكاره، وهذا غاية الخذلان.

(٥٣) ﴿أَمْ هُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ﴾: فيفضلون من شاءوا على من شاءوا بمجرد أهوائهم، فيكونون شركاء لله في تدبير المملكة؟ ﴿فَإِذَا﴾: أي: لو كان لهم نصيب من الملك ﴿لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾: شيئاً ولا قليلاً، وهذا وصف لهم بشدة البخل على تقدير وجود ملكهم المشارك لملك الله، وأخرج هذا مخرج الاستفهام المتقرر إنكاره

الْمُلْكُ لِلَّهِ
شَرَحَ الْبَيِّنَاتِ
أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ نَجْعِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢)
أَمْ هُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا (٥٤)
فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (٥٥) إِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلْنِهِمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَدُخِلُوهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (٥٧) إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَعِيمًا (٥٨) بَيِّنَاتٍ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩)

دعوى لا برهان عليها، وإنما البرهان ما أخبر به في القرآن ﴿كُلُّ اللَّهِ يُرَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ بالإيمان والعمل الصالح؛ بالتخلي عن الأخلاق الرذيلة، والتحلي بالصفات الجميلة ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾: لا يظلمون شيئاً، ولا مقدار الفتيل الذي في شق النواة، أو الذي يفتل من وسخ اليد وغيرها.

(٥٠) ﴿انظُرْ كَيْفَ يَقْرَوْنَ عَلَى اللَّهِ الْكِتَابَ﴾: أي: بتزكيتهم أنفسهم، وهذا من أعظم الافتراء على الله؛ لأن مضمون تزكيتهم لأنفسهم: الإخبار بأن الله جعل ما هم عليه حقاً، وما عليه المؤمنون باطلاً!! وهذا أعظم الكذب، وقلب الحقائق بجعل الحق باطلاً، والباطل حقاً ﴿وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا﴾: ظاهراً بيناً، موجباً للعقوبة البليغة، والعذاب الأليم.

(٥١) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ

جُلُودُهُمْ ﴿٥٤﴾ احترقت ﴿بَدَلَتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ لِيَبْلُغَ الْعَذَابُ مِنْهُمْ كُلَّ مَبْلَغٍ، وَكَمَا تَكَرَّرَ مِنْهُمْ الْكُفْرُ وَالْعِنَادُ وَصَارَ وَصْفًا لَهُمْ وَسْجِيَّةٌ؛ كَرَّرَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ جَزَاءً وَفَاقًا ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَنِيًّا حَكِيمًا﴾: لَهُ الْعِزَّةُ الْعَظِيمَةُ وَالْحِكْمَةُ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ، وَثَوَابُهُ وَعِقَابُهُ.

﴿٥٧﴾ ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بِاللَّهِ وَمَا أَوْجَبَ الْإِيمَانَ بِهِ ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ مِنَ الْوَاجِبَاتِ وَالْمُسْتَحَبَاتِ ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ أَخْبَرَ عَنْ مَالِ السَّعْدَاءِ فِي جَنَاتِ عَدْنِ الَّتِي تَجْرِي فِيهَا الْأَنْهَارُ فِي جَمِيعِ فُجَاجِهَا وَمَحَالِهَا وَأَرْجَائِهَا حَيْثُ شَاءُوا وَأَيْنَ أَرَادُوا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ لَا يَمُوتُونَ وَلَا يَزُولُونَ عَنْهَا ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ مِنَ الْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ، وَالْخَلْقِ الذَّمِيمِ، وَمِمَّا يَكُونُ مِنْ نِسَاءِ الدُّنْيَا مِنْ كُلِّ دَنْسٍ وَعَيْبٍ ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ عَمِيقًا كَثِيرًا غَزِيرًا طَيِّبًا أُنِيقًا.

﴿٥٨﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرِكُمْ أَن تُوَدُّوا الْأَمْنَتِ﴾ الْأَمَانَاتِ: كُلُّ مَا أُؤْتِمِنَ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ وَأَمْرٌ بِالْقِيَامِ

عِنْدَ كُلِّ أَحَدٍ. ﴿٥٤﴾ ﴿أَمَّا يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾: أُمُّ الْحَامِلِ لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الْحَسَدُ لِلرَّسُولِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ؟ وَذَلِكَ لَيْسَ بِبَدْعٍ وَلَا غَرِيبٍ عَلَى فَضْلِ اللَّهِ؛ ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ أَلْكُتُبَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾: وَذَلِكَ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَذُرِّيَّتِهِ مِنَ النَّبُوَّةِ وَالْكِتَابِ وَالْمُلْكِ الَّذِي أَعْطَاهُ مَنْ أَعْطَاهُ مِنْ أَنْبِيَائِهِ، فَإِنْعَامُهُ لَمْ يَزَلْ مُسْتَمِرًّا عَلَى عِبَادَةِ الْمُؤْمِنِينَ.

﴿٥٥﴾ ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ﴾: بِمُحَمَّدٍ ﷺ؛ فَنَالَ بِذَلِكَ السَّعَادَةَ الدُّنْيَوِيَّةَ، وَالْفَلَاحَ الْآخِرِيَّ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ عِنَادًا وَبَغْيًا وَحَسَدًا؛ فَحَصَلَ لَهُمْ مِنْ شِقَاءِ الدُّنْيَا وَمَصَائِبِهَا مَا هُوَ بَعْضُ آثَارِ مَعَاصِيهِمْ ﴿وَكَفَى بِهِمْ سَعِيرًا﴾: تُسَعَّرُ عَلَى مِنْ كُفْرٍ بِاللَّهِ، وَجُحْدِ نَبُوَّةِ أَنْبِيَائِهِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَصْنَافِ الْكُفْرِ.

﴿٥٦﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَايَنَتُنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ عَظِيمَةَ الْوَقُودِ شَدِيدَةَ الْحَرَارَةِ ﴿كُلَّمَا فُجِعَتْ

(٥٦) أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ضُرْسُ الْكَافِرِ أَوْ نَابُ الْكَافِرِ مِثْلُ أَحَدٍ، وَغُلَظُ جِلْدِهِ مِثْرَةٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ».

(٥٨) أَخْرَجَ أَحْمَدُ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا إِيْمَانُ لِمَنْ لَا أَمَانَةٌ لَهُ، وَلَا دِينٌ لِمَنْ لَا عَهْدُ لَهُ». أَخْرَجَ ابْنُ إِسْحَاقَ فِي «السِّيَرَةِ» بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ صَفِيَّةِ بِنْتِ شَيْبَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا نَزَلَ بِمَكَّةَ وَاطْمَأَنَّ النَّاسُ؛ خَرَجَ حَتَّى جَاءَ الْبَيْتَ؛ فَطَافَ بِهِ سَبْعًا عَلَى رَاحِلَتِهِ يَسْتَلِمُ الرُّكْنَ بِمَحَجٍّ فِي يَدِهِ، فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ طَوَافِهِ؛ دَعَا عِثْمَانَ بْنَ أَبِي طَلْحَةَ، فَأَخَذَ مِنْهُ مِفْتَاحَ الْكَعْبَةِ؛ فَفَتَحَتْ لَهُ، فَدَخَلَهَا، فَوَجَدَ فِيهَا حَمَامَةً مِنْ عِيدَانٍ، فَكَسَرَهَا بِيَدِهِ. ثُمَّ طَرَحَهَا، ثُمَّ وَقَفَ عَلَى بَابِ الْكَعْبَةِ وَقَدْ اسْتَكْفَى النَّاسَ لَهُ فِي الْمَسْجِدِ. ثُمَّ قَالَ: ثُمَّ جَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَامَ إِلَيْهِ عَلَى بَنِ أَبِي طَالِبٍ وَمِفْتَاحُ الْكَعْبَةِ فِي يَدِهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اجْمَعْ لَنَا الْحِجَابَةَ مَعَ السَّقَايَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيْنَ عِثْمَانُ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ؟»، فَدَعَا لَهُ، فَقَالَ: «هَآكُ مِفْتَاحُكَ يَا عِثْمَانُ! الْيَوْمَ يَوْمَ وَفَاءٍ وَبَرٍّ».

وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْمَقْسُطُونَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ، عَلَى يَمِينِ الرَّحْمَنِ، وَكُلْنَا يَدِيهِ يَمِينٍ، هُمْ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُّوا».

الذي أمر الله بالحكم به: هو ما شرعه الله على لسان رسوله من الحدود والأحكام، وهذا يستلزم معرفة العدل ليحكم به، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْظُمُ بِكُمْ﴾ هذا مدح من الله لأوامره ونواهيه؛ لاشتمالها على مصالح الدارين ودفع مضارهما ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا﴾ لأقوالكم ﴿بَصِيرًا﴾ لأفعالكم.

(٥٩) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ أمر بطاعته وطاعة رسوله وذلك بامثال أمرهما الواجب والمستحب، واجتناب نهيهما، وأمر بطاعة أولي الأمر؛ وهم: الولاة على الناس: من الأمراء، والحكام، والمفتين؛ فإنه لا يستقيم للناس أمر دينهم ودنياهم إلا بطاعتهم والانقياد لهم؛ طاعة لله ورغبة فيما عنده، ولكن بشرط ألا يأمرُوا بمعصية الله، فإن أمرُوا بذلك؛ فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

﴿فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أمر برد كل ما تنازع الناس فيه من أمور الدين إلى الله وإلى الرسول؛ أي: إلى كتاب الله وسنة رسوله؛ فإن فيهما الفصل في جميع المسائل الخلافية ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ رد التنازع إليهما شرط في الإيمان؛ فدل ذلك على أن من لم يرد إليهما مسائل النزاع؛ فليس بمؤمن حقيقة؛ بل مؤمن بالطاغوت ﴿ذَلِكَ﴾؛ أي: الرد إلى الله

الَّذِينَ يَرْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامِنُونَ أَنزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنزَلَ مِنْ قَبْلِكَ لِيُذَكِّرَ الَّذِينَ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَسَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿١١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا أِحْسَنًا وَتَوْفِيقًا ﴿١٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿١٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُلٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿١٥﴾

به، فأمر الله عباده بأدائها؛ أي: كاملة موفرة، لا منقوصة ولا مبخوسة، ولا ممطولا بها ﴿إِلَى أَهْلِهَا﴾؛ أي: لا تدفع وتؤدى لغير المؤتمنين، ووكيله بمنزلته، فلو دفعها لغير ربها؛ لم يكن مؤدياً لها.

﴿وَإِذَا حُكِّمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ وهذا يشمل الحكم بينهم في الدماء والأموال والأعراض، القليل من ذلك والكثير، على القريب والبعيد، والبرّ والفاجر. والمراد بالعدل

(٥٩) أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ قال: نزلت في عبد الله ابن حذافة بن قيس بن عدي السهمي؛ إذ بعثه النبي ﷺ في سرية.

وأخرج أحمد ومسلم - واللفظ لأحمد - عن علي رضي الله عنه؛ قال: بعث رسول الله ﷺ سرية، واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار. قال: فلما خرجوا وجد عليهم في شيء، فقال لهم: أليس قد أمركم رسول الله ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى. فقال: اجمعوا خطباً. ثم دعا بنار فأضرمها فيه ثم قال: عزمت عليكم لتدخلنها... الحديث، وفيه أن رسول الله ﷺ قال لهم: «لو دخلتموها ما خرجتم منها أبداً، إنما الطاعة في المعروف».

ورسوله ﴿حَبِيرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾؛ فإن حكم الله ورسوله أحسن الأحكام وأعدلها وأصلحها للناس في أمر دينهم ودنياهم وعاقبتهم.

(٦٠) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى﴾ يعجب تعالى عباده من حالة المنافقين ﴿الَّذِينَ يَرْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنزَلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾: مؤمنون بما جاء به الرسول وبما قبله، ومع هذا ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾: كل من حكم بغير شرع الله؛ فهو طاغوت ﴿وَالْحَالِ أَنَّهُمْ قَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ فكيف يجتمع هذا والإيمان؟ فإن الإيمان يقتضي الانقياد لشرع الله وتحكيمه في كل أمر من الأمور، فمن زعم أنه مؤمن واختار حكم الطاغوت على حكم الله، فهو كاذب في ذلك، وهذا من إضلال الشيطان إياهم، ولهذا قال: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾

عن الحق.

(٦١) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ (٦١) أي: إذا دعوتهم إلى حكم الشرع أعرضوا عنك إعراضًا كالمستكبرين عن ذلك، كما قال تعالى عن المشركين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾ [لقمان: ٢١].

(٦٢) ﴿فَكَيْفَ﴾ يكون حال هؤلاء الضالين ﴿إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ﴾ بما قَدِمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴿مِنْ الْمَعَاصِي﴾ ومنها: تحكيم الطاغوت؟! ﴿ثُمَّ جَاءُواكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ معتذرين لما صدر

الله ورسوله.

(٦٣) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من النفاق والقصد السيئ ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ﴾: لا تبال بهم، ولا تقابلهم على ما فعلوه واقترفوه ﴿وَعَظَّمَهُمْ﴾: بين لهم حكم الله تعالى مع الترغيب في الانقياد لله، والترهيب من تركه ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِتْنَةٌ أَنْفُسُهُمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾: انصحهم سرًا بينك وبينهم؛ فإنه أنجح لحصول المقصود، وبالغ في زجرهم وقمعهم عما كانوا عليه.

(٦٤) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ﴾: يخبر تعالى خبرًا في ضمنه الأمر بطاعة الرسول والانقياد له، وأن الغاية من إرسال الرسل أن يكونوا مطاعين ينقاد لهم المرسل إليهم في جميع ما أمروا به ونهوا عنه، وأن يكونوا معظمين تعظيم المطيع للمطاع. ﴿يَا ذِينَ اللَّهِ﴾؛ أي: الطاعة من المطيع صادرة بقضاء الله وقدره.

ثم أخبر عن كرمه العظيم وجوده، ودعوته لمن اقتترف السيئات أن يعترفوا ويتوبوا ويستغفروا الله، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ﴾ معترفين بذنوبهم، باخعين بها ﴿فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾؛ لتاب عليهم بمغفرته ظلّمهم، ورحمهم بقبول التوبة والتوفيق لها والثواب

(٦٠) أخرج الطبراني في «الكبير» والواحد في «أسباب النزول» وابن أبي حاتم بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه؛ قال: كان أبو بردة الأسلمي كاهنًا يقضي بين اليهود فيما يتنافرون إليه، فتنافر إليه أناس من أسلم؛ فأنزل الله - تعالى - : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَرْعُمُونَ﴾.

﴿وَسَلِّمُوا سَلِيمًا﴾: ثم لا يكفي ذلك حتى يسلموا لحكمه تسليمًا؛ بانشرح صدر، وطمأنينة نفس، وانقياد بالظاهر والباطن.

(٦٦) ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾: يخبر تعالى أنه لو كتب على عباده الأوامر الشاقة على النفوس: من قتل النفوس، والخروج من الديار؛ لم يفعله إلا القليل منهم والنادر، فليحمدوا ربهم وليشكروه على تيسير ما أمرهم به من الأوامر التي تسهل على كل أحد، ولا يشق فعلها ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ﴾: لو فعلوا ما وُظف عليهم في كل وقت بحسبه، فبذلوا همهم، ووفروا نفوسهم للقيام به وتكميله، ولم تطمح نفوسهم لما لم يصلوا إليه، ولم يكونوا بصدده؛ ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾: لكانوا من الأخيار المتصفين بأوصافهم من أفعال الخير التي أمروا بها، وانتهى عنهم بذلك صفة الأشرار.

﴿وَأَشَدُّ تَنْبِيئًا﴾ حصول التثبيت والثبات وزيادته، فيثبتهم الله في الحياة الدنيا عند ورود الفتن في الأوامر والنواهي والمصائب؛ فيحصل لهم ثبات يوفقون لفعل الأوامر وترك الزواجر، ويحصل لهم الثبات على الدين عند الموت وفي القبر.

(٦٧) ﴿وَإِذَا لَا تَأْتِيَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ في العاجل والآجل، الذي يكون للروح والقلب والبدن، ومن النعيم المقيم مما لا عين رأت،

وَلَوْ أَنَّا كُنْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدُّ تَنْبِيئًا ۖ وَإِذَا لَا تَأْتِيَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ۖ وَلَهْدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۚ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عِلْمًا ۚ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا بَأْيَاتٍ وَأَنْفِرُوا جَمِيعًا ۚ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَدِّلَنَ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ۚ وَلَٰكِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولُنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْسَ لَكُنْ مَعَهُمْ فَأَوْزَرَا عَظِيمًا ۚ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۚ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُقَاتِلْ أَوْ يُقَاتَلْ فَسَوْفَ نؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۚ

عليها، وهذا المجيء إلى الرسول ﷺ مختص بحياته، وأما بعد موته؛ فإنه لا يطلب منه شيء، بل ذلك شرك.

(٦٥) ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ أقسم تعالى بنفسه الكريمة أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله فيما شجر بينهم؛ أي: في كل شيء يحصل فيه اختلاف ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ﴾: ثم لا يكفي هذا التحكيم حتى ينتفي الحرج من قلوبهم والضيق، وكونهم يحكمونه على وجه الإغماض،

(٦٥) أخرج الشيخان عن عروة بن الزبير، عن عبد الله بن الزبير؛ أنه حدثه: أن رجلاً من الأنصار خاصم الزبير عند النبي ﷺ في شراج الحرة التي يسقون بها النخل، فقال الأنصاري: سرح الماء يمر. فأبى عليه. فاخصما عند النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ للزبير: «اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك»؛ فغضب الأنصاري، فقال: أن كان ابن عمتك؟ فتلون وجه رسول الله ﷺ، ثم قال: «اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر». فقال الزبير: والله إني لأحسب هذه الآية نزلت في ذلك: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾.

رَفِيقًا ﴿٦٨﴾ بالاجتماع بهم في جنات النعيم، والأنس بقربهم في جوار رب العالمين.

(٧٠) ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ﴾ الذي نالوه ﴿مِنَ اللَّهِ﴾؛ فهو الذي وفقهم لذلك، وأعانهم عليه، وأعطاهم من الثواب ما لا تبلغه أعمالهم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ يعلم أحوال عبادهم ومن يستحق منهم الثواب الجزيل، بما قام به من الأعمال الصالحة.

(٧١) ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا حُذُوءًا حَذْرَكُمْ﴾: يأمر تعالى عبادهم المؤمنين بأخذ حذرهم من أعدائهم الكافرين، وهذا يشمل الأخذ بجميع الأسباب التي بها يستعان على قتالهم، ويستدفع مكرهم وقوتهم ﴿فَأَنْفِرُوا ثُبَاتٍ﴾؛ أي: متفرقين، بأن تنفر سرية أو الجيش وقيم غيرهم ﴿أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ وكل هذا تبع للمصلحة والنكاية، والراحة للمسلمين في دينهم.

(٧٢) ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿لَمَنْ لِيُطَائِنَ﴾: يتناقل عن الجهاد في سبيل الله؛ ضعفًا وخورًا وجبنًا ﴿فَإِنْ أَصَبْتُمْ مَوْصِيَةً﴾: هزيمة وقتل، وظفر الأعداء عليكم في بعض الأحوال لما لله في ذلك من الحكم؛ ﴿قَالَ﴾ ذلك المتخلف: ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾: رأى من ضعف عقله

ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (٦٨) وأيضًا الهداية إلى الصراط المستقيم، وهذا عموم بعد خصوص، لشرف الهداية إلى الصراط المستقيم؛ من كونها متضمنة للعلم بالحق، ومحبة وإيثاره والعمل به، وتوقف السعادة والفلاح على ذلك، فمن هُدِيَ إلى صراط مستقيم؛ فقد وُفِّقَ لكل خير، واندفع عنه كل شر وضير.

(٦٩) ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾: كل مَنْ أطاع الله ورسوله على حسب حاله وقدر الواجب عليه من ذكر وأنثى وصغير وكبير؛ ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ النعمة العظيمة التي تقتضي الكمال والفلاح والسعادة ﴿مِنَ الْكَافِرِينَ﴾: الذين فضلهم الله بوحيه، واختصهم بتفضيله بإرسالهم إلى الخلق، ودعوتهم إلى الله تعالى ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾: الذين كمل تصديقهم بما جاءت به الرسل، فعلموا الحق وصدقوه بيقينهم، وبالقيام به قولاً وعملاً وحالاً ودعوة إلى الله، ﴿وَالشُّهَدَاءَ﴾: الذين قاتلوا في سبيل الله؛ لإعلاء كلمة الله فقتلوا ﴿وَالصَّالِحِينَ﴾: الذين صلح ظاهرهم وباطنهم فصلحت أعمالهم ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ

(٦٩) أخرج الطبراني في «الصغير» و«الأوسط»، والضياء المقدسي في «صفة الجنة» وأبو نعيم في «الحلية»، والواحدي في «أسباب النزول» بإسناد حسن لغيره عن عائشة رضي الله عنها؛ قالت: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنك لأحب إلي من نفسي، وإنك لأحب إلي من أهلي ومالي، وأحب إلي من ولدي، وإني لأكون في البيت: فأذكرك فما أصبر حتى أتيك؛ فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك؛ عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإني إذا دخلت الجنة؛ خشيت أن لا أراك، فلم يرد عليه النبي ﷺ شيئاً حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآية: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْكَاثِبِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءَ وَالصَّالِحِينَ﴾.

وأخرج الشيخان عن عائشة رضي الله عنها؛ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من نبي يمرض إلا خُير بين الدنيا والآخرة»، وكان في شكواه الذي قبض فيه، فأخذته بحة شديدة، فسمعت يقول: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْكَاثِبِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءَ وَالصَّالِحِينَ﴾، فعلمت أنه خُير.

(٧٤) ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ : من لطف الله بعباده ألا يقطع عنهم رحمته ؛ فكل من حصل منه غير ما يليق ؛ أمره ودعاه إلى جبر نقصه وتكميل نفسه، فلهذا أمره بالإخلاص والخروج في سبيله ﴿الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ : يبيعون الدنيا رغبة عنها بالآخرة رغبة فيها .

﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بأن يكون جهاداً قد أمر الله به ورسوله، ويكون العبد مخلصاً لله فيه قاصداً وجه الله ﴿يُقَاتِلْ أَوْ يُقَاتَلْ فَسَوْفَ نُوْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ : كل من قاتل في سبيل الله سواء قتل، أو غلب ؛ فله عند الله مثوبة عظيمة وأجر جزيل ؛ وهي ما تكفل الله للمجاهدين في سبيله ؛ إن توفاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه بما نال من أجر أو غنيمة .

(٧٥) ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ : هذا حث من الله لعباده المؤمنين وتهيج لهم على القتال في سبيله، وأن ذلك قد تعين عليهم وتوجه اللوم العظيم عليهم بتركه ﴿وَالْمُضْمَرِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ : ﴿وَالْحَالِ أَنْ﴾ ﴿وَالْمُضْمَرِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ ، ومع هذا فقد نالهم أعظم الظلم من أعدائهم، فهم ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ : يدعون الله أن يخرجهم من هذه القرية الظالم أهلها لأنفسهم بالكفر والشرك، وللمؤمنين بالأذى والصد عن سبيل الله، ومنعهم من الدعوة لدينهم والهجرة ﴿وَأَجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ : يدعون الله أن يجعل لهم ولياً ونصيراً يستنقذهم من هذه القرية الظالم أهلها .

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُضْمَرِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴿٧٤﴾ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الظَّالِمِينَ فَتَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ وَأَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَى مَتَّعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ أَنْتَنَ وَلَا تَظْلُمُونَ قَبِيلًا ﴿٧٦﴾ أَتَيْنَا نَكَرُونَ يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُضَاهَهُمْ حَسَنَةً يَقُولُوا هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ نُسْهِمُ سِتَةً يَقُولُوا هَٰذَا مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَرِيقًا لِلَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَرِيقًا لِنَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكُنْ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

وإيمانه أن التقاعد عن الجهاد الذي فيه تلك المصيبة نعمة ! ولم يدر أن النعمة الحقيقية هي التوفيق لهذه الطاعة الكبيرة ؛ التي بها يقوى الإيمان، ويسلم بها العبد من الخسران، ويحصل له فيها عظيم الثواب . (٧٣) ﴿وَلَكِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ﴾ : نصر وغنيمة ؛ ﴿لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ لَيَلْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ﴾ : يتمنى أنه حاضر لينال من المغانم، ليس له رغبة ولا قصد في غير ذلك، كأنه ليس منكم يا معشر المؤمنين ! ولا بينكم وبينه المودة الإيمانية التي من مقتضاها أن المؤمنين مشتركون في جميع مصالحهم ودفع مضارهم، ﴿فَأَفُورٌ فُورًا عَظِيمًا﴾ بأن يضرب لي بسهم معهم وأحصل عليه، وهو أكبر قصده وغاية مراده .

(٧٤) أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : «تكفل الله لمن جاهد في سبيله لا يخرج من بيته إلا الجهاد في سبيله وتصديق كلمته أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر وغنيمة» .

الإسلام؛ كُتِبَ عليهم القتال في وقته المناسب لذلك ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ﴾: يخشون مشركي مكة ﴿كَخَشِيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾: أكثر خشية وخوفاً من الله ﴿وَقَالُوا﴾ فقال فريق من الذين يستعجلون القتال قبل ذلك؛ خوفاً من الناس وضعفاً وخوراً: ﴿رَبَّنَا لَا تَكْتَبْ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾: الجهاد؟ وفي هذا تضجرهم واعتراضهم على الله، وكان الذي ينبغي لهم ضد هذه الحال؛ التسليم لأمر الله والصبر على أوامره، فعكسوا الأمر المطلوب منهم، فقالوا: ﴿لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾: هلاً أخرت فرض القتال مدة متأخرة عن الوقت الحاضر؟! وهذه الحال كثيراً ما تعرض لمن استعجل الأمور قبل وقتها، فالغالب عليه أنه لا يصبر عليها وقت حلولها، ولا ينوء بحملها.

﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿مَتَّعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾: التمتع بلذات الدنيا وراحتها قليل ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾: والآخرة خير منها؛ في ذاتها، ولذاتها وزمانها ﴿لِمَنِ انْتَفَىٰ﴾: اتقى الشرك، وسائر المحرمات ﴿وَلَا تَظْلُمُونَ فَنِيلاً﴾: فسعيكم للدار الآخرة ستجدونه كاملاً موفراً غير منقوص منه شيئاً.

(٧٨) ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ﴾: أخبر أن القاعد عن القتال لا يدفع عنه قعوده شيئاً، فحيثما

(٧٦) ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هذا إخبار من الله بأن المؤمنين يقاتلون في سبيله ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾: الذي هو الشيطان.

ثم هيج تعالى المؤمنين على قتال أعدائه، فقال: ﴿فَقَاتِلُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿أُولِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾: حزبه وجنده، وهم الكفار ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

والكيد: سلوك الطرق الخفية في ضرر العدو، فالشيطان وإن بلغ مكره مهما بلغ؛ فإنه في غاية الضعف، الذي لا يقوم لأدنى شيء من الحق، ولا لكيد الله لعباده المؤمنين.

(٧٧) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾: كان المسلمون إذ كانوا بمكة مأمورين بالصلاة والزكاة ومواساة الفقراء، لا الزكاة المعروفة ذات النصب والشروط؛ فإنها لم تفرض إلا بالمدينة، ولم يؤمروا بجهاد الأعداء، وكان بعض المؤمنين يودون أن لو فرض عليهم القتال في تلك الحال غير اللاتق فيها ذلك، وإنما اللاتق فيها القيام بما أمروا به في ذلك الوقت من التوحيد والصلاة والزكاة ونحو ذلك ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾ فلما هاجروا إلى المدينة، وقوي

(٧٧) أخرج النسائي والطبري وابن أبي حاتم والبيهقي بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه؛ قال: إن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي صلى الله عليه وسلم بمكة، فقالوا: يا رسول الله، إنا في عز ونحن مشركون، فلما آمنا؛ صرنا أذلة، فقال: «إني أمرت بالعمو؛ فلا تقاتلوا»، فلما حوِّله الله إلى المدينة؛ أمر بالقتال؛ فكفوا؛ فأنزل الله - عز وجل -: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾.

وأخرج مسلم في «صحيحه» من حديث المستورد بن شداد رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع».

(٧٨) أخرج البزار بإسناد صحيح لغيره عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كنا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأقبل أبو بكر وعمر في قبيلتين من الناس، وقد ارتفعت أصواتهما، فجلس أبو بكر قريباً من رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وجلس عمر قريباً من أبي بكر، فقال رسول =

ومرض وموت أولاد وأحباب؛ ﴿يَقُولُوا﴾ قالوا: ﴿هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ بسبب ما جئتنا به يا محمد! تطيروا برسول الله ﷺ كما تطير أمثالهم برسول الله، فلما تشابهت قلوبهم بالكفر؛ تشابهت أقوالهم وأعمالهم، وهكذا كل من نسب حصول الشر أو زوال الخير لما جاءت به الرسل أو لبعضه؛ فهو داخل في هذا الذم الوخيم ﴿قُلْ كُلٌّ﴾ من الحسنة والسيئة، والخير والشر ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ بقضائه وقدره، وخلقهم ﴿فَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ﴾؛ أي: الصادر منهم تلك المقالة الباطلة ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾: لا يفهمون حديثًا بالكلية ولا يقربون من فهمه، أو لا يفهمون منه إلا فهمًا ضعیفًا.

(٧٩) ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ﴾ في الدين والدنيا؛ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ هو الذي مَنَّ بها، ويسرها بتيسير أسبابها ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ﴾ في الدين والدنيا؛ ﴿فَإِنَّ نَفْسِكَ﴾: بذنوبك وكسبك، وما يعفو الله عنه أكثر ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على أنك رسول الله حقًا، بما أيدك بنصره والمعجزات الباهرة والبراهين الساطعة، فهي أكبر شهادة على الإطلاق.

(٨٠) ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ﴾: كل مَنْ أطاع رسول الله في أوامره ونواهيه؛ ﴿فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾

مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَرُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرَاءَنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَوْجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يُسَيِّئُونَ مِنْهُمْ وَلَوْ أَفْضَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكُلْفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَخَرِصَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كُفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْبِلًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُجِمَ بِهِمْ يَخْفَوْا بِأَحْسَنِ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾

كان فيسدركه الموت، في أي زمان وأي مكان ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾: قصور منيعة ومنازل رفيعة، ﴿وَإِنْ نُصِيبَهُمْ﴾: أخبر تعالى عن الذين لا يعلمون، المعرضين عما جاءت به الرسل أنهم إذا جاءتهم ﴿حَسَنَةٌ﴾؛ أي: خصب، وكثرة أموال، وتوفر أولاد وصحة، قالوا: ﴿هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ ﴿وَوَ أَنْهُمْ﴾ إن نصيبهم سيئة؛ أي: جذب وفقر،

الله ﷻ: «لم ارتفعت أصواتكم؟ فقال رجل: يا رسول الله، قال أبو بكر: الحسنات من الله والسيئات من أنفسنا. فقال رسول الله ﷺ: «فما قلت يا عمر؟ فقال: قلت: الحسنات والسيئات من الله - تعالى. فقال رسول الله ﷺ: «إن أول من تكلم فيه جبريل وميكائيل، فقال ميكائيل مقالته يا أبا بكر، وقال جبريل مقالته يا عمر، فقال: نخشع فيختلف أهل السماء، وإن يختلف أهل السماء يختلف أهل الأرض. فتحاكما إلى إسرائيل، فقضى بينهما إن الحسنات والسيئات من الله». ثم أقبل على أبي بكر وعمر وقال: «احفظا قضائي بينكما، لو أراد الله ألا يعصى لم يخلق إبليس».

(٧٩) أخرج البخاري من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا يصيب المؤمن هم ولا حزن ولا نصب، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها من خطاياها».

(٨٠) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «من أطاعني فقد أطاع الله؛ ومن عصاني فقد عصى الله، =

فيه، وفي مبادئه وعواقبه، ولوازم ذلك؛ فإن تدبر كتاب الله مفتاح للعلوم والمعارف، وبه يستتج كل خير، وتستخرج منه جميع العلوم، وبه يزداد الإيمان في القلب وترسخ شجرته؛ فإنه يعرف بالرب المعبود، وما له من صفات الكمال وما ينزه عنه من سمات النقص، ويعرف الطريق الموصلة إليه وصفة أهلها، وما لهم عند القُدوم عليه، ويعرف العدو الذي هو العدو على الحقيقة، والطريق الموصلة إلى العذاب، وصفة أهلها، وما لهم عند وجود أسباب العقاب. وكلما ازداد العبد تأملاً فيه؛ ازداد علماً وعملاً وبصيرة، لذلك: أمر الله بذلك وحث عليه، وأخبر أنه هو المقصود بإنزال القرآن. ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾: فلما كان من عند الله لم يكن فيه اختلاف أصلاً.

(٨٣) ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾: هذا تأديب من الله لعباده عن فعلهم هذا غير اللاتق، وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة والمصالح العامة، ما يتعلق بالأمن وسرور المؤمنين أو الخوف الذي فيه مصيبة عليهم؛ أن يتثبتوا ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ

تعالى؛ لكونه لا يأمر ولا ينهى إلا بأمر الله وشرعه، ووحيه وتنزيله ﴿وَمَنْ قَوْلٍ﴾ عن طاعة الله ورسوله؛ فإنه لا يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئاً ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ تحفظ أعمالهم وأحوالهم، بل أرسلناك مبلغاً ومبيناً وناصحاً، وقد أديت وظيفتك، ووجب أجرك على الله، سواء اهتموا أم لم يهتموا.

(٨١) ﴿يَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ يظهرن الطاعة إذا كانوا عندك ﴿فَإِذَا بَرَأُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾: خرجوا وخلوا في حالة لا يُطلع فيها عليهم؛ ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾: بيتوا ودبروا غير طاعتك، ولا ثم إلا المعصية ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾: يحفظه عليهم، وسيجزيهم عليه أتم الجزاء؛ ففيه وعيد لهم.

﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾: ثم أمر رسوله ﷺ بمقابلتهم بالإعراض، وعدم التعنيف؛ فإنهم لا يضرونه شيئاً إذا توكل على الله، واستعان به في نصر دينه وإقامة شرعه ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾؛ أي: كفى به ولياً وناصرًا ومعيناً لمن توكل عليه وأتاب إليه.

(٨٢) ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ يَأْمُرُ تَعَالَى بِتَدْبِيرِ كِتَابِهِ؛ وَهُوَ التَّأَمُّلُ فِي مَعَانِيهِ، وَتَحْدِيقِ الْفِكْرِ

- ومن أطاع الأمير فقد أطاعني، ومن عصى الأمير فقد عصاني».

(٨٢) أخرج الإمام أحمد وابن ماجه بإسناد حسن عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده؛ قال: لقد جلست أنا وأخي مجلساً ما أحب أن لي به حمر النعم، أقبلت أنا وأخي وإذا مشيخة من صحابة رسول الله ﷺ على باب من أبوابه، فكرهنا أن نفرق بينهم، فجلسنا حجرة-ناحية منفردين-، إذ ذكروا آية من القرآن، فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم، فخرج رسول الله ﷺ مغضباً حتى احمر وجهه، يرميهم بالتراب، ويقول: «مهلاً يا قوم! بهذا أهلك الأُمم من قبلكم باختلافهم على أنبيائهم، وضربهم الكتب بعضها ببعض، إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضاً، بل يصدق بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه، فردوه إلى عالمه».

(٨٣) أخرج مسلم في «مقدمة الصحيح» عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع».

مِنْهُمْ: بل يردونه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم: أهل الرأي والعلم والنصح والعقل والرزانة، الذين يعرفون الأمور، ويعرفون المصالح وضدها؛ ﴿لَعَلَّهُمُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾: يستخرجونه بفكرهم وآرائهم السديدة، وعلوهم الرشيدة ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ في توفيقكم وتأديبكم، وتعليمكم ما لم تكونوا تعلمون؛ ﴿لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ لأن الإنسان بطبعه ظالم جاهل، فإذا لجأ إلى ربه واعتصم به؛ لطف به ربه، ووفقه لكل خير، وعصمه من الشيطان الرجيم.

(٨٤) ﴿وَقَتْلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكُلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ ليس لك قدرة على غير نفسك، فلن تكلف بفعل غيرك ﴿وَحَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ على القتال، وهذا يشمل كل أمر يحصل به نشاط المؤمنين وقوة قلوبهم؛ من تقويتهم، والإخبار بضعف الأعداء وفشلهم، وبما أعد الله للمقاتلين من الثواب، وما على المتخلفين من العقاب، ﴿عَمَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بقتالكم في سبيل الله، وتحريض بعضكم بعضاً ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا﴾: قوة وعزة ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ بالمذنب في نفسه، وتنكيلاً لغيره.

(٨٥) ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ﴾

﴿وَمَنْ يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ يَشْفَعْ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (٨٦) ﴿وَمَنْ يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ يَشْفَعْ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (٨٧) ﴿وَمَنْ يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ يَشْفَعْ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (٨٨) ﴿وَمَنْ يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ يَشْفَعْ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (٨٩) ﴿وَمَنْ يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ يَشْفَعْ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (٩٠) ﴿وَمَنْ يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ يَشْفَعْ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (٩١) ﴿وَمَنْ يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ يَشْفَعْ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (٩٢) ﴿وَمَنْ يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ يَشْفَعْ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (٩٣) ﴿وَمَنْ يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ يَشْفَعْ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (٩٤) ﴿وَمَنْ يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ يَشْفَعْ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (٩٥) ﴿وَمَنْ يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ يَشْفَعْ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (٩٦) ﴿وَمَنْ يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ يَشْفَعْ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (٩٧) ﴿وَمَنْ يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ يَشْفَعْ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (٩٨) ﴿وَمَنْ يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ يَشْفَعْ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (٩٩) ﴿وَمَنْ يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ يَشْفَعْ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (١٠٠)

(٨٤) أخرج الإمام أحمد والحاكم وابن مردويه بإسناد صحيح عن أبي إسحاق؛ قال: قلت للبراء: الرجل يحمل على المشركين، أهو ممن ألقى بيده إلى الهلكة؟ قال: لا؛ لأن الله بعث رسوله ﷺ، وقال: ﴿فَقَتْلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكُلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ إنما ذلك في النفقة.

(٨٥) في «الصحيحين» من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء».

(٨٦) أخرج مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم».

(٨٧) ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ يخبر تعالى عن انفراده بالوحدانية، وأنه لا معبود ولا مألوه بحق إلا هو؛ لكماله في ذاته وأوصافه، ولكونه المنفرد بالخلق والملك والتدبير، وذلك يستلزم الأمر بعبادته؛ لكونه المستحق لذلك وحده، والمجازي للعباد بما قاموا به من عبوديته، ولذلك أقسم على وقوع محل الجزاء؛ وهو يوم القيامة، فقال: ﴿لَجَمْعَنَّكُمْ﴾ أولكم وأخركم في مقام واحد ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ في ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: لاشك ولا شبهة فيه بوجه من الوجوه ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾: إخبار بأن حديثه تعالى وأخباره وأقواله كلها في أعلى مراتب الصدق، فلا أحد أصدق منه في حديثه وخبره ووعدته ووعدته.

(٨٨) ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ يا معشر المؤمنين ﴿فِي التَّنْفِيذِ﴾ صرتم فيهم فرقتين، فأخبرهم الله تعالى أنه لا ينبغي لكم أن تشبهوا فيهم ولا تشكوا؛ بل أمرهم واضح غير مشكل: إنهم منافقون ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسُهُمْ﴾: ردّهم إلى الكفر ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ بأعمالهم غير الزاكية ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا﴾: أن ترشدوا ﴿مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾: أتقولون: إن هؤلاء مهتدون وقد أضلهم الله؟ ﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ﴾: من يضلله الله عن الهدى؛ ﴿فَلَنْ نَجِدَ لَهُمْ سَبِيلًا﴾: طريقاً إلى الحق.

(٨٩) ﴿وَدُّوا﴾: تمنوا الذين رجعوا عن الدين ﴿لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُوا سَوَاءً﴾ في الكفر ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾: هذا يستلزم عدم محبتهم؛ لأن الولاية فرع المحبة، ويستلزم -

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿فَمَا لَكُمْ فِي التَّنْفِيذِ﴾ فَنَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسُهُمْ بِمَا كَسَبُوا أُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلُّ اللَّهُ فَلَنْ نَجِدَ لَهُمْ سَبِيلًا ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُوا سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوا بِهِمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يَقْتُلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَصَمْتُمْ لَقَتِلُوكُمْ وَالْقَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَاجْعَلْ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلِّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْبُرُوا لُوحُودُهُمْ إِلَى الْيَمِّ أَلَسَّكُمْ وَلِيًّا أَمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا مِنْكُمْ قَوْمًا فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوا بِهِمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿

أيضاً - بغضهم وعداوتهم؛ لأن النهي عن الشيء أمر بضده، ﴿حَتَّى يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ معكم، فإذا هاجروا؛ جرى عليهم ما جرى على المسلمين ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾: أعرضوا عن التوحيد والهجرة؛ ﴿فَخُذُوا بِهِمْ﴾ أسارى ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ في الحل والحرم، في أي وقت وأي محل كان ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾: لا توالوهم، ولا تستنصروا لهم على الذين لجئوا وتحيزوا إلى قوم بينكم وبينهم مهادنة أو عقد ذمة، فاجعلوا حكمهم كحكمهم.

(٩٠) ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ...﴾ ثم إن الله استثنى من قتال هؤلاء المنافقين ثلاث فرق:

(٨٨) أخرج البخاري ومسلم عن زيد بن ثابت رضي الله عنه؛ قال: لما خرج النبي ﷺ إلى أحد؛ رجع ناس من أصحابه، فقالت فرقة: تقتلهم. وقالت فرقة: لا تقتلهم. فنزلت: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي التَّنْفِيذِ﴾، وقال النبي ﷺ: «إنها تنفي الرجال كما تنفي النار خبث الحديد».

واحمدوا ربكم الذي كف أيديهم عنكم مع التمكن من ذلك .

﴿فَإِنْ اعْتَرَفْتُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ اعتزلوا قتالكم ﴿فَلَمْ يُقَاتِلْكُمْ﴾ ومن اتصل بهم ﴿وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ ؛ أي : الصلح ، فانقادوا واستسلموا ﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ ؛ أي : فليس لكم أن تقتلوهم ما دامت حالهم كذلك .

(٩١) الفرقة الثالثة : قوم يريدون مصلحة أنفسهم ، بقطع النظر عن احترامكم ، وهم الذين قال الله فيهم : ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخِرِينَ﴾ من هؤلاء المنافقين ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَتَ اللَّهِ فَيَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَيَأْمُرُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا﴾ ؛ أي : لا يزالون مقيمين على كفرهم ونفاقهم ، وكلما عرض لهم عارض من عوارض الفتن أعماهم ونكسهم على رؤوسهم ، وازداد كفرهم ونفاقهم ﴿فَإِنْ لَمْ يَبْعَثْ اللَّهُ لَكُمْ سُلَاطَةً﴾ فإن لم يكفوا عن قتالكم ﴿وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ المسالمة والموادعة ﴿وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ ولم يقبضوا أيديهم ﴿فَخَذُوا مِنْهُمْ مَا هُمْ فِيهِ شَاكِرُونَ﴾ وأسرى ﴿وَأَقْبَلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي : وجدتموهم ﴿وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ : حجة بينة واضحة ؛ لكونهم معتدين ظالمين لكم ، تاركين للمسالمة ، فلا يلوموا إلا أنفسهم .

(٩٢) ﴿وَمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقْتُلُوا الْمُؤْمِنِينَ﴾ : يمتنع ويستحيل أن يصدر من مؤمن قتل أخيه المؤمن - أي : متعمداً - بوجه من الوجوه ، وفي هذا : الإخبار بشدة تحريمه ، وأنه مناف للإيمان أشد منافاة ، ﴿إِلَّا خَطَأً﴾ : استثنى تعالى قتل الخطأ ؛ فإن المخطئ الذي لا يقصد القتل غير آثم ، ولا متجرئ على محارم الله ، ولما كان

وَمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقْتُلُوا الْمُؤْمِنِينَ إِيَّاهُمْ قَتْلًا مُتَعَمِّدًا وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ وَبِذَلِكَ مُسَلِّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فِدْيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩١﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٢﴾ تَتَابَعُوا آيَاتِ اللَّهِ أَنْتُمْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَقَاتِلُوا أُولَئِكَ الَّذِينَ تَقُولُوا لَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَى إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَارِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَتَلْتُمُوهُمْ أَرَأَيْتُمْ إِيَّاهُمْ يَعْمَلُونَ خَيْرًا ﴿٩٣﴾

فرقتين أمر بتركهم وحتم على ذلك : أحدهما : ﴿الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ : من يصل إلى قوم بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق بترك القتال ، فينضم إليهم ، فيكون له حكمهم في حقن الدم والمال .
والفرقة الثانية : قوم ﴿حَصَرْتُمْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ : بقوا لا تسمح أنفسهم بقتالكم ، ولا بقتال قومهم ، وأحبوا ترك قتال الفريقين ؛ فهؤلاء أيضا أمر بتركهم ، وذكر الحكمة في ذلك بقوله : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾ ؛ فإن الأمور الممكنة ثلاثة أقسام : إما أن يكونوا معكم ويقاتلوا أعداءكم ؛ وهذا متعذر من هؤلاء ، فدار الأمر بين قتالكم مع قومهم وبين ترك قتال الفريقين ؛ وهو أهون الأمرين عليكم ، والله قادر على تسليطهم عليكم ، فاقبلوا العافية ،

العهد والميثاق ﴿مَنْ لَمْ يَحْدَ﴾ الرقبة ولا ثمنها، بأن كان معسراً بذلك، ليس عنده ما يفضل عن مؤنته وحوائجه الأصلية شيء يفي بالرقبة؛ ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾: لا يفطر بينهما من غير عذر، فإن أفطر لعذر؛ فإن العذر لا يقطع التتابع؛ كالمرض والحيض ونحوهما، وإن كان لغير عذر؛ انقطع التتابع، ووجب عليه استئناف الصوم؛ ﴿تَوْبَتُهُ مِنَ اللَّهِ﴾ هذه الكفارات التي أوجبها الله على القاتل توبة من الله على عباده، ورحمة بهم وتكفيراً لما عساه أن يحصل منهم من تقصير وعدم احتراز، كما هو واقع كثيراً للقاتل خطأ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾: كامل العلم، كامل الحكمة، لا يخفى عليه مثقال ذرة، ولا يخرج عن حكمته من المخلوقات والشرائع شيء؛ بل كل ما خلقه وشرعه فهو متضمن لغاية الحكمة. (٩٣) ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً﴾ ذكر تعالى وعيد القاتل عمداً وعيداً ترجف له القلوب، وتنصدع له الأفئدة، وتنزعج منه العقول؛ ﴿فَجَزَاءُهُمْ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَعَظِيبُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَلَعْنَةُ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً عَظِيماً﴾ ألا وهو

القاتل قد فعل فعلاً شنيعاً قبيحاً، وإن لم يقصده؛ أمر تعالى بالكفارة والدية، فقال: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً﴾: سواء كان القاتل ذكراً أو أنثى، حرّاً أو عبداً، صغيراً أو كبيراً، عاقلاً أو مجنوناً؛ كما يفيد لفظ: ﴿مَنْ﴾ الدالة على العموم؛ فإن على القاتل ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ كفارة لذلك، تكون في ماله، ﴿وَدِيَّةٌ﴾: أما الدية، فإنها تجب على عاقلة القاتل في الخطأ وشبه العمد ﴿مُسْلَمَةً إِلَى أَهْلِهِ﴾؛ جزاء لقلوبهم، والمراد بأهله هنا: هم ورثته ﴿إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾: يتصدق ورثة القاتل بالعفو عن الدية؛ فإنها تسقط، وفي ذلك حث لهم على العفو؛ لأن الله سماها صدقة، والصدقة مطلوبة مرغوب فيها.

﴿إِنْ كَانَ﴾ المقتول ﴿مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ﴾: من كفار حربيين ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ وليس عليكم لأهله دية؛ لعدم احترامهم في دماهم وأموالهم.

﴿وَإِنْ كَانَ﴾ المقتول ﴿مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ وذلك لاحترام أهله بما لهم من

(٩٣) أخرج البخاري - واللفظ له - ومسلم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: لما أنزلت التي في «الفرقان»: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً﴾ [الفرقان: ٦٨]؛ قال مشركو أهل مكة: قد قتلنا النفس التي حرم الله، ودعونا مع الله إلهاً آخر، وقد أتينا الفواحش. فأنزل الله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ﴾ [الفرقان: ٧٠]؛ فهذه لأولئك، وأما التي في «النساء»: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاءُ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا وَعَظِيبُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَلَعْنَةُ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً عَظِيماً﴾؛ فالرجل إذا عرف الإسلام وشرائعه ثم قتل؛ فجزاؤه جهنم. فذكرته لمجاهد فقال: إلا من ندم.

وأخرج الشيخان عنه رضي الله عنه قال: لقد نزلت في آخر ما نزلت، ما نسخها شيء.

أخرج أبو داود بإسناد صحيح عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال المؤمن مُتَغَيِّراً صالحاً ما لم يصب دماً حراماً، فإذا أصاب دماً حراماً بَلَحَ». وقوله «مُغَيِّراً»: مسرعاً في طاعته، منبسطاً في عمله، وقوله: «بَلَحَ»: كلَّ وانقطع، والمعنى: أنه يقع في الهلاك بإصابة الدم الحرام.

ورزاقته، بخلاف المستعجل للأمور في بدايتها قبل أن يتبين له حكمها؛ فإن ذلك يؤدي إلى ما لا ينبغي ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ أَسْلَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾؛ أي: فلا يحملنكم العرض الفاني القليل على ارتكاب ما لا ينبغي، فلا تقولوا لمن سلم عليكم: لست مؤمناً ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ﴾ ثواب كثير جزيل باق لمن اتقى قتل المؤمن.

ثم قال تعالى مذكراً لهم بحالهم الأولى، قبل هدايتهم إلى الإسلام: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: فكما هداكم بعد ضلالكم؛ فكذا يهدي غيركم، وكما أن الهداية حصلت لكم شيئاً فشيئاً؛ فكذا غيركم. فنظر الكامل لحاله الأولى الناقصة ومعاملته لمن كان على مثلها بمقتضى ما يعرف من حاله الأولى من أكبر الأسباب لنفعه وارتفاعه؛ ولهذا أعاد الأمر بالتبيين، فقال: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾: أمر بالتبين والتثبت في كل الأحوال التي يقع فيها نوع اشتباه، فيتثبت فيها العبد، حتى يتضح له الأمر ويتبين الرشد والصواب.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيجازي كل ما عمله ونواه؛ بحسب ما علمه من أحوال عبادته ونياتهم.

(٩٥) ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾: لا

لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْخَسْفَ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَتٌ مِنْهُ وَمَغْفِرَةٌ وَرَحْمَةٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَالِحِينَ أَنْفُسُهُمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسَعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا قَالُوا لَيْسَ مَا بَيْنَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٩﴾ وَإِذَا ضَرَجْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عُذُوًّا مُبِينًا ﴿١٠٠﴾

الإخبار بأن جزاء جهنم بما فيها من العذاب العظيم، والخزي المهين، وسخط الجبار، وفوات الفوز والفلاح، وحصول الخيبة والخسار.

(٩٤) ﴿يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾: يأمر تعالى عباده المؤمنين إذا خرجوا جهاداً في سبيله وابتغاء مرضاته أن يتبينوا ويتثبتوا في جميع أمورهم المشتبهة؛ فإن التثبت في هذه الأمور يحصل فيها من الفوائد الكثيرة، والكف لشور عزيمة، ما به يُعرف دين العبد وعقله

(٩٤) في «الصحيحين» عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كان رجل في غُثَيمة، فلحقه المسلمون، فقال: السلام عليكم. فقتلوه، وأخذوا غُثَيمة؛ فأُتِلَ الله في ذلك: ﴿يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إلى قوله ﴿عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾.

(٩٥) أخرج البخاري عن البراء؛ قال: لما نزلت: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال النبي ﷺ: «ادع فلاناً» فجاء ومعه الدواة واللوح والكشف فقال: «اكتب»: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾. وخلف النبي ﷺ ابن أم مكتوم، فقال: يا رسول الله، أنا ضريب. فنزلت مكانها ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

الآية بهما، فقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ .
 (٩٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ آَلَمَتِكُمْ﴾ : ملك الموت
 ﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ بالشرك في حال ظلمهم، وهذا
 الوعيد الشديد لمن ترك الهجرة مع قدرته عليها
 حتى مات، فإن الملائكة الذين يقبضون روحه
 يوبخونه بهذا التوبيخ العظيم ﴿قَالُوا﴾ يقولون لهم :
 ﴿فِيمَ كُنْتُمْ﴾ : على أي حال كنتم؟ وبأي شيء
 تميزتم عن المشركين؟! بل كثرت سوادهم، وربما
 ظاهرتموهم على المؤمنين، وفاتكم الخير الكثير
 والجهاد مع رسوله، والكون مع المسلمين
 ومعاونتهم على أعدائهم ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي
 الْأَرْضِ﴾ : ضعفاء مهضومين مظلومين، ليس لنا قدرة
 على الهجرة! وهم غير صادقين في ذلك؛ لأن الله
 وبخهم وتوعدهم، ﴿قَالُوا﴾ : أي الملائكة لهم :
 ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا﴾ وهذا استهام
 تقرير، قد تقرر عند كل أحد أن أرض الله واسعة،
 فحيثما كان العبد في محل لا يتمكن فيه من إظهار
 دينه؛ فإن له متسعاً وفسحة من الأرض يتمكن فيها
 من عبادة الله ﴿قَالُوا لَيْكَ مَاؤُهُمْ﴾ : منزلهم ﴿جَهَنَّمُ
 وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ : بس المسير والمآل والمرجع .
 (٩٨) ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا
 يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ : استثنى تعالى المستضعفين على

يستوي من جاهد من المؤمنين بنفسه وماله ومن
 لم يخرج للجهاد ولم يقاتل أعداء الله، ففيه
 الحث على الخروج للجهاد والترغيب فيه،
 والترهيب من التكاثر والقعود عنه من غير عذر،
 وأما أهل الضرر كالمريض، والأعمى،
 والأعرج، والذي لا يجد ما يتجهز به؛ فإنهم
 ليسوا بمنزلة القاعدين من غير عذر، ﴿فَضَّلَ اللَّهُ
 الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ : تأمل
 حسن هذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها؛ فإنه
 نفى التسوية أولاً بين المجاهد وغيره، ثم صرح
 تعالى بتفضيل المجاهدين على القاعدين بالدرجة
 أي : الرفعة، وهذا تفضيل على وجه الإجمال .
 ﴿وَكُلًّا﴾ : المجاهد، والقاعد، والمعدور ﴿وَعَدَ
 اللَّهُ الْحَسَنَى﴾ : الجنة ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى
 الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ .
 (٩٦) ﴿دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ : ثم انتقل إلى
 تفضيل المجاهدين بالدرجات والمغفرة والرحمة
 التي تشتمل على حصول كل خير واندفاع كل
 شر، وهذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها عند
 التفضيل والمدح أحسن لفظاً وأوقع في النفس .
 ولما وعد المجاهدين بالمغفرة والرحمة الصادقين
 عن اسميه الكريمين الغفور الرحيم؛ ختم هذه

(٩٦) في «الصحيحين» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في
 سبيله، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض» .

(٩٧) أخرج البخاري عن محمد بن عبد الرحمن أبي الأسود : قال : قطع على أهل المدينة بعث، فلكتبت فيه، فلكتبت عكرمة مولى
 ابن عباس فأخبرته، فنهاني عن ذلك أشد النهي، ثم قال : أخبرني ابن عباس : أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين،
 يكترون سواد المشركين على رسول الله ﷺ، يأتي السهم فيرمى به، فيصيب أحدهم فيقتله، أو يضرب عنقه فيقتل، فأنزل
 الله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ آَلَمَتِكُمْ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ .

(٩٨) أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : بينما النبي ﷺ يصلي العشاء إذ قال : «سمع الله لمن حمده» ثم قال قبل أن
 يسجد : «اللهم نج عياش بن أبي ربيعة، اللهم نج سلمة بن هشام، اللهم نج الوليد بن الوليد، اللهم نج المستضعفين من =

بقتل أو غيره؛ ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾: فقد حصل له أجر المهاجر الذي أدرك مقصوده بضمنان الله تعالى، وذلك؛ لأنه نوى وجزم وحصل منه ابتداء وشروع في العمل، فأعطاهم الله رحمة بهم أجرهم كاملاً، ولو لم يكملوا العمل، وغفر لهم ما حصل منهم من التقصير في الهجرة وغيرها؛ ولهذا ختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين، فقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾: يغفر للمؤمنين ما اقترفوه من الخطيئات، خصوصاً التائبين المنيبين إلى ربهم ﴿رَحِيمًا﴾ بهم؛ حيث وفقهم للإيمان، وعلمهم، ويسر لهم أسباب السعادة والفلاح.

(١٠١) ﴿وَإِذَا صَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ في السفر، وظاهر الآية يقتضي الترخص في أي سفر كان؛ غير سفر المعصية، ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾: لا حرج ولا إثم عليكم في ذلك، ولا ينافي ذلك كون القصر هو الأفضل؛ لأن نفي الحرج إزالة لبعض الوهم الواقع في كثير من النفوس، بل ولا ينافي الوجوب، وقوله: ﴿مِنَ الصَّلَاةِ﴾ دليل على أن القصر محدود مضبوط، مرجوع فيه إلى ما تقرر من فعل النبي ﷺ وأصحابه؛ ولذلك لم يقل: أن تقصروا الصلاة، وقوله: ﴿مِنَ﴾ تفيد التبعض؛ ليعلم بذلك أن القصر لبعض الصلوات المفروضات، لا جميعها ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: هذا

الحقيقة من الرجال والنساء والولدان، الذين لا قدرة لهم على الهجرة بوجه من الوجوه ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾: لا يعرفون طريقاً للخروج. (٩٩) فهؤلاء قال الله فيهم: ﴿فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾: يتجاوز عنهم، و«عسى» من الله واجب وقوعها بمقتضى كرمه وإحسانه ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا غَفُورًا﴾: كثير العفو والمغفرة لعباده المؤمنين؛ بتيسير ما أمرهم به، وتسهيله غاية التسهيل، بحيث لا يشق على العبد امتثاله، فيخرج بذلك.

(١٠٠) ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَٰغِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾: وعد الصادق في وعده أن من هاجر في سبيله ابتغاء مرضاته؛ أنه يجد مرأغماً في الأرض وسعة، فالمرأغم مشتمل على مصالح الدين والسعة على مصالح الدنيا فإذا هاجر في سبيل الله تمكن من إقامة دين الله وجهاد أعداء الله ومراغمتهم والمراغمة: اسم جامع لكل ما يحصل به إغاطة لأعداء الله من قول وفعل ﴿وَسَعَةً﴾ وكذلك يحصل له سعة في رزقه، وهذا خلاف لما يتوهمه كثير من الناس: أن في الهجرة شتاتاً بعد الألفة، وفقراً بعد الغنى، وذلاً بعد العز، وشدة بعد الرخاء.

﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: قاصداً ربه ورضاه، ومحبة لرسوله، ونصراً لدين الله؛ لا لغير ذلك من المقاصد ﴿ثُمَّ يَدْرِكُهُ الْمَوْتُ﴾

المؤمنين، اللهم اشدّد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها سنين كسنيين يوسف.

(١٠٠) أخرج الطبري وابن أبي حاتم بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمُتَلَقِّينَ﴾ طَالِبِينَ أَنْفُسِهِمْ، وكان بمكة رجل يقال له: ضمرة من بني بكر، وكان مريضاً فقال لأهله: أخرجوني من مكة؛ فإني أجد الحر. فقالوا: أين نخرجك؟ فأشار بيده نحو المدينة؛ فمات فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إلى آخر الآية.

وَأِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٢٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴿١٢٣﴾ وَلَا تَهَيَّأُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْمُرُونَ كَمَا تَأْمُرُونَ وَرَجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا رَجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٢٤﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَالِفِينَ حَصِيمًا ﴿١٢٥﴾

وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ﴿١٢٢﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ﴿١٢٣﴾: ثم إن الله عذر من له عذر من مرض أو مطر أن يضع سلاحه؛ ولكن مع أخذ الحذر. ﴿١٢٤﴾ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٢٥﴾: ومن العذاب المهين ما أمر الله به حظه المؤمنين وأنصار دينه الموحدين من قتلهم وقاتلهم حيثما ثقفوهم، وبأخذوهم ويحصرهم، ويقعدوا لهم كل مرصد، ويحذروهم في جميع الأحوال، ولا يغفلوا عنهم؛ خشية أن ينال الكفار بعض مطلوبهم فيهم.

(١٢٣) ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ﴾: فإذا فرغتم من صلاتكم صلاة الخوف، وغيرها؛ ﴿فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾: فاذكروا الله في جميع

القيد وهو الخوف من الكفار أتى به؛ نظراً لغالب الحال التي كان النبي ﷺ وأصحابه عليها، فإن غالب أسفارهم أسفار جهاد، وليس معنى الآية: أن القصر لا يجوز إلا بوجود الخوف مع السفر، وقد أشكل هذا على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى سأل فسأل رسول الله ﷺ عن هذا الأمر، فقال: يا رسول الله ما لنا نقصر الصلاة وقد أمانا؟! فقال: «صدقة تصدق الله بها عليكم؛ فاقبلوا صدقته».

﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾؛ أي: ظاهر العدو، وهذا يستدعي الحذر منهم.

(١٢٢) ﴿وَأِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ صليت بهم صلاة تقيمها وتتم ما يجب فيها ويلزم؛ فعلمهم ما ينبغي لك ولهم فعله، ثم فسر ذلك بقوله: ﴿فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ وطائفة قائمة بإزاء العدو ﴿فَإِذَا سَجَدُوا﴾ الذين معك أكملوا صلاتهم، وعبر عن الصلاة بالسجود؛ ليدل على فضل السجود، وأنه ركن من أركانها، بل هو أعظم أركانها.

﴿فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا﴾ وهم الطائفة الذين قاموا إزاء العدو ﴿فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾: أمر تعالى بأخذ السلاح والحذر في صلاة الخوف، وهذا وإن كان فيه حركة واشتغال عن بعض أحوال الصلاة؛ فإن فيه مصلحة راجحة، وهي الجمع بين الصلاة والجهاد والحذر من الأعداء الحريصين غاية الحرص على الإيقاع بالمسلمين والميل عليهم وعلى أمتعتهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ

أحوالكم وهيئاتكم ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾: إذا أمنت من الخوف واطمأنت قلوبكم وأبدانكم؛ فأتوا صلاتكم على الوجه الأكمل ظاهراً وباطناً، بأركانها وشروطها وخشوعها وسائر مكملاتها ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾: مفروضاً في وقته، فدل ذلك على فرضيتها، وأن لها وقتاً لا تصح إلا به.

(١٠٤) ﴿وَلَا تَهْئُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقُوَى﴾: لا تضعفوا ولا تكسلوا في ابتغاء عدوكم من الكفار، في جهادهم والمرابطة على ذلك؛ فإن وهن القلب مستدع لوهن البدن، وذلك يضعف عن مقاومة الأعداء ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ﴾: إن ما يصيبكم من الألم والتعب

والجراح ونحو ذلك؛ فإنه يصيب أعداءكم، فليس من المروءة الإنسانية والشهامة الإسلامية أن تكونوا أضعف منهم، ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾: ترجون الفوز بثوابه والنجاة من عقابه، فالمؤمنون لهم مقاصد عالية وآمال رفيعة: من نصر دين الله، وإقامة شرعه، واتساع دائرة الإسلام، وقمع أعداء الدين، فهذه الأمور توجب زيادة القوة، وتضاعف النشاط والشجاعة ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾: كامل العلم، ﴿حَكِيمًا﴾: كامل الحكمة.

(١٠٥) ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾: يخبر تعالى أنه أنزل على عبده ورسوله الكتاب بالحق؛ أي: محفوظاً في إنزاله من الشياطين، أن يتطرق إليه منهم باطل، بل نزل بالحق، ومشمئلاً أيضاً

(١٠٥) في «الصحيحين» عن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ سمع جلبة خصم بباب حجرته، فخرج إليهم، فقال: «ألا إنما أنا بشر. وإنما أقضي بنحو ما أسمع. ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هي قطعة من نار، فليحملها أو ليذرها».

(١٠٥ - ١١٦) أخرج الترمذي وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» والطبراني في «الكبير» والطبري وابن أبي حاتم في «تفسيريهما» والحاكم بإسناد حسن لغیره، عن قتادة بن النعمان؛ قال: كان أهل بيت منا يقال لهم: بنو أبيرق: بشر، وبشير، ومبشر، وكان بشير رجلاً منافقاً يقول الشعر؛ يهجو به أصحاب رسول الله ﷺ، ثم ينحله بعض العرب، ثم يقول: قال فلان كذا وكذا، قال فلان كذا وكذا، فإذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الشعر؛ قالوا: والله ما يقول هذا الشعر إلا هذا الخبيث - أو كما قال الرجل -، وقالوا: ابن الأبيرق قالها. قال: وكان أهل بيت حجة وفاقه في الجاهلية والإسلام، وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير، وكان الرجل إذا كان له يسار فقدمت ضافطة من الشام من الدرمك؛ ابتاع الرجل منها فخص بها نفسه، وأما العيال؛ فإنما طعامهم التمر والشعير، فقدمت ضافطة من الشام فابتاع عمي رفاعة بن زيد حملاً من الدرمك فجعله في مشربة له، وفي المشربة سلاح ودرع وسيف، فُعْليدي عليه من تحت البيت؛ فنقبت المشربة، وأخذ الطعام والسلاح، فلما أصبح؛ أتاني عمي رفاعة، فقال: يا ابن أخي! إنه قد عدي علينا في ليلتنا هذه؛ فنقبت مشربتنا، فذهب بطعامنا وسلاحنا. قال: فتحسسنا في الدار وسألنا، فقيل لنا: قد رأينا بني أبيرق استوقدوا في هذه الليلة، ولا نرى فيما نرى إلا على بعض طعامكم. قال: وكان بنو أبيرق قالوا - ونحو نسأل في الدار -: والله ما نرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل؛ رجل منا له صلاح وإسلام، فلما سمع لبيد؛ اخترط سيفه، وقال: أنا أسرق؟ فوالله ليخاطلنكم هذا السيف أو لتبينن هذه السرقة، قالوا: إليك عنها أيها الرجل؛ فما أنت بصاحبها، فسألنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها، فقال لي عمي: يا ابن أخي، لو أتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له. قال قتادة: فأتيته رسول الله ﷺ، فقلت: إن أهل بيت منا أهل جفاء عمدوا إلى عمي رفاعة بن زيد فنقبوا مشربة له وأخذوا سلاحه وطعامه؛ فليردوا علينا سلاحنا، فأما الطعام؛ فلا حاجة لنا فيه، فقال النبي ﷺ: «سأمر في ذلك»، فلما سمع بنو أبيرق؛ أتوا رجلاً منهم يقال =

على الحق، فأخبره صدق، وأوامره ونواهيه عدل ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾: وأخبر أنه أنزله ليحكم بين الناس في مسائل النزاع والخلاف ﴿يَا أَرْكَكَ اللَّهُ؟﴾ أي: لا بهواك؛ بل بما علمك الله وألهمك، وفي هذا دليل على عصمته ﷺ فيما يبلغ عن الله من جميع الأحكام وغيرها ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾: لا تخاصم ولا تجادل عمن عرفت خيانتهم؛ من مدع ما ليس له، أو منكر حقاً عليه، سواء علم ذلك أو ظنه، وفي هذا دليل على تحريم الخصومة في باطل، والنيابة عن المبطل في الخصومات الدينية والحقوق الدنيوية.

(١٠٦) ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ﴾ مما صدر منك إن صدر ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ يغفر الذنب العظيم لمن استغفره وتاب إليه وأتاب ﴿رَحِيمًا﴾: واسع الرحمة.

(١٠٧) ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَلُونَ أَنفُسَهُمْ﴾

وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَلُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰذَا نَتْلُوهُ لَا جِدَلٌ لَّكَ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِسْمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِهَا بِيَرٍ فَإِنَّمَا يَحْمِلُ حَرَّتَهَا وَإِنَّمَا مِيزَانُ ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّوكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

الاختيان والخيانة بمعنى الجناية والظلم والإثم،

له: أسير بن عروة فكلموه في ذلك، فاجتمع في ذلك نامر من أهل الدار، فقالوا: يا رسول الله! إن قتادة بن النعمان وعمه عمدوا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت، قال قتادة: فأتي رسول الله فكلمته، فقال: «عمدت إلى أهل بيت ذكر منهم إسلام وصلاح ترميهم بالسرقة على غير ثبت ولا بينة»، قال: فرجعت، ولوددت أني خرجت من بعض مالي ولم أكلم رسول الله ﷺ في ذلك، فأتاني عمي رفاعه، فقال: يا ابن أخي ما صنعت؟ فأخبرته بما قال لي رسول الله ﷺ، فقال: الله المستعان. فلم يلبث أن نزل القرآن: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ يَا أَرْكَكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾ بني أبيرق: ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ؟﴾ أي: مما قلت لقتادة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي: لو استغفروا الله؛ لغفر لهم ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ - إلى قوله - ﴿وَأِنَّمَا مِيزَانُ﴾ قوله للبيد: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ﴾ إلى قوله: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، فلما نزل القرآن، أتى رسول الله ﷺ بالسلاح، فردّه إلى رفاعه. فقال قتادة: لما أتيت عمي بالسلاح، وكان شيخاً قد عسى، أو عشى، في الجاهلية، وكنت أرى إسلامه مدخولاً، فلما أتيت به بالسلاح؛ قال: يا ابن أخي هو في سبيل الله. فعرفت أن إسلامه كان صحيحاً، فلما نزل القرآن؛ لحق بشير بالمشركين، فنزل على سُلَافَة بنت سعد؛ فأنزل الله: ﴿وَمَنْ يُسَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَتُصْلِهِ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا [النساء: ١١٥، ١١٦]، فلما نزل على سُلَافَة؛ رماها حسان بن ثابت بأبيات من شعره، فأخذت رحله فوضعت على رأسها، ثم خرجت به فرمت به في الأبطح، ثم قالت: أهديت لي شعر حسان؟! ما كنت تأتيني بخير.

وَكَيْلًا: أم من يدافع عنهم، ويتولى توجيه الحجة نيابة عنهم؟! لا أحد، بل إن الله تعالى سيقم عليهم من الشهود ما لا يمكن معه الإنكار.

(١١٠) ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾: من تجرأ على المعاصي واقتحم على الإثم، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ ﴿ثُمَّ اسْتَغْفَرَ اللَّهَ﴾ ثم استغفر الله استغفارًا تامًا يستلزم: الإقرار بالذنب، والندم عليه، والإقلاع، والعزم على ألا يعود؛ ﴿يَجِدِ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ فهذا قد وعده من لا يخلف الميعاد بالمغفرة والرحمة، فيغفر له ما صدر منه من الذنب، ويزيل عنه ما ترتب عليه من النقص والعيب.

وقد يفسر عمل السوء هنا: بالظلم الذي يسوء الناس؛ وهو ظلمهم في دماءهم، وأموالهم، وأعراضهم.

(١١١) ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ وهذا يشمل كل ما يؤثم من صغير وكبير، فمن كسب سيئة؛ فإن عقوبتها الدنيوية والأخروية على نفسه، لا تتعداها إلى غيرها، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾: له العلم الكامل والحكمة التامة، ومن علمه وحكمته: أنه يعلم الذنب، والسبب الداعي لفعله، والعقوبة المترتبة على فعله، ويعلم حالة المذنب.

(١١٢) ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً ذَنْبًا كَبِيرًا أَوْ إِثْمًا﴾ ما دون ذلك ﴿ثُمَّ يَرَمْ بِهِ﴾: أي: يتهم بذنبه ﴿بَرِيئًا﴾ من ذلك الذنب، وإن كان مذنبًا؛ ﴿فَقَدْ أَحْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾: فقد حمل فوق ظهره بهتانًا للبريء وإثمًا ظاهرًا بينًا، وهذا يدل على أن ذلك من كبائر الذنوب وموقفاتنا؛ فإنه قد جمع عدة مفاسد، التي نسأل الله العافية منها

وهذا يشمل النهي عن المجادلة عمن أذنب وتوجه عليه عقوبة من حد أو تعزير؛ فإنه لا يجادل عنه بدفع ما صدر منه من الخيانة، أو بدفع ما ترتب على ذلك من العقوبة الشرعية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَافًا أَثِيمًا﴾: كثير الخيانة والإثم، وإذا انتفى الحب؛ ثبت ضده: وهو البُغض، وهذا كالتعليل للنهي المتقدم.

(١٠٨) ﴿يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ وهذا من ضعف الإيمان، ونقصان اليقين، أن تكون مخافة الخلق عندهم أعظم من مخافة الله، فيحرصون بالطرق المباحة والمحرمة على عدم الفضيحة عند الناس، وهم مع ذلك قد بارزوا الله بالعظائم، ولم يبالوا بنظره واطلاعه عليهم ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ بالعلم في جميع أحوالهم، ﴿إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ خصوصًا في حال تبينتهم ما لا يرضيه من القول؛ من تبرئة الجاني، ورمي البريء بالجناية، والسعي في ذلك للرسول ﷺ ليفعل ما بيته.

ولم يراقبوا رب الأرض والسموات، المطلع على سرائرهم وضمائرهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾: قد أحاط بذلك علمًا.

(١٠٩) ﴿هَآئِنْتُمْ هَآؤَآءَ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: هبكم جادلتهم عنهم في هذه الحياة الدنيا، ودفع عنهم جدالكم بعض ما يحذرون من العار والفضيحة عند الخلق، ﴿ثُمَّ يُجَادِلُ اللَّهُ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾: فماذا يغني عنهم وينفعهم؟ ومن يجادل الله عنهم يوم القيامة حين تتوجه عليهم الحجة، وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون؟ ﴿أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ

ومن كل شر .

(١١٣) ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ﴾ ذكر منته على رسوله بحفظه وعصمته ممن أراد أن يضلّه ﴿وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ وأخبر أن كيدهم ومكرهم يعود على أنفسهم .

﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ ؛ أي : أنزل عليك هذا القرآن العظيم والذكر الحكيم الذي فيه تبيان كل شيء وعلم الأولين والآخرين : ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ السنة ، التي قد قال فيها بعض السلف : إن السنة تنزل عليه كما ينزل القرآن .

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ وهذا يشمل جميع ما علمه الله تعالى . ثم لم يزل يوحى الله إليه ويعلمه ويكمله حتى ارتقى مقاماً من العلم يتعذر وصوله على الأولين والآخرين ، فكان أعلم الخلق على الإطلاق ، وأجمعهم لصفات الكمال ، وأكملهم فيها ؛ ولهذا قال : ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ ففضله على الرسول محمد ﷺ أعظم من فضله على كل مخلوق .

(١١٤) ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ﴾ : لا خير في كثير مما يتناجى به الناس ويتخاطبون ؛ إما لأنه لا فائدة فيه ، وإما لأنه شر ومضرة محضة ، ثم استثنى تعالى فقال : ﴿إِلَّا مَنَ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ من مال ، أو علم ، أي نفع كان ، بل لعله يدخل فيه العبادات القاصرة ؛ كالتسبيح والتحميد ونحوه ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ : وهو الإحسان ، والطاعة ، وكل ما عرف في الشرع والعقل حسنه . ﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ والإصلاح لا يكون إلا بين متنازعين متخاصمين ، والنزاع والخصام والتغاضب يوجب من الشر والفرقة ما لا يمكن

لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيماً ﴿١١٤﴾ وَمَن يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّا بَعْدَ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولِهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا سَاطِطًا مَّزِيدًا ﴿١١٧﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا تُخَدَّنَّ مِنْ عِبَادِكِ فَصَيِّبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَا ضَلَّيْنَهُمْ وَلَا مُنِيبَهُمْ وَلَا مُرْتَبَهُمْ فَلْيَبْتِكُنَّ أَذَاتَ الْآفَعَاءِ وَلَا تَمُرْتَهُمْ فَلْيَعْرِزْنَ خَلَقَ اللَّهُ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾

حصره ؛ فلذلك حث الشارع على الإصلاح بين الناس في الدماء والأموال والأعراض ، بل وفي الأديان ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيماً﴾ فلهذا ينبغي للعبد أن يقصد وجه الله تعالى ويخلص العمل لله في كل وقت وفي كل جزء من أجزاء الخير ، ليحصل له بذلك الأجر العظيم .

(١١٥) ﴿وَمَن يَتَّبِعِ الرَّسُولَ﴾ : ومن يخالف الرسول ﷺ ويعانده فيما جاء به ﴿مِمَّا بَعْدَ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى﴾ بالدلائل القرآنية والبراهين النبوية ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ : هو طريقهم في عقائدهم وأعمالهم ﴿تُولِيهِ مَا تَوَلَّى﴾ : نتركه وما اختاره لنفسه ، ونخذله فلا نوفره للخير ؛ لكونه رأى الحق وعلمه وتركه ﴿وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾ : نرجعها نعيذ بها فيها عذاباً عظيماً ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ : مرجعاً

له ومآلاً.

وقد استدل بهذه الآية الكريمة على أن إجماع هذه الأمة حجة، وأنها معصومة.

(١١٦) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾؛ لتضمنه القدح في رب العالمين وفي وحدانيته، وتسوية المخلوق الذي لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً بمن هو مالك النفع والضرر ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾: وأما ما دون الشرك من الذنوب والمعاصي؛ فهو تحت المشيئة، إن شاء الله غفره برحمته وحكمته، وإن شاء عذب عليه وعاقب بعدله وحكمته ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾: من أعظم الظلم وأبعد الضلال عدم إخلاص العبادة للخالق، وصرف شيء منها للمخلوق الذي ليس له من صفات الكمال شيء؛ بل ليس له إلا العدم والعجز والنقص.

(١١٧) ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتًا﴾: ما يدعون هؤلاء المشركون من دون الله إلا إنثاً؛ أي: أوثاناً وأصناماً بأسماء الإناث؛ كالعزى، ومناة، ومن المعلوم أن الاسم دال على المسمى، فإذا كانت أسماؤها أسماء مؤنثة ناقصة؛ دل ذلك على نقص تلك المسميات، وفقدها لصفات الكمال ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾: ومع ذلك؛ فعبادتهم إنما صورتها فقط لهذه الأوثان الناقصة، وبالحقيقة ما عبدوا غير الشيطان الذي هو عدوهم الذي يريد إهلاكهم، ويسعى في ذلك بكل ما يقدر عليه، الذي هو في غاية البعد من الله.

(١١٨) ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ وأبعده عن رحمته، فكما

أبعده الله من رحمته؛ فإنه يسعى في إبعاد العباد عن رحمة الله ﴿وَقَاكَ لَا تَخْذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَفِيًّا مَفْرُوضًا﴾: مقدراً، علم اللعين أنه لا يقدر على إغواء جميع عباد الله، وأن عباد الله المخلصين ليس له عليهم سلطان، وإنما سلطانه على من تولاه، وأثر طاعته على طاعة مولاه.

(١١٩) ﴿وَلَا ضَلَّاهُمْ﴾ عن الصراط المستقيم؛ ضلالاً في العلم، وضلالاً في العمل، ﴿وَلَا مُبِينَهُمْ﴾: لأمنينهم أن ينالوا ما ناله المهتدون، وهذا هو الغرور بعينه، فلم يقتصر على مجرد إضلالهم؛ حتى زين لهم ما هم فيه من الضلال، وهذا زيادة شر إلى شرهم؛ حيث عملوا أعمال أهل النار الموجبة للعقوبة وحسبوا أنها موجبة للجنة! واعتبر ذلك باليهود والنصارى ونحوهم.

﴿وَلَا مَرَنَهُمْ فَلْيَنبَغْ أَذَانُكَ الْأَنْعَمُ﴾: بتقطيع آذانها، وذلك كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام، فبه ببعض ذلك على جميعه، وهذا نوع من الإضلال يقتضي تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم الله ﴿وَلَا مَرَنَهُمْ فَلْيَغْيِرْ خَلْقَ اللَّهِ﴾ وهذا يتناول تغيير الخلقة الظاهرة بالوشم، والوشر، والنمص، والتفليج للحسن، ونحو ذلك مما أغواهم به الشيطان، فغيروا خلقة الرحمن، وذلك يتضمن التسخط من خلقته والقدح في حكمته، واعتقاد أن ما يصنعونه بأيديهم أحسن من خلقة الرحمن، وعدم الرضا بتقديره وتدبيره. ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾:

(١١٩) في «الصحيحين» عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «لعن الله الواشمات والمستوشمات، والنامصات والمتنصصات، والمتفليجات للحسن المغيرات خلق الله. ثم قال: ألا لعن من لعن رسول الله ﷺ في كتاب الله. يعني: قوله: ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].»

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ
جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ
اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢١﴾ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ
وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ
وَلَا يَحْدِلْهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٢﴾ وَمَنْ
يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّى وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ
أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ
مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٤﴾ وَاللَّهُ مَا
فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَاتَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ
مُحِيطًا ﴿١٢٥﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ
فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَمَنِ النِّسَاءِ
الَّتِي لَا تَنْوُتُهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَرَّعْنَ أَنْ تَكْفُرْنَ
وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ
بِالْقِسْطِ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ عَلِيمًا ﴿١٢٦﴾

وأيمن أرادوا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾: لا زوال ولا
انتقال ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ هذا وعد من الله معلوم
حقيقة أنه واقع لا محالة ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ
قِيلًا﴾ لا أحد أصدق منه قولاً؛ أي: خبراً.
﴿١٢٣﴾ ﴿لَيْسَ﴾ الأمر والنجاة والتركية ﴿بِأَمَانِيكُمْ
وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ والأمانى: أحاديث
النفس المجردة عن العمل، المقترن بها دعوى
مجردة، لو عورضت بمثلها؛ لكانت من جنسها،
وهذا عام في كل أمر؛ فكيف بأمر الإيمان

رباً يطيعه؛ ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾ وأي
خسار أبين وأعظم ممن خسر دينه ودنياه، وأوبقته
معاصيه وخطاياها؟! فحصل له الشقاء الأبدي،
وفاته النعيم السرمدى.

﴿١٢٠﴾ ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُؤْمِنُهُمْ﴾: يعد الشيطان من
يسعى في إضلالهم بما يوقع في قلب الإنسان من
طول العمر ونيل الدنيا، والوعد يشمل حتى
الوعيد؛ كما قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ
الْفَقْرَ فَإِنَّهُمْ يَعْدُهُمْ إِذَا أَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
افْتَقَرُوا وَيَمْنِهِمْ بِالْأَبْعَثِ، وَلَا جَنَّةَ، وَلَا نَارَ،
يَمْنِهِمُ الْأَمَانِي الْبَاطِلَةَ الَّتِي هِيَ عِنْدَ التَّحْقِيقِ
كَالسَّرَابِ الَّذِي لَا حَقِيقَةَ لَهُ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ
إِلَّا غُرُورًا﴾: باطلاً.

﴿١٢١﴾ ﴿أُولَئِكَ مَا وَهُمْ جَهَنَّمُ﴾: من انقاد
للشيطان وصار من أتباعه وحزبه، وأعرض عن
ربه؛ فإن مستقرهم النار ﴿وَلَا يَحْدُونُ عَنْهَا
مَحِصًا﴾: مخلصاً ولا ملجأ، بل هم خالدون
فيها أبد الآباد.

﴿١٢٢﴾ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وملائكته وكتبه
ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، على
الوجه الذي أمروا به علماً وتصديقاً وإقراراً
﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الناشئة عن الإيمان، وهذا
يشمل الواجبات والمستحبات ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ
تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ يُصَرَّفُونَهَا حَيْثُ شَاءُوا،

﴿١٢٢﴾ أخرج النسائي وابن خزيمة بإسناد صحيح من حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول في خطبته: «إن أصدق
الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل
ضلالة في النار».

﴿١٢٣﴾ أخرج أحمد بإسناد حسن لغيره: أن أبا بكر قال: يا رسول الله! كيف العلاج بعد هذه الآية: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ
الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾ فكل سوء عملناه جزينا به؟ فقال النبي ﷺ: «غفر الله لك يا أبا بكر! ألسنت تمرض؟ ألسنت
تنصب؟ ألسنت تحزن؟ ألسنت نصيبك اللأواء؟» قال: بلى. قال: «فهو ما تجزون به».

والسعادة الأبدية؟! ﴿وَلَا أَمَانِي أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ :
فإن أمانتي أهل الكتاب قد أخبر بها أنهم
قالوا: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا
تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ وغيرهم ممن ليس ينتسب لكتاب
ولا رسول من باب أولى وأحرى.

وكذلك أدخل الله في ذلك من ينتسب إلى
الإسلام لكمال العدل والإنصاف؛ فإن مجرد
الانتساب إلى أي دين كان لا يفيد شيئاً إن لم
يأت الإنسان ببرهان على صحة دعواه، فالأعمال
تصدق الدعوى أو تكذبها؛ ولهذا قال تعالى:
﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ : وهذا شامل لجميع
العاملين؛ لأن السوء شامل لأي ذنب كان من
صغائر الذنوب وكبائرها، وشامل أيضاً لكل
جزاء؛ قليل أو كثير، دنيوي أو أخروي.

والناس في هذا المقام درجات لا يعلمها إلا الله؛
فمستقل ومستكثر: فمن كان عمله كله سوءاً؛ لا
يكون إلا كافراً، فإذا مات من دون توبة؛ جوزي
بالخلود في العذاب الأليم.

ومن كان عمله صالحاً وهو مستقيم في غالب
أحواله، وإنما يصدر منه بعض الأحيان بعض
الذنوب الصغار، فما يصيبه من الهم والغم
والأذى وبعض الآلام في بدنه أو قلبه، أو حبيبه،
أو ماله، ونحو ذلك؛ فإنها مكفرات للذنوب،
وهي مما يجزى به على عمله قيضها الله لطفاً
بعباده، وبين هذين الحالين مراتب كثيرة.

وهذا الجزاء على عمل السوء العام مخصوص في
غير التائبين؛ فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب
له، كما دلت على ذلك النصوص.

وقوله: ﴿وَلَا يَحْذَرُ لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا
نَصِيرًا﴾ لإزالة بعض ما لعله يتوهم أن من

استحق المجازاة على عمله قد يكون له ولي أو
ناصر أو شافع يدفع عنه ما استحقه، فأخبر تعالى
بانتفاء ذلك، فليس له ولي يُحْصَلْ له المطلوب،
ولا نصير يدفع عنه المرهوب؛ إلا ربه ومليكه.

(١٢٤) ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ دخل في
ذلك سائر الأعمال القلبية والبدنية، ﴿مِنْ ذَكَرٍ
أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ وهذا شرط لجميع الأعمال،
لا تكون صالحة ولا تقبل ولا يترتب عليها
الثواب إلا بالإيمان ﴿فَأُولَئِكَ﴾ الذين جمعوا
بين الإيمان والعمل الصالح ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾
المشتملة على ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين
﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَبِذًا﴾ : لا قليلاً ولا كثيراً مما
عملوه من الخير؛ بل يجدونه كاملاً موفراً،
مضاعفاً أضعافاً كثيرة.

(١٢٥) ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ :
لا أحد أحسن من دين من جمع بين الإخلاص
للمعبود، وهو إسلام الوجه لله الدال على استسلام
القلب وتوجهه وإنابته وإخلاصه، وتوجه الوجه
وسائر الأعضاء لله ﴿وَهُوَ﴾ مع هذا الإخلاص
والاستسلام ﴿مُحْسِنٌ﴾ متبع لشريعة الله التي
أرسل بها رسله، وأنزل كتبه، وجعلها طريقاً
لخواص خلقه وأتباعهم، ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ :
دينه وشرعه ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عن الشرك إلى
التوحيد، وعن التوجه للخلق إلى الإقبال على
الخالق، ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ : والخلة أعلى
أنواع المحبة، وهذه المرتبة حصلت للخليين:
محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام؛ وأما
المحبة من الله؛ فهي لعموم المؤمنين.

(١٢٦) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾ : يخبر تعالى عن

وَأَنَّ أَمْرَهُ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا ثُورًا وَادْعَاةً فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٧﴾ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ الْإِنْسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيزُوا كُلَّ الْمَبِيعِ فَعَدُّوْهَا كَالْمَعْلُوقَةِ وَإِنْ تَصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٢٨﴾ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعْيِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَسِعًا حَكِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣١﴾ إِنَّ يَسَاءَ بَدْهَبِكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِتَاخِرَةٍ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٢﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدِ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٣﴾

فيها وهي ذات جمال ومال؛ لكن لا يقسط في مهرها، ويعطيها دون ما تستحق؛ فكل هذا ظلم. **وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوُلَدَانِ** : ويفتيكم في المستضعفين من الولدان الصغار؛ أن تعطوهم حقهم من الميراث وغيره، وألا تستولوا على أموالهم على وجه الظلم والاستبداد **وَأَنْتُمْ قَوْمُوا لِلْيَتَمَى بِالْقِسْطِ** : بالعدل التام، **وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ** لليتامى ولغيرهم، سواء كان الخير متعدياً أو لازماً؛ **فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا** قد أحاط علمه بعمل العاملين للخير؛ قلة وكثرة، حسناً وضده، فيجازي كلًّا بحسب عمله.

إحاطته بجميع الأشياء، وأنه له **﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾** الجميع ملكه وعبيده، فهم المملوكون وهو المالك المتفرد بتدبيرهم **﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُخِيطًا﴾** وقد أحاط علمه بجميع المعلومات، وبصره بجميع المبصرات، وسمعه بجميع المسموعات، ونفذت مشيئته وقدرته بجميع الموجودات، ووسعت رحمته أهل الأرض والسموات، وقهر بعزه وقهره كل مخلوق، ودانت له جميع الأشياء.

(١٢٧) **﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾** الاستفتاء: طلب السائل من المسؤول بيان الحكم الشرعي في ذلك المسؤول عنه، فأخبر عن المؤمنين أنهم يستفتون الرسول ﷺ في حكم النساء المتعلق بهم، فتولى الله هذه الفتوى بنفسه، فقال: **﴿قُلْ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾** فاعملوا على ما أفتاكم به في جميع شؤون النساء؛ من القيام بحقوقهن، وترك ظلمهن عموماً وخصوصاً.

﴿وَمَا يَتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَى النِّسَاءِ﴾ أي: ويفتيكم أيضاً بما يتلى عليكم في الكتاب في شأن اليتامى من النساء **﴿الَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغِبْنَ أَنْ يَنْكِحُوهُنَّ﴾** وهذا إخبار عن الحالة الموجودة الواقعة في ذلك الوقت، فإن اليتيمة إذا كانت تحت ولاية الرجل بخسها حقها وظلمها؛ إما بأكل مالها أو بعضه، أو منعها من التزوج؛ ليتنفع بمالها خوفاً من استخراجها من يده إن زوجها، هذا إن كان راغباً عنها، وقد يرغب

(١٢٧) أخرج الطبري وابن أبي حاتم في «تفسيرهما» بإسناد حسن عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال في قوله تعالى: **﴿فِي يَتَمَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغِبْنَ أَنْ يَنْكِحُوهُنَّ﴾** فكان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمة فيلقي عليها ثوبه، فإذا فعل بها ذلك، لم يقدر أحد أن يتزوجها أبداً، فإن كانت جميلة وهويها؛ تزوجها وأكل مالها، وإن كانت دميعة؛ منعها الرجال أبداً حتى تموت، فإذا ماتت؛ ورثها، فحرم الله ذلك، ونهى عنه.

ذلك قد أمر الله به، وحث عليه ازداد المؤمن طلباً له، ورغبة فيه.

وذكر المانع بقوله: ﴿وَأَحْضَرْتَ الْأَنْفُسَ الشُّحَّ﴾: جبلت النفوس على الشح؛ وهو: عدم الرغبة في بذل ما على الإنسان، والحرص على الحق الذي له، فالنفوس مجبولة على ذلك طبعاً؛ أي: فينبغي لكم أن تحرصوا على قلع هذا الخلق الدنيء من نفوسكم، وتستبدلوا به ضده؛ وهو السماحة: وهو بذل الحق الذي عليك، والافتناع ببعض الحق الذي لك. فمن وفق لهذا الخلق؛ سهل عليه الصلح.

﴿وَأَنْ تُحْسِنُوا﴾: تحسنوا في عبادة الخالق؛ بأن يعبد العبد ربه كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه، وتحسنوا إلى المخلوقين بجميع طرق الإحسان؛ من نفع بمال، أو علم، أو جاه، أو غير ذلك ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الله بفعل جميع المأمورات، وترك جميع المحظورات؛ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾: قد أحاط به علماً وخبراً، بظاهره وباطنه، فيحفظه لكم، ويجازيكم عليه أتم الجزاء.

(١٢٩) ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ يخبر تعالى: أن الأزواج لا يستطيعون وليس في قدرتهم العدل التام بين النساء؛ وذلك لأن العدل يستلزم وجود المحبة على السواء، والميل في القلب إليهن على السواء، ثم العمل

(١٢٨) ﴿وَإِنْ أَمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾: إذا خافت المرأة نشوز زوجها؛ أي: ترفعه عنها، وعدم رغبته فيها، وإعراضه عنها؛ فالأحسن في هذه الحالة أن يصلحا بينهما صلحاً: بأن تسمح المرأة عن بعض حقوقها اللازمة لزوجها على وجه تبقى مع زوجها؛ إما أن ترضى بأقل من الواجب لها من النفقة أو الكسوة، أو المسكن، أو القسم، فتسقط حقها منه، وإما أن تهب يومها أو ليلتها لزوجها، أو لضرتها فإذا اتفقا على هذه الحالة؛ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ ولا بأس عليهما فيها؛ أي: في هذه الحالة لا عليها ولا على الزوج، فيجوز حينئذ لزوجها البقاء معها على هذه الحال، وهي خير من الفرقة، ولهذا قال: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾،

ويؤخذ من هذا: أن الصلح بين من بينهما حق أو منازعة في جميع الأشياء، أنه خير من استقصاء كل منهما على كل حقه؛ لما فيها من الإصلاح، وبقاء الألفة، والاتصاف بصفة السماح. وهو جائز في جميع الأشياء؛ إلا إذا أحل حراماً، أو حرّم حلالاً؛ فإنه لا يكون صلحاً، وإنما يكون جوراً.

واعلم أن كل حكم من الأحكام لا يتم ولا يكمل إلا بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه، فذكر تعالى المقتضي للصلح وهو الخير، ونبه على أنه خير، والخير كل عاقل يطلبه ورغب فيه، فإن كان مع

(١٢٨) أخرج الشيخان عن عائشة رضي الله عنها في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ أنزلت في المرأة تكون عند الرجل لا يستكثر منها فيريد أن يطلقها ويتزوج غيرها، فتقول: لا تطلقني وأمسكني، وأنت في حل من النفقة والقسمة لي. فأنزل الله عز وجل: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾.

(١٢٩) أخرج أصحاب السنن وأحمد بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له امرأتان فمال إلى أحدهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه ساقطاً».

بمقتضى ذلك، وهذا متعذر غير ممكن، فلذلك عفا الله عما لا يستطاع ونهى عما هو ممكن بقوله: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمَعْلُوقَةِ﴾: لا تميلوا ميلاً كثيراً بحيث لا تؤدون حقوقهن الواجبة؛ بل افعلوا ما هو باستطاعتكم من العدل فالنفقة والكسوة والقسم ونحوها عليكم أن تدخلوها عليكم أن تعدلوا بينهن فيها خلاف الحب والوطء ونحو ذلك، فإن الزوجة إذا ترك زوجها ما يجب لها، صارت كالمعلقة التي لا زوج لها فستريح وتستعد للزوج، ولا ذات زوج يقوم بحقها، ﴿وَإِنْ تَصْلَحُوهَا﴾ ما بينكم وبين زوجاتكم، بإجبار أنفسكم على فعل ما لا تهواه النفس؛ احتساباً وقياماً بحق الزوجة ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الله بفعل المأمور وترك المحذور، والصبر على المقدور؛ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾: يغفر ما صدر منكم من الذنوب والتقصير في الحق الواجب، ﴿رَحِيمًا﴾ ويرحمكم كما عطفتم على أزواجكم ورحمتهم.

(١٣٠) ﴿وَإِنْ يَفْرَقَا﴾ بطلاق، أو فسخ، أو خلع، أو غير ذلك ﴿يُعِنِ اللَّهُ كِلَا﴾ من الزوجين ﴿مِنْ سَعْيِهِ﴾: من فضله وإحسانه الواسع الشامل، فيغني الزوج بزوجة خير له منها، ويغنيها من فضله وإن انقطع نصيبها من زوجها؛ فإن رزقها على المتكفل بأرزاق جميع الخلق، القائم بمصالحهم، ولعل الله يرزقها زوجاً خيراً منه ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا﴾: كثير الفضل واسع الرحمة، وصلت رحمته وإحسانه إلى حيث وصل إليه علمه ﴿حَكِيمًا﴾: يعطي بحكمة، ويمنع لحكمة.

(١٣١) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ

وَصَيْنَا الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾: يخبر تعالى عن عموم ملكه العظيم الواسع، المستلزم تدبيره بجميع أنواع التدبير وتصرفه بأنواع التصريف قدراً وشرعاً؛ فتصرفه الشرعي: أن وصى الأولين والآخرين أهل الكتب السابقة واللاحقة بالتقوى المتضمنة للأمر والنهي، وتشريع الأحكام، والمجازاة لمن قام بهذه الوصية بالثواب، والمعاقبة لمن أهملها وضيعها بأليم العذاب، ولهذا قال: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا﴾: بأن تتركوا تقوى الله، وتشركوا بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً، فإنكم لا تضررون بذلك إلا أنفسكم، ولا تضررون الله شيئاً ولا تنقصون ملكه، وله عبيد خير منكم وأعظم وأكثر، مطيعون له خاضعون لأمره؛ ولهذا رتب على ذلك قوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا﴾: له الجود الكامل والإحسان الشامل، الصادر من خزائن رحمته، ومن تمام غناه: أنه كامل الأوصاف، وأن العالم مفتقر في جميع شؤونهم وأحوالهم إليه، وأنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولا شريكاً في ملكه ولا ظهيراً، ولا معاوناً على شيء من تدابير ملكه.

﴿حَمِيدًا﴾ أما الحميد؛ فهو من أسماء الله تعالى الجليلة، الدال على أنه هو المستحق لكل حمد ومحبة وثناء وإكرام، وذلك لما اتصف به من صفات الحمد، التي هي صفة الجمال والجلال، ولما أنعم به على خلقه من النعم الجزال، فهو المحمود على كل حال.

(١٣٢) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: كرر إحاطة ملكه لما في السموات وما في الأرض، ﴿وَكُنْ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: أنه على كل

فِيكُمْ فَيَذْهَبُكُمْ وَيَبْدِلُكُمْ ﴿وَيَأْتِ بِتَاخِرِينَ﴾ :
 غَيْرَكُمْ هُمْ أَطْوَعُ لِلَّهِ مِنْكُمْ وَخَيْرُكُمْ مِنْكُمْ، وَفِي هَذَا
 تَهْدِيدٌ لِلنَّاسِ عَلَى إِقَامَتِهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ وَإِعْرَاضِهِمْ
 عَنْ رَبِّهِمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَعْزُبُ عَنْهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ
 يُطِيعُوهُ، وَلَكِنَّهُ يَمْهَلُ وَيَمْلِي وَلَا يَهْمِلُ ﴿وَكَانَ اللَّهُ
 عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ قَادِرٌ عَلَى إِذْهَابِكُمْ وَتَبْدِيلِكُمْ،
 وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ فَوْمًا
 غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

(١٣٤) ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾: أخبر تعالى أن مَنْ كانت همته وإرادته دنية غير متجاوزة ثواب الدنيا، وليس له إرادة في الآخرة؛ فإنه قد قصر سعيه ونظره، ومع ذلك؛ فلا يحصل له من ثواب الدنيا سوى ما كتب الله له منها، فإنه تعالى هو المالك لكل شيء الذي عنده ثواب الدنيا والآخرة فليطلبها منه، ويستعان به عليهما، فإنه لا ينال ما عنده إلا بطاعته ولا تدرك الأمور الدينية ولا الدنيوية ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا﴾ بأقوالهم ﴿بَصِيرًا﴾ بأفعالهم.

(١٣٥) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا﴾: يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا ﴿قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾؛ أي: كونوا في كل أحوالكم قائمين بالقسط الذي هو العدل في حقوق الله وحقوق عباده، فالقسط في حقوق الله: ألا يستعان بنعمه على معصيته، بل تنصرف في طاعته.

والقسط في حقوق الأدميين : أن تؤدى جميع الحقوق التي عليك كما تطلبُ حقوقك .
ومن أعظم أنواع القسط : القسط في المقالات والقائلين ، فلا يحكم لأحد القولين أو أحد

سُورَةُ الْاَنْكَافِ

الْاِنْكَا فِ

يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا كُونُوْا قَوِّمَيْنَ يَّا نَقِصُطْ شُهَدَاءَ لِلّٰهٖ
وَلَوْ عَلَى اَنْفُسِكُمْ ؕ وَالَّذِيْنَ وَا لَا قَرِيْبِيْنَ اِنْ يَكُنْ غَيْبًا
اَوْ فَقِيْرًا فَاللّٰهُ اَوْلَىٰ بِمَا فَلَا تَعْلَمُوْنَ اَنْ تَعْدِلُوْا وَاِنْ
تَالُوْا اَوْ نَعَرَضْوا عَلٰى اللّٰهِ كَانَ بِمَا تَعْمَلُوْنَ حَبِيْرًا ﴿٣٥﴾ يٰۤاَيُّهَا
الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا ءَامِنُوْا بِاللّٰهِ وَرَسُوْلِهِؕ وَالكِتٰبِ الَّذِيْ نَزَّلَ
عَلٰى رَسُوْلِهِؕ وَالْكِتٰبِ الَّذِيْ اُنزِلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ
بِاللّٰهِ وَمَلَائِكَتِهٖ وَكُتُبِهٖ وَرَسُوْلِهٖ ؕ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ
ضَلٰلًا بَعِيْدًا ﴿٣٦﴾ اِنَّ الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا ثُمَّ كَفَرُوْا ثُمَّ ءَامَنُوْا
ثُمَّ كَفَرُوْا ثُمَّ اٰزَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللّٰهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا يَجِدَهُمْ
سَبِيْلًا ﴿٣٧﴾ بُشِّرِ الْمُتَّقِيْنَ اَنَّ لَهُمْ عَذَابًا اَلِيمًا ﴿٣٨﴾ الَّذِيْنَ
يَتَّخِذُوْنَ الْكَافِرِيْنَ اَوْلِيَآءَ مِنْ دُوْنِ الْمُؤْمِنِيْنَ اَيَّتَعْتُوْتْ
عِنْدَهُمُ الرِّزْقَ فَاِنَّ الرِّزْقَ لَخَيْرٌ مِّنْ كُلِّ مَالٍ ﴿٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي
الْكِتٰبِ اَنْ اِذَا سَمِعْتُمْ ءَايٰتَ اللّٰهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا
تَقْعُدُوْا مَعَهَا حَتّٰى يَخْرُجَ فِيْ حَدِيْثٍ عَرِيْٓةٍ ؕ وَلَكُمْ اِذَا مَثَلُهُمْ
اِنَّ اللّٰهَ جَامِعُ الْمُتَّقِيْنَ وَالْكَافِرِيْنَ فِيْ جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿٤٠﴾

١٠٠

شيء وكيل عالم قائم بتدبير الأشياء على وجه
الحكمة، فإن ذلك من تمام الوكالة.

فإن قيل : فأى فائدة في تكرار قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ قيل : لكل واحد منها أوجه ، أما الأول فمعناه لله ما في السماوات وما في الأرض وهو يوصيكم بالتقوى ، فاقبلوا وصيته . وأما الثاني : فيقول : فإن لله ما في السموات وما في الأرض وكان الله غنياً ، أي : هو الغني وله الملك فاطلبوا منه ما تطلبون . والثالث : فيقول ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ ولا يتوكلوا على غيره .

(١٣٣) ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ﴾ هو الغني الحميد الذي له القدرة الكاملة والمشيئة النافذة

مِنْ قَبْلُ ﴿١٣٧﴾ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَبِرَسُولِهِ وَبِالْقُرْآنِ وَبِالْكَتَبِ الْمَتَّقَةِ، فَهَذَا كُلُّهُ مِنَ الْإِيمَانِ الْوَاجِبِ الَّذِي لَا يَكُونُ الْعَبْدُ مُؤْمِنًا إِلَّا بِهِ؛ إجمالاً فيما لم يصل إليه تفصيله، وتفصيلاً فيما عُلِمَ مِنْ ذَلِكَ بِالتَّفْصِيلِ، فَمَنْ آمَنَ هَذَا الْإِيمَانِ الْمَأْمُورُ بِهِ؛ فَقَدْ اهْتَدَى وَأَنْجَحَ.

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَآيَاتِهِ الْأَخِيرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾: وَأَيُّ ضَلَالٍ أَبْعَدَ مِنْ ضَلَالٍ مِنْ تَرْكِ طَرِيقِ الْهُدَى الْمُسْتَقِيمِ، وَسَلَكِ الطَّرِيقَ الْمَوْصِلَةَ لَهُ إِلَى الْعَذَابِ الْأَلِيمِ؟ وَاعْلَمْ أَنَّ الْكُفْرَ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْمَذْكُورَاتِ كَالْكَفْرِ بِجَمِيعِهَا؛ لِتَلَاظِمِهَا، وَامْتِنَاعِ وَجُودِ الْإِيمَانِ بِبَعْضِهَا دُونَ بَعْضٍ.

(١٣٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾؛ أَي: مَنْ تَكَرَّرَ مِنْهُ الْكُفْرُ بَعْدَ الْإِيمَانِ فَاهْتَدَى ثُمَّ ضَلَّ، وَأَبْصَرَ ثُمَّ عَمِيَ، وَآمَنَ ثُمَّ كَفَرَ، وَاسْتَمَرَ عَلَى كُفْرِهِ وَازْدَادَ مِنْهُ، فَإِنَّهُ بَعِيدٌ مِنَ التَّوْفِيقِ وَالْهُدَايَةِ لِأَقْوَمِ الطَّرِيقِ، وَبَعِيدٌ مِنَ الْمَغْفِرَةِ؛ لَكُونِهِ أَتَى بِأَعْظَمِ مَانِعٍ يَمْنَعُهُ مِنْ حَصُولِهَا.

(١٣٨) ﴿بَشِّرِ الْمُتَنَفِّقِينَ﴾ الَّذِينَ أَظْهَرُوا الْإِسْلَامَ وَأَبْطَنُوا الْكُفْرَ، ﴿يَأَنَّ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بِأَفْجَحِ بَشَارَةِ وَأَسْوَأِهَا وَهُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ، وَالبَشَارَةُ تَسْتَعْمَلُ فِي الْخَيْرِ، وَتَسْتَعْمَلُ فِي الشَّرِّ بَقِيدٌ كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ.

(١٣٩) ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَذَلِكَ بِسَبَبِ مَحَبَّتِهِمُ الْكَافِرَ وَمَوَالَتِهِمْ وَنَصْرَتِهِمْ، وَتَرْكِهِمْ لِمَوَالَاةِ الْمُؤْمِنِينَ، فَأَيُّ شَيْءٍ حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ؟! ﴿أَيَبْنَعُونَ عَنْهُمْ الْعُرَّةَ﴾ سَاءَ

الْمُتَنَازَعِينَ لَانْتِسَابِهِ أَوْ مِيلِهِ لِأَحَدِهِمَا، بَلْ يَجْعَلُ وَجْهَتَهُ الْعَدْلَ بَيْنَهُمَا، ﴿شُهِدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ وَمِنْ الْقِسْطِ: أَدَاءُ الشَّهَادَةِ الَّتِي عِنْدَكَ عَلَى أَيِّ وَجْهٍ كَانَ؛ حَتَّى عَلَى الْأَحْبَابِ، بَلْ عَلَى النَّفْسِ ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَإِنَّهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾: فَلَا تَرَاعُوا الْغَنَى لَغْنَاهُ، وَلَا الْفَقْرَ بَزْعَمِكُمْ رَحْمَةً لَهُ؛ بَلْ اشْهَدُوا بِالْحَقِّ عَلَى مَنْ كَانَ.

وَالْقِيَامُ بِالْقِسْطِ مِنْ أَعْظَمِ الْأُمُورِ الدَّالَّةِ عَلَى دِينِ الْقَائِمِ بِهِ وَوَرَعِهِ، فَيَتَعَيَّنُ عَلَى مَنْ نَصَحَ نَفْسَهُ وَأَرَادَ نَجَاتَهَا أَنْ يَهْتَمَّ لَهُ غَايَةُ الْإِهْتِمَامِ، وَأَنْ يَزِيلَ عَنْ نَفْسِهِ كُلَّ مَانِعٍ وَعَائِقٍ يَعْوقُهُ عَنْ إِرَادَةِ الْقِسْطِ أَوْ الْعَمَلِ بِهِ، وَأَعْظَمُ عَائِقٍ لَذَلِكَ: اتِّبَاعُ الْهَوَى، وَلِذَا قَالَ: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا﴾ فَلَا تَتَّبِعُوا شَهَوَاتِ أَنْفُسِكُمْ الْمَعَارِضَةَ لِلْحَقِّ، فَإِنَّكُمْ إِنْ اتَّبَعْتُمُوهَا عَدَلْتُمْ عَنِ الصَّوَابِ، وَلَمْ تَوْفُقُوا لِلْعَدْلِ؛ فَإِنَّ الْهَوَى إِمَّا أَنْ يَعْصِيَ بِصِيرَةٍ صَاحِبِهِ؛ حَتَّى يَرَى الْحَقَّ بَاطِلًا، وَالبَاطِلَ حَقًّا، وَإِمَّا أَنْ يَعْرِفَ الْحَقَّ وَيَتْرَكَهُ لِأَجْلِ هَوَاهُ.

﴿وَإِنْ تَلَوْتُمْ﴾: لِمَا بَيَّنَّ أَنَّ الْوَاجِبَ الْقِيَامَ وَالْقِسْطَ؛ نَهَى عَنْ مَا يَضَادُّ ذَلِكَ، وَهُوَ: لِيِ اللِّسَانِ عَنِ الْحَقِّ فِي الشَّهَادَاتِ وَغَيْرِهَا، وَتَحْرِيفِ النَّطْقِ عَنِ الصَّوَابِ الْمَقْصُودِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ ﴿أَوْ تَعْرِضُوا﴾: تَتْرَكُوا الْقِسْطَ الْمَنْوُوطَ بِكُمْ؛ كَتَرَكِ الشَّاهِدَ لِشَهَادَتِهِ، وَتَرَكِ الْحَاكِمَ لِحُكْمِهِ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِ الْقِيَامُ بِهِ؛ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾: مُحِيطٌ بِمَا فَعَلْتُمْ، يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ خَفِيَّهَا وَجَلِيَّهَا، وَفِي هَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ.

(١٣٦) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ

الاستهزاء بها واحتقارها ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾ : لا تحضروا مجالس المعاصي والفسوق التي يستهان فيها بأوامر الله ونواهيه، وتقتحم فيها حدوده التي حدّها لعباده، ومنتهى هذا النهي عن القعود معهم ﴿حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ : غير الكفر بآيات الله والاستهزاء بها ﴿إِنَّكُمْ إِذَا﴾ أي : إن قعدتم معهم في الحال المذكورة ﴿مِثْلَهُمْ﴾ لأنكم رضيتم بكفرهم واستهزائهم، والراضي بالمعصية كالفاعل لها.

﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ كما اجتمعوا على الكفر والموالة، فلذلك يشاركونهم في الخلود في نار جهنم.

(١٤١) ﴿الَّذِينَ يَرَبُّونَ بِكُمْ﴾ : ينتظرون الحالة التي تصيرون عليها، وتنتهون إليها من خير أو شر، قد أعدوا لكل حالة جوابًا بحسب نفاقهم ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ﴾ : النصر والتأييد ﴿مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ﴾ فيظهرون أنهم مع المؤمنين ظاهرًا وباطنًا؛ ليسلموا من القدح والظعن عليهم، وليشركوهم في الغنيمة والفىء ولينصروا بهم ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ : لم يقل : فتح؛ لأنه لا يحصل لهم فتح، بل غاية ما يكون لهم : نصيب غير مستقر؛ حكمة من الله ﴿قَالُوا أَلَمْ تَسْعُدْ عَلَيْنَا﴾ : نستولي عليكم ﴿وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ : يتصنعون عندهم بكف أيديهم عنهم مع القدرة، ومنعهم من المؤمنين بجميع وجوه المنع في تفنيدهم وتزهيدهم في القتال، ومظاهرة الأعداء عليهم، وغير ذلك مما هو معروف منهم ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ : فيجازي المؤمنين ظاهرًا وباطنًا بالجنة، ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ﴿وَلَنْ يُجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

الَّذِينَ يَرَبُّونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ تَسْعُدْ عَلَيْنَا وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُتَاٰى رَأَوْنَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُدْبِدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَٰؤُلَاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن يَهْدِيَهُ أَفَلَا يَتَذَكَّرُ أَلَيْسَ إِلَى هَٰؤُلَاءِ مَثَلٌ مَّا يَسْتَفْتِيهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُوا أَن يَجْعَلُوا اللَّهَ عَالِيَهُمْ سُلْطٰنًا مِّثْلًا ﴿١٤٣﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن يَجِدَ لَهُم نَصِيرًا ﴿١٤٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ بَرَأُوا وَاصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٥﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٦﴾

ظنهم بالله وضعف يقينهم بنصر الله لعباده المؤمنين، فاتخذوا الكافرين أولياء يتعززون بهم، ويستنصرون ﴿فَإِنَّ الْآلَةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ : فإن نواصي العباد بيده، ومشيئته نافذة فيهم، وقد تكفل بنصر دينه وعباده المؤمنين، ولو تخلل ذلك بعض الامتحان لعباده المؤمنين، وإدالة العدو عليهم إدالة غير مستمرة؛ فإن العقابة والاستقرار للمؤمنين.

(١٤٠) ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ وقد بين الله لكم ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ فيما أنزل عليكم حكمه الشرعي عند حضور مجالس الكفر والمعاصي ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَةَ اللَّهِ﴾ أي : القرآن ﴿يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ : يستهان بها، والواجب على كل مكلف الإيمان بها وتعظيمها وإجلالها وتفخيمها، وهذا المقصود بإنزالها، فصد الإيمان الكفر بها، وضد تعظيمها

الكافرين؛ فلا هم من المؤمنين ظاهراً وباطناً، ولا من الكافرين ظاهراً وباطناً، أعطوا باطنهم للكافرين وظاهرهم للمؤمنين، وهذا أعظم ضلال يقدر؛ ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾: لن تجد طريقاً لهدايته، ولا وسيلة لترك غوايته.

(١٤٤) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: لما ذكر أن من صفات المنافقين اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين؛ نهى عباده المؤمنين أن يتصفوا بهذه الحالة القبيحة، وأن يشابهوا المنافقين ﴿أَتُرِيدُونَ أَن﴾: فإن ذلك موجب لأن ﴿تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾: حجة واضحة على عقوبتكم؛ فإنه قد أئذنا وحذرنا منها، وأخبرنا بما فيها من المفاسد، فسلوكها بعد هذا موجب للعقاب. وفي هذه الآية دليل على كمال عدل الله، وأن الله لا يعذب أحداً قبل قيام الحجة عليه، وفيه التحذير من المعاصي، فإن فاعلها يجعل لله عليه سلطاناً مبيناً.

(١٤٥) ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾: يخبر تعالى عن مآل المنافقين أنهم في أسفل الدركات من العذاب، وأشر الحالات من العقاب، فهم تحت سائر الكفار؛ لأنهم شاركوهم بالكفر بالله ومعاداة رسله، وزادوا عليهم المكر والخديعة والتمكّن من كثير من أنواع العداوة للمؤمنين على وجه لا يشعر به ولا يحس ﴿وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾: ليس لهم منقذ من عذابه، ولا ناصر يدفع عنهم بعض عقابه.

سبيلًا: تسلطاً واستيلاء عليهم، بل لا تزال طائفة من المؤمنين على الحق منصوره، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، ولا يزال الله يحدث من أسباب النصر للمؤمنين ودفع تسلط الكافرين ما هو مشهود بالعيان.

(١٤٦) ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾: يخبر تعالى عن المنافقين بما كانوا عليه من قبيح الصفات وشنائع السمات، وأن طريقتهم مخادعة الله تعالى بما أظهره من الإيمان وأبطنوه من الكفران؛ ظنوا أنه يروج على الله ولا يعلمه ولا يبيده لعباده! والحال: أن الله خادعهم، فمجرد وجود هذه الحال منهم ومشيههم عليها خداع لأنفسهم، وأي خداع أعظم ممن يسعى سعيًا يعود عليه بالهوان والذل والحرمان؟ فله ما يصنع الجهل والخذلان بصاحبه!

﴿وَإِذَا قَامُوا﴾ - إن قاموا - ﴿إِلَى الصَّلَاةِ﴾ التي هي أكبر الطاعات العملية ﴿قَامُوا كَسَالًا﴾: متثاقلين لها متبرمين من فعلها، والكسل لا يكون إلا من فقد الرغبة من قلوبهم ﴿يَرَاءُونَ النَّاسَ﴾: هذا الذي انطوت عليه سرائرهم، وهذا مصدر أعمالهم: مراعاة الناس، يقصدون رؤية الناس وتعظيمهم واحترامهم ولا يخلصون لله؛ فلهذا ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾: لا امتلاء قلوبهم من الرياء؛ فإن ذكر الله تعالى وملازمته لا يكون إلا من مؤمن ممتلئ قلبه بمحبة الله وعظمته.

(١٤٣) ﴿مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾: مترددين بين فريق المؤمنين وفريق

(١٤٢) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أثقل الصلاة على المنافقين: صلاة العشاء، وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوأ». وأخرج مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تلك صلاة المنافق: يجلس يرقب الشمس، حتى إذا كانت بين قرني الشيطان، قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً».

كنهه إلا الله؛ مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

(١٤٧) ثم أخبر تعالى عن كمال غناه، وسعة حلمه ورحمته وإحسانه، فقال: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾: إذا أنبتم ورجعتم بالتوبة إليه؛ فأى شيء يفعل بعذابكم؟ فإنه لا يتشقى بعذابكم، ولا يتنفع بعقابكم؛ بل العاصي لا يضر إلا نفسه ﴿إِنْ شَكَرْتُمْ﴾؛ الشكر: هو خضوع القلب واعترافه بنعمة الله، وثناء اللسان على المشكور ﴿وَأَمَنْتُمْ﴾ به، وهذا يستلزم عمل الجوارح بطاعته، والأستعين بنعمه على معاصيه ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا﴾: يعطي المتحمّلين لأجله الدائبين في الأعمال جزيل الثواب وواسع الإحسان ﴿عَلِيمًا﴾: يعلم ظاهركم وباطنكم وأعمالكم وما تصدر عنه من إخلاص وصدق.

(١٤٨) ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾: يخبر تعالى أنه يبغض الجهر بالسوء من القول ويمقته ويعاقب عليه، ويشمل ذلك جميع الأقوال السيئة التي تسوء وتحزن؛ كالشتم، والقذف، والسب، ونحو ذلك؛ فإن ذلك كله من المنهي عنه الذي يبغضه الله ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ فإنه يجوز له أن يدعوا على من ظلمه ويشتكى منه، ويجهر بالسوء لمن جهر له به؛ من غير أن يكذب عليه، ولا يزيد على مظلّمته، ولا يتعدى بشتمه غير

الْجَنَّةُ النَّارُ ۖ وَالنَّارُ أَلْوَنُ ۚ ﴿١٤٧﴾ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ۖ وَكَانَ اللَّهُ شَهِيدًا عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ عَدِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُنْفِقُوا عَنْهُ سَوْءٌ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنْ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ يُرِيدُونَ أَنْ يَفْرُقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفْرُقُوا بَيْنَ أَخْرِمَتْنَاهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا رَحِيمًا ﴿١٥٢﴾ يَسْأَلُ أَهْلَ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرًا مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الضُّرُوبَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ ثُمَّ اتَّبَعَتْهُمْ فَعَفَوْا عَنْ ذَلِكَ ۚ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾

(١٤٦) وهذا عام لكل منافق ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ إلا من الله عليهم بالتوبة من النفاق ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ له الظواهر والبواطن ﴿وَأَعْتَصَمُوا بِاللَّهِ﴾: والتجئوا إليه في جلب منافعهم، ودفع المضار عنهم ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ﴾ الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان ﴿لِلَّهِ﴾: فقصّدوا وجه الله بأعمالهم الظاهرة والباطنة، وسلموا من الرياء والنفاق؛ ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يعلم

(١٤٧) أخرج الشيخان عن معاذ بن جبل رضي الله عنه؛ قال: «كنت دريف النبي ﷺ على حمار؛ فقال لي: «يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟» قلت: «الله ورسوله أعلم. قال: «حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً» قلت: يا رسول الله! أفلا أبشر الناس؟ قال: «لا تبشروهم فيتكلوا».

(١٤٨) أخرج البخاري في «الأدب المفرد» وأبو داود بإسناد حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: إن لي جاراً يؤذيني، فقال له: «أخرج متاعك فضعه على الطريق» فأخذ الرجل متاعه فطرحه على الطريق، فجعل كل من مر به قال: مالك؟ قال: جاري يؤذيني. فيقول: اللهم عنه، اللهم اخزه! فقال الرجل: ارجع إلى منزلك. وقال: لا أؤذيك أبداً.

كل دليل دلّهم على الإيمان بما آمنوا به موجود هو أو مثله، أو ما فوقه للنبي الذي كفروا به، وكل شبهة يزعمون أنهم يقدحون بها في النبي الذي كفروا به موجود مثلها أو أعظم منها فيمن آمنوا به، فلم يبق بعد ذلك إلا التشهي والهوى ومجرد الدعوى التي لا يعجز عنها أحد ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾: كما تكبروا عن الإيمان بالله؛ أهانهم بالعذاب الأليم المخزي.

(١٥٢) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾: هذا يتضمن الإيمان بكل ما أخبر الله به عن نفسه، وبكل ما جاءت به الرسل من الأخبار والأحكام ﴿وَلَهُ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَهْلِ مَنَّهُمْ﴾ من رسله، بل آمنوا بهم كلهم؛ فهذا هو الإيمان الحقيقي، واليقين المبنى على البرهان ﴿أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ﴾ جزاء إيمانهم وما ترتب عليه من عمل صالح، وقول حسن، وخلق جميل، كلٌّ على حسب حاله ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾: يغفر السيئات، ويتقبل الحسنات.

(١٥٣) ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾: هذا السؤال الصادر من أهل الكتاب للرسول محمد ﷺ على وجه العناد والاقتراح، وجعلهم هذا السؤال يتوقف عليه تصديقهم أو تكذيبهم، وهو أنهم سألوه أن ينزل عليهم القرآن جملة واحدة كما نزلت التوراة والإنجيل، وهذا غاية الظلم منهم والجهل؛ فإن الرسول بشر عبد مدبر، ليس في يده من الأمر شيء؛ بل الأمر كله لله، وهذا السؤال مجرد

ظالمه، ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا﴾: فيسمع أقوالكم، فاحذروا أن تتكلموا بما يغضب ربكم؛ فيعاقبكم على ذلك ﴿عَلِيمًا﴾: بنياتكم ومصدر أقوالكم. (١٤٩) ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفَوْهُ﴾: هذا يشمل كل خير قولِي وفعلِي، ظاهر وباطن، من واجب ومستحب ﴿أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾ أي: عمن ساءكم في أبدانكم وأموالكم وأعراضكم، فتسمحوا عنه؛ فإن الجزاء من جنس العمل، فمن عفا لله عفا عنه، ومن أحسن أحسن الله إليه، فلهذا قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا قَدِيرًا﴾ يعفو عن زلات عباده وذنوبهم العظيمة؛ فيسدل عليهم ستره، ثم يعاملهم بعفوه التام الصادر عن قدرته.

(١٥٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾؛ هم اليهود، وذلك أنهم آمنوا بموسى ﷺ والتوراة، وكفروا بعتسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام والقرآن ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾: فهؤلاء يريدون التفريق بين الله وبين رسله! وهذا كفر وضلال؛ فإن من تولى الله حقيقة: تولى جميع رسله، ومن عادى أحدًا من رسله: فقد عادى الله وعادى جميع رسله ﴿وَيَقُولُونَ نُوْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾: يزعمون أنهم يؤمنون ببعض الرسل دون بعض، وأن هذا سبيل ينجيهم من عذاب الله! تلك أمانيتهم ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُتَّخَذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾؛ أي: دينًا بين اليهودية والإسلام.

(١٥١) ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾؛ أي: كفرهم محقق لا محالة، ولثلاثتهم أن مرتبتهم متوسطة بين الإيمان والكفر، ووجه كونهم كافرين: أن

بعد ما رأوا من الآيات الباهرات والأدلة القاهرة على يد موسى عليه السلام ما لم يره غيرهم **﴿فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ﴾** : ومع ذلك عفونا عنهم، فتوبوا أنتم؛ حتى يعفوا عنكم **﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾** : حجة بينة من المعجزات، وهي الآيات التسع.

(١٥٤) **﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَلِهِمْ﴾** : وأيضاً: امتنعوا من قبول أحكام كتابهم وهو التوراة حتى رفع جبل الطور من فوق رؤوسهم، وهددوا إن لم يؤمنوا أسقط عليهم، ففعلوا ذلك على وجه الإغماض والضرورة **﴿وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا أَبْوَابَ الْقَرْيَةِ سَجْدًا﴾** : ومن امتناعهم من دخول أبواب القرية التي أمروا بدخولها سجدًا مستغفرين، فخالفوا القول والفعل **﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾** : ومن اعتداء من اعتدى منهم في الصيد يوم السبت، فعاقبهم الله تلك العقوبة الشنيعة **﴿كُونُوا خَاشِعِينَ﴾**.

﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾، فنبذوه وراء ظهورهم. (١٥٥) **﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِثْقَهُمْ﴾** : بسبب نقضهم المواثيق والعهود التي أخذت عليهم **﴿وَكُفِّرِهِمْ بِكَائِتِ اللَّهِ﴾** : حججه وبراهينه **﴿وَقُلْنَاهُمُ الْأَنْبِيَاءُ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾** : بكثرة إجرامهم واجترائهم على أنبياء الله، فإنهم قتلوا جمًّا غفيرًا **﴿وَقَوْلُهُمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾**؛ أي: لا تفقه ما تقول لهم، ولا تفهمه **﴿بَلْ طَعَّ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾** فهي مطبوع عليها بكفرهم **﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾** لأن قلوبهم تمرنت على الكفر والطغيان.

(١٥٦) **﴿وَيَكْفُرِهِمْ وَقَوْلُهُمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا﴾** حين رموها بالزنا كذبًا وزورًا.

فِيمَا نَقُضُهُمْ مِثْقَهُمْ وَكُفِّرِهِمْ بِكَائِتِ اللَّهِ وَقُلْنَاهُمُ الْأَنْبِيَاءُ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُهُمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَعَّ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ١٥٥ وَيَكْفُرِهِمْ وَقَوْلُهُمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ١٥٦ وَقَوْلُهُمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ١٥٧ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٥٨ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَآلِيؤْمِنِينَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ١٥٩ فَيُطْلَبُونَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كِبْرًا ١٦٠ وَأَخَذْنَاهُمُ الرِّبَا وَقَدْ هُمُوهَا عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ لِلنَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٦١ لَكِنَّ الرِّسْخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ١٦٢

دعوى لا دليل عليها ولا مناسبة؛ بل ولا شبهة، فمن أين يوجد في نبوة أحد من الأنبياء أن الرسول الذي يأتيكم بكتاب نزل مفرقًا فلا تؤمنوا به ولا تصدقوه؟! فلما ذكرهم اعتراضهم الفاسد؛ أخبر أنه ليس بغريب من أمرهم، بل سبق لهم من المقدمات القبيحة ما هو أعظم مما سلكوا مع الرسول الذي يزعمون أنهم آمنوا به: **﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾** : أعظم من ذلك الذي سألوا **﴿فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهُ جَهْرَةً﴾** : سألوه رؤية الله تعالى عيانًا؛ **﴿فَأَخَذْنَاهُمُ الصَّلَاقَةَ بِظُلْمِهِمْ﴾**؛ أي: الموت أو الغشية الشديدة بطغيانهم وبغيهم وعتوهم وعنادهم **﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعُجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾** : اتخذوا العجل إلها يعبدونه من

عَلَيْهِ السَّلَامُ وصدقه، وأنه لا يشهد إلا بالحق: أن ما جاء به محمد ﷺ هو الحق، وما عداه فهو ضلال وباطل.

(١٦٠) ﴿فَيُظَلِّمُونَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُحِلَّت لَهُمْ﴾: أخبر تعالى أنه حرم على أهل الكتاب كثيرًا من الطيبات التي كانت حلالاً عليهم، وهذا تحريم عقوبة؛ بسبب ظلمهم واعتدائهم، ﴿وَيَصِدَّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ وصدّهم الناس عن سبيل الله، ومنعهم إياهم من الهدى.

(١٦١) ﴿وَبِأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾ فمنعوا المحتاجين ممن يبايعونه عن العدل ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾: أخذهم أموال غيرهم بغير حق ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾: مؤلماً وموجعاً.

فعاقبهم الله من جنس فعلهم فمنعهم من كثير من الطيبات التي كانوا بصدد حلها، لكونها طيبة، وأما التحريم الذي على هذه الأمة؛ فإنه تحريم تنزيه لهم عن الخبائث التي تضرهم في دينهم ودنياهم.

(١٦٢) لما ذكر معاييب أهل الكتاب، ذكر الممدوحين منهم فقال: ﴿لَكِنَّ الرَّاْسِيخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾: الذين ثبت العلم في قلوبهم، ورسخ الإيقان في أفئدتهم، فأنمر لهم الإيمان التام العام ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾: القرآن ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾: سائر الكتب المنزلة ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ﴾

(١٥٧) ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾: رأوا شبهه فظنوه إياه؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ يعني بذلك من ادعى قتلَه من اليهود ومن سلمه إليهم من جهال النصارى، كلهم في شك من ذلك وخيرة وضلال ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ وما قتلوه متيقنين أنه هو، بل شاكين متوهمين.

(١٥٨) ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ يعني: بل رفع الله المسيح إليه، فهو عنده في السماء ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَزِيرًا﴾: منيعاً بالنقمة من اليهود ﴿حَكِيمًا﴾: حكماً باللعنة والغضب عليهم.

(١٥٩) ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾: الضمير في قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ راجع إلى عيسى ﷺ، والمعنى: وما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بالمسيح ﷺ قبل موت المسيح، وذلك يكون عند اقتراب الساعة وظهور علاماتها الكبار؛ فإنها تكاثرت الأحاديث الصحيحة في نزوله ﷺ في آخر هذه الأمة، يقتل الدجال، ويضع الجزية، ويؤمن به أهل الكتاب مع المؤمنين ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ يكون عيسى ﷺ ﴿عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾: يشهد عليهم بأعمالهم، وهل هي موافقة لشرع الله أم لا؟

وحينئذ لا يشهد إلا بطلان كل ما هم عليه، مما هو مخالف لشرعية القرآن ولما دعاهم إليه محمد ﷺ، علمنا بذلك؛ لِعِلْمِنَا بِكَمَالِ عَدَالَةِ الْمَسِيحِ

حكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها ثم يقول أبو هريرة: واقراءوا إن شئتم: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾.

أوحى إلى هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وفي هذا عدة فوائد:

منها: أن محمداً ﷺ ليس ببدع من الرسل، بل أرسل الله قبله من المرسلين العدد الكثير، فاستغراب رسالته لا وجه له.

ومنها: أنه أوحى إليه كما أوحى إليهم، من الأصول والعدل الذي اتفقوا عليه أن بعضهم يصدق بعضاً، ويوافق بعضهم بعضاً.

ومنها: أن في ذكر هؤلاء الرسل وتعدادهم التنويه بهم والثناء عليهم، وشرح أحوالهم؛ ليزداد المؤمن إيماناً بهم، ومحبة لهم، واقتداء بهديهم وستهم، ومعرفة بحقوقهم.

ولما ذكر اشتراكهم بوحية؛ ذكر تخصيص بعضهم فقال: ﴿وَأَنبَأْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ وهو: الكتاب المعروف المزبور المكتوب، الذي خص الله تعالى به داود ﷺ لشرفه وفضله.

(١٦٤) ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ قصصنا عليك رسلاً وخلقا آخرين لم يذكرنا، وهذا يدل على كثرتهم ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾؛ أي: مشافهة منه إليه، لا بواسطة؛ حتى اشتهر بهذا عند العالمين

(١٦٥) ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ﴾ من أطاع الله واتبع رسله بالسعادة الدنيوية والأخروية ﴿وَمُنْذِرِينَ﴾ من عصى الله وخالفهم بشقاوة الدارين ﴿إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ فيقولوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير، فلم يبق للخلق على الله حجة؛ لإرساله الرسل تترى؛ يبينون للناس

إِنَّمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ. وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآدَمَ دَاوُدَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (١٦٤) رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥) لَكِنِّي أَنُذِرُكُمْ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِي وَاللَّيْلِ يَسْهَدُونَ وَكُنِيَ بِاللَّهِ سَهِيدًا (١٦٦) إِنَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا (١٦٧) إِنَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمْنَا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَغْفِرْ لهُمْ وَلَا يُهْدِيهِمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٦٩) يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمَنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧٠)

الصلوة والموئود الزكوة: أثمرت لهم الأعمال الصالحة من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة للذين هما أفضل الأعمال؛ فقد اشتملتا على الإخلاص للمعبود، والإحسان إلى العبيد ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: آمنوا بالله وباليوم الآخر؛ فخافوا الوعيد، ورجوا الوعد ﴿أُولَئِكَ سَنُوْنَهُمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾: وهي الجنة.

(١٦٣) ﴿إِنَّمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ﴾ يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله من الشرع العظيم والأخبار الصادقة ما

(١٦٥) في «الصحاحين» من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أغبر من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله، من أجل ذلك مدح نفسه، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين».

بذنبه وأضل غيره؛ فباء بالإثمين ورجع بالخسارتين، وفاته الهديتان. (١٦٨) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا﴾ وهذا الظلم؛ هو زيادة على كفرهم، وإلا؛ فالكفر عند إطلاق الظلم يدخل فيه.

والمراد بالظلم هنا: أعمال الكفر، والاستغراق فيه، فهؤلاء بعيدون من المغفرة والهداية، ولهذا قال: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِهَيْدِهِمْ طَرِيقًا﴾.

(١٦٩) ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ وإنما تعذرت المغفرة لهم والهداية؛ لأنهم استمروا في طغيانهم، وازدادوا في كفرهم، فطبع على قلوبهم وانسدت عليهم طرق الهداية؛ إلا طريقاً واحداً، هو طريق جهنم عياناً بالله، طريق الضلال والخسران.

﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾: لا يبالي الله بهم ولا يعبأ؛ لأنهم لا يصلحون للخير، فلا يليق بهم إلا الحالة التي اختاروها لأنفسهم.

(١٧٠) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾: يأمر تعالى جميع الناس أن يؤمنوا بعبدته ورسوله محمد ﷺ، وذكر السبب الموجب للإيمان به؛ وهو إخباره بأنه جاءهم بالحق، فمجيئته نفسه حق، وما جاء به من الشرع حق، ثم ذكر الفائدة من الإيمان، فقال: ﴿فَقَاتِلُوا حَتَّى تَكُونَ﴾ والخير ضد الشر، فالإيمان خير للمؤمنين في أبدانهم وقلوبهم وأرواحهم ودنياهم وأخراهم، ثم ذكر مضرة عدم الإيمان به ﷺ، فقال: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا﴾ به ﷺ؛ فإنكم لا تضرون إلا أنفسكم، والله تعالى غني عنكم لا تضره معصية العاصين، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي

دينهم، ومراضي ربهم ومساخطه، وطرق الجنة وطرق النار فمن كفر بعد ذلك فلا يلومن إلا نفسه﴾ ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَزِيرًا حَكِيمًا﴾: هذا الإرسال من كمال عزته وحكمته تعالى؛ أن أرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب، حيث كان الناس مضطرين إلى الأنبياء أعظم ضرورة تقدر، فأزال هذا الاضطراب؛ فله الحمد والشكر.

(١٦٦) ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ لما ذكر أن الله أوحى إلى رسوله محمد ﷺ كما أوحى إلى إخوانه من المرسلين؛ أخبر هنا بشهادته تعالى على رسالته وصحة ما جاء به، وأنه ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾؛ أي: صادراً عن علمه، وفي هذا إشارة وتنبيه على وجه شهادته، والمعنى: إذا كان تعالى أنزل هذا القرآن، وهو يعلم ذلك ويعلم حالة الذي أنزل عليه، وأنه دعا الناس إليه، فمن أجابه وصدقته كان وليه، ومن كذبه وعاداه كان عدوه، فهل توجد شهادة أعظم من هذه الشهادة وأكبر؟! ولا يمكن القدح في هذه الشهادة إلا بعد القدح بعلم الله وقدرته وحكمته.

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾: وأخبر تعالى بشهادة الملائكة على ما أنزل على رسوله؛ لكمال إيمانهم، ولجلالة هذا المشهود عليه، فإن الأمور العظيمة لا يستشهد عليها إلا الخواص ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَحْدَهُ شَهِيدًا﴾.

(١٦٧) ثم توعد من كفر بهم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾: جمعوا بين الكفر بأنفسهم وصدّهم الناس عن سبيل الله، وهؤلاء هم أئمة الكفر ودعاة الضلال ﴿قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ وأي ضلال أعظم من ضلال من ضل

إلى مقام الربوبية الذي لا يليق بغير الله، ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾: نهى عن قول الكذب على الله، والقول بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وشرعه، وأمر بقول الحق في هذه الأمور.

﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾: غاية المسيح ﷺ ومنتهى ما يصل إليه من مراتب الكمال أعلى حالة تكون للمخلوقين، وهي درجة الرسالة التي هي أعلى الدرجات وأجل المثوبات ﴿و﴾ أنه ﴿وَكَلِمَتُهُ﴾ التي ﴿أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾: كلمة تكلم الله بها فكان بها عيسى، ولم يكن تلك الكلمة، وإنما كان بها، وهذا من باب إضافة التشريف والتكريم ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾؛ أي: من الأرواح التي خلقها وكمّلها بالصفات الفاضلة والأخلاق الكاملة، أرسل الله روحه جبريل ﷺ فنفخ في فرج مريم عليها السلام، فحملت بإذن الله بعيسى ﷺ.

﴿فَتَأْمُرُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾: أنتهوا خيراً لكم: لما بين حقيقة عيسى ﷺ؛ أمر أهل الكتاب بالإيمان به وبرسله، ونهاهم أن يجعلوا الله ثالث ثلاثة؛ أحدهم: عيسى، والثاني: مريم، فهذه مقالة النصارى قبحهم الله، فأمرهم أن ينتهوا، وأخبر أن ذلك خير لهم، ثم نزه نفسه عن الشريك والولد، فقال: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَحْدٌ﴾: هو المنفرد بالألوهية،

بِتَأْهِلِ الْكِتَابِ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَتَأْمُرُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ أَنْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرْهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابٌ أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَتَأْتِيَ النَّاسَ فَدَّجَاءَ كُمْ بُرْهَنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَأَعَصَوْا بُلُوءَ فَسَيُعَذِّبُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؛ أي: الجميع خلقه وملكه، وتحت تدبيره وتصريفه ﴿وَكَاثَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بكل شيء، فهو العليم بمن يستحق الهداية والغواية، ﴿حَكِيمًا﴾ في خلقه وأمره، والحكمة: وضع الهداية والغواية موضعهما.

(١٧١) ﴿يَتَأْهِلُ الْكِتَابُ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ﴾: ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو في الدين؛ وهو: مجاوزة الحد والقدر المشروع إلى ما ليس بمشروع، وذلك كقول النصارى في غلوهم بعيسى ﷺ ورفعته عن مقام النبوة والرسالة

(١٧١) أخرج البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد الله ورسوله».

وأخرج البخاري عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق؛ أدخله الله الجنة على ما كان من العمل».

﴿فَيُوقِفُهُمْ أَجُورُهُمْ﴾: الأجور التي رتبها على الأعمال، كُلٌّ بحسب إيمانه وعمله ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ من الثواب الذي لم تنله أعمالهم، ولم تصل إليه أفعالهم، ولم يخطر على قلوبهم.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا﴾ امتنعوا من طاعة الله وعبادته واستكبروا؛ ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ وهو سخط الله وغضبه، والنار الموقدة ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾: لا يجدون أحدًا من الخلق يتولاهم فيحصل لهم المطلوب، ولا مَنْ ينصرهم فيدفع عنهم المرهوب.

(١٧٤) ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾: يمتنُّ تعالى على سائر الناس بما أوصل إليهم من حجج قاطعة على الحق تبينه وتوضحه، وتبين ضده وفي قوله: ﴿مَنْ رَبِّكُمْ﴾ ما يدل على شرف هذا البرهان وعظمته، حيث كان من ربكم الذي رباكم التربية الدينية والدنيوية ﴿وَأَرْزَلْنَا إِلَيْكُمْ تَوْرًا مُبِينًا﴾: وهو هذا القرآن العظيم، الذي قد اشتمل على علوم الأولين والآخرين والأخبار الصادقة النافعة، فالناس في ظلمة إن لم يستضيئوا بأنواره، وفي شقاء عظيم إن لم يقتبسوا من خيره.

(١٧٥) ولكن انقسم الناس - بحسب الإيمان بالقرآن والانتفاع به - قسمين: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ﴾: اعترفوا بوجوده واتصافه بكل وصف كامل، وتنزيهه من كل نقص وعيب ﴿وَأَعْتَصَمُوا بِهِ﴾: لجثوا إلى الله واعتمدوا عليه، وتبرءوا من حولهم وقوتهم، واستعانوا بربهم؛ ﴿فَسَيُعْطِيهِمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ﴾: فسيتغمدهم بالرحمة الخاصة؛ فيوفقهم للخيرات ويجزل لهم المثوبات، ويدفع عنهم البليات والمكروهات

الذي لا تنبغي العبادة إلا له ﴿سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾: تنزهه وتقدس نفسه عن الشريك والولد؛ لأن ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾: فالكل مملوكون له مفتقرون إليه، فمحال أن يكون له شريك منهم أو ولد وهم تحت تدبيره وتصريفه وهو الوكيل على كل شيء.

(١٧٢) ﴿لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾: لما ذكر تعالى غلو النصارى في عيسى عليه السلام، وذكر أنه عبده ورسوله؛ ذكر أنه لا يستنكف عن عبادة ربه؛ أي: لا يمتنع عنها رغبة عنها، لا هو ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ فنزههم عن الاستنكاف، وتنزيههم عن الاستكبار من باب أولى، ونفي الشيء فيه إثبات ضده.

فعيسى والملائكة المقربون قد رغبوا في عبادة ربهم، وأحبوها، وسعوا فيها بما يليق بأحوالهم، فأوجب لهم ذلك الشرف العظيم والفوز العظيم، فلم يستنكفوا أن يكونوا عبيداً لربوبيته ولا لإلهيته، بل يرون افتقارهم لذلك فوق كل افتقار.

ولا يظن أن رفع عيسى أو غيره من الخلق فوق مرتبته التي أنزله الله فيها وترفعه عن العبادة كمالاً؛ بل هو النقص بعينه، وهو محل الذم والعقاب، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِي وَسَكَرَ فَيَسْخَرُهُمْ إِلَيَّ جَمِيعًا﴾: فسيحشر الخلق كلهم إليه المستنكفين والمستكبرين، وعباده المؤمنين، فيحكم بينهم بحكمه العدل، وجزائه الفصل.

(١٧٣) ثم فصل حكمه فيهم، فقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: جمعوا بين الإيمان بالمأمور به وعمل الصالحات؛ من واجبات، ومستحبات، من حقوق الله وحقوق عباده

وليس له ولد صلب، ولا ولد ابن، ولا أب، ولا جد ولهذا قال: ﴿إِنْ أَمْرُكَ هَٰذَا لَيْسَ لَكَ وَلَدٌ﴾: لا ذكر ولا أنثى، ولا ولد صلب ولا ولد ابن، ولا والد ﴿وَلَوْ أَنَّهُ أَخْتُ﴾ شقيقة أو لأب؛ لا لأم ﴿فَلَهَا يَصُفُّ مَا تَرَكَّ﴾: نصف متروكات أخيها، من نفود وعقار وأثاث وغير ذلك، وذلك من بعد الدين والوصية ﴿وَهُوَ﴾: أخوها الشقيق، أو الذي للأب ﴿يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ ولم يفدز له إراثاً؛ لأنه عاصب فيأخذ مالها كله؛ إن لم يكن صاحب فرض ولا عاصب يشاركه، أو ما أبقت الفروض.

﴿فَإِنْ كَانَتْ الْأَخْتَانِ﴾ ﴿أُتْنَتَيْنِ﴾ فما فوق ﴿فَلَهُمَا اثْنَتَانِ مِمَّا تَرَكَّ﴾.

﴿وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رَجَالًا وَنِسَاءً﴾: اجتمع الذكور من الإخوة لغير أم مع الإناث؛ ﴿فَلِلَّذِكْرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾: فيسقط فرض الإناث ويعصبنهن إخوتهن.

﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾: يبين لكم أحكامه التي تحتاجونها، ويوضحها ويشرحها لكم فضلاً منه وإحساناً؛ لكي تهتدوا ببيانه، وتعملوا بأحكامه، ولئلا تضلوا عن الصراط المستقيم بسبب جهلكم وعدم علمكم ﴿وَاللَّهُ يَكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: عالم بالغيب والشهادة والأمور الماضية والمستقبلية، ويعلم حاجتكم إلى بيانه وتعليمه؛ فيعلمكم من علمه الذي ينفعكم، على الدوام في جميع الأزمنة والأمكنة.



﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾: يوفقهم للعلم والعمل؛ معرفة الحق والعمل به.

والقسم الثاني: أي: ومن لم يؤمن بالله ويعتصم به ويتمسك بكتابه؛ منعهم من رحمته وحرمتهم من فضله، وخلى بينهم وبين أنفسهم، فلم يهتدوا، بل ضلوا ضلالاً مبيناً، عقوبة لهم على تركهم الإيمان فحصلت لهم الخيبة والحرمان، نسأله تعالى العفو والعافية والمعافة.

(١٧٦) ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ أخبر تعالى أن الناس استفتوا رسوله ﷺ في الكلاله بدليل قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾؛ وهي الميت يموت

(١٧٦) أخرج البزار بإسناد حسن عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال: نزلت آية الكلاله على النبي ﷺ في مسير له، فوقف النبي ﷺ؛ فإذا هو بحذيفة، وإذا رأس ناقة حذيفة عند مؤترز النبي ﷺ، فلحقها إياه، فنظر حذيفة؛ فإذا عمر فلحقها إياه، فلما كان في خلافة عمر رضى الله عنه نظر عمر في الكلاله؛ فدعا حذيفة فسأله عنها، فقال حذيفة لقد لقانيها رسول الله ﷺ فلقينك كما لقاني، والله إني لصادق، والله لا أزيدك على ذلك شيئاً أبداً.

تفسير سورة المائدة (*)
وهي مدنية

والنهي يشمل النهي عن فعلها، والنهي عن اعتقاد حلها؛ فهو يشمل النهي عن فعل القبيح، وعن اعتقاده ﴿وَلَا الشَّهَرُ الْحَرَامُ﴾: لا تنتهكوه بالقتال فيه وغيره من أنواع الظلم ﴿وَلَا الْهَدَىٰ وَلَا الْفَلْتِ﴾: ولا تحلوا الهدى الذي يهدي إلى بيت الله في حج أو عمرة أو غيرهما من نعم وغيرها ﴿وَلَا الْفَلْتِ﴾: هذا نوع خاص من أنواع الهدى، وهو الهدى الذي يفتل له قلائد أو عرى، فيجعل في أعناقهم ليعرف أنه هدى فيحترم ﴿وَلَا آيَاتِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾: قاصدين له ﴿يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾: من قصد هذا البيت الحرام، وقصد فضل الله بالتجارة والمكاسب المباحة، أو قصد رضوان الله بحجه وعمرته والطواف به والصلاة وغيرها من أنواع العبادات؛ فلا تتعرضوا له بسوء ولا تهينوه، بل أكرموا، وعظموا الوافدين الزائرين لبيت ربكم، ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾: إذا حللتكم من الإحرام بالحج والعمرة، وخرجتم من الحرم؛ حل لكم الاصطياد، وزال ذلك التحريم.

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾: لا يحملنكم بغض قوم وعداوتهم واعتداؤهم عليكم، حيث صدوكم عن

(١) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾: هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان بالوفاء بالعقود؛ بإكمالها، وإتمامها، وعدم نقضها ونقصها، وهذا شامل للعقود التي بين العبد وبين ربه، والتي بينه وبين رسوله ﷺ، والتي بينه وبين الخلق.

﴿أُحِلَّتْ لَكُمُ﴾: لأجلكم؛ رحمة بكم ﴿بِهَيْمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ من الإبل والبقر والغنم، بل ربما دخل في ذلك الوحشي منها، والظباء وحمر الوحش، ونحوها من الصيد ﴿إِلَّا مَا يَتَلَقَّىٰ عَلَيْكُمْ﴾ تحريمه منها ﴿غَيْرِ مُحِلِّ الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾: أحلت لكم بهيمة الأنعام في كل حال، إلا حيث كنتم متصفين بأنكم غير متجربين على قتله في حال الإحرام؛ فإن ذلك لا يحل لكم إذا كان صيداً كالظباء ونحوه، والصيد: هو الحيوان المأكول المتوحش ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾: فمهما أَرَادَ تعالى حكم به حكماً موافقاً لحكمته.

(٢) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْلُوا شَعِيرَ اللَّهِ﴾: محرّماته التي أمركم بتعظيمها وعدم فعلها،

(*) أخرج أحمد والنسائي بإسناد حسن عن جبير بن نفير، قال: دخلت على عائشة، فقالت لي: هل تقرأ سورة المائدة؟ قلت: نعم، قالت: أما إنها آخر سورة نزلت، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه، وما وجدتم فيها من حرام فحرموه وسألتها عن خلق رسول الله ﷺ، قالت: القرآن.

(١) في «الصحاحين» من حديث ابن عمر رضيهما؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «الْبَيْعَانُ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا». وأخرج أبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد بإسناد صحيح عن أبي سعيد؛ قال: قلنا يا رسول الله، ننحر الناقة، ونذبح البقرة أو الشاة في بطنها الجنين أتلقيه أم نأكله؟ فقال: «كلوه إن شئتم؛ فإن ذكاته ذكاة أمه».

(٢) في «الصحاحين» عن أبي بكر؛ أن رسول الله ﷺ قال في حجة الوداع: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم: ثلاث متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان».

والتقوى: اسم جامع لترك كل ما يكرهه الله ورسوله، من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة. ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ﴾؛ وهو: التجبرؤ على المعاصي التي يَأْتُم صاحبها، وَيُخْرِجُ ﴿وَالْعُدُونَ﴾؛ وهو التعدي على الخلق في دماءهم وأموالهم وأعراضهم، فكل معصية وظلم يجب على العبد كُف نفسه عنه، ثم إعانته غيره على تركه ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ والأمر بتقواه سبحانه؛ لأنه شديد العقاب ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ على من عصاه وتجراً على محارمه، فاحذروا المحارم؛ لئلا يحل بكم عقابه العاجل والآجل.

(٣) ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيَّةُ﴾: أخبر تعالى أنه حرم على عباده الميتة؛ وهي ما فقدت حياته بغير ذكاة شرعية، فإنها تحرم لضررها، وهو احتقان الدم في جوفها ولحمها المضر بأكملها، ويستثنى من ذلك: ميتة الجراد والسماك، فإنه حلال؛ كما ثبت بالسنة.

﴿وَالْدَّمُ﴾ المسفوح ﴿وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ﴾ وذلك شامل لجميع أجزائه.

﴿وَمَا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾: ذكر عليه اسم غير الله تعالى من الأصنام والأولياء والكواكب وغير ذلك من المخلوقين.

﴿وَالْمُنْخَفَقَةُ﴾: الميتة بخنق، بيد أو حبل، أو إدخالها رأسها بشيء ضيق، فتعجز عن إخراجها

لِلْمَيْتَةِ وَالْمُنْخَفَقَةِ وَالْمَوْفُودَةِ وَالْمَرْدِيَةِ وَالنَّطِيحَةِ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا يُحِى عَلَى النَّصَبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِأَلْزَلِيزَةِ لَكُمْ فَسَقُ الْيَوْمِ يَسَّرُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣﴾ الْيَوْمَ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَلٌ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلَلٌ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِينَ غَيْرَ مُسَفَحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْآيَاتِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٤﴾

المسجد، على الاعتداء عليهم؛ طلباً للاشتفاء منهم، بل احكموا بما أمركم الله به من العدل في كل أحد، وهذه كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَاؤُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨] ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْقَوَىٰ﴾: ليعن بعضكم بعضاً على البر؛ وهو: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، من حقوق الله وحقوق الآدميين.

(٣) أخرج ابن ماجه وأحمد بإسناد صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «أحل لنا ميتتان ودمان؛ فأما الميتتان: فالحيوت والجراد، وأما الدمان: فالكبد والطحال».

وروي موقوفاً، وهو في حكم المرفوع؛ لأنه لا يقال بالرأي والقياس. وأخرج الشيخان عن طارق بن شهاب، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن رجلاً من اليهود قال له: يا أمير المؤمنين، آية في كتابكم تفرؤونها لو علينا معشر اليهود نزلت لا تخزنا ذلك اليوم عيداً؟ قال: أي آية؟ قال: «الْيَوْمَ أَكَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا»؛ قال عمر: قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ؛ وهو قائم بعرفة يوم جمعة.

ورسوله، وانخذل أهل الشرك انخذالاً بليغاً، فلما رأوا عز الإسلام وانتصاره وظهوره؛ يئسوا كل اليأس من المؤمنين أن يرجعوا إلى دينهم.

﴿فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَأَخْشَوْنَ﴾: فلا تخشوا المشركين، واخشوا الله الذي نصركم عليهم وخذلهم، ورد كيدهم في نحورهم.

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾: بتمام النصر، وتكميل الشرائع الظاهرة والباطنة ﴿وَأَتَمَّمْتُ﴾: أنجزت وأكملت ﴿عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ الظاهرة والباطنة ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾: اخترته واصطفيته لكم ديناً، كما ارتضيتكم له ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ﴾: ألجأته الضرورة إلى أكل شيء من المحرمات السابقة ﴿فِي مَخْصَصَةٍ﴾: مجاعة ﴿غَيْرِ مُتَجَانِفٍ﴾: مائل ﴿لَا تَأْمُرُ﴾ بالأكل حتى يضطر، ولا يزيد في الأكل على كفايته؛ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ﴾. حيث أباح له الأكل في هذه الحال ﴿رَحِيمٌ﴾ بما يقيم به بنيته من غير نقص يلحقه في دينه.

(٤) ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَكُمْ﴾ من الأطعمة ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾؛ وهي كل ما فيه نفع أو لذة، من غير ضرر بالبدن ولا بالعقل ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّينَ﴾: وأحل لكم ما علمتم من الجوارح، والمقصود بالجوارح: الكلاب، والفهود، والصقر، ونحو ذلك، مما يصيد بنابه أو بمخلبه ﴿تَعْلَمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾: لكن الصيد بالجوارح المذكورة مشروط بأن تكون معلمة بما يعد في العرف تعليمًا؛ بأن يسترسل إذا أرسل،

حتى تموت.

﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾: الميتة بسبب الضرب بعضاً أو حصى، أو خشبة، أو هدم شيء عليها، بقصد أو بغير قصد ﴿وَالْمُتَرَدِّيةُ﴾: الساقطة من علو؛ كجبل، أو جدار، أو سطح ونحوه، فتموت بذلك ﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾: وهي التي تنطحها غيرها فتموت ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ من ذئب، أو أسد، أو نمر، أو من الطيور التي تفترس الصيود، فإنها إذا ماتت بسبب أكل السبع؛ فإنها لا تحل.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾؛ راجع لهذه المسائل: من منخنة، وموقوذة، ومتردية، ونطيحة، وأكيلة سبع، إذا ذكيت وفيها حياة مستقرة لتحقيق الذكاة فيها؛ حُلَّتْ.

﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ﴾؛ أي: وحرّم عليكم الاستقسام بالأزلام، ومعنى الاستقسام: طلب ما يُقسم لكم ويُقدّر بها، وهي: قدام ثلاثة كانت تستعمل في الجاهلية، مكتوب على أحدها: «افعل» وعلى الثاني: «لا تفعل» والثالث: «غفل» لا كتابة فيه، فحرّم الله عليهم الذي في هذه الصورة وما يشبهه، وعوضهم عنه بالاستخارة لربهم في جميع أمورهم.

﴿ذَلِكُمْ فَسْقٌ﴾ إشارة لكل ما تقدم من المحرمات التي حرّمها الله صيانة لعباده، وأنها فسق؛ أي: خروج عن طاعته إلى طاعة الشيطان.

﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾: اليوم المشار إليه: يوم عرفة؛ إذ أتم الله دينه، ونصر عبده

(٤) في «الصحيحين» عن عدي بن حاتم رضي الله عنه؛ قال: قلت: يا رسول الله، إني أرسل الكلاب المعلمة وأذكر اسم الله؟ فقال: «إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله، فكل ما أمسك عليك». قلت: وإن قتلن؟ قال: «وإن قتلن، ما لم يشركها كلب ليس منها، فإنك إنما سميت على كلبك ولم تسم على غيره». قلت له: إني أرمي بالمعراض الصيد فأصيب؟ قال: «إذا رميت بالمعراض فخرق فكله، وإذا أصابه بعرص؛ فإنه وقيد، فلا تأكله».

تدعوهم الحاجة إليه، ويحصل لهم الانتفاع به من الطيبات، وكرر تعالى إحلال الطيبات؛ لبيان الامتنان، ودعوة للعباد إلى الإكثار من شكره وذكره ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَّ لَكُمْ﴾: ذبائح اليهود والنصارى حلال لكم يا معشر المسلمين دون باقي الكفار؛ فإن ذبائحهم لا تحل للمسلمين ﴿وَعَلَامَتُكُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿حَلَّ لَهُمْ﴾: يحل لكم أن تطعموهم إياه ﴿وَ﴾ أحل لكم ﴿الْمُحْصَنَاتُ﴾: الحرائر العفيفات ﴿مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾. ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾ والحرائر العفيفات ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ من اليهود والنصارى ﴿إِذَا تَنَبَّهْتُمْ أَجُورَهُنَّ﴾: أبحنا لكم نكاحهن؛ إذا أعطيتموهن مهورهن ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفَّحِينَ﴾ أي: حالة كونكم أيها الأزواج محصنين لنسائكم، بسبب حفظكم لفروجكم عن غيرهن ﴿غَيْرَ مُسَفَّحِينَ﴾: زانين مع كل أحد ﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَعْدَانٍ﴾ وهو: الزنا مع العشيقات ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِلَهِينَ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾: ومن كفر بالله تعالى وما يجب الإيمان به من كتبه ورسله أو شيء من الشرائع؛ فقد حبط عمله، بشرط أن يموت على كفره ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الذين خسروا أنفسهم وأموالهم وأهلبيهم يوم القيامة، وحصلوا على الشقاوة الأبدية.

(٦) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يا أيها الذين آمنوا، اعملوا بمقتضى إيمانكم بما شرعناه لكم ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾: إذا أردتم القيام بالصلاة

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا وَإِن كُنْتُمْ مَّرْغَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدُكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّهُ مَأْثُورٌ لِّلَّهِ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِّن حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ①
وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَاثَقْتُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ يَدَاتِ الضُّمُورِ ② يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَقُولُوا أَعَدَلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ③ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ④

وينزجر إذا زجر، وإذا أمسك لم يأكل ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾: أمسكن من الصيد لأجلكم، وأما ما أكل منه الجارح: فإنه لا يحل؛ فإنه لا يعلم أنه أمسكه على صاحبه، ولعله أن يكون أمسكه على نفسه ﴿وَأَذْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فيه اشتراط التسمية عند إرسال الجارح، وأنه إن لم يسم الله متعمداً؛ لم يبح ما قتل الجارح.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ثم حث تعالى على تقواه ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ وحذر من إتيان الحساب في يوم القيامة، وأن ذلك أمر قد دنا واقترب.

(٥) ﴿الْيَوْمَ أَحْلَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾: أباح لهم ما

(٥) أخرج أحمد بإسناد صحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن يهودياً دعا النبي ﷺ إلى خبز شعير وإهالة سَنَخَةٍ فأجابته.

(٦) أخرج الشيخان عن عائشة رضي الله عنها: أنها استعارت من أسماء قلادة فهلكت، فبعث رسول الله ﷺ رجلاً فوجدها، فأدركتهم الصلاة وليس معهم ماء، فصلوا، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ؛ فأذن الله تعالى آية التيمم، فقال أسيد بن حضير لعائشة: جزاك الله خيراً؛ فوالله ما نزل بك أمر تكرهينه إلا جعل الله ذلك لك والمسلمين فيه خيراً.

حليلا تكم ﴿فَلَمْ تَحْدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾: جواز التيمم عند فقد الماء ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾: التيمم بكل ما تصاعد على وجه الأرض من تراب وغيره، والألّا يكون بتراب نجس ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾: أنه يُمسح في التيمم الوجه واليدان إلى الرسغين فقط.

﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾: إن الله تعالى، فيما شرعه لنا من الأحكام لم يجعل علينا في ذلك من حرج ولا مشقة ولا عسر، ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾: وإنما هو رحمة منه بعباده ليطهرهم، وليتم نعمته عليهم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: ينبغي للعبد أن يتدبر الحُكْم والأسرار في شرائع الله؛ ليزداد معرفة وعلمًا، ويزداد شكرًا لله ومحبة له، على ما شرع من الأحكام التي توصل العبد إلى المنازل العالية الرفيعة.

(٧) ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: يأمر تعالى عباده بذكر نعمه الدينية والدنيوية، بقلوبهم وألسنتهم؛ فإن في استدامة ذكرها داعيًا لشكر الله تعالى ومحبته، وامتلاء القلب من إحسانه ﴿وَمِيثَاقَهُ﴾: واذكروا ميثاقه ﴿الَّذِي أَتَّفَقْتُمْ بِهِ﴾: عهده الذي أخذه عليكم، والمراد: أنهم بإيمانهم بالله ورسوله قد التزموا طاعتهم، وليس المراد مجرد النطق واللفظ، ولهذا قال: ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾: سمعنا ما دعوتنا به من آياتك القرآنية والكونية، سمع فهم وإذعان وانقياد. وأطعنا ما أمرتنا به بالامتثال، وما نهيتنا عنه بالاجتناب، وهذا شامل لجميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة ﴿وَأَتَّفَقُوا اللَّهَ﴾: في جميع أحوالكم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾: بما تنطوي عليه من الأفكار

﴿فَاعْسِلْوا وُجُوهَكُمْ﴾: أمر بغسل الوجه، وهو: ما تحصل به المواجهة من منابت شعر الرأس المعتاد إلى ما انحدر من اللحيين والذقن طولاً، ومن الأذن إلى الأذن عرضاً ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾: وأمر بغسل اليدين، وأن حدّهما إلى المرفقين ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾: أمر بمسح الرأس، وأنه يجب مسح جميعه؛ لأن الباء ليست للتبعية، وإنما هي للملاصقة، وأنه يعم المسح بجميع الرأس، وقد ثبت ذلك بالسنة أيضًا، ولم يصح عنه ﷺ في حديث واحد أنه مسح بعض رأسه ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾: وأمر بغسل الرجلين إلى الكعبين؛ وهما العظامان الناتان عن أسفل الساق، إن كانتا مكشوفتين، وهذا على قراءة من قرأ: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ بالتصبي، وأما من قرأ: (وأرجلكم) بالخفض؛ فالمقصود به: مسحهما إذا كانتا مستورتين بالخف، وأما مسحهما وهما مكشوفتان كما يفعل الروافض الشيعة؛ فهو مردود بقراءة النصب، وبفعل النبي ﷺ المنقول عنه بالتواتر، ونهيه ﷺ عن المسح على الرجلين وهما مكشوفتان، وقد تكاثرت الأحاديث بذلك.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾: أمر بالغسل من الجنابة، وأن الوضوء لا يكفي، والجنب يصدق على من أنزل المني يقظة أو منامًا، أو جامع ولو لم ينزل.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضَى﴾: جواز التيمم لوجود المرض الذي يضره غسله بالماء، فيجوز له التيمم ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾: جواز التيمم لوجود السفر ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾ والإتيان من البول والغائط إذا عدم الماء ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾: جامعتم

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ﴾ : لا يحملنكم بغض ﴿قَوْمٍ﴾ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ﴿كَمَا يَفْعَلُهُ مِنْ لَا عَدْلَ عِنْدَهُ وَلَا قِسْطَ﴾ بل كما تشهدون لوليكم فاشهدوا عليه، وكما تشهدون على عدوكم فاشهدوا له، ولو كان كافراً أو مبتدعاً، فإنه يجب العدل فيه، وقبول ما يأتي به من الحق.

﴿أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ : كلما حرصتم على العدل واجتهدتم في العمل به؛ كان ذلك أقرب لتقوى قلوبكم، فإن تم العدل؛ كملت التقوى ﴿إِنَّ اللَّهَ حَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فمجازيكم بأعمالكم، خيرها وشرها، صغيرها وكبيرها، جزاء عاجلاً، وأجلاً.

(٩) ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ الذي لا يخلف الميعاد، وهو أصدق القائلين ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ : المؤمنين به، وبكتبه، ورسله، واليوم الآخر، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من واجبات ومستحبات ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ بالمغفرة لذنوبهم؛ بالعتو عنها وعن عواقبها، ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وبالأجر العظيم الذي لا يعلم عظمه إلا الله تعالى.

(١٠) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على الحق المبين، فكذبوا بها بعدما أبانت الحقائق؛ ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ : الملازمون لها ملازمة الصاحب لصاحبه.

(١١) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعْنَتُهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِبَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْلَمْ أَنَّهُمْ وَأَصْفَحَ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾

والأسرار والخواطر.

(٨) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتُوبًا﴾ بما أمروا بالإيمان به، قوموا بلازم إيمانكم؛ بأن تكونوا ﴿قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ : بأن تنشط للقيام بالقسط حركاتكم الظاهرة والباطنة، وأن يكون ذلك القيام لله وحده؛ لا لغرض من الأغراض الدنيوية، وأن تكونوا قاصدين للقسط الذي هو العدل، لا الإفراط ولا التفريط، على القريب والبعيد، والصديق والعدو.

(١١) أخرج الشيخان عن جابر؛ أن النبي ﷺ نزل منزلاً، وتفرق الناس في العشاء يستظلون تحتها، وعلق النبي ﷺ سلاحه بشجرة، فجاء أعرابي إلى سيف رسول الله ﷺ فأخذه فسله، ثم أقبل على النبي ﷺ فقال: من يمنك مني؟ قال: «الله» قال: الأعرابي مرتين أو ثلاثاً: من يمنك مني؟ والنبي ﷺ يقول: «الله» قال: فشام الأعرابي السيف، فدعا النبي أصحابه فأخبرهم خبر الأعرابي، وهو جالس إلى جنبه ولم يعاقبه. وكان قتادة يذكر نحو هذا، وذكر أن قوماً من العرب أرادوا أن يفتكوا برسول الله ﷺ فأرسلوا هذا الأعرابي، وتأول: «أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ».

﴿مَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ العهد والميثاق المؤكد بالإيمان والالتزامات، المقرون بالترغيب بذكر ثوابه؛ ﴿مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ عن عمد وعلم، فيستحق ما يستحقه الظالون من حرمان الثواب، وحصول العقاب.

(١٣) ﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ﴾: بسببه عاقبناهم بعدة عقوبات: ﴿لَعَنَهُمْ﴾: طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾: غليظة لا تجدي فيها المواعظ، ولا تنفعها الآيات والنذر، فلا يرغبهم تشويق، ولا يزعجهم تخويف.

﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾: ابتلوا بالتغيير والتبديل، فيجعلون للكلم الذي أراد الله معنى غير ما أراده الله ورسوله ﴿وَسَوَّأُوا حَظًّا وَمَا دُكِّرُوا بِهِ﴾؛ فإنهم ذكروا بالتوراة وبما أنزل الله على موسى، فنسوا نصيباً منه، وهذا شامل لنسيان علمه، وأنهم نسوه وضاع عنهم، ولم يوجد كثير مما أنساهم الله إياه عقوبة منه لهم، وشامل لنسيان العمل الذي هو الترك، فلم يوفقوا للقيام بما أمروا به ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَآئِنَةٍ مِنْهُمْ﴾ وهذه العقوبة الخامسة التي عاقبهم الله بها؛ الخيانة المستمرة لله ولعباده المؤمنين، ومن أعظم الخيانة منهم: كتمهم عن من يعظهم ويحسن فيهم الظن الحق، وإيقاظهم على كفرهم، فهذه خيانة عظيمة ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ فإنهم وفوا بما عاهدوا الله عليه فوفقهم وهداهم للصرط المستقيم ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾: لا تؤاخذهم بما يصدر منهم من الأذى، الذي يقتضي أن يعفى عنهم، ﴿وَأَصْفَحْ﴾؛ فإن ذلك من الإحسان ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ يذكر تعالى عباده المؤمنين بنعمة العظيمة، ويحثهم على تذكرها بالقلب واللسان، وأنهم كما يعدون قتلهم لأعدائهم، وأخذ أموالهم وبلادهم وسيهم نعمة؛ فليعدوا - أيضاً - إنعامه عليهم بكف أيديهم عنهم، ورد كيدهم في نحورهم نعمة ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَيْئَوُكُلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾: ويعتمدوا عليه في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية، ويتبرؤوا من حولهم وقوتهم، ويثقوا بالله تعالى في حصول ما يحبون، وعلى حسب إيمان العبد يكون توكله.

(١٢) ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾: أخذ عليهم عهدهم المؤكد الغليظ ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ رئيساً وعريقاً على من تحته، ليكون ناظرًا عليهم، حاثًا لهم على القيام بما أمروا به ﴿وَقَالَ اللَّهُ﴾ للنقباء الذين تحملوا من الأعباء ما تحملوا: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ بالعون والنصر؛ فإن المعونة بقدر المؤنة ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمْ الصَّلَاةَ﴾ ظاهرًا وباطنًا؛ بالإتيان بما يلزم وينبغي فيها، والمداومة على ذلك ﴿وَأَتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾ لمستحقيها ﴿وَأَمَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾ جميعهم، الذين أفضلهم وأكملهم محمد ﷺ ﴿وَعَزَّزْتُمُوهُمْ﴾؛ أي: عظمتموهم، وأديتم ما يجب لهم من الاحترام والطاعة ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾: وهو الصدقة والإحسان، الصادر عن الصدق والإخلاص وطيب المكسب؛ ﴿لَا تُكْفِرُوا عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَدَخَلْنَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فجمع لهم بين حصول المحبوب بالجنة وما فيها من النعيم، واندفاع المكروه بتكفير السيئات، ودفع ما يترتب عليها من العقوبات

فيعاقبهم عليه في الآخرة.

(١٥) ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾: أمر أهل الكتاب جميعاً أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، واحتج عليهم بآية دالة على صحة نبوته، وهي: أنه يبين لهم كثيراً مما يخفون عن الناس، حتى عن العوام من أهل ملتهم، فإتيان الرسول ﷺ بهذا القرآن العظيم الذي بين به ما كانوا يتكتمونه بينهم - وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب - من أدل الدلائل على القطع برسالته ﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾: يترك بيان ما لا تقتضيه الحكمة ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ﴾: وهو القرآن، يستضاء به في ظلمات الجهالة وعماية الضلالة ﴿وَكِتَابٍ تُبَيِّنُ﴾: لكل ما يحتاج الخلق إليه من أمور دينهم ودنياهم.

(١٦) ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُمُ﴾؛ أي: يهدي به من اجتهد وحرص على بلوغ مرضاة الله، وصار قصده حسناً ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾: التي يسلم صاحبها من العذاب، وتوصله إلى دار السلام؛ وهو العلم بالحق والعمل به إجمالاً وتفصيلاً ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ﴾: ظلمات الكفر والبدعة والمعصية، والجهل والغفلة ﴿إِلَى النُّورِ﴾: إلى نور الإيمان والسنة والطاعة والعلم والذكر ﴿يَاذَنُ﴾: وكل هذه الهداية بإذن الله، الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾: وهو الإسلام، ويرشدهم إلى أقوم حالة.

(١٧) ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ

وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرُّهُ أَخَذْنَا مِنْهُمْ فَيْسُوحًا وَمَا دُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١﴾ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٢﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٣﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤﴾

والإحسان: هو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه؛ فإنه يراك. وفي حق المخلوقين: بذل النفع الديني والدنيوي لهم.

(١٤) ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرُّهُ أَخَذْنَا مِنْهُمْ فَيْسُوحًا وَمَا دُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾: سلطنا بعضهم على بعض، وصار بينهم من الشرور والإحسان ما يقتضي بغض بعضهم بعضاً، ومعاداة بعضهم بعضاً إلى يوم القيامة ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾

وأسرهم واستعبادهم ؛ ذهبوا قاصدين لأوطانهم ومساكنهم - وهي بيت المقدس وما حواليه - ، وقاربوا وصول بيت المقدس ، وكان الله قد فرض عليهم جهاد عدوهم ليخرجوه من ديارهم ، فوعظهم موسى عليه السلام وذكرهم ليقدموا على الجهاد ، فقال لهم : ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ بقلوبكم وألسنتكم ﴿ اِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ ﴾ يدعونكم إلى الهدى ، ويحذرونكم من الردى ﴿ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا ﴾ : تملكون أمركم ؛ بحيث إنه زال عنكم استعباد عدوكم لكم ، فكنتم تملكون أمركم ، وتتمكنون من إقامة دينكم ﴿ وَآتَاكُمْ ﴾ من النعم الدينية والدينية ﴿ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ فإنهم في ذلك الزمان خيرة الخلق ، وأكرمهم على الله تعالى ، وقد أنعم عليهم بنعم ما كانت لغيرهم .

(٢١) ﴿ يَقَوْمُ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ ﴾ المطهرة ﴿ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ : كتب الله لهم دخولها ، وانتصارهم على عدوهم ﴿ وَلَا تَرْتَدُّوا ﴾ : ترجعوا ﴿ عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ : قد خسرتم دنياكم بما فاتكم من النصر على الأعداء وفتح بلادكم ، وآخرتكم بما فاتكم من الثواب .

(٢٢) ﴿ قَالُوا يَمُوسَىٰ ﴾ : قالوا له قولاً يدل على ضعف قلوبهم ، وخَوَر نفوسهم ، وعدم اهتمامهم بأمر الله ورسوله : ﴿ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ شديدي القوة والشجاعة ، فهذا من الموانع لنا من دخولها ﴿ وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا ﴾

عليكم أحكام العدل والفضل ﴿ يَغْفِرْ لِمَن يَشَاءُ ﴾ وَيُعَذِّبْ مَن يَشَاءُ ﴿ إذا أتوا بأسباب المغفرة ، أو أسباب العذاب ﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿ : فأى شيء خصكم بهذه الفضيلة ؛ وأنتم من جملة الممالك ، ومن جملة من يرجع إلى الله في الدار الآخرة ، فيجازيكم بأعمالكم ؟

(١٩) ﴿ يٰأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ ﴾ يدعو تبارك وتعالى أهل الكتاب بسبب ما من عليهم من كتابه أن يؤمنوا برسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ويشكروا الله تعالى الذي أرسله إليهم ﴿ عَلَىٰ ﴾ حين ﴿ فَتَقَرَّ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ وشدة حاجة إليه ، وهذا مما يدعو إلى الإيمان به ، وأنه يبين لهم جميع المطالب الإلهية والأحكام الشرعية ، وقد قطع الله بذلك حجتهم ؛ لئلا يقولوا : ﴿ مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ﴾ يبشر بالثواب العاجل والآجل ، وبالأعمال الموجبة لذلك ، وصفة العاملين بها ، وينذر بالعقاب العاجل والآجل ، وبالأعمال الموجبة لذلك ، وصفة العاملين بها ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ : انقادت الأشياء طوعاً وإذعاناً لقدرته ؛ فلا يستعصي عليه شيء منها ، ومن قدرته : أن أرسل الرسل ، وأنزل الكتب ، وأنه يثيب من أطاعهم ، ويعاقب من عصاهم .

(٢٠) ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَقَوْمِ ﴾ لما امتن الله على موسى وقومه بنجاتهم من فرعون وقومه

(١٩) أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «أنا أولى الناس بابن مريم ؛ لأنه لا نبي بيني وبينه» .

(٢٠) أخرج مسلم أن رجلاً قال لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : ألسنا من فقراء المهاجرين ؟ فقال عبد الله : ألك امرأة تأوي إليها ؟ قال : نعم . قال : ألك مسكن تسكنه ؟ قال : نعم . قال : فأنت من الأغنياء . فقال : إن لي خادماً . قال : فأنت من الملوك .

فَالْوَيْمُوسَىٰ إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ
 أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبِّ
 إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافَرَّقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ
 الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً
 يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ
 ﴿٢٥﴾ وَأَتَىٰ عَلَيْهِمْ نَبَأُ ابْنِ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا
 فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ
 قَالَ إِنَّمَا تَقْبَلُ اللَّهَ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٦﴾ لَمَّا بَسَطَ إِلَىٰ يَدِ
 لِقَائِهِ مَا أُنْزِلَ بِهِ إِلَىٰ يَدِ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ
 رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ
 مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ فَطَوَّعَتْ
 لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَفَتَاهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْقَاسِيِينَ ﴿٢٩﴾
 فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي
 سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يُوزِلْنِي أَعْيَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا
 الْغُرَابِ فَأُوَارِي سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣٠﴾

بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ: احكم بيننا وبينهم؛ بأن تنزل فيهم من العقوبة ما اقتضته حكمتك، ودل ذلك على أن قولهم وفعلهم من الكبائر العظيمة الموجبة للفسق.

(٢٦) ﴿قَالَ﴾ اللَّهُ مجيباً لدعوة موسى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ إن من عقوبتهم أن نحرم عليهم دخول هذه القرية التي كتبها الله لهم مدة أربعين سنة، وتلك المدة - أيضاً - يتيهون في الأرض؛ لا يهتدون إلى طريق، ولا يبقون مطمئنين ولما علم الله تعالى أن عبده موسى في غاية الرحمة على الخلق - خصوصاً قومه - ، وأنه ربما رقى لهم واحتملته

مِنْهَا فَإِنَّا دَخَلُوتُ﴾ وهذا من الجبن وقلة اليقين، وإلا فلو كان معهم رشدهم؛ لعلموا أنهم كلهم من بني آدم، وأن القوي من أعانه الله بقوة من عنده؛ فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله، ولعلموا أنهم سينصرون عليهم؛ إذ وعدهم الله بذلك وعداً خاصاً.

(٢٣) ﴿قَالَ رَبُّلَانٍ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ الله تعالى مشجعين لقومهم على قتال عدوهم ﴿أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بالتوفيق، وكلمة الحق في هذا الموطن المحتاج إلى مثل كلامهم، وأنعم عليهم بالصبر واليقين: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ ليس بينكم وبين نصركم عليهم إلا أن تجزموا عليهم، وتدخلوا عليهم الباب، فإذا دخلتموه عليهم؛ فإنهم سينهزمون ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾؛ فإن في التوكل على الله - وخصوصاً في هذا الموطن - تيسيراً للأمر، ونصراً على الأعداء.

(٢٤) ﴿قَالُوا﴾ فلم ينجع فيهم هذا الكلام، ولا نفع فيهم الملام، فقالوا قول الأذلين: ﴿يَتُومِسُونِ﴾ إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ: فما أشنع هذا الكلام منهم، ومواجهتهم لنبيهم في هذا المقام الحرج الضيق، الذي قد دعت الحاجة والضرورة إلى نصرة نبيهم، وإعزاز أنفسهم!!

(٢٥) فلما رأى موسى عليه السلام عتوهم عليه؛ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ فلا يدان لنا بقتالهم، ولست بجبار على هؤلاء ﴿فَافَرَّقْ

(٢٤) أخرج أحمد والطبراني وابن مردويه بإسناد حسن عن عتبة بن عبد السلمي رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ لأصحابه: «ألا تقاتلون؟» قالوا: نعم، ولا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: «فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ» لكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون.

﴿إِنِّي﴾ وليس ذلك جبناً مني ولا عجزاً؛ وإنما ذلك لأنني ﴿أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ والخائف لله لا يقدم على الذنوب، خصوصاً الذنوب الكبار.

(٢٩) ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْوَأَ﴾: ترجع ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُؤَى﴾؛ أي: إذا دار الأمر بين أن أكون قاتلاً، أو تقتلني؛ فإني أؤثر أن تقتلني، فتبوء بالوزيرين ﴿فَتَكُونُ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ خَوْفُهُ بالنار؛ فلم ينته ولم ينزجر، ودلت الآية على أن القتل من كبائر الذنوب، وأنه موجب لدخول النار.

(٣٠) ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ﴾: فحسنت وسوّلت له نفسه وشجعت على قتل أخيه ﴿فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ذنباهم وآخرتهم، وأصبح قد سن هذه السنة السيئة لكل قاتل؛ فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة.

(٣١) لما قتل أخاه لم يدر كيف يصنع به؛ فهو أول ميت من بني آدم ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: يثيرها ليدفن غراباً آخر ميتاً ﴿لِيُرِيَهُ﴾ بذلك ﴿كَيْفَ يُؤَرَى سَوَاءَ أَخِيهِ﴾ بدنه، ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ لقلّة النفع بقتله؛ فإنه أسخط والديه، وهكذا عاقبة المعاصي: الندامة والخسارة.

الشفقة والحزن عليهم في هذه العقوبة - أو الدعاء لهم بزوالها - ؛ قال له: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوَمِ الْفَاسِقِينَ﴾: لا تأسف عليهم ولا تحزن؛ فإنهم قد فسقوا، وفسقهم اقتضى وقوع ما نزل بهم، لا ظلماً منا.

(٢٧) ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾؛ أي: قص على الناس وأخبرهم بالقضية التي جرت على ابني آدم بالحق، تلاوة يعتبر بها المعتبرون ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾: أخرج كل منهما شيئاً من ماله؛ لقصد التقرب إلى الله ﴿فَنُفِثَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُنْفَثِلْ مِنَ الْآخَرِ﴾: بأن علم ذلك بخبر من السماء، أو بالعادة السابقة في الأمم: أن علامة تقبل الله للقربان أن تنزل نار من السماء فتحرقه ﴿قَالَ﴾ الابن، الذي لم يتقبل منه للآخر حسداً وبغياً: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾!! فقال له الآخر - مترقفاً له في ذلك - : ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾: فأني ذنب لي وجناية توجب لك أن تقتلني؟! إلا أنني اتقيت الله تعالى، الذي تقواه واجبة عليّ وعليك، وقوله: ﴿الْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: لله في ذلك العمل؛ بأن يكون عملهم خالصاً لوجه الله.

(٢٨) ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ﴾: أخبره أنه لا يريد أن يتعرض لقتله - لا ابتداء، ولا مدافعة - ،

(٢٨) أخرج أبو داود وأحمد بإسناد صحيح عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه؛ قال عند فتنة عثمان: أشهد أن رسول الله ﷺ قال: «إنها تكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي» قال: فقلت: يا رسول الله، أرايت إن دخل على بيتي وبسط يده ليقتلني؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: «كن كابن آدم» وتلا يزيد- وهو شيخ أبي داود -: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيْكَ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ﴾ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ.

(٣٠) أخرج الشيخان من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقتل نفس ظلماً؛ إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه كان أول من سن القتل».

لِلنَّاسِ النَّارُ ۖ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۚ

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُمْ مَنْ قَتَلَ
نَفْسًا يَغْيَرُ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ
النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ
جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا
مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا
جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ
فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ
وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ
لَهُمْ جِزَاءُ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾
إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا
أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا
أَتَوْا اللَّهَ وَاتَّبَعُوا آيَاتِهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَآتَتْ
لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ
عَذَابِ يَوْمٍ إِلَهِتُمْ مَا تُقَاتِلُونَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾

وأخذ الأموال، وإخافة السبيل ﴿٣٢﴾ أَن يُقَتَّلُوا أَوْ
يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ
أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ﴿٣٣﴾ : فأخبر الله أن جزاءهم
ونكالهم - عند إقامة الحد عليهم - أن يفعل بهم
واحد من هذه الأمور على التخيير: إما القتل، أو
الصلب، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف -
اليد اليمنى والرجل اليسرى، أو العكس - أو
النفي، يفعل بهم الإمام - أو نائبه - ما رآه
المصلحة من هذه الأمور المذكورة ﴿٣٤﴾ ذَلِكَ
النكال ﴿٣٥﴾ لَهُمْ جِزَاءُ فِي الدُّنْيَا ﴿٣٦﴾ : فضيحة وعار
﴿٣٦﴾ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٧﴾ : عذاب النار

(٣٢) ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ﴾: الذي ذكرناه في قصة
ابني آدم، وقتل أحدهما أخاه، وسنه القتل لمن
بعده، وأن القتل عاقبته وخيمته، وخسارة في
الدنيا والآخرة؛ ﴿كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾:
شرعنا لهم وأعلمناهم ﴿أَنَّهُمْ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا يَغْيَرُ
نَفْسٍ﴾: بغير حق، وغير سبب من قصاص ﴿أَوْ
فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾: أو قتلها على وجه الإفساد في
الأرض؛ ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾؛ لأنه
ليس معه داع يدعوه إلى القتل، فلما تجرأ على
قتل النفس التي لم تستحق القتل؛ علم أنه لا فرق
عنده بين هذا المقتول وبين غيره، وإنما ذلك
بحسب ما تدعوه إليه نفسه الأمارة بالسوء،
فتجرؤه على قتله؛ كأنه قتل الناس جميعًا ﴿وَمَنْ
أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾: وكذلك
من أحيا نفسًا؛ أي: استبقى أحدًا، فلم يقتله مع
دعاء نفسه له إلى قتله، فمنعه خوف الله تعالى من
قتله؛ فهذا كأنه أحيا الناس جميعًا ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ
رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾: بالحجج والدلائل الواضحة التي
لا يبقى معها عذر لأحد ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾:
من الناس ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ البيان القاطع للحجة،
الموجب للاستقامة في الأرض ﴿لَمُسْرِفُونَ﴾ في
العمل بالمعاصي، ومخالفة الرسل الذين جاءوا
بالبينات والحجج.

(٣٣) ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾:
الذين بارزوه بالعداوة ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ
فَسَادًا﴾: وأفسدوا في الأرض؛ بالكفر، والقتل،

(٣٢) أخرج الشيخان عن أنس رضي الله عنه: قال: قدم أناس من عُكُلٍ أو غُرَبَةٍ، فاجتووا المدينة، فأمرهم النبي ﷺ بلفاح، وأن يشربوا
من أبوالها وألبانها، فانطلقوا، فلما ضحوا قتلوا راعي النبي ﷺ، واستاقوا النعم، فجاء الخبر في أول النهار، فبعث في
آثارهم، فلما ارتفع النهار جيء بهم؛ فأمر بقطع أيديهم وأرجلهم، وسُوزِرت أعينهم، وألقوا في الحرة يستسقون فلا
يسقون. قال أبو قلابة: فهؤلاء سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم، وحاربوا الله ورسوله.

من فعلها قبل القدرة عليه - من باب أولى .
 (٣٥) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ : هذا أمر من الله لعباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان ؛ من تقوى الله ، والحذر من سخطه وغضبه ، وذلك بأن يجتهد العبد ، ويبذل غاية ما يمكنه من المقدور في اجتناب ما يسخطه الله ؛ من معاصي القلب واللسان والجوارح ، الظاهرة والباطنة ، ويستعين بالله على تركها ؛ لينجو بذلك من سخط الله وعذابه ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ : القرب منه ، والحظوة لديه ، والحب له ، وذلك بأداء فرائضه ، واجتناب محارمه ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾ : الجهاد : هو بذل الجهد في قتال الكافرين بالمال ، والنفس ، والرأي ، واللسان ، والسعي في نصر دين الله بكل ما يقدر عليه العبد ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ إذا فعلتم ذلك ، والفلاح : هو الفوز بكل مطلوب ، والنجاة من كل مرهوب .

(٣٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ : يخبر تعالى عن شناعة حال الكافرين بالله يوم القيامة ومآلهم الفظيع ، وأنهم لو افتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهبًا ومثله معه ﴿مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ﴾ ، ولا أفاد ؛ لأن محل الافتداء قد فات ، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ولم يبق إلا العذاب الأليم : الموجع الدائم .
 (٣٧) ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ

بِإِيدُونِ أَنْ يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا كَلَّا مِنْ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ إِلَى الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لِمَا نَأْيُكَ يُخْرِفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهِرْ قُلُوبَهُمْ هُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾

وسخط الجبار .

(٣٤) ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ﴾ من هؤلاء المحاربين ؛ ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ؛ أي : يسقط عنه ما كان لله ؛ من تحتم القتل ، والصلب ، والقطع ، والنفي ، ومن حق الآدمي أيضًا ؛ إن كان المحارب كافرًا ثم أسلم ، فإن كان المحارب مسلمًا ؛ فإن حق الآدمي لا يسقط عنه من القتل وأخذ المال .
 وإذا كانت التوبة قبل القدرة عليه تمنع من إقامة الحد في الحاربة ؛ فغيرها من الحدود - إذا تاب

(٣٥) أخرج البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : «من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة ، آت محمدًا الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته ؛ إلا حلت له الشفاعة يوم القيامة» .

(٣٦ - ٣٧) أخرج الشيخان عن أنس بن مالك رضي الله عنه ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : «يؤتى بالرجل من أهل النار ، فيقول : يا ابن آدم ، كيف وجدت مضجعك؟ فيقول : شر مضجع . فيقول : هل تفتدي بقراب الأرض ذهبًا؟ قال : فيقول : نعم يا رب . فيقول : كذبت ! قد سألتك أقل من ذلك فلم تفعل . فيؤمر به إلى النار» .

حكمته، ورحمته الواسعة، ومغفرته .
﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ : وهو المصِّرُّ على المعاصي
في باطنه وظاهره ﴿وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ : وهو
المنيب إلى ربه، الأواب إليه ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ؛ فمن تمام قدرته محاسبة الخلائق،
وإيصال ما يستحقونه من الثواب والعقاب .

(٤١) ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ
يُكْفِرُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ : كان الرسول ﷺ من شدة
حرصه على الخلق يشد حزنه لمن يظهر الإيمان
ثم يرجع إلى الكفر، فأرشدته الله تعالى إلى أنه لا
يأسى ولا يحزن على أمثال هؤلاء ؛ فإن هؤلاء لا
في العير ولا في النفير : إن حضروا لم ينفعوا،
وإن غابوا لم يفقدوا ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا
بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ فإن الذين يؤسى
ويحزن عليهم : من كان معدوداً من المؤمنين،
وهم المؤمنون ظاهراً وباطناً، وحاشا لله أن يرجع
هؤلاء عن دينهم ويرتدوا ؛ فإن الإيمان إذا
خالط بشاشته القلوب لم يعدل به صاحبه غيره،
ولم ييغ به بدلاً .

﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ ؛ أي : اليهود ﴿سَمِعُونَ
لِلْكَذِبِ سَمْعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ﴾ مستجيبون
ومقلدون لرؤسائهم، المبني أمرهم على الكذب

يُخْرِجُونَ مِنْهَا﴾ الذي لا يخرجون منه أبداً
﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ بل هم ماكثون فيه سرمداً .
(٣٨) ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾
السارق : هو من أخذ مال غيره المحترم خفية،
بغير رضاه، والسرقه من كبائر الذنوب الموجبة
لترتب العقوبة الشنيعة ؛ وهو قطع اليد، وقد بينت
السنة المطهرة أن موضع القطع : الرسغ، والسرقه
لا بد أن تكون بلغت ربع دينار فصاعداً - أو ما
يعادلها - ، ولا بد أن تكون من حرز ؛ كما وردت
بذلك الأحاديث الصحيحة .

﴿جَزَاءُ بِمَا كَسَبَا﴾ ؛ أي : ذلك القطع جزاء
للسارق بما سرقه من أموال ﴿نَكَلًا مِنَ اللَّهِ﴾ ؛
أي : تنكيلاً وترهيباً للسارق ولغيره ؛ ليرتدع
السارق - إذا علموا - أنهم سيقطعون إذا سرقوا
﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ في انتقامه ﴿حَكِيمٌ﴾ في أمره
ونهيهِ، وشرعه وقدره .

(٣٩) ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ
يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ : فيغفر لمن
تاب ؛ فترك الذنوب، وأصلح الأعمال والعيوب .
(٤٠) ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾
يتصرف فيهما بما يشاء من التصاريف القدريّة
والشرعية، والمغفرة والعقوبة ؛ بحسب ما اقتضته

(٣٨) أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «لعن الله السارق يسرق البيضة ؛ فتقطع يده، ويسرق
الحبل، فتقطع يده» .

(٤١) أخرج مسلم عن البراء بن عازب رضى الله عنه : قال : مرُّ على النبي ﷺ يهودي مُحَمَّماً مجلوداً فدعاهم ﷺ ؛ فقال : «هكذا تجدون
حد الزاني في كتابكم؟» قالوا : نعم . فدعا رجلاً من علمائهم . فقال : «أشذك بالله الذي أنزل التوراة على موسى ! أهكذا
تجدون حد الزاني في كتابكم؟» قال : لا ، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجده الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا ؛ فكنّا
إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، قلنا : تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف
والوضيع . فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم . فقال رسول الله ﷺ : «اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه» فأمر
به ؛ فرجم ، فأنزل الله - عز وجل - ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُكْفِرُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ الآية .

يُرِدُّ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ: من كان مقصوده بالتحاكم إلى الشرع اتباع هواه، وأنه إن حكم له رضي وإن لم يحكم له سخط؛ فإن ذلك من عدم طهارة قلبه، فطهارة القلب سبب لكل خير، وهو أكبر داع إلى كل قول رشيد وعمل سديد، لكن لما فسدت قلوب هؤلاء، واتبعوا أهواءهم؛ صدر منهم ما صدر، ف﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾: فضيحة وعار ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ وهو: النار وسخط الجبار.

(٤٢) ﴿سَمِعُونَ لِلْكَذِبِ﴾؛ أي: من قلة دينهم وعقلهم أن استجابوا لمن دعاهم إلى القول الكذب، والمراد بالسمع - هاهنا - الاستجابة؛ كما في قول المصلي: «سمع الله لمن حمده»؛ أي: استجاب، ﴿أَكَلُونَ لِلْشُّحِّ﴾: المال الحرام؛ من رشوة ونحوها ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَأَحْكَمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ﴾ خير الله تعالى رسوله عند تحاكم هذا الصنف إليه: بين أن يحكم بينهم، أو يعرض عن الحكم بينهم؛ لأنه لا قصد لهم في الحكم الشرعي، إلا أن يكون موافقاً لأهوائهم ﴿وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَصُرُّوكَ شَيْئًا﴾: فلا عليك ألا تحكم بينهم؛ فلن يقدروا لك على ضرر دين ولا دنيا ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾: بالحق والعدل، وإن كانوا ظلمة وأعداء؛ فلا يمنعك ذلك من العدل في الحكم بينهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ العادلين في الحكم بين الناس.

(٤٣) ثم قال متعجباً منهم: ﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ﴾: أي: كيف يجعلونك حكماً بينهم فيرضون بحكمك ﴿وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾: مع أن ما يحكمونه فيه هو موجود عندهم في التوراة.

سَمِعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلشُّحِّ فَإِنْ جَاءُوكَ فَأَحْكَمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَصُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ تَقُولُونَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ يَسْتَحْفِظُونَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً فَلَا تَخْشَوْنَ النَّاسَ وَأَخْشَوْنَ اللَّهَ وَلَا تَتَّبِعُوا بِحَايَتِي ثَمًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ نَفْسُ وَالنَّفْسُ وَالنَّفْسُ وَالْعَصِيَّةُ بِالْعَصِيَّةِ وَالْأَنْفِ بِالْأَنْفِ وَالْأَذُنُ بِالْأَذُنِ وَالْيَسَنُ بِالْيَسَنِ وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارٌ لَمْ يَمَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾

والضلال والغي، وهؤلاء الرؤساء المتبعون ﴿لَمْ يَأْتُوكَ﴾ بل أعرضوا عنك ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾؛ أي: يجلبون معاني للألفاظ ما أرادها الله ولا قصد لها؛ لإضلال الخلق، ولدفع الحق، فهؤلاء المتفادون لدعاة الضلال لا عقول لهم، ولا همم، فلا تبال بهم - أيضاً - إذا لم يتبعوك؛ لأنهم في غاية السفه والنقص ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ﴾: يقول بعضهم لبعض عند محاكمتهم إليك: إن حكم لكم محمد بهذا الحكم الذي يوافق هواكم؛ فاقبلوا حكمه ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾: وإن لم يحكم لكم به؛ فاحذروا أن تتابعوه على ذلك.

﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾: كفره، وضلالته، وهلاكه ﴿فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾: فلن تقدر على دفع أمر الله فيه ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ

الزيادة والنقصان والكتمان، وتعليمه لمن لا يعلمه ﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ﴾: على كتاب الله ﴿شُهَدَاءَ﴾: رقباء يحمونه عن التغيير والتبديل، فهم المرجوع إليهم فيه، وفيما اشتبه على الناس منه، فهم مطالبون أن يعلموا الناس وينبهوهم على ما يحتاجون إليه من أمور دينهم ﴿فَلَا تَخْشَوْا الْكَاسَ﴾: وهم رؤساء اليهود؛ ﴿وَآخِثُونَ﴾ بل يخشون ربهم، وأن يكونوا خائفين من ربهم وحده، ولا يمنعهم خوفهم وخشيتهم من القيام بما هو لازم لهم ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِإِثْمِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: فتكتموا الحق، وتظهروا الباطل؛ لأجل متاع الدنيا القليل. ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ من الحق المبين، وحكم بالباطل الذي يعلمه؛ لغرض من أغراضه الفاسدة ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ فالحكم بغير ما أنزل الله من أعمال أهل الكفر، وقد يكون كفرًا ينقل عن الملة؛ وذلك إذا اعتقد حله وجوازه، وقد يكون كبيرة من كبائر الذنوب، وقد استحق من فعله العذاب الشديد.

(٤٥) ﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ﴾: هذه الأحكام من جملة الأحكام التي في التوراة أوجب الله عليهم فيها أن النفس - إذا قتلت - تقتل بالنفس؛ بشرط العمد والمكافأة، والعين تقتل بالعين، والأنف يجده بالأنف، والأذن تؤخذ بالأذن، والسن ينزع بالسن، وما أشبهها من

كالرجم ونحوه - ؟! ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾: أي: من بعد تحكيمهم لك ﴿وَمَا أُولَئِكَ﴾ الذين هذا صنيعهم ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾: ليس هذا دأب المؤمنين، وليسوا حريين بالإيمان؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين عاملين بما يقتضيه الإيمان ويوجبه؛ لم يعرضوا عن حكم الله.

(٤٤) ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ﴾ على موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام ﴿فِيهَا هُدًى يَهْدِي إِلَى الْإِيمَانِ وَالْحَقِّ، وَيَعْصِمُ مِنَ الضَّلَالَةِ﴾ ﴿وَتُورٌ﴾ يستضاء به في ظلم الجهل والحيرة والشكوك، والشبهات والشهوات ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ لله وانقادوا لأوامره، الذين إسلامهم أعظم من إسلام غيرهم، وهم صفوة الله من العباد ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾: أي: بين الذين هادوا - وهم اليهود - في القضايا والفتاوى ﴿وَالرَّبَّنِيُّونَ﴾: وكذلك يحكم بالتوراة بين اليهود أئمة الدين من الربانيين - العلماء العاملين، المعلمين - الذين يربون الناس بأحسن تربية، ويسلكون معهم مسلك الأنبياء المشفقين، ﴿وَالْأَحْبَارُ﴾ العلماء الكبار الذين يقتدى بأقوالهم، وترفق آثارهم، ولهم لسان الصدق بين أممهم، وذلك الحكم الصادر منهم، الموافق للحق ﴿بِمَا اسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾: أي: بسبب أن الله استحفظهم على كتابه، وجعلهم أمناء عليه، وهو أمانة عندهم، أوجب عليهم حفظه من

(٤٥) في «الصحيحين» عن علي بن أبي طالب عليه السلام؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقتل مسلم بكافر».

أخرج أحمد والنسائي في «الكبرى» والطبري بإسناد صحيح عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«ما من رجل يجرح في جسده جراحة، فيتصدق بها؛ إلا كفر الله عنه مثل ما تصدق به».

أي: مؤمنًا بها، حاكمًا بما فيها، وموافقًا لها
 ﴿وَأَيِّنُّهُ الْإِنجِيلَ﴾: الكتاب العظيم المتمم
 للتوراة ﴿فِيهِ هُدًى﴾: يهدي إلى الصراط
 المستقيم ويبين الحق من الباطل ﴿وَنُورٌ﴾ يستضاء
 به في إزالة الشبهات، وحل المشكلات ﴿وَمُصَدِّقًا
 لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾؛ أي: متبعًا لها، غير
 مخالف لما فيها؛ إلا في القليل مما بين لبني
 إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه، كما قال
 تعالى: ﴿وَلَا جُلُ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾
 [آل عمران: ٥٠]. ﴿وَهُدًى﴾ يهتدي به
 ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾؛ أي: زاجرًا عن ارتكاب المحارم
 والمآثم ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾: لمن اتقى الله وخاف
 وعيده وعقابه.

(٤٧) ﴿وَلَيَحْكُمَنَّاهُ الْإِنجِيلَ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فِيهِ﴾؛
 أي: ليؤمنوا بجميع ما فيه، وليقيموا ما أمروا به
 فيه ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ
 الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون عن طاعة ربهم، المائلون
 إلى الباطل، التاركون للحق.

(٤٨) ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾: القرآن العظيم،
 أفضل الكتب وأجلها ﴿بِالْحَقِّ﴾: بالصدق الذي
 لا ريب فيه أنه من عند الله، ومشملاً على الحق
 في أخباره وأوامره ونواهيه ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ
 يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾؛ أي: من الكتب المتقدمة -
 التوراة والإنجيل - ، المتضمنة ذكره ومدحه، وأنه
 سينزل من عند الله على عبده ورسوله محمد
 ﷺ، فكان نزوله كما أخبر به؛ مما زادها
 صدقًا عند حامليها الذين انقادوا لأمر الله،
 واتبعوا شرائع الله، وصدقوا رسل الله.

﴿وَمُهِمِّينَا عَلَيْهِ﴾؛ أي: أمينًا، وشاهدًا، وحاكمًا
 على كل كتاب قبله، فجعل الله ﷻ هذا الكتاب

لِلْمُتَّقِينَ
 وَقَفَّيْنَا عَنْ آثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ
 التَّوْرَةِ وَأَيِّنُّهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ
 يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَيَحْكُمَنَّاهُ
 الْإِنجِيلَ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أُنْزِلَ
 اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ
 بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهِمِّينَا
 عَلَيْهِ فَأَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ
 عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا بَيْنَكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَا جُأ
 وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لَسَبَّوْكُمْ فِي
 مَا أَنْتُمْ فَأَسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا
 فَيُحْكِمُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٩﴾ وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا
 أُنْزِلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ
 بَعْضِ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمْ أَنَّ بَرِيدَ اللَّهِ أَنْ يُصِيبَهُمْ
 بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٥٠﴾ أَفَحَكَمَ
 الْجَاهِلِيَّةُ يَتَّبِعُونَ وَمِنْ أَحْسَنَ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥١﴾

الأطراف التي يمكن الاقتصاص منها بدون حيف
 ﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ﴾ والاقتصاص: أن يفعل به كما
 فعل؛ حدًا، وموضعًا، وطولًا، وعرضًا، وعمقًا
 ﴿مَنْ تَصَدَّفَ بِهِ﴾؛ أي: بالقصاص في
 النفس، وما دونها من الأطراف والجروح، بأن عفا
 عمن جنى وثبت له الحق قبله؛ ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ
 لَهُ﴾؛ أي: كفارة للمتصدق - العافي - ، يكفر الله
 عنه بها ذنوبه وزلاته ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ
 فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾؛ قال ابن عباس: كفر دون
 كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق؛ فهو ظلم
 أكبر عند استحلاله، وعظيمة كبيرة عند فعله غير
 مستحل له.

(٤٦) ﴿وَقَفَّيْنَا عَنْ آثَرِهِمْ﴾؛ أي: أثبعتنا
 يعني: أنبياء بني إسرائيل، الذين يحكمون بالتوراة
 ﴿بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾؛

كُتِبَ فِيهِ تَحْلِفُونَ ﴿٤٩﴾ : فيخبركم بما اختلفتم فيه من الحق، فيجزي الصادقين بصدقهم، ويعذب الكافرين المكذبين بالحق، العادلين عنه.

(٤٩) ﴿وَأِنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ يَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ : هذا تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك، والنهي عن خلافه ﴿وَاحْذَرُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ ؛ أي : واحذر أعداءك اليهود أن يضلوك عنه ويصرفوك ؛ بسبب أهوائهم التي يريدون منك أن تعمل بها، فلا تغتر بهم ؛ فإنهم كذبة، كفر، خونة، ﴿فَإِنْ قَوْلَا﴾ ؛ أي : فإن أعرضوا عن قبول حكمك بما أنزل الله عليك، وخالفوا شرع الله ؛ ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُبْذِلَ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ ؛ أي : فاعلم أن ذلك كائن عند قدر الله وحكمته فيهم، أن يصرفهم عن الهدى وقبول الحق ؛ لما عليهم من الذنوب - وهو ذنب الإعراض عما جئت به، والتولي عنك - ، التي اقتضت إضلالهم ونكالهم ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ ؛ أي : إن أكثر الناس خارجون عن طاعة ربهم، مخالفون للحق، ناؤون عنه، متمردون عن قبوله.

(٥٠) ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ ؛ أي : يبتغون ويريدون، وعن حكم الله يعدلون؟!، والاستفهام للإنكار والتوبيخ، والمعنى : أيعرضون عن حكمك بما أنزل الله عليك ويتولون عنه ويتبعون حكم الجاهلية - وهو ضلالات وجهالات

العظيم - الذي هو آخر الكتب وخاتمها - أشملها وأعظمها وأحكمها ؛ حيث جمع محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ﴾ ؛ أي : فاحكم يا محمد بين الناس - عربهم وعجمهم، أميهم وكتابيهم - ﴿يَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ إليك في هذا الكتاب العظيم، وبما قرره لك من حكم من كان قبلك من الأنبياء ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ ؛ أي : آراءهم الفاسدة المعارضة للحق، التي اصطلحوا عليها وتركوا بسببها ما أنزل الله على رسوله ﴿عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ ؛ أي : لا تنصرف عن الحق الذي أمرك الله به إلى أهواء هؤلاء من الجهلة الأشقياء.

﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ﴾ أيها الأمم ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ سبيلاً وسنة ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ؛ أي : لو شاء الله لجمع الناس كلهم على دين واحد وشريعة واحدة، لا ينسخ شيئاً منها ؛ ولكنه تعالى شرع لكل رسول شريعة على حدة ﴿وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ ؛ أي : أنه تعالى شرع الشرائع المختلفة ؛ ليختبر عباده فيما شرع لهم، فينظر كيف يعملون؟ فيثيبهم أو يعاقبهم على طاعته ومعصيته بما فعلوه ﴿فَاسْتَبِقُوا﴾ : سارعوا وبادروا إلى ﴿الْخَيْرَاتِ﴾ ؛ وهي طاعة الله واتباع شرعه.

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ ؛ أي : معادكم أيها الناس، ومصيركم إليه يوم القيامة ﴿فَيُنْزِلُكُمْ يَمَا

(٤٩) أخرج ابن أبي حاتم والطبراني في «الكبير» والحاكم والنسائي في «الكبرى» بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما ؛ قال : كان النبي ﷺ مخيراً : إن شاء حكم بينهم، وإن شاء أعرض عنهم، فردهم إلى أحكامهم ؛ فنزلت : ﴿وَأِنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ يَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ ؛ فأمر رسول الله ﷺ أن يحكم بينهم بما في كتابنا.

(٥٠) أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : «أبغض الناس إلى الله ثلاثة : ملحد في الحرم، ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية، وطالب دم امرئ بغير حق ؛ ليريق دمه».

المصادقة والمعاشرة والمناصرة؛ ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ يتناصرون ويتعاونون فيما بينهم، ويكونون يداً على من سواهم ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّهُمْ﴾ فيوافقهم ويعينهم؛ ﴿فَإِنَّهُمْ مِنْهُمْ﴾ فإنه من جملتهم، وفي عدادهم، وهذا فيه تهديد ووعد لمن يتعاطى ذلك.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: الذين وصفهم الظلم، وإليه يرجعون، وعليه يعولون؛ فلو جتتهم بكل آية ما تبعوك، ولا انقادوا لك.

(٥٢) ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ شك وريب ونفاق، وضعف إيمان، ﴿يُكْرِعُونَ فِيهِمْ﴾؛ أي: يبادرون إلى موالاتهم ومودتهم ومعونتهم في الباطن والظاهر ﴿يَقُولُونَ نَحْنُ أَنْ نُصِيبَ دَابَّةً﴾ أي: يتأولون في مودتهم وموالاتهم أنهم يخشون أن يقع أمر من ظفر الكفار بالمسلمين، وأن يكون لهم دولة، فتكون لهم أياد عند اليهود والنصارى، فينفعهم ذلك ﴿فَقَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ الذي يعز الله به الإسلام على اليهود والنصارى، ويقهرهم المسلمون ﴿أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ ييأس به المنافقون من ظفر الكافرين - من اليهود وغيرهم -؛ ﴿فَيُصِصُوا﴾؛ يعني: الذين والوا اليهود والنصارى من المنافقين ﴿عَلَى مَا أَسْرُوا﴾: أضمروا ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ من موالاتهم ودس الأخبار إليهم ﴿تَنَدِيمٍ﴾ على ما كان منهم، وضرهم بلا نفع حصل لهم - مما لم يُجد عنهم شيئاً، ولا دفع عنهم محذوراً -؛ بل كان عين المفسدة: فإنهم فضحوا، وأظهر الله أمرهم في الدنيا لعباده

يَتَأْتِيهِ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُكْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْنُ أَنْ نُصِيبَ دَابَّةً فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصِصُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَنَدِيمٍ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَاصْبِرُوا خَيْرِينَ ﴿٥٣﴾ يَتَأْتِيهِ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ يَدَيْهِمْ عَنْ دِينِهِمْ فَمَسَوْا بِاللَّهِ يَكْفُرُونَ بِهِمْ وَمُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَتَخَفُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَتَأْتِيهِ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ ءَاتَيْنَاكُمْ هُزُوعًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَا أَوْلِيَاءُ لِكَيْلَا تَكُونَ لَكُمْ آيَاتُ الْكُفَّارِ أُولِيَاءُ وَأَتَوْا اللَّهَ أَنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾

وضعها الرجال بأهوائهم وآرائهم؛ بلا مستند من شريعة الله - ؟! ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾؛ أي: ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه وآمن به وأيقن، وعلم أنه تعالى أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين؟! لا أحد أعدل منه سبحانه، ولا أحسن منه حكماً. (٥١) ﴿يَتَأْتِيهِ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ ينهى الله تعالى عباده المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى، الذين هم أعداء الإسلام وأهله، لاسيما بعد أن بين لهم أحوالهم السيئة، وصفاتهم غير الحسنة، والمراد من النهي عن اتخاذهم أولياء: أن يعاملوا معاملة الأولياء في

(٥١) أخرج ابن أبي حاتم بإسناد صحيح عن محمد بن سيرين؛ قال: قال عبد الله بن عتبة: ليتق أحدكم أن يكون يهودياً أو نصرانياً وهو لا يشعر. قال: فظنناه يريد هذه الآية: ﴿يَتَأْتِيهِ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

- ﴿أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ يعني: أرقاء، رحماء بهم، متواضعين لهم. ولم يرد به الهوان؛ بل أراد به أن جانبهم لين على المؤمنين.

- ﴿عَزَّوَجَلَّ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾؛ أي: أشدَّاء غلاظ على الكفار، يعادونهم ويغالبونهم.

- ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بأموالهم وأنفسهم، وأقوالهم وأفعالهم.

- ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾؛ أي: لا يرددهم عما هم فيه من طاعة الله وقتال أعدائه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... لا يرددهم عن ذلك راد، ولا يصددهم عنه صاد، ولا يحييك فيهم لومة لائم، ولا عذل عاذل.

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾؛ أي: من اتصف بهذه الصفات؛ فإنما هو من فضل الله عليه، وتوفيقه له عليهم ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾: واسع الفضل والإحسان ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق الفضل فيعطيه، ممن يحرمه إياه.

(٥٥) لما نهى تعالى عن ولاية الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم، وذكر مآل توليهم أنه الخسران المبين أخبر تعالى مَنْ يجب ويتعين توليه، وذكر فائدة ذلك ومصلحته، فقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾: فولاية الله تدرك بالإيمان والتقوى، فكل من كان مؤمناً تقيّاً؛ كان لله وليّاً، ومن كان وليّاً لله؛ فهو ولي لرسوله، ومن تولى الله ورسوله؛ كان تمام ذلك تولى من تولاه وهم المؤمنون، فقال:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ الذين قاموا بالإيمان ظاهراً

المؤمنين، بعد أن كانوا مستورين - لا يدرى حالهم -؛ فندموا، وحصل لهم من الغم ما الله به عليهم؛ لبطلان الأسباب التي تخيلوها، وانكشاف خلافها.

(٥٣) ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ متعجبين من حال هؤلاء الذين في قلوبهم مرض: ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾: حلفوا، وأكدوا حلفهم، وغلطوه بأنواع التأكيدات ﴿إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ في الإيمان، وما يلزمه من النصرة والمحبة والموالاة؟! فظهر ما أضمره، وتبين ما أسروه، وصار كيدهم الذي كادوه وظنهم الذي ظنوه بالإسلام وأهله باطلاً، فبطل كيدهم ﴿وَحَطَّتْ أَعْمَلُهُمْ﴾ بطل كل خير عملوه ﴿فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ خسروا الدنيا بافتضاحهم، والآخرة بالعذاب وفوات الثواب.

(٥٤) ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِمْ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوِيٍّ﴾: يخبر تعالى عن قدرته العظيمة، وأنه الغني عن العالمين، وأنه من يرتد عن دينه - أي: يرجع عن الحق إلى الباطل -؛ فلن يضر الله شيئاً، وإنما يضر نفسه؛ فإن لله عبداً مخلصين، ورجالاً صادقين، قد تكفل بهدايتهم ووعد بالإتيان بهم، وأنهم أكمل الخلق أوصافاً، وأحسنهم أخلاقاً، وأقواهم نفوساً، أجل صفاتهم:

- أن الله ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾، وإذا أحبَّ الله عبداً، يسر له الأسباب، وهون عليه الصعاب، ووفقه لفعل الخيرات، وترك المنكرات.

(٥٤) أخرج ابن أبي شيبة وابن سعد والطبراني في «الكبير» وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» بإسناد صحيح عن عياض الأشعري رحمته الله؛ قال: لما نزلت: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوِيٍّ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾؛ قال رسول الله ﷺ: «هم قوم هذا» وأشار إلى أبي موسى الأشعري.

كذباً - أنهم أجمعوا على أنها نزلت في علي!!! وهذا من أعظم الدعاوى الكاذبة؛ بل أجمع أهل العلم بالنقل على أنها لم تنزل في علي بخصوصه، وأن علياً لم يتصدق بخاتمه في الصلاة، وأجمع أهل العلم بالحديث على أن القصة المروية في ذلك من الكذب الموضوع.

(٥٦) ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ يعني: يتولى القيام بطاعة الله، ونصرة رسوله والمؤمنين ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ المنصورون، الذين لهم العاقبة في الدنيا والآخرة.

(٥٧) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ﴾ ينهى الله تعالى عباده المؤمنين عن اتخاذ أعداء الإسلام وأهله من أهل الكتاب - اليهود والنصارى - والمشركين أولياء: يحبونهم ويتولونهم، ويبدون أسرار المؤمنين، ويعاونونهم على بعض أمورهم التي تضر الإسلام والمسلمين، الذين يتخذون أفضل ما يعمله العاملون؛ وهي شرائع الإسلام المطهرة، المشتملة على كل خير دنيوي وأخروي، يتخذونها ﴿هُزُؤاً﴾: يستهزئون بها ﴿وَلَعِباً﴾ يعتقدون أنها نوع من اللعب في نظرهم الفاسد وفكرهم البارد.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أن تتخذوا هؤلاء الأعداء لكم ولدينكم أولياء، فالتزامكم بالتقوى - التي هي امتثال أوامره، واجتناب زواجره - مما يدعوكم إلى معاداتهم وترك موالاتهم ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بشرع الله الذي اتخذه هؤلاء هُزُؤاً و لعباً.

(٥٨) ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ إذا أدتكم داعين إلى الصلاة، التي هي أظهر شعائر المسلمين وأجل عباداتهم وأعمالهم ﴿اتَّخَذُوهَا هُزُؤاً وَلَعِباً﴾ على وجه

وَأِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤاً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَقُومُونَ مِمَّا آَلَاكُمْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَن تَذَكَّرُمْ فَتَقِفُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ مُنُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَوْسَ وَالْخَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَاءَكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَحَدَّثُوا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَأَلْسِنُهُمْ فِي بُحُورٍ مِنْ كَذِبٍ فَكُنْ بِمَنْزِلَةِ الْغَائِبِينَ لَمْ يُنَبِّئْهُمْ وَهُمْ قَدْ خَرُجُوا لَهَا كَذِبًا كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَسْعَوْنَ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ يَأْتُونَ بَعْضَ الْبَعْضٍ لِيُشْهِدُوا الشَّعْثَ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمْ الرُّسُلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَئِنْ شَهِدُوا لَبُغَا لَكُمُ الشَّعْثُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُعْطِي كَيْفَ يَشَاءُ وَلَنْ يَذَّكَّرَ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُفِقْنَا وَكُفِّرْنَا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْفَدُوا نَاً لِلْحَرْبِ طَفَّاهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾

وباطنهم، وأخلصوا للمعبود ومن صفاتهم أنهم: ﴿الَّذِينَ يَقُومُونَ الصَّلَاةَ﴾ بشروطها، وفروضها، ومكملاتها، وهي حق الله وحده - لا شريك له - ﴿يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ التي هي حق المخلوقين، ومساعدة للمحتاجين من الضعفاء والمساكين ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ خاشعون خاضعون لله، متذللون له بالطاعة.

وقد توهم بعض الناس أن هذه الجملة - ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ - في موضع الحال من قوله: ﴿يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾؛ أي: في حال ركوعهم!! ولو كان هذا كذلك؛ لكان دفع الزكاة في حال الركوع أفضل من غيره؛ لأنه ممدوح، وليس الأمر كذلك عند أحد من العلماء ممن نعلمه من أئمة الفتوى.

وقد زعم بعضهم: أن هذه الآية نزلت خاصة في علي بن أبي طالب رضي الله عنه، بل ادعى بعضهم -

بنا، مع التنزل معكم ﴿مُتَوَبَّةً﴾: جزاء ﴿عِنْدِ اللَّهِ﴾ يوم القيامة؟! والجواب: هم أنتم - أيها اليهود - ، الذين هم متصفون بهذه الصفات ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ﴾: أبعده عن رحمته ﴿وَعَصَبَ عَلَيْهِ﴾ غضباً لا يرضى بعده أبداً، وهم المشار إليهم بقوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتحة: ٧] ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾؛ أي: مسخ بعضهم قردة - وهم أصحاب السبت - ، وبعضهم خنازير - وهم كفار مائدة عيسى ﷺ - ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾؛ أي: وجعل منهم من عبد الطاغوت؛ وهو الشيطان، وكل ما عبد من دون الله: فهو طاغوت ﴿أُولَئِكَ﴾ المذكورون بهذه الخصال القبيحة ﴿شَرٌّ مَكَانًا﴾ أي: مما تظنون بنا ﴿وَأَضَلَّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ وأبعد عن قصد طريق الحق.

(٦١) ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ﴾؛ يعني: المنافقين منهم ﴿قَالُوا ءَامَنَّا﴾؛ أي: أظهروا الإسلام نفاقاً ومكراً ﴿وَكَمْ هُمْ﴾ ﴿قَدْ دَخَلُوا﴾ عندك يا محمد ﴿بِالْكَفْرِ﴾؛ أي: مستصحبين الكفر في قلوبهم ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾؛ أي: خرجوا وهو كامن في قلوبهم، لم ينتفعوا بما قد سمعوا منكم من العلم، ولا نجعت فيهم المواعظ ولا الزواجر؛ بل خرجوا كما دخلوا ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾؛ أي: والله عالم بسرائهم وما تنطوي عليه ضمائرهم، وإن أظهروا لخلقه خلاف ذلك، وتزينوا بما ليس فيهم؛ فإن الله أعلم بهم منهم، وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء.

(٦٢) ﴿وَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾: من اليهود ﴿يُسْرِعُونَ فِي

الاستخفاف والاحتقار والاستصغار﴾ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾: وذلك لعدم عقلهم، ولجهلهم العظيم بمعاني عبادة الله وشرائعه؛ فإن الهزؤ واللعب شأن أهل السفه والخفة والطيش، وإلا؛ فلو كان لهم عقول؛ لخضعوا لها، ولعلموا أنها أفضل الأعمال.

فإذا علمتم - أيها المؤمنون - حال الكفار، وشدة معاداتهم لكم ولدينكم؛ فمن لم يعادهم بعد هذا؛ دل على أن الإسلام عنده رخيص، وأنه لا يبالي بمن قدح فيه، وأنه ليس عنده من المروءة والغيرة شيء؛ فكيف تدعي لنفسك ديناً قيماً، وأنه الدين الحق وما سواه باطل، وترضى بموالة من اتخذ هزواً ولعباً، وسخر به وبأهله؟! وهذا فيه من التهيج على عداوتهم ما هو معلوم.

(٥٩) ﴿قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابِ﴾؛ أي: قل يا أيها الرسول لهؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من أهل الكتاب: ﴿هَلْ تَتَّقُمُونَ مِنَّا﴾ هل تعيرون - أو تطعنون، أو تكرهون - منا ﴿إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ أي: القرآن الكريم ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ﴾؛ أي: كتب الله المنزلة على أنبيائه المتقدمين؟! فهل لكم علينا مطعن - أو عيب - إلا هذا؟! وهذا ليس بعيب ولا مذمة ﴿وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ﴾؛ أي: وآمننا بأن أكثركم فاسقون؛ أي: خارجون عن طاعة الله، متجرئون على معاصيه، فأولى لكم - أيها الفاسقون - السكوت.

(٦٠) ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿هَلْ أُتَيْتُمْ﴾ أخبركم ﴿بِشَيْءٍ مِّنْ ذَلِكَ﴾ الذي نقمت فيه علينا مما تظنون

(٦٠) أخرج الإمام مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير: أهي مما مسخ الله تعالى؟ فقال: «إن الله لم يهلك قوماً - أو قال: لم يمسح قوماً - فيجعل لهم نسلًا ولا عقبًا، وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك».

وافتروه واثتفكوه، فقال: ﴿عَلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾: هذا دعاء عليهم بجنس مقاتلتهم؛ أي: أمسكت أيديهم عن الخيرات ﴿وَلَعْنُوا بِمَا قَالُوا﴾: أبعدوا من رحمة الله التي وسعت كل شيء، وعذبوا. فجازاهم بأن كان هذا الوصف منطبقاً عليهم، وهكذا وقع لهم؛ فكانوا أبخل الناس، وأكثرهم حسداً وجبناً، وأقلهم إحساناً، وأسوأهم ظناً بالله، وأبعدهم عن رحمته، وضربت عليهم الذلة والمسكنة، وباءوا بغضب من الله.

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾: يد الله صفة من صفاته؛ كالسمع، والبصر، والوجه، وقال - جل ذكره - : ﴿لَمَّا خَلَّصْتُ يَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]. وقال النبي ﷺ : «كلنا يديه يمين». والله أعلم بصفاته، فعلى العباد فيها الإيمان والتسليم. وقال أئمة السلف من أهل السنة في هذه الصفات: «أمروها كما جاءت؛ بلا كيف» ﴿يُنْفِقُ﴾: يرزق ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾: فلا حَجْرَ عليه، ولا مانع يمنعه مما أراد، فهو واسع الفضل، جزيل العطاء، الذي ما من شيء إلا عنده خزانته ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمَا أَتَزَلَّ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾: وهذا من أعظم العقوبات على العبد: أن يكون الذُّكْر الذي أنزله الله على رسوله - الذي فيه حياة القلب والروح، وسعادة الدنيا والآخرة، وفلاح الدارين، الذي هو أكبر مئة امتن الله بها على عباده - نعمة في حق أعدائه من اليهود وأشباههم، فكما يزداد به

الآثَرُ: يحرصون ويبادرون إلى تعاطي المآثم والمحارم ﴿وَالْعُدُونُ﴾: والاعتداء على الناس ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الشُّحُّ﴾: وأكل أموالهم بالباطل، والسحت: هو الحرام ﴿لَيْتَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: ليت العمل كان عملهم، وبئس الاعتداء اعتداؤهم، وهذا في غاية الذم لهم، والقدرح فيهم. (٦٣) ﴿لَوْلَا يَنهَهُمُ الرَّبُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِنَّمَا وَأَكْثَرُهُمُ الشُّحُّ﴾؛ أي: هلاً ينهاهم الربانيون والأحبار عن المعاصي التي تصدر منهم، وعن تعاطي ذلك؛ ليزول ما عندهم من الجهل، وتقوم حجة الله عليهم؟! والربانيون: هم العلماء العاملون، أرباب الولايات عليهم، والأحبار: هم العلماء فقط ﴿لَيْتَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾: هذا توبيخ لعلمائهم في تركهم لنهيهم، فوبَّخ سبحانه الخاصة منهم - وهم العلماء التاركون للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - بما هو أغلظ وأشد من توبيخ فاعل المعاصي، لذلك قال: ﴿يَصْنَعُونَ﴾.

(٦٤) ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾: يخبر تعالى عن مقالة اليهود - عليهم لعائن الله المتتابة إلى يوم القيامة - الشنيعة، وعقيدتهم الفظيعة: بأنهم وصفوا الله ﷻ - وتعالى - عن قولهم علواً كبيراً - بأنه بخيل؛ كما وصفوه بأنه فقير، وهم أغنياء!! وعبروا عن البخل بقولهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾؛ أي: عن الخير، والإحسان والبر؛ فرد الله ﷻ عليهم ما قالوه، وقابلهم فيما اختلقوه

(٦٣) أخرج أبو داود وابن ماجه وأحمد بإسناد حسن عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه: قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي، يقدر أن يغيروا عليه، فلا يغيرون إلا أصابهم الله بعقاب قبل أن يموتوا».

(٦٤) أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه: قال: قال رسول الله ﷺ: «إن يمين الله ملأى لا تغيضها نفقة سحاً الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض، فإنه لم يغيض ما في يمينه» قال: «وعرشه على الماء، وفي يده الأخرى القبض: يرفع ويخفض».

وتقيموا أحكامهما، وتعملوا بما يجب عليكم فيهما من أوامر الله ونواهيه، التي من جملتها الأمر باتباع محمد ﷺ والإيمان بمبعثه، والاعتداء بشرعه ﴿وَلَا تَقِيمُوا﴾ ﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ الذي رباكم، وأنعم عليكم، وجعل أجل إنعامه إنزال الكتب إليكم. فالواجب عليكم أن تقوموا بشكر الله، وتلتزموا أحكام الله، وتقوموا بما حملتم من أمانة الله وعهده.

﴿وَلَا تَزِيدُ كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ ؛ أي: مَنْ لَمْ يُسَلِّمْ مِنْهُمْ ﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ ؛ وهو القرآن الكريم ﴿طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾: كَفَرُوا إِلَى كُفْرِهِمْ، وَطُغْيَانًا إِلَى طُغْيَانِهِمْ ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾: فَلَا تَحْزَنْ وَلَا تَأْسَفْ عَلَيْهِمْ؛ فَإِنْ ضَرَرَ ذَلِكَ رَاجِعْ إِلَيْهِمْ، وَنَازِلْ بِهِمْ.

(٦٩) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ؛ هُمُ الْمُسْلِمُونَ ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ الْيَهُودَ، حَمَلَةُ التَّوْرَةِ ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾: طَائِفَةٌ بَيْنَ النَّصَارَى وَالْمَجُوسِ، لَيْسَ لَهُمْ دِينٌ، وَقِيلَ: بَيْنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى. وقوله: ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾ مَرْفُوعٌ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ، وَخَبْرُهُ مُحذُوفٌ، وَالتَّقْدِيرُ: وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى كَذَلِكَ، قَالَ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ وَسَيْبُوهُ: الرَّفْعُ مَحْمُولٌ عَلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ، وَالتَّقْدِيرُ: إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا، فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، وَالصَّابِئُونَ كَذَلِكَ.

﴿وَالنَّصَارَى﴾: حَمَلَةُ الْإِنْجِيلِ ﴿مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾؛ أَي: بِالْقَلْبِ، وَقِيلَ: الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى حَقِيقَةِ

وَلَمْ يَطْرَعْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ، وَأَنْبَتَ لَهُمُ الْأَرْضُ ﴿مِنْهُمْ﴾: مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴿أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾: عَامِلَةٌ بِالتَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ عَمَلًا مُعْتَدِلًا؛ غَيْرُ قَوِيٍّ وَلَا نَشِيطٍ، فَجَعَلَ أَعْلَى مَقَامَتِهِمُ الْاِقْتِصَادَ، وَهُوَ أَوْسَطُ مَقَامَاتِ هَذِهِ الْأُمَّةِ ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾؛ أَي: وَالْمَسِيءُ مِنْهُمْ الْكَثِيرُ.

(٦٧) ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾: يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطَبًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِاسْمِ الرِّسَالَةِ، وَأَمْرًا لَهُ بِأَعْظَمِ الْأَوَامِرِ وَأَجْلَهَا: بَلِّغْ جَمِيعَ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَأَرْسَلَكْ بِهِ. وَقَدْ امْتَثَلَ ﷺ ذَلِكَ وَقَامَ بِهِ أَتَمَّ الْقِيَامِ ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ﴾ مَا أَمَرْتُ بِهِ مِنْ تَبْلِيغِ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ؛ ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾: فَمَا امْتَثَلْتَ أَمْرَهُ ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾: يَحْفَظُكَ وَيَمْنَعُكَ وَيَحْمِيكَ مِنَ النَّاسِ، وَيَنْصُرُكَ وَيُؤَيِّدُكَ عَلَى أَعْدَائِكَ، وَمُظْفَرُكَ بِهِمْ؛ فَلَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ، فَلَنْ يَصِلَ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَيْكَ بِسُوءٍ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾: الَّذِينَ لَا قَصْدَ لَهُمْ إِلَّا اتِّبَاعَ أَهْوَائِهِمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِيهِمْ، وَلَا يُوَفِّقُهُمْ لِلْخَيْرِ، بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ.

(٦٨) ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِأَهْلِ الْكِتَابِ، مُنَادِيًا عَلَى ضَلَالِهِمْ، وَمَعْلَنًا بِبَاطِلِهِمْ: ﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ مِنْ الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ؛ فَإِنَّكُمْ لَا بِالْقُرْآنِ وَمُحَمَّدٍ آمَنْتُمْ، وَلَا بِنَبِيِّكُمْ وَكِتَابِكُمْ صَدَقْتُمْ، وَلَا بِحَقِّ تَمَسُّكْتُمْ، وَلَا عَلَى أَصْلِ اعْتَمَدْتُمْ ﴿حَتَّى تَقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾؛ أَي: حَتَّى تَوْفَّقُوا بِجَمِيعِ مَا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ،

(٦٧) أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ لغيره عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحْرَسُ؛ فَتَزَلَتْ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾؛ فَأَخْرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَأْسَهُ مِنَ الْقُبَّةِ، فَقَالَ: «إِيَّاهَا النَّاسُ، انْصَرَفُوا، فَقَدْ عَصَمَنِي اللَّهُ مِنَ النَّاسِ».

وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧٠﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ ابْنَ اللَّهِ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ ابْنَ اللَّهِ ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ وَمِمَّا يَنْذِرُ الْإِلَهَ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَتَّهَمُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٢﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٣﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَا يَاقُوتُ الْكَلَمِ الْأَمَامِ أَنْظِرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنْ يُؤْفَكُوا ﴿٧٤﴾ قُلْ اعْبُدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٥﴾

فَعَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ ﴿٧٠﴾ بهذا الوصف، والقليل استمروا على توبتهم وإيمانهم ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ أي: مطلع عليهم، وعليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية منهم، فيجازي كل عامل بعمله: إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا: يقول تعالى حاكما بتكفير فرق النصارى - من الملكانية، واليعقوبية، والنسطورية - ممن قال منهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ - تعالى الله عن قولهم، وتزهد وتقصد علوا كبيرا - ؛ وذلك بشبهة أنه خرج من أم بلا أب، وخالف المعهود من الخلقة الإلهية، ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ﴾ والحال أنه عليه الصلاة والسلام قد كذبهم في هذه الدعوى، وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير في المهد أن

الإيمان ﴿وَالْيَوْمَ الْآخِرُ﴾؛ وهو المعاد، والجزاء يوم الدين ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ بجوارحه، ولا يكون صالحا حتى يكون موافقا للشريعة المحمدية، بعد إرسال صاحبها المبعوث إلى جميع الثقلين، فمن اتصف بذلك؛ ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلونه من الأمور المخوفة، بل لهم الأمن التام ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما تركوا منها وراء ظهورهم.

﴿٧٠﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ: يذكر تعالى أنه أخذ العهود الثقيلة والمواثيق المؤكدة على بني إسرائيل على الإيمان بالله، والسمع والطاعة له ولرسوله، والقيام بواجباته ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ رُسُلًا﴾ يتوالون عليهم بالدعوة، ويتعاهدونهم بالإرشاد؛ ولكن ذلك لم ينجع فيهم، ولم يفد، فنقضوا تلك العهود والمواثيق، واتبعوا آراءهم وأهواءهم، وقدموها على الشرائع؛ فما وافقهم قبلوه، وما خالفهم ردوه، ولهذا قال: ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ﴾ من الحق كذبوه وعاندوه، وعاملوه أقبح المعاملة ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا﴾ ولم يتعرضوا لهم بضرر ﴿وَفَرِيقًا﴾ آخر منهم ﴿يَقْتُلُونَ﴾.

﴿٧١﴾ ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً﴾: ظن هؤلاء الذين أخذ الله عليهم الميثاق أن معصيتهم وتكذيبهم لا يجر عليهم عذابا ولا عقوبة، وحسبوا ألا يترتب لهم شر على ما صنعوا، فاستمروا على باطلهم وطغيانهم، فوقع خلاف ما ظنوه، وعاقبهم الله: ﴿فَعَمُوا﴾ عن الحق؛ فلم يبصروه، ﴿وَصَمُوا﴾ عنه؛ فلم يسمعوه، ولم يهتدوا إليه ﴿ثُمَّ﴾ نعشهم ﴿وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ حين تابوا إليه وأتابوا ﴿ثُمَّ﴾ لم يستمروا على ذلك حتى انقلب أكثرهم إلى الحال القبيحة

قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠]، ولم يقل: أنا الله، ولا: ابن الله؛ بل قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾، وكذلك قال لهم في حال كهولته ونبوته، آمراً لهم بعبادة الله ربه وربهم، وحده لا شريك له، فقال: ﴿يَبْنَیْ إِسْرَیْلَ اْعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾: فأثبت لنفسه العبودية التامة، ولربه الربوبية الشاملة لكل مخلوق ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾؛ أي: فيعبد معه أحداً من المخلوقين؛ ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾؛ أي: فقد أوجب الله له النار، وحرّم عليه الجنة؛ وذلك لأنه سوى الخلق بالخالق، وصرف ما خلقه الله له - وهو العبادة الخالصة - لغير من هي له، فاستحق أن يخلد في النار.

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾: من ناصرين ومعينين ينقذونهم من عذاب الله، أو يدفعون عنهم بعض ما نزل بهم.

(٧٣) ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ وهذا من أقوال النصارى المنصورة عندهم، زعموا: أن الله ثالث ثلاثة: الله، وعيسى، ومريم!! تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، فقال سبحانه وتعالى راداً عليهم - وعلى أشباههم - هذه الدعوى الباطلة: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ﴾؛ أي: ليس متعدداً؛ بل هو وحده لا شريك له، إله جميع الكائنات وسائر الموجودات، منفرد بالخلق والتدبير، ما بالخلق من نعمة إلا منه؛ فكيف يجعل معه إله غيره؟! تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من هذا الافتراء والكذب؛ ﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في

الآخرة؛ من الأغلال، والنكال. (٧٤) ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ﴾: هذا من كرمه تعالى وجوده ولطفه ورحمته بخلقه؛ مع هذا الذنب العظيم، وهذا الافتراء والكذب والإفك، يدعوهم إلى التوبة والرجوع إلى ما يحبه ويرضاه من الإقرار لله بالتوحيد، وبأن عيسى عبد الله ورسوله، وعما كانوا يقولونه ﴿وَسْتَغْفِرُونَ﴾ عن ما صدر منهم ﴿وَاللَّهُ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر ذنوب التائبين، ولو بلغت عنان السماء، ويرحمهم بقبول توبتهم، وتبديل سيئاتهم حسنات.

(٧٥) ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾: هذا غايته ومنتهى أمره، أنه عبد من عباد الله المرسلين، الذين ليس لهم من الأمر ولا من التشريع إلا ما أرسلهم به الله ﴿فَقَدْ خَلَّتْ﴾: قد مضت ﴿مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾؛ فهو من جنس الرسل قبله ليس هو بآله، فلا مزية له عليهم تخرجه عن البشرية إلى مرتبة الربوبية.

﴿وَأُمُّهُ﴾ مريم ﴿صِدِّيقَةٌ﴾؛ أي: مؤمنة، مصدقة له، وهذا غايتها وأعلى مقاماتها؛ فدل على أنها ليست بنبية؛ فضلاً أن تكون إلهاً معبوداً؛ بل كانت من الصديقين، الذين هم أعلى الخلق رتبة بعد الأنبياء، وقوله: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾: دليل ظاهر على أنهما عبدان فقيران، محتاجان - كما يحتاج بنو آدم - إلى الطعام والشراب - التغذية -، وإلى خروجه منهما، فلو كانا إلهين لاستغنيا عن الطعام والشراب، ولم يحتاجا إلى شيء يقيم أبدانهما؛ فإن الإله هو الغني الحميد.

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ نَبَّيْتُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ الموضحة المظهرة للحق، الكاشفة لليقين، ﴿ثُمَّ أَنْظُرْ

أَفْ يُؤْفَكُونَ؟ أي: ثم انظر بعد هذا البيان والوضوح والجلء أين يذهبون؟ وبأي قول يتمسكون؟ وإلى أي مذهب من الضلال يذهبون؟ فهي لا تفيد فيهم شيئاً، بل لا يزالون على إفكهم وكذبهم وافترائهم، وذلك ظلم وعناد منهم.

(٧٦) ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء العابدين غير الله - إلزاماً لهم، وقطعاً لشبهتهم - : ﴿اعْبُدُونِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من المخلوقين الفقراء المحتاجين، ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾؛ أي: لا يقدر على دفع ضرر عنكم، ولا إيصال نفع إليكم، ومن كان لا ينفع ولا يضر! فكيف تتخذونه إلهاً وتعبدونه، وأي سبب يقتضي ذلك؟ ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوال عباده ﴿الْعَلِيمُ﴾ بكل شيء؛ فلم عدلتم عنه إلى عبادة جماد لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم شيئاً، ولا يملك ضرراً ولا نفعاً لغيره ولا لنفسه؟!

(٧٧) ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ لا تتجاوزوا وتتعدوا الحد في الحق إلى الباطل، ولا تطروا من أمرتم بتعظيمه؛ فبالغوا فيه حتى تخرجوه عن حيز النبوة إلى مقام الإلهية؛ كما صنعتم في المسيح، وهو نبي من الأنبياء، فجعلتموه إلهاً من دون الله!! ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾: هذا بيان لسبب غلوهم وتعديهم؛ أي: وما ذاك إلا لاقتدائكم بشيوخكم - شيوخ الضلال - ، الذين هم سلفكم ممن ضل قديماً ﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ من الناس بدعوتهم إياهم إلى الدين، الذي هم عليه ﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾: خرجوا عن

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٦﴾ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٧﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٨﴾ تَرَى الَّذِينَ كَفَرُوا الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلَيْسَ مَا قَدَّمْتُمْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ لَهُمْ خِلْدُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ مَا أَتَوْا بِالْإِلَهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسَقُونَ ﴿٨٠﴾ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ ذَلِكَ يَأْنِ مِنْهُمْ قَتِيلِينَ وَرَهْبَانًا وَنَهْمًا لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨١﴾

طريق الاستقامة والاعتدال، إلى طريق الغواية والضلال، فجمعوا بين الضلال والإضلال، وهؤلاء هم أئمة الضلال الذين حذر الله منهم ومن اتباع أهوائهم المردية، وآرائهم المضلة.

(٧٨) ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾: طردوا وأبعدوا عن رحمة الله ﴿عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ بشهادتهما وإقرارهما بأن الحجة قد قامت عليهم، وعاندوها، ﴿ذَلِكَ﴾ الكفر واللعن ﴿بِمَا عَصَوْا﴾: بسبب عصيانهم لله ﴿وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ واعتدائهم على خلقه، وظلمهم لعباد الله.

(٧٩) ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ كانوا يفعلون المنكر، ولا ينهى بعضهم بعضاً عن

(٧٩) أخرج أبو داود والطبراني بإسناد حسن عن العُرْس بن عميرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكرها كان كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها».

(٨٢) ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾؛ يعني: مشركي العرب، فهؤلاء الطوائفتان - على الإطلاق - أعظم الناس معاداة للإسلام والمسلمين، وأكثرهم سعيًا في إيصال الضرر إليهم؛ وذلك لشدة بغضهم لهم؛ بغيًا، وحسدًا، وعنادًا، وكفرًا ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ﴾؛ أي: الذين من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله، فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة؛ وما ذاك إلا لما في قلوبهم - إذ كانوا على دين المسيح - من الرقة والرأفة؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧]، ولم يرد الله - تبارك وتعالى - جميع النصارى؛ لأنهم في عداوتهم للمسلمين كاليهود، في قتلهم المسلمين، وأسرهم، وتخريب بلادهم، وهدم مساجدهم، وإحراق مصاحفهم؛ لا ولاء ولا كرامة لهم؛ بل الآية فيمن كان - كما تقدم - من أتباع المسيح ﷺ وعلى منهاج إنجيله أو فيمن أسلم منهم؛ كالنجاشي وأصحابه ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قَتِيلِينَ﴾؛ أي: بسبب وجود القسيسين فيهم، وهم خطباؤهم وعلماءهم ﴿وَرَهَبَانًا﴾: جمع راهب؛ وهم العباد أصحاب الصوامع، مشتق من الرهبة؛ وهي الخوف. وقد تضمن وصفهم - هذا - بأن فيهم العلم والعبادة ﴿وَأَنَّهُمْ

ارتكاب المآثم والمحارم، وذلك يدل على تهاونهم بأمر الله، وأن معصيته خفيفة عليهم؛ فلو كان لديهم تعظيم لربهم: لغاروا لمحارمه، ولغضبوا لغضبه ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ذمهم على ذلك - من تركهم لإنكار ما يجب عليهم إنكاره -؛ ليحذر أن يرتكب مثل الذي ارتكبوا.

(٨٠) ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ من اليهود ﴿يَتَوَلَّوْنَ﴾ بالمحبة والموالاة والنصرة ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: المشركين من عبدة الأوثان.

﴿لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾: بسس ما قدموا من العمل - يعني: موالاتهم للكافرين، وتركهم موالاة المؤمنين - لمعادهم في الآخرة؛ فأوجب ذلك لهم ﴿أَن سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾: غضب الله عليهم ﴿وَفِي الْعَذَابِ﴾ المهين الأليم يوم القيامة ﴿هُمْ خَالِدُونَ﴾ لا يخرجون منه، ولا يُقْتَر عنهم.

(٨١) ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾؛ أي: لو آمنوا حق الإيمان بالله ﴿وَالنَّبِيِّ﴾ محمد ﷺ ﴿وَمَا أَنزَلَ إِلَيْهِ﴾: القرآن، ﴿مَا أَخَذُوا مِنْهُمُ﴾ يعني: الكفار ﴿أُولِيَّةً﴾ من دون المؤمنين، ولما ارتكبوا ما ارتكبوه من معاداة المؤمنين بالله والنبي وما أنزل إليه ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ خارجون عن طاعة الله ورسوله، مخالفون لآيات وحيه وتنزيله.

(٨٢، ٨٣) أخرج الطبراني في «الكبير» بإسناد صحيح عن سلمان رضي الله عنه؛ قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة صنعت طعاماً فجيئت به النبي ﷺ فقال: «ما هذا يا سلمان؟» قلت: صدقة، فقال لأصحابه: «كلوا» ولم يأكل، ثم إني رجعت حتى جمعت طعاماً، فأتيته به فقال: «ما هذا يا سلمان؟» قلت: هدية؛ فضرب بيده فأكل. وقال لأصحابه: «كلوا» قلت: يا رسول الله، أخبرني عن النصارى؟ قال: «لا خير فيهم ولا فيمن أحبهم» فقممت وأنا مثقل؛ فأنزل الله ﷻ ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ حتى بلغ: «أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ»؛ فأرسل إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا سلمان، إن أصحابك هؤلاء الذين ذكر الله».

وصمّتم عليه من الأيمان وقصدتموه بقلوبكم ﴿فَكَفَرْتُمْ﴾: كفارة اليمين التي عقدتموها بقصدكم إذا حنثتم ﴿إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ﴾؛ يعني: محاويع من الفقراء، ومن لا يجد ما يكفيه، وذلك الإطعام ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾: من أعدل ما تطعمون أهليكم ﴿أَوْ كَسْوَتُهُمْ﴾ كسوة عشرة مساكين، والكسوة هي التي تجزئ في الصلاة ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ عتق رقبة مؤمنة، كما قيدت في غير هذا الموضع، فهذه خصال ثلاث في كفارة اليمين، أيها فعل الحانث؛ أجزأ عنه بالإجماع، وقد بدأ بالأسهل فالأسهل: فالإطعام أيسر من الكسوة، كما أن الكسوة أيسر من العتق، فترقى فيها من الأدنى إلى الأعلى.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾: فإن لم يقدر المكلف - الذي لزمته كفارة اليمين - على واحدة من هذه الخصال الثلاث، وعجز عنها؛ ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ متتابعات ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿كَفَّارَةٌ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ وحنثتم؛ فإنها تكفرها، وتمحوها، وتمنع من الإثم.

﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ عن الحنث بها؛ أي: إذا حلقتهم فلا تحنثوا، إلا إذا كان الحنث خيراً، أو عدم المسارعة إليها والإكثار منها، أو لا تتركوها بغير تكفير.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ﴾ يوضح ويفسر المبينة للحلال من الحرام، الموضحة للأحكام ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على ما أنعم به عليكم؛ حيث علمكم ما لم تكونوا تعلمون، وبين لكم شرائع دينه، ووضح أحكامه.

النفوس، مما أحل الله لكم من المطاعم الطيبة والمشارب اللذيذة ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾؛ يحتمل أن يكون المراد منه: ولا تبالغوا في التضييق على أنفسكم في تحريم المباحات عليكم، ويحتمل أن يكون المراد: كما لا تحرموا الحلال؛ فلا تعتدوا في تناول الحلال؛ بل خذوا منه بقدر كفايتكم وحاجتكم، ولا تتجاوزوا الحد فيه؛ كما قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، فسرع الله عدل بين الغالي فيه والجافي عنه؛ لا إفراط ولا تفريط ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ بل يبغضهم ويمقتهم ويعاقبهم على ذلك.

(٨٨) ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾: كلوا من رزقه الذي ساقه إليكم بما يسره من الأسباب؛ إذا كان ﴿حَلَالًا﴾: لا سرقة، ولا غصباً، ولا غير ذلك من أنواع الأموال التي تؤخذ بغير حق وكان أيضاً ﴿طَيِّبًا﴾ وهو الذي لا خبث فيه، فخرج بذلك الخبيث من السباع والخبائث.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في جميع أموركم، بامثال أوامره، واجتناب نواهيه ﴿الَّذِي أُنْتِ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ فإن إيمانكم بالله يوجب عليكم تقواه ومراعاة حقه.

(٨٩) ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ التي صدرت على وجه اللغو؛ وهو: الأيمان التي حلف بها المفسم في كلامه من غير نية ولا قصد - يعني: غير معتقد لليمين؛ مثل قوله: لا والله، بلى والله -، أو عقدها يظن صدق نفسه، فبان بخلاف ذلك.

وفي الآية دليل على أن أيمان اللغو لا يؤاخذ الله الحالف بها، ولا تجب فيها الكفارة.

﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ بما عزمتم

(٩٠) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَالْأَنْصَابِ وَالْأَزْوَاجِ كُلِّ مَا خَامَرَ الْعَقْلَ؛ أَي: غطاه بسكرٍ وَالْمَيْسِرِ؛ وهو القمار، أو هو جميع المغالبات التي فيها عوض من الجانيين؛ كالمراهنة ونحوها﴾ وَالْأَنْصَابِ: الأصنام والأوثان مما ينصب ويعبد من دون الله، أو حجارة كانوا يذبحون قربانهم عندها ﴿وَالْأَزْوَاجِ: القداح التي كانوا يستقسمون بها﴾ رَجَسَ: نجس خبث مستقذر، وإن لم تكن نجسة حساً، وقيل: سَخَطَ ﴿مَنْ عَمِلَ الشَّيْطَانُ﴾ من تزينه ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ فاتركوه، والضمير عائد على الرجس ﴿لَعَلَّكُمْ تَقْلِحُونَ﴾؛ فإن الفلاح لا يتم إلا بترك ما حرم الله، خصوصاً هذه الفواحش المذكورة، وهذا ترغيب في تركها؛ لأن الفلاح مطلوب مرغوب به.

(٩١) ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ﴾: إنما يريد لكم الشيطان شرب الخمر والمياسرة بالقداح، ويحسّن ذلك لكم؛ إرادة منه ﴿أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾؛ أي: في شربكم الخمر ولعبكم بالميسر؛ ليعادي بعضكم بعضاً، ويبغض بعضكم إلى بعض، فَيُشْتَتِ أَمْرَكُمْ بعد تأليف الله بينكم بالإيمان، وجمعه بينكم بأخوة الإسلام، وقد أشار تعالى بهذا إلى المفساد الدنيوية، ثم ذكر المفساد الدينية لهما، فقال: ﴿وَيَصُدَّكُمْ﴾: ويصرفكم بغلبة هذه الخمر بسكرها إياكم عليكم، وباشتغالكم بهذا الميسر ﴿عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾ اللذين خلق لهما العبد، وبهما

(٩٠ . ٩١) أخرج أبو داود وابن ماجه وأحمد بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «لُعنت الخمر على عشرة وجوه: لعنت الخمر بعينها، وشاربها، وساقبها، وبائعها، ومبتاعها، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه، وأكل ثمنها».

يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَالْأَنْصَابِ وَالْأَزْوَاجِ كُلِّ مَا خَامَرَ الْعَقْلَ؛ أَي: غطاه بسكرٍ وَالْمَيْسِرِ؛ وهو القمار، أو هو جميع المغالبات التي فيها عوض من الجانيين؛ كالمراهنة ونحوها﴾ وَالْأَنْصَابِ: الأصنام والأوثان مما ينصب ويعبد من دون الله، أو حجارة كانوا يذبحون قربانهم عندها ﴿وَالْأَزْوَاجِ: القداح التي كانوا يستقسمون بها﴾ رَجَسَ: نجس خبث مستقذر، وإن لم تكن نجسة حساً، وقيل: سَخَطَ ﴿مَنْ عَمِلَ الشَّيْطَانُ﴾ من تزينه ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ فاتركوه، والضمير عائد على الرجس ﴿لَعَلَّكُمْ تَقْلِحُونَ﴾؛ فإن الفلاح لا يتم إلا بترك ما حرم الله، خصوصاً هذه الفواحش المذكورة، وهذا ترغيب في تركها؛ لأن الفلاح مطلوب مرغوب به.

صلاح دنياه وآخرته وسعادته، ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ عن شرب هذه والمياسرة بهذا، وعاملون بما أمركم به ربكم من أداء ما فرض عليكم من الصلاة لأوقاتها، ولزوم ذكره؟! والمراد: انتهوا عن ذلك؛ كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠]؛ أي: اشكروا.

(٩٢) ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ في اجتنابكم ذلك واتباعكم أمره فيما أمركم به من الانزجار عما زجركم عنه من هذه المعاني التي بينها لكم ﴿وَأَحْذَرُوا﴾ من معصية الله ومعصية رسوله - مخالفتها -؛ أي: اتقوا الله وراقبوه أن يراكم عند ما نهاكم عنه من هذه الأمور التي حرمها

(٩٤) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: يقول سبحانه وتعالى مخاطباً عباده المؤمنين: ﴿يَبْلُغُكُمْ اللَّهُ﴾ ليختبرنكم الله، وفائدة البلوى: إظهار المطيع من العاصي ﴿بِقِيَّةٍ﴾ غير كثير ﴿مِنَ الصَّيْدِ﴾ وهو صيد البر خاصة، فتكون محنة يسيرة؛ تخفيفاً منه تعالى ولطفاً، إما ﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ﴾: إما باليد؛ كالبيض والفراخ ﴿وَرِمَاحُكُمْ﴾: وإما بإصابة النبل والرماح؛ كالحُمْر، والبقر، والظباء، ونحوها.

والمراد: أن ذلك الصيد الذي يبتليكم الله به تتمكنون من صيده؛ ليتم بذلك الابتلاء، لا غير مقدور عليه بيد ولا رمح؛ فلا يبقى للابتلاء فائدة.

ثم ذكر الحكمة في ذلك الابتلاء، فقال: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ﴾ علماً ظاهراً للخلق، يترتب عليه الثواب والعقاب ﴿مَنْ يَخَافُ بِالْقَلْبِ﴾؛ أي: يخاف الله ولم يره ولم يعاينه؛ فيتقي ما نهاه عنه ويجتنب محارمه؛ خوف عقابه، مع قدرته عليه وتمكنه ﴿فَمَنْ اعْتَدَى﴾: تجاوز حدَّ الله الذي حدَّه له ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ البيان الذي قطع الحجج، فصاد بعد تحريمه عليه؛ ﴿فَلَهُ عَذَابٌ﴾ من الله ﴿أَلِيمٌ﴾ مؤلم موجع، لا يقدر على وصفه إلا الله؛ لمخالفته أمر الله وشرعه.

عليكم ﴿إِنْ تَوَيْتُمْ﴾ عما أمرتم به ونهيتم عنه؛ ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾: فاعلموا أنه ليس على من أرسلناه إليكم بالندارة إلا إلاغكم الرسالة التي أرسل بها إليكم مبينة لكم بياناً يوضح لكم سبيل الحق والطريق الذي أمرتم أن تسلكوه، وأما العقاب على التولية؛ فعلى الله تعالى، فأنتم لم تضروا بالمخالفة إلا أنفسكم. وهذا من الله تعالى وعيد لمن تولى عن أمره ونهيه.

(٩٣) ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ منكم ﴿جُنَاحٌ﴾: حرج وإثم ﴿فِيمَا طَعَمُوا﴾ من الخمر والميسر قبل تحريمهما ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا﴾ الله، فخافوه وراقبوه في اجتنابهم ما حرم عليهم ﴿وَوَءَامَنُوا﴾ بالله إيماناً صحيحاً ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: واكتسبوا من الأعمال ما يرضاه الله في ذلك مما كلّفهم به واستمروا على عملها ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا﴾: ثم خافوا الله وراقبوه؛ باجتنابهم محارمه بعد ذلك التكليف - أيضاً - ، فثبتوا على اتقاء الله في ذلك والإيمان به، ولم يغيروا ولم يبدلوا ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا﴾: ثم خافوا الله، فدعاهم خوفهم الله إلى الإحسان؛ وهو العمل بما لم يفرضه عليهم من الأعمال، ولكنه نوافل تقربوا بها إلى ربهم ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ في عبادته، المتقربين إليه بنوافل الأعمال التي يرضاه.

(٩٣) أخرج النسائي في «التفسير» والطبراني في «الكبير» بإسناد حسن عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه - قال: نزل تحريم الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار، شربوا حتى إذا ثملوا عبث بعضهم ببعض، فلما صحوا جعل الرجل يرى الأثر بوجهه وبرأسه ولحيته، فيقول: قد فعل بي هذا أخي - وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن - والله لو كان بي رؤوفاً رحيماً ما فعل بي هذا! فوقعت في قلوبهم الضغائن؛ فأنزل الله عز وجل ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمُومًا وَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ فقال ناس: هي رجس، وهي في بطن فلان قتل يوم بدر، وفلان قتل يوم أحد! فأنزل الله عز وجل: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الآية.

(٩٥) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ﴾: هذا تحريم منه تعالى لقتل الصيد، ونهي عن تعاطيه ﴿وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾؛ أي: وأنتم محرمون بالحج والعمرة، والنهي عن قتله يشمل: النهي عن مقدمات القتل، والمشاركة في القتل، والدلالة عليه، والإعانة على قتله، ومن تمام ذلك: أنه ينهى المحرم عن أكل ما قتل أو صيد لأجله؛ كما ثبت ذلك بالسنة النبوية المطهرة، وهذا كله تعظيم لهذا النسك العظيم ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمَّداً﴾: قتل صيداً عمداً؛ أي: قاصداً قتله مع علمه بالإحرام؛ عليه ﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾؛ أي: الإبل، أو البقر، أو الغنم، فينظر ما يشبهه شيئاً من ذلك، فيجب عليه مثله - أي: الواجب على قاتله أن يجزي المقتول بمثله من النعم -، يذبحه ويتصدق به.

﴿يَحْكُمُ بِهِ﴾؛ أي: يحكم بذلك الجزاء الذي هو مثل المقتول من الصيد من النعم ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾: عدلان من المسلمين؛ يعني: فقيهان عالمان من أهل الدين والفضل ﴿هَدْيَا﴾؛ أي: يهدي تلك الكفارة ﴿بِلِغِ الْكَعْبَةِ﴾؛ أي: واصلاً إلى الكعبة، والمراد: وصوله إلى الحرم؛ بأن يذبح هناك، ويفرق لحمه على مساكين الحرم ﴿أَوْ﴾؛ أي: إذا لم يجد المحرم مثل ما قتل من النعم، أو لم يكن الصيد المقتول من ذوات الأمثال؛ فـ ﴿كَفَّرَتْهُ طَعَامُ مَسْكِينٍ﴾؛ أي: يجعل مقابلة المثل من النعم طعام يطعم المساكين، قال كثير من العلماء: يقوم الجزاء، فيشتري بقيمته طعام؛ فيطعم كل مسكين مَدْبُوراً، أو نصف صاع من غيره ﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ الطَّعَامِ صِيَامًا﴾؛ أي:

سورة السجدة

أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلْغِيَارَةِ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَأَنْفُو اللَّهِ الذِّبْ إِلَى تَحْشُرُونَ ﴿٩٦﴾ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْيَتَّى الْحَرَامَ قِيَّةً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبَ ذَلِكَ لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتَّبِعُ أَعْمَالَكُمْ تَقْلُحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْتَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَّلَ لَكُمْ تَشَوْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْفَرَأْنُ بُدِّلَ لَكُمْ عَفَاً وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَاسِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَرِهَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٣﴾

١٢٤

يصوم عن إطعام كل مسكين يوماً ﴿لِيَذُوقَ﴾ بإيجاب الجزاء والكفارة المذكورة عليه ﴿وَبَالَ﴾: عقوبة ﴿أَمْرُؤَ﴾: فعله وذنبه الذي ارتكب فيه المخالفة ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْمَا سَلَفٌ﴾؛ أي: عفا الله - أيها المؤمنون - عما سلف منكم في زمان الجاهلية؛ من قتلكم الصيد وأنتم حرم، لمن أحسن في الإسلام واتبع شرع الله، فلا يؤاخذكم بما كان منكم في ذلك قبل تحريمه، ولا يلزمكم له كفارة ﴿وَمَنْ عَادَ﴾: مَنْ فعل ذلك منكم - أي: قتل الصيد وهو محرم - بعد تحريمه في الإسلام، وبلوغ الحكم الشرعي إليه؛ ﴿فَيَنْقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ في الآخرة ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾: منيع في سلطانه، لا يقهره قاهر، ولا يمنعه من الانتقام

(٩٥) في «الصحيحين» عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم: الغراب، والحدأة، والعقرب، والفأرة، والكلب العقور».

الأشهر الحرم قياماً للناس يأمنون فيها القتال؛ فإنهم كانوا لا يطلبون فيها دماً، ولا يقاتلون بها عدواً، ولا يهتكون فيها حرمة.

﴿وَأَهْدَىٰ وَأَقْلَبُذًا﴾: وكذلك جعل الهدي والقلائد - التي هي أشرف أنواع الهدي - قياماً للناس، ينتفعون بهما ويثابون عليهما ﴿ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾: تفاصيل ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فمن علمه أن جعل لكم هذا البيت الحرام؛ لما يعلمه من مصالح الحكم الدينية والدنيوية، فإنها من جملة ما فيهما، فكل ما شرعه لكم؛ فهو جلب لمصالحكم، ودفع لما يضركم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: فلكمال علمه وعمومه؛ بين لكم ما به تنتفعون.

(٩٨) ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: ليكن هذان العلمان موجودين في قلوبكم على وجه الجزم واليقين: تعلمون أن الله شديد العقاب العاجل والآجل على من عصاه، وأنه غفور رحيم لمن تاب إليه وأطاعه؛ فيثمر لكم هذا العلم: الخوف من عقابه، والرجاء لمغفرته وثوابه، وتعملون على ما يقتضيه الخوف والرجاء.

(٩٩) ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾: التبليغ، وقد بلغ كما أمر، وقام بوظيفته، وما سوى ذلك؛ فليس له من الأمر شيء ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾: يعلم ما عمله العامل منكم فأظهره بجوارحه، ونطق به بلسانه ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾: ما تخفونه في أنفسكم من إيمان وكفر، أو يقين وشك ونفاق.

منه - ولا من عقوبة من أراد عقوبته - مانع؛ لأن الخلق خلقه، والأمر أمره، له العزة والمنعة ﴿ذُو أَنْفِقَارٍ﴾: ذو معاقبة لمن عصاه على معصيته إياه.

(٩٦) ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون في حال إحرامكم ﴿صَيْدُ الْبَحْرِ﴾؛ وهو الحي من حيواناته ﴿وَمَطَامُهُ﴾؛ وهو الميت منها، ﴿مَتَعًا لَكُمْ﴾؛ أي: منفعة وقوتاً لكم أيها المخاطبون ﴿وَلِلنَّسَاءِ﴾ رفقتكم الذين يسرون معكم ﴿وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾؛ أي: في حال إحرامكم يحرم عليكم الاصطياد ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾: اتقوه بفعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه، واستعينوا على تقواه بعلمكم أنكم إليه تحشرون فيجازيكم؛ هل قمتم بتقواه فيثيبكم الثواب الجزيل، أم لم تقوموا بها فيعاقبكم؟

(٩٧) ﴿جَعَلَ اللَّهُ﴾: يخبر تعالى أنه جعل ﴿الْكَعْبَةَ﴾: سميت كعبة؛ لتربيعها، وقيل: لارتفاعها من الأرض ونتوئها وبروزها ﴿الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾: سمي كذلك؛ لأن الله حرمه، وعظم حرمة ﴿قِيَمًا لِلنَّاسِ﴾ يقوم بالقيام بتعظيمه، دينهم وديناهم؛ فبذلك يتم إسلامهم، وبه تحط أوزارهم، وتحصل لهم - بقصده - العطايا الجزيلة، والإحسان الكثير، وبسببه تنفق الأموال، وتتقحم - من أجله - الأهوال ﴿وَالشَّهَرِ الْحَرَامِ﴾: الأشهر الحرم؛ وهي ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب، أراد: أنه جعل

(٩٦) وفي «الصحيحين» من حديث الصعب بن جثامة رضي الله عنه: أنه أهدى للنبي ﷺ حماراً وحشياً وهو بالأبواء؛ فردّه عليه، فلما رأى ما في وجهه؛ قال: «إنا لم نرده عليك إلا أثماً حُرماً».

فمن كان كذلك - لا يخفى عليه شيء من ضماير الصدور، وظواهر أعمال النفوس - ؛ فحقيق أن يُتَقَى، وأن يُطاع فلا يعصى.

(١٠٠) ﴿قُلْ﴾ يا محمد للناس محذراً عن الشر، ومرغباً في الخير: ﴿لَا يَسْتَوِي﴾: لا يساوي، ولا يعتدل ﴿الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ من كل شيء؛ فلا يستوي الإيمان والكفر، ولا الطاعة والمعصية، ولا أهل الجنة وأهل النار، ولا الأعمال الخبيثة والأعمال الطيبة، ولا الحرام والحلال ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ﴾: أسرك أيها الإنسان ﴿كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ فلا يستويان؛ فإنه لا ينفع صاحبه شيئاً؛ بل يضره في دينه ودنياه ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بطاعته فيما أمركم ونهاكم، واحذروا أن يستحوذ عليكم الشيطان بأعجابكم كثرة الخبيث ﴿يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾: يا أهل العقول الوافية والآراء الكاملة، الذين عقلوا عن الله آياته، وعرفوا مواقع حججه - وهم الذين يؤبه بهم، ويرجى أن يكون فيهم خير - ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾: أخبر أن الفلاح متوقف على التقوى التي هي موافقة الله في أمره ونهيه؛ فمن اتقاه: أفلح كل الفلاح، ومن ترك تقواه: حصل له الخسران، وفاته الأرباح.

حاجة لكم في السؤال والتنقيب عنها، ولا هي مما تعينكم في أمر دينكم؛ لأنها ﴿إِنْ بَدَّ لَكُمْ﴾: بينت وأظهرت لكم تلك الأمور ﴿تَسْؤَلُونَ﴾: ساءتكم وأحزنتكم، وشقَّ عليكم سماعها ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنْزَلُ الْقُرْآنُ﴾: إذا وافق سؤالكم محله، فسألتكم عنها حين ينزل عليكم القرآن؛ فتسألون عن آية أشكلت، أو حكم خفي وجهه عليكم، في وقت يمكن فيه نزول الوحي من السماء؛ ﴿يُبَدِّلْ لَكُمْ﴾: أي: تبين لكم وتظهر ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾؛ أي: عما سلف من مسألتكم؛ فلا تعودوا إلى ذلك، أو: إن تلك الأشياء التي سألتكم عنها هي مما سكت معافياً لعباده منها، ولم يوجبها عليهم، فكل ما سكت الله عنه ولم يذكره في كتابه؛ فهو مما أباحه وعفا عنه، فاسكتوا أنتم عما سكت الله عنه ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ لم يزل بالمغفرة موصوفاً، وبالحلم والإحسان معروفاً، فتعرضوا لمغفرته وإحسانه، واطلبوه من رحمته ورضوانه.

(١٠٢) ﴿قَدْ سَأَلَهَا﴾؛ أي: قد سأل هذه المسائل التي نهيتكم عنها ﴿قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾؛ أي: عن جنسها وشبهها، سؤال تعنت لا استرشاد، على وجه الاستهزاء والعناد، فلما أجيبوا عليها وبينت لهم وجاءتهم؛ لم يؤمنوا بها، ولم ينتفعوا بها، بل ﴿أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾

(١٠١) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا﴾: هذا تأديب من الله تعالى لعباده المؤمنين، ونهي لهم عن أن يسألوا ﴿عَنْ أَشْيَاءَ﴾ مما لا فائدة ولا

(١٠٠) أخرج أحمد وابن حبان بإسناد صحيح عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «ما قل وكفى خير مما كثر وألهى».

(١٠١) في «الصحيحين» عن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ قال: بلغ رسول الله ﷺ عن أصحابه شيء، فخطب، فقال: «عرضت الجنة والنار، فلم أر كاليوم في الخير والشر. ولو تعلمون ما أعلم؛ لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً» قال: فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يوم أشد منه، قال: غطوا رؤوسهم ولهم خنين، قال: فقام عمر فقال: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً. قال: فقام ذاك الرجل فقال: من أبي؟ قال: «أبوك فلان» فنزلت: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾

إِنْ بَدَّ لَكُمْ تَسْؤَلُونَ.

ضرا به وَدَعَوْه - تركوه - للطواغيت، وأعفوه عن الحمل، فلم يحمل عليه شيء، وسموه: الحامي؛ لأنه حمى ظهره عن أن يركب ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: الذين بحروا البحائر، وسيبوا السوائب، ووصلوا الوصائل، وحموا الحوامي ممن سنوا لأهل الشرك السنن الرديئة، وغيروا دين الله ﴿يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ في قولهم: الله أمرنا بهذا، وهي عنده قربة. وجعلهم إياها محرمة بغير دليل ولا برهان، وإنما ذلك افتراء على الله وكذب وإفك ﴿وَكَذَرْتُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾: فلا نقل عندهم ولا عقل دلهم عليه، فما أرك عقلولهم! وما أضعفها! يفعلون هذه الأفاعيل التي هي محض الرقاعة ونفس الحمق.

(١٠٤) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾: وإذا قيل لهؤلاء الذين يبحرون البحائر ويسيبون السوائب، الذين لا يعقلون أنهم بإضافتهم تحريم ذلك إلى الله تعالى يفترون على الله الكذب: ﴿تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾: تعالوا إلى تنزيل الله وآي كتابه وإلى رسوله؛ ليتبين لكم كذب قيلكم فيما تضيفونه إلى الله تعالى من تحريمكم هذه الأشياء ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ من الدين، ولو كان غير سديد، ولا ديناً ينجي من عذاب الله ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾؛ أي: لا يفهمون حقاً ولا يعرفونه، فلو كان في آبائهم كفاية ومعرفة ودراية؛ لكان الأمر! ولكن آباءهم ليس عندهم من المعقول شيء، ولا من العلم والهدى شيء، فتباً لمن قلد

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَتَّبِعُ الَّذِينَ آمَنُوا عَظِيمَكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَمَن يَبْتَغِيكُمْ يَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ يَتَّبِعُ الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةَ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذُوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِن أَنْتُمْ ضَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَالضَّيْبَتُكُم مَّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الْوَصْلَةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ أَرْتَبْتُمْ لَا نُشْرِي بِهِ شَيْئًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّ مِنَ الْآثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِن عُرِضَ عَنْهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلَيْنِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدْنَا حَقًّا مِّنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا أَعْتَدْنَا إِنَّا إِذًا لَّ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَلِكَ أَدْعَايُ أَنْ يَأْتُوا بِالْشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهَيْهَا أَوْ يُخَافُونَ أَن تَرُدَّ آيَاتُنَا بِعَدِّ آيَاتِنَا ثُمَّ يَنْفُتُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

كاتمين لها، تاركين للعمل بها، فكان ذلك سبباً لكفرهم وضلالهم.

(١٠٣) ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ﴾: ما شرع الله، ولا أنزل ﴿مِنْ بَحِيرَةٍ﴾: الناقة إذا ولدت خمسة أبطن، بحروا أذنها - أي: شقوها -، وحرّموا ركوبها ودرها، فلا يحلبها أحد من الناس ﴿وَلَا سَابِغَةً﴾: الناقة كانوا يسيبونها لآلهتهم؛ لا تركب، ولا يحمل عليها شيء ﴿وَلَا وَصِيلَةً﴾: الناقة البكر، تبكر في أول نتاج الإبل، ثم تشن بعد بأنثى، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم؛ إن وصلت إحدهما بالأخرى ليس بينهما ذكر ﴿وَلَا حَامِرًا﴾: فحل الإبل، يضرب الضراب المعدود، فإذا قضى

(١٠٣) أخرج البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً، ورأيت عمرو بن لحي يجرّ فُضْبَهُ، وهو أول من سبّ السوائب».

وعلائمه، فينبغي له أن يكتب وصيته، ويشهد عليها اثنين ذوي عدل ممن تعتبر شهادتهما ﴿مِنْكُمْ﴾: من المسلمين ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ من غير المسلمين - من اليهود، أو النصارى؛ أهل الكتاب -، وذلك عند الحاجة والضرورة وعدم غيرهما من المسلمين ﴿إِنْ أَنْتُمْ صَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ سافرتهم ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾: فنزل بكم الموت. فهذان شرطان لجواز استشهاد الذميين عند فقد المؤمنين: أن يكون ذلك في سفر، وأن يكون في وصية. ولم يأمر بإشهادهما؛ إلا لأن قولهما في تلك الحال مقبول ﴿تَحْسِبُونَهُمَا﴾: تستوقفونهما ﴿مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ بعد صلاة اجتماع الناس فيها بحضرتهم ﴿فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾: فيحلفان بالله أنهما صدقا، وما غيرا، ولا بدلاً، هذا ﴿إِنْ أَرَبْتُمْ﴾: شككتهم في شهادتهما، ووقعت لكم الريبة في قولهما وصدقهما، أي في قول اللذين ليسا من أهل ملتكم، فإن كانا مسلمين؛ فلا يمين عليهما، وكذا إن صدقتموهما؛ فلا حاجة إلى القسم بذلك ويقولان: ﴿لَا نَشْرِي بِهِ﴾ بأيماننا ﴿ثُمَّنَا﴾ بأن نكذب فيها، لأجل عرض قليل من الدنيا الفانية الزائلة ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ أي: ولو كان المشهود عليه قريباً لنا؛ فلا نراعيه ولا نحابه لأجل قربه

مَنْ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ صَحِيحٌ وَلَا عَقْلٌ رَجِيحٌ وَتَرَكُ إِتْبَاعُ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، وَاتِّبَاعُ رَسُولِهِ الَّذِي يَمْلَأُ الْقُلُوبَ عِلْماً وَإِيمَاناً، وَهَدًى وَبَيِّنَاتاً.

(١٠٥) يقول تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾: أي: اجتهدوا في إصلاحها وكمالها وإلزامها سلوك الصراط المستقيم؛ فإنكم إذا صلحتهم ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ﴾: من كفر وسلك غير سبيل الحق، وخالف الصراط المستقيم، ولم يهتد إلى الدين القويم؛ ﴿إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾ إذا أنتم اهتديتم وآمنتم بربكم، ولزمتكم العمل بطاعة الله، وأدبتم فيمن ضل من الناس ما ألزمكم الله به فيه من فرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأخذ على يديه إذا رام ظلماً، فأبى النزوع عن ذلك، ولا ضير عليكم في تماديه في غيبه وضلاله، وإنما يضر نفسه.

وقوله: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً﴾؛ أي: مالكم ومصيركم يوم القيامة، واجتماعكم بين يدي الله تعالى ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ﴾ فيخبركم ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر، ثم يجازيكم على أعمالكم.

(١٠٦) ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ﴾: يخبر تعالى خبراً متضمناً للأمر بإشهاد اثنين على الوصية، إذا حضر الإنسان مقدمات الموت

(١٠٥) أخرج أبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد بإسناد صحيح أن أبا بكر رضي الله عنه قام فحمد الله وأثنى عليه، وقال: أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾، وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ قال: «إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه أوشك الله - عز وجل - أن يعذبهم بعقابها».

(١٠٦) أخرج البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي بن بداء. فمات السهمي بأرض ليس بها مسلم، فلما قدما بتركته فقدوا جاماً من فضة مخوّصاً من ذهب، فأحلفهما رسول الله ﷺ، ثم وجد الجاه بمكة، فقالوا: ابتعناه من تميم وعدي، فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا: لشهادتنا أحق من شهادتهما، وإن الجاه لصاحبهم. قال: وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ﴾.

أولياء الميت، وليكونا من أقرب الأولياء إليه ممن يرث ذلك المال.

﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَدَتَيْهِمَا﴾؛ أي: لقولنا: إنهما كذبا، وغيرا، وخانا؛ أصح، وأثبت من شهادتهما المتقدمة ﴿وَمَا أَعْتَدْنَا﴾ في أيماننا، وما قلنا فيهما من الخيانة ﴿إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ إن كنا قد كذبنا عليهما وظلمنا واعتدنا، وشهدنا بغير الحق.

(١٠٨) ﴿ذَلِكَ﴾ الذي قلت لكم في أمر الأوصياء إذا ارتبتم بأمرهم، واتهمتموهم بخيانة لمال من أوصى إليهم؛ من حبسهم بعد الصلاة، واستحلافكم إياهم على ما ادعى قبلهم أولياء الميت ﴿أَذْفُ﴾: أجدر، وأحرى، وأقرب لهم ﴿أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا﴾ حين تؤكد عليهم تلك التأكيدات؛ أي: هذا الفعل إذا فعلتم بهم أقرب لهم أن يصدقوا في أيمانهم ولا يكتموا، ويقروا بالحق ولا يخونوا ﴿أَوْ يَخَافُوا﴾: أو يخاف هؤلاء الأوصياء إن عثر عليهم أنهم استحقوا إثما ﴿أَنْ تَرَدُّ أَيْمَنُ﴾: أيمانهم على أولياء الميت ﴿بَعْدَ أَيْمَنِهِمُ﴾ التي عثر عليها أنها كذب، فيستحقوا بها ما ادعوا قبلهم من حقوقهم؛ فيصدقوا - حينئذ - في أيمانهم وشهادتهم؛ مخافة الفضيحة على أنفسهم، وحذرا أن يستحق عليهم ما خانوا فيه أولياء الميت وورثته ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: خافوا الله أيها الناس، وراقبوه في أيمانكم أن تحلفوا بها كاذبة، وأن تذهبوا بها مال من يحرم عليكم ماله، وأن تخونوا من اتتمنكم ﴿وَأَسْمَعُوا﴾: اسمعوا ما يقال لكم وما توعظون به، فاعملوا به وأطيعوا ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾: الخارجين عن طاعته ومتابعة شريعته.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِزَّ لَنَا ذَلِكُ أَنْتَ عَلَّمَ الْقُرْيُوبَ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْصِي أَمْرِي مَرِيءٌ أَذْكَرَ فَعَمِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَبْدَتْكَ يُرْجُ الْقُدُسُ تُكْرِمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهَلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالْوَزْنَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ يَافِي فَنَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا يَافِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ يَافِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتِ يَافِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جُنَّتْهُمْ بِالْبَيْتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْحَرٌ مُبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّتِ أَنْ أَمْسُوا فِي رِيسُولِي قَالُوا أَمَّا أَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّتُ يَعْصِي أَمْرِي مَرِيءٌ هَلْ يَسْتَطِيعُ رُبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ أَتَقْوَى اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نَرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَنَطْمِئَن قُلُوبَنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾

منا ﴿وَلَا تَكُنْتُمْ شُهَدَاءَ اللَّهِ﴾ بل نؤديها على ما سمعناها، وإضافتهما إلى الله؛ تشريفاً لها، وتعظيماً لأمرها ﴿إِنَّا إِذَا﴾؛ أي: إن فعلنا شيئاً من ذلك؛ من تحريف الشهادة، أو تبديلها، أو تغييرها، أو كتمانها بالكلية ﴿لَيْنَ الْأَلْبِينَ﴾.

(١٠٧) ﴿فَإِنْ عُرِّيَ﴾: اطلع منهما وظهر وتحقق، ووجد من القرائن ما يدل ﴿عَلَىٰ أَنَّهُمَا﴾؛ أي: الشاهدين ﴿أَسْتَحَقَّا﴾: استوجبا ﴿إِنَّمَا﴾: بأن كذبا أو خانا، أو غيرا وبدلاً وصيته؛ ﴿فَقَاخَرَانِ﴾ من أولياء الميت وورثته ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾: مقام الوصيين اللذين ذكر الله أمرهما في هذه الآية بعد حلفهما بالله ﴿مَنْ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾: وجب وحق عليهم الإثم ﴿الْأَوَّلَيْنِ﴾: تشنية الأولى؛ وهو الأقرب، ومعنى الآية: أي: متى تحقق ذلك بالخبر الصحيح على خيانتتهما؛ فليقم اثنان من

عجيب ﴿وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ﴾: الخط
﴿وَالْحِكْمَةَ﴾: العلم والفهم ﴿وَالتَّوْرَةَ﴾: الكتاب
المنزل على موسى - عليه الصلاة والسلام -
﴿وَالْإِنْجِيلَ﴾: الكتاب الذي أنزلته إليك -
﴿وَإِذْ تَخْلُقُ﴾: تجعل وتصور وتشكل ﴿وَبَنَى
الطَّيْنَ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾: على هيئة الطائر لا روح
فيه ﴿يَاذُنِي﴾ لك في ذلك، وتسهيله عليك،
وتيسيره لك ﴿فَتَنْفُخُ فِيهَا﴾: فتنفخ في تلك
الصورة والهيئة التي شكلتها ﴿فَتَكُونُ طَيْرًا
يَاذُنِي﴾: فتكون طيرًا ذا روح بإذن الله وخلق
﴿وَتُورِي﴾: تشفي وتصحح ﴿الْأَكْمَةَ﴾:
الاعمى الذي لا بصر له ولا عين ﴿وَالْأَبْرَصَ
يَاذُنِي﴾ البرص: مرض معروف؛ وهو بياض
يظهر في الجلد ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى يَاذُنِي﴾: أي:
تدعوهم فيقومون من قبورهم بإذن الله وقدرته،
وإرادته ومشئته.

فهذه آيات بينات، ومعجزات باهرات يعجز عنها
الأطباء وغيرهم، وهي لا دواء لها، أيد الله -
سبحانه - بها عيسى - عليه الصلاة والسلام - ،
وقوى بها دعوته.

﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾: واذكر نعمتي
عليك في كفي ومنعي إياهم ﴿عَنكَ﴾ حين
سعوا في قتلك وصلبك؛ فنجيتك منهم،
ورفعتك إليّ، وطهرتك من دنسهم، وكفيتك
شرهم ﴿إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾: حين جئتهم
بالبراهين والحجج القاطعة على نبوتك
ورسالتك من الله إليهم ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
مِنْهُمْ﴾: فقال الذين جحدوا نبوتك، وكذبوك
من بني إسرائيل: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ
مُؤْتٍ﴾: ما هذا الذي جئت به إلا سحر

(١٠٩) ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾: يخبر تعالى عن
يوم القيامة وما فيه من الأهوال العظام، وأن الله
يجمع به جميع الرسل، ﴿فَيَقُولُ﴾ فيسألهم ﴿مَاذَا
أُجِبْتُمْ﴾: ماذا أجابتكم به أأممكم حين
دعوتموهم إلى توحيدى والإقرار بى، والعمل
بطاعتي والانتهاى عن معصيتى؟

﴿فَقَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ إلا علم أنت أعلم به منا
﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمْتَ الْغُيُوبَ﴾: إنك لا يخفى عليك
ما عندنا من علم ذلك ولا غيره، فأنت تعلم
الأمور الغائبة والحاضرة. فهم نفوا أن يكون لهم
بما سئلوا عنه من ذلك علم لا يعلمه هو سبحانه؛
لا أنهم نفوا أن يكونوا علموا ما شاهدوا.

(١١٠) ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعْسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكُرُ نِعْمَتِي
عَلَيْكَ﴾: اذكرها بقلبك ولسانك، وقم بواجبها
شكرًا لربك، حيث أنعمت عليك نعمًا ما أنعمت
بها على أحد غيرك؛ من خلقي إياك من أمّ بلا
ذكر، وجعلني إياك آية ودلالة قاطعة على كمال
قدرتي على الأشياء ﴿وَعَلَى وَلَدَيْكَ﴾: حيث
جعلتك لها برهانًا على براءتها مما نسبته الظالمون
الجاهلون إليها من الفاحشة ﴿إِذْ أَيْدُوكَ﴾:
قوتك وأعتك ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾: جبريل عليه السلام
بملازمته لك وتثبيتك في المواطن المشقة.

﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾؛ أي:
وجعلتك نبيًا تدعو الناس إلى الله في صغر
وكبرك، لا يتفاوت كلامك في الحالتين، مع أن
غيرك يتفاوت كلامه فيهما تفاوتًا بيّنًا؛ فأنطقتك
في المهد صغيرًا؛ فشهدت ببراءة أمك من كل
عيب، واعترفت لي بالعبودية، وأخبرت عن
رسالتي إياك ودعوتك إلى عبادي، وضمنت «تكلم»
تدعو؛ لأن كلامه الناس في كهولته ليس بأمر

- عليه الصلاة والسلام :- ﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾: هل يستطيع لك إن سألته ذلك، ويطيعك فيه؟ ﴿أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ المائدة: الخوان الذي عليه الطعام، وهذا ليس منهم عن شك في قدرة الله واستطاعته على ذلك، وإنما ذلك من باب العرض والأدب منهم، ولما كان سؤال آيات الاقتراح منافياً للانقياد للحق، وكان هذا الكلام الصادر من الحواريين ربما أوهم ذلك؛ وعظمهم عيسى عليه السلام فقال: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾؛ فإن المؤمن يحمل ما معه من الإيمان على ملازمة التقوى، وأن ينقاد لأمر الله، ولا يطلب من آيات الاقتراح التي لا يدري ما يكون بعدها شيئاً.

(١١٣) فأخبر الحواريون أنهم ليس مقصودهم هذا المعنى، وإنما لهم مقاصد صالحة، ولأجل الحاجة إلى ذلك فـ ﴿قَالُوا رَبُّدُ﴾؛ أي: إنما سألنا لأننا نريد ﴿أَنْ تَأْكُلَ مِنْهَا﴾؛ أي: نحن محتاجون إلى الأكل منها ﴿وَنَقْطَمِينَ﴾: تسكن وتستقر ﴿قُلُونَا﴾ بالإيمان حين نرى الآيات العيانة؛ حتى يكون الإيمان عين اليقين، كما كان قبل ذلك علم اليقين ﴿وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾: نعلم صدق ما جئت به: أنه حق وصدق ﴿وَتَكُونُ عَلَيْهِمَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾؛ أي: ونشهد أنها آية من عند الله، ودلالة وحجة على نبوتك وصدق ما جئت به، فيحصل لنا زيادة برهان بذلك؛ فيكون مصلحة لمن بعدنا.

(١١٤) ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾: لما سمع عيسى - عليه الصلاة والسلام - ذلك، وعلم

قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَنَنْتُ عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِثْقَلِ ذَرَّةٍ مِنْكُمْ فَأِنِّي أَخَذْتُ عَذَابًا لَا أُعْذِبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٤﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَالِمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٥﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الْغَنِيِّ عَلَيْهِمْ فَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَشَّهِيدٌ ﴿١١٦﴾ إِنَّ تَعْلِيَّتَهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٧﴾ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْغَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٨﴾ لِلَّهِ الْمُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١١٩﴾

بين؛ أي: لما عظم ذلك في صدورهم وانبهروا منه؛ لم يقدروا على جحده بالكلية؛ بل نسبوه إلى السحر!

(١١١) ﴿وَإِذْ﴾؛ أي: واذكر نعمتي عليك إذ ﴿أَوْحَيْتُ﴾: ألهمت وقذفت في قلوبهم، أو: أوحيت إليهم بواسطتك وعلى لسانك ﴿إِلَى الْخَوَارِجِ﴾: خواص أصحاب عيسى عليه السلام وأتباعه وأنصاره ﴿أَنْ ءَامِنُوا بِ وَرَسُولِي﴾: أمرتهم أن يؤمنوا بي بالتوحيد والإخلاص، ويؤمنوا برسالة رسولي ﴿قَالُوا ءَامَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾؛ فأجابوا لذلك وانقادوا، فجمعوا بين الإسلام الظاهر والانقياد بالأعمال الصالحة والإيمان الباطن المخرج لصاحبه من النفاق ومن ضعف الإيمان.

(١١٢) ﴿إِذْ قَالَ الْخَوَارِجُونَ﴾: وهم أتباع عيسى

تهديد للنصارى - الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة! وتوبيخ وتقرع لهم على رؤوس الأشهاد. فيقول عيسى عليه السلام متبرئاً منه: ﴿سُبْحَنَكَ﴾: تنزيهاً وتعظيماً لك عن هذا الكلام القبيح؛ وعما لا يليق بك ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾: هذا توفيق للتأدب في الجواب الكامل؛ لقنه الله إياه؛ أي: ما ينبغي لي، ولا يليق، أن أقول شيئاً ليس من أوصافي ولا من حقوقي؛ فإنه ليس أحد من المخلوقين - لا الملائكة المقربون، ولا الأنبياء المرسلون - له حق ولا استحقاق لمقام الألوهية، وإنما الجميع عباد مدبرون، وخلق مسخرون، وفقراء عاجزون ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُمْ﴾: إن كان صدر مني هذا؛ ﴿فَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾: يا رب؛ فإنه لا يخفى عليك شيء مما قلته، وأنت عالم أني لم أقل ذلك ولم أمرهم به، وهذا من كمال أدب المسيح عليه السلام في خطابه لربه، فلم يقل: لم أقل شيئاً من ذلك، وإنما أخبر بكلام ينفي عن نفسه أن يقول كل مقالة تنافي منصبه الشريف، ونزهه ربه عن ذلك أتم تنزيه ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾: فلا يخفى عليك ما أضمرته نفسي مما لم أنطق به ولم أظهره بجوارحي؛ أي: إنك تعلم ضمائر النفوس مما لم تنطق به؛ فكيف بما قد نطقت به؟! ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾: ولا أعلم ما أخفيته عني في نفسك فلم تطلعني عليه ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾: العالم بخفيات الأمور؛ التي لا يطلع عليها سواك، ولا يعلمها غيرك.

مقصودهم؛ أجابهم إلى طلبهم عند ذلك، فقال: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾: سأل الله نزولها ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾: يكون وقت نزولها عيداً وموسماً للأحياء منا اليوم، ومن يجيء بعدنا منا، يتذكر به هذه الآية العظيمة، فتحفظ ولا تنسى على مرور الأوقات وتكرر السنين؛ كما جعل الله تعالى أعياد المسلمين ومناسكهم مذكراً لآياته، ومنبهاً على سنن المرسلين وطرقهم القويمه، وفضله وإحسانه عليهم ﴿وَمَائِدَةً مِنْكَ﴾: علامة وحجة ودليل منك يا رب تنصبه على قدرتك على الأشياء وعلى إجابتك دعوتي؛ فيصدقوني فيما أبلغه عنك ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاغِبِينَ﴾: اجعلها لنا رزقاً بلا كلفة ولا تعب. (١١٥) ﴿قَالَ اللَّهُ﴾ تعالى مجيباً لعيسى عليه السلام: ﴿إِنِّي مُرْسِلُهَا عَلَيْكُمْ﴾؛ يعني: المائدة ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ﴾؛ أي: فمن كذب بعد نزول المائدة من أمتك يا عيسى، وعاندها؛ ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا﴾؛ أي: تعذيباً ﴿لَا أُعَذِّبُهُ﴾؛ أي: لا أعذب مثل ذلك التعذيب ﴿أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾؛ أي: عالمي زمانه. (١١٦) ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾: هذا مما يخاطب الله تعالى به عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام، قائلاً له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلهين من دون الله: ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾؟ هذا -

(١١٦) أخرج الترمذي والنسائي في «الكبرى» وابن أبي حاتم بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: يُلقِي عيسى حجته، ولقاه الله في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾. أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ. قال أبو هريرة عن النبي ﷺ: فلفاه الله: ﴿سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾.

لك، وأنت أرحم بهم من أنفسهم وأعلم بأحوالهم، فلولا أنهم متمردون؛ لم تعذبهم ﴿وَإِنْ تَعَفَّرَ لَهُمْ﴾ بهدايتك إياهم إلى التوبة فتستر عليهم؛ ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾: فمغفرتك صادرة عن تمام عزة وقدره، لا كمن يغفر ويعفو عن عجز وعدم قدرة ﴿الْحَكِيمُ﴾ في هدايته من هدى من خلقه إلى التوبة وتوفيقه من وفق منهم لسبيل النجاة من العقاب.

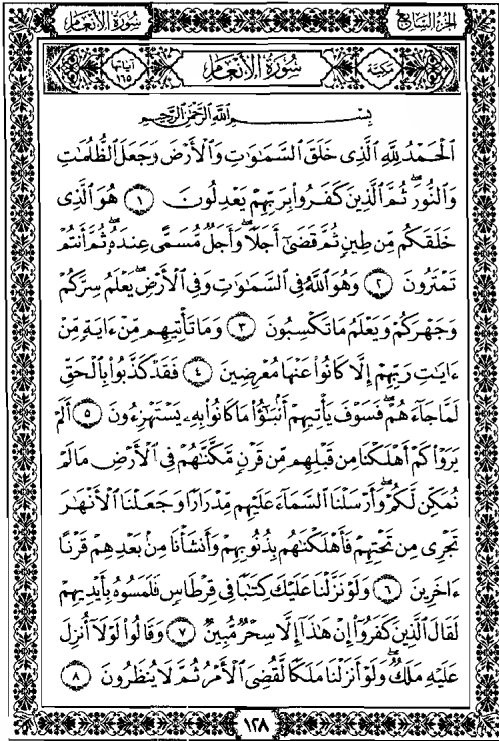
(١١٩) ﴿قَالَ اللَّهُ﴾ تعالى مجيباً لعبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام فيما أنهاه إليه من التبري من النصارى الملحدين الكاذبين على الله وعلى رسوله، ومن رد المشيئة فيهم إلى ربه، ومبيناً لحال عباده يوم القيامة، ومن الفائز منهم ومن الهالك، ومن الشقي ومن السعيد: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ والصادقون: هم الذين استقامت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم على الصراط المستقيم والهدى القويم، فيوم القيامة يجدون ثمرة ذلك الصدق، ويرون نفعه ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾: باقين في الجنات التي أعطاها لها أبداً دائماً، ماكثين فيها

(١١٧) ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾؛ أي: ما دعوتهم إلا إلى الذي أرسلتني به، وأمرتني بإبلاغه، فأنا عبد متبع لأمرك، لا متجري على عظمتك ﴿إِنْ أَعْبَدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾؛ أي: ما أمرتهم إلا بعبادة الله وحده وإخلاص الدين له، المتضمن للنهي عن اتخاذي وأمي إلهين من دون الله، وبيان أنني عبد مربوب، فكما أنه ربكم؛ فهو ربي ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾؛ أي: كنت أشهد على أعمالهم ومن قام بهذا الأمر ممن لم يقم به منهم حين كنت بين أظهرهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾: رفعتني إليك - إلى السماء - ﴿كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾: المطلع على سرائرهم وضمائرهم، والحفيظ عليهم؛ تحفظ أعمالهم ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾: وأنت تشهد على كل شيء؛ لأنه لا يخفى عليك شيء، فأنت العليم الذي قد أحاط بالمعلومات، والسميع الذي قد أحاط بالمبصرات.

(١١٨) ﴿إِنْ تَعَذَّبْهُمْ﴾: إن تعذب هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة؛ ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ مستسلمون

(١١٧، ١١٨) أخرج الشيخان عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «يا أيها الناس، إنكم محشورون إلى الله ﷻ حفاة عراة غزلاً»: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُمُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم، ألا وإنه بجاء برجال من أمي، فيؤخذ بهم ذات الشمال؛ فأقول: أصحابي، فقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ إِنْ أَعْبَدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنْ تَعَذَّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَعَفَّرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم.

(١١٩) أخرج ابن أبي حاتم والبخاري في «الشرعية» والطبراني في «الأوسط» وأبو يعلى بإسناد صحيح بمجموع طرقه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثم يتجلى لهم الرب تعالى فيقول: سلوني سلوني أعطكم. قال فيسألونه الرضا، فيقول: رضاي أحلكم داري، وأنا لكم كرامتي، فسلوني أعطكم. فيسألونه الرضا، قال: فيشهدهم أنه قد رضي عنهم».



لا يحولون ولا يزولون ﴿رَبِّهِمْ أَلَّهُ عَنَّهُمْ﴾ بما عملوه من الطاعات الخالصة له ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ في وفائه لهم بما وعدهم على طاعتهم إياه وبما جازاهم به مما لا يخطر لهم على بال ولا تتصوره عقولهم ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾: هذا هو الفوز والظفر الكبير، الذي لا أعظم منه.

(١٢٠) ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾: له سلطان السموات والأرض، وهو الخالق للأشياء، المالك لها، المتصرف فيها، القادر عليها، فالجميع ملكه، وتحت قهره وقدرته، وفي مشيئته، فلا نظير له ولا وزير ولا عديل، ولا والد ولا ولد ولا صاحبة؛ فلا إله غيره، ولا رب سواه ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: فلا يعجزه شيء؛ بل جميع الأشياء منقادة لمشيئته ومسخرة بأمره.

تفسير سورة الأنعام وهي مكية

(١) يقول تعالى مادحاً نفسه الكريمة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وحده لا شريك له ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾: الذي جعل منهما معاشكم وأقواتكم وأقوات أنعامكم التي بها حياتكم؛ فمن السماوات ينزل عليكم الغيث، وفيها تجري الشمس والقمر باعتقاب واختلاف لمصالحكم، ومن الأرض ينبت الحب الذي به غذاؤكم، والثمار التي فيها ملاذكم، مع غير ذلك من الأمور التي فيها مصالحكم ومنافعكم بها، الدالة على كمال قدرته، وسعة علمه ورحمته، وعموم حكمته، وانفراده بالخلق والتدبير ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾: وعلى جعله الظلمات والنور، وذلك

شامل للحسي من ذلك؛ كالليل والنهار، والشمس والقمر، والمعنوي؛ كظلمات الجهل، والشك، والشرك، والمعصية، والغفلة، ونور العلم والإيمان، واليقين، والطاعة.

وهذا كله يدل دلالة قاطعة أنه تعالى هو المستحق للعبادة، وإخلاص الدين له ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾: يشركون به سواه، ويجعلون معه شريكاً وعدلاً في عبادتهم إياه، يسوونهم به في العبادة والتعظيم، مع أنهم لم يساووا الله في شيء من الكمال، وهم فقراء عاجزون ناقصون من كل وجه.

(٢) ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ وذلك بخلق مادتك وأبيكم آدم عليه السلام، الذي هو أصلكم، ومنه خرجتم ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾: ضرب لمدة

فاستحقوا العقاب الشديد.

﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَؤُهُمَا كَأَنَّهُمْ يَسْتَهْزِئُونَ﴾: هذا تهديد لهم، ووعد شديد على تكذيبهم بالحق؛ أي: فسوف يرون أخبار ما استهزؤا به أنه الحق والصدق، وبين الله للمكذبين كذبهم وافتراءهم. (٦) ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾: ألم ير هؤلاء المكذبون بآياتي، الجاحدون نبوتك ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾: كم تتابع إهلاكنا للأمم المكذبين قبلهم، وأمهلناهم قبل ذلك الإهلاك، بأن ﴿مَكَثَهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمْكِنْ لَهُمْ﴾: لهؤلاء من الأموال والبنين والأعمار، والجاه العريض، والسعة والرفاهية ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ﴾: المطر ﴿عَلَيْهِمْ يَذُرَّارًا﴾: غزيراً متتابعاً في أوقات الحاجات ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ﴾: أكثرنا عليهم أمطار السماء، وتفجرت من تحتهم عيون المياه بينابيعها، فغمطوا نعمة ربهم، وعصوا رسول خالقهم، وخالفوا أمر ربهم، وبغوا حتى حق عليهم قولي: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ فأخذناهم بخطاياهم وسيئاتهم التي اجترموها، وعاقبناهم بما كسبت أيديهم ﴿وَأَنشَأْنَا﴾: خلقنا وابتدأنا ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾: من بعد الذين أهلكناهم ﴿قَرْنًا آخَرِينَ﴾: جيلاً آخر؛ لنختبرهم، فاحذروا أيها المخاطبون أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فما أنتم بأعز على الله منهم، والرسول الذي كذبتموه أكرم على الله من رسولهم، فأنتم أولى بالعذاب ومعالجه العقوبة منهم.

(٧) ﴿وَلَوْ زَلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا﴾: أي: لو أنزلت عليك يا محمد! الوحي الذي أنزلته عليك وهو القرآن ﴿فِي قُرْطَاسٍ﴾: مكتوباً في صحيفة ﴿فَلَمَسُوهُ بَأْيَدِهِمْ﴾: عاينوه، ومسوه بأيديهم، وتيقنوه،

إقامتكم في هذه الدار أجلاً تتمتعون به وتمتحنون، وتبتلون بما يرسل إليكم به رسله ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَنَا﴾ أي: الدار الآخرة التي ينقل إليها العباد من هذه الدار، فيجازيهم بأعمالهم خيرها وشرها ﴿ثُمَّ﴾ مع هذا البيان التام، وقطع الحجة ﴿أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾: تشكون في وعد الله ووعيده، ووقوف الجزاء يوم القيامة.

(٣) ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾: وهو المألوه المعبود في السموات وفي الأرض؛ أي: يعبد ويوحده ويقر له بالإلهية من في السموات ومن في الأرض، ويسمونه الله، ويدعونه رغياً ورهباً إلا من كفر من الجن والإنس ﴿يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرُكُمْ﴾ فلا يخفى عليه منكم شيء ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾: ويعلم ما تعملون وتجرحون، فيحصي ذلك عليكم ليجازيكم به عند معادكم إليه؛ فاحذروا معاصيه، وارغبوا في الأعمال التي تقربكم منه وتدينكم من رحمته، واحذروا من كل عمل يبعدكم منه ومن رحمته.

(٤) ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ﴾: وما تأتي هؤلاء الكفار الذين بربهم يعدلون ﴿مِنْ آيَةٍ﴾: حجة، وعلامة، ودلالة، ومعجزة ﴿مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾: من حجج ربهم ودلالاته وأعلامه على وحدانيته وصدق نبوة رسوله؛ ﴿إِلَّا كَانُوا عَنَّا مَعْزِينَ﴾: لا يلقون لها بالاً، ولا يصغون لها سمعاً، قد انصرفت قلوبهم إلى غيرها، وولوها أديارهم.

(٥) ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾: فقد كذب هؤلاء العادلون بالله ﴿بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾؛ وهو محمد ﷺ، كذبوا به، وجحدوا نبوته لما جاءهم والحق حقه: أن يتبع، ويشكر الله على تيسيره لهم، وإتيانهم به، فقابلوه بضد ما يجب مقابلته به؛

ونظروا إليه وقرءوا منه ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: لقال الذين يعدلون بي غيري، فيشركون في توحيدي سواي: ﴿إِنَّ هَذَا﴾؛ أي: ما هذا الذي جئنا به ﴿إِلَّا سِحْرٌ﴾ سحرت به أعيننا، ليست له حقيقة ولا صحة ﴿مُتَيْتٌ﴾: واضح ظاهر لمن تدبره وتأمله أنه سحر، لا حقيقة له، فأئى بيئة أعظم من هذه البيئة، وهذا قولهم الشنيع فيها؟! حيث كابروا المحسوس الذي لا يمكن من له أدنى مسكة من عقل دفعه!!

(٨) ﴿وَقَالُوا﴾ - أيضا - تعنتا مبنيا على الجهل، وعدم العلم بالمعقول: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾: هلا أنزل مع محمد ملك من السماء؛ ليكون معه نذيرا، يعاونه ويساعده على ما هو عليه بزعمهم أنه بشر، وأن رسالة الله لا تكون إلا على أيدي الملائكة؟!

قال الله في بيان رحمته ولطفه بعباده، حيث أرسل إليهم بشرًا منهم يكون الإيمان بما جاء به عن علم وبصيرة وغيب: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا﴾ برسالتنا، لكان الإيمان لا يصدر عن معرفة بالحق، ولكان إيمانًا بالشهادة الذي لا ينفع شيئا وحده هذا إن آمنوا، والغالب أنهم لا يؤمنون بهذه الحالة، فإذا لم يؤمنوا عوجلوا بالهلاك، لقوله تعالى: ﴿لَقَفَى الْأَمْرُ﴾: أي قضي الأمر بتعجيل الهلاك عليهم. ﴿ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ﴾: لا يؤجلون، ولا يؤخرون، ولا يمهلون.

(٩) ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا﴾؛ أي: ولو أنزلنا وأرسلنا مع الرسول البشري ملكًا؛ ﴿لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾: لجعلناه في صورة وهيئة رجل آدمي؛ وليمكنهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه؛ لأنهم لا يستطيعون أن يروا الملك في صورته، ﴿وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ اسْتَهْزَأُ بِرُسُلِ مِن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١١﴾ قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُدُّهُ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمعَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْيَومَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ مَا سَكَرَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغْرَى اللَّهُ أَجْعَدَ وَبِأَفْطَرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطِيعُمْ وَلَا يَظْهَرُ قُلْ إِنِّي أَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونُ مِنَ الْفَاشِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَنْ يَصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَ يَفْقَدُ رَحْمَةً وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَمِيمُ ﴿١٦﴾ إِنْ يَسْأَلْكَ اللَّهُ بَعْضُ أَمْرِ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَسْأَلْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْفَاحِشُ فَوْقَ عِبَادِهِ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾

يَلْبَسُونَ﴾: ولكان الأمر مختلطًا عليهم وملبوسًا، فلم يدروا أملك هو أم إنسي، فلم يوقنوا به أنه ملك ولم يصدقوا به؛ وذلك بسبب ما لبسوه على أنفسهم، فإنهم بنوا أمرهم على هذه القاعدة التي فيها اللبس، وبها عدم بيان الحق.

(١٠) ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأُ بِرُسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾: وهذه تسليية من الله تعالى لرسوله محمد ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه، ووعد له وللمؤمنين به بالنصر والعاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة؛ أي: هون عليك يا محمد ما أنت لاق من هؤلاء المستهزئين بك، المستخفين بحقك، وامض لما أمرتك به، فقد استهزأت أمم من قبلك برسل أرسلتهم إليهم بمثل الذي أرسلتك به إلى قومك، وفعلوا مثل فعل قومك بك ﴿فَحَاقَ﴾: نزل وأحل وأحاط ﴿بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾

جزاء استهزائهم من العذاب والنقمة.

(١١) ﴿قُلْ﴾: يا محمد، لهؤلاء العادلين بي الأوثان، المكذبين المستهزئين بك، الجاحدين حقيقة ما جئتهم به من عندي: ﴿سَيُرَوُّ فِي الْأَرْضِ﴾: سيروا بالأقدام وجولوا في بلاد المكذبين رسلهم، معتبرين ﴿ثُمَّ أَنْظِرُوا﴾؛ أي: ثم فكروا في أنفسكم، وانظروا ﴿كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْكَذَّابِينَ﴾: ما أحل الله بالقرون الماضية، الذين كذبوا رسله وعاندوهم؛ من العذاب والنكال، والعقوبة في الدنيا، مع ما ادخر لهم من العذاب الأليم في الآخرة فلن تجدوا إلا قومًا مهلكين، وأمما في المثالات تالفين، قد أوحشت منهم المنازل، وعُدم من تلك الربوع كل متمتع بالسرور نازل.

(١٢) لهؤلاء المشركين بالله مقررًا لهم وملزمًا بالتوحيد: ﴿لَيْسَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: مَنْ الخالق لذلك، المالك له، المتصرف فيه؟

﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿لِلَّهِ﴾ الذي استعبد وقهر كل شيء بملكه وسلطانه؛ لا للأوثان والأنداد، ولا لما يعبدونه ويتخذونه إلهًا من الأصنام التي لا تملك لأنفسها نفعًا، ولا تدفع عنها ضرًا، وهم مقرون بذلك لا ينكرونه، أفلا حين اعترفوا بانفراد الله بالملك والتدبير؛ أن يعترفوا له بالإخلاص والتوحيد؟

﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾: قضى على نفسه المقدسة أنه بعباده رحيم؛ لا يعجل عليهم بالعقوبة، ويقبل منهم الإنابة والتوبة، وهذا من

الله تعالى استعطاف للمعرضين عنه إلى الإقبال إليه بالتوبة، فهو تعالى قد بسط على خلقه رحمته وإحسانه وفضله، وكتب على نفسه كتابًا: أن رحمته تغلب غضبه، وأن العطاء أحب إليه من المنع.

﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾: أقسم سبحانه بنفسه الكريمة ليجمعن عياده لميقات يوم معلوم؛ وهو يوم القيامة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: لا شك فيه ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾: الذين أهلكوا أنفسهم وغبنوها؛ بادعائهم لله الند والعديل، وأنكروا قدرة الله على بعث الخلائق، وتجرؤوا على الكفر؛ فأوبقوها بإيجابهم سخط الله وأليم عقابه في المعاد، فخسروا دنياهم وأخراهم ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: فهم لا يؤحدون الله، ولا يصدقون بالمعاد، ولا يخافون شر ذلك اليوم.

(١٣) ﴿وَلَوْ﴾: تعالى ﴿مَا سَكَنَ فِي الْآلِ وَالنَّهَارِ﴾: وذلك هو المخلوقات كلها - من آدميها، وجننها، وملائكتها، وحيواناتها، وجماداتها -، فلكل خلق مدبرون وعبيد مسخرون لربهم العظيم القاهر المالك، وتحت قهره وتصرفه وتدبيره؛ فهل يصح في عقل ونقل أن يعبد من هؤلاء المماليك الذي لا نفع عنده ولا ضرر، ويترك الإخلاص للخالق المدبر المالك؟! أم العقول السليمة والفطر المستقيمة تدعو إلى إخلاص العبادة، والحب، والخوف، والرجاء لله رب العالمين؟! ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوال عباده ﴿الْعَلِيمُ﴾ بحركاتهم وضمائرهم وسرائرهم، لا

(١٢) أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال النبي ﷺ: «إن الله لما خلق الخلق كتب كتاباً عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي».

(١٦) ﴿مَنْ يُصِرْ عَنْهُ الْعَذَابُ يَوْمَئِذٍ﴾ : يوم القيامة ﴿فَقَدْ رَجِعَهُ اللَّهُ وَذَلِكَ﴾ ؛ أي : صَرَفُ اللَّهِ عَنْهُ الْعَذَابُ يوم القيامة، ورحمته إياه ﴿الْفَوْزُ﴾ : النجاة من الهلكة، والظفر بالطَّلْبَةِ ﴿الْمَيْمِ﴾ : البين الواضح.

(١٧) ومن أدلة توحيده : أنه تعالى المنفرد بكشف الضراء، وجلب الخير والسرء، وهو المالك لذلك وحده، ولهذا قال : ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ مِنْ فَقْرٍ أَوْ مَرَضٍ أَوْ عَسَرٍ أَوْ غَمٍّ أَوْ هَمٍّ أَوْ نَحْوِهِ﴾ ؛ ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ﴾ : فلا رافع له، ولا قادر على كشفه ﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ﴾ : وإن يصيبك ﴿بِضُرٍّ﴾ : عافية ونعمة : ﴿فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ؛ فلا يعجزه شيء يريد، ولا يمتنع منه شيء طلبه، فإذا كان وحده النافع الضار؛ فهو الذي يستحق أن يفرد بالعبودية والإلهية.

(١٨) ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ ؛ أي : وهو الغالب المذل المستعبد خلقه، العالي عليهم، الذي خضعت له الرقاب، وذلت له الجبابرة، وعنت له الوجوه، وقهر كل شيء، ودانت له الخلائق، وتواضعت لعظمة جلاله وكبريائه وعظمته وعلوه وقدرته الأشياء، واستكانت بين يديه، وتحت قهره وحكمه ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ فيما أمر به ونهى، وأثاب وعاقب، وفيما خلق وقدر ﴿الْخَيْرُ﴾ ؛ بمواضع الأشياء ومحالها، الذي لا

يخفى عليه شيء من ذلك.

(١٩) ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بالله : ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ : أشيئا غير الله تعالى من هؤلاء المخلوقات العاجزة أتخذ رباً ومعبوداً أستنصره وأستعينه وأتولاه؟! فلا أتخذ ولياً إلا الله وحده لا شريك له؛ لأنه ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ؛ أي : خالقهما ومبدعهما ومبتدئهما على غير مثال سابق ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ : وهو الرزاق لجميع الخلق، من غير حاجة منه تعالى إليهم، فكيف يليق أن أتخذ ولياً غير الخالق الرزاق، الغني الحميد؟ ﴿قُلْ﴾ يا محمد للذين يدعونك إلى اتخاذ الآلهة أولياء من دون الله، ويحثونك على عبادتها : ﴿إِنِّي أَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسَلَهُ﴾ من هذه الأمة لله بالتوحيد، وخضع له بالعبودية، وانقاد له بالطاعة؛ لأنني أولى من غيري بامتثال أوامر ربي ﴿وَلَا تَكُونَتْ مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾ : ونهيت - أيضاً - عن أن أكون من المشركين؛ لا في اعتقادهم، ولا في مجالستهم، ولا في الاجتماع بهم.

(٢٠) ﴿قُلْ﴾ يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ : قل لهؤلاء المشركين بالله : إن ربي نهاني عن عبادة شيء سواه، و﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ فعبدت غيره ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ؛ يعني : عذاب يوم القيامة، ووصفه بالعظم؛ لعظم هول، وفظاعة شأنه.

(٢١) أخرج النسائي في «عمل اليوم والليلة» وابن السني في «عمل اليوم والليلة» وابن حبان والحاكم وأبو نعيم في «الحلية» بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضى الله عنه ؛ قال : دعا رجل من الأنصار النبي ﷺ، قال : فانطلقنا معه، فلما طعم وغسل يديه، قال : «الحمد لله الذي يطعم ولا يُطْعَم». من علينا فهداها، وأطعمنا وسقانا، وكلّ بلاء حسن أبلانا، الحمد لله غير مُؤَدِّعٍ ولا مكافأ، ولا مكفور ولا مستغنى عنه الحمد له الذي أطعم من الطعام وسقى من الشراب، وكسا من العري، وهدى من الضلالة، وبصرني العمى، وفضل على كثير من خلقه تفضيلاً، الحمد لله رب العالمين».

لَا تُذِرْكُمْ بِهِ: وأوحى الله إليّ هذا القرآن الكريم لمنفعتكم ومصلحتكم، لأنذركم به من العقاب الأليم ﴿وَمَنْ بَلَغْ﴾؛ أي: وهو نذير لكل من بلغه القرآن من سائر الناس غيركم إلى يوم القيامة؛ فإن فيه بيان كل ما يحتاج إليه من المطالب الإلهية ﴿أَيُنْكَمُ﴾ أيها المشركون ﴿تَشْهَدُونَ أَلَا مَعَ اللَّهِ إِلَهٌ آخَرُ﴾: تشهدون أن معه معبودات غيره؛ من الأوثان والأصنام.

﴿قُلْ يَا مُحَمَّد: لَا أَشْهَدُ﴾؛ أي: إن شهدوا أن مع الله آلهة أخرى؛ فلا تشهد معهم، بل قل: أَجْحَدُ ذلك وأكبره، ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ: معبودٌ وَحْدٌ﴾؛ أي: منفرد، لا يستحق العبودية والإلهية سواه؛ كما أنه المنفرد بالخلق والتدبير، ﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾: أي: لا يشرككم بما تشركون به من الأوثان، والأنداد، وكل ما أشرك به مع الله.

(٢٠) ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾؛ يعني: التوراة والإنجيل - أي: أهل الكتاب من اليهود والنصارى - ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾؛ أي: يعرفون هذا الذي جئتهم به، لا يشتبهون بصحة رسالته، ولا يمترون بها؛ لما عندهم من الأخبار والأنباء عن المرسلين المتقدمين والأنبياء؛ فإن الرسل كلهم بشرُوا بوجود محمد ﷺ، وبعثته، وصفته، وبلده، ومهاجره، وصفة أمته ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ﴾؛ أي: لاشك عندهم فيه بوجه؛ كما أنهم لا يشتبهون بأولادهم، خصوصاً البنين الملازمين في الغالب لأبائهم ﴿الَّذِينَ خَيْرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ كل الخسارة؛ أي: فوتوها ما خلقت له من الإيمان والتوحيد، وحرموها الفضل من الملك المجيد ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بهذا الأمر الجلي الظاهر الذي بشرت به الأنبياء، ونوهت به

لَا تُذِرْكُمْ بِهِ: وَأَوْحَى إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ كَرِيمًا
لَا تُذِرْكُمْ بِهِ: وَمَنْ بَلَغَ أَيْتَكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَلَا مَعَ اللَّهِ
إِلَهٌ آخَرُ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَحْدٌ وَإِلَى بَرِيءٌ
تَشْرِكُونَ ﴿٢٠﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ
أَبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ خَيْرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ
مِمَّنْ أَفَرَقَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُمْ لَا يُفْقَهُونَ
﴿٢٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِجَارًا نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنِّي مَشْرَاكُكُمْ
الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٣﴾ ثُمَّ لَوْ كُنْ فَتَنْتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَلِلَّهِ
رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٤﴾ انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَبَسَلْ
عَنَّهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى
قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَلَنْ يَرَوْا كَلَّ أَبْصَارِهِمْ
لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا حُكِمَ لَهُمْ بِحُكْمٍ يُقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا
إِلَّا أَسْطِيرَ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ وَهُمْ يَبْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ وَإِنْ
يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٧﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ
فَقَالُوا لَوْلَا إِلَهُنَا نَرَى وَلَا نَكْذِبُ بَابِلَ رَبَّنَا وَكُنَّا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٨﴾

يخفى عليه عواقب الأمور وبواديها؛ فلا يعطي إلا لمن يستحق، ولا يمنع إلا من يستحق. (١٩) ﴿قُلْ﴾ لهم - لما بينا لهم الهدى، وأوضحنا لهم المسالك - ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَدَةً﴾؛ أي: مَنْ أَعْظَمُ الأشياء شهادة على هذا الأصل العظيم؟ ﴿قُلْ اللَّهُ﴾ أكبر شهادة، فهو ﴿شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾؛ أي: هو العالم بما جئتم به، وما أنتم قائلون لي، فلا أعظم منه شهادة، ولا أكبر، وهو يشهد لي بإقراره وفعله، فيقرني على ما قلت لكم، فلا يليق بحكمته وقدرته أن يقر كاذباً عليه؛ زاعماً أن الله أرسله ولم يرسله، وأن الله أمره بدعوة الخلق ولم يأمره، بل ويؤيده على ما قال بالمعجزات الباهرة والآيات الظاهرة، وينصره ويخذه من خالفه وعاداه؛ فأى شهادة أكبر من هذه الشهادة؟ ﴿وَأَوْحَى إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ

في قديم الزمان.

(٢١) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾: لا أعظم ظلماً وعناداً ممن كان فيه أحد الوصفين؛ فكيف لو اجتماعاً: افتراء الكذب على الله، أو التكذيب بآياته وحججه وبراهينه ودلالاته التي جاءت بها المرسلون؟! ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ﴾ فإن هذا أظلم الناس، والظالم لا يفلح ولا ينجح أبداً.

(٢٢) ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ يخبر تعالى عن مآل أهل الشرك ﴿ثُمَّ نَقُولُ﴾ يوم القيامة، ﴿لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ فيُسألون عن الأصنام والأنداد التي كانوا يعبدونها من دونه على وجه التوبيخ والتقريع، فيقال لهم: ﴿إِنَّ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنهم لكم آلهة من دون الله؛ افتراء وكذباً، وتدعونهم من دونه أرباباً؟!، فأتوا بهم إن كنتم صادقين!

(٢٣) ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾؛ أي: لم يكن جوابهم وحجتهم حين يفتنون ويختبرون بذلك السؤال ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾: إلا إنكارهم لشركهم، وحلفهم بالله أنهم ما كانوا مشركين.

(٢٤) ﴿انْظُرْ﴾ يا محمد، متعجباً منهم ومن أحوالهم ﴿كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾: كيف كذب هؤلاء المشركون - العادلون بربهم الأوثان والأصنام - في الآخرة على أنفسهم بقليلهم: والله يا ربنا ما كنا مشركين، فاستعملوا هنالك الأخلاق التي كانوا بها يتخلقون في الدنيا؛ من الكذب، والفرية ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾: وفارقهم الشركاء والأنداد والأصنام الذين زعموهم مع الله، وتبرءوا منها، فسلكوا غير سبيلها؛ لأنها هلكت.

(٢٥) ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾: ومن هؤلاء المشركين قوم يحملهم بعض الأوقات بعض الدواعي إلى الاستماع إلى قراءتك وإلى ما تقول، ولا تجزي عنهم شيئاً؛ لأنه استماع خال من قصد الحق واتباعه، ولهذا لا ينتفعون بذلك؛ لعدم إرادتهم للخير، ﴿وَجَعَلْنَا﴾ فجعل الله ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾: أغطية وأغشية ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾: لئلا يفقهوا كلام الله، فسان كلامه عن أمثال هؤلاء ﴿وَفِي آذَانِهِمْ﴾: جعلنا ﴿وَقْرًا﴾: صمماً؛ فلا يسمعون ما ينفعهم، ولا يفهمون ما تتلو عليهم ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُفَّاءً﴾ أي: مهما رأوا من المعجزات والدلالات والآيات والحجج البينات ﴿لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾: لا ينفادون لها، ولا يصدقون بها؛ بل يجادلون بالباطل الحق ليدحضوه؛ ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ بُعْدُ لَوْمَتِكَ﴾: يحاجونك وينظرونك في الباطل ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَٰذَا إِلَّا أَسْطُورُ الْأَوَّلِينَ﴾: مأخوذ من صحف الأولين المسطورة، التي ليست عن الله ولا عن رسله.

(٢٦) ﴿وَهُمْ﴾: المشركون بالله، المكذبون لرسوله، ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ يجمعون بين الضلال والإضلال: ينهون الناس عن اتباع الحق، ويحذرونهم منه ﴿وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ﴾ ويبعدون بأنفسهم عنه ﴿وَإِنْ يَهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ وما يهلكون بهذا الصنيع - بصددهم عن سبيل الله، وإعراضهم عن تنزيله، وكفرهم بربهم -، ولا يعود وباله إلا عليهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ وهم لا يشعرون بذلك.

(٢٧) ﴿وَلَوْ رَأَوْا﴾ يا محمد، هؤلاء المشركين بربهم - الذين وصفت لك - ﴿إِذْ وَقَعُوا﴾: إذ حُبسوا ﴿عَلَى النَّارِ﴾: في النار - ليؤبَّخوا ويقرَّعوا -؛ لرأيت أمراً هائلاً، وحالاً مفضعة، ولرأيتهم كيف

الدُّنْيَا؛ أي: ما حقيقة الحال والأمر، وما المقصود من إيجادنا إلا الحياة الدنيا وحدها ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾؛ فلا حياة بعد الممات، ولا بعث ولا نشور بعد الفناء.

(٣٠) ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ الكافرين ﴿إِذْ وَقَفُوا﴾: حُسبوا يوم القيامة ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: بين يديه على حكمه وقضائه؛ لرأيتهم أمر عظيمًا، وهولًا جسيمًا، ﴿قَالَ﴾ لهم موبخًا ومقرعًا: ﴿أَلَيْسَ هَذَا﴾ البعث والنشر بعد الممات ﴿بِالْحَقِّ﴾، وليس بباطل كما كنتم تظنون وتنكرون؟! ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ فأقروا، واعترفوا حيث لا ينفعهم ذلك، ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ الذي كنتم به في الدنيا تكذبون ﴿يَمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾: بتكذيبكم به وجودكموه الذي كان منكم في الدنيا.

(٣١) ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾: قد خاب وخسر وحرم الخير كله، من كذب وأنكر البعث بعد الممات، والثواب والعقاب، والجنة والنار؛ فأوجب له هذا التكذيب الاجترار على المحرمات، واقتراف الموبقات ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ﴾: يوم القيامة ﴿بَغْتَةً﴾: فجأة من غير علم وهم على أقبح حال وأسوئه، فأظهروا غاية الندم، ﴿وَقَالُوا يَحْسَرُنَا﴾ يا ندامتنا ﴿عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا﴾: ما ضيعنا فيها من الطاعة، وتركنا في الدنيا من عمل الآخرة، وما سلف من قبيح الفعال وسوء الحال ﴿وَهُمْ يَجْعَلُونَ أَوَارَهُمْ﴾: ذنوبهم وأثقالهم وآثامهم ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ آلا ساء ما يَرُونُ ﴿فَإِنْ زَرَهُمْ زُرُّ يَثْقَلُهم﴾، ولا يقدرّون على التخلص منه، ولهذا خلدوا في النار، واستحقوا التأبيد في غضب الجبار.

(٣٢) ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾ أيها الناس ﴿إِلَّا لَعِبٌ

بَلْ بَدَأَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَوَرَدُوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ يَمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٤٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسَرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَجْعَلُونَ أَوَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلْسَاءَ مَا يَرُونُ ﴿٤١﴾ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَهُمْ وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لِيَحْزَنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَ نَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ لِلَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٤٣﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مَدَدٌ لِكَلِمَتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْأَنْفَرِ سُلَيْمٌ ﴿٤٤﴾ وَإِنْ كَانَ كِبَرُكَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ أَشْطَطْتَ أَنْ تَتَّبِعِيَ نَفَقَا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلْعًا فِي السَّمَاءِ فَتَاتِيَهُمْ بِآيَاتِنَا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونُ مِنَ الْخَالِفِينَ ﴿٤٥﴾

أقروا على أنفسهم بالكفر والفسوق، وتمنوا أن لو يردون إلى الدنيا ﴿فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نَرُدُّ وَلَا نُكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: يتمنون أن يردوا إلى الدار الدنيا؛ ليعملوا عملاً صالحاً، ولا يكذبوا بآيات ربهم، ويكونوا من المؤمنين.

(٢٨) ﴿بَلْ بَدَأَهُمْ﴾: ظهر لهم ﴿مَا كَانُوا يُخْفُونَ﴾: يسرون في أنفسهم ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ في الدنيا من الكفر والتكذيب والمعاندة ﴿وَلَوْ رُدُّوا﴾ إلى الدنيا؛ ﴿لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾: لرجعوا إلى مثل العمل الذي كانوا يعملونه في الدنيا قبل ذلك؛ من جحود آيات الله، والكفر به، والعمل بما يسخط عليهم ربهم ﴿وَلَا يَتَّبِعُهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في قولهم؛ لأنهم قالوه خشية العذاب، لا إيماناً بالله.

(٢٩) ﴿وَقَالُوا﴾ منكبين للبعث: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا

قال: ﴿وَلَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾: ولا مُغَيَّرَ لكلماته التي كتبها؛ وهي وعده بالنصر في الدنيا والآخرة لعباده المؤمنين على من خالفهم وتولى عنهم ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ﴾ يا محمد ﴿مِن نَّبَأِ الْمُرْسَلِينَ﴾؛ أي: من خبرهم كيف نصرُوا وأيدوا على من كذبهم من قومهم؛ فلك فيهم أسوة، وبهم قدوة.

(٣٥) ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾: شق وعظم عليك يا محمد إعراضهم عنك؛ من حرصك عليهم، ومحبتك لإيمانهم؛ ﴿فَإِنْ أَسْتَكْمَلْتَ أَنْ تَبْنِيَ نَقْعًا فِي الْأَرْضِ﴾: سرنا في الأرض فتذهب فيه ﴿أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ﴾: فتصعد فيه ﴿فَتَأْتِيَهُمْ بَنَاتُهُمْ﴾: بعلامة وبرهان على صحة قولك أفضل مما أتيتهم به؛ فافعل ذلك؛ فإنه لا يفيدهم شيئاً، وهذا قطع لطمعه في هدايته أشباه هؤلاء المعاندين.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾؛ أي: لو شاء الله لجمعهم على استقامة من الدين، وصواب من محجة الإسلام؛ حتى تكون كلمة جميعكم واحدة، وملتكم وملتهم واحدة؛ لجمعهم على ذلك، ولم يكن بعيداً عليه؛ لأنه القادر على ذلك بلطفه، ولكنه لم يفعل لحكمة منه اقتضت ذلك، ولسابق علمه في خلقه ونافذ قضائه فيهم من قبل أن يخلقهم ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ يا محمد ﴿مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ممن لا يعلم أن الله لو شاء لجمع على الهدى جميع خلقه، وأن من يكفر به من خلقه إنما يكفر به لسابق علم الله فيه ونافذ قضائه بأنه كائن من الكافرين به اختياراً لا اضطراراً.

ولهو: هذه حقيقة الدنيا؛ فإنها لعب ولهو؛ لعب في الأبدان، ولهو في القلوب، فالقلوب لها والهة، والنفوس لها عاشقة، والهموم فيها متعلقة، والاشتغال بها كلعب الصبيان.

﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ في ذاتها وصفاتها، وبقائها ودوامها، وفيها ما تشتهي النفس وتلذ الأعين، من نعيم القلوب والأرواح، وكثرة السرور والأفراح؛ ولكنها ﴿لَلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ ليست لكل أحد، وإنما هي للمتقين؛ الذين يفعلون أوامر الله، ويتركون نواهيه وزواجره ﴿أَفَلَا يَعْلَمُونَ﴾: أفلا يكون لكم عقول، بها تدركون أي الدارين أحق بالإيثار؟

(٣٣) ثم قال تعالى مسلماً لنبيه ﷺ في تكذيب قومه له، ومخالفتهم إياه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾؛ أي: قد أحطنا علماً بتكذيب قومك لك، وحزنك وتأسفك عليهم، وما يسوؤك منهم ولا تظن قولهم صادر عن اشتباه في أمرك، وشك فيك، ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ﴾؛ لأنهم يعرفون صدقك، ومدخلك ومخرجك، وجميع أحوالك ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾: ولكنهم يكذبون بآيات الله، ويعاندون الحق ويدفعونه بصدورهم، مع تصديقهم لك!

(٣٤) ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرْنَا﴾ هذه تسليية للنبي ﷺ وتعزية له فيمن كذبه من قومه وأمر له بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، ووعد له بالنصر كما نُصروا، وبالظفر حتى كانت لهم العاقبة بعد ما نالهم من التكذيب من قومهم والأذى البليغ، ثم جاءهم النصر في الدنيا، كما لهم النصر في الآخرة؛ ولهذا

إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا دَابَّوْا فِي الْأَرْضِ وَلَا طَاطَرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَآ فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُودِّعُوا بِكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ مِنْ نَشَأِ اللَّهِ يُضْلِلُهُ وَمَنْ يَشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغْرَى اللَّهُ نَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَكُونُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْأَسْأَةِ الَّتِي كَانُوا يَعْمَلُونَ فَضَرَعُونَا فَهُمْ قَوْمٌ يَفْهَمُونَ ﴿٤٢﴾ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ ﴿٤٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبَدِّلُوا مَا فِي الذِّكْرِ إِنَّكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَنْتُمْ أُولُوا بِأُلْسَانِكُمْ إِنَّكُمْ عَلَى حَقِّ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ أَهْلَ عِلْمٍ ﴿٤٤﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبَدِّلُوا مَا فِي الذِّكْرِ إِنَّكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَنْتُمْ أُولُوا بِأُلْسَانِكُمْ إِنَّكُمْ عَلَى حَقِّ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ أَهْلَ عِلْمٍ ﴿٤٥﴾

(٣٦) ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ﴾ لدعوتك يا محمد، وبلي رسالتك، وينقاد لأمرك ونهيك ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾: الذين يعون ويفهمون بقلوبهم ما ينفعهم، وهم أولو الأبواب.

﴿وَالْمَوْتَى﴾: أي: موتى القلوب؛ وهم الكفار، الذين لا يشعرون بسعادتهم، ولا يحسون بما ينجيهم ﴿يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾؛ فيجزئهم بأعمالهم، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

(٣٧) ﴿وَقَالُوا﴾ المكذبون بالرسول، تعنتا وعنادا ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾؛ أي: هلا نزل على محمد آية وعلامة خارقة من ربه، يعنون بذلك: آيات الاقتراح، التي يقترحونها بعقولهم الفاسدة وآرائهم الكاسدة ﴿قُلْ﴾ يا محمد مجيباً لقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً﴾: حجة على ما يريدون

ويسألون، فليس في قدرته قصور عن ذلك، كيف وجميع الأشياء منقادة لعزته، مدعنة لسلطانه؟!

﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: فهم لجهلهم - وعدم علمهم - لا يدرون ما وجه ترك الله إنزال ذلك عليك، ويطلبون ما هو شر لهم من الآيات، التي لو جاءتهم فلم يؤمنوا بها؛ لعوجلوا بالعقاب - كما هي سنة الله التي لا تبدل لها -، فلو علموا السبب الذي من أجله لم أنزلها عليك؛ لم يسألوك، ولكن أكثرهم لا يعلمون ذلك.

(٣٨) ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾: يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء المعرضين عنك، المكذبين بآيات الله: أيها القوم، لا تحسبن الله غافلاً عما تعملون، أو أنه غير مجازيكم على ما تكسبون، وكيف يغفل عن أعمالكم - أو يترك مجازاتكم عليها - وهو غير غافل عن عمل شيء دب على الأرض - صغير، أو كبير -، ولا عمل طائر يطير بجناحيه في الهواء؟! بل جعل ذلك كله أجناساً مجنسة، وأصنافاً مصنفة، خلقها كما خلقكم، ورزقها كما رزقكم، وتعرف كما تعرفون، وتتصرف فيما سُخرت له كما تتصرفون.

﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾: ما أهملنا ولا أغفلنا في اللوح المحفوظ شيئاً من الأشياء، بل جميع الأشياء - صغيرها وكبيرها - محفوظة ومثبتة في اللوح المحفوظ، على ما هي عليه، فنقع جميع الحوادث طبق ما جرى به القلم ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾: ثم إنه

من قبوركم، وتبعثون لموقف القيامة ﴿أَغْيَرَ اللَّهُ تَدْعُونَ﴾: أغير الله هناك تدعون لكشف ما نزل بكم من البلاء والكرب؛ أو إلى غيره من آلهتكم وأصنامكم تفزعون لينجيكم مما نزل بكم من عظم البلاء؟ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: إن كنتم محقين في دعواكم وزعمكم أن آلهتكم التي تدعونها من دون الله تنفع أو تضر.

(٤١) ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾: فإذا كانت هذه حالكم مع أندادكم عند الشدائد، تنسونهم، لعلمكم أنهم لا يملكون لكم ضراً، ولا نفعاً، ولا موتاً، ولا حياة، ولا نشوراً، وتخلصون لله الدعاء؛ لعلمكم أنه هو النافع الضار، المجيب لدعوة المضطر؛ فما بالكم في الرخاء تشركون به وتجعلون له شركاء؟!

(٤٢) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ من الأمم السالفين، والقرون المتقدمين، فكذبوا رسلنا، وجحدوا بآياتنا ﴿فَاخَذْتُهُم بِالْبَاسِ وَالْعَذَابِ﴾: فامتحناهم بالفقر، والمرض، والآفات، والمصائب؛ رحمة منا بهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْزَعُونَ﴾ إلينا، ويلجئون عند الشدة إلينا؛ فيخلصوا لله العبادة، ويفردوا رغبتهم إليه؛ بالتدلل إليه بالطاعة، والاستكانة له بالإجابة.

(٤٣) ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾: فهلا إذ جاء بأسنا هؤلاء الأمم المكذبة رسلها - الذين لم يتضرعوا عند أخذنا إياهم بالبأساء والضراء - تضرعوا فاستكانوا لربهم، وخضعوا لطاعته؛ ﴿وَلَكِنْ فَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾: استحجرت، فلا تلين للحق، وما رقت ولا خشعت ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ﴾: حسن لهم الشيطان ﴿مَا كَانُوا

تعالى مميتها، ثم منشرها ومجازيها يوم القيامة جزاء أعمالها. فالربُّ الذي لم يضيع حفظ أعمال البهائم والدواب في الأرض والطير في الهواء، حتى حفظ عليها حركاتها وأفعالها، وأثبت ذلك منها في اللوح المحفوظ، وحشرها ثم جازاها على ما سلف منها في دار البلاء؛ أخرى ألا يضيع أعمالكم، ولا يفرط في حفظ أفعالكم التي تجترحونها أيها الناس؛ حتى يحشركم فيجازيكم على جميعها: إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

(٣٩) ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ هذا بيان لحال المكذبين بآيات الله، المكذبين لرسله، أنهم ﴿هُمْ﴾ عن سماع الحق ﴿وَبِكُمْ﴾ عن النطق به، فلا ينطقون إلا بباطل، فقد سدوا على أنفسهم باب الهدى، وفتحوا باب الردى؛ أي: مثلهم في جهلهم - وقلة علمهم - وعدم فهمهم؛ كمثل أصم أبكم، فهم ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾: وهم مع ذلك منغمسون في ظلمات الجهل، والكفر، والظلم، والعناد، والمعاصي؛ فكيف يهتدي مثل هذا إلى الطريق، أو يخرج مما هو فيه؟! وهذا من إضلال الله إياهم، ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُعِدَّهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؛ لأنه المنفرد بالهداية والإضلال، بحسب ما اقتضاه فضله وحكمته، فهو المتصرف في خلقه بما يشاء.

(٤٠) يقول تعالى لرسوله: ﴿قُلْ﴾ للمشركين بالله، العادلين به غيره: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ﴾: أخبروني إن جاءكم - أيها القوم - ﴿عَذَابُ اللَّهِ﴾ كالذي جاء من قبلكم من الأمم: هلك بعضهم بالرجفة، وبعضهم بالصاعقة ﴿أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ﴾: أو جاءتكم الساعة التي تنشرون فيها

القوم الذين عتوا على ربهم وكذبوا رسله وخالفوا أمره عن آخرهم، فلم يُترك منهم أحد إلا هلك ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: والثناء الكامل، والشكر التام لله رب العالمين على ما قضاه وقدره من هلاك المكذبين، وإنعامه على رسله وأهل طاعته بإظهار حججهم ونصرهم، وإهانته لأعدائه، وصدق ما جاءت به المرسلون.

(٤٦) ﴿قُلْ﴾: يقول الله تعالى لرسوله محمد ﷺ: قل لهؤلاء المكذبين المعاندين: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾: أخبروني ﴿إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ﴾: إن أصمكم الله؛ فذهب بأسماعكم، وأبصاركم؛ فذهب بأبصاركم ﴿وَوَخَّمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾: طبع عليها؛ حتى لا تفهموا شيئاً، ولا تفقهوا قولاً، ولا تبصروا حجة ﴿مَنْ إِنَّهُ عِزُّ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾: أي إله غير الله يرد عليكم ما سلبه منكم من الأسماع والأبصار والأفهام؟ ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْأَيَّاتِ﴾: انظر: كيف نتابع عليها الحجج وننوعها، ونبينها ونوضحها، ونضرب لهم الأمثال والعبر، ونأتي بها من كل فن لتثير الحق، وتبين سبيل المجرمين ﴿ثُمَّ هُمْ﴾: مع هذا البيان التام ﴿يَصْدِفُونَ﴾: يعرضون عن آيات الله.

(٤٧) ﴿قُلْ﴾: يا محمد لهؤلاء المشركين العادلين بربهم، المكذبين بأنك رسولي: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾: أخبروني ﴿إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ﴾: عقابه على ما تشركون به، وتكذيبكم إياي بعد الذي عاينت من البرهان على حقيقة قولي ﴿بَعَثَ﴾: فجاء على

فَقَطَعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾
قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ
مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْأَيَّاتِ
ثُمَّ يَصْدِفُونَ ﴿٤٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ
بَعَثَ أَوْجَهَةً هَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٨﴾ وَمَا
رُسُلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ أَمَنَ وَأَصْلَحَ
فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا يَأْتِيَنَا
بِمَسْئِمْ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِقُونَ ﴿٥٠﴾ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ
عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ
إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مَا بُوِحِيَ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ
أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا
إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ دُونِي وَلَيْ وَلَا شَيْعُ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ
﴿٥٢﴾ وَلَا تَنْظُرُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ
وَجْهَهُمْ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمِنْ حِسَابِكَ
عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَكَوْنُوا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٣﴾

يَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ من الشرك، والمعاندة والمعاصي.
(٤٤) ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾: تركوا، العمل بما وعظوا به، وأعرضوا عنه، وتناسوه، وجعلوه وراء ظهورهم العمل بما وعظوا به ﴿فَتَحَنَّنَّا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾: من الدنيا ولذاتها وغفلاتها، وسعة الرزق والعيش، وهذا استدراج منه تعالى وإملاء لهم ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا﴾: فرح بطر ﴿بِمَا أُوتُوا﴾: من الأموال والأولاد والأرزاق؛ ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾: على غفلة، وفجأة آمنين ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾: آيسون من كل خير.
(٤٥) ﴿فَقَطَعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: فاستوصل

(٤٤، ٤٥) أخرج أحمد بن أبي حاتم بإسناد صحيح عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «إن الله تبارك وتعالى إذا أراد بقوم بقاء - أو: نماء - رزقهم القصد والعفاف، وإذا أراد بقوم اقتطاعاً فتح لهم - أو: فتح عليهم - باب خيانة» ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ كما قال: ﴿فَقَطَعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ذلك، لست أخرج عنه قيد شبر، ولا أدنى منه ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ هل يستوي من اتبع الحق وهدى إليه، ومن ضل عنه فلم ينقد له؟ ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ أنهما لا يستويان، فتنزلون الأشياء منازلها وتختارون أولاهها.

(٥١) ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾ خَوْفَ بهذا القرآن فإنه نذارة للخلق كلهم، ولكن إنما ينفع به ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ فهم متيقنون للانتقال من هذه الدار إلى دار القرار، فلذلك يستصحبون ما ينفعهم ويدعون ما يضرهم ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ ليس لهم يومئذ من دون الله ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ لا قريب لهم يتولى أمرهم، ولا من يشفع لهم من عذابه إن أَرَادَهُ بِهِمْ. ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ الله، بامثال أوامره، واجتناب نواهيه.

(٥٢) ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ لا تطرد عنك، ومن مجالستك، أهل العبادة والإخلاص، رغبة في مجالسة غيرهم، من الملازمين لدعاء ربهم، دعاء العبادة بالذكر والصلاة ونحوها، ودعاء المسألة، في أول النهار وآخره ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ وهم قاصدون بذلك وجه الله، فهم مخلصون في عبادتهم ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ كلُّ له حسابه، وله عمله الحسن، وعمله القبيح. ﴿فَطَرَدَهُمْ فَكَوَّنُوا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: إن فعلت هذا والحالة هذه.

غرة لا تشعرون ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ معاينة ترونها عند نزوله، وتنظرون إليه؛ ﴿هَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ الذين صاروا سبباً لوقوع العذاب بهم؛ بظلمهم وعنادهم وشركهم بالله تعالى.

(٤٨) ﴿وَمَا رُسُلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ يذكر تعالى زبدة ما أرسل به المرسلين؛ أنه البشارة، والنذارة: مبشرين عباد الله المؤمنين بالخيرات، ومنذرين من كفر بالله النقمات والعقوبات ﴿فَمَنْ ءَامَنَ﴾ قلبه بما جاءوا به واليوم الآخر، ﴿وَأَصْلَحَ﴾ إيمانه وأعماله ونيته باتباعهم ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبل ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما مضى وتركوه وخلفوه وراء ظهورهم.

(٤٩) ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَسْتَهْمُ الْعَذَابُ﴾ أي: ينالهم، ويدوقونه، ﴿يَمَّا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بما خرجوا عن أوامر الله وطاعته وارتكبوا من مناهيه ومحارمه وانتهاك حرمانه.

(٥٠) ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ لست مالكة ولا أتصرف في مفاتيح رزقه ورحمته ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبُ﴾ لا أقول لكم أني أعلم الغيب، وإنما ذلك كله من علم الله، ولا أطلع منه إلا على ما أطلعني عليه ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ ولا أدعي أني ملك إنما بشر يوحى إلي، ولهذا قال: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكُمْ﴾ هذا غايته ومنتهاى أمري وأعلاه، إن أتبع إلا ما يوحى إلي، فأعمل به في نفسي، وأدعو الخلق كلهم إلى

(٥١، ٥٢) أخرج مسلم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه؛ قال: في نزلت في ستة: أنا وابن مسعود منهم، وكان المشركون قالوا له تَذْنِي هَؤُلَاءِ. وفي رواية: كنا مع النبي ﷺ في ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء؛ لا يجترؤون علينا، قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾.

الحق، لعدم زكائهم، قال الله مجيباً لا اعتراضهم: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ الذين يعرفون النعمة، ويقرون بها، ويقومون بما تقتضيه من العمل الصالح، فيضع فضله ومنتته عليهم، دون من ليس بشاكر، فإن الله تعالى حكيم، لا يضع فضله عند من ليس له بأهل، وهؤلاء المعترضون بهذا الوصف.

(٥٤) ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ وإذا جاءك المؤمنون، فحيهم، ورحب بهم، ولقهم منك تحية وسلاماً، وبشرهم بما ينشط عزائمهم وهمهم، من رحمة الله، وسعة جوده وإحسانه، وحثهم على كل سبب وطريق، يوصل لذلك.

﴿كُتِبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ أوجب على نفسه الكريمة الرحمة تفضلاً وإحساناً وامتناناً ﴿أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا مِّمَّا نَهَىٰ عَنْهُ﴾ جهالته من حيث أنه أثار المعصية على الطاعة، والعاجل القليل على الآجل الكثير ﴿شَرَّ تَابٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ رجع عن ذنبه وأقلع عن المعاصي ﴿وَأَصْلَحَ﴾ عمله وأخلص توبته وعزم ألا يعود في المستقبل ﴿فَأَنَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ صب عليهم من مغفرته ورحمته، بحسب ما قاموا به، مما أمرهم به.

(٥٥) ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ أُولِي بَالٍ﴾ نوضحها ونبينها، ونميز بين طريق الهدى من الضلال، والغي من الرشاد، ﴿وَلِتَسْتَبِينَ السَّيِّئِينَ﴾ ليظهر ويتضح ﴿سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ طريق المجرمين المخالفين للرسول. (٥٦) ﴿قُلْ﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: لهؤلاء

وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كُتِبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا مِّمَّا نَهَىٰ عَنْهُ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ أُولِي بَالٍ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّي نَهَيْتُ أَنْ أُعْبِدَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَ كُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عُدُوْا مَا تَعْتَابُونَ إِنَّ الْمُكْرَمَ لِلَّهِ بَعْضُ الْحَقِّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ لَّوْ أَن عِنْدِي مَا تَسْتَعْمِلُونَ بِهِ لَفُضِّي أَلَأَمْ رَبِّي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ يُعَلِّمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمٍ إِلَّا فِي الْآرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾

وقد امتثل ﷺ هذا الأمر أشد امتثال، فكان إذا جلس الفقراء من المؤمنين، صبر نفسه معهم، بل كانوا أكثر أهل مجلسه.

(٥٣) ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا﴾ ابتلينا واختبرنا وامتحنا ﴿بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أراد ابتلاء الغني بالفقير، والشريف بالوضيع ﴿لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ فإذا من الله بالإيمان على الفقير أو الوضيع؛ كان ذلك محل محنة للغني والشريف إذا لم يكن صادقاً في طلب الحق، وكانت هذه عقبة ترده عن اتباع الحق، وقالوا محتقرين لمن يرونهم دونهم: ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ فمنعهم هذا من اتباع

(٥٤) أخرج مسلم عن سلمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله مائة رحمة، فمنها رحمة بها يتراحم الخلق بينهم، وتسع وتسعون ليوم القيامة».

المشركين الذين يدعون مع الله آلهة أخرى: ﴿إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الأنداد والأوثان، التي لا تملك نفعا ولا ضرا ﴿قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إن اتبعت أهواءكم ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ إن فعلت ذلك فقد تركت سبيل الحق وسلكت غير طريق الهدى.

(٥٧) ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ أنا على يقين مبين بصحته، وبطلان ما عداه ﴿وَ﴾ لكنكم أيها المشركون ﴿كَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ أي: بالحق الذي جاءني من عند الله ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ إن استعجلتم من العذاب فليس بيدي من الأمر شيء ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ إنما يرجع أمر ذلك إلى الله؛ إن شاء عجل لكم ما سألتموه من ذلك، وإن شاء أنظركم وأجلكم لما له في ذلك من الحكمة العظيمة ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ يقول الحق - وفي قراءة صحيحة: (يقضي)؛ أي: يحكم بالحق - ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَصْلِينَ﴾ هو خير من فصل القضايا وخير الفاتحين في الحكم بين عباده.

(٥٨) ﴿قُلْ﴾ للمستعجلين بالعذاب، جهلاً وعناداً وظلماً: ﴿أَوَ أَنْ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ، لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ لو كان مرجع ذلك إلي لأوقعت لكم ما تستحقونه من ذلك ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ لا يخفى عليه من أحوالهم شيء، فيمهلهم ولا يمهلهم.

(٥٩) ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ هذه الآية العظيمة من أعظم الآيات تفصيلاً لعلمه المحيط، وأنه شامل للغيوب كلها ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ خزائنه ﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ لا يعلمها إلا الله، وقد فسرهما النبي ﷺ؛ كما في حديث عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما عند البخاري: أن النبي ﷺ

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١﴾ وَهُوَ الْغَاثُ الرَّوَّافُ ﴿٢﴾ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ رُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٤﴾ قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ يَدْعُوهُ نَصْرًا وَخُفْيَةً لِّئِنْ أَجَعْنَا مِنْ هَذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٥﴾ قُلْ اللَّهُ يُنْجِيكُمْ مِنْهَا وَمَنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْكِرُونَ ﴿٦﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْسَكُمْ لِسِنًا وَيُفْرِقَ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ أَوْ يُنْزِلُ عَلَيْكُمْ حُمْلًا بَاسًا بَعْضُ أَنْظَرَكُمْ نَصْرَ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿٨﴾ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَفْزِزٌ وَسَوْفَ يُعْلَمُونَ ﴿٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي هَذِهِ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَعْقُبْ بَعْدَ الْذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾

١٣٥

قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله»: ثم قرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]. ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ يحيط علمه العظيم بجميع الموجودات بربريها وبحريها، لا يخفى عليه من ذلك شيء، ولا مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ﴾ من أشجار البر والبحر، والبلدان والقفر، والدنيا والآخرة، إلا يعلمها. ﴿وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾ من حبوب الثمار والزرع، وحبوب البذور التي يبذرهما الخلق؛ وبذور النوايت البرية التي ينشئ منها أصناف النباتات ﴿وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسٌ﴾ هذا عموم بعد خصوص ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ وهو اللوح

عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴿٦٠﴾ ومع ذلك فقد وكل بالعباد حفظة من الملائكة يحفظون العبد ويحفظون عليه ما عمل، فهذا حفظه لهم في حال الحياة. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ﴾؛ أي: إذا احتضر وحن أجله ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ الملائكة الموكلون بقبض الأرواح ﴿وَهُمْ لَا يُفْطِنُونَ﴾ في ذلك، فلا يزيدون ساعة مما قدره الله وقضاه ولا ينقصون، ولا ينفذون من ذلك إلا بحسب المراسيم الإلهية والتقادير الربانية.

(٦٢) ﴿ثُمَّ﴾ بعد الموت والحياة البرزخية، وما فيها من الخير والشر ﴿رُدُّوهُ﴾ أي: الملائكة، ويحتمل أن يكون الخلائق ﴿إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ﴾ أي: الذي تولاهم بحكمه القدري، فنفذ فيهم ما شاء من أنواع التدبير، ثم تولاهم بأمره ونهيه، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، ثم ردوا إليه ليتولى الحكم فيهم بالجزاء، ويثيبهم على ما عملوا من الخيرات، ويعاقبهم على الشرور والسيئات، ولهذا قال: ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ وحده لا شريك له، له القضاء دون خلقه ﴿وَهُوَ أَمَرُ الْحَسَنِينَ﴾ إذا حاسب؛

المحفوظ، قد حواها، واشتمل عليها. (٦٠) ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ يخبر تعالى أنه يتوفاهم بالليل: وفاة النوم، فتهدأ حركاتهم، وتستريح أبدانهم، ويبعثهم في البقطة من نومهم، ليتصرفوا في مصالحهم الدينية والدنيوية، وهو تعالى يعلم ما جرحوا وما كسبوا من تلك الأعمال، ثم لا يزال تعالى هكذا، يتصرف فيهم، حتى يستوفوا آجالهم ﴿لِيُقَضَّىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ فيقضى بهذا التدبير، أجل مسمى، وهو: أجل الحياة، وأجل آخر فيما بعد ذلك، وهو البعث بعد الموت، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ لا إلى غيره ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيجزيكهم على ذلك إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

(٦١) ﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ هو الذي قهر كل شيء وخضع لجلاله وكبريائه وعظمته كل شيء، فينفذ فيهم إرادته الشاملة، ومشيتته العامة، فليسوا يملكون من الأمر شيئاً، ولا يتحركون ولا يسكنون إلا بإذنه، ﴿وَيُرْسِلُ﴾

(٦٢) أخرج أحمد والنسائي في «الكبرى» وابن ماجه بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إن الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان. فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها. فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان. فيقال: مرحباً بالنفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة، وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تنتهي إلى السماء، التي فيها الله ﷻ وإذا كان الرجل السوء، قالوا: اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة، وأبشري بحميم وغساق وآخر من شكله أزواج، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان. فيقال: لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنه لا يفتح لك أبواب السماء، فترسل من السماء. ثم تصير إلى القبر، فيجلس الرجل الصالح فيقال له مثل ما قيل له في الحديث الأول، ويجلس الرجل السوء فيقال له مثل ما قيل له في الحديث الأول».

الذين جتئهم بالهدى والبيان ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ الذي لا مرية فيه، ولا شك يعتريه ﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ بحفيظ: أحفظ أعمالكم، وأجازيكم عليها، وإنما أنا منذر ومبلغ.

(٦٧) ﴿لِكُلِّ نَبَلٍ﴾ خبر من أخبار القرون ﴿مُسْتَقَرٍّ﴾ وقت يستقر فيه، وزمان لا يتقدم عنه ولا يتأخر، وهذا تهديد، ووعد أكيد، ولهذا قال بعده: ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما توعدون به من العذاب.

(٦٨) ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ بالكذب والاستهزاء ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ أي: حتى يأخذوا في كلام آخر غير ما كانوا فيه من التكذيب، والمراد بالخوض في آيات الله: التكلم بما يخالف الحق، من تحسين المقالات الباطلة، والدعوة إليها، ومدح أهلها، والإعراض عن الحق، والقدح فيه وفي أهله، وعدم حضور مجالس الخائضين بالباطل، والاستمرار على ذلك، حتى يكون البحث والخوض في كلام غيره؛ فإذا كان في كلام غيره، زال النهي المذكور.

﴿وَلَمَّا يُنْسِنَكَ الشَّيْطَانُ﴾ بأن جلست معهم، على وجه النسيان والغفلة ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ إذا جلست معهم ناسياً فقم من عندهم بعد ما تذكرت.

فحسابه لا يحتاج إلى فكرة وروية وعقد يد. (٦٣) ﴿قُلْ﴾ للمشركين بالله، الداعين معه آلهة، ملزماً لهم ما أثبتوه من توحيد الربوبية، على ما أنكروا من توحيد الإلهية: ﴿مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتٍ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ شداثدهما ومشقاتهما، وحين يتعذر أو يتعسر عليكم وجه الحيلة، ﴿تَدْعُونَهُ نَضْرِباً وَخُفْيَةً﴾ علانية وسراً ﴿لَنْ أُنَجِّيَ مِنْ هَذِهِ الشَّدَّةِ الَّتِي وَقَعْنَا فِيهَا﴾ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿لِلَّهِ﴾ أي المعترفين بنعمته، الواضعين لها في طاعة ربه، الذين حفظوها عن أن يبذلوها في معصيته.

(٦٤) ﴿قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا﴾ من هذه الشدة الخاصة، ﴿وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ ومن جميع الكروب العامة ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْكِرُونَ﴾ معه الأصنام التي قد علمتم أنها لا تضر ولا تنفع، ولا توفون لله بما قلتهم، وتنسون نعمه عليكم.

(٦٥) ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَكَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا﴾ هو تعالى قادر على إرسال العذاب إليكم من كل جهة: ﴿مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ الرجم والحصب ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ بالخسف ﴿أَوْ يَلْسَنَكُمْ شِعَابًا﴾ يخلطكم فرقاً، ويبث فيكم الأهواء المختلفة ﴿وَيُذِيقُ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ في الفتنة، وقتل بعضكم بعضاً ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْأَيَاتِ﴾ ننوعها، ونأتي بها على أوجه كثيرة، وكلها دالة على الحق ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ﴾ يفهمون ما خلقوا من أجله، ويفقهون الحقائق الشرعية، والمطالب الإلهية.

(٦٦) ﴿وَكَذَّبَ بِهِ﴾ بالقرآن ﴿قَوْمُكَ﴾ قريش:

(٦٥) أخرج البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَكَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ قال رسول الله ﷺ: «أعوذ بوجهك» قال: ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، قال: «أعوذ بوجهك» ﴿أَوْ يَلْسَنَكُمْ شِعَابًا وَيُذِيقُ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال: هذا أهون - أو قال: هذا أيسر.

لا قريب ولا صديق، ولا يتولاها من دون الله أحد، ولا يشفع لها شافع ﴿وإن تعدل كل عدل﴾ تفندي بكل فداء، ولو بملء الأرض ذهباً ﴿لَا يُوَفِّدُكُمْ﴾ لا يقبل ولا يفيد. ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿الَّذِينَ أُبْسِلُوا﴾ أي: أهلكوا وأيسوا من الخير، وذلك ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾

﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ ماء حار قد انتهى حره، يشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بما كانوا يكفرون ﴿توعدهم الله الكافر بالعذاب المؤلم المجمع﴾.

(٧١) ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول للمشركين بالله، الداعين معه غيره: ﴿أَنذَعُوا مِنْ دُورِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ وهذا وصف يدخل فيه كل من عبد من دون الله، فإنه لا ينفع ولا يضر، وليس له من الأمر شيء، إن الأمر إلا لله ﴿وَنُرْذُ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ﴾ ونقلب بعد هداية الله لنا إلى الضلال، ومن الرشده إلى الغي، ومن الصراط الموصل إلى جنات النعيم إلى الطرق التي تفضي بسالكها إلى العذاب الأليم، فهذه حال لا يرتضيها ذو رشد، وصاحبها ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ﴾ أضلته وتيهته عن طريقه ومنهجه الموصل إلى مقصده، فبقي ﴿حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى﴾ والشياطين يدعونه إلى الردى، فبقي بين الداعين حائراً، وهذه حالة الناس كلهم؛ إلا من عصمه الله تعالى، فإنهم يجدون فيهم جواذب ودواع متعارضة، دواعي الرسالة، والعقل الصحيح، والفطرة السليمة، يدعونه إلى الهدى ودواعي الشيطان ومن سلك مسلكه، والنفس الأمارة

وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذَكَرُوا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٧١﴾ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِمْ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ قُلْ أُنذَعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرْذِ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى إِنَّتِنَا قُلُوبٌ هُدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَأَمَّا الْبَشِيرُ رِيبٌ الْغَلِيظِ ﴿٧٣﴾ وَأَنْ أَقْسِمُوا بِالصَّلَاةِ أَنَّفَهُمْ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٤﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَلَيْهِمُ الْغُيُبِ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْكَافِرُ الْحَبِيرُ ﴿٧٥﴾

(٦٩) ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ إذا تجنبوهم فلم يجلسوا معهم في ذلك؛ فقد برئوا من عهدهم، وتخلصوا من إثمهم، ﴿وَلَكِنْ ذَكَرُوا﴾ ولكن ليدكرهم، ويعظهم. (٧٠) ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ دعهم وأعرض عنهم وأمهلهم قليلاً فإنهم صائرون إلى عذاب عظيم؛ لأنهم إذا سمعوا آيات الله استهزؤوا بها، وتلاعبوا عند ذكرها ﴿وَذَكَرَ بِهِمْ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ ذكر بالقرآن، ما ينفع العباد، أمراً، وتفصيلاً؛ لئلا تسلم للهلاك قبل اقتحام العبد للذنوب، وتجريته على علام الغيوب، واستمرارها على ذلك المرهوب.

﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ قبل أن تحيط بها ذنوبها، ثم لا ينفعها أحد من الخلق،

وَأَذْكَابَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبْنَيْهِ عَادَ اتَّخَذُوا أَصْنَامًا ۖ إِنَّهُمْ قَوْمُكَ وَفَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٦﴾ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا حَضَّ عَلَيْهِ أَيُّلُ رَأْسِ الْكُفَّاءِ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٨﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَصَرَ بَارِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَارِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَتَقَوَّمُ عَنِّي بَرْئٌ مِمَّا أَشْرَكُوتُ ﴿٨٠﴾ إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِي لِلدِّينِ فَطَرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨١﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ اتَّخَذْتُمُ فِي اللَّهِ قَدَ هَدَيْنَ وَلَا أَخَافُ مَا أَشْرَكُوتُ بِهِ ۖ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٢﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُكُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمُ بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٣﴾

والنعمة السابغة، والإحسان العظيم، والعلم المحيط بالسرائر والبواطن والسخفايا، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

(٧٤) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبْنَيْهِ عَادَ﴾ يقول تعالى: واذكر قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام مثنيا عليه ومعظمًا في حال دعوته إلى التوحيد، ونهيه عن الشرك، وأنه وعظ أباه في عبادة الأصنام ونهاها عنها، فقال له: ﴿اتَّخَذُوا أَصْنَامًا ۖ إِنَّهُمْ قَوْمُكَ وَفَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾. وليس لها من الأمر شيء ﴿إِنِّي

بالسوء يدعونني إلى الضلال. ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ ليس الهدى إلا الطريق التي شرعها الله على لسان رسوله، وما عداها، فهو ضلال وردى وهلاك ﴿وَأَمْرًا لِلْإِسْلَامِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بأن ننقاد لتوحيده، ونستسلم لأوامره ونواهيه، وندخل تحت عبوديته، فإن هذا أفضل نعمة أنعم الله بها على العباد، وأكمل تربية أوصلها إليهم.

(٧٢) ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ وأمرنا أن نقيم الصلاة بأركانها وشروطها، وسننها ومكملاتها. ﴿وَأَتَّقُوا﴾ بفعل ما أمر به، واجتناب ما عنه نهى ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ تُجْمَعُونَ ليوم القيامة، فيجازيكم بأعمالكم، خيرها وشرها.

(٧٣) ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِالْحَقِّ﴾ بالعدل؛ فهو خالقهما ومالكهما والمدير لهما ولمن فيهما، خلقهما ليأمر العباد وينهاهم ويشيهم ويعاقبهم.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلَهُ الْحَقُّ﴾ الذي لا مرية فيه ولا مثنوية، ولا يقول شيئًا عبثًا ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ يوم القيامة، خصه بالذكر - مع أنه مالك كل شيء - لأنه تنقطع فيه الأملاك، فلا يبقى ملك إلا الله الواحد القهار ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ يعلم ما غاب عن العباد وما يشاهدونه لا يغيب عن علمه شيء. ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْحَدِيدُ﴾ الذي له الحكمة التامة،

(٧٣) أخرج الترمذي وأحمد وابن حبان والحاكم بإسناد صحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن صاحب الصور قد التقم الصور وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ».

(٧٤) أخرج البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إن إبراهيم يلقى أباه آزر يوم القيامة، فيقول له أبوه: يا بني، اليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: أي رب! ألم تعدني أنك لا تخزيني يوم يعثون، وأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقال: يا إبراهيم، انظر ما وراءك. فإذا هو بذيخ - ذكر الضبع - متلطح، فيؤخذ بقوائمه، فيلقى في النار».

تائهين لا يهتدون؛ حيث عبدتم من لا يستحق العبادة وتركتم عبادة خالقكم ورازقكم ومدبركم ﴿مُتَّبِعِينَ﴾ بين واضح لكل ذي عقل صحيح.

(٧٥) ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ حين وفقناه للتوحيد والدعوة إليه ليرى ببصيرته، ما اشتملت عليه من الأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ فإنه بحسب قيام الأدلة، يحصل له الإيقان والعلم التام بجميع المطالب.

(٧٦) ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ أظلم ﴿رَأَى الْكَوْكَبَ﴾ نجمًا مضيئًا ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾؛ أي: هذا ربي على وجه التنزل مع الخصم، فهل ننظر، هل يستحق الربوبية؟ وهل يقوم لنا دليل على ذلك؟ فإنه لا ينبغي لعاقل أن يتخذ إلهه هواه، بغير حجة ولا برهان ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ غاب ذلك الكوكب ﴿قَالَ لَا أُجِبُ الْآفِلِينَ﴾ الذي يغيب ويختفي عن عبده، علم أن ربه دائم لا يزول؛ لأن المعبود بحق لا بد أن يكون قائمًا بمصالح من عبده ومدبرًا له في جميع شؤون.

(٧٧) ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا﴾ طالعًا، ورأى زيادته على نور الكواكب ومخالفته لها ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ تنزلاً ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ فافتقر غاية الافتقار إلى هداية ربه، وعلم أنه إن لم يهده الله فلا هادي له، وإن لم يعنه على طاعته، فلا معين له.

(٧٨) ﴿فَلَمَّا رَأَى النَّجْمَ بَازِعَةً﴾ قال هذا ربي هذا أكبر من النجم ومن القمر وأكثر إضاءة ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾ فلما غابت تقرر حينئذ الهدى، واضمحل الردى ﴿قَالَ يَنْفَوِّرُ إِيَّيَّ مِمَّا تَشْكُرُونَ﴾ حيث قام البرهان الصادق الواضح على بطلانه.

(٧٩) ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها، الذي بيده ملكوت كل شيء وخالق كل شيء وربّه ومليكه وإلهه مخلصًا له ديني ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فتبرأ من الشرك، وأدعن بالتوحيد، وأقام على ذلك البرهان.

وهذا الذي ذكرنا في تفسير هذه الآيات هو الصواب، وهو أن المقام مقام مناظرة من إبراهيم لقومه، وبيان بطلان إلهية هذه الأجرام العلوية وغيرها، وأما من قال: إنه مقام نظر في حال طفوليته؛ فليس عليه دليل.

(٨٠) ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ خاصمه وجادله قومه فيما ذهب إليه من التوحيد وناظروه بشبه من القول، ﴿قَالَ اتَّبِعُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي﴾ أتجادلوني في أمر الله، وأنه لا إله إلا هو، وقد بصرنى، وهداني إلى الحق، وأنا على بينة منه، فأني فائدة لمحاجة من لم يتبين له الهدى؟ ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تَشْكُرُونَ﴾ ومن الدليل على بطلان دينكم: أن هذه الآلهة التي تعبدونها لا تؤثر شيئًا، وأنا لا أخافها ولا أبالها، فإن كان لها صنع فكيدي بها جميعًا ولا تنظرون؛ بل عاجلونى بذلك.

﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ إن يشأ ربي شيئًا من سوء فيمكن ما شاء، فلا يضر ولا ينفع إلا الله ﷻ ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أحاط علمه بكل شيء ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فيما بينته لكم، فتعلمون أنه وحده المعبود المستحق للعبودية.

(٨١) ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ كيف أخاف من هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله، وحالها حال العجز، وعدم النفع ﴿وَلَا

تَخَافُونَ أَنْتُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ﴿٨٢﴾ إِلَّا مَجْرَدِ اتِّبَاعِ الْهَوَى مِنْ غَيْرِ حِجَّةٍ وَلَا بَرَهَانٍ ﴿٨٣﴾ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ﴿٨٤﴾ أَيْ الطَّائِفَتَيْنِ أَصُوبُ؟ الَّذِي عَبْدَ مَنْ بِيَدِهِ الضَّرِّ وَالنَّفْعُ، أَوِ الَّذِي عَبْدَ مَنْ لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ بِلَا دَلِيلٍ، أَيُهُمَا أَحَقُّ بِالْأَمْنِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٨٥﴾ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ؟! ﴿٨٦﴾

(٨٢) قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فَاصْلاً بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا﴾ لَمْ يَخْلُطُوا ﴿إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ بِشُرْكَ ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ الْأَمْنُ مِنَ الْمَخَافِ وَالْعَذَابِ وَالشَّقَاءِ، وَالْهُدَايَةُ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، فَإِنْ كَانُوا لَمْ يَلْبِسُوا إِيْمَانَهُمْ بِظُلْمٍ مُطْلَقاً؛ لَا بِشُرْكَ وَلَا مَعَاصِي؛ حَصَلَ لَهُمُ الْأَمْنُ التَّامُّ، وَالْهُدَايَةُ التَّامَّةُ.

(٨٣) وَلَمَّا حَكَمَ لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَا بَيَّنَّ بِهِ مِنَ الْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَةِ، قَالَ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ وَجَّهْنَا حُجَّتَهُ عَلَيْهِمْ.

﴿رَفَعَ دَرَجَتِي مِنْ نَشَأٍ﴾ عَلَا بِهَا عَلَيْهِمْ وَفَلَجَهُمْ بِهَا، كَمَا رَفَعْنَا دَرَجاتِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، ﴿عَلِيمٌ﴾ بِمَنْ يَهْدِيهِ وَمَنْ يَضِلُّهُ، وَإِنْ قَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجُجُ وَالْبَرَاهِينُ.

(٨٤) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ﴾ وَهَبْنَا لِإِبْرَاهِيمَ إِسْحَاقَ بَعْدَ أَنْ طَعَنَ فِي السَّنِّ، وَأَيْسَ هُوَ وَامْرَأَتُهُ سَارَةُ مِنَ الْوَلَدِ ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ ابْنَهُ، الَّذِي هُوَ إِسْرَائِيلُ، أَبُو الشَّعْبِ الَّذِي فَضَّلَهُ اللَّهُ عَلَى الْعَالَمِينَ، ﴿كُلًّا﴾ مِنْهُمَا ﴿هُدَيْنَا﴾ عَالَمِي

الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ رَفَعَ دَرَجَتِي مِنْ نَشَأٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا كُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ إِيَّاهُ مِنَ نَشَأِهِ إِلَى عِبَادَتِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَاهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْسَدَهُ قُلْ لَا اسْتَلْكَم عَلَيْهِ أَجْرٌ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾

زَمَانِهِمْ ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ، وَهُدَايَتِهِ مِنْ أَنْوَاعِ الْهُدَايَاتِ الْخَاصَةِ؛ لِأَنَّهُ أَحَدُ أَوْلَى الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ مِنْ ذُرِّيَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَفِي جَمْلَتِهِمْ يُونُسَ وَلُوطًا وَلَمْ يَكُونَا مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ ﴿دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ ابْنِ دَاوُدَ ﴿وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ﴾ ابْنِ يَعْقُوبَ ﴿وَمُوسَى وَهَارُونَ﴾ ابْنِي عِمْرَانَ ﴿وَو﴾ كَمَا أَصْلَحْنَا ذُرِّيَّةَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ؛ لِأَنَّهُ أَحْسَنُ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَأَحْسَنُ فِي نَفْعِ الْخَلْقِ ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ بِأَنْ نَجْعَلَ لَهُمْ مِنَ الثَّنَاءِ الصَّدَقِ، وَالذُّرِّيَّةِ الصَّالِحَةِ، بِحَسَبِ إِحْسَانِهِمْ.

(٨٥) ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى﴾ ابْنَهُ ﴿وَعِيسَى﴾ ابْنِ مَرْيَمَ

(٨٢) أَخْرَجَ الشَّيْخَانُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ، وَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَيْنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ قَالَ: «إِنَّهُ لَيْسَ الَّذِي تَعْنُونَ! أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: «يَبْنِي لَا تَشْرِكُ بِاللَّهِ إِنَّكَ الْتَرَكْتَ لَطَمَ عَظِيمٍ» إِنَّمَا هُوَ الشُّرْكُ».

الكتب المنزلة عليهم ﴿وَالْحَكْمَ﴾ العلم والفقه
 ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا فَإِنْ يَكْفُرْ يَا
 محمد بآيات كتابي الذي أنزلته إليك
 ﴿هَؤُلَاءِ﴾ المشركون العادلون بربهم من كفار
 قريش وغيرهم ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾
 المهاجرين والأنصار وأتباعهم إلى يوم القيامة
 ﴿لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ أي: لا يجحدون شيئاً
 منها، ولا يردون منها حرفاً واحداً؛ بل
 يؤمنون بجميعها، محكمها ومتشابهها، جعلنا
 الله منهم بمنه وكرمه وإحسانه.

(٩٠) ﴿أُولَئِكَ﴾ المذكورون ﴿الَّذِينَ هَدَى
 اللَّهُ﴾ هداهم الله، فهم أهل الهداية لا غيرهم
 ﴿فَبَهَّدْتُهُمْ﴾ فبستهم وسيرتهم ﴿فَأْتَدَّهُ﴾ اقتد
 وتابع.

وقد امثل ﷺ فاهتدى بهدي الرسل قبله،
 وجمع كل كمال فيهم، فاجتمعت له فضائل
 فاق بها جميع العالمين، وخصائص كان بها
 سيد المرسلين، وبهذا استدلت الصحابة أن
 رسول الله ﷺ أفضل الرسل كلهم، وإذا كان
 هذا أمراً للرسول ﷺ فأتمته تبع له فيما يشرعه
 لهم، ويأمرهم به.

﴿قُلْ﴾ للذين أعرضوا عن دعوتك: ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ
 عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ لا أطلب منكم مغرمًا ومالاً، جزاء
 عن إبلاغي إياكم، ودعوتي لكم؛ فيكون من
 أسباب امتناعكم، إن أجري إلا على الله ﴿إِنَّ
 هُوَ﴾ ما هو ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ يتذكرون به ما

﴿وَالْيَاسَ﴾ ﴿كُلُّ﴾ من هؤلاء ﴿مِنَ﴾
 أَصْلَابِهِمْ في أخلاقهم وأعمالهم وعلومهم،
 بل هم سادة الصالحين وقادتهم وأئمتهم.

(٨٦) ﴿وَإِسْمَاعِيلَ﴾ بن إبراهيم أبو الشعب الذي
 هو أفضل الشعوب، وهو الشعب العربي، ووالد
 سيد ولد آدم: محمد ﷺ ﴿وَيُوشَعَ﴾ ابن متى
 ﴿وَلُوطًا﴾ بن هاران أخي إبراهيم ﴿وَكُلًّا﴾ من
 هؤلاء الأنبياء والمرسلين ﴿فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾
 فهؤلاء من الدرجة العليا، بل هم أفضل الرسل
 على الإطلاق، فالرسل الذين قصهم الله في
 كتابه، أفضل ممن لم يقص علينا نبأهم بلا شك.

(٨٧) ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾ وهدينا
 من آباء هؤلاء المذكورين وذرياتهم وإخوانهم
 ﴿وَأَجْنِبَتُهُمْ﴾ اخترناهم ﴿وَهَدَيْتُهُمْ إِلَى صِرَاطٍ
 مُسْتَقِيمٍ﴾ أرشدناهم.

(٨٨) ﴿ذَلِكَ﴾ الهدى المذكور ﴿هُدَى اللَّهِ﴾
 دين الله، الذي لا هدى إلا هداة ﴿يَهْدِي بِهِ﴾
 يرشد به ﴿مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾.

﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا﴾ هؤلاء الذين سميناهم، على
 الفرض والتقدير ﴿لَحِطَ عَنْهُمْ﴾ لبطل وذهب
 ﴿مَا كَانُوا يَمْكُونُ﴾ فإن الشرك محبط للعمل،
 موجب للخلود في النار، فإذا كان هؤلاء
 الصفوة الأخيار، لو أشركوا - وحاشاهم -
 لحبطت أعمالهم فغيرهم أولى.

(٨٩) ﴿أُولَئِكَ﴾ هؤلاء الذين سميناهم من
 الأنبياء والرسل هم الذين ﴿ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾

(٨٩) أخرج ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» وابن عدي في «الكامل» والعقيلي في الضعفاء عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري عن
 النبي ﷺ قال: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله: ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين».
 قال أبو أسامة الهلالي - عفا الله عنه - : هو مرسل، لكن له شواهد كثيرة، أكثرها شديد الضعف، لكن بعضها يسلم من
 الضعف الشديد؛ فهو بها حسن؛ كما فصلته في كتابي: «إرشاد الفحول إلى تحرير النقول في تصحيح حديث العدول».

ينفعهم، فيفعلونه وما يضرهم فيذرونه، ويتذكرون به معرفة ربهم بأسمائه وأوصافه.

(٩١) ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ هذا تشنيع على من نفى الرسالة من اليهود والمشركين وزعم أن الله ما أنزل على بشر من شيء، فمن قال هذا فما قدر الله حق قدره، ولا عظّمه حق عظّمته؛ إذ هذا قدح في حكمته، وزعم أنه يترك عباده هملاً، لا يأمرهم ولا ينهاهم.

﴿قُلْ﴾ لَهُمْ مُلْزَمًا بِفَسَادِ قَوْلِهِمْ وَقَرَّرَهُمْ بِمَا بِهِ يَقْرُونَ: ﴿مَنْ أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ أَلْفِ نَسْفَةٍ بِيْءَهُ مِائَةً مِّنْ مَّا يَكْفِيهِمْ﴾ وَهُوَ التَّوْرَةُ الْعَظِيمَةُ ﴿نُورًا﴾ فِي ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ وَهُدًى لِلنَّاسِ ﴿مِنَ الضَّلَالَةِ﴾ وَهَادِيًا إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ عِلْمًا وَعَمَلًا ﴿يَجْعَلُونَهُ قَرَأَاطِسَ﴾ تَكْتُبُونَ عَنْهُ دِفَاتِرَ وَكُتُبًا مَّقْطُوعَةً ﴿يُبْدُونَهَا﴾ تَبْدُونَ مَا تَحِبُّونَ ﴿وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ مِنْ نَعْتِ مُحَمَّدٍ ﷺ .

﴿وَعَلَّمْتُمُ﴾ من العلوم التي بسبب ذلك الكتاب
الجليل ﴿مَا لَمْ تَعْلَمُوا أُنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ ومن
أنزل القرآن الذي علمكم الله فيه من خبر ما
سبق، ونبأ ما يأتي، ما لم تكونوا تعلمون
ذلك لا أنتم ولا آبائكم ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ الذي
أنزله، فحينئذ يتضح الحق، وينجلي مثل
الشمس، وتقوم عليهم الحجة، ﴿ثُمَّ﴾ إذا
ألزمتهم بهذا الإلزام ﴿ذَرُّهُمْ فِي حَوْضِهِمْ يَلْبُؤْنَ﴾
اتركهم يخوضوا في الباطل، ويلعبوا بما لا
فائدة فيه، حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون.

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَتَّى قَدِرُوا إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِثْلُ
قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ
تَجْعَلُونَهُ قَرِيطِسَ يُبَدُّونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلَيْسَتْهُمَا مَا تَعْلَمُونَ
أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ لَيَعْبُون ^(١١)
وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ
أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ
وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ^(١٢) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ أَقْرَأَ عَلَى
اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ
مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ
وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ آخِرُ جَزَاءِ أُنْفُسِكُمْ أَهُمْ
يُخَذَرُونَ عَذَابِ الْهَوْنِ يَمَّا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ
وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ^(١٣) وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرَادَى
كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْتُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ
وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُعْعَاءَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ
لَقَدْ قَطَعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ^(١٤)

(٩٢) ﴿وَهَذَا كِتَابٌ﴾ القرآن الذي ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ إليك ﴿مُبْرَكٌ﴾ وَضَعَهُ البركة، وذلك لكثرة خيراتِه، وسعة مَبْرَاتِه ﴿مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ موافق للكتب السابقة، وشاهد لها بالصدق، وأنزلناه أيضاً ﴿وَلِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ وهي: مكة المكرمة، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من ديار العرب، بل، ومن سائر البلدان ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ كل من آمن بالله واليوم الآخر يؤمن بهذا الكتاب المبارك الذي أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآن ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ يداومون عليها، ويحفظون أركانها وحدودها وشروطها وآدابها، ومكملاتها، جعلنا

(٩١) أخرج ابن أبي حاتم والطبري في «تفسيريهما» بإسناد حسن عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: قوله: ﴿وَمَا فَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾؛ يعني: في بني إسرائيل، قالت اليهود: يا محمد، أنزل الله عليك كتاباً؟ قال: «نعم» قالوا: والله ما أنزل الله من السماء كتاباً. قال: فأنزل الله: ﴿قُلْ يَا مُحَمَّد: ﴿مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ الآية، قال: «الله أنزله».

هذا الخطاب والعذاب الموجه إليهم إنما هو عند الاحتضار وقبيل الموت وبعده . وفيه دليل على أن الروح جسم ، يدخل ويخرج ، ويخاطب ، ويساكن الجسد ويفارقه .

(٩٤) هذا خبر من الله تعالى أنه يقول للكفار يوم القيامة ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى﴾ وحداناً ، لا مال معكم ، ولا زوج ، ولا ولد ، ولا خدم ﴿كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ عراة حفاة غرلاً .

﴿وَرَزَكْنَاهُمْ مَّا خَوَّلْتُمْ﴾ من النعم والأموال التي أعطيناكم ، وأنعمنا عليكم في الدار الدنيا ﴿وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ لا يغنون عنكم شيئاً ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ : تقرير لهم وتوبيخ على ما كانوا اتخذوا في الدنيا من الأنداد ، والأصنام ، والأوثان ، ظانين أنها تنفعهم في معاشهم ومعادهم إن كان ثم معاد ﴿لَقَدْ نَقَطَ بَيْنَكُمْ﴾ تقطعت الوصل والأسباب بينكم وبين شركائكم ، من الشفاعة وغيرها ، فلم تنفع ولم تُجد شيئاً ﴿وَضَلَّ عَنْكُمْ مَّا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ من الربح ، والأمن ، والسعادة ، والنجاة ، التي زينها لكم الشيطان ، وحسنها في قلوبكم ، فنطقت بها ألسنتكم ، واغتررتم بهذا الزعم الباطل ، الذي لا حقيقة له ، حين تبين لكم نقيض ما كنتم تزعمون ، وظهر أنكم الخاسرون لأنفسكم وأهلكم وأموالكم .

اللَّهُ مِنْهُمْ .

(٩٣) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ يقول تعالى : لا أحد أعظم ظلماً ، ولا أكبر جرماً ، ممن كذب على الله ، بأن نسب إلى الله قولاً أو حكماً وهو تعالى بريء منه .

﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ ومن أظلم ممن زعم أنه يقدر على ما يقدر الله عليه ، ويجاري الله في أحكامه ، ويشرع من الشرائع كما شرعه الله .

ولما ذم الظالمين ، ذكر ما أعد لهم من العقوبة في حال الاحتضار ، ويوم القيامة ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ شدائده وأهواله الفظيعة ، وكُربه الشنيعة ؛ لرأيت أمراً هائلاً ، وحالة لا يقدر الواصف أن يصفها .

﴿وَأَمَلْتِكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ إلى أولئك الظالمين المحتضرين بالضرب والعذاب ، يقولون لهم عند منازعة أرواحهم وقلقها ، وتعصيبها للخروج من الأبدان : ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ العذاب الشديد ، الذي يهينكم ويذلكم ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ من كذبكم عليه ، وردكم للحق ، الذي جاءت به الرسل ﴿وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ ترفعون عن الانقياد لها ، والاستسلام لأحكامها .

وفي هذا دليل على عذاب البرزخ ونعيمه ، فإن

(٩٤) أخرج مسلم من حديث عبد الله بن الشخير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «يقول ابن آدم : مالي مالي . وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت» . وزاد من حديث أبي هريرة : «وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس» .

(٩٥) ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْبِ وَالنَّوَى﴾ يخبر تعالى عن كماله، وعظمة سلطانه، وقوة اقتداره، وسعة رحمته، وعموم كرمه، وشدة عنايته بخلقه، وأنه هو الذي فلق الحب فيشق الحبوب عن الزروع والنوابت، على اختلاف أنواعها، وأشكالها، ومنافعها، ويفلق النوى عن الأشجار، من النخيل والفواكه، وغير ذلك.

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كما يخرج من المني حيواناً، ومن البيضة فرخاً، ومن الحب والنوى زرعاً وشجراً ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ﴾ وهو الذي لا نمو فيه، أو لا روح، ﴿مِنَ الْحَيِّ﴾ كما يخرج من الأشجار والزروع النوى والحب، ويخرج من الطائر بيضاً، ونحو ذلك.

﴿ذَلِكُمْ﴾ الذي فعل ما فعل، وانفرد بخلق هذه الأشياء وتديرها ﴿اللَّهُ﴾ ربُّكم الذي له الألوهية والعبادة على خلقه أجمعين، وهو الذي ربي جميع العالمين بنعمه، وغذاهم بكرمه ﴿فَأَنزَلُ تُوفًكُونَ﴾ فأنى تصرفون، وتصدون عن عبادة من هذا شأنه، إلى عبادة من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، ولا موتاً، ولا حياة، ولا نشوراً؟! (٩٦)

﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ كما أنه فالق الحب والنوى، كذلك هو فالق ظلمة الليل الداجي، الشامل لما على وجه الأرض، بضياء الصبح الذي يفلقه شيئاً فشيئاً، حتى تذهب ظلمة الليل كلها، ويخلفها الضياء والنور العام، الذي يتصرف به الخلق في مصالحهم، ومعاشهم، ومنافع دينهم ودنياهم.

﴿وَجَعَلَ اللَّهُ﴾ (أَيْلُ سَكَا) يسكن فيه الآدميون إلى دورهم ومنامهم، والأنعام إلى مأواها،

إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْبِ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَ اللَّهُ فَالِقُ الْغَيْبِ وَالنَّوَى ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النَّجْمَ لِيَتَذَكَّرُوا بِهِ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّجْمِ فَذَقْنَا آيَاتِهِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَوْسِقُونَ قَدْ فَصَّلْنَا آيَاتِهِ لِقَوْمٍ يُفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرَّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْوَعُ فِي ذَلِكَ لَكُمْ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَوْا لَهُ بُيُوتًا وَبَنَتِ بَعِيرُهُمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ يَدْعُ السَّمَكُوتَ وَالْأَرْضُ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَوْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ يَكُنُّ كُلَّ شَيْءٍ عَالِمٌ ﴿١٠١﴾

والطيور إلى أوكارها، فتأخذ نصيبها من الراحة، ثم يزيل الله ذلك بالضياء، وهكذا أبداً إلى يوم القيامة ﴿و﴾ جعل تعالى ﴿الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ بهما تعرف الأزمنة والأوقات، فتتضبط بذلك أوقات العبادات، وأجال المعاملات، ويعرف بها مدة ما مضى من الأوقات.

﴿ذَلِكَ﴾ التقدير المذكور ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ الذي من عزته انقادت له هذه المخلوقات العظيمة، فَجَرَتْ مَذَلَّةً مَسْخَرَةً بِأَمْرِهِ، بحيث لا تتعدى ما حده الله لها، ولا تتقدم عنه ولا تتأخر ﴿الْعَلِيمِ﴾ الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والأوائل والأواخر.

وكثيراً ما إذا ذكر الله تعالى خلق الليل والنهار، والشمس والقمر، يختم الكلام بالعزة والعلم؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَأَيَّاهُ لَهُمْ أَيْلُ سَلَخَ مِنْهُ

النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ [يس: ٣٧ - ٣٨].

(٩٧) ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ حين تشبه عليكم المسالك، ويتحير في سيره السالك، فجعل الله النجوم هداية للخلق إلى السبل التي يحتاجون إلى سلوكها لمصالحهم، وتجاراتهم، وأسفارهم.

قال بعض السلف: من اعتقد في هذه النجوم غير ثلاث فقد أخطأ وكذب على الله: أن الله جعلها زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر.

ودلت الآية: على مشروعية تعلم سير الكواكب ومحالها، الذي يسمى: علم التسيير، فإنه لا تتم الهداية ولا تمكن إلا بذلك.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ بيّناها، ووضحناها، وميزنا كل جنس ونوع منها عن الآخر، بحيث صارت آيات الله بادية ظاهرة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لأهل العلم والمعرفة، فإنهم الذين يوجه إليهم الخطاب، ويطلب منهم الجواب.

(٩٨) ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وهو آدم عليه السلام، أنشأ الله منه هذا العنصر الآدمي؛ الذي قد ملأ الأرض ﴿فَمُسْتَقَرًّا﴾ وجعل الله لهم مستقراً، انتهى ينتهون إليه، وغاية يساقون إليها، وهي دار القرار، التي لا مستقر وراءها، ولا نهاية فوقها، فهذه الدار، هي التي خلق الخلق لسكنائها، وأوجدوا في الدنيا ليسعوا في أسبابها، التي تنشأ عليها وتعمر بها، وأما هذه الدار، فإنها ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ مستودع وممر في الدنيا ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُفْقَهُونَ﴾ عن الله آياته، ويفهمون عنه حججه وبيّناته.

(٩٩) ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وهذا من أعظم مننه العظيمة، التي يضطر إليها الخلق، من الآدميين وغيرهم، وهو أنه أنزل من السماء ماء متتابعاً وقت حاجة الناس إليه، فأنبت الله به كل شيء، مما يأكل الناس والأنعام.

ولما ذكر عموم ما ينبت بالماء، من أنواع الأشجار والنبات، وذكر الزرع والنخل؛ لكثرة نفعهما وكونهما قوتاً لأكثر الناس، فقال: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ﴾ من ذلك النبات الخضر ﴿حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾ بعضه فوق بعض، من بُر، وشعير، وذرة، وغير ذلك من أصناف الزروع.

﴿وَمِنَ النَّخْلِ﴾ أخرج الله من ظلمها وهو الكُفْرَى وهو الوعاء قبل ظهور القنو منه، فيخرج من ذلك الوعاء ﴿قَتَوَانٌ﴾ وهي عُذُوق الرُّطْبِ ﴿دَائِمَةٌ﴾ قريبة سهلة التناول متدلية لمن أرادها ﴿وَو﴾ أخرج تعالى بالماء ﴿جَنَّتِ مِنْ أَعْنَبٍ وَالزَّيْتُونِ وَالْأَمَانِ﴾ فهذه من الأشجار الكثيرة النفع العظيمة الوقع.

﴿مُشْنِبًا﴾ مشتبهاً في شجره وورقه ﴿وَعَبَرٍ مُنْتَبِهٍ﴾ في ثمره ﴿أَنْظُرُوا﴾ نظر فكر واعتبار ﴿إِلَى ثَمَرِهِ﴾، أي: النخل.

﴿إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعَى﴾ أي: انظروا إليه وقت إطلاعه، ووقت نضجه وإنعائه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾؛ أي: دلالات على كمال قدرة خالق هذه الأشياء وحكمته ورحمته ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فإن المؤمنين يحملهم ما معهم من الإيمان، على العمل بمقتضياته ولوازمه، التي منها التفكير في آيات الله، والاستنتاج منها ما يراد منها، وما تدل عليه، عقلاً، وفطرةً، وشرعاً.

ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ
فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢٢﴾ لَا تَدْرِكُهُ
الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٢٣﴾
قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ عَمِيَ
فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ ﴿١٢٤﴾ وَكَذَلِكَ نَصْرَفُ
الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا أَدْرَسَتْ وَلَيْسِنَّ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٢٥﴾
اتَّبِعْ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ
الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ
حَفِظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٢٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ
يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا
لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ فَزَجَعْنَاهُمْ فِيمَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١٢٨﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ
بِآيَةٍ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلُوبُهُمْ وَلَئِنِ اتَّخَذُوا آيَةً عِنْدَ اللَّهِ وَمَا نُنَزِّلُكُمْ بِهَا إِذَا
جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٩﴾ وَتَقَلَّبَ أَقْبَادُهُمْ وَأَبْصَرْتَهُمْ كَمَا لَمْ
يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرْنَاهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٣٠﴾

الخلق بالنعمة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ
فَاعْبُدُوهُ﴾ إذا استقر وثبت أنه الله الذي لا إله إلا
هو، فاصرفوا له جميع أنواع العبادات، وأخلصوها
لله، واقصدوا بها وجهه ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
وَكِيلٌ﴾ جميع الأشياء، تحت حفظ الله
وتدبيره، خلقاً، وتدبيراً، وتصرفاً.

﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ لعظمته،
وجلاله، وكماله، لا تحيط به الأبصار، ﴿وَهُوَ
يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ هو الذي أحاط علمه بالظواهر
والبواطن، ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ الذي لطف
علمه وخبرته، ودق حتى أدرك السرائر والخفايا،
والخبايا والبواطن.

وهذه الآية ليس فيها حجة لمذهب المعطلة الذين
ينفون رؤية ربهم، بل فيها ما يدل على نقيض
قولهم؛ فإن نفي الإدراك الذي هو أخص أوصاف

(١٠٠) ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ يخبر تعالى : - أنه
مع إحسانه لعباده وتعرفه إليهم، بآياته البينات،
وحججه الواضحات - أن المشركين به، من
قريش وغيرهم، جعلوا له شركاء، يدعونهم،
ويعبدونهم، من الجن والملائكة ﴿وَقَدْ
خَلَقْنَاهُمْ﴾، فهم خلق من خلق الله، فجعلوها
شركاء لمن له الخلق والأمر، وهو المنعم بسائر
أصناف النعم، ﴿وَعَرَفُوا﴾ ائتكوا، وافتروا من
تلقاء أنفسهم ﴿لَمْ﴾ لله ﴿بَيْنَ وَبَيْنَ غَيْرِ عِلْمٍ﴾
منهم، ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ تقدر
وتنزه عما يصفه الجهلة الضالون؛ فإنه تعالى
الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل نقص، وآفة
وعيب.

(١٠١) ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خالقهما،
ومتقن صنعتهما، على غير مثال سبق، بأحسن
خلق ونظام وبهاء، لا تقترح عقول أولي الأبواب
مثله، وليس له في خلقهما مشارك.

﴿إِنِّي يَكُونُ لَمْ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَمْ صَاحِبَةً﴾ كيف يكون
لله الولد، وهو الإله السيد الصمد، والولد إنما
يكون من الذكر والأنثى، ولا ينبغي لله سبحانه
صاحبة - أي : زوجة - فيكون له ولد، ﴿وَقَدْ
ذَلِكَ أَنَّهُ﴾ ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ والله
الذي خلق كل شيء لا يخفى عليه ما خلق ولا
شيء منه.

وفي ذكر العلم بعد الخلق إشارة إلى الدليل
العقلي إلى ثبوت علمه، وهو هذه المخلوقات
وما اشتملت عليه في النظام التام والخلق الباهر.

(١٠٢) ﴿ذَلِكَ كُمْ﴾ الذي خلق كل شيء وقدره
تقديرًا ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ المألوه المعبود، الذي يستحق
نهاية الذل، ونهاية الحب، الرب الذي ربي جميع

الرؤية؛ دل على أن الرؤية ثابتة.

(١٠٤) لما بين تعالى من الآيات البينات، والأدلة الواضحات، الدالة على الحق في جميع المطالب والمقاصد، نبه العباد عليها، وأخبر أن هدايتهم وضدها لأنفسهم، فقال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ﴾ آيات تبين الحق، وتجعله للقلب بمنزلة الشمس للأبصار؛ لما اشتملت عليه من فصاحة اللفظ، وبيانه، ووضوحه، ومطابقته للمعاني الجليلة، والحقائق الجميلة، ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ صادرة من الرب، الذي ربي خلقه، بصنوف نعمه الظاهرة والباطنة، التي من أفضلها وأجلها، تبين الآيات، وتوضيح المشكلات.

﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ بتلك الآيات، مواقع العبرة، وعمل بمقتضاها ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ عمل، ونفعه له، فإن الله هو الغني الحميد ﴿وَمَنْ عَمِيَ﴾ بأن بصر فلم يتبصر، وزجر فلم ينزجر، وبين له الحق فما انقاد له ولا تواضع، فإنما عماء مضرت عليه ﴿وَمَا أَنَا﴾ أي الرسول ﴿عَلَيْكُمْ بِحَفِيزٍ﴾ أحفظ أعمالكم وأرقبها على الدوام، وإنما عليّ البلاغ المبين، وقد أدبته.

(١٠٥) ﴿وَكَذَلِكَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ﴾ نفصلها ونبينها في كل وجه ﴿وَلْيَقُولُوا﴾ أي: المشركون والكافرون والمكذبون ﴿دَرَسَتْ﴾ قرأت وتعلمت يا محمد ممن قبلك من أهل الكتاب ﴿وَلْيُؤَيِّنَنَّ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لنوضحه لقوم يعلمون الحق فيتبعونه، والباطل فيجتنبونه.

(١٠٦) ﴿أَتَبِعَ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ اقتد بالقرآن واقتف أثره واعمل به ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ اعف عنهم واصفح واحتمل أذاهم، فلا تجادلهم حتى يفتح الله لك،

وينصرك ويظفرك عليهم.

(١٠٧) ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ لو شاء الله لجعلهم مؤمنين، بل له المشيئة والحكمة فيما يشاؤه ويختاره، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيزًا﴾ حافظًا تحفظ أقوالهم وأعمالهم، ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ موكل على أرزاقهم وأمورهم، إن عليك إلا البلاغ.

(١٠٨) ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ينهى الله المؤمنين عن أمر كان جائزًا، بل مشروعًا في الأصل؛ وهو: سب آلهة المشركين، التي اتخذت أوثانًا وآلهة مع الله، التي يُتقرب إلى الله بإهانتها وسبها ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ولكن لما كان هذا السب طريقًا إلى سب المشركين لرب العالمين، الذي يجب تنزيه جنابه العظيم عن كل عيب، وآفة، وسب، وقبح؛ نهى الله عن سب آلهة المشركين، ﴿كَذَلِكَ زَيَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ﴾ لأن كل أمة زين الله لهم عملهم فرأوه حسنًا، وذبوا عنه، ودافعوا بكل طريق، حتى إنهم ليسبون الله رب العالمين، الذي رسخت عظمته في قلوب الأبرار والفجار، إذا سب المسلمون آلهتهم.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ولكن الخلق كلهم، مرجعهم ومآلهم، إلى الله يوم القيامة، يعرضون عليه، وتعرض أعمالهم، فينبئهم بما كانوا يعملون، من خير وشر.

وفي هذه الآية: دليل للقاعدة الشرعية: إن الوسائل تعتبر بالأمر التي توصل إليها.

(١٠٩) ﴿وَأَقْسَمُوا﴾ وأقسم المشركون المكذبون للرسول محمد ﷺ ﴿بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ قسمًا اجتهدوا فيه وأكدوه ﴿لَئِنْ جَاءَنَّهُمْ آيَةٌ﴾ معجزة،

تدل على صدق محمد ﷺ ﴿يُؤْمِنَنَّ بِهَا﴾ ليصدقنها ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ هو الذي يرسلها إذا شاء، ويمنعها إذا شاء، ليس لي من الأمر شيء، فطلبكم مني الآيات ظلم، وطلب لما لا أملك، وإنما توجهون إليّ توضيح ما جئتكم به، وتصديقه، وقد حصل، ومع ذلك، فليس معلوماً، أنهم إذا جاءتهم الآيات يؤمنون ويصدقون، بل الغالب ممن هذه حاله، أنه لا يؤمن ولهذا قال: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ وما يدرىكم أنها إذا جاءت لا يؤمنون.

(١١٠) ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ونعاقبهم إذا لم يؤمنوا أول مرة يأتيهم فيها الداعي، وتقوم عليهم الحجة، بتقليب القلوب، والحيلولة بينهم وبين الإيمان، وعدم التوفيق لسلوك الصراط المستقيم ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ نتركهم ﴿فِي طُعَيْنِهِمْ﴾ في ضلالهم وكفرهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون.

(١١١) ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْتَوَفَّى﴾ فإنهم لو جاءتهم الآيات العظيمة، من تنزيل الملائكة إليهم، يشهدون للرسول بالرسالة، وتكليم الموتى وبعثهم بعد موتهم ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ وحشر كل شيء إليهم حتى يكلمهم مشاهدة، ومباشرة، بصدق ما جاء به الرسول ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ما حصل منهم الإيمان، إذا لم يشأ الله إيمانهم، ولكن أكثرهم يجهلون.

وهذه الآية؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٩٦﴾ ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

(١١٢) ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ يقول تعالى -مسلياً لرسوله محمد

وَلَوْ أَنَّا زَلَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْتَوَفَّى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿٩٦﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْقَهُونَ ﴿٩٧﴾ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْرِضُوا مَا هُمْ مُقْرِضُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حِكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٩﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَإِنْ طَغَى أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ بِيضُلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَلْبِغُونَ إِلَّا الْأَظْنَ وَإِنَّهُمْ إِلَّا يُخْرَجُونَ ﴿١٠١﴾ إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَدِينَ ﴿١٠٢﴾ فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

ﷺ -: وكما جعلنا لك أعداء يردون دعوتك، ويحاربونك، ويحسدونك، فهذه سنتنا: أن نجعل لكل نبي نرسله إلى الخلق أعداء من شياطين الإنس والجن، يقومون بضد ما جاءت به الرسل.

﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ يزين بعضهم لبعض الأمر الذي يدعون إليه من الباطل، ويزخرفون له العبارات حتى يجعلوه في أحسن صورة؛ ليغتر به السفهاء ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾؛ أي: وذلك كله بقدر الله وقضائه وإرادته ومشيئته أن يكون لكل نبي عدواً من هؤلاء ﴿فَذَرَّهُمْ﴾ فدعهم ﴿وَمَا يَفْقَهُونَ﴾ يكذبون؛ أي: دع أذاهم وتوكل على الله في عداوتهم، فإن الله كافيك وناصرك عليهم.

(١١٣) ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ﴾ ولتميل إلى ذلك الكلام

ولا أعدل من أوامره ونواهيه، ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ حيث حفظها وأحكمها بأعلى أنواع الصدق، وبغاية الحق، فلا يمكن تغييرها، ولا اقتراح أحسن منها، وليس أحد يعقب حكمه تعالى، لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوال عباده بسائر الأصوات، واختلاف اللغات على تفنن الحاجات ﴿الْعَلِيمُ﴾ الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والماضي والمستقبل، ويجازي كل عامل بعمله.

(١١٦) ﴿وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يخبر الله تعالى عن حال أكثر أهل الأرض من بني آدم أنه الضلال، كما في قوله: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصفات: ٧١]

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ وهم في ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم، وإنما هم في ظنون كاذبة، وأوهام باطلة.

(١١٧) ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ وذلك كله قدر الله ومشيتته حيث يعلم الضالين ويسرهم للعسرى ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ وأعلم بمن يهتدي ويهدي فيسره لذلك، وكل ميسر لما خلق له.

(١١٨) ﴿فَكُلُوا وَمِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِبَيِّنَاتٍ مُؤْمِنِينَ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين، بمقتضى الإيمان، وأنهم إن كانوا مؤمنين، فليأكلوا مما ذكر اسم الله عليه: من بهيمة الأنعام، وغيرها من الحيوانات المحللة،

المزخرف ﴿أَفِيدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ لأن عدم إيمانهم باليوم الآخر وعدم عقولهم النافعة، يحملهم على ذلك، ﴿وَلِرِضْوَةٍ﴾ بعد أن يصغوا إليه، فيصغون إليه أولاً، فإذا مالوا إليه ورأوا تلك العبارات المستحسنة، رضوه، وزين في قلوبهم، وصار عقيدة راسخة، وصفة لازمة، ﴿وَلِيَقْرَئُوا مَا هُمْ مُقَرَّرُونَ﴾ ونتيجة لرضاهم بالباطل أنهم يقتربون - أي يكسبون - من الأعمال والأقوال ما هم مكتسبون.

(١١٤) قل يا أيها الرسول لهؤلاء المشركين بالله غيره، الذين يعبدون غيره: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا﴾ بيني وبينكم أحاكم إليه، وأتقيد بأوامره ونواهيه، فإن غير الله محكوم عليه لا حاكم.

﴿وَهُوَ﴾ الله وحده لا شريك له، الذي له الخلق والأمر ﴿الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ موضعاً فيه الحلال والحرام، ومبيناً الأحكام الشرعية.

﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْثَرُ﴾ وأهل الكتب السابقة، من اليهود والنصارى، يعترفون بذلك ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾؛ أي: بما عندهم من البشارات بك من الأنبياء المتقدمين، ولهذا تواطأت الإخبارات ﴿فَلَا﴾ تشكَّن في ذلك، ولا تكونن من الممتنعين من الشاكرين أنهم يعلمون ذلك.

(١١٥) ﴿وَوَسَّاتُ كَلِمَتِكَ رَيْكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأمر والنهي، فلا أصدق من أخبار الله التي أودعها هذا الكتاب العزيز،

(١١٨) أخرج أبو داود والترمذي وغيرهما بإسناد صحيح لغيره عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه؛ قال: جاءت اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: نأكل مما قتلنا، ولا نأكل مما قتل الله! فأنزل الله: ﴿فَكُلُوا وَمِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنْ أَعْطَمْتُمُوهُمْ لَكُمْ عَذَابٌ لَشَدِيدٌ﴾.

ويعتقدوا حلها، ولا يفعلوا كما تفعله الجاهلية من تحريم كثير من الحلال، ابتداءً من عند أنفسهم، وإضلالاً من شياطينهم، فذكر الله أن علامة المؤمن مخالفة أهل الجاهلية، في هذه العادة الذميمة، المتضمنة لتغيير شرع الله.

(١١٩) ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي شيء يمنعهم من أكل ما ذكر اسم الله عليه، ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ وقد فصل الله لعباده ما حرم عليهم، وبينه، ووضحه؟ فلم يبق فيه إشكال ولا شبهة توجب أن يمتنع من أكل بعض الحلال، خوفاً من الوقوع في الحرام.

﴿إِلَّا مَا أَضْطَرَرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ ومع ذلك، فالحرام الذي قد فصله الله وأوضحه، قد أباحه عند الضرورة والمخمصة.

ثم حذر عن كثير من الناس؛ فقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ﴾ بمجرد ما تهوى أنفسهم ﴿يَغْيِرُ عَلَيْهِمْ﴾ ولا حجة، لأن دعوتهم غير مبنية على برهان، ولا لهم حجة شرعية ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ الذين يجاوزون الحلال إلى الحرام، فهو أعلم باعتدائهم وكذبهم وافترائهم.

(١٢٠) ﴿وَذَرُوا ظَهَرَ الْآثِمِ وَبَاطِنَهُ﴾ المراد بالإثم: جميع المعاصي، التي تؤثم العبد، أي: توقعه في الإثم والخرج من الأشياء المتعلقة بحقوق الله، وحقوق عباده، فهي الله عباده عن اقتراح الإثم الظاهر والباطن؛ أي: السر والعلانية، المتعلقة بالبدن والجوارح، والمتعلقة بالقلب.

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ يَغْيِرُ عَلَيْهِمْ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا ظَهَرَ الْآثِمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ وَحٍ إِلَىٰ آلِيَاءِهِمْ لِيُجْدِلُواكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوْ مَن كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِحَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُّجْرِمِينَ لِيَسْكَرُوا فِيهَا وَمَا يَسْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ أَشْقَىٰ مِمَّا كُنَّا فِيهِ وَلَوْ أَنَّا فَهِمْنَا أَمْثِلْ إِلَيْنَا مَثَلٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ ثم أخبر تعالى، أن الذين يكسبون الإثم الظاهر والباطن، سيجزون على حسب كسبهم، وعلى قدر ذنوبهم، قلت أو كثرت، وهذا الجزاء يكون في الآخرة، وقد يكون في الدنيا؛ يعاقب العبد فيخفف عنه بذلك من سيئاته.

(١٢١) ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ نهى عن أكل الذبائح التي كانوا يذبحونها على اسم الأصنام ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ أي: وإن أكل ما لم يذكر الله عليه من الميتة، وما أهل به لغير الله؛ لفسق.

﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ وَحٍ إِلَىٰ آلِيَاءِهِمْ لِيُجْدِلُواكُمْ﴾

(١٢٠) أخرج مسلم عن النّوّاس بن سميّان رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ من الإثم؟ فقال: «الإثم: ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع الناس عليه».

(١٢٢) ﴿أَوْ مَن كَانَ﴾ من قبل هداية الله له ﴿مَيِّتًا﴾ في ظلمات الكفر، والجهل، والمعاصي ﴿فَاحْيَيْنَاهُ﴾ بنور العلم، والإيمان، والطاعة ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ فصار يمشي بين الناس في النور، متبصرًا في أموره، مهتدًا لسبيله، عارفًا للخير مؤثرًا له، مجتهدًا في تنفيذه في نفسه وغيره، عارفًا بالشر مبغضًا له، مجتهدًا في تركه وإزالته عن نفسه وعن غيره ﴿كَمَن مَّلَأَ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أفيستوي هذا بمن هو في الظلمات: ظلمات الجهل والغبي، والكفر والمعاصي؟ ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ قد التبست عليه الطرق، وأظلمت عليه المسالك، فحضره الهم والغم والحزن والشقاء ﴿كَذَلِكَ زُينَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فلم يزل الشيطان يحسن لهم أعمالهم، ويزينها في قلوبهم، حتى استحسناها ورأوها حقًا.

(١٢٣) ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَوْمٍ مَّكْرًا﴾ الرؤساء الذين قد كبر جرمهم، واشتد طغيانهم ﴿لِيَمَكُرُوا فِيهَا﴾ بالخدعة والدعوة إلى سبيل الشيطان، ومحاربة الرسل وأتباعهم، بالقول والفعل ﴿وَمَا يَمَكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ وإنما مكرهم وكيدهم يعود على أنفسهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أنه كذلك، وما يعود وبال مكرهم وإضلالهم من أضلوه إلا على أنفسهم.

(١٢٤) ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ حجة قاطعة من الله تعالى على صحة ما جاءهم به محمد ﷺ من عند

أراد أن الشياطين ليوسوسون إلى أوليائهم من المشركين ليجادلوا؛ فإن المشركين حين سمعوا تحريم الله ورسوله الميتة، وتحليله للمذكاة، وكانوا يستحلون أكل الميتة قالوا - معاندة لله ورسوله، ومجادلة بغير حجة ولا برهان-: أتأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله؟ يعنون بذلك الميتة.

وهذا رأي فاسد لا يستند على حجة ولا دليل، بل يستند إلى آرائهم الفاسدة التي لو كان الحق تبعًا لها لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن. فتبًا لمن قدم هذه العقول على شرع الله وأحكامه، الموافقة للمصالح العامة والمنافع الخاصة. ولا يستغرب هذا منهم، فإن هذه الآراء وأشباهها، صادرة عن وحي أوليائهم من الشياطين، الذين يريدون أن يضلوا الخلق عن دينهم، ويدعوهم ليكونوا من أصحاب السعير.

﴿وَإِن أَعْطَمْتُمُوهُمْ﴾ في شركهم وتحليلهم الحرام، وتحريمهم الحلال ﴿إِنَّكُمْ لَشُرُكُونَ﴾ لأنكم اتخذتموهم أولياء من دون الله، ووافقتموهم على ما به فارقوا المسلمين، فلذلك كان طريقكم طريقهم.

ودلت هذه الآية الكريمة: على أن ما يقع في القلوب من الإلهامات والكشوف التي يكثر وقوعها عند الصوفية ونحوهم، لا تدل بمجردها على أنها حق ولا تصدق حتى تعرض على كتاب الله وسنة رسوله.

(١٢٢) أخرج أحمد بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه النور اهتدى، ومن أخطأه ضل».

(١٢٤) أخرج البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت من خير قرون بني آدم قرنًا فقرنًا، حتى بعثت من القرن الذي كنت فيه».

اللَّهُ وَحَقِيقَتُهُ ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى تُؤْتِيَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ من النبوة والرسالة، وفي هذا اعتراض منهم على الله، وعُجِبَ بأنفسهم، وتكبر على الحق الذي أنزله على أيدي رسله، وتحجر على فضل الله وإحسانه.

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ فيمن عليمه يصلح لها، ويقوم بأعبائها، وهو متصف بكل خلق جميل، ومتبرئ من كل خلق دنيء، أعطاه الله منها ما تقتضيه حكمته أصلاً وتبعاً، ومن لم يكن كذلك، لم يضع أفضل مواهبه، عند من لا يستأمله، ولا يزكو عنده.

﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ إهانة وذل، كما تكبروا على الحق أذلهم الله، ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ بسبب مكرهم، لا ظمناً منه تعالى.

(١٢٥) ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ يخبر الله تعالى أن من انشرح صدره للإسلام، اتسع وانفسح، فاستنار بنور الإيمان، وحيي بضوء اليقين، فاطمأنت بذلك نفسه، وأحب الخير، وطوعت له نفسه فعله، متلذذاً به غير مستثقل، فإن هذا علامة على أن الله قد هداه، ومنَّ عليه بالتوفيق، وسلوك أقوم الطريق.

﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ﴾ وأن علامة من يرد الله أن يضلّه، أنه ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ أن يجعل صدره ضيقاً حرجاً أي: في غاية الضيق عن الإيمان والعلم واليقين، قد انغمس قلبه في الشبهات والشهوات، فلا يصل إليه خير، لا ينشرح قلبه لفعل الخير ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ كأنه من ضيقه وشدته يكاد يصعد في السماء، أي: كأنه يكلف الصعود إلى السماء،

الذي لا حيلة له فيه.

﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وهذا سببه، عدم إيمانهم، وهو الذي أوجب أن يجعل الله الرجس عليهم.

(١٢٦) ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ﴾ الصراط المستقيم: القرآن، وهو الإسلام ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ معتدلاً موثقاً إلى الله، وإلى دار كرامته ﴿فَدَفَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ قد بينت أحكامه، وفصلت شرائعه، وميز الخير من الشر، ولكن هذا التفصيل والبيان، ليس لكل أحد، إنما هو ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ فإنهم الذين علموا، فانفتحوا بعلمهم، وأعد الله لهم الجزاء الجزيل، والأجر الجميل.

(١٢٧) فلهذا قال: ﴿لَمَّا دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ وسميت الجنة، دار السلام؛ لسلامتها من كل عيب وآفة وكدر، وهم وغم، ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾

(١٢٩) ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: وكما ولئنا الجن المردة وسلطانهم على إضلال أوليائهم من الإنس وعقدنا بينهم عقد الموالاة والموافقة، ﴿تُؤْتَى بِعَصَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ بسبب كسبهم وسعيهم بذلك، كذلك من سنتنا أن نولي كل ظالم ظالمًا مثله، يؤزه إلى الشر ويحثه عليه، ويزهده في الخير وينفره عنه.

(١٣٠) ﴿يَمَعْتَنَ الْجِنَّ وَالْإِنسَ الَّذِينَ يَأْتِيَهُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ من جملتكم، والرسول من الإنس فقط، وليس من الجن؛ كما قد نص على ذلك غير واحد من الأئمة من السلف والخلف ﴿يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ عَائِيَةً﴾ يقرؤون عليكم كتيبي الواضحات البينات ﴿وَيُذَرُّوكمُ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ ويعلمونكم أن النجاة فيه، والفوز إنما هو بامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه، وأن الشقاء والخسران في تضييع ذلك، فأقروا بذلك واعترفوا، ﴿فَقَالُوا﴾: بلى ﴿شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا﴾ أنهم قد بلغوا. وذلك حين شهدت عليهم جوارحهم بالشرك والكفر ﴿وَعَرَّيْنَاهُمْ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا﴾ بزینتها وزخرفها، ونعيمها فاطمأنوا بها ورضوا، وألهتهم عن الآخرة ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ فقامت عليهم حجة الله، وعلم حينئذ كل أحد، حتى هم بأنفسهم، عدل الله فيهم.

(١٣١) ﴿ذَلِكَ﴾ الذي قصصنا عليك من أمر الرسل وعذاب من كذبهم ﴿أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلَاكًا لِّقَوْمٍ يُظَلَّمُونَ﴾ إنما أعذرنا إلى الثقلين بإرسال الرسل وإنزال الكتب لئلا يؤاخذ أحد بظلمه وهو لم تبلغه دعوة، ولكن أعذرنا إلى الأمم، وما عذبنا أحدًا إلا بعد إرسال الرسل إليهم؛ كما قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ

الذي يتولى تدبيرهم وتربيتهم، ولطف بهم في جميع أمورهم، وأعانهم على طاعته، ويسر لهم كل سبب موصل إلى محبته، وإنما تولاهم ﴿يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بسبب أعمالهم الصالحة، ومقدماتهم التي قصدوا بها رضا مولاهم.

(١٢٨) يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا﴾ جميع الثقلين، من الإنس والجن، من ضل منهم، ومن أضل غيره، فيقول موبخًا للجن الذين أضلوا الإنس، وزينوا لهم الشر، وأزوههم إلى المعاصي: ﴿يَمَعْتَنَ الْجِنَّ قَدْ اسْتَغْنَتْهُ مِنَ الْإِنسِ﴾ من إضلالهم، وصدهم عن سبيل الله، فكيف أقدمتم على محارمي، وتجراتم على معاندة رسلي وقمتم محاربين لله، ساعين في صد عباد الله عن سبيله إلى سبيل الجحيم؟

﴿وَقَالَ أُولِيَائُهُم مِنَ الْإِنسِ﴾ وأما أوليائهم من الإنس، فأبدوا عذرًا غير مقبول، فقالوا: ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ تمتع كل من الجني والإنسي بصاحبه، وانتفع به ﴿وَبَلَّغْنَا آجَلًا الَّذِي أَجَلْتَنَا﴾ وقد وصلنا المحل الذي نجازى فيه بالأعمال، فافعل بنا الآن ما تشاء، واحكم فينا بما تريد، فقد انقطعت حاجتنا ولم يبق لنا عذر، والأمر أمرك، والحكم حكمك.

﴿قَالَ النَّارُ مَثَوْنُكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ خالدين في النار سوى ما شاء الله من أنواع العذاب، والاستثناء يرجع إلى قوم سبق فيهم علم الله أنهم يسلمون؛ فيخرجون من النار.

ولما كان هذا الحكم من مقتضى حكمته وعلمه، ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ فكما أن علمه وسع الأشياء كلها وعمتها، فحكمته الغائية شملت الأشياء وعمتها ووسعتها.

رَسُولًا [الإسراء: ١٥].

﴿وَأَهْلَهَا غُفْلُونَ﴾ لم يندروا حتى تبعث إليهم رسلاً يندرونهم.

(١٣٢) ﴿وَلِكُلِّ﴾ منهم ﴿دَرَجَتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ لكل عامل من طاعة الله أو معصيته مراتب ومنازل من عمله يبلغه الله إياها ويثيبه بها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، بحسب أعمالهم ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ وكل ذلك من عملهم، يا محمد، بعلم من ربك، يحصيها ويثبتها لهم عنده، ليجازيهم عليها عند لقاءهم إياه ومعادهم إليه.

(١٣٣) يقول تعالى: ﴿وَرَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿الْغَفِيُّ﴾ عن جميع خلقه من جميع الوجوه، وهم الفقراء إليه في جميع أحوالهم ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ وهو مع ذلك رحيم رؤوف بهم، كما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ بالإهلاك إذا خالفتم أمره ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ قومًا آخرين يعملون بطاعته ﴿كَمَا أَنتَ خَلَفْتُمْ مِنْ دُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ كما أوجد القرون الأولى وأتى بالذي بعدها، كذلك هو قادر على إذهاب هؤلاء والإتيان بآخرين، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا [النساء: ١٣٣]. وقال: ﴿وَاللَّهُ الْغَفِيُّ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

(١٣٤) ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ أي: أخبرهم يا محمد أن الذي يوعدون به من أمر المعاد كائن لا محالة، فلا يستبعد المعرض سرعة الوصول إلى هذه الدار ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ ولا تعجزون

وَلِكُلِّ دَرَجَتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ الْغَفِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنتَ خَلَفْتُمْ مِنْ دُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِرِكُمْ إِنْ عَمِلْتُمْ فَسُوفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِئْسِهِمْ وَهَذَا لِلشُّرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُمْ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ يُرَدُّوهُمْ وَلَيْسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾

١٤٥

الله بل هو قادر على إعادتك، وإن صرتم تراباً رفاتاً وعظاماً، هو قادر لا يعجزه شيء.

(١٣٥) ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول لقومك إذا دعوتهم إلى الله فامتنعوا من الانقياد لأمره: ﴿يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِرِكُمْ﴾ على حالتكم التي أنتم عليها ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ على أمر الله ومتبع لمراضيه ﴿فَسُوفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد، أي استمروا على طريقتكم فستعلمون ﴿وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ﴾ منا ومنكم، وعاقبة الدار هي الجنة. ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ فكل ظالم، وإن تمتع في الدنيا بما تمتع به، فنهايته في الاضمحلال والتلف؛ إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.

(١٣٦) ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ كان المشركون يجعلون لله

ووفروا ما جزؤوا لشركائهم ولم يأكلوا منه شيئاً ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ بشئ ما يصنعون.

(١٣٧) ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَّاؤُهُمْ﴾ أي : وكما زيننا الشياطين لهؤلاء المشركين أن يجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، كذلك زينوا لهم قتل أولادهم خشية الإملاق، ووأد البنات خشية العار، ومعنى قوله ﴿شُرَكَّاؤُهُمْ﴾ شياطينهم. ﴿لِيُرَدُّوهُمْ﴾ ليهلكوهم ﴿وَلِيَلْسُوا عَلَيْهِمْ﴾ ليدخلوا عليهم الشك في دينهم، وكانوا على دين إسماعيل فرجعوا عنه بتلييس الشياطين.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ لو شاء الله لعصمهم حتى ما فعلوا ذلك من تحريم الحرث والأنعام وقتل الأولاد، ﴿وَنَذَرُهُمْ وَمَا يَقْرُوت﴾ دعهم مع كذبهم وافترائهم، ولا تحزن عليهم، فإنهم لن يضروا الله شيئاً، وسيحكم الله بينك وبينهم.

(١٣٨) ﴿وَقَالُوا﴾ : المشركون ﴿هَذِهِ أَنْعَمُ وَحَرْتُ حِجْرٌ﴾ محرمة ﴿لَا يَطْعُمَهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ﴾ لا يجوز أن يطعمه أحد، إلا من أردنا أن يطعمه، أو وصفناه بوصف من عندنا وكل هذا ﴿بِرِغْمِهِمْ﴾ لا مستند لهم، ولا حجة إلا أهويتهم، وآراؤهم الفاسدة.

﴿وَأَنْعَمُ حُرْمَتُ ظُهُورِهَا وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ وأنعام ليست محرمة من كل وجه، بل يحرمون ظهورها، بالركوب والحمل عليها، ويحرمون ظهرها، ويسمونها: الحام، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها، بل يذكرون اسم أصنامهم وما كانوا يعبدون من دون الله عليها، ﴿أَفَرَأَى عَلَيْهِ﴾ وينسبون تلك الأفعال إلى الله،

وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمُ وَحَرْتُ حِجْرٌ لَا يَطْعُمَهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِرِغْمِهِمْ وَأَنْعَمُ حُرْمَتُ ظُهُورِهَا وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا أَفَرَأَى عَلَيْهِ سَيِّجَرِيهِمْ يَمَّا كَانُوا يَقْرُوتُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَمِ خَالِصَةٌ ذُنُوبُنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مِّمَّةٌ فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيِّجَرِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلَيْهِمْ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَيْرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالْأَخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُمْ وَالزَّرَيَاتِ وَالْأَرْمَاتِ مُتَشَدِّبًا وَغَيْرَ مُتَشَدِّبٍ كُلًّا مِّنْ ثَمَرٍ إِذَا أَثْمَرَ وَآثَمَرُوا أَنِ احْقَافُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُشْرِكُوا إِنَّا لَا يَحِبُّ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ الْأَنْعَمِ حُمُولُهُ وَفَرَشْنَا كُلًّا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾

مما خلق وبرا ﴿مِنَ الْحَرثِ﴾ من الزروع والثمار ﴿وَالْأَنْعَمِ﴾ الإبل، والبقر، والغنم ﴿نَصِيبًا﴾ جزاءً وقسماً ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِغْمِهِمْ﴾ وفي هذا تنبيه على أن ذلك مما اخترعه لم يأمرهم الله به. ﴿وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ للأوثان. ﴿فَمَا كَانَتْ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَتْ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ﴾ والمعنى : أن الكفار كانوا إذا حرثوا حرثاً، أو كانت لهم ثمرة جعلوا لله منها جزءاً، وللوثن جزءاً؛ فما جعلوا من نصيب الأوثان حفظوه، وإن اختلط به شيء مما جعلوه لله رده إلى نصيب الأصنام، وإن وقع شيء مما جعلوه لله في نصيب الأصنام تركوه فيه، وقالوا: الله غني، والصنم فقير!. أو كانوا إذا أصابتهم سنة استعانوا بما جزؤوا لله وأكلوا منه،

كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤١﴾ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا، وَلَمْ يَكُونُوا مُهْتَدِينَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمُورِهِمْ.

(١٤١) ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ﴾ بساتين، فيها أنواع الأشجار المتنوعة، والنباتات المختلفة ﴿مَعْرُوشَتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَتٍ﴾ بعض تلك الجنات مجعول لها عرش، تنتشر عليه الأشجار، ويعاونها في النهوض عن الأرض، وبعضها خال من العروش، تنبت على ساق، أو تنفرش في الأرض ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ تَعَالَى النَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكْلُهُ﴾ كله في محل واحد، ويشرب من ماء واحد، ويفضل الله بعضه على بعض في الأكل. ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ تَعَالَى: الزَّيْتُونَ وَالزُّمَّاتِ مُتَشَابِهًا﴾ في شجره ﴿وَعَيْرَ مُتَشَابِهًا﴾ في ثمره وطعمه ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ النخل والزرع ﴿إِذَا أَثْمَرَ﴾ وءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ أعطوا حق الزرع، وهو الزكاة ذات الأنصباء المقدرة في الشرع، أمرهم أن يعطوها يوم حصادها، وذلك لأن حصاد الزرع بمنزلة حولان الحول.

وقوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ يعم النهي عن الإسراف في الأكل، وهو مجاوزة الحد والعادة، وأن يأكل صاحب الزرع أكلاً يضر بالزكاة، والإسراف في إخراج حق الزرع، بحيث يخرج فوق الواجب عليه، ويضر نفسه أو عائلته أو غرماءه، فكل هذا من الإسراف الذي نهى الله عنه.

وفي هذه الآية: دليل على وجوب الزكاة في الثمار، وأنه لا حول لها، بل حولها حصادها،

وهم كذبة فُجَّار في ذلك، ﴿سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ على الله، من إحلال الشرك، وتحريم الحلال من الأكل والمنافع.

(١٣٩) ﴿وَقَالُوا﴾ ومن آرائهم السخيفة قولهم: إن بعض الأنعام - ويعينونها - محرم ما في بطنها على الإناث دون الذكور، فيقولون: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ اللبن كانوا يحرمونه على إناثهم ويشربه ذكراهم حلال لهم لا يشاركونهم فيها النساء، ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَى الْأُنثَى﴾ نسائنا، هذا إذا وجد حيًا ﴿وَإِنْ يَكُنْ مَيِّتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ وإن يكن ما في بطنها يولد ميتًا، فهم فيه شركاء، فهو حلال للذكور والإناث ﴿سَيَجْزِيهِمُ اللَّهُ﴾ حين وصفهم ﴿وَوَصَفُوا مَا أَحَلَّ اللَّهُ بِأَنَّهُ حَرَامٌ، وَوَصَفُوا الْحَرَامَ بِالْحَلَالِ﴾ حيث أمهل لهم، ومكنهم مما هم فيه من الضلال، ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بهم، لا تخفى عليه خافية، وهو تعالى يعلم بهم وبما قالوه عليه وافتروه، وهو يعافهم ويرزقهم ﴿فَقَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ خسروا دينهم وأولادهم وعقولهم، وصار وصفهم - بعد العقول الرزينة - السفه المردى، والضلال، ﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ ما جعله رحمة لهم، وساقه رزقًا لهم، فردوا كرامة ربهم، ولم يكتفوا بذلك، بل وصفوها بأنها حرام، وهي من أحل الحلال، وكل هذا ﴿أَفَرَأَيْتَ عَلَى اللَّهِ﴾ كذبًا يكذب به كل معاند كفَّار، ﴿فَقَدْ ضَلُّوا وَمَا

(١٤٠) أخرج البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: إذا سرك أن تعلم جهل العرب؛ فافقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام: ﴿فَقَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ أَفْرَاقًا عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

(١٤١) أخرج أبو داود وأحمد بإسناد صحيح عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ أمر من كل جاذ عشرة أوسق من التمر، بيقنو يعلق في المسجد للمساكين.

فهذه أربعة كلها داخلة فيما أحل الله لا فرق بين شيء منها، ف﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المكلفين الذين يحرمون منها شيئاً دون شيء، ملزماً لهم بعدم وجود الفرق بين ما أباحوا منها وحرموا: ﴿الَّذِينَ﴾ من الضأن والمعز ﴿حَرَّمَ﴾ الله، فلستم تقولون بذلك وتطردونه ﴿أَمِ﴾ الأنثيين ﴿حَرَّمَ﴾ الله من الضأن والمعز، فليس هذا قولكم، لا تحريم الذكور الخالص، ولا الإناث الخالص من الصنفين.

بقي إذا كان الرحم مشتملاً على ذكر وأنثى، أو على مجهول، فقال: ﴿أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِيَّيْنَ﴾ أي: أم تحرمون ﴿أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِيَّيْنَ﴾ ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين، أي: أنثى الضأن وأنثى المعز، من غير فرق بين ذكر وأنثى، فلستم تقولون أيضاً بهذا القول، فإذا كنتم لا تقولون بأحد هذه الأقوال الثلاثة التي حصرت الأقسام الممكنة في ذلك فإلى أي شيء تذهبون؟! ﴿نَبْغُونِ بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في قولكم ودعواكم.

(١٤٤) ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ وَالَّذِينَ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثِيَّيْنَ أَمَّا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِيَّيْنَ﴾ ثم ذكر الإبل ذكورها وإناثها والبقرة كذلك، وأنه تعالى لم يحرم من ذلك، ولا شيئاً من أولادها ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْتُكُمْ اللَّهُ بِهِدًا﴾ لم يبق عليكم إلا دعوى أن تقولوا: إن الله وصانا بذلك، وأوحى إلينا كما أوحى إلى رسوله! ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ لا أحد أظلم منه ﴿لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ مع كذبه وافتراءه على الله، قصده بذلك إضلال عباد الله عن سبيل الله، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

ثُمَّ نَبِيَّةَ أَرْوَجَ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ وَالَّذِينَ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثِيَّيْنَ أَمَّا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِيَّيْنَ نَبْغُونِ بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ وَالَّذِينَ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثِيَّيْنَ أَمَّا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِيَّيْنَ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْتُكُمْ اللَّهُ بِهِدًا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعَةٍ عَصَيْتُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِثْقَلُ أُودَةٍ مَّا سَفَّوْهُمَا أَوْ لَحْمَ خِزْيِرٍ فَإِنْ رَجَعْتُ أَوْ فَسَقْتُ أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطَرَّ عَرَبِيَّاعٌ وَلَا عَادِيَّانَ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا كُلُّ ذِي طَمْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِغَيْرِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾

وأنه لا تتكرر فيها الزكاة لو مكثت عند العبد أحوالاً كثيرة.

(١٤٢) ﴿وَالَّذِينَ حَرَّمَ﴾ خلق وأنشأ ﴿مِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ بعضها تحملون عليه وتركبونه، وبعضها لا تصلح للحمل والركوب عليها، وهي الفرس ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ كلوا من الثمار والزروع والأنعام ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ طرقه وأعماله التي من جملتها أن تحرموا بعض ما رزقكم الله ﴿إِنَّهُ﴾ إن الشيطان؛ أيها الناس ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر العداوة؛ فلا يأمركم إلا بما فيه مضررتكم وشقاؤكم الأبدية.

(١٤٣) ثم فصل الله تعالى هذه الأنعام التي امتن بها على عباده، وجعلها كلها حلالاً طيباً فقال: ﴿ثُمَّ نَبِيَّةَ أَرْوَجَ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾ الغنم، ومنه ذكر وأنثى ﴿وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ كذلك،

الظَّالِمِينَ ﴿الَّذِينَ لَا إِرَادَةَ لَهُمْ فِي غَيْرِ الظُّلْمِ وَالْجَوْرِ، وَالْإِفْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ﴾.

(١٤٥) ﴿قُلْ﴾ قل لهؤلاء الذين حرموا ما رزقهم الله افتراء على الله: ﴿لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ لا أجد شيئاً مما حرمتم سوى هذه ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِثْقَلُ ذَرَّةٍ مِنَ الْمُنَى﴾ والميتة: ما مات بغير ذكاة شرعية، فإن ذلك لا يحل ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ وهو الدم الذي يخرج من الذبيحة عند ذكاتها؛ فإنه الدم الذي يضر احتباسه في البدن ﴿أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ خبث نجس مضر ﴿أَوْ﴾ إلا أن يكون ﴿مَسْقًا أَهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ إلا أن تكون الذبيحة مذبوحة لغير الله، من الأوثان والآلهة التي يعبدونها المشركون، فإن هذا من الفسق الذي هو الخروج عن طاعة الله إلى معصيته، ﴿فَمَنْ أَضَلُّ مِنْ ذَلِكَ لَمَّا يَكُنْ عَنْهُ شَيْءٌ وَخَافَ عَلَى نَفْسِهِ التَّلَفَ﴾ غير باع أي: مريد لأكلها من غير اضطرار ﴿وَلَا عَادٍ﴾ ولا متعد، أي: متجاوز للحد، بأن يأكل زيادة عن حاجته، ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فالله قد سامح من كان بهذه الحال.

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رُبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَسَعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى دَاوُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُنَا أَنْ تَشْفَعُوا إِلَّا الظَّنُّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ لِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُ كُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ قُلْ نَعَا لَوْ أَنَّا لَمَّا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَائِكُمْ يُحَنَّنْ رَبُّكُمْ وَإِيسَاهُمُ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَ كُورٌ وَمَنْ كُورٌ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾

(١٤٦) ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلَّ ذِي ظُفَرٍ﴾ وذلك كالإبل وما أشبهها ﴿وَمِنْ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ﴾ بعض أجزائها، وهو: ﴿شُحُومُهَا﴾ وليس المحرم شحم الألية والترب،

(١٤٥) أخرج أبو داود والحاكم بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقدراً، فبيعت الله نبيه وأنزل كتابه، وأحل حلاله وحرم حرامه، فما أحل فهو حلال وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو. وتلا هذه الآية: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِثْقَلُ ذَرَّةٍ مَسْفُوحًا﴾ إلى آخر الآية. وأخرج أحمد بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ماتت شاة لسودة بنت زمعة، فقالت: يا رسول الله، ماتت فلانة - تعني الشاة - قال: «فلولا أخذتم مسكها؟» - يعني جلدتها - قالت: نأخذ مسك شاة قد ماتت؟! قال: رسول الله ﷺ: «إنما قال الله: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِثْقَلُ ذَرَّةٍ مَسْفُوحًا﴾ أو دماً مسفووحاً أو لحم خنزير» وإنكم لا تطعمونه، إن تدبغوه فتنتفعوا به». فأرسلت فسلخت مسكها فدبغته، فاتخذت منه قربة، حتى تحرق عندنا. وبنحوه عند البخاري.

(١٤٦) أخرج البخاري ومسلم وأصحاب السنن عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول عام الفتح: «إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام» فقيل: يا رسول الله! رأيت شحوم الميتة، فإنه يدهن بها الجلود، ويطلى بها السفن، ويستصبح بها؟ فقال: «لا، هو حرام» ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: «قاتل الله اليهود، إن الله لما حرم عليهم شحومها جملوه، ثم باعوه وأكلوا ثمنه».

- وهم خصوم ألداء - لأخرجوه، فلما لم يخرجوه علم أنه لا علم لهم، ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي الوهم والخيال. والمراد بالظن هاهنا: الاعتقاد الفاسد ﴿وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا قَوْمُ صُورٍ﴾ تكذبون على الله فيما ادعيتموه.

(١٤٩) يقول الله تعالى لنبيه ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلَّغَةُ﴾ أي: له الحكمة التامة، والحجة البالغة في هداية من هدى، وإضلال من ضل ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وكل ذلك بقدره ومشيئته واختياره، وهو مع ذلك يرضى عن المؤمنين ويبغض الكافرين؛ كما في قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ [الأنعام: ٣٥]. وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

(١٥٠) ﴿قُلْ﴾ قل لمن حرم ما أحل الله، ونسب ذلك إلى الله: ﴿هَلُمْ شُهَدَاءُكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ أحضروا شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا، فإذا قيل لهم هذا الكلام، فهم بين أمرين:

إما ألا يحضروا أحدا يشهد بهذا، فتكون دعواهم إذا باطلة، خلية من الشهود والبرهان.

وإما أن يحضروا أحدا يشهد لهم بذلك، ولا يمكن أن يشهد بهذا إلا كل أفاك أثيم، غير مقبول الشهادة ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ لأنهم إنما يشهدون والحالة هذه كذبا وزورا، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ يسوون به غيره من الأنداد والأوثان، فإذا كانوا كافرين بالآخرة، وأهويتهم مناسبة لعقيدتهم، فحري بهوى هذا شأنه أن ينهى الله خيار خلقه عن

ولهذا استثنى الشحم الحلال في ذلك ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا﴾ الشحم المخالط للأمعاء ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ ذلك التحريم على اليهود ﴿جَزَيْنَهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾ ظلمهم وتعديهم في حقوق الله وحقوق عباده ﴿وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ في كل ما نفعل ونفعل ونحكم به.

(١٤٧) ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ فإن كذبك هؤلاء المشركون فاستمر على دعوتهم، بالترغيب والترهيب، وأخبرهم بأن الله ذو رحمة وهذا ترغيب لهم في ابتغاء رحمة الله ﴿ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ عامة شاملة للمخلوقات كلها. ﴿وَلَا يَزِدُّ بُأْسَهُ﴾ وهذا ترهيب لهم في مخالفتهم الرسول الخاتم ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ الذين كثر إجرامهم وذنوبهم.

(١٤٨) ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءَنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ﴾ هذا إخبار من الله أن المشركين سيحتجون على شركهم وتحريمهم ما أحل الله، بالقضاء والقدر، ويجعلون مشيئة الله الشاملة لكل شيء من الخير والشر حجة لهم في دفع اللوم عنهم، وقد قالوا ما أخبر الله أنهم سيقولونه.

﴿كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى دَاوُودَ﴾ فأكبر تعالى أن هذه الحجة، لم تزل الأمم المكذبة تدفع بها عنهم دعوة الرسل، ويحتجون بها، فلم تجد فيهم شيئا ولم تنفعهم، فلم يزل هذا دأبهم حتى أهلكتهم الله، وأذاقهم بأسه.

فلو كانت حجة صحيحة، لدفعت عنهم العقاب، ولما أحل الله بهم العذاب؛ لأنه لا يحل بأسه إلا بمن استحقه، فعلم أنها حجة فاسدة ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ فلو كان لهم علم

اتباعه .

(١٥١) يقول تعالى لنبيه ﷺ : ﴿قُلْ لَهُوَاءَ الَّذِينَ حَرَّمُوا مَا أَحَلَّ اللَّهُ : ﴿تَمَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾ تحريماً عاماً شاملاً لكل أحد، محتوياً على سائر المحرمات ﴿أَلَا تَشْكُرُوا﴾ به شيء﴾ لا قليلاً ولا كثيراً .

وحقيقة الشرك بالله : أن يعبد المخلوق كما يعبد الله ، أو يعظم كما يعظم الله ، أو يصرف له نوع من خصائص الربوبية والإلهية .

﴿وَيَا أُولِي الْإِحْسَانِ﴾ من الأقوال الكريمة الحسنة ، والأفعال الجميلة المستحسنة ، فكل قول وفعل يحصل به منفعة للوالدين أو سرور لهما ، فإن ذلك من الإحسان .

﴿وَلَا تَقُولُوا أُولَٰئِكَ﴾ من ذكور وإناث ﴿مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ بسبب الفقر وضيقتكم من رزقهم ﴿تَحْنُ رِزْقِكُمْ﴾ وإياهم ﴿قد تكفلنا برزق الجميع ، فلستم الذين ترزقون أولادكم ، بل ولا أنفسكم ، فليس عليكم منهم ضيق .

﴿وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ﴾ وهي : الذنوب العظام المستفحشة ، ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ المتعلق منها بالظاهر ، والمتعلق بالقلب والباطن .

﴿وَلَا تَقُولُوا أَلَنفَسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ النفس المسلمة ، من ذكر وأنثى ، صغير وكبير ، بر وفاجر ، والكافرة التي قد عصمت بالعهد والميثاق ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ كالزاني المحصن ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ وَالْعَهْدُ الَّذِي لَكُمْ لَا تَنْكِفُهُمْ نَفْسًا إِلَّا وَاعْتَمَادًا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثَمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَالَمٍ يُقَالُ بِهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكًا فَآتِيبُوهُ وَأَتَقُوا لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَٰنَا بِقَتْنٍ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ مِّنْ أَطْلُقُ مَنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ المذكور ﴿وَصْنُكُمْ بِهِ﴾ لَعَلَّكُمْ تَقُولُونَ ﴿عن الله وصيته ، ثم تحفظونها ، ثم تراعونها وتقومون بها .

(١٥٢) ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ بأكل ، أو معاوضة ، على وجه المحاباة لأنفسكم ، أو أخذ من غير سبب ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ إلا بالحال التي تصلح بها أموالهم ، وينتفعون بها ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْيَتِيمُ أَشُدَّهُ﴾ حتى يبلغ ويرشد ، ويعرف التصرف ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ وَالْعَهْدُ الَّذِي لَكُمْ بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل والوفاء التام ، فإذا اجتهدتم في ذلك ، ف ﴿لَا تَنْكِفُوا نَفْسًا إِلَّا وَاعْتَمَادًا﴾ بقدر ما تسعه ، ولا تضيق عنه .

(١٥١) أخرج الحاكم بإسناد صحيح عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : «أيكم يبايعني على ثلاث؟» ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿قُلْ تَمَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾ حتى فرغ من الآيات : «فمن وفى ؛ فأجره على الله ، ومن انتقص منهن شيئاً ؛ فأدرکه الله به في الدنيا كانت عقوبته ، ومن آخر إلى الآخرة ، فأمره إلى الله ، إن شاء عذبه ، وإن شاء عفا عنه» وأصله في «الصحيحين» .

والعقائد ونحوها ﴿وَهْدَىٰ وَرَحْمَةً﴾ يهديهم إلى الخير، ويعرفهم بالشر ﴿وَرَحْمَةً﴾ يحصل به لهم السعادة والرحمة والخير الكثير ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ بسبب إنزالنا الكتاب والبينات عليهم ﴿يَلْقَاءَ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ فإنه اشتمل من الأدلة القاطعة على البعث والجزاء بالأعمال وما يوجب لهم الإيمان بقاء ربهم والاستعداد له.

(١٥٥) ﴿وَهَذَا﴾ القرآن العظيم، والذكر الحكيم ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكًا﴾ فيه الخير الكثير والعلم الغزير ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ فيما يأمر به وينهى ﴿وَاتَّقُوا﴾ الله تعالى أن تخالفوا له أمراً ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ إن اتبعتموه ﴿تَرْحَمُونَ﴾ فهو أكبر سبب لنيل رحمة الله.

(١٥٦) ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ أنزلنا إليكم هذا الكتاب قطعاً لحجتكم، وخشية أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين قبلنا أي اليهود والنصارى ﴿وَأِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفِيلِينَ﴾ تقولون لم تنزل علينا كتاباً، والكتب التي أنزلتها على الطائفتين ليس لنا بها علم ولا معرفة.

(١٥٧) ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ أي: إما أن تعتذروا بعدم وصول أصل الهداية إليكم، وإما أن تعتذروا بعدم كمالها وتماها، فحصل لكم بكتابكم أصل الهداية وكمالها، فهذا يوجب لكم الانقياد لأحكامه والإيمان بأخباره، وأن من لم يرفع به رأساً وكذب به، فإنه أظلم الظالمين، ولهذا قال:

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ قَوْلًا فَأَعْدِلُوا﴾ في قولكم، بمراعاة الصدق ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ فيمن تحبون ومن تكرهون ﴿وَيَعْبُدِ اللَّهُ أَتَوْا﴾ وهذا يشمل العهد الذي عاهد عليه العباد من القيام بحقوقه والوفاء بها، ومن العهد الذي يقع التعاقد به بين الخلق، فالجميع يجب الوفاء به.

﴿ذَلِكُمْ﴾ الأحكام المذكورة ﴿وَصَنَّكُم بِهِ﴾ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ما بينه لكم من الأحكام، وتقومون بوصية الله لكم حق القيام، وتعرفون ما فيها، من الحكيم والأحكام.

(١٥٣) ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ هذه الأحكام وما أشبهها، مما بينه الله في كتابه، ووضحه لعباده، صراط الله الموصل إليه، وإلى دار كرامته، المعتدل السهل المختصر ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ لتنالوا الفوز والفلاح ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ الطرق المخالفة لهذا الطريق ﴿فَنَفَرَقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ تضلکم عنه وتفرقكم يميناً وشمالاً، فإذا ضللتكم عن الصراط المستقيم، فليس ثم إلا طرق توصل إلى الجحيم ﴿ذَلِكُمْ﴾ وصنكم به لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ فإنكم إذا قمتم بما بينه الله لكم علماً وعملاً صرتم من المتقين.

(١٥٤) ﴿ثُمَّ﴾ ليس المراد منها الترتيب الزمني ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ﴾ وهو التوراة ﴿تَمَامًا﴾ لنعمته، وكمالاً لإحسانه ﴿عَلَىٰ آلِهِ أَحْسَنَ﴾ من أمة موسى ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاجون إلى تفصيله، من الحلال والحرام، والأمر والنهي،

(١٥٣) أخرج أحمد وغيره بإسناد صحيح لغيره عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: خط رسول الله ﷺ خطاً بيده، ثم قال: «هذا سبيل الله مستقيماً» وخط عن يمينه وشماله، ثم قال: «هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو له» ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾.

﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ يَنْتَهُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وهذا اسم جنس، يدخل فيه كل ما يبين الحق ﴿وَهْدَى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحِمَةً﴾ سعادة لكم في دينكم ودنياكم، ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أعرض ونأى بجانبه ﴿سَجَزَى الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ﴾ العذاب الذي يسوء صاحبه ويشق عليه ﴿يَمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ لأنفسهم ولغيرهم.

(١٥٨) ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ هل ينظر هؤلاء الذين استمر ظلمهم وعنادهم ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾ مقدمات العذاب، ومقدمات الآخرة، بأن تأتيتهم ﴿الْمَلَكُ﴾ لقبض أرواحهم ﴿أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ﴾ لفصل القضاء بين العباد، ومجازاة المحسنين والمسيئين ﴿أَوْ يَأْتِ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ الدالة على قرب الساعة ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ الخارقة للعادة التي يعلم بها قرب الساعة ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَوَ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا﴾ إذا وجد بعض آيات الله لم ينفع الكافر إيمانه إن آمن، ولا المؤمن المقصر أن يزداد خيره بعد ذلك، بل ينفعه ما كان معه من الإيمان قبل ذلك. ﴿قُلْ أَنْظَرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ فستعلمون أننا أحق بالأمن.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَوَ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلْ أَنْظَرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٥٨) إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَلِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يَجْزِيهِ إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦٠) قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا آيَةً إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنْ صَلَاقِي وَشُكْرِي وَحِبَائِي وَمَتَابِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَكَ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) قُلْ أَغْنَى اللَّهُ عَنْيَ رِبِّي وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِدُ وَارِدَةً وَذَرَى أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ خَلْقًا ثَلَاثًا وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَسْئَلُوكُمْ فِي مَاءِ تَنْكَرٍ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٥)

(١٥٩) ثم توعده الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا﴾ الذين فرقوا دينهم، وشئتوه وافتروا فيه فقال: ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ لست منهم وليسوا منك ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ يردون إليه فيجازيهم بأعمالهم ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ثم ذكر صفة الجزاء فقال: (١٦٠) ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ القولية والفعالية،

(١٥٨) في «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا رآها الناس آمن من عليها، فذلك حين ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَوَ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾».

(١٦٠) أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد بإسناد صحيح عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «من صام ثلاثة أيام من كل شهر؛ فذلك صيام الدهر» فأذن الله تصديق ذلك في كتابه ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَلِهَا﴾ فاليوم عشرة أيام.

أخرج أحمد بإسناد حسن عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: يحضر الجمعة ثلاثة نفر: رجل حضرها بلغو؛ فهو منها، ورجل حضرها بدعاء؛ فهو رجل دعا الله؟ فإن شاء أعطاه، وإن شاء منعه، ورجل حضرها بياضات وسكوت ولم يتخط رقية مسلم ولم يؤذ أحداً، فهي كفارة له إلى الجمعة التي تليها، وزيادة ثلاثة أيام، وذلك؛ لأن الله ﷻ يقول: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَلِهَا﴾.

عليّ في مماتي، الجميع ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .
(١٦٣) ﴿لَا شَرِيكَ لَمْ﴾ في العبادة، كما أنه ليس له شريك في الخلق والملك والتدبير، ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ أمراً حتماً ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ من هذه الأمة .

(١٦٤) ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بالله في إخلاص العبادة له والتوكل عليه: ﴿أَعَيَّرَ اللَّهُ﴾ من المخلوقين ﴿أَنْبِيَ رَبًّا﴾ أتخذ غيره مربياً ومديراً ﴿وَلَا تَكُيْبُ كُلِّ نَفْسٍ﴾ من خير وشر ﴿إِلَّا عَلَيْهِا﴾، كقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦] .

﴿وَلَا تُزِرُّ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى﴾ بل كلُّ عليه وزر نفسه وإن كان أحد تسبب في ضلال غيره فإن عليه وزر التسبب من غير أن ينقص من وزر المباشر شيء ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكَ مَرْجِعُكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من خير وشر، ويجازيكم على ذلك أوفى الجزاء .

(١٦٥) ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ خَلْقَ الْأَرْضِ﴾ يخلف بعضكم بعضاً ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ في القوة والعافية والرزق والخلق

الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله أو حق خلقه ﴿فَلَمْ يَعْشُرْ أَمْثَالَهَا﴾ هذا أقل ما يكون من التضعيف، ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا بِمِثْلِهَا﴾ وهذا من تمام عدله تعالى وإحسانه، وأنه لا يظلم مثقال ذرة؛ ولهذا قال: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ .

(١٦١) ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يأمر الله نبيه ﷺ أن يقول ويعلن بما هو عليه من الهداية إلى الصراط المستقيم، ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ أي: قائماً ثابتاً، ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أمر باتباع ملة إبراهيم عليه السلام وهو الدين الحنيف، المائل عن كل دين غير مستقيم من أديان أهل الانحراف كاليهود والنصارى والمشركين .

(١٦٢) ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ يأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله، ويذبحون لغير اسمه، أنه مخالف لهم في ذلك، فإن صلاته لله وذبحه على اسم الله وحده لا شريك له، كقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢] .

﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ ما أتية في حياتي، وما يقدر

(١٦١) أخرج أحمد والدارمي والنسائي في «الكبرى» بإسناد صحيح عن عبد الرحمن بن أبيزى رضي الله عنه؛ قال: كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال: «أصبحنا على ملة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد، وملة أبينا إبراهيم حنيفاً، وما كان من المشركين» .

(١٦٢ . ١٦٣) أخرج مسلم في «صحيحه» عن علي رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ كان إذا كبر استفتح، ثم قال: ﴿وَجْهَتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]، ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿لَا شَرِيكَ لَمْ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾، «اللهم أنت الملك، لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعاً، لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك». ثم ذكر تمام الحديث فيما يقول في الركوع، والسجود، والتشهد .

(١٦٥) أخرجه مسلم عند أبي سعيد الخدري رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الله، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء» .



سورة الأعراف وهي مكية

والخلق ﴿لَيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ فتفاوتت أعمالكم
﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ لمن عصاه وكذب بآياته
﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن آمن به وعمل صالحاً
وتاب من الموبقات.

(١) ﴿الْمَصَّ﴾ قد تقدم الكلام في أول سورة
البقرة على ما يتعلق بالحروف، وبيان الأسلم في
ذلك.

(٢) ﴿كُتِبَ أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ كتاب جليل، حوى كل
ما يحتاج إليه العباد، وجميع المطالب الإلهية،
والمقاصد الشرعية ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ
مِّنْهُ﴾ ضيق وشك واشتباه ﴿لَتُنذِرَ بِهِ﴾ الخلق
وتعظهم وتذكرهم فتقوم الحجة على الكافرين
﴿وَذَكَرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يتذكرون به الصراط
المستقيم.

(٣) ﴿أَتَعْبُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ الكتاب الذي أريد
إنزاله لأجلكم، وهو: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ الذي يريد
أن يتم تربيته لكم، فأنزل عليكم هذا الكتاب
الذي إن اتبعتموه، كملت تربيتكم، وتمت عليكم
النعمة، وهديتهم لأحسن الأعمال والأخلاق
ومعاليها ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مَن دُونِهِ أُولَٰئِكَ﴾ تتولونهم،
وتتبعون أهواءهم، وتركوا لأجلها الحق ﴿قَلِيلًا
مَّا تَذْكُرُونَ﴾ فلو تذكركم وعرفتم المصلحة، لما
أثرت الضار على النافع، والعدو على الولي.

(٤) ﴿وَكُم مِّن قُرَيْبٍ أَهْلَكُنْهَا فَمَآ هَآ بِأَسْنَانٍ﴾ عذابنا
الشديد ﴿يَتَنَآ﴾ ليلاً ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ أو وقت
القيولة، وهي الاستراحة وسط النهار، وكلا
الوقتين وقت غفلة ولهو.

(٥) ﴿فَمَا كَانَ دَعْوُهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَانٍ﴾ فما كان
قولهم عند مجيء العذاب ﴿إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا
ظَالِمِينَ﴾ إلا أن اعترفوا بذنوبهم.

(٦) ﴿فَلَنَسْتَقَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ أي: لنسألن
الأمم الذين أرسل الله إليهم المرسلين، عما
أجابتهم رسلهم ﴿وَلَنَسْتَقَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ عن تبليغهم
لرسالات ربهم، وعما أجابتهم به أممهم.

(٧) ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم﴾ على الخلق كلهم ما عملوا

(٦) أخرج الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها، ومسؤولة عن رعيته، والخادم راع في مال سيده، ومسؤول عن رعيته». وعند ابن مردويه: وقرأ ابن طاووس: ﴿فَلَنَسْتَقَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَقَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿فَلَيْلًا مَا تَسْكُرُونَ﴾ اللّٰهُ الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ
بأصناف النعم، وصرف عنكم النقم.

(١١) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْتَكُمْ﴾ بخلق أصلكم ومادنتكم
التي منها خرجتم من أبيكم آدم عَلَيْهِ السَّلَام

﴿ثُمَّ صَوَّرْنَكُمْ﴾ في أحسن صورة، وأحسن تقويم
﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ ثم أمر الملائكة
الكرام، أن يسجدوا لآدم، إكرامًا له واحترامًا،
وإظهارًا لفضله، فامتثلوا أمر ربهم ﴿فَسَجَدُوا﴾
كلهم أجمعون ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾
أبى أن يسجد له؛ تكبرًا عليه، وإعجابًا بنفسه.

(١٢) فوبخه الله على ذلك، وقال: ﴿مَا مَنَعَكَ آلَا
تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ ما ألزمتك واضطرك ألا تسجد إذ
أمرتك؟! ﴿قَالَ﴾ إبليس معارضًا لربه: ﴿أَنَا خَيْرٌ
مِّنْهُ﴾. وهذا القول من العذر الذي هو أكبر من
الذنب، ويعني لعنه الله: فكيف تأمرني بالسجود

له؟ ثم برهن على هذه الدعوى الباطلة بقوله:
﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ وموجب هذا، أن
المخلوق من نار، أفضل من المخلوق من طين؛
لعلو النار على الطين، وصعودها. وهذا القياس
من أفسد الأقيسة؛ فهو في مقابلة أمر الله،
والقياس إذا عارض النص فهو باطل. وكذب
إبليس في ادعائه أنه خير من آدم، ففي مادة الطين
الخشوع والرزانة، ومنها تظهر بركات الأرض،
وأما النار؛ ففيها الخفة والطيش والإحراق.

(١٣) فقال الله له: ﴿فَاهْطِ بِهَا﴾ أي من الجنة
﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ لأنها دار الطيبين
الطاهرين، فلا تليق بأخبت خلق الله وأشرهم
﴿فَأَخْرَجْنَاكَ مِنَ الصَّغِيرِ﴾ المهانين الأدلين.

(١٤) ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ سأل الله
النَّظْرَةَ والإمهال إلى يوم البعث، ليتمكن من

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ
وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْطِ بِهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ
فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ
﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَقْعُدَ لَهُمْ
صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُمُ بَينَ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ
وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ
أَخْرِجْ مِنْهَا مَذًى وَمَا مَذْهُورٌ لَّنَّ يَتَعَكَ مِنْهُمُ لِأَمَلَانِ بِهِمْ وَمِنْكُمْ
أَجْعَلِينَ ﴿١٨﴾ وَيَتَذَكَّرُ أَلَنَ أَتَى وَرَوْحَكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ
شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسَّوَسَ
لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ
مَا نَهَىٰ عَنْكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا
مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَامَسَهُمَا إِلَىٰ لَحْمَاهُمَا لِيَنْصَحِيحَتَ ﴿٢١﴾
فَدَلَّهُمَا بِمُرُورِ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا
يَخِصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا نَهْمَا أَنْتُمَا كُنتُمَا
عَنِ نَهْيِكُمَا الشَّجَرَةَ وَأَقْلَلْ لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكَافٍ مُّدْبِرِينَ ﴿٢٢﴾

﴿يَعْلَمُ﴾ منه تعالى لأعمالهم ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ في
وقت من الأوقات.

(٨) ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ الوزن يوم القيامة
يكون بالعدل والقسط ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ بأن
رجحت كفة حسناته على سيئاته ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ﴾: الناجون من المكروه، المدركون
للمحسوب.

(٩) ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ بأن رجحت سيئاته،
وصار الحكم لها ﴿فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ إذ
فاتهم النعيم المقيم، وحصل لهم العذاب الأليم،
﴿يَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَبْذِلُونَ﴾ فلم ينقادوا لها، كما
يجب عليهم ذلك.

(١٠) ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ هيأناها لكم
﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ﴾ من الأشجار والنبات،
ومعادن الأرض، وأنواع الصنائع والتجارات

إغواء ما يقدر عليه من بني آدم.

(١٥) ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ ولما كانت حكمة الله مقتضية لابتلاء العباد واختبارهم؛ ليتبين الصادق من الكاذب، ومن يطيعه ومن يطيع عدوه، أجابه لما سأل.

(١٦) ﴿قَالَ﴾ إبليس: ﴿فِيمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ كما أضللتني ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ لأقعدن لعبادك الذين تخلقهم من ذرية هذا الذي أبعدتني بسببه على ﴿صِرَاطِكَ الْمُسْتَقِيمِ﴾ أي: طريق الحق وسبيله النجاة، ولأسعى غاية جهدي على صد الناس عنه.

(١٧) ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ أي: من جميع الجهات والجوانب، ومن كل طريق يتمكن فيه من إدراك بعض مقصوده فيهم ﴿وَلَا تَحِثُّ أَكْثَرَهُمْ شُكْرِيكَ﴾ موحدين.

(١٨) ﴿قَالَ﴾ الله عز وجل: ﴿أَخْرِجْ مِنْهَا﴾ خروج صغار واحتقار ﴿مَذْمُومًا﴾ مذموماً ﴿مَذْخُورًا﴾ مبعداً عن الله، وعن رحمته ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ﴾ منك ومن تبعك منهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ وهذا قسم من الله تعالى: أن النار دار العصاة، لا بد أن يملأها من إبليس وأتباعه من الجن والإنس.

(١٩) ﴿وَبَادِمُكُمْ أَتَىٰ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ يذكر الله تعالى أنه أباح لآدم عليه السلام ولزوجته حواء - التي

أنعم الله بها عليه ليسكن إليها - الجنة ﴿فَكَلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ وأن يأكلا من الجنة من جميع ثمارها حيث شاءا ويتمتعاً فيها بما أرادا ﴿وَلَا نَقْرَبُ هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ إلا أنه عين لهما شجرة ونهاهما عن أكلها، والله أعلم ما هي، وليس في تعيينها فائدة لنا، وحرّم عليهما أكلها بدليل قوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

(٢٠) ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِئِهِمَا﴾ فعند ذلك حسدهما الشيطان، وسعى في المكر والخديعة ليسلبهما ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن ﴿وَقَالَ﴾ كذباً وافتراء ﴿مَا نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكَةً﴾ من جنس الملائكة ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ خالدين هاهنا، لو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلكما؛ كما في الآية الأخرى: ﴿هَلْ أَذُكَّ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠].

(٢١) ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ أي: حلف لهما بالله ﴿إِنِّي لَكُمَا لَوْنُ النَّاصِحِينَ﴾ من جملة الناصحين، حيث قلت لكما ما قلت، فإنني من قبلكما هاهنا، وأعلم بهذا المكان. فاغترا بذلك.

(٢٢) ﴿فَدَلَّيْنَاهُمَا﴾ أنزلهما عن رتبتهم العالية، التي هي البعد عن الذنوب والمعاصي، إلى التلوث بأوضارها، فأقهما على أكلها ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ﴾ بدت لهما سوءئهما، أي: ظهرت عورة كل منهما

(١٦ . ١٧) أخرج أحمد والنسائي وابن حبان بإسناد صحيح عن سيرة بن أبي الفاكه رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الشيطان قعد لابن آدم بطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك؟» قال: «فعصاه وأسلم» قال: «وقعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتدع أرضك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطول، فعصاه وهاجر. ثم قعد له بطريق الجهاد، وهو جهْدُ النفس والمال، فقال: تقاتل فتقتل، فتتجحر المرأة ويقسم المال؟» قال: «فعصاه فجاهد قال رسول الله ﷺ: «فمن فعل ذلك منهم فمات؛ كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، أو قتل كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، أو وقصته دابة كان حقاً على الله أن يدخله الجنة».

ربه عَزَّ وَجَلَّ.

(٢٤) ﴿قَالَ﴾ اللَّهُ لهما وللشيطان: ﴿أَهْبِطُوا﴾ جميعاً من الجنة إلى الأرض ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ متعادين ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ قرار وأعمار مضروبة إلى آجال معلومة، قد جرى بها القلم، وأحصاها القدر، وسطرت في الكتاب الأول ﴿وَمَتَّعٌ﴾ تمتعون وتنتفعون ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ انقضاء آجالكم.

(٢٥) ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ يخبر الله تعالى أنه يجعل الأرض داراً لبني آدم مدى الحياة الدنيا، فيها محياهم فلا يزلون فيها، يرسل إليهم رسله، وينزل عليهم كتبه ﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ﴾ حتى يأتيهم الموت، فيدفنون فيها، ففيها مماتهم وقبورهم ﴿وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ ثم إذا استكملوا بعثهم الله، وأخرجهم منها إلى الدار الحقيقية التي هي دار المقامة.

(٢٦) ﴿يَبْقَىٰ عَادَمَ قَدْ أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُّرَىٰ سَوَاءَ تَكُمُ وَرَيْشًا﴾ ثم امتن عليهم بما يسر لهم، من اللباس الضروري، واللباس الذي المقصود منه الجمال، وهكذا سائر الأشياء قد يسر الله للعباد ضروريها، ومكمل ذلك، وبين لهم أن هذا ليس مقصوداً بالذات، وإنما أنزله الله؛ ليكون معونة لهم على عبادته وطاعته، ولهذا قال: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ من اللباس الحسي؛ فإن لباس التقوى، يستمر مع العبد، ولا يبلى ولا يبسد، وهو جمال القلب والروح، ﴿ذَلِكَ مِنْ عَائِدَةِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ ذلك المذكور لكم من اللباس، مما تذكرون به ما ينفعكم ويضركم، وتستعينون باللباس الظاهر على الباطن.

(٢٧) ﴿يَبْقَىٰ عَادَمَ لَا يَفْنَىٰكُمْ الشَّيْطَانُ﴾ بأن يزين

قَالَ رَبَّنَا طَلَعْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَّعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَبْقَىٰ عَادَمَ قَدْ أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُّرَىٰ سَوَاءَ تَكُمُ وَرَيْشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ عَائِدَةِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَبْقَىٰ عَادَمَ لَا يَفْنَىٰكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ بَيْتِهِمَا إِنَّهُ يَرِيكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوُهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ أَعْلَوْا فَحَسْبُهُ قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهِمَ آيَةً نَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ عَلَىٰ اللَّهِ هُمَا لَتَسْلُتُوا ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ قَرِيبًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

بعدما كانت مستورة ﴿وَطَفِقًا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ وجعلاً يخصفان على عوراتهما من أوراق شجر الجنة؛ ليستترا بذلك ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾ وهما بتلك الحال موبخاً ومعاتباً: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ فلم اقتربتما المنهي وأطعتما عدوكما.

(٢٣) ﴿قَالَا﴾ فاعترفا بذنبيهما وسألاً من الله مغفرته فقالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ قد فعلنا الذنب الذي نهيتنا عنه، وأضررنا بأنفسنا، باقتراف الذنب، وقد فعلنا سبب الخسار إن لم تغفر لنا، بمحو أثر الذنب وعقوبته، وترحمنا بقبول التوبة والمعافة من أمثال هذه الخطايا؛ فغفر الله لهما ذلك عليه.

وهذه الآية هي الكلمات التي تلقاها آدم من

لكم العصيان، ويدعوكم إليه، ويرغبكم فيه، فتنقادون له ﴿كَمَا أَخْرَجَ آبَاكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ وأنزلهما من المحل العالي الذي أنزلا منه، فأنتم يريد أن يفعل بكم كذلك ﴿إِنَّهُ يَرَبُّكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ﴾ يراقبكم على الدوام من شياطين الجن ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ إن عدواً يراك ولا تراه لشديد الخصومة والمؤنة، إلا من عصم الله ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فعدم الإيمان، هو الموجب لعقد الولاية بين الإنسان والشیطان.

(٢٨) ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً﴾ وهي: كل ما يستفحش ويستقبح، ومن ذلك: طوافهم بالبيت عراة ﴿قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهِآ عَابَاءَنَا﴾ اتبعوا فيه آباءهم ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ يعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ لا يليق بكماله وحكمته، أن يأمر عباده بتعاطي الفواحش، ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أتسندون إلى الله من الأقوال ما لا تعلمون صحته، فأی افتراء أعظم من هذا؟!

(٢٩) ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل في العبادات والمعاملات ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ توجهوا إلى الله، واجتهدوا في تكميل العبادات، خصوصاً الصلاة، أقيموها ظاهراً وباطناً ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ قاصدين بذلك وجهه وحده لا شريك له، ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ أول مرة ﴿تَعُودُونَ﴾ للبعث.

(٣٠) ﴿فَرِيقًا﴾ منكم ﴿هَدَى﴾ الله؛ أي: وفقهم للهداية ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ وجبت

بِئْسَ مَا دَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلَّ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَعِدُّونَ ﴿٣٤﴾

بِئْسَ مَا دَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلَّ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَعِدُّونَ ﴿٣٤﴾

١٥٤

عليهم الضلالة، بما تسببوا لأنفسهم، وعملوا بأسباب الغواية ﴿إِنَّهُمْ أَخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ حين انسلخوا من ولاية الرحمن، واستحبوا ولاية الشيطان، ووكّلوا إلى أنفسهم فخسروا أشد الخسران ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾؛ لأنهم انقلبوا عليهم الحقائق، فظنوا الباطل حقاً، والحق باطلاً.

(٣١) ﴿بِئْسَ مَا دَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ استروا عوراتكم عند الصلاة كلها ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ مما رزقكم الله من الطيبات ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ في ذلك، والإسراف: إما أن يكون بالزيادة على القدر الكافي، وإما أن تكون بزيادة الترفه والتثوق

(٣١) أخرج مسلم في «صحيحه» عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة، فنقول: من يعبرني بطوافاً؟ تجعله على فرجها، وتقول: اليوم يبدو بعضه أو كله، فما بدا منه؛ فلا أحله؛ فنزلت هذه الآية: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾.

- التجوّد والمبالغة - في المأكل والمشرب والشره في المأكولات الذي يضر بالجسم، واللباس، وإما بتجاوز الحلال إلى الحرام ﴿إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ لا يحب المعتدين حده في حلال أو حرام، الغالين فيما أحل أو حرم.

(٣٢) ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ من هذا الذي يقدم على تحريم ما أنعم الله على العباد من أنواع اللباس، على اختلاف أصنافه، ﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ من مأكل ومشرب، بجميع أنواعه؟! ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ فيه حذف، وتقديره: هي للذين آمنوا وللمشركين في الحياة الدنيا، فإن أهل الشرك يشاركون المؤمنين في طيبات الدنيا، وهي في الآخرة خالصة للمؤمنين، لا حظ للمشركين فيها. ﴿كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ﴾ نوضحها ونبينها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أنها من عند الله، فيعقلونها ويفهمونها.

(٣٣) ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ﴾ الذنوب الكبار، التي تستفحش وتستقبح، لشناعتها وقبحها، كالزنا ونحو ذلك ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ الفواحش التي تتعلق بحركات البدن، والتي تتعلق بحركات القلوب، كالكبر ونحو ذلك ﴿وَالْأَنَامَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ الذنوب التي تؤثم، وتوجب العقوبة في حقوق الله، والبغي على الناس، في دمائهم، وأموالهم، وأعراضهم، ﴿وَأَن تَشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلِّ بِهِ سُلْطَانًا﴾ حجة، ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ في أسمائه

وصفاته وأفعاله وشرعه. (٣٤) ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أي: قرن وجيل ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ أي: ميقاتهم المقدر لهم ﴿لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً﴾ عن ذلك ﴿وَلَا يَسْتَفِيدُونَ﴾ لا تتقدم أمة من الأمم على وقتها المسمى، لا الأمم المجتمعة ولا أفرادها.

(٣٥) ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي﴾ لما أخرج الله بني آدم من الجنة، ابتلاهم بإرسال الرسل، وإنزال الكتب عليهم، يقصون عليهم آيات الله، ويبينون لهم أحكامه، ﴿فَمَنْ أَتَى﴾ ما حرم الله، من الشرك، والكبائر، والصغائر، ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أعماله الظاهرة والباطنة، ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من الشر الذي قد يخافه غيرهم، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما مضى.

(٣٦) ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ لا آمنت بها قلوبهم، ولا انقادت لها جوارحهم، واستكبروا عن العمل بها ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ كما استهانوا بآياته ولازموا التكذيب بها، أهينوا بالعذاب الدائم الملازم.

(٣٧) ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ لا أحد أظلم ﴿مِمَّنْ أَفَرَقَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بنسبة الشريك له، والنقص له، والتقول عليه ما لم يقل ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ الواضحة المبينة للحق المبين ﴿أُولَئِكَ يَتْلَاهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ فهولاء، وإن تمتعوا بالدنيا، ونالهم نصيبهم مما كان مكتوباً لهم في اللوح المحفوظ؛ فليس ذلك بمغن عنهم شيئاً، يتمتعون قليلاً، ثم يعذبون طويلاً ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا

(٣٣) أخرج الشيخان عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أغير من الله؛ فلذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن».

يَتَوَفَّوْنَهُمْ، أَي: الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم ﴿قَالُوا﴾ لهم في تلك الحالة توبيخاً وعتاباً: ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصنام والأوثان، فقد جاء وقت الحاجة إن كان فيها منفعة لكم أو مضرة؟! ﴿قَالُوا صَلُّوا عَلَيْنَا﴾ اضمحلوا وبطلوا، ﴿وَشْهَدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ مستحقين للعذاب المهين الدائم.

(٢٨) ﴿قَالَ﴾ يقول الله مخبراً عما يقوله لهؤلاء المشركين به، المفترين عليه، المكذبين بآياته: ﴿أَدْخُلُوا فِي أُمَمٍ﴾ في جملة أُمَمٍ من الجن والإنس من أمثالكم وعلى صفاتكم، ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ من الأمم السالفة الكافرة مضوا على ما مضيت عليه، من الكفر والاستكبار، فاستحق الجميع الخزي والبوار، والخلود ﴿فِي النَّارِ﴾ ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ﴾ من الأمم العاتية النار ﴿لَمَنْتُ أَخْبَهَا﴾ كما قال الخليل عليه السلام: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥].

﴿حَتَّىٰ إِذَا آذَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ أي: اجتمع في النار جميع أهلها من الأولين والآخرين، ﴿قَالَتْ أَخْرِجْنَهُمْ﴾ متأخروهم المتبعون للرؤساء ﴿لَا وَلَهُمْ﴾ لرؤسائهم: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَفَاتِنَهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ﴾ عذبهم عذاباً مضاعفاً؛ لأنهم أضلونا، ﴿قَالَ﴾ الله: ﴿لِكُلِّ﴾ منكم ﴿ضِعْفٌ﴾ ونصيب من العذاب ﴿وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

(٣٩) ﴿قَالَتْ أُولَئِكَ لِأَخْرِجْنَهُمُ﴾ الرؤساء قالوا لأتباعهم: ﴿فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ قد اشتركتنا جميعاً في الغي والضلال، ﴿فَذُقُوا الْعَذَابَ﴾

الْمُلْكُ وَالْعَذَابُ

قَالَ أَدْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ أَخْبَاهَا حَتَّىٰ إِذَا آذَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرِجْنَهُمْ لَا وَلَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَفَاتِنَهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَئِكَ لِأَخْرِجْنَهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تَتَخَفُ لَهُمْ أَنْبَاءُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يُلَاحِظَ الْجَمْعُ فِي سَوَاءِ الْحِسَابِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَرَبَّنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ أَنْ تَعْلَمُوا قَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلٌ بِالْحَقِّ وَتُودُوا أَنْ تَتْلِيَهُمْ الْجَنَّةَ أَوْ رُسُلُهُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

١٥٥

بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ بحسب أعمالهم وعنادهم وظلمهم وافترائهم.

وهذا الحال كما أخبر تعالى عنهم في حال محشرهم في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْتُفُوتًا عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ قَالِ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا الدَّامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْقَلَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبا: ٣١ - ٣٣].

(٤٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ يخبر تعالى عن عقاب من كذب بآياته فلم يؤمن

بها، واستكبر عنها، فلم ينقد لأحكامها، أنهم آيسون من كل خير ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ أنهم آيسون من كل خير؛ فلا تفتح أبواب السماء لأرواحهم، إذا ماتوا وصعدت تريد العروج إلى الله، فتستأذن، فلا يؤذن لها ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ﴾ وهو البعير المعروف ﴿فِي سِدْرٍ

الْخِطَاطِ﴾ خرق الإبرة، وهذا من باب تعليق الشيء بالمحال؛ أي: فكما أنه محال دخول الجمل في سم الخياط، فكذلك المكذبون بآيات الله محال دخولهم الجنة ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ الذين كثر إجرامهم واشتد طغيانهم. (٤١) ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ فراش من تحتهم

(٤١) أخرج الإمام أحمد بإسناد صحيح عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر». مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال إلى الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه؛ كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر. ثم يجيء ملك الموت، حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة! اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان»، قال: «فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فيء السماء، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن. وفي ذلك الحنوط. ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض. فيصعدون بها فلا يمرون - يعني: بها - على ملاء من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان بن فلان. بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى يُنتهى بها إلى السماء السابعة. فيقول الله ﻋَﻠَﻴْكَ: اكتبوا كتاب عبيدي عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى»، قال: «فتعاد روحه، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولوان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فأمنت به وصدقت. فينادي مناد من السماء: أن صدق عبيدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة. فيأتيه من رزقها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره». قال: «ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعده. فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير. فيقول: أنا عملك الصالح. فيقول: رب أقم الساعة، رب أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي». قال: «وإن العبد الكافر، إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة. اخرجي إلى سخط من الله وغضب». قال: «تتفرق في جسده، فينتزعها كما يُنتزع السُّقُودُ من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين؛ حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملاء من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأقبح أسمائه التي كان يُسمى بها في الدنيا، حتى يُنتهى به إلى السماء الدنيا، فيستفتح له، فلا يفتح». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَوْءِ الْخِطَاطِ﴾، «فيقول الله - عز وجل: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى. فتطرح روحه طرحاً». ثم قرأ: ﴿وَمَنْ يَبْرُكْ بِاللَّهِ فَلَئِمَّا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيحٍ﴾ [الحج: ٣١]. «فتعاد روحه في جسده. ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولون له: من ربك؟ فيقول: هاهاه!! لا -

﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ عَوَاشٍ﴾ ظلل من العذاب تغشاهم
﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ لأنفسهم .

(٤٢) ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بقلوبهم ﴿وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ﴾ بجوارحهم ، فجمعوا بين الإيمان
والعمل ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ بمقدار ما
تسعه طاقتها ، ولا يعسر على قدرتها ﴿أُولَئِكَ﴾
المتصفون بالإيمان والعمل الصالح ﴿أَصْحَابُ
الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا يحولون عنها ، ولا
يغيون بها بدلاً .

(٤٣) ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ من حسد
وبغض ، فيقلعه الله ويزيله ، حتى يكونوا إخواناً
متحابين ، ﴿نَجْزِي مَنْ تَحِبَّ إِلَيْنَا﴾ يفجرونها
تفجيئاً ، حيث شاءوا ، وأين أرادوا ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ
لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ بأن من علينا ، وأوحى إلى
قلوبنا ، فأمنت به ، وانقادت للأعمال الموصلة
إلى هذه الدار ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ﴾
ليس في نفوسنا قابلية للهدى ؛ لولا أنه تعالى من
علينا بهديته واتباع رسله ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا
بِالْحَقِّ﴾ لقد تحققنا ، ورأينا ما وعدتنا به الرسل ،
وأن جميع ما جاءوا به حق اليقين ، ﴿وَنُودُوا﴾
تهنئة لهم ، وإكراماً وتحية واحتراماً ﴿أَنْ تِلْكَمُ
الْجَنَّةُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ كنتم الوارثين لها ﴿بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ﴾ بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة ، فدخلتم

سورة الانعام

وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ النَّارَ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا
فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ قَالُوا قَدْ مَوْذُنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ
لَعَنَهُ اللَّهُ وَعَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا
عِوَابًا وَهُمْ بِآخِرِهِ كَافِرُونَ ﴿١٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ
رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسْمَتِهِمْ وَكَادُوا أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَمَ عَلَيْهِمْ
لَنَدِيدُ خُلُوعًا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ
أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ وَكَادَى أَصْحَابُ
الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسْمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ
وَمَا كُنتُمْ تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٨﴾ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ
اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ
﴿١٩﴾ وَكَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفْضُوا عَنَّا
مِنَ الْمَاءِ أَوْ يُمَارُوا فَكَلَّمَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ فَقَالَ لَوِ اتَّابَ اللَّهُ حُرْمَتَهُمَا عَلَى
الْكَافِرِينَ ﴿٢٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا
وَعَرَّضُوهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لِلْيَوْمِ النَّاسِ يُنْزَلُهُمْ فِيهَا مَكًّا
لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢١﴾

الجنة ، وتبوأتم منازلكم بحسب أعمالكم .

(٤٤) ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾ أن أهل
الجنة نادوا أصحاب النار بأن قالوا : ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا
مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ حين وعدنا على الإيمان والعمل
الصالح ، الجنة ، فأدخلناها ، ورأينا ما وصفه لنا
﴿فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ على الكفر
والمعاصي ؟ ﴿قَالُوا نَعَمْ﴾ قد وجدناه حَقًّا ﴿فَإِنَّ
مَوْذُنٌ بَيْنَهُمْ﴾ بين أهل النار وأهل الجنة ، بأن قال :

أدري . فيقولان : ما دينك ؟ فيقول هاه !! لا أدري . فيقولان : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هاه !! لا أدري .
فينادي مناد من السماء : أن كذب عبيدي ، فأفرشوه من النار ، وافتحوا له باباً إلى النار . فيأتيه من حرها وسمومها ، ويضيق عليه قبره
حتى تختلف فيه أضلعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، متن الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسوؤك ، هذا يومك الذي كنت
توعد . فيقول : من أنت ؟ فوجهك الوجه يجيء بالشر . فيقول : أنا عمك الخبيث . فيقول : رب ! لا تقم الساعة .

(٤٥) أخرج البخاري ومسلم من حديث عائشة ؓ أن رسول الله ﷺ نادى قتلى القليب يوم بدر : «يا أبا جهل بن هشام ، ويا عتبة
ابن ربيعة ، ويا شيبة بن ربيعة ، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً» قال عمر : يا رسول الله ،
أنخاطب قوماً قد جيفوا ؟ فقال : «والذي نفسي بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم . ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا» .

من اتبعه؟!

(٤٩) ﴿أَمْثَلُكُمْ﴾ الذين أدخلهم الله الجنة ﴿الَّذِينَ﴾ أَسْمَعْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ﴿احْتَقَارًا﴾ لهم، وإعجابًا بأنفسكم ﴿أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ﴾ قيل لهؤلاء الضعفاء إكرامًا واحترامًا لأصحاب الأعراف.: ادخلوا الجنة بأعمالكم الصالحة ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ﴾ فيما يستقبل من المكاره ﴿وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ على ما مضى.

(٥٠) ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ مستغيثين بهم، فيقولون: ﴿أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ من الطعام، فأجابهم أهل الجنة بقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَمُهُمَا﴾ أي: ماء الجنة وطعامها ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وذلك جزاء لهم على كفرهم بآيات الله.

(٥١) ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ﴾ وعلى اتخاذهم دينهم الذي أمروا أن يستقيموا عليه، ووعدوا بالجزاء الجزيل عليه ﴿لَهُمْ وَلِعَبَ﴾ أنهم جعلوا بدل دينهم اللهو واللعب، واستعاضوا بذلك عن الدين القيم، ﴿وَعَزَّزْنَاهُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ بزيينتها وزخرفها، وكثرة دعائها، فاطمأنوا إليها، ورضوا بها، ﴿فَالْيَوْمَ نَنسِفُهَا﴾ أي: نعاملهم معاملة من نسيهم فنتركهم في العذاب؛ لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شيء ولا ينساه؛ كما قال تعالى: ﴿فِي كِتَابٍ لَا يَصِلُ رَبِّي وَلَا يَسَى﴾ [طه: ٥٢] وإنما قال تعالى هذا في باب المقابلة؛ كما في قوله: ﴿سُئِلُوا اللَّهَ فَنَسِيهُمُ﴾ [التوبة: ٦٧].

وقال هنا: ﴿كَمَا سُئِلُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ أي: فكأنهم لم يخلقوا إلا للدنيا، وليس أمامهم عَرْض ولا جزاء ﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ والحال أن جحودهم هذا لا عن قصور في آيات

﴿أَنْ لَقِئَهُ اللَّهُ﴾، بعده وإقصاؤه عن كل خير ﴿عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ إذ فتح الله لهم أبواب رحمته، فصدفوا أنفسهم عنها.

(٤٥) ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يصدون الناس عن اتباع سبيل الله وشرعه، وما جاءت به الأنبياء ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ منحرفة غير مستقيمة، حتى لا يتبعها أحد ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾، وهم بقاء الله في الدار الآخرة جاحدون مكذبون.

(٤٦) ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ وبين أصحاب الجنة، وأصحاب النار، حاجز يقال له: «الأعراف» لا من الجنة، ولا من النار، يشرف على الدارين، وهو السور الذي قال الله تعالى فيه: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ سُورًا لَّهُمُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ﴾ علاماتهم، التي بها يعرفون ويميزون ﴿وَنَادَاوُا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ فإذا نظروا إلى أهل الجنة، نادوهم ﴿أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ﴾ يحيونهم، ويسلمون عليهم ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ وهم لم يدخلوا الجنة، ولكنهم يطمعون في دخولها.

(٤٧) ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ إِلَقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ ورأوا منظرًا شنيعًا، وهولاً فظيعًا ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ تعوذوا بالله من منازلهم.

(٤٨) ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ﴾ وهم من أهل النار، قالوا؛ أي: قال لهم أصحاب الأعراف حين رأوهم منفردين في العذاب: ﴿مِمَّا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ في الدنيا، وقد كانوا في الدنيا لهم أبهة وشرف وأموال وأولاد ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ وكذلك أي شيء نفعلكم استكباركم على الحق، وعلى من جاء به، وعلى

الله وبياناته، ولهذا قال:

(٥٢) ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ بَيْنَا فِيهِ جَمِيعَ الْمَطَالِبِ، الَّتِي يَحْتَاجُ إِلَيْهَا الْخَلْقُ، ﴿عَلَىٰ عَلَيْهِ﴾ مِنَ اللَّهِ بِأَحْوَالِ الْعِبَادِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، وَمَا يَصْلَحُ لَهُمْ وَمَا لَا يَصْلَحُ، ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ تحصل للمؤمنين بهذا الكتاب الهداية من الضلال، ويحصل أيضًا لهم به الرحمة، وهي: الخير والسعادة في الدنيا والآخرة.

(٥٣) ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ وقوع ما أخبر به من العذاب والنكال والجنة والنار ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ أي: يوم القيامة ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كُفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ أي: تركوا العمل به، وتناسوه في الحياة الدنيا، متندمين متأسفين على ما مضى، متشفعين في مغفرة ذنوبهم، مقرين بما أخبرت به الرسل: ﴿فَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ مِنَّا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِن شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ أي: في خلاصنا مما نحن فيه ﴿أَوْ نُردُّ﴾ إلى الدنيا ﴿فَفَعَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ وقد فات الوقت عن الرجوع إلى الدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يُفْعَلُ عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْلِنَا نُردُّ وَلَا تُكَذِّبُ بِكَانَتِ رَبَّنَا تَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨].

﴿فَقَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ حين فوتوها الأرباح، وسلوكوا بها سبيل الهلاك ﴿وَصَدَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ في الدنيا مما تُمنِيهم أنفسهم به، ويعدهم به الشيطان.

(٥٤) ﴿إِنَّا رَزَقْنَاهُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ قال تعالى مبينًا أنه الرب المعبود وحده لا شريك له: وما فيهما، على عظمتها وسعتهما ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها: يوم الأحد، وآخرها:

﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ هُدًى وَرَحْمَةٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ كُفَرُوا مِن قَبْلُ فَعَدَّ جَاءَتْ رُسُلٌ مِنَّا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِن شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُردُّ فَعَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ فَعَدَّ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَصَدَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّا رَزَقْنَاهُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ السَّيِّرَ اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطَّلِعُ عَلَى الْغُيُوبِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَجَّدَاتٌ بَأْمَرِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ أَذْعُوا رُبَّكُمْ تَضَرَّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تَقْسِدُوا وِافِ الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا بَيِّنَاتٍ بِيَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتِ سَحَابًا نُّفِثَ فِيهَا لُحُوقُ الْبُرْقَانِ فَانزِلْنَاهُ عَلَىٰ أَرْضٍ جَبَلًا مِنْ كُلِّ الْمَوَاقِعِ كَذَلِكَ تُخْرَجُ الْمَوْنُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

يوم الجمعة.

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ﴾ تبارك وتعالى، ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ العظيم، الذي يسع السموات والأرض، وما فيهما، وما بينهما، استوى استواء يليق بجلاله وعظمته وسلطانه، واستوى؛ أي: علا وارتفع، وللناس في هذا المقام مقالات كثيرة، وإنما يسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح: مالك، والأوزاعي، والثوري، والليث بن سعد، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وغيرهم من أئمة المسلمين قديمًا وحديثًا، وهو: إمرارها كما جاءت، من غير تكيف ولا تشبيه ولا تعطيل، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله؛ فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] بل الأمر كما

قال الأئمة، ومنهم نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري: «من شبه الله بخلقه؛ فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه، فقد كفر، وليس فيما وصف الله نفسه، ولا رسوله تشبيه».

فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة، والأخبار الصريحة، على الوجه الذي يليق بجلال الله تعالى، ونفى عن الله تعالى النقائص، فقد سلك سبيل الهدى، ﴿يَعِشَى آلِ اللَّهِ الْمَظْلُمِ﴾ ﴿النَّهَارِ﴾ المضيء ﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ كلما جاء الليل ذهب النهار؛ وكلما جاء النهار ذهب الليل ﴿وَاللَّيْلُ وَالنَّجْمُ وَالْقَمَرُ مَسْخَرَتِ بِأَمْرِهِ﴾ بتسخيره وتدبيره ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ﴾ الذي صدرت عنه جميع المخلوقات علويها وسفليها، ﴿وَالْأَمْرُ﴾ المتضمن للشرائع والنبوات. فالخلق: يتضمن أحكامه الكونية القدريّة، والأمر: يتضمن أحكامه الدينية الشرعية، وثم أحكام الجزاء، وذلك يكون في دار البقاء ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ عظم وتعالى، وكثر خيره وإحسانه.

(٥٥) ثم أرشد سبحانه وتعالى عباده إلى دعائه الذي هو صلاحهم في دنياهم وأخراهم، فقال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾ والدعاء يدخل فيه دعاء المسألة، ودعاء العبادة، ﴿تَضَرُّعًا﴾ إلحاحًا في المسألة ودؤوبًا في العبادة ﴿وَخُفْيَةً﴾ لا جهراً ولا علانية يخاف منه الرياء، بل خفية وإخلاصاً لله تعالى ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعَذِّبِينَ﴾ المتجاوزين

للحد في كل الأمور، ومن الاعتداء: كون العبد يسأل الله مسائل لا تصلح له، أو يتنطع في السؤال، أو يبالي في رفع صوته بالدعاء.

(٥٦) ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بعمل المعاصي ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ بالطاعات ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ خوفاً من عقابه، وطمعاً في ثوابه، طمعاً في قبولها، وخوفاً من ردها ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ إن رحمته مُرْصَدَةٌ للمحسنين الذين يتبعون أوامره، ويتركون زواجره.

(٥٧) ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ﴾ الرياح المبشرات بالغيث ﴿بَشِيرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ فيستبشر الخلق برحمة الله، وترتاح لها قلوبهم قبل نزوله ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ﴾ الرياح ﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾ قد أثاره بعضها، وألفته ريح أخرى، وألقحه ريح أخرى ﴿سُقْنَتُهُ لِبِلَاقِ مَتْنٍ﴾ قد كادت تهلك حيواناته، وكاد أهله أن يياسوا من رحمة الله ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ﴾ بذلك البلد الميت ﴿الْمَاءَ﴾ الغزير من ذلك السحاب ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ فأصبحوا مستبشرين برحمة الله ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما أحيينا الأرض بعد موتها بالنبات، ﴿نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ﴾ من قبورهم، بعد ما كانوا رفاتاً متمزقين، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وفي هذا الحث على التذكر والتفكير في آلاء الله.

(٥٥) في «الصححين» عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء، فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس! أزيعوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إن الذي تدعون سميع قريب».

وأخرج أبو داود وابن ماجه وأحمد بإسناد صحيح: أن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه سمع ابنه يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها، فقال: يا بني سل الله الجنة. وعُدَّ به من النار، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون قوم يعتدون في الدعاء والطهور».

(٥٨) ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ يُؤْتِيهِمُ الرِّيحُ حَبِثًا لَّيَحْمَاجُ ۚ وَلَا يَكْدُ ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ۝٥٨﴾
 نزل عليه المطر ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُ﴾ الذي هو مستعد له، سريعاً حسناً؛ كما قال: ﴿فَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقُبُولِ حَسَنِي وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧].
 ﴿يُؤْتِيهِمُ رَبُّهُ﴾ بإرادة الله ومشئته ﴿وَالَّذِي خَبِثَ﴾ من الأراضي كالسباح ونحوها ﴿لَا يَحْمَاجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ إلا نباتاً خاساً لا نفع فيه ولا بركة ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ ننوعها ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ لقوم يشكرون الله بالاعتراف بنعمه، والإقرار بها، وصرفها في مرضاة الله.

(٥٩) ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ۖ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحَدَهُ، حِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ ۖ فَقَالَ لَهُمْ: ﴿يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ لأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور، وما سواه مخلوق مُدَبَّر، ليس له من الأمر شيء، ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ ثم خوفهم إن لم يطيعوه عذاب الله، فقال: ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ عذاب يوم القيامة إذا لقيتهم الله وأنتم مشركون به.

(٦٠) ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾ الجمهور والرؤساء والسادة والقادة والكبراء منهم: ﴿إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ استكبروا عن الانقياد له ونسبوه إلى الضلال، ولم يكتفوا بمجرد الضلال حتى جعلوه ضلالاً مبيناً، واضحاً لكل أحد، وهكذا حال الفجار إنما يرون

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ يُؤْتِيهِمُ الرِّيحُ حَبِثًا لَّيَحْمَاجُ ۚ وَلَا يَكْدُ ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ۝٥٨﴾
 ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥٩
 قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٦٠
 يَقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦١
 أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦٢
 أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِثْلِكُمْ لِيُذَكِّرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٦٣
 فَاتَّبَعْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفَلَاحِ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ۝٦٤
 وَلَمَّا عَلَا لَحَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٦٥
 قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُطْلِقُكَ مِنَ الْكَذِبِينَ ۝٦٦
 لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦٧

الأبرار في ضلالة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُونَ﴾ [المطففين: ٣٢].

(٦١) ﴿قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ أي: لست ضالاً ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ﴾ ولكن أنا رسول ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: ربي وربكم ورب جميع الخلق.

(٦٢) ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ وظيفتي تبليغكم، ببيان توحيده، وأوامره، ونواهيه ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ على وجه النصيحة لكم والشفقة عليكم ﴿وَأَعْلَمُ

(٥٩) في «الصحاحين» من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل ما بعثني الله به من العلم والهدى؛ كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكانت منها نقيع قبلت الماء، فأنبثت الكلاً والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا، وسقوا، وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به».

(٦٢) أخرج مسلم من حديث جابر رضي الله عنه الطويل في صفة حجة النبي ﷺ، عن النبي ﷺ: «أيها الناس، إنكم مسئولون عني، فما أنتم قائلون؟». قالوا: نشهد أنك بلغت، وأديت، ونصحت. فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكتها عليهم، ويقول: «اللهم اشهد، اللهم اشهد».

دُونَ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٢٥﴾ [نوح: ٢٥].

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ عن الهدى، أبصروا الحق، وأراهم الله على يد نوح من الآيات البينات، ما به يؤمن أولوا الألباب، فسخرها منه، واستهتروا به، وكفروا.

(٦٥) ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَىٰ عَادٍ﴾ الأولى: الذين كانوا في اليمن بالأحقاف وهي: جبال الرمل، وهم الذين ذكرهم الله وأنهم يأوون إلى العمد في البر، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٦٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ٦-٨] وذلك لشدة بأسهم وقوتهم؛ كما قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً وَأَوَّلَ رِوَافٍ أَتَىٰ اللَّهُ الَّذِينَ خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

﴿أَنَّهُمْ﴾ في النسب ﴿هُودًا﴾ عَنِ السَّلَامِ، يدعوهم إلى التوحيد، وينهاهم عن الشرك ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿يَقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ﴾ ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِهِ﴾ لأنه الخالق الرازق الملك المدبر لجميع الأمور ﴿أَفَلَا نَنْقُوتُ﴾ سخطه وعذابه إن أقمت على ما أنتم عليه.

(٦٦) ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ راديين لدعوته قادحين في رأيه: ﴿إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ ما نراك إلا سفيها غير رشيد، حيث تدعوننا إلى ترك عبادة الأصنام، والإقبال إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ﴿وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ ويغلب على ظننا: أنك من جملة الكاذبين.

(٦٧) ﴿قَالَ يَقَوْمُ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾ بوجه من الوجوه ﴿وَلَكِنِّي مِنْ رَسُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بل جئتكم بالحق من الله الذي خلق كل شيء فهو رب كل شيء ومليكه.

أَتَيْتُكُمْ رَسُولًا مِّن رَّبِّ وَأَنَا لَكُم مِّنَ الْغَائِبِينَ ﴿١٥﴾ أَوْعَيْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَأَذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَلَنَبَاشِطَ وَإِن كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رَجْسٌ وَعَصَبٌ أَنْتَجِدُ لُنُفُسِي فِي أَسْمَاءِ سَمِعْتُمُوهَا أَشْرَوْا بِآبَائِكُمْ مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهِمَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظِرِينَ ﴿١٨﴾ فَأَجَبْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذَرْوَهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِكُمْ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ اللَّهِ ﴿٢٠﴾

مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ فالذي يتعين أن تطيعوني وتتقادوا لأمري إن كنتم تعلمون.

(٦٣) ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾. أي: كيف تعجبون أن جاءكم التذكير والموعظة والنصيحة، على يد رجل منكم، تعرفون حقيقته وصدقه وحاله؟! ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ لينذركم العذاب الأليم، ﴿وَلِنُنَقُوا﴾ نقمة الله، ولا تشركوا به شيئا ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ تنزل رحمة الله الواسعة عليكم.

(٦٤) ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: فتمادوا على تكذيبه ومخالفته ﴿فَأَجَبْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ﴾ وهي السفينة؛ كما قال: ﴿فَأَجَبْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّيْفِينَةَ﴾ [العنكبوت: ١٥].

﴿وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾؛ كما قال: ﴿مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُعْرِقُوا فَأَذْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهَا مِن

أصنام سميتموها آلهة، وهي لا شيء من الإلهة فيها ولا مثقال ذرة، و ﴿مَا أُنْزِلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ حجة ودليلاً ﴿فَانْظُرُوا﴾ ما يقع بكم من العقاب الذي وعدتكم به ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ وفرق بين الانتظارين: انتظار من يخشى وقوع العقاب، ومن يرجو من الله النصر والثواب.

(٧٢) ولهذا فتح الله بين الفريقين فقال: ﴿فَأَمِيتَهُ﴾ أي: هوداً ﴿وَالَّذِينَ﴾ آمنوا ﴿نِعْمَ يَرْحَمُوْنَ﴾ أنجاهم برحمته ﴿وَقَطَعْنَا دَائِرَ الَّذِينَ كَذَبُواْ بِآيَاتِنَا﴾ استأصلناهم بالعذاب الشديد الذي لم يبق منهم أحداً ﴿وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ بوجه من الوجوه، بل وصفهم: التكذيب والعناد. ونعته: الكبر والفساد.

(٧٣) ﴿وَ﴾ أرسلنا ﴿إِلَى ثَمُودَ﴾ القبيلة المعروفة الذين كانوا يسكنون الحجر وما حوله، من أرض الحجاز ﴿أَخَاهُمْ صَالِحاً﴾ نبياً يدعوهم إلى الإيمان والتوحيد، وينهاهم عن الشرك والتنديد، ﴿قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ دعوته عليه الصلاة والسلام من جنس دعوة إخوانه من المرسلين: الأمر بعبادة الله، وبيان أنه ليس للعباد إله غير الله، ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ خارق من خوارق العادات، التي لا تكون إلا آية سماوية، لا يقدر الناس عليها ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ هذه ناقة شريفة فاضلة؛ لإضافتها إلى الله تعالى إضافة تشريف، ﴿لَكُمْ آيَةٌ﴾ عظيمة ﴿تَذُرُهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ فلا عليكم من مئونتها شيء، ﴿وَلَا تَمْسُوهَا إِسْوَاءَ﴾ بعقر أو غيره ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

(٦٨) ﴿أَتُفْسِكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ وهذه الصفات التي يتصف بها الرسل: البلاغ، والنصح، والأمانة.

(٦٩) ﴿أَوْ عَجِزْتُ﴾ كيف تعجبون من أمر لا يتعجب منه ﴿أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ جُلٍّ مِّنكُمْ﴾ وهو أن الله أرسل إليكم رجلاً منكم تعرفون أمره ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ يذكركم بما فيه مصالحكم. ﴿وَأَذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي: واحمدوا ربكم، واشكروه إذ مكن لكم في الأرض وجعلكم تخلفون الأمم الهالكة ﴿وَ﴾ اذكروا نعمة الله عليكم التي خصكم بها، وهي أن ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ في القوة، وكبر الأجسام، وشدة البطش ﴿فَاذْكُرُواْ ءَالَآءَ اللَّهِ﴾ نعمه الواسعة ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ إذا ذكرتموها بشكرها، وأداء حقها ﴿تَفْلَحُونَ﴾ تفوزون بالمطلوب، وتنجون من المرهوب.

(٧٠) ﴿قَالُواْ﴾ متعجبين من دعوته: ﴿أَجِئْنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أي قدموا ما عليه الآباء الضالون من الشرك وعبادة الأصنام على ما دعت إليه الرسل من توحيد الله وحده لا شريك له، وكذبوا نبههم، وقالوا: ﴿فَأَنبَأْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وهذا الاستفتاح منهم على أنفسهم.

(٧١) ﴿قَالَ﴾ لهم هود عليه السلام: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ قد وجب عليكم بمقالتكم من ربكم؛ ﴿رِجْسٌ وَعَصَبٌ﴾ أي: لابد من وقوعه، فإنه قد انعقدت أسبابه وحن وقت الهلاك سخط وغضب ﴿أَتَجِدُلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَبَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ﴾ كيف تحاجوني، في

(٧٥) ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ الرؤساء والأشراف الذين تكبروا عن الحق ﴿لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا﴾ ولما كان المستضعفون، ليسوا كلهم مؤمنين، قالوا ﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنْتَ صَاحِبُ مَرْسَلٍ مِنْ رَبِّهِ﴾؛ أي: أهو صادق أم كاذب؟ فقال المستضعفون: ﴿إِنَّا يَمَآ أَرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ من توحيد الله، والخبر عنه، وأمره ونهيه.

(٧٦) ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَفِرُونَ﴾ حملهم الكبر على ألا ينقادوا للحق الذي انقاد له الضعفاء.

(٧٧) ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ قتلوها ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ استكبروا عن أمره ﴿وَقَالُوا﴾ متجربين على الله: ﴿يَنْصَلِحُ أَثْنَا يَمَا نَعْدُنَا﴾ من العذاب ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إن كنت من الصادقين.

(٧٨) ﴿فَاحْذَرْتَهُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ﴾ صرعى لا أرواح فيهم، ولم يفلت منهم أحد، لا صغير ولا كبير، لا ذكر ولا أنثى. (٧٩) ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ صالح عليه السلام، حين أحل الله بهم العذاب ﴿وَقَالَ﴾ مخاطباً لهم، توبيخاً وعتاباً بعد ما أهلكهم الله: ﴿يَتَقَوَّرُ لَقَدْ أَبْلَغْتَكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ جميع ما أرسلني الله به إليكم، قد أبلغتكم به، وحرصت على هدايتكم، فلم تنتفعوا بذلك ﴿وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَ﴾ بل رددتم قول النصحاء، وأطعتم كل شيطان رجيم.

(٨٠) ﴿وَ﴾ اذكر عبدنا ﴿لُوطًا﴾ عليه الصلاة

وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ شُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْجُونَ الْجِبَالَ يَوْمًا فَادْكُرُوا ءَالَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنْتَ صَاحِبُ مَرْسَلٍ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ أَثْنَا يَمَا نَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَاحْذَرْتَهُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَتَقَوَّرُ لَقَدْ أَبْلَغْتَكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَ ﴿٧٩﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَأَتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْإِنْسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾

(٧٤) ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ﴾ في الأرض تتمتعون بها، وتدركون مطالبكم ﴿مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ الذين أهلكهم الله، وجعلكم خلفاء من بعدهم ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ مكن لكم فيها ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْ شُهُولِهَا قُصُورًا﴾ من الأراضي السهلة التي ليست بجبال ﴿وَتَنْجُونَ الْجِبَالَ يَوْمًا﴾ كما هو مشاهد إلى الآن، من آثارهم التي في الجبال، من المساكن والحجر ونحوها ﴿فَادْكُرُوا ءَالَ اللَّهِ﴾ نعمه وفضله الكثير ﴿وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ لا تخربوا في الأرض بالفساد والمعاصي.

(٧٨) أخرج أبو داود والبيهقي والمزي في «تهذيب الكمال» بإسناد حسن لغيره من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول حين خرجنا معه إلى الطائف، فمررنا بقبر، فقال: «هذا قبر أبي رغال، وهو أبو ثقيف، وكان من ثمود، وكان بهذا الحرم فدفع عنه، فلما خرج منه، أصابته النقرة التي أصابت قومه بهذا المكان، فدفن فيه، وآية ذلك: أنه دفن معه غصن من ذهب إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه معه»؛ فابتدره الناس؛ فاستخرجوا منه الغصن.

والسلام ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفِتْنَةَ﴾ الخصلة التي بلغت في العظم والشناعة إلى أن استغرقت أنواع الفحش ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ كونهم ابتدعوها، وابتكروها، وسنوها لمن بعدهم، فلم ينز ذكر على ذكر حتى كان في قوم لوط.

(٨١) ﴿إِنَّكُمْ لَأَتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْنِسَاءِ﴾ عدلتهم عن النساء اللاتي خلقهن الله لكم، وتقبلون على أدبار الرجال ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ متجاوزون لما حده الله، متجرئون على محارمه.

(٨٢) ﴿وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ ما أجابوا لوطاً إلا أن هموا بإخراجه ونفيه ومن معه من بين أظهرهم، وتعللوا في ذلك فقالوا: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْظَهَرُونَ﴾ يتزهون عن فعل الفاحشة، فعابوهم بغير عيب.

(٨٣) ﴿فَأَجْبَيْنَاهُ﴾ أي: لوطاً عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَأَهْلَهُ﴾ الذين آمنوا به، ولم يؤمن سوى أهل بيته فقط، كما قال الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦].

﴿إِلَّا أَمَرْنَاكُمْ﴾ فإنها لم تؤمن به، بل كانت على دين قومها ﴿كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ الباقيين المعذبين.

(٨٤) ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ حجارة حارة شديدة من سجيل، ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَذَابَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: انظر يا محمد كيف كان عاقبة من

وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْظَهَرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَجْبَيْنَاهُ وَلَا أَمَرْنَاكُمْ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَذَابَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْجُوهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَذَّبْتُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَذَابَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ ءَامِنُوا بِالَّذِي أَرْسَلْنَا بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾

تجراً على معاصي الله وكذب رسله، بالهلاك والخزي الدائم.

(٨٥) ﴿وَوُ﴾ أرسلنا ﴿إِلَى مَدْيَنَ﴾ القبيلة المعروفة ﴿أَخَاهُمْ﴾ في النسب ﴿شُعَيْبًا﴾

﴿قَالَ يَبْقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ قد أقام الله الحجج والبيّنات على صدق ما جئتكم به ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ ويأمرهم بإيفاء المكيال والميزان ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أي: لا يخونوا الناس في أموالهم، ويأخذوها على وجه البخس: وهو نقص المكيال والميزان خفية

(٨٤) أخرج أصحاب السنن إلا النسائي بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به».

النار.

(٨٦) ﴿وَلَا تَقْعُدُوا﴾ للناس ﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ طريق من الطرق التي يكثر سلوكها ﴿تُوْعَدُونَ﴾ تتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم ﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ من أراد الاهتداء به ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ تبغون سبيل الله تكون معوجة، وتميلونها اتباعاً لأهوائكم ﴿وَأَذْكُرُوا﴾ نعمة الله عليكم ﴿إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَذَّرَكُمُ﴾ أي: نماكم بما أنعم عليكم من الزوجات، والنسل، والصحة، ﴿وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ من الأمم الماضية، والقرون الخالية، وما حل بهم من العذاب والنكال.

(٨٧) ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، وَطَائِفَةٌ لَرَّ يُؤْمِنُوا﴾ وهم الجمهور منهم ﴿فَأَصْبِرُوا﴾ انتظروا ﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ فيفصل ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ فإنه المحق، ويوقع العقوبة على المبطل.

(٨٨) ﴿قَالَ أَمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ وهم الأشراف والكبراء ﴿لِنُخْرِجَكَ يَشْعَبَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قُرَيْشًا أَوْ لِنَعُوذَنَّ فِي مِلَّةٍ﴾ توعدوهم

قَالَ أَمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِنُخْرِجَكَ يَشْعَبَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قُرَيْشًا أَوْ لِنَعُوذَنَّ فِي مِلَّةٍ قَالَ أُولَئِكَ كَذَّابُونَ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْرَأْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ جَعَلْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ أَنْتُمْ شُعَبٌ لَنَا إِذْ الْخَيْرُونَ ﴿٩٠﴾ فَاحْذَرُوهُمْ أَلَيْسَ فِي دَارِهِمْ جَنَّةٌ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَبًا كَانُوا يَفْتَنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَبًا كَانُوا هُمُ الْخَيْرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَ قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولِي مِنْ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَامَنُوا عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قُرَيْشٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَتَيْنَاهُمْ أَهْلَهُمْ بِالْبَاسِ وَأَصْرَاهُ لَعَلَّهُمْ يَضُرُّونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّبِيلَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَّةُ وَالْأُتْرَاقُ فَاحْذَرُوهُمْ بَعَثَ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾

وتدليساً ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ لا تعثوا في الأرض مفسدين بالإكثار من عمل المعاصي ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فإن ترك المعاصي تقرباً لله خير للعبد من ارتكابها الموجب لسخط الجبار، وعذاب

(٨٨) في «الصحاحين» في حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنّث فيه - وهو التبعد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ. قال: «ما أنا بقارئ». قال: « فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطّني الثالثة ثم أرسلني، فقال: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾. فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة رضي الله عنها فقال: «زملوني زملوني». فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي. فقالت خديجة: كلا، والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة، وكان امرأ تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل

بالنفي والإخراج عن القرية، أو الإكراه على الرجوع في ملتهم والدخول معهم فيما هم فيه. قال لهم شعيب عليه الصلاة والسلام متعجباً من قولهم: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَاهِنِينَ﴾ أنتابعكم على دينكم وملتكم الباطلة، ولو كنا كاهنين لها؛ لعلمنا بطلانها؟! (٨٩)

﴿قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلِّكُمْ﴾ بعد إذ بَخَّنا الله منها ﴿اشهدوا علينا أننا إن عدنا إليها بعد ما نجانا الله منها أننا كاذبون مفترون على الله الكذب ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾ يمتنع على مثلنا أن نعود فيها؛ فإن هذا من المحال ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ أي: فلا يمكننا ولا غيرنا الخروج عن مشيئته، التابعة لعلمه وحكمته، وقد ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فيعلم ما يصلح للعباد وما يديرهم عليه ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ اعتمدنا أنه سيثبتنا على الصراط المستقيم، وأن يعصمنا من جميع طرق الجحيم ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ انصر المظلوم، وصاحب الحق، على الظالم المعاند للحق ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ خير الحاكمين؛ فإنك العادل الذي لا يجور أبداً.

(٩٠) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ محذرين عن اتباع شعيب: ﴿لَئِنْ أَتَبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَيْرُونَ﴾ هذا ما سولت لهم أنفسهم: أن

الخسارة والشقاء في اتباع الرشد والهدى. (٩١) ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةُ﴾ الزلزلة الشديدة ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾ فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس، وخمدت الأجساد، فإذا هم صرعى ميتين.

(٩٢) ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ كأنهم ما أقاموا في ديارهم التي أرادوا إجماعاً شعيب عليه السلام وصحبه منها، ثم قال مقابلاً لقيلمهم: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أي: الخسار محصور فيهم؛ لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

(٩٣) ﴿فَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ فحين هلكوا تولى عنهم نبيهم شعيب عليه الصلاة والسلام بعدما أصابهم ما أصابهم من العذاب والنقمة والنكال، ﴿وَقَالَ﴾ معاتباً وموبخاً ومخاطباً لهم بعد موتهم: ﴿يَقُولُوا لَقَدْ أَتَيْنَاكُمْ رَسُولًا مِّنْ رَبِّكُمُ أَصْحَابُ﴾ أوصلتها إليكم وبينتها ﴿وَصَحَّحْتُ لَكُمْ﴾ قد أدت لكم ما أرسلت به فلم تقبلوا نصحي ﴿فَكَيْفَ مَأْسَى عَلَى قَوْمٍ كَفَرِينَ﴾ فكيف آسف عليكم وأحزن على قوم لا خير فيهم؟

(٩٤) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ﴾ يدعوهم إلى عبادة الله، وينهاهم عن ما هم فيه من الشر، فلم ينقادوا له ﴿إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا﴾ ابتلاهم الله ﴿بِالْبَاسِ وَالضَّرَاءِ وَالْفَقْرِ﴾ بالمرض، وأنواع

بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعاً!، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: «أومر جرحي هم؟» قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزراً. ثم لم ينسب ورقة أن توفي، وفتر الوحي.

(٩٤) أخرج مسلم في «صحيحه» من حديث صهيب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «عجبا للمؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له؛ إن أصابته سراء شكر؛ فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر؛ فكان خيراً له».

متقلبين عنه .

(٩٦) ثم أخبر تعالى عن قلة إيمان الذين أرسل إليهم الرسل، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ﴾ ﴿ءَامَنُوا﴾ بقلوبهم إيماناً صادقاً ﴿وَأَقْبُوا﴾ بفعل الطاعات وترك المحرمات ﴿لَفَنَحْنَا عَلَيْهِم بِرُكْنٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ فأرسلنا عليهم السماء مدراراً، وأنبئنا لهم من الأرض ما به يعيشون وتعيش بهائهم في أخصب عيش وأعز رزق ﴿وَلَكِن كَذَّبُوا﴾؛ أي: كذبوا رسلهم، ولم يؤمنوا ﴿فَاخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فعاقبناهم بالهلاك والبلايا، وهي بعض جزاء أعمالهم .

(٩٧) ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾؛ أي: المكذبة ﴿أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا﴾ عذابنا الشديد ﴿يَتَنَاءَوْنَ﴾ أي: ليلاً ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾. أي: في غفلتهم وغرتهم وراحتهم .

(٩٨) ﴿أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا﴾ أي شيء يؤمنهم من ذلك وهم قد فعلوا أسبابه ﴿ضَحَىٰ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ في حال غفلتهم وشغلهم .

(٩٩) ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ حيث يستدرجهم من حيث لا يعلمون، ويملي لهم، إن كيده متين ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ فإن من آمن من عذاب الله؛ فهو لم يصدق بالجزاء على الأعمال، ولا آمن بالرسل حقيقة الإيمان .

(١٠٠) ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ شَاءَ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أو لم يتبين ويتضح للأمم الذين ورثوا الأرض، بعد إهلاك من قبلهم بذنوبهم، ثم عملوا كأعمال أولئك المهلكين أن الله لو شاء لأصابهم بذنوبهم؟ ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ ونختم عليها، فلا يدخلها حق، ولا يصل إليها خير ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَقْبُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنَاتٍ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ شَاءَ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ ذُرِّيَّتِهِ وَلَمَّا هَلَكَ قَطِلُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يُفْرِعُونَ إِيَّيْ رَسُولٍ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾

البلايا ﴿لَعَلَّهُمْ يَضُرُّعُونَ﴾ يدعون ويخشعون ويبتهلون إلى الله تعالى في كشف ما نزل بهم، ويستكينون للحق .

(٩٥) ﴿ثُمَّ﴾ إذا لم يفد فيهم واستمر استكبارهم ﴿بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ فأدّر عليهم الأرزاق، وعافى أبدانهم، ورفع عنهم البلايا ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ كثروا، وكثرت أرزاقهم، ونسوا ما مر عليهم من البلايا ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ أي: هذه عادة جارية، لم تزل موجودة في الأولين واللاحقين، تارة يكونون في سراء وتارة في ضراء . وحسبوا أنها ليست للموعظة والتذكير، ولا للاستدراج والنكير ﴿فَاخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ بفتنة أي: فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لا يخطر لهم الهلاك على بال، وظنوا أنهم قادرون على ما آتاهم الله، وأنهم غير زائلين، ولا

ما ينفعهم موعظة وتذكير .

(١٠١) من ﴿تِلْكَ الْأَفْرَى﴾ الذين تقدم ذكرهم ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مِنْ أَنْبَاءِهَا﴾ من أخبارها ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالحجج على صدقهم فيما أخبروهم به ﴿فَمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ بما كذبوا من قبل بسبب تكذيبهم، وردهم الحق أول مرة، ما كان يهديهم للإيمان، جزاء لهم على ردهم الحق ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ عقوبة منه .

(١٠٢) ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ﴾ وما وجدنا لأكثر الأمم الذين أرسل الله إليهم الرسل من عهد؛ أي: من ثبات والتزام، لوصية الله، التي أوصى بها جميع العالمين ﴿وإن وجدنا أَكْثَرَهُمْ لَفَنَاقِينَ﴾ خارجين عن طاعة الله، متبعين لأهوائهم بغير هدى الله .

(١٠٣) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى﴾ ثم بعثنا من بعد أولئك الرسل موسى عليه السلام ﴿يَأْتِينَنَا﴾ بحججنا ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ ملك مصر في زمان موسى وقومه ﴿ظَلَمُوا بِهَا﴾ استكبروا عنها، وجحدوا بها ظلمًا وعنادًا؛ كقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] . ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾؛ أي: انظر يا محمد كيف أهلكهم الله، وأتبعهم الذم واللعنة في الدنيا ويوم القيامة .

(١٠٤) ﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ حين جاء إلى فرعون

الْحَقُّ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ نَدَّ جُنُثُكُمْ

بَيْنَكُمْ فَارْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٥﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ

جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥٦﴾ قَالَ لَقَدْ

عَصَاةٌ لِذَاهِي ثَعْبَانِ مُبِينٌ ﴿٥٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءُ

لِلنَّظِيرِينَ ﴿٥٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ

عَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِكَ فَمَاذَا تَأْمُرُ ﴿٦٠﴾

قَالُوا أَزُجِّدُكُمْ وَأَهْلُكُمْ فِي الْمَدَائِنِ خَبِيرِينَ ﴿٦١﴾ يَأْتُوكَ

بِكُلِّ سِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿٦٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ

لَنَا لَأَجْرَ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٦٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنِ كُنْتُمْ

لِمَنْ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٦٤﴾ قَالُوا يَسْمُوهُمْ إِنَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِنَّا أَنْ

تَكُونَ نَحْنُ الْمُلْكِينَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا

أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءَهُ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿٦٦﴾

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ

مَا يَأْكُلُونَ ﴿٦٧﴾ فَوَقَّعَ الْحَقُّ وَطَلَّمَ مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ ﴿٦٨﴾ فَغُلِبُوا

هُنَاكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿٦٩﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ ﴿٧٠﴾

يدعوه إلى الإيمان: ﴿يَفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إني رسول من مرسل عظيم، وهو: رب العالمين، الشامل للعالم العلوي والسفلي، مربي جميع خلقه بأنواع التدابير الإلهية، التي من جملتها: أنه لا يتركهم سدى، بل يرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين .

(١٠٥) ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ حريص على أن لا أقول على الله إلا الحق ﴿نَدَّ جُنُثُكُمْ بَيْنَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ بحجة قاطعة من الله دليلًا على صدقي فيما جئتكم به ﴿فَارْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أطلقهم من أسرك

(١٠٢) في «الصحيحين» من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: «يقول الله لأهون أهل النار عذابًا يوم القيامة: يا ابن آدم! كيف وجدت مضجعتك؟ فيقول: شر مضجع. فيقال له: لو كانت لك الدنيا وما فيها أكنت مفتديًا بها؟ فيقول: نعم. فيقول: كذبت قد أردت منك أهون من ذلك، وأنت في صلب أبيك آدم، ألا تُشرك بي شيئًا، ولا أدخلك النار، فأبيت إلا الشرك، فيؤمر به إلى النار» .

وقهرك، ودعمهم وعبادة ربك وربهم.

(١٠٦) ﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿إِنْ كُنْتُ جِئْتُ بِبَيِّنَةٍ فَأَبَيْتُهَا إِنْ كُنْتُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ لست بمصدقك فيما قلت، ولا بمعطيك فيما طلبت، فإن كان معك حجة فأظهرها؛ لنراها إن كنت صادقاً فيما ادعيت.

(١٠٧) ﴿فَأُلْفِيَ﴾ موسى ﴿عَصَاهُ﴾ في الأرض ﴿فَإِذَا هِيَ تَعْبَانُ مُبِينٌ﴾ تحولت حية عظيمة، فاتحة فاهها تسعى وهم يشاهدونها.

(١٠٨) ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ من جيبه ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ﴾ بيضاء تتلأأ من غير برص ولا مرض؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ فَخَرَجَ يَبْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ﴾ [النمل: ١٢].

(١٠٩) ﴿قَالَ أَلَمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ حين بهرهم ما رأوا من الآيات، ولم يؤمنوا بها: ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ ماهر في سحره.

(١١٠) ﴿يُرِيدُ﴾ موسى بفعله هذا ﴿أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ يريد أن يجليكم عن أوطانكم ﴿فَإِذَا تَأَمَّرْتُمْ﴾ أي: إنهم تشاوروا فيما بينهم ما يفعلون بموسى.

(١١١) ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ احبسهما وأمهلهما ﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ﴾ أي في الأقاليم ومعاملة ملكك ﴿خَبِيرِينَ﴾ أي: من يحشرلك السحرة من سائر البلاد ويجمعهم، وذلك قوله:

(١١٢) ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ﴾ يجيئون بالسحرة المهرة.

(١١٣) ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ طالبين منه الجزاء إن غلبوا ﴿قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسحرة الذين استدعاهم لمعارضة موسى: إن

غلبوا ليشينهم وليعطينهم عطاء جزيلاً.

(١١٤) ﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿نَعَمْ﴾ لكم أجر ﴿وَإِن كُنْتُمْ لِمَنِ الْمَقَرِّينَ﴾ فوعدهم الأجر والتقريب، وعلو المنزلة عنده.

(١١٥) ﴿قَالُوا﴾ على وجه التآلي وعدم المبالاة بما جاء به موسى: ﴿يَكْمُوسِي إِمَامًا أَنْ تُلْفِيَ﴾ ما معك ﴿وَأِمَامًا أَنْ تَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ قبلك؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَأِمَامًا أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْفَى﴾ [طه: ٦٥].

(١١٦) ﴿قَالَ﴾ موسى ﷺ: ﴿أَلْقُوا﴾ أي: أنتم أولاً قبلي. لأجل أن يرى الناس ما معهم، وما مع موسى ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا﴾ حبالهم وعصيهم، إذا هي من سحرهم كأنها حيات تسعى، وبذلك ﴿سَحَرُوا عَيْنَ النَّاسِ﴾، أي: خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه حقيقة في الخارج، ولم يكن مجرد صنعة وخيال، ﴿وَأَسْرَهُوهُمْ﴾ فرقوهم وأخافوهم ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ لم يوجد له نظير في السحر.

(١١٧) ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ فآلقاها ﴿فَإِذَا هِيَ حية تسعى﴾ ﴿تَلْقَفُ﴾ أي: تأكل ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ يكذبون به ويموهون ويوهمون أنه حق، وهو باطل.

(١١٨) ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾ تبين وظهر، واستعلن واستعلى ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ اضمحل باطلهم، وتلاشى سحرهم.

(١١٩) ﴿فَغَلِبُوا هنالك﴾ في ذلك المقام ﴿وَأَنقَلَبُوا صَغِيرِينَ﴾ حقيرين.

(١٢٠) ﴿وَأُلْفِيَ السَّحَرَةُ سَجْدِينَ﴾ ﴿﴿﴾﴾ فعرفت السحرة أن هذا أمر من في السماء، وليس بسحر، فخروا سجداً،

(١٢١) ﴿قَالُوا ءَأَمَّنَّا رَبَّ الْمَلَكَيْنِ﴾

(١٢٢) ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ صدقنا بما جاء به موسى، وأن الذي علينا عبادته هو الذي يملك الجن والإنس وجميع الأشياء، وغير لك، ويدبر ذلك كله..

(١٢٣) ﴿قَالَ لَهُمْ﴾ ﴿فِرْعَوْنُ﴾ متهددا لهم على الإيمان: ﴿ءَأَمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ فهذا سوء أدب منكم وتجروء عليّ. ثم موّه على قومه: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِخُرُوجِهَا مِنْهَا أَهْلُهَا﴾ أي: تواطأتم أنتم وهو على أن تغلبوا له، فيظهر، فتبعوه، ثم يتبعكم الناس، فتخرجوا منها أهلها. ثم توعدهم فرعون بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما أحل بكم من العقوبة.

(١٢٤) ثم فسر هذا الوعيد بقوله: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ﴾ أي: يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، أو بالعكس ﴿ثُمَّ لَأَصْلِبَنَّكُمْ﴾ وقال في الآية الأخرى: ﴿فِي جُدُوعِ النَّحْلِ﴾ [طه: ٧١]؛ أي: على الجذوع ﴿أَجْمَعِينَ﴾ جميعكم.

(١٢٥) فقال السحرة الذين آمنوا لفرعون حين تهددهم: ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ راجعون فلا نبأ بعقوبتك.

(١٢٦) ﴿وَمَا لَنُفِمْ مَتَّىٰ﴾ وما تعيب منا ﴿إِلَّا أَنْتَ ءَأَمَّنَّا رَبَّنَا رَبَّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾ فإن كان هذا ذنباً يعاب عليه، ويستحق صاحبه العقوبة، فهو ذنبنا، ثم دعوا الله أن يثبتهم ويصبرهم، فقالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ﴾ أفض ﴿عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ عظيمًا ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ منقادين لأمرك، متبعين لرسولك.

(١٢٧) ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ وقد استكبروا

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

الْبَقَرَةُ

قَالُوا ءَأَمَّنَّا رَبَّ الْمَلَكَيْنِ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِخُرُوجِهَا مِنْهَا أَهْلُهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأَصْلِبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا نُنْفِمْ مَتَّىٰ إِلَّا أَنْتَ ءَأَمَّنَّا رَبَّنَا رَبَّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرُكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَءَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُرِيدِيَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَبِعْدَ مَا حِثَّنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَ كُفْرًا فِي الْأَرْضِ فَنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُ آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّبْيَيْنِ وَنَقَصَ مِنَ الثَّمَرِ لَعْنَهُمْ يَدَّكَوْنَ ﴿١٣٠﴾

١٢٥

هم وفرعون عنايات الله، ووجدوا بها ظلماً وعلوا فقالوا لفرعون مهيجين له على الإيقاع بموسى، وزاعمين أن ما جاء به باطل وفاسد: ﴿أَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بالدعوة إلى الله التي هيصلاح في الأرض، وما هم عليه هو الفساد ﴿وَيَذَرُكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ يدعك أنت وآلهتك، قال مجيباً لهم: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ الذكور من بني إسرائيل ﴿وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ نستبقيهن فلا نقتلن، ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ لا خروج لهم عن حكمنا، ولا قدرة. (١٢٨) ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ موصياً لهم: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ﴾ اعتمدوا عليه في جلب ما ينفعكم، ودفع ما يضركم ﴿وَاصْبِرُوا﴾ الزموا الصبر على ما يحل بكم ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ ليست لفرعون ولا لقومه، حتى يتحكموا فيها،

النخلة لا تحمل ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ يتعظون .

(١٣١) ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ نحن مستحقون لها ﴿وَأِنْ كُنْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ قحط وجذب ﴿يَطِيرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ يقولوا: إنما جاءنا بسبب مجيء موسى ، واتباع بني إسرائيل له ﴿أَلَا إِنَّمَا طَلَيْهِمْ عِنْدَ اللَّهِ بِقَضَائِهِ وَقُدْرَتِهِ﴾ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴿فَلذَلِكَ قَالُوا مَا قَالُوا﴾ .

(١٣٢) ﴿وَقَالُوا﴾ لموسى : ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ مهما جئت بآية ، جزمنا أنها سحر ، فلا نؤمن لك .

(١٣٣) ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ الماء الكثير ، الذي أغرق أشجارهم وزروعهم ﴿وَالْجُرَادَ﴾ فأكل ثمارهم ، وزروعهم ، ونباتهم ﴿وَالْقُمَّلَ﴾ القمل المعروف ﴿وَالضَّفَادِعَ﴾ فمالت أوعيتهم ، وأقلقتهم وأدتهم أذية شديدة ﴿وَالدَّمَ﴾ أن ماءهم الذي يشربون ، انقلب دماً ، فكانوا لا يشربون إلا دماً ، ولا يطبخون إلا دماً ﴿وَآيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ﴾ أدلة وبيانات ، على أنهم كانوا كاذبين ظالمين ، وعلى أن ما جاء به موسى حق وصدق ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ لما رأوا الآيات ﴿وَكَانُوا﴾ في سابق أمرهم ﴿فَقَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ فلذلك عاقبهم الله تعالى ؛ بأن أبقاهم على الغي والضلال .

(١٣٤) ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ العذاب ، الذي تقدم ذكره ﴿قَالُوا يَمْوَسَىٰ آدَعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ تشفعوا بموسى بما عهد الله عنده من الوحي والشرع ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ وهم في ذلك كذبة .

(١٣٥) ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ

لَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ
فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ
يَطِيرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَلَيْهِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ
لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ
الطُّوفَانَ وَالْجُرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالِدَّمَ وَآيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ
فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ
الرِّجْزُ قَالُوا يَمْوَسَىٰ آدَعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ
كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي
إِسْرَءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ
هُم بَلَّغُوا إِذْ هُمْ يَنْكَبُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانْقَضَا عَنْهُمْ وَأَعْرَفْتَهُمْ
فِي الْآخِرَةِ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾
وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشْرِقَ
الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَنَرُكُنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ
الْحَقُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ
يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا لَيْسَ شُوعُنُ ﴿١٣٧﴾

﴿يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِي﴾ يداولها بين الناس على حسب مشيئته وحكمته ، ﴿و﴾ لكن ﴿الْعَاقِبَةُ﴾ الحميدة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ .

(١٢٩) ﴿قَالُوا﴾ لموسى متضجرين من طول ما مكثوا في عذاب فرعون وأذيته : ﴿أَوَدِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِنَا﴾ فإنهم كانوا يسوموننا سوء العذاب : يذبحون أبناءنا ، ويستحيون نساءنا ﴿وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ كذلك ﴿قَالَ﴾ لهم موسى مرجياً لهم بالفرج ، والخلاص من شرهم : ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَذُّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ يمكنكم فيها ﴿فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ هل تشكرون أم تكفرون ؟ وهذا تحضيض لهم على العزم على الشكر عند حلول النعم ، وزوال النقم .

(١٣٠) ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ بالدهور والجذب ﴿وَنَقَصَ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ كانت

بَلَّغُوهُ ﴿١٣٦﴾ إِلَى مَدَّةٍ قَدَّرَ اللَّهُ بَقَاءَهُمْ إِلَيْهَا ﴿إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ﴾ يَنْقُضُونَ الْعَهْدَ الَّذِي عَاهَدُوا عَلَيْهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ .

(١٣٦) ﴿فَانْقَضَتْ وَفَّتُهُمْ﴾ حِينَ جَاءَ الْوَقْتُ الْمَوْقُوتُ لِهَلَاكِهِمْ ﴿فَاغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ وَهُوَ الْبَحْرُ الَّذِي فَرَقَهُ اللَّهُ لِمُوسَى فَجَاوَزَهُ وَبَنُو إِسْرَائِيلَ مَعَهُ ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أَيُ: بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ بَيَّاتِ الْإِلَهَ ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ وَإِعْرَاضَهُمْ عَمَّا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ .

(١٣٧) ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾ يَخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ أَوْرَثَ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ﴿مَشْدُوقَ الْأَرْضِ وَمَعْرُوبَهَا﴾؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥] .

﴿الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ بِلَادِ الشَّامِ، ﴿وَوَعَدْتُمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ حِينَ قَالَ لَهُمْ مُوسَى: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ .

﴿وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ مِنَ الْأَبْنِيَةِ الْهَائِلَةِ، وَالْمَسَاكِنِ الْمَزْخَرَةِ ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ يَبْنُونَ، فَتِلْكَ بَيْوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا .

وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿١٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا

(١٣٨) أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ وَأَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ حَنِينٍ، فَمَرْنَا بِسَدْرَةٍ. فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ اجْعَلْ لَنَا هَذِهِ ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لِلْكَفَّارِ ذَاتَ أَنْوَاطٍ، وَكَانَ الْكَفَّارُ يَنْطُونُ بِسِلَاحِهِمْ بِسَدْرَةٍ وَيَعْكِفُونَ حَوْلَهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُ أَكْبَرُ، هَذَا كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ»: إِنَّكُمْ تَرْكَبُونَ سَنَنَ مِنْ قَبْلِكُمْ» .

وَجَوْرًا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكِفُونَ عَلَى أَصْنَانٍ لَهُمْ قَالُوا يَتَّبِعُونَ مُوسَى أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءَ مَثَرَاتُهُمْ فِيهِ يُنْطَلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْغِيَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضْلُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَخْبَرْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ السُّوءِ أَلْغَاطٌ يَفْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ قَرْنٍ يَمِيقَتْ رَبُّهُ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيكَ وَلَكِنْ نُنْظِرُ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرِيكَ فَلَمَّا بَهِجَلْ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ بُنْتَ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

فَكَهِنَ ﴿١٤٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ [الدخان: ٢٥ - ٢٨] .

(١٣٨) ﴿وَجَوْرًا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ﴾ بَعْدَ مَا أَنْجَاهُمُ اللَّهُ مِنْ عَدُوهِمْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ ﴿فَاتَّوَا﴾ مَرُوا ﴿عَلَى قَوْمٍ يَعْكِفُونَ عَلَى أَصْنَانٍ لَهُمْ﴾ يَقِيمُونَ عِنْدَهَا وَيَتَبَرَكُونَ بِهَا، وَيَعْبُدُونَهَا ﴿قَالُوا﴾ مِنْ جَهْلِهِمْ وَسَفَهِهِمْ لِنَبِيِّهِمْ مُوسَى بَعْدَ مَا أَرَاهُمْ الْآيَاتِ مَا أَرَاهُمْ: ﴿يَتَّبِعُونَ مُوسَى أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ أَشْرَعَ لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ آلِهَةً؛ كَمَا اتَّخَذَهَا هَؤُلَاءَ ﴿قَالَ﴾ لَهُمْ مُوسَى: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ﴾ وَأَيُّ جَهْلٍ أَعْظَمَ مِنْ جَهْلِ الْإِنْسَانِ رَبَّهُ وَخَالِقَهُ،

وأراد أن يسوي به غيره.

(١٣٩) ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم بِفِيهِ﴾ أي: هالك ﴿وَنُطِلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لأن دعاءهم إياها باطل، وهي باطلة بنفسها.

(١٤٠) ﴿قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْيَاحَكُمْ إِلَهًا﴾ أطلب لكم إلها غير الله المألوه، الكامل في ذاته، وصفاته، وأفعاله ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْغَالِبِينَ﴾ في زمانهم؛ فيقتضي أن تقابلوا فضله وتفضيله بالشكر، وذلك بإفراد الله وحده بالعبادة، والكفر بما يدعى من دونه.

(١٤١) ﴿وَإِذْ أَخْبَرْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ وهم الذين كانوا على منهاجه وطريقته في الكفر بالله من قومه ﴿يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ يوجهون إليك من العذاب أسوأه ﴿يَقُولُونَ أَبْنَاءُكُمْ وَنَسَحُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ يذبحون الذكور ويبقون الإناث ﴿وَفِي ذَٰلِكُمْ﴾ النجاة من عذابهم ﴿بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ نعمة جليلة، ومنحة جزيلة.

(١٤٢) ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ قَتْمٍ مِّمَّةٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ يقول الله تعالى ممتنًا على بني إسرائيل بما حصل لهم من الهداية: أنه واعد موسى ثلاثين ليلة، وأتمها بعشر، فصارت أربعين ليلة؛ ليستعد موسى ويتهيأ

لوعده ربه ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ﴾ موصيًا له على بني إسرائيل من حرصه عليهم وشفقته: ﴿اخْلُقْنِي فِي قَوْمِي﴾ كن خليفتي فيهم، واعمل فيهم بما كنت أعمل ﴿وَأَصْلِحْ﴾ اتبع طريق الصلاح ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ وهم الذين يعملون بالمعاصي.

(١٤٣) ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ الذي وقتناه له لإنزال الكتاب ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ بما كلمه من وحيه وأمره ونهييه ﴿قَالَ رَبِّ ارْنِ أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ تشوق إلى رؤية الله، ونزعت نفسه لذلك، حبًا لربه، واشتياقًا لرؤيته ﴿قَالَ﴾ الله: ﴿لَنْ تَرَنِي﴾ لن تقدر في هذه الدار الدنيا على رؤيتي ﴿وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنَّ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ﴾ إذا تجلى الله له ﴿فَسَوْفَ تَرَنِي﴾ ﴿فَلَمَّا بَحَلَّ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ الْأَصَمِ الْغَلِيظِ﴾ جعله دكًا ﴿انهال مثل الرمل﴾ وخرَّ موسى ﴿حين رأى ما رأى﴾ صعقًا مغشيًا عليه ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ تبين له حينئذ: أنه إذا لم يثبت الجبل لرؤية الله؛ فموسى أولى ألا يثبت لذلك، و﴿قَالَ سُبْحَنكَ﴾ تنزيهاً لك، وتعظيمًا عما لا يليق بجلالك ﴿بُتَّ إِلَيْكَ﴾ من جميع الذنوب ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾. جدد - عليه الصلاة والسلام - إيمانه؛ بما كمل الله له مما كان

(١٤٣) أخرج الطبري من حديث أنس بإسناد صحيح: أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿فَلَمَّا بَحَلَّ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ قال:

هكذا بإصبعه، ووضع النبي ﷺ إصبعه الإبهام على المفصل الأعلى في الخنصر، فساخ الجبل.

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: استب رجلان: رجل من المسلمين، ورجل من اليهود، فقال له المسم: والذي اصطفى محمدًا على العالمين، وقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين فغضب المسم على اليهودي؛ فلطمه، فأتى اليهودي رسول الله ﷺ، فسأله فأخبره، فدعاه رسول الله ﷺ فاعترف بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «لا تخبروني على موسى؛ فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فأجد موسى مسمكًا بجانب العرش؛ فلا أدري أكان ممن صعق فأفاق قبلي، أم كان ممن استثناءه الله عز وجل».

وفي حديث أبي سعيد الخدري، عند الشيخين: «... فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور».

يجعله قبل ذلك .

(١٤٤) ﴿قَالَ﴾ اللَّهُ مخاطباً موسى ﷺ :
﴿يُمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ اخترتك
واجتبيتك على عالمي زمانك ﴿يُرْسَلْتُ﴾ التي لا
أجعلها، ولا أخص بها، إلا أفضل الخلق
﴿وَيُكَلِّمُ﴾ إياك من غير واسطة، وهذه مما
اختص بها موسى ﷺ على إخوانه من
المرسلين ﴿فَخَذَ مَا آتَيْتُكَ﴾ من النعم، وخذ ما
آتيتك، من الأمر والنهي، والكلام والوحي،
بانسراح صدر، وتلقه بالقبول والانقياد ﴿وَكُنْ
مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لله، على ما خصك وفضلك .

(١٤٥) ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾
يحتاج إليه العباد ﴿مَوْعِظَةً﴾ ترغب النفوس في
أفعال الخير، وترهبهم من أفعال الشر،
﴿وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأحكام الشرعية،
والعقائد، والأخلاق، والآداب ﴿فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ﴾
يجد واجتهاد على إقامتها، ﴿وَأَمَرَ قَوْمَكَ بِأَخْذِهَا
بِأَحْسَنِهَا﴾ وهي الأوامر الواجبة والمستحبة، فإنها
أحسنها، ﴿سَآوِرِيكَ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ بعد ما أهلكهم
الله، وأبقى ديارهم عبرة بعدهم، يعتبر بها
المؤمنون . الموفقون المتواضعون، وأما غيرهم
فقال عنهم :

(١٤٦) ﴿سَاصْرِفْ عَنْ عَائِيَّتِي﴾ أي : عن الاعتبار
في آيات الأفقية، والنفسية، والفهم لآيات
الكتاب ﴿الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾
يتكبرون على عباد الله، وعلى الحق، وعلى من
جاء به ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلاًَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾
لإعراضهم، واعتراضهم، ومحادتهم لله ورسوله
﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ﴾ الهدى والاستقامة ﴿لَا
يَتَّخِذُوهُ﴾ لا يسلكوه ﴿سَبِيلًا﴾ طريقاً ﴿وَإِنْ يَرَوْا

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

قَالَ يُمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ يُرْسَلْتُ وَيُكَلِّمُ
فَخَذَ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا
لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ
شَيْءٍ وَفَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكَ بِأَخْذِهَا بِأَحْسَنِهَا سَآوِرِيكَ
دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَاصْرِفْ عَنْ عَائِيَّتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ
فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلاًَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا
بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا
سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ
الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَأَتَّخِذَ قَوْمٌ مُّوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلَيطِهِ
عَجَلًا جَسَداً لَّهُ خُورٌ أَلْقَوْا أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ وَلَا يَهْتَدِيهِمْ
سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَقَدْ سَقَطَ
فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا
رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

١٦٨

سَبِيلَ الْغَيِّ﴾ الغواية ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ يتخذوه
طريقاً ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ كذبت بها
قلوبهم ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ لا يعلمون شيئاً
مما فيها .

(١٤٧) ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على صحة
ما أرسلنا به رسلنا ﴿وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ
أَعْمَالُهُمْ﴾ اضمحلت وبطلت ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إنما نجازيهم بحسب
أعمالهم التي أسلفوها، إن خيراً فخير، وإن شراً
فشر، وكما تدين تدان .

(١٤٨) ﴿وَأَتَّخِذَ قَوْمٌ مُّوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلَيطِهِ
عَجَلًا جَسَداً﴾ صاعه السامري من حلي القبط
الذي كانوا استعاروه منهم، وألقى عليه قبضة من
أثر فرس جبريل ﷺ فصار ﴿لَهُ خُورٌ﴾
صوت البقرة؛ فعبدوه، واتخذوه إلهاً ﴿أَلَّهُ يَرَوْا

﴿وَيَعْرِفُ لَنَا﴾ ما صدر منا من عبادة العجل
﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَسِيرِينَ﴾ الذين خسروا الدنيا
والآخرة.

(١٥٠) ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا﴾
ممتلئًا غضبًا وغيظًا عليهم؛ لتمام غيرته، وكمال
نصحه ﴿قَالَ لِنَسْمَا خَلَقْتُونِي مِنْ بَعْدِي﴾ بس الحالة
التي خلقتموني بها من بعد ذهابي عنكم،
﴿أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أستهجلتكم مجيئي إليكم
وهو مقدر من الله تعالى؟ ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاخَ﴾ رماها
من الغضب ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ هارون ولحيته
﴿يَجْرُهُ إِلَيْهِ﴾ خوفًا أن يكون قصر في نهيمهم،
كما في الآية الأخرى: ﴿قَالَ يَهْزُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ
رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ (٩٢) ﴿أَلَا تَتَّبِعُنَّ أَفْعَصَيْتُ أَمْرِي﴾ (٩٣)
﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْجَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ
تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ (٩٤).
[طه: ٩٢ - ٩٤].

﴿قَالَ ابْنَ أُمِّ﴾ هذا ترفيق لأخيه واستعطافًا؛ بذكر
الأم وحدها، وإلا فهو شقيقه لأمه وأبيه: ﴿إِنَّ
الْقَوْمَ اسْتَغْفِرُونِي﴾: احتقروني، حين قلت
لهم: ﴿يَقَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ
فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه: ٩٠] ﴿وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾
فلا تظن بي تقصيرًا ﴿فَلَا تَشْعُرْ﴾ بِالْأَعْدَاءِ
بنهرك لي، ومسكك إياي بسوء ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ
الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فتعاملني معاملتهم.

(١٥١) فلما تحقق موسى ﷺ براءة ساحة
هارون عليه السلام؛ فندم موسى عليه السلام على ما
استعجل من صنعه بأخيه قبل أن يعلم براءته، مما

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا قَالَ لِنَسْمَا خَلَقْتُونِي
مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاخَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ
أَخِيهِ يَجْرُهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمِّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَغْفِرُونِي وَكَادُوا
يَقْتُلُونَنِي فَلَا تَشْعُرْ بِالْأَعْدَاءِ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي
رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٥﴾ إِنْ الَّذِينَ اتَّخَذُوا
الْعِجْلَ سِينًا لَهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿٩٦﴾ وَالَّذِينَ عَلِمُوا النَّبِيَّاتِ ثُمَّ
تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا أَنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُوهُمْ رَحِيمٌ
﴿٩٧﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاخَ وَفِي
شَحْطِهَا هَدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ يَهْتَدُونَ ﴿٩٨﴾ وَاتَّخَذَ
مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا أَلِيفَتَيْنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ
قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِن قَبْلُ وَإِنِّي أَنَا أَكَلِمًا فَاغْفِرْ
أَلَسْتُ بِكَ فَتَنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي
مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿٩٩﴾

أَنْتُمْ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ وعدم الكلام نقص عظيم، فهم
أكمل حالة من هذا الحيوان أو الجماد، الذي لا
يتكلم ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾، لا يدلهم طريقًا
دينيًا، ولا يحصل لهم مصلحة دنيوية ﴿أَتَّخِذُوهُ
وَكَاوًا ظُلُمِينَ﴾ حيث وضعوا العبادة في غير
موضعها، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا.

(١٤٩) ﴿وَلَمَّا﴾ رجع موسى إلى قومه فوجدهم
على هذه الحال، وأخبرهم بضلالهم ندموا
﴿سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ من الهم والندم على فعلهم
﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ فتوصلوا إلى الله
وتضرعوا، و﴿قَالُوا لَيْنَ لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ فيدلنا
عليه، ويرزقنا عبادته، ويوفقنا لصالح الأعمال

(١٥٠) أخرج أحمد وابن ماجه والحاكم بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عباس ؓ عن النبي ﷺ قال: «ليس الخبر
كالمعاينة، قال الله لموسى: إن قومك صنعوا كذا وكذا، فلم يباليه فلم يلق الألواح، فلما عابن؛ ألقى الألواح».

ظنه فيه من التقصير، وقال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي﴾ هارون ﴿وَادْخُلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ في وسطها، واجعل رحمتك تحيط بنا من كل جانب، ﴿وَأَنْتَ أَزْهَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أرحم بنا من كل راحم.

(١٥٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَخَذُوا الْعِجْلَ﴾ إِلَهًا ﴿سَيَنَاهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وقد نالهم غضب الله؛ حيث أمرهم أن يقتلوا أنفسهم، وأنه لا يرضى عنهم إلا بذلك، وأما الذلة فأعقبهم ذلك ذلاً وصغاراً في الحياة الدنيا ﴿وَكَذَلِكَ يَجْرَى الْمُفْقَرِينَ﴾ فكل مفتر على الله، كاذب على شرعه، متقول عليه ما لم يقل، فإن له نصيباً من الغضب من الله، والذل في الحياة الدنيا.

(١٥٣) ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ من شرك، وكبائر، وصغائر ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا﴾ بأن ندموا على ما مضى، وأقلعوا عنه ﴿وَأَمَّنُوا﴾ بالله، وبما أوجب الله من الإيمان به ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ بعد هذه الحالة، حالة التوبة من السيئات والرجوع إلى الطاعات ﴿لَعَفْوٌ﴾ يغفر السيئات ويمحوها ﴿رَحِيمٌ﴾ بقبول التوبة، والتوفيق لأفعال الخير وقبولها.

(١٥٤) ﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾ سكن ﴿عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ غضبه على قومه ﴿أَخَذَ الْأَلْوَابَ﴾ التي ألقاها ﴿وَفِي سُجُوتِهَا﴾ وفيما نسخ فيها؛ أي: كتب فيها ﴿هُدًى﴾ بيان للحق ﴿وَرَحْمَةً﴾ من العذاب ﴿لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ يخافون منه ويخشونه.

(١٥٥) ﴿وَ﴾ لما تاب بنو إسرائيل وتراجعوا إلى رشدهم ﴿اخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾ منهم ﴿سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ من خيارهم، ليعتذروا لقومهم عند ربهم ﴿لِيُفَقِّنَا﴾ ووعدهم الله ميقاتاً يحضرون فيه،

وَأَكْتَسَبَ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَيْكَ قَالَ عِدَائِي أَصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتَسِبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأَتَمَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوعًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوَرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَتَّبِعْنَاهَا النَّاسُ لِي فِي رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾

١٧٠

فلما حضروه، قالوا: يا موسى، ﴿إِنَّا نَرَاكَ اللَّهُ جَهْرَةً﴾ فتجروا على الله جراءة كبيرة وأساءوا الأدب معه ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ فصعقوا وهلكوا ف ﴿قَالَ﴾ موسى متضرعاً ومتبتلاً: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ﴾ أي: من قبل مجئنا إليك ﴿وَأَيَّتِي﴾ أي: بمحضر بني إسرائيل حتى لا يتهموني ﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ ضعفاء العقول، سفهاء الأحلام ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾: اختبارك ﴿تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾: إن الحكم إلا لك ﴿أَنْتَ وَلَيْنَا﴾ أي: المتولي أمرنا، وليس لنا من ولي سواك ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ والغفر هو: الستر وترك المؤاخذه بالذنب، والرحمة إذا قرنت مع الغفر يراد بها ألا يوقعه في مثله في المستقبل ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ أنت خير من غفر، وأولى من رحم.

الْخَبِيثَ ﴿١٥٦﴾ من المطاعم، والمشارب، والمناكح، والأقوال، والأفعال ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ومن وصفه: أن دينه سهل سمح ميسر، لا إصر فيه ولا أغلال، ولا مشقات ولا تكاليف ثقال.

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ عِظَمُوهُ وَبَجَلُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ وهو القرآن ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الظافرون بخير الدنيا والآخرة.

(١٥٨) ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ وهذا خطاب للأحمر والأسود ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ عرييكم، وعجميكم، أهل الكتاب منكم وغيرهم، وأنه مبعوث إلى الناس كافة وهذا من شرفه وعظمته وأنه خاتم الأنبياء.

﴿الَّذِي لَمْ يَمْلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ صفة الله تعالى في قوله: ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾؛ أي: الذي أرسلني هو خالق كل شيء وربّه ومليكه، الذي بيده الملك والإحياء والإماتة، وله الحكم، وهو المعبود بحق وحده لا شريك له. ﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ إيماناً في القلب، متضمناً لأعمال القلوب والجوارح، ﴿الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾، آمنوا بهذا الرسول المستقيم في عقائده، وأعماله، ﴿وَاتَّبَعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

(١٥٦) ﴿وَكَتُبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ من علم نافع، ورزق واسع، وعمل صالح ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ وهي ما أعد الله لأوليائه الصالحين من الثواب، ﴿إِنَّا هَذَا إِلَيْكَ﴾ رجعنا مقرين بتقصيرنا، ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ ممن كان شقيئاً، متعرضاً لأسبابه ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ من العالم العلوي والسفلي، ولكن الرحمة الخاصة، المقتضية لسعادة الدنيا والآخرة، ليست لكل أحد. ولهذا قال عنها: ﴿فَسَاكُنْتِهَا﴾ فسأوجب حصول رحمتي منه مني وإحساناً؛ كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

﴿لِلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ المعاصي؛ صفارها وكبارها، وهم أمة محمد ﷺ ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ الواجبة مستحقها ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ يصدقون.

(١٥٧) ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوءًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ باسمه وصفته ﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهو كل ما عرف حسنه وصلاحه ونفعه ﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وهو: كل ما عرف قبحه في العقول والفطر ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ من المطاعم، والمشارب، والمناكح، ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ﴾

(١٥٨) في «صحيح البخاري» من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: كانت بين أبي بكر وعمر محاورة، فأغضب أبو بكر عمر، فانصرف عمر عنه مغضباً، فاتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له، فلم يفعل حتى أغلق بابه في وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ فقال: أبو الدرداء - ونحن عنده - فقال رسول الله ﷺ: «أما صاحبكم هذا فقد غامر» - أي: غاضب وحاقد - قال: وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبي ﷺ وقصّ على رسول الله ﷺ الخبر، قال أبو الدرداء: وغضب رسول الله ﷺ، وجعل أبو بكر يقول: والله يا رسول الله، لأننا كنت أظلم. فقال رسول الله ﷺ: «هل أنتم تاركو لي صاحبي، إنني قلت: يا أيها الناس، إنني رسول الله إليكم جميعاً. فقلت: كذبت. وقال: أبو بكر: صدقت».

في مصالحكم الدينية والدنيوية .

(١٥٩) ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ ﴿جَمَاعَةٌ ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ يَهْدُونَ النَّاسَ فِي تَعْلِيمِهِمْ إِيَّاهُمْ ، وَفَتَوَاهِمَ لَهُمْ ، ﴿وَبِهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ وَيَعْدِلُونَ بِهِ فِي الْحُكْمِ بَيْنَهُمْ ، فِي قَضَائِهِمْ .

وكان الإتيان بهذه الآية فيه نوع احتراز مما تقدم ؛ فإنه تعالى ذكر فيها جملة من معائب بني إسرائيل المنافية للكمال ، المناقضة للهداية ، فربما توهم متوهم أن هذا يعم جميعهم ، فذكر تعالى أن منهم طائفة مستقيمة هادية مهدية .

(١٦٠) ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ﴾ قَسَمْنَاهُمْ ﴿اَثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْطَاطًا أُمَمًا﴾ أَي : اثنيتي عشرة قبيلة ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾ طَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يَدْعُو اللَّهَ تَعَالَى : أَنْ يَسْقِيَهُمْ مَا يَشْرَبُونَ مِنْهُ ، فَأَوْحَى اللَّهُ لِمُوسَى ؛ إِجَابَةً لَطَلَبَتِهِمْ ﴿أَنْتَ أَضْرِبُ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ يَحْتَمِلُ أَنَّهُ حَجَرٌ مُعَيَّنٌ ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ اسْمُ جَنْسٍ ، يَشْمَلُ أَيَّ حَجَرٍ كَانَ ؛ فَضْرَبَهُ ﴿فَانْبَجَسَتْ﴾ انْفَجَرَتْ مِنْ ذَلِكَ الْحَجَرِ ﴿اَثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ جَارِيَةٌ سَارِحَةٌ ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ﴾ جَعَلَ لِكُلِّ مِنْهُمْ عَيْنًا ، فَعَلِمُوها ، وَاطْمَأْنَوْا ، وَاسْتَرَاخُوا مِنَ التَّعَبِ وَالْمُزَاحِمَةِ ﴿وَطَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ﴾ فَكَانَ يَسْتَرْهِمُ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ﴾ وَهُوَ الْحُلُوى ﴿وَالسَّلَوى﴾ وَهُوَ لَحْمُ طَيْرٍ ، مِنْ أَحْسَنِ أَنْوَاعِ الطَّيُورِ ، وَالذَّهَاءُ ، وَقِيلَ لَهُمْ : ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ حِينَ لَمْ يَشْكُرُوا اللَّهَ ، وَلَمْ يَقُومُوا بِمَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حَيْثُ فَوْتَوْهَا كُلَّ خَيْرٍ ، وَعَرَضُوهَا لِلشَّرِّ وَالنَّقْمَةِ .

(١٦١) ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾

الْمَدِينَةُ

وَقَطَعْنَاهُمْ اَثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْطَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْتَ أَضْرِبُ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اَثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَطَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَالسَّلَوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَفْعَرُ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْرًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسَلَّمْنَا عَنْ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

١٦١

ادخلوها ؛ لتكون وطنًا لكم ومسكنًا ﴿وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ أَمَرَهُمُ اللَّهُ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شَاءُوا ، ﴿وَقُولُوا﴾ حِينَ تَدْخُلُونَ الْبَابَ : ﴿حِطَّةٌ﴾ احْطُطْ عَنَا خَطَايَانَا ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ خَاضِعِينَ لِرَبِّكُمْ ، مُسْتَكِينِينَ لِعَزَّتِهِ ، ﴿نَفْعَرُ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ﴾ وَعَدَهُمْ عَلَى ذَلِكَ مَغْفِرَةً ذُنُوبِهِمْ ، وَالثَّوَابَ الْعَاجِلَ وَالْآجِلَ ﴿وَسَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

(١٦٢) ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ عَصُوا اللَّهَ وَاسْتَهَانُوا بِأَمْرِهِ ﴿قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ فَقَالُوا بَدَلْ طَلَبَ الْمَغْفِرَةِ وَقَوْلُهُمْ : ﴿حِطَّةٌ﴾ : حَبَّةٌ فِي شَعِيرَةٍ . وَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهُمْ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ عَذَابًا شَدِيدًا ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابِهِ ، وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ ﴿بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾

وجه البحر ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْئَلُونَ﴾ إذا ذهب يوم السبت ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾ تذهب في البحر، فلا يرون منها شيئاً ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ففسقهم هو الذي أوجب أن يبتليهم الله.

(١٦٤) وانقسموا ثلاث فرق: معظمهم اعتدوا وتجراؤا، وأعلنوا بذلك، وفرقة أعلنت بنهيهم والإنكار عليهم: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ﴾ وفرقة اكتفت بإنكار أولئك عليهم، ونهيهم لهم، وقالوا: ﴿لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ كأنهم يقولون: لا فائدة في وعظ من اقتحم محارم الله، ولم يصغ للنصيح، بل استمر على اعتدائه وطغيانه، فإنه لا بد أن يعاقبهم الله، إما بهلاك، أو عذاب شديد ﴿قَالُوا﴾ الواعظون: ﴿مُعَذِّبَةً إِلَى رَبِّكُمْ﴾ لنعذر فيهم ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَنْفِقُونَ﴾ يتركون ما هم فيه من المعصية. (١٦٥) ﴿فَلَمَّا شَاؤُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ﴾ تركوا ما ذكروا به، واستمروا على غيهم واعتدائهم ﴿أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ الشُّعْوَ﴾ الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ﴿وَآخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وهم الذين اعتدوا في السبت ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ شديد ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بفسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها. (١٦٦) ﴿فَلَمَّا عَتَا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ﴾ فسوا فلم يلينوا،

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةُ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفِقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا شَاؤُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ الشُّعْوَ وَآخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قَالُوا لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةُ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفِقُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّتْ رَبُّكَ يَسْمَعَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَنْ يُسْأَلُ لِمَ سَأَلْتُمُوهُ الْعَذَابُ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعٌ الْعِقَابُ وَإِنَّهُ لَعَلَّكُمْ تَرْجِعُونَ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا وَنَهْنَاهُمْ أَنْصُلُهُمْ وَنَمْنَاهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالشَّيْئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ شَبَّهُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَاللَّذَانِ الْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَفَلَا يَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ تَسْبِكُونَ الْكِتَابَ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُضِلِّينَ ﴿١٧٠﴾

يخرجون من طاعة الله إلى معصيته.

(١٦٣) ﴿وَسَأَلْتُهُمْ﴾ أسأل بني إسرائيل ﴿عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ على ساحله، في حال تعذيبهم وعقاب الله إياهم ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ وكان الله تعالى قد أمرهم أن يعظموه ويحترموه، ولا يصيدوا فيه صيدا، فابتلاهم الله، وامتحنهم؛ فكانت ﴿تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا﴾ كثيرة طافية على

(١٦٥) قال أبو أسامة الهلالي - كان الله له -: اختلف المفسرون في مصير الفرقة الثالثة، والراجح: أنهم كانوا من الناجين؛ للوجوه الآتية:

- ١- عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قال: ما أدري أنجا الذين قالوا: ﴿لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ أم لا؟ قال: فلم أزل به حتى عرفته أنهم قد نجوا، فكساني حلة.
- ٢- قوله تعالى: ﴿وَآخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ فيه دلالة بالمفهوم على أن الذين بقوا نجوا.
- ٣- أن هذه الفرقة ملحقة بالآمرين بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنهم أنكروا عليهم بقوله: ﴿لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ فأبدوا من غضبهم عليهم ما يقتضي أنهم كارهون ذلك في قلوبهم، وهو أضعف الإيمان.

(١٧١) ﴿وَإِذْ نَفَقْنَا الْجَبَلِ فَوْقَهُمْ﴾ رفعناه حين امتنعوا من قبول ما في التوراة ﴿كَانَهُ ظُلُمًا﴾ فصار فوقهم ﴿وَوَطَّنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ وقيل لهم: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ بجد واجتهاد ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ دراسة ومباحثة، واتصافًا بالعمل ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ إذا فعلتم ذلك.

(١٧٢) ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أخرج من أصلابهم ذريتهم، ﴿وَوَعَدَ﴾ حين أخرجهم من بطون أمهاتهم وأصلاب آبائهم ﴿أَسْهَدُهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ قررهم، بإثبات ربوبيته، بما أودعه في فطرهم من الإقرار، بأنه ربهم، وخالقهم، ومليكمهم ﴿قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ أقررنا بذلك ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ تزعمون أن حجة الله ما قامت عليكم، ولا عندكم بها علم، بل أنتم غافلون عنها لاهون، فاليوم قد انقطعت حججتكم، وثبتت الحجة البالغة لله عليكم.

(١٧٣) ﴿أَوْ تَقُولُوا﴾ أو تحتجون بحجة أخرى؛ فتقولون: ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ فحدونا حدوهم، وتبعناهم في

باطلهم ﴿أَفَنبَلِكُمْ إِنَّمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ المكذبون. (١٧٤) ﴿وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبِيَّهَا وَنُوحَها﴾ ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى ما عاهدوا الله عليه، فيرتدعوا عن القبائح.

(١٧٥) ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ علمناه كتاب الله؛ فصار العالم الكبير ﴿فَأَنسَلَخَ مِنْهَا فَاتِبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ انسلك من الاتصاف الحقيقي بالعلم بآيات الله، فترك هذا كتاب الله وراء ظهره، ونبذ الأخلاق التي يأمر بها الكتاب ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ تسلط عليه ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ الهالكين الحائرين بعد أن كان من الراشدين المرشدين.

(١٧٦) ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَفَتَنَّا بِهِ﴾ بأن نوقفه للعمل بها، فيرتفع في الدنيا والآخرة، فيتحصن من أعدائه، ﴿وَلَكِنَّهُ﴾ فعل ما يقتضي الخذلان؛ إذ ﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ مال إلى زينة الدنيا من الشهوات السفلية والمقاصد الدنية ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ وترك طاعة مولاه ﴿فَمَثَلُهُ﴾ في شدة حرصه على الدنيا، وانقطاع قلبه إليها ﴿كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحِمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثَ﴾ أي: لا

(١٧٢) قال أبو أسامة الهلالي - عفا الله عنه - : الصواب في تفسير هذه الآيات، هو: الميثاق الذي أخذه الله على ذرية آدم عليه السلام حين استخرجهم من ظهره، وأشهدهم على أنفسهم؛ فشهدوا بذلك؛ فاحتج عليهم به.

وقد تواترت الأحاديث بذلك، ومن أوضحها حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، عند أحمد وغيره بإسناد صحيح على شرط مسلم: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أخذ الله - تبارك وتعالى - الميثاق من ظهر آدم ببعمان - يعني: عرفة - فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها، فنثرهم بين يديه كالذر، ثم كلمهم قبلاً، قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ﴿١٧٣﴾ أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفنبلكم بما فعل المبطلون».

وأما الفطرة التي فطر الله الناس عليها، فإنما هي أثر ذلك الميثاق، وقد أشار إلى ذلك الحسن البصري عن الأسود بن سريع مرفوعاً: «ألا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة» الحديث. قال الحسن: والله لقد قال الله ذلك في كتابه، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ الآية.

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٦﴾ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧٧﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٧٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧٩﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٠﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا يَصَاحِبُهُمْ مِنْ جَحَنَّمَ إِن هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨١﴾ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَكْرُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ حَدِيثٌ بَعْدَ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٢﴾ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَسَادٌ لَهُمْ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَادِيٌ لِّمَنْ يَشَاءُ وَأَنَّهُ يَتْلُو النَّفْسَ الَّتِي نَفَخَ فِيهَا مِن رُّسُلِهِمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٣﴾ يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُكَ الْوَقْتُ إِلَّا هُوَ يُفَلِّتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ الْبَعْثَةُ يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِن أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾

أهلها يعملون ﴿هُم قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ لا يصل إليها فقه ولا علم، إلا مجرد قيام الحجة ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ فقدوا منفعتها وفائدتها ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ سماعاً يصل معناه إلى قلوبهم، ﴿أُولَئِكَ﴾ الذين بهذه الأوصاف القبيحة ﴿كَالْأَنْعَامِ﴾ البهائم ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ من البهائم

يزال لاهثاً في كل حال، وهذا لا يزال حريصاً، حرصاً قاطعاً قلبه، ولا يسد فاقته شيء من الدنيا ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ بعد أن ساقها الله إليهم، فلم ينقادوا لها، وكذبوا بها ﴿فَأَقْصَصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في ضرب الأمثال، وفي العبر والآيات، فإذا تفكروا؛ علموا، وإذا علموا؛ عملوا.

(١٧٧) ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: ساء وقبح، مثل من كذب بآيات الله، وظلم نفسه، بأنواع المعاصي، فشبها بالكلاب التي لا همة لها إلا تحصيل أكلة أو شهوة ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ أي: ما ظلمهم الله، ولكن هم ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن الهدى.

(١٧٨) ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ﴾ بأن يوفقه للخيرات، ويعصمه من المكروهات، ويعلمه ما لم يكن يعلم، ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِىُّ﴾ حقاً؛ لأنه أثر هديته تعالى، ﴿وَمَنْ يُضِلِلْ﴾ فيخذه، ولا يوفقه للخير ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ لأنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

(١٧٩) ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ أنشأنا وخلقنا ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ هيأناهم لها، وبعمل

(١٨١) في «الصحيحين» من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه، واللفظ للبخاري: أن رسول الله ﷺ قال: «ليس لنا مثل السوء: العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه».

(١٨٢) في «السنن» لأبي داود، والنسائي وغيرهما من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بإسناد صحيح لغيره قال: علمنا رسول الله ﷺ خطبة الحاجة في النكاح وغيره: «إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له» الحديث.

(١٨٣) في «صحيح مسلم» من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء».

وفيه من حديث عائشة بنت طلحة عن خالتها عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: دُعي رسول الله ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت: يا رسول الله! طوبى له عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل السوء ولم يدركه، فقال رسول الله ﷺ: «أو غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق الجنة، وخلق لها أهلاً، وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النار، وخلق لها أهلاً، وهم في أصلاب آبائهم».

(١٨٣) ﴿وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ أمهلهم وأطول لهم ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ قوي شديد.

(١٨٤) ﴿أَوَلَمْ يَنْفَكُوا﴾ هؤلاء المكذبون ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ﴾ محمد ﷺ ﴿مَنْ جِنَّةٌ﴾ جنون ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ بل هو رسول الله، يدعو الخلق إلى ما ينجيهم من العذاب، ويحصل لهم الثواب.

(١٨٥) ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا﴾ هؤلاء المكذبون بآياتنا ﴿فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ في ملك الله وسلطانه؛ فإنهم إذا نظروا إليها، وجدوها أدلة على توحيد ربها، وعلى ما له من صفات الكمال، ﴿وَلَوْ﴾ كذلك لينظروا إلى جميع ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ فإن جميع أجزاء العالم، تدل أعظم دلالة، على الله وقدرته، وحكمته، وسعة رحمته، وإحسانه، ونفوذ مشيئته، وغير ذلك من صفاته العظيمة، الدالة على تفرد بالخلق والتدبير، الموجبة لأن يكون هو المعبود المحمود، ﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ لينظروا في خصوص حالهم، ولينظروا لأنفسهم قبل أن يقترب أجلهم، ويفجأهم الموت، وهم في غفلة معرضون ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ إذا لم يؤمنوا بهذا الكتاب الجليل، فبأي حديث يؤمنون به؟!

(١٨٦) ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَلاَ هَادِيَ لَهٗ﴾ من كتب عليه الضلالة؛ فإنه لا يهديه أحد ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يتحيرون ويترددون.

﴿أَوَلَيْكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ الذين غفلوا عن أنفع الأشياء، غفلوا عن الإيمان بالله وطاعته وذكره.

(١٨٠) ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ هذا بيان لعظيم جلاله وسعة أوصافه بأن له الأسماء الحسنى، أي: له كل اسم حسن ومن تمام كونها «حسنى» أنه لا يدعى إلا بها، ولذلك قال: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة، ودعاء المسألة ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ حقيقة الإلحاد: الميل بها عما جعلت له؛ إما أن يسمى بها من لا يستحقها؛ كتسمية المشركين بها لآلهتهم، وإما بنفي معانيها وتحريفها، وأن يجعل لها معنى ما أراده الله ولا رسوله، وإما أن يشبهه به غيرها ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ عقوبة وعذاباً على إلحادهم في أسمائه.

(١٨١) ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا﴾ ومن جملة من خلقنا من الأمم ﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ أمة فاضلة، كاملة في نفسها مكمله لغيرها، يهدون أنفسهم وغيرهم بالحق ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ بين الناس في أحكامهم، إذا حكموا بينهم.

(١٨٢) ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ والذين كذبوا بآيات الله، الدالة على صحة ما جاء به محمد ﷺ، من الهدى، فردوها ولم يقبلوها، ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بأن الله يدر لهم الأرزاق ووجوه المعاش في الدنيا حتى يغتروا بما هم فيه، ويعتقدوا أنهم على شيء.

(١٨٠) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر».

(١٨١) في «الصحيحين» من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق؛ لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى تقوم الساعة». وفي رواية: «حتى يأتي أمر الله، وهم على ذلك». وفي رواية: «وهم بالشام».

(١٨٧) ﴿يَسْأَلُونَكَ الْمَكْذِبُونَ لَكَ ﴿عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِنُهَا﴾ متى وقتها الذي تجيء به؟ ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ إنه تعالى المختص بعلمها ﴿لَا يَجِئُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ﴾ لا يظهرها لوقتها الذي قدر أن تقوم به إلا هو، ﴿ثُقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خفي علمها على أهل السماوات والأرض، ﴿لَا تَأْتِيكَ إِلَّا بَغْثَةً﴾ فجأة ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيفٌ عَنْهَا﴾ كأنك عالم بها، من قولهم: أحفيت في المسألة، أي: بالغت فيها، معناه: كأنك بالغت في السؤال عنها حتى علمتها ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن علمها عند الله حتى سألوا محمد ﷺ عنها.

(١٨٨) ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ فإنني فقير مُدْبِر، لا يأتيني خير إلا من الله، ولا يدفع عني الشر إلا هو، وليس لي من العلم إلا ما علمني الله تعالى ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبُ لَسْتَكَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ لفعلت الأسباب التي أعلم أنها تنتج لي المصالح والمنافع، ولحذرت من كل ما يفضي إلى سوء ومكروه ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أُنذر بالعقوبات الدينية والدنيوية والأخروية، وأبين الأعمال المفضية إلى ذلك وأحذر منها ﴿وَبَشِيرٌ﴾ بالثواب العاجل، ببيان الأعمال الموصلة إليه، والترغيب فيها ﴿لَقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ولكن ليس كل أحد يقبل هذه البشارة والنذارة، وإنما ينتفع بذلك ويقبله المؤمنون.

(١٨٩) ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ أيها الرجال والنساء

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبُ لَسْتَكَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدْوٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّيَا حَمَلًا خَفِيًّا فَامْرَأَتُ بِهِ فَلَمَّا أَفَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهَا لَبِنَ ءَاتَيْنَا صَالِحًا لَتَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا ءَاتَيْنَاهَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَيْنَاهُمَا فَفَعَلَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيْشُرُكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَبْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِنْ نَدَعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنْ الَّذِينَ نَدَعَوْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا أَلْعَمَّانَ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ اللَّهُمَّ ارْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آيَةٌ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آيَةٌ يَبْصُرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آيَةٌ إِسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تَطْرُقُونَ ﴿١٩٥﴾

المنتشرون في الأرض ﴿مِنْ نَفْسٍ وَجِدْوٍ﴾ وهو: آدم أبو البشر ﷺ ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي: خلق من آدم زوجته حواء ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ليألفها ويسكن بها ﴿فَلَمَّا تَغَشَّيَا حَمَلًا خَفِيًّا﴾ تجلَّ لها مجامعها لها ﴿حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيًّا﴾ وذلك في ابتداء الحمل، لا تحس به الأنثى ولا يثقلها، ﴿فَلَمَّا﴾ استمرت و﴿أَفَلَتْ﴾ به حين كبر في بطنها ﴿دَعَا اللَّهَ رَبَّهَا لَبِنَ ءَاتَيْنَا صَالِحًا﴾ ولذا ﴿صَالِحًا﴾ صالح الخلقة تامها لا نقص فيه ﴿لَتَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

(١٩٠) ﴿فَلَمَّا ءَاتَيْنَاهَا صَالِحًا﴾ وتمت عليهما النعمة فيه ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَيْنَاهُمَا﴾ جعل الله لهما شركاء

(١٨٧) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لما جاء جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ في صورة أعرابي يعلم الناس أمر دينهم، فجلس من رسول الله ﷺ مجلس السائل المسترشد، وسأله عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، ثم قال: فمتى الساعة؟ قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية.

(١٨٩) أخرج ابن جرير الطبري بإسناد صحيح عن الحسن؛ قال: هم اليهود والنصارى: رزقهم الله أولادًا؛ فهو دوا، ونصروا.

يَتَّبِعُكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَالِمُونَ ﴿١٩٤﴾
لأنها لا تسمع ولا تبصر، ولا تهدي ولا تهدى .
﴿١٩٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ نَدَعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ
أَمْثَالِكُمْ ﴿١٩٥﴾ لا فرق بينكم وبينهم، فكلكم عبيد الله
مملكون؛ فإن كنتم كما ترعمون صادقين، في أنها
تستحق من العبادة شيئاً ﴿١٩٦﴾ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا
لَكُمْ ﴿١٩٧﴾ فإن استجابوا لكم، وحصلوا مطلوبكم،
وإلا تبين أنكم كاذبون في هذه الدعوى، مفترون
على الله أعظم الفرية، وهذا لا يحتاج إلى تبين
فيه، فإنكم إذا نظرتם إليها وجدتم صورتها دالة
على أنه ليس لديها من النفع شيء .

﴿١٩٥﴾ أَلَمْ أَنْجَلْ يَمْسُونَ بِهَا أَمْ لَّهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ
بِهَا أَمْ لَّهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَّهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ
بِهَا ﴿١٩٦﴾ فليس لها أرجل تمشي بها، ولا أيد تبطش
بها، ولا أعين تبصر بها، ولا آذان تسمع بها، فهي
عادمة لجميع الآلات والقوى الموجودة في
الإنسان؛ فإذا كانت لا تجيبكم إذا دعوتوها، فهي
عباد أمثالكم، بل أنتم أكمل منها، وأقوى على
كثير من الأشياء، فلا شيء عبدتموها؟! ﴿١٩٧﴾ قُلْ
ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُظْهِرُوا ﴿١٩٨﴾ اجتمعوا أنتم
وشركاؤكم، على إيقاع السوء والمكروه بي، من
غير إمهال ولا إنظار؛ فإنكم غير بالغين لشيء من
المكروه بي .

﴿١٩٦﴾ إِنَّ وَلِيََّ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَلَّانِي، فيجلب
لي المنافع ويدفع عني المضار ﴿١٩٧﴾ الَّذِي نَزَّلَ
الْكِتَابَ الَّذِي فِيهِ الْهُدَى وَالشَّفَاءُ وَالنُّورُ ﴿١٩٨﴾ وَهُوَ
يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٩﴾ الذين صلحت نياتهم وأعمالهم
وأقوالهم .

﴿١٩٧﴾ وَالَّذِينَ نَدَعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ
نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿٢٠٠﴾ وهذا أيضاً

إِنَّ وَلِيََّ اللَّهَ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾
وَالَّذِينَ نَدَعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا
أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِنْ نَدَعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا
وَنَرَبُّهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ الْعُقُودَ أَمْرًا
بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِنَّمَا يَرْغَبُ مِنَ
الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ
الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا
فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغِيِّ ثُمَّ
لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا قَالُوا لَهُمْ مَا أَفْعَلُوا أَلَا أَجِبْتَهُمْ
قُلْ إِنَّمَا أَنْتُمْ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ
وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ
فَأَسْمِعُوا لَهُمْ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَأَذْكُرْ تِلْكَ
فِي نَفْسِكَ نَصْرَكُمَا وَخِيفَةَ دُونِ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ
وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ
لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾

في ذلك الولد. الذي انفرد الله بإيجاده، والنعمة
به، وأقر به أعين والديه، فعبّده لغير الله، وهذا
انتقال من النوع إلى الجنس، فإن أول الكلام، في
آدم وحواء، ثم انتقل الكلام في الجنس، ولا شك
أن هذا موجود في الذرية كثيراً .

﴿١٩١﴾ أَتَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا أَتَشْرِكُونَ بِهِ مِنْ
المعبودات ما لا يخلق شيئاً ولا يستطيع ذلك
﴿وَهُمْ يَخْلُقُونَ﴾ وهم مخلوقون مصنوعون، كما
قال الخليل عليه السلام: ﴿أَعْبُدُوا مَا تَنْجُونَ﴾ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ
خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿الصفات: ٩٥، ٩٦﴾ .

﴿١٩٢﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ لِعَابِدِيهَا ﴿نَصْرًا وَلَا﴾
أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٣﴾ ولا لأنفسهم ينصرون ممن
أرادهم بسوء .

﴿١٩٣﴾ وَإِنْ نَدَعُوهُمْ وَإِنْ تدعوا أيها المشركون
هذه الأصنام التي عبدتم من دون الله ﴿إِلَى الْهُدَى لَا﴾

ذَنْبًا ﴿مَنْ الشَّيْطَانُ﴾ بنزغه أو مسه أو وسوسته ﴿تَذَكَّرُوا﴾ عقاب الله وجزيل ثوابه، ووعدته ووعيدته فتابوا وأتابوا ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ قد استقاموا، وصحوا مما كانوا فيه.

(٢٠٢) ﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾ وأما إخوان الشياطين وأولياؤهم؛ فإنهم إذا وقعوا في الذنوب لا يزالون ﴿يُتَذَكَّرُونَ فِي اللَّيْلِ﴾ ذنباً بعد ذنب ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ عن ذلك؛ فالشياطين لا تقصر عنهم بالإغواء؛ لأنها طمعت فيهم حين رأتهم سَلِسِي القياد لها، وهم لا يقصرون عن فعل الشر.

(٢٠٣) ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ﴾ من آيات الاقتراح التي يعينونها ﴿قَالُوا لَوْلَا آجَتَبْتَهَا﴾ هلا اخترت الآية؛ فصارت الآية الفلانية، والمعجزة الفلانية؟ ﴿قُلْ إِنَّمَا آتَيْتُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ أنا لا أتقدم إليه تعالى في شيء؛ لأنني عبد متبع، مدبر، والله تعالى هو الذي ينزل الآيات ويرسلها ﴿هَذَا﴾ القرآن العظيم، والذكر الحكيم ﴿بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أعظم المعجزات، وأبين الدلالات، وأصدق الحجج والبيانات، يستبصر به في جميع المطالب الإلهية، والمقاصد الإنسانية ﴿وَهَدَىٰ﴾ من الضلال ﴿وَرَحِمَهُ﴾ من الشقاء ﴿لَقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فالمؤمن مهتد بالقرآن، متبع له، سعيد في دنياه وآخره، وأما من لم يؤمن به، فإنه ضال شقي، في الدنيا والآخرة.

(٢٠٤) ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ هذا أمر عام في كل من سمع كتاب الله يتلى،

في بيان عدم استحقاق هذه الأنداد والأصنام والأوثان التي يعبدونها من دون الله لشيء من العبادة؛ لأنها ليس لها استطاعة ولا اقتدار في نصر أنفسها، ولا في نصر عابديها، وليس لها قوة العقل والاستجابة.

(١٩٨) ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا﴾ فلو دعوتها إلى الهدى لم يهتدوا؛ لأنهم لا يسمعون ﴿وَتَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ﴾ يقابلونك بعيون مصورة كأنها ناظرة إليك ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ وهم جماد لا حراك بها، ولا حياة.

(١٩٩) ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ أي: ما سمحت به أنفسهم، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ بكل قول حسن، وفعل جميل، وخلق كامل، للقريب والبعيد ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ أمر الله تعالى أن يقابل الجاهل بالإعراض عنه، وعدم مقابله بجهله.

(٢٠٠) ﴿وَلَمَّا﴾ في أي وقت وأي حال ﴿يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ﴾ تحس منه بوسوسة، وتثبيط عن الخير، أو حث على الشر وإيعاز به ﴿فَاسْتَحِذْ بِاللَّهِ﴾ التجئ واعتصم بالله من نزغه، واحتم بحماه، ف ﴿إِنَّهُمْ سَمِيعٌ﴾ لما تقول ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيتك وضعفك، وقوة التجائك له، فسيحملك من فتنته، ويقيك من وسوسته.

(٢٠١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ يخبر الله عن المتقين من عباده أنهم ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾ أصابهم ﴿طَلِيفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ غضب أو صرع أو أصابوا

(١٩٩) في صحيح البخاري عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه **﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾** قال: ما أنزلها الله إلا في أخلاق الناس.

(٢٠٤) في «صحيح مسلم»، عن حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما جعل الإمام ليؤتم به، فإذا

كبر؛ فكبروا، وإذا قرأ؛ فأنصتوا».

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، والطبري، وابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه بإسناد صحيح لغيره؛ قال: كانوا =

الرحمة، قد فاته خير كثير ومن أوكد ما يؤمر به مستمع القرآن، أنه يستمع له وينصت في الصلاة الجهرية إذا قرأ إمامه .

(٢٠٥) ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ أي: مخلصاً خالياً ﴿تَضَرَّعاً﴾ بلسانك، مكرراً لأنواع الذكر، ﴿وَخِيفَةً﴾ في قلبك بأن تكون خائفاً من الله، وجل القلب منه، ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ كن متوسطاً، لا تجهر بصلاتك، ولا تخافت بها، وابتنح بين ذلك سبيلاً ﴿بِالْقُدُّوسِ﴾ أول النهار ﴿وَالْأَصَالِ﴾ آخره ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْفَاقِلِينَ﴾ الذين نسوا الله؛ فأنساهم أنفسهم .

(٢٠٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ من الملائكة المقربين، وحملة العرش ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ بل يذعنون لها، وينقادون لأوامر ربهم ﴿وَيُسَبِّحُونَ﴾ الليل والنهار لا يفترون، ﴿وَلَهُمْ﴾ وحده لا شريك له ﴿يَسْجُدُونَ﴾ فليقتد العباد بهؤلاء الملائكة الكرام، وليداوموا على عبادة الملك العلام .

سورة الأنفال وهي مدنية

(١) ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ كيف تقسم وعلى من تقسم؟ والأنفال؛ هي: الغنائم التي ينفلها الله



فإنه مأمور بالاستماع له والإنصات، والفرق بين الاستماع والإنصات: أن الإنصات في الظاهر بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه، وأما الاستماع له؛ فهو أن يلقي سمعه، ويحضر قلبه، ويتدبر ما يستمع .

﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ ولهذا رتب الله حصول الرحمة عليهما؛ فدل ذلك على أن من تلي عليه الكتاب، فلم يستمع له ولم ينصت، أنه محروم الحظ من

يتكلمون في الصلاة، فنزلت ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ﴾ الآية .

وأخرج الطبري بإسناد حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقول في هذه: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعاً وَخِيفَةً﴾. هذا في المكتوبة، وأما ما كان من قصص أو قراءة بعد ذلك؛ فإنما هي نافلة، إن نبي الله ﷺ قرأ في صلاة مكتوبة، وقرأ أصحابه وراءه؛ فخلطوا عليه، قال: فنزل القرآن: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ﴾ الآية، فهذا في المكتوبة .

(٢٠٦) في «صحيح مسلم» من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربهم؛ يتمون الصفوف الأول فالأول، ويتراصون في الصف» .

(١) في «صحيح البخاري»، عن ابن عباس رضي الله عنهما سورة الأنفال، قال: نزلت في بدر .

(٤) ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الذين اتصفوا بتلك الصفات ﴿هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لأنهم جمعوا بين الإسلام والإيمان، بين الأعمال الباطنة والأعمال الظاهرة، بين العلم والعمل ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ عالية بحسب علو أعمالهم، ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وهو ما أعد الله لهم في دار كرامته.

(٥) ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ﴾ كذلك أخرج الله رسوله ﷺ من بيته إلى لقاء المشركين في بدر ﴿بِالْحَقِّ﴾ الذي يحبه الله تعالى، وقد قدره وقضاه ﴿وَإِنَّ قَرِيبًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكُرْهُونَ﴾ لقاء عدوهم.

(٦) ﴿يَجِدُونَكَ فِي الْحَقِّ﴾ كراهية للقاء المشركين ﴿بَعْدَ مَا بَيَّنَّ﴾ لهم أنك لا تفعل إلا ما أمرك الله به ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَرْظُونَ﴾.

(٧) ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ وعد الله المؤمنين، إحدى الطائفتين: إما أن يظفروا بالغير، أو بالنفير ﴿وَوَدَّوْنَ أَنْ غَيَّرَ ذَاتَ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ فأحبوا العير لقلة ذات يد المسلمين، ولأنها غير ذات الشوكة، أي: لا حد لها ولا منعة، ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ﴾ ولكن الله تعالى أحب لهم وأراد أمرًا أعلى مما أحبوا: أراد أن يظفروا بالنفير، الذي خرج فيه كبراء المشركين وصناديدهم، ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ﴾ فينصر أهل له ﴿وَيَقْطَعَ دَائِرَ الْكَافِرِينَ﴾ يستأصل أهل الباطل.

(٨) ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ﴾ بما يظهر من الشواهد

لهذه الأمة، من أموال الكفار ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ يضعانها حيث شاءا ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أصلحوا ما بينكم من التشاحن والتقاطع والتدابير، بالتوادد والتحاب والتواصل ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في قسمه بينكم على ما أَرَادَهُ اللَّهُ ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، فإن الإيمان يدعو إلى طاعة الله ورسوله، كما أن من لم يطع الله ورسوله، فليس بمؤمن.

(٢) ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ الألف واللام للاستغراق لشرائع الإيمان ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ خافت ورهبت، فآدوا فرائضه ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ تصديقًا ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وحده لا شريك له ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ يعتمدون في قلوبهم على ربهم، في جلب مصالحهم، ودفع مضارهم الدينية والدنيوية.

وقد استدل البخاري وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهها على زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب، كما هو مذهب جمهور السلف الصالح، بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد من الأئمة؛ كالشافعي، وأحمد بن حنبل، وأبي عبيد وغيرهم.

(٣) ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ من فرائض، ونوافل، بأعمالها الظاهرة والباطنة ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ النفقات الواجبة كالزكوات والنفقة على الزوجات والأقارب، والمستحبة كالصدقة في جميع طرق الخير.

(٤) في «الصحيحين» من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل عليين ليراهم من أسفل منهم؛ كما ترون الكوكب الغابر في أفق من آفاق السماء». قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا ينالها غيرهم؟ فقال: «بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين».

﴿إِلَّا بُشْرَى﴾ لتستبشر بذلك نفوسكم ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ تسكن ويذهب منها القلق والاضطراب ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وإلا فالنصر بيد الله، ليس بكثرة عدد، ولا عدد ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يغالبه مغالب، بل هو القهار، الذي يخذل من بلغوا من الكثرة ومن العدد والآلات ما بلغوا ﴿حَكِيمٌ﴾ حيث قدر الأمور بأسبابها، ووضع الأشياء مواضعها.

(١١) ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ﴾ ومن نظره واستجابته لدعائكم: أن أنزل عليكم نعاساً يذهب ما في قلوبكم من الخوف والوجل، ويكون ﴿أَمَنَةً﴾ لكم، وعلامة على النصر والطمأنينة

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾ ومن ذلك: أنه أنزل عليكم من السماء مطراً؛ ليطهركم به من الحدث والخبث ﴿وَيَذْهَبَ عَنْكُمُ رِجْزُ الشَّيْطَانِ﴾ وليطهركم من وساوس الشيطان ورجزه، ﴿وَلِيُرِيطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ يشبثها ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾؛ فإن الأرض كانت سهلة دهسة، فلما نزل عليها المطر تلبدت، وثبتت به الأقدام. (١٢) ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَيْكَ إِلَى الْمَلَكِكَةِ﴾ ومن ذلك: أن الله أوحى إلى الملائكة ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ بالعون والنصر والتأييد، ﴿فَقَتَبُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ألقوا في قلوبهم والهموهم الجراءة على عدوهم،

إِذْ تَسْتَفِئُونَ رَبَّكُمْ فَأَسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١١﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمُ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيُرِيطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١٢﴾ إِذْ يُوحَىٰ رَيْكَ إِلَى الْمَلَكِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتَبَيَّنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلَرَّعَبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٤﴾ ذَلِكَ فَذُوقُوا وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٥﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا رَحِمًا فَلَا تَوَلَّوْهُمْ الْأَدْبَارَ ﴿١٦﴾ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبَشَىٰ الْخُسُوفِ ﴿١٧﴾

والبراهين على صحته وصدقه، ﴿وَيُبَيِّطُ الْبَاطِلَ﴾ بما يقيم من الأدلة والشواهد على بطلانه ﴿وَرَكَّوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ فلا يبالي الله بهم.

(٩) ﴿إِذْ تَسْتَفِئُونَ رَبَّكُمْ﴾ استغثتم بربكم وطلبتم منه أن يعينكم وينصركم ﴿فَأَسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ وأغاثكم بعدة أمور:

منها: أن الله أمدكم ﴿بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ﴾ يردف بعضهم بعضاً.

(١٠) ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ أي: إنزال الملائكة

(٩) في «صحيح مسلم» عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينا رجل من المسلمين يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه؛ إذ سمع ضربة سوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم. إذ نظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً، قال: فنظر إليه، فإذا هو قد خطم أنفه، وشق وجهه كضربة بالسوط، فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدث ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة»، فقتلوا يومئذ سبعين، وأسرُوا سبعين.

وفي صحيح البخاري من حديث رفاعة بن رافع رضي الله عنه قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: «ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: من «أفضل المسلمين». قال: وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة».

عليه في ذلك، ﴿أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فَتَةٍ﴾ أي: فر من هاهنا إلى فتة أخرى من المسلمين، يعاونهم ويعاونونه فيجوز له ذلك، حتى ولو كان في سرية ففر إلى أميره أو إلى الإمام الأعظم، دخل في هذه الرخصة. فأما إن كان الفرار لا عن هذه الأسباب، فإنه حرام وكبيرة من الكبائر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَقَدْ بَكَتْ﴾ رجع ﴿يَغْضَبُ رَبِّي﴾ الله ومآلونه ﴿مقره﴾ جهنم ﴿وَبَسَّ الْمَصِيرُ﴾.

(١٧) ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ بحولكم وقوتكم ﴿وَلَنْ يَكُنَّ﴾ الله قتلهم ﴿حَيْثُ أَعَانَكُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ﴾ وما رميت إذ رميت ﴿وَلَنْ يَكُنَّ﴾ الله ربي يقول تعالى لنبيه: لست بقوتك حين رميت التراب أوصلته إلى أعينهم، وإنما أوصلناه إليهم بقوتنا واقتدارنا، ﴿وَلْيَسِّرْ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾ إن الله تعالى قادر على انتصار المؤمنين من الكافرين، من دون مباشرة قتال، ولكن الله أراد أن يمتحن المؤمنين، ويوصلهم بالجهاد إلى أعلى الدرجات، وأرفع المقامات، ويعطيهم أجرا حسنا، وثوابا جزيلا ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع تعالى ما أسر به العبد وما أعلن، ﴿عَلِيمٌ﴾ يعلم ما في قلبه من النيات الصالحة وضدها، فيقدر على

ورغبوهم في الجهاد وفضله، ﴿سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ الخوف ﴿فَأَضَرُّوا قُوقَ الْأَعْنَاقِ﴾ على الرقاب ﴿وَأَضَرُّوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ مفصل، وهذا خطاب: إما للملائكة الذين أوحى إليهم أن يشتبوا الذين آمنوا، أو للمؤمنين يشجعهم الله ويعلمهم كيف يقتلون المشركين، وأنهم لا يرحمونهم.

(١٣) ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ حاربوهما، وبارزوهما بالعداوة ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ شِدِيدَ الْعِقَابِ﴾ ومن عقابه تسليط أوليائه على أعدائه، وتقتيلهم.

(١٤) ﴿ذَلِكَ﴾ العذاب المذكور ﴿فَذُوقُوهُ﴾ أيها المشاققون لله ورسوله عذابا معجلا ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ في الآخرة.

(١٥) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في صف القتال وتزاحف الرجال ﴿زَحَفًا﴾ تقاربتم منهم ودنوتهم إليهم ﴿فَلَا تُولُّوهُمْ الْأَذْبَارَ﴾ لا تفروا وتتركوا أصحابكم، بل اثبتوا. (١٦) ﴿وَمَنْ يُولِهِمْ يَوْمِزْ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ أي: يفر بين يدي عدوه مكيدة؛ ليريه أنه قد خاف منه فيتبعه، ثم يكر عليه فيقتله، فلا بأس

(١٥) في «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «اجتنبوا السبع الموبقات». قيل: يا رسول الله! وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات».

(١٦) أخرج البخاري في «تاريخه الكبير»، والنسائي في «الكبرى»، وابن أبي حاتم بإسناد حسن، عن نافع أنه سأل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قلت: إنا قوم لا نثبت عند لقاء عدونا، ولا ندرى من الفتة؟ قال لي: الفتة رسول الله ﷺ. فقلت: إن الله يقول في كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُّوهُمْ الْأَذْبَارَ﴾. قال: إنما نزلت هذه لأهل بدر، لا لقبها ولا بعدها.

وأخرج أبو داود والنسائي في «الكبرى» والحاكم بإسناد صحيح على شرط مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: نزلت في أهل بدر.

الاستفتاح وقاتل المؤمنين ﴿نَعِذُ﴾ في نصرهم عليكم ﴿وَلَنْ تَغِيَّ عَنْكُمْ فَتَحَكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ لو جمعتم الجموع من أعوانكم وأنصاركم، الذين تحاربون وتقاتلون معتمدين عليهم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ومن كان الله معه؛ فهو المنصور، وإن كان ضعيفا قليلا عدده.

(٢٠) ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بامثال أمرهما واجتناب نهيهما ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ عن هذا الأمر الذي هو طاعة الله، وطاعة رسوله، ﴿وَأَن تَسْمَعُوا﴾ ما يتلى عليكم من كتاب الله.

(٢١) ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا﴾ المراد المشركون ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ لا تكتفوا بمجرد الدعوى الخالية التي لا حقيقة لها؛ فليس الإيمان بالتمني، ولكنه ما وقر في القلب، وصدقته الأعمال.

(٢٢) ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ﴾ من لم تفد فيهم الآيات والنذر، وهم ﴿الصُّمُّ﴾ عن استماع الحق ﴿الْبُكْمُ﴾ عن النطق به، ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ما ينفعهم، ويؤثرونه على ما يضرهم. (٢٣) ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ ولو فرض أن لهم فهما صحيحا وقصدا صحيحا ﴿لَأَسْمَعَهُمْ﴾ لأفهمهم، ولكن لا خير فيهم فلم يفهمهم؛ لأنه يعلم أنه ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ أفهمهم ﴿لَتَوَلَّوْا﴾ عن ذلك قصدا وعنادا بعد فهمهم ذلك ﴿وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ عنه.

فَلَمْ يَفْعَلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلَئِذَا يُنَادِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا لَّا أَنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠﴾ ذَلِكَ وَأَنَّ اللَّهَ مُهِينٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿٢١﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِن تَنْتَهُوا فهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُدُّوا نَعْدُو لَنْ تَغِيَّ عَنْكُمْ فَتَحَكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَن تَسْمَعُوا ﴿٢٣﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَلَئِن لَّا نَسْمَعُ ﴿٢٤﴾ إِن شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٦﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَٰهٌ مُّخْشَرٌ ﴿٢٧﴾ وَأَتَوْا فَتَنَةً لِّأَصْحَابِ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٨﴾

العباد أقدارا، موافقة لعلمه وحكمته، ومصلحة عبادته، ويجزي كلاً بحسب نيته وعمله.

(١٨) ﴿ذَلِكَ﴾ النصر من الله لكم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُهِينٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ مضعف كل مكر وكيد، يكدون به الإسلام وأهله، وجاعل مكرهم محيقا بهم.

(١٩) ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا﴾ أيها المشركون؛ أي: تطلبون من الله أن يوقع بأسه وعذابه على المعتدين الظالمين ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ حين أوقع الله بكم من عقابه ﴿وَإِن تَنْتَهُوا﴾ عن الاستفتاح ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لأنه ربما أمهلكم، ولم يعجل لكم النقمة ﴿وَإِن تَعُدُّوا﴾ إلى

(١٩) أخرج أحمد والنسائي في «الكبرى» بإسناد صحيح على شرط مسلم، عن عبد الله بن ثعلبة بن صُغَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان المستفتح يوم بدر أبو جهل، وإنه قال حين التقى القوم: اللهم أبنا كان أقطع للرحم، وآتى لما لا نعرف؛ فافتح الغد، وكان ذلك استفتاحه، فأنزل الله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾.

(٢٤) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا﴾ أجبوا ﴿لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ أي: الانقياد لما أمراه به، والاجتناب لما نهى عنه ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ لما يصلحكم ويحيي قلوبكم وأرواحكم ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ فإن الله يقلب القلوب كيف شاء، ويصرفها أنى شاء ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ تجمعون ليوم لا ريب فيه.

(٢٥) ﴿وَاتَّقُوا﴾ احذروا ﴿فِتْنَةً﴾ اختباراً ومحنة ﴿لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ وذلك إذا ظهر الظلم فلم يغير؛ فإن عقوبته تعم الفاعل وغيره ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن تعرض لمساخطه، وجانب رضاه.

(٢٦) ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ مقهورون تحت حكم غيركم ﴿تَخَافُونَ أَنَّ يَخْطَفَكُمْ النَّاسُ﴾ يأخذوكم ﴿فَتَأْوِنَكُمْ﴾ ينصركم ﴿وَيَرْزُقْكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ فجعل لكم بلداً تأوون إليه، وانتصر من أعدائكم على أيديكم، وغنمتم من أموالهم ما كنتم به أغنياء ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على منته العظيمة، وإحسانه التام، بأن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئاً.

وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَخْطَفَكُمْ النَّاسُ فَتَأْوِنَكُمْ وَيَرْزُقْكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٤﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخَوْنُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخَوْنُوا أَمْنَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٦﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَقُوا اللَّهَ لَيُبَدِّلَنَّهُ لَكُمْ خَيْرَ مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ دَرَجَاتٍ لَكُمْ وَيَضَعُهَا وَأَن تَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَقُوا اللَّهَ لَيُبَدِّلَنَّهُ لَكُمْ خَيْرَ مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ دَرَجَاتٍ لَكُمْ وَيَضَعُهَا وَأَن تَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٣٠﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَقُوا اللَّهَ لَيُبَدِّلَنَّهُ لَكُمْ خَيْرَ مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ دَرَجَاتٍ لَكُمْ وَيَضَعُهَا وَأَن تَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٣٢﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَقُوا اللَّهَ لَيُبَدِّلَنَّهُ لَكُمْ خَيْرَ مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٣﴾

(٢٧) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخَوْنُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخَوْنُوا أَمْنَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين: أن يؤدوا ما ائتمنهم الله عليه، من أوامره، ونواهيه؛ فمن أدى الأمانة؛ استحق من الله الثواب الجزيل، ومن لم يؤدها بل

(٢٤) في «صحيح البخاري» عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه قال: كنت أصلي، فمر بي رسول الله ﷺ فدعاني، فلم آته حتى صليت، ثم آتيته فقال: «ما منعك أن تأتيني؟ ألم يقل الله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾». ثم قال: «لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج». فذهب رسول الله ﷺ ليخرج، فذكرت له، فقال: «هي ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ السبع المثاني».

في «صحيح مسلم»، في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد، يصرفه حيث يشاء». ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا إلى طاعتك».

(٢٥) أخرج البخاري وأحمد من حديث التيمان بن بشير رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم ركبو سفينة، فأصاب بعضهم أسفلها وأوعرها وشرها، وأصاب بعضهم أعلاها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مروا على من فوقهم فأدوهم، فقالوا: لو خرقتا في نصيبنا خرقتا، فاستقينا منه، ولم نؤذ من فوقنا. فإن تركوهم وأمرهم هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجو جميعاً».

السيئات بالذنوب الصغائر، ومغفرة الذنوب بتكفير الكبائر.

الرابع: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ الأجر العظيم، والثواب الجزيل، لمن اتقاه، وأثر رضاه على هوى نفسه.

(٣٠) ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾ يثبتوه عندهم بالحبس، ويوثقوه ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ يقتلوه فيستريحوا بزعمهم من دعوته ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ يجلوه من ديارهم، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ أي: فمكرت بهم بكيدي المتين حتى خلصتك منهم.

(٣١) ﴿وَإِذَا تُنْزِلَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ الدالة على صدق ما جاء به الرسول ﴿قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وهذا من عنادهم وظلمهم، وإلا فقد تحداهم الله: أن يأتوا بسورة من مثله، ويدعو من استطاعوا من دون الله، فلم يقدرُوا على ذلك، وتبين عجزهم.

(٣٢) ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا﴾ الذي يدعو إليه محمد ﴿هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَهُ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ قالوه على وجه الجزم منهم بباطلهم، والجهل بما ينبغي من الخطاب، فلو أنهم إذ أقاموا على باطلهم من الشبه والتمويهات، ما

خانها؛ استحق العقاب الويل، وصار خائناً لله وللرسول ولأمانته.

(٢٨) ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَنَ لَكُمْ وَأَوَّلَكُمْ فِتْنَةٌ﴾ اختبار وامتحان من الله لكم إذ أعطاكموها؛ ليعلم أتشكرونها عليها وتطيعونه فيها أو تستغلون بها عنه وتعتاضون بها منه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ثوابه وعطاؤه وجناته خير لكم من الأموال والأولاد؛ فإنه قد يوجد منهم عدو، والله سبحانه هو المتصرف المالك للدين والآخره، ولديه الثواب الجزيل يوم القيامة.

(٢٩) ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَفُتُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ تقوى الله عنوان السعادة، وعلامة الفلاح، وقد رتب الله على التقوى من خير الدنيا والآخرة، شيئاً كثيراً، فذكر هنا: أن من اتقى الله حصل له أربعة أشياء كل واحد منها خير من الدنيا وما فيها:

الأول: الفرقان، وهو: العلم والهدى الذي يفرق به صاحبه بين الهدى والضلال، والحق والباطل، والحلال والحرام، وأهل السعادة من أهل الشقاوة.

والثاني والثالث: تكفير السيئات ومغفرة الذنوب في قوله تعالى ﴿وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ وكل واحد منهما داخل في الآخر عند الإطلاق، وعند الاجتماع يفسر تكفير

(٣٠) أخرج الطبري بإسناد حسن، عن المطلب بن أبي وداعة: أن أبا طالب قال لرسول الله ﷺ: ما يأتى بك قومك؟ قال: «يريدون أن يسحروني ويقتلوني ويخرجوني». فقال: من أخبرك بهذا؟ قال: «ربي». قال: نعم الرب ربك؛ فاستوص به خيراً. فقال رسول الله ﷺ: «أنا أستوصي به؟ بل هو يستوصي بي خيراً». فنزلت ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية.

(٣٢) في «الصحاحين»، عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: هو أبو جهل بن هشام؛ قال: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَهُ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. فنزلت: ﴿وَمَا كُنَّا اللَّهُ لِنُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كُنَّا اللَّهُ مَعَهُمْ وَهُمْ لَا يَسْتَعْفِفُونَ﴾.

أوجب لهم أن يكونوا على بصيرة ويقين منه - قالوا لمن ناظرهم، وادعى أن الحق معه: إن كان هذا هو الحق من عندك؛ فاهدنا له، لكان أولى لهم وأستر لظلمهم.

(٣٣) ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةُ لَعْنَتِهِمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ فوجوده ﷺ أمانة لهم من العذاب، وكانوا مع قولهم هذه المقالة التي يظهرونها على رؤوس الأشهاد، يدرون بقبحها؛ فكانوا يخافون من وقوعها فيهم، فيستغفرون الله تعالى، فلهذا قال: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةُ لَعْنَتِهِمْ وَمَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

(٣٤) ﴿وَمَا لَهُمْ إِلَّا يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي شيء يمنعهم من عذاب الله، وقد فعلوا ما يوجب ذلك، وهو: صد الناس عن المسجد الحرام، خصوصاً صدهم النبي ﷺ وأصحابه، ﴿وَمَا كَانُوا﴾ أي: المشركون ﴿أَوْلِيَاءَهُمْ﴾؛ يحتمل أن الضمير يعود إلى الله، أي: أولياء الله، ويحتمل أن يعود إلى المسجد الحرام، أي: وما كانوا أولى به من غيرهم، ﴿إِنْ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُنَافِقُونَ﴾ وهم الذين آمنوا بالله ورسوله، وأفردوا الله بالتوحيد والعبادة، وأخلصوا له الدين، ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلذلك ادَّعَوْا لأنفسهم أمراً غيرهم أولى به.

(٣٥) ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ صفيراً وتصفيقاً ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ تكذبون وتجددون.

(٣٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ليلطلوا الحق، وينصروا الباطل، ﴿فَيُفْسِقُونَ﴾ فيصيدون هذه النفقة،

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَمَا لَهُمْ إِلَّا يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُنَافِقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُفْسِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ ﴿٣٧﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جِمَاعًا يَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَقَدْ تَلَوْتُمُ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّهِ فَإِنْ أَنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مُوَلِّكُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ وَيَعْلَمُ الْغُيُوبَ ﴿٤١﴾

١٨١

وتخف عليهم، لتمسكهم بالباطل، وشدة بغضهم للحق، ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ فتذهب ندامة، وخزياً، وذلاً ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ فتذهب أموالهم وما أملوا، ويعذبون في الآخرة أشد العذاب، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ﴾ يجمعون إليها؛ ليدوقوا عذابها.

(٣٧) ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ واللَّهُ تعالى يريد أن يميز الخبيث من الطيب، ويجعل كل واحد على حدة، وفي دار تخصصه، ويجعل الخبيث بعضه على بعض، من الأعمال والأموال والأشخاص، ﴿فَيَرْكُمُهُ جِمَاعًا﴾ أي: يجمعه كله ﴿فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الذين خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة.

أَنْتَبُوا ﴿٤٠﴾ عَنْ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الظُّلُمِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ خَافِيَةٌ .

﴿٤٠﴾ ﴿وَإِنْ لَوْلَا﴾ عَنْ الطَّاعَةِ وَاسْتَمَرُّوا عَلَى خِلَافِكُمْ وَمُحَارِبَتِكُمْ ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ﴾ سَيِّدِكُمْ وَنَاصِرِكُمْ عَلَى أَعْدَائِكُمْ ﴿يَعْمُ الْمَوْلَى﴾ الَّذِي يَتَوَلَّى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿وَيَعْمُ النَّصِيرُ﴾ الَّذِي يَنْصُرُهُمْ، فَيُدْفَعُ عَنْهُمْ كَيْدَ الْفُجَّارِ، وَتَكَالِبُ الْأَشْرَارِ .

﴿٤١﴾ ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أَخَذْتُمْ مِنْ مَالِ الْكُفَّارِ قَهْرًا بِحَقِّ ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ وَبَاقِيَهُ لَكُمْ، وَأَمَّا هَذَا الْخُمُسُ، فَيُقَسَّمُ خَمْسَةً أَسْهُمًا: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ سَهْمٌ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ .
﴿وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ الْخُمُسُ الثَّانِي: هُمْ قَرَابَةُ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَلَبِ، وَأَضَافَهُ اللَّهُ إِلَى الْقَرَابَةِ، دَلِيلًا عَلَى أَنَّ الْعِلَّةَ فِيهِ مَجْرَدُ الْقَرَابَةِ، فَيَسْتَوِي فِيهِ غَنِيهِمْ وَفُقَرَاهُمْ، ذَكَرَهُمْ وَأَتَاهُمْ .

﴿وَالْيَتَامَى﴾ الْخُمُسُ الثَّالِثُ: لِلْيَتَامَى الَّذِينَ فَقَدُوا آبَاءَهُمْ، وَهُمْ صِغَارُ .
﴿وَالسَّكِينِ﴾ الْخُمُسُ الرَّابِعُ: لِلْمَسَاكِينِ أَيِ: الْمُحْتَاجِينَ الْفُقَرَاءِ، مِنْ صِغَارٍ وَكِبَارٍ، ذُكِرَ وَإِنَاثُ .
﴿وَأَبْنَى السَّبِيلِ﴾ الْخُمُسُ الْخَامِسُ: لِابْنِ السَّبِيلِ

وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَى السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَقَّى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدِّينِ وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصْوَى وَالرَّكْبِ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَا خِلَافَ لَكُمْ فِي الْعِيعَةِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أُمُورًا كَانَتْ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ فَلْيَا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ كَثِيرًا قَلِيلًا وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْفَتْحِ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أُمُورًا كَانَتْ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا وَإِنَّا لَنَفِئَةٌ فَتَةً ﴿٤٥﴾ فَانْشَبُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٦﴾

﴿٣٨﴾ ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا﴾ عَنْ كُفْرِهِمْ، وَذَلِكَ بِالْإِسْلَامِ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ﴿يَغْفِرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ مِنَ الْجَرَائِمِ ﴿وَإِنْ يَعُودُوا﴾ إِلَى كُفْرِهِمْ ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ بِإِهْلَاكِ الْأُمَمِ الْمَكْذُوبَةِ .

﴿٣٩﴾ ﴿وَقَلِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ شَرِكٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴿وَيَكُونَ الَّذِينَ كَلَّمُوا لِلَّهِ﴾ يَكُونُ التَّوْحِيدُ خَالِصًا لِلَّهِ لَيْسَ فِيهِ شَرِكٌ ﴿فَإِنْ

﴿٣٩﴾ فِي «صَحِيحِ الْبَخَارِيِّ» عَنْ نَافِعٍ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَجُلًا جَاءَهُ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَلَا تَسْمَعُ مَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ [الْحَجَرَات: ٩] . فَمَا يَمْنَعُكَ أَلَّا تَقَاتِلَ كَمَا ذَكَرَ فِي كِتَابِهِ؟ فَقَالَ: يَا بَنِي أَخِي، أَغْتَرَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَلَا أَقَاتِلُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَغْتَرَّ بِالْآيَةِ الَّتِي يَقُولُ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَدِّيًا﴾ إِلَى آخِرِهَا [النِّسَاء: ٩٣] . قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَقَلِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؟ قَالَ ابْنُ عُمَرَ: قَدْ فَعَلْنَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ كَانَ الْإِسْلَامَ قَلِيلًا وَكَانَ الرَّجُلُ يُفْتَنُ فِي دِينِهِ: إِمَّا أَنْ يَقْتُلُوهُ، وَإِمَّا أَنْ يُوْتَقُوهُ، حَتَّى كَثُرَ الْإِسْلَامُ فَلَمْ تَكُنْ فِتْنَةً . فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ لَا يُوَافِقُهُ فِيمَا يَرِيدُ، قَالَ: فَمَا قَوْلُكَ فِي عَلِيٍّ وَعُثْمَانَ؟ قَالَ ابْنُ عُمَرَ: مَا قَوْلِي فِي عَلِيٍّ وَعُثْمَانَ؟ أَمَّا عُثْمَانُ فَكَانَ اللَّهُ قَدْ عَفَا عَنْهُ، وَكَرِهْتُمْ أَنْ يَغْفُوَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَمَّا عَلِيٌّ؛ فَابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَحَتَّتَهُ .

الغريب المنقطع به في غير بلده.

وجعل الله أداء الخمس على وجهه شرطاً للإيمان، فقال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ﴾ أي: فاقبلوه إن كنتم آمنتم بالله، ﴿وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ أي: إن كنتم آمنتم بالله وما أزلنا على عبدنا، يعني: قوله: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ والمراد القسمة ﴿يَوْمَ الْأَفْرَاقِ﴾ يوم بدر، الذي فرق الله به بين الحق والباطل ﴿يَوْمَ اتَّخَفَى الْجَمْعَانِ﴾ جمع المسلمين وجمع الكافرين ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يغالب أحد إلا غلبه.

(٤٢) ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدَّنْيَا﴾ بعدوة الوادي القريبة من المدينة، ﴿وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ جانبه البعيد من المدينة ﴿وَالرَّكْبُ﴾ غير قريش فيها أموالهم ﴿أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ مما يلي ساحل البحر ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ﴾ أنتم وإياهم على هذا الوصف، وبهذه الحال ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ لابد من تقدم أو تأخر، ﴿وَلَكِنْ﴾ الله جمعكم على هذه الحال ﴿لَيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي: مقدراً في الأزل ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ ليكون حجة وبينة للمعاند، ﴿وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ يزداد المؤمن بصيرة وبقينا ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ لدعائكم وتضرعكم ﴿عَلِيمٌ﴾ علیم

بكم وأنكم تستحقون النصر.

(٤٣) ﴿إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلاً﴾ وكان الله قد أرى رسوله المشركين في الرؤيا قليلاً؛ فبشر بذلك أصحابه؛ فاطمأنت قلوبهم، وثبتت أفئدتهم ﴿وَلَوْ أَرَادَكُمُ كَثِيراً﴾ فأخبرت بذلك أصحابك ﴿لَفَشِلْتُمْ وَلَكِنِزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ فمنكم من يرى الإقدام على قتالهم، ومنكم من لا يرى ذلك، والتنازع مما يوجب الفشل ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ لطف بكم ﴿إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَذَاتُ الضُّوْرِ﴾ أي: بما فيها من ثبات وجزع، وصدق وكذب.

(٤٤) ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَيُّمِ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً﴾ أرى الله المؤمنين عدوهم قليلاً في أعينهم ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ﴾ يا معشر المؤمنين ﴿فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ فكل من الطائفتين، ترى الأخرى قليلة، لتقدم كل منهما على الأخرى ﴿لَيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ من نصر المؤمنين وخذلان الكافرين ﴿وَأَنَّ اللَّهَ رَجْعُ الْأُمُورِ﴾ جميع أمور الخلائق ترجع إلى الله.

(٤٥) ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ طائفة من الكفار تقاتلكم ﴿فَانْصَبُوا﴾ لقاتلها ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً﴾ واستعينوا على ذلك بالإكثار من ذكر الله ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ تدركون ما تطلبون من الانتصار على أعدائكم.

(٤٢) في «الصحيحين» من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه قال: «إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون غير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد».

(٤٥) في «الصحيحين» عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو حتى إذا مالت الشمس قام فيهم، فقال: «يا أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف». ثم قام النبي ﷺ وقال: «اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم».

فيها محمد ومن معه ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ من أن يأتيكم أحد ممن تخشون غائلته، ﴿فَلَمَّا تَرَأَتْ أَلْفَتَانِ﴾ المسلمون والكافرون ﴿نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ﴾ ولى مدبراً ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ أرى الملائكة ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ أخاف أن يعاجلني بالعقوبة في الدنيا ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

(٤٩) ﴿إِذْ يَكْفُلُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ شك وشبهة: ﴿عَرَّ هَؤُلَاءِ دِينَهُمْ﴾ أوردتهم الدين الذي هم عليه، هذه الموارد، التي لا يدان لهم بها. ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ يعتمد على جنابه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا تغلب قوته قوة ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما قضاه وأجراه.

(٥٠) ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا أَلْمَلَكُتُ﴾ ولو ترى الذين كفروا بآيات الله، حين توفاهم الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم، وقد اشتد بهم القلق، وعظم كربهم ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ أسأههم ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ العذاب الشديد المحرق.

(٥١) ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ﴾ ذلك العذاب حصل لكم بما قدمت أيديكم من المعاصي التي أثرت لكم ما أثرت ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ لا يظلم أحداً من خلقه.

(٥٢) ﴿كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ كعادة قوم فرعون ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم المكذبة بالرسول ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَآَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ بالعقاب ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لا يعجزه أحد، ولا يغلبه غالب، ولا يفوته هارب.

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتَزَعَوْا فَنَفْسُكُمْ وَأَنْتُمْ رِجَالٌ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بِطَرَا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٢﴾ وَإِذْ زَيْنٌ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ وَقَالَ لَأَغَالِبَ لَكُمْ يَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتْ أَلْفَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ ﴿٣﴾ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ عَرَّ هَؤُلَاءِ دِينَهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٥﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا أَلْمَلَكُتُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٦﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٧﴾ كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَآَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٨﴾

(٤٦) ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في استعمال ما أمرا به ﴿وَلَا تَتَزَعَوْا﴾ تنازعا يوجب تشتيت القلوب وتفرقها ﴿فَنَفْسُكُمْ﴾ أي: تجنبوا ﴿وَنَذْهَبَ رِجَالُكُمْ﴾ تفرق قوتكم ﴿وَأَصْبِرُوا﴾ نفوسكم على طاعة الله ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالعون والنصر والتأييد.

(٤٧) ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ﴾ ينهى الله المؤمنين عن التشبه بالكافرين والمشركين في خروجهم ﴿بَطَرًا﴾ دفعا للحق ﴿وَرِثَاءَ النَّاسِ﴾ وهو المفاخرة والتكبر ﴿وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ عالم بما جاءوا به وله.

(٤٨) ﴿وَإِذْ زَيْنٌ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ﴾ حسنها في قلوبهم ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ يَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾ فإنكم في عَدَدٍ وعُدَدٍ وهيئة لا يقاومكم

(٥١) في «صحيح مسلم» عن أبي ذر رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: «إن الله - تعالى - يقول: يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا».

(٥٣) ﴿ذَلِكَ﴾ العذاب الذي أوقعه الله بالأمر المكذبة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا مَعْرَاضَ مَا بِأَنفُسِكُمْ﴾ من نعم الدين والدنيا ﴿حَتَّىٰ يَغِيرُوا مَا بِأَنفُسِكُمْ﴾ من الطاعة إلى المعصية، فكفروا نعمة الله، وبدلوها كفرًا، فنسلبهم إياها ونغيرها عليهم، كما غيروا ما بأنفسهم، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع جميع ما نطق به الناطقون ﴿عَلِيمٌ﴾ ويعلم ما تنطوي عليه الضمائر، وتخفيه السرائر.

(٥٤) ﴿كَذَّابٌ﴾ كعادة فرعون وقومه ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كقوم نوح وعاد وثمود ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ حين جاءتهم ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ يَذُوبُهُمْ﴾ كل بحسب جرمه ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ في البحر ﴿وَكُلٌّ﴾ من المهلكين المعذبين ﴿كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ لأنفسهم.

(٥٥) ﴿إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يخبر تعالى أن شر ما دب على الأرض هم الذين كفروا ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فهم شر من الحمير والكلاب؛ لأن الخير معدوم منهم، والشر متوقع فيهم.

(٥٦) ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ﴾ أخذت منهم العهد ﴿ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ لا يثبتون على عهد عاهدوه، أو قول قالوه، وكلما أكدوه بالآيمان نكثوه ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ لا يخافون الله تعالى في نقض العهد.

(٥٧) ﴿فَمَا تَتَّقُهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ تجدنهم في حال المحاربة، بحيث لا يكون لهم عهد وميثاق،

ذَلِكَ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ يَكُ مَعْرَاضًا نَعْمَةً أَنْفَعَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّىٰ يَغِيرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَذَّابٌ أَيْ فِرْعَوْنُ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ يَذُوبُهُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَمَا تَتَّقُهُمْ فِي الْحَرْبِ فَتَرَدُّ بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِنَّمَا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيفَةٍ لَّا تَنْفَعُكَ عَلَيْهِمْ حِسَابُ لَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَأَمَّا تَتَّقُونَهُمْ أَوْ يَنْتَفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَوْفُوا بِآيَاتِكُمْ وَأَنَّهُمْ لَا تَتْلُمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِن كَانُوا مِنَّا فَاجِنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾

﴿فَتَرَدُّ بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ نكل بهم غيرهم، وأوقع بهم من العقوبة، ما يصيرون به عبرة لمن بعدهم ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي: من خلفهم ﴿يَدْكُرُونَ﴾ صنيعهم؛ لئلا يصيبهم ما أصابهم إن نكثوا عهدهم.

(٥٨) ﴿وَإِنَّمَا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيفَةٍ﴾ أي: وإذا كان بينك وبين قوم عهد وميثاق على ترك القتال، فخفت منهم نقضًا للعهد والمواثيق ﴿فَأَنذِرْهُمُ﴾ ارم عليهم عهدهم ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ حتى يستوي علمك وعلمهم بذلك، ولا يحل لك أن تغدرهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ﴾ حتى ولو في حق الكافرين، بل يبغض الخائنين أشد البغض؛ فلا بد

(٥٨) أخرج أبو داود والترمذي وأحمد بإسناد صحيح عن سليم بن عامر؛ قال: كان معاوية يسير في أرض الروم، وكان بينه وبينهم أمد. فأراد أن يدنو منهم؛ فإذا انقضى الأمد غزاهم، فإذا شيخ على دابة يقول: الله أكبر الله أكبر، وفاء لا غدرا، إن رسول الله ﷺ قال: «ومن كان بينه وبين قوم عهد، فلا يحلن عقدة ولا يشدها حتى ينقضى أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء». قال فبلغ ذلك معاوية، فرجع، فإذا بالشيخ عروة بن عتبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والخنادق، وآلات الدفاع، والرأي والسياسة التي بها يتقدم المسلمون ويندفع عنهم به شر أعدائهم، وتعلم الرمي، والشجاعة والتدبير، ومن ذلك الاستعداد بالمراكب المحتاج إليها عند القتال، ولهذا قال: ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وهذه العلة موجودة فيها في ذلك الزمان، وهي إرهاب الأعداء، والحكم يدور مع علته، فإذا كان شيء موجود أكثر إرهاباً منها، كالسيارات البرية والهوائية، المعدة للقتال، التي تكون النكاية فيها أشد، كانت مأموراً بالاستعداد بها، والسعي لتحصيلها حتى إنها إذا لم توجد إلا بتعلم الصناعة. وجب ذلك؛ لأن (ما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب).

وقوله: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ ممن تعلمون أنهم أعداؤكم ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ﴾ ممن سيقاتلونكم بعد هذا الوقت، الذي يخاطبهم الله به ﴿اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ فلذلك أمرهم بالاستعداد لهم، ومن أعظم ما يعين على قتالهم بذل النفقات المالية في جهاد الكفار، ولهذا قال تعالى مرغباً في ذلك: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قليلاً كان أو كثيراً ﴿يُوفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أجره يوم القيامة مضاعفاً أضعافاً كثيرة ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَظْلُمُونَ﴾ لا تنقصون من أجرها وثوابها شيئاً.

(٦١) ﴿وَإِنْ جَنَحُوا﴾ أي: الكفار المحاربون، أي: مالوا ﴿لِلسَّلَامِ﴾ الصلح وترك القتال؛ ﴿فَاجْتَنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أجبهم إلى ما طلبوا متوكلاً على ربك ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

(٦٢) ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ﴾ وإن كانوا يريدون

وَأِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَارْتَحَسْكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَنْذَكَ بَصِيرَةً وَالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦١﴾ وَاللَّيْلِ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقَتْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا لَاقَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُمْ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٢﴾ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَدِيرُونَ يَغْلِبُوا يَمَانَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٦٣﴾ أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلَّمَ أَنَّ فِيكُمْ مَضْعَفًا إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا يَمَانَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٤﴾ مَا كُنَّا لِنَكُونَ لَهُ وَأَسْرَى حَتَّى تُمِخَّ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الذَّنْبِ وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٥﴾ لَوْلَا كُتِبَ مِنَ اللَّهِ سَبَقٌ لَمَسَكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٦﴾ تَكُونُوا مِمَّا عَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَأَنْفِقُوا وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٧﴾

من أمر بين، يبرئكم من الخيانة. (٥٩) ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لا يحسب الكافرون بربهم المكذبون لنبيه أنهم ﴿سَبَقُوا﴾ فاتوا الله فلا يقدر عليهم؛ بل هم تحت قهر قدرته، وفي قبضة مشيئته، ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ فلا يعجزونه فالله لهم بالمرصاد.

(٦٠) ﴿وَأَعِدُّوا﴾ لأعدائكم الكفار ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ كل ما تقدرُونَ عليه، من القوة العقلية والمدنية، وأنواع الأسلحة، ونحو ذلك، مما يعين على قتالهم، فدخل أنواع الصناعات التي تعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات من المدافع والرشاشات والبنادق، والطائرات الجوية، والمراكب البرية والبحرية، والحصون والقلاع

(٦٠) في «صحيح مسلم» من حديث عفة بن عامر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول - وهو على المنبر -: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي.

المتبعين لرسوله، بالكفاية والنصرة على الأعداء. (٦٥) ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ حثهم واستنهضهم إليه بكل ما يقوي عزائمهم وينشط همهم، ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿عَشْرُونَ صَبِيرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يكون الواحد بنسبة عشرة من الكفار، وذلك ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: الكفار ﴿قَوْمٌ لَا يَفْقَهُوهُ﴾ أي: لا علم بما أعد الله للمجاهدين في سبيله.

(٦٦) ﴿الَّذِينَ خَفَفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلَّمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ فذلك اقتضت رحمته، وحكمته التخفيف ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بعونه وتأييده.

(٦٧) ﴿مَا كَانَتْ لِي أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُخْرِجَ فِي الْأَرْضِ﴾ ما ينبغي ولا يليق به إذا قاتل الكفار، الذين يريدون أن يطفئوا نور الله، ويسعون لإخماد دينه وألاً يبقى على وجه الأرض من يعبد الله، أن يتسرع إلى أسرهم وإيقائهم؛ لأجل الفداء الذي يحصل منهم، ﴿تُرِيدُونَ﴾ بأخذكم الفداء وإبقائهم ﴿عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ لا لمصلحة تعود إلى دينكم، ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ بإعزاز دينه، ونصر أوليائه، وجعل كلمتهم عالية فوق غيرهم، فيأمركم بما يوصل إلى ذلك،

بالصلح خديعة؛ ليتقوا ويستعدوا ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ كافيك ما يؤذك ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِصُرُوهُ﴾ أعانك بمعونة سماوية، وهو: النصر منه، الذي لا يقاومه شيء، ﴿وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ ومعونة بالمؤمنين بأن قيضهم لنصرك.

(٦٨) ﴿وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ﴾ وجمع بين قلوب المؤمنين من الأوس والخزرج، بعد التفرق والتشتت، على دينه الحق، فصيرهم به جميعاً بعد أن كانوا أشتاتاً إخواناً بعد أن كانوا أعداء ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ وَغَيْرِهِمَا؛ لِتَأْلِفَهُمْ بَعْدَ تِلْكَ الْفِرَّةِ وَالْفِرْقَةِ الشَّدِيدَةِ﴾ مَا أَلَفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لأنه لا يقدر على قلب القلوب إلا الله تعالى ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ﴾؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَاصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ آل عمران: ١٠٣.

﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ﴾ ومن عزته: أن ألف بين قلوبهم، وجمعها بعد الفارقة ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله وأحكامه.

(٦٩) ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ كافيك ﴿وَمَنْ أَتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وكافي أتباعك من المؤمنين، وهذا وعد من الله لعباده المؤمنين

(٦٨) في «الصحيحين» من حديث عبد الله بن زيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما خطب الأنصار في شأن غنائم حنين قال لهم: «يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي وعالة فأغناكم الله بي وكنتم متفرقين فألفكم الله بي».

(٦٩) في «صحيح مسلم» عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم بدر: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض». فقال عمير بن الحُمام: عرضها السماوات والأرض؟! فقال رسول الله ﷺ: «نعم». فقال: يخ بخ! فقال: «ما يحملك على قولك يخ بخ؟» قال: رجاء أن أكون من أهلها! قال: «فإنك من أهلها». فتقدم الرجل؛ فكسر جفن سيقه، وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن، ثم ألقى بقيتتهن من يده، وقال: لئن أنا حييت حتى آكلهن إنها لحياة طويلة! ثم تقدم؛ فقاتل حتى قتل.

(٧٠) ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِنَّ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَبِعَفْوٍ لَكُمْ﴾
 ﴿وَاللَّهُ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾ (٧١) ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾
 ويدخلكم الجنة، ﴿وَاللَّهُ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾.

(٧١) ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ في السعي لحربك ومنابذتك، ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾
 بالأسرى يوم بدر ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بكل شيء، ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها، ومن علمه وحكمته أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة الجميلة، وقد تكفل بكفايتكم شأن الأسرى وشرهم إن أرادوا خيانة.

(٧٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا﴾ هذا عقد موالة ومحبة عقدها الله بين المهاجرين: الذين آمنوا، وهاجروا في سبيل الله، وتركوا أوطانهم لله، لأجل الجهاد في سبيل الله، وبين الأنصار: الذين آووا رسول الله ﷺ وأصحابه، وأعانوهم في ديارهم وأموالهم وأنفسهم ﴿أُولَئِكَ بِعَثَمٍ أُولِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ﴾
 إيمانهم، وتماثل اتصال بعضهم ببعض، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَكِيلٍ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجَرُوا﴾، فلما لم يهاجروا لم يكن لهم من ولاية المؤمنين شيء، لكنهم ﴿وَإِنْ أَسْتَضَرُّوكُمْ فِي الدِّينِ﴾
 لأجل قتال من قاتلهم من أجل الدين ﴿فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾ والقتال معهم، وأما من قاتلوهم لغير ذلك، من المقاصد، فليس عليكم نصرهم

وقوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ أي: عهد بترك القتال فإنهم إذا أراد المؤمنون المتميزون الذين لم يهاجروا قتالهم، فلا تعينوهم عليهم؛ لأجل ما بينكم وبينهم من الميثاق ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِنَّ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَبِعَفْوٍ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفْوٌ رَحِيمٌ (٧٠) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بِعَثَمٍ أُولِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَكِيلٍ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجَرُوا وَإِنْ أَسْتَضَرُّوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَثَمٍ أُولِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ أَتَفَعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولَئِكَ الْأَرْجَامُ بِعَثَمٍ أُولِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥)

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ كامل العزة، ولو شاء أن ينتصر من الكفار، من دون قتال، لَفَعَلَ، ولكنه ﴿حَكِيمٌ﴾ يتلى بعضكم ببعض.

(٦٨) ﴿وَلَا يَكُتِبُ مِنَ اللَّهِ سَبَقٌ﴾ به القضاء والقدر: أنه قد أحل لكم الغنائم ﴿لَكُمْ﴾ أصابكم ﴿فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ من الفداء قبل أن تؤمروا به ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

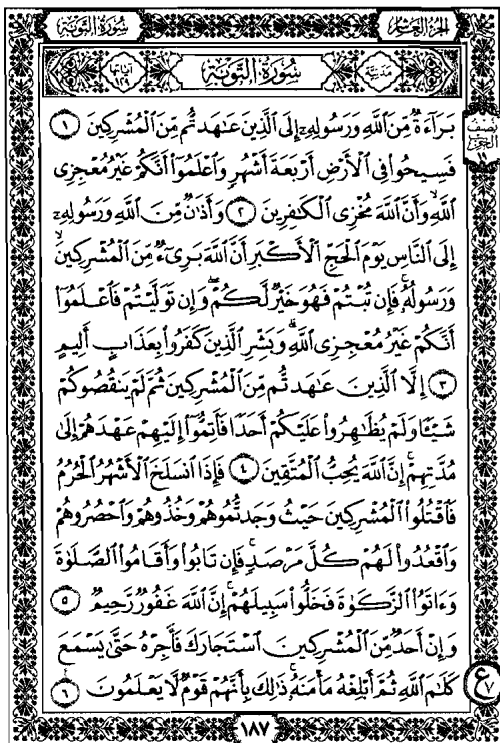
(٦٩) ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ وهذا من لطفه تعالى بهذه الأمة: أن أحل لها الغنائم، ولم تحل لأمة قبلها، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في جميع أموركم ولازموها؛ شكرًا لنعم الله عليكم، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر لمن تاب إليه جميع الذنوب، ويغفر لمن لم يشرك به شيئًا جميع المعاصي ﴿رَحِيمٌ﴾ بكم حيث أباح لكم الغنائم، وجعلها حلالًا طيبًا.

يعلم ما أنتم عليه، من الأحوال، فيشرع لكم من الأحكام، ما يليق بكم.

(٧٣) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ لما عقد الولاية بين المؤمنين، أخبر أن الكفار حيث جمعهم الكفر؛ فبعضهم أولياء بعض، فلا يوالىهم إلا كافر مثلهم، ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾؛ أي: موالة المؤمنين، ومعاودة الكافرين ﴿تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَثِيرٌ﴾ فإنه يحصل بذلك من الشر ما لا ينحصر: من اختلاط الحق بالباطل، والمؤمن بالكافر، وعدم كثير من العبادات الكبار؛ كالجهاد، والهجرة، وغير ذلك من مقاصد الشرع والدين، التي تفوت إذا لم يتخذ المؤمنون وحدهم أولياء بعضهم لبعض.

(٧٤) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ﴾؛ أي: من المهاجرين والأنصار، ﴿هُمْ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾؛ لأنهم صدقوا إيمانهم بما قاموا من الهجرة والنصرة والموالة للمؤمنين وجهاد الكافرين ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ من الله تمحى بها سيئاتهم ﴿وَرَوْحٌ كَرِيمٌ﴾ خير كثير من رب كريم في جنات النعيم.

(٧٥) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾ وكذلك من جاء بعد هؤلاء المهاجرين والأنصار، ممن اتبعهم بإحسان، فأمن وهاجر وجاهد في سبيل الله ﴿فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾ لهم ما لكم وعليهم ما عليكم، ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في حكم الله، فلا يرثه إلا أقاربه من العصبات، وأصحاب الفروض،



فإن لم يكونوا فأقرب قرباته من ذوي الأرحام ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في حكمه وشرعه، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءًا عَلِيمٌ﴾ ومنه ما يعلمه من أحوالكم التي يجري من شرائع الدين عليكم ما يناسبها.

سورة براءة (*)

(١) ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ هذا تبرؤ من الله ورسوله ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ إلى جميع المشركين المعاهدين.

(٢) ﴿فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ أن لهم أربعة أشهر يسبحون في الأرض على اختيارهم، آمنين من المؤمنين.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ ثم أُنذر المعاهدين

على عهدهم، ولم يجر منهم نقض فلا نقضوكم شيئاً، ﴿وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ ولا عاونوا عليكم أحداً، ﴿فَاتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ قلّت أو كثرت، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ الموفين بعهدهم، والذين أدوا ما أمروا به.

(٥) ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ﴾ التي حرم فيها قتال المشركين المعاهدين، وهي أشهر التسيير الأربعة، كما في قوله تعالى: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكََ الْدِينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَغْلِبُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ﴾ وتتمام المدة لمن له مدة أكثر منها، فقد برئت منهم الذمة ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ في أي مكان وزمان، وهذا مخصوص بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْلِبُوا عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يَقْتُلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١]

﴿وَحُدُّوهُمْ﴾ أسرى ﴿وَاحْصُرُوهُمْ﴾ ضيقوا عليهم ﴿وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ كل ثنية وموضع يمرون عليه ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ من شركهم ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أدوها بحقوقها، ﴿وَأَتَوْا الزَّكَاةَ﴾ لمستحقها ﴿فَخَلَّوْا سَبِيلَهُمْ﴾ اتركوهم، وليكونوا مثلكم، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر الشرك فما دونه للتائبين، ويرحمهم بتوفيقهم للتوبة، ثم قبولها منهم.

(٦) ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ من الذين أمرت

في مدة عهدهم أنهم، وإن كانوا آمنين، فإنهم لن يعجزوا الله، ولن يفوتوه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُخَيِّرُ الْكَافِرِينَ﴾ وأن من استمر على شركه؛ فإنه لا بد أن يخزيه.

(٣) ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ﴾ إعلام وإنذار من الله ورسوله إلى الناس ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ وهو يوم النحر الذي هو أفضل المناسك وأظهرها وأكثرها جمعا ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾؛ أي: بريء منهم أيضاً.

ثم رغب المشركين بالتوبة ورهبهم من الاستمرار على الشرك، فقال: ﴿فَإِنْ تَبَتُّمْ﴾ من الشرك والضلال، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في العاجل والآجل ﴿وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ استمررتم على ما أنتم عليه ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِزٌّ مُّعْجِزٌ لِلَّهِ﴾ غير فائتيه، بل هو قادر، وأنتم في قبضته وتحت قهره ومشيتته ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ مؤلم مقطع؛ في الدنيا بالخزي والنكال، وفي الآخرة بالمقارع والأغلال.

(٤) ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: هذه البراءة التامة وضرب التأجيل بأربعة أشهر لمن له عهد مطلق وليس بمؤقت، وأما من له عهد مؤقت فأجله إلى مدته المضروبة التي عوهد عليها، ﴿ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾ بشرط أن يستمروا

(٣) في «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «بعثني أبو بكر رضي الله عنه في تلك الحجة في المؤذنين بعثهم يوم النحر، يؤذنون بمنى: أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان».

(٥) في «الصحيحين» من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة».

وفي «صحيح البخاري» عن أنس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، واستقبلوا قبلتنا، وأكلوا ذبيحتنا، وصلوا صلاتنا؛ فقد حرمت دماؤهم وأموالهم إلا بحقها، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم».

الْمُتَّقِينَ

سُورَةُ التَّوْبَةِ

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٦﴾ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأَنَّى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ أَشْرَوْا بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخِوْهُمْ كَمَا فِي الَّذِينَ نَقَضُوا الْعَهْدَ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَتَلُوا أَيْمَةَ الْكُفَرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْنَ ﴿١٢﴾ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدُّكُمْ أَوْلَكَ مَرَّةً أَخَشَوْهُمْ فَاَللَّهُ أَشَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

١٨٨

بقتالهم ﴿أَسْتَخَارَكَ﴾ طلب منك أن تجيره وتمنعه من الضرر؛ لأجل أن يسمع كلام الله وينظر حالة الإسلام ﴿فَأَجْرُهُ﴾ فأجبهه إلى طلبه ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ من القرآن ﴿ثُمَّ﴾ إن أسلم؛ فذاك، وإلا فـ ﴿أَلَيْغَهُ مَأْمَنُهُ﴾ المحل الذي يأمن فيه؛ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ والسبب في ذلك: أن الكفار قوم لا يعلمون، فربما كان استمرارهم على كفرهم لجهل منهم، إذا زال اختاروا عليه الإسلام، فلذلك أمر الله رسوله، وأمه أسوته في الأحكام أن يجيروا من طلب أن يسمع كلام الله؛ ليعلم دين الله، وتنشر دعوته في عباده.

(٧) ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾؛ وهذا على وجه التعجب، ومعناه الجحد؛ أي: لا يكون لهم عهد ولا أمان عند الله، ولا عند رسوله، وهم يغدرون وينقضون العهد، ثم استثنى فقال جلا وعلا: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ من المشركين ﴿عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾؛ يعني: الحديبية ﴿فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ مهما تمسكوا بما عاهدتموهم عليه من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

(٨) ﴿كَيْفَ﴾ يكون للمشركين عند الله عهد وميثاق ﴿وَأَنَّ﴾ الحال أنهم ﴿إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ بالقدرة والسلطة ﴿لَا يَرْقُبُوا﴾ لا يرحموا ﴿فِيكُمْ﴾ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً ﴿لَا ذِمَّةٌ وَلَا قَرَابَةٌ﴾ ولا يخافون الله فيكم، ولا يغرنكم منهم ما يعاملونكم به وقت الخوف منكم، فإنهم ﴿يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأَنَّى قُلُوبُهُمْ﴾ الميل والمحبة لكم، بل هم الأعداء حقًا، المبغضون لكم صدقًا،

﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ لا ديانة لهم، ولا مروءة.

(٩) ﴿أَشْرَوْا بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾؛ أي: اختاروا الحظ العاجل الخسيس في الدنيا على الإيمان بالله ورسوله، والانقياد لآيات الله ﴿فَصَدَّوْا﴾ بأنفسهم، وصدوا غيرهم ﴿عَنْ سَبِيلِهِ﴾ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

(١٠) ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ لا يراعون في المسلمين عهدًا ولا قرابة ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾.

(١١) ﴿إِنْ تَابُوا﴾ عن شركهم وتناسوا عداوتكم ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخِوْهُمْ كَمَا فِي الَّذِينَ﴾ لهم ما لكم وعليهم ما عليكم ﴿وَنَقَضُوا الْعَهْدَ﴾ نوضحها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

(١٢) ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾

فتركوا أمر الله .

(١٤) ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ بالقتل ﴿وَيُخْزِيهِمْ﴾ إذا نصركم عليهم، وهم الأعداء الذين يطلب خزيهم، ويحرص عليه ﴿وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ هذا وعد من الله وبشارة قد أنجزها ﴿وَيُشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ يكون قتالهم وقتلهم شفاء لما في قلوب المؤمنين من الغم والهم .

(١٥) ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ عليهم وهذا يدل على محبة الله لعباده، واعتناؤه بأحوالهم، حتى إنه يجعل من جملة المقاصد الشرعية شفاء ما في صدورهم وذهاب غيظهم .

﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ من هؤلاء المحاربين، بأن يوفقهم للدخول في الإسلام ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها، ويعلم من يصلح للإيمان فيهديه، ومن لا يصلح فيبقيه في غيه وطمغانه .

(١٦) ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا﴾ من دون ابتلاء وامتحان ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ علماً يظهر ما في القوة إلى الخارج؛ ليرتب عليه الثواب والعقاب، فيعلم الذين يجاهدون في سبيله؛ لإعلاء كلمته ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَلِيًّا﴾ من الكافرين، بل يتخذون الله ورسوله والمؤمنين أولياء، ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ يِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ما يصير منكم ويصدر، فيبتليكم بما تظهر به حقيقة ما أنتم عليه، ويجازيكم على أعمالكم: خيرها وشرها .

(١٧) ﴿مَا كَانَ﴾ ينبغي ولا يليق ﴿لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ بالعبادة، والصلاة، وغيرها من أنواع الطاعات؛ ﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾ والحال: أنهم شاهدون ومقرون على

الْحَمْدُ لِلَّهِ
قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِبُ عَلَيْهِمْ وَيُشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ١٤ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ١٥ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَلِيًّا وَاللَّهُ خَيْرٌ يِمَّا تَعْمَلُونَ ١٦ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ١٧ لِمَا يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ مِنْ أَمْرٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَاتَّقَوْا اللَّهَ فَصَوِّرَ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُتَهَدِّينَ ١٨ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْكَرَامِ كَمَنْ أَمَرَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَهْدَ سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ١٩ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَجَرُوا وَجْهَهُمْ وَأَفْسَدُوا سَبِيلَ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَتَعْلَمُونَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَازُونَ ٢٠

نقضوها وحلوا، فقاتلوكم أو أعانوا على قتالكم ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ عابوه وسخروا منه ﴿فَقَاتِلُوا أَيمَةَ الْكَافِرِ﴾ القادة فيه؛ ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ﴾ لا عهود ولا موثيق يلازمون على الوفاء بها ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ في قتالك إياهم ﴿يَنْتَهُوْا﴾ عن الطعن في دينكم، وربما دخلوا فيه .

(١٣) ﴿أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا﴾ هذا تهيج وتحريض على قتال المشركين الذين ﴿تَكُونُوا أَيْمَنَهُمْ﴾ نقضوا عهودهم ﴿وَهَكُمُوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ الذي يجب احترامه وتوقيره وتعظيمه؟ وهموا أن يجلوه ويخرجوه من وطنه، وسعوا في ذلك ما أمكنهم، ﴿وَهُمْ بَدَّوْكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ حيث نقضوا العهد، وأعانوا عليكم، ﴿أَخْشَوْنَهُمْ﴾ في ترك قتالهم ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن كنتم مؤمنين فامثلوا لأمر الله، ولا تخشوهم

أنفسهم بالكفر؛ بشهادة حالهم وفطرهم، ﴿أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ﴾ بطلت وضلت ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾.

(١٨) ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ الواجبة والمستحبة، بالقيام
بالظاهر منها والباطن ﴿وَأَتَى الزَّكَاةَ﴾ لأهلها ﴿وَلَمْ
يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾؛ أي: قصر خشيته على ربه؛ فكف
عنه ما حرم الله، ولم يقصر بحقوق الله الواجبة
﴿فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ إن أولئك
هم المفلحون، وعسى من الله واجبة.

(١٩) ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ سقيهم الماء من زمزم
﴿وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْقَرَامِ كَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ فالجهاد
والإيمان بالله أفضل من سقاية الحاج وعمارة
المسجد الحرام بدرجات كثيرة؛ لأن الإيمان
أصل الدين، وبه تقبل الأعمال، وتزكو الخصال،
وأما الجهاد في سبيل الله؛ فهو ذروة سنام الدين،
به يحفظ الدين الإسلامي ويتسع، وينصر الحق،
وينخذل الباطل، وأما عمارة المسجد الحرام
وسقاية الحاج؛ فهي، وإن كانت أعمالاً صالحة،
فهي متوقفة على الإيمان، وليس فيها من المصالح
ما في الإيمان والجهاد، فلذلك قال: ﴿لَا يَسْتَوُونَ
عِنْدَ اللَّهِ﴾ في الأجر والغنيمة، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ﴾ الذين وصفهم الظلم، الذين لا

الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ

يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَّهَتْ لَهُمْ فِيهَا
فَيْصَهُمْ مُقِيمٌ ﴿١١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ
عَظِيمٌ ﴿١٢﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْخَرُوا عِبَادَ اللَّهِ
وَلَا أَخْوَانَكُمْ أُولَئِكَ إِن تَسْتَحِبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ
وَمَنْ يُوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣﴾ قَدْ إِنْ
كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ
وَأُمُومٌ أَفْتَرَقْتُمُوهُمْ وَتَجَعَلْتُمْ بَيْنَهُمْ حُجُورًا وَنَسَوْتُمْ
تَرْصُوفَهَا أَحِبَّ إِلَيْكُمْ رَبَّ اللَّهِ وَرَسُولَهُ وَجَهَادِ
فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ
كَثِيرَةٍ وَنَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ
تَغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ
بِمَارِجَتِمْ ثُمَّ وَالْتَصَمْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ أُنْزِلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ
عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُودًا لَمْ تَرَوْهَا
وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٦﴾

١١٠

يصلحون لقبول شيء من الخير.

(٢٠) ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
بِأَمْوَالِهِمْ﴾ بالنفقة في الجهاد، وتجهيز الغزاة
﴿وَأَنْفُسِهِمْ﴾ بالخروج بالنفس ﴿أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾؛ لا يفوز بالمطلوب، ولا
ينجو من المرهوب إلا من اتصف بصفاتهم،
وتخلق بأخلاقهم.

(٢١) ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ﴾ جوداً منه، وكرماً، وبراً
بهم ﴿بِرَحْمَةٍ مِنْهُ﴾ أزال بها عنهم الشرور،

(١٩) أخرج الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» بإسناد جيد من حديث أنس رضي الله عنه: «إن الله لينادي يوم القيامة: أين جبراني؟ أين جبراني؟ فتقول الملائكة: ربنا، ومن ينبغي أن يجاورك؟ فيقول: أين عمار المساجد؟».

في «صحيح مسلم» عن النعمان بن بشير رضي الله عنه: «كنت عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رجل: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام، إلا أن أسقي الحاج. وقال آخر: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام، إلا أن أعمر المسجد الحرام. وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلت. فزجرهم عمر، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو يوم الجمعة - ولكن إذا صليت الجمعة دخلت فاستفتيته فيما اختلفتم فيه. فأنزل الله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾... الآية».

وزخرفتها، وموافقتها لأهوائكم، فإن كانت هذه الأشياء ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ فأنتم فسقة ظلمة ﴿فَتَرْبَصُوا﴾ انتظروا ما يحل بكم من العقاب ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ الذي لا مرد له ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الخارجين عن طاعة الله، المقدمين على محبة الله شيئاً من المذكورات.

(٢٥) ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ وهو اسم للمكان الذي كانت فيه الوقعة بين مكة والطائف، ﴿إِذْ أَغْجَبْتَكُمْ كُفِّرْتُمْ فَلَمْ تَعْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ لم تفدكم شيئاً قليلاً ولا كثيراً، ﴿وَضَافَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ﴾ بما أصابكم من الهم والغم ﴿بِمَا رَحِمْتَ﴾ على رحبها وسعتها، ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ منهزمين.

(٢٦) ﴿ثُمَّ أُنْزِلَ اللَّهُ سَكِينَةً﴾ طمأنينة وثباته ﴿عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين معه ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَوْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالهزيمة والقتل، واستيلاء المسلمين على نسائهم وأولادهم وأموالهم ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ يعذبهم الله في الدنيا، ثم يردهم في الآخرة إلى عذاب غليظ.

وأوصل إليهم بها كل خير ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ منه تعالى عليهم ﴿وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَيْمٌ مُقِيمٌ﴾ من كل ما تشتهيهِ الأنفس، وتلد الأعين، مما لا يعلم وصفه ومقداره إلا الله تعالى.

(٢٢) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ لا ينتقلون عنها، ولا يبعثون عنها حولاً ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لا تستغرب كثرتة على فضل الله، ولا يتعجب من عظمه وحسنه على من يقول للشيء: كن؛ فيكون.

(٢٣) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ اعملوا بمقتضى الإيمان، بأن توالوا من قام به، وتعادوا من لم يقم به، و﴿لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ﴾ الذين هم أقرب الناس إليكم، فلا تتخذوهم ﴿أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا﴾ اختاروا على وجه الرضا والمحبة ﴿الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾، ﴿وَمَنْ يَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾؛ لأنهم تجرءوا على معاصي الله، واتخذوا أعداء الله أولياء.

(٢٤) ﴿قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ﴾ ومثلهم الأمهات ﴿وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ﴾ في النسب والعشيرة ﴿وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾؛ أي: قراباتكم عموماً ﴿وَأَمْوَالٌ أَقْرَبْتُمُوهَا﴾ اكتسبتموها، وتعبتم في تحصيلها ﴿وَبَنَادِرٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ رخصها ونقصها، ﴿وَمَسَكِينٌ تَرْضَوْنَهَا﴾ من حسننها

(٢٤) في «صحيح البخاري» عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: والله يا رسول الله، لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي. فقال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه». فقال عمر: فأنت الآن - والله - أحب إلي من نفسي، فقال رسول الله ﷺ: «الآن يا عمر».

(٢٥) في «الصحيحين» عن البراء بن عازب رضي الله عنه أنه قال له رجل: يا أبا عمارة، أفررت من رسول الله ﷺ يوم حنين؟! فقال: لكن رسول الله ﷺ لم يفر، إن هوازن كانوا قومًا رماة، فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا، فأقبل الناس على الغنائم، فاستقبلونا بالسهم، فانهزم الناس، فلقد رأيت رسول الله ﷺ على بغلته البيضاء، وإن أبا سفيان بن الحارث أخذ بلجامها والنبي ﷺ يقول: «أنا النبي لا كذب... أنا ابن عبد المطلب».

(٢٧) ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ ﴿فَتَابَ اللَّهُ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ كَانَتْ الْوَاقِعَةُ عَلَيْهِمْ، وَأَتُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مُسْلِمِينَ تَائِبِينَ، فَرَدَّ عَلَيْهِمْ نِسَاءَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ذُو مَغْفِرَةٍ وَاسِعَةٍ، وَرَحْمَةٍ عَامَةٍ، يَغْفُو عَنْ الذُّنُوبِ الْعَظِيمَةِ لِلتَّائِبِينَ، وَيَرْحَمُهُمْ بِتَوْفِيقِهِمُ لِلتَّوْبَةِ.

(٢٨) ﴿يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ﴾ بِاللَّهِ الَّذِينَ عَبْدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ ﴿بَجَسٍ﴾ خَبَثًا فِي عَقَائِدِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ ﴿فَلَا يَقْرَأُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ إِلَّا أَنْ يَكُونَ عَبْدًا أَوْ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ، ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ ﴿فَقَرُّوا وَحَاجَةً مِنْ مَنَعَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ قِرْبَانِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، بِأَنْ تَنْقُطَعَ الْأَسْبَابُ الَّتِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِنَ الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ، ﴿فَسَوْفَ يُعْطِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فَلَيْسَ الرِّزْقُ مَقْصُورًا عَلَى بَابٍ وَاحِدٍ وَمَحَلٍّ وَاحِدٍ مِنْ فَضْلِهِ، فَإِنْ فَضَّلَ اللَّهُ وَاسِعًا، وَجُودَهُ عَظِيمٌ.

﴿إِنْ شَاءَ﴾ تَعْلِيقٌ لِلْإِعْثَاءِ بِالْمَشِئَةِ؛ لِأَنَّ الْغِنَى فِي الدُّنْيَا لَيْسَ مِنْ لَوَازِمِ الْإِيمَانِ، وَلَا يَدُلُّ عَلَى مَحَبَّةِ اللَّهِ، فَلِهَذَا عَلَّقَهُ اللَّهُ بِالْمَشِئَةِ، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ عِلْمُهُ وَاسِعٌ، يَعْلَمُ مَنْ يَلِيقُ بِهِ الْغِنَى وَمَنْ لَا يَلِيقُ، ﴿حَكِيمٌ﴾ وَيَضَعُ الْأَشْيَاءَ مَوَاضِعَهَا، وَيَنْزِلُهَا مَنَازِلَهَا.

(٢٩) ﴿فَقَاتِلُوا﴾ هَذِهِ الْآيَةُ أَمْرٌ بِقِتَالِ الْكُفَّارِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى مِنْ ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إِيْمَانًا صَحِيحًا يَصْدُقُونَهُ بِأَعْمَالِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ، ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ فَلَا يَتَّبِعُونَ شَرْعَهُ فِي تَحْرِيمِ الْمَحْرُمَاتِ

سُورَةُ الْحَجَّاتِ

ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ بَجَسٍ فَلَا يَقْرَأُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُعْطِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَتَى يُوَفِّكَوْنَ ﴿١٠﴾ اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرَهْبَتُهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١١﴾

﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ لَا يَدِينُونَ بِالذِّينِ الصَّحِيحِ ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ وَإِنْ زَعَمُوا أَنَّهُمْ عَلَى دِينِ الْحَقِّ، فَإِنَّهُ دِينٌ غَيْرُ الْحَقِّ؛ لِأَنَّهُ مَا بَيْنَ دِينٍ مُبَدَّلٍ، وَهُوَ الَّذِي لَمْ يَشْرَعْهُ اللَّهُ أَصْلًا، وَإِمَا دِينٍ مَنْسُوخٍ قَدْ شَرَعَهُ اللَّهُ ثُمَّ غَيَّرَهُ بِشَرْعِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَغَيَّرَ ذَلِكَ الْقِتَالَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ الْمَالُ الَّذِي يَكُونُ جِزَاءً لتركِ الْمُسْلِمِينَ قِتَالَهُمْ، وَإِقَامَتِهِمْ آمِنِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ بَيْنَ أَظْهَرِ الْمُسْلِمِينَ، يُوْخَذُ مِنْهُمْ كُلَّ عَامٍ.

﴿عَنْ يَدٍ﴾، أَيُّ: حَتَّى يَبْدُلُوها فِي حَالِ ذَلَمِهِمْ، وَعَدَمِ اقْتِدَارِهِمْ، وَيُعْطُوها بِأَيْدِيهِمْ، فَلَا يَرْسُلُونَهَا بِهَا خَادِمًا، وَلَا غَيْرَهُ، بَلْ لَا تَقْبَلُ إِلَّا مِنْ أَيْدِيهِمْ ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ ذَلِيلُونَ.

(٢٩) فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا تَبْدُؤُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى بِالسَّلَامِ، وَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي الطَّرِيقِ؛ فَاضْطَرُّوهُ إِلَى أَصِيْقِهِ».

أَقُولُهُمْ فِي الْبَطْلَانِ ﴿فَكَذَّبَهُمُ اللَّهُ﴾ لَعْنَهُمُ اللَّهُ ﴿أَنْتَ يُؤَفِّكُونَ﴾ كَيْفَ يَصْرِفُونَ عَنِ الْحَقِّ الصَّرْفَ الْوَاضِحَ الْمُبِينِ إِلَى الْقَوْلِ الْبَاطِلِ الْمُبِينِ .
 (٣١) ﴿اتَّخَذُوا أَعْبَادَهُمْ﴾ وَهُمْ عِلْمَاؤُهُمْ ﴿وَرَهْبَنَهُمْ﴾ الْعُبَادُ الْمُتَجَرِّدِينَ لِلْعِبَادَةِ ﴿أَزْيَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يُحْلُونَ لَهُمْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُونَهُ، وَيَحْرُمُونَ لَهُمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَيَحْرُمُونَهُ، وَيَشْرَعُونَ لَهُمْ مِنَ الشَّرَائِعِ وَالْأَقْوَالِ الْمُنَافِيَةِ لِدِينِ الرِّسْلِ، فَيَتَّبِعُونَهُمْ عَلَيْهَا، ﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ اتَّخَذُوهُمُ إِلَهًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، ﴿وَالْحَالَ أَنَّهُمْ خَالَفُوا فِي ذَلِكَ رِسْلَهُ﴾ مَا أُمِرُوا ﴿أَمَرَ اللَّهُ لَهُمْ عَلَى السَّنَةِ رِسْلَهُ﴾ إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿فَيُخَلِّصُونَ لَهُ الْعِبَادَةَ وَالطَّاعَةَ، وَيُخَصِّصُونَهُ بِالْمَحَبَةِ وَالِدَعَاءِ، فَيُبْذَوُا أَمْرُ اللَّهِ وَأَشْرَكُوا بِهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا، سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تَنَزَّهَ وَتَقَدَّسَ، وَتَعَالَتْ عَظَمَتُهُ عَنْ شَرِكِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ .

(٣٢) ﴿يُرِيدُونَ﴾ بِهَذَا الْإِفْتِرَاءِ ﴿أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ وَنُورُ اللَّهِ : دِينُهُ الَّذِي أَرْسَلَ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ وَأَنْزَلَ بِهِ الْكِتَابَ، وَسَمَاهُ اللَّهُ نُورًا؛ لِأَنَّهُ يَسْتَنَارُ بِهِ فِي ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ ﴿وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُسَمَّرَ نُورُهُ﴾؛ لِأَنَّهُ النُّورُ الْبَاهِرُ الَّذِي لَا يُمْكِنُ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ لَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى إِطْفَائِهِ أَنْ يَطْفِئُوهُ، وَقَدْ تَكْفَلُ اللَّهُ بِحِفْظِهِ مِنْ كُلِّ مَنْ يَرِيدُهُ بِسُوءٍ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُسَمَّرَ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ وَسَعَوْا مَا أُمْكِنَهُمْ فِي رَدِّهِ وَإِبْطَالِهِ، فَإِنْ سَعَيْهِمْ لَا يَضُرُّ الْحَقَّ شَيْئًا .

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
 يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُسَمَّرَ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣١﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٢﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ مَأْمُورُونَ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرَّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُمْسِكُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يُخَيَّرُ عَلَيْهِمْ فِي نَارِجَهْمُ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَرَّيْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ إِنَّ عَذَابَ الشُّبُورِ عِنْدَ اللَّهِ أَشَدُّ عَذَابًا شَرًّا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرِّمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا بُعِثُوا لَكُمْ كَافَّةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾

(٣٠) ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ وَهَذِهِ الْمَقَالَةُ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مَقَالَةً لِّعَامَتِهِمْ، فَقَدْ قَالَهَا فِرْقَةٌ مِنْهُمْ، فَيَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ فِي الْيَهُودِ مِنَ الْخُبِّ وَالشَّرِّ مَا أَوْصَلَهُمْ إِلَى أَنْ قَالُوا هَذِهِ الْمَقَالَةُ الَّتِي تَجَرَّعُوا فِيهَا عَلَى اللَّهِ، وَتَنَقَّصُوا عَظَمَتَهُ وَجَلَالَهُ ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ﴾ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴿ابْنُ اللَّهِ﴾ فَرَدَّ اللَّهُ زَعْمَهُمْ، فَقَالَ: ﴿ذَلِكَ﴾ الْقَوْلُ الَّذِي قَالُوهُ ﴿قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ لَمْ يَقِيمُوا عَلَيْهِ حُجَّةً وَلَا بَرَهَانًا سِوَى الدَّعْوَى وَالْإِفْتِرَاءِ ﴿يُضَاهَوْنَ﴾ يَشَابَهُونَ فِي قَوْلِهِمْ هَذَا ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ قَوْلَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَقُولُونَ: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ. تَشَابَهَتْ

(٣١) أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ لِّغَيْرِهِ عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَليبٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَقَالَ: «يَا عَدِي، اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الرَّثْنَ». وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ «بَرَاءةٍ»: ﴿اتَّخَذُوا أَعْبَادَهُمْ وَرَهْبَنَهُمْ أَزْيَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾، قَالَ: «أَمَّا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَلَكِنْهُمْ كَانُوا إِذَا أَحْلَوْا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحْلَوْهُ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ».

(٣٣) ثم بين تعالى هذا النور الذي قد تكفل بإتمامه وحفظه فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾ الذي هو العلم النافع ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ الذي هو العمل الصالح ﴿يُظَاهِرُهُ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ليعليه على سائر الأديان بالحجة والبرهان، والسيف والسنان ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ أن ذلك تام، وبغوا له الغوائل، ومكروا مكروهم، فإن المكر السيئ لا يضر إلا صاحبه، فوعد الله لا بد أن ينتجزه، وما ضمنه لا بد أن يقوم به.

(٣٤) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ تحذير للمؤمنين ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَجَارِ وَالرُّهْبَانِ﴾ من كثير من علماء وعباد أهل الكتاب ﴿يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ فهم يأكلون أموال الناس بغير حق ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يصدون الناس عن اتباع الحق، ويلبسون الحق بالباطل لمن اتبعهم من الجهلة، ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ يمسكونها ﴿وَلَا يُفْقِدُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ طرق الخير الموصلة إلى الله، وهذا هو الكنز المحرم، أن يمسكها عن النفقة الواجبة، أو كأن يمنع الزكاة أو النفقات الواجبة للزوجات، أو

الأقارب، أو النفقة في سبيل الله إذا وجبت، ﴿فَنَبِّئْهُمْ بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾.

ثم فسر به بقوله:

(٣٥) ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا﴾ على أموالهم من الذهب والفضة ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ فيحمى كل دينار أو درهم على حدته ﴿فَتَكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ في يوم القيامة، كلما أعيدت في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ويقال لهم تويخاً ولوماً: ﴿هَذَا مَا كُنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ تَفْقِدُونَ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ فما ظلمكم ولكنكم ظلمتم أنفسكم، وعذبتموها بهذا الكنز.

(٣٦) ﴿إِنَّ عَذَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ﴾ في قضاء الله وقدره ﴿أَثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ وهي هذه الشهور المعروفة ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في حكمه القدري ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وأجرى ليلها ونهارها، وقد أوقاتها، فقسمها على هذه الشهور الاثني عشر شهراً ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ وهي: رجب الفرد، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، وسميت حرماً؛ لزيادة حرمتها، وتحريم القتال فيها، ﴿ذَلِكَ الَّذِينَ أَلْفَمُوا﴾ هذا الدين المستقيم

(٣٣) وفي «صحيح مسلم» عن ثوبان رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض».

(٣٤) أخرج أحمد والترمذي وابن ماجه بإسناد صحيح عن ثوبان رضي الله عنه قال: لما نزل في الفضة والذهب ما نزل قالوا: فأبي المال نتخذ؟ قال عمر: أنا أعلم ذلك لكم. فأوضح على بعير - أي جملة سرعة السير - فأدركه، وأنا في أثره، فقال: يا رسول الله، أي المال نتخذ؟ قال: «ليتخذ أحدكم قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وزوجة تعين أحدكم على أمر الآخرة».

(٣٥) أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل يوم القيامة صفائح من نار فيكوى بها جنبه وجهه وظهره في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين الناس، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة، وإما إلى النار».

(٣٦) في «الصحيحين» و«المسند» عن أبي بكر رضي الله عنه أن النبي ﷺ خطب في حجته فقال: «ألا إن الزمان استدار كهيبته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حُرُمٌ: ثلاثة متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مفضّر الذي بين جمادى وشعبان».

لِيُؤَاطِفُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ﴿٣٧﴾ لِيُؤَافِقُوهَا فِي الْعِدَّةِ
﴿فِيحُلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زِينَةَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾
زينت لهم الشياطين الأعمال السيئة، فأوها
حسنة؛ بسبب العقيدة المزينة في قلوبهم، ﴿وَاللَّهُ لَا
يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ الذين انصبغ الكفر والتكذيب
في قلوبهم، فلو جاءتهم كل آية لم يؤمنوا.

(٣٨) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ هذا بداية العتاب
لمن تخلف عن غزوة «تبوك»: ألا تعملون بمقتضى
الإيمان، ودواعي اليقين، من المبادرة لأمر الله،
والمسارعة إلى رضاه، وجهاد أعدائه لدينكم، ﴿فَمَا
لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَظَرْتُمْ إِلَى
الْأَنْزِلِ﴾ تكاسلتم فيها ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا
مِنَ الْآخِرَةِ﴾ ما حالكم إلا حال من رضي
بالدنيا، وسعى لها، ولم يبال بالآخرة، فكأنه ما آمن
بها ﴿فَمَا مَتَعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ التي مالت بكم،
وقدمتموها على الآخرة ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ كزاد الراكب.

(٣٩) ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في
الدنيا والآخرة ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ لإقامة
دينه ونصرة نبيه، ثم لا يكونوا أمثالكم ﴿وَلَا
تَضُرُّهُ شَيْئًا﴾ بتوليكم عن الجهاد، فإنه تعالى
متكفل بنصرة دينه وإعلاء كلمته فسواء امتثلتم لأمر
الله، أو ألقيتموه وراءكم ظهرًا.

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء
أراد، ولا يغالبه أحد.

(٤٠) ﴿إِلَّا تَضُرُّهُ﴾ أي: تنصروا رسوله
﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ فإن الله ناصره ومؤيده ﴿إِذْ
أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من مكة؛ لما هموا بقتله
﴿ثَاقِبِ اثْنَيْنِ﴾ هو وأبو بكر الصديق رضي الله عنهما ﴿إِذْ
هُمَا فِي الْغَارِ﴾ غار ثور ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ النبي ﷺ
﴿لِصَاحِبِهِ﴾ أبي بكر لما حزن واشتد قلقه ﴿لَا

إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا
يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤَاطِفُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ
فِيهِمْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ زِينَةَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَظَرْتُمْ
إِلَى الْأَنْزِلِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ
فَمَا مَتَعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾
إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا
غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَضُرُّهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ
الَّذِينَ كَفَرُوا ثَاقِبِ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ
يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنِّي نَافِلُكَ اللَّهُ مَعَكُمْ فَأَنْزَلَ
اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا
وَجَعَلَ لِكَلِمَةِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْشُّغْلَ
وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْغَلِيظُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

﴿فَلَا تَظَلِمُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ﴾ في الشهور كلها،
﴿وَقِيلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ أي: قاتلوا جميع أنواع
المشركين والكافرين برب العالمين ﴿كَمَا
يُقِيلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ لا تخصوا أحدًا منهم بالقتال
دون أحد، بل اجعلوهم كلهم لكم أعداء، كما
كانوا هم معكم كذلك، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾
بعونه، ونصره، وتأيده.

(٣٧) ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ النسبي
هو: ما كان أهل الجاهلية يستعملونه في الأشهر
الحرم، وكان من جملة بدعهم الباطلة: أن يؤخروا
بعض الأشهر الحرم، أو يقدموه، ويجعلوا مكانه
من أشهر الحل ما أرادوا، فإذا جعلوه مكانه أحلوا
القتال فيه، وجعلوا الشهر الحلال حرامًا، فهذا -
كما أخبر الله عنهم - زيادة في كفرهم وضلالهم
﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا

تَحَزَنَ إِنَّ اللَّهَ مَعَكُمْ ﴿٤١﴾ بعونه ونصره وتأييده
﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ الثبات والطمأنينة
والسكون المثبتة للنفوس ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ
تَرَوْهَا﴾ وهي الملائكة الكرام، الذين جعلهم الله
حرساً له، ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا
السُّفْلَى﴾ الساقطة المخذولة ﴿وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ
أَعْلَى﴾ كلماته القدريّة، وكلماته الدينيّة، هي
العالية على كلمة غيره ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا يغالبه
مغالِب، ولا يفوته هارب ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء
مواضعها، وقد يؤخر نصر حزبه إلى وقت آخر
اقتضته الحكمة الإلهية.

(٤١) ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ في العسر واليسر،
والمنشط والمكروه، والحر والبرد، وفي جميع
الأحوال ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ﴾ ابدلوا جهدكم في ذلك، واستفروا
وسعكم في المال والنفس ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ
كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الجهاد في النفس والمال خير
لكم من التقاعد عن ذلك؛ لأن فيه رضا الله
تعالى، والفوز بالدرجات العاليات عنده.

(٤٢) ﴿لَوْ كَانُوا خَرُوجَهُمْ﴾ عَرَضًا قَرِيبًا ﴿مَنْفَعَةٌ
دُنْيَوِيَّةٌ، سَهْلَةٌ التَّنَاوُلُ﴾ وَسَفَرًا قَاصِدًا ﴿وَكَانَ
السَّفَرُ قَرِيبًا سَهْلًا﴾ لَا تَبْعُوكَ ﴿لَعَدِمَ الْمَشَقَّةُ الْكَبِيرَةُ
وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ طالت عليهم
المسافة، وصعب عليهم السفر، فلذلك تفاقلوا
عنك ﴿وَسَيُخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾
سيحلفون لتخلفهم عن الخروج أن لهم عذراً،
وأنهم لا يستطيعون ذلك ﴿يَكُونُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾
بالقعود والكذب، والإخبار بغير الواقع، ﴿وَاللَّهُ

أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾
لَوْ كَانُوا عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبْعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ
عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيُخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا
مَعَكُمْ يَكُونُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾
عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَقَّ تَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ
صَدَقُوا وَتَعْلَمُوا الْكَذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَفْذِنُكَ الَّذِينَ
يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ الْيَمِينُ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَفْذِنُكَ الَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآزَاةٌ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ
فِي رَيْبٍ مِنْهُمْ يَرَدُّونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ
لَعَدُوا لِمُغَدَّةٍ وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ لِعُنَاتِهِمْ تَقَبُّطَهُمْ
وَقِيلَ أَفَسَاءُ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِئَكُمُ
مَارَادُكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا ضَعُفًا خَلَلَكُمْ يَبْعُونَكُمْ
الْفِتْنَةَ وَفِئَكُمْ سَتَعُونَ لَهُمُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾

يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ.

(٤٣) ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ سامحك، وغفر لك ما
أجريت. قال العلماء: وهذا من أحسن المعاتبة؛
بدأ بالعفو قبل المعاتبة. ﴿لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ في
التخلف ﴿حَقَّ تَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في
إبداء الأعداء ﴿وَتَعْلَمُوا الْكَذِبِينَ﴾ بأن تمتحنهم؛
ليتبين لك الصادق من الكاذب، فتعذر من
يستحق العذر، ممن لا يستحق ذلك.

(٤٤) ﴿لَا يَسْتَفْذِنُكَ﴾ في القعود عن الغزو
﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ قرنوا
الإيمان بالعمل ﴿أَنْ يَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾؛
لأنهم يرون الجهاد قربة ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُنْفِقِينَ﴾
فيجازيهم على ما قاموا به من تقواه.

(٤١) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «تَكْفُلُ اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ تَوَفَّاهُ أَنْ يَدْخُلَهُ
الْجَنَّةَ، أَوْ يَرُدَّهُ إِلَى مَنْزِلِهِ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرِ أَوْ غَنِيمَةٍ».

معك إلى الغزو ﴿لَا عُدُوَّ لَكُمْ عُدَّةٌ﴾ لاستعدوا وعملوا ما يمكنهم من الأسباب، ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ﴾ أبغض الله ﴿أُنْعَاثَهُمْ﴾ معكم في الخروج للغزو؛ ﴿فَتَبَطَّهْمُ﴾ أخرهم قدراً وقضاء وإن كان قد أمرهم وحشهم على الخروج، وجعلهم مقتدرين عليه، ولكن بحكمته ما أراد إغاثتهم، بل خذلهم وتبطهم ﴿وَقِيلَ أَقْعُدُوا مَعَ الْفَاعِلِينَ﴾ من النساء والمعذورين.

(٤٧) ثم ذكر الحكمة من ذلك فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ نقصاً؛ لأنهم جناء مخدولون ﴿وَلَا وَضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ ولسعوا في الفتنة والشر بينكم ﴿يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ﴾ هم حريصون على فتنكم، وإلقاء العداوة بينكم، ولفرقوا جماعتكم المجتمعين ﴿وَفِيكُمْ﴾ أناس ضعفاء العقول ﴿سَتَعُونَ لَهُمْ﴾ مستجيبون لدعوتهم، يغترون بهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ فيعلم عباده، كيف يحذرونهم، ويبين لهم من المفساد الناشئة من مخالطتهم.

(٤٨) ثم ذكر أنهم قد سبق لهم سوابق في الشر، فقال: ﴿لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ﴾ حين هاجرتهم إلى المدينة، فبذلوا الجهد ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ أداروا الأفكار، وأعملوا الحيل في إبطال دعوتكم وخذلان دينكم ﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ فبطل كيدهم واضمحل باطلهم.

(٤٩) ﴿وَمِنْهُمْ﴾ ومن هؤلاء المنافقين ﴿مَنْ يَكْفُلُ﴾ من يستأذن، ويعتذر بعذر آخر عجيب، فيقول: ﴿أَنْذَنْ لِي﴾ في التخلف ﴿وَلَا نَفْتِي﴾

لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُمْ مَن يَسْأَلُ أُنْذَنْ لِي وَلَا نَفْتِي ۖ الْآفِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِنْ تَصِبْتَ حَسَنَةً تَسْأَلْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَسْأَلُوا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْتَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ بَنَاءً لَا يَأْخُذُ الْحُسَيَيْنَ وَنَحْنُ نَرْتَضِي بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ يَأْتِيَكُمُ الْقَرْصُ إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرِضُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يَقْبَلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ يَقْبَلُوا مِنْهُمْ نَفَقَتَهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كَسَالَىٰ وَلَا يُفْقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾

(٤٥) ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ﴾ في القعود ممن لا عذر له ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ لا يرجون ثواب الله في الدار الآخرة على أعمالهم ﴿وَأَزْنَابٌ قُلُوبُهُمْ﴾ شكَّت في صحة ما جنتهم به، ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَذَدُّونَ﴾ لا يزالون في الشك والحيرة.

(٤٦) ثم قال تعالى مبيناً أن المتخلفين من المنافقين قد ظهر منهم من القرائن ما يبين أنهم ما قصدوا الخروج للجهاد بالكلية، وأن أعذارهم التي اعتذروها باطلة، فإن العذر هو المانع الذي يمنع إذا بذل العبد وسعه، في الخروج ثم منعه مانع شرعي فهذا الذي يعذر، فقال تعالى: ﴿وَ﴾ أما هؤلاء المنافقون ف﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾

(٤٩) أخرج الطبري وابن أبي حاتم بإسناد صحيح لغيره عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا جدُّ، هل لك في جَلَادِ بني الأصفر؟» قال جد: «أو تأذن لي يا رسول الله؟ فإني أحب النساء، وإني أخشى إن أنا رأيت نساء بني الأصفر أن أفتن.» فقال رسول الله ﷺ وهو معرض عنه: «قد أذنْتُ لك». فعندئذ أنزل الله: ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَسْأَلُ أُنْذَنْ لِي وَلَا نَفْتِي﴾... الآية.

في الخروج، فإني إذا خرجت فرأيت نساء بني الأصفر، لا أصبر عنهن. قال تعالى مبيناً كذب هذا القول: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ بقولهم هذا، وتخلفهم عن رسول الله، ففيه - أي: التخلف - مفسدة عظيمة، أعظم من الفتنة التي يزعمونها، ولكنهم كذبة في هذا الإدعاء، فهذا القائل قصده التخلف لا غير، ولهذا توعدهم الله بقوله: ﴿وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمْ حِيطَ إِلَّا بِالْكَافِرِينَ﴾ ليس لهم عنها مفر ولا مناص، ولا فكاك ولا خلاص.

(٥٠) ﴿إِنْ تُصِيبْكَ حَسَنَةٌ﴾ كنصر وإدالة على العدو ﴿سَوْهُمْ﴾ تحزنهم وتغمهم ﴿وَأِنْ تُصِيبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ كإدالة العدو عليك ﴿يَقُولُوا﴾ متبجحين بسلامتهم من الحضور معك: ﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ﴾ قد حذرنا وعلمنا بما ينجيننا من الوقوع في مثل هذه المصيبة ﴿وَيَكْتُولُوا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ بمصيبتك، وبعدم مشاركتهم إياك فيها.

(٥١) ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ ما قدره وأجراه في اللوح المحفوظ ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ متولي أمورنا الدينية والدنيوية، فعلينا الرضا بأقداره، وليس في أيدينا من الأمر شيء ﴿وَعَلَّ اللَّهُ﴾ وحده ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ليعتمدوا عليه في جلب مصالحهم ودفع المضار عنهم، وليثقوا به في تحصيل مطلوبهم.

(٥٢) ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿هَلْ تَرَبَّصُوا بِنَا﴾ تنتظرون بنا ﴿إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ شهادة، أو ظفر بكم ﴿وَنَحْنُ نَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ ننتظر بكم ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ لا سبب لنا فيه ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ بأن يسلطنا عليكم فنقتلكم، ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ بنا الخير ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ بكم الشر.

(٥٣) يقول تعالى مبيناً بطلان نفقات المنافقين،

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٤﴾ وَتَحِلُّونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ بِكُمْ وَلَا تَعْلَمُونَ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٥﴾ لَوْ يُجَادُونَ مَلَاجَةً أَوْ مَعْرَبَةً أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٦﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أذنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٠﴾

وذاكرا السبب في ذلك: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿أَنْفِقُوا طَوْعًا﴾ من أنفسكم ﴿أَوْ كَرْهًا﴾ على ذلك بغير اختياركم ﴿لَنْ يُقْبَلَ مِنْكُمْ﴾ شيء من أعمالكم؛ ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ خارجين عن طاعة الله.

(٥٤) ثم أخبر تعالى عن سبب عدم تقبل الله منهم صدقاتهم فقال: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ لأنهم كفروا بالله ورسوله، والأعمال الصالحة إنما تصح بالإيمان، ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كَسَالٌ﴾ متثاقلون، لا يكادون يفعلونها من ثقلها عليهم ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ﴾ نفقة ﴿إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ﴾ من غير انشراح صدر، وثبات نفس.

(٥٥) ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ فلا تعجبك أموال هؤلاء المنافقين ولا أولادهم؛ فإنه

(٦٠) ﴿إِنَّمَا أَصَدَقْتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْفَدْرِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنَى السَّبِيلِ﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا أَصَدَقْتُ﴾ الزكوات الواجبة لهؤلاء المذكورين، دون من عداهم؛ لأنه حصرها فيهم، وهم ثمانية أصناف:

الأول والثاني: الفقراء والمساكين، وهم في هذا الموضع صنفان متفاوتان، فالفقير أشد حاجة من المسكين؛ لأن الله بدأ بهم، ولا يبدأ إلا بالأهم فالأهم ففسر الفقير بأن: الذي لا يجد شيئاً، أو يجد بعض كفايته دون نصفها.

والمسكين: الذي يجد نصفها فأكثر، ولا يجد تمام كفايته، لأنه لو وجدها لكان غنياً.

فيعطون من الزكاة ما يزول به فقرهم ومسكنتهم.

والثالث: العاملون عليها وهم: كل من له عمل وشغل فيها، من حافظ لها، أو جاب لها، أو راع، أو حامل لها، أو كاتب، أو نحو ذلك فيعطون لأجل عمالتهم، وهي أجرة لأعمالهم فيها.

والرابع: المؤلفة قلوبهم، والمؤلف قلبه هو: السيد المطاع في قومه، ممن يرجى إسلامه، أو يخشى شره، أو يرجى بعطيته قوة إيمانه، أو إسلام نظيره، أو جبايتها ممن لا يعطيها، فيعطى ما يحصل به التأليف والمصلحة.

الخامس: الرقاب، وهم المكاتبون الذين قد اشتروا أنفسهم من ساداتهم، فهم يسعون في تحصيل ما يفك رقابهم، فيعانون على ذلك من الزكاة.

السادس: الغارمون، وهم قسمان: أحدهما: الغارمون لإصلاح ذات البين، وهو أن يكون بين

لا غبطة فيها ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بما ينالهم من المشقة في تحصيلها، والسعي الشديد في ذلك، وهم القلب فيها، وتعب البدن ﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ يريد أن يميتهم حين يميتهم على الكفر؛ ليكون ذلك أشد لعذابهم.

(٥٦) ﴿وَتَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ﴾ يميناً مؤكدة ﴿وَمَا هُمْ مِنْكُمْ﴾ في نفس الأمر ﴿وَلَكِنَّهُمْ﴾ قصدهم في حلفهم هذا أنهم ﴿قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ يخافون خوفاً شديداً منكم، وليس في قلوبهم شجاعة تحملهم على أن يبينوا أحوالهم، فيخافون إن أظهروا حالهم منكم، ويخافون أن تتبرءوا منهم، فيتخطفهم الناس من كل جانب.

(٥٧) ﴿أَوْ يَحْذَرُونَ مَلْجَأًا﴾ حصناً يلجئون إليه عندما تنزل بهم الشدائد ﴿أَوْ مَعْرَاطٍ﴾ وهي التي في الجبال يدخلونها، فيستقرون فيها ﴿أَوْ مُدْخَلًا﴾ وهو السرب والنفق يدخلونه فيتحصنون فيه ﴿أَوْ لَوْلَا إِلَهُهُمْ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ يسرعون ويهرعون.

(٥٨) ﴿وَمِنْهُمْ﴾ ومن هؤلاء المنافقين ﴿مَنْ يَلْمِزُكَ﴾ يعيب عليك ﴿فِي﴾ قسم ﴿أَلَصَدَقْتُ﴾ إذا فرقها، ویتهمك في ذلك، وليس انتقادهم لقصد صحيح، بل لحظ أنفسهم ﴿فَإِنْ﴾ ولهذا إن ﴿أَعْطُوا مِنْهَا رِضْوَانًا﴾ لموافقة ما في نفوسهم ﴿وَلَنْ لَّمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ بغضبون لأنفسهم.

(٥٩) ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ أعطاهم من قليل وكثير ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ كافينا الله، فنرضى بما قسمه لنا. وليؤملوا فضله وإحسانه إليهم بأن يقولوا: ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ متضرعون في جلب منافعنا، ودفع مضارنا.

يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِرِضْوَانِكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرِضُوهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَبْدَأَ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخُرْزِيُّ الْمُظْلِمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُوا وَإِنَّ اللَّهَ لَخَبِيرٌ بِمَا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَلَعَبٌ قُلِ يَا آلِهَةَ وَيَا بَنِيهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَخْفُونَ أَيُّدِيَهُمْ سَوَاءً اللَّهُ فَاسِقُهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتُ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٦٨﴾

١١٧

طائفتين من الناس شر وفتنة، فيتوسط الرجل للإصلاح بينهم بما يبذله لأحدهم، أو لهم كلهم، فجعل له نصيب من الزكاة؛ ليكون أنشط له وأقوى لعزمه، فيعطى ولو كان غنياً. والثاني: من غرم لنفسه ثم أعسر، فإنه يعطى ما يُوفِّي به دينه.

والسابع: الغازي في سبيل الله، وهم الغزاة المتطوعة الذين لا ديوان لهم، فيعطون من الزكاة ما يعينهم على غزوهم.

والثامن: ابن السبيل، وهو الغريب المنقطع به في غير بلده، فيعطى من الزكاة من يوصله إلى بلده.

فهؤلاء الأصناف الثمانية الذين تدفع إليهم الزكاة وحدهم.

﴿فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ﴾ فرضها وقدرها، تابعة لعلمه وحكمه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بظواهر الأمور وبواطنها، وبمصالح عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يقوله ويفعله ويشعره ويحكم به.

هذا ولو أعطى الأغنياء زكاة أموالهم على الوجه الشرعي، لم يبق فقير من المسلمين، ولحصل من الأموال ما يسد الثغور، ويجاهد به الكفار، وتحصل به جميع المصالح الدنيوية.

(٦١) ﴿وَمِنْهُمْ﴾ ومن هؤلاء المنافقين ﴿الَّذِينَ يُوْذَوْنَ أَلْتَنَّى﴾ بالأقوال الردية، والعيب له ولدينه ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أَذُنٌ﴾؟ أي: يقبل كل ما يقال له، لا يميز بين صادق وكاذب، ﴿قُلْ أَذُنُ خَيْرٌ لَكُمْ﴾؟ أي: يقبل من قال له خيراً وصدقاً، وأما إعراضه وعدم تعنيفه لكثير من المنافقين المعتذرين بالأعذار الكاذبة، فلسعة خلقه، وعدم اهتمامه بشأنهم، وأما حقيقة ما في قلبه ورأيه فقال عنه: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الصادقين المصدقين، ويعلم الصادق من الكاذب، وإن كان

كثيراً ما يعرض عن الذين يعرف كذبهم وعدم صدقهم، ﴿وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ﴾ فإنهم به مهتدون، وبأخلاقه يقتدون، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ بالقول والفعل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا والآخرة.

(٦٢) ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ﴾ فيتبرءوا مما صدر منهم من الأذية وغيرها ﴿لِرِضْوَانِكُمْ﴾ فغايتهم أن ترضوا عليهم ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾؛ لأن المؤمن لا يقدم شيئاً على رضا ربه، فدل هذا على انتفاء إيمانهم؛ حيث قدّموا رضا غير الله ورسوله.

(٦٣) وهذا محادة لله، ومشاقة له، وقد تواعد من حاده بقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ ألم يتحققوا ﴿أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بأن يكون في حد وشق مبعد عن الله ورسوله بأن تهاون بأوامر

وتعظيم دينه ورساله.

﴿إِنْ تَعَفَّ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ﴾ لتوبتهم واستغفارهم وندمهم ﴿تُعَذِّبُ طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾ ﴿يَأْتِيهِمْ﴾ أي: بسبب أنهم ﴿كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ مقيمين على كفرهم ونفاقهم.

(٦٧) ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾؛ لأنهم اشتركوا في النفاق، فاشتركوا في تولي بعضهم بعضاً، ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ﴾ وهو: الكفر والفسوق والعصيان ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ وهو: الإيمان والأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة والآداب الحسنة ﴿وَيَقْضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ عن الإنفاق في سبيل الله وطرق الإحسان، ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ فلا يذكرونه إلا قليلاً ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ عاملهم معاملة من نسيهم، فلا يوفقهم لخير، ولا يدخلهم الجنة ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون عن طريق الحق، الداخلون في طريق الضلالة.

(٦٨) ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ جمع المنافقين والكفار في نار جهنم؛ لاجتماعهم في الدنيا على الكفر، والمعاداة لله ورسوله، والكفر بآياته، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ماكثين فيها مخلدين هم والكفار ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ أي: كفايتهم في العذاب ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ طردهم وأبعدهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُؤِيمٌ﴾ دائم لا ينقطع.

الله، وتجراً على محارمه، ﴿فَأَنْتَ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا﴾؛ أي: مهاناً معذباً ﴿ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا خزي أشنع ولا أفظع منه، حيث فاتهم النعيم المقيم، وحصلوا على عذاب الجحيم.

(٦٩) ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾ يقولون القول بينهم، ثم يقولون: عسى الله أن لا يفتشي سرنا هذا! ﴿ثُمَّ يَنْتَهِمُ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ تخبرهم وتفضحهم، وتبين أسرارهم، ﴿قُلِ اسْتَهِزُّوا﴾ استمروا على ما أنتم عليه من الاستهزاء والسخرية، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُخْرِجُ مَا تَحْذَرُونَ﴾ وقد وفى الله بوعده، فأنزل الله هذه السورة التي بينتهم وفضحتهم.

(٦٥)، (٦٦) ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ عما قالوه من الطعن في المسلمين وفي دينهم كما قالت طائفة منهم في غزوة «تبوك»: «ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء - يعنون النبي ﷺ وأصحابه - أرغب بطوناً، وأكذب ألسنة، وأجبن عند اللقاء!» ولما بلغهم أن النبي ﷺ قد علم بكلامهم، جاءوا يعتذرون إليه ويقولون: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ نتكلم بكلام، لا قصد لنا به، ولا قصدنا الطعن والعيب، ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ فإن الاستهزاء بالله ورسوله كفر مخرج عن الدين؛ لأن أصل الدين مبني على تعظيم الله

(٦٥) أخرج الطبري وابن أبي حاتم بإسناد صحيح عن ابن عمر رضيهما قال: قال رجل في غزوة تبوك يوماً: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسنة، ولا أجبن عند اللقاء، فقال رجل في المجلس: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، ونزل القرآن. قال عبد الله بن عمر: فأنا رأيته متعلّقاً بحقبة ناقة رسول الله ﷺ والحجارة تنكبه، وهو يقول: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب. والنبي ﷺ يقول: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾.

(٦٩) ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ إن حالكم أيها المنافقون كحال أمثالكم ممن سبقوكم إلى النفاق والكفر ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثَرَ أَمْوَالُهُمْ وَأُولَادُهُمْ﴾ وقد كانوا أقوى منكم وأكثر أموالاً وأولاداً ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ﴾ استمتعوا بما قدر لهم من حظوظ الدنيا، وأعرضوا عن ذكر الله وتقواه، وقابلوا أنبياءهم بالاستخفاف، وسخروا منهم فيما بينهم وبين أنفسهم، ﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ﴾ كما استمتع الذين من قبلكم بخلقهم، وقد استمتعتم بما قدر لكم من ملاذ الدنيا كما استمتعوا ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ وخضتم فيما خاضوا فيه من المنكر والباطل، ﴿أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ بطلت أعمالهم، فلم تنفعهم في الدنيا ولا في الآخرة، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وأنتم مثلهم في سوء الحال والمال، والعاقبة الوخيمة.

(٧٠) يقول تعالى واعظاً لهؤلاء المنافقين المكذبين للرسول: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ ألم تخبروا خبر من كان قبلكم من الأمم المكذبة للرسول ﴿قَوِيَ تَوَجُّعًا وَتَعَادٍ وَتَعَوَّدَ وَقَوِيَ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ أي: قري قوم لوط، فكلهم ﴿أَنْتَهُمْ رُسُلُهُمْ يَاجِبِئَتِ﴾ بالحق الواضح الجلي المبين لحقائق الأشياء، فكذبوا بها، فأنتم أعمالكم شبيهة بأعمالهم ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ﴾ إذ أوقع بهم من عقوبته ما أوقع ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث تجرأوا على معاصيه، وعصوا رسلهم، فصاروا إلى ما صاروا إليه من العذاب والدمار.

(٧١) في «الصحاحين» من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «مثل المؤمن في توادهم وتراحيمهم؛ كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحسنى والسهرة».

الْمُؤْمِنُونَ

الْمُؤْمِنُونَ

كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثَرَ أَمْوَالُهُمْ وَأُولَادُهُمْ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوِيَ تَوَجُّعًا وَتَعَادٍ وَتَعَوَّدَ وَقَوِيَ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنْتَهُمْ رُسُلُهُمْ يَاجِبِئَتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرُسُلَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

١٩٨

(٧١) ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ﴾ ذكورهم وإناثهم ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في المحبة والمواودة، والانتماء والنصرة، ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهو: اسم جامع لكل ما عرف حسنه من العقائد الحسنة والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة، وأول من يدخل في أمرهم أنفسهم، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وهو: كل ما خالف المعروف وناقضه من العقائد الباطلة، والأعمال الخبيثة، والأخلاق الرذيلة، ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرُسُلَهُ﴾ لا يزالون ملازمين لطاعة الله ورسوله على الدوام، ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ يدخلهم في رحمته، ويشملهم بإحسانه، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ قَوِيٌّ قَاهِرٌ﴾ ومع قوته فهو ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع كل شيء موضعه اللائق

يحلّه على أهل الجنة ﴿أَكْبَرُ﴾ مما هم فيه من النعيم ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ حيث حصلوا على كل مطلوب، وانتفى عنهم كل محذور، وحسنت وطابت منهم جميع الأمور.

(٧٣) ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ جِهْدُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ بالغ في جهادهم ﴿وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ﴾ حيث اقتضت الحال الغلظة عليهم، وأما في الآخرة فإن ﴿مَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ﴾ مقرهم الذي لا يخرجون منه ﴿وَيُشَسِّ الْأَمْصِرُ﴾.

(٧٤) ﴿يَخْلَفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ إذا قالوا قولاً كقول من قال منهم: ﴿لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، فإذا بلغهم أن النبي ﷺ قد بلغه شيء من ذلك، جاءوا إليه يحلفون بالله ما قالوا ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ فكلامهم الأخير ينقض إسلامهم، ويدخلهم بالكفر، ﴿وَهُمْوَا يَمَّا لَمْ يَنَالُوا﴾ وذلك حين هموا بالفتك برسول الله ﷺ في غزوة «تبوك»، فقص الله عليهم نبأهم، فأمر من يصددهم عن قصدهم ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿مَا نَقَمُوا﴾ وعابوا من رسول الله ﷺ ﴿إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ بعد أن كانوا فقراء معوزين ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا بِكَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾؛ لأن التوبة أصل لسعادة الدنيا والآخرة ﴿وَإِنْ يَتَوَلَّوْا﴾ عن التوبة والإنابة ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا﴾ بما ينالهم من الهم والغم والحزن على نصرة الله

يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ جِهْدُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيُشَسِّ الْأَمْصِرُ ﴿٧٣﴾ يَخْلَفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْوَا يَمَّا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا بِكَ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا بَعْدَ ذَلِكَ يَأْتِي النَّبِيَّ جِهْدُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَمَنْ يَخْلَفْ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ فَكَلَامُهُمْ الْأَخِيرُ يَنْقُضُ إِسْلَامَهُمْ وَيُدْخِلُهُمُ الْكُفْرَ وَهُمْوَا يَمَّا لَمْ يَنَالُوا ذَلِكَ حِينَ هَمُّوا بِالْفِتْكِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ «تَبُوكَ» فَخَصَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نَبَأَهُمْ فَأَمَرَ مَنْ يَصُدُّهُمْ عَنْ قَصْدِهِمْ ﴿وَمَا نَقَمُوا﴾ وَعَابُوا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ﴿إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ بَعْدَ أَنْ كَانُوا فَقَرَاءَ مَعُوزِينَ ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا بِكَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ لِأَنَّ التَّوْبَةَ أَصْلٌ لِسَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿وَإِنْ يَتَوَلَّوْا﴾ عَنِ التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا﴾ بِمَا يَنَالُهُمْ مِنَ الْهَمِّ وَالْغَمِّ وَالْحُزْنِ عَلَى نَصْرَةِ اللَّهِ

به، الذي يحمد على ما خلقه وأمر به. (٧٢) ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾ جامعة لكل نعيم وفرح، خالية من كل أذى وترح، ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ تجري من تحت قصورها ودورها وأشجارها الأنهار الغزيرة، المروية لللباساتين الأنيفة، التي لا يعلم ما فيها من الخيرات والبركات إلا الله تعالى ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ماكثين فيها أبداً، لا ييغون عنها حولاً ﴿وَمَسْكَنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ قد زخرفت وحسنت، وأعدت لعباد الله المتقين ﴿وَرِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ﴾

(٧٢) في «الصحيحين» من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «جنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آتيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن». (٧٤) أخرج ابن أبي حاتم بإسناد حسن عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمع زيد بن أرقم رضي الله عنه رجلاً من المنافقين يقول - والنبي ﷺ يخطب - : إن كان هذا صادقاً لنحن أشرف من الحمير. فقال زيد: هو والله صادق، ولأنت أشرف من الحمار. فرفع ذلك إلى النبي ﷺ، فجدد القائل، فأنزل الله تعالى: ﴿يَخْلَفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾... الآية. فكانت الآية في تصديق زيد.

لدينه وإعزاز نبيه ﷺ، وعدم حصولهم على مطلوبهم، وفي ﴿وَالْآخِرَةُ﴾ في عذاب السعير ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يتولى أمورهم، ويحصل لهم المطلوب، ﴿وَلَا نَصِيرٌ﴾ يدفع عنهم المكروه.

(٧٥) ﴿وَمِنْهُمْ﴾ من هؤلاء المنافقين ﴿مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ﴾ أعطى الله عهده وميثاقه ﴿لَيْتَ ءَاتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ﴾ من الدنيا فبسطها لنا ووسعها ﴿لَنُصَدِّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فنصل الرحم، ونقري الضيف، ونعين على نواب الحق، ونفعل الأفعال الحسنة الصالحة.

(٧٦) ﴿فَلَمَّا ءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ لم يفوا بما قالوا، بل ﴿يَجْلُوْا بِهِءٍ وَتَوَلَّوْا﴾ عن الطاعة والانقياد ﴿وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ غير ملتفتين إلى الخير.

(٧٧) فلما لم يفوا بما عاهدوا الله عليه عاقبهم ﴿فَاعْقَبْنَاهُمْ نِقَافًا فِي قُلُوْبِهِمْ﴾ مستمرًا ﴿إِلَّا يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ﴾ يوم القيامة ﴿يَمَّا أَظْلَمُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَيَمَّا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾؛ فليحذر المؤمن من هذا الوصف الشنيع، أن يعاهد ربه، إن حصل مقصوده الفلاني ليفعلن كذا وكذا، ثم لا يفي بذلك، فإنه ربما عاقبه الله بالنفاق كما عاقب هؤلاء، وقد قال النبي ﷺ في الحديث الثابت في «الصحيحين»: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف». فهذا المنافق الذي وعد الله، لئن أعطاه من فضله، ليصدقن وليكونن من الصالحين؛

سُورَةُ النِّسَاءِ

أَسْتَغْفِرُكُمْ أَوْ لَا سَتَغْفِرُكُمْ إِنِّي أَسْتَغْفِرُكُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ هُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٧٥﴾ فَحِجَّ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِ هِمِّ خَلْفِ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرْزِ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٧٦﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَسْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٧٧﴾ فَإِنْ رَجَعْتَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَعِذْ ذَلِكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعَدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٧٨﴾ وَلَا تَضِلَّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا تَعْلَجْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأُولَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِمَا فِي الْأَنْبِيَاءِ وَتَزَهِّجَ أَنْفُسَهُمْ هُمْ كَذِبُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ أَنْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَعِذْكَ أُولُو الْأَرْحَامِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا كُنْ مَعَ الْفَاعِلِينَ ﴿٨١﴾

حدث فكذب، وعاهد فغدر، ووعد فأخلف.

ولهذا تواعد من صدر منهم هذا الصنيع بقوله.

(٧٨) ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ﴾ وسيجازيهم على ما عملوا من الأعمال التي يعلمها الله تعالى.

(٧٩) ثم ذكر تعالى مخازٍ أخرى للمنافقين - قبحهم الله - فقال: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ يعيبون ويطعنون ﴿الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ فيقولون: مرءون، قصدهم الفخر والرياء ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ فيخرجون ما

(٧٧) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان».

(٧٩) في «الصحيحين» عن أبي مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل؛ أي: نحمل على ظهورنا بالأجرة، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير، فقالوا: مراثي. وجاء رجل فتصدق بصاع، فقالوا: إن الله لغني عن صاع هذا. فنزلت: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ الآية.

نَفِرُوا فِي الْحَرِّ؛ لَأَن النَّفِيرَ مَشَقَّةٌ عَلَيْنَا بِسَبَبِ الْحَرِّ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ: ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ الَّتِي تَصِيرُونَ إِلَيْهَا ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ مِمَّا فَرَرْتُمْ مِنْهُ مِنَ الْحَرِّ، ﴿لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ لَوْ أَنَّهُمْ يَفْهَمُونَ لَنَفَرُوا مَعَ الرَّسُولِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي الْحَرِّ، لِيَتَّقُوا بِهِ حَرَّ جَهَنَّمَ الَّذِي هُوَ أَضْعَافٌ أَضْعَافٌ.

(٨٢) ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا﴾ فَلِيَتَمَتَّعُوا فِي هَذِهِ الدَّارِ الْمُنْقَضِيَةِ، وَيَفْرَحُوا بِلَذَاتِهَا، وَيَلْهَوْا بِلَعِبِهَا ﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ فَسَيَبْكُونَ كَثِيرًا فِي عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ مِنَ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ، وَعَدَمِ الْإِقْنَادِ لِأَوَامِرِ رَبِّهِمْ.

(٨٣) ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ﴾ إِنْ رَدَّكَ اللَّهُ مِنْ غَزْوَتِكَ هَذِهِ ﴿إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ وَهُمْ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا مِنْ غَيْرِ عَذَرٍ، وَلَمْ يَحْزَنُوا عَلَى تَخَلُّفِهِمْ ﴿فَاسْتَدْنُوكَ لِخُرُوجٍ﴾ لِغَيْرِ هَذِهِ الْغَزْوَةِ، إِذَا رَأَوْا السَّهُولَةَ ﴿فَقُلْ﴾ لَهُمْ: عَقُوبَةٌ: ﴿لَن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ فَسَيُغْنِيَنِ اللَّهُ عَنْكُمْ ﴿إِن كُنتُمْ رَضِيئَةً بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ الرِّجَالُ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنْ الْغَزَا.

(٨٤) ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا﴾ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ﴿وَلَا تُقِمَّ عَلَى قَبْرِهِ﴾ بَعْدَ الدَّفْنِ لِتَدْعُو لَهُ، فَإِنْ صَلَاتُهُ وَوَقُوفُهُ عَلَى قَبْرِهِمْ شَفَاعَةٌ مِنْهُ

اسْتَطَاعُوا، وَيَقُولُونَ: اللَّهُ غَنِيٌّ عَنْ صَدَقَاتِهِمْ ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ فَقُولُوا عَلَى صَنِيعِهِمْ بِأَن ﴿سَخَرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تَوَعَّدَهُم بِالْعَذَابِ الشَّدِيدِ الْمُؤَلِّمِ.

(٨٥) ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾؛ أَي: اسْتَغْفَرْتُ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ عَلَى وَجْهِ الْمَبَالِغَةِ فِي الْيَأْسِ عَنْ طَمَعِ الْمَغْفِرَةِ ﴿فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦] ثُمَّ ذَكَرَ السَّبَبَ الْمَانِعَ لِمَغْفِرَةِ اللَّهِ لَهُمْ فَقَالَ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآلِهِ وَرَسُولِهِ﴾ وَالْكَافِرُ لَا يَنْفَعُهُ الْاسْتِغْفَارُ وَلَا الْعَمَلُ مَا دَامَ مَصْرًا عَلَى كُفْرِهِ ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الَّذِي صَارَ الْفُسْقُ لَهُمْ وَصْفًا، بِحَيْثُ لَا يَخْتَارُونَ عَلَيْهِ سِوَاهُ، وَلَا يَبْغُونَ بِهِ بَدَلًا، يَأْتِيهِمُ الْحَقُّ الْوَاضِحُ فَيُرَدُّونَهُ، فَيُعَاقِبُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى؛ بِأَنَّهُ لَا يُوَفِّقُهُمْ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ.

(٨٦) ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ فَرَحُوا بِبَقْعِهِمْ بَعْدَ خُرُوجِهِ، فَإِنْ هَذَا تَخَلَّفَ مُحَرَّمٌ، وَزِيَادَةُ رَضَى بِفَعْلِ الْمَعْصِيَةِ، وَتَبَجَّحَ بِهِ ﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا﴾ مَعَهُ ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ﴿وَقَالُوا﴾ الْمُنَافِقُونَ ﴿لَا

(٨٦) فِي «الصَّحِيحِينَ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «نَارُ بَنِي آدَمَ الَّتِي يوقِدُونَهَا جِزءٌ مِنْ سَبْعِينَ جِزءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ». فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنْ كَانَتْ لِكَافِيَةٍ، قَالَ: «إِنَّهَا فَضَّلْتُ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جِزءًا».

(٨٤) أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا مَاتَ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ أَبِي سَلُولٍ، دَعَى إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَبَّثَ إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتُصَلِّيُ عَلَى ابْنِ أَبِي، وَقَدْ قَالَ يَوْمَ كَذَا: كَذَا وَكَذَا - أَعَدَّدَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ -؟! فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: «أَخْرَجَنِي يَا عُمَرُ». فَلَمَّا أَكْثَرْتُ عَلَيْهِ قَالَ: «إِنِّي خَيْرْتُ فَاخْتَرْتُ، لَوْ أَعْلَمْتُ أَنِّي إِنْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ يُغْفَرُ لَهُ لَزِدْتُ عَلَيْهِ». قَالَ: فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ انْصَرَفَ، فَلَمْ يَمُكِّثْ إِلَّا بَسِيرًا، حَتَّى نَزَلَتِ الْآيَاتَانِ مِنَ «بَرَاءةٍ» ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا﴾ إِلَى: ﴿وَهُمْ فَسِقُونَ﴾، قَالَ: فَعَجِبْتُ بَعْدَ مَنْ جَرَأَنِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ، وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

لهم، ولا تنفع فيهم الشفاعة؛ ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ﴾ ومن كان كافراً ومات على ذلك، فما تنفعه شفاعة الشافعين، وفي ذلك عبرة لغيرهم.

(٨٥) ﴿وَلَا تَجْعَلْ أَمْوَالَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ﴾ لا تغتر بما أعطاهم الله في الدنيا من الأموال والأولاد، فليس ذلك لكرامتهم عليه، وإنما ذلك إهانة منه لهم ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾ فيتعبون في تحصيلها، ويخافون من زوالها، ولا يتهنئون بها ﴿وَيَرْثَقْ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ قد سلبهم حبها كل شيء، فماتوا وقلوبهم بها متعلقة، وأفقدتهم عليها متحرقة.

(٨٦) ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ يؤمرون فيها بالإيمان بالله، والجهاد في سبيل الله ﴿اسْتَنْذِكْ أَوَّلُوا الطَّلَاقِ مِنْهُمْ﴾ أولي الغنى والأموال ﴿وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْفَاعِلِينَ﴾ وهو النساء الخوالف بعد خروج الجيش.

(٨٧) ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ رضوا لأنفسهم بالعار والقيود مع النساء المتخلفات عن الجهاد ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ بسبب نكولهم عن الجهاد والخروج مع الرسول في سبيل الله ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ مصالحهم، فلو فقهوا حقيقة الفقه لم يرضوا لأنفسهم بهذه الحال التي تحطهم عن منازل الرجال.

(٨٨) ﴿لَيْكِنِ الرَّسُولُ﴾ محمد ﷺ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَهْدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ غير متساقلين ولا كسليين، بل هم فرحون مستبشرون ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ الكثيرة في الدنيا والآخرة، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الذين ظفروا بأعلى المطالب، وأكمل الرغائب.

(٨٩) ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ﴾ ثواباً على إيمانهم

الْمُؤْمِنُونَ

الْمُؤْمِنُونَ

رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَيْكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَهْدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُوهُمْ قَفِضْ مِنَ الدَّمِيعِ حَرَجًا إِلَّا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوكَ وَأَنْفُسِيَاءَ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

٢١

وجهادهم وإنفاقهم في سبيل الله ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أدخلهم جنات عدن، وأورثهم الفردوس ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يخرجون منها ولا ينقطع النعيم عنها ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ هذا النعيم المقيم هو الفوز العظيم.

(٩٠) ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ جاء الذين تهاونوا وقصروا منهم في الخروج؛ لأجل أن يؤذن لهم في ترك الجهاد ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وأما الذين كذبوا الله ورسوله منهم فتركوا الاعتذار بالكلية، ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أوعدهم بالعذاب الشديد في الدنيا والآخرة.

(٩١) ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ﴾ في أبدانهم وأبصارهم، الذين لا قوة لهم على الخروج والقتال ﴿وَلَا عَلَى الْمَرْضَى﴾ وهذا شامل لجميع أنواع

يصادفوا عندك شيئاً **﴿قُلْتَ﴾** لهم معذراً: **﴿لَا أَحَدٌ مَّا أَخْلَكُكُمْ عَلَيْهِ قَوْلًا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾** فإنهم عاجزون باذلون لأنفسهم وقد صدر منهم من الحزن والمشقة، ما ذكره الله عنهم، فهؤلاء لا حرج عليهم.

(٩٣) **﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾** يتوجه، واللوم يتأكد **﴿عَلَى الَّذِينَ يَسْتَنْذِرُونَكَ وَهُمْ أَغْيَاءٌ﴾** قادرون على الخروج، ولا عذر لهم، فهؤلاء **﴿رَضُوا﴾** لأنفسهم ومن دينهم **﴿يَأْنِ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾** كالنساء والأطفال ونحوهم **﴿و﴾** إنما رضوا بهذه الحال؛ لأن الله **﴿طَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾** ختم عليها، فلا يدخلها خير، **﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾** عقوبة لهم على ما اقترفوا.

(٩٤) **﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾** من غزاتكم **﴿قُلْ﴾** لهم: **﴿لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ﴾** لن نصدقكم في اعتذاركم الكاذب **﴿قَدْ بَيَّنَّا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾** قد أعلمنا الله أحوالكم، وهو الصادق في قوله، فلم يبق للاعتذار فائدة **﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾** في الدنيا؛ لأن العمل هو ميزان الصدق من الكذب، وأما مجرد الأقوال فلا دلالة فيها على شيء من ذلك **﴿ثُمَّ تَرُدُّونَ إِلَى عَلِيٍّ أَلْفَيْبٍ﴾** الذي لا تخفى عليه خافية **﴿فَيَنْبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾** من خير وشر، ويجازيكم بعدله أو بفضله، من غير أن يظلمكم مثقال ذرة.

(٩٥) **﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ﴾** إذا أنقلبتم إليهم **﴿سَيَحْلِفُونَ لَكُمْ مَعْتَذِرِينَ﴾** لتعرضوا عنهم **﴿فَلَا**

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ بَيَّنَّا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تَرُدُّونَ إِلَى عَلِيٍّ أَلْفَيْبٍ وَالشَّهَادَةُ فَيَنْبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٥﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَا وَهُمْ بِجَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٧﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَرَضِيَ خُدُوعَهُ فَرَضَ اللَّهُ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَّتِ الرُّسُلُ أَلَّا يَأْتِيَ غُزَاؤُهُمْ سَبِيلُهُمْ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٠﴾

المرض الذي لا يقدر صاحبه على الخروج والجهاد **﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ﴾** لا يجدون زاداً ولا راحلة يتبلغون بها في سفرهم **﴿حَرَجٌ﴾** فهو لا ليس عليهم حرج **﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾** أن يفعلوا ما يقدر عليهم من الحث والترغيب والتشجيع على الجهاد **﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾** يكون عليهم فيه تبعة، فإنهم بإحسانهم فيما عليهم من حقوق الله وحقوق العباد أسقطوا توجه اللوم عليهم، وإذا أحسن العبد فيما يقدر عليه، سقط عنه ما لا يقدر عليه **﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** ومن مغفرته ورحمته عفا عن العاجزين، وأثابهم بنيتهم الجازمة ثواب القادرين الفاعلين.

(٩٢) **﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾** فلم

(٩٢) في «الصحيحين» من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد خلفتم بالمدينة رجلاً، ما قطعتم وادياً، ولا سلكتم طريقاً، إلا شركوكم في الأجر؛ حبسهم المرض».

توبخوهم ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ احتقاراً لهم ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ إنهم قدر خبيثاء نجس؛ لخبث بواطنهم واعتقاداتهم، ﴿وَمَا أَوْلَاهُمْ﴾ في آخرتهم ﴿جَهَنَّمَ﴾ تكفيهم عقوبة ﴿جَزَاءً يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الآثام والخطايا.

(٩٦) ﴿يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِزَورًا عَنْهُمْ﴾ أي: ولهم المقصد الآخر منكم، غير مجرد الإعراض، وهو أنهم يحبون أن ترضوا عنهم، كأنهم ما فعلوا شيئاً ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ فلا ينبغي لكم أن ترضوا عن من لم يرض الله عنه، بل عليكم أن توافقوا ربكم في رضاه وغضبه.

(٩٧) ﴿الْأَعْرَابُ﴾ وهم سكان البادية والبراري ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ أعظم نفاقاً من أهل الحاضرة الذين فيهم كفر ونفاق ﴿وَأَجْدَرُ﴾ أخرى ﴿أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ من أصول الإيمان، وأحكام الأوامر والنواهي ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ بمن يستحق أن يعلمه الإيمان والعلم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما قسم بين عباده من العلم والجهل، والإيمان والكفر والنفاق، لا يسأل عما يفعل لعلمه وحكمته.

(٩٨) ﴿وَمِنْ﴾ ذلك أن ﴿الْأَعْرَابُ﴾ أحرص على الأموال وأشح فيها، فمنهم ﴿مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ﴾ من الزكاة والنفقة في سبيل الله وغير ذلك ﴿مَعْرَماً﴾ يراها خسارة ونقصاً، لا يحتسب فيها، ولا يريد بها وجه الله، ولا يكاد يؤديها إلا كرهاً ﴿وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمْ الدَّوَابُّ﴾ من عداوتهم للمؤمنين وبغضهم لهم أنهم يودون وينتظرون فيهم دوائر الدهر، وفجائع الزمان

﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ وهذا سينعكس عليهم، والسوء دائر عليهم ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ سميع لدعاء عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ يعلم نيات العباد وما صدرت منه الأعمال في الإخلاص وغيره.

(٩٩) ﴿وَمِنْ الْأَعْرَابِ﴾ منهم ﴿مَنْ يُؤْمَرُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فيسلم بذلك من الكفر والنفاق ويعمل بمقتضى الإيمان ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَتٍ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يحتسب نفقته، ويقصد بها وجه الله تعالى، والقرب منه ﴿وَلَا يَجْعَلُهَا وَسِيلَةً إِلَىٰ صَلَواتِ الرَّسُولِ﴾ دعائه لهم، وتبريكه عليهم، قال تعالى مبيهاً لنفع صلوات الرسول: ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ تقربهم إلى الله، وتتمي أموالهم، وتحل فيها البركة ﴿سَيَدْلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ في جملة عباده

(٩٧) أخرج أبي داود والترمذي والنسائي وأحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «مَنْ سَكَنَ الْبَادِيَةَ حَقًّا، وَمَنْ اتَّبَعَ الصَّيْدَ غُلًّا، وَمَنْ أَتَى السُّلْطَانَ افْتَنَ».

بإحسان، فإنا نرى من أبغضهم، أو سبهم، أو أبغض، أو سب بعضهم!! ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول ﷺ وخيرهم وأفضلهم؛ أعني: الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويبغضونهم ويسبونهم - عيادًا بالله من ذلك -، وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة، وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن؟! إذ يسبون من رضى الله عنهم!!

وأما أهل السنة؛ فإنهم يترضون عن (صلى الله عليه وسلم) ، ويسبون من سبه الله ورسوله ، ويوالون من يوالي الله ، ويعادون من يعادي الله ، وهم متبعون لا مبتدعون ، ويقتدون ولا يتبدون ، ولهذا هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنين .

(١٠١) ﴿وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ﴾
وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ﴿أَيْضًا مُنَافِقُونَ﴾ ﴿مَرْدُوا عَلَى
الْإِتْقَانِ﴾ ﴿تَمَرَنُوا عَلَيْهِ، وَازْدَادُوا فِيهِ طُغْيَانًا﴾ ﴿لَا
تَعْلَمُهُمْ﴾ ﴿بَأَعْيَانِهِمْ؛ فَتَعَابَهُمْ أَوْ تَعَامَلَهُمْ بِمَقْتَضَى
نِفَاقِهِمْ؛ لَمَّا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْبَاهِرَةِ
﴿تَحَنُّنُ تَعْلَمُهُمْ سُنْعَهُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ عَذَابٌ فِي الدُّنْيَا
وَعَذَابٌ فِي الْآخِرَةِ، فَفِي الدُّنْيَا مَا يَنَالُهُمْ مِنَ الْهَمِّ
وَالْحُزَنِ لَمَّا يَصِيبُ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْفَتْحِ وَالنَّصْرِ،
وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ
يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ أَي: فِي النَّارِ وَبُئْسَ
الْقَرَارُ.

(١٠٢) ﴿وَأَخْرُؤْنَ﴾ ممن بالمدينة، ومن حولها،

الصالحين ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فيغفر السيئات العظيمة من تاب إليه، ويعم عباده برحمته التي وسعت كل شيء، ويخص عباده المؤمنين برحمة يوفقهم فيها على الخيرات، ويحميهم فيها من المخالفات، ويجزل لهم فيها أنواع الثوبات.

(١٠٠) ﴿وَالسَّيِّئُونَ الْآوَلُونَ﴾ وهم: الذين سبقوا هذه الأمة وبدروها إلى الإيمان والهجرة والجهاد وإقامة دين الله ﴿مِنَ الْمُهَاجِرِينَ﴾ وهم: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]. ﴿وَمِنَ الْأَنْصَارِ﴾ وهم: ﴿الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُجِئُونَ مِّن هَاجَرٍ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ يَلْحَسِنُ﴾ بالاعتقادات والأقوال والأعمال ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ ورضاه تعالى أكبر من نعيم الجنة ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بما أنعم عليهم من جلائل النعم وعظائم المنن ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الجارية التي تساق إلى سقي الجنان، والحدائق الزاهية الزاهرة، والرياض الفاخرة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ لا يغيون عنها حولاً، ولا يطلبون منها بدلاً ﴿ذَلِكَ أَفْعَوْا الْعَظِيمُ﴾ الذي حصل لهم فيه كل محبوب للنفوس، ولذة للأرواح، ونعيم للقلوب، وشهوة للأبدان، واندفع عنهم كل محذور.

فقد أخبر الله العظيم أنه قد رضي عن السابقين
الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم

(١٠٠) في «الصحيحين» من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فالذي نفسي بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه».

(١٠٢) في «صحيح البخاري» من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لنا: «أتاني الليلة آتيان؛ فابتعثاني، -

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا أَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ
الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ
وَيَحْلِفُونَ إِنْ أُرْدْنَا إِلَى الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ
(٧٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أَتَيْتَس عَلَى الْتَقْوَى مِنْ أَوْلَى
يَوْمَ آخِرُ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحْيُونَ أَنْ يَبْطُغُوا
وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطْهَرِينَ (٧٨) أَقِمْنَ أَسَسَ بَيْنَهُمْ
عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمَنْ أَسَسَ بَيْنَهُمْ
عَلَى شَفَافٍ هِيَ هَارٍ فَأَتَاهَا بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٧٩) لَا يَزَالُ بَيْنَهُمُ الَّذِي تَوَارَى
فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨٠)
إِنَّ اللَّهَ أَشْرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ
يَأْتِ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُغْتَابُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ
وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقٌّ فِي التَّوَرَةِ وَالْإِنْجِيلِ
وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَشِيرُوا
بَيْنَكُمْ الَّذِي بَاعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْقَوْلُ الْعَظِيمُ (٨١)

التائبين، فمن تاب إليه؛ تاب عليه، ولو تكررت
منهم المعصية مراراً ﴿الرَّحِيمُ﴾ الذي وسعت
رحمته كل شيء، وكتبها للذين يتقون ويؤتون
الزكاة، ويؤمنون بآياته ويتبعون رسوله.

(١٠٥) ﴿وَقُلْ﴾ لهؤلاء المنافقين ﴿اعْمَلُوا﴾ ما
ترون من الأعمال، واستمروا على باطلكم، فلا
تحسبوا أن ذلك سيخفى ﴿فَسِيرَى اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ
وَالْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: لا بد أن يتبين عملكم ويتضح
﴿وَسَرَّدُونَ إِلَى عِلِّهِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْشَرُّ بِمَا كُنتُمْ

بل ومن سائر البلاد الإسلامية ﴿اعْرِضُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾؛
أي: أقرروا بها، وندموا عليها ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا
وَأَخَرًا سَيِّئًا﴾ خلطوا الأعمال الصالحة بالأعمال
السيئة، من التجروء على بعض المحرمات،
والتقصير في بعض الواجبات، مع الاعتراف
بذلك والرجاء بأن يغفر الله لهم، فهو لاء ﴿عَسَى
اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ وتوبته على عبده نوعان:
الأول: التوفيق للتوبة. والثاني: قبولها بعد
وقوعها منهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وصفه
المغفرة والرحمة، اللتان لا يخلو مخلوق منهما،
بل لا بقاء للعالم العلوي والسفلي إلا بهما.

(١٠٣) ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ وهي الزكاة
المفروضة ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ تطهرهم من الذنوب
والأخلاق الرذيلة ﴿وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ تنميههم، وتزيد
في أخلاقهم الحسنة، وأعمالهم الصالحة، وتنمي
أموالهم ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ ادع لهم ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ
سَكَنٌ لَهُمْ﴾ طمأنينة لقلوبهم، واستبشار لهم
﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لدعائك، سمع إجابة وقبول
﴿عَلَيْهِمْ﴾ بأحوال العباد ونياتهم، فيجازي كل
عامل بعمله، وعلى قدر نيته.

(١٠٤) ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ﴾ أما علموا سعة رحمة
الله، وعموم كرمه، وأنه ﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾
التائبين من أي ذنب كان ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ منهم؛
أي: يقبلها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾ كثير التوبة على

فانتهاها بي إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة، فتلقنا رجالاً شطراً من خلفهم كاحسن ما أنت راء، وشطراً كافح ما أنت راء،
قالا لهم: اذهبوا؛ فقعوا في ذلك النهر. فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم، فصاروا في أحسن صورة،
قالا لي: هذه جنة عدن، وهذا منزلك. قالوا: أما القوم الذين كانوا شطراً منهم حسن وشطراً منهم قبيح؛ فإنهم خلطوا عملاً
صالحاً وآخر سيئاً، تجاوز الله عنهم.

(١٠٥) أخرجه البخاري في «صحيحه» معلقاً، ووصله في «خلق أفعال العباد» بإسناد صحيح عن عائشة ؓ قالت: «إذا أعجبك
حسن عمل امرئ فقل: ﴿اعْمَلُوا فَسِيرَى اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾».

تَعْمَلُونَ ﴿١٠٦﴾ من خير وشر .

﴿وَأَخْرُونَ﴾ من المخلفين ﴿مُرجُونَ﴾ مؤخرون ﴿لَا مَرَّ لَآلَهُ﴾ لحكم الله ﷻ فيهم ، وهم الثلاثة الذين خلفوا ﴿إِنَّمَا يَعِدُّهُمْ وَإِنَّمَا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ هم تحت عفو الله ، إن شاء فعل بهم هذا ، وإن شاء فعل بهم ذاك ، ولكن رحمته تغلب غضبه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ عمن يستحق العقوبة ممن يستحق العفو ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله وأقواله ، لا إله إلا هو ، ولا رب سواه .

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ مضارة للمؤمنين ولمسجدهم الذي يجتمعون فيه ﴿وَكُفْرًا﴾ مقصدهم فيه الكفر ﴿وَتَقَرُّبًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ليتشعبوا ويتفرقوا ويختلفوا ﴿وَأَصَادًا﴾ إعدادًا ﴿لَمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ إعانة للمحاربين لله ورسوله ، الذين تقدم حرابهم ، واشتدت عداوتهم ﴿وَلِيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا﴾ في بنائنا إياه ﴿إِلَّا الْحُسْنَ﴾ الإحسان إلى الضعيف والعاجز والضرير ، ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فشهادة الله عليهم أصدق من حلفهم .

﴿١٠٨﴾ ﴿لَا نَقَعُ فِيهِ أَبَدًا﴾ لا تصل في ذلك المسجد الذي بني ضرارًا أبدًا ؛ ﴿لَتَمْسُجُنَّ أُسُسُ عَلَى النَّفْقَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ ظهر فيه الإسلام في

«قباء» وهو مسجد «قباء» أسس على إخلاص الدين لله ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ تتعبد وتذكر الله تعالى ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا مِنَ الذَّنْبِ﴾ ويتطهروا من الأوساخ والنجاسات والأحداث ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ الطهارة المعنوية ، كالتنزه من الشرك ، والأخلاق الرذيلة ، والطهارة الحسية ، كإزالة الأنجاس ، ورفع الأحداث .

﴿١٠٩﴾ ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى نَفْقٍ مِنَ اللَّهِ﴾ على نية صالحة وإخلاص ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ بأن كان موافقًا لأمره ، فجمع في عمله بين الإخلاص والمتابعة ﴿خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا﴾ على طرف ﴿حَرْفٍ﴾ هوة ﴿هَارٍ﴾ بال وساقط ، قد تداعى للانهدام ﴿فَأَنهَارَ بِهِ﴾ ؛ أي : سقط بالباني ﴿فِي نَارٍ جَهَنَّمَ﴾ يريد بناء هذا المسجد الضرار كالبناء على شفير جهنم فيهور بأهلها فيها ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ لا يصلح عمل المفسدين .

﴿١١٠﴾ ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ شكًا ونفاقًا ماكثًا في قلوبهم ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ بأن يندموا غاية الندم ، ويتوبوا إلى ربهم ، ويخافوه غاية الخوف ، فبذلك يعفو

﴿١٠٧﴾ أخرج الطبري وابن أبي حاتم وابن المنذر بإسناد حسن عن عبد الله بن عباس ؓ قوله : ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ هم : أناس من الأنصار ابتنوا مسجدًا ، فقال لهم أبو عامر : ابنوا مسجدكم واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح ، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم ، فآتي بجند من الروم فأخرج محمدًا وأصحابه . فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ ، فقالوا : قد فرغنا من بناء مسجدنا فنحب أن تصلي فيه ، وتدعو لنا بالبركة ، فأنزل الله فيه : ﴿لَا نَقَعُ فِيهِ أَبَدًا لَتَمْسُجُنَّ أُسُسُ عَلَى النَّفْقَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ إلى قوله : ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ .

﴿١٠٨﴾ أخرج الترمذي وابن ماجه بإسناد حسن لغيره من حديث أسيد بن ظهير ؓ : أن رسول الله ﷺ قال : «صلاة في مسجد قباء كعمرة» . وأخرج أبو داود والترمذي وابن ماجه بإسناد صحيح لغيره من حديث أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال : «نزلت هذه الآية في أهل قباء» ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا مِنَ الذَّنْبِ﴾ قال : كانوا يستنجون بالماء .

(١١٢) ﴿التَّائِبُونَ﴾ الملازمون للتوبة في جميع الأوقات عن جميع السيئات، ﴿الْمُعِيدُونَ﴾ المتصفون بالعبودية لله، والاستمرار على طاعته، من أداء الواجبات والمستحبات في كل وقت

﴿الْحَيْثُونَ﴾ لله في السراء والضراء، واليسر والعسر ﴿السَّيْحُونَ﴾؛ أي: الصائمون، وليس المراد بالسياحة ما قد يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة في الأرض، والتفرد في شواهد الجبال والكهوف والبراري، فإن هذا ليس بمشروع إلا في أيام الفتن ﴿الرَّكْعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ المكثرون من الصلاة المشتملة على الركوع والسجود ﴿الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ويدخل فيه جميع الواجبات والمستحبات ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وهي جميع ما نهى الله ورسوله عنه ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ بتعلمهم حدود ما أنزل الله على رسوله، وما يدخل في الأوامر والنواهي والأحكام، وما لا يدخل، الملازمون لها فعلاً

(١١٢) في «صحيح البخاري» من حديث أبي سعيد الخدري: أن رسول الله ﷺ قال: «يوشك أن يكون خير مال الرجل غنم يتبع بها شُعَفَ الجبال ومواقع القطر؛ يقر بدينه من الفتن».

نفسه أنه لا يضل قوماً إلا بعد بلاغ الرسالة إليهم وبعد أن يوضح لهم ما يتقون الله فيه، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فلكمال علمه وعمومه، علمكم ما لم تكونوا تعلمون، وبين لكم ما به تتفعون.

(١١٦) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَمَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هو المالك لذلك ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ المدبر لعباده بالاحياء والإماتة وأنواع التدابير الإلهية، فإذا كان لا يخل بتدبيره القدرى، فكيف يخل بتدبيره الدينى المتعلق بإلهيته، ويترك عباده سدى مهملين، أو يدعهم ضالين جاهلين؟! ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ ولي يتولاكم بجلب المنافع لكم ﴿وَلَا ضَيْرٍ﴾ يدفع عنكم المضار.

(١١٧) ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾ يخبر تعالى أنه من لطفه وإحسانه تاب على النبي محمد ﷺ ﴿وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ غفر لهم الزلات، ووفر لهم الحسنات، ورقاهم إلى أعلى الدرجات ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ خرجوا معه لقتال الأعداء في غزوة «تبوك» وكانت في حر شديد، وضيق من الزاد والركوب، وكثرة عدد، مما يدعو إلى التخلف ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ أن تنقلب قلوبهم عن الحق ويميلوا إلى الدعة والسكون، ويشكون في دين رسول الله ﷺ بما نالهم من المشقة والشدة، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ قبل توبتهم، فرزقهم الإنابة والثبات، ﴿إِنَّهُمْ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ من تاب عليه لا يعذبه أبداً.

وتركاً ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لم يذكر ما يبشر لهم به؛ ليعم جميع ما رتب على الإيمان، من ثواب الدنيا والدين والآخرة، فالبشارة متناولة لكل مؤمن.

(١١٣) ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ما يليق ولا يحسن بالنبي ﷺ والمؤمنين به ﴿أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ لمن كفر بالله، وعبد معه غيره ﴿وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أصحاب النار، فإن الاستغفار لهم في هذه الحال غير مفيد، ولن تنفع فيهم شفاعة الشافعين، ولا استغفار المستغفرين.

(١١٤) ﴿وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ وَلَوْ أَنَّ اسْتَغْفَرَ مِنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾ لأبيه فإنه ﴿عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ في قوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي حِفْظٍ [مريم: ٤٧]، وذلك قبل أن يعلم عاقبة أبيه ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ﴾ فلما تبين لإبراهيم أن أباه عدو لله، سيموت على الكفر، ولم ينفع فيه الوعظ والتذكير ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ موافقة لربه وتأديباً معه ﴿وَإِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ﴾ رجاع إلى الله في جميع الأمور، كثير الذكر والدعاء، والاستغفار والإنابة إلى ربه ﴿حَلِيمٌ﴾ ذو رحمة بالخلق، وصفح عما يصدر منهم إليه من الزلات، لا يستفزه جهل الجاهلين، ولا يقابل الجاني عليه بجرمه.

(١١٥) ﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْهُمْ حَتَّىٰ بَيَّنَّ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ يخبر الله عن

(١١٣) أخرج أحمد في «المسند» بإسناد صحيح - وأصله في «صحيح مسلم» - عن بريدة رضى الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ، فنزل بنا ونحن معه قريب من ألف راكب، فصلى ركعتين، ثم أقبل علينا وعيناه تدرقان، فقام إليه عمر بن الخطاب وفداه بالأب والأم، وقال: يا رسول الله، مالك؟ قال: «إني سألتُ ربي ﷻ في الاستغفار لأمي، فلم يأذن لي، فدمعت عيني رحمة لها من النار...» الحديث.

(١١٨) ﴿وَ﴾ كذلك لقد تاب الله ﴿عَلَى الْفَلْسَةِ﴾ وهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن ربيعة، وكلهم من الأنصار ﴿الَّذِينَ خَلَفُوا﴾ عن أمر المنافقين الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمر الثلاثة حتى قضى الله فيه ﴿حَتَّى إِذَا﴾ حزنوا حزناً عظيماً، ﴿وَصَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ على سعتها ورحبها ﴿وَصَافَتْ عَلَيْهِمُ أَنْفُسُهُمْ﴾ التي هي أحب من كل شيء ﴿وَوَطَّنُوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ تيقنوا وعرفوا بحالهم أنه لا ينجي من الشدائد ويلجأ إليه، إلا الله وحده لا شريك له، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أذن في توبتهم ووقفهم لها ﴿لِيَتُوبُوا﴾ لنقع منهم، فيتوب الله عليهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾ كثير التوبة والعفو، والغفران عن الزلات والنقصان ﴿الرَّحِيمُ﴾ وصفه الرحمة العظيمة التي لا تزال تنزل على العباد في كل وقت وحين.

(١١٩) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله وبما أمر الله بالإيمان به ﴿أَتَقُوا اللَّهَ﴾ قوموا بما يقتضيه الإيمان وهو القيام بتقوى الله؛ باجتناب ما نهى الله عنه والبعد عنه ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم.

(١٢٠) ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ ما ينبغي لهم ذلك، ولا يليق بأحوالهم ﴿وَلَا يَرْعَوْا بَأْسُهُمْ﴾ في بقائها وراحتها وسكونها ﴿عَنْ نَفْسِهِ﴾ الكريمة

وَعَلَى الْفَلْسَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمُ أَنْفُسُهُمْ وَوُطِّنُوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْعَوْا بَأْسَهُمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يَنْفَقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِحَرْبِهِمْ اللَّهُ أَحْسَنُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

الزكية ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ المجاهدون في سبيل الله ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ﴾ تعب ومشقة ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ مجاعة ﴿وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ من الخوض لديارهم، والاستيلاء على أوطانهم، ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيلاً﴾ كالظفر بجيش أو سرية أو الغنيمة لمال ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ لأن هذه آثار ناشئة عن أعمالهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين أحسنوا في مبادرتهم إلى أمر الله، وقيامهم بما عليهم من حقه، وحق خلقه.

(١١٩) في «الصحيحين» و«المسند» - واللفظ له - عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عليكم بالصدق؛ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدْقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ؛ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا».

مصالح لو خرجوا لفاتتهم، فقال: ﴿لَيْسَ فَعَهُمْ﴾ أي: القاعدون ﴿فِي الَّذِينَ﴾ ليتعلموا العلم الشرعي، ويعلموا معانيه، ويفقهوا أسرارهم ﴿وَلْيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ فإذا رجعت السرايا، وقد نزل بعدهم قرآن تعلمه القاعدون من النبي ﷺ قالوا: إن الله أنزل على نبيكم قرآنًا، وقد تعلمناه. فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ يتعظون فيعملون به ولا يعملون بخلافه.

(١٢٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ أمر الله المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولاً فأولاً، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ وأمرهم بالغلظة عليهم والشدة في القتال والشجاعة والثبات ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ وليكن لديكم علم أن المعونة من الله تنزل بحسب التقوى، فلازموا على تقوى الله، يعنكم وينصركم على عدوكم.

(١٢٤) ثم بين تعالى حال المنافقين، وحال المؤمنين عند نزول القرآن، وتفاوت ما بين الفريقين، فقال: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ﴾ فيها الأمر والنهي والخبر عن نفسه الكريمة وعن الأمور الغائبة والحث على الجهاد ﴿فَيَنْهَرُ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ﴾ حصل الاستفهام لمن حصل له الإيمان بها من الطائفتين ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ بالعلم بها وفهمها واعتقادها والعمل بها والرغبة في فعل الخير، والانكفاف عن



(١٢١) ﴿وَلَا يُفْقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ قليلاً ولا كثيراً ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ في ذهابهم إلى عدوهم ﴿وَلَا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ومن ذلك هذه الأعمال إذا أخلصوا فيها لله، ونصحوا فيها. (١٢٢) ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَسْفَرُوا كَافَّةً﴾ جميعاً لقتال عدوهم؛ فإنه يحصل عليهم المشقة بذلك، ويفوت به كثير من المصالح الأخرى ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ﴾ من البلدان والقبائل والأفخاذ ﴿طَائِفَةٌ﴾ تحصل بها الكفاية والمقصود؛ لكان أولى ثم نبه على أن في إقامة المقيمين منهم وعدم خروجهم

(١٢١) أخرج الترمذي وعبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» - واللفظ له - وغيرهما بإسناد حسن، عن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه، قال: جاء عثمان إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حين جهز النبي ﷺ جيش العسرة، قال: فصبها في حجر النبي ﷺ، فجعل النبي ﷺ يقلبها بيده ويقول: «ما ضرَّ ابنَ عفَّانَ ما عملَ بعدَ اليومَ». يرددها مراراً.

صدّها عن الحق وخذلها ﴿يَأْنَهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ فقهاً يفهمهم، فإنهم لو فقهوا لكانوا إذا نزلت سورة آمنوا بها، وانقادوا لأمرها.

(١٢٨) ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ يمتن تعالى على عباده المؤمنين بما بعث فيهم النبي الأمي الذي من أنفسهم ومن جنسهم، يعرفون حاله ولسانه، ويتمكنون من الأخذ عنه، ولا يأنفون عن الانقياد له ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ يشق عليه الأمر الذي يشق عليكم ويعنتكم ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ فيحب لكم الخير، ويسعى جهده في إيصاله إليكم، ويحرص على هدايتكم إلى الإيمان، ويكره لكم الشر، ويسعى جهده في تنفيركم عنه ﴿يَالْمُؤْمِنِينَ زُودُوا رَجِيئًا﴾ شديد الرأفة والرحمة بهم، أرحم بهم من والديهم.

(١٢٩) ﴿فَإِنْ آمَنُوا﴾ فذلك حظهم وتوفيقهم، وإن ﴿تَوَلَّوْا﴾ عن الإيمان والعمل، فامض على سبيلك، ولا تنزل في دعوتك، وقل: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ الله يكفيني جميع ما أهمني ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود بحق سواه ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ اعتمدت ووثقت به في جلب ما ينفع ودفع ما يضر ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ الذي هو أعظم المخلوقات.

فعل الشر ﴿وَهُمْ يَسْتَشِيرُونَ﴾ يبشر بعضهم بعضاً، بما من الله عليهم من آياته، والتوفيق لفهمها والعمل بها.

(١٢٥) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَمٌ﴾ شك ونفاق ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ مرضاً إلى مرضهم وشكاً إلى شكهم ﴿وَمَا تَوَأَوْا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ وهذا عقوبة لهم؛ لأنهم كفروا بآيات الله، وعصوا رسوله، فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه.

(١٢٦) ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَاوٍ مَّرَّةٍ أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ بما يصيبهم من البلايا والأمراض، وبما يتلون من الأوامر الإلهية، التي يراد بها اختبارهم ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ عما هم عليه من الشر ﴿وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه.

(١٢٧) ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾؛ يعني: أن المنافقين الذين يحذرون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم إذا نزلت سورة وليؤمنوا بها، ويعملوا بمضمونها ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ جازمين على ترك العمل بها، ينتظرون الفرصة في الاختفاء عن أعين المؤمنين، ويقولون: ﴿هَذَا يَرْزُقُكُمْ مِّنْ أَحَدٍ﴾، ﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا﴾ متسللين، وانقلبوا معرضين، فجازاهم الله بعقوبة من جنس عملهم، فكما انصرفوا عن العمل ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾

(١٢٨) في «المسند» بإسناد حسن من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أحب الأديان إلى الله تعالى الحنيفية السمحة». وفي «صحيح البخاري» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إن هذا الدين يسر».

(١٢٩) أخرج أبو داود بإسناد حسن عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من قال في كل يوم حين يصبح وحين يمسى: حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم، سبع مرات، كفاه الله عز وجل همه من أمر الدنيا والآخرة».

ربهم، بما قدموه وأسلموه من الأعمال الصالحة الصادقة، فلما أنذر وبشر ﷺ ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ﴾ عنه: ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّيْنٌ﴾ بَيْنَ السَّحَرِ، لا يخفى على أحد.

(٣) ثم قال تعالى -مبيناً لربوبيته وإلهيته وعظمته-: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ مع أنه قادر على خلقها في لحظة واحدة، ولكن لما له في ذلك من الحكمة الإلهية ﴿ثُمَّ﴾ بعد خلق السموات والأرض ﴿أُتَوَى﴾ استواء يليق بعظمته ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ أعظم المخلوقات وسقفها ﴿يُذِيرُ الْأُمُورَ﴾ أمر الخلائق ﴿مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ فلا يقدم أحد منهم على الشفاعة حتى يأذن الله، ولا يأذن إلا لمن ارتضى ﴿ذَلِكَ﴾ الذي هذا شأنه ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ هو الله الذي له وصف الإلهية الجامعة لصفات الكمال، ووصف الربوبية الجامع لصفات الأفعال ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ أفردوه بجميع ما تقدرون عليه من أنواع العبودية ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الأدلة الدالة على أنه وحده المعبود المحمود، ذو الجلال والإكرام.

(٤) ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ سيجمعكم بعد موتكم لميقات يوم معلوم ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ وعده صادق لا بد من إتمامه ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ فالقادر على ابتداء الخلق قادر على إعادته ﴿لِيُعَذِّبَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بقلوبهم بما أمرهم الله بالإيمان به ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بجوارحهم من واجبات ومستحبات ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل والجزاء الأوفى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بآيات الله وكذبوا رسل الله ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ ماء حار، يشوي الوجوه، ويقطع الأمعاء ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ من سائر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الرَّيَّةَ أَيَّتُهَا الْكِتَابُ الْحَكِيمُ ① أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُيْنٌ ② إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأُمُورَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَ كُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ③ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيُعَذِّبَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ ④ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَسْلُمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ⑤ إِنَّ فِي تَخْلُفِ اللَّيْلِ وَالتَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ⑥

سورة يونس

(١) ﴿الرَّيَّةَ﴾ أما الحروف المقطعة في أوائل السور فتقدم الكلام عليها مستوفى في أوائل سورة «البقرة» ﴿تِلْكَ أَيَّتُهَا الْكِتَابُ الْحَكِيمُ﴾ وهو هذا القرآن المشتمل على الحكمة والأحكام، الدالة آياته على الحقائق الإيمانية والأوامر والنواهي الشرعية.

(٢) ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ﴾ أي: أكان إيحائنا إلى محمد عبدنا ورسولنا وهو رجل من قريش عجباً لأهل مكة يتعجبون منه؟! والموحي به هو: ﴿أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ عذاب الله، وخوفهم نقم الله، وذكرهم بآيات الله، ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ إيماناً صادقاً ﴿أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ لهم جزاء موفور، وثواب مذكور عند

أصناف العذاب ﴿يَمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ بسبب كفرهم وظلمهم.

(٥) ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه وأنه جعل شعاع القمر عن جرم الشمس ضياءً، وجعل شعاع القمر نوراً، هذا فن وهذا فن آخر؛ لئلا يشتبها، وجعل سلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل ﴿وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ﴾ وقدر القمر منازل، فأول ما يبدو صغيراً، ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يستوسق ويكمل إبداره، ثم يشرع في النقص حتى يعود إلى حالته الأولى في تمام شهر ﴿لِيَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّنِ وَالْحِسَابِ﴾ فبالشمس تعرف الأيام، وبسیر القمر تعرف الشهور والأعوام ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ لم يخلقه عبثاً، بل له حكمة عظيمة في ذلك ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

(٦) ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ في تعاقبهما، إذا جاء هذا ذهب هذا، وإذا ذهب هذا جاء هذا، لا يتأخر عنه شيئاً ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من الآيات الدالة على عظمته ﴿لَا يَتَّبِعُ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ عقاب الله وسخطه وعذابه.

(٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ لا يطمعون بلقاء الله ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بدلاً عن الآخرة ﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ ركنوا إليها ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلَيْنَا غَافِلُونَ﴾ فلا ينتفعون بالآيات القرآنية، ولا بالآيات الأفقية والنفسية.

(٨) ﴿أُولَئِكَ﴾ الذين هذا وصفهم ﴿مَأْوَاهُمْ

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلَيْنَا غَافِلُونَ ﴿٥﴾ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ النَّارُ يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٧﴾ دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سَبْحٌ لِلَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَقَسْمُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَهُوَ اخِرُ دَعْوَتِهِمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَسْرَارَهُمْ سَتَعْلَمُهُمْ بِالْخَيْرِ لَقَضَى إِلَيْهِمْ أَجَلَهُمْ فَتَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٩﴾ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّهِ مَسَّهُ كَذَلِكَ زَيَّنَ لِلْمُتَّبِعِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ تَجْرِي الْقُومِ الْعَجُوبِينَ ﴿١١﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾

النَّارُ﴾ مقرهم ومسكنهم ﴿يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والشرك، وأنواع المعاصي.

(٩) ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ جمعوا بين الإيمان والقيام بموجبه ومقتضاه من الأعمال الصالحة ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ بسبب ما معهم من الإيمان يشبههم الله أعظم الثواب، وهو الهداية؛ يهديهم في هذه الدار إلى الصراط المستقيم، وفي دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ الجارية على الدوام ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أضافها الله إلى النعيم؛ لاشتمالها على النعيم التام.

(١٠) ﴿دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحٌ لِلَّهِ﴾ عبادتهم فيها لله أولها: تسبيح لله وتنزيه له عن النقائص،

(١٠) في «صحيح مسلم» من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يُلْهِمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا يُلْهِمُونَ النَّفْسَ».

منه لهلكوا، ولأضره ذلك غاية الضرر، ولكنه تعالى حلیم حكيم.

وقوله ﴿فَنَذِرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي: لا يؤمنون بالآخرة فلذلك لا يستعدون لها، ولا يعملون ما ينجيهم من عذاب الله، ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ باطلهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون حائرين، وذلك عقوبة لهم على ظلمهم وكفرهم بآيات الله.

(١٢) ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ﴾ من مرض أو مصيبة ﴿دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ اجتهد في الدعاء، وسأل الله في جميع أحواله قائماً وقاعداً ومضطجعاً، وألح في الدعاء؛ ليكشف الله عنه ضره ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ﴾ استمر في غفلته، معرضاً عن ربه، كأنه ما جاءه ضر، فكشفه الله عنه، فأى ظلم أعظم من هذا الظلم؟! ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ المتجاوزين للحد ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

(١٣) ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ الأمم الماضية ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ بظلمهم وكفرهم ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ جاءتهم البينات على أيدي الرسل وتبين الحق ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ فلم ينقادوا لها ولم يؤمنوا ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ فأحل بهم عقابه الذي لا يرد عن كل مجرم متجرب على محارم الله، وهذه سنته في جميع الأمم.

(١٤) ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ﴾ أيها المخاطبون ﴿خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ﴾ استخلفناكم من بعد القرون

وَأِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنبَغْ قَالَ أَلَا يَرَوْنَ لِقَاءَنَا إِنَّا نَبْغُ إِنَّا نَعْبُدُكَ أَوْ يَدَّ لَهُ قُلُوبُهُمْ كَيْفَ أَنْ أَسْأَلَهُمْ مِنْ خَلْقِي نَفْسِي إِنْ أَنْجَيْتُ إِلَّا مَا يَوْحِي إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ فَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَعَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتُمُوتُ اللَّهُ يَمَّا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ لِلنَّاسِ إِلَّا أَمَةٌ وَجِدَّةٌ فَاتَّخَذُوا لَوْ لَا كَلِمَةً سَبَقَتْ مِن رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

وآخرها: تحميد لله ﴿وَنَحْيِيهِمْ فِيهَا﴾ فيما بينهم عند التلاقي والتزاور ﴿سَلَّمَ﴾ كلام سالم من اللغو والإثم، ﴿وَمِنْ آخِرٍ دَعْوَتُهُمْ﴾ إذا فرغوا ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾.

(١١) ﴿وَلَوْ يَعْجِدُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَلْسِنَ اسْتَعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ أنه لو عجل لهم الشر إذا أتوا بأسبابه، وبأدركهم بالعقوبة على ذلك، كما يعجل لهم الخير إذا أتوا بأسبابه ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ لمحققتهم العقوبة.

ويدخل في هذا، أن العبد إذا غضب على أولاده أو أهله أو ماله، ربما دعا عليهم دعوة لو قبلت

(١١) في «صحيح مسلم» من حديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تدعوا على أنفسكم، لا تدعوا على أولادكم، لا تدعوا على أموالكم؛ لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم».

(١٢) في «صحيح مسلم» من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء؛ فإن أول فتنة بني إسرائيل في النساء».

(١٧) ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ ﴿فَلَوْ كُنْتَ تَقُولُ: لَكُنْتُ أَظْلَمُ النَّاسِ، وَفَاتَنِي الْفَلَاحُ، وَلَمْ تَخَفْ عَلَيْكُمْ حَالِي، وَلَكِنِّي جِئْتُكُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَكَذَّبْتُمْ بِهَا، فَتَعِينَ فِيكُمْ الظُّلَمَ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمَجْرُمُونَ﴾ ولا بد أن أمركم سيضمحل، ولن تنالوا الفلاح ما دمتم كذلك.

(١٨) ﴿وَتَعْبُدُونَ﴾ أي: المشركون المكذبون لرسول الله ﷺ، ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَبْصُرُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ لا تملك لهم مثقال ذرة من النفع، ولا تدفع عنهم شيئاً ﴿وَيَقُولُونَ﴾ قولاً خالياً من البرهان: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: يعبدونهم ليقربوهم إلى الله، ويشفعوا لهم عنده، وهذا قول من تلقاء أنفسهم وكلام ابتكروه هم، ولهذا قال تعالى - مبطلاً لهذا القول: ﴿قُلْ أَتَشْتَرُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أتخبرون الله بما لا يكون في السموات ولا في الأرض؟ ثم نزه نفسه عن شركهم وكفرهم فقال: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تقدر وتزده أن يكون له شريك أو نظير.

(١٩) ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ متفقين على الدين الصحيح، ﴿فَاخْتَلَفُوا﴾ ولكنهم اختلفوا، فبعث الله الرسل مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ بإمهال العاصين، وعدم معاجلتهم بذنوبهم ﴿لَفُتِحَ بَيْنَهُمْ﴾ بأن ننجي المؤمنين، ونهلك

الماضية ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فإن أنتم اعتبرتم واتعظتم بمن قبلكم، واتبعتم آيات الله، وصدقتم رسله نجوتهم في الدنيا والآخرة، وإن فعلتم كفعل الظالمين قبلكم أحل بكم ما أحل بهم.

(١٥) ثم ذكر تعالى تعنت المكذبين لرسوله محمد ﷺ فقال: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ﴾ وأنهم إذا تلى عليهم آيات الله القرآنية المبينة للحق ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أعرضوا عنها، وطلبوا وجوه التعنت فقالوا - جراءة منهم وظلماً -: ﴿أَنَّهُ يَفْتَرِي بَنِي إِسْرَءِيلَ عَذَابَ اللَّهِ الَّذِي كُذِّبَتْ عَنْهُمْ آلُهَا وَأُولَئِكَ يَكْفُرُونَ﴾ فقال الله تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي﴾ ما ينبغي لي ﴿أَنْ أَبَدِلَهُ مِنْ تِلْكَ نَفْسٍ﴾ فإني رسول محض، ليس لي من الأمر شيء ﴿إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ ليس لي غير ذلك؛ فإني عبد مأمور ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

(١٦) ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ﴾ أي: هذا ما جئتمكم به عن إذن الله لي في ذلك ومشيئته وإرادته، والدليل ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾ طويلاً ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ قبل تلاوته، وقبل درايتكم به، وأنا ما خطر على بالي، ولا وقع في ظني ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي حيث لم أتله في مدة عمري، ولا صدر مني ما يدل على ذلك، فكيف أقوله بعد ذلك، وقد لبثت فيكم عمراً طويلاً تعرفون حقيقة حالي بأني أُمِّي لا أقرأ ولا أكتب؟!

(١٧) أخرج الترمذي وابن ماجه بإسناد صحيح عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه، قال: لما قدم رسول الله ﷺ انجفل الناس - أي ذهبوا مسرعين إليه - فكانت فيمن انجفل، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب، فكان أول ما سمعته يقول: «يا أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام؛ تدخلوا الجنة بسلام».

بعد الخوف؛ نسوا ما أصابهم من الضراء، ولم يشكروا الله على الرخاء والرحمة، بل استمروا في طغيانهم ومكرهم، ولهذا قال: ﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ يسعون بالباطل؛ ليطلوا به الحق ﴿قُلْ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ فإن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله ﴿إِنْ رُسُلُنَا يَكْتُوبُونَ مَا تَمَكُّرُونَ﴾ تكتب الملائكة عليهم ما يعملون، ويحصى الله، ثم يجازيهم عليه أوفر الجزاء.

(٢٢) ﴿هُوَ الَّذِي يُسِرُّكَ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ بما يسر لكم من الأسباب الميسرة لكم فيها، وهذاكم إليها ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ﴾ السفن البحرية ﴿وَجَرَيْنَ يَمِّ رَبِّيعِ طَبَقَةٍ﴾ موافقة لما يهوونه من غير انزعاج ولا مشقة ﴿وَفَرَحُوا بِهَا﴾ واطمأنوا إليها، فبينما هم كذلك ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ شديدة الهبوب ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ هاج عليهم البحر واضطربت أمواجه ﴿وَقَنُوتُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ عرفوا أنه الهلاك، فانقطع حينئذ تعلقهم بالمخلوقين، وعرفوا أنه لا ينجيهم من هذه الشدة إلا الله وحده، وحينئذ ﴿دَعَاؤُ اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾ فلم يدعوا صنماً ولا وثناً، بل أفردوه بالدعاء والابتهال، ووعدوا من أنفسهم على وجه الإلزام، فقالوا: ﴿لَئِنْ أَجَبْتَنَا مِنْ هَذِهِ﴾ هذه الحال ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لا نشرك بك أحداً، ولنفردنك بالعبادة.

(٢٣) ﴿فَلَمَّا أَجَبْنَاهُمْ﴾ من تلك الورطة ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ نسوا تلك الشدة وذلك الدعاء وما ألزموه أنفسهم، فأشركوا بالله

وَأَذَانَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسْتَهْمٍ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ ۖ مَا يَتَنَبَّأُ قُلُوبُ اللَّهِ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُوبُونَ مَا تَمَكُّرُونَ ﴿٢٢﴾ هُوَ الَّذِي يُسِرُّكَ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ يَمِّ رَبِّيعِ طَبَقَةٍ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَاؤُ اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَئِنْ أَجَبْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا أَجَبْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَتَنَبَّأُ النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِنَّكُمْ لَعِنَتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهَا آتَاهَا أَمْرًا نَائِلًا فَأُولَٰئِكَ فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٦﴾

الكافرين المكذبين، وصار هذا فارقاً بينهم ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ولكنه أراد امتحانهم وابتلاء بعضهم ببعض؛ ليتبين الصادق من الكاذب.

(٢٠) ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: المكذبون المتعنتون: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾؛ يعنون: آيات الاقتراح التي يعينونها، ﴿فَقُلْ﴾ لهم إذا طلبوا منك آية: ﴿إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ هو المحيط علماً بأحوال العباد ﴿فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ كلٌ ينتظر بصاحبه ما هو أهل له، فانظروا لمن تكون العاقبة.

(٢١) ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسْتَهْمٍ﴾ كالصحة بعد المرض، والغنى بعد الفقر، والأمن

(٢٣) أخرج البخاري في «الأدب المفرد» وأبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد بإسناد صحيح عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ذنبٍ أجدُرُ أن يُعْجَلَ اللهُ عقوبته في الدنيا، مع ما يدخرُ اللهُ لصاحبه في الآخرة، من البغي وقطيعه الرحم»

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيَكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ إنما يذوق وبال هذا البغي أنتم أنفسكم ولا تضرونه شيئاً، ولا تضرون به أحداً غيركم، ﴿مَتَنَعَ الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا﴾ غاية ما تؤملون ببغيتكم وشروءكم عن الإخلاص لله أن تنالوا شيئاً من حطام الدنيا وجاهها النزر اليسير الذي سينقضي سريعاً، ويمضي جميعاً، ثم تنتقلون عنه بالرغم، ﴿ثُمَّ إِنِّي أَنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ مصيركم ومآلكم إلى الله في يوم القيامة ﴿فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فنخبركم بجميع أعمالكم، ونوفيككم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

(٢٤) ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا﴾ الآية، وهذا المثل من أحسن الأمثلة، وهو مطابق لحالة الدنيا، فإن لذاتها وشهواتها وجاهها ونحو ذلك يزهو لصاحبه - إن زها- وقتاً قصيراً، فإذا استكمل وتم؛ اضمحل وزال عن صاحبه، أو زال صاحبه عنه، فأصبح صفر اليدين منها، ممتلئ القلب من همها وحزنها وحسرتها، فذلك ﴿كَمَا أُنزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْلَطَ بِهِ نَبَاتَ الْأَرْضِ﴾

نبت فيها من كل صنف وزوج بهيج ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ﴾ كالحبوب والشمار، ﴿وَمِمَّا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ كأنواع العشب والكلأ المختلف الأصناف ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ تَزَخَّرَتْ فِي مَنْظَرِهَا، وَاكْتَسَتْ فِي زِينَتِهَا وَطَرَبَ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا﴾ حصل معهم طمع بأن ذلك سيستمر ويدوم، فبينما هم في تلك الحالة ﴿أَنذَرْنَا أَمْرًا لَّيَالًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾ يبساً بعد تلك الخضرة والنضارة ﴿كَانَ لَمْ تَعْرِ بِالْأَمْسِ﴾ كأنها ما كانت حسناء قبل ذلك، فهذه حالة الدنيا، سواء بسواء، ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ الْأَيَّاتِ﴾ نبينها ونوضحها بتقريب المعاني إلى الأذهان، وضرب الأمثال، ﴿لَقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يُعْمِلُونَ أفكارهم فيما ينفعهم ولما ذكر الله حال الدنيا وحاصل نعيمها، وشوق إلى الدار الباقية، فقال:

(٢٥) ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو﴾ عمم - تعالى - عباده بالدعوة ﴿إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ والحث على ذلك والترغيب، وسمى الله الجنة «دار السلام»؛ لسلامتها من الآفات والنقائص؛ وذلك لكمال

(٢٤) أخرج مسلم في «صحيحه» من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصبغ في جهنم صبغة، ثم يقال له: يا ابن آدم، هل رأيت خيراً قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب. ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا، فيصبغ في الجنة صبغة، فيقال له: يا ابن آدم، هل رأيت بؤساً قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط».

(٢٥) أخرج أحمد والطبرسي وغيرهم بإسناد حسن عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «ما من يوم طلعت شمسُه إلا وُكِّلَ بجَنَّتَيْهَا ملكان يناديان نداءً يسمعه خلقُ الله كلُّهم إلا الثقلين: يا أيها الناس، هلموا إلى ربكم، إنَّ ما قلَّ وكفى خير مما كثر وألهى. ولا آتت الشمس إلا كان بجَنَّتَيْهَا ملكان يناديان نداءً يسمعه خلقُ الله كلُّهم غير الثقلين: اللهم أعط منفقاً خلفاً، وأعط مسكناً تلقاً. وأنزل الله في ذلك قرآناً في قول الملكين: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم. في سورة «يونس»: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، وأنزل في قولهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، وأعط مسكناً تلقاً: ﴿وَأَتَيْنَا إِذَا تَعَنَّى وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ۝ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿لَقَسْرَى﴾».

﴿الْمُسْقَى﴾ وهي الجنة، الكاملة في حسنها ﴿وَزِيَادَةٍ﴾ وهي النظر إلى وجه الله الكريم، وسماع كلامه، والفوز برضاه، والبهجة بقربه ﴿وَلَا يَرَهُ جُوهَهُمْ قَدْ وَلَا ذُلَّهُ﴾ لا ينالهم مكروه بوجه من الوجوه؛ لأن المكروه إذا وقع بالإنسان تبين ذلك في وجهه وتغير وتكدر، كما في قوله تعالى: ﴿فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ سَرَ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهْمُ نَصْرَهُ وَشُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١]، ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ الملازمون لها ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا يحولون، ولا يزولون، ولا يتغيرون.

(٢٧) ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾ الأعمال السيئة المسخطة لله من أنواع الكفر والتكذيب وأصناف المعاصي ﴿فَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ يُمَثِّلُهَا﴾ جزاء يسوؤهم بحسب ما عملوا من السيئات على اختلاف أحوالهم ﴿وَرَهَقَهُمْ﴾ أي: تغشاهم ﴿ذُلٌّ﴾ في قلوبهم وخوف من عذاب الله ﴿مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ﴾ لا يدفعه عنهم دافع ﴿كَأَنَّمَا أَغْشِيَتْ وَجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ تسري تلك الذلة الباطنة إلى ظاهرهم، فتكون سوادا في وجوههم ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

(٢٨) يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ نجمع جميع الخلائق من إنس وجن، وبر وفاجر، كما قال: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧] ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْهُنَى وَرِبَادَةً وَلَا يَرَهُ جُوهَهُمْ قَدْ وَلَا ذُلَّهُ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يُمَثِّلُهَا وَرَهَقَهُمْ ذُلٌّ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَأَنَّمَا أَغْشِيَتْ وَجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَاعِبُونَ ﴿٢٩﴾ فَكُنْ لِلَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَ كُمْ إِنَّ كُنَّا نَعْبُدُكُمْ لِعِصْيَانٍ ﴿٣٠﴾ هُنَالِكَ نَبْهَتُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمِنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأُمُورَ فَيَقُولُوا اللَّهُ فَعَلْ فَلَا تَقْنُوتُمْ ﴿٣٢﴾ فَلَا تَكْفُرُوا بِاللَّهِ وَكُفُّوا أَلْسِنَهُمْ فَمَادَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٣٣﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٤﴾

نعيمها وتمامه، وحسنه من كل وجه ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وخص بالهداية من شاء استخلاصه واصطفاه، فهذا فضله وإحسانه، والله يختص برحمته من يشاء، وذلك عدله وحكمته، وليس لأحد عليه حجة بعد البيان والرسول.

(٢٦) ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ في عبادة الخالق، بأن عبده على وجه المراقبة والنصيحة في عبوديته، وقاموا بما قدروا عليه منها، وأحسنوا إلى عباد الله، بما يقدرون عليه من الإحسان القولي والفعلي، فهؤلاء الذين أحسنوا لهم

(٢٦) أخرج مسلم في «صحيحه» عن صهيب رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْهُنَى وَرِبَادَةً﴾ وقال: إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه. فيقولون: وما هو؟ ألم ينقل موازيننا؟ ويبض وجوهنا؟ ويدخلنا الجنة؟ ويزححننا عن النار؟ قال: فيكشف لهم الحجاب، فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إليه، ولا أقر لأعينهم.

كإخراج أنواع الأشجار والنبات، من الحبوب والنوى، وإخراج المؤمن من الكافر؟ ﴿وَيُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ عكس هذه المذكورات؟ ﴿وَمَنْ يُدْرِ الْأَمْرُ﴾ في العالم العلوي والسفلي؟ وهذا شامل لجميع أنواع التدابير الإلهية، فإنك إذا سألتهم عن ذلك ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾؛ لأنهم يعترفون بجميع ذلك، وأن الله لا شريك له في شيء من المذكورات، ﴿فَقُلْ﴾ لهم إلزاماً بالحجة: ﴿أَفَلَا نُنْفِئُ﴾ الله، فتخلصون له العبادة، وحده لا شريك له، وتخلعون ما تعبدونه من دونه من الأنداد والأوثان.

(٣٢) ﴿فَذَلِكُمْ﴾ الذي وصف نفسه بما وصفها به، واعترفتم بأنه فاعل ذلك كله هو ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: المألوه، المعبود بحق، المحمود بصدق، المربي جميع الخلق بالنعيم، وهو ﴿الْحَقُّ﴾ الذي يستحق أن يفرد بالعبادة ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ فكل معبود سواه باطل، لا إله إلا هو وحده لا شريك له ﴿فَأَن تَصْرُفُ﴾ عن عبادة من هذا وصفه، إلى عبادة الذي ليس له من وجوده إلا العدم، ولا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا.

(٣٣) ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ لِرَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ كما كفر هؤلاء المشركون، واستمروا على شركهم وعبادتهم مع الله غيره، مع أنهم يعترفون بأنه الخالق المتصرف في الملك وحده الذي بعث رسله بتوحيده، فلهذا حقت عليهم كلمة الله أنهم أشقياء من ساكني النار.

مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ﴾ الزموا مكانكم؛ ليقع التحاكم والفصل بينكم وبينهم ﴿فَرَلَيْنَا بَيْنَهُمْ﴾ فرقنا بينهم ﴿وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ﴾ متبرئين منهم: ﴿مَا كُنْتُمْ إِنَّا نَعْبُدُونَ﴾ فإننا ننزه الله أن يكون له شريك أو نديد.

(٢٩) ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ الله شهيد بيننا وبينكم أنا ما دعوناكم إلى عبادتنا، ولا أمرناكم بها، ولا رضىنا منكم بذلك، وإنما عبدتم من دعاكم لذلك، وهو الشيطان ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ ما كنا نشعر بها ولا نعلم، وإنما أنتم كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم.

(٣٠) ﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك اليوم ﴿تَبْلَوُا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ تتفقد أعمالها وكسبها، وتتبعه بالجزاء، وتجازى بحسبه، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩]، وقوله: ﴿يَبْيُخِّرُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ مِمَّا قَدَّمَ وَآخَرَ﴾ [القيامة: ١٣] ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ﴾ رجعت الأمور كلها إلى الله الحكم العدل، ففصلها، وأدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ﴾ ذهب عن المشركين ﴿مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ من قولهم بصحة ما هم عليه من الشرك، وأن ما يعبدون من دون الله تنفعهم وتدفع عنهم العذاب.

(٣١) ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء الذين أشركوا بالله: ﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ بإنزال الأرزاق من السماء، وإخراج أنواعها من الأرض؟ ﴿أَمْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾ من هو الذي خلقهما وهو مالِكهما؟ ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾

الْحَقِّ أَقُوَّ أَنْ يُنَبِّعَ أَمِنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَّ؟ أَي: أفتتبع العبد الذي يهدي إلى الحق ويبصر بعد العمى؟ أم الذي لا يهدي إلى شيء إلا أن يهدي لعماه وبكمه؟ ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي شيء جعلكم تحكمون هذا الحكم الباطل بصحة عبادة أحد مع الله بعد ظهور الحجة والبرهان أنه لا يستحق العبادة إلا الله وحده؟! (٣٦)

﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ ولا يتبعون في دينهم هذا دليلاً ولا برهاناً، إنما هو ظن منهم؛ أي: توهم وتخيل ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يَغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ وذلك لا يغني عنهم شيئاً ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ وسيجازيهم على ذلك بالعقوبة البليغة.

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (٣٧) غير ممكن ولا متصور أن يفتري هذا القرآن على الله ﴿وَلَكِنْ﴾ الله أنزل هذا الكتاب رحمة للعالمين، وحجة على العباد أجمعين، أنزله ﴿تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من كتب الله السماوية بأن وافقها وصدقها بما شهدت به، وبشرت بنزوله، فوقع كما أخبرت ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾ للحلال والحرام، والأحكام الدينية والقدرية، والإخبارات الصادقة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لا شك ولا مرية فيه بوجه من الوجوه، بل هو بيقين من رب العالمين الذي ربي جميع الخلق بنعمه.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ أي: المكذبون به عناداً وبغياً: ﴿أَفْتَرَيْنَاهُ﴾ محمد على الله واختلقه، ﴿قُلْ﴾ لهم- ملزماً لهم بشيء، إن قدروا عليه، أو أن ما أدعوه، وإلا كان قولهم باطلاً-: ﴿فَأَنذَرْتُهُمْ مِثْلَ مَا أُذْغُوا مِنْ أَسْطَقْعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعاونكم على الإتيان بسورة مثله، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهذا محال، ولو كان ممكناً لادعوا قدرتهم على ذلك ولأنوا بمثله،

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ فِي اللَّهِ يَسْبُدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ فَأَنْتُمْ تُؤْفِكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمِنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَّ هَذَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا الظَّنُّ لَا يَغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأَنذَرْتُكُمْ مِثْلَ مَا أُذْغُوا مِنْ أَسْطَقْعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلَهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيقُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمِعُ الْأُصْمَ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ﴾ (٣٤) يستبدية ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُمْ﴾ وهذا استفهام بمعنى النفي والتقرير؛ أي: ما منهم أحد يبدأ الخلق ثم يعيده، وهم أضعف من ذلك وأعجز، ﴿قُلِ اللَّهُ يَسْبُدُّ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ﴾ من غير مشارك ولا معاون له على ذلك ﴿فَأَنْتَ تُؤْفِكُونَ﴾ تصرفون وتنحرفون عن عبادة المنفرد بالابتداء والإعادة، إلى عبادة من لا يخلق شيئاً وهم يخلقون.

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ (٣٥) أنتم تعلمون أن أحداً من شركائكم لا يقدر على هداية ضال ببيانه وإرشاده، أو بإلهامه وتوفيقه ﴿قُلْ﴾ إنما يهدي الحيارى والضلال، ويقلب القلوب من الغي إلى الرشيد ﴿اللَّهُ﴾ وحده لا شريك له ﴿يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ بالأدلة والبراهين، وبالإلهام والتوفيق، والإعانة إلى سلوك أقوم طريق، ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى

من جنس تكذيب من قبلهم ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ وهو الهلاك الذي لم يَبْقَ منهم أحدًا.

(٤٠) ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ بالقرآن وما جاء به ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ وهم الذين لا يؤمنون به على وجه الظلم والعناد والفساد ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ فسيجازيهم على فسادهم بأشد العذاب.

(٤١) ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ يقول الله لنبية ﷺ: وإن كذبوك هؤلاء المشركون فتبراً منهم ومن عملهم، واستمر على دعوتك، وليس عليك من حسابهم من شيء، وما من حسابك عليهم من شيء، لكل عمله ﴿فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مِمَّا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١، ٦]؛ ﴿أَنْتُمْ بَرِيعُونَ وَمِمَّا أَعْمَلُوا أَنَا بَرِيءٌ وَمِمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ كقول الخليل وأتباعه لقومهم المشركين: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ [الممتحنة: ٤].

(٤٢) ﴿وَوَ﴾ أن ﴿مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَعِينُ إِلَيْكَ﴾ أي: إلى النبي ﷺ، وقت قراءته للوحي، لا على وجه الاسترشاد، بل على وجه التفرج والتكذيب، وتطلب العشرات ﴿أَفَأَنْتَ سَمِعَ الْخَمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ وهذا استفهام بمعنى النفي المتقرر؛ أي:

ولكن لما بان عجزهم تبين أن ما قالوه باطل، لا حظ له من الحجة.

وهذا هو المقام الثالث في التحدي فإنه تعالى تحداهم ودعاهم إن كانوا صادقين في دعواهم أنه من عند محمد ﷺ فليعارضوه بنظير ما جاء به وحده، وليستعينوا بما شاءوا، وأخبر أنهم لا يقدرُونَ على ذلك، ولا سبيل لهم إليه، فقال تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه؛ فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَأَيْنَاهُ قَاتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣]، ثم تنازل إلى سورة، فقال في هذه السورة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَأَيْنَاهُ قُلْ قَاتُوا بِسُوْرٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وكذا في سورة البقرة - وهي مدنية - تحداهم بسورة منه، وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبداً فقال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُوْرٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

(٣٩) ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ﴾ والذي حملهم على التكذيب بالقرآن المشتمل على الحق الذي لا حق فوقه أنهم لم يحيطوا به علماً، فلو أحاطوا به علماً وفهموه حق فهمه لأدعنا بالتصديق به ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ وكذلك إلى الآن لم يأتهم تأويله الذي وعدهم أن ينزل بهم العذاب، ويحل بهم النكال، ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وهذا التكذيب الصادر منهم

يوافونها لم يلبثوا إلا ساعة من نهار، وكأنه ما مر عليهم نعيم ولا بؤس، وهم ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ فيها، يعرف الأبناء الآباء، والقرباب بعضهم بعضاً كحالهم في الدنيا ولكن كل مشغول بنفسه.

وهذا دليل على استقصار الحياة الدنيا ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ ففي هذا اليوم يربح المتقون، ويخسر الذين كذبوا بقاء الله ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ إلى الصراط المستقيم، والدين القويم، حيث فاتهم النعيم، واستحقوا دخول النار.

(٤٦) يقول تعالى مخاطباً لرسوله: ﴿وَمَا زُرْنَاكَ بِبَعْضِ الَّذِي وَعَدْتُمْ﴾ أي: ننتقم منهم في حياتك لتقر عينك منهم ﴿أَوْ نَوَيْتُكَ﴾ وإما في الآخرة بعد الوفاة ﴿فَالِئِنَّا مَرَجِعُهُمْ﴾ مصيرهم ومنقلبهم ﴿ثُمَّ أَنَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ والله شهيد على أفعالهم بعدك.

(٤٧) ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم الماضية ﴿رَسُولٌ﴾ يدعوهم إلى توحيد الله ودينه ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ في الآخرة ﴿فُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ فيقضي الله بينهم بالعدل بنجاة المؤمنين وإهلاك الكاذبين ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ من جزاء أعمالهم شيئاً، ولكن يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء من أهل الإيمان، إما أن يعاقبه، وإما أن يعفو عنه، والكافر يخلد في النار، فذلك قضاء الله بينهم بالعدل، وذلك لاشك عدل لا ظلم.

(٤٨) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ يخبر تعالى عن كفر هؤلاء في استعجالهم العذاب، وسؤالهم عن وقته قبل التعيين مما لا فائدة لهم فيه.

(٤٩) ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ

وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيَّ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعَمَىٰ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِنَّا بِكَ بَعْضَ الَّذِي وَعَدْتُمْ لَوَفَّىٰكَ فَإِنَّا نَرَجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ فَضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَجِرُّونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَعِذُّونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُمْ عَذَابِي يَبْتَغُونَ أَوْ نَهَاكَ مَا دَسْتَعِجِلْ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَفَرَأَىٰ مَا وَقَعَهُ أَمَّتُمْ بِهِ أَمْ كُنَّ تَقْتُلُونَ سَعَةً لِّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥١﴾ وَتَسْتَبْشِرُونَ أَحَقَّ هَوًىٰ لِّى وَرَفِئَتْ لَهُ الْحَقُّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٢﴾

لا تسمع الصم الذين لا يستمعون القول ولو جهرت به، وخصوصاً إذا كان عقلهم معدوماً.

(٤٣) ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ فلا يفيدهم نظرهم إليك، ولا سبر أحوالك شيئاً، ﴿أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعَمَىٰ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ فكما أنك لا تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون، فكذلك لا تهدي هؤلاء.

(٤٤) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ فلا يزيد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم ﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ يجيئهم الحق فلا يقبلونه، فيعاقبهم الله بعد ذلك بالطبع على قلوبهم والختم على أسماعهم وأبصارهم.

(٤٥) يقول تعالى مذكراً للناس قيام الساعة وحشرهم من أجدانهم إلى عرصات القيامة: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾ كأنهم يوم

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظِلْمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ. وَأَسْرُوا
النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُتِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ
لَا يَظْلُمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْآيَاتِ
وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ
وَالِلَّهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ بَنِي آدَمَ النَّاسِ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِدُهُ
مِنْ رَبِّكُمْ وَشَفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهَدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ
﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ قَدْ جَاءَكُمْ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا
يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّ زُرِّي
فَجَعَلْتُمْ مَتَاعًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ
تَقَدَّرُ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ لَذُوقِ فَضْلِ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ
وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ
فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي
السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾

اللَّهُ فَإِنْ هَذَا ظَلَمَ مِنْهُمْ؛ حيث طلبوه من النبي
ﷺ فإنه ليس له من الأمر شيء، وإنما عليه
البلاغ والبيان للناس، ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ لكل قرن
مدة من العمر، ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ فإذا جاء ذلك
الوقت، ﴿فَلَا يَسْتَجِرُّونَ سَاعَةً﴾ لا يتأخرون عنه،
﴿وَلَا يَسْتَفِيدُونَ﴾ لا يتقدمونه.

(٥٠) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَيْتُكُمْ عَذَابٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ
نَوْمُكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ أو نهاراً في وقت غفلتكم ﴿مَاذَا
يَسْتَعِجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي بشارة استعجلوا بها،
وأي عقاب ابتدروا؟!

(٥١) ﴿أَتُرِيدُونَ إِذَا مَا وَقَعَ مَأْتَمٌ بِهِ﴾ فإنه لا ينفع
الإيمان حين حلول عذاب الله ﴿أَلَفَنَ﴾ تؤمنون
في حال الشدة والمشقة ﴿وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ سَتَعْلَجُونَ﴾
فإن سنة الله في عباده أنه يعتبهم إذا استعبوه قبل
وقوع العذاب، فإذا وقع العذاب لا ينفع نفساً
إيمانها.

(٥٢) ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ حين يوفون أعمالهم
يوم القيامة: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ العذاب الذي
تخلدون فيه، ولا يفتر عنكم ساعة ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا
بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والتكذيب
والمعاصي.

(٥٣) ﴿وَيَسْتَفِئُونَكَ﴾ يستخبرك المكذبون، على
وجه التعنت والعناد، لا على وجه التبيين
والاسترشاد: ﴿أَحَقُّ هُوَ﴾ أصحح حشر العباد
وبعثهم بعد موتهم ليوم الميعاد، وجزاء العباد
بأعمالهم؟ ﴿قُلْ لَهُمْ﴾ إِي وَرَبِّي ﴿مَقْسَمًا عَلَى
صَحْتِهِ﴾ إِنَّهُ لَحَقٌّ؛ أي: الميعاد والقيامة من
الأحداث بعد صيرورة الأجسام تراباً، حق مبين
لا مرية فيه ولا شبهة تعتريه ﴿وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾
لله أن يبعثكم كما بدأكم من العدم.

(٥٤) ﴿وَ﴾ إذا كانت القيامة ﴿لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ
ظَلَمَتْ﴾ بالكفر والمعاصي جميع ﴿مَا فِي الْأَرْضِ﴾
من ذهب وفضة وغيرهما لفتدي به من عذاب الله
﴿لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ ولما نفعها ذلك، وإنما النفع
والضرر والثواب والعقاب على الأعمال الصالحة
والسيئة ﴿وَأَسْرُوا﴾ الذين ظلموا ﴿النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا
الْعَذَابَ﴾ ندموا على ما قدموا ﴿وَفُتِيَ بَيْنَهُمْ
بِالْقِسْطِ﴾ العدل التام ﴿وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ﴾ بوجه من
الوجوه.

(٥٥) ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يحكم
فيهم بحكمه الديني والقدري، وسيحكم فيه
بحكمه الجزائي، ولهذا قال: ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ
حَقٌّ﴾ كائن لا محالة ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾
فلذلك لا يستعدون للقاء الله، بل ربما لم يؤمنوا
به.

الانقياد للشرع، وأمراض الشبهات القادحة في العلم اليقيني ﴿وَهْدَىٰ رَحْمَةً﴾ فالهدي هو: العلم بالحق والعمل به. والرحمة هي: ما يحصل من الخير والإحسان، والثواب العاجل والآجل، ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ لمن اهتدى به.

(٥٨) ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ﴾ الذي هو: القرآن، الذي هو أعظم نعمة ومنة وفضل تفضل الله به على عباده ﴿وَبِرَحْمَتِهِ﴾ الدين والإيمان، وعبادة الله ومحبة ومعرفته، ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من متاع الدنيا ولذاتها.

(٥٩) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾؛ يعني: أنواع الحيوانات المحللة التي جعلها الله رزقاً لهم ﴿فَمَعَلَمُهُ مِتَّةٌ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾ قل لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَدَّبَ لَكُمْ أُمَّ عَلَى اللَّهِ تَقَرُّونَ﴾ ومن المعلوم أن الله لم يأذن لهم، فعلم أنهم مفترون.

(٦٠) ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ؟﴾ أي: ما ظنهم أن يفعل الله بهم من النكال، ويحل بهم من العقاب، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ كثير، وذو إحسان جزيل ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ إما أنهم لا يقومون بشكرها، وإما أن يستعينوا بها على معاصيه، وإما أن يحرموا منها.

الْآيَاتِ أُولَئِكَ اللَّهُ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٢﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَتَدَبَّرُ لِكَلِمَتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٤﴾ الْآيَاتِ اللَّهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَسْمَعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْمَعُوا إِلَّا ظُلْماً وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٥﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْآيِلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارُ مُبْصِرٌ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٦﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَنْتَقُولُ وَهُوَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٨﴾ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٦٩﴾

(٥٦) ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ هو المتصرف بالاحياء والإماتة، وسائر أنواع التدابير، لا شريك له في ذلك ﴿وَالِيهِ تَرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة، فيجازيكم بأعمالكم خيرا وشرها.

(٥٧) ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ تعظكم وتزجركم عن الفواحش، وتنذركم عن الأعمال الموجبة لسخط الله، المقتضية لعقابه، وتحذركم عنها ببيان آثارها ومفاسدها ﴿وَشَفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ وهو: هذا القرآن، شفاء لما في الصدور من أمراض الشهوات الصادرة عن

(٥٩) أخرج أبو داود والنسائي وأحمد بإسناد صحيح عن أبي الأحوص عن أبيه قال: أتيت رسول الله ﷺ وأنا كشف الهيئة؛ فقال: «هل لك مال؟» قال: قلت: نعم. قال: «من أي المال؟» قال: قلت: من كل المال؛ من الإبل والرقيق والخيول والغنم. فقال: «إذا أتاك الله مالا فليبر عليك». وقال: «هل تنتج إبل قومك صحاحا أذاتها فتعتمد إلى موسى فتقطع أذائها، فتقول: هذا بحر. وتشققها، أو تشق جلودها، وتقول: هذا صرم. وتحرمها عليك وعلى أهلك؟» قال: نعم. قال: «فإن ما أتاك الله لك حِلٌّ، وساعد الله أشد من ساعدك، وموسى الله أخذ من موسيك».

فهو حق، لا يمكن تغييره ولا تبديله، ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾؛ لأنه اشتمل على النجاة من كل محذور، والظفر بكل مطلوب محبوب، وحصر الفوز فيه؛ لأنه لا فوز لغير أهل الإيمان والتقوى.

(٦٥) ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ﴾ ولا يحزنك قول المكذبين فيك من الأقوال التي يتواصلون بها إلى القدح فيك وفي دينك، فإن أقوالهم لا تعزهم ولا تضرك شيئاً ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ يؤتيتها من يشاء، ويمنعها من يشاء ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ السميع لأقوال عباده، العليم بأحوالهم.

(٦٦) ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ يخبر تعالى أن له ما في السموات والأرض، خلقاً وملكاً، يتصرف فيهم بما يشاء من أحكامه ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾ فالجميع ممالك لله، مسخرون، مدبرون، لا يستحقون شيئاً من العبادة، وليسوا شركاء لله بوجه من الوجوه ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ الذي لا يغني من الحق شيئاً ﴿وَلِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يكذبون في ذلك.

(٦٧) ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ آيَاتٍ لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾ في النوم والراحة بسبب الظلمة التي تغشى وجه الأرض ﴿وَ﴾ جعل الله ﴿النَّهَارَ مُبْصِراً﴾ مضيئاً، يبصر به الخلق، فينصرفون في معاشهم، ومصالح دينهم ودنياهم ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ﴾ يستدلون بها

(٦١) ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ حال من أحوالك الدينية والدنيوية ﴿وَمَا تَتَلَوُا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾ وما تتلوا من القرآن الذي أوحاه الله إليك ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ صغير أو كبير ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ وقت شروءكم فيه، واستمراركم على العمل به ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ﴾ ما يغيب عن علمه وسمعه وبصره ومشاهدته ﴿مِنْ شَيْءٍ ذَرَفَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ قد أحاط به علمه، وجرى به قلمه.

(٦٢) ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلونه مما أمامهم من المخاوف والأهوال من أهوال يوم القيامة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما أسلفوا في الدنيا؛ لأنهم لم يسلفوا إلا صالح الأعمال.

(٦٣) ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ وصدقوا بإيمانهم باستعمال التقوى بامتنال الأوامر واجتناب النواهي.

(٦٤) ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أما البشارة في الدنيا، فهي: الثناء الحسن، والمودة في قلوب المؤمنين، والرؤيا الصالحة، وأما في الآخرة، فأولها: البشارة عند قبض أرواحهم، وفي القبر ما يبشر به من رضا الله تعالى، والنعيم المقيم، وتمام البشري بدخول جنات النعيم، والنجاة من العذاب الأليم، ﴿لَا يَبْدِيلُ لِكَلِمَتِ اللَّهِ﴾ بل ما وعد الله

(٦٤) أخرج الإمام أحمد حديث أبي الدرداء رضي الله عنه الصحيح عن النبي ﷺ في قوله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ قال: «الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له».

قال: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فإن هذا من أعظم المحرمات.

(٦٩) ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ فيقولون عليه الباطل، ويدعون له ولداً ﴿لَا يَقْلِحُونَ﴾ لا يبقون في الدنيا، ولا ينالون فيها مطلوبهم.

(٧٠) لكن لهم ﴿مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا﴾ يتمتعون به، وبلاغ يتبلغون به إلى الأجل الذي كتب فناؤهم فيه ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أي: ثم إذا انقضى أجلهم الذي كتب لهم، إلينا مصيرهم ومنقلبهم ﴿ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ﴾ وذلك إصلاؤهم جهنم ﴿يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ بالله في الدنيا، فيكذبون رسله، ويجحدون آياته.

(٧١) ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ يقول تعالى لنبيه: واتل على قومك ﴿تِبْأَ نُوحٍ﴾ في دعوته لقومه حين دعاهم إلى الله مدة طويلة، فتملأوا منه وسئموا، وهو - عليه الصلاة والسلام - غير متكاسل، ولا متوان في دعوتهم، ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ فقال لهم: ﴿يَقُومُوا إِن كَانَ كِبَرٌ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِثَانِيَةِ اللَّهِ﴾ إن كان مقامي عندهم، وتذكيري بإياكم ما ينفعكم بالأدلة الواضحة البينة قد شق عليكم وعظم لديكم وأردتم أن تنالوني بسوء أو تردوا الحق ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ اعتمدت على الله في دفع كل شر يراد بي، وبما أَدْعُو إليه ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾ كلكم، بحيث لا يتخلف منكم أحد، ولا تدخروا من مجهودكم شيئاً ﴿وَأَحْضِرُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ الذين كنتم تعبدونهم وتوالونهم من دون الله رب العالمين ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي: مشتبهاً خفياً، بل ليكن ذلك ظاهراً علانية، ﴿ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ﴾ اقضوا علي بالعقوبة

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ تِبْأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَقُومُوا إِن كَانَ كِبَرٌ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِثَانِيَةِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تَنْظُرُونَ ﴿٦٩﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَاءَ لَكُم مِّنْ أَجْرٍ إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٠﴾ فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمِن مَّعْرُوفٍ إِلَيْنَا كَفْراً وَجَعَلْنَاهُمْ خُلُفَاءَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَأَمَّهُمْ وَالْيَتِيمَاتِ فَكَانُوا لِيُؤْمِنُوا يَمَّا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ذَلِكَ نَطَعَ عَلَى قُلُوبِ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٤﴾ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٥﴾ قَالُوا أَإِتَيْنَاكَ الْغَنَىٰ وَأَعَارَضْنَا عَلَيْكَ إِبْرَاهِيمَ النَّاسُوتَ وَتَكُونُ لَكُمُ الْكِبَرِيَّةُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٦﴾

على أنه وحده المعبود، وأنه الإله الحق، وأن إلهية ما سواه باطلة.

(٦٨) ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ فنزه نفسه عن ذلك بقوله: ﴿سُبْحَنَهُ﴾ تنزهه عما يقول الظالمون في نسبة النقائص إليه علواً كبيراً، وبرهان ذلك ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ الغنى منحصر فيه، وأنواع الغنى مستغرقة فيه، فإذا كان غنياً من كل وجه فلا شيء يتخذ الولد؟ ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وهذه كلمة جامعة عامة، لا يخرج عنها موجود من أهل السموات والأرض، الجميع مخلوقون عبيد ممالك، فملكه لما في السموات والأرض عموماً تنافي الولادة ﴿إِن عِنْدَكُمْ مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ ليس عندهم من حجة وبرهان يدل على أن لله ولداً، وأن ذلك قول بلا علم، ولهذا

الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٦﴾ نَخْتِمُ عَلَيْهَا عِقَابَ لَهِمْ عَلَى مَعْصِيَتِهِمْ بِهِمْ .

(٧٥) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد هؤلاء الرسل ﴿مُوسَى﴾ ابن عمران عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ﴾ وزيراً، وبعثناهما ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ كبار دولته ورؤسائهم ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على صدق ما جاء به من توحيد الله، والنهي عن عبادة ما سوى الله تعالى ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عنها ظلماً وعلواً بعدما استيقنوها ﴿وَكَانُوا قَوْمًا ثَجَرِمِينَ﴾ وصفهم الإجماع والتكذيب .

(٧٦) ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ فلما جاءهم الحق من عند الله على يد موسى، ردوه فلم يقبلوه، و﴿قَالُوا إِنَّ هَذَا لِسِحْرٌ مِثْلُ سِحْرِ مُوسَى﴾ لم يكفهم إعراضهم ولا رداه إياه، حتى جعلوه أبطل الباطل، وهو السحر الذي حقيقته التمويه، بل جعلوه سحراً مبيهاً ظاهراً، وهو الحق المبين .

(٧٧) ولهذا ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿مُوسَى﴾ موبخاً لهم: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ﴾؟ أي: أتقولون: إنه سحر مبين؟ ﴿أَسِحْرٌ هَذَا﴾؟ أي: فانظروا وصفه، وما اشتمل عليه؛ فبمجرد ذلك يجزم بأنه الحق ﴿وَلَا يُلَاحِظُ السَّحَرُونَ﴾ لا في الدنيا، ولا في الآخرة .

(٧٨) ﴿قَالُوا﴾ لموسى، رادين لقوله بما لا يرد به: ﴿أَجِئْنَاكَ لِتُؤْمِنَنَا بِمَا جَاءَنَا وَعَدْنَاكَ عَلَيْنَا﴾ أجبثنا لتصدنا عما وجدنا عليه آباءنا من الشرك وعبادة غيره الله، وتأمرونا بأن نعبد الله وحده لا شريك له ﴿وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِرْبَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾ وجئتمونا لتكونوا أنتم الرؤساء، ولتخرجونا من أراضينا . وهذا تمويه منهم ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ تكبراً وعناداً، لا لبطلان ما جاء به موسى وهارون .

والسوء الذي في إمكانكم، ﴿وَلَا تُنْظِرُونَ﴾ لا تمهلوني .

(٧٩) ﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن ما دعوتكم إليه فلا موجب لتوليكم؛ لأنه تبين أنكم لا تولون عن باطل إلى حق، وإنما تولون عن حق قامت الأدلة على صحته، إلى باطل قامت الأدلة على فساده، ومع هذا ﴿فَمَا سَأَلْتُمْ مِنْ آجَرٍ﴾ على دعوتي وعلى إجابتي فتقولوا: هذا جاءنا لياخذ أموالنا: فتمتنعون لأجل ذلك ﴿إِنْ آجَرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ لا أريد الثواب والجزاء إلا منه أيضاً فإني ما أمرتكم بأمر وأخالفكم إلى ضده، بل ﴿وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فأنا أول داخل، وأول فاعل لما أمرتكم به .

(٨٠) ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ بعدما دعاهم ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ﴾؛ أي: على دينه ﴿فِي الْفَلَاحِ﴾ وهي السفينة ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا﴾ في الأرض بعد إهلاك المكذبين، ﴿وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ بعد ذلك البيان وإقامة البرهان ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ وهو الهلاك المخزي واللعة المتتابعة عليهم في كل قرن يأتي بعدهم؛ عقوبة لهم على معصيتهم بهم .

(٨١) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ المكذبين يدعونهم إلى الهدى، ويحذرونهم من أسباب الردى ﴿فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ كل نبي أيد دعوته بالآيات الدالة على صحة ما جاء به ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾؛ يعني: أن الله تعالى عاقبهم؛ حيث جاءهم الرسول، فبادروا بتكذيبه، فطبع الله على قلوبهم، وحال بينهم وبين الإيمان، بعد أن كانوا متمكنين منه، ﴿كَذَلِكَ نَطْعُ عَلَى قُلُوبِ

جنتكم به، فيعليه على باطلكم، ويصححه بـ ﴿يَكْمِنُ بِهِ﴾ بأمره ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ أهل الإجماع على أنفسهم وعلى غيرهم، وهم الظلمة المفسدون.

(٨٣) ﴿فَمَا أَمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ شباب من بني إسرائيل صبروا على الخوف لما ثبت في قلوبهم الإيمان، وقيل: فما آمن لموسى إلا ذرية من قوم فرعون، وهم قليل. ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ عن دينهم ﴿وَأَنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ﴾ له القهر والغلبة والسطوة فيها، فحقيق بهم أن يخافوا من بطشه ﴿وَأِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ المتجاوزين للحد في البغي والعدوان.

(٨٤) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ موصيًا لقومه بالصبر، ومذكرًا لهم ما يستعينون به على ذلك، فقال: ﴿يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامِنُونَ بِاللَّهِ﴾ فقوموا بوظيفة الإيمان بالله ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ﴾؛ أي: اعتمدوا عليه، والجئوا إليه واستنصروه، فإن الله كافٍ من توكل عليه ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدًا﴾ [الزمر: ٣٦]، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

(٨٥) ﴿فَقَالُوا﴾ ممتثلين لذلك: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ تسلطهم علينا فيفتنونا، أو يغلبونا فيفتنونا بذلك، ويقولون: لو كانوا على حق لما غلبوا.

(٨٦) ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ﴾ خلصنا برحمة منك وإحسان ﴿مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ الذين كفروا الحق وستره، ونحن قد آمنا بك وتوكلنا عليك.

(٨٧) ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ حين اشتد الأمر على قومهما من فرعون وقومه، وحرصوا على فتنتهم عن دينهم، ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمَكُمَا بِعِصْرَ يُثُوتَا﴾ مروهم أن يجعلوا لهم بيوتًا يتمكنون بها من

وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُّلقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحْيِي اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَا أَمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَتَّبِعُونَ كُنتُمْ ءَامِنُونَ بِاللَّهِ فَقَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمَكُمَا بِعِصْرَ يُثُوتَا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُنَّ عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾

(٧٩) ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ معارضًا للحق الذي جاء به موسى، ومغالبا لمأله وقومه: ﴿أَتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ ماهر بالسحر، متفن له.

(٨٠) ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾ للمغالبة لموسى ﴿قَالَ لَهُمْ مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُّلقُونَ﴾ أي شيء أردتم، لا أعين لكم شيئا؛ وذلك لأنه جازم بغلبته، غير مبالٍ بهم وبما جاءوا به.

(٨١) ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا﴾ حبالهم وعصيهم، إذا هي كأنها حيات تسعى، ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ﴾؛ أي: هذا السحر الحقيقي العظيم، ولكن مع عظمتهم ﴿إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ﴾؛ أي: يظهر بطلانه أمام النظارة من الناس ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ فإنهم يريدون بذلك نصر الباطل على الحق، وأي فساد أعظم من هذا!!

(٨٢) ﴿وَيُحْيِي اللَّهُ الْحَقَّ﴾ ويثبت الله الحق الذي

الاستخفاء فيها ﴿وَجَعَلُوا يُوتِرَكُمْ قِتْلَهُ﴾
اجعلوها محلاً تصلون فيها ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾
فإنها معونة على جميع الأمور؛ كما في قوله
تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ
وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ١٥٣]، ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾
بالنصر والتأييد وإظهار دينهم.

(٨٨) ﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ لما رأى القسوة والإعراض
من فرعون وملئه دعا عليهم وأمن هارون على
دعائه، فقال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ
زِينَةً﴾ يتزينون بها من أنواع الحلي والשיاب،
والبيوت المزخرفة، والمراكب الفاخرة، والخدام
﴿وَأَمْوَالًا﴾ عظيمة ﴿فِي﴾ هذه ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا
لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾ إن أموالهم يستعينون بها على
الإضلال في سبيلك، فيضلون ويضلون، ﴿رَبَّنَا
أَطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ أتلفها عليهم ﴿وَأَشْدُدْ عَلَى
قُلُوبِهِمْ﴾ قسها ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾
قال ذلك غضباً عليهم؛ حيث تجرءوا على محارم
الله، وأفسدوا عباد الله، وصدوا عن سبيله،
ولكمال معرفته بربه، بأن الله سيعاقبهم على ما
فعلوا بإغلاق باب الإيمان عليهم.

(٨٩) ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾
هذا دليل على أن موسى كان يدعو وهارون يؤمن
على دعائه، وأن الذي يؤمن يكون شريكاً للداعي
في ذلك الدعاء ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ على دينكما،
واستمرا على دعوتكما ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا تتبعان سبيل الجهال الضلال
المنحرفين عن الصراط المستقيم، المتبعين لطرق
الجحيم.

(٩٠) ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ﴾ وذلك أن
الله أوحى إلى موسى لما وصل البحر أن يضربه

قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ
الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ
فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ
الْغَرَقُ قَالَ ءَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ
وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ءَلَقْنٰ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ
مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩٠﴾ فَأَلْوَمْنَا نَسْفِكَ يَدَكَ لَكُنْتَ لَمَنِ
خَلَقْنَا ءَابَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩١﴾
وَلَقَدْ جَاءَنَا بِنِي إِسْرَءِيلَ مُبَوَّأً صَدَقَ وَرَفَقْتُهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ
فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَزْكَرْنَا إِلَيْكَ
فَتَسَلِ الَّذِينَ بَقَرْنَا أَلَمْ تَكُنْ مِّن قَبْلِكَ لَدَىٰ جَاهِلٍ
الْحَقِّ مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَكُونَنَّ
مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتٍ مِّنْهُ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٤﴾
إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٥﴾
وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٦﴾

بعضاه، فضربه، فانفلق اثني عشر طريقاً، وسلكه
بنو إسرائيل، ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا
وَعَدُوًّا﴾ وساق فرعون وجنوده خلفه داخلين، فلما
استكمل موسى وقومه خارجين من البحر وفرعون
وجنوده داخلين فيه، أمر الله البحر، فالتطم على
فرعون وجنوده فأغرقهم، وبنو إسرائيل ينظرون،
﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾ حتى إذا أدرك فرعون
الغرق، وجزم بهلاكه ﴿قَالَ ءَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا
الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ﴾ وهو الله الإله الحق
الذي لا إله إلا هو ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين
لدين الله، ولما جاء به موسى! فآمن حيث لا
ينفعه الإيمان، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا
بَاسًا قَالُوا ءَمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُمُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ
مُشْرِكِينَ﴾ ﴿٩٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَفْعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسًا
سَنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ

الشاملة.

(٩٤) ﴿إِن كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ هل هو صحيح أم غير صحيح؟ ﴿فَسَلِ الَّذِينَ يَفْرَوْنَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ اسأل أهل الكتب المنصفين، والعلماء الراسخين، فإنهم سيقرون لك بصدق ما أخبرت به، وموافقته لما معهم ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ﴾ الذي لا شك فيه بوجه من الوجوه، ولهذا قال: ﴿مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ وحاصل هذا: أن الله نهى عن شيئين: الشك في هذا القرآن والامتراء فيه.

(٩٥) ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا﴾ وأشد من ذلك؛ - أي: من الشك والامتراء في القرآن- التكذيب ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، وهو آيات الله التي لا تقبل التكذيب بوجه ﴿فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وذلك بفوات الثواب في الدنيا والآخرة، وحصول العقاب في الدنيا والآخرة.

(٩٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ إنهم من الضالين الغاوين أهل النار ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا بد أن يصيروا إلى ما قدره الله وقضاه، فلا يؤمنون.

(٩٧) ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ فلا تزيدهم الآيات إلا طغياناً وغياً إلى غيهم، فلا يؤمنوا ﴿حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ الذي وعدوا به.

الْكَافِرُونَ ﴿[غافر: ٨٤، ٨٥]، ولهذا قال تعالى في جواب فرعون حين قال ما قال:

(٩١) ﴿ءَأَقْنُ﴾ تؤمن وتقر برسول الله ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ بارزت بالمعاصي والكفر والتكذيب ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ في الأرض، الذين أضلوا الناس.

(٩٢) ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ شك بنو إسرائيل في موت فرعون، فأمر الله البحر أن يلقيه على نجوة مرتفعة ليكون لهم عبرة وآية ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ فلذلك تمر عليهم وتكرر، فلا ينتفعون بها؛ لعدم إقبالهم عليها، أما من له عقل وقلب حاضر، فإنه يرى من آيات الله ما هو أكبر دليل على صحة ما أخبرت به الرسل.

(٩٣) ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبْوَءَ صَدَقٍ﴾ أنزلهم الله وأسكنهم في مساكن آل فرعون، وأورثهم أرضهم وديارهم ﴿وَوَرَفْنَاهُمْ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ من المطاعم والمشارب وغيرهما ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ في الحق ﴿حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ الموجب لاجتماعهم وائتلافهم، ولكن بغى بعضهم على بعض، وصار لكثير منهم أهوية وأغراض تخالف الحق، فحصل بينهم من الاختلاف شيء كثير ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بحكمه العدل الناشئ عن علمه التام وقدرته

(٩٠) و(٩١) أخرج الترمذي وأحمد من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما الصحيح لغيره، عن النبي ﷺ: «لما قال فرعون: ﴿ءَأَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَمَنْتُ بِهِ﴾ بَوَّاءَ إِسْرَءِيلَ». قال: قال لي جبريل: يا محمد، لو رأيته وقد أخذت حالاً من حال البحر - الطين الأسود -، فدسسته فيه؛ مخافة أن تناله الرحمة».

(٩٢) في «الصحيحين» من حديث بن عباس رضي الله عنهما قال: قدم النبي ﷺ المدينة، وليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: «ما هذا اليوم الذي تصومون؟» فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون. فقال النبي ﷺ لأصحابه: «أنتم أحق بموسى منهم؛ فصوموه».

(٩٨) ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ﴾ من القرى المكذبين ﴿ءَامَنَتْ﴾ حين رأت العذاب ﴿فَنَفَعَهَا إِيْمَانُهَا﴾ لم يكن منهم أحد انتفع بإيمانه حين رأى العذاب ﴿إِلَّا الْقَوْمَ يُوَسُّسُ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ فهم مستثنون من العموم السابق، ولا بد لذلك من حكمة لعالم الغيب والشهادة، لم تصل إلينا، ولم تدرها أفهامنا.

(٩٩) ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ بأن يلهمهم الإيمان، ويوزع قلوبهم للتحوى، ولكنه اقتضت حكمته أن كان بعضهم مؤمنين، وبعضهم كافرين ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ لا تقدر على ذلك، وليس في إمكانك، ولا قدرة لغير الله على شيء من ذلك.

(١٠٠) ﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بإرادته ومشئته ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ﴾ الشر والضلال والخبال ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ عن الله أو امره ونواهي، وحججه وأدلت، وهو العادل في كل ذلك، في هداية من هدى، وإضلال من ضل.

(١٠١) ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يدعو تعالى عباده إلى النظر لما في السموات والأرض، والمراد بذلك نظر الفكر والاعتبار والتأمل لما فيها، وما تحتوي عليه، والاستبصار؛ فإن في ذلك آيات لقوم يؤمنون، ﴿وَمَا تُعْنِي الْأَيْتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فإنهم لا ينتفعون بالآيات لإعراضهم وعنادهم.

(١٠٢) ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ﴾ فهل ينتظر هؤلاء الذين لا يؤمنون بآيات الله بعد وضوحها ﴿إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الهلاك والعقاب

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا الْقَوْمَ يُوَسُّسُ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠) قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْأَيْتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَنظِّرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣) قُلْ يَكَايَهَا النَّاسُ إِنَّ كُفْرَكُمْ فِي شَاكٍ مِنْ رَبِّي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّكُمُ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَأَنْ أَعِزَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ (١٠٦)

﴿قُلْ فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَنظِّرِينَ﴾ فستعلمون من تكون له العاقبة الحسنة، والنجاة في الدنيا والآخرة، وليست إلا للرسول وأتباعهم. (١٠٣) ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ من مكاره الدنيا والآخرة وشدائدهما ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ أوجبناه على أنفسنا ﴿نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، فإنه بحسب ما مع العبد من الإيمان تحصل له النجاة من المكاره.

(١٠٤) ﴿قُلْ يَكَايَهَا النَّاسُ إِنَّ كُفْرَكُمْ فِي شَاكٍ مِنْ رَبِّي﴾ في ريب واشتباه ﴿فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الأنداد والأصنام وغيرهما ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّكُمُ﴾ أي: هو الله الذي خلقكم، وهو الذي يميّتكم، ثم يبعثكم ليجازيكم بأعمالكم؛ فهو الذي يستحق أن يعبد، ويصلى له ويسجد ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أمرني ربي

الخلق لو اجتمعوا على أن ينفعوا بشيء، لم ينفعوا إلا بما كتبه الله، ولو اجتمعوا على أن يضروا أحداً، لم يقدروا على شيء من ضرره إذا لم يرد الله، ولهذا قال: ﴿وَإِن يَرُدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ لا يقدر أحد من الخلق أن يرد فضله وإحسانه ﴿يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ يختص برحمته من شاء من خلقه، والله ذو الفضل العظيم ﴿وَهُوَ الْعَفْوَ﴾ لجميع الزلات الذي يوفق عبده لأسباب مغفرته، ثم إذا فعلها العبد، غفر الله ذنوبه كبارها وصغارها، ﴿الرَّحِيمُ﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، ووصل جوده إلى جميع الموجودات، بحيث لا تستغني عن إحسانه طرفه عين.

(١٠٨) ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول لما تبين البرهان ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ الخبر الصادق المؤيد بالبراهين الذي لا شك فيه بوجه من الوجوه، وهو اصل إليكم من ربكم الذي من أعظم تربيته لكم أن أنزل إليكم هذا القرآن الذي فيه تبيان لكل شيء ﴿فَمَنِ اهْتَدَى﴾ بهدى الله بأن علم الحق وتفهمه وأثره على غيره ﴿فَلَنَمَّا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ والله تعالى غني عن عبادته، وإنما ثمرة أعمالهم راجعة إليهم ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عن الهدى بأن أعرض عن العلم بالحق، أو عن العمل به ﴿فَلَنَمَّا يَضِلُّ عَلَيْهِ﴾ ولا يضر الله شيئاً، فلا يضر إلا لنفسه ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ فأحفظ أعمالكم وأحاسبكم عليها، وإنما أنا لكم نذير مبين، والله عليكم وكيل، فانظروا لأنفسكم ما دمتم في مدة الإمهال.

(١٠٩) ﴿وَأَنبِئْ﴾ أيها الرسول ﴿مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ علماً وعملاً وحالاً ودعوة إليه، ﴿وَأَصْبِرْ﴾ على

وَأَن يَمَسَّكَ اللَّهُ يَضْرِبُ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُدْرِكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْعَفْوَ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَتَأْتِيَ النَّاسَ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَأَنبِئْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُوكُمُ اللَّهُ وَهُوَ سَرِيعُ الْحَكْمِ ﴿١٠٩﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّكْبَةُ أُعْهِتْ. إِنَّمَا قُضِيََتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿١﴾
 لَا تَصْبِرُوا إِلَّا بِاللَّهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَإِن اسْتَغْفَرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ نَوُّوا إِلَيْهِ يَمَتِّعْكُمْ مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٤﴾ أَلَا إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ أَصْدُورَهُمْ لِيَسْتَحْفَظُوا أَمْنَهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُبْسِرُونَ وَمَا يَأْلَوْنَ إِنَّهُ عَلَىٰ سِدْرٍ مِّنَ الْأَشْدَدِّ ﴿٥﴾

أن أومن به فأكون أول المؤمنين فأمّنت، وأنا من المؤمنين.

(١٠٥) ﴿وَأَن أَفْعَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ أخلص أعمالك الظاهرة والباطنة لله، وأقم جميع شرائع الدين ﴿حَنِيفًا﴾ أي: مقبلاً على الله، معرضاً عما سواه ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ لا في حالهم، ولا تكن معهم.

(١٠٦) ﴿وَلَا تَتَّبِعْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ وهذا وصف لكل مخلوق؛ أنه لا ينفع ولا يضر، وإنما النافع الضار هو الله تعالى ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ﴿فَإِنَّكَ إِذَا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ الضارين أنفسهم بإهلاكها.

(١٠٧) ﴿وَأَن يَمَسَّكَ اللَّهُ يَضْرِبُ﴾ كفقير ومرض ونحوهما ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾؛ لأن

به أحد من خلقه ﴿إِنِّي لَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿مِنهُ﴾ من الله ربكم ﴿نَذِيرٌ﴾ لمن تجرأ على المعاصي بعقاب الدنيا والآخرة، ﴿وَبَشِيرٌ﴾ للمطيعين لله بثواب الدنيا والآخرة.

(٣) ﴿وَأَن أَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ﴾ عن ما صدر منكم من الذنوب ﴿ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ فيما تستقبلون من أعماركم بالرجوع إليه ﴿يُمِيعَكُمْ مَلَأًا حَسَنًا﴾ يعطيكم من رزقه ما تتمتعون به وتنتفعون في الحياة الدنيا ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى وقت وفاتكم ﴿وَيُؤْتِ﴾ منكم ﴿كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ يعطي أهل الإحسان والبر من فضله وبره ما هو جزاء لإحسانهم، من حصول ما يحبون، ودفع ما يكرهون، ﴿وَلَا تَوَلَّوْا﴾ أعرضتم عن ما دعوتكم إليه ﴿فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ وهو يوم القيامة، وهذا مقام الترهيب.

(٤) ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ معادكم يوم القيامة ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هو القادر على ما يشاء من إحسانه إلى أوليائه فهذا مقام الترغيب، وانتقامه من أعدائه، وإعادة الخلائق يوم القيامة وهذا مقام الترهيب.

(٥) ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ﴾ يميلونها ﴿لِيسْتَخَفُوا مِنْهُ﴾ من الله، ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ يتغطون بها ﴿يَعْلَمُ مَا يُسْرُوتُ﴾ من

ذلك ﴿حَتَّى يَخْكُمْ اللَّهُ﴾ بينك وبين من كذبك ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ فإن حكمه مشتمل على العدل التام والقسط الذي يحمد عليه.

وقد امتثل صلى الله عليه وسلم أمر ربه، وثبت على الصراط المستقيم حتى أظهر الله دينه على سائر الأديان، فلله الحمد والثناء الحسن، كما ينبغي لجلاله وعظمته، وكماله وسعة إحسانه.

سورة هود (*)

(١) ﴿الرَّ﴾ قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول سورة «البقرة» بما أغنى عن إعادته، وبالله التوفيق.

يقول تعالى : هذا ﴿كِتَابٌ﴾ عظيم، ونزل كريم ﴿أُنْزِلَتْ﴾ أنزلت وأحسنست، صادقة أخبارها، عادلة أوامرها، ونواهيها، فصيحة ألفاظه، بهية معانيه ﴿ثُمَّ قُضِلَتْ﴾ ميزت، وبينت بياناً، في أعلى أنواع البيان ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ﴾ من عند الله الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، لا يأمر ولا ينهى إلا بما تقتضيه حكمته ﴿خَبِيرٌ﴾ مطلع على الظواهر والبواطن وعواقب الأمور.

(٢) وإنما أنزل الله كتابه لـ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: لأجل إخلاص الدين كله لله، وأن لا يشرك

(*) أخرج الترمذي والحاكم وابن أبي شيبة بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: قال أبو بكر: يا رسول الله، قد شئت؟ قال: «شيئتي هوذ، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت».

(٢) في «الصحيحين» من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ صعد الصفا، فدعا بطون قريش، الأقرب فالأقرب، فاجتمعوا، فقال: «يا معشر قريش، أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً تصبحكم، ألستم مصدقي؟». فقالوا: ما جربنا عليك كذباً. قال: «إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد».

(٥) أخرج البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: «أناس يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء، فنزل ذلك فيهم».

الْأَرْضِ وَلَا ظَلَمٍ يَبْدُرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا قَرُنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ [الأنعام: ٣٨].

(٧) يخبر تعالى أنه ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها: يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة، ﴿و﴾ حين خلق السماوات والأرض ﴿كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ قبل ذلك ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ليمتحانكم ﴿إِيَّاكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أخلصه وأصوبه ﴿وَلَيْتَ إِيَّاكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ولئن قلت لهؤلاء وأخبرتهم بالبعث بعد الموت لم يصدقوك، بل كذبوك أشد التكذيب، وقدحوا فيما جئت به، وقالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ألا وهو الحق المبين.

(٨) ﴿وَلَيْتَ أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾ إلى وقت مقدر فاستبطنوه ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ لقالوا من جهلهم وظلمهم: ﴿مَا يَحْسِبُهُ﴾ أي: ما يؤخر هذا العذاب، ومضمون هذا تكذيبهم به؛ فإنهم يستدلون بعدم وقوعه بهم عاجلاً على كذب الرسول المخبر بوقوع العذاب، فما أبعد هذا الاستدلال!! ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوقًا عَنْهُمْ﴾ فيتمكنون من النظر في أمرهم ﴿وَحَافٍ بِهِمْ﴾ أي: أحاط بهم ونزل ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ من العذاب؛ حيث تهاونوا به، حتى جزموا بكذب من جاء به.

(٩) ﴿وَلَيْتَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ كالصحة والرزق والأولاد ونحو ذلك ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا أَعْلَى اللَّهُ رِزْقَهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ إِيَّاكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَيْتَ إِيَّاكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْحَرُؤُنَا ﴿٢﴾ وَلَيْتَ أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولَنَّ مَا يَجْحِسُهُ الْيَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوقًا عَنْهُمْ وَحَافٍ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣﴾ وَلَيْتَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُونُ مِنْكُمْ قَوْمٌ ﴿٤﴾ وَلَيْتَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْبِهِ مَسْتَه لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَنَجٍّ فَجُورٌ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٦﴾ فَلَمَّا كَانَتْ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ وَضَاقَ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ كُتْرَ آيَاتٍ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٧﴾

الأقوال والأفعال ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ منها ﴿إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بما فيها من الإرادات والوساوس والأفكار التي لم ينطقوا بها سرًا ولا جهراً.

(٦) ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ جميع ما دب على وجه الأرض، فالله تعالى قد تكفل بأرزاقهم وأقواتهم، فرزقهم على الله ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ يعلم مستقر هذه الدواب، وهو: المكان الذي تقيم فيه، وتستقر فيه، وتأوي إليه. ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ المكان الذي تنتقل إليه في ذهابها ومجيئها، وعوارض أحوالها ﴿كُلٌّ﴾ من تفاصيل أحوالها ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ في اللوح المحفوظ، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي

(٧) وفي «المسند» و«الصحاحين» عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اقبلوا البشري يا بني تميم». قالوا: قد بشرتنا فأعطنا- قال: «اقبلوا البشري يا أهل اليمن»- قالوا: قد قبلنا، فأخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان؟ قال: «كان الله قبل كل شيء»، وكان عرشه على الماء، وكتب في اللوح المحفوظ ذكر كل شيء».

إِنَّهُ لَيَتُوسُّ كُفُورًا ﴿١٠﴾ فَإِنَّهُ يَسْتَسْلِمُ لِلْيَأْسِ، وَيَقْدِرُ
لِلْقَنُوطِ، فَلَا يَرْجُو ثَوَابَ اللَّهِ، وَلَا يَخْطُرُ بِيَالِهِ أَنْ
اللَّهُ سِيرُهَا أَوْ مِثْلُهَا أَوْ خَيْرًا مِنْهَا عَلَيْهِ.

﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ﴾
وهكذا إِنْ أَصَابَتْهُ نِعْمَةٌ بَعْدَ نِقْمَةٍ ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ
السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ مَا يَنَالُنِي بَعْدَ هَذَا ضِيمٍ وَلَا سُوءٍ
﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ﴾ يَفْرَحُ بِمَا أُوتِيَ مِمَّا يُوَافِقُ هَوَى نَفْسِهِ
﴿فَحُورٌ﴾ بِنِعْمِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ، وَذَلِكَ يَحْمِلُهُ
عَلَى الْأَشْرِ وَالْبَطَرِ، وَالْإِعْجَابِ بِالنَّفْسِ، وَالتَّكْبَرِ
عَلَى الْخَلْقِ.

﴿إِلَّا الَّذِينَ﴾ إِلَّا مَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ، وَأَخْرَجَهُ
مِنْ هَذَا الْخَلْقِ الذَّمِيمِ إِلَى ضِدِّهِ وَهُمْ الَّذِينَ
﴿صَبَرُوا﴾ أَنْفُسُهُمْ عِنْدَ الضَّرَاءِ فَلَمْ يَبْأَسُوا، وَعِنْدَ
السَّرَاءِ فَلَمْ يَبْطُرُوا ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ مِنْ
وَاجِبَاتٍ وَمُسْتَحَبَاتٍ ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾
لِذُنُوبِهِمْ، يَزُولُ بِهَا عَنْهُمْ كُلُّ مُحْذَرٍ، ﴿وَأَجْرٌ
كَبِيرٌ﴾ وَهُوَ: الْفَوْزُ بِجَنَاتِ النِّعَمِ.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ
بِهِ صَدْرُكَ﴾ لَا يَنْبَغِي هَذَا لِمِثْلِكَ؛ أَنْ قَوْلُهُمْ
يُؤْثِرُ فِيكَ، وَيَصْدُكَ عَمَّا أَنْتَ عَلَيْهِ، فَتَتْرَكَ بَعْضَ
مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ، وَيَضِيقُ صَدْرُكَ لَتَعْنَتِهِمْ ﴿أَنْ
يَقُولُوا﴾ بِقَوْلِهِمْ: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابًا أَوْ جَاءَ
مَعَهُ مَلَكٌ﴾ فَإِنَّ هَذَا الْقَوْلَ نَاشِئٌ مِنْ تَعْنَتِ
وِظْلَمٍ، وَعِنَادٍ وَضَلَالٍ، وَجَهْلٍ بِمَوَاقِعِ الْحُجَجِ
وَالْأَدْلَةِ، فَاْمُضْ عَلَى أَمْرِكَ، وَلَا تَصْدُقْ هَذِهِ
الْأَقْوَالُ الرِّكِيكَةُ، الَّتِي لَا تَصْدُرُ إِلَّا مِنْ سَفِيهِهِ،
وَلَا يَضِقُ لِذَلِكَ صَدْرُكَ ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ فَهُوَ الْوَكِيلُ عَلَيْهِمْ، يَحْفَظُ

الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ كَفَرُوا

أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ
وَأَدْعُوا مَنْ أَسْتَطْعَمُهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾
فَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُ أَلَكُمْ فَأَعْلَمُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ يَعْلَمُ اللَّهُ وَأَنْ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَغْنَاهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يَخْشَوْنَ
﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ
مَا صَبَّغُوا فِيهَا وَيَبُولُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ كَانَ
عَلَى يَمِينٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمَنْ فِي يَمِينِهِ كِتَابٌ
مُؤَسَّسٌ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ. وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ
مِنْ الْأَحْزَابِ فَإِنَّهُ لَمُوعِدٌ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ
بَيْنَ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ
عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ أَلَمْ يَأْتِكُمْ آيَاتِي كَذِبًا عَلَىٰ
رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَعُودُنَا عَوجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾

٢٢٢

أَعْمَالِهِمْ، وَيُجَازِيهِمْ بِهَا أَتَمَّ الْجَزَاءِ.

﴿١٣﴾ ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ﴾ افْتَرَى مُحَمَّدٌ هَذَا الْقُرْآنَ
﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ﴾ مُفْتَرِيَاتٍ
وَأَدْعُوا مَنْ أَسْتَطْعَمُهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ
إِنْ كَانَ قَدْ افْتَرَاهُ؛ فَإِنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ فِي
الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ، وَأَنْتُمْ الْأَعْدَاءُ حَقًّا الْحَرِيصُونَ
بِغَايَةِ مَا يُمْكِنُكُمْ عَلَى إِبْطَالِ دَعْوَتِهِ، فَإِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ؛ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ.

﴿١٤﴾ ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُ أَلَكُمْ﴾ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ
﴿فَأَعْلَمُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ يَعْلَمُ اللَّهُ﴾ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، ﴿وَأَنْ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أَي: وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ
الْمُسْتَحَقُّ لِلْأُلُوهِيَّةِ وَالْعِبَادَةِ، ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ
مُسْلِمُونَ﴾ مُنْقَادُونَ لِلْأُلُوهِيَّةِ، مُسْتَسْلِمُونَ

(١١) فِي «الصَّحِيحِينَ» مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَقْضِي اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا
لَهُ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ فَشَكَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ فَصَبَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ غَيْرِ الْمُؤْمِنِ».

لعبوديته .

(١٥) ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ من كانت إرادته مقصورة على الحياة الدنيا وعلى ﴿وَزِينَهَا﴾ : من النساء، والبنين، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسومة، والأنعام، والحرث، ﴿نُوفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا﴾ نعطيهم ما قسم لهم في أم الكتاب من ثواب الدنيا ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَبْخُسُونَ﴾ لا ينقصون شيئاً مما قدر لهم .

(١٦) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ خالدين فيها أبداً، لا يفتر عنهم العذاب، وقد حرموا جزيل الثواب ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بطل واضمحل ما عملوه في الدنيا، ومعنى الآية مختلف فيه - وكل ذلك بأسانيد صحيحة عن السلف - ، فأنس بن مالك والحسن قالوا: نزلت في اليهود والنصارى . ومجاهد وغيره قالوا: نزلت في أهل الرياء . والآية تحتمل المعنيين، والله أعلم .

(١٧) ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ بالوحي الذي أنزل الله فيه المسائل المهمة، ودلائلها الظاهرة، فتيقن تلك البينة ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ يتلو هذه

البينة والبرهان برهان آخر ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ وهو شاهد الفطرة المستقيمة، والعقل الصحيح ﴿و﴾ ثم شاهد ثالث ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ﴾ وهو ﴿كِتَابُ مُوسَى﴾ التوراة، التي جعلها الله ﴿إِمَامًا﴾ للناس ﴿وَرَحْمَةً﴾ لهم، يشهد لهذا القرآن بالصدق، ويوافقه فيما جاء به من الحق؛ أي: أفمن كان بهذا الوصف قد تواردت عليه شواهد الإيمان، وقامت لديه أدلة اليقين، كمن هو في الظلمات والجهالات، لا يستوتون عند الله، ولا عند عباد الله ﴿أُولَئِكَ﴾ الذين وفقوا لقيام الأدلة عندهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾؛ أي: بالقرآن حقيقة، فيثمر لهم إيمانهم كل خير في الدنيا والآخرة، ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾ مِنَ الْأَخْرَابِ سائر طوائف أهل الأرض المتحزبة على رد الحق ﴿فَأَلْتَأْتُوا مَوْعِدَهُ﴾ لا بد من وروده إليها، ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ في أدنى شك ﴿مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إما جهلاً منهم وضلالاً، وإما ظلمًا وعنادًا وبغياً .

(١٨) ﴿وَمَنْ﴾ يخبر تعالى أنه لا أحد ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ ويدخل في هذا كل من كذب على الله بنسبة شريك له، أو وصفه بما لا يليق

(١٦) في «صحيح مسلم» من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ﻻ يظلم المؤمن حسنة، يثاب عليها الرزق في الدنيا ويجزي بها في الآخرة، وأما الكافر فيقطع بحسناته في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يعطى بها خيراً» .
(١٧) في «صحيح مسلم» عن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم، وحَرَمْتُ عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً» .

(١٨) في «المسند» و«الصحيحين» عن صفوان بن محرز قال: كنت آخذاً بيد ابن عمر، إذ عرض له رجل قال: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله ﻻ يذني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستتره من الناس، ويقرره بذنوبه، ويقول له: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وإني أغفرها لك اليوم، ثم يعطى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين» .

بجلاله، أو الإخبار عنه بما لم يقل، أو ادعاء النبوة، أو غير ذلك من الكذب على الله، فهؤلاء أعظم الناس ظلماً ﴿أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾ ليجازيهم بظلمهم، فعندما يحكم عليهم بالعقاب الشديد ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَدُ﴾ الذين شهدوا عليهم بافترانهم وكذبهم: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ لعنة لا تنقطع؛ لأن ظلمهم صار وصفاً لهم ملازماً لا يقبل التخفيف.

(١٩) ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فصدوا بأنفسهم عن سبيل الله، وهي سبيل الرسل ﷺ التي دعوا الناس إليها، وصدوا غيرهم عنها ﴿وَيَبْغُونَ﴾ أي: سبيل الله ﴿عِوَجًا﴾ يجتهدون في ميلها ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ جاحدون مكذبون بها.

(٢٠) ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ ليسوا فائتين الله؛ لأنهم تحت قبضته وفي سلطانه ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ فيدفعوا عنهم المكروه، أو يحصلوا لهم ما ينفعهم ﴿يُضْعَفُونَ﴾ هم العذاب يغلظ ويزداد ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا آيات الله سماعاً ينتفعون به ﴿وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ ينظرون نظر عبثة وتفكر فيما ينفعهم.

(٢١) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ حيث فوتوها أعظم الثواب، واستحقوا أشد العذاب، ﴿وَصَدَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ اضمحل دينهم الذي يدعون إليه ويحسنونه، ولم تغن عنهم آلهتهم التي يعبدون من دون الله لما جاء أمر ربك.

(٢٢) ﴿لَا جَرَمَ﴾ حقاً وصدقاً ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِرُونَ﴾ حصر الخسار فيهم، بل جعل لهم

أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعَفُونَ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَدَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٠﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِرُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٢﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِتَىٰ لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٤﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَدُّنَا إِلَّا لِأَنَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَمَا تَرْكُوكَ آلِهَتِكُمْ إِلَّا الدِّينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا بَايَ الرَّأْيِ وَمَا زَايَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ يَتُوبُ آدَمُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ إِنَّهُ سَوَّيْنِي مِنْ رَبِّهِ وَأَتَّيْتُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَغَبِطْتُ عَلَيْكُمْ أَنْتُمْ كُفَرْتُمْ وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٧﴾

منه أشده؛ لشدة حسرتهم وحرمانهم وما يعانون من المشقة والعذاب.

(٢٣) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بقلوبهم، وصدقوا واعترفوا لما أمر الله بالإيمان به من أصول الدين وقواعده ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المشتملة على أعمال القلوب والجوارح وأقوال اللسان ﴿وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ خضعوا له واستكانوا لعظمته ﴿أُولَئِكَ﴾ الذين جمعوا تلك الصفات ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾؛ لأنهم لم يتركوا من الخير مطلباً إلا أدركوه، ولا خيراً إلا سبقوا إليه.

(٢٤) ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ فريق الأشقياء وفريق السعداء ﴿كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى﴾ هؤلاء الأشقياء ﴿وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ مثل السعداء ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ لا يستوون مثلاً، بل بينهما من الفرق ما لا يأتي عليه الوصف ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الأعمال التي

أَرَادُوا لَنَا ﴿مَا نَرَى اتَّبِعْكَ مِنَّا إِلَّا الْأَرَاذِلَ وَالسَّفَلَةَ﴾ ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ إِنَّمَا اتَّبَعُوكَ مِنْ غَيْرِ تَفَكَّرْ وَرَوِيَّةٌ، بَلْ بِمَجْرَدِ مَا دَعَوْتَهُمْ اتَّبَعُوكَ؛ يَعْنُونَ بِذَلِكَ: أَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴿وَمَا زَيْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ لَسْتُمْ أَفْضَلُ مِنَّا فَتَنْقَادُ لَكُمْ ﴿بَلْ نَنْظُرُكُمْ كَذِبِينَ﴾ فِيمَا تَدْعُونَهُ. وَكَذَبُوا فِي قَوْلِهِمْ هَذَا؛ فَإِنَّهُمْ رَأَوْا مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ مُؤَيَّدَةً لِنُوحٍ مَا يُوْجِبُ لَهُمُ الْجَزْمَ التَّامَ عَلَى صَدَقِهِ.

(٢٨) ﴿قَالَ﴾ لَهُمْ نُوحٌ مَجَابِلًا: ﴿يَقُولُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَمِينٍ مِنْ رَبِّي﴾ عَلَى يَقِينٍ وَجَزْمٍ ﴿وَأَنْتُمْ رَحِمَةٌ مِنْ عِنْدِهِ﴾ أَوْحَى إِلَيَّ وَأَرْسَلَنِي، وَمَنْ عَلَيَّ بِالْهُدَايَةِ ﴿فَقَعَيْتُ عَلَيْكُمْ﴾ خَفِيتُ عَلَيْكُمْ، وَبِهَا تَثَاقَلْتُمْ ﴿أَنْزَلْنَاهُمْ مَكْمُومًا﴾ أَنْكَرْهُمْ وَنَغْصَبَكُمْ بِقَبُولِهَا ﴿وَأَنْتُمْ لَهَا كَاهِنُونَ﴾.

(٢٩) ﴿وَيَقُولُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ عَلَى دَعْوَتِي إِيَّاكُمْ ﴿مَالًا﴾ أَجْرًا؛ فَتَسْتَنْقِلُونَ الْمَغْرَمَ ﴿إِنْ أَجَرَى إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ إِنَّمَا أَبْتَغِي الْأَجْرَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ كَأَنَّهُمْ طَلَبُوا مِنْهُ طَرْدَ الْمُؤْمِنِينَ عَنْهُ، احْتِشَامًا وَنَفَاسَةً مِنْهُمْ أَنْ يَجْلِسُوا مَعَهُمْ، كَمَا سَأَلَ أَهْلَهُمْ خَاتَمُ الرِّسَالَةِ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَا تَقْرُؤِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدُوِّ وَالْغَشْيِ﴾ [الأنعام: ٤١]، فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ لَا يَلِيقُ ذَلِكَ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ ﴿إِنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ﴾ فَمُثِيبُهُمْ عَلَى إِيْمَانِهِمْ وَتَقْوَاهُمْ بِجَنَاتِ النِّعَمِ ﴿وَلَكَيْفَ أَرْكَبُ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ حَيْثُ تَأْمُرُونَنِي بِطَرْدِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَإِعْبَادِهِمْ عَنِي.

(٣٠) ﴿وَيَقُولُ مَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ﴾ مِنْ يَمْنَعُنِي مِنْ عَذَابِهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

وَيَقُولُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنِ اجْرَى إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ وَلَكَيْفَ أَرْكَبُ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَقُولُ مَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنْ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَنْبَغُ فَذَجَدْنَا فَكَفَرَتْ جَدْنَا فَأَتَيْنَا بِمَا عَدَدْنَا إِنْ كُنْتُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَصْخَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَأَيْنَاهُ قُلْ إِنْ أَفَرَأَيْنَاهُ فَعَلَىٰ أَجْرَائِي وَأَنَا بِرِيءٌ وَمَا أَجْرُكُمْ ﴿٣٥﴾ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَاصْنَعْ لِفُلْكَ بِاعِينَيَا وَوَحِينَيَا وَلَا تَحْطِطْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَوُونَ ﴿٣٧﴾

تَنْفَعَكُمْ فَتَفْعَلُونَهَا، وَالْأَعْمَالُ الَّتِي تَضُرُّكُمْ فَتُفَكِّرُونَهَا.

(٢٥) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ أَوَّلَ الْمُرْسَلِينَ إِلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ وَبَيْنَاهُمْ عَنِ الشَّرِّ، فَقَالَ لَهُمْ: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ بَيَّنْتُ لَكُمْ مَا أَنْذَرْتُكُمْ بِهِ بَيَانًا زَالٍ بِهِ الْإِشْكَالُ.

(٢٦) ﴿أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أَخْلَصُوا الْعِبَادَةَ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَاتْرَكُوا كُلَّ مَا يَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ إِنْ لَمْ تَقُومُوا بِتَوْحِيدِ اللَّهِ وَتَطِيعُونِي.

(٢٧) ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ الْأَشْرَافُ وَالرُّؤَسَاءُ، رَادِينَ لِدَعْوَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿مَا زِلْنَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ لَسْتُ بِمَلَكٍ، وَلَكِنَّكَ بَشَرٌ، فَكَيْفَ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ دُونِنَا؟! ﴿وَمَا زِلْنَاكَ أَنْتَ بَشَرٌ مِثْلَنَا﴾ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ

ما هو الأنفع لكم والأصلح وتدبرون الأمور.
 (٣١) ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ غاييتي
 أني رسول الله إليكم، أبشركم وأنذركم، وما
 عدا ذلك، فليس بيدي من الأمر شيء،
 فليست خزائن الله عندي أدبرها أنا، وأعطي
 من أشياء، وأحرم من أشياء، ﴿وَلَا أَعْلَمُ
 الْغَيْبَ﴾ فأخبركم بسر أئركم وبواطنكم ﴿وَلَا
 أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ والمعنى: أني لا أدعي رتبة
 فوق رتبتي، ولا منزلة سوى المنزلة التي
 أنزلني الله بها، ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِ
 أَعْيُنُكُمْ﴾ الضعفاء المؤمنين، الذين يحتقرهم
 الملأ الذين كفروا ﴿لَنْ يُؤْمِنَهُمْ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ
 بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ فإن كانوا صادقين في
 إيمانهم؛ فلهم الخير الكثير، وإن كانوا غير
 ذلك؛ فحسابهم على الله ﴿إِنِّي إِذًا﴾ إن قلت
 لكم شيئاً مما تقدم ﴿لَمَنْ الظَّالِمِينَ﴾ أقول ما
 لا علم لي به.

(٣٢) ﴿قَالُوا يَنْتُحِ قَدْ جَدَلْنَا فَاكْثَرْتَ جِدْلَانَا﴾
 حاججتنا فأكثر من ذلك ونحن لا نتبعك ﴿فَأَنَّا
 بِمَا نَعْدُكَ﴾ من العذاب ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ
 الصَّادِقِينَ﴾.

(٣٣) ﴿قَالَ﴾ نوح عليه السلام: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ
 اللَّهُ إِنْ شَاءَ﴾ إن اقتضت مشيئته وحكمته أن
 ينزله بكم فعل ذلك، ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾
 لله، وأنا ليس بيدي من الأمر شيء.

(٣٤) ﴿وَلَا يَنْفَعُكَ نَصِيحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَصْحَحَ لَكُمْ
 إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ أي: إن إرادة
 الله غالبية، فإنه إذا أراد أن يغويكم لردكم
 الحق، فلو حرصت غاية مجهودي، ونصحت
 لكم أتم النصح، فليس ذلك بنافع لكم شيئاً

وَيَصْنَعُ الْفَلَكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قُوْمِهِ سَخِرُوا
 مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾
 فَسَوْفَ نَعْلَمُونَ مِنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ
 مُقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا
 مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ
 وَمَنْ أَمَنَ وَمَنْ أَمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ارْكَبُوا
 فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَحْمَرُهَا وَمُرْسَىٰ إِنْ رَفَعْنَا لَعْنُورَ رَحِمٍ ﴿٤١﴾ وَهِيَ
 تَجْرِي بِهَمٍّ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ
 فِي مَعْزِلٍ يَبْنِي أَرْكَبَ مَعًا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾
 قَالَ سَتَأْتِي إِلَىٰ جِبَلٍ يَفْصِلُ بَيْنِي وَمِنَ الْمَاءِ قَالَ لَعَلَّكُمْ
 الْيَوْمَ مِنَ الْمَرْفُوقِ إِلاَّ مَن رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ
 مِنَ الْمَرْفُوقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ تَارَاضَ ابْنُ مَاءٍ كَ وَتَسْمَاءُ
 أَقْبَلِي وَغَضَّ الْمَاءُ وَفُصِّي الْأَمْرُ وَسَوَّتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ
 بَعْدَ الْفُجُورِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ
 أَبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾

﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ يفعل بكم ما يشاء، ويحكم
 فيكم بما يريد، ﴿وَالِئِهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم
 بأعمالكم.

(٣٥) ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ هذه الآية معترضة
 في أثناء قصة نوح وقومه، مؤكداً لها مقرر
 لها، يقول تعالى لمحمد عليه السلام: ﴿أَمْ يَقُولُونَ
 افْتَرَاهُ﴾ هذا القرآن اختلقه محمد من تلقاء
 نفسه، ﴿قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُمْ عَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ فعلي
 إثمي في افترائي ما افتريت، ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا
 تُجْحَرُونَ﴾ أي: ليس ذلك مفترى؛ لأنني أعلم
 ما عند الله من العقوبة لمن كذب عليه، وأنا
 برئ ما تذبنون وتأتُمون بربكم، من افترائكم
 عليه.

(٣٦) ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ
 قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ أي: قد قسوا ﴿فَلَا

وَمُرْسَهَا ﴿تَجْرِي عَلَى اسْمِ اللَّهِ، وترسي بتسخيره وأمره ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ حيث غفر لنا ورحمتنا، ونجانا من القوم الظالمين.

(٤٢) ﴿وَهُي تَجْرِي بِهِمْ﴾ بنوح ومن ركب معه ﴿فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ واللّه حافظها وحافظ أهلها ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ لما ركب؛ ليركب معه ﴿وَكَانَ ابْنُهُ﴾ في معزله ﴿عَنْهُمْ حِينَ رَكِبُوا﴾ أي: مبتعدا، وأراد منه أن يقرب ليركب، فقال له: ﴿يَبْنَىٰ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ فيصيبك ما يصيبهم.

(٤٣) ﴿قَالَ سَوَّيْتُ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ سأرتقي جبلا أمتنع به من الماء ﴿قَالَ نُوحٌ: لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ فلا يعصم أحدا جبلا ولا غيره إن لم ينجه الله ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ الْابْنُ مِنَ الْمَعْرُوفِينَ﴾.

(٤٤) ﴿وَقِيلَ﴾ لما أغرقهم الله، ونجى نوحا ومن معه: ﴿يَتَأَرْضُ أَبْلَىٰ مَاءَكِ﴾ ابلعي الماء الذي على وجهك ﴿وَنَسَمَةُ أَفْلَحِي﴾ فامتثلتا لأمر الله، فابتلعت الأرض ماءها، وأقلعت السماء، ﴿وَغِيضَ الْمَاءِ﴾ نضب من الأرض ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ بهلاك المكذبين ونجاة المؤمنين، ﴿وَأَسْوَتْ﴾ السفينة ﴿عَلَىٰ الْجُودِيِّ﴾ أرست على ذلك الجبل المعروف في أرض الموصل ﴿وَقِيلَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أتبعوا بهلاكهم لعنة وبعدا وسحقا لا يزال معهم.

(٤٥) ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ قد وعدتني بنجاة أهلي، ووعدك الحق الذي لا يخلف، فكيف غرق ﴿وَأَنْتَ أَتَكْمُمُ الْكَاذِبِينَ﴾؟ ففوض الأمر

لَبَنَيْسٍ يَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿فلا تحزن ولا تبالي بهم وبأفعالهم.

(٣٧) ﴿وَأَصْنَعَ الْفُلَّكَ﴾ السفينة ﴿يَا عَيْنَانَا﴾ بحفظنا ومرأى منا ﴿وَوَحَيْنَا﴾ تعليمنا لك ما تصنعه ﴿وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ لا تراجعني في إهلاكهم ﴿إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ قد حق القول، ونفذ فيهم القدر.

(٣٨) ﴿وَرَضَعُ الْفُلَّكَ﴾ امتثل أمر ربه، فجعل يصنع الفلك ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ﴾ ورأوا ما يصنع ﴿سَخَرُوا مِنْهُ﴾ يهزءون به ﴿قَالَ إِنْ سَخَرُوا مِنِّي الْآنَ﴾ إنا سنسخر منكم ﴿كَمَا سَخَرُونَ﴾ وعيد شديد، وتهديد أكيد.

(٣٩) ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ يهينه في الدنيا ﴿وَيَحْمِلُ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم مستمر أبدا.

(٤٠) ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ قدرنا بوقت نزول العذاب بهم ﴿وَفَارَ الْتَوُّرُ﴾ أنزل الله السماء بالماء المنهمر، وفجر الأرض كلها عيونا حتى التناير التي هي محل النار في العادة، وأبعد ما يكون عن الماء، تفجرت؛ فالتقى الماء على أمر قد قدر ﴿فُلْنَا﴾ لنوح: ﴿أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ من كل صنف من أصناف المخلوقات ذكر وأنثى ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ ممن كان كافرا كابنه الذي غرق، وزوجته وكانت كافرة بالله ورسوله، ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ والحال أنه ﴿وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ نزر يسير مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاما.

(٤١) ﴿وَقَالَ﴾ نوح لمن أمره الله أن يحملهم: ﴿أَرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ يَجْرِيهَا

لحكمة الله البالغة.

(٤٦) ﴿قَالَ﴾ **اللَّهُ لَهُ: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾** الذين وعدتك بإنجائهم **﴿إِنَّهُمْ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾**؛ أي: هذا الدعاء الذي دعوت به لنجاة كافر لا يؤمن بالله ولا رسوله **﴿فَلَا تَسْتَلِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾** ما لا تعلم عاقبته ومآله، وهل يكون خيراً، أو غير خير **﴿إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾** إني أعطك وعظاً تكون به من الكاملين، وتنجو به من صفات الجاهلين.

(٤٧) فحينئذ ندم نوح عليه السلام ندامة شديدة على ما صدر منه، و**﴿قَالَ﴾** نوح: **﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَتُكَلِّمَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾** إني أستجير وأتحصن بك، أن أسألك بعد الآن ما ليس لي به علم **﴿وَلَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾** فبالمغفرة والرحمة ينجو العبد من الخسارة.

(٤٨) **﴿قِيلَ يَتُوحَّ أَهْطُ﴾** انزل من السفينة **﴿يَسْلَمُ مَنَا﴾** بأمن وسلامة منا أنت ومن معك من إهلاكنا **﴿وَبَرَكَتٍ عَلَيْكَ﴾** البركة هي ثبوت الخير، والمراد: أن الله تعالى جعل ذريته هم الباقين إلى يوم القيامة **﴿وَعَلَى أُمُومٍ وَمَعْنٍ مَعْلَكُ﴾** من الآدميين وغيرهم من الأزواج التي حملها معه، فبارك الله في الجميع، حتى ملئوا أقطار الأرض ونواحيها، **﴿وَأُمُّ سَمْعِيَّةُ﴾** في الدنيا **﴿ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مَنَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** هذا الإنجاء ليس بمانع لنا من أن من كفر بعد ذلك، أحللنا به العقاب، وإن متعوا قليلاً، فسيؤخذون بعد ذلك.

قَالَ يَتُوحَّ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَتُكَلِّمَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَلَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧) قِيلَ يَتُوحَّ أَهْطُ يَسْلَمُ مَنَا وَبَرَكَتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمُومٍ وَمَعْنٍ مَعْلَكُ وَأُمُّ سَمْعِيَّةُ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مَنَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨) تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩) وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ أَتَعْبُدُونَ اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَنْتُمْ بَشِيرٌ وَأَنْتُمْ قَوْمٌ كَاذِبُونَ (٥٠) أَنْجَارًا أَيْ جَرِيًّا أَلَا عَلَى اللَّهِ فِطْرَتِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) وَتَقَوْمٌ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢) قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِسَارِكِي آلِهِتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣)

(٤٩) **﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾** من أخبار الغيب **﴿نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾** نعلمك بها وحياً منا إليك **﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾** لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها حتى يقول من يكذبك إنك تعلمتها منه **﴿فَاصْبِرْ﴾** على ما أنت عليه من الدين القويم والصراط المستقيم، والدعوة إلى الله **﴿إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ﴾** الذين يتقون الشرك وسائر المعاصي، فستكون لك العاقبة على قومك، كما كانت لنوح على قومه.

(٥٠) **﴿وُ﴾** أرسلنا **﴿إِلَى عَادِ﴾** وهم القبيلة المعروفة في الأحقاف من أهل اليمن **﴿أَخَاهُمْ﴾** في النسب **﴿هُودًا﴾** ليتمكنوا من الأخذ عنه

(٤٦) أخرج أبو داود والترمذي وغيرهما من حديث أسماء بنت زيد - الصحيح بشواهد - قالت: «سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾».

مِدْرَارًا ﴿بِكثْرَةِ الْأَمْطَارِ الَّتِي تَخْصِبُ بِهَا الْأَرْضُ، وَيَكْثُرُ خَيْرُهَا، ﴿وَنَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ فَإِنَّهُمْ كَانُوا مِنْ أَقْوَى النَّاسِ، ﴿وَلَا تَتْلُوا﴾ عَنْ رَبِّكُمْ ﴿مُجْرِمِينَ﴾ مُسْتَكْبِرِينَ عَنْ عِبَادَتِهِ، مُتَجَرِّبِينَ عَلَى مَحَارِمِهِ.

(٥٣) ﴿قَالُوا﴾ رَادِينَ لِقَوْلِهِ: ﴿يَهُودُ مَا جِئْنَا بِبَيِّنَةٍ، بِحُجَّةٍ وَبِرْهَانٍ عَلَى مَا تَدْعِيهِ، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾ لَا نَتْرِكُ عِبَادَةَ آلِهَتِنَا لِمَجْرَدِ قَوْلِكَ الَّذِي مَا أَقَمْتَ عَلَيْهِ بَيِّنَةً. بِزَعْمِهِمْ! ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بِمُصْطَفِينَ.

(٥٤) ﴿إِنْ نَقُولُ﴾ فِيكَ ﴿إِلَّا أَغْرَيْنَاكَ بِغَضِّ آلِهَتِنَا يَسُوءُ﴾ أَصَابَتِكَ بِخَبَالٍ وَجُنُونٍ، فَصَرْتَ تَهْذِي بِمَا لَا يَعْقِلُ، ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ وَآشْهَدُوا﴾ وَأَنْتُمْ أَيْضًا ﴿أَنْيَ بَرِيٍّ مِمَّا تَشْرُكُونَ﴾ يَقُولُ: إِنِّي بَرِيٌّ مِنْ جَمِيعِ الْأَنْدَادِ وَالْأَصْنَامِ.

(٥٥) ﴿مِنْ دُونِي﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ اطْلُبُوا إِلَيَّ الضَّرَرَ كُلَّكُمْ بِكُلِّ طَرِيقٍ تُمْكِنُونَ بِهَا مِنِّي ﴿ثُمَّ لَا تُظْهَرُونَ﴾ لَا تَمْلَهُونَ.

(٥٦) ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ﴾ اعْتَمَدْتُ فِي أَمْرِي كُلِّهِ عَلَى اللَّهِ ﴿رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ هُوَ خَالِقُ الْجَمِيعِ، وَمُدَبِّرُنَا وَإِيَّاكُمْ، وَهُوَ الَّذِي رَبَّنَا، ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِأَصْبَغِيهَا﴾، فَلَا تَتَحَرَّكُ وَلَا تَسْكُنُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ عَلَى عَدْلٍ، وَقِسْطٍ، وَحِكْمَةٍ، وَحَمْدٍ فِي قَضَائِهِ وَقَدْرِهِ، وَشَرْعِهِ وَأَمْرِهِ، وَفِي جَزَائِهِ وَثَوَابِهِ وَعِقَابِهِ، لَا تَخْرُجُ أَفْعَالُهُ عَنِ الصَّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ الَّتِي يَحْمَدُ وَيُسَنِّى عَلَيْهِ بِهَا.

(٥٧) ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عَمَّا دَعَوْتُمْ إِلَيْهِ ﴿فَقَدْ أَبْغَضَكُمْ مَا أَرْسَلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ فَلَمْ يَبْقَ عَلَيَّ تَبْعَةٌ مِنْ شَأْنِكُمْ، ﴿وَسَنَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يَقُومُونَ

إِنْ نَقُولُ إِلَّا أَغْرَيْنَاكَ بِغَضِّ آلِهَتِنَا يَسُوءُ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ وَآشْهَدُوا أَنِّي بَرِيٌّ مِمَّا تَشْرُكُونَ ﴿٥٥﴾ مِنْ دُونِي فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُظْهَرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِأَصْبَغِيهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٧﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْغَضَكُمْ مَا أَرْسَلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَسَنَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُمْ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَافِظٌ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ آخِذُونَ هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَحْنُ نَسْتَبْشِرُهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٩﴾ وَتِلْكَ آيَاتُ هُودٍ لَمَّا جَاءَهُمْ وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَاتَّبِعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٦٠﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَبِئْسَ الْفِتْنَةُ الْآلَاءُ عَادَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدَ الْعَادِ قَوْمُ هُودٍ ﴿٦١﴾ وَتِلْكَ آيَاتُ هُودٍ لَمَّا جَاءَهُمْ صَالِحًا قَالَ يَقُومُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُمْ ثُمَّ تَوَلَّوْا إِلَيْنَا رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿٦٢﴾ قَالُوا لَصَلِحٌ فَتَكُنْ مِنَّا مَرْجُومًا قَدْ هَذَا آتَاهُنَا أَنْ نَقْبُدَ مَا يَعْبُدُونَ إِنَّا نَأْتِيكَمْ شَاكِرِينَ وَمَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مَرْيَسٌ ﴿٦٣﴾

وَالْعِلْمُ بِصَدَقِهِ؛ ف ﴿قَالَ﴾ لَهُمْ: ﴿يَقُومُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿أَمْرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَنَهَايَهُمْ عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُمْ قَدْ افْتَرَوْا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ فِي عِبَادَتِهِمْ لِغَيْرِهِ.

(٥١) ﴿يَقُومُوا لَا اسْتَلْكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ غَرَامَةٌ مِنْ أَمْوَالِكُمْ عَلَى مَا دَعَوْتُمْ إِلَيْهِ، فَتَقُولُوا: هَذَا يَرِيدُ أَنْ يَأْخُذَ أَمْوَالَنَا، وَإِنَّمَا أَدْعُوكُمْ وَأَعْلَمُكُمْ مَجَانًا ﴿إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ إِنَّمَا أَبْغِي ثَوَابَهُ مِنَ اللَّهِ الَّذِي فَطَرَنِي ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ مَنْ يَدْعُوكُمْ إِلَى مَا يَصْلُحُكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ غَيْرِ أَجْرَةٍ؟!

(٥٢) ﴿وَيَقُومُوا اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ عَمَّا مَضَى مِنْكُمْ ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا إِلَيْهِ﴾ فِيمَا تَسْتَقْبِلُونَهُ بِالتَّوْبَةِ النَّصُوحِ وَالْإِنَابَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؛ ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ

بعبادته، ولا يشركون به شيئاً ﴿وَلَا تَضُرُّهُمْ شَيْئًا﴾ فإن ضرركم إنما يعود إليكم ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِظٌ﴾ شاهد وحافظ لأقوال عباده وأفعالهم ويجزيهم عليها إن خيراً؛ فخير، وإن شراً؛ فشر. (٥٨) ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ عذابنا بإرسال الريح العقيم ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ عظيم شديد.

(٥٩) ﴿وَتِلْكَ ءَادٌ﴾ الذين أوقع الله بهم ما أوقع بظلم منهم؛ لأنهم ﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ كفروا بها ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُمْ﴾؛ لأن من عصى رسولا؛ فقد عصى جميع المرسلين؛ لأن دعوتهم واحدة ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ﴾ متسلط على عباد الله بالجبروت ﴿عِنْدِ﴾ معاند لآيات الله.

(٦٠) ﴿وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ فما من وقت وجيل إلا ولأبائهم القبيحة وأخبارهم الشنيعة ذكر يذكرون به، وذم يلحقهم ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ لهم أيضاً لعنة، ﴿أَلَا إِنَّ ءَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ جحدوا من خلقهم ووزقهم ورباهم، ﴿أَلَا بَعْدًا لَعَادٍ قَوْمٍ هُودٍ﴾ أبعدهم الله عن كل خير، وقربهم من كل شر.

(٦١) ﴿وَ﴾ أرسلنا ﴿إِلَى ثَمُودَ﴾ وهم المعروفون الذين يسكنون مدائن الحجر ووادي القرى ﴿أَنَّهُمْ﴾ في النسب ﴿صَالِحًا﴾ عبد الله ورسوله ﷺ ﴿قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وخذوه وأخلصوا له الدين ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ لا من أهل السماء، ولا من أهل الأرض، ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ خلقكم منها ﴿وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ استخلفكم فيها ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ مما صدر منكم من الكفر والشرك والمعاصي وأقلعوا عنها، ﴿ثُمَّ تَوُوبُوا إِلَيْهِ﴾ ارجعوا إليه بالتوبة النصوح والإنابة، ﴿إِنَّ رَبِّي

قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَى يَمِينٍ مِنْ رَبِّي وَأَنْتُمْ مِنْهُ رَحِمَةً فَمَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُمْهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٥٧﴾ وَيَقَوْمِ هَذِهِ نَافَةٌ لَكُمْ ءَايَةٌ قَدْ رَوَاهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا سَوْءَ فَاخَذَكُمُ عَذَابُ رَبٍِّ ﴿٥٨﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٥٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٠﴾ وَلَخَذَ الْاَذِيبُ ظُلْمًا الصَّيْحَةَ فَأَعْصَى حَوْفًا فِي دُبُرِهِمْ جُحُودٌ ﴿٦١﴾ كَانَ لَمْ يَنْتَوِا فَيَا أَلَا إِنْ تَتُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لَكُمْ ﴿٦٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشَرِ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَمَا لَيْتَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ خَبِيرٍ ﴿٦٣﴾ رَهَ الْاَذِيبِمْ لَا تَقْصِلْ إِلَيْنَا نَكْرَهُمْ وَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْنَا قَوْمٌ لُوطُ ﴿٦٤﴾ وَأَمْرَانَهُ قَايِمَةً فَضَحَّكَتْ فَنَشَرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٦٥﴾

قَرِيبٍ﴾ ممن دعاه: دعاء مسألة، أو دعاء عبادة، ﴿مُجِيبٍ﴾ يجيبه بإعطائه سؤاله، وقبول عبادته وإثابته عليها أجل الثواب.

(٦٢) ﴿قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ قد كنا نرجوك ونؤمل فيك العقل والنفع ﴿أَنْتَ هُنَا أَنْ تَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ وما كان عليه أسلافنا ﴿وَأِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ ما زلنا شاكين فيما دعوتنا إليه شكاً مؤثراً في قلوبنا الريب.

(٦٣) ﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَى يَمِينٍ مِنْ رَبِّي﴾ برهان ويقين مني ﴿وَأَنْتُمْ تَنْتَوِي مِنْ رَبِّي﴾ برسالتهم ووحيه ﴿فَمَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُمْهُ﴾ وتركت دعوتكم إلى الحق وعبادة الله وحده، فلو تركته لما نفعتموني ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي﴾ ولما زدتهموني ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ غير خسار وتباب وضرر.

سميتا، فقربه إليهم .

(٧٠) ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ إلى تلك الضيافة؛ فلم يأكلوا من العجل ﴿نَكَرَهُمْ﴾ أنكرهم ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ وظن أنهم أتوه بشر ومكروه، وذلك قبل أن يعرف أمرهم ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ يا إبراهيم ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ إنا رسل الله: أرسلنا الله إلى إهلاك قوم لوط .

(٧١) ﴿وَأَمَرْنَاكُمْ﴾ سارة عليها السلام ﴿قَائِمَةً﴾ تخدم أضيافه ﴿فَضَحَكْتَ﴾ - حين سمعت بحالهم وما أرسلوا به - تعجباً؛ ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾ بشرت الملائكة سارة بالولد بعد الإياس، ﴿وَمِنْ وَرَاءُ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ وهذا الولد له عقب ونسل؛ فإن يعقوب ولد إسحاق .

قال العلماء: وهذه الآية تدل على أن الذبيح إنما هو إسماعيل عليه السلام، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق؛ لأنه وقعت البشارة به، وأنه سيولد له يعقوب عليه السلام، فكيف يؤمر إبراهيم عليه السلام بذبحه وهو طفل صغير، ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده؟ ووعد الله حق لا خلف فيه، فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه؛ فتعين أن يكون هو إسماعيل .

وإسماعيل هو الذبيح عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وأما القول: أنه إسحاق؛ فباطل، متلقى عن أهل الكتاب، مع أنه باطل بنص كتابهم، فإن فيه: إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بكره، وفي لفظ: وحيد، ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين: أن إسماعيل هو بكر أولاده، ولذلك ما ورد في التوراة التي بأيديهم: «اذبح ابنك إسحاق»، من تحريفهم وكذبهم على الله عز وجل .

(٦٤) ﴿وَيَقَوْمٌ هَذِهِ نَافَةٌ لِّلَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ لها شرب من البئر يوماً، ثم يشربون كلهم من ضرعها، ولهم شرب يوم معلوم ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ﴾ ليس عليكم من مؤنتها وعلفها شيء ﴿وَلَا تَسْهَوْا يَسْوَىٰ﴾ بعقر ﴿فِيَاخُذْكُمْ﴾ إن قتلتموها ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ .

(٦٥) ﴿فَفَعَرُوهَا﴾ قتلوها بالعقر الذي هو قطع قوائمها بالسيف ﴿فَقَالَ﴾ لهم صالح عليه السلام ﴿تَمَتَّعُوا﴾ عيشوا ﴿فِي دَارِكُمْ﴾ في دياركم ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ ثم تهلكون بعدها ﴿ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ لا بد من وقوعه .

(٦٦) ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بوقوع العذاب ﴿نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ نجيناهم من العذاب والخزي والفضيحة، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ ومن قوته وعزته أن أهلك الأمم الطاغية، ونجى الرسل وأتباعهم .

(٦٧) ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كفروا ﴿الْصَّبِيحَةَ﴾ فقطعت قلوبهم ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَثِيمِينَ﴾ خامدين صرعى هلكى لا حراك لهم .

(٦٨) ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ كأنهم لما جاءهم العذاب ما تمتعوا في ديارهم، ولا أنسوا فيها، ولا تنعموا بها يوماً من الدهر ﴿أَلَا إِنَّ نَعُودًا كَفَرُوا بِهِمْ﴾ جحدوه بعد أن جاءتهم الآية المبصرة ﴿أَلَا بَعْدَ لَعْنُودٍ﴾ فما أشقاهم وأذلهم .

(٦٩) ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾ من الملائكة الكرام، رسولنا ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ الخليل ﴿بِالْبَشَرَةِ﴾ بالبشارة بالولد ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ سلموا عليه، ورد عليهم السلام ﴿فَعَلَّيْتُ﴾ إبراهيم لما دخلوا عليه ﴿أَن جَاءَ يَعْجَلُ حَنِيدٌ﴾ أي: بادر لبيته؛ فاستحضر لأضيافه عجلًا مشويًا على الرضف - الحجارة المحمية -

(٧٢) ﴿قَالَتْ يَوْنَتَنِي﴾ نداء ندبة، يقولها الإنسان عندما يرى ما يتعجب منه ﴿ءَالِدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ عقيم من بنات التسعين ﴿وَهَذَا بَعْلِي﴾ زوجي، سمي بذلك لأنه قِيمَ أمرها ﴿شَيْخًا﴾ كبيرًا ﴿إِنِّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾؛ لأن هذين الأمرين مانعان من وجود الولد.

(٧٣) ﴿قَالُوا﴾ الملائكة: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ فإن أمره لا عجب فيه؛ لنفوذ مشيئته التامة في كل شيء، فلا يستغرب على قدرته شيء، وخصوصًا فيما يدبره ويمضيه لأهل هذا البيت المبارك ﴿رَحِمَتْ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ﴾ لا تزال رحمته وإحسانه وبركاته، وهي: الزيادة من خيره وإحسانه، وحلول الخير الإلهي ﴿عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ بيت إبراهيم عليه السلام ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ﴾ حميد الصفات؛ لأن صفاته صفات كمال، حميد الأفعال؛ لأن أفعاله إحسان وجود وبر وحكمة وعدل وقسط، ﴿مُجِيدٌ﴾ والمجد: هو عظمة الصفات وسعتها.

(٧٤) ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ الذي أصابه من خيفة أضيافه ﴿وَجَاءَهُ الْبَشَرُ﴾ بالولد ﴿يُجَدِّلُنَا فِي قُوَّةِ لُوطٍ﴾ التفت حينئذ إلى مجادلة الرسل في إهلاك قوم لوط، وقال لهم: ﴿إِنِّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتُنَا﴾ [العنكبوت: ٣٢] فسكت عنهم، واطمأنت نفسه.

(٧٥) ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ ذو خلق وسعة صدر، وعدم غضب عند جهل الجاهلين ﴿آوَهُ﴾ متضرع إلى الله في جميع الأوقات ﴿مُتَيْبٌ﴾ رجاع إلى

قَالَتْ يَوْنَتَنِي ۖ ءَالِدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتْ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُمْ حَمِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَهُ الْبَشَرُ يُجَدِّلُنَا فِي قُوَّةِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ ۖ آوَهُ مُتَيْبٌ ﴿٧٥﴾ يَتَذَكَّرُ لَهُمْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَهُ أَمْرٌ رَّبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَانِئِهِمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفَوْرُ هَؤُلَاءِ بِمَا فِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزَوْا فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا الْقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي نَبَاكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوَ أَنِّي بَكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَيَّ رُكْنٌ شَدِيدٌ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنَیْصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْفُتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا تَكُنْ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾

٣٠

الله بمعرفته ومحبته والإقبال عليه والإعراض عما سواه.

(٧٦) ﴿يَتَذَكَّرُ لَهُمْ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا﴾ الجدال ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَهُ أَمْرٌ رَّبِّكَ﴾ بهلاكهم ﴿وَإِنَّهُمْ ءَانِئِهِمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ غير مصروف عنهم، فلا فائدة في جدال.

(٧٧) ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾ الملائكة الذين صدروا من إبراهيم لما أتوا ﴿لُوطًا سِئًا بِهِمْ﴾ شق عليه مجيئهم ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ قلبًا؛ لأنه وقع في مكروه، لا يطيق الخروج منه، وذلك أنه لما نظر إلى حسن وجوههم وطيب روائحهم أشفق عليهم

(٧٣) في «الصحيحين» من حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه أنهم قالوا: قد علمنا السلام عليك، فكيف الصلاة عليك يا رسول الله؟ قال: «قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم، إنك حميد مجيد».

بمنزلة الوالد للرجال والنساء، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم دنيا وآخرة.

والآخر: بالتزويج، وقى أضيافه بيناته، وكان في ذلك الوقت تزويج المسلمة من الكافر جائزاً، كما زوج الرسول ﷺ ابنته من عتبة بن أبي لهب، وأبي العاص بن الربيع، قبل الوحي، وكانا كافرين، والأول أصح.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْقِي﴾ خافوا الله ولا تفضحوني في أضيافي ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ صالح سديد، فينهاكم ويزجركم، وهذا دليل على مروجهم وانحلالهم من الخير والمروءة.

(٧٩) ﴿قَالُوا﴾ له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ يا لوط ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ لسن أزواجاً لنا فنستحقهن بالنكاح، أو ما لنا في النساء شهوة وحاجة ﴿وإنَّا لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ﴾ لا نريد إلا إتيان الرجال.

(٨٠) ﴿قَالَ﴾ لهم لوط عند ذلك: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ أراد قوة البدن أو القوة بالاتباع ﴿أَوْ أَوِيَّ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أنضم إلى عشيرة مانعة، والمراد: لقاتلتكم وحلت بينكم وبينهم.

(٨١) فلما بلغ الأمر منتهاه، واشتد الكرب على لوط طمأنته الملائكة ف﴿قَالُوا﴾ له: ﴿يَلُوطُ﴾ إن ركنك شديد ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ أخبروه بحالهم؛ ليطمئن قلبه ﴿لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ بسوء ﴿فَأَنْشِرْ بِأَهْلِكَ﴾ وأمر الملائكة لوطاً أن يسري بأهله ﴿يَقْطَعُ مِنَ اللَّيْلِ﴾ بجانب منه قبل الفجر بكثير؛ ليتمكنوا من البعد عن قريتهم، ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ أي: بادروا بالخروج، وليكن

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُورٍ ﴿٨٢﴾ شُومَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٌ ﴿٨٣﴾ وَإِنْ مَدَّيْتَ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَتَّبِعُوا الْيَكْثَالَ وَالْيَمِيزَانَ إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَتَقْوُوا أَوْفُوا الْيَكْثَالَ وَالْيَمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتَرِفُوا بِالزُّلْمِ مَقْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ يَوْمَئِذٍ اللَّهُ خَبِيرُكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيضٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا تَشْعِيبُ أَصْلُكَ تَكُنْ أَتَمُّكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَعْمَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَقَوْمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَمِينٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُلْخَلِّفُكُمْ إِلَّا مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾

من قومه أن يقصدوهم بالفاحشة، وعلم أنه سيحتاج إلى المدافعة عنهم، ولم يعلم بأمرهم في الساعة الراهنة ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ شديد حرج.

(٧٨) ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يسرعون في مشيتهم من فرحهم بذلك ﴿وَمِنْ قَتْلٍ﴾ لم تزل هذه سجيته قبل مجيئهم إلى لوط ﴿كَانُوا يَعْمَلُونَ أَلْسِنَاتٍ﴾ كانوا يأتون الرجال في أدبارهم ﴿قَالَ﴾ لهم لوط حين قصدوا أضيافه وظنوا أنهم غلمان: ﴿يَقْوِمُ هَؤُلَاءِ بِنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ اختلف

المفسرون في مراده على قولين:

(٨٠) في «صحيح البخاري» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «رحمة الله على لوط، لقد كان يأوي إلى ركن شديد - يعني: الله عز وجل -، فما بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة؛ أي: في منعة وعزة، من قومه».

همكم النجاة ولا تلتفتوا إلى ما وراءكم، ﴿إِلَّا أَمْرًا نَكَّ إِنَّهُ مُصِيبُهَا﴾ من العذاب ﴿مَا أَصَابَهُمْ﴾؛ لأنها تشارك قومها في الإثم فتدلهم على أضياف لوط إذا نزل به أضياف، ﴿إِنْ مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ﴾ موعد هلاكهم وقت الصبح، فكأن لوطًا استعجل ذلك، فقيل له: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

(٨٢) ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بنزول العذاب وإحلاله فيهم ﴿جَعَلْنَا﴾ ديارهم ﴿عَلَيْهَا سَافِلَهَا﴾ قلبناها عليهم ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ من حجارة النار الشديدة الحرارة ﴿مَنْصُودٍ﴾ متتابعة. (٨٣) ﴿مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ معلمة، عليها علامة العذاب والغضب، ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين يشابهون لفعل قوم لوط ﴿بَعِيدٍ﴾ فليحذر العباد أن يفعلوا كفعلهم؛ لئلا يصيبهم ما أصابهم.

(٨٤) ﴿وَأَرْسَلْنَا﴾ إِلَى مَذْيَكٍ القبيلة المعروفة، الذين يسكنون بين الحجاز والشام، قريبًا من بلاد معان، في بلد يعرف بهم «مدين» ﴿أَنَّهُمْ﴾ في النسب ﴿شُعَيْبًا﴾ لأنهم يعرفونه، ويتمكنون من الأخذ عنه ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿يَقْوَمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ أخلصوا له العبادة، فإنهم كانوا يشركون ﴿وَلَا تُنْفُسُوا إِلَهَيْكُمْ﴾ بل أوفوا الكيل والميزان بالقسط ﴿إِنِّي أَرْسَلْتُكُمْ بِخَيْرٍ﴾ بنعمة كثيرة في رزقكم ومعيشتكم ﴿وَأِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ عذابًا يحيط بكم، ولا يبقى منكم باقية.

(٨٥) ﴿وَيَقْوَمُوا أَوْفُوا إِلَهَيْكُمْ﴾ بِالْقِسْطِ

وَيَقْوَمُوا لَا يَجْرِمُكُمْ شِقَاقِي أَنْ تُصِيبَكُمْ مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (٨٦) وَأَسْتَفْهِرُوا بِرُبِّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنِّي رَبُّكُمْ رَبُّ دَاوُدَ (٨٧) قَالُوا يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا إِنَّمَا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٨٨) قَالَ يَقْوَمُوا أَرْضِيَّ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا إِنِّي رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٨٩) وَيَقْوَمُوا أَعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَصْلَوْنَ مِنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْسَلْنَا إِلَى مَعْكُمْ رَبِّيبٌ (٩٠) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْثَةَ فَاصْبُحُوا فِي دِينِهِمْ جُثِيمٌ (٩١) كَانُوا يَنْشُرُونَ فِيهَا الْأَبْعَادَ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُ تَعْمُدُ (٩٢) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ ثَبِينٍ (٩٣) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِشَدِيدٍ (٩٤)

بالعدل الذي ترضون أن تعطوه ﴿وَلَا تَبْخُسُوا﴾ النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ لا تنقصوا من أشياء الناس ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ نهاهم عن العثو في الأرض بالفساد، وقد كانوا يقطعون الطريق.

(٨٦) ﴿يَقِيتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يكفيكم ما أبقي الله لكم من الخير بعد إيفاء الكيل والميزان وما هو لكم، فلا تطمعوا في أمر لكم عنه غنية، وهو ضار لكم جدًا ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فاعملوا بمقتضى الإيمان ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ﴾ لست بحافظ لأعمالكم، ووكيل عليها، وإنما الذي يحفظها الله تعالى، وأما أنا فأبلغكم ما أرسلت به.

(٨٧) ﴿قَالُوا﴾ على وجه التهكم بنبيهم،

(٨٣) أخرج أصحاب السنن - إلا النسائي - من حديث ابن عباس رضي الله عنه الصحيح: أن النبي ﷺ قال: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول به».

﴿يَنْتَلِ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾ من الغرق ﴿أَوْ قَوْمَ هُودٍ﴾ من الريح الصرصر العقيم ﴿أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾ من الصيحة ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ لا في الدار ولا في الزمان؛ وذلك أنهم كانوا حديثي عهد بهلاك جيرانهم قوم لوط.

(٩٠) ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ عما اقترفتهم من الذنوب ﴿ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ فيما يستقبل من أعماركم بالتوبة النصوح، والإنابة إليه بطاعته، وترك مخالفته ﴿إِنْ رَفِ رَجِيمٌ﴾ لمن تاب وأتاب ﴿وَدُودٌ﴾ يحب عباده المؤمنين ويحبونه.

(٩١) فتضجروا من نصائحه ومواعظه لهم ﴿فَقَالُوا يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ﴾ ما نفهم ولا نعقل كثيرًا من قولك؛ وذلك لبغضهم لما يقول، ونقريهم عنه ﴿وَإِنَّا لَنَرْنَكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ في نفسك، لست من الكبار والرؤساء، بل من المستضعفين ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ جماعتك وقبيلتك ﴿لَرَجَمْنَكَ﴾ لقتلناك ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ ليس لك قدر في صدورنا، ولا احترام في أنفسنا، وإنما احترمنا قبيلتك بتركنا إياك.

(٩٢) ﴿قَالَ يَنْفَقُونَ أَهْطَىٰ أَعَزَّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ كيف تراعوني لأجل رهطي، ولا تراعوني لله، فصار رهطي أعز عليكم من الله ﴿وَاتَّخَذُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا﴾ نبذتم أمر الله وراء ظهوركم، ولم تبالوا به، ولا خفتهم منه ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ لا يخفى عليه من أعمالكم مثقال ذرة في

والاستبعاد لإجابتهم له ﴿يَشْعَبُ الْأَرْضِ أَصْلُوكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ وكان شعيب كثير الصلاة؛ لذلك قالوا هذا من الأوثان والأصنام ﴿أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِجْ أَمْوَالَنَا مَا نَشْتَوِي﴾ من التطفيف وبخس الناس في الكيل والوزن، بل لا نزال نفعل فيها ما شئنا؛ لأنها أموالنا، فليس لك فيها تصرف.

ولهذا قالوا الاستهزاء قبهم الله: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾.

(٨٨) ﴿قَالَ﴾ لهم شعيب: ﴿يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَمِينٍ مِنْ رَبِّي﴾ يقين وبصيرة فيما أدعوا إليه، وطمأنينة في صحة ما جئت به ﴿وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ قيل: أراد النبوة، وقيل: أراد الرزق الحلال، ويحتمل الأمرين ﴿وَمَا﴾ أنا ﴿أُرِيدُ أَنْ أُلَاقِيَكُمْ إِلَّا مَا أَنهَضَكُمْ عَنْهُ﴾ ما أنهاكم عن أمر إلا وأنا أول مبتدئ لتركه ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ ليس لي من المقاصد إلا أن تصلح أحوالكم، وتستقيم منافعكم ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ ما يحصل لي من التوفيق لفعل الخير والانفكاك عن الشر إلا بالله تعالى، لا بحولي ولا بقوتي ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ اعتمدت في أموري، ووثقت في كفايته، ﴿وَالَيْهِ أُنِيبُ﴾ في أداء ما أمرني به من أنواع العبادات.

(٨٩) ﴿وَيَقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ لا تحملنكم مخالفتي ومشاقتي ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ﴾ من العقوبات

(٨٨) أخرج أحمد وأبو داود بإسناد حسن عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: أخذ النبي ﷺ ناسًا من قومي في تهمة، فحبسهم، فجاء رجل من قومي إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب فقال: يا محمد، علام تحبس جبرتي؟ فصمت رسول الله ﷺ عنه، فقال: إن ناسًا يقولون: إنك تنهى عن الشيء وتستخلي به، فقال النبي ﷺ: «ما يقول؟» قال: فجعلت أعرض بينهما الكلام مخافة أن يسمعا، فبدعو على قومي دعوة لا يفلحون بعدها أبدًا، فلم يزل رسول الله ﷺ به حتى فهمها، فقال: «أو قد قالوها؟ والله، لو فعلت لكان علي وما كان عليهم، خلوا له عن جيرانه».

الأرض ولا في السماء، فسيجازيكم على ما عملتم أتم الجزاء.

(٩٣) ﴿وَلَمَّا أَعْيَوْهُ وَعَجَزَ عَنْهُمْ قَالَ: وَيَقَوْمِ ااعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ﴾ على حالتكم ودينكم، وهذا تهديد ووعيد شديد ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ على طريقي وديني ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أينما الجاني على نفسه، والمخطئ في فعله، فذلك قوله: ﴿مَنْ يَأْتِهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ يذله ويفضحه ﴿وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ﴾ أنا أم أنتم ﴿وَارْتَقِبُوا﴾ انتظروا ما يحل بي ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ منتظر ما يحل بكم.

(٩٤) ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بإهلاك قوم شعيب ﴿يَخْتَنُوا شُعَبِيًّا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْثَةَ فَاصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَنِيمِينَ﴾ لا تسمع لهم صوتاً، ولا ترى منهم حركة. قال العلماء: ذكر هنا ﴿الصَّيْثَةَ﴾، وفي «الأعراف»: ﴿الرَّجْفَةَ﴾، وفي «الشعراء»: ﴿عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ﴾ وهم أمة واحدة، فاجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها.

وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه؛ ففي «الأعراف» لما قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ يَا يَشْعَبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨]، ناسب أن يذكر الرجفة، فرجفت بهم الأرض التي ظلموا بها، وأرادوا إخراج نبيهم منها، وهاهنا لما أساءوا الأدب في مقاتلتهم عن نبيهم ناسب ذكر الصيحة التي أسكتتهم وأخمدتهم.

وفي «الشعراء» لما قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧]، قال: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

وهذا من الأسرار الغريبة الدقيقة، ولله الحمد

يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْدَحَهُمُ النَّارَ وَيَتَسَّ الْوَرْدُ الْمَرْوُدُ ﴿٩٨﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَتَسَّ الْوَرْدُ الْمَرْوُدُ ﴿٩٩﴾ ذَلِكَ مِنَ الْبَاءِ الْفَرَى نَقَضَهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا تَبِيبٌ ﴿١٠١﴾ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفَرَى وَهِيَ ظُلُمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ تَجْمُوعٌ لِّلنَّاسِ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدٍّ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكُنْ تَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيقٌ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَمِنَ النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا مَادَتْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ لِأَمْسَاءِ رَبِّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَمِنَ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا مَادَتْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ لِأَمْسَاءِ رَبِّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُونٍ ﴿١٠٧﴾

والمنة كثيراً دائماً.

(٩٥) ﴿كَانَ لَمْ يَفْنَوْا فِيهَا﴾ كأنهم ما أقاموا في ديارهم، ولا تنعموا فيها حين أتاهم العذاب ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَنِينَ﴾ إذ أهلكها الله وأخزاها ﴿كَمَا بَعْدَتْ شُعُودُ﴾ قد اشتركت هاتان القبيلتان في السحق والبعد والهلاك.

(٩٦) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ ابن عمران ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على صدق ما جاء به ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ حجة ظاهرة بينة.

(٩٧) ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أشراف قومه ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ مسلكه ومنهجه وطريقته في الغي والضلال ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ ليس فيه رشد أو هدى، بل هو ضال غاي.

(٩٨) ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ كما اتبعوه في الدنيا وكان مقدمهم ورئيسهم، كذلك هو يقدمهم

لِلظَّالِمِينَ بِأَنْوَاعِ الْعُقُوبَاتِ ﴿لَّآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ
الْآخِرَةِ﴾ لَعِبْرَةٌ وَعِظَةٌ ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ﴾
جُمِعُوا لِأَجْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ لِلْمَجَازَاةِ، وَلِيُظْهَرَ لَهُمْ
مِنْ عَظَمَةِ اللَّهِ وَعَدْلِهِ الْعَظِيمِ مَا بِهِ يَعْرِفُونَهُ حَقَّ
الْمَعْرِفَةِ ﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ يَشْهَدُهُ اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ
وَجَمِيعُ الْمَخْلُوقِينَ.

(١٠٤) ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ﴾ أَي: إِتْيَانِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ
﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ إِذَا انْقَضَى أَجَلُ الدُّنْيَا، وَمَا
قَدَّرَ اللَّهُ فِيهَا مِنَ الْخَلْقِ، فَحِينَئِذٍ يَنْقُلُهُمْ إِلَى الدَّارِ
الْآخِرَى.

(١٠٥) ﴿يَوْمَ يَأْتُ﴾ ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَيَجْتَمِعُ الْخَلْقُ
﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ حَتَّى الْأَنْبِيَاءُ
وَالْمَلَائِكَةُ الْكَرَامُ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا بِإِذْنِهِ
﴿فَمِنْهُمْ﴾ أَي: مِنَ الْخَلْقِ ﴿شَقِيقٌ﴾ فَالْأَشْقِيَاءُ هُمْ:
الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ، وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ، وَعَصَوْا أَمْرَهُ
﴿وَسَعِيدٌ﴾ وَالسَّعْدَاءُ هُمْ: الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ.

(١٠٦) ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقَّوْا﴾ حَصَلَتْ لَهُمْ الشَّقَاوَةُ
وَالْخِزْيُ وَالْفَضِيحَةُ ﴿فَفِي النَّارِ﴾ مَنْغَمَسُونَ فِي
عَذَابِهَا، مُشْتَدِّ عَلَيْهِمْ عِقَابُهَا ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ مِنْ شِدَّةِ
مَا هُمْ فِيهِ ﴿زَفِيرٌ﴾ الصَّوْتُ الشَّدِيدُ ﴿وَشَهِيْقٌ﴾
الصَّوْتُ الضَّعِيفُ، وَهُوَ - أَيِ الزَّفِيرِ وَالشَّهِيْقِ -
أَشْنَعُ الْأَصْوَاتِ وَأَقْبَحُهَا؛ لِأَنَّهُ شَبِيهٌ بِصَوْتِ
الْحِمَارِ، الَّذِي أَوَّلُهُ زَفِيرٌ، وَآخِرُهُ شَهِيْقٌ.

(١٠٧) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لِابْتِثْنِ مَقِيمِينَ فِي النَّارِ
الَّتِي هَذَا عَذَابُهَا ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا
شَاءَ رَبُّكَ﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، إِلَّا الْمُدَّةَ الَّتِي شَاءَ
اللَّهُ أَنْ لَا يَكُونُوا فِيهَا ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾

يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿فَأُورِدَهُمُ النَّارَ﴾ وَيُنْسُ الْوُرْدُ
الْمُورُودُ ﴿فَأُورِدَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ وَشَرِبُوا فِي حِيَاضِ
رَدَاهَا، وَلَهُ فِي ذَلِكَ الْحِظِّ الْأَوْفَرِ مِنَ الْعَذَابِ
الْأَكْبَرِ.

(٩٩) ﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً﴾ أَتْبَعْنَاهُمْ - زِيَادَةً
عَلَى مَا جَازَيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابِ النَّارِ - لَعْنَةً فِي هَذِهِ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ يُلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ
وَالنَّاسُ أَجْمَعُونَ ﴿يُنْسُ الرِّقْدُ الْمَرْفُودُ﴾ بِنَسٍّ مَا
اجْتَمَعَ لَهُمْ، وَتَرَادَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَلَعْنَةِ
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

(١٠٠) ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُقَرَى نَقَضُكُمْ عَلَيْكَ﴾ لَتَنْذِرُ
بِهِ، وَيَكُونُ آيَةً عَلَى رِسَالَتِكَ وَمَوْعِظَةً وَذِكْرًا
لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿مِنْهَا قَائِمٌ﴾ لَمْ يَتْلَفْ، بَلْ بَقِيَ مِنْ
آثَارِ دِيَارِهِمْ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِمْ ﴿وَوَ﴾ مِنْهَا ﴿حَصِيدٌ﴾
قَدْ تَهْدَمَتْ مَسَاكِنُهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ لَهَا أَثَرٌ.

(١٠١) ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بِأَخْذِهِمْ بِأَنْوَاعِ الْعُقُوبَاتِ
﴿وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بِالشِّرْكِ وَالْكُفْرِ وَالْعِنَادِ
﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالَهُتُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ وَهَكَذَا كُلُّ مَنْ التَّجَأَ
إِلَى غَيْرِ اللَّهِ لَمْ يَنْفَعَهُ ذَلِكَ عِنْدَ نَزُولِ الشَّدَائِدِ
﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتَابُعٍ﴾ خَسَارٌ وَدَمَارٌ.

(١٠٢) ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفُرْقَيْنِ وَهِيَ
ظُلُمَةٌ﴾ وَهَكَذَا كَمَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونِ الظَّالِمَةَ
الْمَكْذِبَةَ، كَذَلِكَ نَفْعِلُ بِنِظَائِرِهِمْ وَأَشْبَاهِهِمْ
وَأَمْثَالِهِمْ ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ يَقْصِمُهُمْ
بِالْعَذَابِ وَيُبِيدُهُمْ.

(١٠٣) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورِ مِنْ أَخْذِهِ

(١٠٢) فِي «الصَّحِيحِينَ» عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لِيَمْلِكُ لِلظَّالِمِ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلِتْهُ». ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفُرْقَيْنِ وَهِيَ ظُلُمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

فكل ما أراد فعله واقتضته حكمته؛ فعله تبارك وتعالى، لا يرده أحد عن مراده.

(١٠٨) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا﴾ حصلت لهم السعادة والفلاح والفوز ﴿فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ ثم أكد ذلك بقوله ﴿عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُورٍ﴾ غير منقطع بوقت من الأوقات.

(١٠٩) ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ المشركون؛ أي: لا تشك في حالهم، وأن ما هم عليه باطل، فليس لهم دليل شرعي ولا عقلي، وإنما دليلهم وشبهتهم أنهم ﴿مَّا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ فيه إضمار، أي: كما كان يعبد آبائهم ﴿وَأَنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرُ مَنْقُوصٍ﴾ ما وعدوا فيه من خير وشر..

(١١٠) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ الذي هو التوراة ﴿فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ فإن المنتسبين إليه اختلفوا فيه اختلافاً أضر بعقائدهم، وبجامعتهم الدينية، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ بتأخيرهم وعدم معاجلتهم بالعذاب ﴿لَفُصِّ بَيْنَهُمْ﴾ بإحلال العقوبة بالظالم، ولكنه تعالى اقتضت حكمته أن أخر القضاء بينهم إلى يوم القيامة، وبقوا في شك مريب.

(١١١) ﴿وَأَنَّ كُلًّا لَمَّا لُوفِيَتْهُمْ رَبُّكَ أَعْمَاهُمْ﴾ لا بد أن يقضي الله بينهم يوم القيامة بحكمه العدل، فيجازي كلًّا بما يستحق ﴿إِنَّهُمْ يَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر ﴿خَيْرٌ﴾ فلا يخفى عليه شيء من

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرُ مَنْقُوصٍ (١٠٨) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُصِّ بَيْنَهُمْ رَبُّكَ لَنُفَصِّلَنَّ لَهُمْ مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٠٩) وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لُوفِيَتْهُمْ رَبُّكَ أَعْمَاهُمْ رَبُّكَ يَمَّا يَعْمَلُونَ (١١٠) خَيْرٌ (١١١) فَاسْتَقَمَ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (١١٣) وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَلَيْسَ إِنْ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِنَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّكِرَةِ (١١٤) وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضْمِرُ خَيْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥) قُلْ لَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةً يَبْهَتُونَ عَلَى الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ آمَنَ مِنْهُمْ وَأَتَّبَعِ اللَّهُ رَأْيَهُمْ وَأَنَّهُمْ كَانُوا يُزَكَّرُونَ (١١٦) وَكَانُوا يُجْرَدُونَ (١١٧) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٨)

أعمالهم دقيقها وجليلها.

(١١٢) ﴿فَاسْتَقَمَ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا﴾ أمر نبيه محمداً ﷺ ومن معه من المؤمنين أن يثبتوا ويداموا على الاستقامة، وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء، ومخالفة الأضداد، ونهى عن الطغيان، وهو البغي وما نزلت على رسول الله ﷺ آية هي أشد من هذه الآية، ولذلك قال: «شيبتنى هود وأخوانها» (*) ﴿إِنَّهُمْ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وأعلمه تعالى أنه بصير بأعمال العباد، لا يغفل عن شيء، ولا يخفى عليه شيء..

(١٠٨) في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «يقال: يا أهل الجنة، إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً.» (*) تقدم تخريجه في أول السورة.

والعشاء، ويتناول ذلك قيام الله، فإنها مما تزلف العبد وتقربه إلى الله تعالى، ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ تمحوها ﴿ذَلِكَ﴾ ما ذكرنا من لزوم الاستقامة على الصراط المستقيم ﴿وَكُورَى﴾ عظة ﴿لِلذَّكْرِ﴾ يفهمون بها ما أمرهم الله به ونهاهم عنه، ويمثلون لتلك الأوامر الحسنة المثمرة للخيرات، الدافعة للشرور والسيئات.

(١١٥) ﴿وَأَصْبِرْ﴾ احبس نفسك على طاعة الله وعن معصيته، وإلزامها لذلك، واستمر ولا تضجر ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بل يتقبل الله عنهم أحسن الذي عملوا، ويجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون.

(١١٦) ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ لولا أنه جعل في القرون الماضية بقايا من أهل الخير، يدعون إلى الهدى، وينهون عن الفساد والردى، فحصل من نفعهم، وأبقيت به الأديان ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَجَجْنَا مِنْهُمْ﴾ ولكنهم قليلون جدًا، وغاية الأمر أنهم نجوا باتباعهم المرسلين، وقيامهم بما قاموا به من دينهم ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ اتبعوا ما هم فيه من النعيم والترف، ولم ييغوا به بدلاً ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ ظالمين باتباعهم ما أترفوا فيه، فلذلك حق عليهم العقاب، واستأصلهم العذاب.

(١١٧) ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى﴾ بظلم منه لهم ﴿وَأَهْلُهَا مُصِلِحُونَ﴾ مقيمون على

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا بَرَأُونَ مُحْتَلِفِينَ
 (١١٥) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ
 لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٦) وَلَا تَقْصُ
 عَلَيْكَ مِنْ أَبْنَاءِ الرَّسُلِ مَا نَشِئْتُ بِهِمْ مِثْرَ ذَاكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ
 الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (١١٧) وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
 آمَنُوا عَلَيَّ مَكَاتِبِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١١٨) وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ
 (١١٩) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ
 فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٠)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَةُ الْكَافِيَةُ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا
 لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) تَحْنُ نَقْصٌ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ
 بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ
 لَمِنَ الْخَافِينَ (٣) إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ
 أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالْقَمَرَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤)

٢٣٥

(١١٣) ﴿وَلَا تَرْكَبُوا﴾ لا تميلوا ﴿إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ فإنكم إذا ملتهم إليهم ووافقتموهم على ظلمهم، أو رضيتهم ما عليه من الظلم ﴿فَتَسَكَّمُ الْأَتَارُ﴾ إن فعلتم ذلك، ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ يمنعونكم من عذاب الله، ولا يحصلون لكم شيئاً من ثواب الله، ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ لا يدفع عنكم العذاب إذا مسكم.

(١١٤) ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ يأمر تعالى بإقامة الصلاة كاملة ﴿طَرَفِي النَّهَارِ﴾ أوله وآخره، ويدخل في هذا صلاة الفجر وصلاتا الظهر والعصر ﴿وَزُلْفَا مِنْ آيِلٍ﴾ ويدخل في ذلك صلاة المغرب

(١١٤) في «الصحيحين» من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : أن رجلاً أصاب من امرأة قبله، فأتى النبي ﷺ، فأخبره، فأنزل الله : ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ آيِلٍ﴾ فقال الرجل : ألي هذا يا رسول الله؟ قال : للجميع أمتي كلهم.

(١١٦) أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «بدأ الإسلام غريباً، وسيعود كما بدأ غريباً، فطوبى للغرباء».

﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يتعظون به، فيرتدعون عن الأمور المكروهة، ويتذكرون الأمور المحبوبة لله فيفعلونها.

(١٢١) ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بعدما قامت عليهم الآيات: ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ﴾ حالتكم التي أنتم عليها ﴿إِنَّا عَمِلُونَ﴾ على ما كنا عليه.

(١٢٢) ﴿وَأَنْظِرُوا﴾ ما يحل بنا من رحمة الله ﴿إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ ما يحل بكم من نقمة الله.

(١٢٣) ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ما غاب فيهما من الخفايا والأمور الغيبية ﴿وَالِيهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ من الأعمال والعمال، فيميز الخبيث من الطيب، ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ قم بعبادته، وهي جميع ما أمر الله به مما تقدر عليه، وتوكل على الله في ذلك، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من الخير والشر، بل قد أحاط علمه بذلك، وجرى به قلمه، وسيجري عليه حكمه جزاؤه.

سورة يوسف

(١) ﴿الرَّ﴾ أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة «البقرة»، ﴿تِلْكَ

الصلاح، مستمرون عليه، فما كان الله ليهلكهم إلا إذا ظلموا، وقامت عليهم حجة الله.

(١١٨) ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ كُلَّهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ على دين واحد، وهو دين الإسلام؛ فإن مشيئته غير قاصرة، ولا يمتنع عليه شيء، ﴿وَلَكِنَّهُ اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ﴾ ﴿لَا يَزَالُونَ تُخَلِّفُونَ﴾ على أديان شتى، من بين يهودي ونصراني، ومجوسي ومشرِك.

(١١٩) ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ فهداهم إلى العلم بالحق والعمل به والاتفاق عليه ﴿وَلِلَّذِينَ خَلَقَهُمْ﴾ اقتضت حكمته أنه خلقهم ليكون منهم السعداء والأشقياء، والمتفوقون والمختلفون ﴿وَلَأَنَّهُ﴾ ﴿وَنَمَتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمَلَانِ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ فلا بد أن ييسر للنار أهلاً يعملون بأعمالها الموصلة إليها.

(١٢٠) ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ كل الذي تحتاج إليه من أنباء الرسل وأخبار أممهم نقصها عليك؛ ليطمئن قلبك ويثبت، وتصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ﴾ السورة ﴿الْحَقُّ﴾ اليقين، فلا شك فيه بوجه من الوجوه ﴿وَجَاءَتْكَ

(١١٩) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «اختصمت الجنة والنار، فقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفة الناس وسقطهم، وقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، فقال الله ﷻ للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء، وقال للنار: أنت عذابي أنتقم بك ممن أشاء، ولكل واحد منكما ملؤها، فأما الجنة فلا يزال فيها فضل حتى ينشئ الله لها خلقاً يسكن فضل الجنة، وأما النار فلا تزال تقول: هل من مزيد. حتى يضع عليها رب العزة قدمه، فتقول: قط قط، وعزتك».

(١) أخرج ابن حبان، والطحاوي في «مشكل الآثار»، والضياء في «الأحاديث المختارة»، والحاكم بإسناد حسن عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: أنزل الله القرآن على رسول الله ﷺ، فتلاه زماناً، فقالوا: يا رسول الله، لو قصصت علينا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الَّتِي إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿١﴾ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغفيلين ﴿٢﴾ فتلاها عليهم رسول الله ﷺ زماناً. فقالوا: يا رسول الله، لو حدثنا، فأنزل الله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ لَغْوٍ كُنَّا مُتَشَبِّهًا مَنَافَىٰ نَقْشُورٍ مِنْهُ جُلُودٌ لِلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ =

أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴿١﴾ بما اشتمل عليه هذا القرآن الذي أوحيناه إليك، وفضلناك به على سائر الأنبياء ﴿وَلَنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان قبل أن يوحى الله إليك.

(٤) ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل -عليهم الصلاة والسلام-: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَجْدِينَ﴾ فأولها يعقوب بأن الشمس أمه، والقمر أبوه، والكواكب إخوته، وإنه ستنقل به الأحوال إلى أن يصير إلى حال يخضعون له، ويسجدون له؛ إكرامًا وإعظامًا، وأن ذلك لا يكون إلا بأسباب تتقدمه من اجتباء الله له واصطفائه إياه، وإتمام نعمته عليه بالعلم والعمل، والتمكين في الأرض.

(٥) ﴿قَالَ يَبْنَىٰ لَا تَقْصُصْ رُءُوكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾ وذلك، أن رؤيا الأنبياء حق ووحى؛ فعلم يعقوب أن الإخوة إذا سمعوها حسدوه، فأمره بالكتمان ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ حسدًا من عند أنفسهم بأن تكون أنت الرئيس الشريف عليهم ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ لا يفتر عنه ليلًا ولا نهارًا، ولا سرًا ولا جهازا.

(٦) ﴿وَكَذَلِكَ يَجْهَلُكَ رَبُّكَ﴾ يصطفيك ويختارك

قَالَ يَبْنَىٰ لَا تَقْصُصْ رُءُوكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ يَجْهَلُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَنْتَ عَلَىٰ آبَائِكَ مِنْ قَبْلُ أَرْهَمَ وَيَسْقُتُ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ لَقَدْ كَانَتْ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٍ لِلْمُتَذَكِّرِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْنَمَا نَزَعْنَا غُصْبَةُ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٨﴾ أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَبُلْ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيِّبَتِ الْحَبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصَحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعِ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَمَحْرُومٌ أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَبِيرُونَ ﴿١٤﴾

ءَايَاتِ الْكِتَابِ؛ أي: هذه آيات الكتاب، وهو القرآن ﴿الْمُبِينِ﴾ البين الواضحة ألفاظه ومعانيه. (٢) ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ ومن بيانه وإيضاحه أنه أنزله باللسان العربي، أشرف الألسنة وأبينها ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لتعقلوا حدوده، وأصوله وفروعه، وأوامره ونواهيه.

(٣) ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ وذلك لصدقه، وسلاسة عبارته، ورونق معانيه ﴿يَا

هَدَىٰ اللَّهُ بَهْدِي بِهِ، مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣]، كل ذلك يؤمرون بالقرآن. قالوا: يا رسول الله، ذكرنا. فأنزل الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِزَكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

(٤) في «صحيح البخاري» من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «الكریم ابن الکریم ابن الکریم ابن الکریم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم».

(٥) أخرج ابن حبان في «روضة العقلاء» والسهامي في «تاريخ جرجان» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بإسناد حسن قال: قال رسول الله ﷺ: «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان».

بما مَنْ به عليك من الأوصاف الجليلة، والمناقب الجميلة ﴿وَيَعْلَمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ من تعبير الرؤيا، وبيان ما تقول إليه الأحاديث الصادقة، ﴿وَيُنِيعُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ في الدنيا والآخرة، بأن يؤتيك في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة ﴿كَمَا أَنْهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَاسْتَحَقَّ﴾ حيث أنعم الله عليهما بنعم عظيمة واسعة؛ دينية ودنيوية ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ علمه محيط بالأشياء وبما احتوت عليه ضمائر العباد من البر وغيره ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها.

(٧) ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ﴾ عبر وأدلة على كثير من المطالب الحسنة ﴿لِلسَّائِلِينَ﴾ لكل من سأل عنها بلسان الحال، أو بلسان المقال.

(٨) ﴿إِذْ قَالُوا﴾ فيما بينهم: ﴿لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ﴾ بنيامين؛ أي: شقيقه لأمه، وإلا فكلهم إخوة ﴿أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ جماعة، فكيف يفضلهما بالمحبة والشفقة ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ لفي خطأ بين؛ حيث فضلهما علينا من غير موجب نراه، ولا أمر نشاهده.

(٩) ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ بإزهاق روحه ﴿أَوْ أَطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ أي: إلى أرض يُبْعَدَ بحيث لا يتمكن من رؤيته فيها؛ ﴿يَحُلْ لَكُمْ وَجْهٌ أَبِيكُمْ﴾ يتفرغ لكم، ويقبل عليكم بالشفقة والمحبة؛ فإنه قد اشتغل قلبه بيوسف شغلاً لا يتفرغ لكم، ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد هذا الصنيع ﴿فَوَمَا صَلَاحِينَ﴾ أي: تتوبون إلى الله وتستغفرونه من بعد ذنبكم.

(١٠) ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ من إخوة يوسف ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ فإن قتله أعظم إثماً وأشنع، والمقصود يحصل بتبعيده عن أبيه من غير قتل، ولكن توصلوا إلى تبعيده بأن تلقوه ﴿فِي غِيَبَتِ الْجُبِّ﴾ أي: في قعر الجب، حيث يغيب خبره والغيبابة: كل ما ستر عنك الشيء وغيبه. والجب: البئر غير المطوية - وهي التي لم تبنى بالحجارة -؛ لأنه قطع ولم يَطَوْ ﴿يَلْقُوهُ﴾ يأخذوه ﴿بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ بعض المسافرين، فيذهب به إلى ناحية أخرى، فتستريحوا منه ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَعِلَاءِينَ﴾ إن عزمتم على فعلكم وما تقومون.

(١١) ﴿قَالُوا يَتَّابَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾ لأي شيء يدخلك الخوف منا على يوسف من غير سبب ولا موجب؟ ﴿وَالْحَالُ﴾ إنا لهُ لنصحون ﴿مَشْفِقُونَ عَلَيْهِ﴾ نود له ما نود لأنفسنا.

(١٢) ﴿أَرْسَلَهُ مَعَنَا﴾ ابعثه معنا ﴿عَدَا يَزْعَ وَيَلْعَبُ﴾ يتنزه في البرية ويستأنس ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ سراعيه ونحفظه من كل أذى يريد.

(١٣) ﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب: ﴿إِنِّي لَيَحْزَنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ مجرد ذهابكم به يحزنني ويشق علي؛ لأنني لا أقدر على فراقه، ولو لمدة يسيرة، فهذا مانع من إرساله، ﴿وَالْمَانِعُ ثَانِي﴾ وهو أنني ﴿أَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ أي: في حال غفلتكم عنه؛ لأنه صغير، لا يمتنع من الذئب.

(١٤) ﴿لَنْ أَكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ فأخذوا من فمه هذه الكلمة، وجعلوها عذرهم فيما فعلوه، ﴿قَالُوا﴾ مجيبين عنها في الساعة الراهنة: أي: لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ جماعة حريصون على حفظه ﴿إِنَّا إِذَا لَخَبِيرُونَ﴾ لكون عاجزون.

(٧) ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ﴾ عبر وأدلة على كثير من المطالب الحسنة ﴿لِلسَّائِلِينَ﴾ لكل من سأل عنها بلسان الحال، أو بلسان المقال.

(٨) ﴿إِذْ قَالُوا﴾ فيما بينهم: ﴿لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ﴾ بنيامين؛ أي: شقيقه لأمه، وإلا فكلهم إخوة ﴿أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ جماعة، فكيف يفضلهما بالمحبة والشفقة ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ لفي خطأ بين؛ حيث فضلهما علينا من غير موجب نراه، ولا أمر نشاهده.

(٩) ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ بإزهاق روحه ﴿أَوْ أَطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ أي: إلى أرض يُبْعَدَ بحيث لا يتمكن من رؤيته فيها؛ ﴿يَحُلْ لَكُمْ وَجْهٌ أَبِيكُمْ﴾ يتفرغ لكم، ويقبل عليكم بالشفقة والمحبة؛ فإنه قد اشتغل قلبه بيوسف شغلاً لا يتفرغ لكم، ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد هذا الصنيع ﴿فَوَمَا صَلَاحِينَ﴾ أي: تتوبون إلى الله وتستغفرونه من بعد ذنبكم.

(١٠) ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ من إخوة يوسف ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ فإن قتله أعظم إثماً وأشنع، والمقصود يحصل بتبعيده عن أبيه من غير قتل، ولكن توصلوا إلى تبعيده بأن تلقوه ﴿فِي غِيَبَتِ الْجُبِّ﴾ أي: في قعر الجب، حيث يغيب خبره والغيبابة: كل ما ستر عنك الشيء وغيبه. والجب: البئر غير المطوية - وهي التي لم تبنى بالحجارة -؛ لأنه قطع ولم يَطَوْ ﴿يَلْقُوهُ﴾ يأخذوه ﴿بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ بعض المسافرين، فيذهب به إلى ناحية أخرى، فتستريحوا منه ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَعِلَاءِينَ﴾ إن عزمتم على فعلكم وما تقومون.

بالرمي والنضال ﴿وَرَكَّعْنَا يُوسُفَ﴾ توفيرا له وراحة ﴿عِنْدَ مَتْعَانَا﴾ ثيابنا وأمتعتنا ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ في حال غيابنا عنه واستباقنا ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾؛ تلطف عظيم في تقريرها يحاولونه، يقولون: ونحن نعلم أنك لا تصدقنا، - والحالة هذه - لو كنا عندك صادقين، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك؛ لأنك خشيت أن يأكله الذئب، فأكله الذئب، فأنت معذور في تكذيبك لنا؛ الغرابة ما وقع، وعجيب ما تفق لنا في أمرنا هذا .

(١٨) ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَيْصِيهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ مكذوب مفترى؛ زعموا: أنه دم يوسف حين أكله الذئب، فلم يصدقهم أبوه بذلك و﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ زينت لكم أنفسكم أمرا قبيحا في التفريق بيني وبينه ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ فأسابر صبورا جميلا على هذا الأمر الذي اتفقت عليه، حتى يفرجه الله بعونه ولطفه ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾ وأستعين بالله على الصبر ﴿عَلَى مَا يَقْصِفُونَ﴾ على ما تذكرون من الكذب والمحال .

(١٩) ﴿وَوَكَّعْنَا يُوسُفَ فِي الْجَبِّ مَا مَكَثَ حَتَّىٰ جَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ قافلة تريد مصر ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ فرطهم ومقدمهم الذي يعس لهم المياه ويسبرها، ويستعد لهم بتهيئة الحياض ونحو ذلك ﴿فَأَذَلُّوا﴾ ذلك الوارد ﴿نَوْمَهُ﴾ فتعلق فيه يوسف ﴿عَلَىٰ سَيَّارَتِهِ﴾ وخرج، ﴿قَالَ﴾ وورد السيارة ﴿يَبْشُرِي هَذَا غُلَامًا﴾؛ أي: استبشر، وقال: هذا غلام نفيس ﴿وَأَسْرُوهُ بَضْعَةً﴾ اختلف أهل التفسير، فقال بعضهم: وأسره الواردون من بقية السيارة، وقالوا: اشتريناه من أصحاب الماء؛ مخافة أن يشاركوهم فيه إذا علموا أمره وقال آخرون: أسر

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ. وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَاءُوا آبَاءَهُمْ عِشَاءَ يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِئُكَ وَرَكَّعْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعَانَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءُوا عَلَى قَيْصِيهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَذَلُّوا نَوْمَهُ قَالَ يَبْشُرِي هَذَا غُلَامًا وَأَسْرُوهُ بَضْعَةً وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ يَمَاعِلُوتٌ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَا مِرَّةَ يَأْخُذُ بِهِ وَلَا مِثْلَهُ بِمِثَالٍ أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ تَاوِيلَ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَهَبْنَاهُ حُكْمًا وَعَلَّمْنَاهُ ذَلِكَ نَجْرَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

(١٥) ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾؛ أي: لما ذهب إخوة يوسف بيوسف بعدما أذن له أبوه ﴿وَاجْمَعُوا﴾ وعزموا ﴿أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ﴾ يلقوه في الجب ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ ثم إن الله لطف به بأن أوحى إليه وهو بتلك الحال الحرجة ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ أي: سيكون منك معاتبة لهم وإخبار عن أمرهم هذا، وهم لا يشعرون بذلك الأمر، ففيه بشارة له، بأنه سينجو مما وقع فيه، وأن الله سيجمعه بأهله، وإخوته عليوجه العز والتمكين له في الأرض .

(١٦) ﴿وَجَاءُوا آبَاءَهُمْ عِشَاءَ يَبْكُونَ﴾ جاءوا في ظلمة العشاء؛ ليكون أجراً على الاعتذار بالكذب .

(١٧) ﴿قَالُوا﴾ معتردين عما وقع فيما زعموا: ﴿يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِئُكَ﴾ إما على الأقدام، أو

وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ
وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ
إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِوَيْهَمَ بِهَا
لَوْلَا أَنَّ رَجُلًا بَرَّهَنَ رَبِّيَّ. كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشُّوَّ
وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢١﴾ وَأَسْتَبَقَا
الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصُهَا مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ
قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ قَالَ هِيَ رَوَدَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ
أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهَا قَدْ مِنْ قَبْلِ قَصْدَتِ وَهُوَ مِنَ
الْكَاذِبِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِنْ كَانَتْ قَمِيصُهَا قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ
مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصُهَا قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ
مِنْ كَاذِبِينَ إِنْ كَذَبْتُكَ عَظِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ
هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٦﴾
وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَوِّدُ فَتَاهَا
عَنْ نَفْسِهِ فَشَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٧﴾

(٢٢) ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ يوسف ﴿أَشَدَّهُ﴾ كمال قوته
المعنوية والحسية، وصلاح لأن يتحمل الأحمال
الثقيلة من النبوة والرسالة ﴿ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾
جعلناه نبياً رسولاً، وعالماً ربانياً ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ﴾ في عبادة الخالق ببذل الجهد والنصح
فيها، وإلى عباد الله ببذل النفع والإحسان إليهم.
(٢٣) ثم أخبر تعالى على المحنة العظيمة التي
جرت ليوسف، والتي هي أعظم من محنة
إخوته، فقال: ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ
نَفْسِهِ﴾ أي: امرأة العزيز التي كان يوسف عليه
السلام في بيتها بمصر، وقد أوصاها زوجها
بإكرامه، لكنها حاولته على نفسه ودعته إليها
وذلك أنها أحبته حباً شديداً لجمالته وحسنه
وبهائه، وهو غلامها، وتحت تدبيرها، والمسكن
واحد، يتيسر فيه إيقاع الأمر المكروه، من غير

إخوة يوسف شأنه، وكنتموا أنه أخاهم، وكنتم
يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته، واختار البيع،
فذكره إخوته لوارد القوم وباعوه، وكلاهما
محتمل ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ يعلم ما يفعله
إخوة يوسف ومشتروه، وهو قادر على تغيير ذلك
ودفعه، ولكنه له حكمة وقدر سابق، فترك ذلك
ليمضي ما قدره وقضاه.

(٢٠) ﴿وَسُرُّهُ﴾ باعه إخوته، أو السيارة، على
التفصيل المتقدم ﴿يُسْرَى بِحَسْبِ﴾ قليل جداً،
فسره بقوله: ﴿وَدَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ
الزَّاهِدِينَ﴾؛ لأنه لم يكن لهم قصد إلا تغييبه
وإبعاده عن أبيه، ولم يكن لهم قصد في أخذ
ثمنه.

(٢١) ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ﴾ لما
ذهب به السيارة إلى مصر وباعوه بها، فاشتراه
عزیز مصر، فلما اشتراه أعجب به، ووصى عليه
امراته، وقال: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ
نَنْجِدَهُ وَلَدًا﴾ إما أن ينفعنا كنفع العبيد بأنواع
الخدم، وإما أن نستمتع فيه استمتاعنا بأولادنا
﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: كما
يسرنا له أن يشتريه عزیز مصر، ويكرمه هذا
الإكرام جعلنا هذا مقدمة لتمكينه في الأرض من
هذا الطريق ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ إذا
بقي لا شغل له ولا هم سوى العلم صار ذلك من
أسباب تعلمه علماً كثيراً من علم الأحكام وعلم
التعبير ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ أمره تعالى نافذ،
لا يبطله مبطل، ولا يغلبه مغالب ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلذلك يجري منهم ويصدر في
مغالبه أحكام الله القدريّة، وهم أعجز وأضعف
من ذلك.

من الأنبياء ذنباً إلا ذكر توبة منه، كما ذكر في قصة آدم وموسى وداود وغيرهم من الأنبياء. ويوسف عليه السلام لم يذكر في القرآن أنه فعل ما يتوب منه، أو يستغفر منه أصلاً، وقد اتفق الناس أنه لم تقع منه الفاحشة، ولكن بعض الناس يذكرون أنه وقع منه بعض مقدماتها؛ فيزعمون أنه حل السراويل، وقعد منها مقعد الخاتن، وهذا لا يعضده نقل صحيح، ولا يقبله عقل صريح، ولا يستسيغه رأي رجيح، وإنما استمدوه من كذب أهل الكتاب على أنبياء الله، كسليمان، وداود، مما نص القرآن على خلافه، والقرآن أخبر عن يوسف من الإخلاص والاستعصام والتقوى والصبر واختيار السجن في هذه القضية ما لم يذكر عن أحد نظيره، فلو كان يوسف قد أذنب لكان مصرّاً أو تائباً، والإصرار ممتنع في حق الأنبياء، فتعين أن يكون تائباً، والله لم يذكر عنه توبة في هذا ولا استغفاراً، كما ذكر عن غيره من الأنبياء، فدل على أن الذنب لم يقع منه عليه السلام ولا مقدماته التي يذكرها بنو إسرائيل من القصص المكذوبة على رسل الله وأنبيائه، والله أعلم.

(٢٥) ﴿وَأَسْبَقَ أَبَا﴾ أي: واستبق يوسف وامراً العزيز باب البيت، أما يوسف عليه السلام فذهب ليهرب عنها، ويبادر إلى الخروج من الباب؛ ليتخلص ويهرب من الفتنة، وأما هي فبادرت إليه ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ﴾ وتعلقت بثوبه، فشقت قميصه ﴿مِنْ دُبُرٍ﴾ من خلف ﴿وَالْفَيَا﴾ فلما وصلا إلى الباب في تلك الحال وجدا ﴿سَيِّدَهَا لَدَا أَبَا﴾ زوجها لدى الباب، فرأى

شعور أحد، ولا إحساس بشعر، ﴿و﴾ زادت المصيبة والمحنة بأن ﴿عَلَّقَتِ الْأَبْرَبَ﴾ وصار المحل خالياً، وهما آمان من دخول أحد عليهما بسبب تغليق الأبواب، ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي: افعل الأمر المكروه وأقبل إليّ فامتنع من ذلك أشد الامتناع، ﴿وَقَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أعوذ بالله وأعتصم بالله مما دعوتني إليه ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ ولأنه خيانة في حق سيدي الذي أكرم مثواي، فلا يليق بي أن أقبله في أهله بأقبح مقابلة ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ يعني: إن فعلت هذا فختته في أهله بعدما أكرم مثواي فأنا ظالم ولا يفلح الظالمون.

(٢٤) ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ همّ معصية وقوله: ﴿وَهُمْ بِهَا﴾ أي: خاطر تركه لله، وقدم مراد الله على مراد النفس الأمارة بالسوء ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ ورأى من برهان ربه وهو ما معه من العلم والإيمان الموجب لترك كل ما حرم الله ما أوجب له الانكفاف عن المعصية الكبيرة، وذهب بعض المفسرين إلى أنه لم يحدث منه همّ أصلاً، وحملوا قوله تعالى ﴿وَهُمْ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ على التقديم والتأخير، أي لولا أن رأى برهان ربه لهم بها، ولكنه رأى البرهان فلم يهم ﴿كَذَلِكَ يُصَرِّفُ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ أي: كما أريناه برهاناً صرفه عما كان فيه، كذلك نقيه السوء والفحشاء في جميع أموره، ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ أي: من المجتبتين المطهرين المختارين المصطفين الأخيار - صلوات الله وسلامه عليه.

قال العلماء: إن الله تعالى لم يذكر عن نبي

أمرًا شق عليه، فبادرت إلى الكذب، وأدعت أن المرادة كانت من يوسف، و ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ ولم تقل: من فعل بأهلك سوءًا؛ تبرئة لها وتبرئة له أيضًا من الفعل، وإنما النزاع عن الإرادة والمرادة ﴿إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ﴾ يحبس ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أو يعذب عذابًا أليمًا.

(٢٦) فلما سمع يوسف مقاتلتها برأ نفسه مما رمت به، و ﴿قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ فأبيت وهربت ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ تبرئة لنبيه وصفيه يوسف ﷺ، فبعث شاهدًا من أهل بيتها، يشهد بقرينة؛ من وجدت معه فهو الصادق ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ لأن ذلك يدل على أنه هو المقبل عليها، المراد لها المعالج، وأنها أرادت أن تدفعه عنها، فشقت قميصه من هذا الجانب.

(٢٧) ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ لأن ذلك يدل على هروبه منها، وأنها هي التي طلبته، فشقت قميصه من هذا الجانب.

(٢٨) ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ﴾ أي: فلما تحقق زوجها صدق يوسف وكذبها فيما قذفته ورمته به ﴿قَالَ﴾ لها: ﴿إِنَّكُمْ مِنْ كَاذِبِينَ﴾ إنَّ كَيْدَكُمْ عَظِيمٌ ﴿وهل أعظم من هذا الكيد الذي برأت به نفسها لما أرادت وفعلت، ورمت به نبي الله يوسف ﷺ؟!﴾

(٢٩) ثم قال أمرًا ليوسف ﷺ بكتمان ما وقع: يا يوسف أعرض عن هذا ﴿أترك الكلام فيه وتناسه، ولا تذكره لأحد؛ طلبًا للستر على أهله﴾ وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكِ ﴿أيتها المرأة﴾ إِنَّكَ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿فأمر يوسف بالإعراض

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَاوَهُ أَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتْ أَخْرِجِي عَلَيَّ فُلَانًا إِنَّهُ أَكْرَهُهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٢١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَوَدَّتُهُ عَنْ نَفْسِي ۖ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَاءَ أُمِّ يُسُفَّيْنِ وَلَئِنْ لَّمْ يَكُنْ لَّيَاسًا لِّمَنْ يَكُونُ مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٢٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُ يَصْرِفْ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٤﴾ ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَ جُثَّةٌ حَتَّى جِئَ ﴿٢٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمَلُ فَوْقَ رَأْسِ خَيْرَاتٍ كُلِّ الطَّيْرِ مِنْهُ بَيْتُنَا بِأُورُشَلِيمَ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بَيْنَا وَبَيْنَهُ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٢٧﴾

عنها، وأمرها بالاستغفار والتوبة.

(٣٠) ثم شاع خبر يوسف عليه السلام وامرأة العزيز في مدينة مصر، حتى تحدث الناس به، و ﴿وَقَالَ يَسُوَّةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾ مثل نساء الأمراء والكبراء، فجعلن يلمنها، ويقولن: ﴿أَمَرَاتُ الْعَزِيزِ تُرَوِّدُ فُلَانًا عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي: هذا أمر مستقبح، هي امرأة كبيرة القدر، وزوجها كبير القدر، ومع هذا لم تزل تراود فتاها الذي تحت يدها وفي خدمتها عن نفسه ﴿فَدَّ شَعْفَهَا حُبًّا﴾ وصل حبه إلى شغاف قلبها، وهو: باطنه وسويداؤه، وهذا أعظم ما يكون من الحب ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ حيث وجدت منها هذه الحالة التي لا ينبغي منها، وهي حالة تحط من قدرها، وتضعه عند الناس.

يشرن على يوسف في مطاوعة سيدته، وجعلن يكدنه في ذلك، فاستحب السجن والعذاب الدنيوي، على لذة حاضرة توجب العذاب الشديد.

ثم قال: ﴿وَالَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْنَّ﴾؛ أي: وإن لم تدفع عني، يا رب، فعلهن أمل إليهن؛ فإني ضعيف عاجز إن لم تدفع عني السوء ﴿وَأَكُنَّ﴾ إن صبوت إليهن ﴿مِنَ الْبَهِلِينَ﴾ فإن هذا جهل؛ لأنه إثار لذة قليلة منغصة على لذات متابعات، وشهوات متنوعة في جنات النعيم، ومن أثر هذا على هذا فَمَنْ أَجْهَلُ مِنْهُ؟!

(٣٤) ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ حين دعاه ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ فلم تزل تراوده وتستعين عليه بما تقدر عليه من الوسائل حتى آيسها، وصرف الله عنه كيدها، ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لدعاء الداعي ﴿الْعَلِيمُ﴾ بِنَيْتِهِ الصالحة، وبِنَيْتِهِ الضعيفة المقتضية لإمداده بمعونته ولطفه، فهذا ما نجى الله به يوسف من هذه الفتنة الملمة، والمحنة الشديدة.

(٣٥) ﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ﴾ ظهر لهم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ﴾ الدالة على براءته ﴿لَيْسَ جُنْدُهُ حَتَّىٰ حِينَ﴾ لينقطع بذلك الخبر، ويتناساه الناس.

(٣٦) ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٌ﴾ شابان، قيل: كان أحدهما ساقى الملك، والآخر خبّازَه، فرأى كل واحد منهما رؤيا، فقصها على يوسف ليُعبرها

(٣١) ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ بقولهن وحديثهن ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ تدعوهن إلى منزلها للضيافة ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُثُكًا﴾ محلاً مهياً بأنواع الفرش والوسائد، وما يقصد بذلك من المآكل اللذيذة، ﴿وَوَآتَتْ كُلَّ وَجِدَةٍ وَتَهَنُّ سِكِّينًا﴾ ليقطعن بها ذلك الطعام، ﴿وَقَالَتْ﴾ ليوسف: ﴿أَخْرِجْ عَلَيْنَ﴾ في حالة جماله وبهائه؛ ﴿فَلَمَّا رَأَيْتُهُ أَكْبَرْتَهُ﴾ أعظمته في صدورهن، ورأين منظراً فائقاً لم يشاهدن مثله، ﴿وَقَطَّعْنَ﴾ من الدهش ﴿أَيْدِيَهُنَّ﴾ بتلك السكاكين اللاتي معهن ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾؛ تنزيهاً لله ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ وذلك أن يوسف أعطي من الجمال الفائق والنور والبهاء ما كان به آية للناظرين، وعبرة للمتأملين.

(٣٢) ﴿قَالَتْ﴾ معتذرة إليهن بأن هذا حقيق بأن يحب لجماله وكماله ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾؛ أي: في حبه، ثم صرحت بما فعلت، فقالت: ﴿وَلَقَدْ رَوَدُّنِي عَنْ نَفْسِي﴾ فاستعصم ﴿فامتنع﴾، ثم قالت تتوعد: ﴿وَلَكِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيْسَ جُنْدٌ وَلَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ لتلجئه بهذا الوعيد إلى حصول مقصودها منه.

(٣٣) فعند ذلك اعتصم يوسف بربه، واستعان به على كيدهن و﴿قَالَ رَبِّ﴾ يا رب ﴿الْيَسَّاجُنَّ أَحِبُّ إِلَيَّ﴾ اختار السجن هروبا من الوقوع فيما يغضب الله ﴿مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ على أن النسوة جعلن

(٣١) في «صحيح مسلم» من حديث أنس رضي الله عنه الطويل في الإسراء والمعراج: أن رسول الله ﷺ مر بيوسف عليه السلام في السماء الثالثة، قال: «إذا هو قد أعطي شطر الحسن».

(٣٤) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وافترقا عليه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعه امرأة ذات جمال ومنصب، فقال: إني أخاف الله».

﴿قَالَ أَحَدُهُمَا﴾ وهو صاحب الشراب ﴿إِنِّي أَرْنِي أَغَصِرَ خَمْرًا﴾ عنبًا؛ سمي العنب: خمرًا باسم ما يؤول إليه، ﴿وَقَالَ الْآخَرُ﴾ وهو الخباز ﴿إِنِّي أَرْنِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا﴾ وذلك الخبز ﴿تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾ تنهس سباع الطير منه ﴿نَبْتَنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ أخبرنا بتفسيره وتعبيره وما يؤول إليه أمر هذه الرؤيا، ﴿إِنَّا نَرْنِيكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ العالمين بعبارة الرؤيا.

(٣٧) ﴿قَالَ﴾ لهما مجيبًا لطلبهما: ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُزْقَاهُ إِلَّا نَبَاتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ فلتطمئن قلوبكما، فإني سأبادر إلى تعبیر رؤياكما، فلا يأتیکما غداؤكما أو عشاؤكما، أول ما يجيء إليكما، إلا نباتكما بتأويله قبل أن يأتیکما، ثم قال: ﴿ذَلِكَ﴾ التعبير الذي سأعبره لكما ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ هذا من علم الله علمنيه، وأحسن إلي به، وذلك ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ والترك كما يكون للداخل في شيء ثم ينتقل عنه، يكون لمن لم يدخل فيه أصلاً، فلا يقال: إن يوسف كان من قبل على غير ملة إبراهيم.

(٣٨) ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي ابْرَهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ثم فسر تلك الملة بقوله ﴿مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ تُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ بل نفرد الله بالتوحيد، ونخلص له الدين والعبادة ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَكَلَى النَّاسِ﴾ هذا من أفضل منته وإحسانه وفضله علينا، وعلى من هداه الله كما هدانا ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فلذلك تأتيم المنة والإحسان فلا يقبلونها، ولا يقومون لله بحق.

(٣٩) ﴿يَصْنَعِ السِّجْنَ﴾ جعلهما صاحبي

وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي ابْرَهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ تُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ وَذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَكَلَى النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَصْنَعِ السِّجْنَ أَرْبَابٌ مُتَّفِقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَجْدُ الْفَهَارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَصْنَعِ السِّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُطُورٍ خُضِرٍ وَأُخْرَى بَاسِطٍ يَبْتَاطِبُ الْمَلَأَ أَمْوَالِي فِي رُءُوسِ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءُوسِ بَاقِعُونَ ﴿٤٣﴾

السجن؛ لكونهما فيه ﴿أَرْبَابٌ مُتَّفِقُونَ﴾ أرباب عاجزة ضعيفة لا تنفع ولا تضر، ولا تعطي ولا تمنع، وهي متفرقة، ما بين أشجار، وأحجار، وملائكة، وأموات وغير ذلك من أنواع المعبودات التي يتخذها المشركون، أذلك ﴿خَيْرٌ أَمِ اللَّهِ﴾ الذي له صفات الكمال ﴿الْوَجْدُ﴾ في ذاته وصفاته وأفعاله، فلا شريك له في شيء من ذلك ﴿الْفَهَارُ﴾ الذي انقادت الأشياء لقهره وسلطانه، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

(٤٠) ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ كسوتموها أسماء، سميتموها آلهة، وهي لا شيء، ولا فيها من صفات الألوهية شيء ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ بل أنزل الله السلطان بالنهي عن عبادتها وبيان بطلانها، ﴿إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ وحده، فهو الذي

تعبيره وتفسيره.

(٤٢) ﴿وَقَالَ﴾ يوسف عليه السلام ﴿لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا﴾ وهو: الذي رأى أنه يعصر خمرًا: ﴿أَذْكُرُنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي: اذكر لربك - وهو الملك - اذكر شأني وقصتي، لعله يرق لي، فيخرجني مما أنا فيه، ﴿فَأَنسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ فأنسى الشيطان ذلك الناجي أن يذكر مولاه بذلك، وكان من جملة مكاييد الشيطان؛ لثلا يطلع نبي الله من السجن ﴿فَلَيْتَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ والبضع: من الثلاث إلى التسع، ولما أراد الله أن يتم أمره، ويأذن لإخراج يوسف من السجن قدر لذلك سببًا لإخراج يوسف، وارتفاع شأنه، وإعلاء قدره، وهو رؤيا الملك.

(٤٣) ولما أراد الله تعالى أن يتم أمره، ويخرج يوسف من السجن معززًا مكرمًا أرى الملك رؤيا عجيبة هالته، فجمع لها علماء قومه وذوي الرأي منهم ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ﴾ ملك مصر الأكبر ﴿إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ﴾ أي: سبع من البقرات ﴿عِجَافٌ﴾ وهذا من العجب: أن السبع العجاف الهزيلات اللاتي سقطت قوتهن، يأكلن السبع السمان التي كن نهاية في القوة ﴿وَأَرَأَيْتَ سَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ﴾ يأكلهن سبع سنبلات ﴿وَأُخْرَىٰ يَابِسَتٍ﴾، ﴿يَأْتِيهَا أَلْمَأُ أَفْتُونٍ فِي رُءْيَايَ﴾ إن كنت للربيا تعزوت فتحيروا، ولم يعرفوا لها وجهًا.

يأمر وينهى، ويشرع الشرائع، ويسن الأحكام وهو الذي ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ ﴿ذَلِكَ الَّذِي أَلْقَيْتُمُ﴾ المستقيم الموصل إلى كل خير، وما سواه من الأديان فإنها غير مستقيمة، بل معوجة، توصل إلى كل شر، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حقائق الأشياء، وإلا فإن الفرق بين عبادة الله وحده لا شريك له، وبين الشرك به من أظهر الأشياء وأبينها، ولكن لعدم العلم من أكثر الناس بذلك، حصل منهم ما حصل من الشرك.

قال العلماء: جعل يوسف عليه السلام سؤال صاحبي السجن له على وجه التعظيم والاحترام وصلة وسببًا إلى دعائهما إلى التوحيد والإسلام؛ لما رأى في سجيتهما من قبول الحق والإقبال على الخير والإنصات إليه، ولهذا لما فرغ من دعوتهما؛ شرع في تعبير رؤياهما من غير تكرار سؤال، فقال:

(١) ﴿يَصْحَبِي السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا﴾ وهو: الذي رأى أنه يعصر خمرًا؛ فإنه يخرج من السجن ﴿فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾ يسقي سيده الذي كان يخدمه خمرًا، وذلك مستلزم لخروجه من السجن ﴿وَأَمَّا الْآخَرُ﴾ وهو: الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزًا تأكل الطير منه ﴿فَيُصَلَّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ فإنه عبر عن الخبز الذي تأكله الطير بلحم رأسه وشحمه، وما فيه من المخ، وأنه لا يقبر ويستر عن الطيور، بل يصلب، ويجعل في محل تتمكن الطيور من أكله ﴿فُضِيَ الْأَمْرُ﴾ لا بد من وقوعه ﴿الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ تسألان عن

(٤١) أخرج الإمام أحمد بإسناد صحيح من حديث معاوية بن حيدة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر؛

فإذا عبرت وقعت».

(٤٤) واعتذروا إليه ﴿قَالُوا أَضَعَتْ أَخْلَامُ﴾
أخلط أحلام، لا حاصل لها، ولا لها تأويل
﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَخْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾ لا نعبر إلا
الرؤيا، وأما الأحلام التي هي من الشيطان أو من
حديث النفس فإننا لا نعبرها.

(٤٥) ﴿وَعِنْدَ ذَلِكَ﴾ قَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا ﴿مَنْ
الْفَتِينِ، وهو الذي رأى أنه يعصر خمرا، وهو
الذي أوصاه يوسف أن يذكره عند ربه ﴿وَأَذْكُرُ﴾
وتذكر يوسف، وما جرى له في تعبیر لرؤياهما،
وما وصاه به وعلم أنه كفيّل بتعبير هذه الرؤيا
﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ بعد مدة من السنين فقال: ﴿أَنَا
أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾ فَأَرْسَلُونُ إِلَى يَوْسُفَ؛ لِأَسْأَلَهُ
عَنْهَا.

(٤٦) فَأَرْسَلُوهُ، فقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾
والصديق كثير الصدق في أقواله وأفعاله ﴿أَفْتِنَا فِي
سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ
سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَةٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ
لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فإنهم متشوقون لتعبيرها، وقد
أهتمهم.

(٤٧) فعبر يوسف البقرات السمان والسبع
السنبلات الخضر، بأنهن سبع سنين مخصبات،
والسبع البقرات العجاف والسبع السنبلات
اليابسات، بأنهن سنين مجذبات ف ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ
سَبْعَ سِنِينَ دَابَّا﴾ متتابعات ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ﴾ من تلك
الزروع ﴿فَذَرُوهُ﴾ اتركوه ﴿فِي سُنْبُلِهِ﴾ لأنه أبقى
له وأبعد من الالتفات إليه ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ﴾

دبروا أكلكم في هذه السنين الخصبة، وليكن
قليلاً ليكثر ما تدخرون ويعظم نفعه ووقعه.

(٤٨) ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ بعد تلك السنين السبع
الخصبات ﴿سَبْعُ شِدَادٍ﴾ مجذبات ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ
لَهُنَّ﴾ يأكلن جميع ما ادخرتموه، ولو كان كثيراً
﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصُونَ﴾ تمنعنونه من التقديم لهن.

(٤٩) ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ السبع الشداد ﴿عَامٌ
فِيهِ يُعَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ فيه تكثر الأمطار
والسيول، وتكثر الغلات، وتزيد على أقواتهم،
حتى إنهم يعصرون العنب ونحوه زيادة على
أكلهم.

(٤٨) أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: كان رسول الله ﷺ يرفع رأسه في الركعة الأخيرة من صلاة العشاء يقول: «سمع
الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد» يدعو لرجال فيسميهم بأسمائهم فيقول: «اللهم نج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام،
وعياش بن أبي ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين، اللهم أشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف» وأهل
المشرق - يؤمئذ - من مضر مخالفون له.

عن أمره.

(٥١) ﴿قَالَ﴾ لهن الملك بعد أن أحضرهن: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ أي: شأنكن ﴿إِذْ رَوَدْتَنَّهُ يَوْسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ فهل رأيتهن منه ما يريب؟ فبرأته، و﴿قُلْتُ﴾ حَشَّ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴿لَا قَلِيلَ وَلَا كَثِيرَ﴾، فحينئذ زال السبب الذي تبني عليه التهمة، ولم يبق إلا ما عند امرأة العزيز، ف﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ﴾ أَلْقَنَ حَصَصَ الْحَقِّ ﴿تَمَحَّصَ وَتَبَيَّنَ﴾ بعدما كنا ندخل عليه من السوء والتهمة، ما أوجب له السجن ﴿أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في أقواله وبرأته.

(٥٢) ﴿ذَلِكَ﴾ الإقرار الذي أقررت أني راودت يوسف ﴿يَعْلَمُ﴾ زوجي ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ لم يجر مني إلا مجرد المراودة، ولم أفسد عليه فراشه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْخَائِبِينَ﴾ فإن كل خائن لا بد أن تعود خيائته ومكره على نفسه، ولا بد أن يتبين أمره.

(٥٣) ثم لما كان في هذا الكلام نوع تزكية لنفسها، وأنه لم يجر منها ذنب في شأن يوسف، استدركت فقالت: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾ من المراودة والهم، والحرص الشديد، والكيد في ذلك ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ لكثيرة الأمر لصاحبها بالسوء؛ أي: الفاحشة وسائر الذنوب، فإنها مركب الشيطان، ومنها يدخل على الإنسان ﴿إِلَّا مَا رَجَمَ رَبِّي﴾؛ أي: إلا من عصمه الله تعالى فنجاه من نفسه الأمارة، حتى صارت نفسه مطمئنة إلى ربها، منقادة لداعي الهدى، متعاضية

وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجَمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَأْتُونِي بِهَذَا اسْتَضَاءَهُ لِنَفْسِهِ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدِينَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٥﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا ﴿٥٦﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ شَاءَ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ شَاءَ وَلَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَاجْعَلْ لَنَا خُزَيْنًا مِمَّا نَتَّقِ الْمَوْتُ وَكَانُوا يُتَّقُونَ ﴿٥٨﴾ وَجَاءَ إِخْوَتَهُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفُوهُهُمْ وَهُمْ لَهُ مُسْكِرُونَ ﴿٥٩﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتَأْتُونِي بِأَنْعَامِكُمْ مِنْ أَيْكُمَ لَا تَأْتُونَ بِي إِلَّا فِي الْوَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٦٠﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهَذَا فَكَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦١﴾ قَالُوا اسْتَزِدْ عَنْ آبَائِهِ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦٢﴾ وَقَالَ لِفَتَاتِهِ اجْعَلُوا يَصْنَعُ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْشَلُّوا إِلَى أَهْلِيهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٣﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا إِنَّا نَاثِقُونَ بِمَا نَعَى مِنَ الْكَيْلِ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَصْلُهُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٤﴾

(٥٠) ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ﴾ لمن عنده: ﴿أَتَأْتُونِي بِهَذَا﴾، أي: بيوسف عليه السلام، بأن يخرجوه من السجن، ويحضره إليه، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾ وأمره بالحضور عند الملك امتنع عن المبادرة إلى الخروج حتى يتبين براءته التامة، وهذا من صبره وعقله ورأيه التام، وحينئذ ﴿قَالَ﴾ للرسول: ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾؛ يعني به الملك ﴿فَسَكَّهُ مَا بَالَ السُّوءِ﴾ أَلْقَنَ قَطْعَنَ أَيَّدِيَّهِنَّ ﴿اسْأَلْهُ: مَا شَأْنُهُنَّ وَقَصَّتْهُنَّ؟﴾ فإن أمرهن ظاهر متضح ﴿إِنْ رَبِّي يَكِيدُھُنَّ عَلِيمٌ﴾ إن الله بصنيعهن عالم، وإنما أراد يوسف بذكرهن بعد طول المدة حتى لا ينظر إليه الملك بعين التهمة، ويصير إليه بعد زوال الشك

(٥٠) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم؛ إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ تَأْتُونَ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ لَّيَطْمِئَنَّ قَلْبِي» [البقرة: ٢٦٠]. ويرحم الله لوطًا، لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف؛ لأجبت الداعي».

يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ خزائن الأرض، دبرها أحسن تدبير، فزرع في أرض مصر جميعها في السنين الخصبة زرعاً هائلة، واتخذ لها المحلات الكبار، وجباً من الأطعمة شيئاً كثيراً، وحفظه، وضبطه ضبطاً تاماً، فلما دخلت السنين المجدة، وسرى الجذب حتى وصل إلى فلسطين التي يقيم فيها يعقوب وبنوه، فأرسل يعقوب بنيه؛ لأجل الميـر إلى مصر ﴿فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَّفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾؛ أي: لم يعرفوه.

(٥٩) ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ كال لهم كما كان يكيل لغيرهم، وكان من تدبيره الحسن أنه لا يكيل لكل واحد أكثر من حمل بعير، وكان قد سألهم عن حالهم؟ فأخبروه أن لهم أخاً عند أبيه، وهو بنيامين، ف ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿أَتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَيْكُم﴾ ثم رغبهم في الإتيان به، فقال: ﴿أَلَا تَرَوُنَّ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ في الضيافة والإكرام.

(٦٠) ثم رهبهم بعدم الإتيان به، فقال: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ﴾ إن لم تقدموا به معكم في المرة الثانية ﴿فَلَا كَيْلَ لَّكُمْ عِنْدِي﴾ فليس لكم عندي ميرة ﴿وَلَا تَقْرَبُون﴾ وذلك لعلمه باضطرارهم إلى الإتيان إليه، وأن ذلك يحملهم على الإتيان به.

(٦١) ﴿قَالُوا سَتَرُوْهُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ دل هذا على أن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ كان مولعاً به لا يصبر عنه وكان يتسلى به بعد يوسف، فلذلك احتاج إلى مراودة في بعثه معهم ﴿وَأِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ لما أمرتنا به.

(٦٢) ﴿وَقَالَ﴾ يوسف ﴿لِفَتَيْنِهِ﴾ الذين في خدمته: ﴿اجْعَلُوا بَيْنَهُمُ الثَّمَنَ الَّذِي اشْتَرَوْا بِهِ مِنَ الْمِيرَةِ﴾ في رحلتهم لعلهم يعرفونها؛ أي: بضاعتهم ﴿إِذَا أَنْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ﴾ إذا رآوها بعد

عن داعي الردي، فذلك ليس من النفس، بل من فضل الله ورحمته بعبده ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ﴾ هو غفور لمن تجرأ على الذنوب والمعاصي إذا تاب وأناب ﴿رَحِيمٌ﴾ بقبول توبته، وتوفيقه للأعمال الصالحة.

(٥٤) ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَأْتُونِي بِهِ؟ أَسْتَخْلَصُهُ لِنَفْسِي﴾ أجعله خصيصة لي، ومقرباً لدي. فأتوه به مكرماً محترماً، ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ أعجبه كلامه، وزاد موقعه عنده، فقال له: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا عِنْدَنَا مَكِينٌ﴾ متمكن ﴿أَمِينٌ﴾ على الأسرار.

(٥٥) ﴿قَالَ﴾ يوسف طلباً للمصلحة العامة: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ على خزائن جبايات الأرض وغلالها وكيلاً، حافظاً، مدبراً؛ ﴿إِنِّي خَفِيفٌ﴾ للذي أتولاه، فلا يضيع منه شيء في غير محله، وضابط للداخل والخارج ﴿عَلِيمٌ﴾ بكيفية التدبير، والإعطاء والمنع، والتصرف في جميع أنواع التصرفات.

(٥٦) ﴿وَكَذَلِكَ﴾؛ أي: بهذه الأسباب والمقدمات المذكورة ﴿مَكَانًا لِّيُوسَفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ شَاءُ﴾ في عيش رغد، ونعمة واسعة، وجاه عريض ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن شَاءُ﴾؛ أي: هذا عن رحمة الله بيوسف التي أصابه بها، وقدرها له، وليست مقصورة على نعمة الدنيا ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ويوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من سادات المحسنين، فله في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، ولهذا قال:

(٥٧) ﴿وَلَا جُزْءَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ من أجر الدنيا ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ لمن جمع بين التقوى والإيمان.

(٥٨) ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾؛ أي: لما تولى

إِلَيْهِمْ ﴿٦٥﴾ أَنْ يَوْسُفَ قَدْ رَدَّهَا عَلَيْهِمْ بِالْقَصْدِ، وَأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَمْلِكَهُمْ إِيَّاهَا ﴿قَالُوا يَتَّابَانَا مَا نَبْغِي﴾ أي شيء نطلب بعد هذا الإكرام الجميل؛ حيث وفي لنا الكيل ﴿هَذِهِ يَضْعَعُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾؛ أي: إذا ذهبنا بأخين صار سبباً لكيله لنا، فنمير أهلنا، ونأتي لهم بما هم مضطرون إليه من القوت ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ بنيامين مما تخاف عليه، ﴿وَنَزْدَادُ﴾ على أحمالنا ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ بإرساله معنا، فإنه يكيل لكل واحد حمل بعير ﴿ذَلِكَ كَيْلَ يَسِيرٍ﴾ سهل، لا ينالك منه ضرر؛ لأن المدة لا تطول، والمصلحة قد تبينت.

(٦٦) ﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب: ﴿لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ﴾ عهداً ثقيلاً، وتحلفون بالله ﴿لَأَتَأْتِيَ بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾؛ أي: إلا أن يأتي أمر لا قبل لكم به، ولا تقدرون دفعه ﴿فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ أعطوه موثقهم على ما قال وأراد ﴿قَالَ﴾ يعقوب: ﴿اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾؛ أي: يكفيني شهادته علينا، وحفظه وكفالاته.

(٦٧) ﴿وَقَالَ﴾ لهم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لما أرادوا الخروج من عنده: ﴿يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَجِدْ وَأَدْخُلُوا مِنْ أَيْبٍ مُتَفَرِّقَةً﴾ وذلك لأنه خاف عليهم العين؛ لكثرتهم وبهاء منظرهم، لكونهم أبناء رجل واحد، وهذا سبب، ﴿وَلَا فِدَايَ مَا أَغْنَى عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ فالمقدر لا بد أن يكون ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾؛ أي: القضاء قضاءؤه، والأمر أمره، فما قضاؤه وحكم به لا بد أن يقع ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ اعتمدت على الله، لا على ما وصيتكم به من السبب، ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فإن بالتوكل يحصل كل مطلوب، ويندفع كل مرهوب.

قَالَ هَلْ أَمْنَكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمْنَكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ خَيْرٌ حِفْظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٥﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا يَضَعُهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَتَّابَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ يَضْعَعُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلَ يَسِيرٍ ﴿٦٦﴾ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَأَتَأْتِيَ بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٧﴾ وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَجِدْ وَأَدْخُلُوا مِنْ أَيْبٍ مُتَفَرِّقَةً وَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ أَيْبٍ أَوْفَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾

ذلك في رحالهم ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لأجل أن يرغبهم في إحسانه إليهم بالكيل لهم كيلاً وافياً. (٦٣) ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَتَّابَانَا مَنَعَ مِنَّا الْكَيْلَ﴾ إن لم ترسل معنا أخانا ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ ليكون ذلك سبباً لكيلنا، ثم التزموا له بحفظه فقالوا: ﴿وإِنَّا لَمُ لَحْفَظُونَ﴾ من أن يعرض له ما يكره.

﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿هَلْ أَمْنَكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمْنَكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾؛ أي: تقدم منكم التزام أكثر من هذا في حفظ يوسف، ومع هذا فلم تفوا بما عقدتم من التأكيد، فلا أثق بالتزامكم وحفظكم، وإنما أثق بالله تعالى ﴿قَالَ اللَّهُ خَيْرٌ حِفْظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ يعلم حالي، وأرجو أن يرحمني، فيحفظه ويرده عليّ. (٦٥) ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا يَضَعُهُمْ رُدَّتْ

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أُولَاهُمْ﴾ من الأبواب المتفرقة ﴿مَا كَانَتْ يَغْنَى﴾ يدفع ﴿عَنْهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ صدق الله تعالى يعقوب فيما قال، ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ وهو موجب الشفقة، والمحبة للأولاد، فحصل له في ذلك نوع طمأنينة، وقضاء لما في خاطره ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ﴾ لصاحب علم عظيم ﴿لَمَّا عَلَّمْنَاهُ﴾ لتعليمنا إياه، لا بحوله وقوته أدركه، بل بفضل الله وتعليمه، ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ عواقب الأمور، ودقائق الأشياء، وكذلك أهل العلم منهم يخفى عليهم من العلم وأحكامه ولوازمه شيء كثير.

(٦٩) ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾؛ أي: لما دخل إخوة يوسف على يوسف ﴿ءَاوَتْ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ شقيقه وهو بنيامين الذي أمرهم بالإتيان به، وضمه إليه، واختصه من بين إخوته، وأخبره بحقيقة الحال ﴿قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ لا تحزن ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فإن العاقبة خير لنا، ثم أخبره بما يريد أن يصنع ويتحيل لبقائه عنده إلى أن ينتهي الأمر.

(٧٠) ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ﴾؛ أي: كال لكل واحد من إخوته، ومن جملتهم أخوه هذا ﴿جَعَلَ السِّقَايَةَ﴾ وهو الإناء الذي يشرب به ويكال فيه ﴿فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ ثم أوعوا متاعهم، فلما انطلقوا ذاهبين ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ نادى مناد: ﴿أَيُّهَا الْعَبْرُ﴾ وهي القافلة التي فيها الأحمال ﴿إِنَّكُمْ لَسَّرِقُونَ﴾، ولعل هذا المؤذن لم يعلم بحقيقة

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيُّهَا الْعَبْرُ إِنَّكُمْ لَسَّرِقُونَ﴾ ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ﴾ ﴿قَالُوا نَفْقَدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ ﴿قَالُوا نَالَهُ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتُمُ بِالنَّفْسِ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا بِسَرِقِينَ﴾ ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قِيلَ وَعَلَى أَخِيهِمْ أَنْتُمْ تَسْرَحْنَهُمَا مِنْ وَعَلَى أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِفْ فَقَدْ سَرَفَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ ﴿قَالُوا إِنَّا نَبْذُوكَ فِي الْبَحْرِ لِتَأْكُلَهُ أَبَاشٍ خَالِكِيًّا فَخُذْ أَحَدًا مَّا كُنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾

الحال.

(٧١) ﴿قَالُوا﴾؛ أي: إخوة يوسف ﴿وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ﴾ لإبعاد التهمة، فإن السارق ليس له هم إلا البعد والانطلاق عمن سرق منه؛ لتسلم له سرقته: ﴿مَاذَا تَفْقَدُونَ﴾ ولم يقولوا: ما الذي سرقنا؛ لجزمهم بأنهم براء من السرقة.

(٧٢) ﴿قَالُوا نَفْقَدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ من الطعام أجرة له على وجدانه ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾؛ أي: كفيل.

(٧٣) ﴿قَالُوا﴾؛ أي: إخوة يوسف: ﴿تَاللَّهِ﴾ واللَّهِ ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ لقد تحققت وعلمتم منذ عرفتمونا؛ لأنهم شاهدوا منهم سيرة حسنة، ﴿مَا

(٧٢) أخرج أحمد والضياء المقدسي والطبري وابن أبي حاتم بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه في هذا الحرف ﴿صُوعَ الْمَلِكِ﴾ قال: كان كهنة المكوك. قال: وكان للعباس مثله في الجاهلية يشرب فيه.

للحقيقة الواقعة، فحينئذ تم ليوسف ما أراد من بقاء أخيه عنده على وجه لا يشعر به إخوته، ﴿كَذَلِكَ كَذَبَ لِيُوسُفَ﴾؛ أي: يسرنا له هذا الكيد الذي توصل به إلى أمر غير مذموم ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ لأنه ليس من دينه أن يتملك السارق، وإنما له عندهم جزاء آخر، فلو ردت الحكومة إلى دين الملك، لم يتمكن يوسف من إبقاء أخيه عنده، ولكنه جعل الحكم منهم؛ ليشتم له ما أراد ﴿زَفَعُ دَرَجَتٍ مِّنْ شَأْنٍ﴾ بالعلم النافع، ومعرفة الطرق الموصلة إلى مقصدها، كما رفعنا درجات يوسف، ﴿وَقَوَّ كُلَّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٍ﴾ فكل عالم فوقة من هو أعلم منه، حتى ينتهي العلم إلى عالم الغيب والشهادة.

(٧٧) ﴿قَالُوا﴾؛ أي: إخوة يوسف: ﴿إِن يَسْرِقْ﴾ هذا الأخ، فليس هذا غريباً عنه ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ يعنون: يوسف عليه السلام، ومقصودهم تبرئة أنفسهم، وأن هذا وأخاه قد يصدر منهم ما يصدر من السرقة، وهما ليسا شقيقين لنا، وفي هذا من الغض عليهما ما فيه.

﴿فَأَسْرَهَا﴾؛ أي: أضمرها ﴿يُوسُفَ فِي نَفْسِهِ﴾؛ أي: الكلمة، وهي قوله ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَّكَانًا﴾ فقد ذكرها سرّاً في نفسه، ولم يصرح بها ﴿وَلَمْ يُدْهِهَا لَهُمْ﴾ لم يقابلهم على ما قالوه بما يكرهون، بل كظم الغيظ، وأسر الأمر في نفسه، و﴿قَالَ﴾ في نفسه: ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَّكَانًا﴾ حيث ذممتونا بما أنتم على أشر منه ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ منا، من وصفنا بالسرقة، يعلم الله أنا براء منها ثم سلخوا معه مسلك التملق لعلهم يسمح لهم بأخيهم.

(٧٨) ﴿قَالُوا يَتَّبِعُهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْحًا

قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ وَإِنَّا إِذَا أَظْنَمُونَا ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مَنَّهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَن أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٧٩﴾ ارْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَتَّبِعُنَا بِأَنَا إِبْرَاهِيمَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسُئِلَ الْقُرَيْةُ أَلَنَّا كُنَّا فِيهَا وَالْغَبِرَ الَّذِي أَقْلَنَّا فِيهَا وَإِنَّا لَصَدِّقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَتَّخِذُ أَهْلُ عَلَى يُوسُفَ وَأَيُّضْتَ عَيْنَاهُ مِنَ الْحَزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَنُوا أَتَذْكُرُ يُوسُفَ حِينَ تَكُونُ حَرْمًا أَوْ تَكُونُ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَشْكُوا بَثْنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

جَنَّا لِنَفْسٍ فِي الْأَرْضِ﴾ بجميع أنواع المعاصي، ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ فإن السرقة من أكبر أنواع الفساد في الأرض، وإنما أقسموا على علمهم أنهم ليسوا مفسدين ولا سارقين.

(٧٤) ﴿قَالُوا﴾ المنادي وأصحابه ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ﴾ جزاء هذا الفعل ﴿إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ بأن كان معكم؟

(٧٥) ﴿قَالُوا﴾ أي: إخوة يوسف: ﴿جَزَاؤُهُ مَن يُجِدْ فِي رَحْلِهِ﴾؛ أي: الموجود في رحله ﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ بأن يتملكه صاحب السرقة ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ في شريعتنا.

(٧٦) ﴿فَبَدَأَ﴾ المفتش ﴿بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ وذلك لتزول الريبة التي يظن أنها فعلت بالقصد، ﴿ثُمَّ﴾ لما لم يجد في أوعيتهم شيئاً ﴿اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ ولم يقل وجدها أو سرقها؛ مراعاة

نعلمه، وإنما شهدنا بما علمنا؛ لأننا رأينا الصواع
استخرج من رحله ﴿وَمَا كُنَّا لَلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾
لو كنا نعلم الغيب؛ لما حرصنا وبذلنا المجهود
في ذهابه معنا، فلم نظن أن الأمر سيبلغ ما بلغ.
(٨٢) ﴿وَسَلِّ﴾ إن شككت في قولنا ﴿الْقَرْيَةَ﴾
الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴿أَهْلُ الْقَرْيَةِ، وَهِيَ مِصْرُ﴾ وَالْعِيرُ
الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴿الْقَافِلَةُ الَّتِي كُنَّا فِيهَا، فَقَدْ أَطْلَعُوا﴾
على ما أخبرناك به ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ لم نكذب،
ولم نغير، ولم نبذل، بل هذا الواقع.

(٨٣) فلما رجعوا إلى أبيهم، وأخبروه بهذا الخبر
﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ زينت ﴿أَمْرًا﴾ وهو
حمل أخيكم إلى مصر لطلب نفع عاجل ﴿فَصَبِّرْ﴾
جَمِيلٌ ﴿أَلْجَأَ فِي ذَلِكَ إِلَى الصَّبْرِ الْجَمِيلِ، الَّذِي لَا﴾
يصحبه تسخط ولا جزع ولا شكوى للخلق ﴿عَسَى﴾
اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴿يُوسُفُ وَبَنِيَامِينَ،﴾
وأخوهم الكبير الذي أقام في مصر ﴿إِنَّهُ هُوَ﴾
الْعَلِيمُ ﴿الَّذِي يَعْلَمُ حَالِي﴾ الْحَكِيمُ ﴿الَّذِي جَعَلَ﴾
لكل شيء قدرًا.

(٨٤) ﴿وَتَوَلَّى﴾ يعقوب عليه الصلاة والسلام
﴿عَنهُمْ﴾ عن أولاده بعدما أخبروه هذا الخبر
﴿وَقَالَ يَتَاسَفُونَ﴾ يا حزناء ﴿عَلَى يُوسُفَ﴾، وذكرته
هذه المصيبة الخفيفة بالنسبة للأولى المصيبة
الأولى ﴿وَأَبْصَحَ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ﴾؛ أي:
عمي بصره بسبب الحزن الذي في قلبه ﴿فَهُوَ﴾
كَظِيمٌ ﴿مَكْظُومٌ مَمْلُوءٌ مِنَ الْحُزَنِ مَمْسُكٌ عَلَيْهِ﴾
لا يبيته.

(٨٥) ﴿قَالُوا﴾؛ أي: أولاده: ﴿نَالَهُ تَفَتُّؤًا﴾
تَذَكُّرُ يُوسُفَ ﴿لَا تَزَالُ تَذَكُرُ يُوسُفَ فِي جَمِيعِ﴾
أحوالك، ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا﴾ فانيًا لا حراك
فيك، ولا قدرة على الكلام ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ﴾

كَبِيرٍ؛ أي: وإنه لا يصبر عنه، وسيشق عليه
فراقه ﴿فَخَذَ أَحَدًا مَكَانَهُ﴾ بدلًا منه ﴿إِنَّا﴾
نَزَّلْنَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿فَأَحْسَنَ إِلَيْنَا وَإِلَى آبِنَا﴾
بذلك.

(٧٩) ﴿قَالَ﴾ يوسف: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا﴾
مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَنَا عِنْدَهُ؛ أي: هذا ظلم منا لو
أخذنا البريء بذنوب من وجدنا متاعنا عنده ولم
يقبل «من سرق» كل هذا تحرز من الكذب ﴿إِنَّا﴾
إِذَا؛ أي: إن أخذنا غير من وجد في رحله
﴿لَطَلَمُوتُ﴾ حيث وضعنا العقوبة في غير
موضعها.

(٨٠) ﴿فَلَمَّا اسْتَنَسُوا مِنْهُ﴾ فلما استنبأوا إخوة
يوسف من يوسف أن يسمح لهم بأخيهم
﴿خَلَصُوا نَجَاتًا﴾ اجتمعوا وحدهم، ليس معهم
غيرهم، وجعلوا يتناجون فيما بينهم ﴿قَالَ﴾
كَبِيرُهُمْ ﴿هُوَ رُوبِيلُ - وَكَانَ أَكْبَرَ إِخْوَتِهِ سِنًا -﴾
﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاءَكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوَثِقًا مِنَ﴾
اللَّهِ ﴿فِي حِفْظِهِ، وَأَنْكُمْ تَأْتُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَحَاطَ﴾
بكم ﴿وَمِنْ قَتْلٍ مَا قَرَّرْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ فاجتمع
عليكم الأمران: تفريطكم السابق في يوسف،
وعدم إتيانكم بأخيه اللاحق، فليس لي وجه
أواجه به أبي ﴿فَلَنْ أَتْرَحَ الْأَرْضَ﴾ سأقيم في هذه
الأرض، ولا أزال بها ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ﴾
اللَّهُ لِي ﴿يُقَدِّرُ لِي الْمَجِيءَ، أَوْ مَعَ أَخِي﴾ وَهُوَ
خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿أَعَدَلُ مَنْ فَصَلَ بَيْنَ النَّاسِ﴾.

(٨١) ثم وصاهم بما يقولون لأبيهم، فقال:
﴿أَرْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَتَابَانَا إِنَّكَ أَبْنَاكَ﴾
سَرَقَ ﴿وَأَخَذَ بِسَرَقَتِهِ، وَلَمْ يَحْصُلْ لَنَا أَنْ نَأْتِيكَ﴾
به، مع ما بذلنا من الجهد في ذلك، ﴿وَمَا شَهِدْنَا﴾
إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ﴿وَالْحَالُ: أَنَا مَا شَهِدْنَا بِشَيْءٍ لَمْ

مرغوب عنها؛ لفلتها ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ مع عدم وفاء العرض، ﴿وَصَدَقْ عَلَيْنَا﴾ بالزيادة عن الواجب، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ بثواب الدنيا والآخرة.

ولما ذكر له أخوته ما أصابهم من الجهد والضييق وقلة الطعام وعموم الجذب، وتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه، مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة، فعند ذلك أخذته رقة ورأفة ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته، وبدره البكاء؛ فتعرف إليهم، فيقال: إنه رفع التاج عن جبهته، وكان فيه شامة وعندها

(٨٩) ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ﴾؛ يعني: كيف فرقوا بينه وبين أخيه ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾؛ أي: إنما حملكم على ذلك الجهل بمقدار هذا الذي ارتكبتموه..

(٩٠) فعند ذلك ﴿قَالُوا أَنْتَ يُّوسُفُ قَالَ أَنَا يُّوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾؛ أي: يجمعه بينا بعد التفرقة وبعد المدة ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ يتقي فعل ما حرم الله، ويصبر على الآلام والمصائب، وعلى الأوامر بامتنالها ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرُ الْمُحْسِنِينَ﴾ فإن هذا من الإحسان، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

(٩١) ﴿قَالُوا﴾ معتردين ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ عَاشَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ فضلك علينا بمكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، فأثرك الله تعالى، ومكنك مما تريده ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَطِيئِينَ﴾؛ أي: وما كنا في صنعنا بك إلا مخطئين مذنبين، وهذا غاية الاعتراف منهم بالجرم الحاصل منهم على يوسف.

(٩٢) ﴿قَالَ﴾ لهم يوسف عليه السلام: ﴿حَلِّمُوا كَرَمًا

يَبْنَئِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْنِسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِشُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ لَوَاتِيئًا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبُضْعَةٍ مُرَجَّحَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِذْ اللَّهُ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٩﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا أَنْتَ لَا تَأْنِسُ قَالَ أَنَا يُّوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩١﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَاشَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِيئِينَ ﴿٩٢﴾ قَالَ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ بِغُفْرِ اللَّهِ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٣﴾ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُوفِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَمَّا أَصْلَحَ الْعَبْرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُّوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُعْتَذِرِينَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٦﴾

أَهْلِكِينَ﴾ إن استمر بك هذا الحال خشيانا عليك الهلاك والتلف.

(٨٦) ﴿قَالَ﴾ فأجابهم يعقوب بقوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي﴾، أي: همي وما أنا فيه ﴿إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ وأعلم من الله ما لا تعلمون من أنه سيردهم علي، ويقر عيني بالاجتماع بهم.

(٨٧) ﴿يَبْنَئِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ احرصوا واجتهدوا على التفتيش عنهما ﴿وَلَا تَأْنِسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ﴾ من رحمة الله ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِشُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ﴾ لأن رحمته بعيدة منهم، فلا تشبهوا بالكافرين.

(٨٨) ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ تقدير الكلام: فذهبوا فدخلوا مصر، ودخلوا على يوسف ﴿قَالُوا﴾ متضرعين إليه ﴿يَأْتِيئُهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبُضْعَةٍ مُرَجَّحَةٍ﴾ مدفوعة

وجودًا: ﴿لَا تَرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ لا أثرب عليكم ولا ألوكم ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فسمح لهم سماحًا تامًا من غير تعيير لهم على ذلك الذنب السابق، ودعا لهم بالمغفرة والرحمة.

(٩٣) قال يوسف عليه السلام لإخوته عندما سألهم عن أبيهم، فقالوا: ذهب بصره من الحزن: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ لأن كل داء يداوى بضده، فهذا القميص لما كان فيه أثر ريح يوسف - الذي أودع قلب أبيه من الحزن والشوق ما الله به عليم - أراد أن يشمه، ويرجع إليه بصره ولله في ذلك حكم وأسرار، لا يطلع عليها العباد، وقد اطلع يوسف من ذلك على هذا الأمر ﴿وَأَتُوفَى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أولادكم وعشيرتكم، وتوابعكم كلهم.

(٩٤) ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ عن أرض مصر مقبلة إلى أرض فلسطين، ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ يعقوب عليه السلام، لمن بقي عنده من بنيه أو لولد ولده: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ لما خرجت العير هاجت ريح، فجاءت يعقوب بريح القميص، فوجد ريح يوسف من مسيرة أيام؛ قاله ابن عباس. ويقال: أن الريح استأذنت ربها في تأتي يعقوب بريح يوسف ﴿لَوْلَا أَنْ تُفِذُّونَ﴾ تسخرون مني.

(٩٥) ﴿قَالُوا﴾، أي: ولد ولده: ﴿يَا لَيْلَى صَلِّكِ إِلَيْكَ الْفَكْدِيمَ﴾ لا تزال تائها في بحر الحب لا تدري ما تقول.

(٩٦) ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ بقرب الاجتماع بيوسف وإخوته وأبيهم ﴿أَلْقَنَهُ﴾؛ أي: القميص ﴿عَلَى وَجْهِهِ﴾ على وجه يعقوب ﴿فَارْتَدَّ بِصِيرًا﴾

فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَنَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بِصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَتَابَانَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مَصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَبْنَوتُ هَذَا أَنَا وَبَنِيَّ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا لَكَ رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْأَدْنَىٰ مِن بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

رجع إلى حاله الأولى بصيرًا، و ﴿قَالَ﴾ يعقوب عليه السلام عند ذلك: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ حيث كنت مترجيًا للقاء يوسف، مترقبًا لزوال الهم والغم والحزن.

(٩٧) فأقروا بذنبهم، و ﴿قَالُوا يَتَابَانَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ حيث فعلنا معك ما فعلنا.

(٩٨) ﴿قَالَ﴾ مجيبًا لطلبتهم، ومسرعًا لإجابتهم: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ قال جمهور

المفسرين: أخر الدعاء إلى وقت السحر؛ ليكون أتم للاستغفار، وأقرب للإجابة، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ورجائي به أن يغفر لكم، ويرحمكم، ويتغمدكم برحمته.

(٩٩) ﴿فَلَمَّا﴾ تجهز يعقوب وأولاده وأهلهم أجمعون، وارتحلوا من بلادهم قاصدين الوصول إلى يوسف في مصر وسكنائها، فلما وصلوا إليه،

ظواهر الأمور وبواطنها، وسرائر العباد وضمائرهم ﴿الْحَكِيمُ﴾ في وضعه الأشياء مواضعها، وسوقه الأمور إلى أوقاتها المقدرة لها.

(١٠١) وقال مقرئاً بنعمة الله، شاكراً لها، داعياً بالثبات على الإسلام: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ يعني: من ملك مصر ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ من تأويل أحاديث الكتب المنزلة وتأويل الرؤيا وغير ذلك من العلم، ﴿فَاطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: خالقهما ﴿أَنْتَ وَلِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي: معيني ومتولي أمري ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ أدم علي الإسلام وثبتني عليه حتى تتوفاني عليه، فيوسف سأل الموت على الإسلام، ولم يتمن الموت، ﴿وَالْحَقِّقْ بِالصَّلَاحِينَ﴾ من الأنبياء الأبرار والأصفياء الأخيار. (١٠٢) لما قص الله هذه القصة على محمد ﷺ قال الله له: ﴿ذَلِكَ﴾ النبأ الذي أخبرناك به ﴿وَمِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ ولولا إياحونا إليك لما وصل إليك هذا الخبر الجليل، فإنك ﴿مَا كُنْتَ حَاضِرًا﴾ لديهم ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾؛ أي: إخوة يوسف ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ به، حين تعاقدوا على التفريق بينه وبين أبيه في حالة لا يطلع عليها إلا الله تعالى.

(١٠٣) ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ على إيمانهم ﴿بِظُؤْمُرِينَ﴾ فإن مداركهم ومقاصدهم قد

﴿دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ ضمهما إليه، واختصهما بقربه، وأبدى لهما من البر والإحسان والتبجيل والإعظام شيئاً عظيماً ﴿وَقَالَ﴾ لجميع أهله: ﴿أَدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ من جميع المكاره والمخاوف.

(١٠٠) ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ علي سرير الملك ومجلس العز ﴿وَوَحَّوْا لَهُ سُجْدًا﴾؛ أي: أبوه وأمه وإخوته سجوداً على وجه التعظيم والتبجيل والإكرام؛ لأنه كان جائزاً في شريعتهم، وأما في شريعتنا فلا يجوز السجود إلا لله ﴿وَقَالَ﴾ لما رأى هذه الحال، ورأى سجدتهم له: ﴿يَتَابَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ حين رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين، فهذا وقوعها الذي آلت إليه ووصلت ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ فلم يجعلها أضغاث أحلام ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي﴾ إحساناً جسيماً ﴿إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ وهذا من لطفه وحسن خطابه ﷺ حيث ذكر حاله في السجن، ولم يذكر حاله في الجب، وأن إتيانكم من البادية من إحسان الله ﴿وَمِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ فالحمد لله الذي أخزى الشيطان ودحره، وجمعنا بعد تلك الفرقة الشاقة ﴿إِنْ رِئِي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ يوصل بره وإحسانه إلى العبد من حيث لا يشعر، ويوصله إلى المنازل الرفيعة من أمور يكرهاها ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ الذي يعلم

(١٠٠) أخرج ابن ماجه وأحمد والحاكم وابن حبان بإسناد صحيح عن عبد الله بن أبي أوفى قال: لما قدم معاذ من الشام سجد للنبي ﷺ قال: «ما هذا يا معاذ؟!» قال: أتيت الشام، فوافقتهم يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم، فوددت في نفسي أن نفعل ذلك بك. فقال رسول الله ﷺ: «فلا تفعلوا، فإني لو كنت أمراً أحداً أن يسجد لغير الله؛ لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها». (١٠١) في «الصحيحين» من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «لا يتمنن أحدكم الموت لضر نزل به، فإن كان لا بد متمنياً الموت فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي».

أصبحت فاسدة، فلا ينفعهم حرص الناصحين عليهم، ولو عدت الموانع.

(١٠٤) ﴿وَمَا تَشَاءُ لَهُمْ عَلَيْهِ﴾ على تبليغ الرسالة والدعوة إلى الله ﴿مَنْ أَجَرٌ﴾ جعل جزاء ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: القرآن ﴿ذَكَرَ لِلْعَالَمِينَ﴾ يتذكرون به ما ينفعهم ليفعلوه، وما يضرهم ليركوه.

(١٠٥) ﴿وَكَايْنٍ﴾ وكم ﴿مَنْ آيَةٍ﴾ عبرة ودلالة ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ دالة لهم على توحيد الله ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ لا يتفكرون فيها، ولا يعتبرون بها.

(١٠٦) ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ فهم وإن أقروا بربوبية الله تعالى، وأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور، فإنهم يشركون في ألوهية الله وتوحيده.

(١٠٧) ﴿أَفَأَمِنُوا﴾ أي: الفاعلون لتلك الأفعال، المعرضون عن آيات الله ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ عذاب يغشاهم ويعمهم ويستأصلهم ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي: فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فإنهم قد استوجبوا ذلك، فليتوبوا إلى الله، وليتركوا ما يكون سبباً في عقابهم.

(١٠٨) ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﷺ للناس: ﴿هَذِهِ سَبِيلِي﴾ طريقي التي أدعو إليها، وهو السبيل الموصلة إلى الله، وإلى دار كرامته ﴿أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ﴾ أحث الخلق والعباد على الوصول إلى ربهم، وأرغبهم في ذلك، وأرهبهم مما يبعدهم عنه، ومع هذا فأنا ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ من ديني؛ أي: على علم ويقين من غير شك ولا امتراء ولا مرية ﴿أَنَا وَمَنْ أَتَّبَعَنِي﴾ أي: ومن آمن بي وصدقني أيضاً يدعو إلى الله كما أدعو؛ أي: على بصيرة من أمره ﴿وَسُبْحَنَّ لِلَّهِ﴾ عما ينسب إليه مما لا يليق

وَمَا تَشَاءُ لَهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَنْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَّ لِلَّهِ مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا لَا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عِقَبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَلُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرٌ مِّنَّا وَمُنْجَىٰ مِّنْ نَّسَاءٍ وَلَا يُمِرُّونَ بِالنَّاصِيَةِ وَالْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرُ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

بجلاله، أو ينافي كماله ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ في جميع أموري، بل أعبد الله مخلصاً له الدين.

(١٠٩) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ يا محمد ﴿إِلَّا رَجُلًا﴾؛ لا نساء ولا ملائكة ﴿نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ آياتنا، بالدعاء إلى طاعتنا وإفراد العبادة لنا ﴿مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ أي: لا من البادية، بل من أهل القرى الذين هم أكمل عقولاً وأصح آراء، وليتبين أمرهم ويتضح شأنهم ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ إذا لم يصدقوا لقولك، ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عِقَبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كيف أهلكهم الله بتكذيبهم، فاحذروا أن تقيموا على ما قاموا عليه، فيصيبكم ما أصابهم ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ أي: الجنة وما فيها من النعيم المقيم ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الله، في امتثال أوامره، واجتناب نواهيه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أفلا تكون لكم عقول، تؤثر الذي

اجترم، وتجراً على الله.

(١١١) ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ﴾ قصص الأنبياء والرسل مع قومهم أو في قصة يوسف وإخوته ﴿عِبْرَةً﴾ عظة ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ لذوي العقول، ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَفُ﴾ ما كان هذا القرآن الذي قص الله به عليكم من أنباء الغيب ما قص من الأحاديث المفتراة المختلفة، ﴿وَلَكِنْ﴾ كان ﴿تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب السابقة يوافقها ويشهد لها بالصحة ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه، ومن الأدلة والبراهين ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فإنهم - بسبب ما يحصل لهم به من العلم بالحق وإثارة، - يحصل لهم الهدى، وبما يحصل لهم من الثواب العاجل والآجل تحصل لهم الرحمة.

سورة الرعد

(١) ﴿الرَّعْدُ﴾ أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور، فقد تقدم في أوائل سورة «البقرة». ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ يخبر تعالى أن هذا القرآن هو آيات الكتاب الدالة على كل ما يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه ﴿وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ وأن الذي أنزل إلى الرسول من ربه هو الحق المبين؛ لأن إخباره صدق،



هو خير على الأدنى.

(١١٠) ﴿حَقَّ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ يخبر تعالى أنه يرسل الرسل الكرام، فيكذبهم القوم المجرمون اللثام، حتى إن الرسل - على كمال يقينهم وشدة تصديقهم بوعد الله ووعيده - ربما أنه يخطر بقلوبهم، نوع من الإيأس، ونوع من ضعف العلم، فإذا بلغ الأمر هذه الحال ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ﴾ وهم الرسل وأتباعهم ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ولا يرد عذابنا عن

(١١٠) في «صحيح البخاري» عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها قالت له وهو يسألها عن قول الله: ﴿حَقَّ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾، قلت: أكذبوا أم كُذِّبوا؟ فقالت عائشة: كُذِّبوا، فقلت: فقد استيقنوا أن قومهم قد كذبوهم، فما هو بالظن؟ قالت: أجل، لعمرى، قد استيقنوا بذلك، فقلت لها: وظنوا أنهم قد كذبوا؟ قالت: معاذ الله، لم تكن الرسل تظن ذلك بربها، قلت: فما هذه الآية؟ قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم، فطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر ﴿حَقَّ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾ ممن كذبهم وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم، جاءهم نصر الله عند ذلك.

وأوامره ونواهيهِ عدل، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بهذا القرآن.

(٢) ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ عَلَى عَظَمِهَا وَاتَّسَاعَهَا بِقُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ ﴿يَغْيِرُ عَمَدَ تَرَوْنَهَا﴾ ليس لها عمد من تحتها، فإنه لو كان لها عمد لرأيتموها ﴿ثُمَّ﴾ بعدما خلق السموات والأرض ﴿أَسْتَوَىٰ عَلَى الْفَرْشِ﴾ علا وارتفع على العرش العظيم الذي هو أعلى المخلوقات، استواء يليق بجلاله ويناسب كماله، ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ ذللهما لمصالح العباد، ﴿كُلٌّ﴾ من الشمس والقمر ﴿يَجْرِي﴾ بتدبير العزيز العليم ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ بسير منتظم، حتى يجيء الأجل المسمى؛ وهو: طي الله هذا العالم، ونقلهم إلى الدار الآخرة، فعند ذلك يطوي الله السماوات ويبدلها، ويغير الأرض ويبدلها. فتكور الشمس والقمر، ويجمع بينهما فيلقيان في النار، ليرى من عبدهما أنهما غير أهل للعبادة؛ فيتحسر بذلك أشد الحسرة وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ﴿يُذَيِّرُ الْآثَمَ﴾ يدبر الأمور في العالم العلوي والسفلي ﴿يُفَضِّلُ الْآيَاتِ﴾ ويفصلها غاية التفصيل ببيانها وإيضاحها وتمييزها ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ بسبب ما أخرج لكم من الآيات الأفقية، والآيات القرآنية، ﴿يَلْقَاءَ رَبِّكُمْ تَوْفِئُونَ﴾ أنه يعيد الخلق إذا شاء كما بدأه.

والآدميين وبهائمهم وحروثهم، فأخرج بها من الأشجار والزروع والثمار خيراً كثيراً، ولهذا قال: ﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ صنفين، مما يحتاج إليه العباد ﴿يَغْيِي الْأَيْلَ النَّهَارَ﴾ يلبس النهار بظلمة الليل، فتظلم الآفاق، ويستريحون من التعب والنصب في النهار، ثم إذا قضوا مأربهم من النوم، غشي النهار الليل، فإذا هم مصبحون ينتشرون في مصالحهم وأعمالهم في النهار، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ على المطالب الإلهية ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيها، وينظرون فيها نظرة اعتبار دالة على أن الذي خلقها ودبرها وصرفها هو الله الذي لا إله إلا هو، ولا معبود سواه.

(٤) ﴿وَ﴾ من الآيات على كمال قدرته وبديع صنعته ﴿فِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّرَاتٍ﴾ أراض يجاور بعضها بعضاً؛ هذه تنبت الكلاً والأشجار والزروع، وهذه أرض لا تنبت كلاً ولا تمسك ماءً، ﴿وَجَنَّاتٍ﴾ فيها أنواع الأشجار ﴿مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٍ وَنَخِيلٍ﴾ وغير ذلك، والنخيل التي بعضها ﴿صِنَوَانٌ﴾؛ أي: عدة أشجار في أصل واحد، ﴿وَعِزُّ صِنَوَانٍ﴾ بأن كان كل شجرة على حدة، والجميع ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ وأرضه واحدة ﴿وَيُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكْلِ﴾ لونا وطعماً ونفعاً ولذة، فهل هذا التنوع في ذاتها وطبيعتها؟ أم ذلك تقدير العزيز العليم؟ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ لقوم لهم عقول تهديهم إلى ما ينفعهم، وتقودهم إلى ما يرشدون

(٤) أخرج الترمذي بإسناد حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَيُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكْلِ﴾ قال: «الدَّلُّ والفارسي، والحلو والحامض».

نازلاً إلى العباد، وهم لا يزال شركهم وعصيانهم إليه صاعداً، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ على من لم يزل مصرّاً على الذنوب.

(٧) ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يا محمد، من قومك: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةً مِنْ رَبِّهِ﴾ أي: علامة وحجة على نبوته ويجعلون هذا القول منهم عذراً لهم في عدم الإجابة إلى الرسول ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾ أي: إنما عليك أن تبلغ رسالة الله التي أمرك بها، ليس لك من الأمر شيء، ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ داع يدعو إلى الهدى من الرسل وأتباعهم.

(٨) ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى﴾ من بني آدم وغيرهم ﴿وَمَا تَنْبِئُكَ أَلْأَرْحَامُ﴾ تنقص مما فيها، إما أن يهلك الحمل، أو يتضاءل أو يضمحل ﴿وَمَا تَزِدُّهُمُ الْأَرْحَامُ وَتَكْبِرُ الْأَجْنَةُ الَّتِي فِيهَا، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ لا يتقدم عليه ولا يتأخر، ولا يزيد ولا ينقص إلا بما تقتضيه حكمته وعلمه.

(٩) فإنه ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ يعلم كل شيء بما يشاهده العباد، ومما يغيب عنهم، ولا يخفى عليه منه شيء، ﴿الْكَبِيرُ﴾ في ذاته وأسمائه وصفاته، والذي كل شيء دونه، ﴿الْمُتَعَالِ﴾ على جميع خلقه بذاته وقدرته وقهره.

(١٠) ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ﴾ يستوي في علمه وسمعه وقهره ﴿مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ﴾ المسر بالقول ﴿وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ الجاهر به ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِإِثْمِهِ﴾ مستقر بمكان خفي فيه ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ داخل سريره في النهار، والسرب هو: ما يستخفي فيه الإنسان، إما جوف بيته، أو غار، أو مغارة، أو نحو ذلك.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسِّنْئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةً مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٢﴾ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَنْبِئُكَ أَلْأَرْحَامُ وَمَا تَزِدُّهُمُ الْأَرْحَامُ وَتَكْبِرُ الْأَجْنَةُ الَّتِي فِيهَا، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٣﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٤﴾ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِإِثْمِهِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿٥﴾ لَمْ تُعْقِبَتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يَغْيُرَ أَمَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿٦﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ أَلْوَابَكُمْ حَقِيقًا وَلَمَّا تَبَايَعْتُمْ فِي بَيْتِ اللَّهِ عِنْدَ النَّبِيِّ إِذْ تَرَأْتُمْ فِيهَا الْمَلَائِكَةَ تَتَوَلَّوْنَ وَمُنْذِرَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تُكْفَرُونَ ﴿٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلَّذِينَ هُمْ عَنْ عَصَايِهِمْ لِيُنْذِرَ لِقَوْمٍ يُكَفِّرُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلَّذِينَ هُمْ عَنْ عَصَايِهِمْ لِيُنْذِرَ لِقَوْمٍ يُكَفِّرُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلَّذِينَ هُمْ عَنْ عَصَايِهِمْ لِيُنْذِرَ لِقَوْمٍ يُكَفِّرُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلَّذِينَ هُمْ عَنْ عَصَايِهِمْ لِيُنْذِرَ لِقَوْمٍ يُكَفِّرُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلَّذِينَ هُمْ عَنْ عَصَايِهِمْ لِيُنْذِرَ لِقَوْمٍ يُكَفِّرُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلَّذِينَ هُمْ عَنْ عَصَايِهِمْ لِيُنْذِرَ لِقَوْمٍ يُكَفِّرُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلَّذِينَ هُمْ عَنْ عَصَايِهِمْ لِيُنْذِرَ لِقَوْمٍ يُكَفِّرُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلَّذِينَ هُمْ عَنْ عَصَايِهِمْ لِيُنْذِرَ لِقَوْمٍ يُكَفِّرُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلَّذِينَ هُمْ عَنْ عَصَايِهِمْ لِيُنْذِرَ لِقَوْمٍ يُكَفِّرُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلَّذِينَ هُمْ عَنْ عَصَايِهِمْ لِيُنْذِرَ لِقَوْمٍ يُكَفِّرُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلَّذِينَ هُمْ عَنْ عَصَايِهِمْ لِيُنْذِرَ لِقَوْمٍ يُكَفِّرُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلَّذِينَ هُمْ عَنْ عَصَايِهِمْ لِيُنْذِرَ لِقَوْمٍ يُكَفِّرُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلَّذِينَ هُمْ عَنْ عَصَايِهِمْ لِيُنْذِرَ لِقَوْمٍ يُكَفِّرُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾

به، ويعقلون عن الله وصاياه وأوامره ونواهيهِ.

(٥) ﴿وَإِنَّ تَعَجَّبَ﴾ من عظمة الله تعالى، وكثرة أدلة التوحيد؛ ﴿تَعَجَّبَ قَوْلُهُمْ﴾ فإن العجب إنكار المكذبين، وتكذيبهم بالبعث، وقولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءَآلُفَى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: هذا بعيد في غاية الامتناع بزعمهم، أنهم بعد ما كانوا تراباً أن الله يعيدهم ﴿أَوَلَيْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ جحدوا وحدانيته، ﴿أَوَلَيْكَ الْأَعْمَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ يوم القيامة يسحبون بها في النار ﴿أَوَلَيْكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا يخرجون منها أبداً.

(٦) ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ جعلوا يستعجلون الرسول ﴿بِالسِّنْئَةِ﴾ بالعذاب، ﴿وَوَالْحَالُ أَنَّهُ﴾ قد خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وقائع الله وأيامه في الأمم المكذبين ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ لا يزال خيره إليهم وإحسانه وبره وعفوه

(١١) ﴿لَهُ﴾ للإنسان ﴿مُعَقَّبَتٌ﴾ من الملائكة يتعاقبون في الليل والنهار، ﴿مَنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ﴾ يحفظون بدنه وروحه من كل من يريده بسوء، ويحفظون عليه أعماله، وهم ملازمون له دائماً، ﴿مَنْ أَمَرَ اللَّهُ﴾ بإذن الله ما لم يجرئ المقدور، فإذا جاء المقدور خلوا عنه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من النعمة والإحسان ورغد العيش ﴿حَتَّى يَغْيُرُوا مَا بَأَنفُسِهِمْ﴾ بأن ينتقلوا من الإيمان إلى الكفر، ومن الطاعة إلى المعصية، أو من شكر نعم الله إلى البطر بها فيسلبهم الله عند ذلك إياها وكذلك إذا غير العباد ما بأنفسهم من المعصية فانتقلوا إلى طاعة الله غيّر الله عليهم ما كانوا فيه من الشقاء إلى الخير والسرور، والغبطة والرحمة، ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا﴾ عذاباً وشدة، وأمرًا يكرهونه، فإنه ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُمْ﴾ ولا أحد يمنع منه، ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ يتولى أمورهم؛ فيجلب لهم

المحسوب، ويدفع عنهم المكروه (١٢) ﴿هُوَ﴾ الله ﴿الَّذِي يُرِيكُمْ الْآيَاتِ﴾ وهو ما يرى من النور اللامع ساطعاً في خلل السحاب، يخاف منه الصواعق والهدم، وأنواع الضرر على بعض الثمار ونحوها ﴿وَطَمَعًا﴾ ويطمع في خيره ونفعه، ﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ بالمطر الغزير الذي به نفع العباد والبلاد.

(١٣) ﴿وَيَسِيحُ الرِّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسِيحُ بِحَدِّهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وأكثر المفسرين على أن الرعد ملك يسوق السحاب، والصوت المسموع من السحاب تسبيحه، ﴿وَ﴾ تسبح ﴿وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾؛ أي: خشعاً لربهم، خائفين من سطوته، ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ وهي هذه النار التي تخرج من السحاب، ﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده بحسب ما شاء وأراده، ﴿وَهُمْ يُجَنِّدُونَ فِي اللَّهِ﴾ يخاصمون ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾ شديد الحول

(١١) في «الصححين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيصعد إليه الذين باتوا فيكم، فيسألهم - وهو أعلم بهم - كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون».

(١٢) أخرج الإمام أحمد وغيره بإسناد صحيح عن شيخ من غفار - صحب رسول الله ﷺ - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله ينشئ السحاب، فينطق أحسن النطق، ويضحك أحسن الضحك».

(١٣) أخرج الترمذي وأحمد حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه الحسن، قال: قال رسول الله ﷺ: «الرعد ملك من الملائكة، موكل بالسحاب، بيده مخراق من نار يزر به السحاب، والصوت الذي يسمع منه زجره السحاب إذا زجره حتى ينتهي إلى حيث أمره».

وأخرج ابن أبي عاصم في «السنة»، والبخاري، وأبو يعلى من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه بإسناد صحيح، قال: بعث رسول الله ﷺ رجلاً من أصحابه إلى رجل من عظماء الجاهلية يدعوه إلى الله - تبارك وتعالى - فقال المشرك: إيش ربك الذي تدعوني إليه؟ من حديد هو؟ من نحاس هو؟ من فضة هو؟ من ذهب هو؟ فتعاضم مقاتله، فأتى النبي ﷺ، فأخبره، فأعاده النبي ﷺ الثانية، فقال مثل ذلك، فأتى النبي ﷺ، فأرسله الثالثة، فقال مثل ذلك، فأتى النبي ﷺ، فأخبره، فأرسل الله تبارك وتعالى عليه صاعقة فأحرقتة، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى قد أرسل على صاحبك صاعقة فأحرقتة». فنزلت هذه الآية: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَنِّدُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾.

عبادتهم ودعائهم؛ لأن الوسيلة تبطل ببطلان غايتها.

(١٥) ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ جميع ما احتوت عليه السموات والأرض كلها خاضعة لربها، تسجد له ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ فالطوع لمن يأتي بالسجود والخضوع اختيارًا، كالمؤمنين، والكره لمن يستكبر عن عبادة ربه، وحاله وفطرته تكذبه في ذلك، ﴿وَرَبُّهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ وتسجد له ظلال المخلوقات أول النهار وآخره، وسجد كل شيء بحسب حاله، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْجُدُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾

(١٦) ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين به، أوثانًا وأندادًا يحبونها كما يحبون الله، ويبدلون لها أنواع التقربات والعبادات: ﴿مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؟﴾ أي: خالقهما ومدبرهما؟ فسيقولون: الله، لانهم يقرون بأن الله خالقهم وخالق السموات والأرض، فإن أجابوك فـ ﴿قُلْ﴾ أنت أيضاً يا محمد: ﴿اللَّهُ﴾ ثم قال الله لهم إلزاماً للحجة: ﴿قُلْ أَفَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أفتاهت عقولكم حتى اتخذتم من دونه أولياء تتولونهم بالعبادة، فإنهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَنَا فَيْسُماً نَفَعًا وَلَا ضَرًّا﴾ وتتركون ولاية من هو كامل الأسماء والصفات، المالك للأحياء والأموات، الذي بيده الخلق والتدبير، والنفع والضرر!! ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْآعَمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَةُ وَالنُّورُ﴾ فما تستوي عبادة الله وحده وعبادة المشركين به ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ فإن كان عندهم شك واشتباه، وجعلوا له شركاء، زعموا أنهم خلقوا كخلقه، وفعلوا كفعله، فأزل عنهم هذا الاشتباه

لَمْ دَعُوهُ الْحَقُّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْتَغِيَهُ وَمَا هُوَ بِبَاطِلٍ مِمَّا دَعَاهُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٥﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَرَبُّهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٦﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَفَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لَنَا فَيْسُماً نَفَعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْآعَمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَةُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلْ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٧﴾ أُنزِلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٨﴾ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مِثْلَ الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِمْ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَهُمْ فِيهَا يَلْهَبُونَ ﴿١٩﴾

والقوة، فلا يريد شيئاً إلا فعله.

(١٤) ﴿لَهُ﴾؛ أي: لله وحده ﴿دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ وهي: عبادته وحده لا شريك له، وإخلاص دعاء العبادة ودعاء المسألة له تعالى، ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ من الأوثان والأنداد التي جعلوها شركاء لله ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ﴾؛ أي: لمن يدعوها ويعبدها بشيء قليل ولا كثير، لا من أمور الدنيا ولا من أمور الآخرة ﴿إِلَّا كَبْسِطٍ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ﴾ الذي لا تناله كفاه لبعده ﴿لِيَبْتَغِيَهُ﴾ ببسط كفيه إلى الماء ﴿فَاهُ﴾ فإنه عطشان، ومن شدة عطشه يتناول بيده ويبسطه إلى الماء الممتنع وصولها إليه، فلا يصل إليه، كذلك الكفار الذين يدعون مع الله آلهة، لا يستجيبون لهم بشيء، ولا ينفعونهم في أشد الأوقات، ﴿وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ لبطلان ما يدعون من دون الله، فبطلت

وَالْبَلْبَسُ بِالْبَرَهَانِ الدَّالِ عَلَى تَفَرُّدِ الْإِلَهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ، فَقَالَ لَهُمْ: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فَإِنَّهُ مِنَ الْمَحَالِ أَنْ يَخْلُقَ شَيْءٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ نَفْسَهُ، وَمِنَ الْمَحَالِ أَيْضًا أَنْ يَوْجِدَ مِنْ دُونِ خَالِقٍ، فَتَعَيَّنَ أَنَّ لَهَا إِلَهًا خَالِقًا، لَا شَرِيكَ لَهُ فِي خَلْقِهِ ﴿وَلَا أَنَّهُ هُوَ الْوَحِيدُ الْفَهْرُ﴾ فَإِنَّهُ لَا تَوْجِدَ الْوَحْدَةَ وَالْقَهْرَ إِلَّا لِلَّهِ وَحْدَهُ، فَالْمَخْلُوقَاتُ وَكُلُّ مَخْلُوقٍ فَوْقَهُ مَخْلُوقٌ يَقْهَرُهُ، ثُمَّ فَوْقَ ذَلِكَ الْقَاهِرُ قَاهِرٌ أَعْلَى مِنْهُ، حَتَّى يَنْتَهِيَ الْقَهْرُ لِلْوَاحِدِ الْقَاهِرِ، فَالْقَهْرُ وَالتَّوْحِيدُ مُتَلَازِمَانِ مُتَعَيِّنَانِ لِلَّهِ وَحْدَهُ، فَتَبَيَّنَ بِالدَّلِيلِ الْعَقْلِيِّ الْقَاهِرِ أَنَّ مَا يَدْعَى مِنْ دُونِ اللَّهِ لَيْسَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ خَلْقِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَبِذَلِكَ كَانَتْ عِبَادَتُهُ بَاطِلَةً.

(١٧) ثُمَّ ضَرَبَ اللَّهُ تَعَالَى مِثْلِينَ لِلْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَنْزَلْنَا﴾ يَعْنِي: اللَّهُ يَنْزِلُ ﴿مِنْ السَّمَاءِ مَاءً﴾ الْمَطَرُ ﴿فَسَالَتْ﴾ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ ﴿أَوْدِيَةٌ يَفْقَدُهَا﴾ فِي الْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ﴾ الَّذِي حَدَثَ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ ﴿زَيْدًا رَابِيًا﴾ فَظَهَرَ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ الَّذِي سَالَ فِي هَذِهِ الْأَوْدِيَةِ خَبْثٌ مُرْتَفِعٌ فَوْقَ الْمَاءِ، فَالْمَاءُ الصَّافِي هُوَ الْحَقُّ الْبَاقِي، وَالدَّاهِبُ الزَّائِلُ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِالشَّجَرِ وَجَوَانِبِ الْأَوْدِيَةِ هُوَ الْبَاطِلُ، فَهَذَا أَحَدُ الْمِثْلَيْنِ.

وَالْمِثْلُ الْآخَرُ: قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ وَهُوَ مَا يَسْبِكُ فِي النَّارِ ﴿أَتْبَعًا حَلِيقَةً﴾ أَي: لَطْلُبَ زِينَةٍ، وَأَرَادَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ؛ لِأَنَّ الْحَلِيقَةَ تَطْلُبُ مِنْهُمَا ﴿أَوْ مَتَاعٍ﴾، أَي: طَلَبَ مَتَاعٍ، وَهُوَ مَا يَنْتَفِعُ بِهِ، وَذَلِكَ مِثْلُ الْحَدِيدِ وَالنَّحَاسِ وَالرِّصَاصِ، تُذَابُ فَيَتَّخِذُ مِنْهَا الْأَوْنِي وَغَيْرُهَا مِمَّا يَنْتَفِعُ بِهَا، ﴿زَيْدٌ مِثْلُهُ﴾، ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾؛ أَي: إِذَا اجْتَمَعَا لَا ثَبَاتَ لِلْبَاطِلِ وَلَا دَوَامَ لَهُ، كَمَا أَنَّ الْخَبْثَ لَا يَثْبُتُ

مَعَ الْمَاءِ وَلَا مَعَ الذَّهَبِ وَنَحْوِهِ مِمَّا يَسْبِكُ فِي النَّارِ، بَلْ يَضْمَحِلُّ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ لَا يَنْتَفِعُ بِهِ، بَلْ يَتَفَرَّقُ وَيَتَمَرَّقُ وَيَذْهَبُ فِي جَانِبِي الْوَادِي وَيَعْلَقُ بِالشَّجَرِ وَلَا يَبْقَى إِلَّا الْمَاءُ وَالذَّهَبُ وَمَا يَنْتَفِعُ بِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمُكُّهُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ لِلنَّاسِ؛ أَي: جَعَلَ اللَّهُ هَذَا مِثْلًا لِلْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، فَالْحَقُّ يَمُكُّ وَيَبْقَى، وَالْبَاطِلُ يَزُولُ وَيَزْهَقُ.

(١٨) ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ انْقَادَاتُ قُلُوبِهِمْ لِلْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ، وَجَوَارِحُهُمْ لِلأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَصَارُوا مُوَافِقِينَ لِرَبِّهِمْ فِيمَا يَرِيدُهُ مِنْهُمْ، فَلَهُمْ ﴿الْحُسْنَى﴾ الْحَالَةُ الْحَسَنَةُ، وَالثَّوَابُ الْحَسَنُ فِي الْجَنَّةِ ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ بَعْدَمَا ضَرَبَ لَهُمُ الْأَمْثَالَ، وَبَيْنَ لَهُمُ الْحَقَّ، لَهُمُ الْحَالَةُ غَيْرُ

يقصروا في شيء مما أمر الله به؛ خوفاً من العقاب، ورجاءاً للثواب.

(٢٢) ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على المأمورات بامثالها، وعن المنهيات بالانكفاف عنها والبعد منها، وعلى أقدار الله المؤلمة بعدم تسخطها ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ طلباً لمرضاة ربه، ورجاءاً للقرب منه، والحظوة بثوابه، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ بأركانها وشروطها ومكملاتها، ظاهراً وباطناً ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ دخل في ذلك النفقات الواجبة، كالزكوات والكفارات، والنفقات المستحبة، وأنهم ينفقون حيث دعت الحاجة إلى النفقة، سراً وعلانية، ﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾؛ أي: من أساء إليهم بقول أو فعل لم يقابلوه بفعله، بل قابلوه بالإحسان إليه، ﴿أُولَئِكَ﴾ الذين وصفت صفاتهم الجليلة، ومنافبهم الجميلة ﴿لَهُمْ عَقَبَى الدَّارِ﴾ عاقبتهم الجنة.

(٢٣) ثم فسرها بقوله: ﴿جَنَّتْ عَدْنٌ﴾؛ أي: إقامة لا يزولون منها، ولا يبغون عنها حولا ﴿يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ من الذكور والإناث، وكذلك النظراء والأشباه والأصحاب والأحباب، فإنهم من قبيل أزواجهم وذرياتهم ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ يهنئونهم بالسلامة، وكرامة الله لهم.

(٢٤) ويقولون: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ حلت عليكم

الحسنة، ﴿وَلَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من ذهب وفضة وغيرها ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ من عذاب يوم القيامة، ما تقبل منهم ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ وهو الحساب الذي يأتي على كل ما أسلفوه من عمل سيئ، وما ضيعوه من حقوق عبادته قد كتب ذلك، واطر عليهم ﴿و﴾ بعد هذا الحساب السيئ ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ الجامعة لكل عذاب، ﴿وَيَسَّ لِلِهَآذِ﴾ المقر والمسكن مسكنهم. (١٩) يقول تعالى مفرقا بين أهل العلم والعمل وبين ضدهم: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ ففهم ذلك، وعمل به ﴿كَمْ هُوَ أَغْوَى﴾ لا يعلم الحق، ولا يعمل به ﴿إِنَّمَا يَذَكِّرُ أُولَآءِ الْأَلْبَابِ﴾ أولو العقول الرزينة، والآراء الكاملة.

(٢٠) ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ الذي عهده إليهم، والذي عاهدهم عليه من القيام بحقوقه كاملة موفرة، فالوفاء بها توفيتها حقها من التنمية لها، والنصح فيها، ﴿و﴾ تمام الوفاء بها أنهم ﴿لَا يَنقُصُونَ أَلْعِثْقَ﴾ العهد الذي عاهدوا الله عليه.

(٢١) ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ﴾ أن يوصلوا وهذا عام في كل ما أمر الله بوصله؛ يصلون آباءهم وأمهاتهم ببرهم بالقول والفعل، وعدم عقوقهم، ويصلون الأقارب والأرحام بالإحسان إليهم قولاً وفعلًا، ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ يخافونه، فيمنعهم خوفهم منه ومن القدوم عليه يوم الحساب أن يتجرءوا على معاصي الله، أو

(٢٤) أخرج الإمام أحمد حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه الصحيح، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «أول من يدخل الجنة من خلق الله: الفقراء المهاجرون الذين تسد بهم الثغور، وتتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء، فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته: اتوهم؛ فحيوهم، فتقول الملائكة: نحن سكان سمائك، وخيرتك من خلقك، أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء فنسلم عليهم؟ قال: إنهم كانوا عبادا يعبدونني لا يشركون بي شيئا، وتسد بهم الثغور، وتتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم -

السلامة والتحية من الله وحصلت لكم، وذلك متضمن لزوال كل مكروه، ومستلزم لحصول كل محبوب، ﴿يَمَا صَبَرْتُمْ﴾ بسبب صبركم، وهو الذي أوصلكم إلى هذه المنازل العالية، والجنان الغالية، ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ وهي الجنة.

(٢٥) ﴿وَالَّذِينَ يَنْفَعُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ من بعد ما أكده عليهم على أيدي رسله، وغلظ عليهم، فلم يقابلوه بالانقياد والتسليم، بل قابلوه بالإعراض والنقص ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ فلم يصلوا ما بينهم وبين ربهم بالإيمان والعمل الصالح، ولا وصلوا الأرحام، ولا أدوا الحقوق، بل أفسدوا في الأرض بالكفر والمعاصي، والصد عن سبيل الله، وابتغائها عوجاً ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْعَذَابُ الْبَعْدَ وَالذَّمُّ مِنَ اللَّهِ وَمَلَانُكَتِهِ وَعِبَادَةُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولهم سوء الدار.

وهي: الجحيم بما فيها من العذاب الأليم. (٢٦) ﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ هو وحده يوسع الرزق ويبسطه على من يشاء، ويقدره ويضيقه على من يشاء، ﴿وَفَرَحُوا﴾ الكفار ﴿بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فرحاً أوجب لهم أن يطمئنوا بها، ويغفلوا عن الآخرة؛ وذلك لنقصان عقولهم ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ﴾ شيء حقير، يتمتع به قليلاً، ويفارق أهله وأصحابه، ويعقبهم ويلاً طويلاً.

(٢٧) ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يخبر تعالى أن الذين كفروا بآيات الله - من مشركي مكة - يتعتنون

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا أَتَيْنَا بِكَ ۚ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَفْسَلُوا عَلَيْهِمْ ۚ الَّذِينَ أُوحِيَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ۚ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُفِّرَتْ بِهِ الْمُتَوَقُّ بِلِ اللَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِ الْبَشَرِ الْأَمْرُ أَنَّ لُوَيْسَاءَ اللَّهِ لَهْدَى النَّاسِ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ ۚ وَلَقَدْ أَسْمَرْتُمْ بِرُسُلِي مِنْ قَبْلِكَ فَامْلَيْتَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابٌ ۚ أَفَمَنْ هُوَ قَابِضٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ يَنْبَغُ لَهُمْ أَلَّا يَعْلَمَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَظُنُّهُمْ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۚ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ۚ

٢٥٢

على رسول الله، ويقترحون ويقولون: ﴿لَوْلَا﴾ أي: هلاً ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ كما قالوا: ﴿فَلْيَأْتِنَا بَيِّنَاتٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ وبزعمهم أنها لو جاءت لآمنوا، فأجابهم الله بقوله: ﴿قُلْ إِنَّكَ اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾؛ أي: طلب رضوانه، فليست الهداية والضلال بأيديهم، حتى يجعلوا ذلك متوقفاً على الآيات، ومع ذلك فهم كاذبون.

(٢٨) ثم ذكر تعالى علامة المؤمنين فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ يزول قلقها واضطرابها، وتحضرها أفرحها ولذاتها.

.. وحاجته في صدره فلا يستطيع لها قضاء. قال: فتأتيهم الملائكة عند ذلك، فيدخلون عليهم من كل باب: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ يَمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾.

(٢٦) في «صحيح مسلم» عن المستورد بن شداد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه في هذه من النِّمِّ، فلينظر بم يرجع». وأشار بالسبابة.

﴿أَلَا يَنْصَرُّ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ حقيق بها وحري أن لا تطمئن لشيء سوى ذكره.

(٢٩) ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ آمنوا بقلوبهم بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وصدقوا هذا الإيمان بالأعمال الصالحة ﴿طُوبَى لَهُمْ وَحَسَنَ مَّتَابٍ﴾ لهم حالة طيبة، ومرجع حسن.

(٣٠) قوله عز وجل: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ﴾ كما أرسلنا الأنبياء إلى الأمم أرسلناك إلى هذه الأمة، ﴿فَدَّحَلْتَ﴾ مضت ﴿مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾؛ ﴿لَتَسْتَلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: تبليغهم رسالة الله ولست تقول من تلقاء نفسك، بل تتلوا عليهم آيات الله التي أوحاها الله إليك، التي تطهر القلوب، وتزكي النفوس ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ والحال أن قومك يكفرون بالرحمن، فلم يقابلوا رحمته وإحسانه بالقبول والشكر، بل قابلوها بالإنكار والرد، فلا يعتبرون بمن خلا من قبلهم من القرون المكذبة، كيف أخذهم الله بذنوبهم ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وهذا متضمن التوحيدين: توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، فهو ربي الذي رباني بنعمه منذ أوجدني، وهو إلهي الذي ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في جميع أموري ﴿وَالَيْهِ مَتَابٍ﴾ توبتي ومرجعي.

(٣١) قال تعالى مبينا فضل القرآن الكريم على ستر الكتب المنزلة: ﴿وَلَوْ أَنَّ قَرَأْنَاكَ مِنَ الْكِتَابِ الْإِلَهِيَّةِ﴾ سُورَتِ بِهِ الْجِبَالُ ﴿عَنْ أَمَاكِنَهَا﴾ وَأَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ ﴿جَنَانًا وَأَنْهَارًا﴾ أَوْ كُلُّهُمْ بِهِ الْمَوْتُ ﴿لَكَانَ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ بَلِّ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا

فيأتي بالآيات التي تقتضيها حكمته، ﴿أَفَلَمْ يَأْتِئِمْ﴾، أي: أفلم يعلم ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ فليعلموا أنه قادر على هدايتهم جميعًا، ولكن لا يشاء ذلك، بل يهدي من يشاء ويضل من يشاء ﴿وَلَا يَزَالُ﴾ يا محمد ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من قومك، ﴿تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ من كفرهم بالله، وتكذيبهم إياك، وإخراجهم لك من بين أظهرهم ﴿قَارِعَةٌ﴾؛ أي: نازلة وداهية تفرعهم من أنواع البلاء، أحياناً بالجذب، وأحياناً بالسلب، وأحياناً بالقتل والأسر، وقيل: أراد بالقارعة السرايا التي كان رسول الله ﷺ يبعثها إليهم ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ القارعة، أو أنت يا محمد؛ أي: تنزل أنت قريباً من دارهم بجيشك وأصحابك ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ بالنصر عليهم وفتح مكة، وقيل: القيامة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ أَلْعِكَادَ﴾ وهذا تهديد وتخويف لهم من نزول ما وعدهم الله به على كفرهم وعنادهم وظلمهم.

(٣٢) ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتَ رَسُولَ مِن قَبْلِكَ﴾ فلست أول رسول كُذِّبَ وأوذى ﴿فَأَمَلَيْتَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أمهلتهم مدة ﴿ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ﴾ بأنواع العذاب ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ كان عقاباً شديداً وعذاباً أليماً، فلا يغتر هؤلاء الذين كذبوك واستهزؤوا بك بإمهالنا، فلهم أسوة فيمن قبلهم من الأمم.

(٣٣) ﴿أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: حافظها، ورازقها، وعالم بها، ومجازيها بما عملت وجوابه محذوف، تقديره: كمن ليس بقائم، بل عاجز عن نفسه ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾

(٢٩) في «مسند الإمام أحمد» و«صحيح ابن حبان» من حديث أبي سعيد الخدري الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «طوبى: شجرة في الجنة، مسيرة مائة سنة، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها».

وهو الله الأحد الصمد، الذي لا شريك له، ولا ند ولا نظير ﴿قُلْ﴾ لهم، إن كانوا صادقين: ﴿سَمَوْهُمْ﴾ لنعلم حالهم ﴿أَمْ تَتَّبِعُونَ﴾ بما لا يعلم ﴿فِ الْأَرْضِ﴾؟ أي: لا وجود له؛ لأنه لو كان له وجود في الأرض لعلمها سبحانه؛ لأنه لا تخفى عليه خافية ﴿أَمْ يَظْهَرُ مِنَ الْقَوْلِ﴾ بظن من القول؛ أي: إنما عبدتم هذه الأصنام بظن منكم أنها تنفع وتضر، وسميتموها آلهة ﴿بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾ الذي مكروه، وهو كفرهم وشركهم وتكذيبهم لآيات الله، ﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ عن الطريق المستقيمة، الموصلة إلى الله، وإلى دار كرامته، ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ لأنه ليس لأحد من الأمر شيء.

(٣٤) ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بأيدي المؤمنين قتلاً وأسراً ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾ المدخر لهم، مع هذا الخزي في الدنيا ﴿أَسَقُّ﴾ من عذاب الدنيا لشدته ودوامه ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ يقيه من عذابه، فعذابه إذا وجهه إليهم لا مانع منه، ثم أعقب ذلك ببيان حسب عاقبة المؤمنين، فقال:

(٣٥) ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ صفتها وحقيقتها ﴿الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ﴾ الذين تركوا ما نهاهم الله عنه، ولم يقصروا فيما أمرهم به ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أنهار العسل، وأنهار الخمر، وأنهار اللبن، وأنهار الماء التي تجري في غير أخدود، فتسقي تلك البستين والأشجار، فتحمل جميع أنواع الثمار ﴿أَكُلُوهَا دَائِمًا وَظِلُّهَا﴾ دائم أيضاً ﴿تِلْكَ عُقْبَى

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أَكُلُوهَا دَائِمًا وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥) وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتُبُ بِفِرْحَتِهِمْ أَمَّا أَنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَخْرَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أَشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابُ (٣٦) وَكَذَلِكَ أُنزِلَتْ حُكُمًا عَرَبِيًّا وَلَقَدْ اتَّبَعْتَ أَهْلَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩) وَإِنْ مَا نَرَى مِنْكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَتَوَقَّعُكَ فَاذْنَبْنَا عَلَيْكَ الْكَفَّ وَالْعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١) وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعِلْمُ الْكُفْرِ لِمَنْ عُقْبَى النَّارِ (٤٢)

١٥٤

الَّذِينَ اتَّقَوْا مَالَهُمْ وَعَاقِبَتُهُمُ الْجَنَّةُ إِلَيْهَا يَصِيرُونَ، ﴿وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ ومآل الكافرين نار جهنم.

(٣٦) ﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتُبُ﴾ مننا عليهم بالقرآن وبمعرفته، وهم أصحاب محمد ﷺ ﴿يَفْرَحُونَ﴾ فيؤمنون به ويصدقونه ويفرحون بموافقة الكتب بعضها لبعض، وتصديق بعضها بعضاً ﴿وَمِنَ الْأَخْرَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾ ومن طوائف الكفار المنحرفين عن الحق من ينكر بعض هذا القرآن ولا يصدقها ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أَشْرِكَ بِهِ﴾؛ أي: بإخلاص الدين لله وحده ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ

الله، أن يقع في علمه نقص أو خلل، ولهذا قال: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ اللوح المحفوظ، الذي ترجع إليه سائر الأشياء، فهو أصلها، وهي فروع وشعب، فالتغيير والتبديل يقع في الفروع والشعب، كأعمال اليوم واليلة، التي تكتبها الملائكة، ويجعل الله لثبوتها أسباباً، ولمحوها أسباباً، لا تتعدى تلك الأسباب.

(٤٠) يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَأَمَّا زُيِّنَكَ﴾ يا محمد ﴿بَعْضَ الَّذِي نَعْمُهُمْ﴾؛ أي: نعد أعداءك من الخزي والنكال في الدنيا ﴿أَوْ تَوَفَّنَكَ﴾ قبل إصابتهم، فليس ذلك شغلاً لك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ﴾ والتبيين للخلق ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ فنحاسب الخلق على ما قاموا به، نسيهم أو نعاقيهم.

(٤١) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ الكفار الذين يسألون محمداً ﷺ آيات الاقتراح: ﴿إِنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أكثر المفسرين على أن المراد فتح بلدان المشركين، ونقصهم في أموالهم وأبدانهم، فإن ما زاد في ديار الإسلام فقد نقص في ديار الشرك ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾ فهذه الأحكام التي يحكم الله فيها توجد في غاية الحكمة والإنقان، لا خلل فيها ولا نقص، بل هي مبنية على القسط والعدل والحمد، فلا يتعقبها أحد ولا سبيل إلى القدح فيها ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾؛ أي: فلا يستعجلوا بالعذاب، فإن كل ما هو آت فهو قريب.

(٤٢) ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ برسلهم، وبالحق الذي جاءت به الرسل، فلم يغن عنهم مكرهم، ولم يصنعوا شيئاً، فإنهم يحاربون الله وبارزونه ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾؛ أي: لا يقدر

مَنَابٍ مرجعي الذي أرجع به إليه، فيجازيني بما قمت به من الدعوة إلى دينه، والقيام بما أمرت به.

(٣٧) ﴿وَكَذَلِكَ أُنزِلَتْ﴾ ولقد أنزلنا هذا القرآن والكتاب ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ محكمًا متقنًا بأوضح الألسنة وأفصح اللغات؛ لئلا يقع فيه شك واشتباه، وليوجب أن يتبع وحده، ولا يداهن فيه، ولا يتبع ما يضاده ويناقضه من أهواء الذين لا يعلمون ﴿وَلَكِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ آراءهم في الملة والدين ﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ البين الذي ينهاك عن اتباع أهوائهم ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يتولاك فيحصل لك الأمر المحبوب، ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ يقيك من الأمر المكروه.

وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبل أهل الضلالة بعدما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية والمحجة المحمدية على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام.

(٣٨) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ﴾ لست أول رسول أرسل إلى الناس حتى يستغربوا رسالتك ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً﴾ فلا يعيبك أعداؤك بأن يكون لك أزواج وذرية، كما كان لإخوانك المرسلين ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ﴾ وإن طلبوا منك آية اقترحوها، فليس لك من الأمر شيء ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ والله لا يأذن فيها إلا في وقتها الذي قدره وقضاه ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ لا يتقدم عليه، ولا يتأخر عنه.

(٣٩) ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ من الأقدار ﴿وَيُثَبِّتُ﴾ ما يشاء منها، وهذا المحو والتغيير في غير ما سبق به علمه، وكتبه قلمه، فإن هذا لا يقع فيه تبديل ولا تغيير؛ لأن ذلك محال على



النور الذي يهديهم إليه هذا الكتاب، فقال: ﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ الموصول إليه وإلى دار كرامته، المشتمل على العلم بالحق والعمل به، وفي ذكر ﴿الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ بعد ذكر الصراط الموصول إليه إشارة أن من سلكه فهو عزيز بجزء الله، قوي، ولو لم يكن له أنصار إلا الله، محمود في أموره، حسن العاقبة .

(٢) ﴿اللَّهُ الَّذِي لَمْ يَلَمْ مَافِ السَّمَوَاتِ وَمَافِ الْأَرْضِ﴾ له ملك السموات والأرض خلقًا ورزقًا وتدبيرًا، فله الحكم على عباده بأحكامه الدينية؛ لأنهم ملكه، ولا يليق به أن يتركهم سدى، فلما بين الدليل والبرهان توعد من لم ينقد لذلك، فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ لا يقدر قدره، ولا يوصف أمره.

(٣) ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ فرضوا بها

أحد أن يمكر مكرًا إلا بإذنه، وتحت قضائه وقدره ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾؛ أي: همومها وإرادتها وأعمالها الظاهرة والباطنة ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكَفَرُ لِمَنْ عَقَى الدَّارِ﴾؛ أي: ألهم أو لرسله؟ ومن المعلوم أن العاقبة للمتقين، لا للكفر وأهله.

(٤٣) ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ويسكذبك هؤلاء الكفار، ويقولون: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ ما أرسلك الله، ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ حسبي الله، وهو الشاهد عليّ وعليكم، وشهادته بقوله وفعله وإقراره: أما قوله فيما أوحاه الله إلى أصدق خلقه، مما يثبت به رسالته، وأما فعله: فلأن الله تعالى أيد رسوله ونصره نصرًا خارجًا عن قدرته وقدرة أصحابه وأتباعه، وهذا شهادة منه له بالفعل والتأييد، وأما إقراره: فإنه أخبر الرسول عنه أنه رسول، وأنه أمر الناس باتباعه، فمن اتبعه فله رضوان الله وكرامته، ومن لم يتبعه فله النار والسخط ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ وهذا شامل لكل علماء أهل الكتابين؛ فإنهم يشهدون للرسول ﷺ من آمن واتباع الحق، صرح بتلك الشهادة التي عليه، ومن كتم ذلك فإخبار الله عنه أن عنده شهادة أبلغ من خبره.

سورة إبراهيم

(١) ﴿الرَّ﴾ تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل سورة «البقرة». ﴿كَتَبُ اَنْزَلْنَاهُ اِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ اِلَى النُّورِ﴾ يخبر تعالى أنه أنزل كتابه على رسوله ليخرج الناس من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان، ﴿بِاِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بإرادة من الله ومعونه، ثم فسر

وضلاله إلا بالمحل اللائق به .

(٥) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ يخبر تعالى أنه أرسل موسى بآياته العظيمة الدالة على صدق ما جاء به وصحته وأمره بما أمر الله به رسوله محمد ﷺ، بل وبما أمر به جميع الرسل قومهم ﴿أَنْ أَخْرِجَ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ ظلمات الجهل والكفر وفروعه إلى نور العلم والإيمان وتوابعه ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيُّمِ اللَّهِ﴾ بنعمه عليهم، وإحسانه إليهم، وبأيامه في الأمم المكذبين، ووقائعه بالكافرين؛ ليشكروا نعمه، وليحذروا عقابه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾؛ أي: التذكير بأيام الله ﴿لَايَةً﴾ لدلالات في أيام الله على العباد ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾؛ أي: كثير الصبر في الضراء والعسر والضيق ﴿شَكُورٍ﴾ على السراء والنعمة.

(٦) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ يقول الله مخبراً عن موسى ﷺ، حين ذكر قومه بأيام الله عندهم ونعمه عليهم: ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بقلوبكم وألستكم ﴿إِذْ أَجْنَحَكُمْ مِنَ الْفِرْعَوْنَ﴾ يسومونكم؛ أي: يذيقونكم ويولونكم سوء العذاب أشده، وفسر ذلك بقوله: ﴿وَيَذْخَبُونَ أَنْسَاءَكُمْ﴾ الذكور؛ خوفاً منهم إذا كبروا، ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ يبقونهن فلا يقتلوهن للخدمة والإذلال، ﴿وَفِي ذَلِكَ﴾ الإنجاء ﴿بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ نعمة عظيمة، أو في ذلك العذاب الذي ابتليتم به من فرعون وملئه ابتلاء من الله عظيم لكم.

(٧) ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رَجْبُكُمْ﴾ أعلم ووعد ﴿لَّيْنٍ شَكَّرْتُمْ﴾ والشكر هو اعتراف القلب بنعم الله، والثناء على الله بها، وصرفها في مرضاته،

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَجْنَحَكُمْ مِنَ الْفِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَذْخَبُونَ أَنْسَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ١ وَإِذْ تَأَذَّتْ رَجْبُكُمْ لَّيْنٍ شَكَّرْتُمْ لَا زِيْدَ لَكُمْ وَلَكِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّا عَلَىٰ لَشَيْءٍ ٢ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا قَاتِلُ اللَّهِ ثُمَّ لَقِيَ حَمِيْدٌ ٣ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِّن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِّن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ٤ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِ اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُم مِّنَ الْآبِلِ مُسَقًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَاتَبَ عَبْدُ آبَاؤُنَا فَآتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ٥

واطمأنوا ﴿عَلَى الْآخِرَةِ﴾ وغفلوا عن الدار الآخرة ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ الناس ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ التي نصبها لعباده، وبينها في كتبه، وعلى ألسنة رسله، فهؤلاء قد نابذوا مولاهم بالمعاداة والمحاربة ﴿وَيَغُوثًا﴾ أي: سبيل الله ﴿عِوَجًا﴾ يحرصون على تهجينها وتقبيحها؛ للتنفير منها ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الذين ذكر وصفهم ﴿فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ لأنهم ضلوا وأضلوا، وشاقوا الله ورسوله، وحاربوهما.

(٤) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ بلغتهم ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ ليفهموا عنه، ويتمكنوا من تعلم ما أتى به، ﴿يُفَصِّلُ اللَّهُ مَن يَشَاءُ﴾ ممن لم ينقد للهدى ﴿وَهَدَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ ممن اختصه برحمته، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي من عزته أنه انفرد بالهداية والإضلال، وتقلب القلوب إلى ما شاء، ﴿وَالْحَكِيمُ﴾ ومن حكمته أنه لا يضع هدايته

﴿لَا زِيَادَتَكُمْ﴾ من نعمتي ﴿وَلَيْنَ كَفَرْتُمْ﴾ نعمتي بجحودها وعدم شكرها ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ ومن ذلك: أن يزيل النعم التي أنعم بها عليهم.

(٨) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ فلن تضروا الله شيئاً، فالطاعات لا تزيد في ملكه، والمعاصي لا تنقص، ﴿فَإِنَّكَ اللَّهُ لَعَنَى﴾ وهو كامل الغنى ﴿حَمِيدٌ﴾ في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.

(٩) يقول تعالى مخوفاً عباده، ما أحله بالأمم المكذبة، حين جاءتهم الرسل، فكذبوهم، فعاقبهم بالعقاب العاجل الذي رآه الناس وسمعوه، فقال: ﴿الَّذِينَ يَأْتِيَكُمُ نُبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمٌ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ﴾ وقد ذكر الله قصصهم في كتابه وبسطها ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ من كثرتهم، وكون أخبارهم اندرست ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالأدلة الدالة على صدق ما جاءوا به، ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: لم يؤمنوا بما جاءوا به، ولم يتفوهوا بشيء مما يدل على الإيمان ﴿وَقَالُوا﴾ صريحاً لرسولهم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ، وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾ موجب للتهمة، وموقع في الريبة.

(١٠) ولهذا ﴿قَالَتْ﴾ لهم ﴿رُسُلُهُمْ﴾: ﴿أَفَى اللَّهِ شَكٌّ﴾ هذا استفهام، بمعنى نفي ما اعتقدوه، فإنه أظهر الأشياء وأجلاها، فمن شك في الله ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الذي وجود الأشياء مستند إلى وجوده، لم يكن عنده ثقة بشيء من المعلومات ﴿يَدْعُوَكُمْ﴾ إلى منافعكم ومصالحكم ﴿لِيُغْفَرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ ليشيبيكم على الاستجابة لدعوته بالثواب العاجل والآجل، ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا تَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَيْنَا سَبِيلًا﴾ ﴿وَلْيَصْصِرَتْ عَلَىٰ مَاءٍ اذْيُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِيهَا لَمَّا تَأْتِي قَارُوحُ إِلَهُمُ رَبِّمُ الْبَنَاتِ﴾ ﴿وَالظَّالِمِينَ﴾ ﴿وَلَنَسُكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ ﴿وَأَسْتَفْهَمُوا وَخَافَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ وَشَفَىٰ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ﴾ ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَاذِبُ فِيهِ﴾ ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ ﴿مِثْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ أَعْمَلْتُمْ كُرْهًا وَكَذِبًا أَتَدَّخِرُونَ﴾ ﴿وَمَا كَسَبُوا عَلَيْهِ شَيْءٌ ذَلِكَ هُوَ الْفِتْنَةُ الَّتِي كُفِّرُوا عَنْهَا﴾

أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ في الدنيا، ﴿قَالُوا﴾ لهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ فكيف تفضلوننا بالنبوة والرسالة، ﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ فكيف نترك رأي الآباء وسيرتهم لرأيكم؟! وكيف نطيعكم وأنتم بشر مثلنا؟! ﴿قَالُوا﴾ نُسْطَلِّقُكُمْ بِحُجَّةٍ وَبَيْنَةٍ ظَاهِرَةٍ.

(١١) ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ مجيبين لاقتراحهم واعتراضهم: ﴿إِنْ تَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ صحيح وحقيقة إنا بشر مثلكم ﴿وَلَكِنْ﴾ ليس في ذلك ما يدفع ما جئنا به من الحق، فإن ﴿اللَّهُ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ فإذا منَّ الله علينا بوحيه ورسالته فذلك فضله وإحسانه، وليس لأحد أن يحجر على الله فضله ويمنعه من تفضله، ﴿وَمَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فهو الذي إن شاء جاءكم به، وإن شاء لم يأتكم به،

وهو لا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته ورحمته
﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾
فيعتمدون عليه في جلب مصالحهم، ودفع
مضارهم.

(١٢) ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا
سُبُلَنَا﴾ لا شيء يمنعنا من التوكل على الله؛ لأننا
على الحق والهدى ﴿وَلَنَصِيرَنَّ عَلَى مَا ءَاذِيْتُمُونَا﴾
ولنستمرن على دعوتكم ووعظكم وتذكيركم، ولا
نبالي بما يأتينا منكم من الأذى ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ وحده،
لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فإن التوكل عليه
مفتاح لكل خير.

(١٣) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ﴾ متوعددين
لهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي
مِلَّتِنَا﴾ توعدهم بالإخراج من ديارهم، ونسبوها
إلى أنفسهم، وزعموا أن الرسل لا حق لهما فيها
﴿فَأَوَّحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ بأنواع
العقوبات.

(١٤) ﴿وَلَنَسْخُكَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ وعدهم ربهم
بالتمكن في الأرض، ﴿ذَلِكَ﴾ العاقبة الحسنة
التي جعلها الله للرسول ومن تبعه، جزاء ﴿لَمَنْ
خَافَ مَقَامِي﴾ أي: قيامه بين يدي كما قال:
﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ [الرحمن: ٤٦]،
فأضاف قيام العبد إلى نفسه. ﴿وَخَافَ وَعِيدٌ﴾ ما

توعدت به من عصاني.
(١٥) ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا﴾ أي: الكفار، طلبوا
واستعجلوا فتح الله وفرقانه بين أوليائه وأعدائه
﴿وَخَابَ﴾ خسر في الدنيا والآخرة ﴿كُلُّ
جَبَّارٍ﴾ من تجبر على الله، وعلى الحق، وعلى
عباد الله، واستكبر في الأرض، ﴿عَنِيدٍ﴾ وعاند
الرسل وشاقهم.

(١٦) ﴿مَنْ وَرَّاهُ جَهَنَّمَ﴾ أي: أمامه، فهي لهذا
الجبار العنيد بالمرصاد ﴿وُسُقًى مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾؛
أي: هو صديد، وهو ما يسيل من جلود أهل
النار، وهو القيق والدّم، وهو في غاية الحرارة.

(١٧) ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ أي: يتحسّاه ويشربه جُرْعًا،
لا مرة واحدة؛ لمرارته وحرارته ﴿وَلَا يَكَادُ
يُسِيغُهُ﴾ أي: لا يكاد يزدرده - أي: يتلعه
- وهو مسيغه لشدة العش فإذا أساغه قطع
أمعاء! فإنه إذا قرب إلى وجهه شواه، وإذا وصل
إلى بطنه قطع ما أتى عليه من الأمعاء ﴿وَيَأْتِيهِ
الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: ويأتيه العذاب
الشديد من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه
وشماله، ومن كل موضع من أعضاء جسده،
﴿وَمَا هُوَ بِحَيِّتٍ﴾ ولكن الله قضى أن لا يموتوا
﴿وَمِنْ وَرَائِهِ﴾ الجبار العنيد ﴿عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾
قوي شديد.

(١٣) في «الصحيحين» من حديث عائشة رضي الله عنها في بدء الوحي: «فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد
العزى - ابن عم خديجة - ، وكان امرؤا تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء
الله أن يكتب، وكان شيخا كبيرا قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي،
ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعًا،
ليتني أكون حيًا إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: «أومخرجي هم؟». قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به
إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرا. ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي».

(١٥): (١٦) أخرج الإمام أحمد والترمذي بإسناد صحيح أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إنه يؤتى بجهنم يوم القيامة، فتنادي
الخلافت: إني وكلت بكل جبار عنيد».

(١٨) ثم ضرب الله مثلاً لأعمال الكفار الذين عبدوا مع الله غيره، وكذبوا رسله، وبنوا أعمالهم على غير اساس صحيح؛ فانهارت وعدموها أحوج ما كانوا إليها، فقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ﴾؛ أي: مثل أعمال الذين كفروا يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى ﴿كِرَامًا أَشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ لأنهم كانوا يحسبون أنهم على شيء، فلم يجدوا شيئاً، ولا ألفوا حاصلًا إلا كما يتحضر من الرماد إذا اشتدت به الرياح ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ شديد الهبوب فإنهم ﴿لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ إلا كما يقدرون على جمع هذا الرماد في هذا اليوم ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَلُ الْبَعِيدُ﴾ أي: سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما هم إليه!

(١٩) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَنْبِيهِ تَعَالَى عِبَادَهُ بِأَنَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ ليعبده الخلق ويعرفوه، ويأمرهم وينهاهم، وليستدلوا بهما، وما فيهما، على ما له من صفات الكمال، ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ سواكم يكونون أطوع لله منكم.

(٢٠) ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ بممتنع، بل هو سهل عليه جداً.

﴿وَيَبْرُؤُوا﴾؛ أي: الخلائق ﴿لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ حين ينفخ في الصور، فيخرجون من الأجداث إلى ربهم ويبروزون لا يخفى عليه منهم خافية، فإذا برزوا صاروا يتحاجون، وكل يدفع عن نفسه، ويدافع ما يقدر عليه، ولكن أتى لهم ذلك؟! ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾؛ أي: التابعون والمقلدون ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم: المتبعون

الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ ﴿وَيَبْرُؤُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْتَدُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَا لَكُمُ سَوَاءً عَلَيْنَا أَجْرُ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّجِيصٍ﴾ ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِ خَيْرٍ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿وَأَدْخَلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحِبَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾

الذين هم قادة في الضلال: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ في الدنيا، أمرتمونا بالضلال، وزينتموه لنا، فأغويتمونا ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ﴾ اليوم ﴿مُعْتَدُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ولو مثقال ذرة؟ ﴿قَالُوا﴾ أي: المتبوعون والرؤساء: ﴿لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَا لَكُمُ سَوَاءً عَلَيْنَا أَجْرُ عَنَّا﴾ من العذاب ﴿أَمْ صَبَرْنَا﴾ عليه ﴿مَا لَنَا مِنْ مَّجِيصٍ﴾ لا ملجأ نلجأ إليه، ولا مهرب لنا من عذاب الله.

(٢٢) ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ﴾ الذي هو سبب لكل شر يقع ووقع في العالم، مخاطباً لأهل النار، ومتبرئاً منهم ﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ على السنة رسله، فلم تطيعوه، فلو أطيعتموه؛ لأدرتكم الفوز العظيم، ﴿وَوَعَدْتُكُمْ﴾ الخير

قسط من العذاب ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ تبرأت من جعلكم لي شريكاً مع الله، فليست شريكاً لله، ولا تجب طاعتي ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ لأنفسهم بطاعة الشيطان ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ خالدين فيه أبداً.

(٢٣) ولما ذكر عقاب الظالمين ذكر ثواب الطائعين، فقال: ﴿وَأَدْخِلْ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ أي: الذين قاموا بالدين قولاً وعملاً واعتقاداً، ﴿جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فيها من اللذات والشهوات ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ لا بحولهم وقوتهم، بل بحول الله وقوته ﴿يُحْيِيهِمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ يُحْيِي بعضهم بعضاً بالسلام والتحية والكلام الطيب.

(٢٤) ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم ﴿كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ وهي: شهادة أن لا إله إلا الله وفروعها ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهي: النخلة ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ في الأرض ﴿وَفُرْعَاهَا﴾ منتشر ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ وهي كثيرة النفع دائماً.

(٢٥) ﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا﴾ ثمرتها ﴿كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ فكَذَلِكَ شجرة الإيمان، أصلها ثابت في قلب المؤمن علماً واعتقاداً، وفرعها من الكلم الطيب، والعمل الصالح، والأخلاق المرضية، والآداب الحسنة، في السماء دائماً، يصعد إلى الله منه من الأعمال والأقوال التي تخرجها شجرة

تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلِّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلَ اللَّهُ أَتَدَا لِيُضِلَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ قُلْ لِمَا دُعِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا فِيمَا أَصْلَحُوا وَتُفْقَهُوا مِنَّا زُفْلَتُهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبْعُ فِيهِ وَلَا يَخْلُ ﴿٣١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَبَنَى لَكُمْ آيَاتٍ وَاللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾

﴿فَاخْلَفْتُكُمْ﴾ لم يحصل، ولن يحصل لكم ما منيتكم به من الأمانى الباطلة ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ من حجة على تأييد قولي ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾؛ أي: هذا نهاية ما عندي، أني دعوتكم إلى مرادي، وزينته لكم، فاستجبتم لي؛ اتباعاً لأهوائكم وشهواتكم، فإذا كانت الحال بهذه الصورة ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ فأنتم السبب، وعليكم المدار في موجب العقاب ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ بمغيثكم من الشدة التي أنتم بها ﴿وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ كل له

(٢٠) أخرج الشيخان عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فقال: «أخبروني عن شجرة تشبه المسلم، لا يتحات وقرها، تؤتي أكلها كل حين؟» قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكل، فلما لم يقولوا شيئاً، قال رسول الله ﷺ: «هي النخلة». فلما قمنا قلت لعمر: يا أبا عبد الله، والله، لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة، قال: ما منعك أن تكلم؟ قال: لم أركم تتكلمون، فكرهت أن أتكل أو أقول شيئاً. قال عمر: لأن تكون قلتها أحب إلي من كذا وكذا.

محمد ﷺ إليهم يدعوهم إلى إدراك الخيرات في الدنيا والآخرة، وإلى النجاة من شرور الدنيا والآخرة، فبدلوا هذه النعمة بردها والكفر بها، والصد عنها بأنفسهم، ﴿وَصَدَّاهُمْ غَيْرَهُمْ حَتَّى أَهْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ وهي النار.

(٢٩) ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ يحيط بهم حرها من جميع جوانبهم ﴿وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ المستقر.

(٣٠) ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ نظراء وشركاء ﴿لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ ليضلوا العباد عن سبيل الله بسبب ما جعلوا لله من الأنداد، ودعوهم إلى عبادتها ﴿قُلْ﴾ لهم متوعداً: ﴿تَمَتَّعُوا﴾ بكفركم وضلالكم قليلاً، فليس ذلك بنافعكم، ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ مآلكم ومأواكم فيها.

(٣١) ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أمراً لهم بما فيه غاية صلاحهم، وأن ينتهزوا الفرصة قبل أن لا يمكنهم ذلك ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ ظاهراً وباطناً ﴿وَيُؤْتُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من النعم التي أنعمنا بها عليهم قليلاً أو كثيراً ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ وهذا يشمل النفقة الواجبة كالزكاة، ونفقة من تجب عليه نفقته، والمستحبة كالصدقات ونحوها ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٍ﴾ لا ينفع فيه شيء، ولا سبيل إلى استدراك ما فات، لا بمعاوضة بيع وشراء، ولا بهبة خليل وصديق.

(٣٢) ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ يخبر تعالى أنه وحده على اتساعهما وعظُمهما ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وهو المطر الذي ينزله الله من السحاب ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ﴾ بذلك الماء ﴿مِنْ الثَّمَرَاتِ﴾

الإيمان ما ينتفع به المؤمن، وغيره ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ما أمرهم به ونهاهم عنه.

(٢٦) ﴿وَمِثْلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ وهي الشرك ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ المأكَل والمطعم، وهي: شجرة الحنظل ونحوها ﴿اجْتَنَّتْ﴾ هذه الشجرة ﴿مَنْ فَوْقَ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ أي: من ثبوت، فلا عروق تمسكها، ولا ثمرة صالحة تنتجها، بل إن وجد فيها ثمرة فهي ثمرة خبيثة، كذلك كلمة الكفر والمعاصي، ليس لها ثبوت نافع في القلب، ولا تثمر إلا كل قول خبيث، وعمل خبيث، يؤذي صاحبه، ولا يصعد إلى الله منه عمل صالح، ولا ينفع نفسه، ولا ينتفع به غيره.

(٢٧) ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يخبر تعالى أنه يثبت عباده المؤمنين في الحياة الدنيا عند ورود الشبهات بالهداية إلى اليقين، وعند عروض الشهوات بالإرادة الجازمة، على تقديم ما يحبه الله على هوى النفس ومرادها ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ عند الموت بالثبات على الدين الإسلامي، والخاتمة الحسنة، وفي القبر عند سؤال الملكين للجواب الصحيح ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ عن الصواب في الدنيا والآخرة ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ من التوفيق والخذلان، والتثبيت والحرمان.

(٢٨) يقول تعالى مبيناً حال المكذبين لرسوله من كفار قريش، وما آل إليه أمرهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ ونعمة الله هي: إرسال

(٢٦) في «الصحيحين» من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سئل في القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾».

يفتران، ولا ينيان، يسعيان لمصالحكم: من حساب أزمتمكم، ومصالح أبدانكم، وحيواناتكم، وزروعكم وثماركم، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ﴾ لتسكنوا فيه ﴿وَالنَّهَارَ﴾ مبصرًا لتبتغوا من فضله.

(٣٤) ﴿وَعَاتِبْكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أعطاكم من كل ما تعلق به أمانيتكم وحاجتكم ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ فضلًا عن قيامكم بشكرها ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقَفُلُومٌ﴾ هذه طبيعة الإنسان من حيث هو ظالم متجرب على المعاصي، مقصر في حقوق ربه ﴿كَفَّارٌ﴾ نعم الله، لا يشكرها، ولا يعترف بها، إلا من هداه الله فشكر نعمه، وعرف حق ربه، وقام به.

(٣٥) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ اذكر إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - في هذه الحالة الجميلة إذ قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ﴾ أي: الحرم ﴿ءَامِنًا﴾ فاستجاب الله دعاءه شرعًا وقدرًا، فحرمه الله في الشرع، ويسر من أسباب حرمة قدرًا ما هو معلوم، حتى إنه لم يرده ظالم بسوء إلا قصمه الله، كما فعل بأصحاب الفيل وغيرهم ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ اجعلني وإياهم جانبًا بعيدًا عن عبادتها، والإلمام بها.

(٣٦) ﴿رَبِّ إِنِّهْنِ أَضَلَّلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ أي: ضلوا بسببها ﴿فَمَنْ يَبْعَثْ﴾ على ما جئت به من

وَعَاتِبْكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقَفُلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنِّهْنِ أَضَلَّلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ يَبْعَثْ فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَبَّنَا إِنِّي أَصْغَيْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَإٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا تُخْفِي وَمَا تُعْلِنُ وَمَا تُخْفِي عَلَيَّ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَفُولًا عما يعملُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ فِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾

المختلفة الأنواع ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ ورزقًا لأنعامكم ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ﴾ السفن والمراكب ﴿لِتَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ فهو الذي يسر لكم صنعتها، وحفظها على تيار الماء لتحملكم وتحمل تجارتكم وأمتعتكم إلى بلد تقصدونه ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ لتسقي حروثكم وأشجاركم، وتشربوا منها.

(٣٣) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ لا

(٣٤) في «صحيح البخاري» من حديث أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم لك الحمد غير مكفي، ولا مودع، ولا مستغنى عنه ربنا».

(٣٦) في «صحيح مسلم» من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّهْنِ أَضَلَّلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ يَبْعَثْ فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وقول عيسى عليه السلام: ﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَوَفَّرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَنِيُّ الْحَكِيمُ﴾، ورفع يديه ثم قال: «اللهم أمتي، اللهم أمتي، وبكى، فقال الله: «يا جبريل، اذهب إلى محمد - وربك أعلم - وسله ما يبكيك؟» فأناه جبريل عليه السلام فسأله؟ فأخبره رسول الله ﷺ ما قال، -وهو أعلم- فقال الله: «يا جبريل، اذهب إلى محمد؛ فقل له: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك».

التوحيد والإخلاص لله رب العالمين ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾
لتمام الموافقة، ومن أحب قوماً واتبعهم التحق بهم
﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وهذا من شفقة
الخليل عليه الصلاة والسلام؛ حيث دعا للعاصين
بالمغفرة والرحمة من الله، والله تبارك وتعالى
أرحم منه بعباده، لا يعذب إلا من تمرد عليه.

(٣٧) ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ بعض
ذريتي؛ لأن إسحاق في الشام، وباقي بنيه
كذلك، إنما أسكن في مكة إسماعيل وذريته
﴿يَوَادِّ غَيْرَ ذِي زَرْعٍ﴾ لأن أرض مكة لم يكن فيها
ماء ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: اجعلهم
موحدين مقيمين الصلاة ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ
تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ تحبهم، وتحب الموضع الذي هم
ساكنون فيه ﴿وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ
يَشْكُرُونَ﴾ فأجاب الله دعاءه، فصار يجبي إليه
ثمرات كل شيء.

(٣٨) ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ أي:
أنت أعلم بنا منا، ﴿وَمَا يُخْفِي عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي
الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ ومن ذلك هذا الدعاء الذي
لم يقصد به الخليل إلا الخير، وكثرة الشكر لله
رب العالمين.

(٣٩) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ
إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ فذلك من أكبر النعم، وكونه
على الكبر في حالة الإياس من الأولاد نعمة
أخرى، وكونهم أنبياء صالحين أجل وأفضل ﴿إِنْ
رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ لقريب الإجابة ممن دعاه.

(٤٠) ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ ممن يقيم
الصلاة بأركانها ويحافظ عليها ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ اجعل
من ذريتي من يقيمون الصلاة ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ
دُعَاءَ﴾ تقبل عملي وعبادتي واستجب دعائي.

مُهَاطَمَاتٍ مُّقْبَحَةٍ وَوَسَّعَ رَبِّي يَهُدَى لَّهُ الْبَحْرُ فَأُنَادِيهِمْ
هَؤُلَاءِ ﴿٣٦﴾ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ
ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ أَجْلِ قُرْبِ حُبِّ دَعْوَتِكَ وَتَشْجِعُ
الرُّسُلَ أَوْلَمَ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم
مِّنْ زَوَالٍ ﴿٣٥﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا
أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا
لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٣٤﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ
مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لَتَنْوِلُنَّ مِنَ الْجَبَالِ
﴿٣٣﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلَّفَ وَعْدِهِ رَسُولُهُ وَإِنَّ اللَّهَ غَيْرُ
ذُو انْتِقَامٍ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ
وَرَبُّوهُ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الْغَفَّارُ ﴿٣١﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ
مُتَّقِرِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٠﴾ سَرَابِلُهُمْ مِّنْ فَطْرَانَ وَقَعْنِي
وُجُوهُهُمُ النَّارُ ﴿٢٩﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ
إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٨﴾ هَذَا بَالِغُ النَّاسِ وَلِيُنذِرُوا
بِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ وَجَدُوا لَكُمْ أَوْلَادًا كَرُوهَا أَلَّا يَلْبَسَ

(٤١) ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَتِي﴾ أراد إن أسلما
وأنابا، أو قبل أن يتبين له عداوة والده لله ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ اغفر للمؤمنين كلهم ﴿يَوْمَ يَقُومُ
الْحِسَابُ﴾ يوم تحاسب عبادك فتجزئهم
بأعمالهم، إن خيراً؛ فخير، وإن شراً فشر.
فاستجاب الله له في ذلك كله؛ إلا أن دعاءه لأبيه
إنما كان عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين أنه
عدو لله تبرأ منه.

(٤٢) ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ يا محمد ﴿اللَّهُ غَفْلًا عَمَّا
يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ حيث أمهلهم وأدر عليهم
الأرزاق، وتركهم يتقلبون في البلاد، آمنين
مطمئنين، فليس في هذا ما يدل على حسن
حالهم، فإن الله يملئ للظالم ويمهله؛ ليزداد
إثماً، حتى إذا أخذه لم يفلته ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ
تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ لا تطرف من شدة ما ترى

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩ ، ١٠٠].

(٤٥) ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي الدُّنْيَا فِي مَسْكَنٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالكفر والعصيان ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ من أنواع العقوبات، ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾ الواضحة التي لا تدع أدنى شك في القلب إلا أزالته، فلم تنفع فيكم تلك الآيات.

(٤٦) ﴿وَقَدْ مَكَرُوا﴾ أي: المكذبون للرسول ﴿مَكَرَهُمُ﴾ الذي وصلت إليه إرادتهم، وقدرُوا عليه ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي: جزاء مكرهم، وهو محيط به علماً وقدره ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِنَزُولِ مِنْهُ الْجِبَالِ﴾ ولقد كان مكر الكفار المكذبين للرسول بالحق، لتزول الجبال الراسيات بسببه عن أماكنها.

(٤٧) ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُحْضِلَ وَعْدِهِ﴾ رُسُلُهُ ﴿بِنَجَاتِهِمْ وَنَجَاةِ أَتْبَاعِهِمْ وَسَعَادَتِهِمْ، وَإِهْلَاكِ أَعْدَائِهِمْ وَخِذْلَانِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَعِقَابِهِمْ فِي الْآخِرَةِ، فَهَذَا لَا بَدَّ مِنْ وَقُوعِهِ؛ لَأَنَّهُ وَعَدَ بِهِ الصَّادِقُ قَوْلًا عَلَى أَلْسِنَةِ أَصْدَقِ خَلْقِهِ، وَهُمْ: الرُّسُلُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَعْجِزُهُ شَيْءٌ، فَإِنَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ إذا أراد أن ينتقم من أحد فإنه لا يفوته ولا يعجزه.

(٤٨) ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ﴾

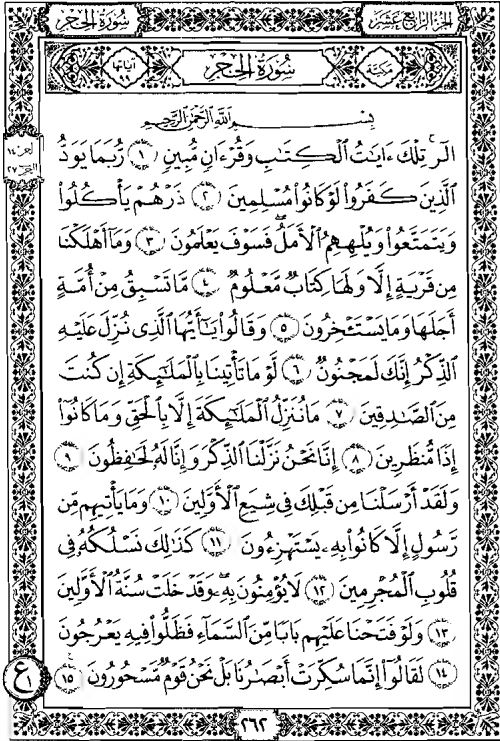
من الأحوال وما أزعجها من القلاقل، والآية لتسلية المظلوم وتهديد الظالم.

(٤٣) ﴿مُهْطِينَ﴾ مسرعين إلى إجابة الداعي حين يدعوهم إلى الحضور بين يدي الله للحساب، ﴿مُقْبِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ رافعيها، قد غُلَّتْ أيديهم إلى الأذقان، فارتفعت لذلك رؤوسهم ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة النظر، وهي شاخصة طائرة، قد شغلهم ما بين أيديهم ﴿وَأَفْتَدَتْهُمْ هَوَاءٌ﴾ أفندتهم فارغة من قلوبهم، قد صعدت إلى الحناجر، لكنها مملوءة من كل هم وغم وحزن وقلق.

(٤٤) ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ﴾ خَوْفُهُمْ ﴿يَوْمَ﴾ بيوم، ﴿يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ وهو يوم القيامة، حين يأتي في شدائده وقلاقله ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالكفر والتكذيب، وأنواع المعاصي، نادمين على ما فعلوا، سائلين للرجعة في غير وقتها: ﴿رَبَّنَا أَخْرِنَا﴾ أمهلنا ﴿إِلَّا أَجَلٌ قَرِيبٌ﴾ ردنا إلى الدنيا، فإننا قد أبصرنا ﴿نُحِبُّ دَعْوَتَكَ﴾ والله يدعو إلى دار السلام ﴿وَتَتَّبِعِ الْأَرْسُلَ﴾ وهذا كله لأجل التخلص من العذاب الأليم، وإلا فهم كذبة في هذا الوعد، ولهذا يوبخون ويقال لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلُ﴾ حلفتُمْ في دار الدنيا ﴿مَّا لَكُمْ مِّنْ زَوَالٍ﴾ عن الدنيا وانتقال إلى الآخرة، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل: ٢٣٨].

(٤٨) في «الصحاحين» من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرضة النقي، ليس فيها معلّم لأحد».

وفي «صحيح مسلم» عن مسروق عن عائشة أنها قالت: أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾، قالت: قلت: أين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «على الصراط».



تبدل غير السماوات، وهذا التبديل تبديل صفات، لا تبديل ذات، فإن الأرض يوم القيامة تسوى وتمد كمد الأديم، ويلقى ما على ظهرها من جبل ومعلم، فتصير قاعاً صاففاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمثاً، وتكون السماء كالمهل - أي: كعكر الزيت - من شدة أهوال ذلك اليوم، ثم يطويها الله تعالى بيمينه ﴿وَبَرَزُوا﴾ أي: الخلائق من قبورهم إلى يوم بعثهم ونشورهم في محل لا يخفى منهم على الله شيء ﴿لِلَّهِ الْوَحْدُ الْقَهَّارُ﴾ المتفرد بعظمته، وقهره لكل العوالم، فكلها تحت تصرفه وتديره.

(٤٩) ﴿وَنَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾ الذين وصفهم الإجماع وكثرة الذنوب ﴿يَوْمِذٍ﴾ في ذلك اليوم ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ مشدودين بعضهم ببعض ﴿فِي الْأَصْفَادِ﴾ بسلاسل من نار.

(٥٠) ﴿سَرَابِثُهُمْ﴾ ثيابهم ﴿مِنْ قَطْرَانٍ﴾ وهو الذي تطلّى به الإبل الجرباء، وهي ألصق شيء بالنار ﴿وَتَغْنَى وَجُوهَهُمْ﴾ التي هي أشرف ما في أبدانهم ﴿النَّارُ﴾ تحيط بها، وتصلها من كل جانب.

(٥١) ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ من خير وشر، بالعدل والقسط ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ سريع المحاسبة.

(٥٢) ﴿هَذَا﴾ القرآن ﴿بَلَّغٌ لِلنَّاسِ﴾ يتبلغون به، ويتزودون إلى الوصول إلى أعلى المقامات وأفضل الكرامات، ﴿وَلِيُنذِرُوا بِهِ﴾ لما فيه من الترهيب من أعمال الشر، وما أعد الله لأهلها من العقاب، ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَحْدٌ﴾ ليستدلوا بهذه الآيات

على وحدانية الله، حيث صرف فيه من الأدلة والبراهين على ألوهيته ووحدانيته، ما صار ذلك حق اليقين ﴿وَلِيَذْكُرُوا﴾ ليتعظ ﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ العقول الكاملة ما ينفعهم في فعلونه، وما يضرهم فيتركونه.

سورة الحجر

- (١) ﴿الرَّ﴾ تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل سورة «البقرة» ﴿تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ﴾ أي: الآيات الدالة على أحسن المعاني، وأفضل المطالب، ﴿وَقُرْءَانِ مُبِينٍ﴾ للحقائق.
- (٢) ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ إخبار أنهم سيندمون ويتمنون أنهم مسلمون،

(٢) اخرج ابن جرير وابن أبي عاصم في «السنة» والحاكم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه الصحيح عن رسول الله ﷺ قال: «إذا اجتمع أهل النار في النار، ومعهم من شاء الله من أهل القبلة، قال الكفار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى.»

جهلوا مصلحتهم من مضرتهم، فليس في إنزال الملائكة، خير لهم.

(٨) ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ بل لا ينزل الله الملائكة إلا بالحق الذي لا إمهال على من لم يتبعه وينقذ له، ﴿وَمَا كَانُوا إِذَا﴾ حين تنزل الملائكة، إن لم يؤمنوا، ولن يؤمنوا ﴿مُنْظَرِينَ﴾ بممهلين.

(٩) ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ القرآن الذي فيه ذكرى لكل شيء ﴿وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ في حال إنزاله، وبعد إنزاله.

(١٠) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ رسلاً ﴿فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ﴾ فرقهم وجماعتهم.

(١١) ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ﴾ يدعوهم إلى الحق والهدى ﴿إِلَّا كَانُوا بِهِ سِنِينَ﴾ كما فعلوه بك، ذكره تسلياً للنبي ﷺ.

(١٢) ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ﴾ أي كما سلكنا الكفر في قلوب شيع الأولين بالاستهزاء وبالرسل، كذلك نفعل ذلك في قلوب ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ الذين وصفهم الظلم والبهت من مشركي قومك الذين أجرموا بالكفر بالله.

(١٣) ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بمحمد ﷺ والقرآن ﴿وَقَدْ خَلَّتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ عادة الله فيهم بإهلاك من لم يؤمن بآيات الله.

(١٤) ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ﴾ على الذين يقولون: ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ﴾ ﴿أَبَاءَ مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ فصاروا يعرجون فيه، ويشاهدونه

منقادون لأحكامه في الدار الدنيا، وذلك حين يخرج الله المؤمنين من النار.

(٣) ﴿ذَرَهُمْ﴾ يا محمد ﴿يَاكُفُّوا﴾ في الحياة الدنيا ﴿وَيَسْتَمْتِعُوا﴾ بلذاتهم ﴿وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ﴾ يؤملون البقاء في الدنيا، فيلهيهم عن الآخرة، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أن ما هم عليه باطل، وأن أعمالهم ذهبت خسراناً عليهم، ولا يغتروا بإمهال الله تعالى، فإن هذه سنته في الأمم.

(٤) ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ﴾ كانت مستحقة للعذاب ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ أجل مضروب، وموعد مقدر لإهلاكها.

(٥) ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَهْلَهَا﴾ لا تتقدم أمة موعد هلاكها وعذابها ﴿وَمَا يَسْتَخِرُونَ﴾ ولا تؤخر إذا حان هلاكها عن ميقاتها.

(٦) ﴿وَقَالُوا﴾ وقال المكذبون لمحمد ﷺ استهزاء وسخرية: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ على زعمك ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ إذ تظن أنا سنتبعك ونترك ما وجدنا آباءنا لمجرد قولك.

(٧) ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ﴾ يشهدون لك بصحة ما جئت به ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فلما لم تأت بالملائكة فلست بصادق. وهذا من أعظم الظلم والجهل:

أما الظلم؛ فظاهر، فإن هذا تجرؤ على الله وتعنّت بتعيين الآيات التي لم يخترها، وحصل المقصود والبرهان بدونها من الآيات الكثيرة الدالة على صحة ما جاء به، وأما الجهل؛ فإنهم

قالوا: فما أغنى عنكم الإسلام، فقد صرتم معنا في النار. قالوا: كانت لنا ذنوب؛ فأخذنا بها. فسمع الله ما قالوا، فأمر بمن كان في النار من أهل القبة؛ فأخرجوا، فلما رأى ذلك من بقي من الكفار، قالوا: يا ليتنا كنا مسلمين، فنخرج كما خرجوا. قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿الرَّيُّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ ١ رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ».

عياناً بأنفسهم. (١٥) ﴿لَقَالُوا﴾ من ظلمهم وعنادهم، منكرين لهذه الآية: ﴿إِنَّمَا سَكَّرَتْ أَبْصَرُنَا﴾ أصابها سُكْرٌ وغشاة، حتى رأينا ما لم نر، ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْجُورُونَ﴾ ليس هذا بحقيقة، بل هذا سحر.

(١٦) ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ نجومًا كالأبراج والأعلام العظام يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر ﴿وَرَبَّنَّهَا لِلنَّظِيرِينَ﴾ فإنه لولا النجوم لما كان للسماء هذا المنظر البهي، والهيئة العجيبة. وهذا كقوله تعالى: ﴿بَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا يَرْمًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١].

(١٧) ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ إذا استرق السمع أتبعته الشهب الثواقب؛ فبقيت السماء ظاهرها مجملًا بالنجوم النيرات، وباطنها محروسًا ممنوعًا من الآفات.

(١٨) ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ لكن في بعض الأوقات قد يسترق بعض الشياطين السمع بخفية واختلاس، ﴿فَأَتَعَهُ شِهَابٌ﴾ شعلة من النار ﴿مُتَبِّينٌ﴾ بين منير يقتله أو يخبله.

(١٩) ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ وسعناها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ جبالاً عظامًا ﴿وَأَبْتَنَّا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ من كل شيء مقدر، وبحد معلوم.

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرَبَّنَّهَا لِلنَّظِيرِينَ ﴿١٥﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٦﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴿١٧﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَبْتَنَّا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلْنَا الْكُرُوسِيَ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَمْ يَرْزُقِينَ ﴿١٩﴾ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢٠﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ فَاذْرَانَا فِي السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَا كُومَهُ وَمَا أَنْشَرْنَاهُ إِلَّا بِحُزْنٍ ﴿٢١﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدَرِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَحْرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْكُمُهُمْ إِنَّهُمْ هَكِيمٌ عِلْمٌ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٥﴾ وَالْبَآنُ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَلَمٍ مِنْ تَارِ السُّمُورِ ﴿٢٦﴾ وَإِذَا قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ مِثْرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمُ سُجْدِينَ ﴿٢٨﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَتْمَعُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ ابْنُكَ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٠﴾

(٢٠) ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ﴾ من الحرث، ومن الماشية، ومن أنواع المكاسب والحرف ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَمْ يَرْزُقِينَ﴾ أنعمنا عليكم بعبيد وإماء، وأنعام؛ لنفعكم ومصالحكم، وليس عليكم رزقها، بل خولكم الله إياها، وتكفل بأرزاقها.

(٢١) ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ﴾ وما من شيء ﴿إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ مفاتيح خزائنه، فجميع الأرزاق وأصناف

(١٨) في «صحيح البخاري» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاء لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فُزِعَ عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق، وهو العلي الكبير. فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع هكذا واحد فوق آخر - ووصف سفيان بيده ففرج بين أصابع يده اليمنى، نصبها بعضها فوق بعض - فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمي بها إلى صاحبه فيحرقه، وربما لم يدركه حتى يرمي بها إلى الذي يليه إلى الذي هو أسفل منه، حتى يلغوها إلى الأرض - وربما قال سفيان: حتى تنتهي إلى الأرض - فتلقى على فم الساحر أو الكاهن فيكذب معها مائة كذبة، فيصدق، فيقولون: ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا، فوجدناه حقًا؟ للكلمة التي سمعت من السماء».

الأقدار لا يملكها أحد إلا الله، فخزائنها بيده، يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، بحسب حكمته ورحمته الواسعة ﴿وَمَا نُثَرِّلُهُ﴾؛ أي: المقدر من كل شيء من مطر وغيره ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾، فلا يزيد على ما قدره الله، ولا ينقص منه.

(٢٢) ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ فَاُنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً وَسَخَرْنَا الرِّيحَ: رياح الرحمة تلحق السحاب فينشأ عن ذلك الماء بإذن الله، ﴿فَأَسْقَيْنَكُمُوهُ﴾ فيسقيه الله العباد، ومواشيهم، وأرضهم، ويبقى في الأرض مدخرًا لحاجاتهم وضروراتهم ما هو مقتضى قدرته ورحمته ﴿وَمَا أَنتُمْ لَمْ يَخْزِنِي﴾ لا قدرة لكم على خزنه وادخاره.

(٢٣) ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾؛ أي: هو وحده لا شريك له الذي يحيي الخلق من العدم، بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا، ويميتهم لآجالهم التي قدرها ﴿وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ يرث الله الأرض ومن عليها وإليه يرجعون.

(٢٤) ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمُ﴾ المستقدمون في صفوف الصلاة ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَخْرِينَ﴾ والمستأخرون فيها، وذلك أن النساء يقفن خلف الرجال، فربما كان من الرجال من في قلبه ريبة فيتأخر إلى آخر صفوف الرجال، ومن النساء من كانت في قلبها ريبة فتتقدم إلى أول صفوف النساء

لتقرب من الرجال.

وهذه الآية دالة على كمال علم الله، وأنه محيط بكل شيء، لا تخفى عليه خافية.

(٢٥) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ وهو الذي قدرته لا يعجزها معجز، فيعيد عباده خلقًا جديدًا، ويحشرهم إليه ﴿إِنَّهُمْ حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، ﴿عَلِيمٌ﴾ ويجازي كل عامل بعمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

(٢٦) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ آدم عليه السلام ﴿مِنْ صَلَافٍ﴾ من طين قد يبس بعدما خمر، حتى صار له صلصلة وصوت كصوت الفخار ﴿مِنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾ الطين المتغير لونه وريحه من طول مكثه.

(٢٧) ﴿وَالْجَانَّ﴾ وهو أبو الجن؛ أي: إبليس ﴿خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ﴾ خلق آدم ﴿مِنْ نَّارِ السَّمُومِ﴾ من النار الشديدة الحرارة.

(٢٨) ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ﴾ فلما أراد الله خلق آدم قال للملائكة: ﴿إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلَافٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾.

(٢٩) ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ﴾ جسدًا تامًا ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي﴾ فصار بشرًا حيًا، والروح جسم شريف يحيا به الإنسان، وأضافه إلى نفسه تشريفًا ﴿فَقَعُوا لَّهُمْ سَجِدِينَ﴾ فامتلوا أمر ربهم، وسجدوا سجود

(٢٤) أخرج الترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما بإسناد صحيح؛ قال: كانت امرأة تصلي خلف النبي حسناء من أجمل الناس، فكان الناس يصلون في آخر صفوف الرجال، فينظرون إليها، فكان أحدهم ينظر إليها من تحت إبطه إذا ركع، وكان أحدهم يتقدم إلى الصف الأول حتى لا يراها، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمُ﴾ ولقد علمنا المستخزين.

(٢٥) في «صحيح مسلم» من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «يبعث كل عبد على ما مات عليه». (٢٧) في «صحيح مسلم» من حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من نار، وخلق آدم مما وصف لكم».

الأشجار، وأينعت فيها جميع الثمار اللذيذة في جميع الأوقات.

(٤٦) ويقال لهم حال دخولها: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ﴾ من الموت، والنوم، والنصب، واللغوب، وانقطاع شيء من النعيم الذي هم فيه، أو نقصانه، ومن المرض، والحزن، والهم، وسائر المكدرات.

(٤٧) ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ﴾ فتبقى قلوبهم سالمة من كل غل وحسد، متصافية متحابية ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ دل ذلك على تزاورهم واجتماعهم وحسن أديهم فيما بينهم، في كون كل منهم مقابلاً للآخر، لا مستدبراً له، متكئين على تلك السرر المزينة بالفرش واللؤلؤ، وأنواع الجواهر.

(٤٨) ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ مشقة وتعب، ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ وهذه أنص آية في القرآن على الخلود.

(٤٩) ﴿نَبِيٍّ عِبَادِي﴾ أخبرهم خبراً جازماً مؤيداً بالأدلة ﴿أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ فإنهم إذا عرفوا كمال رحمته ومغفرته، سعوا بالأسباب الموصلة لهم إلى رحمته، وأقلعوا عن الذنوب، وتابوا منها؛ لينالوا مغفرته.

إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجَدُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوَجَّهْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلَيْكَ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشِرْتُمْوَنِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ نُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشِّرْنَا بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آءَالَ لُوطُ إِنَّا لَمَنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا أَمْرًا نَقْدَرُ نَأْيًا إِنَّا لَنَكِيدُ الْمُتَرِيدِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ آءَالَ لُوطُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا لَيْسَ بِكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَتَمَرَّدُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَنْتَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَشْرَ بِأَهْلِكَ يَقْطَعُ مِنَ اللَّيْلِ وَأَنْتَ أَذْبَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتُ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْحِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَرِيئٌ فَلَا تَنْصَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزَنُوا ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾

يَكْفُرُ بِهِ. مِنَ الْأَحْزَابِ فَالْتَأَى مَوْعِدُهُ [هود: ١٧].

(٤٤) ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ كل باب أسفل من الآخر ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ﴾ من أتباع إبليس ﴿جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ بحسب أعمالهم.

(٤٥) ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ الذي اتقوا طاعة الشيطان، وما يَدْعُوهم إليه من جميع الذنوب والعصيان ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ قد احتوت على جميع

(٤٤) أخرج الطبراني وابن المبارك في «الزهد» بإسناد صحيح عن أبي هارون الغنوي عن حطان بن عبد الله أنه قال: سمعت علي بن أبي طالب عليه السلام - وهو يخطب - قال: «إن أبواب الجنة كذا»، وفي «زهد ابن المبارك»: «أبواب جهنم» هكذا. قال أبو هارون: أطباقاً بعضها فوق بعض.

(٤٧) أخرج البخاري عن أبي المتوكل الناجي: أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه حدثهم أن رسول الله ﷺ قال: «يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص من بعضهم مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا؛ أذن لهم في دخول الجنة».

(٤٨) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله أمرني أن أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب».

(٥٠) ﴿وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَتِمَادَى بِهِمُ الرَّجَاءُ إِلَى حَالِ الْأَمْنِ وَالْإِدْلَالِ، فَتَنْبِئُهُمْ ﴿أَنْ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ لَا عَذَابَ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَّا عَذَابَ اللَّهِ، الَّذِي يَقَادِرُ قَدْرَهُ، وَلَا يَبْلُغُ كُنْهَهُ.

(٥١) ﴿وَنَبِّئُهُمْ﴾ وَخَبِّرْهُمْ يَا مُحَمَّدُ ﴿عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ عَنْ تِلْكَ الْقِصَّةِ الْعَجِيبَةِ، وَضَيْفُهُ هُمْ: الْمَلَائِكَةُ الْكَرَامُ.

(٥٢) ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾؛ أَيِ: الْمَلَائِكَةِ الْكَرَامِ دَخَلُوا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿فَقَالُوا سَلَامًا﴾ سَلَمُوا عَلَيْهِ؛ فَرَدَّ عَلَيْهِمْ ﴿قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ خَائِفُونَ.

(٥٣) ﴿قَالُوا﴾ لَهُ: ﴿لَا تَوَجَلْ﴾ لَا تَخَفْ ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ﴾ وَهُوَ إِسْحَاقُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ﴿عَلِيمٍ﴾ كَثِيرُ الْعِلْمِ.

(٥٤) ﴿قَالَ﴾ إِبْرَاهِيمَ مُتَعَجِّبًا مِنْ هَذِهِ الْبَشَارَةِ: ﴿أُبَشِّرُكُمْ بِالْوَاحِدِ﴾ عَلَى أَنْ مَسَّى الْكَبِيرُ عَلَى حَالِ الْكِبَرِ، وَصَارَ نَوْعُ إِبْرَاهِيمَ مِنْهُ ﴿فَبَشِّرُونِ﴾ عَلَى أَيِّ وَجْهِ تَبَشِّرُونَ وَقَدْ عَدِمَتْ الْأَسْبَابُ؟!

(٥٥) ﴿قَالُوا بَشِّرْنَا بِالْحَقِّ﴾ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؛ ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ الَّذِينَ يَسْتَبْعِدُونَ وَجُودَ الْخَيْرِ.

(٥٦) ﴿قَالَ﴾ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ﴾ يَيْأَسُ ﴿مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ الَّذِينَ لَا عِلْمَ لَهُمْ بِرَبِّهِمْ وَكِمَالِ اقْتِدَارِهِ.

(٥٧) ﴿قَالَ﴾ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْمَلَائِكَةِ: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ مَا شَأْنُكُمْ ﴿إِنِّي الْمُرْسَلُونَ﴾؟

(٥٨) ﴿قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ ثُجْرَمٍ﴾ كَثُرَ

فسادهم، وعظم شرهم؛ لنعذابهم ونعاقبهم.
(٥٩) ﴿إِلَّا آتَى لُوطًا﴾ إِلَّا لُوطًا وَأَهْلَهُ وَأَتْبَاعَ دِينِهِ ﴿إِنَّا لَمُنْذِرُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ الَّذِي سَيَحِلُّ بِقَوْمِهِ.

(٦٠) ﴿إِلَّا أَمْرًا﴾؛ لِأَنَّهَا خَانَتْهُ فِي دِينِهِ، وَكَفَرَتْ بِرِسَالَتِهِ ﴿فَدَرَأْنَا﴾ قُضِينَا: ﴿إِنَّمَا لِمَنْ أَلْفَيْتَ﴾ الْبَاقِينَ فِي الْعَذَابِ.

(٦١) ﴿فَلَمَّا جَاءَ آتَى لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ﴾ أَيِ: فَلَمَّا جَاءَتِ الْمَلَائِكَةُ لُوطًا فِي صُورَةِ شَبَابٍ حَسَنٍ الْوَجْهِ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ دَارَهُ.

(٦٢) ﴿قَالَ﴾ لَهُمْ لُوطُ: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ لَا أَعْرِفُكُمْ، وَلَا أَدْرِي مِنْ أَنْتُمْ.

(٦٣) ﴿قَالُوا﴾ أَيِ: الْمَلَائِكَةِ لِلْوَاحِدِ: ﴿بَلْ جَعَلْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ إِنَّمَا جَعَلْنَاكَ بِعَذَابِهِمُ الَّذِي كَانُوا يَشْكُونَ فِيهِ، وَيَكْذِبُونَكَ حِينَ تَعْدُهُمْ بِهِ.

(٦٤) ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ الَّذِي لَيْسَ بِالْهَزْلِ ﴿وَأِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فِيمَا قُلْنَا لَكَ.

(٦٥) ﴿فَأَمَّا بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ فِي أَثْنَائِهِ حِينَ تَنَامُ الْعَيُونَ، وَلَا يَدْرِي أَحَدٌ عَنْ مَسْرَاكِ ﴿وَأَنبِئْهُمْ﴾ أَيِ: وَسِرْ خَلْفَهُمْ، ﴿وَلَا يَلْفِثُ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ حَتَّى لَا يَرْتَاعُوا مِنَ الْعَذَابِ إِذَا نَزَلَ بِهِمْ ﴿وَأَمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ كَأَنَّهُ كَانَ مَعَهُمْ دَلِيلٌ يَدْلُهُمْ إِلَى أَيْنَ يَتَوَجَّهُونَ.

(٦٦) ﴿وَقُضِينَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرُ﴾ أَخْبَرْنَاهُ خَبْرًا لَا مَثْنُوِيَّةَ فِيهِ ﴿أَنْتَ دَايِرٌ هَهُنَا﴾ أَصْلُهُمْ ﴿مَقْطُوعٌ﴾ مُسْتَأْصَلٌ ﴿مُضْجِعِينَ﴾ إِذَا دَخَلُوا فِي الصَّبْحِ؛ كَمَا

(٥٦) أَخْرَجَ الْبَزَارُ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْكِبَارُ؟ قَالَ: «الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَالْإِبْرَاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ، وَالْقَنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ».

﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ تقدم تفسيره والخلاف فيه، وبيان الراجح في سورة «هود» [آية: ٧٨].

(٧٢) ﴿لَعَنُوكَ﴾ أقسم تعالى بنبيه محمد؛ أي: وحياتك ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ﴾ في ضلالهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون.

(٧٣) ﴿فَاخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ﴾ وهي ما جاءهم من الصوت القاصف ﴿مُشْرِقَتٍ﴾ وقت شروق الشمس؛ حيث كانت العقوبة عليهم أشد.

(٧٤) ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا﴾ قلنا عليهم مدينتهم ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ تتبع فيها من شد من البلد.

(٧٥) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ المتأملين المتفكرين.

(٧٦) ﴿وَإِنَّمَا﴾ أي: مدينة قوم لوط ﴿لِسَبِيلٍ مُقِيمٍ﴾ للسالكين، يعرفه كل من تردد في تلك الديار.

(٧٧) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ إن الذي صنعنا بقوم لوط من الهلاك والدمار وإنجائنا لوطاً وأهله لدلالة واضحة جليلة للمؤمنين بالله ورسله.

(٧٨) ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ وهؤلاء قوم شعيب، نعتهم الله وأضافهم إلى الأيكة، وهو: البستان كثير الأشجار؛ ليذكر نعمته عليهم، وأنهم ما قاموا بها، بل جاءهم نبيه شعيب، فدعاهم إلى التوحيد، وترك ظلم الناس في المكايل والموازين، وعالجهم على ذلك أشد المعالجة، فاستمروا على ظلمهم في حق الخالق وفي حق الخلق، ولهذا وصفهم هنا بالظلم.

(٧٩) ﴿فَانْفَقْنَا مِنْهُمْ﴾ فأخذهم عذاب يوم الظلة ﴿وَإِنَّمَا﴾ ديار قوم لوط، وأصحاب الأيكة ﴿لِإِمَامٍ مُبِينٍ﴾ لطريق واضح، يمر بهم

سورة الحجر
قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَنُوكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَاخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّمَا لِسَبِيلٍ مُقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَاَنْفَقْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّمَا لِإِمَامٍ مُبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ ﴿٨٠﴾ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يُخَوِّنُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَؤُودًا آيِينَ ﴿٨٢﴾ فَاخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ مُضِيِّينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآيَةٌ فَاصِّعٍ أَصْفَحَ الْجَمِيلِ ﴿٨٥﴾ إِنْ رَبُّكَ هُوَ الْخَالِقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمُنَاقِبِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَتَنْتَذِرُنَّ بَيْنَ يَدَيْكَ إِلَى مَأْتِنَاهُمْ أَزْوَاجًا إِنَّهُمْ وَلَا تَحْزَنَ عَلَيْهِمْ وَخَفَضَ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى الْمُفْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾

في قوله تعالى: ﴿إِنْ مَوْعِدُهُمُ الصَّبْحُ أَلَيْسَ الصَّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٩١].

(٦٧) ﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ﴾ التي فيها قوم لوط ﴿يَسْتَشِيرُونَ﴾ يبشر بعضهم بعضاً بأضياف لوط.

(٦٨) ﴿قَالَ﴾ لوط لقومه: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ صِيفِي﴾ وحق على الرجل إكرام صيفه ﴿فَلَا تَقْضُون﴾ فيهم.

(٦٩) ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ خافوا الله في وفي أنفسكم أن يحل بكم عقابه ﴿وَإِنْ كَانَ لَيْسَ فِيكُمْ خَوْفٌ مِنَ اللَّهِ ف﴾ لا تخزون ﴿تَخْجَلُونِي﴾ بانتهاك الأمر الشنيع والذنب الفظيع.

(٧٠) ﴿وَقَالُوا﴾ له جواباً عن قوله: ﴿وَلَا تَخْزُون﴾ فقط ﴿أَوَلَمْ نَتَّهِكْ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أن تضيفهم، فنحن قد أنذرنك، ومن أنذر فقد أعذر.

(٧١) ﴿قَالَ﴾ لهم لوط من شدة الأمر الذي أصابه:

المحيط، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وحده لا شريك له ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ لا ريب فيها؛ ليجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ﴿فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ وهو الصفح الذي لا أذية فيه، بل قابل إساءة المسيء بالإحسان، وذنبه بالغفران.

(٨٦) ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ﴾ لكل مخلوق ﴿الْعَلِيمُ﴾ بكل شيء، فلا يعجزه أحد من جميع ما أحاط به علمه، وجرى عليه خلقه، وذلك سائر الموجودات.

(٨٧) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ﴾ ولقد أعطيناك يا محمد ﴿سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي﴾ اختلف في السبع المثاني ما هي، فقال ابن مسعود وابن عمر وابن عباس ؓ: هي السبع الطوال: «البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس».

وقال عمر وعلي وابن مسعود وابن عباس: «هي الفاتحة»، وهو الصحيح المعتمد؛ لورود الأحاديث الصحيحة في ذلك، ﴿وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ وأعطيناك القرآن العظيم وهو خير عظيم لا يقادر قدره.

(٨٨) ﴿لَا تَدْنُ عَيْنُكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ لا تعجب إعجاباً يحملك على إشغال فكرك بشهوات الدنيا التي تمتع بها المترفون،

المسافرون كل وقت.

(٨٠) ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ﴾ وهم قوم صالح، الذين كانوا يسكنون الحجر المعروف في أرض الحجاز ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾؛ أي: كذبوا صالحاً، ومن كذب رسولاً؛ فقد كذب سائر الرسل؛ لانفاق دعوتهم.

(٨١) ﴿وَأَتَيْنَاهُم بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على صحة ما جاءهم به صالح من الحق، ومن جملتها: تلك الناقة، وهي من آيات الله العظيمة ﴿فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ كبراً وتجبراً على الله.

(٨٢) ﴿وَكَانُوا﴾ من كثرة إنعام الله عليهم ﴿يَتَحَنُّونَ مِنَ الْحَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ من المخاوف، مطمئنين في ديارهم.

(٨٣) ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ﴾ صيحة العذاب ﴿مُصْبِحِينَ﴾ وقت الصباح.

(٨٤) ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ لأن أمر الله إذا جاء لا يرده كثرة جنود، ولا قوة أنصار، ولا غزارة أموال.

(٨٥) ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ ما خلقناهما عبثاً باطلاً كما يظن أعداء الله، بل ما خلقناهما إلا بالحق الذي منه أن تكونا بما فيهما داليتين على كمال خالقهما، واقتداره، وسعة رحمته، وحكمته، وعلمه

(٨٧) في «صحيح البخاري» عن أبي سعيد بن المعلى قال: مر بي النبي ﷺ وأنا أصلي، فدعاني فلم آتِه حتى صليت، ثم أتيتَه فقال: «ما منعك أن تأتيني؟»، فقلت: كنت أصلي، فقال: «ألم يقل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد؟». فذهب النبي ﷺ ليخرج، فذكرته، فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته.

وفيه أيضاً من حديث أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم».

(٨٨) أخرج مسلم من حديث أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم؛ فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم».

(٩٠) ﴿كَمَا أُنزِلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ يعني: أنذركم عذاباً أنزلناه بالمقتسمين، والمقتسمون الاثنا عشر الذين اقتسموا، أي: تقاسموا مداخل مكة أيام الموسم لينفروا الناس عن الإيمان بالرسول ﷺ فأهلكهم الله تعالى يوم بدر، أو الذين اقتسموا على أن يبيتوا صالحاً عليه الصلاة والسلام والمقتسمون هم الذين جعلوا القرآن عضيّن؛ حث قالوا: عناداً: بعضه حق موافق للتوراة والإنجيل وبعضهم باطل مخالف لهما، أو قسموه إلى شعر وسحر وكهانة وأساطير الأولين، أو أهل الكتاب آمنوا ببعض كتبهم، وكفروا ببعض على أن القرآن ما يقرؤون من كتبهم فيكون ذلك تسليّة لرسول الله ﷺ.

(٩١) ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ أصنافاً وأعضاء وأجزاء، يصرفونه بحسب ما يهوءونه، فيؤمنون ببعض، ويكفرون ببعض.

(٩٢) ﴿فَوَرَبِّكَ﴾ يا محمد ﴿لَسَّالَتْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لنسألن هؤلاء الذين جعلوا القرآن في الدنيا عضيّن.

(٩٣) ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا فيما أمرناهم به، وفيما بعثناك به إليهم، وفي هذا أعظم ترهيب وزجر لهم عن الإقامة على ما كانوا يعملون.

سُورَةُ الْحَجَرِ
الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩٠﴾ فَوَرَبِّكَ لَسَّالَتْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩١﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٢﴾ فَأَصْدَعُوا بَمَا تَوَمَّوْا وَعَرْضَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٣﴾ إِنَّا كُنْهِتُكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٤﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّا بِبَيْضِ صَدْرِكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٦﴾ فَسَبَّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٧﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٨﴾

سُورَةُ الْحَجَرِ
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّمَا أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُزِيلُ الْمَلِكُ كَمَا يَأْمُرُ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾ وَالْأَعْيُنَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَعُونَ وَحِينَ تُنْفَخُونَ ﴿٦﴾

واغتر بها الجاهلون، واستغن بما آتاك الله من المثاني والقرآن العظيم ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ فإنهم لا خير فيهم يرجى، ولا نفع يرتقب ﴿وَأَخْفِضْ جَانْحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ألن لهم جانبك.

(٨٩) ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ قم بما عليك من النذارة، وأداء الرسالة، والتبليغ للقريب والبعيد، والعدو والصديق، فإنك إذا فعلت ذلك فليس عليك من حسابهم من شيء.

(٨٩) في «الصحيحين» من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن مثلي ومثل ما بعثني الله به، كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم، إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان. فالتجاء التجاء. فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا، وانطلقوا على مهلبهم؛ فنجوا، وكذبه طائفة منهم؛ فأصبحوا مكانهم، فصحبهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق».

(٩١) أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ (٩١) قال: هم أهل الكتاب، جزءوه أجزاء، فآمنوا ببعضه. وكفروا ببعضه».

في جميع الأوقات على التقرب إلى الله بأنواع العبادات حتى يدرك الموت. والدليل على أن المراد باليقين الموت: أولاً: ما صح عن السلف، كسالم بن عبد الله، ومجاهد، والحسن، وقتادة وغيرهم. ثانياً: قوله تعالى إخباراً عن أهل النار أنهم قالوا: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نَقُومِ الْمَسْكِينَ﴾ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْفَاحِشِينَ ﴿٤٦﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿٤٧﴾ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٨﴾ [المدرثر: ٤٣ - ٤٧]، وكذلك قوله: ﴿وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١]. ويستدل بهذه الآية على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين: المعرفة، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم، وهذا كفر وضلال وجهل؛ فإن الأنبياء كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله، وأعرفهم بحقوقه، وكانوا مع ذلك أعبد الناس.

(٩٤) ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ امضه ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُتَكِبِينَ﴾ لا تبال بهم، واترك مشاتمهم ومسابتهم، مقبلاً على شأنك. (٩٥) ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِينَ﴾ بك وبما جئت به، وهذا وعد من الله لرسوله أن لا يضره المستهزئون، وأن يكفيه الله إياهم بما شاء من أنواع العقوبة. (٩٦) ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ وهو ربهم وخالقهم، ومدبرهم ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ غِبْ أفعالهم إذا وردوا القيامة. (٩٧) ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ لك من التكذيب والاستهزاء، فنحن قادرون على استئصالهم بالعذاب، والتعجيل لهم بما يستحقونه، ولكن الله يمهلهم ولا يمهلهم. (٩٨) ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ أي: أكثر، يا محمد، ذكر الله، وتسبيحه، وتحميده، والصلاة، فإن ذلك يوسع الصدر ويشرحه، ويعينك على أمورك. (٩٩) ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ استمر

(٩٥) أخرج الطبراني في «الأوسط»، والبيهقي في «الدلائل»، وابن أبي حاتم في «تفسيره»، والضياء في «المختارة» عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه بإسناد صحيح في قوله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِينَ﴾ قال: المستهزئون هم: الوليد بن المغيرة، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب أبو زمعة من بني أسد بن عبد العزى، والحارث بن غيطل السهمي، والعاص بن وائل السهمي. فأتاه جبريل عليه السلام فشكاهم إليه رسول الله ﷺ، فأراه أبا عمرو الوليد بن المغيرة، فأوماً جبريل إلى أكحله، فقال: «ما صنعت شيئاً». فقال: «كفيتك». ثم أراه الحارث بن غيطل السهمي، فأوماً إلى بطنه، فقال: «ما صنعت شيئاً». فقال: «كفيتك». ثم أراه العاص بن وائل السهمي، فأوماً إلى أخمصه، فقال: «ما صنعت شيئاً». فقال: «كفيتك». فأما الوليد بن المغيرة، فمر برجل من خزاعة وهو يريش نبلاً له، فأصاب أكحله فقطعها. وأما الأسود، فعمي، فممنهم من يقول: عمي هكذا، وممنهم من يقول: نزل تحت شجرة، فجعل يقول: يا بني، ألا تدفعون عني، قد هلك، أظعن بشوك في عيني! فجعلوا يقولون: ما نرى شيئاً. فلم يزل كذلك حتى عميت عيناه. وأما الأسود بن عبد يغوث، فخرج في رأسه قروح فمات منها. وأما الحارث بن غيطل، فأخذ الماء الأصفر في بطنه، حتى خرج خروء فيه، فمات منها. وأما العاص بن وائل، فبينما هو كذلك يوماً حتى دخل في رجله شبرقة، حتى امتلأت منها، فمات.

سورة النحل

(١) يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها؛ فقال: ﴿أَنَّهُ﴾ جاء ودنا وقرب ﴿أَمْرُ اللَّهِ﴾ يوم القيامة ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فإنه آتٍ، وما هو آتٍ؛ فإنه قريب.

ثم إنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به غيره وعبادتهم معه ما سواه من الأوثان والأنداد، تعالى وتقدس علواً كبيراً، وهؤلاء هم المكذبون بالساعة فقال: ﴿سُبْحَنَهُ وَقَعْلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ معبراً بصيغة الماضي الدال على التحقق والوقوع لا محالة.

(٢) ﴿يُرِىَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبًا﴾ الذي به حياة الأرواح ﴿عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ ممن يعلمه صالحاً لتحمل رسالته، وزبدة دعوة الرسل كلهم ومدارها على قوله: ﴿أَن أُنذِرُوا﴾؛ أي: لينذروا ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ أي: على معرفة الله تعالى وتوحده في صفات العظمة، التي هي صفات الألوهية، وعبادته وحده لا شريك له، ﴿فَأَنقُصُوا﴾ فاتقوا عقوبتي لمن خالف أمري وعبد غيري.

(٣) ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ يعرف الله تعالى خلقه حجته عليهم في توحيده، وأنه لا تصلح الألوهية إلا له، خلق ربكم أيها الناس السموات والأرض بالعدل، وهو الحق، منفرداً بخلقها لم يشركه في إنشائها أحد، فأنى يكون له

شريك ﴿تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزهه وتعظيمه عن شركهم، فإنه الإله حقاً الذي لا تنبغي العبادة والحب والذل إلا له تعالى.

(٤) ومن حججه عليكم، أيضاً، أيها الناس أنه ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾؛ أي: مهينة ضعيفة لم يزل يدبرها ويربها وينميتها، حتى صارت بشراً تاماً حتى إذا استوى على سوقه، ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّتِينٌ﴾ خصيم لربه، يكفر به، ويجادل رسله، ويكذب بآياته.

(٥) ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ أي: ومن حججه عليكم أيها الناس: الأنعام، أي: الإبل والبقر والغنم لأجلكم، ولأجل منافعكم ومصالحكم، ومن جملة منافعها العظيمة ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾ مما تتخذون من أصوافها وأوبارها وأشعارها وجلودها من الثياب والفرش والبيوت، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمِنْهَا يَذُوقُونَ﴾ بالنسل والدرّ والركوب والحمل وغير ذلك، ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾؛ يعني: لحومها وأولادها.

(٦) ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ زينة، وذلك أن جمالها لا يعود إليها منه شيء، فإنكم أنتم الذين تتجملون بها، كما تتجملون بثيابكم وأموالكم وأولادكم، وتعجبون بذلك ﴿حِينَ تَرَىٰ تَرْيَحُونَ﴾ في وقت رواحها حين تردّ بالعشي من مراعتها إلى مباركتها ومنازلها التي تأوي إليها ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ وقت سرحها وحركتها وقدام الرواح؛ لأن المنافع تؤخذ منها بعد الرواح، ومالكها يكون اعجب بها

(٤) أخرج الإمام أحمد بإسناد صحيح من حديث بسر بن جحاش رضي الله عنه قال: بصق رسول الله ﷺ في كفه، ثم قال: «يقول الله تعالى: ابن آدم، أنى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك فعدلتك مشيت بين برديك ولأرض منك وثيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: أتصدق، وأنى أوان الصدقة؟!»

إذا راحت .

(٧) ﴿وَتَحْمِلْ أَثْقَالَكُمْ﴾ من الأحمال الثقيلة، بل وتحملكم أنتم ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ﴾ آخر غير بلدك، ﴿لِتَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾ بالمشقة والجهد، لكن الله ذللها لكم ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَوْفٌ رَّحِيمٌ﴾ إنه سخر لكم ما تضطرون إليه وتحتاجونه .

(٨) ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ﴾ سخرناها لكم ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ تارة تستعملونها للضرورة في الركوب، وتارة لأجل الجمال والزينة، ولم يذكر الأكل؛ لأن البغال والحمير محرم أكلها، والخيول لا تستعمل - في الغالب - للأكل ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ مما يكون بعد نزول القرآن من الأشياء التي يركبها الخلق في البر والبحر والجو، ويستعملونها في منافعهم ومصالحهم؛ فإنه لم يذكرها بأعيانها؛ لأن الله تعالى لم يذكر في كتابه إلا ما يعرفه العباد، أو يعرفون نظيره، وأما ما ليس له نظير في زمانهم فإنه لو ذكر لم يعرفوه، ولم يفهموا المراد به، فيذكر أصلاً جامعاً، يدخل فيه ما يعلمون، وما لا يعلمون .

(٩) ولما ذكر تعالى من الحيوانات في السبل الحسين نبه على الطرق الدينية التي يسلكها الناس إليه، فبين أن الحق منها ما هي موصلة إليه، فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ الصراط المستقيم الذي هو أقرب الطرق وأخصرها موصل إلى الله ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ وهو: كل ما خالف الصراط المستقيم، فهو قاطع عن الله، موصل إلى دار الشقاء والمعنى أن الله تعالى أخبر أن ثم طرقاً

وَتَحْمِلْ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لِّتَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَوْفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجْمُومُ مَسْحَرَاتٌ بِمُروءَاتٍ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْيَمِينَ لَكُمْ لِمَا كُنْتُمْ لِحَمَاطٍ رِجًا وَتَسْتَخْرِجُونَ مِنْهُ حَبَّةً تَلْبَسُوهَا وَتَرْبُ الْفَلَاحَ مَوَآخِرُ فِيهِ وَلِتَسْتَغْوُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾

تُسلك إليه، فليس يصل إليه منها إلا طريق الحق وهي الطريق التي شرعها ورضيها، وما عداها مسدودة، والأعمال منها مردودة ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ولكنه هدى بعضاً؛ كرمها وفضلها، ولم يهد آخرين؛ حكمة منه وعدلاً، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ [السجدة: ١٣] .

(١٠) ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ لما ذكر سبحانه ما أنعم به عليهم من الأنعام والدواب . شرع في ذكر نعمته عليهم في إنزال المطر من السماء - وهو العلو - مما لهم فيه بلغة ومتاع لهم ولأنعامهم فقال: ﴿لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ﴾ أي: جعله

(٨) في «الصحيحين» من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «نهى رسول الله ﷺ يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية، وأذن في لحوم الخيل» .

وتجفيف الرطوبات ، وإزالة البرودة الضارة للأرض والأبدان، وغير ذلك، وفيهما - الشمس والقمر - وفي النجوم من الزينة للسماء، والهداية في ظلمات البر والبحر ومعرفة الأوقات ، حساب الأزمنة، ما تتنوع دلالاتها، وتصرف آياتها، ولهاذا جمعها في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: لمن لهم عقول يستعملونها في التدبر والتفكر فيما هي مهياة له مستعدة، تعقل ما تراه وتسمعه، لا كنظر الغافلين .

(١٣) ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنَهُ﴾ ﴿١﴾ فيما ذرأ الله ونشر للعباد من كل ما على وجه الأرض؛ من حيوان وأشجار ونبات وغير ذلك، مما تختلف ألوانه وتختلف منافعه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ ﴿٢﴾ آية على كمال قدرة الله، وعظيم إحسانه، وسعة بره، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وحده لا شريك له ﴿لَقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾ ﴿٣﴾ يستحضرون في ذاكرتهم ما ينفعهم من العلم النافع، ويتأملون ما دعاهم الله إلى التأمل فيه، حتى يتذكروا بذلك ما هو دليل عليه.

(١٤) ﴿وَهُوَ﴾ وحده لا شريك له ﴿الَّذِي سَخَّرَ﴾
﴿الْبَحْرَ﴾ وهياه لمنافعكم المتنوعة ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ﴾
لَحْمًا طَرِيًّا ﴿وَهُوَ السَّمَكُ وَالْحُوتُ﴾ الذي
تصطادونه منه ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً﴾ كاللؤلؤ
والمرجان ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ فتزيدكم جمالاً وحسناً إلى
حسنكم ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ﴾ السفن والمراكب
﴿مَوَاحِرَ فِيهِ﴾ تمخر- أي: تشق - في البحر
العجاج الهائل بمقدمها، حتى تسلك فيه من قطر
إلى آخر ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الذي يسر لكم هذه
الأمشياء وهياها، وتشون على الله الذي مَنَّ بها.

(۱۵) ﴿وَأَلْقَى﴾ اللّٰهُ تَعَالٰی لِأَجْلِ عِبَادِهِ ﴿فِي﴾

وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسٍ أَنْ تَبِيدَ بِكُمْ وَاتَّقُوا وَاسْتَبَلُوا
أَعْلَكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَّمْنَاكُم مِمَّا يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَنْ
تَقُولُوا لِلَّهِ عِزٌّ مُبْدُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ
الَّتِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْأِرُونَ وَمَا تَعْلَنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ
أَحْيَاءَ وَمَا يُسْأَلُونَ أَيَّانَ يَتَعَوَّذُونَ ﴿٢١﴾ إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ
فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾
لَا جَرَمَ أَنْتَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْأِرُونَ وَمَا تَعْلَنُونَ إِنَّهُمْ
لَا يُحِبُّونَ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ فِيكُمْ
قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً
يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا
سَاءَ مَا يَزِيلُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
فَاتَى اللَّهُ بَنِيَّاهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ
مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

عَذَابًا زَلَالًا يَسُوغُ لَكُمْ شِرَابَهُ، وَلَمْ يَجْعَلْهُ مَلْحًا
أَجَاغًا. ﴿وَمَنْ شَجَرَ فِيهِ شَيْمُونُ﴾ تَرْعُونَ فِيهِ
أَنْعَامَكُمْ.

(١١) ﴿يُنِثُّ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ
وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ يخرجها من الأرض
بهذا الماء، على اختلاف صنوفها وأشكالها ﴿إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ بذلك على كمال
قدرة الله ورحمته.

(١٢) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِي﴾ سخر لكم هذه الأشياء
لمنافعكم، وأنواع مصالحكم، بحيث لا تستغيثون
عنها أبداً، فبالليل تسكنون وتنامون وتستريحون،
وبالنهار تنتشرون في معاشكم، ومنافع دينكم
ودنياكم، وبالشمس والقمر من الضياء والنور،
والإشراق، وإصلاح الأشجار والثمار والنبات،

(٢١) ﴿أَمَوْتَ غَيْرَ أَحْيَاءٍ﴾ فلا تسمع، ولا تبصر، ولا تعقل شيئاً، أفتتخذ هذه آلهة من دون رب العالمين؟! ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ لا يدرون متى الساعة.

(٢٢) ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَحِدٌ﴾ وهو الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ﴾ لهذا الأمر العظيم الذي لا ينكره إلا أعظم الخلق جهلاً وعناداً، وهو توحيد الله ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ عن عبادته.

(٢٣) ﴿لَا جَرَمَ﴾ حقاً لا بد ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من الأعمال القبيحة ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ بل يبغضهم أشد البغض، وسيجازيهم من جنس عملهم.

(٢٤) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: لهؤلاء المكذبين: ﴿مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ من القرآن والوحي الذي هو أكبر نعمة أنعم الله بها على العباد ﴿قَالُوا﴾ فيقولون عنه أنه ﴿أَسْطِطِرُّ الْأَوَّلِينَ﴾ قصص الأولين التي يتناقلها الناس جيلاً بعد جيل، منها الصدق ومنها الكذب.

(٢٥) ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ حملوا وزرهم ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وحملوا أوزار المقلدين الذين لا علم عندهم إلا ما دعوا إليه، فيحملون إثم ما دعواهم إليه، وأما الذين يعلمون فكل مستقل بجرمه؛ لأنه عرف ما عرفوا ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزُونُ﴾ بئس ما حملوا من الوزر المثقل لظهورهم من وزرهم

الْأَرْضِ رَوَاسٍ﴾ وهي: الجبال العظام ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ لئلا تميد بهم - أي: تضطرب و تتحرك وتميل - ﴿وَأَنْتَرَا﴾ جعل فيها أنهاراً يسوقها من أرض بعيدة إلى أرض مضطرة إليها ﴿وَسُبُلًا﴾ طرقاً توصل إلى الديار المتناثية، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ السبيل إليها.

(١٦) ﴿وَعَلَّمْتُمْ﴾ دلائل من الجبال وآكام صغار، ونحو ذلك يستدل بها المسافرون ﴿وَبِالْجَبِّ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ في ظلام الليل.

(١٧) ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ﴾ جميع المخلوقات وهو الفعال لما يريد ﴿كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ شيئاً، لا قليلاً ولا كثيراً، ﴿أَفَلَا نَذَكَّرُونَ﴾ فتعرفون أن المنفرد بالخلق أحق بالعبادة كلها، فكما أنه واحد في خلقه وتدبيره، فإنه واحد في إلهيته وتوحيده وعبادته.

(١٨) ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ عدداً مجرداً عن الشكر ﴿لَا تَحْصُوهَا﴾ فضلاً عن كونكم تشكرونها، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يرضى منكم باليسير من الشكر، مع إنعامه الكثير.

(١٩) ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ يعلم الضمائر والسرائر، كما يعلم الظواهر، فعلمه محيط بهم.

(٢٠) ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: الأصنام والأنداد ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ قليلاً ولا كثيراً ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ فكيف يخلقون شيئاً مع افتقارهم في إيجادهم إلى الله تعالى؟ ومع هذا، ليس فيهم من أوصاف الكمال شيء، لا علم ولا غيره.

(٢٥) في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً».

لأجلهم، وتزعمون أنهم شركاء لله، أي: أين هم
ن نصركم وخلصكم هاهنا؟ فإذا سألهم هذا
السؤال لم يكن لهم جواب إلا الإقرار بضلالهم،
والاعتراف بعنادهم، فيقولون: ﴿صَلُّوا عَلَّا وَشَهِدُوا
عَلَّا أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوْتُوا
الْعِلْمَ﴾ العلماء الربانيون: ﴿إِنَّ الْآخِرَى الْيَوْمَ﴾ يوم
القيامة ﴿وَالشَّوْءُ﴾ سوء العذاب ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾
محيط بمن كفر بالله وأشرك به ما لا يضره ولا
ينفعه.

(٢٨) ﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾
تتوفاهم في هذه الحال التي كثر فيها ظلمهم
وغيهم، ﴿فَالْقَوُّ السَّلَامَ﴾ استسلموا وانقادوا حين
عابوا الموت، وأنكروا ما كانوا يعبدون من دون
الله، وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ شَوْءٍ﴾ كما
يقولون يوم المعاد: ﴿وَاللَّهُ رِيتَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾
[الأنعام: ٢٣]، فيقال تكذبا لهم في قيلهم
ذلك: ﴿بَلَى﴾ كنتم تعملون السوء، و﴿إِنَّ اللَّهَ
عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فلا يفيدكم الجحود
شيئا.

(٢٩) ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ فكل
أهل عمل يدخلون من الباب اللائق بحالهم
﴿فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ نار جهنم، فإنها مَثْوًى
الحسرة والندم، ومنزل الشقاء والألم لمن كان
متكبرا عن آيات الله واتباع رسله.

(٣٠) ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَبِرٌ﴾
لما ذكر الله قيل المكذبين بما أنزل الله، ذكر ما
قاله المتقون، وأنهم اعترفوا وأقروا بأن ما أنزل
الله نعمة عظيمة، وخير عظيم امتن الله به على
العباد ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ في عبادة الله تعالى،
وأحسنوا إلى عباد الله، فلهم ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا

سورة النحل

ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ إِنَّ شُرَكَاءَ الَّذِينَ
كُنْتُمْ تَشْفُقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْآخِرَى
الْيَوْمَ وَالسَّوْءُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ
ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ شَوْءٍ بَلَى
إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ
خَالِدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ وَقِيلَ
لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَبِرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي
هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلِلَّذِينَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ
﴿٣٠﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فِيهَا
مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يُجْزَى اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ
الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُوتَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ
أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ تِلْكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ
اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ
سَيِّئَاتٌ مَاعْمَلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾

ووزر من أصلوه.

(٢٦) ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ برسلهم،
واحتالوا بأنواع الحيل على رد ما جاءوهم به،
وبنوا من مكرهم قصورا هائلة ﴿فَأَنَّى اللَّهُ
بُيِّنَهُمْ مِنْ الْقَوَاعِدِ﴾ جاءها الأمر من أساسها
وقاعدتها، ﴿فَحَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾
فصار ما بنوه عذابا عذبوا به ﴿وَأَتْنَهُمُ الْعَذَابُ
مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وذلك أنهم ظنوا أن هذا
البنيان سينفعهم، ويقبهم العذاب، فصار عذابهم
فيما بنوه وأصلوه.

(٢٧) ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ يفضحهم على
رعوس الخلائق، ويبين لهم كذبهم وافتراءهم
على الله ﴿وَيَقُولُ﴾ لهم الرب تبارك وتعالى
مقرعا لهم وموبخا: ﴿إِنَّ شُرَكَاءَ الَّذِينَ كُنْتُمْ
تُشْفِقُونَ فِيهِمْ﴾ تحاربون وتعادون الله وحزبه

حَسَنَةً ﴿وَهِيَ الْحَيَاةُ الطَّيْبَةُ، حَيَاةُ الطَّهْرِ وَالْعِزَّةِ وَالْكَرَامَةِ﴾، وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ﴿لَهُمْ مِنْ دَارِ الدُّنْيَا مَعَ مَا فِيهَا مِنْ حَسَنَةٍ؛ لِفَنَائِهَا وَلِبَقَاءِ الْآخِرَةِ. وَلِنَعَمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ الْآخِرَةُ.

(٣١) ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾؛ أَي: جَنَّاتٍ إِقَامَةً لَهُمْ، يَدْخُلُونَهَا وَيَسْتَقِرُّونَ فِيهَا لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا أَبَدًا ﴿يَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ بَيْنَ أَشْجَارِهَا وَقُصُورِهَا ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ مَهْمَا تَمَنَّتْ أَنْفُسُهُمْ، وَتَعَلَّقَتْ بِهِ إِرَادَاتُهُمْ، حَصَلَ لَهُمْ عَلَى أَكْمَلِ الْوُجُوهِ وَأَتَمِّهَا، ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ لَسَخَطِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ؛ بِأَدَاءِ مَا أَوْجَبَهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْفُرُوضِ وَالْوَاجِبَاتِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْقَلْبِ وَالْبَدَنِ وَاللِّسَانِ، مِنْ حَقِّهِ وَحَقِّ عِبَادِهِ، وَتَرَكَّ مَا نَهَاكَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣٢) ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّيْهُمْ الْمَلَائِكَةُ﴾ مُسْتَمِرِّينَ عَلَى تَقْوَاهُمْ ﴿طَيِّبِينَ﴾ طَاهِرِينَ مُطَهَّرِينَ مِنْ كُلِّ نَقْصٍ وَدَنْسٍ يَنْطَرِقُ إِلَيْهِمْ، وَيَخِلُّ فِي إِيْمَانِهِمْ ﴿يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ التَّحِيَّةُ الْكَامِلَةُ خَاصَّةً لَكُمْ، وَالسَّلَامَةُ مِنْ كُلِّ آفَةٍ، وَقَدْ سَلِمْتُمْ مِنْ كُلِّ مَا تَكْرَهُونَ ﴿أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ يَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ مِنَ الْإِيْمَانِ بِاللَّهِ وَالْإِنْقِيَادِ لِأَمْرِهِ، فَإِنَّ الْعَمَلَ هُوَ السَّبَبُ وَالْمَادَّةُ وَالْأَصْلُ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، وَالنَّجَاةُ مِنَ النَّارِ، وَذَلِكَ الْعَمَلُ حَصَلَ لَهُمْ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَمُنْتَهَى عَلَيْهِمْ، لَا بِحَوْلِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ.

(٣٣) ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ هَلْ يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ جَاءَتْهُمْ الْآيَاتُ؛ فَلَمْ يُؤْمِنُوا، وَذَكَّرُوا؛ فَلَمْ يَتَذَكَّرُوا، ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ لِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ﴾ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴿بِالْعَذَابِ الَّذِي سَيَحْلِلُ بِهِمْ، فَإِنَّهُمْ قَدْ اسْتَحَقُّوا وَقُوعَهُ فِيهِمْ﴾ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا وَكَفَرُوا، ثُمَّ

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ بعثنا في كلِّ أمةٍ رسولاً آتٍ بِآيَاتِنَا وَأَعْبَدُوا اللَّهَ وَاجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَيَسْأَلُونَ فِي الْأَرْضِ فَأَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَتْ عِقَابَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٥﴾ إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٦﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلْ وَعَدَ عَلَيْهِمْ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ لَيْسَ لَهُمْ لَهُمُ الَّذِي يُخْلِفُونَ فِيهِ وَلِعَلَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿٣٨﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٩﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ عَدِمِ طَاغُوتٍ لَنَنْوِذَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤١﴾

لَمْ يُؤْمِنُوا حَتَّى نَزَلَ بِهِمُ الْعَذَابُ، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ إِذْ عَذَّبَهُمْ ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بِمُخَالَفَةِ الرِّسْلِ وَالتَّكْذِيبِ بِمَا جَاءُوا بِهِ.

(٣٤) ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ عَقُوبَاتُ أَعْمَالِهِمْ وَأَثَارُهَا ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ نَزَلَ بِهِمْ ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ فَإِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أُنْذِرْتَهُمْ رَسَلَهُمُ بِالْعَذَابِ اسْتَهْزَءُوا بِهِ، وَسَخَرُوا مِنْ أَخْبَر بِهِ، فَحَلَّ بِهِمْ ذَلِكَ الْأَمْرُ الَّذِي سَخَرُوا مِنْهُ.

(٣٥) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا﴾ احْتِجَّ الْمُشْرِكُونَ عَلَى شُرْكِهِمْ بِمَشِئَةِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، وَأَنَّ اللَّهَ لَوْ شَاءَ مَا أَشْرَكُوا ﴿وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وَلَا حَرَمُوا شَيْئًا مِنَ الْأَنْعَامِ الَّتِي أَحَلَّهَا، كَالْبَحِيرَةِ، وَالْوَصِيلَةِ، وَالْحَامِ، وَنَحْوِهَا، وَهَذِهِ حُجَّةٌ بَاطِلَةٌ، ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فَإِنَّهَا لَوْ كَانَتْ حَقًّا

أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ومن جهلهم العظيم إنكارهم البعث والجزاء .

(٣٩) ﴿لَبِئْسَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ﴾ من المسائل الكبار والصغار؛ فيبين حقائقها ويوضحها ﴿وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ﴾ حين يرون أعمالهم حشرات عليهم، وما نفعتهم آلهتهم التي يدعون مع الله من شيء لما جاء أمر ربك .

(٤٠) ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ فإنه إذا أراد شيئاً قال له: كن . فيكون، من غير منازعة ولا امتناع، بل يكون على طبق ما أَرَادَهُ وشاءه .

(٤١) ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ﴾ في سبيله وابتغاء مرضاته ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ بالأذية والمحنة من قومهم الذين يفتنونهم؛ ليردوهم إلى الكفر والشرك، فتركوا الأوطان والخلان، وانتقلوا عنها لأجل طاعة الرحمن ﴿لَنَبْوِّثَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ فذكر لهم ثوابين: ثواباً عاجلاً في الدنيا من الرزق الواسع، والعيش الهنيء الذي رآوه عياناً بعدما هاجروا ﴿وَلَنَجْزِيَ الْآخِرَةَ﴾ الذي وعدهم الله على لسان رسوله خير، و﴿أَكْبَرُ﴾ من أجر الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ لو كان لهم علم ويقين بما عند الله من الأجر والثواب لمن آمن به وهاجر في سبيله، لم يتخلف عن ذلك أحد .

(٤٢) ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على أوامر الله وعن نواهيهِ، وعلى أقدار الله المؤلمة، وعلى الأذية فيه والمحن ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يعتمدون عليه

ما عاقب الله الذين من قبلهم حيث أشركوا به، فعاقبهم أشد العقاب، ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ البين الظاهر، الذي يصل إلى القلوب، ولا يبقى لأحد على الله حجة .

(٣٦) ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ يخبر تعالى أن حجته قامت على جميع الأمم، وأنه ما من أمة متقدمة أو متأخرة إلا وبعث فيها رسولاً ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ كلهم متفقون على دعوة واحدة، وهو: عبادة الله وحده لا شريك له؛ ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ﴾ فاتبعوا المرسلين علماً وعملاً، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾، فاتبع سبيل الغي، ﴿فَيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بأبدانكم وقلوبكم ﴿فَنَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ فإنكم سترون من ذلك العجائب، فلا تجد مكذباً إلا كان عاقبته الهلاك .

(٣٧) ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدُنْهُمْ﴾ وتبذل جهدك في ذلك، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ ولو فعل كل سبب لم يهده إلا الله، ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ ينصرونهم من عذاب الله ويقونهم بأسه .

(٣٨) ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ حلفوا أيماناً مؤكدة مغلظة على تكذيب الله ﴿لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ وأنه لا يبعث الأموات، ولا يقدر على إحيائهم بعد أن كانوا تراباً فقال تعالى مكذباً لهم ورداً عليهم: ﴿بَلَى﴾ أي: بلى سيكون ذلك ﴿وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ لا يخلفه ولا يغيره ﴿وَلَكِنَّ

(٣٩) و(٤٠) في «صحيح البخاري» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: كذبتني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن ذلك، فأما تكذبه إياي فقولته: لن يعيدني كما بدأتي. وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي، فقولته: اتخذ الله ولداً. وأنا الأحد الصمد، لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفواً أحد».



من هذه الأحوال، بل هم تحت قبضته، ونواصيهم بيده.

(٤٧) ﴿أَوْ يَأْخُذُهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ أي: أو يأخذهم الله في حال خوفهم من أخذه لهم، فإنه يكون أبلغ وأشد حالة الأخذ، فإن حصول ما يتوقع مع الخوف الشديد، ثم قال تعالى، ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوْفٌ رَحِيمٌ﴾ حيث لم يعاجل العاصين بالعقوبة، بل يمهّلهم ويعافيههم، ويرزقهم وهم يؤذونهم ويؤذون أوليائهم، ومع هذا يفتح لهم أبواب التوبة.

(٤٨) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ الشاكون في توحيد ربهم وعظمته وكماله ﴿إِلَّا مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ إلى جميع مخلوقاته ﴿يَتَفَقَّهُوْا ظُلُمَاتُهُ﴾ وكيف تتفياً

في تنفيذ محابه، لا على أنفسهم. (٤٣) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا﴾ لست ببدع من الرسل، فلم نرسل قبلك ملائكة، بل رجالاً كامليين، لا نساء ﴿فَوَجَّحَ إِلَيْهِمْ﴾ من الشرائع والأحكام ما هو من فضله وإحسانه على العبيد، من غير أن يأتوا بشيء من قبل أنفسهم ﴿فَسْتَلَوْا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾؛ أي: أهل الكتب السابقة ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ نبأ الأولين، وشككتهم: هل بعث الله رجالاً؟.

(٤٤) ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزَّبْرِ﴾ فاسألوا أهل العلم بذلك، الذين نزلت عليهم الزبر، وهي: الكتب، والبيّنات، الحجج والدلائل، فعلموها وفهموها ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ القرآن الذي فيه ذكر ما يحتاج إليه العباد من أمور دينهم ودنياهم، الظاهرة والباطنة ﴿لِنُثَبِّتَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ وهذا شامل لتبيين ألفاظه، وتبيين معانيه ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيه، فيستخرجون من كنوزه وعلومه، بحسب استعدادهم وإقبالهم عليه.

(٤٥) ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا﴾ هذا تخويف وتهديد من الله تعالى لأهل الكفر والمعاصي الذين عملوا ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ من قبل ﴿أَنْ يَخْشِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ على كفرهم وشركهم، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ على حين غرة من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم.

(٤٦) ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِيهِمْ﴾ وإما في حال تقلبهم وشغلهم، وعدم خطور العذاب ببالهم، ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ فليسوا بمعجزين الله في حالة

(٤١) في «الصحاحين» من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافيههم».

الطاعة، والخضوع لله، مدحهم بالخوف من الله الذي هو فوقهم بالذات والقهر، وكمال الأوصاف، فهم أدلاء تحت قهره، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨]، ﴿وَيَقُولُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي: مهما أمرهم الله تعالى امتثلوا لأمره طوعاً واختياراً.

(٥١) ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَخَذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ تجعلون له شريكاً في إلهيته، ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ متوحد في الأوصاف العظيمة، متفرد بالأفعال كلها، فكما أنه الواحد في ذاته وأسمائه ونعوته وأفعاله، فلتوحدوه في عبادته، ولهذا قال: ﴿فَإِنِّي فَازِيهِمْ﴾ خافوني وامتثلوا أمري، واجتنبوا نهبي، من غير أن تشركوا بي شيئاً من المخلوقات، فإنها كلها لله تعالى مملوكة.

(٥٢) ﴿وَلَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هو مالك كل شيء وخالقه وربّه ﴿وَلَهُ الَّذِينَ وَاصِبَةٌ﴾ الطاعة والإخلاص ﴿وَاصِبَةٌ﴾ دائماً ثابتاً ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ نَتَّقُونَ﴾ أيها الناس ﴿نَتَّقُونَ﴾ تخافون وتحذرون أن يسلبكم نعمة الله عليكم بإخلاصكم العبادة لربكم، وإفرادكم الطاعة له، وما لكم نافع سواه.

(٥٣) ﴿وَمَا يَكُم مِّن نَّعَمَةٍ﴾ ظاهرة وباطنة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ لا أحد يشركه فيها ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ﴾ من فقر ومرض وشدة ﴿فَإِلَيْهِ تَجْعَرُونَ﴾ تضجون بالدعاء والتضرع.

(٥٤) ﴿ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ﴾ ثم إذا نجاهم من الشدة وصرتم في حال الرخاء ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُمْ

لِكُمْرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَسْعُوا فُسُوفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ حَصْبًا وَمَارَ فَنَّهُمْ تَأَلَّهَ لِنَشْتَلَنَ عَمَّا كُتِبَ لَهُمْ نَقَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بَشِيرٌ أَحَدَهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَاطِمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مِثْلُ السَّوَاءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ تَوَخَّاهُ اللَّهُ لَفُطِّرَهُمَا نَارًا عَلَيْنَا مِنْ دُونِ ذَلِكَ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَخْرِجُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ السَّبِيحَةُ الْكَذِبَ أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ لَكُمْ إِلَٰهًا مِّمَّنْ هُمْ أَتَّخَذُوا أَنَّهُمْ مُّفَرِّطُونَ ﴿٦٢﴾ تَأَلَّهَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ آلِ نُوحٍ مِّن قَبْلِكَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ الشَّاكِرِينَ أَعْمَلُهُمْ فَهُمْ فِي يَوْمٍ وَلَمْ يَكُنْ عَذَابُ الْيَوْمِ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾

أظلمتها ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ﴾ كلها ساجدة لربها، خاضعة لعظمته وجلاله ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ ذليلون تحت التسخير والتدبير والقهر، ما منهم أحد إلا وناصبته بيد الله وتديره عنده.

(٤٩) ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾ من الحيوانات الناطقة والصامتة ﴿وَالْمَلَائِكَةِ﴾ الكرام، خصهم بعد العموم؛ لفضلهم وشرفهم وكثرة عبادتهم، ولهذا قال: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن عبادته، على كثرتهم، وعظمة أخلاقهم.

(٥٠) ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ﴾ لما مدحهم بكثرة

(٤٩) أخرج أحمد والترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أظت السماء، وحق لها أن تظ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته لله تعالى ساجداً، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفراش، ولخرجتم إلى الصعدات تجارون إلى الله».

(٦٠) ﴿لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ المثل الناقص والعيب التام ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ وهو كل صفة كمال، وكل كمال في الوجود فالله أحق به، من غير أن يستلزم ذلك نقصاً بوجه من الوجوه، وله المثل الأعلى في قلوب أوليائه، وهو: التعظيم والإجلال، والمحبة والإنابة والمعرفة ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي قهر جميع الأشياء، وانقادت له المخلوقات بأسرها، ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، فلا يأمر ولا يفعل إلا ما يحمد عليه ويثنى على كماله فيه.

(٦١) ﴿وَلَوْ يُوَاجِدُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ﴾ من غير زيادة ولا نقص ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ لأهلك المباشرين للمعصية وغيرهم من أنواع الدواب والحيوانات؛ فإن شؤم المعاصي يهلك به الحرث والنسل ﴿وَلَكِنْ يُوَخِّرُهُمْ﴾ عن تعجيل العقوبة عليهم ﴿إِلَّا أَجَلَ مُسَكًى﴾ وهو يوم القيامة ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ فليحذروا ما داموا في وقت الإمهال قبل أن يجيء الوقت الذي لا إمهال فيه.

(٦٢) يخبر تعالى أن المشركين يجعلون له ما يكرهون ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ من البنات، ومن الأوصاف القبيحة، وهو الشرك؛ بصرف شيء من العبادات إلى بعض المخلوقات التي هي عبيد لله، فكما أنهم يكرهون ولا يرضون أن يكون عبيدهم - وهم مخلوقون من جنسهم - شركاء لهم فيما رزقهم الله، فكيف يجعلون له شركاء من عبيده؟! ﴿وَلَهُمْ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ هم مع هذه الإساءة العظيمة ﴿تَصِفُ﴾ تقول ﴿أَلَيْسَتْهُمْ أَكْذَابٌ أَتَتْ لَهُمْ الْحُسْنَى﴾ أن لهم الحالة الحسنة في الدنيا والآخرة، ﴿لَا جَرَمَ﴾ حقاً ﴿أَنْ لَهُمُ النَّارُ﴾ في

بَرِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ أشركوا به بعض مخلوقاته الفقيرة.

(٥٥) ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ﴾ أعطيناهم؛ حيث نجيناهم من الشدة، وخلصناهم من المشقة ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ في دنياكم قليلاً ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة كفركم.

(٥٦) ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ يخبر تعالى عن جهل المشركين وافتراءهم على الله الكذب، وأنهم يجعلون لأصنامهم التي لا نعلم ولا تنفع ولا تضر - نصيباً مما رزقهم الله، وأنعم به عليهم؛ فاستعانوا برزقه على الشرك به، وتقربوا به إلى أصنام منحوتة ﴿تَاللَّهِ لَنَسْتَلَنَّ عَنْهَا كُتُوبَ نَقَرُونَ﴾ أقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألنهم عن ذلك الذي افتروه، واثتفكوه، وليجزينهم عليه أوفر الجزاء في نار جهنم.

(٥٧) ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ﴾ حيث قالوا عن الملائكة العباد المقربين: إنهم بنات الله ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ لأنفسهم الذكور، حتى إنهم يكرهون البنات كراهة شديدة.

(٥٨) ﴿وَكَانَ إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ من الغم الذي أصابه ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ساكت من شدة الحزن والأسف.

(٥٩) ﴿يَتَوَرَّى﴾ يختفي ﴿مِنَ الْقَوَى﴾ كراهية أن يراه الناس خوفاً من الخزي والعار ﴿مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾ من الإناث، ثم يتفكر ﴿إِنَّمَا كُنَّ عَلَىٰ هُوبٍ﴾ يتركها من غير قتل على إهانة وذل ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ يدفنها وهي حية ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾؛ وذلك أن جعلوا لله ما لا يرضون لأنفسهم، وجعلوا لما لا ينفعهم ولا يضرهم شركاء فيما رزقهم الله، وعبدوا غير من خلقهم وأنعم عليهم.

للناس الحق فيما كان موضع اختلافهم من التوحيد والقدر وأحكام الأفعال وأحوال المعاد ﴿وَهْدَى﴾ ليكون هداية تامة ﴿وَرَحْمَةً﴾ عامة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالله وبالكتاب الذي أنزله.

(٦٥) ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾؛ أي: إنزال المطر ﴿فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ بإنبات جميع أصناف النبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بعد ييوسها ﴿إِنِّي فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ عن الله مواعظه وتذكيره، فيستدلوا بذلك على أنه وحده المعبود بحق، وأنه على كل شيء قدير، فالذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الموتى، وأن الذي نشر هذا الإحسان لذو رحمة واسعة وجود عظيم.

(٦٦) ﴿وَإِنَّ لَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿فِي الْأَنْعَامِ﴾ الإبل والبقر والغنم ﴿لَعِبْرَةً﴾ لآية تستدلون بها على كمال قدرة الله، وسعة إحسانه ﴿تُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ وأفرد هاهنا الضمير عوداً على معنى النعم، أو الضمير عائد على الحيوان؛ فإن الأنعام حيوانات، أي: نسقيكم مما في بطون هذا الحيوان؛ ﴿مِنْ بَيْنِ قَرْنٍ﴾ وهو ما في الكرش من الثقل ﴿وَدَمِرٍ﴾ في باطن الحيوان، فأخرج من بين ذلك ﴿لَبَنًا خَالِصًا﴾ من الكدرة ليس عليه لون دم ولا رائحة الفرث ﴿سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ للذته، فلا يغص به ٥٤١، ولأنه يسقى ويغذى، فهل هذه إلا قدرة إلهية لا أمور طبيعية.

(٦٧) ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ﴾ أي: ولكم أيضاً عبرة فيما نسقيكم ونرزقكم من ثمرات النخيل والأعناب ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ ومن السكر الذي كان حلالاً قبل ذلك، ثم إن الله نسخ حل المسكرات، وأعاض عنها بالطيبات من الأنبيذة وأنواع الأشربة اللذيذة المباحة ﴿وَرَزَقًا

سورة النحل

وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً تَسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ قَرْنٍ وَدَمِرٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّخْلِ أَنْ اجْعَلِي مِنَ الْغُلَامِ يَبُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمَنَّكُمْ مِنْ بَرْدٍ أَنْزَلِ الْعُمُرَ لَكُمْ لِاعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الْبَنَاتُ فَضْلًا بَرًّا ذِي رِزْقٍ هَهُنَ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَهَنَ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَجْهَةً وَرَزَقَكُمْ مِنْ الْبَلْبَنِاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾

الآخرة ﴿وَأَنْتُمْ مُقَرَّنُونَ﴾ مقدمون إليها، ماكنون فيها، غير خارجين منها أبداً.

(٦٣) ثم بين تعالى لرسوله ﷺ أنه ليس هو أول رسول كُذِّبَ، فقال تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ رسلاً يدعونهم إلى التوحيد ﴿فَرِيقٌ لَّهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ﴾ فحسن لهم الشيطان ما كانوا عليه من الكفر وعبادة الأوثان، مقيمين، حتى كذبوا رسلهم وردوا عليهم ما جاءوهم به من عند ربهم ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ فالشيطان ناصرهم اليوم، وبئس الناصر ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة عند ورودهم على ربهم فلا ينفعهم حينئذ الشيطان، ولا هي نفعتهم في الدنيا بل ضررتهم فيها وهي لهم في الآخرة أضرار.

(٦٤) ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ يا محمد هذا ﴿الْكِتَابَ﴾ القرآن ﴿إِلَّا لِنُبَيِّنَ لَكُمْ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ إلا لتبين

عَلِمَ شَيْئًا؛ أي: العقل الذي هو جوهر الإنسان، يزيد ضعفه حتى إنه ينسى ما كان يعلمه، ويصير عقله كعقل الطفل، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ قد أحاط علمه وقدرته بجميع الأشياء، ومن ذلك ما ينقل به الآدمي من أطوار الخلقة، خلقًا بعد خلق.

(٧١) يقول تعالى ذكره: ﴿وَاللَّهُ﴾ أيها الناس، ﴿فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ الذي رزقكم في الدنيا ﴿فَمَا آتَيْتُمْ فَضْلًا﴾ على غيرهم ﴿بِرَأْيٍ رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي: بمشركي ممالئكم فيما رزقهم من الأموال والأزواج، ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ أي: حتى يستووا هم وعبيدهم في ذلك، فيرون أن هذا من الأمور الممتنعة، فكذلك من أشركتم بها مع الله، فإنها عبيد، ليس لها من الملك مثقال ذرة، فكيف تجعلونها شركاء لله تعالى؟! فهذا مثل ضربه الله عز وجل، فهل منكم من أحد شارك مملوكه في زوجته أو في فراشه فتعدلوا الله خلقه وعباده؟ فإن لم ترضى لنفسك هذا فالله أحق أن يترك منك. ﴿أَفَنِعْمَةً اللَّهُ يَجْعَلُ يَكْفُرُونَ﴾؛ أي: يكفرون.

(٧٢) ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ يخبر تعالى عن منته العظيمة على عباده، حيث جعل لهم أزواجًا؛ ليسكنوا إليها ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَيْنًا﴾ أولادًا ﴿وَحَفَدةً﴾ أولاد البنين تقر بهم أعينهم ويخدمونهم، ويقضون حوائجهم ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من المأكَل والمشارب ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: الأصنام ﴿وَيَنْعَمَتِ﴾

حَسَنًا﴾ من أنواع الرزق الحسن الذي يأكله العباد طريًا ونضيجًا، وحاضرًا ومدخرًا، وطعامًا وشرابًا، يتخذ من عصيرها ونبذها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ عن الله كمال اقتداره، حيث أخرجها من أشجار شبيهة بالحطب، فصارت ثمرة لذيذة وفاكهة طيبة.

(٦٨) ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ المراد بالوحي هنا الإلهام والهداية والإرشاد للنحل ﴿إِنْ تَخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ أن تتخذ من الجبال بيوتًا تأوي إليها ﴿وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ ينون.

(٦٩) ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ ثم أذن لها تعالى إذنا قدريًا تسخيريًا أن تأكل من كل الثمرات ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ وأن تسلك الطرق التي جعلها الله مذللة لها مسهلة عليها ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ﴾ ثم يخرج من بطونها هذا العسل اللذيذ، مختلف الألوان، بحسب اختلاف أرضها ومراعيها ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ من أمراض عديدة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَفَكَّرُونَ﴾ في خلق هذه النحلة الصغيرة التي هداها الله هذه الهداية العجيبة.

(٧٠) ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّقُكُمْ﴾ يخبر تعالى: أنه الذي خلق العباد، ونقلهم في الخلقة طورًا بعد طور، ثم بعد أن يستكملوا آجالهم يتوفاهم، ﴿وَمِنْكُمْ﴾ ومنهم ﴿مَنْ﴾ يعمره حتى ﴿يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ أخسه الذي يبلغ به الإنسان إلى ضعف القوى الظاهرة والباطنة ﴿لَكُمْ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ﴾

(٦٩) في «الصحيحين» من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أخي استطلق بطنه؟ فقال: «اسقه عسلًا». فسقاه عسلًا، ثم جاء فقال: يا رسول الله، سقيته عسلًا، فما زاده إلا استطلاقًا. قال: «اذهب فاسقه عسلًا»، فذهب فسقاه، ثم جاء فقال: يا رسول الله، ما زاده إلا استطلاقًا. فقال رسول الله: «صدق الله، وكذب بطن أخيك، اذهب فاسقه عسلًا». فذهب فسقه، فبرئ.

شيئاً، ولا يملكون مثقال ذرة في السموات والأرض، ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لو أرادوا.

فهذه صفة آلهتهم، كيف جعلوها مع الله، وشبهوها بمالك الأرض والسموات، الذي له الملك كله، والحمد كله، والقوة كلها؟!

(٧٤) ولهذا قال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ المتضمنة للتسوية بينه وبين خلقه، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فعلينا أن لا نقول عليه بلا علم، وأن نسمع ما ضربه العليم من الأمثال، فقد ضرب الله تعالى مثلين له ولمن يعبد من دونه:

(٧٥) المثل الأول: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ مثل رجلين: أحدهما عبد رقيق لا يملك نفسه، ولا يملك من المال والدنيا شيئاً، والثاني: حر غني قد رزقه الله منه رزقاً حسناً من جميع أصناف المال ﴿فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ وهو كريم محب للإحسان ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ ولم يقل: (يستويان)؛ لمكان (من) لأنه اسم مبهم يصلح للواحد والاثنتين والجمع والمذكر والمؤنث، وقيل: (إن عبداً مملوكاً)، (ومن رزقناه) أريد بهما الشيوع في الجنس، والمعنى: هل يستوي هذا وذاك؟! لا يستويان، مع أنهما مخلوقان غير محال استواءهما، فإذا كانا لا يستويان، فكيف يستوي المخلوق والعبد الذي

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٤﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٦﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ عَنِ ٱلسَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ ۖ إِلَّا كَنفَخِ ٱلْبَصِيرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٨﴾ وَٱللَّهُ أَفْرَجَكُم مِّنْ ظُلُونٍ أَن تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَرَ وَٱلْأَفْئِدَةَ ۚ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٩﴾ أَلَمْ يَرْفُءَ إِلَى ٱلطَّيْرِ مَسْجَرَتٍ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٠﴾

الله؟ يعني: التوحيد والإسلام ﴿هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ يجحدونها، ويستعينون بها على معاصي الله والكفر به.

(٧٣) ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْئًا﴾ يخبر تعالى عن جهل المشركين وظلمهم أنهم يعبدون من دونه آلهة اتخذوها شركاء لله والحال أنهم لا يملكون لهم رزقاً من السموات والأرض، فلا ينزلون مطراً، ولا رزقاً، ولا ينبتون من نبات الأرض

(٧٥)، (٧٦) أخرج الطبراني في "تفسيره" والواحدي في "أسباب النزول" بإسناد حسن عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما . في قوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا﴾ قال: نزلت في رجل من قريش وعبدته. وفي قوله: ﴿مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ إلى قوله ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ قال: هو عثمان بن عفان. قال: والأبكم الذي أينما يوجهه لا يأت بخير، ذاك مولى عثمان بن عفان، كان عثمان ينفق عليه ويكفله ويكفيه المئونة، وكان الآخر يكره الإسلام ويأباه وينهاه عن الصدقة والمعروف فنزلت فيها.

ليس له ملك ولا قدرة بل هو فقير من جميع الوجوه، بالرب المالك لجميع الممالك، القادر على كل شيء؟! ولهذا حمد نفسه، واختص بالحمد بأنواعه، فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فكانه قيل: إذا كان الأمر كذلك فلم سوى المشركون آبهتهم بالله؟ فلو علموا حقيقة العلم لم يتجرءوا على الشرك العظيم ﴿و﴾.

(٧٦) والمثل الثاني: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾ لا يسمع ولا ينطق ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ لا قليل ولا كثير ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ﴾ يخدمه مولا، ولا يستطيع هو أن يخدم نفسه، ﴿إِنَّمَا يُوْجِهُهُ﴾ يعثه ﴿لَا يَأْتِ بِحَيْرٍ﴾ لا ينجح مسعا، ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ وهو الله ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فأقواله عدل وأفعاله مستقيمة، فكما أنهما لا يستويان، فلا يستوي من عبد من دون الله، وهو لا يقدر على شيء من مصالحه، فلو لا قيام الله بها لم يستطع شيئاً منها.

(٧٧) ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هو تعالى المنفرد بغيب السموات والأرض، فلا يعلم الخفايا والبواطن والأسرار إلا هو ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ﴾ في قرب كونها ﴿إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ من ذلك، فيقوم الناس من قبورهم إلى يوم بعثهم ونشورهم، وتفوت الفرص لمن يريد الإمهال ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا يستغرب على قدرته الشاملة إحياءه للموتى.

(٧٨) ﴿وَاللَّهُ﴾ هو المنفرد بهذه النعم، حيث ﴿أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ ولا تقدر على شيء. ثم إنه ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْعِدَّةَ﴾

سُورَةُ النِّسَاءِ

النِّسَاءِ

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارُهَا أَثْنَا وَمِئَاتٍ إِلَى خَمْسِينَ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْهَا خَلْقَ ظِلَالٍ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرِيلَ نَقِيصِكُمْ الْحَرَّ وَسَرِيلَ نَقِيصِكُمْ بِأَسْكُمُ كَذَلِكَ يَتَرَفَعُهُمْ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْعُ الْمُبِينُ ﴿٧٧﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يَنْكُرونها وَأَكْثَرُهُمْ الْكَافِرُونَ ﴿٧٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفُّ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَشْرَكَاءَ هُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كَانُوا عِندَنا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨١﴾ وَالْقَوَا إِلَى اللَّهِ يُؤْمِنُ السَّامِعُ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْكَرُونَ ﴿٨٢﴾

٢٧٦

خص هذه الأعضاء الثلاثة؛ لشرفها وفضلها، ولأنها مفتاح لكل علم، فلا يصل للعبد علم إلا من أحد هذه الأبواب الثلاثة، وإلا فسائر الأعضاء والقوى الظاهرة والباطنة هو الذي أعطاها إيها، وجعل ينميها فيهم شيئاً فشيئاً إلى أن يصل كل أحد إلى الحالة اللاتقة به ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وذلك لأجل أن يشكروا الله، باستعمال ما أعطاها من هذه الجوارح في طاعة الله، فمن استعملها في غير ذلك كانت حجة عليه، وقابل النعمة بأقبح المعاملة.

(٧٩) ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ ألم ينظر هؤلاء المشركون ﴿إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ﴾ مذللات ﴿فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾ وهو الهواء ما بين السماء والأرض، ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ بقدرته ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم المنتفعون بآيات الله،

المتفكرون فيما جعلت آية عليه، ووجه الآية فيها أن الله تعالى خلقها بخلقه تصلح للطيران، ثم سخر لها هذا الهواء اللطيف، ثم أودع فيها من قوة الحركة، وما قدرت به على ذلك، وذلك دليل على حكمته وعلمه الواسع، وعنايته الربانية بجميع مخلوقاته وكمال اقتداره، تبارك الله رب العالمين.

(٨٠) ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ في الدور والقصور ونحوها، تَكُنْكُمْ من الحر والبرد، وتستركم أنتم وأولادكم وأمتعتكم، وفيها حفظ لأموالكم وحرمتكم، وغير ذلك من الفوائد المشاهدة ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ﴾ إما من الجلد نفسه، أو مما نبت عليه من صوف وشعر ووبر ﴿يُؤْتِيَا تَشْتَفِئُونَهَا﴾ تجدونها خفيفة الحمل، تكون لكم ﴿يَوْمَ طَعْنَكُمْ وَيَوْمَ إِقَامِكُمْ﴾ في السفر والمنازل، التي لا قصد لكم في استيطانها، فتقيكم من الحر والبرد والمطر، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَصْوَافِهَا﴾؛ أي: الغنم ﴿وَأَوْبَارَهَا﴾؛ أي: الإبل ﴿وَأَشْعَارَهَا﴾؛ أي: المعز. والضمير عائد على الأنعام، ﴿أَتَأْتُوا﴾ وهذا شامل لكل ما يتخذ منها من الآنية والأوعية والفرش والألبسة والأجلة، وغير ذلك، ﴿وَمَتَّعًا إِلَى حِينٍ﴾ تتمتعون بذلك في هذه الدنيا، وتنتفعون بها.

(٨١) ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ الَّتِي لَا صِنْعَ لَكُمْ فِيهَا﴾ ﴿ظِلَالًا﴾ وذلك كأظلة الأشجار والآكام ونحوه ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ مغارات تكنكم من الحر والبرد والأمطار والأعداء ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَبِيلًا﴾ ألبسة وثيابًا من القطن والكتان

والصوف ﴿تَقِيكُمْ﴾ ﴿الْحَرَّ﴾ ولم يذكر الله البرد؛ لأنه قد تقدم أن هذه السورة أولها في أصول النعم، وآخرها في مكملاتها ومتمماتها، ووقاية البرد من أصول النعم؛ فإنه من الضرورة، وقد ذكره في أولها في قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ﴾، ﴿وَسَرَبِيلٌ تَقِيكُمْ بِأَسْكَكُمْ﴾ واثيابًا تقيكم وقت البأس والحرب، وذلك كالدرع والزرود ونحوها ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ حيث أسبغ عليكم من نعمه ما لا يدخل تحت الحصر ﴿لَمَلَكْكُمْ﴾ إذا ذكرتم نعمة الله، ورأيتموها غامرة لكم من كل وجه ﴿تَسْلُوتُ﴾ لعظمته، وتنقادون لأمره، وتصرفونها في طاعة موليتها ومسديها.

(٨٢) ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الله، وعن طاعته بعدما ذكروا بنعمه وآياته ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ ليس عليك من هدايتهم وتوفيقهم شيء، بل أنت مطالب بالوعظ والتذكير، والإنذار والتحذير، فإذا أدبت ما عليك فحسابهم على الله.

(٨٣) ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾؛ أي: يعرفون أن الله تعالى هو المسدي إليهم ذلك، وهو المتفضل به عليهم ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَصْوَافِهَا﴾؛ أي: الغنم ﴿وَأَوْبَارَهَا﴾؛ أي: الإبل ﴿وَأَشْعَارَهَا﴾؛ أي: المعز. والضمير عائد على الأنعام، ﴿أَتَأْتُوا﴾ وهذا شامل لكل ما يتخذ منها من الآنية والأوعية والفرش والألبسة والأجلة، وغير ذلك، ﴿وَمَتَّعًا إِلَى حِينٍ﴾ تتمتعون بذلك في هذه الدنيا، وتنتفعون بها.

(٨٤) ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ يشهد عليهم بأعمالهم، وماذا أجابوا به الداعي إلى الهدى، وذلك الشهيد الذي يبعثه الله أركى الشهداء وأعدلهم، وهم: الرسل الذين إذا شهدوا تم عليهم الحكم ﴿ثُمَّ لَا يُوَدِّتُ لِلَّذِينَ

كَفَرُوا ﴿٨٥﴾ فِي الْاِعْتِذَارِ؛ لِأَنَّهُ اِعْتِذَارٌ كَاذِبٌ، لَا يَفِيدُهُمْ شَيْئًا ﴿٨٦﴾ وَلَا هُمْ يُسْتَعْبُونَ ﴿٨٧﴾ وَإِنْ طَلَبُوا الرُّجُوعَ إِلَى الدُّنْيَا؛ لَيْسَتْ دُرُكُوا، لَمْ يَجَابُوا وَلَمْ يَعتَبِرُوا.

(٨٥) ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أَشْرَكُوا ﴿الْعَذَابَ﴾؛ أَي: جَهَنَّمَ ﴿فَلَا يَخَفُّ عَنْهُمْ﴾ لَا يَفْتَرُ عَنْهُمْ سَاعَةً وَاحِدَةً ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ مِنْ غَيْرِ اِنْتِظَارٍ وَلَا إِمْهَالٍ مِنْ حِينَ يَرُونَهُ؛ لِأَنَّهُمْ لَا حَسَنَاتَ لَهُمْ، وَإِنَّمَا تَعْدُ أَعْمَالُهُمْ وَتَحْصَى، وَيُوقَفُونَ عَلَيْهَا وَيَقْرُونَ بِهَا، وَيَفْتَضَحُونَ.

(٨٦) ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ ثَبَرَةِ آلِهِمْ مِنْهُمْ أَحْوَجَ مَا يَكُونُونَ إِلَيْهَا فَقَالَ: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿شُرَكَاءَهُ﴾، أَي: الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنَ الْآلِهَةِ وَالْأَوْثَانِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ﴾ رَدَّتْ عَلَيْهِمْ شُرَكَائُهُمْ قَوْلَهُمْ، فَقَالَتْ لَهُمْ: ﴿إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ حَيْثُ جَعَلْتُمُونَا شُرَكَاءَ اللَّهِ، وَعَبَدْتُمُونَا مَعَهُ، فَلَمْ نَأْمُرْكُمْ بِذَلِكَ، وَلَا زَعَمْنَا أَنَّ فِينَا اسْتِحْقَاقًا لِلْأُلُوهِيَّةِ، فَاللَّوْمُ عَلَيْكُمْ.

(٨٧) ﴿وَالْقَوْلُ﴾؛ حِينَئِذٍ؛ أَي: الْمَشْرُكُونَ ﴿إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامُ﴾؛ أَي: اسْتَغْلَمُوا لِلَّهِ، وَخَضَعُوا لِحُكْمِهِ، وَعَلِمُوا أَنَّهُمْ مُسْتَحَقُّونَ لِلْعَذَابِ ﴿وَصَدَّ عَنْهُمْ﴾ وَزَالَ عَنْهُمْ ﴿مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ مِنْ أَنَّهَا تَشْفَعُ لَهُمْ.

(٨٨) ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ يَذْكُرُ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَاقِبَةَ الْمَجْرِمِينَ حَيْثُ كَفَرُوا، وَكَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ، وَحَارَبُوا رُسُلَهُ، وَصَدُّوا النَّاسَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَصَارُوا دَعَاةً إِلَى الضَّلَالِ، فَاسْتَحَقُّوا مُضَاعَفَةَ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يُعْطِيكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَيْدًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَقْعَدُكُمْ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَضَتْ غَرْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَنَّا تَنْجَدُونَ أَيْمَنُكُمْ دَخَلَا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمْ اللَّهُ بِمَا وَلَّيْتُمْ لَكُمْ يَوْمَ الْوَعْدِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَنَسْتَأْذِنَ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

العذاب ﴿بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ كَمَا تَضَاعَفُ جُرْمُهُمْ، وَأُفْسِدُوا فِي أَرْضِ اللَّهِ.

(٨٩) ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ نَبِيًّا أَوْ رَسُولًا مِنْ بَنِي جَنْسِهِمْ؛ لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ كَانَتْ تَبْعَثُ إِلَى الْأُمَمِ مِنْهَا ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ عَلَى أَمْتِكَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا﴾ بَيَانًا ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ فِي أَصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ، وَفِي أَحْكَامِ الدَّارَيْنِ، وَكُلِّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْعِبَادُ، فَهُوَ مُبِينٌ فِيهِ أَمٌّ تَبْيِينٌ بِالْفَافِ وَاضِحَةٌ، وَمَعَانٍ جَلِيَّةٌ ﴿وَهُدًى﴾ لَهُمْ، يَهْتَدُونَ بِهِ إِلَى أَمْرِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ ﴿وَرَحْمَةً﴾ يَنَالُونَ بِهِ كُلَّ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَالْهُدَى مَا نَالُوهُ بِهِ مِنْ عِلْمٍ نَافِعٍ وَعَمَلٍ صَالِحٍ، وَالرَّحْمَةُ مَا تَرْتَبُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ ثَوَابِ الدُّنْيَا

الْفَحْشَاءِ ﴿٩٠﴾ وهو كل ذنب عظيم استفحشته الشرائع والفطر، كالشرك بالله، والقتل بغير حق، والزنا، والسرقة، وغير ذلك من الفواحش ﴿وَالْمُنْكَرِ﴾ ويدخل في المنكر كل ذنب ومعصية تتعلق بحق الله تعالى ﴿وَالْبَغْيِ﴾ كل عدوان على الخلق في الدماء، والأموال، والأعراض، ﴿يُعْظَمُ﴾ بما بينه لكم في كتابه، بأمركم بما فيه غاية صلاحكم، ونهيكم عما فيه مضرركم، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ما يعظكم به، فتفهمونه وتعقلونه.

(٩١) ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ هذا يشمل جميع ما عاهد العبد عليه ربه من العبادات والنذور والأيمان التي عقدها، إذا كان بها برًا، ويشتمل ما تعاهد عليه هو وغيره؛ كالعهود بين المتعاقدين، وكالوعد الذي يعده العبد لغيره ﴿وَلَا تَقْضُوا الْآيَاتِنَا﴾ نهى الله عن نقضها ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ بعقدها على اسم الله تعالى ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المتعاقدون ﴿كَفِيلًا﴾ فلا يحل لكم أن لا تحكموا ما جعلتم الله عليكم كفيلًا، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا قَعَلْتُمْ﴾ فيجازي كل عامل بعمله، على حسب نيته ومقصده.

(٩٢) ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ في نقضكم للعهود بأسوأ الأمثال وأقبحها وأدلها على صفة متعاطيها، وذلك ﴿كَأَلْفِي﴾ تغزل غزلًا قويًا، فإذا استحکم

وَلَا تَخْذَلُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَرِلْ قَدَمٌ بَعْدَ نَوْبِهَا وَتَذَوُّوا الشَّوْءَ يَمَاصِدُّكُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٠﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩١﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٢﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْفَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاتٍ طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٤﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٥﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿٩٦﴾ وَإِذَا بَدَأْنَا آيَةً مَّكَاتٍ ءَايَةً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزِيلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٨﴾

والآخرة ﴿وَبُشْرَى﴾ بشارة ﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾ المتقادين الطائعين لأمره ونهيه.

(٩٠) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ﴾ في هذا الكتاب الذي أنزله إليك يا محمد ﴿بِالْعَدْلِ﴾ بالإنصاف ومن الإنصاف التوحيد وعدم الإشراك به، ﴿وَالْإِحْسَنِ﴾ إلى الخلق ﴿وَإِنِّي ذِي الْفُرْقَانِ﴾ يأمر بصلة الأرحام، وخصهم الله لتأكد حقهم، وتعين صلتهم وبرهم، والحرص على ذلك ﴿وَيَنْهَى عَنِ

(٩٠) أخرج البخاري في «الأدب المفرد» وأصحاب السنن إلا النسائي من حديث أبي بكرة الصحيح عن النبي ﷺ: «ما من ذنب أجدر أن يجعل الله عقوبته في الدنيا، مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم».

(٩١) أخرج الإمام أحمد والبخاري والبيهقي بإسنادهم عن نافع قال: لما خلع الناس يزيد بن معاوية، جمع ابن عمر بنه وأهله، ثم تشهد، ثم قال: أما بعد، فإننا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة، فيقال: هذه غدره فلان» وإن من أعظم الغدر - إلا أن يكون الإشراك بالله - أن يبايع رجل رجلًا على بيع الله ورسوله ثم ينكث بيعته، فلا يخلعن أحد منكم يزيد ولا يشرفن أحد منكم في هذا الأمر، فيكون ضيَلَمَ - أي: قطيعة - بيني وبينه.

والدنيوية المضرة بدينهم، ﴿أَجْرُهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

(٩٧) ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ عملاً مشروعاً من عند الله ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ من بني آدم ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فإن الإيمان شرط في صحة الأعمال الصالحة وقبولها، بل لا تسمى أعمالاً صالحة إلا بالإيمان، فمن جمع بين الإيمان والعمل الصالح ﴿فَلَنَجْزِيَنَّهُمْ حَيَوَةً طَيِّبَةً﴾ وذلك بطمأنينة قلبه، وسكون نفسه، وعدم التفاته لما يشوش عليه قلبه، ويرزقه الله رزقاً حلالاً طيباً من حيث لا يحتسب ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ في الآخرة ﴿أَجْرُهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من أصناف اللذات، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

(٩٨) ثم لما من الله تعالى على النبي ﷺ بإنزال كتاب جامع لصفات الكمال، وأنه تبيان لكل شيء، قال بعد ذلك: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ أي: فإذا أردت قراءة هذا الكتاب الشريف الذي نهبت على بعض ما اشتمل عليه ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ فإن الشيطان أحرص ما يكون على العبد عند شروعه في الأمور الفاضلة، فيسعى في صرفه عن مقاصدها ومعانيها، فالطريق إلى السلامة من شره الالتجاء إلى الله، والاستعاذة من شره، فيقول القارئ «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» متدبراً لمعناها، معتمداً بقلبه على الله في صرفه عنه، والمقصود إرشاد الأمة،

وتم ما أريد منه ﴿نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ فجعلته ﴿أَنْكَثًا﴾ أنقاضاً؛ فتعبت على الغزل، ثم على النقص، ولم تستفد سوى الخيبة والعناء، وسفاهة العقل، ونقص الرأي، فكذلك من نقض ما عاهد عليه، فهو ظالم جاهل سفيه، ناقص الدين والمروءة.

(٩٩) ﴿وَلَا تُخَذَّوْا أَيْمَانَكُمْ﴾ عهدكم ومواثيقكم ﴿دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ خديعة وفساداً تبعاً لأهوائكم، متى شئتم وفيتهم بها، ومتى شئتم نقضتموها ﴿فَقَرَلْ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ فإنكم إذا فعلتم ذلك تزل أقدامكم بعد ثبوتها على الصراط المستقيم، ﴿وَيَذُوقُوا السُّوءَ﴾ العذاب الذي يسوؤكم ويحزنكم، ﴿يَمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ حيث ضللتهم، وأضللتهم غيركم، ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ مضاعف.

(١٠٠) ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ تنالونه بالنقض وعدم الوفاء ﴿إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من الثواب العاجل والآجل لمن آثر رضاه وأوفى بما عاهد عليه الله ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من حطام الدنيا الزائلة، ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فضل ما بين العوضين.

(١٠١) فآثروا ما يبقى على ما يفنى؛ فإن ﴿مَا عِنْدَكُمْ﴾ ولو كثر جداً، لا بد أن ﴿يَفْضَدَ﴾ ويفنى ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ ببقائه، لا يفنى ولا يزول، فليس بعاقل من آثر الفاني الخسيس على الباقي النفيس ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على طاعة الله وعن معصيته وفطموا أنفسهم عن الشهوات

(٩٦) أخرج الإمام أحمد وغيره بإسناد حسن لغيره من حديث أبي موسى الأشعري ؓ: أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى».

(٩٧) أخرج مسلم من حديث أنس بن مالك ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يعطى بها في الدنيا، ويثاب عليها في الآخرة، وأما الكافر فيعطيه حسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة، لم تكن له حسنة يعطى بها خيراً».

عبادة الله .

(١٠١) ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزَكِّي﴾ يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين وقلة ثباتهم وإيقانهم ، وأنه لا يتصور منهم الإيمان ، وقد كتبت عليهم الشقاوة ، وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمنسوخها ﴿قَالُوا﴾ للرسول ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْقَرٍ﴾ مختلق ، تقولون من تلقاء نفسك ، فرد الله عليهم بقوله : ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ منهم جهال ، لا علم لهم بربهم ولا بشره ولا بكتابه .

(١٠٢) ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ وهو جبريل الرسول المقدس المنزه عن كل عيب وخيانة وآفة ﴿مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ ؛ أي : نزوله من عند الله بالحق ، وهو مشتمل على الحق في أخباره وأوامره ونواهيه ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ عند نزول آياته وتواردها عليهم وقتاً بعد وقت ، فلا يزال الحق يصل إلى قلوبهم شيئاً فشيئاً حتى يكون إيمانهم أثبت من الجبال الرواسي ﴿وَهُدًى﴾ يهديهم إلى حقائق الأشياء ، ويبين لهم الحق من الباطل ، والهدى من الضلال ، ﴿وَبَشِّرِ الْمُتَّقِينَ﴾ ويشرهم أن لهم أجراً حسناً ، ماكتسب فيه أبداً ، وأيضاً فإنه كلما نزل شيئاً فشيئاً كان أعظم هداية وبشارة لهم مما لو أتاهم جملة واحدة ، وتفرق الفكر فيه .

(١٠٣) يخبر تعالى عن قيل المشركين المكذبين لرسوله وافتراءهم قائلًا : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ

سورة النحل

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّئَاتِ
الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبُوا وَهَذَا لَأَن عَرِيتُ
مُتِّتٌ (١٠١) إِنَّا لَنَدِينُ لَآئِمُونُونَ بِأَيِّتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمْ
اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٢) إِنَّمَا يَقْرَأُ الْكَذِبَ الَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِأَيِّتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ
(١٠٣) مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ
وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا
فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِنْ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٤)
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحْبَبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ
وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٥) أُولَئِكَ
الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٠٦) لَا جَرَمَ لَهُمْ
فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٠٧) ثَمَرَاتُ رَبِّكَ
لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فَتَنَّا ثُمَّ جَاهِدُوا
وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٨)

٢٧٩

والاستعاذة أمر ندب وليس بواجب ، نقل الإجماع على ذلك ابن جرير وغيره ، وجمهور العلماء على أنها قبل القراءة لا بعدها .

(٩٩) ﴿فَإِنَّهُ﴾ ؛ أي : الشيطان ﴿لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ﴾ تسلط وحجة ﴿عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ﴾ وحده لا شريك له ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ فيدفع الله عن المؤمنين المتوكلين عليه شر الشيطان ، ولا يبقى له عليهم سبيل .

(١٠٠) ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُكُمْ﴾ تسلطه ﴿عَلَى الَّذِينَ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يجعلونه ولياً ، وذلك بتخليهم عن ولاية الله ، ودخولهم في طاعة الشيطان وانضمامهم لحزبه ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ أشركوا في

(١٠٣) أخرج الطبري والواحدي في «أسباب النزول» والبغوي في «معجم الصحابة» وغيرهم بإسناد صحيح عن عبيد بن مسلم الحضرمي . قال : كان لنا غلامان نصرانيان من أهل عين التمر ، يسمى أحدهما : يسار ، والآخر : جبر ، وكانا يقرآن كتاباً لهما ، فربما مرّ رسول الله ﷺ فقام عليهما ، فقال المشركون : إنما يتعلم محمد منهما . فأنزل الله ﷻ هذه الآية .

بالكفر راضياً به مطمئناً ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أن لهم الغضب الشديد من الرب الرحيم، الذي إذا غضب لم يقم لغضبه شيء، وغضب عليهم كل شيء ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في غاية الشدة، مع أنه دائم أبداً.

(١٠٧) ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ حيث ارتدوا على أديارهم طمعاً في شيء من حطام الدنيا، ورغبة فيه، وزهداً في خير الآخرة، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ فلما اختاروا الكفر على الإيمان منعهم الله الهداية، فلم يهدم؛ لأن الكفر وصفهم.

(١٠٨) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ﴾ فطبع على قلوبهم، فلا يدخلها خير، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم، فلا ينفذ منها ما ينفعهم ويصل إلى قلوبهم ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ فشملتهم الغفلة، وأحاط بهم الخذلان، وحرموهم رحمة الله التي وسعت كل شيء، وذلك أنها اتتهم؛ فردوها، وعرضت عليهم؛ فلم يقبلوها.

(١٠٩) ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: لا بد ولا عجب أن من هذه صفته ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الذين خسروا أنفسهم وأموالهم وأهلهم يوم القيامة، وفاتهم النعيم المقيم، وحصلوا على العذاب الأليم.

(١١٠) ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ من ديارهم ومساكنهم وعشائرهم من المشركين، وانتقلوا عنهم إلى ديار أهل الإسلام ومساكنهم وأهل ولايتهم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا فَتَنُوا﴾ من بعد ما فتنهم المشركون الذين كانوا بين أظهرهم قبل هجرتهم عن دينهم ﴿ثُمَّ جَنَّهُدُوا﴾

إِنَّمَا يَعْلَمُهُ﴾ هذا الكتاب الذي جاء به ﴿بَشَرٌ﴾ ثم بين تعالى لسان هذا البشر، فقال: ﴿لَسَاتُ أَلَدَى يَلْجُدُونَ إِلَيْهِ أَتَعَجِبُونَ﴾ أي: لسان الذي يشيرون إليه أعجمي اللسان ﴿وَهَذَا﴾ القرآن ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ هل هذا القول ممكن؟! أو له حظ من الاحتمال؟! ولكن الكاذب يكذب ولا يفكر فيما يثول إليه كذبه، فيكون في قوله من التناقض والفساد ما يوجب رده بمجرد تصوره.

(١٠٤) ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة دلالة صريحة على الحق المبين، فيردونها ولا يقبلونها ﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ حيث جاءهم الهدى، فردوه، فعوقبوا بحرمانه، وخذلان الله لهم ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عذاب موجه. (١٠٥) ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ﴾ إنما يصدر افتراء الكذب من ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ كالمعاندين لرسوله من بعد ما جاءتهم البينات ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ أي: الكذب منحصر فيهم، وعليهم أولى بأن يطلق من غيرهم. وأما محمد ﷺ المؤمن بآيات الله، الخاضع لربه، فمحال أن يكذب على الله، ويتقول عليه ما لم يقل، فأعداؤه رموه بالكذب الذي هو وصفهم؛ فأظهر الله خزيهم وبين فضئحهم، فنه تعالى الحمد.

(١٠٦) يخبر تعالى عن شناعة حال ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ فعمي بعدما أبصر، ورجع إلى الضلال بعدما اهتدى ﴿إِلَّا مَنْ أَكْزَرَهُ﴾ هذا بخلاف ممن هو كاره مجبر عليه ﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ راغب فيه غير معتقد بما قاله من الكفر الذي أكره عليه، فإنه لا حرج عليه ولا إثم ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ وشرح صدره

مكة المشرفة، التي ﴿كَانَتْ أَمْنَةً مَّطْمَئِنَّةً﴾ لا يهاج فيها أحد، وتحترمها الجاهلية الجهلاء، فحصل لها من الأمن التام ما لم يحصل في سواها، وكذلك كان ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾ هنيئًا سهلًا ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ كانت بلدة ليس فيها زرع ولا شجر، ولكن يسر الله لها الرزق يأتيها من كل مكان ﴿فَكَفَّرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ جحدت آلاء الله عليها، وأعظمها بعثة محمد عليه الصلاة والسلام، ﴿فَآذَنَّا اللَّهُ لِبَاسِ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ أذاقهم الله ضد ما كانوا فيه، وألبسهم لباس الجوع والخوف الذي هو ضد الأمن وذلك ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾؛ أي: بسبب كفرهم وعدم شكرهم.

(١١٣) ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ﴾ يعرفون أمانته وصدقه، يدعوهم إلى أكمل الأمور، وينهاهم عن الأمور السيئة ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ جحدوا رسالته، وأنكروا نبوته، وحاربوا دعوته، ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ عذاب الجوع والخوف ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ والحال أنهم ظالمون لأنفسهم حيث عرضوها بكفرهم إلى العذاب.

(١١٤) ﴿فَكُلُّوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ يأمر تعالى عباده بأكل ما رزقهم الله من الحيوانات والحبوب والثمار وغيرها ﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾ حالة كونها متصفة بهذين الوصفين، بحيث لا تكون مما حرم الله، أو أثرًا عن حد ونحوه.

فتمتعوا بما خلق الله لكم من غير إسراف ولا تعدٍّ ﴿وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ بالاعتراف بها بالقلب، والثناء على الله بها، وصرفها في طاعة الله ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُخْلِصِينَ لَهُ الْعِبَادَةَ﴾ فلا تشكروا إلا إياه، ولا تسوا المنعم.

(١١٥) ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ﴾ الأشياء المضرة؛

يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَدِّلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَنَاعِمَ لَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١٣﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ أَمْنَةً مَّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَّرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٤﴾ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٥﴾ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ غَيْرُ رَجِيمٍ ﴿١١٧﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٨﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٩﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا فَضَّلْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٢٠﴾

المشركين بعد ذلك بأن يهديهم بالسيف، وبألستهم بالبراءة منهم، ومما يعبدون من دون الله ﴿وَصَبَرُوا﴾ على جهادهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ من بعد تلك الفتنة والغفلة ﴿لَعَفُورٌ﴾ لذو ستر على ما كان منهم من إطاء المشركين ما أرادوا منهم من كلمة الكفر بألستهم، وهم لغيرها مضمرون وللإيمان معتقدون ﴿رَجِيمٌ﴾ بهم أن يعاقبهم عليها مع إنابتهم إلى الله وتوبتهم.

(١١١) ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَدِّلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ كل يقول: نفسي، لا يهمه سوى نفسه، ففي ذلك اليوم يفتقر العبد إلى حصول مثقال ذرة من الخير ﴿وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ من خير وشر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فلا يزداد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم.

(١١٢) ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ وهذه القرية هي

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّرَّ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ
بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٦﴾
إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١١٧﴾
شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١١٨﴾
وَمَا يَنْتَهِ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٩﴾
ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ
مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ
اختلفوا فيه وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَكْهُمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا
كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢١﴾ أَنْعَمَ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ
وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّثْ لَهُمُ الْبَاتِيئَ مِنْ أَحْسَنِ إِنْشَاءٍ ﴿١٢٢﴾
هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ صَدَّقَ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٣﴾
وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ
لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٤﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ
وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٥﴾
إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٦﴾

وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ شَحُومَهُمَا إِلَّا مَا
حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ
ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِغَيْرِهِمْ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴿١١٦﴾ [الأنعام: ١٤٦].
(١١٩) ثم أخبر تعالى تكميلاً وامتناناً في حق
العصاة المؤمنين ، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ
لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّرَّ﴾ قال بعض السلف : كل من
عصى الله فهو جاهل ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
وَأَصْلَحُوا﴾ أي: اقلعوا عما كانوا فيه من
المعاصي، وأقبلوا على فعل الطاعات ﴿إِنَّ رَبَّكَ
مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: تلك الفعلية والذلة ﴿لَغَفُورٌ
رَحِيمٌ﴾ فإن الله يغفر له ويرحمه، ويتقبل توبته،
ويعيده إلى حالته الأولى، أو أعلى منها.
(١٢٠) ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ إماماً جامعاً
لخصال الخير، هادياً مهتدياً ﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾ مديماً
لطاعة ربه، مخلصاً له الدين، ﴿حَنِيفًا﴾ مقبلاً

تنزيهاً لكم، ومن ذلك ﴿الْمَيْتَةَ﴾ ويدخل في
ذلك كل ما كان موته على غير ذكاة مشروعة،
ويستثنى منه: ميتة الجراد والسماك.

﴿وَاللَّحْمَ﴾ المسفوح، وأما ما يبقى في العروق
واللحم فلا يضر، ﴿وَلَحْمَ الْخِزْيِرِ﴾ لقذارته
وخبثه، وذلك شامل للحمه وشحمه وجميع
أجزائه، ﴿وَمَا أَهْلٌ لِعَبْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ كالذي يذبح
للأصنام والقبور ونحوها؛ لأنه مقصود به الشرك،
﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ﴾ إلى شيء من المحرمات بأن
حملته الضرورة، وخاف إن لم يأكل أن يهلك فلا
جناح عليه إذا كان ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ أي: إذا لم يرد
أكل المحرم، وهو غير مضطر، ﴿وَلَا عَادٍ﴾ ولا
متعد الحلال إلى الحرام، أو متجاوز لما زاد على
قدر الضرورة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فيغفر للمضطر
ويرحمه، فيأذن له في الأكل؛ دفعا للضرر.

(١١٦) ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ
هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ لا تحرموا وتحللوا من
تلقا أنفسكم، كذباً وافتراء على الله وتقولاً عليه
﴿لَيَقْفَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ فتقولون: إن الله أمرنا
بهذا ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَقْفَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا
يُفْلِحُونَ﴾ لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولا بد
أن يظهر الله خزيهم.

(١١٧) وإن تمتعوا في الدنيا؛ فإنه ﴿مَتَّعٌ قَلِيلٌ﴾
ومصيرهم إلى النار ﴿وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ موجه في
الآخرة.

(١١٨) ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا فَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ
قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وأما
الذين هادوا فحرم الله عليهم طيبات أحلت لهم
بسبب ظلمهم عقوبة لهم، كما قصه في قوله:
﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ

(١٢٥) ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾؛ أي: ليكن دعاؤك للخلق مسلمهم وكافرهم، إلى سبيل ربك المستقيم، المشتمل على العلم النافع، والعمل الصالح، ﴿بِالْحِكْمَةِ﴾ كل أحد على حسب حاله وفهمه، وقوله وانقياده، ومن الحكمة: الدعوة بالعلم، لا بالجهل، والبداة بالأهم فالأهم، وبالأقرب إلى الأذهان والفهم، وبما يكون قبوله أتم، وبالرفق واللين، ﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾؛ وهو: الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب، إما بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها، والنواهي من المضار وتعدادها، وإما بذكر إكرام من قام بدين الله، وإهانة من لم يقم به، وإما بذكر ما أعد الله للطائعين من الثواب العاجل والآجل، وما أعد للعاصين من العقاب العاجل والآجل، ﴿وَحَدِّثْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؛ وهي: الطرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلاً ونقلاً، ومن ذلك: الاحتجاج عليه بالأدلة التي كان يعتقدوها، فإنه أقرب إلى حصول المقصود، وأن لا تؤدي المجادلة إلى خصام أو مشاتمة تذهب بمقصودها، بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق، لا المغالبة ونحوها، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أعلم بالسبب الذي أداه إلى الضلال، ويعلم أعماله المترتبة على ضلالته، وسيجازه عليه، ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ علم أنهم يصلحون للهداية فهداهم، ثم من عليهم فاجتباهم.

على الله بالمحبة والإنابة والعبودية، معرضاً عما سواه ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ في قوله وعمله وجميع أحواله؛ لأنه إمام الموحدين الحنفاء. (١٢١) ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾ آتاه الله في الدنيا حسنة، وأنعم عليه بنعم ظاهرة وباطنة، فقام بشكرها، فكان نتيجة هذه الخصال الفاضلة أن ﴿أَجَبْتَهُ﴾ ربه، واختصه بخُلَّتته، وجعله من صفوة خلقه وخيار عباده المقربين ﴿وَهَدَيْتُهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ في علمه وعمله، فعلم الحق وآثره على غيره.

(١٢٢) ﴿وَمَا آتَيْنَهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ رزقاً واسعاً، وزوجة حسناء، وذرية صالحة، وأخلاقاً مرضية، ﴿وَأَيُّهُ فِي الْآخِرَةِ لِمَنِ الصَّالِحِينَ﴾ الذين لهم المنازل العالية، والقرب العظيم من الله تعالى. (١٢٣) ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ومن أعظم فضائله أن الله أوحى لسيد الخلق وأكملهم، أن يتبع ملة إبراهيم، ويقتدى به هو وأمته.

(١٢٤) ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ﴾ فرضاً ﴿عَلَى الَّذِينَ ائْتَلَفُوا فِيهِ﴾ حين ضلوا عن يوم الجمعة، وهم: اليهود، فصار اختلافهم سبباً لأن يجب عليهم في السبت احترامه وتعظيمه، وإلا فالفضيلة الحقيقية ليوم الجمعة، الذي هدى الله هذه الأمة إليه، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيبين لهم المحق من المبطل، والمستحق للثواب، ممن استحق العذاب.

(١٢٤) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم، فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالتاس لنا فيه تبع، اليهود غداً، والنصارى بعد غد».

ولا يتعلقوا بغيره من المخلوقين الذين لا يملكون شيئاً، ولا ينفعونهم بشيء.

(٣) ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ فيه تهيج وتنبيه على المنة؛ أي: يا ذرية من منّا عليهم، وحملناهم مع نوح ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ فيه التنويه بالثناء على نوح ﷺ بقيامه بشكر الله، واتصافه بذلك، والحث لذريته أن يقتدوا به في شكره، ويتابعوه عليه.

(٤) ﴿وَفَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ تقدمنا وعهدنا إليهم، وأخبرناهم في كتابهم ﴿لَنُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنٍ وَلَنَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾؛ أي: لا بد أن يقع منهم إفساد في الأرض مرتين بعمل المعاصي والبطر لنعم الله، والعلو في الأرض والتكبر فيها، فيفجرون ويتجبرون على الناس.

(٥) ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ أولى المرتين اللتين يفسدون فيهما؛ أي: إذا وقع منهم ذلك الفساد ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ﴾ بعثنا قدرئنا، وسلطنا عليكم تسليطاً كونياً جزائياً، ﴿عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ ذوي شجاعة وعدد وعدة، فنصرهم الله عليكم، فقتلوكم وسبوا أولادكم، ونهبوا أموالكم ﴿فَجَاسُوا خِلَالِ الدِّيَارِ﴾ أي: تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم أي: بينها ووسطها، وانصرفوا ذاهبين وجامحين لا يخافون أحداً ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾ لا بد من وقوعه لوجود سببه منهم. واختلف المفسرون في تعيين هؤلاء المسلطين،

هُوَ السَّمِيعُ ﴿لأقوال عباده مؤمنهم وكافرهم، مصدقهم ومكذبهم، ﴿الْبَصِيرُ﴾ بهم فيعطي كلاً منهم ما يستحقه في الدنيا والآخرة.

وقد تواترت الأخبار الصحاح على أن رسول الله ﷺ أسري بروحه وجسده يقظة لا مناماً؛ لأنه لو أسري بروحه دون جسده لم يكن في ذلك ما يوجب أن يكون ذلك دليلاً على نبوته، ولا حجة على رسالته، ولا كان الذين أنكروا حقيقة ذلك من أهل الشرك، وكانوا يدفعون به عن صدقه فيه، إذ لم يكن منكراً عندهم، ولا عند أحد من ذوي الفطرة الصحيحة من بني آدم أن يرى الرائي منهم في المنام ما على مسيرة عام، فكيف ما هو على مسيرة شهر أو أقل.

(٢) ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبدته محمد صلوات الله وسلامه عليه، عطف بذكر موسى عبده وكليمه عليه السلام أيضاً، فإنه تعالى كثيراً ما يقرن بين نبوة محمد ﷺ ونبوة موسى ﷺ، وبين كتابيهما وشريعتيهما؛ لأن كتابيهما أفضل الكتب وشريعتيهما أكمل الشرائع ونبوتيهما أعلى النبوات وأتباعهما أكثر المؤمنين، ولهذا قال هنا: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ الذي هو التوراة ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ يهتدون به في ظلمات الجهل إلى العلم بالحق ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾؛ أي: ليعبدوا الله وحده، وينيبوا إليه، ويتخذوه وحده وكيلاً ومدبراً لهم في أمر دينهم ودنياهم،

(٣) أخرج الشبخان في حديث الشفاعة الطويل عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «أنا سيد الناس يوم القيامة» الحديث وفيه: «فَيَأْتُونَ نُوحًا، فيقولون: أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله: عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك».

وقد وردت في هذا آثار كثيرة إسرائيلية، جلها موضوع، من وضع بعض زنادقتهم، ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحاً، ونحن في غنية عنها، ولله الحمد.

(٦) ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ﴾ الدولة والرجعة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على هؤلاء الذين سلطوا عليكم، فأجلبيتموهم من دياركم ﴿وَأَمَدَدْنَكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ أكثرنا أرزاقكم، وكثرناكم، وقويناكم عليهم ﴿وَجَعَلْنَكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ منهم، وذلك بسبب إحسانكم وخضوعكم.

(٧) ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ لأن النفع عائد إليكم، حتى في الدنيا كما شاهدتم من انتصاركم على أعدائكم ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ﴾ وإن عصيتم الله وركبتم ما نهاكم عنه ﴿فَلَهَا﴾ فعليتها يعود الضرر كما أراكم الله من تسليط الأعداء، فإذا جاء وعد الآخرة؛ أي: المرة الأخرى التي تفسدون فيها في الأرض؛ سلطنا عليكم الأعداء ﴿لِيَسْتَوُوا وَجُوهَكُمْ﴾ بانتصارهم عليكم وسيبكم ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ والمراد بالمسجد: مسجد بيت المقدس ﴿وَلِيُتَبَرَّأُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ وليدمروا ما غلبوا عليه من بلادكم تدميراً.

(٨) ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُم﴾ فيصرفهم عنكم ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ﴾ إلى الإفساد في الأرض ﴿عُدْنَا﴾ إلى عقوبتكم، فعادوا لذلك، فسلط الله عليهم رسوله محمداً ﷺ، فانتقم الله به منهم، فهذا جزاء الدنيا، وما عند الله من النكال أعظم وأشنع، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ يصلونها، ويلازمونها، لا يخرجون منها أبداً.

(٩) ثم أخبر تعالى عن شرف القرآن وجلالته

عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُم ۚ وَإِنْ عُدتُمْ ۖ عُدْنَا ۚ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٦﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٧﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ۖ أَعَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ ۚ فَمَنْ حَوَّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ۚ لَتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ ۚ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلُنَا نَقْصِيلًا ﴿١٠﴾ وَالْإِنْسَانُ أَرْذَلُ ظَنَنِي ۚ إِنَّهُ مُخْرِجٌ لَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴿١١﴾ أَقْرَأْ كِتَابَكَ ۖ كَفَىٰ بِفَسَادِكِ الْيَوْمِ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٢﴾ مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْدِي لِنَفْسِهِ ۚ وَمَنْ ضَلَّ ۖ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٣﴾ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً ۖ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ۚ فَفَتَحْنَا عَلَيْهَا الْقَوْلَ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٤﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٥﴾

فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾؛ أي: الذي أنزلناه على نبينا محمد ﷺ ﴿يَهْدِي﴾ يرشد ويسدّد من اهتدى به ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ أعدل وأعلى، من العقائد والأعمال والأخلاق، فمن اهتدى بما يدعو إليه القرآن، كان أكمل الناس وأقومهم وأهداهم في جميع أموره ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ من الواجبات والسنن ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أعدّه الله لهم في دار كرامته، لا يعلم وصفه إلا هو.

(١٠) ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ وأما الذين يكفرون بالآخرة فقد ﴿أَعَدْنَا لَهُمْ﴾ هيأنا لهم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يوم القيامة في جهنم.

(١١) ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ﴾ يخبر تعالى عن جهل الإنسان، حيث يدعو على نفسه أو ولده أو ماله في بعض الأحيان كالغضب ﴿بِالشَّرِّ﴾ بالهلاك والموت

عمله من الخير والشر، حاضرًا صغيره وكبيره.
(١٤) ويقال له: ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ وهذا من أعظم العدل والإنصاف أن يقال للعبد: حاسب نفسك؛ ليعترف بما عليه من الحق الموجب للعقاب.

(١٥) ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ هداية كل أحد لنفسه وثوابه لها ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ وضلالة كل أحد على نفسه؛ لأن عليها عقابه ﴿وَلَا يُزِدْ وَازِدَةً وَزِدَ أُخْرَىٰ﴾ لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يدفع عنه مثقال ذرة من شر ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ فالله تعالى أعدل العادلين، لا يعذب أحدًا حتى تقوم عليه الحجة بالرسالة، ثم يعاند الحجة، وأما من انقاد للحجة أو لم تبلغه حجة الله تعالى فإن الله تعالى لا يعذبه.

(١٦) ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُرَفِقَهَا﴾ يخبر تعالى أنه إذا أراد أن يهلك قرية من القرى الظالمة ويستأصلها بالعذاب أمر منعيمها وأغنياءها أمرًا قدرًا ﴿فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ واشتد طغيانهم ﴿فَفَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ حقت عليهم كلمة العذاب التي لا مرد لها ﴿فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ خربناها وأهلكنا من فيها.

(١٧) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ﴾ يخبر الله تعالى منذرًا كفار قريش في تكذيبهم رسوله محمدًا ﷺ

واللعنة والدمار ﴿دُعَاءُ بِالْخَيْرِ﴾ أن يهب له النعمة والعافية، فلو استجاب له ربه دعاءه على نفسه كاستجابته دعاءه لنفسه لهلك بدعائه، ولكن الله لا يستجيب بفضله، ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ مَجْهُولًا﴾ وإنما يحمل الإنسان على ذلك عجلته وقلقه.

(١٢) ﴿وَجَعَلْنَا أَلِيلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ﴾ دالتين على كمال قدرة الله وسعة رحمته، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ أَلِيلٍ﴾ جعلناه مظلمًا للسكون فيه والراحة، ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ مضيئة ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ في معاشكم وصنائعكم وتجاراتكم وأسفاركم، ﴿وَلِتَعْلَمُوا﴾ بتوالي الليل والنهار واختلاف القمر ﴿عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾ فنبين عليها ما تشاءون من مصالحكم، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلْنَاهُ نَفْصِيلًا﴾ بينا الآيات وصرفناه؛ لنتميز الأشياء، ويتبين الحق من الباطل.

(١٣) ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْعِهِ فِي عُنُقِهِ﴾ وهذا إخبار عن كمال عدله، أن كل إنسان يلزمه طائرته في عنقه؛ أي: ما عمل من خير وشر يجعله الله ملازمًا له، لا يتعداه إلى غيره، فلا يحاسب بعمل غيره، ولا يحاسب غيره بعمله ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ﴾؛ أي: يؤتاه ﴿مَنْشُورًا﴾ فيه

(١٣) أخرج الإمام أحمد وغيره بإسناد صحيح من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه يحدث عن النبي ﷺ قال: «ليس من عمل يوم إلا وهو يختم عليه، فإذا مرض المؤمن قالت الملائكة: يا ربنا، عبدك فلان، قد حبسته، فيقول الرب ﷻ: اختموا له على مثل عمله حتى يبرأ أو يموت».

(١٥) أخرج أبو يعلى والبخاري حديث أنس بن مالك الصحيح لغيره قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بأربعة يوم القيامة: بالموءودة، والمعنوة، ومن مات في الفترة، والشيخ الفاني الهرم، كلهم يتكلم بحجته، فيقول الرب - تبارك وتعالى - لعنق من النار: ابرز. ويقول لهم: إني كنت أبعث إلى عبادي رسلاً من أنفسهم، وإني رسول نفسي إليكم، ادخلوا هذه. قال: فيقول من كتب عليه الشقاء: يا رب، أني ندخلها ومنها كنا نفرًا! قال: ومن كتب عليه السعادة يمضي؛ فيقتحم فيها مسرعًا، قال: فيقول الله تعالى: أنتم لرسلي أشد تكذيبًا ومعصية، فيدخل هؤلاء الجنة، وهؤلاء النار».

بأنه أهلك أمما من المكذبين ﴿مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ من بعد قوم نوح؛ كعاد، وشمود، وقوم لوط، وغيرهم ممن عاقبهم الله، لما كثر بغيهم واشتد كفرهم، أنزل الله بهم عقابه العظيم، ومعناه: أنكم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم، وقد كذبتكم أشرف الرسل وأكرم الخلائق، فعقوبتكم أولى وأحرى، ﴿وَكُنِيَ بِرَبِّكَ بِذُنُوبٍ عِدَائِهِ خَيْرًا بِبَصِيرَا﴾ هو عالم بجميع أعمالهم خيرا وشرها، لا يخفى عليه منها خافية سبحانه وتعالى.

(١٨) يخبر تعالى أن ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ أي: الدنيا المنقضية الزائلة، فعمل لها وسعى، ونسي المبتدأ والمنتهى ﴿عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ أن الله يجعل له من حطامها ومتاعها ما يشاؤه ويريده، مما كتب الله له في اللوح المحفوظ، ولكنه متاع غير نافع ولا دائم له، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: في الآخرة ﴿جَهَنَّمَ يَصَلُّنَهَا﴾ أي: يباشر عذابها ﴿مَذْمُومًا مَذْحُورًا﴾ في حالة الخزي والفضيحة والذم من الله ومن خلقه، والبعد عن رحمة الله، فيجمع له العذاب والفضيحة.

(١٩) ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾ فرضيها وآثرها على الدنيا ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ التي دعت إليه الكتب السماوية والآثار النبوية، فعمل بذلك على قدر إمكانه ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ مقبولا منمى مدخرا لهم أجرهم وثوابهم عند ربهم.

(٢٠) ﴿كَلَّا نُمَدِّهُنَّوَلَّاءٍ وَهَوَّلَّاءٍ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ ومع هذا؛ فلا يفوتهم نصيبهم من الدنيا، فكلا يمدده الله منها؛ لأنه عطاؤه وإحسانه ﴿وَمَا كَانَ

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُمْ جَهَنَّمَ يَصَلُّنَهَا مَذْمُومًا مَذْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ كَلَّا نُمَدِّهُنَّوَلَّاءٍ وَهَوَّلَّاءٍ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿٢٢﴾ وَفَضَّلْنَا رَبَّكَ أَتَىٰ تَبَدُّدًا إِلَّا إِيَّاهُ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُنْفِي وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِی صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَبِّكَ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَآتَاكَ الْفَرَقَ حَقَّهُ وَالْمُسْكِينَ وَالْأَيْنَ السَّيْلَ وَلَا تَبْذُرْ نَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ الْمُبْدِي كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾

عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ ممنوعا من أحد، بل جميع الخلق راتعون بفضله وإحسانه.

(٢١) ﴿أَنْظِرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في الدنيا بسعة الأرزاق وقلتها، واليسر والعسر، والعلم والجهل، والعقل والسفه، وغير ذلك من الأمور التي فضل الله العباد بعضهم على بعض بها، ﴿وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ فلا نسبة لنعيم الدنيا ولذاتها إلى الآخرة بوجه من الوجوه.

(٢٢) ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ الخطاب مع النبي ﷺ والمراد المكلفون من الأمة، لا تعتقد أيها المكلف أن أحدا من المخلوقين يستحق في العبادة شيئا، ولا تشرك بالله أحدا منهم، ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا﴾ على إشراكك ﴿تَحْدُولًا﴾ لأن الرب لا ينصرك، بل يكللك إلى نفسك ومن عبدت معه.

(٢٣) ولما نهى تعالى عن الشرك به، أم بالتوحيد، فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ ۖ قَضَاءً دِينًا وَأَمْرًا شرعيًا ۖ أَن لَّا تَعْبُدُوا ۚ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ الْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ ۚ إِلَّا إِلَاهًا ۚ لَّأَنَّهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ، الْفَرْدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَهُ كُلُّ صِفَةِ كَمَالٍ، وَلَهُ مِنْ كُلِّ صِفَةِ أَعْظَمِهَا عَلَى وَجْهِ لَا يَشْبِهُهُ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ.

ثم ذكر بعد حقه القيام بحق الوالدين، فقال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾؛ أي: أحسنوا إليهما بجميع وجوه الإحسان: القولي والفعلية؛ لأنهما سبب وجود العبد، ولهما من المحبة للولد والإحسان إليه والقرب ما يقتضي تأكيد الحق، ووجوب البر ﴿إِنَّمَا يَتَلَفَعْنَ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾؛ أي: إذا وصلا إلى هذا السن الذي تضعف فيه قواهما، ويحتاجان من اللطف والإحسان ما هو معروف ﴿فَلَا تَقُلْ لَّهُمَا أَمْرًا﴾ وهذا أدنى مراتب الأذى، نبه به على ما سواه، والمعنى: لا تؤذهما أدنى أذية ﴿وَلَا تَنْهَرُهُمَا﴾ أي: تزجرهما وتكلم لهما كلامًا خشنًا ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ بلفظ يحبانه، وتأدب وتلطّف معهما بكلام لين حسن يلد على قلوبهما، وتطمئن به نفوسهما، وذلك يختلف باختلاف الأحوال والعوائد والأزمان

(٢٤) ﴿وَأَنْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ تواضع لهما ذلاً لهما ورحمة، واحتساباً للأجر ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا﴾ ادع لهما بالرحمة أحياء وأمواتاً؛ ﴿كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا﴾ جزاء على تربيتهما إياك صغيراً.

(٢٥) ﴿رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ ربكم تعالى مطلع على ما أكنته سرائركم من خير وشر، وهو لا ينظر إلى أموالكم وأبدانكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم، وما فيها من الخير والشر ﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ بأن تكون إرادتكم ومقاصدكم دائرة على مرضاة الله، ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ الرجاعين إليه في جميع الأوقات ﴿غَفُورًا﴾ فمن اطلع الله على قلبه، وعلم أنه ليس فيه إلا الإنابة إليه ومحبه ومحبة ما يقرب إليه، فإنه وإن جرى منه في بعض الأوقات ما هو مقتضى الطباع البشرية، فإن الله يعفو عنه ويغفر له الأمور العارضة غير المستقرة.

(٢٦) يقول تعالى: ﴿وَعَاتِ ذَا الْقُرْنَيْنِ حَقَّهُ﴾ من البر والإكرام، الواجب والمسنون، وذلك الحق يتفاوت بتفاوت الأحوال والأقارب، والحاجة وعدمها، والأزمنة ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ آتة حقه من الزكاة ومن غيرها؛ لتزول مسكنته ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾

(٢٣) أخرج الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه الصحيح لغيره؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عليّ، ورغم أنف رجل أتى عليه شهر رمضان فلم يغفر له، ورغم أنف أدرك أبويه ولم يدخلا الجنة».

(٢٦) أخرج الإمام أحمد والحاكم بإسناد صحيح من حديث أنس رضي الله عنه قال: أتى رجل من بني تميم النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني ذو مال كثير، وذو أهل وولد وحاضرة، فأخبرني كيف أنفق وكيف أصنع؟ فقال رسول الله ﷺ: «تخرج الزكاة من مالك؛ فإنها طهرة تطهرك، وتصل أقباءك، وتعرف حق السائل، والجار، والمسكين». فقال: يا رسول الله، أقل لي، قال: «﴿وَعَاتِ ذَا الْقُرْنَيْنِ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ بَذِيرًا﴾». فقال: حسبي يا رسول الله، إذا أديت الزكاة إلى رسولك، فقد برئت منها إلى الله ورسوله؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم، إذا أديتها إلى رسولي؛ فقد برئت منها، فلك أجرها، وإثمها على من بدلها».

وهو: الغريب المنقطع به عن بلده، ﴿وَلَا تُبْذِرْ﴾ لما أمر بالإنفاق نهى عن الإسراف فيه، بل يكون وسطاً، يعطى الجميع من المال على وجه لا يضر المعطي، ولا يكون زائداً على المقدار اللائق.

(٢٧) ثم قال منفراً عن التبذير والسرف: ﴿إِنَّ الْبُذِيرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ﴾ أشباههم في ذلك أي: في التبذير والسفه، وترك طاعة الله، وارتكاب معصيته، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ جحوداً لأنه أنكر نعمة الله عليه ولم يعمل بطاعته بل أقبل على معصيته ومخالفته.

(٢٨) ﴿وَإِنَّمَا تُعْرَضُونَ عَنْهُمْ آيَةً رَّحْمَةً مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوها﴾ تعرض عن إعطائهم إلى وقت آخر ترجو فيه من الله تيسير الأمر ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ لطيفاً برفق، ووعد بالجميل عند سنوح الفرصة، واعتذار بعدم الإمكان في الوقت الحاضر؛ لينقلبوا عنك مطمئنة خواطرهم.

(٢٩) ثم قال تعالى أمراً بالاقتصاد في العيش دأماً للبخل، ناهياً عن السرف ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ كناية عن شدة لإمساك والبخل، ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ فتنفق فيما لا ينبغي، وزيادة على ما ينبغي، ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ إن فعلت ذلك تلام على ما فعلت ﴿تَحْسُورًا﴾ حاسر اليد فارغها، فلا بقي ما في يدك من المال، ولا خلفه مدح وثناء.

(٣٠) ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده

وَأَمَّا تُعْرَضُونَ عَنْهُمْ آيَةً رَّحْمَةً مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوها فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّكُمْ كَانْتُمْ بِعِبَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَكُنْ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّا كُنَّا أَكْثَرُ قَتْلِهِمْ كَانَتْ خَطَا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الرِّزْقَ إِنَّمَا كَانَ فِتْنَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِرَبِّهِ سُلْطَانًا فَلَا تُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَاتِبٌ مَشْهُودٌ ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كُنْتُمْ وَرَثَةٌ بِالْقِسَاطِ إِنَّكُمْ لَسَمِيعُونَ ذَلِكَ حَرَمٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْسُقْ فِي الْأَرْضِ سَرًّا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُمْ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾

٢٨٥

﴿وَيَقْدِرُ﴾ ويضيقه على من يشاء؛ حكمة منه، ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا﴾ فيجزئهم على ما يعلمه صالحاً لهم، ويدبرهم بلطفه وكرمه.

(٣١) ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ وهذا من رحمته بعباده؛ حيث كان أرحم بهم من والديهم، فهي والديهم أن يقتلوا أولادهم ﴿خَشْيَةً إِمَّا يَكُنْ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّا كُنَّا أَكْثَرُ﴾ وتكفل من الفقر والإملاق، ﴿تَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّا كُنَّا أَكْثَرُ﴾؛ برزق الجميع، ﴿إِنَّ فَلَّهِمْ كَانَتْ خَطَا كَبِيرًا﴾؛ أي: من أعظم كبائر الذنوب؛ لزوال الرحمة من القلب، والعقوب العظيم والتجروء على قتل الأطفال الذين لم يجر منهم ذنب ولا معصية.

(٢٩) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مثل البخل والمنفق كمثلي رجلين عليهما جَبَانٌ من حديد من ثديهما إلى تراقيهما. فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت على جلده حتى تخفي بانه وتنفو أثره، وأما البخل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها ولا تسع».

وَأَنْ لَا يَقْرُبُوهُ ﴿إِلَّا بِإِذْنِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ من التجارة فيه، وعدم تعريضه للأخطار، والحرص على تنميته، وذلك ممتد إلى أَنْ ﴿يَبْلُغَ﴾ اليتيم ﴿أَشُدَّهُ﴾ أي: بلوغه وعقله ورشده ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ الذي عاهدتم الله عليه، والذي عاهدتم الخلق عليه، ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾؛ أي: مسئولين عن الوفاء به، فَإِنْ وَفَيْتُمْ؛ فلكم الثواب الجزيل، وإن لم تفعلوا؛ فعليكم الإثم العظيم.

(٣٥) ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطِ أَلْتَسْقِيمِ﴾ وهذا أمر بالعدل وإيفاء المكايل والموازين بالقسط، من غير بخس ولا نقص، ويؤخذ من عموم المعنى: النهي عن كل غش في ثمن، أو مثنى، أو معقود عليه، والأمر بالنصح والصدق في المعاملة ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ من بخسكم إياهم ذلك ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أحسن عاقبة، به يسلم العبد من التبعات، وبه تنزل البركة.

(٣٦) ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ بل تثبت في كل ما تقوله وتفعله ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ فحقيق بالعبد الذي يعرف أنه مسئول عما قاله وفعله، وعما استعمل به جوارحه التي خلقها الله لعبادته أَنْ يُعَدَّ للسؤال جوابًا، وذلك لا يكون إلا باستعمالها بعبودية الله، وإخلاص الدين له، وكفها عما يكرهه الله

(٣٢) ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَى﴾ النهي عن قربان الزنى أبلغ من النهي عن مجرد فعله؛ لأن ذلك يشمل النهي عن جميع مقدماته ودواعيه، ﴿إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً﴾ إثمًا يستفحش في الشرع والعقل والفطر، ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾؛ أي: بسئ السبيل، سبيل من تجرأ على هذا الذنب العظيم.

(٣٣) ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ وهذا شامل لكل نفس حرم الله قتلها: من صغير وكبير، وذكر وأنثى، وحر وعبد، ومسلم وكافر له عهد ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ كالنفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة، والباغي في حال بغيه إذا لم يندفع إلا بالقتل ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ بغير حق ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لُولِيهِ﴾ وهو أقرب عصباته وورثته إليه ﴿سُلْطَانًا﴾ حجة ظاهرة على القصاص من القاتل ﴿فَلَا يُسْرِفَ﴾ الولي ﴿فِي الْقَتْلِ﴾ والإسراف: مجاوزة الحد؛ إما أن يمثل بالقاتل، أو يقتله بغير ما قتل به، أو يقتل غير القاتل ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ إن ولي المقتول منصور على القاتل شرعاً، وغالبًا قدرًا.

(٣٤) ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ وهذا من لطفه ورحمته تعالى باليتيم الذي فقد والده وهو صغير، غير عارف بمصلحة نفسه، ولا قائم بها، أَنْ أُمِرَ أوليائه بحفظه، وحفظ ماله، وإصلاحه،

(٣٢) أخرج الإمام أحمد بإسناد صحيح عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: إن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا. فأقبل القوم عليه؛ فزجروه، وقالوا: مه مه. فقال: «ادنه». فدنا منه قريباً، فقال: «اجلس». فجلس، قال: «أتحبه لأملك؟». قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم». قال: «أتحبه لابنتك؟». قال: لا والله، يا رسول الله، جعلني الله فداك. قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم». قال: «أتحبه لأختك؟». قال: لا والله، جعلني الله فداك، قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم». قال: «أتحبه لعمتك؟». قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: «ولا الناس يحبونه لعمااتهم». قال: «أتحبه لخالتك؟». قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم». قال: فوضع يده عليه، وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحسن فرجه». قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء.

تعالى .

(٣٧) ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ كبرًا وتبها وبطرًا، متكبرًا على الحق ومتعاطفًا في تكبرك على الخلق، إنك في فعلك ذلك ﴿لَنْ تَحْرِقَ الْأَرْضَ﴾ لن تقطع الأرض بمشيتك ﴿وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ ولا تقدر أن تطاول الجبال، بل تكون حقيرًا عند الله، ومحتقرًا عند الخلق، مبعوضًا ممقوتًا، قد اكتسبت شر الأخلاق، واكتسبت بأرذلها من غير إدراك لبعض ما تروم .

(٣٨) ﴿كُلُّ ذَلِكَ﴾ المذكور الذي نهى الله عنه فيما تقدم ﴿كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ أي : يسوء العاملين ويضرهم، والله تعالى يكرهه ويأباه .

(٣٩) ﴿ذَلِكَ﴾ الذي بيناه ووضحناه من هذه الأحكام الجليلة ﴿مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ فإن الحكمة : الأمر بمحاسن الأعمال، ومكارم الأخلاق، والنهي عن أراذل الأخلاق، وأسوأ الأعمال، وهذه الأعمال المذكورة في هذه الآيات من الحكمة العالية التي أوحاها رب العالمين لسيد المرسلين في أشرف الكتب ليأمر بها أفضل الأمم، فهي من الحكمة التي من أوتيتها فقد أوتي خيرًا كثيرًا ثم ختمها بالنهي عن عبادة غير الله، كما افتتحها بذلك، فقال : ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ﴾ خالداً مخلداً، فإنه من يشرك بالله فقد حرم الله الجنة ومأواه النار .

﴿مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ قد لحقتك اللائمة واللعنة والذم من الله وملائكته والناس أجمعين .

ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٧﴾ أَفَأَصْفَنكُمْ رَبُّكُم بِالْبَيْنِ وَأَتَّخِذُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَقَوْمٌ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٣٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٣٩﴾ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٠﴾ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤١﴾ تَسْبِيحُ لَمَّا تَسْنُوْنَ السَّعَىٰ وَالْأَرْضَ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَسْبَحَ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٢﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِلَاخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴿٤٣﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتُمْ لَا يَسْمَعُونَ وَالْقُرْآنُ يَنْزِيلُ أَعْلَىٰ أَذُنِهِمْ ثُمَّ يَنْزِلُ إِلَىٰ أَهْلِ الْأَنْبِيَاءِ نَزْلًا مُّسْتَوِيًّا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٩﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٠﴾

(٢٨٦)

(٤٠) ﴿أَفَأَصْفَنكُمْ رَبُّكُم بِالْبَيْنِ﴾ وهذا إنكار شديد على من زعم : أن الله اتخذ من خلقه بنات، فقال : ﴿أَفَأَصْفَنكُمْ رَبُّكُم بِالْبَيْنِ﴾ اختار لكم الصفوة والنصيب الكامل ﴿وَأَتَّخِذُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا﴾ واتخذ لنفسه من الملائكة إنثًا؛ حيث زعموا أن الملائكة بنات الله ﴿إِنَّكُمْ لَقَوْمٌ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ فيه أعظم الجراءة على الله؛ حيث نسبت له الولد المتضمن لحاجته، واستغناء بعض المخلوقات عنه، وحكمت له بأردأ القسمين، وهو : الإناث، وهو الذي خلقكم واصطفاكم بالذكور؟!، فتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

(٣٦) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث» .

(٣٧) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : «بينما رجل يمشي فيمن كان قبلكم، وعليه بردان يتبختر فيهما، إذ خسف به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة» .

(٤٣) ﴿سُبْحَنَكَ وَتَعَالَى﴾ تقدس وتنزه وعلت أوصافه ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من الشرك به، واتخاذ الأنناد معه ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ فعلاً قدره وعظم، وجلت كبرياؤه التي لا تقادر، أن يكون معه آلهة، فقد ضل من قال ذلك ضلالاً مبيناً، وظلم ظلمًا كبيراً.

(٤٤) ﴿تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ مِنْ حَيْوَانٍ نَاطِقٍ وَغَيْرِ نَاطِقٍ وَمِنْ أَشْجَارٍ وَنَبَاتٍ وَجَمَادٍ وَحَيٍّ وَمَيْتٍ﴾ إلّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴿بِلِسَانِ الْحَالِ، وَلِسَانِ الْمَقَالِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾؛ أي: تسبيح باقي المخلوقات التي على غير لغتكم، ولا يحيط بها إلا علام الغيوب ﴿إِنَّكُمْ كَانُمْ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ حيث لم يعاجل بالعقوبة من قال فيه قولاً تكاد السموات والأرض تنفطر منه وتخر له الجبال، ولكنه أمهلهم، وأنعم عليهم، ودعاهم إلى بابه؛ ليتوبوا من هذا الذنب العظيم، ليعطيهم الثواب الجزيل، ويغفر لهم ذنبهم، فلو لا حلمه ومغفرته؛ لسقطت السموات على الأرض، ولما ترك على ظهرها من دابة.

(٤١) ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ يخبر تعالى أنه صرف لعباده في هذا القرآن، أي: نوع الأحكام ووضحها، وأكثر من الأدلة والبراهين وبينها ﴿لِيَذْكُرُوا﴾ لأجل أن يتذكروا ما ينفعهم فيسلكوه، وما يضرهم فيدعوه، ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ ولكن أبى أكثر الناس إلا نفوراً عن آيات الله؛ لبغضهم للحق، ومحبتهم ما كانوا عليه من الباطل، ومن أعظم ما صرفه فيه الآيات والادلة، التوحيد الذي هو أصل الأصول، فأمر به، ونهى عن ضده، فأقام عليه من الحجج العقلية والعقلية شيئاً كثيراً.

(٤٢) ومن الأدلة على ذلك هذا الدليل العقلي الذي ذكره هنا، فقال: ﴿قُلْ﴾ للمشركين الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر: ﴿لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾؛ أي: على موجب زعمهم وافترائهم ﴿إِذَا لَا تَأْتِيهِمْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ لاتخذوا سبيلاً إلى الله بعبادته، والإنابة إليه، والتقرب، وابتغاء الوسيلة، فكيف يجعل العبد الفقير الذي يرى شدة افتقاره لعبودية ربه إلهاً مع الله؟!!

(٤٤) أخرج الإمام أحمد، والبخاري في «الأدب المفرد»، والبيهقي في «الأسماء والصفات» بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فجاء رجل من أهل البادية عليه جبة سيجان مزرورة بالديباج، فقال: «ألا إن صاحبكم هذا قد وضع كل فارس ابن فارس - أو قال: يريد أن يضع كل فارس ابن فارس - ورفع كل راع ابن راع». قال: فأخذ رسول الله ﷺ بمجامع جبته، وقال: «ألا أرى عليك لباس من لا يعقل». ثم قال: «إن نبي الله نوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاة، قال لابنه: إني قاص عليك الوصية، أملك باثنتين، وأنهاك عن اثنتين: أملك بلا إله إلا الله؛ فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة، ووضعت لا إله إلا الله في كفة؛ رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة؛ قصمتهن لا إله إلا الله، وسبحان الله وبحمده؛ فإنها صلاة كل شيء، وبها يرزق الخلق، وأنهاك عن الشرك والكبر». قال: قلت - أو قيل -: يا رسول الله، هذا الشرك قد عرفناه، فما الكبر؟ هو أن يكون لأحدنا نعلان حستان لهما شراكان حسنان؟ قال: «لا». قال: هو أن يكون لأحدنا حلة يلبسها؟ قال: «لا». قال: هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها؟ قال: «لا». قال: هو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟ قال: «لا». قلت، أو قيل: يا رسول الله، فما الكبر؟ قال: «سفه الحق، وغبط الناس».

(٤٥) ثم أخبر تعالى عن عقوبته للمكذبين الذين ردوه وأعرضوا عنه أنه يحول بينهم وبين الإيمان فقال: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ الذي فيه الوعظ والتذكير، والهدى والإيمان والخير، والعلم الكثير ﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ جِبَالًا مَسْتُورًا﴾ يستترهم عن فهمه حقيقة، وعن التحقق بحقائقه، والانقياد إلى ما يدعو إليه من الخير.

(٤٦) ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغشية وأغشية لا يفقهون معها القرآن، بل يسمعون سماعاً تقوم به عليهم الحجة ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ صمماً عن سماعه ﴿وَإِذَا ذُكِّرْتُمْ﴾ في القرآن ﴿وَحَدَّ﴾ داعياً لتوحيده، ناهياً عن الشرك به ﴿وَلَوْ أَنَّ عَلَى أَكْبَرِهِمْ تُقُورًا﴾ من شدة بغضهم له، ومحبتهم لما هم عليه من الباطل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِّرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْتَاَزَتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِّرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

(٤٧) ﴿تَعَنَّ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَعْمُونَ بِهِ؟﴾ أي: إنما منعناهم من الانتفاع عند سماع القرآن؛ لأننا نعلم أن مقاصدهم سيئة، يريدون أن يعثروا على أقل شيء ليقدحوا به، وليس استماعهم لأجل الاسترشاد وقبول الحق، وإنما هم معتمدون على عدم اتباعه، ومن كان بهذه الحالة؛ لم يفده الاستماع شيئاً، ولهذا قال: ﴿إِذْ يَسْتَعْمُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى؟﴾ أي: متناجين ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ﴾ في مناجاتهم: ﴿إِنْ تَنبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ فإذا كانت هذه مناجاتهم الظالمة فيما بينهم، وقد بنوها على أنه مسحور، فهم جازمون أنهم غير معتبرين لما

الزمر: ٤٥
قُلْ كُونُوا حِجَابًا أَوْ حِدِيدًا ٥١ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْفُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِدُّ تَأْلِي الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيَضْحَكُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قَوْلُ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ٥٢ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَنْظُرُونَ أَنْ لَيْسَ إِلَّا قَلِيلًا ٥٣ وَقُلْ لِمَا بَدَى يَقُولُوا أَلَيْسَ هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَتْ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ٥٤ رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَسْأَلُكُمْ عَنْهُ أَنْ يُسْأَلَ يَعْزِبُ عَنْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ٥٥ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ٥٦ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِي فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ٥٧ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَنْتَغُبُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَهْمُ أَقْرَبُ وَرَحُونَ رَحْمَتِهِ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ٥٨ وَإِنْ مِنْ قَرْبَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْفِتْنَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ٥٩

قال، وأنه يهذي، لا يدري ما يقول.

(٤٨) ﴿انْظُرْ﴾ يا محمد متعجباً ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ التي هي أضل الأمثال، وأبعدها عن الصواب ﴿فَضَلُّوا﴾ في ذلك، أو صارت سبباً لضلالهم؛ لأنهم بنوا عليها أمرهم، والمبني على فاسد أفسد منه ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ لا يهتدون أدنى هداية، فنصيبهم الضلال المحض، والظلم الصرف.

(٤٩) ﴿وَقَالُوا﴾ يخبر تعالى عن قول المنكرين للبعث، وتكذيبهم به، واستبعادهم بقولهم: ﴿أَوَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرَقًا؟﴾ أي: أجساداً بالية ﴿أَوَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا؟﴾ أي: لا يكون ذلك. فجعلوا أشد الجهل، حيث كذبوا رسول الله، وجحدوا آيات الله، وقاسوا قدرة خالق السموات والأرض بقدرتهم الضعيفة العاجزة،

لأمره، ولا تستعصون عليه، وقوله: ﴿يَحْمَدُوهُ﴾؛ أي: هو المحمود تعالى على فعله، ويجزي به العباد إذا جمعهم ليوم التناد، ﴿وَتَقْتُلُونَ إِن لَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ من سرعة وقوعه، وأن الذي مر عليكم من النعيم كأنه ما كان.

(٥٣) ﴿وَقُلْ لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وهذا أمر بكل كلام يُقَرَّبُ إلى الله؛ من قراءة، وذكر، وعلم، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وكلام حسن لطيف مع الخلق، على اختلاف مراتبهم ومنازلهم، وأنه إذا دار الأمر بين أمرين حسنين فإنه يأمر بإيثار أحسنهما، إن لم يمكن الجمع بينهما، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك، ف ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾ يسعى بين العباد بما يفسد عليهم دينهم ودنياهم ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾.

(٥٤) ﴿زُكُّوا أَعْلَامَكُمْ﴾ من أنفسكم، فلذلك لا يريد لكم إلا ما هو الخير، ولا يأمركم إلا بما فيه مصلحة لكم، وقد تريدون شيئاً والخير في عكسه، ﴿إِنْ يَشَأْ يُرْحَمَكُمُ﴾ فيوفق من شاء لأسباب الرحمة ﴿أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبَكُمُ﴾ ويخذل من شاء، فيضل عنها فيستحق العذاب ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ تدبر أمرهم، وتقوم بمجازاتهم، وإنما الله هو الوكيل، وأنت مبلغ هادٍ إلى صراط مستقيم.

(٥٥) ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من جميع أصناف الخلائق، فيعطي كلًّا منهم ما

فلما رأوا أن هذا ممتنع عليهم، لا يقدرّون عليه، جعلوا قدرة الله كذلك.

(٥٠) ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين للبعث استبعاداً: ﴿كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ في الشدة والقوة.

(٥١) ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ﴾ يعظم ﴿فِي صُدُورِكُمْ﴾ لتسلموا بذلك على زعمكم، من أن تنالكم قدرة الله، أو تنفذ فيكم مشيئته؛ فإنكم غير معجزى الله في أي حالة تكونون، وعلى أي وصف تتحولون، وليس في أنفسكم تدبير في حالة الحياة وبعد الممات، فدعوا التدبير والتصرف لمن هو على كل شيء قدير، وبكل شيء محيط ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ حين تقيم عليهم الحجة في البعث: ﴿مَنْ يُعِيدُنَا﴾ من يبعثنا بعد الموت؟ ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فكما فطركم، ولم تكونوا شيئاً مذكوراً، فإنه سيعيدكم خلقاً جديداً ﴿فَسَيَقْضُوكَ إِلَيْكَ رُءُوسُهُمْ﴾ يهزونها إنكاراً وتعجباً مما قلت ﴿وَيَقُولُوكَ مَتَى هُوَ﴾ متى وقت البعث، الذي تزعمه على قولك؟ لا إقراراً منهم لأصل البعث، بل ذلك سفه منهم وتعجيز ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ فليس في تعيين وقته فائدة، وإنما الفائدة والمدار على تقرير والإقرار به وإثباته، وإلا فكل ما هو آت فإنه قريب.

(٥٢) ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ من القبور للبعث والنشور، وينفخ في الصور ﴿فَسَتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ تنقادون

(٥٣) أخرج الإمام أحمد والشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يشرن أحدكم على أخيه بالسلاح،

فإنه لا يدرى أحدكم لعل الشيطان أن ينزع في يده، فيقع في حفرة من نار».

(٥٥) أخرج البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: «خفف على داود القرآن، فكان يأمر بدابته لتسرح فكان يقرأ

قبل أن يفرغ»؛ يعني: القرآن.

يستحقه وتقتضيه حكمته، ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ
الَّذِينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ فضل بعض النبيين المشتركين
بوحيه على بعض بالفضائل والخصائص
الراجعة إلى ما من به عليهم من الأوصاف
الممدوحة، والأخلاق المرضية، والأعمال
الصالحة، وكثرة الأتباع، ونزول الكتب على
بعضهم المشتملة على الأحكام الشرعية،
والعقائد المرضية، ﴿وَمَا آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ وهو
الكتاب المعروف، وذلك تنبيه على فضله
وشرفه.

(٥٦) يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ للمشركين بالله
الذين اتخذوا من دونه أندادا يعبدونهم كما
يعبدون الله، ويدعونهم كما يدعونه، ملزماً
لهم بتصحيح ما زعموه واعتقدوه إن كانوا
صادقين: ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ آلِهَةَ﴾ من
دُونِهِ ﴿فَانظُرُوا هَلْ يَنْفَعُونَكُمْ﴾ أو يدفعون
عنكم الضرر؟ ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ
عَنْكُمْ﴾ من مرض أو فقر أو شدة ونحو ذلك،
فلا يدفعونه بالكلية، ﴿وَلَا﴾ يملكون أيضاً
﴿تَحْوِيلًا﴾ له من شخص إلى آخر، من شدة
إلى ما دونها.

(٥٧) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ من الأنبياء
والصالحين والملائكة ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ إلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ
أَيُّهُمْ أَقْرَبُ؟ أي: يتنافسون في القرب من ربهم
ويبذلون ما يقدرون عليه من الأعمال الصالحة
المقربة إلى الله تعالى ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ
عَذَابَهُ﴾ فلا تتم العبادة إلا بالخوف

وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ
وَمَا آتَيْنَاهُمُ إِلَّا نَارًا مُّهِمَّةً فُظِّلُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ إِلَّا آيَاتٍ
إِلَّا تَخَوُّفًا ٥٦ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا
جَعَلْنَا الرَّءْيَا إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ
فِي الْقُرْآنِ وَنُفُوهُمُ فَمَا يَرِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ٥٧
وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ
قَالَ مَا أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتُ طِينًا ٥٨ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي
كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْسِبَنَّ
كَ زُرِّيَّةً ٥٩ إِلَّا قَلِيلًا ٦٠ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ
جَهَنَّمَ جَزَاءُ وَكُفْرًا تَوَفُّورًا ٦١ وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَعَتِ
مِنْهُمْ بَصُوتِكَ وَأَحْبَبَ عَلَيْهِمْ بَحِيلَكَ وَرَجَلَاتٍ وَشَارَكُهُمْ
فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا
غُرُورًا ٦٢ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى
بِرَبِّكَ وَكِيلًا ٦٣ رَبِّكَ الَّذِي يُزَيِّجُ لَكُمُ الْمَاءَ
فِي الْبَحْرِ لَتَنْتَعِلُوا مِنْ فُضْلِهِ إِنَّكُمْ كَاتِبُكُمْ رَحِيمًا ٦٤

٢٨٨

والرجاء، فبالخوف يكف عن المناهي، وبالرجاء
ينبعث على الطاعات. ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ
مَحْذُورًا﴾ أي: هو الذي ينبغي شدة الحذر منه
والترقي من أسبابه.

(٥٨) ﴿وَلَنْ مِنْ قُرْبَةٍ﴾ ما من قرية من القرى
المكذبة للرسول ﴿إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ
الْقِيَامَةِ﴾ لا بد أن يصيبهم هلاك قبل يوم القيامة
﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أو عذاب شديد ﴿كَانَ
ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ كتاب كتبه الله، وقضاء
أبرمه، لا بد من وقوعه، فليبادر المكذبون
بالإنابة إلى الله، وتصديق رسله قبل أن تتم
عليهم كلمة العذاب، ويحق عليهم القول.

(٥٧) في «صحيح مسلم» عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كان نفر من الإنس يعبدون نفرا من الجن، فأسلم النفر من الجن،
واستمسك الإنس بعبادتهم، فنزلت: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ إلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ
عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا.

في أصل الجحيم، والمعنى: إذا كان هذان الأمران قد صارا فتنة للناس، حتى استلج الكفار بكفرهم، وازداد شرهم، وبعض من كان إيمانه ضعيفاً رجع عنه بسبب أن ما أخبرهم به من الأمور التي كانت ليلة الإسراء، ومن الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كان خارقاً للعادة، والإخبار بوجود شجرة تنبت في أصل الجحيم من الخوارق، فهذا الذي أوجب لهم التكذيب، فكيف لو شاهدوا الآيات العظيمة والخوارق الجسيمة؟! ﴿وَتَخَوَّفُهُمْ﴾ بالآيات ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ التخويف ﴿إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ وهذا أبلغ ما يكون في التحلي بالشر ومحبه، وبغض الخير وعدم الانقياد له.

(٦١) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ ينه تبارك وتعالى عباده على شدة عداوة الشيطان، وحرصه على إضلالهم، وأنه لما خلق الله آدم ﷺ استكبر عن السجود له، و﴿قَالَ﴾ متكبراً: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾؛ أي: من طين.

(٦٢) فلما تبين لإبليس تفضيل الله لآدم ﴿قَالَ﴾ مخاطباً لله: ﴿أَرَأَيْتَ إِنِّي أَخْبَرْتُكَ﴾ هذا الذي كَرَّمْتَ عَلَيَّ فضلته عليَّ ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ﴾ أمهلتنني ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يوم يبعثون ﴿لَأَخْنِكَ﴾ ذُرِّيَّتَهُ ﴿لَأَسْتَأْصِلَنَّهُم بِالْإِضْلَالِ﴾ ولأغوينهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ عرف الخبيث أنه لا بد أن يكون منهم من يعاديه ويعصيه.

(٥٩) ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ يذكر تعالى رحمته بعدم إنزاله الآيات التي اقترحها المكذبون، وأنه ما منعه أن يرسلها إلا خوفاً من تكذيبهم لها، فإذا كذبوا بها عاجلهم العقاب، وحلَّ بهم من غير تأخير، كما فعل بالأولين الذين كذبوا بها، ﴿وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ ومن أعظم الآيات: الآية التي أرسلها الله إلى ثمود، وهي الناقة العظيمة الباهرة التي كانت تصدر عنها جميع القبيلة بأجمعها ﴿فَطَلَمُوا بِهَا﴾ ومع ذلك كذبوا بها، فأصابهم ما قص الله علينا في كتابه، وهؤلاء كذلك لو جاءتهم الآيات الكبار لم يؤمنوا، فلا بد أن يسلكوا بها ما سلكوا بغيرها، فترك إنزالها والحالة هذه خير لهم وأنفع، ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخَوِيفًا﴾؛ أي: لم يكن القصد بها أن تكون داعية وموجة للإيمان، الذي لا يحصل إلا بها، بل المقصود منها التخويف والترهيب؛ ليرتدعوا عن ما هم عليه.

(٦٠) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ علماً وقدره، فليس لهم ملجأ يلجئون إليه، ولا ملاذ يلودون به عنه، وهذا كاف لمن له عقل في الانكفاف عما يكرهه الله الذي أحاط بالناس ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً﴾ أكثر المفسرين على أنها رؤيا عين رآها رسول الله ﷺ ليلة الإسراء؛ وقوله تعالى: ﴿إِلَّا فِتْنَةً﴾؛ أي: اختباراً وامتحاناً، ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمُلُوءَةُ﴾ التي ذكرت ﴿فِي الْقُرْآنِ﴾ وهي شجرة الزقوم التي تنبت

(٥٩) أخرجه الإمام أحمد والنسائي في «التفسير» بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: سأل أهل مكة رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن ينحي عنهم الجبال؛ فيزعموا، قال الله ﷻ: «إن شئت آتيناهم ما سألوا، فإن كفروا؛ أهلكوا كما أهلك من قبلك، وإن شئت نستأني بهم لعلنا نتج منهم، فقال: لا، بل أستأني بهم، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾».

وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهًُا فَلَمَّا بَلَغُوا
إِلَى الْبَرِّ اعْرِضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمْسَرْتُمْ أَنْ يَخْصِفَ
بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ
وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ آمَنْتُمْ أَنْ يَعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ
عَلَيْكُمْ فَاصِقًا مِنَ الرِّيحِ فَيَفْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا
لَكُمْ عَلِيًّا بِهِ وَتَبِعَا ﴿٦٩﴾ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَجَعَلْنَاهُمْ
فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ رِزْقَهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى
كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَاسٍ
إِلَى أُمَمِهِمْ فَمَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِسَيِّئِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ
كِتَابَهُمْ وَلَا يَظْلُمُونَ فِتْنِيًّا ﴿٧١﴾ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ
أَعْمَنُ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَنُ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِنْ كَادُوا
لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوْحِيَ إِلَيْكَ لِتَفَرِّقَ بَيْنَ مَا عَدَاكَ
وَرِثَاكَ لَتَجْعَدَنَّ لَهُ خِلَالًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ تُنْشِئَ لَفُتَدَّتْ
رَحْمَتُ اللَّهِ لِيَهْمُ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضَعْفَ
الْحَبْوَةِ وَضَعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

٢٨٩

(٦٣) فَـ ﴿قَالَ﴾ اللَّهُ لَهُ: ﴿أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ﴾ واختارك على ربه ووليه الحق ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ مدخرًا لكم، موفرًا جزاء على أعمالكم.

(٦٤) ثم أمره الله أن يفعل كل ما يقدر عليه من إضلالهم، فقال: ﴿وَأَسْتَفِرُّ مِنْ أَسْطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ ويدخل في هذا كل داع إلى المعصية، ﴿وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجُلِكَ﴾ ويدخل فيه كل راكب وماشٍ في معصية الله، فهو من خيل الشيطان ورجله، والمقصود: أن الله ابتلى العباد بهذا العدو الممين، الداعي لهم إلى معصية الله بأقواله وأفعاله، ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ وذلك شامل لكل معصية تعلقت بأموالهم وأولادهم، ﴿وَعَدَهُمْ﴾ الوعود المزخرفة التي لا حقيقة لها، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ باطلاً مضمحلاً.

(٦٥) ولما أخبر عما يريد الشيطان أن يفعل بالعباد، وذكر ما يعتصم به من فتنته، وهو عبودية الله، والقيام بالإيمان والتوكل، فقال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ تسلط وإغواء، بل الله يدفع عنهم كل شر، ويحفظهم من الشيطان الرجيم، ويقوم بكفائتهم، ﴿وَكَفَىٰ بَرِّكَ وَكَيْلًا﴾ لمن توكل عليه، وأدى ما أمر به.

(٦٦) ﴿رَبِّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ﴾

يذكر تعالى نعمته على العباد، بما سخر لهم من الفلك والسفن والمراكب، وألهمهم كيفية صنعتها، وسخر لها البحر الملتطم، يحملها على ظهره؛ ﴿لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ لينتفع العباد بها في الركوب والحمل للأمتعة والتجارة، وهذا من رحمته بعباده، ولهذا قال: ﴿إِنَّكُمْ كَانَتْ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ فإنه لم يزل بهم رحيمًا رءوفًا، يؤتيهم من كل ما تعلقت به إرادتهم ومنفعهم.

(٦٧) ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ﴾ وإذا مسهم

(٦٥) أخرج الإمام أحمد بإسناد حسن من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن لينضي شيطانه - أي: بهزله - كما ينضي أحدكم بعيره في السفر».

(٦٧) أخرج أبو داود والنسائي والبيهقي وأبو يعلى - واللفظ له - بإسناد صحيح من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: لما كان يوم فتح مكة آمن رسول الله ﷺ الناس إلا أربعة نفر وامرأتين، وقال: «اقتلوهم ولو وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة: عكرمة بن أبي جهل، وعبد الله بن خطل، ومقيس بن ضبابة، وعبد الله بن أبي سرح... وأما عكرمة؛ فركب البحر، فأصابته عاصف، فقال أصحاب السفينة لأهل السفينة: أخلصوا؛ فإن آلتهكم لا تنغي هاهنا. فقال عكرمة: لنن لم -

جداً تقصف ما أنت عليه ﴿فَيُغْرِقُكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِعَةً وَمُطَالِبَةً، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَظْلَمْكُمْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ.

(٧٠) ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ وهذا من كرمه عليهم وإحسانه الذي لا يقادر قدره؛ حيث كرم بني آدم بجميع وجوه الإكرام، فكرمهم بالعلم، والعقل، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وجعل منهم الأولياء والأصفياء، وأعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة ﴿وَمَلَأْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ﴾ على الركاب من الإبل والبغال والحمير والمراكب البرية، ﴿وَالْبَحْرِ﴾ في السفن والمراكب ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الْطَّيِّبَاتِ﴾ من المأكَل والمشارب والملابس والمناجِح ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ بما خصهم به من المناقب، وفضلهم به من الفضائل التي ليست لغيرهم من أنواع المخلوقات.

(٧١) ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَاسٍ بِإِيمَانِهِمْ﴾ يخبر تعالى عن حال الخلق يوم القيامة، وأنه يدعو كل أناس ومعهم إمامهم وهاديتهم إلى الرشد، وهم: الرسل ونوابهم، فتعرض كل أمة ويحضرها رسولهم الذي دعاهم، وتعرض أعمالهم على الكتاب الذي يدعو إليه الرسول، هل هي موافقة له أم لا؟ فينقسمون بهذا قسمين: ﴿فَمَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ يَمِينُهُ﴾ لكونه اتبع إمامه الهادي إلى صراط مستقيم، واهتدى بكتابه، فكثرت حسناته وقلت سيئاته ﴿فَأُولَٰئِكَ يَفْرَحُونَ كِتَابَهُمْ﴾ قراءة سرور وبهجة على ما يرون فيها مما يفرحهم ويسرهم ﴿وَلَا يَظْلَمُونَ قَتِيلًا﴾ مما عملوه من

الخوف والشدة في البحر، فخافوا من الهلاك؛ لتراكم الأمواج ﴿ضَلَّ مَنْ دَعَا إِلَى الْإِيَّاهُ﴾ بطل وسقط عنهم ما كانوا يدعون من دون الله في حال الرخاء من الأحياء والأموات، فكأنهم لم يكونوا يدعونهم في وقت من الأوقات؛ لعلمهم أنهم ضعفاء عاجزون عن كشف الضر، وصرخوا بدعوة فاطر الأرض والسماوات، الذي تستغيث به في شدائدنا جميع المخلوقات، وأخلصوا له الدعاء والتضرع في هذه الحال ﴿فَلَمَّا تَجَنَّزَكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ فلما كشف الله عنهم الضر ونجاهم إلى البر؛ نسوا ما كانوا يدعون إليه من قبل، وأشركوا به من لا ينفع ولا يضر، ولا يعطي ولا يمنع، وأعرضوا عن الإخلاص لربهم ومليكمهم ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ وهذا من جهل الإنسان وكفره؛ فإن الإنسان كفور للنعم، إلا من هدى الله فمنَّ عليه بالعقل السليم، واهتدى إلى الصراط المستقيم.

(٦٨) ﴿أَفَأَمِنْتُمْ﴾ بعد ذلك ﴿أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ﴾ يغور بكم ﴿جَانِبَ الْبَرِّ﴾ ناحية البر، وهي الأرض ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ يمطر عليكم حجارة من السماء، فهو على كل شيء قدير، فلا تظنوا أن الهلاك لا يكون إلا في البحر ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ ناصراً يرد عنكم، وينقذكم منه.

(٦٩) ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ﴾ أيها المعرضون عنا بعدما اعترفوا بتوحيدنا في البحر، وخرجوا إلى البر ﴿أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾ في البحر ﴿نَارَةً أُخْرَى﴾ مرة ثانية ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ﴾ ريحاً شديدة

ينجني في البحر إلا الإخلاص فما ينجيني في البر غيره، اللهم إن لك علي عهداً إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمداً حتى أضع يدي في يده، فلاجدنه عفواً كريماً. قال: فجاء فأسلم.

الحسنات.

(٧٢) ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا الدُّنْيَا﴾ ﴿أَعْمَى﴾ عن الحق؛ فلم يقبله، ولم ينقد له، بل اتبع الضلال، ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ عن سلوك طريق الجنة، كما لم يسلكه في الدنيا، ﴿وَأَصْلُ سَبِيلًا﴾ فإن الجزء من جنس العمل، كما تدين تدان.

(٧٣) ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتَحُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرًا﴾ قد كادوا لك أمراً لم يدركوه، وتحيلوا لك على أن تفتري على الله غير الذي أنزلنا إليك، فتجيء بما يوافق أهواءهم، وتدع ما أنزل الله إليك ﴿وَإِذَا﴾ لو فعلت ما يهرون ﴿لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ حيناً صفيّاً.

(٧٤) ﴿وَر﴾ مع هذا ف ﴿لَوْ لَا أَن تَبْنَتَكَ﴾ على الحق، وامتتنا عليك بعدم الإجابة لداعيهم ﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ﴾ تميل ﴿إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ قريباً من الفعل، من كثرة المعالجة، ومحبتك لهدايتهم.

(٧٥) ﴿وَإِذَا﴾ لو ركنست إليهم بما يهون ﴿لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ أي: لأصيبناك بعداب مضاعف في الدنيا والآخرة ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُكَ عَلَيْهَا نَصِيرًا﴾ ناصرًا وحافظًا يمنعك من عذابنا.

(٧٦) ﴿وَإِنْ كَادُوا﴾ المشركون ﴿لَيَسْفِرُوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ ليستخفونك من أرض مكة ليخرجوك منها ﴿وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ﴾ لا يبقون ﴿خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ بعدك إلا قليلاً حتى يهلكهم الله.

(٧٧) ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾

وَلَنْ كَادُوا لَيَسْفِرُوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا يَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَفَرَأَى الْأَصْلَوةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى عَسَى اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَاتٌ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ جَعَلَ دُخَانَ الْقُرْءَانِ فَجَعَلَ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَشْهُودًا ﴿٧٩﴾ وَقَدْ رُبِّي أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْءَانِ إِنْ مَاهُوْ شِفَاءً وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الْفَاسِقِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا أَتَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَاضَهُ فَتَنَّا بِيَعْلَانِيَةً وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرْكَانِ يَتُوسَّسُ ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِرَةٍ رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ هَادِيٌّ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتُمْ لَنَنْدَهِنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ بِهِ عِلْمًا وَكَذِبًا ﴿٨٦﴾

هكذا عادتنا في الدين كفروا برسولنا وأدوهم، يخرج الرسول من بين أظهرهم ويأتيهم العذاب، ﴿وَلَا يَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾.

ولولا أن محمدًا ﷺ رسول الرحمة والهداية لجاءهم من النقم في الدنيا ما لا قبل لأحد به، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

(٧٨) ﴿أَفَرَأَى الْأَصْلَوةَ﴾ يأمر تعالى نبيه محمد ﷺ بإقامة الصلاة تامة، ظاهراً وباطناً، في أوقاتها ﴿لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ ميلانها إلى الأفق الغربي بعد الزوال، فيدخل في ذلك صلاة الظهر وصلاة

(٧٨) في «صحيح البخاري» من حديث أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ: «فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر». ويقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: ﴿وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَاتٌ مَشْهُودًا﴾.

العصر ﴿إِنَّ عَسَىٰ أَلِيلٌ﴾ ظلمته، فدخل في ذلك صلاة المغرب وصلاة العشاء ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ صلاة الفجر، وسميت: قرآنًا؛ لمشروعية إطالة القرآن فيها أطول من غيرها، ولفضل القراءة، حيث يشهدها الله وملائكة الليل وملائكة النهار، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾

(٧٩) وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ﴾ أمر له بقيام الليل بعد المكتوبة ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ زيادة لك في علو الهمة ورفع الدرجات، وصلاة الليل واجبة في حقه ﷺ بهذه الآية - على أحد قولي العلماء -، وعلى أمته مندوب إليه مرغّب فيه ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾؛ أي: افعل هذا الذي أمرتك به؛ لنقيمك يوم القيامة مقامًا يحمدك فيه الخلائق كلهم وخالقهم تبارك وتعالى.

والمقام المحمود: هو مقام الشفاعة لأتمته؛ لأنه يحمده فيه الأولون والآخرون.

(٨٠) ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ﴾ اجعل مداخلتي ومخارجي كلها في طاعتك وعلى مرضاتك، ووصف الإدخال والإخراج بالصدق لما يتول إليه الخروج والدخول من النصر والعز ودولة الدين، كما وصف القدم بالصدق، فقال: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾

عند ربهم ﴿يونس: ٢﴾، ﴿وَأَجْعَلْ لِّي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ حجة ظاهرة وبينة واضحة.

(٨١) ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ والحق هو ما أوحاه الله إلى رسوله محمد ﷺ، ﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ اضمحل باطل الكفار وهلك، فإن الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء، كما في قوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]، ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ هذا وصف

الباطل، ولكنه قد يكون له صولة وروجان إذا لم يقابله الحق، فعند مجيء الحق يضمحل الباطل ويهلك، ولهذا لا يروج الباطل إلا في الأزمنة والأمكنة الخالية في العلم بآيات الله وبيئاته.

(٨٢) ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾ نحا القرآن كله شفاء من أمراض القلوب، كالشك والنفاق والزيف، ومن أمراض الأبدان، من آلامها وأسقامها ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ وهو أيضًا رحمة يحصل فيها الإيمان، والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وليس ذلك لكل أحد، وإنما ذلك ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ به، المصدقين بآياته ﴿وَلَا يَزِيدُ الْظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ وأما الظالمون بعدم التصديق به، أو عدم العمل به، فلا تزيدهم آياته إلا خسارًا؛ إذ به تقوم عليهم الحجة.

(٨٣) ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ﴾ هذه طبيعة الإنسان من حيث هو، إلا من هداه الله، فإن الإنسان - عند إنعام الله عليه - يفرح بالنعم،

(٧٩) في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ أنه سئل: أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة؟ قال: «صلاة الليل». وفي «صحيح البخاري» من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الشمس تدنو - حتى يبلغ العرق نصف الأذن، فبينما هم كذلك استغاثوا بأدم، فيقول: لست صاحب ذلك. ثم بموسى، فيقول كذلك، ثم بمحمد ﷺ فيشفع بين الخلق، فيمشي حتى يأخذ بحلقة باب الجنة، فيومئذ يبعثه الله مقامًا محمودًا، يحمده أهل الجمع كلهم».

(٨١) في «الصحيحين» من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: دخل النبي ﷺ مكة، وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب، فجعل يطعن بها يعود في يده ويقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾.

إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَلَّى أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنُوتُ مَا ۖ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَجْمٍ وَعَنَبٍ فَتَفْجُرَ لَنَا تِهْرًا لَهَا أَنْفَجِيرًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَنْهَضَ السَّمَاءُ كَمَا رَعِمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بِنَا إِلَهُ الْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩١﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَذَا كُنْتُ لَا بُدَّ لِي رَسُولًا ﴿٩٢﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٣﴾ قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّمَا كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٥﴾

قَلِيلًا؛ أي: في جنب علم الله وفي هذه الآية دليل على أن المسؤول إذا سئل عن أمر، الأولى بالسائل غيره أن يُعرض عن جوابه، ويدله على ما يحتاج إليه، ويرشده إلى ما ينفعه.

(٨٦) وَلَكِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ يخبر تعالى أن القرآن والوحي الذي أوحاه إلى

ويبسط بها، ويعرض عن ذكر الله ودعائه، ﴿وَنَاجِيَهُ﴾ تباعد عن ربه، فلا يشكره، ولا يذكره، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ كالمرض ونحوه، ﴿كَانَ يَتُوسَّ﴾ من الخير، قد قطع عن ربه رجاءه، وظن أن ما هو فيه دائم أبدًا.

(٨٤) ﴿قُلْ كُلٌّ﴾ من الناس ﴿يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ على ما يليق به من الأحوال: إن كانوا من الصفوة الأبرار؛ لم يشاكلهم إلا عملهم لرب العالمين، ومن كان من غيرهم من المخدولين؛ لم يناسبهم إلا العمل للمخلوقين، ولم يوافقهم إلا ما وافق أغراضهم، ﴿فَرِيضَتُكُمْ أَعْلَمُ مِنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ فيعلم من يصلح للهداية فيهديه، ومن لا يصلح لها فيخذله ولا يهديه.

(٨٥) ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ وهذا متضمن لردع من يسأل المسائل التي يقصد بها التعنت والتعجيز، ويدع السؤال عن المهم، فيسألون عن الروح التي هي من الأمور الخفية، التي لا يتقن وصفها وكيفيتها كل أحد، وهم قاصرون في العلم الذي يحتاج إليه العباد، ولهذا أمر الله رسوله أن يجيب سؤالهم بقوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾؛ أي: من جملة مخلوقاته التي أمرها أن تكون فكانت، فليس في السؤال عنها كبير فائدة، ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا

(٨٤) في «الصحاحين» عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: بينا أنا أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم في بعض ضرب المدينة، وهو يتوكأ على عسيب - عصا من جريد - معه، فمر بنفر من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح. فقال: ما رايبكم إليه؟ وقال بعضهم: لا تسألوه؛ لا يجيء بشيء تكرهونه. فقال بعضهم لبعض: لنسأله. فقالوا: سلوه. فقام رجل منهم إليه، فقال: يا أبا القاسم، ما الروح؟ فسكت عنه النبي صلى الله عليه وسلم، فلم يرد عليه شيئاً، فقلت: إنه يوحى إليه، فتأخرت عنه حتى صعد الوحي، فقامت مقامي، فلما انجلت عنه قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، فقال بعضهم لبعض: قد قلنا لكم لا تسألوه!

(٨٦) أخرج الطبري وعبد الرزاق والطبراني والدارمي من طرق يقوي بعضها بعضاً عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «يطرق الناس ريحاً حمراء من قبل الشام. فلا يبقى في مصحف رجل ولا في قلبه آية». ثم قرأ ابن مسعود: ﴿وَلَكِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾.

رسوله رحمة منه عليه وعلى عباده، وهو أكبر النعم على الإطلاق على رسوله، فإن فضل الله عليه كبيراً.

فالذي تفضل به عليك قادر على أن يذهب به ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ ثم لا تجد راداً يردّه، ولا وكيلاً يتوجه عند الله فيه.

(٨٧) ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾ وهذا استثناء منقطع، معناه: ولكن لإنشاء ذلك رحمة من ربك، ﴿إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ وهذا من فضل الله عليك، وفضله كبير، وخيره كثير، ومن ذلك: عموم رسالته للثقلين، وكونه خاتم الأنبياء، وعروجه إلى الملكوت الأعلى، وإمامته بالأنبياء، والمقام المحمود، فهو بحق سيد ولد آدم ولا فخر.

(٨٨) ﴿قُلْ لِّينِ أَجْمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ وهذا دليل قاطع وبرهان ساطع على صحة ما جاء به الرسول وصدقه؛ حيث تحدى الله الإنس والجن أن يأتوا بمثله، وأخبر أنهم لا يأتون بمثله ﴿وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ ولو تعاونوا كلهم على ذلك لم يقدروا عليه فإن هذا أمر لا يستطيع، وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق الذي لا نظير له، ولا مثال له، ولا عديل له؟!

(٨٩) ﴿رَلَقَدْ صَرَفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ نوعنا فيه المواعظ والأمثال، وثنيينا فيه المعاني التي يضطر إليها العباد؛ لأجل أن يتذكروا ويتقوا ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ فلم يتذكر إلا القليل منهم، وأما أكثر الناس فأبوا إلا جحوداً للحق، ورداً للصواب، وجعلوا يتعنتون عليه باقتراح آيات غير آياته، يخترعونها من تلقاء

أنفسهم الظالمة الجاهلة.

(٩٠) ﴿وَقَالُوا﴾ للرسول ﷺ الذي أتى بهذا القرآن المشتمل على كل برهان وآية: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ لن نصدقك ﴿حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ أنهاراً جارية.

(٩١) ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعَنْبٍ﴾ فتستغني بها عن المشي في الأسواق والذهاب والمجيء ﴿فَتَفْجِرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾؛ أي: خلال الأشجار تفجيراً.

(٩٢) ﴿أَوْ تَسْقُطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمَتِ عَلَيْنَا كِسْفًا﴾ قطعاً من العذاب ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ جميعاً أو مقابلة ومعانية، يشهدون لك بما جئت به.

(٩٣) ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ تُخْرُفٍ﴾؛ أي: مزخرف بالذهب وغيره ﴿أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ﴾ رقياً حسياً، ﴿وَمَعَ هَذَا﴾ ولن نؤمن لربك لصعودك ﴿حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ﴾ أمرنا فيه باتباعك، ولما كانت هذه تعنتات وتعجيزات وكلام أسفه الناس وأظلمهم المتضمنة لرد الحق، وسوء أدب مع الله، وأن الرسول ﷺ هو الذي يأتي بالآيات أمره الله أن ينزله فقال: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ عما تقولون علواً كبيراً، وسبحانه أن تكون أحكامه وآياته تابعة لأهوائهم الفاسدة، وآرائهم الضالة، ﴿هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ ليس بيده شيء من الأمر.

(٩٤) ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ﴾؛ أي: أكثرهم ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ أراد: أن الكفار كانوا يقولون: لن نؤمن لك لأنك بشر، وهلاً بعث الله إليك ملكاً جهلاً منهم: ﴿أَعَتَّ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ حيث كانت الرسل التي ترسل إليهم من جنسهم

بشرًا، وهذا من رحمته بهم أن أرسل إليهم بشرًا منهم؛ فإنهم لا يطيقون التلقي من الملائكة.

(٩٥) فأجابهم الله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ مستوطنين مقيمين، كما أنتم فيها عنهم ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ ليمكنهم التلقي عنه.

(٩٦) ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فمن شهادته لرسوله ما أيده به من المعجزات، وما أنزل عليه من الآيات، ونصره على من عاداه وناواه فلو تقول عليه بعض الأقاويل، لأخذ منه باليمين، ثم لقطع منه الوتين، ف ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ فإنه خير بصير، لا تخفى عليه من أحوال العباد خافية.

(٩٧) ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ يخبر تعالى أنه المنفرد بالهداية، فمن يهده - فييسره لليسرى ويجنبه العسرى - فهو المهتدي على الحقيقة، ومن يضله فيخذله ويكله إلى نفسه ﴿فَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: فلا هادي له من دون الله، وليس له ولي ينصره من عذاب الله ﴿وَتَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ حين يحشرهم الله ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ خزيا ﴿عَمِيًّا﴾ لا يبصرون ﴿وَبُكْمًا﴾ لا ينطقون ﴿وَصُمًّا﴾ لا يسمعون ﴿مَأْوَاهُمْ﴾ مقرهم ودارهم ﴿جَهَنَّمَ﴾ التي جمعت كل هم وغم وعذاب، ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ تهيات للانطفاء ﴿زُدَّتْهُمْ سَعِيرًا﴾ سعرتها بهم، لا يفتقر عنهم العذاب.

فإن قيل: كيف وصفهم بأنهم عمي وبكم وصم، وقد قال: ﴿وَرَوَّاءَ الْمَجْرُمُونَ النَّارَ﴾ [الكهف:

وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّمْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ، وَتَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عَمِيَائًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كَلَّمَا خَبَتْ زُدَّتْهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ هُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْتًا أَلَمْ نَلْعَبُثُوا خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّارْتِيَابَ فِيهِ فَإِنَّ الظَّالِمِينَ إِذَا كَفَرُوا ﴿٩٩﴾ قُلْ لَوْ أَنَّكُمْ تَعْلَمُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا أَنْتُمْ كُنْتُمْ حَسِيئَةً الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَنُ قَوْتَرًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ رِجْسَ عَائِشَةٍ بَيْنَتِ فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَسْخَرَهُ مِنْهُمْ فَقَالَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَهُودِيٌّ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مَسْحُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِرَ مِنْ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

[٥٣]، وقال: ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان:

[١٣]، وقال: ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّطًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان:

[١٢] أثبت الرؤية والكلام والسمع؟

قيل: يحشرون على ما وصفهم الله، ثم تعاد إليهم هذه الأشياء.

وجواب آخر: ﴿عَمِيًّا﴾ لا يرون ما يسرهم ﴿وَبُكْمًا﴾ لا ينطقون بحجة ﴿وَصُمًّا﴾ لا يسمعون شيئًا يسرهم.

(٩٨) ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ هُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ ولم يظلمهم الله تعالى، بل جازاهم بما كفروا بآياته، وأنكروا البعث الذي أخبرت به الرسل، ونطقت به الكتب، وعجزوا ربهم فانكروا تمام قدرته

(٩٧) في «الصحاحين» من حديث أنس رضي الله عنه يقول: قيل: يا رسول الله، كيف يحشر الناس على وجوههم؟ قال: «الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم».

(١٠١) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أيها الرسول المؤيد بالآيات أول رسول كذبه الناس، فلقد أرسلنا قبلك موسى بن عمران الكليم إلى فرعون وقومه، وآتيناه ﴿تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ كل واحدة منها تكفي لمن قُضدُه اتباع الحق: كالعصا، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والسنين، ونقص من الثمرات، واليد، وفلق البحر، فإن شككت في شيء من ذلك ﴿فَسَلِّ﴾ يا محمد ﴿بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ﴾ موسى ﴿فَقَالَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ﴾ مع هذه الآيات ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا﴾ عندك علم السحر، فهذه العجائب التي تفصلها من سحر.

(١٠٢) ﴿قَالَ﴾ له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُ﴾ يا فرعون ﴿مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ﴾ الآيات ﴿إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ﴾ منه لعباده، فليس قولك هذا بالحقيقة، وإنما قلت ذلك ترويجاً على قومك واستخفافاً لهم ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ بِفِرْعَوْنٍ مَّتَّبِعًا﴾ ممقوتاً ملقى في العذاب، لك الويل والذم واللعنة.

(١٠٣) ﴿فَأَرَادَ﴾ فرعون ﴿أَن يَسْتَفْزَهُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾؛ أي: يجليهم ويخرجهم منها ﴿فَأَعْرِفْتَهُ وَمِن مَّعَهُ جَمِيعًا﴾ ونجينا موسى وقومه، وأورثنا بني إسرائيل أرضهم وديارهم.

(١٠٤) ولهذا قال: ﴿وَقُلْنَا مَن بَعْدِهِ﴾ من بعد هلاك فرعون ﴿لِيَنبِيَّ إِسْرَءِيلَ أَتَسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾ أرض مصر والشام ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ يوم القيامة ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ جميعاً؛ ليجازي كل عامل بعمله.

(١٠٥) ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ﴾؛ أي: وبالحق أنزلنا هذا القرآن الكريم؛ لأمر العباد ونهيهم، وثوابهم

سُورَةُ الْاِسْرَاءِ الْكَافِرَةُ

وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾
 وَقُرْءَانًا فَهِنَّ يَتَقَرَّمُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكَيِّ وَنَزَلْنَاهُ نَزِيلًا ﴿١٠٦﴾
 قُلْ ءَامِنُوا بِهِ ءَوْ لَا تُؤْمِنُوا اِلَّا الَّذِيْنَ اَوْفُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ ءَاِنَا يَسْتَلٰ
 عَلَيْهِمْ يَحْزُونُ لَلْاَذْقَانِ سَجْدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحٰنَ رَبِّنَا اِنْ كَانَ
 وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَحْزُونُ لَلْاَذْقَانِ يَبْكُوْنَ وَيَزِيدُهُمْ
 خُشُوْعًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ اَدْعُوا اللّٰهَ ءَا دْعُوا الرَّحْمٰنَ اَيَّامًا تَدْعُوْا فَاِنَّهُ
 اَلْاَسْمَاءُ الْحُسْنٰى وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تَخَافُ يَهَا وَابْتَغِ
 بَيْنَ ذٰلِكَ سَبِيْلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلْ الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِيْ لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ
 لَّهُ شَرِيْكٌ فِى الْمَلٰكِ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ مِنْ الدِّىْلِ وَكِىْرَةٌ كَبِيْرًا ﴿١١١﴾

سُورَةُ الْكَافِرَةِ

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِيْ اَنْزَلَ عَلٰى عَبْدِهِ الْكِتٰبَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُ عِوَجًا ﴿١﴾
 قَيِّمًا لِّيَذْكُرَ تَابِعًا شَدِيْدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِيْنَ الَّذِيْنَ
 يَعْمَلُوْنَ الصّٰلِحٰتِ اَنَّ لَهُمْ اَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ تَكِيْفًا
 فِيْهِ اَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِيْنَ قَالُوْا اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ وَلَمْ اَكُنْ

﴿وَقَالُوا أَوَإِذَا كُنَّا عِظَمًا وَرَفْنًا﴾ بالية نخرة ﴿ءَنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾؛ أي: لا يكون هذا؛ لأنه في غاية البعد عن عقولهم الفاسدة.

(٩٩) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وهي أكبر من خلق الناس ﴿فَإِذَا رَءَوْا أَنَّ يَخْلُقُ مِثْلَهُمْ﴾ بلى، إنه على ذلك قدير، ﴿وَلَا يَكُنْ قَدْرًا لَهُمْ جَعَلَهُمْ أَجْلًا لَا رَبَّ فِيهِ﴾ ولا شك، وإلا فلو شاء لجاءهم به بغتة، ﴿فَأَيُّ الظَّالِمِينَ﴾ أي: بعد إقامة الحجة عليهم ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ أي: إلا تماديًا في باطلهم وضلالهم. ظلماً منهم.

(١٠٠) ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ التي لا تنفذ ولا تبديد ﴿إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ خشية أن ينفد ما تنفقون منه، مع أنه من المحال أن تنفذ خزائن الله، ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ ولكن الإنسان مطبوع على الشح والبخل.

ولا شك .

(١٠٩) ﴿وَيُخَوِّشُونَ لِلْآذِقَانِ﴾ على وجوههم ﴿يَكُونُ﴾ والبكاء مستحب عند قراءة القرآن، ﴿وَيُزِيدُهُمْ﴾ القرآن ﴿خُشُوعًا﴾ خضوعاً لربهم؛ كقوله تعالى: ﴿إِذَا نُنِثِلُ عَلَيْهِمُ آيَاتِ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

(١١٠) يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لعبادي: ﴿أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ أَدْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ أيهما شئتم ﴿أَيُّمَا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾؛ أي: ليس له اسم غير حسن، حتى ينهى عن دعائه به، فأى اسم دعوتوه به حصل به المقصود، والذي ينبغي أن يدعى في كل مطلوب بما يناسب ذلك الاسم ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ قراءة تك ﴿وَلَا تُخَافُتَ بِهَا﴾ فإن في كل من الأمرين محذوراً؛ أما الجهر: فإن المشركين المكذبين به إذا سمعوه؛ سبوه وسبوا من جاء به، وأما المخافتة: فإنه لا يحصل المقصود لمن أراد استماعه مع الإخفاء ﴿وَأَبْتَغَ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ اتخذ بين الجهر والإخفات سبيلاً ﴿تَتَوَسَّطُ فِيمَا بَيْنَهُمَا﴾.

(١١١) ﴿وَقُلْ﴾ يا محمد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي له الكمال والثناء والحمد والمجد من جميع

وعقابهم ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ﴾ بالصدق والعدل، والحفظ من كل شيطان رجيم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ من أطاع الله بالشواب العاجل والآجل، ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن عصى الله بالعقاب العاجل والآجل، ويلزم من ذلك بيان ما يبشر به وينذر.

(١٠٦) ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ﴾ وأنزلنا هذا القرآن مفروقاً، فارقاً بين الهدى والضلال، والحق والباطل ﴿لِنُقَرِّأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْتٍ﴾ على مهل؛ ليتدبروه، ويتفكروا في معانيه، ويستخرجوا علومه، ﴿وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا﴾ شيئاً فشيئاً، مفروقاً في ثلاث وعشرين سنة.

(١٠٧) ﴿قُلْ﴾ لمن كذب به وأعرض عنه: ﴿ءَاْمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ فليس للـ «ه» حاجة فيكم، ولستم بضاربه شيئاً، وإنما ضرر ذلك عليكم ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ فإن لله عبداً غيركم، وهم الذين آتاهم الله العلم النافع ﴿إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يُخَوِّشُونَ لِلْآذِقَانِ سُجَّدًا﴾؛ أي: يتأثرون به غاية التأثر، ويخضعون له.

(١٠٨) ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا﴾ عما لا يليق بجلاله مما نسبته إليه المشركون، ﴿إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا﴾ بالبعث والجزاء بالأعمال ﴿لَمَفْعُولًا﴾ لا خلف فيه

(١٠٦) أخرج النسائي وابن جرير والحاكم بإسناد صحيح عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا ليلة القدر، ثم أنزل بعد ذلك في عشرين سنة، ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْتٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا﴾.

(١٠٩) أخرج الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة الصحيح عن رسول الله ﷺ قال: «لا يلج النار من بكى من خشية الله، حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في منخري مسلم أبداً».

(١١٠) في «الصحيحين» عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتَ بِهَا﴾ قال: نزلت ورسول الله ﷺ مختفياً بمكة، كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمع المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به، فقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾؛ أي: بقراءة تك، فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ﴿وَلَا تُخَافُتَ بِهَا﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم ﴿وَأَبْتَغَ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾.

شريك له، وإخلاص الدين كله له.

سورة الكهف (*)

(١) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ أي: الثناء عليه بصفاته، وبنعمه الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية ﴿الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ وَأَجَلَ نِعَمَهُ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ: إنزاله الكتاب العظيم على عبده ورسوله محمد ﷺ؛ إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور، حيث جعله كتاباً مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا زيغ، بل يهدي إلى صراط مستقيم، بيناً واضحاً حلياً، نذيراً للكافرين، وبشيراً للمؤمنين؛ ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِوَجًا﴾ أي: لم يجعل فيه اعوجاجاً ولا زيغاً ولا ميلاً، بل جعله معتدلاً، مستقيماً، ولهذا قال:

(٢) ﴿فِيمَا﴾؛ أي: مستقيماً ﴿لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ﴾ لينذر بهذا القرآن الكريم عقابه الذي عنده؛ أي: قدره وقضائه، على من خالف أمره ﴿وَ﴾ أنزل الله على عبده الكتاب: ﴿يُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ به وبرسله وكتبه ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ الذين كمل إيمانهم، فأوجب لهم عمل الصالحات، وهي: الأعمال الصالحة؛ من واجب، ومستحب، التي جمعت الإخلاص والمتابعة ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ وهو الثواب الذي رتبته الله على الإيمان والعمل الصالح، وأعظمه وأجله: الفوز برضا الله، ودخول الجنة.

لَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِوَجًا ۚ إِنَّهُ سَوِيٌّ قَدْ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۚ مَا لَكُمْ مِنْ عِلْمٍ وَلَا يَابِغِهِمْ كَثُرَتْ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۚ ﴿٥﴾ فَلَمَّا كُنْتُمْ تَخْلُصُونَ عَنْ أَشْرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۚ ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَن يَسْلُوهُمُ أَهْلُهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرًّا ۚ ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۚ ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۚ ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۚ ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَبْلُوَ أَلَمْ يَرْثِي بِأَحْسَنِ لِمَا يَسْتَوُونَ أَمَّا ﴿١٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ۚ ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَنُدْعُوهُ مِنْ دُونِهِ ۚ إِنَّهَا لَفُتْنَانَا إِذَا سَطَطْنَا ۚ ﴿١٤﴾ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ ﴿١٥﴾

الوجوه، المنزه عن كل آفة ونقص، ﴿الَّذِي لَمْ يَخْذَ وَلَدًا وَلَوْ يَكُنْ لَكُمْ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ بل هو الله الأحد الصمد لم يلد ولم يولد، له الملك كله، فالعالم العلوي والسفلي كلهم مملوكون لله، ليس لأحد من الملك شيء ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلِيٌّ مِّنَ الدَّلِيلِ﴾ لا يتولى أحداً من خلقه ليتعزز به ويعاونه؛ فإنه الغني الحميد، الذي لا يحتاج إلى أحد من المخلوقات في الأرض ولا في السموات ﴿وَكِبْرُهُ تَكْبِيرًا﴾ عظمه وأجله بالإخبار بأوصافه العظيمة وبالثناء عليه بأسمائه الحسنى، وبتمجيده بأفعاله المقدسة، وبتعظيمه وإجلاله بعبادته وحده لا

(*) في «الصحيحين» من حديث البراء رضي الله عنه قال: قرأ رجل الكهف، وفي الدار دابة، فجعلت تنفر، فنظر فإذا ضبابة - أو سحابة - قد غشيت، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: «اقرأ فلان؛ فإنها السكينة تنزلت عند القرآن أو تنزلت للقرآن».

وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف؛ عصم من الدجال».

الجميع جعله الله زينة لهذه الدار؛ ﴿لِنَبْلُوهُمْ﴾ لنختبرهم ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: أصلح عملاً؛ وهو: أخلصه وأصوبه.

(٨) ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرًّا﴾ ومع ذلك سيجعل الله جميع هذه المذكورات فانية مضمحلة، وزائلة منقضية.

(٩) ﴿أَمْرٌ حَسِيتٌ﴾ يا محمد ﴿أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ﴾ وهو الغار في الجبل ﴿وَالرَّقِيعِ﴾ وهو الكتاب الذي رقت فيه أسماؤهم وقصتهم ﴿كَانُوا مِنْ عَائِلَتِنَا عَجَبًا﴾ أي: لا تظن أن قصة أصحاب الكهف، وما جرهم لهم غريبة على آيات الله، وبديعة في حكمته، وأنه لا نظير لها، ولا مجانس لها، بل لله تعالى من الآيات العجيبة الغريبة ما هو كثير، من جنس آياته في أصحاب الكهف وأعظم منها، فلم يزل الله يري عباده من الآيات في الآفاق وفي أنفسهم، ما يتبين به الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وليس المراد بهذا النفي أن تكون قصة أصحاب الكهف من العجائب، بل هي من آيات الله العجيبة، وإنما المراد، أن جنسها كثير جداً، فالوقوف معها وحدها، في مقام العجب والاستغراب، نقص في العلم والعقل، بل وظيفة المؤمن التفكير بجميع آيات الله، التي دعا الله العباد إلى التفكير فيها، فإنها مفتاح الإيمان، وطريق العلم والإيقان.

ولم يخبرنا الله تعالى بمكان هذا الكهف، ولا في أي البلاد من الأرض؛ إذ لا فائدة لنا فيه، ولا قصد شرعي، وقد تكلف كثير من المفسرين

(٣) ﴿مَكِينٍ فِيهِ أَبَدًا﴾ لا يزول عنهم، ولا يزولون عنه، بل نعيمهم في كل وقت متزايد.

(٤) ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ من اليهود والنصارى والمشركين، الذين قالوا هذه المقالة الشنيعة.

(٥) ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ بهذا القول، افتروه واثبتوه ﴿وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ الذين قلدهم واتبعوهم ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ عظمت شاعتها واشتدت عقوبتها، وأي شناعة أعظم من وصفه بالاتخاذ للولد ﴿إِنْ يَقُولُونَ﴾ ما يقولون ﴿إِلَّا كَذِبًا﴾ أي: كذباً محضاً ما فيه من الصدق شيء.

(٦) ولما كان النبي ﷺ حريصاً على هداية الخلق، ساعياً في ذلك أعظم السعي، فكان يفرح ويسر بهداية المهتدين، ويحزن ويأسف على المكذبين الضالين، شفقة منه عليهم، ورحمة ربهم - أرشده الله أن لا يشغل نفسه بالأسف على هؤلاء الذين لا يؤمنون بهذا القرآن فقال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَرِهِمْ﴾ مهلكها غمًا وأسفًا عليهم ﴿إِنْ لَمْ يَأْمُرُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ أي: القرآن ﴿أَسَفًا﴾ أي: حزنًا.

(٧) ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا﴾ يخبر تعالى أنه جعل جميع ما على وجه الأرض: من مأكّل لذيذة، ومشارب، وملابس طيبة، وأشجار، وأنهار، وزروع، وثمار، ومناظر بهيجة، ورياض أنيقة، وأصوات شجية، وصور مليحة، وذهب وفضة، وخيل وإبل، ونحوها،

(٧) في «صحيح مسلم» من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «إن الدنيا خضرة حلوة، وإن الله مستخلفكم فيها، فناظر ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء؛ فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء».

الطائفتين اللتين اختلفتا في قدر مبلغ مكث الفتية في كهفهم رقوداً ﴿أَحْصَى﴾ أحفظ وأصوب ﴿لَمَّا لَبِثُوا﴾ لما مكثوا في كهفهم ﴿أَمَدًا﴾ مقدار مدتهم .

(١٣) ﴿تَحْنُ نَفْضُ عَلَيْكَ﴾ نقرأ عليك ﴿نَبَاهُمْ﴾ خبر أصحاب الكهف ﴿بِالْحَقِّ﴾ الصدق الذي ما فيه شك، ولا شبهة بوجه من الوجوه، ﴿إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ﴾ شبان، وهذا من جموع القلة، يدل على أنهم دون العشرة، ﴿ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ بالله وحده لا شريك له، من دون قومهم، ﴿وَرَدَّاهُمْ هُدًى﴾ ف شكر الله لهم إيمانهم، فزادهم إيماناً وبصيرة .

(١٤) ﴿وَرَبَّطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ صبرناهم وثبتناهم، فجعلنا قلوبهم مطمئنة في تلك الحالة المزعجة ﴿إِذْ قَامُوا﴾ لله في البحث عن الحق، أو بين يدي ملكهم الطاغية حين عاتبهم على ترك عبادة الأصنام، ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: الذي خلقنا ورزقنا ودبرنا وربانا، هو خالق السموات الأرض، ولهذا قالوا: ﴿كُنْ نَدْعُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾؛ أي: من سائر المخلوقات ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذَا﴾؛ أي: إن دعونا معه آلهة بعدما علمنا أنه الرب الإله الذي لا تجوز ولا تنبغي العبادة إلا له ﴿شَطَطًا﴾ ميلاً عظيماً عن الحق، وطريقاً بعيدة عن الصواب، فجمعوا بين الإقرار بتوحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، والتزام ذلك .

(١٥) ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ لما ذكروا ما من الله به عليهم من الإيمان والهدى والتقوى، التفوتوا إلى ما كان عليه قومهم من اتخاذ الآلهة من دون الله، فمقتوهم وبينوا أنهم ليسوا على يقين من أمرهم، بل هم في غاية الجهل والضلال، فقالوا: ﴿لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمُ

وَأَوْعَتْ لَنُؤْمِنُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهُ فَأَوَّاهُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهْتِكُمْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ مَرْفَقًا وَتَرَى السَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَرُورُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرُّصُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مِنْ يَدِ اللَّهِ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْسِدًا ﴿١٦﴾ وَتَحْسَبُهُمْ آيَةً ظَالِمًا وَهُمْ رَوْفٌ وَيُنْفِلِيهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمِ لَمِيتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٧﴾ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِنِسَاءٍ لَوْ يَتَّبِعُهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْنَا قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرُوا أَيُّهُمْ أَزْكًى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ إِذَا نَظَّهُرُوا عَلَيْكُمْ يُرْجِمُكُمْ أَوْ يُبْعِدُكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿١٩﴾

فذكروا فيه أقوالاً لا تصح، وروايات لا تثبت، والله أعلم بأي بلاد الله هو، ولو كان فيه مصلحة دينية لأرشدنا الله تعالى ورسوله إليه، ولكنه أعلمنا بصفته، ولم يعلمنا بمكانه .

(١٠) ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْنَةُ﴾ الشباب ﴿إِلَى الْكَهْفِ﴾ يريدون بذلك التحصن والتحرز من فتنة قومهم لهم ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ تثبتنا بها وتحفظنا من الشر وتوفقنا للخير، ﴿وهي لنا من أمرنا رشداً﴾ يسر لنا كل سبب موصل إلى الرشد، وأصلح لنا أمر ديننا ودنيانا .

(١١) ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ﴾؛ أي: أنماهم ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾ وهي: ثلاثمائة وتسع سنين .

(١٢) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ من نومهم ﴿لِنَعْلَمَ﴾؛ أي: لينظر عبادي فيعلموا بالبحث ﴿أَيُّ الْحَرِيَيْنِ﴾؛ أي:

بالمكان الضيق، خصوصاً مع طول المكث ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على قدرته ورحمته بهم، وإجابة دعائهم وهدايتهم حتى في هذه الأمور، ولهذا قال: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾؛ أي: لا سبيل إلى نيل الهداية إلا من الله، فهو الهادي المرشد لمصالح الدارين ﴿وَمَنْ يَضِلْ فَلَنْ يُجِدَ لَهُ وِلِيًّا مُرْشِدًا﴾؛ أي: لا تجد من يتولاه ويدبره على ما فيه صلاحه، ولا يرشده إلى الخير والصلاح.

(١٨) ﴿وَتَحَسَّبُكُمْ﴾ أيها الناظر إليهم ﴿أَفَكَاكًا﴾ كأنهم أيقاظ، والحال أنهم نيام، قال المفسرون: وذلك لأن أعينهم مفتوحة؛ لئلا تفسد ﴿وَقَلْبَهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ وهذا أيضاً من حفظه لأبدانهم؛ لأن الأرض من طبيعتها أكل الأجسام المتصلة بها ﴿وَكَبَّهُمْ بِسِطِّ ذِرَاعِيهِ﴾؛ أي: الكلب الذي كان مع أصحاب الكهف، أصابه ما أصابهم من النوم وقت حراسته، فكان باسطاً ذراعيه ﴿بِالْوَصِيدِ﴾؛ أي: الباب أو فئائه، هذا حفظهم من الأرض، وأما حفظهم من الأدميين؛ فأخبر أنه حماهم بالرعب، الذي نشره الله عليهم، في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا﴾ أي: لو اطلع عليهم أحد لولى هارباً ولا متلاً قلبه خوفاً؛ لما ألبسهم الله من الهيبة حتى لا يصل إليهم أحد، بالرغم من قربهم من المدينة جداً، والدليل على قربهم: أنهم لما استيقظوا، أرسلوا أحدهم، يشتري لهم طعاماً من المدينة، وبقوا في انتظاره، فدل ذلك على شدة قربهم منها؛ وذلك حتى يبلغ الكتاب أجله، فيوقظهم الله تعالى من رقدتهم.

(١٩) ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾ من نومهم الطويل

يُسَلِّطْنِ بَيْنَ ﴿بحجة وبرهان على ما هم عليه من الباطل﴾ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ إنما ذلك افتراء منهم على الله وكذب عليه، وهذا أعظم الظلم.

(١٦) ﴿وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾؛ أي: قال بعضهم لبعض: إذا حصل لكم اعتزال قومكم في أجسامكم وأديانكم، فلم يبق إلا النجاء من شرهم، والتسبب بالأسباب المفضية لذلك؛ لأنه لا سبيل لهم إلى قتالهم، ولا إلى بقائهم بين أظهرهم، وهم على غير دينهم ﴿فَأَوَّاهُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾ انضموا إليه واختفوا فيه، ﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾ وفيما تقدم أخبر أنهم دعوه بقولهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ فجمعوا بين التبري من حولهم وقوتهم، والالتجاء إلى الله في صلاح أمرهم، ودعائه بذلك، وبين الثقة بالله أنه سيفعل ذلك، لا جرم أن الله نشر لهم من رحمته، وهياً لهم من أمرهم مرفقاً، فحفظ أديانهم وأبدانهم، وجعلهم من آياته على خلقه، ونشر لهم من الثناء الحسن، ما هو من رحمته بهم، ويسر لهم كل سبب، حتى المحل الذي ناموا فيه، كان على غاية ما يمكن من الصيانة، ولهذا قال:

(١٧) ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزْوُورُ عَنْ كَهْفِهِمْ﴾؛ أي: حفظهم الله من الشمس، فيسر لهم غاراً إذا طلعت الشمس تميل عنه يمينا، وعند غروبها تميل عنه شمالاً، فلا ينالهم حرها؛ فتفسد أبدانهم بها، ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾؛ أي: من الكهف؛ أي: مكان متسع، وذلك ليطرقهم الهواء والنسيم، ويزول عنهم الوحمة والتأذي

بِرِزْقٍ مِنْهُ؛ أي: قوت وطعام تأكلونه ﴿وَلِيَتَلَطَّفْ﴾ في ذهابه وشرائه وإيابه، وأن يخفي في ذلك، ويخفي حال إخوانه، ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ﴾ ولا يعلمن ﴿بِكُمْ أَحَدًا﴾ من الناس.

(٢٠) ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ يعلموا بمكانكم ﴿يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا﴾ وذكروا المحذور من اطلاع غيرهم عليهم وظهورهم عليهم: أنهم بين أمرين؛ إما الرجم بالحجارة؛ فيقتلونهم أشنع قتلة؛ لحقنهم عليهم وعلى دينهم، وإما أن يفتنهم عن دينهم، ويردوهم في ملتهم، وفي هذه الحال لا يفلحون أبدًا، بل يخسرون في دينهم وديارهم وأخراهم.

(٢١) ﴿وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَنْهُمْ﴾ يخبر تعالى أنه أطلع الناس على حال أهل الكهف؛ ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّكَ وَعَدَ اللَّهُ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ فلولا أنه حصل العلم بحالهم لم يكونوا دليلًا على ما ذكر، وذلك -والله أعلم- بعدما استيقظوا، وبعثوا أحدهم يشتري لهم طعامًا، وأمروه بالاستخفاء والإخفاء، فأراد الله أمرًا فيه صلاح للناس، وزيادة أجر لهم، وهو أن الناس رأوا منهم آية من آيات الله، المشاهدة بالعيان، على أن وعد الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا بعد ﴿إِذْ يَنْتَزِعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ بعدما كانوا يتنازعون بينهم أمرهم، فمن مثبت للوعد والجزاء، ومن ناف لذلك، فجعل قصتهم زيادة بصيرة ويقين للمؤمنين، وحجة على الجاحدين ﴿فَقَالُوا أَبَوْا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ الله أعلم بحالهم

وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَنْهُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّكَ وَعَدَ اللَّهُ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَنْتَزِعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا أَبَوْا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ۖ سَيَقُولُونَ نُلَنَّهُ رَابِعَهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمُ الْإِمْرَاءَ ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمُ مِنْهُمْ أَحَدًا ۚ وَلَا تَقُولَنَّ لِي أُنْشِئْ بَنِي إِدْرِيسَ فَتَفْعِلْ ذَلِكَ عَدَا ۖ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَذَكَرَ رَبُّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ۖ وَلَوْ أَنَّ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ۖ قُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ۚ وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ۝

﴿لِيَسْأَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ ليتباحثوا للوقوف على الحقيقة من مدة لبثهم ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ وهو كبيرهم: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ كم رقدتم في نومكم؟ ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وهذا مبني على ظن القائل، وكانهم وقع عندهم اشتباه في طول مدتهم فلهذا ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ فردوا العلم إلى المحيط علمه بكل شيء جملة وتفصيلاً، ثم عدلوا إلى الأهم في أمرهم إذ ذاك، وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب، فقالوا: ﴿فَاذْهَبُوا أَحَدُكُمْ يَبْرُقِكُمْ هَذِهِ﴾ أي: فضتكم، وكانوا قد استصحبوها من منازلهم ﴿إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ أي: مدينتكم التي خرجتم منها ﴿فَلْيَنْظُرْ آيَاتُ أَزْكَى طَعَامًا﴾ أطيبه وألذّه ﴿فَلْيَأْتِكُمْ

وإن كان لسبب خاص وموجهًا للرسول ﷺ، فإن الخطاب عام للمكلفين، فنهى الله أن يقول العبد في الأمور المستقبلية: ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ﴾ من دون أن يقرنه بمشيئة الله؛ وذلك لما فيه من المحذور، وهو الكلام على الغيب المستقبل، الذي لا يدري هل يفعله أم لا؟ وهل يكون أم لا؟ وفيه رد الفعل إلى مشيئة العبد استقلالاً، وذلك محذور محذور، لأن المشيئة كلها لله ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ولما في ذكر مشيئة الله من تيسير الأمر وتسهيله وحصول البركة فيه والاستعانة من العبد لربه، ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ ولما كان العبد بشراً لا بد أن يسهو عن ذكر المشيئة، أمره الله أن يستثني بعد ذلك إذا ذكر؛ ليحصل المطلوب، ويندفع المحذور، ويؤخذ منه الأمر بذكر الله عند النسيان، ولما كان العبد مفتقراً إلى الله في توفيقه للإصابة، وعدم الخطأ في أقواله وأفعاله، أمره أن يسأله ذلك، فقال: ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾.

(٢٥) ﴿وَلِيُثْبِتْ فِي كَهْفِهِمْ﴾ أي: أصحاب الكهف ﴿ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا شَعًا﴾ لما نهى الله عن استفتاء أهل الكتاب في شأن أهل الكهف؛ لعدم علمهم بذلك، وكان الله عالم الغيب والشهادة العالم بكل شيء، أخبره بمدة لبثهم، وأنه كان مقداره ثلاثمائة سنة وتسع سنين بالهلالية، وهي ثلاثمائة سنة بالشمسية، فإن تفاوت ما بين كل مائة سنة القمرية إلى الشمسية ثلاث سنين، فلهذا قال بعد الثلاثمائة: ﴿وَازْدَادُوا شَعًا﴾.

(٢٦) ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ إذا سئلت عن

ومآلهم ﴿قَالَ الَّذِي عَظَمُوا عَلَىٰ آمُرِهِمْ﴾ وهم الذين لهم الأمر: ﴿لَتَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ أي: نعبد الله تعالى فيه، ونذكر به أحوالهم، وما جرى لهم.

(٢٢) ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كُذِّبُوا وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كُذِّبُوا رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ يخبر تعالى عن اختلاف أهل الكتاب في عدة أصحاب الكهف اختلافاً صارداً عن رجمهم بالغيب، وتقولهم بما لا يعلمون، وأنهم فيهم على ثلاثة أقوال:

منهم: من يقول: ثلاثة رابعهم كذبهم. ومنهم: من يقول: خمسة سادسهم كذبهم. وهذان القولان ذكر الله بعدهما أن هذا رجم منهم بالغيب؛ فدل على بطلانهما ﴿وَيَقُولُونَ﴾ ومنهم من يقول: ﴿سَبْعَةٌ وَاتُّمُنَتْ كُلُّهُمْ﴾ وهذا - والله أعلم - هو الصواب؛ لأن الله أبطل الأولين، ولم يبطله؛ فدل على صحته ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ﴾ إرشاداً إلى أن الأحسن في هذا المقام رد العلم إلى الله تعالى؛ إذ لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم، ولكن إذا اطلعنا على أمر قلنا به، وإلا وقفنا حيث وقفنا ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ وهم الذين أصابوا الصواب وعلموا إصابتهم ﴿فَلَا تَمَارَ﴾ أي: تجادل وتجاد فيهم ﴿إِلَّا مِرَاءً ظَهَرَ﴾ مبنياً على العلم واليقين ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ﴾ أي: في شأن أهل الكهف ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي: من أهل الكتاب ﴿أَحَدًا﴾ وذلك لأن مبنى كلامهم فيهم على الرجم بالغيب، والظن الذي لا يغني عن الحق شيئاً.

(٢٣)، (٢٤) ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدًّا﴾ ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ هذا النهي كغيره،

معانيه وفهمها، وتصديق أخباره، وامتنال أوامره ونواهيه، فإنه الكتاب الجليل الذي ﴿لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ لا تغير ولا تبدل لصدقها وعدلها، وبلوغها من الحسن فوق كل غاية ﴿وَلَنْ يَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ لن تجد من دون ربك ملجأ تلجأ إليه، ولا معاذًا تعوذ به.

(٢٨) ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ يأمر تعالى نبيه محمدًا ﷺ وغيره أسوته في الأوامر والنواهي: أن يجالس ويحبس نفسه مع المؤمنين العباد المنيبين ﴿بِالْعَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ﴾ أول النهار وآخره ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ يريدون بذلك وجه الله، ففيها الأمر بصحبة الأخيار، ومجاهدة النفس على صحبتهم ﴿وَلَا تَقَدْ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ لا تجاوزهم بصرك، وترفع عنهم نظرك ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ تطلب مجالسة الأغنياء والأشراف وصحبة أهل الدنيا، فإن هذا ضار غير نافع، وقاطع عن المصالح الدينية ﴿وَلَا تَطْعَ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ غفل عن الله، فعاقبه الله بأن أغفله عن ذكره ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ صار تبعًا لهواه ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ﴾ مصالح دينه ودنياه ﴿فُرُطًا﴾ ضائعة معطلة.

(٢٩) ﴿وَقُلْ لِلنَّاسِ يَا مُحَمَّدُ: هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾؛ أي: قد تبين الهدى من الضلال، والرشد من الغي، وصفات أهل السعادة، وصفات أهل الشقاوة، وذلك بما بينه الله على لسان رسوله، فإذا بان واتضح ولم يبق فيه شبهة ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾؛ أي: لم يبق إلا سلوك أحد الطريقتين، بحسب توفيق العبد، وعدم توفيقه، وليس في قوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ إلاذن، وإنما ذلك تهديد

وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُمْ وَلَا تَقَدْ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا نَطْعَ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِضُوا بِأَعْيُنِهِمْ كَأَنَّهُمْ يَصْهُو الْوُجُوهَ يُحْسِنُ الشَّرَابَ وَسَاءَتْ مُرْتَقَقًا ﴿٢٩﴾ إِنْ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أَوَلَيْكَ لَمْ يَكُنْ عَدْنٌ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ لَا أَنْتَرُخَلُونَ فِيهَا مِنْ آسَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَكِينِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَاكِ نَعِيمُ الثَّوَابِ وَحَسَنَتْ مُرْتَقَقًا ﴿٣١﴾ وَأَضْرَبَ لَمْ يَلَا زَلَّيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴿٣٢﴾ كُلْنَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهُمَا وَلَمْ تَظْهَرْ فِيهِمَا شَيْءٌ وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لِمَنْ قَرَّبَالَ لَصَدِيقِهِ وَهُوَ يُحَادِّثُهُ إِنَّا أَكْثَرُ مِنْكَ مَا لَا أَعْرَضْنَا ﴿٣٤﴾

لبشهم وليس عندك علم في ذلك فرد العلم إلى الله؛ لأن علم ذلك عنده وحده ﴿لَمْ يَغِبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فإن ذلك في غيب السموات والأرض، وغيبهما مختص به ﷺ، وقوله: ﴿أَبْصُرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ تعجب من كمال سمعه وبصره، وإحاطتهما بالمسموعات والمبصرات، بعدما أخبر بإحاطة علمه بالمعلومات، ولهذا قال: ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾؛ أي: هو الذي تولى أصحاب الكهف بلطفه وكرمه، ولم يكلهم إلى أحد من الخلق ﴿وَلَا يَتْرُكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ وهذا يشمل الحكم الكوني القدري، والحكم الشرعي الديني، فإنه الحاكم في خلقه قضاء وقدرًا، وخلقًا وتدييرًا.

(٢٧) ﴿وَأَتْلُ﴾ اتباع يا محمد ﴿مَا أَوْحَى إِلَيْكَ﴾ ما أوحى الله إليك ﴿مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ بمعرفة

لإقامتهم في الجنات ﴿يَحُلُّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ حليتهم فيها الذهب ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ ولباسهم فيها الحرير الأخضر من السندس، وهو: الغليظ من الديباج، والإستبرق، وهو: ما رق منه ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ وهي: السرر المزينة، المجدلة بالثياب الفاخرة ﴿وَنِعَمَ الْأَثَابِ﴾ للعاملين ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَقًى﴾ يرتفون بها، ويتمتعون بما فيها مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

(٣٢) ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: اضرب للناس مثل هذين الرجلين: الشاكر لنعمة الله، والكافر لها، وما صدر من كل منهما من الأقوال والأفعال، وما حصل بسبب ذلك من العقاب العاجل والآجل ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ فأحد هذين الرجلين الكافر لنعمة الله الجليلة، جعل الله له جنتين؛ أي: بستانين حسنين من أعناب ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾ أطفنا جوانب الأعناب بنخل ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا﴾ وجعلنا وسط الأعناب الزرع، وكل من الأشجار والزرع مثمر مقبل في غاية الجود، ولذلك قال:

(٣٣) ﴿كُنَّا الْجَنَّتَيْنِ ءَانَتْ أَكْلُهُمَا﴾ ثمرها وزرعها تامًا، وأنها ﴿وَلَمْ تَطْلُعْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ لم تنقص من أكلها أدنى شيء ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا﴾ ومع ذلك فالأنهار في جوانبها سارحة كثيرة غزيرة.

(٣٤) ﴿وَكَانَ لَهُمَا﴾ أي: لذلك الرجل ﴿ثَمَرٌ﴾ أي: عظيم. ﴿فَقَالَ﴾ صاحب الجنتين ﴿لصاحبه﴾ المؤمن ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ يخاطبه ويجاوبه ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ فخر بكثرة ماله، وعزة أنصاره من عبيد وخدم وأقارب.

ووعيد لمن اختار الكفر بعد البيان التام، كما ليس فيها ترك قتال الكافرين، ثم ذكر تعالى مآل الفريقين، فقال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْظَّالِمِينَ﴾ بالكفر والفسوق والعصيان ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادُهَا﴾ سورها المحيط بها، فليس لهم منفذ ولا طريق ولا مخلص منها، تصلاهم النار الحامية ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا﴾ إن يطلبوا الشراب؛ ليطفى ما نزل بهم من العطش الشديد ﴿يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ كالرصاص المذاب، أو كعكر الزيت من شدة حرارته ﴿يَشْوَى آلُوجُوهٌ﴾ ينضج الوجوه من حره، فكيف بالأمعاء والبطون ﴿يَشْكُ الشَّرَابُ﴾ الذي يراد ليطفى العطش، ويدفع بعض العذاب، فيكون زيادة في عذابهم. وشدة عقابهم ﴿وَسَاءَتْ النَّارُ﴾ ﴿مُرْتَقًى﴾ وهذا ذم لحالة النار، أنها ساءت المحل.

(٣٥) ثم ذكر الفريق الثاني، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ جمعوا بين الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وعمل الصالحات من الواجبات والمستحبات ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ وإحسان العمل: أن يريد العبد العمل لوجه الله، متبعًا في ذلك شرع الله، فهذا العمل لا يضيعه الله، ولا شيئًا منه، بل يحفظه للعالمين، ويوفيه من الأجر، بحسب عملهم وفضله وإحسانه، وذكر أجرهم بقوله:

(٣٦) ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أولئك الموصوفون بالإيمان والعمل الصالح، لهم الجنات العاليات التي قد كثرت أشجارها، فأجنت من فيها، وكثرت أنهارها. فصارت تجري من تحت تلك الأشجار الأنيقة، والمنازل الرفيعة المهيأة

مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٧﴾ سيعطيني خيراً من هاتين الجنتين، قال هذا الكلام على وجه التهكم والاستهزاء، بدليل قوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ فإثبات أن وصفه الظلم في حال دخوله الذي جرى منه من القول ما جرى يدل على تمرده وعنده.

﴿٣٧﴾ ﴿قَالَ لَّمْ صَاحِبُهُ﴾ المؤمن ﴿وَهُوَ يُخَاوَرُهُ﴾ ناصحاً له، ومذكراً له حاله الأولى التي أوجده الله فيها في الدنيا: ﴿أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُفْثَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا﴾ فهو الذي أنعم عليك بنعمة الإيجاد والإمداد، وواصل عليك النعم، ونقلك من طور إلى طور، فكيف يليق بك أن تكفر بالله الذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً؟! وتجهل نعمته، وتزعم أنه لا يبعثك، وإن بعثك أنه يعطيك خيراً من جنتك.

﴿٣٨﴾ ﴿لَيْكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ فأقر بربوبية ربه، وانفراده فيها، والتزام طاعته وعبادته، وأنه لا يشرك به أحداً من المخلوقين. ﴿٣٩﴾ ثم أرشده إلى ما كان يجب عليه أن يقوله عند دخوله جنته، فقال: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي: هلاً إذ أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها أضفت النعمة إلى موليتها ومسديها، وحمدته عليها، وقلت: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ لتكون شاكراً لله متسبباً لبقاء نعمته عليك؟! ثم أخبره أن نعمة الله عليه بالإيمان والإسلام،

وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَّمْ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُخَاوَرُهُ أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُفْثَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَيْكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَبُّنًا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَلَوْلَا ﴿٣٩﴾ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَا وَهَّغُوا فَأَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ فَاصْبِرْ يَبْلُغْ كَهَيْئَةِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ بَلِّغْنِي لِمَ أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةً يَصُورُهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَأَضْرِبْ لَهُم مَثَلًا الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَالْمَاءِ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ شَيْبًا يَذُرُّهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾

﴿٣٥﴾ ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾ أي: الكافر أخذ بيد المسلم يطوف به فيها، ويريه ثمارها ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ بكفره وتمرده وتكبره وتجبره وإنكاره للمعاد، ف ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ﴾ لا أعتقد ﴿أَنْ تَبِيدَ﴾ تهلك ﴿هَذِهِ أَبَدًا﴾ راقه حسنهما، واغتر بزهرتها، لما رأى النخل الباسقات، والظلال الوارفات، والأنهار الجاريات، فتوهم أنها لا تغنى ولا تفرغ ولا تتلف، وذلك لقلّة عقله، وضعف يقينه بالله، وأنكر البعث والنشور، فقال:

﴿٣٦﴾ ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ كائنة ﴿وَلَئِنْ رُودِدْتُ إِلَى رَبِّي﴾ على ضرب المثل ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا

(٣٩) أخرج الإمام أحمد بإسناد حسن من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال لي نبي الله ﷺ: «يا أبا هريرة، أدلك على كنز من كنوز الجنة تحت العرش؟» قال: قلت: نعم، فذاك أبي وأمي. قال: «أن تقول: لا قوة إلا بالله». قال أبو بلج: وأحسب أنه قال: «فإن الله يقول: أسلم عبدي واستسلم». قال: فقلت لعمر: قال أبو بلج: قلت لأبي هريرة: لا حول ولا قوة إلا بالله؟ فقال: لا، إنها في سورة «الكهف»: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾.

قضاء الله وقدره؟!

(٤٤) ﴿هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقُّ﴾؛ أي: في تلك الحال التي أجرى الله فيها العقوبة على من طغى، وأثر الحياة الدنيا، والكرامة لمن آمن وعمل صالحاً وشكر الله، ودعا غيره لذلك، تبين وتوضح أن الولاية الحق لله وحده، فمن كان مؤمناً به تقيّاً؛ كان له وليّاً، فأكرمه بأنواع الكرامات، ودفع عنه الشرور والمثلات، ومن لم يؤمن بربه ويتولاه؛ خسر دينه ودنياه ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ جزاء ﴿وَحَيْرٌ عُقْبًا﴾؛ أي: الأعمال التي تكون لله عز وجل ثوابها خير، وعاقبتها حميدة رشيدة كلها خير.

(٤٥) ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ﴾ ب محمد، أي لقومك ﴿مَثَلُ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا﴾ ليتصوروها حق التصور، ويعرفوا ظاهرها وباطنها، وأن مثل هذه الحياة الدنيا ﴿كَمَا أُنزِلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ كمثل المطر ينزل على الأرض، فيختلط نباتها، أو تنبت من كل زوج بهيج، فبينما زهرتها وزخرفها تسر الناظرين، وتفرح المتفرجين، وتأخذ بعيون الغافلين؛ ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ يابساً ﴿تَذَرُوهُ الرِّيحُ﴾ تفرقه، فذهب ذلك النبات الناضر، والزهر الزاهر، والمنظر البهي، فأصبحت الأرض غبراء تراباً، كذلك هذه الدنيا، بينما صاحبها قد أعجب بشبابه، وحصل درهمها ودينارها، وخاض في الشهوات في جميع أوقاته، وظن أنه لا يزال فيها سائر أيامه؛ إذ أصابه الموت أو التلف لماله، فذهب عنه سروره، وزالت لذته وحبوره ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ قادر على هذه الحال، وهذه الحال.

ولو مع قلة ماله وولده، إنها هي النعمة الحقيقية، وأن ما عداها معرض للزوال والعقوبة عليه والنكال فقال: ﴿إِنْ تَرَيْنَا أَقْلًا مِنْكَ مَالًا وَلَدًا﴾؛ أي: قال للكافر صاحبه المؤمن: أنت وإن فخرت عليّ بكثرة مالك ولدك، ورأيتني أقل منك مالا وولداً، فإن ما عند الله خير وأبقى، وفي هذا الإرشاد إلى التسلي عن لذات الدنيا وشهواتها بما عند الله من الخير، وفيه أيضاً وفيها أن المال والولد لا ينفعان إن لم يعينا على طاعة الله.

(٤٦) ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤَيِّنَ خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ﴾ أي: في الدار الآخرة ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ على جنتك التي طغيت بها وغرتك ﴿حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ عذاب ﴿فَنُصِصَ﴾ بسبب ذلك ﴿صَعِيدًا زَلَقًا﴾ قد اقتلعت أشجارها، وتلفت ثمارها، وغرق زرعها، وزال نفعها.

(٤٧) ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا﴾ الذي مادتها منه ﴿غَوْرًا﴾ غائراً في الأرض ﴿فَلَنَ تَسْتَطِيعَ لَهُمُ طَلَبًا﴾؛ أي: غائراً لا يستطيع الوصول إليه بالمعاول ولا غيرها.

(٤٨) فاستجاب الله دعاءه ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ أصابه عذاب أحاط به واستهلكه ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَفْقَقَ فِيهَا﴾ على كثرة نفقاته الدنيوية عليها، حيث اضمحلت وتلاشت ﴿وَبِهِى خَاوِيَةٌ﴾ ساقطة ﴿عَلَىٰ غُرُوشِهَا﴾ سقوفها ﴿وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ ندم على شركه.

(٤٩) ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُمُ فِتْنَةً﴾ جماعة ﴿يَضُرُّونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ لما نزل العذاب بجنته ذهب عنه ما كان يفتخر به، ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ وما كان بنفسه منتصراً، وكيف ينتصر أو يكون له انتصار على

(٤٦) ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ﴾ التي يفتخر بها الناس ﴿زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ليس وراء ذلك شيء ﴿وَالَّذِينَ يَبْقَى لِلْإِنْسَانِ مِنْهُمُ بَقِيَّةٌ لِّأُولِي الْأَرْحَامِ﴾ وهذا يشمل جميع الطاعات الواجبة والمستحبة من حقوق الله وحقوق عباده؛ من صلاة، وزكاة، وصدقة، وحج، وعمرة، وتسبيح، وتحميد، وتهليل، وقراءة، وطلب علم نافع، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وصلة رحم، وبر والدين، وقيام بحق الزوجات، والمماليك، والبهائم، وجميع وجوه الإحسان إلى الخلق ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ فثوابها يبقى ويتضاعف على الآباد ﴿وَخَيْرٌ أَمْلًا﴾ ويؤمل أجرها وبرها ونفعها عند الحاجة.

(٤٧) يخبر تعالى عن حال يوم القيامة، وما فيه من الأهوال المقلقة، والشدائد المزعجة، فقال:

الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّلَاةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ تُسْأَلُ الْجِبَالُ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْتُهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعَرَضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَمَّا جَاءُوا لَكُمْ مُّؤَمَّرِينَ مُسْتَغْفِينَ مِنْ فَخْرِهِمْ وَيَوْمَ يُدْعَىٰ الْأَشْكَرُ الْكَاذِبُ ﴿٤٨﴾ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ مَا أَشْهَدُكُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقِ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُّخْلِذِينَ الْمُضِلِّينَ عَصَايَ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥١﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٢﴾

(٤٦) أخرج الإمام أحمد بإسناد حسن لغيره عن الحارث مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه: جلس عثمان يوماً، وجلسنا معه، فجاء المؤذن، فدعا بماء في إناء - أظنه أنه سيكون فيه مد - فتوضأ، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئي هذا، ثم قال: «من توضأ وضوئي هذا، ثم قام فصلى صلاة الظهر؛ غفر له ما كان بينهما وبين الصبح، ثم صلى العصر؛ غفر له ما بينا وبين الظهر، ثم صلى المغرب؛ غفر له ما بينا وبين العصر، ثم صلى العشاء؛ غفر له ما بينا وبين العشاء، وهن الحسنات يذهبن له لعله يبيت يتمرغ ليلته، ثم إن قام فتوضأ وصلى صلاة الصبح؛ غفر له ما بينا وبين صلاة العشاء، وهن الحسنات يذهبن السيئات». قالوا: هذه الحسنات، فما الباقيات الصالحات يا عثمان؟ قال: «هي: لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

(٤٧) أخرج الإمام أحمد، والبخاري في «الأدب المفرد» بإسناد حسن عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه يقول: بلغني حديث عن رجل سمعه من رسول الله ﷺ، فاشتريت بغيراً، ثم شددت عليه رحلي، فسرت عليه شهراً، حتى قدمت عليه الشام، فإذا عبد الله ابن أنيس، فقلت للبواب: قل له: جابر على الباب، فقال: ابن عبد الله؟ فقلت: نعم، فخرج يطأ ثوبه، فاعتقني واعتقته، فقلت: حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ في القصص، فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمع، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الله ﷻ الناس يوم القيامة عراة غرلاً بهماً»، قلت: وما بهما؟ قال: «ليس معهم شيء»، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد، كما يسمعه من قرب: أنا الملك، أنا الديان، لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أقصه منه، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة، وله عند رجل من أهل النار حق حتى أقصه منه، حتى اللطمة». قال: قلنا: كيف، وإنما نأتي الله ﷻ عراة غرلاً بهماً؟ قال: «بالحسنات والسيئات».

يَظْلُمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٥٠﴾ فحينئذ يجازون بها، ويقررون بها، ويخزون ويحق عليهم العذاب.

(٥٠) ثم قال تعالى مذكراً هؤلاء المشركين حسد إبليس أباهم ومعلمهم ما كان منه من كبره واستكباره عليه حين أمره بالسجود له، وأنه من العداوة والحسد لهم على مثل الذي كان عليه لأبيهم: ﴿وَ﴾ اذكر يا محمد ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ سجدود تحية وتكريم ﴿فَسَجَدُوا﴾ جميعاً ؛ امتثالاً للأمر ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ الذي يطيعه المشركون ويتبعون أمره، ويخالفون أمر الله، فإنه لم يسجد له استكباراً على الله، وحسداً لآدم ﴿كَانَ مِنَ الْجِنَّ﴾ فهو أصل الجن، كما أن آدم أصل الإنس، ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ فخرج عن طاعة ربه، ثم قال تعالى مقررأ وموبخاً لمن اتبعه وأطاعه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾ أي بدلاً عني؟! ولهذا قال: ﴿يَتَّبِعُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ أي: يتس ما اختاروا لأنفسهم من ولاية الشيطان، الذي لا يأمرهم إلا بالفحشاء والمنكر، عن ولاية الرحمن.

(٥١) ﴿مَّا أَشْهَدْتُهُمْ﴾ ما أحضرتهم ولا شاورتهم؛ أي: إبليس وذريته أو الكفار ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خلقي للسموات والأرض ﴿وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ﴾ ولا كانوا إذ ذاك موجودين، فكيف يجعل له شركاء من الشيطان، يوالون ويطاعون، كما يطاع الله، ولهم لم يخلقوا ولم يشهدوا خلقاً، ولم يعانوا الله تعالى؟! ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا﴾ أي: أنصاراً وأعواناً.

(٥٢) ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ الله لهم يقوم القيامة: ﴿نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ بزعمكم؛ أي: على موجب زعمكم الفاسد، وإلا؛ فالحقيقة ليس لله

﴿وَيَوْمَ تُسْأَرُ الْجِبَالُ﴾ يزيلها عن أماكنها، ويجعلها كثيباً، ثم يجعلها كالعهن المنفوش، ثم تضمحل وتتلاشى، وتكون هباءً منبثاً ﴿وَنَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ وتبرز الأرض، فتصير قاعاً صفصفاً، لا عوج فيه ولا أمتاً، ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾ ويحشر الله جميع الخلق على تلك الأرض ﴿فَلَمْ نَغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ فلا يغادر منهم أحداً، بل يجمع الأولين والآخرين من بطون الفلوات، وقعود البحار، ويجمعهم بعدما تفرقوا، ويعيدهم بعدما تمزقوا خلقاً جديداً.

(٤٨) ﴿وَعَرَّضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا﴾ فيعرضون عليه صفاً؛ ليستعرضهم، وينظر في أعمالهم، ويحكم فيهم بحكمه العدل الذي لا جور فيه ولا ظلم، ويقول لهم: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: بلا مال، ولا أهل، ولا عشيرة، ما معهم إلا الأعمال التي عملوها، والمكاسب في الخير والشر التي كسبوها، وقال هنا مخاطباً للمنكرين للبعث، وقد شاهدوه عياناً: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ أنكرتم الجزاء على الأعمال، ووعد الله ووعيده، فما قد رأيتموه وذقتموه.

(٤٩) ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ فحينئذ تحضر كتب الأعمال التي كتبها الملائكة الأبرار، ﴿فَنَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ فتطير لها القلوب، وتعظم من وقعها الكروب، وتكاد لها الصم الصلاب تذوب، ويخاف المجرمون من أعمالهم السيئة، ﴿وَيَقُولُونَ﴾ إذا رأوها: ﴿يَوَيْلَ لَنَا يَا هَلَاكُنَا﴾ مَال هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴿لا يترك خطيئة صغيرة ولا كبيرة إلا وهي مكتوبة فيه محفوظة لم ينس منها عمل سر ولا علانية، ولا ليل ولا نهار ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ لا يقدرون على إنكاره، ﴿وَلَا

موصول إلى العلوم النافعة ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءً جَدَلًا﴾ مجادلة ومنازعة فيه .

(٥٥) ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ﴾ ؛ أي : أهل مكة الذين حكيت أباطيلهم ، من ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ بالله تعالى ، ويتركوا ما هم فيه من الإشراك ﴿إِذَا جَاءَهُمُ الْهُدَى﴾ الإسلام والقرآن والرسول ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ﴾ يتضرعون إلى ربهم ، ويطلبون عفوه ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ إلا طلب أو انتظار أو تقدير أن تأتيهم سنة الأولين ، وهي الاستئصال ، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ﴾ عذاب الآخرة ﴿قُبُلًا﴾ عياناً ومقابلة .

(٥٦) ﴿وَمَا رُسُلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ لم نرسل الرسل عبثاً ، ولا ليتخذهم الناس أرباباً ، ولا ليدعوا إلى أنفسهم ، بل أرسلناهم يدعون الناس إلى كل خير ، وينهون عن كل شر ، ويبشرونهم على امتثال ذلك بالشواب العاجل والآجل ، وينذرونهم على معصية ذلك بالعقاب العاجل والآجل ، فقامت بذلك حجة الله على العباد ﴿وَمَعَ ذَلِكَ يُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ﴾ ومجادلتهم قولهم : ﴿أُبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء : ٩٤] ، وقولهم : ﴿تَوَلَّى نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف : ٣١] ، وما أشبهه . . . ﴿يُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ ليضعفوا به الحق الذي جاءتهم به الرسل ، وليس ذلك بحاصل لهم ﴿وَاتَّخَذُوا عَائِيَّتِي وَمَا أَنْذَرُوا﴾ اتخذوا الحجج والبراهين وخوارق العادات التي بعث بها الرسل ، وما أنذروهم وخوفوهم به من العذاب ﴿هَرُورًا﴾ سخروا منهم في ذلك وهو أشد التكذيب .

(٥٧) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ يخبر تعالى أنه لا أعظم ظلمًا ، ولا أكبر جرمًا ، ممن

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٦﴾ وَمَا رُسُلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَمُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا عَائِيَّتِي وَمَا أَنْذَرُوا هَرُورًا ﴿٥٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدُهُ إِلَّا حَسْبُنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةٌ أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٨﴾ وَرَبُّكَ أَغْفُورٌ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤْخِذُكُمْ بِمَا كَسَبُوا الْعَجَلُ هُمْ الْعَذَابُ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْعِدًا ﴿٥٩﴾ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَمَوْا وَجَعَلْنَا لَهْلَكِهِمْ مَّوْعِدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قَالُوا مُوسَى لِفَتْنَةٍ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَتِلْعَ مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْسِكْ هُنَّ ﴿٦١﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حَوْصَلَهُمَا فَتَلَّخَدِسِيلَهُمَا فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦٢﴾

شريك في الأرض ولا في السماء أي : نادوهم ؛ لينفعوكم ويخلصوكم من الشدائد ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ فاستغاثوا بهم ﴿فَلَقَدْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ لأن الحكم والملك يومئذ لله ، لا أحد يملك مثقال ذرة من النفع لنفسه ولا لغيره ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ بين المشركين وشركائهم ﴿مَّوْبِقًا﴾ مهلكًا يفرق بينهم وبينهم ، ويبعد بعضهم من بعض .

(٥٣) ﴿وَرَدَّا الْمَجْرُمُونَ النَّارَ﴾ رأى المشركون جهنم قبل دخولها فانزعجوا واشتد قلقهم ﴿فَقَطَّوْا﴾ أيقنوا ﴿أَنَّهُمْ مُّوَفَّوْهُمَا﴾ داخلوها ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ معدلاً يعدلون إليه ، ولا شافع لهم من دون إذنه .

(٥٤) ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ بَيَّنَّا ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ يخبر تعالى عن عظمة القرآن وجلالته وعمومه ، وأنه صرف فيه من كل طريق

وعظ بآيات الله، وبين له الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وخوف ورهب ورغب ﴿فَاعْرَضَ عَنْهَا﴾ تولي عنها وتركها، ولم يؤمن بها ﴿وَسَيِّئًا مَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطية محكمة ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ أن يفهموه؛ أي: لئلا يفهموه، وإن سمعوه ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ صمما يمنعهم من وصول الآيات، ومن سماعها على وجه الانتفاع ﴿وَإِنْ نَدَعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ لأن الذي يُرجى أن يجيب الداعي للهدى من ليس عالمًا، وأما هؤلاء الذين أبصروا ثم عموا، ورأوا طريق الحق فتركوه، وطريق الضلالة فسلكوه، وعاقبهم الله بإقفال القلوب والطبع عليها، فليس في هدايتهم حيلة ولا طريق، وفي هذه الآية من التخويف لمن ترك الحق بعد علمه، أن يحال بينهم وبينه، ولا يتمكن من بعد ذلك، ما هو أعظم مرهب وزاجر عن ذلك.

(٥٨) ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ ثم أخبر تعالى

عن سعة مغفرته ورحمته، وأنه يغفر الذنوب، ويتوب الله على من يتوب وأنه ﴿لَوْ يُوَازِئُهُمْ﴾ أي: العباد ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ على ما قدمت أيديهم من الذنوب ﴿لَعَجَلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ في الدنيا، ولكنه تعالى حلیم لا يعجل بالعقوبة ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ﴾ يوم البعث والحساب يجازون فيه بأعمالهم، لا بد لهم منه ﴿لَنْ يَحْدُوا مِنْ ذُوْنِهِ مَوْيِلًا﴾ ولا مندوحة لهم عنه، ولا ملجأ، ولا محيد عنه. وهذه سنته في الأولين والآخرين، أن لا يعاجلهم بالعقاب، بل يستدعيهم إلى التوبة والإنابة، فإن تابوا وأنابوا، غفر لهم ورحمهم، وأزال عنهم العقاب، والإلا، فإن استمروا على ظلمهم وعنادهم، وجاء الوقت الذي جعله موعداً لهم أنزل بهم بأسه ولهذا قال:

(٥٩) ﴿وَلَا تَكُ الْفَرْغَى أَهْلَكْتَهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ بظلمهم، لا بظلم منا ﴿وَجَعَلْنَا لِهَلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ وقتاً مقدراً، لا يتقدمون عنه ولا يتأخرون.

(٦٠) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى﴾ يخبر تعالى عن نبيه

(٦٠) أخرج البخاري عن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عباس: إن نوحاً البكالي يزعم: أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى بني إسرائيل، إنما هو موسى آخر، فقال: كذب عدو الله، حدثنا أبي بن كعب عن النبي ﷺ: «أن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل، فستل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا. فعتب الله عليه؛ إذ لم يزِدْ العلم إليه، فقال له: بلى، لي عبد بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال: أي رب. وكيف لي به؟ قال: تأخذ حوتاً. فتجعله في مكنل، حيثما فقدت الحوت فهو ثم. وأخذ حوتاً، فجعله في مكنل. ثم انطلق هو وفتاه يوشع بن نون، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما، فرقد موسى. واضطرب الحوت، فخرج فسقط في البحر ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾، فأمسك الله عن الحوت جرية الماء، فصار مثل الطاق، فانطلقا يمشيان بقية ليلتهما ويومهما. حتى إذا كان من الغد ﴿قَالَ لِفَتْنِهِ ءَايَنَّا غَدَاةً لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ ولم يجد موسى النصب حتى جاوز حيت أمره الله. قال له فتاه: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخَرَةِ فَإِنِّي نَبِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَقْسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾؛ فكان لحوت سرباً، ولهما عجباً، قال له موسى: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِيعُ فَأَرَدْنَا عَلَى ءَاتَارِهِمَا قَصَصًا﴾ رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة. فإذا رجل مسجى بثوب، فسلم موسى، فرد عليه، فقال: وأتى بأرضك السلام؟! قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتعلمني مما علمت رشداً. قال: يا موسى، إني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه. وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه. قال: هل أتبعك؟ ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ وكيف نصبر على ما لم نخط به، خبرك إلى قوله: ﴿أَمْرًا﴾ =

الشقة، ولحققتني المشقة حتى أصل إلى مجمع البحرين. وهو المكان الذي أوحى إليه أنه ستجد فيه عبداً من عباد الله العالمين، عنده من العلم ما ليس عندك، ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ مسافة طويلة.

(٦١) ﴿فَلَمَّا بَلَغَا﴾ هو وفتاه ﴿جَمَعَ بَيْنَهُمَا نِسِيَا حُوتَهُمَا﴾ وكان معهما حوت يتزودان منه ويأكلان، ﴿فَاتَّخَذَ﴾ ذلك الحوت ﴿سَبِيلَهُ﴾ طريقه ﴿فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾؛ أي: مسلكاً. وهذا من الآيات. قال المفسرون: إن ذلك الحوت الذي كانا يتزودان منه، فلما وصلا إلى ذلك المكان أصابه بلل البحر، فانسرب - دخل - بإذن الله في البحر، وصار مع حيواناته حياً.

(٦٢) ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾؛ أي: موسى وفتاه مجمع البحرين ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لِفَتْنِهِ﴾ يوشع بن نون: ﴿إِنَّا عَدَاءُ نَارٍ﴾ طعمانا ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ لقد تعبنا من هذا السفر المجاوز، فقد ألقى على موسى عليه السلام الجوع بعد مجاوزة الصخرة؛ ليتذكر الحوت، ويرجع إلى مطلبه.

(٦٣) ﴿قَالَ﴾ له فتاه وتذكر: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ﴾ ألم تعلم حين آوانا الليل إلى تلك

فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ إِنَّا عَدَاءُ نَارٍ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّ عَلَيْهِ آثَارُهَا فَفَصَّصَا ﴿٦٣﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٤﴾ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْتَكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مَعًا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٥﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٦﴾ وَكَيْفَ نَصْبِرُ عَلَى مَا نَرْجُو بِخَيْرٍ ﴿٦٧﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنِ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَلْهِ عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٦٩﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧٠﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عَسَىٰ أُنَاقِلَاقًا حَتَّىٰ إِذَا الْفُلُ عَلَىٰ عُلَمِكُمْ فَقَتَلَهُ قَالَ أَفَقُلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٢﴾

موسى عليه السلام وشدة رغبته في الخير وطلب العلم، أنه قال ﴿لِفَتْنِهِ﴾ خادمه الذي يلازمه في حضره وسفره؛ وهو: يوشع بن نون عليه السلام؛ الذي نبأه الله بعد ذلك: ﴿لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ لا أزال مسافراً. وإن طالت عليّ

فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت بهما سفينة، كملوهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر، فحملوه بغير نؤل، فلما ركبوا في السفينة جاء عصفور، فوقع على حرف السفينة، فنقر في البحر نقرة أو نقرتين، قال له الخضر: يا موسى، ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر. إذ أخذ الفأس فنزع لوحاً، قال: فلم يفجأ موسى إلا وقد قلع لوحاً بالقدم، فقال له موسى: ما صنعت؟! قوم حملونا بغير نؤل، عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٠﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عَسَىٰ أُنَاقِلَاقًا حَتَّىٰ إِذَا الْفُلُ عَلَىٰ عُلَمِكُمْ فَقَتَلَهُ قَالَ أَفَقُلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصْبِحْ قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٣﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا آتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَتَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ، مائلاً، أو ما بيده كأنه يمسح شيئاً إلى فوق، قال: قوم آتيناهم فلم يطعمونا، ولم يضيفونا، عمدت إلى حائطهم، ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَنَزَّلْتَ عَلَيْهِ﴾ أجراً قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بآويل ما لم تستطع عليه صبراً. قال النبي ﷺ: «وددنا أن موسى كان صبراً؛ فقص الله علينا من خبرهما».

الصخرة المعروفة بينهما ﴿فَإِنِّي سَيِّئُ الْحَوْتِ﴾ تركته وفقدته، وذلك أن يوشع عليه السلام حين رأى ذلك من الحوت قام؛ ليدرك موسى فيخبره، ففسي أن يخبره، ولذلك قال: ﴿وَمَا أَسْنِيَهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكَرُ﴾ لأنه السبب في ذلك ﴿وَأَتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ لما انسرب في البحر، ودخل فيه، كان ذلك من العجائب.

(٦٤) ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ﴾ نطلب ﴿فَارْتَدَّا﴾ رجعا ﴿عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ رجعا يقصان أثرهما الذي نسيا فيه الحوت.

(٦٥) ﴿فَوَجَدَا﴾ أي: فلما وصلا إلى المكان ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا﴾ وهو الخضر عليه السلام ﴿ءَايَتُهُ رَحْمَةً مِّنْ عِزِّدُنَا﴾ أعطاه الله رحمة خاصة، بها زاد علمه، وحسن عمله ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا﴾ من عندنا ﴿عِلْمًا﴾ وكان قد أعطي من العلم ما لم يعط موسى عليه السلام لأنه كان على علم علمه الله إياه، كما علم موسى كذلك علما لم يعطه للخضر.

(٦٦) ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَيْكَ﴾ يقول موسى للخضر - عليهما الصلاة والسلام - : جئت لأتبعك وأصحبك ﴿عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِنَّمَا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ على أن

تعلمني مما علمك الله، ما به أسترشد وأهتدي. (٦٧) ﴿قَالَ﴾ الخضر: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ لا تقدر على اتباعي وملازمتي؛ لأنك ترى ما لا تقدر على الصبر عليه من الأمور التي ظاهرها المنكر، وباطنها غير ذلك، ولهذا قال: (٦٨) ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ أي: كيف تصبر على أمر ما أحطت بباطنه وظاهره، ولا علمت المقصود منه ومآله؟

(٦٩) ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ إنما استثنى؛ لأنه لم يثق من نفسه بالصبر ﴿وَلَا أَغْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ أي: لا أخالفك فيما تأمر. (٧٠) ﴿قَالَ﴾ الخضر: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي﴾ فإن صحبتني، ولم يقل: اتبعني. ولكن جعل الاختيار إليه، إلا أنه شرط عليه شرطًا، فقال: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ﴾ لا تبتدئني بسؤال منك وإنكار ﴿حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ حتى أكون أنا الذي أخبرك بحاله.

(٧١) ﴿فَانْطَلَقَا﴾ بدأ موسى والخضر - عليهما السلام - يمشيان على الساحل يطلبان سفينة يركبانها، ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾،

(٦٥) أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إنما سمي الخضر؛ لأنه جلس على فروة بيضاء؛ فإذا هي تهتز من خلفه خضراء».

قال أبو أسامة الهلالي - كان الله له - : واختلف أهل العلم في الخضر، أهو نبي أم عبد صالح؟ والراجع عندي: أنه نبي يوحى إليه، كما يدل على ذلك سياق القرآن والأحاديث الصحاح الواردة في ذلك. وكذلك اختلف في كونه باقيا إلى الآن، ثم إلى يوم القيامة، وقد ذكر بعض المفسرين حكايات وآثارا عن السلف لا تثبت، ورووا أحاديث لا تصح، ورجح المحققون أنه مات، فلم ينقل أنه جاء إلى رسول الله ﷺ، ولا حضر عنده، ولا قاتل معه، وقد قال ﷺ: «لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي»؛ لأن الرسول ﷺ أرسل إلى الجن والإنس، فلا يسع أحدا التخلف عن اتباعه، وأخبر ﷺ قبل موته بقليل أنه لا يبقى ممن هو على وجه الأرض إلى مائة سنة من ليلته تلك عين تطرف، إلى غير ذلك من الدلائل والبراهين الدالة على موته، والله أعلم.

وقد بسطت القول في الخضر، وعجائب قصته مع موسى عليهما السلام في كتاب فرد: «الروض النضر في فوائد قصة موسى مع الخضر عليهما السلام» يسر الله نشره على خير وبركة.

تعرس عليّ الأمر، واسمح لي فسمح عنه الخضر.
(٧٤) ﴿فَانْطَلَقَا﴾ بعد ذلك ﴿حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا﴾؛
أي: صغيرًا ﴿فَقَالُوا﴾ الخضر؛ فاشتد بموسى
الغضب، وأخذته الحمية الدينية ف ﴿قَالَ أَقَلَّتْ نَفْسًا
رُكْبَةً﴾ غلامًا صغيرًا لم يذنب ﴿بِعَیْرِ نَفْسٍ﴾ بغير
مستند لقتله، ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ وأي نكر
مثل قتل الصغير، الذي ليس عليه ذنب، ولم
يقتل أحدًا!!

(٧٥) ﴿قَالَ﴾ له الخضر - معاتبًا ومذكّرًا -
﴿أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ فأكد
التذكّار بالشرط الأول.

(٧٦) ﴿قَالَ﴾ له موسى: ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ
بَعْدَهَا﴾؛ أي: بعد هذه المرة ﴿فَلَا تُصِجْنِي﴾؛
أي: فأنت معذور بذلك، وبترك صحبتي ﴿قَدْ
بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾؛ أي: عذرت مني، ولم
تقصر.

(٧٧) ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمُوا
أَهْلَهَا﴾ استضافاهم ﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيَّفُوهُمَا﴾ لأنهم
كانوا لثامًا بخلاء ﴿فَوَجَدَا فِيهَا قَرْيَةً جِدَارًا
يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾؛ أي: عاب - أي: صار ذا
عيب - واستهدم ﴿فَأَقَامَهُمُ﴾ الخضر؛ أي: بناه
وأعاده جديدًا ف ﴿قَالَ﴾ له موسى: ﴿لَوْ شِئْتَ
لَنَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ مقابل إصلاحه، لا سيما
وأن أهل القرية لم يعطونا حقنا من الضيافة.

(٧٨) فحينئذ لم يف موسى ﷺ بما قال،
واستعذر الخضر منه، ف ﴿قَالَ﴾ له: ﴿هَذَا فِرَاقُ
بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ فإنك شرطت ذلك على نفسك، فلم

لَمْ يَنْصَرِفْ
قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِنْ
سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصِجْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا
(٧٦) فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمُوا أَهْلَهَا فَأَبَوْا
أَنْ يُضَيَّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ
قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي
وَبَيْنَكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِيعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) أَمَّا
السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا
وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا الْغُلَامُ
فَكَانَ أَبُوهُ مُؤْمِنًا بِحَسْبَتِهِمَا أَنْ يَرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا
(٨٠) فَأَرَادَ أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا
(٨١) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ
تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا
أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ
عَنِ امْرِئٍ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِيعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٨٢) وَتَتَلَوْنَاكَ
عَنْ ذِي الْقُرْبَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (٨٣)

اقتلع الخضر منها لوحًا، وكان له مقصود في
ذلك، سيبينه. فلم يصبر موسى ﷺ؛ لأن
ظاهره أنه منكر؛ لأنه عيب للسفينة، وسبب لغرق
أهلها، ولهذا قال موسى: ﴿أَخْرَقَهَا لِنُغْرَاقِ أَهْلِهَا
لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ عظيمًا شنيعًا وهذا من عدم
صبره عليه السلام.

(٧٢) ﴿قَالَ﴾ العالم، وهو: الخضر: ﴿أَلَمْ أَقُلْ
إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾؛ أي: فوقع كما
أخبرتكَ.

(٧٣) ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿لَا تَوَاخِذْنِي﴾ لا تضيق
عليّ وتشدد عليّ ﴿بِمَا نَسِيتُ﴾ بسبب نسياني
لما اتفقنا عليه. ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ لا

(٧٤) أخرج مسلم من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافرًا، ولو عاش؛
لأرحق أبوه طغيانًا وكفرًا».

يبقى الآن عذر، ولا موضع للصحة ﴿سَأْنِيْكَ﴾
بِأَوَّلِ مَا لَمْ تَسْطِيعْ عَلَيْهِ صَبْرًا؛ أي: سأخبرك
بتفسير ما أنكرت عليّ، وأنبئك بأن لي في ذلك
من المآرب، وما يثول الأمر إليه.

(٧٩) ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ﴾ التي خرقتها ﴿فَكَانَتْ
لِمَسْكِيْنَ﴾ يقتضي ذلك الرقة عليهم، والرافة
بهم ﴿يَعْمَلُوْنَ فِي الْبَحْرِ﴾ يؤاجرون ويكتسبون
بها ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أجعلها ذات عيب وفيه
إسناد إرادة العيب إليه ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ
كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ كان مرورهم على ذلك
الملك الظالم، فكل سفينة صالحة تمر عليه ما
فيها عيب غصبها وأخذها ظلمًا، فأردت أن
أخرقها؛ ليكون فيها عيب؛ فتسلم من ذلك
الظالم.

(٨٠) ﴿وَأَمَّا الْفُلَّةُ﴾ الذي قتلته ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ
مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا﴾ فعلمنا ﴿أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا
وَكُفْرًا﴾ وكان ذلك الغلام قد قدر عليه أنه
لو بلغ لأرهق أبويه طغيانًا وكفرًا؛ أي:
لحملهما على الطغيان والكفر، إما لأجل
محبتهم إياه، أو للحاجة إليه يحملهما على
ذلك؛ أي: فقتلته؛ لاطلاعي على ذلك،
سلامة لدين أبويه المؤمنين، وأي فائدة أعظم
من هذه الفائدة الجليلة؟! ولهذا قال:

(٨١) ﴿فَأَرَدْنَا﴾؛ أي: الله بأمره، والخضر
بقتله ﴿أَنْ يُدْلِهِمَا رَهْمًا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ
رَحْمًا﴾ ولذا صالحًا زكيًا، واصلًا لرحمه، وبارًا
بوالديه.

(٨٢) ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ﴾ الذي أقمته؛ ﴿فَكَانَ
لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ أي: إنما أصلحته
لأنه كان لغلامين في المدينة ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ

الْبَيْتُ الْخَرَابُ

إِنَّمَا كَانَ فِي الْأَرْضِ وَأَتَيْنَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتَيْنَا سَبَبًا
﴿٨٥﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَرْغَبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَرْغَبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ
وَوَجَدَ عَنْدَهَا قَوْمًا قُلُوبًا يَذُوقُونَ الْفَرَقَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ
فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ نُرْثِدُ إِلَى رَبِّهِ
فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا مُّكَرَّمًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ
أَحْسَنُ وَنَسْقُولُ لَمْ مِنْ أَمْرٍ يَأْسِرُ ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتَيْنَا سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّى
إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهَا مِنْ
دُونِهَا سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتَيْنَا
سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا
لَا يَكَادُونَ يُفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَذُوقُونَ الْفَرَقَيْنِ إِنْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ
مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ يَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَيْنَ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ
سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكِّي فِيهِ رِي خَيْرٌ فَأَعِنُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ
وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ وَأَوْتِرَ لِي الْحِجَابَ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ
قَالَ أَنْفِخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلْنَا نَارًا قَالُوا أَوْفِ بِنَا فَرَفَعْنَا عَلَيْهِ قَطْرًا
﴿٩٦﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾

كَثُرَ لَّهُمَا ﴿مدفون تحت الجدار﴾ ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا
صَالِحًا﴾ فحالهما تقتضي الرافة بهما
ورحمتهم؛ لكونهما صغيرين فقد أباهما،
وحفظهما الله بصلاح والدهما ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ
يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ يبلغا ويعقلا وأسند ذلك إلى
الله تعالى لما فيه من فعل الخير.
﴿وَسَخَّرَ لَهُمَا﴾ حينئذ ﴿كَنْزَهُمَا﴾ فلهذا هدمت
الجدار، واستخرجت ما تحته من كنزهما
ورددته، وأعدته مجانًا ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾؛
أي: هذا الذي فعلته رحمة من الله، آتاه الله
عبده الخضر ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِئٍ﴾؛ أي: ما
أتيت شيئًا من قبل نفسي، ومجرد إرادتي،
وإنما ذلك من رحمة الله وأمره، ﴿ذَلِكَ﴾
الذي فسرت له لك ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ
صَبْرًا﴾ أي: لم تطق عليه صبرًا.

ظَلَمَ ﴿٨٣﴾ بِالْكَفْرِ ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ﴾
فَعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكَرًا ﴿٨٤﴾ ؛ أي: تحصل له العقوبتان:
عقوبة الدنيا، وعقوبة الآخرة.

﴿٨٨﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ
الْحُسْنَىٰ﴾ ﴿فله الجنة والحالة الحسنة عند الله﴾
جزاء يوم القيامة ﴿وَسَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرًا يُسْرًا﴾
وسنحسن إليه، ونلطف له بالقول، ونيسر له
المعاملة.

﴿٨٩﴾ ﴿ثُمَّ أُنْبِئَ سَبِيًّا﴾ ﴿لما وصل إلى مغرب
الشمس كَرَّ راجعًا، قاصدًا مطلعها، متبعًا
للأسباب التي أعطاه الله.

﴿٩٠﴾ ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ
قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سَبِيلًا﴾ ﴿وذلك أن
أرضهم لا جبل فيها ولا شجر، ولا تحتل
بناء، فيسكنوا البيوت، وإنما يغورون في
المياه، أو يسربون في الأسراب، حتى إذا
زالت الشمس عنهم خرجوا إلى معاشهم
وحروشهم.﴾

﴿٩١﴾ ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ ﴿أحطنا
بما عنده من الخير والأسباب العظيمة، وعلمنا
معه حيثما توجه وسار.

﴿٩٢﴾ ﴿ثُمَّ أُنْبِئَ سَبِيًّا﴾ ﴿يعني طريقًا ثالثًا.

﴿٩٣﴾ ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَيْنِ﴾ ﴿قال المفسرون:
ذهب متوجهاً من المشرق قاصداً للشمال، فوصل
إلى ما بين السدين، وهما سدان كانا معروفين في
ذلك الزمان، سدان من سلاسل الجبال المتصلة
يمنة ويسرة حتى تتصل بالبحار، بين يأجوج

﴿٨٣﴾ ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾ ﴿يا محمد﴾ ﴿عَنْ ذِي الْقُرَيْنِ﴾
كان أهل الكتاب أو المشركون سألوا رسول
الله ﷺ عن قصة ذي القرنين، فقال الله
تعالى له: ﴿قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ ﴿فيه
نبأ مفيد، وخطاب عجيب، وأوضح لكم من
أحواله ما يتذكر فيه ويكون عبرة.

﴿٨٤﴾ ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿ملكه الله﴾
تعالى، ومكنه من النفوذ في أقطار الأرض،
وانقيادهم له ﴿وَوَعَيْنَتْهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيلًا﴾ ﴿أعطاه
الله من الأسباب الموصلة له لما وصل إليه ما
به يستعين على قهر البلدان، فأعطاه الله ما
بلغ به مغرب الشمس.

﴿٨٥﴾ ﴿فَأَنْبِئَ﴾ ﴿أي: أدرك ولحق﴾ ﴿سَبِيًّا﴾ ؛ أي
طريقًا.

﴿٨٦﴾ ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي
عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ ﴿حتى رأى الشمس في مراءى
العين؛ كأنها تغرب في عين حمئة؛ أي:
سوداء، وهذا هو المعتاد لمن كان بينه وبين
أفق الشمس الغربي ماء، رآها تغرب في نفس
الماء وإن كانت في غاية الارتفاع﴾ ﴿وَوَجَدَ
عِنْدَهَا﴾ ؛ أي: عند مغربها ﴿قَوْمًا﴾ ﴿أي: أمة من
الأمم﴾ ﴿قُلْنَا يَذَّارِ الْقُرَيْنِ إِمَّا أَنْ نُعَذِّبَ﴾ ؛ أي: إما
أن تقتلهم إن هم لم يدخلوا في الإقرار
بتوحيد الله، ويدعونا لك بما تدعوهم إليه من
طاعة ربهم ﴿وَلِئَلَّا أَنْ نَنْتَحِدَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ ﴿وإما أن
تأسرهم فتعلمهم الهدى وتبصرهم بالرشاد.

﴿٨٧﴾ ﴿قَالَ﴾ ﴿سَأَجْعَلُهُمْ قَسَمِينَ﴾ ﴿أَمَّا مَنْ

﴿٨٤﴾ أخرج الضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة» بإسناد صحيح عن حبيب بن حماز، قال: كنت عند علي رضي الله عنه، وسأله
رجل عن ذي القرنين؟ كيف بلغ المشرق والمغرب؟ فقال سبحانه الله! سخر له السحاب، ومُدت له الأسباب، وبُسط له
النور. فقال: أزيدك؟ قال: فسكت الرجل وسكت علي.

﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ مانعًا من عبورهم عليكم.

(٩٦) ﴿ءَاتُونِي﴾ أعطوني ﴿زُبْرَ الْحَدِيدِ﴾ قطع الحديد. فأعطوه ذلك ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الضَّعِيفِينَ﴾ الجبلين اللذين بني بينهما السد ﴿قَالَ أَنْفِخُوا﴾ النار؛ أي: أوقدوها إيقادًا عظيمًا ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾ صار الحديد نارًا ﴿قَالَ ءَاتُونِي أَفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾؛ أي: نحاسًا مذابًا، فأفرغ عليه القطر، فاستحكم السد استحكامًا هائلًا، وامتنع له مَنْ وراءه من الناس من ضرر يأجوج ومأجوج.

(٩٧) ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ فما لهم استطاعة، ولا قدرة على الصعود عليه؛ لارتفاعه وملاسته، ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ ولا على نقبه من أسفله؛ لإحكامه وقوته.

ومأجوج وبين الناس ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا﴾ دون السدين ﴿قَوْمًا لَا يَكَادُونَ بَفْهُونَ قَوْلًا﴾؛ لعجمة ألسنتهم، واستعجام أذهانهم وقلوبهم.

(٩٤) ﴿قَالُوا﴾ أي: القوم الذين لا يكادون يفقهون قولًا: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ وهم من البشر من سلالة آدم ﴿مُفِيدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالقتل، وأخذ الأموال، وغير ذلك ﴿فَهَلْ يَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ جُعلاً ﴿عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ ودل ذلك على عدم اقتدارهم بأنفسهم على بنيان السد، وعرفوا اقتدار ذي القرنين عليه، فبدلوا له أجرة ليفعل ذلك، وذكروا له السبب الداعي، وهو: إفسادهم في الأرض.

(٩٥) ﴿قَالَ﴾ ذو القرنين: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ مما تبدلون لي وتعطوني ﴿فَاعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ وإنما أطلب منكم أن تعينوني بقوة منكم بأيديكم

(٩٤) في «الصحيحين» من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله -تعالى- يقول: يا آدم. فيقول: لبيك وسعديك، فيقول: ابعث بعث النار. فيقول: وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة، فيحننذ يشيب الصغير ﴿وَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَوَرَى النَّاسُ سُكْرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكْرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾. قال: فاشتد ذلك عليهم، قالوا: يا رسول الله، أينما ذلك الرجل؟ فقال: «أبشروا؛ فإن من يأجوج ومأجوج ألفًا ومنكم رجل». قال: ثم قال: «والذي نفسي بيده إني لأطعم أن تكونوا ربع أهل الجنة». فحمدنا الله وكبرنا، ثم قال: «والذي نفسي بيده إني لأطعم أن تكونوا ثلث أهل الجنة». فحمدنا الله وكبرنا، ثم قال: «والذي نفسي بيده إني لأطعم أن تكونوا شطر أهل الجنة، إن مثلكم في الأمم كمثل الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود أو كالرُقْمَةِ في ذراع الحمار».

(٩٧) أخرج الترمذي وابن ماجه وأحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بإسناد صحيح عن رسول الله ﷺ قال: «إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غدًا. فيعودون إليه كأشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم، وأراد الله أن يبعثهم على الناس، حفروا، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غدًا إن شاء الله. ويستثنى، فيعودون إليه كهيشته حين تركوه، فيحفرونه ويخرجون على الناس، فينشقون الماء، ويتحصن الناس منهم في حصونهم، فيرمون بسهامهم إلى السماء، فترجع عليهم وعليها هيئة الدم، فيقولون: قهرنا أهل الأرض، وعلونا أهل السماء. فيبعث الله عليهم نَعْفًا - دودًا - في أفئدتهم، فيقتلهم بها». قال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، إن دواب الأرض لنسمن وتُشَكَّر - يمتلئ ضرعها لبنًا - من لحومهم ودمائهم».

الضمير يعود إلى يأجوج ومأجوج، ويكون هذا عند فتح السد، ويحتمل أن الضمير يعود إلى الخلائق يوم القيامة، وأنهم يجتمعون فيه، فيكثرون ويموج بعضهم ببعض من الأهوال والزلازل العظام ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ على إثر ذلك؛ لأن خروجهم من علامات الساعة الكبرى، والصُّور: قرن ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام ﴿جَمَعْنَاهُمْ جَمَاعًا﴾ أحضرناهم في صعيد واحد للحساب، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْبُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩ - ٥٠].

(١٠٠) ولهذا قال: ﴿وَعَرْضًا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾؛ أي: عرضت لهم؛ لتكون مأواهم ومنزلهم، وليتمتعوا بأغلالها وسعيرها.

(١٠١) ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾ معرضين عن الذكر الحكيم، والقرآن الكريم ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ لا يقدرُونَ على سماع آيات الله الموصلة إلى الإيمان؛ لبغضهم القرآن والرسول.

(١٠٢) ﴿أَفَحَسِبَ﴾ أفطن ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَسْخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُوْرِ أَوَّلِيَاءَ﴾ لا يكون ذلك، ولا يوالي ولي الله معاديًا لله أبدًا، فمن زعم أنه يتخذ ولي الله وليًا له، وهو معادٍ لله؛ فهو كاذب ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزْلًا﴾ ضيافة وقرى، فبئس المنزل نزلهم، وبئست جهنم ضيافتهم.

(١٠٣) ﴿قُلْ﴾ يا محمد للناس - على وجه التحذير والإنذار - ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾

الْبَرَاءَةِ مِنَ الشِّرْكِ وَالْكَافِرِينَ
قَالَ هَذَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَرَكَعًا بَعْضُهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمَاعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرْضًا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَسْخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُوْرِ أَوَّلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزْلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحُطِّتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا يَقُومُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ زَنَادٌ ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزْلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا ﴿١٠٨﴾ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدًّا لَكُنْتُ رَاقِيًا لِنُفْعِ الْبَاحِرِ قُلٍّ أَنْ تَفْذَرْتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْتُم بِمِثْلِهِ مَعْدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مُثَلِّمٌ بَرْحَةٍ إِلَىٰ آلِهَةٍ مُبْهِمٍ إِنَّ رَبَّهُ لَأَعْلَمُ لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِرَبِّهِ هَذَا ﴿١١٠﴾

(٩٨) ﴿قَالَ﴾ ذو القرنين: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ من فضله وإحسانه عليّ، وهذه حال الخلفاء والصالحين، إذا منَّ الله عليهم بالنعم الجليلة؛ ازداد شكرهم وإقرارهم، واعترفوا بنعمة الله ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ لخروج يأجوج ومأجوج ﴿جَعَلَهُ﴾ جعل الله ذلك السد المحكم الممتنن ﴿دَكَّاءَ﴾ أي: دكه فانهدم، واستوى هو والأرض ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ وهذا كله قبل يوم القيامة وبعد خروج الدجال، وفي خلافة عيسى ابن مريم عليه السلام.

(٩٩) ﴿وَرَكَعًا بَعْضُهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ يحتمل أن

(٩٩) أخرج الترمذي وابن ماجه وأحمد بإسناد صحيح لشواهد من حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: «كيف أنعم وقد التقم صاحبُ القرنِ القرن، وحنى جبهته، وأصغى سمعه، ينتظر أن يؤمر أن ينفخ، فينفخ؟»، قال المسلمون: فكيف نقول يا رسول الله؟ قالوا: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا».

(١٠٠) في «صحيح مسلم» من حديث عبد الله مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجنهم تقاد يوم القيامة بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها».

الله ﴿وَاتَّخَذُوا عَابَتِي رَسُولِي هُزُؤًا﴾ واتخاذهم آياته
ورسله هزوا يستهزون بها، ويسخرون منهم.

(١٠٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بقلوبهم ﴿وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ﴾ بجوارحهم، على اختلاف طبقاتهم
من الإيمان والعمل الصالح، ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ
الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ لهم جنات الفردوس منزلاً.

(١٠٨) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ هذا هو تمام النعيم، إن
فيها النعيم الكامل، ومن تمامه أنه لا ينقطع.

﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ تحولاً ولا انتقالاً؛ لأنهم
لا يرون إلا ما يعجبهم ويبهجهم، ويسرهم
 ويفرحهم، ولا يرون نعيماً فوق ما هم فيه.

(١٠٩) ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد مخبراً عن عظمة
الباري، وسعة صفاته، وأنها لا يحيط العباد بشيء
منها: ﴿لَوْ كَانَ الْبَحْرُ﴾؛ أي: هذه الأبحر الموجودة
في العالم ﴿مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي﴾؛ أي: وأشجار الدنيا
من أولها إلى آخرها، من أشجار البلدان والبراري
والبحار أقلام ﴿لَتَفِدَّ الْبَحْرُ﴾ وتكسرت الأقلام ﴿قُلْ
أَنْ تَفِدَّ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ وهذا شيء عظيم، لا يحيط به
أحد، ﴿وَلَوْ جُمِنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ بمثل البحر آخر، ثم

هل أخبركم بأخسر الناس أعمالاً على الإطلاق؟
(١٠٤) ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بطل
واضح كل ما عملوه من عمل ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ
يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ يظنون أنهم محسنون في صنعه
حيث ظنوا أنهم على شيء وليسوا على شيء،
وأتعبوا أنفسهم في عمل يرجون به فضلاً ونوالاً،
فدلوا هلاكاً وبواراً، كمن يشتري سلعته يرجو
عليها ربحاً، فخسر وخاب سعيه.

(١٠٥) ﴿أَوَلَيْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ
جحدوا الآيات القرآنية والآيات العيانة، الدالة
على وجوب الإيمان به وملأته ورسله وكتبه
واليوم الآخر ﴿فَخِطَّتْ﴾ بطلت بسبب ذلك
﴿أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾؛ لأن الوزن
فائدته مقابلة الحسنات بالسيئات، والنظر في
الراجح منها والمرجوح، وهؤلاء لا حسنات
لهم.

(١٠٦) ﴿ذَلِكَ﴾ ما ذكرت من حبوط أعمالهم،
وأنه لا يقام لهم يوم القيامة وزن؛ لحقارتهم
وخستهم ﴿جَزَاءُ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا﴾ بكفرهم بآيات

(١٠٤) أخرج البخاري في «صحيحه» عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص قال: سألت أبي: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ أهم
الحرورية؟ قال: لا، هم اليهود والنصارى. أما اليهود: فكذبوا محمداً. وأما النصارى: كفروا بالجنة، وقالوا: لا طعام ولا
شراب. والحرورية: الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، وكان سعد رضي الله عنه يسميهم: الفاسقين.

أخرج ابن جرير الطبري في «تفسيره» من طرق بمجموعها صحيحة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ
بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ قال: أنتم يا أهل حروراء.

قال أبو أسامة الهلالي - كان الله له - وأقوال السلف لا تضارب بينها، فهي تشمل كل من عبد الله على غير طريقة شرعية
وأحدث في دين الله يحسب أنه مصيب فيها، وزين له سوء عمله فراه مقبولاً، وهو مخطئ، وعمله مردود.

(١٠٥) أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن عند
الله جناح بعوضة» وقال: أقرءوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾.

(١٠٧) أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا سألتم الله الجنة؛ فستلوه الفردوس؛ فإنه أعلى الجنة وأوسط
الجنة، وفيه تُفَجَّر أنهار الجنة».



آخر، وهلم جرًا، بحور تمده، ويكتب بها لما نفدت كلمات الله، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].
(١١٠) ﴿قُلْ﴾ يا محمد للكفار وغيرهم: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ﴾؛ أي: لست بآله، ولا لي شركة في الملك، ولا علم بالغيب، ولا عندي خزان الله، ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ عبد من عبيد ربي، ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾؛ أي: فضلت

عليكم بالوحي الذي يوحيه إلي، الذي أجله الإخبار لكم: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾؛ أي: لا شريك له، ولا أحد يستحق من العبادة مثقال ذرة غيره، وأدعوكم إلى العمل الذي يقربكم منه، وينيلكم ثوابه، ويدفع عنكم عقابه، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ وهو الموافق لشرع الله؛ من واجب ومستحب، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ لا يرائي بعمله، بل يعمل خالصًا لوجه الله تعالى، فهذا الذي جمع بين الإخلاص والمتابعة، هو الذي ينال ما يرجو ويطلب وأما من عدا ذلك، فإنه خاسر في دنياه وآخره، وقد فاته القرب من مولاه ونيل رضاه.

سورة مريم

- (١) ﴿كهيعص﴾ تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل سورة «البقرة».
- (٢) ﴿ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُ زَكَرِيَّا﴾؛ أي: هذا ذكر رحمة الله بعبده زكريا سنقصه عليك، ونفصله تفصيلًا؛ يعرف به حالة نبيه زكريا، وآثاره الصالحة، ومناقبه الجميلة.
- (٣) ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبُّهُ نَدَاءً خَفِيًّا﴾ شكى إلى ربه ضعفه الظاهر والباطن، وناداه نداءً خفيًا؛ ليكون

(١١٠) أخرج الإمام أحمد وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري الصحيح قال: كنا نتناوب رسول الله ﷺ، فنبيت عنده، تكون له الحاجة، أو يطرقه أمر من الليل، فيبعثنا، فكثر المحتسبون وأهل النوب، فكنا نتحدث، فخرج علينا رسول الله ﷺ، فقال: «ما هذه النجوى؟ ألم أنهكم عن النجوى؟» قال: فقلنا: تبنا إلى الله، أي نبي الله، إنما كنا في ذكر المسيح، وفرقنا منه، فقال: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم من المسيح عندي؟» قال: قلنا: بلى، قال: «الشرك الخفي؛ أن يقوم الرجل يصلي لمكان الرجل».

(٢) في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «كان زكريا نجارًا».

أكمل، وأفضل، وأتم إخلاصاً.

(٤) ﴿قَالَ﴾ زكريا: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ وهى وضعف، وإذا ضعف العظم الذي هو عماد البدن؛ ضعف غيره ﴿وَاشْتَغَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ اضطرم المشيب في السواد؛ لأن الشيب دليل الضعف والكبر، ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ لم تكن يا رب تردني خائباً ولا محروماً من الإجابة، بل لم تزل بي حفيّاً، ولدعائي مجيباً.

(٥) ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ﴾ وإني خفت من يتولى على بني إسرائيل ﴿مِنْ وَرَائِي﴾ من بعد موتي أن لا يقوموا بدينك حق القيام، فدعا الله أن يرزقه ولداً يقوم بالدين من بعده ﴿وَكَانَتْ أَمْرًا نَاقِظًا﴾ واشتكى أن امرأته عاقر؛ أي: ليست تلد أصلاً، وأنه قد بلغ من الكبر عتياً؛ أي: عمراً يندر معه وجود الشهوة والولد ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ وهذه الولاية: ولاية الدين، وميراث النبوة والعلم والعمل؛ ولهذا قال:

(٦) ﴿يَرْثُنِي وَيَرْثُ مِنْ عَالٍ يَعْقُوبُ﴾ وكان زكريا من ذرية يعقوب ﴿وَأَجْعَلُهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ عبداً صالحاً ترضاه، وتحبيه إلى عبادك؛ فرحمه ربه واستجاب دعوته فقال:

(٧) ﴿يَرْزُقْنِي إِنَّا نَبُشْرُكَ﴾، أي: فبشره على يد الملائكة ﴿يُعْلِمُ﴾ بولد ذكر ﴿أَسْمُوهُ يَحْيَى﴾ سماه الله له: يحيى، وكان اسماً موافقاً لمسماه: يحيى حياة حسية، فتم به المنة، ويحيى حياة معنوية،

وهي حياة القلب والروح، بالوحي والعلم والدين. كما في قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (٢٨) ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٨ - ٣٩]. وقوله: ﴿لَمْ يَفْعَلْ لَّهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أي: لم يسم هذا الاسم قبله أحد.

فإن قيل: ما وجه المدحة باسم لم يسم به أحد قبله، ونرى كثيراً من الأسماء لم يسبق إليها؟ فالجواب: أن وجه الفضيلة أن الله تعالى تولى تسميته، ولم يكل ذلك إلى أبويه؛ فسماه باسم لم يسبق إليه.

(٨) ﴿قَالَ﴾ زكريا: ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتْ أَمْرًا نَاقِظًا﴾ والحال أن المانع من وجود الولد موجود بي ويزوجتي. وكأنه وقت دعائه لم يستحضر هذا المانع ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ نحل عظمي، وصار إلى حالة اليبس والجفاف، وهذا دليل على أن زكريا عليه السلام كان لا يولد له، كذلك امرأته كانت عاقراً من أول عمرها، بخلاف إبراهيم وسارة عليهما السلام فإنهما إنما تعجبا من البشارة بإسحاق على كبرهما، لا لعقرهما.

(٩) ﴿قَالَ﴾ الله مجيباً على هذا التعجب: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ﴾ الأمر مستغرب

(٦) في «الصحيحين» عن عروة بن الزبير: أن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أخبرته أن فاطمة رضي الله عنها ابنة رسول الله ﷺ سألت أبا بكر الصديق بعد وفاة رسول الله ﷺ أن يقسم لها ميراثها مما ترك رسول الله ﷺ مما أفاء الله عليه، فقال لها أبو بكر: إن رسول الله ﷺ قال: «لا نُورَثُ، ما تركنا صدقة».

قال أبو أسامة الهلالي: - عفا الله عنه - ولا حجة في هذه الآية ونظائرها للروافض؛ لأن المراد وراثة العلم والدعوة، وسياق الآية وسباقها يدلان على ذلك دلالة واضحة بلا مرية، والسياق والسباق في المقيدات بلا مثوية!

(١١) ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ اطمأن إلى البشارة، وامثل أمر ربه شاكراً عابداً، فعكف في محرابه، وكان الناس من وراء المحراب الذي بشر فيه بالولد ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ بالإشارة والرمز ﴿أَنْ سَيُحْيُوا﴾ صلوا ﴿بِكُرَّةٍ﴾ غدوة ﴿وَعِيشًا﴾ مساءً؛ لأن البشارة بيحيى في حق الجميع مصلحة دينية.

(١٢) ﴿يَبْحَثُ خِذَ الْكِتَابِ يَقُوهُ﴾ دل الكلام على ولادة يحيى وشبابه وتربيته، فلما وصل إلى حالة يفهم فيها الخطاب أمره الله أن يأخذ التوراة بجد واجتهاد، وذلك بالاجتهاد في حفظ ألفاظه، وفهم معانيه، والعمل بأوامره ونواهيه، هذا تمام أخذ الكتاب بقوة، فامتثل أمر ربه، وأقبل على الكتاب، فحفظه وفهمه، وجعل الله فيه من الذكاء والفطنة، ما لا يوجد في غيره؛ ولهذا قال: ﴿وَعَايَنَهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾؛ أي: معرفة أحكام الله والحكم بها، وقيل: النبوة ﴿صَبِيًّا﴾، وهو في حال صغره وصباه.

(١٣) ﴿وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا﴾ رحمة ورأفة تيسرت بها أموره، وصلحت بها أحواله، واستقامت بها أفعاله، ﴿وَزَكَاةً﴾ طهارة من الآفات والذنوب، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ فاعلاً للمأمور، تاركاً للمحذور، ومن كان مؤمناً تقيّاً؛ كان لله وليّاً، وكان من أهل الجنة التي أعدت للمتقين، وحصل له من الثواب الدنيوي والأخروي ما رتبته الله على التقوى.

(١٤) ﴿وَوَ﴾ كان أيضاً ﴿بَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ لم يكن عاقاً ولا مسيئاً إلى أبيه، بل كان محسناً إليهما بالقول والفعل ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ لم يكن متجبراً متكبراً عن عبادة الله، ولا مترفعاً على عباد الله،

يَبْحَثُ خِذَ الْكِتَابِ يَقُوهُ وَعَايَنَهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ١٢
وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ١٣ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ١٤ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ١٥ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرِيفًا ١٦ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ١٧ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ١٨ قَالَتْ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ١٩ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ٢٠ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ٢١ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ٢٢ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِوْفِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّسِيًّا ٢٣ فَدَافَعُوا مِنْهَا وَنَحْيَاهَا أَنْ تَخْرُجَ رَدًّا ٢٤ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ٢٥ وَهَرَىٰ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ فَسَقَطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَمِيًّا ٢٦

في العادة، وفي سنة الله في الخليقة، ولكن قدرة الله تعالى صالحة لإيجاده بدون أسبابها؛ فذلك هين عليه ﴿وَقَدْ خَلَقْتَنِي مِن قَبْلُ وَلَمْ أَكُ شَيْئًا﴾ ليس بأصعب من إيجاده قبل ولم يكن شيئاً. (١٠) ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً﴾ يطمئن بها قلبي، فطلب زيادة العلم والوصول إلى عين اليقين بعد علم اليقين، فأجابه الله إلى طلبته؛ رحمة به، ف ﴿قَالَ إِنِّي أَنَا نَذِيرٌ لِّلنَّاسِ تِلْكَ لَآيَاتُ سَوِيًّا﴾ وفي الآية الأخرى: ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا﴾ [آل عمران: ٤١]، والمعنى واحد؛ لأنه تارة يعبر بالليالي، وتارة بالأيام، ومؤداها واحد، والمعنى: تُحبس لسألك عن الكلام ثلاث ليال، وأنت صحيح سوي من غير مرض ولا علة، فلم يكن يكلم الناس في هذه الليالي الثلاث وأيامها إلا إشارة، وهذا من الآيات العجيبة.

رؤيته على ما هو عليه، فلما في هذه الحال، وهي معترلة عن أهلها منفردة عن الناس، خافت أن يكون رجلاً قد تعرض لها بسوء، وطمع فيها فاعتصمت بربها، واستعادت منه.

(١٨) ﴿قَالَتْ﴾ له: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ﴾ ألتجئ به وأعتصم برحمته أن تنالني بسوء ﴿إِنْ كُنْتُ قَبِيحًا﴾ إن كنت تخاف الله وتعمل بتقواه، فاترك التعرض لي، فجمعت بين الاعتصام بربها، وبين تخوفه وترهيبه، وهذا هو المشروع في دفع الصائل أن يكون بالأسهل فالأسهل.

(١٩) ﴿قَالَ﴾ لها جبريل عليه السلام: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ أي: إنما وظيفتي وشغلي: تنفيذ رسالة ربي فيك ﴿لَأَهَبَ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ وهذه بشارة عظيمة بالولد وزكائه؛ فإن الزكاء يستلزم تطهيره من الخصال الذميمة، واتصافه بالخصال الحميدة.

(٢٠) ﴿قَالَتْ﴾ مريم - عليها السلام - متعجبة من وجود الولد من غير أب: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ من أين يكون لي ولد؟ ﴿وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ لم أكن ذات زوج ليقربنى ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ زانية، تريد أن الولد يكون من نكاح أو سفاح، ولم يكن واحدًا منهما.

(٢١) ﴿قَالَ﴾ جبريل عليه السلام: ﴿كَذَلِكَ﴾ كما قلت يا مريم، ولكن ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾ هكذا قال ربك، ﴿هُوَ عَلَى هَيْنٍ﴾ فإن الله على ما يشاء قادر ﴿وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ أي: خلق ولد بلا أب، تدل على قدرة الله تعالى، وعلى أن الأسباب

ولا على والديه؛ بل كان متواضعاً، متذللاً، مطيعاً، وأباً لله على الدوام، فيجمع بين القيام بحق الله، وحق خلقه، ولهذا حصلت له السلامة من الله، في جميع أحواله، مبادئها وعواقبها، ولهذا قال:

(١٥) ﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ وذلك يقتضي سلامته من الشيطان والشر، والعقاب في هذه الأحوال الثلاثة وما بينها، فإن الإنسان أوحش ما يكون في هذه الأحوال: يوم ولد، فيخرج مما كان فيه. ويوم يموت، فيرى قومًا لم يكن عاينهم. ويوم يبعث، فيرى نفسه في محشر لم ير مثله، فخص - عليه الصلاة والسلام - بالسلامة في هذه المواطن.

(١٦) ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ﴾ بنت عمران عليه السلام، من سلالة داود عليه السلام، وهذا من أعظم فضائلها أن تذكر في الكتاب العظيم ﴿إِذْ أَنْبَأْتُ﴾ حين تباعدت عن أهلها ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ أي: مما يلي الشرق عنهم، ومن هنا اتخذ النصارى الضالون المشرق قبلة، وأما عيسى وأتباعه فكانوا يستقبلون الكعبة ويحجون إليها.

(١٧) ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ سترًا ومانعًا، وهذا التباعد منها واتخاذ الحجاب؛ لتعتزل وتنفرد بعبادة ربها، ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ وهو: جبريل عليه السلام ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ أي: كاملاً من الرجال في صورة جميلة وهيئة حسنة، لا عيب فيه ولا نقص لكونها لا تحتمل

(١٥) أخرج أحمد بإسناد صحيح لغيره عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد من ولد آدم إلا قد أخطأ، أو هم بخطيئة؛ ليس يحيى بن زكريا عليه السلام».

قضاء سابقًا، فلا بد من نفوذ هذا التقدير والقضاء.

(٢٢) ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ فنفخ جبريل عليه السلام في جيبها، فحملت بعبسى عليه السلام : ﴿فَانْبَذَتْ بِهِ﴾ خافت من الفضيحة، فتنحت بالحمل وانفردت، ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ بعيدًا عن أهلها.

(٢٣) ﴿فَاجَاءَهَا﴾ فلما قرب ولادها ألجأها ﴿الْمَخَاضَ﴾ ألم الولادة ووجعها ﴿إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ وكانت نخلة بالية في المكان الذي تنحت فيه، فلما ألمها وجع الولادة، ووجع الانفراد عن الطعام والشراب، ووجع قلبها من قالة الناس، وخافت عدم صبرها ﴿قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ تمنى أنها ماتت قبل هذا الحادث؛ استحياء من الناس ﴿وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنِيًّا﴾ شيء لا يعرف ولا يذكر؛ أي: لم أخلق، وتمنى الموت في شرعنا منهي عنه.

(٢٤) ﴿فَنَادَاهَا﴾ ابنها عيسى عليه السلام بدلالة السباق والسياق؛ فلا بد من حمل الضمير على أقرب مذكور، ألا ترى قوله: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَنَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ وتأمل سياق قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾.

﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ حين ولدته ﴿أَلَا تَحْزَنِي﴾ لا تجزعي ولا تهتمي، ﴿فَقَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ نهرًا تشرين منه.

(٢٥) ﴿وَهَرَىٰ إِلَيْكَ جِذْعُ النَّخْلَةِ﴾ قيل لمريم: حركي جذع النخلة ﴿سَقِطَ عَلَيْكَ رُطْبًا﴾ تسقط عليك النخلة رطبًا ﴿جَنِيًّا﴾ طريًا لذيذا نافعًا.

فَكُلِّ وَأَشْرَبِي وَفَرِي عَيْنًا فَمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي
إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٦﴾
فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا
فَرِيًّا ﴿٧﴾ بَنَاتُكَ هَرُونَ مَا كَانَ أُولُوكَ أَمْرًا سَوْءًا وَمَا كَانَتْ
أُمُّكَ بِعِيًّا ﴿٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي
الْأَهْدِ صَيْثًا ﴿٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي
نَبِيًّا ﴿١٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ
وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿١١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدِيَّ وَلَمْ يَجْعَلْنِي
جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿١٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ
وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٣﴾ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ
الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿١٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ
إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ
فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١٦﴾ فَاتَّخَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ
بَيْنِهِمْ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٧﴾ أَسْمِعْ يَوْمَ
وَأُبْعِرْ يَوْمَ يَأْتُوتَ السَّكْرَ الْأَظْلَمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٨﴾

٣٧

جميعها لا تستقل بالتأثير، وإنما تأثيرها بتقدير الله، ﴿وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ ولنجعل رحمة منا به وبوالدته وبالناس؛ أما رحمة الله به: فلما خصه الله بوحيه، ومنَّ عليه بما منَّ به على أولي العزم.

وأما رحمته بوالدته: فلما حصل لها من الفخر والثناء الحسن والمنافع العظيمة.

وأما رحمته بالناس: فإن أكبر نعمه عليهم أن بعث فيهم رسولاً يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة فيؤمنون به ويطيعونه وتحصل لهم سعادة الدنيا والآخرة ﴿وَكَانَ﴾ وجود عيسى عليه السلام على هذه الحالة ﴿أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾

(٢٤) أخرج ابن جرير في «تفسيره»، والحاكم، والطبراني في «الصغير» ومحمد بن العباس البزاز في حديثه بإسناد جيد عن البراء بن عازب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «السري: النهر».

(٢٩) ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ فأشارت لهم إليه؛ ليكلّموه، وإنما أشارت لذلك؛ لأنها أمرت عند مخاطبة الناس لها أن تقول: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ فلما أشارت إليهم بتكليمه، تعجبوا من ذلك، و﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ لأن ذلك لم تجر به عادة، ولا حصل من أحد في ذلك السن.

(٣٠) ﴿قَالَ﴾ عيسى عليه السلام. وهو في المهد صبي: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ فخاطبهم بوصفه بالعبودية، وأنه ليس في صفة يستحق بها أن يكون إلهاً، أو ابناً للإله، ﴿وَأَنْتَنِي الْكِتَابَ﴾ قضى أن يؤتيني الكتاب ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ قيل: معناه: سيجعلني نبياً.

فأخبرهم بأنه عبد الله، وأن الله علمه الكتاب، وجعله من جملة أنبيائه؛ وذلك تبرئة لأمه مما نسبت إليه من الفاحشة.

(٣١) ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ في أي مكان وأي زمان، فالبركة جعلها الله في من تعليم الخير والدعوة إليه، والنهي عن الشر ﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ﴾ أوصاني بالقيام بحقوقه التي من أعظمها الصلاة، ﴿وَالزَّكَاةِ﴾ وحقوق عباده التي أجلها الزكاة، ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ مدة حياتي، وهذا كقوله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

(٣٢) ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْنِي﴾ أبر والدي فأحسن إليهما غاية الإحسان، وأقوم بما ينبغي له؛ لشرفها

(٢٦) ﴿فَكُلِّي﴾ من التمر ﴿وَأَشْرَبِي﴾ من النهر ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ أي: طيبي نفساً، وقيل: قري عينك بولدك عيسى، فهذا طمأنيتها من جهة السلامة من ألم الولادة، وحصول المأكل والمشرب الهني، وأما من جهة قاله الناس ﴿فَأَمَّا تَرِينِ مِنَ النَّبَشِ أَحَدًا فَقُولِي﴾؛ فأمرها أنها إذا رأت أحداً من البشر أن تقول على وجه الإشارة: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ سكوّنا ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ أي: لا تخاطبهم بكلام؛ لتستريح من قولهم وكلامهم، والتعبد بالصمت منهى عنه في شرعنا، وهو من شعار أهل البدع، وتقليد لأهل الكتاب.

(٢٧) ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ فلما تعلت مريم من نفاسها أتت بعيسى قومها تحمله؛ وذلك لعلمها ببراءة نفسها وطهارتها، فأنت غير مبالية ولا مكترثة، فلما رأوها كذلك؛ أعظموا أمرها، واستنكروا جداً، و﴿قَالُوا يَمْرَأَتُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ عظيماً وخيماً، وأرادوا بذلك: البغاء. حاشاها الله من ذلك.

(٢٨) ﴿يَتَأَخَذَ هُزُونٌ﴾ يا شبيهة هارون في العبادة، ويمكن أن يكون أخا لها سمّوه بأسماء أنبيائهم وصالحهم، وليس هو هارون أخو موسى، فبينهما قرون، ﴿مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَيِّعًا﴾ لم يكن أبواك إلا صالحين سالمين من الشر، أي: فكيف كنت على غير وصفها؟!.

(٢٨) في «صحيح مسلم» عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران، فقالوا: أرايت ما تقرأون: ﴿يَتَأَخَذَ هُزُونٌ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ قال: فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمّون بالأنبياء والصالحين قبلهم».

يليق؛ لأن ذلك من الأمور المستحيلة ﴿سُبْحَنَهُ﴾ تنزهه وتقدس عن الولد والنقص ﴿إِذَا قُضِيَ أَمْرٌ﴾ من الأمور الصغار والكبار لم يمتنع عليه ولم يستصعب، ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ فإذا كان قدره ومشينته نافذاً في العالم العلوي والسفلي، فكيف يكون له ولد؟! وإذا كان إذا أراد شيئاً قال له: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ فكيف يستبعد إيجاد عيسى من غير أب؟!!

(٣٦) ﴿وَلِإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ الذي خلقنا وصورنا، ونفذ فينا تدبيره، وصرفنا تقديره، ﴿فَلْيَعْبُدُوهُ﴾ أخلصوا له العبادة، واجتهدوا في الإنابة، ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ طريق معتدل موصل إلى الله؛ لكونه طريق الرسل وأتباعهم، وما عدا هذا فإنه من طرق الغي والضلال.

(٣٧) ﴿فَأَخْلَفَ الْأَحْزَابَ﴾ فرق الضلال، من اليهود والنصارى وغيرهم، على اختلاف طبقاتهم؛ اختلفوا في عيسى عليه السلام فمن غالٍ فيه وجافٍ ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، ورسله، وكتبه، ويدخل فيهم اليهود والنصارى القائلون بعيسى قول الكفر، ﴿مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ مشهد يوم القيامة الذي يشهده الأولون والآخرون.

(٣٨) ﴿أَسْمِعْ يَوْمَ وَأَنْصُرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ ما أسمعهم وما أبصرهم في ذلك اليوم ﴿لَكِنَّ الْظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وليس لهم عذر في هذا الضلال؛ لأنهم بين معاند ضال على بصيرة، وبين ضال عن طرق الحق، وتأمل كيف قال: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بعد قوله: ﴿فَأَخْلَفَ الْأَحْزَابَ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ ولم يقل: (فويل لهم) ليعود الضمير إلى الأحزاب؛ لأن من الأحزاب المختلفين طائفة أصابت الصواب ووافقت الحق، فقالت في

وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٦﴾ إِنَّا نَحْنُ رَبُّكَ الْأَرْضُ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا نَرْجِعُكَ ﴿٣٧﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ﴿٣٨﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَابِعْ لِمَ تَتَّبِعُنِي أَتَنْتَهَى وَلَا تَبْصُرُ وَلَا تَعْقِلُ عَنْكَ شَيْئًا ﴿٣٩﴾ يَتَابِعْ إِيَّايَ فَدَجَّاهُ فِي مِرْيَةٍ أَلَيْسَ لَكَ بِأَتَعْبُدُ إِلَّا إِلَهُيَ أَهْدَكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٠﴾ يَتَابِعْ لِمَ تَتَّبِعُ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤١﴾ يَتَابِعْ إِيَّايَ أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنِ الْهَيْئَةِ يَكْفُرُ بِهِمْ لَبِيسٌ لَمْ يَنْتَهَ لِأَرْحَمِكَ وَأَهْجُرِي مَلِيًّا ﴿٤٣﴾ قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُمْ كَانُوا خُفْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَعَزُّ لَكُمْ وَمَا نَدَعُوتُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٥﴾ فَلَمَّا أَغْتَرَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٤٨﴾

وفضلها، ولكونها والد، لها حق الولادة وتوابعها ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا﴾ متكبراً على الله، مترفعاً على عباده ﴿شَقِيًّا﴾ في دنياي وأخراي.

(٣٣) ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ﴾ من فضل ربي وكرمه حصلت لي السلامة يوم ولادتي من طعن الشيطان، ﴿وَيَوْمَ أُمُوتُ﴾ والسلامة عند الموت من الشرك، ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ السلامة من الأهوال والشر والعقاب.

(٣٤) ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ﴾ ذلك الموصوف بتلك الصفات: عيسى ابن مريم، من غير شك ولا مرية، بل قول الحق، وكلام الله الذي لا أصدق منه قبلاً، ولا أحسن منه حديثاً، ﴿الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ يشكون فيمارون بشكهم، ويجادلون بخرصهم.

(٣٥) ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ ما ينبغي ولا

وذكر الله مراجعته إياه، فقال:

(٤٢) ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ آزر، مهجئاً له عبادة الأوثان: ﴿يَتَّابِتْ لِمَ قَبْدٌ مَا لَا يَسْعُ وَلَا يَبْصُرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾ لم تعبد أصناماً ناقصة في ذاتها وفي أفعالها. فلا تسمع ولا تبصر، ولا تملك لعابدها نفعاً ولا ضرراً، بل لا تملك لأنفسها شيئاً من النفع؟!

(٤٣) ﴿يَتَّابِتْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ يا أبت لا تحقرني، وتقول: إني ابنك، وإن عندك ما ليس عندي، بل قد أعطاني الله من العلم ما لم يعطك. والمقصود من هذا قوله: ﴿فَاتَّبَعْنِي أَهْكَ صِرَاطاً سَوِيّاً﴾ مستقيماً معتدلاً، وهو: عبادة الله وحده لا شريك له.

(٤٤) ﴿يَتَّابِتْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ لأن من عبد غير الله؛ فقد عبد الشيطان ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً﴾ فمن اتبع خطواته؛ فقد اتخذه ولياً، وكان عاصياً، لله بمنزلة الشيطان.

(٤٥) ﴿يَتَّابِتْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَسْسَكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ﴾ بسبب إصرارك على الكفر، وتماديك في الطغيان، ﴿فَتَكُونُ لِلشَّيْطَانِ وَليّاً﴾ في الدنيا والآخرة، فتنزل بمنزلة الذميمة، وترتع في مراتعه الوحيمة فتدرج الخليل عليه السلام بدعوة أبيه، بالأسله فالأسهل، فأخبره بعلمه، وأن ذلك موجب لاتباعك وإيائي، وأنك إن أطعنتني،

عيسى «إنه عبد الله ورسوله»، فآمنوا به، واتبعوه، فهؤلاء مؤمنون غير داخلين في هذا الوعيد، فلهذا خص الله بالوعيد الكافرين.

(٣٩) ﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾ الإنذار هو: الإعلام بالخوف على وجه التهريب والإخبار بصفاته ﴿يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ يوم القيامة ﴿إِذْ فُضِيَ الْأَمْرُ﴾ فصل بين أهل الجنة وأهل النار، وصار كل إلى ما صار إليه، مخلداً فيه، ﴿وَهُمْ﴾ اليوم ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾ عما أُنذروا به يوم الحسرة والندامة، ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يصدقون به. (٤٠) ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ نحن نميت سكان الأرض ونهلكهم جميعاً، ويبقى الرب وحده فيرثهم، ﴿وَالِنَّا يُرْجَعُونَ﴾ فنجزهم بأعمالهم.

(٤١) ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ﴾ أجل الكتب وأفضلها وأعلاها، هذا الكتاب المبين والذكر الحكيم، أي: واتل على قومك خير نبي الله ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ الخليل ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا صِدِّيقًا﴾ والصديق: الكثير الصدق القائم عليه، فهو الصادق في أقواله وأفعاله وأحواله، ﴿يَتَّبِعُ﴾ فجمع الله له بين الصديقية والنبوة، وإبراهيم عليه السلام هو أفضل الأنبياء كلهم بعد محمد صلى الله عليه وسلم وهو الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب، وهو الذي دعا الخلق إلى الله وصبر على ما ناله، واجتهد في دعوة أبيه مهما أمكنه،

(٣٩) في «الصحيحين» و«مسند الإمام أحمد» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، وجاء بالموت كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة، هل تعرفون هذا؟ قال: فيشربون، فينظرون، ويقولون: نعم، هذا الموت. قال: فيقال: يا أهل النار، هل تعرفون هذا؟ قال: فيشربون، فينظرون، ويقولون: نعم، هذا الموت. قال: فيؤمر به فيذبح، قال: ويقال: يا أهل الجنة، خلود ولا موت، ويا أهل النار، خلود ولا موت». قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ فُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ وأشار بيده، ثم قال: «أهل الدنيا في غفلة الدنيا».

﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ لا أزال أدعو الله لك بالهداية والمغفرة؛ بأن يهديك للإسلام الذي تحصل به المغفرة، ﴿فَإِنَّكُمْ كَأَنْتُمْ فِي حِفْظٍ﴾ رحيماً رءوفاً بحالي، معتنياً بي.

(٤٨) فلما آيس من قومه وأبيه قال: ﴿وَأَعْتَزِّلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أنتم وأصنامكم ﴿وَادْعُوا رَبِّي﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة، ﴿عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ عسى الله أن يسعدني بإجابة دعائي، وقبول أعمالي.

(٤٩) ﴿فَلَمَّا أَعْتَزَلْتُمْ وَمَا يُعِدُّونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فذهب مهاجراً إلى ربه ﴿وَهَبْنَا لَهُمُ﴾ بعد الهجرة ﴿إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أنسنا وحشته من فراقهم، وأقررنا عينه بأولاد كرام على الله ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ فحصل له ولهؤلاء الصالحين المرسلين إلى الناس، الذين خصهم الله بوحية، واختارهم لرسالته واصطفاهم من العالمين.

(٥٠) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ﴾ لإبراهيم وابنيه ﴿مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ وهذا يشمل جميع ما وهب الله لهم من الرحمة ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ من الثناء الحسن الرفيع في كل أهل الأديان، فكلهم يتولونهم، ويشنون عليهم، وهذا أيضاً من الرحمة التي وهبها لهم.

(٥١) ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ﴾ أي: واذكر في هذا القرآن العظيم ﴿مُوسَىٰ﴾ بن عمران - عليه الصلاة والسلام - كليم الرحمن، على وجه التبجيل له والتعظيم، والتعريف بمقامه الكريم، وأخلاقه الكاملة ﴿إِنَّكُمْ كَأَنْتُمْ مُخَصَّصُونَ﴾ بفتح اللام على معنى: أن الله تعالى اختاره واستخلصه، واصطفاه على العالمين. وقرئ بكسرهما، على معنى: أنه كان مخلصاً لله تعالى في جميع أعماله، وأقواله،

وَنَدَيْنَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِذْ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَنُوحَ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجِبِينَ إِذْ أَنْتَنَّا عَلَيْهِمُ آيَاتِ الرَّحْمَنِ خَرَوْا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ خَلَفَ مِنْ بَنِي إِدْرِيسَ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَةَ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦٠﴾ جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُمْ كَانُوا وَعْدُومَةً ﴿٦١﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ فِيهَا مِنْهَا بَاقَرَةٌ وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُمْ مَا يُشَاءُونَ أَيْدِينَا وَمَخْلِفَتَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ سَيِّئًا ﴿٦٤﴾

اهتديت إلى صراط مستقيم، ثم نهاه عن عبادة الشيطان، وأخبره بما فيها من المضار، ثم حذر عتاب الله ونقمته إن أقام على حاله، وأنه يكون ولياً للشيطان.

(٤٦) فلم ينجع هذا الدعاء بذلك الشقي، وأجاب بجواب جاهل، ﴿وَقَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي يَتَّبِعُهُمْ﴾ فتبجح بالهتة التي هي من الحجر والأصنام، ولام إبراهيم عن رغبته عنها ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ﴾ عن شتم آلهتي ودعوتي إلى عبادة الله ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ لأشتمنك ولأبعدنك عني بالقبول القبيح، أي: رجماً بالقول، وقيل: قتلاً بالحجارة ﴿وَأَهْجُرْ فِي مِيلَاتٍ﴾ لا تكلمني زماناً طويلاً.

(٤٧) ﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ﴾ ستسلم من خطابي إياك بالشم والسب وبما تكره

(٥٥) ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ كان مقيماً لأمر الله على أهله، فيأمرهم بالصلاة المتضمنة للإخلاص للمعبود، وبالزكاة المتضمنة للإحسان إلى العبيد ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ وذلك بسبب امتثاله لمراضي ربه واجتهاده فيما يرضيه، فرضي الله عنه، ورضي هو عن ربه.

(٥٦) ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ﴾ واذكر يا محمد في القرآن الكريم على وجه التعظيم والإجلال، والوصف بصفات الكمال ﴿إِذْ رِيسٌ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ جمع الله له بين الصديقية الجامعة للتصديق التام، والعلم الكامل، واليقين الثابت، والعمل الصالح، وبين اصطفاؤه لوحيه، واختياره لرسالته.

(٥٧) ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ رفع الله ذكره في العالمين ومنزلته بين المقربين، فكان عالي الذكر عالي المنزلة، وثبت أن رسول الله ﷺ مرَّ به في ليلة الإسراء وهو في السماء الرابعة.

(٥٨) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ أنعم الله عليهم نعمة لا تلحق، ومنه لا تسبق من النبوة والرسالة، وأن بعضهم ﴿مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ﴾ يريد نوحاً وإدريس ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ من ذريته الذين حملناهم معه في السفينة، يريد إبراهيم عليه السلام؛ لأنه من ولد سام بن نوح ﴿وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ يريد إسماعيل وإسحاق ويعقوب ﴿وَأِسْرَءِيلَ﴾ وهو يعقوب عليه السلام، ويريد موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ فهذه خير بيوت العالم اصطفاهم الله واختارهم واجتباهم

ونباته، فوصفه بالإخلاص في جميع أحواله، والمعنيان متلازمان، فإن الله أخلصه لإخلاصه، وإخلاصه موجب لاستخلاصه، وأجلُّ حالة يوصف بها العبد: الإخلاص منه، والاستخلاص من ربه، ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ جمع الله له بين الرسالة والنبوة، فالرسالة تقتضي تبليغ كلام المرسل، وتبليغ جميع ما جاء به من الشرع، دقه وجله، والنبوة تقتضي إichاء الله إليه وتخصيصه بإنزال الوحي إليه، فالنبوة بينه وبين ربه، والرسالة بينه وبين الخلق.

(٥٩) ﴿وَنَذِيْنُهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ أي: الأيمن من موسى في وقت مسيره، أو الأبرك، من اليمن والبركة ﴿وَقَرْنَتْهُ نَجِيًّا﴾ والفرق بين النداء والنجاء: أن النداء؛ هو: الصوت الرفيع، والنجاء: ما دون ذلك.

(٦٠) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ وذلك حين دعا ربه فقال: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِنْ أَهْلِ بَيْتِي﴾ هَارُونَ أَخِي [طه: ٢٩، ٣٠]، فأجاب الله دعاءه، وأرسل هارون عليه السلام، وهذا من أكبر فضائل موسى وإحسانه ونصحه لأخيه هارون.

(٦١) ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ﴾ واذكر في القرآن الكريم هذا النبي العظيم الذي خرج منه الشعب العربي، أفضل الشعوب وأجلها، الذين منهم سيد ولد آدم ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ لا يعد وعداً إلا وفى به ﴿وَكَانَ رَسُولًا﴾ إلى جرهم ﴿نَبِيًّا﴾ مخبراً عن الله ﷻ.

(٥٤) في «صحيح مسلم» من حديث واثلة بن الأسقع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم».

(٥٥) في «سنن أبي داود» و«النسائي» و«ابن ماجه» من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: «إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته، فصليا ركعتين؛ كتبنا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات».

العمل الذي شرعه الله على السنة رسله، إذا قصد به وجهه ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ الذين جمعوا بين التوبة والإيمان والعمل الصالح ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ المشتملة على النعيم المقيم، والعيش السليم، وجوار الرب الكريم ﴿وَلَا يَظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ من أعمالهم، بل يجدونها كاملة موفرة أجورها، مضاعفاً عددها.

(٦١) ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ﴾ جنات إقامة، لا ظعن فيها، ولا حول ولا زوال، وذلك لسعتها، وكثرة ما فيها من الخيرات والسرور، والبهجة والحيوية ﴿أَلْقَى وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ التي وعدها الرحمن أضافها إلى أسمه «الرحمن» لأن فيها من الرحمة والإحسان، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿عِبَادُ﴾؛ أي: عباد إلهيته، الذين عبدوه اختياراً، والتزموا شرائعه، فصارت العبودية وصفاً لهم، كقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: ٦٣] ﴿بِالْغَيْبِ﴾؛ أي: هي من الغيب الذين يؤمنون به ولم يروه؛ وذلك لشدة إيقانهم وقوة إيمانهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا وَعْدُ مَا يُنَادُّونَ﴾ لا بد من وقوعه، فإنه لا يخلف الميعاد، وهو أصدق القائلين.

(٦٢) ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ كلاماً لاغياً لا فائدة

﴿إِذَا نُنَادَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ الحاملة للعظات، والعبر الباهرات، والدلائل الواضحات، والحبج الدامغات ﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَسُكُوتًا﴾ خضعوا لآيات الله، وخشعوا لها، وأثرت في قلوبهم من الإيمان والرغبة والرغبة، ما أوجب لهم البكاء والإنابة، والسجود لربهم، ولما ذكر تعالى حزب السعداء وهم الأنبياء عليهم السلام، ومن اتبعهم، من القائمين بحدود وأوامره، المؤدين فرائض الله، التاركين لزواجه، ذكر من أتى بعدهم، وبدلوا ما أمروا به، فقال:

(٥٩) ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد النبيين ﴿خَلْفٌ﴾ قوم سوء، رجعوا إلى الخلف والوراء ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ التي أمروا بالمحافظة عليها وإقامتها، فتهانوا بها وضيعوها، ﴿وَالسَّبَبِ الدَّاعِي﴾ لذلك أنهم ﴿اتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ شهوات أنفسهم وإرادتها، فصارت همهم منصرفة إليها ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ عذاباً مضاعفاً شديداً، ثم استثنى تعالى فقال:

(٦٠) ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ عن الشرك والبدع والمعاصي، فأقلع عنها وندم عليها، وعزم عزمًا جازمًا أن لا يعاودها ﴿وَأَمَّنْ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ وهو

(٥٩) أخرج الإمام أحمد في «مسنده» والبخاري في «خلق أفعال العباد» والحاكم بإسناد صحيح من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون خلف من بعد ستين سنة أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات، فسوف يلقون غيًّا، ثم يكون خلف يقرء القرآن لا يحدو تراقيهم، ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن، ومنافق، وفاجر»، قال شبير: فقلت للوليد: ما هؤلاء الثلاثة؟ فقال: المنافق كافر به، والفاجر يتأكل به، والمؤمن يؤمن به.

(٦٢) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها، ولا يتمخضون، ولا يتغوطون، أنبتهم فيها الذهب، أمشاطهم من الذهب والفضة، ومجامرهم الألوة، ورشهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان، يرى مخ سوقهما من وراء اللحم، من الحسن، ولا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم قلب واحد، يسبحون الله بكرة وعشيًّا».

فيه، ولا ما يؤثم، فلا يسمعون فيها شتمًا، ولا عيبًا، ولا قولًا فيه معصية لله، أو قولًا مكدرًا، ﴿إِلَّا سَلَامًا﴾ الأقوال السالمة من كل عيب، ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أرزاقهم من المأكول والمشرب، وأنواع اللذات، مستمرة حيثما طلبوا، وفي أي وقت رغبوا، ومن تمامها ولذاتها وحسنها أن تكون في أوقات معلومة ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ ليعظم وقوعها ويتم نفعها.

(٦٣) ﴿فَبِذَلِكَ يُخَوِّتُكَ﴾ وصفناها بما ذكر ﴿تُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ نَفِيًّا﴾ نورثها المتقين، ونجعلها منزلهم الدائم، الذي لا يطعنون عنه، ولا يبغيون عنها حولا.

(٦٤) ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ ليس لنا من الأمر شيء، إن أمرنا؛ ابتدنا أمره، ولم نعص له أمرا، فنحن عبيد مأمورون ﴿لَمْ يَأْمُرْ بِكُنْ أَيْدِينَا وَمَا خَلَقْنَا وَمَا بَيْنَكَ ذَلِكَ﴾ له علم الأمور الماضية والمستقبلية والحاضرة، في الزمان والمكان، فإذا تبين أن الأمر كله لله، وأنا عبيد مدبرون، فيبقى الأمر دائرا بين: هل تقتضيه الحكمة الإلهية فينفذه؟ أم لا تقتضيه فيؤخره؟ ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ لم يكن لينساك ويهملك، بل لم يزل معتنيا بأمورك، مجريا لك على أحسن عوائده الجميلة، وتدبيره الجليلة.

(٦٥) ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فربوبيته للسموات والأرض، وكونهما على أحسن نظام وأكملة ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ اصبر نفسك عليها وجاهدها ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ هل تعلم لله

رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِثُّ لَسَوْفَ أَخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَهْبَاءً آسِدًا عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِنْ مَسَّكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نَسْجِي الَّذِينَ أَنْعَمْنَا وَنَذُرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تَنَزَّلْنَا بَيْنَتُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَذَلِكَ أَهْلَكَ مَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنَاءَ وَرَدًّا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدَدًا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴿٧٥﴾ وَبَيَّنَّا لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَآلْفِيَّتُ الصَّلَاحِ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴿٧٦﴾

٣١٠

مساميا، ومشابها، ومماثلا من المخلوقين؟ (٦٦) ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ﴾ المراد كل منكر للبعث، مستبعد لوقوعه، فيقول -مستفهما على وجه النفي والعناد والكفر-: ﴿إِذَا مَا مِثُّ لَسَوْفَ أَخْرَجُ حَيًّا﴾ كيف يعيدني الله حيا بعد الموت، وبعدما كنت رميما؟! هذا لا يكون ولا يتصور.

(٦٧) ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ أولا يلفت نظره ويستذكر حالته الأولى، وأن الله خلقه أول مرة ولم يك شيئا؟ وفي قوله: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ﴾ دعوة للنظر بالدليل العقلي بالطف خطاب، وأن إنكار من أنكر ذلك مبني على غفلة منه عن حاله الأولى، وإلا فلو

(٦٤) في «صحيح البخاري» من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟» قال: فنزلت: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ إلى آخر الآية.

تظاهرت عليه الأحاديث وتواترت به الأخبار عن رسول الله ﷺ من مرورهم على الصراط المنصوب على متن جهنم، فناج ومكس فيها. (٧٢) ﴿ثُمَّ نَتَجَى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الله تعالى؛ بفعل المأمور، واجتناب المحذور ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿فِيهَا جِثَاءٌ﴾ وهذا بسبب ظلمهم وكفرهم، وجب لهم الخلود، وحق عليهم العذاب، وتقطعت بهم الأسباب.

(٧٣) ﴿وَإِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِمْ﴾ على هؤلاء الكفار ﴿ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات الدلالة على وحدانية الله وصدق رسله ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ أي: قابلوها بضد ما يجب لها، واستهزءوا بها وبمن آمن بها، واستدلوا بحسن حالهم في الدنيا على أنهم خير من المؤمنين، فقالوا معارضين للحق: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾؛ أي: نحن والمؤمنون ﴿خَيْرٌ مَقَامًا﴾ في الدنيا من كثرة الأموال والأولاد، وتفوق الشهوات، ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ مجلساً؛ أي: فاستنتجوا من هذه المقدمة الفاسدة بسبب أنهم أكثر مالاً وأولاداً، وقد حصلت أكثر مطالبهم من الدنيا، ومجالسهم وأنديتهم مزخرفة مزوقة، والمؤمنون بخلاف هذه الحال، فهم خير من المؤمنين، وهذا دليل في غاية الفساد، وهو من باب قلب الحقائق، وإلا فكثرة الأموال والأولاد وحسن المنظر كثيراً ما يكون سبباً لهلاك صاحبه وشقائه وشره، ولهذا قال تعالى:

(٧٤) ﴿وَكَذَلِكَ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا﴾ متاعاً وأموالاً ﴿وَرِيًّا﴾ أحسن مرأى ومنظراً،

تذكرها وأحضرها في ذهنه لم ينكر ذلك. (٦٨) ﴿فَوَرَّيْكَ﴾ أقسم الله تعالى - وهو أصدق القائلين - بربوبيته ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾؛ أي: لنجمعن هؤلاء المنكرين للبعث ﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ هم وشياطينهم، وليجمعنهم لميقات يوم معلوم ﴿ثُمَّ لَنَحْشُرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثَاءً﴾ جاثين على ركبهم من شدة الأهوال، وكثرة الزلزال، وفظاعة الأحوال، منتظرين لحكم الكبير المتعال، ولهذا ذكر حكمه فيهم فقال:

(٦٩) ﴿ثُمَّ لَنَزَعُنَّكَ﴾ ثم لنخرجن ﴿مِّنْ كُلِّ شِيعَةٍ﴾ من كل طائفة وفرقة من الظالمين المشتركين في الظلم والكفر، ﴿أَتَيْتُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ أشدهم عتواً، وأعظمهم ظلماً، وأكبرهم كفراً، وهم من أهل كل دين قادتهم ورؤساؤهم في الشر.

(٧٠) ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ علمنا محيط بمن هو أولى صلياً بالنار، وقد علمناهم، وعلمنا أعمالهم، واستحقاقها، وقسطها من العذاب.

(٧١) ﴿وَإِن مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ وهذا خطاب لسائر الخلائق؛ برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، أنه ما منهم من أحد إلا سيرد النار ﴿كَانَ عَلَىٰ رَيْكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ حكماً حتمه الله على نفسه، وأوعد به عباده، فلا بد من نفوذه، ولا محيد عن وقوعه والمراد بالورود: هو المرور على الصراط، فيردها الجميع، ثم يصدر عنها المؤمنون فينجيهم الله، ويهوى فيها الكفار، وورودهموها هو ما

(٧١) أخرج ابن ماجه وأحمد بإسناد صحيح عن أم مبشر عن حفصة ؓ قالت: قال رسول الله ﷺ: «إني لأرجو ألا يدخل النار - إن شاء الله - أحد شهد بدرًا والحديبية». قالت: فقلت: أليس الله يقول: ﴿وَإِن مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾؟ قالت: فسمعتة يقول: ﴿ثُمَّ نَتَجَى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثَاءً.

وعلم من هذا أن الاستدلال على خير الآخرة بخير الدنيا من أفسد الأدلة، وأنه من طرق الكفار.

(٧٥) ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين المدعين أنهم على الحق وأنكم على الباطل: ﴿مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ﴾ منا ومنكم ﴿فَلْيَمْدَدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ فأمهله الرحمن فيما هو فيه حتى يلقي ربه وينقضي أجله، ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا﴾ أي: القائلون: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَآخَسُنْ نَبِيًّا﴾ ﴿مَا يُوْعَدُونَ إِلَّا أَلْعَذَابَ﴾ بقتل أو أمر في الدنيا، ﴿وَلِمَا السَّاعَةِ﴾ التي هي باب الجزاء على الأعمال، ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ فحينئذ يتبين لهم بطلان دعواهم، وأنها دعوى مضمحلة، ويتيقنون ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ منزلاً ﴿وَأَضَعَفَ جُنْدًا﴾ أقل ناصراً، ولكن لا يفيدهم هذا العلم شيئاً؛ لأنه لا يمكنهم الرجوع إلى الدنيا، فيعملون غير عملهم الأول.

(٧٦) ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ والهدى يشمل العلم النافع، والعمل الصالح، فكل من سلك طريقاً في العلم والإيمان، والعمل الصالح؛ زاده الله منه وسهله عليه، ويسره له، ويدل عليه أيضاً الواقع؛ فإن الإيمان قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، والمؤمنون متفاوتون في هذه الأمور أعظم تفاوت ﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَاتُ﴾ الأعمال الباقية التي لا تنقطع إذا انقطع غيرها ولا تضمحل هي

الصالحات منها، من صلاة، وزكاة، وصوم، وحج، وعمرة، وقراءة، وتسبيح، وتكبير، وتحميد، وتهليل، وإحسان إلى المخلوقين، وأعمال قلبية وبدنية، فهذه الأعمال ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾؛ أي: جزاء ﴿وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ أي: عاقبة ومرداً على صاحبها.

وهذه الآية دالة على زيادة الإيمان ونقصه؛ كما قاله السلف الصالح، خلافاً للمرجئة ومن وافقهم (٧٧) ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ أفلا تعجب من حالة هذا الكافر ﴿بَيَّاتِنَا﴾ الذي جمع بين كفره

(٧٧) في «الصحاحين» عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: كنت رجلاً قتيلاً - أي: حداذاً - بمكة في الجاهلية، فعملت للعاص بن وائل السهمي سيفاً، فاجتمع لي عنده دين، فأتيته أنقاضاً، فقال: لا، والله لا أفضيك حتى تكفر بمحمد. فقلت: أما والله حتى تموت ثم تبعث فلا، قال: وإني لميت ثم مبعوث من بعد الموت؟ قلت: نعم، قال: فإنه سيكون لي ثم مال وولد، فأفضيك. فأنزل الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بَيَّاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ ﴿أَطْلَعَ الْعَلِيِّ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ ﴿وَنَرَاهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِنَا فَرْدًا﴾.

﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ ستجحد الأصنام والآلهة التي كانوا يعبدونها عبادة المشركين ويتبرءون منهم، كما أخبر الله تعالى: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِلَّا نَانًا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣] ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أعداء لهم، بخلاف ما رجوا منهم.

(٨٣) ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم ينته إلى علمك ﴿أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ سلطانهم عليهم، يفعلون بهم ما أرادوا من الإغواء والفتنة ﴿تُوزُّهُمْ أَزًّا﴾ تزعجهم إزعاجاً، وتحركهم شديداً نحو الشهوات والمعاصي.

(٨٤) ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ على هؤلاء الكفار المستعجلين بالعذاب ﴿إِنَّمَا نَعْدُ لَهُمْ عَذَابًا﴾ لهم أياماً معدودة لا يتقدمون عنها ولا يتأخرون.

(٨٥) يخبر تعالى عن تفاوت الفريقين المتقين والمجرمين، فيقول: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾، أن المتقين لهم - باتقاء الشرك والبدع والمعاصي - يحشرهم إلى موقف القيامة مكرمين مبجلين معظمين.

(٨٦) ﴿وَسَوْفَ الْمَجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا﴾ وأما المجرمون فإنهم يساقون إلى جهنم ورداً؛ أي: عطاشاً، وهذا أبشع ما يكون من الحالات؛ سوقهم على وجه الذل والصغار إلى أعظم سجن وأفظع عقوبة، وهو جهنم في حال ظمئهم ونصبهم، يستغيثون فلا يغاثون، ويدعون فلا يستجاب لهم، ويستشفعون فلا يشفع لهم، ولهذا قال:

(٨٧) ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ﴾ ليست الشفاعة ملكهم، ولا لهم منها شيء، وإنما هي لله تعالى فلا يملك هؤلاء الكفار الشفاعة لأحد ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ لكن من اتخذ عنده

بآيات الله ودعواه الكبيرة، ﴿وَقَالَ لِأَوْتَارِكَ مَالًا وَّوَلَدًا﴾ أنه سيؤتى في الآخرة مالا وولداً؛ أي: يكون من أهل الجنة، هذا من أعجب الأمور، فلو كان مؤمناً بالله وادعى هذه الدعوى؛ لسهل الأمر.

(٧٨) ﴿أَطْلَعَ الْغَيْبِ﴾ هل نظر في اللوح المحفوظ؛ فأحاط علمه بالغيب، حتى علم ما يكون، وأن من جملة ما يكون أنه يؤتى يوم القيامة مالا وولداً؟ ﴿أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ أنه نائل ما قاله.

والجواب: لم يكن شيء من ذلك؛ فعلم: أنه متقول، قائل ما لا علم لديه، ولهذا قال تعالى:

(٧٩) ﴿كَذَّابًا﴾ ليس الأمر كما زعم، فليس للقاتل اطلاع على الغيب؛ لأنه كافر، ليس عنده من علم الرسائل شيء، ولا اتخذ عند الرحمن عهداً؛ لكفره وعدم إيمانه، ولكنه يستحق ضد ما تقوله، وأن قوله مكتوب محفوظ، ليجازى عليه ويعاقب، ولهذا قال: ﴿سَنَكْتُبُ﴾ سنحفظ عليه ﴿مَا يَقُولُ﴾ فنجازيه به في الآخرة ﴿وَنُمَدُّ لَهُ مِنْ أَلْعَدَابِ مَدًّا﴾ نزيده من أنواع العقوبات، كما ازداد من الغي والضلال.

(٨٠) ﴿وَنَزَّلْنَاهُ مَا يَقُولُ﴾ أي: نسلبه ماله وولده، ويصير لنا ماله وولده دونه ﴿وَيَأْتِينَا﴾ يوم القيامة ﴿فَرْدًا﴾ وحده لا مال معه ولا ولد.

(٨١) ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾ يخبر تعالى عن المشركين أنهم اتخذوا أصناماً يعبدونها ﴿يَكُونُوا لَهُمْ﴾ لتكون تلك الآلهة لهم ﴿عِزًّا﴾ منعة، يعتزون بها ويستنصرونها حتى تكون لهم شفعاء يمنعونهم من العذاب.

(٨٢) ﴿كَذَّابًا﴾ ليس الأمر كما زعموا

عهدًا، فأمن به وبرسله واتبعهم؛ فإنه ممن ارتضاه الله وتحصل له الشفاعة.

(٨٨) ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ وهذا تقبيح وتشنيع لقول المعاندين الجاحدين، الذين زعموا أن الرحمن اتخذ ولدًا، كقول النصارى: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]. واليهود: ﴿عِزَّى ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]. والمشركين: الملائكة بنات الله. تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا.

(٨٩) ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ عظيمًا وخيمًا. (٩٠) من عظيم أمره أنه ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ﴾ على عظمتها وصلابتها ﴿يَقْطَرْنَ مِنْهُ﴾ يتشققن قطعاً من هذا القول ﴿وَتَشَقُّ الْأَرْضُ﴾ وتكاد الأرض تنشق، فتصدع من ذلك ﴿وَيَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا﴾ تندك الجبال.

(٩١) ﴿أَن دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ من أجل هذه الدعوى القبيحة تكاد هذه المخلوقات أن يكون منها ما ذكر.

(٩٢) ﴿وَالْحَالُ أَنَّهُ﴾ ما ينبغي لا يليق ولا يكون ﴿لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ وذلك لأن اتخاذه الولد يدل على نقصه واحتياجه، وهو الغني الحميد، والولد أيضاً من جنس والده، والله تعالى لا شبه له ولا مثل ولا سمي.

(٩٣) ﴿إِن كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَبْدًا﴾ ذليلاً منقاداً، غير

(٩١) في «الصحيحين» و«مسند الإمام أحمد» من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أحد أصبر على

أذى يسمعه من الله؛ إنه يشرك به ويجعل له ولداً، وهو يعافهم، ويدفع عنهم، ويرزقهم»

(٩٦) في «الصحيحين» و«مسند الإمام أحمد» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل، فقال: يا جبريل، إني أحب فلاناً فأحبه». قال: «فيحبه جبريل». قال: «ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبه». قال: «فيحبه أهل السماء. ثم يوضع له القبول في الأرض، وإن الله إذا أبغض عبداً دعا جبريل، فقال: يا



بن جبير، وسفيان الثوري: أنها بمعنى: يا رجل - والله أعلم -.

(٢) ﴿مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ ليس المقصود بالوحي، وإنزال القرآن عليك، وشرع الشريعة، لتشقى بذلك، وإنما الوحي والقرآن والشرع، شرعه الرحيم الرحمن، وجعله موصلاً للسعادة والفلاح والفوز، وسهله غاية التسهيل، ويسر كل طريقه وأبوابه، وجعله غذاء للقلوب والأرواح، وراحة للأبدان، فتلقته الفطر السليمة والعقول المستقيمة بالقبول والإذعان، لعلمها بما احتوى عليه من الخير في الدنيا والآخرة، ولهذا قال:

(٣) ﴿إِلَّا نَذْكُرْكَ لَمْ تَيَحْشَ﴾ إلا ليتذكر به من يخشى الله تعالى، وخص بالتذكرة من يخشى؛ لأن غيره لا ينتفع به، وكيف ينتفع به من لم يؤمن بجنة ولا نار، ولا في قلبه من خشية الله مثقال ذرة؟! هذا ما لا يكون.

(٤) ﴿تَنْزِيلًا وَمِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْاُخْرَى﴾ ثم ذكر جلاله هذا القرآن العظيم، وأنه تنزيل خالق الأرض والسموات، المدبر لجميع المخلوقات، أي فاقبلوا تنزيله بغاية الإذعان والمحبة والتسليم، وعظموه نهاية التعظيم، وكثيراً ما يقرن بين الخلق والأمر، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] وفي قوله ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] وذلك أنه الخالق الأمر الناهي، فكما أنه لا خالق سواه، فليس على الخلق إلزام

يجعل لهم محبة ووداداً في قلوب أوليائه، وأهل السماء والأرض.

(٩٧) ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْزَنُهُ بِلِسَانِكَ﴾ يخبر تعالى عن نعمته، وأنه يسر هذا القرآن الكريم بلسان الرسول محمد ﷺ، يسر ألفاظه ومعانيه؛ ليحصل المقصود منه، والانتفاع به، ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ بالترغيب في المبشر به من الثواب العاجل والآجل، وذكر الأسباب الموجبة للبشارة، ﴿وَتُذَرِّعَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا﴾ أي: شديدين في باطلهم، أقوياء في كفرهم، فتذرهم، فتقوم عليهم الحجة.

(٩٨) ﴿وَكَذَرْنَا أُنكَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ﴾ من قوم نوح، وعاد، وثمود، وغيرهم من المعاندين المكذبين؛ لما استمروا في طغيانهم أهلكهم الله، فليس لهم من باقية ﴿هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ﴾ هل ترى منهم أحداً ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ الركز: الصوت الخفي؛ أي: هل تسمع لهم صوتاً ولو خفياً؟ فقد أهلكهم الله، ولم يبق منهم عين ولا أثر، بل بقيت أخبارهم عبرة للمعتبرين، وأسمارهم عظة للمتعطين.

سورة طه

(١) ﴿طه﴾ من جملة الحروف المقطعة، المفتوح بها كثير من السور، وليست اسماً للنبي ﷺ، وثبت عن جمع من السلف، كابن عباس، وسعيد

جبريل، إني أبغض فلاناً، فأبغضه». قال: «فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه»، قال: «فيبغضه أهل السماء، ثم يوضع له البغضاء في الأرض».

(٢) في «الصحيحين» من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين».

الحسنى، من حسننها أنها كلها أسماء دالة على المدح، فليس فيها اسم لا يدل على المدح والحمد، ومن حسننها أنها ليست أعلاماً محضة، وإنما هي أسماء وأوصاف، ومن حسننها أنها دالة على الصفات الكاملة، وأن له من كل صفة أكملها وأعمها وأجلها.

(٩) ثم قال تعالى لنبيه محمد ﷺ على وجه الاستفهام التقريري والتعظيم لهذه القصة والتفخيم لها: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾؛ أي: قد أتاك خبر موسى ﷺ، وكيف كان ابتداء الوحي إليه وتكليمه إياه، بعد أن قضى أتم الأجلين وأكملهما الذي كان بينه وبين صهره في رعاية الغنم، وفيه تمهيد بنبوته ﷺ بقصة موسى عليه السلام ليأتهم به في تحمل أعباء النبوة، وتبليغ الرسالة، والصبر على مقاساة الشدائد، فإن هذه السورة من أوائل ما نزل.

(١٠) ﴿إِذْ رَأَى نَارًا﴾ أنه رأى ناراً من بعيد، وكان قد ضل الطريق، وأصابه البرد، ولم يكن عنده ما يتدفأ به ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ﴾ يبشرهم: ﴿أَمْكُوثًا﴾ أقيموا ﴿إِنِّي عَاسَتْ﴾ أبصرت ﴿نَارًا﴾ وكان ذلك في جانب الطور الأيمن ﴿لَعَلَّيْكُمْ مِنْهَا يَقْبَاسٌ﴾ شهاب من نار تصطلون - تستدفئون - به ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ من يهديني الطريق.

(١١) ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ اقترب من النار التي آسها من بعيد وكانت - في الحقيقة - نوراً، وهي نار تحرق وتشرق ﴿تُودَى يَمُوسَى﴾ ناداه الله.

(١٢) ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ الذي يكلمك ويخاطبك ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ لتطأ الأرض المقدسة بقدميك حافياً، ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ لأنك بالوادي المطهر المعظم ﴿طَوًى﴾ اسم للوادي المقدس.

ولا أمر ولا نهى إلا من خالقهم.

(٥) ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ﴾ الذي هو أرفع المخلوقات وأعظمها وأوسعها ﴿أَسْتَوَى﴾ علا وارتفع، استواء يليق بجلاله، ويناسب عظمته وجماله، فاستوى على العرش، واحتوى على الملك.

وهذه من آيات الصفات، والمسلوك الأسلم في ذلك طريقة السلف الصالح: إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة من غير تكيف ولا تحريف، ولا تشبيه ولا تعطيل، ولا تمثيل ولا تفويض، والإيمان بمعانيها الصحيحة التي تعرف في لسان العرب.

(٦) ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من ملك، وإنسي وجني، وحيوان، وجماد، ونبات، وهواء ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾؛ أي: ما تحت الأرض السابعة، فالجميع ملك لله تعالى، عبيد مسخرون، تحت قضائه وتدبيره، ليس لهم من الملك شيء، ولا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

(٧) ﴿وَأَن تَجْهَرُوا بِالْقَوْلِ﴾ تعلن به ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ الْئْتِرَ﴾ الكلام الخفي ﴿وَأَخْفَى﴾ من السر الذي في القلب، ولم ينطق به.

والمراد: أنزل هذا القرآن الذي خلق الأرض والسموات العلى، الذي يعلم السر وأخفى؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ الْئْتِرَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلَوَّراً رَجِيماً﴾ [الفرقان: ٦].

(٨) ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا معبود بحق، ولا مألوه بالحب والذل، والخوف والرجاء، والمحبة والإنابة والدعاء - إلا هو ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ له الأسماء الكثيرة الكاملة

أصابه من اللثغ حين عرض عليه التمرة والجمرة، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه؛ كما في حديث الفتون.

(٢٨) ﴿يَقْفَهُوا قَوْلِي﴾ أحلل العقدة كي يفهموا كلامي، فسأل الله أن يزول العي، ويحصل لهم فهم ما يريد منه، وهو قدر الحاجة، ولو سأل الجميع لزال، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة.

(٢٩) ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا﴾ معيّنًا يعينني، ويؤازرني ويساعدني على من أرسلت إليهم ﴿مِنْ أَهْلِي﴾ من إخوتي في النسب.

(٣٠) ﴿هَؤُلَاءِ أَخِي﴾ وهذا - أيضًا - سؤال من موسى في أمر خارجي عنه، وهو مساعدة أخيه هارون له، وكان هارون أكبر من موسى، وأفصح منه لسانًا.

(٣١) ﴿أَشَدُّ بِهِ أَرَى﴾ قوّ به ظهري.

(٣٢) ﴿وَأَشْرِكْ فِي أَمْرِي﴾ في النبوة وتبليغ الرسالة ومشاورتي، بأن تجعله نبيًا كما جعلتني.

(٣٣) ثم ذكر الفائدة في ذلك، فقال: ﴿كَئِنْ شِئْتَ كَثِيرًا﴾ نصلي لك كثيرًا.

(٣٤) ﴿وَنَذْكُرْكَ كَثِيرًا﴾ علم - عليه الصلاة والسلام - أن مدار العبادات كلها والدين على ذكر الله فسأل الله أن يجعل أخاه معه، يتساعدان ويتعاونان على البر والتقوى.

(٣٥) ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ تعلم حالنا وضعفنا وعجزنا، وافتقارنا إليك في كل الأمور، وأنت أبصر بنا من أنفسنا وأرحم.

(٣٦) ﴿قَالَ﴾ الله: ﴿قَدْ أُوتِيَ سُلُوكُكَ يَمُوسَى﴾ أعطيت جميع ما طلبت؛ فسنشرح صدرك، ونيسر أمرك، ونحل عقدة من لسانك يفقهوا

(٢٠) ﴿فَأَلْقَنَاهَا﴾ على وجه الأرض ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ انقلبت بإذن الله ثعبانًا عظيمًا، فولى موسى هاربًا خائفًا ولم يعقب، وفي وصفها بأنها تسعى إزالة لوهم يمكن وجوده، وهو: أن يظن أنها تخيل لا حقيقة، فكونها تسعى يزيل هذا الوهم.

(٢١) ﴿قَالَ﴾ الله لموسى: ﴿خُذْهَا﴾ بيمينك ﴿وَلَا تَخَفْ سَعِيدُهَا سِيرَتُهَا﴾ ليس عليك منها بأس سنردها هيئتها ﴿الْأُولَى﴾، أي: نردها عصا كما كانت، فامتثل موسى أمر الله إيمانًا به وتسليمًا، فأخذها، فعادت عصاه التي كان يعرفها.

(٢٢) ﴿وَأَضْمَمَ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ أدخل يدك في إبطك وضم عليك عضدك الذي هو جناح الإنسان، ﴿تَخْرُجُ بَيْضَاءَ﴾ بياضًا ساطعًا ﴿مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ﴾ من غير عيب ولا برص ﴿ءَايَةً أُخْرَى﴾ دلالة أخرى على صدقك سوى العصا.

(٢٣) ﴿لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾؛ أي: فعلنا ما ذكرنا من انقلاب العصا حية تسعى، ومن خروج اليد بيضاء للناظرين؛ لأجل أن نريك من آياتنا الكبرى.

(٢٤) ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ تمرد وزاد على الحد في الكفر والفساد، والعلو في الأرض.

(٢٥) ﴿قَالَ﴾ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ أَشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ وسعه وأفسحه؛ لأتحمل الأذى القولي والفعلية.

(٢٦) ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ سهل علي كل أمر أسلكه وكل طريق أقصده في سبيلك.

(٢٧) ﴿وَأَخْلَلْ عَقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ وكان في لسانه ثقل لا يكاد يفهم عنه الكلام؛ وذلك لما كان

السالفة عليه .

(٣٨) ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرًا﴾ أَلْهَمْنَا أَمْرًا ﴿مَا يُوحَىٰ﴾ ما يلهم ، ثم فسر هذا الإلهام ، وعدد نعمه عليه ، فقال :

(٣٩) ﴿أَن أَقْذِفَهُ فِي التَّابُوتِ﴾ حيث أَلْهَمْنَا أَمْرًا أَنْ تَجْعَلَكَ فِي التَّابُوتِ وَفِي الرِّضَاعَةِ ؛ لَخَوْفِهَا عَلَيْكَ مِنْ فِرْعَوْنَ ، فَجَعَلْتَكَ فِي التَّابُوتِ ﴿فَأَقْذِفْهُ فِي الْيَمِّ﴾ ثُمَّ أَلْقَيْتَكَ فِي نَهْرِ النِّيلِ ﴿فَلْيَلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ شاطئ النهر ، فَأَمَرَ اللَّهُ الْيَمَّ أَنْ يَلْقِيَهُ فِي السَّاحِلِ ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُمْ﴾ وَقِيضَ اللَّهُ أَنْ يَأْخُذَهُ فِرْعَوْنَ أَعْدَى الْأَعْدَاءِ لَهُ وَلِمُوسَى ، وَيَتْرِبِي فِي أَوْلَادِهِ ، وَيَكُونَ قَرَّةَ عَيْنٍ لِمَنْ رَأَاهُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ فَكُلُّ مَنْ رَأَاهُ أَحَبُّهُ ﴿وَلِنُصْنَعُ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ لَتَتْرِبِي عَلَىٰ نَظَرِي وَفِي حَفْظِي وَكَلَاءَتِي ، وَأَيُّ نَظَرٍ وَكِفَالَةٍ أَجَلٍ وَأَكْمَلٍ مِنْ وَلَايَةِ الْبَرِّ الرَّحِيمِ ، الْقَادِرِ عَلَىٰ إِصْلَاحِ مَصَالِحِ عِبْدِهِ ، وَدَفْعِ الْمَضَارِّ عَنْهُ ؟ !

(٤٠) ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ﴾ فَجَاءَتْ أُخْتُ مُوسَى

إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحَىٰ ٣٨ أَنْ أَقْذِفِهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْذِفِهِ فِي الْيَمِّ فَلْيَلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُمْ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِنُصْنَعُ عَلَىٰ عَيْنِي ٣٩ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُمْ فَرْجَعْنَاهُ إِلَيْكَ أَمْرًا لِّي نَقَرَّ عَيْنَهُمَا وَلَا تَحْزَنْ وَفَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَكْنَا قُوتًا فَلَمَّثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْشِي ٤٠ وَأَصْطَبَحْتَكَ لِنَفْسِي ٤١ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِمَا بَيْنِي وَبَيْنَا فِي ذِكْرِي ٤٢ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ٤٣ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّينَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَحْشَىٰ ٤٤ قَالَ لَا رَبَّنَا إِنَّا نَتَخَفُ أَنْ يَقْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطَّعِنَا ٤٥ قَالَ لَا تَخَفَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْعَىٰ وَارَىٰ ٤٦ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بِنْتَكُمْ وَاتَّبِعُوا الْوَيْلَ وَلَا تَغْلِبْهُمْ قَدْ جُنَّكَ بِمَا يُبْرَأُ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا نَسَآءُ الْمَلَائِكَةِ ٤٧ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ٤٨ قَالَ فَمِنْ رَبِّكَ يَا مُوسَىٰ ٤٩ قَالَ رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُمْ هُمْ هَدَىٰ ٥٠ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ٥١

قولك ، ونشد عضدك بأخيك هارون .

(٣٧) ﴿وَلَقَدْ مَتَّأْنَا عَلَيْكَ﴾ أَنْعَمْنَا عَلَيْكَ ﴿مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ قَبْلَ هَذِهِ الْمَرَّةِ ، وَهَذَا تَذْكِيرٌ لَهُ بِنِعْمَةِ

(٤٠) أَخْرَجَ السَّائِي وَالطَّبْرِي فِي «تَفْسِيرِهِمَا» وَأَبُو يَعْلَى فِي «مُسْنَدِهِ» بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ ، قَالَ : سَأَلْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى لِمُوسَى : ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ فَسَأَلْتُهُ عَنِ الْفُتُونِ : مَا هِيَ ؟ فَقَالَ اسْتَأْنَفَ النَّهَارَ يَا ابْنَ جَبْرِ ؛ فَإِنْ لَهَا حَدِيثًا طَوِيلًا . فَلَمَّا أَصْبَحَتْ غَدَوْتُ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ ؛ لِأَنِّي تَجَزَّيْتُ مِنْهُ مَا وَعَدَنِي مِنْ حَدِيثِ الْفُتُونِ ، فَقَالَ : تَذَكَّرْ فِرْعَوْنَ وَجُلَسَاؤَهُ مَا كَانَ اللَّهُ وَعَدَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَجْعَلَ فِي ذُرِّيَّتِهِ أَنْبِيَاءَ وَمُلُوكًا ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَنْتَظِرُونَ ذَلِكَ ، مَا يَشْكُونَ فِيهِ ، وَكَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّهُ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ ، فَلَمَّا هَلَكَ قَالُوا : لَيْسَ هَكَذَا كَانَ وَعْدُ إِبْرَاهِيمَ ، فَقَالَ فِرْعَوْنَ : فَكَيْفَ تَرَوْنَ ؟ فَأَتَمَّرُوا وَاجْتَمَعُوا أَمْرَهُمْ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ رَجُلًا مَعَهُمُ الشَّفَارَ ، يَطُوفُونَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ ؛ فَلَا يَجِدُونَ مَوْلُودًا ذَكَرًا إِلَّا ذَبَحُوهُ ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ . فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّ الْكِبَارَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَمُوتُونَ بِأَجَالِهِمْ ، وَالصَّغَارَ يَذْبَحُونَ ، قَالُوا : تَوْشَكُونَ أَنْ تَفْتَنُوا بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَتَصِيرُوا إِلَى أَنْ تَبَاشِرُوا مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْخِدْمَةِ الَّذِي كَانُوا يَكْفُونَكُمْ ، فَاقْتُلُوا عَامًّا كُلَّ مَوْلُودٍ ذَكَرٍ ؛ فَيَقِلَّ نَبَاتُهُمْ ، وَدَعُوا عَامًّا ؛ فَلَا تَقْتُلُوا مِنْهُمْ أَحَدًا ، فَيَشِبَّ الصَّغَارَ مَكَانَ مَنْ يَمُوتُ مِنَ الْكِبَارِ ؛ فَإِنَّهُمْ لَنْ يَكْثُرُوا بِمَنْ تَسْتَحْيُونَ مِنْهُمْ ، فَتَخَافُوا مَكَارِهِمْ إِيَّاكُمْ ، وَلَنْ يَفْنَوْا بِمَنْ تَقْتُلُونَ وَتَحْتَاجُونَ إِلَيْهِمْ . فَأَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عَلَى ذَلِكَ .

فَحَمَلَتْ أُمُّ مُوسَى بِهَارُونَ فِي الْعَامِ الَّذِي لَا يَقْتُلُ فِيهِ الْغُلَمَانُ ، فَوَلَدَتْهُ عِلَانِيَةً آمَنَةً ، فَلَمَّا كَانَ مِنْ قَابِلٍ ، حَمَلَتْ بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَوَقَعَ فِي قَلْبِهَا الْهَمُّ وَالْحُزْنُ ، وَذَلِكَ مِنَ الْفُتُونِ يَا ابْنَ جَبْرِ ، مَا دَخَلَ عَلَيْهِ فِي بَطْنِ أُمِّهِ مِمَّا يَرَادُ بِهِ ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهَا : ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنْكَ مِنَ الْفَرَسَلِكِ﴾ ، فَأَمَرَهَا إِذَا وَلَدَتْ أَنْ تَجْعَلَهُ فِي تَابُوتٍ وَتَلْقِيَهُ فِي الْيَمِّ ، فَلَمَّا وَلَدَتْ ؛ فَعَلَتْ =

متعرفة خبره ﴿فَقُولْ﴾ لهم: ﴿هَلْ أَذْلَكُمْ عَلَىٰ مَنْ يَكْفُلُهُ﴾ على امرأة ترضعه وتضمه بالأجرة، وذلك

ذلك، فلما توارى عنها ابنها، أتاها الشيطان، فقالت في نفسها: ما فعلت بابني؟! لو ذبح عندي فواريته وكفنته كان أحب إلي من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيثانه.

فانتهى الماء به حتى أوفى به عند فُرْصَةٍ - وهي مَشْرَبُ الماء من النَّهْرِ - تستقي منها جوارى امرأة فرعون، فلما رأيته أخذنه، فهممن أن يفتحن الثابوت، فقال بعضهن: إن في هذا مالا، وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدنا فيه. فحملته كهيئته، لم يخرج منه شيئا حتى دفعه إليها، فلما فتحته؛ رأت فيه غلاما، فألقى الله عليه منها محبة لم يُلْقَ منها على أحد قط. ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ قَرِيْنًا﴾ من ذكر كل شيء إلا من ذكر موسى، فلما سمع الذباحون بأمره؛ أقبلوا بشفاههم إلى امرأة فرعون؛ ليذبحوه. وذلك من الفتون يا ابن جبير!، فقالت لهم: أقرؤه؛ فإن هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل، حتى أتى فرعون فأستوهبه منه، فإن وهبه لي؛ كنتم قد أحسنتم وأجملتم، وإن أمر بذبحه؛ لم ألكم، فأتت فرعون؛ فقالت: ﴿فَرِّثْ عَنِّي لِئَ لَا يَكُونَ لَكَ وَلَدٌ﴾؛ فقال فرعون: يكون لك، فأما لي؛ فلا حاجة لي فيه. فقال رسول الله ﷺ: «والذي يُحْلِفُ به؛ لو أقر فرعون أن يكون له قرة عين كما أقرت امرأته؛ لهداه الله كما هداها، ولكن حرمه ذلك». فأرسلت إلى من حولها، إلى كل امرأة لها؛ لأن تختار له ظفرا، فجعل كلما أخذته امرأة منهم لترضعه؛ لم يقبل على ثديها، حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت، فأحزنها ذلك، فأمرت به، فأخرج إلى السوق ومجمع الناس؛ ترجو أن تجد له ظفرا تأخذه منها، فلم يقبل.

وأصبحت أم موسى والهأ، فقالت لأخته: قُضِيَ أثره واطليبه، هل تسمعين له ذكرا؟ أحيي ابني أم قد أكلته الدواب؟ ونسيت ما كان الله وعدا فيه.

فبصرت به أخته عن - عن بعد - جنب وهم لا يشعرون، فقالت من الفرح حين أعياهم الظوورات: أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون. فأخذوها، فقالوا: ما يدريك ما نصحهم له؟ هل يعرفونه؟ حتى شكوا في ذلك، وذلك من الفتون يا ابن جبير!

فقالت: نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في صهر الملك ورجاء منفعة الملك، فأرسلوها فانطلقت إلى أمها، فأخبرتها الخبر، فجاءت أمه، فلما وضعته في حجرها، نزا إلى ثديها، فمصه حتى امتلأ جنباه رثا.

وانطلق البشير إلى امرأة فرعون يبشرها: أن قد وجدنا لابنك ظفرا، فأرسلت إليها، فأتت بها وبه، فلما رأت ما يصنع بها؛ قالت امكثي؛ ترضعي ابني هذا، فإني لم أحب شيئا حبه قط. قالت أم موسى: لا أستطيع أن أترك بيتي وولدي فيضيع، فإن طابت نفسك أن تعطينه فأذهب به إلى بيتي فيكون معي لا آله خيرا؛ فعلت، فإني غير تاركة بيتي وولدي، وذكرت أم موسى ما كان الله وعدا، فتعاسرت على امرأة فرعون، وأيقنت أن الله منجز مواعده، فرجعت إلى بيتها من يومها، وأنبته الله نباتا حسنا، وحفظه لما قد قضى فيه. فلم يزل بنو إسرائيل وهم في ناحية القرية ممتنعين من السخرة والظلم ما كان فيهم.

فلما ترعرع، قالت امرأة فرعون لأم موسى: أزيريني ابني، فوعدها يوما تزيروا إياه فيه، وقالت امرأة فرعون لخزانها وظهورها وقهارمها: لا يبقين أحد منكم إلا استقبل ابني اليوم بهدية وكرامة؛ لأرى ذلك فيه وأنا باعثة أمينا يحصي كل ما يصنع كل إنسان منكم. فلم تزل الهدايا والكرامة والنحل تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون، فلما دخل عليها؛ نحلته وأكرمه وفرحت به، ونحلت أمه؛ لحسن أثرها عليها، ثم قالت: لآتين فرعون؛ فلينحله وليكرمته.

فلما دخلت به عليه؛ جعله في حجره، فتناول موسى لحية فرعون، فمدّها إلى الأرض، فقال الغواة من أعداء الله لفرعون: ألا ترى ما وعد الله إبراهيم نبيه؟! إنه زعم أنه يرثك ويعلوك ويصرعك. فأرسل إلى الذباحين؛ ليذبحوه، وذلك من الفتون يا ابن جبير، بعد كل بلاء ابتلي به وأريد به!

أنه لما استقر عند آل فرعون عرضوا عليه المراضع | فأبأها، ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بلفائك

فجاءت امرأة فرعون تسعى إلى فرعون، فقالت: ما بدا لك في هذا الغلام الذي وهبته لي؟ فقال: ألا تريه؟! يزعم أن يصرعني ويعلونني، فقالت: اجعل بيني وبينك أمراً؛ تعرف فيه الحق: اتت بجمرتين ولؤلؤتين فقربهن إليه؛ فإن بطش باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين؛ عرفت أنه يعقل، وإن تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين؛ علمت أن أحداً لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل، ف قرب ذلك إليه، فتناول الجمرتين فانزعجتهما منه مخافة أن يحرقا يده، فقالت المرأة: ألا ترى؟ فصرفه الله عنه بعدما كان قد هم به، وكان الله بالغاً فيه أمره.

فلما بلغ أشده وكان من الرجال؛ لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل معه بظلم ولا سخرة، حتى امتنعوا كل الامتناع.

فبينما موسى عليه السلام يمشي في ناحية المدينة، إذا هو برجلين يقتتلان، أحدهما فرعوني، والآخر إسرائيلي، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني، فغضب موسى غضباً شديداً؛ لأنه تناوله وهو يعلم منزلته من بني إسرائيل وحفظه لهم، لا يعلم الناس إلا أنه من الرضاع إلا أم موسى، إلا أن يكون الله أطلع موسى من ذلك على ما لم يطلع عليه غيره، فوكز موسى الفرعوني فقتله، وليس يراهما أحد إلا الله تعالى، فقال موسى حين قتل الرجل: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ [القصص: ١٥] ثم قال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [١٦] قَالَ رَبِّ يَمَا أَفْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَن أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ [القصص: ١٦] فأصبح في المدينة خائفاً يترقب الأخبار.

فأتي فرعون، فقيل له: إن بني إسرائيل قتلوا رجلاً من آل فرعون، فخذ لنا بحقنا ولا ترخص لهم. فقال: ابغوني قاتله ومن يشهد عليه، فإن الملك وإن كان صفوه مع قومه، لا ينبغي له أن يقتل بغير بينة ولا ثبت، فاطلبوا لي علم ذلك؛ أخذ لكم بحقكم.

فبينما هم يطوفون لا يجدون بينة؛ إذا بموسى من الغد قد رأى ذلك الإسرائيلي يقاتل رجلاً من آل فرعون آخر، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني، فصادف موسى وقد ندم على ما كان منه، وكره الذي رأى، فغضب الإسرائيلي وهو يريد أن يبطش بالفرعوني، فقال للإسرائيلي لما فعل أمس واليوم: ﴿إِنَّكَ لَنَافٍ تُبِينٌ﴾. فنظر الإسرائيلي إلى موسى عليه السلام بعدما قال له ما قال، فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذي قتل فيه الفرعوني، فخاف أن يكون بعدما قاله له: ﴿إِنَّكَ لَنَافٍ تُبِينٌ﴾ أن يكون إياه أراد، ولم يكن أراد، وإنما أراد الفرعوني، فخاف الإسرائيلي، وقال: ﴿يَمُوسَى أَتَرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا يَالْأَمِينُ؟﴾ وإنما قال له مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقته فتتاركا، وانطلق الفرعوني فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي من الخبر حين يقول: ﴿أَتَرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا يَالْأَمِينُ﴾.

فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى، فأخذ رسل فرعون الطريق الأعظم يمشون على هيتهم - غير متعجلين - يطلبون موسى، وهم لا يخافون أن يفتوتهم، فجاء رجل من شيعه موسى من أقصى المدينة، فاختصر طريقاً حتى سبقهم إلى موسى، فأخبره، وذلك من الفتون يا ابن جبير!

فخرج موسى متوجهاً نحو مدين، لم يلق بلاءً قبل ذلك، وليس له بالطريق علم، إلا حسن ظنه بربه تعالى فإنه قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢] ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ [القصص: ٢٣]؛ يعني: بذلك حابستين غنمهما، فقال لهما: ﴿مَا خَطْبُكُمَا؟﴾ [القصص: ٢٣] معتزلتين لا تسقيان مع الناس؟ قالتا: ليس لنا قوة نزاحم القوم، وإنما نتنظر فضول حياضهم ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾ [القصص: ٢٤] فجعل يغترف في الدلو ماء كثيراً، حتى كان أول الرعاء، وانصرفتا بغنمهما إلى أبيهما، وانصرف موسى، فاستظل بشجرة، وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَزَلْتُ إِلَيْكَ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ ولكي يذهب منها الحزن والغم | ﴿وَقَلَّتْ نَفْسًا﴾ وهو القبطي لما دخل المدينة وقت

واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنهما خُفلاً بطناً، فقال: إن لكما اليوم لشأتاً؟ فأخبرتهما بما صنع موسى، فأمر إحداهما أن تدعوه، فأنت موسى، فدعته، فلما كلمه قال: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥]، ليس لفرعون ولا لقومه علينا من سلطان، ولسنا في مملكته، فقالت إحداهما: ﴿يَبْتَئِتْ أَسْتَجِرْهُ إِنَّكَ خَيْرٌ مِّنْ أَسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، فاحتملته الغيرة على أن قال لها: ما يدريك؟ ما قوته؟ وما أمانته؟ قالت: أما قوته: فما رأيت منه في الدلو حين سقى لنا، لم أر رجلاً قط أقوى في ذلك السقي منه. وأما الأمانة: فإنه نظر إليّ حين أقبلت إليه وشخصت له، فلما علم أنني امرأة صوب رأسه فلم يرفعه حتى بلغته رسالتك، ثم قال لي: امشي خلفي، وانعتي لي الطريق، فلم يفعل هذا الأمر إلا وهو أمين، فسري عن أبيها وصدقها، وظن به الذي قالت.

فقال له: هل لك ﴿أَنْ أَتُكَلِّمَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَٰذَا أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَّاجٍ فَإِنِ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَعِنِّ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [القصص: ٢٧]

ففعل فكانت على نبي الله موسى ثماني سنين واجبة، وكانت السنتان عِدَّة منه، فقضى الله عنه عدته؛ فأتمها عشراً.

قال سعيد - وهو ابن جببر - فلقيني رجل من أهل النصرانية من علمائهم، فقال: هل تدري أي الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا، وأنا يومئذ لا أدري، فلقيت ابن عباس، فذكرت ذلك له، فقال: أما علمت أن ثمانية كانت على نبي الله واجبة، لم يكن نبي الله لينقص منها شيئاً، وتعلم أن الله كان قاضياً عن موسى عدته التي وعده؟! فإنه قضى عشر سنين، فلقيت النصراني، فأخبرته ذلك، فقال: الذي سألته فأخبرك أعلم منك بذلك؟ قلت: أجل، وأولى.

فلما سار موسى بأهله؛ كان من أمر النار والعصا ويده ما قص الله عليك في القرآن، فشكا إلى الله سبحانه ما يتخوف من آل فرعون في القتل، وعقدة لسانه؛ فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون؛ يكون له رداءً، يتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه، فاتاه الله ﷻ، سؤله وحل عقدة من لسانه، وأوحى الله إلى هارون، فأمره أن يلقاه.

فاندفع موسى بعصاه حتى لقي هارون، فانطلقا جميعاً إلى فرعون، فأقاما على بابه حيناً لا يؤذن لهما، ثم أذن لهما بعد حجاب شديد، فقالا: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ ﴿قَالَ فَمَنْ رَّبُّكُمَا﴾ فأخبراه بالذي قص الله عليك في القرآن، قال: فما تريدان؟ وذكره القتل، فاعتذر بما قد سمعت، قال: أريد أن تؤمن بالله، وترسل معي بني إسرائيل؛ فأبى عليه وقال: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأَبِ يَٰيَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فألقى عصاه فإذا هي حية عظيمة فاغرة فاها مسرعة إلى فرعون، فلما رآها فرعون قاصدة إليه؛ خافها، فاقتحم عن سريره، واستغاث بموسى أن يكفها عنه، ففعل، ثم أخرج يده من جيبه، فراها بيضاء من غير سوء؛ يعني: من غير برص، ثم ردها، فعادت إلى لونها الأول.

فاستشار الملأ حوله فيما رأى، فقالوا له: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكَ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكَ الْمَلَأَ﴾؛ يعني: ملكهم الذي هم فيه والعيش، وأبو على موسى أن يعطوه شيئاً مما طلب، وقالوا له: اجمع السحرة فإنهم بأرضك كثير حتى تغلب بسحرك سحرهما.

فأرسل إلى المدائن؛ فحشر له كل ساحر متعلم، فلما أتوا فرعون قالوا: بم يعمل هذا الساحر؟ قالوا: يعمل بالحيات. قالوا: فلا والله، ما أحد في الأرض يعمل السحر بالحيات والحيال والعصي الذي نعمل، فما أجرنا إن نحن غلبنا؟ قال لهم: أنتم أقاربى وخاصتي، وأنا صانع إليكم كل شيء أحببتم. فتواعدوا: يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى. قال سعيد: فحدثني ابن عباس أن يوم الزينة - اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحرة - هو يوم عاشوراء.

فلما اجتمعوا في صعيد، قال الناس بعضهم لبعض: انطلقوا؛ فلنحضر هذا الأمر ﴿لَمَلْنَا نَبْعِ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْفَٰلِقِينَ﴾؛ يعنون: موسى وهارون؛ استهزاء بهما، فقالوا: يا موسى - لقدرتهم بسحرهم -: ﴿إِنَّمَا أَنْ تُلْقِيَ وَإِنَّمَا أَنْ تَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ -

غفلة من أهلها، وجد رجلين يقتتلان، واحد من شبيعة موسى، والآخر من عدوه قبطي، فاستغاثه

قال: بل ألقوا **جَاهَكُمْ وَصِصْتَهُمْ وَقَالُوا بِعَرِّ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ** ﴿١٠﴾ فرأى موسى من سحرهم ما أوجس في نفسه خيفة، فأوحى الله إليه: **﴿إِنَّ أَلْفَ عَصَاكَ﴾** فلما ألقاها؛ صارت ثعباناً عظيماً فاغرة فاهها، فجعلت العصا تلتبس بالبحال حتى صارت جَزْراً على الثعبان تدخل فيه، حتى ما أبقت عصاً ولا حبلاً إلا ابتلعه!! فلما عرف السحرة ذلك قالوا: لو كان هذا سحراً؛ لم يبلغ من سحرنا كل هذا، ولكنه أمر من الله تعالى، آمنا بالله وبما جاء به موسى، ونُتوب إلى الله مما كنا عليه، فكسر الله ظهر فرعون في ذلك الموطن وأشياعه، **﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** ﴿١١﴾ فَعَلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١٢﴾.

وامرأة فرعون بارزة متبذلة، تدعو الله بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه، فمن رآها من آل فرعون؛ ظن أنها إنما ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه، وإنما كان حزنها وهمها لموسى.

فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة، كلما جاء بآية وعده عندها أن يرسل معه بني إسرائيل، فإذا مضت؛ أخلف موعده، وقال: هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا؟ فأرسل الله على قومه الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم آيات مفصلات؛ كل ذلك يشكو إلى موسى، ويطلب إليه أن يكفها عنه؛ ليوافقه على أن يرسل معه بني إسرائيل، فإذا كف ذلك عنه؛ أخلف موعده ونكث عهده!!

حتى أمر الله موسى بالخروج بقومه، فخرج بهم ليلاً، فلما أصبح فرعون ورأى أنهم قد مضوا؛ أرسل في المدائن حاشرين، فتبعه بجنود عظيمة كثيرة، وأوحى الله تعالى إلى البحر: إذا ضربك موسى عبدي بعصاه فانقلب اثنتي عشرة فرقة؛ حتى يجاوز موسى ومن معه، ثم التقى على من بقي بعد من فرعون وأشياعه، فنسي موسى أن يضرب البحر بالعصا، فانهتى إلى البحر وله قصيف، مخافة أن يضربه موسى بعصاه وهو غافل، فيصير عاصياً لله **﴿يَا أَيُّهَا الْمُدْرِكُونَ﴾** افعَل ما أمرك به ربك؛ فإنه لم يكذب ولم تكذب. قال: وعدني ربي إذا أتيت البحر؛ انفرق اثنتي عشرة فرقة حتى أجاوزه، ثم ذكر بعد ذلك العصا، فضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى، فانفرك البحر كما أمره ربه وكما وعد موسى، فلما أن جاوز موسى وأصحابه كلهم البحر ودخل فرعون وأصحابه؛ التقى عليهم البحر كما أمر، فلما جاوز موسى البحر، قال أصحابه: إنا نخاف ألا يكون فرعون غرق ولا نؤمن بهلاكه. فدعا ربه، فأخرج له بيده حتى استبقنوا بهلاكه.

ثم مروا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم: **﴿قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾** قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم فِيهِ وَظُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ قد رأيتم من العبر، وسمعتم ما يكفيكم.

ومضى فأنزلهم موسى منزلاً، وقال لهم: أطيعوا هارون؛ فإن الله قد استخلفه عليكم، فإني ذاهب إلى ربي. وأجلهم ثلاثين يوماً أن يرجع إليهم فيها.

فلما أتى ربه **﴿وَعَبَّ﴾** وأراد أن يكلمه في ثلاثين يوماً وقد صامهن، ليلهن ونهارهن، كره أن يكلم ربه وريح فيه فم الصائم، فتناول موسى شيئاً من نبات الأرض فمضغه، فقال له ربه حين أتاه: لم أفطرت؟ - وهو أعلم بالذي كان - قال: يا رب، إني كرهت أن أكلمك إلا وفمي طيب الريح، قال: أو ما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك؟! ارجع فصم عشرًا ثم ائتني، ففعل موسى ما أمره به ربه.

فلما رأى قوم موسى أنه لم يرجع إليهم في الأجل؛ ساءهم ذلك، وكان هارون قد خطبهم، فقال: إنكم خرجتم من مصر، ولقوم فرعون عندكم عواري وودائع، ولكم فيها مثل ذلك، وأنا أرى أن تحتسبوا ما لكم عندهم، ولا أحل لكم وديعة استودعتموها ولا عارية، ولسنا برادين إليهم شيئاً من ذلك ولا ممسكيه لأنفسنا. فحفر خفيراً، وأمر كل قوم عندهم من ذلك متاع أو حلية أن يقدفوه في ذلك الحفير، ثم أوقد عليه النار؛ فأحرقه، فقال: لا يكون لنا ولا لهم.

الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى | ففضى عليه، فدعا الله وسأله المغفرة، فغفر له،

- وكان السامري من قوم يعبدون البقر، جيران لبني إسرائيل، ولم يكن من بني إسرائيل، فاحتمل مع موسى وبني إسرائيل حين احتملوا، ففضى له أن رأى أثرًا، فقبض منه قبضة فمر بهارون، فقال له هارون: يا سامري، ألا تلقي ما في يديك؟ وهو قابض عليه لا يراه أحد طوال ذلك، فقال: هذه قبضة من أثر الرسول الذي جاوز بكم البحر، ولا ألقيا لشيء إلا أن تدعو الله إذا ألقيتها أن يكون ما أريد؛ فألقاها، ودعا له هارون، فقال: أريد أن تكون عجلًا، فاجتمع ما كان في الحفرة من متاع أو حلية أو نحاس أو حديد، فصار عجلًا أجوف، ليس فيه روح، وله خوار.

قال ابن عباس: لا والله، ما كان له صوت قط، إنما كانت الريح تدخل من دبره وتخرج من فيه. فكان ذلك الصوت من ذلك.

فتفرق بنو إسرائيل فرقًا، فقالت فرقة: يا سامري، ما هذا، وأنت أعلم به؟ قال: هذا ربكم، ولكن موسى أضل الطريق، فقالت فرقة: لا نكذب بهذا حتى يرجع إلينا موسى، فإن كان ربنا؛ لم تكن ضيعناه وعجزنا فيه حين رأيناه، وإن لم يكن ربنا؛ فإننا نبيع قول موسى. وقالت فرقة: هذا عمل الشيطان، وليس ربنا ولن نؤمن به ولا نصديق. وأشرب فرقة في قلوبهم الصدق بما قال السامري في العجل وأعلنوا عدم التكذيب به، فقال لهم هارون عليه السلام: ﴿يَقُولُوا إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾ ليس هذا، قالوا: فما بال موسى وعدنا ثلاثين يومًا ثم أحلفنا، هذه أربعون يومًا قد مضت؟! وقال: سفهاؤهم أخطأ ربه؛ فهو يطلبه وبيغته.

فلما كلم الله موسى، وقال له ما قال؛ أخبره بما لقي قومه من بعده ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ فقال لهم ما سمعتم في القرآن ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ ﴿وَالْقَى الْأَلْوَابَ﴾ من الغضب، ثم إنه عذر أخاه بعذره واستغفر له، وانصرف إلى السامري، فقال له: ما حملك على ما صنعت؟! قال: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ وفطنت لها وعميت عليكم، ﴿فَتَبَدَّتْهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلَعْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ ولو كان إلها؛ لم يخلص إلى ذلك منه.

فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة، واغبط الذين كان رأيهم فيه مثل رأي هارون، فقالوا لجماعتهم: يا موسى، سل لنا ربك أن يفتح لنا باب توبة نصنعها؛ فتكفر عنا ما عملنا.

فاختار موسى قومه سبعين رجلاً لذلك، لا يألو الخير، خيار بني إسرائيل ومن لم يشرك في العجل، فانطلق بهم يسأل لهم التوبة، فرجفت بهم الأرض، فاستحيا نبي الله عليه السلام من قومه ومن وفده حين فعل بهم ما فعل، فقال: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنِّي أَتْلُوكِ بِمَا فَعَلَ الْأَسْفَهَاءُ مِنِّي﴾ وفيهم من كان الله اطلع منه على ما أشرب قلبه من حب العجل وإيمانه به، لذلك رجفت بهم الأرض، فقال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ مَسَاسُكُمُ الَّذِينَ يَنْقُوتُ الرِّكَوَّةَ وَالَّذِينَ هُمْ يَكَايِنُنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ الرَّسُولَ الَّذِي الْأَثَرُ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُونًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧].

فقال: يا رب، سألتك التوبة لقومي، فقلت: إن رحمتي كتبها لقوم غير قومي، فليتك أخرتني حتى تخرجني في أمة ذلك الرجل المرحوم. فقال له: إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم كل من لقي من والد وولد، فيقتله بالسيف، ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن. وتاب أولئك الذين كان خفي على موسى وهارون ما اطلع الله من ذنوبهم، فاعترفوا بها وفعلوا ما أمروا، وغفر الله للقاتل والمقتول.

ثم سار بهم موسى عليه السلام متوجهاً نحو الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب، فأمرهم بالذي أمر به من الوظائف، فتنقل ذلك عليهم، وأبوا أن يقرؤوا بها، فتنق الله عليهم الجبل كأنه ظلة، ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم، فأخذوا الكتاب بأيمانهم وهم مصغون ينظرون إلى الجبل، والكتاب بأيديهم، وهو من وراء الجبل؛ مخافة أن يقع عليهم. =

يسهلها، ويخفف حملها.

(٤٣) ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ جاوز الحد في كفره وطغيانه وظلمه وعدوانه.

(٤٤) ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا سَهَلًا لَّطِيفًا﴾ برفق ولين وأدب في اللفظ من دون فحش ولا صلف، ﴿لَعَلَّهُمْ بِسَبَبِ الْقَوْلِ اللَّيِّنِ يَتَذَكَّرُ﴾ ما ينفعه فيأتيه ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾ ما يضره فيتركه.

(٤٥) ﴿قَالَا﴾ موسى وهارون ﴿إِنَّا نَخَافُ أَن يُفْرِطَ عَلَيْنَا﴾ يبادرنا بالعقوبة والإيقاع بنا قبل أن نبلغه رسالاتك ونقيم عليه الحجة ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ يتمرد عن الحق، ويطغى بملكه وسلطانه وجنده وأعدائه.

(٤٦) ﴿قَالَ﴾ الله: ﴿لَا تَخَافَا﴾ أن يفرط عليكما ﴿إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ أنتما بحفظي ورعايتي أسمع قولكما، وأرى جميع أحوالكما.

(٤٧) ﴿فَأَنبَأَهُ﴾ بهذين الأمرين: دعوته إلى الإسلام، وتخليص بني إسرائيل من قيده وتعبيده لهم ﴿فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ أرسلنا إليك

ثم فر هاربًا لما سمع أن الملاً طلبوه، يريدون قتله، ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ فنجاه الله من الغم، من عقوبة الذنب، ومن القتل ﴿وَفَنَّاكَ فُتُونًا﴾ اختبرناك وبلوناك، فوجدناك مستقيمًا في أحوالك ﴿فَلَمَّتْ﴾ مكثت ﴿سِينَ﴾ عشر سنين ﴿فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ بلدة شعيب عليه السلام على ثمانين مراحل من مصر، حين فر هاربًا من فرعون وملئه حين أرادوا قتله ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمُوسَىٰ﴾ جئت مجيئًا قد مضى به القدر، وعلمه الله، وأراد به في هذا الوقت وهذا الزمان وهذا المكان.

(٤٨) ﴿وَأَصْطَفَيْنَاكَ لِنُقْسِي﴾ أجريت عليك صنائعي ونعمي، واخترتك لرسالتي.

(٤٩) ﴿أَذْهَبَ أَنتَ وَلَوْحُكَ﴾ هارون ﴿بِقَائِنِي﴾ الآيات التي مني، الدالة على الحق وحسنه، ﴿وَلَا لِيَا فِي ذِكْرِي﴾ لا تفترا ولا تكسلا عن مداومة ذكرى بالاستمرار عليه، والزماء كما وعدتما بذلك ﴿كِي نَسْبَحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ فإن ذكر الله فيه معونة على جميع الأمور

ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة، فوجدوا مدينة فيها قوم جبارون؛ خلّتهم خلق منكرو، وذكروا من ثمارهم أمرًا عجبًا من عظمها، فقالوا: ﴿يَمُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ لا طاقة لنا بهم، ولا ندخلها ما داموا فيها ﴿فَإِن يَخْرُجُوا مِنَهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾، قيل ليزيد: هكذا قرأه؟ قال: نعم، من الجبارين، أمنا بموسى وخرجنا إليه، فقالوا: نحن أعلم بقومنا، إن كنتم إنما تخافون من ما رأيتم من أجسامهم وعددهم؛ فإنهم لا قلوب لهم ولا منعة عندهم، ﴿فَادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَانْكَبُوا عَلَيْهِمْ﴾. ويقول أناس: إنهم من قوم موسى.

فقال الذين يخافون من بني إسرائيل: ﴿يَمُوسَىٰ إِنَّا لَنَنذِرُكَ أَنَّكَ دَاخِلٌ فِيهَا فَأَذْهَبَ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾ فأغضبوا موسى، فدعا عليهم، وسماهم فاسقين، ولم يدع عليهم قبل ذلك لما رأى منهم من المعصية وإساءتهم حتى كان يومئذ، فاستجاب الله له، وسماهم كما سماهم موسى: فاسقين، فحرماهم عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض؛ يصبحون كل يوم، فيسيرون، ليس لهم قرار.

ثم ظلل عليهم الغمام في التيه، وأنزل عليهم المن والسلوى، وجعل لهم ثيابًا لا تبلى ولا تتسخ، وجعل بين ظهرانيهم حجبًا مربعا، وأمر موسى؛ فضربه بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا، في كل ناحية ثلاثة أعين، وأعلم كل سبط عينهم التي يشربون منها، فلا يرتحلون من محلة إلا وجدوا ذلك الحجر بينهم بالمكان الذي كان فيه بالأمس.

﴿فَأَرْسَلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ خل عنهم وأطلقهم عن أعمالك ﴿وَلَا تُعَذِّبُهُمْ﴾ لا تتعبهم في العمل؛ لأن فرعون كان يستعملهم في الأعمال الشاقة ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِثَابِتٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ بحجة ومعجزة تدل على صدقنا أيدينا بها الله الذي هو ربك ورب العالمين ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ أَتْبَعَ أَهْدَى﴾ من اتبع الصراط المستقيم، واهتدى بالشرع المبين، حصلت له السلامة في الدنيا والآخرة.

(٤٨) ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا﴾ خبرنا من عند الله، لا من عند أنفسنا ﴿أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ﴾ بأخبار الله، وأخبار رسله ﴿وَتَوَلَّى﴾ عن الانقياد لهم واتباعهم.

(٤٩) ﴿قَالَ﴾ فرعون لموسى منكراً وجود الصانع الخالق، إله كل شيء وربه ومليكه: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا﴾ الذي بعثكما وأرسلكما من هو؟ فإني لا أعرفه، وما علمت لكم من إله غيري.

(٥٠) ﴿قَالَ﴾ موسى ﷺ مجيباً بجواب شافٍ كافٍ واضح: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ ربنا الذي خلق جميع المخلوقات، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به ﴿ثُمَّ هَدَى﴾ كل مخلوق إلى ما خلقه له، وهذه الهداية الكاملة المشاهدة في جميع المخلوقات.

(٥١) ﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ ما حالهم؟ وما شأنهم؟ وما خبرهم؟

فإن فرعون لما أخبره موسى بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق وقدر فهدى، شرع يحتج بالقرون الماضية والأمم الخالية الذين لم يعبدوا الله.

(٥٢) ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ قد أحصى أعمالهم من خير وشر ليجازيهم بها ﴿فِي﴾

﴿قَالَ﴾ علمها عند ربِّي في كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَيُوسَى كُلَّهُمَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَى ﴿٥٧﴾ فَلَمَّا أَتَيْنَاكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُغْلِقُ عَلَيْكَ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِرَ الْإِنْسَانُ ضِغْتِي ﴿٥٩﴾ فَقَوْلِي فَفَرَعُونَ فَجَمَعَ كَيْدَهُمْ ثُمَّ أَتَى ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَلَكُمْ آلَاتُكُمْ لَا تَنْتَفِرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَسَجْتُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ أَقْبَرَى ﴿٦١﴾ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرَوْا النَّجْوَى ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرَانِ بُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرَفَيْكُمَا لَلْأُولَى ﴿٦٣﴾ فَأَجْعَلُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتُوا صَفًا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ أَسْتَعْلَى ﴿٦٤﴾

كِتَابٍ وكتبه في كتابه، وهو: اللوح المحفوظ ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي﴾ وأحاط به علماً وخبراً، فلا يضل عن شيء منها، ﴿وَلَا يَنْسَى﴾ ما علمه منها.

(٥٣) ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ فراشاً بحالة تتمكنون من السكون فيها والقرار ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ نفذ لكم الطرق الموصلة من أرض إلى أرض، ومن قطر إلى قطر ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أنزل المطر ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ بذلك الماء ﴿أَزْوَاجًا﴾ أصنافاً ﴿مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ مختلف الطعوم والألوان والمنافع من بين أبيض وأحمر وأخضر وأصفر، فكل صنف منها زوج، فمنها للناس، ومنها للدواب، ولهذا قال:

(٥٤) ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ وساقها على وجه الامتنان؛ ليدل ذلك على أن الأصل في جميع النباتات الإباحة، فلا يحرم منهم إلا ما كان

كلهم في وقت الضحى .

وإنما سأل موسى ذلك ؛ لأن يوم الزينة وقت الضحى فيه يحصل كثرة الاجتماع ، ورؤية الأشياء على حقائقها ، ما لا يحصل في غيره ، فيكون أبعد في الرية .

(٦٠) ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ جميع ما يقدر عليه ، مما يكيد به موسى ، فأرسل في مدائنه من يحشر السحرة الماهرين في سحرهم ، وكان السحر إذ ذاك متوافراً وعلماً مرغوباً فيه ، فجمع خلقاً كثيراً من السحرة ﴿ثُمَّ أَقْبَىٰ﴾ ثم جاء الموعد الذي وعده موسى ، وجاء بسحرته ، واجتمع الناس أيضاً للموعد ، فكان الجمع حافلاً ، حضره الرجال والنساء ، والملا والأشراف والعوام ، والصغار والكبار ، وحضوا الناس على الاجتماع ، وقالوا للناس : ﴿هَلْ أَنتُمْ مُّجْتَمِعُونَ﴾ لَعَلَّآ نَتَّبِعَ السَّحْرَةَ إِن كَانُوا هُمْ أَغْلَبِينَ ﴿٦١﴾ .

(٦١) ﴿قَالَ لَهُمُ مُوسَىٰ﴾ حين اجتمعوا من جميع البلدان ، واعظاً ومقيماً الحجة عليهم ، ﴿وَبَلِّغْهُمْ لَا تَقْرَءُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ لا تنصروا ما أنتم عليه من الباطل بسحركم وتغالبون الحق وتفترون على الله الكذب ﴿فَيَسْجُدْكُمْ بِعَذَابٍ﴾ فيستأصلكم بعذاب من عنده ، ﴿وَقَدْ خَابَ مِن أَفْرَتِي﴾ كما خاب فرعون فإنه افتري وحتال ليقى الملك عليه فلم ينفعه .

(٦٢) ﴿فَنَنْزِعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ تشاجروا فيما بينهم ، وتناظروا في أمر موسى فقال بعضهم : هو نبي . وقال البعض الآخر : هو ساحر ﴿وَأَسْرُوا﴾ أَلْجَوْهُ ﴿تَنَاجَوْا﴾ فيما بينهم .

(٦٣) ﴿قَالُوا﴾ وأسر بعضهم إلى بعض : ﴿إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ يعني : موسى وهارون ﴿إِنَّهُمَا﴾ يريدان أن يُخْرِجَاكَ مِن أَرْضِكُمْ مقصودهما

مضراً ؛ كالسموم ونحوه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْنِ﴾ لذوي العقول الرزينة ، والأفكار المستقيمة على فضل الله وإحسانه ، ورحمته ، وسعة جوده ، وتمام عنايته ، وعلى أنه الرب المعبود ، المالك المحمود ، الذي لا يستحق العبادة سواه ، ولا الحمد والمدح والثناء ، إلا من امتن بهذه النعم ، وعلى أنه على كل شيء قدير ، فكما أحيا الأرض بعد موتها ، إن ذلك لمحبي الموتى ، وخص الله أولي النهى بذلك ؛ لأنهم المنتفعون بها ، الناظرون إليها نظر اعتبار ، وأما من عداهم ؛ فإنهم بمنزلة البهائم السارحة والأنعام السائمة .

(٥٥) ﴿مِنْهَا﴾ من الأرض ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ ؛ يعني : أباكم آدم ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ عند الموت والدفن ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ يوم البعث .

(٥٦) ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا﴾ يخبر تعالى أنه أرى فرعون من الآيات والعبر والقواطع جميع أنواعها العيانية والأفقية والنفسية ، ﴿فَكَذَّبَ وَابَىٰ﴾ فما استقام ولا ارعوى ، وإنما كذب وتولى .

(٥٧) ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْوَسَىٰ﴾ زعم أن هذه الآيات التي أراه إياها موسى سحر وتمويه ، المقصود منها : إخراجهم من أرضهم .

(٥٨) ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ﴾ مثل سحرك ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ فأمهلنا ، واضرب بيننا وبينك أجلاً وميقاناً ﴿لَّا تَخْلِفْهُنَّ﴾ وَلَا أَنْتَ ﴿لَا نَجَاوِزُهُ﴾ مَكَانًا سَوًى ﴿مَسْتَوٍ عَلِمْنَا وَعَلِمَكَ بِهِ فِي مَكَانٍ مَّسْتَوٍ مَّعْتَدٍ﴾ لتتمكن من رؤية ما فيه .

(٥٩) ﴿قَالَ﴾ موسى : ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ وهو عيدهم الذي يتفرغون فيه ، ويقطعون شواغلهم ، ويتزينون فيه ﴿وَأَن يُخَشِّرَ النَّاسَ ضُحًى﴾ يجمعون

إخراجكم من مصر ﴿سِحْرِهِمَا﴾ بعلمهما بالسحر، فهما ساحران عالمان خبيران بصناعة السحر، وهذه كمقالة فرعون السابقة؛ فإما أن يكون ذلك توافقاً من فرعون والسحرة على هذه المقالة من غير قصد، وإما أن يكون تلقيناً منه لهم مقالته التي صمم عليها، وأظهرها للناس، وزادوا على قول فرعون أن قالوا: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرَفَيْكُمُ اللَّيْلُ﴾ طريقة السحر، حسدكم عليها وأراد أن يظهر عليكم؛ ليكون له الفخر والصيت والشهرة، ويكون هو المقصود بهذا العلم الذي شغلتم زمانكم فيه، ويذهب عنكم ما كنتم تأكلون بسببه، وما يتبع ذلك من الرياسة، وهذا حض من بعضهم على بعض، على الاجتهاد في مغالبتة، ولهذا قالوا:

(٦٤) ﴿فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ﴾ أظهره دفعة واحدة، متظاهرين متساعدين فيه، متناصرين، متفقاً رأيكم وكلمتكم ﴿ثُمَّ اتَّوُفَّا صَفًّا﴾ ليكون أمكن لعملكم، وأهيب لكم في القلوب، ولئلا يترك بعضكم بعض مقدوره من العمل ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ أَسْتَعْلَى﴾ واعلموا أن من أفلح اليوم ونجح وغلب غيره؛ فإنه المفلح الفائز، فهذا يوم له ما بعده من الأيام.

(٦٥) ﴿قَالُوا﴾ السحرة: ﴿يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى﴾ عصاك ﴿وَأِمَّا أَنْ نُكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ خيروهم موهمين أنهم على جزم من ظهورهم عليه بأي حالة كانت.

(٦٦) ﴿قَالَ﴾ لهم موسى: ﴿بَلْ أَلْقُوا﴾ أنتم أولاً؛ ليرى ماذا تصنعون من السحر، وليظهر

قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نُكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ٦٥ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِأَهُمْ وَعَصِيَهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَهَا تَسْعَى ٦٦ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْآخِزُ ٦٨ وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٌ وَلَا يَقْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقْبَى ٦٩ فَأَلْقَى لِلْسَّحَرَةِ مِجَدَاً قَالُوا مَا مَتَّاعٌ بِهَذِهِ مُوسَى ٧٠ قَالَ آمَنْتُمْ لَكُمْ قِيلَ أَنْ أَدْنَى لَكُمْ أَنْتُمْ لِكَيْدِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا قُطْعَ أَيْدِيكُمْ وَأَنْتُمْ كَمِنْ جَانِفٍ وَأَصْلَيْتُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلِتَعْلَمَنَّ أَيْتَانَا أَشَدَّ عَذَاباً وَأَبْقَى ٧١ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنْ الْبَيْتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ٧٢ إِنَّمَا آمَنَ بِرَبِّنَا الْغَفَرُ لَنَا خَطِيئَتُنَا وَمَا أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِمْ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ٧٣ إِنَّهُمْ مِنْ بَابِ رَبِّهِمْ يَجْرِمُونَ فَإِنْ لَمْ يَهْتَمُّ لَایَمُوتُوا فِيهَا وَلَا يَحْيَى ٧٤ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْتَقَدٌ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ٧٥ حِجَّتْ عَدُوٌّ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ٧٦

للناس جليلة أمرهم ﴿فَإِذَا جِأَهُمْ﴾ أي: فآلقوا، فإذا حبالهم ﴿وَعَصِيَهُمْ﴾ جمع عصا ﴿يُخِيلُ إِلَيْهِ﴾ إلى موسى ﴿مِنْ سِحْرِهِمْ﴾ البليغ ﴿أَنَهَا تَسْعَى﴾ أنها حيات تسعى.

(٦٧) ﴿فَأَوْجَسَ﴾ وجد ﴿فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ خوفاً فطرياً يعتري النفس البشرية، وقد يكون خاف على الناس أن يفتنوا بسحرهم ويغترون بهم قبل أن تظهر معجزته.

(٦٨) ﴿قُلْنَا﴾ له تثبيتاً وتطميناً: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْآخِزُ﴾ ستعلوا عليهم وتقهرهم، ويذلوا لك ويخضعوا.

(٦٩) ﴿وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ﴾ أي: عصاك؛ فإذا هي ﴿تَلَقَّفَ﴾ تلتقم وتبتلع ﴿مَا صَنَعُوا﴾ من

(٦٩) في «سنن أبي داود»، و«مسند الإمام أحمد» بإسناد صحيح عن عمرو بن دينار: أنه سمع بجالة يقول: «كتب عمر رضي الله عنه: أن اقتلوا كل ساحر وساحرة. فقتلنا ثلاث سواحر».

لا عقل له .

(٧٢) ﴿قَالُوا﴾؛ أي: السحرة: ﴿أَنْ تُؤْثِرَكَ﴾ لن نختارك، وما وعدتنا به من الأجر والتقريب ﴿عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ﴾ على ما أَرَانَا اللَّهُ من الآيات البينات الدالات على أن اللَّه هو الرب المعبود وحده، المعظم المبجل وحده، وأن ما سواه باطل ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ يحتمل أن يكون قسمًا، ويحتمل أن يكون معطوفًا على «البيانات» يعنون: لا نختارك على فاطرنا وخالقنا الذي أنشأنا من العدم، المبتدئ خلقنا من الطين، فهو المستحق للعبادة والخضوع، لا أنت، ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ مما أوعدتنا به: من القطع والصلب والعذاب ﴿إِنَّمَا نَقْضِي هَذِهِ الْحَبْوَ الدُّنْيَا﴾ إنما توعدنا به غاية ما يكون في هذه الحياة الدنيا، وفي هذا الكلام من السحرة دليل أنه ينبغي للعاقل أن يوازن بين لذات الدنيا ولذات الآخرة، وبين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

(٧٣) ﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا﴾؛ أي: كُفِّرنا ومعاصينا؛ فإن الإيمان مكفر السيئات، والتوبة تجب ما قبلها ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ الذي عارضنا به الحق، وفي هذا دليل على أنهم غير مختارين في عملهم المتقدم، وإنما أكرههم فرعون إكراهًا ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ﴾؛ لنا منك ﴿وَأَبْقَى﴾ ثوابًا مما كنت وعدتنا.

(٧٤) ﴿إِنَّهُمْ مِنْ يَأْتِ رَبِّكَ﴾ يخبر تعالى أن من أتاه وقدم عليه ﴿مُجْرِمًا﴾ وصفه الجرم من كل وجه،

السحر ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا﴾ إن الذي صنعوا ﴿كَيْدٌ سِحْرٍ﴾ حيلة ساحر ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾؛ أي: كيدهم ومكرهم ليس بمثمر لهم، ولا ناجح؛ فإنه من كيد السحرة الذين يموهون على الناس، ويلبسون الباطل، فتلقفت ما صنعوا كله وأكلته، والناس ينظرون لذلك الصنيع، فعلم السحرة علمًا يقينًا أن هذا ليس بسحر، وأنه من الله، فبادروا للإيمان.

(٧٥) ﴿فَأَتَى السَّحْرَةَ بُعْدًا﴾ وقعوا ساجدين ﴿قَالُوا﴾ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَى رَبِّ الْعَالَمِينَ الذي أرسل موسى وهارون، كما في قوله: ﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ [الشعراء: ٤٧ - ٤٨]، ولهذا قال بعض السلف: كانوا أول النهار كفارًا سحرة، وفي آخره شهداء بررة.

(٧٦) ﴿قَالَ﴾ فرعون للسحرة: ﴿ءَامَنْتُمْ لَكُمْ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ كيف أقدمتم على الإيمان من دون مراجعة مني ولا إذن؟ ﴿إِنَّكُمْ لَكَايِرُكُمْ﴾ الذي علمكم السحر؛ أي: أنتم أخذتم السحر عن موسى، واتفقتم أنتم وإياه عليّ وعلى رعيتي لتظهروه ﴿فَلَا تَقْطَعْنَ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ﴾ كما يفعل بالمحارب الساعي بالفساد؛ يقطع يده اليمنى ورجله اليسرى ﴿وَلَا صَلْبِنَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ لأجل أن تشتهروا وتختزوا وقوله: ﴿فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ أي: على جذوع النخل ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ إِنَّمَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ يعني: بزعمه هو أو الله، وأنه أشد عذابًا من الله، وأبقى قلبًا للحقائق، وترهيبًا لمن

(٧٤) في «صحيح مسلم» من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها؛ فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناس تصيبهم النار بذنوبهم، فميتهم إماتة، حتى إذا صاروا فحمًا أذن في الشفاعة، فجيء بهم ضبائر ضبائر - جماعات - فبثوا على أنهار الجنة، فيقال: يا أهل الجنة، أفيضوا عليهم، فينبثون نبات الجنة، تكون في حصيل السيل». فقال رجل من القوم: كأن رسول الله ﷺ كان بالبادية!

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعَادِي فَأَضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا يَخْشَى (٧٧) فَأَتَيْنَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَصْلَ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَاهْدَى (٧٩) يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَجْنَحَكَ مِنْ عَدُوِّكَ وَوَعَدَنَّاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوى (٨٠) كَلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (٨٢) وَمَا أَعْجَلَك عَنْ قَوْمِكَ بِمُوسَى (٨٣) قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (٨٤) قَالَ فَإِنَّكَ فِتْنَتَا قَوْمِكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَسْلَمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا قَالَ يَقُولُونَ لَمْ يَدْعِكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدَّ أَحْسَنًا أَطْلَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْذَارًا مِنْ رَبِّنَا الْقَوْمُ فَقَدْ فَتَنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْفَى السَّامِرِيُّ (٨٧)

تَخَشَّى ﴿٧٧﴾ ولا يخشوا من الغرق في البحر .
 ﴿٧٨﴾ ﴿فَأَتَيْنَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ﴾ فجاء فرعون وجنوده، فسلكوا وراءهم، حتى إذا تكامل قوم موسى خارجين، وقوم فرعون داخلين أمر الله البحر فالتطم عليهم، ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ غرقوا كلهم .

﴿٧٩﴾ ﴿وَأَصْلَ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ﴾ بما زين لهم من الكفر، وتهجين ما أتى به موسى، واستخفافه إياهم، ﴿وَمَا هَدَى﴾ وما هداهم في وقت من الأوقات، فأوردتهم موارد الغي والضلال، ثم أوردتهم مورد العذاب والنكال .
 ﴿٨٠﴾ ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَجْنَحَكَ مِنْ عَدُوِّكَ﴾ يُذَكِّر

واستمر على ذلك حتى مات ﴿فَإِنَّ لَكُمْ جَهَنَّمَ﴾ الشديد نكالها، العظيمة أغلالها، البعيد قعرها، الأليم حرها وقرها، التي فيها من العقاب ما يذيب الأكباد والقلوب، ومن شدة ذلك أن المعذب فيها ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ فلا يموت فيستريح، ولا يحيا حياة يتلذذ بها؛ كقوله تعالى : ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ [فاطر: ٣٦] .
 ﴿٧٥﴾ ﴿وَمَنْ يَأْتِيهِ مُؤْمِنًا﴾ به، مصدقاً لرسله، متبعاً لكتبه، ﴿قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ الواجبة والمستحبة ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ المنازل العاليات في الغرف المزخرفات، واللذات المتواصلات، والأنهار السارحات .

﴿٧٦﴾ ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ﴾ إقامة دائمة ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ بين الأشجار وخلال القصور ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ماكثين أبداً، لا يخرجون ولا يزحزون، ﴿وَذَلِكَ﴾ الثواب ﴿جَزَاءً مَنْ تَزَكَّى﴾ تطهر من الشرك والكفر والفسوق والعصيان .

﴿٧٧﴾ ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى﴾ أوحى الله إلى نبيه موسى ﴿أَنْ أَسْرِ بِعَادِي﴾ أي: سر بهم ليلاً من أرض مصر، فخرجوا أول الليل، جميع بني إسرائيل ونسأؤهم وذريتهم، ﴿فَأَضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ أوحى الله أن يضرب البحر بعصاه، ففصره، فانفرد اثني عشر طريقاً، وصار الماء كالجبال العالية عن يمين الطرق ويسارها، وأيسس الله طرقهم التي انفرد عنها الماء ﴿لَا تَخَفْ دَرَكًا﴾ أمرهم الله أن لا يخافوا من إدراك فرعون ﴿وَلَا

(٧٥) في «الصحاحين» من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل عليين ليرون من فوقهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء؛ لتفاضل ما بينهم». قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء؟ قال: «بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين» .

لِرَضَى ﴿٨٥﴾ والذي عجلني إليك يا رب: الطلب لقربك، والمسارة في رضاك، والشوق إليك. ﴿٨٥﴾ ﴿قَالَ﴾ اللَّهُ لَهُ: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾ بعبادتهم للعجل؛ ابتليناهم واختبرناهم، فلم يصبروا، وحين وصلت إليهم المحنة كفروا ﴿وَأَضَلُّهُمْ السَّامِرِيُّ﴾ بصنع العجل حيث أخرج لهم عجلاً جسداً له خوار، فقال لهم: هذا إلهكم وإله موسى فنسي. فافتتن به بنو إسرائيل فعبدوه، ونهاهم هارون فلم ينتهوا.

﴿٨٦﴾ ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ﴾ فلما رجع موسى إلى قومه ﴿غَضِبْنَ أَيْفًا﴾ ممتلئاً غيظاً وحنفاً وغماً، ﴿قَالَ﴾ لهم موبخاً ومقبحاً لفعالهم: ﴿يَقُولُ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًا حَسَنًا﴾ وذلك بإنزال التوراة، ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾ المدة، فتطاولتم غيبتي، وهي مدة قصيرة؟ ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يُحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّكُمْ﴾ فتعرضتم لأسبابه، واقتحمتم موجب عذابه، وهذا هو الواقع ﴿فَأَخْلَقْتُمْ مَّوْعِدِي﴾ حين أمرتكم بالاستقامة، ووصيت بكم هارون، فلم ترقبوا غائباً، ولم تحترموا حاضراً.

﴿٨٧﴾ ﴿قَالُوا مَا أَخْلَقْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا﴾؛ أي: قالوا له: ما فعلنا الذي فعلنا عن تعمد منا، وملك منا لأنفسنا ﴿وَلَكِنَّا جُمَلْنَا أَوزَارًا مِّنْ زِينَةِ الْقُورِ﴾ ولكن السبب الداعي لذلك: أننا تأمننا من زينة القوم التي عندنا، وكانوا فيما يذكرون، استعاروا حلياً كثيراً من القبط، فخرجوا وهو معهم ﴿فَقَدَفْتَهَا﴾ يعني: زينة القوم، ألقوها في حفرة، وجمعوها حين ذهب موسى؛ ليراجعوه فيها إذا رجع ﴿فَكَذَّبَكَ﴾ ألقى السامريُّ ما معه من الحلي فيها، ثم ألقى

تعالى بني إسرائيل منته العظيمة عليهم بإهلاك عدوهم ﴿وَوَعَدْنَكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ ومواعيده لموسى ﷺ بجانب الطور الأيمن؛ لينزل عليه الكتاب الذي فيه الأحكام الجليلة والأخبار الجميلة، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَ وَالسَّلْوَ﴾ وإنزال المن والسلوى، والرزق الرغد الهني، الذي يحصل لهم بلا مشقة، وأنه قال لهم:

﴿٨١﴾ ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾؛ أي: واشكروه على ما أسدى إليكم من النعم ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ في رزقه؛ فتستعملوه في معاصيه، وتبطلوا النعمة ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ فإنكم إن فعلتم ذلك؛ غضبت عليكم، ثم عذبتكم، ﴿وَمَنْ يُحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ ردى وهلك، وخاب وخسر، ومع هذا، فالتوبة معروضة، ولو عمل العبد ما عمل من المعاصي، فلهذا قال:

﴿٨٢﴾ ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ﴾ كثير المغفرة والرحمة ﴿لِمَنْ تَابَ﴾ من الكفر والبدعة والفسوق ﴿وَوَآمَنَ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ من أعمال القلب والبدن، وأقوال اللسان، ﴿ثُمَّ أَهْتَدَى﴾ سلك الصراط المستقيم، وتابع الرسول الكريم، واقتدى بالدين القويم.

﴿٨٣﴾ كان الله تعالى، قد واعد موسى أن يأتيه لينزل عليه التوراة ثلاثين ليلة، فأتىها بعشر، فلما تم الميقات، بادر موسى ﷺ إلى الحضور للموعود شوقاً لربه، وحرصاً على موعوده، فقال الله له: ﴿وَمَا أَتَعْلَمُكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى﴾ ما الذي قدمك عليهم؟ ولم لم تصبر حتى تقدم أنت وهم؟

﴿٨٤﴾ ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿هُمُ أَوْلَاءَ عَلَى أَثَرِي﴾ قريباً مني، وسيصلون في أثري ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ

عليها قبضة تراب أخذها من أثر الرسول .

(٨٨) ﴿فَأُخْرِجْ﴾ السامري ﴿لَهُمْ﴾ لبني إسرائيل ﴿عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورًا﴾ صوت، ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ إن موسى ذهب يطلب ربه، وهو هاهنا فنسيه وهذا من بلادتهم، وسخافة عقولهم، حيث رأوا هذا الغريب الذي صار له خوار، بعد أن كان جماداً، فظنوه إله الأرض.

(٨٩) ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ أي: لا يرون أن العجل لا يكلمهم ولا يجيبهم إذا دعوه، ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ فالعادم للكمال والكلام والفعال لا يستحق أن يعبد، وهو أنقص من عابديه، فإنهم يتكلمون ويقدررون على بعض الأشياء من النفع والدفع بإقدار الله لهم.

(٩٠) ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: إن اتخاذهم العجل ليسوا معذورين فيه، فإنه وإن كانت عرضت لهم الشبهة فإن هارون قد نهاهم عنه، وقال لهم: ﴿يَقُولُوا إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾ وأخبرهم أنه فتنة ﴿وَإِنْ رَبُّكُمْ الرَّحْمَنُ﴾ وأن ربهم الله وحده لا شريك له ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ على ديني في عبادة الله، ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ في ترك عبادة العجل.

(٩١) ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ﴾ لا نترك عبادته ﴿حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ حتى نسمع كلام موسى فيه.

(٩٢) فأقبل موسى على أخيه لاثماً، وقال: ﴿يَهْرُونَ مَا مَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ بعبادة العجل

سُورَةُ طه

فَأُخْرِجْ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورًا فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقُولُوا إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنْ رَبُّكُمْ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿٩١﴾ قَالَ يَهْرُونَ مَا مَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ بَلْ لَمْ تَرْفَعْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْعِرُ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾

٣١٨

فأشركوا بالله .

(٩٣) ﴿أَلَا تَتَّبِعَنِ﴾ فتخبرني لأبادر للرجوع إليهم؟ ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ خالفت أمري في قولي: ﴿أَخْلَفَنِي فِي قَوِي وَأَصْلِحَ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

(٩٤) فأخذ موسى برأس هارون ولحيته، يجره من الغضب والعتب عليه، ف﴿قَالَ﴾ هارون: ﴿يَبْنَؤُمْ﴾ تريق له، وإلا؛ فهو شقيقه ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي﴾ وهذا يدل على أن إعفاء اللحى من سنن الأنبياء ﴿وَلَا بِرَأْسِي﴾ بشعر رأسي، وكان قد أخذ بذوائبه، فإنك أمرتني أن أخلفك فيهم، فلو تبعتك؛ لتركت ما أمرتني بلزومه ﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾

(٨٩) أخرج ابن أبي حاتم بإسناد حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن هارون مر بالسامري وهو ينحت العجل، فقال له: ما تصنع؟ فقال: أصنع ما لا يضر ولا ينفع. فقال هارون: اللهم أعطه ما سأل على ما في نفسه. ومضى هارون، فقال السامري: اللهم إني أسألك أن يخور. فخار، فكان إذا خار سجدوا، وإذا خار رفعوا رؤوسهم.

أنبذها، فكان ما كان.

(٩٧) ﴿قَالَ﴾ له موسى: ﴿فَاذْهَبْ﴾ تباعد عني واستأخر مني، ﴿فَإِنَّكَ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسٌ﴾ تعاقب في الحياة عقوبة؛ لا يدنو منك أحد، ولا يمسك أحد؛ حتى إن من أراد القرب منك، قلت: لا تمسني، ولا تقرب مني؛ عقوبة على ذلك، حيث مس ما لم يمسه غيره، وأجرى ما لم يجره أحد ﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ يا سامري ﴿مَوْعِدًا﴾ لعذابك ﴿لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ فتجازي بعملك من خير وشر، ﴿وَنَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ إِلَهَكَ الَّذِي ظَلَمْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا؛ أي: العجل ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ﴾ بالنار، وقيل بالسحق بالمبرد ﴿ثُمَّ لَنَسْفَعَنَّهُ﴾ لنذرينه ﴿فِي الْيَمِّ﴾ في البحر ﴿نَسْفًا﴾ ففعل موسى ذلك، فلو كان إلها؛ لامتنع ممن يريده بأذى، ويسعى له بالإتلاف، وكان قد أشرب العجل في قلوب بني إسرائيل، فأراد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إتلافه، - وهم ينظرون على وجه لا تمكن إعادته - بالإحراق والسحق وذريه في اليم، ونسفه؛ ليزول ما في قلوبهم من حبه، كما زال شخصه، ولأن في إبقائه محنة؛ لأن في النفوس أقوى داع إلى الباطل، فلما تبين لهم بطلانه أخبرهم بمن يستحق العبادة وحده لا شريك له، فقال:

(٩٨) ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود بحق إلا وجهه الكريم، فلا يؤله، ولا يحب، ولا يرجى، ولا يخاف، ولا يدعى إلا هو؛ لأنه الكامل الذي له الأسماء الحسنى، والصفات العلى ﴿وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ المحيط علمه بجميع الأشياء، الذي ما من نعمة بالعباد إلا منه، ولا يدفع السوء إلا هو،

كذلك نقض عليك من أنبياء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكراً ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ ﴿ثَلَاثِينَ﴾ خَلِيدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ ﴿يَسْخَفُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ ﴿ثُمَّ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهُمْ طَرِيقَةٌ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا نَوْمًا ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْغِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ ﴿عَلَّمَ﴾ ﴿وَعَسَى الْأُجُورُ لِلَّهِ الْقِيُومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ ﴿٣١٩﴾

لائمتك، و﴿أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ حيث تركتهم، وليس عندهم راع ولا خليفة، فإن هذا يفرقهم ويشتت شملهم ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ ولم تحفظ وصيتي حين قلت لك: ﴿أَخْلَقْنِي فِي قُوًى﴾ وارفق بهم.

(٩٥) ثم أقبل على السامري ﴿فَقَالَ﴾ فَمَا خَطْبُكَ بِسَمْعِي؟ ما أمرك وشأنك؟ وما الذي حملك على ما صنعت؟!

(٩٦) ﴿قَالَ﴾ السامري: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ رأيت ما لم يروا، وعرفت ما لم يعرفوا، ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ على فرس، رآه وقت خروجهم من البحر، وغرق فرعون وجنوده، على ما قاله أكثر المفسرين، ﴿فَبَذَلْتُهَا﴾ ألقيتها ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ زينت لي نفسي أن أقبضها، ثم

تخافتهم، ويسمع ما يقولون ﴿إِذْ يَقُولُ آمَنَّا بِهِنَّ طَرِيقَةً﴾ أعدلهم وأقربهم إلى التقدير ﴿إِنْ لَّيْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ قصر ذلك في أعينهم في جنب ما استقبلهم من أهوال يوم القيامة، نسوا مقدار لبثهم لشدة ما دهمهم، والمقصود من هذا: الندم العظيم كيف ضيعوا الأوقات القصيرة، وقطعوها ساهين لاهين، معرضين عما ينفعهم، مقبلين على ما يضرهم، فها قد حضر الجزاء وحق الوعيد، فلم يبق إلا الندم والدعاء بالويل والثبور.

(١٠٥) ﴿وَسْتَلُونَكَ عَنِ الْغَيْبِ﴾ ماذا يصنع الله بها يوم القيامة، وهل تبقى بحالها أم لا؟ ﴿فَقُلْ يَسْأَلُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ يزيلها ويقبلعها من أماكنها، فتكون كالعين، وكالرمل، ثم يدكها فيجعلها هباءً منبثًا، فتضمحل وتتلشى ويسويها بالأرض.

(١٠٦) ﴿فَيَذَرُهَا﴾ يجعل الأرض ﴿فَاعَا صَفْصَفًا﴾ مستويا.

(١٠٧) ﴿لَا تَرَىٰ فِيهَا﴾ أيها الناظر ﴿عِوَجًا﴾ هذا من تمام استوائها ﴿وَلَا أَمْتًا﴾ أودية وأماكن منخفضة أو مرتفعة؛ فتبرز الأرض وتتسع للخلائق، ويمدها الله مد الأديم، فيكونون في موقف واحد، يسمعون الداعي، وينفذهم البصر، ولهذا قال:

(١٠٨) ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ وذلك حين يبعثون من قبورهم، ويقومون منها، يدعو الداعي إلى الحضور والاجتماع للموقف، فيتبعونه مستجيبين له، لا يلتفتون عنه يمنة ولا يسرة، مهطعين إليه، ولو كان هذا في الدنيا لكان أنفع لهم! مهطعين إليه، وقوله: ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ لا عوج لدعوة الداعي، بل تكون دعوته حقًا وصدقًا، لجميع الحق، يُسمعهم جميعهم، ويصيح بهم أجمعون، فيحضرون ليوم القيامة

فلا إله إلا هو، ولا معبود سواه.

(٩٩) ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ يمتن الله تعالى على نبيه ﷺ، بما قصه عليه من أنباء السابقين، وأخبار السالفين، كهذه القصة العظيمة، وما فيها من الأحكام وغيرها، التي لا ينكرها أحد من أهل الكتاب، فأنت لم تدرس أخبار الأولين، ولم تتعلم ممن دراها، فإخبارك بالحق اليقين من أخبارهم دليل على أنك رسول الله حقًا، وما جئت به صدق، ولهذا قال: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا﴾ عطية نفيسة، ومنحة جزيلة من عندنا ﴿ذِكْرًا﴾ وهو: هذا القرآن الكريم.

(١٠٠) ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ فلم يؤمن به، أو تهاون بأوامره ونواهيه، أو بتعلم معانيه الواجبة ﴿فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ حملاً ثقیلاً من الإثم، وهو ذنبه، الذي بسببه أعرض عن القرآن وأولاه الكفر والهجران.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧].

(١٠١) ﴿خَلِدِينَ فِيهِ﴾ مقيمين في وزرهم ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا﴾ بئس الحمل الذي يحملونه والعذاب الذي يعذبونه يوم القيامة، ثم استطرد، فذكر أحوال يوم القيامة وأهواله، فقال:

(١٠٢) ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ إذا نفخ في الصور، وخرج الناس من قبورهم كل على حسب حاله ﴿وَنُحْشِرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ والمجرمون يحشرون زرقًا ألوانهم؛ من الخوف والقلق والعطش.

(١٠٣) ﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يتناجون بينهم في قصر مدة الدنيا، وسرعة الآخرة، فيقول بعضهم: ﴿إِنْ لَّيْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ ما لبثتم إلا عشرة أيام.

(١٠٤) ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ والله يعلم

(١١١) ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ خَضَعَتْ وَذَلَّتِ﴾ ﴿الْحُجَى﴾ الذي لا يموت ﴿الْقَيُّومُ﴾ الذي لا ينام ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ خسر من أشرك بالله، والخبية كل الخيبة لمن لقي الله مشركًا.
(١١٢) ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ والحال أنه مؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾ زيادة في سيئاته ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ نقصًا من حسناته، بل تغفر ذنوبه، وتطهر عيوبه، وتضاعف حسناته.

(١١٣) ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ وكذلك أنزلنا هذا الكتاب باللسان الفاضل العربي، الذي يفهمونه ويفقهونه، ولا يخفى عليكم لفظه ولا معناه ﴿وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ وخوفناهم فيه بضروب من الوعيد ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الله، فيتركون من الشر والمعاصي ما يضرهم ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ فيعملون من الطاعات والخير ما ينفعهم، فكونه عربيًا، وكونه مصرفًا فيه من الوعيد، أكبر سبب وأعظم داع للتقوى والعمل الصالح.

(١١٤) ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ﴾ جل وارتفع، وتقدس عن كل نقص وآفة، ﴿الْمَلِكُ﴾ الذي الملك وصفه، والخلق كلهم ممالك له، وأحكام الملك القدري والشرعية نافذة فيهم ﴿الْحَقُّ﴾ وجوده، وملكه، وكماله حق، فصفات الكمال لا تكون حقيقة إلا لذي الجلال، ومن ذلك: الملك، فإن غيره من الخلق، وإن كان له ملك في بعض الأوقات، على بعض الأشياء، فإنه ملك قاصر باطل يزول، وأما الرب فلا يزال، ولا يزول، ملكًا حيًا قيوماً جليلاً. ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ

فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١١﴾ وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَى وَلَمْ نُجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٢﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١١٣﴾ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرِجْوَكَ فَلَا تَخْرُجَنَّ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١١٤﴾ إِنَّكَ أَنتَ الْخَوَّصُ فِيهَا وَلَا تَعْرِى ﴿١١٥﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿١١٦﴾ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَتَاكَ عَلَى شَجَرَةٍ الْخُلْدِ وَمَلِكٍ لَا يَبْلَى ﴿١١٧﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١١٨﴾ ثُمَّ أَخْبَتَهُ رَبُّهُ فَبِأَبْصَارِهِ وَهَدَى ﴿١١٩﴾ قَالَ أَهْطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَا أَبْنَاءَ كُفٍّ مَنِي هَدَى فَمَنْ أَتَّبَعَ هَذَايَ فَلَا يَفْضِلْ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٠﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَمَعْشَرٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢١﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٢﴾

﴿وَحَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ سكنت وذلّت وخضعت، ووصفت الأصوات بالخشوع، والمراد: أهلها، ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَسًا﴾ إلا وطء الأقدام، أو المخافنة سرًا بتحريك الشفتين فقط، حيث يملكهم الخشوع والسكون والإنصات؛ انتظارًا لحكم الرحمن فيهم.

(١٠٩) ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿لَا نَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ﴾ لا يشفع أحد عنده من الخلق ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ في الشفاعة، ﴿وَرَضَى لَهُ قَوْلًا﴾ ولا يأذن إلا لمن رضي شفاعته.

(١١٠) ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ يحيط علماً بالخلائق كلهم، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ علماً أي: ولا يحيط خلقه به علماً.

ولا مشقة .

وقد استنبط بعض الأذكياء من هذه الآية : أن عمل الرجل مختلف عن عمل المرأة من الجهة الدنيوية ، فمجال الرجل أن يكسب ويسعى ؛ ليوفر العيش الهنيء لزوجته وأولاده ، والمرأة راعية في بيت زوجها تقوم على تربية أولاده ، وتحفظ ماله ونفسها وبيتها ، ولذلك فالذين يريدون أن يخرج المرأة من بيتها لا يحبون لها السعادة ، بل الشقاء والضنك والقلق .

(١١٨) ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ إنما قرن بين الجوع والعري ؛ لأن الجوع ذل الباطن ، والعري ذل الظاهر .

(١١٩) ﴿وَأَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا لَا تَعْطَشُ وَلَا تَصْحَى﴾ تصيبك الشمس بحرهما وأذاها ؛ لأنه ليس في الجنة شمس ، وأهلها في ظل ممدود . وهذا أيضا متقابلا ؛ فالظما ؛ حر الباطن ، والصحى ؛ حر الظاهر ، وفي هذه الآيات : أن الله ضمن لآدم وزوجته ﷺ الرزق ، وطلب منهما العبادة بفعل الأمور وترك المحظور .

(١٢٠) ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ﴾ لآدم ﷺ ﴿الشَّيْطَانُ﴾ إبليس لعنه الله ﴿قَالَ يَتَّادُمُ هَلْ أَذُكَ عَلَى شَجَرَةٍ الْخُلْدِ﴾ التي من أكل منها خلد في الجنة ﴿وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ لا يتقطع إذا أكلت منها .

(١٢١) ﴿فَأَكَلَا﴾ ؛ يعني : آدم وحواء ﷺ ،

وَحِيَّةٌ﴾ لا تبادر بتلقف القرآن حين يتلوه عليك جبريل ، واصبر حتى يفرغ منه ، فإذا فرغ منه فاقراه ، ولما كانت عجلته ﷺ على تلقف الوحي ومبادرته إليه تدل على محبته التامة للعلم وحرصه عليه ، أمره تعالى أن يسأله زيادة العلم ، فقال : ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ فإن العلم خير ، وكثرة الخير مطلوبة ، وهي من الله .

(١١٥) ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ﴾ ولقد وصينا آدم ﷺ وأمرناه ، وعهدنا إليه عهدا ليقوم به ، ﴿فَنَسِيَ﴾ نسي ما أمر به ﴿وَلَمْ يَحْذَلْهُ عَزْمًا﴾ وانتقضت عزيمته المحكمة ، فجرى عليه ما جرى ، فصار عبرة لذريته ، وصارت طبائعهم مثل طبيعة آدم ، ثم ذكر تفصيل ما أجمله ، فقال : (١١٦) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ لما أكمل خلق آدم بيده ، وعلمه الأسماء ، وفضله وكرمه ، أمر الملائكة بالسجود له ؛ ﴿فَسَجَدُوا﴾ فبادروا بالسجود ممثلين ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ ؛ أي : وكان بينهم إبليس ، فاستكبر عن أمر ربه ، وامتنع من السجود لآدم .

(١١٧) ﴿فَقُلْنَا﴾ قال الله ﷻ لآدم ﷺ : ﴿يَتَّادُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ حواء ﷺ ، ﴿فَلَا يُخْرِجُكُمَا﴾ إياك أن يسعى في إخراجكما ﴿مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ تتعب وتنصب ، وتعنى في طلب الرزق ، فإنك هاهنا في عيش رغيد هنيء ، لا كلفة

(١٢١) في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «احتج آدم وموسى عند ربهما ، فحج آدم موسى ، قال موسى : أنت آدم الذي خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وأسكنك في جنته . ثم أهبطت الناس إلى الأرض بخطيئتك . قال آدم : أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وكلامه ، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء ، وقربك نجيا ، فبكم وجدت الله كتب في التوراة قبل أن أخلق ؟ قال موسى : بأربعين عاما . قال آدم : فهل وجدت فيها : ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ ؟ قال : نعم . قال : أفتلومني على أن عملت عملا كتب الله علي أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة ؟ » ، قال رسول الله ﷺ : «فحج آدم موسى» .

أمر الله تعالى آدم وذريته أن يتخذوا إبليس وذريته عدوا لهم، ويأخذوا حذرهم ﴿فَإِذَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ سينزل عليهم كتابا، ويرسل إليهم رسلا: يبينون لهم الطريق المستقيم الموصل إليه وإلى جنته، ويحذرونهم من هذا العدو المبين ﴿فَمَن أَتَّبَعَ هُدَايَ﴾ وأنهم في أي وقت جاءهم ذلك الهدى، الذي هو الكتب والرسل، فإن من اتبعه، بأن فعل ما أمر به، واجتنب ما نهى عنه، ﴿فَلَا يَضِلُّ﴾ في الدنيا، ولا في الآخرة ﴿وَلَا يَشْقَى﴾ فيهما، بل قد هدي إلى صراط مستقيم في الدنيا والآخرة، وله السعادة والأمن في الآخرة.

(١٢٤) ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ عن كتابي الذي يتذكر به جميع المطالب العالية، فلم يؤمن به ولم يتبعه ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ ثبت عن جمع من السلف أن المراد: عذاب القبر، وبعض المفسرين يرى أن المعيشة الضنك، عامة في دار الدنيا، بما يصيب المعرض عن ذكر ربه من الهموم والغموم والآلام التي هي عذاب معجل، وفي دار البرزخ، وفي الدار الآخرة ﴿وَنَحْشُرُهُ﴾ هذا المعرض عن ذكر ربه ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ البصر والبصيرة.

(١٢٥) ﴿قَالَ﴾ على وجه الذل والتألم من هذه الحالة: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ﴾ في دار الدنيا ﴿بَصِيرًا﴾ فما الذي صيرني إلى هذه الحالة البشعة؟

(١٢٦) ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ كما ﴿أَنْتَكَ﴾ عَابِتْنَا فَنَسِينَا بِاعْرَاضِكَ عَنْهَا ﴿وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْشِئُكَ فِي الْعَذَابِ﴾ فأجيب، بأن هذا هو عين عملك، والجزاء من جنس العمل.

(١٢٧) ﴿وَكَذَلِكَ﴾ هذا الجزاء ﴿يَجْزِي﴾ أي:

قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَكَ عَابِتْنَا فَنَسِينَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْشِئُكَ فِي الْعَذَابِ كَمَا أَنْتَكَ تَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ. وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (١٢٧) أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى (١٢٨) وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى (١٢٩) فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ أَنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (١٣٠) وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَاهُمْ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْثِهِمْ فِيهِ وَرِزْقَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٣١) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلَنَّا رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (١٣٢) وَقَالُوا لَوْلَا بَأْسُنَا بِمَا فَعَلَ آلَ آدَمَ إِذْ هُمْ فِي نَجْوَى آلِهِمْ عَلَى الْبُحْرِ وَقَالُوا لَوْلَا بَأْسُنَا بِمَا فَعَلَ آلَ آدَمَ إِذْ هُمْ فِي نَجْوَى آلِهِمْ عَلَى الْبُحْرِ وَقَالُوا لَوْلَا بَأْسُنَا بِمَا فَعَلَ آلَ آدَمَ إِذْ هُمْ فِي نَجْوَى آلِهِمْ عَلَى الْبُحْرِ وَقَالُوا لَوْلَا بَأْسُنَا بِمَا فَعَلَ آلَ آدَمَ إِذْ هُمْ فِي نَجْوَى آلِهِمْ عَلَى الْبُحْرِ (١٣٣) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِن قَبْلِهِ لَقَالُوا رُسُلُنَا لَوَلَا أَرْسَلْنَا رَسُولًا فَتُنَجِّعَ آلَ آدَمَ إِذْ هُمْ فِي نَجْوَى آلِهِمْ عَلَى الْبُحْرِ وَقَالُوا لَوْلَا بَأْسُنَا بِمَا فَعَلَ آلَ آدَمَ إِذْ هُمْ فِي نَجْوَى آلِهِمْ عَلَى الْبُحْرِ (١٣٤) قُلْ كُلُّ مَرِيضٍ فَتَرَى صَافٍ فَسَعَلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصُّرُطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى (١٣٥)

﴿مِنْهَا﴾ من الشجرة التي نهاهما الله عنها ﴿فَبَدَّتْ﴾ ظهرت ﴿لَهُمَا﴾ لآدم وحواء ﴿سَوَاءُ تَهُمَا﴾ وبدا لكل منهما عورة الآخر بعد أن كانا مستورين ﴿وَلَفِيفًا﴾ يَخْتَصِفَانِ عَلَيْهِمَا ﴿وَجَعَلَا يَرْقِعَانِ﴾ ويلزقان ويصلان على أنفسهما ﴿مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ من ورق أشجار الجنة؛ ليستترا ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ﴾ بأكل الشجرة ﴿فَغَوَى﴾ بفعل ما لم يكن له فعله، وهذا قبل التوبة والاجتباء.

(١٢٢) ﴿ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ﴾ اختاره واصطفاه ﴿فَنَابَ عَلَيْهِ﴾ يسر له طريق التوبة، وعفى عنه، ﴿وَهَدَى﴾ فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها، ورجع كيد العدو عليه، وبطل مكره.

(١٢٣) ﴿قَالَ﴾ الله تعالى لآدم وحواء عليهما السلام ﴿أَهْبِطَا مِنْهَا﴾ من الجنة ﴿جَمِيعًا﴾ كلكم: آدم وحواء وإبليس ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾

عن الذنوب، ملازماً لها، وهؤلاء قد أتوا بالسبب، ولكن الذي أخره عنهم كلمة ربك، المتضمنة لإمهالهم وتأخيرهم ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ وضرب الأجل المسمى، فالأجل المسمى ونفوذ كلمة الله، هو الذي أخر عنهم العقوبة إلى إبان وقتها، ولعلمهم يراجعون أمر الله، فيتوب عليهم، ويرفع عنهم العقوبة، إذا لم تحقق عليهم الكلمة؛ ولهذا أمر الله رسوله بالصبر على أذيتهم بالقول، فقال:

(١٣٠) ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي: من تكذيبهم لك ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ وأمره أن يتعوض عن ذلك ويستعين عليه بالتسبيح بحمد ربه في هذه الأوقات الفاضلة ﴿فَبَلَّغْ طُلُوعَ الشَّمْسِ﴾؛ يعني: صلاة الصبح، ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾؛ يعني: صلاة العصر ﴿وَمِنْ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أوقات الليل وساعاته ﴿وَمِنْ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ يعني: صلاة المغرب والعشاء ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾؛ يعني: صلاة الظهر ﴿لَعَلَّكَ﴾ إن فعلت ذلك ﴿تَرْضَى﴾ بما يعطيك ربك من الثواب العاجل والآجل؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يَعْطِيكَ رَبُّكَ فَارْحَمْ﴾ [الضحى: ٥].

(١٣١) ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾؛ أي: ولا تمد عينيك

نجزيه ﴿مَنْ أَشْرَفَ﴾ بأن تعدى الحدود، وارتكب المحارم، وجاوز ما أذن له، ﴿وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ الدالة على جميع مطالب الإيمان دلالة واضحة صريحة، فالله لم يظلمه، ولم يضع العقوبة في غير محلها، وإنما السبب: إسرافه وعدم إيمانه ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشدُّ﴾ من عذاب الدنيا أضعافاً مضاعفة ﴿وَأَنفَى﴾ لكونه لا ينقطع.

(١٢٨) ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ لهؤلاء المكذابين المعرضين، ويدلهم على سلوك طريق الرشاد، وتجنب طريق الغي والفساد ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ ما أحل الله بالمكذابين قبلهم، من القرون الخالية، والأمم المتتابعة ﴿بِمَشُورَةٍ فِي مَسْكِهُمْ﴾ الذين يعرفون قصصهم، ويتناقلون أسماهم، وينظرون بأعينهم مساكنهم من بعدهم، كقوم هود وصالح ولوط وغيرهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ العقول السليمة والفطر المستقيمة.

(١٢٩) ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا﴾ هذه تسليية للرسول ﷺ وتصبير له عن المبادرة إلى إهلاك المكذابين المعرضين، وأن كفرهم وتكذيبهم سبب صالح لحلول العذاب بهم، ولزومه لهم، لأن الله جعل العقوبات سبباً وناشئاً

(١٣٠) في «الصحيحين» من حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ، فنظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا». ثم قرأ هذه الآية.

(١٣١) وفي «الصحيحين» من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل على رسول الله ﷺ في المشربة التي اعتزل فيها نساءه حين آلى منهن، فراه متوسداً مضجعاً على رمل حصير، وليس في البيت إلا ضربة من قرط، وأهب معلقة، فابتدرت عينا عمر بالبكاء، فقال رسول الله ﷺ: «ما يبكيك؟». فقال: يا رسول الله! إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه؟ فقال: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟». وفي رواية: «وفي شك أنت يابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت طبيائهم في حياتهم الدنيا».

وفي «الصحيحين» من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم، ما يفتح الله لكم من زهرة الدنيا»، قالوا: وما زهرة الدنيا يا رسول الله؟ قال: «بركات الأرض».

(١٣٣) ﴿وَقَالُوا﴾ أي: المكذبون للرسول ﷺ: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ هَلَّا يَأْتِينَا بآية من ربه؟ يعنون: آيات الاقتراح، ولأن قولهم يقتضي أنه لم يأتهم بآية على صدقه، ولا بينة على حقه، وهذا كذب وافتراء، ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ﴾ إن كانوا صادقين في قولهم، وأنهم يطلبون الحق بدليله ﴿بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾؛ أي: هذا القرآن العظيم، المصدق لما في الصحف الأولى من التوراة والإنجيل والكتب السابقة المطابق لها، المخبر بما أخبرت به، وتصديقه أيضاً مذكور فيها، ومبشر بالرسول بها.

(١٣٤) ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ﴾ لو أنا أهلكنا هؤلاء المكذبين قبل أن نرسل إليهم هذا الرسول الكريم، وننزل عليهم هذا الكتاب العظيم ﴿لَقَالُوا﴾ لكانوا قالوا يوم القيامة: ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ يدعوننا ﴿فَتَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنْزِلَ وَتُخْزَى﴾ بالعقوبة، فها قد جاءكم رسولي، ومعه آياتي وبراهيني؛ فإن كنتم كما تقولون؛ فصدقوه.

(١٣٥) ﴿قُلْ﴾ يا محمد مخاطباً للمكذبين لك الذين يقولون: ﴿نَرْبُّصُ بِهِ رَبِّ الْعَمَلُونَ﴾ [الطور: ٣٠]: ﴿كُلُّ مَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا﴾ فتربصوا بي الموت، وأنا أتربص بكم العذاب ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَبُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ المستقيم ﴿وَمَنْ أَهْدَى﴾

معجباً، ولا تكرر النظر مستحسنًا ﴿إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ إلى أحوال الدنيا والممتعين بها من المأكَل والمشارب اللذيذة، والملابس الفاخرة، والبيوت المزخرفة، والنساء المجملة، فإن ذلك كله ﴿زَهْرَةٌ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ تبتهج بها نفوس المغترين، وتأخذ إعجاباً بأبصار المعرضين ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ وإنما جعلها الله فتنة واختباراً؛ ليعلم من يقف عندها، ويغتر بها، ومن هو أحسن عملاً ﴿وَرَزَقُ رَبِّكَ﴾ العاجل من العلم والإيمان، وحقائق الأعمال الصالحة، والآجل من النعيم المقيم، والعيش السليم في جوار الرب الرحيم ﴿خَيْرٌ﴾ مما متعنا به أزواجاً في ذاته وصفاته ﴿وَأَبْقَى﴾ لكونه لا ينقطع، أكلها دائم، وظلها ممدود.

(١٣٦) ﴿وَأُمِرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ حث أهلك على الصلاة وأزعجهم إليها من فرض ونفل ﴿وَأَصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي: على الصلاة، بإقامتها بحدودها، وأركانها، وخشوعها ﴿لَا شَتَاكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ أي: رزقك علينا، قد تكفلنا به، كما تكفلنا بأرزاق الخلائق كلهم فكيف بمن قام بأمرنا واشتغل بذكرنا؟! ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿لِلنَّافِقِينَ﴾ التي هي فعل المأمور وترك المنهي، فمن قام بها؛ كان له العاقبة، كما قال تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

(١٣٧) أخرج الإمام مالك وابن أبي حاتم وابن جرير بإسناد صحيح عن زيد بن أسلم عن أبيه: كان يبيت عند عمر بن الخطاب من غلامنا أنا ویرفأ، وكان له ساعة من الليل يصلي فيها، فربما لم يقم، فنقول: لا يقوم الليلة كما كان يقوم، وكان إذا استيقظ أقام؛ يعني: أهله، وقال: ﴿وَأُمِرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾.

وفي «سنن الترمذي» وابن ماجه و«مسند الإمام أحمد» و«صحيح ابن حبان» بإسناد صحيح من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم، تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك، وإن لم تفعل ملأت صدرك شغلاً، ولم أسد فقرك».

بسلوكه، أنا أم أنتم؟ فإن صاحبه، هو الفائز الراشد، الناجي المفلح، ومن حاد عنه؛ فهو خاسر خائب معذب، وقد علم أن الرسول هو الذي بهذه الحالة، وأعداؤه بخلافه.

سورة الأنبياء (*)

(١) ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿أَفَ أَمْرٌ أَتَىٰ اللَّهُ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وقوله: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَشَقُّ الْقَمَرُ﴾ (١) وإن يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ١ - ٢]؛ أي: قرب حسابهم ومجازاتهم على أعمالهم، وهو يوم القيامة ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ والحال: أنهم في غفلة عما خلقوا له، وإعراض عما زجروا به.

(٢) ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يذكر ما ينفعهم ويحثهم عليه، وما يضرهم ويرهبهم منه، ﴿تُحَدِّثُ﴾ جديد إنزاله ﴿إِلَّا أَسْمَعُوهُ﴾ سماعاً تقوم عليهم به الحجة ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ حالهم أنهم لاعبون، لا يعتبرون ولا يتيقظون.

(٣) ﴿لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ﴾ قلوبهم غافلة معرضة بمطالبها الدنيوية، ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ثم ذكر ما يتناجى به الكافرون الظالمون على وجه العناد، ومقابلة الحق بالباطل، وأنهم تناجوا، وتواطئوا فيما بينهم، وقالوا في الرسول ﷺ: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ أي: إنه بشر



مثلكم، وإنه ساحر، وما جاء به من القرآن سحر، فانفروا عنه، ونفروا الناس، وقولوا: ﴿أَفَتَأْتُونَكَ السِّحْرَ وَأَنْتَ تُبْصِرُونَ﴾؛ أي: أفتتبعونه فتكونون كما يأتي السحر وهو يعلم أنه سحر.

(٤) ﴿قَالَ﴾ محمد ﷺ: ﴿رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ﴾ الخفي والجلي ﴿فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ في جميع ما احتوت عليه أقطارهما ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لسائر الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما في الضمائر، وأكنته السرائر.

(٥) ﴿بَلْ قَالُوا﴾؛ أي: المكذبون بالنبي

(*) في «صحيح البخاري» عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «بنو إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، هن من العتاق الأول - يعني: السور التي أنزلت أولاً بمكة - وهن من تلادي؛ يعني: أول ما حفظت».

(٢) أخرج النسائي في «السنن الكبرى» بإسناد صحيح عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: ﴿فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ قَالَ: «فِي الدُّنْيَا».

المقترحة، وهذا الاستفهام بمعنى النفي، أي: لا يكون ذلك منهم أبداً.

(٧) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾

والمعنى: جميع الرسل الذين تقدموا كانوا

رجالاً من البشر، لم يكن فيهم أحد من

الملائكة؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ

بِدْعَا مِنْ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]، ولهذا قال:

﴿فَسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

وهم: أهل العلم من الكتب السالفة، كأهل

التوراة والإنجيل، يخبرونكم بما عندهم من

العلم، وأنهم كلهم بشر من جنس المرسل

إليهم. وهذه الآية وإن كان سببها خاصاً فإنها

عامة في كل مسألة من مسائل الدين: أصوله

وفروعه، إذا لم يكن عند الإنسان علم منها

أن يسأل من يعلمها، وفي هذه الآية دليل

على أن النساء ليس منهن نبيه، لا مريم ولا

غيرها؛ لقوله: ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾.

(٨) ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾

بل قد كانوا أجساداً يأكلون الطعام ﴿وَمَا كَانُوا

خَالِدِينَ﴾ في الدنيا، بل كانوا يعيشون ثم

يموتون.

(٩) ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ﴾

وأن الله صدقهم ما وعدهم به من النجاة

والسعادة لهم ولأتباعهم ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾

المكذبين لهم.

(١٠) ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾ أيها المرسل إليهم

محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ

﴿كِتَابًا﴾ جليلاً وقرآناً مبيناً ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾

شرفكم وفخركم وارتفاعكم؛ كما في قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]

وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا
آخَرِينَ ﴿١١﴾ عَلَّمَا أَحْسَنَ الْأَسْنَآءِ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾
لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكَنِكُمْ لَعَلَّكُمْ
تُفْتَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ
دَعْوَانَهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا
السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَمِينَ ﴿١٦﴾ لَوِ ارْجِعَا أَنْ تَتَّخِذَهُمَا
لَا تَخَذَهُنَّ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ
عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ
﴿١٨﴾ وَلَكُمْ فِي السَّعَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ
عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ
لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ اتَّخَذُوا آلَ الْهَيْمَةِ مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُبَشِّرُونَ
﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلُ الْهَيْمَةِ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ الْعَرْشِ
عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا تَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُنْشِرُونَ ﴿٢٣﴾ أَمْ
اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلَ هَيْمَةٍ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ نَعِيَ
وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾

محمد ﷺ وبما جاء به من القرآن العظيم

الأقاويل الباطلة المختلفة، فتارة يقولون:

﴿أَضَعْتُ أَهْلِي﴾ بمنزلة كلام النائم الهادي،

الذي لا يحس وتارة يقولون: ﴿بَلْ أَفْتَرْتَهُ﴾

اختلقه وتقوله من عند نفسه: ﴿بَلْ هُوَ

شَاعِرٌ﴾ إنه شاعر وما جاء به شعر، ولهذا

قال الله عنهم: ﴿فَلْيَأْتِنَا﴾ محمد ﷺ إن كان

صادقاً ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ كما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ كساقة

صالح، وعصى موسى، ونحو ذلك وقد قال

تعالى: ﴿وَمَا مَعَنَا أَنْ تُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ

كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩]؛ ولهذا

قال تعالى:

(٦) ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ﴾ قبل مشركي مكة ﴿بِزَن

قَرِيَةٍ﴾ من أهل قرية أتتهم الآيات ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾

بالتكذيب ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ بهذه الآيات

لأصحاب السعير ﴿[الملك: ١٠، ١١].﴾

(١٥) ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوُهُمْ﴾ الدعاء بالويل والثبور والندم، والإقرار على أنفسهم بالظلم، وأن الله عادل فيما أحل بهم ﴿حَقٌّ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ﴾ بمنزلة النبات الذي قد حصد وأنيم، قد خمدت منهم الحركات، وسكنت منهم الأصوات.

(١٦) ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِينَ﴾ يخبر تعالى أنه ما خلق السموات والأرض عبثاً ولا لعباً من غير فائدة، بل بالعدل والقسط؛ ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا يَمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

(١٧) ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ هَوَاءً﴾ على الفرض والتقدير المحال ﴿لَا تَخَذَنَّهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ من عندنا ﴿إِنْ كُنَّا فَعَلِينَ﴾ ولم نطلعكم على ما فيه عبث ولهو؛ لأن ذلك نقص ومثل سوء، وهذا كقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤].

(١٨) ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾ يخبر تعالى أنه تكفل بإحقاق الحق وإبطال الباطل، وإن كل باطل قيل وجودل به، فإن الله ينزل من الحق والعلم والبيان ما يدمغه فيضمحل، ويتبين لكل أحد بطلانه؛ ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ مضمحل فإن ﴿وَلَكُرْ﴾ أيها الكفار الفجار ﴿الْوَيْلُ﴾ والندامة والخسران ﴿مِمَّا نَصِفُونَ﴾ الله به مما لا يليق، من اتخاذ صاحبة والولد

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما ينفعكم وما يضركم؟ فلو كان لكم عقل؛ لسلكتكم هذا السبيل، فلما لم تسلكوه وسلكتكم غيره من الطرق التي فيها ضعتكم وخستكم في الدنيا والآخرة وشقاوتكم فيهما؛ علم أنه ليس لكم معقول صحيح، ولا رأي راجح.

(١١) يقول تعالى محذراً لهؤلاء الظالمين، المكذبين لرسولهم بما فعل بالأمم المكذبة لغيره من الأمم: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا أَهْلَكْنَا بِعَذَابٍ مُسْتَأْصِلٍ﴾ من قريظة تلفت عن آخرها. ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ بسبب ظلم أهلها وكفرهم، ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا أَهْلَكْنَا بَعْدَ هَلَاكِهَا﴾ قومًا آخرين أمة أخرى بعدهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَكَأَيُّ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبْرِ مَعْطَلَةٍ وَفَصَّرِ مَشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥].

(١٢) ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا﴾ تيقنوا أن العذاب واقع بهم لا محالة كما وعدهم نبيهم، ﴿إِذَا هُمْ مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ يفرون هارين.

(١٣) فقيل لهم على وجه التهكم بهم: ﴿لَا تَرْكُضُوا﴾ أي: لا تهربوا؛ فإنه لا يفيدكم الركض والسندم ﴿وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أَتَرَقْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِكُمْ﴾ ولكن إن كان لكم اقتدار؛ فارجعوا إلى ما نعمتم به من اللذات والمشتهيات ومساكنكم المزخرفات، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ عما كنتم فيه من أداء شكر النعم.

(١٤) ﴿قَالُوا يَوَيْلًا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ اعترفوا بذنبهم حين لا ينفعهم ذلك، كقوله تعالى: ﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقاً

ومن الأنناد والشركاء.

(١٩) ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ثم أخبر أنه له ملك السموات والأرض وما بينهما، فالكل عبيده ومماليكه ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ من الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ لا يأنفون عن عبادته ولا يتعظمون عنها ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ لا يملون ولا يسأمون؛ لشدة رغبتهم، وكمال محبتهم، وقوة أبدانهم.

(٢٠) ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ مستغرقين في العبادة والتسبيح في جميع أوقاتهم، ﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ لا يضعفون ولا يسأمون؛ كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَصْغُونَ لِلَّهِ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

(٢١) ولما بين تعالى كل اقتداره وعظمته، وخضوع كل شيء له؛ أنكر على المشركين الذين اتخذوا من دون الله آلهة في غاية العجز وعدم القدرة قال: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا إِلَهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أصنام من الخشب والحجارة ﴿هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ يحيون الأموات والاستفهام بمعنى النفي؛ أي: لا يقدرُونَ على نشرهم وحشرهم.

(٢٢) ولهذا قال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا﴾ في السموات والأرض ﴿إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ في ذاتهما، وفسد ما فيهما من المخلوقات ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ تنزهه وتقدس عن كل نقص

لكماله وحده ﴿رَبِّ الْعَرْشِ﴾ الذي هو سقف المخلوقات وأوسعها وأعظمها ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: الجاحدون الكافرون من اتخاذ الولد والصاحبة وأن يكون له شريك بوجه من الوجوه.

(٢٣) ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ لعظمته وعزته، وكمال قدرته، لا يقدر أحد أن يمانعه أو يعارضه، لا بقول ولا بفعل، فلا يتوجه إليه سؤال؛ لأن خلقه ليس فيه خلل ولا إخلال ﴿وَهُمْ﴾ أي: المخلوقين كلهم ﴿يُسْأَلُونَ﴾ عن أفعالهم وأقوالهم؛ لعجزهم وفقرهم، ولكونهم عبيداً، كقوله تعالى: ﴿قَوْلِكَ لَسْتَلَّهُمْ آجِئِينَ﴾ ﴿٩٦﴾ ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

(٢٤) ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهَةً﴾ كرره استعظاماً لكفرهم، واستفظاعاً لأمرهم، وتبكيئاً، وإظهاراً لجهلهم، وهو أيضاً استفهام إنكار وتوبيخ ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ حجتكم ودليلكم على صحة ما ذهبتم إليه ﴿هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي﴾ فقد اتفقت الكتب والشرائع على صحة ما قلت لكم من إبطال الشرك ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ وإنما أقاموا على ما هم عليه؛ تقليداً لأسلافهم يجادلون بغير علم ولا هدى ﴿فَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ عنه.

(١٩). (٢٠) أخرج ابن أبي حاتم، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» وأبو الشيخ في «العظمة» والطحاوي في «مشكل الآثار» بإسناد صحيح من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: بينا رسول الله ﷺ بين أصحابه، إذ قال لهم: «هل تسمعون ما أسمع؟». قالوا: ما نسمع شيئاً، فقال رسول الله ﷺ: «إني لأسمع أطيح السماء، وما تلام أن تنطق، وما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم».

(٢٥) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ فكل الرسل الذين من قبلك مع كتبهم، زبدة رسالتهم وأصلها: الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وبيان أنه الإله الحق المعبود، وأن عبادة ما سواه باطلة؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

(٢٦) ﴿وَقَالُوا﴾ أي: هؤلاء الكافرون بربهم، المكذبون لرسولهم: ﴿أَتَخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ وأنهم زعموا أن الله اتخذ ولداً، فقالوا: الملائكة بنات الله. تعالى الله عن قولهم، فقال تعالى إذاً عليهم: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ أي أن: عبيد مربوبون مذبذبون، ليس لهم من الأمر شيء، وإنما هم مكرمون عند الله، قد أكرمهم الله، وصيّرهم من عبيد كرامته ورحمته، في منازل عالية، ومقامات سامية، وهم له في غاية الطاعة قولاً وفعلًا.

(٢٧) ﴿لَا يَسْقُونَهُ إِلَّا أَلْقَوْا﴾ لا يقولون قولاً مما يتعلق بتدبير المملكة حتى يقول الله؛ لكمال أدبهم، وعلمهم بكمال حكمته وعلمه ﴿وَهُمْ بِأَمْرِ يَعْمَلُونَ﴾ مهما أمرهم؛ امتثلوا لأمره، ومهما دبرهم عليه فعلوه؛ فلا يعصونه طرفة عين.

(٢٨) ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ جميع أمورهم الماضية والمستقبلية، فلا خروج لهم عن علمه، كما لا خروج لهم عن أمره وتدبيره ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ لا يشفعون لأحد بدون إذنه ورضاه، فإذا أذن لهم، وارتضى من يشفعون فيه؛ شفّعوا فيه

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْقُونَهُ إِلَّا أَلْقَوْا بِهِمْ بِأَمْرِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ يُمَيِّدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفْكًَا مُحْطَظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْقَ أَقْبَانَ مَتَّ فُهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾

﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ خائفون وجلون، قد خضعوا لجلاله، وعنت وجوههم لعزه وجماله.

(٢٩) ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ﴾ وأن من قال منهم: ﴿إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ﴾ على سبيل الفرض والتنزل ﴿فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ وأي ظلم أعظم من ادعاء المخلوق الناقص، الفقير إلى الله من جميع الوجوه مشاركته الله في خصائص الإلهية والربوبية؟!

(٣٠) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أو لم ينظر هؤلاء الذين كفروا بأبصار قلوبهم فيروا بها، ويعلموا ﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كَانَتَا رَتْقًا﴾ كانتا ملتصقتين، هذه ليس فيها سحب ولا مطر، وهذه هامة ميتة، لا نبات فيها ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ فصلتا بينهما السماء بالمطر،

سُبُلًا ﴿طَرَفًا سَهْلَةً لَا حَزَنَةَ﴾ ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾
إلى الوصول إلى مطالبهم من البلدان، ولعلمهم
يهتدون بالاستدلال بذلك على وحدانية المنان.
(٣٢) ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا﴾ للأرض التي
أنتم عليها ﴿تَحْفُوطًا﴾ من السقوط ﴿وَهُمْ عَنْ
عَائِنِهَا مُعْرِضُونَ﴾ غافلون لاهون.

(٣٣) ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ هذا في
ظلامه وسكونه، وهذا بضياؤه وأنسه، يطول
هذا تارة ثم يقصر أخرى وعكسه الآخر،
﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ هذه لها نور يخصصها وفلك
بذاته وزمان على حدة وحركة وسير خاص،
وهذا بنور آخر وفلك آخر وسير وتقدير آخر،
﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يدورون.

(٣٤) ولما كان أعداء الرسول يقولون: تربصوا
به ريب المتنون. قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا
لِشَرِّ﴾ أي: فهذا طريق مسلوكة فلم نجعل
لبشر ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ يا محمد ﴿الْخُلْدَ﴾ في
الدنيا، فإذا مت، فسبيل أمثالك، من الرسل
والأنبياء، والأولياء، وغيرهم.

﴿أَفَإِن مَّتَّ فَهُمْ الْخُلْدُوتُ﴾؛ أي: فهل إذا
مت خلدوا بعدك، فليهنهم الخلود إذا إن
كان، وليس الأمر كذلك، بل كل من عليها
فان؛ ولهذا قال تعالى:

(٣٥) ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾؛ وهذا يشمل
سائر نفوس الخلائق ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ
فِتْنَةً﴾ ابتلاهم بالخير والشر والموت؛ فتنة منه
تعالى ليلوهم أيهم أحسن عملاً، ومن يفتتن
عند مواقع الفتن ومن ينجو ﴿وَالْيَنَّا تُرْجَعُونَ﴾
فنجازيكم بأعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً
فشر.

وَأَذَارَهُ الْكَافِرِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُوا مِنَّا إِلَّا هُزُوًا
أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ الْهَيْكَلُ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ
هُمْ كَفَرُوا ﴿٣٦﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَجٍ سَأُورِيكُمْ
ءَايَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ
لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ طُهُورِهِمْ وَلَا
هُمْ يُصْرَفُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْةٌ فَتَبَهُهُمُ فَلَا
يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ أَسْرَيْنَا
مُرْسَلِينَ مِّن قَبْلِكَ فَخَفَىٰ بِأَلْبَانِهِمْ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِه
يَسْتَنْزِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَنْ يَكْلَأُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ
الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ
لَهُمْ إِلَهَةٌ تُمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ
أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ يُمَازُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعَاهُمُ أَهْلَاءُ
وَأَبْنَاءَ هُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْقُمُورُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا أَنَا فِي
الْأَرْضِ نَقُصُّهُمْ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ أَنفُسِهِمْ أَفَلَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾

والأرض بالنبات ﴿وَجَعَلْنَا﴾ وخلقنا ﴿مِّنَ الْمَاءِ
كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ أحيينا بالماء الذي ينزل من
السماء كل شيء حي؛ من الإنسان والحيوان
والنبات، ولهذا قال: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ إيماناً
صحيحاً، ما فيه شك ولا شرك.

(٣١) ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي﴾، أي: ومن
الأدلة على قدرته وكماله ووحدانيته ورحمته:
أنه لما كانت الأرض لا تستقر إلا بالجبال
أرساها بها وأوتدها ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ لئلا
تضطرب بالعباد، ولما كانت الجبال المتصل
ببعضها ببعض، قد تتصل اتصالاً كثيراً جداً،
فلو بقيت بحالها جبلاً شامخات، لتعطل
الاتصال بين كثير من البلاد، فقال تعالى:
﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾؛ أي: ومن حكمة الله
ورحمته: أن جعل بين تلك الجبال ﴿فُجَاجًا

لما ترحل عنهم هذا العلم، قالوا ما قالوا!

(٤١) ولما ذكر استهزاءهم برسوله بقولهم: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ سلاه بأن هذا دأب الأمم السالفة مع رسلهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَزَيَّ رُسُلِي مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ﴾ أي: نزل بهم العذاب، وتقطعت عنهم الأسباب، فليحذر هؤلاء أن يصيبهم ما أصاب أولئك المكذبين.

(٤٢) ﴿قُلْ مَن يَكْفُرْكُمْ﴾ يحرسكم ويحفظكم ﴿بِأَيْتِلٍ﴾ إذا كنتم نائمين على فرشكم، وذهبت حواسكم ﴿وَالنَّهَارِ﴾ وقت انتشاركم وغفلتكم ﴿مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ أي: بدله وغيره؛ أي: هل يحفظكم أحد غير الله؟ لا حافظ إلا هو ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ﴾ فلهذا أشركوا به وإلا فلو أقبلوا على ذكر ربهم، وتلقوا نصائحه، ولهدوا لرشدهم، ووقفوا في أمرهم.

(٤٣) ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِّن دُونِنَا﴾ إذا أردناهم بسوء هل من آلهتهم من يقدر على منعهم من ذلك السوء والشر النازل بهم؟ ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾ هذه الآلهة التي استندوا إليها من دون الله لا يستطيعون نصر أنفسهم، ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يَصْحَبُونَ﴾ لا يعانوا على أمورهم من جهتنا، وإذ لم يعانوا من الله فهم مخذلون في أمورهم، لا يستطيعون جلب منفعة، ولا دفع مضرة.

(٤٤) ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ﴾ الكفار ﴿وَأَبَاءَهُمْ﴾ في الدنيا؛ حيث أعطيناهم النعم وأمهلناهم ﴿حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ وأطلنا أعمارهم، فامتد بهم الزمان، فاغترروا واشتغلوا بالتمتع

(٣٦) ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من كفار مكة ومشركي قريش؛ كأبي جهل وأمثاله ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ يستهزئون بك، ويتخذونك سخريًا، وقالوا: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ أي: هذا المحتقر - بزعمهم - الذي يسب آلهتكم ويذمها، ويقع فيها؟! أي: فلا تبالوا به، ولا تحتفلوا به.

﴿وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ﴾ وفي ذكر اسمه ﴿الرَّحْمَنُ﴾ هنا بيان لقباحة حالهم، وأنهم كيف قابلوا الرحمن - مسدي النعم كلها، ودافع النقم، الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يدفع السوء إلا هو - بالكفر والشرك.

(٣٧) ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَجٍ﴾ أي: خلق عجلًا؛ يبادر الأشياء، ويستعجل وقوعها ﴿سَآوِرِيكُمُ عَاقِبَى﴾ في انتقامي ممن كفر بي وعصاني ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُون﴾ ذلك.

(٣٨) ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: الذين كفروا: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ قالوا هذا القول اغترارًا، ولما يحق عليهم العقاب، وينزل بهم العذاب.

(٣٩) ﴿فَلَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ حالهم الشنيعة ﴿حِينَ لَا يَكْفُوتُ﴾ لا يدفعون ﴿عَن وُجُوهِِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ إذ قد أحاط بهم من كل جانب وغشيه من كل مكان ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ لا ينصرهم غيرهم، فلا نصروا ولا انتصروا.

(٤٠) ﴿بَلْ تَأْتِيهِمُ النَّارُ﴾ بَغْتَةً ﴿فَجَاءَتْهُمُ﴾ من الانزعاج والذعر والخوف العظيم ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ إذ هم أذل وأضعف من ذلك ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ يمهلون فيؤخر عنهم العذاب فلو علموا هذه الحالة حق المعرفة، لما استعجلوا بالعذاب، ولخافوه أشد الخوف، ولكن

لقبض أرواحهم؛ أذعنوا، وذلوا، ولم يظهر منهم أدنى ممانعة؟

(٤٥) ﴿قُلْ﴾ يا محمد للناس كلهم: ﴿إِنَّمَا أَنذَرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾؛ أي: إنما أنا رسول، لا أتاكم بشيء من عندي، ولا عندي خزائن الله، ولا أعلم الغيب، ولا أقول إني ملك، وإنما أنذركم بما أوحاه الله إلي؛ فإن استجبتم، فقد استجبتم لله، وسيثيبكم على ذلك، وإن أعرضتم وعارضتم، فليس بيدي من الأمر شيء، وإنما الأمر لله، والتقدير كله لله ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصَّوْتُ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنَادُونَ﴾؛ أي: الأصم لا يسمع صوتاً؛ لأن سمعه قد فسد وتعطل، شبه الكفار بالصم الذين لا يسمعون نداء مناديهم؛ ووجه التشبيه أن هؤلاء لم ينتفعوا بما سمعوا، كالصم لا يفيدهم صوت مناديهم.

(٤٦) ﴿وَلَكِنْ مَسَّتْهُمْ أَصَابُهُمْ، وَلَوْ نَفَحْنَا مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ جِزء يسير من عذابه﴾ ﴿يَقُولُونَ﴾ يَوْتِنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿الاعتراف بالدعاء بالويل والثبور والندم، والاعتراف بظلمهم وكفرهم واستحقاقهم العذاب.

(٤٧) ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ يخبر تعالى عن حكمه العادل، وقضائه القسط بين عباده إذا جمعهم يوم القيامة، وأنه يضع لهم الموازين العادلة، التي يبين فيها ثاقيل الذر،

قُلْ إِنَّمَا أَنذَرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصَّوْتُ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنَادُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَكِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لِيَقُولُوا يَوْتِنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تَظْلُمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِنْ مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ حَاكِمُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا حَاكِمِينَ لَهَا مِنْ قَبْلُ وَأَنْتُمْ عَلَيْهَا قَائِمُونَ ﴿٥٣﴾ قَالُوا قَدْ كُنْتُمْ آتِنَا وَآبَاءَكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتُمْ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رُبُّكُمْ رُبٌّ مُنْتَوِيٌّ وَأَلَّا تَرْضَى لَدَى فِطْرَتِهِمْ وَأَنَا عَلَى ذِكْرٍ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾

بها، ولها بها عما له خلقوا، وطال عليهم الأمد ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَفِهَا﴾ اختلف المفسرون في معناه، وأحسن ما قيل: ما ننقص من أطراف المشركين، ونزيد في أطراف المؤمنين؛ أي: ظهور النبي ﷺ والمسلمون وفتحهم ديار الشرك أرضاً فأرضاً ﴿أَفَهُمْ أَغْلِبُونَ﴾ الذين بوسعهم الخروج عن قدر الله؟ وبطاقتهم الامتناع عن الموت؟ فهل هذا وصفهم حتى يغتروا بطول البقاء؟ أم إذا جاءهم رسول ربهم

(٤٧) أخرج الترمذي والإمام أحمد بإسناد صحيح عن عائشة ؓ: أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ جلس بين يديه، فقال: يا رسول الله، إن لي مملوكين يكذبونني، ويخونني، ويعصوني، وأضربهم وأشتهم، فكيف أنا منهم؟ فقال له رسول الله ﷺ: «يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك، وعقابك إياهم؛ فإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلاً لك عليهم، وإن كان عقابك بقدر ذنوبهم كان كفافاً، لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتصر لهم منك الفضل الذي بقي قبلك». فجعل الرجل يبكي بين يدي رسول الله ﷺ، ويهتف. فقال رسول الله ﷺ: «ما له ما يقرأ من

من قبل إرسال موسى ومحمد، ونزول كتابيهما، وأعطاه من الرشد الذي كمل به نفسه، ودعا الناس إليه ﴿وَكُنَّا بِهِ عَلِيمِينَ﴾ أعطيناه رَشْدَهُ، واختصصناه بالرسالة والخلة، واصطفيناه في الدنيا والآخرة؛ لعلنا أنه أهل لذلك.

(٥٢) ﴿إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ الْقَتَائِيلُ﴾ التي مثلتموها ونحتموها بأيديكم ﴿أَلَمْ أَنْتَ لَهَا عَكْفُونُ﴾ مقيمون على عبادتها، ملازمون لذلك.

(٥٣) ﴿قَالُوا﴾؛ أي: قوم إبراهيم عليه السلام وأبوه ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِيدِينَ﴾ وجدناهم كذلك يفعلون، فسلطنا سبيلهم، وأتبعناهم على عبادتها.

(٥٤) ﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ضلال بين واضح بعبادتكم لها.

(٥٥) ﴿قَالُوا﴾ على وجه الاستغراب لقوله: ﴿أَحِثَّنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ﴾ يقولون: هذا القول الذي قلته، والذي جئتنا به، هل هو حق وجد؟ أم كلامك لنا كلام لاعب مستهزئ؟

(٥٦) ﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام: ﴿بَلْ زَبَّكَ رَبِّي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ خلقهن ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ﴾ بأن الله وحده المعبود، وأن عبادة ما سواه باطل ﴿مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ وأي شهادة بعد شهادة الله أعلى من شهادة الرسل؟ خصوصاً أولي العزم منهم، خصوصاً خليل الرحمن.

(٥٧) ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ أكسرها على وجه الكيد ﴿بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ﴾ عنها إلى عيد من أعيادهم.

الذي توزن به الحسنات والسيئات، ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ﴾ مسلمة ولا كافرة ﴿شَيْئًا﴾ بأن تنقص من حسناتها، أو يزداد في سيئاتها، ﴿وَإِنْ كَانَتْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ التي هي أصغر الأشياء وأحقرها، من خير أو شر ﴿أَيْنَا بِهَا﴾ وأحضرناها، لِيُجَازَى بها صاحبها، ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ﴾ يعني بذلك نفسه الكريمة، فكفى به حاسباً؛ أي: عالماً بأعمال العباد، حافظاً لها.

(٤٨) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾ وهي التوراة الفارقة بين الحق والباطل، والهدى والضلال ﴿وَضِيَاءً﴾ يهتدي به المهتدون، ويأتهم به السالكون ﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يتذكرون به ما ينفعهم وما يضرهم، ويتذكر به الخير والشر. وخص ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ بالذكر؛ لأنهم المنتفعون بذلك علماً وعملاً، ثم فسر المتقين فقال:

(٤٩) ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ يخشونه في حال غيبتهم، وعدم مشاهدة الناس لهم ﴿وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ خائفون وجلون. (٥٠) ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن ﴿ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أُنزِلَتْهُ﴾ فوصفه بوصفين جليلين؛ كونه ذكراً يتذكر به جميع المطالب الشرعية: عقائد وعبادات ومعاملات، ومباركاً يقتضي كثرة خيراته ونماءها وزيادتها، ولهذا أنكر تعالى على من أنكره، فقال: ﴿فَأَنْتُمْ لَمْ تُمَكِّنُوهُمْ﴾ أفتنكرونه وهو في غاية الجلاء والظهور؟! (٥١) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُسُودَهُ مِّن قَبْلُ﴾؛ أي:

كتاب الله: ﴿وَصَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ﴾، فقال الرجل: يا رسول الله، ما أجد شيئاً خيراً من فراق هؤلاء -يعني: عبيده-، إني أشهدك أنهم أحرار كلهم.

الإهانة والخزي: ﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا بِإِلَهِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فرموا إبراهيم بالظلم الذي هم أولى به حيث كسرها، ولم يدروا أن تكسيه لها من أفضل مناقبه ومن عدله وتوحيده.

(٦٠) ﴿قَالُوا﴾ أي: الذين سمعوا قول إبراهيم: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ﴾: ﴿سَمِعْنَا فَقِيَ﴾ شائباً ﴿يَذْكُرُهُمْ﴾ يعيبهم ويذمهم ﴿يُقَالُ لَهُ﴾ إبراهيم هو الذي نطن أنه صنع هذا.

(٦١) فلما تحققوا أنه إبراهيم ﴿قَالُوا فَاتُوا بِهِ﴾ بإبراهيم ﴿عَلَىٰ آعَيْنِ النَّاسِ﴾ بمرأى منهم ومسمع ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ يحضرون ما يصنع بمن كسر آلهتهم.

(٦٢) فحين حضر الناس وأحضر إبراهيم ﴿قَالُوا﴾ له: ﴿أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا﴾ التكسير ﴿بِإِلَهِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾؟ وهذا استفهام تقرير؛ أي: فما الذي جرأك، وما الذي أوجب لك الإقدام على هذا الأمر؟

(٦٣) ﴿قَالَ﴾ إبراهيم والناس شاهدون: ﴿بَلْ فَعَلَكُمْ كَيْدُهُمْ هَذَا﴾؛ أي: كسرها غضباً عليها؛ لما عبدت معه، وأراد بذلك إبراهيم ﷺ إقامة

فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كِبْرَهُمْ يَعْلَمُ إِلَيْهِ رَجْعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِإِلَهِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتَقْدِرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ آعَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِإِلَهِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَكُمْ كَيْدُهُمْ هَذَا فَاقْتُلُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُبْغُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَاعُولَاءُ يُطْقُوتُ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفْعَبْدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفَبِلَا إِلَهٍ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ فَلَمَّا بَدَأْنَا كُوفِي بَرْدًا وَاسْلَمَا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾

(٥٨) ﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا﴾ كسراً وقطعاً ﴿إِلَّا كِبْرَهُمْ﴾ إلا صنمهم الكبير ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ رَجْعُونَ﴾ ترك إبراهيم تكسير صنمهم هذا؛ لأجل أن يرجعوا إليه، ويستملوا حجته.

(٥٩) ﴿قَالُوا﴾ حين رأوا ما حل بأصنامهم من

(٦٣) في «الصحيحين» عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ ﷺ لَمْ يَكْذِبْ غَيْرَ ثَلَاثَ: ثُنْتَيْنِ فِي ذَاتِ اللَّهِ: قَوْلُهُ: ﴿بَلْ فَعَلَكُمْ كَيْدُهُمْ هَذَا﴾. وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾. - قال -: وبينما هو يسير في أرض جبار من الجبابرة ومعه سارة، إذ نزل منزلاً، فأتى الجبار رجل، فقال: إنه قد نزل بأرضك رجل معه امرأة أحسن الناس. فأرسل إليه فجاء، فقال: ما هذه المرأة منك؟ قال: هي أختي، قال: فاذهب فأرسل بها إلي، فانطلق إلى سارة، فقال: إن هذا الجبار سألني عنك؟ فأخبرته أنك أختي، فلا تكذبيني عنده، فإنك أختي في كتاب الله، وإنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك، فانطلق بها إبراهيم ثم قام يصلي، فلما دخلت عليه فرأها أهوى إليها فتناولها، فأخذ أخذاً شديداً، فقال: ادعي الله لي، ولا أضرك. فدعت له فأرسل، فأهوى إليها فتناولها، فأخذ بمثلها أو أشد، ففعل ذلك الثالثة فأخذ، فذكر مثل المرتين الأوليين، فقال: ادعي الله فلا أضرك. فدعت له فأرسل، ثم دعا أدنى حجاب، فقال: إنك لم تأتني بإنسان، وإنك أتيتني بشيطان، أخرجها وأعطها هاجر، فأخرجت وأعطيت هاجر، فأقبلت، فلما أحس إبراهيم بمجيئها انفتل من صلاته. قال: مهيم؟ قالت: كفى الله كيد الكافر الفاجر، وأخذمني هاجر». وكان أبو هريرة إذا حدث بهذا الحديث قال: فتلك أمكم يا بني ماء السماء.

ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنْتُمْ فَعَلَيْتُمْ غَضَبًا لَّآلِهَتِكُمْ،
ونصرة لها.

(٦٩) ﴿قُلْنَا﴾؛ أي: الله ﷻ خاطب النار
قائلاً: ﴿يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾. لو
قال بردًا ولم يقل سلامًا؛ لمات إبراهيم من
بردها، ولكن قال سبحانه: ﴿بَرْدًا وَسَلَامًا﴾.
فكانت عليه بردًا وسلامًا، لم ينله فيها أذى،
ولا أحس بمكروه.

(٧٠) ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ حيث عزموا على
إحراقه ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ في الدنيا
والآخرة، كما جعل الله خليله وأتباعه هم
الرابعين المفلحين.

(٧١) ﴿وَنَجَّيْنَاهُ﴾ من النمرود وقومه من أرض
العراق ﴿وَلُوطًا﴾ وذلك أنه لم يؤمن به من
قومه إلا لوط الصليح ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا
لِلْعَالَمِينَ﴾ بلاد الشام.

(٧٢) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ حين اعتزل قومه
﴿إِسْحَاقَ﴾ بدعائه، حيث قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي
مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠]، ﴿وَيَعْقُوبَ﴾.
ولد الولد ﴿يُوسُفَ﴾ زيادة، والنافلة أيضاً
العطية، وهما جمعياً - إسحاق ويعقوب -
من عطاء الله، لكن أعطاه الله تعالى إسحاق
بدعائه، وزاده يعقوب ﴿وَكُلًّا﴾ من إبراهيم
وإسحاق ويعقوب ﴿جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ قائمين
بحقوقه، وحقوق عباده.

الحجة عليهم، فذلك قوله: ﴿فَنَشْكُلُهُمْ﴾ وأراد
الأصنام المكسرة، اسئلوها لم كسرت؟ والصنم
الذي لم يكسر، اسأله لأي شيء كسرنا؟ إن
كأنوا ينطقون حتى يخبروا من فعل ذلك
بهم.

(٦٤) ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: ثابَّت
عليهم عقولهم، ورجعت إليهم أحلامهم
﴿فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ﴾ فحصل بذلك
المقصود، ولزمتهم الحجة بإقرارهم أن ما هم
عليه باطل، ﴿ثُمَّ نَكُتُكُمُ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ انقلب
الأمر عليهم، وانتكست عقولهم، فقالوا
لإبراهيم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾
فكيف تنهكم بنا، وتستعزى بنا، وتأمرونا أن
نسألها وأنت تعلم أنها لا تنطق؟

(٦٦) ﴿قَالَ﴾ إبراهيم الصليح لهم موبخاً لهم ومعلناً
بشركهم على رؤوس الأشهاد، ومبيناً عدم
استحقاق آلهتهم للعبادة: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ
مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ فلا نفع ولا دفع.
(٦٧) ﴿أَفِ لَكُمْ﴾ تبا لكم ﴿وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن
دُونِ اللَّهِ﴾ ما أضلكم وأخسر صفقتكم، وما
أخسكم أنتم وما عبدتم من دون الله ﴿أَفَلَا
تَعْقِلُونَ﴾ لتعرفوا هذه الحال.

(٦٨) فحينئذ لما أفحمهم، ولم يبينوا حجة،
استعملوا قوتهم في معاقبته، ﴿فَقَالُوا خَرِّقُوهُ﴾
اقتلوه أشنع القتل بالاحراق ﴿وَأَنْصُرُوا

(٦٩) أخرج الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه وابن حبان وابن أبي شيبه وابن أبي حاتم بإسناد صحيح لغيره عن مولاة الفاكه بن المغيرة
المخزومي؛ قالت: دخلت على عائشة رضي الله عنها فرأيت في بيتها رمحاً، فقلت: يا أم المؤمنين، ما تصنعين بهذا الرمح؟ فقالت:
نقتل به هذه الأوزاع؛ إن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم حين ألقى في النار لم يكن في الأرض دابة إلا تطفئ النار، غير الوزغ؛
فإنه كان ينفخ على إبراهيم»؛ فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله.

اللَّهُ أَرْسَلَهُ إِلَى قَوْمِهِ يَدْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ،
وَيَنْهَاهُمْ عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْفَوَاحِشِ، فَلَبِثَ
يَدْعُوهُمْ، فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ
الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَبْكَاتِ﴾ ﴿فَقَلَّبَ اللَّهُ
عَلَيْهِمْ دِيَارَهُمْ، وَعَذَبَهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ؛
لَأَنَّهُمْ ﴿قَوْمٌ سَوُوءٌ فَسِيقِينَ﴾ كَذَبُوا الدَّاعِيَ،
وَتَوَعَّدُوهُ بِالْإِخْرَاجِ، وَنَجَّى اللَّهُ لُوطًا وَأَهْلَهُ،
فَأَمَرَهُ أَنْ يَسْرِيَ بِهِمْ لَيْلًا؛ لِيُبْعِدُوا عَنِ الْقَرْيَةِ،
فَسَرُوا وَنَجَوْا، وَذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ
وَمُنْتَهَى.

(٧٥) ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾ التي من دخلها
كَانَ مِنَ الْآمِنِينَ مِنْ جَمِيعِ الْمَخَافِ ﴿إِنَّهُمْ مِنْ
الصَّالِحِينَ﴾ هَذَا الْإِنْعَامُ خَاصٌّ بِعِبَادِ اللَّهِ
الصَّالِحِينَ، وَلُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْهُمْ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ
وَجَمِيعِ أَحْيَانِهِ.

(٧٦) ﴿وَنُوحًا﴾ وَادَّكَّرَ عَبْدُنَا وَرَسُولُنَا نُوحًا
عَلَيْهِ السَّلَامُ مَثْنِيًا مَادِحًا ﴿إِذْ نَادَى﴾ دَعَا ﴿مِنْ
قَبْلُ﴾ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَلُوطٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ،
﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَجَئْنَاهُ وَآهْلَهُ﴾ فَاسْتَجَابَ اللَّهُ
لَهُ، وَنَجَّى اللَّهَ نُوحًا وَأَهْلَهُ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ الشَّدَّةُ
وَالْتَكْذِيبُ وَالْأَذَى وَالطُوفَانُ.

(٧٧) ﴿وَنَصَرْنَاهُ﴾ نَجَيْنَاهُ وَخَلَصْنَاهُ مُنْتَصِرًا ﴿مِنَ
الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمٌ سَوُوءٌ
فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿فَأَغْرَقَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى وَلَمْ يُبْقِ
مِنْهُمْ أَحَدًا.

(٧٨) ﴿وَوَدَّاعُوا﴾ أَدَّكَرَ هَذَيْنِ النَّبِيِّينَ الْكَرِيمَيْنِ

وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ
الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا
عَبِيدِينَ ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ
الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَبْكَاتِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا سَوُوءًا
فَاسِيقِينَ ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ
﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ
وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ
الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا سَوُوءًا فَنَقْتَهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ
نَفَثَتْ فِيهِ غَصْبُ الْقَوْمِ وَكَفَّ أَلْعَنَهُمْ شُيُودُهُمْ ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلَّ آيَاتِنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا
مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿وَوَدَّاعُوا
وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِنُخْصِكَ مِنْ بَاسِكُمْ
فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿وَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ
إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكَتْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿

(٧٣) ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً﴾ يَقْتَدِي بِهِمْ فِي الْخَيْرِ
﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ يَهْدُونَ النَّاسَ بِدِينِنَا
﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ يَفْعَلُونَهَا
وَيَدْعُونَ النَّاسَ إِلَيْهَا ﴿وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ
الزَّكَاةِ﴾ وَلَأنَّ الصَّلَاةَ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ الَّتِي
فِيهَا حَقُّهُ، وَالزَّكَاةُ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ الَّتِي فِيهَا
الْإِحْسَانُ لِخَلْقِهِ، ﴿وَكَانُوا لَنَا﴾ لَا لِغَيْرِنَا
﴿عَبِيدِينَ﴾ مَدِيمِينَ عَلَى الْعِبَادَاتِ الْقَلْبِيَّةِ
وَالْقَوْلِيَّةِ وَالبَدْنِيَّةِ.

(٧٤) ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ هَذَا ثَنَاءٌ مِنْ
اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ،
وَالْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ بِالصَّوَابِ وَالسَّدَادِ، وَأَنْ

(٧٨) أَخْرَجَ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَهٍ وَالبَيْهَقِيُّ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ: أَنَّ نَاقَةَ الْبِرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دَخَلَتْ حَائِطَ رَجُلٍ، فَأَفْسَدَتْ فِيهِ، فَقَضَى
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنْ عَلَى أَهْلِ الْحَوَائِطِ حِفْظُهَا فِي النَّهَارِ، وَأَنْ مَا أَفْسَدَتْ الْمَوَاشِي بِاللَّيْلِ ضَامِنٌ عَلَى أَهْلِهَا».

قال بعض السلف: لولا هذه الآية لرأيت الحكام قد هلكوا، ولكن الله حمد هذا بصوابه، وأثنى على هذا باجتهاده.

ثم ذكر ما خص به كلاً منهما، فقال: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ ذكر أنه كان من أعبد الناس، وأكثرهم لله ذكراً وتسبيحاً وتمجيذاً، وكان قد أعطاه الله من حسن الصوت ورقته ورخامته ما لم يؤته أحداً من الخلق، فكان إذا سبح وأثنى على الله؛ جاوبته الجبال الصم، والطيور البهم، وهذا فضل الله عليه وإحسانه، ولهذا قال: ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾؛ أي: ما ذكر من التفهيم وإيتاء الحكم والتسخير.

(٨٠) ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾ علم الله داود عليه السلام صنعة الدروع، فهو أول من صنعها وعلمها ﴿لِيُحَصِّنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾؛ أي: هي وقاية لكم، وحفظ عند الحرب، واشتداد البأس ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ نعمة الله عليكم؟

(٨١) ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ سخرناها ﴿عَاصِفَةً﴾ سريعة في مرورها ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ حيث أديرته امتثلت أمره ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ وهي أرض الشام ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾ قد أحاط علمنا بجميع الأشياء.

﴿وَدَاوُدَ﴾ وولده ﴿وَسُلَيْمَانَ﴾ عليهما السلام، مثنياً مبجلاً، إذ آتاهما الله العلم الواسع والحكم القاطع بين العباد بدليل قوله تعالى ﴿إِذْ يَخْضَمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ أي: الزرع، وقيل: كَرْم ﴿إِذْ نَفَثَتْ فِيهِ غَمُّ الْقَوْمِ﴾ رعته ليلاً بدون راع، ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ حاضرين صدور حكمهما في القضية، لا يخفى علينا شيء من ذلك.

وكان حكم داود: أن يأخذ صاحب الحرث الماشية مقابل ما أتلفته؛ لأن المتلف يعادل قيمة الغنم التي أتلفته.

وحكم سليمان: بأن يأخذ صاحب الماشية الزرع، يقوم عليه حتى يعود كما كان، ويأخذ صاحب الحرث الماشية يستغل صوفها ولبنها وسخالها، فإذا ردت إليه كرومه وزروعه كما كانت أخذها ورد الماشية لصاحبها لم ينقص منها شيء، وكان حكمه موافقاً للصواب؛ ولهذا قال تعالى:

(٧٩) ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ ففهمناه هذه القضية، ولا يدل ذلك، أن داود لم يفهمه الله في غيرها، ولهذا خصها بالذكر؛ بدليل قوله: ﴿وَكُلًّا﴾ من داود وسليمان ﴿ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ وهذا دليل على أن الحاكم قد يصيب الحق والصواب، وقد يخطئ ذلك، وليس بملوم إذا أخطأ مع بذل اجتهاده.

(٧٩) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما امرأتان معهما ابنا لهما، جاء الذئب؛ فأخذ أحد الابنين، فتحاكما إلى داود، ففضى به للكبرى، فخرجتا، فدعاهما سليمان، فقال: هاتوا السكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى: يرحمك الله، هو ابنها. ففضى به للصغرى».

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَمَّا ذُكِرَ﴾ غير ذلك، كما
 في قوله تعالى: ﴿وَالشَّيْطَانُ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاصِرِ﴾ (٣٧)
 ﴿وَالْآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ [ص: ٣٧، ٣٨]،
 ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ﴾ لا يقدرُونَ عَلَى الْامْتِنَاعِ
 مِنْهُ وَعَصِيَانَهُ، بَلْ حَفِظَهُمُ اللَّهُ لَهُ بِقُوَّتِهِ وَعِزَّتِهِ
 وَسُلْطَانِهِ.

(٨٣) ﴿وَ﴾ اذكر عبدنا ورسولنا ﴿أَيُّوبَ﴾ مثنيًا معظماً له، رافعاً لقدره، حين ابتلاه ببلاء شديد، فوجده صابراً راضياً عنه ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ دعا ربه ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ البلاء والمرض وفقدان المال والولد ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ذو رحمة واسعة وسعت كل شيء.

(٨٤) ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ دعاءه ﴿فَكَفَّْنَا مَا بِهِ﴾ من ضرٍّ وذلك أنه قال: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ فنبعت عين ماء، فأمره أن يغتسل منها ويشرب، ففعل، فأذهب الله ما به من الأذى ﴿وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ﴾ رددنا عليه أهله وماله ﴿وَمَثَلُ هُمْ مَعَهُمْ﴾ بأن منحه الله العافية،

وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَن يَفْضُوتُ لَهُمْ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا
دُونَ ذَلِكَ وَكَثَرَتْ لَهُمْ حِفْظَاتُ ﴿٨٧﴾ وَأَيُّوبَ إِذْ
نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٨﴾
فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ
وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرًا لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٩﴾
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٩٠﴾
وَأَخْلَلْنَا نُهُمْ فَرَحِمْنَا إِيَّاهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٩١﴾
وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضًيًا فَقَطَّنْ أَنْ لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ
فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي
كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٩٢﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَعَلْنَاهُ
مِنَ الْعَمِلِ وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ وَذَكَرْنَا
إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٩٤﴾
فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَاهُ
لَهُ زَوْجَةً وَإِنَّهُمْ كَانُوا إِسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ
وَيَعْتَوِرَا عِوَابًا وَهَبْنَا لَهُمُ الْبَنَاتِ اثْنَتَيْنِ ﴿٩٥﴾

(٨٢) ﴿وَمِنَ الشَّيْطَانِ﴾ وسخرنا له من الشياطين ﴿مَنْ يَفْضُؤُونَ لَهُ﴾ يدخلون تحت الماء، فيخرجون الجواهر من قعر البحر

(٨٣) أخرج أبو يعلى في «مسنده» والبخاري وأبو نعيم في «الحلية» بإسناد صحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن نبي الله أيوب عليه السلام لبث به بلاؤه ثمان عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد، إلا رجلين من إخوانه كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه ذات يوم: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين. فقال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثمان عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به. فلما راحا إلى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب: لا أدري ما تقولان، غير أن الله تعالى يعلم أنني كنت أمر بالرجلين يتنازعان، فيذكران الله، فأرجع إلى بيتي، فأكفر عنهما؛ كراهية أن يذكر الله إلا في حق. قال: وكان يخرج إلى حاجته، فإذا قضى حاجته؛ أمسكته امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم، أبطلأ عليها، وأوحى إلى أيوب أن ﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ فاستبطأته، فتلفتته تنظر وقد أقبل عليها، قد أذهب الله ما به من البلاء، وهو أحسن ما كان، فلما رآته قالت: أي بارك الله فيك، هل رأيت نبي الله المبتلى؟ والوالله على ذلك؛ ما رأيت أحداً أشبه منك إذ كان صحيحاً. فقال: فإني أنا هو، وكان له أندران: أندر للقمح، وأندر للشعير -وهو المكان الذي يوضع فيه القمح والشعير-، فبعث الله سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح؛ أفرغت فيه الذهب حتى فاض، وأفرغت الأخرى في أندر الشعير الْوَرِق - أي: الفضة - حتى فاض».

بالذكر الجميل، والثناء الحسن؛ فإن الله تعالى أرسله إلى قومه، فدعاهم؛ فلم يؤمنوا به ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغَضَّبًا﴾ خرج من بين أظهرهم مغضباً لهم، ووعدهم بنزول العذاب بأمَدٍ سَمَاءَ لهم، فجاءهم العذاب ورأوه عياناً، فعجوا إلى الله، وضجوا وتابوا، فرفع الله عنهم العذاب ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ وظن أن الله لا يضيق عليه في بطن الحوت، فركب في السفينة مع أناس؛ فافترعوا من يُلقون في البحر لما خافوا الغرق إن بقوا كلهم، فأصابته القرعة يونس، فالتقمه الحوت، وذهب به إلى ظلمات البحر، ﴿فَنَادَى﴾ في تلك الظلمات: ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فأقر لله تعالى بكمال الألوهية، ونزّهه عن كل نقص وعيب وآفة، واعترف بظلم نفسه وجنابته.

(٨٨) ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾؛ أي: الشدة التي وقع فيها ﴿وَكَذَلِكَ نُشِجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا وعد وبشارة لكل مؤمن وقع

ومن الأهل والمال شيئاً كثيراً ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ به؛ حيث صبر ورضي، فأثابه الله ثواباً عاجلاً قبل ثواب الآخرة ﴿وَذَكَرَ لِلْعَالَمِينَ﴾ جعلناه عبرة للعابدين الذين ينتفعون بالصبر.

(٨٥) ﴿وَ﴾ اذكر عبادنا المصطفين، وأنبياء المرسلين بأحسن الذكر، وأثن عليهم أبلغ الثناء ﴿إِسْمَاعِيلَ﴾ ابن إبراهيم ﴿وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ﴾ نبيين من أنبياء بني إسرائيل، ﴿كُلٌّ مِّنْ هَؤُلَاءِ الْمَذْكُورِينَ﴾ والصبر: هو حبس النفس ومنعها مما تميل بطبعها إليه.

(٨٦) ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ فبصبرهم وصلاتهم أدخلهم الله برحمته، وجعلهم مع إخوانهم من المرسلين، وأثابهم الثواب العاجل والآجل.

(٨٧) ﴿وَ﴾ اذكر عبدنا ورسولنا ﴿ذَا النُّونِ﴾ وهو: يونس بن متى، صاحب الحوت،

(٨٧) أخرج الإمام أحمد والترمذي بإسناد حسن عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: مررت بعثمان بن عفان في المسجد، فسلمت عليه، فملاً عينيه مني، ثم لم يرد عليّ السلام، فأثيت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فقلت: يا أمير المؤمنين، هل حدث في الإسلام شيء؟ مرتين، قال: لا، وما ذاك؟ قال: قلت: لا، إلا أنني مررت بعثمان آنفاً في المسجد، فسلمت عليه، فملاً عينيه مني، ثم لم يرد عليّ السلام، فأرسل عمر إلى عثمان، فدعاه، فقال: ما منعك أن لا تكون رددت على أخيك السلام؟ قال عثمان: ما فعلت. قال سعد: قلت: بلى. قال: حتى حلف وحلفت. قال: ثم إن عثمان ذكر فقال: بلى، وأستغفر الله وأتوب إليه، إنك مررت بي آنفاً وأنا أحدث نفسي بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ، لا والله ما ذكرت قط إلا تغشى بصري وقلبي غشاوة.

قال: قال سعد: فأنا أثبتك بها، إن رسول الله ﷺ ذكر لنا أول دعوة، ثم جاء أعرابي فشغله حتى قام رسول الله ﷺ، فاتبعته، فلما أشفقت أن يسبقني إلى منزله ضربت بقدمي الأرض، فالتفت إليّ رسول الله ﷺ، فقال: «من هذا؟» أبو إسحاق؟ قال: قلت: نعم يا رسول الله، قال: «قَمَّة؟» قال: قلت: لا والله، إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة، ثم جاء هذا الأعرابي فشغلك، قال: «نعم، دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾؛ فإنه لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له».

يصلح رحمها للولادة، فأصلح الله رحمها للحمل؛ لأجل نبيه زكريا ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ يبادرون إليها، ويفعلونها في أوقاتها الفاضلة ﴿وَيَذَعُونَكَ رَغْبًا وَرَهْبًا﴾ يسألوننا الأمور المرغوب فيها من مصالح الدنيا والآخرة، ويتعذون بنا من الأمور المرهوب منها من مضار الدارين، ﴿وَكَانُوا لَنَا خُشْعِينَ﴾ خاضعين متذللين متضرعين، وهذا لكمال معرفتهم بربهم.

(٩١) ﴿وَ﴾ اذكر مريم عليها السلام، مثنيًا عليها، مبيّنًا لقدرها، شاهرًا لشرفها ﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ حفظته من الحرام وقربانه ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ نفخ فيه جبريل عليهما السلام ﴿فَحَمَلَتْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وحملت به، ووضعته من دون مسيس أحد، وحيث تكلم في المهد، وبرأها مما ظن بها المتهمون.

(٩٢) ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ هؤلاء الرسل المذكورون هم أمتكم وأئمتكم الذين بهم تأتمون، وبهديهم تقتدون، كلهم على دين واحد، وصراط واحد، والرب واحد، ولهذا قال: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾ الذي خلقتكم وربيتكم بنعمتي في الدين والدنيا، فإذا كان الرب واحدًا، والنبي واحدًا، والدين واحدًا، وهو: عبادة الله وحده لا شريك له، بجميع أنواع العبادة؛ كان وظيفتكم والواجب عليكم القيام بها، ولهذا قال: ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ فرتب العبادة على ما سبق بالفاء

وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كَذَلِكُنَا رَجَعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرِّمْنَا عَلَى الْقُرْبَى أَهْلَكُنَّاهُمْ لَمْ يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَقٌّ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَأَقْرَبُ الْوَعْدِ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَخْصَةٌ أَنْضَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتْلُونَنَا فَأَدْكَأَ فِي عَفْلِهِ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَتْ هَؤُلَاءِ إِلَهًا مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زُفُوفٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾

في شدة غم، أن الله تعالى سينجيها منها. (٩٩) ﴿وَ﴾ اذكر عبدنا ورسولنا ﴿زَكَرِيَّا﴾ منوها بذكره، ناشرا لمناقبه وفضائله ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ دعا ربه: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ أنه لما تقارب أجله، خاف أن لا يقوم أحد بعده مقامه في الدعوة إلى الله، والنصح لعباد الله، وأن يكون في وقته وحيدًا، ولا يخلف من يشفعه ويعينه على ما قام به، ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ خير الباقيين، وخير من خلفني بخير.

(٩٠) ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُمْ وَوَهَبْنَا لَهُمْ يَحْيَىٰ﴾ النبي الكريم الذي لم يجعل الله له من قبل سمياً، ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُمْ زَوْجَهُ﴾ بعدما كانت عاقراً لا

(٩٢) في «الصحاحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد».

إِسْعَى. لا نضيع سعيه ولا نبطله، بل نضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴿وَإِنَّا لَهُ كَنُيُونَ﴾ مثبتون له في اللوح المحفوظ، وفي الصحف التي مع الحفظة؛ أي: ومن لم يعمل من الصالحات أو عملها وهو ليس بمؤمن؛ فإنه محروم خاسر في دينه ودنياه.

(٩٥) ﴿وَحَرَّمَ عَلَى قَرَبَةٍ﴾ يمتنع على أي أهل قرية ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ بعذابنا ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أن يرجعوا بعد الهلاك إلى الدنيا؛ ليستدركوا ما فرطوا في جنب الله.

(٩٦) ﴿حَقٌّ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ هذا تحذير من الله للناس أن يقيموا على الكفر

ترتيب المسبب على سببه. (٩٣) وكان اللائق الاجتماع على توحيد الله وعبادته وعدم التفرق، لكن البغي والاعتداء أبيا إلا التفرق، ولهذا قال: ﴿وَنَقْطَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ تفرق الأحزاب المنتسبون لاتباع الأنبياء فرقا، وتشتتوا أحزابا، ﴿كُلٌُّ مِنْ الْفِرَقِ الْمَتَفَرِّقَةِ﴾ إِنَّا رَجِعُونَا فنجازيهم أتم الجزاء.

(٩٤) ثم فصل جزاءه فيهم منطوقا ومفهوما، فقال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ الأعمال التي شرعتها الرسل ﷺ ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله وبرسوله وما جاءوا به ﴿فَلَا كُفْرَانَ

(٩٦) أخرج مسلم في «صحيحه» من حديث الثَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الدَّجَالَ ذَاتَ غَدَاةٍ، فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَقَّعَ، حَتَّى ظَنَّنَاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَلَمَّا رَحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذَلِكَ فِينَا، فَقَالَ: «مَا شَأْنُكُمْ؟». قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذَكَرْتَ الدَّجَالَ غَدَاةً، فَخَفَّضْتَ فِيهِ وَرَقَّعْتَ، حَتَّى ظَنَّنَاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَقَالَ: «غَيْرَ الدَّجَالَ أَخَوْفَنِي عَلَيْكُمْ، إِنْ يَخْرُجُ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَاجِبُكُمْ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجُ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَأَمْرُؤُ حَاجِبُ نَفْسِهِ، وَاللَّهِ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، إِنَّهُ شَابٌ قَطَطٌ، عَيْنُهُ طَائِفَةٌ، كَأَنِّي أَشَبَّهُهُ بَعِيدَ الْعَزَى بْنِ قَطْنٍ، فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ، إِنَّهُ خَارِجُ حَلَّةٍ بَيْنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ، فَعَاثَ يَمِينًا وَعَاثَ شِمَالًا، يَا عِبَادَ اللَّهِ فَاتَّبِعُوا». قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا لَبَثُهُ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ: «أَرْبَعُونَ يَوْمًا؛ يَوْمَ كَسَنَةِ، وَيَوْمَ كَشْهَرٍ، وَيَوْمَ كَجَمْعَةٍ، وَسَائِرَ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ». قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَسَنَةُ أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلَاةَ يَوْمٍ؟ قَالَ: «لَا، اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ». قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَمَا إِسْرَاعُهُ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ: «كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرْتَهُ الرِّيحُ، فَيَأْتِي عَلَى الْقَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتَمْطُرُ، وَالْأَرْضَ فَتَنْتَبِ؛ فَتَرْوَحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ أَطْوَلَ مَا كَانَتْ دُرًّا، وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا، وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ، ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ؛ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ فَيَصْبِحُونَ مُمَجَّلِينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَيَمُرُّ بِالْحَرَبَةِ فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكَ. فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيْعَاسِيبِ النَّحْلِ، ثُمَّ يَدْعُو رَجُلًا مِمِّثْلًا شَبَابًا، فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ فَيَقْطَعُهُ جَزَلَتَيْنِ، رَمِيَّةَ الْغُرْضِ، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيَقْبَلُ وَيَتَهَلَّلُ وَجْهَهُ يَضْحَكُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِي دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ - حِلْتَيْنِ -، وَاضِعًا كَفِيهِ عَلَى أَجْنَحَةِ مَلَكَيْنِ، إِذَا طَاطَأَ رَأْسَهُ قَطْرٌ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جِمانُ كَاللُّوْلُؤِ، فَلَا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفْسِهِ إِلَّا مَاتَ،

والمعاصي، وأنه قد قرب انفتاح يأجوج ومأجوج، وهما قبيلتان عظيمتان من بني آدم، ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ﴾ من كل مكان مرتفع ﴿يَسِيلُونَ﴾ يسرعون، وخروجهم من علامات الساعة الكبرى؛ كما تواتر في الأحاديث الصحيحة الصريحة، ولهذا قال:

(٩٨) ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾؛ أي: إنكم أيها العابدون مع الله آلهة غيره ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ وقودها وحطبها ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ﴾ داخلون فيها مع أصنامكم وآلهتكم. (٩٩) ﴿لَوْ كَانَتْ هَتُولَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا﴾ لو كانت هذه الأصنام التي اتخذتموها من دون الله آلهة لما وردوا النار وما دخلوها ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ العباد والمعبودون، لا يخرجون منها ولا يتقلون عنها. (١٠٠) ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ من شدة العذاب

والذي وعد الله بإتيانه، ووعدته حق وصدق ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ففي ذلك اليوم ترى أبصار الكفار شاخصة، لا تكاد تطرف من شدة الأفزع والأهوال المزعجة، والقلقل المفضعة، ويقولون: ﴿يَوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ اليوم العظيم، فلم نزل فيها مستغرقين، وفي لهو

= ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه، حتى يدركه بباب لُدّ، فيقتله، ثم يأتي عيسى ابن مريم قوم قد عصمهم الله منه، فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى: إني قد أخرجت عبادًا لى لا يذّان لأحد بقتالهم، فحرّز عبادي إلى الطّور. ويبعث الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون - يسرعون -، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء، ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرًا من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه، فيرسل الله عليهم النّغف - دود يكون في أنوف الإبل والغنم - فى رقابهم، فيصبحون فرسى - قتلَى - كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملاء زهمهم ومنتهم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيرًا كأعناق البُئْت، فتحملهم فطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطرًا لا يَكُنُّ - يستر - منه بيت مدر ولا وبر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزّلفَة - المرأة -، ثم يقال للأرض: أنبتي ثمرتك، ورُدّي بركتك. فيومئذ تَأْكُلُ العصابة من الرمانة، ويستظلون بِقُحْفُهَا - مقعّر قشرها -، ويبارك فى الرّسل - اللبن - حتى إن اللقحة من الإبل لتكفى الفئام من الناس، واللقحة من البقر لتكفى القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفى الفخذ من الناس، فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحًا طيبة، فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر؛ فعليهم تقوم الساعة».

﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ صم بكم عمي، أو لا يسمعون من الأصوات غير صوتها؛ لشدة غليانها، واشتداد زفيرها وتغيظها، ودخول آلهة المشركين النار، إنما هو الأصنام، أو من عبد، وهو راض بعبادته، وأما المسيح، وعزير، والملائكة ونحوهم، ممن عبد من الأولياء، فإنهم لا يعذبون فيها، ويدخلون في قوله:

(١٠١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾ سبقت لهم سابقة السعادة في علم الله، وفي اللوح المحفوظ، وفي تيسيرهم في الدنيا ليسرى والأعمال الصالحة ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا﴾ عن النار ﴿مُبْعَدُونَ﴾ فلا يدخلونها، ولا يكونوا قريباً منها، بل يبعدون عنها غاية البعد.

(١٠٢) ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ حتى لا يسمعوها حسيستها، ولا يروا شخصها ﴿وَهُمْ فِي مَا أَشْتَهَتْ

أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ مما لا عين رأت، ولا أذن



(١٠١) أخرج الإمام أحمد والطبراني في «الكبير» والطحاوي في «مشكل الآثار» بإسناد صحيح لغيره عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: آية في كتاب الله لا يسألني الناس عنها، ولا أدري، أعرفوها؛ فلا يسألوني عنها، أم جهلوها؛ فلا يسألوني عنها؟! قيل: وما هي؟ قال: آية لما نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرِدُّونَ﴾. شق ذلك على أهل مكة، وقالوا: شتم محمد آلتهنا. فقال ابن الزُّبَيْرِ، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: شتم محمد آلتهنا. قال: وما قال؟ قالوا: قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرِدُّونَ﴾. قال: ادعوه لي. فدعي محمد ﷺ، فقال ابن الزُّبَيْرِ: يا محمد، هذا شيء لآلهتنا خاصة، أم لكل من عبد من دون الله؟ قال: «بل لكل من عبد من دون الله ﷻ». قال: فقال: خصمناه ورب هذه البنية! يا محمد، ألسنت تزعم أن عيسى عبد صالح، وعزيراً عبد صالح، والملائكة عباد صالحون؟! قال: «بلى». قال: فهذه النصارى يعبدون عيسى، وهذه اليهود تعبد عزيراً، وهذه بنو مليح تعبد الملائكة. قال: فضج أهل مكة، فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾ عيسى، وعزير، والملائكة ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ قال: ونزلت: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: ٥٧].

رحمته المهداة لعباده.

(١٠٨) ﴿قُلْ﴾ يا محمّد: ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَحِدٌ﴾ الذي لا يستحق العبادة إلا هو، ولهذا قال: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: منقادون لعبوديته مستسلمون لألوهيته.

(١٠٩) ﴿فَإِنْ قَوْلَا﴾ عن الانقياد لعبودية ربهم، فحذرهم حلول المثالات، ونزول العقوبة ﴿فَقُلْ﴾ عَازِنُكُمْ ﴿أَعَلَمْتُمْ بِالْعُقُوبَةِ﴾ عَلَى سَوَاءٍ ﴿أَيَّ﴾ علمي وعلمكم بذلك مستو ﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ﴾ أي: من العذاب؛ لأن علمه عند الله، وهو بيده، ليس لي من الأمر شيء.

(١١٠) ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ﴾؛ أي: الله يعلم ما يظهره العباد ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ ويعلم ما يسرون، فهو سبحانه يعلم السر وأخفى.

(١١١) ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّاهُ﴾ أي: لعل تأخير العذاب الذي استعجلتموه ﴿فِتْنَةً لَّكُمْ﴾ شر لكم ﴿وَمَنْعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ وإن تمتعوا في الدنيا إلى حين، ثم يكون أعظم لعقوبتكم.

(١١٢) ﴿قُلْ رَبِّ أَعْزَمُ بِالْحَقِّ﴾ أحكم بيننا وبين القوم الكافرين، فاستجاب الله هذا الدعاء، وحكم بينهم في الدنيا قبل الآخرة، بما عاقب الله به الكافرين من وقعة «بدر» وغيرها.

﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ﴾ في الكذب والباطل والأفراء نسأل ربنا الرحمان ونستعين به ﴿عَلَىٰ مَا نَصِفُونَ﴾ من الكذب والباطل والافتراء.

سمعت، ولا خطر على قلب بشر، مستمر لهم ذلك، يزداد حسنه على الأحقاب.

(١٠٣) ﴿لَا يَخْزِيهِمُ الْقَرْعُ الْأَكْبَرُ﴾ لا يقلقهم إذا فرغ الناس أكبر فرغ، وذلك يوم القيامة، حين تقرب النار ﴿وَنُلْقِيَهُمْ فِي النَّارِ﴾ إذا بعثوا من قبورهم ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فليهنكم ما وعدكم الله.

(١٠٤) ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ﴾ يخبر تعالى أنه يوم القيامة يطوي السماوات - على عظمها واتساعها - ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ كما يطوي الكاتب للسجل؛ أي: الورقة المكتوب فيها ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾؛ أي: إعادتنا للخلق، مثل ابتدائنا لخلقهم؛ فكما ابتدأنا خلقهم، ولم يكونوا شيئاً، كذلك نعيدهم بعد موتهم ﴿وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ننفذ ما وعدنا، لكمال قدرته، وأنه لا تمتنع منه الأشياء.

(١٠٥) ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ﴾ وهو الكتاب المزبور؛ أي: المكتوب، والمراد الكتب المنزلة كالنوراة ونحوها ﴿وَمِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾؛ أي: كتبناه في الكتب المنزلة، بعد ما كتبنا في الكتاب السابق، الذي هو: اللوح المحفوظ: ﴿أَنْتَ الْأَرْضُ﴾ أرض الجنة ﴿يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ الذين قاموا بالمأمورات، واجتنبوا المنهيات.

(١٠٦) ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَصِيدِينَ﴾ يتبلغون به، في الوصول إلى ربهم، وإلى دار كرامته.

(١٠٧) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ فهو

سورة الحج

(١) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ يخاطب الله الناس كافة بأن يتقوا ربهم، الذي رباهم بالنعيم الظاهرة والباطنة، فحقيق بهم: أن يتقوه بترك الشرك والفسوق والعصيان، ويمثلوا أوامره مهما استطاعوا، ثم ذكر ما يعينهم على التقوى ويحذرهم من تركها، وهو الإخبار بأهوال القيامة، فقال: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ لا يقدر قدره، ولا يبلغ كنهه؛ ذلك بأنها إذا وقعت الساعة، رجفت الأرض، وزلزلت زلزالها وتصدعت الجبال واندكت، وكانت كثيباً مهيلاً، ثم كانت هباءً منبثاً، ثم انقسم الناس ثلاثة أزواج، فهناك تنفطر السماء، وتكور الشمس والقمر، وتنتثر النجوم، ويكون من القلاقل والבלابل ما تنصدع له القلوب، وتجل منه الأفئدة وتشيب منه الولدان، وتذوب له الصم الصلاب، ولهذا قال:

(٢) ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ أي: الساعة ﴿تَذْهَلُ﴾ تشغل ﴿كُلُّ مَرْضِعَةٍ﴾ امرأة معها ولد ترضعه ﴿عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ مع أنها مجبولة على شدة محبتها لولدها، خصوصاً في هذه الحال، التي لا يعيش



إلا بها ﴿رَضَعَتْ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ من شدة الفزع والهول ﴿وَرَى النَّاسُ سُكْرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكْرَىٰ﴾ تحسبهم - أيها الراثي لهم - سكارى من الخمر، وليسوا سكارى ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فلذلك أذهب عقولهم، وفرغ قلوبهم وملأها من الفزع، وبلغت القلوب الحناجر، وشخصت الأبصار، وفي ذلك اليوم لا يجزي

(٢) أخرج الإمام أحمد والنسائي في «الكبرى»، حديث عمران بن الحصين رضي الله عنه الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: وهو في بعض أسفاره، وقد تفاوت بين أصحابه السير رفع بهاتين الآيتين صوته: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَرَضَعَتْ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَرَى النَّاسُ سُكْرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكْرَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فلما سمع أصحابه بذلك حثوا الخطي، وعرفوا أنه عنده قول يقوله، فلما تأشبو حوله قال: «أندرون أي يوم ذاك؟ ذاك يوم يُنادي آدم عليه السلام فيناديه ربه ﷻ فيقول: يا آدم ابعت بعثك إلى النار، فيقول: يا رب وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون في النار وواحد في الجنة» قال: فأبلس أصحابه حتى ما أوضحوا بضاحكة، فلما رأى ذلك قال: «أبشروا واعملوا، فوالذي نفس محمد بيده - إنكم لمع خليقتين ما كانتا في شيء قط إلا كثرناه: يأجوج ومأجوج ومن هلك من بني آدم وبني إبليس» قال: فسري عنهم، ثم قال: «اعملوا وأبشروا، فوالذي نفس محمد بيده، ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير، أو الرقعة في ذراع الدابة».

(٥) ولما ذكر تعالى المخالف للبعث، المنكر للمعاد، ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى المعاد، بما يشاهد من بدئه للخلق، فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنْ الْبَعْثِ﴾ شك واشتباه، وعدم علم بوقوعه ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ وذلك بخلق أبي البشر: آدم عليه السلام ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أي: مني، وهذا ابتداء أول التخليق ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ تنقلب تلك النطفة، بإذن الله، دماً أحمر ﴿ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ﴾ ينتقل الدم مضغة: قطعة لحم، بقدر ما يمضغ، وتلك المضغة تارة تكون ﴿مُخَلَّقَةٍ﴾ مصور منها خلق الآدمي ﴿وَعَبْرٍ مُخَلَّقَةٍ﴾ تارة، بأن تقذفها الأرحام، قبل تخليقها ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أصل نشأتكم ﴿وَنُقَرِّرَ فِي الْأَرْحَامِ﴾ نبقى في الأرحام من الحمل، الذي لم تقذفه الأرحام ﴿مَا نَشَاءُ﴾ إبقائه ﴿إِلَّا أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو مدة الحمل ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ﴾ من بطون أمهاتكم ﴿طِفْلًا﴾ لا تعلمون شيئاً، وليس لكم قدرة، وسخرنا لكم الأمهات، وأجرينا لكم في ثديها الرزق ثم تنتقلون، طورياً بعد طور، ﴿ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشْذَكُمْ﴾ وهو: كمال القوة والعقل ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُوَفِّقُ﴾ من قبل أن يبلغ سن الأشد ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدِّدْ﴾ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ ﴿أَخْسَهُ وَأَرْذَلَهُ﴾ وهو: سن الهرم والتخريف، الذي به يزول العقل، ويضمحل ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ لأجل أن لا يعلم هذا المعمر شيئاً، مما كان يعلمه قبل ذلك ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ خاشعة مغبرة لا نبات فيها، ولا خضرة ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتُمْ فِي الْمَوْتِ وَأَنْتُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٢﴾ وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٣﴾ ثَانِي عَطْفِهِ لِيُصَلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَيُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٤﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ بَدَاكُمُ وَاللَّهُ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٥﴾ وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَبْعُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْفُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿٦﴾ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿٧﴾ يَدْعُوا لِمَنْ ضَرَّهُمْ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِمْ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ﴿٨﴾ إِنْ اللَّهُ يَدْعُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ حَتَّىٰ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَرِيدُ ﴿٩﴾ مَنْ كَانَتْ يَظُنُّ أَنَّ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٠﴾

والد عن ولده، ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئاً.

(٣) ﴿وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ أي: ومن الناس طائفة وفرقة، سلكوا طريق الضلال وجعلوا يجادلون بالباطل الحق ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ والحال، أنهم في غاية الجهل ما عندهم من العلم شيء ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ وغاية ما عندهم: تقليد أئمة الضلال، من كل شيطان مريد، متمرد على الله، وعلى رسله، معاند لهم.

(٤) ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ قدر على هذا الشيطان المريد ﴿أَنَّهُ مِنْ قَوْلَاهُ﴾ اتبعه ﴿فَأَنَّهُ يُضْلِمُهُ﴾ في الدنيا عن الحق، ويجنبه الصراط المستقيم، ﴿وَيَهْدِيهِ﴾ يقوده ﴿إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ وهو الحار المؤلم المفلق المزعج.

الآخرة ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ نذيقه حرها الشديد، وسعيرها البليغ، ويقال له إذا أذيق عذاب النار يوم القيامة:

(١٠) ﴿ذَلِكَ﴾ ما ذكر من العذاب الدنيوي والأخروي ﴿بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ﴾ بسبب ما اقترفته من الكفر والمعاصي. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ والأمر أنه تعالى ليس بمعذب عبده بغير ذنب من قبلهم.

(١١) ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ من هو ضعيف الإيمان، لم يدخل الإيمان قلبه، ولمخالطه بشاشته ﴿مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ بل دخل فيه: إما خوفاً، وإما عادة على وجه لا يثبت عند المحن ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ إن استمر رزقه رغداً، ولم يحصل له من المكاره شيء؛ اطمأن بذلك الخير، لا بإيمانه ﴿وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ﴾ من حصول مكروه، أو زوال محبوب ﴿أَنقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ ارتد عن دينه ﴿خَيْرَ الدُّنْيَا﴾ بفوات ما كان يؤمل ﴿وَالْآخِرَةُ﴾ لأنه من أهل النار ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الْمُفْسِدَانِ﴾ الواضح البين.

(١٢) ﴿يَدْعُوا﴾ هذا الراجع على وجهه ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ﴾ إن عصاه ولم يعبدّه ﴿وَمَا لَا يَنْفَعُهُ﴾ إن أطاعه وعبدّه. وهذا صفة كل مدعو ومعبود، من دون الله فإنه لا يملك

أَهَزَّتْ﴾ تحركت بالنبات ﴿وَرَبَّتْ﴾ ارتفعت بعد خشوعها وذلك لزيادة نباتها ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾ صنف من أصناف النبات ﴿يَهْجِجُ﴾ يهيج الناظرين، ويسر المتأملين.

(٦) ﴿ذَلِكَ﴾ الذي أنشأ الآدمي من ما وصف لكم، وأحيا الأرض بعد موتها ﴿يَا أَيُّهَا اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي: لتعلموا أن الله هو الحق، وأنه هو الرب المعبود: الذي لا تنبغي العبادة إلا له ﴿وَأَنْتُمْ يُحْيِ الْمَوْتَى﴾ كما ابتدأ الخلق، وكما أحيا الأرض بعد موتها ﴿وَأَنْتُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَائِمُونَ﴾ كما أشهدكم من بدیع قدرته، وعظيم صنعته، ما أشهدكم.

(٧) ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ فلا وجه لاستبعادها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ فيجازيكم بأعمالكم: حسننها وسيئها.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ ويخاصم في توحيد الله وإفراده بالالوهية ﴿يَغْيِرُ عِلْمَهُ﴾ منه بما يخاصم به ﴿وَلَا هُدًى﴾ غير متبع في جداله هذا من يهديه، لا عقل مرشد، ولا متبوع مهتد ﴿وَلَا كِتَابٌ مُّثِيرٌ﴾ واضح بين.

(٩) ﴿ثَانِي عِطْفِهِ﴾ لاوي جانبه وعنقه، وهذا من كبره عن الحق، واحتقاره للخلق ﴿لِيُضِلَّ النَّاسَ﴾ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ دِينَ اللَّهِ ﴿لَهُ﴾ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ يفتضح هذا في الدنيا قبل

(٧) في «سنن أبي داود» و«ابن ماجه» و«المسند» للإمام أحمد حديث أبي رزين العقيلي الصحيح قال: يا رسول الله أكلنا يرى ربه يوم القيامة؟ وما آية ذلك في خلقه؟ قال رسول الله ﷺ: «أليس كلكم ينظر إلى القمر مخلياً به؟» قلنا: بلى. قال: «فالله أعظم» قال: قلت: يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى؟ وما آية ذلك في خلقه؟ قال: «أما مررت بوادي أهلكت ممحلاً؟» قال: بلى. قال: «ثم مررت به يهتز خضرًا؟» قال: بلى. قال: «فكذلك يحيي الله الموتى، وذلك آيته في خلقه».

(١١) في «صحيح البخاري» عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ قال: كان الرجل يقدم المدينة، فإذا ولدت امرأته غلامًا، وتنجت خيله، قال: هذا دين صالح، وإن لم تلد امرأته، ولم تنتج خيله، قال: هذا دين سوء.

تستره من كثرتها ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ فمهما أَرَادَهُ تَعَالَى فَعَلَهُ مِنْ غَيْرِ مَمَانِعٍ وَلَا مَعَارِضٍ .
 (١٥) ﴿مَنْ كَانَتْ يَظُنُّ أَنَّ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ لَا يَنْصُرُ رَسُولَهُ ، وَأَنَّ دِينَهُ سَيُضْمَحَلُّ ، فَإِنَّ النِّصْرَ مِنَ اللَّهِ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ هَذَا الظَّانُّ ﴿يَسِبْ﴾ بِحَبْلِ ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ وَلِيَرْفِئَ إِلَيْهِ ﴿ثُمَّ لَيَقَطَعْ﴾ النِّصْرَ النَّازِلَ عَلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُدْهِبَنَّ كَيْدَهُ﴾ مَا يَكِيدُ بِهِ الرَّسُولَ ، وَيَعْمَلُهُ مِنْ مُحَارَبَتِهِ ، وَالْحَرَصَ عَلَى إِبْطَالِ دِينِهِ ، ﴿مَا يَغِطُّ﴾ مَا يَغِظُهُ مِنْ ظُهُورِ دِينِهِ ، وَهَذَا اسْتِفْهَامٌ بِمَعْنَى النَّفْيِ ؛ أَيُ : إِنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شِفَاءِ غِظِهِ ، بِمَا يَعْمَلُهُ مِنَ الْأَسْبَابِ ، وَقِيلَ : أَرَادَ بِالسَّمَاءِ سَقْفَ الْبَيْتِ ؛ أَيُ : لِيَشْدُدَ حَبْلًا فِي سَقْفِ بَيْتِهِ فَلْيَخْتَنُقَ بِهِ حَتَّى يَمُوتَ ، أَيُ فَلْيَخْتَنُقْ غِظًا حَتَّى يَمُوتَ .

(١٦) ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ يَتَذَكَّرُ﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ يَتَذَكَّرُ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ وَكَذَلِكَ لَمَّا فَصَلْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ مَا فَصَلْنَا ؛ جَعَلْنَاهُ آيَاتٍ وَاضِحَاتٍ ، دَالَاتٍ عَلَى جَمِيعِ الْمَطَالِبِ وَالْمَسَائِلِ النَّافِعَةِ وَلَكِنَّ الْهَدَايَةَ بِيَدِ اللَّهِ .

(١٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ يَخْبِرُ تَعَالَى عَنْ طَوَائِفِ أَهْلِ الْأَرْضِ : مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ ، مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَالْيَهُودِ ، وَالنَّصَارَى ، وَالصَّابِئِينَ ، وَمَنِ الْمَجُوسَ ، وَمَنِ الْمَشْرِكِينَ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أَنَّ اللَّهَ سَيَجْمَعُهُمْ جَمِيعَهُمْ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَيَفْصِلُ بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ الْعَدْلِ ، وَيَجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ ، الَّتِي حَفَظَهَا وَكَتَبَهَا ، وَشَهِدَهَا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ شَهِيدٌ عَلَى أَعْمَالِهِمْ ، حَفِيزٌ

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ يَتَذَكَّرُ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ
 (١٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدُّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨) هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصِمُوا فِي رَبِّهِمَا فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهِرُ بِهِمْ سَاقِي طُغْيَانِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُمْ مُقْعَبٌ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢) إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُجْرُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣)

لِنَفْسِهِ وَلَا لْغَيْرِهِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴿ذَلِكَ هُوَ الصَّلَافُ الْبَعِيدُ﴾ الَّذِي بَلَغَ فِي الْبَعْدِ إِلَى حَدِّ النِّهَايَةِ .

(١٣) ﴿يَدْعُوا لِمَنْ ضَرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ فَإِنْ ضَرَّرَهُ فِي الْعَقْلِ وَالْبَدَنِ وَالْدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَعْلُومٌ ﴿لَيْسَ الْمَوْلَى﴾ هَذَا الْمَعْبُودُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾ الْقَرِينُ الْمَلَاذِمُ عَلَى صَحْبَتِهِ ؛ فَإِنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْمَوْلَى وَالْعَشِيرِ حَصُولُ النِّفْعِ وَدَفْعُ الضَّرَرِ ، فَإِذَا لَمْ يَحْصُلْ شَيْءٌ مِنْ هَذَا ، فَإِنَّهُ مَذْمُومٌ مَلُومٌ .

(١٤) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ يَدْخُلُهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَاسْمُ الْجَنَّةِ جَنَّةٌ ؛ لِاسْتِمَالِهَا عَلَى الْمَنَازِلِ وَالْقُصُورِ وَالْأَشْجَارِ وَالنَّبَاتَاتِ الَّتِي تُجْرَى مِنْ فِيهَا ؛ أَيُ :

وَهْدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهْدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ
 (١٨) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالسَّجْدِ
 الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَدِيفِ فِيهِ وَالْأَبَدِ
 وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْحَرَامِ يُطْلَقْ نَذْفُهُ مِنْ عَذَابِ الْبَعْرِ
 وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي
 شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ
 السُّجُودِ (١٩) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى
 كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٠) لِيَشْهَدُوا
 مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ
 عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكَلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا
 الْأَبْيَاسَ الْفَقِيرَ (٢١) ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا
 نَدْوَاهُمْ وَلِيُطَوِّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٢) ذَلِكَ وَمَنْ
 يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خِلَافٌ عِنْدَ رَبِّهِ. وَأَجَلَتْ
 لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا بَسَلْ عَلَيْكُمْ فَأَجْتَنِبُوا
 الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٢٣)

﴿وَالْحُلُودُ﴾ يشوي حرها جلودهم فتساقط.
 (٢١) ﴿وَلَهُمْ مَقْعٌ مِنْ حَدِيدٍ﴾ سباط من حديد
 بيد الملائكة الغلاظ الشداد، تضربهم فيها
 وتقمعهم.
 (٢٢) ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا
 فِيهَا﴾ فلا يفتر عنهم العذاب، ولا هم ينظرون،
 ﴿و﴾ يقال لهم توبيخاً: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾
 المحرق للقلوب والأبدان.
 (٢٣) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾
 ومعلوم أن هذا الوصف لا يصدق على غير

لأقوالهم، عليهم بأسرارهم، وما تكن ضمائرهم.
 (١٨) ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم ﴿أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ
 مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ من الملائكة
 في أقطار السماوات والحيوانات في جميع
 الجهات، من الإنس والجن والدواب والطيور
 ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ﴾ خص هذه؛ لأنها
 عبدت من دون الله، فبين أنها تسجد
 لخالقها، وأنها مربوبة مسخرة؛ كما في قوله:
 ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ
 الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾
 ﴿وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ﴾ فسجودهما بغيء ظلالهما
 عن اليمين والسمائل ﴿وَالدَّوَابُّ﴾ والحيوانات
 كلها ﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ يسجد له طوعاً
 مختاراً متعبداً بذلك ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾
 ممن امتنع وأبى واستكبر ﴿وَمَنْ يُنِ اللَّهَ﴾ بهنه
 الله ﴿فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ من يذله الله فلا
 يكرمه أحد ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ يكرم
 ويهين فالسعادة والشقاوة بإرادته ومشئته.
 (١٩) ﴿هَٰذَا نَحْنُ أَخَصُّكُمْ فِي رَحْمَتِ﴾ كل يدعي
 أنه الحق ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يشمل كل كافر، من
 اليهود، والنصارى، والمجوس، والصابئين،
 والمشركين، ﴿فُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾ يجعل
 لهم ثياب من قطران، وتشعل فيها النار ﴿يُصْبُ
 مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ الماء الحار جداً.
 (٢٠) ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾ من اللحم
 والشحم والأمعاء، من شدة حره، وعظيم أمره

(١٨) في «الصحيحين» من حديث أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «أتدري أين تذهب هذه الشمس؟» قلت: الله ورسوله أعلم،
 قال: «فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأمر فيوشك أن يقال لها: ارجعي من حيث جئت»

(١٩) في «الصحيحين» عن أبي ذر؛ قال: نزلت في الذين برزوا يوم بدر: حمزة وصاحبيه علي وعبيدة بن الحارث، وعتبة وشيبة
 ابني ربيعة والوليد بن عتبة.

يعاقب العبد عليه إلا بعمل الظلم - فكيف بمن أتى فيه أعظم الظلم: من الكفر والشرك، والصد عن سبيله ومنع من يريده بزيارة، فما ظنهم أن يفعل الله بهم؟! ﴿٢٦﴾

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتَ الْبَيْتِ﴾ ﴿٢٦﴾ هيأناه له، وأنزلناه إياه. وجعل قسماً من ذريته من سكانه، وأمره الله ببنائه على تقوى الله، وأسس على طاعة الله وبنائه هو وابنه إسماعيل ﴿أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ وأمره أن لا يشرك به شيئاً، بأن يخلص لله أعماله، ويبنيه على اسم الله ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي﴾ من الشرك والمعاصي. ومن الأنجاس والأدناس، وليكون أعظم لتطهيره وتعظيمه لكونه بيت الرب ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ به ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾ والعاكفين عنده، المقيمين لعبادة من العبادات، من ذكر، وقراءة، وتعلم علم، وتعليمه، وغير ذلك من أنواع القرب ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ المصلين؛ أي: طهره لهؤلاء الفضلاء، الذين همهم طاعة مولاهم، وخدمته والتقرب إليه عند بيته فهؤلاء لهم الحق ولهم الإكرام، ومن إكرامهم: تطهير البيت لأجلهم.

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ أعلمهم به، وادعهم إليه، وبلغ دانيهم وقاصيهم: فرضه وفضيلته ﴿يَأْتُوكَ﴾ أتوك حجاجاً وعماراً ﴿رِجَالًا﴾ مشاة على أرجلهم من الشوق ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ ناقة ضامر، تقطع المهامة والمفاوز، وتواصل السير. حتى تأتي إلى

المسلمين الذين آمنوا بجميع الكتب وجميع الرسل ﴿يُحْتَوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ يسورون في أيديهم، رجالهم ونساؤهم، أساور الذهب ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ فتم نعيمهم بذلك، من أنواع المأكولات اللذيذات المشتمل عليها، لفظ الجنات، وذكر الأنهار السارحات، أنهار الماء واللبن والعسل والخمر، وأنواع اللباس، والحلي الفاخر.

﴿وَذَلِكَ بِسَبَبِ أَنْهُمْ﴾ ﴿هُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ الذي أفضله وأطيبه كلمة الإخلاص، ثم سائر الأقوال الطيبة: التي فيها ذكر الله، أو إحسان إلى عباد الله ﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ الصراط المحمود، وذلك؛ لأن جميع الشرع كله محتو على الحكمة والحمد، وحسن المأمور به، وقبح المنهي عنه، وهو الدين الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، المشتمل على العلم النافع، والعمل الصالح.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يخبر تعالى عن شناعة ما عليه المشركون الكافرون بربهم، وأنهم جمعوا بين الكفر بالله ورسوله، وبين الصد عن سبيل الله، ومنع الناس من الإيمان ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ والصد عنه ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَنَكَفُ فِيهِ وَالْبَازِ﴾ الناس فيه سواء، المقيم فيه، والطارئ إليه ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَامِ يُظْلَمِ نَفَقَهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فمجرد الإرادة للظلم والإلحاد في الحرم موجب للعذاب - وإن كان غيره لا

(٢٥) أخرج الإمام أحمد والبخاري وابن جرير بإسناد صحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في قوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَامِ يُظْلَمِ﴾ قال: لو أن رجلاً أراد فيه بالإلحاد بظلم، وهو بعدن أبين، لأذاقه الله من العذاب الأليم.

أشرف الأماكن ﴿مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ من كل بلد بعيد.

(٢٨) ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ لينالوا ببيت الله منافع دينية من العبادات الفاضلة، والعبادات التي لا تكون إلا فيه ومنافع دنيوية من التكسب وحصول الأرباح الدنيوية ﴿وَيَذْكُرُوا أَاسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ وهذا من المنافع الدينية والدنيوية؛ أي: ليدذكروا اسم الله عند ذبح الهدايا، شكراً لله على ما رزقهم منها، ويسرها لهم؛ فإذا ذبحتموها ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ شديد الفقر.

(٢٩) ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ يقضوا نسكهم، ويزيلوا الوسخ والأذى الذي لحقهم في حال الإحرام ﴿وَلِيُوفُوا نَّذْرَهُمْ﴾ التي أوجبوها على أنفسهم، من الحج والعمرة والهدايا ﴿وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ القديم: أفضل المساجد على الإطلاق، والمعتق: من تسلط الجبابة عليه.

(٣٠) ﴿ذَلِكَ﴾ الذي ذكرنا لكم من تلکم الأحكام، وما فيها من تعظيم حرمت الله وإجلالها، وتكريمها ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ﴾ يكرم ويجل ﴿حُرْمَتِ اللَّهِ﴾ كل ما حرمه الله وأمر باحترامه من عبادة وغيرها، كالمناسك والحرم ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكَ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ في دينه ودنياه

الْمَنَافِعُ الْمَنَافِعُ

حُفَاءَ اللَّهِ عَمَّ مُشْرِكِينَ بِهِ. وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِينٍ ﴿٢٨﴾ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعْرُ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٢٩﴾ لِكُرْفِهَا مَنَافِعَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ يَحْمِلُهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٠﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِنَّهَا كَالْبَهْمِ الْكَافِرِ إِلَهِ وَجَدَ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحِلَّتِ قُلُوبُهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقْبِلِ صَلَوةً وَمَا رَزَقَهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٣﴾ لَنْ يَأْتِيَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دُمُومَهَا وَلَكِنْ يَأْتِيهِ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٥﴾

وأخراه ﴿عِنْدَ رَبِّهِ﴾ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْآنْعَامُ ﴿مِنْ إِبِلٍ وَغَنَمٍ وَبَقَرٍ﴾ إِلَّا مَا يَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴿فِي الْقُرْآنِ تَحْرِيمُهُ﴾: فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ ﴿الْخَبِيثَ الْقَذِرَ﴾ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴿الْأنداد، التي جعلتموها آلهة مع الله﴾ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿جميع الأقوال المحرمات؛ فإنها من قول الزور، الذي هو الكذب.﴾

(٣١) أمرهم أن يكونوا ﴿حُفَاءَ اللَّهِ﴾ مقبلين عليه، وعلى عبادته، معرضين عما سواه ﴿غَيْرَ

(٢٨) في «صحيح البخاري» معلقاً بصيغة الجزم ووصله عبد بن حميد عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «الأيام المعلومات: أيام العشر».

(٣٠) في «الصحيحين» عن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله وعقوق الوالدين - وكان متكئاً فجلس، فقال: «ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور» فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت.

أَصَابَهُمْ ﴿٣٥﴾ مِنَ الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَأَنْوَاعِ الْأَذَى ﴿وَالْمَقِيصِ الصَّلَاةِ﴾ الَّذِينَ جَعَلُوهَا قَائِمَةً مُسْتَقِيمَةً كَامِلَةً بِأَنْ أَدَّوا الْإِلَازِمَ فِيهَا وَالْمُسْتَحَبَّ، وَعِبُودِيَّتَهَا الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْفُونَ﴾ وَهَذَا يَشْمَلُ جَمِيعَ النِّفَقَاتِ الْوَاجِبَةِ وَالْمُسْتَحَبَّةِ.

﴿٣٦﴾ ﴿وَالْبُدْنَ﴾ الْإِبِلَ وَالْبِقَرَ ﴿لَكُمْ فِيهَا حَيْرٌ﴾ لِلْمَهْدِيِّ وَغَيْرِهِ، فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَكْلِ، وَالصَّدَقَةِ، وَالِاتِّفَاعِ، وَفِي الْآخِرَةِ مِنَ الثَّوَابِ، وَالْأَجْرِ ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ عِنْدَ ذَبْحِهَا قُولُوا: بِسْمِ اللَّهِ، وَاذْبَحُوهَا ﴿صَوَافٍ﴾؛ أَي: قَائِمَاتٍ؛ بِأَنْ تَقَامَ عَلَى قَوَائِمِهَا الْأَرْبَعِ، ثُمَّ تَعْقِلَ يَدُهَا الْيَسْرَى، ثُمَّ تَنْحَرُ ﴿فَإِذَا وَجِئْتَ جُدُومَهَا﴾ سَقَطَتْ عَلَى الْأَرْضِ جَنُوبَهَا حِينَ تَسْلُخُ ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ وَهَذَا خُطَابٌ لِلْمَهْدِيِّ، فَيَجُوزُ لَهُ الْأَكْلُ مِنْ هَدِيهِ ﴿وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ الْفَقِيرَ الَّذِي لَا يَسْأَلُ تَقْنَعًا وَتَعَفُّفًا، وَالْفَقِيرَ الَّذِي يَسْأَلُ؛ فَكُلْ مِنْهُمَا لَهُ حَقٌّ فِيهِمَا ﴿كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ﴾ أَي: السِّبْدَنَ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ اللَّهُ عَلَى تَسْخِيرِهَا؛ فَإِنَّهُ لَوْلَا تَسْخِيرُهُ لَهَا رَحْمَةٌ بِكُمْ وَإِحْسَانًا إِلَيْكُمْ؛ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ بِهَا طَاقَةٌ.

﴿٣٧﴾ ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ لَيْسَ الْمَقْصُودُ مِنْهَا: ذَبْحُهَا فَقَطْ. وَلَا يَنَالُ اللَّهُ مِنْ لُحُومِهَا، وَلَا دِمَائِهَا شَيْءٌ، لِكَوْنِهِ الْغَنِيِّ الْحَمِيدِ ﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ الْقُوَى مِنْكُمْ﴾ وَإِنَّمَا يَنَالُهُ الْإِخْلَاصُ فِيهَا، وَالِاحْتِسَابُ، وَالنِّيَّةُ الصَّالِحَةُ؛ فَفِي هَذَا حَثٌ وَتَرْغِيبٌ عَلَى الْإِخْلَاصِ فِي النُّحْرِ: أَنْ يَكُونَ الْقَصْدُ وَجْهَ اللَّهِ وَحْدَهُ ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ﴾ تَعْظُمُوهُ

مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ ﴿فَكُنَّا خَرًّا مِنْ السَّمَاءِ﴾؛ أَي: فَمَثَلُهُ كَأَنَّمَا سَقَطَ مِنْهَا ﴿فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ﴾ بِسُرْعَةٍ ﴿أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيحٍ﴾ بَعِيدٍ.

﴿٣٨﴾ ﴿ذَلِكَ﴾ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ لَكُمْ ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ شَعِيرَ اللَّهِ﴾ أَعْلَامُ الدِّينِ الظَّاهِرَةِ، وَمِنْهَا الْمَنَاسِكُ كُلُّهَا ﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ فَإِنْ تَعْظِيمُهَا بِاسْتِحْسَانِهَا وَاسْتِسْمَانِهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ.

﴿٣٩﴾ ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ فِي الْهَدَايَا ﴿مَنْتَفِعٌ﴾ هَذَا فِي الْهَدَايَا الْمَسْوَوقَةِ مِنَ الْبَدَنِ وَنَحْوِهَا، يَنْتَفِعُ بِهَا أَرْبَابُهَا بِالرُّكُوبِ، وَالْحَلَبِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، مِمَّا لَا يَضُرُّهَا ﴿إِلَّا أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ مُقَدَّرٌ مُؤَقَّتٌ، وَهُوَ: ذَبْحُهَا؛ إِذَا وَصَلَتْ ﴿مَحِلَّهَا﴾ وَهُوَ ﴿الْبَيْتِ الْأَعْيَنِ﴾ الْمَحْرَمُ كُلُّهُ: مَنَى وَغَيْرُهَا؛ إِذَا ذُبِحَتْ أَكَلُوا مِنْهَا، وَأَهْدَوْا، وَأَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ.

﴿٤٠﴾ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ ﴿جَعَلْنَا مَسْكًا﴾ مَكَانًا لَذَبْحِ الدِّمَاءِ وَإِرَاقَةِ الْقَرَابِيسِ؛ ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ عِنْدَ نَحْرِهَا وَذَبْحِهَا ﴿فَاللَّهُمَّ إِنَّهُ وَجَدٌ﴾ وَإِنْ اخْتَلَفَتْ أَجْنَاسُ الشَّرَائِعِ؛ فَكُلُّهَا مُتَّفِقَةٌ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ، وَهُوَ: أَلُوهِيَّةُ اللَّهِ، وَإِفْرَادُهُ بِالْعِبَادَةِ، وَتَرْكُ الشُّرْكِ بِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ انْقَادُوا وَاسْتَسْلِمُوا لَهُ؛ لِأَلْغِيَرِهِ، فَإِنَّ الْإِسْلَامَ طَرِيقُ الْوُصُولِ إِلَى دَارِ السَّلَامِ ﴿وَبَشِّرِ﴾ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ وَالْمُخْبِتِ: الْخَاضِعِ لِرَبِّهِ، الْمُسْتَسْلِمِ لِأَمْرِهِ، الْمَتَوَاضِعِ لِعِبَادِهِ.

﴿٤١﴾ ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ خَوْفًا وَتَعْظِيمًا، فَتَرَكُوا لِذَلِكَ الْمَحْرَمَاتِ؛ لِخَوْفِهِمْ وَوَجَلِهِمْ مِنَ اللَّهِ وَحْدَهُ ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا

وتجلوه ﴿عَلَى مَا هَدَيْتُكُمْ﴾ مقابلة لهديته إياكم؛ فإنه يستحق أكمل الثناء، وأجل الحمد، وأعلى التعظيم ﴿وَبَثَّرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بعبادة الله بأن يعبدوا الله؛ كأنهم يرونه؛ فإن لم يصلوا إلى هذه الدرجة، فليعبدوه، معتقدين وقت عبادتهم: اطلاعه عليهم، ورؤيته إياهم.

(٣٨) ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ هذا إخبار ووعد وبشارة من الله للذين آمنوا: أن الله يدفع عنهم كل مكروه، ويدفع عنهم - بسبب إيمانهم - كل شر من شرور الكفار ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾ خائن في أمانته: التي حمّله الله إياها، فيبخرس حقوق الله عليه، ويخونها، ويخون الخلق ﴿كَفُورٍ﴾ لنعم الله، يوالي الله عليه الإحسان، ويتوالى منه الكفر والعصيان؛ فهذا لا يحبه الله، بل يبغضه ويمقتّه، وسيجازهه على كفره وخيانتته.

(٣٩) ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ﴾ يفهم منه أنهم كانوا قبل ممنوعين، فأذن الله لهم بقتال الذين يقاتلونهم ﴿بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا﴾ وإنما أذن لهم لأنهم ظلموا، بمنعهم من دينهم، وأذيتهم عليه، وإخراجهم من ديارهم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ فليستنصروه، وليستعينوا به.

(٤٠) ثم ذكر صفة ظلمهم فقال: ﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ أخرجوا إلى الخروج، بالأذية والفتنة ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا﴾ أن ذنبهم

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٨) الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الصُّلُوعُ وَبِيعَ وَصَلَاتٌ وَمَسْجِدُ يُذَكِّرُهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٣٩) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤٠) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ (٤١) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٢) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٣) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِیَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْسَ مَعْطَلَةٌ وَفَسَرٌ مَشِيدٌ (٤٤) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٥)

الذي نقم منهم أعداؤهم: ﴿أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾؛ أي: إلا لأنهم وحدوا الله، وعبدوه مخلصين له الدين ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ فيدفع الله بالمجاهدين في سبيله ضرر الكافرين؛ ﴿لَفَسَدَتِ الصُّلُوعُ وَبِيعَ وَصَلَاتٌ وَمَسْجِدُ﴾؛ أي: لهدمت هذه المعابد الكبار لطوائف أهل الكتاب: معابد اليهود والنصارى، والمساجد للمسلمين ﴿يُذَكِّرُ فِيهَا﴾ في هذه المعابد ﴿اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ تقام فيها الصلوات، وتلى فيها كتب الله، ويذكر فيها اسم الله بأنواع الذكر ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ

(٣٩) أخرج الترمذي والنسائي وابن جرير بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه؛ قال: لما أخرج النبي ﷺ من مكة؛ قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم إنا لله وإنا إليه راجعون؛ ليهلكوا. قال ابن عباس: فأنزل الله ﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الصُّلُوعُ وَبِيعَ وَصَلَاتٌ وَمَسْجِدُ يُذَكِّرُهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ قال أبو بكر: فعرفت أنه سيكون قتال.

فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ﴿وَكَذَّبَ مُوسَىٰ﴾ كَذِبَهُ
 فرعون وملؤه؛ فأغرقه الله في اليم وهو مليم
 ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ المكذبين، فلم أعاجلهم
 بالعقوبة بل أمهلهم، ﴿ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ﴾ بالعذاب
 أخذ عزيز مقتدر ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾
 إنكاري عليهم كفرهم، وتكذيبهم كيف حاله،
 كان أشد العقوبات، وأفظع المثالات.

(٤٥) ﴿فَكَانَ مِن قَرْيَةٍ﴾ وكم من قرية
 ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ بالعذاب الشديد، والخزي الدنيوي
 ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ بكفرها بالله وتكذيبها لرسله،
 لم يكن عقوبتنا لها ظلماً منا ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ
 عُرُوشِهَا﴾ فديارهم متهدمة، قصورها،
 وجدرائها: قد سقطت على عروشها ﴿وَيَبُرُّ
 مُعْطَلَةٌ﴾ وكم من بئر - قد كان يزدهم عليها
 الخلق لشربهم، وشرب مواشيهم - فقد
 أهلها، وعُدِم منها الوارد والصادر ﴿وَقَصِرَ
 مَشِيدُهَا﴾ وكم من قصر، تعب عليه أهله؛
 فشيده، ورفعوه، وحصنوه، وزخرفوه؛ فحين
 جاءهم أمر الله، لم يغن عنهم شيئاً، وأصبح
 خالياً من أهله، قد صاروا عبرة لمن اعتبره،
 ومثالاً لمن فكر ونظر.

(٤٦) ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بأبدانهم
 وقلوبهم ﴿فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ آيات
 الله، ويتأملون بها مواقع عبره ﴿أَوْ أَعَادُوا يَسْمُوعَ
 بِهَا﴾ أخبار الأمم الماضين، وأنباء القرون
 المعذبين وإلا فمجرد نظر العين، وسماع الأذن،
 وسير البدن الخالي من التفكير والاعتبار غير
 مفيد، ولا موصل إلى المطلوب؛ ولهذا قال:
 ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي
 الصُّدُورِ﴾ ليس العمى عمى البصر، وإنما العمى

يَبْصَرُهُ ﴿يَقُومُ بِنَصْرِ دِينِهِ مَخْلَصاً لَهُ فِي ذَلِكَ،
 وَيُقَاتِلُ فِي سَبِيلِهِ؛ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا،
 ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ﴾ كامل القوة، ﴿عَزِيزٌ﴾ لا
 يرام، قد قهر الخلائق، وأخذ بنواصيهم؛
 فأبشروا يا معشر المسلمين.

(٤١) ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ ملكناهم
 إياها، وجعلناهم المتسلطين عليها من غير
 منازع ينازعهم، ولا معارض ﴿أَقَامُوا
 الصَّلَاةَ﴾ في أوقاتها، وحدودها، وأركانها،
 وشروطها، في الجمعة والجماعات ﴿وَأَتَوْا
 الزَّكَاةَ﴾ التي عليهم خصوصاً، وعلى
 رعيتهم عموماً، أتوها أهلها الذين هم أهلها
 ﴿وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهذا يشمل كل معروف:
 من حقوق الله، وحقوق الآدميين ﴿وَنَهَوْا عَنِ
 الْمُنْكَرِ﴾ كل منكر ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾
 جميع الأمور ترجع إلى الله، وقد أخبر أن
 العاقبة للتقوى.

(٤٢) ﴿وَإِن يَكْذِبُوكَ﴾ يقول تعالى لنبيه
 محمد ﷺ: وإن يكذبك هؤلاء المشركون؛
 فلست بأول رسول كذب، وليسوا بأول أمة
 كذبت رسولها ﴿فَقَدْ كَذَّبَ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾
 فأغرقهم الله بالطوفان ﴿وَعَادُ﴾ قوم هود عليه السلام
 فأهلكهم الله بريح صرر عاتية ﴿وَتَمُودُ﴾ قوم
 صالح عليه السلام فأخذتهم الصيحة؛ فأصبحوا في
 ديارهم جاثمين.

(٤٣) ﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ﴾ كذبوه وحاولوا إحراقه
 بالنار؛ فأنجاه الله منهم ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ قرى
 سدوم التي كانت تعمل الخبائث، فجعل الله
 عاليها سافلها.

(٤٤) ﴿وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ﴾ قوم شعيب عليه السلام

عمى البصيرة، وإن كانت القوة الباصرة سليمة؛
فإنها لا تنفذ إلى العبر، ولا تدري ما الخبر.
(٤٧) ﴿وَسَتَجْلُوَنَا بِالْعَذَابِ﴾ يستعجلك هؤلاء
المكذبون بالعذاب، لجهلهم، وظلمهم،
وعنادهم، وتعجيزاً لله، وتكذيباً لرسوله ﴿وَلَنْ
يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ فما وعدهم به من العذاب
لا بد من وقوعه، ولا يمنعهم منه مانع،
وأما عجلته والمبادرة إليه؛ فليس ذلك إليك يا
محمد، ولا يستفزك عجلتهم وتعجيزهم إيانا
فإن أمامهم يوم القيامة الذي يجمع فيه أولهم
 وآخرهم، ويجازون بأعمالهم حيث يقع بهم
العذاب الدائم، ولهذا قال: ﴿وَلَيْكَ يَوْمًا عِنْدَ
رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعْدُونَ﴾ من طوله،
وشدته، وهوله؛ فسواء أصابهم عذاب في
الدنيا أم تأخر عنهم العذاب؛ فإن هذا اليوم لا
بد أن يدركهم.

(٤٨) ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ﴾ وكم من قرية ﴿أَمَلَيْتُ
لَهَا﴾ أمهلتها مدة طويلة ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ مع
ظلمهم، فلم يكن مبادرتهم بالظلم، موجباً
لمبادرتنا بالعقوبة ﴿ثُمَّ أَخَذْنَاهَا بِالْعَذَابِ﴾ وَلَى
الْمَصِيرُ مع عذابها في الدنيا سترجع إلى الله؛
فيعذبها بذنوبها.

(٤٩) ﴿قُلْ يَتَّيْبُهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ يأمر
تعالى عبده ورسوله محمد ﷺ أن يخاطب
الناس جميعاً بأنه رسول الله حقاً، مبشراً
للمؤمنين بثواب الله، منذراً للكافرين والظالمين
من عقابه وقوله: ﴿مُتَيْنٌ﴾ بَيِّنُ الإنذار وهو:
التخويف مع الإعلام بالمخوف.

(٥٠) ﴿قَالَتِ زَيْنَةُ امْرَأَتُكَ﴾ بقلوبهم إيماناً صحيحاً
صادقاً ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بجوارحهم ﴿لَهُمْ

وَسَتَجْلُوَنَا بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا
عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعْدُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ
قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْنَاهَا بِالْمَصِيرِ
﴿٥٨﴾ قُلْ يَتَّيْبُهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٩﴾ قَالَتِ زَيْنَةُ
امْرَأَتُكَ ﴿٦٠﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْنَاهَا بِالْمَصِيرِ
﴿٦١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى
أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ
ثُمَّ يُصَدِّقُكَ اللَّهُ بِأَيِّتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٦٢﴾ لِيَجْعَلَ
مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فَتَنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ
قُلُوبُهُمْ وَلَكَ الظَّالِمِينَ لِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٦٣﴾ وَلِيَعْلَمَ
الَّذِينَ آمَنُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ
فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٤﴾ وَلَا تَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَقَتِهِمْ حَتَّى
تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْرَعِقُهُمْ ﴿٦٥﴾

مَغْفِرَةٌ﴾ لما حصل منهم من الذنوب ﴿وَرَزُقٌ
كَرِيمٌ﴾ رزق حسن، يعني في الجنة. أي:
عملوا في إبطال آياتنا.
(٥١) ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ﴾ أي:
عملوا في إبطال آياتنا. ﴿مُعْجِزِينَ﴾ يحسبون
أنهم يفوتتنا، وقرأت: ﴿معجزين﴾ بالتشديد،
أي: مثبطين الناس عن الإيمان. ﴿أُولَئِكَ﴾
الموصوفون بما ذكر من السعي والمعاجة
﴿أَصْحَابُ الْحَجِيمِ﴾ الملازمون للنار.

(٥٢) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ يخبر الله تعالى
بحكمته البالغة، واختياره لعباده، وأن الله ما
أرسل قبل محمد ﴿مِّنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا
تَمَنَّى﴾ قرأ قراءته: التي يذكر بها الناس،
ويأمرهم وينهاهم ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾
في قراءته، من طرقه ومكايده، ما هو مناقض

يكون فنة لهؤلاء الطائفتين .

(٥٤) ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ وأن الله منحهم من العلم ما به يعرفون الحق من الباطل، والرشد من الغي؛ فيفرقون بين الأمرين ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ بسبب ذلك، ويزداد إيمانهم عند دفع المعارض والشبهة ﴿فَتُخَيِّتَ لَهُمْ قُلُوبُهُمْ﴾ تخضع وتخضع، وتسلم لحكمته، وهذا من هدايته إياهم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بسبب إيمانهم ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ علم بالحق، وعمل بمقتضاه، فثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة. وهذا النوع من تثبيت الله لعبده .

(٥٥) ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ يخبر تعالى عن حالة الكفار، وأنهم لا يزالون في شك مما جنتهم به يا محمد؛ لعنادهم وإعراضهم ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ مفاجأة ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ لا خير فيه، وهو: يوم القيامة .

(٥٦) ﴿الْمَلَأُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿اللَّهُ﴾ تعالى، لا لغيره ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ بحكمه العدل، وقضائه الفصل يحكم سبحانه بين المؤمنين والكافرين ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسله، وما جاءوا به ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ليصدقوا بذلك إيمانهم ﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ نعيم القلب والروح والبدن، مما لا يصفه الواصفون، ولا تدركه العقول .

(٥٧) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسله ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الهداية للحق والصواب ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ كما استهانوا برسله وآياته؛

الْمَلَأُ يَوْمَئِذٍ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ٥٤ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ٥٥ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قَتَلُوا أَوْ مَاتُوا لَسَوْفَ نَعْتَمُ إِلَهُهُمْ اللَّهُ رَزَقَنَا وَإِلَهُ الْهَوَاحِشِ الرَّزَاقِينَ ٥٦ لِيَدْخُلْنَهُمْ مُدْخَلَ رِضْوَانٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ٥٧ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ، ثُمَّ نَبَغَ عَلَيْهِ لَيْسَ بِنَصْرَةِ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ٥٨ ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ يُولِجُ النَّارَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ نَّصِيرٌ ٥٩ ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَرَأَيْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَرَأَيْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ٦٠ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ٦١ لَمْ يَأْتِ السَّحَابُ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَئِنْ اللَّهُ لَهَوَالْعُتُوِّ الْحَمِيدُ ٦٢

لتلك القراءة ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ يزيله ويذهبه ويبطله، ويبين أنه ليس من آياته ﴿ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ أَلَيْسَ بِهِ﴾ يتقنها، ويحررها، ويحفظها؛ فتبقى خالصة من مخالطة إلقاء الشيطان ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ كامل القوة والافتداز؛ فبكمال قوته يحفظ وحيه، ويزيل ما تلقيه الشياطين ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها .

(٥٣) ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً﴾ لطائفتين من الناس لا يبالي الله بهم: ﴿لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ ضعف وعدم إيمان تام وتصديق جازم؛ فيؤثر في قلوبهم أدنى شبهة تطرأ عليها ﴿وَالْفَاسِقَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ الغليظة، التي لا يؤثر فيها زجر ولا تذكير ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ مشاقة لله، ومعاندة للحق، ومخالفة له، بعيد من الصواب، فما يلقيه الشيطان

وَيُؤَلِّجُ التَّهَكَرَّ فِي اللَّيْلِ ﴿٦١﴾ يدخل هذا على هذا، وهذا على هذا، فيأتي بالليل بعد النهار، وبالنهار بعد الليل، ويزيد في أحدهما ما ينقصه من الآخر، ثم بالعكس ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات ﴿بَصِيرٌ﴾ يرى دبيب النملة السوداء تحت الصخرة الصماء في الليلة الظلماء!

﴿٦٢﴾ ﴿ذَلِكَ يَأْنَّ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ﴾؛ أي: ذلك الذي ذكرت لتعلموا أن الله هو الحق ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ من الأصنام والأنداد ﴿هُوَ الْبَاطِلُ﴾ هو باطل في نفسه، وعبادته باطلة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ﴾ العلي في ذاته، وفي قدره، وفي قهره ﴿الْكَبِيرُ﴾ في ذاته، وفي أسمائه، وفي صفاته.

﴿٦٣﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تشاهد بصرك وبصيرتك ﴿أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾؛ وهو: المطر ﴿فَقَصَّحُ الْأَرْضَ مُخْضَرَّةً﴾ خضراء بعد يباسها ومحولها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾ يدرك بواطن الأشياء، وخفياتها، ﴿خَبِيرٌ﴾ بسرائر الأمور، وخبايا الصدور، وخفايا الأمور.

﴿٦٤﴾ ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خلقاً وعبيداً، يتصرف فيهم بملكه وحكمته، وكمال اقتداره ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ بذاته الذي له الغنى المطلق التام من جميع الوجوه ومن غناه: أنه لا يحتاج إلى أحد من خلقه، ولا يواليهم من ذلة، ولا يتكثر بهم من قلة ﴿الْحَكِيمُ﴾ المحمود في ذاته، وفي أسمائه، وفي صفاته، وفي أفعاله، وفي شرعه.

أهانهم وأخزاهم في جهنم بالله بالعذاب. ﴿٥٨﴾ ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ خرجوا من دارهم ووطنهم وأولادهم ومالهم ابتغاء وجه الله، ونصرة لدين الله ﴿ثُمَّ قُتِلُوا﴾ في الجهاد ﴿أَوْ مَاتُوا﴾ من غير قتال على فرشهم ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ في البرزخ، وفي يوم القيامة بدخول الجنة ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ﴾ لخير من يرزق، فما رزقهم به هو خير رزق وأطيبه وأوسع.

﴿٥٩﴾ ﴿لَيَدْخُلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ﴾؛ أي: الجنة ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بمن يهاجر ويجاهد في سبيله، وبمن يستحق ذلك ﴿حَلِيمٌ﴾ يحلم ويصفح ويغفر لهم الذنوب.

﴿٦٠﴾ ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ بأن من جني عليه وظلم فإنه يجوز له مقابلة الجاني بمثل جنايته؛ فإن فعل ذلك، فليس عليه سبيل، وليس بملوم ﴿ثُمَّ يَغِي عَلَيْهِ﴾ فإن غي عليه بعد هذا ﴿لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ فإن الله ينصره؛ لأنه مظلوم فلا يجوز أن يُغَيَّ عليه، بسبب أنه استوفى حقه، وإذا كان المجازي غيره بإساءته إذا ظلم بعد ذلك؛ نصره الله فالذي بالأصل لم يعاقب أحداً إذا أظلم وجني عليه، فالنصر إليه أقرب. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ﴾ يعفو عن المذنبين؛ فلا يعاجلهم بالعقوبة ﴿عَفُوٌّ﴾ يغفر ذنوبهم؛ فيزيلها، ويزيل آثارها عنهم.

﴿٦١﴾ ﴿ذَلِكَ﴾ الذي شرع لكم تلك الأحكام الحسنة العادلة، هو حسن التصرف في تقديره وتدبيره، الذي ﴿يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ



وَالْأَرْضِ ﴿٧٠﴾ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهَا خَافِيَةٌ، مِنْ ظَوَاهِر الْأُمُورِ وَبَوَاطِنِهَا: خَفِيَّهَا وَجَلِيَّهَا، مُتَقَدِّمُهَا وَمُتَأَخِّرُهَا ﴿٧١﴾ إِنَّ ذَلِكَ ﴿٧٢﴾ الْعِلْمُ الْمَحِيطُ بِمَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، قَدْ أَثْبَتَهُ اللَّهُ ﴿٧٣﴾ فِي كِتَابٍ وَهُوَ اللُّوحُ الْمَحْفُوظُ، ﴿٧٤﴾ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٥﴾ وَإِنْ كَانَ تَصَوُّرُهُ عِنْدَهُمْ لَا يَحَاطُ بِهِ، فَاللَّهُ تَعَالَى يَسِيرُ عَلَيْهِ أَنْ يَحِيطَ عِلْمًا بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ، وَأَنْ يَكْتُبَ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ مُطَابِقٍ لِلْوَاقِعِ.

﴿٧٦﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴿٧٧﴾ يَخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْمَشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا، يَعْنِي: حُجَّةً وَبِرْهَانًا ﴿٧٨﴾ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴿٧٩﴾ لَا مُسْتَدَّ لَهُمْ عَلَى مَا فَعَلُوهُ، وَإِنَّمَا هُوَ تَقْلِيدٌ تَلْقَوْهُ، وَكَذَبَ اخْتَلَقُوهُ ﴿٨٠﴾ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٨١﴾ يَنْصُرُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، إِذَا نَزَلَ بِهِمْ وَحْلٌ.

﴿٧٢﴾ ﴿٧٣﴾ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ السِّي هِيَ آيَاتُ اللَّهِ الْجَلِيلَةِ الْمُسْتَلْزِمَةِ لِبَيَانِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ ﴿٧٤﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ ﴿٧٥﴾ مِنْ بَغْضِهَا وَكَرَاهَتِهَا تَرَى وَجُوهَهُمْ مَعْبَسَةً، وَأَبْشَارَهُمْ مَكْفَهَرَةً ﴿٧٦﴾ يَكَادُرُونَ يَسْطُورُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴿٧٧﴾ يَكَادُونَ يَوْقَعُونَ بِهِمُ الْقَتْلَ وَالضَّرْبَ الْبَلِيعَ مِنْ شِدَّةِ بَغْضِهِمْ، وَبِغْضِ الْحَقِّ وَعِدَاوَتِهِ فَهَذِهِ الْحَالَةُ مِنَ الْكَفَرِ بِشِئْنِ الْإِلَهِ، وَشَرِّهَا بِشِئْنِ مَا هُوَ شَرُّ مِنْهَا، حَالَتُهُمْ الَّتِي يُولُونُ إِلَيْهَا؛ فَلهَذَا قَالَ: ﴿٧٨﴾ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ النَّارِ وَعَدَّاهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشَّ الْمَصِيرَ ﴿٧٩﴾.

﴿٧٣﴾ ﴿٧٤﴾ يَتَأَيَّمُ النَّاسُ ﴿٧٥﴾ هَذَا خُطَابٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِ، الْمُؤْمِنُونَ يَزِدَادُونَ عِلْمًا وَبَصِيرَةً، وَالْكَافِرُونَ تَقُومُ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ ﴿٧٦﴾ ضَرْبٌ مِثْلُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴿٧٧﴾ أَلْقُوا إِلَيْهِ أَسْمَاعَكُمْ، وَافْهَمُوا مَا اِحْتَوَى عَلَيْهِ ﴿٧٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شَمَلٌ كُلِّ مَا يَدْعَى مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿٧٩﴾ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا ﴿٨٠﴾ الَّذِي هُوَ مِنْ أَهْوَى الْمَخْلُوقَاتِ وَأَخْسَهَا فَلَيْسَ فِي قُدْرَتِهِمْ خَلْقُ هَذَا الْمَخْلُوقِ الضَّعِيفِ، فَمَا فَوْقَهُ مِنْ بَابٍ أَوْلَى ﴿٨١﴾ وَلَوْ أَجْتَمَعُوا لَهُ ﴿٨٢﴾ أَي: لَخَلَقَهُ، بَلْ أَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ: ﴿٨٣﴾ وَإِنْ يَسْتَلْبِثُ الدُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوه مِنْهُ ﴿٨٤﴾ وَهَذَا غَايَةُ مَا يَصِيرُ مِنَ الْعَجْزِ ﴿٨٥﴾ ضَعْفُ

(٧٣) في «الصحيحين» و«المسند» واللفظ لأحمد - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «قال الله ﻻ يَخْلُقُ ذَرْبًا أَوْ ذَبَابَةً أَوْ حَبَّةً». ذهب يخلق كخَلْقِي، فليخلقوا مثل خَلْقِي: ذرة أو ذبابة أو حبة.

وَالْجِهَادُ بِذَلِكَ الْوَسْعِ فِي حُصُولِ الْغَرَضِ الْمَطْلُوبِ؛ فَالْجِهَادُ فِي اللَّهِ حَقُّ جِهَادِهِ، هُوَ: الْقِيَامُ التَّامُّ بِأَمْرِ اللَّهِ، وَدَعْوَةُ الْخَلْقِ إِلَى سَبِيلِهِ بِكُلِّ طَرِيقٍ مُوصِلٍ إِلَى ذَلِكَ ﴿هُوَ أَجْتَبَاكُمْ﴾ اخْتَارَكُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ بَيْنِ النَّاسِ، وَاخْتَارَ لَكُمْ الدِّينَ، وَرَضِيَهُ لَكُمْ، وَاخْتَارَ لَكُمْ أَفْضَلَ الْكُتُبِ، وَأَفْضَلَ الرُّسُلِ، فَقَابَلُوا هَذِهِ الْمُنْحَةَ الْعَظِيمَةَ، بِالْقِيَامِ بِالْجِهَادِ فِيهِ حَقَّ الْقِيَامِ ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ مَشَقَّةٌ وَعَسْرٌ ﴿يَلَا أَيْكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ هَذِهِ الْمَلَّةُ الْمَذْكُورَةُ، وَالْأَوَامِرُ الْمَذْبُورَةُ: مَلَّةُ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ، الَّتِي مَا زَالَ عَلَيْهَا؛ فَالزَّمُوهَا وَاسْتَمْسَكُوا بِهَا ﴿هُوَ سَتَنَكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ فِي الْكُتُبِ السَّابِقَةِ ﴿وَفِي هَذَا﴾ أَي: هَذَا الْكِتَابِ، وَهَذَا الشَّرْعِ، أَي: مَا زَالَ هَذَا الْاسْمُ لَكُمْ قَدِيمًا وَحَدِيثًا ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ بِأَعْمَالِكُمْ خَيْرَهَا وَشَرِّهَا ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ تَشْهَدُونَ لِلرُّسُلِ أَنَّهُمْ بَلَّغُوا أَمْرَهُمْ، وَتَشْهَدُونَ عَلَى الْأُمَمِ أَنَّ رُسُلَهُمْ بَلَّغْتَهُمْ بِمَا أَخْبَرَكُمْ اللَّهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ ﴿فَأَقِمْوُا الصَّلَاةَ﴾ بِأَرْكَانِهَا وَشُرُوطِهَا وَحُدُودِهَا وَجَمِيعِ لَوَازِمِهَا ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ الْمَفْرُوضَةَ لِمُسْتَحَقِّهَا؛ شُكْرًا لِلَّهِ عَلَى مَا أَوْلَاكُمْ ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ امْتَنَعُوا بِهِ وَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ، وَلَا تَتَكَلَّوْا عَلَى حَوْلِكُمْ وَقُوَّتِكُمْ ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ الَّذِي يَتَوَلَّى أُمُورَكُمْ ﴿فَنِعَمَ الْمَوْلَى﴾ لِمَنْ تَوَلَّاهُ؛ فَحَصَلَ لَهُ مَطْلُوبُهُ ﴿وَنِعَمَ النَّصِيرُ﴾ لِمَنْ اسْتَنْصَرَهُ؛ فَدَفَعَ عَنْهُ الْمَكْرَهُ.

الطَّالِبُ الَّذِي هُوَ الْمَعْبُودُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَطْلُوبُ الَّذِي هُوَ الذِّبَابُ.

(٧٤) ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ حَيْثُ سَوَّاهُ الْفَقِيرَ الْعَاجِزَ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، بِالْغَنِيِّ الْقَوِيِّ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ. سَوَّاهُ مِنْ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ وَلَا لغيرِهِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، بَمَنْ هُوَ النَّافِعُ الضَّارُّ، الْمَعْطِيُّ الْمَانِعُ، مَالِكُ الْمُلْكِ وَالْمَتَصَرِّفُ فِيهِ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِ التَّصْرِيفِ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ كَامِلُ الْقُوَّةِ، كَامِلُ الْعِزَّةِ، وَمِنْ كَمَالِ قُوَّتِهِ وَعِزَّتِهِ: أَنْ نَوَاصِي الْخَلْقِ بِيَدِيهِ، وَأَنَّهُ لَا يَتَحَرَّكُ مَتَحَرِّكٌ، وَلَا يَسْكُنُ سَاكِنٌ، إِلَّا بِإِرَادَتِهِ وَمَشِئَتِهِ.

(٧٥) ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي﴾ يَخْتَارُ وَيَجْتَبِي ﴿مَنْ أَلَمَّتْ بِهِ رُسُلًا﴾ فِيمَا يَشَاءُ مِنْ شَرْعِهِ وَقَدْرِهِ ﴿وَمِنْ آتَانِ﴾ رِسَالًا؛ لِإِبْلَاغِ رِسَالَتِهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ ﴿بَصِيرٌ﴾ بِهِمْ.

(٧٦) ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ يَعْلَمُ مَا قَدَمُوا ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مَا خَلْفُوا ﴿وَالِلَّهِ تُرْجِعُ الْأُمُورُ﴾ إِلَى اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ تَصِيرُ إِلَيْهِ أُمُورُ الدُّنْيَا، وَإِلَيْهِ تَعُودُ كَمَا كَانَ مِنْهُ الْبَدَأُ.

(٧٧) ﴿يَتَابِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ يَأْمُرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّلَاةِ، وَخَصَّ مِنْهَا الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ، لِفَضْلِهِمَا وَرُكْنَيْتَهُمَا ﴿وَأَعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ وَعِبَادَتُهُ الَّتِي هِيَ قِرَةُ الْعَيُونِ، وَسُلُوةُ الْقَلْبِ الْمَحْزُونِ ﴿وَأَقْلُوا الْخَيْرَ﴾ وَأَمْرُهُمْ بِفِعْلِ الْخَيْرِ عَمُومًا، وَعَلَّقَ تَعَالَى الْفَلَاحَ عَلَى هَذِهِ الْأُمُورِ، فَقَالَ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾؛ أَي: تَفُوزُونَ بِالْمَطْلُوبِ الْمَرْغُوبِ، وَتَنْجُونَ مِنَ الْمَكْرِهِ الْمَرْهُوبِ.

(٧٨) ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾

سورة المؤمنون



(١) ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ قد فازوا وسعدوا ونجحوا. المؤمنون الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين.

(٢) ﴿الَّذِينَ هُمْ﴾ من صفاتهم الكاملة أنهم: ﴿فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ والخشوع في الصلاة هو: حضور القلب بين يدي الله تعالى.

(٣) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ﴾ وهو الكلام الذي لا خير فيه، ولا فائدة ﴿مُعْرِضُونَ﴾ رغبة عنه، وتنزيهاً لأنفسهم وترفعاً عنه وإذا مرو باللغو مروا كراماً، وإذا كانوا معرضين عن اللغو، فإعراضهم عن المحرم من باب أولى وأحرى.

(٤) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾؛ أي: مؤدون لزكاة أموالهم، على اختلاف أجناس الأموال.

(٥) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ عن الزنا، ومن تمام حفظها تجنب ما يدعو إلى ذلك؛ كالنظر، واللمس، ونحوهما. فحفظوا فروجهم من كل أحد.

(٦) ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ من الإماء المملوكات ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ بقربهما؛ لأن الله تعالى أحلها.

(٧) ﴿فَمَنْ أَبْغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ غير الزوجة والسرية ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ المتجرئون على محارم الله.

(٨) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ إذا اتتمنوا لم يخونوا بل مراعون لها، ضابطون، حافظون، حريصون على القيام بها وتنفيذها،

وهذا عام في جميع الأمانات، التي هي حق لله، والتي هي حق للعباد. فجميع ما أوجبه الله على عبده أمانة على العبد حفظها بالقيام بها، وكذلك يدخل في ذلك أمانات الآدميين، كأمانات الأموال والأسرار ونحوها.

وكذلك العهد، يشمل العهد الذي بينهم وبين ربهم والذي بينهم وبين العباد، وهي الالتزامات والعقود التي يعقدها العبد، فعليه مراعاتها والوفاء بها.

(٩) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ يداومون عليها في أوقاتها وحدودها وأشراتها وأركانها، فمدحهم بالخشوع في الصلاة، وبالمحافظة عليها؛ لأنه لا يتم أمرهم إلا

(٩) في «الصحيحين» من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، أي العمل أحب إلى الله؟

قال: «الصلاة على وقتها» قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين»، قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله».

(١٢) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ آدم ﷺ ﴿سَلْطَةً مِّن طِينٍ﴾ أي: قد وسلت، وأخذت من جميع الأرض.

(١٣) ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ﴾ أي: جنس آدميين ﴿نُطْفَةً﴾ وهي الماء الدافق الذي يخرج من صلب الرجل وترائب المرأة فتستقر ﴿فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ وهو: الرحم، محفوظة من الفساد والريح وغير ذلك.

(١٤) ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ﴾ التي قد استقرت قبل ﴿عَلَقَةً﴾ دماً أحمر، بعد مضي أربعين يوماً في النطفة ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ﴾ بعد أربعين يوماً ﴿مُضْغَةً﴾ قطعة لحم صغيرة، بقدر ما يمضغ من صغرها ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ﴾ اللينة ﴿عِظْماً﴾ صلبة ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ أي: جعلنا اللحم كسوة للعظام، كما جعلنا العظام، عماداً للحم ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ نفخ فيه الروح ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ﴾ تعالى، وتعاضم، وكثر خيره ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ خلقه كله حسناً، والإنسان من أحسن مخلوقاته.

(١٥) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ الخلق، ونفخ الروح ﴿لَمَيِّتُونَ﴾ في أحد أطواركم وتنقلاتكم.

(١٦) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تَبْعُثُونَ﴾ فتجازون بأعمالكم: حسنها وسيئها.

وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَنَازَعَنَا ذَهَابَ بِهِ لَقْدَرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكَرْبِهِ جَنَّتٍ مِّن تَجْوِيلٍ وَأَعْنَبَ لَكَرْبِهِمَا فَوَكَهَ كَثِيرَةً وَنَهْنَاهَا تَكُونُ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَنِيعٌ لِلَّذِينَ ﴿٢٠﴾ وَلَئِن لَّكَ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ مِّثْلُ مَا فِي بُطُونِهَا وَلَكَرْبِهِمَا نَبِيعٌ كَثِيرٌ ﴿٢١﴾ وَنَهْنَاهَا تَكُونُ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ لِّقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّن إِلَهِ غَيْرِهِ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا آسَافٌ مِّنْ كُومٍ يُدَانُ يَفْضَلُ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ مَّا يَصْصُوفُ بِهِ، حَتَّىٰ جِئَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كُنتُ بِنَاءً ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْصَعْ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا فَاذْجَأْ فِرْعَوْنَ وَفَارَكَ ثَوْرًا سَلَفَ فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ مِّنْ نَّاسٍ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تَحْطِطُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾

بالأمرين.

(١٠) ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ يرثون منازل أهل النار في الجنة.

(١١) ﴿الَّذِينَ يَرْتُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ الذي هو أعلى الجنة ووسطها وأفضلها ﴿هُم فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا يظعنون عنها، ولا يبغون عنها حولاً.

(١٠) أخرج ابن ماجه بإسناد صحيح من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَلَهُ مَنَزَلَانِ: مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ، فَإِنْ مَاتَ، فَدَخَلَ النَّارَ وَرَثَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾».

(١١) أخرج البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ الْجَنَّةَ؛ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ؛ فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ، مِنْهُ تَفْجُرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ».

(١٢) أخرج أبو داود والترمذي والإمام أحمد بإسناد صحيح من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبْضُهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ؛ فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدَرِ الْأَرْضِ، جَاءَ مِنْهُمْ الْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ وَالْأَبْيَضُ، وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ، وَبَيْنَ ذَلِكَ».

الزيتون ﴿تَبَّتْ يُالُدُهْنَ﴾ فيها الزيت ﴿وَصَبَّغَ لِلَّائِكِينَ﴾؛ أي: يجعل إداما للأكليين وغير ذلك من المنافع.

(٢١) ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ ومن نعمه عليكم: أن سخر لكم الأنعام من الإبل، والبقر، والغنم فيها عبرة للمعتبرين، ومنافع للمنتفعين ﴿شَقِيقُكُمْ﴾ مِمَّا فِي بُطُونِهَا ﴿مِنْ لَبَنٍ وَلَكُمُ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ من أصوافها، وأوبارها، وأشعارها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أفضل المأكَل من لحم وشحم.

(٢٢) ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ جعلها سفناً لكم في البر تحملون عليها أثقالكم إلى بلد، لم تكونوا بالغيه، إلا بشق الأنفس كما جعل لكم السفن في البحر، تحملكُم، وتحمل متاعكم، قليلاً كان، أو كثيراً فالذي أنعم بهذه النعم، وصنف أنواع الإحسان، وأدرَّ علينا من خيره المدرار، هو الذي يستحق كمال الشكر، وكمال الثناء، والاجتهاد في عبوديته، وأن لا يستعان بنعمه على معاصيه.

(٢٣) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ يذكر الله تعالى عبده ورسوله: نوح عليه السلام أول رسول أرسله إلى أهل الأرض، فأرسله إلى قومه، وهم يعبدون الأصنام ﴿فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أخلصوا له العبادة ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ فيه إبطال ألوهية غير الله، وإثبات الإلهية لله تعالى ﴿أَفَلَا نَنْقُوزُكُمْ﴾ ما أنتم عليه من عبادة الأوثان والأصنام.

(١٧) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ﴾ سقفاً للبلاد، ومصلحة للعباد ﴿سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ سبع سموات طباقاً، كل طبقة فوق الأخرى ﴿وَمَا كُنَّا عَنْ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ فكما أن خلقنا عام لكل مخلوق، فعلمنا محيط بما خلقنا، فلا نغفل مخلوقاً، ولا ننساه، ولا نخلق خلقاً؛ فنضيقه، ولا نغفل عن السماء؛ فتقع على الأرض، ولا ننسى ذرة في لجج البحار، وجوانب الفلوات، ولا دابة إلا سقنا إليها رزقاً.

(١٨) ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ يكون رزقاً لكم ولأنعامكم، بقدر ما يكفيكم ﴿فَأَسْكَنْتَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أنزلناه عليها؛ فسكن واستقر ﴿وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ إما بأن لا ننزله، أو ننزله؛ فيذهب نازلاً، لا يوصل إليه، أو لا يوجد منه المقصود منه، وهذا تنبيه منه لعباده أن يشكروه على نعمته، ويقدروا عدمها، وإذا يحصل به من الضرر، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾

(١٩) ﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ﴾ بذلك الماء ﴿جَنَّاتٍ﴾ بساتين ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتٍ وَأَعْنَابٍ﴾ خص تعالى هذين النوعين مع أنه ينشر منه غيرهما من الأشجار؛ لفضلهما، ومنافعهما ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ في تلك الجنات ﴿فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ من تين، وأترج، ورمان، وتفاع وغيرها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ صيفاً وشتاءً.

(٢٠) ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ﴾ وهي شجرة

(٢٠) في «سنن الترمذي» و«ابن ماجه» بإسناد حسن لغيره من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: ائتمدوا بالزيت، وادهنوا به؛ فإنه يخرج من شجرة مباركة.

اللبس عليهم كما كان، وقولهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ أي: بإرسال الرسول ﴿فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ وأي حجة في عدم سماعهم إرسال رسول في آبائهم الأولين؟ لأنهم لم يحيطوا علماً بما يقدم، فلا يجعلوا جهلهم حجة لهم، وعلى تقدير أنه لم يرسل فيهم رسولا، فإما أن يكونوا على الهدى، فلا حاجة الإرسال لارسول إذا ذاك، وإما يكونوا على غيره، فليحمدوا ربهم ويشكروه أن خصهم بنعمة لم لم تأت آبائهم، ولا شعروا بها، ولا يجعلوا عدم الإحسان على غيرهم سبباً لكفرهم للإحسان إليهم.

(٢٥) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ مجنون ﴿فَتَرْتَضُوا بِهِ﴾ انتظروا به ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلى أن يأتيه الموت.

(٢٦) فلما رأى نوح أنه لا يزيدهم دعاؤه إلا فراراً ﴿قَالَ رَبِّ اصْرِفْ بِنَا كَذِبُونَ﴾ فاستنصر ربه عليهم غضباً؛ حيث ضيعوا أمره، وكذبوا رسوله.

(٢٧) ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ عند استجابتنا له سبباً ووسيلة للنجاة قبل وقوع أسبابه ﴿أَنْ اصْنَعْ الْفُلَّ﴾ السفينة ﴿يَا عَيْنَا وَوَحَيْنَا﴾ بأمرنا لك، ومعونتنا ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بإرسال الطوفان الذي عذبوا به ﴿وَفَارَ الْفُتُورُ﴾ فارت الأرض، وتفجرت عيوناً ﴿فَأَسْلَفَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَئِثٍ﴾ أدخل في الفلك من الحيوانات: ذكراً وأنثى ﴿وَأَهْلَكَ﴾ أدخلهم ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ كابنه. ﴿وَلَا تَحْطُبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ لا تدعني أن أنجيهم؛ فإن القضاء والقدر قد حتم أنهم مغرقون.

فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَمْرًا مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْمَعْدِلَةُ الَّتِي جَعَلْنَا مِنَ الْقَوَارِ الْأُولَىٰ (٢٨) وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُزَاجًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠) ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا أُخَرَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الْآخِرَ وَأَتَوْا فِيهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ كَرِهَ كُلُّ مَعْشَرٍ أَن يَأْمُرَهُمْ بِشَرِّهِمْ وَمِمَّا تُشْرِكُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ وَإِذَا الْخَبِيرُونَ (٣٤) أَعِيدُوا أَنْكُمْ وَإِنَّمَا إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ رُفَاةً وَعَظْمًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ (٣٥) هِيَ تَأْتِيهِمْ لَمَّا تَوَدَّوْنَ (٣٦) إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَنْ لَّمْ يُؤْمِنِ بِهِ (٣٨) قَالَ رَبِّ اصْرِفْ بِنَا كَذِبُونَ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيَصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَأَخَذْتُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ عَنَاءً فَبَعَثْنَا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٤١) ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا أُخَرَ (٤٢)

(٢٤) ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ﴾ من قومه الأشراف والسادة المتبوعون: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾ ليكون متبوعاً، وإلا فما الذي يفضله عليكم، وهو من جنسكم؟ ولقد أجاب تعالى عن هذه المعارضة بجواب شاف على السنة رسلة: ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ ولقد أجاب تعالى محمد هما هذا إلا بشر مثلكم، قصده حين ادعى النبوة أن يزيد عليكم فضيلة ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ وهذه معارضة بالمشيئة باطلة، فإنه وإن كان لو شاء لأنزل ملائكة؛ فإنه حكيم رحيم، حكمته ورحمته تقتضي أن يكون الرسول من جنس الآدميين؛ لأن الملائكة لا قدرة لهم على مخاطبته، ولا يمكن أن يكون إلا بصورة رجل، ثم يعود

الكفر والمعاندة، وإنكار البعث والجزاء ﴿وَأَرْفَعُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وأطعامهم ترفهم في الحياة الدنيا، معارضة لنبيهم، وتكذيباً، وتحذيراً منه: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ من جنسكم ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ فما الذي يفضله عليكم؟ فهلا كان ملكاً، لا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب.

﴿وَلَيْنَ أَطْعَمَهُ بَشَرًا مِّثْلُكُمْ﴾ إن تبعتموه وجعلتموه لكم رئيساً وهو مثلكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَخَيْرِيَّةَ﴾ إنكم لمسلوبو العقل، نادمون على ما فعلتم.

﴿أَعِيدَكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا﴾ فنيتم وصرتم تراباً ﴿أَنْتُمْ تُخْرَجُونَ﴾ أحياء من قبوركم.

﴿هِيَئَاتَ هِيَئَاتَ لِمَا قُوعِدُونَ﴾ بعيد بعيد ما يعدكم به من البعث، بعد أن تمزقتم، وكنتم تراباً وعظاماً.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ يموت أناس، ويحيا أناس ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بمنشرين بعد الموت.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فلهذا أتى بما أتى به من توحيد الله، وإثبات المعاد ﴿وَمَا نَحْنُ لَمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدقين بالبعث بعد الموت.

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبْتُ﴾ بإهلاكهم وخزيهم الدنيوي قبل الآخرة.

﴿قَالَ﴾ الله مجيباً لدعوته: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ عن قليل ﴿لَيُصْحَيَنَّ﴾ ليصيرن ﴿نَدِيمِينَ﴾ على كفرهم وتكذيبهم.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾ لا بالظلم

(٢٨) ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَكَ﴾ علوتم عليها، واستقلت بكم في تيار الأمواج ﴿فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي مَجَّئَنَا﴾ فاحمدوا الله على النجاة والسلامة ﴿مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ في عملهم وعذابهم.

(٢٩) ﴿وَقُلْ﴾ يا نوح: ﴿رَبِّ أَرْزُقْنِي مِثْرًا مُبَارَكًا﴾ موضع نزول مبارك، فالبركة في السفينة النجاة، وفي النزول بعد الخروج كثرة النسل في أولاده ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُرْسَلِينَ﴾ وفي هذا تعليم من الله عز وجل لعباده إذا ركبوا وإذا نزلوا.

(٣٠) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ في هذه القصة ﴿لَآيَاتٍ﴾ تدل على أن الله وحده المعبود، وعلى أن رسوله نوحاً صادق، وأن قومه كاذبون، وعلى رحمة الله بعباده؛ حيث حملهم في صلب أبيهم نوح في الفلك لما غرق أهل الأرض ﴿وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ لمختبرين إياهم بإرسال نوح ووعظه وتذكيره.

(٣١) ﴿مُرْ أَشْقَانَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد هلاك قوم نوح ﴿فَرَأَى آخَرِينَ﴾ الظاهر أنهم ثمود قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَام؛ لأن هذه القصة تشبه قصتهم.

(٣٢) ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ من جنسهم، يعرفون نسبه وحسبه وصدقه ﴿إِنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ فكلهم اتفقوا على هذه الدعوة، وهي أول دعوة يدعون بها أممهم، الأمر بعبادة الله، والإخبار أنه المستحق لذلك، والنهي عن عبادة ما سواه، والإخبار ببطلان ذلك وفساده، ولهذا قال: ﴿أَفَلَا تَنْفَقُونَ﴾ ربكم، فتجنبوا هذه الأوثان والأصنام.

(٣٣) ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِفَاءِ الْآخِرَةِ﴾ قال الرؤساء الذين جمعوا بين

مقرونًا بعذابهم ﴿فَبَعْدًا﴾ هلاكًا ﴿لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فيه تهديد قوي لقريش المصرة على الشرك والتكذيب والعناد، ولهذا قال:

(٤٥) ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ بن عمران، كليم الرحمن ﴿وَأَخَاهُ هَارُونَ﴾ حين سأل ربه أن يشركه في أمره فأجاب سؤاله ﴿بِأَيِّنَّا﴾ الدالة على صدقهما وصحة ما جاء به ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ حجة بينة.

(٤٦) ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ ك ﴿وَهَمَجَ﴾ وغيره من رؤسائهم ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ تكبروا عن الإيمان بالله، واستكبروا على أنبيائه ﴿وَكَانُوا قَوْمًا عَلَانٍ﴾ وصفهم بالعلو والقهر والفساد في الأرض، فلهذا صدر منهم الاستكبار، ذلك غير مستكثر منهم.

(٤٧) ﴿فَقَالُوا﴾ كبراً وتيهاً وتحذيراً لضعفاء العقول، وتمويهاً: ﴿أَتُؤْمِنُ لِشَرِّينَ مِثْلَنَا﴾ موسى وهارون ﴿وَقَوْمَهُمَا﴾ بنو إسرائيل ﴿لَنَا عِيدُونَ﴾ معبدون بالأعمال والأشغال الشاقة ومن المعلوم أن هذا لا يصلح لرد الحق، وأنه تكذيب ومعاندة.

(٤٨) ولهذا قال: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ في الغرق في البحر.

(٤٩) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ﴾ بعدما أهلك الله فرعون ﴿الْكِتَابَ﴾ وهو التوراة ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ بمعرفة تفاصيل الأمر والنهي، والثواب والعقاب، ويعرفون ربهم بأسمائه وصفاته.

(٥٠) ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ وامتتنا على عيسى ابن مريم، وجعلناه وأمه من آيات الله العجيبة؛ حيث حملته وولده من غير أب،

مَا تَسْقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا نُوحًا نَرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذِبُهُ فَاتَّبَعْنَاهُمْ بِعَصَا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٥٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَلَانٍ ﴿٥٤﴾ فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِشَرِّينَ مِثْلَنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِيدُونَ ﴿٥٥﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٨﴾ بِأَيِّنَّا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الظَّالِمِينَ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَإِنْ هَدَيْتُمْ أُمَّةً وَجِدْهُ وَأَنَا رَئِيسُكُمْ فَاتَّقُوا ﴿٦٠﴾ فَتَقَطُّوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٦١﴾ نَذَرُهُمْ فِي عَمْرٍاهُمْ حَتَّىٰ جِيءَ ﴿٦٢﴾ أَتَحْسِبُونَ أَنَّآ نُذَرُهُمْ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ ﴿٦٣﴾ شَاوِعُهُمْ فِي الْخَيْرِ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٤﴾ إِنْ أَلَيْنَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ تُشْفِقُونَ ﴿٦٥﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾

والجور، بل بالعدل وظلمهم ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ هشيماً ييساً بمنزلة غشاء السيل الملقى في جنبات الوادي ﴿فَبَعْدًا لِقَوْمٍ الظَّالِمِينَ﴾ أتبعوا مع عذابهم البعد واللعنة والذم من العالمين.

(٤٢) ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ﴾ أمماً وخلقاً

(٤٣) ﴿مَا تَسْقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ﴾ كل أمة في وقت مسمى، وأجل محدود، لا تتقدم عنه ولا تتأخر.

(٤٤) ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا نُوحًا نَرَا﴾ أرسلنا إليهم رسلاً متتابعة ﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذِبُهُ فَاتَّبَعْنَا بِعَصَاهُمْ بَعْضًا﴾ بالهلاك ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ يتحدث بهم من بعدهم، ويكونون عبرة للمتقين، ونكالاً للمكذبين، وخزياً عليهم

وتكلم في المهد صبيًا، وأجرى الله على يديه من الآيات ما أجرى ﴿وَأَوْسَتْهُمَا إِلَى زَوْفٍ﴾ مكان مرتفع ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ مستقر وراحة ﴿وَمَعِينٍ﴾ ماء جار.

(٥١) ﴿يَتَأْتِيَ الرُّسُلَ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ هذا أمر منه تعالى لرسله بأكل الطيبات، التي هي: الرزق، والطيب الحلال ﴿وَأَعْمَلُوا صَالِحًا﴾ والشكر لله بالعمل الصالح، الذي به يصلح القلب والبدن، والدنيا والآخرة ﴿إِنِّي يَمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ ويخبرهم أنه بما يعملون عليم، فكل عمل عملوه، وكل سعي اكتسبوه؛ فإن الله يعلمه، وسيجازيهم عليه، أتم الجزاء وأفضله.

(٥٢) ﴿وَلَا هِدْيَ أُنْتَكُمُ﴾ جماعتكم يا معشر الرسل ﴿أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ﴾ متفقة على دين واحد ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾ وربكم واحد ﴿فَاتَّقُونِ﴾ بامتثال أوامري، واجتناب زواجري.

(٥٣) ﴿فَتَقَطَّعُوا﴾ تقطع المنتسبون إلى اتباع الأنبياء ﴿أَمْرُهُمْ﴾ دينهم ﴿بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ فرقًا وشيعاً ﴿كُلِّ جَزْبٍ يَمَا لَدَيْهِمْ﴾ بما عندهم من العلم والدين ﴿فَرِحُوا﴾ يزعمون: أنهم المحقون، وغيرهم على غير الحق.

(٥٤) ﴿فَذَرَّهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ﴾ في وسط جهلهم بالحق، ودعواهم أنهم هم المحقون ﴿حَقِّ حِينٍ﴾ إلى أن ينزل العذاب بهم.

(٥٥) ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُضَاهُهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ﴾ أيظنون أن زيادتنا إياهم بالأموال والأولاد.

سُورَةُ النُّحُودِ

وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿١﴾
أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا شَاقِقُونَ ﴿٢﴾ وَلَا تَكُفُّ
نَفْسًا إِلَّا أَوْسَعَهَا وَلَدُنَا كِتَابٌ يَبْطُو بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يَظُنُّونَ ﴿٣﴾
بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَلُ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا
عَامِلُونَ ﴿٤﴾ حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْعَلُونَ
﴿٥﴾ لَا تَجْعَلُوا الْيَوْمَ لَكُم مَّا لَا تَصْنَعُونَ ﴿٦﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي
تُنزلُ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى آعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٧﴾ مُنْكَرِينَ
بِهِ سِيمًا تَهْجُرُونَ ﴿٨﴾ أَفَلَا يَذْكُرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَوَّاتِ
ءَأْيَاهُمْ الْآلَاءُ وَلَئِنْ ﴿٩﴾ أَمَلْتُمْ يَعْرِفُوا سُوْرَهُمْ فَهُمْ لَمْ يُنْكِرُوا
﴿١٠﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِهِ
كَذِبُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ
وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ
ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿١٢﴾ أَمْ قَسَمَ اللَّهُ خُجْرًا فَخَرَجَ رِيكٌ حَرٌّ
وَهُوَ خَيْرُ الرَّزْقِينَ ﴿١٣﴾ وَلَئِنْ لَدَعْنَاهُمْ لَإِلْصِرَّطٌ مُتَّبِعِينَ ﴿١٤﴾
وَلِإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَصْطَرِّطُنَا لَنُكَوِّنَنَّ ﴿١٥﴾

٢٤٦

(٥٦) ﴿شَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ دليل على أنهم من أهل الخير والسعادة، وأن لهم خير الدنيا والآخرة وهذا مقدم لهم؟ ليس الأمر كذلك ﴿بَلْ لَا يَتَعَرَّوْنَ﴾ أنما نملي لهم، ونمهلهم، ونمدهم بالنعم؛ ليزدادوا إثماً، وليتوفر عقابهم في الآخرة، وليغتبطوا بما أوتوا.

(٥٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُتَّقُونَ﴾ وجلون، من خشية ربهم، خوفاً أن يضع عليهم عدله، فلا يبقى لهم حسنة، وسوء ظن بأنفسهم، أن لا يكونوا قد قاموا بحق الله تعالى.

(٥٨) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَتَابَتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ إذا تليت

(٥١) في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وأن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَتَأْتِيَ الرُّسُلَ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي يَمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وقال: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ يَزِيدُوا مَالَهُمْ طَبِيبَاتٍ مَا رَزَقْنَاهُمْ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر: أشعث أغبر، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب، فأني يستجاب له»

(٦٤) ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمُ ﴿٦٤﴾ مَتَاعِهِمْ ﴿٦٤﴾ بِالْعَذَابِ ﴿٦٤﴾ وَوَجَدُوا مَسَّهُ ﴿٦٤﴾ إِذَا هُمْ يَخْتَرُونَ ﴿٦٤﴾ يَصْرَخُونَ وَيتوجعون.

(٦٥) ﴿لَا تَجْعَلُوا لِلْيَوْمِ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصِرُونَ ﴿٦٥﴾ لَا يجيركم أحد.

(٦٦) ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴿٦٦﴾ لَتُؤْمِنُوا بِهَا وَتَقْبَلُوا عِيسَىٰ، ﴿٦٦﴾ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ آعْقَابِكُمْ نَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ ترجعون القهقري، تتأخرون عن الإيمان.

(٦٧) ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ ﴿٦٧﴾ الضمير يعود إلى البيت الحرام؛ أي: متكبرين على الناس بسببه، تقولون: نحن أهل الحرم، فنحن أفضل من غيرنا، وأعلى، ﴿٦٧﴾ سَمِعْنَا ﴿٦٧﴾ جماعة يتحدثون بالليل حول البيت ﴿٦٧﴾ تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ تقولون الكلام الهجر، الذي هو: القبيح في هذا القرآن.

(٦٨) ﴿أَفَلَمْ يَذْكُرُوا الْقَوْلَ ﴿٦٨﴾ أَفَلَا يَتَفَكَّرُونَ فِي الْقُرْآنِ، وَيَتَأَمَّلُونَهُ وَيَتَدَبَّرُونَهُ ﴿٦٨﴾ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمْ ﴿٦٨﴾ الْآوَلِينَ ﴿٦٨﴾ أو منعهم من الإيمان: أنه جاءهم رسول وكتاب ما جاء آبائهم الأولين فرضوا بسلوك طريق آبائهم الضالين، وعارضوا كل ما خالف ذلك.

(٦٩) ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ يُنْكِرُوا ﴿٦٩﴾ أو منعهم من اتباع الحق، أن رسولهم محمداً ﷺ، غير معروف عندهم.

(٧٠) ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ﴿٧٠﴾ جنون، وليس كذلك ﴿٧٠﴾ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ ﴿٧٠﴾ بالأمر الثابت الذي هو صدق وعدل، لا اختلاف فيه، ولا تناقض ﴿٧٠﴾ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ وأعظم الحق إخلاص العبادة لله

عليهم آياته زادتهم إيماناً، ويتفكرون في الآيات القرآنية، ويتدبرونها.

(٥٩) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ لا شركاً جلياً؛ كاتخاذ غير الله معبوداً يدعونه، ويرجونه، ولا شركاً خفياً كالرياء ونحوه.

(٦٠) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا ﴿٦٠﴾ يعطون من أنفسهم، مما أمروا به ﴿٦٠﴾ مع هذا ﴿٦٠﴾ قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴿٦٠﴾ خائفة ﴿٦٠﴾ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ عند عرض أعمالها عليه، والوقوف بين يديه، أن تكون أعمالهم غير منجية من عذاب الله.

(٦١) ﴿أَوَلَيْكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴿٦١﴾ في ميدان التسارع في أفعال الخير همهم ما يقربهم إلى الله، وإرادتهم مصروفة فيما ينجي من عذابه. فكل خير سمعوا به، أو سنحت لهم الفرصة، انتهزوه وبادروه ﴿٦١﴾ وَهُمْ لَهَا ﴿٦١﴾ للخيرات ﴿٦١﴾ سَابِقُونَ ﴿٦١﴾ قد بلغوا ذروتها، وتباروا هم والرعييل الأول، وربما وهم وأهم أن المطلوب منهم ومن غيرهم أمر غير مقدور، أو متعسر، فقال تعالى:

(٦٢) ﴿وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا وُسْعًا ﴿٦٢﴾ بقدر ما تسعه ﴿٦٢﴾ وَلَدَيْنَا مَكْتُبٌ بِالْحَقِّ ﴿٦٢﴾ وهو الكتاب الأول: الذي فيه كل شيء، وهو يطابق كل واقع يكون، فلذلك كان حقاً ﴿٦٢﴾ وَهُمْ لَا يَظُنُّونَ ﴿٦٢﴾ لا ينقص من إحسانهم، ولا يزداد في عقوبتهم.

(٦٣) ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرَةٍ ﴿٦٣﴾ في غفلة وعمى ﴿٦٣﴾ مِّنْ هَٰذَا ﴿٦٣﴾ القرآن ﴿٦٣﴾ وَلَهُمْ أَعْمَالٌ ﴿٦٣﴾ سيئة ﴿٦٣﴾ مِّنْ دُونِ ذَٰلِكَ ﴿٦٣﴾ يعني الشرك ﴿٦٣﴾ لَهُمْ لَهَا عَمَلُونَ ﴿٦٣﴾ لابد أن يعملوها.

(٦٠) في «سنن الترمذي» و«مسند الإمام أحمد» بإسناد حسن بشواهد من حديث عائشة ؓ قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ قالت عائشة: هم الذين يشربون الخمر ويسرفون؟ قال: «لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون، ويصلون، ويتصدقون، وهم يخافون أن لا يقبل منهم ﴿أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾».

وحده، وترك ما يعيد من دون الله.

(٧١) ﴿وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ﴾ لو اتبع الله مرادهم فيما يفعل ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ لفساد التصرف والتدبير، المبني على الظلم وعدم العدل ﴿بَلْ أَلِيتَهُمْ﴾ بهذا القرآن المذكر لهم ﴿فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرَضُونَ﴾ شقاوة منهم، وعدم توفيق.

(٧٢) ﴿أَمْ سَتَمْلِكُهُمْ خَرَجًا﴾ أجرا ﴿فَخَرَجَ رَيْكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزِقِينَ﴾ بل أنت في ذلك تحتسب عند الله جزيل ثوابه.

(٧٣) ﴿وَلَيْكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: دين الإسلام، وهو الطريق القاصد، والصرراط المستقيم الذي لا اعوجاج فيه.

(٧٤) ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ﴾ عن دين الحق ﴿لَنُكَبِّرُنَّ﴾ متجنبون منحرفون عن الطريق الموصل إلى الله، وإلى دار كرامته.

(٧٥) ﴿وَلَوْ رَحَّمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ﴾ هذا بيان لشدة تمردهم، وأنهم إذا أصابهم الضر؛ دعوا الله أن يكشف عنهم؛ ليؤمنوا، أو ابتلاهم بذلك؛ ليرجعوا إليه. إن الله إذا كشف الضر عنهم ﴿لَلْجَوِّ﴾ استمروا ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يجولون في كفرهم، حائرين مترددين.

(٧٦) ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ الجوع الذي أصابهم سبع سنين ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي: خضعوا وذلوا ﴿وَمَا يَضُرُّعُونَ﴾ إليه ويفتقرون. (٧٧) ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾

وَلَوْ رَحَّمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجَوِّ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذْ هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ يَدْعُو مَلَكَتْ كُلُّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيبُهُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾

٢٤٧

كالقتل يوم بدر وغيره ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ آيسون من كل خير.

(٧٨) ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ﴾ لتدركوا به المسموعات، فتنتفعوا في دينكم ودنياكم ﴿وَالْأَبْصَرَ﴾ لتدركوا بها المبصرات، فتنتفعوا بها في مصالحكم ﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾ العقول التي تدركون بها الأشياء ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: وما أقل شكركم على ما أنعم به عليكم!

(٧٩) ﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ بثكم في أقطارها وجهاتها، وسلطكم على استخراج مصالحها ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ بعد موتكم؛

(٧٦) أخرج النسائي في «التفسير» والطبراني في «الكبير» وابن حبان والطبري وابن أبي حاتم بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: جاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، أنشدك الله والرحم، فقد أكلنا العلهز - يعني الوبر والدم - فأنزله الله ﷻ - ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّعُونَ﴾.

أي: ما زلنا نوعد بأن البعث كائن ولم نره ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: قصصهم وأسمارهم. (٨٤) ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المكذبين: ﴿لَمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾ من هو الخالق للأرض ومن عليها ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خالقها ومالكها .

(٨٥) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ ولا بد لهم من ذلك، لأنهم يقرون أنها مخلوقة ﴿قُلْ﴾ لهم إذا أقروا بذلك: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أفلا ترجعون إلى ما ذكركم الله به مما هو معلوم عندكم مستقر في فطركم .

(٨٦) ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ﴾ وما فيها من النيرات، والكواكب السيارات والثوابت ﴿وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ الذي هو أعلى المخلوقات وأوسعها وأعظمها .

(٨٧) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ سيقرون بأن الله رب ذلك كله ﴿قُلْ أَفَلَا لِنُقُوتٍ﴾ عبادة المخلوقات العاجزة، وتتقون الرب العظيم .

(٨٨) ﴿قُلْ مَنْ يَدْعُوهُ مَلَكَتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ملك كل شيء من العالم العلوي والسفلي ﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾ عباده من الشر ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ لا يقدر أحد أن يجير على الله، ولا يدفع الشر الذي قدره الله ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أجبوا إن كنتم تعملون .

(٨٩) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ سيقرون أن الله المالك لكل شيء، المجير الذي لا يجار عليه، ﴿قُلْ﴾ لهم حين يقرون بذلك، ملزمًا لهم: ﴿فَأَن تَشْعُرُونَ﴾ فأين تذهب عقولكم، حيث عبدتم من علمتم أنهم لا ملك لهم .

(٩٠) ﴿بَلْ أَنبَنَّهُم بِالْحَقِّ﴾ بل أتينا هؤلاء المكذبين بالحق ﴿وَأَنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في عبادتهم

بَلْ أَنبَنَّهُم بِالْحَقِّ وَانَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠﴾ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَتْ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهٖ كُلُّ شَيْءٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١١﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّلَ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٢﴾ قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي أَفَرِّقُكَ عَنْ آبَائِكَ وَرَبِّ قُلُوبِ الْفَاسِقِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا عَلَيْنَا أَنْ نُزَيِّدَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ ﴿١٤﴾ أَدْفَعُ بِاللَّيْلِ هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿١٥﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿١٦﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿١٨﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٩﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَفْقَهُوا نُفُوفَهُمْ فَمَنْ ثَلُثَ مَوْزِنَهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوْزِنُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٢١﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُم نَارُوهُمْ فِيهَا كُلِّفُونَ ﴿٢٢﴾

فيجازيكم بما عملتم في الأرض من خير وشر. (٨٠) ﴿وَهُوَ﴾ تعالى وحده ﴿الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ المتصرف في الحياة والموت، هو الله وحده ﴿وَلَهُ اخْتَلَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ تعاقبهما وتناوبهما ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتعرفون أن الذي وهب لكم هذه النعم، موجب لكم: أن تخلصوا له العبادة، وحده لا شريك له، وتركوا عبادة من لا ينفع ولا يضر، فلو كان لكم عقل لم تفعلوا ذلك .

(٨١) ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ بل سلك هؤلاء مسلك الأولين من المكذبين بالبعث .

(٨٢) ﴿قَالُوا أَأِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أُنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ هذا لا يتصور، ولا يدخل العقل بزعمهم .

(٨٣) ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ﴾

بالإحسان، هذه وظيفة العبد في مقابلة المسئ من البشر، وأما المسئ من الشياطين، فإنه لا يفيد فيه الإحسان، لكن الوظيفة أن يسترشد ما أرشد الله إليه رسوله، فقال:

(٩٧) ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ﴾ اعتصم بحولك وقوتك متبرئاً من حولي وقوتي ﴿مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ نزغاتهم ووساوسهم.

(٩٨) ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ في شيء من أمري، ولهذا أمر بذكر الله في ابتداء الأمور - وذلك مطردة للشياطين - عند الأكل والجماع والذبح وغيرها.

(٩٩) ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ يخبر تعالى عن حال من حضره الموت من المفرطين الظالمين: أنه يندم في تلك الحال، إذا رأى مآله، وشاهد قبح أعماله فيطلب الرجعة إلى الدنيا، لا للتمتع بلذاتها واقتطاف شهواتها، وإنما ذلك ليقول:

(١٠٠) ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ من العمل، وفرطت في جنب الله ﴿كَلَّا﴾ لا رجعة له ولا إمهال ﴿إِنَّمَا﴾ أي: مقالته التي تمنى فيها الرجوع إلى الدنيا ﴿كَلِمَةً هُوَ قَائِلُهَا﴾ مجرد قول اللسان، لا يفيد صاحبه إلا الحسرة والندم ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: من أمامهم وبين أيديهم برزخ وهو الحاجز بين الشيتين، فهو هنا: الحاجز بين الدنيا والآخرة وفي هذا البرزخ، يتنعم المطيعون، ويعذب العاصون، من موتهم إلى يوم يبعثون؛ أي: فليعدوا له عدته، وليأخذوا له أهبة.

مع الله غيره.

(٩١) ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ من شريك ﴿إِذَا﴾ لو كان معه آلهة متعددة كما يقولون؛ ﴿لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ لانفرد كل واحد من الإلهين بمخلوقاته ﴿وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فالغالب يكون هو الإله ﴿سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ عما يقول الظالمون المعتدون في دعواهم الولد أو الشريك علواً كبيراً.

(٩٢) ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ﴾ الذي غاب عن أبصارنا ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ وهو ما نشاهد من ذلك ﴿فَعَلَىٰ﴾: ارتفع وعظم ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به. (٩٣) ﴿قُلْ رَبِّ إِنَّمَا رُيِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ أي: أي وقت أريتني عذابهم، وأحضرتني ذلك.

(٩٤) ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ اعصمني وارحمني مما ابتليتهم به. (٩٥) ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُريكَ مَا نَعْدُهُمْ لَقَدِيرُونَ﴾ ولكن إن أخرناه؛ فلحكمة، وإلا؛ فقدرتنا صالحة لإيقاعه.

(٩٦) ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾ إذا أساء إليك أعداؤك بالقول والفعل، فلا تقابلهم بالإساءة، مع أنه يجوز معاقبة المسيء بمثل إساءته، ولكن ادفع إساءتهم إليك بالإحسان منك إليهم؛ فإن ذلك فضل منك على المسيء ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ بما يقولون من الأقوال المتضمنة للكفر، والتكذيب بالحق، أي: قد أحاط علمنا بذلك وقد حلمنا عنهم وأمهلناهم، وصبرنا عليهم، وأنت يا محمد ينبغي لك أن تصبر على ما يقولون، وتقابلهم

بالثناء الجميل .

(١٠٣) ﴿وَمَنْ حَقَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ بأن رجحت سيئاته على حسناته، وأحاطت بها خطيئاته ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ خابوا وهلكوا وفازوا بالصفقة الخاسرة ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ لا يخرجون منها أبد الآبدن، وهذا الوعيد، لمن أحاطت خطيئاته بحسناته، ولا يكون ذلك إلا كافراً .

(١٠٤) ﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ﴾ تغشاهم من جميع جوانبهم ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ قد عبست وجوههم، وقلصت شفاههم . من شدة ما هم فيه، وعظم ما يلقونه، فيقال لهم - توبيخاً ولوماً - :

(١٠٥) ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُنْذِرُ عَلَيْكُمْ﴾ تدعون بها؛ لتؤمنوا، وتعرض عليكم؛ لتنظروا ﴿فَكَفُتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ﴾ ظلماً منكم وعناداً فحينئذ أقروا بظلمهم حيث لا ينفع الإقرار .

(١٠٦) ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ غلبت علينا الشقاوة الناشئة عن الظلم والإعراض عن الحق ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ هذا قولهم واعتراف صريح بأنهم كانوا ضالين .

(١٠٧) ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ وهم كاذبون في وعدهم هذا .



(١٠١) ﴿فَإِذَا فُتِحَ فِي الصُّورِ﴾ نفخة البعث ﴿فَلَا أَسَابَ يَنْبَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أنه يصيبهم من الهول ما ينسيهم أنسابهم ﴿وَلَا يَسْأَلُونَ﴾ وأنه لا يسأل أحد أحداً عن حاله؛ لاشتغاله بنفسه .

(١٠٢) ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ بأن رجحت حسناته على سيئاته ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ لنجاتهم من النار، واستحقاقهم الجنة وفوزهم

(١٠١) أخرج الطبراني في «الكبير» والضياء في «المختارة» وسعيد بن منصور في «سننه» وابن سعد في «الطبقات» والحاكم والبيهقي حديث عمر بن الخطاب الصحيح لشواهد: «خطب عمر بن الخطاب إلى علي بن أبي طالب ابنته من فاطمة، وأكثر ترده إليه، فقال: يا أبا الحسن، ما يحملني على كثرة ترددي إليك إلا حديث سمعته من رسول الله ﷺ يقول: «كل سب ونسب منقطع يوم القيامة؛ إلا سبني ونسبي» فأحببت أن يكون لي منكم آل البيت سب وصهر، فقام علي؛ فأمر ابنته من فاطمة فزيت، ثم بعث بها إلى أمير المؤمنين عمر، فلما رآها قام إليها فأخذ بساقها، وقال: قولني لأبيك: قد رضيت، قد رضيت، قد رضيت. فلما جاءت الجارية إلى أبيها قال لها: ما قال لك أمير المؤمنين؟ قالت: دعاني وقبلني، فلما قمت أخذ بساقي وقال قولني لأبيك: قد رضيت. فأنكحها إياه، فولدت له زيد بن عمر بن الخطاب، فعاش حتى كان رجلاً، ثم مات.

(١٠٨) ﴿قَالَ﴾ الله تعالى حين انقطع كلامهم: ﴿أَخْشَوْا فِيهَا﴾ امكثوا في النار صاغرين مهانين ﴿وَلَا تُكَلِّمُونَ﴾ لا تعودوا إلى سؤالي؛ فإنه لا جواب لكم عندي.

(١٠٩) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فَرِيقًا مِّنْ عِبَادِي﴾ وهم المؤمنون ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَأَمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ فجمعوا بين الإيمان المقتضي لأعماله الصالحة، والدعاء لربهم بالمغفرة والرحمة، والتوسل إليه بربوبيته.

(١١٠) ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ﴾ أيها الكفرة ﴿سِخْرِيًّا﴾ تهزءون بهم وتحتقرونهم ﴿حَتَّىٰ أَتُوبُوا﴾ حملكم بغضهم على أن نسيتم معاملتي ﴿وَكُنْتُمْ مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ من صنيعهم وعبادتهم.

(١١١) ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ على طاعتي وعلى أذاكم ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاقِرُونَ﴾ بالنعيم المقيم، والنجاة من الجحيم.

(١١٢) ﴿قُلْ﴾ الله للكافر يوم البعث على وجه اللوم ﴿كَمْ لَبِئْتُمْ﴾ كم أقمتهم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ في الدنيا وفي القبور ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾.

(١١٣) ﴿قَالُوا﴾ الكفار ﴿لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ كلامهم هذا مبني على استقصارهم جدًا لمدة مكثهم في الدنيا وأفاد ذلك، لكنه لا يفيد مقداره، ولا يعينه، فهذا قالوا: ﴿فَسَلِّ الْعَادِينَ﴾

الضابطين لعدده.

(١١٤) ﴿قُلْ إِنْ لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ سواء عيتم عدده أم لا ﴿لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قدر لبثكم في الدنيا.

(١١٥) ﴿أَفَحَسِبْتُمْ﴾ أيها الخلق ﴿أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ سدى وباطلاً ﴿وَأَنَّكُمْ إِنَّا لَا تَرْجِعُونَ﴾ لا يخطر هذا ببالكم.

(١١٦) ﴿فَعَلَى اللَّهِ﴾ تعاضم وارتفع عن هذا الظن الباطل ﴿الْمَلِكِ الْحَقِّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فكونه ملكاً للخلق كلهم حقاً، في صدقه، ووعدته، ووعيده، مألوهاً معبوداً؛ لما له من الكمال ﴿رَبِّ الْعَرْشِ الْكَرِيِّ﴾ فما دونه من باب أولى، يمنع أن يخلقكم عبثاً ذكر العرش؛ لأنه سقف جميع المخلوقات، ووصفه بأنه كريم؛ لأنه حسن المنظر بهي الشكل.

(١١٧) ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ بلا بينة من أمره ﴿فَلَنَمَّا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ الله يحاسبه على ذلك ﴿إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ فكفرهم منعهم من الفلاح.

(١١٨) ﴿وَقُلْ﴾ داعياً لربك: ﴿رَبِّ اغْفِرْ﴾ لنا حتى تنجينا من المكروه، وارحمنا؛ لتوصلنا برحمتك إلى كل خير ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ فكل راحم للعبد، فالله خير له منه، وأرحم بعبده من الوالدة بولدها، وأرحم به من نفسه.

(١٠٨) أخرج ابن أبي حاتم وابن أبي شيبة وهناد في «الزهد» والطبري في «تفسيره» والحاكم بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: إن أهل جهنم يدعون مالكا، فلا يجيبهم أربعين عاماً، ثم يرد عليهم: ﴿إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ﴾. قال: هانت دعوتهم والله على مالكا ورب مالكا. ثم يدعون ربهم؛ فيقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ (١١٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ، قال: فيسكت عنهم قدر الدنيا مرتين، ثم يرد عليهم ﴿قَالَ أَخْشَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ﴾ قال: والله ما ينس القوم بعدها بكلمة واحدة، وما هو إلا الزفير والشهيق في نار جهنم قال: فشبّهت أصواتهم بأصوات الحمير: أولها زفير، وآخرها شهيق.

جَلْدًا ﴿١﴾ هذا الحكم في الزاني والزانية البكرين، وأما الشيب حده الرجم ﴿٢﴾ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴿٣﴾ ونهانا تعالى: أَنْ تَأْخُذْنَا رَأْفَةً بِهِمَا فِي دِينِ اللَّهِ تمنعنا من إقامة الحد عليهما، سواء رأفة طبيعية، أو لأجل قرابة، أو صداقة، أو غير ذلك ﴿٤﴾ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴿٥﴾ وأن الإيمان موجب لانتفاء هذه الرأفة المانعة من إقامة أمر الله ﴿٦﴾ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧﴾ جماعة من المؤمنين ليستهر، ويحصل بذلك الخزي والارتداد، وليشاهدوا الحد فعلاً.

(٣) ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ الزاني لا يقدم على نكاحه من النساء إلا أنثى زانية، تناسب حاله حالها، أو مشركة بالله، لا تؤمن ببعث ولا جزاء، ولا تلتزم أمر الله ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ والزانية كذلك لا ينكحها إلا زان أو مشرك ﴿وَحَرَّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: حرم عليهم أَنْ يُنْكِحُوا زَانِيًا أَوْ يَنْكِحُوا زَانِيَةً.

(٤) ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْفَحْشَاءَ﴾ النساء الحرائر العفاف، وكذلك الرجال، لا فرق بين الأمرين. والمراد بالرمي: الرمي بالزنا ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا﴾ على ما رموا به ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ رجال عدول، يشهدون بذلك صريحاً ﴿فَاجْلِدُوهُمُ اثْنَيْنِ جَلْدَةً﴾ بسوط متوسط يؤلم فيه، ولا يبالغ

بِسُورَةِ النَّارِ ﴿١﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
سُورَةُ النَّارِ ﴿١﴾ وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرَّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْفَحْشَاءَ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا يَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةٌ أَبَدًا وَلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ يَزْمُونَ زَوْجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ وَالْخَمْسَةَ أَثْنَى شَهَادَاتٍ وَاللَّهِ عَلِيمٌ بِّكَذِبِ الْكَافِرِينَ ﴿٨﴾ وَبَدُّوا عَنَّا الْعَذَابَ أَنْ شَهِدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٩﴾ وَالْخَمْسَةَ أَثْنَى غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١١﴾

سورة النور

(١) هذه ﴿سُورَةُ﴾ عظيمة القدر ﴿أَنزَلْنَاهَا﴾ رحمة منا بالعباد وحفظناها من كل شيطان ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ قدرنا فيها ما قدرنا، ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ لِّبَيِّنَاتٍ﴾ أحكاماً جلية، وأوامر وزواجر، وحكمًا عظيمة؛ ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ حين نبين لكم، ونعلمكم ما لم تكونوا تعلمون.
(٢) ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ

(٢) في «صحيح مسلم» عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً: البكر بالبكر جلد مائة وتغريب سنة، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم».

(٣) في مصنف عبد الرزاق و«مستدرک الحاكم» بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه: «الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً» قال: ليس هذا بالنكاح، إنما هو الجماع: لا يزني بها إلا زان، أو مشرك.

وفي «سنن أبي داود» بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينكح الزاني المجلود إلا مثله».

بِذَلِكَ ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾؛ أي: لهم عقوبة أخرى؛ وهو: أن شهادة القاذف غير مقبولة، ولو حدّ على القذف؛ حتى يتوب ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون عن طاعة الله.

(٥) ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فالتوبة في هذا الموضع: أن يكذب القاذف نفسه، ويقر أنه كاذب فيما قال.

(٦) ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ الحرائر لا المملوكات ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ﴾ على رميةهم بذلك ﴿شَهَادَةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ بأن لم يقيموا شهداء على ما رموهن به ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ سماها شهادة؛ لأنها نائبة مناب الشهود.

(٧) ﴿وَالْخَمْسَةُ أَنْ لَعَنْتَ اللَّهَ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ يزيد في الخامسة مع الشهادة المذكورة؛ بأن يدعو على نفسه باللعنة إن كان كاذباً.

(٨) ﴿وَيَذَرُونَهَا الْعَذَابَ﴾ يدفع عنها العذاب؛ إذا قابلت شهادات الزوج بشهادات من جنسها ﴿أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ تشهد أربع شهادات بالله أنها ما زنت.

(٩) ﴿وَالْخَمْسَةُ أَنْ غَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وتزيد في الخامسة مؤكدة لذلك: أن

بِذَلِكَ ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾؛ أي: لهم عقوبة أخرى؛ وهو: أن شهادة القاذف غير مقبولة، ولو حدّ على القذف؛ حتى يتوب ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون عن طاعة الله.

(٥) ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فالتوبة في هذا الموضع: أن يكذب القاذف نفسه، ويقر أنه كاذب فيما قال.

(٦) ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ الحرائر لا المملوكات ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ﴾ على رميةهم بذلك ﴿شَهَادَةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ بأن لم يقيموا شهداء على ما رموهن به ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ سماها شهادة؛ لأنها نائبة مناب الشهود.

(٧) ﴿وَالْخَمْسَةُ أَنْ لَعَنْتَ اللَّهَ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ يزيد في الخامسة مع الشهادة المذكورة؛ بأن يدعو على نفسه باللعنة إن كان كاذباً.

(٨) ﴿وَيَذَرُونَهَا الْعَذَابَ﴾ يدفع عنها العذاب؛ إذا قابلت شهادات الزوج بشهادات من جنسها ﴿أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ تشهد أربع شهادات بالله أنها ما زنت.

(٩) ﴿وَالْخَمْسَةُ أَنْ غَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وتزيد في الخامسة مؤكدة لذلك: أن

تدعو على نفسها بالغضب، فإذا تم اللعان، فرق بينهما إلى الأبد، وانتفى الولد الملاعن عنه.

وخصها بالغضب؛ لأن الرجل لا يريد فضيحة أهله - غالباً - إلا وهو صادق، وهي تعلم صدقه، ولهذا كانت الخامسة: أن غضب الله عليها؛ لأن المغضوب عليهم هم الذين يعلمون الحق ثم يحيدون عنه.

(٦) في «صحيح البخاري» عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك ابن سحماء، فقال النبي ﷺ: «البينة أو حدّ في ظهرك» فقال: يا رسول الله إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة، فجعل يقول: «البينة وإلا حدّ في ظهرك». فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق؛ فلينزل الله ما يرى ظهري من الحد، فنزل جبريل، وأنزل عليه: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾. فقرأ حتى بلغ ﴿إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. فانصرف النبي ﷺ، فأرسل إليها، فجاء هلال فشهد، والنبي ﷺ يقول: «إن الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب». ثم قامت فشهدت فلما كانت عند الخامسة وقفوها وقالوا: إنها موجبة. قال ابن عباس فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع، ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم. فمضت. فقال النبي ﷺ: «أبصروها؛ فإن جاءت به أكحل العينين، سابغ الألتين، خدلج الساقين؛ فهو لشريك ابن سحماء». فجاءت به كذلك، فقال النبي ﷺ: «لو لا ما مضى من كتاب الله؛ لكان لي ولها شأن».

عنكم الحد باللعان، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ﴾ لمن تاب من عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما فرض من حدود..
 (١١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ الكذب الشنيع،

(١٠) ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ﴾ جواب (لولا) محذوف للتعظيم يعني: لفضحككم وعاجلكم بالعقوبة، ولكنه ستر عليكم، ودفع

(١١) في «الصحيحين» عن عائشة قالت: لما ذكر من شأني الذي ذكر وما علمت به قام رسول الله ﷺ في خطيباً، فتشهد فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد: أشيروا عليّ في أناس أبئوا - اتهموا - أهلي، وأيم الله ما علمت على أهلي من سوء، وأبنوهم بمن! والله ما علمت عليه من سوء قط، ولا يدخل بيتي قط إلا وأنا حاضر، ولا غبت في سفر إلا غاب معي». فقام سعد بن معاذ فقال: ائذن لي يا رسول الله: أن تضرب أعناقهم، وقام رجل من بني الخزرج وكانت أم حسان بن ثابت من رهط ذلك الرجل فقال: كذبت أما والله أن لو كانوا من الأوس ما أحبيت أن تضرب أعناقهم، حتى كاد أن يكون بين الأوس والخزرج شر في المسجد وما علمت. فلما كان مساء ذلك اليوم خرجت لبعض حاجتي، ومعني أم مسطح، فعرثت فقال: تعس مسطح. فقلت: أي أم تسبين ابنك؟! وسكتت، ثم عثرت الثانية فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: تسبين ابنك! ثم عثرت الثالثة، فقالت: تعس مسطح. فاتهرتها، فقالت: والله ما أسبه إلا فيك. فقلت: في أي شأني؟ قالت: فبقرت لي الحديث. فقلت: وقد كان هذا؟ قالت: نعم والله. فرجعت إلى بيتي كأن الذي خرجت له لا أجد منه قليلاً ولا كثيراً، ووعكت، فقلت لرسول الله ﷺ: أرسلني إلى بيت أبي، فأرسل معي الغلام، فدخلت الدار، فوجدت أم رومان في السفلى، وأبا بكر فوق البيت يقرأ. فقالت: أُمي ما جاء بك يا بنية؟ فأخبرتها، وذكرت لها الحديث، وإذا هو لم يبلغ منها مثل ما بلغ مني، فقالت: يابنية، خففي عليك الشأن فإنه - والله - لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا حسدنها، وقيل فيها، وإذا هو لم يبلغ منها ما بلغ مني. قلت: وقد علم به أبي؟ قالت: نعم. قلت: ورسول الله ﷺ؟ قالت: نعم ورسول الله ﷺ، فاستعبرت وبكيت، فسمع أبو بكر صوتي وهو فوق البيت يقرأ، فنزل فقال لأُمي: ما شأنها؟ قالت: بلغها الذي ذكر من شأنها ففاضت عيناه، قال: أقسمت عليك أي بنية إلا رجعت إلى بيتك فرجعت. ولقد جاء رسول الله ﷺ بيتي فسأل عني خادمتي، فقالت: لا والله ما علمت عليها عيباً، إلا أنها كانت ترقد حتى تدخل الشاة فتأكل خميرها أو عجينها، وانتهرها بعض أصحابه، فقال: اصدقي رسول الله ﷺ حتى أسقطوا لها به، فقالت: سبحان الله، والله ما علمت عليها إلا ما يعلم الصائغ على تبر الذهب الأحمر. وبلغ الأمر إلى ذلك الرجل الذي قيل له، فقال: سبحان الله والله ما كشفت كنف أنثى قط. قالت عائشة: فقتل شهيداً في سبيل الله. قالت: وأصبح أبوأي عندي فلم يزل حتى دخل علي رسول الله ﷺ وقد صلى العصر، ثم دخل وقد اكتنفني أبوأي عن يميني وعن شمالي، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد: يا عائشة، إن كنت قارفت سوءاً أو ظلمت؛ فتوبي إلى الله؛ فإن الله يقبل التوبة من عباده». قالت: وقد جاءت امرأة من الأنصار؛ فهي جالسة بالباب. فقلت: ألا تستحي من هذه المرأة أن تذكر شيئاً، فوعظ رسول الله ﷺ فالتفت إلى أبي فقلت: أحبيه، قال: فماذا أقول. فالتفت إلى أمي فقلت: أحبيبه، فقالت: أقول ماذا. فلما لم يجيبها، تشهدت فحمدت الله، وأثنيت عليه بما هو أهله، ثم قلت: أما بعد: فوالله لئن قلت لكم: إني لم أفعل، والله عز وجل يشهد إني لصادقة، ما ذاك بنافعي عندكم لقد تكلمتم به، وأشربته قلوبكم، وإن قلت: إني فعلت، والله يعلم أنني لم أفعل، لتقولن قد باءت به على نفسها، وإني والله ما أجد لي ولكم مثلاً - والتمست اسم يعقوب فلم أقدر عليه - إلا أبا يوسف حين قال ﴿فَصَبِّرْ بِجِيلٍ﴾ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ. وأنزل على رسول الله ﷺ من ساعته فسكتنا، فرفع عنه، وإني لأتبين السرور في وجهه وهو يمسح جبينه، ويقول: «أبشري يا عائشة، فقد أنزل الله براءتك». قالت: وكنت أشد ما كنت غضباً. فقال لي أبوأي: قومي إليه. فقلت: والله لا أقوم

حكم الله ﴿هُمُ الْكَذِبُونَ﴾ فيما يجاءوا به من الإفك.

(١٤) ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ بحيث شملكم إحسانه فيهما؛ أي: في أمر دينكم ودنياكم ﴿لَسَكُمُ فِي مَا أَفَضْتُمْ﴾ خستم ﴿فِيهِ﴾ من شأن الإفك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لاستحقاقكم ذلك بما قلتم.

(١٥) ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ﴾ تتلففونه ﴿بِالْأَسِنَّاتِ﴾ ويلقيه بعضكم إلى بعض ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾، وهذا عتاب وتأنيب وتأديب ﴿وَتَحْسِبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ تقولون ما تقولون في شأن أم المؤمنين. وتحسبون ذلك يسيراً سهلاً، ولو لم تكن زوجة النبي عليه السلام لما كان هيناً، فكيف وهي زوجة النبي ﷺ؟! فعظيم عند الله أن يقال في زوجة رسوله ما قيل.

(١٦) ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ وهلاً إذ سمعتم - أيها المؤمنون - كلام أهل الإفك ﴿قُلْتُمْ﴾ منكرين لذلك: ﴿مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾ ما ينبغي لنا، وما يليق بنا الكلام، بهذا الإفك المبين ﴿سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ ننزهك يا رب عما لا يليق بك، وهذا كذب عظيم.

وهو: رمي أم المؤمنين عائشة ﴿عَصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ جماعة منتسبون إليكم ﴿لَا تَحْسِبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لما تضمن ذلك من تبرئة أم المؤمنين ونزاهتها، والتنويه بذكرها، ولما تضمن من بيان الآيات المضطر إليها العباد، التي ما زال العمل بها إلى يوم القيامة ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ وهذا وعيد للذين جاءوا بالإفك ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾ معظم الإفك، وهو: عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين ﴿لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ألا وهو الخلود في الدرك الأسفل من النار.

(١٧) ﴿لَوْلَا﴾ هلاً ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ﴾ ظن المؤمنون بعضهم ببعض ﴿خَيْرًا﴾؛ وهو: السلام مما رموا به ﴿وَقَالُوا﴾ بسبب ذلك الظن: ﴿سُبْحَنَكَ﴾ تنزيهاً لك من كل سوء، وعن أن تبغلي أصفياءك بالأمور الشنيعة ﴿هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ كذب وبهت، من أعظم الأشياء وأبينها.

(١٨) ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ﴾ هلاً جاء الرامون على ما رموا به ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ عدول مرضيين ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ﴾ وإن كانوا في أنفسهم قد تيقنوا ذلك ﴿فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: في

إليه، ولا أحمده ولا أحمدهما، ولكن أحمد الله الذي أنزل براءتي، لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غيرتموه. وكانت عائشة تقول: أما زينب بنت جحش فعصمها الله بدنيها فلم تقل إلا خيراً، وأما أختها حمنة فهلكت فيمن هلك، وكان الذي يتكلم فيه مسطح، وحسان بن ثابت، والمنافق عبد الله بن أبي. وهو الذي كان يستوشيه ويجمعه، وهو الذي تولى كبره منهم هو وحمنة. قالت: فحلف أبو بكر أن لا ينفع مسطحاً بِنَافَعَةٍ أَبَدًا، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا يَأْتِي أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ﴾ إلى آخر الآية - يعني أبا بكر - ﴿وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ﴾ - يعني: مسطحاً إلى قوله - ﴿أَلَا يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. حتى قال أبو بكر: بلا والله ياربنا إنا لنحب أن تغفر لنا، وعاد له بما كن يصنع.

(١٩) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يدرى ما تبلغ، يهوي بها في النار أبعد ما بين السماء والأرض».

﴿الْفَلْحَشَةُ﴾ الأمور الشنيعة المستقبحة؛ مثل: الزنا ﴿فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ موجع للقلب والبدن ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ كذبهم وبراءة عائشة، وما خاضوا فيه من سخط الله ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فلذلك علمكم، وبين لكم ما تجهلونه.

(٢٠) ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ زَعُوفٌ رَجِيمٌ﴾ ولولا أن تفضل الله عليكم أيها الناس ورحمكم، وأن الله ذو رافة، وذو رحمة بخلقه لهلكتم فيما أفضتم فيه، وعاجلتكم من الله العقوبة، ولكن الله تاب على من تاب، وطهر من طهر منهم بالحد الذي أقيم عليه..

(٢١) ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ﴾ طرده ووساوسه ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ ما تستفحشه العقول والشرائع، من الذنوب العظيمة، مع ميل بعض النفوس إليه ﴿وَالْمُنْكَرِ﴾ وهو: ما أنكره الشرع ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ ما تطهر من اتباع خطوات الشيطان ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ من يعلم منه أن يتزكى بالتزكية، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوال عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ بأعمالهم ونياتهم وأحوالهم.

(٢٢) ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ أي: لا يحلف ﴿أَوْ لَوْ أَنَّهُ فُضِّلَ مِنْكُمْ﴾ الطول والصدقة والإحسان ﴿وَالسَّعَةِ﴾ الجدة سعة الرزق والفضل والإحسان ﴿أَن يُؤْتُوا

يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢١ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٢٢ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاحِشَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٢٣ يَوْمَ تُشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٢٤ يَوْمَ يُؤْصَفُ بِهِمُ اللَّهُ بِذَنبِهِمْ الْحَقُّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ٢٥ الْحَبِيبَتِ لِلْحَبِيبِينَ وَالْحَبِيبَتِ لِلْحَبِيبِينَ وَالطَّيِّبَتِ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبَتِ لِلطَّيِّبِينَ أُولَئِكَ مَبَرَّاتٌ وَمَا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرَزَقُ كَرِيمٌ ٢٦ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ٢٧

(١٧) ﴿يُعَظَّمُ اللَّهُ﴾ ينهاكم الله ﴿أَن تَعُدُّوا لِمَنْلَهُ﴾ لنظيره من رمي المؤمنين بالفجور ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ دل ذلك على أن الإيمان الصادق يمنع صاحبه من الإقدام على المحرمات.

(١٨) ﴿وَيَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آلَايَاتِهِ﴾ يوضحها لكم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ كامل العلم ﴿حَكِيمٌ﴾ كامل الحكمة؛ فمن علمه وحكمته أن علمكم من علمه، وإن كان ذلك راجعاً لمصالحكم في كل وقت.

(١٩) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجِبُونَ أَن تَشِيعَ﴾ تظهر وتنتشر

(١٩) في «مسند الإمام أحمد» بإسناد صحيح لشواهد عن ثوبان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تؤذوا عباد الله ولا تعيروهم، ولا تطلبوا عوراتهم؛ فإنه من طلب عورة أخيه المسلم، طلب الله عورته حتى يفضحه في بيته».

(٢١) أخرج ابن أبي حاتم وعبد الرزاق والبيهقي بإسناد صحيح عن أبي رافع قال: غضبت عليّ امرأتي، فقالت: هي يوماً يهودية، ويوماً نصرانية، وكل مملوك لها حر، إن لم تطلق امرأتك. فأتي عبد الله بن عمر فقال: إنما هذه نزعات شيطان.

أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ أَي: لا يحلفوا أن لا يصلوا قرباتهم المساكين والمهاجرين، يعني: مسطحاً، وكان مسكيناً مهاجراً بدرياً، حلف أبو بكر أن لا ينفق عليه ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ عنهم خوضهم في أمر عائشة رضي الله عنها ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إذا عاملتم عبيده بالعفو والصفح، عاملكم بذلك فلما قرأها النبي ﷺ على أبي بكر قال: بلى، أنا أحب أن يغفر الله لي. ورجع إلى مسطح نفقته.

(٢٣) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَزُمُونَ الْمَحْصَنَاتِ﴾ العفائف عن الفجور ﴿الْفَوَاحِشَ﴾ اللاتي لم يخطر ذلك بقلوبهن ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ بالله ورسوله؛ استباحة لعرضهن، وطعناً في الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين كابن أبيي ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ واللعنة لا تكون إلا على ذنب كبير ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهذا زيادة على اللعنة، أبعدهم عن رحمته، وأحل بهم شدة نقمته.

(٢٤) وذلك العذاب يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فكل جارحة تشهد عليه بما عملته.

(٢٥) ﴿يَوْمَ يُؤْفِكُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ جزاءهم على أعمالهم، بالعدل ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ وعده ووعيده وحسابه هو العدل الذي لا جور فيه.

(٢٦) ﴿الْخَبِيثَاتِ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾ كل خبيث من الرجال والنساء، والكلمات والأفعال، ﴿الْخَبِيثَاتِ﴾ من الناس ﴿وَالْخَبِيثُونَ﴾ من الناس ﴿لِلْخَبِيثَاتِ﴾ من القول والكلام ﴿وَالْطَّيِّبَاتِ﴾ من القول ﴿لِلْطَّيِّبِينَ﴾ من الناس ﴿وَالطَّيِّبُونَ﴾ من الناس ﴿لِلطَّيِّبَاتِ﴾ من القول. والمعنى: لا يتكلم بالخبيثات إلا الخبيث من الرجال والنساء، ولا يتكلم بالطيبات من الرجال والنساء إلا الطيب من الرجال والنساء، هذا ذم للذين قذفوا عائشة، ومدح للذين برؤوها بالطهارة ناسب للخبيث، وموافق له، ومقترون به، ومشاكل له ورسوله محمد ﷺ أفضل الطيبين من الخلق على الإطلاق لا يناسبه إلا كل طيب من الناس، فالقذح في عائشة رضي الله عنها بهذا الأمر قدح في النبي ﷺ وهو المقصود بهذا الإفك، من قصد المنافقين، فمجرد كونها زوجة الرسول ﷺ يعلم أنها لا تكون إلا طيبة طاهرة من هذا الأمر القبيح فكيف وهي هي؟! صديقة النساء، وأفضلهم وأعلمهم وأطيبهن، وحبيبة رسول رب العالمين ثم صرح بذلك، بحيث لا يبقى لمبطل مقلاً ولا لشك وشبهة محلاً فقال: ﴿وَالطَّيِّبَاتِ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾. وكل طيب من الرجال والنساء، والكلمات والأفعال، مناسب

(٢٤) في «صحيح مسلم» عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنا عند النبي ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: «أتدرون مم أضحك؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: يارب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: لا أجزع عليّ شاهداً إلا من نفسي، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام عليك شهوداً، فيختم على فيه، ويقال لأركانه: انطقي، فتنتطق بعمله، ثم يخلو بينه وبين الكلام، فيقول: بعداً لكم وسحقاً، فنكن كنت أناضل».

﴿أَدْخِلْ﴾؟ ﴿ذَلِكَ﴾ الاستئذان المذكور ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لاشتماله على عدة مصالح وهو من مكارم الأخلاق.

(٢٨) ﴿فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُوْذَنَ لَكُمْ﴾ أي: إن لم تجدوا في البيوت أحداً يأذن لكم في دخولها فلا تدخلوها ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ أَنْجِعُوا فَأَنْجِعُوا﴾ إذا كان في البيت قوم وطلبوا من المستئذن الرجوع؛ فلا تمتنعوا من الرجوع، ولا تغضبوا منه ﴿هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾؛ أشد لتطهيركم من السيئات، وتنميتمكم بالحسنات ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فيجازي كل عامل بعمله: من كثرة وقلة، وحسن وعدمه.

(٢٩) ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي: حرج وإثم، دل على أن الدخول من غير استئذان في البيوت السابقة، أنه محرم، وفيه حرج ﴿أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَّكُمْ﴾ وهذا لفظ عام في كل بيت ليس ملكاً للإنسان، أخرج منه تعالى البيوت التي ليست ملكه، وفيها متاعه، وليس فيها مساكن، فأسقط الحرج في الدخول إليها ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ أحوالكم الظاهرة والخفية وعلم مصالحكم، فلذلك شرع لكم ما تحتاجون إليه وتضطرون، من الأحكام الشرعية.

فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُوْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ أَنْجِعُوا فَأَنْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ وَلَا يُذِيبُ زِينَتَهُمْ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلَا يَنْصَرِفْنَ يُخْفِينَ عَلَى جُيُوشٍ وَلَا يَبْتَغِيْنَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ لِلْعَلِيِّ عَزَ أُولَىٰ أُولَٰئِكَ لَا إِلَافَ إِلَّا فِي الْوَعْدِ الَّذِي لَمْ يَنْظُرُوا عَلَىٰ عُودٍ مِنَ النِّسَاءِ وَلَا يَنْصَرِفْنَ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ لَعَلَّ بَنَاتُهُنَّ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُؤْتُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

الطيب، وموافق له، ومقترن به، ومشاكل له ﴿أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ والإشارة إلى عائشة رضي الله عنها أصلاً، وللمؤمنات المحصنات الغافلات تبعاً لها ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ تستغرق الذنوب ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ في الجنة.

(٣٠) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ تستأذنوا، وسمي الاستئذان: استئناساً؛ لأن به يحصل الاستئناس، وبعدمه تحصل الوحشة ﴿وَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ وصفة ذلك: «السلام عليكم،

(٣١) في «الصحيحين» أن أبا موسى الأشعري رضي الله عنه استأذن على عمر رضي الله عنه ثلاثاً فلم يؤذن له، فأنصرف، ثم قال عمر: ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن؟ انذنوا له، فطلبوه فوجدوه قد ذهب، فلما جاء بعد ذلك قال: ما رجعت؟ قال إني استأذنت ثلاثاً، فلم يؤذن لي، وإن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً، فلم يؤذن له، فلينصرف» فقال: لتأتين على هذا بيينة وإلا أوجعتك ضرباً، فذهب إلى ملا في الأنصار، فذكر لهم ما قال عمر، فقالوا: لا يشهد لك إلا أصغرنا، فقام معه أبو سعيد الخدري، فأخبر بذلك، فقال: ألهاني عنه الصفق بالأسواق.

(٣٠) ﴿قُلْ لِّلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ﴾ عن النظر إلى العورات، وإلى النساء الأجنبية، وإلى المردان الذين يخاف بالنظر إليهم الفتنة، وإلى زينة الدنيا التي تفتن، وتوقع في المحذور ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ عن الوطء الحرام في قبل أو دبر، أو ما دون ذلك، وعن التمكين من مسها، والنظر إليها ﴿ذَلِكَ﴾ الحفاظ للأبصار والفروج ﴿أَنَّى لَهُمْ﴾ أظهر وأطيب وأنمى لأعمالهم ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ذكرهم بعلمه بأعمالهم؛ ليجتهدوا في حفظ أنفسهم من المحرمات.

(٣١) ﴿وَقُلْ لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ﴾ عن النظر إلى العورات والرجال، بشهوة ونحو ذلك من النظر الممنوع ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ من التمكين من جماعهن، أو مسهن، أو النظر المحرم إليهن ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ كالثياب الجميلة والحلي ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ الثياب الظاهرة التي جرت العادة بلبسها ﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾ ليشددن ﴿يَحْضُرْنَ﴾ يعني المقانع ﴿عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ على النحر والصدر ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ الخفية التي لم يبح كشفها في الصلاة ولا للأجانب ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ أزواجهن ﴿أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ يشمل الأب بنفسه والجد وإن علا ﴿أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ﴾ ويدخل فيه الأبناء وأبناء البعولة مهما نزلوا ﴿أَوْ إِخْوَانَهُنَّ أَوْ بَنَاتِ إِخْوَانِهِنَّ﴾ أشقاء أو لأب أو لأم ﴿أَوْ بَنَاتِ

لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ﴾ عن النظر إلى العورات، وإلى النساء الأجنبية، وإلى المردان الذين يخاف بالنظر إليهم الفتنة، وإلى زينة الدنيا التي تفتن، وتوقع في المحذور ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ عن الوطء الحرام في قبل أو دبر، أو ما دون ذلك، وعن التمكين من مسها، والنظر إليها ﴿ذَلِكَ﴾ الحفاظ للأبصار والفروج ﴿أَنَّى لَهُمْ﴾ أظهر وأطيب وأنمى لأعمالهم ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ذكرهم بعلمه بأعمالهم؛ ليجتهدوا في حفظ أنفسهم من المحرمات.

﴿وَقُلْ لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ﴾ عن النظر إلى العورات والرجال، بشهوة ونحو ذلك من النظر الممنوع ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ من التمكين من جماعهن، أو مسهن، أو النظر المحرم إليهن ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ كالثياب الجميلة والحلي ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ الثياب الظاهرة التي جرت العادة بلبسها ﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾ ليشددن ﴿يَحْضُرْنَ﴾ يعني المقانع ﴿عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ على النحر والصدر ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ الخفية التي لم يبح كشفها في الصلاة ولا للأجانب ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ أزواجهن ﴿أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ يشمل الأب بنفسه والجد وإن علا ﴿أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ﴾ ويدخل فيه الأبناء وأبناء البعولة مهما نزلوا ﴿أَوْ إِخْوَانَهُنَّ أَوْ بَنَاتِ إِخْوَانِهِنَّ﴾ أشقاء أو لأب أو لأم ﴿أَوْ بَنَاتِ

أَخَوَاتِهِنَّ﴾ ولم يذكر العم والخال لأنهما ينعان لأبنائهما ﴿أَوْ إِسَاءِهِنَّ﴾ يجوز للنساء أن ينظر بعضهن إلى بعض دون افتضاح يؤدي إلى المباشرة والوصف، ولا يجوز أن تنظر إليها الذمية ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ فيجوز للمملوك إذا كان كله للأنتى: أن ينظر لسيدته، ما دامت مالكة له كله، فإذا زال الملك أو بعضه لم يجز النظر ﴿أَوْ التَّابِعَاتِ غَيْرِ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾ الذين يتبعونكم، ويتعلقون بكم من الرجال، الذين لا إربة أي: لا حاجة - لهم في هذه الشهوة؛ كالمعتوه والأجراء والأتباع الذين ليسوا بأكفاء وهم مع ذلك في

(٣٠) في «صحيح مسلم» عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ عن نظرة الفجأة، فأمرني أن أصرف بصري.

(٣١) وفي سنن أبي داود بإسناد حسن لغيره عن عائشة رضي الله عنها: أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي ﷺ وعليها ثياب رفاق، فأعرض عنها، وقال يا أسماء: «إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا» وإشار إلى وجهه وكفيه.

عقولهم وَلَهُ وَخُوثُ الْعَيْنَيْنِ ﴿٣٢﴾ أَوْ الْطِفْلِ لَنَبْتَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ الْأَطْفَالُ الَّذِينَ دُونَ التَّمْيِيزِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفَيْنَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ﴿٣٤﴾ لَا يَضْرِبْنَ الْأَرْضَ بِأَرْجُلِهِنَّ؛ لِيَصُوتَ مَا عَلَيْهِنَّ مِنْ حُلِيِّ، فَتَعْلَمَ زِينَتُهَا فَيَكُونُ وَسِيلَةً إِلَى الْفِتْنَةِ ﴿٣٥﴾ وَتُؤْتُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٣٦﴾ لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ يَدْعُوهُ إِيْمَانُهُ إِلَى التَّوْبَةِ ﴿٣٧﴾ لَعَلَّكُمْ تَقْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ فَلَا سَبِيلَ إِلَى الْفَلَاحِ إِلَّا بِالتَّوْبَةِ؛ وَهِيَ: الرَّجُوعُ مِمَّا يَكْرَهُهُ اللَّهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، إِلَى مَا يَحِبُّهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا.

(٣٢) ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنكُم﴾ بِأَمْرِ تَعَالَى الْأَوْلِيَاءِ وَالْأَسْيَادِ بِإِنْكَاحِ مَنْ تَحْتَ وَلَايَتِهِمْ مِنَ الْأَيْمَى؛ وَهُمْ: مَنْ لَا أَزْوَاجَ لَهُمْ، مِنْ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ ثِيْبَاتٍ وَأَبْكَارٍ ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالصَّالِحِينَ: صِلَاحَ الدِّينِ، وَيَحْتَمِلُ الصَّالِحِينَ لِلتَّزْوَاجِ الْمَحْتَاجِينَ إِلَيْهِ ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ﴾ الْأَزْوَاجِ وَالْمُتَزَوِّجِينَ ﴿عَنِّيهِمْ﴾ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴿فِيهِ حَثٌ عَلَى التَّزْوَاجِ، وَوَعْدٌ لِلْمُتَزَوِّجِ بِالْغَنَى بَعْدَ الْفَقْرِ﴾ وَاللَّهُ وَاسِعٌ ﴿كَثِيرُ الْخَيْرِ عَظِيمُ الْفَضْلِ﴾ عَلَيْهِمْ ﴿بِمَنْ يَسْتَحِقُّ فَضْلَهُ﴾.

(٣٣) ﴿وَلْيَسْتَغْفِرْ﴾؛ أَي: لِيَطْلُبَ الْعَفْوَ عَنِ الْحَرَامِ وَالزَّانِ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا؛ أَي: أَسْبَابَهُ وَيَجُوزُ أَنْ يَرَادَ بِالنِّكَاحِ مَا يَنْكِحُ بِهِ، أَوْ بِالْوُجْدَانِ التَّمَكُّنِ مِنْهُ ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ

(٣٢) فِي سَنَنِ «الْتَرْمِذِيِّ» وَ«النَّسَائِيِّ» وَ«ابْنِ مَاجَهَ» وَ«مُسْنَدِ أَحْمَدَ» بِإِسْنَادِ حَسَنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثٌ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُمُ: النَّكَاحُ يَرِيدُ الْعِفَافَ، وَالْكَاتِبُ يَرِيدُ الْأَدَاءَ، وَالْغَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

(٣٣) فِي «صَحِيحِ مُسْلِمَ» عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بِنْدٍ يَقُولُ لِجَارِيَةٍ لَهُ: أَذْهَبِي؛ فَاغْنِيَا شَيْئًا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْبَغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِيَبْتِغُوا عَرْضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْنَهَا فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وأخره، فتحسن وتطيب، ويكون أصفى لزيته، ولهذا قال: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا﴾ من صفائه ﴿يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ فإذا مسته النار أضاء إضاءة بليغة ﴿تُورُّ عَلَى ثَوْرٍ﴾ يعني: اجتماع نور المصباح، وحسن الزجاج، وطيب الزيت، وكذلك قلب المؤمن يعمل بالهدى - لصفا الفطرة - قبل أن يأتيه العلم، فإذا جاءه العلم ازدادا نوراً على نوره وهدى على هدى ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورٍ مِّنْ نَّشَاءٍ﴾ يوفى الله من يشاء لإصابة الحق ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ ليعقلوا عنه، ويفهموا، وليتضح الحق من الباطل ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فعلمه محيط بجميع الأشياء.

(٣٦) لما ضرب الله تعالى مثل قلب المؤمن، وما فيه من الهدى والعلم بالمصباح في الزجاج الصافية المتوقد من زيت طيب، وذلك القنديل ذكر محلها؛ وهي: المساجد؛ وهي أطيب البقاع إلى الله تعالى من الأرض، وهي بيوته التي يعبد فيها ويوحد، فقال: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ عظيمة فاضلة، وهي المساجد ﴿أَذِنَ

أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ﴾ واضحات الدلالة ﴿و﴾ أنزلنا إليكم أيضاً ﴿مَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ﴾ من أخبار الأولين، وما حل بهم في مخالفتهم أوامر الله ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وأنزلنا إليكم موعظة للمتقين من الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب؛ يتعظ بها المتقون.

(٣٥) ﴿اللَّهُ تُورُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الحسي والمعنوي ﴿مَثَلُ ثَوْرٍ﴾ الذي يهدي إليه، وهو نور الإيمان والقرآن في قلوب المؤمنين ﴿كَشَكُوفٍ﴾ الكوة - أي: الفتحة في الحائط غير نافذة - ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ لأن الكوة تجمع نور المصباح بحيث لا يتفرق، ذلك ﴿أَلْيَصَاحُ فِي رِجَاجِ الزَّجَاجَةِ﴾ من صفاتها وبهائها ﴿كَأَنَّمَا كَوَّكِبٌ ذَرِيُّ﴾ مضيء إضاءة الدر ﴿يُوقَدُ﴾ ذلك المصباح، ﴿مِنَ شَجَرَةٍ مَّبْرُكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ بوقد من زيت الزيتون الذي ناره، من أنور ما يكون ﴿لَا شَرْقِيَّةٌ﴾ فقط، فلا تصيبها الشمس من آخر النهار ﴿وَلَا غَرْبِيَّةٌ﴾ فقط فلا تصيبها الشمس أول النهار، لكنها متوسطة من الأرض، كزيتون الشام، تصيبها الشمس أول النهار

(٣٥) في «الصحاحين» من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يتعبد قال: «اللهم لك الحمد، أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت ملك السماوات والأرض، ولك الحمد أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبون حق، ومحمد ﷺ حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم، وأنت المؤخر لا إله إلا أنت» أو «لا إله غيرك».

(٣٦) في «الصحاحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «صلاة الرجل في الجماعة تضعف على صلاته في بيته وفي سوقه خمساً وعشرين ضعفاً، وذلك: أنه إذا توضأ؛ فأحسن وضوءه، ثم خرج إلى المسجد، لا يخرج إلا للصلاة، لم يخط خطوة إلا رفع له بها درجة، وحط عنه بها خطيئة، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه، اللهم صل عليه، اللهم ارحمه، ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة»

﴿بِالْفُؤَادِ﴾ أول النهار ﴿وَالْأَصَالِ﴾ وخص هذين من الوقت لشرفهما .

(٣٧) ﴿رِجَالٌ﴾ ؛ أي : يسبح فيها لله رجال ﴿لَا تُلْهِهِمْ بَيْعَةٌ﴾ وهذا يشمل كل تكسب يقصده به العوض ﴿وَلَا بَيْعٌ﴾ من باب عطف الخاص على العام ، لكثرة الاشتغال بالبيع على غيره ﴿عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَاقَارِ الصَّلَاةِ وَإِنَاءِ الزَّكَاةِ﴾ بل جعلوا طاعة الله وعبادته ، غاية مرادهم ، ونهاية مقصدهم ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ يوم القيامة الذي تتقلب فيه القلوب والأبصار من شدة هوله

(٣٨) ﴿لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ أعمالهم الحسنة الصالحة ﴿وَيَزِيدهمُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ زيادة كثيرة عن الجزاء المقابل لأعمالهم ﴿وَاللَّهُ يَرِئُكَ مَنْ يَشَاءُ يَغْيِرْ حِسَابَ﴾ بل يعطيه من الأجر ما لا يبلغه عمله ، بل ولا تبلغه أمنيته ويعطيه من الأجر بلا عد ولا كيل .

(٣٩) ثم ضرب الله تعالى مثلين لأعمال الكفار في بطلانها وذهابها سدى وتحسر عامليها منها ، فقال : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بربهم وكذبوا رسله ﴿أَعْمَلَهُمْ﴾ واعتقاداتهم يحسبونها صالحة نافعة عند الله ، يجدونها ﴿كَرَّابٍ بَقِيْعَةٍ﴾ جمع قاع : أي : في فلاة ، وهو شعاع يرى فيها نصف النهار في شدة الحر ، يشبه المار الجاري ﴿يَحْسَبُهُ﴾ يظنه ﴿الظَّمْآنُ﴾ شديد العطش ﴿مَاءً حَقًّا إِذَا

رِجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ بَيْعَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ٣٧ لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدهمُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرِئُكَ مَنْ يَشَاءُ يَغْيِرْ حِسَابَ ٣٨ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلَهُمْ كَرَّابٍ بَقِيْعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَ ثُمَّ يَحْدَهْ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فُوفَةٌ حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ٣٩ أَوْ كَظَلَمْتَ فِي بَحْرٍ لُجِّي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ طَلَمْتَ بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَوْ يَكْذِبُهَا وَمَنْ لَمْ يَعْمَلْ اللَّهُ لَهُ نُورًا قَالُوا لَمْ يُولَدْ ٤٠ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَيِّحُ لِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْطَّيْرِ صَنَدَتٍ كُلِّ قَدْ عِلِمَ صَلَاتَهُمْ وَنَسِيحَهُمُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ٤١ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزَيِّجُ السَّحَابَ ثُمَّ يُنْفِثُهُمْ جَعَلَهُمْ رَكَامًا فَدَرَى الْوَدْقُ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَابِقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ٤٢

اللَّهُ﴾ أمر ووصى ﴿أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾ هذان مجموع أحكام المساجد ﴿أَنْ تُرْفَعَ﴾ فيدخل في رفعها : بناؤها ، وكنسها وتنظيفها وصونها ، ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾ ويدخل في ذلك : الصلاة وقراءة القرآن والتسبيح والتهليل ، وغيره من أنواع الذكر ، وتعلم العلم وتعليمه ، والمذاكرة فيها ، والاعتكاف ، وغير ذلك من العبادات ، التي تفعل في المساجد ، ﴿يُسَيِّحُ لِمَنْ فِيهَا﴾ إخلاصاً

(٣٧) أخرج ابن أبي حاتم وهناد في «الزهد» بإسناد حسن لغيره من حديث أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ، جاء مناد ؛ فنأدى بصوت يسمع الخلائق : سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم ، ليقم الذين لا تلبيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، فيقومون وهم قليل ، ثم يحاسب سائر الخلائق» .

(٣٩) في «الصحيحين» من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ : «يقال لليهود يوم القيامة : ما كنتم تعبدون؟ فيقولون : كنا نعبد عزير ابن الله ، فيقال : كذبتُم ما اتخذ الله من ولد ، ما تبغون؟ فيقولون : أي ربنا عطشنا ، فاسقنا . فيقال : ألا ترون؟ فتمثل لهم النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً ؛ فينطلقون ؛ فينتهقون فيها» .

جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴿ فندم ندماً شديداً، وازداد ما به من الظمأ، بسبب انقطاع رجائه. كذلك أعمال الكفر، بمنزلة السراب، ترى ويظنها الجاهل الذي لا يدري الأمور أعمالاً نافعة، فتغره صورتها، ويحسبها هو أيضاً أعمالاً نافعة لهواه، وهو أيضاً محتاج إليها، كاحتياج الظمآن للماء حتى إذا قدم على أعماله، يوم الجزاء، وجدها ضائعة، ولم يجدها شيئاً؛ بل ﴿ وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابُهُ ﴾ لن يعدم منه قليلاً ولا كثيراً. ﴿ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ فلا يستبطن الجاهلون ذلك الوعد.

(٤٠) والمثل الثاني لبطلان أعمال الكفار:

﴿كَظَلَمْتَ فِي بَحْرِ لُجِّي﴾ بعيد قعره، طويل مداه
﴿بَغْسُهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ
ظَلَمْتَ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ ظلمة البحر اللجي، ثم
فوقه ظلمة الأمواج المتراكمة، ثم فوق ذلك ظلمة
السحب المدلهمة، ثم فوق ذلك ظلمة الليل
البهيم ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُ لَوْ يَكْدُ يَرْهَأُ﴾ مع قربها
إليه؛ كذلك الكفار تراكت على قلوبهم الظلمات
﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ من لم
يهد الله؛ فهو هالك جاهل.

(٤١) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسْجِئُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ﴾ من حيوان وجماد ﴿وَالطَّيْرِ صَفَّتْ﴾ ؛
أي: باساطات أجنحتهن في الهواء في حال
طيرانها تسبح ربها وتعبد به بتسبيح ألهما وأرشداهما
إليه ﴿كُلُّ﴾ من هذه المخلوقات ﴿فَدَعَمَ صِلَانَهُ
وَسَبَّيْحَهُ﴾ كل له صلاة وعبادة بحسب حاله
اللائقة به ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ علم جميع
أفعالهم، فلم يخف عليه منها شيء، وسيجازيهم
بذلك.

يَقُلُّبُ اللَّهِ الْآيِلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١١﴾
وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ
يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ
إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ
وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٣﴾ وَيَقُولُونَ
آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ تَوَلَّى فِرْقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ
ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ
لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فِرْقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿١٥﴾ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكَ
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هُمْ مَذْعُونٌ ﴿١٦﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ
أَنْ يَحْكُمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٧﴾
إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ
أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٨﴾ وَمَنْ
يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَخَشِيَ اللَّهَ وَاتَّقَاهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ
﴿١٩﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَمْسِنِهِمْ لَنْ أَمْرْتَهُمْ لِيَخْرُجُنَّ قُلْ
لَا تَقْسِمُ بِطَاعَةِ مَعْرُوفٍ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾

(٤٢) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خالقهما ورازقهما، والمتصرف فيهما ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ مرجع الخلق ومآلهم إليه سبحانه وتعالى؛ ليجازيهم بأعمالهم.

(٤٣) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ﴾ ألم تشاهد ببصرك عظيم قدرة الله وكيف ﴿يُزْجِي﴾ يسوق ﴿سَحَابًا﴾ قطعاً متفرقة ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ﴾ بين تلك القطع ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رِجَالًا﴾ فيجعله سحاباً متراكماً مثل الجبال ﴿فَتَرَى الْوَدَكَ﴾ الوابل والمطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ يخرج من خلال السحابة، نقطاً متفرقة؛ ليحصل بها الانتفاع من دون ضرر فتمتلى بذلك الغدران، وتتدفق الخلجان، وتسيل الأدوية، وتنبت الأرض من كل زوج كريم، ﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ تارة ﴿يُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن مِّزْءٍ ذَرِيرٍ﴾ ينزل الله من ذلك السحاب برداً يتلف ما يصيبه ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ

تولياً عظيماً ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ حقاً؛ فكذبت أفعالهم أقوالهم.

(٤٨) ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ إذا صار بينهم وبين أحد حكومة، ودعوا إلى الله ورسوله ﴿وَإِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ يريدون أحكام الجاهلية.

(٤٩) ﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ﴾ إلى حكم الشرع ﴿مُذْعِرِينَ﴾ سامعين مطيعين.

(٥٠) ﴿وَإِنْ قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ علة ﴿أَمْ أَرْآنَا﴾ شكوا، وقلقت قلوبهم من حكم الله ورسوله، واتهموه أنه لا يحكم بالحق ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ﴾ يحكم عليهم حكماً ظالماً جائراً ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَافِلُونَ﴾ وأما حكم الله ورسوله؛ ففي غاية العدالة والقسط، وموافقة الحكمة، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

وفي هذه الآيات دليل على أن الإيمان ليس هو مجرد القول حتى يقترن بالعمل.

(٥١) ولما ذكر حال المعرضين عن الحكم الشرعي، ذكر حالة المؤمنين الممدوحين، فقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ حقيقة الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ سواء وافق أهواءهم أو خالفها ﴿أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ سمعنا حكم الله ورسوله، وأجبنا من دعانا إليه وأطعنا طاعة تامة سالمة من الحرج ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ حصر الفلاح فيهم؛ لأن الفلاح: الفوز بالمطلوب، والنجاة من المكروه، ولا يفلح.

(٥٢) ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيصدق خبرهما ويمثل أمرهما ﴿وَيَخْشِ اللَّهَ﴾ يخافه خوفاً مقروناً بمعرفة ﴿وَيَقِفْهُ﴾ بترك المحظور

عَنْ مَنْ يَشَاءُ ﴿بِحَسَبِ اقْتِضَاءِ حُكْمِهِ الْقَدَرِيِّ، وحكمته التي يحمد عليها ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ﴾ يكاد ضوء برق ذلك السحاب، من شدته ﴿يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ يخطف الأبصار إذا اتبعته وتراءته، ليس الذي أنشأها وساقها لعباده المفتقرين، وأنزلها على وجه يحصل به النفع، وينتفي به الضرر، كامل القدرة، نافذ المشيئة، واسع الرحمة؟

(٤٤) ﴿يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ من حر إلى برد، ومن برد إلى حر، ومن ليل إلى نهار، ومن نهار إلى ليل ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ لذوي البصائر والعقول النافذة.

(٤٥) ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ﴾ على اختلاف أجناسها واشكالها وألوانها ﴿مِنْ مَّاءٍ﴾ مادتها كلها: الماء ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾ كالحية ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ﴾ كالأدميين ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ كبهيمة الأنعام ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ من المخلوقات على ما يشاءه من الصفات ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: بقدرته؛ لأنه ما شاء كان، وما لم يشاء لم يكن.

(٤٦) ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ﴾ واضحات الدلالة ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ ممن سبقت لهم سابقة الحسنى، وقدم الصدق ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ طريق واضح مختصر، موصل إليه، وإلى دار كرامته.

(٤٧) يخبر تعالى صفات المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون. ﴿وَيَقُولُونَ﴾ قولاً بالسنتهم: ﴿ءَاْمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ التزمنا طاعة الله ورسوله ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ ثم لا يقومون بما قالوا، ويتولى فريق منهم عن الطاعة

﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ الذين جمعوا بين طاعة الله وطاعة رسوله وخشية الله وتقواه ﴿هُرُّ الْفَازُونَ﴾ بنجاتهم من العذاب، ووصولهم إلى الثواب.

(٥٣) ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ يخبر تعالى عن حالة المتخلفين عن الرسول ﷺ في الجهاد: أنهم يقسمون بالله ﴿لَئِنْ أَمَرْتُمْ﴾ فيما يستقبل ﴿يَخْرُجْنَ﴾ معك إلى الجهاد قال الله تعالى رآذا عليهم: ﴿قُلْ لَا نَقْسِمُكُمْ﴾ لا نحتاج إلى إقسامكم، ولا إلى أذاركم؛ فإن الله قد نبأنا من أخباركم ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ وطاعتكم معروفة، لا تخفى علينا؛ فهي قول بلا فعل ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم عليها أتم الجزاء.

(٥٤) ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ﴾ امتثلوا، كان حظهم وسعادتهم، وإن ﴿تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ من الرسالة، وقد أداها ﴿وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ من الطاعة ﴿وَأِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ إلى الصراط المستقيم ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَانُ الْغَيْثِ﴾ الذي لا يبقی لأحد شكاً ولا شبهة.

(٥٥) ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ هذا وعد من الله لرسوله ﷺ بأنه سيجعل أئمة خلفاء الأرض؛ أي: أئمة الناس والولاية عليهم، وبهم تصلح البلاد وتخضع لهم العباد ﴿وَلَيُمْكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ﴾ وأن يمكن لهم دينهم ﴿الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ وهو دين الإسلام ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ﴾

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَانُ الْغَيْثِ ﴿٥٣﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٥﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا أُوْبَهُمْ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٦﴾ تَنَائِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ تِلْكَ مُرْتَبَاتٌ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَصُومُونَ فَيَأْكُمُ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَ هُنَّ طَوُّوَتْ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾

مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا، وأنه يبدلهم أمناً من بعد خوفهم؛ حيث كان الواحد منهم، لا يتمكن من إظهار دينه ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ آمنين ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ فأنجز الله وعده، وأظهر دينه، ونصر أوليائه ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ المراد: كفران النعمة ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ التمكين والسلطنة التامة لكم ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الذين خرجوا عن طاعة الله، وفسدوا.

(٥٦) ﴿وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ﴾ يأمر تعالى بإقامة الصلاة، ظاهراً وباطناً ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ وبإيتاء

(٥٥) أخرج الطبراني في «الأوسط» والحاكم والبيهقي في «دلائل النبوة» والضياء في «المختارة» بإسناد حسن عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة، وأوتهم الأنصار؛ رمتهم العرب عن قوس واحدة، فكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح، ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا: ترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله، فنزلت: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ يعني ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

انتباههم قبل صلاة الفجر ﴿وَمِنْ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظَّهْرِ﴾ للقائلة، وسط النهار ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلَوةِ الْعِشَاءِ﴾ وقت نومهم بعد صلاة العشاء ﴿ثَلَاثُ عَوْرَتٍ﴾ حيث هذه الأوقات عورات؛ لأن الإنسان يضع فيها ثيابه؛ فتبدوا عورته ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ ليسوا كغيرهم: فإنهم يحتاج إليهم دائماً، فيشق الاستئذان منهم في كل وقت ﴿طَوُفُوتٍ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ يترددون عليكم في قضاء أشغالكم وحوائجكم ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ بياناً مقروناً بحكمته ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِ﴾ له العلم المحيط ﴿حَكِيمٌ﴾ وله الحكمة التي وضعت كل شيء موضعه.

(٥٩) ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ﴾ وهو إنزال المني يقظة أو مناماً ﴿فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ في سائر الأوقات. والذين من قبلهم هم الذين ذكرهم الله بقوله: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ الآية ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ﴾ يوضحها، ويفصل أحكامها ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بأمور خلقه ﴿حَكِيمٌ﴾ بما دبر لهم.

(٦٠) ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ اللاتي قعدن عن الاستمتاع والشهوة ﴿الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ لا يطمعن في النكاح، ولا يطمعن فيهن ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ﴾ حرج وإثم ﴿أَن يَضَعُوا ثِيَابَهُنَّ﴾ الثياب الظاهرة ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ غير مظهرات للناس زينة من تجمل وضرب بالأرض؛ ليعلم ما تخفي من زينتها ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ﴾ خَيْرٌ لَّهُنَّ ﴿مَن تَزَوَّجَ لَمَّا يَخْشَى مِنَ الْفِتْنَةِ﴾ ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لجميع الأصوات ﴿عَلِيمٌ﴾ بالنيات

وإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَنفُسِ كَمَا أَن تَأْكُلُوا مِن ثِيَابِكُمْ أَوْ مِن ثِيَابِ أَخِيكُمْ أَوْ مِن ثِيَابِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ مِن ثِيَابِ آبَائِكُمْ أَوْ مِن ثِيَابِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ مِن ثِيَابِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ مِن ثِيَابِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ مِن ثِيَابِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ مِن ثِيَابِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ مِن ثِيَابِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ مِن ثِيَابِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مِمَّا مَلَكَتْهُم مِّمَّا بَيْنَ يَدَيْكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَشِّرَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

الزكاة من الأموال التي استخلف الله عليها العباد وأعطاهم إياها ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ وذلك بامتنال أوامره، واجتناب نواهيه ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ حين تقومون بذلك ﴿تَرْحَمُونَ﴾.

(٥٧) ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ لا تظن يا محمد ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ خالفوك وكذبوك ﴿مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ لا يعجزون الله، بل الله قادر عليهم، وسيعذبهم على ذلك أشد العذاب؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا وَهُمْ إِلَّا نَارٌ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ بشس المال: مآل الكافرين.

(٥٨) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ﴾ أمر المؤمنين أن يستأذنهم ﴿الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ مماليكهم ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَلْعَنُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ﴾ والذين لم يبلغوا الحلم منهم ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ ثلاث عورات للمستأذن عليهم: ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوةِ الْفَجْرِ﴾ عند

والمقاصد.

(٦١) ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ ليس على هؤلاء جناح في ترك الأمور الواجبة: التي تتوقف على واحد منها وذلك كالجهاد ونحوه، مما يتوقف على بصر الأعمى، أو سلامة الأعرج، أو صحة المريض ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ حرج ﴿أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ بيوت أولادكم ﴿أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ﴾ وهؤلاء معروفون ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْهُ مَفَاحِشُهُ﴾ البيوت التي أتم متصرفون فيها بوكالة، أو ولاية ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ وهذا الحرج المنفي من الأكل من هذه البيوت كل ذلك إذا كان بدون إذن، والحكمة فيه معلومة من السياق ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ أكل أهل البيت الواحد جميعاً، أو أكل كل واحد منهم وحده، وهذا نفي للحرج، لا نفي للفضيلة، وإلا فالأفضل الاجتماع على الطعام ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا﴾ يشمل بيت الإنسان سواء كان في البيت ساكن أم لا ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ فليسلم بعضكم على بعض ﴿يُحِبَّةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ سلامكم ﴿مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ قد شرعها لكم، وجعلها تحيتكم ﴿مُبْرَكَةٌ﴾ لاشتمالها على السلامة من النقص، وحصول الرحمة والبركة والنماء والزيادة من الخير والثواب

سُورَةُ الْفُرْقَانِ

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا الْإِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلْلُونُ مِنْكُمْ لَوْ أَدَّاهُمْ قَلِيلًا مِّنَ الَّذِينَ يَخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ الْآيَاتُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْشَأَ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمْ فَيَنْبَغِي لَهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

سُورَةُ الْفُرْقَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَكْمٌ ﴿٢﴾

﴿طَبِئَةً﴾ لأنها من الكلم الطيب المحبوب عند الله ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ﴾ الدالات على أحكامه الشرعية وحكمها ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فتفهمونها.

(٦٢) ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ هذا إرشاد من الله لعباده المؤمنين ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ أنهم كانوا مع الرسول ﷺ على أمر جامع؛ أي: من ضرورته أو مصلحته أن يكونوا فيه جميعاً، كالجهاد، والمشاورة ﴿لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا﴾ فإن المصلحة تقتضي اجتماعهم عليه، وعدم

(٦١) أخرج الطبري وابن المنذر وابن أبي حاتم بإسناد حسن عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾ إلى قوله ﴿أَوْ أَشْتَاتًا﴾ وذلك لما أنزل الله: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ فقال المسلمون: إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل، والطعام من أفضل الأموال، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد. فكف الناس عن ذلك، فأنزل الله بعد ذلك: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْهُ مَفَاحِشُهُ﴾.

من شرفه وفضله وتميزه صلى الله عليه وسلم عن غيره، أن يقال: يا رسول الله، يا نبي الله، ولما مدح المؤمنين بالله ورسوله الذين إذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنه، توعدهم من لم يفعل، ذلك، وذهب من غير استئذان مبيناً أن لا يخفى عليه تعالى، وإن خفى عن الناس، فقال: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا﴾ يلوذون وقت تسللهم وانطلاقهم بشيء يحجبهم عن العيون فتوعدهم على ذلك بقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ يذهبون إلى بعض شئونهم عن أمر الله ورسوله ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ شرك وشر ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عاجل في الدنيا، وجيع في الآخرة.

(٦٤) ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ملكاً وعبيداً، يتصرف فيهم بحكمه القدري وحكمه الشرعي ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ قد أحاط علمه بما أنتم عليه، من خير وشر، وعلم جميع أعمالكم، أحصاها علمه، وجرى بها قلمه، وكتبت عليها عليكم الحفظة الكرام الكاتبون ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ يخبرهم بجميع أعمالهم إخباراً مطابقاً لما وقع منهم ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فليحذر أن يخالف رسوله أو يعصى، وليتق في أمره ونهيه، فإن نقمته صعبة، وعذابه شديد.

تفرقهم فالمؤمن بالله ورسوله حقاً لا يذهب لأمر من الأمور، إلا بإذن من الرسول، أو نائبه من بعده فجعل موجب الإيمان عدم الذهاب إلا بإذن، ومدحهم على فعلهم هذا وأدبهم مع رسوله وولي الأمر منهم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ولكن هل يأذن لهم أم لا؟ ذكر لإذنه لهم شرطين: أحدهما: أن يكون لشأن من شؤونهم، وشغل من أشغالهم، فأما من يستأذن من غير عذر، فلا يؤذن له. والثاني الإذن له يشاء فتقتضيه المصلحة دون مضرة بالآذن فقال:

﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ فإذا كان له عذر واستأذن، فإن كان في قعوده وعدم ذهابه مصلحة برأيه، أو شجاعته، ونحو ذلك، لم يأذن له ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ﴾ ومع هذا إذا استأذن، وأذن له بشرطيه، أمر الله رسوله: أن يستغفر له؛ لما عسى أن يكون مقصراً في الاستئذان ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر لهم الذنوب ﴿رَحِيمٌ﴾ ويرحمهم؛ بأن جوز لهم الاستئذان مع العذر.

(٦٣) ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ فإذا دعاكم؛ فأجيبوه وجوباً وكذلك لا تجعلوا دعاءكم للرسول كدعاء بعضكم بعضاً، فلا تقولوا: يا محمد - مثلاً - عند دعائكم، كما يقول ذلك بعضكم لبعض، بل

(٦٣) أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم في «تفسيريهما» بإسناد صحيح عن مجاهد قال: كانوا يقولون يا محمد! يا أبا القاسم! فنهاهم الله ﷺ عن ذلك؛ إعظاماً لنبهه - صلوات الله وسلامه عليه - قال: فقالوا: يا رسول الله! يا نبي الله.

(٦٤) في «الصحيحين» من حديث عائشة ؓ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه؛ فهو رد» وفي رواية لمسلم «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا؛ فهو رد».

سورة الفرقان

(١) ﴿تَبَارَكَ﴾ تعظيم، وكملت أوصافه، وكثرت خيراتہ ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾ الذي نزل هذا القرآن الفارق بين الحلال والحرام والهدى والضلال ﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾ محمد ﷺ ﴿لِيَكُونَ﴾ ذلك الإنزال للفرقان على عبده ﴿لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ ينذرهم بأس الله ونقمه، ويبين لهم مواقع رضا الله من سخطه.

(٢) ﴿الَّذِي لَمْ يُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ له التصرف فيهما وحده، وجميع من فيهما ممالك وعبيد له ﴿وَلَمْ يَنْحِزْ وَلَكَا وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ نزه نفسه عن الولد وعن الشريك ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ شمل العالم العلوي، والعالم السفلي: من حيواناته، ونباتاته، وجماداته ﴿فَقَدَرَهُ قَدِيرًا﴾ أعطى كل مخلوق منها ما يليق به، ويناسبه من الخلق، وما تقتضيه حكمته من ذلك.

(٣) ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ يخبر تعالى عن جهل المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، الخالق لكل شيء ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أنها لا تقدر على خلق شيء، بل هم مخلوقون ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ لا قليلاً ولا كثيراً ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً﴾ أي: إماتة وإحياء ﴿وَلَا شُورًا﴾ بعثاً بعد الموت.

(٤) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْفِكَ﴾ كذب كذبه محمد، وإفك افتراه على الله ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ واستعان على جمعه بقوم آخرين ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلُمًا وَزُورًا﴾ فقد افتروا هم قولاً باطلاً، وهم يعلمون أنه باطل.

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا شُورًا ﴿٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْفِكَ أَقْرَبَهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلُمًا وَزُورًا ﴿٣﴾ وَقَالُوا أَأَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكُتِبَتْ لَهُمْ فِي تَمَلُّ عَلَى بُكْرَةٍ وَأَصِيلًا ﴿٤﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَفُوًّا رَحِيمًا ﴿٥﴾ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رُسُولٌ يَأْكُلُ السَّعَاءَ وَيَمْسُحُ فِي الْأَنْسَافِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٦﴾ أَوْ يُقَلِّعُ إِلَيْهِ كَنزًا أَوْ تَكُونُ لَهُمْ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٧﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَل فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٨﴾ تَبَارَكَ الَّذِي أَنْشَأَ جَعَلُ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ جَمْرًا مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ فُصُورًا ﴿٩﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١٠﴾

(٥) ﴿وَقَالُوا﴾؛ أي: هؤلاء الكفار: ﴿أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكُتِبَتْ لَهُمْ﴾ هذا قصص الأولين وأساطيرهم، التي تتلقاها الأفواه، وينقلها كل أحد، استنسخها محمد ﴿فَهِيَ تُمَلِّ عَلَى بُكْرَةٍ وَأَصِيلًا﴾ تقرأ عليه في أول النهار وآخره.

(٦) فلذلك رد عليهم ذلك بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿أَنْزَلَهُ﴾؛ أي: القرآن ﴿الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ﴾ الغيب ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أنزله من أحاط علمه بما في السموات، وما في الأرض، والجهر والسر ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ عَفُورًا﴾ وصفه المغفرة لأهل الجرائم والذنوب إذا فعلوا أسباب المغفرة؛ وهي: الرجوع عن معاصيه والتوبة منها ﴿رَحِيمًا﴾ بهم، حيث لم يعاجلهم بالعقوبة، وقد فعلوا مقتضاها، وحيث قبل توبتهم بعد المعاصي، وحيث محاماً سلف من سيئاتهم، وحيث قبل حسناتهم، وحيث أعاد

الظَّالِمُونَ ﴿١﴾ حملهم على القول، ظلمهم لا اشتباه منهم ﴿٢﴾ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٣﴾ هذا، وقد علموا كمال عقله، وحسن حديثه، وسلامته من جميع المطاعن.

(٩) ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ وهي: هل كان ملكاً، وزالت عنه خصائص البشر؟ أو معه ملك، أو أنزل عليه كنز؟ أو جعلت له جنة تغنيه عن المشي في الأسواق؟ أو أنه كان مسحوراً ﴿فَصَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ قالوا أقوالاً متناقضة كلها جهل وضلال وسفه، ليس في شيء منها هداية.

(١٠) ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ﴾ خيراً مما قالوا، ثم فسر به بقوله: ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ فُصُورًا﴾ مرتفعة مزخرفة، فقدرته ومشيتته لا تقصر عن ذلك.

(١١) ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ يوم القيامة ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ ناراً عظيمة، قد اشتد سعيرها، وتغيظت على أهلها، واشتد زفيرها.

(١٢) ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَّانٍ بَعِيدٍ﴾ قبل وصولهم، ووصولها إليهم ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّطًا﴾ عليهم ﴿وَزَفِيرًا﴾ تعلق منهم الأفتدة، ويكاد الواحد منهم يموت خوفاً منها وذعراً، قد غضبت عليهم؛ لغضب خالقها، وقد زاد لهيها؛ لزيادة كفرهم وشرهم.

(١٣) ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ تضيق عليهم وقت عذابهم، وهم في وسطها ﴿مُقَرَّرِينَ﴾ مصفدين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال، جمع بين ضيق المكان وتراحم السكان

إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَّانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّطًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّرِينَ دَعَوْا هُنَا لَكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَجَدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءٌ وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُورًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يُبْنَىٰ لَكَ أَنْ تَخْذَلَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاؤَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يظْلِمِ مَعَكُمْ فِدْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

الراجع إليه بعد شروده، والمقبل عليه بعد إعراضه إلى حالة المطيعين المنيبين إليه.

(٧) ﴿وَقَالُوا﴾ أي: المكذبون للرسول الذين قدحوا برسالته: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ﴾ ما لهذا الذي ادعى الرسالة - تهكماً منهم واستهزاء - ﴿يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ وهذا من خصائص البشر، فهلاً كان ملكاً لا يأكل الطعام، ولا يحتاج إلى ما يحتاج إليه البشر ﴿وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ للبيع والشراء، وهذا - بزعمهم - لا يليق بمن يكون رسولاً ﴿لَوْلَا أَنْزَلْ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ هلا أنزل معه ملك ﴿فَيَكُونُ مَعَهُ نَزِيرًا﴾ يساعده ويعاونه.

(٨) ﴿أَوْ يُنْفَخُ إِلَيْهِ كَافٌ﴾ مال مجموع من غير تعب ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ فيستغني عن مشيه في الأسواق ﴿وَقَالَ

ومطالبها النفسية ﴿حَتَّىٰ سَأُوا الذِّكْرَ﴾ اشتغالا في لذات الدنيا، فحافظوا على دنياهم، وضيعوا دينهم ﴿وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ بائرين لا خير فيهم، لا يصلحون إلا للهلاك والبور.

(١٩) ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ﴾ إنهم أمروكم بعبادتهم، ورضوا فعلكم، وأنهم شفعاء لكم عند ربكم، كذبوكم في ذلك الزعم، وصاروا من أكبر أعدائكم، فحق عليكم العذاب ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا﴾ للعذاب عنكم بفعلكم أو بفداء أو غير ذلك ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ لعجزكم وعدم ناصركم.

﴿وَمَنْ يَظْلِمِ مَنكُمُ﴾ أيها المؤمنون؛ أي: ومن يشرك بالله فيظلم نفسه، فذلك ﴿نُفْقُهُ عَدَابًا كَبِيرًا﴾ كالذي ذكرنا أننا نذيقه الذين كذبوا بالساعة.

(٢٠) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ يا محمد ﴿إِلَّا أَنَّهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَكْشُرُوا فِي الْأَسْوَاقِ﴾ فما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام، وما جعلناهم ملائكة، فلك فيهم أسوة، وأما الغنى والفقر، فهو فتنة، وحكمة من الله تعالى، كمال قال: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ الرسول فتنة للمرسل إليهم، واختبار للمطيعين من العاصين، والرسول فتناهم بدعوة الخلق، والغني فتنة للفقير والفقير فتنة للغني والقصد من تلك الفتنة ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ فتقومون بما هو وظيفتكم اللازمة الراتبه، فيثيبكم مولاكم، أم لا تصبرون فتستحقون المعاقبة؟ ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بِصِيرًا﴾ يرى ويعلم أحوالكم ويصطفي من يعلمه يصلح لرسالته، ويختصه بتفضيله، ويعلم أعمالكم؛ فيجازيكم عليها، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

وتقريهنم بالسلاسل والأغلال؛ فإذا وصلوا لذلك المكان النحاس، وحبسوا في أشد حبس ﴿دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ أي: نادوا: ياثبورنا؛ أي: يا هلاكنا؛ إذ الثبور: الهلاك.

(١٤) ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا﴾ ليس هذا الدعاء والاستغاثة بنافعة لهم، ولا مغنية من عذاب الله ﴿وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ لو زاد ما قلتم أضعاف أضعافه، ما أفادكم إلا الهم، والغم، والحزن.

(١٥) ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿أَذْلَكُ﴾ الذي وضعت لكم من العذاب ﴿خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ التي زادها تقوى الله؛ فمن قام بالتقوى، فالله قد وعده إياها ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً﴾ ثوابا على تقواهم ﴿وَمَصِيرًا﴾ موثلا يرجعون إليها، ويستقرون فيها، ويخلدون دائما أبدا.

(١٦) ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ ما يطلبون وتتعلق به أمانيتهم ومشيتهم ﴿كَانَ﴾ دخولها والوصول إليها ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ وَعَدًا مَّسْئُولًا﴾ يسأله إياها عباده المتقون، ولا بد أن يقع.

(١٧) ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي: المكذبين المشركين ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من الملائكة والجن والإنس وعزير وعيسى ﴿فَيَقُولُ﴾ الله مخاطباً للمعبودين على وجه التقريع لمن عبدتهم: ﴿ءَأَنْتُمْ أَضَلُّتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ هل أمرتموهم بعبادتهم، وزينتم لهم ذلك، أم ذلك من تلقاء أنفسهم؟

(١٨) ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ﴾ نزهوا الله عن شرك المشركين به، وبرأوا أنفسهم من ذلك ﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا﴾ لا يليق بنا أن نتخذ من دونك من أولياء نتولاهم ونعبدهم وندعوهم ﴿وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَأَهُمْ﴾ في لذات الدنيا وشهواتها

مع استمرارهم على جرمهم وعنادهم؛ إلا لعقوبتهم ﴿وَيَقُولُونَ حَبْرًا مَّحْجُورًا﴾ تقول الملائكة للكافرين حرام محرم عليكم الفلاح اليوم، وأصل: الحجر المنع.

(٢٣) ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾ أعمالهم التي رجوا أن تكون خيراً لهم، وتعبوا فيها ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ باطلاً مضمحلاً، قد خسروه، وحرّموا أجره، وعوقبوا عليه، وذلك لفقده الإيمان.

(٢٤) في ذلك اليوم الهائل، كثير البلبال ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ الذين آمنوا بالله وعملوا صالحاً، واثقوا ربهم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ من أهل النار ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ مستقرهم في الجنة، وراحتهم التي هي القيلولة، هو المستقر النافع، والراحة التامة.

(٢٥) ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ﴾ وذلك الغمام الذي ينزل الله فيه، فتفطر له السماوات، وتشقق ﴿وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ﴾ وتنزل ملائكة كل سماء ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابًا﴾ لصعوبته الشديدة، وتعسر أموره عليه. بخلاف المؤمن؛ فإنه يسير عليه، خفيف الحمل.

(٢٦) ﴿الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ لا يبقى لأحد من المخلوقين ملك ولا صورة مُلْك، كما كانوا في الدنيا، بل قد تساوت الملوك ورعاياهم والأحرار والعبيد، والأشراف وغيرهم، ومما يرتاح له القلب، وتطمئن به النفس، وينشرح له الصدر، أن أضاف المُلْك في يوم القيامة لاسمه «الرحمن» الذي وسعت رحمته كل شيء، وعمت كل حي ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابًا﴾ لصعوبته الشديدة، وتعسر

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةَ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْهُمْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾
 (١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَبْرًا مَّحْجُورًا (٢) وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (٣) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (٤) يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ يُنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ تَرْبِيلًا (٥) الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابًا (٦) وَيَوْمَ يَبْصُرُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ بَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٧) يُوَلِّقُنِي لَنَفْسِي لَوْ أَخَذْتُ فَلَانَا غَلِيلًا (٨) أَقْدَأْصَلْنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَدُولًا (٩) وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنِّي فِيَّكَ وَأَهْدَأْ أَلْفَرَاءَ أَن مَّهْجُورًا (١٠) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (١١) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْبِيلًا (١٢)

(٢١) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ قال المكذبون للرسول، المكذبون بوعد الله ووعيده: ﴿أَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةَ﴾ هلاً نزلت الملائكة تشهد لك بالرسالة وتؤيدك عليها، أو تنزل رسلاً مستقلين ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ فيكلمنا، ويقول: هذا رسولي؛ فاتبعوه ﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ حيث اقترحوا هذا الاقتراح، وتجروا هذه الجرأة. فمن أنتم يا فقراء، وبيا مساكين، حتى تطلبوا رؤية الله، وتزعموا أن الرسالة متوقف ثبوتها على ذلك ﴿وَعَتَوْهُمْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ وطغوا في القول، وتجاوزوا الحد في الظلم وقسوا عن الحق قساوة عظيمة، فقلوبهم أشد من الأحجار.

(٢٢) ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾ التي اقترحوا نزولها ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ وذلك أنهم لا يرونها

أمره عليه .

(٢٧) ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ﴾ بشركه وكفره وتكذيبه للرسول ﴿عَلَى يَدَيْهِ﴾ حزناً، وأسفاً ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾ طريقاً بالإيمان به .

(٢٨) ﴿يَوَيْلٌ لَّيْتَنِي لَمْ أَخَذْ فَلَانًا﴾ وهو الشيطان الإنسي أو الجنى ﴿خَلِيلاً﴾ حبيباً مصافياً .

(٢٩) ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ حيث زين له ما هو عليه من الضلال، بخدعه وتسويله ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ يزين له الباطل، ويقبح له الحق، ويعده الأمانى، ثم يتخلى عنه .

(٣٠) ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ﴾ منادياً لربه، وشاكياً له إعراض قومه عما جاء به، ومتأسفاً على ذلك منهم: ﴿يَرْبِّ إِنِّي قَوْمِي﴾ الذي أرسلتني لهدايتهم وتبليغهم ﴿أَتَخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ قد أعرضوا عنه، وهجروه، وتركوه، وكانوا إذا نلي عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام في غيره، حتى لا يسمعه، فهذا من هجرانه، وترك علمه وحفظه أيضاً من هجرانه، وترك الإيمان به وتصديقه من هجرانه وترك تدبره وتفهمه من هجرانه، وترك العمل به وامتنال أوامره، واجتناب زواجره من هجرانه، والعدول عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره من هجرانه .

(٣١) ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ من الذين لا يصلحون للخير، ولا يزكون عليه، يعارضونهم، ويردون عليهم، ويجادلونهم بالباطل

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

وَلَا يَأْتُونَكَ بِسَلِّ إِلَّا جُنُودًا بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ سَبِيلاً ﴿٣٢﴾ الَّذِينَ يَحْشُرُونَ عَلَى وَجْهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ سَرُّ مَكَانًا وَأَصْلُ سَبِيلًا ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مَوْسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا ﴿٣٤﴾ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْزِلْهُمْ نَتَذَكَّرُ ﴿٣٥﴾ وَقَوْمٌ لَّمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٦﴾ وَعَادَا وَثُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٧﴾ وَكُلَّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأُمُتِلَ وَكُلَّا تَرَى تَاتِيهِمْ ﴿٣٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمُطِرَتْ مَطَرُ السَّوْءِ أَقْلَمَ يَكُونُوا سِرًّا أَبَدًا ﴿٣٩﴾ كَانُوا لَا يَرْجُونَ ضَرْبًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِتَوْاكَ وَيَسْأَلُونَكَ بِالْأَهْزَاءِ أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرْوُونَ الْعَذَابَ مِنْ أَصْلُ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾

٣٦٣

﴿وَكُنْ بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾ يهديك؛ فيحصل لك المطلوب، ومصالح دينك ودنياك ﴿وَنَصِيرًا﴾ ينصرك على أعدائك، ويدفع عنك كل مكروه، في أمر الدين والدنيا .

(٣٢) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هذا في جملة مقترحات الكفار الذي توحى إليه أنفسهم: ﴿لَوْلَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ كما أنزلت الكتب قبله ﴿كَذَلِكَ﴾ أنزلناه متفرقاً ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ لأنه كلما نزل عليه شيء من القرآن؛ ازداد طمأنينة وثباتاً، وخصوصاً عند ورود أسباب القلق ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ مهلناه، ودرجناك فيه تدريجاً .

(٣٢) أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والضياء في «المختارة» بإسناد حسن عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال: قال المشركون إن كان محمد كما يزعم نبياً فلم يعذبه ربه؛ ألا ينزل عليه القرآن جملة واحدة؟ ينزل عليه الآية والآيتين والسورة؟! فأنزل الله على نبيه جواب ما قالوا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ إلى قوله ﴿وَأَصْلُ سَبِيلًا﴾ .

(٣٣) ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ يعارضون به الحق، ويدفعون به رسالتك ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ أنزلنا عليك قرآنًا جامعًا للحق في معانيه، والوضوح والبيان التام في ألفاظه؛ فمعانيه كلها حق وصدق، لا يشوبها باطل، ولا شبهة بوجه من الوجوه، وألفاظه وحدوده للأشياء أوضح ألفاظًا، وأحسن تفسيرًا، مبين للمعاني بيانًا كاملاً.

(٣٤) ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ يخبر تعالى عن حال المشركين الذين كذبوا رسوله وسوء مآلهم وأنهم يحشرون على وجوههم في أشنع مرأى، وأفظع منظر، تسحبهم ملائكة العذاب، ويجبرونهم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ الجامعة لكل عذاب وعقوبة ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الذين بهذه الحال ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ مكانة ومنزلة، ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أخطأ طريقًا.

(٣٥) ثم أشار تعالى إلى هذه قصص الماضين ليحذر المخاطبين من استمرارهم على تكذيب رسولهم، فيصيبهم ما أصاب هؤلاء الأمم، الذين كانوا قريبًا منهم، فبدأ بذكر موسى؛ فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾ نبيًا مؤازرًا، ومؤيدًا، وناصرًا.

(٣٦) ﴿فَقُلْنَا﴾ لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ آلِ الْقَوْمِ﴾ قوم فرعون وهم القبط ﴿فَدَعَرْنَهُمْ﴾ فيه إضمار؛ أي: فكذبوهما فدمرناهم ﴿تَدْمِيرًا﴾ أهلكتناهم إهلاكًا.

(٣٧) ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ﴾ وكذلك فعل بقوم نوح حين كذبوا رسوله نوحًا، ومن كذب برسول؛ فقد كذب بجميع الرسل، ولهذا أغرقهم الله جميعًا ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ عبرة يعتبرون بها ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ سوى ما حل بهم من عاجل العذاب.

(٣٨) ﴿وَ﴾ أهلكتنا ﴿عَذَابًا﴾ قوم هود ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ﴾ قوم صالح ﴿وَأَصْحَابَ الرَّسِّ﴾ وهم قرية من قرى ثمود ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ وأمما بين أضعاف من ذكر أهلكتناهم كثيرة.

(٣٩) ﴿وَكُلًّا صَبَرْنَا لَهُ الْأَمَنَّةَ﴾ بينا لهم الحجج ووضحنا لهم الأدلة ﴿وَكُلًّا تَبَرْنَا تَبِيرًا﴾ أهلكتنا إهلاكًا.

(٤٠) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا عَلَىٰ الْفَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرَ السَّوَاءِ﴾ يعني قرية قوم لوط ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنها﴾ فيعتبروا بما حل بأهلها من العذاب بسبب تكذيبهم بالرسول وبمخالفتهم أوامر الله ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ يعني المارين بها من الكفار لا يعتبرون؛ لأنهم لا يرجون نشورًا؛ أي: معادًا يوم القيامة.

(٤١) ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ﴾ يا محمد، هؤلاء المكذبون لك، استهزءوا بك، واحتقروك، وقالوا - على وجه الاحتقار والاستصغار -: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾؛ أي: غير مناسب ولا لائق، أن يبعث الله هذا الرجل.

(٤٢) ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ الْهَيْمَةِ﴾ بأن يجعل

(٣٣) أخرج النسائي بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: أنزل القرآن جملة إلى سماء الدنيا في ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ وقرأ: ﴿وَقُرُونًا فَرَّقْنَاهُ لِنُقَرِّمَ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكِّ وَرَزَلْنَاهُ نَزِيلًا﴾

الآلهة إلهاً واحداً ﴿لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ لو لم نصبر عليها لأضلنا ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرُونَ الْعَذَابَ﴾ يعلمون علماً حقيقياً ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ من كان أضل سبيلاً، هم أم المؤمنون.

(٤٣) ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ﴾ ألا تعجب من حاله، وتنظر ما هو فيه من الضلال؟ وهو يحكم لنفسه بالمنازل الرفيعة؟ ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ لست عليه بمسيطر مسلط، بل إنما أنت منذر: قد قمت بوظيفتك، وحسابه على الله.

(٤٤) ﴿أَمْ تَحْسَبُ﴾ أيها الرسول ﴿أَنْ أَكْثَرَهُمْ﴾ أن أكثر هؤلاء المشركين ﴿يَسْمَعُونَ﴾ ما يقال لهم سماع طالب الإفهام ﴿أَوْ يَقُولُونَ﴾ ما يعينون من الحجج والإعلام ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ هم أسوأ حالاً من الأنعام؛ فإن تلك تعقل ما خلقت له، وهؤلاء خلقوا لعبادة الله وحده، وهم يعبدون غيره، مع قيام الحجة عليهم.

(٤٥) ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تشاهد ببصرك وبصيرتك ﴿إِلَى رَبِّكَ﴾ كمال قدرة ربك، وسعة رحمته ﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ أنه مد على العباد الظل، وذلك قبل طلوع الشمس ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُمُ سَاكِنًا﴾ دائماً ثابتاً لا يزول ولا تذهب الشمس ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ عَلِيَّ الظِّلِّ﴾ فلولاً وجود الشمس لما عرف الظل، فإن

أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَقُولُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُمُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الَّيْلَ لِيَأْسَوا وَالنُّومَ سُباتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَدِيءٍ يَدِي رَحْمَةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُشْفِئَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأَنْفُسًا كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذْكُرُوا أَنْفَاءً أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَغَسَّخْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ فِي جَهَادٍ كَثِيرٍ ﴿٥٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَّ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أَلْجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُمُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾

الضد يعرف بضده.

(٤٦) ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ فكلمنا ارتفعت الشمس، تقلص الظل، شيئاً فشيئاً، حتى يذهب بالكلية. (٤٧) ﴿وَهُوَ الَّذِي﴾ من رحمته بكم ولطفه، ﴿جَعَلَ لَكُمْ الَّيْلَ لِيَأْسَوا﴾ أن جعل الليل لكم بمنزلة اللباس الذي يغشاكم، حتى تستقروا فيه ﴿وَالنُّومَ سُباتًا﴾ قاطعاً للحركة لراحة الأبدان ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ ينتشر الناس فيه لمعاشهم ومكاسبهم.

(٤٣) أخرج ابن أبي حاتم والضياء في «المختارة» بإسناد حسن عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ﴾ قال: كان الرجل يعبد الحجر الأبيض زماناً من الدهر في الجاهلية، فإذا وجد حجراً أحسن منه؛ رمى به، وعبد الآخر؛ فأنزل الله هذه الآية.

أرضاً قد طال انتظارها للغيث؛ فلما جاءها عاشت واكتست رُباهَا الخضرة، وأنواع النوبات والأشجار ﴿وَشَقِيقُهُمْ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَنَائِبًا كَثِيرًا﴾ نسقيكموه أنتم وأنعامكم.

(٥٠) ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذْكُرُوا﴾ وهم يرون إحياء الأرض الميتة أن الله قادر على إحياء الموتى، وليذكر من مُنع المطر إنما أصابه ذلك بذنوب أصابه؛ فيقلع عما هو فيه ﴿فَأَنَّى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾؛ أي: جحوداً. وكفرانهم: أنهم إذا مطروا؛ قالوا: مطرنا بنوء كذا!

(٥١) ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ لبعث في كل قرية رسولا يندهرهم ويحذرهم، ولكن بعثناك إلى القرى كلها.

(٥٢) ﴿فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ﴾ في ترك شيء مما أرسلت به، بل ابذل جهدك، في تبليغ ما أرسلت به ﴿وَجَهَنَّهُمْ﴾ بالقرآن ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ لا تبق من مجهودك في نصر الحق وقمع الباطل، إلا بذلته، ولو رأيت منهم من التكذيب والعجأة ما رأيت.

(٥٣) ﴿وَهُوَ﴾ وحده ﴿الَّذِي مَجَّ الْبَحْرَيْنِ﴾ خلاهما متجاورين متلاصقين بحيث لا يتمازجان ﴿هَذَا عَذَابٌ قَرَأْتُ﴾ قانع للعطش من فرط عذوبته ﴿وَهَذَا مَلْحٌ أُلْجَأُ﴾ بليغ الملوحة ﴿وَجَعَلُ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ حاجزاً يحجز من اختلاط أحدهما بالآخر،

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَمَّا أَتٰكُم عَلَيْهِ مِنْ أَجْرِ الْإِيمَانِ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ النَّحْيِ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ نَذِيرًا عِبَادِهِ خَيْرًا ﴿٥٣﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَبِّحْهُ خَيْرًا ﴿٥٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا مَرَّرْنَا وَارَدَهُمْ نَسْجُدُ لِلَّذِي الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سُرُبًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٥٥﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ حُلُوفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٥٦﴾ وَعَسَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوًّا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا اسْلِمْنَا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ عَرَامًا ﴿٥٩﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٠﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦١﴾

(٤٨) ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ هو وحده الذي رحم عباده وأدر عليهم رزقه؛ بأن أرسل الرياح مبشرات ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ وهو: المطر. فثار بها السحاب، وتألف، وصار كسفًا، وألقحته، وأدرته بإذن ربها، والمتصرف فيها ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ يطهر من الحدث والخبث، ويطهر من الغش والأدناس.

(٤٩) ﴿وَلِنُخْرِقَ بِهِ﴾ أي: بالمطر ﴿بَلَدَةً مِّيتًا﴾

(٤٨) في سنن أبي داود والترمذي والنسائي ومسنود أحمد من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بإسناد حسن قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الماء طهور لا ينجسه شيء».

(٥٠) في «صحيح مسلم» من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوماً على أثر سماء أصابهم من الليل: «أتدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله وسوله أعلم. قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته؛ فذاك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا؛ وكذا؛ فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب».

فيذهب المنفعة المقصودة منها ﴿وَجِجْرًا تَحْجُورًا﴾ حاجزاً حصيناً.

(٥٤) ﴿وَهُوَ﴾ الله وحده لا شريك له ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ الآدمي ﴿مِنَ الْمَاءِ﴾ ماء مهين ﴿بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ ثم نشر منه ذرية كثيرة، وجعلهم أنساباً وأصهاراً، متفرقين ومجتمعين. والمادة كلها من ذلك الماء المهين، فهذا يدل على كمال اقتداره؛ لذا قال: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾.

(٥٥) ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ يعبدون أصناماً وأموالاً لا تضر ولا تنفع ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ وكان الكافر معيناً للشيطان على ربه، مظاهراً له على معصيته.

(٥٦) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا محمد إلى من أرسلناك إليه ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ تبشر من أطاع الله بالثواب العاجل والآجل ﴿وَنَذِيرًا﴾ وتنذر من عصى الله بالعقاب العاجل والآجل.

(٥٧) ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على هذا البلاغ وهذا الإنذار ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ فتقولوا: إنما يطلب محمد أموالنا بما يدعو إليه فلا نتبعه.

﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ إلا من شاء أن ينفق نفقة في مرضاة ربه وسبيله.

(٥٨) ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ آلِيٍّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ الذي له الحياة الكاملة المطلقة ﴿وَسَيَحْيِي بِحَمْدِهِ﴾ اعبد، وتوكل عليه في الأمور المتعلقة بك والمتعلقة بالخلق ﴿وَكَفَىٰ بِهِ يَذُنُوبَ عِبَادِهِ﴾

خَيْرًا﴾ يعلمها، ويجازي عليها. (٥٩) ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ﴾ بعد ذلك ﴿أَسْتَوَى﴾ علا وارتفع ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ الذي هو سقف المخلوقات وأعلاها وأوسعها وأجملها ﴿الرَّحْمَنُ فَسَلَّ بِهِ خَيْرًا﴾ أي: فأسأل عنه خيراً.

(٦٠) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ﴾ وحده ﴿قَالُوا﴾ جحداً وكفراً ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ بزعمهم الفاسد، أنهم لا يعرفون الرحمن ﴿أَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ لمجرد أمرك إيانا. وهذا مبني منهم على التكذيب بالرسول، واستكبارهم عن طاعته ﴿وَزَادَهُمْ﴾ دعواهم إلى السجود للرحمن ﴿تَفَوُّرًا﴾ هرباً من الحق إلى الباطل، وزيادة كفر وشقاء.

(٦١) ﴿نَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ وهي النجوم عمومها، أو منازل الشمس والقمر التي تنزل منزلة منزلة ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا﴾ فيه النور والحرارة؛ وهي: الشمس ﴿وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ فيه النور، لا الحرارة.

(٦٢) ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ يذهب أحدهما؛ فيخلفه الآخر، وهكذا أبدأ، لا يجتمعان، ولا يرتفعان ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكَرَ﴾ بهما ويعتبر، ويستدل بهما على كثير من المطالب الإلهية ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ ويشكر الله على ذلك، ولمن أراد أن يذكر الله ويشكره، وكان له وردٌ من الليل أو النهار

(٦٢) في «صحيح مسلم» من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل».

خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ خَاطَبَهُمْ جَهْلٌ ﴿٦٥﴾ قَالُوا سَلَمًا ﴿٦٦﴾ خَاطَبَهُمْ خَطَابًا يَسْلَمُونَ فِيهِ مِنَ الْإِثْمِ، وَيَسْلَمُونَ مِنْ مَقَابِلَةِ الْجَاهِلِ بِجَهْلِهِ.

(٦٤) ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ﴾ في الليل في صلاة ﴿سُجَّدًا﴾ على وجوههم ﴿وَقِيَمًا﴾ على أقدامهم. (٦٥) ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ ادفعه عنا، بالعصمة من أسبابه، ومغفرة ما وقع منا، مما هو مقتض للعداب ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ ملازمًا لأهلها بمنزلة ملازمة الغريم لغريمه.

(٦٦) ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ بئس موضع قرار وإقامة، وهذا منهم على وجه التضرع لربهم، وأنهم ليس في طاقتهم احتمال هذا العذاب.

(٦٧) ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا﴾ النفقات الواجبة والمستحبة ﴿لَمْ يَسْرِفُوا﴾ بأن يزيدوا على الحد ﴿وَلَمْ يَقْتَرُوا﴾ فيدخلوا في باب البخل والشح ﴿وَكَانَ﴾ إنفاقهم ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ بين الإسراف والتقتير ﴿قَوْمًا﴾ وسطًا عدلًا، يبذلون من غير ضرر ولا ضرار.

(٦٨) ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ بل يعبدونه وحده، مخلصين له الدين ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ وهو نفس المسلم، والكافر

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيُخْلَدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِتِلْكَ آيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يُخَوِّرُوا عَنْهَا ضَمًّا وَعِمَاقًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا فَرَّةً أُعَيْنَ وَأَجْعَلْ لَنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرُورَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيَلْقَوْنَ فِيهَا فَاخَةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا أَحْسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْجُبُكُمْ فِي لَوْلَا دَعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

فمن فاته ورده من أحدهما، أدركه في الآخر. (٦٣) ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ العبودية لله نوعان: عبودية لربوبيته يشترك فيها جميع الخلق؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾، وعبودية لألوهيته، وهي عبودية أنبيائه وأوليائه، وهي المرادة، ولذلك أضافها إلى اسمه «الرحمن» ﴿الَّذِينَ بَشُورٌ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ ساكنين متواضعين لله وللخلق ﴿وَإِذَا

(٦٣) في مسند الإمام أحمد بإسناد حسن لغيره من حديث النعمان بن مقرن المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ - وسب رجل رجلًا عنده، قال: فجعل المسبوب يقول: عليك السلام - : «أما إن ملكًا بينكما يذب عنك كلما يشتمك هذا، قال له: بل أنت وأنت أحق به، وإذا قال له: عليك السلام، قال: لا، بل لك أنت، أنت أحق به».

(٦٨) في «الصحيحين» من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداءً وهو خلقك»، قال: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك» قال: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حيلة جارك» قال عبد الله: وانزل الله تصديق ذلك: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾.

فيه .

(٧٣) ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ التي أمرهم باستماعها، والاهتداء بها ﴿لَمْ يَحْزَنُوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ لم يقابلوها بالإعراض عنها، وعدم سماعها، وصرف النظر والقلوب عنها .

(٧٤) ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا قُرْنَانًا﴾ من أصحاب وأقران وزوجات ﴿وَذُرِّيَّتِنَا﴾ الذين خرجوا من أصلابنا ﴿فُرَّةً أَعْيُنَ﴾ تفر بهم أعيننا بعبادتك وطاعتك وحدك لا شريك لك ﴿وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أوصلنا يا ربنا إلى هذه الدرجة العالية؛ فنكون قدوة للمتقين .

(٧٥) ﴿أُولَئِكَ﴾ المتصفون بصفات عباد الرحمن ﴿يُحْزَنُونَ﴾ يثابون ﴿الْعُرْفَةَ﴾ المنازل الرفيعة، والمساكن الأنيقة الجامعة لكل ما يشتهى وتلذه الأعين ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ وذلك بسبب صبرهم ﴿وَلْيَقُولُوا﴾ يثابون ﴿فِيهَا﴾ في الجنة ﴿نَجِيَّةً﴾ التحية والإكرام ﴿وَسَلَامًا﴾ والتوقير والاحترام من ربهم ومن ملائكته الكرام، ومن بعض على بعض .

(٧٦) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ مقيمين فيها لا ييغون عنها حولاً ﴿حَسَنَتْ مُسَقَّرًا وَمُقَامًا﴾ حسنت منظرًا، وطابت منزلاً .

(٧٧) ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿مَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّي شَيْءٌ وَلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ لا يبالي بكم إذا لم تعبدوه ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ أيها الكافرون ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ﴾ أي: سوف يكون تكذيبكم ﴿لِرِزَامًا﴾ عذاباً يلزمكم لزوم الغريم لغريمه، وسوف يحكم الله بينكم وبين عباده المؤمنين .

المعاهد ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ كقتل النفس بالنفس، وقتل الزاني المحصن، والكافر الذي يحل قتله ﴿وَلَا يَرْتَوُونَ﴾ بل يحفظون فروجهم ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ .

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ الشرك بالله، وقتل النفس التي حرم الله بغير حق والزنا، فسوف ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ جزاء الإثم، ثم فسر بقوله :

(٦٩) ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْكَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ﴾ في العذاب لمن فعلها كلها ثاب لا شك فيه، وكذا لمن أشرك بالله، وكذلك أم القتل والزنا فلا يخلد صاحبهما، كما دلت على ذلك النصوص القرآنية والسنة النبوية . ﴿مُهَانًا﴾ أي: حقيراً ذليلاً .

(٧٠) ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ عن هذه المعاصي وغيرها ﴿وَأَمَّنْ﴾ بالله إيماناً صحيحاً، يقتضي ترك المعاصي، وفعل الطاعات ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ مما أمر به الشارع؛ إذا قصد به وجه الله ﴿فَأُولَئِكَ يَجْزِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ تتبدل أفعالهم التي كانت مستعدة لعمل السيئات تتبدل حسنات، وتتبدل نفس السيئات التي عملوها، ثم أحدثوا عن كل ذنب منها توبة تبدل حسنات ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لمن تاب ﴿رَحِيمًا﴾ بعباده .

(٧١) ﴿وَمَنْ تَابَ﴾ إلى الله ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أدى الفرائض واجتنب النواهي ﴿فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ فإن الله يقبل توبته .

(٧٢) ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ لا يحضرون القول والفعل المحرم ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ الكلام الذي لا خير فيه ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾ مسرعين معرضين، نزهوا أنفسهم، وأكرموها عن الخوض

النافع، هو الإيمان بالغيب وقال «خاضعين» ولم يقل «خاضعة» أي: الأعناق، فقيل: المراد الرجال، لأن الأعناق إذا خضعت فأربابها خاضعون، وقيل غير ذلك.

(٥) ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ﴾ يأمرهم وينهاهم، ويذكرهم ما ينفعهم ويضرهم ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ بقلوبهم وأبدانهم.

(٦) ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ بالحق، وصار التكذيب لهم سجية لا تتغير ولا تتبدل ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ سيقع بهم العذاب، ويحل بهم ما كذبوا به.

(٧) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ من جميع أصناف النباتات: حسنة المنظر، كريمة في نفعها.

(٨) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ على إحياء الله الموتى بعد موتهم كما أحيا الأرض بعد موتها ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بل كذبوا به وبرسله وكتبه، وخالفوا أمره، وارتكبوا نهيه.

(٩) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي قد قهر كل مخلوق، ودان له العالم العلوي والسفلي ﴿الرَّحِيمُ﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء ووصل جوده إلى كل حي.

(١٠) ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى﴾ واذكر حالة موسى الفاضلة، وقت نداء الله إياه، حين كلمه، ونبأه وأرسله فقال: ﴿أَنْ أُنْزِلَ إِلَيْكَ الْفَلَقُ﴾ الذين تكبروا في الأرض، وعلوا على أهلها، وادعى كبيرهم الربوبية.

(١١) ﴿قَوْمٌ فَرَعَوْنَ﴾ أي: قل لهم - بلين قول، ولطف عبارة - ﴿إِلَّا يَنْقُوتُونَ﴾ الله الذي خلقهم ورزقهم؛ فيتركون ما هم عليه من الكفر.

سورة الشعراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طسّر ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ
أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِنْ شَأْنُ أَنْزِلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ
أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ
إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا
بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ
كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمٌ فَرَعَوْنَ لَّا يَنْقُوتُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ
أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضْحِكُوا صَدْرِي وَلَا يَتَّبِعُونَ لِسَانِي فَأَرْسِلْ
إِلَيَّ هَارُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ
كَلَّا فَادْهَبْ بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَعِينُونَ ﴿١٥﴾ فَأَتَا فِرْعَوْنَ
فَقَوْلًا إِنَّ رَسُولَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ
﴿١٧﴾ قَالَ أَلْتُرِيدُ أَنْ يَمْلِكَا وَلِيًّا وَالْيَاسُوتُ مَبْعُودَتَانِ ﴿١٨﴾
وَقَعَلْتَ فَعَلْتَنِي الَّذِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾

٣٧

سورة الشعراء

(١) ﴿طسّر﴾ معنى الكلام على الحروف المقطعة في أوائل سورة «البقرة».

(٢) ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ يشير الباري تعالى إشارة تدل على التعظيم لآيات الكتاب ﴿الْمُبِينِ﴾ البين الواضح بحيث لا يبقى عند الناظر فيه شك فيما أخبر به، أو حكم به.

(٣) ﴿لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ﴾ مهلكها وشاق عليها ﴿إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ فلا تفعل، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات؛ فإن الهداية بيد الله.

(٤) ﴿إِنْ شَأْنُ أَنْزِلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً﴾ من آيات الاقتراح ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ﴾ أعناق المكذبين ﴿لَهَا خَاضِعِينَ﴾ ولكن لا حاجة إلى ذلك؛ فإنه إذ ذاك الوقت، يكون الإيمان غير نافع، وإنما الإيمان

(١٢) ف ﴿قَالَ﴾ موسى ﷺ : معذراً من ربه وميناً لعذره، وسائلاً له المعونة على هذا الحمل الثقيل : ﴿رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾

(١٣) ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ من تكذبهم إياي ﴿وَلَا يَتَّبِعُنِي لِسَانِي﴾ هذا للعقدة التي كانت على لسانه ﴿فَأَرْسِلْ إِلَيَّ هَارُونَ﴾ ؛ فأجاب الله طلبته، ونبأ أخاه كما نبأه .

(١٤) ﴿وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ﴾ في قتل القبطي ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ يقتلونني به .

(١٥) ﴿قَالَ﴾ الله تعالى : ﴿كَلَّا﴾ لا يتمكنون من قتلك ، فإننا سنجعل لكما سلطاناً ﴿فَأَذْهَبَا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على صدقكما ، وصحة ما جئتما به ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ أحفظكما وأكلوكما .

(١٦) ﴿فَأَتَيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أرسلنا إليك ؛ لتؤمن به وبنا ، وتنقاد لعبادته ، وتذعن لتوحيده ، ولم يقل : «رسولا رب العالمين» ؛ إما لأنه مصدر بمعنى : رسالة ، والمصدر يوحد ؛ أي : «أنا ذو رسالة» ، وقيل : لأنهما ذوا شريعة واحدة فنزلا منزلة رسول والمعنى : كل منا رسول .

(١٧) ﴿أَنْ أَرْسِلَ مَعَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ فكف عنهم عذابك ، وارفع عنهم يدك ؛ ليعبدوا ربهم ، ويقيموا أمر دينهم .

(١٨) فلما جاء فرعون ، وقال له ما قال الله لهما ، لم يؤمن فرعون ، ولم يلن ، وجعل يعارض موسى ، فقلوه : ﴿قَالَ أَلَمْ تُرْيِكْ فِينَا وَلِيدًا﴾ ألم ننعم عليك ، ونقم بتربيتك ، منذ كنت وليداً في مهديك ، ولم تزل كذلك ﴿وَلَكِنَّتَ فِينَا مِنْ عُمَرِكَ سِنَّينَ﴾ وأنعمنا عليك مدة السنين ؟

(١٩) ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الْتِي فَعَلْتَ﴾ وهي قتل

﴿قَالَ﴾ ﴿فَعَلْتَهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الصَّالِينَ﴾ ﴿فَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ ﴿فَوَهَّبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿وَلَكَ يَوْمَهُ تَنْتَهَا﴾ ﴿عَلَى أَنْ عَيْدَتْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّكُمْ تُوقِنِينَ﴾ ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ﴾ ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمْ﴾ ﴿أَلَوَّلِينَ﴾ ﴿قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّكُمْ تَقُولُونَ﴾ ﴿قَالَ لَيْنَ أَفَعَدْتَ لِلْهَاجِرِ لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمُسْتَجِيرِينَ﴾ ﴿قَالَ أُولَوْجِسْتُكَ بِبَنِي مُدْيَنَ﴾ ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿قَالَ فَنِعْمَ عَبْدُكَ﴾ ﴿قَالَ فَاذْهَبْ بِآيَاتِنَا﴾ ﴿وَرَجِعْ بِدَمٍ﴾ ﴿فَاذْهَبْ بِصَاحِبِ النَّظِيرِينَ﴾ ﴿قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْبَعٌ فِي الدَّيْنِ خَشِيرِينَ﴾ ﴿يَا نُؤُفُكُ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ﴾ ﴿فَجَمِيعَ السَّحَرَةِ لَيْمَقَتْ بِوَمَرٍ مَقْلُومٍ﴾ ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾

موسى للقبطي ، حين استغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ وأنت إذ ذاك طريقك طريقنا ، وسبيلك سبيلنا في الكفر ، فأقر على نفسه بالكفر من حيث لا يدري .

(٢٠) ف ﴿قَالَ﴾ موسى : ﴿فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الصَّالِينَ﴾ عن غير كفر ، وإنما كان عن ضلال وسفه ، فاستغفرت ربي فغفر لي .

(٢١) ﴿فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ حين تراجعتم بقتلي ، فهربت إلى مدين ، ومكثت سنين ، ثم جئتم ﴿فَوَهَّبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أرسلني الله إليك ؛ فإن أطعته سلمت ، وإن خالفتها عطبت .

(٢٢) ﴿وَلَكَ يَوْمَهُ تَنْتَهَا﴾ ﴿عَلَى أَنْ عَيْدَتْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ تدلي علي بهذه المنة حيث سخرت بني إسرائيل ،

جَعَلْتُكَ يَتِّقُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ آية ظاهرة جلية على صحة ما جئت به من خوارق العادات .

(٣١) ﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿فَأْتِ بِهِ﴾ فإنما لن نسجنت حينئذ ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ إن كنت صادقاً فأرنا برهاناً واضحاً، ودليلاً بيناً .

(٣٢) ﴿فَأَتَى﴾ موسى ﴿عَصَاهُ﴾ التي يتوكأ عليها ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ﴾ ؛ أي: ذكر الحيات ﴿مُتَّبِعِينَ﴾ ظاهر لكل أحد، لا خيال، ولا تشبيه .

(٣٣) ﴿وَرَزَقَ يَدَهُ﴾ من جيبه ﴿فَإِذَا هِيَ بِصَافٍ لِلنَّظَرِ﴾ لها نور عظيم، لا نقص فيه لمن نظر إليها .

(٣٤) ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿لَمَلَأَ حَوْلَهُ﴾ معارضاً للحق، ومن جاء به: ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ بارع في صفة السحر .

(٣٥) ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ فَمَادَا تَأْمُرُونَ؟ موه عليهم؛ لعلمه بضعف عقولهم، أن هذا من جنس ما يأتي به السحرة، وخوفهم أن قصده بهذا السحر التوصل إلى إخراجهم من وطنهم؛ ليجدوا ويجهتدوا في معاداة من يريد إجلاءهم عن أولادهم وديارهم ﴿فَمَادَا تَأْمُرُونَ﴾ أن نفعل به؟

(٣٦) ﴿قَالُوا أَنِجْهْ وَأَخَاهُ﴾ أخرهما ﴿وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ﴾ ابعث في جميع مدنك ﴿حَاشِرِينَ﴾ جامعين للناس .

(٣٧) ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ﴾ من يجمع لك كل ساحر ماهر عليم في سحره .

(٣٨) ﴿فَجَمَعَ السَّحَرَةَ لِيَقْدَتِ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ قد واعدهم إياه موسى، وهو: يوم الزينة، الذي يتفرغون فيه من أشغالهم .

(٣٩) ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾ نودي بعموم

وجعلتهم لك بمنزلة العبيد، وأنا قد أسلمتني من تعبيدك وتسخيرك، وجعلتها علي نعمة، فعند التصور يتبين: أن الحقيقة أنك ظلمت هذا الشعب الفاضل، وعذبتهم، وسخرتهم بأعمالك، وأنا قد سلمني الله من أذاك .

(٢٣) ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وهذا إنكار منه لربه ظلماً وعلواً مع تيقن صحة ما دعاه إليه موسى عليه السلام

(٢٤) ﴿قَالَ رَبُّ الْمَسْمُومَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ الذي خلق العالم العلوي والسفلي، ودبره بأنواع التدبير، ورباه بأنواع التربية ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ إن كانت لكم قلوب موقنة وأبصار نافذة .

(٢٥) ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿لَمَنْ حَوْلَهُ﴾ متجهمًا ومعجبًا لقومه: ﴿أَلَا تَسْتَعِينُونَ﴾ ما يقول هذا الرجل .

(٢٦) ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ خالقكم وخالق آبائكم الأولين .

(٢٧) ﴿قَالَ﴾ فرعون معانداً للحق، قادحاً بمن جاء به: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمُجْنُونٌ﴾ حيث قال خلاف ما نحن عليه، وخالفنا فيما ذهبنا إليه .

(٢٨) ﴿قَالَ﴾ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من سائر المخلوقات ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فقد أدت لكم من البيان والتبيين ما يفهمه كل من له أدنى مسكة من عقل .

(٢٩) ﴿قَالَ﴾ متوعداً لموسى بسلطانه: ﴿لَئِنْ أَخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَجَعَلْنَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ زعم أنه قد طمع في إضلال موسى، وأن لا يتخذ إلهاً غيره، وإلا فقد تقرر: أنه هو ومن معه على بصيرة من أمرهم .

(٣٠) فقال له موسى حين توعده بالسجن: ﴿أَوَلَوْ

الناس بالاجتماع في ذلك اليوم الموعود.

(٤٠) ﴿لَعَلْنَا﴾ لكي ﴿نَنْجُ السَّحَرَةَ﴾ إن كانوا هم الغالين ﴿قالوا للناس: اجتمعوا لتنظروا غلبة السحرة لموسى، وأنهم ماهرون في صناعتهم فتبهم، ونعظمهم، ونعرف فضيلة علم السحر. (٤١) ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾ ووصلوا لفرعون قالوا له: ﴿أَيْنَ لَنَا لَاجِرٌ﴾ إن كنا نحن الغالين لموسى؟

(٤٢) ﴿قَالَ نَعَمْ﴾ لكم أجر وثواب ﴿وَلَكُمْ إِذَا لِمَنِ الْعَمَلُ﴾ عندي. وعدهم الأجر والقرية منه؛ ليزداد نشاطهم، ويأتوا بكل مقدورهم، في معارضة ما جاء به موسى، فلما اجتمعوا للموعود، هم وموسى، وأهل مصر، وعظمهم موسى وذكرهم وقال: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَقْرَءُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَن أَفْتَرَى﴾ فتنازعوا وتخاصموا ثم شجعهم فرعون، وشجع بعضهم بعضاً.

(٤٣) ﴿قَالَ لَهُمُ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ﴾ ألقوا كل ما في خواطركم إلقاؤه، ولم يقيدهم بشيء دون شيء؛ لجزمه ببطلان ما جاءوا به من معارضة الحق.

(٤٤) ﴿فَالْقُوا جِأَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ﴾ فإذا هي حيات تسعى، وسحروا بذلك أعين الناس ﴿وَقَالُوا﴾ بَعْرَةٌ فرعون ﴿إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ فاستعانوا بعزة عبد ضعيف، عاجز من كل وجه، وهذا كما يقوله الجهلة من العوام - إذا فعلوا شيئاً - : هذا بثواب فلان.

(٤٥) ﴿فَالْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ تبتلع وتأخذ ﴿مَا يَأْكُونَ﴾ فالتقت جميع ما ألقوا من الحبال والعصي؛ لأنها إفك وكذب وزور،

لَعَلَّنَا نَنْجُ السَّحَرَةَ إِنَّ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾ قالوا لفرعون ﴿أَيْنَ لَنَا لَاجِرٌ﴾ إن كنا نحن الغالين ﴿قَالَ نَعَمْ وَلَكُمْ إِذَا لِمَنِ الْعَمَلُ﴾ قال لهم موسى ﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ﴾ قالوا ﴿جِأَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ﴾ وقالوا لفرعون ﴿إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ قال لقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون ﴿قَالَ لَقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ قالوا آمنا برب العالمين ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ قال آمنت لكم قبل أن آذن لكم إني لكم إله كبيركم الذي علمكم السحر فليسوف تعلمون لا قطعن إليكم وأنحلفكم من خلفي ولا يصليكم أجمعين ﴿قَالُوا لَا ضَرَرَ لَنَا إِلَى رَبِّنَا مَقِيلُونَ﴾ إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطيئتنا أن كنا أول المومنين ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعَادِي إِنَّهُمْ مُتَّبِعُونَ﴾ فأرسل فرعون في المداين خسرين ﴿إِنْ هَؤُلَاءِ لَشُرُذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ وإنهم لنا لعاطون ﴿وَأَنَّا لَجَمِيعٌ خَذِرُونَ﴾ فأخبر عنهم من حيث وعيهم ﴿وَكُنُوزُهُمْ كِرِيمُ﴾ كذلك وأورثناها بني إسرائيل ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾

وذلك كله باطل لا يقوم للحق، ولا يقاومه. (٤٦) ﴿فَالْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ فكان هذا أمراً عظيماً جداً، وبرهاناً قاطعاً للعذر، وحجة دامغة، وذلك أن الذين استنصر بهم وطلب منهم أن يغلبوا قد غلبوا وخضعوا وآمنوا بموسى في الساعة الراهنية وسجدوا لله رب العالمين.

(٤٧) ﴿قَالُوا﴾ السحرة ﴿ءَمَنَّا﴾ أقرنا وخضعنا ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الذي خلق جميع العوالم.

(٤٨) ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ الذي أرسل موسى وهارون بالحق والمعجزة الباهرة.

(٤٩) ﴿قَالَ﴾ فرعون للسحرة: ﴿ءَأْمَنْتُمْ لِي قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ يتعجب ويعجب قومه من جرائتهم عليه، وإقدامهم على الإيمان من غير إذنه ومؤامرتهم ﴿إِنَّهُمْ لَكَايِرُكُمْ﴾ الذي علمكم السحر

(٥٣) ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَلَأَيْنِ خَشِيرَتَيْنِ﴾ يجمعون الناس؛ ليوقع بني إسرائيل

(٥٤) ويقول مشجعاً لقومه: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ بني إسرائيل ﴿لَشَرَّ ذِمَّةٍ قَلِيلُونَ﴾ لطائفه قليلة .

(٥٥) ﴿وَأَنَّهُمْ لَنَا لَغَائِطُونَ﴾ فلا بد أن ننفذ غيظنا في هؤلاء العبيد، الذين أبغوا منا .

(٥٦) ﴿وَأَنَّا جَمِيعٌ حَذِرُونَ﴾ الحذر على الجميع منهم، وهم أعداء للجميع، والمصلحة مشتركة .

(٥٧) ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ﴾ بساتين مصر وجناتها الفائقة، ﴿وَعَيُْونٍ﴾ وعيونها المتدفقة، وزروع قد ملأت أراضيتهم، وعمرت بها حاضرتهم وبيواديهم .

(٥٨) ﴿وَنُكْنِزَ مَقَامِرَ كَرِيمٍ﴾ يعجب الناظرين، ويلهي المتأملين .

(٥٩) ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا﴾ هذه البساتين والعيون والزروع والمقام الكريم ﴿بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ الذين جعلوهم من قبل عبيدهم، وسخروا في أعمالهم الشاقة .

(٦٠) ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ اتبع قوم فرعون قوم موسى وقت شروق الشمس، وساقوا خلفهم

هذا، وهو الذي جمع السحرة، وملأه الذين أشاروا عليه بجمعهم من مدائنهم. وقد علموا أنهم ما اجتمعوا بموسى، ولا رأوه قبل ذلك، ومع ذلك، فراج عليهم هذا القول، الذي هم بأنفسهم وقفوا على بطلانه. ثم توعد السحرة؛ فقال: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ﴾ اليد اليمنى والرجل اليسرى ﴿وَلَأُصَلِّتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لتختزوا، وتذلوا .

(٥٠) ﴿قَالُوا﴾: أي: السحرة حين وجدوا حلاوة الإيمان، وذاقوا لذته: ﴿لَا ضَرَرٌ﴾ لا نبالي بما توعدتنا به ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ راجعون .

(٥١) ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتِنَا﴾ من الكفر والسحر وغيرهما ﴿أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بموسى، من هؤلاء الجنود؛ فثبتهم الله وصبرهم .

(٥٢) ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ إِنْكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴿اخرج ببني إسرائيل أول الليل، ليتماذوا، ويتمهلوا في ذهابهم﴾ إِنْكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴿سيتبعكم فرعون وجنوده؛ ليحولوا بينكم وبين الخروج من مصر .

(٥٢) أخرج أبو يعلى في «مسنده» وابن جبان في صحيحه» والحاكم بإسناد صحيح عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: أتى النبي صلى الله عليه وسلم أعرابياً، فأكرمه، فقال له: «اتنأ» (وفي رواية نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعرابي فأكرمه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تعهدنا، اتنأ؛ فاتاه الأعرابي، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سل حاجتك»، فقال: ناقة برحليها، وأعزها يحلبها أهلي. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أعجزتم أن تكونوا مثل عجز بني إسرائيل»، فقال أصحابه: يا رسول الله، وما عجز بني إسرائيل؟ قال: «إن موسى لما سار ببني إسرائيل من مصر، ضلوا الطريق، فقال: ما هذا؟ فقال علماءهم: نحن نحدثك: إن يوسف لما حضره الموت، أخذ علينا موثقاً من الله: أن لا نخرج من مصر حتى ننقل عظامه معنا. قال: فمن يعلم موضع قبره؟ قالوا: ما ندري أين قبر يوسف؛ إلا عجز من بني إسرائيل. فبعث إليها، فأنته، فقال: دُلّيني على قبر يوسف، فقالت: لا والله لا أفعل حتى تعطيني حكماً، فقال: وما حكمك؟ قالت: أكون معك في الجنة، فكره أن يعطيها ذلك، فأوحى الله إليه: أن أعطيها حكمها. فانطلقت بهم إلى بحيرة - موضع مستنقع ماء-، فقالت: انضبوا هذا الماء. فأنضبوا، قالت: احتفروا واستخرجوا عظام يوسف. فلما أفلوها إلى الأرض، إذا الطريق مثل ضوء النهار» .

محتين، على غيظ وحقن قادرين .

(٦١) ﴿ فَلَمَّا تَرَأَ الْجَمْعَانِ ﴾ رأى كل منهما صاحبه ﴿ قَالَ أَصْحَبُ مُوسَى ﴾ شاكين لموسى وحزنين : ﴿ إِنَّا لَمَذْكُورُونَ ﴾ سيدرنا قوم فرعون، ولا طاقة لنا بهم

(٦٢) ﴿ قَالَ ﴾ : موسى، مثبناً لهم، ومخبراً لهم بوعده ربه الصادق : ﴿ كَلَّا ﴾ ليس الأمر كما ذكرت، أنكم مدركون ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ لما فيه نجاتي ونجاتكم .

(٦٣) ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾ فضربه ﴿ فَانْفَلَقَ ﴾ اثني عشر طريقاً ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ فدخله موسى وقومه . (٦٤) ﴿ وَأَزَلَّنا ثُمَّ الْآخَرِينَ ﴾ وقربنا هنالك فرعون وقومه من البحر، وقدمناهم إليه .

(٦٥) ﴿ وَأَمْحَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ استكملوا خارجين، لم يتخلف منهم أحد .

(٦٦) ﴿ ثُمَّ أَغْرَفْنَا الْآخَرِينَ ﴾ لم يتخلف من قوم فرعون عن الغرق أحد .

(٦٧) ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ عظيمة دالة على صدق ما جاء به موسى، وبطلان ما عليه فرعون وقومه ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ بهذه الآيات المقتضية للإيمان ؛ لفساد قلوبهم .

(٦٨) ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهِوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ بعزته أهلك الكافرين المكذبين، وبرحمته نجى موسى ومن معه أجمعين .

(٦٩) ﴿ وَأَتْلُ ﴾ يا محمد ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ على الناس، ﴿ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ الخليل، وخبره الجليل، في هذه الحالة بخصوصها، وإلا، فله أنباء كثيرة، ولكن من أعجب أنبائه، وأفضلها، هذا النبأ المتضمن لرسالته، ودعوته قومه، ومحاجته إياهم، وإبطاله

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ
فَلَمَّا تَرَأَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَبُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُورُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزَلَّنا ثُمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَمْحَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَفْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهِوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَأَتْلُ ﴿٦٩﴾ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا عِبَادُ أَصْنَامٍ فَنظَّلْ لَهَا عَنكِيبِينَ ﴿٧٢﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَ كُرْ إِذْ تَدْعُوهُمْ ﴿٧٣﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَإِبْرَاهِيمُ كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَنَّهُمْ عَدُوٌّ لِلِآرِبِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْعَمَ أَنْ يَتَغَفَّلَ خَطِيئَتِي يَوْمَ الزَّيْنِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾

ما هم عليه .

(٧٠) ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ ﴾ آزر ﴿ وَقَوْمِهِ ﴾ من أهل العراق : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ؛ أي : ما هذه التماثيل التي لها عاكفون

(٧١) ﴿ قَالُوا ﴾ متبجحين بعبادتهم : ﴿ عِبَادُ أَصْنَامٍ ﴾ ننحتها ونعملها بأيدينا ﴿ فَنظَّلْ لَهَا عَنكِيبِينَ ﴾ مقيمين على عبادتها في كثير من أوقاتنا .

(٧٢) فقال لهم إبراهيم مبيناً عدم استحقاتها للعبادة : ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَ كُرْ إِذْ تَدْعُوهُمْ ﴾ ؛ فيستجيبون دعاءكم، ويفرجون كربكم .

(٧٣) ﴿ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ ﴾ بالرزق ﴿ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ إذا تركتم عبادتها ؛ فأقروا أن ذلك كله، غير موجود فيها، فلا تسمع دعاء، ولا تنفع، ولا تضر .

(٧٤) ﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ يعني : اعترفوا بأن أصنامهم لا تفعل شيئاً من ذلك،

النجاة.

(٧٩) ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعَمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ هو رازقي بما سخر من الأسباب.

(٨٠) ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ أضاف المرض إلى نفسه، وإن كان المرض والشفاء كله من الله استعمالاً لحسن الأدب ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾؛ أي: يبرئني من المرض، فإنه لا يقدر على شفائي أحد غيره.

(٨١) ﴿وَالَّذِي يُسَيِّئُ ثُمَّ يُجَيِّبُنِي﴾ هو الذي يحيي ويميت لا يقدر على ذلك أحد سواه.

(٨٢) ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ لا يقدر على غفران الذنوب في الدنيا والآخرة إلا هو.

(٨٣) ثم دعا **عَلَيْهِ السَّلَام** ربه؛ فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً﴾ علماً كثيراً، أعرف به الأحكام، والحلال والحرام، وأحكم به بين الأنام ﴿وَالْحَقِّ بِالْصَّالِحِينَ﴾ من إخوانه الأنبياء والمرسلين.

(٨٤) ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ اجعل لي ثناء صدق مستمر إلى آخر الدهر.

(٨٥) ﴿وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ من أهل الجنة التي يورثهم الله إياها.

(٨٦) ﴿وَاعْفِرْ لِإِنِّي إِنَّكَ كَانَ مِنَ الصَّالِينَ﴾ وهذا الدعاء بسبب الوعد الذي قال لأبيه قبل أن يتبين له أنه عدو لله.

(٨٧) ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ بالتوبيخ على بعض

وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاعْفِرْ لِإِنِّي إِنَّكَ كَانَ مِنَ الصَّالِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَرْسَلْنَا الْجَنَّةَ الْمُسْتَغْنِينَ ﴿٩٠﴾ وَزَيَّنَّا لِلْجَحِيمِ اللَّعَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ إِنِّ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هُلْ يَصْرُوهُكُمْ أَوْ يَنْصَبُوهُمْ ﴿٩٣﴾ فَكَبَّوْا وُجُوهَهُمْ وَالْعَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَخَسِرُوا إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نَسُوَكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَصْلَانَا إِلَّا الْآمُجْرُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا نَأْمِنُ شُفْعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صِدْقِيحِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْلَئِنَّا كَرِهَ فِتْكُورٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنْ رَيْتَ ذَلِكَ فَاعْرِضْ الرَّحِيمَ ﴿١٠٤﴾ كَذَبَتْ قَوْمٌ نَبُوءَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالُوا لَهُمْ آتُوهُمْ نُوحِ الْأَتَقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاقْنُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَنْتُمْ لَهُمْ عَلَيْهِمْ جِئْرَانِ أَتَجْرَى إِلَى أَعْلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاقْنُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾

وإنما رأوا آباءهم كذلك يفعلون، فاتبعوهم.

(٧٥) ﴿قَالَ﴾ لهم إبراهيم: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ من هذه التماثيل التي لا تنفع ولا تبصر ولا تسمع.

(٧٦) ﴿أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْلَامُونَ﴾ الأولون.

(٧٧) ﴿فَاتَّبَعْتُمْ عَذُوِّي﴾؛ أي: أعداء لي، ووحده على معنى: أن كل معبود لكم عدو لي. ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ فإنه وليي وإلهي، ثم وصف معبوده، فقال:

(٧٨) ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ يرشدني إلى طريق

(٨٧) أخرج البخاري في «صحيحه» من حديث أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** عن رسول الله **ﷺ**: «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قتره وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول: اليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب، إنك وعدتني ألا تخزني يوم يبعثون، فأني خزي من أبي الأبعد؟ فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين، ثم يقال: يا إبراهيم! ما تحت رجلك؟ فينظر فإذا هو بذيخ-وهو الذكر من الضباع- متلطح، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار».

الذنوب، والعقوبة عليها، والفضيحة.

(٨٨) بل أسعدني في ذلك اليوم ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ﴾ من كفر بك وعصاك في الدنيا ﴿مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾.

(٨٩) ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾؛ أي: يوم لا ينفع إلا القلب السليم، معناه: الذي سلم من الشرك والشك، ومحبة الشر، والإصرار على البدعة والذنوب.

(٩٠) ﴿وَأَزَلَّتْ رَجُلَتُكَ﴾ قربت ﴿لِلْمُعْتَفِيكَ﴾ ربهم، الذين امثلوا أوامره، واجتنبوا زواجره، واتقوا سخطه وعقابه.

(٩١) ﴿وَبَرَزْتَ الْجَحِيمَ﴾ أظهرت جهنم، واستعدت بجميع ما فيها من العذاب ﴿لِلْغَاوِينَ﴾ الذين أوضاعوا في معاصي الله، وتجروا على محارمه، وكذبوا رسله، وردوا ما جاءوهم به من الحق.

(٩٢)، (٩٣) ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾؛ أي: لأهل النار يوم القيامة: ﴿إِنَّ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أين الهتكم الذين تزعمون أنهم شفعاؤكم؟ ﴿هَلْ يَنْصَرُونَكُمْ﴾ بمنعونكم من العذاب ﴿أَوْ يَتَّصِرُونَ﴾ بأنفسهم، فلم يكن من ذلك من شيء، وظهر كذبهم وخزيهم، ولاحت خسارتهم وفضيحتهم، وبان ندمهم، وذل سعيهم.

(٩٤) ﴿فَكَبِكُوا فِيهَا﴾ القوا في النار ﴿هُمْ﴾ أي: ما كانوا يعبدون ﴿وَالْغَاوُونَ﴾ العابدون لها. (٩٥) ﴿وَجُودٌ إِلَّا يَسْ أَجْعُونَ﴾ من الإنس والجن.

(٩٦) ﴿قَالُوا﴾ أي: جنود إبليس الغاوون لأصنامهم وأوثانهم التي عبدوها ﴿وَهُمْ فِيهَا﴾ في النار ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ مع المعبودين ويجادل

بعضهم بعضاً.

(٩٧) ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ اعترفوا بذنبهم، وأقروا بسخافتهم، وبأن لهم ضلالهم (٩٨) ﴿إِذْ تُسَوِّكَمُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ في العبادة والمحبة، والخوف والرجاء، وندعوكم كما ندعوه.

(٩٩) ﴿وَمَا أَضَلَّنَا﴾ عن طريق الهدى والرشد، ودعانا إلى طريق الغي والفسق ﴿إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ وهم الأئمة الذين يدعون إلى النار. (١٠٠) ﴿فَمَا لَنَا﴾ حينئذ ﴿مِنْ شُفْعِينَ﴾ يشفعون لنا؛ لينقذونا من عذابه.

(١٠١) ﴿وَلَا صَدِيقَ حَمِيمٍ﴾ قريب مصاف، ينفعنا بأدنى نفع.

(١٠٢) ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ رجعة إلى الدنيا، وإعادة إليها ﴿فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لنسلم من العقاب، ونستحق الثواب.

(١٠٣) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الذي ذكرنا لكم ووصفنا ﴿لَايَةً﴾ لكم ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ مع نزول الآيات.

(١٠٤) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿الزَّحِيمُ﴾ بعباده إن أنابوا إليه، وأخلصوا العبادة له، لكرمهم في جواره في جنات النعيم.

(١٠٥) ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نَبُوءَ الْأُمْرُسَلِينَ﴾ جميعهم؛ لأن تكذيب نوح كتكذيب جميع المرسلين؛ لأنهم كلهم اتفقوا على دعوة واحدة، وأخبار واحدة، فتكذيب أحدهم كتكذيب جميع ما جاءوا به من الحق.

(١٠٦) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ في النسب لا في الدين ﴿نُوحُ أَلَا نُنْفِقُونَ﴾ الله تعالى، فتركوا

المستقيم.

(١١٠) ﴿فَاقْنُزُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ أعاد ذلك عليه السلام؛ لتأكيد دعوة قومه، وطول مكثه في ذلك.

(١١١) ﴿قَالُوا﴾؛ أي: قومه له ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾ كيف نتبعك ﴿وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ ونحن لا نرى أتباعك إلا أسافل الناس، وأراذلهم.

(١١٢) ﴿قَالَ﴾ نوح: ﴿وَمَا عَلِمَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ما أعلم أعمالهم وصنائعهم، وليس عليّ من أحوالهم شيء، إنما كلفت أن أدعوهم إلى الله ولي منهم ظاهر أمرهم.

(١١٣) ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ﴾ إن حساب باطن أمرهم الذي خفي عني ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ فإنه يعلم سر أمرهم وعلايته.

(١١٤) كأنهم طلبوا منه أن يطردهم عنه، تكبراً، وتجبراً؛ ليؤمنوا؛ فقال: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنهم لا يستحقون الطرد والإهانة، وإنما يستحقون الإكرام القولي والفعلي.

(١١٥) ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ما أنا إلا منذر ومبلغ عن الله ومجتهد في نصح العباد، وليس لي من الأمر شيء، إن الأمر إلا لله.

(١١٦) ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنُوحُ﴾ من دعوتك إيانا إلى الله وحده ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ لأي: من المشتومين، أو المضروبين بالحجارة.

(١١٧) ﴿قَالَ﴾ نوح: ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونُ﴾ فلم يؤمنوا بي

(١١٨) ﴿فَأَفْتَحَ بَيْتِي وَنَسَهُمْ فَتَحًا﴾ أهلك الباغي منا. وهو يعلم أنهم البغاة الظلمة، ولهذا قال: ﴿وَنَجَّيْتُ وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

قَالَ وَمَا عَلِمَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٠﴾ إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١١﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونُ ﴿١١٥﴾ فَأَفْتَحَ بَيْتِي وَنَسَهُمْ فَتَحًا وَنَجَّيْتُ وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٦﴾ فَأَعْيَنَتْهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَاكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٧﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١١٨﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كُنَّا أَكْثَرَهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٠﴾ كَذَّبَتْ عَادُ الْفَرَسَلِينَ ﴿١٢١﴾ إِذْ قَالَتْ لَهُمْ أَمْهُم هُوَذَا لَا تَقْنُونُ ﴿١٢٢﴾ إِلَىٰ لَكُمُ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٣﴾ فَاقْنُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٢٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٥﴾ أَتَنْبُوْنَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَابَةٍ تَقْنُونُ ﴿١٢٦﴾ وَتَسْخَدُونَ مَصَابِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٧﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ رِطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٢٨﴾ فَاقْنُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٢٩﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣٠﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْفُسِهِمْ وَبَيْنَ وَجْهَتَيْ وَعُيُونٍ ﴿١٣١﴾ وَإِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٢﴾ قَالُوا أَسَؤَةُ عَلَيْنَا أَوْ عَظُمَتْ أَمَلَتْ تَكُنْ مِنَ الْوَاغِطَةِ ﴿١٣٣﴾

ما أنتم مقيمون عليه من عبادة الأوثان، وتخلصون العبادة لله وحده.

(١٠٧) ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾؛ أي: فيجب عليكم تلقي ما أرسلت به والإيمان به، وشكر الله تعالى على أن خصكم بهذا الرسول الكريم. ﴿أَمِينٌ﴾ فيما بعثني الله به وهو الوحي، وهذا أيضاً يوجب عليهم التصديق بخبره، والطاعة لأمره.

(١٠٨) ﴿فَاقْنُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ فيما أمركم به، وأنهاكم عنه.

(١٠٩) ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ فتتكلفون من المغرم الثقيل ﴿إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أرجو بذلك القرب منه، والشواب الجزيل، وأما أنتم؛ فميتي ومنتهى إرادتي منكم: النصح لكم، وسلوككم الصراط

فضله وكرمه، خصوصاً ما ربي به أوليائه وأنبياه.

(١٢٨) ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ المكان المرتفع، وقيل: الفج بين الجبلين ﴿ءَايَةً﴾ بنياناً علماً ﴿تَعْبُونَ﴾ تلعبون.

(١٢٩) ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ قيل: قصوراً مشيدة، وبنياناً مخلداً، وقيل: أبرجة حمام؛ وقيل: بركاً ومجاري للمياه ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ والحال أنه لا سبيل إلى الخلود لأحد.

(١٣٠) ﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ﴾ بالخلق ﴿بَطِشْتُمْ﴾ جَبَّارِينَ قَتلاً وضرباً وأخذ أموال، وكان الله تعالى قد أعطاهم قوة عظيمة.

(١٣١) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ واتركوا شرككم وبطركم ﴿وَأَطِيعُوا﴾ حيث علمتم أني رسول الله إليكم أمين ناصح.

(١٣٢) ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدُّكُمْ﴾ أعطاكم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أمدكم بما لا يجهل ولا ينكر من الإناعام.

(١٣٣) ﴿أَمَدُّكُمْ يَأْتِعْمِرُ﴾ من إبل وبقر وغنم ﴿وَيَنْبِتُ﴾ وكثرة نسل: كثر أموالكم، وكثر أولادكم، خصوصاً الذكور، أفضل القسمين.

(١٣٤) ﴿وَحَنَنْتِ وَعْيُونُ﴾ بساتين وأنهار.

(١٣٥) ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ إني - من شفقتي عليكم وبري بكم - أخاف أن ينزل بكم عذاب يوم عظيم، إذا نزل لا يرد، إن استمررتم على كفركم وبغيكم.

(١٣٦) ﴿قَالُوا﴾ معاندين للحق مكذبين لنبهم، بل وبكل استهتار وسوء أدب: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعُظَّتْ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ الجميع على حد سواء؛ أي: يستوي عندنا وعظك وهذا

(١١٩) ﴿فَلَنَجْزِيَنَّهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ الْمَشْحُونِ﴾ يعني في السفينة المملوءة من الخلق والحيوانات والأمتعة.

(١٢٠) ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾ بعد نوح ومن معه من المؤمنين ﴿الْبَاقِينَ﴾ جميع قومه.

(١٢١) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: نجاة نوح وأتباعه، وإهلاك من كذبه ﴿لَايَةً﴾ دالة على صدق رسلنا، وصحة ما جاءوا به، وبطلان ما عليه أعداؤهم المكذبون بهم ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بالله ورسله.

(١٢٢) ﴿وَلَإِنْ رَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي قهر بعزه أعداءه؛ فأغرقهم بالطوفان ﴿الرَّجِيمُ﴾ بأوليائه حيث نجى نوحاً ومن معه من أهل الإيمان.

(١٢٣) ﴿كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ﴾ كذبت القبيلة المسماة عاداً رسولهم هوداً؛ وتكذبتهم له تكذيب لغيره؛ لاتفاق الدعوة.

(١٢٤) ﴿إِذَا قَالَ لَهُمْ نُوحُومُ﴾ في النسب ﴿هُودُ﴾ بلطف وحسن خطاب: ﴿أَلَا نُنْفِوُكُمْ﴾ الله، فتركوا الشرك وعبادة غيره.

(١٢٥) ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ أرسلني الله إليكم رحمة بكم، واعتناء بكم، وأنا ﴿أَمِينٌ﴾ تعرفون ذلك مني.

(١٢٦) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ أدوا حق الله تعالى، وهو: التقوى، وأدوا حقي، بطاعتي فيما أمركم به، وأنهاكم عنه.

(١٢٧) ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ فلست أسألكم على تبليغي إياكم ونصحي لكم أجراً حتى تستثقلوا ذلك المغرم ﴿إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الذي رباهم بنعمه، وأدر عليهم

ما جاء به، وبطلان ما عليه قومه من الشرك والجبروت ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ مع وجود الآيات المقتضية للإيمان.

(١٤٠) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي أهلك بقدرته قوم هود على قوتهم ويطشهم ﴿الرَّحِيمُ﴾ بنبيه هود حيث نجاه ومن معه من المؤمنين.

(١٤١) ﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ﴾ القبيلة المعروفة في مدائن الحجر ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ كذبوا صالحاً عليه السلام الذي جاء بالتوحيد، الذي دعت إليه المرسلون، فكان تكذيبهم له تكذيباً للجميع.

(١٤٢) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ﴾ في النسب ﴿أَخُوهُمْ صَلَاحٌ﴾ في النسب، برفق ولين: ﴿أَلَا نُنْفِئُ﴾ اللّٰه تعالى وتدعون الشرك والمعاصي.

(١٤٣) ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من اللّٰه ربكم، أرسلني إليكم، لطفًا بكم ورحمة، فتلقوا رحمته بالقبول، وقابلوها بالإذعان، ﴿أَمِينٌ﴾ تعرفون ذلك مني وذلك يوجب عليكم أن تؤمنوا بي وبما جئت به.

(١٤٤) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ باتباع أوامره، واجتناب معاصيه ﴿وَأَطِيعُوا﴾ حيث تعلمون أني رسول الله إليكم أمين عليكم.

(١٤٥) ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ فتقولون: يمنعنا من اتباعك، أنك تريد أخذ أموالنا ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لا أطلب الثواب إلا منه.

(١٤٦) ﴿أَنْتُمْ كُونُوا فِي مَا هُمْنَاءَ آمِينَ﴾ أي: أتحسبون أنكم تتركون في هذه الدنيا آمينين لا تخافون شيئاً.

(١٤٧) ﴿فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ﴾ بساتين وأنهار.

(١٤٨) ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا﴾ ثمرها ﴿هَضِيمٌ﴾

سورة الشعراء
 ١٣٧ ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ ١٣٨ ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ ١٣٩ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ ١٤٠ ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ ١٤١ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ١٤٢ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ١٤٣ ﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ١٤٤ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَلَاحٌ﴾ ١٤٥ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ١٤٦ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ ١٤٧ ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ١٤٨ ﴿أَنْتُمْ كُونُوا فِي مَا هُمْنَاءَ آمِينَ﴾ ١٤٩ ﴿فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ﴾ ١٥٠ ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ ١٥١ ﴿وَنَجْعَاتٍ مِنْ أَلْجَالِ يُمْسَا فَرَّهَيْنَ﴾ ١٥٢ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ ١٥٣ ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ السَّخَرِينَ﴾ ١٥٤ ﴿الَّذِينَ يَفْسُدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ ١٥٥ ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ ١٥٦ ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بَآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ١٥٧ ﴿قَالَ هَذِهِ نَافَةٌ لِّمَا شِئْتُمْ وَلَكِنْ نَزِثْتُ يَوْمَ الْمُغَلُوبِ﴾ ١٥٨ ﴿وَلَا تَسْهَوْهَا﴾ ١٥٩ ﴿يَسْهَوْهَا فَأَخَذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ١٦٠ ﴿فَعَقَرُوهَا فَانصَبُوا﴾ ١٦١ ﴿نَدِيمِينَ﴾ ١٦٢ ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ ١٦٣ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ١٦٤ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ١٦٥

غاية العتو؛ ولهذا قالوا :

(١٣٧) ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: هذه الأحوال والنعم، ونحو ذلك، عادة الأولين: تارة يستغنون، وتارة يفتقرون، وهذه أحوال الدهر؛ لا أن هذه محن ومنح من اللّٰه تعالى، وابتلاء لعباده.

(١٣٨) ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ وهذا إنكار منهم للبعث أو تنزل مع نبينهم وتهكم به: إنا على فرض أننا نبعث، فإننا كما أدت علينا النعم في الدنيا، كذلك لا تزال مستمرة علينا إذا بعثنا.

(١٣٩) ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ صار التكذيب سجية لهم وخلقاً، لا يردعهم عنه رادع ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ فأرسل عليهم ريحاً شديدة الهبوب ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ على صدق نبينا: هود عليه السلام، وصحة



نضيد كثير، وهو متكسر من لينه ورطوبته.

(١٤٩) ﴿وَتَجْتَوْنَ مِنَ الْجِبَالِ يَتُوءًا قَرِيهِينَ﴾ بلغت بكم الفراهة والحدق إلى أن اتخذتم بيوتا من الجبال الصم الصلاب والمعنى : أتحبسون أن تتركوا سدى، تتمتعون في هذه الخيرات بغير أم ولا نهى بغير أمر ولا نهى، بل تستعينون بهذا النعم على معاصي الله

(١٥٠) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ أقبلوا على ما يعود نفعه عليكم في الدنيا والآخرة من عبادة ربكم.

(١٥١) ﴿وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ الذين تجاوزوا الحد.

(١٥٢) ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ الذين وصفهم وداؤهم : الإفساد في الأرض، بعمل المعاصي والدعوة إليها، إفساداً لا إصلاح فيه.

(١٥٣) فلم يفد فيهم هذا النهي والوعظ شيئاً : بل ﴿قَالُوا﴾ لصالح ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ قد سحرت فأنت تهذى بما لا معنى له.

(١٥٤) ﴿مَّا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ فأى : فضيلة فقتنا بها حتى تدعونا إلى اتباعك؟ ﴿فَأَتَتْ بِحَافَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فتعنتوا واقترحوا عليه آية يأتينهم بها.

(١٥٥) ﴿قَالَ﴾ صالح لهم : ﴿هَذِهِ نَاقَةٌ﴾ تخرج من صخرة صماء ملساء ترونها وتشاهدونها بأجمعكم ﴿هَآءَا شِرْبٌ﴾ تشرب ماء البئر يوماً ﴿وَلَكُمْ شِرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ وأنتم تشربون لبنها، ثم تصدر عنكم اليوم الآخر، وتشربون أنتم ماء البئر.

(١٥٦) ﴿وَلَا تَمْسُوهَا يَسُوءٌ﴾ بعقر أو غيره ﴿فِيَاخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ﴾ فخرجت واستمرت

عندهم بتلك الحال، فلم يؤمنوا، واستمروا على طغيانهم.

(١٥٧) ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ قتلوا الناقة ﴿فَأَصْبَحُوا نَدِيمِينَ﴾ على عقرها خوفاً من حلول العذاب، لا توبة، أو عند معاناة العذاب، ولذلك لم ينفعهم الندم.

(١٥٨) ﴿فَاخُذْهُمْ الْعَذَابُ﴾ وهي صيحة نزلت عليهم، فدمرتهم أجمعين ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ على صدق ما جاءت به رسلنا، وبطلان قول معارضيههم ﴿وَمَا كَانُوا أَكْثَرُ هُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ مع وضوح الأدلة.

(١٥٩) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ أيها الرسول ﴿لَهُوَ﴾ وحده ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا يغالب ﴿الرَّحِيمُ﴾ بأوليائه وصالحى عباده.

(١٦٠) ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ كذبوا لوطاً الرسول، وتكذيبه يعد تكذيباً لكافة الرسل؛ لأن

(١٧١) ﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ وهي امرأته ﴿فِي الْغَدِيرِ﴾
الباقيين في العذاب.

(١٧٢) ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ﴾ أهلكتناهم.

(١٧٣) ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ أي: حجارة من
سجيل ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾ أهلكتهم الله عن
آخرهم.

(١٧٤) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ في هذا الذي ذكرنا من
إهلاك قوم لوط وزوجته ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾
على وضوح الأدلة وقيام البراهين على صدق
رسول الله لوط عليه السلام.

(١٧٥) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ أيها الرسول ﴿هُوَ﴾ وحده
﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب القاهر لكل الظالمين ﴿الَرْحِيمُ﴾
بأوليائه وعباده المؤمنين.

(١٧٦) ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ﴾ أي: البساتين
الملتفة الأشجار، وهم أصحاب مدين
﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ فكذبوا نبيهم شعبياً، الذي جاء بما
جاء به المرسلون.

(١٧٧) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نُنْقِذُ﴾ الله تعالى؛
فتتركون ما يسخطه ويغضبه من الكفر
والمعاصي.

(١٧٨) ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من الله إليكم ﴿أَمِينٌ﴾
أبلغكم ما أوحى إلي دون زيادة ولا نقصان.

(١٧٩) ﴿فَاتَّقُوا﴾ عقاب ﴿اللَّهِ وَأَطِيعُوا﴾ ترشدوا
على خلافتكم أمره.

(١٨٠) ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَىٰ﴾
رَبِّ الْعَالَمِينَ كانت دعوة الأنبياء جميعاً الامتناع
من أخذ أجر على الدعوة وتبليغ الرسالة وكانوا
مع شركائهم يبخسوا المكاييل والموازين، فلذلك
قال لهم:

(١٨١) ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ أتموه وأكملوه ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾

دينهم واحد.

(١٦١) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ﴾ هذه أخوة وطن
وديار؛ لأن لوط بابلي الموطن ودينه الإسلام،
وهو ابن أخ إبراهيم عليه السلام: ﴿أَلَا نُنْقِذُ﴾ أمرهم
بتقوى الله، وحضهم عليها؛ لأنهم قائمون على
عظائم الذنوب.

(١٦٢) ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من الله عز وجل ﴿أَمِينٌ﴾
فلا تشكوا في رسالتي.

(١٦٣) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ الزموا تقواه ودعوا القبائح التي
تفعلونها ﴿وَأَطِيعُوا﴾ لتنجوا من عذاب عظيم، وخزي
مقيم.

(١٦٤) ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَىٰ﴾
رَبِّ الْعَالَمِينَ أريد لكم خير الدنيا والآخرة، ولا
أريد منكم مالا ولا جاهاً؛ لأن أجري على ربي
الذي اختارني لرسالته، وخصني بنبوته.

(١٦٥) ﴿أَتَأْتُونَ الذِّكْرَانَ﴾ وهو جماع الرجال في
أدبارهم المستقذر القبيح ﴿مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ من بني
آدم.

(١٦٦) ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ﴾
تركتهم إتيان النساء في أقبالهن، وهن اللاتي
خلقهن الله لكم ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ معتدون
مجاوزون الحلال إلى الحرام.

(١٦٧) ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ﴾
الْمُخْرَجِينَ من البلد.

(١٦٨) فلما رأى استمرارهم عليه ﴿قَالَ إِنِّي﴾
لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْفَالِينَ المبغضين الناهين عنه،
المحذرين منه.

(١٦٩) ﴿رَبِّ يَحْيَىٰ وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ من فعله
وعقوبته؛ فاستجاب الله له.

(١٧٠) ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ نجينا لوطاً وابنتيه

وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْحِيلَةَ الْأُولَى (١٨٢) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٣) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٤) فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كَيْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٥) قَالَ رَبِّ اعْلَمْ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٦) فَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٧) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٨٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٨٩) وَلَئِنْ لَنُزِّلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٠) نَزْلًا بِرُوحِ الْأَمِينِ (١٩١) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٢) بِلسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٣) وَلَئِنْ لَمْ يَنُورِ الْأُولَى (١٩٤) أَوَّلَ نَكْثٍ لَمْ يَأْنِ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَءِيلَ (١٩٥) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجِينَ (١٩٦) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِمُؤْمِنِينَ (١٩٧) كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُتَجَرِّبِينَ (١٩٨) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (١٩٩) فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٠) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (٢٠١) أَفَعِدَّائِنَا لِيَنْتَعِجُوا (٢٠٢) أَفَرَيْتَ (٢٠٣) إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٤) فَرَجَّأَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٥)

٢٧٥

بالعذاب، فظلوا تحتها خامدين، ولديارهم مفارقين، وبارد الشقاء والعذاب نازلين ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لا كرة لهم إلى الدنيا، فيستأنفوا العمل، ولا يفتري عنهم العذاب ساعة، ولا هم ينظرون.

(١٩٠) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ دالة على صدق شعيب، وصحة ما دعا إليه، وبطلان رد قومه عليه ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ مع رؤيتهم الآيات؛ لأنهم لا زكاء فيهم، ولا خير لديهم.

(١٩١) ﴿وَلَئِنْ رَبِّكَ﴾ أيها الرسول ﴿لَهُوَ﴾ وحده ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي امتنع بقدرته عن إدراك أحد، وقهر كل مخلوق ﴿الرَّحِيمُ﴾ الذي الرحمة وصفه، ومن آثارها: جميع الخيرات في الدنيا والآخرة.

(١٩٢) ﴿وَلَئِنْ لَنُزِّلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فالذي أنزله

مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿الذين ينقصون الناس أموالهم ويسلبونها؛ بخس المكيال والميزان.

(١٨٢) ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ بالميزان العادل، الذي لا يميل.

(١٨٣) ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ لا تنقصوهم في حقوقهم شيئاً ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ولا تفسدون في البلاد بالسلب والقتل ومنع حقوق العباد.

(١٨٤) ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْحِيلَةَ الْأُولَى﴾ الخليفة الأولين.

(١٨٥) قالوا له مكذبين له، رادين لقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ فأنت تهذى وتتكلم كلام المسحور، الذي غايته: أن لا يؤاخذ به.

(١٨٦) ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ فليس فيك فضيلة، اختصاصت بها علينا، حتى تدعونا إلى اتباعك ﴿وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ وهذا جراءة منهم وظلم وقول زور.

(١٨٧) ﴿فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كَيْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ قطع عذاب تستأصلنا ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دعوى أنك رسول من الله إلينا.

(١٨٨) ﴿قَالَ﴾ شعيب عليه السلام: ﴿رَبِّ اعْلَمْ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ نزول العذاب، ووقوع آيات الاقتراح، لست أنا الذي آتي بها وأنزلها بكم، إنما الذي يأتي بها ربي، العالم بأعماركم وأحوالكم الذي يجازيك ويحاسبكم.

(١٨٩) ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ صار التكذيب لهم وصفاً، والكفر لهم ديدناً، بحيث لا تفيدهم الآيات، وليس بهم حيلة إلا نزول العذاب ﴿فَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ أظلمتهم سحابة؛ فاجتمعوا تحتها مستلذين، لظلمها غير الظليل، فأحرقهم

المرسلين .

(١٩٧) ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ﴾ على صحته وأنه من الله ﴿أَن يَأْتِيَهُمْ عَلِيمٌ﴾ الذين قد انتهى إليهم العلم، وصاروا أعلم الناس .

(١٩٨) ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ الذين لا يفقهون لسانهم، ولا يقدرّون على التعبير؛ كما ينبغي .

(١٩٩) ﴿فَقَرَأُوا عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ يقولون: ما نفقه ما يقول، ولا ندري ما يدعو إليه .

(٢٠٠) ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أدخلنا التكذيب، ونظمناه في قلوب أهل الإجمام، كما يدخل السلك في الإبرة، فشرّبه، وصار وصفاً لها .

(٢٠١) ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ وذلك بسبب ظلمهم وجرمهم ﴿حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ على تكذيبهم .

(٢٠٢) ﴿يَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يأتيهم على حين غفلة وعدم إحساس منهم، ولا استشعار بنزوله؛ ليكون أبلغ في عقوبتهم والنكال بهم .

(٢٠٣) ﴿فَيَقُولُوا﴾ إذ ذاك: ﴿هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ يطلبون أن ينظروا ويمهلوا . والحال إنه قد فات الوقت، وحل بهم العذاب، الذي لا يرفع عنهم، ولا يفتر ساعة .

(٢٠٤) يقول تعالى: ﴿أَفَعَبَابًا﴾ وهو العذاب الأليم العظيم، الذي لا يستهان به، ولا يحقر ﴿يَسْتَعْجِلُونَ﴾ فما الذي غرهم؟ هل فيهم قوة وطاقة، للصبر عليه؟ أم عندهم قوة يقدرّون بها على دفعه أو رفعه إذا نزل؟ أم يعجزوننا،



فاطر الأرض والسموات، المربي جميع العالم، العلوي والسفلي .

(١٩٣) ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ﴾ وهو: جبريل عليه السلام، الذي هو أفضل الملائكة وأقواهم ﴿الْأَمِينُ﴾ الذي قد أمن أن يزيد فيه أو ينقص .

(١٩٤) ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ يا محمد ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ تهدي به إلى طريق الرشاد، وتندر به عن طريق الغي .

(١٩٥) ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ﴾ وهو أفضل الألسنة، بلغة من بعث إليهم، وباشر دعوتهم أصلاً ﴿مُتَّبِعِينَ﴾ اللسان البين الواضح .

(١٩٦) ﴿وَلَئِنِّي زُرِّي الْأَوَّلِينَ﴾ قد بشرت به كتب الأولين وصدقته، وهو لما نزل طبق ما أخبرت به وصدقها، بل جاء بالحق، وصدق

عنه، وأعدت لهم الرجوم لحفظه، ونزل به جبريل، الذي لا يقدر شيطان أن يقربه، أو يحوم حول ساحته.

(٢١٣) ﴿فَلَا تَنْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ ينهى تعالى رسوله أصلاً وأُمته أسوة له في ذلك عن دعاء غير الله من جميع المخلوقين ﴿فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ وأن ذلك موجب للعذاب الدائم؛ لكونه شركاً.

(٢١٤) ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ الذين هم أقرب الناس إليك، وأحقهم بإحسانك الديني والديني.

(٢١٥) ﴿وَأَخْفِضْ جَانْحَكَ لِمَنْ أَبْعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بلين جانبك، ولطف خطابك لهم، وتوددك، وتحبيبك إليهم، وحسن خلقك والإحسان التام بهم.

(٢١٦) ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ فَإِنْ خَالَفُوا أَمْرَكَ ﴿فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: تبرأ من عملهم، وعظهم عليه، وانصحهم، وابذل قدرتك في ردهم عنه، وتوبتهم منه.

(٢١٧) ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ والتوكل هو: اعتماد القلب على الله تعالى، في جلب المنافع، ودفع المضار، مع ثقته به، وحسن ظنه بحصول مطلوبه فإنه عزيز رحيم، بعزته يقدر على إيصال الخير، ودفع الشر عن عبده وبرحمته به، يفعل ذلك.

ويظنون أننا لا نقدر على ذلك؟

(٢٠٥) ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ أفرأيت إذا لم نستعجل عليهم بإنزال العذاب، وأمهلناهم عدة سنين يتمتعون في الدنيا.

(٢٠٦) ﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب.

(٢٠٧) ﴿وَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَنُونَ﴾ أي شيء يغني عنهم، ويفيدهم؟!

(٢٠٨) ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ يخبر تعالى عن كمال عدله في إهلاك المكذبين، وأنه ما أوقع بقرية هلاكاً وعذاباً، إلا بعد أن يعذر بهم، ويبعث فيهم النذر بالآيات البينات، فيدعونهم إلى الهدى، وينهونهم عن الردى، ويذكرونهم بآيات الله، وينبهونهم على أيامه في نعمه ونقمه.

(٢٠٩) ﴿ذُكِّرُوا﴾ لهم وإقامة حجة عليهم ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ فنهلك القرى قبل أن ننذرهم، ونأخذهم وهم غافلون عن النذر.

(٢١٠) ولما بين تعالى كمال القرآن وجلالته، نزهه عن كل صفة نقص، وحماه - وقت نزوله، وبعد نزوله - من شياطين الجن والإنس، فقال: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾.

(٢١١) ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ﴾ لا يليق بحالهم ولا يناسبهم ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ذلك.

(٢١٢) ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾ قد أبعدوا

(٢١٤) في «الصحاحين» من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: لما أنزل الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، أتى النبي صلى الله عليه وسلم الصفا فصعد عليه، ثم نادى: «يا صباحاه» فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه، ورجل يبعث رسوله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني لؤي، أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل، تريد أن تغير عليكم، صدقتموني؟» قالوا: نعم. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، أما جمعتنا إلا لهذا! وأنزل الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾.

(٢٢٤) ﴿وَالشُّعْرَاءُ﴾؛ أي: هل أنبئكم أيضاً عن حالة الشعراء، ووصفهم الثابت؛ فإنهم ﴿يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُنُ﴾ عن طريق الهدى، المقبلون على طريق الغي والردى.

(٢٢٥) ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ غوايتهم وشدة ضلالهم ﴿أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ﴾ من أودية الشعر ﴿يَهيمُونَ﴾ فتارة في مدح، وتارة في قدح، فلا يستقر لهم قرار.

(٢٢٦) ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ تخالف أقوالهم أفعالهم.

(٢٢٧) ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا﴾ ولما وصف الشعراء بما وصفهم به، استثنى منهم من آمن بالله ورسوله، وعمل صالحاً، وأكثر من ذكر الله ﴿وَأَنصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ وانتصر من أعدائه المشركين من بعد ما ظلموهم ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ إلى موقف وحساب، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ولا حقاً إلا استوفاه.

(٢١٨) ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ مِنْ نَفْثٍ﴾ يراك في هذه العبادة العظيمة، التي هي الصلاة، وقت قيامك.

(٢١٩) ﴿وَنَقْلِكَ فِي السَّجْدِينَ﴾ وتقلبك راکعاً وساجداً.

(٢٢٠) ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لسائر الأصوات على اختلافها وتشتتها وتنوعها ﴿الْعَلِيمُ﴾ الذي أحاط بالظواهر والبواطن، والغيب والشهادة.

(٢٢١) ﴿هَلْ أَتَيْنَاكَ﴾ أخبركم الخبر الحقيقي الذي لا شك فيه ولا شبهة ﴿عَلَىٰ مَنْ نَزَّلُ الشَّيْطَانُ﴾؛ أي: بصفة الأشخاص الذين تنزل عليهم الشياطين.

(٢٢٢) ﴿نَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كذاب، كثير القول للزور، والإفك بالباطل ﴿أَثِيرٍ﴾ في فعله، كثير المعاصي.

(٢٢٣) ﴿يَلْقَوْنَ﴾ عليه ﴿السَّمْعُ﴾ الذي يسترقونه من السماء ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَذِبُونَ﴾ أكثر ما يلقون إليه كذب؛ فيصدق واحدة، ويكذب معها مائة، فيختلط الحق بالباطل، ويضمحل الحق بسبب قلته، وعدم علمه.

(٢٢٣) في «صحيح البخاري» من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «سأل ناس النبي ﷺ عن الكهان، فقال: «إنهم ليسوا بشيء» قالوا: يا رسول الله، فإنهم يحدثون بالشئ يكون حقاً؟ فقال النبي ﷺ: «تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى، فيقرؤها في أذن وليه كقرقرة الدجاجة، فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة».

(٢٢٤) في «صحيح مسلم» من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ، بالعرج إذ عرض شاعر يشد، فقال النبي ﷺ: «خذوا الشيطان - أو أمسكوا الشيطان - لأن يمتلى جوف أحدكم قبحاً خيراً له من أن يمتلى شعراً».

(٢٢٧) في «مسند الإمام أحمد» و«مصنف عبد الرزاق» بإسناد صحيح من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ: إن الله ﷻ قد أنزل في الشعر ما أنزل، فقال: «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده، لكان ما ترمونهم به نضح النبل».

سورة النمل

(١) ﴿طَسَّ﴾ تقدم الكلام في فواتح سورة البقرة على الحروف المقطعة.

يقول تعالى منبهاً عباده على عظمة القرآن، ويشير إليه إشارة دالة على التعظيم: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ﴾ أي: هذه الآيات ﴿وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ هي أعلى الآيات، وأقوى البينات، وأوضح الدلالات، وأبينها على أجل المطالب، وأفضل المقاصد.

(٢) ﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ تهديهم إلى سلوك الصراط المستقيم، وتبين لهم ما ينبغي أن يسلكوه أو يتركوه وتبشرهم بثواب الله المرتب على الهداية لهذا الطريق.

(٣) ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ فرضها ونفلها ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ المفروضة لمستحقيها ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ قد بلغ معهم الإيمان إلى أن وصل إلى درجة اليقين؛ وهو: العلم التام الواصل إلى القلب.

(٤) ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ ويكذبون بها، ويكذبون من جاء ببائباتها ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ القبيحة التي رأوها حسنة ﴿فَهُمْ يَظُنُّونَ﴾ حائرين مترددين، مؤثرين سخط الله على رضاه، قد انقلبت عليهم الحقائق، فرأوا الباطل حقاً، والحق باطلاً.

(٥) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ أشده وأسوأه ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسِرُونَ﴾ حصر الخسار فيهم، بكونهم خسروا أنفسهم وأهلبيهم يوم القيامة، وخسروا الإيمان الذي دعتههم إليه الرسل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ١ هُدًى وَبُشْرَى
لِلْمُؤْمِنِينَ ٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ
بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٣ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ
أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ٤ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ
وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسِرُونَ ٥ وَإِلَيْكَ لَنُفِئَنَّ الْقُرْآنَ مِنْ
لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ٦ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَائِيكُمُ
مِنْهَا خَيْرٌ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ٧ فَلَمَّا
جَاءَهُنَّوَيَأْتِيَنَّ مِنْ فَوْقِهَا نَارُ مِثْرَبٍ وَمِنْ حَوْلِهَا تُسَبِّحُ لِلَّهِ فِي
الْعَالَمِينَ ٨ يَمْشِي فِيهَا أَنَا وَاللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٩ وَإِلَى عَصَاكَ
فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدِرًّا وَلَمْ يَعْقِبْ يَمْشِي لِيَخْفُ
إِلَى لَا يَخَافُ لَدَى الْمَرْسُولِ ١٠ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَلْ حَسَنًا بَعْدَ
سُوءٍ فَإِنِّي عَفُورٌ رَحِيمٌ ١١ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ يَدًا أُخْرَى
مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فَيَسْجُدْ لَكَ الْقَائِمُونَ ١٢ وَأَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ إِذْ قُلْتُمْ
لِلنَّاسِ سَلَامًا ١٣ فَلَمَّا جَاءَهُمْ آيَاتُنَا مُجْرَاءً قَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ مُرْسَلٌ ١٤

٢٧٧

(٦) ﴿وَإِلَيْكَ لَنُفِئَنَّ الْقُرْآنَ﴾ وإن هذا القرآن الذي ينزل عليك، ينزل ﴿مِنْ لَدُنْ﴾ من عند ﴿حَكِيمٍ﴾ يضع الأشياء مواضعها وينزلها منازلها ﴿عَلِيمٍ﴾ بأسرار الأحوال وبواطنها، كظواهرها.

(٧) ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ إلى آخر قصته، يعني: اذكر هذه الحالة الفاضلة الشريفة من أحوال موسى بن عمران عليه السلام وابتداء الوحي إليه واصطفائه برسالته، وتكليم الله إياه، وذلك أنه لما مكث في مدين عدة سنين، وسار بأهله من مدين متوجهاً إلى مصر، فلما كان في أثناء الطريق ضل، وكان في ليلة مظلمة باردة، فقال لهم: ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ أبصرت نارا من بعيد ﴿سَائِيكُمُ مِنْهَا خَيْرٌ﴾ عن الطريق ﴿أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ تستدفئون.

كَانَهَا جَانٌّ ﴿١٠﴾ وهو ذكر الحيات سريع الحركة ﴿وَلَوْ﴾ موسى ﴿مُذِيرًا﴾ هرب خائفاً ﴿وَلَوْ﴾ يعْقَبُ؛ أي: لم يلتفت من شدة ذعره من الحية، التي رأى على مقتضى الطبائع البشرية ﴿يُمَوِّسَى لَا تَخَفْ﴾ لأن جميع المخاوف مندرجة في قضاءه وقدره، وتصريفه وأمره ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ﴾ فالذين اختصهم الله برسالته، واصطفاهم لوحيه، لا ينبغي لهم أن يخافوا غير الله، خصوصاً عند زيادة القرب منه، والحظوة بتكليمه.

(١١) ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ فهذا الذي هو محل الخوف والوحشة بسبب ما أسدى من الظلم، وما تقدم له من الجرم وأما المرسلون فما لهم وللوحشة، والخوف؟ ﴿ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ﴾ ومع هذا، من ظلم نفسه بمعاصي الله، وتاب وأناب ﴿فَإِنِّي عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فإن الله غفور رحيم.

(١٢) ﴿وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ الجيب قطع في القميص ﴿فَتَخَرَّجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ لا برص ولا نقص، بل بياض يبهر الناظرين شعاعه ﴿فِي سِتْرٍ عَائِنَةٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾ هاتان الآيتان: انقلاب العصا حية تسعى، وإخراج اليد من الجيب، فتخرج بياضاً في جملة تسع آيات، تذهب بها، وتدعو فرعون وقومه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ فسقوا بشركهم وعتوهم وعلوهم على عباد الله، واستكبارهم في الأرض بغير

وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَىٰهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مِنْ مَطَاقِ الطَّلِيرِ وَأَوْتِنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنْ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٣﴾ وَخَيْرَ لِسُلَيْمَانَ خُودُودُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّلِيرُ فَهُمْ يُورِثُونَ ﴿١٤﴾ حَتَّىٰ إِذَا تَوَلَّىٰ وَوَاوَىٰ الْغَمَامُ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَتَىٰهَا النَّملُ أَدْخَلُوا مَسْكَكُمْ لَمْ يَحْطِ بِكُمْ سُلَيْمَانُ وَخُودُودُ وَهِيَ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ فَتَبَسَّضًا جَاكَمَ قَوْلُهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأُدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٦﴾ وَتَفَقَّدَ الطَّلِيرُ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَيْدَ هَذَا مَكَانٌ كَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ لَا عَذِيبَ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَا أَدْبَحْتَهُ أَوْ لِيَأْتَنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ حِطُّ بِهِ، وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَارٍ بَقِيَّةٍ ﴿١٩﴾

(٨) ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ ناداه الله تعالى وأخبره: أن هذا محل مقدس مبارك، ومن بركته: أن جعله الله موضعاً لتكليم الله لموسى وإرساله ﴿وَسُبْحَنَّ اللَّهَ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على أن يظن به نقص أو سوء، بل هو الكامل في وصفه وفعله.

(٩) ﴿يُمَوِّسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ﴾ أخبره الله: أنه الله المستحق للعبادة، وحده لا شريك له ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي قهر جميع الأشياء، وأذعنت له كل المخلوقات ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أمره وخلقه.

(١٠) ﴿وَأَلْقَى عَصَاكَ﴾ فألقاها ﴿فَلَمَّا رَآَهَا تَهْتَزُّ

(٨) في «صحيح مسلم» و«تفسير ابن أبي حاتم» واللفظ له من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ اللَّهُ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنبَغِي أَنْ يَنَامَ، يَخْفُضُ الْقَسْطَ وَيَرْفَعُهُ، وَيَرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ، وَحِجَابُهُ النُّورُ - أَوْ: النَّارُ - لَوْ كَشَفَهُ؛ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتِ وَجْهِهِ كُلَّ شَيْءٍ أَدْرَكَهُ بَصَرُهُ». ثم قرأ أبو عبيدة - أحد الرواة - : ﴿أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

عليه الصلاة والسلام، يفقه ما تقول، وتتكلم به؛ كما راجع الهدد وراجع، وكما فهم قول النملة للنمل؛ كما يأتي، وهذا لم يكن لأحد غير سليمان عليه السلام ﴿وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أعطانا الله من النعم، ومن أسباب الملك، ومن السلطنة والقهر، ما لم يؤت أحداً من الآدميين ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي أعطانا الله، وفضلنا، واختصنا به ﴿هُوَ أَفْضَلُ الْمُنِينَ﴾ الواضح الجلي؛ فاعترف أكمل اعتراف بنعمة الله تعالى.

(١٧) ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ﴾ جمع له جنوده الكثيرة الهائلة المتنوعة من بني آدم، ومن الجن، والشیاطين، ومن الطيور ﴿فَهُمْ يُؤْزَعُونَ﴾ يدبرون، ويرد أولهم على آخرهم، وينظمون غاية التنظيم في سيرهم ونزولهم، وحلهم وترحالهم، قد استعد لذلك، وأعد له عدته، وكل هذه الجنود مؤتمرة بأمره.

(١٨) ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ﴾ حتى إذا مر سليمان عليه السلام بمن معه من الجيوش والجنود على وادي النمل ﴿فَأَلَّتْ نَمْلَةٌ﴾ منبهة لرفقتها وبني جنسها: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ خافت على النمل أن يحطمها الخيول بحوافرها فأمرتهم بالدخول إلى مساكنهم.

(١٩) ﴿فَلَبَسَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا﴾ إعجاباً منه بنصح أمتها، وحسن تعبيرها. وقال شاكراً لله الذي أوصله إلى هذه الحال: ﴿رَبِّ أَوْعَيْتُ﴾

الحق. (١٣) ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَتُنَا مُبْصِرَةً﴾ مضيئة تدل على الحق، ويبصر بها كما تبصر الأبصار بالشمس ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ لم يكفهم مجرد القول بأنه سحر، بل قالوا: ظاهر لكل أحد.

(١٤) ﴿وَحَمَدُوا بِهَا﴾ كفروا بآيات الله جاحدين لها ﴿وَأَسْتَفْتَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ ليس جحدهم مستنداً إلى الشك والريب وإنما جحدهم مع علمهم وتيقنهم بصحتها ﴿ظَلَمْنَا﴾ منهم لحق ربهم ولأنفسهم ﴿وَعُلُوًّا﴾ على الحق وعلى العباد وعلى الانقياد للرسول ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أسوأ عاقبة، دمرهم الله وأغرقهم في البحر وأخزاهم، وأورث مساكنهم المستضعفين من عباده.

(١٥) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ سُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ أي: يذكر في يخبر تعالى عما أنعم به على عبديه ونبيه داود وابنه سليمان عليهما السلام، بالعلم الواسع الكثير؛ بدليل التنكير ﴿وَقَالَ﴾ شاكرين لربهما منته الكبرى بتعليمهما: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فحمداً لله على جعلهما من المؤمنين: أهل السعادة، وأنهما كانا من خواصهم.

(١٦) ﴿وَوَرِّثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ ورث علمه ونبوته، فانضم علم أبيه إلى علمه ﴿وَقَالَ﴾ سليمان عليه السلام ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَطْلَقَ الطَّيْرِ﴾ فكان

(١٨) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أن نملة قرصت نبياً من الأنبياء، فأمر بقرية النمل فأحرق، فأوحى الله إليه: أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح».

(١٩) في «الصحيحين» من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً قط ضاحكاً حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبتسم».

(٢١) ﴿لَاَعَذِبُنَّ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ دون القتل؛ فأنثف ريشه ﴿أَوْ لَاَذْبَحُنَّ﴾ لأقطعن حلقه ﴿أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ حجة واضحة على تخلفه.

(٢٢) ﴿فَمَكَتْ﴾ الهدهد ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ غاب زماناً يسيراً ثم جاء، وهذا يدل على هيبه جنوده منه ﴿فَقَالَ﴾ لسليمان: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ اطعلت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ﴾ القبيلة المعروفة في اليمن ﴿بِنَايِقَيْنِ﴾ خبر متيقن.

(٢٣) ثم فسر هذا النبأ؛ فقال: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ تملك قبيلة سبأ، وهي امرأة ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه الملوك، من الأموال، والسلاح، والجنود، والحصون، والقلاع ونحو ذلك ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ كرسي ملكها الذي تجلس عليه عرش هائل.

(٢٤) ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: هم مشركون يعبدون الشمس ﴿وَرَبِّينَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ فرأوا ما عليه هو الحق ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ لأن الذي يرى أن الذي عليه حق، لا مطمع في هدايته حتى تتغير عقيدته.

(٢٥) ﴿أَلَا﴾ هلا ﴿يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعلم الخفي في أقطار السماوات، وأنحاء الأرض، من صغار المخلوقات، وبذور النباتات، وخفايا الصدور، ويخرج خبء الأرض والسماء؛ بإنزال المطر،

إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢١﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَرَبِّينَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٣﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٤﴾ قَالَ سَنُنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٥﴾ أَذْهَبَ يَكْنِي هَذَا قَالَتْ لَهُمُ النَّبِيُّ قَوْلُ اللَّهِ مَا أَظُنُّ مَا دَارِجَعُونَ ﴿٢٦﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّي أَتِيْتُ إِلَىٰ كَيْتٍ كَرِيمٍ ﴿٢٧﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمٍ وَإِنِّي بَسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢٨﴾ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأُتُوْا مُسْتَبِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفَتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٠﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوْا قُوَّةً وَأُولُوْا نَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ لِلَّهِ مَا نُنْظِرُ مَاذَا نَأْمُرُ ﴿٣١﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أُولَٰئِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٣﴾

ألهمني ووفقني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ فإن النعمة على الوالدين نعمة على الولد ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ ووفقني أن أعمل صالحاً ترضاه؛ لكونه موافقاً لأمرك، مخلصاً فيه، سالماً من المفسدات والمنقصات ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ﴾ التي منها الجنة ﴿فِي﴾ جملة ﴿عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾.

(٢٠) ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ طلب ما فقد من الطير ﴿فَقَالَ مَالِيَ لَا أَرَىٰ الَّتِي هَدَيْتَنِي﴾ ما للهدد لا أراه؟ ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْفُتَّانِينَ﴾ هل عدم رؤيتي إياه لقله فطنتي به؛ لكونه خفياً بين هذه الأمم الكثيرة؟ أم كان غائباً من غير إذني، ولا أمري؟

(٢٣) أخرج البخاري عن أبي بكرة رضي الله عنه؛ قال: لما بلغ النبي ﷺ أن فارساً ملكوا ابنة كسرى؛ قال: «لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة».

طائر أتى به فألقاه إليها، ثم تولى عنها أدباً، وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك، ولا سبيل لهم إلى ذلك.

(٣٠) ثم بينت مضمونه فقالت: ﴿إِنَّكُمْ مِنْ سُلَٰمَتِنَ﴾ وبيّنت المكتوب فقالت: ﴿وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

(٣١) ﴿أَلَا تَعْلَمُونَ﴾ لا تكونوا فوقى، بل اخضعوا تحت سلطاني، وانقادوا لأوامري ﴿وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ وأقبلوا إلي مسلمين.

(٣٢) ﴿قَالَتْ يَتَأْتِيَ الْملُوكُ أَتُونِي فِي أَمْرِي﴾ أخبروني، ماذا نجيبه به؟ وهل ندخل تحت طاعته، وننقاد؟ أم ماذا نفعل؟ ﴿مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونُ﴾ ما كنت مستبدة بأمر دون رأيكم ومشورتكم.

(٣٣) ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ إن رددت عليه قوله، ولم تدخل في طاعته؛ فإننا أقوىاء على القتال. فكأنهم مالوا إلى هذا الرأي، الذي لو تم؛ لكان فيه دمارهم، ولكنهم لم يستقروا عليه، بل قالوا: ﴿وَأَلَامَرْتُ إِلَيْكَ﴾ الرأي ما رأيته؛ لعلمهم بعقلها، وحزمها، ونصحها لهم ﴿فَانظُرِي﴾ نظري فكر وتدبر ﴿مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ تجدينا مطيعين لأمرك.

(٣٤) ﴿قَالَتْ﴾ لهم - مقنعة لهم بالعدول عن رأيهم، ومبينة سوء مغبة القتال -: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً﴾ عنوة ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ قتلًا وأسرًا ونهبًا لأموالها وتخريبًا لديارها ﴿وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أَذَلَّةً﴾ أي: جعلوا الرؤساء السادة

وإنبات النباتات، ويخرج خبء - أي: خبيثة - الأرض عند النفخ في الصور وإخراج الأموات من الأرض؛ ليجازيهم بأعمالهم ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ أي: يعلم ما يخفيه العباد، وما يعلنونه من الأقوال والأفعال.

(٣٦) ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا تنبغي العبادة والإنابة والذل والحب إلا له؛ لأنه المألوه، لما له من الصفات الكاملة، والنعم الموجبة لذلك ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ الذي هو سقف المخلوقات، ووسع الأرض والسموات، وعرش ملكة سبأ وإن كان عظيمًا؛ فهو صغير حقير في جنب عرش الله عز وجل، ثم ههنا كلام الهدهد، فلما فرغ الهدهد من كلامه.

(٣٧) و﴿قَالَ﴾ متبنيًا؛ لكمال عقله ورزاقته: ﴿سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ﴾ فيما أخبرت ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ في مقالتك، لتتخلص من الوعيد الذي أوعدتك.

(٣٨) ﴿أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْفَهٗ إِلَيْهِمْ﴾ وذلك أن سليمان عليه السلام كتب كتابًا إلى بلقيس وقومها، وأعطاه لذلك الهدهد فحملة إليهم فألقاه إلى بلقيس ﴿ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ استأخر غير بعيد ﴿فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ إليك وما يترجعون به.

(٣٩) فجتمعت عند ذلك أمراءها ووزراءها وكبراء دولتها ومملكاتها، ثم ﴿قَالَتْ﴾ لهم: ﴿يَتَأْتِيَ الْملُوكُ إِيَّيَ أُلْفَى إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ تعني بكرمه: أنه جليل المقدار من أكبر ملوك الأرض، وايضًا ما رأته من عجيب أمره، كونه

(٣٦) أخرج أبو داود وابن ماجه وأحمد بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه؛ قال: «نهى النبي ﷺ عن قتل أربع من الدواب: النملة، والنحلة، والهدهد، والضُّرْد».

فَقَرَحُونَ ﴿٣٧﴾ أَنْتُمْ الَّذِينَ تَنْقَادُونَ لِلْهَدَايَا وَالتَّحَفِ،
وَأَمَّا أَنَا فَلَا أَقْبَلُ مِنْكُمْ إِلَّا الْإِسْلَامَ أَوْ السِّيفَ.
﴿٣٧﴾ أَنْجِعِ إِلَيْهِمْ؛ أَي: بهديتك ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ
بِجُنُودٍ لَّا بِلَدٍّ لَّهُمْ بِهَا وَلَا تَخْرِجُهم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٨﴾
وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٩﴾ مَهَانُونَ
مَدْحُورُونَ فَرَجَعَ إِلَيْهِمْ، وَأَبْلَغَهُمْ مَا قَالَ
سُلَيْمَانُ، وَتَجَهَّزُوا لِلْمَسِيرِ إِلَى سُلَيْمَانَ، وَعَلِمَ
سُلَيْمَانُ أَنَّهُمْ لَا بَدَّ أَنْ يَسِيرُوا إِلَيْهِ.

﴿٣٨﴾ فَمَنْ حَضَرَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ:
﴿أَيُّكُمْ يَأْتِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾
ليجعل ذلك حجة عليها في نبوته، ويعرفها
بذلك قدرة الله وعظيم شأنه.

﴿٣٩﴾ قَالَ عَفِرتُ مِنَ الْجِنِّ وَالْعَفْرِتِ، هُوَ:
القوي النشيط جداً: ﴿أَنَا عَائِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ
مِنْ مَقَامِكَ﴾ يعني قبل أن تقوم من مجلسك
﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لِقَوِي﴾ على حملي، ﴿أَمِينٌ﴾ على ما
فيه من الجواهر.

﴿٤٠﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ
رَجُلٌ عَالِمٌ صَالِحٌ عِنْدَ سُلَيْمَانَ كَانَ يَعْرِفُ اسْمَ
اللَّهِ الْأَعْظَمِ، الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا
سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ: ﴿أَنَا عَائِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ
طَرْفُكَ﴾؛ أَي: ارفع بصرك وانظر مُدَّ بَصْرِكَ
مِمَّا تَقْدِرُ عَلَيْهِ، فَإِنَّكَ لَا يَكُلُ بَصْرُكَ إِلَّا وَهُوَ
حَاضِرٌ عِنْدَكَ، وَذَلِكَ بِأَنْ يَدْعُو اللَّهَ بِذَلِكَ
الاسْمِ، فَيَحْضُرُ حَالاً، وَأَنَّهُ دَعَا اللَّهَ؛ فَحَضَرَ
﴿فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ﴾ حَمْدُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى
إِقْدَارِهِ وَمُلْكِهِ، وَتَسْيِيرِ الْأُمُورِ لَهُ ﴿قَالَ هَذَا مِنْ
فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ لِيُخْتَبِرَنِي
بِذَلِكَ؛ فَلَمْ يَغْتَرِ بِإِسْلَامِهِ بِمُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ
وَقُدْرَتِهِ؛ كَمَا هُوَ دَأْبُ الْمُلُوكِ الْجَاهِلِينَ بَلْ

فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَ بِمَالٍ فَمَا أَتَيْنَ اللَّهُ خَيْرَ مِمَّا
ءَاتَيْنَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٨﴾ أَنْجِعِ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ
بِجُنُودٍ لَّا بِلَدٍّ لَّهُمْ بِهَا وَلَا تَخْرِجُهم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٩﴾ قَالَ
يَأْتِيَهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٤٠﴾
قَالَ عَفِرتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا عَائِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي
عَلَيْهِ لِقَوِي أَمِينٌ ﴿٤١﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ
بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا
مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَكُفِّرْ
لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي عَزِيزٌ كَرِيمٌ ﴿٤٢﴾ قَالَ نَكُرُوا هَٰذَا عَرْشَهَا
نَنْظُرُ أَتَهْتَدُونَ أَمْ تَكُونُونَ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ
هَٰذَا كَذَٰبًا عَظِيمًا قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأَوْسِنَا أَلَعَدِمْ فَلَهَا وَكَأَنَّمَا سُلَيْمَانُ
﴿٤٤﴾ وَصَدَّاهَا كَأَنَّهُ تَفَعَّلْتُ فَعَلَهُ دُونِ اللَّهِ إِنَّمَا كُنْتُمْ مِنْ قَوْمٍ كَاذِبِينَ
﴿٤٥﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ
سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي
ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾

أَشْرَافِ النَّاسِ مِنَ الْأَرْدَلِينَ، فَصَدَّقَ اللَّهُ قَوْلَهَا
فَقَالَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾؛ أَي: كَمَا قَالَتْ هِيَ
يَفْعَلُونَ.

﴿٣٥﴾ ثُمَّ أَرَادَتْ أَنْ تَخْتَبِرَهُ، فَقَالَتْ: ﴿وَإِنِّي مُرْسَلَةٌ
إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ﴾ عطية عن طريق الملاطفة ﴿فَنَاطِرُهُ
يَمُ رَجْعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ منه، هل يستمر على رأيه
وقوله أم تخدعه الهدية، وتتبدل فكرته، وكيف
أحواله وجنوده؟

﴿٣٦﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ﴾ جَاءَهُ الرِّسْلُ بِالْهَدِيَّةِ
﴿قَالَ﴾ مِنْكَرًا عَلَيْهِمْ وَمَتَغِيظًا عَلَى عَدَمِ
إِجَابَتِهِمْ: ﴿أَتُمِدُّونَ بِمَالٍ﴾؛ أَي: أَتَصَانَعُونَ نِي
بِمَالٍ لِأَتَرْكُكُمْ عَلَى شِرْكِكُمْ؟! ﴿فَمَا أَتَيْنَ
اللَّهُ خَيْرَ مِمَّا ءَاتَيْنَاكُمْ﴾ إِنْ هَدَيْتَكُمْ لَمْ تَقَعْ
عِنْدِي مَوْقِعًا، وَلَا أَفْرَحَ بِهَا، قَدْ أَغْنَانِي اللَّهُ
عَنْهَا، وَأَكْثَرَ عَلَيَّ النِّعَمِ ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ

علم أن ذلك اختبار من ربه، فخاف أن لا يقوم بشكر هذه النعمة، ثم بين أن الشكر لا ينتفع الله به، وإنما يرجع نفعه إلى صاحبه فقال: ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رِبِّي غَنِيٌّ غَنِيٌّ عَنْ أَعْمَالِهِ﴾ ﴿كَرِيمٌ﴾ كثير الخير، يعم به الشاكر، والكافر إلا أن شكر نعمه، داع للمزيد منها، وكفرها داع لزوالها.

(٤١) ثم ﴿قَالَ﴾ سليمان لمن عنده: ﴿تَكْرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ غيره بزيادة ونقص، ونحن في ذلك ﴿نَنْظُرُ﴾ مختبرين لعقلها ﴿أَتَهْدِي﴾ للصواب، ويكون عندها ذكاء وفطنة تليق بملكها ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إليه.

(٤٢) ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ﴾ قادمة على سليمان، عرض عليها عرشها، وكان عهدا به قد خلفته في بلدها و﴿قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ﴾؟ أي: أنه استقر عندنا أن لك عرشاً عظيماً، فهل هو كهذا العرش الذي أحضرناه لك؟ ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ وهذا من ذكائها وفطنتها، لم تقل «هو» لوجود التغيير فيه والتنكير، ولم تنف أنه هو؛ لأنها عرفت فأتت بلفظ محتمل للأمرين صادق على الحالين، فقال سليمان متعجباً من هدايتها وعقلها، وشاكراً لله أن أعطاه أعظم مئة: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا﴾ أي: الهداية والعقل والحزم من قبل هذه الملكة ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ وهي الهداية النافعة الأصلية.

(٤٣) ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ عن الإسلام، وإلا فلها من الذكاء والفطنة ما به تعرف الحق من الباطل، ولكن العقائد الباطلة تذهب بصيرة القلب ﴿إِنَّمَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ فاستمرت على دينهم، وانفراد الواحد عن أهل الدين، والعادة المستمرة بأمر يراه

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿١٥﴾ قَالَ يَتَّبِعُونَ آلَ سَيْتَةٍ قَبْلَ الْحَسَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا أَطِيعُوا بَنِيكُمْ وَبَيْنَ يَدَيْكُمْ قَاتِلٌ مِنْكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُفْسِدُونَ ﴿١٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ شَعْبٌ رَهِيطٌ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصِلِحُونَ ﴿١٨﴾ قَالُوا نَقَاسُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ وَلَهُمْ نُفَقِّحُونَ لِوَالِدَيْهِمَا مَا شَهِدْنَا مِنْ هَٰذَا آيَاتِهِ. وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٩﴾ وَمَكْرُؤُهُمْ كَمَكْرُؤِ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٠﴾ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ كَانَتْ عِقَابُهُمْ مَكْرَهُمْ أَنَاذَرْتَنَّهُمْ فَوَقَّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٢١﴾ فَتَلَاكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِبَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَأَنجَيْنَا آلَ يُونُسَ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ وَكُنَّا نُوْثِقُورُ ﴿٢٣﴾ وَلَوْ طَافَ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ أَنَا نُونُوتُورُ الْفَجْشَةِ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٢٤﴾ أَيْنَكُمْ لَمَّا تَوَنُّوا الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْإِنْسَانِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُجْهَلُونَ ﴿٢٥﴾

بعقله من ضلالهم وخطأهم من أندر ما يكون؛ فلماذا لا يستغرب بقاؤها على الكفر.

(٤٤) ثم إن سليمان أراد أن ترى من سلطانه ما يبهز العقول فأمرها أن تدخل «الصرح» وهو القصر، أو صحن الدار، أو المجلس المرتفع المتسع، وكان مجلساً من قوارير، تجري تحته الأنهار.

ف﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ فلما رآته حبيبته لجة ماء لأن القوارير شفافة، يرى الماء الذي تحتها كأنه بذاته يجري ليس دونه شيء ﴿وَكشفت عن ساقها﴾ لتخوضه. فلما استعدت للخوض قيل لها: ﴿إِنَّكَ صَرَّحٌ مُمَرَّدٌ﴾ ممسك من قوارير من زجاج، فلا حاجة منك لكشف الساقين؛ فحينئذ لما وصلت إلى سليمان، وشاهدت ما شاهدت، وعلمت نبوته ورسالته، تابت

وَرَجَعْتُ عَنْ كُفْرِهَا، وَ ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾؛ أي: بما سلف من شركها وعبادتها للشمس من دون الله ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: متبعة لدين سليمان في عبادته لله وحده.

(٤٩) ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا﴾ فيما بينهم، كل واحد أقسم للآخر ﴿لَنَبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ لنأتيهم ليلاً هو وأهله، فلنقتلهم ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ﴾ إذا قام علينا، وادعى علينا أننا قتلناهم، ننكر ذلك، وننفيه ونحلف بأننا ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فتواطؤوا على ذلك.

(٥٠) ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا﴾ دبوا أمرهم على قتل صالح وأهله، على وجه الخفية حتى من قومهم، خوفاً من أوليائه ﴿وَمَكْرَنَا مَكْرًا﴾ بنصر نبينا صالح - عليه السلام - وتيسير أمره، وإهلاك قومه المكذابين ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

(٥١) ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ هل حصل مقصودهم؟ وأدركوا بذلك المكر مطلوبهم، أم انتقض عليهم الأمر؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أهلكناهم واستأصلنا شأفتهم؛ فجاءتهم صيحة عذاب؛ فأهلكوا عن آخرهم.

(٥٢) ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾ قد تهدمت جدرانها على سقوفها، وأوحشت من ساكنيها، وعطلت من نازليها ﴿يَمَّا ظَلَمُوا﴾ هذا عاقبة ظلمهم وشركهم بالله، وبغيهم في الأرض ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الحقائق، ويتدبرون وقائع الله، في أوليائه وأعدائه؛ فيعتبرون بذلك، ويعلمون أن عاقبة الظلم، الدمار والهلاك، وأن عاقبة الإيمان والعدل

وَرَجَعْتُ عَنْ كُفْرِهَا، وَ ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾؛ أي: بما سلف من شركها وعبادتها للشمس من دون الله ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: متبعة لدين سليمان في عبادته لله وحده.

(٤٥) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ يخبر تعالى أنه أرسل إلى ثمود - القبيلة المعروفة - أخاهم في النسب: صالحاً، وأنه أمرهم: أن يعبدوا الله وحده، ويتركوا الأنسداد والأوثان ﴿فَإِذَا هُمْ فِي يَفْثَانَ يَخْتَصِمُونَ﴾ منهم المؤمن، ومنهم الكافر، وهم معظمهم.

(٤٦) ﴿قَالَ يَنْفَوِرْ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ لم تبادرون فعل السيئات، وتحرصون عليها، قبل فعل الحسنات؛ التي بها تحسن أحوالكم وتصلح أموركم الدينية والدنيوية؟ ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾ بأن تتوبوا من شرككم وعصيانكم، وتدعوه أن يغفر لكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ فإن رحمة الله قريب من المحسنين، والتائب من الذنوب، هو من المحسنين.

(٤٧) ﴿قَالُوا﴾ لنبئهم صالح مكذبين ومعارضين: ﴿أَطِيعْنَا بِكَ وَيَمْنُ مَعَكَ﴾ زعموا: أنهم لم يروا على وجه صالح خيراً، وأنه هو ومن معه من المؤمنين صاروا سبباً لمنع مطالبهم الدنيوية. ف﴿قَالَ﴾ لهم صالح: ﴿طَاعُوا اللَّهَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ ما أصابكم الله بذنوبكم ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْسِدُونَ﴾ بالسراء والضراء، والخير والشر؛ لينظر هل تقلعون وتتوبون، أم لا؟.

(٤٨) ﴿وَكَاثُ فِي الْمَدِينَةِ﴾ التي فيها صالح الجامعة لمعظم قومه ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ تسعة نفر ﴿يُفْسِدُونَ﴾

النجاة والفوز.

(٥٣) ولهذا قال: ﴿وَأَجْبَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أنجبنا المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر: خيره وشره، ﴿وَكُنَّا نُنْقَرُ﴾ الشرك بالله والمعاصي، ويعملون بطاعته، وطاعة رسله.

(٥٤) ﴿وَلَوْ طَآ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ واذكر عبدنا ورسولنا لوطاً ونبأه الفاضل حين قال لقومه - داعياً إلى الله، وناصحاً-: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ﴾ الفعلة الشنعاء، التي تستفحشها العقول والفطر، وتستقبحها الشرائع ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ ذلك، وتعلمون قبحه، فعاندم، وارتكبتم ذلك ظلماً منكم وجرأة على الله.

(٥٥) ثم فسر تلك الفاحشة فقال: ﴿إِنِّي كُنْتُ لَأَتُونُ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ كيف توصلتم إلى هذه الحال، فصارت شهوتكم للرجال وأدبارهم محل الغائط والنجو والخبث، وتركتم ما خلق الله لكم من النساء من المحال الطيبة، التي جبلت النفوس على الميل إليها، وأنتم انقلب عليكم الأمر، فاستحسنتم القبيح، واستقبحتم الحسن ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهْلُوْتٍ﴾ أي: ما ذلك منكم إلا أنكم قوم سفهاء جهلة بعظيم حق الله عليكم، فخالفتم لذلك أمره، وعصيتهم رسوله.

(٥٦) ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ قبول ولا انزجار، ولا تذكر وادكار، إنما كان جوابهم: المعارضة والمناقضة، والتوعد لنبيهم الناصح، ورسولهم الأمين، بالإجلاء عن وطنه، والتشريد عن بلده، فما كان جواب قومه ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا ءَالَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّنْطَهُرُونَ﴾ ينتزهون عن اللواط وأدبار الذكور.

سُورَةُ النِّسَاءِ

النِّسَاءِ

فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا ءَالَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّنْطَهُرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَجْبَيْنَاهُمْ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتُهُمْ قَدَرْنَهَا مِنَ الْغَنِيِّينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ؕ اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَكْرُمُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا ؕ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهُ مَعَكُمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْبَدُونَ - أَمَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسٍ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ؕ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهُ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَنْ يُحِبُّ الْمُضْطَرُ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَجَعَلَ لَكُمُ خُلْفَاءَ ؕ أَوَلَمْ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهُ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ﴿٦١﴾ أَمَنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيحَ شُرَآئِبَ بَدَنَىٰ رَّحْمَتِهِ ؕ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهُ تَعَالَىٰ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٢﴾

٢٨٢

(٥٧) ﴿فَأَجْبَيْنَاهُمْ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتُهُمْ قَدَرْنَهَا مِنَ الْغَنِيِّينَ﴾ من الهالكين مع قومها.

(٥٨) ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾ بئس المطر مطرهم، وبئس العذاب عذابهم؛ لأنهم أنذروا وخوفوا؛ فلم ينزجروا، ولم يرتدعوا؛ فأحل الله بهم عقابه الشديد.

(٥٩) ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي يستحق كمال الحمد، والمدح والثناء؛ لكمال أوصافه، وجميل معروفه، وهباته، وعدله وحكمته في عقوبته المكذبين وتعذيب الظالمين ﴿وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ وسلم - أيضاً - على عباده، الذين تخيرهم واصطفاهم على العالمين، من الأنبياء والمرسلين، وصفوة الله رب العالمين، وذلك لرفع ذكرهم، وتنويعها بقدرهم، وسلامتهم من الشر والأدناس، وسلامة ما قالوه في ربهم

الأرض أنهاراً ينتفع بها العباد في زروعهم وأشجارهم، وشربهم وشرب مواشيهم ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ جبالاً ترسيها وتثبتها؛ لئلا تميد، وتكون أوتاداً لها، لئلا تضطرب ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ﴾ البحر المالح والبحر العذب ﴿حَاجِزًا﴾ يمنع من اختلاطهما، فتفوت المنفعة المقصودة من كل منهما، بل جعل بينهما حاجزاً من الأرض، جعل مجرى الأنهار في الأرض، مبعدة عن البحار، فتحصل منها مقاصدها ومصالحها ﴿أَوَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ﴾ فعل ذلك حتى يعدل به الله ويشرك به معه ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيشركون بالله تقليداً لرؤسائهم، وإلا فلو علموا حق العلم لم يشركوا به شيئاً.

(٦٢) ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَا﴾ أي: هل يجيب المضطر، الذي أفلقته الكروب، وتعسر عليه المطلوب، واضطر للخلاص، مما هو فيه إلا الله وحده؟ ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ أي: البلاء والشر والنقمة إلا الله وحده؟ ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ من يجعلكم خلفاء الأرض، يمكنكم منها، ويمد لكم بالرزق، ويوصل إليكم نعمه، وتكونون خلفاء من قبلكم كما أنه سيميتكم، ويأتي بقوم بعدكم، ﴿أَوَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ﴾، يفعل هذه الأفعال؟ لا أحد يفعل مع الله شيئاً من ذلك ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ قليل تذكركم وتدبركم للأمور، التي إذا تذكروها أدركتم ورجعتم إلى الهدى، ولكن الغفلة

من النقائص والعيوب ﴿أَلَمْ يَخْزَ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وهذا استفهام قد تقرر وعرف؛ أي: الله الرب العظيم، كامل الأوصاف، عظيم الألطاف، خير أم الأصنام والأوثان، التي عبدوها معه، وهي ناقصة من كل وجه، لا تنفع ولا تضر، ولا تملك لأنفسها ولا لعابديها مثقال ذرة من الخير؛ فالله خير مما يشركون، ثم ذكر تفاصيل ما به يعرف ويتعين أنه لا إله المعبود، وأن عبادته هي الحق، وعبادة ما سواه هي الباطل، فقال:

(٦٠) ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ﴾ وما فيها من الشمس والقمر والنجوم والملائكة ﴿وَالْأَرْضِ﴾ وما فيها من جبال وبحار وأنهار وأشجار وغير ذلك ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ﴾ أي: لأجلكم ﴿مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ﴾ بساتين ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ حسن منظر من كثرة أشجارها وتنوعها وحسن ثمارها ﴿مَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾ لولا منة الله عليكم بإنزال المطر ﴿أَوَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ﴾ فعل هذه الأفعال حتى يعبد معه ويشرك به؟ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ به غيره، ويسوون به سواه، مع علمهم أنه وحده خالق العالم العلوي والسفلي، ومنزل الرزق.

(٦١) ﴿أَمَّنْ﴾ أي: هل الأصنام والأوثان الناقصة من كل وجه، التي لا فعل منها ولا رزق ولا نفع خير أم الله الذي ﴿جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ يستقر عليها العباد، ويتمكنون من السكنى، والحرث والبناء والذهاب والإياب ﴿وَجَعَلَ خُلُفَاءَ أَنْهَارًا﴾ جعل في خلال

(٦٢) في «مسند الإمام أحمد» بإسناد صحيح عن رجل من بلهجوم قال: قلت: يا رسول الله، إلام تدعو؟ قال: أدعو إلى الله وحده، الذي إذا مسك ضر؛ فدعوته كشف عنك، والذي إذا ضللت بأرض قفر؛ فدعوته رُدَّ عليك، والذي إن أصابك سنة؛ فدعوته أثبت لك.

والإعراض، شامل لكم؛ فلذلك ما ارعويتم، ولا اهتديتم.

(٦٣) ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ﴾ من هو الذي يهديكم حين تكونون ﴿فِي ظُلُمَاتٍ أَلْوَىٰ وَالْبَحْرِ﴾ ظلمات البر والبحر، حيث لا دليل، ولا معلم يرى، ولا وسيلة إلى النجاة إلا هدايته لكم، وتيسيره الطريق، وجعل ما جعل لكم من الأسباب، التي تهتدون بها ﴿وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾؛ أي: بين يدي المطر، فيرسلها، فتثير السحاب، ثم تؤلفه، ثم تجمعها، ثم تلقحها، ثم تدره، فيستبشر بذلك العباد قبل نزول المطر ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ يَكُنِ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾؟ فلم أشركتم معه غيره وعبدتم سواه؟ ﴿تَعَلَّىٰ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تعاضم وتنزه وتقدس عن شركهم، وتسويتهم به غيره.

(٦٤) ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ من هو الذي يبدأ الخلق، وينشئ المخلوقات، وابتدي خلقها، ثم يعيد الخلق يوم البعث والنشور؟ ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ بالمطر والنبات؟ ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ يَكُنِ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾؟ ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ حجتكم ودليلكم على ما قلتم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

(٦٥) ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ يخبر تعالى: أنه المنفرد بعلم غيب السماوات والأرض ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ وما يدرون ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ متى البعث والنشور والقيام من القبور.

(٦٦) ﴿بَلْ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ بل ضعف ولم يكن يقيناً، ولا علماً واصلاً إلى القلب ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾؛ أي: من الآخرة،

الْحَقُّ الْمُبِينُ

أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَوَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ يَكُنِ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴿٦٣﴾ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٤﴾ بَلْ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُمْ عَنْهَا عَمُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٦﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِن هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٦٩﴾ وَيَقُولُوا مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفٌ لَّكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِن أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٣﴾ وَمِمَّنْ عَلَيْهِمْ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يُقَصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٥﴾

٢٨٣

والشك زال به العلم؛ لأن العلم بجميع مراتبه لا يجامع الشك ﴿بَلْ هُمْ مِّنْهَا﴾ من الآخرة ﴿عَمُونَ﴾ قد عميت عنها بصائرهم، ولم يكن في قلوبهم علم من وقوعها ولا احتمال، بل أنكروها واستبعدوها.

(٦٧) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني مشركي مكة: ﴿أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ هذا بعيد غير ممكن؛ قاسوا قدرة كامل القدرة بقدرهم الضعيفة.

(٦٨) ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَٰذَا﴾ البعث ﴿نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ فلم يجننا، ولا رأينا منه شيئاً ﴿إِنَّ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ قصصهم وأخبارهم التي تقطع بها الأوقات، وليس لها أصل، ولا صدق فيها.

(٦٩) ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ

يدل عدم استعجاله على بعض مطلوبهم .
 (٧٢) ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدْفٌ لَكُمْ﴾ قرب منكم ،
 وأوشك أن يقع بكم ﴿بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ من
 العذاب .

(٧٣) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ ينبه
 عباده على سعة جوده ، وكثرة أفضاله ، ويحثهم
 على شكرها ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ومع
 هذا ؛ فأكثر الناس قد أعرضوا عن الشكر ،
 واشتغلوا بالنعم عن المنعم .

(٧٤) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ﴾ تنطوي عليه
 ﴿صُدُورُهُمْ وَمَا يَعْلَنُونَ﴾ فليحذروا من عالم
 السرائر والظواهر ، وليراقبوه .

(٧٥) ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ خفية ،
 وسر من أسرار العالم العلوي والسفلي ﴿إِلَّا﴾
 في كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿قَدْ أَحَاطَ ذَلِكَ الْكِتَابُ بِجَمِيعِ﴾
 ما كان ويكون إلى أن تقوم الساعة ؛ فكل
 حادث جلي أو خفي إلا وهو مطابق لما كتب
 في اللوح المحفوظ .

(٧٦) ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾
 أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿وهذا خبر عن﴾
 هيمنة القرآن على الكتب السابقة ، وتفصيله ،
 وتوضيحه : لما كان فيها قد وقع فيه اشتباه
 واختلاف عند بني إسرائيل ؛ قصه هذا القرآن
 قصاً زال به الإشكال واستبان به الصواب من
 المسائل المختلف فيها .

(٧٧) ﴿وَإِنَّهُ لَهْدَى﴾ من الضلالة والغي والشبه
 ﴿وَرَحْمَةً﴾ تشلج له صدورهم ، وتستقيم به
 أمورهم الدينية والدنيوية ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ به ،
 المصدقين له ، المتلقين له بالقبول ، المقبلين
 على تدبره ، المتفكرين في معانيه ، فهؤلاء

لِلْمُؤْمِنِينَ
 وَإِنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ
 بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى
 الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْوَقُوفَ وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ
 إِذَا وَلَوْ أَمَدَّيْنِ (٨٠) وَمَا أَنتَ بِهَادِيَ الْعَمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ
 تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٨١) وَإِذَا
 وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ
 النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢) وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ
 فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّى إِذَا جَاءَهُ
 قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تَحْطِطُوا بِهَا عُلَمَاءُ مَاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ
 (٨٤) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَظْهَرُونَ (٨٥) أَلَمْ
 يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلَآلَ لَيْسَ كُفُوفِهِ وَالنَّهَارَ مِصْرًا لَيْتَ فِي
 ذَلِكَ لَأَنبَتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦) وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَنَرَّجُ
 مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوِّهٍ
 دَاخِرِينَ (٨٧) وَنَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُ جَآئِدَةً وَهِيَ تَمْرُجُ مِنَ السَّحَابِ
 صُتْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَ كُلُّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨)

عَقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿ فلا تجدون مجرمًا قد استمر
 على إجرامه ؛ إلا وعاقبته شر عاقبة ، وقد أحل
 الله به من الشر والعقوبة ما يليق بحاله .
 (٧٠) ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على
 هؤلاء المكذبين ، وعدم إيمانهم ؛ فإنك لو
 علمت ما فيهم من الشر ، وأنهم لا يصلحون
 للخير لم تأس ولم تحزن ﴿وَلَا تَلُكْ فِي صَبَقِ﴾
 نَفْسِكَ بِمَكْرِهِمْ ، فإن مكرهم ستعود عاقبته
 عليهم .

(٧١) ﴿وَيَقُولُونَ﴾ ؛ أي : المكذبون بالمعاد
 وبالحق الذي جاء به الرسول ، مستعجلين
 للعذاب : ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾
 وهذا من سفاهة رأيهم وجهلهم ؛ فإن وقوعه
 ووقته ، قد أجله الله بأجله ، وقدره بقدره . فلا

(٨٢) ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ إذا وقع على الناس القول الذي حتمه الله وفرض وقته ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً﴾ خارجة ﴿مِّنَ الْأَرْضِ﴾ أو دابة من دواب الأرض ليست من السماء وهذه الدابة ﴿تُكَلِّمُهُمُ﴾ تكلم العباد ﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ لأجل أن الناس ضعف علمهم ويقينهم بآيات الله؛ فإظهار الله هذه الدابة، من آيات الله العجيبة؛ ليبين للناس ما كانوا فيه يمترون، وهذه الدابة هي الدابة المشهورة: التي تخرج في آخر الزمان، وتكون من أشرار الساعة.

(٨٣) ﴿وَيَوْمَ نَخْتَرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ يخبر تعالى عن حالة المكذبين في موقف القيامة، وأن الله يجمعهم ويحشر من كل أمة من الأمم فوجاً وطائفة ﴿مِمَّنْ يَكْذِبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يجمع أولهم على آخرهم، وآخرهم على أولهم ليعمهم السؤال والتوبيخ واللوم.

(٨٤) ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوْا وَحَضَرُوا﴾ قال لهم موبخاً ومقرعاً: ﴿أَكْذَبْتُمْ بِآيَاتِنَا وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا﴾ الواجب عليكم التوقف حتى ينكشف لكم الحق، وأن لا تتكلموا إلا بعلم، فكيف كذبتهم بأمر لم تحيطوا به علماً؟ ﴿أَمَّا ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يسألهم عن علمهم وعن عملهم، فيجد علمهم، تكذيباً بالحق، وعملهم لغير الله، أو على غير سنة رسولهم.

(٨٥) ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا﴾ حقت عليهم كلمة العذاب بسبب ظلمهم الذي

تحصل لهم به الهداية إلى الصراط المستقيم، والرحمة المتضمنة للسعادة، والفوز والفلاح.

(٧٨) ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ إن الله - تعالى - سيفصل بين المختصمين، وسيحكم بين المختلفين، بحكمه العدل، وقضائه القسط، فالأمور وإن حصل فيها اشتباه في الدنيا بين المختلفين؛ لخفاء الدليل، ولبعض المقاصد، فإنه سيبين فيها الحق المطابق للواقع حين يحكم الله فيها ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي قهر الخلائق؛ فأذعنوا له ﴿الْعَلِيمُ﴾ بجميع الأشياء وبأقوال المختلفين، وعن غاياتها ومقاصدها، وسيجازي كلأ بما علمه فيه.

(٧٩) ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ اعتمد على ربك في جلب المصالح ودفع المضار وفي تبليغ الرسالة وإقامة الدين وجهاد الأعداء ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ الواضح.

(٨٠) ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتُ﴾ يعني: الكفار، شهبوا بالموتى لعدم انتفاعهم باستماع ما يتلى عليهم، كما شهبوا بالصم في قوله: ﴿وَلَا تَسْمِعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ فإنه يكون أبلغ في عدم إسماعهم.

(٨١) ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيَ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ ما أنت بمرشد من أعماه الله عن الهدى، وأعمى قلبه عن الإيمان ﴿إِنْ تَسْمِعْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ هؤلاء الذين ينقادون لك، هم الذين يؤمنون بآيات الله، وينقادون لها بأعمالهم، واستسلامهم.

(٨٢) في «المسند» من حديث أبي أمامة رضي الله عنه الصحيح عن النبي ﷺ: «تخرج الدابة؛ فتسم الناس على خراطيمهم، ثم يغمرون فيكم حتى يشترى الرجل البعير؛ فيقول: ممن اشتريته؟ فيقول: من أحد المخطئين».

انزعجوا وارتاعوا، وماج بعضهم ببعض خوفاً مما هو مقدمة له ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ ممن أكرمه الله وثبته، وحفظه من الفزع ﴿وَكُلٌّ﴾ من الخلق عند النفخ في الصور ﴿أَتَوْهُ دَخِيرِينَ﴾ صاغرين ذليين.

(٨٨) ﴿و﴾ ومن هوله أنك ﴿تَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ لا تفقد شيئاً منها، وتظنها باقية على الحال المعهودة، وهي قد بلغت منها الشدائد والأحوال كل مبلغ، وقد تفتت ثم تضمحل، وتكون هباءً منبثاً، ولهذا قال: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّعَابِ﴾ من خفتها، وشدة ذلك الخوف، وذلك ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَفْنَى كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم.

(٨٩) ثم بين تعالى حال السعداء والأشقياء يومئذ، فقال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ يعم جنس الحسنات: قولية أو فعلية أو قلبية ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ هذا أقل التفضيل ﴿وَهُمْ مِنْ فِرْعَ يَوْمِذٍ﴾ من الأمر الذي فزع الخلق لأجله ﴿يَوْمِذٍ﴾. (٩٠) ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ اسم جنس يشمل كل سيئة ﴿فَكَبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ ألقوا في النار على وجوههم، ويقال لهم: ﴿هَلْ تُخْزَوْنَ﴾ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من الشرك.

(٩١) قل لهم يا محمد: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبِّي هَذِهِ الْبَلَدَةَ﴾ مكة المكرمة ﴿الَّذِي حَرَمَهَا﴾ وأنعم على أهلها؛ فيجب أن يقابلوا ذلك بالشكر والقبول ﴿وَلَمْ كُلُّ شَيْءٍ﴾ من



استمروا عليه، وتوجهت عليهم الحجة ﴿فَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ لأنه لا حجة لهم.

(٨٦) ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلَآءَ لِسَكُونًا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ ألم يشاهدوا الآية العظيمة، وهو تسخير الله لهم الليل والنهار: هذا بظلمته؛ ليسكنوا فيه ويستريحوا من التعب، ويستعدوا للعمل، وهذا بضياءه؛ ليتنشروا فيه في معاشهم وتصرفاتهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بكمال وحدانية الله وسبوغ نعمته.

(٨٧) ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ﴾ بسبب النفخ فيه ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾

(٩١) في «الصحيحين» من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «إن هذه البلد حرمة الله يوم خلق السماوات والأرض؛ فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته؛ إلا لمن عرفها، ولا يختلي خلاها».

والتفخيم ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ لكل أمر يحتاج إليه العباد، من معرفة ربهم، ومعرفة حقوقه، ومعرفة أوليائه وأعدائه، ومعرفة وقائعه وأيامه، ومعرفة ثواب الأعمال، وجزاء العمال.

(٣) ﴿تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ فإن نبأهما غريب، وخبرهما عجيب ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالصدق ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فإليهم يساق الخطاب، ويوجه الكلام؛ حيث إن معهم من الإيمان ما يقبلون به على تدبر ذلك.

(٤) ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا﴾ أي: تكبر وتجبّر وطغى ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مصر ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ طوائف متفرقة، يتصرف فيهم بشهوته، وينفذ فيهم ما أراد من قهره وسطوته ﴿يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾ وتلك الطائفة، هم: بنو إسرائيل ﴿يُذَيِّعُ أبنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ خوفاً من أن يكثروا، فيغمره في بلاده، ويصير لهم الملك ﴿وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ أي: ونستقي نساءهم للخدمة والامتهان ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ الذين لا قصد لهم في صلاح الدين، ولا صلاح الدنيا، وهذا من إفساده في الأرض.

(٥) ﴿وَرُئِيَ أَن تَمَنَّٰ عَلَىٰ الَّذِيكُ اسْتَضِعُّوْا فِي الْأَرْضِ﴾ بأن نزيل عنهم مواد الاستضعاف، ونهلك من قاومهم، ونخذل من ناوهم ﴿وَجَعَلَهُمْ أَيْمَةً﴾ في الدين، وذلك لا يحصل مع استضعاف، بل لا بد من تمكين في الأرض، وقدرة تامة ﴿وَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ للأرض، الذين لهم العاقبة في الدنيا قبل

العلويات والسفليات، أتى به؛ لئلا يتوهم اختصاص ربوبيته بالبيت وحده ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أبادر إلى الإسلام.

(٩٢) ﴿وَأَنْ أَتْلُوْا﴾ وأمرت أن أتلو عليكم ﴿الْقُرْآنَ﴾ لتَهتدوا به وتقتدوا، وتعلموا ألفاظه ومعانيه، فهذا الذي علي، وقد أديته ﴿فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ نفعه يعود عليه، وثمرته عائدة إليه ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ وليس بيدي من الهداية شيء.

(٩٣) ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي له الحمد في الأولى والآخرة، ومن جميع الخلق، وبخاصة أهل الاختصاص والصفوة من عباده، فإن الذي وقع، والذي ينبغي أن يقع منهم، من الحمد والثناء على ربهم، أعظم مما يقع من غيرهم؛ لرفعة درجاتهم، وكمال قربهم منه، وكثرة خيراته عليهم ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَعَرَفُونَهَا﴾ معرفة تدلكم على الحق والباطل، فلا بد أن يريكم من آياته ما تستنبطون به في الظلمات ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بل قد علم ما أنتم عليه من الأعمال والأحوال، وعلم مقدار جزاء تلك الأعمال، وسيحكم بينكم حكماً تحمدونه عليه، ولا يكون لكم حجة، بوجه من الوجوه عليه.

سورة القصص

(١) ﴿طَسَمَ﴾ تقدم الكلام على الحروف المقطعة في فواتح سورة البقرة.

(٢) ﴿تِلْكَ﴾ الآيات المستحقة للتعظيم

إِلَيْكَ وَجَاعِلُهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَبَشَّرَهَا بِأَنَّهُ سِيرده إليها، وأنه سيكبر ويسلم من كيدهم، ويجعله الله رسولا.

(٨) ﴿فَالْقَظَّةُ﴾ ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴿فَصَارَ مِنْ لِقْطِهِمْ، وَهُمْ الَّذِينَ بَاشَرُوا وَجْدَانَهُ﴾ ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ لتكون العاقبة والمآل من هذا الالتقاط: أن يكون عدوا لهم وحزنا يحزنهم ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ مجرمين، فأردنا أن نعاقبهم على إجرامهم، ونكيد لهم، جزاء على مكرهم وكيدهم.

(٩) ﴿وَقَالَتْ أُمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾ : هذا الولد ﴿فَرَّتْ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقُولُوهُ﴾ أبقه لنا؛ ليقتر به أعيننا، ونسر به في حياتنا. فقال فرعون: أما لك؛ فنعم، وأما لي فلا. فكان كذلك، وهداها الله به، وأهلكه الله على يديه ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَخْذُمُ وَلَدًا﴾ أي: لا يخلو، إما أن يكون بمنزلة الخدم، الذين يسعون في نفعنا وخدمتنا، أو نرقيه درجة أعلى من ذلك، نجعله ولدا لنا، ونكرمه، ونجمله ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ما جرى به القلم، ومضى به القدر، من وصوله إلى ما وصل إليه. وهذا من لطفه تعالى، فإنهم لو شعروا؛ لكان لهم وله شأن آخر.

(١٠) ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَرِيًّا﴾ من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ﴾ بما في قلبها ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَّ قَلْبَهَا﴾ فثبتناها، فصبرت، ولم تبد به ﴿لِتَكُونَ﴾ بذكر الصبر والثبات ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

سورة القصص
وَتُمْكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرَى فِرْعَوْنَ وَهَمَنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْيَمِيمَ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَاَلْقَظْهُ ءَالَ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتْ أُمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي وَلَكَ لَا تَقُولُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَكْذِبُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَرِيًّا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَّ قَلْبَهَا لَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصْحُوتُ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى آتِيهِ كُنَّا نَمُرُّ بَيْنَهُمَا وَلَا نَحْزَنُ وَلِنَعْلَمَ أَنَّكَ وَعَدُ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

الآخرة.

(٦) ﴿وَتُمْكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ فهذه الأمور كلها، قد تعلقت بها إرادة الله، وجرت بها مشيئته، ﴿و﴾ كذلك نريد أن ﴿نُري فِرْعَوْنَ وَهَمَنَ﴾ وزيره ﴿وَجُنُودَهُمَا﴾ الذين بهم صالوا وجالوا، وعلوا وبغوا ﴿مِنْهُمْ﴾ من هذه الطائفة المستضعفة ﴿مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ من إخراجهم من ديارهم.

(٧) ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى﴾ أي: ألهمت في سرها ونفث في روعها ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ وذلك أنه كانت دارها على حافة النيل، فاتخذت تابوتا، ومهدت فيه مهذا، وجعلت ترضع ولدها ﴿فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ﴾ بأن أحسست أحدا تخافين عليه منه أن يوصله إليهم ﴿فَكَأْتِيهِ فِي الْيَمِيمِ﴾ نيل مصر، في وسط تابوت مخلق ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ

القبطي ﴿فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ هل يشعر به آل فرعون أم لا؟ وإنما خاف؛ لأنه قد علم: أنه لا يتجرأ أحد على مثل هذه الحال سوى موسى؛ من بني إسرائيل، فبينما هو على تلك الحال ﴿فَإِذَا الَّذِي اَسْتَصْرَمُ بِالْأَمْسِ﴾ على عدوه ﴿يَسْتَصْرِخُهُ﴾ على قبطي آخر ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى﴾ أي: للإسرائيلي موبخاً على حاله: ﴿إِنَّكَ لَفَؤُوْءٌ مُّيِّنٌ﴾ بين الغواية، ظاهر الجراءة؛ قاتلت رجلاً فقتلته بسبب، وتقاتل اليوم آخر وتستغيثني عليه؟! وقيل: إنما قال موسى للفرعوني ذلك.

(١٩) ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ﴾ موسى ﴿بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾ له وللمخاصم المستصرخ لموسى، أي: لم يزل اللجاج بين القبطي والإسرائيلي، وهو يستغيث بموسى، فأخذته الحمية، حتى هم أن يبطش بالقبطي ﴿قَالَ﴾ له الإسرائيلي، وقد ظن أنه يريد أن يبطش به؛ لما رأى من غضبه: ﴿يَمْوَسَّى أَتْرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾ بالقتل ظلماً ﴿وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَصْلُحِينَ﴾ فلما سمع القبطي ما قال الإسرائيلي علم أن موسى هو الذي قتل ذلك الفرعوني، فانطلق إلى فرعون وأخبره بذلك، وأمر فرعون بقتل موسى! فطلبوه فبشعوا وراءه ليحضروه لذلك، وهم لا يخافون أن يفوتهم.

(٢٠) ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ﴾ قيل: هو مؤمن آل فرعون ﴿مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾ يسرع في مشيه من نصحه لموسى، وخوفه أن يوقعوا به قبل أن يشعر فأخذ طريقاً قريباً حتى سبق إلى موسى ف ﴿قَالَ يَمْوَسَّى إِنَّكَ أَلَمَلَأَ بِاتَمْرُونَ بِكَ﴾؛

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سُبُلَ الْمُسْتَقِيمِ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا شَيْءَ حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءَ وَأُبْرَأَ شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٢﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَتَيْتُكَ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَجَاءَهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ حَتَّى يَمُوتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأَيُّ اسْتِجْرَاءٍ هَذَا خَيْرٌ مِّنْ اسْتِجْرَاءِ الْقَوْمِ الْأَوَّيْنِ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِنِّي أَرِيدُ أَنْ نَمُنَ إِذْ نَمُنَا بِحِجَابٍ ذَلِكُمْ وَبَيْنَكَ بَيْنَ وَاللَّهِ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٦﴾ فَتَضَيَّعَ لَهَا عَدُوَّتُكَ عَلَى اللَّهِ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٧﴾ فَصَبَّحَهُمَا فَجَمَّعَ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَكَ بَيْنَ وَاللَّهِ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

موسى؛ فندم موسى عَلَى السَّيِّئَةِ عَلَى ما جرى منه، ولم يكن قصده القتل، ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ من تزيينه ووسوسته ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ فلذلك أجريت ما أجريت بسبب عداوته البينة، وحرصه على الإضلال.

(١٦) ثم استغفر ربه ف ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بقتل القبطي من غير أمر ﴿فَاغْفِرْ لِي ذَنْبِي﴾ فغفر لَهُمْ إِنَّهُمْ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ خصوصاً للمحببتين إليه، المبادرين للإنابة والتوبة؛ كما جرى من موسى عَلَى السَّيِّئَةِ.

(١٧) ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿رَبِّ يَمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ بالتوبة والمغفرة والنعم الكثيرة ﴿فَلَنْ أَكُونُ ظَاهِرًا﴾ معيناً ومساعداً ﴿لِلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: لا أعين أحداً على معصيته.

(١٨) ﴿فَأَصْبَحَ﴾ موسى عَلَى السَّيِّئَةِ بعد قتل

(٢٤) فرق لهما موسى عليه السلام ورحمهما ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾ غير طالب منهما الأجر، ولا له قصد غير وجه الله تعالى، فلما سقى لهما، وقيل: إنه رفع حجراً كان على رأس البئر لا يطبق رفعه إلا جماعة من الناس، وكان ذلك وقت شدة حر، وسط النهار بدليل قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾ مستريحاً لتلك الظلال بعد التعب ﴿فَقَالَ﴾ في تلك الحالة مستزقاً ربه: ﴿رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَتَيْتُكَ إِلَى مَن خَيْرٍ فَعِيرٌ﴾ إني محتاج إلى ما تسوقه إلى من أي خير كان، كالطعام، وكان قد اشتد عليه الجوع.

(٢٥) وأما المرأتان، فذهبتا إلى أبيهما، وأخبرتهما بما جرى ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا﴾ فأرسل أبوهما إحداهما إلى موسى عليه السلام، فجاءته ﴿تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ وهذا يدل على كرم عنصرها، وخلقها الحسن ﴿قَالَتْ﴾ له: ﴿إِنِّي أَدْعُوكَ لِجَزِيكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ لا لِمَنْ عليك، بل أنت الذي ابتدأتنا بالإحسان، وإنما قصده أن يكافئك على إحسانك؛ فأجابها موسى عليه السلام.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ من ابتداء السبب الموجب لهربه إلى أن وصل إليه ﴿قَالَ﴾ مسكناً روعه، جابراً قلبه: ﴿لَا تَحَفَّ بُحُوتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ليذهب خوفك وروعك؛ فإن الله نجاك منهم، حيث وصلت إلى هذا المحل، الذي ليس لهم عليه سلطان.

(٢٦) ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا﴾ إحدى ابنتيه: ﴿بَنَاتٍ اسْتَجْرَةٍ﴾ اجعله أجيراً عندك يرعى الغنم ويسقيها ﴿إِنِّي خَيْرٌ مِّنْ اسْتَجَرَتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾؛ أي: إن موسى أولى من استؤجر؛

أي: يتشاورون فيك ﴿لِيَقْتُلُوكَ﴾ بأمر بعضهم بعضاً بقتلك ﴿فَأَخْرَجَ﴾ عن المدينة ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ في الأمر لك بالخروج.

(٢١) فامتثل نصحه ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أن يوقع به القتل، ودعا الله: ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فإنه قد تاب من ذنبه، وفعله غضباً من غير قصد منه للقتل، فتوَعَّدُهُمْ له ظلم منهم وجراءة.

(٢٢) ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ قاصداً بوجهه مدين، وهو جنوبي فلسطين، حيث لا ملك فيه لفرعون ﴿قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾؛ أي: وسط الطريق المختصر، الموصل إليها بسهولة ورفق؛ لأنه لم يكن يعرف إليها قبل فهده الله سواء السبيل، فوصل إلى مدين.

(٢٣) ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ وهو بئر كانوا يسقون منه مواشيهم ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنْ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ مواشيهم، وكانوا أهل ماشية كثيرة ﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ﴾؛ أي سوى الجماعة ﴿أَمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾؛ أي: تحبسان وتمنعان غنمهما عن حياض الناس؛ لعجزهما عن مزاحمة الرجال، وبخلهم وعدم مروءتهم عن السقي لهما ﴿قَالَ﴾ لهما موسى: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ ما شأنكما بهذه الحالة ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ أي؛ قد جرت العادة أنه لا يحصل لنا سقي حتى يصدر الرعاء مواشيهم، فإذا خلا لنا الجو سقيناً مواشينا ما أفضلت مواشيهم في الحوض ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ لا قوة له على السقي؛ فليس فينا قوة نقدر بها، ولا لنا رجال يزاحمون الرعاء.

مشقة فيه ﴿سَجِدْتُ﴾ إن شاء الله من الصالحين ﴿فرغبه في سهولة العمل، وفي حسن المعاملة.

(٢٨) ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام مجيباً له فيما طلبه منه : ﴿ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ هذا الشرط الذي أنت ذكرت، رضيت به، وقد تم فيما بيني وبينك ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَةَ عَلَيَّ﴾ سواء قضيت الثماني الواجبة، أم تبرعت بالزائد عليها ﴿وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ حافظ يراقبنا، ويعلم ما تعاقبنا عليه.

(٢٩) ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ﴾ قضى الأجل الزائد عليه، كما هو الظن بموسى ووفائه ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ قاصداً مصر ﴿ءَأَسَى﴾ أبصر ﴿مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ رأى ناراً تضيء على بعد ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾؛ أي: حتى أذهب إليها ﴿لَعَلَّيْكُمْ عَلَيْكُمْ مِنْهَا يُخْرِجُ﴾ وذلك لأنه قد أضل الطريق ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ قطعة منها ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ تسدفئون بها من البرد.

(٣٠) ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ من جانب الوادي مما يلي الجبل عن يمينه من ناحية الغرب ﴿أَن يَمُوسَى﴾ إني أنا الله ربّ العالمين ﴿فَأخْبِرْ بِالْوَهْيَةِ وَرَبُوبِيَّتِهِ.

(٣١) ﴿وَأَن آتَى عَصَاكَ﴾ فآلقها ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ﴾ تسعى سعياً شديداً، ولها سورة مهيلة

فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ءَأَسَى مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلَّيْكُمْ عَلَيْكُمْ مِنْهَا يُخْرِجُ تَبَرُّكًا أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَمُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾ وَأَن آتَى عَصَاكَ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَّى يُعْطِبُ يُمُوسَى أَقْبَلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣٠﴾ أَسَلِكُ بِكَ فِي جَيْتِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَتَانِ مِنَ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ءِإِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٢﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٣﴾ قَالَ سَنُعَصِّدُكَ يَا خِيَاكَ وَنَجْعَلُ لَكَ سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكَ مَا كَانَ يُنَبِّئُكَ أَنَّ هَارُونَ اتَّبَعَكَ الْغَالِبُونَ ﴿٣٤﴾

فإنه جمع القوة والأمانة، وخير أجبر استؤجر، من جمعهما: القوة والقدرة على ما استؤجر عليه، والأمانة فيه بعدم الخيانة.

(٢٧) ﴿قَالَ﴾ صاحب مدين لموسى عليه السلام ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَٰتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي﴾؛ أي: تصير أجيراً عندي ﴿ثَمَنِي﴾ حِجَجٌ ﴿ثَمَانِي سَنِينَ﴾ فَإِنِ اتَّعَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ﴿تَبَرَّعَ مِنْكَ لَا شَيْءَ وَاجِبَ عَلَيْكَ﴾ فَأَحْتَمَ عَشْرَ السَّنِينَ، وما أريد أن أسأجرك لأكلك أعمالاً شاقة، وإنما استأجرتك لعمل سهل يسير لا

(٢٨) أخرج البخاري عن سعيد بن جبير؛ قال: سألني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا أدري حتى أقدم على حبر العرب، فأسأله، فقدمت فسألت ابن عباس رضي الله عنهما؛ فقال: «قضى أكثرهما وأطيبهما؛ إن رسول الله إذا قال فعل».

فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا أَسْحَرُ
مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَقَالَ
مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا يُلْهَى مِنَ عِبَادِهِ وَمَنْ تَكُونُ
لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ
يَأْتِيهِمُ الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ
لِي يَهْنَكُنْ عَلَى الطَّيْنِ فَأَجْعَلْ لِي صَرْحًا أَلْعَلِّي أُطْعَمُ إِنْ
إِلَهُ مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٣٣﴾ وَاسْتَكْبَرَ
هُوَ وَجُودُهُ فِي الْأَرْضِ يَقُولُ الْحَقُّ وَطَرَأَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا
لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي
الْيَمِّ فَأَنظَرْنَاهُ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾
وَعَمَلْنَاهُمْ آيَةً يَذْعُرُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ
لَا يُنصَرُونَ ﴿٣٦﴾ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً
وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا
مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى
بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٣٨﴾

﴿كَأَنَّمَا جَاءَ﴾ ذَكَرَ الحيات العظيم ﴿وَلَكِنْ مُذِرًا وَلَمْ
يُعَقِّبْ﴾ يرجع، لاستيلاء الروح على قلبه، فقال
السَّهْ له: ﴿يَتَمُوتُونَ أَقْبَلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ
الْآمِنِينَ﴾ وهذا أبلغ ما يكون في التأمين، وعدم
الخوف.

(٣٢) ﴿أَسْأَلُكَ بِدَعَايِكَ﴾ أدخلها ﴿فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ
مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ من غير برص ﴿وَأَضْمَمْتُ إِلَيْكَ
جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ ضم جناحك وهو عضدك
إلى جنبك ليزول عنك الرهب والخوف
﴿فَلَذَلِكَ﴾ يعني: العضا، واليد البيضاء ﴿بُرْهَانًا
مِنْ رَبِّكَ﴾ حجتان قاطعتان من الله ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ
وَمَلَائِكَتِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا فَوْقًا فَتَسْقِطُ﴾ فلا يكفهم
مجرد الإنذار وأمر الرسول إليهم، بل لا بد من
الآيات الباهرة إن نفعت.

(٣٣) ف ﴿قَالَ﴾ موسى ﷺ، معترضًا من ربه،
سائلًا له المعونة على ما حمله: ﴿رَبِّ إِنِّي قُلْتُ
مِنْهُمْ نَفْسًا﴾ يعني ذلك القبطي ﴿فَأَخَافُ أَنْ
يَقْتُلُونِي﴾ إذا رأوني.

(٣٤) ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾
وذلك أن موسى ﷺ كان في لسانه لشدة
بسبب ما كان تناول الجمرة حين خُيِّرَ بينها وبين
التمر أو الدرة؛ فأخذ الجمرة فوضعها على
لسانه، فحصل له شدة في التعبير ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ
رِدْعًا﴾ معاونًا ومساعدًا ﴿بِصِدْقِي﴾ فإنه مع تصافر
الأخبار يقوى الحق ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ يعني
فرعون وقومه.

(٣٥) فأجابه الله إلى سؤاله؛ ف ﴿قَالَ سَنَشُدُّ
عَضْدَكَ بِأَخِيكَ﴾ نعاونك به ونقويك، ثم أزال
عنه محذور القتل؛ فقال: ﴿وَيَجْعَلُ لَكُمْ
سُلْطَانًا﴾ تسلطًا وتمكنًا من الدعوة بالحجة،

والهبة الإلهية من عدوهما ﴿فَلَا يَصْلُونَ إِلَيْكُمَا
يَأْتِيَانِي﴾ وذلك بسبب آياتنا، وما دلت عليه
من الحق، وما أزعجت به من باشرها ونظر
إليها ﴿أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ أخبرهما أن
العاقبة لهما ولمن اتبعهما في الدنيا والآخرة.
(٣٦) ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾
واضحات الدلالة على ما قال لهم ليس فيها
قصور ولا خفاء ﴿قَالُوا﴾ على وجه الظلم
والعلو والعناد: ﴿مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى﴾
مفتعل مصنوع ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا
الْأَوَّلِينَ﴾ وقد كذبوا في ذلك؛ فإن الله أرسل
يوسف قبل موسى.

(٣٧) ﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ حين زعموا أن الذي
جاءهم به سحر وضلال، وأن ما هم عليه هو
الهدى: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا جَاءَ بِالْهَدَى مِنْ

وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٠﴾ ولكن سنحقق هذا الظن، ونريكم كذب موسى.

(٣٩) ﴿وَاسْتَكْبَرُوا هُوَ وَحُودُهُ فِي الْأَرْضِ يَعْبُرُ
الْحَقُّ﴾ استكبروا على عباد الله، وساموهم
سوء العذاب، واستكبروا على رسل الله، وما
جاءوهم به من الآيات، فكذبوها، وزعموا أن
ما هم عليه أعلى منها وأفضل ﴿وَوَطَّنُوا إِنَّهُمْ
إِنَّمَا لَا يَرْجِعُونَ﴾ فلذلك تجرأوا، وإلا فلو
علموا، ووطنوا أنهم يرجعون إلى الله؛ لَمَا كان
منهم ما كان.

(٤٠) ﴿فَأَخَذَتْهُ وَخُوْدُوْهُ﴾ عندما استمر
عنادهم وبغيهم ﴿فَسَبَّوْهُمْ فِي الْيَمِّ فَأَنْظَرُ
كَيْفَ كَانَ عِقَبَةُ الظَّالِمِيْنَ﴾ كانت شر
العواقب وأخسرها عاقبة، أعقبتها العقوبة
الذنبية المستمرة، المتصلة بالعقوبة الأخروية.

(٤١) ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَذْعُونَ إِلَى الثَّغَارِ﴾
 جعلنا فرعون وملأه من الأئمة الذين يقتدى
 بهم ويمشى خلفهم إلى دار الخزي والشقاء
 ﴿وَيَوْمَ أَفْيِكَمَةَ لَا يُصْرُونَ﴾ من عذاب الله؛
 فهم أضعف شيء عن دفعه عن أنفسهم،
 وليس لهم من دون الله من ولى ولا نصير.

(٤٢) ﴿وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ زيادة
في عقوبتهم وخزيهم في الدنيا لعنة يلعنون،
ولهم عند الخلق الثناء القبيح، والمقت والذم
وهذا أمر مشاهد، فهم أئمة الملعونين في
الدنيا ومقدمتهم ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ
الْمَقْبُوحِينَ﴾ المبعدين، المستقذرة أفعالهم،
الذين اجتمع عليهم مقت الله، ومقت خلقه،
ومقت أنفسهم.

(٤٣) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ وهو التوراة

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفَرَقِ إِذْ فَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا فِرْعَوْنَ فَطَرًا وَلَعَلَّاهُمْ أَتَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾ وَمَا كُنْتَ تَأْوِيهِ أَهْلَ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحِمْنَا مَن رَّبَّكَ إِسْتَدْرَقُوا مَا آتَيْنَاهُم مِّنْ نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُمُ تُصِيبَةٌ يَمَافِدُمْتَ أَيَدِيَهُمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُفِيعَ ءَايَاتِنَا وَكَفَرُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْنَا آيَاتٌ مِّن مَّوْسَىٰ أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ ﴿١٩﴾ قُلْ فَاسْأَلُوا رِبِّيَ عَنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَوْعَهُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٠﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَكُونُ بَعْضُ آهْوَاءِهِمْ وَمِن أَصْلٍ مِّنْ بَعْضِ هَوَاهُمْ يَغْتَرِ هُدًى مِّنَ الْغُرَىٰ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾

عِنْدِهِ. وَمَنْ تَكُونُ لَمْ عَقِبَةُ الدَّارِ ﴿١٠﴾ إِذَا لَمْ تَفِدِ
المقابلة معكم، وتبيين الآيات البينات، وأيتم
إلا التماذي في غيكم، واللجاج على كفركم،
فألله تعالى العالم بالمهتدي وغيره، ومن تكون
له عاقبة الدار، نحن أم أنتم ﴿١١﴾ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ
الظَّالِمُونَ ﴿١٢﴾ فصار عاقبة الدار لموسى وأتباعه
والفلاح والفوز، وصار لأولئك الخسار وسوء
العاقبة والهلاك.

(٣٨) ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ متجرباً على ربه، ومموهاً على قومه السفهاء ضعفاء العقول ﴿يَتَّبِعُهَا أَلَمَلًا مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ أنا وحدي إلهكم ومعبودكم، ولو كان ثمَّ إله غيري لعلمته ﴿فَأَوْفِدْ لِي يَهْنَدُنْ عَلَى الطِّينِ﴾ ليجعل له لبناً من فخار ﴿فَلْيَجْعَلْ لِي صَرْحًا﴾ بناءً عالياً ﴿لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾

موسى، وأمرناه أن يأتي القوم الظالمين، ويبلغهم رسالتنا، ويريهـم من آياتنا وعجائبنا ما قصصنا عليك ﴿وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُم مِّنْ نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴿أَي: العرب وقريش﴾ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿تفصيل الخير فيفعلونه، والشر فيتركونه وإنذاره للعرب لا ينفي أن يكون مرسلًا لغيرهم؛ فكانت رسالته لهم أصلًا، ولغيرهم تبعًا.

(٤٧) ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فأرسلناك يا محمد؛ لدفع حجتهم، وقطع مقالتهم.

(٤٨) ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ الذي لا شك فيه ﴿مِّنْ عِنْدِنَا﴾ وهو القرآن الذي أوحيناه إليك ﴿قَالُوا﴾ مكذبين له، ومعترضين بما ليس يعترض به: ﴿لَوْلَا أَوْفَىٰ مِثْلَ مَا أَوْفَىٰ مُوسَى﴾ أي: أنزل عليه كتاب من السماء جملة واحدة؛ أي: فأما ما دام ينزل متفرقًا، فإنه ليس من عند الله، وأتي دليل في هذا؟! وأي شبهة أنه ليس من عند الله حين نزل مفرقًا؟! بل من كمال هذا القرآن، واعتناء الله بمن أنزل عليه، أن نزل متفرقًا ليثبت الله به فؤاد رسوله، ويحصل زيادة الإيمان للمؤمنين، بل لقد كفروا بكتاب موسى من قبل، ولهذا قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ مِنْ

﴿مِّنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ الذين كان خاتمتهم في الإهلاك العام فرعون وجنوده ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ كتاب الله الذي أنزله على موسى فيه بصائر للناس: أمور يبصرون بها، ما ينفعهم وم يضرهم، فتقوم الحجة على العاصي، وينتفع بها المؤمن، فتكون رحمة في حقه، وهداية إلى الصراط المستقيم، ولهذا قال: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ لمن آمن به ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ بما فيه من المواعظ والبصائر.

(٤٩) ﴿وَمَا كُنْتَ﴾ يا محمد ﴿بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾ بجانب الجبل الغربي ﴿إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾ يعني عهدنا إليه وأحكمنا الأمر معه بالرسالة إلى فرعون وقومه ﴿وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ على ذلك، حتى يقال: إنه وصل إليك من هذا الطريق.

(٥٥) ﴿وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾ خلقنا أممًا بعد موسى ﷺ ﴿فَنَطَاوَلْ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ فاندرس العلم، ونسيت آياته؛ فبعثناك في وقت اشتدت الحاجة إليك، وإلى ما علمناك، وأوحينا إليك ﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا﴾ مقيمًا ﴿فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا﴾ تعلمهم، وتتعلم منهم، حتى أخبرت بما أخبرت من شأن موسى في مدين ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ ولكن ذلك الخبر الذي جئت به عن موسى أثر من آثار إرسالنا إياك، ووَخِي لا سبيل لك إلى علمه بدون إرسالنا.

(٤٦) ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾

(٤٣) أخرج الطبري وابن أبي حاتم في «تفسيريهما» بإسناد صحيح عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «ما أهلك الله قومًا بعداذ من السماء والأرض بعدما أنزلت التوراة على وجه الأرض غير القرية التي مسحوا قردة بعد موسى، ألم تر أن الله يقول: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾».

وورد عند البزار مرفوعاً، وإسناده صحيح.

مجرد اتباع لأهوائهم ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَغْيِرْ هُدَىٰ مِنَ اللَّهِ﴾ فهذا من أضل الناس، حيث عرض عليه الهدى والصراط المستقيم الموصل إلى الله وإلى دار كرامته، فلم يلتفت إليه، ولم يقبل عليه، ودعاه هواه إلى سلوك الطرق الموصلة إلى الهلاك والشقاء، فاتبعه وترك الهدى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الذي صار الظلم لهم وصفاً، والعناد لهم نعتاً.

(٥١) ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ تابعناه وواصلناه، وأنزلناه شيئاً فشيئاً؛ رحمة بهم ولطفاً ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ حين تتكرر عليهم آياته، وتنزل عليهم بيناته وقت الحاجة إليها، فصار نزوله متفرقاً رحمة بهم، فلم اعتراضوا بما هو من مصالحهم؟!

(٥٢) ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ وهم أهل التوراة والإنجيل، الذين لم يغيروا ولم يبدلوا ﴿هُم بِهِ﴾ بهذا القرآن، ومن جاء به ﴿يُؤْمِنُونَ﴾.

(٥٣) ﴿وَإِذَا يُنَادِي عَلَيْهِمْ﴾ استمعوا له، وأذعنوا، و﴿قَالُوا ءَأَمَّا بِهِ﴾ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا﴾ لموافقته ما جاءت به الرسل، ومطابقته لما ذكر في الكتب، واشتماله على الأخبار الصادقة، والأوامر والنواهي الموافقة لغاية الحكمة ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ فلذلك ثبتنا على ما مرَّ الله به علينا من الإيمان والإسلام، فصدقنا بهذا القرآن، آمنا بالكتاب الأول، والكتاب الآخر، وغيرنا ينقض تكذيبه بهذا الكتاب إيمانه بالكتاب الأول.

(٥٤) ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الذين آمنوا بالكتابين ﴿يُؤْتُونَ

لَهُمُ الْغَنَىٰ﴾

وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُنَادِي عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنٍ بِمَا صَبَرُوا وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلِّمْ عَلَيْكُمْ لَا تَبْتَغِ الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا إِنَّا نَبِيعُ الْهُدَىٰ مَعَكَ نَتَحَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُحِيطُ إِلَيْهِ فَمَرَّتْ كُلُّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِ بِطَرِيقٍ مَعِيشَتَهَا فَبَلَّغَ مَسْكَنَهُمْ لَوْ شِئْنَا مِنْ بَعْدِهِ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبِيتَ فِي أَمْهَارٍ مُوَلَّاءٌ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾

قُلْ أَي: فقد كفروا بآيات موسى كما كفروا بآيات محمد ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ القرآن والتوراة تعاونا في سحرهما، وإضلال الناس؛ فثبت بهذا أن القوم يريدون إبطال الحق، بما ليس ببرهان، وهذا شأن كل كافر، ولهذا صرح أنهم كفروا بالكتابين والرسولين ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ﴾.

(٤٩) ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿فَأَنَّا بِكِتَابٍ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا﴾ من التوراة والقرآن ﴿آتَيْنَاهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ولا سبيل لهم ولا لغيرهم أن يأتوا بمثلها.

(٥٠) ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ فلم يأتوا بكتاب أهدى منهما ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُبْعِثُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: فاعلم أن تركهم اتباعك، ليسوا ذاهبين إلى حق يعرفونه، ولا إلى هدى، وإنما ذلك

وهو أعلم بمن يصلح للهداية فيهديه، ممن لا يصلح لها فيقيه على ضلاله.

وأما إثبات الهداية للرسول ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فتلك هداية البيان والإرشاد.

(٥٧) ﴿وَقَالُوا﴾؛ أي: بعض كفار قريش معتردين عن عدم اتباع الهدى حيث قالوا لرسول الله ﷺ: ﴿إِنْ تَتَّبِعِ الْهْدَى مَعَكَ نُنْخَفُفُ مِنْ أَرْضًا﴾ بالقتل والأسر ونهب الأموال، فقال الله تعالى مجيباً لهم: ﴿أَوَلَمْ تُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ أولم نجعلهم متمكنين، ممكنين في حرم أكثر المتأبون إليه، ويقصده الزائرون، قد أحترمه القريب والبعيد، فلا يهاج أهله، ولا ينتقصون بقليل ولا كثير ﴿يُجِئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من سائر الثمار مما حوله وكذلك المتاجر والأمتعة ﴿رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ من عندنا ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولهذا قالوا ما قالوا.

(٥٨) فتوعدهم الله تعالى بما فعل بالأمم قبلهم، فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِكَ بَطَرَتْ مَعِيشَتُهُمْ﴾ فخرت بها وألتهها، واشتغلت بها عن الإيمان بالرسول؛ فأهلكهم الله ﴿فَلْيَكُنْ

أَجْرُهُمْ مَزَيْنٌ﴾: أجراً على الإيمان الأول، وأجراً على الإيمان الثاني ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ على الإيمان، وثبتوا على العمل، ومن خصالهم الفاضلة: أنهم ﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ دأبهم وطريقتهم: الإحسان لكل أحد، حتى للمسيء إليهم بالقول والفعل.

(٥٩) ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ﴾ من جاهل خاطبهم به أعرضوا عنه، و ﴿قَالُوا﴾ مقالة عباد الرحمن أولي الأبواب: ﴿لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾؛ كُلُّ سَيَجَازِي بِعَمَلِهِ، الذي عمله وحده، ليس عليه من وزر غيره شيء ﴿سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: سلمتم منا، لا تسمعون منا إلا الخير، لا نعارضكم بالشتم والقبیح من القول ﴿لَا يَنْبَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ لا نريد طريق الجاهلين ولا نجها.

(٥٦) ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ يخبر تعالى أنك يا محمد - وغيرك من باب أولى - لا تقدر على هداية أحد، ولو كان من أحب الناس إليك ﴿وَلَكِنْ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ فإن هذا أمر غير مقدور للخلق هداية التوفيق، وخلق الإيمان في القلب، وإنما ذلك بيد الله تعالى يهدي من يشاء ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾

(٥٤) أخرج الطبري في «جامع البيان» وأبو القاسم البغوي في «معجم الصحابة» والطبراني في «الكبير» بإسناد صحيح عن رفاعة القرظي رضى الله عنه، قال: «نزلت هذه الآية في عشرة أنا منهم».

(٥٦) في «الصحيحين» من حديث المسيب بن حزن رضى الله عنه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة؛ جاء رسول الله ﷺ، فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، قال: «اي عم! قل: لا إله إلا الله؛ كلمة أحاج لك بها عند الله» فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيدانه بتلك المقالة، حتى قال أبو طالب: آخر ما كلمهم: على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، قال: فقال رسول الله ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» فأنزل الله: ﴿مَا كَانِ لِلنَّاسِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣] ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

أخبارها ﴿رَسُولًا يَنْتُلُوْا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا﴾ الدالة على صحة ما جاء به، وصدق ما دعا إليه؛ فيبلغ قوله قاصبهم ودانيهم ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ بالكفر والمعاصي، مستحقون للعقوبة.

(٦٠) ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ هذا حض منه تعالى لعباده، على الزهد في الدنيا، وعدم الاغترار بها، وعلى الرغبة في الأخرى، وجعلها مقصود العبد ومطلوبه، ويخبرهم أن جميع ما أوتي الخلق: من الذهب، والفضة، والحيوانات والأمتعة، والنساء، والبنين، والمآكل، والمشارب واللذات ﴿فَمَتَّعُ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ كلها متاع الحياة الدنيا وزينتها؛ أي: يتمتع به وقتاً قصيراً، متاعاً قاصراً، محشواً بالمنغصات، ممزوجاً بالغصص ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من النعيم المقيم، والعيش السليم ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أفضل في وصفه وكميته، وهو دائم أبداً، ومستمر سرمداً ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أفلا تكون لكم عقول بها تزنون أي الأمرين أولى بالإيثار، وأي الدارين أحق للعمل بها.

(٦١) ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾ هل يستوي مؤمن ساع للآخرة سعيها قد عمل على وعد ربه له، بالثواب الحسن: الذي هو الجنة، وما فيها من النعيم العظيم؛ ﴿فَهُوَ لَقِيهِ﴾ من غير شك، ولا ارتياب؛ لأنه وعد من كريم، صادق الوعد، لا يخلف الميعاد، لعبد قام بمرضاته، وجانب سخطه ﴿كَمْ مَتَّعْنَاهُ مَتَّعُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ فهو يأخذ

وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَقِيهِ كَمْ مَتَّعْنَاهُ مَتَّعُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يَأْتِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ كُنتُمْ عَلَيْهِمُ الْقَوْلَ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يَأْتِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَبَّعْتُمْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءَ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا نَبَاتٌ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَتَسَاءَلُونَ أَن كُنتُمْ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْخِصْمُ الْأَوَّلَى وَالْآخِرَةُ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾

مَسَكْنَهُمْ لَمْ تَسْكَنْ مِنْ بَدْرِهِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لتوالي الهلاك والتلف عليهم، وإيحاشها من بعدهم ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ للعباد، نमितهم، ثم يرجع إلينا جميع ما متعناهم به من النعم، ثم نعيدهم إلينا، فنجازيهم بأعمالهم، ومن حكمته ورحمته أن لا يعذب الأمم بمجرد كفرهم قبل إقامة الحجة عليهم، بإرسال الرسل إليهم، ولهذا قال:

(٥٩) ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ﴾ بكفرهم وظلمهم ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمَةٍ﴾ في القرية والمدينة التي إليها يرجعون، ونحوها يترددون، وكل ما حولها ينتجعها، ولا تخفى عليهم

(٦٠) أخرج مسلم في «صحيحه» من حديث المستورد بن شداد يغمر أحدكم إصبه في اليم؛ فليظنر ما ذا يرجع إليه.

كاذبين، مستحقين للعقوبة ﴿وَرَأَوْا الْعَذَابَ﴾ الذي سيحل بهم عياناً، بأبصارهم بعد ما كانوا مكذبين به، منكرين له ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ لما حصل عليهم ما حصل، ولهدوا إلى صراط الجنة.

(٦٥) ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ هذا النداء في إثبات النبوة ﴿فَيَقُولُ﴾ الله سبحانه لهم: ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ هل صدقتموهم واتبعتموهم، أم كذبتموهم وخالفتموهم؟ وهذا كما يسأل العبد في قبره: من ربك؟ ومن نبيك؟ وما دينك؟

(٦٦) ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ فَهُمْ لَا يَسَاءَلُونَ﴾ عميت عليهم الحجج فلم يحيروا عن هذا السؤال جواباً، ولم يهتدوا إلى الصواب.

(٦٧) ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ لما ذكر تعالى سؤال الخلق عن معبودهم وعن رسلهم؛ ذكر الطريق الذي ينجو به العبد من عقاب الله تعالى، وأنه لا نجاة إلا لمن اتصف بالتوبة عن الشرك والمعاصي، وآمن بالله فعبده، وآمن برسله؛ فصدقهم، وعمل صالحاً متبعاً فيه للرسل ﴿فَسَقَىٰ أَنْ يَكُونَ﴾ من جمع هذه الخصال ﴿مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾؛ أي: يوم القيامة و«عسى» من الله موجبة فإن هذا واقع بفضل الله ومثله لا محالة.

(٦٨) ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ يخبر تعالى أن المنفرد بالخلق والاختيار، وأنه ليس له منازع ولا معقب ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ وأن أحداً ليس له من الأمر والاختيار شيء ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وأنه تعالى منزّه عن كل ما يشركون به.

(٦٩) ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وأنه العالم بما أكنته الصدور، وما أعلنوه.

فيها ويعطي، ويأكل ويشرب، ويتمتع كما تتمتع البهائم، قد اشتغل بدياه عن آخرته، ولم يرفع بهدى الله رأساً، ولم ينقد للمرسلين، فهو لا يزال كذلك، لا يتزود من دنياه إلا الخسار والهلاك ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ للحساب، وقد علم أنه لم يقدم خيراً لنفسه، وإنما قدم جميع ما يضره، وانتقل إلى دار الجزاء بالأعمال..

(٦٢) ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ هذا إخبار من الله تعالى عما يسأل عنه الخلائق يوم القيامة، وأنه يسألهم عن أصول الأشياء: عن عبادة الله، وإجابة رسله؛ فقال: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ ينادي من أشركوا به شركاء، يعبدونهم، ويرجون نفعهم؛ ودفع الضرر عنهم، فيناديهم؛ ليبين لهم عجزها وضلالهم ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ وليس لله شريك ولكن ذلك بحسب زعمهم وافترائهم ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

(٦٣) ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ من الرؤساء والقادة في الكفر والشر، مقرين بغوايتهم وإغوائهم: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ﴾ التابعون ﴿الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ كلنا قد اشترك في الغواية، وحق عليه كلمة العذاب ﴿ثُمَّ نَرَأَاهُ إِلَىٰ تِلْكَ﴾ من عبادتهم؛ أي: نحن برآء منهم، ومن عملهم ﴿مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ وإنما كانوا يعبدون الشياطين.

(٦٤) ﴿وَقِيلَ لَهُمْ: أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ على ما أملت فيهم من النفع ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ لينفعوهم، أو يدفعوا عنهم من عذاب الله من شيء ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ فعلم الذين كفروا أنهم كانوا

عِزُّ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ ﴿٧٢﴾ تبصرون به وتستأنسون بسببه ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ مواظظ الله وآياته سماع فهم وقبول وانقياد.

(٧٢) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ ثم يمتن عليهم مرة أخرى ويذكرهم بنعمة أخرى ﴿إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَكْرَمًا﴾ دائماً مستمراً ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ أخبروني ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُونُونَ فِيهِ﴾ تستريحون من حركاتكم وأشغالكم ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ مواقع العبر؛ ومواضع الآيات؛ فتستنير في بصائركم، وتسلکوا الطريق المستقيم؟!

(٧٣) ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ﴾ بكم ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي: خلق هذا وهذا ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ في الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ في النهار بالأسفار والترحال والحركات والأشغال ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله بأنواع العبادات في الليل والنهار، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

(٧٤) ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ ويوم ينادي الله المشركين به، العادلين به غيره، الذين يزعمون أن له شركاء، يستحقون أن يعبدوا، وينفعون ويضرون، فإذا كان يوم القيامة وأراد الله أن يظهر جرائعهم وكذبهم في زعمهم وتكذيبهم لأنفسهم ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾؟ أي: في الدنيا، وكرر ذكر النداء للمشركين لزيادة التقرير والتوبيخ.

(٧٥) ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ وأحضرنا من كل جماعة شهيداً، وهو نبيها الذي يشهد عليها بما أجابته أمته فيما أتاهم به عن الله من الرسالة ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُونُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتُرُونَ ﴿٧٥﴾ إِنْ قَرُّونَ كَذَبُوا مِنْ قَوْمٍ مُوسَى فَبَقِيَ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُتُبِ مَا أَنْ مَفَاحِمُهُ لِنَسُوا بِالْعَصَبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُقْسِدِينَ ﴿٧٧﴾

(٧٠) ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ وأنه وحده المعبود المحمود في الدنيا والآخرة على ما له من صفات الجلال والجمال، وعلى ما أسداه إلى خلقه من الإحسان والإفضال ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ وأنه هو الحاكم في الدارين: في الدنيا، بالحكم القدري، الذي أثره جميع ما خلق وذراً والحكم الديني، الذي أثره جميع الشرائع، والأوامر والنواهي. وفي الآخرة يحكم بحكمه القدري والجزائي، ولهذا قال: ﴿وَالِيهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازي كلا منكم بعمله، من خير وشر.

(٧١) قال تعالى ممتناً على عباده، ومذكراً لنعمه عليهم: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين جعلوا لله أنداداً، وهو خالقهم ورازقهم ومدير حياتهم ﴿أَوَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني ﴿إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ دائماً ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ

حجتكم ودليلكم على صحة شرككم مع إقامة الحجج عليكم ﴿فَعَلِمُوا﴾ حينئذ بطلان قولهم وفساده، و﴿أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ تعالى؛ قد توجهت عليهم الخصومة، وانقطعت حجتهم، وأفلحت حجة الله ﴿وَمَدَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَقْتَرُونَ﴾ من الكذب والإفك، واضمحل وتلاشى وعدم.

(٧٦) ﴿إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ من بني إسرائيل، وهو ابن عمه، على قول جمهور المفسرين ﴿فَبَقِيَ عَلَيْهِمْ﴾ وطغى؛ بما أوتيته من الأمور العظيمة المطغية ﴿وَوَإِنَّهُ مِنْ الْكُنُوزِ﴾ كنوز الأموال شيئاً كثيراً ﴿مَّا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ﴾ لتثقل ﴿بِالْعَصْبَةِ أُولَى الْقُرُونِ﴾ والعصبة من العشرة إلى التسعة إلى السبعة، أي: حتى أن مفاتيح خزائن أمواله، تثقل الجماعة القوية عن حملها، هذه المفاتيح، فما ظنك بالخزائن؟! ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ﴾ ناصحين له، محذرين له عن الطغيان: ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ بهذه الدنيا العظيمة، وتفتخر بها، وتلهيك عن الآخرة، ف﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ بها، المنكبين على محبتها.

(٧٧) ﴿وَاتَّبَعَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ ابتغ بها ما عند الله، وتصدق ولا تقتصر على مجرد نيل الشهوات، وتحصيل اللذات ﴿وَلَا تَشْكُ نَصِيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ لا نأمرك أن تتصدق بجميع مالك وتبقى ضائعاً، بل أنفق لآخرتك، واستمتع بدنياك استمتاعاً لا يثلم دينك، ولا يضر بآخرتك ﴿وَأَحْسِنْ﴾ إلى عباد الله ﴿كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ بهذه الأموال

قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۖ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْبَرُ جُمُعاً ۚ وَلَا يَسْتَلْ عَنْ دُورِهِمْ أَلَمْ يُجِزُوا ۖ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا لِلْآخِرَةِ لَنَسِيَةٌ ۖ لَنَا مِثْلُ مَا أُوتِيَ قَدْ رَوْنَاهُ إِنَّمَا لَدُوْحُ حَظٍ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ آمَنٌ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا تُلْغَاهُمُ إِلَّا الصَّغِيرَاتُ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِمْ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَكَانَ لَكُمْ مِنْ فَتْنَةٍ يَتَصُدُّونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيُكَارِهُ اللَّهُ بَشَاطَةَ الَّذِينَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِلْمٌ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٢﴾ وَلِلَّذِينَ كَانُوا لَدُنْكُمْ مِنَ الْغُلَامَةِ مَا يَصْنَعُونَ الْبَنَاتُ أَلَمْ تَكُنْ لَهُنَّ الْفُتُوٰةُ ۚ فَمِنْهُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨٣﴾ وَلِلَّذِينَ كَانُوا لَدُنْكُمْ مِنَ الْغُلَامَةِ مَا يَصْنَعُونَ الْبَنَاتُ أَلَمْ تَكُنْ لَهُنَّ الْفُتُوٰةُ ۚ فَمِنْهُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨٤﴾ وَلِلَّذِينَ كَانُوا لَدُنْكُمْ مِنَ الْغُلَامَةِ مَا يَصْنَعُونَ الْبَنَاتُ أَلَمْ تَكُنْ لَهُنَّ الْفُتُوٰةُ ۚ فَمِنْهُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨٥﴾

﴿وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالتكبر، والعمل بمعاصي الله، والاشتغال بالنعيم عن النعم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ بل يعاقبهم على ذلك، أشد العقوبة.

(٧٨) ﴿فَقَالَ﴾: قارون - راداً لنصيحتهم، كافراً بنعمة ربه - ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ أي: إنما أدركت هذه الأموال بكسبي، ومعرفتي بوجوه المكاسب، وحذقي، أو على علم من الله بحالي، يعلم أنني أهل لذلك، فلم تنصحوني على ما أعطاني الله تعالى؟! قال الله تعالى مبيناً أن عطاءه ليس دليل على حسن حالة المعطى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً

جواذب الدنيا وشهواتها أن تشغلهم عن ربهم. (٨١) فلما انتهت بقارون حالة البغي والفخر، وأزَّيْنَت الدنيا عندهم، وكثر بها إعجابه، بغته العذاب ﴿فَحَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ أنزله الله أسفل سافلين، هو وما اغتر به من داره وأثاثه ومتاعه ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ﴾ جماعة وعصبة وخدم وجنود ﴿يَصُورُهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُتَشَبِهِينَ﴾ جاءه العذاب؛ فما نصر، ولا انتصر.

(٨٢) ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَيْمِ﴾ الذين يريدون الحياة الدنيا ﴿يَقُولُونَ﴾ متوجعين ومعتبرين وخائفين من وقوع العذاب بهم: ﴿وَيَكَاذِبُونَ﴾ أي: ألم تعلم يا هذا أن ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ يضيق الرزق على من يشاء، فعلمنا حينئذ أن بسطه لقارون، ليس دليلاً على خير فيه، وأنا غالطون في قولنا: ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ و﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ فلم يعاقبنا على ما قلنا، فلولا فضله ومنته ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ فصار هلاك قارون عقوبة له، وعبرة وموعظة لغيره، حتى إن الذين غبطوه، سمعت كيف ندموا وتغير فكرهم الأول ﴿وَيَكَاذِبُونَ لَا يَفْلَحُ الْكَافِرُونَ﴾ لا في الدنيا ولا في الآخرة.

(٨٣) لما ذكر تعالى قارون وما حدث له، رغب تعالى في الدار الآخرة وأخبر بالسبب الموصول إليها، فقال: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ التي أخبر الله بها في كتبه وأخبرت بها رسله، التي

وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ فما المانع من إهلاك قاروته مع مُضِيِّ عادتنا وستتنا بإهلاك مَنْ هو مثله وأعظم منه؛ إذ فعل ما يوجب الهلاك؟ ﴿وَلَا يُسْئَلُ عَنْ دُونِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ بل يعاقبهم الله، ويعذبهم على ما يعلمه منهم.

(٧٩) ﴿فَخَرَجَ﴾ قارون ذات يوم ﴿عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ بحالة أرفع ما يكون من أحوال دنياه ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ الذين تعلقت إرادتهم فيها، وصارت منتهى رغبتهم، ليس لهم إرادة في سواها: ﴿يَنَالَتْ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾ من الدنيا ومتاعها وزهرتها ﴿إِنَّهُمْ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ ذو حظ وافر من الدنيا.

(٨٠) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ الذين عرفوا حقائق الأشياء، ونظروا إلى باطن الدنيا، حين نظر أولئك إلى ظاهرها: ﴿وَيَلَكُمُ﴾ متوجعين مما تمنوا لأنفسهم، راثين لحالهم، منكربين لمقالهم ﴿تَوَابُ اللَّهِ﴾ العاجل من لذة العبادة ومحبه والإنابة إليه والإقبال عليه، والآجل من الجنة ﴿خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ من هذا الذي تمنيتم ورغبتم فيه ﴿وَلَا يُلْقِنَهَا﴾ أي: لا يؤتاها، قيل: المراد: الأعمال الصالحة، وقيل: الكلمة التي قيلت؛ أي: ولا يوفق لقل هذه الكلمة، وهي قوله: ﴿تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ ﴿إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ الذين حبسوا أنفسهم على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة، وصبروا على

(٨١) في «الصححين» من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يجر إزاره إذ خسف به؛ فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة».

جمعت كل نعيم، واندفع عنها كل مقدر ومنغص ﴿يَجْمَعُهَا﴾ داراً وقراراً ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ ليس لهم إرادة، فكيف العمل للعلو في الأرض على عباد الله، والتكبر عليهم وعلى الحق؟! ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ وهذا شامل لجميع المعاصي، فإذا كانوا لا إرادة لهم في العلو في الأرض، ولا الفساد؛ لزم من ذلك أن تكون إرادتهم مصروفة إلى الله، وقصدهم الدار الآخرة، وحالهم التواضع لعباد الله، والانقياد للحق والعمل الصالح ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾ حالة الفلاح والنجاح التي تستقر وتستمر ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ لمن اتقى الله تعالى.

(٨٤) ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ والحسنة: اسم جنس يشمل جميع ما أمر الله به ورسوله، من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحقه تعالى وحقوق العباد ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ أعظم وأجل ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ وهي كل ما نهى الشارع عنه نهى تحريم ﴿فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهذا مقام الفضل والعدل.

(٨٥) ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ نزله، وفرض فيه الأحكام، وبيّن فيه الحلال والحرام، وأمرك بتبليغه للعالمين، والدعوة لأحكامه جميع المكلفين ﴿لِرَأْذِكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ إلى يوم القيامة، وقيل: إلى الجنة، وقيل: إلى مكة ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ قل لمن كذبك من قومك: ربي أعلم بالمهتدين منكم ومني وستعلمون لمن تكن له عاقبة الدار.

لِلَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِرَأْذِكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْخُكُومُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ٣ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ سَبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ٤ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٥ وَمَنْ جَاهِدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ٦

(٨٦) ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ لم تكن متحرياً لنزول هذا الكتاب عليك، ولا مستعداً له، ولا متصدياً ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ بك وبالعباد ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيرًا﴾ أي: معيناً ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ ولكن فارقهم وناذهم وخالفهم.

(٨٧) ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ بل أبلغها وأنفذها، ولا تبال بمكرهم، ولا يخدعك عنها، ولا تتبع أهواءهم ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ اجعل الدعوة إلى ربك منتهى قصدك وغاية عملك ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ لا في شركهم، ولا في فروعه وشعبه، التي هي جميع المعاصي.

(٨٨) ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ بل أخلص لله عبادتك؛ فإنه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فلا أحد

بغير اختبار ولا ابتلاء ﴿أَنْ يَقُولُوا ءَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ لا يبتلون في أموالهم وأنفسهم؟ كلا، لنختبرنهم ليبين المخلص من المنافق، والصادق من الكاذب.

(٣) ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأنبياء والمؤمنين ﴿فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في قولهم: آمنا ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ والله أعلم بهم قبل الاختبار، ومعنى الآية: فليظهرن الله الصادقين من الكاذبين حتى يوجد معلومه.

(٤) ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفُتُونَا﴾ أحسب الذين همهم فعل السيئات، وارتكاب الجنيات: أن أعمالهم ستهمل، وأن الله سيغفل عنهم، أو يفوتونه، فلذلك أقدموا عليها، وسهل عليهم عملها؟ ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ساء حكمهم حين ظنوا ذلك.

(٥) ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ﴾ في الدار الآخرة؛ يعني: يا أيها المحب لربه، المشتاق لقربه ولقائه، أبشر بقرب لقاء الحبيب ﴿فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ﴾ فإنه آت، وكل ما هو آت قريب؛ فتزود للاقائه ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ للأصوات ﴿الْعَلِيمُ﴾ بالنيات، فمن كان صادقاً في ذلك، أناله ما يرجو، ومن كان كاذباً، لم تنفعه دعواه، وهو العليم بمن يصلح لجه، ومن لا يصلح.

(٦) ﴿وَمَنْ جَاهَدْ﴾ نفسه وشيطانه وعدوه الكافر ﴿فَاتِمَّا يُجَاهِدْ لِنَفْسِهِ﴾ لأن نفعه راجع إليه، وثمرته عائدة إليه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ لم يأمرهم بما أمرهم به؛ لينتفع به، ولا نهاهم عما

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرًا الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَصَبَّأُ الْإِنْسَانَ بِوَلَدِهِ حَسْبًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَذَّابٍ فَلَوْلَا بَرَاءَةُ اللَّهِ لَمَّا جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْفَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَمَّتْ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾

يستحق أن يؤله ويحب ويعبد إلا الله ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ وإذا كان كل شيء سواه هالكا مضمحلا؛ فعبادة الهالك الباطل باطلة، بطلان غايتها، وفساد نهايتها ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿وَالِيَهُ﴾ لا إلى غيره ﴿تَرْجَعُونَ﴾ إليه مرجع الخلاق كلهم؛ ليجازيهم بأعمالهم.

سورة العنكبوت

(١) ﴿الْعَم﴾ مضى الكلام على الحروف المقطعة في فواتح سورة «البقرة».

(٢) ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ﴾ أظن الناس ﴿أَنْ يُزَكَّوْا﴾

(٣) أخرج الترمذي والنسائي في «الكبرى» وابن ماجه وأحمد وغيرهم بإسناد صحيح عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: رسول الله ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمتل؛ فالأمتل، يتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلباً؛ اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة؛ ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد؛ حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة».

قال:

(٩) ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ من آمن بالله، وعمل صالحاً، فإن الله وعده: أن يدخله الجنة في جملة عباد الله الصالحين، من النبيين والصدقيين والشهداء والصالحين، كل على حسب درجته، ومرتبته عند الله.

(١٠) ﴿وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ بضرب، أو أخذ مال، أو تعبير؛ ليرتد عن دينه، وليراجع الباطل ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ يجعلها صادة له عن الإيمان، والثبات عليه، كما أن العذاب صاّد عما هو سببه ﴿وَلَكِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ لأنه موافق للهوى ﴿أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ حيث أخبركم بهذا الفريق الذي حاله كما وصف لكم؛ فتعرفون بذلك كمال علمه، وسعة حكمته.

(١١) ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ فلذلك قَدَرٌ مَحَنًا وابتلاء؛ ليظهر علمه فيهم، فيجازيهم بما ظهر منهم، لا بما يعلمه

نهاهم عنه، بُخْلًا منه عليهم.

(٧) ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ يعني: أن الذين من الله عليهم بالإيمان والعمل الصالح، سيكفر الله عنهم سيئاتهم؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهي أعمال الخير: من واجبات ومستحبات، فهي أحسن ما يعمل العبد؛ لأنه يعمل المباحات وغيرها.

(٨) ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ وأمرنا الإنسان، ووصيناه بوالديه ﴿حُسْنًا﴾ أي: ببرهما، والإحسان إليهما بالقول والعمل، وأن يحافظ على ذلك، ولا يعقهما ويسيء إليهما في قوله وعمله. ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ وإن حرصا أن تتابعهما على دينهما إن كانا مشركين ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ فإياك وإياهما لا تطعهما في ذلك ﴿إِلَّا مَرْجِعُكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿فَأَنْتُمْ كَرُّكُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فأجزيك بإحسانك إليهما وصبرك على دينك، وأحشرك مع الصالحين، لا في زمرة والديك، وإن كنت أقرب الناس إليهما في الدنيا، فإن المرء مع من أحب. أي: حباً دينياً، ولهذا

(٨) في «صحيح مسلم» عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: نزلت في أربع آيات: أصبت سيفاً؛ فأثبت به النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله، إني أصبت سيفاً؛ فنزلت هذه الآية: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ١]. وصنع رجل طعاماً فدعانا، فشرينا الخمر حتى انتشينا، فتفاخرت الأنصار وقريش؛ فقالت الأنصار: نحن خير. وقالت قريش: نحن خير. فقام رجل منهم فغزى أنفه، فكان أنف سعد مغزوراً، ونزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْغَنَاءُ لِلْيَسِيرِ وَالْأَسَابِ وَالْأَكْثَرُ يَجْسُ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠].

قال: وقالت أمي: أليس تزعم: أن الله يأمرك بصلة الرحم وبر الوالدين، فوالله لا أكل طعاماً، ولا أشرب شراباً حتى تكفر، ولم تأكل طعاماً ولم تشرب شراباً، وكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا - فتحوا - فمها بعضاً؛ فيصبون فيه الطعام والشراب، فنزلت هذه الآية ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾. ودخل علي رسول الله ﷺ وأنا مريض، فقلت: أوصي بمالي كله قال «لا»، قلت: النصف، فنهاني، قلت: الثلث، فسكت، وأخذ الناس به.

أَلْقِيْمَةً عَمَّا كَانُوا يَفْرُوتُونَ ﴿١٤﴾ من الشر وتزيينه .
 ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴿١٤﴾ يخبر
 تعالى عن حكمه وحكمته في عقوبات الأمم
 المكذبة، وأن الله أرسل عبده ورسوله: نوحاً
 عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى قومه يدعوهم إلى التوحيد،
 وإفراد الله بالعبادة، والنهي عن الأنداد
 والأصنام ﴿فَلَيْتَ فِيهِمْ﴾ نبياً داعياً ﴿أَلَفَ سَنَةً﴾
 إِلَّا خَسِيتَ عَامًا ﴿١٤﴾ وهو لا يني بدعوتهم، ولا
 يفتر في نصحهم ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾ الماء
 الذي نزل من السماء بكثرة، ونبع من الأرض
 بشدة ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ مستحقون العذاب .

﴿١٥﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ ﴿١٥﴾ الذين ركبوا
 معه: أهله، ومن آمن به ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾ السفينة
 ﴿ءَايَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ يعتبرون بها على أن من كذب
 الرسل آخر أمره الهلاك، وأن المؤمنين سيجعل
 الله لهم من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً .
 ﴿١٦﴾ وَإِذْ يَرْهِيهِ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴿١٦﴾ يذكر تعالى أنه
 أرسل خليفه إبراهيم عليه السلام إلى قومه،
 يدعوهم إلى الله؛ فقال لهم: ﴿عَبُدُوا اللَّهَ﴾
 وحدوه، وأخلصوا له العبادة، وامثلوا ما أمركم
 به ﴿وَأَتَّقُوهُ﴾ أن يغضب عليكم؛ فيعذبكم،
 وذلك بترك ما يغضبه من المعاصي ﴿ذَلِكُمْ﴾
 أي: عبادة الله وتقواه ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من ترك ذلك
 ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ذلك، فاعلموا الأمور،
 وانظروا ما هو أولى بالإيثار .

﴿١٧﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَنًا
 وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴿١٧﴾ تنتحونها، وتخلقونها بأيديكم،

لِلْمَلَائِكَةِ ﴿١٧﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ
 ﴿١٥﴾ وَإِذْ يَرْهِيهِ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ ذَلِكُمْ
 خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن
 دُونِ اللَّهِ أَوْثَنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مِن
 دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ
 وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٣﴾ وَإِنْ تَكْذِبُوا
 فَقَدْ كَذَّبْتُمْ أَمْشَرًا مِن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ
 الْأَمِينُ ﴿١٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ
 يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ
 فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ الْفَنَاءَ الْآخِرَةَ
 إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ
 مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٩﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي
 الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ
 وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ
 أُولَٰئِكَ يُسَوِّمُ اللَّهُ أَمْوَالَهُمْ وَأَوْلِيَاءَهُمْ لِمَن يَشَاءُ اللَّهُ
 وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧﴾

بمجرده؛ لأنهم قد يحتجون على الله: أنهم لو
 ابتلوا؛ لَشَبُّوا .

﴿١٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا
 سَبِيلَنَا ﴿١٢﴾ فاتركوا دينكم أو بعضه، واتبعونا في
 ديننا، فإننا نضمن لكم الأمر ﴿وَلَنَحْمِلَ﴾
 خطيئكم ﴿وهذا الأمر ليس بأيديهم؛ فلهذا
 قال: ﴿وَمَا هُمْ بِحَمِلِينَ﴾ مِن خَطِيئَتِهِمْ مِن شَيْءٍ ﴿١٢﴾
 لا قليل ولا كثير ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما قالوا
 من حمل خطاياهم .

﴿١٣﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ ﴿١٣﴾ أثقال ذنوبهم التي
 عملوها ﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ وهي الذنوب التي
 حصلت بسببهم ومن جرائمهم ﴿وَلَيْسَلُنَّ يَوْمَ

(١٣) في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من آثامهم شيئاً» .

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

(٢٠) ﴿قُلْ﴾ لهم - إن حصل معهم ريب وشك في الابتداء -: ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بأبدانكم وقلوبكم ﴿فَإَنْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ فإنكم ستجدون أمماً من الآدميين، لا تزال توجد شيئاً فشيئاً، وتجدون النبات والأشجار كيف تحدث وقتاً بعد وقت، وتجدون السحاب والرياح ونحوها مستمرة في تجدها، بل الخلق دائماً في بدء وإعادة ﴿ثُمَّ اللَّهُ﴾ بعد الإعادة ﴿يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ وهي النشأة لا تقبل موتاً ولا نوماً، وإنما هو الخلود والدوام في إحدى الدارين ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فقدرته تعالى لا يعجزها شيء، وكما قدر بها على ابتداء الخلق، فقدرته على الإعادة من باب أولى وأحرى.

(٢١) ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ هو المنفرد بالحكم الجزائي، وهو: إثابة الطائعين ورحمتهم، وتعذيب العاصين والتنكيل بهم وبدأ العذاب؛ لأن الكلام هو مع الكفار؛

وتخلقون لها أسماء الآلهة، وتختلقون الكذب بالأمر بعبادتها، والتمسك بذلك ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ لا تملك نفعاً ولا ضرراً ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ فإنه هو الميسر له، المقدر، المجيب لدعوة من دعاه لمصالح دينه ودنياه ﴿وَاعْبُدُوهُ﴾ وحده لا شريك له؛ لكونه الكامل النافع الضار، المتفرد بالتدبير ﴿وَأَشْكُرُوا لَهُ﴾ وحده؛ لكون جميع ما وصل ويصل إلى الخلق من النعم فمنه، وجميع ما اندفع ويندفع من النقم عنهم فهو الدافع لها ﴿وَالِيَهُ تَرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم على ما عملتم، وينبئكم بما أسررتم وأعلنتم.

(١٨) ﴿وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ﴾ مثل عاد وثمود وغيرهم فأهلكوا ﴿وَمَا عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ وقد أبلغكم ونصح لكم وأقام حجة الله عليكم.

(١٩) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ﴾

كيف يخلقهم ابتداء نطفة ثم علقه ثم مضغة ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يوم القيامة ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ سهل عليه، يسير لديه؛ كقوله تعالى:

(٢١) أخرج أبو داود وابن ماجه وغيرهما بإسناد صحيح لغيره عَنْ ابْنِ الدَّيْلَمِيِّ قَالَ: وَقَعَ فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْقَدْرِ خَشِيتُ أَنْ يَفْسِدَ عَلَيَّ دِينِي وَأَمْرِي؛ فَأَتَيْتُ أَبِي بَنَ كَعْبٍ، فَقُلْتُ: أَبَا الْمُنْدَرِ، إِنَّهُ قَدْ وَقَعَ فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْقَدْرِ، فَخَشِيتُ عَلَى دِينِي وَأَمْرِي، فَحَدَّثَنِي مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَنْفَعَنِي بِهِ. فَقَالَ: لَوْ أَنَّ اللَّهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ لَكَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْراً لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوْ كَانَ لَكَ مِثْلُ جَبَلٍ أَحَدٍ ذَهَباً، أَوْ مِثْلُ جَبَلٍ أَحَدٍ، تَنَفَّقَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا قَبِلَ مِنْكَ حَتَّى تَوْمِنَ بِالْقَدْرِ؛ فَتَعْلَمُ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيَخْطُوكَ، وَأَنَّ مَا أَخْطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيَصِيبَكَ، وَأَنَّكَ إِنْ مِتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا دَخَلْتَ النَّارَ، وَلَا عَلَيْكَ أَنْ تَأْتِيَ أَخِي عَبْدَ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ فَتَسْأَلَهُ، فَأَتَيْتُ عَبْدَ اللَّهِ فَسَأَلْتُهُ فَذَكَرْتُ مِثْلَ مَا قَالَ أَبِي، وَقَالَ لِي: وَلَا عَلَيْكَ أَنْ تَأْتِيَ حَذِيفَةَ. فَأَتَيْتُ حَذِيفَةَ فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ مِثْلَ مَا قَالَا، وَقَالَ: إِنَّ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ فَاسَأَلَهُ. فَأَتَيْتُ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَوْ أَنَّ اللَّهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ لَكَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْراً لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوْ كَانَ لَكَ جَبَلٌ أَحَدٍ ذَهَباً، أَوْ مِثْلُ جَبَلٍ أَحَدٍ ذَهَباً، تَنَفَّقَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا قَبِلَهُ مِنْكَ حَتَّى تَوْمِنَ بِالْقَدْرِ كُلِّهِ؛ فَتَعْلَمُ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيَخْطُوكَ، وَمَا أَخْطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيَصِيبَكَ، وَأَنَّكَ إِنْ مِتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا دَخَلْتَ النَّارَ».

الخير، وحصل لهم الشر، وأنهم الذين كفروا به وبرسله، وبما جاءوهم به، وكذبوا بقاء الله فليس عندهم إلا الدنيا، فلذلك قدموا على ما أقدموا عليه من الشرك والمعاصي؛ لأنه ليس في قلوبهم ما يخوفهم من عقبة ذلك ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يَسْأَلُونَ رَحْمَتِي﴾ فلذلك لم يعلموا سبباً واحداً، يحصلون به الرحمة، وإلا، فلو طمعوا في رحمته لعملوا لذلك أعمالاً ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم موجه.

(٢٤) ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ فما كان مجاوبة قوم إبراهيم لإبراهيم، حين دعاهم إلى ربه قبول دعوته، وإنما كان مجاوبتهم له شر مجاوبة ﴿قَالُوا أَأَقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ أشنع القتلات، وهم أناس مقتدرون، لهم السلطان، فألقوه في النار ﴿فَأَنجَيْنَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾ منها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فيعلمون صحة ما جاءت به الرسل، وبطلان قول من خالفهم وناقضهم.

(٢٥) ﴿وَقَالَ﴾ لهم إبراهيم في جملة ما قاله، من نصحه: ﴿إِنَّمَا أَخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ غاية ذلك مودة في الدنيا ستقطع وتضمحل ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ يتبرأ كل من العابدين والمعبودين من الآخر، ﴿وَأَن﴾ ﴿وَمَا وَنَكُم﴾ جميعاً: العابدين والمعبودين ﴿النَّارُ﴾ وليس أحد ينصركم من عذاب الله، ولا يدفع عنكم عقابه.

(٢٦) ﴿فَقَامَ لَهُ لُوطٌ﴾ لم يزل إبراهيم عليه الصلاة

فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ: إِلَّا أَن قَالُوا أَأَقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا أَخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّصِيرٍ ﴿٢٥﴾ فَقَامَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَنفُسُكُم مَّا سَبَقْتُمْ بِهِمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَيُنْكُم لَنَا وَتُمُ الْفِرَاقُ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتَبِلْ عَذَابَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾

مكذبي الرسل ﴿وَالَيْهِ تَقْلُبُونَ﴾ ترجعون إلى الدار التي بها تجري عليكم أحكام عذابه ورحمته.

(٢٢) ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ يا هؤلاء المكذبين المتجربين على المعاصي، لا تحسبوا أنه مغفول عنكم، أو أنكم معجزون لله في الأرض ولا في السماء، فلا تغرنكم قدرتكم، وما زينت لكم أنفسكم، وخذعتكم، من النجاة من عذاب الله فلستم بمعجزين الله، في جميع أقطار العالم ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ يتولاكم فيحصل لكم مصالح دينكم ودنياكم ﴿وَلَا نَصِيرٌ﴾ ينصركم؛ فيدفع عنكم المكاره.

(٢٣) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ﴾ الآية. يخبر تعالى من هم الذين زال عنهم

والسلام يدعو قومه، وهم مستمرون على عنادهم إلا أنه آمن له بدعوته لوط الذي نبأه الله، وأرسله إلى قومه كما سيأتي ذكره.

﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم، حين رأى أن دعوة قومه لا تفيدهم شيئاً: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ أي: هاجر أرض السوء، ومهاجر إلى الأرض المباركة؛ وهي الشام ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي له القوة، وهو يقدر على هدايتكم؛ ﴿الْحَكِيمُ﴾ ولكنه «حكيم» ما اقتضت حكمته ذلك.

(٢٧) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ بعد ما هاجر إلى الشام ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ فلم يأت بعده نبي إلا من ذريته، ولا نزل كتاب إلا على ذريته، حتى ختموا بابنه: محمد ﷺ ﴿وَوَعَدْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ من الزوجة الجميلة فائقة الجمال، والرزق الواسع، والأولاد الذين بهم قرت عينه ﴿وَأَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ بل وهو ومحمد ﷺ، أفضل الصالحين على الإطلاق، وأعلاهم منزلة.

(٢٨) ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ أي منكراً عليهم سوء صنيعهم، وما كانوا يفعلون من قبيح الأفعال، فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ القبيحة، وهي إتيان الذكور والتي لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم ﴿أَيُّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقَاطَعُونَ السَّيْلَ﴾ وذلك أنهم كانوا يفعلون الفاحشة

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّا أَهْلُهَا كَاثِرُونَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي فِيهَا لَوطٌ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُهَا فِيمَا نَسْتَجِيبُكُمْ وَأَهْلُهُ إِلَّا أَمْرَاتُكُمْ كَانَتْ مِنَ الْغَايِبِ ﴿٢٧﴾ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقَهُمْ وَصَافَ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا نَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَايِبِ ﴿٢٨﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهُمْ آيَةً يَنْتَهِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَنْفِرُوا بَعْدَ وَاعِدُوا اللَّهَ وَارْجِعُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣١﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمًا ﴿٣٢﴾ وَعَادَا وَنَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّنْ مَّسْكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٣﴾

بمن يمر بهم من المسافرين، فترك الناس الممر بهم، ﴿وَتَأْتُونَ فِي كَادِكُمْ﴾ مجلسكم ﴿الْمُنْكَرُ﴾ ما لا يليق من الأقوال والأفعال، ولا ينكر بعضكم على بعض، فنصحهم لوط عن هذه الأمور، وبين لهم قبائحها في نفسها، وما تثول إليه من العقوبة البليغة، فلم يراعوا، ولم يذكروا ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فأيس منهم نبيهم، وعلم استحقاقهم العذاب، وجزع من شدة تكذيبهم له، فدعا عليهم.

(٢٦) أخرج أحمد والحاكم وغيرهما بإسناد حسن لغيره من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنها ستكون هجرة بعد هجرة؛ فينحاز الناس إلى مهاجر إبراهيم، لا يبقى في الأرض إلا شرار أهلها، فلنظفهم أرضهم، تغدوهم نفس الرحمن، تحشرهم النار مع القرود والخنازير، فتبيت معهم إذا باتوا، وتقبل معهم إذا قالوا، وتأكل من تخلف».

يعرفهم، وظن أنهم من جملة الضيوف أبناء السبيل؛ فخاف عليهم من قومه ﴿وَقَالُوا﴾ له لما رأوا فيه أثر الضجرة: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ وأخبروه أنهم رسل الله، وقالوا له: ﴿إِنَّا مُنْجُونَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَانِكَ كَأَنَّكَ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾.

(٣٤) ثم أخبرته الملائكة بما هم فاعلون بقولهم، فقالوا: ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ مدينة سدوم ﴿رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ عذاباً من السماء؛ وهي: الحجارة ﴿يَمَّا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بسبب فسقهم بإتيان أدبار الرجال.

(٣٥) ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا﴾ تركنا من ديار قوم لوط ﴿آيَةً بَيِّنَةً﴾ أثاراً وعبراً ظاهرة ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ العبر بقلوبهم، فينتفعون بها.

(٣٦) ﴿وَ﴾ أرسلنا ﴿إِلَى مَدْيَنَ﴾ القبيلة المعروفة المشهورة ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ في النسب، لا في الدين ﴿فَقَالَ يَقُومُوا عِبَادُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، والإيمان بالبعث ورجائه، والعمل له وقال لهم: ﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ فنهاهم عن الإفساد في الأرض ببخس المكاييل والموازين، والسعي بقطع الطرق.

(٣٧) ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ عذاب الله ﴿فَاصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جُنُوعًا﴾ ميتين.

(٣٨) ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْجِدِهِمْ﴾ وكذلك ما فعلنا بهاد وثمود، وقد علمتم قصصهم، وتبين لكم بشيء تشهدونه بأبصاركم من مساكنهم، وآثارهم، التي بانوا عنها، وقد جاءتهم رسلهم بالآيات البينات، المفيدة للبصيرة فكذبوهم، وجادلوهم ﴿وَوَصَّ

سورة العنكبوت

وَقُرُونًا وَفِرْعَوْنَ وَهَارُونَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَأَسْتَسْكَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَاقِيَةً ﴿٣٩﴾ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُورِ اللَّهِ أُولِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنَكَبُوتِ أَخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنَكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَلَمْ تَنْظُرْهَا لِلنَّارِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ أَتُلَى مَا تُحْيِي إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

(٣٩) و﴿قَالَ﴾ مستنصرًا عليهم: ﴿رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ فاستجاب الله دعاءه؛ فأرسل الملائكة لإهلاكهم

(٣٩) ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ وبشروه بإسحق، ومن وراء إسحق يعقوب ﴿قَالُوا﴾ إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿ثم سألهم إبراهيم أين يريدون؟ فأخبروه أنهم يريدون إهلاك قوم لوط؛ فجعل يراجعهم.

(٣٢) ﴿قَالَ﴾: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ ف﴿قَالُوا﴾ له: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَانَهُ﴾ كَأَنَّكَ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿الهالكين.

(٣٣) ﴿وَلَمَّا أَنَّ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَوَاءَ بِهِمْ وَمَضَىٰ بِهِنَّ دَرَجًا﴾ ثم مضوا حتى أتوا لوطاً؛ فسأه معيبتهم، وضاق بهم ذرعاً، بحيث إنه لم

لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ ﴿٣٩﴾ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٤٠﴾ فِي ضَلَالَاتِهِمْ، وَمَعْجِبِينَ بِهَا، يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى هَدًى وَصَوَابٍ، وَهُمْ عَلَى ضَلَالٍ.

(٣٩) ﴿وَقُرُونٌ وَفَرْعُونَ وَهَمَانٌ﴾ وَاذْكُرْ يَا مُحَمَّدُ قَارُونَ وَفَرْعُونَ وَهَامَانَ ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ حِينَ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ بِالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ وَالْبِرَاهِينَ السَّاطِعَاتِ، فَلَمْ يَنْقَادُوا، وَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ ﴿وَمَا كَانُوا سَافِقِينَ﴾ اللَّهُ، وَلَا فَائِزِينَ.

(٤٠) ﴿فَكَلَّا﴾ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأُمَمِ الْمَكْذُوبَةِ ﴿أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾ عَلَى قَدَرِهِ وَبِعَقُوبَةٍ مُنَاسِبَةٍ لَهُ ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ عَذَابًا يَحْصِبُهُمْ؛ كَعَادِ قَوْمِ هُودٍ حِينَ أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ كَثُودِ قَوْمِ صَالِحٍ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ كَقَارُونَ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ كَقَوْمِ نُوحٍ وَفَرْعُونَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ﴾ مَا يَنْبَغِي وَلَا يَلِيقُ بِهِ ﴿لِيُظْلِمَهُمْ﴾ لِكَمَالِ عَدْلِهِ وَغِنَاهِ التَّامِ عَنْ جَمِيعِ الْخَلْقِ ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

(٤١) إِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ جَزَاءً وَفَاقًا بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ ضَرَبَ اللَّهُ تَعَالَى مَثَلًا لِلْمُشْرِكِينَ فِي اتِّخَاذِهِمْ آلِهَةً مِنْ دُونِهِ فَقَالَ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ هَذَا مِثْلُ ضَرْبِهِ اللَّهُ لِمَنْ عَبَدَ مَعَهُ غَيْرَهُ، يَقْصِدُ بِهِ التَّعَزُّزَ وَالتَّقْوَى وَالنَّفْعَ، وَأَنَّ الْأَمْرَ بِخِلَافِ مَقْصُودِهِ فَإِنْ مِثْلُهُ؛ ﴿كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ

يَتَنَّا﴾ يَقِيهَا مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَالْآفَاتِ ﴿وَأَنْ أَوْهَكَ الْبُيُوتِ﴾ أَضْعَفَهَا وَأَوْهَاهَا ﴿لَيْتَ الْعَنْكَبُوتِ﴾ فِي ضَعْفِهِ وَوَهْنِهِ وَهِيَ مِنْ أَضْعَفِ الْحَيَوَانَاتِ، وَبَيْتُهَا مِنْ أَضْعَفِ الْبُيُوتِ، فَمَا زِدَادَتْ بِاتِّخَاذِهَا إِلَّا ضَعْفًا، كَذَلِكَ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ فَقَرَاءَ عَاجِزُونَ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، وَحِينَ اتَّخَذُوهُمْ يَتَّعِزُّونَ بِهِمْ وَيَسْتَنْصِرُونَهُمْ، زَادَادُوا ضَعْفًا إِلَى ضَعْفِهِمْ وَوَهْنًا إِلَى وَهْنِهِمْ. ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ فَلَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ حَقِيقَةَ الْعِلْمِ، حَالَهُمْ وَحَالَ مَنْ اتَّخَذُوهُمْ لَمْ يَتَّخِذُوهُمْ، وَلَتَبَرَّأُوا مِنْهُمْ، وَلَتَوَلَّوْا الرَّبَّ الْقَادِرَ الرَّحِيمَ.

(٤٢) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ إِنَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ: أَنَّهُمْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شَيْئًا مَوْجُودًا، وَلَا إِلَهًا لَهُ حَقِيقَةُ ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الَّذِي لَهُ الْقُوَّةُ جَمِيعًا، الَّذِي قَهَرَ بِهَا جَمِيعَ الْخَلْقِ ﴿الْحَكِيمُ﴾ الَّذِي يَضَعُ الْأَشْيَاءَ مَوَاضِعَهَا، الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَأَتَقَنَ مَا أَمَرَهُ.

(٤٣) ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ لِأَجْلِهِمْ وَلَا تَنْفَاعَهُمْ وَتَعْلِيمَهُمْ لِكُونِهَا مِنَ الطَّرِيقِ الْمَوْضُوحَةِ لِلْعُلُومِ؛ لِأَنَّهَا تَقْرُبُ الْأُمُورَ الْمَعْقُولَةَ بِالْأُمُورِ الْمَحْسُوسَةِ؛ فَيَتَضَحَّ الْمَعْنَى الْمَطْلُوبُ بِسَبَبِهَا، فَهِيَ مُصْلِحَةٌ لِعُمُومِ النَّاسِ، ﴿وَلَكِنْ يَعْزِلُهَا﴾ بِفَهْمِهَا وَتَدْبِيرِهَا، وَتَطْبِيقِهَا عَلَى مَا ضَرَبَتْ لَهُ، وَعَقْلِهَا فِي الْقَلْبِ ﴿إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ إِلَّا أَهْلَ الْعِلْمِ الْحَقِيقِيِّ الَّذِينَ وَصَلَ الْعِلْمُ إِلَى قُلُوبِهِمْ.

(٤٤) ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ﴾ هُوَ تَعَالَى الْمُنْفَرِدُ بِخَلْقِ السَّمَاوَاتِ عَلَى عُلُوقِهَا وَارْتِفَاعِهَا وَسِعَتِهَا

والاهتداء بهداه، وتصديق أخباره، وتدبر معانيه، وتلاوة ألفاظه وإذا كان هذا معنى تلاوة الكتاب، علم أن إقامة الدين كله داخله في تلاوة الكتاب فيكون قوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ من باب عطف الخاص على العام؛ لفضل الصلاة وشرفها، وآثارها الجميلة، وهي ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ فالفحشاء: كل ما استعظم واستفحش من المعاصي التي تشتهيها النفوس. والمنكر: كل معصية تنكرها العقول والفطر ووجه كون الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر، أن العبد المقيم لها المتمم لأركانها وشروطها وخشوعها، يستنير قلبه، ويتطهر فؤاده، ويزداد إيمانه تقوى رغبته في الخير، وتقل أو تعدم رغبته في الشر، فبالضرورة مداومتها والمحافظة عليها على هذا الوجه، تنهي عن الفحشاء والمنكر فهذا من أعظم مقاصدها وثمراتها، وثم في الصلاة مقصود أعظم من هذا وأكبر وهو ما اشتملت عليه من ذكر الله، بالقلب واللسان والبدن، فإن الله تعالى إنما خلق الخلق لعبادته، وأفضل عبادة تقع منهم الصلاة، وفيها من عباديات الجوارح كلها، ما ليس في غيرها ولهذا قال: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾؛ أي: أعظم ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ من خير وشر؛ فيجازيكم على ذلك أكمل الجزاء

وَلَا تُحَدِّثُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالْحَقِّ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَالْهَمَّاوَالْهَكْمُ وَجِدُوا كَلِمَةً مُسْلِمُونَ ﴿١٦﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ أَلَيْسَ الْكِتَابُ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿١٧﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّ بِمِثْلِنَا إِذَا لَزَلْنَا الْبَاطِلُوتَ ﴿١٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢١﴾ قُلْ كُنْ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٢﴾

وحسنها وما فيها من الشمس والقمر والكواكب والملائكة، ﴿وَالْأَرْضُ﴾ وما فيها من الجبال والبحار والأشجار ونحوها، وكل ذلك خلقه ﴿بِالْحَقِّ﴾ لم يخلقها عبثاً ولا سدى، وإنما خلقها؛ ليقوم أمره وشرعه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ على كثير من المطالب الإيمانية؛ إذا تدبرها المؤمن رأى ذلك فيها عياناً.

(٤٥) ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ يأمر تعالى بتلاوة وحيه وتنزيله وهو هذا الكتب العظيم ومعنى تلاوته اتباعه، بامثال ما يأمر به، واجتناب ما ينهى عنه،

(٤٥) أخرج الإمام أحمد والبخاري بإسناد صحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن فلاناً يصلي بالليل فإذا أصبح سرق؟ فقال: «إنه سنيها ما يقول».

وَأَوْفَاهُ. (٤٦) ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ ينهى تعالى عن مجادلة أهل الكتاب إذا كانت عن غير بصيرة من المجادل، أو بغير قاعدة مرضية، وأن لا يجادلوا ﴿إِلَّا بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ بحسن خلق ولطف ولين كلام، ودعوة إلى الحق وتحسينه، ورد الباطل وتهجينه ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ من أهل الكتاب، بأن ظهر من قصد المجادل منهم وحاله: أنه لا إرادة له في الحق، وإنما يجادل، على وجه المشاغبة والمغالبة؛ فهذا لا فائدة في جداله؛ لأن المقصود منها ضائع ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ﴾ أي: ولتكن مجادلتكم لأهل الكتاب مبنية على الإيمان بما أنزل إليكم وأنزل إليهم، وعلى الإيمان برسولكم ورسولهم، وعلى أن الإله واحد، ولا تكن مناظرتكم إياهم على وجه يحصل به القدح في شيء من الكتب الإلهية، أو بأحد من الرسل كما يفعله الجاهل عند مناظرة الخصوم، يقدح بجميع ما معهم من حق وباطل فهذا ظلم، وقوله: ﴿وَنَحْنُ لَكُمْ مُسْلِمُونَ﴾ متقادون مستسلمون لأمره.

(٤٧) ﴿وَكَذَلِكَ أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ يا محمد، هذا ﴿الْكِتَابُ﴾ الكريم المبين كل نبأ عظيم، الداعي إلى كل خلق فاضل، وأمر كامل، المصدق للكتب السابقة، المخبر به الأنبياء الأقدمون ﴿فَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ

(٤٨) ﴿وَمَا كُنْتَ﴾ يا محمد ﴿تَتْلُو﴾ تقرأ ﴿مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ﴾ قبل ما أنزلنا إليك الكتاب ﴿وَلَا تَخْطُئُ بِمِيزَانٍ﴾ ولا تكتبه ﴿إِذَا﴾ لو كنت بهذه الحال ﴿لَآرْتَابَ﴾ لشك ﴿الْمُظِلُّونَ﴾ من أهل مكة؛ فقالوا: تعلمه من الكتب السابقة، أو استنسخه منها.

(٤٩) ﴿بَلْ﴾ هذا القرآن ﴿هُوَ آيَاتٌ يَبَيِّنُ﴾ لا خفيات ﴿فِي صُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ وهم: سادة الخلق وعقلاؤهم، وأولو الألباب الكامل منهم ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾ أي: ما يكذب بها ويبخس حقها ويردها ﴿إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ أي: المعتدون المكابرون، الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه.

(٥٠) ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ واعترض هؤلاء الظالمون المكذبون للرسول، ولما جاء به، واقترحوا عليه نزول آيات عينوها ﴿قُلْ إِنَّمَا آيَاتِي عِنْدَ اللَّهِ﴾ إن شاء أنزلها أو منعها ﴿وَلِنَمَّا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ وليس لي مرتبة فوق هذه

(٤٦) أخرج الإمام البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية. ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد، ونحن له مسلمون».

ويسر لي الأمور؛ فلتكفكم هذه الشهادة الجليلة من الله؛ فإن وقع في قلوبكم أن شهادته لا تكفي دليلاً فإنه ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ومن جملة معلوماته: حالي وحالكم، ومقالي لكم؛ فلو كنت متقولاً عليه مع علمه بذلك، وقدرته على عقوبي لكان قدحاً في علمه وقدرته وحكمته ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ حيث خسروا الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وحيث فاتهم النعيم المقيم، وحيث حصل لهم في مقابلة الحق الصحيح كل باطل قبيح، وفي مقابلة النعيم كل عذاب أليم، فخسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة.

(٥٣) ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ الآيات .

يخبر تعالى عن جهل المكذبين للرسول، وما جاء به، وأنهم يقولون - استعجالاً للعذاب، وزيادة تكذيب - : ﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ مضروب لنزوله، ولم يأت بعد ﴿لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ بسبب تعجزهم لنا، وتكذيبهم الحق، فلو آخذناهم بجهلهم؛ لكان كلامهم أسرع لبلائهم وعقوبتهم، ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ﴾ ولكن - مع ذلك - فلا يستبسطوا نزوله ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ به.

(٥٤) ﴿يَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ أعاده تأكيداً ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ لَمُحِيطَةٌ﴾ ليس لهم عنها معدل ولا منصرف؛ قد أحاطت بهم من كل جانب، كما أحاطت بهم ذنوبهم وسيئاتهم وكفرهم.

(٥٥) ﴿يَوْمَ يَغْشَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ

وَيَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُو الْقُرْآنِ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَتَجَادَى الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ أَرْضِ وَصِيعَةٍ فَإِنِّي قَاعِدُونَ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرًّا فَتَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرَ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَنَّمِنَ ذَا الْقُرْآنِ لَأَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾

المرتبة .

(٥١) ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ في علمهم بصدقك، وصدق ما جئت به ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ وأنت رجل أمي: لا تقرأ ولا تكتب، ولم تخالط أحداً من أهل الكتاب، فجنتهم بأخبار ما في الصحف الأولى ببيان الصواب مما اختلفوا فيه، وبالحق الواضح البين الجلي ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرًا لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وذلك لما يحصل فيه من العلم الكثير، والخير الغزير، وتركية القلوب والأرواح، وتطهير العقائد، وتكميل الأخلاق، والفتوحات الإلهية، والأسرار الربانية.

(٥٢) ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ فأنا قد استشهدته؛ فإن كنت كاذباً؛ أحل بي ما به تعتبرون، وإن كان إنما يؤيدني وينصرني



أَرْجَاهُمْ ﴿١﴾ إِذَا غَشِيَهُمُ الْعَذَابُ: أَحَاطَتْ بِهِمْ جَهَنَّمُ مِنْ سَائِرِ الْجِهَاتِ، وَهَذَا أَبْلَغُ مِنَ الْعَذَابِ الْحَسِيِّ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١] ﴿وَيَقُولُ دُوفُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فَإِنْ أَعْمَالُكُمْ انْقَلَبَتْ عَلَيْكُمْ عَذَابًا، وَشَمَلَكُمْ الْعَذَابُ؛ كَمَا شَمَلَكُمْ الْكُفْرُ وَالذُّنُوبُ.

(٥٦) ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وَصَدَقُوا رَسُولِي ﴿إِنْ أَرْضِي وَسِعَةً فَإِنِّي فَاعِدُونَ﴾ فَإِذَا تَعَذَّرَتْ عَلَيْكُمْ عِبَادَةُ رَبِّكُمْ فِي أَرْضٍ، فَارْتَحِلُوا مِنْهَا إِلَى أَرْضٍ أُخْرَى، حَيْثُ كَانَتْ الْعِبَادَةُ لِلَّهِ وَحْدَهُ؛ فَأَمَاكِنُ الْعِبَادَةِ وَمَوَاضِعُهَا وَاسِعَةٌ، وَالْمَعْبُودُ بِحَقِّ وَاحِدٍ.

(٥٧) ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَاقَةُ الْمَوْتِ﴾ وَالْمَوْتُ لَا يَبْدُ أَنْ يَنْزِلَ بِكُمْ ﴿ثُمَّ إِنَّا نَرْجِعُكُمْ﴾ ثُمَّ تَرْجِعُونَ إِلَى رَبِّكُمْ، فَيَجَازِي مِنْ أَحْسَنِ عِبَادَتِهِ، وَجَمَعَ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ بِإِنْزَالِهِ الْغُرَفِ الْعَالِيَةِ، وَالْمَنَازِلِ الْأَنِيقَةِ الْجَامِعَةِ، لَمَّا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ، وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ، وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.

(٥٨) وَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾، فَ﴿نَعَمْ﴾ تِلْكَ الْمَنَازِلُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿أَجْرَ الْعَمَلِينَ﴾ لِلَّهِ.

(٥٩) ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فِي أَحْوَالِهِمْ كُلِّهَا فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ.

(٦٠) ﴿وَكَأَنَّ﴾ فَكَمْ ﴿مِنْ دَآبَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ فِي الْأَرْضِ؛ لِأَنَّهَا ضَعِيفَةُ الْقُوَى، ضَعِيفَةُ الْعَقْلِ ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا﴾ وَلَا يَزَالُ اللَّهُ يَسْخَرُ لَهَا الرِّزْقَ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِوَقْتِهِ ﴿وَإِنَّا كُمْ﴾ أَيِ

على قدرتكم على الاكتساب، فكلكم عيال الله القائم برزقكم ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فلا تخفى عليه خافية، ولا تهلك دابة من عدم الرزق؛ بسبب أنها خافية عليه.

(٦١) ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ﴾ يَا مُحَمَّدُ كَفَارُ مَكَّةَ ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ هَذَا اسْتِدْلَالٌ عَلَى الْمَشْرِكِينَ الْمَكْذِبِينَ بِتَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ وَالْعِبَادَةِ، وَالْإِزَامُ لَهُمْ بِمَا أَثْبَتَوْهُ مِنْ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ ﴿يَقُولُونَ اللَّهُ﴾ وَحْدَهُ ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾، أَيِ: فَكَيْفَ يَصْرِفُونَ عَمَّنْ صَنَعَ ذَلِكَ؛ فَيَعْدِلُونَ عَنْ إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ.

(٦٢) ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ اللَّهُ يُوسِعُ مِنْ رِزْقِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ، وَيُضِيقُ فَيَقْتُرُ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْهُمْ ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ إِنْ اللَّهُ عَلِيمٌ بِمَصَالِحِهِمْ،

(٦٦) ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانْتَنَّهُمْ﴾؛ أي: ليجحدوا نعمة الله في إنجائه إياهم ﴿وَلِيَتَمَنَّوْا﴾ وليكملوا تمتعهم في الدنيا ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ حين ينتقلون من الدنيا إلى الآخرة شدة الأسف، وأليم العقوبة.

(٦٧) ثم قال تعالى ممثلاً على هؤلاء المشركين من قريش؛ ومذكراً نعمته عليهم التي خصهم بها دون الناس غيرهم، مع كفرهم بنعمته وإشراكهم في عبادته الآلهة والأنداد: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا﴾ بلدهم ﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾ يأمن فيه من سكنه ﴿وَيَخْطِفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ والناس من حولهم يسلبون قتلاً وسبأً أفلا يعبدون الذي أطعمهم من جوع، وآمنهم من خوف ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ وهو ما هم عليه من الشرك، والأقوال، والأفعال الباطلة ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ﴾ هم ﴿يَكْفُرُونَ﴾ فأين ذهبت عقولهم، وانسلخت أحلامهم حيث آثروا الضلال على الهدى، والباطل على الحق، والشقاء على السعادة وحيث كانوا أظلم الخلق؟! (٦٨) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فنسب ما هو عليه من الضلال والباطل إلى الله ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ على يد رسوله محمد ﷺ ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ يؤخذ بها منهم الحق، ويخزون بها، وتكون منزلهم الدائم الذي لا يخرجون منه.

(٦٩) ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ وهم الذين هاجروا في سبيل الله، وجاهدوا أعداءهم، وبذلوا مجهودهم في اتباع مرضاته ﴿لَنُثَبِّتَهُمْ سُبُلًا﴾ الطرق الموصلة إلينا؛ وذلك لأنهم محسنون ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بالعون والنصر والهداية.

ومن لا يصلح له إلا البسط في الرزق، ومن لا يصلح له إلا التقدير عليه، وهو عالم بذلك.

(٦٣) ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ ولو سألت كفار مكة من أنزل المطر فأحيا به البلاد والعباد ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ وحده ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على أن الفاعل لهذه الأشياء هو الله ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ بل ينكرون التوحيد مع إقرارهم بأنه خالق هذه الأشياء.

(٦٤) ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ في الحقيقة ﴿إِلَّا لَهْوٌ﴾ تلهو بها القلوب ﴿وَلَعِبٌ﴾ تلعب بها الأبدان؛ بسبب ما جعل الله فيها من الزينة واللذات والشهوات ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ لفيها الحياة الدائمة التي لا زوال لها، ولا انقطاع، ولا موت معها، وهي الحياة الكاملة التي من لوازمها: أن تكون أبدان أهلها في غاية القوة، وقواهم في غاية الشدة؛ لأنها أبدان وقوى خلقت للحياة ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ لما آثروا الدنيا على الآخرة، ولو كانوا يعقلون لما رغبوا عن دار الحيوان، ورغبوا في دار اللهو واللعب.

(٦٥) ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ﴾؛ أي: فإذا ركب هؤلاء المشركون السفينة في البحر فخافوا الغرق والهلاك فيه ﴿دَعَاُ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ يتركون وقتذاك أندادهم، ويخلصون الدعاء لله وحده لا شريك له ﴿فَلَمَّا نَجَّيْنَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾ فلما زالت عنهم الشدة، ونجى من أخلصوا له الدعاء إلى البر ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ أشركوا به من لا نجاهم من شدة، ولا أزال عنهم مشقة.

سورة الروم وهي مكية

(١) ﴿الْعَلَّ﴾ تقدم الكلام في الحروف المقطعة في أوائل سورة البقرة.

(٢) ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ غلبت فارس الروم.

(٣) ﴿فِي أَثَقَى الْأَرْضِ﴾ فغلبوهم غلباً لم يحط بملكهم بل بأدنى أرضهم ففرح بذلك مشركو مكة؛ لأن الفرس عباد أوثان، وحزن المسلمون؛ لأن الروم أهل كتاب ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾، فأخبرهم الله ووعدهم: أن الروم ستغلب الفرس.

(٤) ﴿فِي يَضِجُ سِينٌ﴾ مما لا يزيد على العشر، ولا ينقص عن الثلاث، وأن غلبة الفرس للروم ثم غلبة الروم للفرس كل ذلك بمشيئته وقدره، ولهذا قال: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ يوم يغلب الروم الفرس ويقهرونهم ﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

(٥) ﴿يَنْصُرُ اللَّهُ إِيَّاهُمْ عَلَى الْمَشْرِكِينَ، وَنَصْرَةَ الروم على فارس﴾ ﴿يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ﴾ من خلقه على من يشاء، وهو نصرة المؤمنين على المشركين يوم بدر، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي له العزة التي قهر بها الخلائق أجمعين، يؤتي

الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء ﴿الرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين، حيث قيض لهم من الأسباب التي تسعدهم وتنصرهم ما لا يدخل في الحساب. (٦) ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلُفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ فتيقنوا ذلك واجزموا به، واعلموا أنه لا بد من وقوعه ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ما وعد الله

(٥) أخرج البخاري في «التاريخ الكبير» و«خلق أفعال العباد» والترمذي، والنسائي في «التفسير» وأحمد وغيرهم بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿الْعَلَّ﴾ ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ ﴿فِي أَثَقَى الْأَرْضِ﴾: قال: غُلِبَتْ وَغُلِبَتْ، كان المشركون يحبون أن يظهر أهل فارس على الروم؛ لأنهم وإياهم أهل أوثان، وكان المسلمون يحبون أن يظهر الروم؛ لأنهم أهل كتاب، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ قال: «أما إنهم سيغلبون» فذكره أبو بكر لهم، فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلاً؛ فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتكم كان لكم كذا وكذا، فجعل أجل خمس سنين فلم يظهروا، فذكر ذلك للنبي ﷺ قال: «ألا جعلته إلى دون قال: أراه - العشر». قال أبو سعيد، والبضع ما دون العشر، ثم ظهرت الروم بعد، فذلك قوله تعالى: ﴿الْعَلَّ﴾ ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ إلى قوله ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ﴾. قال سفيان: سمعت أنهم ظهروا عليهم يوم بدر.

به حق؛ فلذلك يوجد فريق منهم يكذبون بوعد الله، ويكذبون آياته.

(٧) وهؤلاء الذين لا يعلمون بواطن الأشياء وعواقبها، إنما ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فليس لهم علم إلا بالدنيا وأكسابها وشؤونها وما فيها ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفِلُونَ﴾ قد توجهت قلوبهم إلى الدنيا وشهواتها وحطامها؛ فعملت لها وسعت، وأقبلت بها وأدبرت، وغفلت عن الآخرة.

(٨) ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ أفلم يتفكر هؤلاء المكذبون لرسول الله ولقائه ﴿فِي أَنفُسِهِمْ﴾ فإن في أنفسهم آيات يعرفون بها أن الذي أوجدتهم من العدم سيعيدهم بعد ذلك، وأن الذي نقلهم أطواراً غير لائق أن يتركهم سدى مهملين لا ينهون ولا يؤمرون، ولا يثابون ولا يعاقبون ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ ليلوكم أيكم أحسن عملاً ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ مؤقت بقاؤهما إلى أجل تنقضي به الدنيا وتجيء به القيامة ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ فلذلك لم يستعدوا للقاءه، ولم يصدقوا رسله التي أخبرت به.

(٩) ثم نههم على صدق رسله فيما جاءوا به عنه بما أيدهم به من المعجزات والدلائل الواضحات، من إهلاك من كفر بهم، ونجاة من صدقهم، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: بأفهامهم وعقولهم ونظرهم وسماعهم أخبار الماضين، ولهذا قال: ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِمَّنْ قُوَّةً﴾ كعاد وثمود ﴿وَأَنَارُوا الْأَرْضَ﴾ حرثوها وقلبوها للزراعة ﴿وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾، أي: أكثر مما

عمرها أهل مكة ﴿وَمَا تَنَّهُمُ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ فلم تغن عنهم قوتهم، ولا نفعتهم آثارهم حين كذبوا رسلهم الذين جاءوهم بالبينات الدالات على الحق وصحة ما جاءوهم به، فإنهم حين ينظرون في آثار أولئك لم يجدوا إلا أمماً بئدة، وخلقاً مهلكين ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بنقص حقوقهم ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ببخس حقوقهم، وكل هذه الأمم المهلكة لم يظلمهم الله بذلك الإهلاك وإنما ظلموا أنفسهم وتسبوا في هلاكها.

(١٠) ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوُوا﴾ العمل ﴿السَّوَاءِ﴾ الحالة السيئة الشنيعة التي تسوؤهم، وصار ذلك داعياً لهم؛ لأن ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ فهذا عقوبة لسوئهم وذنوبهم.

(١١) ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يخبر تعالى أنه المتفرد بإبداء المخلوقات ثم يعيدهم بعد إعادتهم، ليجازيهم بأعمالهم.

(١٢) ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ يقوم الناس لرب العالمين ويرون القيامة عياناً، يومئذ ﴿يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ يأسون من كل خير.

(١٣) ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُم مِّنْ شُرَكَائِهِمْ﴾ التي عبدوها مع الله ﴿شَفَعَتُوا وَكَانُوا إِشْرَاقِيهِمْ كَافِرِينَ﴾ تبرأ المشركون ممن أشركوهم مع الله، وتبرأ المعبودون.

(١٤) ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفَرُونَ﴾ وفي ذلك اليوم يفترق أهل الخير إلى الجنة، وأهل الشر إلى النار؛ كما افترقت أعمالهم في الدنيا.

(١٥) ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ آمنوا بقلوبهم وصدقوا ذلك بالأعمال الصالحة

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ
 فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَنَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ
 الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾
 وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ
 تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ
 أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً
 إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَاخْتَلَفَ الْأَلْسِنَةَ كُفْرًا وَاللُّغَةَ كَلَامًا
 فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ
 وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاءُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ
 لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ
 خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ
 بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾

﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ﴾ فيها سائر أنواع النبات
 وأصناف المشتبهات ﴿يُحْبَرُونَ﴾ يسرون
 ويعمون.

(١٦) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ووجدوا نعمه
 وقابلوها بالكفر ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ التي جاءتهم بها
 رسلنا ﴿فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ مدخلون لا
 يغيبون عنه، قد أحاطت بهم جهنم من جميع
 جهاتهم.

(١٧) ﴿فَسُبْحَنَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾
 إخبار من الله في معنى الأمر بتنزيه الله تعالى
 والثناء عليه في هذه الأوقات التي تظهر فيها
 قدرته وتتجدد فيها نعمته.

(١٨) ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بحمده
 أهل السماوات والأرض ويصلون له ﴿وَعَشِيًّا﴾
 يعني: صلاة العصر ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ تدخلون
 في وقت الظهيرة؛ وهو: صلاة الظهر.

(١٩) ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كما يخرج النبات
 من الأرض الميتة، والسنبله من الحبة،
 والشجرة من النواة، والفرخ من البيضة،
 والمؤمن من الكافر ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾
 بعكس المذكور ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾
 فينزل عليها المطر وهي ميتة هامدة؛ فإذا أنزل
 عليها الماء اهتزت وربت، وأنبتت من كل
 زوج بهيج ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ من قبوركم.

(٢٠) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ وذلك
 بخلق أصل النسل آدم عَلَيْهِ السَّلَام ﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ
 تَنْتَشِرُونَ﴾ أي: الذي خلقكم من أصل واحد

ومادة واحدة وبثكم في أقطار الأرض وأرجائها؛
 ففي ذلك آيات على أن الذي أنشأكم من هذا
 الأصل، وبثكم في أقطار الأرض، هو الرب
 المعبود بحق، الملك المحمود بصدق، والرحيم
 الودود، الذي سيعيدكم بالبعث بعد الموت.

(٢١) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على رحمته، وعنايته
 بعباده، وحكمته العظيمة، وعلمه المحيط ﴿أَنْ
 خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ تناسبكم
 وتناسبونهن، وتشاكلكم وتشاكلونهن ﴿لِتَسْكُنُوا
 إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ بما رتب
 على الزواج من الأسباب الجالبة للمودة
 والرحمة، فهما يتوادان ويتراحمان، وما شيء

بها قبل مماتهم من بعد فنائهم .
 (٢٣) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ وفي
 الآيات الدالة على حكمة المولى عز وجل ما
 جعل لكم في صفة النوم في الليل والنهار
 التي يحصل بها منافع للناس ما لا يعلمه إلا
 الله ﴿وَابْتَغَاوْكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ ؛ أي : ابتغواكم من
 فضله في النهار، وهو التصرف في طلب
 المعيشة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
 يَسْمَعُونَ﴾ سماع تدبر واعتبار، وهم أهل العلم
 الذين يفهمون العبر، ويتدبرون الآيات .

(٢٤) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا
 وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ
 مَوْتِهَا﴾ ومن آياته : أن ينزل عليكم المطر
 الذي تحيا به البلاد والعباد، ويريكم قبل نزوله
 مقدماته من الرعد والبرق الذي يُخَافُ وَيُطْمَعُ
 فيه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ دالة على عموم
 إحسانه وسعة علمه وكمال إتقانه، وعظيم
 حكمته وأنه يحيي الموتى كما أحيا الأرض
 بعد موته ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ لهم عقول تعقل بها
 ما تسمعه وتراه وتحفظه، وتستدل به على ما
 جعل دليلاً عليه .

(٢٥) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْعَظِيمَةِ﴾ ؛ أي : هي قائمة ثابتة
 بأمره بغير عمد ﴿أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾
 فلم تنزلوا، ولم تسقط السماء على الأرض ﴿ثُمَّ
 إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ فقدرته
 العظيمة التي بها أمسك السماوات والأرض أن
 تزولا، يقدر بها أنه إذا دعا الخلق دعوة من
 الأرض إذا هم يخرجون .

(٢٦) ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الكل
 خلقه ومماليكه المتصرف فيهم من غير منازع

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ
 دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ كُلِّ لَمْ تَعْبُدُوا ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ
 ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ
 أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي
 مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ
 أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾
 بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ مِّنْ يَّهْدِي
 مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَهُ الْكَافِرُ لِلَّذِينَ
 حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ
 اللَّهِ ذَلِكَ الَّذِي أَلْفَيْتُمْ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
 لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُبِينٌ إِلَيْهِ وَاقْفُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ
 وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا
 دِينَهُمْ وَكَانُوا شِبَعًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

أحب إلي أحدهما من الآخر من غير رحم بينهما
 ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يُعملون
 أفكارهم ويتدبرون آيات الله، وينتقلون من شيء
 إلى شيء .

(٢٢) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ﴾ في ارتفاعها
 واتساعها وشغوف أجرامها، وزهارة كواكبها
 ونجومها الثوابت والسيارات ﴿وَالْأَرْضِ﴾ في
 انخفاضها وكثافتها، وما فيها من جبال وأودية،
 وبحار وقفار، وحيوان وأشجار ﴿وَأَخْلَقَ
 أَلْسِنَتَكُمْ﴾ ؛ أي : اختلاف اللغات، فهؤلاء
 بلغة العرب، وهؤلاء تتر، وهؤلاء عجم،
 وهؤلاء بربر ﴿وَالْوَنِينَ﴾ أبيض وأسود وأحمر،
 وأنتم ولد رجل واحد وامرأة واحدة ﴿إِنَّ فِي
 ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّعِبْرَةٍ وَادِّلَّةٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ لخلق الله الذين
 يعقلون أنه لا يعييه إعادتهم لهيئتهم التي كانوا

يخاف من قسمه واختصاص كل شيء بحاله؟ ليس الأمر كذلك؛ فإنه ليس أحد مما ملكت أيمانكم شريكاً لكم فيما رزقكم الله تعالى.

هذا، ولستم الذين خلقتموهم ورزقتموهم وهم أيضاً مماليك مثلكم، فكيف ترضون أن تجعلوا لله شريكاً من خلقه؟! ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الحقائق يتوضيحتها بأمثلتها ﴿لَقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الحقائق ويعرفون.

(٢٩) ﴿يَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ هويت أنفسهم الناقصة التي ظهر من نقصانها ما تعلق به هواها، أمراً يجزم العقل بفساده والفطر برده، بغير علم دلهم عليه، ولا برهان قادهم إليه ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ لا أحد يهديهم إذا كتب الله ضلالهم ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ تَصْرِيحٍ﴾ ينصرونهم حين تحقق عليهم كلمة العذاب، وتنقطع بهم الوصل والأسباب.

(٣٠) ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ﴾ انصبه ووجهه ﴿لِلدِّينِ﴾ إلى الدين الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان ﴿حَنِيفًا﴾ مقبلاً على الله في ذلك، معرضاً عما سواه، وهذا الأمر الذي أمرناك به هو ﴿فَطَرَتْ﴾ الله أَلَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ ووضع في عقولهم حسنهما واستقباح غيرها، فإن جميع أحكام الشرع الظاهرة والباطنة قد وضع الله في قلوب الخلق

ولا معاون ولا معارض ﴿كُلُّ لَوْ قَدِثُونَ﴾ خاضعون لكماله.

(٢٧) ﴿وَهُوَ الَّذِي يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ﴾ يخلقهم أولاً ثم يعيدهم بعد الموت للبعث ﴿وَهُوَ﴾ أي: الإعادة للخلق بعد موتهم ﴿أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ من ابتداء خلقهم، وهذا بالنسبة إلى الأذهان والعقول، فإذا كان قادراً على الابتداء الذي تقرون به كانت قدرته على الإعادة التي أهون أولى وأولى. ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: الوصف الأعلى في كل كمال، فصفاته كلها عليها، ومنها الوحداية ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ له العزة الكاملة والحكمة الواسعة، فعزته أوجد بها المخلوقات وأظهر المأمورات، وحكمته أتقن بها ما صنعه، وأحسن فيها ما شرعه.

(٢٨) ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾؛ أي: مثل لكم أيها القوم ربكم مثلاً ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾؛ أي: تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم ﴿هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ﴾ هل أحد من عبيدكم وإمائكم الأرقاء يشارككم في رزقكم، وترون أنكم وهم فيه على حد سواء ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ كالأحرار الشركاء في الحقيقة الذين

(٢٧) أخرج البخاري في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «قال الله: كذبي ابن آدم ولم يكن له ذلك. وشممني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقله: لن يعيدني كما بداني. وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته. وأما شتمه إياي فقله: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد».

(٣٠) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من يولد يولد على الفطرة؛ فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه؛ كما ينتجون البهيمة، هل تجدون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها؟» قالوا: يا رسول الله، أفرأيت من يموت وهو صغير؟ قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين».

وفي رواية للبخاري: ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَطَرَتْ اللَّهُ أَلَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾.

روحها الإخلاص من كل وجه .

(٣٢) ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِيَنَهُمْ﴾ بدلوه وغيروه وصاروا فرقا مختلفة؛ وهم: اليهود والنصارى ﴿وَكَانُوا شِرْكَاءَ﴾ كل فرقة من فرق الشرك تألفت وتعصبت على نصر ما معها من الباطل، ومنابذة غيرهم ومحاربتهم ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ من العلوم المخالفة لعلوم الرسل ﴿فَرِحُوا﴾ به، يحكمون لأنفسهم بأنه الحق، وأن غيرهم على باطل، وفي هذا تحذير للمسلمين من تشبههم وتفرقهم فرقا .

(٣٣) ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾ مرض أو خوف، من هلاك ونحوه ﴿دَعَا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ مقبلين إليه بالدعاء، ونسوا ما كانوا به يشركون في تلك الحال؛ لعلمهم أنه لا يكشف الضر إلا الله . ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاهُمْ مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ شفاهم من مرضهم وآمنهم من خوفهم ﴿إِذَا فُرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ إذا جماعة منهم ﴿بَرَّيْتُمْ يَشْرِكُونَ﴾ يشركون به من لا نصرهم ولا دفع عنهم، ولا أفقر ولا أغنى .

(٣٤) ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا﴾ وكل هذا كفر بما آتاهم الله ومن به عليهم، ثم توعدهم بقوله ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما لكم في الآخرة . (٣٥) ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ حجة ظاهرة ﴿فَهُوَ﴾ ذلك السلطان ﴿يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يَشْرِكُونَ﴾ وهذا استفهام إنكار، أي: لم يكن لهم شيء من ذلك .

(٣٦) ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا﴾ يخبر تعالى عن طبيعة أكثر الناس في حالي الرخاء والشدّة: أنهم إذا أذاهم الله منه رحمة: من صحة وغنى ونصر ونحو ذلك، فرحوا بذلك

وَأِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاهُمْ مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَرِيحُ يَشْرِكُونَ ﴿٣٢﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يَشْرِكُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٥﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٦﴾ فَتَابَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَشْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا ءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ رِّبَا لِيَرْبُؤُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا ءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ ذِكْوَةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٨﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شَرِكٍ لَّكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِثْلَ شَيْءٍ وَسُبْحَانَ اللَّهِ عَنَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣٩﴾ طَهَّرَ الْفَسَادَ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ يَمَّا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٠﴾

كلهم الميل إليها، فوضع في قلوبهم محبة الحق وإيثار الحق، وهذا حقيقة الفطرة ﴿لَا يَدْبُدِلْ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ لا أحد يبدل خلق الله، فيجعل المخلوق على غير الوضع الذي وضعه الله ﴿ذَلِكَ﴾ الذي أمرنا به ﴿الَّذِينَ أَلْفَيْمٌ﴾ الطريق المستقيم الموصل إلى الله وإلى كرامته، فإن من أقام وجهه للدين حنيفاً؛ فإنه سالك الصراط المستقيم في جميع شرائعه وطرقه ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلا يتعرفون الدين القيم، وإن عرفوه لم يسلكوه .

(٣١) ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ راجعين إليه بالتوبة مقبلين إليه بالطاعة ﴿وَأَتَّقُوهُ﴾ فهذا يشمل فعل المأمورات وترك المنهيات ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ وخص من المأمورات الصلاة؛ لكونها تدعو إلى الإنابة والتقوى؛ لقوله ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ لكون الشرك مضاداً للإنابة التي

النَّاسِ ﴿ وَقَصْدَكُمْ بِذَلِكَ أَنْ يَزِيدَ فِي أَمْوَالِكُمْ بِأَنْ تَعْطَوْهَا لِمَنْ تَطْمَعُونَ أَنْ يَعَاوِضَكُمْ عَنْهَا بِأَكْثَرِ مِنْهَا ﴿ فَلَا يَرْوُوا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ فهذا العمل لا يربو أجره عند الله ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ ذِكْوَةٍ ﴾ مال يطهركم من الأخلاق الرذيلة؛ ويطهر أموالكم من البخل بها، ويزيد في دفع حاجة الْمُعْطَى ﴿ تُرِيدُونَ ﴾ بذلك ﴿ وَجَهَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ المضاعف لهم الأجر الذين تربو نفقاتهم عند الله، ويربها الله لهم حتى تكون شيئا كثيرا.

(٤٠) ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ يخبر تعالى أنه وحده المنفرد بخلقكم ورزقكم وإماتتكم ثم إحيائكم ﴿ هَذَا مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَقُولُ مِنْ ذَلِكَ مَنْ شَيْءٍ ﴾ وأنه ليس أحد من الشركاء التي يدعوهم المشركون من يشارك الله في شيء من هذه الأشياء ﴿ سُبْحَنَهُ وَقَعَلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تقدس وتنزه وعلا عن شركهم، فلا يضره ذلك، وإنما وبالهم عليهم.

(٤١) ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ ﴾ استعلن الفساد؛ أي: فساد معاشهم ونقصها، وحلول الآفات بها ﴿ فِي الْبَرِّ ﴾ البوادي والمفاوز ﴿ وَالْبَحْرِ ﴾ المدائن والقرى التي هي على المياه الجارية ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ بسبب ما قدمت أيديهم من الأعمال، الفاسدة المفسدة بطبعها ﴿ لِيَذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا ﴾ ليعلموا أنه المجازي على الأعمال فعجل لهم نموذجا من جزاء أعمالهم في الدنيا ﴿ وَلَعَلَّهُمْ

فرح بطر، لا فرح شكر ﴿ وَإِنْ نُصِيبَهُمْ سَيْئَةً ﴾ حال تسوؤهم، وذلك ﴿ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾ من المعاصي ﴿ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ ييأسون من زوال ذلك الفقر والمرض ونحوه، وهذا جهل منهم وعدم معرفة.

(٣٧) ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ فالقنوط بعد ما علم أن الخير والشر من الله، والرزق، سعته وضيقه من تقديره، ضائع ليس له محل، فلا تنظر أيها العاقل لمجرد الأسباب، بل اجعل نظرك لمسبها، ولهذا قال: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ فهم الذين يعتبرون بسط الله لمن يشاء وقبضه، ويعرفون بذلك حكمة الله ورحمته وجوده.

(٣٨) ﴿ فَتَاتَ ذَا الْقَرْيَةِ حَقُّهُ ﴾ فأعط القريب منك - على حسب قربه وحاجته - حقه الذي أوجبه الشارع من النفقة الواجبة والبر ﴿ وَالْمَسْكِينِ ﴾ وكذلك آت المسكين الذي أسكنه الفقر والحاجة ﴿ وَأَبْنَى السَّبِيلِ ﴾ الغريب المنقطع به في غير بلده الذي في مظنة شدة الحاجة ﴿ ذَلِكَ ﴾ إيتاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل ﴿ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ ﴾ بذلك العمل ﴿ وَجَهَ اللَّهُ ﴾ ابتغاء مرضاة الله ﴿ وَأُولَئِكَ ﴾ الذين عملوا هذه الأعمال وغيرها لوجه الله ﴿ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الفائزون بثواب الله الناجون من عقابه.

(٣٩) ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ ما أعطيتكم من أموالكم الزائدة عن حوائجكم ﴿ لِيَرْوُوا فِي أَمْوَالِ

(٣٩) في «الصحاحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «وما تصدق أحد بعدل ثمرة من كسب طيب إلا أخذها الرحمن بيمينه، فيربها لصاحبها، كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله، حتى تصير الثمرة أعظم من أحد».

زمانك وحياتك وشبابك ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ وهو يوم القيامة الذي إذا جاء لا يمكن رده ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ﴾ يتفرون عن ذلك اليوم، ويصدرون أشتاتاً متفاوتتين.

(٤٤) ﴿مَنْ كَفَرَ﴾ منهم ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ ويعاقب هو بنفسه، لا تزر وازرة وزر أخرى ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ من الحقوق التي لله أو التي للعباد، الواجبة والمستحبة، ﴿فَلَا نُنْفِسُهُمْ﴾ لا لغيرهم ﴿يَمْهَدُونَ﴾ يهيئون، ولأنفسهم يعملون آخرتهم، ويستعدون للفوز بمنازلتها وغرفاتها.

(٤٥) ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ جزاؤهم ليس مقصوراً على أعمالهم، بل يجزيهم الله من فضله الممدود، وكرمه غير المحدود، ما لا تبلغه أعمالهم، وذلك لأنه أحبهم، وهذا بخلاف الكافرين، فإن الله لما أبغضهم ومقتهم عاقبهم وعذبهم، ولم يزدهم كما زاد من قبلهم؛ فهذا قال: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾.

(٤٦) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ ومن الأدلة الدالة على رحمته وبعثه الموتى، وأنه الإله المعبود بحق، والملك محمود بصدق ﴿أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ﴾ أمام المطر ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ بإثارتها للسحاب، ثم جمعها؛ فتبشر بذلك النفوس قبل نزوله ﴿وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ فينزل عليكم من رحمته مطراً تحيا به البلاد والعباد ﴿وَلِيَجْزِيَ الْفُلُكَ﴾ في البحر ﴿بِأَمْرِهِ﴾ القدري ﴿وَلِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ بالتصرف في معاشكم ومصالحكم ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ من سخر لكم الأسباب، وسير لكم الأمور.

(٤٧) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ في الأمم

الْمُرْسَلِينَ مِنَ الرُّسُلِ لِيُذَكِّرَ فِي الْأَرْضِ فَأَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَقِبُهُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقْرَرْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَائِمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ ﴿٤٣﴾ مَنْ كَفَرَ فَلَيْتَهُ كُفْرَهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّونَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرِينَ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِيَجْزِيَ الْفُلُكَ بِأَمْرِهِ وَلِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا لِقَوْمِهِمْ جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاتَّخَفْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتَنبِثُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا لِقَوْمٍ أَلُودٍ يُخْرَجُ مِنْ خِلَالِهِ إِذَا أَصَابَ بِهِ مِنْ شِئَاءٍ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَشِيرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْسِلِينَ ﴿٤٩﴾ فَأَنْظِرُوا إِلَى أَنْ تَنْزِلَ مِنَ اللَّهِ كَيْفَ تُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُنْجَى الْمُؤْمِنِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

يَرْجِعُونَ ﴿عن أعمالهم التي أثرت لهم من الفساد ما أثرت، فتصلح أحوالهم ويستقيم أمرهم.

(٤٢) ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ والأمر بالسير في الأرض يدخل فيه السير بالأبدان، والسير في القلوب للنظر والتأمل بعواقب المتقدمين ﴿فَأَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَقِبُهُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ تجدون عاقبتهم شر العواقب، ومآلهم شر مآل، عذاب استأصلهم، وذم ولعن من خلق الله يتبعهم، وخزي متواصل؛ فاحذروا أن تفعلوا فعالهم يُحْدَى بكم حدوهم.

(٤٣) ﴿فَأَقْرَرْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَائِمِ﴾ أقبل بقلبك وتوجه بوجهك، واسع ببذلك لإقامة الدين القيم المستقيم، فنفذ أوامره، ونواهيه بجد واجتهاد، وقم بوظائفه الظاهرة والباطنة، وبادر

السَّابِقِينَ ﴿رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ حين جحدوا توحيد الله، وكذبوا بالحق ﴿فَجَاءَهُمْ﴾ رسلهم يدعونهم إلى التوحيد والإخلاص وجاءهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ والأدلة الواضحة على ذلك، فلم يؤمنوا، ولم يزولوا عن غيهم ﴿فَأَنقَمْنَا مِنْ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ ونصرنا المؤمنين أتباع الرسل ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أوجبنا ذلك على أنفسنا، وجعلناه من جملة الحقوق المتعينة، ووعدناهم به؛ فلا بد من وقوعه.

(٤٨) ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ فَتُنْفِثُ سَحَابًا﴾ يخبر تعالى عن كمال قدرته وتمام نعمته أنه ﴿يُرْسِلُ الرِّيْحَ فَتُنْفِثُ سَحَابًا﴾ من الأرض ﴿فَيَسْطُطُ فِي السَّمَاءِ﴾ يمدده ويوسعه ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ على أي الحالة التي أرادها من ذلك ﴿وَو﴾ ثم ﴿يَجْعَلُهُ﴾ أي: ذلك السحاب الواسع ﴿كَسَفًا﴾ سحاباً ثخيناً قد طبق بعضه فوق بعض ﴿فَتَرَى الْوَدُقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ أي: السحاب، نقطاً صغاراً متفرقة، لا تنزل جميعاً؛ فتفسد ما أتت عليه ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ﴾ بذلك المطر ﴿مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ إذا هم يستبشرون ﴿يبشر بعضهم بعضاً﴾ بنزوله، وذلك لشدة حاجتهم وضرورتهم إليه؛ فلهذا قال:

(٤٩) ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَكَاذِبِينَ﴾ آيسين قانطين؛ لتأخر وقت مجيئه؛ أي: فلما نزل في تلك الحال صار له موقع عظيم عندهم وفرح واستبشار.

(٥٠) ﴿فَانْظُرْ إِلَى ءَاثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج كريم ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ الذي أحيا الأرض بعد موتها ﴿لَمُخَيِّ الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

فقدرته تعالى لا يتعاضى عليها شيء.

(٥١) ﴿وَإِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ يخبر تعالى عن حالة الخلق، وأنهم مع هذه النعم عليهم بإحياء الأرض بعد موتها، ونشر رحمة الله تعالى لو أرسلنا على هذا النبات الناشئ عن المطر وعلى زروعهم ريحاً مضرّة متلفة أو منقصة ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ قد تداعى إلى التلف ﴿لَطَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ﴾ يكفرون؛ فينسبون النعم الماضية، ويبادرون إلى الكفر.

(٥٢) وهؤلاء لا ينفع فيهم وعظ ولا زجر ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكُفْرَ﴾ لأنه ليس في قدرتك أن تسمع الأموات في أجدائها ﴿وَلَا تَسْمَعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ ولا تبلغ كلامك الصم الذين لا يسمعون، وبالأولى ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ فإن الموانع قد توفرت فيهم عن الانقياد والسمع

الدنيا ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ وذلك اعتذار منهم لعله ينفعهم العذر، واستقصار لمدة الدنيا ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ ما زالوا وهم في الدنيا يؤفكون عن الحقائق، ويأتفكون الكذب.

(٥٦) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾؛ أي: مَنْ اللَّهُ عليهم بهما، وصارا وصفاً لهم: العلم بالحق، والإيمان المستلزم إيثار الحق، وإذا كانوا عالمين بالحق مؤثرين له، لزم أن يكون قولهم مطابقاً للواقع مناسباً لأحوالهم.

فلهذا قالوا الحق: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في قضائه وقدره، الذي كتبه الله عليكم وفي حكمه ﴿إِنَّ يَوْمَ الْبَعْثِ﴾ عمرتم عُمرًا يتذكر فيه المتذكر، ويعتبر فيه المعتر حتى صار البعث ووصلتم إلى هذه الحال ﴿فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّا كُنْزٌ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فلذلك أنكرتموه في الدنيا، وأنكرتم إقامتكم في الدنيا وقتاً تتمكنون فيه من الإنابة والتوبة، فلم يزل الجهل شعاركم، وآثاره من التكذيب والخسار دثاركم.

(٥٧) ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذَرَتُهُمْ﴾ وإن طلبوا الإعذار، وأنهم يردون ولا يعودون لما نُهوا عنه، لم يُمَكِّنُوا؛ فإنه فات وقت الإعذار؛ فلا تقبل معذرتهم ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ يزال عتبهم والعتاب عنهم، ولا هم يرجعون إلى الدنيا.

(٥٨) ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِأَجَلٍ عَنَّا وَرَحْمَتَنَا وَلَطْفَنَا وَحَسَنَ تَعْلِيمَنَا﴾ لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ

النافع كتوفر هذه الموانع المذكورة عن سماع الصوت الحسي.

(٥٣) ﴿وَمَا أَنْتَ بِهْدَى الْقَمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ لأنهم لا يقبلون الإبصار بسبب عماهم، فليس منهم قابلية له ﴿إِنْ شِئْتَ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ فهؤلاء الذين ينفع فيهم إسماع الهدى المؤمنون بآياتنا بقلوبهم، المنقادون لأوامرنا، المسلمون لنا.

(٥٤) يقول تعالى ذكره لهؤلاء المكذبين بالبعث من مشركي قريش، محتجاً عليهم بأنه القادر على ذلك، وعلى ما يشاء: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿مِنْ ضَعْفٍ﴾؛ أي: من نطفة وماء مهين، فأنشأكم بشراً ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ ثم ما زال الله يزيد في قوته شيئاً فشيئاً حتى بلغ سن الشباب، واستوت قوته، وكملت قواه الظاهرة والباطنة ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ ثم انتقل من هذا الطور ورجع إلى الضعف والشيبة والهرم ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ يفعل ما يشاء ويتصرف في عبادته بما يريد ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ ليعلم العباد كمال قدرة الله التي لا تزال مستمرة يخلق بها الأشياء، ويدبر بها الأمور، ولا يلحقها إعياء ولا ضعف، ولا نقص بوجه من الوجوه.

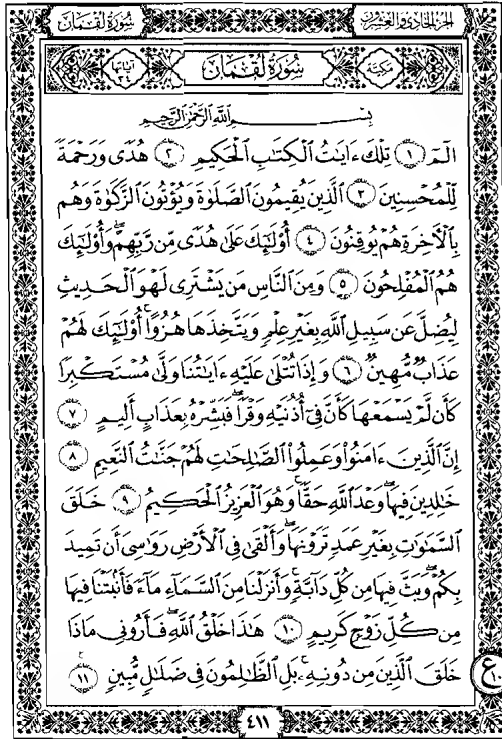
(٥٥) ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ يخبر تعالى عن يوم القيامة، وسرعة مجيئه، وأنه إذا قامت الساعة ﴿يُقَسِّمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ بالله أنهم ﴿مَا لَبِثُوا﴾ في

مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴿٥٩﴾ تَتَضَحَّ بِهِ الْحَقَائِقُ، وَتَعْرِفُ بِهِ
الْأُمُورَ، وَتَنْقَطِعُ بِهِ الْحُجَّةُ ﴿٦٠﴾ وَلَكِنْ جِئْتُمْ
بِآيَةٍ آيَةً تَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ مَا جِئْتُ بِهِ
﴿يَقُولُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ أَنْتَ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾
قَالُوا لِلْحَقِّ: إِنَّهُ بَاطِلٌ.

﴿٥٩﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ فَلَا يَدْخُلُهَا خَيْرٌ، وَلَا تَدْرِكُ الْأَشْيَاءَ
عَلَى حَقِيقَتِهَا، بَلْ تَرَى الْحَقَّ بَاطِلًا، وَالْبَاطِلَ
حَقًّا.

﴿٦٠﴾ فَاصْبِرْ ﴿٦١﴾ عَلَى مَا أَمَرْتُ بِهِ، وَعَلَى
دَعْوَتِهِمْ إِلَى اللَّهِ، وَلَوْ رَأَيْتَ مِنْهُمْ إِعْرَاضًا؛ فَلَا
يَصْدُنْكَ ذَلِكَ ﴿٦٢﴾ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴿٦٣﴾ لَا شَكَّ فِيهِ،
وَهَذَا مِمَّا يَعْينُ عَلَى الصَّبْرِ.

﴿٦٤﴾ وَلَا يَسْتَخَفُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦٥﴾ أَيُّ: قَدْ
ضَعَفَ إِيْمَانَهُمْ، وَقَلَّ يَقِينُهُمْ، فَخَفَتْ لَذَلِكَ
أَحْلَامُهُمْ، وَقَلَّ صَبْرُهُمْ، فَإِيَّاكَ أَنْ يَسْتَخَفُّكَ
هَؤُلَاءِ؛ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَجْعَلْهُمْ مِنْكَ عَلَى بَالٍ
وَتَحْذَرُ مِنْهُمْ، وَإِلَّا اسْتَخَفُّوكَ وَحَمَلُوكَ عَلَى
عَدَمِ الثَّبَاتِ عَلَى الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاحِي.



سورة لقمان وهي مكية

﴿١﴾ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ مَضَى الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمَقْطُوعَةِ
فِي فَوَاتِحِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

﴿٢﴾ ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾؛ أَيُّ: تِلْكَ
الْآيَاتُ الرَّفِيعَةُ الشَّانُ الَّتِي تَأَلَّقَتْ مِنْهَا هَذِهِ السُّورَةُ
أَوْ الْقُرْآنُ كُلُّهُ، هِيَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمَوْصُفَةُ
بِالْحِكْمَةِ.

﴿٣﴾ ﴿هُدًى﴾ مِنَ الضَّلَالِ ﴿وَرَحْمَةً﴾ مِنَ
الْعَذَابِ ﴿لِلْمُحْسِنِينَ﴾ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِمْ،
وَالْمُحْسِنُونَ إِلَى الْخَلْقِ.

﴿٤﴾ ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ الْمَشْتَمَلَةُ عَلَى
الْإِخْلَاصِ، وَمُنَاجَاةِ الرَّبِّ تَعَالَى ﴿وَيُؤْتُونَ

(٧) ﴿وَإِذَا نُنَالُ عَلَيْهِ ءَاثِنَا﴾ ليؤمن بها وينقاد لها ﴿وَلَىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ أدبر إدبار مستكبر عنها، رادُّ لها، ولم تدخل قلبه ولا أثرت فيه، بل أدبر عنها ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ بل ﴿كَأَن فِي أُذُنِهِ وَقْرًا﴾ صمماً، لا تصل إليه الأصوات؛ فهذا لا حيلة في هدايته.

﴿فَنِشْرَةٍ﴾ بشارة تؤثر في قلبه الحزن والغم؛ وفي بشرته السوء والظلمة والغبرة، ﴿بِعَذَابِ إِلِيمٍ﴾ مؤلم لقلبه ولبدنه، لا يقادر قدره، ولا يدرى بعظيم أمره.

(٨) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ جمعوا بين عبادة الباطن بالإيمان، والظاهر بالإسلام والعمل الصالح ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ بشارة لهم بما قدموه، وقرى لهم بما أسلفوه.

(٩) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ في جنات النعيم: نعيم القلب والروح والبدن ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ لا يمكن أن يخلف ولا يغير ولا يتبدل ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ كامل العزة، كامل الحكمة، من عزته وحكمته، وفق من وفق، وخذل من خذل، بحسب ما اقتضاه علمه فيهم وحكمته.

(١٠) ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ﴾ السبع على عظمها وسعتها وكثافتها وارتفاعها الهائل ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوْنَهَا﴾ ليس لها عمد، ولو كان لها عمد لرئيت، وإنما استقرت واستمسكت بقدرة الله تعالى ﴿وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوْسًا﴾ جبلاً عظيمة، ركزها في أرجائها وأنحائها ﴿أَنَ﴾ أي: لئلا ﴿تَبِيدَ بِكُمْ﴾ فلولا الجبال

الرُّكُودَ التي تزكي صاحبها من الصفات الرذيلة ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ وصف المحسنين بالعلم التام، وهو اليقين الموجب للعمل والخوف من عقاب الله؛ فيتركون معاصيه.

(٥) ﴿أُولَٰئِكَ﴾ هم المحسنون الجامعون بين العلم التام والعمل ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ عظيم، كما يفيد التذكير، وذلك الهدى حاصل لهم، وواصل إليهم ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ الذي لم يزل يرببهم بالنعم؛ ويدفع عنهم النقم ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الذين أدركوا رضا ربهم، وثوابه الدنيوي والأخروي، وسلموا من سخطه وعقابه، وذلك لسلوكهم طريق الفلاح، الذي لا طريق له غيرها.

(٦) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن﴾ هو محروم مخذول ﴿يَنْتَرَىٰ﴾ يختار ويرغب رغبة من يبذل الثمن في الشيء، ﴿لَّهُوَ الْكَادِبُ﴾ الأحاديث الملهمية للقلوب، الصادة لها عن أجل مطلوب، فدخل في هذا كل كلام محرم، وكل لغو، وباطل، وغيبة، ونميمة، وكذب، وشتم، وسب، ومن غناء ومزامير شيطان ﴿لِيُضِلَّ﴾ الناس ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أضل من لا علم عنده، وخدعه بما يوحيه إليه من القول الذي لا يميزه ذلك الضال، ولا يعرف حقيقته ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ ويتخذ آيات الله هزواً، ويسخر بها، وبمن جاء بها، ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ عَذَابٌ مُُّهِينٌ﴾ بما ضلوا وأضلوا، واستهزؤوا بآيات الله، وكذبوا الحق الواضح.

(٦) أخرج الطبري والحاكم والبيهقي بإسناد حسن عن أبي الصهباء: أنه سأل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَنْتَرَىٰ لَهُوَ الْكَادِبُ﴾ قال: الغناء.

الراسيات لمادت الأرض، ولما استقرت بساكنيتها ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ نشر في الأرض الواسعة من جميع أصناف الدواب، التي هي مسخرة لبني آدم ولمصالحهم ومنافعهم ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ ولما بثها في الأرض؛ علم تعالى أنه لا بد لها من رزق تعيش به، فأنزل من السماء ماء مباركاً، ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ المنظر، نافع مبارك، فترعت فيه الدواب المنبثة، وسكن إليه كل حيوان.

(١١) ﴿هَذَا﴾ العالم العلوي والسفلي من جماد وحيوان، وسوق أرزاق الخلق إليهم ﴿خَلَقَ اللَّهُ﴾ وحده لا شريك له، كل مقرر بذلك، حتى أنتم يا معشر المشركين ﴿فَارَوْفِ مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ الذين جعلتموهم له شركاء، تدعونهم وتعبدونهم، يلزم على هذا أن يكون لهم خلق كخلقه، ورزق كرزقه، فإن كان لهم شيء من ذلك فأرونيه؛ ليصح ما ادعيتهم فيهم من استحقاق العبادة ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ جليي واضح؛ حيث عبدوا من لا يملك نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وتركوا الإخلاص للمخالق الرازق المالك لكل الأمور.

(١٢) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَنَ الْحِكْمَةَ﴾ يخبر تعالى عن امتنانه على عبده الفاضل لقمان بالحكمة؛ وهي: العلم النافع، والعمل الصالح ﴿إِنْ أَشْكُرَ لِلَّهِ﴾ أمره أن يشكره على ما أعطاه؛

وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَنَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ قَالَ لُقْمَنُ لِبَنِيهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَى لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٥﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّقِ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَى اللَّهِ إِلَى مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ يَبْنَى إِنَّمَا أَنْتَ مُنْقَالُ حَبَرٍ مِنْ خَرَدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٧﴾ يَبْنَى أَقْبِرِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصِرْ عَلَى مَا صَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ ﴿١٨﴾ وَلَا تَصْرَعْ ذَلِكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْسُ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٩﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنْ أَنْكَرَ الْأَصَوَاتُ لَصُوتُ الْحَمِيرِ ﴿٢٠﴾

ليبارك له فيه، وليزيده من فضله ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ وأخبره أن شكر الشاكرين يعود نفعه عليهم، وأن من كفر فلم يشكر الله عاد وبال ذلك عليه، والله غني عنه، حميد فيما يقدره ويقضيه على من خالف أمره.

(١٣) ﴿وَلَقَدْ قَالَ لُقْمَنُ لِبَنِيهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَى لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ قال له قولاً به يعظه بالأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب فأمره بالإخلاص، ونهاه عن الشرك، وبين له السبب في ذلك، فقال: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ووجه كونه عظيماً: أنه لا أظفط وأبشع ممن سوى

(١٣) أخرج البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿وَلَا يَلْبِسُوا إِسْمَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]؛ قال أصحاب رسول الله ﷺ: أينما لم يظلم؟! فأنزل الله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

ذلك، ولا تظن أن هذا داخل في الإحسان إليهما؛ لأن حق الله مقدم على حق كل أحد، وأما برهما؛ فاستمر عليه، ولهذا قال: ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ صحبة إحسان إليهما بالمعروف، وأما اتباعهما وهما بحالة الكفر والمعاصي فلا تتبعهما ﴿وَاتَّبَعَ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ وهم المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله، المستسلمون لربهم، المنيبون إليه. واتباع سبيلهم: أن يسلك مسلكهم في الإنابة إلى الله، التي هي انجذاب دواعي القلب وإراداته إلى الله، ثم يتبعها سعي البدن فيما يرضي الله ويقرب منه ﴿ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ﴾ الطائع والعاصي والمنيب وغيره ﴿فَأَنذِرْكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فلا يخفى على الله من أعمالهم خافية.

(١٦) ﴿يَبْنِيٰ إِنَّمَاٰ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ التي هي أصغر الأشياء وأحقرها ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾ في وسطها ﴿أَوْ فِي السَّعَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ﴾ في أي جهة من جهاتهما ﴿يَأْتِي بِهَا اللَّهُ﴾ لسعة علمه وتمام خبرته وكمال قدرته ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ لطف في علمه وخبرته، حتى اطلع على البواطن والأسرار، وخفايا القفار والبحار، والمقصود من هذا: الحث على مراقبة الله والعمل بطاعته مهما أمكن، والترهيب من

المخلوق من تراب بمالك الرقاب، وسؤي الذي لا يملك من الأمر شيئاً بمن له الأمر كله.

(١٤) ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ﴾ عهدنا إليه ﴿بِوَالِدَيْهِ﴾ أمه وأبيه ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ مشقة على مشقة، فلا تزال تلاقي المشاق، من حين يكون نطفة، من الوحم والمرض والضعف والثقل وتغير الحال، ثم وجع الولادة ذلك الوجع الشديد، ﴿وَ﴾ ثم ﴿فِصْلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ وهو ملازم لحضانة أمه وكفالتها ورضاعها ﴿أَن﴾ وقلنا له: ﴿أَشْكُرْ لِي﴾ بالقيام بعبوديتي، وأداء حقوقي، وأن لا تستعين بنعمي على معصيتي ﴿وَلَوْلَايَكَ﴾ بالإحسان إليهما بالقول اللين، والكلام اللطيف، والفعل الجميل، والتواضع لهما، وإكرامهما وإجلالهما، والقيام بمثونتهما، واجتناب الإساءة إليهما من كل وجه بالقول والفعل. فوصيناه بهذه الوصية، وأخبرناه أن ﴿إِلَىٰ الْمَصِيرِ﴾ سترجع أيها الإنسان إلى من وصاك، وكلفك بهذه الحقوق، فيسألك: هل قمت بها؛ فيثيبك الثواب الجزيل؟ أم ضيعتها؛ فيعاقبك العقاب الويل؟.

(١٥) ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ﴾ اجتهد والداك ﴿عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ على أن تتابعهما على دينهما ﴿فَلَا تَطْغَهَا﴾ فلا تقبل منهما

(١٤ - ١٥) أخرج مسلم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه؛ قال: إنه نزلت فيه آيات من القرآن؛ قال: حلفت أم سعد أن لا تكلمه أبداً حتى يكفر بدينه، ولا تأكل ولا تشرب؛ قالت: زعمت: أن الله وصاك بالديك، وأنا أمك، وأنا أمرك بهذا، قال: مكثت ثلاثاً حتى غشي عليها في الجهد، فقام ابن لها يقال له: عمارة، فسقاها، فجعلت تدعو على سعد، فأنزل الله ﷻ في القرآن هذه الآية ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَصَّيْنَاهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ﴾.

عمل القبيح قَلَّ أو كَثُرَ.
(١٧) ﴿يَبْنِيْ أَيْمِ الصَّلَاةِ﴾ حشه عليها؛
وخصها؛ لأنها أكبر العبادات البدنية ﴿وَأَمْرٌ
بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وذلك يستلزم العلم
بالمعروف؛ ليأمر به، والعلم بالمنكر؛ لينهى
عنه.

ولما علم أنه لا بد أن يبتلى إذا أمر ونهى،
وأن في الأمر والنهي مشقة على النفوس؛ أمره
بالصبر على ذلك؛ فقال: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا
أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ﴾ الذي وعظ به لقمان ابنه
﴿مِنْ عَزْوِ الْأُمُورِ﴾ من الأمور التي يعزم
عليها، ويهتم بها، ولا يوفق لها إلا أهل
الغزائم.

(١٨) ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ لا تُملِه وتعبس
بوجهك للناس تكبرا عليهم، وتعاضماً.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ بطراً، فخراً
بالنعم، ناسياً المنعم، معجباً بنفسك ﴿إِنَّ اللَّهَ
لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ﴾ في نفسه وهيئته وتعاضمه
﴿فَخُورٍ﴾ بقوله.

(١٩) ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ امش متواضعاً
مستكيناً، لا مَشْيَ البطر والتكبر، ولا مشي
التماوت ﴿وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ أدباً مع الناس
ومع الله ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ﴾ أفظعها وأبشعها
﴿لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ فلو كان في رفع الصوت
البليغ فائدة ومصلحة؛ لما اختص بذلك
الحمار، الذي قد علمت خسته وبلادته.

(٢٠) ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تشاهدوا وتبصروا بأبصاركم

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ
عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهْرَهُ وَيَاطْنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ
بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿١٠﴾ وَإِذْ أَقْبَلَهُمْ تَبِعُوا
مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَبْعٌ مَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آيَاتُهُ أَوْ تُلَوَّكَانَ
الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمُ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ وَمَنْ يُسْلِمْ
وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى
وَالِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿١٢﴾ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُكَ كُفْرُهُ
إِلَّا مَرَجَعُهُمْ فَتَيْسَهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ
﴿١٣﴾ تَمَتَّعْتُمْ فَلْيَلَّغْ نَضَطَّهِمْ إِلَى عَذَابِ غِلَظٍ ﴿١٤﴾
وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ
الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ
مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ
مَا نَفَدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٧﴾ مَا خَلَقَكُمْ
وَلَا يَبْعَثُكُمْ إِلَّا كَفَيْسَ وَجَدَّ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١٨﴾

وقلوبكم ﴿أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ من
الشمس والقمر والنجوم، كلها مسخرات لنفع
العباد ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من الحيوانات
والأشجار والزرور والأنهار والمعادن ونحوها
﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ﴾ عمكم وغمركم ﴿ظَهْرَهُ
وَيَاطْنَةً﴾ التي نعلم بها، والتي تخفى علينا،
نعم الدنيا ونعم الدين، فوظيفتكم أن تقوموا
بشكر هذه النعم.

﴿وَلَكِنْ﴾ لكن مع توالي هذه النعم ﴿مِنْ النَّاسِ
مَنْ﴾ لم يشكرها، بل كفرها، وكفر بمن أنعم
بها، وجحد الحق الذي أنزل به كتبه، وأرسل
به رسله؛ فجعل ﴿يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ يجادل عن

(١٩) أخرج الإمام مسلم والنسائي في «الكبرى» - واللفظ له - من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ؛ قال: «إذا سمعتم صياح الديكة؛ فاسألوا الله من فضله، وإذا سمعتم نهيق الحمير بالليل؛ فتعوذوا بالله من الشيطان؛ فإنها رأت شيطانا».

ووصلت إليه عواقبهم، فليستعدوا لذلك الأمر. (٢٣) ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ﴾ لأنك أديت ما عليك، من الدعوة والبلاغ؛ فإذا لم يهتد؛ فقد وجب أجرك على الله، ولم يبق للحزن موضع على عدم اهتدائه؛ لأنه لو كان فيه خير لهداه الله ﴿إِنَّا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ من كفرهم وعداوتهم، وسعيهم في إطفاء نور الله وأذى رسله ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ التي ما نطق بها الناطقون، فكيف بما ظهر وكان شهادة؟

(٢٤) ﴿نُعَذِّبُهُمْ قَلِيلًا﴾ في الدنيا، ليزداد إثمهم، ويتوفر عذابهم ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ لنلجئهم ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ انتهى في عظمه وكبره، وفضاعته، وألمه، وشدته.

(٢٥) ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ﴾ لو سألت هؤلاء المشركين المكذبين بالحق ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ لعلموا أن أصنامهم ما خلقت شيئاً من ذلك، ولبادروا بقولهم: الله الذي خلقهما وحده. ف ﴿قُلْ﴾ لهم ملزماً لهم، ومحتجاً عليهم بما أقروا به، على ما أنكروا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي بيّن النور، وأظهر الاستدلال عليكم من أنفسكم، فلو كانوا يعلمون؛ لجزموا أن المنفرد بالخلق والتدبير، هو الذي يفرد بالعبادة والتوحيد.

﴿بَلْ﴾ ولكن ﴿أَكْفَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلذلك أشركوا به غيره، ورضوا بتناقض ما ذهبوا إليه على وجه الحيرة والشك، لا على وجه البصيرة.

الباطل؛ ليدحض به الحق، ويدفع به ما جاء به الرسول من الأمر بعبادة الله وحده، وهذا المجادل على غير بصيرة، فليس جداله عن علم؛ فيترك شأنه، ويسمح له في الكلام ﴿وَلَا هُدًى﴾ يقتدي به بالمهتدين ﴿وَلَا كُنُيٌّ مُّتَّبِعٍ﴾ غير مبين للحق؛ فلا معقول ولا منقول، ولا اقتداء بالمهتدين، وإنما جداله في الله مبني على تقليد آباء غير مهتدين، بل ضالين مضلين.

(٢٦) ولهذا قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ على أيدي رسله؛ فإنه الحق، وبينت لهم أدلته الظاهرة ﴿قَالُوا﴾ معارضين ذلك: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ فلا نترك ما وجدنا عليه آبائنا لقول أحد كائنات من كان.

قال تعالى في الرد عليهم وعلى آبائهم: ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ فاستجاب له آبائهم، ومشوا خلفه وصاروا من تلاميذ الشيطان، واستولت عليهم الحيرة.

(٢٢) ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ يخضع له وينقاد له بفعل الشرائع مخلصاً له دينه ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في ذلك الإسلام بأن كان عمله مشروعاً، قد اتبع فيه الرسول ﷺ ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ فقد أخذ موثقاً من الله متيناً لا يعذبه ﴿وَالِإِلَهِ عَقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ رجوعها وموثلها ومنتهاها، فيحكم في عبادته، ويجازيهم بما آلت إليه أعمالهم،

(٢٧) أخرج مسلم من حديث عائشة ؓ قالت: فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفرائض؛ فالتمسته، فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد، وهما منصوبتان، وهو يقول: «اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك».

(٢٦) ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي هو خلقه وملكه ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عما سواه، وكل شيء فقير إليه ﴿الْحَمِيدُ﴾ في جميع ما خلق، له الحمد في السموات والأرض على ما خلق وشرع.

(٢٧) ثم أخبر عن سعة كلامه وعظمته قوله فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ﴾؛ أي: ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أخلاقاً، وجعل البحر مداداً، ومده سبعة أبحر معه، فكتبت بها كلمات الله، الدالة على عظمته وصفاته جلاله لتكسرت الأقلام، ونفد ماء البحر، ولو جاء أمثالها مدداً، وإنما ذكر السبعة على وجه المبالغة، ولم يرد الحصر؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ بعزته قهر الخلق كلهم، وتصرف فيهم، ودبرهم ﴿حَكِيمٌ﴾ وبحكمته خلق الخلق، وابتدأه بالحكمة، وجعل غايته والمقصود منه الحكمة؛ فهو الحكيم في خلقه وأمره.

(٢٨) ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَنَفٍ وَاحِدَةٍ﴾ وهذا شيء يحير العقول: إن خلق جميع الخلق على كثرتهم وبعثتهم بعد موتهم جميعاً، بعد تفرقهم، في لمحة واحدة كخلقه نفساً واحدة، فلا وجه لاستبعاد البعث والنشور، والجزاء على الأعمال، إلا الجهل بعظمة الله وقوة قدرته! ثم ذكر عموم سمعه لجميع المسموعات، وبصره لجميع المبصرات؛ فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

(٢٩) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُؤَلِّقُ الْبُرُوجَ فِي السَّمَاءِ وَيُؤَلِّقُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ يخبر تعالى عن انفراده بالتصرف والتدبير، وسعة تصرفه بإيلاج الليل في

الْمَلَأَ السَّمَاءَ بِالنُّجُومِ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُؤَلِّقُ الْبُرُوجَ فِي السَّمَاءِ وَيُؤَلِّقُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ
وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبُاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيمُ الْكَبِيرُ ﴿٢٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ يَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيكَ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٢٨﴾ وَإِذَا غَشِيَهم مَوَجٌ كَالظُّلُلِ دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَسَّارٍ كَفُورٍ ﴿٢٩﴾ يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَتْفَاقًا رَبُّكُمْ وَآخِشُوا يَوْمًا لَا يَجْرُفُ وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارِعٌ عَنْ وَلَدِهِ شَيْءٌ أَتَى رَعْدَ اللَّهِ حَقًّا فَلَا تَعْتَرِضُكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا الْمَوْتُ بَلْ يُعْزِزُكُمْ بِاللَّهِ الْقَرُورُ ﴿٣٠﴾ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣١﴾

النهار، وإيلاج النهار في الليل؛ أي: إدخال أحدهما على الآخر، فإذا دخل أحدهما، ذهب الآخر ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ وتسخيره للشمس والقمر يجريان بتدبير ونظام، لم يختل منذ خلقهما؛ ليقيم بذلك من مصالح العباد ومنافعهم في دينهم ودنياهم ما به يعتبرون وينتفعون و﴿كُلٌّ﴾ منهما ﴿يَجْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ إذا جاء ذلك الأجل، انقطع جريانهما، وتعطل سلطانهما، وذلك في يوم القيامة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر ﴿خَبِيرٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من ذلك، وسيجازيكم على تلك الأعمال، بالثواب للمطيعين، والعقاب للعاصين.

(٣٠) و﴿ذَلِكَ﴾ الذي بين لكم من عظمته وصفاته ما بين ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ في ذاته وفي صفاته، ودينه حق، ورسله حق، ووعدته حق،

ووعيده حق، وعبادته هي الحق ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ﴾ في ذاته وصفاته، فلولا إيجاد الله له لما وجد، ولولا إمداده لما بقي، فإذا كان باطلاً؛ كانت عبادته أبطل وأبطل ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ﴾ بذاته، فوق جميع مخلوقاته، الذي علت صفاته أن يقاس بها صفات أحد من الخلق، وعلا على الخلق فقهرهم ﴿الْكَبِيرُ﴾ الذي له الكبرياء في ذاته وصفاته، وله الكبرياء في قلوب أهل السماء والأرض.

(٣٣) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا﴾ يأمر تعالى الناس بتقواه، التي هي: امتثال أوامره، وترك زواجه، ﴿وَأَخْشَوْا يَوْمًا﴾ ويستلقتهم لخشية يوم القيامة، اليوم الشديد، الذي فيه كل أحد لا يهमे إلا نفسه، ف ﴿لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ لا يزيد في حسناته ولا ينقص من سيئاته، قد تم على كل عبد عمله، وتحقق عليه جزاؤه، وهذا من رحمة الله بعباده، يأمرهم بتقواه التي فيها سعادتهم، ويعدهم عليها الثواب ويحذرهم من العقاب ويزعجهم إليه بالمواعظ والمخوفات. ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ فلا تمتروا فيه، ولا تعملوا عمل غير المصدق؛ فلماذا قال: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بزينتها وزخارفها وما فيها من الفتن والمحن ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ الذي هو الشيطان.

(٣٤) ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ

ووعيده حق، وعبادته هي الحق ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ﴾ في ذاته وصفاته، فلولا إيجاد الله له لما وجد، ولولا إمداده لما بقي، فإذا كان باطلاً؛ كانت عبادته أبطل وأبطل ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ﴾ بذاته، فوق جميع مخلوقاته، الذي علت صفاته أن يقاس بها صفات أحد من الخلق، وعلا على الخلق فقهرهم ﴿الْكَبِيرُ﴾ الذي له الكبرياء في ذاته وصفاته، وله الكبرياء في قلوب أهل السماء والأرض.

(٣١) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾ ألم تر من آثار قدرته ورحمته وعنايته بعباده: أن سخر البحر تجري فيه الفلك، بأمره القدري ولطفه وإحسانه ﴿لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾ ففيها الانتفاع والاعتبار ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ فهم المنتفعون بالآيات، صبار على الضراء، شكور على السراء، صبار على طاعة الله وعن معصيته، وعلى أقداره، شكور لله على نعمه الدينية والدنيوية.

(٣٢) ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلُلِ دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ ذكر تعالى حال الناس عند ركوبهم البحر، وغشيان الأمواج كالجبال والغمام فوقهم: أنهم يخلصون الدعاء لله والعبادة ﴿فَلَمَّا بَخَّسَهُمُ إِلَى آلِيهِ﴾ انقسموا فريقين:

﴿فَمِنْهُمْ مُقْنَصِدٌ﴾ فرقة مقتصدة، لم تقم بشكر الله على وجه الكمال، بل هم مذنبون ظالمون

(٣٤) أخرج البخاري من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾».



اللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١﴾ قد تقرر: أن الله تعالى أحاط علمه بالغيب والشهادة، والظواهر والبواطن، وقد يُطَّلِعُ الله عباده على كثير من الأمور الغيبية، وهذه الأمور الخمسة، من الأمور التي طوى علمها عن جميع المخلوقات؛ فلا يعلمها نبي مرسل، ولا ملك مقرب، فضلاً عن غيرهما؛ فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ يعلم متى مرساها ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ هو المنفرد بإنزاله، وعلم وقت نزوله ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ فهو الذي أنشأ ما فيها، وعلم ما هو، هل هو ذكر أم أنثى ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ من كسب دينها ودنياها ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ بل الله تعالى هو المختص بعلم ذلك جميعه ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ محيط بالظواهر والبواطن، والخفي والخبايا والسرائر.

سورة السجدة وهي مكية

(١) ﴿الْعَلَمِ﴾ تقدم الكلام على الحروف المقطعة في فواتح سورة البقرة.
(٢) ﴿تَنْزِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ يخبر تعالى أن هذا الكتاب الكريم لا شك فيه ولا مرية أنه منزل، ﴿مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الذي رباهم بنعمته.
(٣) ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ ومع ذلك قال المكذبون للرسول، الظالمون في ذلك: افتراه محمد، واختلقه من عند نفسه. وهذا من أكبر الجراءة

على إنكار كلام الله، ورمي محمد ﷺ بأعظم الكذب، وقدرة الخلق على كلام مثل كلام الخالق، فقال الله، راداً على من قال: افتراه: ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ﴾ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد أي هم ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ أنزله رحمة للعباد ﴿لِيُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ في حالة ضرورة وفاقاة لإرسال الرسول، وإنزال الكتاب، لعدم النذير، بل هم في جهلهم يعمهون، وفي ظلمة ضلالهم يترددون، فأنزلنا الكتاب عليك ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ من ضلالهم؛ فيعرفون الحق فيؤثرونه.

(١) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة ﴿الْعَلَمِ﴾ ﴿تَنْزِيلَ﴾ السجدة، و﴿هَذَا أَقَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾. وأخرج البخاري في «الأدب المفرد» وأحمد والترمذي والنسائي حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الصحيح: كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ ﴿الْعَلَمِ﴾ ﴿تَنْزِيلَ﴾ السجدة، و﴿تَبَارَكَ الَّذِي يَدِيرُ الْمُلْكَ﴾.

العظيمة، الذي استوى على العرش العظيم، وانفرد بالتدبير في المملكة ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ فبسعة علمه، وكمال عزته، وعموم رحمته؛ أوجدتها، وأودع فيها من المنافع ما أودع، ولم يعسر عليه تدبيرها.

(٧) ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ كل مخلوق خلقه الله، فإن الله أحسن خلقه، وخلقها خلقاً يليق به، ويوافقه فهذا عام، ثم خص الآدمي لشرفه وفضله، فقال: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ وذلك بخلق آدم عليه السلام، أبي البشر.

(٨) ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ﴾ ذرية آدم ناشئة ﴿مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ وهو النطفة المستقذرة الضعيفة.

(٩) ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ بلحمه وأعضائه وأعصابه وعروقه، وأحسن خلقته ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾ بأن أرسل إليه الملك؛ فنفخ فيه الروح ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ ما زال يعطيكم من المنافع شيئاً فشيئاً، حتى أعطاكم السمع والأبصار ﴿وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ الذي خلقكم وصوركم.

(١٠) ﴿وَقَالُوا﴾ قال المكذبون بالبعث على وجه الاستبعاد: ﴿إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ بليتنا

(٤) ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ﴾ يخبر تعالى عن كمال قدرته بخلق ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها يوم الأحد، وآخرها الجمعة، مع قدرته على خلقها بلحظة، ولكنه تعالى رفيق حكيم ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى﴾ علا وارتفع ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ الذي هو سقف المخلوقات، استواء يليق بجلاله ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يتولاكم في أموركم؛ فينفعكم ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ يشفع لكم؛ إن توجه عليكم العقاب ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فتعلمون أن خالق السماوات والأرض، المستوي على العرش العظيم، الذي انفرد بتدبيركم وتوليككم، وله الشفاعة كلها، هو المستحق لجميع أنواع العبادة.

(٥) ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ القدري والأمر الشرعي، الجميع هو المتفرد بتدبيره، نازلة تلك التدابير من عند المليك القدير ﴿مَنْ أَسْمَاءُ إِلَى الْأَرْضِ﴾ فَيُسْعِدُ بِهَا وَيُشْقِي، وَيُعْزِي وَيُذِلُّ، وَيُكْرِمُ وَيُهِينُ، ويرفع أقواماً ويضع آخرين، وينزل الأرزاق ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أي: الأمر ينزل من عنده، ويعرج إليه ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ وهو يعرج إليه ويصله في لحظة.

(٦) ﴿ذَلِكَ﴾ الذي خلق تلك المخلوقات

(٤) وأخرج مسلم والنسائي - واللفظ له - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ أخذ بيدي؛ فقال: «إن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ثم استوى على العرش في اليوم السابع، فخلق التربة يوم السبت، والجبال يوم الأحد، والشجر يوم الاثنين، والمكروه يوم الثلاثاء، والنور يوم الأربعاء، والدواب يوم الخميس، وآدم يوم الجمعة في آخر ساعة من النهار بعد العصر، وخلق من آدم الأرض، بأحمرها وأسودها، وطيبها وخبيثها، من أجل ذلك جعل الله من آدم الطيب والخبيث».

قال أبو أسامة الهلالي - كان الله له - : وقد ضعف جماعة من أهل العلم هذا الحديث؛ لوهم ظنوه بوجود تعارض بينه وبين القرآن الكريم، وقد نقلت ردود العلماء عليهم في كتابي: «صحيح الأنباء المسند في أحاديث الأنبياء» (١/٥١، ٥٢/١٤).

وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْإِنسِ أجمعِينَ ﴿١٢﴾ فَذُوقُوا يَمَّا نَسِيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِيْتُكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٤﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٥﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٧﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ الْمَأْوَىٰ نَزَلُوا إِلَىٰ مَأْوَاهُمْ كَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿١٩﴾

نسيان ترك بما عرضتم عنه، وتركتم العمل له، وكأنكم غير قادمين عليه، ولا ملاقيه ﴿إِنَّا نَسِيْتُكُمْ﴾ تركناكم بالعذاب جزاء من جنس عملكم، فكما نسيتم نسيتم ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ العذاب غير المنقطع ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والفسوق والمعاصي.

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ أيما حقيقة من يوجد منه شواهد الإيمان، وهم: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا﴾ بآيات ربهم فتليت عليهم آيات القرآن، وأتتهم النصائح على أيدي رسل الله، ودُعُوا إِلَى التَّذَكُّرِ، سمعوها فقبلوها وانقادوا، و﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾ خاضعين لها خضوع ذكر لله، وفرح بمعرفته ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ قالوا: سبحان الله وبحمده ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ متواضعون لها، قد تلقوها بالقبول والتسليم،

وتمزقنا، وتفرقنا في المواضع التي لا نعلم ﴿أَنَّا لَنُفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: لمبعوثون بعثا جديداً، وكلامهم هذا ليس لطلب الحقيقة، وإنما هو ظلم وعناد وكفر بقاء ربهم ووجد، ولهذا قال: ﴿بَلْ هُمْ يَلْقَاءُ رَبَّهُمْ كَغَفْرُونَ﴾ أي: بالبعث بعد الموت.

﴿قُلْ يَتُوبُكُمْ مَلِكُ السَّمَوَاتِ الَّتِي كُلُّ يَوْمِكُمْ جَعَلَهُ اللَّهُ وَكِيلًا عَلَىٰ قَبْضِ الْأَرْوَاحِ، وَلَهُ أَعْوَانٌ﴾ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تَرْجَعُونَ ﴿فيجازيكم بأعمالكم، وقد أنكرتم البعث، فانظروا ماذا يفعل الله بكم.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ﴾ الذين أصروا على الذنوب العظيمة ﴿نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ خاشعين خاضعين أدلاء، مقرين بجرمهم، سائلين الرجعة، قائلين: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ بأن لنا الأمر، ورأينا عياناً؛ فصار عين يقين ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ صار عندنا الآن يقين بما كنا نكذب به.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ لهدينا الناس كلهم، وجمعناهم على الهدى، فمشيئتنا صالحة لذلك، ولكن الحكمة تأبى أن يكونوا كلهم على الهدى ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ وجب وثبت ثبوتاً لا تغير فيه ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْإِنسِ أَجمعِينَ﴾ فهذا الوعد لا بد منه، ولا محيد عنه فلا بد من تقرير أسبابه من الكفر والمعاصي.

﴿فَذُوقُوا يَمَّا نَسِيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ يقال للمجرمين الذين ملكهم الذل، وسألوا الرجعة إلى الدنيا؛ ليستدركوا ما فاتهم: قد فات وقت الرجوع ولم يبق إلا العذاب، فذوقوا العذاب الأليم، بما نسيتم لقاء يومكم هذا، وهذا النسيان

وقابلوها بالانشراح والانقياد.

(١٦) ﴿تَنَجَّافِي جُؤَيْهُمُ﴾ ترتفع جنوبهم وتنزع ﴿عَنِ الْمَصَاجِعِ﴾ جمع مضجع، وهو: الموضع الذي يضطجع عليه، والمراد: الفراش ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية ودفع مضارهما ﴿خَوْفًا﴾ أن ترد أعمالهم ﴿وَطَمَعًا﴾ في قبولها وفي ثوابه ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من الرزق: قليلاً كان أو

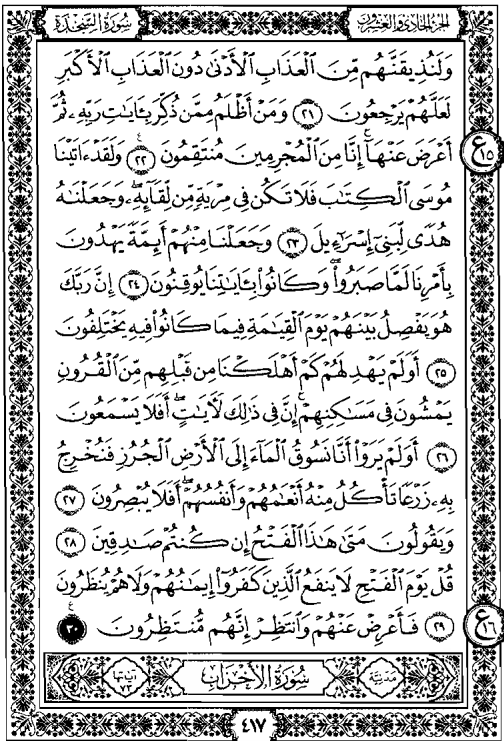
كثيراً ﴿يُنْفِقُونَ﴾ ولم يذكر قيد النفقة، ولا المنفق عليه؛ ليدل على العموم، فإنه يدخل فيه: النفقة الواجبة؛ كالزكوات والكفارات ونفقة الزوجات والأقارب، والنفقة المستحبة في وجوه الخير.

(١٧) ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾ يدخل فيه جميع نفوس الخلق، لكونها نكرة في سياق النفي. أي: فلا يعلم أحد ﴿مَا أَخْفَى لَهُمْ مِنْ قُرْءٍ﴾

(١٦) أخرج أبو داود وأحمد - واللفظ له - بإسناد حسن من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «عجب ربنا من رجلين: رجل ثار من وطأته ولحافه، ومن بين أهله وحيه إلى صلاته، فيقول ربنا: أي ملائكتي، انظروا إلى عبدي، ثار من فراشه ووطأته، ومن بين حيّه وأهله إلى صلاته رغبة فيما عندي، وشفقة مما عندي. ورجل غزا في سبيل الله ﷻ فانهزموا، فعلم ما عليه من الفرار، وما له من الرجوع، فرجع حتى أهرق دمه، رغبة فيما عندي، وشفقة مما عندي، فيقول الله ﷻ للملائكة: انظروا إلى عبدي رجع رغبة فيما عندي، ورهبة مما عندي حتى أهرق دمه».

أخرج الترمذي عن أسن بإسناد صحيح؛ قال: ﴿تَنَجَّافِي جُؤَيْهُمُ عَنِ الْمَصَاجِعِ﴾ الآية نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة. (١٦ و ١٧) أخرج الترمذي وابن ماجه والإمام أحمد - واللفظ له - بإسناد حسن من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر، فأصبحت يوماً قريباً منه، ونحن نسير. فقلت: يا نبي الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة، ويباعدني من النار؟ قال: «لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت». ثم قال: «ألا أدلك على أبواب الخير: الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة، وصلاة الرجل في جوف الليل، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿تَنَجَّافِي جُؤَيْهُمُ عَنِ الْمَصَاجِعِ﴾ حتى بلغ ﴿يَعْمَلُونَ﴾. ثم قال: «ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟» فقلت: بلى يا رسول الله. قال: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد»، ثم قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله»، فقلت له: بلى يا نبي الله، فأخذ بلسانه فقال: «كف عليك هذا» فقلت: يا رسول الله وإننا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس على وجوههم في النار - أو قال على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم».

(١٧) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين، رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» قال أبو هريرة: أقرؤا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرْءٍ أَعْيُنٍ﴾. وفي «صحيح مسلم» عن الشعبي يقول: سمعت المغيرة بن شعبة يخبر به الناس على المنبر. يرفعه إلى النبي ﷺ قال: سأل موسى ربه ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجيء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة. فيقول: أي رب كيف وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل مُلْكٍ مُلْكٍ من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب. فيقول: لك ذلك، ومثله، ومثله، ومثله، ومثله. فقال في الخامسة: رضيت رب. فيقول: هذا لك، وعشرة أمثاله، ولك ما اشتئت نفسك، ولذت عينك، فيقول: رضيت رب. قال: رب فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر. قال «ومصادقه في كتاب الله ﷻ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرْءٍ أَعْيُنٍ﴾ «الآية».



أَعْيُنُ ﴿١٦﴾ من الخير الكثير، والنعيم الغزير، والفرح والسرور، واللذة والحبور، فكما صلوا في الليل ودعوا، وأخفوا العمل، جازاهم من جنس عملهم؛ فأخفى أجرهم، ولهذا قال: ﴿جَزَاءً يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

(١٨) ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا﴾ قد عمر قلبه بالإيمان، وانقادت جوارحه لشرائعه، واقتضى إيمانه آثاره وموجباته، من ترك مساخط الله التي يضر وجودها بالإيمان ﴿كَمَنْ كَانَتْ فَاسِقًا﴾ قد خرب قلبه، وتعطل من الإيمان، فلم يكن فيه وازع ديني، فأسرعت جوارحه بموجبات الجهل والظلم، من كل إثم ومعصية، وخرج بفسقه عن طاعة الله ﴿لَا يَسْتَوُونَ﴾ عقلاً وشرعاً، وكذلك لا يستوي ثوابهما في الآخرة.

(١٩) ﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من فروض ونوافل ﴿فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى﴾ الجنات التي هي مأوى اللذات، ومعدن الخيرات، ومحل الأفراح، ونعيم القلوب والنفوس والأرواح ﴿تَزُولُ﴾ ضيافة وقرى ﴿يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فأعمالهم التي تفضل الله بها عليهم، هي التي أوصلتهم لتلك المنازل الغالية العالية. (٢٠) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيَهُمُ النَّارُ﴾ مقرهم ومحل خلودهم: النار ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ فكلما حدثتهم إرادتهم بالخروج؛ لبلوغ العذاب منهم كل مبلغ؛ ردوا إليها ﴿وَقِيلَ لَهُمْ دُفُّوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ

بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ فهذا عذاب النار الذي يكون فيه مقرهم ومأواهم.

(٢١) ﴿وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى﴾ ولنذيقن المكذبين نموذجاً ﴿مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى﴾ وهو مصائب الدنيا وأسقامها، أو إقامة الحدود عليهم قبل أن يموتوا ﴿دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ وهو عذاب الآخرة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى الله، ويتوبون من ذنوبهم.

(٢٢) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ أي: لا أحد أظلم وأزيد تعدياً ممن ذكر بآيات ربه التي أوصلها إليه ربه، الذي يريد تربيته، وتكميل نعمته على أيدي رسله تأمره وتذكره

(٢١) وأخرج مسلم - وأحمد واللفظ له - عن أبي بن كعب في هذه الآية: ﴿وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ قال: «المصيبات والدخان قد مضيا والبطشة واللزام».

مصالحه الدينية والدنيوية ﴿مُرَّ أَتْرَضَ عَنْهَا﴾ تركها وراء ظهره، فهذا من أكبر المجرمين، الذين يستحقون شديد النقمة؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ﴾.

(٢٣) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي: كما أتى الله تعالى محمد ﷺ القرآن، كذلك أتى موسى الكتاب الذي هو: التوراة المصدقة للقرآن، التي قد صدقها القرآن، فتطابق حقهما، وثبت برهانهما ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ﴾ لأنه قد تواردت أدلة الحق وبيناته، فلم يبق للشك والمرية محل ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أي: الكتاب الذي آتيناه موسى ﴿هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ يهتدون به في أصول دينهم وفروعه، وشرائعه موافقة لذلك الزمان في بني إسرائيل.

(٢٤) ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ﴾ من بني إسرائيل ﴿أئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ علماء بالشرع، وطرق الهداية، مهتدين في أنفسهم، يهدون غيرهم بذلك الهدى، فالكتاب الذي أنزل إليهم هدى، والمؤمنون به منهم على قسمين: أئمة يهدون بأمر الله، وأتباع مهتدون بهم، والقسم الأول أرفع الدرجات بعد درجة الصديقين، وإنما نالوا هذه الدرجة العالية ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ أي: بالصبر على التعلم والتعليم، والدعوة إلى الله، والأذى في سبيله، وكفوا أنفسهم عن جماحها في المعاصي، واسترسالها في الشهوات ﴿وَكَانُوا بِكَايِلَاتِنَا يُوْقُونَ﴾ وصلوا في الإيمان بآيات الله إلى درجة اليقين، وهو: العلم التام الموجب للعمل، وإنما وصلوا إلى درجة

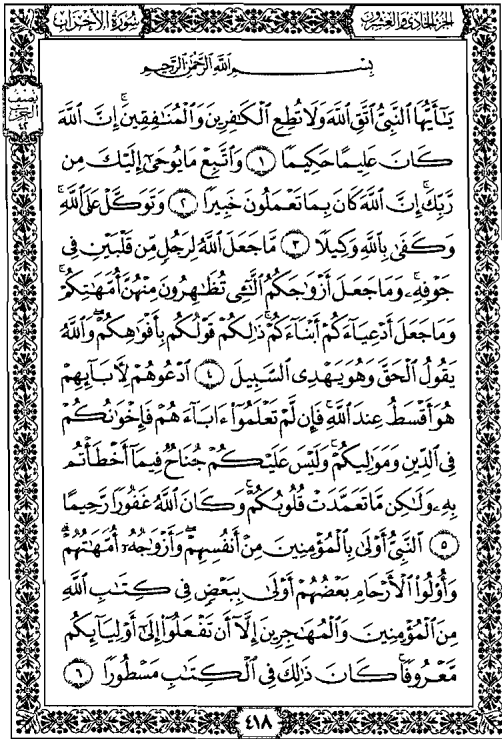
اليقين؛ لأنهم تعلموا تعلماً صحيحاً، وأخذوا المسائل عن أدلتها المفيدة لليقين.

(٢٥) ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وثم مسائل اختلف فيها بنو إسرائيل: منهم من أصاب فيها الحق، ومنهم من أخطأه خطأ أو عمداً، والله تعالى: ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

(٢٦) ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ أولم يتبين لهؤلاء المكذبين للرسول، ويهدمهم إلى الصواب ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ الذين سلكوا مسلكهم ﴿يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ﴾ فيشاهدونها عياناً؛ كقوم هود وصالح وقوم لوط ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ يستدل بها على صدق الرسل التي جاءتهم، وبطلان ما هم عليه من الشرك والشر، وعلى أن من فعل مثل فعلهم فُعلَ بهم؛ كما فُعلَ بأشيعائه من قبل ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ آيات الله؛ فيعونها، فينتفعون بها.

(٢٧) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ بأبصارهم نعمتنا، وكمال حكمتنا ﴿أَنَا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ التي لا نبات فيها، فيسوق الله المطر الذي لم يكن قبل موجوداً فيها، فيفرغه فيها، من السحاب أو من الأنهار ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا﴾ نباتاً مختلف الأنواع ﴿وَتَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ﴾ وهو نبات البهائم ﴿وَأَنْفُسُهُمْ﴾ وهو طعام الآدميين ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ تلك المنة التي أحيا الله بها البلاد والعباد، فيستبصرون، فيهتدون بذلك البصر، وتلك البصيرة إلى الصراط المستقيم.

(٢٣) أخرج الشيخان عن عبد الله بن عباس ؓ عن النبي ﷺ؛ قال: «رأيت ليلة أسري بي موسى رجلاً آدم طوالاً؛ جعداً كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى رجلاً مربع الخلق إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس، ورأيت مالكا خازن النار، والدجال في آيات أراهن الله إياه فلا تكن في مرية من لقاءه».



(٢٨) ثم قال تعالى مخبراً عن استعجال الكفار وقوع بأس الله بهم، وحلول غضبه ونقمته عليهم، استبعاداً وتكذيباً وعناداً ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾ الذي يفتح بيننا وبينكم بتعذيبنا على زعمكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم.

(٢٩) ﴿قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ يَوْمَ الْفَتْحِ﴾ الذي يحصل به عقابكم، لا تستفيدون به شيئاً، فلو كان إذا حصل حصل إمهالككم؛ لتستدركوا ما فاتكم حين صار الأمر عندكم يقيناً؛ لكان لذلك وجه، ولكن إذا جاء يوم الفتح انقضى الأمر ولم يبق للمحنة محل، فـ ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ﴾؛ لأنه صار إيمان ضرورة ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ يمهلون؛ فيؤخر عنهم العذاب، فيستدركون أمرهم.

(٣٠) ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ لما وصل خطابهم إلى حالة الجهل واستعجال العذاب ﴿وَأَنْتَظِرُ﴾ الأمر الذي يحل بهم؛ فإنه لا بد منه، ولكن له أجل، إذا جاء لا يتقدم ولا يتأخر ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ﴾ بك ريب المنون، ومتربصون بكم دوائر السوء، والعاقبة للتقوى.

سورة الأحزاب وهي مدنية

(١) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ يا أيها الذي من الله عليه بالنبوة، واختصه بوحيه، وفضله على سائر الخلق: اشكر نعمة ربك عليك؛ باستعمال تقواه، فامتثل أوامره ونواهيه، وبلغ رسالاته، وأد إلى عباده وحيه، وابدل النصيحة للخلق، ولا

يصدنك عن هذا المقصود صاد، ولا يردك عنه راد ﴿وَلَا تَطِيعِ الْكَافِرِينَ﴾ فلا تطع كل كافر، قد أظهر العداوة لله ورسوله ﴿وَالْمُتَفَقِّينَ﴾ ولا منافق قد استبطن التكذيب والكفر، وأظهر ضده ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ فهو أحق أن تتبع أوامره وتطيعه، فإنه عليم بعواقب الأمور حكيم في أقواله وأفعاله، ولهذا قال:

(٢) ﴿وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ فإنه هو الهدى والرحمة، وأزجُ بذلك ثواب ربك ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فإنه بما تعملون خبير؛ يجازيكم بحسب ما يعلمه منكم، من الخير والشر.

(١) أخرج النسائي في «الكبرى» والإمام أحمد - واللفظ له - بإسناد حسن عن زر بن حبيش قال: قال لي أبي بن كعب: كآين تقرأ سورة الأحزاب؟ أو كآين تعدها؟ قال: قلت: ثلاثاً وسبعين آية، فقال: قط! لقد رأيتها وإنها لتعادل سورة البقرة، ولقد قرأنا فيها: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عليم حكيم).

هؤلاء الأديعاء من غيركم، فلا جعل الله هذا كهذا ﴿ذَلِكُمْ﴾ القول الذي تقولون في الدعي: إنه ابن فلان، الذي ادعاه، أو والده فلان ﴿قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ قول لا حقيقة له ولا معنى له ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾ اليقين والصدق، فلذلك أمركم باتباعه على قوله وشرعه ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ السبل المستقيمة والطرق الصادقة.

(٥) ﴿ادْعُوهُمْ﴾؛ أي: الأديعاء ﴿لَا بَأْسَ بِهِمْ﴾ الذين ولدوهم ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أعْدل وأقوم وأهدى ﴿فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا أَسْمَاءَهُمْ﴾ الحقيقيين ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ إخوانكم في دين الله، ومواليكم في ذلك، فادعوهم بالأخوة الإيمانية الصادقة، والموالاتة على ذلك ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ بأن سبق على لسان أحدكم دعوته إلى من تبناه؛ فهذا غير مؤاخذ به، أو علم أبوه ظاهراً؛ فدعوتموه إليه وهو في الباطن غير أبيه؛ فليس عليكم في ذلك حرج إذا كان خطأ ﴿وَلَكِنْ﴾ يؤاخذكم ﴿مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ من الكلام بما لا يجوز ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ غفر لكم ورحمكم حيث لم يعاقبكم بما سلف، وسمح لكم بما أخطأتم به، ورحمكم حيث بين لكم أحكامه التي تصلح دينكم ودنياكم.

(٦) ﴿الَّذِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أقرب ما

(٣) ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ بأن تعتمد على ربك، اعتماد من لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، في سلامتك من شرهم، وفي إقامة الدين الذي أمرت به، وثق بالله في حصول ذلك الأمر على أي حال كان ﴿وَكُنْ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ توكل إليه الأمور؛ فيقوم بها، وبما هو أصلح للعبد.

(٤) ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ هذا لا يوجد، فإياكم أن تقولوا عن أحد: إن له قلبين في جوفه، فتكونوا كاذبين على الخلقة الإلهية ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ النَّسَى تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ﴾ بأن يقول أحدكم لزوجته: «أنت علي كظهر أمي أو كأمي»، فما جعلهن الله ﴿أُمَّهَاتِكُمْ﴾ بل أمك من ولدتك، وصارت أعظم النساء عليك حرمة وتحريماً، وزوجتك أحل النساء لك، فكيف تشبه أحد المتناقضين بالآخر؟! هذا أمر لا يجوز.

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ والأدعياء: الولد الذي كان الرجل يدعيه، وهو ليس له، أو يدعى إليه؛ بسبب تبنيه إياه، كما كان الأمر بالجاهلية وأول الإسلام.

والمعنى: فالله لم يجعل الأديعاء الذين تدعونهم، أو يدعون إليكم أبناءكم، فإن أبناءكم في الحقيقة من ولدتموهم، وكانوا منكم، وأما

(٥) أخرج الشيخان عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد، حتى نزل القرآن: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَسْمَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾.

(٦) أخرج البخاري من حديث عبد الله بن هشام رضي الله عنه؛ قال: كنا مع النبي ﷺ، وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله، لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال ﷺ: «لا يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك» فقال: يا رسول الله، والله لأنت أحب إلي من كل شيء حتى من نفسي؛ فقال ﷺ: «الآن يا عمر».

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ؛ قال: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة. اقرؤوا إن -

وَأِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ يَا إِبْرَاهِيمُ
وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ٧
لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا
٨ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ
جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ٩ إِذْ جَاءَكُمْ وَمِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ
مِنْكُمْ وَإِذْ دَاعَى الْأَبْصُرَ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ
وَنَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ١٠ هَٰكَذَا بَيَّنَّا لِلْمُؤْمِنِينَ زَلْزَلَهُمْ
وَنَزَلَ الْأَسْدِيدُ ١١ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ١٢ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ
مِّنْهُمْ إِنَّا لَهُمُ ابْنُ مَرْيَمَ لَا شَيْءُ لَهُمْ بِهِمْ وَمَا يَكُونُ لَهُمْ
بِشَيْءٍ قَوْلٍ وَلَوْ خِلْتُ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِ يَدَيْهِمْ لَآخِذِينَ
بِأَنفُسِهِمْ لَآخِذِينَ ١٣ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَطْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ
لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّسُوا بِهَا إِلَّا بَسِيرًا ١٤ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا
اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُؤَلُّوهُ إِلَّا الذِّكْرُ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ١٥

فيه وصدقوا؟ فيثيبهم جنات النعيم؟ أم كفروا فيعذبهم العذاب الأليم ولهذا قال تعالى : ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ .
(٩) ﴿يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ يُذكر تعالى عباده المؤمنين نعمته عليهم، ويحثهم على شكرها، حين جاءتهم جنود عظيمة، وأمم كثيرة، وذلك في وقعة الخندق ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ ثم أرسل الله عز وجل على الأحزاب ريحاً شديدة الهبوب قوية حتى لم يبق لهم خيمة ولا شيء ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وأرسل جنوداً لم يروها، وهم الملائكة، وزلزلتهم وألقت في قلوبهم الرعب والخوف ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ بصيراً بأعمالكم في حفر الخندق

للإنسان وأولى ما له نفسه، فالرسول أولى به من نفسه؛ لأنه عليه الصلاة والسلام بذل لهم من النصيح والشفقة والرأفة ما كان به أرحم الخلق وأرأفهم ﴿وَأَرْوَجَهُ أُمَمَهُمْ﴾؛ أي: في الحرمة والاحترام والإكرام، لا في الخلوة والمحرمية، فترتب على أن زوجات الرسول أمهات المؤمنين: أنهن لا يحلن لأحد من بعده ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ الأقارب، قربوا أو بعدوا ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في حكمه؛ فيرتب بعضهم بعضاً، ويبر بعضهم بعضاً ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ سواء كان الأقارب مؤمنين مهاجرين وغير مهاجرين، فإن ذوي الأرحام مقدمون في ذلك ﴿إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَّعْرُوفًا﴾ ليس لهم حق مفروض، وإنما هو ببارادتكهم: إن شئتم أن تتبرعوا لهم تبرعاً، وتعطوهم معروفاً منكم ﴿كَانَ﴾ ذلك الحكم المذكور ﴿فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ قد سطر وكتب وقدره الله؛ فلا بد من نفوذه.

(٧) ﴿وَأِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ يَا إِبْرَاهِيمُ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ يخبر تعالى أنه أخذ من النبيين عموماً، ومن أولي العزم - وهم هؤلاء الخمسة المذكورون - خصوصاً، ميثاقهم الغليظ وعهدهم الثقيل المؤكد على القيام بدين الله والجهاد في سبيله ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ وأن هذا سبيل قد مشى عليه الأنبياء المتقدمون، حتى ختموا بسيدهم وأفضلهم محمد ﷺ، وأمر الناس بالاقداء بهم.
(٨) ﴿لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ ويسأل الله الأنبياء وأتباعهم عن هذا العهد الغليظ: هل وفوا

شئتم: ﴿إِنِّي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِي﴾، فأيا مؤمن ترك مالا؛ فليثره عصبته من كانوا، فإن ترك ديناً أو ضياعاً، فليأني فأنما مولاه.

ينصر دينه، ولا يتم كلمته.

(١١) ﴿هَٰلِكَ آتَىٰ الْمُؤْمِنُونَ﴾ بهذه الفتنة العظيمة ﴿وَزُلْزِلُوا زَلَالًا شَدِيدًا﴾ بالخوف والقلق والجوع؛ ليتبين إيمانهم، ويزيد يقينهم، فظهر من إيمانهم، وشدة يقينهم، ما فاقوا فيه الأولين والآخرين.

(١٢) ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ شك وضعف اعتقاد ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ وهو قول المنافقين: يعدنا محمد فتح قصور الشام وفارس، وأحدنا لا يستطيع أن يجاوز رحله، هذا والله الغرور.

(١٣) ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ من المنافقين ﴿يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ﴾ لا مقام لكم في موضعكم الذي خرجتم إليه خارج المدينة، وكانوا عسكروا دون الخندق وخارج المدينة ﴿فَارْجِعُوا﴾ إلى المدينة، يأمرهم بترك القتال، فهذه الطائفة شر الطوائف وأضرها، وطائفة أخرى دونهم أصابهم الجبن والجزع، وأحبوا أن ينخزلوا عن الصفوف، فجعلوا يعتذرون بالأعذار الباطلة، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَيَسْتَكْذِرُونَ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيُّ يَقُولُونَ إِنْ بَيَّتْنَا عَوْرَةً﴾ أي: عليها الخطر، ونخاف عليها أن يهجم عليها الأعداء، ونحن غيب عنها، فأذن لنا نرجع إليها، فنحرسها، فكذبهم الله فقال: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ أي: وهم كذبة في ذلك ﴿إِنْ يُرِيدُونَ﴾ ما قصدهم ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾ هرباً من الزحف.

(١٤) ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمُ الْمَدِينَةُ﴾ من أقطارها ﴿لَو دَخَلَ الْكُفَّارُ إِلَيْهَا مِنْ نَّوَاهِيهَا﴾ واستولوا عليها ﴿ثُمَّ سُبُحًا﴾ سئل هؤلاء ﴿الْفِتْنَةَ﴾ الانقلاب عن دينهم والرجوع إلى دين المستولين المتغلبين ﴿لَا تَوْهَا﴾ لأعطوها مبادرين ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا

الْمَدِينَةُ وَالْمَدِينَةُ
سورة الأحزاب
قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تَمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١١﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَعِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢﴾ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلْمْ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٣﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَقْظِرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذُهِبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِالْأَيْسَةِ جَدَا أَشِحَّةً عَلَى الْخَبَرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٤﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَاءِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿١٦﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿١٧﴾

والاستعداد للمعركة.

(١٠) ﴿إِذَا جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ أهل مكة والحجاز من فوقهم، وأهل نجد من أسفل منهم، وتعاهدوا وتعاهدوا على استئصال الرسول والصحابه، وما لأتاهم طوائف اليهود الذين حوالي المدينة، فجاءوا بجنود عظيمة وأمم كثيرة، وخندق رسول الله ﷺ على المدينة فحصرها المدينة، واشتد الأمر فلم يزل الحصار على المدينة مدة طويلة، والأمر كما وصف الله: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ مالت وشخصت من الرعب ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ زالت عن أماكنها من شدة الخوف حتى بلغ الظن من كثير من الناس كل مبلغ، لما رأوا من الأسباب المستحكمة، والشدائد الشديدة، كما قال تعالى: ﴿وَتَطْمَنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا﴾ الظنون السيئة: أن الله لا

تعويقهم وتخذيلهم ﴿لَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ﴾ القتال والجهاد بأنفسهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ فهم أشد الناس حرصًا على التخلف.

(١٩) ﴿أَشْحَهَ عَلَيْهِمْ﴾ بأبدانهم عند القتال، وبأموالهم عند النفقة فيه، فلا يجاهدون بأموالهم وأنفسهم ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَنَّى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ من شدة الجبن، الذي خلع قلوبهم، والقلق الذي أذهلهم، وخوفًا من إجبارهم على ما يكرهون من القتال ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ وَصَارُوا فِي حَالِ الْأَمْنِ وَالطَّمَأْنِينَةِ﴾ سَلَفَوْكُمْ بِالسَّيِّئَةِ جِدَادٍ ﴿خَاطَبُوكُمْ وَتَكَلَّمُوا مَعَكُمْ بِكَلَامٍ حَدِيدٍ، وَدَعَاوَى غَيْرَ صَحِيحَةٍ﴾ أَشْحَهَ عَلَى الْخَيْرِ ﴿لَيْسَ فِيهِمْ خَيْرٌ، وَهَذَا شَرٌّ مَا فِي الْإِنْسَانِ، أَنْ يَكُونَ شَحِيحًا بِمَا أَمَرَ بِهِ، شَحِيحًا بِمَا لَمْ يَنْفَقْهُ فِي وَجْهِهِ، شَحِيحًا فِي بَدَنِهِ أَنْ يَجَاهِدَ أَعْدَاءَ اللَّهِ، أَوْ يَدْعُو إِلَى سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَوْلَيْكَ ﴿الَّذِينَ بَتَلُوا الْحَالَةَ﴾ لَوْ يُؤْمِنُوا فَاحْبَبَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ﴿بَسَبَبِ عَدَمِ إِيْمَانِهِمْ أَذْهَبَ اللَّهُ أَجُورَ أَعْمَالِهِمْ وَأَبْطَلَهَا﴾ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿سَهْلًا هَيئًا عِنْدَهُ.

(٢٠) ﴿يَحْزَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ يظنون أن هؤلاء الأحزاب الذين تحزبوا على حرب رسول الله ﷺ، وأصحابه لم يذهبوا حتى يستأصلوهم؛ فخاب ظنهم، وبطل حسبانهم ﴿وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ﴾ مرة أخرى ﴿يُودُّوْا لَوْ أَنَّهُمْ بَادَوْتُ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَاءِكُمْ﴾ لو أتى الأحزاب مرة ثانية مثل هذه

يسيرًا ﴿لَيْسَ لَهُمْ مَنَعَةٌ وَلَا تَصْلُبُ عَلَى الدِّينِ، بَلْ بِمَجْرَدِ مَا تَكُونُ الدَّوْلَةُ لِلْأَعْدَاءِ؛ يَعْطُونَهُمْ مَا طَلَبُوا، وَيُؤَافِقُونَهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ؛ هَذِهِ حَالُهُمْ.

(١٥) ﴿وَلَقَدْ كَانُوا﴾ والحال أنهم قد ﴿عَنْهَدُوا﴾ اللَّهُ مِنْ قَبْلِ لَا يُؤْتُونَ الْأَذْبَرُ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿سَيَسْأَلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ الْعَهْدِ، فَيَجِدُهُمْ قَدْ نَقَضُوهُ، فَمَا ظَنُّهُمْ إِذَا بَرَّبَهُمْ؟

(١٦) ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ، لَأَتِمَّا عَلَى فِرَارِهِمْ، وَمَخْبِرًا أَنَّهُمْ لَا يَفِيدُهُمْ ذَلِكَ شَيْئًا: ﴿لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ﴾ ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ أَنَّ فِرَارَهُمْ ذَلِكَ لَا يُؤْخِرُ أَجَالَهُمْ، وَلَا يَطْوِلُ أَعْمَارَهُمْ، بَلْ رُبَّمَا كَانَ سَبَبًا فِي تَعْجِيلِ أَخْذِهِمْ غَرَةً ﴿وَإِذَا﴾ حِينَ فَرَرْتُمْ؛ لَتَسْلُمُوا مِنَ الْمَوْتِ وَالْقَتْلِ، وَلَتَنْعَمُوا فِي الدُّنْيَا؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿مَتَاعًا لَا يَسْوَى فِرَارِكُمْ، وَتَرَكْتُمْ أَمْرَ اللَّهِ، وَتَفَوَيْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ التَّمَتُّعَ الْأَبَدِي فِي النِّعَمِ السَّرْمَدِي.

(١٧) ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ﴾ يَمْنَعُكُمْ ﴿مَنْ﴾ اللَّهُ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا ﴿شَرًّا﴾ أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴿فَإِنَّهُ هُوَ الْمُعْطِي الْمَانِعَ، الضَّارَّ النَّافِعَ، الَّذِي لَا يَأْتِي بِالْخَيْرِ إِلَّا هُوَ، وَلَا يَدْفَعُ السُّوءَ إِلَّا هُوَ﴾ وَلَا يَحْدُونَهُمْ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا ﴿يَتَوَلَّاهُمْ؛ فَيَجْلِبُ لَهُمُ النِّفْعُ﴾ وَلَا نَصِيرًا ﴿يَنْصُرُهُمْ؛ فَيَدْفَعُ عَنْهُمْ الْمَضَارَّ.

(١٨) ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّنِينَ مِنْكُمْ﴾ عَنِ الْخُرُوجِ لِمَنْ لَمْ يَخْرُجُوا ﴿وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ﴾ الَّذِينَ خَرَجُوا: ﴿هَلُمُّوا إِلَيْنَا﴾ ارْجِعُوا ﴿وَهُمْ مَعَ

(١٩) أخرج أبو داود وابن حبان وأحمد بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضى الله عنه ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «شَرُّ مَا فِي رَجُلٍ: شَحٌّ هَالَعٌ، وَجِبْنٌ خَالَعٌ».

الحسنة، إنما يسلكها ويوفق لها من كان يرجو الله واليوم الآخر ﴿وَذَكَرَ اللَّهُ كَثِيرًا﴾ في جميع المواطن عل السراء والضراء.

(٢٢) لما ذكر حالة المنافقين عند الخوف، ذكر حال المؤمنين، فقال: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ﴾ الذين تحزبوا، ونزلوا منازلهم، وانتهى الخوف ﴿قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ هذا ما وعدنا الله ورسوله. من الابتلاء والاختبار الذي يعقبه النصر القريب ﴿وَصَدَّقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ فإننا رأينا ما أخبرنا به ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ ذلك الأمر ﴿إِلَّا إِيْمَانًا﴾ في قلوبهم ﴿وَسَلِيمًا﴾ في جوارحهم، وانقيادا لأمر الله.

(٢٣) ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ وفوا به وأتموه وأكملوه؛ فبذلوا مهجهم في مرضاته، وسبّلوا أنفسهم في طاعته ﴿فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ إرادته ومطلوبه وما عليه من الحق؛ فقتل في سبيل الله، أو مات مؤديا لحقه، لم ينقصه شيئا ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ﴾ تكميل ما عليه؛ فهو شارع في قضاء ما عليه، ووفاء نحبه، ولما يكمله، وهو في رجاء تكميله، ساع في ذلك مجد ﴿وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾ بل لم يزلوا على العهد، لا يلوون ولا يتغيرون.

(٢٤) ﴿لَيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ بسبب صدقهم في أقوالهم وأحوالهم، واستواء

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لَيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَيْثِهِمْ لَمْ يَأْتُوا خَيْرًا وَكَفَىٰ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَافِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَنْصَهُمْ وَإِثْرَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْغُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيُرِيهَا فَمَا تَكُنْ أَمْتًا وَتَكُنْ سَرَلًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَسَاءَ النَّبِيُّ مَن بَاتَ مِنْكُمْ يَفْجِسُهُ مَثْنِيَةً يَضَعُفَ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ سِيرًا ﴿٣٠﴾

المرة، وذو هؤلاء المنافقون أنهم ليسوا في المدينة، ولا في القرب منها، وأنهم مع الأعراب في البادية، يستخبرون عن أخباركم، ويسألون عن أنبائكم ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ فلا تبالوهم، ولا تأسوا عليهم.

(٢١) ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ حيث حضر الهيحاء بنفسه الكريمة، وباشر موقف الحرب؛ فتأسوا به في هذا الأمر وغيره ﴿لَمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ وهذه الأسوة

(٢٣) في «الصحاحين» في حديث أنس رضي الله عنه : قال : غاب عني أنس بن النضر عن قتال بدر؛ فقال : يا رسول الله، غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين؛ ليرين الله ما صنع. فلما كان يوم أحد، وانكشف المسلمون؛ قال : اللهم أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني : أصحابه - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعني : المشركين - ثم تقدم، فاستقبله سعد بن معاذ، فقال : يا سعد بن معاذ، الجنة ورب النضر، إني أجد ريحها من دون أحد. قال سعد : فما استطعت يا رسول الله ما صنع. قال أنس : فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بالسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل، وقد مثل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته بيناته، قال أنس : كنا نرى - أو نظن - أن هذه الآيات نزلت فيه وفي أشباهه : ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾.

من حصونهم ﴿وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ فلم يقووا على القتال، بل استسلموا وخضعوا وذلوا ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ وهم الرجال المقاتلون ﴿وَأَاسِرُونَ فَرِيقًا﴾ مَنْ عداهم من النساء والصبيان.

(٢٧) ﴿وَأَوْرَثَكُمُ﴾ غَنَمَكُمْ ﴿أَرْضَهُمْ﴾ مزارعهم ﴿وَوَيْرَهُمْ﴾ مساكنهم ﴿وَأَمْوَالَهُمْ﴾ سائر الأموال غير الأرض والدور ﴿وَأَرْضًا لَمْ تَطْغُوهَا﴾ أرضاً كانت من قبل من شرفها وعزتها عند أهلها لا تتمكنون من وطئها، كفارس والروم، وقيل خيبر، فمكنكم الله وخذلهم ﴿وَكَاكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ لا يعجزه شيء، ومن قدرته: قَدَّرَ لَكُمْ ما قدر.

(٢٨) ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُحِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ليس لكن في غيرها مطلب، وصرتن ترضين لوجودها، وتغضبن لفقدها، فليس لي فيكن أرب وحاجة، وأنتن بهذه الحال ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾ شيئاً مما عندي من الدنيا ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾ أفسارقكن ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ من دون مغاضبة ولا مشاتمة.

(٢٩) ﴿وَلَئِنْ كُنْتُنَّ تُحِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذَارَ

ظاهرهم وباطنهم ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُتْلِفِينَ﴾ الذين تغيرت قلوبهم وأعمالهم عند حلول الفتن، ولم يفوا بما عاهدوا الله عليه ﴿إِنْ شَاءَ﴾ تعذيبهم ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ بأن يوفقهم للتوبة والإنابة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا﴾ لذنوب المسرفين على أنفسهم، ولو أكثروا من العصيان؛ إذا أتوا بالمتاب ﴿رَحِيمًا﴾ بهم؛ حيث وفقهم للتوبة، ثم قبلها منهم، وستر عليهم ما اجترحوه.

(٢٥) ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْطِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ ردهم خائبين، لم يحصل لهم الأمر الذي كانوا حنقين عليه، جازمين بأن لهم الدائرة، قد غرتهم جموعهم، وأعجبوا بتحزيبهم، وفرحوا بَعَدَدِهِمْ وَعُدَدِهِمْ ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ بما صنع لهم من الأسباب العادية والقدرية ﴿وَكَاكَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ لا يغالبه أحد إلا غلب، ولا يستنصره أحد إلا غلب، ولا يعجزه أمر أراده، ولا ينفع أهل القوة والعزة قوتهم وعزتهم؛ إن لم يعنهم بقوته وعزته.

(٢٦) ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ﴾ عاونوهم ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ اليهود ﴿مِّنْ صَيَاصِيهِمْ﴾ أنزلهم

(٢٥) أخرج النسائي والطبري والبيهقي وابن أبي شيبة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بإسناد صحيح؛ قال: حسنا يوم الخندق عن الظهر والعصر والمغرب والعشاء، حتى كفيينا ذلك؛ فأنزل الله تعالى ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ فقام رسول الله ﷺ فأمر بلالاً فأقام ثم صلى الظهر كما كان يصليها قبل ذلك، ثم أقام العصر كما كان يصليها قبل ذلك، ثم أقام المغرب فصلاها كما كان يصليها قبل ذلك، ثم أقام العشاء فصلاها كما كان يصليها قبل ذلك، وذلك قبل أن تنزل صلاة الخوف: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فِرَاقًا أَوْ زُرْكَانًا﴾ [البقرة: ٢٣٩].

وأخرج البخاري من حديث سليمان بن صرد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: «الآن نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم».

(٢٨ و ٢٩) أخرج الشيخان مطولاً وابن أبي حاتم - واللفظ له - عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قالت عائشة رضي الله عنها، أنزلت آية التخيير، فبدأ بي أول امرأة من نسائه، فقال: «إني ذاك لك أمراً، فلا عليك ألا تعجلي حتى تستأمري أبويك» قالت: قد علم

اللَّهِ وَالْحِكْمَةَ ﴿٣٥﴾ والمراد بآيات الله القرآن والحكمة : أسرارهُ أو سنة رسوله . وأمرهن بذكره يشمل ذكر لفظه بتلاوته، وذكر معناه بتدبره والتفكر فيه، واستخراج أحكامه وحكمه . وذكر العمل به وتأويله ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَتْ لَطِيفًا خَيْرًا﴾ يدرك أسرار الأمور، وخفايا الصدور، وخبايا السماوات والأرض، والأعمال التي تبين وتسرى، فلطفه وخبرته يقتضي حثهن على الإخلاص وإسرار الأعمال، ومجازاة الله على تلك الأعمال .

(٣٥) ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ وهذا في الشرائع الظاهرة إذا كانوا قائمين بها ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ وهذا في الأمور الباطنة من عقائد القلب وأعماله ﴿وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ﴾ المطيعين لله ولرسوله ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ في مقالهم وفعالهم ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ على الشدائد والمصائب ﴿وَالْخَشِيعِينَ وَالْخَشِيعَاتِ﴾ في جميع أحوالهم، خصوصاً في عباداتهم، خصوصاً في صلواتهم ﴿وَالْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ﴾ فرضاً ونفلاً

الزَّكَاةَ ﴿٣٦﴾ أمرهن بالطاعة، خصوصاً الصلاة والزكاة، وهما أكبر العبادات، وأجل الطاعات، وفي الصلاة الإخلاص للمعبود، وفي الزكاة الإحسان إلى العبيد ﴿وَأَطَعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يدخل في طاعة الله ورسوله كل أمر أمراً به أمر إيجاب أو استحباب ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ﴾ بأمركن بما أمركن به، ونهيكن بما نهاكن عنه؛ ﴿لِيَذْهَبَ عَنْكُمُ الرِّجْسُ﴾ الأذى والشر والخبث، يا ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ وهذا نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت؛ لأنهن سبب نزول هذه الآية، وسبب النزول فيه بلا مثنوية، إما وحده - على قول - أو مع غيره، على الصحيح. ولذلك؛ فالمراد أعم من سبب النزول فيدخل في أهل بيته من حرم الصدقة عليه بعده: آل عقیل، وآل جعفر، وآل عباس ﴿وَبَطْنُهُمْ تَطْهِيرًا﴾ حتى تكونوا طاهرين مطهرين .

(٣٤) ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا بُنِيَ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَابَتِ

(٣٣) في «سنن الترمذي» و«صحيح ابن حبان» من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه بإسناد صحيح عن النبي ﷺ قال: «صلاة المرأة

في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها، وصلاتها في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها» .

وأخرج الطبري في «تفسيره» عن ابن عباس رضى الله عنهما بإسناد صحيح أنه تلا: ﴿وَلَا تَرْجَعُنَّ إِلَى الْفِجَارِ أُولَى﴾ قال: كانت فيما بين نوح وإدريس، وكان ألف سنة، وإن بطنين من ولد آدم كان أحدهما يسكن السهل، والآخر يسكن الجبل، وكان رجال الجبل صباحاً وفي النساء دمامة، وكان نساء السهل صباحاً وفي الرجال دمامة، وأن إبليس أتى رجلاً في السهل في صورة غلام، فأجر نفسه منه، فكان يخدمه، واتخذ إبليس شيئاً مثل الذي يزرع فيه الرعاء، فجاء بصوت لم يسمع الناس مثله، فبلغ ذلك من حوله، فانتابوهم يسمعون إليه، واتخذوا عيداً يجتمعون إليه في السنة، فيتبرج النساء للرجال. قال: ويتزين الرجال لهم، وإن رجلاً من أهل الجبل هجم عليهم في عيدهم ذلك، فرأى النساء وصباحهن، فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك، فتحولوا إليهن، فنزلوا معهن وظهرت الفاحشة فيهن، فهو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْجَعُنَّ إِلَى الْفِجَارِ أُولَى﴾ .

(٣٥) أخرج النسائي وأحمد بإسناد صحيح عن أم سلمة رضى الله عنها؛ قالت: قلت للنبي ﷺ: ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال؟! قالت: فلم يرعني ذات يوم ظهراً إلا نداؤه على المنبر، قالت: وأنا أسرح رأسي، فلففت شعري ثم خرجت إلى حجرة بيتي، فجعلت سمعي عند الجريد، فإذا هو يقول على المنبر: «يا أيها الناس، إن الله يقول في كتابه: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ إلى آخر الآية ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عظيماً﴾ .

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ﴾ لهؤلاء الموصوفين بتلك الصفات الجميلة والمناقب الجليلة ﴿مَغْفِرَةً﴾ فجازاهم بالمغفرة لذنوبهم؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يقدر قدره إلا الذي أعطاه، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

(٣٦) ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ لا ينبغي ولا يليق بمؤمن ولا مؤمنة ﴿إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾ من الأمور، وحثماً به وألزماً به ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ الخيار، هل يفعلونه أم لا؟ بل يعلم المؤمن والمؤمنة: أن الرسول أولى به من نفسه، فلا يجعل بعض أهواء نفسه حجاباً بينه وبين أمر الله ورسوله ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ بيئاً؛ لأنه ترك الصراط المستقيم الموصلة إلى كرامة الله إلى غيرها؛ من الطرق الموصلة للعذاب الأليم، فذكر أولاً السبب الموجب لعدم معارضته أمر الله ورسوله؛ وهو: الإيمان، ثم ذكر المانع من ذلك؛ وهو: التخويف بالضلال الدال على العقوبة والنكال.

(٣٧) ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بالإسلام

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتُخْفِي النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي زَوَاجِ أَزْوَاجِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَاتَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُودًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يُبَيِّنُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيُخَوِّشُونَكَ وَلَا يُخْشَوْنَ لَكَ إِلَّا اللَّهُ وَكُنْ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾

﴿وَالصَّيِّمِينَ﴾ شمل ذلك الفرض والنفل ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظِينَ﴾ عن الزنا ومقدماته ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرِينَ﴾ في أكثر الأوقات، خصوصاً أوقات الأوراد المقيدة؛ كالصباح والمساء، وأدبار الصلوات المكتوبات

(٣٦) أخرج الإمام أحمد وعبد الرزاق بإسناد صحيح عن أنس رضي الله عنه قال: خطب رسول الله ﷺ على جلييب امرأة من الأنصار إلى أبيها، فقال: حتى استأمر أمها. فقال النبي ﷺ: «فنعيم إذا». . . قال: فانطلق الرجل إلى امرأته، فذكر ذلك لها، فقالت: لاها الله إذا، ما وجد رسول الله ﷺ إلا جلييباً، وقد منعناها من فلان وفلان؟ قال: والجارية في سترها تسمع، فانطلق الرجل يريد أن يخبر النبي ﷺ بذلك. فقالت الجارية: أتريدون أن تردوا على رسول الله ﷺ أمره؟ إن كان قد رضى لكم فانكحوه. قال: فكانها جلست عن أبيها، وقالوا: صدقت. فذهب أبوها إلى رسول الله ﷺ؛ فقال: إن كنت رضىته؛ فقد رضىته، قال: «فاني قد رضىته» قال: فزوجه، ثم فزع أهل المدينة، فركب جلييب؛ فوجدوه قد قتل، وحوله ناس من المشركين قد قتلهم. قال: أنس: فلقد رأيتهما وإنهما لمن أنفق بيت بالمدينة.

(٣٧) أخرج البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: جاء زيد بن حارثة يشكو، فجعل النبي ﷺ يقول: اتق الله وأمسك عليك زوجك» قال أنس: لو كان رسول الله ﷺ كتم شيئاً؛ لكتم هذه، قال: فكانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ؛ تقول: «زوجكن أهاليكن، وزوجني الله تعالى من فوق سبع سموات».

أباحه الله للأنبياء قبله ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ لا بد من وقوعه .

(٣٩) ثم ذكر من هم الذين من قبل قد خلوا، وهذه سنتهم وعاداتهم، وأنهم ﴿الَّذِينَ يَلْبِغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ فيتلون على العباد آيات الله، وحججه وبراهينه، ويدعونهم إلى الله ﴿وَيَخْشَوْنَ﴾ وحده لا شريك له ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ لا يخشون قالة الناس ولا تمتهم فيما أحل الله لهم وفرض عليهم ﴿وَكُنِيَ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ محاسبًا عباده، مراقبًا أعمالهم .

(٤٠) ﴿مَا كَانَ﴾ لم يكن الرسول ﴿مُحَمَّدٌ﴾ ﴿أَبًا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ أيها الأمة؛ فقطع انتساب زيد بن حارثة منه، من هذا الباب .

ولما كان هذا النفي عامًا في جميع الأحوال، إن حمل ظاهر اللفظ على ظاهره؛ أي: لا أبوة نسب، ولا أبوة ادعاء، ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ هذه مرتبته مرتبة المطاع المتبوع، المهتدى به، المؤمن له الذي يجب تقديم محبته على محبة كل أحد، الناصح الذي لهم، أي: للمؤمنين، من يره ونصحه؛ كأنه أب لهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ قد أحاط علمه بجميع الأشياء، ويعلم حيث يجعل رسالاته، ومن يصلح لفضله، ومن لا يصلح .

(٤١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَبِيرًا﴾

﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالعنق، حين جاءك مشاورًا في فراق زوجته زينب بنت جحش؛ فقلت له ناصحًا له ومخبرًا بمصلحته: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ لا تفارقها، واصبر على ما جاءك منها ﴿وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ تعالى في أمورك عامة، وفي أمر زوجك خاصة؛ فإن التقوى تحت على الصبر وتأمر به ﴿وَتَخَفِ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ والذي أخفاه: أنه لو طلقها زيد؛ لتزوجها ﴿وَتَخَشَى النَّاسَ﴾ في عدم إبداء ما في نفسك ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ وأن لا تباليهم شيئًا ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطْرًا﴾ طابت نفسه، ورغب عنها وفارقها ﴿زَوْجَهَا﴾ وإنما فعلنا ذلك؛ لفائدة عظيمة، وهي ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ حيث رأوك تزوجت زوج زيد بن حارثة الذي كان من قبل ينتسب إليك .

ولما كان قوله: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ عامًا في جميع الأحوال، وكان من الأحوال، ما لا يجوز ذلك، وهي قبل انقضاء وطره منها، قيد ذلك بقوله: ﴿إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطْرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ لا بد من فعله، ولا عائق له ولا مانع .

(٣٨) ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ﴾ إثم وذنب ﴿فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ قدر له من الزوجات، فإن هذا قد

(٤٠) أخرج الإمام أحمد والترمذي بإسناد صحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرسالة والنبوة قد انقطعت؛ فلا رسول بعدي ولا نبي» قال: فشق ذلك على الناس. قال: قال: «ولكن المبشرات» قالوا: يا رسول الله، وما المبشرات؟ قال: «رؤيا الرجل المسلم، وهي جزء من أجزاء النبوة» .

(٤١) أخرج الترمذي وابن ماجه وأحمد من حديث أبي الدرداء الصحيح قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم، فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟... قالوا: وما هو يا رسول الله؟ قال: ذكر الله ﷻ» .

الذنوب والجهل إلى نور الإيمان والتوفيق والعلم والعمل؛ فهذه رحمته ونعمته عليهم في الدنيا، وأما رحمته بهم في الآخرة، فأجل رحمة، وأفضل ثواب، وهو الفوز برضا ربهم وتحيته واستماع كلامه الجليل ورؤية وجهه الجميل وحصول الأجر الكبير، الذي لا يدري ولا يعرف كنهه إلا من أعطاهم إياه؛ ولهذا قال:

(٤٤) ﴿يَجِيئُهُمْ﴾ تحية المؤمنين ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ﴾ يوم يرون الله ﴿سَلَّمَ﴾ يسلم الله عليهم، ويسلمهم من جميع الآفات ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ في الجنة.

(٤٥) ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ﴾ إنَّ أَرْسَلَنَّاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿هذه الأشياء التي وصف الله بها رسوله محمداً ﷺ، هي المقصود من رسالته، وزبدتها وأصولها، التي اختص بها، وهي خمسة أشياء: أحدها: كونه ﴿شَهِدًا﴾ أي: شاهداً على أمته بما عملوه من خير وشر، فهو ﷺ شاهد عدل مقبول.

الثاني، والثالث: كونه ﴿مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ وهذا يستلزم ذكر المبشِّر والمُنذِر، وما يبشِّر به وينذر، والأعمال الموجبة لذلك.

فالمبشِّر هم: المؤمنون المتقون، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح وترك المعاصي، لهم البشِّر في الحياة الدنيا بكل ثواب دنيوي وديني،

يَجِيئُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿١١﴾ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٣﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٤﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٥﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٦﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٧﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٨﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٢٠﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٢١﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٢٣﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٢٤﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٢٥﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٢٦﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٢٧﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٢٨﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٢٩﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٣٠﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٣١﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٣٢﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٣٣﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٣٥﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٣٦﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٣٧﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٣٨﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٣٩﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٠﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤١﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٢﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٣﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٤﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٦﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٧﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٩﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٠﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥١﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٢﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٣﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٤﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٧﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٨﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٦١﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٦٢﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٦٣﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٦٤﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٦٥﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٦٦﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٦٧﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٦٨﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٦٩﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٧٠﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٧٢﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٧٣﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٧٤﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٧٦﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٧٧﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٧٨﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٧٩﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨٠﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨١﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨٣﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨٤﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨٥﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨٦﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨٧﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨٨﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨٩﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٩٠﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٩١﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٩٢﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٩٣﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٩٥﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٩٦﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٩٧﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٩٨﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٩٩﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٠﴾

يأمر تعالى المؤمنين بذكره ذكراً كثيراً: من تهليل وتحميد وتسييح وتكبير وغير ذلك.

(٤٢) ﴿وَسَبِّحْهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أول النهار وآخره؛ لفضلها وشرفها، وسهولة العمل فيها.

(٤٣) ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ من رحمته بالمؤمنين ولطفه بهم: أن جعل من صلاته عليهم وثنائه، وصلاة ملائكته ودعائهم ما يخرجهم من ظلمات

(٤٣) أخرج الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «يقول الله: من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم».

(٤٥) أخرج البخاري عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاصي رضي الله عنه قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة. قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ وحرراً للأمين، أنت عبيد ورسولي، سميتك المتوكل، لست بفظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح به أعينا عمياً، وآذاناً صُمًّا، وقلوباً غُلْفًا.

اللَّهُ ﴿﴾ في إتمام أمرك وخذلان عدوك ﴿﴾ وكفى بالله وكيلاً ﴿﴾ تُوكَلُ إليه الأمور المهمة، فيقوم بها، ويسهلها على عبده.

(٤٩) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّوهنَّ﴾ يخبر تعالى المؤمنين: أنهم إذا نكحوا المؤمنات ثم طلقوهن من قبل أن يمسوهن، فليس عليهن في ذلك عدة يعتدها أزواجهن عليهن ﴿فَمَعُوهُنَّ﴾ وأمرهم بتمتعن بهذه الحالة بشيء من متاع الدنيا الذي يكون فيه جبر لخواطرهن؛ لأجل فراقهن ﴿وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ وأن يفارقوهن فراقًا جميلًا من غير مخاصمة ولا مشاتمة ولا مطالبة ولا غير ذلك.

(٥٠) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ﴾ أعطيتهن مهورهن من الزوجات.

وكذلك أحللنا لك ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ الإماء التي ملكت ﴿مِمَّا ءَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ من غنيمة الكفار من عبيدهم، والأحرار من لهن زوج منهم، ومن لا زوج لهن، وهذا - أيضًا - مشترك. وكذلك من المشترك قوله: ﴿وَنَبَاتٍ عَمَّكَ وَنَبَاتٍ عَمَّتِكَ وَنَبَاتٍ خَالِكَ وَنَبَاتٍ خَالِكَ﴾ شمل العم والعمة، والخال والخالة القريبين والبعيد،

رتب على الإيمان والتقوى، وفي الأخرى بالنعيم المقيم.

والمُنذَرُ هم: المجرمون الظالمون، أهل الظلم والجهل، لهم النذارة في الدنيا من العقوبات الدنيوية والدينية، المترتبة على الجهل والظلم، وفي الأخرى، بالعقاب الويل.

(٤٦) الرابع: كونه ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ﴾ أرسله الله يدعو الخلق إلى ربهم، ويسوقهم لكرامته، ويأمرهم بعبادته، التي خلقوا لها.

الخامس: كونه ﴿وَسَرَّاجًا مُنِيرًا﴾ وذلك يقتضي: أن الخلق في ظلمة عظيمة، لا نور يهتدى به في ظلماتها، ولا علم يستدل به في جهالاتها، حتى جاء الله بهذا النبي الكريم، فأضاء الله به تلك الظلمات، وعلم به من الجهالات، وهدى به ضللاً إلى الصراط المستقيم.

(٤٧) وقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ذكر في هذه الجملة، المبشر، وهم المؤمنون.

وذكر المبشر به؛ أي: الفضل الكبير. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَضَّلْنَا كِبِيرًا﴾ وهو: العظيم الجليل.

(٤٨) ﴿وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ في كل أمر يصد عن سبيل الله، ولكن لا يقتضي هذا أذاهم، بل لا تطعمهم ﴿وَدَعْ أَذْنَهُمْ﴾ فإن ذلك جالب لهم، وداع إلى قبول الإسلام، وإلى كف كثير من أذيتهم له ولأهله ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى

(٥٠) أخرج البخاري وأحمد عن أنس رضي الله عنه قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله، هل لك في حاجة؟ فقالت بنت

أنس: ما أقل حياءها! واسوأناه، واسوأناه؛ فقال: «هي خير منك، رغبت في النبي ﷺ؛ فعرضت عليه نفسها».

قال أبو أسامة الهلالي: - غفر الله له ولوالديه ومشايخه - : هي كذلك أفضل من وجه آخر: أنها صحابية، رضي الله عنها،

بنت أنس من التابعين. فتدبر!

أَيَّمْنُهُمْ ﴿﴾ أي قد علمنا ما على المؤمنين، وما يحل لهم، وما لا يحل من الزوجات وملوك اليمين. وقد علمناهم بذلك وبيننا فرائضه، فما في هذه الآية مما يخالف ذلك؛ فإنه خاص لك؛ لكون الله جعله خطاباً للرسول وحده بقوله: ﴿بَيِّنَّا لَكَ﴾ ﴿﴾ إِنَّا أَعْلَمْنَا لَكَ ﴿﴾ إلى آخر الآية.

وقوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وأبחנו لك أيها النبي ما لم نبح لهم، ووسعنا لك ما لم ننوسع على غيرك، ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ وهذا من زيادة اعتناء الله تعالى برسوله ﷺ ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ لم يزل متصفاً بالمغفرة والرحمة، وينزل على عباده من مغفرته ورحمته، وجوده وإحسانه، ما اقتضته حكمته، ووجدت منهم أسبابه.

(٥١) ﴿تُرْجَىٰ مَن تَشَاءُ مِنْهُمْ﴾ تَوَخَّرَ مِنْ أُرْدَتِ
 مِنْ زَوْجَاتِكَ؛ فَلَا تُؤْوِيهَا إِلَيْكَ، وَلَا تَبِيتَ
 عِنْدَهَا ﴿وَتَوَوَّىٰ إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾ تَضَمَّهَا وَتَبِيتَ
 عِنْدَهَا ﴿وَوَ﴾ مَعَ ذَلِكَ لَا يَتَعَيَّنُ هَذَا الْأَمْرُ ﴿مَنْ
 ابْتَغَيْتَ﴾ أَنْ تُؤْوِيَهَا ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾
 وَالْمَعْنَى: أَنَّ الْخِيَرَةَ بِيَدِكَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ
 ﴿ذَلِكَ﴾ التَّوَسُّعُ عَلَيْكَ، وَكَوْنُ الْأَمْرِ رَاجِعًا
 إِلَيْكَ وَبِيَدِكَ، وَكَوْنُ مَا جَاءَ مِنْكَ إِلَيْهَا تَبَرُّعًا
 مِنْكَ ﴿أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ
 وَرَضِينَ بِمَا ءَالَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ﴾؛ أَي: إِذَا
 عَلِمْنَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ وَضَعَ الْحَرْجَ فِي الْقَسْمِ، ثُمَّ
 مَعَ هَذَا أَنْتَ تَقْسِمُ لَهُنَّ اخْتِيَارًا مِنْكَ لَا أَنَّهُ

ثُمَّ جِئَ مِنْ نِسَاءِ مَنْهُمْ وَنُفُوزَ إِلَيْكَ مِنْ نِسَاءٍ وَمِنْ أُنْعَمَ
بِمَنْ عَزَلْتَ فَلَا حَاجَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقْرَأَ عَلَيْهِمْ
وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُنَّ لَهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَا يَحِلُّ لَكَ
النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبْدَلَ بِهِنَ مِنْ أَرْوَاحٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ
مُسْتَهْنٌ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَرَقِيبًا
﴿٥٢﴾ يَتْلُوهُنَّ الْأَلْفِينَ ءَامُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ
يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَبْظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ
فَادْخُلُوا إِذَا طَعِمْتُمْ فَانْصَرُّوا وَلَا مُسْتَقْسِمِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ
ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَعِجِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ
لَا يَسْتَعِجِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلْتُمُوهُنَّ مِنْ
وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ
لَكُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا زَوْجَهُ
مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِنْ
تُبَدُّوا شَيْعًا أَوْ تُخَفُّوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَتْ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾

وهذا حصر المحلات ﴿الَّتِي هَاجَرَ مَعَكَ﴾ قيد
لحل هؤلاء للرسول؛ كما هو الصواب من
القولين في تفسير هذه الآية، وأما غيره عليه
الصلاة والسلام، فقد علم أن هذا قيد لغير
الصحة.

﴿و﴾ أَحْلَلْنَا لَكَ ﴿امْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ بمجرد هبتها نفسها ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾ هذا تحت الإرادة والرغبة ﴿خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: إباحة الموهبة، وأما المؤمنون؛ فلا يحل لهم أن يتزوجوا امرأة بمجرد هبتها نفسها لهم ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ

(٥١) أخرج الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت: أما تستحي المرأة أن تهب نفسها للرجل؟! فلما نزلت: ﴿تَرْجِي سَنَئَهُنَّ مِنْهُمْ وَتُقْوِي إِلَيْكَ مَنَ نَّسَاءَهُ﴾ قالت: يا رسول الله، ما أرى ربك إلا يسارع في هواك.

تعالى لا يأمركم إلا بما فيه الخير لكم، والرفق لرسوله كائنًا ما كان ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا﴾ كأن يسألن متاعًا أو غيره من أواني البيت أو نحوها، فإنهن يسألن ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ يكون بينكم وبينهن ستر، يستر عن النظر؛ لعدم الحاجة إليه ﴿ذَلِكَكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ لأنه أبعد عن الريبة.

﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾ يا معشر المؤمنين؛ أي: غير لائق ولا مستحسن منكم، بل هو أقبح شيء ﴿أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ أذية قولية أو فعلية بجميع ما يتعلق به ﴿وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ هذا من جملة ما يؤذيه؛ فإنه ﷺ له مقام التعظيم، والرفعة والإكرام، وتزوّج زوجاته بعده مخل بهذا المقام ﴿إِنَّ ذَلِكَكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ وقد امتثلت هذه الأمة هذا الأمر، واجتنبت ما نهى الله عنه منه، ولله الحمد والشكر.

(٥٤) ﴿إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا﴾ تظهروه ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ تكتمونه وتسروه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ لا تخفى عليه خافية.

(٥٥) ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي آبَائِهِمْ وَلَا أَبْنَائِهِمْ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِمْ وَلَا نِسَائِهِمْ﴾ في عدم الاحتجاب عنهم ﴿وَلَا نِسَائِهِمْ﴾ كذلك لا جناح عليهن ألا يحتجبن عن نسائهن؛ أي: اللاتي من جنسهن في الدين،

على سبيل الوجوب، فرض بذلك، واستبشر به، وحملن جميلك في يده ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾؛ أي: من الميل إلى بعضهن دون بعض، مما لا يمكن دفعه - أي الميل القلبي مع العدل - ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾؛ أي: بضماائر السرائر ﴿حَلِيمًا﴾؛ أي: يحلم ويغفر.

(٥٢) ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ﴾ أي: من بعد زوجاتك الموجودات ﴿وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بَيْنَ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ ولا تطلق بعضهن، فتأخذ بدلها ﴿وَلَوْ أَغْنَيْتُكَ خُسْنُهُنَّ﴾ حسن غيرهن؛ فلا يحلن لك ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ السراي؛ فذلك جائز لك ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ مراقبًا للأمر، وعالمًا بما إليه تؤول، وقائمًا بتدبيرها على أكمل نظام، وأحسن إحكام.

(٥٣) ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ﴾ لا تدخلوها بغير إذن للدخول فيها؛ إلا أن تدعوا إلى طعام تطعمونه ﴿غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ﴾ منتظرين نضجه، ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْشَرُوا وَلَا مُسْتَسِينٍ لِحَدِيثٍ﴾ قبل الطعام وبعده ﴿إِنَّ ذَلِكَكُمْ﴾ انتظاركم الزائد على الحاجة ﴿كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ﴾ يتكلف منه ويشق عليه حبسكم إياه عن شئون بيته، واشتغاله فيه ﴿فَيَسْتَجِئْ مِنْكُمْ﴾ أن يقول لكم: اخرجوا ﴿وَلَكِنْ لَا يَسْتَجِئُ مِنَ الْحَقِّ﴾ لأنه

(٥٢) أخرج الإمام أحمد والترمذي والنسائي بإسناد صحيح عن عائشة ؓ قالت: ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل الله له النساء.

(٥٣) أخرج النسائي وغيره بإسناد صحيح عن عائشة ؓ قالت: كنت آكل مع النبي ﷺ حبسًا في قعب، فمر عمر رضي الله عنه فدخل فأكمل، فأصابته أصبعه أصبعي، فقال: حسن - أو أوه - لو أطاع فيكن ما رأيتك عين؛ فنزل الحجاب.

(٥٥) أخرج الطبري بإسناد صحيح عن داود سأل الشعبي وعكرمة في قوله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي آبَائِهِمْ﴾ الآية، قلت: ما شأن العم والخال لم يذكر؟ قال: لأنهما ينعانها لأبنائهما. وكرها أن تضع خمارها عند خالها وعمها.

يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا بَدْرُكَ
لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٣٦﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ
لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٣٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلَا يَصِيرُوا
﴿٣٨﴾ يَوْمَ تَقْلُبُ أُجُوهَهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ
وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿٣٩﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا
فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا آتِنَا فِيهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ
وَالْعَنُومُ لَعَنَّا كِبَرًا ﴿٤١﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ
ءَاذُوا مُوسَىٰ فَبَرَأَ اللَّهُ مِنْهَا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٤٢﴾
يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٤٣﴾ يُصْلِحْ
لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
فَقَدْ قَارَعُوا عَظِيمًا ﴿٤٤﴾ وَإِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا
الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٤٥﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ
وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ
عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٤٦﴾

بك، وليس لهم قوة ولا امتناع ﴿ثُمَّ لَا يَجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ لا يجاورونك في المدينة إلا قليلاً، بأن تقتلهم أو تنفيهم.

(٦١) ﴿مَلْعُونِينَ﴾ مبعدين ﴿أَيْنَمَا تَقْتُلُوا﴾ أينما وجدوا ﴿أَخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا﴾ لا يحصل لهم أمن، ولا يقر لهم قرار، يخشون أن يقتلوا، أو يجسوا، أو يعاقبوا.

(٦٢) ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ أن من تمادى في العصيان، وتجراً على الأذى، ولم ينته منه؛ فإنه يعاقب عقوبة بليغة ﴿وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ تغييراً، بل سنته تعالى وعادته جارية مع الأسباب المقتضية لأسبابها.

(٦٣) ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ يستخبرك الناس عن الساعة؛ استعجالاً لها، وبعضهم تكديماً لوقوعها، وتعجيزاً للذي أخبر بها ﴿قُلْ﴾ لهم:

(٥٨) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ بغير جناية منهم موجبة للأذى ﴿فَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمُ﴾ على ظهورهم ﴿بِهَتْنَانَا﴾ حيث آذوهم بغير سبب ﴿وَإِنَّمَا مُبِينًا﴾ حيث تعدوا عليهم، وانتهكوا حرمة أمر الله باحترامها.

(٥٩) ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية، هذه الآية تسمى آية الحجاب، فأمر الله نبيه أن يأمر النساء عموماً - ويبدأ بزوجاته وبناته؛ لأنهن أكد من غيرهن، هذا الجملة للواو العاطفة الآتية ولأن الأمر لغيره ينبغي أن يبدأ بأهله قبل غيرهم - أن ﴿يُذْنِبَكُمْ عَلَيْهِنَ مِنَ الْجَلْبِيبِ﴾ وهن اللاتي يكن فوق الثياب من ملحفة وخمار ورداء ونحوه؛ أي: يغطين بها رؤوسهن ونحوهن وصدورهن ﴿ذَلِكَ أَذَى أَنْ يَعْرَفْنَ﴾ أنهن حرائر ﴿فَلَا يُؤْذِنَنَّ﴾ دل على وجود أذية إن لم يحتجبين، وذلك لأنهن إذا لم يحتجبين، ربما ظن أنهن غير عفيفات، فيتعرض لهن من في قلبه مرض فيؤذيهن، وربما استهين بهن، وظن أنهن إماء، فتهاون بهن من يريد الشر، فالاحتجاب حاسم لمطامع الطامعين فيهن ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ حيث غفر لكم ما سلف ورحمكم؛ بأن بين لكم الأحكام، وأوضح الحلال والحرام، فهذا سد للباب من جهتهن.

(٦٠) أما من جهة أهل الشر فقد تواعدهم بقوله: ﴿لَنْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ﴾ عن نفاقهم ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ مرض شك أو شهوة ﴿وَالْمُرْجُفُونَ﴾ في المدينة ﴿المخوفون المرهبون الأعداء، المحدثون بكثرتهم وقوتهم، وضعف المسلمين﴾ ﴿لَعْنَتِكَ بِهِمْ﴾ نأمرك بعقوبتهم وقتالهم، ونسلطك عليهم، ثم إذا فعلنا ذلك، لا طاقة لهم

أَسْلَفُوا ﴿يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾
 فسلمنا من هذا العذاب، واستحققنا كالمطيعين
 جزيل الثواب، ولكن أمنية فات وقتها، فلم
 تفدهم إلا حسرة وندماً وهمّاً وغماً وألماً.
 (٦٧) ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا﴾
 وقلدناهم على ضلالهم ﴿فَاضْلُونَا السَّيْلَ﴾
 الهداية.

(٦٨) ولما علموا أنهم هم وكبراءهم مستحقون
 للعقاب أرادوا أن يشتفوا ممن أضلوهم؛ فقالوا:
 ﴿رَبَّنَا إِنَّهُمْ ضَعَفَيْنَ مِنَ الْعَذَابِ﴾ ضعفي عذاب
 غيرهم ﴿وَالْعَنَافُ لَعْنَا كِبِيرًا﴾ اخزهم خزيًا متعدد
 المرات في عذاب جهنم؛ فيقول الله: لكل
 ضعف، فكلكم اشركتم في الكفر والمعاصي،
 فتشركون في العقاب، وإن تفاوت عذاب
 بعضكم على بعض بحسب تفاوت الجرم.

(٦٩) ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا﴾
 مُوسَى ﴿يَحْذَرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ أَذِيَةِ﴾
 رسولهم محمد ﷺ، النبي الكريم، الرؤوف
 الرحيم، فيقابلوه بضد ما يجب له من الإكرام
 والاحترام، وأن لا يتشبهوا بحال الذين آذوا
 موسى بن عمران كليم الرحمن ﴿فَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا﴾
 قَالُوا ﴿مِنَ الْأَذِيَةِ﴾ أي: أظهر الله لهم براءته.
 والأذية المشار إليها هي قول بني إسرائيل لموسى

﴿إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ لا يعلمها إلا الله، فليس
 لي ولا لغيري بها علم، ومع هذا؛ فلا
 تستبطئوها ﴿وَمَا يَذْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾
 ومجرد مجيء الساعة قريباً، وبعداً ليس تحته
 نتيجة ولا فائدة، وإنما النتيجة والخسار والريح
 والشقاوة والسعادة: هل يستحق العبد العذاب،
 أو يستحق الثواب؟ فهذه سأخبركم بها، وأصف
 لكم مستحقها.

(٦٤) فوصف مستحق العذاب، ووصف العذاب
 فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ﴾ الذين صار الكفر
 بالله وبرسوله وبما جاءوا به من عند الله دأبهم
 وطريقتهم، فأبعدهم في الدنيا والآخرة من
 رحمته، وكفى بذلك عقاباً ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ نازاً
 موقدة، تسعر في أجسامهم، ويبلغ العذاب إلى
 أفئدتهم.

(٦٥) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ يخلدون في ذلك
 العذاب الشديد، فلا يخرجون منه، ولا يُفْتَر
 عنهم ساعة ﴿لَا يَجِدُونَ وِلِيًّا﴾ فيعطيهما ما طلبوه
 ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يدفع عنهم العذاب، بل قد تخلى
 عنهم الولي النصير، وأحاط بهم عذاب السعير،
 وبلغ منهم مبلغاً عظيماً، ولهذا قال:

(٦٦) ﴿يَوْمَ ثُفِّلَتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ فيذوقون
 حرها، ويشتد عليهم أمرها، ويتحسرون على ما

(٦٩) أخرج البخاري، والسياق له، ومسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موسى كان رجلاً حَيِّياً سَتِيراً لا يرى من جلده شيء؛ استحياء منه، فأذاه من بني إسرائيل؛ فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده، إما برص وإما أذرة، وإما آفة، وإن الله ﷻ أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى ﷺ، فخلا يوماً وحده، فخلع ثيابه على حجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر؛ فجعل يقول: ثوبي حجر! ثوبي حجر! حتى انتهى إلى ملا من بني إسرائيل؛ فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله ﷻ، وأبرأه مما يقولون وقام الحجر، فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه، فو الله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً، فذلك قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا﴾ مُوسَى فَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِبَاحٌ.

المقيم.

(٧٢) ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ يعظم تعالى شأن الأمانة، التي ائتمن الله عليها المكلفين، التي هي: امتثال الأوامر، واجتناب المحارم، في حال السر والخفية؛ كحال العلانية، وأنه تعالى عرضها على المخلوقات العظيمة: السماوات والأرض والجبال، عرض تخيير، لا تحتيم، وأنتك إن قمت بها وأديتها على وجهها، فلك الثواب، وإن لم تقومي بها ولم تؤديها؛ فعليك العقاب ﴿فَأَيُّكُمْ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ خوفاً أن لا يقمن بما حُمِّلْنَ، لا عصياناً لرهن، ولا زهداً في ثوابه ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ وعرضها الله على الإنسان، على ذلك الشرط المذكور، فقبلها وحملها، ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ مع ظلمه لنفسه، وجهله بأمر ربه، وحمل هذا الحمل الثقيل.

(٧٣) فانقسم الناس -بحسب قيامهم بها وعدمه- إلى ثلاثة أقسام: منافقون: أظهروا أنهم قاموا بها ظاهراً لا باطناً. ومشركون: تركوها ظاهراً وباطناً. ومؤمنون: قائمون بها ظاهراً وباطناً.

فذكر الله تعالى أعمال هؤلاء الأقسام الثلاثة، وما لهم من الثواب والعقاب؛ فقال: ﴿لِعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ فله الحمد تعالى، حيث ختم هذه الآية بهذين

لما رأوا شدة حياته وتستره عنهم: إنه ما يمنعه من ذلك إلا أنه أدر؛ أي: كبير الخصيتين. واشتهر ذلك عندهم، فأراد الله أن يبرئه منهم، فاعتسل يومئذ، ووضع ثوبه على حجر، ففر الحجر بثوبه، فأهوى موسى - عليه الصلاة والسلام - في طلبه، فمر به على مجالس بني إسرائيل، فأروه أحسن خلق الله، فزال عنه ما رموه به ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِهاً﴾ له وجاهة وجاه عند ربه، فلم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه، ومن ذلك: أنه شفع في أخيه هارون أن يرسله الله معه، فأجاب الله سؤاله، فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَكُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣].

(٧٠) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ يأمر تعالى المؤمنين بتقواه في جميع أحوالهم: في السر والعلانية ﴿وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ وهو القول الموافق للصواب، أو المقارب له، عند تعذر اليقين، من قراءة، وذكر، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وغير ذلك. ومن القول السديد: لين الكلام ولطفه في مخاطبة الأنام، وأسد قول: لا إله إلا الله.

(٧١) ثم ذكر ما يترتب على تقواه، وقوله القول السديد، فقال: ﴿يُضِلِّجْ لَكُمْ أَعْمَلَكُمْ﴾ يكون ذلك سبباً لصلاحها، وطريقاً لقبولها ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أيضاً ﴿ذُنُوبَكُمْ﴾ التي هي السبب في هلاككم ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ وذلك أنه يجاز من نار الجحيم، ويصير إلى النعيم

(٧٢) أخرج الطبري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما بإسناد صحيح: أنه قال في هذه الآية: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾ قال: «عرضت على آدم، فقال: خذها بما فيها، فإن أطعت غفرت لك، وإن عصيت عذبتك. قال: قبلت. فما كان إلا قدر ما بين العصر إلى الليل في ذلك اليوم حتى أصاب الخطيئة».

سورة سبا
وهي مكية

(١) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الحمد: الشناء بالصفات الحميدة، والأفعال الحسنة؛ فلله تعالى الحمد وحمد نفسه هنا على أن ﴿الَّذِي لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ملكاً وعبيداً، يتصرف فيهم بحمده ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ لأن في الآخرة يظهر من حمده والثناء عليه ما لا يكون في الدنيا؛ فإذا قضى الله تعالى بين الخلاق كلهم، ورأى الناس والخلق كلهم ما حكم به، وكمال عدله وقسطه، وحكمته فيه، حمدوه كلهم على ذلك، حتى أهل العقاب ما دخلوا النار إلا وقلوبهم ممتلئة من حمده، وأن هذا من جراء أعمالهم، وأنه عادل في حكمه بعقابهم ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ في ملكه وتديره، الحكيم في أمره ونهيه ﴿الْحَكِيمُ﴾ المطلع على سرائر الأمور وخفاياها.

(٢) ﴿يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ﴾ من مطر وبذر وحيوان ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من أنواع النباتات وأصناف الحيوانات ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من الأملاك والأرزاق والأقدار ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ من الملائكة والأرواح وغير ذلك ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ﴾ الذي الرحمة والمغفرة وصفه، ولم تزل آثارهما تنزل على عباده كل وقت بحسب ما قاموا به من مقتضياتهما.

(٣) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله وبرسوله وبما جاءوا به، فقالوا بسبب كفرهم: ﴿لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ ما هي إلا هذه الحياة الدنيا نموت ونحيا ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَكُمُ﴾ فأمر الله رسوله أن يرد قولهم ويبطله، ويقسم على البعث،



الاسمين الكريمين، الدالين على تمام مغفرة الله، وسعة رحمته، وعموم جوده، مع أن المحكوم عليهم، كثير منهم لم يستحق المغفرة والرحمة؛ لنفاقه وشركه.

أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
 فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
 وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ شَأْنَهُمْ خَفِيفٌ بِهِمْ
 الْأَرْضُ أَوْ نُقِطَةٌ عَلَيْهِمْ كَسِفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ
 لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا
 يَنْجِيهِ أَوَّلَى مَعَهُ وَالْطَّرِيقَ وَأَنَّا لَهُ الْخَدِيدُ ﴿٧﴾ أَنِ اعْمَلْ
 سَبِيغَتَ وَفَدَّرْ فِي السَّرَدِ وَاعْمَلُوا صِلَاحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ
 بَصِيرٌ ﴿٨﴾ وَلَمَّا تَمَنَّيَ الرِّيحَ غَدَا هَاشِمٌ رَوَّاحَهَا شَهْرٌ
 وَأَسْنَا لَهُ عَيْنَ الْفَطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ
 رَبِّهِ وَمَنْ يَرِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرٍ نَأْتِيهِ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٩﴾
 يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْدَرٍ لَّيْسَ بِشَيْءٍ وَجْهًا لِّجَوَابِ
 وَقْدِ رَأْسِهِ تَعْمَلُوا لَأَدَاؤِ دَشْكُرٍ أَوْ قَلِيلٍ مِنْ عِبَادِي
 الشُّكُورِ ﴿١٠﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ
 إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خِرَّ تَتَنَبَّأُ الْجِنُّ
 أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١١﴾

وأنه سيأتيهم، واستدل على ذلك بدليل من أقر به؛ لزمه أن يصدق بالبعث ضرورة، وهو علمه تعالى الواسع العام؛ فقال: ﴿عَلِمَ الْغَيْبُ﴾ الأمور الغائبة عن أبصارنا، وعن علمنا ﴿لَا يَغُزُّ﴾ لا يغيب عن علمه ﴿وَيُقَالُ دَرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ جميع الأشياء بذواتها وأجزائها، حتى أصغر ما يكون من الأجزاء، وهو المثاقيل منها ﴿وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابِ مُبِينٍ﴾ قد أحاط به علمه، وجرى به قلمه، وتضمنه الكتاب المبين، الذي هو: اللوح المحفوظ .

(٤) ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بقلوبهم، صدقوا الله، وصدقوا رسله تصديقاً جازماً ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ تصديقاً لإيمانهم ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم؛ بسبب إيمانهم وعملهم، يندفع بها كل شر وعقاب ﴿وَرَزَقُ كَرِيمٌ﴾ بإحسانهم يحصل لهم به كل مطلوب ومرغوب وأمنية .

(٥) ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ﴾ سعوا فيها كفراً بها، وتعجيزاً لمن جاء بها، وتعجيزاً لمن أنزلها؛ كما عجزوه في الإعادة بعد الموت .

(٦) ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَزٍ أَلِيمٌ﴾ مؤلم لأبدانهم وقلوبهم .

﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ وهم أهل العلم ﴿الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقُّ﴾ يرون ما أنزل الله على رسوله من الكتاب، وما اشتمل عليه من الأخبار، هو الحق؛ أي: الحق منحصر فيه، وما خالفه وناقضه فإنه باطل؛ لأنهم وصلوا من العلم إلى درجة اليقين ﴿وَالَّذِينَ يَرُونَ﴾ أيضاً - أنه في أوامره

ونواهيهِ ﴿وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ﴾ العزيز: هو المنيع الجانب الذي لا يغالب ولا يمانع بل قد قهر كل شيء وغلبه ﴿الْحَمِيدُ﴾: في جميع أقواله وأفعاله وشروعه وقدره، وهو المحمود في ذلك كله .

(٧) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ على وجه التكذيب والاستهزاء والاستبعاد: ﴿هَلْ نَدْعُوكَ عَلَى رَجُلٍ يُبَشِّرُكُمْ إِذَا مَرَقْتُمْ كُلَّ مَرْقَةٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يعنون بذلك الرجل: رسول الله ﷺ، وأنه رجل أتى بما يستغرب منه، وأنه كيف يقول: إنكم مبعوثون بعدما مزقكم البلى، وتفرقت أوصالكم، واضمحلت أعضاؤكم؟! .

(٨) فأجاب بعضهم فقالوا: ﴿أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ حين زعم أننا نبعث؟ وألف افتري ألف استفهام، وهو استفهام تعجب وإنكار ﴿أَمْ بِهِ

على عبدنا ورسولنا داود عليه الصلاة والسلام،
وآتيناه فضلاً من العلم النافع، والعمل الصالح،
والنعم الدينية والدنيوية ﴿يَجَالُ أَوْي مَعَهُ
وَالطَّيْرُ﴾ ومن نعمه عليه، ما خصه به من أمره
تعالى الجمادات؛ كالجبال، والحيوانات من
الطيور أن تُرَجَّع التسبيح بحمد ربها مجاوبة له
﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ ومن فضله عليه: أن ألان
له الحديد، فكان لا يحتاج أن يدخله ناراً، ولا
يضره بمطرقة، بل كان يقتله بيده مثل الخيو،
ولهذا قال:

(١١) ﴿أَنْ أَعْمَلَ سَيِّغَتِي﴾ ليعمل الدروع
السباغات ﴿وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ﴾ وعلمه تعالى كيفية
صنعته، بأن يقدره في السرد؛ أي: يقدره حلقاً،
ويصنعه كذلك، ثم يدخل بعضها ببعض.

﴿وَأَعْمَلُوا صَليحاً﴾ في الذي أعطاكم الله من
النعم ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾؛ أي: مراقب
لكم، بصير بأعمالكم وأقوالكم، لا يخفى
عليّ منها شيء.

(١٢) ﴿وَلَسُلَيْمَنَ الرِّيحَ﴾ لما ذكر فضله على
داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، ذكر فضله على ابنه سليمان
عليه الصلاة والسلام، وأن الله سخر له الريح
تجري بأمره، فتسير في اليوم مسيرة شهرين
﴿غَدُوها شَهْرٌ﴾؛ أي: سير غدوها وهو أول
النهار إلى الزوال - مسيرة شهر ﴿وَرَوَاخُها
شَهْرٌ﴾ وسير رواحها - وهو من الزوال إلى
آخر النهار - مسيرة شهر ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ
الْفُطُرِ﴾ سخرنا له عين النحاس، وسهلنا له
الأسباب في استخراج ما يستخرج منها من
الأواني وغيرها ﴿وَمَنْ أَلْجَنَ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ
يَاْذِنْ رَبِّهٖ﴾ وسخر الله له - أيضاً -:

جَنَّةٌ ﴿جنون فقال الله تعالى راداً عليهم: ﴿بَلِ
الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْعَبِيدِ﴾
أي: ليس الأمر كما زعموا، بل محمد ﷺ
هو الصادق البار الراشد، وهم الذين ضلوا
عن الفهم وإدراك الحقائق، فكفروا بالآخرة،
ولم يؤمنوا بما جاءهم به، فصاروا بسبب ذلك
في العذاب الدائم في الآخرة، وهم اليوم في
الضلال البعيد عن الحق غاية البعد.

(٩) ثم وعظهم ليعتبروا، فقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ
يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ﴾ نبههم على الدليل العقلي الدال على
عدم استبعاد البعث الذي استبعدوه، وأنهم لو
نظروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من
السماء والأرض، فرأوا من قدرة الله فيهما ما
يبهر العقول، ومن عظمتها ما يذهل العلماء
الفحول، وأن خلقهما وعظمتها وما فيهما من
المخلوقات أعظم من إعادة الناس - بعد
موتهم - من قبورهم ﴿إِنْ نَشَأْ نُخَسِّفْ بِهِمْ
الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ من
العذاب؛ لأن الأرض والسماء تحت تدبيرنا،
فإن أمرناهما لم يستعصيا، فاحذروا إصراركم
على تكذيبكم، فنعاقبكم أشد العقوبة ﴿إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ﴾ أي: خلق السماوات والأرض وما
فيهما من المخلوقات ﴿لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾
المنيب المقبل إلى الله تعالى، فكلما كان
العبد أعظم إنابة إلى الله كان انتفاعه بالآيات
أعظم؛ لأن المنيب مقبل إلى ربه، قد توجهت
إراداته وهماته لربه، ورجع إليه في كل أمر
من أموره.

(١٠) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ ولقد مننا

الشياطين والجن، لا يقدر أن يستعصوا عن أمره ﴿وَمَنْ يَزِغْ﴾ يعدل ﴿مِنْهُمْ﴾ من الجن ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾ الذي أمرنا به من طاعة سليمان ﴿يَذِقُهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

(١٣) ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ﴾ من الاعمال التي يعجز عنها غيرهم ﴿مِنْ مَحْرَبٍ﴾ وهو كل بناء يعقد، وتحكم به الأبنية ﴿وَتَمْثِيلٍ﴾ صور الحيوانات والجمادات ﴿وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾ كالبرك الكبار يعملونها لسليمان للطعام؛ لأنه يحتاج إلى ما لا يحتاج إليه غيره ﴿وَيَعْمَلُونَ لَهُ قُدُورٍ رَاسِيَتٍ﴾ لا تزول عن أماكنها من عظمها.

فلما ذكر منته عليهم، أمرهم بشكرها فقال: ﴿اعْمَلُوا أَلْ دَاوُدَ﴾ وهم داود وأولاده وأهله؛ لأن المنة على الجميع، وكثير من هذه المصالح عائد لكلهم.

﴿شُكْرًا﴾ لله على ما أعطاكم، ومقابلة لما أولاكم ﴿وَقَلِيلٍ مِنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ فأكثرهم لم يشكروا الله تعالى على ما أولاهم من نعمه، ودفع عنهم من النقم.

(١٤) ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾ على سليمان ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ﴾ وهي الأرضة ﴿تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ﴾ عصاه ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ لما سقط سليمان على الأرض ﴿تَبَيَّنَ لُجْنُ﴾ علمت الجن وأيقنت ﴿أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ في التعب والشقاء مسخرين لسليمان وهو ميت يظنونه حيًا، أراد الله تعالى

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لِمَدَّةِ طَبِيعَةِ رَبِّكُمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَقِ وَشَقِ وَمَنْ سِدرٌ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ نَجْمِهِمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكُفُورُ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ الْفُرْقَانِ الَّذِي يَصِفُ أَوَّلَهَا قُرْآنُ طَهْرَةٍ وَقَدْ رَأَى فِيهَا السَّيْرُ سِيرَةً وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَعْدَائِهِمْ وَزَعَمْنَاهُمْ كُلَّ فَرْقٍ أَنَّ فِي ذَلِكَ لَا يَنْتَبِهُ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرَقًا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لَنَعْلَمَ مَنْ يُوَفِّي بَآءَ الْآخِرَةِ وَمَنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُمْ مِنْ طَهِيرٍ ﴿٢٢﴾

٤٣٠

بذلك أن يعلم الجن أنهم لا يعلمون الغيب؛ لأنهم كانوا يظنون أنهم يعلمون الغيب، لغلبة الجهل.

(١٥) ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ والمراد بسبأ القبيلة المعروفة في أداني اليمن، ومسكنهم بلدة يقال لها: مأرب ﴿فِي مَسْكِنِهِمْ﴾ محلهم الذي يسكنون فيه ﴿آيَةً﴾ والآية هنا: ما أدر الله عليهم من النعم، وصرف عنهم من النقم، الذي يقتضي ذلك منهم: أن يعبدوا الله ويشكروه. ثم فسر الآية بقوله: ﴿جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ وكان لهم واد عظيم، تأتيه سيول كثيرة، وكانوا بنوا سدًا محكمًا، يكون مجمعًا للماء، فكانت السيول

(١٣) في الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «إن أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وأحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، ولا يفر إذا لاقى».

فِيهَا السَّيْرُ ﴿١٨﴾ سَيْراً مُقَدَّراً يَعْرِفُونَهُ، وَيَحْكُمُونَ عَلَيْهِ، بَحِثْ لَا يَتِيهُونَ عَنْهُ ﴿لِيَأَلَىٰ وَآيَآمَاءِ آمِينَ﴾ ﴿١٩﴾ مَطْمَئِنِينَ فِي السَّيْرِ فِي تِلْكَ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ غَيْرِ خَائِفِينَ ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا﴾ طَلَبُوا وَتَمَنُّوا أَنْ تَبَاعَدَ أَسْفَارُهُمْ بَيْنَ تِلْكَ الْقُرَى، الَّتِي كَانَ السَّيْرُ فِيهَا مَتِيسِراً ﴿وَطَلَبُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بِكَفَرِهِمْ بِاللَّهِ وَبِنِعْمَتِهِ، فَعَاقَبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَىٰ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي أَطْعَمَهُمْ؛ فَأَبَادَهَا عَلَيْهِمْ.

(١٩) ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ فَلَمَّا أَصَابَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ، تَفَرَّقُوا وَتَمَزَّقُوا، بَعْدَمَا كَانُوا مَجْتَمِعِينَ، وَجَعَلَهُمُ اللَّهُ أَحَادِيثَ يَتَحَدَّثُ بِهِمْ، وَأَسْمَاراً لِلنَّاسِ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عَلَى الْمَكَارِهِ وَالشَّدَائِدِ، يَتَحَمَّلُهَا لَوَجْهِ اللَّهِ، وَلَا يَتَسَخَّطُهَا بَلْ يَصْبِرُ عَلَيْهَا ﴿شُكُورٍ﴾ لِنِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ يُقَرُّ بِهَا وَيَعْتَرِفُ، وَيُثْنِي عَلَى مَنْ أَوْلَاهَا، وَيَصْرِفُهَا فِي طَاعَتِهِ.

(٢٠) ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُمْ﴾ ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ قَوْمَ سَبَأَ مِنَ الَّذِينَ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ، وَهَذَا ظَنُّ مَنْ إِبْلِيسَ، لَا يَقِينُ، لِأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ، وَلَمْ يَأْتِهِ خَبَرُ مِنَ اللَّهِ أَنَّهُ سَيَغْوِيهِمْ أَجْمَعِينَ؛ إِلَّا مَنْ اسْتَشْنَى، فَهَؤُلَاءِ وَأَمْثَالُهُمْ مِمَّنْ صَدَّقَ عَلَيْهِ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ وَدَعَاهُمْ وَأَغْوَاهُمْ ﴿فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ مِمَّنْ لَمْ يَكْفُرْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَدْخُلْ تَحْتَ ظَنِّ إِبْلِيسَ.

(٢١) ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَتَوَلَّىٰ إِبْلِيسَ﴾ لِإِبْلِيسَ ﴿عَلَيْهِمْ مِّنْ سُلْطَانٍ﴾ تَسْلُطٍ وَقَهْرٍ، وَقَسَرَ عَلَى مَا يَرِيدُهُ مِنْهُمْ، وَلَكِنْ حِكْمَةُ اللَّهِ تَعَالَىٰ اقْتَضَتْ تَسْلِيْطَهُ وَتَسْوِيْلَهُ

تَأْتِيهِ، فَيَجْتَمِعُ هُنَاكَ مَاءٌ عَظِيمٌ، فَيَفْرُقُونَهُ عَلَى بَسَاتِينِهِمْ، الَّتِي عَنْ يَمِينِ ذَلِكَ الْوَادِي وَشِمَالِهِ، وَتُغْلُّ لَهُمْ تِلْكَ الْجَنَّتَانِ الْعَظِيمَتَانِ مِنَ الثَّمَارِ مَا يَكْفِيهِمْ، وَيَحْصِلُ لَهُمْ بِهِ الْغَبْطَةُ وَالسَّرُورُ ﴿كُلُوا مِمَّنْ رَزَقَ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُمْ﴾ فَأَمَرَهُمُ اللَّهُ بِشُكْرِ نِعْمَةِ الَّتِي أَدْرَاهَا عَلَيْهِمْ ﴿بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ جَعَلَ بِلَدِهِمْ بَلَدَةً طَيِّبَةً؛ لِحَسَنِ هَوَائِهَا، وَقِلَّةِ وَخْمِهَا، وَحَصُولِ الرِّزْقِ الرَّغْدِ فِيهَا ﴿وَرَبِّ غَفُورٍ﴾ أَنْ اللَّهَ تَعَالَىٰ وَعَدَهُمْ إِنْ شَكَرُوا أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ وَيَرْحَمَهُمْ.

(١٦) ﴿فَاعْرِضْهُمْ﴾ عَنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ وَشُكْرِهِ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ ﴿فَلَوْ سَلَطْنَا عَلَىٰ سَبِيلِ الْغَرَمِ﴾ السَّبِيلِ الْمَتَوَعَّرِ الَّذِي خَرِبَ سَدُّهُمْ ﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكْثَلٍ﴾ شَيْءٌ قَلِيلٌ مِنَ الْأَكْلِ الَّذِي لَا يَقَعُ مِنْهُمْ مَوْقِعاً ﴿حَمِطٍ﴾ شَجَرِ الْأَرَاكِ وَثَمَرِهِ الَّذِي يَسْمَى: الْبَرْبَرِ ﴿وَأَثَلٍ﴾ شَجَرٍ يَشْبَهُ الطَّرْفَاءَ ﴿وَشَيْءٍ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ وَهَذَا شَجَرٌ مَعْرُوفٌ.

(١٧) ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَافِرَ﴾ وَهَلْ نَجَازِي جَزَاءَ الْعَقُوبَةِ إِلَّا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ وَبَطَرَ النِّعْمَةَ.

(١٨) ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ وَهِيَ قُرَى الشَّامِ ﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾ بَيْنَةً وَاضِحَةً يَعْرِفُهَا الْمَسَافِرُونَ يَقِيلُونَ فِي وَاحِدَةٍ، وَيَبِيتُونَ فِي أُخْرَى، هَيَأَ لَهُمْ مِنَ الْأَسْبَابِ مَا بِهِ يَتيسَّرُ وَصُولُهُمْ إِلَيْهَا، بِغَايَةِ السَّهُولَةِ، مِنَ الْأَمْنِ، وَعَدَمِ الْخَوْفِ، وَتَوَاصُلِ الْقُرَى بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهَا؛ بِحَيْثُ لَا يَكُونُ عَلَيْهِمْ مَشَقَّةٌ بِحَمْلِ الزَّادِ وَالْمَزَادِ ﴿وَقَدَّرْنَا

(١٩) أخرج مسلم في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عجبا للمؤمن، لا يقضي الله تعالى له قضاء إلا كان خيراً له؛ إن أصابته سراء شكر؛ فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر؛ فكان خيراً له»، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن».

لبنى آدم ﴿لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْثِقُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ ليقوم سوق الامتحان، ويعلم به الصادق من الكاذب، ويعرف من كان إيمانه صحيحاً، ممن إيمانه غير ثابت، يتزلزل بأدنى شبهة ﴿وَرَبِّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيْظٌ﴾ يحفظ العباد، ويحفظ عليهم أعمالهم، ويحفظ تعالى جزاءها، فيوفيهما إياها كاملة موفرة.

(٢٢) ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول للمشركين بالله غيره من المخلوقات، ملزماً لهم بعجزها، ومبيناً لهم بطلان عبادتها: ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ زعمتموهم شركاء لله، إن كان دعاؤكم ينفع، فإنهم قد توفرت فيهم أسباب العجز، وعدم إجابة الدعاء من كل وجه، فإنهم ليس لهم أدنى ملك، ف ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ على وجه الاستقلال، ولا على وجه الاشتراك ﴿وَمَا لَهُمْ﴾؛ أي: لتلك الآلهة الذين زعمتم ﴿فِيهِمَا﴾ في السماوات والأرض ﴿وَمِنْ شِرْكٍ﴾ لا شرك قليل ولا كثير، فليس لهم ملك، ولا شركة ملك ﴿وَمَا لَهُمْ﴾؛ أي: لله تعالى الواحد القهار ﴿وَمِنْهُمْ﴾ من هؤلاء المعبودين ﴿وَمِنْ ظَهَرٍ﴾ معاون ووزير يساعده على الملك والتدبير.

(٢٣) فلم يبق إلا الشفاعة، فنفاها بقوله: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾.

وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ قُلْ مَنْ رَزَقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْيَاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أُخْرِجْنَا وَلَا تَسْأَلُونَ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٥﴾ قُلْ أَرَأَيْتِ الَّذِينَ اتَّخَفْتُمُوهُ شُرَكَاءَ كَلَّالٌ هُمْ وَاللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا حَقًّا لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادٌ يَوْمَ لَا تَسْتَعِجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَغْدِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلَمْ نَكُفِّرْ بِهِذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ نَرَاكَ الظَّالِمِينَ مَوْفُقِينَ عَلَىٰ رَبِّكَ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكَرُّوا أَوْلَا أَنْتُمْ لَكُلَّامٌ مُّبِينٌ ﴿٣٠﴾

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ هذا مقام رفيع في العظمة، وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي فسمع أهل السماوات كلامه، أرعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشي، فإذا انتهى الوحي زال الفزع عنهم وجلي عن قلوبهم فإذا كان كذلك ﴿قَالُوا﴾؛ أي: يسأل بعضهم بعضاً: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ فيخبر بذلك حملة العرش للذين يلونهم لمن تحتهم حتى ينتهي الخبر إلى أهل السماء الدنيا، ولهذا قال تعالى: ﴿قَالُوا

(٢٣) أخرج البخاري عن عكرمة؛ قال: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول: إن نبي الله ﷺ قال: «إذا قضى الله - تعالى - الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترق السمع، ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض، فيسمع الكلمة فيلقبها إلى من تحته، ثم يلقبها الآخر إلى من تحته، حتى يلقبها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقبها، وربما ألغها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال في يوم كذا وكذا، وكذا وكذا؛ فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء».

هذه الآلهة التي جعلتموها لله أنداداً وصيرتموها له عدلاً ﴿كَلَّا﴾ ليس لله شريك ولا ند ولا ضد ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ﴾ الذي لا يستحق التأله والتعبد إلا هو ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي قهر كل شيء؛ فكل ما سواه، فهو مقهور مسخر مدبر. ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي أنقن ما خلقه، وأحسن ما شرعه.

(٢٨) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ يخبر تعالى أنه ما أرسل رسوله ﷺ؛ إلا ليبشر جميع الناس بثواب الله، ويخبرهم بالأعمال الموجبة لذلك، وينذرهم عقاب الله، ويخبرهم بالأعمال الموجبة له ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ليس لهم علم صحيح، بل إما جهال، أو معاندون لم يعملوا بعلمهم، فكأنهم لا علم لهم.

(٢٩) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهذا ظلم منهم في استبعادهم قيام الساعة.

(٣٠) ﴿قُلْ﴾ لهم مخبراً بوقت وقوعه الذي لا شك فيه: ﴿لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعْزِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَغِيثُونَ﴾ لكم ميعاد مؤجل معدود لا يزداد ولا ينقص، فإذا جاء فلا يؤخر ساعة ولا يقدم.

(٣١) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُؤْمِرُ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يخبر تعالى عن تمادي الكفار في طغيانهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن الكريم، وبما أخبر به من أمر المعاد ﴿وَلَوْ رَزَقْنَاهُ إِذْ الظَّالِمُونَ مَوْفُوقُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلُ﴾ لو رأيت حالهم إذا وقفوا عند ربهم، واجتمع الرؤساء والأتباع في الكفر والضلال؛ لرأيت أمراً عظيماً وهولاً جسيماً، ورأيت كيف يتراجع، ويرجع بعضهم إلى بعض القول، ف ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضْعِفُوا﴾ وهم الأتباع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم القادة: ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا

الْحَقُّ﴾؛ أي: أخبروا بما قال، دون زيادة ولا نقصان ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ بذاته، فوق جميع مخلوقاته وقهره لهم، وعلو قدره، بما له من الصفات العظيمة، جليلة المقدار، ومن علوه: أن حكمه تعالى يعلو، وتدعن له النفوس، حتى نفوس المتكبرين والمشركين، ﴿الْكَبِيرُ﴾ في ذاته وصفاته.

(٢٤) ﴿قُلْ﴾ يأمر تعالى نبيه محمداً ﷺ: أن يقول لمن أشرك بالله ويسأله عن حجة شركه: ﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فإنهم لا بد أن يقرؤا أنه الله، ولئن لم يقرؤا؛ ف ﴿قُلْ﴾ الله ﴿فإنك لا تجد من يدفع هذا القول.

وقوله: ﴿وَلِئَا أَوْ يَتَّخِذَ لَكُمُ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ إحدى الطائفتين منا ومنكم، على الهدى، مستعلية عليه، أو في ضلال مبين، منغمرة فيه، وهذا الكلام ليس على طريق الشك، بل يقوله من تبين له الحق، واتضح له الصواب، وجزم بالحق الذي هو عليه، وبطلان ما عليه خصمه، لكن كذبهم من غير أن يصرح بالتكذيب.

(٢٥) ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ كل منا ومنكم له عمله أنتم ﴿لَا تَسْأَلُونَ﴾ عن إجرامنا وذنوبنا لو أذنبنا، ونحن لا نسأل عن أعمالكم.

(٢٦) ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا﴾ يحكم بيننا حكماً، يتبين به الصادق من الكاذب، والمستحق للثواب، من المستحق للعقاب ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ الحاكم العادل، العالم بحقائق الأمور.

(٢٧) ﴿قُلْ﴾ لهم يا أيها الرسول، ومن ناب منابك: ﴿أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ﴾ أروني

مُؤْمِنِينَ ﴿ وَلَكِنْ كُنْتُمْ حُلُمٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْإِيمَانِ ، وَزِينَتُمْ لَنَا الْكُفْرَانَ ، فَتَبِعْنَاكُمْ عَلَى ذَلِكَ . وَمَقْصُودُهُمْ بِذَلِكَ : أَنْ يَكُونَ الْعَذَابُ عَلَى الرُّسَاءِ دُونِهِمْ .

(٣٢) ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضِعِفُوا ﴾ مستفهمين لهم ومخبرين أن الجميع مشتركون في الجرم : ﴿ أَنْتُمْ صَدَدْتُمْ عَنْ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ ﴾ بقوتنا وقهرنا لكم ؟ ! ﴿ بَلْ كُنتُمْ تَجْرِمُونَ ﴾ مختارين للإجرام ، لستم مقهورين عليه ، وإن كنا قد زينا لكم ، فما كان لنا عليكم من سلطان .

(٣٣) ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضِعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ بل الذي دهانا منكم ، ووصل إلينا من إضلالكم ، ما دبتموه من المكر ، في الليل والنهار ﴿ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا ﴾ إذ تُحَسِّنُونَ لَنَا الْكُفْرَ ، وتدعوننا إليه وتقولون : إنه الحق ، وتقذحون في الحق وتهجنونه ، وتزعمون أنه الباطل ، فما زال مكركم بنا وكيدكم إيانا حتى أغويتمونا وفنتتمونا . فلم تغد تلك المراجعة بينهم شيئاً إلا تباري بعضهم من بعض ، والندامة العظيمة ، ولهذا قال : ﴿ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ ﴾ فندم كل منهم غاية الندم ، وتمنى أن لو كان على الحق ، وأنه ترك الباطل الذي أوصله إلى هذا العذاب ، سراً في أنفسهم ؛ لخوفهم من الفضيحة في إقرارهم علي أنفسهم ﴿ وَجَعَلْنَا الْأَعْغَلَ فِيْ أَغْنَايِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يغلون كما يغل المسجون الذي سيهان في سجنه ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ ﴾ في هذا العذاب والنكال ، وتلك الأعلال الثقال ﴿ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ من الكفر والفسوق والعصيان .

(٣٤) ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ ﴾ يخبر تعالى عن حالة الأمم الماضية المكذبة للرسل ،

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضِعِفُوا أَنْتُمْ صَدَدْتُمْ عَنْ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنتُمْ تَجْرِمُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضِعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْغَلَ فِيْ أَغْنَايِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا أَنْتُمْ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنْ رَزَقَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعِيفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَتْنَةً أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنْ رَزَقَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَيَقْدِرْ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾

أنها كحال هؤلاء الحاضرين المكذبين لرسولهم محمد ﷺ ﴿ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ وأن الله إذا أرسل رسولا في قرية من القرى ، كفر به مترفوها ، وأبطرتهم نعمتهم وفخروا بها .

(٣٥) ﴿ وَقَالُوا أَنْتُمْ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا ﴾ ممن اتبع الحق ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴾ أولاً : لسنا بمبعوثين ، فإن بعثنا ، فالذي أعطانا الأموال والأولاد في الدنيا ، سيعطينا أكثر من ذلك في الآخرة ولا يعذبنا .

(٣٦) ﴿ قُلْ إِنْ رَزَقَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ فأجابهم الله تعالى : بأن بسط الرزق وتضييقه ليس دليلاً على ما زعمتم ؛ فإن الرزق تحت مشيئة الله ، إن شاء بسطه لعبده ، وإن شاء ضيقه ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أنها كذلك .

اللذات، وأنواع المشتبهات، وآمنون من الخروج منها والحزن فيها.

(٣٨) ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ﴾ وأما الذين سعوا في آياتنا على وجه التعجيز لنا ولرسلنا والتكذيب، ﴿فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ جميعهم مجزيون بأعمالهم فيها بحسبهم.

(٣٩) ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَسْطُرُ الرَّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَكُمْ﴾ بحسب ما له في ذلك من الحكمة يسط على هذا من المال الكثير، ويضيق على هذا ويقتصر، وله في ذلك من الحكمة ما لا يدركها غيره ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ نفقة واجبة أو مستحبة، على قريب أو جار أو مسكين أو يتيم أو غير ذلك، ﴿فَهُوَ﴾ تعالى ﴿يُخْلِفُهُ﴾ فلا تتوهموا أن الإنفاق مما ينقص الرزق، بل وعد بالخلف للمنفق الذي يسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ فاطلبوا الرزق منه، واسعوا في الأسباب التي أكرمكم بها.

(٤٠) ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا﴾ العابدين لغير الله والمعبودين من دونه، من الملائكة ﴿ثُمَّ يَقُولُ﴾ الله ﴿لِلْمَلَائِكَةِ﴾ على وجه التوبيخ لمن عبدتهم: ﴿أَهَؤُلَاءِ إِنَّا كُنَّا أَكْبَرُ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ فتبرأوا من عبادتهم.

(٤١) ﴿وَقَالُوا سُبْحَنَكَ﴾ تنزيها لك وتقديساً، أن يكون لك شريك أو ند ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾ فنحن مفتقرون إلى ولايتك، مضطرون إليها، فكيف ندعو غيرنا إلى عبادتنا؟ أم كيف نصلح لأن نتخذ من دونك

وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِنَّا كُنَّا أَكْبَرُ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٣٨﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ قَالِيمٌ لَا يَمْلِكُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ شَيْعًا وَلَا ضَرًّا وَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ تَكْذِبُونَ ﴿٤٠﴾ وَإِذْ أَنْتَنَ عَلَيْهِمْ إِنَّا نَبْتَدِئُ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْ آيَاتِنَا فَأَبَاوَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرٍ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْحَرُومٌ ﴿٤١﴾ وَمَاءَ آتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٢﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَرَ مَا آتَيْنَهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِيْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرٌ ﴿٤٣﴾ قُلْ إِنَّمَا أَعْطِيَكُمْ بَرْدًا أَنْ تَقْرُوا اللَّهَ مَشْنَى وَفَرَدْنَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٤﴾ قُلْ مَا سَأَلَ كُمْ مِنْ أَجْرِ فَعُولِكُمْ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٥﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَتَذَقَّرُ بِالْحَقِّ عِلْمَ الْغُيُوبِ ﴿٤٦﴾

(٣٧) ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِآتِي تَقَرِّكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى﴾ وليست الأموال والأولاد بالتي تقرب إلى الله زلفى وتدني إليه ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ وإنما الذي يقرب منه زلفى الإيمان بما جاء به المرسلون، والعمل الصالح الذي هو من لوازم الإيمان ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ أَضْعَفُ بِمَا عَمِلُوا﴾ لهم الجزاء عند الله تعالى مضاعفاً، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة لا يعلمها إلا الله ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ في المنازل العاليات المرتفعات جداً ساكنين فيها مطمئنين، آمنون من المكدرات والمنغصات؛ لما هم فيه من

(٣٧) في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

العمر ﴿فَكَذَّبُوا﴾ أي: الأمم الذين من قبلهم ﴿رُسُلِي﴾ فكيف كان نكيرهم؟ أي: إنكارهم عليهم، وعقوبتي إياهم، قد علمنا ما فعل بهم من النكال، وأن منهم من أغرقه، ومنهم من أهلكه بالريح العقيم، وبالصبحة، وبالرجفة، وغير ذلك فاحذروا يا هؤلاء المكذبون: أن تدوموا على التكذيب، فيأخذكم كما أخذ من قبلكم ويصيبكم ما أصابهم.

(٤٦) ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول لهؤلاء المكذبين: ﴿إِنَّمَا أَعْطَاكُمْ بِوَاحِدَةٍ﴾ بخصلة واحدة، أشير عليكم بها، وأنصح لكم في سلوكها: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ مِثْلِي وَفُرْدَيَّ﴾ تنهضوا بهمة ونشاط وقصد لاتباع الصواب وإخلاص لله ﴿مِثْلِي﴾ مجتمعين، ومتباحثين في ذلك، ومتناظرين، ﴿وَفُرْدَيَّ﴾ كل واحد يخاطب نفسه بذلك ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ فإذا قمتم لله مثني وفرداي، استعملتم فكركم وأجلتموه، وتدبرتم أحوال رسولكم، هل هو مجنون فيه صفات المجانين من كلامه وهيئته وصفته؟ أم هو نبي صادق منذر لكم ما يضركم مما أمامكم من العذاب الشديد؟

(٤٧) ﴿قُلْ﴾ يا محمد لقومك المكذبين: ﴿مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ على اتباعكم للحق ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ فأشهدكم أن ذلك الأجر - على التقدير - أنه لكم ﴿إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ ما ثوابي على دعائكم إلى الإيمان باللّهن والعمل بطاعته، العمل بطاعته إلا على الله ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ محيط علمه بما أدعو إليه، فلو كنت كاذباً؛ لأخذني بعقوبته، وشهيد - أيضاً - على أعمالكم سيحفظها عليكم، ثم يجازيكم بها.

(٤٨) ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أخبر تعالى أن هذه

أولياء وشركاء؟ ولكن هؤلاء المشركون ﴿كَانُوا يَعْبُدُونَ آلِهَةً﴾ الشياطين، يأمرون بعبادتنا أو عبادة غيرنا، فيطيعونهم بذلك ﴿أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ مصدقون للجن، منقادون لهم.

(٤٩) ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ تقطعت بينكم الأسباب، وانقطع بعضكم من بعض ﴿وَقُولُوا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالكفر والمعاصي: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ فالיום عاينتموها ودخلتموها، جزاء لتكذبيكم، وعقوبة لما أحدثه ذلك التكذيب من عدم الهرب من أسبابها.

(٥٠) ﴿وَإِذَا نُنَالُ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا﴾ وإذا تتلى على هؤلاء المشركين آيات كتابنا ﴿يَسْتَنَبِئُ﴾ أي: واضحات أنهن حق من عندنا ﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ﴾ هذا قصده حين يأمركم بالإخلاص لله؛ لتركوا عوائد آبائكم، الذين تعظمون وتمشون خلفهم ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِنْكَارٌ مِمَّا كُنْتُمْ تَكْذِبُونَ﴾ افتراه هذا الرجل الذي جاء به ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ سحر ظاهر بين لكل أحد، تكذيباً بالحق، وترويجاً على السفهاء.

(٥١) ﴿وَمَا ءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ حتى تكون عمدة لهم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ حتى يكون عندهم من أقواله وأحواله ما يدفعون به ما جتته به، فليس عندهم علم، ولا إثارة من علم.

(٥٢) ثم خوفهم ما فعل بالأمم المكذبين قبلهم، فقال: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا﴾ ما بلغ هؤلاء المخاطبون ﴿مَعَشَارَ﴾ عشر ﴿مَا ءَاتَيْنَاهُمْ﴾ أي: أعطينا الأمم الخالية من القوة والنعمة وطول

للا أقوال والأصوات كلها ﴿قَرِيبٌ﴾ ممن دعا
وسأله وعنده .

(٥١) ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ أيها الرسول حال هؤلاء
المكذبين ﴿إِذْ فَرَعُوا﴾ حين رأوا العذاب ﴿فَلَا
قُوَّةَ﴾ فليس لهم عنه مهرب ولا فوت ﴿وَأُخْذُوا
مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ ليس بعيداً عن محل العذاب، بل
يؤخذون، ثم يقذفون في النار .

(٥٢) ﴿وَقَالُوا﴾ في تلك الحال : ﴿ءَأَمَّنَّا﴾ بالله
وصدقنا ما به كذبنا ﴿وَلَكِنْ﴾ لكن ﴿أَتَنَّاوَأُ﴾
تناول الإيمان ﴿مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ قد حيل بينهم
وبينه، وصار من الأمور المحالة في هذه الحالة،
فلو أنهم آمنوا وقت الإمكان لكان إيمانهم مقبولاً .

(٥٣) ﴿وَقَدْ﴾ أي : ولكنهم ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ من
قَبْلُ ﴿وَيَقْدِفُونَ﴾ يرمون ﴿بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾
بقذفهم الباطل ؛ ليدحضوا به الحق، ولكن لا سبيل

إلى ذلك، كما لا سبيل للرامي من مكان بعيد إلى
إصابة الغرض، فكذلك الباطل، من المحال أن
يغلب الحق أو يدفعه، وإنما يكون له صولة وقت
غفلة الحق عنه، فإذا برز الحق وقاوم الباطل قمعه .

(٥٤) ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من الشهوات
واللذات والأولاد والأموال ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ
مِنْ قَبْلُ﴾ من الأمم السابقين حين جاءهم الهلاك
حيل بينهم وبين ما يشتهون ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ
مُرِيبٍ﴾ محدث الريبة وقلق القلب، فلذلك لم
يؤمنوا، ولم يعتبروا حين استعتبوا .

سورة فاطر وهي مكية

(١) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يمدح الله
تعالى نفسه الكريمة المقدسة على خلقه
السموات والأرض، وما اشتملتا عليه من



سنته وعادته أن يقذف بالحق ؛ لأنه بين من الحق في
هذا الموضع، ورد به أقوال المكذبين، ما كان عبرة
للمعتبرين، وآية للمتأملين ﴿عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ الذي
يعلم ما تنطوي عليه القلوب من الوسوس والشبه،
ويعلم ما يقابل ذلك ويدفعه من الحجج .

(٤٩) ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ ظهر وبان، وصار بمنزلة
الشمس، وظهر سلطانه ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا
يُعِيدُ﴾ اضمحل وبطل أمره، وذهب سلطانه، فلا
يبدئ ولا يعيد .

(٥٠) ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى
نَفْسِي﴾ وأنه إن ضل فإنما يضل على نفسه، ضلاله
قاصر على نفسه غير متعد إلى غيره ﴿وَإِنْ أَهْتَدَيْتُ﴾
فليس ذلك من نفسي وحولي وقوتي ﴿فِيمَا﴾ إنما
هدايتي بما ﴿يُوحَىٰ إِلَىٰ رَوْفٍ﴾ فهو مادة هدايتي ؛
كما هو مادة هداية غيري ﴿إِنَّهُ﴾ إن ربي ﴿سَمِيعٌ﴾

وَأَن يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْفُرُورُ ﴿٢﴾ إِن الشَّيْطَانَ لَكَاغِدٌ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حَزْبَهُ لِيَكُونُوا مِن أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٣﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٤﴾ أَفَمَن زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِن لَّمْ يَضِلِّ مِن بَشَاءٍ وَهْدَى مِن بَشَاءٍ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٥﴾ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتَنُ رِعَابًا فَسَفَنتَهُ إِلَى بِلَدٍ مَّيِّتَةٍ فَأَخْبَيْنَاهُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ الشُّعُورُ ﴿٦﴾ مَن كَانَ يَرْيِدُ الْغَزَا فَلِلَّهِ الْغَزَا جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُورَثُ ﴿٧﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مَن نُّطْفَعُ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٨﴾

٤٣٥

السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴿١﴾ ولما كان من المعلوم أنه ليس أحد يخلق ويرزق إلا الله؛ نتج من ذلك أن كان ذلك دليلاً على ألوهيته وعبوديته، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَن تُوَفَّقُوا﴾ أي: تصرفون عن عبادة الخالق الرازق لعبادة المخلوق المرزوق؟! ﴿٢﴾

﴿٤﴾ وَإِن يَكْذِبُوكَ ﴿١﴾ يا أيها الرسول، فلك أسوة بمن قبلك من المرسلين ﴿فَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِن قَبْلِكَ﴾ فأهلك المكذبون، ونجى الله الرسل وأتباعهم ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ وسنجزئهم على ذلك أوفر الجزاء.

﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن وَعْدَ اللَّهِ ﴿١﴾ بالبعث والجزاء على الأعمال ﴿حَقٌّ﴾ لا شك فيه، ولا مرية

المخلوقات؛ لأن ذلك دليل على كمال قدرته، وسعة ملكه، وعموم رحمته، وبيد حكمته، وإحاطة علمه ﴿جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا﴾ في تدبير أوامره القدرية، ووسائط بينه وبين خلقه، في تبليغ أوامره الدينية ﴿أُولَىٰ أَجَحَةٍ﴾ تطير بها، فتسرع بتنفيذ ما أمرت به ﴿مَتَىٰ وَتِلْكَ وَرَيْعٌ﴾ منهم من له جناحان وثلاثة وأربعة، بحسب ما اقتضته حكمته ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ يزيد بعض مخلوقاته على بعض: في صفة خلقها، وفي القوة، وفي الحسن ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فقدرته تعالى تأتي على ما يشاؤه، ولا يستعصي عليها شيء، ومن ذلك: زيادة مخلوقاته بعضها على بعض.

﴿٢﴾ ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ من رحمته عنهم ﴿وَمَا يُنْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ﴾ فهذا يوجب التعلق بالله تعالى، والافتقار إليه من جميع الوجوه، وأن لا يدعى إلا هو، ولا يخاف ويرجى إلا هو ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي قهر الأشياء كلها ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها.

﴿٣﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ يأمر تعالى جميع الناس أن يذكروا نعمته عليهم، وهذا شامل لذكرها بالقلب اعترافاً، وباللسان ثناء، وبالجوارح انقياداً، فإن ذكر نعمه تعالى داع لشكره.

ثم نبههم على أصول النعم، وهي الخلق والرزق، فقال: ﴿هَلْ مِن خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّن

(٢) في «الصحيحين»: أن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه كتب إلى المغيرة بن شعبة: اكتب لي بما سمعت من رسول الله ﷺ: فكتب إليه: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا انصرف من الصلاة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد».

يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ ﴿٦﴾ على الضالين الذين زين لهم سوء أعمالهم، وصدّهم الشيطان عن الحق ﴿حَصَرَتْ﴾ فلا تأسف على ذلك، فليس عليك إلا البلاغ، وليس عليك من هداهم شيء، والله هو الذي يجازيهم بأعمالهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

(٩) ثم أخبر تعالى عن صنعه لتعتبروا، فقال: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتَنِيْرَ سَعَابًا فَسَفَنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَّتَنٍ﴾ فأنزله الله عليها ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فحييت البلاد والعباد، وارتزقت الحيوانات، ورتعت في تلك الخيرات ﴿كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ أي: الذي أحيا الأرض بعد موتها، ينشر الأموات من قبورهم.

(١٠) ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ يا من يريد العزة، اطلبها ممن هي بيده، فإن العزة بيد الله، ولا تنال إلا بطاعته، وقد ذكرها بقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ من قراءة وتسبيح وتحميد وتهليل وكل كلام حسن طيب، فيرفع إلى الله ويعرض عليه، ويثني الله على صاحبه بين الملائكة الأعلى ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ﴾ من أعمال القلوب وأعمال الجوارح ﴿يَرْفَعُهُ﴾ الله تعالى إليه - أيضاً - . كالكلم الطيب. وأما السيئات؛ فإنها بالعكس يريد صاحبها الرفعة بها، ويمكر ويكيد ويعود ذلك

﴿فَلَا تَعَزَّزْكُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾ بلذاتها وشهواتها ومطالبها النفسية، فتلهيكم عما خلقتكم له ﴿وَلَا يَعْزَّزْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ الشيطان .

(٦) ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ الذي هو عدوكم في الحقيقة ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ لتكن منكم عداوته على بال، ولا تهملوا محاربته كل وقت، فإنه يراكم وأنتم لا ترونه، وهو دائماً لكم بالمرصاد ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ هذا غايته ومقصوده ممن تبعه: أن يهان غاية الإهانة بالعذاب الشديد.

(٧) ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ جحدوا ما جاءت به الرسل، ودلت عليه الكتب ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في نار جهنم، شديد في ذاته ووصفه، وأنهم خالدون فيها أبداً ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بقلوبهم، بما دعا الله إلى الإيمان به ﴿وَعَمِلُوا﴾ بمقتضى ذلك الإيمان بجوارحهم الأعمال ﴿الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم، يزول بها عنهم الشر والمكروه ﴿وَأُخْرَى كَثِيرٌ﴾ يحصل به المطلوب.

(٨) ﴿فَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ﴾ عمله السيئ القبيح؛ زينه له الشيطان، وحسنه في عينه ﴿فَرَّاهُ حَسَنًا﴾ كمن هداه الله إلى الصراط المستقيم والدين القويم، فهل يستوي هذا وهذا؟

ولكن الهداية والإضلال بيد الله تعالى ﴿فَإِنَّ اللَّهَ

(٨) أخرج الترمذي أحمد الحاكم والطبراني في «مسند الشاميين» والآجري في «الشریعة» وابن أبي حاتم - واللفظ له - من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه الصحيح قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من نوره يومئذ فقد اهتدى، ومن أخطأه منه ضل، فذلك أقول: جف القلم على ما علم الله ﷻ».

(١٠) أخرج ابن ماجه والإمام أحمد بإسناد صحيح عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الذين يذكرون من جلال الله من تسبيحه وتكبيره وتحميده وتهليله، يتعاطفن حول العرش لهن دوي كدوي النحل؛ يُذَكِّرْنَ بصاحبهن، ألا يحب أحدكم ألا يزال له عند الله شيء يذكر به».

عليه، ولا يزداد إلا إهانة ونزولاً، ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ يهانون فيه غاية الإهانة ﴿وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْزَرُ﴾ يهلك ويضمحل، ولا يفيدهم شيئاً؛ لأنه مكر بالباطل لأجل الباطل.

(١١) ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ يذكر تعالى خلقه الآدمي، وتنقله في هذه الأطوار: من تراب إلى نطفة وما بعدها ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ لم يزل ينقلكم طوراً بعد طور حتى أوصلكم إلى أن كنتم أزواجاً، ذكرًا يتزوج أنثى، ويراد بالزواج الذرية والأولاد، فهو وإن كان النكاح من الأسباب فيه، فإنه مقترن بقضاء الله وقدره وعلمه ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ وكذلك أطوار الآدمي كلها بعلمه وقضائه ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ﴾ لا يطول عمره ﴿وَلَا يُقْصِرُ مِنْ عُمرِهِ﴾ يعني: من عمر آخر، والذي سلك مسلماً من أسباب قصر العمر؛ كالزنا، وعقوق الوالدين، وقطيعة الأرحام، ونحو ذلك مما ذكر أنها من أسباب قصر العمر.

والمعنى: أن طول العمر وقصره بسبب وبغير سبب كله بعلمه تعالى ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ أثبت ذلك في كتاب حوى ما يجري على العبد في جميع أوقاته وأيام حياته ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ سهلاً هيناً.

(١٢) ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ هذا إخبار عن قدرته وحكمته ورحمته: أنه جعل البحرين لمصالح العالم الأرضي كلهم، وأنه لم يسو بينهما؛ لأن المصلحة تقتضي أن تكون الأنهار عذبة فراتاً، سائغاً شرابها؛ لينتفع بها الشاربون



والغارسون والزارعون، وأن يكون البحر ملحاً أجاجاً؛ لئلا يفسد الهواء المحيط بالأرض بروائح ما يموت في البحر من الحيوانات، ولأنه ساكن لا يجري، فملوحته تمنعه من التغير، ولتكون حيواناته أحسن وألذ ﴿وَمِنْ كُلِّ مِنَ الْبَحْرِ الْمِلْحِ وَالْعَذْبِ﴾ تأكلون لحماً طرياً وهو السمك المتيسر صيده في البحر ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ من لؤلؤ ومرجان وغيرهما، مما يوجد في البحر، فهذه مصالح عظيمة للعباد.

﴿وَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَازٍ﴾ ومن المصالح والمنافع في البحر: أن سخره الله تعالى يحمل الفلك من السفن والمراكب، فتراها تتمر البحر وتشقه، فتسلك من إقليم إلى إقليم آخر، ومن محل إلى محل، فتحمل السائرين وأثقالهم وتجاراتهم،

يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۖ يَتَّبِعُونَ مِنْكُمْ ۖ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ۖ لَا أَحَدٌ يَنْبِئُكَ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ الْعَلِيمِ الْخَبِيرِ، فاجزم بأن هذا الأمر الذي نبأ به كأنه رأي عين، فلا تشك فيه ولا تتمر.

(١٥) ﴿يَتَّبِعُهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ يخاطب تعالى جميع الناس، ويخبرهم بحالهم ووصفهم، وأنهم فقراء إلى الله من جميع الوجوه ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ الذي له الغنى التام من جميع الوجوه، فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه خلقه، ولا يفتقر إلى شيء مما يفتقر إليه الخلق ﴿الْحَمِيدُ﴾ في جميع ما يفعله ويقول به ويقدره ويشعره؛ وذلك لكمال صفاته، وكونها كلها صفات كمال ونعوت جلال.

(١٦) ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بغيركم من الناس، أطوع لله منكم، ويكون في هذا تهديد لهم بالهلاك والإبادة، وأن مشيئته غير قاصرة عن ذلك؛ ولهذا قال:

(١٧) ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ بممتنع، ولا معجز له.

(١٨) ﴿وَلَا تُزْرُ وَأُزِدُ وَذَرْتُ أُخْرَى﴾ في يوم القيامة كل أحد يجازى بعمله، ولا يحمل أحد ذنب أحد ﴿وَلَنْ تَدْعُ مُمْغِلَةٌ﴾ نفس مثقلة بالخطايا والذنوب تستغيث بمن يحمل عنها بعض أوزارها ﴿لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ فإنه لا يحمل عن قريب، ولو على والديه وأقاربه ﴿إِنَّمَا نُنْذِرُ﴾ يا محمد ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ الذين يخافون عقاب الله يوم القيامة من غير معاينة منهم لذلك، ولكن لإيمانهم بما أتيتهم به، ينفعهم إنذارك، ويتعظون بمواعظك ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾

فيحصل بذلك من فضل الله وإحسانه شيء كثير، ولهذا قال: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: بالتجارة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على نعمه.

(١٣) ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ ومن ذلك إيلاجه تعالى الليل بالنهار، والنهار بالليل، يدخل هذا على هذا، وهذا على هذا، كلما أتى أحدهما ذهب الآخر، ويزيد أحدهما وينقص الآخر، ويتساويان، فيقوم بذلك ما يقوم من مصالح العباد في أبدانهم وحيواناتهم وأشجارهم وزروعهم ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ وكذلك ما جعل الله في تسخير الشمس والقمر، والضياء والنور، والحركة والسكون، وانتشار العباد في طلب فضله، وما فيهما من تنضيج الثمار وتجفيف ما يجفف، وغير ذلك مما هو من الضروريات التي لو فقدت للحق الناس الضرر ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ كل من الشمس والقمر يسيران في فلكهما ما شاء الله أن يسيرا، فإذا جاء الأجل، وقرب انقضاء الدنيا، انقطع سيرهما، وتعطل سلطانهما ﴿ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ الذي انفرد بخلق هذه المذكورات وتسخيرها هو الرب المألوه المعبود ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ أي: الذي له الملك كله ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ من الأوثان والأصنام ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ فِطْمِيرٍ﴾ وهو: اللقافة التي تكون على نواة التمرة.

(١٤) ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ﴾ إن تدعو الأصنام ﴿لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ لا يسمعونكم؛ لأنهم ما بين جماد وأموات، وملائكة مشغولين بطاعة ربهم ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾ على وجه الفرض والتقدير ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ لأنهم لا يملكون شيئا، ولا يرضى أكثرهم بعبادة من عبده ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾

وأدوا الصلاة المفروضة، بحدودها وشروطها وأركانها وواجباتها وخشوعها.

﴿وَمَنْ تَزَكَّى﴾ ومن زكى نفسه بالتنقي من العيوب، كالرياء والكبر، والكذب والغش، والمكر والخداع والنفاق، ونحو ذلك من الأخلاق الرذيلة، وتحلى بالأخلاق الجميلة، من الصدق، والإخلاص، والتواضع، ولين الجانب، والنصح للعباد، وسلامة الصدر من الحقد والحسد وغيرهما من مساوئ الأخلاق ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ فإن تزكيته يعود نفعها إليه، ويصل مقصودها إليه، ليس يضيع من عمله شيء ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ فيجازي الخلائق على ما أسلفوه، ويحاسبهم على ما قدموه وعملوه، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

(١٩) ثم ضرب الله مثلاً للمؤمن والكافر، فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى﴾ فاقد البصر ﴿وَالْبَصِيرُ﴾ فشبّه الكافر بالاعمى، وشبه المؤمن بالبصير.

(٢٠) ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ﴾ ظلمات الليل ﴿وَلَا النُّورُ﴾ ضياء النهار، وشبه الباطل بالظلمات، وشبه الحق بالنور.

(٢١) ﴿وَلَا الظُّلُ﴾ الفياء وبرودة الجو ﴿وَلَا الْحَرُّ﴾ الريح الحارة مع الشمس، يعني الجنة والنار، وقيل: الثواب والعقاب.

(٢٢) ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ ولا أحياء القلوب وأمواتها. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَنْ يَشَاءُ﴾ سماع فهم وقبول؛ لأنه تعالى هو الهادي الموفق ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ أموات القلوب، أو كما أن دعاءك لا يفيد سكان القبور شيئاً، كذلك لا يفيد المعرض المعاند شيئاً، ولكن وظيفتك النذارة، وإبلاغ ما أرسلت به؛ ولهذا قال:

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿وَلَا الظُّلُ وَلَا الْحَرُّ﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَنْ يَشَاءُ﴾ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿فَمَا أَخَذْتَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فَكَيْفَ كَانَتْ تَكْبِيرُ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَخِيلًا أَلْوْنًا وَمِنْ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهَا وَعَرَبِيٌّ سُودٌ ﴿وَمِنْ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ﴾ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَارَةً لَّنْ تَبُورَ﴾ ﴿لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٤٧﴾

(٢٣) ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أي: إنما عليك البلاغ والإنذار، تخوفهم بالنار.

(٢٤) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ ما بعثناك به من الدين القويم والصراط المستقيم حق لا باطل، وكذلك ما أرسلناك به من هذا القرآن العظيم وما اشتمل عليه من الذكر الحكيم حق وصدق ﴿بَشِيرًا﴾ لمن أطاعك بثواب الله العاجل والآجل، ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن عصاك بعقاب الله العاجل والآجل ولست ببدع من الرسل ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ﴾ من الأمم الماضية والقرون الخالية ﴿إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ يقيم عليهم حجة الله.

(٢٥) ﴿وَإِنْ يَكْذِبُوكَ﴾ وإن يكذبك أيها الرسول هؤلاء المشركون؛ فلست أول رسول كذب ﴿فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الدالات على الحق، وعلى صدقهم

أَلَوْنُهُ كَذَلِكَ ﴿٢٦﴾ ومن ذلك: الناس والدواب والأنعام فيها من اختلاف الألوان والأوصاف والأصوات والهيئات، ما هو مرئي بالأبصار، مشهود للنظار، والكل من أصل واحد ومادة واحدة، وإنما ينتفع بها من يخشى الله تعالى، ويعلم بفكره الصائب وجه الحكمة فيها، ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فكل من كان بالله أعلم، كان أكثر له خشية، وأوجب له خشية الله الانكفاف عن المعاصي، والاستعداد للقاء من يخشاه ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ كامل العزة، ومن عزته: خلق هذه المخلوقات المتضادات ﴿عَفْوٌ﴾ لذنوب التائبين.

(٢٩) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ يتبعونه في أوامره فيمثلونها، وفي نواهيه فيتركونها، وفي أخباره فيصدقونها ويعتقدونها، ولا يقدمون عليه ما خالفه من الأقوال، ويتلون أيضاً ألفاظه بدراسته، ومعانيه بتتبعها واستخراجها ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ ثم خص من التلاوة، بعد ما عم، الصلاة التي هي عماد الدين، ونور المسلمين، وميزان الإيمان، وعلامة صدق الإسلام، والنفقة على الأقارب والمساكين واليتامى وغيرهم من الزكاة والكفارات والنذور والصدقات ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ في جميع الأوقات ﴿يَرْجُونَ﴾ بذلك ﴿بِحِرَّةٍ لَّنْ تَكُونُ﴾ لن تكسد وتفسد، بل تجارة هي أجل التجارات وأعلاها وأفضلها، ألا وهي: رضا ربهم، والفوز بجزيل ثوابه، والنجاة من سخطه وعقابه.

فيما أخبروهم به ﴿وَيَا زَيْدُ﴾ الكتب المكتوبة، المجموع فيها كثير من الأحكام ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ المضيء في أخباره الصادقة، وأحكامه العادلة، فلم يكن تكذيبهم إياهم ناشئاً عن اشتباه، أو قصور بما جاءتهم به الرسل، بل بسبب ظلمهم وعنادهم.

(٢٦) ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بأنواع العقوبات ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ عليهم؟ كان أشد النكير وأعظم التنكيل، فإياكم وتكذيب هذا الرسول الكريم، فيصيبكم كما أصاب أولئك من العذاب الأليم والخزي الوخيم.

(٢٧) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ يذكر تعالى خلقه للأشياء المتضادات، التي أصلها واحد، ومادتها واحدة، وفيها من التفاوت والفرق ما هو مشاهد معروف؛ ليدل العباد على كمال قدرته وبديع حكمته فمن ذلك: أن الله تعالى أنزل من السماء ماء، فأخرج به من الثمرات المختلفات، والنباتات المتنوعات، ما هو مشاهد للناظرين، والماء واحد، والأرض واحدة ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ ومن ذلك: الجبال التي جعلها الله أوتاداً للأرض، تجدها جبلاً مشتبكاً، بل جبلاً واحداً، وفيها ألوان متعددة، فيها جدد بيض؛ أي: طرائق بيض، وفيها طرائق صفر وحمرة، وفيها غرابيب سود؛ أي: شديدة السواد جداً.

(٢٨) ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ

(٢٨) في «الصحيحين» من حديث عائشة رضي الله عنها: صنع رسول الله ﷺ شيئاً؛ فرخص فيه، فتنزه عنه قوم. فبلغ ذلك النبي ﷺ فخطب فحمد الله ثم قال: «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه، فوالله إني لأعملهم بالله، وأشدهم له خشية».

(٣٠) ﴿لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ﴾ أجور أعمالهم، على حسب قلتها وكثرتها، وحسنها وعدمه ﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ زيادة عن أجورهم ﴿إِنَّهُ عَفُورٌ﴾ غفر لهم السيئات، ﴿شَكُورٌ﴾ وقبل منهم القليل من الحسنات.

(٣١) ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ يذكر تعالى أن الكتاب الذي أوحاه إلى رسوله ﴿هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب والرسول؛ لأنها أخبرت به، فلما وجد وظهر، ظهر به صدقها؛ فهي بشرت به وأخبرت، وهو صدقها. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ فيعطي كل أمة وكل شخص، ما هو اللائق بحاله؛ ومن ذلك: أن الشرائع السابقة لا تليق إلا بوقتها وزمانها، ولهذا ما زال الله يرسل الرسل رسولا بعد رسول، حتى ختمهم بمحمد ﷺ، فجاء بهذا الشرع الذي يصلح لمصالح الخلق إلى يوم القيامة، ويتكفل بما هو الخير في كل وقت.

(٣٢) ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾ المهيمن على سائر الكتب، وهو القرآن الكريم ﴿الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم هذه الأمة ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ بالمعاصي التي هي دون الكفر ﴿وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ مقتصر على ما يجب عليه، تارك للمحرم ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ سارع فيها واجتهد، فسبق غيره، وهو المؤدي

وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِنَّ اللَّهَ ذَلِكُ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلِّتُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَعْطَانَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَنُوتُهُمْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَاثِرٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبِّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾

للفرائض، المكثر من النوافل، التارك للمحرم والمكروه ﴿يَاذُنِ اللَّهِ﴾ راجع إلى السابق إلى الخيرات؛ لئلا يغتر بعمله، بل ما سبق إلى الخيرات إلا بتوفيق الله تعالى ومعونته، فينبغي له أن يشتغل بشكر الله تعالى على ما أنعم به عليه ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ وراثته الكتاب الجليل لمن اصطفى تعالى من عباده هو الفضل الكبير الذي جميع النعم بالنسبة إليه كالعدم، فأجل النعم على الإطلاق وأكبر الفضل وراثته هذا الكتاب.

(٣٢) أخرج الترمذي وأحمد بإسناد صحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال في هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ قال: «هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة، وكلهم في الجنة»، قال أبو أسامة الهلالي - عفا الله عنه - قال الإمام الحافظ ابن كثير في تفسيره: «ومعنى قوله: «بمنزلة واحدة» أي: في أنهم من هذه الامة، وأنهم من أهل الجنة، وإن كان بينهم فرق في المنازل في الجنة.

رسلهم من الآيات، وأنكروا لقاء ربهم ﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ يعذبون فيها أشد العذاب، وأبلغ العقاب ﴿لَا يُقْصَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بالموت ﴿فَيَمُوتُوا﴾ فيستريحوا ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ فشدّة العذاب وعظمه مستمر عليهم في جميع الآنات واللحظات ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ هذا جزاء كل من كفر بربه وكذب الحق.

(٣٧) ﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا﴾ يصرخون ويتصايحون ويستغيثون ويقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ فاعترفوا بذنبيهم، وعرفوا أن الله عدل فيهم، ولكن سألوا الرجعة في غير وقتها، فيقال لهم: ﴿أَوَلَمْ نُنَعِّمْكُمْ مَّا دَهْرًا وَعَمْرًا مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرُ﴾ يتمكن فيه من أراد التذكر من العمل ﴿وَحَآءَكُمْ النَّذِيرُ﴾ يعني به رسول الله ﷺ؛ فاحتج عليهم بالعمر والرسول ﴿فَذُوقُوا مَآ لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ ينصروهم فيخرجهم منها، أو يخفف عنهم من عذابها.

(٣٨) ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أخبر تعالى عن سعة علمه واطلاعه على غيب السماوات والأرض، التي غابت عن أبصار الخلق وعن علمهم ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ عالم

(٣٣) ثم ذكر جزاء الذين أورتهم كتابه، فقال: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ فجنات عدن جنات إقامة؛ أضافها للإقامة، لأن الإقامة والخلود وصفها ووصف أهلها ﴿يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِدَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ وهو الحلبي الذي يجعل في اليدين، على ما يحبون، ويرون أنه أحسن من غيره، الرجال والنساء في الحلية في الجنة سواء ﴿وَيُحَلَّونَ فِيهَا﴾ يخلون فيها ﴿لَوْلُؤُا﴾ ينظم في ثيابهم وأجسادهم ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ من سندس، ومن إستبرق أخضر.

(٣٤) ﴿وَيُحَلَّونَ فِيهَا﴾ لما تم نعيمهم، وكملت لذتهم ﴿فَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ وهذا يشمل كل حزن ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ حيث غفر لنا الزلات ﴿شُكُورٌ﴾ حيث قبل منا الحسنات وضاعفها، وأعطانا من فضله ما لم تبلغه أعمالنا ولا أمانينا.

(٣٥) ﴿الَّذِي أَطْلَعَنَا﴾ أنزلنا نزول حلول واستقرار، لا نزول معبر واعتبار ﴿دَارَ الْمَقَامَةِ﴾ الدار التي تدوم فيها الإقامة، وذلك الإحلال ﴿وَمِنْ فَضْلِهِ﴾ علينا وكرمه، لا بأعمالنا، فلولا فضله لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ لا تعب في الأبدان ولا في القلب والقوى، ولا في كثرة التمتع.

(٣٦) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ جحدوا ما جاءتهم به

(٣٣) في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «تبلغ الحلية في المؤمن حيث يبلغ الوضوء».

(٣٥) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ؛ قال: «لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله تعالى برحمة منه وفضل».

(٣٦) في صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ؛ قال: «أما أهل النار الذين هم أهلها، فلا يموتون فيها، ولا يحيون».

(٣٧) أخرج أحمد وابن أبي حاتم والبخاري - واللفظ له - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه الصحيح لغيره عن النبي ﷺ، قال: «العمر الذي أعذر الله تعالى فيه إلى ابن آدم ستون سنة» يعني: ﴿أَوَلَمْ نُنَعِّمْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرُ﴾.

بالسرائر وما تنطوي عليه الصدور من الخير والشر والزكاء وغيره، فيعطي كلا ما يستحقه، وينزل كل أحد منزلته.

(٣٩) ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ خَلْفَ فِي الْأَرْضِ﴾ يجعل بعضهم يخلف بعضاً في الأرض، ويرسل لكل أمة من الأمم النذر، فينظر كيف يعملون ﴿فَمَنْ كَفَرَ﴾ بما جاءت به رسله، ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ فإن كفره عليه، وعليه إثمه وعقوبته، ولا يحمل عنه أحد ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ ولا يزداد الكافر بكفره إلا مقت ربه له وبغضه إياه ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ يخسرون أنفسهم وأهلهم وأعمالهم ومنازلهم في الجنة.

(٤٠) ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول لهم: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني عن شركائكم ﴿الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ هل هم مستحقون للدعاء والعبادة، ف﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ هل خلقوا بحراً، أم خلقوا جبلاً، أو خلقوا حيواناً، أو خلقوا جماداً؟ سيقرون أن الخالق لجميع الأشياء هو الله تعالى ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ أم لشركائكم شراكة ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ في خلقها وتديرها؟ سيقولون: ليس لهم شراكة ﴿أَمْ عَائِنتُهُمْ كِتَابًا﴾ يتكلم بما كانوا به يشركون، يأمرهم بالشرك وعبادة الأوثان ﴿لَهُمْ﴾ في شركهم ﴿عَلَى بَيْنَتٍ مِّنْهُ﴾ من ذلك الكتاب الذي نزل عليهم في صحة

الشرك؟ ليس الأمر كذلك؛ فإنهم ما نزل عليهم كتاب قبل القرآن، ولا جاءهم نذير قبل رسول الله محمد ﷺ ﴿بَلْ لِّئِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ بل إنما اتبعوا في ذلك أهواءهم وآراءهم وأمانيتهم التي تمنوها لأنفسهم وهي غرور وباطل وزور.

(٤١) ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمِصُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ يخبر تعالى عن كمال قدرته وتمام رحمته وسعة حلمه ومغفرته، وأنه تعالى يمسك السماوات والأرض عن الزوال ﴿وَلَكِنْ زَالَتَا إِنْ

(٤١) أخرج الطبري بإسناد صحيح عن أبي وائل قال: جاء رجل إلى عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فقال: من أين جئت؟ قال: من الشام. قال: من لقيت؟ قال: لقيت كعباً، قال: ما حدثك؟ قال: حدثني أن السماوات تدور على منكب ملك. قال: فصدقته أو كذبت. قال: ما صدقته ولا كذبت، قال: «لوددت أنك افدتني من رحلتك إليه براحتك ورحلها، كذب كعب، إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمِصُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَكِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ لَمَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ﴾». قال أبو أسامة الهلالي - عفا الله عنه - كعب هو كعب الأحبار، وقول ابن مسعود: كذب؛ أي: أخطأ. والله أعلم.

﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ وزيادة ضلال وبغي وعناد.
 (٤٣) ﴿أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ وليس إقسامهم المذكور لقصد حسن وطلب للحق، وإلا لوفقوا له، ولكنه صادر عن استكبار في الأرض على الخلق وعلى الحق، وبهجة في كلامهم هذا، يريدون به المكر والخداع، وأنهم أهل الحق الحريصون على طلبه، فيغتر به المغترون، ويمشي خلفهم المقتدون ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ﴾ الذي مقصوده مقصود سيئ، وماله وما يرمي إليه سيئ باطل ﴿إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ فمكرهم إنما يعود عليهم ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ فلم يبق لهم إلا انتظار ما يحل بهم من العذاب، الذي هو سنة الله في الأولين، التي لا تبدل ولا تغير، أن كل من سار في الظلم والعناد والاستكبار على العباد، أن يحل به نقمته، وتسلب عنه نعمته؛ فَلْيَتَرَقَّبْ هَؤُلَاءِ ما فعل بأولئك.

(٤٤) ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يحض تعالى على السير في الأرض بالقلوب والأبدان للاعتبار، لا لمجرد النظر والغفلة ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وأن ينظروا إلى عاقبة الذين من قبلهم ممن كذبوا الرسل ﴿وَكَانُوا أَشَدَّ مِّنْهُمْ قُوَّةً﴾ وبطشًا، لن يتعذر عليه أن يفعل بهم مثل الذي فعل بأولئك من تعجيل النقمة، والعذاب لهم، فلما جاءهم العذاب لم تنفعهم قوتهم، ونفذت فيهم قدرة الله ومشيبته ﴿وَمَا كَانَتْ لَإِلَهِهِمْ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ لكمال علمه وقدرته ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا﴾ بجميع الكائنات

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا صِرَاطًا وَذَابَتْ وَكُنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَيَأْخِذَهُمْ فَإِنَّمَا اللَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٥٥﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ ١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ٣ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٤ نَزِيلِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ٦ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَنْفُسِهِمْ غَمَلًا لَا يَفْهَمُونَ إِلَى الْآدَاءِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ ٨ وَجَعَلْنَا مِثْلَ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ٩ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ١١ إِنَّا نَعْنُ فِي السَّمَوَاتِ وَنَكُتُبُ مَا قَالُوا وَمَا أُنذِرُهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ١٢

أَمْسَكُهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ﴾ فإنهما لو زالتا ما أمسكهما أحد من الخلق، ولعجزت قدرهم وقواهم عنهما، ولكنه تعالى قضى أن يكونا كما وجدا؛ ليحصل للخلق القرار والنفع والاعتبار ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ وليعلموا كمال حلمه ومغفرته؛ بإمهال المذنبين، وعدم معاجلته للعاصين.

(٤٢) ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ وأقسم هؤلاء الذين كذبوك يا رسول الله قسمًا اجتهدوا فيه بالآيمان الغليظة ﴿لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِّنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ أهدى من اليهود والنصارى، فلم يفوا بتلك الإقسامات والعهود ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ لم يهتدوا ولم يصيروا أهدى من إحدى الأمم، بل لم يدوموا على ضلالهم الذي كان، بل ﴿مَّا زَادَهُمْ﴾ ذلك

الكتب، عادمين الرسل، قد عمتهم الجهالة، وغمرتهم الضلالة.

(٧) ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ نفذ فيهم القضاء والمشية، أنهم لا يزالون في كفرهم وشركهم، وإنما حق عليهم القول بعد أن عرض عليهم الحق فرفضوه، فحينئذ عوقبوا بالطبع على قلوبهم.

(٨) ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾ وهي جمع (غل) والغل: ما يغل به العنق ﴿فَهِيَ إِلَيَّ آآذَانٌ﴾ وهذه الأغلال التي في الأعناق عظيمة قد وصلت إلى أذقانهم ورفعت رؤوسهم إلى فوق ﴿فَهُمْ مُّقْمَحُونَ﴾ رافعو رؤوسهم من شدة الغل الذي في أعناقهم، فلا يستطيعون أن يخفضوها.

(٩) ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ أي: حاجزاً يحجزهم عن الإيمان ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ قد غمرهم الجهل والشقاء من جميع جوانبهم، فلم تفد فيهم النذارة.

(١٠) ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وكيف يؤمن من طبع على قلبه ورأى الحق باطلاً والباطل حقاً.

(١١) ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ إنما تنفع نذارتك ويتعظ بنصحك ﴿مَنْ أَتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ من قصده اتباع الحق وما ذكر به ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ﴾ أي: من اتصف بهذين الأمرين: القصد الحسن في طلب الحق، وخشية الله تعالى، فهم الذين ينتفعون برسالتك، ويزكون بتعليمك، وهذا الذي وفق لهذين الأمرين ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ لذنوبه ﴿وَأَجْرِ كَرِيمٍ﴾ لأعماله الصالحة، ونيته الحسنة.

﴿قَدِيرًا﴾ على مجموعها.

(٤٥) ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا﴾ من الذنوب ﴿مَا تَرَكْنَا عَلَى ظَهْرِهِا مِنْ دَابَّةٍ﴾ لاستوعبت العقوبة حتى الحيوانات غير المكلفة ﴿وَلَكِنْ﴾ يمهلهم تعالى ولا يهملهم؛ ﴿وَيُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ فيجازيهم بحسب ما علمه منهم، من خير وشر.

سورة يس وهي مكية

(١) ﴿يَسَّ﴾ قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة. ﴿وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾ هذا قسم من الله تعالى بالقرآن الحكيم، الذي وصفه الحكمة، وهي وضع كل شيء موضعه، فأحكامه الشرعية والجزائية كلها مشتملة على غاية الحكمة.

(٣) ﴿إِنَّكَ لِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ هذا المقسم عليه، وهو رسالة محمد ﷺ، وإنك من جملة المرسلين، فلست ببدع من الرسل.

(٤) ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ معتدل، موصل إلى الله وإلى دار كرامته.

(٥) ﴿نَزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ فهو الذي أنزل به كتابه، وأنزله طريقاً لعباده، موصلاً لهم إليه، فحماه بعزته عن التغيير والتبديل، ورحم به عباده رحمة اتصلت بهم حتى أوصلتهم إلى دار رحمته.

(٦) ﴿لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ ءَابَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ وهم العرب الأميون، الذين لم يزالوا خالين من

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ من الأعمال والنيات وغيرها
﴿أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: كتاب، هو أم
الكتب وإليه مرجع الكتب التي تكون بأيدي
الملائكة، وهو: اللوح المحفوظ.

(١٣) ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمُ﴾ واضرب لهؤلاء المكذبين
برسالتك ﴿مَثَلًا﴾ يعتبرون به، وذلك المثل:
﴿أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ وما جرى منهم من التكذيب
لرسل الله، وما جرى عليهم من عقوبته ونكاله
﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ من الله تعالى يأمرونهم
بعبادة الله وحده، وإخلاص الدين له، وينهونهم
عن الشرك والمعاصي.

(١٤) ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾ رسولين ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾
فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ قويناها بما ثالث؛ فصاروا ثلاثة
رسل؛ اعتناء من الله بهم، وإقامة للحجة بتوالي
الرسل إليهم ﴿فَقَالُوا﴾ قالت الرسل لهم: ﴿إِنَّا
إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾ من ربكم الذي خلقكم يأمركم
بعبادته وحده لا شريك له.

(١٥) ف ﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ فما
الذي فضلكم علينا وخصكم من دوننا؟ ﴿وَمَا
أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ﴾ أنكروا عموم الرسالة، ثم
أنكروا أيضًا المخاطبين لهم؛ فقالوا: ﴿إِنْ أَنتُمْ
إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾. ﴿قَالُوا﴾؛ أي: هؤلاء الرسل
الثلاثة: ﴿رَبَّنَا بَعِّرْهُنَا إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ فلو كنا
كاذبين لأظهر الله خزينا، ولبادرنا بالعقوبة.

(١٧) ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ إنما علينا
أن نبليكم ما أرسلنا به إليكم؛ فإذا أطعتم كانت
لكم السعادة في الدنيا والآخرة، وإن لم تجيبوا

وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾
إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا
إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ
الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا بَعِّرْهُنَا
إِنَّكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾
قَالُوا إِنَّا نَطَّيَّرُ بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجِمَنَّكُمْ وَلَنَمَسِّنَّكُمْ
مِمَّا تَعَذِّبُ الْآلِمَ ﴿١٨﴾ قَالُوا اطَّيَّرْكُمْ مَعَكُمْ إِنْ دُكِّرْتُمْ
بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِقُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ
يَسْعَى قَالَ يَنْفِرُوا أَتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ أَتَّبِعُوا مَنْ
لَا يَنْتَعِلُكُمْ أَجْرٌ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ أَتَّبِعَ الَّذِي
فَطَّرَنِي وَإِلَيْهِ رُجْعُونَ ﴿٢٢﴾ أَتَّخِذُونَ دُونَهُ إِلَهًا إِنْ
يُرِيدُ الرَّحْمَنُ يَضْرِبْ لَآئِنًا غَيْرَ شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا
يُقَدِّرُونَ ﴿٢٣﴾ إِنْ أَتَاكَ ضُلَالٌ مُّبِينٌ ﴿٢٤﴾ إِنْ أَتَتْ
بَرِيكَتَكُمْ فَاسْمِعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتُ قَوْمِي
يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا عَصَيْتُ رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمَكْرُومِينَ ﴿٢٧﴾

(١٢) ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتُ﴾ نبعثهم بعد
موتهم لنجازيهم على الأعمال ﴿وَنَكْتُبُ مَا
قَدَّمُوا﴾ من الخير والشر وهو أعمالهم التي
عملوها وباشروها في حال حياتهم ﴿وَوَآثَرَهُمْ﴾
وهي آثار الخير وآثار الشر، التي كانوا هم
السبب في إيجادها في حال حياتهم وبعد
وفاتهم، أو آثار خطاهم إلى الطاعة والمعصية،
ولا تنافى بين القولين، بل فيهما دلالة وتنبيه
على بعضها بطريق الأولى والأخرى؛ فإنه إن
كانت هذه الآثار تكتب، فلأن تكتب تلك التي
فيها قدوة بهم من خير أو شر بطريق أولى،
والله أعلم.

(١٢) أخرج الترمذي بإسناد صحيح لغيره من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كانت بنو سلمة في ناحية المدينة فأرادوا النقلة
قرب المسجد فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتُ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾. فقال رسول الله ﷺ: «إن آثاركم تكتب»
فلم ينتقلوا.

فستعلمون عاقبة ذلك .

(١٨) ﴿قَالُوا﴾ فقال أصحاب القرية لرسولهم : ﴿إِنَّا نَطِيرُنَا بِكُمْ﴾ لم نر على قدمكم علينا واتصالكم بنا إلا الشر ، ثم توعدهم ؛ فقالوا : ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ نقتلنكم رجماً بالحجارة أشنع القتلات ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عقوبة شديدة .

(١٩) ﴿قَالُوا﴾ أي : فقالت لهم رسولهم : ﴿طَاعُوا مَعَكُمْ﴾ وهو ما معهم من الشرك والشر ، المقتضي لوقوع المكروه والنقمة ، وارتفاع المحبوب والنعمة ﴿أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ﴾ بسبب أنا ذكرناكم ما فيه صلاحكم وحظكم قلتم لنا ما قلتم ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ متجاوزون للحد .

(٢٠) ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ حرصاً على نصيح قومه حين سمع ما دعت إليه الرسل وآمن به ، وعلم ما رد به قومه عليهم ؛ فقال : ﴿يَقُولُ أَتَيْعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ فأمرهم باتباعهم ونصحهم على ذلك ، وشهد لهم بالرسالة ، ثم ذكر تأييداً لما شهد به ودعا إليه فقال :

(٢١) ﴿أَتَيْعُوا مَنْ لَا يَسْتَلِكُ أَجْرًا﴾ اتبعوا من نصحكم نصحاً يعود إليكم بالخير ، وليس يريد منكم أموالكم ، ولا أجراً على نصحه لكم وإرشاده إياكم ، فهذا موجب لاتباع من هذا وصفه ﴿وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ لأنهم لا يدعون إلا لما يشهد العقل الصحيح بحسنه ، ولا ينهون إلا بما يشهد العقل الصحيح بقبحه .

(٢٢) ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ وما المانع لي من عبادة من هو المستحق للعبادة ؛ لأنه الذي فطرني وخلقني ورزقني ﴿وَالَّذِي تُرْجَعُونَ﴾ وإليه مآل

وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُزِلِينَ ﴿١٨﴾ إِنَّ كَانَتْ لَأَصِيبَهُمْ جُودَةٌ فَإِنَّهُمْ مُحِيدُونَ ﴿١٩﴾ بَحْسَرَةً عَلَى آلِهَةٍ مَا يَتَّبِعُهُمُ بَشِيرٌ وَلَا نُفُوءٌ يُسْتَرْجَعُونَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمَا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَإِنْ كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدُنَا مُحْضَرُونَ ﴿٢٢﴾ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَبُ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٢٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٥﴾ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَنْفُسَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ فِي ظُلُمٍ ﴿٢٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ ﴿٢٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٠﴾

جميع الخلق ، فيجازيهم بأعمالهم .

(٢٣) ﴿ءَاتَخِذْ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً﴾ سؤال استنكار وتقريع وتوبيخ ﴿إِنْ يُرِيدِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ لأنه لا أحد يشفع عند الله إلا بإذنه ، فلا تغني شفاعتهم عني شيئاً ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ﴾ من الضر الذي أرادته الله بي .

(٢٤) ﴿إِنِّي إِذَا﴾ إن عبدت آلهة هذا وصفها ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ فجمع في هذا الكلام ؛ بين نصحهم ، والشهادة للرسل بالرسالة .

(٢٥) فقال : ﴿إِنِّي ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ فقتله قومه لما سمعوا منه وراجعهم بما راجعهم به .

(٢٦) ف ﴿قِيلَ﴾ له في الحال : ﴿أَدْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ فدخلها ﴿قَالَ﴾ مخبراً بما وصل إليه من الكرامة على توحيده وإخلاصه ، وناصحاً لقومه بعد

وفاته، كما نصح لهم في حياته: ﴿يَلَيَّتْ قَوْمِي يَعْلمُونَ﴾. (٢٧) ﴿يَمَّا غَفَرَ لِي رَبِّي بِأَيِّ شَيْءٍ غَفَرَ لِي؛ فَأَزَالُ عَنِّي أَنْوَاعَ الْعُقُوبَاتِ وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ بأنواع المثوبات والمسرات. (٢٨) ﴿وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ ما احتجنا أن نتكلف في عقوبتهم، فننزل جنداً من السماء لإتلافهم ﴿وَمَا كُنَّا مُزِيلِينَ﴾ لعدم الحاجة إلى ذلك، وعظمة اقتدار الله تعالى، وشدة ضعف بني آدم، وأنهم أدنى شيء يصيبهم من عذاب الله يكفيهم.

(٢٩) ﴿إِنْ كَانَتْ﴾ عقوبتهم ﴿إِلَّا صِيْحَةً وَجَدَتْ﴾ صوتاً واحداً، تكلم به بعض ملائكة الله ﴿فَإِذَا هُمْ يَحْكُمُونَ﴾ قد تقطعت قلوبهم في أجوافهم، وانزعجوا لتلك الصيحة، فأصبحوا خامدين: لا صوت، ولا حركة لهم.

(٣٠) قال الله مترحماً للعباد: ﴿يَحْشَرُهُ عَلَى الْعِبَادِ﴾ يا حسرة العباد على أنفسهم على ما ضيعت من أمر الله وفرطت في جنب الله! ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ يكذبون ويستهزئون به. (٣١) ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ﴾ ألم ير هؤلاء ويعتبروا بمن قبلهم من القرون المكذبة، التي أهلكها الله تعالى وأوقع بها عقابها، وأن جميعهم قد باد وهلك، و﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ فلم يرجع إلى الدنيا، ولن يرجع إليها (٣٢) ﴿وَإِنْ كُلُّ لَمَنَّا جَمْعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ سيعيد الله الجميع خلقاً جديداً، ويعيهم بعد موتهم، ويحضرون بين يديه تعالى؛ ليحكم بينهم

بحكمه العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة. (٣٣) ﴿وَأَيُّهُ هُمُ﴾ على البعث والنشور، والقيام بين يدي الله تعالى للجزاء على الأعمال هذه ﴿الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ﴾ أنزل الله عليها المطر؛ فأحيها بعد موتها ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ من جميع أصناف الزروع، ومن جميع أصناف النبات، فجعلناه رزقاً لهم ولأنعامهم.

(٣٤) ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ في تلك الأرض الميتة ﴿جَنَّاتٍ﴾ بساتين، فيها أشجار كثيرة، وخصوصاً النخيل والأعناب، اللذان هما أشرف الأشجار ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا﴾ في الأرض ﴿مِنَ الْعُيُونِ﴾ أنهار سارحة. (٣٥) ﴿لِيَأْكُلُوا﴾ أي: جعلنا في الأرض تلك الأشجار والنخيل والأعناب ﴿مِن ثَمَرِهِ﴾ قوتاً وفاكهة وأدماً ولذة ﴿وَوُ﴾ الحال أن تلك الثمار ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ وليس لهم فيه صنع ولا عمل، إن هو إلا صنعة أحكم الحاكمين وخير الرازقين ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ من ساق لهم هذه النعم، وأسبغ عليهم من جوده وإحسانه، ما به تصلح أمور دينهم ودنياهم.

(٣٦) ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ الأصناف كلها ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ فنوع فيها من الأصناف ما يعسر تعداده ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ فنوعهم إلى ذكر وأنثى، وفاوت بين خلقهم وخلقهم، وأوصافهم الظاهرة والباطنة ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ من المخلوقات التي قد خلقت وغابت عن علمنا، والتي لم تخلق بعد.

(٣٧) ﴿وَأَيُّهُ هُمُ﴾ على نفوذ مشيئة الله وكمال قدرته وإحيائه الموتى بعد موتهم ﴿الَّذِينَ

نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴿٣٧﴾ نَزِيلُ الضِيَاءِ الْعَظِيمِ الَّذِي طَبَقَ الْأَرْضَ، ﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ ﴿٣٨﴾ فَنَبْدِلُهُ بِالظُّلْمَةِ، وَنَحْلُهَا مَحَلَّهُ وَكَذَلِكَ نَزِيلُ هَذِهِ الظُّلْمَةِ الَّتِي عَمَّتْهُمْ وَشَمَلَتْهُمْ، فَتَطْلُعُ الشَّمْسُ؛ فَتُضِيءُ الْأَقْطَارَ، وَيَنْتَشِرُ الْخَلْقُ لِمَعَاشِهِمْ وَمَصَالِحِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ:

﴿٣٨﴾ ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ دَائِمًا تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا قَدْرَهُ اللَّهُ لَهَا، لَا تَتَعَدَاهُ وَلَا تَقْصُرُ عَنْهُ، وَلَيْسَ لَهَا تَصَرُّفٌ فِي نَفْسِهَا وَلَا اسْتِعْصَاءٌ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ الَّذِي بَعَزَتْهُ دَبْرُ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الْعَظِيمَةِ بِأَكْمَلِ تَدْبِيرٍ وَأَحْسَنِ نِظَامٍ ﴿الْعَلِيمِ﴾ الَّذِي بَعَلَّمَهُ جَعَلَهَا مَصَالِحَ لِعِبَادِهِ، وَمَنَافٍ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ.

﴿٣٩﴾ ﴿وَالْقَمَرُ قَدَرْتَهُ مَوَازِلَ﴾ يَنْزِلُ بِهَا، كُلَّ لَيْلَةٍ يَنْزِلُ مِنْهَا وَاحِدَةً ﴿حَتَّىٰ عَادَ﴾ يَصْغُرُ جَدًّا؛ فَيَعُودُ ﴿كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ﴾ عَرَجُونَ النَخْلَةِ الَّذِي مِنْ قَدَمِهِ نَشَّ وَصَغُرَ حُجْمُهُ وَانْحَنَى، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ مَا زَالَ يَزِيدُ شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى يَتِمَّ نُورُهُ، وَيَتَسَقَّ ضِيَآؤُهُ.

﴿٤٠﴾ ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ فِي سُلْطَانِهِ الَّذِي هُوَ اللَّيْلُ؛ فَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَوْجِدَ الشَّمْسُ فِي اللَّيْلِ ﴿وَلَا الْبَلُّ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ فَيَدْخُلُ عَلَيْهِ قَبْلَ انْقِضَاءِ سُلْطَانِهِ ﴿وَكُلٌّ فِي الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنَّجْمِ﴾ ﴿فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يَدُورُونَ فِي فَلَكِ السَّمَاءِ.

﴿٤١﴾ ﴿وَعَايَةُ لَهُمْ﴾ وَدَلِيلُ لَهُمْ وَبِرْهَانُ عَلَى أَنَّ اللَّهَ

وَعَايَةُ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ شَأْنُ نَعْرِفُهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَنْقُدُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مِنْ لَوْيْسَاءِ اللَّهِ طَعِمَةً إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ نَوْصِبَهُ وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَيُنْفِخُ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا بُولَيْنَا مِنْ بَعَثْنَا مِنْ قَبْلِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِنْ كُنْتُمْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَأَيُّكُمْ لَا يُنْظَلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا يُنْجَزُ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾

وحده المعبود ﴿أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفْسِّرِينَ: الْمُرَادُ بِذَلِكَ: أَبَاؤُهُمْ؛ لِأَنَّ اسْمَ الذَّرِيَةِ يَقَعُ عَلَى الْأَبَاءِ وَالْأَجْدَادِ، كَمَا يَقَعُ عَلَى الْأَوْلَادِ ﴿فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ﴾: فِي سَفِينَةِ نُوحٍ الْمَمْلُوءَةِ بِالْأَزْوَاجِ مِنْ كُلِّ صَنَفٍ.

﴿٤٢﴾ ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ﴾ لِلْمَوْجُودِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ الْفَلَكِ؛ أَي: مِنْ جِنْسِهِ ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ بِهِ، فَذَكَرَ نِعْمَتَهُ عَلَى الْأَبَاءِ بِحَمْلِهِمْ فِي السَّفَنِ؛ لِأَنَّ النِّعْمَةَ عَلَيْهِمْ نِعْمَةٌ عَلَى الذَّرِيَةِ.

﴿٤٣﴾ ﴿وَإِنْ شَأْنُ نَعْرِفُهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ﴾ لَا أَحَدٌ يَصْرُخُ لَهُمْ، فَيَعَاوَنُهُمْ عَلَى الشَّدَةِ، وَلَا يَزِيلُ

(٣٨) فِي «لصحيحين» و«المسند» - واللفظ للإمام أحمد - من حديث أبي ذر رضي الله عنه؛ قَالَ: كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ حِينَ وَجِبَتْ الشَّمْسُ؛ فَقَالَ ﷺ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ الشَّمْسُ؟» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ بَيْنَ يَدَيِ رَبِّهَا ﷻ فَتَسْتَأْذِنُ فِي الرَّجُوعِ، فَيُؤْذَنُ لَهَا، وَكَأَنَّهَا قَدْ قِيلَ لَهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَرْجِعُ إِلَى مَطْلَعِهَا، وَكَذَلِكَ مُسْتَقَرُّهَا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾».

عنهم المشقة ﴿وَلَا هُمْ يُقْدُونَ﴾ مما هم فيه .
(٤٤) ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ حيث لم

نغرقهم، لطفاً بهم، وتمتعاً لهم إلى حين؛
لعلهم يرجعون، أو يستدركون ما فرط منهم .
(٤٥) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا

خَلْفَكُمْ﴾ من أحوال البرزخ والقيامة وما في
الدنيا من العقوبات ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ لعل الله
باتقائكم ذلك يرحمكم ويؤمّنكم من عذابه؛
فأعرضوا عن ذلك، ولم يرفعوا به رأساً، ولو
جاءتهم كل آية، ولهذا قال:

(٤٦) ﴿وَمَا تَأْنِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ على
التوحيد وصدق الرسل ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ لا
يتأملونها ولا يقبلونها ولا ينتفعون بها .
(٤٧) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ من
الرزق الذي من به الله عليكم، ولو شاء
لسلبكم إياه، ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾
معارضين للحق محتجين بالمشيئة: ﴿أَنْفَعُكُمْ مَنْ

لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ حيث تأمرونا بذلك .
(٤٨) ﴿وَيَقُولُونَ﴾ على وجه التكذيب
والاستعجال: ﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ﴾ قال الله تعالى: لا يستبعدوا ذلك؛
فإنه عن قريب .

(٤٩) ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ وهي نفخة
الصور ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾ تصيبهم ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ وهم
لا هون عنها، لم تخطر على قلوبهم في حال

خصومتهم، وتشاجرهم بينهم الذي لا يوجد في
الغالب إلا وقت الغفلة .

(٥٠) ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ وإذا أخذتهم وقت
غفلتهم، فإنهم لا يُنظرون ولا يمهلون لا قليلة
ولا كثيرة ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ .

(٥١) ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ نفخة البعث والنشور،
﴿فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ القبور ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ

يَسْلُكُونَ﴾: يسرعون للحضور بين يديه، لا
يتمكنون من التأني والتأخر .

(٥٢) ﴿قَالُوا﴾ وهم المكذبون، وقد اظهروا
الحسرة والحزن ﴿يَوَلَيْنَا﴾ يا هلاكنا ﴿مَنْ بَعَثَنَا

مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ من رقدتنا في القبور فيجيبهم
المؤمنون أو الملائكة - ولا منافاة إذا الجمع
ممكن-: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ هذا الذي
وعدكم الله به ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ ووعدتكم
به الرسل؛ فظهر صدقهم رأي العين .

(٥٣) ﴿إِنْ كَانَتْ﴾ البعثة من القبور ﴿إِلَّا صَيْحَةً

وَاحِدَةً﴾ ينفخ فيها إسرافيل في الصور؛ فتحيا
الأجساد ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ الأولون
والآخرون، والإنس والجن؛ ليحاسبوا على
أعمالهم .

(٥٤) ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ لا ينقص
من حسناتها، ولا يزداد في سيئاتها ﴿وَلَا

تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير؛ أو
شر، فمن وجد خيراً فليحمد الله على ذلك
ومن وجد غير ذلك؛ فلا يلومن إلا نفسه .

(٥١) في «الصحاحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: قال: «ما بين النفختين أربعون» قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يوماً؟ قال: آيت. قالوا: أربعون سنة؟ قال: آيت. قال: أربعون شهراً؟ قالوا: آيت «ويبلى كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه، فيه يركب الخلق» .

(٥٥) ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ﴾ لما ذكر تعالى أن كل أحد لا يجازي إلا ما عمله، ذكر جزاء الفريقين؛ فبدأ بجزاء أهل الجنة، وأخبر أنهم في ذلك اليوم ﴿فِي شُغْلٍ فَكَّهُونَ﴾ في شغل مفكه للنفس، مُلذَّ لها، من كل ما تهواه النفوس، وتلذه العيون، ويتمناه المتمنون ومن ذلك افتضاض العذارى الجميلات.

(٥٦) ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ من الحور العين، اللاتي قد جمعن حسن الوجوه والأبدان، وحسن الأخلاق. ﴿فِي ظِلِّ الْأَشْجَارِ﴾ على السرر المزينة باللباس المزخرف الحسن، ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ عليها، اتكاء على كمال الراحة والطمأنينة واللذة.

(٥٧) ﴿هُمْ فِيهَا فَكَّهُونَ﴾ كثيرة، من جميع أنواع الثمار اللذيذة من عنب وتين ورمان وغيرها. ﴿وَمَا يَدْعُونَ﴾ يطلبون، فمهما طلبوه وتمنوه أدركوه.

(٥٨) ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ ولهم أيضاً سلام حاصل لهم من رب رحيم ففي هذا كلام الرب تعالى لأهل الجنة وسلامه عليهم، وأكده بقوله: ﴿قَوْلًا﴾ وإذا سلم عليهم الرب الرحيم، حصلت لهم السلامة التامة من جميع الوجوه، وحصلت لهم التحية التي لا تحية أعلى منها، ولا نعيم مثلها.

(٥٩) لما ذكر تعالى جزاء المتقين ذكر جزاء المجرمين ﴿وَأَنَّهُمْ يَقَالُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ امتزوا اليوم أيها المجرمون ﴿تَمِيزُوا عَنْ

إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَّهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ الْأَشْجَارِ أَكْبَادُكُمْ مَكَّةُونَ ﴿٥٦﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَهُمْ يَدْعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾ أَنَّهُمْ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ بِبَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَن أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِيلًا كَثِيرًا أَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ أَصَلُّوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخَسِفُ عَنْ أَفْوَاهِهِمْ وَنُكَلِّمُنَا أَيْدِيَهُمْ وَنَنْشَرُ أَرْجُلَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَن يَصِيرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَنَمَسَخَنَّهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ تَعْبَرُهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحْيِيَ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾

المؤمنين، وكونوا على حدة؛ ليوخبهم ويقرعههم على رءوس الأشهاد قبل أن يدخلهم النار، فيقول لهم:

(٦٠) ﴿أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ﴾ أمركم وأوصيكم على السنة رسلي، وأقول لكم: ﴿بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ لا تطيعوه، وهذا التوبيخ يدخل فيه التوبيخ عن جميع أنواع الكفر والمعاصي؛ لأنها كلها طاعة للشيطان وعبادة له ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ فحذرتكم منه غاية التحذير، وأنذرتكم عن طاعته، وأخبرتكم بما يدعوكم إليه.

(٦١) ﴿وَأَنَّهُمْ يَقَالُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أمركم ﴿أَن أَعْبُدُونِي﴾ بامتثال

(٥٥) أخرج الطبري وأبو نعيم في «صفة الجنة» بإسناد حسن عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: شغلهم افتضاض الأبار. ومثله عن ابن عباس رضي الله عنهما.

أبصارهم.

(٦٧) ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَاتَتِهِمْ﴾
لأذهبنا حركتهم، ﴿فَمَا اسْتَظَلُّوا مُضِيًّا﴾ إلى
الأمم، ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ إلى ورائهم؛ ليبعدوا عن
النار.

(٦٨) ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ﴾ من بني آدم ﴿نُنَكِّسْهُ فِي
الْخَلْقِ﴾ يعود إلى الحالة التي ابتدأ حالة الضعف؛
ضعف العقل، وضعف القوة ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أن
الآدمي ناقص من كل وجه؛ فيتداركوا قوتهم
وعقولهم، فيستعملونها في طاعة ربهم.

(٦٩) ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ ينزه تعالى نبيه
محمدًا ﷺ عما رماه به المشركون من أنه
شاعر، وأن الذي جاء به شعر، ﴿وَمَا يَلْبِغِي
لَهُ﴾ ما هو في طبعه فلا يحسنه ولا يحبه ولا
تقتضيه جبلته، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ ما هذا
الذي جاء به إلا ذكر يتذكر به أولو الألباب
جميع المطالب الدينية ﴿وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ بين
واضح جلي لمن تأمله وتدبره.

(٧٠) ﴿يُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ حي القلب واعيه،
فهو الذي يزكو على هذا القرآن، وهو الذي يزداد
من العلم منه والعمل، ﴿وَيَحْيِي الْقَوْلَ عَلَى
الْكَافِرِينَ﴾ لأنهم قامت عليهم به حجة الله،
وانقطع احتجاجهم، فلم يبق لهم أدنى عذر
وشبهة يُدْلُونَ بها.

وأوامري وترك زواجري، ﴿هَذَا﴾ عبادتي
وطاعتي ومعصية الشيطان ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾
فعلوم الصراط المستقيم وأعماله ترجع إلى
هذين الأمرين، فلم تحفظوا عهدي، ولم
تعملوا بوصيتي، فواليتم عدوكم.

(٦٢) ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِلاَّ كَثِيرًا﴾ خلقاً
كثيراً ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ فلا كان لكم عقل
يأمركم بموالاة ربكم ووليكم الحق، ويزجركم
عن اتخاذ أعدى الأعداء لكم ولياً.

(٦٣) ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾
وتكذبون بها، فانظروا إليها عياناً.

(٦٤) ﴿أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ﴾ ادخلوها على وجه
تصلاكم، ويحيط بكم حرها، ويبلغ منكم كل
مبلغ، ﴿يَمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بسبب كفركم بآيات
الله، وتكذيبكم لرسل الله.

(٦٥) ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾ بأن نجعلهم
خرساً فلا يتكلمون، فلا يقدرّون على إنكار ما
عملوه من الكفر والتكذيب، ﴿وَنُكَلِّمُنَا أَيْدِيَهُمْ
وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ تشهد
عليهم أعضاؤهم بما عملوه، وينطقها الذي
أنطق كل شيء.

(٦٦) ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ﴾ بأن نذهب
أبصارهم كما طمسنا على نطقهم ﴿فَأَسْتَبْقُوا
الْصِّرَاطَ﴾ فبادروا إليه؛ لأنه الطريق إلى الوصول
إلى الجنة. ﴿فَأَنزِلُ يُصْرُونَ﴾ وقد طمست

(٦٥) في «صحيح مسلم» في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كنا عند النبي ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال ﷺ: «أتدرون مم أضحك؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: رب! ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: لا أجيز علي إلا شاهداً من نفسي، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً، والكرام الكاتبين شهوداً، فيختم على فيه، ويقال لأركانه: انطقي فتنطق بعمله، ثم يخلي بينه وبين الكلام، فيقول بعداً لكن وسحقاً، فعنكن كنت أناضل».

(٧١) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيَنَا أَنْعَامًا﴾ يأمر تعالى العباد بالنظر إلى ما سخر لهم من الأنعام ودللها ﴿فَهُمْ لَهَا مَلِكُونَ﴾ وجعلهم مالكين لها.

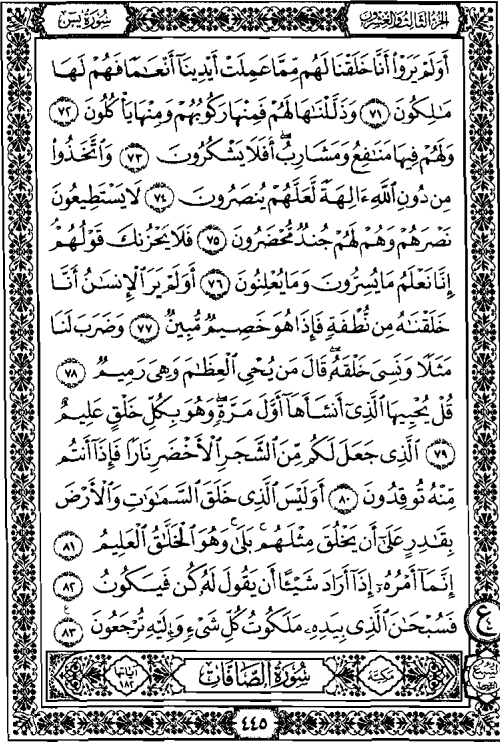
(٧٢) ﴿وَدَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ مطاوعة لهم في كل أمر يريدونه منها، ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ وأنه جعل لهم فيها منافع كثيرة من حملهم وحمل أثقالهم ومحاملهم وأمتعته من محل إلى محل، ومن أكلهم منها، وفيها دفء، ومن أوبارها وأشعارها وأصوافها أثاثاً ومتاعاً إلى حين، وفيها زينة وجمال، وغير ذلك من المنافع المشاهدة منها.

(٧٣) ﴿وَمَسَارِبٌ﴾ في ألبانها، ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ الله تعالى الذي أنعم بهذه النعم، ويخلصون له العبادة، ولا يتمتعون بها تمتعاً خالياً من العبرة والفكرة.

(٧٤) ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾ يقول الله منكرأ على المشركين اتخاذهم الأنداد آلهة مع الله، ﴿لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ﴾ رجاء نصرها وشفاعتها، وأن تمنعهم من عذاب الله.

(٧٥) ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ لا تقدر الأصنام على نصر عابديها، بل هي أضعف من ذلك وأقل وأحق وأدحر؛ لأنها جماد لا تقدر على الاستنصار لنفسها، ولا الانتقام ممن أَرادها بسوء، ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُخَضَّرُونَ﴾ الكفار جند للأصنام يغضبون لها ويحضرونها في الدنيا وينصرونها من أن يمسها أحد بسوء، فبدل أن تنصرهم هم ينصرونها كجند مبعوثون لنصرتها.

(٧٦) ﴿فَلَا يَحْزَنُكَ﴾ فلا يحزنك يا أيها الرسول ﴿قَوْلُهُمْ﴾ أي: قول المكذبين، والمراد



بالقول: ما دل عليه السياق، كل قول يقدحون فيه في الرسول أو فيما جاء به.

والمعنى: فلا تشغل قلبك بالحزن عليهم، ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ في ضمائرهم في التكذيب، ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ في عبادة الأصنام، أو ما يعلنون بألسنتهم في الأذى، فنجازيهم على حسب علمنا بهم، وإلا فقولهم لا يضرك شيئاً.

(٧٧) ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ﴾ المنكر للبعث والشاك فيه ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ﴾ أمراً يفيد اليقين التام بوقوعه، وهو ابتداء خلقه ﴿مِنْ نُّطْفَةٍ﴾ ثم تنقله في الأطوار شيئاً فشيئاً، حتى كبر وشب، وتم عقله واستتب ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ بعد أن كان ابتداء خلقه من نطفة، فلينظر التفاوت بين هاتين الحالتين، وليعلم أن الذي أنشأه من العدم قادر على أن يعيده بعد ما

تفرق وتمزق من باب أولى.

(٧٨) ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ لا ينبغي لأحد أن يضربه، وهو قياس قدرة الخالق بقدرة المخلوق، وأن الأمر المستبعد على قدرة المخلوق مستبعد على قدرة الخالق ﴿وَكَيْفَ خَلَقَهُ﴾ وهذا القول الذي صدر من هذا الإنسان غفلة منه، ونسيان لابتداء خلقه، فلو فطن لخلقه بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً فوجد عياناً، لم يضرب هذا المثل ﴿قَالَ﴾ ذلك الإنسان: ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ أي: هل أحد يحييها؟ استفهام إنكار، أي: لا أحد يحييها بعد ما بليت وتلاشت. هذا وجه الشبهة والمثل؛ وهو: أن هذا أمر في غاية البعد على ما يعهد من قدرة البشر.

(٧٩) فأجاب تعالى عن هذا الاستفهام بجواب شافٍ كافٍ، فقال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وهذا بمجرد تصويره، يعلم به علماً يقيناً لا شبهة فيه: أن الذي أنشأها أول مرة قادر على الإعادة ثاني مرة، وهو أهون على القدرة إذا تصوره المتصور ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ أن علمه تعالى محيط بجميع مخلوقاته في جميع أحواله وفي جميع الأوقات؛ فبعلم العظام في سائر أقطار الأرض وأرجائها، أين ذهبت وأين تفرقت وتمزقت.

(٨٠) ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُؤْفَقُونَ﴾ فإذا أخرج النار اليابسة من الشجر الأخضر، الذي هو في غاية الرطوبة، مع تضادهما وشدة تخالفهما؛ فأخراجه الموتى من قبورهم مثل ذلك.

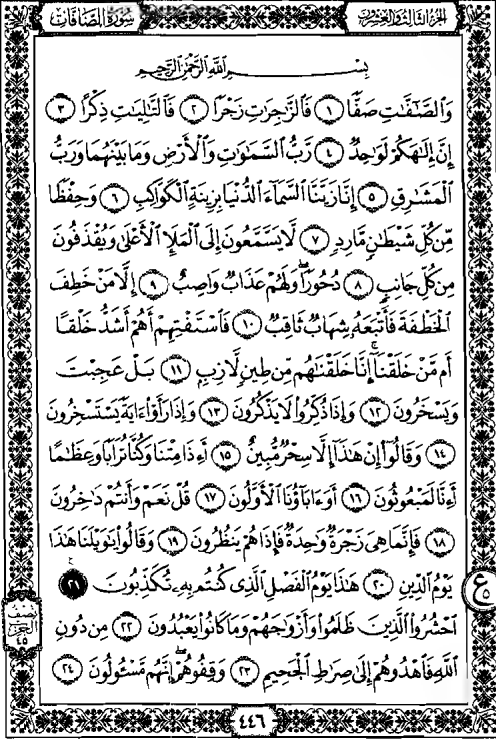
(٨١) ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ على سعتهما وعظمهما ﴿يَقْدِرُ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمَا﴾ أن يعيدهم بأعيانهم ﴿بَلَىٰ﴾ قادر على ذلك، فإن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ الذي جميع المخلوقات، متقدمها ومتأخرها، صغيرها وكبيرها، كلها أثر من آثار خلقه وقدرته، وأنه لا يستعصي عليه مخلوق أراد خلقه.

(٨٢) ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا﴾ نكرة في سياق الشرط؛ فتعم كل شيء ﴿أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ في الحال من غير تمنع.

(٨٣) ﴿فَسُبْحَنَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فإنه تعالى هو الملك المالك لكل شيء، الذي جميع ما سكن في العالم العلوي والسفلي ملك له ﴿وَالِيَهُ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازي كل عامل بعمله، وهو العادل المنعم المتفضل.

(٧٨ و ٧٩) في «الصححين» و«المسند» - واللفظ للإمام أحمد - قال عقبة بن عمرو لحذيفة رضي الله عنه: ألا تحدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ؟ فقال: سمعته ﷺ يقول: «إن رجلاً حضره الموت، فلما يش من الحياة أوصى أهله: إذا أنا مت، فاجمعوا لي حطباً كثيراً جزلاً، ثم أوقدوا فيه ناراً حتى إذا أكلت لحمي، وخلصت إلى عظمي؛ فامتحشت، فخذوها، فذقوها، فذروها في اليم. ففعلوا، فجمعه الله، تعالى إليه ثم قال له: لم فعلت ذلك؟ قال: من خشيتك؛ فغفر الله ﷻ له». فقال عقبة بن عمرو: وأنا سمعته ﷺ يقول ذلك، وكان نباشاً.

سورة الصافات
وهي مكية



(١) ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ [الآيات ١-١١] هذا قسم منه تعالى بالملائكة الكرام في حال عبادتها وتبديرها ما تدبره بإذن ربها على ألوهيته تعالى وربوبيته، فقال: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ صفوفاً في خدمة ربهم؛ وهم: الملائكة.

(٢) ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ وهم الملائكة؛ يزجرون السحاب وغيره بأمر الله.

(٣) ﴿فَالْقَائِلَاتِ ذِكْرًا﴾ وهم الملائكة؛ الذين يتلون كلام الله تعالى.

(٤) ﴿إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ ليس له شريك في الإلهية، فأخلصوا له الحب والخوف والرجاء، وسائر أنواع العبادة.

(٥) ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هو الخالق لهذه المخلوقات، والرازق لها، المدبر لها؛ فكما أنه لا شريك له في ربوبيته إياها؛ فكذلك لا شريك له في ألوهيته. ﴿وَرَبُّ الْمَشْرِقِ﴾ وخص الله المشارق بالذكر؛ لدلالته على المغارب، أو لأنها مشارق النجوم التي سيذكرها.

(٦) ﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَكِبِ﴾ يخبر الله تعالى أنه جعل الكواكب زينة للسماء؛ إذ لولاها؛ لكانت السماء جرمًا مظلمًا لا ضوء فيها، ولكن زينها فيها؛ لتستنير أرجاؤها، وتحسن صورتها، ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ويحصل فيها من المصالح ما

يحصل.

(٧) ﴿وَحَفَظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ حراسة السماء عن كل شيطان مارد.

(٨) ﴿لَّا يَسْمَعُونَ إِلَى الْأَعْلَىٰ﴾ لثلاثا يصلوا إلى الملاء الأعلى، وهم: الملائكة؛ فإذا استمعت قذفتها بالشهب الثواقب؛ طردًا لهم، وإبعادًا عن استماع ما يقول الملاء الأعلى ﴿وَيُقَدِّفُونَ مِّنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾، وذلك من كل جهة يقصدون السماء منها.

(٩) ﴿دُحُورًا﴾: رجماً يدحرون به ويزجرون ويمنعون من الوصول إلى ذلك ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَأَصِيبٌ﴾ دائم، معد لهم؛ لتمردهم عن طاعة

(١) في صحيح مسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجعلت لنا تربتها طهوراً إذا لم نجد الماء».

ربهم .

(١٠) ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ إلا من تلقف من الشياطين المردة الكلمة الواحدة من كلام الملائكة على وجه الخفية والسرقة ﴿فَاتَّبَعُهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ تارة يدركه قبل أن يوصلها إلى أوليائه، فينقطع خبر السماء، وتارة يخبر بها قبل أن يدركه الشهاب، فيكذبون معها مائة كذبة يروجونها بسبب الكلمة التي سمعت من السماء.

(١١) ولما بين هذه المخلوقات العظيمة قال: ﴿فَأَسْتَفْتِيهِمْ﴾ اسأل منكري خلقهم بعد موتهم ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أيجادهم بعد موتهم أشد خلقاً وأشق؟ ﴿أَمْ مَنْ خَلَقْنَا﴾ من هذه المخلوقات؟ فلا بد أن يقولوا: أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس؛ فيلزمهم إذا الإقرار بالبعث، بل لو رجعوا إلى أنفسهم وفكروا فيها؛ لعلموا أن ابتداء خلقهم من طين لازب أصعب عند الفكر من إنشائهم بعد موتهم ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ قوي شديد لزج.

(١٢) ﴿بِكُلِّ عَجَبَةٍ﴾ يا أيها الرسول وأيها الإنسان من تكذيب من كذب بالبعث بعد أن أريتهم من الآيات العظيمة والأدلة المستقيمة، وهو حقيقة محل عجب واستغراب؛ لأنه مما لا يقبل الإنكار، ﴿وَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمْ﴾ أعجب من إنكارهم وأبلغ منه: أنهم ﴿يَسْتَحْزِرُونَ﴾ ممن جاء بالخبر عن البعث، فلم يكفهم مجرد الإنكار حتى زادوا السخرية بالقول الحق.

(١٣) ﴿وَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمْ﴾ أيضاً - أنهم ﴿إِذَا دُكِّرُوا﴾ ما يعرفون في فطرهم وعقولهم،

وفطنوا له، وألفت نظرهم إليه ﴿لَا يَذْكُرُونَ﴾ ذلك.

(١٤) ﴿وَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمْ﴾ أيضاً - أنهم ﴿إِذَا رَأَوْا آيَةً﴾ دلالة واضحة على ذلك ﴿يَسْتَحْزِرُونَ﴾ يستهزئون.

(١٥) ﴿وَقَالُوا﴾ من العجب - أيضاً - : قولهم للحق لما جاءهم: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ فجعلوا أعلى الأشياء وأجلها وهو الحق في رتبة أخس الأشياء وأحقها وهو السحر.

(١٦) ومن العجب - أيضاً - قياسهم قدرة رب الأرض والسماوات على قدرة الآدمي الناقص من جميع الوجوه، فقالوا استبعادا وإنكارا: ﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ انتهت حياتنا بالموت ﴿وَكُنَّا تُرَابًا﴾ صرنا تراباً ﴿وَعِظَمًا﴾ بالية ﴿إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ خلقاً جديداً.

(١٧) ﴿أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ أي: وآباؤنا الأولون. (١٨) ولما كان هذا منتهى ما عندهم، وغاية ما لديهم؛ أمر الله رسوله أن يجيبهم بجواب مشتمل على ترهيبهم؛ فقال: ﴿قُلْ نَعَمْ﴾ ستبعثون أنتم وآباؤكم الأولون ﴿وَأَنْتُمْ ذَخِرُونَ﴾ ذليلون صاغرون، لا تمتنعون، ولا تستعصون على قدرة الله.

(١٩) ﴿فَأَنذَرْنَا هَٰؤُلَاءِ وَجَدَةً﴾ ينفخ إسرافيل فيها في الصور ﴿فَإِذَا هُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ مبعوثون من قبورهم ﴿يَنْظُرُونَ﴾ كما ابتدئ خلقهم، بعثوا بجميع أجزائهم، حفاة عراة غرلاً، وفي تلك الحال يظهرون الندم والخزي والخسار، ويدعون بالويل والثبور.

(٢٠) ﴿وَقَالُوا يَوَيْلًا هَٰذَا يَوْمُ الَّذِينَ﴾ فقد أقرروا بما كانوا في الدنيا به يستهزئون.

(٢١) فيقال لهم: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْقَضَاءِ﴾ يوم القضاء بين العباد فيما بينهم وبين ربهم من الحقوق،

العقاب.

(٣٢) فَلذَلِكَ ﴿أَعُوذُنَاكُمْ﴾ دَعَوَانَاكُمْ إِلَى طَرِيقَتِنَا الَّتِي نَحْنُ عَلَيْهَا؛ وَهِيَ: الْغَوَايَةُ ﴿إِنَّا كُنَّا غَوِينَ﴾ فَاسْتَجَبْتُمْ لَنَا؛ فَلَا تَلُومُونَا وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ.

(٣٣) ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿فِي الْعَذَابِ مُشْرِكُونَ﴾ وَإِنْ تَفَاوَتْ مَقَادِيرُ عَذَابِهِمْ بِحَسَبِ جَرْمِهِمْ؛ كَمَا اشْتَرَكُوا فِي الدُّنْيَا عَلَى الْكُفْرِ اشْتَرَكُوا فِي الْآخِرَةِ بِجَزَائِهِ، وَلِهَذَا قَالَ:

(٣٤) ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ إِجْرَامَهُمْ قَدْ بَلَغَ الْغَايَةَ، وَجَاوَزَ النِّجَايَةَ فَقَالَ:

(٣٥) ﴿إِنَّهُمْ﴾ أَوْلَئِكَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ ﴿كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ قَالَ لَهُمُ الرَّسُولُ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ فِدَعُوا إِلَيْهَا، وَأَمَرُوا بِتَرْكِ إِلَهِيَّةِ مَا سِوَاهُ ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عَنْهَا وَعَلَى مِنْ جَاءَ بِهَا.

(٣٦) ﴿وَيَقُولُونَ﴾ مَعَارِضَةً لَهَا ﴿أَبْنَا لِنَارِكُوا﴾ أَلْهَيْتَنَا الَّتِي لَمْ نَزَلْ نَعْبُدْهَا نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا ﴿لَقَوْلِ شَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ يَعْنُونَ مُحَمَّدًا ﷺ.

(٣٧) وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى نَاقِضًا لِقَوْلِهِمْ: ﴿بَلْ جَاءَ مُحَمَّدٌ ﷺ بِالْحَقِّ﴾ مُجِيبُهُ حَقٌّ، وَمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الشَّرْعِ وَالْكِتَابِ حَقٌّ ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ بِأَنْ جَاءَ بِمَا جَاءُوا بِهِ، وَدَعَا إِلَى مَا دَعَا إِلَيْهِ، وَأَمَّنْ بِهِمْ، وَأَخْبَرَ بِصَحَّةِ رِسَالَتِهِمْ وَنُبُوَّتِهِمْ وَشَرْعِهِمْ؛ كَمَا هُمْ أَخْبَرُوا بِهِ وَبَشَرُوا.

(٣٨) ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ الْمَوْلُومِ الْمَوْجَعِ.

(٣٩) ﴿وَمَا تُحْزَنُونَ﴾ فِي إِذَاقَةِ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿إِلَّا

مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فَلَمْ نَظْلَمْكُمْ وَإِنَّمَا عَدَلْنَا فِيكُمْ. (٤٠) ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ ذَائِقِي الْعَذَابِ الْأَلِيمِ؛ لِأَنَّهُمْ أَخْلَصُوا لِلَّهِ الْأَعْمَالِ؛ فَأَخْلَصَهُمْ، وَاخْتَصَهُمْ بِرَحْمَتِهِ، وَجَادَ عَلَيْهِمْ بِلُطْفِهِ.

(٤١) ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ غَيْرُ مَجْهُولٍ، وَإِنَّمَا هُوَ رِزْقٌ عَظِيمٌ جَلِيلٌ، لَا يَجْهَلُ أَمْرَهُ، وَلَا يَبْلُغُ كُنْهَهُ.

(٤٢) ﴿فَوَكَهَهُ﴾ مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْفَوَاكِهِ الَّتِي تَتَفَكَّهُ بِهَا النَّفْسُ؛ لِلذَّهْنِ فِي لَوْنِهَا وَطَعْمِهَا ﴿وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ مُعْظَمُونَ مَجْلُونَ مَوْقَرُونَ.

(٤٣) ﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ الْجَنَّاتِ الَّتِي النَّعِيمُ وَصْفُهَا، وَالسَّرُورُ نَعْتُهَا، وَذَلِكَ لِمَا جَمَعَتْهُ مِمَّا لَا عَيْنَ رَأَتْ، وَلَا أَذْنَ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ

(٤٤) ﴿عَلَى سُرُرٍ﴾ وَهِيَ الْمَجَالِسُ الْمُرْتَفَعَةُ الْمَزِينَةُ ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ فِيمَا بَيْنَهُمْ لَا يَرَى بَعْضُهُمْ قَفَا بَعْضٍ عَلَى

(٤٥) ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكُلِّ فَرْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ﴾ يَتَرَدَّدُ الْوَلَدَانِ الْمُسْتَعِدُونَ لَخِدْمَتِهِمْ بِالْأَشْرَبَةِ اللَّذِيذَةِ، بِالْكَاسَاتِ الْجَمِيلَةِ الْمُنْظَرِ، الْمَتْرَعَةِ مِنَ الرَّحِيقِ الْمَخْتُومِ بِالْمَسْكِ؛ وَهِيَ: كَاسَاتُ الْخَمْرِ.

(٤٦) وَتِلْكَ الْخَمْرُ تَخَالَفَ خَمْرَ الدُّنْيَا مِنْ كُلِّ وَجْهِ؛ فَإِنَّهَا فِي لَوْنِهَا ﴿بَيْضَاءُ﴾ مِنْ أَحْسَنِ الْأَلْوَانِ، وَفِي طَعْمِهَا ﴿لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ﴾ يَتَلَذَّذُ شَارِبُهَا بِهَا وَقْتُ شَرْبِهَا وَبَعْدَهُ.

(٣٥) فِي «الصَّحِيحِينَ» مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،

فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ فَقَدْ عَصَمَ مَنِي مَالِهِ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحَسَابُهُ عَلَى اللَّهِ».

وَزَادَ الطَّبْرِيُّ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي «الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ» وَابْنُ حِبَانَ بِإِسْنَادٍ عَلَى شَرْطِهِمَا: «وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ - وَذَكَرَ

قَوْمًا اسْتَكْبَرُوا - فَقَالَ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

(٤٧) ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ ليس فيها صداد ولا كدر ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَوْنَ﴾ لا تذهب عقولهم.

(٤٨) ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْظُرْفِ﴾ وعند أهل دار النعيم، حور حسان، كاملات الأوصاف، قاصرات الطرف، قصرت طرفها على زوجها؛ لعفتها وعدم مجاوزته لغيره، وإما لأنها قصرت طرف زوجها عليها ﴿عَيْنٌ﴾ حسان الأعين.

(٤٩) ﴿كَأَنَّهُنَّ الْخُورُ﴾ بَيَضٌ مَكُونٌ مستور، وذلك من حسنهن وصفائهن.

(٥٠) ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ لما ذكر تعالى نعيمهم، وتمام سرورهم، بالمآكل والمشارب، والأزواج الحسان، والمجالس الحسنة، ذكر تذاكرهم فيما بينهم، ومطارحتهم للأحاديث عن الأمور الماضية، وأنهم ما زالوا في المحادثة والتساؤل حتى أفضى ذلك بهم إلى أن:

(٥١) ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾ من أهل الجنة ﴿إِنِّي كَان لِّي قَرْيْنٌ﴾ في الدنيا، ينكر البعث، ويلومني على تصديقي به.

(٥٢) و﴿يَقُولُ﴾ لي : ﴿أَءَنْتَ لِمَنِ الْمَصْدُوقُ﴾ أنت تصدق بالبعث والنشور والحساب والجزاء؟! يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب، والاستبعاد والكفر والعناد.

(٥٣) ﴿إِذْآ مِنَّا﴾ جميعاً، وتمزقت أجسادنا ﴿وَكُنَّا تُرَابًا﴾ صرنا تراباً ﴿وَعِظْمًا﴾ نخرة ﴿إِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ مجازون بأعمالنا، محاسبون عليها.

(٥٤) ﴿قَالَ﴾ المؤمن لأصحابه وجلسائه في أهل الجنة: ﴿هَلْ أَنتُمْ مَّظْلُومُونَ﴾ مشرفون على النار؛ لننظر إليه، فنزداد غبطة وسروراً بما نحن فيه.

يَقُولُ أَءَنتَ لِمَنِ الْمَصْدُوقُ (٥٢) إِذْآ مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُمْ مَّظْلُومُونَ (٥٤) فَأَطْلَعَ قِرَاءَةً فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كُنتَ لَتَتَوَيْنِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا تَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَى وَمَا تَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ (٥٩) إِنَّ هَذَا هُوَ الْقَوْلُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِيُمِثِلَ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَمِلُونَ (٦١) أَذَلِكَ خَيْرٌ لَّا أَمْ سَحَرَةٌ الرَّقُومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ زُرُّوعٌ وَشِيتَاطِينُ (٦٥) قَالَتْهُمْ لَا يَكُونُ فِيهَا لَظْمٌ مِّنْهَا الْبَطُونُ (٦٦) ثُمَّ إِنِّي لَأَنفَعُ عَلَيْهِمُ السُّوْبَاتِ جَحِيمِ (٦٧) ثُمَّ إِنِّي مَرَّجَعُهُمْ إِلَى الْجَحِيمِ (٦٨) إِنْتُمْ أَفْقَاءُ آبَاءَ مُرْسَلِينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَىٰ أَثَرِهِمْ يَرْغَبُونَ (٧٠) وَلَقَدْ صَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُّنْذِرِينَ (٧٢) فَأَنْظَرَكِهِمْ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ (٧٣) إِنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤) وَلَقَدْ نَادَيْنَاهُ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَحْنَهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦)

٤٤٨

(٥٥) ﴿فَأَطْلَعَ﴾ فرأى قرينه ﴿فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ في وسط العذاب وغمراته.

(٥٦) ذ ﴿قَالَ﴾ له لائماً على حاله، وشاكراً لله على نعمته أن نجاه من كيده: ﴿تَاللَّهِ﴾ والله ﴿إِنْ كُنتَ﴾ لقد كدت ﴿لَتَتَوَيْنِ﴾ أن تهلكني بسبب ما أدخلت علي من الشبه بزعمك.

(٥٧) ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ على أن ثبتني على الإسلام ﴿لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ في العذاب معك. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

(٥٨) ﴿أَفَمَا تَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ يقوله المؤمن مبتهجاً بنعمة الله على أهل الجنة بالخلود الدائم فيها والسلامة من العذاب.

(٥٩) ﴿إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَى﴾ يقول لقرينه المعذب: أفتزعم أننا لسنا نموت سوى الموتة الأولى في

الدنيا، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ ولا بعث بعدها ولا عذاب.

(٦٠) ﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي حصل لهم به كل خير، وكل ما تهوى النفوس وتشتهي، واندفع عنهم به كل محذور ومكروه.

(٦١) ﴿لِيُثِلَّ هَذَا﴾ لمثل هذا النعيم وهذا الفوز ﴿فَلْيَعْمَلِ الْعَمَلُونَ﴾ في الدنيا؛ ليصيروا إليه في الآخرة.

(٦٢) ﴿أَذَلَّكَ خَيْرٌ نُّزُلًا﴾ ذلك النعيم الذي وصفناه لأهل الجنة خير، أم العذاب الذي يكون في الجحيم من جميع أصناف العذاب؟ فأَيُّ الطعامين أولى؟ الذي وصف في الجنة ﴿أَمْ﴾ طعام أهل النار؟ وهو: ﴿شَجَرَةُ الزَّقُومِ﴾ أي: التي في النار، والزقوم: اسم جنس لشجر خبيث المنظر، كرية الطعم، ويكره أهل النار على تناولها؛ فهم يتزقمون على أشد كراهية، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُومٍ﴾ [الواقعة: ٥١، ٥٢].

(٦٣) ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلْكَافِرِينَ﴾ للكافرين؛ امتحاناً واختباراً لهم في الدنيا، وذلك أنهم قالوا: كيف يكون في النار شجرة، والنار تحرق الشجر؟ وجعلناها عذاباً ونكالاً لهم في الآخرة.

(٦٤) ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ أصل منبتها في قرار الجحيم، غذيت من النار، ومنها خلقت.

(٦٥) ﴿طَلْعُهَا﴾ ثمرها؛ سمي: طلعا؛ لطلوعه ﴿كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ هم الشياطين بأعيانهم،

شبه به لقبحها، والعرب إذا وصفوا شيئاً قبيحاً قالوا: كأنه شيطان، وإذا وصفوا شيئاً جميلاً قالوا: كأنه ملك؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْتُمْ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١].

وهذا كله تبشيع لها وتكريه لذكرها، فإذا كان طلوعها كذلك؛ فلا تسأل بعد هذا عن طعمها، وما تفعل في أجوافهم وبطونهم.

(٦٦) ﴿فَأَنبَأَهُمُ﴾ أهل النار ﴿لَأَكُونُ مِنْهَا﴾ من شجر الزقوم ﴿فَمَا لَوْ أَنَّ أَبْطُونَهُ﴾ والملء: حشو الوعاء لا يحتمل عليه زيادة؛ فهذا طعام أهل النار، فبئس الطعام طعامهم.

(٦٧) ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾ على أثر هذا الطعام ﴿لَشَوْبًا مِنْ حِمِيمٍ﴾ ماء حاراً.

(٦٨) ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرَجِعَهُمْ﴾ مآلهم ومقرهم ومأواهم ﴿لِلْأَيْلِ الْجَحِيمِ﴾ ليدوقوا من عذابه الشديد، وحره العظيم ما ليس عليه مزيد من الشقاء.

(٦٩) ﴿إِنَّهُمْ أَلفَوْا﴾ وجدوا ﴿ءَابَاءَهُمْ صَالِينَ﴾ على ضلالة.

(٧٠) ﴿فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ﴾ فاتبعوهم فيها بمجرد ذلك في غير برهان ولا دليل ﴿يُهْرَعُونَ﴾ يسرعون في الضلال.

(٧١) ﴿وَلَقَدْ صَلَّ بِلَهُمْ﴾ قبل هؤلاء المخاطبين ﴿أَكْثَرَ الْأَوَّلِينَ﴾ من الأمم الخالية، وقليل منهم آمن واهتدى.

(٧٢) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ ينذرونهم عن غيهم وضلالهم.

(٦٦) أخرج الترمذي وابن ماجه والنسائي في «الكبرى» من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية وقال: «تَقَالُوا اللَّهُ حَقُّ تَقَالِيهِ»، فلو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا؛ لأفسدت على أهل الأرض معاشهم، فكيف بمن يكون طعامه».

(٧٣) ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ كانت عاقبتهم: الهلاك والخزي.

(٧٤) ولما كان المنذرون ليسوا كلهم ضالين بل منهم من آمن وأخلص الدين لله؛ استثناه الله من الهلاك؛ فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ الذين أخلصهم الله، وخصهم برحمته؛ لإخلاصهم، فإن عواقبهم صارت حميدة.

(٧٥) ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحَ﴾ يخبر تعالى عن عبده ورسوله نوح عليه السلام، أول الرسل، أنه لما دعا قومه إلى الله تلك المدة الطويلة فلم يزدحم دعاؤه إلا فراراً، أنه نادى ربه، فـ ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كُنْتُ نَادٍ﴾ [المؤمنون: ٢٦] فاستجاب الله له، ومدح تعالى نفسه؛ فقال: ﴿فَلَنَعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ لدعاء الداعين، وسماح بتبليهم وتضرعهم.

(٧٦) ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ نجاه وأهله من الكرب العظيم وهو: التكذيب والأذى، وأغرق جميع الكافرين.

(٧٧) ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ أبقى نسله وذريته متسلسلين، فجميع الناس من ذرية نوح عليه السلام.

(٧٨) ﴿وَوَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ جعل له ثناء حسناً مستمراً إلى وقت الآخرين.

(٧٩) ﴿سَلَّمَ عَلَى نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ مفسراً كما أبقى عليه من الذكر الجميل والثناء الحسن: أنه يسلم عليه في جميع الطوائف والأمم.

(٨٠) ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ وذلك؛ لأنه محسن في عبادة الخالق، محسن إلى الخلق، وهذه سنته تعالى في المحسنين: أن ينشر لهم من الثناء على حسب إحسانهم.

(٨١) ﴿إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدقين الموحدين.

(٨٢) ﴿ثُمَّ أَفْرَقْنَا الْآخِرِينَ﴾ فلم يبق منهم عين

وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَوَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَّمَ عَلَى نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَفْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٨٢﴾ وَإِنْ مِنْ شَيْعَةٍ لَّابْرَهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَيُّهُ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَفَعُكُمُ الْهَيْةُ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَظَنَرُظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَّغَ إِلَهُ أَلْهَمِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْتُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطَفُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَّغَ عَلَيْهِمْ صُرًى بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرْفُُونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ اتَّعْبُدُونَ مَا تَنْجَحُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا اتَّبِعْنَا لِمَ أَتَيْنَاكَ فَقُلُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَسَّطْنَاهُ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى السَّيِّدِ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُ إِنِّي أَرَى فِي السَّمَاءِ آتٍ أَذْهَبُكَ فَأَنْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَتَأْتِيَ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَجْدِينَ إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٢﴾

تطرف، ولا ذكر، ولا أثر.

(٨٣) ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْعَةٍ لَّابْرَهِيمَ﴾ وإن من شيعة نوح عليه السلام، ومن هو على طريقتة في النبوة والرسالة، ودعوة الخلق إلى الله، وإجابة الدعاء، إبراهيم الخليل عليه السلام.

(٨٤) ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ من الشرك والشبه

والشهوات المانعة من تصور الحق والعمل به.

(٨٥) ﴿إِذْ قَالَ لِأَيُّهُ أَزْرَ﴾ وقوميه، ماذا تعبدون؟ هذا استفهام بمعنى الإنكار والتوبيخ، وإلزام لهم بالحجة.

(٨٦) ﴿أَفَعُكُمُ الْهَيْةُ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ أتعبدون من دونه آلهة كذباً.

(٨٧) ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أن يفعل بكم، وقد عبدتم معه غيره.

وما الذي ظننتم برب العالمين من النقص حتى

وجعلكم عملكم.

(٩٧) ﴿قَالُوا اتَّبِعُوا لِمَ يُبَيِّنُ﴾ عالياً مرتفعاً، وأوقدوا فيها النار ﴿فَأَلْفَوْهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ جزاء على ما فعل من تكسير آلهتهم.

(٩٨) ﴿فَارَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ ليقتلوه أشنع قتلة ﴿فَجَعَلَهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ رد الله كيدهم في نحورهم، وجعل النار على إبراهيم برداً وسلاماً.

(٩٩) ﴿وَلَمَّا فَعَلُوا فِيهِ هَذَا الْفِعْلَ﴾ وأقام عليهم الحجة، وأعذر منهم ﴿قَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾ مهاجر إليه، قاصد إلى الأرض المباركة أرض الشام.

﴿سَيِّدِينَ﴾ يدلني إلى ما فيه الخير لي، من أمر ديني ودنياي.

(١٠٠) ﴿رَبِّ هَبْ لِي﴾ ولداً يكون ﴿مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ وذلك عند ما أيس من قومه، ولم ير فيهم خيراً، دعا الله أن يهب له غلاماً صالحاً، يرفع الله به في حياته وبعد مماته.

(١٠١) ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ وهذا إسماعيل عليه السلام، بلا شك؛ فإنه ذكر بعده البشارة بإسحاق، ووصف الله إسماعيل عليه السلام بالحلم، وهو يتضمن الصبر، وحسن الخلق، وسعة الصدر، والعفو عن جنى.

(١٠٢) ﴿فَلَمَّا بَلَغَ﴾ إسماعيل عليه السلام ﴿مَعَهُ السَّعَى﴾ أدرك أن يسعى معه، وبلغ سنًا يكون في الغالب أحب ما يكون لو الولد، قد ذهبت مشقته، وأقبلت

جعلتم له أنداداً وشركاء؟!

(٨٨) فأراد عليه السلام: أن يكسر أصنامهم، ويتمكن من ذلك، فانتهاز الفرصة في حين غفلة منهم، لما ذهبوا إلى عيد من أعيادهم، فخرج معهم ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ نظر في السماء متفكراً فيما يلهمهم به.

(٨٩) ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ضعيف. والقصد: أنه تخلف عنهم؛ لئتم له الكيد بالهتهم.

(٩٠) ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ إلى عيدهم، فلما وجد الفرصة:

(٩١) ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِمُ﴾ أسرع إليها على وجه الخفية والمراوغة ﴿فَقَالَ﴾ متهمكاً بها ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾؛ أي: فكيف يليق أن تعبد، وهي أنقص من الحيوانات التي تأكل أو تكلم.

(٩٢) ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾ فهذه جماد لا تأكل ولا تكلم.

(٩٣) ﴿فَرَأَىٰ عَلَيْهِمْ صَرِيحًا بِالْعَيْنِ﴾ جعل يضربها بقوة ونشاطه، حتى جعلها جذاذاً؛ إلا كبيراً لهم، لعلهم إليه يرجعون.

(٩٤) ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرْفُونَ﴾ يسرعون ويهرعون، يريدون أن يوقعوا به.

(٩٥) ﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْجِتُونَ﴾ أتعبدون من دون الله من الأصنام ما أنتم تحتونها وتجعلونها بأيديكم.

(٩٦) ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ والله خلقكم

(٩٦) أخرج البخاري في «خلق أفعال العباد» وابن أبي عاصم في «السنة» وابن منده في «التوحيد» والبيهقي في «الأسماء والصفات» والحاكم بإسناد صحيح، عن حذيفة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يصنع كل صانع وصنعه».

قال أبو اسامة الهلالي - عفا الله عنه - : أهل السنة والجماعة يفرقون بين (خلق الفعل) و(فعل الفعل)؛ فخالق الفعل هو الله عز وجل، والذي يفعل الفعل هو العبد، ولذلك فهو مسؤول عن فعله واختياره، فتدبر هذا المقام اللطيف الذي ضلت فيه افهام، وزلت فيه أقدام، نسأل الله الثبات على السنة والإسلام.

فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَتَدَبُّتَهُ أَنْ يَأْتِيَّ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْأَمِينُ ﴿١٠٦﴾ وَقَدَبْتَهُ بِذَنبِ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْأَخْيَرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَنَشَرْتَهُ بِإِسْحَاقَ يَتِيمًا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعِيسَى عَلَى الْمَرْسَلِينَ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَى مُوسَى وَحُسْنِ وَطْأِهِ فَلَمَّا نَبْذِئْهُ مَدَيْتُ ﴿١١٤﴾ وَهَدَّيْنَاهُمَا قَوْمَهُمَا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْفَازِينَ ﴿١١٦﴾ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَّيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأَخْيَرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَّمْنَا عَلَى مُوسَى وَهَدَّيْنَاهُ إِلَى الْبَلَدِ الْمُنِيرِ ﴿١٢٠﴾ إِنَّكَ كَذَلِكَ تَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنْ إِلَى نَاسٍ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ الْقَوْمُ يَهُوَى أَتَقْتُونُ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَنَا إِلَى بَعْدِ مَا دَعَوْتَنَا إِلَى الْخَلْقَيْنِ ﴿١٢٥﴾ اللَّهُ رَكِبُوا رَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾

كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٣﴾ في عبادتنا، المتقدمين رضانا على شهوات أنفسهم.

(١٠٦) ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي امتحنا به إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿لَهُوَ الْبَلَاءُ الْأَمِينُ﴾ الواضح الذي تبين به صفاء إبراهيم، وكمال محبته لربه وخلته.

(١٠٧) ﴿وَقَدَبْتَهُ بِذَنبِ عَظِيمٍ﴾ صار بدله ذبح من

منفعته ﴿قَالَ﴾ له إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ قد رأيت في النوم، والرؤيا: أن الله يأمرني بذبحك، ورؤيا الأنبياء وحي ﴿فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ فإن أمر الله تعالى لا بد من تنفيذه ﴿قَالَ﴾ إسماعيل صابراً محتسباً، مرضياً لربه، وباراً بوالده: ﴿يَتَأْتِيَ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ﴾ امض لما أمرك الله ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أخبر أباه أنه موطن نفسه على الصبر، وقرن ذلك بمشيئة الله تعالى؛ لأنه لا يكون شيء بدون مشيئة الله تعالى.

(١٠٣) ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ أي: إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام: إبراهيم جازماً بقتل ابنه وثمره فؤاده امتثالاً لأمر ربه، وخوفاً من عقابه، والابن قد وطَّن نفسه على الصبر، وهانت عليه في طاعة ربه ورضا والده، ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ تل إبراهيم إسماعيل على جبينه؛ ليضعفه فيذبحه، وقد انكب لوجهه؛ لئلا ينظر وقت الذبح إلى وجهه.

(١٠٤) ﴿وَتَدَبُّتَهُ﴾ في تلك الحال المزعجة، والأمر المدهش: ﴿أَنْ يَأْتِيَّ إِبْرَاهِيمَ﴾.

(١٠٥) ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ قد فعلت ما أمرت به، فإنك وطَّنت نفسك على ذلك، وفعلت كل سبب، ولم يبق إلا إمرار السكين على حلقه ﴿إِنَّا

(١٠٧) أخرج الطبري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بإسناد صحيح؛ قال في قوله تعالى: ﴿وَقَدَبْتَهُ بِذَنبِ عَظِيمٍ﴾ كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفاً.

وأخرج ابن أبي حاتم بإسناد جيد عنه قال: الصخرة التي بمنى بأصل ثبير هي الصخرة التي ذبح عليها إبراهيم فداء ابنه، هبط عليه سن ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء، فذبحه، وهو الكبش الذي قرب به ابن آدم فتقبل منه.

وأخرج أبو داود وأحمد وغيرهما من حديث صفية بنت شيبة الصحيح قالت: أخبرني امرأة من بني سليم - ولدت عامة أهل دارنا - أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وقال مرة: إنها سألت عثمان: لم دعاك النبي ﷺ؟ - قال: «إني كنت رأيت قرني الكبش، حين دخلت البيت فنسيت أن أمرك أن تحمرهما، فخرهما، فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي».

قال: سفيان: لم يزل قرنا الكبش في البيت حتى احترق البيت؛ فاحترقا.

التي فيها الأحكام والمواعظ، وتفصيل كل شيء. (١١٨) ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ بأن شرع لهما ديناً ذا أحكام وشرائع مستقيمة موصلة إلى الله، ومنَّ عليهما بسلوكه.

(١١٩) ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ﴾ أبقى عليهما ثناء حسناً، وتحية في الآخرين، ومن باب أولى وأحرى في الأولين.

(١٢٠) ﴿سَلَّمْنَا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ تفسير للذكر الجميل والثناء الحسن.

(١٢١) ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: كما جزيناها نجزي المحسنين من عبادنا المؤمنين.

(١٢٢) ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: جزيناها بما جزيناها به لإيمانها.

(١٢٣) ﴿وَإِنَّ إِلَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ يمدح تعالى عبده ورسوله: إلياس عليه الصلاة والسلام بالنبوة والرسالة والدعوة إلى الله.

(١٢٤) ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أمر قومه بالتقوى، وعبادة الله وحده ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ﴾ ونهاهم عن عبادتهم صنماً لهم يقال له: بعل، وتركهم عبادة الله الذي خلق الخلق وأحسن خلقهم.

(١٢٦) ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ عِبَادِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: الذي رباهم؛ فأحسن تربيتهم، وأدرَّ عليهم النعم الظاهرة والباطنة.

(١٢٧) ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فيما دعاهم إليه، فلم ينقادوا له، قال الله متوعداً لهم: ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ يوم القيامة في العذاب، ولم يذكر لهم عقوبة دنيوية.

(١٢٨) ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ الذين أخلصهم الله، ومنَّ عليهم باتباع نبيهم؛ فإنهم غير محضرين في العذاب، وإنما لهم من الله

الغنم عظيم، ذبحه إبراهيم عليه السلام؛ فكان عظيماً من جهة أنه كان فداء لإسماعيل، ومن جهة أنه من جملة العبادات الجليلة، ومن جهة أنه كان قرباناً وسنة إلى يوم القيامة.

(١٠٨) ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ وأبقينا عليه ثناء صادقاً في الآخرين؛ كما كان في الأولين.

(١٠٩) ﴿سَلَّمْنَا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: تحيته عليه.

(١١٠) ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ في عبادة الله ومعاملة خلقه، أن نفرج عنهم الشدائد، ونجعل لهم العاقبة والثناء الحسن.

(١١١) ﴿إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ بما أمر الله بالإيمان به، الذين بلغ بهم الإيمان إلى درجة اليقين.

(١١٢) ﴿وَنَزَّلْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ هذه البشارة الثانية بإسحاق الذي من ورائه يعقوب، فبشر بوجوده وبقائه، ووجود ذريته، وكونه نبياً من الصالحين، فهي بشارات متعددة.

(١١٣) ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ أنزلنا عليهما البركة، التي هي النمو والزيادة في علمهما وعملهما، وذريتهما ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ منهم الصالح والطالح، والعاقل والظالم الذي تبين ظلمه بكفره وشركه.

(١١٤) ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ يذكر تعالى منته على عبديه ورسوليه موسى وهارون ابني عمران، بالنبوة والرسالة، والدعوة إلى الله تعالى.

(١١٥) ﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ أي: من عدوهم فرعون.

(١١٦) ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْفَائِزِينَ﴾ ونصرهما عليه حتى أغرقه الله وهم ينظرون.

(١١٧) ﴿وَأَيَّدْنَاهُمَا بِالْكِتَابِ الْمُسْتَيْنِ﴾ وهو التوراة

فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٣٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٣٨﴾
وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٣٩﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَهُ
يَحْرَى الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٠﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤١﴾ وَإِنَّ لُوطًا
لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤٢﴾ إِذْ بَحَّثْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٣﴾ إِلَّا عَجُوزًا
فِي الْغَدِيرِ ﴿١٤٤﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَإِذْ كُنْتُمْ لَكُمْ عَلَيْهِمْ
مُصْبِحِينَ ﴿١٤٦﴾ وَإِلَّا لَئِنْ أَفْلَحَ تَقْوَلُوتَ ﴿١٤٧﴾ وَإِنْ يُوَسَّسْ لَكُمْ
الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤٨﴾ إِذْ أَتَى إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٩﴾ فَسَاهُمْ فَكَانَ
مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٥٠﴾ فَالْقَمَّةُ الْخَوْتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٥١﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ
كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٥٢﴾ لَلَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٥٣﴾
فَبَدَنَهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٥٤﴾ وَأَبْلَسْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً
مِنْ يَقْطِينٍ ﴿١٥٥﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٥٦﴾
فَأَمَّاؤُا فَنَعْنَهُمْ إِلَى جُنٍّ ﴿١٥٧﴾ فَاسْتَفْهَمَ الرِّبَاكَ الْبَسَاتُ
وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٥٨﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَكَيْنِ كَذِبًا إِنَّكَ وَهُمْ
شَاهِدُونَ ﴿١٥٩﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ أَفْكَهْمَ يَقُولُونَ ﴿١٦٠﴾ وَلَكِنَّ
اللَّهَ وَابْنَهُمُ لَكَذِبُونَ ﴿١٦١﴾ أَصْطَقَى الْبَنَاتُ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٦٢﴾

عاقب عقوبة دنيوية، أنجاه منها بسبب إيمانه، وأعماله الصالحة، فقال:

﴿١٤٠﴾ ﴿إِذْ أَتَى﴾ لَجَأٌ ﴿إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ السفينة المملوءة بالركاب والأمتعة.

﴿١٤١﴾ ﴿فَسَاهُمْ﴾ قارع؛ فلما اقترعوا أصابت القرعة يونس ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ المغلوبين.

﴿١٤٢﴾ ﴿فَالْقَمَّةُ الْخَوْتُ وَهُوَ﴾ وقت التقيمه فاعل ما يلام عليه، وهو مغاضبته لربه.

﴿١٤٣﴾ ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ في وقته السابق بكثرة عبادته لربه وتسبيحه وتحميده وفي بطن الحوت حيث قال: « لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ».

﴿١٤٤﴾ ﴿لَلَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ لكانت مقبرته، ولكن بسبب تسبيحه وعبادته لله أنجاه الله تعالى.

جزيل الثواب.

﴿١٢٩﴾ ﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ على إلياس ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾ ثناء حسناً.

﴿١٣٠﴾ ﴿سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ تحية من الله، ومن عباده عليه.

﴿١٣١﴾ ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ كما جزينا إلياس لإحسانه في طاعتنا نجزي المحسنين.

﴿١٣٢﴾ ﴿إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ فأثنى الله عليه كما أثنى على إخوانه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿١٣٣﴾ ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ﴾ وهذا ثناء منه تعالى على عبده ورسوله لوط بالنبوة والرسالة، ودعوته إلى الله قومه، ونهيهم عن الشرك، وفعل الفاحشة.

﴿١٣٤﴾ ﴿إِذْ بَحَّثْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ فلما لم ينتهوا؛ نجاه الله وأهله أجمعين؛ فسروا ليلاً؛ فنجوا.

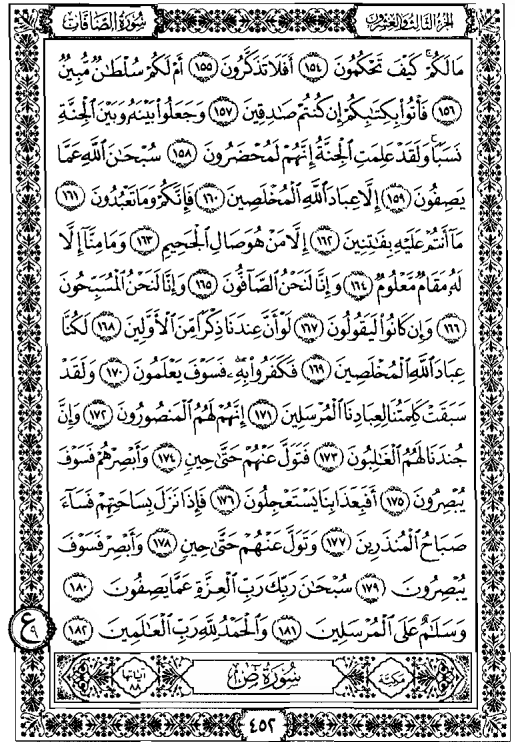
﴿١٣٥﴾ ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ﴾ الباقيين المعذبين؛ وهي: زوجة لوط لم تكن على دينه.

﴿١٣٦﴾ ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ﴾ بأن قلبنا عليهم ديارهم حتى همدوا وخمدوا.

﴿١٣٧﴾ ﴿وَإِذْ كُنْتُمْ لَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ على ديار قوم لوط ﴿مُصْبِحِينَ وَإِلَّا لَئِنْ أَفْلَحَ تَقْوَلُوتَ﴾ في هذه الأوقات، يكشر ترددكم إليها ومروركم بها، فلم تقبل الشك والمرية.

﴿١٣٨﴾ ﴿أَفَلَا تَقُولُوتَ﴾ الآيات والعبر، وتزجرون عما يوجب الهلاك؟

﴿١٣٩﴾ ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ﴾ وهذا ثناء منه تعالى على عبده ورسوله يونس بن متى بالنبوة والرسالة والدعوة إلى الله، وذكر تعالى عنه أنه



(١٤٥) ﴿فَبَدَّلَ بِالْعَرَاءِ﴾ بأن قذفه الحوت من بطنه بالعراء؛ وهي: الأرض الخالية العارية من كل أحد ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ قد سقم ومريض.

(١٤٦) ﴿وَأَلْبَسْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَّقِينٍ﴾؛ أي: من قرع؛ تظله بظلها الظليل؛ لأنها باردة الظلال، ولا يسقط عليها ذباب، وهذا من لطفه به، وبره.

(١٤٧) ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ﴾ ثم لطف به لطفًا آخر، وأمرنا عليه مئة عظمى، وهو أنه أرسله ﴿إِلَىٰ وَاقِعٍ آلِيٍّ﴾ من الناس ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ عنها، والمعنى: أنهم إن ما زادوا لم ينقصوا، فدعاهم إلى الله تعالى.

(١٤٨) ﴿فَتَأْمَنُوا﴾ فصاروا في موازينه؛ لأنه الداعي لهم ﴿فَتَعَنَّهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ بأن صرف الله عنهم العذاب بعدما انعقدت أسبابه.

(١٤٩) يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَاسْتَفْهِمِهِمْ﴾؛ أي: أسأل المشركين بالله غيره،

الذين عبدوا الملائكة، وزعموا أنها بنات الله فجمعوا بين الشرك بالله، ووصفه بما لا يليق بجلاله، ﴿الرَّيَّةَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنَاتُ﴾ هذه قسمة ضيزى، وقول جائر، من جهة جعلهم الولد لله تعالى، ومن جهة جعلهم أردأ القسمين وأخسهما له وهو البنات التي لا يرزونهن لأنفسهم، ومن جهة جعلهم الملائكة بنات الله، وحكمهم بذلك.

(١٥٠) قال الله تعالى في بيان كذبهم: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ خلقهم ليس الأمر كذلك، فإنهم ما شهدوا خلقهم؟ فدل على أنهم قالوا هذا القول بلا علم، بل افتراء على الله؛ ولهذا قال:

(١٥١) ﴿أَلَا إِنَّمَا يَفْكِهِمْ﴾ كذبهم الواضح ﴿لِقَوْلِهِمْ﴾:

(١٥٢) ﴿وَلَدَ اللَّهُ﴾ صدر منه الولد ﴿وَأَنَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾ في جميع أقوالهم.

(١٥٣) ﴿أَصْطَفَىٰ﴾ أي: اختار ﴿الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ أي شيء يجعله أن يختار البنات دون البنين.

(١٥٤) ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ هذا الحكم الجائر.

(١٥٥) ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ وتميزون هذا القول الباطل الجائر، فإنكم لو تذكروا لم تقولوا هذا القول.

(١٥٦) ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ حجة ظاهرة على قولكم، من كتاب أو رسول، وكل هذا غير واقع، ولهذا قال:

(١٥٧) ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فإن من يقول قولاً لا يقيم عليه حجة شرعية؛ فإنه كاذب متعمد، أو قاتل على الله بلا علم.

من الأمر شيء.

(١٦٥) ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّادِقُونَ﴾ في طاعة الله وخدمته.

(١٦٦) ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسْتَحِقُونَ﴾ لله عما لا يليق به. فكيف - مع هذا - يصلحون أن يكونوا شركاء لله؟! تعالى الله.

(١٦٧) ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُنَّ﴾ يخبر تعالى أن هؤلاء المشركين، يظهرون التمني، ويقولون:

(١٦٨) ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ لو جاءنا من الذكر والكتب ما جاء الأولين.

(١٦٩) ﴿لَكِنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ لأخلصنا لله العباد، بل لكنا المخلصين على الحقيقة.

(١٧٠) ﴿فَكَفَرُوا بِهِ﴾ وهم كَذَبَةٌ في ذلك فقد جاءهم أفضل الكتب؛ فكفروا به، فعلم أنهم متمردون على الحق ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ العذاب حين يقع بهم.

(١٧١) ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَيْفَتَنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ ولا يحسبوا - أيضاً - أنهم في الدنيا غالبون، بل قد سبقت كلمة، الله - التي لا مرد لها، ولا مخالف لها - لعباده المرسلين وجنده المفلحين.

(١٧٢) ﴿إِنَّهُمْ هُمُ الْمُتَّصُونَ﴾ المنصورون من ربهم؛ نصراً عزيزاً، يتمكنون فيه من إقامة دينهم.

(١٧٣) ﴿وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ للكافرين بالحجة والعزة.

(١٧٤) ﴿فَقَوْلَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ثم أمر رسوله بالإعراض عن عاندوا، ولم يقبلوا الحق، وأنه

(١٥٨) ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَبًّا﴾ جعل هؤلاء المشركون بالله بين الله وبين الجنة نسباً؛ حيث زعموا: أن الملائكة بنات الله، وأن أمهاتهم سرورات الجن ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ والحال: أن الجنة قد علمت أنهم محضرون بين يدي الله؛ ليجازيهم عباداً أذلاء، فلو كان بينهم وبينه نسب لم يكونوا كذلك.

(١٥٩) ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ﴾ الملك العظيم، الكامل الحليم، ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عما يصفه به المشركون من كل وصف أوجبه كفرهم وشركهم.

(١٦٠) ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ فإنه لم ينزه نفسه عما وصفوه به، لأنهم لم يصفوه إلا بما يليق بجلاله، وبذلك كانوا مخلصين.

(١٦١) ﴿فَإِذْ كُذِّبُوا وَمَا عُبُودُونَ﴾ إنكم أيها المشركون ومن عبدتموه مع الله.

(١٦٢) ﴿مَا أَشْرَ عَلَيْهِ بِفِتْنَيْنِ﴾ لا تقدر أن تفتنوا وتضلوا أحداً.

(١٦٣) ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ إلا من قضى الله أنه من أهل الجحيم، فينفذ فيه القضاء الإلهي، والمقصود من هذا: بيان عجزهم وعجز آلهتهم عن إضلال أحد، وبيان كمال قدرة الله تعالى.

(١٦٤) ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ هذا فيه بيان براءة الملائكة عليهم السلام عما قاله فيهم المشركون، وأنهم عباد الله، لا يعصونه طرفة عين، فما منهم من أحد إلا له مقام وتدبير قد أمره الله، به لا يتعدها، ولا يتجاوزها، وليس لهم

(١٦٤) أخرج الطبري وابن نصر في «تعظيم قدر الصلاة» بإسناد حسن لغيره عن عائشة ؓ أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من السماء الدنيا موضع إلا عليه ملك ساجد أو قائم»؛ فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾.

(١٧٨) ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أعاد الأمر بالتولي عنهم، وتهديدهم بوقوع العذاب.

(١٧٩) ﴿وَأَبْصِرْ﴾ العذاب إذا نزل بهم، ولهذا قال على وجه التهديد والوعيد: ﴿فَسَوْفَ يُمْصِرُونَ﴾.

(١٨٠) ولما ذكر في هذه السورة كثيرا من أقوالهم الشنيعة، التي وصفوه بها، نزه نفسه عنها، فقال تعالى: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ﴾ تنزه وتعالى: ﴿رَبِّ الْعَرْشِ﴾ الذي عز فقهر كل شيء، واعتز عن كل سوء يصفونه به.

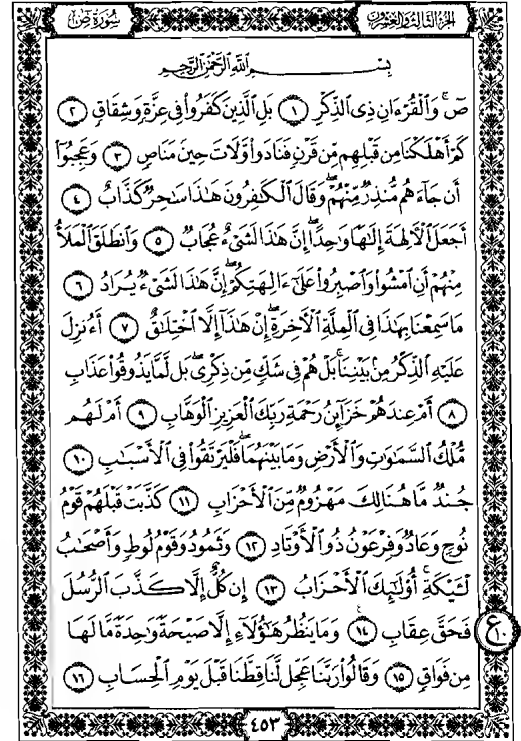
(١٨١) ﴿وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ لسلامتهم من الذنوب والآفات، وسلامة ما وصفوا به فاطر الأرض والسماوات.

(١٨٢) ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الألف واللام للاستغراق؛ فجميع أنواع الحمد من الصفات الكاملة العظيمة، والأفعال التي ربي بها العالمين له وحده لا شريك له.

سورة ص وهي مكية

(١) ﴿صَّ﴾ تقدم الكلام على الحروف المقطعة في فواتح سورة البقرة.

﴿وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ ذي القدر العظيم والشرف، المذكر للعباد كل ما يحتاجون إليه من العلم بأسماء الله وصفاته وأفعاله، ومن العلم بأحكام الله الشرعية، ومن العلم بأحكام المعاد والجزاء،



ما بقي إلا انتظار ما يحل بهم من العذاب.

(١٧٥) ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُصِرُّونَ﴾ من يحل به النكال؛ فإنه سيحل بهم.

(١٧٦) ﴿أَفَعَدَانَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ ينكر عليهم استعجالهم بالعذاب، الدال على سفهم، وخفة أحلامهم، إذ ما يستعجل بالعذاب إلا أحمق جاهل.

(١٧٧) ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ نزل عليهم، وقريبا منهم ﴿فَسَاءَ صَبَاحَ الْمُنْذِرِينَ﴾ لأنه صباح الشرح والعقوبة، والاستئصال.

(١٧٧) في «الصحيحين» من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه؛ قال: صَبَّحَ رسول الله ﷺ خيبر، فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم ورأوا الجيش، رجعوا وهم يقولون: محمد والله، محمد والخميس، فقال النبي ﷺ: «الله أكبر؛ خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين».

(١) أخرج الحاكم بإسناد حسن عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: نزل ﴿صَّ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ فيهم وفي مجلسهم ذلك؛ يعني مجلس أبي طالب وأبي جهل واجتماع قريش إليهم حين نازعوا رسول الله ﷺ.

النهي عن عبادتها ﴿لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ يقصد، أي: له قصد ونية غير صالحة في ذلك.

(٧) ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ القول الذي قاله، والدين الذي دعا إليه ﴿فِي آيَةِ الْآخِرَةِ﴾ في الوقت الأخير، فلا أدركنا عليه آباءنا، ولا آباؤنا أدركوا آباءهم عليه، فامضوا على الذي مضى عليه آباؤكم، فإنه الحق ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقٌ﴾ وما هذا الذي دعا إليه محمد إلا اختلاق اختلقه، وكذب افتراه.

(٨) ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا﴾ ما الذي فضله علينا حتى ينزل الذكر عليه من دوننا، ويخصه الله به؟ ولما كانت هذه الأقوال الصادرة منهم لا يصلح شيء منها لرد ما جاء به الرسول، أخبرت عالي من أين صدرت، فقال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾ ليس عندهم علم ولا بينة؛ ولهذا توعدهم بالعذاب فقال: ﴿بَلْ لَمَّا يَدُفُّوا عَذَابَ﴾ قالوا هذه الأقوال وتجروا عليها، حيث كانوا متمعين في الدنيا، لم يصبهم من عذاب الله شيء، فلو ذاقوا عذابه، لم يتجرأوا.

(٩) ثم قال تعالى مبيناً أنه المتصرف في ملكه، وأن العباد لا يملكون شيئاً من الأمر: ﴿أَمْرٌ عِنْدَهُ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ فيعطون منها من شاءوا، ويمنعون منها من شاءوا فهو الذي لا يرام جانبه والذي يعطي ما يريد، لمن يريد.

(١٠) ﴿أَمْرٌ لَهُمْ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بحيث يكونون قادرين على ما يريدون ﴿فَلْيَرْفَعُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ الموصلة لهم إلى السماء، فيقطعوا الرحمة عن رسول الله.

(١١) ﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْرُومٌ مِنَ الْآخِرَاتِ﴾ هؤلاء الجند المكذبون الذين هم في عزة وشقاق

فهو مذكر لهم في أصول دينهم وفروعه.

(٢) ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّ وَشِقَاقٍ﴾ عزة وامتناع عن الإيمان به، واستكبار وشقاق له، مشاقة ومخاصمة في رده وإبطاله، وفي القدح بمن جاء به.

(٣) ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ فتوعدهم بإهلاك القرون الماضية المكذبة بالرسول، ﴿فَنَادَوْا﴾ وأنهم حين جاءهم الهلاك، نادوا واستغاثوا في صرف العذاب عنهم، ولكن ﴿وَلَا تَجِيءُ مَتَانٍ﴾ وليس الوقت، وقت خلاص مما وقعوا فيه، ولا فرج لما أصابهم، فَلْيَحْذَرِ هَؤُلَاءِ أَنْ يَدُومُوا عَلَى عِزَّتِهِمْ وَشِقَاقِهِمْ؛ فيصيبهم ما أصابهم.

(٤) ﴿وَيَحْجُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ عجب هؤلاء المكذبون في أمر ليس محل عجب: أن جاءهم منذر منهم؛ ليتمكنوا من التلقي عنه، وليعرفوه حق المعرفة، ولأنه من قومهم، فلا تأخذهم النخوة القومية عن اتباعه، فهذا مما يوجب الشكر عليهم، وتتمام الانقياد له، ولكنهم عكسوا القضية، فتعجبوا تعجب إنكار ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾ وَقَالُوا من كفرهم وظلمهم: ﴿هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾.

(٥) ثم قالوا معلنين عن ذنبه عندهم: ﴿أَجْعَلِ الْأَلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ كيف ينهى عن اتخاذ الشركاء والانداد، ويأمر بإخلاص العبادة لله وحده ﴿إِنَّ هَذَا الَّذِي جَاءَ بِهِ﴾ لَشَيْءٌ مُجَابٌ يقضي منه العجب لبطلانه وفساده.

(٦) ﴿وَأَنطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ المقبول قولهم، محرضين قومهم على التمسك بما هم عليه من الشرك ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا أَصْبَرُوا عَلَىٰ آيَاتِ الْهَيْكَلِ﴾ استمروا عليها، وجاهدوا نفوسكم في الصبر عليها، وعلى عبادتها، ولا يردكم عنها راد، ولا يصدنكم عن عبادتها صاد ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي جاء به محمد من

أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ إِذْ أَلَيْنَاهُ آيَةً ۖ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾
 إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحُ بِالْعَمِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطُّبْرِ
 تَحْشُورَةً كُلِّ لَهٍّ ۖ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَنَسْنَدْنَا لَكُمْ وِءَانِيَةَ الْحِكْمَةِ
 وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا آيَاتُ نَبِيِّ الْحَضَمِ إِذْ سَمِعُوا
 الْخَبْرَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَحْفَظْ
 حَضَمَانِ بَعْنُ بَعْضَانِ عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ
 وَهَدَيْنَا إِلَى سَوَاءِ الصَّرِيطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْمَةً
 وَلِي نَجْمَةٍ وَاحِدَةٍ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ
 لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ إِنِّي نَجْمٌ وَوَأَنْ كَيْدًا مِّنَ الْغَافِلِينَ
 بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ
 مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ
 ﴿٢٤﴾ فَفَقَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّكَابٍ
 ﴿٢٥﴾ يٰدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ
 بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ
 عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ لِّمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

سيهزمون ويكبتون كما كبت الذين من قبلهم من الأحزاب المكذبين .

(١٢) ثم حذرهم تعالى أن يفعل بهم ما فعل بالأمم من قبلهم: الذين كانوا أعظم قوة منهم وتحزباً على الباطل فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ قَوْمُ هُودٍ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْنَادِ﴾ الجنود العظيمة والقوة الهائلة .

(١٣) ﴿وَتَمُودٌ﴾ قوم صالح ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَبُ الْأَيْكَةِ﴾ الأشجار والبساتين الملتفة؛ وهم: قوم شعيب ﴿أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ الذين اجتمعوا بقوتهم وعددهم وعُددهم على رد الحق، فلم تغن عنهم شيئاً .

(١٤) ﴿إِنْ كُلٌّ مِّنْ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا كَكَذِبِ الرُّسُلِ فَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْعِقَابُ﴾ وجب عليهم ونزل بهم عذابي، وهؤلاء ما الذي يطهرهم ويذكهم، أن لا يصيبهم ما أصاب أولئك .

(١٥) ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَٰؤُلَاءِ﴾ فلينتظروا ﴿صَبِيحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ من رجوع ورد، تهلكهم وتستأصلهم إن أقاموا على ما هم عليه .

(١٦) ﴿وَقَالُوا﴾ قال هؤلاء المكذبون من جهلهم ومعاندتهم الحق، مستعجلين للعذاب: ﴿بَنَّا عَجِلَ لَنَا قَطَنًا﴾ قسطنا وما قسم لنا من العذاب عاجلاً ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ ولجؤا في هذا القول، وزعموا أنك يا محمد إن كنت صادقاً، فعلامة صدقك أن تأتينا بالعذاب، فقال لرسوله: ﴿أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ كما صبر من قبلك من الرسل؛ فإن قولهم لا يضر الحق شيئاً، ولا يضرؤنك في شيء، وإنما يضرؤن أنفسهم .

(١٧) ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ﴾ لما أمر الله رسوله بالصبر على قومه، أمره أن يستعين على الصبر بالعبادة لله وحده، ويتذكر حال العابدين، ومن أعظم العابدين: نبي الله داود عليه الصلاة والسلام ﴿ذَا الْأَيْدِي﴾ القوة العظيمة على عبادة الله تعالى في بدنه وقلبه ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ رجأع إلى الله في جميع الأمور .

(١٨) ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ﴾ أي: إنه تعالى سخر الجبال تسبح معه ﴿بِالْعَمِيِّ﴾ آخر النهار ﴿وَالْإِشْرَاقِ﴾ أوله .

(١٧) في «الصحيحين» من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله ﷻ صيام داود: كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى» .

نُطِطُ ﴿ وَلَا تُمِلْ مَعَ أَحَدِنَا ﴾ وَأَهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ
الْصِّرَاطِ ﴿ أَرْشَدْنَا إِلَى الْعَدْلِ فِي قَضِيَّتِنَا .

والمقصود من هذا: أن الخصمين قد عرف أن
قصدهما الحق الواضح الصرف، وإذا كان ذلك،
فسيقصان عليه نبأهما بالحق، فلم يشمئز نبي الله
داود من وعظهما له، ولم يؤنبهما .

(٢٣) فقال أحدهما: ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي ﴾ نص على
الأخوة في الدين، أو النسب، أو الصداقة؛
لاقتضائها عدم البغي، وأن بغيه الصادر منه أعظم
من غيره ﴿ أَلَمْ يَسْعَ وَسْعُونَ نَجْمَةً ﴾ وذلك خير كثير،
يوجب عليه القناعة بما آتاه الله ﴿ وَلَى نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾
فقطع فيها ﴿ فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا ﴾ دعها لي، وخلها في
كفالتني ﴿ وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ غلبني في القول،
فلم يزل بي حتى أدركها أو كاد .

(٢٤) ﴿ قَالَ ﴾ داود - لما سمع كلامه - ومن
المعلوم من السياق السابق من كلامهما أن هذا

(١٩) ﴿ وَ ﴾ سخر ﴿ الطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾ معه
مجموعة ﴿ كُلُّ ﴾ من الجبال والطيور ﴿ لَهُ ﴾ لله
تعالى ﴿ وَأَوَّبَ ﴾ مطيع .

(٢٠) ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَكُمْ ﴾ قويناه بما أعطيناه من
الأسباب، وكثرة العدد والعدد، التي بها قوى
الله ملكه ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ ﴾ النبوة والعلم
العظيم ﴿ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴾ أي: الخصومات
بين الناس .

(٢١) ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبُوءًا الْخَصَمُ ﴾ فإنه نبأ عجيب
﴿ إِذْ سَوَّرُوا ﴾ على داود ﴿ الْمَعْرَابَ ﴾ محل عبادته،
من غير إذن، ولا استئذان .

(٢٢) ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾ ولم
يدخلوا عليه مع باب؛ فلذلك لما دخلوا عليه
بهذه الصورة، فزع منهم وخاف، ف ﴿ قَالُوا لَا
تَخَفْ ﴾ نحن ﴿ خَصَمَانِ بَعَى بَعْضًا عَلَى بَعْضٍ ﴾
بالظلم ﴿ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ﴾ بالعدل ﴿ وَلَا

(٢١) قال أبو إسامة الهلالي - كان الله له- : أورد كثير من المفسرين هنا قصة تأمر نبي الله داود عليه السلام على قائدة أوريا حيث
بعته إلى ساحة الحرب؛ ليقتل، ثم يتزوج امرأته بعد أن فعل الفاحشة معها .

وهذه أحاديث مكذوبة لا يصح إيرادها فضلاً عن ترويجها، ولذلك قال الحافظ ابن كثير في « التفسير » « قد ذكر المفسرون
ها هنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا
حديثاً لا يصح سنده؛ لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس، ويزيد، وإن كان من الصالحين، لكنّه ضعيف الحديث عند
الأئمة، فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة، وأن يُردَّ علمها إلى الله عز وجل؛ فإن القرآن حق، وما تضمن فهو
حق أيضاً » .

(٢٤) في « الصحيحين » و « المسند » عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في السجود في (ص): « ليست من عزائم السجود، وقد رأيت رسول
الله ﷺ يسجد فيها » .

وعنه عند النسائي بإسناد صحيح: أن النبي ﷺ سجد في (ص)، وقال: « سجدها داود توبة » .

وعنه - أيضاً - عند الترمذي وابن ماجه وابن حبان بإسناد صحيح لغيره؛ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله،
إني رأيت فيما يرى النائم كأنني أصلي خلف شجرة، فقرأت السجدة فسجدت؛ فسجدت الشجرة لسجودي، فسمعتها تقول
وهي ساجدة: « اللهم اكتب لي بها عندك أجراً، واجعلها لي عندك ذخراً. وضع عني بها وزراً، واقبلها مني كما قبلتها من
عبدك داود » . قال ابن عباس: فرأيت النبي ﷺ قام فقرأ السجدة، ثم سجد، فسمعتة يقول وهو ساجد كما حكى الرجل عن
كلام الشجرة .

فيه: حسنات الأبرار سيئات المقربين. وأكرمه الله بأنواع الكرامات، فقال: ﴿وَأَنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لِرُزْقِكُمْ مَنَزِلَةً عَالِيَةً وَقُرْبَةً مِنَّا﴾ ﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ مرجع.

(٢٦) ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ تنفذ فيها القضايا الدينية والدنيوية ﴿فَأَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ العدل، وهذا لا يتمكن منه إلا بعلم بالواجب، وعلم بالواقع، وقدرة على تنفيذ الحق ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى﴾ فتميل مع أحد؛ لقراءة، أو صداقة، أو محبة، أو بغض للآخر ﴿فَيُضِلَّكَ﴾ الهوى ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ويخرجك عن الصراط المستقيم ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ خصوصاً المتعمدين منهم ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَمَّا نُسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ فلو ذكروه، ووقع خوفه في قلوبهم، لم يميلوا مع الهوى الفاتن.

(٢٧) ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾ يخبر تعالى عن تمام حكمته في خلقه السماوات والأرض، وأنه لم يخلقهما باطلاً؛ أي: عبثاً ولعباً من غير فائدة ولا مصلحة ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بربهم؛ حيث ظنوا ما لا يليق بجلاله ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ فإنها التي تأخذ الحق منهم، وتبلغ منهم كل مبلغ، وإنما خلق الله السماوات والأرض بالحق وللحق؛ فخلقهما ليعلم العباد كمال علمه وقدرته وسعة سلطانه، وأنه تعالى وحده المعبود بحق.

(٢٨) ﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ هذا غير لائق بحكمتنا وحكمنا.

(٢٩) ﴿كَتَبَ أَرْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ﴾ فيه خير كثير،

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ٢٧ أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ٢٨ كَتَبَ أَرْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَذَرُوا آبَاءَهُمْ وَلِيَتَذَكَّرُوا أُولَئِكَ الْأَنْبِيَاءُ ٢٩ وَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدَانِ إِنَّهُمَا أَوْابُونَ ٣٠ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَنِيِّ الصُّلْحُفَتِ الْجِيَادِ ٣١ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ٣٢ رُدُّوهُمَا عَلَيَّ فَطُفِقَ مَسْئَلًا لِلسُّورِيِّ وَالْأَعْتَاقِ ٣٣ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ٣٤ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ عِبْدِي إِلَّا أَنْتَ أَلُوهُابُ ٣٥ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُفْعَةً حَيْثُ أَصَابَ ٣٦ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاسٍ ٣٧ وَأَخْرَيْنَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ٣٨ هَذَا عَطَاؤُنَا فَتَنَّا أَوْامِيكَ بَعْدَ حِسَابٍ ٣٩ وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لِرُزْقٍ وَحُسْنِ مَتَابٍ ٤٠ وَادْكُرْ عِبَادَنَا أُورُبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أِنِّي مَسْنِي الشَّيْطَانُ نَبْصِبْ وَعَدَّابٍ ٤١ أَرْضُكَ بِرُحْمِكَ هَذَا مَغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ٤٢

هو الواقع، فلهذا لم يحتج أن يتكلم الآخر، فلا وجه للاعتراض بقول القائل: «لم حكم داود قبل أن يسمع كلام الخصم الآخر؟» ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجِيكَ إِلَيَّ نِعَامِهِ﴾ وهذه عادة الخلطاء والقرناء الكثير منهم، فقال: ﴿وَأَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ لأن الظلم من صفة النفوس ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإن ما معهم من الإيمان والعمل الصالح يمنعهم من الظلم ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ قليل هم ﴿وَوَظَنَّا دَاوُدَ﴾ حين حكم بينهما ﴿أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ اخترناه ودبرنا عليه هذه القضية؛ ليتنبه ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾ لما صدر منه ﴿وَحَرَّ رَاكِعًا﴾ ساجداً ﴿وَأَنَابَ﴾ لله تعالى بالتوبة النصوح والعبادة.

(٢٥) ﴿فَغَفَرْنَا لَكُمْ ذَلِكَ﴾ الذي صدر منه، مما يقال

آثرت حب الخير الذي هو المال عموماً، وفي هذا الموضع المراد: الخيل ﴿عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ حتى غابت الشمس في الحجاب.

(٣٣) ﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ﴾ فردوها ﴿فَطَفِقَ﴾ فيها ﴿مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ وفي هذه الآية ثلاثة أقوال:

الأول: جعل يعقرها بسيفه في سوقها وأعناقها. الثاني: كان يمسح سوقها وأعناقها بيده؛ يكشف الغبار عنها حباً لها وشفقة عليها.

الثالث: طلب رد الشمس حتى صلى العصر في وقتها.

والقول الأول هو المشهور، وهو منسوب لجمهور المفسرين، والثاني له وجه معتبر، فهو يناسب مقام النبوة، وهو اختيار شيخ المفسرين ابن جرير الطبري.

والثالث مردود؛ لأن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع بن نون عليه السلام في غزوه لبيت المقدس، كما ثبت في صحيح السنة.

(٣٤) ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ ابتليناه واختبرناه ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ في هذه الآية قولان:

وعلم غزير، فيه كل هدى من ضلالة، وشفاء من داء، ونور يستضاء به في الظلمات، وكل حكم يحتاج إليه المكلفون، وفيه من الأدلة القطعية على كل مطلوب، ما كان به أجل كتاب طرق العالم منذ أنشأه الله ﴿لِيَذَرُوا بَيْنَهُ﴾ هذه الحكمة من إنزاله؛ ليتدبر الناس آياته، فيستخرجوا علمها، ويتأملوا أسرارها وحكمها ﴿وَلِيَذْكُرُوا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أولو العقول الصحيحة، يتذكرون بتدبرهم لها كل علم ومطلوب.

(٣٥) ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ﴾ أنعمنا به عليه، وأقررنا به عينه ﴿نَعَمْ الْعَبْدُ﴾ سليمان عليه السلام، فإنه اتصف بما يوجب المدح، وهو ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ رجّاع إلى الله في جميع أحواله.

(٣٦) ﴿إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعِشِيِّ الصُّفُونُ الْجِيَادُ﴾ عرضت عليه الخيل الجياد السبق الصافنات التي من وصفها الصفون؛ وهو: رفع إحدى قوائمها عند الوقوف، فألهته عن صلاة المساء وذكره.

(٣٧) ﴿فَقَالَ﴾ ندماً على ما مضى منه، وتقرباً إلى الله بما ألهاه عن ذكره، وتقديم حب الله على حب غيره: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾

(٣٨) أخرج أبو داود والنسائي بإسناد صحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك - أو خيبر - وفي سهوتها ستر، فهبت الريح، فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة - لعب - فقال: «ما هذا يا عائشة؟» قالت: بناتي، ورأى بينهن فرساً له جناحان في رقاع، فقال: «ما هذا الذي أرى وسطهن؟» قالت: فرس. قال: «وما هذا الذي عليه؟» قالت: جناحان. قال: «فرس له جناحان؟! قالت: أما سمعت أن لسليمان خيلاً لها أجنحة؟ قالت: فضحك حتى رأيت نواجذه.

(٣٩) في «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال سليمان: لأطوفن الليلة على تسعين امرأة كلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: قل إن شاء الله، فلم يقل إن شاء الله، فطاف عليهن جميعاً، فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل، وأيم الله الذي نفس محمد بيده لو قال: إن شاء الله؛ لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون».

قال أبو اسامة الهلالي - عفا الله عنه - قال أبو حيان في «البحر المحيط»: «نقل المفسرون في هذه الفتنة وإلقاء الجسد أقوالاً =

له وغفر له، وزاده ملكاً لم يحصل لأحد من بعده.

(٣٦) ﴿فَسَحَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ غدوها شهر ورواحها شهر ﴿رِيحًا﴾ لينة ليست بعاصفة ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ حيث أراد في البلاد.

(٣٧) ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ﴾ وهو تسخير الشياطين له، بينون ما يريد، ويغوصون له في البحر؛ يستخرجون الدر والحلي.

(٣٨) ﴿وَأَخْرَيْنَ مُفْرِّجِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ ومن عصاه منهم قرنه في الأصفاد- القيود- وأوثقه.

(٣٩) ﴿وَقُلْنَا لَهُ: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا﴾ فَقَرَّبَ بِهِ عَيْنًا ﴿فَأَمَّنْ﴾ على عمن شئت ﴿أَوْ أَسَبَّ﴾ من شئت ﴿بِعَيْرِ حِسَابٍ﴾ لا حرج عليك في ذلك ولا حساب؛ لعلمه تعالى بكمال عدله، وحسن أحكامه، ولا تحسبن هذا لسليمان في الدنيا دون الآخرة، بل له في الآخرة خير عظيم، ولهذا قال:

(٤٠) ﴿وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لُزُفًا وَحَسَنَ مَّآبٍ﴾ هو من المقربين عند الله، المكرمين بأنواع الكرامات لله.

(٤١) ﴿وَأَذْكُرُ﴾ في هذا الكتاب ذي الذكر ﴿عَبْدًا أَوْبًا﴾ بأحسن الذكر، وأثن عليه بأحسن الشناء، حين أصابه الضر، فصبر على ضره، فلم يشتك لغير ربه، ولا لجأ إلا إليه ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ داعياً، وإليه لا إلى غيره شاكياً، فقال: رب ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ

ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب ﴿وَأَذْكُرُ﴾ وأذكر ﴿عَبْدًا أَوْبًا﴾ وأذكر عبداً أوتاهم وإنسحق ويعقوب ﴿أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَنْصُرِ﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿وَأَنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ وَأَذْكُرُ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿هَذَا ذِكْرُ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَّآبٍ ﴿جَنَّاتٌ عِدْنُ يُمْشَتْنَهُمْ فِيهَا الْأَنْبِيَاءُ مُتَّبِعِينَ فِيهَا يُدْعَوْنَ فِيهَا يَنْفِكُ الْهَرَقَ كَثِيرًا فَوَسْوَسَ لَهُمْ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْطَّرِيقِ أَثَرَابٌ ﴿هَذَا مَا تَدْعُونَ لِيَوْمٍ أَلْجَاسٍ ﴿إِنَّ هَذَا الرَّقْمَ الْمَلِكُ مِنْ نَحْنُ ﴿هَذَا وَارْتِ الْطَّافِينَ لَشَرِّ مَّآبٍ ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَلْسَنُوا لَهَا ﴿هَذَا فَلْيَذوقُوا حِمْرًا وَسَاءَ ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْ شَجَلِهِ أَرْوَاحَ ﴿هَذَا أَرْوَاحٌ مُتَنَجِّمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْجَاءَ لَهُمْ وَأَنَّهُمْ صَالُوا النَّارَ ﴿قَالُوا لَيْسَ لَنَا مَرْجَاءُ بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَّوْهُ لَنَا وَفَسَّ الْفَرَارُ ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدُّهُ عَذَابًا يُعَذِّقُنَا النَّارَ ﴿

الأول: أن المراد بالجسد شيطان جلس على كرسي سليمان عليه السلام ويتصرف في ملكه مدة فنتته.

الثاني: شق مولود، جاءت به القابلة؛ فألقته على كرسيه.

الأول هو الأشهر، والثاني هو الأصح، لورود السنة الصحيحة به.

﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ سليمان إلى الله تعالى وتاب.

(٣٥) ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَخِي مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ فاستجاب الله

يجب براءة الأنبياء منها، يوقف عليها في كتبهم، وهي مما لا يحل نقلها، وأما هي من أوضاع اليهود الزنادقة، ولم يبين الله الفتنة ما هي، ولا الجسد الذي ألقاه على كرسي سليمان، وهذا الحديث فصل في هذه المسألة بلا ريب ولا مشنوية.

(٣٥) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن عفريتاً من الجن تفلت عليّ البارحة؛ ليقطع عليّ الصلاة، فأمكنني الله منه، وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول أخي سليمان: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَخِي مِنْ بَعْدِي﴾».

﴿إِسْحَاقَ﴾ ابن ابنه ﴿وَيَعْقُوبَ أَوَّلَى الْآلِذِي﴾ القوة على عبادة الله تعالى ﴿وَالْأَصْدِرَ﴾ البصيرة في دين الله. فوصفهم بالعلم النافع، والعمل الصالح الكثير.

(٤٦) ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ﴾ عظيمة، وخصيصة جسيمة، وهي: ﴿ذِكْرَى الدَّارِ﴾ جعلنا ذكرى الدار الآخرة في قلوبهم، والعمل لها صفوة وقتهم، والإخلاص والمراقبة لله وصفهم الدائم، وجعلناهم ذكرى الدار يتذكر بأحوالهم المتذكر، ويعتبر بهم المعتمر، ويذكرون بأحسن الذكر.

(٤٧) ﴿وَأَنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ﴾ الذين اصطفاهم الله من صفوة خلقه ﴿الْأَخْيَارِ﴾ الذين لهم كل خلق كريم، وعمل مستقيم.

(٤٨) ﴿وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ﴾ واذكر هؤلاء الأنبياء بأحسن الذكر، وأثن عليهم أحسن الثناء، فإن كلاً منهم من الأخيار الذين اختارهم الله من الخلق، واختار لهم أكمل الأحوال: من الأعمال والأخلاق. والصفات الحميدة والخصال السديدة.

(٤٩) ﴿هَذَا﴾ أي: ذكر هؤلاء الأنبياء الصفوة وذكر أوصافهم ﴿ذِكْرٌ﴾ في هذا القرآن ذي الذكر، يتذكر بأحوالهم المتذكرون، ويشتاق إلى الاقتداء بأوصافهم الحميدة المقتدون ﴿وَأَنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ربهم؛ بامتثال الأوامر، واجتناب النواهي، من كل مؤمن ومؤمنة ﴿لَحُسْنِ مَّثَابٍ﴾ لمأباً حسناً، ومرجعاً مستحسناً.

(٥٠) ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ جنات إقامة ﴿مُفَنَّنَةٍ لَهُمْ﴾ مفتحة لأجلهم أبواب منازلها ومسكنها، لا يحتاجون أن يفتحوها هم.

(٥١) ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا﴾ على الأرائك المزينات،

الشَّيْطَانُ يُصْبِحُ وَعَذَابٌ بِمَشَقَّةٍ وَضُرٍّ. (٤٢) ف قيل له: ﴿أَكْثَرُ بِرَحْمَتِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ اضرب الأرض بها؛ لينبع لك منها عين تغسل منها وتشرب، فيذهب عنك الضر والأذى، ففعل ذلك، فذهب عنه الضر، وشفاه الله تعالى.

(٤٣) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ﴾ قيل: إن الله تعالى أحياهم له ﴿وَوَسَّلْنَاهُمْ مَّعَهُمْ﴾ في الدنيا، وأغناه الله، وأعطاه مالا عظيماً ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾ بعبداً أيوب؛ حيث صبر؛ فأنبأه من رحمتنا ثواباً عاجلاً وآجلاً ﴿وَذَكَّرْنَا لِأَوَّلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ﴾ وليتذكر أولو العقول بحالة أيوب ويعتبروا، فيعلموا أن من صبر على الضر: أن الله تعالى يثيبه ثواباً عاجلاً وآجلاً، ويستجيب دعاءه إذا دعاه.

(٤٤) ﴿وَوَحَّدْنَا بِرَبِّكَ ضِعْفًا﴾ حزمة شماريخ ﴿فَأَضْرِبْ يَدَيْكَ﴾ قال المفسرون: وكان في مرضه وضره، قد غضب على زوجته في بعض الأمور، فحلف: لئن شفاه الله ليضربنها مائة جلدة، فلما شفاه الله، وكانت امرأته سالحة محسنة إليه، رحمها الله ورحمه، فأفتاه أن يضربها بضغت فيه مائة شمراخ ضربة واحدة، فيبر في يمينه ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ﴾ أي: أيوب ﴿صَابِرًا﴾ ابتليناه بالضر العظيم، فصبر لوجه الله تعالى ﴿يَعْمُ الْعَبْدُ﴾ الذي كمل مراتب العبودية، في حال السراء والضراء، والشدة والرخاء، ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ كثير الرجوع إلى الله في مطالبه الدينية والدنيوية، كثير الذكر لربه والدعاء والمحبة والتأله.

(٤٥) ﴿وَأَذْكُرْ عِدَّةً﴾ الذين أخلصوا لنا العبادة ذكراً حسناً، ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ الخليل ﴿و﴾ ابنه

لِلظَّالِمِينَ ﴿الْمُتَجَاوِزِينَ لِلْحُدُودِ فِي الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي﴾
﴿لَشَرَّ مَثَابٍ﴾ لشر مرجع ومنقلب .

(٥٦) ﴿جَهَنَّمَ﴾ التي جمع فيها كل عذاب، واشتد حرها، وانتهى قرؤها ﴿يَصَلُّونَهَا﴾ يعذبون فيها عذاباً يحيط بهم من كل وجه ﴿فِي سَبِيلِ الْمَهَادِ﴾ المعد لهم مسكناً ومستقراً .

(٥٧) ﴿هَذَا﴾ المهاد، هذا العذاب الشديد والخزي والفضيحة والنكال ﴿فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ﴾ ماء حار قد اشتد حره، يشربونه فَيَقْطَعُ أَمْعَاءَهُمْ ﴿وَعَسَاقٌ﴾ وهو أكره ما يكون من الشراب، من قيح وصدید، مر المذاق، كرية الرائحة .

(٥٨) ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَكْلِهِمْ﴾ من نوعه ﴿أَزْوَاجٌ﴾ عدة أصناف من أصناف العذاب، يعذبون بها، ويخزون بها .

(٥٩) وعند تواردهم على النار يشتم بعضهم بعضاً، ويقول بعضهم لبعض: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَعَكُمْ﴾ النار ﴿لَا مَرْجَأَ لَهُمْ﴾ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ أَي بدل السلام يتلاعنون ويتكاذبون، ويكفر بعضهم ببعض؛ كما في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨] .

(٦٠) ﴿قَالُوا﴾ أي: الفوج المقبل المقتحم: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْجَأَ يَكُورُ أَنتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ﴾ أي: العذاب لنا ﴿بَدْعُوتِكُمْ لَنَا﴾ وفتنتكم وإضلالكم وتسبيكم ﴿فَقَسَّ أَفْقَارُ﴾ قرار الجميع، قرار السوء والشر .

(٦١) ثم دعوا على المغوين لهم، ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَّهِ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ أَخْرِجْنَهُمْ لِأَوْلَادِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتَيْنَهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ

وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿١٢﴾ أَعْتَدْنَا لَهُمْ سَخِرًا مِّنْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْبَصَرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَنُحْصِيهِمْ أَهْلُ النَّارِ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ وَإِنِّي إِلَّا إِلَهُهُمُ الْوَحْدُ الْقَهَّارُ ﴿١٥﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿١٦﴾ قُلْ هُوَ تَبَوَّأَ عَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿١٨﴾ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِاللَّهِ إِلَّا غَنًى إِذْ يَقُولُ حَتَّىٰ يَأْتِيَ الْوَعْدُ إِنَّهُ أَنَّ اللَّهَ أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٩﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ ﴿٢٠﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَجِدًا ﴿٢١﴾ فَسَجَدَ الْمَلٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٢٢﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ تَبٰٓءَ إِلٰهِي سَاجِدٌ لِّمَا خَلَقْتُ بِهِدَى اسْتَكْبَرَتْ أَم كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَادْخُلْ فِيهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٢٩﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا أُخَوِّسُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣١﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٣٢﴾

والمجالس المزخرفات ﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾ يأمرون خدامهم، أن يأتوا ﴿بِفِكَهْمٍ كَثِيرٍ وَشَرَابٍ﴾ من كل ما تشتهي نفوسهم، وتلذذ أعينهم .

(٥٢) ﴿وَعِنْدَهُمْ﴾ من أزواجهم الحور العين ﴿قَصُرَتْ﴾ طرفهن على أزواجهن، وطرف أزواجهن عليهن؛ لجمالهم كلهم، ومحبة كل منهما للآخر، وعدم طموحه لغيره، وأنه لا ينبغي بصاحبه بدلاً، ولا عنه عوضاً ﴿أَنْزَابٌ﴾ على سن واحد، أعدل سن الشباب وأحسنه وألذه .

(٥٣) ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ أيها المتقون ﴿لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ جزاء على أعمالكم الصالحة .

(٥٤) ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا﴾ الذي أوردناه على أهل دار النعيم ﴿مَا لَكُمْ مِنْ نِّقَادٍ﴾ انقطاع .

(٥٥) ﴿هَذَا﴾ الجزاء للمتقين ما وصفناه ﴿وَأِنَّ

وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿الأعراف: ٣٨﴾.

(٦٢) ﴿وَقَالُوا﴾ وهم في النار ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾ كنا نزعهم أنهم من الأشرار، المستحقين لعذاب النار. وهم المؤمنون، تفقدهم أهل النار - قبحهم الله - هل يرونهم في النار؟
(٦٣) ﴿أَتُخَذَتْهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ﴾ عدم رؤيتنا لهم دائر بين أمرين: إما أننا غالطون في عدنا إياهم من الأشرار، بل هم من الأخيار، وإنما كلامنا لهم من باب السخرية والاستهزاء بهم، والأمر الثاني: أنهم لعلهم زاغت أبصارنا عن رؤيتهم معنا في العذاب، وإلا فهم معنا معذبون، ولكن تجاوزتهم أبصارنا.

(٦٤) قال تعالى مؤكداً ما أخبر به: ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ الذي ذكرت لكم ﴿لَحَقٌّ﴾ ما فيه شك ولا مرية ﴿فَتَخَاضِعُ أَهْلُ النَّارِ﴾.

(٦٥) ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول لهؤلاء المكذبين، إن طلبوا منك ما ليس لك ولا بيدك: ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ﴾ هذا نهاية ما عندي، وأما الأمر فله تعالى، ولكني آمركم وأنهاكم، وأحثكم على الخير، وأزجركم عن الشر، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضلّ فعليها ﴿وَمَا مِنَّ إِلَهٍ إِلَّا﴾

الله ﴿ما أحد يؤله ويعبد بحق إلا الله﴾ ﴿الْوَحْدُ الْقَهَّارُ﴾ هذا تقرير لألوهيته بهذا البرهان القاطع، وقهره لكل شيء.

(٦٦) وقرر ذلك أيضاً بتوحيد الربوبية؛ فقال: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ خالقهما ومربيهما ومدبرها بجميع أنواع التدابير ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي له القوة التي بها خلق المخلوقات العظيمة ﴿الْعَفْوُ﴾ لجميع الذنوب: صغيرها وكبيرها، لمن تاب إليه، وأقلع منها.

(٦٧) ﴿قُلْ﴾ لهم مخوفاً ومحذراً، ومنهضاً لهم ومنذراً: ﴿هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ما أنبأكم به من البعث والنشور والجزاء على الأعمال، خبر عظيم ينبغي الاهتمام الشديد بشأنه، ولا ينبغي إغفاله.

(٦٨) ولكن ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ كأنه ليس أمامكم حساب ولا عقاب ولا ثواب، فإن شككتكم في قولي، وامترتكم في خبري؛ فإني أخبركم بأخبار، لا علم لي بها، ولا درستها في كتاب، فإخباري بها على وجهها من غير زيادة ولا نقص أكبر شاهد لصدقي وأدل دليل على حق ما جئتكم به، ولهذا قال:

(٦٩) ﴿مَا كَانَ لِيَ مِّنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْيُنِ﴾ بالملائكة ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ لولا تعليم الله إياي، وإيحائه

(٦٩) أخرج الإمام أحمد والترمذي بإسناد صحيح عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: احتبس عنا رسول الله ﷺ ذات غداة عن صلاة الصبح حتى كدنا نترأى عين الشمس فخرج سريعاً، فثوب بالصلاة فصلّى رسول الله ﷺ، وتجاوز في صلاته، فلما سلم دعا بصوته فقال لنا: «على مصافحكم كما أنتم» ثم انفلت إلينا ثم قال: «أما إني سأحدثكم ما حسني عنكم الغداة أي قمت من الليل فوضأت وصليت ما قدر لي، فنعست في صلاتي فاستثقلت، فإذا أنا بربي تبارك وتعالى في أحسن صورة، فقال: يا محمد. قلت: لبيك رب، قال: فيم يختصم الملاء الأعلى؟ قلت: لا أدري، قالها ثلاثاً، قال: «فأريته وضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين ثديي، فتجلّى لي كل شيء وعرفت، فقال: يا محمد. قلت: لبيك رب، قال: فيم يختصم الملاء الأعلى؟ قلت: في الكفارات، قال: ما هن؟ قلت: مشي الأقدام إلى الجماعات، والجلوس في المساجد بعد الصلوات، وإسباغ الوضوء في المكروهات. قال: ثم فيم؟ قلت: في الدرجات، قال: ما هن؟ قلت: إطعام الطعام، ولين الكلام، -

إِلَيَّ، ولهذا قال:

(٧٠) ﴿إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر

النذارة جليها، فلا نذير أبلغ من نذارته ﷺ.

(٧١) ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ عَلَيَّ وَجْهَ الْإِخْبَارِ: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ مادته من طين.

(٧٢) ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ سويت جسمه وتم ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُم سَجِدِينَ﴾ فوطن

الملائكة الكرام أنفسهم على ذلك، حين يتم خلقه ونفخ الروح فيه، امتثالاً لربه، وإكراماً لآدم ﷺ، فلما تم خلقه في بدنه وروحه، وامتنحن الله آدم والملائكة في العلم، وظهر فضله عليهم، أمرهم الله بالسجود.

(٧٣) ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ سواء من كان منهم في السماوات أو في الأرض.

(٧٤) ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ لم يسجد ﴿أَسْتَكْبَرُ﴾ عن أمر ربه، واستكبر على آدم ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ في علم الله تعالى.

(٧٥) ﴿فَقَالَ﴾ الله موبخاً ومعاتباً: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيدِي﴾ شرفته وكرمه، واختصصته بهذه الخصيصة، التي اختص بها عن سائر الخلق، وذلك يقتضي عدم التكبر عليه.

﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ في امتناعك ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ المتكبرين الذين يتكبرون على الخلق، فتكبرت عن السجود لكونك منهم.

(٧٦) ﴿قَالَ﴾ إبليس معارضاً لربه ومناقضاً:

﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ وبزعمه أن عنصر النار خير من عنصر الطين، وهو قياس فاسد؛ لمعارضته النص، ومخالفته للواقع؛ فإن التراب مادة الخير والنمو والرزاء، والنار مادة الإتلاف والإحراق.

(٧٧) ﴿فَقَالَ﴾ الله له: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ من الجنة، أو السماء والمحل الكريم ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ مبعد مدحور.

(٧٨) ﴿وَإِن عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾ طردي وإبعادي ﴿إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ دائماً أبداً.

(٧٩) ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ سأل الله النِّظرة والإمهال إلى يوم البعث؛ لشدة عداوته لآدم وذريته، وليتمكن من إغواء من قدر الله أن يغويه.

(٨٠) ﴿فَقَالَ﴾ الله مجيباً لدعوته، حيث اقتضت حكمته ذلك: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ أي: الممهلين، المبقى على حياتهم.

(٨١) ﴿إِلَى يَوْمِ آتَ الْوَعْدِ الْمَعْلُومِ﴾ وهو النفخة الأولى، حين تستكمل الذرية؛ يتم الامتحان.

(٨٢) فلما علم أنه مُنْظَر، بادى ربه من خبثه بشدة العداوة لربه، ولآدم وذريته، ف﴿قَالَ﴾: ﴿فِعِزَّاكَ لَأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يحتمل أن الباء للقسام، وأنه أقسم بعزة الله ليغوينهم كلهم أجمعين.

(٨٣) ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ علم أن الله سيحفظهم من كيد، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ

وَالصَّلَاةَ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسِ نِيَامَ، قال: سل. قلت: اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لي وترحمني، وإذا أردت فتنة قوم فتوقني غير مفتون، أسألك حبك وحب من يحبك، وحب عمل يقرب إلى حبك». قال رسول الله ﷺ: «إنها حق، فادرسوها ثم تعلموها».



يَرْبِكَ وَكَيْلًا [الإسراء: ٦٥].
 (٨٤) ﴿قَالَ﴾ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾
 الحق وصفي، والحق قولِي.
 (٨٥) ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾
 أي: من الإنس والجن أجمعين.
 (٨٦) فلما بين الرسول للناس الدليل ووضح
 لهم السبيل قال الله له: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾
 على دعائي إياكم ﴿مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾
 أدعي أمراً ليس لي، وأفقر ما ليس لي به علم، لا أتبع إلا ما يوحى إليَّ.
 (٨٧) ﴿إِنَّ هُوَ﴾ هذا الوحي والقرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾
 يتذكرون به كل ما ينفعهم، من مصالح دينهم ودنياهم، فيكون شرفاً ورفعة للعاملين به، وإقامة حجة على المعاندين.
 (٨٨) ﴿وَلَعَلَّكُمْ نَبَأٌ﴾ خبره ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ وذلك حين يقع عليهم العذاب، وتقطع عنهم الأسباب.

سورة الزمر وهي مكية

(١) ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾
 يخبر تعالى عن عظمة القرآن، وجلالة من تكلم به ونزل منه، وأنه نزل من الله العزيز الحكيم، الذي وصفه الألوهية للخلق، وذلك لعظمته وكماله، والعزة التي قهر بها كل

مخلوق، وذل له كل شيء، والحكمة في خلقه وأمره.

فالقرآن نازل ممن هذا وصفه، والكلام وصف للمتكلم، والوصف يتبع الموصوف، فكما أن الله تعالى الكامل من كل وجه، الذي لا مثل له، فكذلك كلامه كامل من كل وجه، لا مثل له، فهذا وحده كافٍ في وصف القرآن دال على مرتبته.

(٢) ولكنه زاد بياناً لكماله بمن نزل عليه، وهو محمد ﷺ، الذي هو أشرف الخلق؛ فقال: ﴿إِنَّا

(١٦) في «الصحاحين» عن مسروق قال: أتينا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقال: «يا أيها الناس، من علم شيئاً؛ فليقل به، ومن لم يعلم؛ فليقل: الله أعلم؛ فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم، فإن الله قال لنيكم ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾».

(١٧) أخرج الترمذي والنسائي وأحمد بإسناد صحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر. ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم. وكان يقرأ في كل ليلة بني إسرائيل والزمر».

وقد علم أن حكمه أن المؤمنين المخلصين في جنات النعيم، ومن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة، ومأواه النار ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي﴾ لا يوفق للهداية إلى الصراط المستقيم ﴿مَنْ هُوَ كَذِبٌ كَفَّارٌ﴾ وصفه الكذب أو الكفر.

(٤) ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ كما زعم ذلك من زعمه من سفهاء الخلق ﴿لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ لاصطفى بعض مخلوقاته التي يشاء اصطفاؤه، واختصه لنفسه، وجعله بمنزلة الولد، ولم يكن حاجة إلى اتخاذ صاحبة ﴿سُبْحَنَهُ﴾ عما ظنه به الكافرون، أو نسبته إليه الملحدون ﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ﴾ في ذاته، وفي أسمائه، وفي صفاته، وفي أفعاله، فلا شبهة له في شيء من ذلك، ولا مماثل، فلو كان له ولد؛ لاقتضى أن يكون شبيهاً له في وحدته؛ لأنه بعضه، وجزء منه.

﴿الْفَهَّارُ﴾ لجميع العالم، العلوي والسفلي، فلو كان له ولد لم يكن مقهوراً، ولكان له إدلال على أبيه ومناسبة منه.

(٥) ثم أخبر تعالى أنه ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ بالحكمة والمصلحة، وليأمر العباد وينهاهم، ويثيبهم ويعاقبهم، وأنه ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ يدخل كلاً منهما على الآخر ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ بتسخير منظم، وسير مقنن ﴿كُلٌّ﴾ من الشمس والقمر ﴿يَجْرِي﴾ متأثراً عن تسخيره تعالى: ﴿لِأَجْلِ مُسَمًّى﴾ وهو انقضاء هذه الدار وخرابها ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالب، القاهر لكل شيء، الذي لا يستعصي عليه شيء، الذي من عزته أوجد هذه المخلوقات العظيمة، وسخرها تجري

أَرْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ فعلم أنه أشرف الكتب، وبما نزل به، وهو الحق، فنزل بالحق الذي لا مرية فيه؛ لإخراج الخلق من الظلمات إلى النور، ولما كان نازلاً من الحق، مشتملاً على الحق، لهداية الخلق، على أشرف الخلق؛ عظمت فيه النعمة وجلت، ووجب القيام بشكرها، وذلك بإخلاص الدين لله، فلهذا قال: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ أخلص لله تعالى جميع دينك، من الشرائع الظاهرة، والشرائع الباطنة: الإسلام والإيمان والإحسان، بأن تُفرد الله وحده بها، وتقصد به وجهه، لا غير ذلك من المقاصد.

(٣) ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ هذا تقرير للأمر بالإخلاص، وبيان أنه تعالى كما أنه له الكمال كله، وله التفضل على عباده من جميع الوجوه، فكذلك له الدين الخالص الصافي من جميع الشوائب ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يتولونهم بعبادتهم ودعائهم، معتدريين عن أنفسهم، وقائلين: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ لترفع حوائجنا لله، وتشفع لنا عنده، وإلا فنحن نعلم أنها لا تخلق ولا ترزق، ولا تملك من الأمر شيئاً.

أي: فهؤلاء قد تركوا ما أمر الله به من الإخلاص، وتجروؤوا على أعظم المحرمات، وهو الشرك، وقاسوا الذي ليس كمثله شيء، الملك العظيم، بالملوك، وهذا من أفسد الأقيسة، وهو يتضمن التسوية بين الخالق والمخلوق! ولهذا قال حاكماً بين الفريقين المخلصين والمشركين:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

بأمره ﴿الْفَقْرُ﴾ لذنوب عباده التوايين المؤمنين، الغفار لمن أشرك به بعد ما رأى من آياته العظيمة ثم تاب وأناب.

(٦) ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَكُمْ فِي أَنْحَاءِ الْأَرْضِ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وذلك ليسكن إليها وتسكن إليه، وتتم بذلك النعمة ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ﴾ خلقها بقدر نازل منه؛ رحمة بكم ﴿ثَمِينَةَ أَنْوَجٍ﴾ وهي التي ذكرها في سورة الأنعام: ﴿مِنَ الْأَضْيَانِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْأَنْعَامِ﴾ [الأنعام: ١٤٣] ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ طوراً بعد طور، وأنتم في حال لا يد مخلوق تمسكم، ولا عين تنظر إليكم، وهو قد رباكم في ذلك المكان الضيق ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾: ظلمة البطن، ثم ظلمة الرحم، ثم ظلمة المشيمة ﴿ذَالِكُمْ﴾ الذي خلق السماوات والأرض، وسخر الشمس والقمر، وخلقكم وخلق لكم الأنعام والنعم ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ المألوه المعبود، الذي رباكم ودبركم ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فكما أنه الواحد في خلقه وتربيته لا شريك له في ذلك، فهو الواحد في ألوهيته، لا شريك له ﴿فَإِن تَضَرُّوْنَ﴾ فكيف تعبدون معه غيره.

(٧) ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي عَنْكُمْ﴾ لا يضره كفركم، كما لا ينتفع بطاعتكم، ولكن أمره ونهيه لكم محض فضله وإحسانه عليكم ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾؛ لأنه خلقهم لعبادته، فهي الغاية التي خلق لها الخلق، فلا يرضى أن يدعوا ما خلقهم لأجله ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا﴾ لله تعالى بتوحيده وإخلاص الدين له ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾؛ لرحمته بكم،

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةَ أَنْوَجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَن تَضَرُّوْنَ ١ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ٢ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ رَحْمَةً مِنْهُ لَمْ يَقُلْ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَتَادًا يُضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ٣ أَمَنْ هُوَ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ الْبَلَّ سَاجِدًا أَوْ قَائِمًا يُحَدِّثُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَذْكُرُوا لَوَلُوا إِلَّا لِبَيْ ٤ قُلْ يَعْبُدُوا اللَّهَ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ رَبُّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ٥

ومحبته للإحسان عليكم، ولفعلكم ما خلقكم لأجله. وكما أنه لا يتضرر بشرككم، ولا ينتفع بأعمالكم وتوحيدكم، كذلك كل أحد منكم له عمله، من خير وشر ﴿وَلَا تُزِرُّ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ﴾ في يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إخباراً أحاط به علمه، وجرى عليه قلمه، وكتبته عليكم الحفظة الكرام، وشهدت به عليكم الجوارح، فيجازي كلاً منكم ما يستحقه ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بنفس الصدور، وما فيها من وصف برٍّ أو فجور، والمقصود من هذا، الإخبار بالجزاء بالعدل التام.

(٨) ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ يخبر تعالى عن كرمه بعبده وإحسانه وبره، وقلة شكر عبده، وأنه حين يمسه

إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿١﴾ فلا يغنيك ما تتمتع به إذا كان المآل النار .

(٩) ﴿أَمَّنْ هُوَ قَلْبُكَ عِندَ آتَاءِ الْبَلِّ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ يقول الله ﷻ ليس المعرض عن طاعة ربه المتبع لهواه، كمن هو قانت مطيع لله بأفضل العبادات، وهي الصلاة، وأفضل الأوقات، وهو أوقات الليل، فوصفه بكثرة العمل وأفضله ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ وصفه بالخوف والرجاء، وذكر أن متعلق الخوف عذاب الآخرة، على ما سلف من الذنوب، وأن متعلق الرجاء رحمة الله، فوصفه بالعمل الظاهر والباطن ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ ربهم، ويعلمون دينه الشرعي، ودينه الجزائي، وما له في ذلك من الأسرار والحكم ﴿وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ شيئاً من ذلك؟ لا يستوي هؤلاء ولا هؤلاء ﴿إِنَّمَا يَذَّكَّرُ﴾ إذا ذكروا ﴿أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ﴾ أهل العقول الزكية الذكية، فهم الذين يؤثرون الأعلى على الأدنى، فيؤثرون العلم على الجهل، وطاعة الله على مخالفته .

(١٠) ﴿قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ قل منادياً لأشرف الخلق وهم المؤمنون، أمراً لهم بأفضل الأوامر، وهي التقوى، ذاكرة لهم السبب الموجب للتقوى، وهو ربوبية الله لهم وإنعامه عليهم: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ بعبادة ربهم ﴿حَسَنَةٌ﴾ ورزق واسع،

قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣﴾ قُلْ اللَّهُ أَعْبُدُوا إِلَهِي ﴿٤﴾ فَأَعْبُدُوا مَا بَيْنَكُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الَّذِينَ ﴿٥﴾ لَمْ يَنْفَعُوا قُلُوبَهُمْ تَلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ تَلَلٌ ذَلِكَ يَحْوِي اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ فَاذْكُرُوا قُلُوبَكُمْ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ أَحْتَنِبُوا أَظَلُّوا أَنْ يَعْبُدُوا وَأَنَا بَالِي إِلَهُهُمْ الشَّرِئْتُ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ حَقٌّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مِنَ النَّارِ ﴿٩﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَمْ يُغْرَفْ مِنْ قُوْلِهِمْ عَرَفٌ مَبْنِيَةٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِعَادَ ﴿١٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ سَبِيلًا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطْحُطًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١١﴾

الضر: من مرض أو فقر، أو وقوع في كربة بحر أو غيره، أنه يعلم أنه لا ينجيه في هذه الحال إلا الله، فيدعوه متضرعاً منيباً، ويستغيث به في كشف ما نزل به ويلج في ذلك ﴿ثُمَّ إِذَا حَوْلَهُمُ﴾ الله ﴿نِعْمَةً مِنْهُ﴾ بأن كشف ما به من الضر والكربة ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوهُ إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾ نسي ذلك الضر الذي دعا الله لأجله، ومر كأنه ما أصابه ضر، واستمر على شركه ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ ليضل بنفسه، ويضل غيره ﴿قُلْ﴾ لهذا العاتي الذي بدل نعمة الله كفرًا: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾

(٩) أخرج الترمذي والنسائي وابن ماجه بإسناد حسن عن أنس رضي الله عنه قال: دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو في الموت، فقال له: «كيف تجدك؟» قال: أرجو وأخاف. فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ﷻ الذي يرجو، وأمنه الذي يخافه».

الخسران ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ هذا الخسران المبين الظاهر الواضح، الذي ليس مثله خسران، وهو خسران مستمر، لا ربح بعده، بل ولا سلامة.

(١٦) ﴿لَهُمْ مِّنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ قطع عذاب كالسحاب العظيم ﴿ذَلِكَ﴾ الوصف الذي وصفنا به عذاب أهل النار، ﴿يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُمْ﴾ سوط يسوق الله به عباده إلى رحمته ﴿يَعْبُدُونَهُ فَاقْتَنُوا﴾ جعل ما أعده لأهل الشقاء من العذاب داع يدعو عباده إلى التقوى، وزاجر عما يوجب العذاب.

(١٧) ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّلْعُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ والمراد بالطاغوت في هذا الموضع: عبادة غير الله، فاجتنبوها في عبادتها ﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾ بعبادته وإخلاص الدين له ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ وهذا شامل للبشرى في الحياة الدنيا بالثناء الحسن، والرؤيا الصالحة، ولهم البشرى في الآخرة عند الموت، وفي القبر، وفي القيامة، وخاتمة البشرى ما يبشرهم به الرب الكريم، من دوام رضوانه وبره وإحسانه وحلول أمانه في الجنة ﴿فَيَسِّرُ عِبَادَهُ﴾ ولما أخبر أن لهم البشرى، أمره الله بشارتهم.

(١٨) ﴿وَالَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ وهذا جنس يشمل كل قول؛ فهم يستمعون جنس القول؛ ليميزوا بين ما ينبغي إثارة مما ينبغي اجتنابه، فلهذا من حزمهم وعقلهم أنهم يتبعون أحسنه، وأحسنه على الإطلاق كلام الله وكلام رسوله ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ لأحسن الأخلاق والأعمال ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ العقول الزاكية.

(١٩) ﴿أَفَمَن حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنَّتْ تُقْدُ مَن

ونفس مطمئنة، وقلب منشرح ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً﴾ إذا منعتم من عبادته في أرض، فهاجروا إلى غيرها، تعبدون فيها ربكم، وتتمكنون من إقامة دينكم ﴿إِنَّمَا يُؤَقِّبُ الصَّابِرِينَ أَجْرَهُمْ﴾ وهذا عام في جميع أنواع الصبر: الصبر على أقدار الله المؤلمة فلا يتسخطها، والصبر عن معاصيه فلا يرتكبها، والصبر على طاعته حتى يؤديها، فوعده الله الصابرين أجرهم ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغير حد ولا عد ولا مقدار، وما ذاك إلا لفضيلة الصبر ومحله عند الله، وأنه معين على كل الأمور.

(١١) ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول للناس: ﴿إِنِّي أُمِرْتُ أَن أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ إنما أمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له.

(١٢) ﴿وَأُمِرْتُ لِأَن أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ لأنني الداعي الهادي للخلق إلى ربهم، فيقتضي أني أول من ائتمر بما أمر به، وأول من أسلم.

(١٣) ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ في ما أمرني به من الإخلاص والإسلام ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو يوم القيامة، يخلد فيه من أشرك، ويعاقب فيه من عصى.

(١٤) ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ مخلصاً له التوحيد، لا أشرك به شيئاً. وهذا - أيضاً - تهديد وتبرء منهم.

(١٥) ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِّنْ دُونِي﴾ أمر توبيخ وتهديد؛ كقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ حقيقة هم ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ حيث حرموها الشواب، واستحقت بسببهم وخيم العقاب ﴿وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ فرق بينهم وبينهم، واشتد عليهم الحزن، وعظم

فَوْقَهَا عُرْفٌ ﴿بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ مَّبْنِيَّةٌ﴾
بذهب وفضة، وملاطها المسك الأدفر ﴿تَجْرَى
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ المتدفقة، المسقية للبساتين
الزاهرة، والأشجار الطاهرة، فتغل بأنواع الثمار
اللذيذة، والفاكهة النضيجة ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلُفُ
اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ وقد وعد المتقين هذا الثواب،
فلا بد من الوفاء به، فليوفوا بخصال التقوى؛
ليوفهم أجورهم.

(٢١) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ﴾ يذكر تعالى أولي
الألباب ما أنزله من السماء من الماء، وأنه
سلكه ينابيع في الأرض، أودعه فيها ينبوعاً،
يستخرج بسهولة ويسر ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً
أَلْوَنُهُ﴾ من بر وذرة وشعير وأرز وغير ذلك
﴿ثُمَّ يَهْبِجُ﴾ عند استكمالها، أو عند حدوث
آفة فيه ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَلَاءً﴾
متكسراً ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾
يذكرون بها عناية ربهم ورحمته بعباده، حيث
يسر لهم هذا الماء، وخزنه بخزائن الأرض
تبعاً لمصالحهم، ويذكرون به كمال قدرته،
وأنه يحيي الموتى، كما أحيا الأرض بعد
موتها، ويذكرون به أن الفاعل لذلك هو
المستحق للعبادة.

سُورَةُ الزَّمَرِ
أَمَّا نَسُحَ اللَّهُ صَدْرُ إِلَّا سَلَوُ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ
لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أَوَلَيْكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾
اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَدِّدًا مَّتَّابٍ تَتَسَعَّرُ مِنْهُ
جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ
إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن
يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَمَّا نَبَقِ يَوْجِهِ سُوَّةُ
الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ
﴿٢٤﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَآتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِن حَيْثُ
لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَا فَعَهُمُ اللَّهُ الْخَزْزِيرَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ
الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي
هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا
غَيْرِ ذِي وِجْءٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ
شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا
الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ نَبِيٌّ وَإِنَّهُمْ يَبْتَلُونَ
﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

فِي النَّارِ ﴿أَمَّا نَبَقِ يَوْجِهِ سُوَّةُ الْعَذَابِ﴾ وجبت عليه كلمة العذاب
باستمراره على غيه وعناده وكفره، فإنه لا حيلة
لك في هدايته، ولا تقدر تنقذ من في النار لا
محالة.

(٢٠) ﴿لَكِنِ الَّذِينَ أَنْفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ لكن الغنى كل
الغنى، والفوز كل الفوز للمتقين، الذين أعد
لهم من الكرامة، وأنواع النعيم، ما لا يقادر
قدره ﴿لَهُمْ عُرْفٌ﴾ منازل عالية مزخرفة ﴿مِّنْ

(٢٠) أخرج الترمذي وابن ماجه وأحمد من حديث أبي هريرة الصحيح بشواهد قال: قلنا: يا رسول الله، إنا إذا رأيناك رقت
قلوبنا، وكنا من أهل الآخرة. فإذا فارقتك أعجبنا الدنيا، وشمنا النساء والأولاد؟ قال: «لو أنكم تكونون على كل حال
على الحال التي أنتم عليها عندي؛ لصافحتكم الملائكة بأكفهم، ولزارتكم في بيوتكم. ولو لم تذبوا لجاء الله بقوم
يذنبون كي يغفر لهم» قلنا: يا رسول الله، حدثنا عن الجنة، ما بناؤها؟ قال: «لجنة ذهب ولبنة فضو، وملاطها المسك
الأدفر، وحصبأوها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم ولا يبأس، ويخلد ولا يموت، لا تبلى ثيابه،
ولا يفنى شبابه. ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم تحمل على الغمام، وتفتح
لها أبواب السموات، ويقول الرب: وعزتي لأنصرك ولو بعد حين».

طريق يوصل إليه إلا توفيقه، والتوفيق للإقبال على كتابه، فإذا لم يحصل هذا، فلا سبيل إلى الهدى، وما هو إلا الضلال المبين والشقاء.

(٢٤) ﴿أَفَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: أفيستوي هذا الذي هداه الله ووفقه لسلوك الطريق الموصلة لدار كرامته؛ كمن كان في الضلال واستمر على عناده حتى قدم القيامة، فجاءه العذاب العظيم فجعل يتقي بوجهه الذي هو أشرف الأعضاء، وأدنى شيء من العذاب يؤثر فيه، فهو يتقي فيه سوء العذاب؛ لأنه قد غلت يداه ورجلاه ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي توبيخاً وتقريعاً: ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي: وباله.

(٢٥) ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم كما كذب هؤلاء ﴿فَأَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِن حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ جاءهم في غفلة أول نهار، أو هم قائلون.

(٢٦) ﴿فَأَذَاهُمْ اللَّهُ﴾ بذلك العذاب ﴿الْفَزَى فِي الْحَيَرةِ الدُّنْيَا﴾ فافتضحوا عند الله وعند خلقه ﴿وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ فليحذر هؤلاء من المقام على التكذيب، فيصيبهم ما أصاب أولئك من التعذيب.

(٢٧) ﴿وَلَقَدْ صَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ يخبر تعالى: أنه ضرب في القرآن من جميع الأمثال، أمثال أهل الخير، وأمثال أهل الشر، وأمثال التوحيد والشرك، وكل مثل يقرب حقائق الأشياء، والحكمة في ذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ عندما نوضح لهم الحق؛ فيعلمون ويعملون.

(٢٨) ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ جعلناه قرآناً عربياً، واضح الألفاظ، سهل المعاني، خصوصاً

(٢٢) ﴿أَفَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ هل يستوي من شرح الله صدره للإسلام؛ فاتسع لتلقي أحكام الله والعمل بها، منشرحاً قدير العين ﴿فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ على بصيرة من أمره؛ كمن ليس كذلك ﴿قَوْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ لا تلين لكتابه، ولا تتذكر آياته، ولا تظمن بذكره، بل هي معرضة عن ربها، ملتفتة إلى غيره، فهؤلاء لهم الويل الشديد، والشر الكبير ﴿أَوَلَيْكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وأي ضلال أعظم من ضلال من أعرض عن وليه؟ وقسا قلبه عن ذكره؟!!

(٢٣) ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَدِّدًا﴾ يخبر تعالى عن كتابه الذي نزل أنه أحسن الحديث على الإطلاق، فأحسن الحديث كلام الله، وأحسن الكتب المنزلة من كلام الله هذا القرآن، وإذا كان هو الأحسن؛ علم أن ألفاظه أفصح الألفاظ وأوضحها، وأن معانيه أجل المعاني؛ لأنه أحسن الحديث في لفظه ومعناه، متشابهاً في الحسن والائتلاف، وعدم الاختلاف بوجه من الوجوه ﴿مَّثَانِي﴾ تثني فيه القصص والأحكام، والوعد والوعيد، وصفات أهل الخير، وصفات أهل الشر، وتثنى فيه أسماء الله وصفاته ﴿نَفْسَعِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ لما فيه من التخويف والترهيب المزعج ﴿ثُمَّ تَلِيَن جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ عند ذكر الرجاء والترغيب؛ فهو تارة يرغبهم لعمل الخير، وتارة يرهبهم من عمل الشر ﴿ذَلِكَ﴾ الذي ذكره الله من تأثير القرآن فيهم ﴿هُدًى اللَّهُ﴾ هداية منه لعباده، ﴿يَهْدِي بِهِ﴾ بسبب ذلك ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾؛ لأنه لا

تظن حال هذا الرجل مع هؤلاء الشركاء المتشاكسين؟ ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا أَرِجُلًا﴾ خالصاً له، قد عرف مقصود سيده، وحصلت له الراحة التامة؛ فهل يستويان مثلاً.

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ هذان الرجلان ﴿مَثَلًا﴾ لا يستويان ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على تبيين الحق من الباطل وإرشاد الجاهل ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلهذا يشركون بالله.

(٣٠) ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ كلكم لا بد أن يموت.

(٣١) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ فيما تنازعتم فيه، فيفصل بينكم بحكمه العادل.

(٣٢) ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ يقول تعالى محذراً ومخبراً: أنه لا أظلم وأشد ظلماً ﴿مَنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ إما بنسبته إلى ما لا يليق بجلاله، أو بادعاء النبوة، أو الإخبار بأن الله تعالى قال كذا، أو أخبر بكذا، أو حكم بكذا، وهو كاذب ﴿وَكَذَبَ بِالْصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ أي: ما أظلم ممن جاءه الحق المؤيد بالبينات فكذبه ﴿الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ يحصل بها الاشتفاء منهم، وأخذ حق الله من كل ظالم وكافر.

(٣٣) ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالْصِّدْقِ﴾ في قوله وعمله، فدخل في ذلك الأنبياء ومن قام مقامهم ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ أي: بالصدق؛ لأنه قد يجيء الإنسان

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالْصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ۚ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالْصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣١﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٢﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهم أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۚ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٤﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ۚ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴿٣٥﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَتُ ضَرِّيَّهٖ ۚ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِي ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٦﴾ قُلْ يَتَّقُوا اللَّهَ أَتَعْمَلُونَ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَسَىٰ أَسْوَفُ ۚ تَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٨﴾

على العرب ﴿عَبْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ ليس فيه خلل ولا نقص بوجه من الوجوه ﴿لَعَلَّهُمْ يَقُونُ﴾ الله تعالى.

(٢٩) ثم ضرب مثلاً للشرك والتوحيد؛ فقال: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا﴾ عبداً ﴿فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشٰكِسُونَ﴾ فهم كثيرون، وليسوا متفقين على أمر من الأمور وحالة من الحالات حتى تمكن راحته، بل هم متشاكسون متنازعون فيه، كل له مطلب يريد تنفيذه ويريد الآخر غيره فما

(٣٠ و ٣١) أخرج الترمذي وأحمد والحاكم بإسناد حسن عن الزبير بن العوام رضي الله عنه؛ قال: لما نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ قال الزبير: أي رسول الله، أكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب؟ قال: «نعم، ليكررن عليكم حتى يؤدي إلى كل ذي حق حقه» قال الزبير: والله إن الأمر لشديد! (٣١) أخرج النسائي وابن جرير بإسناد حسن عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه؛ قال: نزلت هذه الآية، وما نعلم في أي شيء نزلت ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قال: قلنا: من نخاصم؟ ليس بيننا وبين أهل الكتاب خصومة، فمن نخاصم؟ حتى وقعت الفتنة، فقال ابن عمر رضي الله عنه: هذا الذي وعدنا ربنا ﷻ أن نختصم فيه.

يهديه أبداً.

(٣٧) ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَمْ مِنْ مُضِلٍّ﴾ وقد هداك الله؛ فليس أحد يستطيع إضلالك أبداً؛ لأنه تعالى الذي بيده الهداية والإضلال، وهو الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ له العزة الكاملة التي قهر بها كل شيء، وبعزته يكفي عبده، ويدفع عنه مكرهم ﴿ذِي أَنْفَاقٍ﴾ ممن عصاه، فاحذروا موجبات نقمته.

(٣٨) ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ﴾ ولئن سألت المشركين ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ لم يثبتوا لآلهتهم من خلقها شيئاً ﴿لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ الذي خلقها وحده ﴿قُلْ﴾ لهم مقررأ عجز آلهتهم، بعد ما تبينت قدرة الله: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ أي ضرر كان ﴿هَلْ هُنَّ كَاشِفَتُ ضَرُّهُ﴾ بإزالته بالكلية، أو بتخفيفه من حال إلى حال؟ ﴿أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ﴾ يوصل إلي بها منفعة في ديني أو دنيائي ﴿هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ﴾ ومانعاتها عني؟ سيقولون: لا يكشفون الضر، ولا يمسكون الرحمة ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ الله كافٍ ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ عليه يعتمد المعتمدون في جلب مصالحهم ودفع مضارهم.

(٣٩) ﴿قُلْ﴾ لهم يا أيها الرسول: ﴿يَقَوْمِ اعْمَلُوا

بالصدق، ولكن قد لا يصدق به، بسبب استكباره، أو احتقاره لمن قاله وأتى به، فلا بد في المدح من الصدق والتصديق، ف«صدقه» يدل على علمه وعدله، و«تصديقه» يدل على تواضعه وعدم استكباره ﴿أُولَئِكَ﴾ الذين وفقوا للجمع بين الأمرين ﴿هُمْ الْمُتَّقُونَ﴾ فإن جميع خصال التقوى ترجع إلى الصدق بالحق، والتصديق به.

(٣٤) ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ من الثواب ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين يعبدون الله كأنهم يرونه؛ فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم، والمحسين إلى عباد الله.

(٣٥) ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ أي: ذنوبهم الصغار؛ بسبب إحسانهم وتقواهم ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بحسناتهم كلها.

(٣٦) ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ أليس من كرمه وجوده، وعنايته بعبده الذي قام بعبوديته، وامثل أمره، واجتنب نهيه، خصوصاً أكمل الخلق عبودية لربه؛ وهو: محمد ﷺ، فإن الله تعالى سيكفيه في أمر دينه ودنياه، ويدفع عنه من ناواه بسوء.

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ من الأصنام والأنداد أن تنالك بسوء، وهذا من غيهم وضلالهم ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أي: من أضله الله كقومك؛ فليس له من هاد

(٣٦) أخرج الترمذي وأحمد بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك، جفت الصحف، ورفعت الأقلام، واعمل لله بالشكر في اليقين، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً».

أَهْتَدَى ﴿بَنُورِهِ وَاتَّبَعَ أَمْرَهُ﴾ ﴿فَلَنَفْسِهِ﴾ فَإِنْ نَفَعَ ذَلِكَ يَعُودُ إِلَى نَفْسِهِ ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ بعدما تبين له الهدى ﴿فَالَمَّا يَصِلُ عَلَيْهَا﴾ لا يضر الله شيئاً ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها.

(٤٢) ثم أخبر تعالى أنه المتفرد بالتصرف بالعباد، في حال يقظتهم ونومهم، وفي حال حياتهم وموتهم، فقال: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ وهذه الوفاة الكبرى، وفاة الموت ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ وهذه الموتة الصغرى؛ أي: ويمسك النفس التي لم تمت في منامها، ﴿فَيَمْسُكُ﴾ من هاتين النفسين النفس ﴿الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ وهي نفس من كان مات، أو قضى أن يموت في منامه ﴿وَيُرْسِلُ﴾ النفس ﴿الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى استكمال رزقها وأجلها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ على كمال اقتداره، وإحيائه الموتى بعد موتهم.

(٤٣) ﴿أَرَأَيْتُمْ أَتَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ ينكر تعالى على من اتخذ من دونه شفعاء يتعلق بهم ويسألهم ويعبدهم ﴿قُلْ﴾ لهم - مبيناً جهلهم، وأنها لا تستحق شيئاً من العبادة -: ﴿أُولَئِكَ كَانُوا فِي الْأَرْضِ لَسِتًّا﴾ لا يملكون شيئاً لا مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، بل وليس لهم عقل يستحقون أن يمدحوا به؛ لأنها جمادات من أحجار

إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلَنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٤٢﴾ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ أَرَأَيْتُمْ أَتَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ أَوْلُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَقُولُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٥﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ لِلَّهِ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٧﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِسْمَةِ وَبَدَأَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَهُمْ بِكَوْنِهِمْ يَحْسِبُونَ ﴿٤٨﴾

عَلَىٰ مَكَاتِرِهِمْ ﴿٤٩﴾ على حالتكم التي رضيتموها لأنفسكم من عبادة من لا يستحق من العبادة شيئاً، ولا له من الأمر شيء ﴿إِنِّي عَاكِفٌ﴾ على ما دعوتكم إليه: من إخلاص الدين لله تعالى وحده ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ لمن العاقبة.

(٤٠) ﴿وَمَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ في الدنيا ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾ في الأخرى ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ لا يحول عنه ولا يزول.

(٤١) ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ يخبر تعالى أنه أنزل على رسوله الكتاب المشتمل على الحق في أخباره وأوامره ونواهيهِ ﴿فَمَنِ

(٤٢) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أوى أحدكم إلى فراشه؛ فلينبضه بداخله إزاره؛ فإنه لا يدري ما خلفه عليه، ثم ليقل: باسمك ربي وضعت جنبي، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي؛ فارحمها، وإن أرسلتها؛ فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين».

وَبَدَأَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَخَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٤﴾ فَإِذَا مَنَّ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ مَنَّاتٍ إِذَا تَخَوَّلَتْهُ
بِقَمَّةٍ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أَوْفَيْتُكُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلَّغِي فَتَنَةً وَلَئِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٥﴾ فَقَالُوا الَّذِينَ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا أَغْنَىٰ
عَنَّهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٤٦﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا
وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا
وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ
لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٤٨﴾
قُلْ يَعْبَادُوا الَّذِينَ أَمَرُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْطُلُوا مِنْ
رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ
﴿٤٩﴾ وَأَيُّبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ
الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُصْرَفُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَسْمِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ
إِلَيْكُمْ مِن رَّبِّكُمْ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ
بَغْتَةً وَتَأْتُوا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥١﴾ أَن نقُولَ نَفْسٌ يَحْصِرُنِي
عَلَىٰ مَا فَرَلْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴿٥٢﴾

الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴿٤٤﴾ لو كان لهم ما في الأرض
جميعاً، من ذهبها وفضتها ولؤلؤها وحيواناتها
وأشجارها وزروعها وجميع أوانيتها وأثاثها ومثله
معه، ثم بذلوه يوم القيامة ليفتدوا به من العذاب
وينجوا منه، ما قبل منهم ولا أغنى عنهم من
عذاب الله شيئاً ﴿٤٥﴾ وبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا
يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٦﴾ أي: يظنون من السخط العظيم،
والمقت الكبير، وقد كانوا يحكمون لأنفسهم بغير
ذلك.

﴿٤٨﴾ ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي:
الأمور التي تسوؤهم؛ بسبب صنيعهم وكسبهم

وأشجار وصور وأموات. ﴿٤٤﴾ ﴿قُلْ لَهُمْ﴾ ﴿لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ لأن
الأمر كله لله، وكل شفيع فهو يخافه، ولا
يقدر أن يشفع عنده أحد إلا بإذنه ﴿لَمْ يَكُنْ لَكَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ﴾ جميع ما فيهما من الدوات
والأفعال والصفات؛ فالواجب: أن تطلب
الشفاعة ممن يملكها، وتخلص له العبادة ﴿ثُمَّ
إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازي المخلص له بالثواب
الجزيل، ومن أشرك به بالعذاب الويليل.

﴿٤٥﴾ ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ﴾ توحيداً له وأمرأ
بإخلاص الدين له، وترك ما يعبد من
دونه ﴿أَسْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِالْآخِرَةِ﴾ أنهم يشمئزون وينفرون ويكرهون
ذلك أشد الكراهة ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن
دُونِهِ﴾ من الأصنام والأنداد ودعا الداعي إلى
عبادتها ومدحها ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ بذلك
فرحاً بذكر معبوداتهم، ولكون الشرك موافقاً
لأهوائهم.

﴿٤٦﴾ ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾
خالقهما ومدبرهما ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ﴾ الذي غاب
عن أبصارنا وعلمنا ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ الذي نشاهده
﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾
في دنياهم ستفصل بينهم يوم معادهم ونشورهم
وقيامهم من قبورهم.

﴿٤٧﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وهم المشركون
﴿مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ﴾

(٤٦) في «صحيح مسلم» عن أبي سلمة بن عبد الرحمن؛ قال: سألت عائشة رضي الله عنها: بأي شيء كان رسول الله ﷺ يفتح صلاته إذا
قام في الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: «اللهم، رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض،
عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من
تشاء إلى صراط مستقيم».

﴿وَحَافٍ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ من الوعيد والعذاب الذي نزل بهم، وما حل عليهم العقاب.

(٤٩) ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ يخبر تعالى عن حالة الإنسان وطبيعته: أنه حين يمسه ضرٌّ من مرض أو شدة أو كرب ﴿دَعَانَا﴾ ملجأ في تفريج ما نزل به ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنَّا﴾ فكشفنا ضره وأزلنا مشقته عاد بربه كافراً، ولمعروفه منكراً، و ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: علم من الله أنني له أهل، وأنني مستحق له؛ لأنني كريم عليه، أو على علم مني بطرق تحصيله ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ يتلي الله به عباده؛ لينظر من يشكره ممن يكفره ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلذلك يعدون الفتنة منحة، ويشتهبهم الخير المحض، بما قد يكون سبباً للخير أو للشر.

(٥٠) ﴿قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم السابقة، أي: قالوا مثل قولهم: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ فما زالت متوارثة عند المكذبين، لا يقرون بنعمة ربهم، ولا يرون له حقاً، فلم يزل دأبهم حتى أهلكوا ﴿فَمَا أَغْنَىٰ﴾ ولم يغن عنهم ما كانوا يكسبون حين جاءهم العذاب.

(٥١) ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ والسيئات

في هذا الموضع: العقوبات؛ لأنها تسوء الإنسان وتحزنه ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَنُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا﴾ فليسوا خيراً من أولئك ﴿وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ الله سبحانه وتعالى.

(٥٢) ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ﴾ ولما ذكر أنهم اغتروا بالمال، وزعموا: أنه يدل على حسن حال صاحبه، أخبرهم تعالى: أن رزقه لا يدل على ذلك، وأنه ﴿يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾ من عباده، سواء أكان صالحاً أو طالحاً ﴿وَيَقْدِرُ﴾ الرزق، أي: يضيقه على من يشاء، سواء أكان صالحاً أو طالحاً، فرزقه مشترك بين البرية والإيمان والعمل الصالح يخص به خير البرية ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: بسط الرزق وقبضه؛ لعلمهم أن مرجع ذلك عائد إلى الحكمة والرحمة، وأنه أعلم بحال عبده، فقد يضيق عليهم الرزق لطفاً بهم؛ لأنه لو بسطه لبغوا في الأرض، فيكون تعالى مراعيّاً في ذلك صلاح دينهم الذي هو مادة سعادتهم وفلاحهم، والله أعلم.

(٥٣) ثم أخبر تعالى عباده المفسرين بسعة كرمه، ويحثهم على الإنابة قبل أن لا يمكنهم ذلك، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول ومن قام

(٥٣) أخرج ابن إسحاق في «السيرة» ومن طريقه ابن جرير في «تفسيره» والحاكم في «المستدرک» بإسناد صحيح - صرح فيها ابن إسحاق بالتحديث - من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما اجتمعنا للهجرة اتعدت أنا وعياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص بن وائل التناضب من أضواء بني غفار، فوق سرف، وقلنا: أيكم لم يصبح عندها فقد احتبس، فليمض صاحبه، فجلس عنا هشام بن العاص، فلما قدمنا المدينة؛ نزلنا في بني عمرو بن عوف، وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عياش بن أبي ربيعة وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهاتهما حتى قدما علينا المدينة؛ فكلما، فقالا له: إن أمك نذرت أن لا يمس رأسها مشط حتى تراك، ولا تستظل من الشمس حتى تراك، فزق لها، فقلت له: يا عياش، والله إن يريك القوم إلا عن دينك؛ فاحذرهم، فوالله لو قد أدى أمك القمل لامتشطت، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت، قال: أبر قسم أمي، ولي هناك =

مقامه من الدعاء لدين الله مخبراً، للعباد عن ربهم: ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ باتباع ما تدعوهم إليه أنفسهم من الذنوب، والسعي في مساحط علام الغيوب ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ لا تيأسوا منها، ولكن اعرفوا ربكم بأسمائه الدالة على كرمه وجوده ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ أي: واعلموا: أنه يغفر الذنوب جميعاً، من الشرك بالتوبة والإيمان، ولا يغفر الشرك إلا بذلك، والقتل، والزنا، والربا، والظلم، وغير ذلك من الذنوب الكبار والصغار بالتوبة، فمن تاب تاب الله عليه، ومن لم يتب؛ فهو تحت المشيئة إن شاء غفر له بفضله، وإن شاء عذبه بعدله ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وصفه المغفرة والرحمة.

(٥٤) ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾ بقلوبكم ﴿وَأَسْلُمُوا لَهُ﴾ بجوارحكم ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾ بادروا بالتوبة والعمل الصالح قبل حلول النقمة ﴿ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ لا تجدون من ينصركم؛ لأن الله خذلكم.

(٥٥) ﴿وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾

أَوْتَقُولُوا لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْتَقُولُوا حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْلَا أَنِّي مَكْرَةٌ فَأَكُونُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بلى قد جاءتك آيتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمِثْقَالِ ذَرَّةٍ لَّيْسَ لَهُمُ الشُّوْءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَهُ مَقَالِدُ السُّمُورِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ هُمْ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَعَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَ فِي عِبَادَاتِهِ الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَكَ لَيَحْطَبَنَّ عَلَيْكَ نَارُ الْكُفْرِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بلى الله قَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمُورُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَعَنَّا عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾

مما أكرم من الأعمال الباطنة، كمحبة الله وخشيته وخوفه ورجائه، ومن الأعمال الظاهرة؛ كالصلاة والزكاة والصيام، ونحو ذلك ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَعَثَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ من حيث لا تعلمون ولا تشعرون.

مالاً فاخذه. قال: قلت: والله إنك لتعلم أنني من أكثر قريش مالاً، فلك نصف مالي، ولا تذهب معهما، فأبى إلا أن يخرج معهما، فقلت له لما أبى علي: أما إذا فعلت ما فعلت، فخذ ناقتي هذه، فإنها ناقة ذلول؛ فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم رب، فانج عليها، فخرج معهما عليها، حتى إذا كانوا ببعض الطريق؛ قال أبو جهل بن هشام: والله لقد استغلظت بعيري هذا، أفلا تحملني على ناقتك هذه؟ قال: بلى. فأناخ، وأناخا ليتحول عليها، فلما استنوا بالأرض؛ عديا عليه وأوثقاه، ثم دخلا به مكة، وفتناه فافتن. قال: فكنا نقول والله لا يقبل الله ممن افتن صرفاً ولا عدلاً، ولا يقبل توبة قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر، لبلاء أصابهم. قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم، فلما قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة، أنزل فيهم وفي قولنا لهم، وقولهم لأنفسهم: ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ قال عمر: فكتبها في صحيفة وبعث بها إلى هشام بن العاصي. قال هشام: فلم أزل أقرؤها بذي طوى أصعد بها فيه وأصوب، ولا أفهمها، حتى قلت: اللهم فهمنيها، قال: فألقى الله تعالى في قلبي أنها إنما أنزلت فينا، وفيما كنا نقول في أنفسنا، ويقال فينا، فرجعت فجلست على بعيري، فلحقت برسول الله ﷺ بالمدينة.

النجاة؛ وهي: تقوى الله تعالى ﴿لَا يَسْهُمُ السَّوءُ﴾ العذاب الذي يسوؤهم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فنفى عنهم مباشرة العذاب وخوفه، وهذا غاية الأمان.

(٦٢) ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ يخبر تعالى أنه خالق الأشياء كلها وربها ومليكمها والمتصرف فيها ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ وكل تحت تدبيره وقهره.

(٦٣) ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مفاتيحها: علماً وتديراً ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على الحق اليقين والصراط المستقيم ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ خسروا جنات النعيم، وتعوضوا عنها بالعذاب الأليم.

(٦٤) ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول لهؤلاء الجاهلين، الذين دعوك إلى عبادة غير الله: ﴿أَفَعَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَ أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ هذا الأمر صدر من جهلكم، وإلا فلو كان لكم علم بأن الله تعالى الكامل من جميع الوجوه، مسدي جميع النعم، هو المستحق للعبادة، دون من كان ناقصاً من كل وجه، لا ينفع ولا يضر، لم تأمروني بذلك.

(٦٥) ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ مِنْ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ﴾ لئن أشركت ليحبطن عملك ﴿هذا مفرد مضاف، يعم كل عمل؛ ففي نبوة جميع الأنبياء: أن الشرك محبط لجميع الأعمال، مفسد بجميع الأحوال﴾ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿دينك وآخرتك.

(٦٦) ﴿بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ﴾ أخلص له العبادة وحده لا شريك له ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لله.

(٥٦) ثم حذرهم ﴿أَنْ﴾ يستمروا على غفلتهم حتى يأتيهم يوم يندمون فيه، ولا تنفع الندامة، ﴿وَقُولْ نَفْسُ بِحَسْرَتٍ عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ في جانب حقه ﴿وَلِنْ كُنْتُ﴾ في الدنيا ﴿لَمِنَ السَّخِرِينَ﴾ أي: إنما كان عملي في الدنيا عمل ساخر مستهزئ، غير موقن مصدق في إتيان الجزاء، حتى رأيته عياناً.

(٥٧) ﴿أَوْ تَقُولُ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ و«لو» في هذا الموضع للتمني؛ أي: ليت أكون متقياً له؛ فأسلم من العقاب، وأستحق الثواب.

(٥٨) ﴿أَوْ تَقُولُ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ﴾ وتجزم بوروده: ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةٌ﴾ رجعة إلى الدنيا ﴿فَأَكُونُ﴾ لكننت ﴿مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ لأحسننت العمل.

(٥٩) ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَكَ ءَايَاتِي﴾ الدالة دلالة لا يمتري فيها على الحق ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ﴾ عن اتباعها ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ بها، الجاحدين لها.

(٦٠) ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾ يخبر تعالى عن خزي الذين كذبوا عليه، وأن وجوههم يوم القيامة مسودة؛ كأنها الليل البهيم، جزاء من جنس عملهم؛ فلهم سواد الوجوه، ولهم العذاب الشديد في جهنم ﴿الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَوْتَى لَلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الحق وعن عبادة ربهم، المفترين عليه؟ بلى والله، إن فيها لعقوبة وخزيًا وسخطًا، يبلغ من المتكبرين كل مبلغ، ويؤخذ الحق منهم.

(٦١) ﴿وَيَسْجَىٰ اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَقَازِنِهِمْ﴾ بفوزهم من النار بأعمالهم الحسنة؛ وذلك لأن معهم آلة

(٦٧) ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَتٌ بِيَمِينِهِ﴾ وما قدر هؤلاء المشركون ربهم حق قدره، ولا عظموه حق تعظيمه، الذي من عظمته الباهرة، وقدرته القاهرة أن جميع الأرض يوم القيامة قبضة للرحمن، وأن السماوات - على سعتها وعظمتها - مطويات بيمينه، فلا عظمه حق عظمته من سوى به غيره ﴿سُبْحَنُكَ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزه وتعظم عن شركهم به.

(٦٨) ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ وهو قرن عظيم، لا يعلم عظمته إلا خالقه، ومن أطلعه الله على علمه من خلقه، فينفخ فيه إسرافيل عليه السلام أحد الملائكة المقربين. ﴿فَصُوعٌ﴾ غشي، أو مات، على اختلاف القولين: ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ كلهم ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ ممن ثبته الله عند النفخة، فلم يصعق، كالشهداء، أو بعضهم، وغيرهم، وهذه النفخة الأولى نفخة الصعق، ونفخة الفرع ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى﴾ نفخة البعث،

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصُوعٌ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءُ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ إِذَا جَاءُوهَا فَتُحَّتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِمَا قَسَمْتُ لَكُمْ مِنَ الْعَمَلِ أَنْتُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيهَا مِنَ الْمُنْكَرِينَ ﴿٧١﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ إِذَا جَاءُوهَا وَتُحَّتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ فَادْخُلُواهَا خَالِدِينَ ﴿٧٢﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدُوهَا وَوَرَّانَا الْأَرْضَ نَنْبَوَيْنَا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٣﴾

النفخة الثانية ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ قد قاموا من قبورهم لبعثهم وحسابهم، قد تمت منهم الخلقة الجسدية والأرواح، وشخصت أبصارهم ﴿يَنْظُرُونَ﴾ ماذا يفعل الله بهم.

(٦٧) أخرج الإمام أحمد ومسلم - واللفظ للإمام أحمد - عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ قال: أتى النبي ﷺ رجل من أهل الكتاب، فقال: يا أبا القاسم، أبلغك أن الله ﷻ يحمل الخلائق على أصبع، والسماوات على أصبع، والأرض على أصبع، والشجر على أصبع، والثرى كذا على أصبع؟ قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه؛ فأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنُكَ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

(٦٨) أخرج الحاكم بإسناد صحيح على شرط الشيخين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «أنه سأل جبريل ﷺ عن هذه الآية ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصُوعٌ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ من الذين لم يشأ الله أن يصعقهم؟ قال: هم شهداء الله ﷻ. قلت: ووقع عند أبي يعلى في «الكبير» والدارقطني في «الأفراد» وابن المنذر والبيهقي في «البعث والنشور» زيادة منكورة بلفظ: «هم الشهداء، يتقلدون سيوفهم حول عرشه، تتلقاهم الملائكة يوم القيامة إلى المحشر بنجائب من ياقوت، أزمتها الدر الأبيض، برحال الذهب، أعنتها السندس والاستبرق، ونمارها ألين من الحرير، مد خطاها مد أبصار الرجال، يسبرون في الجنة على خيول، يقولون عند طول النزهة: انطلقوا بنا إلى ربنا، لننظر كيف يقضي بين خلقه؟ يضحك إليهم إلهي، وإذا ضحك إلى عبد في موطن فلا حساب عليه».

بسبب كفرهم وجبت عليهم كلمة العذاب .
 (٧٢) ﴿قِيلَ لَهُمْ عَلَى وَجْهِ الْإِهَانَةِ وَالْإِذْلَالِ :
 ﴿أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ كل طائفة تدخل من الباب
 الذي يناسبها ويوافق عملها ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبداً ،
 لا يظعنون عنها ، ولا يفتر عنهم العذاب ساعة
 ولا ينظرون ﴿فِيئَسَ مَوْتَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ بس المسقر ،
 النار مقرهم .

(٧٣) ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ بتوحيده
 والعمل بطاعته ، سوق إكرام وإعزاز ، يحشرون
 وفداً على النجائب ﴿إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ فرحين
 مستبشرين ، كل زمرة مع الزمرة التي تناسب
 عملها وتشاكله ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا﴾ وصلوا
 لتلك الرحاب الرحبية ، والمنازل الأنيقة ، وهب
 عليهم ريحها ونسيمها ، وأن خلودها ونعيمها
 ﴿وَفُتِحَتْ﴾ لهم ﴿أَبْوَابُهَا﴾ فتح إكرام ، لكرام
 الخلق ؛ ليكرموا فيها ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾
 تهنئة لهم وترحيباً : ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ سلام
 من كل آفة وشر حال عليكم ﴿طِبْتُمْ﴾ طابت
 قلوبكم بمعرفة الله ومحبته وخشيته ، وألستكم
 بذكره ، وجوارحكم بطاعته ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾
 بسبب طيبتكم ؛ لأنها الدار الطيبة ، ولا يليق
 بها إلا الطيبون .

(٧٤) ﴿وَقَالُوا﴾ عند دخولهم فيها واستقرارهم ،
 حامدين ربهم على ما أولاهم ومن عليهم
 وهداهم : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدُكُمْ﴾
 وعدنا الجنة على ألسنة رسله ، إن آمنا وصلحنا ،

(٦٩) ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أضاءت
 يوم القيامة إذا تجلى الحق جل وعلا للخلائق
 لفصل القضاء ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ كتاب الأعمال
 وديوانه ﴿وَجَاءَ بِالنَّبِيِّينَ﴾ ليسألوا عن التبليغ ،
 وعن أممهم ، ويشهدوا عليهم ﴿وَالشُّهَدَاءُ﴾ من
 الملائكة ، والأعضاء ، والأرض ﴿وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ
 بِالْحَقِّ﴾ العدل التام ، والقسط العظيم .

(٧٠) ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ من خير وشر
 ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ .

(٧١) ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ﴾
 سوقاً عنيفاً ، يُضربون بالسياط الموجهة ، من
 الزبانية الغلاظ الشداد ، إلى شر محبس ،
 وأقطع موضع ، وهي جهنم ﴿زُمَرًا﴾ فرقا
 متفرقة ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا﴾ وصلوا إلى ساحتها
 ﴿فُتِحَتْ﴾ لهم لأجلهم ﴿أَبْوَابُهَا﴾ لقدومهم ،
 وقرى لنزلهم ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ موبخين
 لهم على الأعمال التي أوصلتهم إلى هذا
 المحل الفظيع : ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ﴾ من
 جنسكم تعرفونهم وتعرفون صدقهم ، وتمكنون
 من التلقي عنهم ؟ ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾
 التي أرسلهم الله بها ﴿وَيَذَرُونَكُمْ إِذًا يَوْمَكُمْ﴾
 هذلاً يحذرونكم من شر هذا اليوم . ﴿قَالُوا﴾
 مقرين بذنبهم ، وأن حجة الله قامت عليهم :
 ﴿بَلَى﴾ قد جاءتنا رسل ربنا بآياته وبيناته ،
 وبينوا لنا غاية التبيين ، وحذرونا من هذا اليوم
 ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

(٧٣) أخرج الشيخان وأحمد - واللفظ له - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : «أول زمرة تلج الجنة صورهم
 على صورة القمر ليلة البدر ، لا يصقون فيها ، ولا يتمخطون فيها ، ولا يتغوطون فيها ، آتيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة ،
 ومجامرهم الألوة ، ورشحهم المسك ، ولكل واحد منهم زوجتان ، يُرى مخ ساقهما من وراء اللحم من الحسن ، لا اختلاف
 بينهم ولا تباغض ، قلوبهم على قلب واحد ، يسبحون الله بكرة وعشيًا» .



فَوْقَى لَنَا بِمَا وَعَدْنَا، وَأَنْجَزَ لَنَا مَا مَنَّا ﴿وَأَوْرَثْنَا
الْأَرْضَ﴾ أَرْضَ الْجَنَّةِ ﴿نَتَّبِعُوا مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ
نَشَاءُ﴾ نَزَلَ مِنْهَا أَيْ مَكَانَ شَتْنَا، وَنَتَنَاوَلُ مِنْهَا أَيْ
نَعِيمَ أَرْضِنَا، لَيْسَ مَمْنُوعاً عَنَّا شَيْءٌ نُرِيدُهُ ﴿فَنَعَمَ
أَجْرُ الْعَمَلِينَ﴾ الَّذِينَ اجْتَهِدُوا بِطَاعَةِ رَبِّهِمْ فِي
زَمَنٍ قَلِيلٍ مُنْقَطِعٍ، فَنَالُوا بِذَلِكَ خَيْرَ عَظِيمٍ بَاقِيَا
مُسْتَمَرًّا.

(٧٥) ﴿وَرَأَى الْمَلَكَةَ﴾ أَيُّهَا الرَّائِي ذَلِكَ الْيَوْمَ
الْعَظِيمِ ﴿حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ قَدْ قَامُوا فِي
خِدْمَةِ رَبِّهِمْ، وَاجْتَمَعُوا حَوْلَ عَرْشِهِ، خَاضِعِينَ
لِجَلَالِهِ، مُعْتَرِفِينَ بِكَمَالِهِ، مُسْتَغْرِقِينَ بِجَمَالِهِ
﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ يَنْزَهُونَهُ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ
بِجَلَالِهِ، مِمَّا نَسَبَ إِلَيْهِ الْمُشْرِكُونَ وَمَا لَمْ يَنْسُبُوا.
﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بَيْنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ مِنْ
الْخَلْقِ ﴿بِالْحَقِّ﴾ الَّذِي لَا اشْتِبَاهَ فِيهِ وَلَا
إِنْكَارَ، مِمَّنْ عَلَيْهِ الْحَقُّ ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ﴾ لَمْ يَذْكُرِ الْقَائِلُ مَنْ هُوَ؛ لِيَدُلَّ ذَلِكَ
عَلَى أَنَّ جَمِيعَ الْخَلْقِ نَطَقُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ
وَحُكْمَتِهِ عَلَى مَا قُضِيَ بِهِ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ
وَأَهْلِ النَّارِ، حَمْدُ فَضْلٍ وَإِحْسَانٍ، وَحَمْدُ عَدْلِ
وَحِكْمَةٍ.

سورة المؤمن مكية

﴿الْعَزِيزُ﴾ الَّذِي قَهَرَ بِعِزَّتِهِ كُلَّ مَخْلُوقٍ
﴿الْعَلِيمُ﴾ بِكُلِّ شَيْءٍ.
(٣) ﴿غَافِرِ الذُّنُوبِ﴾ لِلْمُذْنِبِينَ ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ مَنْ
التَّائِبِينَ ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ عَلَى مَنْ تَجَرَأَ عَلَى
الذُّنُوبِ وَلَمْ يَتُبْ مِنْهَا ﴿ذِي الطَّلَوْلِ﴾ التَّفَضُّلِ
وَالْإِحْسَانِ الشَّامِلِ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لَا نَظِيرَ لَهُ
فِي جَمِيعِ صِفَاتِهِ؛ فَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ
﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ الْمَرْجِعُ وَالْمَأْبَى؛ فَيَجَازِي كُلَّ
عَامِلٍ بِعَمَلِهِ.

(٤) ﴿مَا يُجَدِّدُ فِي عَايَتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾
يُخْبِرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ مَا يَجَادِلُ فِي آيَاتِهِ إِلَّا
الَّذِينَ كَفَرُوا، وَالْمَرَادُ بِالْمَجَادَلَةِ هُنَا: الْمَجَادَلَةُ
لِرَدِّ آيَاتِ اللَّهِ وَمُقَابَلَتِهَا بِالْبَاطِلِ؛ فَهَذَا مِنْ صَنِيعِ
الْكَفَّارِ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَيُخَضِعُونَ لِلَّهِ الَّذِي يَلْقَى
الْحَقَّ لِيُدْحِضَ بِهِ الْبَاطِلَ، وَلَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ

(١) ﴿حَمِّ﴾ أَمَّا الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقْطَعَةِ،
فَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ بِمَا يَغْنِي.
(٢) ﴿تَنْزِيلِ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ
كِتَابِهِ الْعَظِيمِ، وَبِأَنَّهُ صَادِرٌ وَمَنْزَلٌ مِنَ اللَّهِ
الْمَأْلُوهِ الْمَعْبُودِ، لِكَمَالِهِ وَانْفِرَادِهِ بِأَفْعَالِهِ

بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴿١﴾ مَاحِلُوا بِالشَّيْبَةِ؛ ليردوا الحق الواضح الجلي ﴿فَأَخَذْتَهُمْ﴾ بسبب تكذيبهم وتحزبهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ كان أشد العقاب وأفظعه.

(٦) ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كما حقت على أولئك حقت عليهم كلمة الضلال التي نشأت عنها كلمة العذاب؛ ولهذا قال: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾

(٧) ﴿الَّذِينَ يَجْمَلُونَ الْعَرْشَ﴾ عرش الرحمن: الذي هو سقف المخلوقات، وأعظمها، وأوسعها، وأحسنها، وهؤلاء الملائكة قد وكلهم الله تعالى بحمل عرشه العظيم ﴿وَمَنْ حَوَّلَهُ﴾ من الملائكة المقربين في المنزلة والفضيلة ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ هذا مدح لهم بكثرة عبادتهم لله تعالى، وخصوصاً التسبيح والتحميد، وسائر العبادات

تدخل في تسبيح الله وتحميده؛ لأنها تنزيه له عن كون العبد يصرفها لغيره ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ خاشعون له، أذلاء بين يديه ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وهذا من جملة فوائد الإيمان وفضائله الكثيرة جداً: أن الملائكة الذين لا ذنوب عليهم يستغفرون لأهل الإيمان، فالمؤمن بإيمانه تسبب لهذا الفضل العظيم ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ فعلمك قد أحاط بكل شيء، لا يخفى عليك خافية، ولا يعزب عن علمك مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ورحمتك وسعت كل شيء، فالكون علويه وسفليه قد امتلأ برحمة الله -

رَبَّنَا وَأَدْجَلُهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْنَاهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَرْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَفِيهِمُ الْمُسْتَضَائَاتُ وَمَنْ تَوَلَّى السُّعْيَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْنَاهُ وَذَلِكَ هُوَ الْقَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَابْتَدَءُوا لَمَقَّةَ اللَّهِ أَكْثَرُ مِنْ مَقَامِكَ أَنْفُسُكُمْ إِذْ تَدْعُونَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَفَتُخَذَتْنِي وَأَحْيَيْتَنَا أَفَتُكَلِّمُنَا فَأَعْرَضْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوَلَّيْتُمْ فَأَلْخِمْكُمْ اللَّهُ الْعِلَّ الْكَبِيرَ ﴿١٢﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ ءَابَتَكُمْ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَدْرُؤُنَ لَا يَنْصَحُونَ عَلَى اللَّهِ إِلَهُهُمْ شَيْءٌ لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾

يغتر بحالة الإنسان الدنيوية، ويظن أن إعطاء الله إياه في الدنيا، دليل على محبته له وأنه على الحق، ولهذا قال: ﴿فَلَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبَلَدِ﴾ ترددهم فيها بأنواع التجارات والمكاسب.

(٥) ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ ثم هدد من جادل بآيات الله؛ ليبطلها؛ كما فعل من قبله من الأمم من قوم نوح وعاد والأحزاب من بعدهم الذين تحزبوا وتجمعوا على الحق ليبطلوه، وعلى الباطل لينصروه ﴿وَ﴾ أنه بلغت بهم الحال، وآل بهم التحزب إلى أنه ﴿هَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ﴾ يَرْسُلُهُمْ لِيَأْخُذُوهُ يُقْتَلُوهُ ﴿وَجَدَلُوا﴾

(٧) أخرج أبو داود بسند صحيح عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذْنٌ لِي أَنْ أُحْدِثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ - تعالى - من حملة العرش؛ ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبع مئة سنة».

ليشمل أنواع الكفر كلها: من الكفر بالله، أو بكتبه، أو برسله، أو باليوم الآخر ﴿يُنَادُونَ﴾ حين يدخلون النار، ويقولون أنهم مستحقونها؛ لما فعلوه من الذنوب والأوزار، فيمقتون أنفسهم لذلك أشد المقت، ويغضبون عليها غاية الغضب، فينادون عند ذلك، ويقال لهم: ﴿لَمَقْتُ اللَّهَ﴾ إياكم في الدنيا ﴿أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أيها المعذبون أنفسكم اليوم في هذه الحالة ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَكْفَرُوا﴾ حين دعتكم الرسل وأتباعهم إلى الإيمان، وأقاموا لكم من البينات ما تبين به الحق، فكفرتم وزهدتم في الإيمان الذي خلقكم الله له، وخرجتم من رحمته الواسعة، فمقتكم وأبغضكم، فلم يزل هذا المقت مستمرًا عليكم، والسخط من الكريم حالاً بكم، حتى آلت بكم الحال إلى ما آلت، فالיום حلّ عليكم غضب الله وعقابه، حين نال المؤمنون رضوان الله وثوابه.

(١١) فتمنوا الرجوع، و﴿قَالُوا رَبَّنَا أَتَيْنَا نَارَ غَوَاةٍ إِمَّا كَثُورًا وَإِمَّا غَرَبًا﴾ يريدون العدم المحض قبل إيجادهم، ثم أماتهم بعدما أوجدهم ﴿وَأَحْيَيْنَا أَمْواتَهُمْ﴾ الحياة الدنيا والحياة الأخرى، وهذا كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْواتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨]. ﴿فَاعْرِفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ تحسروا وقالوا ذلك، فلم يفد ولم ينجع، ووبخوا على عدم فعل أسباب النجاة، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا

تعالى - ووسعتهم، ووصل إلى ما وصل إليه خلقه ﴿فَاعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ من الشرك والمعاصي ﴿وَاتَّبِعُوا سَبِيلَكَ﴾ باتباع رسلك؛ بتوحيذك وطاعتك ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ قهم العذاب نفسه، وقهم أسباب العذاب.

(٨) ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ على السنة رسلك ﴿وَمِنْ صَلَاحٍ﴾ صلح بالإيمان والعمل الصالح ﴿مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ اجمع بينهم وبينهم؛ لتقر بذلك أعينهم بالاجتماع في منازل متجاورة؛ كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١]. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْقَاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ فبعزتكَ تغفر ذنوبهم، وتكشف عنهم المحذور، وتوصلهم بها إلى كل خير ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها.

(٩) ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾؛ أي: الأعمال السيئة وجزاءها؛ لأنها تسوء صاحبها ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿فَقَدْ رَحِمْتُمْ﴾ لأن رحمتك لم تزل مستمرة على العباد، لا يمنعها إلا ذنوب العباد وسيئاتهم، فمن وقته السيئات وفقته للحسنات وجزائها الحسن ﴿وَذَلِكَ﴾ زوال المحذور بوقاية السيئات، وحصول المحبوب بحصول الرحمة ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز مثله، ولا يتنافس المتنافسون بأحسن منه.

(١٠) ثم أخبر تعالى عن الفضيحة والخزي الذيس يصيب الكافرين، وسؤالهم الرجعة والخروج من النار، وامتناع ذلك عليهم وتوبيخهم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أطلقه

تعالى، وأنه يضع الأشياء مواضعها، ولا يساوي بين المتقين والفجار ﴿الْكَبِيرِ﴾ الذي له الكبرياء والعظمة والمجد في أسمائه وصفاته وأفعاله، المتنزه عن كل آفة وعيب ونقص، فإذا كان الحكم له تعالى، وقد حكم عليكم بالخلود الدائم؛ فحكمه لا يغير ولا يبدل.

(١٣) ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ يذكر تعالى نعمه العظيمة على عباده؛ بتبيين الحق من الباطل، بما يُري عباده من آياته النفسية والآفاقية والقرآنية ﴿وَيُرِيكُمْ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ مطرًا به ترزقون وتعيشون أنتم وبهائمكم ﴿وَمَا يَذْكُرُ﴾ بالآيات حين يذكر بها ﴿إِلَّا﴾ من ينسب ﴿إلى الله تعالى، بالإقبال على محبته وخشيته وطاعته والتضرع إليه.

(١٤) ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة، والإخلاص معناه: تخلص القصد لله تعالى في جميع العبادات الواجبة والمستحبة، حقوق الله وحقوق عباده ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ لذلك، فلا تبالوا بهم، ولا يثنكم ذلك عن دينكم، ولا تأخذكم بالله لومة لائم، فإن الكافرين يكرهون الإخلاص لله وحده غاية الكراهة.

(١٥) ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ العلي الأعلى، الذي استوى على العرش واختص به، وارتفعت درجاته ارتفاعًا باين به مخلوقاته ﴿يُلْقِي الرُّوحَ﴾ الوحي ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ الذي فيه نفع العباد

الْمَلَأَ الْفُجُورَ وَالْعِزِّ
الْيَوْمَ نَجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّا
اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٣﴾ وَأَذَرَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ
لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعَ
يُطَاعِ ﴿١٤﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٥﴾
وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ
شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١٦﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي
الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ
كَانُواهُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارُوا فِي الْأَرْضِ فَاخَذَهُمُ اللَّهُ
يَذُوبُهُمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقي ﴿١٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَانُوا قَاتِلِيهِمْ رَسُولَهُمُ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَاخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ
قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٨﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا
وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٩﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَمَزْنِ وَقُرُوتَ
فَقَالُوا اسْحَرْ كَذَّابٌ ﴿٢٠﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ
عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا
نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢١﴾

مُوقِنُونَ ﴿[السجدة: ١٢].
(١٢) ف قيل لهم: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ﴾ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ
وَحَدَّمُ إِذَا دُعِيَ لتوحيده، وإخلاص العمل
له، ونهي عن الشرك به ﴿كَفَرْتُمْ﴾ به
واشمازت لذلك قلوبكم ونفرتم غاية النفور
﴿وَأَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ تَوَمَّنُوا﴾ هذا الذي أنزلكم هذا
المنزل أنكم تكفرون بالإيمان، وتؤمنون بالكفر
﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ﴾ فهو الحاكم في خلقه، العادل
الذي لا يجور ﴿الْعَلِيِّ﴾ الذي له العلو المطلق
من جميع الوجوه: علو الذات، وعلو القدر،
وعلو القهر، ومن علو قدره كمال عدله

(١٤) أخرج مسم والإمام أحمد - واللفظ له - عن أبي الزبير؛ قال: كان عبد الله بن الزبير يقول في دبر كل صلاة حين يسلم: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون». قال: وكان رسول الله ﷺ يهمل بهن دبر كل صلاة.

الوصول إلى أهوالها وقلاقلها وزلازلها ﴿إِذْ أَلْقَلُّوْا لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ وصلت القلوب من الروح والكرب إلى الحناجر، شاخصة أبصارهم ﴿كَظْمِئْنَ﴾ على ما في قلوبهم من الروح الشديد، والمزعجات الهائلة ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ﴾ قريب ولا صاحب ﴿وَلَا شَفِيعَ يُطَاعُ﴾ لأن الشفعاء لا يشفعون في الظالم نفسه بالشرك، ولو قدرت شفاعتهم، فالله - تعالى - لا يرضى شفاعتهم، فلا يقبلها.

(١٩) ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ وهو النظر الذي يخفيه العبد من جليسه ومقارنه، وهو نظر المسارقة ﴿وَمَا تُخْفِي الضُّرُورُ﴾ مما لم يبينه العبد لغيره، فالله تعالى يعلم ذلك الخفي، فغيره من الأمور الظاهرة من باب أولى وأحرى.

(٢٠) ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ لأن قوله حق، وحكمه الشرعي حق، وحكمه الجزائي حق، وهو المحيط علماً وكتابة وحفظاً بجميع الأشياء ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ وهذا شامل لكل ما عبد من دون الله ﴿لَا يَقْضُونَ شَيْئًا﴾ لعجزهم وعدم إرادتهم للخير واستطاعتهم لفعله ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات ﴿الْبَصِيرُ﴾ بما كان وما يكون، وما نبصر وما لا نبصر، وما يعلم العباد وما لا يعلمون.

(٢١) ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بقلوبهم وأبدانهم، سير نظر واعتبار، وتفكر في الآثار ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ

ومصلحتهم ﴿عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وهم الرسل الذين فضلهم الله واختصهم الله لوحيه ودعوة عباده ﴿يُنْذِرَ﴾ من ألقى الله إليه الوحي ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ يخوف العباد بذلك، ويحثهم على الاستعداد له بالأسباب المنجية مما يكون فيه، وسماء يوم التلاق؛ لأنه يلتقي فيه الخالق والمخلوق، والمخلوقون بعضهم مع بعض، والعاملون وأعمالهم وجزاؤهم.

(١٦) ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ﴾ ظاهرون ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ لا من ذواتهم ولا من أعمالهم، ولا من جزاء تلك الأعمال ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ من هو المالك لذلك اليوم العظيم، الجامع للأولين والآخرين، أهل السماوات وأهل الأرض؟ الملك ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ﴾ المنفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فلا شريك له في شيء منها بوجه من الوجوه ﴿الْقَهَّارِ﴾ لجميع المخلوقات؛ الذي دانت له المخلوقات، وذلت وخضعت.

(١٧) ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ في الدنيا من خير وشر، قليل وكثير ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ على أحد، بزيادة في سيئاته، أو نقص من حسناته ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ سريع المحاسبة لعباده يوم القيامة؛ لإحاطة علمه، وكمال قدرته.

(١٨) يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَزْفِ﴾ يوم القيامة التي قد أزفت وقربت، وأن

(١٦) أخرج الحاكم - واللفظ له - وابن أبي حاتم والدارمي في «الرد على الجهمية» وابن أبي الدنيا في «الأهوال» وأبو نعيم في «الحلية» وعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: «ينادي مناد بين يدي الساعة: يا أيها الناس، أتتكم الساعة. فيسمعها الأحياء والأموات، وينزل الله إلى السماء الدنيا؛ فينادي: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾».

قوة الله شيئاً.

(٢٣) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا الْعَظِيمَةِ، الدالة دلالة قطعية على حقية ما أرسل به، وبطلان ما عليه من أرسل إليهم من الشرك وما يتبعه﴾ ﴿وَسُلْطَنٍ مُّبِينٍ﴾ حجة بينة.

(٢٤) ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ وهو ملك القبط بالديار المصرية ﴿وَهَمْنٍ﴾ وزيره ﴿وَقُرُونٍ﴾ الذي كان من قوم موسى؛ فبغى عليهم بماله، وكلهم ردوا عليه أشد الرد ﴿فَقَالُوا سَدَجٌ كَذَابٌ﴾ أي: ذكبه وجعلوه ساحراً مموهاً، كذاباً في أن الله أرسله.

(٢٥) ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ وأيده الله بالمعجزات الباهرة، الموجبة لتمام الإذعان، لم يقابلوها بذلك، ولم يفهم مجرد الترك والإعراض، بل ولا إنكارها ومعارضتها بباطلهم، بل وصلت بهم الحال الشنيعة إلى أن ﴿قَالُوا أَقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ﴾ حيث كادوا هذه المكيدة، وزعموا أنهم إذا قتلوا أبناءهم؛ لم يقبوا، ويقوا في رقهم وتحت عبوديتهم ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾؛ حيث لم يتم لهم ما قصدوا، بل أصابهم ضد ما قصدوا، أهلكهم الله وأبادهم عن آخرهم.

(٢٦) ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ متكبراً متجبراً مغروراً لقومه السفهاء: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ زعم أنه لولا مراعاة خواطر قومه لقتله، وأنه لا يمنعه من دعاء ربه، ثم ذكر الحامل له على إرادة قتله، وأنه نصح لقومه، وإزالة للشر في الأرض ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ الذي أنتم عليه ﴿أَوْ أَنْ

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُضَيِّبُكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٥﴾ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَبْصُرْ يَأْمُرْ بِأَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ جَاءَ نَاقَالُ فِرْعَوْنَ مَا أَرَبَكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَقُولُوا إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٢٧﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُوا إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تُكَلِّمُ مَدْيَنَينَ مَالِكٍ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٠﴾

كَانَ عَقِبُهُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من المكذبين، فسيجدونها شر العواقب، عاقبة الهلاك والدمار، والخزي والفضيحة ﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء في العدد والعدد وكبر الأجسام ﴿وَوَ أَشَدَّ﴾ وءاثاراً في الأرض من البناء والغرس، وقوة الآثار تدل على قوة المؤثر فيها وعلى تمنعه بها ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ بعقوبته بذنوبهم حين أصروا واستمروا عليها ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ وما دفع عنهم عذاب الله أحد، ولا رده عنهم راد.

(٢٢) ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالدلائل الواضحات والبراهين القاطعات ﴿فَكَفَرُوا﴾ وجحدوا مع هذا البيان والبرهان. ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ أهلكهم ودمرهم ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فلم تغن قوتهم عند

فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبُكُمْ بَعْضُ
الَّذِي يَعِدُكُمْ؛ أي: موسى بين أمرين: إما
كاذب في دعواه أو صادق فيها؛ فإن كان
كاذباً؛ فكذبه عليه، وضرره مختص به،
وليس عليكم في ذلك ضرر حيث امتنعتم
من إجابته وتصديقه، وإن كان صادقاً وقد
جاءكم بالبينات، وأخبركم أنكم: إن لم
تجيبوه عذبكم الله عذاباً في الدنيا وعذاباً في
الآخرة، فإنه لا بد أن يصيبكم بعض الذي
يعدكم، وهو عذاب الدنيا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ متجاوز الحد بترك الحق
والإقبال على الباطل ﴿كَذَابٌ﴾ بنسبته ما
أسرف فيه إلى الله؛ أي: وقد رأيتم ما دعا
موسى إليه من الحق، وما هداه الله إلى
بيانه من البراهين العقلية والخوارق السماوية،
فالذي اهتدى هذا الهدى لا يمكن أن يكون
مسرفاً ولا كاذباً.

(٢٩) ﴿يَقُولُ لَكُمْ أَلَمْ تُكَلِّمُوا النَّبِيَّ فِي الدُّنْيَا
﴿ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ على رعيتمكم، تنفذون
فيهم ما شئتم من التدبير، فهبكم حصل لكم
ذلك وتم، ولن يتم ﴿فَمَنْ يَضُرُّنَا مِنْ بَأْسِ
اللَّهِ﴾ عذابه ﴿إِنْ جَاءَنَا﴾ لا تغني عنكم هذه

يُظْهِرُ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ يعني: موسى؛ وهذا
كما يقال في المثل: «صار فرعون مذكراً»؛ أي:
صار واعظاً يشفق على الناس من موسى عليه السلام.

(٢٧) ﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ مستعيناً بربه: ﴿إِنِّي عُذْتُ
بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ امتنعت بربوبيته التي دبر بها جميع
الأمور ﴿مَنْ كُلُّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾
يحمله تكبره وعدم إيمانه بيوم الحساب على الشر
والفساد.

(٢٨) ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ﴾ موفق عاقل حازم
﴿مَنْ آَلَ فِرْعَوْنَ﴾ مقبحاً فعل قومه وشناعة
ما عزموا عليه وقد كان ﴿يَكْفُرُ إِيمَنَهُ﴾ عن
قومه القبط، فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال
فرعون: ﴿دَرُوفِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ فأخذت الرجل
غضبته لله عز وجل، فقال: ﴿أَنْقَتُلُونَ رَجُلًا أَنْ
يَقُولَ رَفِيَ اللَّهُ﴾ كيف تستحلون قتله، وهذا
ذنبه وجرمه: أنه يقول: ربي الله، ولم يكن
أيضاً قولاً مجرداً عن البينات؛ ولهذا قال:
﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ لأن بيناته
اشتهرت عندهم اشتهاً علم به الصغير
والكبير، فهذا لا يوجب قتله.

ثم قال لهم مقالة عقلية، تقنع كل عاقل،
بأي حالة قدرت، فقال: ﴿وَإِنْ يَكُ كَذِبًا﴾

(٢٦) أخرج أبو داود والنسائي والإمام أحمد وابن حبان والحاكم بإسناد صحيح من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول
الله ﷺ كان إذا خاف قوماً قال: «اللهم إنا نعوذ بك من شرورهم، ونذراً بك في نحورهم».

(٢٨) أخرج أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه الصحيح بشواهد؛ قال ﷺ: «أفضل الجهاد كلمة
عدل عند سلطان جائر».

وأخرج البخاري عن عروة بن الزبير؛ قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص: أخبرني بأشد ما صنعه المشركون برسول الله
ﷺ قال: «بيننا رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط؛ فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في
عنقه، فخفقه به خفقا شديداً، فأقبل أبو بكر؛ فأخذ بمنكبه ودفعه عن رسول الله ﷺ، وقال: أتقتلون رجلاً أن يقول: ربي الله
وقد جاءكم بالبينات من ربكم».

وعادة الله فيهم بالعقوبة العاجلة في الدنيا قبل الآخرة ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ فيعذبهم بغير ذنب أذنبوه، ولا جرم أسلفوه.

(٣٢) ﴿وَيَقُولُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ يوم القيامة.

(٣٣) ﴿يَوْمَ تُولَوْنَ مُدْبِرِينَ﴾ هاربين ذاهبين، قد ذهب بكم إلى النار ﴿مَا لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِّنْ عَاصِيَةٍ﴾ لا من أنفسكم قوة تدفعون بها عذاب الله، ولا ينصركم من دونه من أحد ﴿وَمِن يُّضِلُّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ لأن الهدى بيد الله تعالى، فإذا منع عبده الهدى لعلمه أنه غير لائق به؛ لخبثه، فلا سبيل إلى هدايته.

(٣٤) ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ﴾ بن يعقوب -عليهما السلام- ﴿مِّن قَبْلُ﴾ أي: من قبل إتيان موسى بالبينات الدالة على صدقه، وأمركم بعبادة ربكم وحده لا شريك له ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُمْ بِهِ﴾ في حياته ﴿حَقًّا إِذَا هَلَكَ﴾ أي: مات؛ ازداد شككم وشرككم، و ﴿قُلْتُمْ لَن يَّعْتَكَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ وذلك لكفركم وتكذيبكم ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ فالذي وصفه السرف والكذب، لا يهديه الله؛ لأنه رد الحق بعد أن وصل إليه وعرفه، فجزأوه أن يعاقبه الله بأن يمنعه الهدى.

ثم ذكر وصف المسرف الكذاب، فقال: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ﴾ التي بينت الحق من الباطل، فهم يجادلون فيها على وضوحها؛ ليدفعوها ويبطلوها ﴿بِفَعْرِ سُلْطَانٍ أَنْتَهُمُ﴾ بغير حجة وبرهان ﴿كَبُرَ﴾ ذلك القول المتضمن لرد الحق بالباطل ﴿مَقَامًا عِنْدَ اللَّهِ﴾ فالله أشد بغضا

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُمْ بِهِ. حَقًّا إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَّعْتَكَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا. كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٢﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِفَعْرِ سُلْطَانٍ أَنْتَهُمُ كَبُرَ مَقَامًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُّكْتَرٍ جِبَارٌ ﴿٣٣﴾ وَفَالْفَرْعَوْنُ يَهْتَكِرُ تَتَّبِعَنِ أَنَّى إِلَى مِصْرَ مَا لَمْ يَأْتِغِ الْاَسْتَبَاقَ ﴿٣٤﴾ أَسْبَغَ السَّعَاتِ فَاطْلُعُ إِلَهٍ إِلَهٍ مُّوَسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا. وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِّفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ. وَصَدَّ عَنْ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَقُولُوا أَتَعْبُونُ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٦﴾ يَقُولُوا إِنَّمَا هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ الَّذِينَ مَتَّعُوا وَإِنَّا لَنَجْزِيهِمُ دَارَ الْفِرَارِ ﴿٣٧﴾ مَن عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَن عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَؤْتُونِ أَجْرَهُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْفَعُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾

الجنود، ولا ترد عنا شيئاً من بأس الله إذا أردنا بسوء. ف ﴿فَالْفَرْعَوْنُ﴾ معارضا له في ذلك، ومغررا لقومه أن يتبعوا موسى: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ ما أقول لكم وأشير عليكم إلا ما أراه لنفسي. وقد كذب فرعون؛ فإنه رأى الحق مع موسى، وجحد به مستيقنا له، وكذب في قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ فإن هذا قلب للحق.

(٣٠) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ مكررا دعوة قومه غير آيس من هدايتهم: ﴿يَقُولُوا إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ يعني الأمم المكذبين الذين تحزبوا على أنبيائهم، واجتمعوا على معارضتهم.

(٣١) ﴿مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ مثل عاداتهم في الكفر والتكذيب،

لصاحبه؛ لأنه تضمن التكذيب بالحق، والتصديق بالباطل ونسيته إليه، ﴿وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وكذلك عباده المؤمنون يسمعون على ذلك أشد المقت؛ موافقةً لربهم ﴿كَذَلِكَ﴾ كما طبع على قلوب آل فرعون ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ﴾ في نفسه على الحق برده، وعلى الخلق باحتقارهم، ﴿جَبَّارٍ﴾ بكثرة ظلمه وعدوانه.

(٣٦) ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ معارضاً لموسى ومكذباً له في دعوته إلى الإقرار برب العالمين، الذي على العرش استوى، وعلى الخلق اعتلى: ﴿يَهْمَكُنْ أَبْنِي صَرَخًا﴾ بناءً عظيمًا مرتفعًا، والقصد منه ﴿لَعَلِّي أَتْلُعَ﴾ الأسبب أصل إلى الأبواب والطرق المؤدية إلى إله موسى.

(٣٧) ﴿أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ﴾ أبوابها وطرقها من سماء إلى سماء ﴿فَأَطْلَعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ أراه ﴿وَلِيَّ لَأُظَنَّهُ كَذِبًا﴾ في دعواه أن لنا رباً، وأنه فوق السماوات.

قال الله تعالى في بيان الذي حمله على هذا القول: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ﴾ فزين له العمل السيئ، فلم يزل الشيطان يزينه، وهو يدعو إليه ويحسنه، حتى رآه حسناً، ودعا إليه، وناظر مناظرة المحققين، وهو من أعظم المفسدين ﴿وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ الحق؛ بسبب الباطل الذي زين له ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ﴾ الذي أراد أن يكيد به الحق، ويوهم به الناس أنه محق، وأن موسى مبطل ﴿إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ خسار وبوار، لا يفيد إلا الشقاء في الدنيا والآخرة.

(٣٨) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ﴾ معيذاً نصيحته لقومه: ﴿يَقُولُوا أَتَعْبُودُونَ آهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ لا كما

وَيَقُولُوا إِنَّمَا أَدْعُواكُمْ إِلَى النَّجْوَى وَنَدْعُونِي إِلَى النَّارِ ﴿١﴾ تَدْعُونِي لَأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْغَيْرِ الْغَيْرِ ﴿٢﴾ لَأَجْرَهُ إِنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لِي دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَبْنَاءُ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤﴾ فَوَقَدَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ يَقُولُ الْأُصْحَابُ لِلَّذِينَ أُسْكِنُوا فِيهَا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَمَا شَغَلْنَاهُم عَنْ نَصِيحَاتِ آلِ النَّارِ ﴿٧﴾ قَالَ الَّذِينَ أُسْكِنُوا فِيهَا كُلُّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ فَعَلَهُمْ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿٩﴾

يقول لكم فرعون؛ فإنه لا يهديكم إلا طريق الغي والفساد.

(٣٩) ﴿يَقُولُوا إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ﴾ يتمتع بها ويتنعم قليلاً، ثم تنقطع وتضمحل، فلا تغرنكم وتخدعنكم عما خلقتكم له ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ التي هي محل الإقامة، ومنزل السكون والاستقرار.

(٤٠) ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾ من شرك أو فسوق أو عصيان ﴿فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ لا يجازى إلا بما يسوؤه ويحزنه؛ لأن جزاء السيئة السوء ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَتَىٰ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ وَالْجَوَارِحِ وَأَقْوَالِهَا﴾ فأولئك يدخلون الجنة يزفون فيها بغير حساب يعطون أجرهم بلا حد ولا عد، بل يعطيهم الله ما لا تبلغه أعمالهم.

قبولها حين يحل بكم العقاب، وتحرمون جزيل الثواب ﴿وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ ألجأ إليه وأعتصم، وأتوكل عليه في مصالححي، ودفع الضرر الذي يصيبني منكم، أو من غيركم ﴿إِنَّ اللَّهَ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ﴾ يعلم أحوالهم وما يستحقون، يعلم حالي وضعفي؛ فيمنعني منكم، ويكفيني شركم، ويعلم أحوالكم؛ فلا تتصرفون إلا بإرادته ومشيئته.

(٤٥) ﴿فَوَقَدَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا﴾ وقى الله القوي الرحيم ذلك الرجل المؤمن الموفق عقوبات ما مكر فرعون وآله له من إرادة إهلاكه وإتلافه ﴿وَحَاقَ بِكَالٍ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ أغرقهم الله تعالى في صبيحة واحدة عن آخرهم.

(٤٦) وفي البرزخ ﴿النَّارُ﴾ يعذبون بها سوء العذاب ﴿بُعْضُكُمْ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ صباحاً ومساءً ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ في نار جهنم، فهذه العقوبات الشنيعة، التي تحل بالمكذابين لرسول الله، المعاندين لأمره.

وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة والجماعة على عذاب البرزخ في القبور.

(٤٧) يخبر تعالى عن تخاصم أهل النار، وعتاب بعضهم بعضاً، واستغاثتهم بخزنة النار، وعدم الفائدة في ذلك فقال: ﴿وَإِذْ يَتَحَاوَنَ فِي النَّارِ﴾ يحتج التابعون بإغواء المتبوعين، ويتبرأ المتبوعون من التابعين ﴿فَيَقُولُ أَلُصِّعْتُمُونَا﴾ الأتباع

(٤١) ﴿وَيَقُولُ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَى﴾ بما قلت لكم ﴿وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ بترك اتباع نبي الله موسى عليه السلام.

(٤٢) ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ﴾ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴿أَنَّهُ يَسْتَحِقُّ أَنْ يَعْبُدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ والقول على الله بلا علم من أكبر الذنوب وأقبحها ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ﴾ الذي له القوة كلها، وغيره ليس بيده من الأمر شيء ﴿الْغَفَرِ﴾ الذي يسرف العباد على أنفسهم ويتجرؤون على مساحطه، ثم إذا تابوا وأنبأوا إليه؛ كفر عنهم السيئات والذنوب، ودفع موجباتها من العقوبات الدنيوية والأخروية.

(٤٣) ﴿لَا جُرْمَ﴾ حقاً يقيناً ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَمْ دَعْوَةٍ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ لا يستحق من الدعوة إليه، والحث على اللجأ إليه في الدنيا ولا في الآخرة؛ لعجزه ونقصه، وأنه لا يملك نفعا ولا ضرا، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ﴿وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ تعالى؛ فسيجازي كل عامل بعمله ﴿وَأَنْتَ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ وهم الذين أسرفوا على أنفسهم بالتجرؤ على ربهم بمعاصيه والكفر به، دون غيرهم.

(٤٤) فلما نصحهم وحذرهم وأنذرهم ولم يطيعوه ولا وافقوه؛ قال لهم: ﴿فَسْتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ من هذه النصيحة، وسترون مغبة عدم

(٤٦) في «الصحاحين» من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحذركم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة؛ وإن كان من أهل النار؛ فمن أهل النار، فيقال له: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة».

لِلْقَادَةِ ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ عَلَى الْحَقِّ - وَهُمْ الْقَادَةُ - وَدَعَوْهُمْ إِلَى مَا اسْتَكْبَرُوا لِأَجْلِهِ: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أَنْتُمْ أَغْوَيْتُمُونَا وَأَضَلَلْتُمُونَا وَزَيَّنْتُمْ لَنَا الشَّرَّ وَالشَّرَّ ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْتُونَ﴾ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿وَلَوْ قَلِيلًا﴾.

(٤٨) ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ مَبِينِينَ لِعِزِّهِمْ وَنَفُوذِ الْحُكْمِ الْإِلَهِيِّ فِي الْجَمِيعِ: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِرْكٌ لِلَّهِ قَدْ حَكَّم بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ وَجَعَلَ لِكُلِّ قِسْطِهِ مِنَ الْعَذَابِ، فَلَا يَزَادُ فِي ذَلِكَ وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُ، وَلَا يَغْيِرُ مَا حَكَمَ بِهِ الْحَكِيمُ.

(٤٩) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ﴾ مِنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ وَالضَّعْفَاءِ ﴿لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ أَدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ لَعَلَّه تَحْصُلُ بَعْضُ الرَّاحَةِ.

(٥٠) ف ﴿قَالُوا﴾ لَهُمْ مُوْبِخِينَ وَمَبِينِينَ أَنَّ شَفَاعَتَهُمْ لَا تَنْفَعُهُمْ، وَدَعَاءُهُمْ لَا يَفِيدُهُمْ شَيْئًا: ﴿أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الَّتِي تَبَيَّنَتْ بِهَا الْحَقُّ وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، وَمَا يَقْرُبُ مِنَ اللَّهِ وَمَا يَبْعُدُ مِنْهُ؟

﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ قَدْ جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ، وَقَامَتْ عَلَيْنَا حُجَّةُ اللَّهِ الْبَالِغَةُ فَظَلَمْنَا وَعَانَدْنَا الْحَقَّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ ﴿قَالُوا﴾ الْخِزْنَةُ لِأَهْلِ النَّارِ مُتَبَرِّئِينَ مِنَ الدَّعَاءِ لَهُمْ وَالشَّفَاعَةِ: ﴿فَادْعُوا﴾ أَنْتُمْ ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ بَاطِلٌ لَا غَ؛ لِأَنَّ الْكُفْرَ مُحْبِطٌ لِّجَمِيعِ الْأَعْمَالِ، صَادٌّ لِإِجَابَةِ الدَّعَاءِ.

(٥١) ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بِالْحُجَّةِ وَالْبِرْهَانِ وَالنَّصْرِ، وَفِي الْآخِرَةِ بِالْحُكْمِ لَهُمْ وَلِاتِّبَاعِهِمْ بِالثَّوَابِ، وَلَمَنْ حَارَبَهُمْ بِشِدَّةِ الْعِقَابِ ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ الْمَلَائِكَةُ.

﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا قَدْ دُعُوا وَمَا دُعُوا إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ﴾ وَلَهُمْ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ﴾ هُدًى وَذِكْرًا لِأَوَّلِي الْأَلْبَابِ ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذُنُوبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ يَعْتَبِرُ سُلْطَانُ أَتْلُهُمْ إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّاكِبَةٌ مَّا هُمْ بِسَلَفِيَةٍ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ

(٥٢) ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ﴾ حِينَ يَعْتَذِرُونَ ﴿وَلَهُمْ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ الدَّارِ السَّيِّئَةِ الَّتِي تَسُوءُ نَازِلِيهَا

(٥٣) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى﴾ أَعْطَيْنَا مُوسَى ﴿الْهُدَى﴾ الْآيَاتِ وَالْعِلْمَ الَّذِي يَهْتَدِي بِهِ الْمُهْتَدُونَ ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ﴾ جَعَلْنَاهُ مَتَوَارِثًا بَيْنَهُمْ، مِنْ قَرْنٍ إِلَى آخَرٍ، وَهُوَ التَّوْرَةُ.

(٥٤) ﴿هُدًى﴾ وَذَلِكَ الْكِتَابُ مُشْتَمِلٌ عَلَى الْهُدَى الَّذِي هُوَ: الْعِلْمُ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ وَغَيْرِهَا ﴿وَذِكْرًا﴾ وَعَلَى التَّذَكُّرِ لِلْخَيْرِ بِالترغيب فيه، وَعَلَى الشَّرِّ بِالترهيب عنه، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِكُلِّ أَحَدٍ، وَإِنَّمَا هُوَ ﴿لِأَوَّلِي الْأَلْبَابِ﴾ الْعُقُولُ الصَّحِيحَةُ السَّلِيمَةُ.

(٥٥) ﴿فَاصْبِرْ﴾ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ كَمَا صَبَرَ مِنْ

فهذا قصدهم ومرادهم ولكن هذا لا يتم لهم وليسوا ببالغيه ﴿فَاسْتَعِذْ﴾ فاعتصم ﴿بِاللَّهِ﴾ والجا إليه ولم يذكر مما يستعيز؛ إرادة للعموم: استعذ بالله من الكبر الذي يوجب التكبر على الحق، واستعذ بالله من شياطين الإنس والجن، واستعذ بالله من جميع الشرور ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لجميع الأصوات على اختلافها ﴿الْبَصِيرُ﴾ بجميع المراتب بأي محل وموضع وزمان كانت.

(٥٧) ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ يخبر تعالى بما تقرر في العقول: أن خلق السماوات والأرض أعظم وأكبر من خلق الناس؛ فإن الناس بالنسبة إلى خلق السماوات والأرض من أصغر ما يكون، فالذي خلق الأجرام العظيمة وأتقنها قادر على إعادة الناس بعد موتهم من باب أولى وأحرى. وهذا أحد الأدلة العقلية الدالة على البعث دلالة قاطعة، بمجرد نظر العاقل إليها يستدل بها استدلالاً لا يقبل الشك والشبهة بوقوع ما أخبرت به الرسل من البعث، وليس كل أحد يجعل فكره لذلك، ويقبل بتدبره؛ ولهذا قال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولذلك لا يعتبرون بذلك، ولا يجعلونه منهم على بال.

(٥٨) ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾ كما لا يستوي الأعمى والبصير، كذلك لا يستوي من آمن بالله وعمل الصالحات، ومن كان مستكبراً على عبادة ربه، مقدماً على معاصيه، ساعياً في مساخطه ﴿فَلَيْلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ تذكركم قليل، وإلا، فلو تذكرتم مراتب الأمور، ومنازل الخير والشر، والفرق بين الأبرار والفجار، وكانت لكم همه

إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ آلِهَةً لَيْسَ كُفُوفًا فِيهِ وَاللَّهُ هَارِمٌ صِرَاطُ اللَّهِ لَدُوْهُ فَضَّلَ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَلِكَ كُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلِيقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا تَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ كَذَلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا يَافِكُونَ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٣﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِيَّاهُ نَعْبُدُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَ فِي أَلْبِينَتْ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾

قبلك من أولي العزم المرسلين ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ ليس مشكوكاً فيه، أو فيه ريب أو كذب ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ المانع لك من تحصيل فوزك وسعادتك، فأمره بالصبر الذي فيه يحصل المحبوب، وبالإستغفار الذي فيه دفع المحذور ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ وبالتسبيح بحمد الله تعالى خصوصاً ﴿بِالْعَشِيِّ﴾ في أواخر النهار وأوائل الليل ﴿وَالْإِبْكَرِ﴾ وهي أوائل النهار وأواخر الليل.

(٥٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ لِيُبْطِلُهَا بِالْبَاطِلِ﴾ يَغْيِرُ سُلْطَانِ أَتْلَهُمْ بغير بينة من أمره ولا حجة ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ إن هذا صادر من كبر في صدورهم على الحق وعلى من جاء به، يريدون الاستعلاء عليه بما معهم من الباطل ﴿مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾

وصرف عنهم النقم، وهذا يوجب عليهم تمام شكره وذكره ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ بسبب جهلهم وظلمهم.

(٦٢) ﴿ذَلِكُمْ﴾ الذي فعل ما فعل ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ المنفرد بالإلهية، والمنفرد بالربوبية؛ لأن انفراد بهذه النعم من ربوبيته، وإيجابها للشكر من ألوهيته ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ تقرير لربوبيته ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تقرير لألوهيته وأنه المستحق للعبادة وحده، لا شريك له ﴿فَأَن تَوَفَّقُوا﴾ كيف تصرفون عن عبادته، وحده لا شريك له، بعد ما أبان لكم الدليل، وأنا لكم السبيل؟

(٦٣) ﴿كَذَلِكَ﴾ كما أفكتم عن الحق مع قيام الدلائل كذلك ﴿يُوفَى الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَحْمِلُونَ﴾ عقوبة على جحدهم لآيات الله، وتعيدهم على رسله، صرفوا عن التوحيد والإخلاص.

(٦٤) ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ قارة ساكنة، مهياة لكل مصالحكم، تتمكنون من حرثها وغرسها، والبناء عليها، والسفر والإقامة فيها ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَاءً﴾ سقفا للأرض التي أنتم فيها، قد جعل الله فيها ما تنتفعون به من الأنوار والعلامات التي يهتدى بها في ظلمات البر والبحر ﴿وَصَوَّرَكُمُ أَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ فليس في جنس الحيوانات أحسن صورة من بني آدم ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ وهذا شامل لكل طيب، من مأكّل، ومشرب،

عليه؛ لأثرتم النافع على الضار، والهدى على الضلال، والسعادة الدائمة على الدنيا الفانية.

(٥٩) ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ قد أخبرت بها الرسل الذين هم أصدق الخلق، ونطقت بها الكتب السماوية التي جميع أخبارها أعلى مراتب الصدق، وقامت عليها الشواهد المرئية، والآيات الأفقية ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مع هذه الأمور التي توجب كمال التصديق والإذعان.

(٦٠) ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي﴾ هذا من لطفه بعباده ونعمته العظيمة، حيث دعاهم إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم، وأمرهم بدعائه، دعاء العبادة، ودعاء المسألة، ووعدهم أن يستجيب لهم، فقال: ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وتوعد من استكبر عنها فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ ذليلين حقيرين، يجتمع عليهم العذاب والإهانة، جزاء على استكبارهم.

(٦١) ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ﴾ أي: لأجلكم جعل الله الليل مظلمًا ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ من حركاتكم التي لو استمرت لضررت، فتأوون إلى فرشكم، ويلقي الله عليكم النوم الذي يستريح به القلب والبدن ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ منيرًا بالشمس المستمرة في الفلك، فتقومون من فرشكم إلى أشغالكم الدينية والدنيوية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَدُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ على الناس حيث أنعم عليهم بهذه النعم وغيرها،

(٦٠) أخرج أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه بإسناد صحيح عن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ» ثم قرأ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

شريك له؛ لكماله في أوصافه وأفعاله، وتمام نعمه.

(٦٦) ﴿قُلْ﴾ يا أيها النبي: ﴿إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الأوثان والأصنام، وكل ما عبد من دون الله ﴿لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي﴾ ولست على شك من أمري بل على يقين وبصيرة ﴿وَأُمرْتُ أَنْ أَتْلِمَ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بقلبي ولساني وجوارحي، بحيث تكون متقادة لطاعته، مستسلمة لأمره.

(٦٧) ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ رُءُوبٍ﴾ وذلك بخلقه لأصلكم وأبيكم آدم عليه السلام ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ وهذا ابتداء خلق سائر النوع الإنساني ما دام في بطن أمه، فنبه بالابتداء على بقية الأطوار، من العلقه، فالمضغة، فالعظام، فنفخ الروح ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ ثم هكذا تنتقلون في الخلقة الإلهية حتى تبلغوا أشدكم من قوة العقل والبدن، وجميع قواه الظاهرة والباطنة ﴿ثُمَّ لِيَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُؤْتَى مِنْ قَبْلِ﴾ بلوغ الأشد ﴿وَلِيَبْلُغُوا﴾ بهذه الأطوار المقدرة ﴿أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ تنتهي عنده أعماركم ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أحوالكم، فتعلمون أن المطور لكم في هذه الأطوار كامل الاقتدار، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وأنكم ناقصون من كل وجه.

(٦٨) ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ هو المنفرد بالإحياء والإماتة، فلا تموت نفس بسبب أو بغير سبب، إلا بإذنه ﴿فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ جليلاً أو حقيراً ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ لا رد في ذلك ولا مشوية ولا تمنع.

(٦٩) يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ رُءُوبٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيََكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُؤْتَى مِنْ قَبْلِ وَلِيَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّهُ بَصَرٌ مُنْتَمٍ ﴿٧٩﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّْا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ إِذَا لَأَعْتَلُ فِي سَعْيِهِمْ وَاسْتَغْثَلُوا رَبَّهُمْ ﴿٨١﴾ إِنِّي أَخَذْتُ الْعَصِمَ مِنْ فِى النَّارِ يَسْجُرُونَ ﴿٨٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ ﴿٨٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٨٤﴾ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٨٥﴾ أَذْهَبُوا أَتُوبَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا قُلْ لِّسَنُيَ الْمُنْكَرِينَ ﴿٨٦﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِنَّمَا تِرْيَاقُ بَعْضِ الَّذِي يَعْلَمُ أَوْتَوْفَيْتُكَ فَإِنِّي أَنَارُ جَعُونَ ﴿٨٧﴾

ومنكح، وملبس، ومنظر، ومسمع، وغير ذلك من الطيبات التي يسرها الله لعباده ﴿ذَلِكُمْ﴾ الذي دبر الأمور، وأنعم عليكم بهذه النعم ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ تعاضظ، وكثر خيره وإحسانه، المربي جميع العالمين بنعمه.

(٦٥) ﴿هُوَ الْحَيُّ﴾ الذي له الحياة الكاملة التامة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود بحق إلا وجهه الكريم ﴿فَادْعُوهُ﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾ اقصدوا بكل عبادة ودعاء وعمل وجه الله تعالى، فإن الإخلاص هو المأمور به ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ جميع المحامد والمدائح، والثناء بالقول، كنطق الخلق بذكره، والفعل، كعبادتهم له، كل ذلك لله تعالى وحده لا

فِي ءَايَتِ اللَّهِ الْوَاضِحَةِ الْبَيِّنَةِ ﴿أَنْ يَصْرُفُونَ﴾
 أَي: كَيْفَ يَنْعَدِلُونَ عَنْهَا، وَإِلَى أَيِّ شَيْءٍ
 يَذْهَبُونَ بَعْدَ الْبَيَانِ التَّامِّ؟

(٧٠) ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ﴾ الَّذِي جَاءَهُمْ
 مِنَ اللَّهِ ﴿وَيَمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ وَبِمَا أَرْسَلَ
 اللَّهُ بِهِ رُسُلَهُ الَّذِينَ هُمْ خَيْرُ الْخَلْقِ وَأَصْدَقُهُمْ،
 وَأَعْظَمُهُمْ عَقُولًا ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ هَذَا تَهْدِيدٌ
 شَدِيدٌ، وَوَعِيدٌ أَكِيدُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهُوْلَاءُ.
 (٧١) ﴿إِذِ الْأَغْطُلُ فِي أَعْتَقِهِمْ﴾ الَّتِي لَا يَسْتَطِيعُونَ
 مَعَهَا حَرَكَةً ﴿وَالسَّلْسَلُ﴾ الَّتِي يَقْرَنُونَ بِهَا، هُمْ
 وَشَيَاطِينُهُمْ ﴿يُسْحَبُونَ﴾.

(٧٢) ﴿فِي الْحَمِيمِ﴾ الْمَاءِ الَّذِي اشْتَدَّ غَلِيَانُهُ
 وَحَرُّهُ ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ يَوْقَدُ عَلَيْهِمْ
 اللَّهَبُ الْعَظِيمُ، فَيُضَلُّونَ بِهَا، ثُمَّ يُوْبَخُونَ عَلَى
 شُرْكِهِمْ وَكَذِبِهِمْ.

(٧٣) ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ﴾ تَوْبِيخًا وَتَقْرِيعًا عَلَى
 شُرْكِهِمْ: ﴿إِنَّ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ فِي الدُّنْيَا.

(٧٤) ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْتَانِ
 ﴿قَالُوا صَلُّوا عَلَيْنَا﴾ أَي: ذَهَبُوا عَلَيْنَا، فَلَا نَرْجُو
 نَفْعَهُمْ وَلَا خَيْرَهُمْ ﴿بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ
 شَيْئًا﴾ جَحَدُوا عِبَادَتَهُمْ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كَذَلِكَ
 يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾

(٧٥) وَيُقَالُ لِأَهْلِ النَّارِ: ﴿ذَلِكُمْ﴾ الْعَذَابُ
 الَّذِي وَقَعَ عَلَيْكُمْ ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ﴾ فِي
 الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴿تَفْرَحُونَ بِالْبَاطِلِ الَّذِي أَنْتُمْ
 عَلَيْهِ، وَبِالْعُلُومِ الَّتِي خَالَفْتُمْ بِهَا عُلُومَ الرُّسُلِ
 ﴿وَيَمَّا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ وَتَمْرَحُونَ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ،
 بَغْيًا وَعُدْوَانًا وَظُلْمًا وَعَصْيَانًا.

(٧٦) ﴿أَدْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ كُلَّ بَطْطِقَةٍ مِنْ
 طَبَقَاتِهَا عَلَى قَدَرِ عَمَلِهِ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لَا

الْمَنَافِعُ وَالْخَيْرَاتُ

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ
 وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرُّسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ
 بِتَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُتِيَ بِالْحَقِّ وَخَيْرٌ

هَذَا لِكَ الْمُبْطُلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ

لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَكُونُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا

مَنْفَعٌ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى

أَفْئَالِكُمْ تَحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَرَبِّكُمْ ءَايَتُهُ قَائِمٌ ءَايَتُ

اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ

كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ

قُوَّةً وَأَنَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ

﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ

مِنْ الْعِلْمِ وَحَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا

رَأَوْا بِاسْتِغَاثَتَهُمْ بِاللَّهِ وَحَدُّوهُ كَقَرْنَيْمَا كُتِبَ بِهِ

مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمَّا يَكْفُرُ بِهِمْ يُعَذِّبُهُمْ يُعَذِّبُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بِاسْتِغَاثَتِ

اللَّهِ أَلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَاكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

يُخْرَجُونَ مِنْهَا أَبَدًا ﴿فَيَسَّ مَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾
 مَثْوًى يَخْزُونَ فِيهِ، وَيَهَانُونَ، وَيَحْبَسُونَ،
 وَيُعَذِّبُونَ، وَيَتَرَدَّدُونَ بَيْنَ حَرْهَا وَزَمْهَرِيرِهَا.

(٧٧) ﴿فَاصْبِرْ﴾ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ عَلَى دَعْوَةِ
 قَوْمِكَ وَمَا يَنَالُكَ مِنْهُمْ مِنْ أَدَى، وَاسْتَعْنِ عَلَى
 صَبْرِكَ بِإِيمَانِكَ ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ سَيَنْصُرُ
 دِينَهُ، وَيُعْلِي كَلِمَتَهُ، وَيَنْصُرُ رُسُلَهُ، فِي الدُّنْيَا
 وَالْآخِرَةِ، وَاسْتَعْنِ عَلَى ذَلِكَ -أَيْضًا- بِتَوَقُّعِ
 الْعُقُوبَةِ بِأَعْدَائِكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلِذَلِكَ
 قَالَ: ﴿فَكَيْفًا تَرُبُّنَاكَ بَعْضُ الَّذِي نَعُدُّهُمْ﴾ فِي
 الدُّنْيَا فَذَاكَ ﴿أَوْ تَرْفِقُنَا﴾ قَبْلَ عِقَابَتِهِمْ ﴿فَالْيُنَا
 يُرْجَعُونَ﴾ فَنَجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ.

(٧٨) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا﴾ كَثِيرِينَ إِلَى
 قَوْمِهِمْ يَدْعُونَهُمْ وَيُصْبِرُونَ عَلَى أَذَاهُمْ ﴿وَمِنْهُمْ
 مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ خَبَرَهُمْ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ

ويذكروهم ﴿فَأَيُّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ أَيَّ آيَةٍ من آياته لا تعترفون بها؟ فإنكم قد تقرر عندهم: أن جميع الآيات والنعم منه تعالى، فلم يبق للإنكار محل، ولا للإعراض عنها موضع.

(٨٢) ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يحث تعالى المكذبين لرسولهم على السير في الأرض بأبدانهم وقلوبهم وسؤال العالمين، ﴿فَيَنْظُرُوا﴾ نظر فكر واستدلال، لا نظر غفلة وإهمال ﴿كَيْفَ كَانَتْ عِقَبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم السالفة؛ كعاد وثمود وغيرهم، ممن ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاتَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ من الأبنية الحصينة، والغراس الأنيقة، والزروع الكثيرة ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ حين جاءهم أمر الله، فلم تغن عنهم قوتهم، ولا افتدوا بأموالهم، ولا تحصنوا بحصونهم.

(٨٣) ثم ذكر جرمهم الكبير، فقال: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ من الكتب الإلهية، والخوارق العظيمة، والعلم النافع المبين للهدى من الضلال، والحق من الباطل ﴿فَرَحُّوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ المناقض لدين الرسل ﴿وَحَافُوا﴾ أي: نزل ﴿بِهِمْ﴾ بالكفار الجاحدين ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ من العذاب.

(٨٤) ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ عذابنا ﴿قَالُوا ءَأَمَّنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ أقروا حيث لا ينفعهم الإقرار ﴿وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ من الأصنام والأوثان، وتبرأنا من كل ما خالف الرسل من علم أو عمل.

(٨٥) ﴿فَلَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾

نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ وكل الرسل مدبرون، ليس بيدهم شيء من الأمر ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ منهم ﴿أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ﴾ من الآيات السمعية والعقلية ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بمشيئته وأمره ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ بالفصل بين الرسل وأعدائهم والفتح ﴿فُتِيَ﴾ بينهم ﴿بِالْحَقِّ﴾ الذي يقع الموقع، ويوافق الصواب بإنجاء الرسل وأتباعهم، وإهلاك المكذبين ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾ وقت القضاء المذكور ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾ الذين وصفهم الباطل، وما جاءوا به من العلم والعمل باطل، وغايتهم المقصودة لهم باطلة.

(٧٩) ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ يمتن تعالى على عباده بما جعل لهم من الأنعام التي بها جملة من الإنعام منها: منافع الركوب عليها والحمل، ومنها: منافع الأكل من لحومها، والشرب من ألبانها.

(٨٠) ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ ومنها: منافع الدفء، واتخاذ الآلات والأمتعة، من أصوافها، وأوبارها وأشعارها، إلى غير ذلك من المنافع ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ من الوصول إلى الأوطان البعيدة، وحصول السرور بها، والفرح عند أهلها ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَلَكَ تَحْمَلُونَ﴾ على الرواحل البرية والفلك البحرية، يحملكم الله الذي سخرها، وهياً لها ما هياً من الأسباب التي لا تتم إلا بها.

(٨١) ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ﴾ الدالة على وحدانيته وأسمائه وصفاته، وهذا من أكبر نعمه؛ حيث أشهد عباده آياته النفسية وآياته الأفقية، ونعمه الباهرة، وعددها عليهم؛ ليعرفوه ويشكروه



في تلك الحال .
﴿سُتَّ اللَّهُ أَلَّتِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادَةٍ﴾ ؛ أي : هذا حكم الله في المكذبين حين ينزل بهم بأس الله وعقابه إذا آمنوا، كان إيمانهم غير صحيح ، ولا منجياً لهم من العذاب ، وذلك ؛ لأنه إيمان ضرورة ، قد اضطروا إليه ، وإيمان مشاهدة ، وإنما الإيمان النافع الذي ينجي صاحبه ، هو الإيمان الاختياري ، الذي يكون إيماناً بالغيب ، وذلك قبل وجود قرائن العذاب .

﴿وَحَسِرَ هُنَالِكَ﴾ أي : وقت الإهلاك ، وإذافة البأس ﴿الْكَافِرُونَ﴾ دينهم ودنياهم وأخراهم ، ولا يكفي مجرد الخسارة ، في تلك الدار ، بل لا بد من خسران يشقي في العذاب الشديد ، والخلود فيه دائماً أبداً .

سورة فصلت مكية

كما تبين لفظه ، ويتضح لهم الهدى من الضلال ، والغي من الرشاد .

(٤) ﴿بَشِيرًا﴾ بالشواب العاجل والآجل ﴿وَنَذِيرًا﴾ بالعقاب العاجل والآجل ﴿فَاعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ ولكن أعرض أكثر الخلق عنه إعراض المستكبرين ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ له سماع قبول وإجابة ، وإن كانوا قد سمعوه سماعاً ، تقوم عليهم به الحجة الشرعية .

(٥) ﴿وَقَالُوا﴾ ؛ أي : هؤلاء المعرضون عنه ، مبينين عدم انتفاعهم به ؛ بسد الأبواب الموصلة إليه : ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكْثَرِ﴾ أغطية مغشاة ﴿يَمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِي ءَادَانِنَا وَقْرٌ﴾ ؛ أي : صمم فلا نسمع لك ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ فلا نراك .

والقصد من ذلك ، أنهم أظهروا الإعراض عنه من كل وجه ، وأظهروا بغضه والرضا بما هم

(١) ﴿حَمْدٌ﴾ سبق الكلام على الحروف المقطعة في فواتح سورة البقرة .

(٢) يخبر تعالى عباده أن هذا الكتاب الجليل والقرآن الكريم ﴿نَزِيلٌ﴾ صادر ﴿مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء ، الذي من أعظم رحمته وأجلها : إنزال هذا الكتاب .

(٣) ﴿كَتَبَ فُصِّلَتْ ءَايَتُهُ﴾ فصل كل شيء من أنواعه على حدته ، وهذا يستلزم البيان التام ، والتفريق بين كل شيء ، وتمييز الحقائق ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ باللغة الفصيحة أكمل اللغات ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لأجل أن يتبين لهم معناه ؛

اشتمل عليه مما دعا إليه من الإيمان، وصدقوا إيمانهم بالأعمال الصالحة الجامعة للإخلاص والمتابعة ﴿لَهُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ غير مقطوع ولا نافذ.

(٩) ﴿قُلْ أَنتُمْ كُفَرُوتُمْ﴾ ينكر تعالى ويعجب من كفر الكافرين ﴿بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ الذي خلق الأرض الكثيفة العظيمة في يومين ﴿وَيَعْمَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وجعلوا معه سبحانه أنداداً يشركونهم معه، ويبذلون لهم ما يشاؤون في عباداتهم، ويسوونهم بالرب العظيم الملك الكريم.

(١٠) ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رِيسَىٰ مِنْ فَوْقِهَا﴾ ثم دحاها في يومين؛ بأن جعل فيها جبلاً من فوقها، ترسيها في الزوال والزوال وعدم الاستقرار ﴿وَبَرَكْنَا فِيهَا﴾ جعلها مباركة قابلة للخير والبذر والغراس ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا فُوقَهَا﴾ وهو ما يحتاج أهلها إليه من الأرزاق والأماكن التي تُزرع وتُغرس، يعني في يومين اثنين، فهما مع اليومية السابقين أربعة ولهذا قال: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءٌ لِّلسَّالِئِلِينَ﴾ لمن أراد السؤال عن ذلك ليعلمه.

(١١) ﴿ثُمَّ﴾ بعد أن خلق الأرض ﴿اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ علا وارتفع علواً يليق بجلاله وكماله ﴿وَهُوَ دُخَانٌ﴾ وهو بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض، عطف عليه بقوله: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ انقادا

عليه ولهذا قالوا: ﴿فَاعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَا﴾ كما رضيت بالعمل بدينك؛ فإننا راضون كل الرضا بالعمل في ديننا.

(٦) ﴿قُلْ لَهُمْ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ:﴾ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ هذه صفتي ووظيفتي، أني بشر مثلكم، ليس بيدي من الأمر شيء ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ﴾ لا كما تعبدونه من الأصنام والأنداد المتفرقين، إنما الله إله واحد ﴿فَأَسْقِمْوهُ﴾ أي: اسلكوا الصراط الموصل إلى الله تعالى، بتصديق الخبر الذي أخبر به واتباع الأمر واجتناب النهي، هذه حقيقة الاستقامة، ثم الدوام على ذلك، وفي قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ تنبيه على الإخلاص، وأن العامل ينبغي له أن يجعل مقصوده وغايته التي يعمل لأجلها، الوصول إلى الله وإلى دار كرامته ﴿وَأَسْتَغْفِرُكُمْ﴾ لسالف الذنوب ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ عذاب شديد سيحل بالمشركين.

(٧) ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ الذين عبدوا من دونه من لا يملك نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ودنسوا أنفسهم؛ فلم يزكوها بتوحيد ربهم والإخلاص له، ولم يصلوا ولا زكوا فلا إخلاص للخالق بالتوحيد والصلاة، ولا نفع للخلق بالزكاة وغيرها ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ لا يؤمنون بالبعث ولا بالجنة والنار.

(٨) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بهذا الكتاب، وما

(٨) أخرج أحمد وأحمد وعبد الرزاق والبخاري في «شرح السنة» بإسناد جيد من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا كان على طريقة حسنة من العبادة ثم مرض، قيل للملك الموكل به: اكتب له مثل عمله إذا كان طليقاً حتى أطلقه، أو أكفته إلي». .

لأمري طائعتين أو مكرهتين؛ فلا بد من نفوذه ﴿قَالَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ ليس لنا إرادة تخالف إرادتك.

(١٢) ﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ فتم خلق السماوات والأرض في ستة أيام، أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ الأمر والتدبير اللائق بها، الذي اقتضته حكمة أحكم الحاكمين ﴿وَرَبَّيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ﴾ هي: النجوم، يستنار بها، ويهتدى، وتكون زينة وجمالاً للسماء ظاهراً، وجمالاً لها باطناً ﴿وَحَفَظْنَا﴾ بجعلها رجوماً للشياطين؛ لئلا يسترق السمع فيها ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور، من الأرض وما فيها، والسماء وما فيها ﴿تَقْدِيرُ الْغَرِيزِ﴾ الذي عزته قهر بها الأشياء وديرها، وخلق بها المخلوقات ﴿الْعَالَمِ﴾ الذي أحاط علمه بالمخلوقات الغائب والشاهد.

(١٣) ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ فإن أعرض هؤلاء المكذبون بعد ما بين لهم من أوصاف القرآن الحميدة ومن صفات الإله العظيم ﴿فَقُلْ أَتَذَرُكُمْ صَاعِقَةً﴾ عذاباً يستأصلكم ويجتاحكم ﴿مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ القبيلتين المعروفتين حيث اجتاحتهم العذاب، وحل عليهم وبيل العقاب، وذلك بظلمهم وكفرهم.

(١٤) ﴿إِذْ﴾ حيث ﴿جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ يتبع بعضهم بعضاً متوالين، ودعوتهم جميعاً واحدة ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ يأمرونهم بالإخلاص لله، وينهونهم عن الشرك، فردوا رسالتهم وكذبوهم، ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾ وأما أنتم فبشر مثلنا ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ أيها البشر ﴿كَافِرُونَ﴾ لا

فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَرَبَّيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحَفَظْنَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْغَرِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَتَذَرُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (١٤) فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ مَحْصُورَاتٍ لِيَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (١٦) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْغَدَى فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً الْعَذَابِ الْهَوْنِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) وَجَعَلْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (١٨) وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّى إِذَا مَا جَاءَهُمْ هَاسِدَةٌ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠)

نتبعكم وأنتم بشر مثلنا.

(١٥) ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ فكانوا مستكبرين في الأرض، قاهرين لمن حولهم من العباد، ظالمين لهم، قد أعجبتهم قوتهم ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ قال تعالى ردّاً عليهم بما يعرفه كل أحد: ﴿أَوَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ فلولا خلقه إياهم، لم يوجدوا، فلو نظروا إلى هذه الحال نظراً صحيحاً، لم يغتروا بقوتهم، ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ فبارزوا الجبار بالعداوة، وجحدوا بآياته، وعصوا رسوله، فعاقبهم الله تعالى عقوبة تناسب قوتهم التي اغتروا بها، فقال تعالى:

(١٦) ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي: ريحاً عظيمة، من قوتها وشدتها لها صوت مزعج

والإيمان ﴿فَأَخَذْتَهُمْ صَِعْقَةً أَلْعَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ لا ظلماً من الله سبحانه لهم .

(١٨) ﴿وَبَجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ﴾ نجى الله صالحاً عَلَى السِّلَاحِ ومن اتبعه من المؤمنين المتقين للشرك والمعاصي .

(١٩) ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ﴾ يخبر تعالى عن أعدائه الذين بارزوه بالكفر به وبآياته وتكذيب رسله ومعاداتهم ومحاربتهم، وحالهم الشنيعة حين يحشرون، أي: ويجمعون ﴿إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يرد أولهم على آخرهم، ويتبع آخرهم أولهم، ويساقون إليها سوقاً عنيفاً، ولا يستطيعون امتناعاً، ولا ينصرون أنفسهم، ولا هم ينصرون .

(٢٠) ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾ حتى إذا وردوا على النار، وأرادوا الإنكار، أو أنكروا ما عملوه من المعاصي ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ شهد عليهم كل عضو من أعضائهم، فكل عضو يقول: أنا فعلت كذا وكذا، يوم كذا وكذا. وخص هذه الأعضاء الثلاثة لأن أكثر الذنوب إنما تقع بها أو بسببها .

(٢١) ﴿وَقَالُوا لِمُجُودِهِمْ﴾ هذا دليل على أن الشهادة تقع من كل عضو، كما ذكرنا: ﴿لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ ونحن ندافع عنكن؟ ﴿قَالُوا أَأُتْقِنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فليس في إمكاننا الامتناع عن الشهادة حين أنطقنا الذي لا يستعصي عن مشيئته أحد ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فكما خلقكم بذواتكم وأجسامكم، خلق -أيضاً- صفاتكم، ومن ذلك الإنطاق ﴿وَالِيَهُ تُرْجَعُونَ﴾ في الآخرة؛ فيجزيكُم بما علمتم .

لَمَّا أُلْقِيَ الْقُرْآنُ
سُورَةُ فَصَّلَتْ
وَقَالُوا لِمُجُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَيْفَ أَمْعَلْتُمْ وَلَٰكِنْ كَذَّبْتُمْ ﴿١٩﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٠﴾ فَإِنْ يَصِيرُوا قَالَنَّا مَتَوَىٰ هُمْ وَإِنْ يُسْتَعْتَبُوا قِمَّاهُمْ مِنَ الْمُفْعَتِينَ ﴿٢١﴾ وَقَفَّضْنَا لَهُمْ قُرْآنًا فَزَيَّنَّا لَهُمْ مَا يَشَاءُ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلَقْنَاهُمْ وَحَىٰ عَلَيْهِمُ الْقَوْلَ فِي أُمُوقٍ دَخَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَافِ عَٰلَمُكَ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَدَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا اللَّهَ الَّذِينَ أَصْلَانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ يَجْعَلُهُمَا نَحْتًا أَفْدَامًا لِكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٦﴾

كالرعد القاصف؛ فسخرها الله عليهم ﴿سَبَّحَ لَيْلًا وَنَهْيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَانَتْهُمْ أَعْجَازُ تُخَّلٍ خَاوِيَةً﴾ [الحاقة: ١٠]. ﴿فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ﴾ متتابعات، فدمرتهم وأهلكتهم، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم، وقال هنا: ﴿لَنَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخَرْزِيِّ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ الذي اختزوا به وافتضحوا بين الخليقة ﴿وَلْعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾ لا يمنعون من عذاب الله، ولا ينفعون أنفسهم .

(١٧) ﴿وَأَمَّا تُمُودٌ﴾ وهم القبيلة المعروفة الذين سكنوا الجبجر وحواليه، الذين أرسل الله إليهم صالحاً عليه السلام يدعوهم إلى توحيد ربهم، وينهاهم عن الشرك ﴿فَهَدَيْتَهُمْ﴾ بيّنا لهم ووضحنا لهم الحق ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى﴾ الذي هو: الكفر والضلال على ﴿الْهُدَى﴾ الذي هو: العلم

وَالْآخِرَةُ بَعْدُوهَا عَلَيْهِمْ وَأَنْسَوْهُمْ ذَكَرَهَا ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ وجب عليهم ونزل القضاء والقدر بعذابهم ﴿فِي﴾ جملة ﴿أَمْرٍ قَدْ حَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ لأديانهم وآخرتهم، ومن خسر فلا بد أن يذل ويشقى ويعذب.

(٢٦) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا سَمْعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ أعرضوا عنه بأسماعكم، وإياكم أن تلتفتوا، أو تصغوا إليه، ولا إلى من جاء به ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ أي: أغطوا بالباطل من القول إذا سمعتم قارئه يقرئه؛ كيما لا تسمعه، ولا تفهموا ما فيه ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ إن فعلتم ذلك ﴿تَعْلَمُونَ﴾ محمداً على قراءته.

(٢٧) ﴿فَلَنَذِيقَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ ولما كان هذا ظلماً منهم وعناداً، لم يبق فيهم مطمع للهداية، فلم يبق إلا عذابهم ونكالهم، ولهذا قال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهو الكفر والمعاصي؛ فإنها أسوأ ما كانوا يعملون.

(٢٨) ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾ الذين حاربوه وحاربوا أوليائه بالكفر والتكذيب والمجادلة والمجادلة ﴿الَّذِينَ هُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلُودِ﴾ الخلود الدائم؛ الذي لا يفر عنهم العذاب ساعة، ولا هم ينصرون ﴿جَزَاءُ يَمَا كَانُوا يَتَّبِعُونَ﴾ فإنها آيات واضحة، وأدلة قاطعة مفيدة لليقين،

(٢٢) ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرْشِدُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أي: وما كنتم تختفون عن شهادة أعضائكم عليكم، ولا تحاذرون من ذلك ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ﴾ بإقدامكم على المعاصي ﴿أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فلذلك صدر منكم ما صدر، وهذا الظن صار سبب هلاكهم وشقائهم؛ ولهذا قال:

(٢٣) ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ﴾ الظن السيئ؛ حيث ظننتم به ما لا يليق بجلاله ﴿أَزْدَنْتُمْ﴾ أهلككم ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ لأنفسهم وأهلبيهم وأديانهم بسبب الأعمال التي أوجبها لكم ظنكم القبيح بربكم.

(٢٤) ﴿فَإِنْ يَصْبرُوا﴾ سواء عليهم صبروا أم لم يصبروا ﴿فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ فهم في النار لا محيد عنها، ولا خروج لهم منها ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا﴾ يطلبوا أن يزال عنهم العتب، ويرجعوا إلى الدنيا؛ ليستأنفوا العمل ﴿فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ لأنه ذهب وقته، وعمره ما يعمر فيه من تذكر، وجاءهم النذير.

(٢٥) ﴿وَقَفَّضْنَا﴾ بعثنا ووكلنا ﴿لَهُمْ﴾ لهؤلاء الظالمين الجاحدين للحق ﴿قُرْآنًا﴾ من شياطين الإنس والجن، ﴿فَرَيْنُوا هُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ فالدنيا زخرفوها بأعينهم، ودعوهم إلى لذاتها وشهواتها المحرمة حتى افتتنوا،

(٢٢) أخرج الشيخان عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرْشِدُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ﴾ قال: كان رجلان من قريش وجنَّ لهما من ثقيف - أو رجلان من ثقيف وجنَّ لهما من قريش - في بيت، كثيرة شحوم بطونهم، قليلة فقه قلوبهم، فقال بعضهم لبعض: أترون أن الله يسمع حديثنا؟ قال بعضهم: يسمع بعضه (وفي رواية: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا) وقال بعضهم: لنن كان يسمع بعضه لقد يسمع كله (وفي رواية: إن كان يسمع إذا جهرنا؛ فإنه يسمع إذا أخفينا) فأنزله الله عليه: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرْشِدُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

اعترفوا ونطقوا ورضوا بربوبية الله تعالى، واستسلموا لأمره، ثم استقاموا على الصراط المستقيم، علماً وعملاً، فلم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

﴿تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ الكرام، يتكرر نزولهم عليهم، مبشرين لهم عند الاحتضار ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ على ما يستقبل من أمركم ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ما مضى؛ فنفوا عنهم المكروه الماضي والمستقبل ﴿وَأَبَشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فإنها قد وجبت لكم وثبتت، وكان وعد الله مفعولاً.

(٣١) ﴿نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ يحثونهم في الدنيا على الخير، ويزينونه لهم، ويرهبونهم عن الشر، ويقبحونه في قلوبهم، ويدعون الله لهم، ويثبتونهم عند المصائب والمخاوف، وخصوصاً عند الموت وشده، والقبر وظلمته، وفي القيامة وأحوالها، وعلى الصراط، وفي الجنة يهثثونهم بكرامة ربهم ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ في الجنة ﴿مَا تَشْتَهُي أَفْسُكُمْ﴾ قد أعد وهيئ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ تطلبون من كل ما تتعلق به إرادتكم وتطلبونه من أنواع اللذات والمشتهيات، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

(٣٢) ﴿نُزُلًا﴾ هذا الثواب الجزيل والنعيم المقيم نُزُلٌ وضيافة ﴿مِّنْ عَفْوَ﴾ غفر لكم السيئات ﴿رَحِيمٍ﴾ حيث وفقكم لفعل

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبَشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣١﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُي أَفْسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣٢﴾ نَزُلًا مِنْ عَفْوَ رَحِيمٍ وَمَنْ أَحْسَنُ فَوْلاً وَمَنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّمَا يَرُغْنَاكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٣٨﴾

فأعظم الظلم وأكبر العناد جحدها والكفر بها. (٢٩) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الأنبياء منهم - بدليل ما بعده - على وجه الحق على من أضلهم: ﴿رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ آمَنَّا مِنَ الْلِجَنِ وَالْإِنْسِ﴾ الصنفين اللذين قادانا إلى الضلال والعذاب من شياطين الجن وشياطين الإنس الدعاة إلى جهنم ﴿بَجَعَلَهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ الأدلين المهانين كما أضلونا وفتنونا، وصاروا سبباً لنزولنا، ففي هذا بيان حق بعضهم على بعض، وتبري بعضهم من بعض. (٣٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾

(٣٠) أخرج مسلم في «صحيحه» عن سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً، لا أسأل عنه أحداً بعدك. قال ﷺ: «قل: آمنت بالله، ثم استقم».

تكره، وأجبروها على ما يحبه الله ﴿وَمَا يُقْلَهُهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ لكونها من خصال خواص الخلق التي ينال بها العبد الرفعة في الدنيا والآخرة، التي هي من أكبر خصال مكارم الأخلاق.

(٣٦) ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ﴾ من وساوسه وتزيينه للشر، وتكسيه عن الخير، وإصابة ببعض الذنوب، وإطاعة له ببعض ما يأمر به ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أسأله مفتقراً إليه أن يعيذك ويعصمك منه ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ فإنه يسمع قولك وتضرعك ﴿الْعَلِيمُ﴾ ويعلم حالك واضطرارك إلى عصمته وحمايته.

(٣٧) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على كمال قدرته، ونفوذ مشيئته، وسعة سلطانه، ورحمته بعباده، وأنه الله وحده لا شريك له ﴿الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَيَرُدُّهُنَّ إِلَىٰ صَفْوَىٰ الْحُسْنَىٰ﴾ وهذا بمنفعة ضيائه، وتصرف العباد فيه، وهذا بمنفعة ظلمه، وسكون الخلق فيه ﴿وَاللَّشْمِ الْأَفْهَمِ﴾ اللذان لا تستقيم معاش العباد، ولا أبدانهم، ولا أبدان حيواناتهم، إلا بهما، وبهما من المصالح ما لا يحصى عدده ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ فإنهما مدبران مسخران مخلوقان ﴿وَأَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ اعبدوه وحده؛ لأنه الخالق العظيم، ودعوا عبادة ما سواه من المخلوقات، وإن كبر جرمه، وكثرت مصالحه؛ فإن ذلك ليس منه، وإنما هو من خالقه تبارك وتعالى ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَوْيَاظَهُ﴾ فخصوه بالعبادة وإخلاص الدين له.

(٣٨) ﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا﴾ عن عبادة الله تعالى، ولم ينفادوا لها ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يعني:

الحسنات، ثم قبلها منكم؛ فبمغفرته أزال عنكم المحذور، وبرحمته أنالكم المطلوب.

(٣٩) ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ﴾ لا أحد أحسن ﴿قَوْلًا﴾ كلاماً وطريقة وحالة ﴿وَمَنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ بتعليم الجاهلين، ووعظ الغافلين والمعرضين، ومجادلة المبطلين، بالأمر بعبادة الله بجميع أنواعها، والحث عليها وتحسينها مهما أمكن، والزجر عما نهى الله عنه وتبجيحه بكل طريق يوجب تركه ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ مع دعوته الخلق إلى الله بادر هو بنفسه إلى امتثال أمر الله بالعمل الصالح الذي يرضي ربه ﴿وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين لأمره، السالكين في طريقه.

(٤٠) ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ لا يستوي فعل الحسنات والطاعات لأجل رضا الله تعالى، ولا فعل السيئات والمعاصي التي تسخطه ولا ترضيه ﴿أَدْفَعْ بَالِيَّ هِيَ أَحْسَنُ﴾ فإذا أساء إليك مسيء من الخلق، خصوصاً من له حق كبير عليك؛ كالأقارب والأصحاب ونحوهم إساءة بالقول أو بالفعل؛ فقابله بالإحسان إليه، فإن قطعك فضله، وإن ظلمك فاعف عنه، وإن تكلم فيك غائباً أو حاضراً فلا تقابل، بل اعف عنه، وعامله بالقول اللين، وإن هجرك، وترك خطابك فطيب له الكلام، وابذل له السلام، فإذا قابلت الإساءة بالإحسان حصل فائدة عظيمة ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ كأنه قريب شفيق.

(٤١) ﴿وَمَا يُقْلَهُهَا﴾ وما يوفق لهذه الخصلة الحميدة ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ نفوسهم على ما

آيات الله: الميل بها عن الصواب بأي وجه كان: إما بإنكارها وجحودها، وتكذيب من جاء بها، وإما بتحريفها وتصريفها عن معناها الحقيقي، وإثبات معان لها ما أرادها الله منها.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ توعد لمن ألحد فيها بأنه لا يخفى عليه، بل هو مطلع على ظاهره وباطنه، وسيجزيه على إلحاده بما كان يعمل ولهذا قال: ﴿أَفَنُتْلَقِ فِي النَّارِ﴾ مثل الملحد بآيات الله ﴿خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ من عذاب الله، مستحقاً لثوابه؟ من المعلوم أن هذا خير لما تبين الحق من الباطل، والطريق المنجي من عذابه، من الطريق المهلك؛ قال: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ إن شئتم فاسلكوا طريق الرشد، الموصلة إلى رضا ربكم وجنته، وإن شئتم، فاسلكوا طريق الغي، المسخطة لربكم، الموصلة إلى دار الشقاء ﴿إِنَّهُمْ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يجازيكم بحسب أحوالكم وأعمالكم.

(٤١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ﴾ أي: يجحدون القرآن الكريم ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ نعمة من ربهم على يد أفضل الخلق وأكملهم ﴿وَوُكِّلَ عَلَيْهِمْ رُسُلٌ﴾ جامع لأوصاف الكمال ﴿وَنُزِّلَتْ لَهُمْ الْقُرْآنُ﴾ منيع من كل من أرادته بتحريف أو سوء.

(٤٢) ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ لا يقربه شيطان من شياطين الإنس والجن، لا بسرقة، ولا بإدخال ما ليس منه به، ولا بزيادة ولا نقص، فهو محفوظ في تنزيله، محفوظة ألفاظه ومعانيه، قد تكفل من

وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِينَ أُحْيَاهَا لَمَجِيءُ الْمَوْتِ إِنَّهُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي ءَايَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَنُتْلَقِ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُمْ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاثِبٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَبَارَكَ مَنْ حَكِيمٌ حَمِيدٌ (٤٢) تَأْتِيكَ إِلَٰهٌ لَا مَقْدِفَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَدُوٌّ مَغْفِرٌ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٌ (٤٣) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا نَّجْمًا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ ءَنَّا نَعْبُدُ وَنَعْرِفُ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَلِلَّذِينَ ءَاذَنُوا بُرْهَانٌ فِي ءَادَانِهِمْ وَفَرُّهُ وَعَلَيْهِمْ عَمَىٰ أَوَّلُ الْبَيْتِ يَأْتِيهِمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (٤٥) مَنْ حَمَلَ صَلَاحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ (٤٦)

الملائكة المقربين ﴿يَسْخَرُونَ لَهُمُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْتَمُونَ﴾ لا يملون من عبادته؛ لقوتهم وشدة الداعي القوي منهم إلى ذلك.

(٣٩) ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ﴾ الدالة على كمال قدرته، وانفراده بالملك والتدبير والوحدانية ﴿أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ لا نبات فيها ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ المطر ﴿اهْتَزَّتْ﴾ تحركت بالنبات ﴿وَرَبَتْ﴾ أنبتت من كل زوج بهيج، فيحيي به العباد والبلاد ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُحْيَاهَا﴾ بعد موتها وهمودها ﴿لَمَجِيءُ الْمَوْتِ﴾ من قبورهم إلى يوم بعثهم ونشورهم ﴿إِنَّهُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فكما لم تعجز قدرته عن إحياء الأرض بعد موتها، لا تعجز عن إحياء الموتى.

(٤٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي ءَايَاتِنَا﴾ الإلحاد في

القلب ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالقرآن ﴿فِي
ءَاذَانِهِمْ وَقُرْ﴾ صمم عن استماعه وإعراض
﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ لا يبصرون به رشدًا،
ولا يهتدون به ﴿أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ
بَعِيدٍ﴾ ينادون إلى الإيمان ويدعون إليه فلا
يستجيبون؛ بمنزلة الذي ينادي وهو في مكان
بعيد، لا يسمع داعيًا، ولا يجيب مناديًا.
والمقصود: أن الذين لا يؤمنون بالقرآن لا
ينتفعون بهداه، ولا يبصرون بنوره، ولا
يستفيدون منه خيرًا؛ لأنهم سدوا على أنفسهم
أبواب الهدى؛ بإعراضهم وكفرهم.

(٤٥) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ كما آتيناك
الكتاب ﴿فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾، فصنع به الناس ما
صنعوا معك، اختلفوا فيه: فمنهم من آمن به
واهتدى وانتفع، ومنهم من كذبه ولم ينتفع
به ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ وإن
الله تعالى لولا حلمه وكلمته السابقة بتأخير
العذاب إلى أجل مسمى لا يتقدم عليه ولا
يتأخر ﴿لَقُصِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بمجرد ما يتميز
المؤمنون من الكافرين بإهلاك الكافرين في
الحال؛ لأن سبب الهلاك قد وجب وحق
﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكِّ مِنْهُ مُرِبٍّ﴾ قد بلغ بهم
إلى الريب الذي يقلقهم، فلذلك كذبه
وحجده.

(٤٦) ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ وهو العمل الذي
أمر الله به ورسوله ﴿فَلَنَفْسِهِ﴾ نفعه وثوابه
في الدنيا والآخرة ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ ضرره
وعقابه في الدنيا والآخرة ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ
لِّلْعَالَمِينَ﴾ فيحتمل أحدًا فوق سيئاتهم.

أنزله بحفظه ﴿تَنَزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ﴾ في خلقه
وأمره، يضع كل شيء موضعه، وينزله منازل
﴿حَمِيدٍ﴾ على ما له من صفات الكمال،
ونعوت الجلال، وعلى ما له من العدل
والإفضال، فلهذا كان كتابه مشتملاً على تمام
الحكمة، وعلى تحصيل المصالح والمنافع،
ودفع المفاسد والمضار التي يحمد عليها.

(٤٣) ﴿مَا يَقُولُ لَكَ﴾ أيها الرسول من الأقوال
الصادرة ممن كذبك وعاندك ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ
لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فكما كُذِّبَتْ كُذِّبُوا، وكما
صبروا على أذى قومهم لهم، فاصبر أنت
على أذى قومك لك ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾
عظيمة، يمحو بها كل ذنب لمن أقبل وتاب
﴿وَذُرْ عَقَابَ آلِ إِمْرٍ﴾ لمن أصر واستكبر.

(٤٤) ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ يخبر تعالى
عن فضله وكرمه؛ حيث أنزل كتاباً عربياً على
الرسول العربي بلسان قومه؛ ليبين لهم، وأنه
لو جعله قرآناً أعجمياً بلغة غير العرب ﴿لَقَالُوا﴾
لا تعترض المكذبون وقالوا: ﴿لَوْلَا فَصَّلَتْ
ءَايَاتُهُ﴾ هلاً بينت آياته، ووضحت وفسرت
﴿ءَاغَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ كيف يكون محمد عربياً،
والكتاب أعجمي؟ هذا لا يكون؛ فنفى الله
تعالى كل أمر يكون فيه شبهة لأهل الباطل
عن كتابه ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى
وَشَفَاءٌ﴾ يهديهم لطريق الرشd والصراط
المستقيم، ويعلمهم من العلوم النافعة، ما به
تحصل الهداية التامة، وشفاء لهم من الأسقام
البدنية والأسقام القلبية؛ لأنه يزجر عن
مساوئ الأخلاق وأفبح الأعمال، ويحث على
التوبة النصوح التي تغسل الذنوب، وتشفى

الذين زعمتم أنهم شركائي؛ فعبدتموهم، وجادلتم على ذلك وعاديتهم الرسل لأجلهم؟ ﴿قَالُوا﴾ مقرين ببطلان إلهيتهم وشركتهم مع الله: ﴿ءَاذَنْكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ أعلمناك يا ربنا واشهد علينا أنه ما منا أحد يشهد بصحة إلهيتهم وشركتهم، فكلنا الآن قد رجعنا إلى بطلان عبادتها، وتبرأنا منها.

(٤٨) ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ﴾ من دون الله ﴿وَوَظَّنُوا﴾ أيقنوا في تلك الحال ﴿مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيصٍ﴾ منقذ ينقذهم.

(٤٩) ﴿لَا يَسْتَعِمُّ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ لا يمل دائماً من دعاء الله في الغنى والمال والولد، وغير ذلك من مطالب الدنيا، ولا يزال يعمل على ذلك، ولا يقتنع بقليل، ولا كثير منها، فلو حصل له من الدنيا ما حصل لم يزل طالباً للزيادة ﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ المكروه؛ كالمرض، والفقر، وأنواع البلايا ﴿فَيَتَوَسَّ قَنُوطٌ﴾ ييأس من رحمة الله تعالى، ويظن أن هذا البلاء هو القاضي عليه بالهلاك، ويتشوش من إتيان الأسباب على غير ما يجب ويطلب.

(٥٠) ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ﴾ أي: الإنسان الذي يسأم من دعاء الخير، وإن مسه الشر؛ فيتوس قنوط ﴿رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ﴾ بعد ذلك الشر الذي أصابه؛ بأن عافاه الله من مرضه، أو أغناه من فقره، فإنه لا يشكر الله تعالى بل يبغى ويطنغي ويقول: ﴿هَذَا لِي﴾

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ تَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا أَدْذَكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴿٥١﴾ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنَّوْا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيصٍ ﴿٥٢﴾ لَا يَسْتَعِمُّ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَتَوَسَّ قَنُوطٌ ﴿٥٣﴾ وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْبَىٰ فَلَنُنَادِيََنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَىٰ بِنَانِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَدُعَا عَرِيضٍ ﴿٥٥﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضِلُّ مَنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٦﴾ سَأُرِيهِمْ ءَايَاتِي فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكُفَّ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٧﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحْطِطُونَ ﴿٥٨﴾

(٤٧) ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ جميع الخلق ترد علمهم إلى الله تعالى، ويقرون بالعجز عنه: الرسل والملائكة وغيرهم ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ تَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا﴾ وعائها الذي تخرج منه، وهذا شامل لثمرات جميع الأشجار التي في البلدان والبراري، فلا تخرج ثمرة شجرة من الأشجار، إلا وهو يعلمها علماً تفصيلياً ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى﴾ من بني آدم وغيرهم من أنواع الحيوانات إلا بعلمه ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ أنثى حملها ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ فكيف سوى المشركون به تعالى من لا علم عنده ولا سمع ولا بصر؟! ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي: المشركين به يوم القيامة توبيخاً وإظهاراً لكذبهم؛ فيقول لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾

الله عز وجل، على رسوله ﷺ، بدلائل خارجية ﴿فِي الْأَفَاقِ﴾ من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ مما اشتملت عليه أبدانهم من بديع آيات الله، وعجائب صنعته، وباهر قدرته، وفي حلول العقوبات والمثلثات في المكذبين، ونصر المؤمنين ﴿حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمُ﴾ من تلك الآيات بياناً لا يقبل الشك ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ وما اشتمل عليه حق ﴿أَوَّلَمَ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: أولم يكفهم على أن القرآن حق، ومن جاء به صادق، بشهادة الله تعالى؛ فإنه قد شهد له بالتصديق، وهو أصدق الشاهدين، وأيده ونصره نصراً متضمناً لشهادته القولية عند من شك فيها.

(٥٤) ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ في شك من البعث والقيامة، وليس عندهم دار سوى الدار الدنيا؛ فلذلك لم يعملوا للآخرة، ولم يلتفتوا لها ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ علماً وقدره وعزة.

أتاني لأنني له أهل، وأنا مستحق له ﴿وَمَا أَطُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ وهذا إنكار منه للبعث، وكفر للنعمة والرحمة التي أذاقها الله له ﴿وَلَكِن تُجْعَتُ إِلَيَّ رَبِّ إِنِّي لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَى﴾ على تقدير إتيان الساعة، وأني سأرجع إلى ربي، إن لي عنده للحسنى، فكما حصلت لي النعمة في الدنيا، فإنها ستحصل لي في الآخرة ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ شديد جداً.

(٥١) ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ﴾ بصحة أو رزق أو غيرهما ﴿أَعْرَضَ﴾ عن ربه وعن شكره ﴿وَنَاكَرَ﴾ ترفع ﴿بِحَاجَتِهِ﴾ عجباً وتكبراً ﴿وَلَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ﴾ المرض أو الفقر أو غيرهما ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ كثير جداً؛ لعدم صبره، فلا صبر في الضراء، ولا شكر في الرخاء، إلا من هداه الله ومنّ عليه.

(٥٢) ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المكذبين بالقرآن، المسارعين إلى الكفران: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ من غير شك ولا ارتياب ﴿ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾ مَنْ أَضَلَّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ معاندة لله ولرسوله؛ لأنه تبين لكم الحق والصواب، ثم عدلتم عنه، لا إلى حق، بل إلى باطل وجهل، فإذا تكونون أضل الناس وأظلمهم.

(٥٣) ﴿سَرِيهَمَ عَائِينَ﴾ أي: فإن شككتم بصحته وحقيقته؛ فسنظهر لهم دلائلنا وحججنا على كون القرآن منزلاً من عند

اتصف بالالوهية والعزة العظيمة والحكمة البالغة.

(٤) ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وأن جميع العالم العلوي والسفلي ملكه، وتحت تدبيره القدري والشرعي، وأنه ﴿الْعَلِيُّ﴾ بذاته وقدره وقهره ﴿الْعَظِيمُ﴾ الذي من عظمته.

(٥) ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ على عظمها وكونها جماداً ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ الكرام المقربون خاضعون لعظمته، مستكينون لعزته، مدعونون بربوبيته ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ ويعظمونه عن كل نقص، ويصفونه بكل كمال ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ عما يصدر منهم، مما لا يليق بعظمة ربهم وكبريائه، مع أنه تعالى هو ﴿الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ الذي لولا مغفرته ورحمته لعاجل الخلق بالعقوبة المستأصلة.

(٦) ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يتولونهم بالعبادة والطاعة، كما يعبدون الله ويطيعونه، فإنما اتخذوا الباطل، وليسوا بأولياء على الحقيقة ﴿اللَّهُ حَفِيطٌ عَلَيْهِمْ﴾ يحفظ عليهم أعمالهم، فيجازيهم بخيرها وشرها ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ فتسأل عن أعمالهم، وإنما أنت مبلغ أدبت وظيفتك.

(٧) ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ ثم ذكر منته على رسوله وعلى الناس، حيث أنزل الله ﴿قُرْآنًا



سورة الشورى مكية

(٢-١) ﴿حَمْدٌ﴾ عَسَقَ ﴿تَقْدِمُ الْكَلَامِ عَلَى الْحُرُوفِ الْمَقْطُوعَةِ فِي فَوَاتِحِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

(٣) ﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ يخبر تعالى أنه أوحى هذا القرآن العظيم إلى النبي الكريم ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ كما أوحى إلى مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ ﴿اللَّهُ لَقَاءُ رَبِّهِمْ﴾ وهو تنزيل من

(٧) أخرج الترمذي والنسائي في «الكبرى» وأحمد بإسناد حسن عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان، فقال: «أتدرون ما هذان الكتابان». قلنا: لا يا رسول الله، إلا أن تخبرنا، فقال: للذي في يده اليمنى: «هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزداد فيهم ولا ينقص منهم أبداً». ثم قال للذي في شماله: «هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزداد فيهم ولا ينقص منهم أبداً». فقال أصحابه: فقيم العمل يا رسول الله، إن كان أمر قد فرغ منه؟ فقال: «سدّدوا وقاربوا؛ فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة، وإن عمل أي عمل، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل

فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا
وَمِنْ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرْكُمْ فِيهِ لَيْسَ كُفْرُكُمْ شَيْءٌ
وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ١١ لَمْ يَخْلُقْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
يَسِطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ١٢
شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا
إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقْبُوا إِلَيْنَ
وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ
يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ١٣ وَمَا
تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّهِمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِّ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ
أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مِرْيَ ١٤
فَلَوْلَا فَادِحٌ وَأَسْتَقَمٌ كَمَا أَمَرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ
وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمرْتُ لِأَعْدِلَ
بَيْنَكُمْ اللَّهُ يَتَوَكَّلُ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ
لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ١٥

عَرَبِيًّا ﴿ بين الألفاظ والمعاني ﴾ ﴿ لِيُنذِرَ أُمَّ
الْقُرَى ﴾ وهي مكة المكرمة ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ من
قرى العرب، ثم يسري هذا الإنذار إلى سائر
الخلق ﴿ وَتُنذِرَ ﴾ الناس ﴿ يَوْمَ الْجَمْعِ ﴾ الذي
يجمع الله به الأولين والآخرين، وتخبرهم أنه
﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ وأن الخلق ينقسمون فيه
فريقين ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ ﴾ وهم الذين آمنوا
بالله، وصدقوا المرسلين ﴿ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾
وهم أصناف الكفرة المكذبين.

(٨) ﴿ وَ ﴾ مع هذا ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ ﴾
جعل الناس ﴿ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ على الهدى؛ لأنه
القادر الذي لا يمتنع عليه شيء ﴿ وَلَكِنْ يَدْخُلُ
مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ ولكنه أراد أن يدخل في
رحمته من شاء من خواص خلقه، ﴿ وَ ﴾ أما
﴿ وَالظَّالِمُونَ ﴾ الذين لا يصلحون لصالح، فإنهم
محرومون من الرحمة، ف ﴿ مَا لَهُمْ ﴾ من دون
الله ﴿ مِنْ وَلِيٍّ ﴾ يتولاهم، فيحصل لهم
المحسوب ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ يدفع عنهم المكروه.
(٩) يقول تعالى منكراً على المشركين اتخاذهم
آلهة من دون الله: ﴿ أَرِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾
يتولونهم بعبادتهم إياهم، فقد غلطوا أفبح غلط
﴿ قَالَ هُوَ أَوْلَى ﴾ الذي يتولاه عبده بعبادته
وطاعته ﴿ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴾ هو المتصرف بالإحياء والإماتة، ونفوذ
المشيئة والقدرة، فهو الذي يستحق أن يعبد
وحده لا شريك له.
(١٠) ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ من أصول

دينكم وفروعه مما لم تتفقوا عليه ﴿ فَحُكْمُهُ ﴾ إلى
الله ﴿ يرد إلى كتابه وإلى سنة رسوله، فما
حكما به؛ فهو الحق، وما خالف ذلك؛
فباطل ﴾ ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ الله ﴿ رَفِيَ ﴾ فكما أنه تعالى الرب
الخالق الرازق المدبر؛ فهو تعالى الحاكم بين
عباده بشرعه في جميع أمورهم ﴿ عَلَيْهِ
تَوَكَّلْتُ ﴾ اعتمدت بقلبي عليه في جلب
المنافع ودفع المضار ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أتوجه
بقلبي وبدني إليه، وإلى طاعته وعبادته.

(١١) ﴿ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ خالقهما
بقدرته ومشئته وحكمته ﴿ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ
أَزْوَاجًا ﴾ لتسكنوا إليها، وتنتشر منكم الذرية،

وعباد، فقال: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ﴾ أي: شرع لهم من الدين خير الأديان وأفضلها، وأزكاها وأطهرها؛ دين الإسلام ﴿مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ الذي شرعه الله للمصطفين المختارين من عباد، وهم أولو العزم من المرسلين المذكورون في هذه الآية، ولهذا قال: ﴿أَنَّا أَقِمُوا الدِّينَ﴾ أي: أمركم أن تقيموا جميع شرائع الدين أصوله وفروعه، تقيمونه بأنفسكم، وتجتهدون في إقامته على غيركم ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ ليحصل منكم الاتفاق على أصول الدين وفروعه، واحرصوا على أن لا تفرقكم المسائل وتحزبكم أحزاباً، وتكونون شيعاً يعادي بعضكم بعضاً، مع اتفاقكم على أصل دينكم ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ شق عليهم غاية المشقة، حيث دعوتهم إلى الإخلاص لله وحده ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ﴾ يختار من خليقته من يعلم أنه يصلح للاجتماع لرسالته وولايته؛ ومنه: أن اجتبي هذه الأمة وفضلها على سائر الأمم، واختار لها أفضل الأديان وخيرها ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ هذا السبب الذي من العبد يتوصل به إلى هداية الله تعالى؛ وهو: إنايته لربه.

(١٤) ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ إن أهل الكتاب لم يتفرقوا حتى أنزل الله عليهم الكتاب الموجب للاجتماع، ففعلوا ضد ما يأمر به كتابهم، ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ وذلك كله بغياً وعدواناً منهم، فإنهم تباغضوا وتحاسدوا، وحصلت بينهم المشاحنة والعداوة، فوقع الاختلاف، فاحذروا أيها المسلمون أن تكونوا

ويحصل لكم من النفع ما يحصل ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَرْوَاحًا﴾ ومن جميع أصنافها نوعين: ذكراً وأنثى؛ لتبقى وتنمو لمنافعكم الكثيرة، جعل ذلك لأجلكم، ولأجل النعمة عليكم ﴿يَذَرُوكُمْ فِيهِ﴾ يبشكم ويكثركم ويكثر مواشيك، بسبب أن جعل لكم من أنفسكم، وجعل لكم من الأنعام أزواجاً ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ليس يشبهه تعالى ولا يماثله شيء من مخلوقاته، لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله؛ لأن أسماء كلها حسنى، وصفاته صفة كمال وعظمة، وأفعاله تعالى أوجد بها المخلوقات العظيمة من غير مشارك، فليس كمثله شيء؛ لانفراده وتوحده بالكمال من كل وجه ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات ﴿الْبَصِيرُ﴾ يرى دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء، على الصخرة الصماء، ويرى سريان القوت في أعضاء الحيوانات الصغيرة جداً، وسريان الماء في الأغصان الدقيقة.

(١٢) ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ له ملك السماوات والأرض، وبيده مفاتيح الرحمة والأرزاق ﴿يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾ أي: يوسعه ويعطيه من أصناف الرزق ما شاء ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يضيق على من يشاء حتى يكون بقدر حاجته لا يزيد عنها، وكل هذا تابع لعلمه وحكمته ﴿إِنَّهُ يَكُلُّ شَيْءٌ عَالِمٌ﴾ فيعلم أحوال عباد، فيعطي كل ما يليق بحكمته وتقتضيه مشيئته.

(١٣) ثم ذكر الله تعالى أكبر مئة أنعم بها على

مثلهم ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾
بتأخير العذاب القاضي ﴿إِلَّا أَجَلٌ مُسَمًّى لَفُضِّ
بَيْنَهُمْ﴾ ولكن حكمته وحلمه، اقتضى تأخير
ذلك عنهم ﴿وَلِإِنَّ الَّذِينَ أَوْرَثُوا الْكِتَابَ مِنْ
بَعْدِهِمْ﴾ الذين ورثهم وصاروا خلفاً لهم
ممن ينتسب إلى العلم منهم ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ
مُريبٌ﴾ لفي اشتباه كثير يوقع في الاختلاف،
حيث اختلف سلفهم بغياً وعناداً، فإن خلفهم
اختلفوا شكاً وارتياباً، والجميع مشتركون في
الاختلاف المذموم.

(١٥) ﴿فَلِذَاكَ فَادَعُ﴾ لدين القويم والصرط
المستقيم، الذي أنزل الله به كتبه، وأرسل
رسله، فادع إليه أمتك، وحضهم عليه،
وجاهد عليه من لم يقبله ﴿وَأَسْقِمُ﴾ بنفسك
﴿كَمَا أَمَرْتُ﴾ استقامة موافقة لأمر الله
﴿وَلَا نَنْجِ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أهواء المنحرفين عن
الدين، من الكفرة والمنافقين إما باتباعهم على
بعض دينهم، أو بترك الدعوة إلى الله، أو
بترك الاستقامة ﴿وَقُلْ﴾ لهم عند جدالهم
ومناظرتهم: ﴿ءَأَمِنْتُ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنْ
كِتَابٍ﴾ أي: صدقت بجميع الكتب المنزلة
من السماء على الأنبياء، لا نفرق بين أحد
منهم ﴿وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ في الحكم فيما
اختلفتم فيه، فلا تمنعني عداوتكم وبغضكم يا
أهل الكتاب من العدل بينكم ﴿اللَّهُ رَبُّنَا
وَرَبُّكُمْ﴾ هو رب الجميع، لستم بأحق به منا
﴿لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ من خير وشر
﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ بعد ما تبيننت
الحقائق، واتضح الحق من الباطل، والهدى
من الضلال، لم يبق للجدال والمنازعة محل

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ حَتَّى
دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ
(١٦) اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ
لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ
أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُعَارِضُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (١٨)
اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ
(١٩) مَنْ كَانَتْ يَرْيُدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزَدَ لُفِي حَرْثِهِ وَمَنْ
كَانَتْ يَرْيُدُ حَرْثَ الدُّنْيَا تَوَلَّوْهُ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ
نَصِيبٍ (٢٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ
مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِّ بَيْنَهُمْ
وَلِإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١) تَرَى الظَّالِمِينَ
مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ وَاقِعُونَ بِهِمْ وَالَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْحَاتٍ الْجَنَّاتِ
لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢)

﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ يوم القيامة،
فيجزى كلًّا بعمله، ويتبين حينئذ الصادق من
الكذب. قال العلماء: اشتملت هذه الآية على
عشر كلمات مستقلات، كل منها برأسه، ولا
نظير لها سوى آية الكرسي، فإنها عشرة
فصول كهذه.

(١٦) ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾ بالحجج
الباطلة والشبه المتناقضة ﴿مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ
لَهُمْ﴾ من بعد ما استجاب لله أولو الألباب،
والعقول، لما بين لهم من الآيات القاطعة،
والبراهين الساطعة، فهؤلاء المجادلون للحق
من بعد ما تبين ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾ باطلة
مدفوعة ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ لأنه مشتملة على رد
الحق، وكل ما خالف الحق فهو باطل
﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ لعصيانهم وإعراضهم عن

(١٩) ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ يخبر تعالى بلطفه بعباده؛ ليعرفوه ويحبوه، ويتعرضوا للطفه وكرمه، واللفظ من أوصافه تعالى معناه: الذي يدرك الضمائر والسرائر، الذي يوصل عباده -وخصوصاً المؤمنين- إلى ما فيه الخير لهم من حيث لا يعلمون ولا يحتسبون ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ بحسب اقتضاء حكمته ولطفه ﴿وَهُوَ أَلْفَوْهُ الْعَزِيزُ﴾ الذي له القوة كلها، فلا حول ولا قوة لأحد من المخلوقين إلا به، الذي دانت له جميع الأشياء.

(٢٠) ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ أجرها وثوابها، فأمن بها وصدق، وسعى لها سعيها ﴿نَزِدْ لَهُمْ فِي حَرْثِهِ﴾ بأن نضاعف عمله وجزأه أضعافاً كثيرة، ومع ذلك؛ فنصيبه من الدنيا لا بد أن يأتيه ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا﴾ بأن كانت الدنيا هي مقصوده وغاية مطلوبه، فلم يقدم لآخرته، ولا رجا ثوابها، ولم يخش عقابها ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ نصيبه الذي قسم له ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ قد حرم الجنة ونعيمها، واستحق النار وجحيمها.

(٢١) ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ يخبر تعالى أن المشركين اتخذوا شركاء يوالونهم ويشتركون هم وإياهم في الكفر وأعماله، من شياطين الإنس الدعاة إلى الكفر ﴿شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذُنْ بِهِ اللَّهُ﴾ من الشرك والبدع وتحريم ما أحل الله، وتحليل ما

حجج الله وبيناته وتكذيبها ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ هو أثر غضب الله عليهم، فهذه عقوبة كل مجادل للحق بالباطل.

(١٧) ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ فالكتاب هو: هذا القرآن العظيم، نزل بالحق، واشتمل على الحق والصدق واليقين، وأما الميزان؛ فهو: العدل والاعتبار بالقياس الصحيح والعقل الرجيح، فكل الدلائل العقلية من الآيات الآفاقية والنفسية، والاعتبارات الشرعية، والمناسبات والعلل، والأحكام والحكم، داخلة في الميزان الذي أنزله الله تعالى ووضعه بين عباده؛ ليزنوا به ما اشتبه من الأمور، ويعرفوا به صدق ما أخبر به وأخبرت رسله، ثم قال تعالى مخوفاً للمستعجلين لقيام الساعة، المنكرين لها، فقال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ ليس بمعلوم بعدها، ولا متى تقوم، فهي في كل وقت متوقع وقوعها، مخوف وجبتها.

(١٨) ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ عناداً وتكديباً ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُتَشَفِّعُونَ مِنْهَا﴾ خائفون؛ لإيمانهم بها ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ الذي لا مرية فيه، ولا شك يعتريه ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ﴾ أي: بعد ما امتروا فيها، ماروا الرسل وأتباعهم بإثباتها ﴿لَقَدْ فُهِمَ فِيهَا صَلِّ بَعِيدٌ﴾ معاندة ومخاصمة غير قريبة من الصواب.

(١٨) في «الصحيحين» من حديث أنس رضي الله عنه: أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ وهو في بعض أسفاره، فداده فقال: يا محمد، فقال له النبي ﷺ نحواً من صوته: «هاؤم» فقال: متى الساعة؟ فقال له رسول الله ﷺ: «ويحكم إنها كائنة، فما أعددت لها؟» قال: حب الله ورسوله. ، فقال: «أنت مع من أحببت».

الْمَنَاسِكُ وَالْمَنَاسِكُ
 ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا
 أَتَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْرَفْ حَسَنَةً نَّزِدْ
 لَّهُ فِيهَا حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَدْعُوهُ عَلَىٰ اللَّهِ
 كَذِبًا فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ النَّبِطَ الَّذِي وَجَعَلَ لَكَ
 يَكْمَنَتِيهِ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ ذَاتُ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ
 عَن عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾
 وَنَسْجِبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَنَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ
 وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ سَئَلْنَا اللَّهَ الرِّزْقَ
 لَعَابَدُوهُ لَبَعُو فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يَرْزُقُ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ
 خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ الْعُنَاقَ وَمَن يَدْعُ مَا تَقْتَضُوا
 وَنُشْرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنَ آيَاتِهِ خَلْقُ
 السَّمَكِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَ يَدَيْهِمَا مِن دَأْبٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ
 إِذْ يَأْتِيَنَّ الْقُدْرُورُ ﴿٢٩﴾ وَمَا أَصْبَحْكُمْ مِن مُّصِيبَةٍ فِيمَا
 كَسَبْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَيَعْقُوبُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَا أَشْرَقَ مُعْجِزِينَ
 فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾

٤٨٦

(٢٣) ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ هذه البشارة العظيمة التي هي أكبر البشائر على الإطلاق، بشر بها الرحيم الرحمن على يد أفضل خلقه لأهل الإيمان والعمل الصالح؛ فهي أجل الغايات، والوسيلة الموصلة إليها أفضل الوسائل ﴿قُلْ لَا أَتَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على تبليغي إياكم هذا القرآن ودعوتكم إلى أحكامه ﴿أَجْرًا﴾ فلست أريد أخذ أموالكم، ولا التولي عليكم والرأس، ولا غير ذلك من الأغراض ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ لا أسألكم عليه أجراً، إلا أجراً واحداً

حرم الله، ونحو ذلك مما اقتضته أهواؤهم ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُصِّي بَيْنَهُمْ﴾ لولا الأجل المسمى الذي ضربه الله فاصلاً بين الطوائف المختلفة، وأنه سيؤخرهم إليه؛ لقضي بينهم في الوقت الحاضر بسعادة المحق وإهلاك المبطل؛ لأن المقتضي للإهلاك موجود ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ولكن أمامهم العذاب الأليم في الآخرة، هؤلاء وكل ظالم.

(٢٢) وفي ذلك اليوم ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين وجلين ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ أن يعاقبوا عليه ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ العقاب الذي خافوه ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بقلوبهم بالله وبكتبه ورسله وما جاءوا به ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يشمل كل عمل صالح من أعمال القلوب، وأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات؛ فهؤلاء ﴿فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ الروضات المضافة إلى الجنات، والمضاف يكون بحسب المضاف إليه، فلا تسأل عن بهجة تلك الرياض المونقة وما فيها ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ فمهما أرادوا فهو حاصل، ومهما طلبوا حصل، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ الفوز العظيم، والنعمة التامة.

(٢٣) أخرج أحمد والطبري بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه: أنه رجل فسأله المعنى عن قوله ﴿ذَلِكَ﴾ قُلْ لَا أَتَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ فقال سعيد بن جبیر: قرابة محمد ﷺ. قال ابن عباس: عجلت، إن رسول الله ﷺ لم يكن بطن من بطون قريش إلا ولرسول الله ﷺ فيه قرابة، قال: فنزلت ﴿قُلْ لَا أَتَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ إلا أن تصلوا قرابة ما بيني وبينكم.

الصادق، وكلماته الدينية التي تحقق ما شرعه من الحق، وتثبت في القلوب، وتبصر أولي الألباب ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بما فيها، وما اتصفت به من خير وشر، وما أكنته ولم تبده.

(٢٥) ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ هذا بيان لكمال كرم الله - تعالى - وسعة جوده، وتمام لطفه، بقبول التوبة الصادرة من عباده حين يقلعون عن ذنوبهم، ويندمون عليها، ويعزمون على أن لا يعاودوها، إذا قصدوا بذلك وجه ربهم، فإن الله يقبلها بعد ما انعقدت سبباً للهلاك، ووقوع العقوبات الدنيوية والدينية ﴿وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ ويمحوها، ويمحو أثرها من العيوب، وما اقتضته من العقوبات، ولما كانت التوبة من الأعمال العظيمة التي قد تكون كاملة بسبب تمام الإخلاص والصدق فيها، وقد تكون ناقصة عند نقصهما، وقد تكون فاسدة إذا كان القصد منها بلوغ غرض من الأغراض الدنيوية، وكان محل ذلك القلب الذي لا يعلمه إلا الله، ختم هذه الآية بقوله: ﴿وَعَلَّمَ مَا فَعَلُوا﴾.

(٢٦) ﴿وَسَتَجِدُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يستجيبون لربهم لما دعاهم إليه، وينقادون له، ويلبسون دعوته؛ لأن ما معهم من الإيمان والعمل الصالح يحملهم على ذلك، فإذا

هو لكم، وعائد نفعه إليكم؛ وهو: أن تودوني وتحبوني في القرابة؛ أي: لأجل القرابة ﴿وَمَنْ يَفْرَفْ حَسَنَةً﴾ من صلاة، أو صوم، أو حج، أو إحسان إلى الخلق ﴿نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ بأن يشرح الله صدره، ويسر أمره، وتكون سبباً للتوفيق لعمل آخر، ويزداد بها عمل المؤمن، ويرتفع عند الله وعند خلقه، ويحصل له الثواب العاجل والآجل ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ يغفر الذنوب العظيمة، ولو بلغت ما بلغت عند التوبة منها، ويشكر على العمل القليل بالأجر الكثير؛ فبمغفرته يغفر الذنوب ويستر العيوب، وبشكره يتقبل الحسنات ويضاعفها أضعافاً كثيرة.

(٢٤) ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ أم يقول المكذبون للرسول ﷺ جرأة منهم وكذباً: ﴿أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فرموك بأشنع الأمور وأقبحها، وهو الافتراء على الله؛ بادعاء النبوة، والنسبة إلى الله ما هو بريء منه ﴿إِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ وهو تعالى قادر على حسم هذه الدعوة من أصلها ومادتها، وهو أن يختم على قلب الرسول ﷺ فلا يعي شيئاً، ولا يدخل إليه خير ﴿وَيَمْنَحُ اللَّهُ الْبَطْلَ﴾؛ أي: ومن حكمته أنه يمحو الباطل ويزيله، وإن كان له صولة في بعض الأوقات؛ فإن عاقبته الاضمحلال ﴿وَيُحِيقُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ بحججه وبراهينه الكونية، التي لا تغير ولا تبدل، وووعده

(٢٥) في «الصحيحين» من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة، فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي، وأنا ربك؛ أخطأ من شدة الفرح».

﴿الْحَمِيدُ﴾ في ولايته وتدبيره، الحميد على ما له من الكمال، وما أوصله إلى خلقه من أنواع الإفضال.

(٢٩) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ ومن أدلة قدرته العظيمة وأنه سيحيي الموتى بعد موتهم ﴿خَلَقُ﴾ هذه ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ على عظمهما وسعتهما، الدال على قدرته وسعة سلطانه ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا دَآئِبَةً﴾ نشر في السماوات والأرض من أصناف الدواب التي جعلها الله مصالح ومنافع لعباده ﴿وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ﴾ جمع الخلق بعد موتهم لموقف القيامة ﴿إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ فقدرته ومشيئته صالحان لذلك، ويتوقف وقوعه على وجود الخبر الصادق، وقد علم أنه قد تواترت أخبار المرسلين وكتبهم بوقوعه.

(٣٠) ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ﴾ يخبر تعالى: أنه ما أصاب العباد من مصيبة في أبدانهم وأموالهم وأولادهم، وفيما يحبون ويكون عزيزاً عليهم؛ ﴿فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ إلا بسبب ما قدمته أيديهم من السيئات، ﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ وأن ما يعفو الله عنه أكثر.

(٣١) ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْآرْضِ﴾ أي: معجزين قدرة الله عليكم، بل أنتم عاجزون في الأرض، ليس عندكم امتناع عما ينفذه الله فيكم ﴿وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ يتولاكم، فيحصل لكم المنافع ﴿وَلَا نَصِيرٌ﴾ يدفع عنكم

استجابوا له، شكر الله لهم، وهو الغفور الشكور.

﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ توفيقاً ونشاطاً على العمل، ومضاعفة في الأجر زيادة عن ما تستحقه أعمالهم من الثواب والفوز العظيم ﴿وَالْكَافِرُونَ﴾ وأما غير المستجيبين لله، وهم: المعاندون الذين كفروا به وبرسله؛ فـ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الدنيا والآخرة.

(٢٧) ثم ذكر أن من لطفه بعباده، أنه لا يوسع عليهم الدنيا سعة تضر بأديانهم، فقال: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ لغفلوا عن طاعة الله، وأقبلوا على التمتع بشهوات الدنيا، فأوجبت لهم الإكباب على ما تشتهيه نفوسهم، ولو كان معصية وظلماً ﴿وَلَكِن يَنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ بحسب ما اقتضاه لطفه وحكمته ﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ فهو أعلم بذلك؛ فيغني من يستحق الغنى، ويفقر من يستحق الفقر.

(٢٨) ﴿وَهُوَ الَّذِي يَنْزِلُ الْغَيْثَ﴾ المطر الغزير الذي به يغيث البلاد والعباد ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ وانقطع عنهم مدة ظنوا أنه لا يأتيهم، وأيسوا وعملوا لذلك الجذب أعمالاً، فينزل الله الغيث ﴿وَيَنْشُرُ﴾ به ﴿رَحْمَتَهُ﴾ من إخراج الأقوات للآدميين وبهائمهم، فيقع عندهم موقعاً عظيماً، ويستبشرون بذلك ويفرحون ﴿وَهُوَ أَوَّلُوهُ﴾ الذي يتولى عباده بأنواع التدبير، ويتولى القيام بمصالح دينهم ودنياهم

(٣٠) أخرج الشيخان من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، ما يصيب المؤمن من نصيب، ولا وصب، ولا هم، ولا حزن، إلا كفر الله عنه بها من خطاياها، حتى الشوكة يشاكها».

الشرعية تقتضي عقوبته؛ فإنه في هذه الحال لا يكون مأموراً به.

وفي جعل أجر العافي على الله ما يهيج على العفو، وأن يعامل العبد الخلق بما يحب أن يعامله الله به، فكما يحب أن يعفو الله عنه؛ فَلْيَعْفُ عَنْهُمْ، وكما يحب أن يسامحه الله؛ فليسامحهم، فإن الجزاء من جنس العمل.

وأما مرتبة الظلم: فقد ذكرها بقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ الذين يجنون على غيرهم ابتداء، أو يقابلون الجاني بأكثر من جنايته؛ فالزيادة ظلم.

(٤١) ﴿وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ انتصر ممن ظلمه بعد وقوع الظلم عليه ﴿فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ لا حرج عليهم في ذلك.

(٤٢) ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ إنما تتوجه الحجة بالعقوبة الشرعية ﴿عَلَى الَّذِينَ يَظْلُمُونَ النَّاسَ وَيَعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وهذا شامل للظلم والبغي على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ موجه للقلوب والأبدان، بحسب ظلمهم وبغيهم.

(٤٣) ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ﴾ على ما يناله من أذى الخلق

(٣٨) ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ انقادوا لطاعته ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ ظاهرها وباطنها، فرضها ونفلها ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ من النفقات الواجبة؛ كالزكاة والنفقة على الأقارب، ونحوهم، والمستحبة؛ كالصدقات على عموم الخلق ﴿وَأَمْرُهُمْ﴾ الديني والدنيوي ﴿شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ لا يستبد أحد منهم برأيه في أمر من الأمور المشتركة بينهم.

(٣٩) ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾ وصل إليهم من أعدائهم ﴿هُمْ يَنْصُرُونَ﴾ لقوتهم وعزتهم، ولم يكونوا أذلاء عاجزين عن الانتصار.

(٤٠) ثم ذكر الله تعالى: مراتب العقوبات، وأنها على ثلاث مراتب: عدل وفضل وظلم:

فمرتبة العدل: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ لا زيادة ولا نقص، فالنفس بالنفس، وكل جارحة بالجارحة المماثلة لها، والمال يضمن بمثله.

ومرتبة الفضل: العفو والإصلاح عن المسيء؛ ولهذا قال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ يجزيه أجراً عظيماً، وثواباً كثيراً، وشرط الله في العفو الإصلاح فيه؛ ليدل ذلك على أنه إذا كان الجاني لا يليق العفو عنه، وكانت المصلحة

(٣٩) في «الصحيحين» من حديث عائشة رضي الله عنها: «أن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط، إلا أن تنتهك حرمة الله».

(٤١) أخرج أحمد والنسائي وابن ماجه بإسناد صحيح عن عروة؛ قال: قالت عائشة رضي الله عنها: ما علمت حتى دخلت علي زينب بغير إذن وهي غضبي، ثم قالت لرسول الله ﷺ: حسبك إذا قلبت لك ابنة أبي بكر ذريعتها، ثم أقبلت علي؛ وأعرضت عنها، حتى قال النبي ﷺ: «دونك فانتصري» فأقبلت عليها حتى رأيته وقد يمس ريقها في فمها، فما ترد علي بشيء، فرأيت النبي ﷺ يتهلل وجهه.

(٤٢) في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «المستبان ما قال؛ فعلى البادئ، ما لم يعدد المظلوم».

(٤٣) أخرج أبو داود وأحمد حديث أبي هريرة الصحيح: أن رجلاً شتم أبا بكر، والنبي ﷺ جالس، فجعل النبي ﷺ يعجب ويتبسم، فلما أكثر رد عليه بعض قوله؛ فغضب النبي ﷺ وقام، فلحقه أبو بكر رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، إنه كان يشتمني وأنت جالس، فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت! قال: «إنه كان معك ملك يرد عنك. فلما رددت عليه

غير الذي كنا نعمل، وهذا طلب للأمر المحال الذي لا يمكن.

(٤٥) ﴿وَرَنَّهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ على النار ﴿خَشِعِينَ مِنَ الدُّلِّ﴾ ترى أجسامهم خاشعة للدل الذي في قلوبهم ﴿يَنْظُرُونَ مِنَ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ ينظرون إلى النار مسارقة وشزراً من هيبتها وخوفها ﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ حيث ظهرت عواقب الخلق، وتبين أهل الصدق من غيرهم: ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ على الحقيقة ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ حيث فوتوا أنفسهم جزيل الثواب، وحصلوا على أليم العقاب وفرق بينهم وبين أهلهم، فلم يجتمعوا بهم آخر ما عليهم ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ في سوائه ووسطه، منغمرين، لا يخرجون منه أبداً، ولا يفتر عنهم وهم فيه ملبسون.

(٤٦) ﴿وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ كما كانوا في الدنيا يمتنون بذلك أنفسهم، ففي القيامة يتبين لهم ولغيرهم أن أسبابهم التي أملوها تقطعت، وأنه حين جاءهم عذاب الله لم يدفع عنهم ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ تحصل به هدايته، فهؤلاء ضلوا حين زعموا في شركائهم النفع ودفع الضر، فتبين حينئذ ضلالهم.

(٤٧) ﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ يأمر تعالى عباده

الْمُتْلِكِينَ الْعِظِيمِينَ
وَرَنَّهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِعِينَ مِنَ الدُّلِّ يَنْظُرُونَ
مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ
خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ
فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ
مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ أَسْتَجِيبُوا
لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ
مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا
فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيطًا إِنَّا عَلَيْنَاكَ إِلَّا الْبَلَاءُ وَإِنَّا إِذَا
أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مَتَاعَ رَحْمَةٍ فَنَحَّيْنَا وَءَامَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ
يَمَاقِدَتِ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ اللَّهُ مُلْكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنشَاءً
وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذِّكْرَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنشَاءً
وَيَجْعَلُ مِنْ يَشَاءٍ عَاقِبَةً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَمَا كَانَتْ
لِنَبِيِّ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ
رُسُلًا فَيُوحِي بِأُذُنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُمْ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴿٥١﴾

﴿وَعَفَرَ﴾ لهم؛ بأن سمح لهم عما يصدر منهم
﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾؛ أي: لمن الأمور التي
حث الله عليها وأكدها، وأخبر أنه لا يُلَقَّأها إلا
أهل الصبر والحظوظ العظيمة.

(٤٤) ثم أخبر تعالى أنه المنفرد بالهداية
والإضلال، ﴿وَأَنَّهُ﴾ ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ بسبب
ظلمه ﴿فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾ يتولى أمره
ويهديه ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ مرأى
ومنظراً فظيعاً، صعباً شنيعاً، يظهرون الندم
العظيم، والحزن على ما سلف منهم، و
﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ هل لنا
طريق أو حيلة إلى رجوعنا إلى الدنيا؛ لنعمل

بعض قوله حضر الشيطان، فلم أكن لأفعد مع الشيطان» ثم قال: «يا أبا بكر، ثلاث كلهن حق: ما من عبد ظلم بمظلمة فيغضي عنها لله؛ إلا أعز الله بها نصره، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة؛ إلا زاده الله بها كثرة، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة؛ إلا زاده الله بها قلة».

حتى إن تدبيره تعالى من عمومه أنه يتناول المخلوقة عن الأسباب التي يباشرها العباد ، فإن النكاح من الأسباب لولادة الأولاد ، فالله تعالى هو الذي يعطيهم من الأولاد ما يشاء ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثَاءً﴾ فمن الخلق من يهب له إنثاء ، ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ ومنهم من يهب له ذكوراً ، (٥٠) ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثَاءً﴾ ومنهم من يزوجه: يجمع له ذكوراً وإنثاء ، ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ ومنهم من يجعله عقيماً لا يولد له ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾ بكل شيء ﴿فَذِيرُ﴾ على كل شيء؛ فيتصرف بعلمه وإتقانه الأشياء ، وبقدرته في مخلوقاته . (٥١) ﴿وَمَا كَانَ لِّشَيْءٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ﴾ هذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جناب الله ﷻ وأنه يكون على أحد هذه الأوجه: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ أي: إما أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ وَحْيًا؛ بأن يلقي الوحي في قلب الرسول ، من غير إرسال ملك ، ولا مخاطبة منه شفاهاً ﴿أَوْ﴾ يكلمه منه شفاهاً ، لكن ﴿مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ كما حصل لموسى بن عمران: كلميم الرحمن ﴿أَوْ﴾ يكلمه الله بواسطة الرسول الملكي؛ ف ﴿رُسُلًا﴾ كجبريل أو غيره من الملائكة ﴿فَيُوحِي بِأَذْنِهِ﴾ بإذن ربه لا بمجرد هواه ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿عَلِيٌّ﴾ أي: عليُّ الذات ، عليُّ الأوصاف عظيمها ، عليُّ الأفعال ، قد قهر كل شيء ، ودانت له المخلوقات ﴿حَكِيمٌ﴾ في وضعه كل شيء في موضعه ، من المخلوقات والشرائع .

بالاستجابة له ، بامثال ما أمر به ، واجتناب ما نهى عنه ، وبالمبادرة بذلك ، وعدم التسويف ، مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ الَّذِي إِذَا جَاءَ لَا يُمْكِنُ رَدُّهُ وَاسْتِدْرَاكُ الْفَائِتِ ﴿مَا لَكُمْ مِّن مَّلَاجٍ يَوْمَئِذٍ﴾ وليس للعبد في ذلك اليوم ملجأ يلجأ إليه ، فيفوت ربه ، ويهرب منه ﴿وَمَا لَكُمْ مِّن تَكْوِيرٍ﴾ وليس للعبد في ذلك اليوم تكوير لما اقترفه وأجرمه ، بل لو أنكر لشهدت عليه جوارحه .

(٤٨) ﴿فَإِن أَعْرَضُوا﴾ عما جئتهم به بعد البيان التام ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيطًا﴾ تحفظ أعمالهم وتسأل عنها ﴿إِن عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَّغُ﴾ فإذا أدبت ما عليك ، فقد وجب أجرك على الله ، سواء استجابوا أم أعرضوا ، وحسابهم على الله الذي يحفظ عليهم صغير أعمالهم وكبيرها ، وظاهرها وباطنها .

﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ ذكر تعالى في هذه الآية حالة الإنسان ، وأنه إذا أذاقه الله رحمة من صحة بدن ورزق رغد وجاه ونحوه ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ أي: فرح فرحاً مقصوراً عليها لا يتعداها ، ويلزم من ذلك طمأنينته بها ، وإعراضه عن المنعم ﴿وَإِن قُصِبَتْ سَيْئَةٌ﴾ مرض أو فقر أو نحوهما ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الذنوب والخطايا ﴿فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ طبيعته كفران النعمة السابقة ، والتسخط لما أصابه من السيئة .

(٤٩) ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ هذه الآية فيها الإخبار عن سعة ملكه تعالى ، ونفوذ تصرفه في الملك في الخلق لما يشاء ، والتدبير لجميع الأمور ،

وتنيره وترغبهم فيه، وتنهاهم عن ضده، وترهبهم منه.

(٥٣) ﴿صَرِّطَ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ الصراط الذي نصبه الله لعباده، وأخبرهم أنه موصل إليه وإلى دار كرامته ﴿وَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ نَصِيرُ الْأُمُورِ﴾ ترجع جميع أمور الخير والشر؛ فيجازي كلًّا بحسب عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

سورة الزخرف مكية

(١) ﴿حَمَّ﴾ تقدم الكلام على الحروف المقطعة في فواتح سورة البقرة.

(٢) ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ هذا قسم بالقرآن على القرآن؛ فأقسم بالكتاب المبين وأطلق؛ ولم يذكر المتعلق، ليدل على أنه مبين لكل ما يحتاج إليه العباد، من أمور الدنيا والدين والآخرة.

(٣) ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ هذا المقسم عليه: أنه جعل بأفصح اللغات، وأوضحها، وأبينها، وهذا من بيانه ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ألفاظه ومعانيه لتيسرها وقربها من الأذهان.

(٤) ﴿وَأَنَّهُ﴾ أي: هذا الكتاب ﴿لَدَيْنَا﴾ في الملأ الأعلى في أعلى الرتب وأفضلها ﴿لَعَلِّي﴾ في قدره وشرفه ومحله ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يشتمل عليه من الأوامر والنواهي والأخبار، فليس فيه حكم مخالف للحكمة والعدل والميزان.

ثم أخبر تعالى أن حكمته وفضله يقتضي أن لا يترك عباده هملاً، لا يرسل إليهم رسولاً، ولا

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ صَرِّطَ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ نَصِيرُ الْأُمُورِ ﴿٥٥﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ ١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٣ وَأَنَّهُ ٤ فِي أَمْرِ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ ٥ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ٦ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ٧ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَاثُوبِينَ ٨ يَسْتَهْزِئُونَ ٩ فَأَهْلَكْنَا أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ١٠ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ١١ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٢

(٥٢) ﴿وَكَذَلِكَ﴾ حين أوحينا إلى الرسل قبلك ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ وهو هذا القرآن الكريم، سماه: روحاً؛ لأن الروح يحيا به الجسد، والقرآن تحيا به القلوب والأرواح، وتحيا به مصالح الدنيا والدين؛ لما فيه من الخير الكثير، والعلم الغزير ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي﴾ قبل نزوله عليك ﴿مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ ليس عندك علم بأخبار الكتب السابقة، ولا إيمان وعمل بالشرائع الإلهية، بل كنت أُمياً لا تخط ولا تقرأ، ﴿وَلَكِن﴾ جاءك هذا الكتاب الذي ﴿جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ يستضيئون به في ظلمات الكفر والبدع، والأهواء المردية، ويعرفون به الحقائق، ويهتدون به إلى الصراط المستقيم ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ تبينه لهم وتوضحه،

وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا
كَذَلِكَ نُخْرِجُوهَ (١١) وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ
لَكُمْ مِنَ الْفَلَاحِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لَسْتُمْ عَلَى ظُهُورِهِ
ثُمَّ تَذْكُرُونَهُ نِعْمَةً رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ
الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا لِلَّهِ رَبِّنَا
لَسُقُوبُونَ (١٤) وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّا لَا نَسِفُ
لَكَفُورٌ مُبِينٌ (١٥) أَوَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ وَأَصْفَنَكُمْ
بِالْبَيْنِ (١٦) وَإِذَا بَشَّرْنَا أَحَدَهُمْ بِمَا صَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا
ظَلَّ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوْ مَنْ يُنْسُوا فِي
الْحَيَاةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ
الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنْسًا أَشْهَادًا وَخَلَقَهُمْ سَكَنًا
شَهِدَهُمْ وَنُسُوا (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ
مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ أَنْتُمْ
كُنْتُمْ أَنْ قِيلَ لَهُمْ بِهِ مُشْتَبِهُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا
إِنَّا وَجَدْنَاهُ نَاعِلًا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ أَثَرِهِمْ مُتَحَدِّثُونَ (٢٢)

٤٩٠

ينزل كتابًا، ولو كانوا مسرفين ظالمين، فقال:
(٥) ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ ومعناه:
أفترك عنكم الوحي ونُمسك عن إنزال القرآن،
فلا نأمركم ولا ننهاكم ﴿أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا
مُسْرِفِينَ﴾؛ أي: من أجل أنكم أسرفتم - أي
تجاوزتم الحد - في كفركم وشرككم؟

(٦) ثم قال تعالى - مُسْلِيًا لِنَبِيهِ فِي تَكْذِيبٍ مِنْ
كُذِبِهِ مِنْ قَوْمِهِ، وَأَمْرًا لَهُ بِالصَّبْرِ عَلَيْهِمْ -: يقول
تعالى: إِنْ هَذِهِ سِنْتُنَا فِي الْخَلْقِ: أَنْ لَا نَتْرَكَهُمْ
هَمَلًا ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ في شيع
الأولين.

(٧) ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾
أي: يَكْذِبُونَهُ وَيَسْخَرُونَ بِهِ.

(٨) ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ﴾ مِنْ هَؤُلَاءِ ﴿بَطْشًا﴾ قُوَّةً
وَأَفْعَالًا وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾
مَضَتْ أَمْثَالُهُمْ وَأَخْبَارُهُمْ، وَبَيْنَا لَكُمْ مِنْهَا مَا فِيهِ
عِبْرَةٌ وَمَزْجَرٌ عَنِ التَّكْذِيبِ وَالْإِنْكَارِ.

(٩) ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ﴾ يَخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ
الْمُشْرِكِينَ: أَنْكَ لَوْ سَأَلْتَهُمْ ﴿مَنْ خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ﴾ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ
لَهُ ﴿الْعَزِيزُ﴾ الَّذِي دَانَتْ لِعِزَّتِهِ جَمِيعُ
الْمَخْلُوقَاتِ ﴿الْعَلِيمُ﴾ بِظَوَاهِرِ الْأُمُورِ
وَبُيُوتِهَا، وَأَوَائِلِهَا وَأَوَاخِرِهَا، فَإِذَا كَانُوا
مُقْرِنِينَ بِذَلِكَ، فَكَيْفَ يَجْعَلُونَ لَهُ الْوَلَدَ
وَالصَّاحِبَةَ وَالشَّرِيكَ.

(١٠) ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ مَهْدُهَا
وَجَعَلَهَا قَرَارًا لِلْعِبَادِ، يَتِمَكَّنُونَ فِيهَا مِنْ كُلِّ مَا
يُرِيدُونَ ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ جَعَلَ مَنَافِذَ
بَيْنَ سُلَاسِلِ الْجِبَالِ الْمُتَّصِلَةِ، تَنْفِذُونَ مِنْهَا إِلَى
مَا وَرَاءَهَا مِنَ الْأَقْطَارِ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ فِي

السَّيْرِ فِي الطَّرِيقِ وَلَا تَضِلُّونَ، وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ
أَيْضًا فِي الْإِعْتِبَارِ بِذَلِكَ وَالْإِذْكَارِ فِيهِ.

(١١) ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ﴾ لَا
يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ، وَيَكُونُ بِمِقْدَارِ الْحَاجَةِ، لَا
يَنْقُصُ بِحَيْثُ لَا يَكُونُ فِيهِ نَفْعٌ، وَلَا يَزِيدُ
بِحَيْثُ يَضُرُّ الْعِبَادَ وَالْبِلَادَ ﴿فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً
مَيِّتًا﴾ أَحْيَيْنَاهَا بَعْدَ مَوْتِهَا، ﴿كَذَلِكَ
نُخْرِجُوهَ﴾ فَكَمَا أَحْيَا الْأَرْضَ الْمَيِّتَةَ الْهَامِدَةَ
بِالْمَاءِ، كَذَلِكَ بِحَيِّكُمْ بَعْدَ مَا تَسْتَكْمِلُونَ فِي
الْبَرْزَخِ؛ لِيَجَازِيَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ.

(١٢) ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ الْأَصْنَافُ
جَمِيعُهَا، مِمَّا تَنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا
يَعْلَمُونَ: مِنْ لَيْلٍ وَنَهَارٍ، وَحَرٍّ وَبَرٍّ، وَذَكَرٍ وَأُنْثَى،
وغير ذلك ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفَلَاحِ﴾ السُّفُنَ الْبَحْرِيَّةَ
الشَّرَاعِيَّةَ وَالنَّارِيَّةَ ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ.

﴿لِخَصَامٍ غَيْرِ مُبِينٍ﴾؛ أي: المرأة ناقصة، يكمل نقصها بلبس الحلي منذ تكون طفلة، وإذا خاصمت فلا عبارة لها، بل هي عاجزة عبيّة، أو من يكون هكذا يُنسب إلى جناب الله تعالى.

(١٩) ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِندَ الرَّحْمَنِ أَنْثَى﴾ أي: اعتقدوا فيهم ذلك، فأنكر عليهم تعالى قولهم ذلك، فقال: ﴿أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَكَنُ شَهْدَتِهِمْ وَتُسْأَلُونَ﴾؛ أي: شاهدوه وقد خلقهم الله تعالى إناثاً ﴿سَكَنُ شَهْدَتِهِمْ﴾؛ أي: بذلك ﴿وَتُسْأَلُونَ﴾ وعن ذلك يوم القيامة. وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد.

(٢٠) ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ فاحتجوا على عبادتهم الملائكة بالمشيئة، وهي حجة لم يزل المشركون يطرقونها، وهي حجة باطلة في نفسها، عقلاً وشرعاً: فكل عاقل لا يقبل الاحتجاج بالقدر، ولو سلّكه في حالة من أحواله لم يثبت عليها قدمه. وأما شرعاً؛ فإن الله تعالى أبطل الاحتجاج به، ولم يذكره عن غير المشركين به، المكذبين لرسله، فإن الله تعالى قد أقام الحجة على العباد، فلم يبق لأحد عليه حجة أصلاً، ولهذا قال هنا: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يكذبون ويقولون.

(٢١) ﴿أَمْ أَدَّبْنَاهُمْ بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ

(١٣) ﴿لِئَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ وهذا شامل لظهور الفلك ولظهور الأنعام، لتستقروا عليها ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ بالاعتراف بالنعمة لمن سخرها، والثناء عليه تعالى بذلك ﴿وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَكُمْ مُقْرِنِينَ﴾ أي: لولا تسخيرها لنا ما سخر من الفلك والأنعام، ما كنا مطيقين لذلك وقادرين عليه، ولكن من لطفه وكرمه تعالى، سخرها وذلكها ويسر أسبابها.

(١٤) ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ لراجعون إليه بعد مماتنا.

(١٥) ﴿وَجَعَلُوا لَمْ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ يخبر تعالى عن شناعة قول المشركين، الذين جعلوا لله تعالى ولداً، وهو الواحد الأحد، الصمد الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يكن له كفواً أحد ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ جحود لنعم الله ﴿مُبِينٌ﴾ ظاهر الكفران.

(١٦) ﴿أَمْ أَلْبَسْنَاهُمْ أَزْوَاجًا﴾ وهذا استفهام توبيخ وإنكار.

(١٧) ثم ذكر تمام الإنكار فقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا صَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ من كراهته وشدة بغضه، ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ من الحزن والغيط، فكيف يجعلون لله ما يكرهون؟

(١٨) ثم قال تعالى: ﴿وَأَمِنْ يُنْسَوْنَ فِي وَهْوِ الْحَالِيَةِ

(١٣ و ١٤) أخرج أبو داود والترمذي وأحمد بإسناد صحيح عن علي بن ربيعة قال: رأيت علياً عليه السلام أتى بدابة، فلما وضع رجله في الركاب؛ قال: «بسم الله» فلما استوى عليها قال: «الحمد لله» ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَكُمْ مُقْرِنِينَ﴾ ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ ثم حمد الله تعالى ثلاثاً، وكبر ثلاثاً، ثم قال: سبحانك، لا إله إلا أنت، قد ظلمت نفسي؛ فاغفر لي ثم ضحك، فقلت له: مم ضحكك يا أمير المؤمنين، فقال: رأيت رسول الله ﷺ صنع كما صنعت، ثم ضحك، فقلت: مم ضحكك يا رسول الله؟ فقال: «يعجب الرب من عبده؛ إذا قال: رب! اغفر لي، ويقول: علم عبيدي أنه لا يغفر الذنوب غيري».

مُسَمِّكُونَ ﴿٢١﴾ يخبرهم بصحة أفعالهم وصدق أقوالهم؟ ليس الأمر كذلك؛ فإن الله أرسل محمداً ﷺ نذيراً إليهم، وهم لم يأتهم نذير غيره.

(٢٢) ثم ذكر الله تعالى شبهة من شبههم الواهية، فقال: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ﴿٢٢﴾ عَلَىٰ دِينٍ وَمِلَّةٍ ﴿٢٣﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاتِرِهِمْ مُتَعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ فلا نتبع ما جاء به محمد ﷺ.

(٢٣) ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا ﴿٢٣﴾ مَنَعْمُوها وَمَلَأُها الذِّين أُطْعِمْتِهم الدُّنْيَا، وَغَرَبَتْهُمُ الْأُمُوالُ، وَاسْتَكْبَرُوا عَلَى الْحَقِّ: ﴿٢٤﴾ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاتِرِهِمْ مُتَعِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ فهؤلاء ليسوا ببدع منهم، وليسوا بأول من قال هذه المقالة.

(٢٤) ﴿قَالَ ﴿٢٤﴾ مُحَمَّدٌ ﷺ لَهُؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ ﴿٢٥﴾ أُولُو جَنْثِكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ﴿٢٦﴾﴾ فهل تتبعوني لأجل الهدى؟ ﴿قَالُوا إِنَّا يَمَّا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كُفْرُونَ﴾﴾ فعلم بهذا: أنهم ما أرادوا اتباع الحق والهدى، وإنما قصدهم اتباع الباطل والهوى.

(٢٥) ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ بتكذيبهم الحق، وردهم إياه بهذه الشبهة الباطلة ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾﴾ فليحذر هؤلاء أن يستمروا على تكذيبهم؛ فيصيبهم ما أصابهم.

(٢٦) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ﴿٢٦﴾ أَزِرْ ﴿٢٧﴾ وَقَوْمِيءَ﴾ الذين اتخذوا من دون الله آلهة يعبدونهم ويتقربون إليهم: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾﴾ مبغض له، محتجب، مُعَادٍ لأهله.

(٢٧) ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾﴾ فإني أتولاه، وأرجو أن يهديني للعلم بالحق والعمل به، فكما فطرني ودبرني بما يصلح بدني ودنياي؛ فـ ﴿سَيِّدِينَ﴾﴾ لما

وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا ﴿٢٣﴾ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاتِرِهِمْ مُتَعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ قُلْ أُولُو جَنْثِكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا يَمَّا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كُفْرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ فَاَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٢٦﴾﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِيءَ ﴿٢٦﴾ إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٧﴾﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِينَ ﴿٢٨﴾﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٩﴾﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٣٠﴾﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣١﴾﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ أَهَرُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُلْطَانًا وَرَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٣﴾﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُر بِالرَّحْمَنِ لِيُوبِتَهُمْ سُفْقًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾

يصلح ديني وآخرتي.

(٢٨) ﴿وَجَعَلَهَا﴾ هذه الخصلة الحميدة: التي هي أم الخصال وأساسها، وهي: إخلاص العبادة لله وحده، والتبري من عبادة ما سواه ﴿كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ ذريته ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ إليها ﴿يَرْجِعُونَ﴾ لشهرتها عنه، وتوصيته لذريته، فلم تزل هذه الكلمة موجودة في ذريته عليه السلام حتى دخلهم الترف والطغيان.

(٢٩) ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ﴾ بأنواع الشهوات، حتى صارت هي غايتهم ونهاية مقصودهم، فلم تزل يتربى حبها في قلوبهم، حتى صارت صفات راسخة، وعقائد متأصلة ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ الذي لا شك فيه ولا مرية ولا اشتباه ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ بين الرسالة، قامت أدلة رسالته قياماً باهراً، بأخلاقه ومعجزاته،

(٣٢) قال الله ردًا لاقتراحهم: ﴿أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ أهم الخزان لرحمة الله، وبيدهم تدبيرها، فيعطون النبوة والرسالة من يشاءون، ويمنعونها ممن يشاءون؟ ﴿تَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ أي: في الحياة الدنيا ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا﴾ ليسخر بعضهم بعضاً في الأعمال والحرف والصنائع ﴿وَرَحِمْتُ رَبِّكَ﴾ الجنة ﴿خَيْرٌ﴾ لك ولأتباعك من المؤمنين ﴿وَمِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ مما يجمع هؤلاء الكفار من الأموال.

(٣٣) ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ فلو تساوى الناس في الغنى، ولم يحتج بعضهم إلى بعض؛ لتعطلت كثير من مصالحهم ومنافعهم ﴿لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ﴾ يخبر تعالى بأن الدنيا لا تسوى عنده شيئاً، وأنه لولا لطفه ورحمته بعباده، التي لا يقدم عليها شيئاً؛ لوسّع الدنيا على الذين كفروا توسيعاً عظيماً، ولجعل ﴿لِإِيۤؤِيَّتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فَضْلِهِ وَمَعَٰرِجَ﴾ درجاً من فضة ﴿عَلَيْهَا يَصْهَرُونَ﴾ على سطوحهم.

(٣٤) ﴿وَلِإِيۤؤِيَّتِهِمُ آبُؤَابَا﴾ أغلاقاً على أبوابهم من فضة ﴿وَسُرُرًا﴾ وجعلنا لهم سرراً من فضة ﴿عَلَيْهَا يَتَكُونُونَ﴾.

(٣٥) ﴿وَوَ﴾ لجعل لهم ﴿زُخْرَفًا﴾ أي: لزخرف لهم دنياهم بأنواع الزخارف، وأعطاهم ما يشتهون من الذهب، ولكن منعه من ذلك رحمته بعباده؛ لئلا يتسارعوا في الكفر، وكثرة المعاصي بسبب حب الدنيا ﴿وَأَن كُلُّ

لِإِيۤؤِيَّتِهِمُ آبُؤَابَا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكُونُونَ ﴿٣٢﴾ وَزُخْرَفًا ۖ إِنَّ كُلَّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۗ وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٣﴾ وَمَن يَعِشْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضَ لِّمَّا سِطَّلْنَا فَوْقَهُ لَكُمُ فِرْدَوْسٌ ۖ وَإِنَّهُمْ لَبَصَدُودٌ مِّنَ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٤﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ نَاقَالُ بَلَيتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٥﴾ وَكَأَن يَفْعَعُكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٦﴾ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْغَمَىٰ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٧﴾ فَإِنَّمَا تَذَكَّرُ بِكَ فَإِنَّمَا مِنْهُمْ مُّتَقِمُونَ ﴿٣٨﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴿٣٩﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَإِنَّكَ لَذِكْرُكَ وَقَوِّمُكَ وَسَوْفَ تُنْصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَمَثَلُ مَن أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجْعَلْنَا مَن دُونِ الرَّحْمَنِ ۖ إِلَٰهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۖ فَتَالَيْهِ ۖ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِّنْهَا يَصْحَكُونَ ﴿٤٤﴾

وبما جاء به، وبما صدق به المرسلين، وببفس دعوته ﷺ.

(٣٠) ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْخَبْرُ﴾ الذي يوجب على من له أدنى دين ومعقول أن يقبله وينقاد له ﴿قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ جعلوه بمنزلة السحر الباطل، الذي لا يأتي به إلا أخبث الخلق، وأعظمهم افتراء، والذي حملهم على ذلك طغيانهم بما متعهم الله به وآباءهم.

(٣١) ﴿وَقَالُوا﴾ مقترحين على الله بعقولهم الفاسدة: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِثِيِّينَ﴾ من أهل مكة أو أهل الطائف عظيم معظهم عندهم ومبجل.

(٣٥) أخرج مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة، يعطي بها في الدنيا، ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر؛ فيقطع بحسنة ما عمل بها في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها».

واضح؛ لعلمه بضلاله، ورضاه به.

(٤١) ﴿فَإِنَّمَا نَذَرْنَا بِكَ﴾ فإن ذهبنا بك قبل أن نريك ما نعدهم من العذاب ﴿فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ﴾ فاعلم بخبرنا الصادق أنا منهم منتقمون.

(٤٢) ﴿أَوْ زُرْنَاكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ﴾ من العذاب ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ ولكن ذلك متوقف على اقتضاء الحكمة لتعجيله أو تأخيرها، فهذه حاله وحال هؤلاء المكذبين.

(٤٣) ﴿فَاسْتَمِيعَ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ فعلاً واتصافاً، بما يأمر بالاتصاف به ودعوة إليه، وحرصاً على تنفيذه في نفسك وفي غيرك ﴿إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ موصل إلى الله وإلى دار كرامته.

(٤٤) ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي: هذا القرآن الكريم ﴿لَذَكَّرُ لَكُمْ وَلِقَوْمِكُمْ﴾ فخر لكم، ومنقبة جليلة، ونعمة لا يقادر قدرها، ولا يعرف وصفها، ويذكركم أيضاً ما فيه الخير الدنيوي والأخروي، ويحثكم عليه، ويذكركم الشر، ويرهبكم عنه ﴿وَسَوْفَ تَسْأَلُونَ﴾ عنه: هل قمتم به؛ فارتفعتم وانتفعتم، أم لم تقوموا به؛ فيكون حجة عليكم، وكفراً منكم بهذه النعمة؟

(٤٥) ﴿وَسَلَّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبَدُونَ﴾ حتى يكون للمشركين نوع حجة، يتبعون فيها أحداً من الرسل، فإنك لو سألتهم واستخبرتهم عن أحوالهم، لم تجد أحداً منهم يدعو إلى اتخاذ إله آخر مع الله، مع أن كل

ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ منغصة مكدره فانية ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ وأن الآخرة عند الله تعالى خير ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾.

(٣٦) ﴿وَمَنْ يَعِشْ﴾ يعرض ويصد ﴿عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ سَيْطَانًا﴾ قِيض له الرحمن شيطاناً مريداً ﴿فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ يقارنه ويصاحبه، ويعده ويمينه، ويؤذنه إلى المعاصي أژا.

(٣٧) ﴿وَرَأَيْتُمْ لِبَصْدُوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ الصراط المستقيم والدين القويم ﴿وَيَحْسُبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ بسبب تزيين الشيطان للباطل وتحسينه له، وإعراضهم عن الحق.

(٣٨) ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا﴾ إذا جاء ربه في الآخرة ﴿قَالَ﴾ الكافر لقرينه الشيطان ﴿يَنْتَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ بعد ما بين مشرق الصيف ومشرق الشتاء ﴿فَيَنْسُ الْقَرِينَ﴾ بنس القرين كنت لي في الدنيا.

(٣٩) ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ لا ينفعكم يوم القيامة اشتراككم في العذاب، أنتم وقرناؤكم، وذلك؛ لأنكم اشتركتم في الظلم؛ فاشتركتم في العذاب والعقاب.

(٤٠) يقول تعالى لرسوله ﷺ مسلياً له عن امتناع المكذبين عن الاستجابة له، وأنهم لا خير فيهم، ولا فيهم زكاء يدعوهم إلى الهدى: ﴿أَفَأَنْتُمْ تُشْعِصُونَ﴾ الذين لا يسمعون ﴿أَوْ تَهْدِي أَعْمَى﴾ الذين لا يبصرون ﴿وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ يقول تعالى: أو تهدي من كان في ضلال بين

(٤٤) أخرج البخاري عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن هذا الأمر في قريش، لا ينازعهم فيه أحد إلا أكبه الله تعالى على وجهه، ما أقاموا الدين».

يَرْجِعُونَ ﴿١٠﴾ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَيُذَعِّنُونَ لَهُ؛ لِيَزُولَ
شُرَكَهُمْ وَشُرَهُمْ.

(٤٩) ﴿وَقَالُوا﴾ عندما نزل عليهم العذاب: ﴿يَأْتِيَهُ السَّاحِرُ﴾ يعنون موسى عليه السلام، وهذا إما من باب التهكم به، وإما أن يكون هذا الخطاب عندهم مدحاً؛ فتضرعوا إليه بأن خاطبوه بما يخاطبون به من يزعمون أنهم علماؤهم؛ وهم السحرة، ﴿أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ بما عَهِدَ عِنْدَكَ ﴿بما خصك الله به، وفضلك به من الفضائل والمناقب؛ أن يكشف عنا العذاب﴾ ﴿إِنَّا لَمُهْذُونَ﴾ إن كشف الله عنا ذلك.

(٥٠) ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾
لم يوفوا بما قالوا.

(٥١) ﴿وَأَدَّيْ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ﴾ مستعلياً
بباطله، قد غره ملكه، وأطغاه ماله وجنوده:
﴿يَقُولُ أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ﴾ أَلَسْتُ الْمَالِكُ
لِذَلِكَ، المتصرف فيه ﴿وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِي﴾ الأنهار المنسحبة من النيل في وسط
القصور والبساتين ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ هذا الملك
الطويل العريض وهذا من جهله البليغ؛ حيث
افتخر أمر خارج عن ذاته.

(٥٢) ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ أنا العزيز، وهو الذليل المهان المحقر، فأينا خير؟ ﴿وَمَعَ هَٰذَا فَالْوَلَا يَكَادُ يُتَيْنُ﴾ عما في ضميره بالكلام؛ لأنه ليس بفصيح اللسان.

(٥٣) ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ﴾ ﴿فَهَلَّا كَانَ مَوْسَىٰ بِهَذِهِ الْحَالَةِ﴾ ﴿أَن يَكُونَ مِزِينًا مَّجْمَلًا بِالْحَلِيِّ وَالْأَسَاوِرِ؟﴾ ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقَرَّنِينَ﴾ ﴿يَعَاوَنُونَهُ عَلَىٰ دَعْوَتِهِ﴾ وَيُؤَيِّدُونَهُ عَلَىٰ قَوْلِهِ .

(٥٤) ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ استخف

وَمَا نَرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَأَعْلَمَهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ وَقَالُوا يَا بَنِي السَّحَرِ أَنْ لَنَا رَبٌّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَنَهْتَدُونَ ﴿١٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿٢٠﴾ وَكَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَبْقَوِي فِي مَنِّكَ وَمِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا بِبَصِيرَةٍ ﴿٢١﴾ أَمَّا أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٢٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكُ مُقْتَرِينَ ﴿٢٣﴾ فَأَسْحَفَ قَوْمُهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا أَقْوَمَ فَاسْقِينَ ﴿٢٤﴾ فَلَمَاءَ اسْقَمُوا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٢٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخَرِينَ ﴿٢٦﴾ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٢٧﴾ وَقَالُوا يَا أَلْهَيْتَنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٢٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ مِنْكُمْ مَلَكًا فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٣٠﴾

الرسول، من أولهم إلى آخرهم، يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له؛ فدل هذا أن المشركين ليس لهم مستند في شركهم.

(٤٦) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ التي دلت
دلالة قاطعة على صحة ما جاء به، كالعصا،
والحية، وإرسال الجراد، والقمل، إلى آخر
الآيات ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ
رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿فَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِقْرَارِ بِرَبِّهِمْ،
وَنَهَاهُمْ عَنِ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ.

(٤٧) ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾
ردوہا وانکروہا، واستہزأوا بها ظلماً وعلواً.

(٤٨) ﴿وَمَا فُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ
أُخْتِهَا﴾ الآية المتأخرة أعظم من السابقة
﴿وَأَخَذْنَهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ كالجراد، والقمل،
والضفادع، والدم، آيات مفصلات ﴿لَعَلَّهُمْ

حيث نهى عن عبادة الجميع، وشورك بينهم بالوعيد على مَنْ عبدَهم عندما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ ﴿مَا صَرَّيْوَهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾: ما جعلوه؛ أي: المثل لك إلا خصومة بالباطل؛ لعلمهم: أن (ما) لغير العاقل؛ فلا يتناول عيسى عليه السلام ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾: أي: شديدو الخصومة ووجه حججهم الظالمة، أنهم قالوا: قد تقرر عندنا وعندك يا محمد: أن عيسى من عباد الله المقربين، الذين لهم العاقبة الحسنة، فلم سويت بينه وبينها في النهي عن عبادة الجميع؟ فلولا أن حجتك باطلة لم تتناقض. وهي من أضعف الشبه وأبطلها؛ فإن تسوية الله بين النهي عن عبادة المسيح وبين النهي عن عبادة الأصنام؛ لأن العبادة حق لله تعالى، لا يستحقها أحد من الخلق، لا الملائكة المقربون، ولا الأنبياء المرسلون، ولا من سواهم من الخلق، فأى شبهة في تسوية النهي عن عبادة عيسى وغيره؟

عقولهم بما أبدى لهم من هذه الشبه، التي لا تسمن ولا تغني من جوع، ولا حقيقة تحتها، وليست دليلاً على حق، ولا على باطل، ولا تروج إلا على ضعفاء العقول ﴿إِنَّهُمْ كَاثِرٌ قَوْمًا فَنَقِيقٌ﴾ فبسبب فسقهم؛ قبيض لهم فرعون، يزين لهم الشرك والشر.

(٥٥) ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا﴾ أغضبونا بأفعالهم ﴿أَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فرعون وهامان وجنودهما.

(٥٦) ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ ليعتبر بهم المعبرون، ويتعظ بأحوالهم المتعظون.

(٥٧) ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ أي: نهى عن عبادته، وجعلت عبادته بمنزلة عبادة الأصنام والأنداد ﴿إِذَا قَوْمُكَ﴾ المكذبون لك ﴿مِنْهُ﴾ من أجل هذا المثل المضروب ﴿يَصِدُّونَ﴾ يستلجون في خصومتهم لك، ويصيحون، ويزعمون أنهم قد غلبوا في حجتهم وأفلجوا.

(٥٨) ﴿وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ يعني عيسى،

(٥٧) أخرج الترمذي وابن ماجه وأحمد بإسناد حسن عن أبي إمامة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه؛ إلا أورثوا الجدل» ثم تلا هذه الآية: ﴿مَا صَرَّيْوَهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾.

(٥٧ - ٦١) أخرج أحمد والطبراني وابن أبي حاتم وابن حبان والطحاوي في «مشكل الآثار» بإسناد حسن عن ابن عباس: قال: لقد علمت آية من القرآن ما سألني عنها رجل قط، فما أدري أعلمها الناس؛ فلم يسألوا عنها، أم لم يفتنوا لها؛ فیسألوا عنها؟ ثم طفق يحدثنا، فلما قام؛ فلا ونا أن لا نكون سألناه عنها، فقلت: أنا لها إذا راح غداً، فلما راح الغد؛ قلت: يا ابن عباس، ذكرت أمس أن آية من القرآن لم يسألك عنها رجل قط، فلا تدري أعلمها الناس؛ فلم يسألوا عنها، أم لم يفتنوا لها؟ فقلت: أخبرني عنها، وعن اللاتي قرأت قبلها. قال: نعم إن رسول الله ﷺ قال لقريش: «يا معشر قريش إنه ليس أحد يُعبد من دون الله فيه خير» وقد علمت قريش أن النصارى تعبد عيسى ابن مريم وما تقول في محمد. فقالوا: يا محمد، أأنت تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً من عباد الله صالحاً، فلئن كنت صادقاً؛ فإن آلهتهم لكما تقولون. قال: فأنزل الله ﷻ ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قال: قلت: ما يصدون؟ قال: يَصْحُون ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاثِرٌ لِلنَّاسَةِ﴾ قال: هو خروج عيسى ابن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة.

في آخر الزمان، ويكون نزوله علامة من علامات الساعة ﴿فَلَا تَمَرُّكَ بِهَا﴾ لا تشكن في قيام الساعة؛ فإن الشك فيها كفر ﴿وَأَتَّبِعُونَ﴾ بامثال ما أمرتكم، واجتناب ما نهيتكم ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ موصل إلى الله عز وجل.

(٦٢) ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ عما أمركم الله به؛ ﴿إِنَّهُ﴾ أي: فإن الشيطان ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ حريص على إغوائكم، باذل جهده في ذلك ﴿مُتَّبِعٌ﴾ قد أبان لكم عداوته.

(٦٣) ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الدالة على صدق نبوته وصحة ما جاءهم به: من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، ونحو ذلك من الآيات ﴿قَالَ﴾ لبني إسرائيل: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾ النبوة والعلم، بما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي ﴿وَلَا يَبَيِّنُ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ﴾ أبين لكم صوابه وجوابه، فيزول عنكم بذلك اللبس، فجاء عليه السلام، مكملًا ومتممًا لشريعة موسى عليه السلام، ولأحكام التوراة، وأتى ببعض التسهيلات الموجبة للانقياد له، وقبول ما جاءهم به ﴿فَأَتَقُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا﴾ اعبدوا الله وحده لا شريك له، وامثلوا أمره، واجتنبوا نهيه، وآمنوا بي وصدقوني وأطيعوا.

(٦٤) ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ ففيه الإقرار بتوحيد الربوبية، بأن الله هو المربي جميع خلقه بأنواع النعم الظاهرة والباطنة، والإقرار بتوحيد العبودية، بالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وإخبار عيسى عليه السلام أنه عبد من عباد الله.

وَأِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمَرُّكَ بِهَا وَأَتَّبِعُونَ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ٦٢ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ٦٣ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلَا يَبَيِّنُ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا ٦٤ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ٦٥ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ إِلَهِمْ ٦٦ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا لِّلسَّاعَةِ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٦٧ الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ٦٨ يَتَّبِعُونَ لِحَقِّهِمْ عَلَيْكَ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ٦٩ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ٧٠ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ٧١ طَافَ عَلَيْهِمْ بِصَفَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَكَوَابٍ ٧٢ وَفِيهَا مَا اشْتَهَتْهُ الْأَنْفُسُ وَتَكُنَّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا تَخِلَّدُونَ ٧٣ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٧٤ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ٧٥

(٥٩) وإنما هو كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ بالنبوة والحكمة، والعلم والعمل ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ يعرفون به قدرة الله تعالى على إيجاده من دون أب.

(٦٠) ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ﴾ لجعلنا بدلکم ملائكة يخلقونكم في الأرض، ويكونون في الأرض حتى نرسل إليهم ملائكة من جنسهم، وأما أنتم يا معشر البشر، فلا تطيقون أن ترسل إليكم الملائكة، فمن رحمة الله بكم أن أرسل إليكم رسلاً من جنسكم، تتمكنون من الأخذ عنهم.

(٦١) ﴿وَأِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ﴾ وإن عيسى عليه السلام دليل على الساعة، وأن القادر على إيجاده من أم بلا أب قادر على بعث الموتى من قبورهم، أو وإن عيسى عليه السلام؛ سينزل

التصديق إلا به من العلم بمعناها والعمل بمقتضاها ﴿وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ لله منقادين له في جميع أحوالهم، فجمعوا بين الانصاف بعمل الظاهر والباطن.

(٧٠) ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ التي هي دار القرار ﴿أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ من كان على مثل عملكم من كل مقارن لكم: من زوجة وولد وصاحب وغيرهم ﴿تُحَبَّرُونَ﴾ تنعمون وتكرمون.

(٧١) ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ تدور عليهم خدامهم من الولدان المخلدين بطعامهم، بأحسن الأواني وأفخرها؛ وهي: صحاف الذهب، وشرابهم، بالطف الأواني؛ وهي: الأكواب التي لا عرى لها، وهي من أصفى الأواني، من فضة، أعظم من صفاء القوارير.

﴿وَفِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ وهذا لفظ جامع، يأتي على كل نعيم وفرح، وقرة عين، وسرور قلب ﴿وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وهذا هو تمام نعيم أهل الجنة، وهو الخلد الدائم فيها.

(٧٢) ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ﴾ الموصوفة بأكمل الصفات، هي ﴿الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أورثكم الله إياها بأعمالكم، وجعلها من فضله جزاء لها، وأودع فيها من رحمته ما أودع.

(٦٥) ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ﴾ المتحزبون على التكذيب ﴿مَنْ بَيْنَهُمْ﴾ كل قال بعبسى ﷺ مقالة باطلة، ورد ما جاء به، إلا من هدى الله من المؤمنين، الذين شهدوا له بالرسالة، وصدقوا بكل ما جاء به، وقالوا: إنه عبد الله ورسوله ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ إِلِيمٍ﴾ ما أشد حزن الظالمين، وما أعظم خسارهم في ذلك اليوم.

(٦٦) ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ يقول تعالى: ما ينتظر المكذبون، وهل يتوقعون ﴿إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ غافلون عنها غير مستعدين لها.

(٦٧) ﴿الْأَخِلَاءُ﴾ المتخالين على الكفر والتكذيب ومعصية الله ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ لأن خلتهم ومحبتهم في الدنيا لغير الله، فانقلبت يوم القيامة عداوة ﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ للشرك والمعاصي؛ فإن محبتهم تدوم وتتصل، بدوام من كانت المحبة لأجله.

(٦٨) ثم ذكر ثواب المتقين، وأن الله تعالى يناديهم يوم القيامة بما يسر قلوبهم، ويذهب عنهم كل آفة وشر؛ فيقول: ﴿يَعْبَادُ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ لا خوف يلحقكم فيما تستقبلونه من الأمور ﴿وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ ولا حزن يصيبكم فيما مضى منها.

(٦٩) ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا﴾ وصفهم الإيمان بآيات الله، وذلك ليشمل التصديق بها، وما لا يتم

(٧٢) أخرج ابن أبي حاتم - واللفظ له - وأحمد والحاكم بإسناد حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل النار يرى منزله في الجنة حسرة، فيقول: ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: ٥٧]، وكل أهل الجنة يرى منزله في النار، فيقول: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣] فيكون له شكراً». قال: وقال رسول الله ﷺ: «ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار، فالكاfer يرث المؤمن منزله في النار، والمؤمن يرث الكافر منزله في الجنة؛ وذلك قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾».

وهذا العذاب العظيم بما قدمت أيديهم، وبما ظلموا به أنفسهم، والله لم يظلمهم، ولم يعاقبهم بلا ذنب ولا جرم.

(٧٧) ﴿وَنَادَوْا﴾ وهم في النار، لعلهم يحصل لهم استراحة: ﴿يَمْلِكُ﴾ وهو خازن النار ﴿لِيَقْضِيَ عَيْنَا رَبُّكَ﴾ ليمتنا فنستريح، فإننا في غم شديد، وعذاب غليظ، لا صبر لنا عليه ولا جلد. ف﴿قَالَ﴾ لهم مالك خازن النار - حين طلبوا منه أن يدعو الله لهم أن يقضي عليهم -: ﴿إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ﴾ مقيمون فيها.

(٧٨) ﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ﴾ الذي يوجب عليكم أن تتبعوه، فلو تبعتموه؛ لفزتم وسعدتم ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ فلذلك شقيتم شقاوة لا سعادة بعدها.

(٧٩) ﴿أَمْ أَمْرُؤٌ﴾ أي: أبرم هؤلاء المكذبون بالحق المعاندون له ﴿أَمْرٌ﴾ كادوا كيدها، ومكروا للحق ولمن جاء بالحق؛ ليدحضوه بما مؤهوا من الباطل المزخرف المزوق ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ محكمون أمراً، ومدبرون تدبيراً يعلو تدبيرهم، وينقضه ويبطله.

(٨٠) ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ﴾ بجهلهم وظلمهم ﴿أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾ الذي لم يتكلموا به، بل هو سر في قلوبهم ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ كلامهم الخفي الذي يتناجون به؛ أي: فلذلك أقدموا على المعاصي، وظنوا أنها لا تبتة لها، ولا مجازاة على ما خفي منها. فرد الله عليهم بقوله: ﴿بَلَى﴾ إنا نعلم سرهم

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّخِلٍّ ﴿٧٦﴾ لَا يَفْقَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْسُوتُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَنَنْتُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٤﴾ وَنَادَوْا بِمِلْكِكَ لْيَقْضِ عَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ ﴿٧٣﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴿٧٢﴾ أَمْ أَمْرُؤٌ مُّزْمِنٌ ﴿٧١﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَنَ رَبِّيَ الْأَعْلَىٰ وَرَبِّيَ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرَهُمْ مَحْضُوحًا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ الْيَوْمُ الَّذِي يَوْمَعُدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَبَارَكَ الَّذِي لَمْ يَكُن لَّكَ السَّجُودَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَىٰ رَبِّهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلَ لَهُ رَبِّ إِنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يَذْكُرُونَ ﴿٨٨﴾ فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمْ وَسَلِّمْ فَيَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

(٧٣) ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ من جميع الأنواع ﴿مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ مما تتخيرون من تلك الفواكه الشهية، والثمار اللذيذة تأكلون.

(٧٤) ولما ذكر نعيم الجنة عقبه بذكر عذاب جهنم؛ فقال: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾ الذين أجرموا بكفرهم وتكذيبهم ﴿فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ﴾ منغمرون فيه، محيط بهم العذاب من كل جانب ﴿خَالِدُونَ﴾ فيه، لا يخرجون منه أبداً.

(٧٥) ﴿لَا يَفْقَرُ عَنْهُمْ﴾ العذاب ساعة؛ بإزالتها، ولا بتهوين عذابه ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْسُوتُونَ﴾ آيسون من كل خير، غير راجين للفرج.

(٧٦) ﴿وَمَا ظَنَنْتُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾

(٧٧) أخرج البخاري ومسلم عن صفوان بن يعلى عن أبيه رضي الله عنه : قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ على المنبر: ﴿وَنَادَوْا بِمِلْكِكَ لِيَقْضِيَ عَيْنَا رَبُّكَ﴾.

وبهذا؛ فالآية لا حجة فيها لدعاة الحلول والقائلين بوحدة الوجود، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

(٨٥) ﴿وَبَارِكْ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ تبارك بمعنى: تعالى وتعظم، وكثر خيره، واتسعت صفاته، وعظم ملكه؛ ولهذا ذكر سعة ملكه للسموات والأرض وما بينهما ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ لا يعلم متى تجيء الساعة إلا هو، ومن تمام ملكه وسعته: أنه مالك الدنيا والآخرة ﴿وَالِيَهُ تُرْجَعُونَ﴾ في الآخرة؛ فيحكم بينكم بحكمه العدل.

(٨٦) ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ﴾ كل من دعي من دون الله من الأنبياء والملائكة وغيرهم لا يملكون الشفاعة، ولا يشفعون إلا بإذن الله، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ نطق بلسانه، مقراً بقلبه، عالماً بما شهد به، ويشترط أن تكون شهادته بالحق، وهو الشهادة لله تعالى بالوحدانية، ولرسله بالنبوة والرسالة.

(٨٧) ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ﴾ ولئن سألت المشركين عن توحيد الربوبية، ومن هو الخالق؛ ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ لأقروا أنه الله وحده لا شريك له ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ فكيف يصرفون عن عبادة الله والإخلاص له وحده؟!

(٨٨) ﴿وَقِيلَ لَهُ رَبِّ إِنَّا هَنَاءٌ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ هذا معطوف على قوله: ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: وعنده علم قيله؛ أي: الرسول ﷺ، شاكياً لربه تكذيب قومه متحزناً على ذلك، متحسراً على عدم إيمانهم، فالله تعالى عالم بهذه الحال، قادر على معالجتهم بالعقوبة،

ونجواهم ﴿وَرُسُلَنَا﴾ الملائكة الكرام ﴿لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ كل ما عملوه، وسيحفظ ذلك عليهم حتى يردوا القيامة، فيجدوا ما عملوا حاضراً، ولا يظلم ربك أحداً.

(٨٩) ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ الْكَرِيمُ لِلَّذِينَ جَعَلُوا لِلَّهِ وَلِداً: ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ لذلك الولد؛ لأنه جزء من والده، وأنا أول الخلق انقياداً للأمر المحبوبة لله، ولكني أول المنكرين لذلك، وأشدّهم له نفياً.

(٩٠) ﴿سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من الشريك والظهير والعيون والولد، وغير ذلك؛ مما نسبته إليه المشركون.

(٩١) ﴿فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ يخوضوا بالباطل، ويلعبوا في دنياهم ﴿حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ وهو يوم القيامة؛ فسيعلمون فيه ماذا حصلوا، وما حصلوا عليه من الشقاء الدائم، والعذاب المستمر.

(٩٢) ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ يخبر تعالى: أنه وحده المألوه المعبود في السماوات والأرض؛ فأهل السماوات كلهم والمؤمنون من أهل الأرض يعبدونه ويعظمونه ويخضعون لجلاله ويفتقرون لكماله. وأما هو؛ فهو فوق عرشه بذاته، بائن من خلقه، متوحد بجلاله، متمجد بكماله.

﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ الذي أحكم ما خلقه، وأتقن ما شرعه، فما خلق شيئاً إلا لحكمة، ولا شرع شيئاً إلا لحكمة، وحكمه القدري والشرعي والجزائي مشتمل على الحكمة ﴿الْعَلِيمُ﴾ بكل شيء، يعلم السر وأخفى، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في العالم العلوي والسفلي، ولا أصغر منها ولا أكبر.

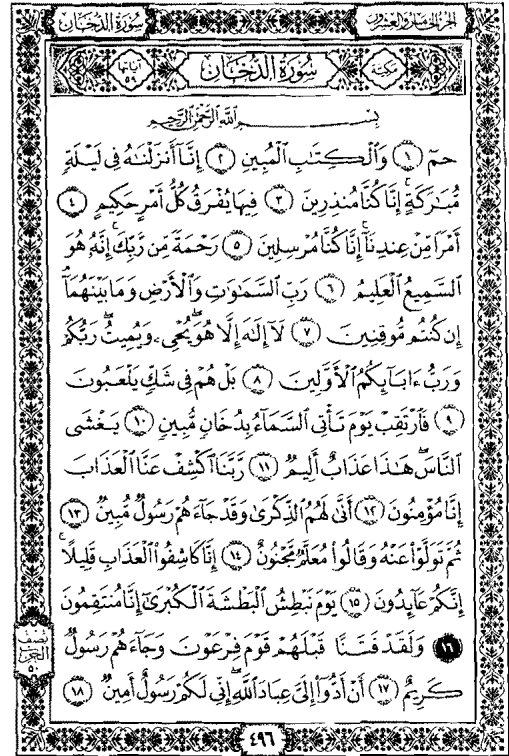
في فواتح سورة البقرة.

(٢) ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ هذا قسم بالقرآن على القرآن، فأقسم بالكتاب المبين لكل ما يحتاج إلى بيانه، أما جواب القسم، فقوله:

(٣) ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ﴾ أي: كثيرة الخير والبركة، وهي: ليلة القدر ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ معلمين الناس ما ينفعهم ويضرهم شرعاً؛ لتقوم حجة الله على عباده ﴿فِيهَا﴾ في تلك الليلة الفاضلة التي نزل فيها القرآن ﴿يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ قَدَرِي وَشَرْعِي حُكْمَ اللَّهِ بِهِ، وهذه الكتابة والفرقان، الذي يكون في ليلة القدر، أحد الكتابات التي تكتب وتميز؛ فتطابق الكتاب الأول الذي كتب الله به مقادير الخلائق وآجالهم وأرزاقهم وأعمالهم وأحوالهم.

(٥) ﴿أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا﴾ هذا الأمر الحكيم أمر صادر من عندنا ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ للرسول، ومنزليين للكتب، والرسول تبلغ أوامر المرسل، وتخبر بأفكاره.

(٦) ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ إن إرسال الرسل، وإنزال الكتب، التي أفضلها القرآن، رحمة من رب العباد بالعباد، فما رحم الله عباده برحمة أجل من هدايتهم بالكتب والرسول، وكل خير ينالونه في الدنيا والآخرة؛ فإنه من أجل ذلك وسببه ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ يسمع جميع الأصوات ﴿الْعَلِيمُ﴾ ويعلم جميع الأمور، الظاهرة والباطنة، وقد علم تعالى ضرورة العباد إلى رسله وكتبه؛ فرحمهم



ولكنه تعالى حليم، يمهّل العباد ويستأني بهم، لعلهم يتوبون ويرجعون ولهذا قال: (٨٩) ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ﴾ اصفح عنهم ما يأتيك من أذيتهم القولية والفعلية، واعف عنهم، ولا بيدرك منك لهم إلا السلام الذي يقابل به أولو الأبواب والبصائر الجاهلين ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ غِبْ ذنوبهم، وعاقبة جرمهم.

سورة الدخان مكية

(١) ﴿حَمِّ﴾ سبق الكلام على الحروف المقطعة

(١) في «الصحيحين» في حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال لابن صياد: «إني خيأت لك خيناً». قال: هو الدُّخْ؛ فقال ﷺ: «أخسأ، فلن تُعَدَّوْ قَدْرُكَ». قال: وخبأ له رسول الله ﷺ: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُبِينٍ﴾.

بذلك وَمَنْ عَلَيْهِم .

(٧) ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ خالق ذلك ومدبره والمتصرف فيه بما شاء ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ عالمين بذلك علماً مفيداً لليقين، فاعلموا أن الرب للمخلوقات هو إلهها الحق .

(٨) ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود بحق إلا وجهه ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ هو المتصرف وحده بالإحياء والإماتة، وسيجمعكم بعد موتكم؛ فيجزئكم بعملكم: إن خيراً فخير، وإن شراً؛ فشر ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾ رب الأولين والآخرين مربيهم بالنعم، الدافع عنهم النقم .

(٩) ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ أي: منغمرون في الشكوك والشبهات، غافلون عما خلقوا له، قد اشتغلوا باللعب الباطل، الذي لا يجدي عليهم إلا الضرر .

(١٠) ﴿فَارْتَقِبْ﴾ انتظر فيهم العذاب؛ فإنه قد قرب، وأن أوانه ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ بين واضح، يراه كل أحد .

وقد اختلف السلف في حقيقة هذا الدخان: فقالت طائفة: إن الدخان مضي، وهذا قول عبد الله بن مسعود، ومجاهد، وإبراهيم النخعي، وأبي العالية، والضحاك. واختاره ابن جرير. وقالت أخرى: لم يمض الدخان بعد، بل هو من أمارات الساعة الكبرى. وهذا قول حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس، ووافقه جماهير الصحابة والتابعين .

والمختار: أن الدخان من الآيات الكبرى لمجيء الساعة؛ ففيه أحاديث مرفوعة في الصحاح والحسان وغيرهما، ويؤيده ظاهر القرآن . ومن المعلوم: أن الجمع بين قولي السلف ممكن، فالدخان الذي مضى غير الدخان الذي سيأتي قبيل الساعة، والله أعلم .

(١١) ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ يعمهم ذلك الدخان، ويقال لهم: ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

(١٢) وقوله: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ أي: يقول الكافرون إذا عابنوا عذاب

(١٠ ١٦) في «الصحيحين» واللفظ لمسلم عن مسروق قال: جاء إلى عبد الله رجل؛ فقال: تركت في المسجد رجلاً يفسر القرآن برأيه، يفسر هذه الآية ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ قال: يأتي الناس يوم القيامة دخان؛ فيأخذ بأنفاسهم، حتى يأخذهم منه كهية الزكام، فقال عبد الله من علم علماً؛ فليقل به، ومن لم يعلم؛ فليقل: الله أعلم، فإن من فقه الرجل أن يقول لما لا علم له به: الله أعلم. إنما كان هذا: أن قريشاً لما استعصت على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم قحط وجهد، حتى جعل الرجل ينظر إلى السماء؛ فيرى بينه وبينها كهية الدخان من الجهد، وحتى أكلوا العظام، فأتى النبي ﷺ رجل فقال: يا رسول الله، استغفر الله لمضر؛ فإنهم قد هلكوا. فقال: «المضر؟! إنك لجريء». قال فدعا الله لهم؛ فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ . قال: فمطروا، فلما أصابتهم الرفاهية قال: عادوا إلى ما كانوا عليه قال: فأنزل الله ﷻ: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إلى قوله: ﴿يَوْمَ تَبِطُشَ الْبَطْشَةُ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾، قال: يعني: يوم بدر .

وفي «صحيح مسلم» من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري رضى الله عنه؛ قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة، ونحن نتذاكر الساعة، فقال: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى ابن مريم، والدجال، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس - أو: تحشر الناس - تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا» .

ويستحي نساءهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا عَلِيًّا﴾ مستكبراً في الأرض بغير الحق ﴿مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ المتجاوزين لحدود الله، المتجربين على محارمه.

(٣٢) ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ﴾ أي: اصطفيناهم وانتقيناهم ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ منا بهم وباستحقاقهم لذلك الفضل ﴿عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ عالمي زمانهم، ومن قبلهم وبعدهم، حتى أتى الله بأمة محمد ﷺ؛ ففضلوا العالمين كلهم، وجعلهم الله خير أمة أخرجت للناس، وامتن عليهم بما لم يمتن به على غيرهم.

(٣٣) ﴿وَأَتَيْنَاهُمْ﴾ أي: بني إسرائيل ﴿بِالْآيَاتِ﴾ الباهرة، والمعجزات الظاهرة ﴿مَا فِيهِ بَلَدٌ مِّثْلُ﴾ إحسان كثير ظاهر منا عليهم، وحجة عليهم على صحة ما جاءهم به نبيهم موسى ﷺ.

(٣٤) ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ﴾ المستعدين للبعث والنشور:

(٣٥) ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ ما هي إلا الحياة الدنيا، فلا بعث ولا نشور، ولا جنة ولا نار.

(٣٦) ﴿فَأَنذَرْنَا بَنِيَّانَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهذا من اقتراح الجهلة المعاندين في مكان سحيق، فأئى ملازمة بين صدق الرسول ﷺ وأنه متوقف على الإتيان بآبائهم؟ فإن الآيات قد قامت على صدق ما جاءهم به، وتواترت تواتراً عظيماً من كل وجه.

(٣٧) ﴿أَهُمْ خَيْرٌ؟﴾ أي: هؤلاء المخاطبون ﴿أَمْ

يضرِب البحر، فضربه؛ فصار اثني عشر طريقاً، وصار الماء من بين تلك الطرق كالجبال العظيمة؛ فسلكه موسى وقومه، فلما خرجوا منه، أمره الله أن يتركه رهواً؛ أي: بحاله؛ ليسلكه فرعون وجنوده ﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ﴾ فلما تكامل قوم موسى خارجين منه، وقوم فرعون داخلين فيه؛ أمره الله تعالى أن يلتطم عليهم؛ فغرقوا عن آخرهم، وأورثه الله بني إسرائيل الذين كانوا مستعبدين لهم.

(٢٥) ولهذا قال: ﴿كَمْ تَرَكُوا﴾ بعد الغرق ﴿مِن جَنَّاتٍ﴾ بساتين وأشجار ﴿وَعُيُونٍ﴾ المراد بها الأنهار والآبار.

(٢٦) ﴿وَزُرُوعٍ﴾ فما هو دون الأشجار ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ المساكن الأنيقة والأماكن الحسنة.

(٢٧) ﴿وَنَعْمَةٍ﴾ عيشة لينة، ومتعة حسنة ﴿كَأَنَّهُمْ فِيهَا فَكَّاهِينَ﴾ كانوا يتفكهون فيها، فيأكلون ما يشاءون، ويلبسون ما أحبوا، مع الأموال والحكم في البلاد.

(٢٨) ﴿كَذَلِكَ﴾ أفعل بمن عصاني ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا﴾ أي: هذه النعمة المذكورة ﴿قَوْمًا آخَرِينَ﴾ أي: بني إسرائيل.

(٢٩) ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ لم يحزن عليهم، ولم يؤس على فراقهم ﴿وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ ممهلين عن العقوبة.

(٣٠) ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا لِنِّىٰ إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ أَلْمِهِينَ﴾ الذي كانوا فيه.

(٣١) ﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾ إذ يذبح أبناؤهم،

(٣٧) أخرج أحمد وغيره من حديث سهل بن سعد الساعدي الصحيح لغيره عن رسول الله ﷺ قال: «لا تسبوا تبعاً؛ فإنه قد كان أسلم».

وأخرج الطبري والحاكم بإسناد صحيح عن عائشة قالت: «لا تسبوا تبعاً؛ فإنه كان رجلاً صالحاً».

﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلذلك لم يتفكروا في خلق السماوات والأرض.

(٤٠) ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ وهو يوم القيامة الذي يفصل الله به بين الأولين والآخرين، وبين كل مختلفين ﴿مِيقَتُهُمْ﴾ الخلاق ﴿أَجْمَعِينَ﴾.

(٤١) ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ كلهم سيجمعهم الله فيه، ويحضرهم، ويحضر أعمالهم، ويكون الجزاء عليها، ولا ينفع مولى عن مولى شيئاً. ولا قريب عن قريبه، ولا صديق عن صديقه ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يمنعون من عذاب الله ﴿لأن أحدًا من الخلق لا يملك من الأمر شيئاً﴾.

(٤٢) ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾ من المؤمنين؛ فإنه يشفع بعضهم ببعض ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي: في انتقامه من أعدائه ﴿الرَّحِيمُ﴾ بأوليائه، وأهل طاعته.

(٤٣) لما ذكر يوم القيامة، وأنه يفصل بين عبادته فيه، ذكر افتراقهم إلى فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير، وهم: الآثمون بعمل الكفر والمعاصي، ثم ذكر طعامهم، فقال: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ﴾ شر الأشجار وأفظعها.

(٤٤) ﴿طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ ذي الإثم.

(٤٥) وأن طعامها ﴿كَالْمُهْلِ﴾ أي: كالصديد المنتن خبيث الريح والطعم ﴿يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ شديد الحرارة يغلي في بطونهم.

(٤٦) ﴿كَغَلِي الْحَمِيمِ﴾ كالماء إذا اشتد غليانه.

(٤٧) ﴿خَذُوهُ﴾ يقال للزبانية: خذوا الكافر ﴿فَاعْتَلُوهُ﴾ سوقوه بعنف، سحباً ودفعاً على ظهره ﴿إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ وسطها.

(٤٨) ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابٍ

سورة الدخان
إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلِي الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خَذُوهُ فَاعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَنَبِّلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَلِكَ وَرَوْنَتْهُمْ يَحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْخُلُونَ فِيهَا بِكُلِّ فُكْهَةٍ وَأَمِينٍ ﴿٥٥﴾ لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا الْمَوْتُ إِلَّا الْمَوْتَةُ الْأُولَى وَوَفَّاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضَلَا مِنْ رَيْبِكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ إِنَّمَا يَسْتَرْزَنُ يُلَسَّ أَفْكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَأَرْقُبْ إِنْهُمْ مُرَقِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴿٤٨﴾

قَوْمٌ تُبِيعَ﴾ وهو تبع الحميري، وكان ملكه عظيماً، ودان بدين الإسلام.

﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ فإنهم، ليسوا خيراً منهم، وقد اشتركوا في الإجماع؛ فليستوقعوا من الهلاك ما أصاب إخوانهم المجرمين.

(٣٨) ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينِينَ﴾ يخبر تعالى عن كمال قدرته وتمام حكمته، وأنه ما خلق السماوات والأرض لعباً ولا لهواً أو سدى من غير فائدة.

(٣٩) ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وأنه ما خلقهما إلا بالحق؛ أي: نفس خلقهما بالحق، وخلقهما مشتمل على الحق، وأنه أوجدهما ليعبده وحده لا شريك له، وليأمر العباد وينهاهم، ويثيبهم ويعاقبهم

يوجد له اسم ولا نظير في الدنيا، فمهما طلبوه من أنواع الفاكهة وأجناسها أحضر لهم في الحال، من غير تعب ولا كلفة ﴿ءَامِنِينَ﴾ من انقطاع ذلك، وآمنين من مضرتهم، وآمنين من كل مكدر، وآمنين من الخروج منها، والموت.

(٥٦) ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ ليس فيها موت بالكلية، ولو كان فيها موت يستثنى، لم يستثن الموتة الأولى، التي هي الموتة في الدنيا فتم لهم كل محبوب مطلوب، ﴿وَوَقَّعَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ مع هذا النعيم المقيم قد وقاهم وسلمهم ونجاهم وزحزحهم من العذاب الأليم، في دركات الجحيم، فحصل لهم المطلوب، ونجاهم من المرهوب، ولهذا قال:

(٥٧) ﴿فَضَلَّ مِنْ رَبِّكَ﴾ حصول النعيم، واندفاع العذاب عنهم، من فضل الله عليهم وكرمه ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وأي فوز أعظم من نيل رضوان الله وجنته، والسلامة من عذابه وسخطه؟ (٥٨) ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ﴾ أي: القرآن ﴿بِلِسَانِكَ﴾ سهلناه بلسانك الذي هو أفصح اللسان على الإطلاق وأجلها؛ فتيسر به لفظه، وتيسر معناه ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ما فيه نفعهم في فعلونه، وما فيه ضررهم في تركونه.

(٥٩) ﴿فَارْتَقِبْ﴾ انتظر ما وعدك ربك من الخير والنصر ﴿إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ ما يحل بهم من العذاب.

الْحَمِيمُ وهذا كقوله تعالى: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ ﴿يُصْهَرُ بِهِ﴾ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ [الحج ١٩-٢٠].

(٤٩) ويقال للمعذب: ﴿ذُقْ﴾ هذا العذاب الأليم، والعقاب الوخيم ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْقَرِيرُ﴾ بزعمك أنك عزيز ستمتنع من عذاب الله، وأنت كريم على الله لا يصيبك بعذاب، فالיום تبين لك أنك أنت الذليل المهان الخسيس. (٥٠) ﴿إِنَّ هَذَا﴾ العذاب العظيم ﴿مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ تشكون؛ فالآن صار عندكم حق اليقين. (٥١) ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ أي: إن الذين اتقوا ربهم في الدنيا، فآمنوا وعملوا الصالحات، بعد اجتناب الشرك والمعاصي، في مجلس آمنين، لا يلحقهم فيه خوف بحال.

(٥٢) ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ في ظل ظليل، من كثرة الأشجار والفواكه ﴿وَعُيُونٍ﴾ سارحة تجري من تحتهم الأنهار، يفجرونها تفجيراً في جنات النعيم. (٥٣) ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ أي: غليظ الحرير ورقيقه، مما تشتهيهم أنفسهم ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ في قلوبهم ووجوههم، في كمال الراحة والطمأنينة والمحبة والعشرة الحسنة والآداب المستحسنة.

(٥٤) ﴿كَذَلِكَ﴾ النعيم التام والسرور الكامل ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ﴾ نساء جميلات ﴿عَيْنَ﴾ ضخام الأعين، حسانها.

(٥٥) ﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾ أي: الجنة ﴿يَكُلُّ فَاكِهَةً﴾ مما له اسم في الدنيا، ومما لا

(٥٦) أخرج مسلم عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما؛ قالوا: قال رسول الله ﷺ: «يقال لأهل الجنة: إن لكم أن تصحوا؛ فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا؛ فلا تموتوا أبداً، وأن لكم أن تنعموا؛ فلا تبأسوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا؛ فلا تنهرموا أبداً».

يتفكرون بها وينتفعون ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالله وملائكته ورسله، إيماناً تاماً، وصل بهم إلى درجة اليقين، فزكى منهم العقول، وازدادت به معارفهم وعلومهم.

(٤) ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يعلمون أنه لا إله غيره.

(٥) ﴿وَاخْتَلَفِ أَلِيلٌ وَالنَّهَارُ﴾ في تعاقبهما دائبين لا يفتران، هذا بظلامه وهذا بضائه ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ﴾ أي: وما أنزل الله من السحاب من المطر وقت الحاجة إليه وسماه رزقاً، لأن به يحصل الرزق ﴿فَلَاخِجًا بِهِ الْأَرْضُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بعدما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء ﴿وَصَرِيفَ الرِّيحِ﴾ جنوباً وشمالاً، برية وبحرية، ومنها ما هو للمطر، ومنها ما هو للقاح ﴿ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ وقال سبحانه وتعالى أولاً: ﴿لَا يَأْتِيَنَّ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ثم ﴿يُوقِنُونَ﴾ ثم ﴿يَعْقِلُونَ﴾ وهو ترق من حال شريف إلى ما هو أشرف منه وأعلى.

(٦) ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ﴾ يعني: القرآن بما فيه من الحجج والبيانات ﴿تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ متضمنة الحق، فإذا كانوا لا يؤمنون بها، ولا ينقادون لها ﴿فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتُهُ يُؤْمِنُونَ﴾.

(٧) ﴿وَبَلِّ لِكُلِّ آفَاكٍ أَنِيرِ﴾ كذاب في مقاله أثيم في فعاله.

(٨) ﴿يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنْزِلُ عَلَيْهِ﴾ تقرأ عليه ﴿ثُمَّ يُصْرِّ﴾ على كفره وجحوده ؛ استكباراً وعناداً ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ كأنه ما سمعها ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أخبره أن له عند الله تعالى يوم القيامة عذاباً أليماً موجعاً



سورة الجاثية مكية

(١) ﴿حَمِّ﴾ سبق الكلام على الحروف المقطعة في فواتح سورة البقرة.

(٢) يخبر تعالى خبراً يتضمن الأمر بتعظيم القرآن والاعتناء به، وأنه ﴿تَنْزِيلٌ﴾ نزل به الروح الأمين ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ المألوه المعبود بحق؛ لما اتصف به من صفات الكمال، وانفرد به من النعم ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الذي له العزة الكاملة، والحكمة التامة.

(٣) ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّمُؤْمِنِينَ﴾ يرشد تعالى خلقه إلى التفكير في آلائه ونعمه وقدرته العظيمة، التي خلق بها السماوات والأرض وما فيها من المخلوقات المختلفة: من الملائكة والإنس، والجن، والدواب، والطيور، وغيرها، وما في البحر من الأصناف المتنوعة ﴿لَآيَاتٍ﴾

(٩) ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا أَخَذَهَا هُزُوًا﴾ إذا حفظ شيئاً من القرآن كفر به واتخذها سخرياً ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: في مقابلة ما استهان بالقرآن واستهزأ به.

(١٠) ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ تكفي في عقوبتهم البليغة.

﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا﴾ من الأموال ﴿وَلَا مَا أَتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولِيَاءَ﴾ يستنصرون بهم، فخذلهم أحوج ما كانوا إليهم لو نفعوا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يقادر قدره، وكيف والعظيم سبحانه وصفه بأنه عظيم.

(١١) ﴿هَذَا هُدًى﴾ وهذا وصف عام لجميع القرآن؛ فإنه يهدي إلى معرفة الله تعالى، ويهدي إلى معرفة رسله، ويهدي إلى الأعمال الصالحة، ويدعو إليها، ويبين الأعمال السيئة، وينهى عنها، ويهدي إلى بيان الجزاء على الأعمال ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَابِعْهُمْ رَيْبُهُمْ﴾ الواضحة القاطعة التي لا يكفر بها إلا من اشتد ظلمه وتضاعف طغيانه ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رَجْزٍ أَلِيمٍ﴾ وهو المؤلم الموجه.

(١٢) ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ يخبر تعالى بفضلله على عباده وإحسانه إليهم بتسخير البحر لسير المراكب والسفن بأمره وتيسيره ﴿وَلِتَنَافُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ بأنواع التجارات والمكاسب، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله تعالى؛ فإنكم إذا شكرتموه زادكم من نعمه، وأثابكم على شكركم أجراً جزيلاً.

(١٣) ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ من فضله وإحسانه، وهذا شامل لأجرام السماوات والأرض، ولِمَا أودع الله

قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَلِنَفْسِهِ إِنَّا إِلَىٰ رَيْبِكُمْ رَاجِعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَاهُمْ بَيْنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا بَعْدَ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا يَنْهَوْنَ رَبَكَ بِقُضَىٰ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِّ ذِي الْأَمْرِ فَاتَّعَاهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَنُفَعُوا غَنَافَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَذَا صَبْرٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ أَجْرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً تَحِيَّاهُمْ وَمِمَّا هُمْ بِسَاءٍ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ الْخَلْقَ وَلِيُجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

فيهما من الشمس والقمر، والكواكب الثوابت والسيارات، وأنواع الحيوانات، وأصناف الأشجار والثمرات، وأجناس المعادن، وغير ذلك مما هو معد لمصالح بني آدم، فهذا يوجب عليهم أن يبذلوا غاية جهدهم في شكر نعمته، وأن تتغلغل أفكارهم في تدبر آياته وحكمه ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ﴾ يستخدمون عقولهم، فيتفكرون في وجود هذه المخلوقات ومن أوجدها.

(١٤) ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بحسن الخلق والصبر على أذية المشركين به، الذين لا يرجون أيام الله؛ أي: لا يرجون ثوابه، ولا يخافون وقائعه في العاصين ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فإنه تعالى سيجزي كل قوم بما كانوا يكسبون.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الذين تكون أهويتهم غير تابعة للعلم، ولا ماشية خلفه، وهم كل من خالف شريعة الرسول ﷺ هواه وإرادته؛ فإنه من أهواء الذين لا يعلمون.

(١٩) ﴿إِنَّهُمْ لَن يَغْنُؤُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ لا ينفعونك عند الله؛ فيحصلوا لك الخير، ويدفعوا عنك الشر، إن اتبعتهم على أهوائهم، ولا تصلح أن توافقهم وتواليهم، فإنك وإياهم متباينون، وبعضهم ولي لبعض ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يخرجهم من الظلمات إلى النور، بسبب تقواهم وعملهم بطاعته.

(٢٠) ﴿هَذَا﴾ القرآن الكريم والذكر الحكيم ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ يحصل به التبصرة في جميع الأمور للناس؛ فيحصل به الانتفاع للمؤمنين، والهدى والرحمة ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فيهتدون به إلى الصراط المستقيم، في أصول الدين وفروعه.

(٢١) ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أم حسب المسيئون المكثرون من الذنوب، المقصرون في حقوق ربهم ﴿أَنْ نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بأن قاموا بحقوق ربهم، واجتنبوا مساخطه ولم يزالوا مؤثرين رضاه على هوى أنفسهم؟ أي: أحسبوا أن يكونوا ﴿سَوَاءً نَحْنُهُمْ وَمَمَائِهِمْ﴾ في الدنيا والآخرة؟ ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ساء ما ظنوا وحسبوا، وساء ما حكموا به.

(٢٢) ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَلْعَنُ﴾ أي: خلق الله السماوات والأرض بالحكمة، وليعبد وحده لا شريك له ﴿وَلَيُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ثم يجازي بعد ذلك من أمرهم بعبادته، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة

فأنتم يا معشر المؤمنين يجزيكم على إيمانكم وصفحكم وصبركم ثواباً جزيلاً.

(١٥) وهم إن استمروا على تكذيبهم فلا يحل بكم ما حل بهم من العذاب الشديد والخزي ولهذا قال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.

(١٦) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: ولقد أنعمنا على بني إسرائيل نعماً لم تحصل لغيرهم من الناس، وآتيناهم ﴿الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة والإنجيل ﴿وَالْحُكْمَ﴾ بين الناس ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ التي امتازوا بها، وصارت النبوة في ذرية إبراهيم ﷺ، أكثرهم من بني إسرائيل ﴿وَوَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من المأكّل والمشارب والملابس، وإنزال المن والسلوى عليهم ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ أي: على الخلق بهذه النعم، ويخرج من هذا العموم اللفظي هذه الأمة؛ فإنهم خير أمة أخرجت للناس.

(١٧) ﴿وَأَتَيْنَاهُمُ﴾ آتيناهم بني إسرائيل ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ دلالات تبين الحق من الباطل ﴿مِّنَ الْأَمْرِ﴾ القدري الذي أوصله الله إليهم ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي: الموجب لعدم الاختلاف ﴿بَيْنَهُمْ﴾ وإنما حملهم على الاختلاف البغي من بعضهم على بعض، والظلم. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيميز المحق من المبطل، والذي حمله على الاختلاف الهوى أو غيره.

(١٨) ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ ثم شرعنا لك شريعة كاملة تدعو إلى كل خير، وتنهى عن كل شر من أمرنا الشرعي ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾ فإن في اتباعها السعادة الأبدية، والصلاح والفلاح

والباطنة، هل شكروا الله تعالى، وقاموا بالمأمور؟ أم كفروا، فاستحقوا جزاء الكفور؟
(٢٣) ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اخْتَذَ إِلَهُهُ هَوًى﴾ فما هويته سلكه، سواء كان يرضي الله أو يسخطه ﴿وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ من الله تعالى أنه لا تليق به الهداية، ولا يزكو عليها ﴿وَحَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ﴾ فلا يسمع ما ينفعه ﴿وَقَلْبِهِ﴾ فلا يعي الخير ﴿وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشًوَةً﴾ تمنعه من نظر الحق ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ لا أحد يهديه، وقد سدَّ الله عليه أبواب الهداية، وفتح له أبواب الغواية ﴿أَفَلَا نَذَكَّرُونَ﴾ ما ينفعكم؟ فتسلكونه، وما يضركم؟ فتجتنبونه.
(٢٤) ﴿وَقَالُوا﴾؛ أي: منكرو البعث: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ إن هي إلا عادات وجري على رسوم الليل والنهار، يموت أناس، ويحيا أناس، ومن مات فليس براجع إلى الله، ولا مجازيه بعمله. ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ فأنكروا المعاد، وكذبوا الرسل الصادقين من غير دليل دلهم على ذلك، ولا برهان.
(٢٥) ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ إن هي إلا ظنون واستبعاذات خالية عن الحقيقة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ إذا استدل عليهم وبُيِّنَ لهم الحق، وأن الله قادر على إعادة الأبدان بعد فنائها وتفرقها ﴿مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعْنَا نَبَأَ آيَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أحيوهم إن كان ما تقولونه حقًا.

الْمَلَكُوتِ وَالْإِنشَاءِ
أَفَرَأَيْتَ مَنِ اخْتَذَ إِلَهُهُ هَوًى وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَحَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشًوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ لَأَيُّهَا الَّذِينَ هُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمْسِكُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُحْسِرُ الْمَبْطُلُونَ ﴿٢٧﴾ وَرَبِّ كُلِّ أُمَّةٍ جَانِيَةٌ كُلٌّ أَتَوْا نَدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْجَرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يُطِيقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنْ كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الْآيَاتُ فَأَمَّا وَعَدُوا وَعَمِلُوا أَلَمْ تَلِحَتْ فَيَدْخُلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ أَلْتَمِسْ عَلَى كُفْرِكُمْ فَاستَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا تُجْرِمُونَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِفِينَ ﴿٣٢﴾

(٢٦) ﴿قُلْ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمْسِكُكُمْ﴾ كما تشاهدون ذلك، يخرجكم من العدم إلى الوجود ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شك فيه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وإلا فلو وصل العلم باليوم الآخر إلى قلوبهم؛ لعملوا له أعمالاً وتهيئوا له.
(٢٧) ﴿وَاللَّهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يخبر تعالى عن سعة ملكه وانفراده بالتصرف والتدبير في جميع الأوقات ﴿وَأَنَّهُ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ يجمع الخلائق لموقف القيامة ﴿يَوْمَ يُحْسِرُ الْمَبْطُلُونَ﴾ يحصل الخسار على المبطلين الذين أتوا بالباطل؛ ليدحضوا به الحق، وكانت أعمالهم باطلة؛ لأنها

(٢٣) أخرج النسائي في «التفسير» ولحاكم في «المستدرک» بإسناد حسن عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: «كان أحدهم يعبد الحجر، فإذا رأى ما هو أحسن منه؛ رمى به، وعبد الآخر».

(٢٤) في «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يؤذيني ابن آدم؛ يسب الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر؛ أقلب ليله ونهاره».

إنا كنا نأمر الحفظة أن تكتب أعمالكم عليكم .
 (٣٠) ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾
 إيماناً صحيحاً، وصدقوا إيمانهم بالأعمال
 الصالحة، من واجبات ومستحبات ﴿فَيُدْخِلُهُمْ﴾
 رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ﴿الَّتِي مَحَلُّهَا الْجَنَّةُ، وَمَا فِيهَا مِنْ﴾
 النعيم المقيم، والعيش السليم، ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ﴾
 الْمُبِينُ ﴿الْمَفَازُ وَالنَّجَاةُ وَالرِّبْحُ، وَالْفَلَاحُ الْوَاضِحُ﴾
 البين، الذي إذا حصل للعبد حصل له كل خير،
 واندفع عنه كل شر .

(٣١) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بِاللَّهِ؛ فيقال لهم
 توبيخاً وتقريعاً: ﴿فَلَمْ تَكُنْ ءَاتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ وقد
 دلتكم على ما فيه صلاحكم، ونهتكم عما فيه
 ضرركم، وهي أكبر نعمة وصلت إليكم، لو
 وفقتم لها ﴿فَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ ولكن استكبرتم عنها،
 وأعرضتم، وكفرتكم بها ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا تُجْرِمِينَ﴾ فجنيتم
 أكبر جنائية، وأجرمتم أشد الجرم، فاليوم تجزون
 ما كنتم تعملون، ويوبخون أيضاً بقوله:

(٣٢) ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَلْسَعَةُ لَا رَبَّ فِيهَا﴾
 قُلْتُمْ ﴿مَنْكِرِينَ لِذَلِكَ﴾: ﴿مَا نَذَرِي مَا أَلْسَعَةُ﴾ لا
 نعرفها ﴿إِنْ نَظَرْتُ إِلَّا ظَنًّا﴾ إن نتوهم وقوعها إلا
 توهماً مرجوحاً ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ﴾ بمتحققين
 فهذه حالهم في الدنيا، وحال البعث الإنكار له،
 ورد قول من جاء به . قال تعالى:

(٣٣) ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ وظهر لهم يوم
 القيامة عقوبات أعمالهم ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ نزل ﴿وَمَا

سُورَةُ الْجَاثِيَةِ

وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾
 وَقِيلَ الْيَوْمَ نَبْشِطُكُمْ كَمَا فَبْشِطْنَاكُمْ يَوْمَ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٣٤﴾
 لَكُمْ مِنْ نَصْرِنَا ﴿٣٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَخَذْتُمْ مِيثَاقَ اللَّهِ هُزُوًا وَعَرَضْتُمْ
 لِعَهْدِهِ الدُّنْيَا قَالُوا لَمْ يَخْرِجُوا مِنْهَا وَلَا لَهُمْ يَسْتَعْبِدُونَ ﴿٣٦﴾
 فَلِلَّهِ الْمُلْكُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ وَلَهُ
 الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَكِيمُ ﴿٣٨﴾

سُورَةُ الْحَفِظَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ
 كَفَرُوا عَمَّا أُذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ
 دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ
 أَنْتُمُ الَّذِينَ يَكْتَسِبُونَ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَشْرَقْتُمْ عَلَيْكُمْ كُنْتُمْ
 صَادِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ
 لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٥﴾

٥٠٢

متعلقة بالباطل، فبطلت في يوم القيامة .
 (٢٨) ﴿وَرَرَى﴾ أيها الرائي لذلك اليوم ﴿كُلُّ أُمَّةٍ﴾
 جاثية ﴿على ركبها، خوفاً ودعراً، وانتظاراً لحكم﴾
 الملك الرحمن .
 ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ إلى كتاب أعمالها وما
 سطر عليها من خير وشر ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ﴾
 تَعْمَلُونَ ﴿وَأَنْ كُلَّ أَحَدٍ يَجَازِي بِمَا عَمِلَهُ بِنَفْسِهِ .
 (٢٩) ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَطُوقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ هذا كتابنا
 الذي أنزلنا عليكم، يفصل بينكم بالحق الذي
 هو العدل ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

(٣٠) أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أَوْتَرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالتَّجْبِرِينَ . وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: مَا لِي لَا يَدْخُلَنِي إِلَّا ضِعْفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ؟ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي، أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشَاءَ مِنْ عِبَادِي . وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابٌ أَعَذَّبُ بِكَ مِنْ أَشَاءَ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مَلُوءَةٌ، فَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَمْتَلِي حَتَّى يَضَعَ رَجُلُهُ؛ فَتَقُولُ: قَطُّ قَطُّ، فَهَنَالِكَ تَمْتَلِي، وَيَزْوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَلَا يَظْلِمُ اللَّهُ ﷻ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الْجَنَّةُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ يَنْشِيْ لَهَا خَلْقًا» .

خلقهم ورباهم، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة.

(٣٧) ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ له الجلال والعظمة والمجد ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ القاهر لكل شيء ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، فلا يشرع ما يشرعه إلا لحكمة ومصلحة، ولا يخلق ما يخلقه إلا لفائدة ومنفعة.

سورة الأحقاف مكية

(١) ﴿حَمَّ﴾ سبق الكلام على الحروف المقطعة في فواتح سورة البقرة.

(٢) ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ﴾ هذا ثناء منه تعالى على كتابه وتعظيم له، وفي ضمن ذلك إرشاد العباد إلى الاهتداء بنوره والإقبال على تدبر آياته، واستخراج كنوزه ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يرام ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله.

(٣) ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا

كَاوًا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ نزل بهم العذاب الذي كانوا في الدنيا يستهزئون به وبوقوعه وبمن جاء به.

(٣٤) ﴿وَقِيلَ آيَوْمَ نَنْسُكُ﴾ نترككم في العذاب ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ فإن الجزاء من جنس العمل ﴿وَمَا أَوْتَكُمُ الثَّأْرَ﴾ هي مقركم ومصيركم ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَصِيرَةٍ﴾ ينصرونكم من عذاب الله، ويدفعون عنكم عقابه.

(٣٥) ﴿ذَلِكُمْ﴾ الذي حصل لكم من العذاب ﴿ذَلِكُمْ بِأَنكُمْ أَخَذْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ مع أنها موجبة للجد والاجتهاد، وتلقيها بالسرور والاستبشار والفرح.

﴿وَعَرَفْتُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ بزخارفها ولذاتها وشهواتها؛ فاطمأنتم إليها، وعلمتم لها، وتركتم العمل للدار الباقية ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْعَوُونَ﴾؛ أي: ولا يمهلون، ولا يردون إلى الدنيا ليعملوا صالحاً.

(٣٦) ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾ كما ينبغي لجلاله وعظيم سلطانه ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ أي: له الحمد على ربوبيته لسائر الخلق، حيث

(٣٤) في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة، ليست في سحابة، قالوا: لا. قال: «فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر، ليس في سحابة» قالوا: لا. قال: «فوالذي نفسي بيده لا تضارون في رؤية ربكم؛ إلا كما تضارون في رؤية أحدهما». قال: «يلقى العبد فيقول: أي فل، ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأدرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى. قال: فيقول: أفضنت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. فيقول: فإني أنساك كما نسيتني. ثم يلقى الثاني فيقول: أي فل، ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأدرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى، أي رب. فيقول: أفضنت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. فيقول: فإني أنساك كما نسيتني. ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك، فيقول: يا رب، آمنت بك، وكتابك، وبرسلك، وصليت، وصمت، وتصدقت، ويثنى بخير ما استطاع، فيقول: ها هنا إذا، قال: ثم يقال له: الآن نبعث شاهدنا عليك. ويتفكر في نفسه: مَنْ ذا الذي يشهد عليّ؟ فيختم على فيه، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطقي، فتطلق فخذه ولحمه وعظامه، بعمله وذلك ليعذر من نفسه، وذلك المناقق، وذلك الذي يسخط الله عليه».

(٣٧) أخرج مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: العز إزاري، والكبرياء ردائي؛ فمن نازعني واحداً منهما؛ عذبتة».

مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ﴿١﴾ أَرشدوني إلى المكان الذي استقلوا بخلقه من الأرض ﴿٢﴾ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ﴿٣﴾ أي: ولا شرك لهم في السماوات والأرض ، وما يملكون من قطمير ، إن الملك والتصرف كله إلا لله ﴿٤﴾ فكيف تعبدون معه غيره وتشركون به؟ أم هو شيء اقترحتموه من عند انفسكم؟ ولهذا قال: ﴿٥﴾ اتَّبِعُونِي يَكْتَسِبَ مِنْ بَيْلِ هَذَا ﴿٦﴾ الكتاب يدعو إلى الشرك ﴿٧﴾ أَوْ أَتَّبَعُوا مَنَ عَلَيْهِ ﴿٨﴾ موروث عن الرسل يأمر بذلك ﴿٩﴾ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٠﴾ من المعلوم أنهم عاجزون أن يأتوا عن أحد من الرسل بدليل يدل على ذلك، بل نجزم ونتيقن أن جميع الرسل دعوا إلى توحيد ربهم .

(٥) ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ لا أضل ممن يدعون من دون الله أصنامًا، ويطلب ما لا تستطيعه إلى يوم القيامة ﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفُوتُونَ﴾ لا يسمعون منهم دعاء، ولا يجيبون لهم نداء، هذا حالهم في الدنيا، ويوم القيامة يكفرون بشركهم.

(٦) ﴿وَإِذَا حِشَّرَ النَّاسُ فَكَاوُوا لَهُمْ أَعْدَاءَ﴾ ﴿يَلْعَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيَتَّبِعُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ ﴿وَكَاوُوا عِبَادَتَهُمْ كُفْرِينَ﴾ .

(٧) ﴿وَإِذَا نُنْتَلَىٰ﴾ على المكذبين ﴿ءَايَأُنَّا بَيِّنَاتٌ﴾
 بحيث تكون على وجه لا يمتري بها، ولا يشك
 في وقوعها وحقها، لم تفدهم خيراً، بل قامت
 عليهم بذلك الحجة، ويقولون من إفكهم
 وافتراءهم ﴿لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي:

وإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا نَسَخَ اللَّهُ مِنْكُمْ الْقُرْآنَ فَإِنْ مِنْكُمْ أَصْحَابُ الْقُرْآنِ فَلْيَسْبَحُوا فِي هَاتِهِ الْبَيْتِ وَأُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ كَرِهَ اللَّهُ أَنْ يَذَرِيَهُمْ فَيَذَرُوهُمْ كَذِبِينَ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَأَيْنَاهُ إِلَّا أَنْفَرْنَاهُ فَلَا تَمَلِكُونَ لِي مِنْ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفْكِرُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شُهَدَاءً ابْنِي وَيَسْأَلُهُمْ هُوَ الْمَقْوَرُ الرَّجِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنْتُمْ بِدُعَائِهِمْ أَوْ نَسِ اللَّهُ دُعَاءَهُمْ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَأَذَى مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا يَنْفَعُنِي أُنْتُمْ إِلَّا مَا نُحْيِي إِلَى وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَقَامُنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كُنَّا خَبِيرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ مَتَّعْنَاهُ بِهِمْ فَمَسُوا بَلَاءًا مِنْهُ فَذَقُوا بِهِمْ وَاسْتَفْتَوْهُمْ هَذَا إِلَافُكَ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِمَا نَزَّلْنَا بِهَذَا الْقُرْآنِ فَالْتَمِزْهُ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَسُئِلُوا لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

يَالْمُحَقِّ ﴿ لَا عِثًّا، وَلَا سُدًى، بَل لِّيعْرِفَ الْعِبَادَ عِظْمَةَ خَالِقِهِمَا، وَيَسْتَدْلُوا عَلَى كِمَالِهِ، وَيَعْلَمُوا أَنَّ الَّذِي خَلَقَهُمَا - عَلَى عِظْمَهُمَا - قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُعِيدَ الْعِبَادَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ لِلْجِزَاءِ، وَأَنْ يَخْلُقَهُمَا وَبِقَاءَهُمَا مُقَدَّرٌ إِلَى ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ مَدَّةٍ مُّعَيَّنَةٍ مُّضْرُوبَةٍ، لَا تَزِيدُ وَلَا تَنْقُصُ .

فلما أخبر بذلك، وهو أصدق القائلين، وأقام الدليل، وآنار السبيل، أخبر - مع ذلك - أن طائفة من الخلق قد أبوا إلا إعراضاً عن الحق، وصدوقاً عن دعوة الرسل، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ .

(٤) ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء الذين أشركوا بالله: ﴿أَرُونِي﴾

(٤) أخرج أحمد والحاكم والطبراني والطبري بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً وموقوفاً: أن رسول الله سئل عن الخط؛ فقال: «هو أثاره من علم».

المتصرف بي وبكم، الحاكم علي وعليكم، ولست الآتي بالشيء من عندي ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ فإن قبلتم رسالتي، وأجبتكم دعوتي؛ فهو حظكم ونصيبكم في الدنيا والآخرة، وإن رددتم ذلك علي، فحسابكم على الله، وقد أذرتكم.

(١٠) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾ أخبروني: لو كان هذا القرآن من عند الله ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَقَامَ﴾ وشهد على صحته الموفقون من أهل الكتاب، الذين عندهم من الحق ما يعرفون أنه الحق؛ فأمنوا به، واهتدوا؛ فتطابقت أنباء الأنبياء وأتباعهم النبلاء ﴿وَأَسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أيها الجهلاء الأغبياء، فهل هذا إلا أعظم الظلم وأشد الكفر؟ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ومن الظلم: الاستكبار عن الحق بعد التمكن منه.

(١١) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ أي: ما سبقنا إليه المؤمنون، ولكننا أول مبادر به، وسابق إليه ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ بالقرآن ﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيدٌ﴾ كذب قديم مأثور عن الناس الأقدمين؛ فينتقصون القرآن وأهله ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ

ظاهر لا شك فيه.

(٨) ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ﴾ أي: افترى محمد هذا القرآن من عند نفسه؛ فليس هو من عند الله، ﴿قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّد: ﴿إِنْ افْتَرَيْتُهُ﴾ فالله علي قادر، وبما تفيضون فيه عالم، فكيف لم يعاقبني على افترائي الذي زعمتم؟! ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ إن أَرَادَنِي اللَّهُ بضر أو أَرَادَنِي برحمة ﴿كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فلو كنت متقولاً عليه؛ لأخذ مني باليمين، ولعاقبني عقاباً يراه كل أحد؛ لأن هذا أعظم أنواع الافتراء لو كنت متقولاً، ثم دعاهم إلى التوبة - مع ما صدر منهم من معاندة الحق ومخاصمته، فقال: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ فتوبوا إليه، وأقلعوا عما أنتم فيه، يغفر لكم ذنوبكم ﴿الرَّحِيمُ﴾ ويرحمكم؛ فيوفقكم للخير، ويشيكم جزيل الأجر.

(٩) ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ لست بأول رسول جاءكم حتى تستغربوا رسالتي، وتستنكروا دعوتي؛ فقد تقدم من الرسل والأنبياء من وافقت دعوتي دعوتهم ﴿وَمَا أَدْرِ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ لست إلا بشراً ليس بيدي من الأمر شيء، والله تعالى هو

(٩) أخرج البخاري وأحمد - واللفظ له - عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أم العلاء - وهي امرأة من نساheim - أخبرته، وكانت بايعت رسول الله ﷺ؛ قالت: طار لهم في السكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين عثمان بن مظعون، فاشتكى عثمان عندنا، فمرضنا، حتى إذا توفى أدرجناه في أثوابه، فدخل علينا رسول الله ﷺ فقلت: رحمة الله عليك يا أبا السائب، شهادتي عليك، لقد أكرمك الله، فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمه؟» فقلت: لا أدري بأبي وأمي أنت؟ فقال رسول الله ﷺ: «أما هو؛ فقد جاءه اليقين من ربه، وإني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي» قالت: فقلت: والله لا أزكى أحداً بعده أبداً، فأحزني ذلك، فتمت؛ فأريت لعثمان عينا تجري، فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «ذاك عمله؟».

وفي رواية للبخاري: «ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل به».

مُصَدِّقٌ ﴿لِلْكِتَابِ السَّابِقَةِ﴾، شهد بصدقها،
 وصدقها بموافقتها لها، وجعله الله ﴿لِسَانًا
 عَرَبِيًّا﴾ ليسهل تناوله، ويتيسر تذكره ﴿لِيُنْذِرَ
 الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالكفر والفسوق
 والعصيان، إن استمروا على ظلمهم بالعذاب
 الويليل ﴿وَيُبَشِّرَ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ ويبشر المحسنين
 في عبادة الخالق، وفي نفع المخلوقين،
 بالثواب الجزيل في الدنيا والآخرة.

(١٣) ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ إن الذين أقروا
 بربهم، وشهدوا له بالوحدانية، والتزموا طاعته
 وداموا على ذلك ﴿ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ مدة حياتهم
 ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من كل شر أمامهم ﴿وَلَا
 هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوا وراءهم.

(١٤) ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ أهلها الملائمون
 لها، الذين لا ييغون عنها حولاً، ولا يريدون بها
 بدلاً ﴿خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من
 الإيمان بالله المقتضى للأعمال الصالحة التي
 استقاموا عليها.

(١٥) ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ هذا من

الْحَمْدُ لِلَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ
 كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ
 أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ
 عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلَحْ لِي فِي
 دُرِّيَّتٍ إِنَّيْ أَتُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٥٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ
 تَقْبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَعْرُوفٍ وَأَنْتَ جَاوِدٌ عَنْ سِتَانِهِمْ فِي أَصْحَابِ
 الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِي كَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٥١﴾ وَالَّذِي قَالَ
 لِوَلَدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِي أَنْ أَخْرُجَ وَقَدْ خَلَيْتِ الْقُرُونُ مِنْ
 قَبْلِي هُمَا يَسْتَفِيتَانِ اللَّهَ وَبَيْنَكَ أَمِنْ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا يَقُولُ
 مَا هَذَا إِلَّا اسْطِغْرَابُ الْأَوَّلِينَ ﴿٥٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ
 الْقَوْلُ فِي أُمِّهِمْ فَذَلَّخَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّةِ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا
 خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا كَسَبُوا وَيُؤْفِقُهم أَعْمَالُهُمْ وَهُمْ
 لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدَّبْتُمُ طَيْبَتَكُمْ
 فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ
 بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَسْفُونَ ﴿٥٥﴾

كُتِبَ مُوسَى ﴿وَهِيَ التَّوْرَةُ﴾ التي أنزلها الله
 على موسى ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ ؛ أي: يقتدي بها
 بنو إسرائيل، ويهتدون بها، فيحصل لهم خير
 الدنيا والآخرة ﴿وَهَذَا﴾ القرآن ﴿كُتِبَ

(١٠) أخرج أحمد وأبو يعلى والطبري وابن حبان والطبراني والحاكم بإسناد صحيح عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال:
 انطلق النبي ﷺ وأنا معه حتى دخلنا كنيسة اليهود بالمدينة يوم عيدهم، فكروها دخولنا عليهم، فقال لهم رسول الله ﷺ:
 «أروني إثني عشر رجلاً يشهدون: أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، يحبط الله عن كل يهودي تحت أديم
 السماء الغضب الذي عليه» فأسكتوا، فما أجابه منهم أحد، ثم رد عليه، فلم يجبه أحد، فثلث؛ فلم يجبه أحد، فقال:
 «أبيتم فوالله لانا الحاشر، وأنا العاقب، وأنا المقفي، أنتم أم كذبتم». ثم انصرف وأنا معه، حتى كدنا أن نخرج فإذا
 رجل من خلفه، فقال: كما أنت يا محمد! فأقبل فقال ذلك الرجل: أي رجل تعلموني فيكم يا معشر اليهود؟ فقالوا:
 والله ما نعلم فينا رجلاً أعلم بكتاب الله، ولا أفقه منك، ولا من أهلك قبلك، ولا من جددك. قال: فإني أشهد بالله أنه
 النبي الذي تجدونه في التوراة والإنجيل. قالوا: كذبت. ثم ردوا عليه قوله، وقالوا فيه شراً. فقال رسول الله ﷺ:
 «كذبتم لن يقبل منكم قولكم» فخرجنا ونحن ثلاثة: رسول الله ﷺ وأنا وابن سلام. فأنزل الله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ
 عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَقَامَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

وأخرج الشيخان في «صحيحهما» عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: ما سمعت النبي ﷺ يقول لأحد يمشي على
 الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام، قال: وفيه نزلت هذه الآية: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾.

﴿وَأَصْلَحَ لِي فِي دُرَيْتِي﴾ لما دعا لنفسه بالصلاح، دعا لذريته أن يصلح الله أحوالهم، وذكر أن صلاحهم يعود نفعه على والديهم؛ لقوله: ﴿وَأَصْلَحَ لِي﴾.

﴿إِنِّي بُنْتُ لَكَ﴾ من الذنوب والمعاصي، ورجعت إلى طاعتك ﴿وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله ﷻ ويعزم عليها.

(١٦) ﴿أُولَئِكَ﴾ الذين ذكرت أوصافهم ﴿الَّذِينَ تَقْبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ وهو الطاعات؛ لأنهم يعملون أيضاً غيرها ﴿وَنَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ فلا نأخذهم بها، بل نغفر لهم ﴿فِي﴾ جملة ﴿أَحَبِّ الْجَنَّةِ﴾ فحصل لهم الخير والمحبوب، وزال عنهم الشر والمكروه ﴿وَعَدَ الصَّدِيقَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾؛ أي: هذا الوعد الذي وعدناهم، هو وعد صادق، من أصدق القائلين، الذي لا يخلف الميعاد.

(١٧) ولما ذكر تعالى حال الصالح البار لوالديه، ذكر حال العاق، وأنها شر الحالات فقال: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ﴾ إذ دعواه إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، وخوفاه الجزاء: ﴿أَفِي لَكُمْ﴾ تباً لكم، ولما جئتما به.

لطفه تعالى بعباده وشكره للوالدين أن وصى الأولاد وعهد إليهم أن يحسنوا إلى والديهم بالقول اللطيف، والكلام اللين، وبذل المال والنفقة، وغير ذلك من وجوه الإحسان.

ثم نبه على ذكر السبب الموجب لذلك ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ فذكر ما تحملته الأم من ولدها وما قاسته من المكاره وقت حملها، ثم مشقة ولادتها المشقة الكبيرة، ثم مشقة الرضاع، وخدمة الحضانة، وليست المذكورات مدة يسيرة، ساعة أو ساعتين، وإنما ذلك مدة طويلة، ولذل قال تعالى: ﴿وَحَمَلُهُ وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ للحمل تسعة أشهر، أو نحوها، والباقي للرضاع، هذا هو الغالب ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ نهاية قوته وشبابه، وكمال عقله ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ ألهمني ووفقني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَتِي﴾ نعم الدين، ونعم الدنيا، وشكره بصرف النعم في طاعة مسديها وموليها، ومقابلته منته بالاعتراف، والعجز عن الشكر ﴿وَإِنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَهُ﴾ بأن يكون جامعاً لما يصلحه، سالماً مما يفسده، فهذا العمل الذي يرضاه الله ويقبله، ويثيب عليه

(١١) أخرج البخاري في «صحيحه» عن يوسف بن ماهك؛ قال: كان مروان على الحجاز، استعمله معاوية، فخطب، فجعل يذكر يزيد بن معاوية؛ لكي يبايع له بعد أبيه فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئا، فقال: خذوه. فدخل بيت عائشة، فلم يقدروا عليه؛ فقال مروان: إن هذا الذي أنزل الله فيه ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ أَفِي لَكُمْ أَعِدَانِي﴾ فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئا من القرآن، إلا أن الله أنزل عذري.

وأخرج النسائي والحاكم والخطابي في «غريب الحديث» بإسناد حسن لغيره عن محمد بن زياد؛ قال: لما بايع معاوية لابنه يزيد؛ قال مروان: سنة أبي بكر، وعمر، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر سنة هرقل وقيصر. فقال: أنزل الله فيك: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ أَفِي لَكُمْ﴾ الآية، قال: فبلغ عائشة رضي الله عنها، فقالت: كذب والله؛ ما هو به، ولكن رسول الله ﷺ لعن أبا مروان ومروان في صلبه، فمروان من لعنة الله.

وَالْإِنْسِ عَلَى الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ، فسيدخل هؤلاء في غمارهم، وسيغرقون في تيارهم إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ خسروا أنفسهم وأهلهم.

(١٩) ﴿وَلِكُلٍّ﴾ من أهل الخير وأهل الشر دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا كل على حسب مرتبته من الخير والشر، ومنازلهم في الدار الآخرة على قدر أعمالهم ﴿وَلِيُوفِيَهُمْ أَعْمَلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظَاهَمُونَ﴾ بأن لا يزداد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم.

(٢٠) ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ يذكر تعالى حال الكفار عند عرضهم على النار حين يوبخون ويقرعون؛ فيقال لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ حيث اطمأننتم إلى الدنيا، واغتررتم بلذاتها، ورضيتم بشهواتها، وألهتكم طياتها عن السعي لأخركم ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ العذاب الشديد الذي يهينكم ﴿يَمَّا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ تتكبرون عن طاعته ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَقْسِفُونَ﴾ فجمعوا بين قول الباطل والعمل بالباطل، والكذب على الله؛ بنسبته إلى رضاه، والقدح في الحق والاستكبار عنه؛ فعوقبوا أشد العقوبة.

(٢١) ﴿وَأَذْكُرُ﴾ بالثناء الجميل ﴿أَمَّا عَادٌ﴾ وهو هود عليه السلام ﴿إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ﴾ وهم عاد ﴿بِالْأَحْقَافِ﴾ في منازلهم المعروفة بالأحقاف، وهي: الرمال الكثيرة في أرض اليمن ﴿وَقَدْ خَلَّتْ أَنْذَرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ فلم يكن بدعاً منهم، ولا مخالفاً لهم، قائلاً لهم: ﴿إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فأمرهم بعبادة الله، الجامعة لكل قول سديد، وعمل حميد، ونهاهم عن الشرك والتنديد،

وَأَذْكُرُ أَمَّا عَادٌ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ الْأَنْذَرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٩﴾ قَالُوا إِنَّمَا إِنَّا فِئَةٌ مِمَّا يَفْتَخِرُونَ قَالُوا إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَمَا تُعْبُدُونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَتَفْخَرُونَ بِمَا أُنْزِلَتْ بِهِ وَلَكِنَّكُمْ أَنْتُمْ بِمَا تُجْهَلُونَ ﴿٢٠﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُطَرِّفٌ أَمْ لَّهُ مِثْلُ مَسْجِدِنَا فَذَرْهُمْ قَلِيلًا قَلِيلًا فَاصْبِرُوا لَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾ تَدْمِغُكَ الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ مِنْكُمْ فِتْنَةٌ فَمَنْكُمْ يَمُنُّ بِمَا نَكُنُّكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَبَصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يُجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَافِيهِمْ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا وَكَّلَكُمُ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٤﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ صَلَّوْا عَنْهُمْ وَذَكَرُوا فِيكُمُومًا وَكَانُوا يُفْتَرُونَ ﴿٢٥﴾

﴿أَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ﴾ من قبري إلى يوم القيامة ﴿وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ على التكذيب، وسلفوا على الكفر، وهم الأئمة المقتدى بهم لكل كفور وجهول ومعاند؟ ﴿وَهُمَا﴾ أي: والداه ﴿يَسْتَفْتِيَانِ اللَّهَ﴾ عليه، ويقولان له: ﴿وَيْلَكَ ءَاوَيْنَ﴾ يبذلان غاية جهدهما، ويسعيان في هدايته أشد السعي ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ ثم يقيمان عليه من الأدلة ما أمكنهما، وولدهما لا يزداد إلا عتوًّا ونفورا واستكباراً عن الحق وقدحاً فيه ﴿فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطُورُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: إلا منقول من كتب المتقدمين، ليس من عند الله.

(١٨) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ﴾ بهذه الحالة الذميمة ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ حقت عليهم كلمة العذاب ﴿فِي﴾ جملة ﴿أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْغَنَى﴾

تلفت مواشيهم وأموالهم وأنفسهم ﴿كَذَلِكَ
يَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ بسبب جرمهم وظلمهم.
(٢٦) ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَكُم فِيهِ﴾
يعني فيما نمكنكم فيه، من قوى الأبدان،
وطول العمر وكثرة المال؛ فلم تغن عنهم
أموالهم، ولا أولادهم، ولا جنودهم من الله
شيئاً ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾ لا
قصور في أسماعهم ولا أبصارهم، ولا
أذهانهم، حتى يقال: إنهم تركوا الحق جهلاً
منهم، وعدم تمكن من العلم به، ولا خلل
في عقولهم، ولكن التوفيق بيد الله ﴿فَمَا أَغْنَى
عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾
لا قليل ولا كثير ﴿إِذْ كَانُوا﴾ ذلك بسبب أنهم
﴿يَحْمَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على توحيده
وإفراده بالعبادة ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ﴾
يستهزئون ﴿نزل بهم العذاب الذي يكذبون
بوقوعه، ويستهزئون بالرسول الذين حذروهم
منه.
(٢٧) ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوَّلَكُم مِّنَ الْقُرَى﴾ يحذر
تعالى مشركي العرب وغيرهم بإهلاك الأمم
المكذبين، الذين هم حول ديارهم ﴿وَصَرَّفْنَا
الْآيَاتِ﴾ نوّعناها من كل وجه ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾
عما هم عليه من الكفر والتكذيب.
(٢٨) ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ﴾
لم تنفعهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من

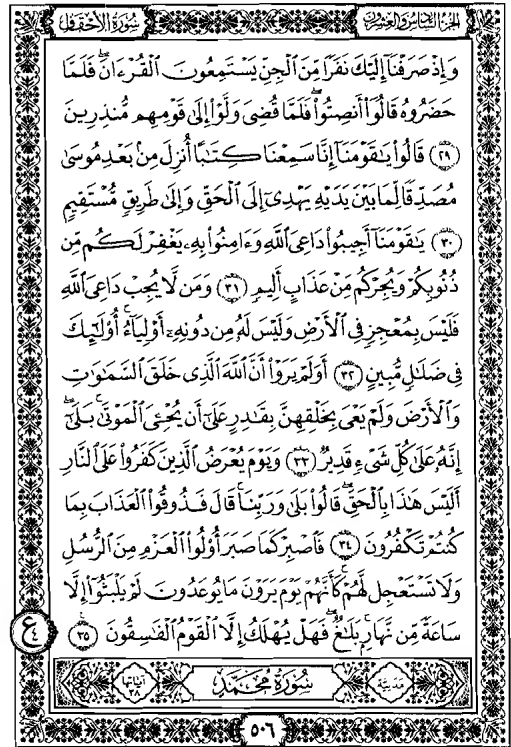
وخوفهم - إن لم يطيعوه - العذاب الشديد،
فلم تفد فيهم تلك الدعوة.
(٢٢) ﴿قَالُوا أَحِثَّنَا إِنَّا فُكِّنَا عَنِ آلِهَتِنَا﴾ ليس لك
من القصد ولا معك من الحق؛ إلا أنك
حسدتنا على آلهتنا؛ فأردت أن تصرفنا عنها
﴿فَأَيْنَا بِمَا تَعُدُّنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾
استعجلوا عذاب الله، استبعاداً منهم وقوعه.
(٢٣) ﴿قَالَ إِنَّمَا أَعْلِمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ فهو الذي بيده
أزمة الأمور ومقاليدها، وهو الذي يأتيكم
بالعذاب إن شاء ﴿وَأُتْلِعَكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ ليس
علي إلا البلاغ المبين ﴿وَلَنُكَفِّرَنَّ أَزْكُرَنَّ قَوْمًا
يُجْهَلُونَ﴾ فلذلك صدر منكم ما صدر من هذه
الجرأة الشديدة.
(٢٤) ﴿قَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ أي: العذاب ﴿عَارِضًا
مُّسْتَقِيلًا أَوْ دُونَهُمْ﴾ معترضاً كالسحاب، قد أقبل
على أوديتهم التي تسيل فتسقي نوابتهم،
ويشربون من آبارها وغدرانها ﴿قَالُوا﴾
مستبشرين: ﴿هَذَا عَارِضٌ مِّمَّنْ بَطَرْنَا﴾ هذا السحاب
سيمطرنا. قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ
بِهِ﴾ هذا الذي جنيتم به على أنفسكم حيث
قلتم: ﴿فَأَيْنَا بِمَا تَعُدُّنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ
الصَّادِقِينَ﴾ ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ريح عاتية.
(٢٥) ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ تهلك كل شيء تمر
عليه من شدتها ونحسها ﴿يَأْمُرُ رَبُّهَا﴾ بإذنه
ومشيئته ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾ قد

(٢٤) في "الصحيحين" عن عائشة رضي الله عنها: أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى منه لهواته، إنما كان يبتسم. وقالت: وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف ذلك في وجهه. قالت: يا رسول الله، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية. فقال: «يا عائشة، ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب، فقد غُذِبَ قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب؛ فقالوا: هذا عارض ممطرنا».

معونة لرسوله ﷺ في نشر دعوته في الجن .
 (٣٠) ﴿قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ
 بَعْدِ مُوسَى﴾ لأن كتاب موسى أصل للإنجيل،
 وعمدة لبني إسرائيل في أحكام الشرع، وإنما
 الإنجيل متمم ومكمل، ومغير لبعض الأحكام
 ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي﴾ هذا الكتاب
 الذي سمعناه ﴿إِلَى الْحَقِّ﴾ وهو الصواب في
 كل مطلوب وخبر ﴿وَالْإِلَهِ طَرِيقَ مُسْتَقِيمٍ﴾ موصل
 إلى الله، وإلى جنته: من العلم بالله وبأحكامه
 الدينية، وأحكام الجزاء .

(٣١) ﴿يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾
 الذي لا يدعو إلا إلى ربه، لا يدعوكم إلى
 غرض من أغراضه ولا هوى، وإنما يدعوكم
 إلى ربكم؛ ليثيبكم، ويزيل عنكم كل شر
 ومكروه ولهذا قال: ﴿بَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ دُنُوبِكُمْ
 وَيُجْرِمَكُمْ مِنْ عَذَابِ إِلِيمٍ﴾ يقيمكم من عذابه الأليم .
 (٣٢) ﴿وَمَنْ لَا يُحِبِّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي
 الْأَرْضِ﴾ فإن الله على كل شيء قدير؛ فلا
 يفوته هارب، ولا يغالبه مغالب ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِنْ
 دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ لا يجيرهم منه أحد ﴿أُولَئِكَ فِي
 ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وأي ضلال أبلغ من ضلال من
 نادته الرسل، ووصلت إليه النذر؛ فأعرض
 واستكبر؟

(٣٣) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضَ﴾ هذا استدلال منه تعالى على الإعادة
 بعد الموت بما هو أبلغ منها، وهو أنه الذي



شيء ﴿قُرْبَانًا إِلَهُةً﴾ يتقربون إليهم ويتألهونهم
 لرجاء نفعهم ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ فلم يجيبوهم
 ولا دفعوا عنهم ﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا
 يَفْعَلُونَ﴾ من الكذب الذي يمتنون به أنفسهم؛
 حيث يزعمون أنهم على الحق، وأن أعمالهم
 ستفنعهم؛ فضلت وبطلت .

(٢٩) ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ﴾ أرسلنا إليك ﴿نَفَرًا مِنَ
 الْجِنِّ﴾ طائفة من الجن ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا
 حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا﴾ أي: استمعوا ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾
 فرغ ﴿وَلَوْ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ نصحاً منهم
 لهم، وإقامة لحجة الله عليهم، وقيضهم الله

(٢٩) أخرج ابن أبي شيبة والحاكم بإسناد حسن عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: «هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن بطن نخلة، فلما سمعوه قالوا: أنصتوا. قالوا: صه. وكانوا تسعة، أحدهم زوبعة؛ فأنزل الله ﷻ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا﴾ الآية إلى ﴿ضَلَلِ مُبِينٍ﴾ .



خلق السماوات والأرض، على عظمهما وسعتهما وإتقان خلقهما، ﴿وَلَمْ يَحْوَ بَخْلَفَهُنَّ يَقْدِرْ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ من دون أن يكثر بذلك، ولم يعجز بخلقهن، فكيف تعجزه إعادتك بعد موتكم، ولهذا قال: ﴿بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(٣٤) ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ يخبر تعالى عن حال الكفار الفظيعة عند عرضهم على النار التي كانوا يكذبون بها، وأنهم يوبخون، ويقال لهم: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ فقد حضرتموه وشاهدتموه عياناً؟ ﴿قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا﴾ فاعترفوا بذنبهم، وتبين كذبهم ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ عذاباً لازماً دائماً؛ كما كان كفركم صفة لازمة.

(٣٥) ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ ثم أمر تعالى رسوله أن يصبر على أذية المكذبين المعادين له، وأن لا يزال داعياً لهم إلى الله، وأن يقتدي بصبر أولي العزم من المرسلين ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾؛ أي: لهؤلاء المكذبين المستعجلين للعذاب؛ فإن هذا من جهلهم وحمقهم؛ فلا يستخفك بجهلهم، ولا يحملك ما ترى من استعجالهم على أن تدعو الله عليهم بذلك، فإن كل ما هو آت قريب، ﴿وَلَا تَنْهَوْنَهُمْ يَوْمَ يَكُونُ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا فِي الدُّنْيَا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ﴾ فلا يحزنك تمتعهم القليل، وهم صائرون إلى العذاب الوبيل ﴿بَلَّغْ﴾ أي: هذه الدنيا متاعها وشهوتها ولذاتها بلغة منغصة، ودفع وقت حاضر قليل. أو هذا القرآن العظيم الذي بينا لكم فيه البيان التام بلاغ لكم، وزاد إلى الدار الآخرة ﴿فَهَلْ

يُهْلِكُ﴾ بالعقوبات ﴿إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾ الذين لا خير فيهم، وقد خرجوا عن طاعة ربهم، ولم يقبلوا الحق الذي جاءتهم به الرسل.

سورة محمد وهي مدنية

(١) ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهؤلاء رؤساء الكفر وأئمة الضلال، الذين جمعوا بين الكفر بالله وآياته، والصد لأنفسهم وغيرهم عن سبيل الله، التي هي الإيمان بما دعت إليه الرسل واتباعه. فهؤلاء ﴿أَضَلَّ﴾ الله ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾؛ أي: أبطلها وأشقاها بسببها، وهذا يشمل أعمالهم التي عملوها؛ ليكيدوا بها الحق وأولياء الله، وأعمالهم التي يرجون أن يثابوا عليها، أن الله سيحبطها عليهم.

من هربهم ومن شرهم فإذا كانوا تحت أسركم، فأنتم بالخيار ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ بين المن عليهم، وإطلاقهم بلا مال ولا فداء، وإما أن تفدوهم بأن لا تطلقوهم حتى يشتروا أنفسهم، أو يشتريهم أصحابهم بمال، أو بأسير مسلم عندهم. وهذا الأمر مستمر ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أي: حتى لا يبقى حرب، وتبقون في المسالمة والمهادنة ﴿ذَلِكَ﴾ الحكم المذكور في ابتلاء المؤمنين بالكافرين، ومداولة الأيام بينهم، وانتصار بعضهم على بعض ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ فإنه -تعالى- على كل شيء قدير، وقادر على أن لا ينتصر الكفار في موضع واحد أبداً، حتى يبید المسلمون خضراءهم ﴿وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾ ليقوم سوق الجهاد، ويتبين بذلك أحوال العباد، الصادق من الكاذب، وليؤمن من آمن إيماناً صحيحاً عن بصيرة، لا إيماناً مبنياً على متابعة أهل الغلبة ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لهم ثواب جزيل، وأجر جميل، وهم الذين قاتلوا من أمروا بقتالهم؛ لتكون كلمة الله هي العليا ﴿فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ فهو لاء لن يحبط الله أعمالهم؛ أي: لن يحبطها ويبطلها، بل يتقبلها وينميها لهم، ويظهر من أعمالهم نتائجها في الدنيا والآخرة.

(٥) ﴿سَيُجَنَّبُكُمْ﴾ إلى سلوك الطريق الموصلة

(٢) ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بما أنزل الله على رسله عموماً، وعلى محمد ﷺ خصوصاً ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بأن قاموا بما عليهم من حقوق الله، وحقوق العباد الواجبة والمستحبة ﴿كَفَرُوا﴾ الله ﴿عَنْهُمْ سَفَاتِهِمْ﴾ صغارها وكبارها ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أصلح دينهم ودنياهم، وقلوبهم وأعمالهم، وأصلح ثوابهم؛ بتنميته وتزكيته، وأصلح جميع أحوالهم.

(٣) ﴿ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الطَّيْلَ﴾؛ أي: إنما أبطلنا أعمال الكفار، لأنهم اتبعوا الشيطان ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ﴾ الذي هو الصدق واليقين، وما اشتمل عليه هذا القرآن العظيم، الصادر ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ الذي رباهم بنعمته، ودبرهم بلطفه؛ فرباهم -تعالى- بالحق؛ فاتبعوه؛ فصلحت أمورهم ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ﴾ حيث بين لهم تعالى أهل الخير وأهل الشر، وذكر لكل منهم صفة يعرفون بها ويتميزون

(٤) ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الحرب والقتال، ﴿فَضْرِبْ الرِّقَابَ﴾ فاصدقوهم القتال، واضربوا منهم الأعناق، ﴿حَتَّى إِذَا اتَّخَذْتُمُوهُمْ﴾ أي: حتى إذا غلبتموهم وقهرتم من لم تضربوا رقبتهم منهم، فصاروا في أيديكم أسرى ﴿فَشُدُّوا أَوْتَاقَ﴾ الرباط، وهذا احتياط لأسرهم؛ لئلا يهربوا، فإذا شد منهم الوثاق اطمأن المسلمون

(٤) أخرج أحمد والترمذي وابن ماجه بإسناد صحيح عن المقدم بن معد يكرب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للشهيد عند الله ست خصال: أن يغفر له في أول دفعة من دمه، ويرى مقعده في الجنة، ويحلى حلة الإيمان، ويزوج من الحور العين، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفرع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويُشَفَّع في سبعين إنساناً من أقاربه».

﴿فَأَحْطَ أَعْمَالُهُمْ﴾: أبطلها وأصلها؛ فلا ينفعون بها، لا في الدنيا، ولا في الآخرة.

(١٠) ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ أفلا يسير هؤلاء المكذبون بالرسول ﷺ ﴿فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عِقَبُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فإنهم لا يجدون عاقبتهم إلا شر العواقب ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، فإنهم لا يلتفتون يمنة ولا يسرة إلا وجدوا ما حولهم قد بادوا وهلكوا، واستأصلهم التكذيب والكفر، فحمدوا، ودمر الله عليهم أموالهم وديارهم، بل دمر أعمالهم ومكرهم ﴿وَاللَّكَفْرِينَ أَمْثَلَهُمْ﴾، وللكافرين في كل زمان ومكان أمثال هذه العواقب الوخيمة، والعقوبات الدميمة.

(١١) ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فتولاهم برحمته؛ فأخرجهم من الظلمات إلى النور،

إلى الجنة ﴿وَيُصَلِّحُ بَالَهُمْ﴾ حالهم وأمورهم.

(٦) ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ﴾ نعتها لهم، ويبن منازلهم حتى يهتدوا إلى مساكنهم لا يخطئون، وطيبها لهم.

(٧) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَضُرُوا اللَّهَ﴾ أي: دينه ورسوله ﴿يَضْرِكُّمُ﴾ على عدوكم ﴿وَيُلَيِّتُ أَقْدَامَكُمْ﴾ عند القتال.

(٨) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ﴾ أي: فخربا لهم وشقاء وبلاء. ﴿وَأُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ أبطل أعمالهم التي يكيدون بها الحق.

(٩) ﴿ذَلِكَ﴾ الإضلال والتعس للذين كفروا؛ ﴿يَأْتَهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ من القرآن الذي أنزله الله، صلاحاً للعباد، وفلاحاً لهم، فلم يقبلوه، بل أبغضوه وكرهوه،

(٦) أخرج البخاري عن أبي سعيد رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا خلاص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار، يتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، والذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أهدى منه بمنزله كان في الدنيا».

(٨) في «الصحاحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش».

(١١) عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: جعل النبي ﷺ على الرجال يوم أحد - وكانوا خمسين رجلاً - عبد الله بن جبير، فقال: «إِنْ رَأَيْتُمُونَا نَخْطِفُ الطَّيْرَ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا الْقَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ». فهُزِمُوهُمْ، قَالَ: فَأَنَا وَاللَّهِ رَأَيْتُ النِّسَاءَ يَشْتَدِدْنَ قَدْ بَدَتْ خَلَاخِلُهُنَّ وَأَسْوَفُهُنَّ، رَافِعَاتٍ ثِيَابَهُنَّ. فَقَالَ أَصْحَابُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُبَيْرٍ: الْغَنِيْمَةُ - أَيُّ قَوْمٍ - الْغَنِيْمَةُ، ظَهَرَ أَصْحَابُكُمْ فَمَا تَنْتَظِرُونَ؟! فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ: أَنْتَيْسْتُمْ مَا قَالَ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قَالُوا: وَاللَّهِ لَتَأْتِيَنَّ النَّاسَ؛ فَلْنُصَيِّرَنَّ مِنَ الْغَنِيْمَةِ؛ فَلَمَّا أَتَوْهُمْ صُرِفَتْ وُجُوهُهُمْ، فَأَقْبَلُوا مُتَهَرِّمِينَ؛ فَذَلِكَ إِذْ يَدْعُوهُمْ الرَّسُولُ فِي أَخْرَاهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ غَيْرُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا، فَأَصَابُوا مِثْلَ سَبْعِينَ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ أَصَابُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ أَرْبَعِينَ وَمِائَةً: سَبْعِينَ أَسِيرًا، وَسَبْعِينَ قَتِيلًا. فَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ: أَفِي الْقَوْمِ مُحَمَّدٌ؟ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ؟ فَتَهَاكُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُجِيبُوهُ. ثُمَّ قَالَ: أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةٍ؟ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ؟ ثُمَّ قَالَ: أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ الْخَطَّابِ؟ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ؟ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ؛ فَقَالَ: أَمَّا هَؤُلَاءِ فَقَدْ قُتِلُوا، فَمَا مَلَكَ عَمْرٍ نَفْسُهُ فَقَالَ: كَذَبْتَ وَاللَّهِ يَا عَدُوَّ اللَّهِ، إِنَّ الدِّينَ -

جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴿١٢﴾ لما ذكر تعالى أنه ولي المؤمنين، ذكر ما يفعل بهم في الآخرة: من دخول الجنات التي تجري من تحتها الأنهار، التي تسقي تلك البساتين الزاهرة، والأشجار الناضرة المثمرة، لكل زوج بهيج، وكل فاكهة لذيدة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَسَمِعُونَ وَكُلُّوا كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ ولما ذكر أن الكافرين لا مولى لهم؛ ذكر أنهم وكُلُوا إلى أنفسهم، فلم يتصفوا بصفات المروءة، ولا الصفات الإنسانية، بل نزلوا عنها دركات، وصاروا كالأنعام التي لا عقل لها ولا فضل ﴿وَالنَّارُ مَتَوًى لَهُمْ﴾ ولهذا كانت النار منزلاً معداً لهم، لا يخرجون منها، ولا يفر عنهم من عذابها.

(١٣) ﴿وَكُلَّيْنِ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ أي: وكم من قرية من قرى المكذبين هي أشد قوة ﴿هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ﴾ يعني مكة. ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ حين كذبوا رسلنا، ولم تفد فيهم المواعظ ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ فلا نجد لهم ناصراً، ولم تغن عنهم قوتهم من عذاب الله شيئاً، فكيف حال هؤلاء الضعفاء الذين كذبوك

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَسَمِعُونَ وَكُلُّوا كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَتَوًى لَهُمْ ﴿١٢﴾ وَكُلَّيْنِ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَنْ كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كُنْزَيْنِ لَهُمْ سُوءٌ عَلَيْهِمْ وَأَنْتُمْ ءَاهُوهُنَّ ﴿١٤﴾ مَثَلُ الْخَنَازِئِيِّ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ حَمَلٍ لَذٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كُنْزٌ هُوَ خَيْرٌ مِنَ النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءِيفَاءُ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا ءَاهُوَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَيْنَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ فَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَى السَّاعَةِ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنْتُمْ إِجَاجَةٌ تَهُمُ ذَكَرْنَاهُمْ ﴿١٨﴾ فَأَعْلَمْنَا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرُ لِمَنْ يَكُفِّرُ بِنَحْنِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُنْقَلَبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾

وتولى جزاءهم ونصرهم ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ﴾ بالله تعالى، حيث قطعوا عنهم ولاية الله، وسدوا على أنفسهم رحمته ﴿لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ يهديهم إلى سبل السلام، ولا ينجيهم من عذاب الله وعقابه.

(١٢) ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

عَذَّتْ لِأَحْيَاءِ كُلِّهِمْ، وَقَدْ بَقِيَ لَكَ مَا يَسُوءُكَ. قَالَ: يَوْمَ يَوْمٍ بَدْرٍ، وَالْحَرْبُ سَجَالٌ، إِنَّكُمْ سَتَجِدُونِ فِي الْقَوْمِ مَثَلَهُ، لَمْ أَمُرْ بِهَا وَلَمْ تَسْأَلْنِي، ثُمَّ أَخَذَ يَرْجُزُ: أَعْلُ هُبْلُ. أَعْلُ هُبْلُ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلَا تُحْيِيوُنَا لَهُ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُ» قَالَ: إِنَّ لَنَا الْعَزَى وَلَا عَزَى لَكُمْ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلَا تُحْيِيوُنَا لَهُ؟» قَالُوا: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُ مَوْلَانَا، وَلَا مَوْلَى لَكُمْ».

(١٢) في «الصحيحين» عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مَعِي وَاحِدًا، وَالْكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءَ».

(١٣) أخرج الترمذي وابن حبان والحاكم بإسناد حسن عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَمَّا خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ: «مَا أَطْيَبُكَ مِنْ بَلَدٍ، وَأَجْبَلُ إِلَيَّ، وَلَوْلَا أَنْ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكَ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكَ».

وعادوك، أليسوا بأحق من غيرهم بالإهلاك والعقوبة، لولا أن الله تعالى بعث رسوله بالرحمة والتأني بكل كافر وجاحد؟

(١٤) ﴿أَفَنَ كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُينَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ لا يستوي من هو على بصيرة من أمر دينه: علماً وعملاً، قد علم الحق واتبعه، ورجا ما وعده الله لأهل الحق، كمن هو أعمى القلب، قد رفض الحق وأصله ﴿وَالْبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ واتبع هواه بغير هدى من الله، ومع ذلك يرى أن ما هو عليه من الحق.

(١٥) ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ مثل صفة الجنة التي أعدها الله لعباده، الذين اتقوا سخطه، واتبعوا رضوانه ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ غير متغير، لا بوخم، ولا بريح متنته، ولا بمرارة، ولا بكدورة ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ بحموضة ولا غيرها ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ حَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ يلتذ به شاربه لذة عظيمة، لا كخمر الدنيا الذي يكره مذاقه، ويصدع الرأس، ويغول العقل ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ من شمعه، وسائر أوساخه ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ من نخيل، وعنب، وتفاح، ورمان، وأترج، وتين، وغير ذلك، مما لا نظير له في الدنيا، فهذا المحبوب المطلوب قد حصل لهم، ثم قال: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يزول بها

عنهم المرهوب، ﴿كَمَنْ هُوَ خَلَدٌ فِي النَّارِ﴾ أي: هؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة كمن هو خالد في النار التي اشتد حرها، وتضاعف عذابها ﴿وَسُقُوا﴾ فيها ﴿مَاءً حَمِيمًا﴾ حاراً جداً ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ قطع ما في بطونهم من الأحشاء والأمعاء.

(١٦) ﴿وَمِنْهُمْ﴾ ومن المنافقين ﴿مَنْ يَسْمَعُ إِلَيْكَ﴾ ما تقول، استماعاً لا عن قبول وانقياد، بل معرضة قلوبهم عنه، ولهذا قال: ﴿حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ مستفهمين عما قلت، وما سمعوا، مما لم يكن لهم فيه رغبة: ﴿مَاذَا قَالَ عَاقِبًا﴾ قريباً ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ ختم عليها، وسد أبواب الخير التي تصل إليها؛ بسبب اتباعهم أهواءهم.

(١٧) ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا﴾ بالإيمان والانقياد، واتباع ما يرضي الله ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ شكراً منه تعالى لهم على ذلك ﴿وَأَكْنَهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ وفقهم للخير، وحفظهم من الشر، فذكر للمهتدين جزاءين: العلم النافع، والعمل الصالح.

(١٨) ﴿فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ فهل ينظر هؤلاء المكذبون أو ينتظرون ﴿إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ فجأة، وهم لا يشعرون ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ علاماتها الدالة على قربها ﴿فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ من أين لهم إذا جاءتهم

(١٥) أخرج ابن أبي حاتم وهناد في «الزهد» وابن أبي شيبة في «المصنف» وأبو نعيم في «صفة الجنة» حديث ابن مسعود رضي الله عنه الصحيح لغيره: «أنهار الجنة تفجر من جبل من مسك». وهذا موقوف لفظاً، ولكن مرفوع حكماً. وأخرج الترمذي وابن حبان وأحمد - واللفظ له - بإسناد صحيح عن حكيم بن معاوية عن أبيه رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «في الجنة بحر اللبن، وبحر الماء، وبحر العسل، وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار منها بعد».

(١٦) أخرج البخاري ومسلم من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا، بالوسطى والتي تليها: «بعثت أنا والساعة كهاتين».

(١٧) أخرج ابن أبي حاتم وهناد في «الزهد» وابن أبي شيبة في «المصنف» وأبو نعيم في «صفة الجنة» حديث ابن مسعود رضي الله عنه الصحيح لغيره: «أنهار الجنة تفجر من جبل من مسك». وهذا موقوف لفظاً، ولكن مرفوع حكماً. وأخرج الترمذي وابن حبان وأحمد - واللفظ له - بإسناد صحيح عن حكيم بن معاوية عن أبيه رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «في الجنة بحر اللبن، وبحر الماء، وبحر العسل، وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار منها بعد».

(١٨) أخرج البخاري ومسلم من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا، بالوسطى والتي تليها: «بعثت أنا والساعة كهاتين».

لذنبك، بأن تفعل أسباب المغفرة : من التوبة والدعاء بالمغفرة، والحسنات الماحية، وترك الذنوب والعفو عن الجرائم.

﴿وَاسْتَغْفِرْ أَيْضاً﴾ ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ فإنهم - بسبب إيمانهم - كان لهم حق على كل مسلم ومسلمة، ومن جملة حقوقهم أن يدعو لهم، ويستغفر لذنوبهم ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبُكُمْ﴾ أي: تصرفاتكم وحركاتكم، وذهابكم ومجيئكم ﴿وَمُتَوَلِّكُمْ﴾ الذي به تستقرون، فهو يعلمكم في الحركات والسكنات، فيجازيكم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

(٢٠) ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ استعجالاً ومبادرة للأوامر الشاقة: ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ فيها الأمر بالقتال ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ تُحْكَمُ﴾ ملزم العمل بها ﴿وُذِّكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ الذي هو أشق شيء على النفوس، لم يثبت ضعفاء الإيمان على امتثال هذه الأوامر ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ من كراحتهم لذلك، وشدته عليهم ثم ندبهم تعالى إلى ما هو الأليق بحالهم، فقال: ﴿فَأُولَىٰ لَهُمْ﴾ أي: وكان الأولى بهم.

وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ تُحْكَمُ وَذِكْرُهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَىٰ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۚ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّىٰ أَبْصَارَهُمْ ۚ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ ۚ أَلَمْ تَرَ أَنِّي أَرْسَلْتُ فِي الْأَرْضِ مُبَشِّرِينَ لَهُمْ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَّ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَطِيحُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمْرِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ۚ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْتُهُمُ الْمَلَائِكَةُ بَصَرِيَّتُكُمْ وَرُجُومُهُمْ ۚ وَادَّبَرَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ أَتَّبَعُوا مَا اسَّخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَاحْبِطْ أَعْمَالَهُمْ ۚ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَّنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْفَتَهُمْ ۚ

الساعة وانقطعت آجالهم أن يتذكروا ويستعتبوا؟ قد فات ذلك.

(١٩) ﴿فَاعَلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ هذا إخبار بأنه لا إله إلا الله، ولا يتأتى كونه أمراً بعلم ذلك، ولذلك عطف عليه قوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ أي: اطلب من الله المغفرة

(١٩) أخرج مسلم من حديث الأغر المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس، توبوا إلى الله؛ فإني أتوب في اليوم مائة مرة».

وفي «الصحيحين» من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول في آخر الصلاة: «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت».

وأخرج مسلم عن عبد الله بن سرجس رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ فأكلت معه في طعامه، فقلت: غفر الله لك يا رسول الله! فقال ﷺ: «ولك» قال: - عاصم الأحول وهو الراوي عن ابن سرجس - فقلت: أستغفر لك؟ فقال: نعم، ولكم، وقرأ: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾. قال: ثم درت خلفه فنظرت إلى غض كتفه الأيمن؛ فإذا هو كهينة الجمع عليه الثأليل.

الموصلة إلى العذاب ﴿أَمَّ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ قد أغلق على ما فيها من الشر وأقفلت، فلا يدخلها خير أبداً؟!

(٢٥) ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ﴾ يخبر تعالى عن حالة المرتدين عن الهدى والإيمان على أعقابهم إلى الضلال والكفران ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ كفروا بعد أن عرفوا محمداً ﷺ ووجدوا نعته في كتبهم، لا عن دليل وبرهان، وإنما ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ زين لهم القبيح وحسنه ﴿وَأَمَّا لَهُمْ﴾ غرهم وخدعهم، ومد لهم في الأمل.

(٢٦) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ يعني المنافقين، أو اليهود ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ من المشركين المبارزين العداوة لله ولرسوله: ﴿سُطِّيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمْرِ﴾ الذي يوافق أهواءهم، وهو التعاون على عداوة محمد ﷺ، والقعود عن الجهاد، وكانوا يقولونه سراً، وهذا شأن المنافقين يظهرهم خلاف ما يظنون، ولهذا قال الله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ فلذلك فضحهم، وبينها لعباده المؤمنين؛ لئلا يغتروا بها، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُنْهَوْنَ﴾ [النساء: ٨١].

(٢٧) ﴿فَكَيْفَ﴾ ترى حالهم الشنيعة، ورؤيتهم الفظيعة ﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ الموكلون بقبض أرواحهم ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾

(٢١) ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أن يسمعوا ويطيعوا؛ أي: في الحالة الراهنة ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ جاءهم أمر جد وأمر محتتم؛ فلزم الحال وحضر القتال ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾ بالاستعانة به، وبذل الجهد في امتثاله ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ من حالهم الأولى.

(٢٢) ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطِعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ فهما أمران: إما التزام لطاعة الله، وامتنال لأوامره، فثم الخير والرشد والفلاح، وإما إعراض عن ذلك، وتول عن طاعة الله، فما ثم إلا الفساد في الأرض، بالعمل بالمعاصي وقطيعة الأرحام.

(٢٣) ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ﴾ أفسدوا في الأرض، وقطعوا أرحامهم ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ بأن أبعدهم عن رحمته، وقربوا من سخط الله ﴿فَاصْغُرْ﴾؛ أي: جعلهم لا يسمعون ما ينفعهم، ولا يبصرونه، فلمهم أذان، ولكن لا تسمع سماع إذعان وقبول، وإنما تسمع سماعاً تقوم به حجة الله عليها، ولهم أعين، ولكن لا يبصرون بها العبر والآيات.

(٢٤) ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْقُرْآنَ﴾ فهذا يتدبر هؤلاء المعرضون لكتاب الله، ويتأملونه حق التأمل، فإنهم لو تدبروه؛ لدلهم على كل خير، ولحذرهم من كل شر، ولملأ قلوبهم من الإيمان، ولبين لهم الطريق الموصلة إلى الله، وإلى جنته ومكملاتها ومفسداتها، والطريق

(٢٢) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «خلق الله تعالى الخلق، فلما فرغ منه قامت الرحم، فأخذت بجفؤ الرحمن - عز وجل - فقال: مه. فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة. فقال: ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى. قال: فذاك».

قال أبو هريرة رضي الله عنه أقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطِعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾.

وعرفناكم ﴿فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسْمِهِمْ﴾ بعلاماتهم التي هي كالوسم في وجوههم ﴿وَلَعَرَفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ لا بد أن يظهر ما في قلوبهم، ويتبين بفلتات ألسنتهم ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَلَكُمْ﴾ فيجازيكم عليها.

(٣١) ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ نختبر إيمانكم وصبركم ﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ فمن امثل أمر الله، وجاهد في سبيل الله، لنصر دينه وإعلاء كلمته، فهو المؤمن حقاً، ومن تكاسل عن ذلك، كان ذلك نقصاً في إيمانه.

(٣٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هذا وعيد شديد لمن جمع أنواع الشر كلها، من الكفر بالله، وصد الخلق عن سبيل الله الذي نصبه موصلاً إليه ﴿وَسَاقُوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ عاندوه وخالفوه عن عمد وعناد، لا عن جهل وغي وضلال، فإنهم ﴿لَنْ يَصُرُوا اللَّهَ شَيْئاً﴾ فلا ينقص به ملكه ﴿وَسَيُحِيطُ أَعْمَلُهُمْ﴾ مساعيهم التي بذلوها في نصر الباطل؛ بأن لا تثمر لهم إلا الخيبة والخسران، وأعمالهم التي يرجون بها الثواب لا تقبل؛ لعدم وجود شرطها.

(٣٣) ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ يأمر تعالى المؤمنين بأمر به تتم أمورهم، وتحصل سعادتهم الدنيوية والدنيوية؛ وهو طاعته وطاعة رسوله في أصول الدين وفروعه، والطاعة هي: امتثال الأمر، واجتناب النهي، على الوجه المأمور به، بالإخلاص وتمام المتابعة ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَلَكُمْ﴾ يشمل النهي عن إبطالها بعد عملها، بما يفسدها:

وَلَوْ نَشَاءُ لَأَنزَلْنَاهُمْ فَلَاحِقَهُمْ بِسْمِهِمْ وَلَعَرَفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَلَكُمْ ﴿٣١﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَسَاقُوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَصُرُوا اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحِيطُ أَعْمَلُهُمْ ﴿٣٣﴾ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَلَكُمْ ﴿٣٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَا تَوَّابُونَ وَهُمْ كَفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٥﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ لَا عَلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَبْزُكَ أَعْمَلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا لِعِيَاذِ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ دِينٌ وَتَوْفَاتُهُمْ وَتَقْوَاهُمْ أَجُورُكُمْ وَلَا تَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٧﴾ إِنْ سَأَلْتُمُوهُمَا فَيُخْفِكُم بِتَحْوَلٍ وَأُخْرِجَ أَصْغَنَكُمْ ﴿٣٨﴾ هَذَا شَرْهُهُمَا لَدَّ تَدْعُونَ لِيُخْفُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ فَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿٣٩﴾

بالمقامع الشديدة؟!

(٢٨) ﴿ذَلِكَ﴾ العذاب الذي استحقوه ونالوه ﴿يَأْنَهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿اتَّبَعُوا مَا اسَّخَطَ اللَّهَ﴾ من كل كفر وفسوق وعصيان ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَنَهُ﴾ فلم يكن لهم رغبة فيما يقر بهم إليه، ولا يدينهم منه ﴿فَأَخْطَ أَعْمَلُهُمْ﴾ أبطلها وأذهبها.

(٢٩) ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ من شبهة أو شهوة، بحيث تخرج القلب عن حال صحته واعتداله ﴿أَنْ لَّنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْغَنَهُمْ﴾ أن الله لا يخرج ما في قلوبهم من الأضغان والعداوة للإسلام وأهله؟ هذا ظن لا يليق بحكمة الله، فإنه لا بد أن يميز الصادق من الكاذب، وذلك بالابتلاء بالمحن.

(٣٠) ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ﴾ لأعلمناكم

وتنشيطهم، وتقوية أنفسهم على ما فيه صلاحهم وفلاحهم.

قال العلماء: هذا في حال علو المسلمين على أعدائهم، فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين، ورأى الإمام في المعاهدة والمهادنة مصلحة، فإن له أن يفعل ذلك، كما فعل رسول الله ﷺ حين صده كفار قريش عن مكة، ودعوه إلى الصلح، ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين، فأجابهم ﷺ إلى ذلك.

(٣٦) ﴿إِنَّمَا لِلدُّنْيَا لُغُوبٌ وَلَهُوَ﴾ هذا تهديد منه لعباده في الحياة الدنيا بإخبارهم عن حقيقة أمرها، بأنها لعب ولهو، لعب في الأبدان، ولهو في القلوب، وإنما الذي ينبغي أن يهتم به ما ذكره بقوله: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْاْ وَتَنَقَّبُواْ﴾ بأن تؤمنوا بالله، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتقوموا بتقواه التي هي من لوازم الإيمان ومقتضياته، وهي العمل بمرضاته على الدوام، مع ترك معاصيه، فهذا الذي ينفع العبد، وهو الذي ينبغي أن يتنافس فيه، وتبذل الهمم والأعمال في طلبه، وهو مقصود الله من عباده رحمة بهم ولطفاً؛ ليشبههم الثواب الجزيل، ولهذا قال: ﴿يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ﴾ جزاء أعمالكم في الآخرة ﴿وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ لا يريد تعالى أن يكلفكم ما يشق عليكم، ويعنتكم من أخذ أموالكم وبقائكم بلا مال، أو ينقصكم نقصاً يضركم.

(٣٧) ولذلك قال: ﴿إِنْ يَتَّخِذُواْ مَا بَيْنَهُمْ﴾ يجهدكم بالمسألة، ويلح عليكم بطلبها منكم فيلحف ﴿يَتَخَلَّوْاْ﴾ بها وتمنعوها إياه، ضئلاً منكم

من مَن بها، وإعجاب، وفخر، وسمعة، ومن عمل بالمعاصي، التي تضمحل معها الأعمال، ويحبط أجرها، ويشمل النهي عن إفسادها حال وقوعها، بقطعها، أو الإتيان بمفسد من مفسداتها.

(٣٤) ﴿إِنَّ الَّذِي كَفَرُواْ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿وَصَدُّواْ﴾ الخلق ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بتزهيدهم إياهم بالحق، ودعوتهم إلى الباطل وتزيينه ﴿ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ لم يتوبوا منه ﴿فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ لا بشفاعة، ولا غيرها.

ومفهوم الآية الكريمة: أنهم إن تابوا من ذلك قبل موتهم، فإن الله يغفر لهم ويرحمهم، ويدخلهم الجنة، ولو كانوا مفنين أعمارهم في الكفر به، والصد عن سبيله، والإقدام على معاصيه.

(٣٥) ﴿فَلَا تَهْتَفُواْ﴾ أي: لا تضعفوا عن قتال عدوكم ﴿وَلْتَدْعُواْ إِلَى السَّلَوةِ﴾ ولا تدعوا إلى المسالمة والمشاركة بينكم وبين أعدائكم، طلباً للراحة ﴿وَ﴾ الحال أنكم ﴿أَنْتُمْ الْأَغْلَوْنَ﴾ الغالبون وخارجية ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ بالعون والنصر والتأييد، وذلك موجب لقوة قلوبكم وإقدامكم على عدوكم، وفي هذا بشارة عظيمة ﴿وَلَنْ يَرْكُزَ أَعْمَلَكُمْ﴾ لا ينقصكم من أعمالكم شيئاً، بل سيوفيكُم أجوركم، ويزيدكم من فضله، خصوصاً عبادة الجهاد، فإن النفقة تضاعف فيه إلى سبع مائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، فإذا عرف الإنسان أن الله - تعالى - لا يضيع عمله وجهاده، أوجب له ذلك النشاط، وبذل الجهد فيما يترتب عليه الأجر والثواب، فكيف إذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة؛ فإن ذلك يوجب النشاط التام، فهذا من ترغيب الله لعباده،

والدنيوية ﴿فَمِنْكُمْ مَّنْ يَبْخُلْ﴾ فكيف لو سألكم وطلب منكم أموالكم في غير أمر ترونها مصلحة عاجلة؟ أليس من باب أولى وأحرى امتناعكم من ذلك ﴿وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ لأنه حرم نفسه ثواب الله تعالى، وفاته خير كثير، ولن يضر الله بترك الإنفاق شيئاً ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ تحتاجون إليه في جميع أوقاتكم لجميع أموركم.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الإيمان بالله وامتثال ما يأمركم به ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ في التولي، بل يطيعون الله ورسوله، ويحبون الله ورسوله.

سورة الفتح وهي مدنية

(١) ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ هذا الفتح المذكور؛ هو: صلح الحديبية، حين صد المشركون رسول الله ﷺ لما جاء معتمراً في قصة طويلة، صار آخر أمرها أن صالحهم رسول الله ﷺ على وضع الحرب بينه وبينهم عشر سنين، وعلى أن يعتمر من العام المقبل، وعلى أن من أراد أن يدخل في عهد قريش



بها، ولكن علم ذلك منكم، ومن ضيق أنفسكم فلم يسألكموها ﴿وَنُخْرِجَ أَصْعَانَكُمْ﴾ ما في قلوبكم من الضغن - أي: البغض والعداوة - إذا طلب منكم ما تكرهون بذله.

(٣٨) ثم قال تعالى مستدلاً على ذلك: ﴿هَآتَاكُمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِتُبْغِزُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ على هذا الوجه الذي فيه مصلحتكم الدينية

(٣٨) أخرج الترمذي وابن أبي حاتم وابن جرير بإسناد صحيح لغيره عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «إن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ قالوا: يا رسول الله من هؤلاء الذين إذا تولينا استبدل بنا، ثم لا يكونوا أمثالنا؟ قال: فضرب بيده على كتف سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثم قال: «هذا وقومه، لو كان الدين عند الثريا؛ لناله رجال من هؤلاء؟ يعني: سلمان الفارسي».

(١) في «الصححين» عن معاوية بن قرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت عبد الله بن المغفل يقول: قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في مسيره سورة الفتح على راحلته فرجع. ثم قرأ معاوية يحكي قراءة ابن مغفل وقال: لولا أن يجتمع الناس عليك لرجعت كما رجع ابن مغفل يحكي النبي ﷺ، فقلت لمعاوية كيف كان ترجيعه؟ قال: «آآ ثلاث مرات». وفي البخاري عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ قال: الحديبية.

قلوبهم، وهي السكون والطمأنينة، والثبات عند نزول المحن المقلقة، والأمور الصعبة؛ فالصحابه رضي الله عنهم لما جرى ما جرى بين رسول الله ﷺ والمشركون، من تلك الشروط التي ظاهرها أنها غضاضة عليهم، وخط من أقدارهم، وتلك لا تكاد تصبر عليها النفوس، فلما صبروا عليها ووطنوا أنفسهم لها، ازدادوا بذلك إيماناً مع إيمانهم ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ جميعها في ملكه، وتحت تدبيره وقهره، فلا يظن المشركون أن الله لا ينصر دينه ونبيه ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ ولكنه تعالى عليم حكيم، فتقتضي حكمته المداولة بين الناس في الأيام، وتأخير نصر المؤمنين إلى وقت آخر.

(٥) ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ حَتَّى تُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ فهذا أعظم ما يحصل للمؤمنين: أن يحصل لهم المرغوب المطلوب بدخول الجنات، ويزيل عنهم المحذور بتكفير السيئات ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ الجزاء المذكور للمؤمنين ﴿عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً﴾ فهذا ما يفعل بالمؤمنين في ذلك الفتح المبين.

وحلفهم دخل، ومن أحب أن يدخل في عهد رسول الله ﷺ وعقده فعل. فدخل الناس في تلك المدة في دين الله أفواجاً؛ فلذلك سماه الله فتحاً؛ ووصفه بأنه فتح مبين، أي: ظاهر جلي.

(٢) ورتب الله على هذا الفتح عدة أمور، فقال: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ وذلك بسبب ما حصل بسببه من الطاعات الكثيرة، والدخول في الدين بكثرة، وبما تحمل ﷺ من تلك الشروط التي لا يصبر عليها إلا أولو العزم من المرسلين، وهذا من أعظم مناقبه وكراماته ﷺ أن غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. ﴿وَيُؤْتِيْكُمْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ بإعزاز دينك، ونصرك على أعدائك، واتساع كلمتك ﴿وَيَهْدِيْكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً﴾ تنال به السعادة الأبدية، والفلاح السرمدي.

(٣) ﴿وَنُصْرِكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيماً﴾ قوياً لا يتضعع فيه الإسلام.

(٤) ﴿هُوَ الَّذِي أُنْزِلَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيُزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾ يخبر - تعالى - عن منته على المؤمنين؛ بإنزال السكينة في

(٢) في «صحيح البخاري» عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ قال: فسأته عن شيء - ثلاث مرات - فلم يرد علي قال: فقلت لنفسي: ثكلتك أمك يا بن الخطاب، نزلت رسول الله ﷺ ثلاث مرات فلم يرد عليك؛ قال: فركبت راحلتي فتقدمت مخافة أن يكون نزل في شيء، قال: فإذا أنا بمناد ينادي: يا عمر، أين عمر؟ قال: فرجعت وأنا أظن أنه نزل في شيء. قال: فقال رسول الله ﷺ «نزلت علي الليلة سورة هي أحب إلي من الدنيا وما فيها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ».

(٥) في «الصحيحين» عن أنس رضي الله عنه قال: نزلت على النبي ﷺ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مرجعه في الحديث، قال النبي ﷺ: «لقد أنزلت علي آية أحب إلي مما على الأرض» ثم قرأها عليهم النبي ﷺ، فقالوا: هنيئاً مريئاً يا نبي الله، لقد بين الله ﷻ ماذا يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فنزلت عليه: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾ حتى بلغ ﴿فَوْزاً عَظِيماً﴾.

جهنم مصيراً يصير إليه الكافرون والمنافقون .

(٧) ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كرر الإخبار بأن له ملك السماوات والأرض وما فيهما من الجنود؛ ليعلم العباد: أنه تعالى هو المعز المذل، وأنه سينصر جنوده المنسوبة إليه ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا﴾ قوياً غالباً، قاهراً لكل شيء ﴿حَكِيمًا﴾ ومع عزته وقوته؛ فهو حكيم في خلقه وتدبيره، يجري على ما تقتضيه حكمته وإتقانه .

(٨) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ أيها الرسول الكريم ﴿شَهِيدًا﴾ لأمتك بما فعلوه من خير وشر، وشاهداً على المقالات والمسائل، حقها وباطلها، وشاهداً لله -تعالى- بالوحدانية والانفراد بالكمال من كل وجه، ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ من أطاعك وأطاع الله بالثواب الدنيوي والديني والأخروي ﴿وَنَذِيرًا﴾ ومنذراً من عصى الله بالعقاب العاجل والآجل .

(٩) ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ بسبب دعوة الرسول لكم، وتعليمه لكم ما ينفعكم، أرسلناه لتقوموا بالإيمان بالله ورسوله، المستلزم ذلك لطاعتهما في جميع الأمور ﴿وَتَعَزَّزُوا﴾ تعظمووا رسول الله ﴿وَتَوْقَرُوا﴾ تحترمونه وتجلونه ﴿وَسُبِّحُوا﴾ تنزهوا الله ﴿بُكْرَةً﴾ أول النهار ﴿وَأَصِيلًا﴾ وآخره .

(١٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ هذه المبايعة التي أشار الله إليها هي بيعة الرضوان التي بايع

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ إِنَّ يَوْمَ الْفَتْحِ يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا لِّدَعَايِهِمْ قُلْ إِنَّمَا يَدْعُو رَبِّي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَيُصْعَقْنَ مِنَ الْعَذَابِ لَوْ أَنَّ لَهُمُ الْبُيُوتَ بِمَا كُفَرُوا لَعَمْرُوكَ إِنَّ يَوْمَ الْفَتْحِ يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا لِّدَعَايِهِمْ قُلْ إِنَّمَا يَدْعُو رَبِّي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَيُصْعَقْنَ مِنَ الْعَذَابِ لَوْ أَنَّ لَهُمُ الْبُيُوتَ بِمَا كُفَرُوا لَعَمْرُوكَ إِنَّ يَوْمَ الْفَتْحِ يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا لِّدَعَايِهِمْ قُلْ إِنَّمَا يَدْعُو رَبِّي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَيُصْعَقْنَ مِنَ الْعَذَابِ لَوْ أَنَّ لَهُمُ الْبُيُوتَ بِمَا كُفَرُوا لَعَمْرُوكَ

(٦) ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾ وأما المنافقون والمنافقات، والمشركون والمشركات، فإن الله يعذبهم بذلك، ويريهما ما يسوءهم؛ حيث كان مقصودهم خذلان المؤمنين، وظنوا بالله الظن السوء: أنه لا ينصر دينه، ولا يعلي كلمته، وأن أهل الباطل، ستكون لهم الدائرة على أهل الحق، فأدار الله عليهم ظنهم، وكانت دائرة السوء عليهم في الدنيا ﴿وَعَصَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ بما اقترفوه من المحادة لله ولرسوله ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾ أبعدهم وأقصاهم عن رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ هياً وأحضر لهم ﴿جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ وساءت

(١٠) أخرج الشيخان عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة، فقال لنا رسول الله ﷺ: «أنتم خير أهل الأرض اليوم» .

وعند أبي داود والترمذي والنسائي وأحمد وابن حبان عن جابر بإسناد صحيح: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة» .

لكان استغفار الرسول نافعاً لهم؛ لأنهم قد تابوا وأنابوا، ولكن الذي في قلوبهم أنهم إنما تخلفوا؛ لأنهم ظنوا بالله ظن السوء ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً﴾ لا يقدر أحد أن يرد ما أَرَادَهُ اللَّهُ فيكم ﴿كُلَّ كَانٍ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وهو العليم بسرائركم وإن صانعتونا ونافقتونا.

(١٢) ﴿كُلَّ طَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ فظنوا أنهم سيقتلون ويستأصلون، ﴿وَرُزِّتَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ ولم يزل هذا الظن يزين في قلوبهم، ويطمئنون إليه، حتى استحکم، وسبب ذلك أمران:

أحدهما: أنهم كانوا ﴿قَوَّامًا بُرًّا﴾ هلكى، لا خير فيهم، فلو كان فيهم خير لم يكن هذا في قلوبهم.

الثاني: ضعف إيمانهم وبقينهم بوعده الله، ونصر دينه، وإعلاء كلمته.

(١٣) ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فإنه كافر مستحق للعقاب ﴿فَإِنَّا آَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾.

(١٤) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هو تعالى المنفرد بملك السماوات والأرض، يتصرف فيهما بما يشاء من الأحكام القدريّة، والأحكام الشرعية، والأحكام الجزائية، ولهذا ذكر حكم الجزاء المرتب على الأحكام الشرعية فقال: ﴿يَعْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ وهو من قام بما أمره الله به، ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ ممن تهاون بأمر الله ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي: وصفه اللازم

الصحابه ﴿فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ﴾ على أن لا يفروا عنه، فهي عقد خاص من لوازمه أن لا يفروا، ولو لم يبق منهم إلا القليل، ولو كانوا في حال يجوز الفرار فيها، فأخبر تعالى: أن الذين يبايعونك حقيقة الأمر أنهم ﴿يَبَايِعُونَكَ ﷻ﴾ ويعقدون العقد معه، حتى إنه من شدة تأكده أنه قال: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ هي يد حقيقية، تليق بجلال الله سبحانه وكماله، وليس المراد: قوة الله أو نعمته، فهو تأويل باطل، وكأنهم بايعوا الله وصافحوه بتلك المبايعة، وكل هذا لزيادة التأكيد والتقوية، وحملهم على الوفاء بها ﴿فَمَنْ تَكَلَّ﴾ فلم يف بما عاهد الله عليه ﴿فَإِنَّمَا يَنْكُحُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ لأن وبال ذلك راجع إليه، وعقوبته واصله له ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ﴾ أتى به كاملاً موفراً ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يعلم عظمه وقدره إلا الذي آتاه إياه.

(١١) ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ يذم تعالى المتخلفين عن رسوله في الجهاد في سبيله، من الأعراب الذين ضعف إيمانهم، وكان في قلوبهم مرض، وسوء ظن بالله تعالى، وأنهم سيعتذرون بأن أموالهم وأهليهم شغلتهم عن الخروج في الجهاد، وأنهم طلبوا من رسول الله ﷺ أن يستغفر لهم، قال الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ فإن طلبهم الاستغفار من رسول الله ﷺ يدل على ندمهم وإقرارهم على أنفسهم بالذنوب، وأنهم تخلفوا تخلفاً يحتاج إلى توبة واستغفار، فلو كان هذا الذي في قلوبهم

﴿قُلْ﴾ لهم ﴿لَنْ تَنَالُوا كَذَلِكَ﴾ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَوْلِهِمْ ﴿إِنَّكُمْ مَحْرُومُونَ﴾ بِمَا جَنَيْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وبما تركتم القتال أول مرة. ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ مجيبين لهذا الكلام الذي منعوا به عن الخروج: ﴿بَلْ نَحْشُدُونَكُمْ﴾ على الغنائم، هذا منتهى علمهم في هذا الموضع، ولو فهموا رشدهم؛ لعلموا أن حرمانهم بسبب عصيانهم، وأن المعاصي لها عقوبات دنيوية ودينية ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يعلمون من الله ما لهم وما عليهم من الدين ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ منهم وهو من صدق الله والرسول.

(١٦) ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدْعُونَ إِلَيَّ﴾ قَوْمُ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٌ سِيدِعُوكُمُ الرِّسُولَ وَمِنْ نَابِ مَنَابِهِ مِنَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَالْأَثَمَةِ، وهؤلاء القوم فارس والروم ومن نحا نحوهم وأشبههم ﴿فَتَقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ﴾ إما هذا وإما هذا، وهذا هو الأمر الواقع، فإنهم في حال قتالهم ومقاتلتهم لأولئك الأقوام، إذ كانت شدتهم وبأسهم معهم، فإنهم في تلك الحال لا يقبلون أن يبذلوا الجزية، بل إما أن يدخلوا في الإسلام، وإما أن يقاتلوا على ما هم عليه، فلما أئخنهم المسلمون، وضعفوا وذلوا، ذهب بأسهم، فصاروا إما أن يسلموا، وإما أن يبذلوا الجزية ﴿فَإِنْ تَطِيعُوا﴾ الداعي لكم إلى قتال هؤلاء ﴿يُؤْتِكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ وهو الأجر الذي رتبته الله ورسوله على الجهاد في

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدْعُونَ إِلَيَّ قَوْمُ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٌ
فَتَقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا
وَأَنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٦
عَلِ الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ
وَمَنْ يَطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ١٧ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ
الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ
فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ١٨ وَمَعَائِنَ
كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٩ وَعَدَّكُمْ اللَّهُ
مَعَائِنَ كَثِيرَةً فَأَخَذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ، وَكَفَّ أَيْدِيَ
النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَهَةً لِيَوْمِكُمْ صِرَاطًا
مُسْتَقِيمًا ٢٠ وَأُخْرَى لَتَرْفَعُوا أَعْلَانَكُمْ فَدَلَّاهُمْ اللَّهُ بِهَا
وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ٢١ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا
لَوْلَا الْأَنْبَرُ لَكُمُ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ٢٢ سُدَّةً
اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ٢٣

الذي لا ينفك عنه المغفرة والرحمة؛ فلا يزال في جميع الأوقات يغفر للمذنبين، ويتجاوز عن الخطئين، ويتقبل توبة التائبين. (١٥) ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ لما ذكر تعالى المخلفين وذمهم، ذكر أن من عقوبتهم الدنيوية: أن رسول الله ﷺ وأصحابه إذا انطلقوا إلى غنائم لا قتال فيها ليأخذوها، طلبوا منهم الصحبة والمشاركة، ويقولون: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ﴾ بذلك ﴿أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾ حيث حكم بعقوبتهم، واختصاص الصحابة المؤمنين بتلك الغنائم شرعاً وقدرًا.

(١٦) في «الصحيحين» عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً صغاراً الأعين، ذلف الأنوف، كأن وجوههم المجان المطرقة». قال سفيان: هم الترك.

وهذا يشمل كل غنيمة غنمها المسلمين إلى يوم القيامة ﴿فَعَجَّلْ لَكُمْ هَذِهِ﴾؛ أي: غنيمة خير، فلا تحسبوها وحدها، بل ثم شيء كثير من الغنائم سيتبعها ﴿وَكَفَّ أَيْدِي النَّاسِ﴾؛ أي: واحمدوا الله إذ كف أيدي الناس عنكم القادرين على قتالكم، الحريصين عليه ﴿عَنْكُمْ﴾ فهي نعمة، وتخفيف عنكم ﴿وَلَنَكُونَنَّ﴾ هذه الغنيمة ﴿ءَايَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يستدلون بها على خبر الله الصادق، ووعد الحق، وثوابه للمؤمنين، وأن الذي قدرها سيقدر غيرها ﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾ بما يقبض لكم من الأسباب ﴿صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ من العلم والإيمان والعمل.

(٢١) ﴿وَأُخْرَى﴾ وعدكم أيضاً غنيمة أخرى ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ وقت هذا الخطاب ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ هو قادر عليها، وتحت تدبيره ومملكه، وقد وعدكموها، فلا بد من وقوع ما وعد به؛ لكمال اقتدار الله تعالى ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

(٢٢) ﴿وَلَوْ قَتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هذه بشارة من الله لعباده المؤمنين بنصرهم على أعدائهم الكافرين، وأنهم لو قابلوهم وقتلوههم ﴿لَوَلُوا أَلَا تَذَكَّرُ ثُمَّ لَا يَجِدُوكَ وَإِنَّا﴾ يتولى أمرهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم ويعينهم على قتالكم، بل هم مخدولون مغلوبون.

(٢٣) ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ وهذه سنة الله في الأمم السابقة أن جند الله هم الغالبون ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾

سبيل الله ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ عن قتال من دعاكم الرسول إلى قتاله، ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وهو النار.

(١٧) ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ في التخلف عن الجهاد لعذرهم المانع. ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في امتثال أمرهما، واجتناب نهيهما ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ عن طاعة الله ورسوله ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فالسعادة كلها في طاعة الله، والشقاوة في معصيته ومخالفته.

(١٨) ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله تحت الشجرة ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الإيمان ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ تثبتهم، وتطمئن بها قلوبهم ﴿وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو: فتح خير، لم يحضره سوى أهل الحديبية، فاختصوا بخير وغنائمها، جزاء لهم، وشكراً على ما فعلوه من طاعة الله تعالى والقيام بمرضاته.

(١٩) ﴿وَمَعَانِهِ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ وكان الله عزيزاً حكيماً؛ أي: له العزة والقدرة التي قهر بها الأشياء، فلو شاء لانتصر من الكفار في كل وقعة تكون بينهم وبين المؤمنين، ولكنه حكيم، يتلي بعضهم ببعض، ويمتحن المؤمن بالكافر.

(٢٠) ﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَعَانِيَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾

منتبهين؛ فأمسكوهم فتركوهم ولم يقتلوهم، رحمة من الله بالمؤمنين إذ لم يقتلوهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ فيجازي كل عامل بعمله، ويدبركم أيها المؤمنون بتدبيره الحسن.

(٢٥) ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ثم ذكر تعالى الأمور المهيجة على قتال المشركين، وهي: كفرهم بالله ورسوله، وصدهم رسول الله ومن معه من المؤمنين أن يأتوا للبيت الحرام زائرين معظمين له بالحج والعمرة، ﴿وَهُمُ الَّذِينَ -أَيْضًا- صَدُوا الْهَيْدِيَّ مَعُكُوفًا﴾ محبوساً ﴿أَنْ يَبْلُغَ حِلَّةً﴾ وهو محل ذبحه، وهو مكة، فمنعوه من الوصول إليه ظلماً وعدواناً ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ لَّارْتَدَّوْهُمْ﴾؛ أي: ولكن ثم مانع، وهو: وجود رجال ونساء من أهل الإيمان بين أظهر المشركين، وليسوا متميزين بمحلة أو مكان يمكن أن لا ينالهم أذى، فلولا هؤلاء الرجال المؤمنون، والنساء المؤمنات، الذين لا يعلمهم المسلمون ﴿أَنْ تَطَّوَّهُمْ﴾، خشية أن تطأوهم ﴿فَتَضِيبُكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ والمعرة: ما يدخل تحت قتالهم من نيلهم بالأذى والمكروه ﴿لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ وفائدة أخروية، وهو أنه ليدخل في رحمته من يشاء فيمن عليهم بالإيمان بعد الكفر، وبالهدى بعد الضلال،

وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٥﴾ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعُكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِلَّةً وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ لَّارْتَدَّوْهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَيَضِيبُكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةً بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَنَذَرْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ صَدَابًا أَيْمًا ﴿٢٦﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حِمَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٧﴾ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّبَّاءُ بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ أَنْ حَرَامٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يُخْلِفِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتَحًا مَرِئًا ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٩﴾

فكان هذا كالسنن الكونية التي لا تتغير ولا تبدل.

(٢٤) يقول -تعالى- ممتناً على عباده بالعافية، من شر الكفار ومن قتالهم، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ﴾ أهل مكة ﴿عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ من بعد ما قدرتم عليهم، وصاروا تحت ولايتكم بلا عقد ولا عهد، وهم نحو ثمانين رجلاً، انحدروا على المسلمين، ليصيبوا منهم غرة، فوجدوا المسلمين

(٢٤) أخرج مسلم عن أنس رضي الله عنه: أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلحين، يريدون غرة النبي ﷺ وأصحابه، فأخذهم سلباً فاستحياهم؛ فأنزل الله ﻻ إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

(٢٥) أخرج أبو يعلى والطبراني وأبو نعيم في «معركة الصحابة» وابن أبي حاتم بإسناد حسن عن أبي جمعة رضي الله عنه قال: فانت النبي ﷺ أول النهار كافراً، وقانت معه آخر النهار مسلماً، وكنا ثلاث رجال وسبع نسوة وفينا أنزلت: ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْمَحْجَرَاتِ

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْبَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِجْحَادِ كَرَرَجٍ أَخْرَجَ سَطْرَهُ فَتَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ٥١

سُورَةُ الْمَحْجَرَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ عِقَابِهِ ١ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ٢ إِنْ الَّذِينَ يُعِضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ٣ إِنْ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ٤

٥١

فيمنعكم من قتالهم لهذا السبب ﴿لَوْ تَرَزَّلُوا﴾ أي: لو زالوا من بين أظهرهم ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بأن نبيح لكم قتالهم، ونأذن فيه، وننصركم عليهم.

(٢٦) ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ حيث أنفوا من كتابة (بسم الله الرحمن الرحيم)، وأنفوا من دخول رسول الله ﷺ والمؤمنين إليهم في تلك السنة؛ لثلا يقول الناس: دخلوا مكة قاهرين لقریش. وهذه الأمور ونحوها من أمور الجاهلية، لم تزل في قلوبهم، حتى أوجبت لهم ما أوجبت من كثير من المعاصي ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فلم يحملهم الغضب على مقابلة المشركين بما قابلوهم به، بل صبروا لحكم الله، والتزموا الشروط التي فيها تعظيم حرمان الله، ولو كانت ما كانت، ولم يبالوا بقول القائلين، ولا لوم اللائمين ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ وهي لا إله إلا الله وحقوقها، ألزمهم القيام بها، فالتزموها وقاموا بها، ﴿وَكَانُوا أَتَقَىٰ بِهَا﴾ من غيرهم ﴿وَوَكَانُوا أَهْلَهَا﴾ الذين استأهلوها لما يعلم الله عندهم وفي قلوبهم من الخير، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾

(٢٧) ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ أي: لا بد من وقوعها وصدقها، ولا يقدح في ذلك تأخر تأويلها، ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ

شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحْلِقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ في هذه الحال المقضية لتعظيم هذا البيت الحرام، وأدائكم للنسك، وتكميله بالحلقة والتقصير، وعدم الخوف ﴿فَعَلِمَ﴾ من المصلحة والمنافع ﴿مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ الدخول بتلك الصفة ﴿فَتَحًا قَرِيبًا﴾.

(٢٨) ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ﴾ الذي هو العلم النافع، الذي يهدي من الضلالة، ويبين طرق الخير والشر ﴿وَوَيْتَ الْحَقَّ﴾ الدين الموصوف بالحق، وهو العدل والإحسان

(٢٦) أخرج الترمذي والطبري والطبراني والبيهقي في «الأسماء والصفات» وعبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» بإسناد صحيح عن أبي بن كعب رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قال: «لا إله إلا الله».

(٢٧) في «الصحيحين» من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله المحلقين». قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «رحم الله المحلقين» قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «والمقصرين» في الثالثة أو الرابعة.

ونفعهم للخلق واحتياج الناس إليهم، فقوة إيمانهم وأعمالهم بمنزلة قوة عروق الزرع وسوقه، وكون الصغير والمتأخر إسلامه قد لحق الكبير السابق ووازره وعاوناه على ما هو عليه، من إقامة دين الله والدعوة إليه، كالزرع الذي أخرج شطأه، فأزره فاستغلظ، ولهذا قال: ﴿لِيَغِطَّ بِهِمُ الْكُفَّارُ﴾ حين يرون اجتماعهم وشدتهم على دينهم، وحين يتصادمون هم وهم في معارك النزال، ومعامع القتال ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ فالصحابه رضي الله عنهم الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، قد جمع الله لهم بين المغفرة، التي من لوازمها وقاية شرور الدنيا والآخرة، والأجر العظيم في الدنيا والآخرة. قال العلماء: ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك رحمته الله في رواية عنه بتكفير الروافض الذين ينتقصون الصحابة رضي الله عنهم ويسبونهم؛ لأنهم يغيظونهم، ومن غاظ الصحابة فهو كافر لهذه الآية، ووافقه طائفة من العلماء على ذلك.

سورة الحجرات وهي مدنية

(١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ هذا متضمن للأدب مع الله تعالى ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتعظيم له واحترامه وإكرامه، فأمر الله عباده المؤمنين أن لا يتقدموا بين يدي الله ورسوله، ولا يقولوا حتى يقول، ولا يأمرؤا حتى يأمر، فإن هذا

والرحمة ﴿يُظهِرُهُ﴾ بما بعثه الله به ﴿عَلَى الَّذِينَ كَلَّمَهُ﴾ بالحجة والبرهان، ويكون داعياً لإخضاعهم بالسيف والسنان ﴿وَكُفِّنَ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على أنك نبي صادق فيما تخبر عن ربك، وأن الله ناصر لك ما وعدك.

(٢٩) ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ يخبر تعالى عن رسوله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المهاجرين والأنصار: أنهم بأكمل الصفات وأجل الأحوال، وأنهم ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ جادون ومجتهدون في عداوتهم، وساعون في ذلك بغاية جهدهم ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ متحابون متراحمون متعاطفون ﴿تَرَاهُمْ رُكَّاعًا سُجَّدًا﴾ وصفهم كثرة الصلاة التي أجل أركانها الركوع والسجود ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ بتلك العبادة ﴿نُضُلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ هذا مقصودهم بلوغ رضا ربهم، والوصول إلى ثوابه ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ قد أثرت العبادة - من كثرتها وحسنها - في وجوههم، حتى استنارت لما استنارت بالصلاة بواطنهم، استنارت، بالجلال ظواهرهم ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ هذا وصفهم الذي وصفهم الله به مذكور بالتوراة هكذا ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ وأما مثلهم في الإنجيل؛ فإنهم موصوفون بوصف آخر، وأنهم في كمالهم وتعاونهم ﴿كَزَّعَ أَخْرَجَ سَقَطَهُ فَأَزْرَعُ﴾ أخرج فراخه، فوازرت فراخه في الشباب والاستواء ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ ذلك الزرع، أي: قوي وغلظ ﴿فَاسْتَوَى عَلَى سَوْفِهِ﴾ جمع ساق ﴿بُنِجِبَ الزَّرْعُ﴾ من كماله واستوائه وحسنه واعتداله؛ كذلك الصحابة رضي الله عنهم هم كالزرع في

(٢٩) في «الصحاحين» من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحداكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه».

(١) اخرج الطبراني في «الأوسط» والدارقطني في «المؤتلف والمختلف» من طرق يقوي بعضها بعضاً عن مسروق: -

﴿كَجَهَرٍ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ﴾ ولا يكون الرسول كأحدهم، بل يميزوه في خطابهم، كما تميز عن غيره في وجوب حقه على الأمة، ووجوب الإيمان به ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ وخشية أن يحبط عمل العبد وهو لا يشعر، كما أن الأدب معه من أسباب حصول الثواب وقبول الأعمال.

(٣) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ مدح من غضض صوته عند رسول الله ﷺ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَمَّا اللَّهُ قُلُوبُهُمْ لِلنَّفْوَى﴾ بأن الله امتحن قلوبهم للتقوى؛ أي: ابتلاها واختبرها، فظهرت نتيجة ذلك، بأن صلحت قلوبهم للتقوى ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ ثم وعدهم المغفرة لذنوبهم، المتضمنة لزوال الشر والمكروه ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ والأجر العظيم، الذي لا يعلم وصفه إلا الله تعالى.

حقيقة الأدب الواجب مع الله ورسوله، وهو عنوان سعادة العبد وفلاحه، وفي هذا النهي الشديد عن تقديم قول غير الرسول ﷺ على قوله، فإنه متى استبانت سنة رسول الله ﷺ وجب اتباعها، وتقديمها على غيرها كائناً ما كان ﴿وَأَنفُوا اللَّهَ﴾ فيما أمركم به ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لجميع الأصوات في جميع الأوقات، في خفي المواضع والجهات ﴿عَلِيمٌ﴾ بالظواهر والبواطن، والسوابق واللاحق، والواجبات والمستحبات والممكنات.

(٢) ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾ لا يرفع المخاطب له صوته معه فوق صوته، ولا يجهر له بالقول بل يغض الصوت، ويخاطبه بأدب ولين، وتعظيم وتكريم، وإجلال وإعظام

أنه دخل على عائشة ؓ في اليوم الذي يشك فيه من رمضان، فقالت: يا جارية، خصوصي له سوياً. فقال: إني صائم. فقالت: تقدمت الشهر؟ فقلت: لا، ولكنني صمت شعبان كله فوافق ذلك هذا اليوم. فقالت: إن ناساً كانوا يتقدمون الشهر فيصومون قبل النبي ﷺ، فأنزل الله ﷻ ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَأُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

(٢) أخرج البخاري عن ابن أبي مليكة قال: كاد الخيران أن يهلكا: أبو بكر وعمر ؓ؛ رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم ركب بني تميم، فأشار أحدهما بالآقرع بن حابس أخي بني مجاشع، وأشار الآخر بـرجل آخر، فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي. قال: ما أردت خلافتك. فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾. فما كان عمر يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه، ولم يذكر ذلك عن أبيه يعني: أبا بكر. وأخرج الشيخان عن أنس بن مالك ؓ أنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ إلى آخر الآية؛ جلس ثابت بن قيس في بيته، وقال: أنا من أهل النار، واحتبس عن النبي ﷺ فسأل النبي ﷺ سعد بن معاذ فقال: يا أبا عمرو، ما شأن ثابت أشتكى؟ قال سعد: إنه لجاري وما علمت له بشكوى قال: فأتاه سعد فذكر له قول رسول الله ﷺ فقال: ثابت: أنزلت هذه الآية، ولقد علمتم أنني من أرفعكم صوتاً على رسول الله ﷺ، فأتانا من أهل النار، فذكر ذلك سعد للنبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: بل هو من أهل الجنة.

وعند البخاري من حديث أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يكتب له بها الجنة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في النار أبعد ما بين السماوات والأرض».

فقال: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ وصفهم بالجهل وقلة العقل؛ حيث لم يعقلوا عن الله الأدب مع رسوله واحترامه، كما أن من العقل استعمال الأدب، فأدب العبد عنوان عقله.

(٥) ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ لكان لهم في ذلك الخيرة والمصلحة في الدنيا والآخرة ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لما صدر عن عباده من الذنوب والإخلال بالآداب، ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم؛ حيث لم يعاجلهم بذنوبهم بالعقوبات والمثالات.

(٦) ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِثْلِهِ﴾ وهذا -أيضاً- من الآداب التي على أولى الألباب التأدب بها واستعمالها، وهو أنه إذا أخبرهم فاسق بخبر أن يتثبتوا في خبره، ولا يأخذوه مجرداً، فإن في ذلك خطراً كبيراً، ووقوعاً في الإثم، فإن خبره إذا جعل بمنزلة خبر الصادق العدل، حكم بموجب ذلك ومقتضاه، فحصل من تلف النفوس والأموال بغير حق ﴿فَصُحِّحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ بسبب ذلك

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِثْلِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦) وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَّ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضَلَّاهُمْ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ (٨) وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا أَتَيْنَاهُمَا بِغَتٍّ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَفَتَنِيَا أَلَّتِي رَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْضُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠) يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَخْرُجُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا ضَرَّاءَ مِنْ ضَرَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنْ خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١)

(٤) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ ذم تبارك وتعالى الذين ينادونه من وراء الحجرات وهي بيوت نسائه كما يصنع أجلاف الأعراب؛

(٥) أخرج أحمد والطبري والطبراني والضياء في «الأحاديث المختارة» بإسناد صحيح عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن الأقرع بن حابس: أنه أتى النبي ﷺ فقال: يا محمد اخرج إلينا؛ فلم يجبه، فقال: يا محمد، إن حمدي زين، وإن دمي شين؛ فقال: «ذاك هو الله». فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

(٦) أخرج الطبراني وابن أبي عاصم في «الأحاديث والمثنائي» وأبو نعيم في «معركة الصحابة» وابن عساکر، عن علقمة بن ناجية قال: بعث إلينا رسول الله ﷺ الوليد بن عتبة بن أبي معيط يصدق أموالنا، فسار حتى إذا كان قريباً منا -وذلك بعد وقعة المريسيع- رجع؛ فركبنا في أثره، فأتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، أتيت قوماً في جاهليتهم أخذوا اللباس ومنعوا الصدقة، فلم يغير ذلك النبي ﷺ حتى نزلت: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ﴾ [الحجرات: ٦]، وأتى المصطلقون النبي ﷺ أثر الوليد بطائفة من صدقاتهم يسوقونها، ونفقات يحملونها، فذكروا ذلك له، وأنهم خرجوا يطلبون الوليد بصدقاتهم فلم يجدوا، فدفعوا إلى رسول الله ﷺ ما كان معهم، وقالوا: يا رسول الله! بلغنا مخرج رسولك فسررنا بذلك، وقلنا: نتلقاه فبلغنا رجعت، ففخنا أن يكون ذلك من سخطه علينا، وعرضوا على النبي ﷺ أن يشتروا منه ما بقي، فقبل منهم الفرائض، وقالوا: «ارجعوا بنفقاتكم لا نبيع شيئاً من الصدقات حتى نقبضه»، فرجعوا إلى أهلهم، وبعث إليهم من قبض بقية صدقاتهم.

وأخرج أبو يعلى والبيهقي بإسناد حسن من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال: «الثاني من الله، والعجلة من الشيطان».

بحولهم وقوتهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ عليم بمن يشكر النعمة، فيوفقه لها، ممن لا يشكرها، ولا تليق به، فيضع فضله حيث تقتضيه حكمته.

(٩) ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ هذا متضمن لنهي المؤمنين عن أن يبغي بعضهم على بعض، ويقاتل بعضهم بعضاً، وأنه إذا اقتتلت طائفتان من المؤمنين، فإن على غيرهم من المؤمنين أن يتلافوا هذا الشر الكبير بالإصلاح بينهم، والتوسط بذلك على أكمل وجه يقع به الصلح، ويسلكوا الطريق الموصلة إلى ذلك، ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: ترجع إلى ما حذ الله ورسوله، من فعل الخير وترك الشر، الذي من أعظمه الاقتتال ﴿فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ هذا أمر بالصلح، وبالعادل في الصلح، فإن الصلح قد يوجد، ولكن لا يكون بالعادل، بل بالظلم والحيث على أحد الخصمين، فهذا ليس هو الصلح المأمور به، فيجب أن لا يراعى أحدهما لقربة أو وطن، أو غير ذلك من المقاصد والأغراض، التي توجب العدول عن العدل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ العادلين في حكمهم بين الناس وفي جميع الولايات التي تولوها.

(١٠) ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ هذا عقد عقده الله بين المؤمنين: أنه إذا وجد من أي شخص كان - في مشرق

الخبر ما يكون سبباً للندامة، بل الواجب عند خبر الفاسق التثبت والتبين، فإن دلت الدلائل والقرائن على صدقه، عمل به وصدق، وإن دلت على كذبه، كذب ولم يعمل به.

(٧) ﴿وَاعْلَمُوا أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ﴾ أي: ليكن لديكم معلوماً أن رسول الله ﷺ بين أظهركم، وهو الرسول الكريم البار الراشد الذي يريد بكم الخير وينصح لكم، وتريدون لأنفسكم من الشر والمضرة ما لا يوافقكم الرسول عليه، و ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ﴾ لشق عليكم وأعنتمكم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ ولكن الرسول يرشدكم، والله تعالى يحب إليكم الإيمان، ويزينه في قلوبكم، بما أودع الله في قلوبكم من محبة الحق وإيثاره ﴿وَكَرِهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ ويكره إليكم الكفر والفسوق؛ أي: الذنوب الكبار، والعصيان: وهي ما دون ذلك من الذنوب بما أودع في قلوبكم من كراهة الشر، وعدم إرادة فعله ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ الذين زين الله الإيمان في قلوبهم، وحببه إليهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ﴿هُمُ الرُّشِدُونَ﴾ الذين صلحت علومهم وأعمالهم، واستقاموا على الدين القويم، والصراف المستقيم.

(٨) ﴿فَضَلَّا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ ذلك الخير الذي حصل لهم، هو بفضل الله عليهم وإحسانه، لا

(٩ و ١٠) أخرج الشيخان عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قيل للنبي ﷺ لو أتيت عبد الله بن أبي، فأنطلق إليه النبي ﷺ وركب جماراً، فأنطلق المسلمون يمشون معه وهي أرض سبخة، فلما أتاه النبي ﷺ فقال: إليك عني، والله لقد آذاني ثن جمارك، فقال رجل من الأنصار منهم: والله لجمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك، فعضب لعبد الله رجل من قومه فشتما، فعضب لكل واحد منهما أصحابه، فكان بينهما ضرب بالجريد والأيدي والتعالي، فبلغنا أنها أنزلت: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾.

نِسَاءً مِّن نِّسَاءِ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴿١٠﴾ فعسى أن يكون المسخور به خيراً من الساخر، كما هو الغالب والواقع؛ فإن السخرية لا تقع إلا من قلب ممتلئ من مساوئ الأخلاق، متحلّ بكل خلق ذميم، ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾؛ أي: يجب بعضكم على بعض، واللمز بالقول، والهمز بالفعل، وكلاهما منهي عنه حرام، متوعد عليه بالنار. وسمي الأخ المؤمن نفساً لأخيه؛ لأن المؤمنين ينبغي أن يكون هكذا حالهم كالجسد الواحد، ولأنه إذا همز غيره أوجب للغير أن يهمزه، فيكون هو المتسبب لذلك ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾؛ أي: لا يعير أحدهم أخاه، ويلقبه بلقب ذم يكره أن يطلق عليه، وهذا هو التنازع، وأما الألقاب غير المذمومة فلا تدخل في هذا.

﴿يَسَّ الْأَنفُسُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ بثسما تبدلت عن الإيمان والعمل بشرائعه وما تقتضيه، بالإعراض عن أوامره ونواهيه، باسم الفسوق والعصيان الذي هو التنازع بالألقاب ﴿وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ فهذا هو الواجب على العبد: أن يتوب إلى الله - تعالى - ويخرج من حق أخيه المسلم، باستحلاله والاستغفار

الأرض ومغربها - الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر؛ فإنه أخ للمؤمنين، أخوة توجب أن يحب له المؤمنون ما يحبون لأنفسهم، ويكرهون له ما يكرهون لأنفسهم، ولقد أمر الله ورسوله بالقيام بحقوق المؤمنين بعضهم لبعض، وبما به يحصل التألف والتوadd، والتواصل بينهم، كل هذا تأييد لحقوق بعضهم على بعض، فمن ذلك إذا وقع الاقتتال بينهم الموجب لتفرق القلوب وتباغضها وتدابرها، فليصلح المؤمنون بين إخوانهم، وليسعوا فيما به يزول شنائهم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ثم أمر بالتقوى عموماً، ورتب على القيام بحقوق المؤمنين وبتقوى الله، الرحمة؛ فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ وإذا حصلت الرحمة، حصل خير الدنيا والآخرة، ودل ذلك على أن عدم القيام بحقوق المؤمنين من أعظم حواجب الرحمة.

(١١) ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وهذا - أيضاً - من حقوق المؤمنين بعضهم على بعض: أن ﴿لَا يَحْرَجَ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ بكل كلام وقول وفعل دال على تحقير الأخ المسلم، فإن ذلك حرام، لا يجوز، وهو دال على إعجاب الساخر بنفسه، و﴿عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا

(١١) أخرج أصحاب السنن وأحمد بإسناد صحيح، عن أبي جَبْرِة بن الصَّحَّاحِ قَالَ: فِينَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، فِي بَنِي سَلَمَةَ: ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ يَسَّ الْأَنفُسُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ قَالَ: قَدِمَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَيْسَ مِنَّا رَجُلٌ إِلَّا وَلَهُ اسْمَانِ أَوْ ثَلَاثَةٌ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «يَا فَلَانُ». فَيَقُولُونَ: مَهْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ يَغْضَبُ مِنْ هَذَا الْإِسْمِ، فَأَنْزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾.

والمدح له مقابلة على ذمه.

(١٢) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾

نهى الله تعالى عن كثير من الظن السوء بالمؤمنين، ﴿فَإِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ وذلك كالظن الخالي من الحقيقة والقرينة، وكظن السوء الذي يقترب به كثير من الأقوال والأفعال المحرمة ﴿وَلَا يَجَسَّسُوا﴾؛ أي: لا تفتشوا عن عورات المسلمين ولا تتبعوها ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ والغيبة كما قال النبي ﷺ: «ذكرك أخاك بما يكره ولو كان فيه» ﴿أَيُّبُ أَمَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ شبه أكل لحمه ميتاً المكروه للنفس غاية الكراهة باغتيابه؛ فكما أنكم تكرهون أكل لحمه وخصوصاً إذا كان ميتاً فاقد الروح؛ فكذلك فلتكرهوا غيبته وأكل لحمه حياً ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ﴾ يأذن بتوبة عبده فيوفقه لها، ثم يتوب عليه بقبول توبته، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بعباده؛ حيث دعاهم إلى ما ينفعهم، وقبِل منهم التوبة.

(١٣) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ يخبر تعالى أنه خلق بني آدم من أصل واحد،

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا يَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُّبُ أَمَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّدِيقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهُ يَدِينُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِنْ أَسْلَمْتُكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

وجنس واحد، وكلهم من ذكر وأنثى، ويرجعون جميعهم إلى آدم وحواء ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ ولكن الله تعالى بث منهما رجالاً كثيراً ونساء، وفرقهم، وجعلهم شعوباً وقبائل؛ أي: قبائل صغاراً وكباراً، وذلك لأجل أن يتعارفوا ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ

(١٢) أخرج الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً».

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله، ما الغيبة؟ قال: «ذكرك أخاك بما يكره» قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته».

(١٣) أخرج الترمذي وأحمد وغيرهما بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم؛ فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مثرة في المال، منسأة في الأثر».

وأخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الناس أكرم؟ فقال: «أكرمهم عند الله أتقاهم» قالوا ليس عن هذا نسألك. قال: «فأكرم الناس يوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله» قالوا: ليس من هذا نسألك. قال: «فعن معادن العرب تسألوني؟» قالوا: نعم. قال: «فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا».

وَنَفَاتِسْ أَمْوَالَهُمْ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴿١٧﴾ شَرَطَ تَعَالَى فِي الْإِيمَانِ عَدَمَ الرِّيبِ، وَهُوَ الشُّكُّ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ النَّافِعَ هُوَ الْجَزْمُ الْيَقِينِيُّ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِالْإِيمَانِ بِهِ ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ الَّذِينَ صَدَقُوا إِيْمَانَهُمْ بِأَعْمَالِهِمُ الْجَمِيلَةِ.

(١٦) ﴿قُلْ أَتَمَلُّونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وهذا شامل للأشياء كلها التي من جملتها ما في القلوب من الإيمان والكفران، والبر والفجور، فإنه تعالى يعلم ذلك كله، ويجازي عليه؛ إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

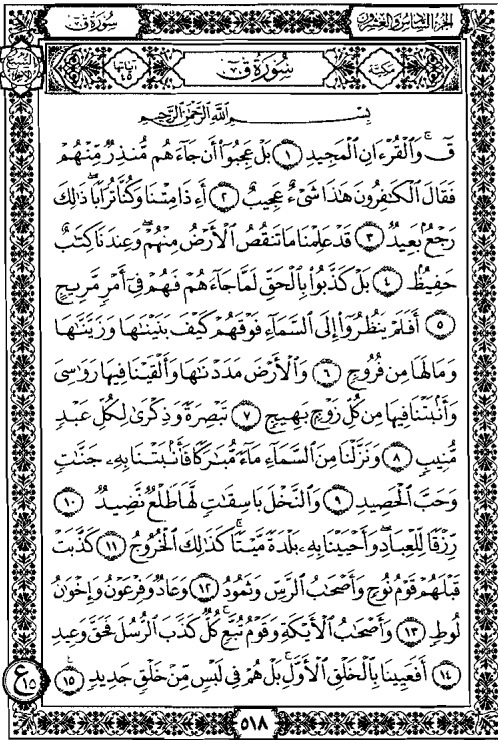
(١٧) ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِلَّا بِمَا نَزَّلْتُ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ أَهْلِ الذِّكْرِ﴾ هذه حالة من أحوال من ادعى لنفسه الإيمان، وليس به؛ فإنه إما أن يكون ذلك تعليماً لله، وقد علم أنه عالم بكل شيء، وإما أن يكون قصدهم بهذا الكلام المنة على رسوله، وأنهم قد بذلوا له وتبرعوا بما ليس من مصالحهم، بل هو من حظوظه الدنيوية، وهذا تجمل بما لا يجمل، وفخر بما لا ينبغي لهم أن يفتخروا على رسوله به ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فَإِنَّ الْمُنَّةَ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ، فَكَمَا أَنَّهُ تَعَالَى يَمُنُّ عَلَيْهِمْ بِالْخَلْقِ وَالرِّزْقِ، وَالنَّعْمِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ؛ فَمُنْتَهُ عَلَيْهِمْ بِهِدَايَتِهِمْ إِلَى الْإِسْلَامِ،

أَفْتَنَكُمْ ﴿١٨﴾ وَلَكِنْ الْكَرَمُ بِالتَّقْوَى، فَأَكْرَمَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ، وَهُوَ أَكْثَرُهُمْ طَاعَةً وَانْكِفَافاً عَنِ الْمَعَاصِي، لَا أَكْثَرَهُمْ قَرَابَةً وَقَوْمًا، وَلَا أَشْرَفَهُمْ نَسَبًا ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ يَعْلَمُ مَنْ يَقُومُ مِنْهُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا ﴿خَيْرٌ﴾ مِمَّنْ يَقُومُ بِذَلِكَ ظَاهِرًا لَا بَاطِنًا، فَيَجَازِي كُلًّا بِمَا يَسْتَحِقُّ.

(١٨) ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَنَّا﴾ يخبر تعالى عن مقالة الأعراب الذين دخلوا في الإسلام في عهد رسول الله ﷺ دخولاً من غير بصيرة، ولا قيام بما يجب ويقتضيه الإيمان أنهم ادعوا مع هذا وقالوا: آمنا؛ أي: إيماناً كاملاً مستوفياً لجميع أموره هذا موجب هذا الكلام، فأمر الله رسوله أن يرد عليهم فقال: ﴿قُلْ لَمْ تَمُنُوا﴾؛ أي: لا تدعوا لأنفسكم مقام الإيمان ظاهراً وباطناً كاملاً ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾؛ أي: دخلنا في الإسلام، واقتصروا على ذلك ﴿وَ﴾ السبب في ذلك أنه ﴿لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وإنما آمنتم خوفاً، أو رجاء، أو نحو ذلك ﴿وَإِنْ طِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بفعل خير أو ترك شر ﴿لَا يَلْبَسْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً﴾ لا ينقصكم منها ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ﴾ لمن تاب إليه وأناب ﴿رَحِيمٌ﴾ به؛ حيث قبل توبته.

(١٩) ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ على الحقيقة ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجْهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿بَذَلُوا مَهْجَهُمْ

(١٩) في «الصحيحين» من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: أعطى رسول الله ﷺ رجلاً ولم يعط رجلاً فيهم شيئاً، فقال سعد رضي الله عنه: يا رسول الله، أعطيت فلاناً وفلاناً ولم تعط فلاناً شيئاً، وهو مؤمن؟ فقال النبي ﷺ: «أو مسلم؟» حتى أعادها سعد ثلاثاً، والنبي ﷺ يقول: «أو مسلم؟» ثم قال النبي ﷺ: «إني لأعطي رجلاً وأدع من هو أحب إليّ منهم فلا أعطيه شيئاً؛ مخافة أن يكبو في النار على وجوههم».



سورة ق
وهي مكية

ومنته عليهم بالإيمان أعظم من كل شيء .
(١٨) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي :
الأمور الخفية فيهما التي تخفى على الخلق ،
كالذي في لجج البحار ، ومهامه القفار ، وما جنة
الليل أو واره النهار ، يعلم قطرات الأمطار ،
وحبات الرمال ، ومكنونات الصدور ، وخبايا
الأمور . ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يحصي عليكم
أعمالكم ، ويوفيكم إياها ، ويجازيكم عليها بما
تقتضيه رحمته الواسعة ، وحكمته البالغة .

(١) ﴿قَافٍ﴾ حرف من حروف الهجاء المذكورة
في أوائل السور .
﴿وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾ يقسم تعالى بالقرآن المجيد ؛
أي : وسيع المعاني عظيمها .
(٢) ﴿بَلْ يَجْعَلُونَ﴾ المكذبون للرسول ﷺ ﴿أَن جَاءَهُمْ
مُنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ ينذرهم ما يضرهم ، ويأمرهم بما
ينفعهم ، وهو من جنسهم ، يمكنهم التلقي عنه ،
ومعرفة أحواله وصدقه ، ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾ الذين
حملهم كفرهم وتكذيبهم ، لا نقص بذكائهم
وآرائهم ﴿هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ مستغرب ، تعجبوا من
إرسال رسول إليهم من البشر وليس هذا بعجيب ؛
فإن الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس .
(٣) ﴿أَوَدَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ فقاوسوا قدرة من هو على

كل شيء قدير ، الكامل من كل وجه ، بقدرة العبد
الفقير ، العاجز من جميع الوجوه ، وقاسوا
الجاهل الذي لا علم له ، بمن هو بكل شيء
عليم ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ بعيد الوقوع .
(٤) ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ الذي يعلم ما
تنقص الأرض من أجسادهم مدة مقامهم في
برزخهم ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِظٌ﴾ وقد أحصى في
كتابه الذي هو عنده محفوظ عن التغيير والتبديل ،
كل ما يجري عليهم في حياتهم ومماتهم .
(٥) ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾ كلامهم الذي صدر
منهم ، إنما هو عناد وتكذيب للحق الذي هو

(١) أخرج مسلم عن أم هشام بنت حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت : لقد كان تنورنا وتنور النبي ﷺ واحداً سنتين أو سنة وبعض سنة ، وما أخذت ﴿قَافٍ﴾ والقرآن المجيد إلا على لسان رسول الله ﷺ ؛ كان يقرأها كل يوم الجمعة على المنبر إذا خطب الناس .

(١٠) ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾؛ أي: الطوال، التي يطول نفعها، وترتفع إلى السماء حتى تبلغ مبلغاً لا يبلغه كثير من الأشجار ﴿لَهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ منضود.

(١١) ﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾ هو رزق للخلق قوتاً وأدماً وفاكهة، يأكلون منه ويدخرون هم ومواشيهم ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا﴾ وهي الأرض التي كانت هامدة، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴿كَذَلِكَ الْفُرُوجُ﴾ كذلك يحيي الله الموتى، وهذا المشاهد من عظيم قدرته بالحس أعظم مما ينكره الجاحدون للبعث.

(١٢) ﴿كَذَّبَتْ قَلْبَهُ﴾ كذب الذين من قبلهم من الأمم رسلهم الكرام وأنبياءهم العظام؛ ك ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ كذبوا نوحاً ﴿وَأَصْحَبُ الرِّيسِ﴾ وهم من كانوا مقيمين حولها يعبدون الأصنام ﴿وَتَمُودُ﴾ كذبوا صالحاً.

(١٣) ﴿وَعَادٌ﴾ كذبوا هوداً ﴿وَفِرْعَوْنُ﴾ كذب موسى ﷺ ﴿وَأَخْنُو لُوطٍ﴾ كذبوا لوطاً.

(١٤) ﴿وَأَصْحَبُ الْآلِنَةِ﴾ كذبوا شعيباً ﴿وَقَوْمُ ثَيْعٍ﴾ وتبع: كل ملك ملك اليمن في الزمان السابق قبل الإسلام؛ فقوم تبع كذبوا الرسول الذي أرسله الله إليهم، ولم يخبرنا الله من هو ذلك الرسول، وأي من التبابعة؛ لأنه - والله أعلم - كان مشهوراً عند العرب لكونهم من العرب العرباء، الذين لا تخفى ماجرياتهم على العرب، خصوصاً مثل هذه الحادثة العظيمة، ولكن تبع أسلم وآمن؛ فذم قومه ولم يذمه ﴿كُلُّ كَذَّبٍ أُرْسِلَ﴾ فهو لاء كلهم كذبوا الرسل الذين أرسلهم الله إليهم ﴿فَقُتِّعَ وَعِيدٌ﴾ فحق عليهم وعيد الله وعقوبته، ولستم

أعلى أنواع الصدق ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيحٍ﴾ مختلط مشتبه، لا يثبتون على شيء، ولا يستقر لهم قرار.

(٦) ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ قبة مستوية الأرجاء ثابتة البناء ﴿وَرَزَقْنَاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ مزينة بالنجوم الخنسر، والجوار الكنسر، التي ضربت من الأفق إلى الأفق في غاية الحسن والملاحة، لا ترى فيها عيباً ولا فروجاً، ولا خللاً ولا إخلالاً.

(٧) ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا﴾ ووسعناها حتى أمكن كل حيوان السكون فيها والاستقرار والاستعداد لجميع مصالحه ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ وأرساها بالجبال؛ لتستقر من التزلزل والتموج ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ من كل صنف من أصناف النبات، التي تسر ناظرها، وتعجب مبصرها؛ لأكل بني آدم، وأكل بهائمهم ومنافعهم.

(٨) فإن في النظر في هذه الأشياء ﴿بَصَرَةً﴾ يتبصر بها من عمي الجهل و﴿وَذِكْرٌ﴾ يتذكر بها ما ينفع في الدين والدنيا، وليس ذلك لكل أحد؛ بل ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ إلى الله؛ أي: مقبل عليه بالحب والخوف والرجاء، وإجابة داعيه، وأما المكذب المعرفض فما تغني الآيات والنذر عن قولهم لا يؤمنون.

(٩) ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا﴾ نافعاً ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ﴾ وخص من تلك المنافع بالذكر، الجنات المشتملة على الفواكه اللذيذة ﴿وَحَبِّ الْحَصِيدِ﴾ وهو الحب الذي يراد لحبه وادخاره.

أيها المكذبون لمحمد ﷺ خيراً منهم، ولا رسلهم أكرم على الله من رسولكم، فاحذروا جرمهم؛ لئلا يصيبكم ما أصابهم.

(١٥) ثم استدل تعالى بالخلق الأول - وهو: المنشأ الأول - على الخلق الآخر - وهو: النشأة الآخرة؛ فكما أنه الذي أوجدهم بعد العدم، كذلك يعيدهم بعد موتهم وصيرورتهم إلى الرفات والرسم، فقال: ﴿أَفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ أي: أفعجزنا وضعفت قدرتنا، ليس الأمر كذلك، فلم نعجز ونعي عن ذلك وليسوا في شك من ذلك، ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: هذا الذي شكوا فيه، والتبس عليهم أمره، مع أنه لا محل للبس فيه؛ لأن الإعادة أهون من الابتداء.

(١٦) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ يخبر تعالى أنه المتفرد بخلق جنس الإنسان، ذكورهם وإناثهم، وأنه يعلم أحواله، وما يسره ويوسوس في صدره ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ وهو العرق المكتنف لثغرة النحر، وهذا مما يدعو الإنسان إلى مراقبة خالقه المطلع على ضميره وباطنه، القريب منه في جميع أحواله؛ فيستحي منه أن يراه حيث نهاه، أو يفقده حيث أمره.

(١٧) وكذلك ينبغي له أن يجعل الملائكة الكرام الكاتبين منه على بال، فيجلهم ويوقرهم، ويحذر أن يفعل أو يقول ما يكتب

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَيْنٌ (١٨) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنتَ فِي عَفْوٍ مِّنْ هَذَا فَكُنْفَعَاكَ غِطَاءً لِّكَ فَصَرَّكَ الْيَوْمَ حَرِيدٌ (٢٢) وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِ (٢٣) أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلٌّ كَغَارٍ عَيْنِ (٢٤) سَبَّاحٌ لِلَّهِ مُعْتَدٍ مَّزِيدٌ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْفِيَاءُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْصِمُوهُ لَدَىٰ وَقَدْ قَدَمْتُ إِلَيْكَ بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يَدُلُّ الْقَوْلُ لَدَىٰ وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِلْعَيْنِ (٢٩) يَوْمَ نَقُولُ لِلْجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتَ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ (٣٠) وَأَرْسَلْنَا الْجَنَّةَ الْمُتَلَقِّينَ عَزِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوَعَّدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِظٍ (٣٢) مِّنْ خَشْيَةِ الرَّحْمَنِ الْغَنِيِّ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣) أَدْخَلُوهَا يَسْلَمُونَ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥)

عنه، مما لا يرضي رب العالمين، ولهذا قال: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ أي: يتلقيان عن العبد أعماله كلها، واحد ﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾ يكتب الحسنات ﴿وَعَنِ الشِّمَالِ﴾ يكتب السيئات، وكل منهما ﴿قَعِيدٌ﴾ بذلك متهيئ لعمله الذي أعد له، ملازم له.

(١٨) ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَيْنٌ﴾ مراقب له ﴿عَيْنٌ﴾ حاضر لحاله. (١٩) ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ هذا الغافل المكذب بآيات

(١٨) في «الصحاحين» من حديث بلال بن الحارث المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله ﷻ له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة في سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله تعالى عليه بها من سخطه إلى يوم يلقاه».

(١٩) أخرج ابن حبان وأبو يعلى والبيهقي وابن سعد في «الطبقات» وابن أبي الدنيا في «المحضرين» من طرق يقوي بعضها بعضا عن عائشة رضي الله عنها قالت: حضرت أبي رضي الله عنه وهو يموت، وأنا جالسة عند رأسه، فأخذته غشية فتمثلت ببيت في الشعر:

فإنه لا بد من مدفوق

من لا يزال دمه مقنعا

اللَّهُ ﴿سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ الذي لا مرد له ولا مناصر ﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ تتأخر وتنكص عنه.

(٢٠) ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ اليوم الذي يلحق الظالمين ما أوعدهم الله به من العقاب، والمؤمنين ما وعدهم به من الثواب.

(٢١) ﴿وَحَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ﴾ يسوقها إلى موقف القيامة، فلا يمكنها أن تتأخر عنه ﴿وَشَهِدٌ﴾ يشهد عليها بأعمالها خيرا وشرها.

(٢٢) ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ يقال للمعرض المكذب يوم القيامة هذا الكلام توبيخا ولو ما وتعنيفا؛ أي: لقد كنت مكذبا بهذا، تاركا للعمل له ﴿فَ﴾ الآن ﴿كَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾ الذي غطى قلبك، فكثر نومك واستمر إعراضك ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ ينظر ما يزعجه ويروعه من أنواع العذاب والنكال.

(٢٣) ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾ قرين هذا المكذب المعرض، من الملائكة الذين وكلهم الله على حفظه، وحفظ أعماله، فيحضره يوم القيامة ويحضر أعماله، ويقول: ﴿هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي﴾ قد أحضرت ما جعلت عليه من حفظه، وحفظ عمله؛ فيجازى بعمله.

(٢٤) ويقال لمن استحق النار: ﴿أَلْقَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ كثير الكفر والعناد لآيات الله، المكثر من المعاصي، المجترئ على المحارم والمآثم.

(٢٥) ﴿مَنَاجٍ لِلْخَيْرِ﴾ يمنع الخير الذي عنده، الذي أعظمه: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، منافع لنفع ماله وبدنه ﴿مُعْتَدٍ﴾ على عباد الله، وعلى حدوده ﴿ثَرِيبٌ﴾ شك في وعد الله ووعيده، فلا إيمان ولا إحسان، ولكن وصفه الكفر والعدوان والشك والريب والشح، واتخاذ الآلهة من دون الرحمن.

(٢٦) ولهذا قال: ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ عبد معه غيره ممن لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ﴿فَالْقِيَاءُ﴾ أيها الملكان القرينان ﴿فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ الذي هو معظمها وأشدّها وأشنعها.

(٢٧) ﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾ الشيطان، متبرئا منه، حاملا عليه إثمه: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ لأنني لم يكن لي عليه سلطان ولا حجة ولا برهان ﴿وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ فهو الذي ضل وأبعد عن الحق باختياره.

(٢٨) ﴿قَالَ﴾ الرب عز وجل للإنسي وقرينه الجنى ﴿لَا تَخْصِمُونَا لَدَىٰ﴾ لا فائدة في اختصامكم عندي، ﴿وَوُ﴾ الحال أنني ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾ جاءكم رسلي بالآيات البينات، والحجج الواضحات، والبراهين الساطعات، فقامت عليكم حجتي، وانقطعت حجتكم، وقدمتم علي بما أسلفتم من الأعمال التي وجب جزاؤها.

(٢٩) ﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَىٰ﴾ لا يمكن أن يخلف

قالت: فرجع ﷺ رأسه، فقال يا بنية، ليس كذلك، ولكن كما قال الله تعالى: ﴿وَحَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾.

وفي البخاري عنها ﷺ أن النبي ﷺ لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه، ويقول: «سبحان الله! إن للموت سكرات».

أواب؛ أي: رجاع إلى الله في جميع الأوقات، بذكره وجهه، والاستعانة به ودعائه، وخوفه ورجائه ﴿حَفِظْ﴾ يحافظ على ما أمر الله به، بامتثاله على وجه الإخلاص والإكمال له، على أكمل الوجوه، حفيظ لحدوده.

(٣٣) ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ﴾؛ أي: خافه على وجه المعرفة بربه، والرجاء لرحمته ولازم على خشية الله في حال غيبه؛ أي: مغيبه عن أعين الناس ﴿وَجَاءَ يَقْلِبُ مُتَبِّبٌ﴾ وصفه الإنابة إلى مولاه، وانجذاب دواعيه إلى مراضيه.

(٣٤) ﴿أَتَعْلَمُهَا سَلَكٌ﴾ دخولاً مقرونًا بالسلامة من الآفات والشرور، مأمونًا فيه جميع مكاره الأمور، فلا انقطاع لنعيمهم، ولا كدر ولا تنغيص ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ الذي لا زوال له ولا موت، ولا شيء من المكدرات.

(٣٥) ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ كل ما تعلق به مشيئتهم، فهو حاصل فيها ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾

ما قاله الله وأخبر به؛ لأنه لا أصدق من الله قِيلًا، ولا أصدق حديثًا ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ بل أجزيهم بما عملوا من خير وشر، فلا يزداد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم.

(٣٠) ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ﴾ وذلك من كثرة ما ألقى فيها ﴿وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ أي: لا تزال تطلب الزيادة من المجرمين العاصين، غضبًا لربها، وغيطًا على الكافرين.

(٣١) ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ﴾ أي: قربت بحيث تشاهد وينظر ما فيها من النعيم المقيم، والحبرة والسرور، وإنما أزلفت وقربت ﴿لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ لأجل المتقين لربهم، التاركين للشرك صغيره وكبيره، الممثلين لأوامر ربهم، المنقادين له.

(٣٢) ويقال لهم على وجه التهنئة: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ هذه الجنة وما فيها مما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، هي التي وعد الله كل

(٣٠) أخرج البخاري عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يلقى في النار، وتقول: هل من مزيد، حتى يضع قدمه، فتقول: قط».

وأخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «تحتاج الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم؟ قال الله ﷻ للجنة: أنت رحمتي، أرحم بك من أشياء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي، أعذب بك من أشياء من عبادي ولكل واحدة منكما ملؤها، فأما النار؛ فلا تمتلئ حتى يضع رجله، فتقول: قط قط، فهناك تمتلئ ويزوي بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله ﷻ من خلقه أحدًا، وأما الجنة؛ فإن الله ينشئ لها خلقًا آخر».

(٣٥) أخرج الشافعي في «الأم» وابن أبي شيبة في «المصنف» والطبري والطبراني في «الأوسط» وغيرهم من طرق يقوي بعضها بعضاً عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل عليه السلام وفي يده مرآة بيضاء، فيها نكتة سوداء؛ فقلت: ما هذه يا جبريل؟ قال: هذه الجمعة يعرضها عليك ربك؛ لتكون لك عيداً ولقومك من بعدك، تكون أنت الأول، وتكون اليهود والنصارى من بعدك، قال: ما لنا فيها؟ قال: فيها خير لكم، فيها ساعة من دعا ربه فيها بخير هو له قسم إلا أعطاه إياه، أو ليس له بقسم إلا ادخر له ما هو أعظم منه، أو تعوذ فيها من شر هو عليه مكتوب؛ إلا أعاده، أو ليس عليه مكتوب؛ إلا أعاده من أعظم منه. قلت: ما هذه النكتة السوداء فيها؟ قال: هذه الساعة تقوم يوم الجمعة، وهو سيد الأيام عندنا، ونحن ندعوه في الآخرة: يوم المزيد، =

(٣٦) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ ۖ أَهْلًا كَثِيرًا
﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾؛ أي: قوة وأثَارًا في
الأرض ﴿فَقَبَّوْا فِي الْبِلَادِ﴾ بنوا الحصون المنيعة
والمنازل الرفيعة، وغرسوا الأشجار، وأجروا
الأنهار، وزرعوا وعمروا ودمروا، فلما كذبوا
رسل الله، وجحدوا آيات الله، أخذهم الله
بالعقاب الأليم، والعذاب الشديد، ﴿هَلْ مِنْ
مُجِيبٍ﴾ أي: لا مفر لهم من عذاب الله،
حين نزل بهم، ولا منقذ، فلم تغن عنهم
قوتهم ولا أموالهم، ولا أولادهم.

(٤٥) ﴿تَحْنُ عَلَمٌ بِمَا يَقُولُونَ﴾ لك، مما يحزنك من الأذى ﴿وَمَا أَتَتْ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ مسلط عليهم تجبرهم على الهدى ﴿فَذَكَّرَ بِالْقُرْآنِ﴾ والتذكير هو تذكير ما تقرر في العقول والفطر من محبة الخير وإيثاره وفعله، ومن بغض الشر ومجانبتها، ﴿مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ وإنما يتذكر بالتذكير من يخاف وعيد الله.

سورة الذاريات مكية

(١) في صدر هذه السورة أقسم سبحانه وتعالى بمخلوقاته العظيمة التي جعل الله فيها من المصالح والمنافع ما جعل على أن وعده صدق، وأن الدين الذي هو يوم الجزاء والمحاسبة على الأعمال، لواقع لا محالة، ما له من دافع، فإذا أخبر به الصادق العظيم وأقسم عليه، وأقام الأدلة والبراهين عليه، فلم يكذب به المكذبون، ويعرض عن العمل له العاملون فقال تعالى:

(١) ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْمَلَكُوتَ مِنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ والمراد بالذاريات: الرياح التي تذرروا في هبوبها ﴿ذُرُورًا﴾ بليتها ولطفها، وقوتها وإزعاجها.

(٢) ﴿فَالْحَمَلُوتَ وَقَرَ﴾ السحاب، تحمل الماء الكثير الذي ينفع الله به البلاد والعباد.

(٣) ﴿فَالْجَبَرُوتَ يُسْرًا﴾ النجوم التي تجري على وجه اليسر والسهولة، فتزين بها السماوات، ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وينتفع

ببنيهما في سيرة أيامهم أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ من غير تعب ولا إعياء.

(٣٩) ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ من الذم لك والتكذيب بما جئت به ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ أي: واشتغل عنهم واله بطاعة ربك وتسيحه أول النهار وآخره.

(٤٠) ﴿وَمِنْ أَيْلٍ فَسَيَّحُهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ﴾ وفي أوقات الليل وأدبار الصلوات؛ فإن ذكر الله تعالى مسلل للنفس، مؤنس لها، مهون للصبر.

(٤١) ﴿وَأَسْمِعْ﴾ بقلبك ﴿يَوْمَ يَنَادُ الْمَنَادُ﴾ وهو إسرافيل عليه السلام حين ينفخ في الصور ﴿مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ من الخلق.

(٤٢) ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ﴾ كل الخلائق يسمعون تلك الصيحة المزعجة المهولة ﴿بِالْحَقِّ﴾ الذي لا شك فيه ولا امتراء ﴿ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ﴾ من القبور، الذي انفرد به القادر على كل شيء.

(٤٣) ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ هو الله الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو أهون عليه ﴿وَاللَّيْنَا الْمَعِيرُ﴾ وإليه مصير الخلائق كلهم، فيجازي كلاً بعمله، إن خيراً فخير، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

(٤٤) ﴿يَوْمَ تَشْقَى الْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾ عن الأموات ﴿سِرَاعًا﴾ يسرعون لإجابة الداعي لهم إلى موقف القيامة ﴿ذَلِكَ حَسْرَةٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ هين على الله يسير، لا تعب فيه ولا كلفة.

(٣٩) في «الصحيحين» و«مسند أحمد» - واللفظ له - عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: «أما إنكم ستعرضون على ربكم؛ فترونه كما ترون هذا القمر لا تضامون فيه، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا، ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾.

(٤٠) أخرج البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ﴾ قال: «هو التسيح بعد الصلاة».

غير ذلك من الأقوال المختلفة، الدالة على حيرتهم وشكهم، وأن ما هم عليه باطل.

(٩) ﴿يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ﴾؛ أي: يصرف عنه من صرف عن الإيمان، وانصرف قلبه عن أدلة الله اليقينية وبراهينه.

(١٠) ﴿قُتِلَ الْخَرَصُونَ﴾ قاتل الله الذين كذبوا على الله، وجحدوا آياته، وخاضوا بالباطل؛ ليدحضوا به الحق، الذين يقولون على الله ما لا يعلمون.

(١١) ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمَرَةٍ﴾ في لغة من الكفر والجهل والضلال ﴿سَاهَوْتَ﴾ غافلون عن أمر الآخرة.

(١٢) ﴿يَسْتَلُوكَ﴾ على وجه الشك والتكذيب ﴿أَيَّانَ يَوْمَ الْيَاقِينِ﴾ متى يوم الجزاء يا محمد؟ مستبعبدين لذلك، فلا تسأل عن حالهم وسوء مآلهم.

(١٣) ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفَنُّونَ﴾ يعذبون بسبب ما انطوا عليه من خبث الباطن والظاهر.

(١٤) ويقال لهم: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ العذاب والنار، الذي هو أثر ما افتتوا به من الابتلاء الذي صيرهم إلى الكفر والضلال ﴿هَذَا﴾ العذاب الذي وصلت إليه، هو ﴿الَّذِي كُتِبَ بِهِ سَعَتُكُمْ﴾ فالآن تمتعوا بأنواع العقاب والنكال والسلاسل والأغلال والسخط والوبال.

(١٥) ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين كانت التقوى شعارهم، وطاعة الله دثارهم ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ مشتملات على جميع أصناف الأشجار والفواكه، التي لا يوجد لها نظير في الدنيا، مما لم تنظر العيون إلى مثله، ولم تسمع به الأذان، ولم يخطر على قلوب العباد ﴿وَعُيُونٍ﴾ سارحة، تشرب منها تلك البساتين،

وَأَسْمَاءُ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُتَخَلِّفٍ (٨) يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ (٩) قُتِلَ الْخَرَصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمَرَةٍ سَاهَوْتَ (١١) يَسْتَلُوكَ أَيَّانَ يَوْمَ الْيَاقِينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفَنُّونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُتِبَ بِهِ سَعَتُكُمْ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤) أَلَيْسَ مَا أَنْتُمْ رَبُّهُمْ إِنَّمَا كَانُوا أَقْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٥) كَانُوا أَقْلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٦) وَلَا آسَاحَ لَهُمْ سَتَقِفِرُونَ (١٧) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ (١٨) وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٩) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢٠) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢١) قُورَيْبٌ أَنسَاءُ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطَفِئُونَ (٢٢) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثٌ صَبِيفٍ إِنرِهِمُ الشُّكْرِيَّتْ (٢٣) إِذْ خَلَوْا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٤) فَرَأَى إِلَهُكَ أَهْلِيهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٥) فَفَرَّقَهُ إِيَّاهُمْ قَالَ لَا نَأْكُلُوهُ (٢٦) فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْزَنْ وَبَشِّرْهُمْ بِعِلْمٍ عَلِيمٍ (٢٧) فَأَقْبَلَتْ أَمْرَاتُهُ فِي صَرَفٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٨) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٢٩)

بالاعتبار بها.

(٤) ﴿فَالْمَقْسِيَّتْ أَمْرًا﴾ الملائكة التي تقسم الأمر وتدبره بإذن الله، فكل منهم قد جعله الله على تدبير أمر من أمور الدنيا وأمور الآخرة، لا يتعدى ما قدر له وما حدّ ورسم، ولا ينقص منه.

(٥) ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ من الثواب والعقاب ﴿لَصَادِقٌ﴾؛ أي: لخبر صدق.

(٦) ﴿وَإِنَّ الْآلِينَ﴾؛ أي: يوم الحساب والجزاء ﴿لَوْعٌ﴾ لكائن لا محالة.

(٧) ﴿وَأَسْمَاءُ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ والسماء ذات الطرائق الحسنة، التي تشبه حبك الرمال، ومياه الغدران حين يحركها النسيم.

(٨) ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها المكذبون لمحمد ﷺ ﴿لَفِي قَوْلٍ مُتَخَلِّفٍ﴾ منكم من يقول: ساحر، ومنكم من يقول: كاهن، ومنكم من يقول: مجنون، إلى

العبد من العبر والحكمة والرحمة ما يدل على أن الله وحده الأحد الصمد، وأنه لم يخلق الخلق سدى.

(٢٢) ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾؛ أي: مادة رزقكم من الأمطار، وصنوف الأقدار، الرزق الديني والديني ﴿وَمَا تَوْعَدُونَ﴾ من الجزاء في الدنيا والآخرة.

(٢٣) فلما بين الآيات ونبه عليها تنبيهًا ينتبه به الذكي اللبيب، أقسم تعالى أنواعه وجزاءه حق وشبه ذلك بأظهر الأشياء لنا وهو النطق، فقال: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلَ مَا أَنْتُمْ نَاطِقُونَ﴾ أي: فكما لا تشكون في نطقكم، فكذلك لا ينبغي الشك في البعث بعد الموت وفي الرزق.

(٢٤) ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ﴾؛ أي: أما جاءك ﴿حَدِيثُ صَافٍ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ ونبأهم الغريب العجيب، وهم: الملائكة الذين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط، وأمرهم بالمرور على إبراهيم، فجاءوه في صورة أضياف.

(٢٥) ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ﴾ مجيبًا لهم ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ أنتم قوم منكرون، فأحب أن تعرفوني بأنفسكم، ولم يعرفهم إلا بعد ذلك.

(٢٦) ولهذا ﴿فَرَّغَ إِلَيْكَ أَهْلِي﴾ ذهب سريعًا في خفية؛ ليحضر لهم قراهم ﴿فَجَاءَ بِعَبْلِ سَمِينٍ﴾ من خيار ماله.

(٢٧) ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ أدناه منهم، وعرض عليهم الأكل، ف ﴿قَالَ أَلَا نَأْكُلُوتُ﴾ تلتطف في العبارة وعرض حسن.

قال العلماء: هذه الآية انتظمت آداب الضيافة؛

ويشرب بها عباد الله، يفجرونها تفجيرًا.

(١٦) ﴿أَخْذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: أن أهل الجنة قد أعطاهم مولاهم جميع مناهم من جميع أصناف النعيم، فأخذوا ذلك راضين به، قد قرت به أعينهم، وفرحت به نفوسهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ الوقت الذي وصلوا به إلى النعيم ﴿مُحْسِنِينَ﴾ وهذا شامل لإحسانهم بعبادة ربهم، بأن يعبدوه كأنهم يرونه، فإن لم يكونوا يرونه؛ فإنه يراهم، وللإحسان إلى عباد الله ببذل النفع والإحسان من مال أو علم أو جاه أو نصيحة أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر، أو غير ذلك من وجوه الإحسان وطرق الخيرات.

(١٧) ﴿كَانُوا﴾ المحسنون ﴿قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجُونَ﴾ نومهم بالليل، قليل وأما أكثر الليل؛ فإنهم قانتون لربهم ما بين صلاة وقراءة وذكر ودعاء وتضرع.

(١٨) ﴿وَالْأَنْحَارِ﴾ التي هي قبيل الفجر ﴿هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يستغفرون الله تعالى استغفار المذنب لذنبه، وللإستغفار بالأسحار فضيلة وخصيصة، ليست لغيره.

(١٩) ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ﴾ واجب ومستحب ﴿لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ﴾ للمحتاجين الذين يطلبون من الناس، والذين لا يطلبون منهم.

(٢٠) ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ وذلك شامل لنفس الأرض وما فيها من بحار وأنهار وجبال وأشجار ونبات؛ تدل المتفكر فيها المتأمل لمعانيها على عظمة خالقها، وسعة سلطانه، وعميم إحسانه، وإحاطة علمه بالظواهر والبواطن.

(٢١) ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ وكذلك في نفس

﴿أَقْبَلَتْ﴾ فرحة مستبشرة ﴿فِي صَرْفٍ﴾ صحيحة ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ وهذا من جنس ما يجري من النساء عند السرور ونحوه من الأقوال والأفعال المخالفة للطبيعة والعادة ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أتى لي الولد، وأنا عجوز قد بلغت من السن ما لا تلد معه النساء، ومع ذلك فأنا عقيم غير صالح رحمي للولادة أصلاً.

(٣٠) ﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾ الله الذي قدر ذلك وأمضاه، فلا عجب في قدرة الله تعالى ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، وقد وسع كل شيء علماً، فسلموا لحكمه، واشكروه على نعمته.

(٣١) ﴿قَالَ﴾ لهم إبراهيم عليه السلام: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ ما شأنكم وما تريدون؟ لأنه استشعر أنهم رسل أرسلهم الله لبعض الشئون المهمة.

(٣٢) ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمِ ثُجْرَمِينَ﴾ وهم قوم لوط، قد أجرموا: أشركوا بالله، وكذبوا رسولهم، وأتوا الفاحشة الشنعاء التي ما سبقهم إليها أحد من العالمين.

(٣٣) ﴿لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ مطبوخ بالنار. (٣٤) ﴿مُسَوَّمَةً﴾ معلمة، على كل حجر منها سمة صاحبه ﴿عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهم أسرفوا، وتجاوزوا الحد.

(٣٥) ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا﴾ في قرى قوم لوط ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم لوط عليه السلام وأهل بيته إلا امرأته.

(٣٦) ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وهم بيت لوط عليه السلام، إلا امرأته فلإنها من المهلكين.

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣٠) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمِ ثُجْرَمِينَ (٣١) لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٢) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣٣) فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٤) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٥) وَرَكَابَهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٣٦) وَفِي مِصْرٍ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٧) فَقَوْلًا بُرْكَاءٍ وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ يَحْنُو (٣٨) فَأَخَذْنَاهُ وَهَوْدُؤَهُ فَنَبَذْنَاهُ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (٣٩) وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤٠) مَا تَدْرُونَ شَيْءٌ آتَتْ عَلَيْهِمُ الْإِلَاحَةُ كَأَرْسَابٍ مُّطْرٍ (٤١) وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ (٤٢) فَعَتَوَاعَنَ أَمْرَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٤٣) فَمَا اسْتَطَعُوا مِّنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُتَسْمِعِينَ (٤٤) وَقَوْمٌ نَّوْجٌ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَتَقِينَ (٤٥) وَالنَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا يَابِتًا وَآلَ مُوسَىٰ (٤٦) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُنْذِرُونَ (٤٧) وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا رَوْحًا وَلَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٨) وَيَقُولُوا إِلَى اللَّهِ إِنَّا لَمَعْنَهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٤٩) وَلَا تَعْمَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنَّا لَمَعْنَهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠)

فإنه جاء بطعامه من حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يمتز عليهم أولاً فقال: نأتكم بطعام؟ بل جاء به بسرعة وخفاء، وأتى بأفضل ما وجد من ماله، وهو عجل سمين مشوي فقربه إليهم، لم يضعه وقال: اقربوا، بل وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمراً يشق على سامعه بصيغة الجزم، بل قال: ألا تأكلون، على سبيل العرض والتلطف؛ كما يقول القائل اليوم: إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق، فافعل.

(٢٨) ﴿فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ حين رأى أيديهم لا تصل إليه ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ وأخبروه بما جاءوا له ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ وهو إسحاق عليه السلام.

(٢٩) ﴿ف﴾ لما سمعت المرأة البشارة

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ الصيحة العظيمة المهلكة ﴿وَهُمْ يَظُرُونَ﴾ إلى عقوبتهم بأعينهم.

(٤٥) ﴿فَمَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامٍ﴾ ينجون به من العذاب ﴿وَمَا كَانُوا مُنْصِرِينَ﴾ لأنفسهم.

(٤٦) ﴿وَقَوْمٌ نُوحٌ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ وكذلك ما فعل الله بقوم نوح، حين كذبوا نوحاً عليه السلام، وفسقوا عن أمر الله، فأرسل الله عليهم السماء والأرض بالماء المنهمر، فأغرقهم الله تعالى عن آخرهم، ولم يبق من الكافرين دياراً، وهذه عادة الله وستته فيمن عصاه.

(٤٧) ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا﴾ أي: خلقناها وأتقناها، وجعلناها سقفاً للأرض وما عليها ﴿يَايُودُ﴾ بقوة وقدرة عظيمة ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ لأرجائها وأنحائها، وإنا لموسعون - أيضاً - على عبادنا بالرزق.

(٤٨) ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ أي: جعلناها فراشاً للخلق، يتمكنون فيها من كل ما تتعلق به مصالحهم ﴿فَنِعَمَ الْمَاهِدُونَ﴾ الذي مهد لعباده ما اقتضته حكمته ورحمته وإحسانه.

(٤٩) ﴿وَمَنْ كَفَرَ شَاءَ خَلْفًا زَوَّيْنِ﴾ صنفين: ذكر وأنثى ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ نعمة الله عليكم. (٥٠) ﴿فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: ففروا مما يكرهه الله

ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه ظاهراً وباطناً، فرار من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الغفلة إلى ذكر الله، وكل من خُفَّتْ منه فُرت منه، إلا الله تعالى فإنه بحسب الخوف منه يكون الفرار إليه ﴿إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ منذر لكم من عذاب الله، ومخوف بين النذارة.

(٥١) ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ﴾ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿هذا من الفرار إلى الله، بل هذا أصل

(٣٧) ﴿وَنَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي: في مدن قوم لوط ﴿ءَايَةً﴾ عبرة وموعظة ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ يعتبرون بها ويعلمون أن الله شديد العقاب، وأن رسله صادقون مصدقون.

(٣٨) ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ يَسُطِّنِ مُّئِينَ﴾ وما أرسله الله به إلى فرعون وملئه بالآيات البينات، والمعجزات الظاهرات: آية للذين يخافون العذاب الأليم، فلما أتى موسى بذلك السلطان المبين.

(٣٩) ﴿فَتَوَلَّى﴾ فرعون ﴿بِرُكْبِهِ﴾ أعرض بجانبه عن الحق، ولم يلتفت إليه، وقدر فيه أعظم القدر ﴿وَقَالَ﴾ فرعون وقومه: ﴿سَجِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ إن موسى لا يخلو إما أن يكون أتى به شعبة ليس من الحق في شيء، وإما أن يكون مجنوناً لا يؤخذ بما صدر منه؛ لعدم عقله.

(٤٠) ﴿فَأَخَذَتْهُ وَجُودُهُ فَبَذَلَتْهُمُ﴾ ألقيناهم وأغرقناهم ﴿فِي الْآلَمِ﴾ في البحر ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ مذنب طاع، عات على الله، فأخذه أخذ عزيز مقتدر.

(٤١) ﴿وَفِي عَادٍ﴾ القبيلة المعروفة آية عظيمة ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ التي لا خير فيها، حين كذبوا نبيهم هوداً عليه السلام.

(٤٢) ﴿مَا نَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ﴾ من أنفسهم وأنعامهم وأموالهم ﴿إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّيْمِ﴾ كالأشياء الهالكة البالية.

(٤٣) ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ آية عظيمة، حين أرسل الله إليهم صالحاً عليه السلام فكذبوه وعاندوه، وبعث الله له الناقة آية مبصرة، فلم يزداهم ذلك إلا عتوا ونفورا ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ﴾ فقبل ﴿لَهُمْ تَمَنَعُوا حَتَّىٰ يَبِيتَ﴾ إلى وقت فناء آجالكم.

(٤٤) ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ ترفعوا واستكبروا

الأقوال التي صدرت منهم -الأولين والآخرين- هل هي أقوال تواصلوا بها، ولقن بعضهم بعضاً بها؟ فلا يستغرب اتفاقهم عليها ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ تشابهت قلوبهم وأعمالهم بالكفر والطغيان، فتشابهت أقوالهم الناشئة عن طغيانهم؟ وهذا هو الواقع، وكذلك المؤمنون؛ لما تشابهت قلوبهم بالإذعان للحق وطلبه، والسعي فيه، بادروا إلى الإيمان برسولهم وتعظيمهم وتوقيرهم، وخطابهم بالخطاب اللائق بهم.

(٥٤) ﴿قَوْلٌ عَنْهُمْ﴾؛ أي: لا تبال بهم ولا تؤاخذهم، وأقبل على شأنك ﴿فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ فليس عليك لوم في ذنبهم، وإنما عليك البلاغ، وقد أدبت ما حملت، وبلغت ما أرسلت به.

(٥٥) ﴿وَذَكِّرْ﴾ والتذكير نوعان: تذكير بما لم يعرف تفصيله، مما عرف مجمله بالفطر والعقول فإن الله فطر العقول على محبة الخير وإيثاره، وكراهة الشر والزهد فيه، وشرعه موافق لذلك، فكل أمر ونهي من الشرع، فإنه من التذكير، وتمام التذكير: أن يذكر ما في الأمور به من الخير والحسن والمصالح، وما في المنهي عنه من المضار.

والنوع الثاني من التذكير: تذكير بما هو معلوم للمؤمنين، ولكن انسحبت عليه الغفلة والذهول، فيذكرون بذلك، ويكرر عليهم؛ ليرسخ في أذهانهم، وينتبهوا ويعملوا بما تذكروه من ذلك، وليحدث لهم نشاطاً وهمة، توجب لهم الانتفاع

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ الطَّلُوعِ

كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ (٥٢) أَوَآصَافُهُ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) قَوْلٌ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادُونَ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ (٥٩) قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٦٠)

سُورَةُ الطَّلُوعِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ (١) وَكَتَبْنَا مُسْتُظَوِّراً (٢) فِي رَقٍّ مَشْهُورٍ (٣) وَكَلَّمْنَا الْقَعْمُورِ (٤) وَالسَّافِيفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْخَرَّ السَّجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوْفِعٌ (٧) مَا لَمْ يَنْ دَافِعٌ (٨) يَوْمَ نَعْمُو السَّمَاءَ مَوْرًا (٩) وَنَسِيرُ الْجِبَالِ سَيْرًا (١٠) قَوْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي حُوزٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى تَارٍ جَهَنَّمَ دَعَاً (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُتِبَ عَلَيْهَا كُذُوبٌ (١٤)

٥٢٣

الفرار إليه: أن يفر العبد من اتخاذ آلهة غير الله من الأوثان، والأنداد، والقبور، وغيرها، مما عبد من دون الله، ويخلص العبد لربه العبادة والخوف والرجاء والدعاء والإنابة.

(٥٢) ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ﴾ يقول الله مسلماً لرسوله ﷺ عن تكذيب المشركين بالله، المكذبين له، القائلين فيه من الأقوال الشيعة ما هو منزله عنه، وأن هذه الأقوال ما زالت دأباً وعادة للمجرمين المكذبين للرسول، فما أرسل الله من رسول إلا رماه قومه بالسحر أو الجنون.

(٥٣) ﴿أَوَآصَافُهُ بِهِ﴾ يقول الله تعالى: هذه

(٥٥ و ٥٤) اخرج الطبري والضياء في «المختارة» والبيهقي في «شعب الإيمان» بإسناد صحيح عن مجاهد قال: خرج علينا علي متعجراً يبرد مشتملاً في خيمصة، قال: «لما نزلت: ﴿قَوْلٌ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ اشتد على أصحاب النبي ﷺ، فلم يبق منا أحد إلا أيقن بالهلكة؛ إذ أمر النبي ﷺ أن يتولى عنا. حتى نزلت: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فطابت أنفسنا».

واحدة، فكل مكذب يدوم على تكذيبه من غير توبة وإنابة، فإنه لا بد أن يقع عليه العذاب، ولو تأخر عنه مدة.

(٦٠) ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ وهو يوم القيامة الذي قد وعدوا فيه بأنواع العذاب والنكال والسلاسل والأغلال، فلا مغيث لهم، ولا منقذ من عذاب الله - تعالى - نعوذ بالله منه.

سورة الطور مكية

(١) يقسم تعالى في هذه السورة بأمر عظيمة، مشتملة على الحكم الجليلة، على البعث والجزاء للمتقين والمكذابين، فقال تعالى: ﴿وَالطُّورِ﴾ فأقسم بالطور الذي هو طور سيناء، الجبل الذي كلم الله عليه نبيه موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، وأوحى إليه ما أوحى من الأحكام.

(٢) ﴿وَكُنْطِ مَسْطُورٍ﴾ يحتمل أن المراد به: اللوح المحفوظ، ويحتمل أن المراد به: القرآن الكريم.

(٣) ﴿فِي رَقٍّ﴾ الرق ما يكتب فيه، وهو: أديم الصحف ﴿مَنْشُورٍ﴾ مكتوب مسطر، ظاهر غير خفي، لا تخفى حاله على كل عاقل بصير.

والارتفاع.

﴿فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ نُنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وأخبر الله أن الذكري تنفع المؤمنين؛ لأن ما معهم من لإيمان والخشية والإنابة واتباع رضوان الله، يوجب لهم أن تنفع فيهم الذكري، وتنفع الموعظة منهم موقعها.

(٥٦) ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ هذه الغاية التي خلق الله الجن والإنس لها، وبعث جميع الرسل يدعون إليها؛ وهي: عبادته المتضمنة لمعرفته ومحبته، والإنابة إليه والإقبال عليه، والإعراض عما سواه.

(٥٧) ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ﴾ فما يريد الله عز وجل من العباد من رزق وما يريد أن يطعموه، تعالى الله الغني المغني عن الحاجة إلى أحد بوجه من الوجوه، وإنما جميع الخلق فقراء إليه، في جميع حوائجهم ومطالبهم الضرورية وغيرها.

(٥٨) ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ كثير الرزق ﴿ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ الذي له القوة والقدرة كلها.

(٥٩) ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وإن للذين ظلموا وكذبوا محمداً ﷺ ﴿ذُنُوبًا﴾ نصيباً وقسطاً من العذاب والنكال ﴿مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ مثل ما فعل بأصحابهم من أهل الظلم والتكذيب، ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ بالعذاب؛ فإن سنة الله في الأمم

(٥١) أخرج الترمذي وابن ماجه وأحمد والحاكم بإسناد صحيح: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى:

يا ابن آدم، تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً، ولم أسد فقرك».

(١) في «الصحيحين» عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب: (والطور)، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً منه.

وفيهما عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: شكوت إلى رسول الله ﷺ أني أشتكي، فقال: «طوفي من وراء الناس، وأنت راكبة، فطفت

ورسول الله يصلي إلى جنب البيت يقرأ بـ (الطور وكتاب سطور).

تلقى، ممتلئاً، على عظمته وسعته، من أصناف العذاب؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْيَحَاُزُ سَجِرَتْ﴾ [التكوير: ٦].

هذه الأشياء التي أقسم الله بها، مما يدل على أنها من آيات الله وأدلة توحيده، وبراهين قدرته، وبعثه الأموات.

(٧) ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ لا بد أن يقع، ولا يخلف الله وعده وقيله.

(٨) ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دَافِعٍ﴾ يدفعه، ولا مانع يمنعه؛ لأن قدرة الله تعالى لا يغالبها مغالب، ولا يفوتها هارب.

(٩) ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ تدور السماء وتضطرب.

(١٠) ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ تزول عن أماكنها، وتسير كسير السحاب.

(١١) ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ والويل: كلمة جامعة لكل عقوبة وحزن وعذاب وخوف.

(١٢) ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ خوض في الباطل ولعب به.

(١٣) ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ يوم يدفعون إليها دفعا، ويساقون إليها سوقاً عنيفاً، ويجرون على وجوههم، ويقال لهم توبيخاً ولوماً:

(١٤) ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي: فاليوم ذوقوا عذاب الخلد الذي لا يبلغ قدره، ولا يوصف أمره.

(١٥) ﴿أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ لما رأوا النار والعذاب قيل لهم من باب التقرير: أهذا

أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ أَصْلُوهُمَا فَاصِرًا أَوْ لَا تَصِيرُ إِلَّا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِمَّا تَعْمَلُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَتَكْبَهُنَّ يَمْاءَ أَنْتَهُمْ رُبُّهُمْ وَوَقَدْهُمْ رُبُّهُمْ عَذَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِنُكْحَةٍ وَلِجُودٍ مِمَّا شَاءُوا ﴿٢٢﴾ يَشْرَبُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيهِمْ وَيطوف عليهم غلمانٌ لهم كَأْسٌ تَبَدَّلُ كُنُوزٌ ﴿٢٣﴾ وَأَقْبَلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سَاءَ لَوْ أَنَّ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلَانَا مُتَّفِقِينَ ﴿٢٤﴾ فَمَنْ أَلَّهِ عَلَيْهِ تَأْوِيلًا عَذَابُ السَّعِيرِ ﴿٢٥﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٦﴾ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٌ وَلَا نَجْمُونُ ﴿٢٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٢٨﴾ قُلْ رَبِّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْصَبِينَ ﴿٢٩﴾

(٤) ﴿وَأَلْيَتِ الْمَعْمُورِ﴾ وهو البيت الذي فوق السماء السابعة، المعمور مدى الأوقات بالملائكة الكرام.

(٥) ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ السماء التي جعلها الله سقفاً للمخلوقات، وبناء للأرض، تستمد منها أنوارها، ويقتدى بعلاماتها ومناراها، وينزل الله منها المطر والرحمة وأنواع الرزق؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

(٦) ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ المملوء ماء، قد سجره الله، ومنعه من أن يفيض على وجه الأرض، أو الموقد الذي يوقد ناراً يوم القيامة فيصير ناراً

(٤) وفي «الصحيحين» من حديث أنس بن مالك - ضمن حديث الإسراء - قال ﷺ: «ثم رفع بي إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه آخر ما عليهم».

(٢٠) ﴿مُتَكِينٍ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ الاتكاء: هو الجلوس على وجه التمكن والراحة والاستقرار، والسُرر: هي الأرائك المزينة بأنواع الزينة من اللباس الفاخر والفرش الزاهية، ووصف الله السرر بأنها مصفوفة؛ ليدل ذلك على كثرتها، وحسن تنظيمها، واجتماع أهلها وسرورهم، ﴿وَزَوَّجْنَهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ وهن النساء اللواتي قد جمعن من جمال الصورة الظاهرة وبهاءها، ومن الأخلاق الفاضلة، ما يوجب أن يحيرن بحسنهن الناظرين، ويسلبن عقول العالمين، والعِين: حسان الأعين مليحاتها، التي صفا بياضها وسوادها.

(٢١) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ وهذا من تمام نعيم أهل الجنة: أن ألحق الله بهم ذريتهم الذين اتبعوهم بإيمان؛ أي: الذين لحقوهم بالإيمان الصادر من آبائهم، فصارت الذرية تبعاً لهم بالإيمان، ومن باب أولى إذا تبعتهم ذريتهم بإيمانهم الصادر منهم أنفسهم، فهؤلاء المذكورون، يلحقهم الله بمنازل آبائهم في الجنة، وإن لم يبلغوها؛ جزاء لآبائهم، وزيادة في ثوابهم ﴿وَمَا أَلْنَهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ ومع ذلك لا ينقص الله الآباء من أعمالهم شيئاً.

ولما كان ربما توهم متوهم أن أهل النار كذلك، يلحق الله بهم أبناءهم وذريتهم، أخبر أنه ليس حكم الدارين حكماً واحداً، فإن النار

سحر لا حقيقة له؛ فقد رأيتموه، أم أنتم في الدنيا لا بصيرة لكم، ولا علم عندكم؟

(١٦) ﴿أَصْلَوْهَا﴾ ادخلوا النار على وجه تحيط بكم، وتستوعب جميع أبدانكم، وتطلع على أفئدتكم ﴿فَأَصِيرُوا أَوْ لَا تَصِيرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ لا يفيدكم الصبر على النار شيئاً، ولا يتأسى بعضكم ببعض، ولا يخفف عنكم العذاب، وليست من الأمور التي إذا صبر العبد عليها هانت مشقتها وزالت شدتها ﴿إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: وإنما فعل بهم ذلك بسبب أعمالهم الخبيثة وكسبهم.

(١٧) ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ لربهم، الذين اتقوا سخطه وعذابه، بفعل أسبابه من امتثال الأوامر، واجتناب النواهي ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ بساتين ﴿وَنَعِيمٍ﴾ وهذا شامل لنعيم القلب والروح والبدن.

(١٨) ﴿فَنَكِهِنَّ بِمَا ءَانَهُمْ رِيءُهُمْ﴾ معجبين به، متمتعين على وجه الفرح والسرور بما أعطاهم الله من النعيم ﴿وَوَقَّهَتْهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ فرزقهم المحبوب، ونجاهم من المرهوب؛ لما فعلوا ما أحبه الله، وجانبوا ما يسخطه ويأباه.

(١٩) ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾ مما تشتهي أنفسكم، من أصناف المأكول والمشرب اللذيذة متهنئين بتلك المأكول والمشرب على وجه الفرح والسرور والبهجة والحبور، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فقد نلتهم ما نلتهم بسبب أعمالكم الحسنة، وأقوالكم المستحسنة.

(١٩) أخرج الطبري والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» والبيهقي في «إثبات القدر» بإسناد حسن عن عبد الله بن عباس ؓ في قوله تعالى لأهل الجنة: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قوله: ﴿هَنِيئًا﴾ أي: لا تموتون فيها، فعندها قالوا: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَعِينٍ﴾ ﴿إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلَ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [الصفات: ٥٨، ٥٩].

﴿وَوَقْنَا عَذَابَ الْسُمُومِ﴾ العذاب الحار الشديد حره.

(٢٨) ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أن يقينا عذاب السموم، ويوصلنا إلى النعيم، وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة؛ أي: لم نزل نتقرب إليه بأنواع القربات، وندعوه في سائر الأوقات ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ فمن بره بنا ورحمته إيانا أنالنا رضاه والجنة، ووقانا سخطه والنار.

(٢٩) ﴿فَذَكِّرْ﴾ يأمر - تعالى - رسوله ﷺ أن يذكر الناس مسلمهم وكافرهم؛ لتقوم حجة الله على الظالمين، ويهتدي بتذكيره الموفقون، وأن لا يبالي بقول المشركين المكذبين وأذنتهم وأقوالهم التي يصدون بها الناس عن اتباعه، مع علمهم أنه أبعد الناس عنها، ولهذا نفى عنه كل نقص رموه به ﴿فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ مثله ولطفه ﴿بِكَاهِنٍ﴾ له رأي من الجن، يأتيه بأخبار بعض الغيوب، التي يضم إليها مائة كذبة ﴿وَلَا يَجْنُونَ﴾ فاقد للعقل، بل أنت أكمل الناس عقلاً، وأبعدهم عن الشياطين، وأعظمهم صدقاً، وأجلهم وأكملهم.

(٣٠) ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ وتارة يقولون فيه: إنه ﴿شَاعِرٌ﴾ يقول الشعر، والذي جاء به شعر، والله يقول: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [يس: ٦٩] ﴿نَتَرَبَّصُّ بِهِ رَبِّ الْعَمُونَ﴾ ننتظر به الموت؛ فسيظل أمره، ونستريح منه.

(٣١) ﴿قُلْ﴾ لهم جواباً لهذا الكلام السخيف: ﴿تَرَبَّصُوا﴾ أي: انتظروا بي الموت ﴿فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ نترصد بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده، أو بأيدينا.

دار العدل، ومن عدله - تعالى - أن لا يعذب أحداً إلا بذنب ولهذا قال: ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ مرتهن بعمله، فلا تنز وازرة وزر أخرى، ولا يحمل على أحد ذنب أحد. هذا اعتراض من فوائده إزالة الوهم المذكور.

(٢٢) ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ﴾ أمددنا أهل الجنة من فضلنا الواسع ورزقنا العميم ﴿بِفِكَهَةٍ﴾ من العنب والرمان والتفاح، وأصناف الفواكه اللذيذة الزائدة على ما به يتقوتون ﴿وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ من كل ما طلبوه واشتهته أنفسهم من لحم الطير وغيرها.

(٢٣) ﴿يَنْزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ تدور كأسات الرحيق والخمر عليهم، ويتعاطونها فيما بينهم، وتطوف عليهم الولدان المخلدون بأكواب وأباريق وكأس ﴿لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيَةٌ﴾ ليس في الجنة كلام لغو، وهو الذي لا فائدة فيه، ولا تأتيم، وهو الذي فيه إثم ومعصية.

(٢٤) ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ﴾ خدم شباب ﴿كَانَتْهُمْ لَوْلُو مَكُونٌ﴾ من حسنهم وبهائهم، يدورون عليهم بالخدمة وقضاء ما يحتاجون إليه، وهذا يدل على كثرة نعيمهم وسعته، وكمال راحتهم.

(٢٥) ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ عن أمور الدنيا وأحوالها.

(٢٦) ﴿قَالُوا﴾ في ذكر بيان الذي أوصلهم إلى ما هم فيه من الحبرة والسرور: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ﴾ في دار الدنيا ﴿فِي أَهْلِئِنَا مُشْفِقِينَ﴾ خائفين وجلين فتركنا من خوفه الذنوب، وأصلحنا لذلك العيوب.

(٢٧) ﴿فَمَنْ أَلَّهِ عَلَيْهِ﴾ بالهداية والتوفيق

(٣٢) ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَعُوا بِهَذَا﴾ أي: أهدأ التكذيب لك، والأقوال التي قالوها هل صدرت عن عقولهم وأحلامهم؟ فبئس العقول والأحلام، التي أثرت ما أثرت، وصدر منها ما صدر.

﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُوتٌ﴾ أم الذي حملهم على ذلك ظلمهم وطغيانهم؟ وهو الواقع؛ فالطغين ليس له حد يقف عليه، فلا يستغرب من الطاغية المتجاوز الحد كل قول وفعل صدر منه.

(٣٣) ﴿أَمْ يَقُولُونَ فَقَوْلُهُمْ﴾ تقول محمد القرآن، وقاله من تلقاء نفسه ﴿بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فلو آمنوا، لم يقولوا ما قالوا.

(٣٤) ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ أنه تقوله، فإنكم العرب الفصحاء، والفحول البلغاء، وقد تحداكم أن تأتوا بمثله، فتصدق معارضتكم أو تقرروا بصدقه.

(٣٥) ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ وهذا استدلال عليهم بأمر لا يمكنهم فيه إلا التسليم للحق، أو الخروج عن موجب العقل والدين، وبيان ذلك: أنهم منكرون لتوحيد الله، مكذبون لرسوله، وذلك مستلزم لإنكار أن الله خلقهم وقد تقرر في العقل مع الشرع أن الأمر لا يخلو من أحد ثلاثة أمور: إما أنهم خلقوا من غير شيء؛ أي: لا خالق خلقهم، بل وجدوا من غير إيجاد ولا موجد، وهذا عين المحال أم هم الخالقون لأنفسهم، وهذا -أيضاً- محال، فإنه لا يتصور أن يوجدوا أنفسهم؛ فإذا بطل هذان الأمران، وبيان استحالتهم، تعين القسم الثالث أن الله الذي خلقهم، وإذا تعين ذلك علم أن الله تعالى هو المعبود وحده الذي لا تنبغي العبادة ولا تصلح إلا له تعالى.

سُورَةُ الْحَجَرِ
أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَعُوا بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُوتٌ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ فَقَوْلُهُمْ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصْطَبِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلُوكٌ مِنْ غَيْرِ طَرِيقٍ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا الَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ أَلَمْ يَكِيدُوا أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴿٤٢﴾ فَذَرَهُمْ حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٦﴾ وَمِنْ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٧﴾

سُورَةُ الْحَجَرِ
٥٢٥

(٣٦) ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ وهذا استفهام يدل على تقرير النفي؛ أي: ما خلقوا السماوات والأرض، فيكونوا شركاء لله، وهذا أمر واضح جداً ﴿بَلْ﴾ ولكن المكذبين ﴿لَا يُوقِنُونَ﴾ ليس عندهم علم تم ويقين يوجب لهم الانتفاع بالأدلة الشرعية والعقلية.

(٣٧) ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾ أي: أعند هؤلاء المكذبين خزائن رحمة ربك فيعطون من يشاءون ويمنعون من يريدون؟ أي: فذلك حجروا على الله أن يعطي النبوة عبده ورسوله محمداً ﷺ، وكأنهم الوكلاء المفوضون على خزائن رحمة الله، وهم أحقر وأذل من ذلك ﴿أَمْ هُمُ الْمُصْطَبِرُونَ﴾ أي: المتسلطون على خلق الله وملكه، بالقهر والغلبة؟ ليس الأمر كذلك، بل هم العاجزون الفقراء.

شريك في الوجدانية والعبادة، وهذا هو المقصود من الكلام الذي سيق لأجله، وهو بطلان عبادة ما سوى الله، وبيان فسادها بتلك الأدلة القاطعة، وأن ما عليه المشركون هو الباطل، وأن الذي ينبغي أن يعبد، ويصلى له ويسجد، ويخلص له دعاء العبادة ودعاء المسألة هو الله المألوه المعبود، كامل الأسماء والصفات، كثير النعوت الحسنة، والأفعال الجميلة، ذو الجلال والإكرام، والعز الذي لا يرام، الواحد الأحد الصمد، الكبير الحميد المجيد.

(٤٤) يقول تعالى في ذكر بيان أن المشركين المكذبين بالحق الواضح، قد عتوا عن الحق وعسوا في دين الباطل، وأنه لو قام على الحق كل دليل لما اتبعوه، ولخالفوه وعاندوه ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ لو سقط عليهم من السماء من الآيات الباهرة كسف- أي: قطع كبار من العذاب ﴿يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ أي: هذا سحاب متراكم على العادة؛ أي: فلا يبالون بما رأوا من الآيات، ولا يعتبرون بها.

(٤٥) وهؤلاء لا دواء لهم إلا العذاب والنكال؛ ولهذا قال: ﴿فَذَرَهُمْ﴾؛ أي: دعهم يا محمد ﴿حَتَّىٰ يُلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ وهو يوم القيامة الذي يصيبهم فيه من العذاب والنكال ما لا يقدر قدره، ولا يوصف أمره.

(٤٦) ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ لا قليلاً ولا كثيراً، وإن كان في الدنيا قد يوجد منهم كيد يعيشون به زمناً قليلاً، فيوم القيامة يضمحل كيدهم، وتبطل مساعيهم ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ولا ينتصرون من عذاب الله.

(٤٧) ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ لما ذكر

(٣٨) ﴿أَمْ لَهُمْ شُمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ ألهم اطلاع على الغيب واستماع له بين الملائكة الأعلى فيخبرون عن أمور لا يعلمها غيرهم؟ ﴿فَلَيَأْتِيَنَّ مُسْتَعْتِمٌ﴾ المدعي لذلك ﴿بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ بحجة ظاهرة على صحة ما هم فيه من الفعال والمقال.

(٣٩) ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ﴾ كما زعمتم ﴿وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾ كما شئتم، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لهم؛ حيث جعلوا لله ما يكرهونه؛ كقوله: ﴿فَأَسْتَفْتِيهِمْ أَرَأَيْتَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ [الصفات: ١٤٩].

(٤٠) ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ﴾ يا أيها الرسول ﴿أَجْرًا﴾ على تبليغ الرسالة ﴿فَهُمْ مِّنْ مَّغْرَمٍ مُّتَقَلُونَ﴾، فهم من أدنى شيء يتبرمون منه، ويثقلهم ويشق عليهم.

(٤١) ﴿أَمْ عِنْدَهُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ ما كانوا يعلمونه من الغيوب، فيكونون قد اطلعوا على ما لم يطلع عليه رسول الله، فعارضوه وعاندوه بما عندهم من علم الغيب وقد علم أنهم الأمة الأمية، الجهال الضالون، ورسول الله ﷺ هو الذي عنده من العلم أعظم من غيره، وأنباء الله من علم الغيب على ما لم يطلع عليه أحدا من الخلق، وهذا كله إلزام لهم بالطرق العقلية والنقلية على فساد قولهم، وتصوير بطلانه بأحسن الطرق وأوضحها وأسلمها من الاعتراض.

(٤٢) ﴿أَمْ يُرِيدُونَ﴾ بقدرتهم فيك وفيما جئتهم به ﴿كَيْدًا﴾ يبطلون به دينك، ويفسدون به أمرك؟ ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ كيدهم في نحورهم، ومضرته عائدة إليهم.

(٤٣) ﴿أَمْ هُمُ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ ألهم إله يدعى ويرجى نفعه، ويخاف من ضره غير الله تعالى؟ ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فليس له شريك في الملك، ولا



اللَّهُ عذاب الظالمين في القيامة أخبر أن لهم عذاباً دون عذاب يوم القيامة؛ وذلك شامل لعذاب الدنيا بالقتل والسبي والإخراج من الديار، ولعذاب البرزخ والقبر ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلذلك أقاموا على ما يوجب العذاب، وشدة العقاب.

(٤٨) ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أمر رسوله ﷺ: أن يصبر لحكم ربه القدري والشرعي بلزومه والاستقامة عليه، ووعد الله بالكفاية بقوله: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ بمرأى منا وحفظ، واعتناء بأمرك، وأمره أن يستعين على الصبر بالذكر والعبادة ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ من الليل.

(٤٩) ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ﴾ آخر الليل ﴿فَسَبِّحْهُ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّخْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] ﴿وَإِذْ بَرَأَ النَّجْمُ﴾ يدخل في ذلك الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر وصلاة الفجر، وذلك حين تدبر النجوم فتغيب بضوء الصبح.

سورة النجم وهي مكية

هويه؛ أي: سقوطه في الأفق في آخر الليل عند إدبار الليل وإقبال النهار؛ لأن في ذلك من آيات الله العظيمة، ما أوجب أن أقسم به، والصحيح: أن النجم اسم جنس شامل للنجوم كلها، وأقسم بالنجوم على صحة ما جاء به الرسول ﷺ من الوحي الإلهي؛ لأن في ذلك مناسبة عجيبة، فإن الله تعالى جعل

(١) ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ﴾ يقسم تعالى بالنجم عند

(٤٨) أخرج البخاري عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «من تعاز من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله. ثم قال: رب اغفر لي - أو قال: ثم دعا - استجيب له، فإن عزم فتوحاً ثم صلى، تقبلت صلاته». وأخرج أبو داود والنسائي في «الكبرى» وأحمد بإسناد صحيح عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه؛ قال: كان رسول الله ﷺ يقول بأخرة إذا أراد أن يقوم من المجلس: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك» فقال رجل: يا رسول الله، إنك لتقول قولاً ما كنت تقولهُ فيما مضى؟ قال: «كفارة لما يكون في المجلس».

(١) أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: أول سورة أنزلت فيها سجدة: «والنجم». قال: فسجد رسول الله ﷺ وسجد من خلفه إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه، فرأيتُه بعد ذلك قتل كافراً وهو: أمية بن خلف.

الظاهرة والباطنة، قوي على تنفيذ ما أمره الله بتنفيذه، قوي على إيصال الوحي إلى الرسول ﷺ، ومنعه من اختلاس الشياطين له، أو إدخالهم فيه ما ليس منه.

(٦) ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ قوة، وخلق حسن، وجمال ظاهر وباطن ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ جبريل عليه السلام (٧) ﴿وَهُوَ﴾ أي: جبريل، استوى في ﴿بِالْأَفْقِ الْأَعْلَىٰ﴾ أفق السماء الذي هو أعلى من الأرض، فهو من الأرواح العلوية التي لا تنالها الشياطين، ولا يتمكنون من الوصول إليها.

(٨) ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ جبريل من النبي ﷺ لإيصال الوحي إليه ﴿فَدَلَّكَ﴾ عليه من الأفق الأعلى.

(٩) ﴿فَكَانَ﴾ في قربه منه ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ قدر قوسين، والقوس معروف ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أقرب من القوسين، وهذا يدل على كمال المباشرة للرسول ﷺ بالرسالة، وأنه لا واسطة بينه وبين جبريل عليه السلام.

(١٠) ﴿فَأَوْحَىٰ﴾ الله بواسطة جبريل عليه السلام ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِ﴾ محمد ﷺ ﴿مَا أَوْحَىٰ﴾ الذي أوحاه إليه من الشرع العظيم، والنبأ المستقيم.

(١١) ﴿مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾؛ أي: اتفق فؤاد

النجوم زينة للسماء، وكذلك الوحي وآثاره زينة للأرض، فلولا العلم الموروث عن الأنبياء لكان الناس في ظلمة أشد من الليل البهيم.

(٢) ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ المقسم عليه: تنزيه الرسول ﷺ عن الضلال في علمه، والغبي في قصده، ويلزم من ذلك أن يكون مهتدياً في علمه، هادياً حسن القصد، ناصحاً للأمة بعكس ما عليه أهل الضلال من فساد العلم، وفساد القصد. وقال: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ لينبهم على ما يعرفونه منه من الصدق والهداية، وأنه لا يخفى عليهم أمره

(٣) ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ أي: ليس نطقه صادراً عن هوى نفسه.

(٤) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ لا يتبع إلا ما أوحى الله إليه من الهدى والتقوى، في نفسه وفي غيره.

وذلل هذا على أن السنة وحي من الله لرسوله ﷺ، وأنه معصوم فيما يخبر به عن الله - تعالى - وعن شرعه.

(٥) ﴿عَلَّمَهُ﴾ نزل بالوحي على الرسول ﷺ جبريل عليه السلام ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ شديد القوة

(٣ و ٤) أخرج أبو داود وأحمد بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش، فقالوا: إنك تكتب كل شيء، تسمعه من رسول الله ﷺ ورسوله ﷺ بشر يتكلم في الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال «اكتب»، فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلا حق». وفي «المسند» و«الأدب المفرد» وغيرهما بإسناد صحيح لغيره عن أبي هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «لا أقول إلا حقاً» قال بعض أصحابه: فإنك تداعبنا يا رسول الله؟ قال: «إني لا أقول إلا حقاً».

(٩ و ١٠) أخرج الشيخان عن الشيباني؛ قال: سألت زراً عن قوله: ﴿كَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ ① ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ قال: حدثنا عبد الله: أن محمد بن جبريل رأى جبريل له ستمائة جناح.

(١١) أخرج الترمذي والطبري بإسناد صحيح عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: ﴿مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل، عليه حللنا رفرف، قد ملأ ما بين السماء والأرض.

(١٨) ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ من الجنة والنار، وغير ذلك من الأمور التي رآها ﷺ ليلة أسري به.

(١٩) ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ لما ذكر تعالى ما جاء به محمد ﷺ من الهدى ودين الحق، والأمر بعبادة الله وتوحيده، ذكر بطلان ما عليه المشركون من عبادة من ليس له من أوصاف الكمال شيء، ولا تنفع ولا تضر، وإنما هي أسماء فارغة عن المعنى، سماها المشركون هم وآباؤهم الجاهل الضلال، ابتدعوا لها من الأسماء الباطلة التي لا تستحقها، فخدعوا بها أنفسهم وغيرهم من الضلال، فالآلهة التي بهذه الحال، لا تستحق مثقال ذرة من العبادة، وهذه الأنداد التي سموها بهذه الأسماء، زعموا أنها مشتقة من أوصاف هي متصفة بها، فسموا ﴿اللَّتْ﴾ من الإله المستحق للعبادة، و﴿الْعُزَّىٰ﴾ من العزيز.

(٢٠) ﴿وَمِنَ الثَّلَاثَةِ الْآخَرَىٰ﴾ من «المنان» إلحاذاً في أسماء الله، وتجربياً على الشرك به، وهذه أسماء متجردة عن المعاني، فكل من له أدنى مسكة من عقل، يعلم بطلان هذه الأوصاف فيها.

الرسول ﷺ ورؤيته على الوحي الذي أوعاه الله إليه، وتواطأ سمعه وبصره، ويحتمل أن المراد بذلك: ما رأى ﷺ ليلة أسري به من آيات الله العظيمة، وأنه يتقنه حقاً بقلبه ورؤيته.

(١٢) ﴿أَفَتَدْرُونَ﴾ أفتجحدونه ﴿عَلَىٰ مَا رَأَىٰ﴾ من آيات ربه الكبرى ليلة الإسراء.

(١٣) ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ رأى محمد ﷺ جبريل عليه السلام مرة أخرى نازلاً إليه.

(١٤) ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾ وهي شجرة عظيمة جداً، فوق السماء السابعة، سميت سدرة المنتهى؛ لأنه ينتهي إليها ما يعرج من الأرض، وينزل إليها ما ينزل من الله من الوحي وغيره، أو لانتهاء علم الخلق إليها.

(١٥) ﴿عِنْدَهَا﴾ عند تلك الشجرة ﴿جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ الجنة الجامعة لكل نعيم، بحيث كانت محلاً تنتهي إليه الأماني، وترغب فيه الإرادات.

(١٦) ﴿إِذْ يَغْشَىٰ السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ يغشاها من أمر الله، شيء عظيم لا يعلم وصفه إلا الله ﷻ.

(١٧) ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾ ما زاغ يمنة ولا يسرة عن مقصوده ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ وما تجاوز البصر، وهذا كمال الأدب منه صلوات الله وسلامه عليه، أن قام مقاماً أقامه الله فيه، ولم يقصر عنه ولا تجاوزه ولا حاد عنه.

(١٣) أخرج مسلم عن أبي ذر رضى الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ فقال: «نورٌ أتى أراه!».

(١٦) أخرج مسلم وأحمد عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: «لما أسري برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السابعة، إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض؛ فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها؛ فيقبض منها» ﴿إِذْ يَغْشَىٰ السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ قال: فراش من ذهب، قال: وأعطى رسول الله ﷺ ثلاثاً: أعطى الصلوات الخمس، وأعطى خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله شيئاً من أمته المقحقات.

(١٩) أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف؛ فقال في حلفه: واللات ولعزى؛ فليقل: لا إله إلا الله، ومن قال لصاحبه: تعال أقامرك؛ فليصدق».

الأماني، ويفترون بأنفسهم، فأنكر الله على من زعم أنه يجعل له ما تمنى وهو كذب في ذلك.

(٢٥) ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ فيعطي منهما من يشاء، ويمنع من يشاء، فليس الأمر تابعاً لأمانيتهم، ولا موافقاً لأهوائهم.

(٢٦) ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ﴾ من الملائكة المقربين وكرام الملائكة ﴿لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئاً﴾ لا تفيد من دعاها وتعلق بها ورجاها ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ لا بد من اجتماع الشرطين: إذنه تعالى في الشفاعة، ورضاه عن المشفوع له. ومن المعلوم المتقرر: أنه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجه الله، موافقاً فيه صاحبُه الشريعة، فالمشركون إذاً لا نصيب لهم من شفاعة الشافعين، وقد سدوا على أنفسهم رحمة أرحم الراحمين.

(٢٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْآثِقِ﴾ يعني أن المشركين بالله المكذبين لرسله، الذين لا يؤمنون بالآخرة، بسبب عدم إيمانهم بالآخرة تجرءوا على ما تجرءوا عليه من الأقوال والأفعال المحادة لله ولرسوله من قولهم: الملائكة بنات الله، فلم ينزهوا ربهم عن الولادة، ولم يكرموا الملائكة ويجلوهم عن تسميتهم إياهم إناثاً.

(٢٨) ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ والحال أنه ليس لهم بذلك علم، لا عن الله ولا عن رسوله، ولا دلت على ذلك الفطر والعقول، بل العلم كله دال على نقيض قولهم، وأن الله منزّه عن الأولاد والصاحبة، وأن الملائكة كرام مقربون

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْآثِقِ (٢٧) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَخْلُقُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ الظَّنُّ لَا يَغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً (٢٨) فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَوْ يُرِيدُ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى (٣٠) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَخْرِجُ الَّذِينَ اسْتَشْتَوْا عَمَلَهُمْ وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَى (٣١) الَّذِينَ يَحْتَبِثُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا لَمَمٌ إِنْ رَبُّكَ وَاسِعُ الْعَفْوَ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذَا أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذَا أَنْتُمْ أَجْتَهُ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُرْجَوُ أَنْفُسُكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (٣٢) أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (٣٤) أَعِنْدَهُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُمْ يَخِيرُونَهُ (٣٥) أَمْ لَمْ يَلْبَسُوا فِي صُحُفٍ مُوسَى (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧) أَلَمْ تَرَ وَازِرَهُ وَذُرِّيَّتَهُ (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنْ سَعِيَهُمْ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى (٤١) وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (٤٢) وَأَنْتُمْ هُمْ أَضْلَعُ وَأَنْتُمْ هُمْ أَمَاتُ وَأَنْتُمْ هُمْ أَهْيَا (٤٣)

(٢١) ﴿أَلَيْسَ الذِّكْرُ وَلَهُ الْآخِرَةُ﴾ أتجعلون لله البنات بزعمكم، ولكم البنون؟.

(٢٢) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قَسَمْتُ ضُرِّيَّ﴾ ظالمة جائرة.

(٢٣) ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَعَابَا وَكُرَّمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ من حجة وبرهان على صحة مذهبكم ﴿إِنْ يَخْلُقُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ وهم في أنفسهم ليسوا بمتبعين لبرهان يتقنون به ما ذهبوا إليه، وإنما دلهم على قولهم الظن الفاسد، والجهل الكاسد ﴿وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ وما تهواه أنفسهم من الشرك والبدع الموافقة لأهويتهم ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ الذي يرشدهم في باب التوحيد والنبوة، وجميع المطالب التي يحتاج إليها العباد.

(٢٤) ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ ومع ذلك يتمنون

(٣١) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ يخبر -تعالى- أنه مالك الملك، المتفرد بملك الدنيا والآخرة، وأن جميع من في السماوات والأرض ملك لله، يتصرف فيهم تصرف الملك العظيم، في عيده ومماليكه، ينفذ فيهم قدره، ويجري عليهم شرعه، ويأمرهم وينهاهم، ويجزيهم على ما أمرهم به ونهاهم عنه، فيثيب المطيع، ويعاقب العاصي ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا﴾ العمل من الكفر فما دونه ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ من أعمال الشر بالعقوبة البليغة ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ في عبادة الله تعالى، وأحسنوا إلى خلق الله بأنواع المنافع ﴿بِالْحَسَنَى﴾ بالحالة الحسنة في الدنيا والآخرة.

(٣٢) ﴿الَّذِينَ يَحْتَبُونَ كَيْدَ الْإِنَّمِ وَالْفُجْحِ﴾ يفعلون ما أمرهم الله به من الواجبات، التي يكون تركها من كبائر الذنوب، ويتركون المحرمات الكبار؛ كالزنا، وشرب الخمر، وأكل الربا، والقتل، ونحو ذلك من الذنوب العظيمة ﴿إِلَّا اللَّهُمَّ﴾ وهي الذنوب الصغار التي لا يُصِرُّ صاحبها عليها، أو التي يلم بها العبد

إلى الله، قائمون بخدمته ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ﴾ والمشركون إنما يتبعون في ذلك القول القبيح، وهو الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً، فإن الحق لا بد فيه من اليقين المستفاد من الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة.

(٢٩) ﴿فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا﴾ أمر الله رسوله بالإعراض عن من تولى عن ذكره، الذي هو الذكر الحكيم، والقرآن العظيم، فأعرض عن العلوم النافعة ﴿وَلَوْ يَرُدُّ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ فهذا منتهى إرادته، ومن المعلوم أن العبد لا يعمل إلا للشيء الذي يريده، فسعيهم مقصور على الدنيا ولذاتها وشهواتها، كيف حصلت حصولها، وبأي طريق سحت ابتدروها.

(٣٠) ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ هذا منتهى علمهم وغايته، والله تعالى أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، ممن لا يستحق ذلك فيكله إلى نفسه ويخذله، فيضل عن سبيل الله ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ فيضع فضله حيث يعلم المحل اللائق به.

(٣٢) أخرجه الشيخان وأحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه».

وأخرج مسلم عن محمد بن عمرو بن عطاء: قال: سميت ابنتي: برة، فقالت لي زينب بنت أبي سلمة: إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا الاسم، وسميت برة. فقال رسول الله ﷺ: «لا تزكوا أنفسكم، إن الله أعلم بأهل البر منكم» فقالوا: بم نسميها؟ قال: «سموها: زينب».

وأخرج الطبراني في «الكبير» وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» بإسناد حسن: عن ثابت بن الحارث الأنصاري رضي الله عنه قال: كانت اليهود تقول إذا هلك لهم صبي صغير: هو صديق، فبلغ ذلك النبي ﷺ. فقال: «كذبت يهود؛ ما من نسمة يخلقها الله في بطن أمه إلا أنه شقي أو سعيد»؛ فأنزل الله تعالى عند ذلك هذه الآية: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجْنَتٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾.

فيه من بر وتقوى وأما الناس؛ فلا يغنون عنكم من الله شيئاً.

(٣٣) ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى﴾ قبح حالة من أمر بعبادة ربه وتوحيده، فتولى عن ذلك وأعرض عنه؛ كقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ (٣١) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢].

(٣٤) ﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا﴾ فإن سمحت نفسه ببعض الشيء القليل ﴿وَأَكْذَى﴾ فإنه لا يستمر عليه، بل يبخل ويكدي ويمنع فإن المعروف ليس سجية له وطبيعة بل طبعه التولي عن الطاعة، وعدم الثبوت على فعل المعروف، ومع هذا فهو يزكي نفسه، وينزلها غير منزلتها التي أنزلها الله بها.

(٣٥) ﴿أَعِنْدُ عِلْمٍ غَيْبٍ فَهَوَّ يَرَى﴾ هل يعلم الغيب ويخبر به، أم هو متقول على الله، متجرئ على الجمع بين الإساءة والتزكية كما هو الواقع؛ لأنه قد علم أنه ليس عنده علم من الغيب، وأنه لو قدر أنه ادعى ذلك؛ فالإخبارات القاطعة عن علم الغيب التي على يد النبي المعصوم، تدل على نقيض قوله، وذلك دليل على بطلانه.

(٣٦) ﴿أَمْ لَمْ يَبْنَأْ﴾ هذا المدعي ﴿يَمًا فِي صُحُفٍ مُّوسَى﴾ التوراة.

(٣٧) ﴿وَلِإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ قام بجميع ما ابتلاه الله به، وأمره به من الشرائع وأصول الدين وفروعه، وفي تلك الصحف أحكام كثيرة من أهمها ما ذكره الله بقوله:

(٣٨) ﴿أَلَا نَزَرُ وَزَرَةً وَزَرًا﴾ كل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شيء في الذنوب؛ فإنما عليها وزرها لا يحمله عنها أحد كما قال: ﴿وَلَا تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى جَمِلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

المرة بعد المرة، على وجه الندرة والقلة، فهذه ليس مجرد الإقدام عليها مخرجاً للعبد من أن يكون من المحسنين ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْمَغْفِرَةَ﴾ فإن هذه مع الإتيان بالواجبات وترك المحرمات تدخل تحت مغفرة الله التي وسعت كل شيء ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ هو تعالى أعلم بأحوالكم كلها، وما جبلكم عليه من الضعف والخور، عن كثير مما أمركم الله به، ومن كثرة الدواعي إلى بعض المحرمات وكثرة الجواذب إليها، وعدم الموانع القوية، والضعف موجود مشاهد منكم حين أنشأكم الله من الأرض، وإذ كنتم في بطون أمهاتكم، ولم يزل موجوداً فيكم، وإن كان الله تعالى قد أوجد فيكم قوة على ما أمركم به، ولكن الضعف لم يزل، فلعلمه - تعالى - بأحوالكم هذه ناسب الحكمة الإلهية والجود الرباني أن يتغمدكم برحمته ومغفرته وعفوه، ويغمركم بإحسانه، ويزيل عنكم الجرائم والمآثم، خصوصاً إذا كان العبد مقصوده مرضاة ربه في جميع الأوقات، وسعيه فيما يقرب إليه في أكثر الآفات، وفراره من الذنوب التي يتمقت بها عند مولاه، ثم تقع منه الفتنة بعد الفتنة، فإن الله - تعالى - أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين، أرحم بعباده من الوالدة بولدها، فلا بد لمثل هذا أن يكون من مغفرة ربه قريباً، وأن يكون الله له في جميع أحواله مجيباً، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ تخبرون الناس بطهارتها على وجه التمدح ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ فإن التقوى محلها القلب، والله هو المطلع عليه، المجازي على ما



(٣٩) ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ كل عامل له عمله الحسن والسيئ، فليس له من عمل غيره وسعيهم شيء.

قال العلماء: هذه الآية الكريمة محكمة غير منسوخة، وقد استنبط منها الإمام الشافعي رحمته الله: أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى؛ لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم، ولهذا لم يندب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته ولا حشهم عليه، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم، ولو كان خيراً لسبقونا إليه، وباب القربات يتقصر فيه على النصوص، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء، فأما الدعاء والصدقة؛ فذاك مجمع على وصولهما، ومنصوص من الشارع عليهما.

(٤٠) ﴿وَأَنْ سَعِيَهُمْ سَوْفَ يُرَى﴾ في الآخرة فيميز حسنه من سيئه.

(٤١) ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى﴾ المستكمل لجميع العمل الحسن الخالص بالحسنى، والسيئ الخالص بالسوإى، والمشوب بحسبه، جزاء تقر بعدله وإحسانه الخليقة كلها، وتحمد الله عليه.

(٤٢) ﴿وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ إليه تنتهي الأمور، وإليه تصير الأشياء والخلائق بالبعث والنشور، وإلى الله المنتهى في كل حال، فإليه ينتهي العلم والحكم، والرحمة وسائر الكمالات.

(٤٣) ﴿وَأَنْتَ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ هو الذي

أوجد أسباب الضحك والبكاء، وهو: الخير والشر، والفرح والسرور، والهم والحزن، وهو سبحانه له الحكمة البالغة في ذلك.

(٤٤) ﴿وَأَنْتَ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ هو المنفرد بالإيجاد والإعدام، والذي أوجد الخلق وأمرهم ونهاهم، سعيدهم بعد موتهم، ويجازيهم بتلك الأعمال التي عملوها في دار الدنيا.

(٤٥) ﴿وَأَنْتَ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ﴾ فسر الزوجين بقوله: الذكر والأنثى. وهذا اسم جنس شامل لجميع الحيوانات، ناطقها وبهيمةها، فهو المنفرد

(٣٩) أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: من ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده، أو علم يتفع به».

(٤٢) أخرج الطبراني في «الأوسط» واللالكائي والبيهقي في «الشعب» بإسناد حسن بمجموع طرقه وشواهد، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم: «تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في الله عز وجل».

بخلقها.

(٤٦) ﴿مِنْ نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى﴾ وهذا من أعظم الأدلة على كمال قدرته، وانفراده بالعزة العظيمة؛ حيث أوجد تلك الحيوانات: صغيرها وكبيرها من نطفة ضعيفة من ماء مهين، ثم نماها وكملها، حتى بلغت ما بلغت، ثم صار الآدمي منها إما إلى أرفع المقامات في أعلى عليين، وإما إلى أدنى الحالات في أسفل سافلين.

(٤٧) ولهذا استدل بالبداة على الإعادة، فقال: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْآخِرَى﴾ فيعيد العباد من الأجداث، ويجمعهم ليوم الميقات، ويجازيهم على الحسنات والسيئات.

(٤٨) ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى﴾ أغنى العباد بتيسير أمر معاشهم من التجارات وأنواع المكاسب، من الحرف وغيرها، ﴿وَأَقْنَى﴾ أي: أفاد عباده من الأموال بجميع أنواعها، ما يصيرون به مقتنين لها، ومالكين لكثير من الأعيان، وهذا من نعمه على عباده أن جميع النعم منه -تعالى-، وهذا يوجب للعباد أن يشكروه، ويعبدوه وحده لا شريك له.

(٤٩) ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعَرَى﴾ وهي النجم المعروف بالشعرى العبور، المسماة: المِزْزَم، وخصها الله بالذكر، وإن كان رب كل شيء؛ لأن هذا النجم مما عُبدَ في الجاهلية، فأخبر -تعالى- أن جنس ما يعبد المشركون مربوب مدبر مخلوق، فكيف تتخذ إلها مع الله؟!

(٥٠) ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ وهم قوم هود عليه السلام، حين كذبوا هوداً، فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية.

(٥١) ﴿وَتُمُودَ﴾ قوم صالح عليه السلام، أرسله الله إلى ثمود، فكذبوه، فبعث الله إليهم الناقة آية، ففعلوها وكذبوه، فأهلكهم الله تعالى، ﴿فَمَا أَتَى﴾ منهم أحداً، بل أهلكهم الله عن آخرهم.

(٥٢) ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ﴾ من هؤلاء الأمم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ ظُلْمٍ وَأَعْلَى﴾ فأهلكهم الله وأغرقهم في اليم.

(٥٣) ﴿وَالْمُؤَنَفَكَةَ﴾ وهم قوم لوط عليه السلام ﴿أَهْوَى﴾ أصابهم الله بعذاب ما عذب به أحداً من العالمين، قلب أسفل ديارهم أعلاها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل.

(٥٤) ولهذا قال: ﴿فَفَشْنُهَا مَا غَشِيَ﴾ غشيها من العذاب الأليم الوحيم ما غشى؛ أي: شيء عظيم لا يمكن وصفه.

(٥٥) ﴿فَبَأَيِّ آيَةٍ لَكَ تَتَحَارَى﴾ فبأي: نعم الله وفضله تشك أيها الإنسان؟ فإن نعم الله ظاهرة لا تقبل الشك بوجه من الوجوه، فما بالعباد من نعمة إلا منه تعالى، ولا يدفع النقم إلا هو.

(٥٦) ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَى﴾ أي: هذا الرسول القرشي الهاشمي محمد بن عبد الله ليس ببدع من الرسل، بل قد تقدمه من الرسل السابقين، ودعوا إلى ما دعا إليه، فلأي شيء تنكر رسالته؟ وبأي حجة تبطل دعوته؟

(٥٧) ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾ قربت القربة؛ وهي: القيامة، ودنا وقتها، وبانت علاماتها.

(٥٨) ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ إذا أتت القيامة وجاءهم العذاب الموعود به لا يدفعه

سورة القمر
مكية

أحد دون الله، ولا يطلع عليه سواه سبحانه. (٥٩) ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ أفمن هذا الحديث الذي هو خير الكلام وأفضله وأشرفه تتعجبون منه.

(٦٠) ﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ تستعملون الضحك والاستهزاء به، مع أن الذي ينبغي أن تتأثر منه النفوس، وتلين له القلوب، وتبكي له العيون، سماعاً لأمره ونهيهِ، وإصغاءً لوعده ووعيده، والتفاتاً لأخباره الحسنة الصادقة.

(٦١) ﴿وَأَنْتُمْ سَمِدُونَ﴾ غافلون عنه.

(٦٢) ﴿فَأَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ الأمر بالسجود لله خصوصاً؛ ليدل ذلك على فضله، وأنه سر العبادة ولبها، فإن لبها الخشوع لله والخضوع له، والسجود هو أعظم حالة يخضع بها العبد؛ فإنه يخضع قلبه وبدنه، ويجعل أشرف أعضائه على الأرض المهينة موضع وطء الأقدام ﴿وَأَعْبُدُوا﴾ ثم أمر بالعبادة عموماً، الشاملة لجميع ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال، الظاهرة والباطنة.

(١) ﴿أَفَرَأَيْتِ السَّاعَةَ﴾ يخبر -تعالى- أن الساعة، وهي القيامة اقتربت، وأن أوانها، وحن وقت مجيئها، ومع ذلك؛ فهؤلاء المكذبون لم يزالوا مكذبين بها، غير مستعدين لنزولها، ويريهم الله من الآيات العظيمة الدالة على وقوعها ما يؤمن على مثله البشر.

﴿وَأَشَقُّ الْقَمَرِ﴾ فمن أعظم الآيات الدالة على صحة ما جاء به محمد بن عبد الله ﷺ: أنه لما طلب منه المكذبون أن يريهم من خوارق العادات ما يدل على صحة ما جاء به وصدقه، أشار ﷺ إلى القمر بإذن الله تعالى؛ فانشق فلقتين: فلقة على جبل أبي قبيس، وفلقة على جبل قيعقان، والمشركون وغيرهم يشاهدون هذه الآية الكبرى الكائنة في العالم العلوي، التي لا يقدر الخلق على التمويه بها والتخيل.

(٢) ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعَرِّضُوا﴾ وإن ير المشركون علامة تدلهم على حقيقة نبوة محمد ﷺ، ودلالة تدلهم على صدقه فيما جاءهم على به عن ربهم، يعرضوا عنها، فيولوا مكذبين بها منكرين أن يكون حقاً يقيناً ﴿وَيَقُولُوا﴾ تكذيباً

(٦٢) أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سجد النبي ﷺ بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس.

(١) في «الصحاحين» من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بعثت الساعة هكذا» وأشار بإصبعه: السبابة والوسطى.

وأخرج البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن أهل مكة سألوا رسول الله أن يريهم آية، فأراهم القمر شقين، حتى رأوا حراء بينهما.

والحجج القواطع، ما دلّ على جميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾؛ أي: إلى الآن، لم يبلغ الأمر غايته ومنتهاه، وسيصير الأمر إلى آخره، فالمصدق يتقلب في جنات النعيم، ومغفرة الله ورضوانه، والمكذب يتقلب في سخط الله وعذابه، خالداً مخلداً أبداً.

(٤) ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ﴾ الأخبار السابقة واللاحقة والمعجزات الظاهرة ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ زاجر يزرهم عن غيهم وضلالهم. وذلك ﴿حِكْمَةً﴾ منه تعالى ﴿بِلَاغَةٍ﴾ لتقوم حجته على المخالفين ولا يبقى لأحد على الله حجة بعد الرسل ﴿فَمَا تَعْنِ الْأَنْذَرُ﴾ عن قوم كذبوا واتبعوا أهواءهم.

(٦) ﴿فَوَلَّوْا عَنْهُمْ﴾ وانتظر بهم يوماً عظيماً وهولاً جسيماً، وذلك حين ﴿يَدْعُ الدَّاعِ﴾ إسرافيل عليه السلام ﴿إِلَى شَيْءٍ تُكْرَهُ﴾؛ أي: إلى أمر فظيع تنكره الخليقة، وهو موقف الحساب وما فيه من بلاء، بل والزلازل والأهوال، فلم تر منظرأ أفظع ولا أوجع منه، وذلك بعد أن ينفخ إسرافيل نفخة، يخرج بها الأموات من قبورهم لموقف القيامة.

(٧) ﴿خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ﴾ من الهول والفرع الذي وصل إلى قلوبهم، فخضعت وذلت، وخشعت لذلك أبصارهم ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ وهي القبور ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ من كثرتهم وروجان بعضهم ببعض ﴿جَرَادٌ مُّنتَبِرٌ﴾ مبثوث في الأرض، متكاثراً جداً.

(٨) ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ مسرعين لإجابة النداء

خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَبِرٌ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسَىٰ كَذِبٌ قِيلَ لَهُمْ قَوْمٌ تَوْحٌ مِّكَدُّوْا عِبَادًا وَقَالُوا نَحْنُ نَزْدَجِرُ ١ فَمَا رَبُّهُ أَتَىٰ مَغْلُوبٌ فَاتَّصِرَ ٢ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَا تُمْثَرِيرَ ٣ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُجُوبًا فَاتَّخَذَ الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدِيدٍ ٤ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوْجِ وَدُسِّرَ ٥ فَجَرَىٰ بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ٦ وَلَقَدْ رَكَنَهَا آيَةً فَعَلَمَ مِنْ مَّذْكُرٍ ٧ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرِ ٨ وَلَقَدْ يَسِّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ٩ كَذِبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرِ ١٠ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ١١ تَنَزَّعُ النَّاسُ كَأَنَّهُمْ أَعْمَارٌ نَّحِلٌ مُّتَقَبِّرٍ ١٢ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرِ ١٣ وَلَقَدْ يَسِّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ١٤ كَذِبَتْ ثَمُودُ بِالنَّدَىٰ ١٥ فَقَالُوا ابْتِرَأْ مِنَّا وَجِدْنَا نَبِيَّكُمْ إِنَّا إِذْ لَقِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ١٦ أَتَلْقَىٰ الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشِيرٌ ١٧ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِيرُ ١٨ إِنَّا مَرْسِلُونَ الْتَافَةً فَتَنَةً لَهُمْ فَارْتَمَتْهُمُ وَأَصْطَبِرَ ١٩

منه وإنكاراً لها أن تكون حقاً: هذا ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ سَحَرْنَا به محمد حين خيّل إلينا أننا نرى القمر منفلقاً باتنين بسحره، وهو سحر ﴿مُستمرٌّ﴾ أي: ذاهب.

وهذا ليس إنكاراً منهم لهذه الآية وحدها، بل كل آية تأتيهم، فإنهم مستعدون لمقابلتها بالباطل والرد لها ولهذا قال: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا﴾ ولم يعد الضمير على انشقاق القمر فلم يقل: وإن يروها؛ بل قال: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا﴾.

(٣) وليس قصدهم اتباع الحق والهدى، وإنما قصدهم اتباع الهوى، ولذلك قال: ﴿وَكَذَّبُوا وَأَتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ فإنه لو كان قصدهم اتباع الهدى، لآمنوا قطعاً، واتبعوا محمداً عليه السلام؛ لأنه أراهم الله على يديه من البينات والبراهين

الداعي ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ﴾ الذين قد حضر عذابهم: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ شديد الهول.

(٩) ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ لما ذكر تبارك وتعالى حال المكذبين لرسوله، وأن الآيات لا تنفع فيهم، ولا تجدي عليهم شيئاً؛ أنذرهم وخوفهم بعقوبات الأمم الماضية المكذبة للرسول، وكيف أهلكتهم الله وأحل بهم عقابه. فذكر قوم نوح، أول رسول بعثه الله إلى قوم يعبدون الأصنام، فدعاهم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فامتنعوا من ترك الشرك.

ولم يزل نوح يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، فلم يزداهم ذلك إلا عناداً وطغياناً، وقدحاً في نبيهم، ولهذا قال هنا: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ﴾ لزعمهم أن ما هم عليه وآباؤهم من الشرك والضلال هو الذي يدل عليه العقل، وأن ما جاء به نوح -عليه الصلاة والسلام- جهل وضلال، لا يصدر إلا من المجانين ﴿وَأَزْدَجَرَ﴾ زجره قومه وعنفوه عندما دعاهم إلى الله -تعالى-.

(١٠) ﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ فعند ذلك دعا نوح ربه؛ فقال: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ﴾ لا قدرة لي على الانتصار منهم؛ لأنه لم يؤمن من قومه إلا القليل النادر، ولا قدرة لهم على مقاومة قومهم ﴿فَأَنْصَرِ﴾ اللهم لي منهم.

(١١) فأجاب الله سؤاله، وانتصر له من قومه: ﴿فَفَتْحْنَا آبُوبَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ كثير جداً متتابع.

(١٢) ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ فجعلت السماء ينزل منها من الماء شيء خارق للعادة، وتفجرت الأرض كلها، حتى التنور الذي لم تجر العادة

بوجود الماء فيه، فضلاً عن كونه منبعاً للماء؛ لأنه موضع النار.

﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ ماء السماء والأرض ﴿عَلَى أَمْرٍ﴾ من الله له بذلك ﴿فَقُدِّرَ﴾ قد كتبه الله في الأزل وقضاه، عقوبة لهؤلاء الظالمين الطاغين.

(١٣) ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوْجِ وَذُسرٍ﴾ ونجيناً عبدنا نوحاً على السفينة ذات الألواح والدرسر؛ أي: المسامير التي قد سمرت، بها ألواحها، وشد بها أسرها.

(١٤) ﴿تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا﴾ تجري بنوح ومن آمن معه، ومن حملة من أصناف المخلوقات برعاية من الله، وحفظ منه لها عن الغرق ونظر ﴿جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أي: فعلنا بنوح ما فعلنا من النجاة من الغرق العام جزاء له؛ حيث كذبه قومه وكفروا به، فصبر على دعوتهم، واستمر على أمر الله، فلم يرد عنه راد، ولا صده عنه صاد.

(١٥) ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا﴾ ولقد تركنا قصة نوح مع قومه ﴿ءَايَةً﴾ يتذكر بها المتذكرون، على أن من عصى الرسل وعاندهم أهلكه الله بعقاب عام شديد.

أو أن الضمير يعود إلى السفينة وجنسها، وأن أصل صنعتها تعليم من الله لعبده نوح عليه السلام، ثم أبقى الله -تعالى- صنعتها وجنسها بين الناس؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَأَيُّهُ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾

﴿٤١﴾ ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: ٤١، ٤٢]؛ ليدل ذلك على رحمته بخلقه وعنايته، وكمال قدرته، وبديع صنعتها ﴿فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ﴾

فهل من متذكر للآيات، ملق ذهنه وفكرته لما يأتيه منها، فإنها في غاية البيان واليسر؟

أعاد - تعالى - ذلك رحمة بعباده وعناية بهم، حيث دعاهم إلى ما يصلح دنياهم وأخراهم.

(٢٣) ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ كذبت ثمود القبيلة المعروفة المشهورة في أرض الحجر نبينهم صالحاً عليه السلام، حين دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأنذرهم العقاب إن هم خالفوه فكذبوه واستكبروا عليه.

(٢٤) ﴿فَقَالُوا﴾ وقالوا: ﴿أَبَشْرًا مِّثَّا وَحِدًا نَّبِئُهُ﴾ كيف نتبع بشراً لا - ملكاً -، منا، لا من غيرنا، ممن هو أكبر عند الناس منا، ومع ذلك فهو شخص واحد ﴿إِنَّا إِذَا﴾ إن اتبعناه وهو بهذه الحال ﴿لَقِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ أي: إنا لصالون أشقياء.

(٢٥) ﴿أَلَقِيَ الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا﴾ كيف يخصه الله من بيننا وينزل عليه الذكر؟ فأتي مزية خصه من بيننا؟ ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ﴾ كثير الكذب والشر.

(٢٦) ﴿سِعَامُونَ عَدَا﴾ حين ينزل بهم العذاب في الدنيا أو يحل بهم عذاب الآخرة مِنْ الكَذَّابِ الْآثِرِ وهذا تهديد لهم شديد ووعيد أكيد، فهم المعذبون بكفرهم وتكذيبهم.

(٢٧) ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ﴾ فأرسل الله الناقة التي هي من أكبر النعم عليهم، آية من آيات الله، ونعمة يحتلبون من ضرعها ما يكفيهم أجمعين ﴿فَإِنَّ لَهُمْ﴾ اختباراً منه لهم وامتحاناً ﴿فَارْتَقِبْهُمْ وَأَصْطَرِّ﴾ اصبر على دعوتك إياهم، وارقب ما يحل بهم، أو ارتقب هل يؤمنون

(١٦) ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ فكيف رأيت أيها المخاطب عذاب الله الأليم وإنذاره الذي لا يبقى لأحد عليه حجة.

(١٧) ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ ولقد يسرنا وسهلنا هذا القرآن الكريم، ألفاظه للحفظ والأداء، ومعانيه للفهم والعلم، ولهذا يدعو الله عباده إلى الإقبال عليه والتذكر بقوله: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾.

(١٨) ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ هي القبيلة المعروفة باليمن؛ أرسل الله إليهم هوداً عليه السلام يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته؛ فكذبوه ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ أي: فكيف كان عذابي الذي أنزلته بهم وإنذاري لهم كان أشد ما يكون.

(١٩) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ فأرسل الله عليهم شديدة جداً ﴿فِي يَوْمٍ نَخْتِفُ﴾ شديد العذاب والشقاء عليهم ﴿مُسْتَمِرٍّ﴾ عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً.

(٢٠) ﴿نَزَعُ النَّاسَ﴾ من شدتها، فترفعهم إلى جو السماء، ثم تدفعهم بالأرض فتهلكهم، فيصباحون ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مَنُوعٍ﴾: كأن جشهم بعد هلاكهم مثل جذوع النخل الخاوي الذي أصابته الريح فسقط على الأرض.

(٣١) ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ كان والله العذاب الأليم، والنذارة التي ما أبقت لأحد عليه حجة.

(٢٢) ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾

وَيَنْبِئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ فِيسْمَةِ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُخَضَّرٌ ﴿٢٨﴾ فَادَّوَا صَاحِبَهُمْ
فَعَاطَى فَعَقَرُ ﴿٢٩﴾ فَكَيفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرٌ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَيْشِوَالْحَظِيرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَبْتَ قَوْمٌ لَوْطٌ بِالنَّذْرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَهُمْ بِسِحْرِ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا
كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا
بِالنَّذْرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ صَيْفِيهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا
عَذَابِي وَنَذِيرٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ ﴿٣٨﴾
فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ
﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كَذَّبُوا فَخَذَنَاهُمْ
أَنْذَرْنَاهُمْ مُقْتَدِرٌ ﴿٤٢﴾ أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَئِكَ أَفَلَا تَكْتَرِبُونَ
فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سُبِّحَ لِلْجَمْعِ
وَيُؤَلِّقُونَ الذُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدهَى وَأَمْرٌ
﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُعْجِرِينَ فِي صَلَاتِهِمْ وَنُحُورِهِمْ يَوْمَ يُسْجَدُونَ فِي النَّارِ
عَلَى أَسْفَلِهِمْ ذُوقُوا مِنْ سَقَرٍ ﴿٤٧﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٨﴾

٥٣٠

أو يكفرون؟

﴿٢٨﴾ وَيَنْبِئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ فِيسْمَةِ بَيْنَهُمْ ﴿٢٨﴾ وأخبرهم أن
الماء؛ أي: موردهم الذي يستعذبونه، قسمة
بينهم وبين الناقة، لها شرب يوم ولهم شرب
يوم آخر معلوم ﴿كُلُّ شَرْبٍ مُخَضَّرٌ﴾ يحضره من
كان قسمته، ويحظر على من ليس بقسمة له.

﴿٢٩﴾ فَادَّوَا صَاحِبَهُمُ ﴿٢٩﴾ الذي باشر عقربها، الذي
هو أشقى القبيلة ﴿فَعَاطَى﴾ انقاد لما أمره به
من عقربها ﴿فَعَقَرُ﴾

﴿٣٠﴾ فَكَيفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرٌ ﴿٣٠﴾ كان أشد
عذاب.

﴿٣١﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴿٣١﴾ أرسل الله
عليهم صيحة ورجفة أهلكتهم ﴿فَكَانُوا كَهَيْشِو
الْحَظِيرِ﴾ هو الرجل يجعل لغنمه حظيرة من
الشجرة والشوك دون السباع، فما سقط من
ذلك فداسته الغنم؛ فهو الهشيم.

﴿٣٢﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ ﴿٣٢﴾ سهلنا هذا القرآن
الكريم ﴿لِلذِّكْرِ﴾ للتلاوة والحفظ والتدبر ﴿فَهَلْ
مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ يدعو الله هذه الأمة إلى الاعتناء
بكتابه؛ فإنه مصدر كمالهم وسعادتهم.

﴿٣٣﴾ كَذَبْتَ قَوْمٌ لَوْطٌ ﴿٣٣﴾ لوطاً عَلَيْهِ السَّلَامُ حين
دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له،
ونهاهم عن الشرك والفاحشة التي ما سبقهم
بها أحد من العالمين، فكذبوه واستمروا على
شركهم وقبائحهم.

﴿٣٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ﴿٣٤﴾ وهي الحجارة
﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَهُمْ بِسِحْرِ﴾ خرجوا من آخر
اليل؛ فنجوا مما أصاب قومهم.

﴿٣٥﴾ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾
نجى الله لوطاً وأهله من الكرب العظيم جزاء

على شكرهم لربهم وعبادته وحده لا شريك
له.

﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا ﴿٣٦﴾ أنذرهم نبيهم
بطشة الله وعقوبته ﴿فَتَمَارَوْا بِالنَّذْرِ﴾ شكوا في
الإنذار، وكذبوا به ولم يصدقوا.

﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ صَيْفِيهِ ﴿٣٧﴾ طلبوا أن
يسلم إليهم أضيافه ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا
عَذَابِي وَنَذِيرٌ﴾ وذلك أنهم لما قصدوا دار لوط
وعالجوا الباب ليدخلوا قالت الرسل للوط:
خل بينهم وبين الدخول فإننا رسل ربك لن
يصلوا إليك، فدخلوا الدار فصفقهم جبريل
بجناحه يأذن الله، فتركهم عمياً:

﴿٣٨﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ ﴿٣٨﴾
قلب الله عليهم ديارهم، وجعل أسفلها
أعلاها، وتبعهم بحجارة من سجيل منضود،

مسومة عند ربك للمسرفين.

(٣٩) ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَذُكِّرْ﴾ قلنا لهم: فذوقوا عذابي ونذر، حيث كنتم تمارون وتستهنئون.

(٤٠) ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ هذا القرآن يسرناه للحفظ، وسهلناه للفهم والاتعاظ به، فهل من معتبر ومتعظ؟!

(٤١) ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ فأرسل الله إليهم موسى الكليم، وأيده بالآيات الباهرات، والمعجزات القاهرة، وأشهدهم من العبر ما لم يشهد عليه أحداً غيرهم.

(٤٢) ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾ فكذبوا بآيات الله كلها، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر، فأغرقهم في اليم هو وجنوده.

(٤٣) والمراد من ذكر هذه القصص تحذير الناس والمكذبين لمحمد ﷺ، ولهذا قال: ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ﴾ هؤلاء الذين كذبوا أفضل الرسل، خير من أولئك المكذبين، الذين ذكر الله هلاكهم وما جرى عليهم؟ فإن كانوا خيراً منهم، أمكن أن ينجوا من العذاب، ولم يصبهم ما أصاب أولئك الأشرار، وليس الأمر كذلك، فإنهم إن لم يكونوا شراً منهم، فليسوا بخير منهم ﴿أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ أم أعطاكم الله عهداً وميثاقاً في الكتب التي أنزلها على الأنبياء،

فتعقدون حينئذ أنكم الناجون بإخبار الله ووعدته؟ وهذا غير واقع فلم يبق إلا أن يكون بهم قوة ينتصرون بها.

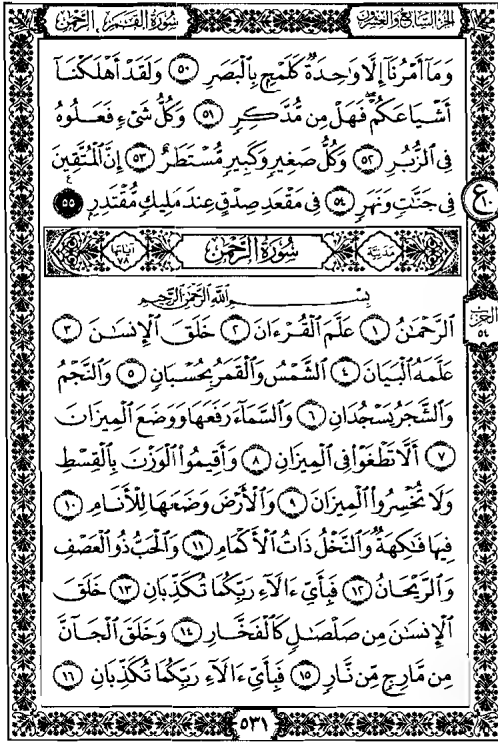
(٤٤) ثم قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ﴾ يعتقدون أنهم مناصرون بعضهم بعضاً، وأن جمعهم يغني عنهم من أرادهم بسوء.

(٤٥) فقال تعالى مبيناً لضعفهم، وأنهم مهزومون: ﴿سَيَبْرُهُمْ لَجَعٌ وَيُؤْلَوْنَ الدُّبُرَ﴾ فوقع كما أخبر، هزم الله جمعهم الأكبر يوم بدر، وقتل من صناديدهم وكبرائهم ما ذلوا به، ونصر الله دينه ونبيه وحزبه المؤمنين.

(٤٦) ومع ذلك، فلهم موعد يجمع به أولهم وآخرهم، ومن أصيب في الدنيا منهم، ومن متع بلذاته، ولهذا قال: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ الذي يجازون به، ويؤخذ منهم الحق بالقسط ﴿وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ﴾ أعظم وأشق، وأكبر من كل ما يتوهم، أو يدور بالبال.

(٤٧) ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾ الذين أكثروا من فعل الجرائم، وهي الذنوب العظيمة من الشرك وغيره من المعاصي ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ هم ضالون في الدنيا، ضلال عن العلم، وضلال عن العمل، الذي ينجيهم من العذاب ﴿وَسُعْرٌ﴾ ويوم القيامة في العذاب الأليم، والنار التي تسعر بهم، وتشتعل في أجسامهم، حتى تبلغ أفئدتهم.

(٤٥) أخرج البخاري عن عبد الله بن عباس ؓ: أن النبي ﷺ قال: وهو في قبته له يوم بدر: «اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبداً» فأخذ أبو بكر ؓ بيده، وقال: حسبك يا رسول الله! ألححت على ربك. فخرج وهو يئب في الدرع، وهو يقول: ﴿سَيَبْرُهُمْ لَجَعٌ وَيُؤْلَوْنَ الدُّبُرَ﴾.



من خير وشر مكتوب عليهم في الكتب القدرية.
 (٥٣) ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ﴾؛ أي: مسطر مكتوب وهذا حقيقة القضاء والقدر، وأن جميع الأشياء كلها قد علمها الله تعالى، وسطرها عنده في اللوح المحفوظ، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

(٤٨) ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ التي هي أشرف ما بهم من الأعضاء، وألمها أشد من ألم غيرها، فيهانون بذلك ويخزون، ويقال لهم ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ ذوقوا ألم النار وأسفها وغيظها ولهبها.

(٤٩) ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ وهذا شامل للمخلوقات والعوالم العلوية والسفلية، أن الله - تعالى - وحده خلقها لا خالق لها سواه، ولا مشارك له في خلقها وخلقها بقضاء سبق به علمه، وجرى به قلمه، بوقتها ومقدارها، وجميع ما اشتملت عليه من الأوصاف.

(٥٠) وذلك على الله يسير؛ فلهذا قال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ فإذا أراد شيئاً قال: له كن، فيكون كما أراد كلمح البصر من غير ممانعة ولا صعوبة.

(٥١) ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾ من الأمم السابقين الذين عملوا كما علمتم، وكذبوا كما كذبتهم ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ أي: متذكر يعلم أن سنة الله في الأولين والآخرين واحدة، وأن حكمته كما اقتضت إهلاك أولئك الأشرار، فإن هؤلاء مثلهم، ولا فرق بين الفريقين.

(٥٢) ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ كل ما فعلوه

(٤٨ و ٤٩) أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر، فنزلت ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ (٤٨) ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن بطة واللالكائي بإسناد حسن: عن عطاء بن أبي رباح قال: أتيت ابن عباس وهو يتزعم في ماء زمزم قد ابتلت أسافل ثيابه، فقلت له: قد تكلم في القدر، فقال: أو قد فعلوها؟ فقلت: نعم، قال: فوالله ما أنزلت هذه الآية إلا فيهم: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ (٤٨) ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ أولئك شرار هذه الأمة، لا تعودوا مرضاهم، ولا تصلوا على موتاهم، إن أريتني أحداً منهم، فقأت عينيه بأصبعي هاتين.

(٥٣) أخرج النسائي في «الكبرى» وابن ماجه وأحمد بإسناد صحيح عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «يا عائشة، إياك ومحقرات الذنوب؛ فإن لها من الله طالباً».

على سائر الحيوانات.

(٤) بَأْن ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾؛ أي: التبیین عما في ضميره، وهذا شامل للتعليم النطقي والتعليم الخطي، فالبيان الذي ميز الله به الآدمي على غيره من أجل نعمه، وأكبرها عليه.

(٥) ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحَسَابٍ﴾ خلق الله الشمس والقمر، وسخرهما يجريان بحساب مقنن، وتقدير مقدر، رحمة بالعباد، وعناية بهم، وليقوم بذلك من مصالحهم ما يقوم، وليعرف العباد عدد السنين والحساب.

(٦) ﴿وَالنَّجْمُ﴾ اختلف المفسرون في معنى النجم في هذه الآية:

فقال طائفة: النجم ما انبسط على وجه الأرض من النبات فلا ساق له.

وقال آخرون: النجم هو الكوكب الذي في السماء.

قلت: وكلاهما معتبر صحيح؛ فعلى الأول يدل قوله تعالى: ﴿يَنْفَتَوْا ظِلَّاللّٰهِ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلّٰهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨]، وعلى الآخر قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ١٨].

﴿وَالشَّجَرُ﴾ ما له ساق فقام عليه ﴿يَسْجُدَانِ﴾

(٥٤) ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ لله، بفعل أوامره وترك نواهيه، الذين اتقوا الشرك والكبائر والصغائر ﴿فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ في جنات النعيم، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، من الأشجار اليانية، والأنهار الجارية ﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ﴾ في دار كرامة الله ورضوانه ﴿عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْدِرٍ﴾ عند الملك العظيم الخالق للأشياء كلها ومقدرها، وهو مقتدر على ما يشاء مما يطلبون ويريدون.

سورة الرحمن وهي مكية

(١) هذه السورة الكريمة الجليلة، افتتحها باسمه ﴿الرَّحْمٰنُ﴾ الدال على سعة رحمته، وعموم إحسانه، وجزيل بره، وواسع فضله.

(٢) فذكر أنه ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ علم عباده ألفاظه ومعانيه، ويسرها على عباده، وهذا أعظم منة ورحمة رحم بها عباده؛ حيث أنزل عليهم قرآنًا عربيًا بأحسن ألفاظ، وأحسن تفسير، مشتمل على كل خير، زاجر عن كل شر.

(٣) ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ في أحسن تقويم، كامل الأعضاء، مستوفي الأجزاء، محكم البناء، قد أتقن البارئ تعالى البديع خلقه أي إتقان، وميزه

(٥٤) أخرج مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور، عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا».

(١) أخرج الترمذي والحاكم والبيهقي في «دلائل النبوة» وغيرهم بإسناد حسن لغيره عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة «الرحمن» من أولها إلى آخرها فسكتوا؛ فقال: «لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن مردوداً منكم، كنت كلما أتيت على قوله: ﴿فِي أَيِّ مَلَأَةٍ رَّبَّكُمَا تَكْذِبَانِ﴾ قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد».

تعرف ربها وتسجد له، وتطيع وتخضع وتنقاد لما سخرها له من مصالح عباده ومنافعهم.

(٧) ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ سقفها للمخلوقات الأرضية ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ ووضع الله الميزان؛ أي: العدل بين العباد في الأقوال والأفعال، وليس المراد به الميزان المعروف وحده، بل هو كما ذكرنا يدخل فيه الميزان المعروف، والمكيال الذي تكال به الأشياء والمقادير، والمساحات التي تضبط بها المجهولات، والحقائق التي يفصل بها بين المخلوقات، ويقام بها العدل بينهم، ولهذا قال:

(٨) ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ أنزل الله الميزان؛ لئلا تتجاوزوا الحد في الميزان، فإن الأمر لو كان يرجع إلى عقولكم وآرائكم؛ لحصل من الخلل ما الله به عليم، ولفسدت السماوات والأرض.

(٩) ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ اجعلوه قائماً بالعدل، الذي تصل إليه مقدرتكم وإمكانكم ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ لا تنقصوه وتعملوا بضده، وهو الجور والظلم والطغيان.

(١٠) ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنْعَامِ﴾ الله على ما كانت عليه من الكثافة والاستقرار واختلاف أوصافها وأحوالها للخلق؛ لكي يستقروا عليها.

(١١) ﴿فِيهَا فَكَّهٌ﴾ وهي جميع الأشجار التي تثمر الثمرات التي يتفكه بها العباد، من العنب والتين والرمان والتفاح وغير ذلك ﴿وَالنَّخْلُ

ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ ذات الوعاء الذي ينفلق عن القنوان التي تخرج شيئاً فشيئاً حتى تتم.

(١٢) ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾ ذو الساق الذي يداس، فينتفع بتبنيه للأنعام وغيرها ﴿وَالرِّيحَانُ﴾ يحتمل أن المراد بذلك جميع الأرزاق التي يأكلها آدميون، فيكون هذا من باب عطف العام على الخاص، ويكون الله قد امتن على عباده بالقوت والرزق، عموماً وخصوصاً، ويحتمل أن المراد بالريحان: الريحان المعروف، وأن الله امتن على عباده بما يسره في الأرض من أنواع الروائح الطيبة، والمشام الفاخرة، التي تسر الأرواح، وتنشرح لها النفوس.

(١٣) ولما ذكر جملة كثيرة من نعمه التي تشهد بالأبصار والبصائر، وكان الخطاب للثقلين، الإنس والجن، قررهم - تعالى - بنعمه؛ فقال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؛ أي: فبأي نعم الله الدينية والدنيوية تكذبان؟

(١٤) ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ أبا الإنس، وهو آدم عليه السلام ﴿مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ من طين مبلول، قد أحكم بله وأتقن، حتى جف، فصار له صلصلة وصوت يشبه صوت الفخار الذي طبخ على النار.

(١٥) ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ﴾ أبا الجن، وهو إبليس اللعين ﴿مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ﴾ من لهب النار الصافي، أو الذي قد خالطه الدخان.

(١٣) أخرج أحمد والطبراني بإسناد صحيح عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: سمعت رسول الله ﷺ، وهو يقرأ، وهو يصلي نحو الركن قبل أن يصدع بما يؤمر، والمشركون يستمعون: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(١٥) أخرج مسلم عن عائشة رضي الله عنها؛ قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من نار، وخلق آدم مما وصف لكم».

(٢٠) ﴿يَبْنِيهَا بَرَزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ ولكن الله تعالى جعل بينهما برزخاً من الأرض حتى لا يبغى أحدهما على الآخر، ويحصل النفع بكل منهما؛ فالعذب منه يشربون وتشرب أشجارهم وزروعهم، والملح به يطيب الهواء، ويتولد الحوت والسماك.

(٢١) ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إنها نعم ربانية لفائدة الإنسان والجان؛ فشكرها واجب.

(٢٢) ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ ويتولد من مجموع البحرين العذب والمالح ﴿الَّذُلُؤُا﴾ كباره وجيده ﴿وَالْمَرْجَاتُ﴾ الخرز الأحمر.

(٢٣) ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(٢٤) ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ﴾ وسخر -تعالى- لعباده السفن الجواري: التي تمخر البحر وتشقه بإذن الله ﴿الْمُشَنَّاتُ﴾ التي ينشئها الآدميون ﴿فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ فتكون من كبرها وعظمتها كالأعلام، وهي: الجبال العظيمة، فيركبها الناس، ويحملون عليها أمتعتهم وأنواع تجارتهم، وغير ذلك مما تدعو إليه حاجتهم وضرورتهم، وقد حفظها حافظ السماوات والأرض.

(٢٥) وهذه من نعم الله الجليلة؛ فلذلك قال: ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(٢٦) ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ كل من على الأرض من إنس وجن ودواب وسائر المخلوقات، يفنى ويموت ويبيد.

(٢٧) ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ ويبقى الحي الذي لا يموت ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾؛ أي: ذو العظمة والكبرياء والمجد، الذي يعظم ويبجل ويجل لأجله الإكرام الذي هو سعة الفضل والجود، والداعي لأن يكرم أوليائه وخواص خلقه بأنواع الإكرام، الذي يكرمه أولياؤه ويجلونه، ويعظمونه

رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ يَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرْجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ يَبْنِيهَا بَرَزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا الذُّلُؤُا وَالْمَرْجَاتُ ﴿٢٢﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَنْتَقِلُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَتَرْنَا عَنْكُمْ آيَةَ الْقُلُوبِ ﴿٣١﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ نَمُوتُ لَیْلًا وَالنَّهَارَ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا إِلَىٰ سُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ بَرِّسَلٌ عَلَيْهِمَا سَاطُطٌ مِّنْ تَارٍ وَتَفَاسٍ فَلَا يَنْصُرَانِ ﴿٣٥﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ زُرَّةً كَالَّذِي هَانٍ ﴿٣٧﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَذِي لَا يَنْفَعُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ ﴿٣٩﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾

(١٦) ولما بين خلق الثقليين ومادة ذلك وكان ذلك منه تعالى على عباده؛ قال: ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

(١٧) ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ هو -تعالى- رب كل ما أشرقت عليه الشمس والقمر، والكواكب النيرة، وكل ما غربت عليه، وكل ما كان فيه فهي تحت تدبيره وربوبيته، وثناهما هنا لإرادة العموم مشرقى الشمس شتاء وصيفاً، ومغربها كذلك.

(١٨) ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يا معشر الجن والإنس إنها نعم تفوق عد الإنسان والجان، فلا ينبغي أن يختلف في شكر الله اثنان.

(١٩) ﴿مَرْجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ المراد بالبحرين: البحر العذب، والبحر المالح، فهما يلتقيان كلاهما، فيصب العذب في البحر المالح، ويختلطان ويمتزجان.

ويحبونه، وينيبون إليه ويعبدونه.

(٢٨) ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أبْنَعْمَة إِيْجَادِكُمَا وَاِمْدَادِكُمَا بِالْأَرْزَاقِ وَالْخِيَرَاتِ طَوَالَ الْحَيَاةِ، أَمْ بِنِعْمَةِ إِنْهَاءِ أَتْعَابِكُمَا وَتَكَالُيفِكُمَا، أَمْ بِإِهْلَاكِ أَعْدَائِكُمَا، وَإِدْنَائِكُمَا مِنَ النِّعَمِ الْمَقِيمِ فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ، قُولُوا خَيْرًا لَكُمْ: لَا بَشْيَءَ مِنْ آلَائِكَ رَبَّنَا نَكْذِبُ، فَلَكَ الْحَمْدُ.

(٢٩) ﴿يَتْلُو مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هُوَ الْغَنِيِّ بِذَاتِهِ عَنْ جَمِيعِ مَخْلُوقَاتِهِ، وَهُوَ وَاسِعُ الْجُودِ وَالْكَرَمِ، فَكُلُ الْخَلْقِ مُفْتَقِرُونَ إِلَيْهِ، يَسْأَلُونَهُ جَمِيعَ حَوَائِجِهِمْ بِحَالِهِمْ وَمَقَالِهِمْ، وَلَا يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ طَرَفَةَ عَيْنٍ وَلَا أَقْلَ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ تَعَالَى ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ يَغْنِي فَقِيرًا، وَيَجْبِرُ كَسِيرًا، وَيُعْطِي قَوْمًا، وَيَمْنَعُ آخَرِينَ، وَيَمِيتُ وَيُحْيِي، وَيَرْفَعُ وَيَخْفِضُ، لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ، وَلَا تَغْلُطُهُ الْمَسَائِلُ، وَلَا يَبْرِمُهُ إِلْحَاحُ الْمَلْحِينِ، وَلَا طُولُ مَسْأَلَةِ السَّائِلِينَ، الَّتِي أَخْبَرَ أَنَّهُ -تَعَالَى- كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ، هِيَ تَقَادِيرُهُ وَتَدَابِيرُهُ الَّتِي قَدَرَهَا فِي الْأَرْزَالِ وَقَضَاهَا، لَا يَزَالُ تَعَالَى يَمْضِيهَا وَيَنْفِذُهَا فِي أَوْقَاتِهَا الَّتِي اقْتَضَتْهُ حِكْمَتُهُ.

(٣٠) ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فَمَلِكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ بِيَدِهِ، وَأَمْرُهُ رَاجِعٌ إِلَيْهِ، فَهُوَ مُسَدِّي النِّعَمِ وَذُو الْجُودِ وَالْكَرَمِ.

(٣١) ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ أَيُّ: سَنَفْرُغُ لِحِسَابِكُمْ وَمَجَازَاتِكُمْ بِأَعْمَالِكُمُ الَّتِي عَمَلْتُمُوهَا فِي دَارِ الدُّنْيَا.

(٣٢) ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فَيَجَازِي مِنْ شُكْرِ نِعْمِهِ بِالْحَسَنَى وَزِيَادَةِ، وَيَحَاسِبُ مِنْ كُفْرِ نِعْمِهِ؛

فِيصْلِيهِ دَارِ الْبَوَارِ وَبُئْسَ الْقَرَارُ.

(٣٣) إِذَا جَمَعَهُمُ اللَّهُ فِي مَوْقِفِ الْقِيَامَةِ، أَخْبَرَهُمْ بِعِزِّهِمْ وَضَعْفِهِمْ، وَكَمَالِ سُلْطَانِهِ، وَنَفُوذِ مَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، فَقَالَ مُعْجَزًا لَهُمْ: ﴿يَمْعَشَرُ فَإِذَا وَالْإِنْسُ تُكَذِّبَانِ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَفْعُدُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تَجِدُونَ مَنْفَذًا مُسْلِكًا تَخْرُجُونَ بِهِ عَنْ مَلِكِ اللَّهِ وَسُلْطَانِهِ ﴿فَأَنْفَعُوا لَا تَفْعُدُوا إِلَّا سُلْطَانٍ﴾ لَا تَخْرُجُونَ عَنْهُ إِلَّا بِقُوَّةٍ وَتَسْلُطٍ مِنْكُمْ، وَكَمَالِ قُدْرَةٍ، وَأَنِّي لَهُمْ ذَلِكَ، وَهُمْ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، وَلَا مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا!؟.

(٣٤) ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فَلَا نَجَاةَ لَكُمَا إِلَّا بِرَحْمَتِهِ، وَلَا فَوْزَ لَكُمَا بِجَنَّاتِ النِّعَمِ إِلَّا بِفَضْلِهِ، فَالْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ الْحَقُّ.

(٣٥) ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِّنْ نَّارٍ﴾ أَيُّ: يَرْسِلُ عَلَيْكُمَا لَهَبٌ صَافٍ مِنَ النَّارِ.

﴿وَنُحَاسٌ﴾ وَهُوَ اللَّهَبُ، الَّذِي قَدْ خَالَطَهُ الدِّخَانُ، وَالْمَعْنَى: أَنَّ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ الْفُظْيَعَيْنِ يَرْسِلَانِ عَلَيْكُمَا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، وَيَحِيطَانِ بِكُمَا ﴿فَلَا تَنْصَرِفَانِ﴾ لَا بِنَاصِرٍ مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وَلَا بِأَحَدٍ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

(٣٦) وَلَمَّا كَانَ تَخْوِيفُهُ لِعِبَادِهِ نِعْمَةً مِنْهُ عَلَيْهِمْ، وَسَوَاطٍ يَسُوقُهُمْ بِهِ إِلَى أَعْلَى الْمَطَالِبِ وَأَشْرَفِ الْمَوَاهِبِ ائْتَنَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(٣٧) ﴿فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ شِدَّةِ الْأَهْوَالِ، وَكَثْرَةِ الْبَلْبَالِ، وَتَرَادُفِ الْأَوْجَالِ، فَانْخَسَفَتْ شَمْسُهَا وَقَمَرُهَا، وَانْتَشَرَتْ نَجُومُهَا

(٢٩) أَخْرَجَ ابْنُ مَاجَهٍ وَابْنُ حَبَانَ وَابْنُ أَبِي عَاصِمٍ فِي «السَّنَةِ» بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ ﷻ: كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ» قَالَ: مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَغْفِرَ ذَنْبًا، وَيَفْرَجَ كَرْبًا، وَيَرْفَعَ قَوْمًا، وَيَضَعَ آخَرِينَ.

مجرم، ولا يشقى بها إلا هالك.

(٤١) ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ سِيمَهُمْ﴾ علامات تظهر عليهم؛ وهي: سواد الوجوه وزرقة العيون؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٦].

﴿فِيُؤْخَذُ بِالنَّوْصَى وَالْأَقْدَامِ﴾ فيؤخذ بنواصي المجرمين وأقدامهم، فيلقون في النار، ويسحبون فيها.

(٤٢) ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أبسعمة العدالة أم بنعمة إكرام المتقين الصالحين قولوا: لا شيء من آلائك ربنا نكذب؛ فلك الحمد من قبل ومن بعد.

(٤٣) يقال للمكذبين بالوعد والوعيد حين تسعر الجحيم: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ فليهنهم تكذيبهم بها، وليذوقوا من عذابها ونكالها وسعيرها وأغلالها، ما هو جزاء لتكذيبهم.

(٤٤) ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا﴾ بين أضباق الجحيم ولهبها ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ ماء حار جداً قد انتهى حره، وزمهرير قد اشتد برده وقره.

(٤٥) ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

وكل ما ذكر الله تعالى من قوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾ فإن إلى هاهنا مواعظ وزواجر وتخويف، وكل ذلك نعمة من الله تعالى؛ لأنها تزجر عن المعاصي؛ ولذلك ختم كل آية بقوله: ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

(٤٦) ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ وللذي خاف ربه وقيامه عليه؛ فترك ما نهى عنه، وفعل ما

سورة الرحمن

يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ سِيمَهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوْصَى وَالْأَقْدَامِ ﴿١﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥﴾ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿٦﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٨﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿١٠﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١١﴾ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ رَوْحَانٍ ﴿١٢﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَفِي الْجَنَّاتِ دَانٍ ﴿١٤﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٥﴾ فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الْطُّرُفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِلَاسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ ﴿١٦﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿١٨﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٢٠﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ وَمَنْ ذُو نِمْطٍ جَنَّاتٍ ﴿٢٢﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ مُدَّاهِمَاتَانِ ﴿٢٤﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ فِيهِمَا عِمَتَانِ صَاحَتَانِ ﴿٢٦﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٧﴾

﴿فَكَانَتْ﴾ من شدة الخوف والانزعاج ﴿وَوَدَّهَ﴾ كَالْهَآكِ كَانَتْ كالمهل والرصاص المذاب ونحوه.

(٣٨) ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فمن الذي ينجيكم من هذه الأهوال وكيف تأمنون من هذا الفزع الأكبر.

(٣٩) ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ ءِشٌّ وَلَا جَانٌ﴾ سؤال استعلام بما وقع؛ لأنه تعالى عالم الغيب والشهادة والماضي والمستقبل، ويريد أن يجازي العباد بما علمه من أحوالهم.

(٤٠) ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فنعمه سبحانه عمت جميع الخلق ووسعتهم؛ فلا يجحدها إلا

(٤٦) أخرج النسائي في «الكبرى» وأحمد والطبري بإسناد صحيح: عن أبي الدرداء رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قرأ يوماً هذه الآية: «وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ» فقلت: وإن زنى وإن سرق؟ فقال: «وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ» فقلت: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال: «وإن رغم أنف أبي الدرداء».

الدائم تكذبان؟

(٥٦) ﴿فِيهِنَّ قَصَصٌ أَلْفُفٌ﴾ قد قصرن طرفهن على أزواجهن، من حسنهم وجمالهم، وكمال محبتهم لهن، وقصرن -أيضا- طرف أزواجهن عليهن، من حسنهن وجمالهن ولذة وصلهن ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ إِسْرَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ لم ينلهن قبلهم أحد من الإنس والجن، بل هن أبكار عرب، متحبات إلى أزواجهن، بحسن التبعل والتغنج والملاحة والدلال.

(٥٧) ﴿فِيَايَ آءَاءَ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ﴾ أبمثل هذا الفضل العميم في ظل ظليل ونعيم مقيم عند ملك كريم تكذبان؟

(٥٨) ﴿كَأَنَّ الْيَأْقُوتَ وَالْمَرْجَانَ﴾ صفاء الياقوت في بياض المرجان، وذلك لصفائهن وجمال منظرهن وبهائهن.

(٥٩) ﴿فِيَايَ آءَاءَ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ﴾ أبمثل هذا العطاء الذي لم تره عين ولم تسمع به أذن من قبل تكذبان؟!

(٦٠) ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ هل جزاء من أحسن في عبادة الخالق ونفع عبده ﴿إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ إلا أن يحسن إليه بالثواب الجزيل، والفوز الكبير، والنعيم المقيم، والعيش السليم، فهاتان الجنتان العاليتان للمقربين.

(٦١) ﴿فِيَايَ آءَاءَ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ﴾ أبمثل هذا النعيم العظيم والفوز الكبير تكذبان يا معشر الجن والإنس، فقولا: لا بشيء من آلاء ربنا نكذب؛

أمره به، له جنتان من ذهب آتيتهما وحليتهما وبنيانهما وما فيهما، إحدى الجنتين جزاء على ترك المنهيات، والأخرى على فعل الطاعات. (٤٧) ﴿فِيَايَ آءَاءَ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ﴾ أبهذا النعيم والإثابة للمتقين تكذبان.

(٤٨) ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ ذواتا أنواع وأصناف من جميع أصناف النعيم وأنواعه وفي كل نوع وصف أفنان من الخيرات.

(٥٠) ﴿فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ يفجرونها على ما يريدون ويشتهون.

(٥١) ﴿فِيَايَ آءَاءَ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ﴾ أبمثل هذا العطاء والإفضال تكذبان؟

(٥٢) ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ فَنَكَمَةٍ﴾ من جميع أصناف الفواكه ﴿زَوَاجٍ﴾ صنفان.

(٥٣) ﴿فِيَايَ آءَاءَ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ﴾ أبمثل هذا الإنعام والإكرام لأهل التقوى تكذبان؟

(٥٤) ﴿مُتَكِينٍ عَلَى فُرُشٍ﴾ جلوس تمكن واستقرار وراحة ﴿بَطَائِنُهَا﴾ جمع بطانة، والذي تحت الظهارة، ﴿مَنْ إِسْتَبْرَقَ﴾ وهو أحسن الحرير وأفخره، نبه سبحانه على شرف الظهارة بشرف البطانة، وهذا من التنبيه بالأدنى على الأعلى.

قال العلماء: هذه البطائن، فكيف لو رأيتم الطواهر؟ ﴿وَحَيَّ الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ الجنى هو الثمر المستوي ﴿دَانٍ﴾ وثمر هاتين الجنتين قريب التناول، يناله القائم والقاعد والمضطجع.

(٥٥) ﴿فِيَايَ آءَاءَ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ﴾ أبمثل هذا النعيم

وفي «الصحيحين»، عن عبد الله بن قيس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «جنتان من فضة: آتيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب: آتيتهما وما فيهما، وما بين القوم أن ينظروا إلى ربهم ﷻ إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن».

(٥٦ و ٥٨) أخرج أحمد بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «للرجال من أهل الجنة زوجتان من الحور العين، على كل واحدة سبعون حلة، يرى من ساقها من وراء الثياب».

(٦٥) ﴿فَإَيَّ ءَالَآءِ رَبِّكَأ تَكْذِبَانِ﴾ بأي إنعام تكذبان يا معشر الجن والإنس؟ فإنه إنعام على إثر إنعام.

(٦٦) ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ فَضْلَتَانِ﴾ فوارتان بالماء لا تقطعان.

(٦٧) ﴿فَإَيَّ ءَالَآءِ رَبِّكَأ تَكْذِبَانِ﴾ بأي إحسان وإكرام تكذبان؟

(٦٨) ﴿فِيهِمَا فَكْهَةٌ وَخُلٌّ وَرَمَانٌ﴾ من جميع أصناف الفواكه وأخصها النخل والرمان اللذان فيهما من المنافع ما فيهما.

(٦٩) ﴿فَإَيَّ ءَالَآءِ رَبِّكَأ تَكْذِبَانِ﴾ .

(٧٠) ﴿فِيهِنَّ﴾ في الجنات كلها ﴿خَيْرَاتٌ حَسَنٌ﴾ أي: خيرات الأخلاق حسان الأوجه، فجمعن بين جمال الظاهر والباطن، وحسن الخلق والخلق.

(٧١) ﴿فَإَيَّ ءَالَآءِ رَبِّكَأ تَكْذِبَانِ﴾ أبمثل هذا

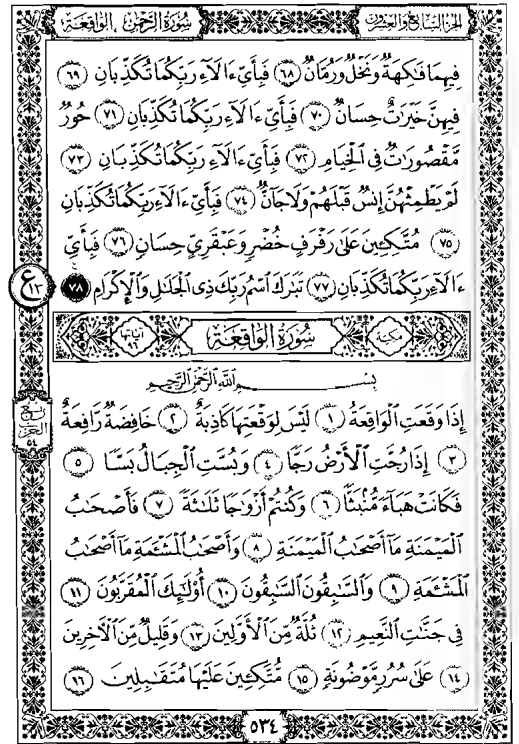
الإحسان على عباد الرحمن تكذبان؟

(٧٢) ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْحَيَامِ﴾ مستورات في الحجال، محبوسات في خيام اللؤلؤ، قد تهيأن وأعددن أنفسهن لأزواجهن، ولا ينفي ذلك خروجهن في البساتين ورياض الجنة، كما جرت العادة لبنات الملوك ونحوهن المخدرات الخفريات.

(٧٣) ﴿فَإَيَّ ءَالَآءِ رَبِّكَأ تَكْذِبَانِ﴾ أبمثل هذا

الرضوان على أهل الإيمان تكذبان؟

(٧٤) ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ﴾ لم يجامعهن فيفضي بكارتهن ﴿إِنْسٌ قَلْبُهُمْ وَلَا جَانٌ﴾ قبل أزواجهن



فلك الحمد والمنة على الإسلام والسنة.

(٦٢) ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا﴾ أي من دون الجنة والذين الأوليين في الفضل والدرجات ﴿جَنَّاتٍ﴾ من فضة بنيانها وأتيتها وحليتهما وما فيهما لأصحاب اليمين.

(٦٣) ﴿فَإَيَّ ءَالَآءِ رَبِّكَأ تَكْذِبَانِ﴾ .

اللهم ارزقنا ما شئت منهما؛ فإننا بعطائك راضون، ولآلائك شاكرون، ولك عابدون؛ فلا نكذب في إفضالك، ولا نمترى في إنعامك، فلك الحمد في الأولى والآخرة.

(٦٤) وتلك الجنتان ﴿مُدْهَامَتَانِ﴾ سوداوان من شدة الخضرة التي هي أثر الري.

سورة الواقعة
وهي مكية

- (١) ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ يخبر تعالى بحال الواقعة التي لا بد من وقوعها، وهي القيامة التي
(٢) ﴿لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ﴾ لا شك فيها؛ لأنها قد تظاهرت عليها الأدلة العقلية والسمعية، ودلت عليها حكمته تعالى.
(٣) ﴿خَافِضَةٌ﴾ لأناس في أسفل سافلين ﴿رَافِعَةٌ﴾ لأناس في أعلى عليين، أو خفضت بصوتها فأسمعت القريب، ورفعت؛ فأسمعت البعيد.
(٤) ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ حركت واضطربت وزلزلت زلزالاً شديداً.
(٥) ﴿وُئِسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾ فتت.
(٦) ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُتْبِنًا﴾ فأصبحت الأرض ليس عليها جبل ولا معلم، قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً.
(٧) ﴿وَكُنْتُمْ﴾ أيها الخلق ﴿أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ انقسمتم ثلاث فرق بحسب أعمالكم الحسنة والسيئة.
(٨) ثم فصل أحوال الأزواج الثلاثة فقال: ﴿فَأَصْحَبُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَبُ الْيَمِينِ﴾ تعظيم لشأنهم، وتفضيم لأحوالهم.

- في الجنة.
(٧٥) ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أبعثل هذا الجود والكرم تكذبان؟
(٧٦) ﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَى زُفْرٍ خُضِرٍ﴾ أصحاب هاتين الجنتين متكأهم على الرفرف الأخضر، وهي: الفرش التي فوق المجالس العالية، التي قد زادت على مجالسهم، فصار لها رفرفة من وراء مجالسهم، لزيادة البهاء وحسن المنظر ﴿وَعَبْقَرِيَّ حَسَّانٍ﴾ العبقري: نسبة لكل منسوج نسجاً حسناً فاخراً، ولهذا وصفها بالحسن الشامل، لحسن الصنعة وحسن المنظر، ونعومة الملمس.
(٧٧) ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أبنعم الدنيا أم بنعم البرزخ أم بنعم الآخرة تكذبان؟
(٧٨) ﴿نَبِّئْكَ أَنَّمْ رِيبُكَ ذِي الْمُلْدِ وَالْإِكْرَامِ﴾ تعظم وكثر خيره، الذي له الجلال الباهر، والمجد الكامل، والإكرام لأوليائه.

- (٧٨) أخرج النسائي وأحمد والحاكم بإسناد صحيح من حديث ربيعة بن عامر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الظُّلُومُ يَبْذِي الْجَلَالَ وَالْإِكْرَامَ».
وأخرج مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا سلم لا يقعد -يعني بعد الصلاة- إلا قدر ما يقول: «اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام».
(١) أخرج أحمد والطبراني وعبد الرزاق والبيهقي بإسناد صحيح عن جابر بن سمرة رضي الله عنه كان رسول الله ﷺ يصلي الصلوات كنحو صلاتكم التي تصلون اليوم، ولكن كان يخفف، كانت صلاته أخف من صلاتكم، وكان يقرأ في الفجر الواقعة، ونحوها من السور».

صدر هذه الأمة في الجملة على متأخريها؛ لكون المقربين من الأولين أكثر من المتأخرين .
(١٥) والمقربون هم خواص الخلق ﴿عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ مرمولة بالذهب والفضة واللؤلؤ والجوهر وغير ذلك من الحلي الزينة، التي لا يعلمها إلا الله تعالى .

(١٦) ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا﴾ ؛ أي : على تلك السرر، جلوس تمكن وطمأنينة وراحة واستقرار ﴿مُتَقَلِّبِينَ﴾ وجه كل منهم إلى وجه صاحبه، من صفاء قلوبهم، وحسن أدبهم، وتقابل قلوبهم .

(١٧) ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَنٌ﴾ يدور على أهل الجنة لخدمة وقضاء حوائجهم ولدان صغار الأسنان، في غاية الحسن والبهاء ﴿كَانَتْهُمْ لَوْلُؤٌ مَّكَوْنٌ﴾ مستور، لا يناله ما يغيره، ﴿مُحَلَّدُونَ﴾ مخلوقون للبقاء والخلد، لا يهرمون ولا يتغيرون، ولا يزيدون على أسنانهم .

(١٨) ويدورون عليهم بآنية شربهم ﴿يَاكُوبُ﴾ وهي التي لا عرى لها ﴿وَابَارِيقُ﴾ الأواني التي لها عرى ﴿وَكَايُنٌ مِّن مَّعِينٍ﴾ أي : من خمر لذيد المشرب، لا آفة فيها .

(١٩) ﴿لَّا يَصْدَعُونَ عَنْهَا﴾ لا تصدعهم رءوسهم كما تصدع خمرة الدنيا رأس شاربها ﴿وَلَا يُزِفُونَ﴾ أي : لا تنزف عقولهم، ولا تذهب أحلامهم منها، كما يكون لخمير الدنيا .

(٢٠) ﴿وَفَكَهْمٌ مِّمَّا يَخَيَّرُونَ﴾ مهما تخيروا، وراق في أعينهم، واشتهته نفوسهم، من أنواع الفواكه الشهية، والجنى اللذيذ، حصل لهم على أكمل وجه وأحسنه .

يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَنٌ مَّحَلَّدُونَ ﴿١٦﴾ يَأْكُوبُ وَأَبَارِيقُ وَكَأَيُنٌ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٧﴾ لَّا يَصْدَعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزِفُونَ ﴿١٨﴾ وَفَكَهْمٌ مِّمَّا يَخَيَّرُونَ ﴿١٩﴾ وَلَحْيٌ طَيْرٌ مِّمَّا يَشْتَبُونَ ﴿٢٠﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢١﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكُونِ ﴿٢٢﴾ حِزًّا إِمَّا كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٣﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءً وَلَا نَجْيًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا لِقَاءَ سَلَامٍ سَلَامٍ ﴿٢٥﴾ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٦﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٧﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَظِلٍّ مَّتَدُودٍ ﴿٢٩﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣٠﴾ وَفَكَهْمٌ كَثِيرٌ ﴿٣١﴾ لَّا مَقْطُوعٌ وَلَا مَمْنُوعٌ ﴿٣٢﴾ وَفَرَسٌ مَّرْفُوعٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنِشَاءً ﴿٣٤﴾ لِّجَعَلْنَهُنَّ أَكْبَارًا ﴿٣٥﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٦﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٧﴾ ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَثَلَاثَةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٣٩﴾ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤٠﴾ فِي سُمُورٍ وَحَمِيرٍ ﴿٤١﴾ وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُورٍ ﴿٤٢﴾ لِأَبَارِيدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٣﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا أَقْبَلَ ذَلِكَ مَبْرِجًا ﴿٤٤﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحَبِّ الْعَظِيمِ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يَقُولُوا أَهَذَا وَشَتَاوُكُنَّا أَكْرَابًا وَعَظْلًا إِيَّانَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٦﴾ أَوَّاهًا وَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّكَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٨﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٤٩﴾

(٩) ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ تهويل لحالهم .

(١٠) ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ أي : السابقون في الدنيا إلى الخيرات، هم السابقون في الآخرة لدخول الجنات .

(١١) ﴿أُولَئِكَ﴾ الذين هذا وصفهم، ﴿الْمُقَرَّبُونَ﴾ عند الله .

(١٢) ﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ في أعلى عليين، في المنازل العاليات، التي لا منزلة فوقها .

(١٣) وهؤلاء المذكورون ﴿ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي : جماعة كثيرون من المتقدمين من هذه الأمة وغيرهم .

(١٤) ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ وهذا يدل على فضل

(٢١) ﴿وَلَمْ يَطِيرْ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ من كل صنف من الطيور يشتهونه، ومن أي جنس من لحمه أرادوا، وإن شاءوا مشوياً، أو طيخاً، أو غير ذلك.

(٢٢) ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ والهوراء: التي في عينها كحل وملاحة، وحسن وبهاء، والعين: حسان الأعين وضخامها، وحسن العين في الأنثى من أعظم الأدلة على حسنها وجمالها.

(٢٣) ﴿كَأَمْثِلِ الْوَلُؤِ الْمَكُونِ﴾ كأنهن اللؤلؤ الأبيض الرطب الصافي البهي ﴿الْمَكُونِ﴾ المستور عن الأعين والرياح والشمس، الذي يكون لونه من أحسن الألوان.

(٢٤) ﴿جَزَاءً يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فكما حسنت منهم الأعمال، أحسن الله لهم الجزاء، ووَفَّرَ لهم الفوز والنعيم.

(٢٥) ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ لا يسمعون في جنات النعيم كلاماً يلغي، ولا يكون فيه فائدة ﴿وَلَا

تَأْتِيًا﴾ ولا كلاماً يؤثم صاحبه.

(٢٦) ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ إلا كلاماً طيباً.

(٢٧) ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ الذين يأخذون كتابهم بإيمانهم ﴿مَا أَصْعَبَ أَلْيَمِينَ﴾ شأنهم عظيم، وحالهم جسيم.

(٢٨) ﴿فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ﴾ مقطوع ما فيه من الشوك والأغصان الرديئة المضرة، مجعول مكان ذلك الثمر الطيب، وللسدر من الخواص الظل الظليل، وراحة الجسم فيه.

(٢٩) ﴿وَطَلْحٍ﴾ والطلح معروف، وهو شجر كبار يكون بالبادية، أو الموز ﴿مَنْضُودٍ﴾ متراكم الثمر.

(٣٠) ﴿وِظَلٍّ مَدْدُورٍ﴾ دائم إذ الشمس لا تنسخره.

(٣١) ﴿وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ﴾ كثير من العيون والأنهار السارحة والمياه المتدفقة.

(٣٢) ﴿وَفَكَهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ وعندهم من الفواكه الكثيرة المتنوعة الألوان.

(٢١) أخرج الترمذي وابن جرير وأحمد والمقدسي في «صفة الجنة» والحاكم بإسناد صحيح عن أنس رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ: ما الكوثر؟ قال: «ذاك نهر أعطانيه الله - يعني في الجنة -، أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، فيه طير أعناقها كأعناق الجزر». قال عمر: إن هذه لناعمة. قال رسول الله ﷺ: «أكلتها أنعم منها».

(٢٨) أخرج الحاكم والبيهقي في «البعث والنشور» وابن المبارك في «الزهد» بإسناد صحيح لغيره عن سليم بن عامر قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: إن الله لينفعنا بالأعراب ومسائلهم؟ قال: أقبل أعرابي؛ يوماً فقال: يا رسول الله! ذكر الله في الجنة شجرة تؤذي صاحبها؟ فقال رسول الله: «وما هي؟» قال: السدر؛ فإن له شوكاً مؤذياً، فقال رسول الله ﷺ: «أليس الله تعالى يقول: ﴿فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ﴾ خضد الله شوكه، فجعل مكان كل شوكه ثمرة، فإنها لتنبت ثمرًا تفتق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لوناً من طعام، ما فيها لون يشبه الآخر».

(٣٠) أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، اقرؤوا إن شئتم: ﴿وِظَلٍّ مَدْدُورٍ﴾».

(٣٢) أخرج الإمام أحمد وابن أبي عاصم في «السنن» والطبراني وابن حبان والبيهقي في «الشعب» بإسناد صحيح عن عامر بن زيد البكالي: أنه سمع عتبة بن عبد السلمي يقول: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فسأله عن الحوض وذكر الجنة، ثم قال الأعرابي: فيها فاكهة؟ قال: «نعم، وفيها شجرة تدعى طوبى» فذكر شيئاً لا أدري ما هو، قال: أي شجر أرضنا تشبه؟ قال: «ليست تشبه شيئاً من شجر أرضك» فقال النبي ﷺ: «أنتيت الشام؟» قال: لا. قال: «تشبه شجرة بالشام تدعى الجوزة، تنبت على ساق واحد، ويفرش أعلاها» قال ما عظم أصلها؟ قال: «لو ارتحلت جذعة من إبل أهلك ما أحاطت بأصلها حتى تكسر ترقوتها هرمًا»

هذا الوصف -وهو البكارة- ملازم لهن في جميع الأحوال.

(٣٧) كما أن كونهن ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ ملازم لهن في كل حال، والعروب: هي المرأة المتحبة إلى بعلها بحسن لفظها، وحسن هيئتها ودلالها وجمالها ومحبتها. والأتراب: اللاتي على سن واحدة، ثلاث وثلاثين سنة، التي هي غاية ما يتمنى ونهاية سن الشباب.

(٣٨) ﴿لَا صَحْبَ الْيَمِينِ﴾ أي: معدات لهم مهيات.

(٣٩) ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ هذا القسم من أصحاب اليمين عدد كثير من الأولين.

(٤٠) ﴿وَأُولَئِكَ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ وعدد كثير من

(٣٣) ﴿لَا مَقْطُوعَةَ وَلَا مَمْنُوعَةَ﴾ ليست بمنزلة فاكهة الدنيا تنقطع في وقت من الأوقات وتكون ممتنعة متعسرة على مبتغيها، بل هي على الدوام موجودة، وجناها قريب يتناولها العبد على أي حال يكون.

(٣٤) ﴿وَفُرشٍ مَرْفُوعَةٍ﴾ مرفوعة فوق الأسرة ارتفاعاً عظيماً، وتلك الفرش من الحرير والذهب واللؤلؤ وما لا يعلمه إلا الله.

(٣٥) ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنثَاءً﴾ إنا أنشأنا نساء أهل الجنة نشأة غير النشأة التي كانت في الدنيا، نشأة كاملة لا تقبل الفناء.

(٣٦) ﴿فَجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا﴾ صغارهن وكبارهن وعموم ذلك يشمل الحور العين ونساء أهل الدنيا، وأن

قال: فيها عنب؟ قال: «نعم» قال: فما عظم العنقود؟ قال: «مسيرة شهر للغراب الأبقع، ولا يفتر» قال: فما عظم الحبة؟ قال: «هل ذبح أبوك تيساً من غنمه قط عظيماً؟» قال: نعم. قال: «فسلخ إهابه فأعطاه أمك، فقال: اتخذني لنا منه دلو؟» قال: نعم قال الأعرابي: فإن تلك الحبة لتشيعني وأهل بيتي؟ قال: «نعم وعامة عشيرتك».

(٣٦) أخرج ابن حبان وأبو نعيم في «صفة الجنة»، والضياء المقدسي في «صفة الجنة» بإسناد صحيح لغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: أنه قيل له: أنطأ في الجنة؟ قال: «نعم -والذي نفسي بيده- دُخْماً دُخْماً، فإذا قام عنها رجعت مطهرة بكرة».

(٣٧) أخرج البخاري في «التاريخ الكبير» وابن أبي داود في «البعث والنشور» والطبراني في «الأوسط» بإسناد حسن لغيره عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال عن الحور في الجنة: «يتغنين يقلن: نحن الحور الحسان هدينا لأزواج كرام».

(٣٩ و ٤٠) أخرج الإمام أحمد والطبري وابن أبي حاتم بإسناد صحيح لغيره عن عمران بن حصين عن عبد الله بن مسعود -قال: وكان بعضهم يأخذ عن بعض - قال: أكرمت ذات ليلة عند رسول الله ﷺ، ثم غدونا عليه، فقال: «عرضت علي الأنبياء وأتباعها بأممها، فيمر علي النبي، والنبي في العصاة، والنبي في الثلاثة، والنبي ليس معه أحد -وتلا فتادة هذه الآية: ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨]- قال: حتى مر علي موسى بن عمران في ككببة من بني إسرائيل. قال: قلت: ربي من هذا؟ قال: هذا أخوك موسى بن عمران ومن معه من بني إسرائيل. قال: قلت: رب فأين أمتي؟ قال: انظر عن يمينك في الظراب. قال: «إذا وجوه الرجال. قال: قال: أرضيت؟ قلت: قد رضيت رب. قال: انظر إلى الأفق عن يسارك فإذا وجوه الرجال. قال: أرضيت؟ قلت: رضيت رب. قال: فإن مع هؤلاء سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب». قال: وأنشأ عكاشة بن محصن من بني أسد - قال سعيد: وكان بدرياً - قال: يا نبي الله ادع الله أن يجعلني منهم. قال: فقال: «اللهم اجعله منهم» قال: أنشأ رجل آخر، قال: يا نبي الله: ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: «سبقك بها عكاشة» قال: فقال رسول الله ﷺ: «فإن استطعتم أن تكونوا من أصحاب السبعين؛ فافعلوا وإلا فكونوا من

الْآخِرِينَ .
 (٤١) ﴿وَأَصْحَابُ النَّارِ﴾ المراد بأصحاب الشمال هم: أصحاب النار، والأعمال المشثومة ﴿مَا أَصْحَابُ النَّارِ﴾ تحقيراً لشأنهم وبياناً لعقوبتهم .
 (٤٢) فذكر الله لهم من العقاب ما هم حقيقون به؛ فأخبر أنهم ﴿فِي سُورٍ﴾ ريح حارة من حر نار جهنم، يأخذ بأنفاسهم، وتقلقهم أشد القلق ﴿وَسَمِيرٍ﴾ ماء حار يقطع أمعاءهم .
 (٤٣) ﴿وَطَلٍ مِّنْ جُحُومٍ﴾ لهب نار يختلط بدخان .
 (٤٤) ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ لا برد فيه ولا كرم، والمقصود: أن هناك الهم والغم، والحزن والشر، الذي لا خير فيه؛ لأن نفي الضد إثبات لظده .
 (٤٥) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ قد ألهتهم دنياهم، وعملوا لها، وتنعموا وتمتعوا بها، فآلهاهم الأمل عن إحسان العمل، فهذا هو الترف الذي ذمهم الله عليه .
 (٤٦) ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْخَنَثِ الْعَظِيمِ﴾ أي: كانوا يفعلون الذنوب الكبار ولا يتوبون منها، ولا يندمون عليها، بل يصرون على ما يسخط مولاهم فقدموا عليه بأوزار كثيرة غير مغفورة .
 (٤٧) ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ﴾ ينكرون البعث، فيقولون استبعاداً لوقوعه: ﴿أَيَّدًا مِّنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْلًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ كيف نبعث بعد موتنا وقد بلينا فكنا تراباً وعظاماً؟ هذا من المحال .
 (٤٨) ﴿أَوْ أَبَاؤُنَا أَلْوَلُونَ﴾ أيضاً مبعوثون

كذلك!؟

(٤٩) قال تعالى جواباً لهم ورداً عليهم: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ أي: قل إن متقدم الخلق ومتأخرهم، الجميع سيجمعهم الله ويجمعهم لميقات يوم معلوم، قدره الله لعباده، حين تنقضي الخليقة، ويريد الله تعالى جزاءهم على أعمالهم التي عملوها في دار التكليف .

(٥١) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتُمْ أَصْأَلُونَ﴾ عن طريق الهدى، التابعون لطريق الردى ﴿الْمُكْذِبُونَ﴾ بالرسول ﷺ

أصحاب الظراب، وإلا فكونوا من أصحاب الأفق، فإني قد رأيت ناساً كثيراً قد تأشبهوا حوله». ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة». فكبرنا، ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة». قال: فكبرنا. ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثَلَاثَةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ قال: فقلنا بيننا: من هؤلاء السبعون ألفاً قلنا: هم الذين ولدوا في الإسلام، ولم يشركوا. قال: فبلغه ذلك فقال: «بل هم الذين لا يكتنون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون».

وما جاء به من الحق والوعد والوعيد .
 (٥٢) ﴿لَا يَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زُفْرٍ﴾ وهو أقبح الأشجار وأخسها، وأنتنها ريحاً، وأبشعها منظرأً .
 (٥٣) ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ والذي أوجب لهم أكلها - مع ما هي عليه من الشناعة - الجوع المفرط، الذي يلتهب في أكبادهم وتكاد تنقطع منه أفئدتهم .
 هذا الطعام الذي يدفعون به الجوع، وهو الذي لا يسمن ولا يغني من جوع .
 (٥٤) ﴿فَتَشْرَبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ﴾ وأما شرايبهم؛ فهو بئس الشراب، وهو أنهم يشربون على هذا الطعام من الماء الحميم الذي يغلي في البطن .
 (٥٥) ﴿فَتَشْرَبُونَ شَرْبَ الْهَيْمِ﴾ أي: شرب الإبل العطاش، التي قد اشتد عطشها، أو أن الهيم داء يصيب الإبل، لا تروى معه من شراب الماء .
 (٥٦) ﴿هَذَا﴾ الطعام والشراب ﴿تُرْتَلَّمُونَ يَوْمَ الدِّينِ﴾ ضيافتهم وهي الضيافة التي قدموها لأنفسهم، وآثروها على ضيافة الله لأوليائه .
 (٥٧) ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ نحن الذين أوجدناكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، من غير عجز ولا تعب، أفليس القادر على ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟ بلى إنه على كل شيء قدير ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ ولهذا وبخهم على عدم تصديقهم بالبعث، وهم يشاهدون ما هو أعظم منه وأبلغ .
 (٥٨) ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ أي: أفرأيتم ابتداء خلقتكم من المني الذي تمنون .

(٥٩) ﴿أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ فهل أنتم خالقون ذلك المني وما ينشأ منه؟ أم الله تعالى الخالق الذي خلق فيكم من الشهوة وآلتها من الذكر والأنثى، وهدى كلا منهما لما هنالك، وحبب بين الزوجين، وجعل بينهما من المودة والرحمة ما هو سبب للتناسل .
 (٦٠) ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ﴾ صرفناه بينكم ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوفِينَ﴾ وما نحن بعاجزين .
 (٦١) ﴿عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ﴾ نغير خلقكم يوم القيامة ﴿وَنُنَشِّئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ في الصفات والأموال .
 (٦٢) ولهذا أحالهم الله تعالى على الاستدلال بالنشأة الأولى على النشأة الأخرى؛ فقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أن القادر على ابتداء خلقكم، قادر على إعادتكم .
 (٦٣) ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ وهذا امتنان منه على عباده، يدعوهم به إلى توحيده وعبادته والإنابة إليه، حيث أنعم عليهم بما يسره لهم من الحرث للزروع والثمار، فتخرج من ذلك من الأقوات والأرزاق والفواكه، ما هو من ضروراتهم وحاجاتهم ومصالحهم، التي لا يقدرون أن يحصوها، فضلاً عن شكرها، وأداء حقها .
 (٦٤) فقرروهم بمنته؛ فقال: ﴿أَأَنْتُمْ تَرْزَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ أي: أنتم أخرجتموه نباتاً من الأرض؟ أم أنتم الذين نميموه؟ أم أنتم الذين أخرجتم سنبله وثمره حتى صار حباً حصيداً

(٦٣ . ٦٤) أخرج الطبري والبخاري في «الأوسط» وأبو نعيم في «الحلية» بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقولن: زرعت، ولكن قل: حرثت» قال أبو هريرة: ألم تسمع إلى قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ ﴿٦٣﴾ ءَأَنْتُمْ تَرْزَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ .

بالشراب العذب الذي منه يشربون، وأنهم لولا أن الله يسره وسهله، لما كان لكم سبيل إليه. (٦٩) ﴿وَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ وأنه الذي أنزله من المزن، وهو السحاب والمطر، ينزله الله تعالى فيكون منه الأنهار الجارية على وجه الأرض وفي بطنها، ويكون منه الغدران المتدفقة، ومن نعمته أن جعله عذبا فراتا تسيغه النفوس.

(٧٠) ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ ولو شاء لجعله ملحاً أجاجاً مكروهاً للنفوس، لا ينتفع به ﴿فَلَوْلَا شُكْرُكُمْ﴾ الله تعالى على ما أنعم به عليكم.

(٧١) ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ وهذه نعمة تدخل في الضروريات التي لا غنى للخلق عنها؛ فإن الناس محتاجون إليها في كثير من أمورهم وحوائجهم، فقرروهم تعالى بالنار التي أوجدها في الأشجار.

(٧٢) ﴿وَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ وأن الخلق لا يقدر أن ينشئوا شجرها، وإنما الله تعالى الذي أنشأها من الشجر الأخضر، فإذا هي نار توقد بقدر حاجة العباد، فإذا فرغوا من حاجتهم، أطفأوها وأخمدوها.

(٧٣) ﴿وَنَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾ للعباد بنعمة ربهم، وتذكرة بنار جهنم التي أعدها الله للعاصين،

وثمرأ نضيجاً؟ أم الله الذي انفرد بذلك وحده، وأنعم به عليكم؟ وأنتم غاية ما تفعلون أن تحرثوا الأرض وتشقوها وتلقوا فيها البذر، ثم بعد ذلك لا علم عندكم بما يكون بعد ذلك، ولا قدرة لكم على أكثر من ذلك ومع ذلك، فنبههم على أن ذلك الحرث معرض للأخطار لولا حفظ الله وإبقاؤه لكم بلغة ومتاعاً إلى حين.

(٦٥) فقال: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ﴾ أي: لجعلنا الزرع المحروث وما فيه من الثمار ﴿حُطَمَاءً﴾ فتاتاً متحطماً، لا نفع فيه ولا رزق ﴿فَظَلَمْتُمْ﴾ أي: فصرتم بسبب جعله حطاماً، بعد أن تعبتم فيه وأنفقتم النفقات الكثيرة ﴿تَفْكُهُونَ﴾ تندمون وتحسرون على ما أصابكم، ويزول بذلك فرحكم وسروركم وتفكهكم.

(٦٦) فتقولون: ﴿إِنَّا لَمُعْرِمُونَ﴾ أي: إنا قد نقصنا وأصابتنا مصيبة اجتاحتنا.

(٦٧) ثم تعرفون بعد ذلك من أين أتيتم، وبأي سبب ذهيتم، فتقولون: ﴿بَلْ نَحْنُ مُحْرَمُونَ﴾ فاحمدوا الله -تعالى- حيث زرعه الله لكم، ثم أبقاه وكمله لكم، ولم يرسل عليه من الآفات ما به تحرمون نفعه وخيره.

(٦٨) ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ لما ذكر -تعالى- نعمته على عباده بالطعام، ذكر نعمته عليهم

(٧١) أخرج الشيخان ومالك عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «نار بني آدم التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم» فقال: يا رسول الله! إن كانت لكافية. فقال: «إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً».

وأخرج أحمد بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ؛ قال: «إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، وضربت بالبحر مرتين، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد».

(٧٣) أخرج أبو داود وأحمد بإسناد صحيح عن رجل من المهاجرين من قرن أن رسول الله ﷺ قال: «المسلمون شركاء في ثلاثة: النار والكأ والماء».

مغاربها، وما يحدث الله في تلك الأوقات، من الحوادث الدالة على عظمته وكبريائه وتوحيده.

(٧٦) ثم عظم هذا المقسم به، فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ وإنما كان القسم عظيمًا؛ لأن في النجوم وجريانها، وسقوطها عند مغاربها، آيات وعبرا لا يمكن حصرها.

(٧٧) ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ﴾ وأما المقسم عليه؛ فهو إثبات القرآن، وأنه حق لا ريب فيه، ولا شك يعتريه، وأنه ﴿كَرِيمٌ﴾ أي: كثير الخير، غزير العلم، فكل خير وعلم، فإنما يستفاد من كتاب الله ويستنبط منه.

(٧٨) ﴿فِي كِتَابٍ مَّكُونٍ﴾ مستور عن أعين الخلق، وهذا الكتاب المكنون، هو: اللوح المحفوظ؛ أي: إن هذا القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ، معظم عند الله، وعند ملائكته في الملاء الأعلى.

(٧٩) ﴿لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ لا يمس القرآن إلا الملائكة الكرام: الذين طهرهم الله - تعالى - من الآفات، والذنوب والعيوب، وإذا كان لا يمسها إلا المطهرون، وأن أهل الخبث والشياطين لا استطاعة لهم، ولا يدان إلى مسه، دلت الآية بتنيبها على أنه لا يجوز أن يمس القرآن إلا طاهر؛ كما ورد بذلك الحديث، ولهذا قيل: إن الآية خبر بمعنى النهي؛ أي: لا يمس القرآن إلا طاهر.

(٨٠) ﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إن هذا القرآن



وجعلها سوطاً يسوق به عباده إلى دار النعيم ﴿وَمَتَّعَا الْمُتَّقِينَ﴾ المنتفعين أو المسافرين، وخص الله المسافرين؛ لأن نفع المسافر بذلك أعظم من غيره.

(٧٤) ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ نزه ربك العظيم، كامل الأسماء والصفات، كثير الإحسان والخيرات، واحمده بقلبك ولسانك، وجوارحك، لأنه أهل لذلك، وهو المستحق لأن يشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى، ويطاع فلا يعصى.

(٧٥) ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ﴾ أقسم تعالى بالنجوم ومواقعها؛ أي: مساقطها في

(٧٩) أخرج مالك بإسناد صحيح عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمر بن حزم: «لا يمس القرآن إلا طاهر».

الموصوف بتلك الصفات الجليلة هو تنزيل رب العالمين، الذي يربي عباده بنعمة الدينية والدنيوية، ومن أجل تربية ربي بها عباده، إنزاله هذا القرآن، الذي قد اشتمل على مصالح الدارين، ورحم الله به العباد رحمة لا يقدرون لها شكوراً ومما يجب عليهم أن يقوموا به ويعلنوه ويدعوا إليه ويصدقوا به، ولهذا قال:

(٨١) ومما يجب عليهم أن يقوموا به ويعلنوه ويدعوا إليه ويصدقوا به، ولهذا قال: ﴿أَفِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ﴾ أفبهذا الكتاب العظيم والذكر الحكيم أنتم تدهنون؟ أي: تختفون وتدلسون خوفاً من الخلق وعارهم وألسنتهم؟ هذا لا ينبغي ولا يليق، إنما يليق أن يداهن بالحديث الذي لا يثق صاحبه منه.

وأما القرآن الكريم؛ فهو الحق الذي لا يغالب به مغالب إلا غلب، ولا يصول به صائل إلا كان العالي على غيره، وهو الذي لا يداهن به ولا يختفى، بل يصدع به ويعلن.

(٨٢) ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ﴾ تجعلون مقابلة منة الله عليكم بالرزق التكذيب

والكفر لنعمة الله.

(٨٣) ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ فهلا إذا بلغت الروح الحلقوم.

(٨٤) ﴿وَأَنْتُمْ جِنْدٌ تَنْظُرُونَ﴾ وأنتم تنظرون المحتضر في هذه الحالة.

(٨٥) ﴿وَتَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ والحال أنا نحن أقرب إليه منكم، بعلمنا وملائكتنا، ولكن لا تبصرون.

(٨٦) ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ فهلا إذا كنتم تزعمون، أنكم غير مبعوثين ولا محاسبين ومجازين.

(٨٧) ترجعون الروح إلى بدنها ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وأنتم تقرون أنكم عاجزون عن ردها إلى موضعها، فحينئذ إما أن تقروا بالحق الذي جاءكم به محمد ﷺ، وإما أن تعاندوا وتعلم حالكم وسوء مالكم.

(٨٨) ولما ذكر الله -تعالى- أحوال الطوائف الثلاث: المقربين، وأصحاب اليمين، والمكذبين الضالين، في أول السورة في دار القرار، ذكر أحوالهم في آخرها عند الاحتضار والموت، فقال: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ﴾ الميت ﴿مِّنَ الْمُفْرِينَ﴾ وهم الذين أدوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات

(٨٢) أخرج الطبري بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: ما مطر قوم قط إلا أصبح بعضهم كافراً يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، وقرأ: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ﴾.

وأخرج الشيخان عن زيد بن خالد الجهني أنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في أثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته؛ فذلك مؤمن بي وكافر بالكواكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب».

(٨٨ - ٩٣) أخرج أحمد بإسناد حسن لغيره عن رجل من الصحابة لم يسم قال: سمع رسول الله ﷺ يقول: «من

وفضول المباحات.

(٨٩) ﴿فَرُوحٌ﴾ فلهم راحة وطمأنينة، وسرور وبهجة، ونعيم القلب والروح ﴿وَرِيحَانٌ﴾ وهو اسم جامع لكل لذة بدنية، من أنواع المأكَل والمشارب وغيرهما، وقيل: الريحان هو الطيب المعروف، فيكون تعبيراً بنوع الشيء عن جنسه العام.

﴿وَحَنَّتْ نَعِيمٌ﴾ جامعة للأمرين كليهما، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيبشر المقربون عند الاحتضار بهذه البشارة، التي تكاد تطير منها الأرواح من الفرح والسرور.

(٩٠) ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ وهم الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرمات، وإن حصل منهم التقصير في بعض الحقوق التي لا تخل بتوحيدهم وإيمانهم.

(٩١) ﴿فَسَلَّمَ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ فيقال لأحدهم: سلام حاصل لك من إخوانك أصحاب اليمين. أي: يسلمون عليه ويحيونه عند وصوله إليهم ولقائهم له، أو يقال له: سلام لك من الآفات والبليات والعذاب؛ لأنك من أصحاب اليمين، الذين سلموا من

الذنوب الموبقات.

(٩٢) ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ الْفَٰلِٰغِينَ﴾

الذين كذبوا بالحق وضلوا عن الهدى.

(٩٣) ﴿فَنَزَّلُ مِنَ جَمِيمٍ﴾ ضيافتهم يوم قدومهم على ربهم الحديد المذاب الذي يصهر به ما في بطونهم والجلود.

(٩٤) ﴿وَنَصْلُهُ جَمِيمٌ﴾ التي تحيط بهم، وتصل إلى أفئدتهم، وإذا استغاثوا من شدة العطش والظمأ ﴿يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَأَلْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾

(٩٥) ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي ذكره الله تعالى، من جزاء العباد بأعمالهم، خيرها وشرها، وتفاصيل ذلك ﴿لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ الذي لا شك فيه ولا مرية، بل هو الحق الثابت الذي لا بد من وقوعه، وقد أشهد الله عباده الأدلة القواطع على ذلك، حتى صار عند أولي الألباب كأنهم ذائقون له مشاهدون له؛ فحمدوا الله -تعالى- على ما خصهم به من هذه النعمة العظيمة، والمنحة الجسيمة.

(٩٦) ولهذا قال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ فسبحان ربنا العظيم، وتعالى وتنزه عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً.

أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله، كره الله لقاءه قال: فأكب القوم يبكون، فقال: «ما يبكيكم؟» قالوا: إنا نكره الموت. قال: «ليس ذلك، ولكنه إذا حضر ﴿فَلَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ ﴿فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَحَنَّتْ نَعِيمٌ﴾ فإذا بشر بذلك، أحب لقاء الله، والله للقاءه أحب، ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ الْفَٰلِٰغِينَ﴾ ﴿فَنَزَّلُ مِنَ جَمِيمٍ﴾ فإذا بشر بذلك، كره لقاء الله، والله للقاءه أكره».

(٩٦) أخرج الترمذي والنسائي وأبو يعلى وابن حبان بإسناد صحيح لغيره عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال: سببحان الله العظيم وبحمده، غرست له نخلة في الجنة».

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سببحان الله وبحمده، سببحان الله العظيم».

سورة الحديد
وهي مدنية

(١) ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يخبر - تعالى - عن عظمته وجلاله وسعة سلطانه: أن جميع ما في السماوات والأرض من الحيوانات الناطقة والصامتة وغيرها، تسبح بحمد ربها، وتنزهه عما لا يليق بجلاله، وأنها قانتة لربها، منقادة لعزته، قد ظهرت فيها آثار حكمته؛ ولهذا قال: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فهذا فيه بيان عموم افتقار المخلوقات العلوية والسفلية لربها، في جميع أحوالها، وعموم عزته وقهره للأشياء كلها، وعموم حكمته في خلقه وأمره.

(٢) ثم أخبر عن عموم ملكه؛ فقال: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيُحْيِي وَيُمِيتُ﴾؛ أي: هو الخالق لذلك، الرازق المدبر لها بقدرته ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٢) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣) ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَانْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَسَخِّفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٤) وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٥) هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَأَنبَاطَ بَنَاتٍ لِّتُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٦) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُفْقَهُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَبِطَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ لَاسْتَوَى مِنْكُمْ مِّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدِ وَقَتْلُوا وَكَأَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ (٧) مَن ذَا الَّذِي يُفْرِضُ اللَّهُ فَرْضًا حَسَنًا فَيُضَعِّفُهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (٨)

(٣) ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ الذي ليس قبله شيء ﴿وَالْآخِرُ﴾ الذي ليس بعده شيء ﴿وَالظَّاهِرُ﴾ الذي ليس فوقه شيء ﴿وَالْبَاطِنُ﴾ الذي ليس دونه شيء ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ قد أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والسرائر والخفايا، والأمور المتقدمة والمتأخرة.

(٣) أخرج أبو داود بإسناد حسن عن أبي زميل قال: سألت ابن عباس فقلت: ما شيء أجده في صدري؟ قال: ما هو؟ قلت: والله لا أتكلم به. قال لي: أشيء من شك؟ قال: - وضحك - قال: ما نجا من ذلك أحد، قال: حتى أنزل الله ﴿إِن كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا نَزَّلْنَا إِلَيْكَ فَتَسْأَلِ الَّذِينَ يَفْقَهُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ [يونس: ٩٤]. قال: وقال لي: إذا وجدت في نفسك شيئاً؛ فقل: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه كان رسول الله ﷺ يأمرنا إذا أخذ أحدنا مضجعه أن يقول: «اللهم رب السماوات ورب الأرض ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، ومثل التوراة والإنجيل والفرقان، أعوذ بك من شر كل ذي شر أنت أخذ بناصيته، اللهم أنت الأول؛ فليس قبلك شيء، وأنت الآخر؛ فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر؛ فليس فوقك شيء، وأنت الباطن؛ فليس دونك شيء؛ اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر».

من الطيب، ويجازي المحسن بإحسانه،
والمسيء بإساءته.

(٦) ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ يدخل الليل على النهار، فيغشيهم الليل بظلامه، فيسكنون ويهدءون، ثم يدخل النهار على الليل، فيزول ما على الأرض من الظلام، ويضيء الكون، فيتحرك العباد، ويقومون إلى مصالحهم ومعاشهم ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بما يكون في صدور العالمين، فيوفق من يعلم أنه أهل لذلك، ويخذل من يعلم أنه لا يصلح لهدايته.

(٧) ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ﴾ يأمر تعالى عباده بالإيمان به وبرسوله وبما جاء به ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ﴾ وبالنفقة في سبيله من الأموال التي جعلها الله في أيديهم واستخلفهم عليها، لينظر كيف يعملون ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا﴾ جمعوا بين الإيمان بالله ورسوله، والنفقة في سبيله ﴿لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أعظمه وأجله رضا ربهم، والفوز بدار كرامته، وما فيها من النعيم المقيم، الذي أعده الله للمؤمنين والمجاهدين.

(٤) ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ﴾ أي: علا وارتفع ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ الذي هو سقف المخلوقات فوق جميع خلقه ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ من حب وحيوان ومطر وغير ذلك ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من نبات وشجر وحيوان وغير ذلك ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنْ السَّمَاءِ﴾ من الملائكة والأقذار والأرزاق ﴿وَمَا يَصْرُجُ فِيهَا﴾ من الملائكة والأرواح، والأدعية والأعمال، وغير ذلك ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ وهذه المعية، معية العلم والاطلاع ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ هو تعالى بصير بما يصدر منكم من الأعمال، وما صدرت عنه تلك الأعمال، من بر وفجور، فمجازيكم عليها، وحافظها عليكم.

(٥) ﴿لَكُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ملكاً وخلقاً وعبيداً، يتصرف فيهم بما شاءه من أوامره القدريّة والشرعية، الجارية على الحكمة الربانية ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ من الأعمال والعمال، فيعرض عليه العباد، فيميز الخبيث

(٤) أخرج أبو داود والبخاري في «التاريخ الكبير» والبيهقي في «السنن» و«الشعب» وأبو نعيم في «معركة الصحابة» بإسناد صحيح عن عبد الله بن معاوية الغاضري رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «ثلاث من فعلهن فقد طعم الإيمان: من عبد الله وحده، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه في كل عام، ولم يعط الهرمة ولا الدرنة ولا الشرط اللثيمة ولا المريضة، ولكن من أوسط أموالكم، فإن الله لم يسألكم خيره، ولم يأمركم بشره، وزكى نفسه» وقال رجل: يا رسول الله، ما تزكيه المرء نفسه؟ فقال: «يعلم أن الله معه حيثما كان».

(٧) أخرج مسلم عن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: «ألهاكم التكاثر، يقو ابن آدم: مالي مالي. وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت».

وزاد من حديث أبي هريرة: «وما سوى ذلك؛ فذاهب وتاركه للناس».

﴿مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ إِلَى النُّورِ﴾ من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَكُونُ لِرَأُوفٍ رَحِيمٍ﴾، وهذا من رحمته بكم ورأفته، حيث كان أرحم بعباده من الوالدة بولدها.

(١٠) ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: وما الذي يمنعكم من النفقة في سبيل الله، وهي طرق الخير كلها، ويوجب لكم أن تبخلوا ﴿وَالْحَالُ أَنَّهُ لَيْسَ لَكُمْ شَيْءٌ؛ بَلْ لِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فجميع الأموال ستنتقل من أيديكم أو تنقلون عنها، ثم يعود الملك إلى مالكة تبارك وتعالى، فاغتنموا الإنفاق ما دامت الأموال في أيديكم، وانتهزوا الفرصة ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلٍ﴾ المراد بالفتح هنا هو فتح مكة - في قول أكثر المفسرين - حيث كان الحال شديداً؛ فلم يكن يؤمن حينئذ إلا الصديقون، وأما بعد الفتح فإنه ظهر الإسلام ظهوراً عظيماً.

(٨) ثم ذكر السبب الداعي لهم إلى الإيمان، وعدم المانع منه، فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ أي: وما الذي يمنعكم من الإيمان، والحال أن الرسول محمداً ﷺ أفضل الرسل وأكرم داع دعا إلى الله يدعوكم، فهذا مما يوجب المبادرة إلى إجابة دعوته، والتلبية والإجابة للحق الذي جاء به ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وقد أخذ عليكم العهد والميثاق بالإيمان إن كنتم مؤمنين.

(٩) ومع ذلك من لطفه وعنايته بكم أنه لم يكتف بمجرد دعوة الرسول الذي هو أشرف العالم، بل أيده بالمعجزات، ودلكم على صدق ما جاء به بالآيات البينات؛ فلهذا قال: ﴿هُوَ الَّذِي يُنْزِلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَبَيِّنَاتٍ﴾ ظاهرات تدل أهل العقول على صدق كل ما جاء به، وأنه حق اليقين ﴿لِيُخْرِجَكُمْ﴾ بإرسال الرسول إليكم، وما أنزله الله على يده من الكتاب والحكمة

(٨) أخرج البزار في «مسنده» بإسناد صحيح لغيره عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أي المؤمنين أعجب إليكم إيماناً؟» قالوا: الملائكة. قال: «وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم؟» قالوا: فالأنبياء. قال: «وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم؟» قالوا: فنحن قال: «وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟ ولكن أعجب المؤمنين إيماناً قوم يجيئون بعدكم يجدون صحفاً يؤمنون بما فيها».

(١٠) أخرج الإمام أحمد بإسناد صحيح عن أنس قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام، فقال خالد لعبد الرحمن: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها؟ فبلغنا أن ذلك ذكر للنبي ﷺ فقال: «دعوا لي أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد، أو مثل الجبال ذهباً ما بلغتم أعمالهم».

﴿وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَ﴾ الذين أسلموا وقاتلوا وأنفقوا من قبل الفتح وبعده، كلهم وعده الله الجنة، وهذا يدل على فضل الصحابة كلهم عليهم السلام حيث شهد الله لهم بالإيمان ووعدهم الجنة ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾ فيجازي كلا منكم على ما يعلمه من عمله.

(١١) ثم حث على النفقة في سبيله؛ لأن الجهاد متوقف على النفقة فيه، وبذل الأموال في التجهز له، فقال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَكُمْ وَلَكُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ وهي النفقة الطيبة التي تكون خالصة لوجه الله، موافقة لمرضاة الله، من مال حلال طيب، طيبة به نفسه، وهذا من كرم الله تعالى حيث سماه: قرضاً، والمال ماله، والعبد عبده، ووعد بالمضاعفة عليه أضعافاً كثيرة، وهو الكريم الوهاب، وتلك المضاعفة محلها وموضعها يوم القيامة، يوم كل يتبين فقره، ويحتاج إلى أقل شيء من الجزاء الحسن.

وقيل: هو فتح الحديبية حين جرى من الصلح بين الرسول وبين قريش مما هو أعظم الفتوحات التي حصل بها نشر الإسلام، واختلاط المسلمين بالكافرين، والدعوة إلى الدين من غير معارض، فدخل الناس من ذلك الوقت في دين الله أفواجاً، واعتز الإسلام عزاً عظيماً، وكان المسلمون قبل هذا الفتح لا يقدرّون على الدعوة إلى الدين في غير البقعة التي أسلم أهلها، كالمدينة وتوابعها، وكان من أسلم من أهل مكة وغيرها من ديار المشركين يؤذى ويخاف؛ ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ أَكْثَرُ دَرَجَةٍ مِمَّنْ أَلَيْنَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتَلُوا﴾ فلذلك كان من أسلم قبل الفتح وأنفق وقاتل أعظم درجة وأجرأ وثواباً ممن لم يسلم ويقاتل وينفق إلا بعد ذلك، كما هو مقتضى الحكمة؛ ولذلك كان السابقون وفضلاء الصحابة غالبهم أسلم قبل الفتح، ولما كان التفضيل بين الأمور قد يتوهم منه نقص وقبح في المفضل احتراز تعالى من هذا بقوله:

(١١) أخرج أحمد وابن حبان والطبراني والحاكم بإسناد صحيح، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله! إن لفلان نخلة، وأنا أقيم نخلي بها، فمره أن يعطيني إياها حتى أقيم حائطي بها، فقال له النبي ﷺ: «أعطاها إياه بنخلة في الجنة» فأبى، وأناه أبو الدحداح فقال: بعني نخلك بحائطي. قال: ففعل، قال: فأنى النبي ﷺ؟ فقال: يا رسول الله! إني قد ابتعت النخلة بحائطين؛ فاجعلها له، فقال: النبي ﷺ: «كم عذق رذاح لأبي الدحداح في الجنة» - مراراً- فأنى امرأته؟ فقال: يا أم الدحداح، اخرجي من الحائط؛ فإني بعته بنخلة في الجنة. فقالت: ربح البيع. أو كلمة نحوهما.

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُوا نَفْسِنَا مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَمْ يَأْتِ بِآطِنَةٍ فِيهِ الرِّحْمَةُ وَظَلَهُمْ مِنْ فَيْكِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ ينادونهم ألم تكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وفرنستم واربنتم وعزكم الأمان حتى جاء أمر الله وعزكم بالله العزور ﴿١٤﴾ قالوا لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ما يؤتكم النار هي مولدكم وبش المصير ﴿١٥﴾ ألم يأت للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ﴿١٦﴾ أعلموا أن الله يهيئ الأرض بعد موتهم لقد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴿١٧﴾ إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم ﴿١٨﴾

(١٢) ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ إذا كان يوم القيامة، وكورت الشمس، وخسف القمر، وصار الناس في الظلمة، ونصب الصراط على متن جهنم، فحينئذ ترى المؤمنين والمؤمنات، يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، فيمشون بأيمانهم ونورهم في ذلك الموقف الهائل الصعب، كل على قدر إيمانه، ويبشرون عند ذلك بأعظم بشارة، فيقال: ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

(١٣) ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ فإذا رأى المنافقون نور المؤمنين يمشون به، وهم قد طغى نورهم، وبقوا في الظلمات حائرين، قالوا للمؤمنين: ﴿انظُرُوا نَفْسِنَا مِنْ نُورِكُمْ﴾ أي: أمهلونا لننال من نوركم ما نمشي به؛ لننجو من العذاب، ف﴿قِيلَ﴾ لهم: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ إن كان ذلك ممكناً، والحال أن ذلك غير ممكن، بل هو من المحالات، ﴿فَضُرِبَ﴾ بين المؤمنين والمنافقين ﴿بِسُورٍ﴾ حائط منيع، وحصن حصين ﴿لَمْ يَأْتِ بِآطِنَةٍ فِيهِ الرِّحْمَةُ﴾ وهو الذي يلي المؤمنين ﴿وَظَلَهُمْ مِنْ فَيْكِهِ الْعَذَابُ﴾ وهو الذي يلي المنافقين، فينادي المنافقون المؤمنين، فيقولون لهم تضرعاً وترحمأ: ﴿أَلَمْ

تَكُنْ مَعَكُمْ﴾ في الدنيا نقول: لا إله إلا الله ونصلي ونصوم ونجاهد، ونعمل مثل عملكم؟ ﴿قَالُوا بَلَى﴾ كنتم معنا في الدنيا، وعملتم في الظاهر مثل عملنا، ولكن أعمالكم أعمال المنافقين، من غير إيمان ولا نية صادقة صالحة؛ بل ﴿فَنَتَمَنَّاهُمْ وَأَنُتِمَّ بِهِمْ﴾ أي: شككتهم في خبر الله الذي لا يقبل شكاً، ﴿وَعَزَّكُمُ الْأَمَانُ﴾ الباطلة، حيث تمنيتم أن تنالوا منال المؤمنين، وأنتم غير موقنين ﴿حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ حتى جاءكم الموت وأنتم بتلك الحال الذميمة ﴿وَعَزَّكُمُ اللَّهُ الْعَزُورُ﴾ وهو: الشيطان الذي زين لكم الكفر

والريب، فاطمأنتم به، ووثقتم بوعدته، وصدقتم خبره.

(١٥) ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُوَفِّدُ مِنْكُمْ فِدْيَةً وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فلو افتديتم بمثل الأرض ذهباً ومثله معه لما تقبل منكم ﴿مَاؤْنِكُمُ النَّارُ﴾ مستقركم ﴿هِيَ مَوْلَانِكُمْ﴾ التي تتولاكم وتضمكم إليها ﴿وَيَسِّرُ الْمَصِيرُ﴾ النار.

(١٦) ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: ألم يجئ الوقت الذي تلين به قلوبهم وتخضع لذكر الله، الذي هو

القرآن، وتنقاد لأوامره وزواجره ﴿وَمَا نَزَلَ مِنْ الْحَقِّ﴾ الذي جاء به محمد ﷺ؟ وهذا فيه الحث على الاجتهاد على خشوع القلب لله تعالى، ولما أنزله من الكتاب والحكمة، وأن يتذكر المؤمنون المواعظ الإلهية والأحكام الشرعية كل وقت، ويحاسبوا أنفسهم على ذلك ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾ ولا يكونوا كالذين أنزل الله عليهم الكتاب الموجب لخشوع القلب والانقياد التام، ثم لم يدوموا عليه، ولا ثبتوا، بل طال عليهم الزمان واستمرت بهم الغفلة، فاضمحل إيمانهم وزال إيقانهم ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثُرَ مَنَّهُمْ فَتَقِفُونَ﴾ فالقلوب تحتاج في كل

(١٦) أخرج مسلم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ إلا أربع سنين.

أخرج الطبراني في «الكبير» و«مسند الشاميين» بإسناد صحيح عن أبي الدرداء رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أول شيء يرفع من هذه الأمة الخشوع حتى لا ترى فيها خاشعاً».

وأخرج البزار بإسناد صحيح عن سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه قال: أنزل القرآن على رسول الله ﷺ، فتلا عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ فتلا عليهم رسول الله ﷺ زماناً، فقالوا: يا رسول الله! لو حدثتنا، فأنزل الله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ كل ذلك يقرءون بالقرآن.

قال خلاد وزادني فيه آخر: قالوا: يا رسول الله! ذكرنا، فأنزل الله ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾. وأخرج البيهقي في «شعب الإيمان» بإسناد صحيح عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن بني إسرائيل لما طال عليهم الأمد وقست قلوبهم اخترعوا كتاباً من عند أنفسهم، استهوته قلوبهم، واستحلته ألسنتهم، وكان الحق يحول بينهم وبين كثير من شهواتهم، حتى نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، فقالوا: اعرضوا هذا الكتاب على بني إسرائيل، فإن تابعوكم عليه فأتروكمهم، وإن خالفوكم فاقتلوهم. قال: لا، بل ابعثوا إلى فلان -رجل من علمائهم-؛ فإن تابعكم فلن يختلف عليكم بعده أحد، وإن خالفكم فاقتلوه؛ فلن يختلف عليكم بعده أحد. فأرسلوا إليه فدعوه، فأخذ ورقة فكتب فيها كتاب الله، ثم أدخلها في قرن، ثم علقها في عنقه، ثم لبس عليها الثياب، ثم أتاهم، فعرضوا عليه الكتاب، فقالوا: تؤمن بهذا؟ فأشار إلى صدره -يعني الكتاب الذي في القرن- فقال: آمنت بهذا، وما لي لا أؤمن بهذا؟ فخلوا سبيله. قال: وكان له أصحاب يغشونه فلما حضرته الوفاة أتوه، فلما نزعوا ثيابه وجدوا القرن في جوفه الكتاب، فقالوا: ألا ترون إلى قوله: آمنت بهذا، وما لي لا أؤمن بهذا، فإنما عني بهذا الكتاب الذي في القرن، قال: فاختلف بنو إسرائيل على بضع وسبعين فرقة، خير ملهم أصحاب أبي القرن».

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ
عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
بِتَايِينَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْحَجِيرِ ﴿٢٨﴾ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوةُ
الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَكَافُورٌ فِي الْأُمُورِ
وَالْأُولَٰئِكَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْعِصْيَانُ أَجَبَ الْكَافَرَانَا ثُمَّ يَرْجِعُ قَوْمَهُ
مُضْغَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمَاءً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ
مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْعُرُورِ ﴿٢٩﴾
سَاقِفُونَ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا عَرْضُ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ
اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٣٠﴾ مَا أَصَابَ
مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ
مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٣١﴾ لِكَيْلَا
تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَكَذَٰلِكَ هُدِيتُمْ
لَا تُحِبُّ كُلَّ خَطَلٍ فَخُورٍ ﴿٣٢﴾ الَّذِينَ يَبْتَخُلُونَ بِأَمْوَالِهِمْ
الَّذِينَ يَأْتِيهِمْ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِمْ فَزَلُّوا فَكَانُوا مِنَ الْمُنَافِقِينَ ﴿٣٣﴾

وقت إلى أن تذكر بما أنزل له الله، وتناطق بالحكمة، ولا ينبغي الغفلة عن ذلك؛ فإن ذلك سبب لقسوة القلب وجمود العين.

(١٧) ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فإن الآيات تدل العقول على العلم بالمطالب الإلهية، والذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على أن يحيي الأموات بعد موتهم، فيجازيهم بأعمالهم والذي أحيا الأرض بعد موتها بماء المطر قادر على أن يحيي القلوب الميتة بما أنزله من الحق على رسوله.

(١٨) ﴿إِنَّ الْمُصْذِقِينَ وَالْمُصْذِقَاتِ﴾ بالتشديد؛ أي: الذين أكثروا من الصدقات الشرعية، والنفقات المرضية ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بأن قدموا من أموالهم في طرق الخيرات ما يكون مدخراً لهم عند ربهم ﴿يُضْعَفُ لَهُمْ﴾ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ وهو ما أعده الله لهم في الجنة مما لا تعلمه النفوس.

(١٩) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ والإيمان عند أهل السنة: هو ما دل عليه الكتاب والسنة، هو قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، فيشمل ذلك جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة فالذين جمعوا بين هذه الأمور هم الصديقون؛ أي: الذين مرتبتهم فوق مرتبة عموم المؤمنين ودون مرتبة الأنبياء ﴿وَالشَّهَادَةُ﴾

عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴿٢٨﴾ كما ورد في الحديث الصحيح: «إن في الجنة مائة درجة، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله». وهذا يقتضي شدة علوهم ورفعتهم، وقربهم إلى الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِتَايِينَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْحَجِيرِ﴾ لما ذكر السعدا ومآلهم، عطف بذكر الأشقياء وبين حالهم.

(٢٠) ﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ﴾ يخبر -تعالى- عن حقيقة الدنيا وما هي عليه، وبين غايتها وغاية أهلها، بأنها لعب ولهو، تلعب بها الأبدان، وتلهو بها القلوب ﴿وَزِينَةٌ﴾

(٢٠) أخرج الطبري بإسناد حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها، اقرأوا «وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْعُرُورِ».

وأغلالها وسلاسلها وأهوالها لمن كانت الدنيا هي غايته ومنتهى مطلبه، فتجراً على معاصي الله، وكذب بآيات الله، وكفر بأنعم الله، وإما مغفرة من الله للسيئات وإزالة للعقوبات، ورضوان من الله يحل من أحله به دار الرضوان لمن عرف الدنيا، وسعى للآخرة سعيها فهذا كله مما يدعو إلى الزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَّعٌ الْفُرُورِ﴾ إلا متاع يتمتع به ويتنفع به، ويستدفع به الحاجات، لا يغتر به ويطمئن إليه إلا أهل العقول الضعيفة الذين يغرههم بالله الغرور.

(٢١) ﴿سَاقِبُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أمر بالمسابقة إلى مغفرة الله ورضوانه وجنته، وذلك يكون بالسعي بأسباب المغفرة؛ من التوبة النصوح، والاستغفار النافع، والبعد عن الذنوب ومظانها، والمسابقة إلى رضوان الله بالعمل الصالح، والحرص على ما يرضي الله على الدوام، من الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلى الخلق بجميع وجوه النفع ﴿أَعَدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ والإيمان بالله ورسله يدخل فيه أصول الدين وفروعها ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ هذا الذي بيّناه لكم، وذكرنا لكم فيه الطرق الموصلة إلى الجنة، والطرق الموصلة إلى النار، وأن فضل الله بالثواب الجزيل والأجر العظيم من أعظم منته على عباده وفضله ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ الذي لا يحصى ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده .

(٢٢) ﴿مَا أَصَابَ مِّن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي

تزين في اللباس والطعام والشراب، والمراكب والدور والقصور والجاه وغير ذلك ﴿وَتَفَاحٌ بَيْنَكُمْ﴾ كل واحد من أهلها يريد مفاخرة الآخر، وأن يكون هو الغالب في أمورها، والذي له الشهرة في أحوالها ﴿وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ كل يريد أن يكون هو الكاثر لغيره في المال والولد، وهذا مصداقه وقوعه من محبي الدنيا والمطمئنين إليها بخلاف من عرف الدنيا وحقيقتها، فجعلها معبراً ولم يجعلها مستقراً، فنافس فيما يقربه إلى الله، واتخذ الوسائل التي توصله إلى الله، وإذا رأى من يكاثره وينافسه بالأموال والأولاد نافسه بالأعمال الصالحة ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهَيِّجُ فَتَرْتَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُمْلَمًا﴾ ضرب للدنيا مثلاً بغيث نزل على الأرض، فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها، وأعجب نباته الكفار الذين قصرُوا همهم ونظرهم إلى الدنيا، جاءها من أمر الله ما أتلّفها فهاجت ويبست، فعادت على حالها الأولى، كأنه لم ينبت فيها خضراء، ولا رؤي لها مرأى أنيق، كذلك الدنيا، بينما هي زاهية لصاحبها زاهرة، مهما أراد من مطالبها حصل، ومهما توجه لأمر من أمورها وجد أبوابه مفتحة، إذ أصابها القدر بما أذهبها من يده، وأزال تسلطه عليها، أو ذهب به عنها، فرحل منها صفر اليدين، لم يتزود منها سوى الكفن ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ حال الآخرة ما يخلو من هذين الأمرين: إما العذاب الشديد في نار جهنم

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ يَصْرُهُ وَرُسُلُهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَتْلَاهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَتَقْوُوا اللَّهَ وَأَعْمُوا أَرْسُلَهُ يُؤَيِّدُكُمْ كَقُلُوبِ مَنْ رَحِمَهُ وَجَعَلَ لَكُمْ تُورًا تَمْسُحُونَ بِهِ وَيَعْرِفْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّا لَنَعْلَمُ أَهْلَ الْكِتَابِ أَلا يَتَّقُونَ عَلَى سَنَى وَمَنْ فَضَّلَ اللَّهُ وَأَنَّ الْفَضْلَ يَدُ اللَّهِ يُؤَيِّدُ مَنْ شَاءَ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

٥٤١

أَنْفُسِكُمْ ﴿٢٣﴾ وهذا شامل لعموم المصائب التي تصيب الخلق، من خير وشر ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ فكلها قد كتبت في اللوح المحفوظ، صغيرها وكبيرها، وهذا أمر عظيم لا تحيط به العقول، بل تذهل عنده أفئدة أولي الأبواب، ولكنه على الله يسير.

﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ ﴿٢٣﴾ وأخبر الله عباده بذلك لأجل أن تتقرر هذه القاعدة عندهم، ويبينوا عليها ما أصابهم من الخير والشر، فلا يأسوا ويحزنوا على ما فاتهم، مما طمحت له أنفسهم وتشوفوا إليه، لعلمهم أن ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ، لا بد من نفوذه ووقوعه، فلا سبيل إلى دفعه، ولا يفرحوا بما آتاهم الله فرح بطر وأشر، لعلمهم أنهم ما أدركوه بحولهم وقوتهم، وإنما أدركوه بفضل الله ومنه، فيشتغلوا بشكر من أولى النعم ودفع النقم، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ متكبر فظ غليظ، معجب بنفسه، فخور بنعم الله، ينسبها إلى نفسه، وتطغيه وتلهيه.

﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ ﴿٢٤﴾ يجمعون بين الأمرين الذميين، اللذين كل منهما كاف في الشر. والبخل: منع الحقوق الواجبة، ويأمرون الناس بذلك، فلم يكفهم بخلهم، حتى أمروا الناس بذلك، وحثوهم على هذا الخلق الذميم، بقولهم وفعلهم، وهذا من إعراضهم عن طاعة ربهم وتوليهم عنها ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ عن طاعة

اللَّهُ فلا يضر إلا نفسه، ولن يضر الله شيئاً ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ الذي غناه من لوازم ذاته، الذي له ملك السماوات والأرض، وهو الذي أغنى عباده وأقناهم ﴿الْحَمِيدُ﴾ الذي له كل اسم حسن، ووصف كامل، وفعل جميل، يستحق أن يحمد عليه ويشن ويعظم.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وهي الأدلة والشواهد والعلامات الدالة على صدق ما جاءوا به وحقيقته ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ وهو اسم جنس يشمل سائر الكتب التي أنزلها الله لهداية

(٢٥) أخرج الإمام أحمد بإسناد حسن عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يُعْبَدَ الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم».

يعجزه شيء، ولا يفوته هارب، ومن قوته وعزته: أن أنزل الحديد الذي منه الآلات القوية، ومن قوته وعزته: أنه قادر على الانتصار من أعدائه، ولكنه يبتلي أوليائه بأعدائه؛ ليعلم من ينصره بالغيب.

(٢٦) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾؛ أي: الأنبياء المتقدمين والمتأخرين كلهم من ذرية نوح وإبراهيم عليهما السلام، وكذلك الكتب كلها نزلت على ذرية هذين النبيين الكريمين ﴿فَعَمَّهُمْ﴾ ممن أرسلنا إليهم الرسل ﴿مُهْتَدًى﴾ بدعوتهم، منقاد لأمرهم، مسترشدين بهداهم ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَيَقُوتُوا خَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ﴾.

(٢٧) ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ خص الله عيسى عليه السلام لأن السياق مع النصاري، الذين يزعمون اتباع عيسى عليه السلام ﴿وَوَعَدْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾ الذي هو من كتب الله الفاضلة ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ

الخلق وإرشادهم إلى ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ وهو العدل في الأقوال والأفعال، والدين الذي جاءت به الرسل، كله عدل وقسط في الأوامر والنواهي وفي معاملات الخلق، وفي الجنایات والقصاص والحدود والمواريث وغير ذلك، وذلك ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ قياماً بدين الله، وتحصيلاً لمصالحهم التي لا يمكن حصرها وعدّها ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ من آلات الحرب؛ السلاح والدروع وغير ذلك ﴿وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ وهو ما يشاهد من نفعه في أنواع الصناعات والحرف، والأواني وآلات الحرث ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ ليقم تعالى سوق الامتحان بما أنزله من الكتاب والحديد، فيتبين من ينصره وينصر رسله في حال الغيب، التي ينفع فيها الإيمان قبل الشهادة، التي لا فائدة بوجود الإيمان فيها؛ لأنه حينئذ يكون ضرورياً ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ لا

(٢٧) أخرج البخاري في «التاريخ الكبير» والطبراني بإسناد جيد عن سهل بن حنيف رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول: «لا تشددوا على أنفسكم؛ فيشدد الله عليكم، فإن قوماً شددوا على أنفسهم؛ فشدد الله عليهم؛ فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات أرهبانية ابتدعوها ما كتبها الله عليهم».

وأخرج أحمد وأبو يعلى والطبراني في «الصغير» بإسناد حسن من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً جاءه فقال: أوصني، فقال: سألت عما سألت عنه رسول الله ﷺ من قبلك: «أوصيك بتقوى الله؛ فإنه رأس كل شيء، وعليك بالجهاد؛ فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن؛ فإنه روحك في السماء وذكرك في الأرض». (٢٧ - ٢٩) أخرج النسائي في «المجتبى» و«التفسير» والطبري بإسناد حسن عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كانت ملوك بعد عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام بدّلوا التوراة والإنجيل، وكان فيهم مؤمنون يقرءون التوراة والإنجيل. قيل لملوكهم: ما نجد شتماً أشد من شتم يشتمناه هؤلاء، إنهم يقرءون: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وهؤلاء الآيات مع ما يعيونا فيه في أعمالنا في قراءتهم؛ فادعهم فليقرءوا كما نقرأ، وليؤمنوا كما آمننا؛ فدعاهم، فجمعهم، وعرض عليهم القتل أو يتركوا قراءة التوراة والإنجيل، إلا ما

الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَافِقَةً وَرَحْمَةً.

ولهذا كان النصراني ألين من غيرهم قلوباً، حين كانوا على شريعة عيسى عليه السلام ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ والرهبانية: العبادة، فهم ابتدعوها من عند أنفسهم، ووظفوها على أنفسهم، والتزموا لوازم ما كتبها الله عليهم ولا فرضها، بل هم الذين التزموا بها من تلقاء أنفسهم، قصدتهم بذلك رضا الله تعالى، ومع ذلك ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ ما قاموا بها ولا أدوا حقوقها، فقصروا من وجهين: من جهة ابتداعهم، ومن جهة عدم قيامهم بما فرضوه على أنفسهم. فهذه الحال هي الغالب من أحوالهم ومنهم من هو مستقيم على أمر الله، ولهذا قال: ﴿فَقَاتِلْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ الذين آمنوا بمحمد ﷺ مع إيمانهم بعيسى كل أعطاه الله على حسب إيمانه ﴿وَكثيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

(٢٨) هذا خطاب لمؤمني أهل الكتاب من اليهود والنصارى، يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا﴾ بترك معاصيه ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ في محمد ﷺ، وأنكم إن فعلتم ذلك ﴿وَأَمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ محمد ﷺ ﴿يُؤْتِكُمْ كَفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ نصيبين من الأجر: نصيب على إيمانهم بالأنبياء الأقدمين، ونصيب على إيمانهم بمحمد ﷺ. ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ يعطيكم علماً وهدى ونوراً تمشون به في ظلمات الجهل ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ السيئات ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. (٢٩) ﴿ثَلَا يَعْلَمُ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ بينا لكم فضلنا وإحساننا لأجل أن يعلم أهل الكتاب ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ بأنهم لا يحجرون على الله بحسب أهوائهم وعقولهم الفاسدة، ويتمنون على الأماني الفاسدة ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ ممن اقتضت حكمته تعالى أن يؤتيه في فصله ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ الذي لا يقادر قدره.

بذلوا منها، فقالوا: ما تريدون إلى ذلك؟ دعونا، فقالت طائفة منهم: ابنوا لنا أسطوانة ثم ارفعونا إليها، ثم أعطونا شيئاً نرفع به طعامنا وشرابنا؛ فلا نرد عليكم. وقالت طائفة منهم: دعونا نسيح في الأرض ونهيم ونشرب كما يشرب الوحش، فإن قدرتم علينا في أرضكم؛ فاقتلونا. وقالت طائفة منهم: ابنوا لنا دوراً في الفيافي ونحفر الآبار ونحترق البقول، فلا نرد عليكم، ولا نمر بكم. وليس أحد من القبائل إلا وله حميم فيهم، قال: ففعلوا ذلك؛ فأنزل الله ﷻ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا آيَةً رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾، والآخرين قالوا: نتعبد كما تعبد فلان، ونسيح كما ساح فلان، ونتخذ دوراً كما اتخذ فلان، وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان الذين اقتدوا بهم، فلما بعث الله النبي ﷺ ولم يبق منهم إلا القليل، انحط رجل من صومعته، وجاء سائح من سياحته، وصاحب الدير من ديره، فآمنوا به وصدقوه؛ فقال الله تبارك وتعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَأَمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ يؤتكم كَفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ: أجريْن؛ بإيمانهم بعيسى ابن مريم، وتصديقهم بالتوراة والإنجيل، وإيمانهم بمحمد ﷺ وتصديقهم، قال: ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ القرآن واتباعهم النبي ﷺ قال: ﴿ثَلَا يَعْلَمُ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ يتشبهون بكم ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

وكررت ذلك، وأبدت فيه وأعادت ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوَرَكُماً﴾ تخاطبكما فيما بينكما ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لجميع الأصوات، في جميع الأوقات، على تفنن الحاجات ﴿بَصِيرٌ﴾ يبصر دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء.

(٢) ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ المظاهرة من الزوجة: أن يقول الرجل لزوجته: أنت علي كظهر أمي. وكان المعتاد عندهم في هذا لفظ «الظهر» ولهذا سماه الله: «ظهاراً»

﴿مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾؛ أي: كيف يتكلمون بهذا الكلام الذي يعلم أنه لا حقيقة له؛ فيشبهون أزواجهم بأمهاتهم اللاتي ولدنهم؟ ولهذا عظم الله أمره وقبحه فقال: ﴿وَلَا يَمْنُنَ الَّذِينَ يَخْتَرِعُونَ مِنْكُمْ لَكُمُ الْفُتُورَ﴾ قولا شنيعاً ﴿وَرُؤُوسًا﴾ كذباً ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ﴾ عمن صدر منه بعض المخالفات فتداركها بالتوبة النصوح.

(٣) ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ اختلاف العلماء في معنى العود، فقيل: معناه العزم على جماع من ظاهر منها، وأنه بمجرد عزمه تجب عليه الكفارة المذكورة، ويدل على هذا أن الله تعالى ذكر في الكفارة أنها تكون قبل المسيس، وذلك إنما يكون بمجرد العزم. وقيل: معناه حقيقة الوطء، ويدل على ذلك أن الله قال: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾



سورة المجادلة وهي مدنية

(١) ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ﴾؛ وهي: بنت ثعلبة ﴿فِي زَوْجِهَا﴾ أوس بن الصامت ﴿وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ اشتكت زوجها وجادلته إلى رسول الله ﷺ لما حرّمها على نفسه بعد الصعبة الطويلة والأولاد، وكان هو رجلاً شيخاً كبيراً، فشكت حاله وحالها إلى الله وإلى رسوله ﷺ،

(١) أخرج البخاري تعليقاً، ووصله أحمد والنسائي في «الكبرى» وابن ماجه بإسناد صحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول، فأنزل الله ﷻ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾.

(٣) أخرج أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه بإسناد حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رجلاً قال: يا رسول الله! إني ظاهرت من امرأتي؛ فوقعت عليها قبل أن أكفر، فقال: «ما حملك على ذلك يرحمك الله؟»، قال: رأيت خلخالها في ضوء القمر. قال: «فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله».

فيجب أن لا تُتعدى ولا يقصر عنها ﴿وَالْكَافِرِينَ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ في الدنيا والآخرة.

(٥) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ محادة الله ورسوله: مخالفتهما ومعصيتهما خصوصاً في الأمور الفظيعة؛ كمحادة الله ورسوله بالكفر، ومعاداة أولياء الله ﴿كُنُوزًا كَمَا كَتَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: أذلوا وأهينوا كما فعل بمن قبلهم جزاء وفاقاً ﴿وَقَدْ أَنْزَلْنَا ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ وليس لهم حجة على الله، فإن الله قد قامت حجته البالغة على الخلق، وقد أنزل من الآيات البينات والبراهين ما يبين الحقائق ويوضح المقاصد، فمن اتبعها وعمل عليها فهو من المهتدين الفائزين ﴿وَالْكَافِرِينَ﴾ بها ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ يهينهم ويدلهم، فكما تكبروا عن آيات الله، أهانهم الله وأذلهم.

(٦) ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ فيقومون من أجدانهم سريعاً فيجازيهم بأعمالهم ﴿فَيَبْتَلِيهِمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ من خير وشر ﴿أَخْصَنَهُ اللَّهُ وَسُوءُهُ﴾؛ لأنه علم ذلك،

قَالُوا﴾ والذي قالوا إنما هو الوطء.

وعلى كل من القولين ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ إذا وجد العود، صار كفارة هذا التحريم تحرير رقبة مؤمنة كما قيدت في آية أخرى ذكر أو أنثى، بشرط أن تكون سالمة من العيوب المضرة بالعمل ﴿مَنْ قَبِلَ أَنْ يَتَمَنَّأَ﴾ يلزم الزوج أن يترك وطء زوجته التي ظاهر منها حتى يكفر بركة. ﴿ذَلِكَ﴾ الحكم الذي ذكرناه لكم ﴿تَوْعُظُونَ بِهِ﴾ تزجرون به ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيجازي كل عامل بعمله.

(٤) ﴿مَنْ لَمْ يَحْذَرَ﴾ رقبة يعتقها؛ بأن لم يجدها أو لم يجد ثمنها ﴿ذَ﴾ عليه ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَنَّأَ﴾ ﴿فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ﴾ الصيام ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ إما بأن يطعمهم من قوت بلده ما يكفيهم، وإما بأن يطعم كل مسكين مُدَّ بَرٍّ أو نصف صاع من غيره مما يجزي في الفطرة ﴿ذَلِكَ﴾ الحكم الذي بيناه لكم ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وذلك بالتزام هذا الحكم وغيره من الأحكام، والعمل به ﴿وَبَلَّغْ حُدُودَ اللَّهِ﴾ التي تمنع من الوقوع فيها،

(١) (٤) أخرج أبو داود وأحمد وابن حبان بإسناد صحيح: عن خولة بنت ثعلبة؛ قالت: في والله وفي أوس بن الصامت أنزل الله ﷺ صدر سورة المجادلة؛ قالت: كنت عنده وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه وضجر قالت: فدخل علي يوماً فراجعتني بشيء فغضب؛ فقال: أنت علي كظهر أُمي. قالت: ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة ثم دخل علي، فإذا هو يريدني على نفسي قالت: فقلت: كلا والذي نفس خويلة بيده لا تخلص إلي وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه، قالت: فوائبني وامتنعت منه، فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف، فألقته عني، قالت: ثم خرجت إلى بعض جاراتي فاستعرت منها ثيابها، ثم خرجت حتى جئت رسول الله ﷺ، فجلست بين يديه، فذكرت له ما لقيت منه، فجعلت أشكو إليه ﷺ ما ألقى من سوء خلقه. قالت: فجعل رسول الله ﷺ يقول: «يا خويلة ابن عمك شيخ كبير؛ فأنقي الله فيه». قالت: فوالله ما برحت حتى نزل القرآن؛ فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يغشاه ثم سري عنه؛ فقال لي: «يا خويلة قد أنزل الله جل وعلا فيك وفي صاحبك» قالت: ثم قرأ علي: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ إلى قوله ﴿وَالْكَافِرِينَ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «مريه؛ فليعتق رقبة» قالت: فقلت: يا رسول الله، ما عنده ما يعتق. قال: «فليصم شهرين متتابعين» قالت: فقلت: والله يا رسول الله إنه شيخ كبير ما به من صيام قال: «فليطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر» قلت: والله يا رسول الله ما ذلك عنده. قالت: فقال رسول الله ﷺ: «فإننا سنعيه بعرق من تمر» قالت: فقلت: وأنا يا رسول الله سأعيه بعرق آخر. قال: «أصبت، وأحسن؛ فاذهي فتصديني عنه، ثم استوصي بآبن عمك خيراً» قالت: ففعلت.

أخبر تعالى عن سعة علمه وإحاطته بما في السماوات والأرض من دقيق وجليل، وأنه ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ سَادُّهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ والمراد بهذه المعية معية العلم والإحاطة بما تناجوا به وأسروه فيما بينهم ﴿ثُمَّ يَنْتَهُمُ﴾ يخبرهم ويعلمهم بما عملوا يوم القيامة؛ ليجزيهم به ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ علمه بهم محيط.

(٨) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى﴾ النجوى؛ هي: التناجي بين اثنين فأكثر، وقد تكون في الخير، وتكون في الشر فأمر الله تعالى المؤمنين أن يتناجوا بالبر، وهو اسم جامع لكل خير وطاعة، وقيام بحق لله ولعباده والتقوى، وهي هنا: اسم جامع لتترك جميع المحارم والمآثم، فالمؤمن يمثل هذا الأمر الإلهي، فلا تجده مناجياً ومتحدثاً إلا بما يقربه من الله ويباعده من سخطه ﴿وَيَسْتَجِوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ والفاجر يتهاون بأمر الله، ويناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، كالمنافقين الذين هذا دأبهم وحالهم مع الرسول ﷺ ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ﴾

لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
سُورَةُ الْمَجَادِلَةِ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ سَادُّهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يَنْتَهُمُ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُ اللَّهُ بِمَا نَفَعُوا حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَيُشَسِّدُ الْمَصِيرَ ﴿٨﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَتَنَجَّوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُعْشُرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَسْ بِبَصَآرِهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَانْفَحُوا تَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا عَمِلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾

وكتبه في اللوح المحفوظ، وأمر الملائكة الكرام الحفظة بكتابته، هذا والعاملون قد نسوا ما عملوه، والله أحصى ذلك ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ على الظواهر والسرائر، والخبايا والخفايا.

(٧) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾

(٨) أخرج أحمد وابن ماجه بإسناد حسن عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: كنا نتناوب رسول الله ﷺ نبيت عنده يطرقه من الليل أمر، وتبدو له حاجة، فلما كانت ذات ليلة كثر أهل التوب والمحتسبون، حتى كنا أندية نتحدث، فخرج علينا رسول الله ﷺ؛ فقال: «ما هذه النجوى؟ ألم تنهوا عن النجوى؟» قلنا: تبنا إلى الله يا رسول الله! إنا كنا في ذكر المسيح فرقا منه. فقال: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي منه؟» قلنا: بلى يا رسول الله! قال: «الشرك الخفي. أن يقوم الرجل يعمل لمكان الرجل».

أخرج مسلم في «صحيحه» عن عائشة رضي الله عنها؛ قالت: كان ناس يأتون رسول الله ﷺ من اليهود، فيقولون: السام عليك، فيقول: «وعليكم» فطلعت بهم عائشة فسبتهم (وفي رواية: قالت عائشة: بل عليكم السام والذام)؛ فقال رسول الله ﷺ: «مه يا عائشة! لا تكوني فاحشة؛ فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش» قالت: فقلت: يا رسول الله! إنهم يقولون كذا وكذا. فقال: «أليس قد رددت عليهم؟» فأنزل الله ﷻ: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُ اللَّهُ بِمَا نَفَعُوا حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَيُشَسِّدُ الْمَصِيرَ﴾.

(١٠) ﴿إِنَّمَا اتَّجَوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ تناجي أعداء المؤمنين بالمؤمنين بالمؤمنين بالمكر والخديعة، وطلب السوء من الشيطان، الذي كيده ضعيف ومكره غير مفيد ﴿لِيُخْزِتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ليسوءهم، هذا غاية هذا المكر ومقصوده ﴿وَلَيْسَ بِضَارِهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فأعداء الله ورسوله والمؤمنين مهما تناجوا ومكروا فإن ضرر ذلك عائد إلى أنفسهم، ولا يضر المؤمنين إلا شيء قدره الله وقضاه ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ليعتمدوا عليه ويتقوا بوعده، فإن من توكل على الله كفاه، وتولى أمر دينه وديناه.

(١١) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ فَتَسْعُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا﴾ هذا تأديب من الله لعباده المؤمنين، إذا اجتمعوا في مجلس من مجالس مجتمعاتهم، واحتاج بعضهم أو بعض القادمين عليهم للتفصح له في المجلس، فإن من الأدب أن يفسحوا له تحصيلاً لهذا المقصود ﴿يَفْسَحُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ والجزاء من جنس العمل، فإن من فسح فسح الله له، ومن وسع لأخيه وسع الله عليه؛ ﴿وَإِذَا قِيلَ ائْشُرُوا﴾ ارتفعوا وتنحوا عن مجالسكم لحاجة تعرض ﴿فَأَشْرُوا﴾ فبادروا للقيام لتحصيل تلك المصلحة ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ

بِمَا لَمْ يُحِثْ بِهِ اللَّهُ﴾ يسيئون الأدب معك في تحييتهم لك ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ يسرون في أنفسهم ما ذكره عالم الغيب والشهادة عنهم، وهو قولهم: ﴿لَوْلَا يَعِدُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ ومعنى ذلك: أنهم يتهاونون بذلك، ويستدلون بعدم تعجيل العقوبة عليهم: أن ما يقولون غير محذور ﴿حَسَبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا﴾ تكفيهم جهنم التي جمعت كل شقاء وعذاب عليهم، تحيط بهم، ويعذبون بها ﴿فَيَلْسَ الْأَمْصِرُ﴾ وهؤلاء المذكورون إما أناس من المنافقين يظهرون الإيمان، ويخاطبون الرسول ﷺ بهذا الخطاب الذي يوهمون أنهم أرادوا به خيراً وهم كذبة في ذلك، وإما أناس من أهل الكتاب، الذين إذا سلموا على النبي ﷺ قالوا: السام عليك يا محمد. يعنون بذلك الموت.

(٩) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّوْا بِالْأَنفِ وَالْعُدُونِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ وهذا تأديب للمؤمنين أن لا يتناجوا مثل الكفرة ولا المنافقين ﴿وَتَنَجَّوْا بِاللَّيْلِ وَاللَّفَوِّیِّ﴾ إذا أردتم النجوى فتناجوا بالخير وطاعة الله ورسوله ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيخبركم بجميع أعمالكم وأقوالكم التي قد أحصاها عليكم وسيجزيكهم بها.

(١٠) أخرج الشيخان عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة؛ فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس من أجل أن ذلك يحزنه».

(١١) أخرج الشيخان عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقيم الرجل الرجل في مقعده ثم يجلس فيه، ولكن تنسحوا وتوسعوا».

وأخرج مسلم عن أبي الطفيل عامر بن واثلة أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بن الخطاب بعسفان، وكان عمر استعمله على مكة، فقال له عمر: من استخلفت على أهل الوادي؟ قال استخلفت عليهم ابن أبرى قال: وما ابن أبرى؟ فقال: يا أمير المؤمنين! إنه قارئ لكتاب الله، عالم بالفرائض، قاض، فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أما أن نبيكم ﷺ قد قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً، ويضع به آخرين».

وأطهر؛ أي: بذلك يكثر خيركم وأجركم، وتحصل لكم الطهارة من الأدناس، التي من جملتها ترك احترام الرسول ﷺ والأدب معه بكثرة المناجاة التي لا ثمرة تحتها ﴿فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وأما الذي لا يجد الصدقة، فإن الله لم يضيق عليه الأمر، بل عفا عنه وسامحه، وأباح له المناجاة، بدون تقديم صدقة لا يقدر عليها.

(١٣) ﴿وَأَسْفَقْتُمْ أَنْ تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ نَجْوَتِكُمْ صَدَقَتٍ﴾ لما رأى تبارك وتعالى شفقة المؤمنين، ومشقة الصدقات عليهم عند كل مناجاة، سهل الأمر عليهم ولم يؤاخذهم بترك الصدقة بين يدي المناجاة؛ فنسخ وجوب ذلك عنهم ﴿فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا﴾؛ أي: لم يهن عليكم تقديم الصدقة ﴿وَنَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ عفا لكم عن ذلك ﴿فَاقْبُمُوا الصَّلَاةَ﴾ بأركانها وشروطها وجميع حدودها ولوازمها ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ المفروضة في أموالكم إلى مستحقيها ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وهذا أشمل ما يكون من الأوامر، ويدخل في ذلك طاعة الله وطاعة رسوله؛ بامتثال أوامرهما واجتناب نواهيهما، وتصديق ما أخبرا به، والوقوف عند حدود الله ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ يِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فيعلم -تعالى- أعمالهم، وعلى أي وجه صدرت؛ فيجازيهم على حسب علمه بما في صدورهم.

(١٤) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا

يَتَّبِعُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَجَيَّعَ الرَّسُولُ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَتِكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٣﴾ وَأَسْفَقْتُمْ أَنْ تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ نَجْوَتِكُمْ صَدَقَتٍ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَنَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقْبِمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ يِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٧﴾ أَنْ تَقْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَدُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٨﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١٩﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُعَادُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢١﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلِيكَ إِيَّاكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٢﴾

أَتُوا أَلْعَلَّ دَرَجَتٍ﴾ فإن القيام بمثل هذه الأمور من العلم والإيمان، والله -تعالى- يرفع أهل العلم والإيمان درجات بحسب ما خصهم الله به من العلم والإيمان. ﴿وَاللَّهُ يِمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾ فيجازي كل عامل بعمله؛ إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

(١٢) ﴿يَتَّبِعُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَجَيَّعَ الرَّسُولُ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ نَجْوَتِكُمْ صَدَقَةٌ﴾ يأمر -تعالى- المؤمنين بالصدقة أمام مناجاة رسوله محمد ﷺ؛ تأديباً لهم وتعليماً، وتعظيماً للرسول ﷺ، ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ فإن هذا التعظيم خير للمؤمنين

(١٢ و ١٣) أخرج الطبري بإسناد حسن عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَجَيَّعَ الرَّسُولُ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ نَجْوَتِكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؟ قال: إن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ﷺ؛ حتى شقوا عليه، فأراد الله أن يخفف عن نبيه ﷺ، فلما قال ذلك؛ امتنع كثير من الناس؛ وكفوا عن المسألة، فأنزل الله بعد هذا: ﴿وَأَسْفَقْتُمْ أَنْ تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ نَجْوَتِكُمْ صَدَقَتٍ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَنَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقْبِمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ يِمَّا تَعْمَلُونَ﴾. فوسع الله عليهم، ولم يضيق.

هُمْ سَنُكْمٌ وَلَا مِنْهُمْ ﴿يُخْبِرُ-تَعَالَى- عَنْ شِنَاعَةِ حَالِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ الْكَافِرِينَ: مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَنَالُوا مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ أَوْفَى نَصِيبٍ، وَأَنْهُمْ لَيْسُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وَالْحَالُ أَنَّهُمْ يَحْلِفُونَ عَلَى ضَدِّهِ الَّذِي هُوَ الْكَذِبُ، فَيَحْلِفُونَ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ لَيْسُوا مُؤْمِنِينَ.

(١٥) ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ فَجَزَاءُ هَؤُلَاءِ الْخُونَةِ الْفَجْرَةِ الْكَذِبَةِ: أَنَّ اللَّهَ -تَعَالَى- أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا، لَا يَقْدِرُ قَدْرُهُ، وَلَا يَعْلَمُ وَصْفُهُ ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، حَيْثُ عَمِلُوا بِمَا يَسْخَطُ اللَّهَ وَيُوجِبُ عَلَيْهِمُ الْعُقُوبَةَ وَاللَّعْنَ.

(١٦) ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ تَرَسًا وَوَقَايَةً يَتَّقُونَ بِهَا مِنْ لَوْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فَيَسَبِّبُ ذَلِكَ صَدُّوا أَنْفُسَهُمْ وَغَيْرَهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَهِيَ الصِّرَاطُ الَّذِي مِنْ سُلُوكِهِ أَفْضَى بِهِ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَمَنْ صَدَّ عَنْهُ فَلَيْسَ إِلَّا الصِّرَاطُ الْمَوْصِلُ إِلَى الْجَحِيمِ ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ حَيْثُ اسْتَكْبَرُوا عَنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْإِنْقِيَادِ لِآيَاتِهِ، أَهَانَهُمُ بِالْعَذَابِ السَّارِمِ، الَّذِي لَا يَفْتَرُ عَنْهُمْ سَاعَةً. وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ.

(١٧) ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ

شَيْئًا﴾ فَلَا تَدْفَعُ عَنْهُمْ شَيْئًا مِنَ الْعَذَابِ، وَلَا تَحْصِلُ لَهُمْ قِسْطًا مِنَ الثَّوَابِ ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ الْمَلَاذِمُونَ لَهَا، الَّذِينَ لَا يَخْرُجُونَ عَنْهَا، وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿.

(١٨) ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُمْ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ فَكَمَا أَنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدُّنْيَا يَمُوهُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَيَحْلِفُونَ لَهُمْ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَبَعَثَهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا، حَلَفُوا لِلَّهِ كَمَا حَلَفُوا لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾؛ لِأَنَّ كُفْرَهُمْ وَنِفَاقَهُمْ وَعُقَائِدَهُمُ الْبَاطِلَةَ لَمْ تَزَلْ تَرَسُخُ فِي أَذْهَانِهِمْ شَيْئًا فَشَيْئًا، حَتَّى غَرَّتْهُمْ وَظَنُوا أَنََّّهُمْ عَلَى شَيْءٍ يَعْتَدُّ بِهِ، وَيَعْلُقُ عَلَيْهِ الثَّوَابَ ﴿آلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ فِي ذَلِكَ.

(١٩) ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾ اسْتَوْلَى عَلَيْهِمْ، وَهُوَ الْعَدُوُّ الْمُبِينُ، الَّذِي لَا يَرِيدُ بِهِمْ إِلَّا الشَّرَّ، وَزَيْنَ لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ، ﴿فَلَنَسَنَّهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾

وَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ، ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الَّذِينَ خَسَرُوا دِينَهُمْ وَدُنْيَاهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ.

(٢٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْآذَانِ﴾ هَذَا وَعِيدٌ لِمَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ بِالْكَفْرِ وَالْمَعَاصِي: أَنَّهُ مَخْذُولٌ مَذْلُومٌ، لَا عَاقِبَةَ لَهُ حَمِيدَةً، وَلَا رَايَةَ لَهُ مَنْصُورَةً.

(١٨) أَخْرَجَ أَحْمَدُ وَالتَّبْرِيُّ وَالتَّبْرَانِيُّ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسًا فِي ظِلِّ حِجْرَةٍ قَدْ كَادَ يَقْلُصُ عَلَيْهَا الظِّلُّ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّكُمْ سَيَاتِيكُمْ رَجُلٌ يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ بِعَيْنِي شَيْطَانٌ، فَإِذَا جَاءَكُمْ؛ فَلَا تَكَلِّمُوهُ» فَلَمْ يَلْبَثُوا أَنْ طَلَعَ عَلَيْهِمْ رَجُلٌ، فَدَعَاهُ فَقَالَ: «عَلَامُ تَشْتَمِينِي أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ؟». قَالَ: ادْعُوهُمْ، فَدَعَاهُمْ؛ فَجَعَلُوا يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَمَا فَعَلُوا، حَتَّى تَجَاوَزَ عَنْهُمْ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُمْ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ آلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾.

(١٩) أَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ ثَلَاثَةٍ فِي قَرْيَةٍ وَلَا بَدْوٍ لَا تَقَامُ فِيهِمُ الصَّلَاةُ؛ إِلَّا وَقَدْ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ؛ فَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ؛ فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذَّنْبَ الْقَاصِيَةَ».

إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴿١﴾ وَلَوْ كَانَ أَقْرَبُ النَّاسِ
إِلَيْهِ ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾
رسمه وثبته وغرسه غرساً، لا يتزلزل، ولا
تؤثر فيه الشبه والشكوك ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ
مِّنْهُ﴾ قواهم الله بروح منه بوحيه، ومعونته،
ومدده الإلهي وإحسانه الرباني.

﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ وهم الذين لهم
الحياة الطيبة في هذه الدار، ولهم جنات النعيم
في دار القرار، التي فيها من كل ما تشتهي
الأنفس، وتلد الأعين وتختار، ولهم أكبر النعيم
وأفضله، وهو أن الله يحل عليهم رضوانه؛ فلا
يسخط عليهم أبداً، ويرضون عن ربهم بما
يعطيهم من أنواع الكرامات، ووافر المثوبات،
وجزيل الهبات، ورفيع الدرجات بحيث لا يرون
فوق ما أعطاهم مولاهاً غاية، ولا فوقه نهاية
﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾ عباده وأهل كرامته ﴿أَلَا إِنَّ
حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ في الدنيا والآخرة.

سورة الحشر وهي مدنية

(١) ﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ افتتح
تعالى هذه السورة بالإخبار أن جميع من في
السموات والأرض تسبح بحمد ربها، وتنزهه
عما لا يليق بجلاله، وتعبده وتخضع لجلاله
﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي قد قهر كل شيء، فلا
يمنع عليه شيء، ولا يستعصي عليه مستعصي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ
حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ
أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ
الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا
عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١﴾

سُورَةُ الْحَشْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ
لِأُولَى الْحَضَرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَا يَعْتَمِدُهُمْ
حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنذَرْتَهُمْ اللَّهَ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ
فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ
فَاعْتَرُوا وَاتَّأَلَوْا لِلْأَفْصَرِ ﴿٢﴾ وَلَوْ لَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ
الْحِلَالَ لَعَذَّبْتَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾

٥٤٥

(٢١) ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ اللَّهُ
قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ هذا وعد لمن آمن به وبرسله واتبع ما
جاء به المرسلون، فصار من حزب الله
المفلحين: أن لهم الفتح والنصر والغلبة في الدنيا
والآخرة، وهذا وعد لا يخلف ولا يغير؛ فإنه من
الصادق القوي العزيز الذي لا يعجزه شيء يريده.

(٢٢) ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ لا
يجتمع هذا وهذا؛ فلا يكون العبد مؤمناً بالله
واليوم الآخر حقيقة، إلا إذا كان عاملاً على
مقتضى الإيمان ولوازمه، من محبة من قام
بالإيمان وموالاته، وبغض من لم يقم به
ومعاداته ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ

﴿الْحَكِيمُ﴾ في خلقه وأمره، فلا يخلق شيئاً عبثاً، ولا يشرع ما لا مصلحة فيه، ولا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته.

(٢) ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ يعني: يهود بني النضير ﴿لِأَوَّلِ الْحَرْبِ﴾ وكان إخراجهم منها أول حشر وجلاء كتبه الله عليهم على يد رسوله محمد ﷺ؛ فجلوا إلى خيبر ﴿مَا ظَنَنْتُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿أَنْ يَخْرُجُوا﴾ من ديارهم؛ لحصانتها، ومنعتها، وعزهم فيها ﴿وظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ فأعجبوا بها وغرتهم، وحسبوا أنهم لا ينالون بها، ولا يقدر عليها أحد، وقدر الله - تعالى - وراء ذلك كله، لا تغني عنه الحصون والقلاع، ولا تجدي فيهم القوة والدفاع ﴿فَأَنَّهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ من الأمر والباب الذي لم يخطر ببالهم أن يؤتوا منه ﴿وَهُوَ أَعْلَى الشَّدِيدِ﴾ الذي هو جند الله الأكبر، الذي لا ينفع معه عدد ولا عدة، ولا قوة ولا شدة ﴿يُخْرِجُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ وذلك أنهم صالحوا النبي ﷺ على أن لهم ما حملت الإبل، فنقضوا لذلك كثيراً من سقوفهم التي استحسوها، وسلطوا المؤمنين بسبب بغيتهم على إخراج ديارهم وهدم حصونهم، فهم الذين جنوا على أنفسهم، وصاروا من أكبر عون عليها ﴿فَاعْتَرِوا يَتَأُولُوا الْآبَاطِرَ﴾ البصائر النافذة، والعقول الكاملة؛ فإن في هذا معبراً يعرف به صنع الله - تعالى - في المعاندين للحق، المتبعين

الْبَاطِلِ وَالْمُنَافِقِ

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ

الْعِقَابِ ① مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَرَسْتُمْ عَلَيْهَا قَائِمَةٌ

عَلَى أَسْوَاقِهَا فِئَازِنَ اللَّهِ وَلِيُخْرِىَ الْفَاسِقِينَ ② وَمَا آتَاكَ اللَّهُ

عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ

وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

قَدِيرٌ ③ مَا آتَاكَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَالرَّسُولِ

وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآلِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ

دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا

نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ④

لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالُهُمْ

يَبْتَغُونَ قَضَاءً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيُضْرُونَ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَوْلَىٰ بِكُلِّ

شَيْءٍ مُصَدِّقُونَ ⑤ وَالَّذِينَ نَبَّؤُوا الدَّارَ وَالْآيَمِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً

مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ

وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ⑥

لأهوائهم.

(٣) ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ﴾ أخبر - تعالى - أن هؤلاء اليهود لم يصبهم جميع ما يستحقون من العقوبة، وأن الله خفف عنهم؛ فلولا أنه كتب عليهم الجلاء الذي أصابهم وقضاه عليهم وقدره بقدره الذي لا يبدل ولا يغير ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ لكان لهم شأن آخر من عذاب الدنيا ونكالها ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾، ولكنهم - وإن فاتهم العذاب الشديد الدنيوي - فإن لهم في الآخرة عذاب النار، الذي لا يمكن أن يعلم شدته إلا الله - تعالى -.

(٤) ﴿ذَلِكَ﴾ الذي لحقهم ﴿بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وعادوهما وحاربوهما، وسعوا في معصيتهما ﴿وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ

أَلْعِقَابِ ﴿٥﴾ وَمَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلَمَّا لَامَ بَنُو النَّضِيرِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ فِي قَطْعِ النَّخِيلِ وَالْأَشْجَارِ، وَزَعَمُوا: أَنَّ ذَلِكَ مِنَ الْفَسَادِ، وَتَوَصَّلُوا بِذَلِكَ إِلَى الطَّعْنِ بِالْمُسْلِمِينَ، أَخْبَرَ -تعالى- أَنَّ قَطْعَ النَّخِيلِ إِنْ قَطَعُوهُ، أَوْ إِبْقَاءَهُمْ إِيَّاهُ إِنْ أَبَقُوهُ؛ أَنَّهُ بِإِذْنِ تَعَالَى وَأَمْرِهِ ﴿وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ حَيْثُ سَلَطَكُمْ عَلَى قَطْعِ نَخْلِهِمْ وَتَحْرِيقِهَا؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ نَكَالًا لَهُمْ، وَخِزْيًا فِي الدُّنْيَا، وَذَلَالًا يَعْرِفُ بِهِ عِجْزَهُمُ التَّامَ، الَّذِي مَا قَدَرُوا عَلَى اسْتِنْقَازِ نَخْلِهِمْ، الَّذِي هُوَ مَادَّةُ قُوَّتِهِمْ. وَاللِّينَةُ: اسْمٌ يَشْمَلُ سَائِرَ النَّخِيلِ عَلَى أَصْحَ الْأَقْوَالِ وَأَوَّلَاهَا.

(٦) ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ، وَهُمْ بَنُو النَّضِيرِ ﴿فَمَا أَوْحَفْتُمْ﴾ إِنَّكُمْ يَا

مَعشَرَ الْمُسْلِمِينَ مَا أَجْلَبْتُمْ وَأَسْرَعْتُمْ وَحَشَدْتُمْ ﴿عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ لَمْ تَتَعَبُوا بِتَحْصِيلِهَا؛ لَا بِأَنْفُسِكُمْ وَلَا بِمَوَاشِيِكُمْ، بَلْ قَذَفَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ، فَأَتَتْكُمْ صَفْوًا عَفْوًا، وَلِهَذَا قَالَ ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَسْلُطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ مِنْ تَمَامِ قُدْرَتِهِ أَنَّهُ لَا يَمْتَنِعُ مِنْهُ مَمْتَنِعٌ، وَلَا يَتَعَزَّزُ مِنْ دُونِهِ قَوِيٌّ. وَتَعْرِيفُ الْفِيءِ فِي اصْطِلَاحِ الْفُقَهَاءِ: هُوَ مَا أَخَذَ مِنْ مَالِ الْكُفَّارِ بِحَقٍّ، مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ، كَهَذَا الْمَالِ الَّذِي فَرَّوْا وَتَرَكَوهُ خَوْفًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَسَمِيَ: فَيْئًا؛ لِأَنَّهُ رَجَعَ مِنَ الْكُفَّارِ الَّذِينَ هُمْ غَيْرُ مُسْتَحْقِقِينَ لَهُ إِلَى الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ لَهُمُ الْحَقُّ الْأَوْفَرُ فِيهِ.

(٧) وَحُكْمُهُ الْعَامُ كَمَا ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ عَمُومًا سِوَا أَفَاءِ اللَّهِ فِي وَقْتِ رَسُولِهِ أَوْ بَعْدِهِ، لِمَنْ يَتَوَلَّى مِنَ

(٥) أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾؛ قَالَ: اللَّيْنَةُ: النَّخْلَةُ، ﴿وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ قَالَ: اسْتَنْزَلُوهُمْ مِنْ حَصُونِهِمْ، قَالَ: وَأَمَرُوا بِقَطْعِ النَّخْلِ؛ فَحُكَّ فِي صُدُورِهِمْ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: قَدْ قَطَعْنَا بَعْضًا وَتَرَكَنا بَعْضًا، فَلَنَسْأَلَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: هَلْ لَنَا فِيْمَا قَطَعْنَا مِنْ أَجْرٍ؟ وَهَلْ عَلَيْنَا فِيْمَا تَرَكَنا مِنْ وَزَرٍ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾.

(٦) أَخْرَجَ أَحْمَدُ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ: كَانَتْ أَمْوَالُ بَنِي النَّضِيرِ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِمَّا لَمْ يَوْجِفِ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ، فَكَانَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَالِصَةً، فَكَانَ يَنْفَقُ عَلَى أَهْلِهِ مِنْهَا نَفَقَةً سِتَّةَ، وَمَا بَقِيَ جَعَلَهُ فِي الْكِرَاعِ وَالسَّلَاحِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ.

(٧) أَخْرَجَ الشَّيْخَانُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ: لَعَنَ اللَّهُ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ، وَالْمَتَمَنِّصَاتِ، وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحَسَنِ، الْمُغِيرَاتِ خَلَقَ اللَّهُ ﷻ؛ فَبَلَغَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي أَسَدٍ فِي الْبَيْتِ يُقَالُ لَهَا: أُمُّ يَعْقُوبَ، فَجَاءَتْ إِلَيْهِ؛ فَقَالَتْ: بَلَّغْنِي أَنْتُكَ قُلْتَ: كَيْتٌ وَكَيْتٌ. قَالَ: مَا لِي لَا أَلْعَنُ مِنْ لَعْنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى. فَقَالَتْ: إِنِّي لَا أَقْرَأُ مَا بَيْنَ لُوحِيهِ فَمَا وَجَدْتِهِ، فَقَالَ: لَنْ كُنْتُ قَرَأْتُهُ لَقَدْ وَجَدْتِيهِ. أَمَا قَرَأْتَ: ﴿وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ قَالَتْ: بَلَى. قَالَ: فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنْهُ. قَالَتْ: إِنِّي لَأُظَنُّ أَهْلَكَ يَفْعَلُونَهُ، قَالَ: اذْهَبِي؛ فَاَنْظُرِي، فَذَهَبَتْ فَلَمْ تَرْجِعْ حَاجِبَةً شَيْئًا، فَجَاءَتْ فَقَالَتْ: مَا رَأَيْتُ شَيْئًا، قَالَ: لَوْ كَانَ كَذَا لَمْ تَجِئَا بِمَعْنَا.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ؛ فَأَتَاوْا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ؛ فَاجْتَنِبُوهُ».

بعده أمته ﴿فَلِلَّهِ وَالرُّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ فهذا الفيء يقسم خمسة أقسام: خمس لله ولرسوله يصرف في مصالح المسلمين العامة، وخمس لذوي القربى، وهم: بنو هاشم وبنو المطلب، حيث كانوا يسوى فيه بين ذكورهم وإناثهم، وخمس لفقراء اليتامى، وهم: من لا أب له ولم يبلغ، وخمس للمساكين، وسهم لأبناء السبيل، وهم الغرباء المنقطع بهم في غير أوطانهم، وإنما قدر الله هذا التقدير، وحصر الفيء في هؤلاء المعينين لـ ﴿كَئِنْ لَا يَكُونُ دَوْلَةً﴾ مدوالة واختصاصاً ﴿بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ فإنه لو لم يقدره لتداولته الأغنياء الأقوياء، ولما حصل لغيرهم من العاجزين منه شيء ﴿وَمَا أَعْلَمُكُمْ الرَّسُولُ فَخْذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ وهذا شامل لأصول الدين وفروعه، ظاهره وباطنه، وأن ما جاء به الرسول يتعين على العباد الأخذ به واتباعه، ولا تحل مخالفته، وأن نص الرسول على حكم الشيء كنصر الله -تعالى-، لا رخصة لأحد ولا عذر له في تركه، ولا يجوز تقديم قول

أحد على قوله. ثم أمر بتقواه التي بها عمارة القلوب والأرواح والدنيا والآخرة، وبها السعادة الدائمة والفوز العظيم، وبإضاعته الشقاء الأبدى والعذاب السرمدي، فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ على من ترك التقوى، وأثر اتباع الهوى.

(٨) ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ ذكر تعالى الحكمة والسبب الموجب لجعله -تعالى- الأموال: أموال الفيء لمن قدرها له، وأنهم حقيقون بالإعانة، مستحقون لأن تجعل لهم، وأنهم ما بين مهاجرين ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ قد هجروا المحبوبات والمألوفات، من الديار والأوطان والأحباب والخلان والأموال ﴿يَتَعَوَّنَ فَضَّلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَتَضَرَّعُونَ إِلَيْهِ رَغْبَةً فِي اللَّهِ وَنَصْرَةً لِدِينِ اللَّهِ، ومحبة لرسول الله ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ فهو هؤلاء هم الصادقون الذين عملوا بمقتضى إيمانهم، وصدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة والعبادات الشاقة.

(٩) ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وبين أنصار، وهم: الأوس والخزرج الذين

(٩) أخرج أحمد والترمذي بإسناد صحيح عن أنس رضي الله عنه قال: قال المهاجرون: يا رسول الله! ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بذلاً في كثير، لقد كفونا المؤنة، وأشركونا في المهن، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله. قال: «لا، ما أثبتتم عليهم؛ ودعوتهم الله لهم».

وأخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: أتى رجل رسول الله ﷺ؛ فقال: يا رسول الله! أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائي فلم يجد عندهن شيئاً. فقال رسول الله ﷺ: «ألا رجل يضيفه الليلة رحمه الله» فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله؛ فذهب إلى أهله، فقال لامرأته: ضيف رسول الله ﷺ، لا تدخري عنه شيئاً. فقالت: والله ما عندي سوى قوت الصبية. قال: فإذا أراد الصبية العشاء؛ فقوميه، وتعالى؛ فأطفئ السراج ونطوي بطوننا الليلة، ففعلت، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ؛ فقال: «لقد عجب الله -أو ضحك الله- من فلان وفلانة» وأنزل: ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾. وفي «صحيح مسلم» عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح؛ فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن يسفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم».

الفضائل والمناقب التي هم أهلها، وهذا يدل على سلامة صدورهم، وانتفاء الغل والحقد والحسد عنها ﴿وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ ومن أوصاف الأنصار التي فاقوا بها غيرهم، وتميزوا بها على من سواهم: الإيثار، وهو أكمل أنواع الجود، وهو الإيثار بمحاب النفس من الأموال وغيرها، وبذلها للآخرين مع الحاجة إليها، بل مع الضرورة والخصاصة ﴿وَمَنْ يُؤْكُ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ووقاية شح النفس، يشمل وقايتها الشح، في جميع ما أمر به، فإنه إذا وقى العبد شح نفسه، سمحت نفسه بأوامر الله ورسوله، ففعلها طائعاً منقاداً، منشراحاً بها صدره، وسمحت نفسه بترك ما نهى الله عنه، وإن كان محبوباً للنفس، تدعو إليه، وتطلع إليه، وسمحت نفسه ببذل الأموال في سبيل الله وابتغاء مرضاته، وبذلك يحصل الفلاح والفوز.

(١٠) ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد المهاجرين والأنصار ﴿يَقُولُونَ﴾ على وجه النصح لأنفسهم ولسائر المؤمنين: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا﴾ وهذا دعاء شامل لجميع المؤمنين السابقين: من الصحابة ومن قبلهم ومن بعدهم، وهذا من فضائل الإيمان أن المؤمنين ينتفع

وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُهُمْ وَلَئِنْ نَصُرُوهُمْ يُكُونُوا آدَ بَرْتَرْتُمْ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنَّهُ أَشْدُّ هُبَّةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يَتَّقُونَكَ كَجَمِيعِ الْآفِ قَرَى مُحَصَّنَةً أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَذَلِكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرَّبُوا بَأْسَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْعَذَابُ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَذَلِكَ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾

آمنوا بالله ورسوله طوعاً ومحبة واختياراً، وآووا رسول الله ﷺ، ومنعوه من الأحمر والأسود، وتبوا دار الهجرة والإيمان حتى صارت موئلاً ومرجعاً يرجع إليه المؤمنون، ويلجأ إليه المهاجرون ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ وهذا لمحبتهم لله ولرسوله، أحبوا أحبابه، وأحبوا من نصر دينه ﴿وَلَا يَحِدُّونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾ لا يحسدون المهاجرين على ما آتاهم الله من فضله، وخصهم به من

(١٠) أخرج مسلم عن عروة بن الزبير؛ قال: قالت لي عائشة رضي الله عنها: يا ابن أخي، أمروا أن يستغفروا لأصحاب النبي ﷺ فسبواهم.

قال النووي: في «شرح صحيح مسلم» (١٨/١٥٨): «قالت هذا عندما سمعت أهل مصر يقولون في عثمان ما قالوا، وأهل الشام في علي ما قالوا، والحروية في الجميع ما قالوا، وأما الأمر بالاستغفار الذي أشارت إليه؛ فهو قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾؛ وبهذا احتج مالك في أنه لا حق في الفئ لمن سب الصحابة».

وصفهم، والغرور والخداع مقارنهم، والنفاق والجن يصحبهم؛ ولهذا كذبهم الله بقوله: ﴿لَيْنَ أُخْرَجُوا﴾ من ديارهم جلاء ونفياً ﴿لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾ لمحبتهم للأوطان، وعدم صبرهم على القتال، وعدم وفائهم بوعدهم ﴿وَلَيْنَ قُوتُوا لَا يَصُروُنَهُمْ﴾ بل يستولي عليهم الجبن، ويملكهم الفشل، ويخذلون إخوانهم أحوج ما كانوا إليهم ﴿وَلَيْنَ نَصَرُوهُمْ﴾ على الفرض والتقدير ﴿لَيُؤَلِّبَنَّ الْأَذْبَنُ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ ليحصل منهم الإدبار عن القتال والنصرة، ولا يحصل لهم نصر من الله.

(١٣) ﴿لَأَسْأَلَ﴾ والسبب الذي أوجب لهم ذلك أنكم - أيها المؤمنون - ﴿أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنْ اللَّهِ﴾ فخافوا منكم أعظم مما يخافون الله، وقدموا مخافة المخلوق الذي لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضرراً على مخافة الخالق الذي بيده الضر والنفع، والعطاء والمنع ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ مراتب الأمور، ولا يعرفون حقائق الأشياء، ولا يتصورون العواقب، وإنما الفقه كل الفقه، أن يكون خوف الخالق ورجاؤه ومحبته مقدمة على غيرها، وغيرها تبعاً لها.

(١٤) ﴿لَا يَقْتُلُونَكُمْ جَمِيعًا﴾ في حال الاجتماع ﴿إِلَّا فِي قَرْىٍ مَّحْصَنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ لا يثبتون لقتالكم ولا يعزمون عليه، إلا إذا كانوا متحصنين في القرى، أو من وراء الجدر والأسوار ﴿بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ بأسهم فيما بينهم شديد، لا آفة في أبدانهم ولا في قوتهم، وإنما الآفة في ضعف إيمانهم وعدم اجتماع كلمتهم ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ حين تراههم مجتمعين ومتظاهرين ﴿وَوَ﴾ لكن ﴿قُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ متباغضة

بعضهم ببعض، ويدعو بعضهم لبعض، بسبب المشاركة في الإيمان المقتضي لعقد الأخوة بين المؤمنين التي من فروعها أن يدعو بعضهم لبعض، وأن يحب بعضهم بعضاً ﴿الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ دليل على المشاركة فيه، وأنهم تابعون للصحابة في عقائد الإيمان وأصوله، وهم أهل السنة والجماعة، الذين لا يصدق هذا الوصف التام إلا عليهم ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بغضاً وحسداً ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ثم ختموا دعاءهم باسمين كريمين، دالين على كمال رحمة الله وشدة رأفته وإحسانه بهم، الذي من جملته، بل من أجله، توفيقهم للقيام بحقوق الله وحقوق عباده.

قال العلماء: وما أحسن ما استنبط الإمام مالك رحمته الله في هذه الآية الكريمة: أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له من مال الفيء نصيب؛ لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء في قولهم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

(١١) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَفَقُوا﴾ تعجب - تعالى - من حال المنافقين ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ الذين طمعوا إخوانهم من أهل الكتاب في نصرتهم وموالاتهم على المؤمنين، وأنهم يقولون لهم: ﴿لَيْنَ أُخْرِجْتُمْ لَخَرَجَ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ لا نطيع في عدم نصرتكم أحداً يعذلنا أو يخوفنا ﴿وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرْكُمْ وَاللَّهُ يَهْدِي لِمَنْ يَشَاءُ لَكِنِّيُونَ﴾ في هذا الوعد الذي غروا به إخوانهم.

(١٢) ولا يستكثر هذا عليهم؛ فإن الكذب

عليهم، فقتلوا كبارهم وصناديدهم، وأسروا من أسروا منهم، وفر من فر، وذاقوا بذلك وبال أمرهم وعاقبة شرهم وبغيهم، هذا في الدنيا ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عذاب النار.

(١٦) ومثل هؤلاء المنافقين الذين غروا إخوانهم من أهل الكتاب ﴿كَذَّبُوا الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ﴾ زين له الكفر وحسنه ودعاه إليه، فلما اغتر به وكفر، وحصل له الشقاء، لم ينفعه الشيطان الذي تولاه ودعاه إلى ما دعاه إليه، بل تبرأ منه، و ﴿قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ ليس لي قدرة على دفع العذاب عنك، ولست بمغن عنك مثقال ذرة من الخير.

(١٧) ﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا﴾ الداعي الذي هو الشيطان، والمدعو الذي هو الإنسان حين أطاعه ﴿أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ الذين اشتركوا في الظلم والكفر، وإن اختلفوا في شدة العذاب وقوته.

(١٨) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يوجهه الإيمان ويقتضيه: من لزوم تقواه، سرًا وعلانية في جميع الأحوال، وأن يراعوا ما أمرهم الله به من أوامره وشرائعه وحدوده ﴿وَلَتَنْظُرَنَّهُمْ فَلَمَّا قَدِمَتْ لِعَذَابُهُمْ﴾ أي: وحاسبوا أنفسهم قبل أن تحاسبوا، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم



متفرقة متشتتة ﴿ذَلِكَ﴾ الذي أوجب لهم اتصافهم بما ذكر ﴿يَأْتُهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ لا عقل عندهم ولا لب.

(١٥) مثل هؤلاء المخذولين من أهل الكتاب، الذين انتصر الله لرسوله منهم، وأذاقهم الخزي في الحياة الدنيا، وعدم نصر من وعدهم بالمعونة ﴿كَذَّبُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قُرْبًا﴾ وهم كفار قريش الذين زين لهم الشيطان أعمالهم ﴿وَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ﴾ فنصر الله رسوله والمؤمنين

(١٦) أخرج البخاري في «التاريخ الكبير» والطبري في «جامع البيان» بإسناد حسن عن عبد الله بن نهيك؛ قال: سمعت عليًا رضي الله عنه يقول: إن راهبًا تعبد ستين سنة، وأن الشيطان أراده؛ فأعياه، فعمد إلى امرأة؛ فأجنها، ولها إخوة، فقال لإخوتها: عليكم بهذا النفس؛ ففادواها، فجاءوا بها. قال: فدأواها، وكانت عنده، فبينما هو يوماً عندها؛ إذ أعجبته، فأتاها، فحملت، فعمد إليها فقتلها، فجاء إخوتها، فقال الشيطان للراهب: أنا صاحبك. إنك أعيتني، أنا صنعت بك هذا؛ فأطعني أنجك مما صنعت، لكن اسجد لي سجدة، فسجد له، فلما سجد له، قال: إني برئ منك إني أخاف الله رب العالمين، فذلك قوله: ﴿كَذَّبُوا الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾.

محتوية على الحكم والمصالح المقرونة بها، وهي من أسهل شيء على النفوس، وأيسرها على الأبدان، خالية من التكلف، لا تناقض فيها ولا اختلاف، ولا صعوبة فيها ولا اعتساف، تصلح لكل زمان ومكان، وتليق لكل أحد ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أخبر تعالى أنه يضرب للناس الأمثال، ويوضح لعباده في كتابه الحلال والحرام؛ لأجل أن يتفكروا في آياته ويتدبروها، فإن التفكير فيها يفتح للعبد خزائن العلم، ويبين له طرق الخير والشر، ويحثه على مكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، ويزجره عن مساوئ الأخلاق، فلا أنفع للعبد من التفكير في القرآن والتدبر لمعانيه.

(٢٢) ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أخبر تعالى أنه الله المألوه المعبود بحق، الذي لا إله إلا هو؛ وذلك لكماله العظيم، وإحسانه الشامل، وتدبيره العام، وكل إله سواه، فإنه باطل لا يستحق من العبادة مثقال ذرة؛ لأنه فقير عاجز ناقص، لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً ﴿عَلَيْهِ الْعَيْبُ وَالشَّهَادَةُ﴾ وصف نفسه بعموم العلم الشامل، لما غاب عن الخلق وما يشاهدونه ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ وبعموم رحمته التي وسعت كل شيء، ووصلت إلى كل حي.

(٢٣) ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أعاد ذكر عموم إلهيته وانفراده بها ﴿هُوَ الْمَلِكُ﴾ وأنه المالك لجميع الممالك، فالعالم العلوي والسفلي وأهله، الجميع ممالك لله، فقراء مدبرون ﴿الْقُدُّوسُ السَّلَامُ﴾ المقدس السالم من كل عيب وآفة ونقص، المعظم الممجّد؛ لأن القدوس يدل على التنزيه عن كل نقص، والتعظيم لله في أوصافه

معادكم وعرضكم على ربكم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ تأكيد ثان على لزوم التقوى، ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ اعلموا: أنه عالم بجميع أعمالكم لا تخفى عليه منكم خافية، ولا يغيب من أموركم جليل ولا حقير.

(١٩) ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ والحرمان كل الحرمان: أن يغفل العبد عن هذا الأمر، ويشابه قوماً نسوا الله وغفلوا عن ذكره والقيام بحقه، وأقبلوا على حظوظ أنفسهم وشهواتها، فلم ينجحوا، ولم يحصلوا على طائل، بل أنساهم الله مصالح أنفسهم، وأغفلهم عن منافعها وفوائدها ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الذين خرجوا عن طاعة ربهم وأوضعوا في معاصيه.

(٢٠) ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ فهل يستوي من حافظ على تقوى الله ونظر لما قدم لغده، فاستحق جنات النعيم والعيش السليم، ومن غفل عن ذكر الله، ونسي حقوقه، فشقي في الدنيا، واستحق العذاب في الآخرة، فالأولون هم الفائزون، والآخرون هم الخاسرون.

(٢١) ﴿لَوْ أَرْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَشَعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةٍ﴾ لما بين تعالى لعباده ما بين، وأمرهم ونهاهم في كتابه العزيز، كان هذا موجباً لأن يبادروا إلى ما دعاهم إليه وحثهم عليه، ولو كانوا في القسوة وصلابة القلوب كالجبال الرواسي، فإن هذا القرآن لو أنزله على جبل لرأيت خاشعاً متصدعاً من خشية الله؛ أي: لكمال تأثيره في القلوب؛ فإن مواعظ القرآن أعظم المواعظ على الإطلاق، وأوامره ونواهيه

﴿الْبَارِئُ﴾ للمبروءات ﴿الْمُصَوِّرُ﴾ للمصورات، وهذه الأسماء متعلقة بالخلق والتدبير والتقدير، وأن ذلك كله قد انفرد الله به، لم يشاركه فيه مشارك ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ له الأسماء الكثيرة جداً، التي لا يحصيها ولا يعلمها أحد إلا الله ومع ذلك، فكلها حسنى صفات كمال، بل تدل على أكمل الصفات وأعظمها، لا نقص في شيء منها بوجه من الوجوه، ومن حسنها أن الله يحبها، ويحب من يحبها، ويحب من عباده أن يدعوه ويسأله بها ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ومن كماله وأن له الأسماء الحسنى والصفات العليا: أن جميع من في السماوات والأرض مفتقرون إليه على الدوام، يسبحون بحمده، ويسألونه حوائجهم، فيعطيه من فضله وكرمه ما تقتضيه رحمته وحكمته، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يريد شيئاً إلا ويكون، ولا يكون شيئاً إلا لحكمة ومصلحة.

سورة الممتحنة [وهي] مدنية

(١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ اعملوا بمقتضى إيمانكم، من ولاية من قام بالإيمان، ومعاداة من عاداه، فإنه عدو لله، وعدو للمؤمنين، ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي﴾ فلا تتخذوا عدو الله ﴿وَعَدُوِّيَ﴾ تَلْقُوا إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ؛ أي: تسارعون في مودتهم



وجلاله ﴿الْمُؤْمِنُ﴾ المصدق لرسله وأنبيائه بما جاءوا به، بالآيات البينات، والبراهين القاطعات، والحجج الواضحات ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالب ولا يمانع، بل قد فهر كل شيء، وخضع له كل شيء ﴿الْجَبَّارُ﴾ الذي فهر جميع العباد، وأذن له سائر الخلق، الذي يجبر الكسير، ويغني الفقير، ﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾ الذي له الكبرياء والعظمة، الممتنزه عن جميع العيوب والظلم والجور، ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وهذا تنزيه عام عن كل ما وصفه به من أشرك به وعانده.

(٢٤) ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ﴾ لجميع المخلوقات

(١) أخرج الشيخان عن علي رضي الله عنه؛ قال: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد، قال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ؛ فإن بها ظعينة معها كتاب، فخذوه منها» فذهبنا تعادي بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، فقلنا: أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي من كتاب، فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب، فأخرجته من عقاصها، فأتينا به النبي ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين ممن بمكة يخبرهم ببعض أمر النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «ما هذا يا حاطب؟» =

السَّيْلِ ﴿لأنه سلك مسلكاً مخالفاً للشرع وللعقل والمروءة الإنسانية.﴾

(٢) ﴿إِنْ يَتَّقَوْكُمْ﴾ يجدوكم، وتسبح لهم الفرصة في أذاكم ﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾ ظاهرين ﴿وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ بالقتل والضرب ونحو ذلك ﴿وَالسِّنَنَّهُمْ بِالسُّوءِ﴾ بالقول الذي يسوء، من شتم وغيره ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ فإن هذا غاية ما يريدون منكم.

(٣) ﴿إِنْ تَنَفَّعْتُمْ أَرْحَامَكُمْ﴾ وَلَا أَوْلَدَكُمْ ﴿فإن احتججتم وقتلتم: نوالي الكفار؛ لأجل القرابة والأموال، فلن تغني عنكم أموالكم ولا أولادكم من الله شيئاً﴾ ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ﴾ فيدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، فما الفائدة إذا من المعصية من أجلهم ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فلذلك حذرهم من موالة الكافرين الذين تضرركم موالاتهم.

(٤) ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ﴾ يا معشر المؤمنين ﴿أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ قدوة صالحة وائتمام ينفعكم ﴿فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ من المؤمنين؛ لأنكم قد أمرتم أن تتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ إذ تبرأ إبراهيم عليهما السلام ومن معه من المؤمنين من قومهم المشركين ومما يعبدون من دون الله، صرحوا بعداوتهم غاية التصريح، فقالوا: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا﴾ أي: ظهر وبان ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ﴾

وفي السعي بأسبابها ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ أي: ومما يدعو المؤمن -أيضاً- إلى معاداة الكفار أنهم قد كفروا بما جاء المؤمنين من الحق، ولا أعظم من هذه المخالفة والمشاقة؛ فإنهم قد كفروا بأصل دينكم، وزعموا أنكم ضلال على غير هدى. ومن عداوتهم البليغة أنهم ﴿يُخْرِجُونَ الرُّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ أيها المؤمنون من دياركم، ويشردونكم من أوطانكم، ولا ذنب لكم في ذلك عندهم ﴿أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ إلا أنكم تؤمنون بالله ربكم الذي يتعين على الخلق كلهم القيام بعبوديته؛ لأنه رباهم، وأنعم عليهم، بالنعيم الظاهرة والباطنة، وهو الله -تعالى- ﴿إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَآيَةً مَرْضَاتِي﴾ إن كان خروجكم مقصودكم به الجهاد في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله؛ وابتغاء مرضاة الله؛ فاعملوا بمقتضى هذا، من موالة أولياء الله ومعاداة أعدائه، فإن هذا هو الجهاد في سبيله، وهو من أعظم ما يتقرب به المتقربون إلى ربهم ويتبعون به رضاه ﴿يُشِيرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ كيف تسرون المودة للكافرين وتخفونها، مع علمكم أن الله عالم بما تخفون وما تعلنون؟! فهو وإن خفي على المؤمنين، فلا يخفى على الله -تعالى- وسيجازي العباد بما يعلمه منهم من الخير والشر ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ﴾ أي: ومن يوالي الكافرين بعد ما حذرهم الله منها ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ﴾

قال: لا تعجل علي يا رسول الله، إني كنت امرأة من قريش، ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهلهم وأموالهم بمكة، فأحببت إذ فاتني من النسب فيهم أن أصطنع إليهم يداً يحمون قرابتي، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني. فقال النبي ﷺ: «إنه قد صدقكم»، فقال عمر: دعني يا رسول الله؛ فأضرب عنقه، فقال: «إنه شهد بداراً، وما يدريك لعل الله ﷻ اطلع على أهل بدر؛ فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم» قال عمرو: ونزلت فيه: ﴿يَتَّخِذُهَا الذِّينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ الآيات.

بها للمشرك، فليس لكم أن تدعوا للمشركين،
وتقولوا: إنا في ذلك متبعون لملة إبراهيم، ولكم
أسوة حسنة في إبراهيم ومن معه، حين دعوا الله
وتوكلوا عليه وأنابوا إليه، واعترفوا بالعجز
والتقصير، فقالوا: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ اعتمدنا
عليك في جلب ما ينفعنا ودفع ما يضرنا، ووثقنا
بك يا ربنا في ذلك ﴿وَالَيْكَ أَتَيْنَا﴾ رجعنا إلى
طاعتك ومرضاتك وجميع ما يقرب إليك، فنحن
في ذلك ساعون، وبفعل الخيرات مجتهدون،
﴿وَالَيْكَ الْصَّبْرُ﴾ ونعلم أنا إليك نصير، فسنستعد

للقدوم عليك، ونعمل ما يقربنا الزلفى إليك
(٥) ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لا تسلطهم
علينا بذنوبنا، فيفتنونا، ويمنعونا مما يقدرون عليه
من أمور الإيمان، ويفتنون أيضا بأنفسهم، فإنهم
إذا رأوا لهم الغلبة، ظنوا أنهم على الحق وأنا
على الباطل، فازدادوا كفرا وطغيانا ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾
ما اقترفنا من الذنوب والسيئات، وما قصرنا به
من المأمورات، ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ﴾ القاهر
لكل شيء، ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء
مواضعها، فبعزتك وحكمتك انصرنا على
أعدائنا، واغفر لنا ذنوبنا، وأصلح عيوبنا.

(٦) ثم كرر الحث لهم على الاقتداء بهم،
فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ وليس كل
أحد تسهل عليه هذه الأسوة، وإنما تسهل ﴿لَنَ﴾
كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴿فَإِنَّ الْإِيمَانَ وَاحْتِسَابَ﴾
الأجر والثواب، يسهل على العبد كل عسير،
ويقلل لديه كل كثير، ويوجب له الإكثار من
الاقتداء بعباد الله الصالحين، والأنبياء
والمرسلين، فإنه يرى نفسه مفتقرا ومضطرا إلى
ذلك غاية الاضطرار.

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ
وَمِمَّن يَدْعُ إِلَى اللَّهِ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١﴾ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةَ اللَّهِ فَذُرُوا اللَّهَ وَهُوَ غَفُورٌ رَحِيمٌ
﴿٢﴾ لَا تَهِنُوا لِلَّذِينَ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يَفْتُلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَهُمْ جُورُكُمْ
مِنْ دِينِكُمْ أَنَّ يَذُرُوهُمْ وَتَقْسُطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ حُبُّ الْمُفْسِدِينَ
﴿٣﴾ إِنَّمَا يَنْهَنِكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُكُمْ
مِّن دِينِكُمْ وَطَهَرُوا أَعْيُنَ أَخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ
هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ
مُهِجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِنَ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ
فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَنَّهُنَّ كَلَاحِمٍ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَأَنَّهُمْ
مَا أَغْفَرُوا لِأَخْوَانِهِمْ أَن تَكُفُّوهُنَّ إِذَا أَتَيْنَهُنَّ لِغُرُورٍ
وَلَا تَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ السُّبُلِ وَتَمْلِكُوا مَا أَغْفَرُوا لَكُمْ وَمَا أَغْفَرُوا
لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَٰكِن تَتَّبِعُوا سَبِيلَ اللَّهِ وَلِأَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ فَازَكُمْ
شَيْءٌ مِّنْ أَرْزَاقِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ
أَرْزَاقُهُمْ بِمِثْلِ مَا أَغْفَرُوا وَأَغْفَرَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ بَعْضُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦﴾

وَالْبَغْضَاءُ ﴿١﴾ البغض بالقلوب، وزوال مودتها،
والعداوة بالأبدان، وليس لتلك العداوة والبغضاء
وقت ولا حد، بل ذلك ﴿أَبَدًا﴾ ما دمتم مستمرين
على كفركم ﴿حَتَّىٰ تَوَمُّؤُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ فإذا آمنتم
بالله وحده، زالت العداوة والبغضاء، وانقلبت
مودة وولاية، فلکم أيها المؤمنون أسوة حسنة في
إبراهيم ومن معه في القيام بالإيمان والتوحيد،
والقيام بلوازم ذلك ومقتضياته، وفي كل شيء
تعبدوا به لله وحده ﴿إِلَّا﴾ في خصلة واحدة
وهي ﴿قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ أزر المشرك الكافر
المعاند، حين دعاه إلى الإيمان والتوحيد،
فامتنع، فقال إبراهيم: ﴿لَا تَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا﴾ الحال
أنني لا ﴿أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ لكنني أدعو
ربي عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقيًا، فليس
لكم أن تقتنوا بإبراهيم في هذه الحالة التي دعا

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ عن طاعة الله والتأسي برسل الله، فلن يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئاً ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ الذي له الغنى التام المطلق من جميع الوجوه، فلا يحتاج إلى أحد من خلقه بوجه ﴿الْحَمِيدُ﴾ في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله؛ فإنه محمود على ذلك كله.

(٧) ثم أخبر - تعالى - أن هذه العداوة التي أمر بها المؤمنين للمشركين، ووصفهم بالقيام بها أنهم ما داموا على شركهم وكفرهم، وأنهم إن انتقلوا إلى الإيمان، فإن الحكم يدور مع علته، فإن المودة الإيمانية ترجع، فلا تياسوا أيها المؤمنون من رجوعهم إلى الإيمان، ف ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ كَادْتُمْ مَعَهُمْ مَوَدَّةً﴾ سببها رجوعهم إلى الإيمان ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ على كل شيء، ومن ذلك هداية القلوب وتقليبها من حال إلى حال ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لا يتعاطمه ذنب أن يغفره، ولا يكبر عليه عيب أن يستره.

(٨) ﴿لَا يَنْهَكُكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ﴾ لا ينهاكم الله عن البر والصلة والمكافأة بالمعروف، للمشركين من أقاربكم وغيرهم حيث كانوا، بحال لم ينتصبوا لقتالكم في الدين والإخراج من دياركم، فليس عليكم جناح أن تصلوهم، فإن صلتهم في هذه الحالة، لا محذور فيها ولا مفسدة ﴿وَتَقْسِطُوا﴾

﴿إِلَيْهِمُ﴾ تعدلوا فيهم بالبر والإحسان ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ المنصفين العادلين في أحكامهم.

(٩) ﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ لِأَجْلِ دِينِكُمْ، عداوة لدين الله ولمن قام به﴾ وأخرجكم من دياركم وظهروا عاونوا غيرهم ﴿عَلَى إِخْرَاجِكُمْ﴾ نهاكم الله أن تولوهم بالمودة والنصرة، بالقول والفعل، وأما بركم وإحسانكم الذي ليس بتول للمشركين، فلم ينهكم الله عنه، بل ذلك داخل في عموم الأمر بالإحسان إلى الأقارب وغيرهم من الآدميين وغيرهم ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وذلك الظلم يكون بحسب التولي، فإن كان تولياً تاماً، صار ذلك كفرةً مخرجاً عن دائرة الإسلام، وتحت ذلك من المراتب ما هو غليظ، وما هو دون ذلك.

(١٠) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾ أمر الله المؤمنين إذا جاءهم المؤمنات أن يمتحنوهن ويختبروهن بما يظهر به صدقهن، من أيمان مغلظة وغيرها، فإنه يحتمل أن يكون إيمانها غير صادق بل رغبة في زوج أو بلد أو غير ذلك من المقاصد الدنيوية.

فإن كن بهذا الوصف، تعين ردهن وفاء بالشرط من غير حصول مفسدة، ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ وإن امتحنوهن، فوجدن

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ عن طاعة الله والتأسي برسل الله، فلن يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئاً ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ الذي له الغنى التام المطلق من جميع الوجوه، فلا يحتاج إلى أحد من خلقه بوجه ﴿الْحَمِيدُ﴾ في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله؛ فإنه محمود على ذلك كله.

(٧) ثم أخبر - تعالى - أن هذه العداوة التي أمر بها المؤمنين للمشركين، ووصفهم بالقيام بها أنهم ما داموا على شركهم وكفرهم، وأنهم إن انتقلوا إلى الإيمان، فإن الحكم يدور مع علته، فإن المودة الإيمانية ترجع، فلا تياسوا أيها المؤمنون من رجوعهم إلى الإيمان، ف ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ كَادْتُمْ مَعَهُمْ مَوَدَّةً﴾ سببها رجوعهم إلى الإيمان ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ على كل شيء، ومن ذلك هداية القلوب وتقليبها من حال إلى حال ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لا يتعاطمه ذنب أن يغفره، ولا يكبر عليه عيب أن يستره.

(٨) ﴿لَا يَنْهَكُكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ﴾ لا ينهاكم الله عن البر والصلة والمكافأة بالمعروف، للمشركين من أقاربكم وغيرهم حيث كانوا، بحال لم ينتصبوا لقتالكم في الدين والإخراج من دياركم، فليس عليكم جناح أن تصلوهم، فإن صلتهم في هذه الحالة، لا محذور فيها ولا مفسدة ﴿وَتَقْسِطُوا﴾

﴿إِلَيْهِمُ﴾ تعدلوا فيهم بالبر والإحسان ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ المنصفين العادلين في أحكامهم.

(٩) ﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ لِأَجْلِ دِينِكُمْ، عداوة لدين الله ولمن قام به﴾ وأخرجكم من دياركم وظهروا عاونوا غيرهم ﴿عَلَى إِخْرَاجِكُمْ﴾ نهاكم الله أن تولوهم بالمودة والنصرة، بالقول والفعل، وأما بركم وإحسانكم الذي ليس بتول للمشركين، فلم ينهكم الله عنه، بل ذلك داخل في عموم الأمر بالإحسان إلى الأقارب وغيرهم من الآدميين وغيرهم ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وذلك الظلم يكون بحسب التولي، فإن كان تولياً تاماً، صار ذلك كفرةً مخرجاً عن دائرة الإسلام، وتحت ذلك من المراتب ما هو غليظ، وما هو دون ذلك.

(١٠) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾ أمر الله المؤمنين إذا جاءهم المؤمنات أن يمتحنوهن ويختبروهن بما يظهر به صدقهن، من أيمان مغلظة وغيرها، فإنه يحتمل أن يكون إيمانها غير صادق بل رغبة في زوج أو بلد أو غير ذلك من المقاصد الدنيوية.

(٨ و ٩) أخرج البخاري عن أسماء بنت أبي بكر ؓ؛ قالت: «تنتي أمي رغبة في عهد النبي ﷺ، فسألت النبي ﷺ: أصلها؟ قال: «نعم».

قال ابن عيينة: فأنزل الله تعالى فيها: ﴿لَا يَنْهَكُكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾. (١٠ و ١١) أخرج البخاري عن المسور ومروان بن الحكم: أن رسول الله ﷺ لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية، جاءه نساء من المؤمنات؛ فأنزل الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ﴾ إلى قوله ﴿وَلَا تَنْكِحُوا بِعِصَمِ الْكُفَّارِ﴾ فطلق عمر بن الخطاب يومئذ امرأتين، تزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أمية.

للمسلم أن يمسكها ما دامت على كفرها غير أهل الكتاب ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُفَّارِ﴾ وإذا نهى عن الإمساك بعصمتها؛ فالنهى عن ابتداء تزويجها أولى ﴿وَسَلُّوا مَا أَنْفَقْتُمْ﴾ أيها المؤمنون، حين ترجع زوجاتكم مرتدات إلى الكفار، فإذا كان الكفار يأخذون من المسلمين نفقة من أسلمت من نسائهم، استحق المسلمون أن يأخذوا مقابلة ما ذهب من نسائهم إلى الكفار ﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ﴾ ذلكم الحكم الذي ذكره الله وبينه لكم يحكم به بينكم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فيعلم تعالى، ما يصلح لكم من الأحكام، ويشرع لكم ما تقتضيه الحكمة

(١١) ﴿وَإِنْ فَانَكُ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ بأن ذهبن مرتدات ﴿فَعَاقِبْتُمْ فَانَاوُا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾ كما تقدم أن الكفار إذا كانوا يأخذون بدل ما يفوت من أزواجهن إلى المسلمين، فمن ذهبت زوجته من المسلمين إلى الكفار وفاتت عليه، لزم أن يعطيه المسلمون من الغنيمة بدل ما أنفق ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْشَأَ بِهِ مُؤْمِنُوتُكُمْ﴾ فإيمانكم بالله، يقتضي منكم أن تكونوا ملازمين للتقوى على الدوام.

(١٢) ﴿يَتَأْتِيَ آلَ النَّبِيِّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعُنَكَ﴾ هذه الشروط المذكورة في هذه الآية تسمى «مبايعة النساء» اللاتي كن يبايعن على إقامة الواجبات المشتركة التي تجب على الذكور والنساء في جميع الأوقات، وأما الرجال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَتَأْتِيَ آلَ النَّبِيِّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعُنَكَ عَلَيَّ أَنْ لَا يَشْرَكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَشْرَفْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦﴾ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٧﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ يَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ الَّذِينَ يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنِينَ مَرْمُوسُونَ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقُولُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٥﴾ تَوَدُّونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾

صداقات، أو علموا ذلك منهم من غير امتحان؛ فلا يرجعوهن إلى الكفار ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ فهذه مفسدة كبيرة في ردهن راعاها الشارع ﴿وَأَتَوْهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ وراعى -أيضا- الوفاء بالشرط، بأن يعطوا الكفار أزواجهن ما أنفقوا عليهن من المهر وتوابعه عوضاً عنهن، ولا جناح حينئذ على المسلمين أن ينكحوهن ولو كان لهن أزواج في دار الشرك، ولكن بشرط أن يؤتوهن أجورهن من المهر والنفقة، وكما أن المسلمة لا تحل للكافر، فكذلك الكافرة لا تحل

(١٢) أخرج البخاري عن عروة: أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته: أن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية: ﴿يَتَأْتِيَ آلَ النَّبِيِّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعُنَكَ﴾ إلى قوله ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قال عروة: قالت عائشة: فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله ﷺ: «قد بايعتك» كلاماً، ولا والله ما مست يده يد امرأة في المبايعة قط، ما بايعهن إلا بقوله: «قد بايعتك على ذلك».

شيء، وعم إحسانه البرايا. (١٣) ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إن كنتم مؤمنين بربكم، ومتبعين لرضاه، ومجانبيين لسخطه ﴿لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وإنما غضب عليهم لكفرهم، وهذا شامل لجميع أصناف الكفار ﴿قَدْ يَسُوءُ﴾ هؤلاء الكفار يسُوءوا ﴿مِنَ الْآخِرَةِ﴾ أنكروها وكفروا بها، فلا يستغرب حينئذ منهم الإقدام على مساخط الله وموجبات عذابه وإياسهم من الآخرة، ﴿كَمَا يَسُوءُ الْكُفَّارُ﴾ المنكرون للبعث في الدنيا ﴿مِنَ أَحْبَابِ الْقُبُورِ﴾ من رجوع أصحاب القبور إلى الله تعالى.

سورة الصف [وهي] مدنية

(١) ﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أن جميع من في السماوات والأرض يسبحون بحمد الله ويعبدونه ويسألونه حوائجهم ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي قهر الأشياء بعزته وسلطانه ﴿الْحَكِيمُ﴾ في خلقه وأمره. (٢) ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ لِمَ تقولون الخير وتحثون عليه،

فيفاوت ما يلزم بحسب أحوالهم، فكان النبي ﷺ يمثل ما أمره الله به، فكان إذا جاءته النساء يبايعنه، والتزم به هذه الشروط ببايعهن، وجبر قلوبهن، واستغفر لهن الله فيما يحصل منهن من التقصير، وأدخلهن في جملة المؤمنين ﴿عَلَى أَنْ لَا يُشْرَكَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ بأن يفردن الله وحده بالعبادة ﴿وَلَا يَزِينَنَّ﴾ كما كان ذلك موجوداً كثيراً في البغايا وذوات الأخدان؛ ﴿وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ﴾ كما يجري لنساء الجاهلية الجهلاء ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِيْهَتَيْنِ يَفْتَرِيَهُ بَيْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ والبهتان: الافتراء على الغير؛ أي: لا يفترين بكل حالة، سواء تعلقت بهن وأزواجهن، أو سواء تعلق ذلك بغيرهم ﴿وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ لا يعصينك في كل أمر تأمرهن به؛ لأن أمرك لا يكون إلا بمعروف، ومن ذلك طاعتهم لك في النهي عن النياحة، وشق الثياب، وخمش الوجوه، والدعاء بدعاء الجاهلية ﴿فَبَايَعَهُنَّ﴾ إذا التزم به جميع ما ذكر ﴿وَأَسْتَغْفِرَ لَهُنَّ اللَّهُ﴾ عن تقصيرهن، وتطيباً لخواطرن ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ كثير المغفرة للعاصين، والإحسان إلى المذنبين التائبين ﴿رَحِيمٌ﴾ وسعت رحمته كل

سورة الصف

(١ - ٢) أخرج الترمذي والدارمي وابن حبان بإسناد صحيح عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه، قال: قعدنا نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فتذاكرنا، فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله؛ لعملناه، فانزل الله: ﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ إلى قوله ﴿كَأَنَّهُمْ بَيْنَ مَرْصُومٍ﴾، قال عبد الله بن سلام: فقرأها علينا رسول الله ﷺ، قال أبو سلمة: فقرأها علينا ابن سلام، قال يحيى بن أبي كثير: فقرأها علينا أبو سلمة، قال الأوزاعي: فقرأها علينا ابن أبي كثير. (٢ و ٣) أخرج أبو داود بإسناد حسن عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: أتانا رسول الله ﷺ وأنا صبي في بيتنا قال: فذهبت لأخرج لألعب فقالت أمي: يا عبد الله تعال أعطك، فقال لها رسول الله ﷺ: «وما أردت أن تعطيه؟» قالت: غراً؛ فقال: «أما إنك لو لم تفعلني كتبت عليك كذبة».

وللناهي عن الشر أن يكون أبعد الناس منه .
 (٤) ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَيْنَ مَرْصُومٍ﴾ هذا حث من الله لعباده على الجهاد في سبيله، وتعليم لهم كيف يصنعون، وأنه ينبغي لهم أن يصفوا في الجهاد صفًا متراصًا متساويًا، من غير خلل يقع في الصفوف، وتكون صفوفهم على نظام وترتيب به تحصل المساواة بين المجاهدين والتعاقد وإرهاب العدو وتنشيط بعضهم بعضاً.

(٥) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ موبخاً لهم على صنيعهم، ومقرعاً لهم على أذيتهم، وهم يعلمون أنه رسول الله ﴿لِمَ تُوَدُّونَنِي﴾ بالأقوال والأفعال ﴿وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ وحق الرسول أن يعظم ويحترم ويكرم ﴿فَلَمَّا زَاغُوا﴾ انصرفوا عن الحق بقصدهم ﴿زَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ عقوبة لهم على زيغهم الذي اختاروه لأنفسهم ورضوه لها، ولم يوفقهم الله للهدى؛ لأنهم لا يليق بهم الخير، ولا يصلحون إلا للشر، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الذين لم يزل الفسق وصفاً لهم، ليس لهم قصد في الهدى.

وَالَّذِي قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرُسُولِي يُاقُوا مِن بَعْدِي أَسْمُهُ أَخَذَ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّضِيِّ ﴿١﴾ وَمِنَ الظَّالِمِينَ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمِّمُ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٤﴾ يَتَّبِعُ الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذْكَرُ عَلَى عَجْرَةٍ تُشْجِكُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٥﴾ تَوْفُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ءَامُوا لَكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ كَرِهَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَقُولُ لَكُمْ دُونُكُمْ وَيَدْعُ لَكُمْ جَنَّتْ فَعَرَى مِنْ تَحْتِهَا أَلْهَمَ وَمَسَكَنَ طَبَقَةٍ فِي جَنَّتْ عَنِ ذَلِكَ الْقَوْمِ الْعَظِيمِ ﴿٧﴾ وَأُخْرَى تُحِبُّ نَهَا نَصْرَ مِنَّا لِلَّهِ فَفَتْحَ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يَتَّبِعُ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَرِهُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَمَا مَنَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿٩﴾

وربما تمدحتم به وأنتم لا تفعلونه، وتنهون عن الشر وربما نزهتم أنفسكم عنه، وأنتم متلونون به ومتصفون به؟!
 (٣) ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ فإن أكبر المقت وأعظم البغض عند الله أن يقول العبد ما لا يفعل؛ ولهذا ينبغي للأمر بالخير أن يكون أول الناس إليه مبادرة،

وأخرج الطيالسي وابن أبي حاتم بإسناد صحيح عن مطرف؛ قال: كان يبلغني عن أبي ذر حديث كنت أشتي لقاءه فلقيته، فقلت: يا أبا ذر، كان يبلغني عنك حديث فكنت أشتي لقاءه، فقال: لله أبوك! فلقد لقيت، فهاهنا. فقلت: كان يبلغني عنك أنك ترعّم أن رسول الله ﷺ حدثكم: «أن الله يحب ثلاثة ويبغض ثلاثة» قال: أجل فلا أخالني أكذب على خليلي ﷺ. قلت: فمن هؤلاء الثلاثة الذين يحبهم الله ﷻ؟ قال: رجل غزا في سبيل الله خرج محتسباً مجاهداً؛ فلفي العدو فقتل، وأنتم تجدونه في كتاب الله المنزل. ثم قرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَيْنَ مَرْصُومٍ﴾ وذكر الحديث.

(٥) أخرج الشيخان من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: حين قَسَمَ قِسْمَةً، فقال رجل: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله، فلما أخبر غضب ثم قال: «رحمة الله على موسى، لقد أودى بأكثر من هذا؛ فصبر».

لا حقيقة لها، بل تزيد البصير معرفة بما هم عليه من الباطل ﴿وَاللَّهُ مِمَّنْ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ قد تكفل الله بنصر دينه، وإتمام الحق الذي أرسل به رسله، وإشاعة نوره على سائر الأقطار ولو كره الكافرون، وبذلوا بسبب كراحتهم كل سبب يتوصلون به إلى إطفاء نور الله؛ فإنهم مغلوبون.

(٩) ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَالْعِلْمِ النَّافِعِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ﴾ ودين الحق الذي يدان به، ويتعبد لرب العالمين الذي هو حق وصدق، لا نقص فيه، ولا خلل يعتريه ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ ليعليه على سائر الأديان بالحجة والبرهان، ويظهر أهله القائمين به ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ لو كرهوا نصرته وظهوره على الأديان.

(١٠) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَتَاكُمْ عَلَىٰ عِزِّكُمْ يُنَجِّكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ هذه وصية ودلالة وإرشاد من أرحم الراحمين لعباده المؤمنين، لأعظم تجارة، وأجل مطلوب، وأعلى مرغوب، يحصل بها النجاة من العذاب الأليم، والفوز بالنعيم المقيم، وأتى بأداة العرض الدالة على أن هذا أمر يرغب فيه كل متبصر، ويسمو إليه كل لبيب، فكأنه قيل: ما هذه التجارة التي هذا قدرها؟

(١١) فقال: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ومن المعلوم أن الإيمان التام هو التصديق الجازم بما أمر الله بالتصديق به، المستلزم لأعمال الجوارح، ومن أجل أعمال الجوارح الجهاد في سبيل الله ﴿وَيُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ بأن

(٦) ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَقُولُ -تعالى- مخبراً عن عناد بني إسرائيل المتقدمين: الذين دعاهم عيسى ابن مريم، وقال لهم: ﴿يَتَّبِعْ إِسْرَءِيلَ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ إِنَّكُمْ﴾ أرسلني الله لأدعوكم إلى الخير وأنهاكم عن الشر، وأيدني بالبراهين الظاهرة، ومما يدل على صدقي كوني ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ جئت بما جاء به موسى من التوراة والشرائع السماوية، ولو كنت مدعياً للنبوة لجئت بغير ما جاءت به المرسلون، ومصداقاً لما بين يدي من التوراة أيضاً، أنها أخبرت بي وبشرت، فجئت وبعثت مصداقاً لها ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولِ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب النبي الهاشمي.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ محمد ﷺ الذي بشر به عيسى ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الأدلة الواضحة، الدالة على أنه هو، وأنه رسول الله حقاً ﴿قَالُوا﴾ معاندين للحق مكذبين له ﴿هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

(٧) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ لا أحد أظلم ممن يفترى الكذب على الله ويجعل له أنداداً وشركاء ﴿وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ﴾ وهو يدعى إلى التوحيد والإخلاص ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين لا يزالون على ظلمهم مقيمين، لا ترددهم عنه موعظة، ولا يزجرهم بيان ولا برهان.

(٨) ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ بما يصدر منهم من المقالات الفاسدة التي يردون بها الحق، وهي

(٦) أخرج الشيخان عن جبير بن مطعم رضى الله عنه؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب». وأخرج أحمد بإسناد حسن لغيره عن أبي أمامة رضى الله عنه؛ قال: يا نبي الله، ما كان بدء أمرك؟ قال ﷺ: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت منها قصور الشام».

لا يخرجون منها أبداً، ولا يبغون عنها حولاً ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ذلك الثواب الجزيل، والأجر الجميل، الفوز العظيم الذي لا فوز مثله.

(١٣) ﴿وَأُخْرَىٰ يُحِبُّونَهَا﴾ ويحصل لكم خصلة أخرى تحبونها وهي: ﴿نَصْرَ يَوْمَ اللَّهِ﴾ لكم على الأعداء، يحصل به العز والفرح ﴿وَفَتْحَ قَرِيٍّ﴾ تتسع به دائرة الإسلام، ويحصل به الرزق الواسع، فهذا جزاء المؤمنين المجاهدين ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالثواب العاجل والآجل، كل على حسب إيمانه، وإن كانوا لا يبلغون مبلغ المجاهدين في سبيل الله.

(١٤) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ﴾ بالأقوال والأفعال؛ وذلك بالقيام بدين الله، وجهاد من عانده ونابذه، بالأبدان والأموال، ومن نصر الباطل بما يزعمه من العلم ورد الحق؛ بدحض حجته، وإقامة الحجة عليه، والتحذير منه.

ومن نصر دين الله: تعلم كتاب الله وسنة رسوله، والحث على ذلك، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ثم هيج الله المؤمنين بالافتداء بمن قبلهم من الصالحين بقوله: ﴿كَأَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ لَحَوَّارِينَ مِّنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ قال

تبدلوا نفوسكم ومهجمكم؛ لمصادمة أعداء الإسلام، والقصد نصر دين الله وإعلاء كلمته، وتنفقون ما تيسر من أموالكم في ذلك المطلوب؛ فإن ذلك ولو كان كريهاً للنفوس شاقاً عليها ﴿فَبِمَا لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فإن فيه الخير الدنيوي من النصر على الأعداء، والعز المنافي للذل والرزق الواسع، وسعة الصدر وانسراحه.

(١٢) وفي الآخرة الفوز بثواب الله، والنجاة من عقابه؛ ولهذا ذكر الجزاء في الآخرة فقال: ﴿يَعْقِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ وهذا شامل للصغائر والكبائر؛ فإن الإيمان بالله والجهاد في سبيله مكفر للذنوب ولو كانت كبائر ﴿وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ من تحت مساكنها وقصورها وغرفها وأشجارها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، ولهم فيها من كل الثمرات ﴿وَمَسْكَنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ جمعت كل طيب، من علو وارتفاع، وحسن بناء وزخرفة. وسميت الجنة جنة عدن لأن أهلها مقيمون فيها،

(١٤) أخرج النسائي في «تفسيره» والطبري والضياء في «المختارة» بإسناد حسن عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: لما أراد الله ﷻ أن يرفع عيسى عليه السلام إلى السماء، خرج على أصحابه وهم في بيت اثنا عشر رجلاً، ورأسه يقطر ماء، فقال: أيكم يلقى شبيهي عليه؛ فيقتل مكاني، فيكون معي في درجتي؟ فقام شاب من أحدثهم سناً، فقال: أنا. فقال: اجلس. ثم أعاد عليهم، فقام الشاب فقال: أنا. فقال: نعم، أنت ذاك. قال: فألقي عليه شبه عيسى عليه السلام ثم رفع عيسى من رُوزنة - فتحة في السقف - كانت في البيت إلى السماء، وجاء الطلب من اليهود؛ فأخذوا الشاب للشبه فقتلوه ثم صلبوه، فتفرقوا ثلاث فرق؛ فقالت فرقة: كان فينا الله ﷻ ما شاء ثم صعد إلى السماء. وهؤلاء اليعقوبية، وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه. وهؤلاء النسطورية، وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه إليه. فهؤلاء المسلمون؛ فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوهما، فلم يزل الإسلام طامساً، حتى بعث الله محمداً ﷺ؛ فأنزل الله ﷻ: ﴿فَنَامَتْ طَافَّةٌ مِّنْ بَنَاتِ إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَافَّةٌ﴾. يعني: الطائفة التي كفرت في زمان عيسى عليه السلام والطائفة التي آمنت في زمان عيسى / ﴿فَأَنذَرْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عُدُوِّهِمْ﴾ بإظهار محمد ﷺ دينهم على دين الكفار ﴿فَلَمَّسُوا ظُهُورَهُمْ﴾.

لهم عارضاً ومنهضاً: من يعاونني ويقوم معي في نصرتي لدين الله، ويدخل مدخلي، ويخرج مخرجي؟

فابتدر الحواريون فقالوا: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ فمضى عيسى عليه السلام على أمر الله ونصر دينه، هو ومن معه من الحواريين ﴿فَأَمَنْتُ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ بسبب دعوة عيسى والحواريين ﴿وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ فلم ينقادوا لدعوتهم، فجاهد المؤمنون الكافرين؛ ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ﴾ قويناهم ونصرناهم عليهم ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ عليهم وقاهرين لهم، فأنتم يا أمة محمد، كونوا أنصار الله ودعاة دينه، ينصركم الله كما نصر من قبلكم، ويظهركم على عدوكم.

سورة الجمعة [وهي] مدنية

(١) ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ﴾ يسبح لله وينقاد لأمره ويتألهه ويعبده جميع ما في السماوات والأرض؛ لأنه الكامل الملك، الذي له ملك العالم العلوي والسفلي، فالجميع ممالكه، وتحت تدبيره ﴿الْقُدُّوسِ﴾ المعظم المنزه عن كل آفة ونقص ﴿الْعَزِيزِ﴾ القاهر للأشياء كلها ﴿الْحَكِيمِ﴾ في خلقه

وأمره.

(٢) ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِينَ﴾ الذين لا كتاب عندهم، ولا أثر رسالة من العرب وغيرهم، ممن ليسوا من أهل الكتاب، فبعث الله فيهم ﴿رُسُلًا مِنْهُمْ﴾، يعرفون نسبه، وأوصافه الجميلة وصدقه، وأنزل عليه كتابه ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ القاطعة الموجبة للإيمان واليقين ﴿وَوَزَّرْ لَهُمُ﴾ بأن يحثهم على الأخلاق الفاضلة، ويفصلها لهم، ويزجرهم عن الأخلاق الرذيلة ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ علم القرآن وعلم السنة المشتمل ذلك علوم الأولين والآخرين.

سورة الجمعة

(١) أخرج الإمام مسلم عن حديث ابن عباس وأبي هريرة والنعمان بن بشير رضي الله عنهم: «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين».

من القرآن ﴿يَسْأَلُ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على صدق رسولنا محمد ﷺ وصدق ما جاء به ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ لا يرشدهم إلى مصالحهم، ما دام الظلم لهم وصفاً، والعناد لهم نعتاً. ومن ظلم اليهود وعنادهم أنهم يعلمون أنهم على باطل، ويزعمون أنهم على حق وأنهم أولياء الله من دون الناس.

(٦) ﴿قُلْ يَتَّابِعَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ أمر الله رسوله أن يقول لهم: إن كنتم صادقين في زعمكم أنكم على الحق، وأولياء الله ﴿فَتَمْنُوا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهذا أمر خفيف، فإنهم لو علموا أنهم على حق لما توقفوا عن هذا التحدي الذي جعله الله دليلاً على صدقهم إن تمنوه، وكذبهم إن لم يتمنوه، ولما لم يقع منهم مع الإعلان لهم بذلك، علم أنهم عالمون ببطلان ما هم عليه وفساده.

(٧) ولهذا قال: ﴿وَلَا يَمُنُّونَ أَبَدًا﴾ بِمَا قَدِمْتُ
أَيَّدِيهِمْ؛ أَي: من الذنوب والمعاصي التي
يستوحشون من الموت من أجلها ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بِالظَّالِمِينَ﴾ فلا يمكن أن يخفى عليه من ظلمهم
شيء.

(٨) ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ

(٣) ﴿وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ وامتَن على آخرين من غيرهم، أي: من غير الأميين، ممن يأتي بعدهم، ومن أهل الكتاب، لما يلحقوا بهم فيمن باشر دعوة الرسول، ويحتمل أنهم لما يلحقوا بهم في الفضل، ويحتمل أن يكونوا لما يلحقوا بهم في الزمان ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ من عزته وحكمته أنه سبحانه بعث فيهم رسوله وشاهدوه، وباشروا دعوته، وحصل لهم من الخصائص والفضائل ما لا يمكن أحداً أن يلحقهم فيها، ولم يترك عباده هملاً ولا سدى.

(٤) ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ يعني ما أعطاه الله لرسول ﷺ من النبوة وما خص به أمته من بعثته إليهم ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

(٥) ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾
 مثل الذين حملهم الله التوراة من اليهود وكذا
 النصارى، وأمرهم أن يتعلموها، ويعملوا بما
 فيها، وأنهم لم يحملوها ولم يقوموا بما
 حملوا به، بل مثلهم ﴿كَمَثَلِ الْجِمَارِ يَتَحْمَلُ
 أَسْفَارًا﴾ من كتب العلم، فلا يستفيد ذلك
 الجمار من تلك الكتب التي فوق ظهره، فهذا
 مثل علماء اليهود الذين لم يعملوا بما في
 التوراة، الذي من أجله وأعظمه الأمر باتباع
 محمد ﷺ، والبشارة به، والإيمان بما جاء به

(٣) أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة: ﴿وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ قالوا: من هم يا رسول الله؟ فلم يرأجعههم حتى سئل ثلاثاً، وفيما سلمان الفارسي فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان الفارسي، ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا لئله رجال من هؤلاء».

وأخرج الطبراني في «الكبير» وابن أبي عاصم في «السنن» وابن أبي حاتم بإسناد صحيح: عن سهيل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في أصلاب أصلاب رجال من أصحابي رجالاً ونساء من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب»، ثم قرأ: ﴿وَالْآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾.

مُلَفِّعِكُمْ ﴿٩﴾ وإن كانوا لا يتمنون الموت بما قدمت أيديهم ويفرون منه غاية الفرار، فإن ذلك لا ينجيهم، بل لا بد أن يلاقيهم الموت الذي قد حتمه الله على العباد، وكتبه عليهم ﴿ثُمَّ تَرُدُّوهُ إِلَىٰ عَلَيْهِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ثم بعد الموت واستكمال الآجال، يرد الخلق كلهم يوم القيامة إلى عالم الغيب والشهادة، فينبئهم بما كانوا يعملون من خير وشر، قليل وكثير.

(٩) ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالحضور لصلاة الجمعة والمبادرة إليها، من حين ينادى لها والسعي إليها والمراد بالسعي هنا: المبادرة إليها والاهتمام لها وجعلها أهم الأشغال، لا العدو الذي قد نهى عنه عند المضي إلى الصلاة، وقوله: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ أي: اتركوا البيع، إذا نودي للصلاة، وامضوا إليها؛ فإن ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من اشتغالكم بالبيع، وتفويتكم الصلاة الفريضة التي هي من أكد الفروض ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن ما عند الله خير وأبقى، وأن من أثر الدنيا على الدين، فقد خسر الخسارة الحقيقية من حيث ظن أنه يربح.

(١٠) ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي



الْأَرْضِ﴾ لطلب المكاسب والتجارات. ولما كان الاشتغال في التجارة مظنة الغفلة عن ذكر الله، أمر الله بالإكثار من ذكره فقال: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ في حال قيامكم وعودكم وعلى جنوبكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ فإن الإكثار من ذكر الله أكبر أسباب الفلاح.

(١١) ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ خرجوا من المسجد حرصاً على ذلك اللهو وتلك التجارة، وتركوا الخير ﴿وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾

(٩) قول الله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ أخرج الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب في قبلنا، ثم إن هذا يومهم الذي فرض عليهم؛ فاختلفوا فيه فهدانا؛ الله له، فالناس لنا فيه تبع: اليهود غداً، والنصارى بعد غداً».

(١١) أخرج الشيخان عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: بينما نحن نصلي مع النبي ﷺ؛ إذ أقبلت عير تحمل طعماً، فالتفتوا إليها، حتى ما بقي مع النبي ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً، فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِو وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ كَاذِبُونَ﴾ في قولهم ودعواهم، وأن ذلك ليس بحقيقة منهم.

(٢) ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ ترسًا يتترسون بها من نسبتهم إلى النفاق ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فصدوا عن سبيله بأنفسهم، وصدوا غيرهم ممن يخفى عليه حالهم ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ حيث أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، وأقسموا على ذلك وأوهموا صدقهم.

(٣) ﴿ذَلِكَ﴾ الذي زين لهم النفاق ﴿بِأَيْمَانِهِمْ﴾ سبب أنهم لا يثبتون على الإيمان بل ﴿ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَغَىٰ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ بحيث لا يدخلها الخير أبدًا ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ما ينفعهم، ولا يعون ما يعود بمصالحهم.

(٤) ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ من روائها ونضارتها ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ من حسن منطقهم تستلذ لاستماعه، فأجسامهم وأقوالهم معجبة، ولكن ليس وراء ذلك من الأخلاق الفاضلة والهدى الصالح شيء ﴿كَانَتْهُمْ حُسْبٌ مُّسْنَدَةٌ﴾ لا منفعة فيها، ولا ينال منها إلا الضرر المحض ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ وذلك لجبنهم وفزعهم وضعف قلوبهم، والريب الذي في

تخطب الناس؛ وذلك في يوم جمعة بينما النبي ﷺ يخطب الناس، إذ قدم المدينة غير تحمل تجارة، فلما سمع الناس بها وهم في المسجد، انفضوا من المسجد، وتركوا النبي ﷺ يخطب؛ استعجالاً لما لا ينبغي أن يستعجل له، وترك أدب ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من الأجر والثواب، لمن لازم الخير وصبر نفسه على عبادة الله ﴿خَيْرٌ مِنَ اللَّهِو وَمِنَ الْبَخْرَةِ﴾ التي وإن حصل منها بعض المقاصد، فإن ذلك قليل منغص، مفوت لخير الآخرة ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ وليس الصبر على طاعة الله مفوتاً للرزق، فإن الله خير الرازقين، فمن اتقى الله رزقه من حيث لا يحتسب.

سورة المنافقين [وهي مدنية]

(١) ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ وهذه الشهادة من المنافقين على وجه الكذب والنفاق، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ مع أنه لا حاجة لشهادتهم في تأييد رسوله،

سورة المنافقين

(١ - ٨) أخرج الشيخان عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: كنت في غزاة، فسمعت عبد الله بن أبي يقول: لا تفقوا على من عند رسول الله؛ حتى ينفضوا من حوله، ولئن رجعنا ليخرجن الأعز منها الأذل، فذكرت ذلك لعمي، أو لعمر فذكره للنبي ﷺ؛ فدعاني؛ فحدثته؛ فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبي وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فكذبني رسول الله ﷺ وصدقه، فأصابني هم لم يصبني مثله قط، فجلست في البيت، فقال لي عمي: ما أردت إلى أن كذبت رسول الله ﷺ ومقتك. فأنزل الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ فبعث إلي النبي ﷺ فقراً، فقال: «إن الله قد صدقك يا زيد».

(٣) في «الصحيحين» عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «وكل الله بالرحم ملكاً؛ فيقول: أي رب نطفة، أي رب علفة أي رب مضغة، فإذا أراد الله أن يقضي خلقها قال: يا رب أذكر أم أنثى أشقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب كذلك في بطن أمه».

قلوبهم يخافون أن يطلع عليهم، فهؤلاء ﴿هُرُّ الْعَدُوِّ﴾ على الحقيقة؛ لأن العدو البارز المتميز أهون من العدو الذي لا يشعر به وهو مخادع ماكر يزعم أنه ولي وهو العدو المبين ﴿فَأَحْذَرُهُمْ فَتَلَهُمُ اللَّهُ أَفَى يُؤَفِّكُونَ﴾ كيف يصرفون عن الدين الإسلامي بعد ما تبينت أدلته، واتضحت معالمه، إلى الكفر الذي لا يفيدهم إلا الخسار والشقاء.

(٥) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُوَالَّذِينَ الْمُنَافِقِينَ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ عما صدر منكم لتحسن أحوالكم، وتقبل أعمالكم، امتنعوا من ذلك أشد الامتناع و﴿لَوْوَا زُرُّوسَهُمْ﴾ امتناعاً من طلب الدعاء من الرسول ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ عن الحق بغضاً له ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ عن اتباعه بغياً وعناداً، فهذه حالهم عندما يدعون إلى طلب الدعاء من الرسول، وهذا من لطف الله وكرامته لرسوله، حيث لم يأتوا إليه، فيستغفر لهم.

(٦) ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ فإنه سواء استغفر لهم أم لم يستغفر لهم؛ فلن يغفر الله لهم، وذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ لأنهم قوم فاسقون، خارجون عن طاعة الله، مؤثرون للكفر على الإيمان، فلذلك لا ينفع فيهم استغفار الرسول، لو استغفر لهم.

(٧) ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَفْضَحُوا﴾ وهذا من شدة عداوتهم للنبي ﷺ والمسلمين، لما رأوا اجتماع أصحابه وائتلافهم، ومسارعتهم في مرضاة الرسول ﷺ، قالوا بزعمهم الفاسد، لولا أموال المنافقين ونفقاتهم عليهم؛ لما اجتمعوا في نصرة دين الله،

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّارًا وَهُمْ يُرَاتِبَتُهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَفْضَحُوا وَلَهُ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَّا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْغَنَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا أَمْوَالَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا فَتْرَتِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَاصْدَقْ وَ أَكُنْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

وهذا من أعجب العجب أن يدعى هؤلاء المنافقون الذين هم أحرص الناس على خذلان الدين، وأذية المسلمين، مثل هذه الدعوى التي لا تروج إلا على من لا علم له بحقائق الأمور؛ ولهذا قال الله ردّاً لقولهم: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فيؤتي الرزق من يشاء، ويمنعه من يشاء، ويسر الأسباب لمن يشاء، ويعسرهما على من يشاء ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ فلذلك قالوا تلك المقالة، التي مضمونها أن خزائن الرزق في أيديهم، وتحت مشيتهم.

(٨) ﴿يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَّا الْأَذَلَّ﴾ وذلك في غزوة المريسيع، حين صار بين بعض المهاجرين والأنصار بعض كلام كدر الخواطر، ظهر حينئذ نفاق المنافقين، وأظهروا ما في نفوسهم، وقال

الخسارة العظيمة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْهِهْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ للسعادة الأبدية، والنعيم المقيم؛ لأنهم آثروا ما يفنى على ما يبقى. (١٠) ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ يدخل في هذا النفقات الواجبة من الزكاة والكفارات ونفقة الزوجات والمماليك ونحو ذلك، والنفقات المستحبة؛ كبذل المال في جميع المصالح.

فليشكروا الذي أعطاهم بمواساة إخوانهم المحتاجين، وليبادروا بذلك الموت الذي إذا جاء لم يمكن العبد أن يأتي بمثقال ذرة من الخير؛ ولهذا قال: ﴿مَنْ قَبِلَ أَنْ يَأْفِكَ أَحَدَكُمْ أَلَمُوتٌ﴾ فيقول متحسراً على ما فرط في وقت الإمكان، سائلاً الرجعة التي هي محال: ﴿رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ لأتدارك ما فرطت فيه ﴿فَصَدَّقَ﴾ من مالي ما به أنجو من العذاب، وأستحق به جزيل الثواب ﴿وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ بأداء المأمورات كلها، واجتناب المنهيات، ويدخل في هذا الحج وغيره، وهذا السؤال والتمني قد فات وقته، ولا يمكن تداركه.

(١١) ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ المحتوم لها ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر، فيجازيكم على ما علمه منكم من النيات والأعمال.

سورة التغابن [وهي مكية]



كبيرهم بزعمه أنه هو وإخوانه من المنافقين الأعززون، وأن رسول الله ومن معه هم الأذلون، والأمر بعكس ما قال هذا المنافق، ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فهم الأعزاء، والمنافقون وإخوانهم من الكفار هم الأذلاء ﴿وَلَكِنَّ الْمُتَّقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك؛ فلذلك زعموا أنهم الأعزاء اغتراراً بما هم عليه من الباطل.

(٩) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَزْوَاجُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ يأمر -تعالى- عباده المؤمنين بالإكثار من ذكره؛ فإن في ذلك الربح والفلاح، والخيرات الكثيرة، وبيناهم أن تشغلهم أموالهم وأولادهم عن ذكره؛ فإن محبة المال والأولاد مجبولة عليها أكثر النفوس، فتقدمها على محبة الله، وفي ذلك

(١) ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ذكر كمال ألوهيته -تعالى- وسعة غناه، وافتقار

(٥) ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهمْ﴾ أخبر بما فعل بالأُمم السابقين، والقرون الماضية الذين لم تزل أنباؤهم يتحدث بها المتأخرون، ويخبر بها الصادقون، وأنهم حين جاءتهم الرسل بالحق، كذبوهم وعاندوهم، فأذاقهم الله وبال أمرهم في الدنيا، وأخزاهم فيها ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدار الآخرة.

(٦) ﴿ذَلِكَ﴾ النكال والوبال الذي أحلله الله بهم ﴿بِأَنَّهُ كَانَ تَآلِهُمُ رُسُلُهُم بِالْيَتَنَتِ﴾ بالآيات الواضحات الدالة على الحق والباطل، فاشمأزوا واستكبروا على رسلهم ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ فليس لهم فضل علينا، ولأي شيء خصهم الله دوننا ﴿فَكَفَرُوا﴾ بالله ﴿وَوَلَّوْا﴾ عن طاعة الله، ﴿وَأَسْتَعْنَى اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ فلا يبالي بهم، ولا يضره ضلالهم شيئاً ﴿وَاللَّهُ غَفِيٌّ﴾ الذي له الغنى التام المطلق، من جميع الوجوه ﴿حَمِيدٌ﴾ في أقواله وأفعاله وأوصافه.

(٧) ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ يخبر - تعالى - عن عناد الكافرين، وزعمهم الباطل، وتكذيبهم بالبعث بغير علم ولا هدى ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُعَذِّبُنَّ ثُمَّ لَنُنَبِّئَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ فأمر أشرف خلقه: أن يقسم بربه على بعثهم، وجزائهم بأعمالهم الخبيثة، وتكذيبهم بالحق ﴿وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ بعثكم ومجازاتكم.

(٨) ﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ رُسُلِهِ وَالتَّوْرَ الَّذِينَ أَنْزَلْنَاهُ﴾ يعني: القرآن ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيجازيكم بأعمالكم الصالحة والسيئة.

(٩) ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ يعني: اذكروا يوم الجمع الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين، يوقفهم موقفاً هائلاً عظيماً، وينبئهم

جميع الخلائق إليه، وتسبيح من في السماوات والأرض بحمد ربها ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ وأن الملك كله لله، فلا يخرج مخلوق عن ملكه، والحمد كله له، حمد على ما له من صفات الكمال، وحمد على ما أوجده من الأشياء، وحمد على ما شرعه من الأحكام ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقدرته شاملة، لا يخرج عنها موجود، فلا يعجزه شيء يريد.

(٢) ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِرْتُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ ذكر أنه خلق العباد، وجعل منهم المؤمن والكافر، فإيمانهم وكفرهم كله بقضاء الله وقدره، وهو الذي شاء ذلك منهم، بأن جعل لهم قدرة وإرادة، بها يتمكنون من كل ما يريدون من الأمر والنهي ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ البصير بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلال.

(٣) ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أجرامهما وجميع ما فيهما، فأحسن خلقهما ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالحكمة، والغاية المقصودة له تعالى ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ فالإنسان أحسن المخلوقات صورة، وأبهاها منظراً ﴿وَالْيَتِيهِ الْمَصِيرُ﴾ المرجع يوم القيامة، فيجازيكم على إيمانكم وكفركم، ويسألكم عن النعم والنعيم الذي أولاكموه.

(٤) ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من السرائر والظواهر، والغيب والشهادة ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُنَبِّئُونَ﴾ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿بما فيها من الأسرار الطيبة، والخبايا الخبيثة، والنيات الصالحة، والمقاصد الفاسدة.

بها من غير مستند شرعي ولا عقلي؛ بل جاءتهم الأدلة والبيانات فكذبوا بها، وعاندوا ما دلت عليه ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ لأنها جمعت كل بؤس وشدة، وشقاء وعذاب.

(١١) ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ هذا عامٌ لجميع المصائب، في النفس، والمال، والولد، والأحباب، ونحوهم، فجميع ما أصاب العباد فبقضاء الله وقدره ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ فإذا آمن أنها من عند الله، فرضي بذلك، وسلم لأمره، هدى الله قلبه، فاطمأن ولم ينزعج عند المصائب، فيحصل له بذلك ثواب عاجل، مع ما يدخر الله له يوم الجزاء من الثواب ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فلا يخفى عليه شيء فلا يحدث حدث في الكون إلا بعلمه وإذنه.

(١٢) ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ في امتثال أمرهما، واجتناب نهيهما، فإن طاعة الله وطاعة رسوله مدار السعادة وعنوان الفلاح ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن طاعة الله وطاعة رسوله ﴿فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ يبلغكم ما أرسل به إليكم، بلاغاً يبين لكم ويتضح، وتقوم عليكم به الحجة، وليس بيده من هدايتكم، ولا من حسابكم من شيء.

(١٣) ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ هو المستحق للعبادة والألوهية، فكل معبود سواه فباطل ﴿وَكُلُّ اللَّهِ قَلْبًا وَكُلُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فيلتمدوا عليه في كل أمر نابهم، وفيما يريدون القيام به.

(١٤) ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِتٍ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأُولَدِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ﴾ هذا تحذير من الله



بما عملوا، فحينئذ يظهر الفرق والتفاوت بين الخلائق ﴿ذَلِكَ يَوْمُ النَّعَابِ﴾ يظهر فيه التغابن والتفاوت بين الخلائق، ويغيب المؤمنون الفاسقين، ويعرف المجرمون أنهم على غير شيء، وأنهم هم الخاسرون ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ أيماً تاماً، شاملاً لجميع ما أمر الله بالإيمان به ﴿وَيَعْمَلْ صَالِحًا﴾ من الفرائض والنوافل، ومن أداء حقوق الله وحقوق عباده ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، وتختاره الأرواح، وتحن إليه القلوب، ويكون نهاية كل مرغوب ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ تكفيره تعالى عنهم سيئاتهم وإدخالهم جنات تجري من تحتها الأنهار هو الفوز العظيم.

(١٥) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ كفروا

والمستحبة ﴿حَيْرًا لَأَنْفُسِكُمْ﴾ يكن ذلك الفعل منكم خيراً لكم في الدنيا والآخرة ﴿وَمَنْ يُوقِ شَعْنَهُ نَفْسِهِ﴾ فمن وقاه الله شر شح نفسه؛ بأن سمحت نفسه بالإنفاق النافع لها ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾؛ لأنهم أدركوا المطلوب، ونجوا من المرهوب.

(١٧) ﴿إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وهو كل نفقة كانت من الحلال، إذا قصد بها العبد وجه الله تعالى وطلب مرضاته، ووضعها في موضعها ﴿يُضْعِفُهُ لَكُمْ﴾ النفقة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ﴿وَوَ﴾ مع المضاعفة أيضاً ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ بسبب الإنفاق والصدقة ذنوبكم؛ فإن الذنوب يكفرها الله بالصدقات والحسنات ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ﴾ يقبل من عباده اليسير من العمل، ويجازيهم عليه الكثير من الأجر ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل في عصاه، بل يمهله ولا يهمله.

(١٨) ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ ما غاب عن العباد من الجنود التي لا يعلمها إلا هو، وما يشاهدونه من المخلوقات ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالب ولا يمانع، الذي قهر كل الأشياء ﴿الْحَكِيمُ﴾ في خلقه وأمره، الذي يضع الأشياء مواضعها.

للمؤمنين من الاغترار بالأزواج والأولاد، فإن بعضهم عدو لكم، والعدو هو الذي يريد لك الشر، فنصح تعالى عباده أن توجب لهم هذه المحبة الانقياد لمطالب الأزواج والأولاد، ولو كان فيها ما فيها من المحذور الشرعي، ورغبتهم في امتثال أوامره وتقديم مرضاته بما عنده من الأجر العظيم ﴿فَأَحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا﴾ أمر تعالى بالحدز منهم، والصفح عنهم والعفو، فإن في ذلك من المصالح ما لا يمكن حصره ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لأن الجزاء من جنس العمل، فمن عفا عفا الله عنه، ومن صفح صفح الله عنه، ومن غفر غفر الله له.

(١٥) ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ إختبار وإبتلاء ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ﴾ يوم القيامة ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

(١٦) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ يأمر تعالى بتقواه التي هي امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، ويقيد ذلك بالاستطاعة والقدرة ﴿وَأَسْمَعُوا﴾ اسمعوا ما يعظكم الله به، وما يشرعه لكم من الأحكام، واعلموا ذلك وانقادوا له ﴿وَأَطِيعُوا﴾ الله ورسوله في جميع أموركم ﴿وَأَنْفِقُوا﴾ من النفقات الشرعية الواجبة

(١٤) أخرج الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه بإسناد صحيح عن بريدة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يخطب، فجاء الحسن والحسين عليهما السلام قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه، ثم قال: «صدق الله ورسوله ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أجد حتى قطعت حديثي ورفعتهما».

(١٦) في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه».

غير مراعاة لأمر الله. ﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾ لأجل عدتهن بأن يطلقها زوجها وهي طاهر، في طهر لم يجامعها فيه، ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ وأمر تعالى بإحصاء العدة؛ أي: ضبطها بالحيض إن كانت تحيض، أو بالأشهر إن لم تكن تحيض، وليست حاملاً ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ في جميع أموركم، وخافوه في حق الزوجات المطلقات ﴿لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ مدة العدة، بل يلزمن بيوتهن الذي طلقها زوجها وهي فيها. ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ لا يجوز لهن الخروج منها، أما النهي عن إخراجها؛ فلأن المسكن يجب على الزوج للزوجة، لتكمل فيه عدتها التي هي حق من حقوقه، وأما النهي عن خروجها؛ فلما في خروجها من إضاعة حق الزوج وعدم صونه. ويستمر هذا النهي عن الخروج من البيوت، والإخراج إلى تمام العدة ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ بأمر قبيح واضح، موجب لإخراجها، وهذا في المعتدة الرجعية، وأما البائن، فليس لها سكنى واجبة؛ لأن السكن تبع للنفقة، والنفقة تجب للرجعية دون البائن ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ التي حددها لعباده وشرعها لهم، وأمرهم بلزومها، والوقوف معها ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ﴾ بأن لم يقف معها؛ بل تجاوزها، أو قصر عنها ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ بخسها حظها، وأضاع نصيبه من

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِقُوهُنَّ لِِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهُ يُخَذِّبُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ۝١ فَإِذَا بَلَغَ أَحْلَاهُنَّ فَأُمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْزُقُوهُنَّ مِمَّا كَانَتْ يَوْمَئِذٍ مُنْزِلَةً بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَبِرِزْقِهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۝٣ وَإِنَّ اللَّهَ لَبَلِغٌ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝٤ وَالَّتِي يَسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُنَّ إِنْ أَرَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحِيضْنَ وَأُولَتْ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ۝٥ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْنَا وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۝٦ وَيَعْظُمَ لَهُ أَجْرًا ۝٧

الطلاق

[وهي مدنية]

(١) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ خاطب النبي ﷺ أولاً تشريعاً وتكريماً، ثم خاطب الأمة تبعاً، فقال: ﴿إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ أردتم طلاقهن ﴿فَطَلِقُوهُنَّ﴾ فالتمسوا لطلاقهن الأمر المشروع، ولا تبادروا بالطلاق من حين يوجد سببه، من

سورة الطلاق

(١) أخرج الشيخان عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه: أنه طلق امرأة له وهي حائض، فذكر عمر ذلك لرسول الله ﷺ؛ فتغيظ فيه رسول الله ﷺ ثم قال: «ليراجعها ثم ليمسكها حتى تطهر، ثم تحيض فطهر، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسه، فتلك العدة التي أمر الله ﷻ».

واليوم الآخر يوجب له ذلك أن يتعظ بمواعظ الله، وأن يقدم لآخرته من الأعمال الصالحة ما يتمكن منها ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ ولما كان الطلاق قد يوقع في الضيق والكرب والغم، أمر تعالى بتقواه، وأن من اتقاه في الطلاق وغيره؛ فإن الله يجعل له فرجًا ومخرجًا.

(٣) ﴿وَبَرِّزْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ يسوق الله الرزق للمتقي، من وجه لا يحتسبه ولا يشعر به ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في أمر دينه ودنياه، بأن يعتمد على الله في جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، ويشق به في تسهيل ذلك ﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ كافيته الأمر الذي توكل عليه به، ولكن ربما أن الحكمة الإلهية اقتضت تأخيره إلى الوقت المناسب له؛ فلهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ﴾ لا بد من نفوذ قضائه وقدره، ولكنه ﴿فَدَّ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ وقتًا ومقدارًا، لا يتعداه ولا يقصر عنه.

(٤) ﴿وَالَّتِي يَسْنَ مِنَ الْمَجِصِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبَعْتُمْ﴾ بأن كن يحضن ثم ارتفع حيضهن؛ لكبر

اتباع حدود الله التي هي الصلاح في الدنيا والآخرة ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُخْدِثْ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ أنه لعل الله يحدث في قلب المطلق الرحمة والمودة، فيراجع من طلقها. ومن الحكم: أنها مدة التربص، يعلم براءة رحمها من زوجها.

(٢) ﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ﴾ إذا قاربن انقضاء العدة ﴿فَانكِسُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ على وجه المعاشرة الحسنة، والصحبة الجميلة، لا على وجه الضرار ﴿أَوْ فَارْقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ فراقًا لا محذور فيه، من غير تشاتم ولا تخاصم، ولا قهر لها على أخذ شيء من مالها ﴿وَأَشْهَدُوا﴾ على طلاقها ورجعتها ﴿ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ رجلين مسلمين عدلين ﴿وَأَقِيمُوا﴾ أيها الشهداء ﴿الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ اتوا بها على وجهها، من غير زيادة ولا نقص، واقصدوا بإقامتها وجه الله وحده ولا تراعوا بها قريبًا لقربته، ولا صاحبًا لمحبتة ﴿ذَلِكَكُمْ﴾ الذي ذكرنا لكم من الأحكام والحدود ﴿يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فإن من يؤمن بالله

(٢) أخرج أبو داود وابن ماجه بإسناد جيد عن عمران بن حصين رضي الله عنه سئل عن الرجل يطلق امرأته ثم يقع، ولم يشهد على طلاقها ولا على رجعتها، فقال: طلقت لغير سنة ورجعت لغير سنة، وأشهد على طلاقها وعلى رجعتها ولا تعد.

(٣) أخرج أحمد والطبراني في «الكبير» والبيهقي بإسناد حسن عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «من نزل به حاجة؛ فأنزلها بالناس، كان قمنًا ألا تسهل حاجته، ومن أنزلها بالله، أتاه الله برزق عاجل أو بموت أجل».

(٤) أخرج البخاري - واللفظ له - ومسلم عن أبي سلمة قال: جاء رجل إلى ابن عباس وأبو هريرة جالس فقال: أفتني في امرأة ولدت بعد زوجها بأربعين ليلة، فقال ابن عباس: آخر الأجلين. قلت أنا: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعَنَّ حَمْلَهُنَّ﴾ قال أبو هريرة: أنا مع ابن أخي - يعني: أبا سلمة - فأرسل ابن عباس غلامه كريبًا إلى أم سلمة يسألها؛ فقالت: قتل زوج سبعة الأسلمية وهي حبلى؛ فوضعت بعد موته بأربعين ليلة، فخطبت؛ فأنكحها رسول الله ﷺ، وكان أبو السنايل فيمن خطبها. وأخرج البخاري والنسائي - واللفظ له - عن محمد بن سيرين قال: كنت في حلقة فيها عبد الرحمن بن أبي ليلى رضي الله عنه. وكان أصحابه يعظمونه، فذكر آخر الأجلين، فحدثت بحديث سبعة بنت الحارث عن عبد الله بن عتبة. قال: فَضَمَّرَ لي بعض

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ من اتقى الله - تعالى -، يسر له الأمور، وسهل عليه كل عسير.

(٥) ﴿ذَلِكَ﴾ الحكم الذي بينه الله لكم ﴿أَمَرَ اللَّهُ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ لتمشوا عليه، وتأتوا وتقوموا به وتعظموه ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ يَسْرًا﴾ ويندفع عنه المحذور، ويحصل له المطلوب.

(٦) ﴿أَشْكُوهُمْ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ دُونِكُمْ﴾ أمر بإسكانهم، وقدر الإسكان بالمعروف، وهو البيت الذي يسكنه مثله ومثلها، بحسب وجد الزوج وعسره ﴿وَلَا تَضَارُّوهُمْ لَصِيفُوا عَلَيْهِمْ﴾ لا تضاروهن عند سكنانهن بالقول أو الفعل؛ لأجل أن يملن، فيخرجن من البيوت قبل تمام العدة، فتكونوا أنتم المخرجين لهن، وحاصل هذا: أنه نهى عن إخراجهن، ونهاهن عن الخروج، وأمر بسكنانهن على وجه لا يحصل به عليهن ضرر ولا مشقة، وذلك راجع إلى العرف ﴿وَإِنْ كُنَّ الْمُطْلَقَاتُ أَزْوَاجًا فَلْيُفْقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ وذلك لأجل الحمل الذي في بطنها، إن كانت بائناً، ولها ولحملها إن كانت رجعية، ومنتهى النفقة حتى يضعن حملهن؛ فإذا وضعن حملهن، فإما أن يرضعن أولادهن أو لا؛ ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَافْقُوا أَجُورَهُنَّ﴾ المسماة لهن، إن كان مسمى، وإلا فأجر المثل ﴿وَأْتَمِرُوا بِتَكْمٍ مَعْرُوفٍ﴾

لَا تَكُونُوا مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ دُونِكُمْ وَلَا تَضَارُّوهُمْ لَصِيفُوا عَلَيْهِمْ وَإِنْ كُنَّ أَزْوَاجًا فَلْيُفْقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَافْقُوا أَجُورَهُنَّ وَأَتَمِرُوا بِتَكْمٍ مَعْرُوفٍ وَإِنْ تَمَاسَرْتُمْ فَسُدِّعُوا لَهُ أَمْرًا ۚ لِيَفْقَ دُونَهُ مِنْ سَعْيِهِ ۚ وَمَنْ قَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَلْيَفْقَ مَعَهُ ۚ إِنَّهُ لَا يَكْفِي اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً ۚ إِنَّهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۚ وَكَانَ مِنْ قَرِيبٍ عَنَّتْ عَنْ أَمْرِ رَسُولِهِ ۚ فَحَاسِبْنَهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذِّبْنَهَا عَذَابًا ثَقِيلًا ۚ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۚ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۚ فَاتَّقُوا اللَّهَ تَأُولَى الْآلِيبِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْنَا ذِكْرًا ۚ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِكُمْ آيَاتِ اللَّهِ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَعَمِلْ صَالِحًا فَلْهُ جَنَّتْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ الَّذِينَ فِيهَا أَقْبَدَ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُمْ رِزْقًا ۚ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْثَرُ بِهِنَّ لِيَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ

أو غيره، ولم يرج رجوعه ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ﴾ فإن عدتها ثلاثة أشهر، جعل لكل شهر مقابلة حيضة ﴿وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ﴾ الصغار اللاتي لم يأتين الحيض بعد، و البالغات اللاتي لم يأتين حيض بالكلية، فإنهن كالأيسات، عدتهن ثلاثة أشهر، وأما اللاتي يحضن، فذكر الله عدتهن في قوله: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرْصِدْنَ بِنَفْسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ وقوله: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ﴾ عدتهن ﴿أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ جميع ما في بطونهن، من واحد ومتعدد، ولا عبرة حينئذ بالأشهر ولا غيرها

أصحابه. وقال محمد: ففطنت له، فقلت له: إني لجريء أن أكذب على عبد الله - وهو في ناحية الكوفة-، قال: فاستجبا وقال: لكن عمه لم يقل ذلك. فقلت أبا عطية مالك بن عامر، فسأله فذهب يحدثني بحديث سبعة فقلت: هل سمعت عن عبد الله فيها شيئاً، فقال: كنا عند عبد الله فقال: أتجعلون عليها التغليظ، ولا تجعلون عليها الرخصة؟ نزلت سورة النساء القصص بعد الطولي: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾.

شديدا ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يا ذوي العقول التي تفهم عن الله آياته وعبره، فإن الذي أهلك القرون الماضية بتكذيبهم، قادر على أن يعذب من بعدهم مثلهم إن هم كذبوا، لا فرق بين الطائفتين ﴿قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ ذكر الله عبادہ المؤمنين بما أنزل عليهم من كتابه، الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ.

(١١) ﴿رَسُولًا﴾ الرسول ﷺ مبين للذكر، ومفسر له ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ في حال كونها بينة واضحة جلية ﴿لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ ليخرج الخلق من ظلمات الكفر والجهل والمعصية إلى نور العلم والإيمان والطاعة، فمن الناس: من آمن به، ومنهم من لم يؤمن به، ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا﴾ من الواجبات والمستحبات ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُمْ رِزْقًا﴾ فيها من النعيم المقيم، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

(١٢) ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أخبر تعالى أنه خلق الخلق من السماوات السبع ومن فيهن والأرضين السبع ومن فيهن وما بينهما ﴿يَنَزِّلُ الْأَمْْرَ بَيْنَهُنَّ﴾ أنزل الأمر، وهو الشرائع والأحكام الدينية التي أوحاها إلى رسله، لتذكير العباد ووعظهم، وكذلك الأوامر الكونية والقدرية

وليأمر كل واحد من الزوجين ومن غيرهما الآخر بالمعروف، وهو كل ما فيه منفعة ومصلحة في الدنيا والآخرة ﴿وَإِنْ تَعَايَرْتُمْ﴾ بأن لم يتفقوا على إرضاعها لولدها ﴿فَسَرِّضْ لَهُ أُخْرَى﴾ فلترضع له أخرى غيرها.

(٧) ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾ لينفق الغني من غناه، فلا ينفق نفقة الفقراء ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ ضيق عليه ﴿فَلْيُنْفِقْ مِمَّا ءَاتَاهُ اللَّهُ﴾ من الرزق ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَّا ءَاتَاهَا﴾ وهذا مناسب للحكمة والرحمة الإلهية، حيث جعل كلا بحسبه، وخفف عن المعسر، وأنه لا يكلفه إلا ما آتاه، فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها، في باب النفقة وغيرها ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ وهذه بشارة للمعسرين أن الله تعالى سيزيل عنهم الشدة، ويرفع عنهم المشقة.

(٨) يخبر تعالى عن إهلاكه الأمم العاتية، والقرون المكذبة للرسول فقال: ﴿وَكَايْنٍ مِّن قُرَيْشٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾ تمردت وطمغت واستكبرت عن إتباع أمر الله ومتابعة رسله ﴿فَحَاسَبُنَهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذِبْنَهَا عَذَابًا نَّكَرًا﴾ منكرًا فظيعا.

(٩) ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ غب مخالفتها ﴿وَكَانَ عَقِبُهَا أَمْرًا حُرًّا﴾ وندموا حيث لا ينفعهم الندم.

(١٠) ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أذاقهم الله من العذاب ما هو موجب أعمالهم السيئة، ومع عذاب الدنيا؛ فإن الله أعد لهم في الآخرة عذابا

(٧) أخرج الإمام أحمد بإسناد حسن لغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: دخل رجل على أهله، فلما رأى ما بهم من الحاجة خرج إلى البرية، فلما رأت امرأته قامت إلى الرحي فوضعتها، وإلى التنور سجرته، ثم قالت: اللهم ارزقنا. فنظرت؛ فإذا الجفنة قد امتلأت، قال: وذهبت إلى التنور فوجدته ممتلئا، قال فرجع الزوج، فقال: أصبتم بعدي شيئا؟ قالت امرأته: نعم، من ربنا، فقام إلى الرحي. فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «أما إنه لو لم يرفعها لم تزل تدور إلى اليوم القيامة».

(١٢) أخرج الشيخان من حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ: «من ظلم قيد شبر من الأرض طوّفه من سبع أرضين».

الامر والنهي .

سورة التحريم [وهي مدنية]

(١) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ يا أيها الذي أنعم الله عليه بالنبوة والوحي والرسالة ﴿لَمْ تُحَرِّمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ من الطيبات التي أنعم الله بها عليك وعلى أمتك .

﴿تَبَغَّى﴾ بذلك التحريم ﴿مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهِ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هذا تصريح بأن الله قد غفر لرسوله، ورفع عنه اللوم، ورحمه، وصار ذلك التحريم الصادر منه سبباً لشرع حكم عام لجميع الأمة، فقال تعالى حاكماً حكماً عاماً في جميع الأيمان:

(٢) ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ قد شرع لكم، وقدر ما به تنحل أيمانكم قبل الحنث، وما به الكفارة بعد الحنث ﴿وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ متولي أموركم، ومربيكم أحسن تربية في أمور دينكم ودنياكم، وما به يندفع عنكم الشر، فلذلك فرض لكم تحلة أيمانكم؛ لتبرأ ذممكم ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ﴾ الذي أحاط علمه بظواهركم وبواطنكم، وهو



التي يدبر بها الخلق، ﴿لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ كل ذلك لأجل أن يعرفه العباد ويعلموا إحاطة قدرته بالأشياء كلها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ وأحاط علمه بجميع الأشياء؛ فإذا عرفوه بأوصافه المقدسة وأسمائه الحسنى وعبدوه وأحبوه وقاموا بحقه، ثى فهذه الغاية المقصودة في

سورة التحريم

(١) أخرج الشيخان عن عائشة رضي الله عنها؛ قالت: كان رسول الله ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ويمكث عندها، فواطأت أنا وحفصة عن أيتنا دخل عليها؛ فلتقل له: أكلت مغافير؟ إني أجد منك ريح مغافير، قال: «لا ولكنني كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش فلن أعود له، وقد حلفت لا تخبري بذلك أحداً». وأخرج النسائي والحاكم بإسناد صحيح عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرّما على نفسه؛ فأنزل الله ﻋَﻠَﻴْﻬِﻤَا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَغَّى مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

(٢) أخرج الهيثم بن كليب في «مسنده» ومن طريقه الضياء في «المختارة» بإسناد صحيح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ قال: قال النبي ﷺ لحفصة: «لا تخبري أحداً، وإن أم إبراهيم علي حرام»؛ فقالت: أتحرّم ما أحل الله لك؟ قال: «فوالله لا أفرّبها»، قال: فلم يقربها حتى أخبرت عائشة، قال: فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ .

﴿الْحَكِيمُ﴾ في جميع ما خلقه وحكم به؛ فلذلك شرع لكم من الأحكام ما يعلم أنه موافق لمصالحكم ومناسب لأحوالكم.

(٣) ﴿وَإِذْ أَسْرَ الْأَنْثَىٰ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ قال كثير من المفسرين: هي حفصة أم المؤمنين ؓ أسر لها النبي ﷺ حديثاً، وأمر أن لا تخبر به أحداً، فحدثت به عائشة ؓ، وأخبره الله بذلك الخبر الذي أذاعته، فعرفها ﷺ ببعض ما قالت، وأعرض عن بعضه، كرمًا منه ﷺ وحلمًا، فـ ﴿قَالَتْ﴾ له: ﴿مَنْ أَبْنَاكَ هَذَا﴾ الخبر الذي لم يخرج منا؟ ﴿قَالَ بَنَاتِي الْعَلِيمُ الْخَيْرُ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية، يعلم السر وأخفى.

(٤) ﴿إِنْ نُبَوَّأَ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ الخطاب للزوجتين الكريمتين من أزواجه ﷺ عائشة وحفصة ؓ، كانتا سببًا لتحريم النبي ﷺ على نفسه ما يحبه، فعرض الله عليهما التوبة، وعاتبهما على ذلك، وأخبرهما أن قلوبهما قد صغت أي: مالت وانحرفت عما ينبغي لهن من

الورع والأدب مع الرسول ﷺ واحترامه، وأن لا يشققن عليه ﴿وَإِنْ تَطَهَّرَا عَلَيْهِ﴾ تعاونا على ما يشق عليه، ويستمر هذا الأمر منكن ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةِ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ الجميع أعوان للرسول ﷺ ومظاهرون، ومن كان هؤلاء أعوانه فهو المنصور، وغيره ممن يناوئه مخذول.

(٥) ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ﴾ فلا ترفعن عليه، فإنه لو طلقكن، لم يضق عليه الأمر، ولم يكن مضطرًا إليكن، فإنه سيلقى ويبدله الله أزواجًا خيرًا منكن، دينا وجمالًا، وهذا من باب التعليق الذي لم يوجد؛ ولا يلزم وجوده؛ فإنه ما طلقهن ﴿مُسَلِّمَاتٍ﴾ وهو القيام بالشرائع الظاهرة ﴿مُؤْمِنَاتٍ﴾ وهو القيام بالشرائع الباطنة من العقائد وأعمال القلوب.

﴿فَبَيَّنْتَ﴾ القنوت هو دوام الطاعة واستمرارها ﴿تَبَيَّنَتْ﴾ عما يكرهه الله، فوصفهن بالقيام

(٤) أخرج الشيخان عن عبد الله بن عباس ؓ قال: لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله تعالى: ﴿إِنْ نُبَوَّأَ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ حتى حج عمر وحجبت معه، فلما كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالإداوة؛ فبرز، ثم أتاني فسكبت على يديه؛ فتوضأ فقلت: يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النبي ﷺ اللتان قال الله تعالى: ﴿إِنْ نُبَوَّأَ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ فقال عمر: وا عجبا لك يا ابن عباس- قال الزهري: كره والله ما سأله ولم يكتمه- قال: هي عائشة وحفصة.

(٥) أخرج الشيخان -واللفظ لمسلم- عن عمر بن الخطاب قال: لما اعتزل نبي الله ﷺ نساءه، وذلك قبل أن يؤمر بالحجاب، فقلت: لأعلمن ذلك اليوم - فذكر الحديث في دخوله على عائشة وحفصة ووعظه إياهما إلى أن قال-: فدخلت فإذا أنا برباح غلام رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله ما يشق عليك من أمر النساء، فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكال وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك، وقلما تكلمت -وأحمد الله بكلام- إلا رجوت أن يكون الله يصدق قولي، فنزلت: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ﴾، ﴿وَإِنْ تَطَهَّرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةِ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ فقلت: أطلقتهن؟ قال: «لا» فقمتم على باب المسجد فنادت بأعلى صوتي: لم يطلق نساءه، ونزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّعَوْا بِهٖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى الْأَمْرِ إِلَيْهِمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر.

بالإيمان، قوموا بلوازمه وشروطه؛ ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ موصوفة بهذه الأوصاف الفظيعة، ووقاية الأنفس بالزامها أمر الله، والقيام بأمره امتثالاً، ونهيه اجتناباً، والتوبة عما يسخط الله ويوجب العذاب، ووقاية الأهل والأولاد بتأديبهم وتعليمهم، وإجبارهم على أمر الله ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْجَارَةُ﴾ خطبها الذي يلقي فيها ﴿عَلَيْهَا مَلَكُةٌ غُلَظٌ شَدَادٌ﴾ غليظة أخلاقهم، عظيم انتهارهم، يفرعون بأصواتهم، ويخيفون بمرآهم، ويهينون أصحاب النار بقوتهم، ويمثلون فيهم أمر الله الذي حتم عليهم العذاب، وأوجب عليهم شدة العقاب ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ وهذا فيه -أيضاً- مدح للملائكة الكرام، وانقيادهم لأمر الله، وطاعتهم له في كل ما أمرهم به.

(٧) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْدُوا الْيَوْمَ﴾ فإنه ذهب وقت الاعتذار، وزال نفعه ﴿إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فلم يبق الآن إلا الجزاء على الأعمال، وأنتم لم تقدموا إلا الكفر بالله، والتكذيب بآياته، ومحاربة رسله وأوليائه.

(٨) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم مِّنْ تَحَنُّنِهِمُ الْآنَ نَهْرِيَوْمَ لَا يَحْزَنُ اللَّهُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَهُمْ يَقْتُلُونَ وَيَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَأْمُرُهُمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَنْتُمْ تَأْتُونَنَا وَأَغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبَشَ الْبَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتُ نُوحٍ وَامْرَأَتُ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِّنْ عِبَادٍ قَاصِدِلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغَيِّرْ عَنَّهُمَا مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَفِيلَ آدَمُ الْخَالِجِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِّنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِّنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمُ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنَ الْقَنِينِ ﴿١٢﴾

بما يحبه الله، والتوبة عما يكرهه الله ﴿تَنَبَّتِ وَأَبْكَارًا﴾ بعضهن ثيب، وبعضهن أبكار؛ ليتنوع فيهما يحب، فلما سمعن -رضي الله عنهن- هذا التخويف والتأديب، بادرن إلى رضا رسول الله ﷺ، فكان هذا الوصف منطبقاً عليهن، فصرن أفضل نساء المؤمنين.

(٦) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يا مَنْ مِّنَ اللَّهِ عليهم

(٦) أخرج أبو داود والترمذي وأحمد بإسناد صحيح لغيره، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، قال: قال رسول الله ﷺ: «مروا الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سنين، فإذا بلغ عشر سنين، فاضربوه عليها».

(٨) أخرج أحمد وابن ماجه والحاكم بإسناد صحيح عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سمعت النبي ﷺ يقول: «الندم توبة». وأخرج الإمام أحمد بإسناد صحيح: عن جبير بن نفير أنه سمع أبا ذر وأبا الدرداء رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول من يؤذن له في السجود يوم القيامة، وأول من يؤذن له برفع رأسه، فأنظر بين يدي فأعرف أمتي من بين الأمم، وأنظر عن يميني فأعرف أمتي من بين الأمم، وأنظر عن شمالي فأعرف أمتي من بين الأمم» فقال رجل يا رسول الله، وكيف تعرف أمتك من بين الأمم؟ قال: «غر محجلون من آثار الطهور، ولا يكون أحد من الأمم. كذلك غيرهم، وأعرفهم يؤتون كتابهم بأيمانهم، وأعرفهم بسيماهم في وجوههم من أثر السجود، وأعرفهم بنورهم يسعى بين أيديهم».

نُصُوْحًا ﴿٩﴾ قد أمر الله بالتوبة النصوح في هذه الآية، والمراد بها التوبة العامة الشاملة للذنوب كلها، التي عقدها العبد لله، لا يريد بها إلا وجهه والقرب منه، ويستمر عليها في جميع أحواله، ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَكْفِرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ووعد عليها بتكفير السيئات، ودخول الجنات، والفوز والفلاح ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾؛ أي: لا يخزيهم معه يوم القيامة ﴿وَرُؤُسُهُمْ يَنْسَوْنَ أَيْدِيَهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ﴾ حين يسعى المؤمنون يوم القيامة بنور إيمانهم، ويمشون بضيائه، ويتمتعون بروحه وراحته ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتَيْنَا لَكَ تُورَاةً وَأَعْزَزْنَا بِكَ الْفُلُوكَ وَالشَّيْءَ فَعِزُّوا وَيَسْفِقُونَ إِذَا طُفِئَتِ الْأَنْوَارُ، التي لا تعطى المنافقين، ويسألون الله أن يتم لهم نورهم، فيستجيب الله دعوتهم، ويوصلهم ما معهم من النور واليقين إلى جنات النعيم وجوار الرب الكريم، وكل هذا من آثار التوبة النصوح.

(٩) ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ يأمر الله تعالى نبيه ﷺ بجهد الكفار والمنافقين ﴿وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ﴾ والإغلاظ عليهم في ذلك، فالكفار والمنافقون لهم عذاب في الدنيا؛

بتسليط الله لرسوله وحزبه عليهم وعلى جهادهم وقتالهم، وفي الآخرة ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ عذاب النار ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ الذي يصير إليها كل شقي خاسر.

(١٠) ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطَ كَانَتَا مِنَ الْمَرَأَتَيْنِ الَّتِي تَحْتَ عِبَادَتَا صَالِحَيْنِ﴾ وهما نوح و لوط عليهما السلام ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ في الدين؛ بأن كانتا على غير دين زوجيهما ﴿فَلَمَّا يُغْنِيَا﴾ نوح و لوط عليهما السلام ﴿عَنْهُمَا﴾ عن امرأتيهما ﴿مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ لِهُمَا أَدْخِلَا آلَتَاكَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾.

(١١) ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ وهي آسية بنت مزاحم ؑ ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ أَنِّي لِي عِنْدَكَ بَيِّنَاتٌ فِي الْجَنَّةِ﴾ اختارت الجار قبل الدار ﴿وَنَجَّيْتُ مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾ خلصني منه؛ فإنني أبرأ إليك من عمله ﴿وَنَجَّيْتُ مِنَ الْفُورِ الظَّالِمِينَ﴾ فوصفها الله بالإيمان والتضرع لربها، وسؤالها لربها أجل المطالب؛ وهو دخول الجنة، ومجاورة الرب الكريم، وسؤالها أن ينجيها الله من فتنة فرعون وأعماله الخبيثة، ومن فتنة كل ظالم، فاستجاب الله لها.

(١٢) ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَتَ فَرْجَهَا﴾ صانته وحفظته عن الفاحشة؛ لكمال ديانتها،

(١١) أخرج ابن جرير الطبري بإسناد صحيح عن سلمان رضي الله عنه قال: «فكانت امرأة فرعون تعذب في الشمس، فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها في الجنة».

(١٢) أخرج الشيخان عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام». وأخرج أحمد والنسائي والحاكم بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: «خط رسول الله ﷺ في الأرض أربعة خطوط وقال: «أندرون ما هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. فقل رسول الله ﷺ: «أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم ابنة عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون».

سورة الملك [وهي مكية]

(١) ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي﴾ تعظيم وتعالى وكثر خيره، وعم إحسانه ﴿الَّذِي يَبْدُو إِلَهُ الْمَلِكِ﴾ أي: من عظمته أن بيده ملك العالم العلوي والسفلي ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومن عظمته كمال قدرته التي يقدر بها على كل شيء.

(٢) ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ قدر لعباده أن يحييهم ثم يميتهم؛ ﴿يَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أخلصه وأصوبه، وأمرهم ونهاهم، وابتلاهم بالشهوات المعارضة لأمره ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي له العزة كلها، التي فهر بها جميع الأشياء، وانقادت له المخلوقات ﴿الْعَفُورُ﴾ عن المسيئين والمقصرين والمذنبين.

(٣) ﴿الَّذِي خَلَقَ سَعًى سَنَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ كل واحدة فوق الأخرى، وليس طبقة واحدة، وخلقها في غاية الحسن والإتقان ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ﴾ خلل ونقص ﴿فَاتَّجَعَ الْبَصَرُ﴾ أعده إليها، ناظرًا معتبرًا ﴿هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ نقص واختلال.

(٤) ﴿ثُمَّ أَتَّجَعَ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ كثرة التكرار ﴿يَقْلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرَ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ عاجزًا عن أن يرى خللاً أو فطورًا، ولو حرص غاية الحرص.

(٥) ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا﴾ ولقد جمَّلنا ﴿السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ التي ترونها وتليكم ﴿يَمْصُبُّهَا﴾، وهي: النجوم



وعفتها، ونزاهتها ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ بأن نفخ جبريل عليه السلام في جيب درعها، فوصلت نفخته إلى مريم، فجاء منها عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، الرسول الكريم والسيد العظيم. ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا﴾ وهذا وصف لها بالعلم والمعرفة؛ فإن التصديق بكلمات الله، يشمل كلماته الدينية والقدرية، والتصديق بكتبه، يقتضي معرفة ما به يحصل التصديق، ولا يكون ذلك إلا بالعلم والعمل ﴿وَكُنَّا مِنَ الْفَائِزِينَ﴾ المطيعين لله، المداومين على طاعته بخشية وخشوع.

سورة الملك

(١) أخرج أحمد وأصحاب السنن الأربعة بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: «إن سورة في القرآن ثلاثين آية شفعت ل صاحبها حتى غفر له: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي يَبْدُو إِلَهُ الْمَلِكِ وَهُوَ﴾».

﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾ ؛ أي: المصابيح ﴿رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ الشهب التي ترمى من النجوم، أعدّها الله في الدنيا للشیاطین ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ قد أعد الله لهم عذاب السعير.

(٦) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ الذي يهان أهله غاية الهوان.

(٧) ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا﴾ على وجه الإهانة والذل ﴿سَمِعُوا لَهَا شَهيقًا﴾ صوتًا عاليًا فظيعًا ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ تغلي.

(٨) ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ تكاد على اجتماعها أن يفارق بعضها بعضًا، وتقطع من شدة غيظها على الكفار، فما ظنك ما تفعل بهم إذا حصلوا فيها؟ ثم ذكر توبيخ الخزنة لأهلها فقال: ﴿كَلِمًا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ؟﴾ أي: حالكم هذا واستحقاقكم النار، كأنكم لم تحبوا عنها، ولم تحذركم النذر منها.

(٩) ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ فجمعوا بين تكذيبهم الخاص، والتكذيب العام بكل ما أنزل الله، ولم يكفهم ذلك حتى أعلنوا بضلال الرسل المنذرين وهم الهداة المهتدون، ولم يكتفوا بمجرد الضلال، بل جعلوا ضلالهم ضلالاً كبيراً؛ فأبى عناد وتكبر وظلم يشبه هذا؟

(١٠) ﴿وَقَالُوا﴾ معترفين بعدم أهليتهم للهدى والرشاد: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ

الْآلَةِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وَأَسْرُوا قُلُوبَكُمْ وَأَجْهَرُوا أَبْصَارَكُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١﴾ لَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٢﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَاقْشَرُوا فِي مَنَازِكِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٣﴾ أَمِئْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضُ فَإِذَا هِيَ تَنُورُ ﴿١٤﴾ أَمْ أَمِئْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْمَلُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَهوَ يهْدِيهِمْ وَيَفْعِلُ مَا يُؤْمِرُونَ إِلَّا الرِّجْمُ أَتَمَّ بِكُلِّ مَنٍّ بِصِيرٍ ﴿١٧﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكَ يَصْرِفُهُمْ مَن دُونِ الرِّجْمِ إِنَّ الْكَافِرِينَ لَآ فِي عُرْوَةٍ ﴿١٨﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْفَعُكَ إِنْ أَمْسَكَ رِيقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُتْوٍ وَفُورٍ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ يَتَّبِعُ مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَتَّبِعُ سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٠﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢١﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٢﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِنَّمَا أَعْلِمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٤﴾

٥٦٣

السَّعِيرِ﴾ فنفوا عن أنفسهم طرق الهدى، وهي السمع لما أنزل الله، وجاءت به الرسل، والعقل الذي ينفع صاحبه ويوقفه على حقائق الأشياء، وإيثار الخير، والانزجار عن كل ما عاقبته ذميمة.

(١١) ﴿فَاعْتَرِفُوا بِذَنبِهِمْ فَسَحَقًا﴾ بعداً لهم وخسارة وشقاء ﴿لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ وكانوا ملازمين للسعير التي تستعر في أبدانهم، وتطلع على أفئدتهم!

(١٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ في جميع أحوالهم، حتى في الحالة التي لا يطلع عليهم فيها إلا الله، فلا يقدمون على معاصيه، ولا

(١١) أخرج أبو داود وأحمد بإسناد صحيح عن أبي البخري؛ قال: أخبرني من سمع النبي ﷺ يقول: «لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم».

(١٢) أخرج البزار وأبو يعلى وأبو نعيم في «الحلية» بإسناد صحيح لغيره عن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ قال: قالوا: يا رسول الله! إنا نكون عندك على حال، فإذا فارقتنا كنا على غيره. قال: «كيف أنتم وربيكم؟» قالوا: الله ربنا في السر والعلانية. قال: «ليس ذلك النفاق».

يقصرون فيما أمر به، ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم، ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وهو ما أعدّه لهم في الجنة من النعيم المقيم، والملك الكبير.

(١٣) ﴿وَأَيُّرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ﴾ كلها سواء لديه، لا يخفى عليه منها خافية ﴿إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بما فيها من النيات والإرادات.

(١٤) ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ فمن خلق الخلق وأتقنه وأحسنه، كيف لا يعلمه؟! ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ الذي لطف علمه وخبره، حتى أدرك السرائر والضمائر، والخبائيا والخفايا والغيوب.

(١٥) ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا﴾ هو الذي سخر لكم الأرض وذللها؛ لتدركوا منها كل ما تعلقت به حاجتكم ﴿فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ لطلب الرزق والمكاسب؛ فالسعي في السبب لا ينافي التوكل ﴿وَالِئِلَيْهِ الْأَشْوَارُ﴾ بعد أن تنتقلوا من هذه الدار التي جعلها الله امتحاناً وبلغة يتبلغ بها إلى الدار الآخرة، تبعثون بعد موتكم، وتحشرون إلى الله؛ ليجازيكم بأعمالكم الحسنة والسيئة.

(١٦) ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ﴾ وهو الله - تعالى - العالي على خلقه ﴿أَنْ يَخْصِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ بكم وتضطرب، حتى تتلفكم وتهلككم.

(١٧) ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي: عذاباً من السماء يحصبكم، وينتقم الله منكم ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ﴾ كيف

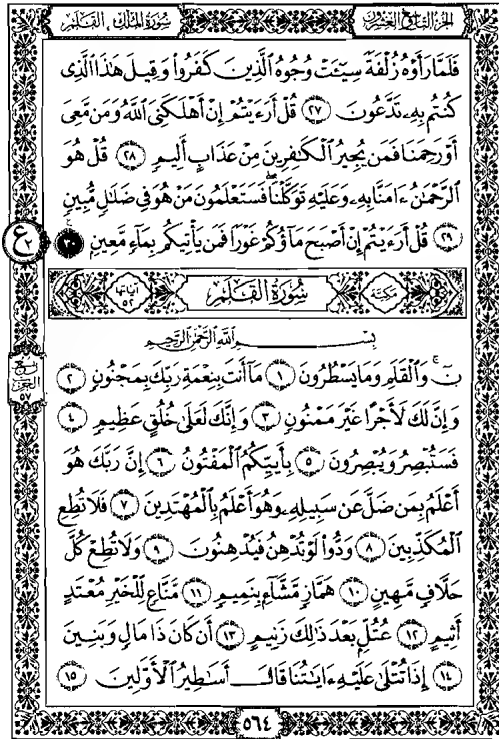
يأتيكم ما أنذرتكم به الرسل والكتب.

(١٨) ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم السالفة والقرون الخالية ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ فكيف كان إنكاري عليهم ومعاقبتي لهم أي: كان عظيماً شديداً أليماً.

(١٩) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوَهُهُ صَفَّتْ وَبَقِيضٌ﴾ وهذا عتاب وحث على النظر إلى حالة الطير التي سخرها الله، وسخر لها الجو والهواء، تصف فيه أجنحتها للطيران، وتقبضها للوقوع، فتظل سابحة في الجو، مترددة فيه بحسب إرادتها وحاجتها ﴿مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا أَلْرَّحْمَنُ﴾ فإنه الذي سخر لهن الجو، وجعل أجسادهن وخلقتهن في حالة مستعدة للطيران، فمن نظر في حالة الطير واعتبر فيها، دلته على قدرة الباري، وعنايته الربانية ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ فهو المدبر لعباده بما يليق بهم، وتقتضيه حكمته.

(٢٠) ﴿أَمْ نَ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكَ يَصُرُّكَ مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ ينصرركم إذا أراد بكم الرحمن سوءاً، فيدفعه عنكم؟ ﴿إِنَّ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ أي: من الذي ينصرركم على أعدائكم غير الرحمن؟ فاستمرار الكافرين على كفرهم بعد أن علموا أنه لا ينصرهم أحد من دون الرحمن غرور وسفه.

(٢١) ﴿أَمْ نَ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكَ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ الرزق كله من الله، فلو أمسك عنكم رزقه، فمن الذي يرسله لكم؟ ﴿بَلْ لَّكِنِ الْكَافِرُونَ



﴿لَجُوا﴾ استمروا ﴿عَتَوْ وَفُؤُوا﴾ فسوة وعدم لين
للحق ﴿وَفُؤُوا﴾ شرود عن الحق.

(٢٢) ﴿أَمَّنْ يَمْشِي مَكْبًا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي
سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: أي الرجلين أهدى؟
من كان نائها في الضلال، غارقا في الكفر قد
انتكس قلبه، فصار الحق عنده باطلاً، والباطل
حقاً؟ ومن كان عالماً بالحق، مؤثراً له، عاملاً
به، يمشي على الصراط المستقيم في أقواله
وأعماله وجميع أحواله؟

(٢٣) ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ﴾ أوجدكم من العدم
﴿وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ كمل لكم
الوجود بالسمع والأبصار والأفئدة التي هي أنفع
أعضاء البدن ﴿قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ قليل منكم
الشاكِر، وقليل منكم الشكر.

(٢٤) ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ بشكم في
أقطارها، وأسكنكم في أرجائها ﴿وَالِيَهُ تَحْشَرُونَ﴾
ثم بعد ذلك يحشركم ليوم القيامة.

(٢٥) ﴿وَيَقُولُونَ﴾ تكذيباً: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ جعلوا علامة صدقهم أن يخبروا
بوقت مجيئه.

(٢٦) ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ لا يعلم وقت ذلك
على التعيين إلا الله ﷻ لكن أمرني أن أخبركم أن
هذا كائن وواقع لا محال فاحذروه ﴿وَلِنَمَّا أَنَا
نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي: إنما علي البلاغ وقد أدبته
إليكم.

(٢٧) ﴿فَلَمَّا رَاوَهُ﴾؛ أي: فإذا كان يوم الجزياء
ورأوا العذاب منهم ﴿زُلْفَةً﴾ قريباً ﴿سَيِّئَتْ وَجُوهُهُ﴾

الذِّبْرِ كَفَرُوا﴾ ساءهم ذلك وأفطعهم، وقلقل
أفندتهم؛ فتغيرت لذلك وجوههم ﴿وَقِيلَ﴾ لهم
﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ﴾ هذا الذي كنتم به
تكذبون.

(٢٨) ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين
الجاحدين لنعمه: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللهُ وَمَنْ مَعِيَ
أَوْ رَحِمْنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ اَلِيمٍ﴾
خلصوا أنفسهم؛ فإنه لا منقذ لكم من الله إلا
التوبة والإنابة والرجوع إلى دينه، ولا ينفعكم
وقوع ما تتمنون لنا من العذاب؛ فسواء عذبنا الله
أو رحمنا، فلا مناص لكم من نكاله وعذابه
الأليم الواقع بكم.

(٢٢) أخرج الشيخان وأحمد - واللفظ له - عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قيل: يا رسول الله، كيف يحشر الناس على وجوههم؟ فقال: «اليس الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يشبههم على وجوههم».

الجزل، والكلام الفصل.

(٣) ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ غير

مقطوع، بل هو دائم مستمر.

(٤) ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ عاليًا به، مستعليًا

بخلقك الذي من الله عليك به

(٥) ﴿فَسَبِّحْهُ وَبُحِّرْهُ﴾ وقد تبين أنه أهدي

الناس، وأكملهم لنفسه ولغيره، وأن أعداءه أضل

الناس، وشر الناس للناس.

(٦) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أنهم هم الذين فتنوا عباد

الله، وأضلوه عن سبيله.

(٧) ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ وهو أعلم

بالمهتدين؛ أي: هو تعالى يعلم أي الفريقين

منكم ومنهم المهتدي، ويعلم الحزب الضال من

الحق.

(٨) ﴿فَلَا تُطِيعُوا﴾ الذين كذبوك وعاندوا

الحق، فإنهم ليسوا أهلاً لأن يطاعوا.

(٩) ﴿وَذُوقُوا﴾ المشركون ﴿لَوْ تَذَكَّرْتُمْ﴾ توافقهم على

بعض ما هم عليه؛ إما بالقول أو الفعل أو

بالسكوت عما يتعين الكلام فيه ﴿فَيَذَكِّرْتُمْ﴾ لو

ترخص لهم فيرخصون.

(١٠) ﴿وَلَا تُطِيعُوا كُلَّ حَلَّافٍ﴾ كثير الحلف

﴿مَهِينٍ﴾ خسيس النفس، ناقص الهمة.

(٢٩) ﴿قُلْ﴾ فأمر الله نبيه أن يخبر عن حاله

وحال أتباعه ﴿هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ﴾؛ أي: آمنا

برب العالمين الرحمن الرحيم ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾

في جميع أمورنا ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَن هُوَ فِي ضَلَالٍ

ثُبِينٍ﴾ أي: منا ومنكم، ولمن تكون العاقبة

في الدنيا والآخرة.

(٣٠) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْحَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ غائراً

﴿فَمَن يَأْتِكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ تشربون منه، وتسقون

أنعامكم وأشجاركم وزروعكم؟ وهذا استفهام

بمعنى النفي؛ أي: لا يقدر أحد على ذلك

غير الله تعالى.

سورة ن

وهي مكية

(١) ﴿ت﴾ سبق الكلام عن الأحرف المقطعة في

فواتح سورة البقرة ﴿وَالْقَلَمِ﴾ يقسم تعالى بالقلم،

وهو اسم جنس شامل للأقلام التي تكتب بها أنواع

العلوم، ويسطر بها المنشور والمنظوم.

(٢) ﴿مَا أَنْتَ بِرِئْءٍ مِّنْكَ بِمُجْرِمِينَ﴾ يقسم الله بها

على براءة نبيه محمد ﷺ مما نسب إليه أعداؤه من

الجنون؛ فنفي عنه الجنون بنعمة ربه عليه

وإحسانه، حيث من عليه بالعقل الكامل، والرأي

سورة القلم

(١) أخرج الإمام أحمد والترمذي والطيالسي حديث عبادة بن الصامت الصحيح لغيره: أن رسول الله ﷺ قال: «إن أول ما خلق

الله القلم، فقال له: اكتب. قال: يا رب، وما أكتب؟ قال: اكتب القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبد».

(٤) أخرج الإمام مسلم عن سعد بن هشام قال: سألت عائشة، فقلت: أخبريني يا أم المؤمنين عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: أنقرأ

القرآن؟ فقلت: نعم. فقالت: كان خلقه القرآن.

وأخرج الشيخان عن أنس رضي الله عنه قال: «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي: أف قط، ولا قال لشيء فعلته: لم

فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله ألا فعلته: وكان أحسن الناس خلقاً، ولا مسست خزاً ولا حريراً ولا شيئاً كان أليّن من كف رسول

الله ﷺ، ولا شممت مسكاً ولا عوداً كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ».

(١١) ﴿هَمَزٌ﴾ كثير العيب للناس والطعن فيهم بالغيبة والاستهزاء، وغير ذلك ﴿مَشَامٌ بِمِيمٍ﴾ يمشي بين الناس بالنميمة، وهي: نقل كلام بعض الناس لبعض؛ لقصد الإفساد بينهم، وإلقاء العداوة والبغضاء.

(١٢) ﴿مَتَاعٌ لِلْخَيْرِ﴾ الذي يلزمه القيام به من النفقات الواجبة والكفارات والزكوات وغير ذلك ﴿مُعْتَدٍ﴾ على الخلق في ظلمهم في الدماء والأموال والأعراض ﴿أَثِيرٍ﴾ كثير الإثم والذنوب المتعلقة في حق الله تعالى.

(١٣) ﴿عُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ غليظ شرس الخلق قاس غير منقاد للحق ﴿زَيْمٍ﴾ دعي، ليس له أصل، ولا مادة ينتج منها الخير.

(١٤) ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ لأجل كثرة ماله وولده.

(١٥) ﴿إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ﴾ إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ قَالَ أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ طغى واستكبر عن الحق، ودفعه حين جاءه، وجعله من جملة أساطير الأولين التي يمكن صدقها وكذبها. وهذه الآية وإن نزلت في بعض المشركين إلا أنها عامة في كل من اتصف بهذا الوصف.

(١٦) ﴿سَيَسْمُهُ عَلَى الْفَرْطُورِ﴾ سيسمه على خرطوم

في العذاب؛ وليعذبه عذاباً ظاهراً، يكون عليه سمة وعلامة، في أشق الأشياء عليه، وهو وجهه.

(١٧) ﴿إِنَّا بَلَوْتَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ إِنَّا بَلَوْنَا هؤلاء المكذبين بالخير وأمهلتناهم، وأمددناهم بما شئنا من مال وولد، وطول عمر، ونحو ذلك، فإذ فإغترارهم بذلك نظير اغترار أصحاب الجنة ﴿إِذْ

(١١) أخرج الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنه؛ قال: مر رسول الله ﷺ بقبرين؛ فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما؛ فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر؛ فكان يمشي بالنميمة». وفيهما عن حذيفة قال: سمعت رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة قتات».

(١٣) أخرج الطبري بإسناد حسن لغيره عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿بَعْدَ ذَلِكَ زَيْمٍ﴾ قال: نزل على النبي ﷺ ﴿وَلَا تَطْعَمْ كُلَّ حَلَاظٍ مَّهِينٍ﴾ ﴿هَمَزٌ مَشَامٌ بِمِيمٍ﴾ قال: فلم نعرفه حتى نزل على النبي ﷺ: ﴿بَعْدَ ذَلِكَ زَيْمٍ﴾ قال: فعرفناه له زنة كزمنة الشاة.

وأخرج البخاري ومسلم عن حارثة بن وهب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأهل الجنة؟ كل ضعيف مستضعف لو أقسم على الله لأبره، ألا أنبئكم بأهل النار كل عتل جواظ مستكبر».

(٢٨) ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أعدلهم، وأحسنهم طريقة ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ تنزهون الله عما لا يليق به.

(٢٩) ﴿قَالُوا سُبْحَنَ﴾ ندموا ندامة عظيمة، ونزهوا الله عن أن يكون ظالماً فيما فعل، وأقروا على أنفسهم بالظلم؛ فقالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ بمنعنا المساكين.

(٣٠) ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ﴾ فيما أجروه وفعلوه.

(٣١) ﴿قَالُوا يَوَيْلًا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ متجاوزين للحد في حق الله، وحق عباده.

(٣٢) ﴿عَسَىٰ رَبَّنَا أَن يُبَدِّلَنَا حَيْرًا مِّثْلَهَا﴾ رجوا الله أن يبدلهم خيراً منها ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ ووعدوا أنهم سيرغبون إلى الله، ويلحون عليه في الدنيا.

(٣٣) ﴿كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ﴾ الدنيوي لمن أتى بأسباب العذاب أن يسلب الله العبد الشيء الذي طغى به وبغى، وآثر الحياة الدنيا، وأن يزيله عنه، أحوج ما يكون إليه ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ من عذاب الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ فإن من علم ذلك أوجب له الانزعاج عن كل سبب يوجب العذاب ويحل العقاب.

(٣٤) ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ يخبر تعالى بما أعده للمتقين من أنواع النعيم والعيش السليم في جوار أكرم الأكرمين.

(٣٥) ﴿أَتَجْعَلُ الْمُتَشَبِّهِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ وأن حكمته تعالى لا تقتضي أن يجعل المسلمين القانتين لربهم، المنقادين لأوامره، المتبعين لمراضيه؛ كالمجرمين الذين أوضاعوا في معاصيه، والكفر بآياته، ومعادنة رسله، ومحاربة أوليائه.

(٣٦) ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أن حكمه حكم

أَقْسَمُوا لِيَصْرُمَهَا مُصْبِحِينَ﴾ ولهذا أقسموا وحلفوا ليَجْذُنَهَا وليقطعن - والصَّرمُ القطع - ثمرها إذا أصبحوا قبل أن يعلم المسالكين.

(١٨) ﴿وَلَا يَسْتَنْوُونَ﴾ فيما حلفوا به، أي: ولا يقولون:

(١٩) ولم يدروا أن الله بالمرصاد، وأن العذاب سيخلفهم عليها، ويبادرهم إليها. ﴿نَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ عذاب نزل عليها ليلاً ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ فأبادهَا وأتلفها.

(٢٠) ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ كالليل المظلم؛ ذهب الأشجار والثمار، هذا وهم لا يشعرون بما حصل.

(٢١) ﴿فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ﴾ تنادوا فيما بينهم، لما أصبحوا يقول بعضهم لبعض.

(٢٢) ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ يعني الثمار والزروع والأعنان ﴿إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ قاطعين.

(٢٣) ﴿فَانْطَلَقُوا﴾ قاصدين له ﴿وَهُمْ يَنْتَحِفُونَ﴾ فيما بينهم، ولكن بمنع حق الله.

(٢٤) ويقولون: ﴿لَا يَخْلُفُنَا آيَتُهُمْ عَلَيْهِمْ﴾ يَكُونُونَ ﴿بَكَرُوا قَبْلَ انْتِشَارِ النَّاسِ، وتواصوا مع ذلك بمنع الفقراء والمساكين.

(٢٥) ﴿وَعَدُوا﴾ في هذه الحالة الشنيعة والقسوة، وعدم الرحمة ﴿عَلَىٰ حَرْثٍ قَدِيرٍ﴾ على إمساك ومنع لحق الله ﴿قَدِيرٍ﴾ جازمين بقدرتهم عليها.

(٢٦) ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ على الوصف الذي ذكر الله كالصريم ﴿قَالُوا﴾ من الحيرة والانزعاج ﴿إِنَّا لَصَّالُونَ﴾ تائهون عنها، لعلها غيرها.

(٢٧) فلما تحققوها، ورجعت إليهم عقولهم قالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مُحَرَّمُونَ﴾ منها، فعرفوا حينئذ أنه عقوبة.

باطل، ورأيه فاسد.

(٣٧) ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ أن المجرمين ليس لهم مستند، لا كتاب فيه يدرسون ويتلون أنهم من أهل الجنة.

(٣٨) ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ وأن لهم ما طلبوا وتخيروا.

(٣٩) ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَلِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ إِنَّ لَكُمْ لِمَا تَتَخَكَّمُونَ﴾ وليس لهم عند الله عهد ويمين بالغة إلى يوم القيامة أن لهم ما يحكمون.

(٤٠) ﴿سَلَّمْتُ إِلَهُكُمْ بِالْكَفِيلِ﴾ أيهم الكفيل بهذه الدعوى الفاسدة؛ فإنه لا يمكن التصدر بها، ولا الزعامة فيها.

(٤١) ﴿أَمْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ وليس لهم شركاء وأعوان على إدراك ما طلبوا، فإن كان لهم شركاء وأعوان فليأتوا بهم إن كانوا صادقين.

(٤٢) ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ إذا كان يوم القيامة، وأتى الباري لفصل القضاء بين عباده ومجازاتهم فكشف عن ساقه الكريمة التي لا يشبهها شيء ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ فحينئذ يدعون إلى السجود لله، فيسجد المؤمنون الذين كانوا يسجدون لله طوعاً واختياراً ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ويذهب الفجار المنافقون ليسجدوا فلا يقدرّون على السجود، ولا يستطيعون الانحناء.

(٤٣) ﴿خَشَعَتِ الْأَبْصَارُ رَهَقَهُمْ ذُلٌّ وَقَدْ كَانُوا يَدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ﴾ وهذا الجزاء من جنس عملهم؛ فإنهم



كانوا يدعون في الدنيا إلى السجود لله وتوحيده وعبادته ﴿وَهُمْ سَلِمُونَ﴾ لا علة فيهم.

(٤٤) ولهذا قال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ﴾ يَهَذَا الْحَدِيثِ ﴿دَعْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ بِالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ؛ فَإِنْ عَلَيَّ جَزَاؤُهُمْ، وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ فَسَتَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فنمدهم بالأموال والأولاد، ونمدهم في الأرزاق والأعمال؛ ليغترّوا ويستمروا على ما يضرهم.

(٤٥) ﴿وَأَمْلِ لَهُمْ﴾ أخرهم وأنظرهم ﴿إِنَّ كَيْدِي﴾ وذلك من كيدي ومكري بهم ﴿مَتِينٌ﴾ قوي، يبلغ من ضررهم وعذابهم فوق كل مبلغ

(٤٢) أخرج البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يكشف ربنا عن ساقه؛ فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد، فيعود ظهره طبقاً واحداً».

﴿وَيَقُولُونَ إِنَّمَا لَمْجُونٌ﴾ وأما الأذى القولي؛ فيقولون تارة: مجنون، وتارة: ساحر، وتارة: شاعر. (٥٢) ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ وما هذا القرآن الكريم والذكر الحكيم إلا ذكر للعالمين، يتذكرون به مصالح دينهم ودنياهم.

سورة الحاقة وهي مكية

(١) ﴿الْحَاقَّةُ﴾ من أسماء يوم القيامة؛ لأنها تنزل وتنزل بالخلق، وتظهر فيها حقائق الأمور، ومخبات الصدور.

(٢) ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾ فإن لها شأنًا عظيمًا وهولاً جسيماً.

(٣) ولهذا عظم الله أمرها فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ فإنه لا يعلم ذلك على الحقيقة إلا الله.

(٤) ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ قوم صالح عليه السلام ﴿وَعَادُ﴾ قوم هود عليه السلام ﴿بِالْقَارِعَةِ﴾ التي تفرع الخلق بأهوالها، وذلك حين بعث الله إليهم رسوله هوداً عليه الصلاة والسلام يدعوهم إلى عبادة الله وحده فكذبوه وكذبوا بما أخبر به من البعث، فأهلك الله الطائفتين بالهلاك المعجل.

(٥) ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ وهي: الصيحة العظيمة الفظيعة التي انصدعت منها قلوبهم، وزهقت لها أرواحهم؛ فأصبحوا موتى لا يرى إلا مساكنهم وجثثهم.

(٤٦) ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ ليس لنفورهم عنك، وعدم تصديقهم لما جئت به سبب يوجب لهم ذلك؛ فإنك تعلمهم وتدعوهم إلى الله لمحض مصلحتهم من غير أن تطلبهم من أموالهم مغرمًا يتقل عليهم.

(٤٧) ﴿أَمْ عَنْدهُمْ غَيْبٌ فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ ما كان عندهم من الغيوب، وقد وجدوا فيها أنهم على حق، وأن لهم الثواب عند الله؛ فهذا أمر ما كان، وإنما كانت حالهم حال معاند ظالم.

(٤٨) ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ لما حكم به شرعاً وقدرًا ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْأُتُوتِ﴾ وهو يونس بن متى عليه الصلاة والسلام؛ أي: ولا تشابهه في الحال التي أوصلته، وأوجبت له الانحباس في بطن الحوت، وهو: عدم صبره على قومه الصبر المطلوب منه ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ وهو في بطنها قد كظمت عليه.

(٤٩) ﴿لَوْلَا أَن تَدْرِكُهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ لطرح في العراء، وهي الأرض الخالية ولكن الله تغمدته برحمته؛ فنبذ وهو ممدوح، وصارت حاله أحسن من حاله الأولى.

(٥٠) ولهذا قال: ﴿فَاجْتَبَيْهِ رَبُّهُ﴾ اختاره واصطفاه ونقاه من كل كدر ﴿فَجَعَلَهُ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ الذين صلحت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم.

(٥١) ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَعُوا أَلْذِكْرَ﴾ إنهم حرصوا على أن يصيبوه بأعينهم من حسدهم وغيظهم وحنقهم، هذا منتهى ما قدروا عليه من الأذى الفعلي، والله حافظه وناصره

(٥٠) أخرج مسلم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «العين حق، ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين، وإذا استغسلتم؛ فاغسلوا».

(٦) ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَوَّيَةٍ قَوِيَةٍ شَدِيدَةِ الْعُيُوبِ لَهَا صَوْتُ أْبْلَغَ مِنْ صَوْتِ الرِّعْدِ الْقَاصِفِ ﴿عَالِيَةٍ﴾ عَتَتْ عَلَى خَزَانِهَا، أَوْ عَتَتْ عَلَى عَادَ، وَزَادَتْ عَلَى الْحَدِّ كَمَا هُوَ الصَّحِيحُ. (٧) ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَفَنِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ نَحْسًا وَشَرًّا فَظِلْعًا عَلَيْهِمْ، فَدَمَرْتَهُمْ وَأَهْلَكْتَهُمْ ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى﴾ هَلَكَى مَوْتَى ﴿كَأَنَّهُمْ أَجْجَارٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ كَأَنَّهُمْ جَذُوعُ النَّخْلِ الَّتِي قَدْ قَطَعْتَ رِءُوسَهَا ﴿خَاوِيَةٍ﴾ السَّاقُطُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ. (٨) ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ وَهَذَا اسْتِفْهَامٌ بِمَعْنَى النِّفْيِ الْمَتَقَرَّرِ.

(٩) ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ﴾ فِرْعَوْنُ مَصْرَ الَّذِي أَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِ عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ مُوسَى ابْنَ عِمْرَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَأَرَاهُ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ مَا تَيَقَّنُوا بِهَا الْحَقَّ ﴿وَالْمُؤْتَفِكْتُ﴾ قَرَى قَوْمَ لُوطِ الْجَمِيعِ جَاءُوا ﴿بِالْمُؤْتَفِكَةِ﴾ بِالْفَعْلَةِ الطَّاعِيَةِ وَهِيَ الْكُفْرُ وَالتَّكْذِيبُ وَالظُّلْمُ وَالْمَعَانِدَةُ وَمَا انْضَمَّ إِلَى ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْفَوَاحِشِ وَالْفُسُوقِ.

(١٠) ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ كُلٌّ مِنْ هَؤُلَاءِ كَذَبَ الرِّسُولَ الَّذِي أَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ بِالْجَمِيعِ ﴿أَخَذَهُ رَبِّيَّةٌ﴾ زَائِدَةٌ عَلَى الْحَدِّ وَالْمَقْدَارِ الَّذِي يَحْصُلُ بِهِ هَلَاكُهُمْ.

(١١) وَمِنْ جُمْلَةِ أَوْلَئِكَ قَوْمُ نُوحٍ أَغْرَقَهُمُ اللَّهُ فِي الْيَمِّ حِينَ طَغَى الْمَاءُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ﴾ عَلَا عَلَى مَوَاضِعِهَا الرِّفِيعَةِ ﴿مَمْلَأْنَا فِيهَا لُجَارًا﴾ وَهِيَ السَّفِينَةُ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ وَأُمَهَاتِهِمُ الَّذِينَ نَجَّاهُمْ اللَّهُ.

(١٢) ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ الْجَارِيَةِ ﴿لَكُمْ ذِكْرًا﴾ تَذَكُّرًا أَوَّلَ سَفِينَةٍ صَنَعَتْ، وَمَا قَصَّتْهَا، وَكَيْفَ نَجَّى اللَّهُ عَلَيْهَا مَنْ آمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَ رِسُولَهُ، وَأَهْلَكَ أَهْلَ

وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكْتُ بِالْمُؤْتَفِكَةِ ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ رَبِّيَّةً﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ مَمْلَأْنَا فِي الْبَارِيَةِ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ ذِكْرًا وَنَعْبِيَا أَذُنَ وَعِيَةٍ ﴿وَأَنفِخْ فِي الصُّورِ نَفْثَةً وَاجِدَةً﴾ وَجَلَّتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاجِدَةً ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَلَاثِينَ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كَيْدَهُ بِسِيَرَةٍ فَقَوْلُهَا قَوْمٌ وَارَكِيَّةٌ﴾ إِلَى طَلَسَتْ أَوْ مَلَسَتْ جَسَادِيَّةٌ ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ فِي حَسْبَةٍ عَالِيَةٍ ﴿فَطُوفُهَا دَائِرَةٌ﴾ كَلَّوْا وَأَشْرَوْا هَبَّتَا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كَيْدَهُ بِشِمَالَةٍ فَيَقُولُ نَزَّاتُكَ كَبِيرَةٌ﴾ وَلَوْ أَدْرَا جَسَادِيَّةٌ ﴿يَلْتَمِسُنَا كَانَتْ الْقَاسِيَةُ﴾ مَا عَفَى عَنِّي مَالِيَّةٌ ﴿هَلَكَ عَنِّي شُلُوبِيَّةٌ﴾ خُدُوهُ فَعَلُوهُ ﴿فَرَأَى الْجَمِيعَ﴾ صُلُوهُ ﴿فَوَفَّى سَلْسِلَةً ذُرْعَاهَا سِتُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْغَظِيبِ ﴿وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْمُسَكِّينِ﴾

الأرض كلهم.

﴿وَعَبِيهَا أَذُنٌ وَعِيَةٌ﴾ تَعَقَّلَهَا أَوَّلُو الْأَبْلَابِ، وَيَعْرِفُونَ الْمَقْصُودَ مِنْهَا، وَوَجْهَ الْآيَةِ بِهَا.

(١٣) ﴿فَإِذَا نُفِخَ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. فَذَكَرَ الْأُمُورَ الْهَائِلَةَ الَّتِي تَقَعُ أَمَامَ الْقِيَامَةِ وَأَنَّ أَوَّلَ ذَلِكَ أَنَّهُ يَنْفِخُ إِسْرَافِيلُ ﴿فِي الصُّورِ﴾ إِذَا تَكَامَلَتِ الْأَجْسَادُ نَابِتَةً ﴿نَفْثَةً وَاجِدَةً﴾ فَتَخْرُجُ الْأَرْوَاحُ، فَتَدْخُلُ كُلُّ رُوحٍ فِي جَسَدِهَا؛ فَإِذَا النَّاسُ قِيَامٌ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ.

(١٤) ﴿وَجَلَّتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاجِدَةً﴾ فَتَسْتِ الْجِبَالُ وَاضْمَحَلَّتْ وَخَلَطَتْ بِالْأَرْضِ وَنَسَفَتْ عَلَى الْأَرْضِ؛ فَكَانَ الْجَمِيعُ قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا هَذَا مَا يَصْنَعُ بِالْأَرْضِ وَمَا عَلَيْهَا.

(١٥) ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ قَامَتِ الْقِيَامَةُ.

(١٦) ﴿وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ انْفِطَرَتْ وَتَمَزَقَتْ ﴿فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ أَيِ أَنَّهَا تَهَيَّي بَعْدَ الصَّلَابَةِ وَالْقُوَّةِ

العظيمة .

(١٧) ﴿وَالْمَلَكُ﴾ الملائكة الكرام ﴿عَلَى أَرْجَائِهِا﴾ على جوانب السماء وأركانها خاضعين لربهم، مستكينين لعظمته .

﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ﴾ أملاك في غاية القوة إذا أتى للفصل بين العباد والقضاء بينهم بعدله وقسطه وفضله .

(١٨) ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ على الله ﴿لَا تَخَفْنَ مِنْكُمْ خَافِيَةً﴾ لا من أجسادكم وأجسادكم، ولا من أعمالكم وصفاتكم؛ فإن الله - تعالى - عالم الغيب والشهادة .

(١٩) ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْقَ كُتِبَ بِسَمِيئَةٍ﴾ وهؤلاء هم أهل السعادة يعطون كتبهم التي فيها أعمالهم الصالحة بأيمانهم تمييزاً لهم، وتنوياً بشأنهم، ورفعاً لمقدارهم ﴿فَيَقُولُ﴾ من شدة فرحه يقول لكل من لقيه ﴿هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كُنْتُمْ﴾ دونكم كتابي فاقروه .

(٢٠) ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ﴾ أيقنت في الدنيا ﴿أَنِّي مُلْقٍ حِسَابِيَّةٍ﴾ يوم القيامة لا محالة .

(٢١) ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ جامعة لما تشتهيهِ الأنفس وتلد الأعين، وقد رضوها ولم يختاروا عليها غيرها .

(٢٢) ﴿فِي جَنَّاتٍ عَالِيَةٍ﴾ المنازل والقصور عالية المحل .

(٢٣) ﴿فَقُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ ثمرها وجناها من أنواع الفواكه قريبة، سهلة التناول على أهلها، ينالها أهلها قياماً وعوداً ومتكئين .

(٢٤) ﴿يُقَالُ لَهُمْ إِكْرَامًا﴾ ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ من كل طعام لذيذ، وشراب شهى ﴿هَنِيئًا﴾ تاماً

كاملاً من غير مكدر ولا منغص، وذلك الجزاء حصل لكم ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ من الأعمال الصالحة، وترك الأعمال السيئة .

(٢٥) ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْقَ كُتِبَ بِسَمِيئَةٍ﴾ هؤلاء أهل الشقاء يعطون كتب أعمالهم السيئة بشمالهم تمييزاً لهم وخزياً وعاراً وفضيحة ﴿فَيَقُولُ﴾ ندماً وأسفاً ﴿يَلْبَثُنِي لَوْ أُوْتِ كِتَابِيَّةٌ﴾ يتمنى الموت .

(٢٦) ﴿وَلَمْ أَذِرْ مَا حِسَابِيَّةٍ﴾ ليتني كنت نسياً منسياً ولم أبعث وأحاسب .

(٢٧) ﴿يَلْبَثُنِي كَانَتْ أَفْقَاضِيَّةٌ﴾ يا ليت موتي هي الموة التي لا بعث بعدها .

(٢٨) ﴿مِمَّا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي﴾ ما نفعتني لا في الدنيا، فلم أقدم منه شيئاً، ولا في الآخرة، قد ذهب وقت نفعه .

(٢٩) ﴿هَلَاكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ﴾ ذهب واضمحل؛ فلم تنفع الجنود الكثيرة، ولا العدد الخطيرة، ولا الجاه العريض؛ بل ذهب ذلك كله أدراج الرياح .

(٣٠) فعندها يقول الرب: ﴿خُذُوهُ فَعُوقُوا﴾ اجعلوا في عنقه غلاً يخنقه .

(٣١) ﴿ثُمَّ الْجَحِيمُ صَلْوُهُ﴾ قلبوه على جمرها ولهبها .

(٣٢) ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ من سلاسل الجحيم في غاية الحرارة ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ انظموه فيها بأن تدخل في دبره وتخرج من فمه، ويلق فيها، فلا يزال يعذب هذا العذاب الفظيع .

(٣٣) ﴿إِنَّمَا كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ بأن كان كافراً بربه معانداً لرسله راداً ما جاءوا به من الحق .

(٣٤) ﴿وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمُسْكِينِ﴾ ليس في قلبه

(١٧) أخرج أبو داود بإسناد صحيح عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله تعالى من حملة العرش: أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام» .

سُورَةُ النِّسَاءِ

فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسَلِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾ فَلَا أَقِيمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾

إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤١﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٢﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٤﴾ فَمَا يَمْكُرُ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِنَّهُ لَتَذْكُرٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّكُمْ مَكِيدُونَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٨﴾ فَتَسْبِيحُ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٤٩﴾

سُورَةُ النِّسَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَرْجَعُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ يَوْمَ يُرْكَانُ يُرْكَانُ ﴿٤﴾ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٥﴾ فَأَصْحَابُكُمْ أَصْحَابُهَا ﴿٦﴾ يَوْمَ تُكُونُ الشَّمْسُ كَالْعِهْلِ ﴿٧﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٨﴾ وَلَا تَسْأَلُ حِمِيمًا ﴿٩﴾

٥٦٨

رحمة يرحم بها الفقراء والمساكين؛ فلا يطعمهم من ماله ولا يحض غيره على إطعامهم لعدم الوازع في قلبه.

(٣٥) ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ﴾ يوم القيامة ﴿حَمِيمٌ﴾ قريب أو صديق يشفع له؛ لينجو من عذاب الله، أو يفوز بثواب الله.

(٣٦) ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسَلِينَ﴾ وليس له طعام إلا من غسلين وهو صديد أهل النار، الذي هو في غاية الحرارة، وتنن الريح، وقبح الطعم ومرارته.

(٣٧) ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ الذين أخطأوا الصراط المستقيم، وسلخوا سبل الجحيم؛ فلذلك استحقوا العذاب الأليم.

(٣٨) ﴿فَلَا أَقِيمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ أقسم تعالى بما يبصر الخلق من جميع الأشياء.

(٣٩) ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ وما لا يبصرونه، فدخل في ذلك كل الخلق.

(٤٠) ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ أقسم بنفسه على صدق الرسول و بما جاء به من هذا القرآن الكريم، وأن الرسول الكريم بلغه عن الله تعالى.

(٤١) ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿فَقَوْلُ شَاعِرٍ﴾ كما تدعون ﴿فَقِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ وأن الذي حملهم على ذلك عدم إيمانهم.

(٤٢) ﴿فَقِيلًا مَا تَذْكُرُونَ﴾ ولو تذكروا لآمنوا وعلموا ما ينفعهم ويضرهم.

ونزه الله رسوله عما رماه به أعداؤه من أنه شاعر أو ساحر، وأن الذي حملهم على ذلك عدم إيمانهم وتذكرهم، فلو آمنوا وتذكروا لعلموا ما ينفعهم ويضرهم، ومن ذلك أن ينظروا في حال

محمد ﷺ، ويرمقوا أوصافه وأخلاقه؛ لرأوا أمراً مثل الشمس يدلهم على أنه رسول الله حقاً.

(٤٣) ﴿نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وأن ما جاء به

تنزيل رب العالمين، لا يليق أن يكون قول البشر؛ بل هو كلام دال على عظمة من تكلم به، وجلالة أوصافه، وكمال تربيته لعباده.

(٤٤) ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ الكاذبة.

(٤٥) ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ لانتقمنا باليمين؛ لأنها أشد في البطش.

(٤٦) ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ وهو عرق متصل بالقلب إذا انقطع مات منه الإنسان.

(٤٧) ﴿فَمَا يَمْكُرُ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِرِينَ﴾ أي: لو أهلكه ما امتنع هو بنفسه، ولا قدر أحد أن يمنعه من عذاب الله.

(٤٨) ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ القرآن الكريم ﴿لَتَذْكُرَنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يتذكرون به مصالح دينهم ودنياهم، فيعرفونها،

يرفعه بعد نزوله: ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾ ذو العلو والجلال والعظمة، والتدبير لسائر الخلق.

(٤) ﴿تَنْزِجُ الْمَلَكُتُكُ وَالرُّوحَ إِلَيْهِ﴾ الذي تعرج إليه الملائكة بما دبرها على تدبيره، وتعرج إليه الروح، وهذا اسم جنس يشمل الأرواح كلها برها وفاجرها، وهذا عند الوفاة، ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أن تلك المسافة على السير المعتاد مقدار خمسين ألف سنة، من ابتداء العروج إلى وصولها ما حد لها، وما تنتهي إليه من الملاء الأعلى، وذلك اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة من طوله وشدته، لكن الله تعالى يخففه على المؤمن.

(٥) ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ اصبر على دعوتك لقومك صبراً جميلاً، لا تضجر فيه ولا ملل بل استمر على أمر الله، وادع عباده إلى توحيده.

(٦) ﴿إِنَّهُمْ بَرُونَ يَوْمًا﴾ أي: البعث، إن حالهم حال المنكر له، أو الذي غلبت عليه الشقوة والسكرة، حتى تباعد جميع ما أمامه من البعث والنشور.

(٧) ﴿وَنَرَنَاهُ فَرِيًّا﴾ والله يراه قريباً؛ لأنه رفيق حلیم لا يعجل، ويعلم أنه لا بد أن يكون.

(٨) ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلْهِ وهو الرصاص المذاب من تشققها وبلوغ الهول منها كل مبلغ.

ويعملون عليها.

(٤٩) ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ﴾ به، وهذا فيه تهديد ووعد للمكذبين؛ فإنه سيعاقبهم على تكذيبهم بالعقوبة البليغة.

(٥٠) ﴿وَإِنَّكُمْ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ تحسروا إذ لم يهتدوا به، ولم ينقادوا لأمره؛ ففاتهم الثواب، وحصلوا على أشد العذاب، وتقطعت بهم الأسباب.

(٥١) ﴿وَإِنَّكُمْ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ أعلى مراتب العلم؛ فإن أعلى مراتب العلم اليقين وهو العلم الثابت، الذي لا يتزلزل ولا يزول.

(٥٢) ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ نزهه عما لا يليق بجلاله، وقده بذكر أوصاف جلاله وجماله وكماله.

سورة المعارج وهي مكية

(١) ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ دعا داع، واستفتح مستفتح ﴿بِعَذَابِ وَاقِعٍ﴾ من الله على الكفار

(٢) ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ لاستحقاقهم له بكفرهم وعنادهم ﴿لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ﴾ لا دافع له إذا أراد الله كونه.

(٣) ولهذا قال تعالى: ﴿مِنْ أَلَدِهِ﴾ ليس لهذا العذاب الذي استعجل به من استعجل من متمردي المشركين أحدٌ يدفعه قبل نزوله، أو

سورة المعارج

(١) أخرج النسائي والحاكم بإسناد حسن عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال في قوله: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابِ وَاقِعٍ﴾ هو النضر بن الحارث ابن كلدة.

(٤) أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من صاحب كثر لا يؤدي حقه إلا جعل صفائح يحمي عليها في نار جهنم؛ فتكوى بها جبهته وجنبه وظهره، حتى يحكم الله بين عباده، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون، ثم يرى سبيله إلى الجنة أو النار».

- (٩) ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ وهو الصوف المنفوش، ثم تكون بعد ذاك هباءً منثوراً.
- (١٠) ﴿وَلَا يَسْأَلُ حِمِيٌّ حِمِيًّا﴾ لا يسأل القريب قريبه عن حاله.
- (١١) ﴿يَصْرُوهَنَّهُمْ﴾؛ أي: يشاهد الحميم حميمه، فلا يبقى في قلبه متسع لسؤال حميمه عن حاله، ولا فيما يتعلق بعشرتهم ومودتهم، ولا يهمه إلا نفسه ﴿يُودُّ الْمُجْرِمُ﴾ الذي حق عليه العذاب ﴿لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِيهِ بِنِفِهِ﴾ أولاده.
- (١٢) ﴿وَصَحْبَتِهِ﴾ زوجته ﴿وَأَخِيهِ﴾ شقيقه.
- (١٣) ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ قرابته ﴿الَّتِي تُؤَيِّدُ﴾ التي جرت عاداتها في الدنيا أن تتناصر ويعين بعضها بعضاً.
- (١٤) ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ بل لو يفتدي المجرم المستحق للعذاب بجميع ما في الأرض ﴿ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ لم ينفعه ذلك.
- (١٥) ﴿كَلَّا﴾ لا حيلة ولا مناص لهم ﴿إِنَّمَا لَظَنُ﴾ يصف النار وشدة حرها.
- (١٦) ﴿نَزَاعَةُ اللَّشْوَى﴾ للأعضاء الظاهرة والباطنة من شدة عذابها.
- (١٧) ﴿تَدْعُوا﴾ إليها ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ عن اتباع الحق ﴿وَتَوَلَّى﴾ وأعرض عنه، فليس له فيه غرض.
- (١٨) ﴿وَجَمَعَ﴾ الأموال بعضها فوق بعض ﴿فَأَوَّعَى﴾ فلم ينفق منها.
- (١٩) ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ وهذا الوصف للإنسان من حيث هو وصف طبيعته الأصلية، أنه هلوع.
- (٢٠) ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ فيجزع إن أصابه فقر



- أو مرض، أو ذهاب محبوب له من مال أو أهل أو ولد.
- (٢١) ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ فلا ينفق مما آتاه الله، ولا يشكر الله على نعمه وبره.
- (٢٢) ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ الموصوفين بتلك الأوصاف؛ فإنهم إذا مسهم الخير شكروا الله، وأنفقوا مما خولهم الله، وإذا مسهم الشر صبروا واحتسبوا.
- (٢٣) ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ مداومون عليها في أوقاتها بشروطها ومكملاتها.
- (٢٤) ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ من زكاة مفروضة وصدقة واجبة.
- (٢٥) ﴿لِلسَّائِلِ﴾ الذي يتعرض للسؤال

(١٨) أخرج الشيخان من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها، عن رسول الله ﷺ: «ولا توعي؛ فيوعي الله عليك».

(١٩) أخرج أبو داود وأحمد بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «شر ما في رجل شح هالع، وجبن خالع».

(٣٠) ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾
سرياتهم ﴿فَأَتَتْهُمْ غَيْرُ مُلُومِينَ﴾ في وطنهن في
المحل الذي هو محل الحرث.

(٣١) ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ غير الزوجة وملك
اليمين، ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ المتجاوزون ما
أحل الله إلى ما حرم الله.

ودلت هذه الآية على تحريم نكاح المتعة؛ لكونها
غير زوجة مقصودة، ولا ملك يمين، وعلى
تحريم الاستمنا باليد.

(٣٢) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾
مراعون لها، حافظون مجتهدون على أداؤها
والوفاء به.

(٣٣) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ لا يشهدون إلا بما
يعلمونه، من غير زيادة ولا نقص ولا كتمان.

(٣٤) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ بمداومتها
على أكمل وجوها.

(٣٥) ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿فِي
جَنَّةٍ مُّكْرَمُونَ﴾ قد أوصل الله لهم من الكرامة
والنعيم المقيم ما تشتهيهِ الأنفس، وتلد الأعين،
وهم فيها خالدون.

(٣٦) يقول تعالى مبيناً اغترار الكافرين: ﴿فَالِ
الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ مسرعين.

(٣٧) ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ قطعاً متفرقة،
وجماعات متوزعة، كل منهم بما لديه فرح.

(٣٨) ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾
بأي سبب أطعمهم، وهم لم يقدموا سوى الكفر،
والجحود برب العالمين.

(٣٩) ﴿كَلَّا﴾ ليس الأمر بأمانيتهم ولا إدراك ما

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَقْسَمُ بِرَبِّ الْمَرْبِ إِنَّا لَنَدْرُونَ ﴿١﴾ عَلَّ أَنْ تُبَدِّلَ حِكْمَانَهُمْ
وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوبِينَ ﴿٢﴾ فَذَرَهُمْ حَوْصُوا وَلْيَعِزُوا لِقَوْمِهِمُ الَّذِي
يُوعَدُونَ ﴿٣﴾ يَوْمَ يُخْرَجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ يَسْعَاءُ قَانَهُمْ إِلَىٰ نَجْصِ بُوفُسُونَ
خَشِيعَةً أَصْرَهُمْ بِرُءُفِهِمْ ﴿٤﴾ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٥﴾

سُورَةُ الْمَاعِرِجِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَتِنَعْبُدُ
اللَّهَ وَآلِهَتَهُ وَأَطِيعُونَ ﴿٣﴾ يَغْفِرُ لَكُمْ مَن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرُكُمْ
إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِن أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ
﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دَعَايَ إِلَّا
فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كَلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِيُغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أُصْغِيَةً
فِيءَ إِذَاقِهِمْ وَاسْتَعْصَفُوا لِيُأْتِيَهم وَآصْرًا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا
﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَرًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ
لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَتَلَّكَ اسْتَعْصَفُوا وَارْتَبَكُمُ إِلَهُ كَانَتْ عَفَاكَ ﴿١٠﴾

٥٧٠

﴿وَالْمَحْرُومِ﴾ وهو المسكين الذي لا يسأل الناس
يعطوه، ولا يظن له فيصدق عليه.

(٢٦) ﴿وَالَّذِينَ يَصْدِقُونَ يَوْمَ الْآزِينِ﴾ يؤمنون بما أخبر
الله به، وأخبرت به رسله من الجزاء والبعث،
ويتيقنون ذلك.

(٢٧) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ﴾ خائفون
وجلون؛ فيتركون لذلك كل ما يقرّبهم من عذاب
الله.

(٢٨) ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ هو العذاب الذي
يخشى ويحذر.

(٢٩) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوحِهِمْ حَافِظُونَ﴾ فلا يطأون
بها وطأ محرماً، من زنا أو لواط، أو وطء في
دبر، أو حيض، ونحو ذلك.

سورة نوح عليه السلام
وهي مكية

(١) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ أخبر تعالى أنه أرسله إلى قومه، رحمة بهم ﴿أَن أُنذِرَ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وإنذاراً لهم من عذاب الله الأليم.

(٢) ﴿قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ واضح النذارة بينها، وذلك؛ لتوضيحه ما أنذر به، وما أنذر عنه، وبأي: شيء تحصل النجاة، بين جميع ذلك بياناً شافياً.

(٣) ﴿إِن أَعْبَدُوا اللَّهَ وَاتَّقَوْهُ وَأَطِيعُوا﴾ وذلك بإفراده تعالى بالتوحيد والعبادة، والبعد عن الشرك وطرقه ووسائله.

(٤) ﴿يَعْرِ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ وإذا اتقوا الله غفر ذنوبهم ﴿وَيُخْرِجَكُم إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يمتنعكم في هذه الدار، ويدفع عنكم الهلاك إلى أجل مسمى مقدر البقاء في الدنيا بقضاء الله وقدره إلى وقت محدود، ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: بادروا بالطاعة قبل حلول النقمة؛ فإنه إذا أراد تعالى ذلك لا يرد ولا يمانع.

(٥) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ يخبر تعالى عن عبده ورسوله نوح عليه السلام أنه شكى إلى ربه ﷻ ما لقه من قومه، وما صبر عليهم، وما بين لقومه ووضح لهم ودعاهم إلى الرشد والسبيل الأقوم.

يشتهون بقوتهم.

﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ من ماء دافق، يخرج من بين الصلب والترائب؛ فهم ضعفاء، لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضررا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا.

(٤٠) ﴿فَلَا أَقِيمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِيرُونَ﴾ هذا إقسام منه تعالى بالمشرق والمغرب للشمس والقمر والكواكب؛ لما فيها من الآيات الباهرات على البعث، وقدرته على تبديل أمثالهم، وهم بأعيانهم.

(٤١) ﴿عَلَىٰ أَن تُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ إنا لقادرون على أن نهلكهم، ونأتي بأناس خير منهم.

(٤٢) ﴿وَمَا تَحْنُ بِمُسْتَوْفِينَ﴾ ما أحد يسبقنا ويفوتنا ويعجزنا إذا أردنا أن نعيده.

﴿فَدَرَهُمْ يَخْرُصُوا وَيَلْعَبُوا﴾ يخوضوا بالأقوال الباطلة، والعقائد الفاسدة، ويلعبوا بدينهم، ويأكلوا ويشربوا، ويتمتعوا ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ فإن الله قد أعد لهم فيه من النكال والوبال ما هو عاقبة خوضهم ولعبهم.

(٤٣) ﴿يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ الْقُبُورِ سِرَاعًا﴾ مجيبين لدعوة الداعي، مهطعين إليها ﴿كَانْتُمْ إِلَىٰ نَصَبِ يَوْفُسُونَ﴾ كأنهم إلى علم يؤمون ويسرعون، أي: فلا يتمكنون من الاستعصاء للداعي، والالتواء لنداء المنادي.

(٤٤) ﴿خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ رَهَقَهُمْ ذُلَّةٌ﴾ وذلك أن الذلة والقلق قد ملك قلوبهم، واستولى على أفئدتهم؛ فخشعت منهم الأبصار، وسكنت منهم الحركات، وانقطعت الأصوات.

﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ ولا بد من الوفاء بوعد الله.

(١٠) ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ أي: اتركوا ما أنتم عليه من الذنوب، واستغفروا الله منها.

﴿إِنَّهُمْ كَانَ غَفَّارًا﴾ كثير المغفرة لمن تاب واستغفر.

(١١) ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ مطراً متتابعاً، يروي الشعاب والوهاد، ويحيي البلاد والعباد.

(١٢) ﴿وَيُمِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ أي: يكثر أموالكم التي تدركون بها ما تطلبون من الدنيا وأولادكم ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّتٍ وَجَعْلَ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ جعل لكم جنات فيها أنواع الثمار وخللها بالأنهار الجارية فيها.

(١٣) ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ لا تخافون لله عظمة، وليس لله عندكم قدر.

(١٤) ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ من نطفة، ثم من علقه، ثم من مضغة.

(١٥) ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ كل سماء فوق الأخرى.

(١٦) ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ لأهل الأرض، وجعل الشمس سراجاً فاوت بينها وبين القمر في الاستتارة، وجعل كلاً منهم نموذجاً على حدة.

(١٧) ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ حين خلق أباكم آدم وأنتم في صلبه.

(١٨) ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ عند الموت ﴿وَيُخْرِجُكُمْ مِنْهَا﴾ للبعث والنشور، فهو الذي يملك الحياة والموت والنشور.

(١٩) ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ مبسوطة مهيةً للانتفاع بها.

(٢٠) ﴿لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ ليتمكنوا حرثها وغرسها وزرعها، والبناء، والسكون على ظهرها.

يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ١١ وَيُمِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ١٢ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ١٤ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ١٥ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ١٦ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ مِنْهَا إِخْرَاجًا ١٨ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ١٩ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ٢٠ قَالَ نوحٌ رَبِّ انْصُرْنِي وَلَا تَجْعَلْ لِي دُونَِ اللَّهِ إِلَهًا ٢١ وَكَرِهْتُكَ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا تَدْرُونَ ٢٢ وَكَرِهْتُكَ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا تَدْرُونَ ٢٣ وَقَدْ أَصْلَحُوا كَثِيرًا ٢٤ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ٢٥ وَمَا خَطِبْتَهُمْ إِذْ قُورُوا فَادْخُلُوا آثَارًا فَلَمْ يُجِبُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ٢٦ وَقَالَ نوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي وَالْكَافِرِينَ دِيَارًا ٢٧ إِنَّكَ إِن تَذَرْنَهُمْ يَفْسُدُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَجَارًا كَفَّارًا ٢٨ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدِي وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ٢٩

(٦) ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾ نفوراً عن الحق وإعراضاً، فلم يبق لذلك فائدة؛ لأن فائدة الدعوة أن يحصل جميع المقصود أو بعضه.

(٧) ﴿وَإِنِّي كُنْتُ مَدْعُوهُمْ لَتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ لأجل أن يستجيبوا، فإذا استجابوا غفرت لهم ﴿جَعَلُوا أَصْوَعًا فِيْءَ آذَانِهِمْ﴾ حذر سماع ما يقول لهم نبيهم نوح عليه الصلاة والسلام، ﴿وَاسْتَفْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ تغطوا بها غطاء يغشاهم، بعداً عن الحق وبغضاً له ﴿وَأَصْرَوْا﴾ على كفرهم وشركهم ﴿وَاسْتَكْبَرُوا﴾ على الحق ﴿أَسْتَكْبَرُوا﴾ فشرهم ازداد، وخيرهم بعد.

(٨) ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ بمسمع منهم كلهم.

(٩) ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ﴾ أي كلاماً ظاهراً بصوت عال ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِشْرَارًا﴾ أي: فيما بيني وبينهم

الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢١﴾ لو كان ضلالهم عند دعوتي إياهم بحق؛ لكان مصلحة، ولكن لا يزيدون بدعوة الرؤساء إلا ضلالاً.

(٢٥) ﴿وَمِمَّا خَطَبْتِهِمْ أَعْرِفُوا﴾، أي: بسبب خطيئاتهم اغرقوا في الطوفان الذي أحاط بهم ﴿فَادْخُلُوا نَارًا﴾؛ أي: حل بهم النكال فذهبت أرواحهم للنار والحرق ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ ينصرونهم حين نزل بهم الأمر، ولا أحد يقدر يعارض القضاء والقدر. وهذه من الآيات التي استدل بها العلماء على إثبات عذاب القبر.

(٢٦) ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ يدور على وجه الأرض. (٢٧) وذكر السبب في ذلك؛ فقال: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ بقاؤهم مفسدة محضة، لهم ولغيرهم.

(٢٨) ﴿رَبِّ أَعِفِّرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا﴾ خص المذكورين؛ لتأكد حقهم، وتقديم برهم، ثم عمم الدعاء؛ فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا نَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَارًا﴾ خساراً ودماراً وهلاكاً.

(٢١) ﴿قَالَ نُوحٌ﴾ شاكياً لربه: ﴿إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ فيما أمرتهم به ﴿وَاتَّبَعُوا مَنْ لَوْ بَرَدَهُ مَالُهُمْ وَلَوْلَا إِلَّا خَسَارًا﴾ اتبعوا الملاء والأشراف الذين لم تزدتهم أموالهم وإلا أولادهم إلا هلاكاً وتفويتاً للأرباح.

(٢٢) ﴿وَمَكُرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾ مكرراً كبيراً بليغاً في معاندة الحق.

(٢٣) ﴿وَقَالُوا﴾ لهم داعين إلى الشرك مزينين له: ﴿لَا تَذَرْنِي يَا إِلَهَكَ﴾ فدعوههم إلى التعصب على ما هم عليه من الشرك، وأن لا يدعوا ما عليه آبائهم الأقدمون ﴿وَلَا تَذَرْنِي وَدًا وَلَا سَوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ وهذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام؛ فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً، وسموها بأسمائهم؛ ففعلوا لينشطوا - بزعمهم - على الطاعة إذا رأوها؛ حتى إذا هلك ونسخ العلم عبدة، كذلك أوصى رؤسائهم للتابعين لهم أن لا يدعوا عبادة هذه الآلهة.

(٢٤) ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ وقد أضل الكبار والرؤساء بدعوتهم كثيراً من الخلق ﴿وَلَا نَزِدِ

(٢٣) أخرج البخاري عن عبد الله بن عباس ؓ: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما (ود) فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما (سواع) فكانت لهذيل، وأما (يعوث) فكانت لمعاد ثم لبني غطفان بالجوف غرباً، وأما (يعوق) فكانت لهمدان، وأما (نسر) فكانت لحمير لآل ذي الكلاع، وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام؛ فلما هلكوا؛ أوحى الشيطان على قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً، وسموها بأسمائهم. ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك، وتنسخ العلم عبدة.

(٢٨) أخرج أحمد وأبو داود والترمذي بإسناد حسن عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه سمع رسول الله ﷺ قال: «لا تصحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي».

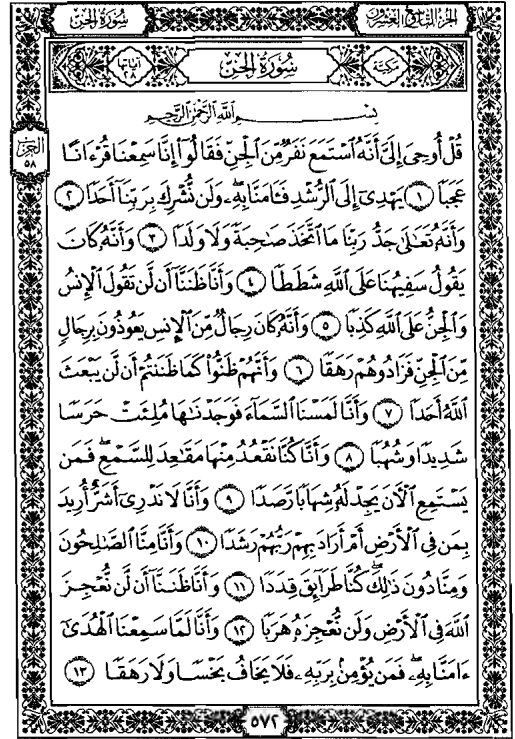
(٢) ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ والرشد: اسم جامع لكل ما يرشد الناس إلى مصالح دينهم ودنياهم ﴿فَقَامَنَا بِهِ﴾ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿فجمعوا بين الإيمان الذي يدخل فيه جميع أعمال الخير، وبين التقوى المتضمنة لترك الشر، وهذا الإيمان النافع، المثمر لكل خير، المبني على هداية القرآن، بخلاف إيمان العوائد والمربى والإلف ونحو ذلك، فإنه إيمان تقليد تحت خطر الشبهات والعوارض الكثيرة.

(٣) ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا﴾ تعالت عظمته وتقدست أسماؤه ﴿مَا أَخَذَ صَاحِبُهُ وَلَا وَلَدًا﴾ دلهم على بطلان من يزعم أن له صاحبة أو ولداً.

(٤) ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ إبليس لعنه الله ﴿عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ قولاً جائراً عن الصواب، متعدياً للحد، وما حمله على ذلك إلا سفهو وضعف عقله.

(٥) ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فأحسننا بهم الظن، وظنناهم لا يتجرءون على الكذب على الله.

(٦) ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾



سورة الجن

[وهي] مكية

(١) ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول للناس: ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ صرفهم الله إلى رسوله لسماع آياته ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ من العجائب الغالية، والمطالب العالية.

سورة الجن

(١) أخرج الشيخان عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه؛ قال: انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وخبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء إلا ما حدث؛ فأضربوا مشارق الأرض ومغاريها، فانظروا ما هذا الأمر الذي حال بينهم وبين خبر السماء؟ قال: فانطلق الذين توجهوا على تهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلة وهو عامد إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن، تسمعوا له، فقالوا: هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهناك رجعوا إلى قومهم، فقالوا: يا قومنا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَمَامَنَا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿ وأنزل الله ﷻ على نبيه ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ وإنما أوحى إليه قول الجن.

كان الإنس يعبدون الجن ويستعيذون بهم عند المخاوف والأفزع ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ زاد الجن الإنس ذعراً وتخويفاً لما رأوهم يستعيذون بهم؛ ليلجئوهم إلى الاستعاذة بهم، فكان الإنسي إذا نزل بواد مخوف، قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه.

(٧) ﴿وَأَنَّهُمْ طَطَّوْا كَمَا طَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ فلما أنكروا البعث أقدموا على الشرك والطغيان.

(٨) ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ أتيناها واختبرناها ﴿فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا﴾ عن الوصول إلى أرجائها والدنو منها، ﴿وَشُبُهًا﴾ يرمى بها من استرق السمع، وهذا بخلاف عادتنا الأولى، فإننا كنا نتمكن من الوصول إلى خبر السماء.

(٩) ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعَدًا لِّلسَّمْعِ﴾ فنتلقف من أخبار السماء ما شاء الله ﴿فَمَن يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ مرصداً له، معداً لإتلافه وإحراقه.

(١٠) ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أُرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ لا بد من هذا أو هذا؛ لأنهم رأوا الأمر تغير عليهم تغيراً أنكروه، فعرفوا بفطنتهم أن هذا الأمر يريد الله، ويحدثه في الأرض.

(١١) ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾ منا المؤمن ومنا الكافر ﴿كُنَّا طَرَائِقُ فِدْدًا﴾ فرقاً متنوعة، وأهواء متفرقة، كل حزب بما لديهم فرحون.

(١٢) ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ﴾ تبين لنا كمال قدرة الله وكمال عجزنا، وأن

وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَن أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٣﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٤﴾ وَأَلَوْ اسْتَقْبَلُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً عَذَقًا ﴿١٥﴾ لَتَقِينَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٦﴾ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا أَن يَكَفُرُوا عَلَيْهِ يَدًا ﴿١٨﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَتْلُو لَكُمْ رَسُولًا أَلَسْتُ بِرَبِّ لَن يُخِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَن أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٠﴾ لَا بَلَاءَ لَّن مِنَ اللَّهِ وَرُسُلَيْهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرُسُلَهُ لَن يَكُنَّ رِجَالَهُ مَضْطَرَرِّينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٢١﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْجُدُونَ مِمَّنْ أَضَعَفُ نَاصِرًا وَأَقْلَعُ عَدَدًا ﴿٢٢﴾ قُلْ إِن أَدْرَعْتَ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٣﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٥﴾ لَيَعْلَمَنَّ قَدِ أَتَيْنَاوْا رُسُلَكَ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخْنَسَ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٦﴾

نواصينا بيد الله؛ فلن نعجزه في الأرض ﴿وَلَن تُعْجِزُهُ هَرَبًا﴾ ولن نعجزه إن هربنا وسعينا بأسباب الفرار والخروج عن قدرته، لا ملجأ منه إلا إليه.

(١٣) ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾ وهو القرآن الكريم، الهادي إلى الصراط المستقيم، وعرفنا هدايته وإرشاده ﴿إِنَّمَا يَدْعُ إِلَىٰ طَرِيقٍ﴾ أثر في قلوبنا ﴿فَمَن يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ﴾ إيماناً صادقاً ﴿فَلَا يَخَافُ بَحْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ لا نقصاً ولا طغياناً ولا أذى يلحقه، وإذا سلم من الشر حصل له الخير.

(١٤) ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ الجائرون العادلون عن الصراط المستقيم ﴿فَمَن أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ أصابوا طريق الرشد، الموصل لهم إلى الجنة ونعيمها.

(١٥) ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾

(٢٣) ﴿إِلَّا بَلَقًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَةً﴾ ليس لي مزية على الناس، إلا أن الله خصني بإبلاغ رسالاته ودعوة الخلق إلى الله ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾
يوجب الخلود في النار.

(٢٤) ﴿حَقَّ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ شاهدوه عياناً، وجزموا أنه واقع بهم ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ في ذلك الوقت حقيقة المعرفة وهو يوم القيامة ﴿مَنْ أضعف ناصراً وأقل عدداً﴾ حين لا ينصرهم غيرهم ولا أنفسهم ينتصرون، وإذا يحشرون فرادى كما خلقوا أول مرة .

(٢٥) ﴿قُلْ﴾ لهم إن سألوكم؛ فقالوا: متى هذا الوعد؟ ﴿إِنَّ أَدْرَيْتُ أَقْرَبَ مَا تُوعَدُونَ﴾؛ أي: لا علم لي بوقت الساعة، ولا أدري أقرب وقتها أم بعيد ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾ غاية طويلة.

(٢٦) ﴿عَلَيْهِمُ اللَّعْنَةُ فَلَا يُظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ من الخلق، بل انفرد بعلم الضمائر والأسرار والغيب.

(٢٧) ﴿إِلَّا مَن أَرْضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ الرسل ليسوا كغيرهم؛ فإن الله أيدهم بتأييد ما أيده أحداً من الخلق، وحفظ ما أوحاه إليهم حتى يبلغوه على حقيقته، من غير أن تتخبطهم الشياطين، ولا يزدوا فيه أو ينقصوا؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنَّهُمْ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ يحفظونه بأمر الله.

(٢٨) ﴿يَعْلَمُ﴾ بذلك ﴿أَن قَدْ أَتْلَعُوا رِسَالَتِي رَنَّهُمْ﴾ بما جعله لهم من الأسباب ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ بما عندهم ﴿وَأَخَصَّىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾؛ أي: ما أسروه وأعلنوه.

أي: وقوداً تسعر بهم.
(١٦) ﴿وَأَلْوِ اسْتَقِمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾؛ أي: لو استقام القاسطون على طريقة الإسلام واستمروا عليها ﴿لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا﴾ هنيئاً مريئاً.

(١٧) ﴿لَنَفْتَنَّهُمْ فِيهِ﴾ لنختبرهم فيه، ونمتحنهم؛ ليظهر الصادق من الكاذب ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ من أعرض عن ذكر الله، الذي هو كتابه، فلم يتبعه وينقذ له، بل غفل عنه ولهي، يسلكه عذاباً شديداً بليغاً.

(١٨) ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ فإن المساجد التي هي أعظم محال العبادة مبنية على الإخلاص لله، والخضوع لعظمته والاستكانة لعزته ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ لا دعاء عبادة، ولا دعاء مسألة.

(١٩) ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ يسأله ويتعبد له، ويقرأ القرآن ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ﴾ كاد الجن من تكاثرهم عليه أن يكونوا عليه ﴿لِيَدَّ﴾ متلبدين متراكمين حرصاً على سماع ما جاء به من الهدى.

(٢٠) ﴿قُلْ﴾ لهم يا أيها الرسول مبيناً حقيقة ما تدعو إليه: ﴿إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ أوحده وحده لا شريك له، وأخلع ما دونه من الأنداد والأوثان، وكل ما يتخذه المشركون من دونه.

(٢١) ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ فإني عبد ليس لي من الأمر، ولا من التصرف شيء.

(٢٢) ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُخْرِجَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾ لا أحد أستجير به ينقذني من عذاب الله ﴿وَلَن أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ ملجأً ومنتصراً.

سورة المزمل [وهي] مكية

(١) ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ﴾: المتغطي بشيابه كالمدثر، وهذا الوصف حصل من رسول الله ﷺ حين أكرمه الله برسالته.

(٢) ﴿فَوَيْلٌ لِلَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾؛ أي: للصلاة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ وكان قيام الليل فريضة في الابتداء، وبين قدره فقال:

(٣) ﴿يَضَعُهُ أَوْ أَفْقَصُهُ مِنْ النِّصْفِ قَلِيلًا﴾ بأن يكون الثلث ونحوه.

(٤) ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ على النصف؛ فيكون الثلثين ونحوها ﴿وَرَبِّهِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾؛ أي: اقرأ القرآن على تمهل؛ فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبره.

(٥) ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ نوحى إليك هذا القرآن الثقيل، أي: العظيمة معانيه، الجليلة أوصافه.

(٦) ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ الصلاة فيه بعد النوم ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أقرب إلى تحصيل

مقصود القرآن، يتواطأ على القرآن القلب واللسان، وتقل الشواغل، ويفهم ما يقول، ويستقيم له أمره.

(٧) ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ تردداً على حوائجك ومعاشك، يوجب اشتغال القلب وعدم تفرغه التفرغ التام.

(٨) ﴿وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ﴾ شامل لأنواع الذكر

(١) أخرج أبو داود بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت أول المزمل كانوا يقومون نحواً من قيامهم في شهر رمضان، حتى نزل آخرها، وكان بين أولها وآخرها سنة».

(٤) أخرج مسلم عن عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ يقرأ السورة، فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها. وفي صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه: «أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ فقال: كانت مداً ثم قرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) يمد (بسم الله) ويمد (الرحمن) ويمد (الرحيم)».

(٥) أخرج البخاري أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحياناً يأتي مثل صلصلة الجرس، وهو أشده على فيفصم عني وقد وعيت عن» قال: «وأحياناً يتمثل لي الملك، فيكلمني فأعي ما أقول» قالت عائشة: «ولقد رأيته ينزل عليه الوحي ﷺ في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه يتفصد عرقاً».

وبشاعته، وكراهة طعمه وريحه الخبيث المتن
﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ موجعاً مقطعاً.

(١٤) وذلك ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ تزلزل
من الهول العظيم ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ﴾ الراسيات
الصم الصلاب ﴿كَيْيَاً مَهِيلاً﴾ بمنزلة الرمل
المنهال المنتشر.

(١٥) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَهِيدًا عَلَيْكَ﴾
احمدوا ربكم على إرسال هذا النبي الأمي
العربي البشير النذير، الشاهد على الأمة
بأعمالهم، واشكروه وقوموا بهذه النعمة
الجليلة، وإياكم أن تكفروها، فتعصوا رسولكم
﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ فتكونوا كفرعون
حين أرسل الله إليه موسى بن عمران عليه
الصلاة والسلام، فدعاه إلى الله، وأمره
بالتوحيد.

(١٦) ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ فلم يصدقه؛ بل
عصاه ﴿فَأَخَذَتْهُ أَخْذًا﴾ فأخذه الله أخذاً ﴿وَبِيلًا﴾
شديداً بليغاً.

(١٧) ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ
شِيبًا﴾ فكيف يحصل لكم الفكاك والنجاة من
يوم القيامة، اليوم المهيل أمره، العظيم قدره،
الذي يُشيب الولدان، تذوب له الجمادات
العظام.

(١٨) ﴿الْأَسْمَاءُ مُنْقَطِرَةٌ﴾ وتذوب له الجمادات
العظام، فتفطر به السماء، وتنتثر به نجومها
﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ لا بد من وقوعه، ولا
حائل دونه.

(١٩) ﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ إن هذه الموعظة
التي نبا الله بها من أحوال يوم القيامة
وأهواله، تذكرة يتذكر بها المتقون، وينزجر بها

كلها ﴿وَنَبِّئْهُ إِنَّهُ بَبَّيْلًا﴾ انقطع إلى الله
تعالى؛ بالانفصال بالقلب عن الخلائق،
والاتصاف بمحبة الله، وكل ما يقرب إليه،
ويدني من رضاه.

(٩) ﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ وهذا اسم جنس
يشمل المشارق والمغارب كلها، فهو تعالى
رب المشارق والمغارب، وما يكون فيها من
الأنوار، وما هي مصلحة له من العالم العلوي
والسفلي.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود إلا وجهه
الأعلى، الذي يستحق أن يخص بالمحبة
والتعظيم، والإجلال والتكريم ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾
حافظاً ومدبراً لأمره كلها.

(١٠) ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أمره بالصبر على
ما يقول فيه المعاندون له ويسبون ويسبون ما
جاء به، وأن يمضي على أمر الله، لا يصدده
عنه صداد، ولا يردده راد ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا
جَمِيلًا﴾ وأن يهجرهم هجراً جميلاً؛ وهو الهجر
حيث اقتضت المصلحة الهجر الذي لا أذية
فيه، فيقابلهم بالهجر والإعراض عنهم وعن
أقوالهم التي تؤذيه.

(١١) ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ اتركني وإياهم؛
فسأنتقم منهم، وإن أمهلتهم فلا أمهلتهم ﴿أُولَىٰ
النَّعْمَةِ﴾ أصحاب النعمة والغنى: الذين طغوا
حين وسع الله عليهم من رزقه، وأمدهم من
فضله ﴿وَمَهْلُهُمْ قَلِيلًا﴾ أي: رويداً.

(١٢) ﴿إِنَّ لَدَيْنَا﴾ إن عندنا ﴿أَنْكَالًا﴾ عذاباً
شديداً، جعلناه تنكيلاً للذي لا يزال مستمراً
على الذنوب ﴿وَحِجَابًا﴾ ناراً حامية.

(١٣) ﴿وَعَلَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ وذلك لمرارته

المؤمنون ﴿فَمَنْ شَاءَ أَخَذَ إِلَيَّ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ طريقاً موصلاً إليه، وذلك باتباع شرعه.

(٢٠) ﴿إِنَّ رَبَّكَ بِعِلْمِ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلَاثِي اللَّيْلِ وَصَفَمُ وَلُثْمُ وَطَافَةُ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ ذكر الله في أول هذه السورة: أنه أمر رسوله بقيام نصف الليل أو ثلثه أو ثلثيه، والأصل أن أمته أسوة له في الأحكام أنه امتثل ذلك هو وطائفة معه من المؤمنين ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ يعلم مقاديرهما وما يمضي منهما ويبقى ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ﴾ لن تعرفوا مقداره من غير زيادة ولا نقص؛ لكون ذلك يستدعي انتباهها وعناء زائداً ﴿فَنَابَ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: فخفف عنكم، وأمركم بما تيسر عليكم، سواء زاد على المقدر أو نقص ﴿فَاقْرَءُوا مَا يَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ مما تعرفون ومما لا يشق عليكم ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْجِيٌّ﴾ يشق عليهم صلاة ثلثي الليل أو نصفه أو ثلثه؛ فليصل المريض المتسهل عليه ﴿وَأَخْرُونَ بِضُرُوبٍ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ وعلم أن منكم مسافرين يسافرون للتجارة؛ ليستغنوا عن الخلق، ويتكففوا عن الناس.

﴿وَأَخْرُونَ يُقِيلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ من قتال أو جهاد، أو حج أو عمرة، ونحو ذلك ﴿فَاقْرَءُوا مَا يَسَّرَ مِنْهُ﴾؛ فإنه أيضاً يراعي ما لا يكلفه، فلله الحمد والثناء، الذي ما جعل على الأمة في الدين من حرج، بل سهل شرعه، وراعى أحوال عباده، ومصالح دينهم وأبدانهم ودنياهم ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ بأركانها وشروطها ومكملاتها ﴿وَأَقْرِضُوا

سُورَةُ الْمُلْكِ الْمُلْكُ

إِنَّ رَبَّكَ بِعِلْمِ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلَاثِي اللَّيْلِ وَصَفَمُ وَلُثْمُ وَطَافَةُ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَنَّابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا يَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْجِيٌّ وَآخْرُونَ بِضُرُوبٍ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخْرُونَ يُقِيلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا يَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا عَفْوَ رَجِيمٌ

سُورَةُ الْمُلْكِ الْمُلْكُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بَيِّنَاتٍ لِّلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ ١ وَبَيِّنَاتٍ لِّلَّذِينَ يُكْفَرُونَ ٢ وَإِنَّ رَبَّكَ لَفَظِيرٌ ٣ وَأَلَّا تَحْزَنَ قَاهِجٌ ٤ وَلَا تَمَنَّيَنَّ سَكَتٌ ٥ وَلِرَبِّكَ فَاصِرٌ ٦ فَإِذَا تَفَرَّقْنَا فَمَا تَقُولُونَ ٧ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَكُونُ لِّلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٨ وَذَرْ وَمَنْ خَلَقْتَ وَحِيدًا ٩ وَجَعَلْتَ لَهُ مَا لَا مَدَدَ لَهُ ١٠ وَبَيْنَ شُهُودًا ١١ وَهَدَيْتَ لَهُمْ سَبِيلًا ١٢ ثُمَّ نَبْطِئُ عَنْهُ ١٣ أَنْ أَرِيدَ ١٤ كَلَّا إِنَّهُمْ كَانُوا لَآيِنًا عَنِ الْغَيْدِ ١٥ سَاءَ هُفُهُمْ صَعُودًا ١٦

٥٧٥

اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا﴾ خالصا لوجه الله، من نية صادقة، وتثبيت من النفس، ومال طيب، ويدخل في هذا: الصدقة الواجبة والمستحبة، ثم حث على عموم الخير وأفعاله فقال: ﴿وَمَا تَقْدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة. ﴿وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا عَفْوَ رَجِيمٌ﴾ وفيه الأمر بالاستغفار بعد الحث على أفعال الطاعة والخير، وذلك أن العبد ما يخلو من التقصير فيما أمر به، إما أن لا يفعله أصلاً، أو يفعله على وجه ناقص؛ فأمر بترقيع ذلك بالاستغفار.

(٢٠) أخرج البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أيكم ماله أحب إليه من مال واره؟» قالوا: يا رسول الله! ما منا من أحد إلا ماله أحب إليه من مال واره، قال: «اعلموا ما تقولون» قالوا: ما نعلم إلا ذلك يا رسول الله؟ قال: «إنما مال أحدكم ما قدم، ومال واره ما أخر».

سورة المدثر
وهي مكية

أسديت إليهم من النعم الدينية والدنيوية ﴿تَسْكُرُ﴾ فتكثر بتلك المنة، وترى لك الفضل عليهم بإحسانك المنة.

(٧) ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصِرٌ﴾ احتسب بصبرك، واقصد به وجه الله تعالى.

(٨) ﴿فَإِذَا نُفِرَ فِي الْأُنْفُورِ﴾ فإذا نفخ في الصور للقيام من القبور، وجمع الخلق للبعث والنشور.

(٩) ﴿فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ لكثرة أهواله وشدائده.

(١٠) ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ بأن أيقنوا بالهلاك والبوار.

(١١) ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ خلقته منفرداً، بلا مال ولا أهل ولا غيره، فلم أزل أنميّه وأربيّه

(١٢) ﴿وَجَعَلْتُ لَمْ مَالًا مَمْدُودًا﴾ كثيراً.

(١٣) ﴿وَوَيْلٌ لِّمَنِ جَعَلْتُ لَهُ﴾ ذكوراً ﴿شُهُودًا﴾ دائماً حاضرين عنده، على الدوام يتمتع بهم، ويقضي بهم حوائجه، ويستنصر بهم.

(١٤) ﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ مكنته من الدنيا

(١) ﴿يَأْتِيهَا الْمَدْثَرُ﴾ المتغطي بثيابه.

(٢) ﴿فَرُّ﴾ بجد ونشاط ﴿فَالْيَدْرُ﴾ الناس بالأقوال والأفعال، التي يحصل بها المقصود، وبيان حال المنذر عنه، ليكون ذلك أدعى لتركه.

(٣) ﴿وَرَبِّكَ فَكَيْرٌ﴾ عظمه بالتوحيد، واجعل قصدك في إنذارك وجه الله.

(٤) ﴿وَتَبَالِكٌ﴾ أي: أعماله كلها ﴿تَطْفَرُ﴾ وتطهيرها تخليصها والنصح بها، وإيقاعها على أكمل الوجوه، وتنقيتها عن المبطلات والمفسدات، والمنقصات من شر ورياء، وغير ذلك.

(٥) ﴿وَالْزَجَرُ﴾ الرجز أعمال الشر كلها وأقواله ﴿فَأَهْجُرُ﴾ فيكون أمراً له بترك الذنوب صغيرها وكبيرها، ظاهرها وباطنها، فيدخل في ذلك الشرك وما دونه.

(٦) ﴿وَلَا تَمُنْ﴾ لا تمنن على الناس بما

سورة المدثر

(١) أخرج الشيخان من جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: أحدثكم ما حدثنا رسول الله ﷺ قال: «جاورت بحراء شهراً، فلما قضيت جوارِي؛ نزلت فاستبطنت بطن الوادي، فنوديت، فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي فلم أر أحد، ثم نوديت، فنظرت فلم أر أحداً، ثم نوديت، فرفعت رأسي، فإذا هو على العرش في الهواء - يعني: جبريل عليه السلام - فأخذتني رجفة شديدة، فأتيت خديجة فقلت: دثروني فدثروني؛ فصبوا عليّ ماء، فأنزل الله ﷻ: ﴿يَأْتِيهَا الْمَدْثَرُ ۝ فَرُّ ۝﴾.

(٨) أخرج أحمد بإسناد صحيح لغيره عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحتى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ؟». فقال: قال أصحاب رسول الله ﷺ: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا».

وأسبابها، حتى انقادت له مطالبه، وحصل
على ما يشتهي ويريد.

(١٥) ﴿ثُمَّ﴾ مع هذه النعم والإمدادات ﴿يَطْمَعُ أَنْ﴾
﴿أَزِيدَ﴾ يطمع أن ينال نعيم الآخرة؛ كما نال نعيم
الدنيا.

(١٦) ﴿كَلَّا﴾ ليس الأمر كما ظمّع، بل هو بخلاف مقصوده ومطلوبه ؛ وذلك لأنه ﴿إِنَّمَا كَانَ لَابْنِنَا عَبْدًا﴾ معانداً، عرفها ثم أنكرها، ودعته إلى الحق فلم ينقد لها.

(۱۷) ﴿سَأَرْهُقُهُمْ صَعُودًا﴾ عَذَابًا لَا رَاحَةَ فِيهِ.

(١٨) ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ﴾ في نفسه ﴿وَقَدَّرَ﴾ ما فكر فيه؛
للقول قولاً يطل به القرآن.

(١٩) ﴿مَقُولٌ﴾ دعاء عليه؛ أي: لعن، وقيل: ﴿عَذْبٌ كَيْفٌ فَذَرْ﴾ على طريق التعجب والإنكار والتوبيخ.

(٢٠) ﴿ثُمَّ قُلْ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ كرره للتأكيد، وقيل: معناه لعن على أي حال قَدَّر من الكلام.

(۲۱) ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ ما يقول.

(٢٢) ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ في وجهه، وظاهره نفرة عن الحق وبغضاً له.

(٢٣) ﴿ثُمَّ أَذْبَرَ﴾ تولى ﴿وَأَسْتَكْبَرَ﴾ نتيجة سعيه
الفكري والعملي والقولي أن قال:

(۲۴) ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ هذا سحر ينقله محمد عن غيره ممن قبله ويحكيه عنهم.

(٢٥) ولهذا قال: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ ما هذا كلام الله، بل كلام البشر، وليس -أيضاً- كلام البشر الأخيار؛ بل كلام الفجار منهم والأشرار، من كل كاذب سحار.

(۲۶) ﴿سَاطِیَہٗ سَفَرٌ﴾ ساغمرہ فیہا من جمیع جہاتہ .

(٢٧) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ﴾ وهذا تهويل لأمرها وتفخيم.

(٢٨) ثم فسر ذلك بقوله: ﴿لَا بُقْي وَلَا نَذْرٌ﴾ ❀ لَا

(١٦) أخرج الشيخان عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه في قوله **تَبٰرَكَ**: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَمَلَّكَ بِهِ﴾ قال: كان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالوحي، وكان ما يحرك به لسانه وشفتيه فيشتد عليه، فكان ذلك يعرف منه، فأُنزل الله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَمَلَّكَ بِهِ﴾ أخذه **﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾** قال: إن علينا أن نجمعه في صدرك **﴿وَقُرْآنَهُ﴾** فتقرأه **﴿فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَنشَأَهُ قَرْآنًا﴾** قال: فإذا أنزلناه؛ فاستمع له **﴿ثُمَّ إِنِّي عَلَيْنَا لِيَأْنَئَهُ﴾** علينا أن نبينه بلسانك قال: فكان إذا أتاه جبريل؛ أطرق، فإذا ذهب؛ قرأه كما وعده الله تعالى. (٢٣) في «الصحاحين» من حديث جرير رضي الله عنه؛ قال: نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر فقال: «إنكم ترون ربكم؛ كما ترون هذا القمر، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس، ولا قبل غروبها؛ فافعلوا».

تبقي من الشدة، ولا على المعذب شيئاً إلا وبلغته.

(٢٩) ﴿لَوَاقِعٌ لِلْبَشَرِ﴾ تلوحهم وتصليهم في عذابها، وتقلقهم بشدة حرها وقرها.

(٣٠) ﴿عَلَيْهَا سِتْعَةُ عَشْرٍ﴾ من الملائكة، خزنة لها، غلاظ شداد، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

(٣١) ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ وذلك لشدتهم وقوتهم ﴿وَمَا جَعَلْنَا عَذَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يحتمل أن المراد: إلا لعذابهم وعقابهم في الآخرة، ولزيادة نكالهم فيها، ويحتمل أن المراد أنا ما أخبرناكم بعدتهم، إلا لنعلم من يصدق ومن يكذب ﴿لَيَسْتَفِيقَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَزَادُوا الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ فإن أهل الكتاب إذا وافق ما عندهم وطابقه، ازداد يقينهم بالحق، والمؤمنون كلما أنزل الله آية فآمنوا بها وصدقوا، ازداد إيمانهم ﴿وَلَا يَرَوْنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ ليزول عنهم الريب والشك ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ﴾ شك وشبهة ونفاق ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ وهذا على وجه الحيرة والشك، والكفر منهم بآيات الله، وهذا وذاك من هداية الله لمن يهديه، وإضلاله لمن يضل.

﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ فمن هداه الله، جعل ما أنزله الله على رسوله رحمة في حقه، وزيادة في إيمانه ودينه، ومن أضله، جعل ما أنزله على رسوله زيادة شقاء عليه وحيرة، وظلمة في حقه، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ﴾ لا يعلم جنود ربك من الملائكة وغيرهم ﴿إِلَّا هُوَ﴾ فإذا كنتم جاهلين بجنوده،

وأخبركم بها العليم الخبير، فعليكم أن تصدقوا خبره، من غير شك ولا ارتياب ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾ وما هذه الموعظة والتذكار مقصوداً به العبث واللعب، وإنما المقصود به أن يتذكر به البشر ما ينفعهم في فعلونه، وما يضرهم في تركونه.

(٣٢) ﴿كَلَّا﴾ بمعنى: حقاً ﴿وَالْقَبْرِ﴾ فأقسم تعالى بالقمر

(٣٣) ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ﴾ وبالليل وقت إدباره.

(٣٤) ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَشْفَرُ﴾ والنهار وقت إسفاره؛ لاشتمال المذكورات على آيات الله العظيمة، الدالة على كمال قدرة الله وحكمته، وسعة سطرانه، وعموم رحمته، وإحاطة علمه.

(٣٥) والمقسم عليه قوله: ﴿إِنَّمَا﴾ النار ﴿لَا تَحْدَى الْكَبِيرَ﴾ لإحدى العظام الطامة والأمور الهامة.

(٣٦) ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ قيل معناها: أي وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة إنذاراً للبشر، وقيل: هو صفة لمحمد ﷺ، ومعناه: يا أيها المدثر قم نذيراً للبشر..

(٣٧) ﴿لَمَن شَاءَ مِنكُم أَن يُقَدِّمَ أَوْ يُتَأَخَّرَ﴾ فمن شاء منكم أن يتقدم؛ فيعمل بما يقربه من ربه، ويدنيه من رضاه، ويزلفه من دار كرامته، أو يتأخر عما خلق له و عما يحبه الله ويرضاه؛ فيعمل بالمعاصي، ويتقرب إلى نار جهنم.

(٣٨) ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ من أعمال السوء وأفعال الشر ﴿رَهِيْنَةٌ﴾ بها موثقة بسعيها، قد ألزم عنقها، وغل في رقبتها، واستوجبت به العذاب.

(۳۹) ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَرْتَهِنُوا، بَلْ
أَطْلَقُوا وَفَرَحُوا

(٤٠) ﴿فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ﴾ في جنات قد حصل لهم بها جميع مطلوباتهم، وتمت لهم الراحة والطمأنينة، حتى أقبلوا يتساءلون، فأفضت بهم المحادثة.

(٤١) ﴿عَنِ الْمَجْرُمِينَ﴾ أَنْ سَأَلُوا عَنِ الْمَجْرُمِينَ أَيَّ حَالٍ وَصَلُوا إِلَيْهَا، وَهَلْ وَجَدُوا مَا وَعَدَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى؟

(٤٢) ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ أي شيء أدخلكم فيها؟ وبأيّ ذنب استحققتموها؟

(٤٣) ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَنْزِلْ بِكَ آيَاتٌ مِنْ الْمَلِئِكَةِ فَقُلْ مَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ فلا إخلاص للمعبود.

(٤٤) ﴿وَلَمْ تَكُنْ لِنَفْسِكُمْ نَظِيمٌ﴾ ﴿لِلْمَسْكِينِ﴾ ﴿وَلَا إِحْسَانٌ وَلَا نَفْعٌ لِلخَلْقِ الْمَحْتَاJِينَ﴾.

(٤٥) ﴿وَكَتَبْنَا نُحُوسَ مَعَ الْخَاسِرِينَ﴾ نخوض بالباطل، ونجادل به الحق.

(٤٦) ﴿وَكَمْا تَكْذِبُ يَوْمَ الْآيِينَ﴾ هذا آثار الخوض بالباطل، وهو التكذيب بالحق، ومن أحق الحق: يوم الدين، الذي هو محل الجزاء على الأعمال، وظهور ملك الله وحكمه العدل لسائر الخلق.

(٤٧) فاستمرينا على هذا المذهب الفاسد ﴿حَتَّىٰ أَتَنَّا آيَاتِينَ﴾ الموت، فلما ماتوا على الكفر تعذرت حينئذ عليهم الحيل، وانسد في وجوههم باب الأمل.

(٤٨) ﴿فَمَا تَفْعَلُهُمْ شَفْعَةُ الشَّافِعِينَ﴾؛ لأنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى، وهؤلاء لا يرضى الله

[illegible]

أعمالهم .

(٤٩) ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكُرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ صَادِينَ غَافِلِينَ عَنْهَا.

(٥٠) ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ في نفرتهم الشديدة منها ﴿حُمْرٌ مُّسْتَفِرَّةٌ﴾ كأنهم حمر وحش نفرت فنفر بعضها بعضها، فزاد عدوها.

(٥١) ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ من صائد ورام يريدها، أو من أسد ونحوه، وهذا من أعظم ما يكون من لنفور عن الحق.

(٥٢) ﴿بَلْ يَرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا
نَّازِلَةً عَلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ، يَزْعَمُ أَنَّهُ لَا يُنْقَادُ
لِلْحَقِّ إِلَّا بِذَلِكَ.

(٤٠) أخرج أبو داود بإسناد صحيح عن موسى بن أبي عائشة قال: كان رجل يعمل فوق بيته؛ فكان إذا قرأ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يَهْدِي الْكَلْبَ﴾ قال: سبحانك فيلي، فسأله عن ذلك، فقال: سمعته من رسول الله ﷺ.

من أحوالها.

(٣) ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْعَ عِظَامَهُ﴾ بعد الموت؛ فاستبعد من جهله وعدوانه قدرة الله على خلق عظامه التي هي عماد البدن.

(٤) فرد عليه بقوله: ﴿بَلَىٰ قَدَرِينَ عَلَيَّ أَنْ تُسَوَّىٰ بَنَانَهُ﴾ أطراف أصابعه وعظامه، المستلزم ذلك لخلق جميع أجزاء البدن.

(٥) ﴿بَلَىٰ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجَرُ أُمَامَهُ﴾؛ أي: أن قصده وإرادته يمضي قدماً للعمل بالمعاصي، وتسويف التوبة. وقيل: يمضي للكفر بالحق بين يدي القيامة.

(٦) ﴿يَسْتَلْ أَتَىٰ يَوْمَ الْفِتْنَةِ﴾ يقول متى يوم القيامة؟ استبعاداً لوقوعها، وتكذيباً لوجودها.

(٧) ﴿وَإِذَا بَرَأَ الْأَبْصَارُ مِنَ الْهَوْلِ الْعَظِيمِ، وشخصت فلا تطرف.

(٨) ﴿وَحَسَفَ الْقَمَرُ﴾ ذهب نوره وسلطانه

(٩) ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ وهما لم يجتمعا منذ خلقهما الله تعالى؛ فيجمع الله بينهما يوم القيامة، ويخسف القمر، وتكور الشمس، ثم يقذفان في النار.

(١٠) ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ﴾ حين يرى تلك القلائل المزعجات: ﴿إِنِّي الْمَرَّةُ﴾ أين الخلاص والفساك مما طرقتنا وأصابنا؟

(١١) ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ لا ملجأ لأحد دون الله.

(١٢) ﴿إِنِّي رَيْكَ يَوْمَئِذٍ النَّفْسُ النَّفْسُ﴾ فليس في إمكان أحد أن يستتر أو يهرب عن ذلك الموضع؛ بل لا بد من إيقافه ليجزى بعمله.

(١٣) ﴿يَبْنُو الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ يَمَّا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ بجميع عمله الحسن والسيئ، في أول وقته وآخره،

(٥٣) ولهذا قال: ﴿كَلَّا﴾ أن نعطيهم ما طلبوا، وهم ما قصدوا بذلك إلا التعجيز ﴿كَلَّ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ فلو كانوا يخافونها لما جرى منهم ما جرى.

(٥٤) ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ الضمير في «إنه» إما أن يعود على السورة، أو على ما اشتملت عليه من هذه الموعظة.

(٥٥) ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ﴾؛ لأنه قد بيّن له السبيل، ووضح له الدليل.

(٥٦) ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فإن مشيئته نافذة عامة، لا يخرج عنها حادث قليل ولا كثير، فأثبت تعالى للعباد مشيئة حقيقة وفعلاً، وجعل ذلك تابعاً لمشيئته ﴿هُوَ أَهْلُ الْقَوَىٰ وَأَهْلُ الْغَفَرَةِ﴾ هو أهل أن يتقى ويعبد؛ لأنه الإله الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وأهل أن يغفر لمن اتقاه، واتبع رضاه.

سورة القيامة [وهي] مكية

(١) ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ ليست «لا» هاهنا نافية، ولا زائدة، وإنما أتى بها للاستفتاح والاهتمام بما بعدها، ولكثرة الإتيان بها من اليمين، فالمقسم به في هذا الموضع، هو المقسم عليه، وهو البعث بعد الموت، وقيام الناس من قبورهم، ثم وقوفهم ينتظرون ما يحكم به الرب عليهم.

(٢) ﴿وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ الْوَامَةِ﴾ وهي جميع النفوس الخيرة والفاجرة؛ سميت: «الوامة»؛ لكثرة ترددتها وتلومها وعدم ثبوتها على حالة

وينبأ بخبر لا ينكره .
(١٤) ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ شاهد ومحاسب .

(١٥) ﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرُهُ﴾ فإنها معاذير لا تقبل .
(١٦) ﴿لَا تَحْزَنْ بِهِ لِسَانُكَ لِنِعْمَلْ بِهِ﴾ كان النبي ﷺ إذا جاءه جبريل بالوحي، وشرع في تلاوته عليه، بادره النبي ﷺ من الحرص قبل أن يفرغ، وتلاه مع تلاوة جبريل إياه؛ فنهاه الله عن هذا .

(١٧) ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ ضمن له تعالى أنه لا بد أن يحفظه ويقرأه، ويجمعه الله في صدره .

(١٨) ﴿فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَلْقَعْ قُرْآنَهُ﴾ إذا كمل جبريل قراءة ما أوحى الله إليك، فحينئذ اتبع ما قرأه وأقرأه .

(١٩) ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ بيان معانيه؛ فوعده بحفظ لفظه وحفظ معانيه، وهذا أعلى ما يكون .

(٢٠) ﴿كَلَّا﴾ حقاً أنكم ﴿تُحِثُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ أنكم همتكم الدار الدنيا العاجلة .

(٢١) ﴿وَتَذُرُونَ الْآخِرَةَ﴾ أنتم لاهون متشاغلون عن الآخرة .

(٢٢) ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾ حسنة بهية، لها رونق ونور، مما هم فيه من نعيم القلوب، وبهجة النفوس، ولذة الأرواح .

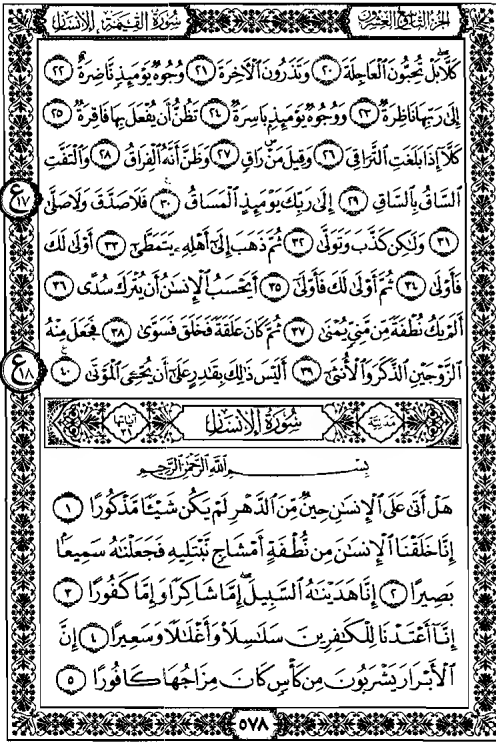
(٢٣) ﴿إِلَّا رِيًّا نَاطِرَةٌ﴾ تنظر إلى ربها على حسب مراتبهم .

(٢٤) ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ معبسة ومكدرة ، خاشعة ذليلة .

(٢٥) ﴿تَطُنُّ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ عقوبة شديدة، وعذاب أليم .

(٢٦) ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ بلغت روحه التراقي؛ وهي: العظام المكتنفة لثغرة النحر .

(٢٧) ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ أي: من يرقى بروحه:



ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟

(٢٨) ﴿وَلَنْ أَنَّهُ الْفَرَاقُ﴾ للدينا .

(٢٩) ﴿وَالْتَفَتِ أَسَاقُ بِالسَّاقِ﴾ اجتمعت الشدائد والتفت، وعظم الأمر وصعب الكرب، وأريد أن تخرج الروح التي ألقت البدن ولم تزل معه .

(٣٠) ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ فتساق إلى الله تعالى، حتى يجازيها بأعمالها، ويقررها بفعالها .

(٣١) ﴿فَلَا صَدَقَ﴾ لا آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ﴿وَلَا صُلِّ﴾ لم يقم الصلاة ولم يحافظ عليها .

(٣٢) ﴿وَلَكِنْ كَذَّبَ﴾ بالحق في مقابلة التصديق ﴿وَوَلَّى﴾ عن الأمر والنهي، هذا وهو مطمئن قلبه، غير خائف من ربه .

(٣٣) ﴿ثُمَّ ذَهَبَ﴾، بل يذهب ﴿إِلَى أَهْلِهِ يَمَنُّطُ﴾ ليس على باله شيء .

حاله الأولى ويتفطن لها، أم ينساها وتغره نفسه؟

﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ فأنشأه الله، وخلق له القوى الباطنة والظاهرة؛ كالسمع والبصر، وسائر الأعضاء، فأتىها له، وجعلها سالمة يتمكن بها من تحصيل مقاصده.

(٣) ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِنَّمَا شَاكَرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ وهذا الطريق الموصلة إلى الله، ورغبه فيها، وأخبره بما له عند الوصول إلى الله.

ثم أخبره بالطريق الموصلة إلى الهلاك، ورهبه منها، وأخبره بما له إذا سلكها: ﴿إِمَّا شَاكَرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ وابتلاه بذلك؛ فانقسم الناس إلى شاكِر لنعمة الله عليه، قائم بما حملة الله من حقوقه، وإلى كفور لنعمة الله عليه.

(٤) ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ﴾ إنا هبنا وأرصدنا ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ لمن كفر بالله، وكذب رسله، وتجراً على المعاصي ﴿سَلَسِيلًا﴾ في نار جهنم ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ تغل بها أيديهم إلى أعناقهم ويوثقون بها ﴿وَسَعِيرًا﴾ ناراً تستعر بها أجسامهم وتحرق بها أبدانهم.

(٥) ﴿إِنَّ الْأَبْتَرَارَ﴾ وهم الذين برت قلوبهم بما فيها من محبة الله ومعرفته، والأخلاق الجميلة، فبرت جوارحهم، واستعملوها بأعمال البر ﴿يَتَرَبَّوْنَ مِنْ كَأْسٍ﴾ شراب لذيد من خمر ﴿كَانَ مِرَاجُهَا كَافُورًا﴾ قد مزج بكافور؛ أي: خلط به؛ ليبرده، ويكسر حدته، وهذا الكافور في غاية اللذة قد سلم من كل

(٣٤ و ٣٥) ﴿أَوَّلَ لَكَ فَأَوَّلَ﴾ ثُمَّ أَوَّلَ لَكَ فَأَوَّلَ ﴿وهذه كلمات وعيد كررها لتكرير وعيده .

(٣٦) ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ معطلاً، لا يؤمر ولا ينهى، ولا يثاب ولا يعاقب؟

(٣٧) ﴿أَلَمْ يَكُنْ نَطْفَةً﴾ كان الإنسان نطفة ضعيفة ﴿مِنْ مَّيِّ يُمْنٍ﴾ من ماء مهين.

(٣٨) ﴿ثُمَّ كَانَ﴾ بعد المني ﴿عَلَقَةً﴾ دماً ﴿فَخَلَقَ﴾ الله منها الحيوان ﴿فَسَوَّيْ﴾ أتقنه وأحكمه.

(٣٩) ﴿فَجَعَلْ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ ثم ميز جنسه فجعله ذكراً أو أنثى بعلمه وتقديره.

(٤٠) ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ﴾ الذي خلق الإنسان وطوره إلى هذه الأطوار المختلفة ﴿يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُخْشِيَ الْمَوْتَ﴾، أما هذا الذي أنشأ هذا الخلق السوي من هذه النطفة الضعيفة بقادر على أن يعيده؛ كما بدأه وتناول القدرة للإعادة؟ بلى؛ إنه على كل شيء قدير.

سورة الإنسان وهي مكية

(١) ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ فذكر أنه مر عليه دهر طويل وهو الذي قبل وجوده وهو معدوم؛ بل ليس مذكوراً.

(٢) ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ ماء مهين مستقذر ﴿بَبْتَلِيهِ﴾ بذلك لنعلم هل يرى

سورة الإنسان

(٣) أخرج مسلم عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل الناس يغدو؛ فبائع نفسه فموبقها، أو معقها».

عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ١ يَوْمَئِذٍ يُؤْتُونَ بِالنَّدْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ٢ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِمْ شَيْئًا وَيَسِيرًا ٣ إِنَّمَا تُطْعَمُونَ لَوْلِيَهُ اللَّهُ لَا تَزِيدُكُمْ حَرْجًا وَلَا شُكْرًا ٤ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا غُيِّرَ قَاطِرًا ٥ فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شُرَازِلًا ٦ الْيَوْمَ وَلَقَّيْنَهُمْ نَصْرَهُ وَشُرُورًا ٧ وَحَرَّيْنَهُمْ بِمَاصِرٍ وَاجَّةً وَحَرِيرًا ٨ مُتَكَبِّرِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرْيَاكِ لَا يَزِيدُكُمْ حَرْجًا وَلَا شُكْرًا ٩ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذَلُّلًا ١٠ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِبَاقِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ١١ قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ١٢ وَسُقُوفٌ فِيهَا كَأْسًا كَانَتْ رِزْقًا لَهَا رِزْقًا ١٣ عَيْنًا فِيهَا سَمْنٌ سَلْسِيلًا ١٤ وَيُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ وَلَدُنْ مَخْلُودُونَ إِذَا رَأَوْهُمْ حَبَّتْهُمُ لَوْلَاؤُنَا شُكْرًا ١٥ وَإِذَا رَأَيْتُمْ نَمِيرًا وَنَمِيرًا كَبِيرًا ١٦ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُوفٌ أَسَاوِرٌ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ١٧ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُنْجَةً وَكَانَ سَمْعُكُمْ مُنْكَرًا ١٨ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ نَزِيلًا ١٩ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطِعْ مَنَّهُمْ إِنَّمَا أَرْكَبُوا ٢٠ وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ٢١

(١٢) ﴿وَجَرَّيْنَهُمْ بِمَا صَبَرُوا﴾ على طاعة الله، فعملوا ما أمكنهم منها، وعن معاصي الله، فتركوها، وعلى أقدار الله المؤلمة، فلم يتسخطوها ﴿جَنَّةً﴾ جامعة لكل نعيم، سالمة من كل مكدر ومنغص، ﴿وَحَرِيرًا﴾: لباسهم فيها حرير.

(١٣) ﴿مُتَكَبِّرِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرْيَاكِ﴾ الاتكاء: التمكن من الجلوس في حال الرفاهية والطمأنينة والراحة، والأرائك هي السرر التي عليها اللباس

مكدر ومنغص.

(٦) ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ ذلك الكأس اللذيذ الذي يشربون به، لا يخافون نفاذه، بل له مادة لا تنقطع، وهي عين دائمة الفيضان والجريان ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ يفجرها عباد الله تفجيراً، أنى شاءوا، وكيف أرادوا.

(٧) ﴿يُؤْتُونَ بِالنَّدْرِ﴾ بما ألزموا به أنفسهم لله من النذور والمعاهدات ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ منتشرًا فاشياً، فخافوا أن ينالهم شره، فتركوا كل سبب موجب لذلك ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ وهم في حال يحبون فيها المال والطعام، لكنهم قدموا محبة الله على محبة نفوسهم، ويتحرون في إطعامهم أولى الناس وأحوجهم ﴿وَسَكِينًا﴾ الفقير ﴿وَيَسِيرًا﴾ من فقد أباه ولم يبلغ الحلم ﴿وَأَسِيرًا﴾ من أسارى الحرب والأرقاء.

(٩) ويقصدون بإنفاقهم وإطعامهم وجه الله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُطْعَمُونَ لَوْلِيَهُ اللَّهُ لَا تَزِيدُكُمْ حَرْجًا وَلَا شُكْرًا﴾ لا جزاء مالياً.

(١٠) ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا غُيِّرَ عُبُوسًا﴾ شديد الجهمة والشر ﴿فَقَطَّرِيًّا﴾ ضنكاً ضيقاً.

(١١) ﴿فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شُرَازِلًا الْيَوْمَ﴾ فلا يحزنهم الفرع الأكبر ﴿وَلَقَّيْنَهُمْ﴾ أكرمهم وأعطاهم ﴿نَصْرَةً﴾ في وجوههم ﴿وَشُرُورًا﴾ في قلوبهم.

(٧) أخرج البخاري عن عائشة ؓ: أن رسول الله ﷺ قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه».

(٩) أخرج أحمد في «الزهد» وأبو نعيم في «الحلية» والبيهقي في «السنن الكبرى» و«شعب الإيمان» بإسناد صحيح عن نافع قال: مرض ابن عمر، فاشتبهت عنباً - أول ما جاء العنب - فأرسلت صفيّة - يعني امرأته - فاشتريت عقوداً بدرهم، فاتبع الرسول سائل فلما دخل به قال السائل: السائل. فقال ابن عمر: أعطوه إياه. فأعطوه إياه. ثم أرسلت بدرهم آخر، فاشتريت عقوداً؛ فاتبع الرسول السائل فلما دخل قال السائل: السائل. فقال ابن عمر: أعطوه إياه. فأعطوه إياه. فأرسلت صفيّة إلى السائل؛ فقالت: والله إن عدت لا تصيب منه خيراً أبداً، ثم أرسلت بدرهم آخر فاشتريت به».

فتجد الواحد منهم، عنده من القصور
والمساكن والغرف المزينة المزخرفة، ما لا
يدركه الوصف.

(٢١) ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ قد
جللتهم ثياب السندس والإستبرق الأخضران،
الذان هما أجل أنواع الحرير، فالسندس: ما
غلظ من الديباج، والإستبرق: ما رق منه
﴿وَحُلُوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ حلوا في أيديهم أساور
الفضة، ذكورهم وإناثهم ﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا
طَهُورًا﴾ لا كدر فيه بوجه من الوجوه، مطهراً
لما في بطونهم من كل أذى وقذى.

(٢٢) ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الجزاء الجزيل والعطاء
الجميل ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ على ما أسلفتموه
من الأعمال في الأيام الخالية ﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ
مَشْكُورًا﴾ القليل منه يجعل الله لكم به من
النعيم المقيم ما لا يمكن حصره.

(٢٣) ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا﴾ فيه الوعد
والموعيد، وبيان كل ما يحتاجه العباد، وفيه الأمر
بالقيام بأوامره وشرائعه أتم القيام، والسعي في
تنفيذها، والصبر على ذلك.

(٢٤) ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ اصبر لحكمه القدري؛
فلا تسخطه، ولحكمه الديني؛ فامض عليه، ولا
يعوقك عنه عائق ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ﴾ من المعاندين،
الذين يريدون أن يصدوك ﴿إِثْمًا﴾ فاعلاً إثمًا
ومعصية ﴿أَوْ﴾ ولا ﴿كُفْرًا﴾ فإن طاعة الكفار
والفجار والفساق لا بد أن تكون في المعاصي، فلا
يأمرون إلا بما تهواه أنفسهم.

(٢٥) ﴿وَاذْكُرْ أَمْرَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾؛ أي: أول
النهار وآخره، فدخل في ذلك الصلوات المكتوبات
وما يتبعها من النوافل والذكر، والتسبيح،

المزين ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا﴾ في الجنة ﴿شَمْسًا﴾ يضرهم
حرها ﴿وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ برداً شديداً.

(١٤) ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا نِزِيلًا﴾
قربت ثمراتها من مريدها تقريباً ينالها، وهو
قائم، أو قاعد، أو مضطجع.

(١٥) ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ﴾ ويطاف على أهل الجنة
الخدم والولدان ﴿بِإِيَّائِهِ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾ وهي
الكيزان التي لا عرى لها ولا خراطيم ﴿كَانَتْ
قَوَارِيرًا﴾ أكواب على صفاء الزجاج يرى ظاهرها
من باطنها في بياض الفضة شفافة.

(١٦) ﴿قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ﴾ مادتها من فضة ﴿فَقَدَرُوا
نَقِيرًا﴾ قدروا الأواني المذكورة على قدر ربيهم،
لا تزيد ولا تنقص.

(١٧) ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا﴾ في الجنة ﴿كَأْسًا﴾ من
كأس، وهو الإناء المملوء من خمر ورحيق
﴿كَانَ مَرَاجُهَا﴾ خلطها ﴿زَبْجِيلاً﴾ ليطيب طعمه
وريحته.

(١٨) ﴿يَمِينًا فِيهَا﴾ في الجنة ﴿تَسْقَى سَلْسِيلًا﴾
سميت بذلك؛ لسلاستها ولذتها وحسنها.

(١٩) ﴿وَيُطَوَّفُ﴾ على أهل الجنة، في طعامهم
وشرابهم وخدمتهم ﴿وَلَدَانٌ مُّخْلَدُونَ﴾ خلقوا من
الجنة للبقاء، لا يتغيرون ولا يكبرون، وهم
في غاية الحسن ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ منتشرين في
خدمتهم ﴿حَسْبَتْهُمْ﴾ من حسنهم ﴿تَوَلَّوْا مَتَّوِّكًا﴾
في انتشارهم في قضاء حوائجهم، وكثرتهم،
وصباحة وجوههم، وحسن ألوانهم وثيابهم
وحليهم، حسنهم في التشبه أحسن من هذا
اللؤلؤ المنشور على المكان الحسن.

(٢٠) ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ﴾ هناك في الجنة، ورمقت
ما هم فيه من النعيم ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا﴾



(٣١) ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ فيختصه بعنايته، ويوفقه لأسباب السعادة ويهديه لطرقها ﴿وَالظَّالِمِينَ﴾ الذين اختاروا الشقاء على الهدى ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بظلمهم وعدوانهم.

سورة المرسلات وهي مكية

(١) في صدر هذه السورة أقسم تعالى على البعث والجزاء بالأعمال فقال: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ﴾ وهي

والتهليل، والتكبير في هذه الأوقات.

(٢٦) ﴿وَمَنْ أَيْلٍ فَاسْجُدْ لَهُ﴾ أكثر له من السجود، ولا يكون ذلك إلا بالإكثار من الصلاة ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ وقد تقدم تقييد هذا المطلق بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمُرْمِلُ﴾ [المزمل: ١، ٢].

(٢٧) ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ لَكَ أَيُّهَا الرُّسُولُ بَعْدَ مَا بَيَّنْتَ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ يَجُوبُونَ ﴿بَلْ لَا يَزَالُونَ يُؤْتِرُونَ﴾ الْعَاجِلَةَ ﴿وَيُطْمَثْنُونَ إِلَيْهَا﴾ وَيَذَرُونَ ﴿يَتْرَكُونَ الْعَمَلَ وَيَهْمِلُونَ﴾ وَرَاءَهُمْ ﴿أَمَامَهُمْ﴾ يَوْمًا قَلِيلًا ﴿وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ الذي مقداره خمسون ألف سنة مما تعدون.

(٢٨) ﴿تَحْنُ خَلْقَهُمْ﴾ أوجدناهم من العدم ﴿وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ أَحْكَمْنَا خَلْقَتَهُم بِالْأَعْصَابِ، وَالْعُرُوقِ، وَالْأَوْتَارِ، وَالْقَوَى الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ بَدِيلًا﴾ أَنشَأْنَاكُمْ لِلْبَعثِ نَشَاءً أُخْرَى، وَأَعَدْنَاكُمْ بِأَعْيَانِكُمْ، وَهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ أَمْثَلَهُمْ.

(٢٩) ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ﴾ يتذكر بها المؤمن، فينتفع بما فيها من التخويف والترغيب ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ طريقاً موصلاً إليه. (٣٠) ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فَإِنْ مَشِئْتَهُ اللَّهُ نَافِذَةٌ.

(٣١) ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فله الحكمة في هداية المهتدي، وإضلال الضال.

(١) في «الصحيحين» عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: بينما نحن مع النبي ﷺ في غار بمنى إذ نزلت عليه «المرسلات»؛ فإنه ليتلوها، وإني لأتلقاها من فيه، وإن فاه لرطب بها إذ وثبت علينا حية فقال ﷺ: «أقتلوها» فابتدرناها فذهبت، فقال النبي ﷺ: «وقيت شركم كما وقيت شرها».

و«فيهما» عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه أن أم الفضل سمعته يقرأ: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ فقالت: يا بني، أذكرتني بقراءتك هذه السورة؛ إنها لآخر ما سمعتُ من رسول الله ﷺ يقرأ بها في المغرب.

- (٥) ﴿فَالْمَلَكُوتِ ذِكْرًا﴾ هي: الملائكة تلقي أشرف الأوامر، وهو: الذكر الذي يرحم الله به عباده، ويذكرهم فيه منافعهم ومصالحهم.
- (٦) ﴿عَذْرًا أَوْ تَذْرًا﴾ إعداراً وإنذاراً للناس.
- (٧) ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ من البعث والجزاء على الأعمال ﴿لَوْعَةٍ﴾ محتتم وقوعه، من غير شك ولا ارتياب.
- (٨) ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ فتنطمس النجوم وتتناثر، وتزول عن أماكنها.
- (٩) ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾ انفطرت وانشقت وتدلّت أرجاؤها.
- (١٠) ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِفَتْ﴾ وتنسف الجبال؛ فتكون كالهباء المتثور.
- (١١) ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُدْنِيتْ﴾ أقتت فيه الرسل، وأجلت للحكم بينها وبين أممها.
- (١٢) ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا يَوْمَ يُنْفَخُ﴾ استفهام للتعظيم والتفخيم والتهويل لأيّ يوم أجل أمرها حتى تقوم الساعة.
- (١٣) ﴿لِيَوْمِ الْقَضَى﴾ بين الخلائق بعضهم لبعض، وحساب كل منهم منفرداً.
- (١٤) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْقَضَى﴾ تعظيماً لشأنه، وتفخيماً لأمره.
- (١٥) ﴿وَلِلْمُكَذِّبِينَ﴾ يوم يقع الفصل ويل للمكذبين من العذاب الهائل الكبير يا حسرتهم، وشدة عذابهم، وسوء منقلبهم.
- (١٦) ﴿أَلَمْ نُهِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أما أهلكننا المكذبين السابقين.
- (١٧) ﴿ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخَرِينَ﴾ ثم نتبعهم بإهلاك من كذب من الآخرين.
- (١٨) ﴿كَذَلِكَ نَفْعِلُ الْغَافِرِينَ﴾ وهذه سنته



- الملائكة التي يرسلها الله تعالى بشئونه القدريّة وتدير العالم، وبشئونه الشرعية ووحيه إلى رسله ﴿عُرْفًا﴾ أرسلت بالعرف والحكمة والمصلحة، لا بالنكر والعبث، وقيل: هي الرياح.
- (٢) ﴿فَالْعَصْفِ عَصْفًا﴾ وهي أيضاً الملائكة التي يرسلها الله -تعالى- وصفها بالمبادرة لأمره، وسرعة تنفيذ أوامره، كالريح العاصف، وقيل: هي الرياح إذا هبت بتصويت.
- (٣) ﴿وَالنَّشْرِ نَشْرًا﴾ يحتمل أنها الملائكة، تنشر ما دبرت على نشره، أو أنها السحاب التي ينشر بها الله الأرض، فيحييها بعد موتها.
- (٤) ﴿فَالْفَرْقَةِ فَرْقًا﴾ هي: الملائكة التي تنزل على الرسل تفرق بين الحق والباطل، والهدى والغى، والحلال والحرام.

الراسيات الشامخات؛ أي: الطوال العراض
﴿وَأَسْقَيْنَكُم مَّاءً قُرَّانًا﴾ عذاباً زلالاً.

(٢٨) ﴿وَبِلَّيْلٍ يَوْمِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ مع ما أراهم الله
من النعم التي انفرد الله بها، واختصهم بها،
فقابلوها بالتكذيب.

(٢٩) ومن الويل الذي أعد للمكذبين أن يقال
لهم: ﴿أَطْلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ ثم فسر
ذلك بقوله:

(٣٠) ﴿أَطْلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي تِلْكَ شُعَبٍ﴾ إلى ظل نار
جهنم، ثلاث قطع من النار تتعاوره وتتناوبه
وتجتمع به.

(٣١) ﴿لَا ظِلِّيلٍ﴾ ذلك الظل لا راحة فيه ولا
طمأنينة ﴿وَلَا يُعْنَى﴾ من مكث فيه ﴿مِنْ
الْأَلْهِبِ﴾ بل اللهب قد أحاط به يمنة ويسرة
ومن كل جانب.

(٣٢) ﴿إِنَّمَا نَارُ جَهَنَّمَ تَبْرَى بِشَكْرِ﴾ متطاير
من لهبها ﴿كَالْقَصْرِ﴾ كأصول الشجر.

(٣٣) ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ أي الشرر ﴿جُمِلَتْ صُفْرٌ﴾ حبال
السفن.

(٣٤) ﴿وَبِلَّيْلٍ يَوْمِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ويل لهم من شدة
الآهوال والزلازل يومئذ.

(٣٥) ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَظْفِقُونَ﴾ هذا اليوم العظيم
الشديد على المكذبين، لا ينطقون فيه من الخوف
والوجل الشديد.

(٣٦) ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْبُدُونَ﴾ لا تقبل معذرتهم،
ولو اعتذروا.

(٣٧) ﴿وَبِلَّيْلٍ يَوْمِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ الذين كذبوا

السابقة واللاحقة في كل مجرم لا بد من
عذابه.

(١٩) ﴿وَبِلَّيْلٍ يَوْمِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ويل لهم من عذاب
الله غداً.

(٢٠) ﴿أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ﴾ أما خلقناكم أيها آدميون
﴿مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ في غاية الحقارة، خرج من بين
الصلب والترائب.

(٢١) ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ وهو الرحم، به
يستقر وينمو.

(٢٢) ﴿إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ ووقت مقدر.

(٢٣) ﴿فَقَدَرْنَا﴾ قدرنا ودبرنا ذلك الجنين في
تلك الظلمات، ونقلناه من النطفة، إلى
العلقة، إلى المضغة، إلى أن جعله الله
جسداً، ثم نفخ فيه الروح ﴿فَنَعَمَ الْفَقْدُونَ﴾
يعني بذلك نفسه المقدسة حيث كان قدراً تابعاً
للحكمة، وموافقاً للحمد.

(٢٤) ﴿وَبِلَّيْلٍ يَوْمِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ويل لمن تأمل
هذه المخلوقات الداله على عظمه، ثم بعد
ذلك يستمر على التكذيب.

(٢٥) ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ﴾ أما منثاً عليكم
وأنعمنا بتسخير الأرض لمصالحكم؛ فجعلناها
﴿كَفَاتًا﴾ لكم: بطنها لأموالكم، وظهرها
لأحيائكم.

(٢٦) ولهذا قال: ﴿أَحْيَاءَ﴾ في الدور
﴿وَأَمْوَاتًا﴾ في القبور.

(٢٧) ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَجَاجَةٍ﴾ جبالا ترسي
الأرض؛ لئلا تميد بأهلها، فثبتها الله بالجبال

٣٢. ٣١ أخرج البخاري عن عبد الرحمن بن عباس قال: سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول: ﴿إِنَّمَا تَرَى بِشَكْرِ كَالْقَصْرِ﴾ قال: كنا
نعمد إلى الخشبة ثلاثة أذرع وفوق ذلك فترفعه للششاء؛ فنسميه: القصر. ﴿كَأَنَّهُمْ جُمِلَتْ صُفْرٌ﴾: حبال السفن تجمع حتى
تكون كأوساط الرجال.

بالجزاء والحساب؛ فهاهم يرون جهنم وأهوالها رأي العين.

(٣٨) ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَعَلَكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ لنفصل بينكم، ونحكم بين الخلاق.

(٣٩) ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ﴾ تقدرول على الخروج من ملكي وتنجون به من عذابي ﴿فَكِيدُون﴾ ليس لكم قدرة ولا سلطان، ويستسلمون لعذاب الله، ويبين لهم كذبهم في تكذيبهم.

(٤٠) ﴿وَلَّيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ في ذلك اليوم.

(٤١) ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ المتصفين بالتصديق في أقوالهم وأفعالهم وأعمالهم، ولا يكونون كذلك إلا بأدائهم الواجبات وتركهم المحرمات ﴿فِي ظُلُلٍ﴾ من كثرة الأشجار المتنوعة، الزاهية البهية ﴿وَعُيُونٍ﴾ جارية من السلسيل والرحيق وغيرهما.

(٤٢) ﴿وَفَوْكَهٖ مِمَّا يَشْتَبُونَ﴾ من خيار الفواكه وطيبها.

(٤٣) ويقال لهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ من المأكّل الشهية، والأشربة اللذيذة ﴿هَنِيئًا﴾ من غير منقص ولا مكدر، ولا يتم هناؤه حتى يسلم الطعام والشراب من كل آفة ونقص، وحتى يجزموا أنه غير منقطع ولا زائل ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فأعمالكم هي السبب الموصل لكم إلى هذا النعيم المقيم، وهكذا كل من أحسن في عبادة الله وأحسن إلى عباد الله.

(٤٤) ولهذا قال: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾

هذا جزاؤنا لمن أحسن العمل ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾.

(٤٥) ﴿وَلَّيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ولو لم يكن لهم من هذا الويل إلا فوات هذا النعيم لكفى به جرماناً وخسراناً.

(٤٦) ﴿كُلُوا وَتَمَنَّوْا فَلَيْلًا﴾ هذا تهديد ووعيد للمكذبين أنهم وإن أكلوا في الدنيا وشربوا وتمتعوا بالذات، وغفلوا عن القربات ﴿إِنَّكُمْ تُجْرَمُونَ﴾ فإنهم مجرمون.

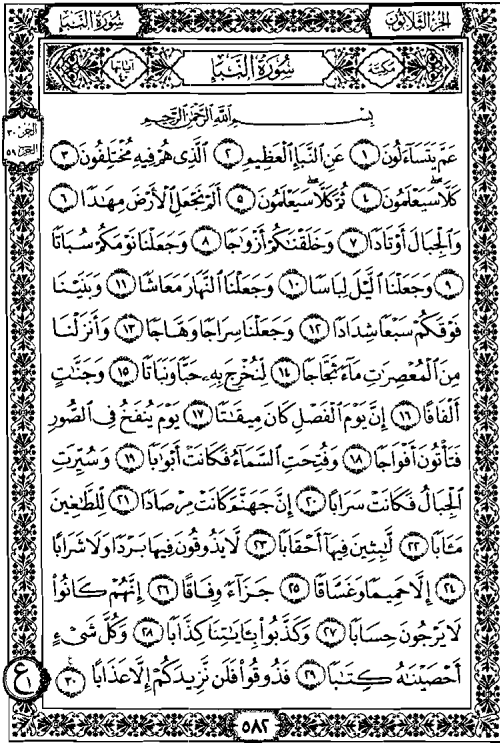
(٤٧) ﴿وَلَّيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ الذين أجرموا بحق الله وحق أنفسهم وكفروا باليوم الآخر.

(٤٨) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ وأنهم إذا أمروا بالصلاة التي هي أشرف العبادات، وقيل لهم: ﴿ارْكَعُوا﴾ مع المصلين مع الجماعة ﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾ امتنعوا من ذلك واستكبروا عنه؛ فأَيّ إجرام فوق هذا؟ وأَيّ تكذيب يزيد على هذا؟ (٤٩) ﴿وَلَّيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ومن الويل عليهم أنهم تنسد عليهم أبواب التوفيق، ويحرمون كل خير، فإنهم إذا كذبوا هذا القرآن الكريم، الذي هو أعلى مراتب الصدق واليقين على الإطلاق.

(٥٠) ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ أباالباطل الذي هو كاسمه، لا يقوم عليه شبهة فضلاً عن الدليل؟ كقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [البجائية: ٦].

سورة النبأ
وهي مكية

- (١) ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ عن أي شيء يتساءل المكذبون بآيات الله؟
- (٢) ﴿عَنِ النَّبِئِ الْعَظِيمِ﴾ عن الخبر العظيم، وهو يوم القيامة.
- (٣) ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْلِفُونَ﴾ الذي طال فيه نزاعهم، وانتشر فيه خلافهم على وجه التكذيب والاستبعاد.
- (٤) ﴿كَلَّا﴾ نفي لقولهم وإنكارهم ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ عاقبة تكذيبهم حين تنكشف الأمور.
- (٥) ﴿يَوْمَ لَا سَعْلَمُونَ﴾ وعيد لهم على أثر وعيد.
- (٦) ﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ مهدة مهياة لكم ولمصالحكم من الحروث، والمسكن، والسبل.
- (٧) ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ تمسك الأرض؛ لئلا تضطرب بكم وتميد.
- (٨) ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ ذكورا وإناثا من جنس واحد؛ ليسكن كل منهما إلى الآخر، فتكون المودة والرحمة.
- (٩) ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ راحة لكم، وقطعا لأشغالكم التي متى تمادت بكم أضرت بأبدانكم.
- (١٠) ﴿وَجَعَلْنَا نِيلَ لِيَاسًا﴾ جعل الله الليل والنوم يغشي الناس؛ فتقطع حركاتهم الضارة، وتحصل راحتهم النافعة.
- (١١) ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ جعلناه مشرقاً نيراً مضيئاً؛ ليتمكن الناس من التصرف فيه، والذهاب والمجيء للمعاش والتكسب والتجارات وغير ذلك.



- (١٢) ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ سبع سماوات طباقاً، في غاية القوة والصلابة والشدة.
- (١٣) ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ الشمس؛ نبيه بالسراج على النعمة بنورها الذي صار ضرورة للخلق، وبالوهاج - وهي حرارتها - على ما فيها من الإنضاج والمنافع.
- (١٤) ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ السَّحَابَ﴾ ماءً مُجَّاجًا كثيراً جداً.
- (١٥) ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا﴾ من بر وشعير وذرة وأرز، وغير ذلك مما يأكله آدميون ﴿وَنَبَاتًا﴾ يشمل سائر النبات.
- (١٦) ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ بساتين ملتفة، فيها من جميع أصناف الفواكه اللذيذة.
- (١٧) ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ يوم القيامة ﴿كَانَ مِيقَاتًا﴾ للخلق.

أحقابا كثيرة و الحقب ثمانون سنة .
 (٢٤) ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ ؛ أي : لا ما يبرد جلودهم ، ولا ما يدفع ظمأهم .
 (٢٥) ﴿إِلَّا حِمِيمًا﴾ ماء حاراً ، يشوي وجوههم ، ويقطع أمعاءهم ﴿وَعَسَاقًا﴾ وهو صديد أهل النار ، الذي هو في غاية التنز ، وكراهة المذاق .
 (٢٦) ﴿جَزَاءً﴾ لهم و ﴿وَفَاقًا﴾ على ما عملوا من الأعمال الموصلة إليها .

(٢٧) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ لا يؤمنون بالبعث ، ولا أن الله يجازي الخلق بالخير والشر .
 (٢٨) ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كَذِبًا﴾ كذبوا بها تكذيباً واضحاً صريحاً ، وجاءتهم البينات فعاندوها .

(٢٩) ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ من قليل وكثير وخير وشر ﴿أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ كتبناه في اللوح المحفوظ .
 (٣٠) ﴿فَذُوقُوا﴾ أيها المكذبون هذا العذاب الأليم والخزي الدائم ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ وكل وقت وحين يزداد عذابهم .

(٣١) ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ الذين اتقوا سخط ربهم ، بالتمسك بطاعته ، والانكفاف عما يكرهه ؛ فلهم مفاز ومنجي ، وبعد عن النار .

(٣٢) وفي ذلك المفاز ﴿حَدَائِقَ﴾ وهي البساتين الجامعة لأصناف الأشجار الزاهية ﴿وَأَعْنَابًا﴾ وخص الأعناب ؛ لشرفها ، وكثرتها في تلك الحدائق .

(٣٣) ﴿وَوُكُوعًا﴾ وهي النواهد اللاتي لم تتكسر ثديهن من شبابهن ، وقوتهن ، ونضارتهن ﴿أَنْزَابًا﴾ اللاتي على سن واحد متقارب ، ومن عادة الأتراب أن يَكُنَّ متآلفات متعاشرات .



(١٨) ﴿يَوْمَ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ ويجري فيه من الزعازع والقلال ما يشيب له الوليد ، وتنزعج له القلوب .
 (١٩) ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ تنشق السماء حتى تكون أبواباً .
 (٢٠) ﴿وُسِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ فتسير الجبال ، حتى تكون كالهباء المبعوث .
 (٢١) ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ طريقاً وممرأ ، فلا سبيل لأحد إلى الجنة حتى يقطع النار .
 (٢٢) ﴿لِّلطَّغِينِ مَنَاقِبًا﴾ وأعداهم للطاغين ، وجعلها مثوى لهم ومآباً .
 (٢٣) ﴿لِّيُثَبِّتُ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ وأنهم يلبثون فيها

(١٨) أخرج الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : قال : قال رسول الله ﷺ : «ما بين النفختين أربعون» قالوا : أربعون يوماً؟ قال : «أبيت» قالوا : أربعون شهراً قال : «أبيت» قالوا : أربعون سنة؟ قال : «أبيت» قال : «ثم ينزل الله من السماء ماءً ؛ فينبثون كما ينبث البقل ، ليس في الإنسان شيء إلا سبلى إلا عظماً واحداً وهو عَجْبُ الذَّنْبِ ، ومنه يركب الخلق يوم القيامة» .

﴿يَوْمَ يُنْظَرُ أَلَمْ تَرَ مَا فَدَمْتَ يَدَاكَ﴾ أي: كل امرئ يرى في ذلك اليوم ما قدم من العمل مثبتاً في صحيفته.

﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلْبِغَنِي كُتُّ رَبِّي﴾ أي: يود الكافر يومئذ أنه كان في الدار الدنيا تراباً، ولم يكن خلقاً.

سورة النازعات وهي مكية

(١) ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْاقًا﴾ هم الملائكة التي تنزع الأرواح بقوة وتغرق في نزعها حتى تخرج الروح، فتجازي بعملها.

(٢) ﴿وَالنَّشِيطَاتِ تَشَاطُطًا﴾ وهم الملائكة تجتذب الأرواح بقوة ونشاط.

(٣) ﴿وَالسَّيْحَاتِ سَبَاحًا﴾ المترددات في الهواء صعوداً ونزولاً.

(٤) ﴿وَالسَّيْفَتِ لَغِيرَا﴾ لغيرها ﴿سَبَقًا﴾ فتبادر لأمر الله، وتسبق الشياطين في إيصال الوحي إلى رسل الله؛ حتى لا تسترقه.

(٥) ﴿فَالْمُذَرِّبَاتِ أَمْرًا﴾ الملائكة الذين وكلهم الله أن يدبروا كثيراً من أمور العالم العلوي والسفلي.

(٦) ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّجِفَةُ﴾ وهي قيام الساعة.

(٧) ﴿تَنْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ الرجفة الأخرى التي تردفها، وتأتي تلوها.

(٨) ﴿فُلُوبٌ يَوْمَيزِ وَاجِفَةٌ﴾ موجفة ومنزعجة من شدة ما ترى وتسمع.

(٣٤) ﴿وَكُلَّامًا دِهَاقًا﴾: مملوءة من رحيق، لذة للشاربين.

(٣٥) ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ كلاماً لا فائدة فيه ﴿وَلَا كَذَبًا﴾ إثماً.

(٣٦) ﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ﴾ لهم ﴿عَطَاءً حِسَابًا﴾ بسبب أعمالهم التي وفقهم الله لها، وجعلها ثمناً لجنته ونعيمها.

(٣٧) ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ الذي خلقها ودبرها ﴿الرَّحْمَنُ﴾ الذي رحمته وسعت كل شيء، فرباهم ورحمهم، ولطف بهم، حتى أدركوا ما أدركوا ﴿لَا يَلْكُونُ مِنْهُ خُطَابًا﴾ لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه.

(٣٨) ﴿يَوْمَ يَقُومُ﴾ في ذلك اليوم ﴿الرُّوحُ﴾ جبريل عليه السلام، وقيل: بنو آدم ﴿وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ هما صفان، يقوم صف من بني آدم وصف من الملائكة خاضعين لله ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾ إلا بما أذن لهم الله به ﴿إِلَّا مَن أَدْنٰ لَهُ الرُّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ فلا يتكلم أحد إلا بهذين الشرطين: أن يأذن الله له في الكلام، وأن يكون ما تكلم به صواباً.

(٣٩) ﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمِ الْحَقِّ﴾ الكائن الواقع يعني يوم القيامة، الذي لا يروج فيه الباطل، ولا ينفع فيه الكذب. ﴿فَمَن شَاءَ أَخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَثَابًا﴾ أي: فمن شاء رجع إلى الله بطاعته.

(٤٠) ﴿إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ لأنه قد أظف مقبلاً، وكل ما هو آت؛ فهو قريب.

(٦، ٧) أخرج أحمد والترمذي بإسناد حسن عن أبي بن كعب رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ إذ ذهب ثلثا الليل قام فقال: «يا أيها الناس، اذكروا الله، جاءت الرجافة تتبعها الرادفة جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه»، قال: أبي: قلت: يا رسول الله، إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال: «ما شئت». قلت: الربع؟ قال: «ما شئت، فإن شئت فهو خير لك». قلت: فالنصف؟ قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك». قلت: فالثلاثين؟ قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك، قلت: أجعل لك صلاتي كلها عليك؟ قال: «إذن تكفي همك، ويغفر لك ذنبك».

محمد حديث موسى .

(١٦) ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْقَدَسِ طُوًى﴾ وهو: المحل الذي كلمه الله فيه، وامتن عليه بالرسالة، واختصه بالوحي والاجتباء .

(١٧) ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ فَأَنَّهُ عَنْ طغيانه وشركه وعصيانه، بقول لين، وخطاب لطيف؛ لعله ﴿يَتَذَكَّرُ أَوْ يَحْشَى﴾ .

(١٨) ﴿فَقُلْ لَهُ: هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَرْكَبَ﴾؛ أي: هل لك في خصلة حميدة، ومحمدة جميلة، يتنافس فيها أولو الألباب؛ وهي أن تزكي نفسك وتطهرها من دنس الكفر والطغيان إلى الإيمان والعمل الصالح؟

(١٩) ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ﴾ أدلك عليه، وأبين لك مواقع رضاه من مواقع سخطه ﴿فَنَحْنُ﴾ الله إذا علمت الصراط المستقيم، فامتنع فرعون مما دعاه إليه موسى .

(٢٠) ﴿فَأَرْنَاهُ آيَةَ الْكُبْرَى﴾ جنس الآية الكبرى، فلا ينافي تعددها .

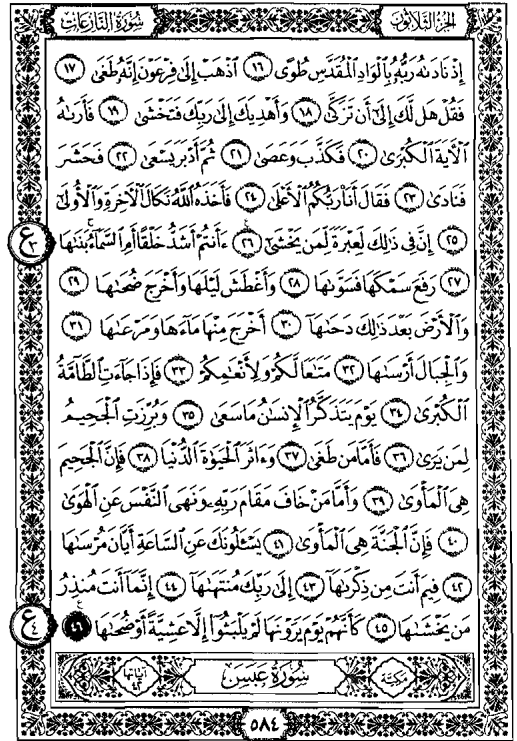
(٢١) ﴿فَكَذَّبَ﴾ بالحق ﴿وَعَصَى﴾ الأمر .

(٢٢) ﴿ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى﴾ يجتهد في مبارزة الحق ومحاربته .

(٢٣) ﴿فَحَشَرَ﴾ فجمع قومه وجنوده ﴿فَنَادَى﴾ لما اجتمعوا .

(٢٤) ﴿فَقَالَ﴾ لهم: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ فأذعنوا له، وأقروا بباطله حين استخفهم .

(٢٥) ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ تَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ صارت عقوبته دليلاً وزاجراً، ومبينة لعقوبة الدنيا والآخرة وقيل المراد بالآخرة قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ . والأولى بقوله ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [سورة القصص: ٣٨]



(٩) ﴿أَبْصَرُهَا خَشِيعَةً﴾: ذليلة حقيرة، قد ملك قلوبهم الخوف، وأذهل أفئدتهم الفزع، وغلب عليهم التأسف، واستولت عليهم الحسرة .

(١٠) ﴿يَقُولُونَ إِنْ نَا لَمَرُدُّوْنَ فِي الْخَافِرَةِ﴾؛ أي: يقول الكفار في الدنيا، على وجه التكذيب أنحن صائرين أحياء بعد الموت كما كنا .

(١١) ﴿أَوَدَا كُنَّا عِظَمًا نَخْرَةً﴾ بالية فتناً .

(١٢) ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ استبعدوا أن يبعثهم الله ويعيدهم بعدما كانوا عظاماً نخرة، جهلاً منهم بقدره الله، وتجروا عليه .

(١٣) ﴿فَأَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ ينفخ فيها في الصور .

(١٤) ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ فإذا الخلائق كلهم ﴿بِالسَّاهِرَةِ﴾ على وجه الأرض، قيام ينظرون، فيجمعهم الله، ويقضي بينهم بحكمه العدل ويجازيهم .

(١٥) ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾؛ أي: قد جاءك يا

(٣٦) ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَنَّةُ لِمَن يَرَى﴾: جعلت في البراز، ظاهرة لكل أحد، قد برزت لأهلها، واستعدت لأخذهم، منتظرة لأمر ربها.

(٣٧) ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾: جاوز الحد؛ بأن تجرأ على المعاصي الكبار، ولم يقتصر على ما حده الله.

(٣٨) ﴿وَوَائِرَ الْمَيُوتَةِ الدُّنْيَا﴾: على الآخرة؛ فصار سعيه لها، ووقته مستغرقاً في حظوظها وشهواتها، ونسي الآخرة وترك العمل لها.

(٣٩) ﴿وَإِنَّ الْجَنِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾: المقر والمسكن لمن هذه حاله

(٤٠) ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾: خاف القيام عليه ومجازاته بالعدل ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾: فنهى نفسه عن هواها الذي يقيد بها عن طاعة الله، وصار هواه تبعاً لما جاء به الرسول، وجاهد الهوى والشهوة الصادين عن الخير.

(٤١) ﴿وَإِنَّ الْجَنَّةَ﴾: المشتملة على كل خير وسرور ونعيم ﴿هِيَ الْمَأْوَى﴾: لمن هذا وصفه.

(٤٢) ﴿يَسْأَلُكَ الْمُتَتَعِنُونَ الْمَكْذُبُونَ بِالْبَعْثِ﴾: عَنِ السَّاعَةِ ﴿مَتَى وَقُوعُهَا، وَ﴾: أَيَّانَ مُرْسِنَهَا ﴿مَتَى ظُهُورُهَا وَثُبُوتُهَا.

(٤٣) ﴿فِيمَ أَنْتَ مِن ذِكْرِنَا﴾: لست في شيء من علمها وذكرها؛ أي: لا تعلمها

(٤٤) ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهِنًا﴾: إليه ينتهي علمها.

(٤٥) ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَّنْ يَخْشَى﴾: إِنَّمَا نَذَارَتِكَ

(٢٦) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾: فَإِنْ مِنْ يَخْشَى اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَنْتَفِعُ بِالْآيَاتِ وَالْعِبَرِ.

(٢٧) ﴿ءَأَنْتُمْ﴾: أَيُّهَا الْبَشَرُ ﴿أَشْدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ﴾ ذات الجرم العظيم، والخلق القوي، والارتفاع الباهر؟ ﴿بَلَّغْنَا﴾: اللَّهُ.

(٢٨) ﴿رَفَعَ سَعْيَكُمْ﴾: جَرَمَهَا وَصُورَتَهَا ﴿فَسَوَّيْنَاهَا﴾ بِأَحْكَامٍ وَإِتْقَانٍ يَحِيرُ الْعُقُولَ، وَيَذْهَلُ الْأَبْصَارُ.

(٢٩) ﴿وَأَعْطَشَ لِبَنَائِهَا﴾: أَظْلَمَهُ؛ فَعَمَتِ الظُّلْمَةُ جَمِيعَ أَرْجَاءِ السَّمَاءِ، فَأَظْلَمَ وَجْهَ الْأَرْضِ ﴿وَأَخْرَجَ نُجُومَهَا﴾: أَظْهَرَ فِيهِ النُّورَ الْعَظِيمَ.

(٣٠) ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾: بَعْدَ خَلْقِ السَّمَاءِ ﴿دَحَاهَا﴾: أَوْدَعَ فِيهَا مَنَافِعَهَا.

(٣١) ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَهَا﴾: أَخْرَجَ مَا كَانَ فِيهَا بِالْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ.

(٣٢) ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَنَاهَا﴾: ثَبَّتَهَا فِي الْأَرْضِ.

(٣٣) ﴿مِنَّا لَكُمْ وَلِتَقْمَرُوا﴾: كُلُّ ذَلِكَ مَتَاعاً لِّخَلْقِهِ وَلَمَّا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْأَنْعَامِ الَّتِي يَأْكُلُونَهَا وَيَرْكَبُونَهَا مَدَّةَ احْتِيَاجِهِمْ إِلَيْهَا فِي هَذِهِ الدَّارِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ الْأَمَدُ وَيَنْقُضِيَ الْأَجَلُ.

(٣٤) ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى﴾: الْقِيَامَةُ الْكُبْرَى، وَالشَّدَّةُ الْعَظْمَى، الَّتِي يَهْوَنُ عِنْدَهَا كُلُّ شِدَّةٍ.

(٣٥) ﴿يَوْمَ يَذَّكَّرُ الْأُنْسَ مَا سَعَى﴾: فِي الدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ؛ فَيَتَمَنَّى زِيَادَةَ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي حَسَنَاتِهِ، وَيَغْمَهُ وَيَحْزَنُ لَزِيَادَةِ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي سَيِّئَاتِهِ.

(٤٦ - ٤٦) في صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لما سأل جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ عن وقت الساعة قال: «ما المسؤول عنه بأعلم من السائل».

وأخرج النسائي في «تفسيره»، والطبراني في «الكبير» بإسناد صحيح عن طارق بن شهاب: أن النبي ﷺ كان لا يزال يذكر من شأن الساعة، حتى نزلت ﴿يَسْأَلُكَ الْمُتَتَعِنُونَ الْمَكْذِبُونَ بِالْبَعْثِ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِنَهَا﴾.

وأخرج الطبري والبراز والحاكم بإسناد صحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: لم يزل النبي ﷺ يسأل عن الساعة، حتى أنزل الله ﷻ: ﴿فِيمَ أَنْتَ مِن ذِكْرِنَا﴾ ٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهِنًا.

(٢) ﴿أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ لأجل مجيء الأعمى له وهو ابن أم مكتوم، واسمه: عبد الله.

(٣) ثم ذكر الفائدة في الإقبال عليه، فقال: ﴿وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّهُ﴾ أي: الأعمى ﴿يَرْكُ﴾ يتطهر عن الأخلاق الرذيلة، ويتصف بالأخلاق الجميلة؟

(٤) ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرُ﴾ أي: يتذكر ما ينفعه، فيعمل بتلك الذكرى.

(٥) ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى﴾ عن الله وعن الإيمان بماله في المال.

(٦) ﴿فَأَنْتَ لَمْ تَصَدَّقْ﴾ تتعرض له، وتقبل عليه، وتصني إلى كلامه.

(٧) ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكُ﴾ ما أنت بمطالب به إذا لم يحصل له زكاة.

(٨) ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى﴾ يمشي قاصداً إياك.

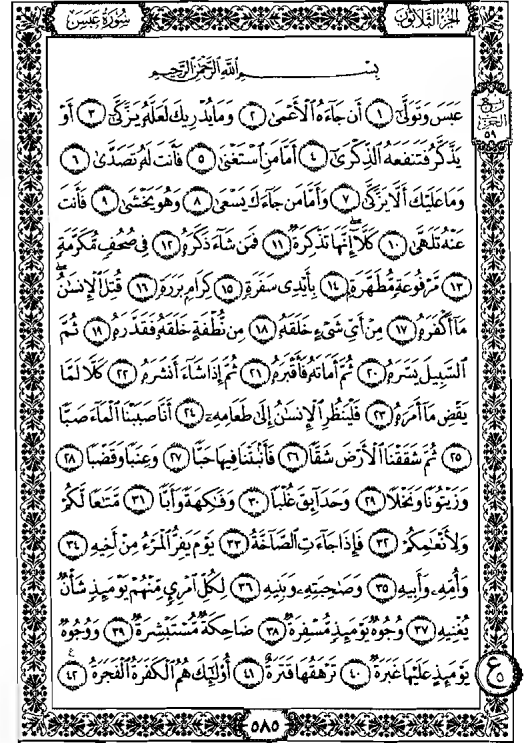
(٩) ﴿وَهُوَ يَخْشَى﴾ الله عز وجل.

(١٠) ﴿فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ تتشاغل وتعرض عنه.

(١١) ﴿كَلَّا﴾ ما الامر كما تفعل يا محمد من أن تعبس في وجهه من جاءك يسعى وهو يخشى لمن استغنى ﴿إِنَّا نَذْكِرُهُ﴾ إن هذه العظة وهذه السورة عظة وعبرة.

(١٢) ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ﴾ عمل به.

(١٣) ثم ذكر محل هذه التذكرة وعظمتها ورفع قدرها فقال: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ اللوح المحفوظ.



نفعتها لمن يخشى مجيء الساعة، ويخاف الوقوف بين يديه.

(٤٦) ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ رُبُوعٍ﴾ يرون القيامة ﴿لَمْ يَلْبُثُوا﴾ في قبورهم ﴿إِلَّا عَشِيَّةٌ أَوْ ضُحًى﴾ أي: عشية يوم، أو ضحى تلك العشية.

سورة عبس وهي مكية

(١) ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ قبض وأعرض وجهه تكررهما.

سورة عبس

(١) أخرج الترمذي والطبري وأبو يعلى وابن حبان بإسناد صحيح عن عائشة ؓ قالت: أنزلت ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول: يا رسول الله، أرشدني. وعند رسول الله رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخر، ويقول: «أترى بما نقول بأساً؟» فيقول: لا. ففي هذا أنزل. وأخرج عبد الرزاق في «تفسيره» وأبو يعلى في «المسند» بإسناد صحيح عن أنس بن مالك ؓ في قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ جاء ابن أم مكتوم إلى النبي ﷺ وهو يكلم أبي بن خلف، فأعرض عنه، فأنزل الله ﷻ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ قال: فكان النبي ﷺ بعد ذلك يكرمه.

(٢٥) ﴿أَنَا صَبَّأُ الْمَلَكُ صَبَّأُ﴾ ؛ أي : أنزلنا المطر على الأرض بكثرة .

(٢٦) ﴿ثُمَّ شَفَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ بالنبات .

(٢٧) ﴿فَالْبَثْنُ قَبْلَهَا﴾ أصنافا مصنفة من أنواع الأطعمة اللذيذة ، والأقوات الشهية ﴿حَبًّا﴾ وهذا شامل لسائر الحبوب على اختلاف أصنافها .

(٢٨) ﴿وَعَبْنًا﴾ العنب معروف ﴿وَقَصْبًا﴾ : وهو القت ، وقيل : الفصفصة التي تأكلها الدواب رطبة .

(٢٩) ﴿وَزَيْتُونًا﴾ وهو معروف وهو آدم ، وعصيره آدم ويستصبح به ، ويدهن به ﴿وَنَخْلًا﴾ يؤكل بلحاً ويسراً ورطباً وتمرّاً ونبثاً ومطبوخاً ، ويعتصر منه رُبٌ وخل ، وخص هذه الأربعة ؛ لكثرة فوائدها ومنافعها .

(٣٠) ﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾ ؛ أي : بساتين فيها الأشجار الكثيرة الملتفة .

(٣١) ﴿وَفَيْكَةً﴾ ما يتفكه فيه الإنسان ؛ من تين ، وعنب ، وخوخ ، ورمّان ، وغير ذلك ﴿وَأَبًّا﴾ ما تأكله البهائم والأنعام .

(٣٢) ولهذا قال : ﴿مَنْعًا لَكُمْ وَلِأَنْفُسِكُمْ﴾ عيشة لكم ومنفعة يعني الفاكهة التي خلقها الله وسخرها لكم ، فمن نظر في هذه النعم ؛ أوجب له ذلك شكر ربه ، وبذل الجهد في الإنابة إليه ، والإقبال على طاعته ، والتصديق بأخباره .

(٣٣) ﴿فَإِذَا جَاءَتْ فَلَصَافَةٌ﴾ ؛ أي : إذا جاءت صيحة القيامة ؛ التي تصخ لهولها الأسماع ، وتزعج لها الأفتدة يومئذ ؛ مما يرى الناس من الأحوال وشدة

(١٤) ﴿تَرْوُفَةً﴾ القدر والرتبة ﴿مُطَهَّرَةً﴾ من الآفات وعن أن تنالها أيدي الشياطين أو يسترقوها .

(١٥) بل هي ﴿يَأْتِي سَفَرٌ﴾ وهم الملائكة الذين هم السفراء بين الله وبين عباده .

(١٦) ﴿كَرَامٌ﴾ كثيري الخير والبركة ﴿بِرَّوًى﴾ قلوبهم وأعمالهم ، وذلك كله من حفظ الله لكتابه ، مما يوجب الإيمان بهوتلقيه بالقبول ولكن مع هذا أبى الإنسان إلا كفوراً ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿قُلْ إِنْ أَلَسْتُ بِمَآ أَفَرُّوْا﴾ لنعمة الله ، وما أشد معاندته للحق .

(١٨) ﴿مِنْ أَيْ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ وهو من أضعف الأشياء .

(١٩) ﴿مِنْ تُلْفَةٍ خَلَقَهُ﴾ خلقه الله من ماء مهين ﴿فَقَدَرَهُ﴾ ثم قدر خلقه وسواه بشراً سوياً .

(٢٠) ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ﴾ ؛ أي : يسر له الأسباب الدينية والدنيوية ، وامتحنه بالأمر والنهي .

(٢١) ﴿ثُمَّ أَمَانَهُ﴾ بعد خلقه له ﴿فَأَقْرَهُ﴾ أكرمه بالدفن ، ولم يجعله كسائر الحيوانات التي تكون جيفها على وجه الأرض .

(٢٢) ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أُنشِرَهُ﴾ : بعثه بعد موته للجزاء .

(٢٣) ﴿كَلَّا لَمَّا يَقُضْ مَا أَمَرُهُ﴾ وهو - مع هذا - لا يقوم بما أمره الله ، ولم يقض ما فرضه عليه ، بل لا يزال مقصراً تحت الطلب .

(٢٤) ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ أرشده الله تعالى إلى النظر والتفكر في طعامه ، وكيف وصل إليه ، ويسره له .

(١٦) أخرج الشيخان من حديث عائشة ؓ قالت : قال رسول الله ﷺ : «الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة ، والذي يقرؤه وهو شاق عليه له أجران» .



التفات إلى غيرها؛ فحينئذ ينقسم الخلق إلى فريقين: سعداء وأشقياء.

(٣٨) ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ أي: فوجوه السعداء يومئذ مسفرة قد ظهر فيها السرور والبهجة؛ مما عرفوا من نجاتهم وفوزهم بالنعيم.

(٣٩) ﴿ضَاحِكَةٌ﴾ بالسرور ﴿مُتَبَيِّنَةٌ﴾ فرحة بما نالت من كرامة الله عز وجل.

(٤٠) ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْنَا عَรَّةٌ﴾ سواد وكآبة الهم والحزن.

(٤١) ﴿رَهَقَهَا﴾ تغشاها ﴿فَتْرَةٌ﴾ فهي سوداء مظلمة مدلهمة، قد أيست من كل خير، وعرفت شقاءها وهلاكها.

(٤٢) ﴿أُولَئِكَ﴾ الذين بهذا الوصف ﴿هُمْ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ أي: الذين كفروا بنعمة الله، وكذبوا بآيات الله، وتجرءوا على محارمه.

سورة التكوير وهي مكية

(١) ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ تكور الشمس؛ أي: تجمع وتلف، ويخسف القمر، ويلقيان في النار.

(٢) ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ تغيرت وتناثرت من أفلاكها.

الحاجة لسالف الأعمال.

(٣٤) ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ من أعز الناس إليه، وأشفقهم لديه ﴿مِنْ أَخِيهِ﴾ شقيقه.

(٣٥) ﴿وَأُمِّهِ﴾ التي ولدته ﴿وَأَبِيهِ﴾ الذي رباه.

(٣٦) ﴿وَصَحْبِيهِ﴾ زوجته ﴿وَبَنِيهِ﴾ أولاده.

(٣٧) وذلك لأنه ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ قد شغلته نفسه، واهتم لفكاكها، ولم يكن له

(٣٧) أخرج الترمذي بإسناد صحيح عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «تحشرون حفاة عراة غرلاً». فقالت امرأة: أيبصر بعضنا أو يرى بعضنا عورة بعض؟ قال: «يا فلانة لكل أمرئ منهم يومئذ شأن يغنيه».

سورة التكوير

(١) أخرج الترمذي وأحمد بإسناد صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن ينظر إلى يوم القيامة؛ كأنه رأى عين فليقرأ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ و﴿إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ و﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾».

أخرج البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «الشمس والقمر يكوران يوم القيامة».

وأخرج أبو يعلى والطحاوي في «المشكّل» بإسناد صحيح لغيره عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الشمس والقمر ثوران عقيران في النار».

الجاهلية الجاهلاء تفعله من دفن البنات وهن أحياء من غير سبب؛ إلا خشية الفقر، فسأل.

(٩) ﴿يَا أَيُّ ذُنُبٍ قُلْتِ﴾ ومن المعلوم أنها ليس لها ذنب، ففي هذا توبيخ وتقرع لقاتليها.

(١٠) ﴿وَإِذَا الضُّعْفُ﴾ المشتملة على ما عمله العاملون من خير وشر ﴿شُرَّتْ﴾؛ أي: فرقت على أهلها؛ فأخذ كتابه بيمينه، وأخذ كتابه بشماله، أو من وراء ظهره.

(١١) ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ أزيلت.

(١٢) ﴿وَإِذَا الْجَبِيمُ سُعِرَتْ﴾ أوقد عليها فاستعرت، والتهبت التهاباً لم يكن لها قبل ذلك.

(١٣) ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنْفِثَتْ﴾ قربت للميتين.

(١٤) ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ كل نفس؛ لإتيانها في سياق الشرط ﴿مَّا أَحْضَرَتْ﴾ ما حضر لديها من الأعمال التي قدمتها.

(٣) ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ أزيلت وسيّرت عن أماكنها.

(٤) ﴿وَإِذَا الْعُشَارُ﴾ النوق الحوامل ﴿عُطِلَتْ﴾ تركت مهملة بلا راع، والمراد عطّل الناس حينئذ نفائس أموالهم التي كانوا يهتمون لها، ويراعونها في جميع الأوقات.

(٥) ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ﴾ دواب البر ﴿حُشِرَتْ﴾ جمعت ليوم القيامة؛ ليقصص الله من بعضها لبعض، ثم يقول لها: كوني تراباً.

(٦) ﴿وَإِذَا الْحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أوقدت؛ فصارت على عظمتها ناراً تتوقد.

(٧) ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ قرن كل صاحب عمل مع نظيره، فجمع الأبرار مع الأبرار، والفجار مع الفجار.

(٨) ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّتَتْ﴾ وهي التي كانت

(٨) أخرج أحمد والنسائي في «الكبرى» بإسناد صحيح عن سلمة بن يزيد الجعفي قال: انطلقت أنا وأخي إلى رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله! إن أمنا مليكة كانت تصل الرحم، وتقرى الضيف، وتفعل وتفعل، هلكت في الجاهلية فهل ذلك نافعها شيئاً؟ قال: «لا» قلنا: فإنها كانت وأدت أختنا لنا في الجاهلية فهل ذلك نافعها شيئاً؟ قال: «الوائدة والمؤودة في النار؛ إلا أن يدرك الوائدة الإسلام فيعفو الله عنها».

قال أبو أسامة الهلالي - عفا الله عنه -: لقد أشكل عليّ هذا الحرف في هذا الحديث الصحيح؛ وهو: كيف تكون المؤودة في النار؟ والله عز وجل يقول: ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّتَتْ﴾ (٨) ﴿يَا أَيُّ ذُنُبٍ قُلْتِ﴾ فسألت شيخنا الألباني رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ عن ذلك؟ فقال: في الحديث حذف، تقديره: «الوائدة والمؤودة (له)»؛ فاظفر بذلك؛ فإنه من ضنائف العلم. والله أعلم.

وأخرج مسلم عن عائشة عن جذامة بنت وهب - أخت عكاشة - قالت حضرت رسول الله ﷺ في ناس وهو يقول: «لقد هممت أن أنهي عن الغيلة فنظرت في الروم وفارس؛ فإذا هم يغيلون أولادهم، ولا يضر أولادهم ذلك شيئاً» ثم سأله عن العزل فقال: «ذلك الوأد الخفي، وهو إذا الموءودة سلت».

(٩) أخرج أبو داود وأحمد بإسناد صحيح لغيره عن حسناء ابنة معاوية الصريمية عن عمها قال: قلت: يا رسول الله، من في الجنة؟ قال: «النبي في الجنة، والشهيد في الجنة، والمولود في الجنة، والموءودة في الجنة».

وأخرج عبد الرزاق في «التفسير» والبرز والطبراني في الكبير، والبيهقي في «السنن الكبرى» بإسناد جيد عن عمر بن الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّتَتْ﴾ قال: جاء قيس بن عاصم إلى رسول الله ﷺ؛ فقال: يا رسول الله: إني وأدت بنات لي في الجاهلية. قال: «أعتق عن كل واحدة منهن رقبة» قال: يا رسول الله إني صاحب إبل، قال: «فانحر عن كل واحدة منهن بدنة».

نزل به من الله تعالى، ووصفه الله بالكريم؛ لكرم أخلاقه، وكثرة خصاله الحميدة، فإنه أفضل الملائكة، وأعظمهم رتبة عند ربه.

(٢٠) ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ على ما أمره الله به، ومن قوته أنه قلب ديار قوم لوط بهم فأهلكهم ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ﴾ جبريل مقرب عند الله، له منزلة رفيعة، وخصيصة من الله اختصه بها ﴿مَكِينٍ﴾ له مكانة ومنزلة فوق منازل الملائكة كلهم.

(٢١) ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ﴾ جبريل مطاع في الملأ الأعلى، لديه من الملائكة المقربين جنود، نافذ فيهم أمره، مطاع رأيه ﴿أَمِينٍ﴾: ذو أمانة وقيام بما أمر به، لا يزيد ولا ينقص، ولا يتعدى ما حذله.

(٢٢) ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ﴾ وهو محمد ﷺ ﴿يَمُحِثُونَ﴾ كما يقوله أعداؤه المكذبون برسالته، المتقولون عليه من الأقوال.

(٢٣) ﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾ رأى محمد ﷺ جبريل عليه السلام ﴿بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ الذي هو أعلى ما يلوح للبصر.

(٢٤) ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ وما هو على ما أوحاه الله إليه بمتهم يزيد فيه أو ينقص أو يكتم بعضه، بل هو ﷺ أمين أهل السماء وأهل الأرض.

(٢٥) ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ في غاية البعد عن الله وعن قربه.

(٢٦) ﴿فَأَن تَذَهَبُونَ﴾ كيف يخطر هذا ببالكم؟

(٢٧) ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ يتذكرون به ربهم، وما له من صفات الكمال، وما ينزه عنه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ① وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انشَظَّتْ ② وَإِذَا الْيَمَامُزْ فُجِّرَتْ ③ وَإِذَا الْقُُورُ بُعْثِرَتْ ④ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ⑤ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ الْكَوْبَرُ ⑥ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّدَكَ فَعَدَلَكَ ⑦ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ⑧ كَلَّا بَلْ تَكْذِبُونَ بِالَّذِينَ ⑨ وَإِنْ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ⑩ كَرَامًا كَتِيبِينَ ⑪ يَعْلَمُونَ مَا تَعْمَلُونَ ⑫ إِنْ لَا أَعْرَافِي يُحِيسُ ⑬ وَإِنَّ الْفُجَارَ لَفِي حُجِيرٍ ⑭ يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الَّذِينَ ⑮ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِرِينَ ⑯ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ⑰ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ⑱ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ⑲ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ⑳

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ① الَّذِينَ إِذَا كَانُوا عَلَى النَّاسِ يَتَسَوَّفُونَ ② وَإِذَا كَانُوا لَهُمْ أَوْزَارُهُمْ تَحْسِرُونَ ③ الْأَطْنَافُ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ④ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ⑤ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ⑥

(١٥) ﴿فَلَا أَقِيمُ﴾ أقسم تعالى ﴿بِالْحَنَسِ﴾ وهي الكواكب التي تخنس؛ أي: تتأخر عن سير الكواكب المعتاد إلى جهة المشرق.

(١٦) ﴿الْجَوَارِ﴾ في فلكها ﴿الْكُتُبِ﴾ تأوي إلى مجاريها في حال غيوبتها.

(١٧) ﴿وَالْيَلِ إِذَا عَسَسَ﴾ أدبر. وقيل: أقبل.

(١٨) ﴿وَالضُّحَى إِذَا نَفَسَ﴾ بدت علائم الصبح، وانشق النور شيئاً فشيئاً حتى يستكمل وتطلع الشمس.

(١٩) ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ وهو جبريل عليه السلام

(١٥) أخرج مسلم عن عمرو بن حريث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ؛ قال: صليت خلف النبي ﷺ الصبح؛ فسمعتة يقرأ: ﴿فَلَا أَقِيمُ بِالْحَنَسِ﴾ ① الْجَوَارِ

الْكُتُبِ ② وَالْيَلِ إِذَا عَسَسَ ③ وَالضُّحَى إِذَا نَفَسَ ④ .

(١٧) أخرج ابن جرير الطبري بإسناد صحيح عن أبي عبد الرحمن السلمي، قال: خرج علينا علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث تَوَزَّبَ لصلاة الصبح فقال: أين السائلون عن الوتر: ﴿وَالْيَلِ إِذَا عَسَسَ ⑤ وَالضُّحَى إِذَا نَفَسَ ⑥﴾ هذا حين أدبر وأمسى.

من النقائص الرذائل والأمثال.

(٢٨) ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ بعدما تبين

الرشد من الغي، والهدى من الضلال.

(٢٩) ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

فمشيئته نافذة، لا يمكن أن تعارض أو تمنع.

سورة الانفطار وهي مكية

(١) ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾؛ أي: انشقت.

(٢) ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انَّتَرَّتْ﴾؛ أي: تناثرت نجومها،

وزال جمالها.

(٣) ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ﴾ فصارت بحراً واحداً.

(٤) ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ بأن أخرجت ما فيها من

الأموات.

(٥) ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ فحينئذ

ينكشف الغطاء، ويزول ما كان خفياً، وتعلم كل

نفس ما معها من الأرباح والخسائر.

(٦) ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَبِيرِ﴾ أنها وناً

منك في حقوقه؟ أم احتقاراً منك لعذابه؟ أم عدم

إيمان منك بجزائه؟

(٧) أليس هو ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ﴾ جعل أعضائك

سليمة، في أحسن تقويم؟ ﴿فَعَدَلَكَ﴾ قوياً معتدلاً

في أحسن الأشكال، وأجمل الهيئات.

(٨) ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ إن شاء ركبك

في صورة الكلب، أو حمار، أو خنزير.

(٩) ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾ مع هذا الوعظ

والتذكير، لا تزالون مستمرين على التكذيب

بالجزاء.

(١٠) ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ رقباء من الملائكة

يحفظون عليكم أعمالكم.

(١١) ﴿كِرَامًا﴾ على الله ﴿كَنِينًا﴾ يكتبون

أقوالكم وأفعالكم، فدخل في هذا أفعال القلوب

وأفعال الجوارح.

(١٢) ﴿يَقْلُوبُونَ مِمَّا فَعَلُوا﴾ من خير أو شر.

(١٣) ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ﴾ المراد بالأبرار: القائمون

بحقوق الله وحقوق عباده، الملازمون للبر في

أعمال القلوب وأعمال الجوارح ﴿لَفِي نَعِيمٍ﴾

فهؤلاء جزاؤهم النعيم في القلب والروح والبدن،

في دار الدنيا، وفي دار البرزخ، وفي دار القرار.

سورة الإنفطار

(١) أخرج النسائي بإسناد صحيح عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه؛ قال: قام معاذ فصلى العشاء الآخرة، فطُؤِل؛ فقال النبي ﷺ:

«أفتان يا معاذ؟ أفتان يا معاذ؟ أين كنت عن: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ و﴿وَالصُّبْحِ﴾ و﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾».

وأصله في «الصحيحين» من حديث جابر في قصة طويلة.

(٦) أخرج الطبراني في «الكبير» وأحمد في «الزهد» وابن نصر في «تعظيم قدر الصلاة» وأبو نعيم في «الحلية» بإسناد صحيح عن

عبد الله بن مسعود رضي الله عنه موقوفاً - وهو في حكم المرفوع -: «يقول الله يوم القيامة: ابن آدم ما غرك بي، ابن آدم ماذا

أجبت المرسلين؟».

(٧) أخرج ابن ماجه وأحمد بإسناد حسن عن بسر بن جحاش رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ بصق يوماً في كفه، ووضع عليها إصبعه ثم

قال: «يقول الله تعالى: يا بن آدم أتني تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض

منك وثيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت نفسك - وأشار إلى حلقه - قلت: أتصدق، وأتأى أوان التصديق».

تعجباً لشأنه، ثم فسر به بقوله:

(١٩) ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ ولو كانت لها قريبة أو حبيبة مضافية، فكل مشتغل بنفسه لا يطلب الفكاك لغيرها.

(٢٠) ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾؛ فهو الذي يفصل بين العباد، ويأخذ للمظلوم حقه من ظالمه.

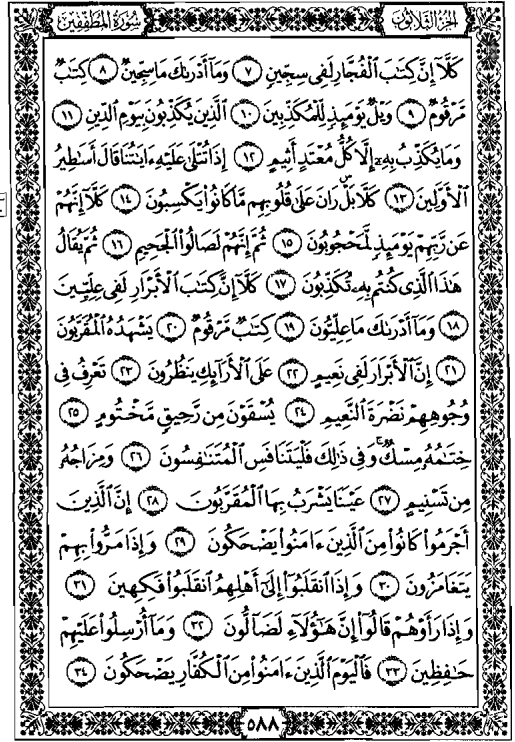
سورة المطففين وهي مدنية

(١) ﴿وَيْلٌ﴾ كلمة عذاب ووعيد ﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾.
(٢) فسر الله المطففين بقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَلُوا عَلَى النَّاسِ أَى: أخذوا منهم وفاء عما ثبت لهم قبلهم قَبْلَهُمْ﴾ ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ يستوفونه كاملاً من غير نقص.

(٣) ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ﴾؛ أي: إذا أعطوا الناس حقهم الذي للناس عليهم بكيل أو وزن ﴿يُخْسِرُونَ﴾ ينقصونهم ذلك.

(٤)، (٥) ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: فالذي جرأهم على التطفيف، عدم إيمانهم باليوم الآخر.

(٦) ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ﴾ من قبورهم ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وإلا فلو آمنوا به، وعرفوا أنهم سيقومون بين يدي الله يحاسبهم على القليل والكثير لأقلعوا عن ذلك وتابوا منه.



(١٤) ﴿وَإِنَّ الْفُجَارَ﴾ الذين فجرت قلوبهم، ففجرت أعمالهم ﴿لَفِي جَحِيمٍ﴾ عذاب أليم في دار الدنيا، و دار البرزخ، وفي دار القرار.

(١٥) ﴿صَلُّوْهُمْ﴾ ويعذبون بها أشد العذاب ﴿يَوْمَ الَّذِينَ﴾ يوم الجزاء على الأعمال.

(١٦) ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ بل هم ملازمون لها، لا يخرجون منها.

(١٧) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ﴾ تعظيم وتهويل لذلك اليوم الشديد الذي يحير الأذهان.

(١٨) ﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ﴾ أعاد ذلك

سورة المطففين

(١) أخرج النسائي في «التفسير» وابن ماجه والطبري والطبراني في «الكبير» بإسناد حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما قدم نبي الله ﷺ المدينة؛ فكانوا من أخبت الناس كيلاً، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾. فأحسنتوا الكيل بعد ذلك.

(٦) أخرج الشيخان عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه».

أي: بخلاف من ران على قلبه كسبه، وغطته معاصيه فإنه محجوب عن الحق، ولهذا جوزي على ذلك بأن حُجب عن الله.

(١٥) ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِيزٌ لِّمُحْجُوُونَ﴾ فإنه محجوب عن الحق؛ ولهذا جوزي على ذلك بأن حُجب عن الله، كما حجب قلبه في الدنيا عن آيات الله.

قال الإمام الشافعي رحمه الله: في هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة.

(١٦) ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ﴾ مع هذه العقوبة البليغة ﴿لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ لداخلون النار.

(١٧) ﴿ثُمَّ بَالٌ﴾ أي: يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ والتحقير والتصغير ﴿هَذَا﴾ أي: هذا العذاب ﴿الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَكْدُبُونَ﴾ في الدنيا؛ فواصلتم كفركم وإجرامكم.

(١٨) ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلْتَيْنَ﴾ أعلى الأماكن وأوسعها وأفسحها.

(١٩) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلْتُونَ﴾ أي: معظماً أمره مفخماً شأنه.

(٢٠) ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ بين الكتابة.

(٢١) ﴿يَشْهَدُهُ الْمُرْسَلُونَ﴾ من الملائكة الكرام، وأرواح الأنبياء والصديقين والشهداء، وينوّه الله بذكرهم في الملأ الأعلى.

(٢٢) ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ ذكر أنهم في نعيم، وهو: اسم جامع لنعيم القلب والروح والبدن.

(٢٣) ﴿عَلَى الْأَرْشَادِ﴾: على السرر المزينة بالفرش الحسان.

(٧) ﴿كَلَّا﴾؛ أي: ليس الأمر كما يظن هؤلاء الكفار أنهم غير مبعوثين ولا معذبين. ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُتُورِ﴾ إن كتابهم الذي كتب فيه أعمالهم التي كانوا يعملونها في الدنيا ﴿لَفِي سِجِّينٍ﴾ وهي الأرض السابعة السفلى، وهو فعيل من «السجن».

(٨) ثم فسر ذلك بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾؛ أي: ليس ذلك مما كنت تعلمه أنت ولا قومك.

(٩) ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ كتاب مذكور فيه أعمالهم الخبيثة.

(١٠) ﴿وَلِئَلَّ يَوْمِيزَ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: إذا صاروا يوم القيامة إلى ما أوعدهم الله من السجن والعذاب المهين.

(١١) ثم بين المكذبين بأنهم: ﴿الَّذِينَ يَكْدُبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ﴾ يوم الجزاء، يوم يدين الله الناس فيه بأعمالهم.

(١٢) ﴿وَمَا يَكْدِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ﴾ على محارم الله، متعد من الحلال إلى الحرام ﴿أَثِيمٍ﴾: كثير الإثم.

(١٣) ﴿إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ ءَانْتَنَا﴾ الدالة على الحق، وعلى صدق ما جاءت به رسله كذبها وعاندها، و ﴿قَالَ﴾: هذه ﴿أَسْطُرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: من ترهات المتقدمين وأخبار الأمم الغابرين، ليس من عند الله؛ تكبراً وعناداً. وأما من أنصف وكان مقصوده الحق المبين، فإنه لا يكذب بيوم الدين؛ لأن الله قد أقام عليه من الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة ما يجعله حق اليقين.

(١٤) ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

(١٤) أخرج الترمذي والنسائي وابن ماجه بإسناد حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن العبد إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب منها صقل قلبه، وإن زاد زادت، فذلك قول الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾».

شراب أهل الجنة وأعلاه.

(٢٨) ولذلك قال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ أي: يشربها المقربون صرفًا، وتمزج لأصحاب اليمين مزجًا.

(٢٩) ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ أخبر أن المجرمين كانوا في الدنيا يسخرون بالمؤمنين، ويستهزئون بهم.

(٣٠) ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ يتعامزون بهم عند مرورهم عليهم احتقارًا لهم.

(٣١) ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ صَبَاحًا أَوْ مَسَاءً﴾ ﴿انْقَلَبُوا فِڪِهِينَ﴾ مسرورين مغنطين.

(٣٢) ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾ وإذا رأى المجرمون المؤمنين ﴿قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ﴾ إن هؤلاء لضالون عن محجة الحق وسبيل المقصد.

(٣٣) ﴿وَمَا أَرْسَلُوا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ﴾ وما أرسلوا وكلاء على المؤمنين ملزمين بحفظ أعمالهم، حتى يحرصوا على ربيهم بالضلال.

(٣٤) ﴿فَالْيَوْمَ﴾ يوم القيامة ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ حين يرونهم في غمرات العذاب يتقلبون، وقد ذهب عنهم ما كانوا يفترون، والمؤمنون في غاية الراحة والطمأنينة.

(٣٥) ﴿عَلَىٰ الْأَرَائِكِ﴾ وهي السرر المزينة ﴿يَنْظُرُونَ﴾ إلى ما أعد الله لهم من النعيم، وينظرون إلى وجه ربهم الكريم.

(٣٦) ﴿هَلْ ثَوْبَ الْكُفَّارِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي: هل جُوزوا من جنس عملهم؟ فكما ضحكوا في الدنيا من المؤمنين ورموهم بالضلال؛ ضحك المؤمنون منهم في الآخرة حين رأوهم في العذاب والنكال، الذي هو عقوبة الغي والضلال.

نعم، ثوبوا ما كانوا يفعلون، عدلاً من الله



﴿يَنْظُرُونَ﴾ إلى ما أعد الله لهم من النعيم، وينظرون إلى وجه ربهم الكريم.

(٢٤) ﴿تَعْرِفُ﴾ أيها الناظر إليهم ﴿فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةً النَّعِيمِ﴾: بهاء النعيم ونضارته ورواقه.

(٢٥) ﴿يُسْتَفْتُونَ مِنْ رَحِيقٍ﴾: وهو من أطيب ما يكون من الأشربة والذها ﴿مَخْتُومٍ﴾.

(٢٦) ذلك الشراب ﴿خِتَمُهُ مِسْكٌ﴾. يحتمل أن المراد: مختوم عن أن يداخله شيء ينقص لذته، أو يفسد طعمه، وذلك الختام الذي ختم به مسك ﴿وَفِي ذَلِكَ﴾ النعيم المقيم الذي لا يعلم حسنه ومقداره إلا الله ﴿فَلْيَتَنَافِسِ الْمُتَنَفِسُونَ﴾ يتسابقوا في المبادرة إليه بالأعمال الموصلة إليه.

(٢٧) ﴿وَمِمَّا يُدْمِنُ مِنْ تَنَنِيمٍ﴾ أي: مزاج هذا الرحيق من شراب يقال له: تنعيم وهو أشرف

وحكمة، والله عليم حكيم.

سورة الانشقاق وهي مكية

(١) يقول تعالى مبينًا لما يكون يوم القيامة: ﴿إِذَا
الْأَنفُثُ انشَقَّتْ﴾ انفطرت، وتمايز بعضها من بعض،
وانتشرت نجومها، وخسف بشمسها وقمرها.
(٢) ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ استمعت لأمره، وألقت
سمعها، وأصاحت لخطابه ﴿وَحَقَّتْ﴾ وحق لها
ذلك.
(٣) ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ رجفت وارتجفت،
ونسفت عليها جبالها، ودك ما عليها من بناء
ومعلم، فسويت، مدها الله تعالى مدّ الأديم،
حتى صارت واسعة جدًا.
(٤) ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾ من الأموات والكنوز
﴿وَوَحَلَّتْ﴾ منهم، فتخرج الأموات من الأجداث
إلى وجه الأرض، وتخرج الأرض كنوزها.
(٥) ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ سمعت وأجابت ﴿وَحَقَّتْ﴾
وحق لها أن تسمع وتجب وتطيع.
(٦) ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا﴾ أي:
ساع إليه في عملك والكدح: عمل الإنسان وجهده
في الأمر من الخير والشر حتى يكدح فيه، أي يؤثر

﴿فَمَلَقِيهِ﴾ أي: ملاقي جزاء عملك خيرًا كان أو
شرًا.
(٧) ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابُ بِيَمِينِهِ﴾ وهم أهل
السعادة.
(٨) ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ وهو العرض
اليسير على الله.
(٩) ﴿وَنُفِثَ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ في الجنة ﴿مَسْرُورًا﴾ لأنه
نجا من العذاب، وفاز بالشواب.
(١٠) ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ بشماله من
خلفه.
(١١) ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾ من الخزي والفضيحة،
وما يجد في كتابه من الأعمال التي قدمها ولم يتب
منها.
(١٢) ﴿وَيَصَلَّىٰ سَعِيرًا﴾ أي: تحيط به السعير من
كل جانب، ويقلب على عذابها.
(١٣) ﴿إِنَّهُ﴾ وذلك لأنه في الدنيا ﴿كَانَ فِي أَهْلِهِ
مَسْرُورًا﴾ لا يخطر البعث على باله، وقد أساء.
(١٤) ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّنْ يَمُوتَ﴾ لم يظن أنه راجع
إلى ربه، وموقوف بين يديه.
(١٥) ﴿بَلَىٰ﴾ يعني: بلى، سيعيده الله كما بدأه.
ويجازهيه على أعماله خيرها وشرها ﴿إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ
بَصِيرًا﴾ أي: عليمًا خبيرًا..
(١٦) ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِالْشفقِ﴾ أقسم في هذا الموضع

سورة الانشقاق

- (١) أخرج الشيخان عن أبي رافع قال: صليت مع أبي هريرة العتمة فقرأ: ﴿إِذَا الْأَنفُثُ انشَقَّتْ﴾. فسجد، فقلت له؟ قال: سجدت
خلف أبي القاسم عليه السلام؛ فلا أزال أسجد بها حتى ألقاه.
- (٦) أخرج الطيالسي والبيهقي في «الشعب» بإسناد حسن بشواهد عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال جبريل: يا
محمد، عش ما شئت؛ فإنك ميت، وأحبب من شئت؛ فإنك مفارقة. واعمل ما شئت فإنك ملاقيه».
- (٨) أخرج الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من نوقش الحساب عذب» قالت: فقلت: أليس قال الله: ﴿فَسَوْفَ
يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ قال: «ليس ذاك بالحساب، ولكن ذلك العرض، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب».

- (٢١) ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ لا يخضعون للقرآن، ولا ينقادون لأوامره ونواهيه
- (٢٢) ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ﴾ يعاندون الحق بعدما تبين .
- (٢٣) ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ بما يعملونه وينوونه سرا، فالله يعلم سرهم وجهرهم، ولهذا قال :
- (٢٤) ﴿فَبَيِّنْ لَهُمْ عَذَابَ أَلِيمٍ﴾ وسميت البشارة بشارة؛ لأنها تؤثر في البشارة سرورا أو غما .
- (٢٥) ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ومن الناس فريق هداهم الله، فأمنوا بالله، وقبلوا ما جاءتهم به الرسل، فأمنوا وعملوا الصالحات؛ فهؤلاء ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع، بل هو أجر دائم مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر .

سورة البروج وهي مكية

- (١) ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْبُرُوجِ﴾ ذات المنازل المشتملة على منازل الشمس والقمر، والكواكب المنتظمة في سيرها .
- (٢) ﴿وَالْيَوْمَ الْوَعْدِ﴾ وهو يوم القيامة، الذي لا يمكن أن يتغير، ولا يخلف الله الميعاد .
- (٣) ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ الأكثرون على أن الشاهد



- بآيات الليل؛ فأقسم بالشفق الذي هو بقية نور الشمس الذي هو مفتتح الليل .
- (١٧) ﴿وَاللَّيْلَ وَمَا وَسَّوْا﴾ أي: احتوى عليه من حيوانات وغيرها .
- (١٨) ﴿وَالْقَمَرَ إِذَا آسَفَ﴾ امتلأ نورا بإبداره، وذلك أحسن ما يكون وأكثر منافع .
- (١٩) والمقسم عليه قوله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ أيها الناس ﴿طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ أطوارا متعددة وأحوالا متباينة .
- (٢٠) ﴿فَمَا لَكُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ومع هذا فكثير من الناس لا يؤمنون .

(١٩) أخرج البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه : ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ : «حالا بَعْدَ حالٍ»؛ قال هذا نبيكم .

سورة البروج

- (٣) أخرج الترمذي بإسناد حسن لغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه : قال: قال رسول الله ﷺ : «وَالْيَوْمَ الْوَعْدِ» يوم القيامة، ﴿وَشَاهِدٍ﴾ يوم الجمعة، وما طلعت شمس ولا غربت على يوم أفضل من يوم الجمعة، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيرا إلا أعطاه إياه، ولا يستعبد فيها من شر إلا أعاده، ﴿وَمَشْهُودٍ﴾ يوم عرفة .

ناراً، وأعدوا لها وقوداً يسعرونها به.

(٦) ﴿إِذْ هَرَّ عَلَيْنَا قُودٌ﴾، أي: عند النار جلوس لتعذيب المؤمنين.

(٧) ﴿وَهُمْ﴾ يعني الملك وجنوده الذين خدوا الأخدود ﴿عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ من عرضهم

يوم الجمعة، والمشهود هو يوم عرفة.

(٤) ﴿قِيلَ أَصْحَبْ﴾ وهذا دعاء عليهم بالهلاك، ولعن لهم ﴿الْأَخْدُودِ﴾ الحفر التي تحفر في الأرض.

(٥) ﴿الْنَّارِ ذَاتِ الْوُودِ﴾ أججوا في الأخدود

(٤) أخرج مسلم عن صهيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر قال للملك: إني قد كبرت؛ فابعث إلي غلاماً أعلمه السحر، فبعث إليه غلاماً يعلمه، وكان في طريقه إذا سلك راهب فقعد إليه وسمع كلامه، فكان إذا أتى الساحر مَرَّ بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيت الساحر؛ فقل: حسني أهلي، وإذا خشيت أهلك؛ فقل: حسني الراهب، فبينما هو كذلك إذا أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس؛ فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟، فأخذ حجراً، فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر؛ فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها، ومضى الناس، فأتى الراهب فأخبره، فقال له الراهب: أي بني أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى؛ فإن ابتليت؛ فلا تدل علي، وكان الغلام يبرء الأكمة والأبرص ويداوي الناس سائر الأدواء، فسمع جليس للملك كان قد عمي؛ فأثابه بهدايا كثيرة، فقال: ما ها هنا لك إن أنت شفيتني. قال: إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله؛ فإن آمنت بالله دعوت الله؛ فشفاك. فآمن بالله؛ فشفاه الله، فأتى الملك، فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: من رد عليك بصرك؟ قال: ربي. قال: ولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله. فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلَّ على الغلام، فجاء بالغلام، فقال له الملك: أي بني قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمة والأبرص وتفعل وتفعل قال: فقال: إني لا أشفي أحداً وإنما يشفي الله، فلم يزل يعذبه حتى دلَّ على الراهب، فجاء بالراهب، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدعا بالمنشار، فوضع المنشار في مفرق راسه فشقه حتى وقع شقاه، ثم جيء بجليس الملك فيه له: ارجع عن دينك، فأبى فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه، ثم جيء بالغلام، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغت ذروته؛ فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به الجبل، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل؛ فسقطوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحملوه في قرقور، وتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقتلوه، فذهبوا به فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة؛ فغرقوا وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله، فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما أمرك به. قال: ما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهماً من كناتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: بسم الله رب الغلام، ثم ارم، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتنني، فجمع الناس في صعيد واحد وصلبه على الجذع، ثم أخذ سهماً من كناته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: بسم الله رب الغلام، ثم رماه فوق السهم في صدغه، فوضع يده في صدغه فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، فأتى الملك فقيل له: أرايت ما كنت تحذر، قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس؛ فأمر بالأخدود بأفواه السكك، فخذت، وأضرم فيها النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه؛ فأفحموه فيها، أو قيل له: اقتحم، ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها؛ فتقاعست، فقال لها الغلام: يا أمه اصبري؛ فإنك على الحق».

استغفره وأتاب ﴿أَلُوذُودُ﴾ والمودة هي المحبة الصافية، وفي هذا سر لطيف، حيث قرن الودود بالغفور؛ ليدل ذلك على أن أهل الذنوب إذا تابوا إلى الله وأتابوا، غفر لهم ذنوبهم، وأحبهم.

(١٥) ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ صاحب العرش العظيم، وخص الله العرش بالذكر؛ لعظمته، ولأنه أخص المخلوقات بالقرب منه تعالى، فإن المجيد نعت لله، والمجد سعة الأوصاف وعظمتها.

(١٦) ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ مهما أراد شيئاً فعله، إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون، وليس أحد فعالاً لما يريد إلا الله.

(١٧) ﴿هَلْ أُنْتُكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ هل أتاك خبر الجموع الكثيرة وكيف كذبوا المرسلين، فجعلهم الله من المهلكين.

(١٨) ﴿رُفْعُونَ﴾ مصر الذي أرسل إليه موسى بن عمران عليه السلام؛ فكذب وجحد؛ فأغرقه الله وجنوده في اليم ﴿وَنُودُ﴾ قوم صالح عليه السلام.

(١٩) ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من قومك يا محمد ﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾ أي: لا يزالون مستمرين على التكذيب والعناد.

(٢٠) ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ قد أحاط بهم علماً وقدرة، فيه الوعيد الشديد للكافرين من عقوبة من هم في قبضته، وتحت تدبيره.

(٢١) ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ وسيع المعاني عظيمها، كثير الخير والعلم.

(٢٢) ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ من التغيير والزيادة والنقص، ومحفوظ من الشياطين، وهو اللوح

على النار وإرادتهم أن يرجعوا إلى دين الملك ﴿شُهُودٌ﴾ حضور.

(٨) ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾ والحال: أنهم ما نقموا من المؤمنين إلا خصلة يمدحون عليها، وبها سعادتهم؛ وهي: أنهم كانوا يؤمنون بالله ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي له العزة التي قهر بها كل شيء، ﴿الْحَمِيدُ﴾ في أقواله وأوصافه وأفعاله.

(٩) ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خلقاً وعبيداً، يتصرف فيهم تصرف المالك بملكه ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ علماً وسمعاً وبصراً، أفلا خاف هؤلاء المتمردون على الله: أن يبطش بهم العزيز المقتدر.

(١٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا﴾ عذبوا وأحرقوا ﴿الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ من كفرهم وإجرامهم ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ﴾ بكفرهم ﴿وَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ العذاب الشديد المحرق.

قال الحسن البصري رحمته الله: انظروا إلى هذا الكرم والجود! هم قتلوا أوليائه وأهل طاعته، وهو يدعوهم إلى التوبة.

(١١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بقلوبهم ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بجوارحهم ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ذلك الفوز الكبير الذي حصل به الفوز برضا الله ودار كرامته.

(١٢) ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ إن عقوبته لأهل الجرائم والذنوب العظام لقوية شديدة.

(١٣) ﴿إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَبَعْدُ﴾ هو المنفرد بإبداء الخلق وإعادته؛ فلا مشارك له في ذلك.

(١٤) ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ الذي يغفر الذنوب جميعها لمن تاب، ويعفو عن السيئات لمن

المحفوظ الذي قد أثبت الله فيه كل شيء.

سورة الطارق وهي مكية

(١) ﴿وَالسَّامِ وَالطَّارِقِ﴾ النجم الذي يظهر بالليل.
(٢) ﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا الطَّارِقُ﴾ أراد طارقاً معيناً
ولذلك فخم من شأنه بالاستفهام عنه الدال
على تهويله.

(٣) ثم فسر الطارق بقوله: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾
المضيء الذي يثقب نوره فيخرق السماوات
فينفذ حتى يرى في الأرض.

(٤) والمقسم عليه قوله: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا
حَافِظٌ﴾ يحفظ عليها أعمالها الصالحة والسيئة،
وستجازى بعملها المحفوظ عليها.

(٥) ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ يَمَّ خُلُقٍ﴾ فليستدبر خلقته
ومبدأه، فإنه مخلوق.

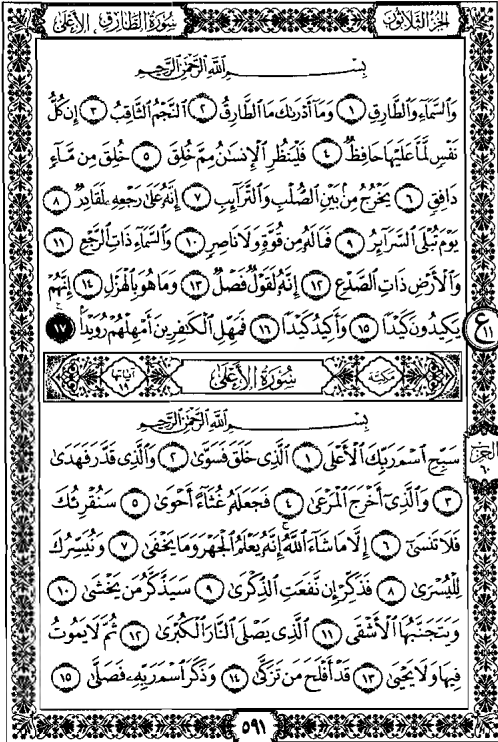
(٦) ﴿خُلُقٍ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ وهو: المني الذي
يخرج دفقاً من الرجل ومعه المرأة، فيتولد
بينهما الولد بإذن الله.

(٧) ولهذا قال: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ﴾ صلب
الرجل و﴿وَالرَّأْيِ﴾ ترائب المرأة..

(٨) ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ الذي أوجد الإنسان
من ماء دافق يخرج من هذا الموضع الصعب،
قادر على رجعه في الآخرة، وإعادته للبعث
والنشور والجزاء.

(٩) ولهذا قال: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ تختبر سرائر
الصدور، ويظهر ما كان في القلوب من خير
وشر على صفحات الوجوه.

(١٠) ﴿مَا لَمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ يدفع بها عن نفسه



﴿وَلَا نَاصِرَ﴾ خارجي ينتصر به.

(١١) ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ ترجع السماء بالمطر
كل عام.

(١٢) ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ وتنصدع الأرض
للنبات.

(١٣) ﴿إِنَّهُمْ﴾ القرآن ﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ حق وصدق
بين واضح.

(١٤) ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ جد ليس بالهزل، وهو
القول الذي يفصل بين الطوائف والمقاتلات،
وتنفصل به الخصومات.

(١٥) ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: المكذبين للرسول ﷺ
وللقرآن ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ ليدفعوا بكيدهم الحق،
ويؤيدوا الباطل.

(١٦) ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ لإظهار الحق، وكيدُ الله
استدراجه لهم من حيث لا يعلمون.

فيها الناس والبهائم وكل حيوان.
(٥) ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ أسود؛ أي: جعله هشيماً رميماً.

(٦) ﴿سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ سنحفظ ما أوحينا إليك من الكتاب، ونوعيه قلبك، فلا تنسى منه شيئاً.

(٧) ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ مما اقتضت حكمته أن ينسيكه لمصلحة بالغة ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ ومن ذلك أنه يعلم ما يصلح عباده؛ أي: فلذلك يشرع ما أراد، ويحكم بما يريد.

(٨) ﴿وَيُنِيرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ أن الله ييسر رسوله ﷺ لليسرى في جميع أموره، ويجعل شرعه ودينه يسراً.

(٩) ﴿فَذَكِّرْ﴾ بشرع الله وآياته ﴿إِنْ فَعَعْتَ الذِّكْرَى﴾ ما دامت الذكرى مقبولة، والموعظة مسموعة.

(١٠) ﴿سَيَذَرُكَ مَنْ يَخْشَى﴾ سينتفع بالذكر من يتقي الله تعالى.

(١٧) ﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ﴾ أنظرهم ولا تستعجل لهم ﴿أَمْهَلَهُمْ رَبُّكَ﴾ قليلاً؛ فسيعلمون عاقبة أمرهم، حين ينزل بهم العقاب.

سورة الأعلى وهي مكية

(١) ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ يأمر تعالى بتسبيحه المتضمن لذكره وعبادته، بأن تذكر أسماءه الحسنى العالية على كل اسم بمعناها الحسن العظيم.

(٢) ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ خلق المخلوقات ﴿فَوُتِيَ﴾ أي: أتقنها وأحسن خلقها.

(٣) ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ﴾ تقديرًا، تتبعه جميع المقدرات ﴿فَهْدَى﴾ إلى ذلك جميع المخلوقات.

(٤) ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ أنزل من السماء ماء؛ فأنبت به أنواع النبات والعشب الكثير، فرتع

سورة الأعلى

(١) أخرج البخاري عن البراء بن عازب رضى الله عنه قال: أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، فجعلوا يقرآن القرآن، ثم جاء عمار وبلال وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين، ثم جاء النبي ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به، حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون: هذا رسول الله قد جاء، فما جاء حتى قرأت: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ في سور مثلها.

وأخرج مسلم عن النعمان بن بشير رضى الله عنه: كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيدين ويوم الجمعة بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، و﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْمُنَافِقِ﴾ وربما اجتماعاً في يوم واحد فقرأهما.

وفي المسند بإسناد صحيح عن عائشة رضى الله عنها: «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في الوتر: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ و﴿قُلْ يَتُوبُ الْكَافِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين».

وأخرج الإمام أحمد بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال: «سبحان ربي الأعلى».



المرسلين سوى النبي محمد ﷺ.

سورة الفاتحة وهي مكية

(١) ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ يعني: قد أتاك حديث القيامة تغشى كل شيء بالأهوال.

(١١) ﴿وَنَجِّنَهَا﴾ أي: يبتعد عن الذكرى ﴿الْأَشَقَى﴾ الشقي في علم الله.

(١٢) ﴿الَّذِي يَصَلَّى النَّارَ الْكُبْرَى﴾ وهي نار الله الموقدة العظيمة الفظيعة؛ لأنها أعظم وأشد حرًا من نار الدنيا.

(١٣) ﴿ثُمَّ﴾ يعذب فيها عذاباً أليماً ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريح ﴿وَلَا يَحْيَى﴾ حياة تنفعه.

(١٤) ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ قد فاز وربح ﴿مَنْ زَكَّى﴾ من طهر نفسه ونقاها من الشرك والظلم ومساوئ الأخلاق.

(١٥) ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ اتصف بذكر الله، وانصبغ به قلبه ﴿فَصَلَّى﴾ فأوجب له ذلك العمل بما يرضي الله خصوصاً الصلاة.

(١٦) ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ تقدمونها على الآخرة، وتختارون نعيمها المنغص المكدر الزائل على الآخرة.

(١٧) ﴿وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ وللآخرة خير من الدنيا في كل وصف مطلوب.

(١٨) ﴿إِنَّ هَذَا﴾ المذكور لكم في هذه السورة المباركة، من الأوامر الحسنة، والأخبار المستحسنة ﴿لَقِيَ الصُّحُفَ الْأُولَى﴾ الكتب الأولى التي نزلت قبل القرآن، ثم بينها فقال: (١٩) ﴿صُحُفَ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ اللذين هما أشرف

(١١) أخرج مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها؛ فإنهم لا يموتون فيها، ولا يحيون».

(١٦) أخرج أحمد والحاكم وابن حبان بإسناد صحيح لغيره عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنيته، آثروا ما يبقى على ما يفنى».

(١٨) أخرج الزيار بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿إِنَّ هَذَا لَقِيَ الصُّحُفَ الْأُولَى﴾ ﴿صُحُفَ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ قال النبي ﷺ: «كان كل هذا - أو كان هذا - في صحف إبراهيم وموسى».

فحمدت عقباه، وحصل لها كل ما تتمناه.
(١٠) وذلك أنها ﴿فِي جَنَّةٍ﴾ جامعة لأنواع
النعيم كلها ﴿عَالِيَةً﴾ في محلها ومنازلها،
فمحلها في أعلى عليين، ومنازلها مساكن
عالية، لها غرف ومن فوق الغرف غرف
مبنية يشرفون منها على ما أعد الله لهم من
الكرامة.

(١١) ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا﴾؛ أي: الجنة ﴿لَغِيَةٍ﴾
كلمة لغو وباطل.

(١٢) ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ وهذا اسم جنس؛
أي: فيها العيون الجارية التي يفجرونها
ويصرفونها كيف شاءوا، وأنى أرادوا.

(١٣) ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ وهي المجالس
المرتفعة في ذاتها، وبما عليها من الفرش
اللينة الوطيئة.

(١٤) ﴿وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾؛ أي: أوان ممتلئة
من أنواع الأشربة اللذيذة، قد وضعت بين
أيديهم، وأعدت لهم، وصارت تحت طلبهم
واختيارهم، يطوف بها عليهم الولدان
المخلدون.

(١٥) ﴿وَنَقَارُصٌ مَّصْفُوفَةٌ﴾ وسائد من الحرير
والإستبرق وغيرهما مما لا يعلمه إلا الله.

(١٦) ﴿وَزَوَاجٍ مُّتَّبِعُونَ﴾ وهي البسط الحسان،
مملوءة بها مجالسهم من كل جانب.

(٢) ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ يعني: يوم القيامة ﴿خَشِيعَةً﴾
ذليلة.

(٣) ﴿عَالِمَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ تاعبة في العذاب، تجر
على وجوهها، وتغشى وجوههم النار.

ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾
خَشِيعَةً عَالِمَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿فِي الدُّنْيَا لِكُونِهِمْ أَهْلُ﴾
عبادات وعمل، ولكنه لم اعدم شرطه وهو
الإيمان، صار يوم القيامة هباءً منثورًا

(٤) ﴿تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾ شديدًا حرها، تحيط
بهم من كل مكان.

(٥) ﴿تُثْقَلْنَ مِنْ عَيْنٍ عَائِيَةٍ﴾؛ أي: حارة
شديدة الحرارة، فهذا شرابهم.

(٦) وأما طعامهم ف ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ﴾
ضَرِيحٍ ﴿قَالَ مُجَاهِدٌ وَعُكْرَمَةٌ وَقَتَادَةُ: هُوَ نَبْتٌ﴾
ذو شوك تسميه العرب الشُّبْرُق هو أخبث
طعام وأبشعه.

(٧) ﴿لَا يَسْمَنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ لا يحصل
به مقصود، ولا يندفع به محذور.

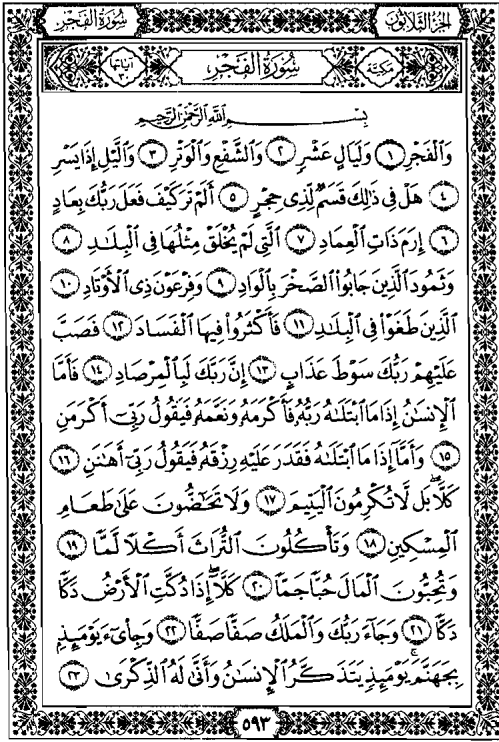
(٨) ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ وأما أهل الخير؛
فوجوههم يوم القيامة ﴿نَّاعِمَةٌ﴾ قد جرت
عليهم نضرة النعيم، فنضرت أبدانهم،
واستنارت وجوههم، وسروا غاية السرور.

(٩) ﴿لِسَعِيدَةٍ﴾ الذي قدمته في الدنيا من
الأعمال الصالحة، والإحسان إلى عباد الله
﴿رَاضِيَةٍ﴾ إذ وجدت ثوابه مدخرًا مضاعفًا،

سورة الغاشية

(٣) أخرج البخاري تعليقاً عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: ﴿عَالِمَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾: النصارى. قلت: وصله ابن أبي حاتم.

(١٢) أخرج ابن أبي حاتم وابن حبان بإسناد حسن عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «أنهار الجنة تفجر من تحت تلال - أو
من تحت جبال - المسك».



الطاعة وكفر بالله.

(٢٤) ﴿فَعَذَّبَهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ الشديد الدائم.

(٢٥) ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ رجوع الخليقة وجمعهم

(١٧) ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْآيِلِ كَيْفَ خُلِقَ﴾ أي: ألا ينظرون إلى خلقها البديع، وكيف سخرها الله للعباد، وذلكها لمنافعهم الكثيرة التي يضطرون إليها.

(١٨) ﴿وَالِ السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ عن الأرض حتى لا ينالها شيء بغير عمد.

(١٩) ﴿وَالِ الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ بهيئة باهرة، حصل بها استقرار الأرض وثباتها عن الاضطراب.

(٢٠) ﴿وَالِ الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ مدت مدداً واسعاً، وسهلت غاية التسهيل؛ ليستقر الخلائق على ظهرها.

(٢١) ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ ذكر الناس وعظهم، وأنذرهم وبشرهم.

(٢٢) ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ فإنك مبعوث لدعوة الخلق إلى الله وتذكيرهم، ولم تبعث مسيطراً عليهم، مسلطاً موكلًا بأعمالهم.

(٢٣) ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ لكن من تولى عن

(١٧- ٢٠) أخرج مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: كنا نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء؛ فكان يعجبنا: أن يجيب الرجل من أهل البادية العاقل، فيسأله ونحن نسمع، فجاء رجل من أهل البادية فقال: يا محمد! أنه أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك؟ قال: «صدق»، قال: فمن خلق السماء؟ قال: «الله». قال: فمن خلق الأرض؟ قال: «الله». قال: فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل؟ قال: «الله»، قال: فبالذي خلق السماء والأرض ونصب هذه الجبال: آله أرسلك؟ قال: «نعم». قال: وزعم رسولك أنه علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا؟ قال: «صدق». قال: فبالذي أرسلك آله أمرك بهذا؟ قال: «نعم». قال: وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا؟ قال: «صدق». قال: فبالذي أرسلك آله أمرك بهذا؟ قال: «نعم». قال: وزعم رسولك: أن علينا حج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً قال: «صدق»، ثم ولى؛ فقال: والذي بعثك بالحق، لا أزيد عليكم شيئاً، ولا أنقص منهن شيئاً، قال النبي ﷺ: «إن صدق؛ ليدخلن الجنة».

(٢١) أخرج مسلم وأحمد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله؛ فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله ﷻ»، ثم قرأ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ ١٦ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ.

في يوم القيامة .

(٢٦) ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ فنحاسبهم على ما عملوا من خير وشر .

سورة الفجر وهي مكية

﴿عَادٍ﴾ كيف فعل بهذه الأمم الطاغية مثل عاد الأولى ، وهي :

(٧) ﴿إِرمَ﴾ القبيلة المعروفة في اليمن ﴿ذَاتِ أَلْعِمَادِ﴾ ؛ أي : القوة الشديدة والعتو والتجبر .

(٨) ﴿أَلَيْ لَمْ يَخْلَقْ مِثْلَهَا﴾ مثل عاد ﴿فِي أَلْبَلَدِ﴾ في جميع البلدان في القوة والشدة .

(٩) ﴿وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ وادي القرى ، نحتوا بقوتهم الصخور؛ فاتخذوها مساكن .

(١٠) ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ ذي الجنود الذين ثبتوا ملكه ؛ كما تثبت الأوتاد ما يراد إمساكه بها ، وقيل : لأنه كان يعذب الناس بالأوتاد .

(١١) ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ﴾ هذا الوصف عائد إلى عاد وثمود وفرعون ومن تبعهم ، فإنهم طغوا في بلاد الله ، وأذوا عباد الله ، في دينهم ودنياهم .

(١٢) ولهذا قال : ﴿فَاكْثُرُوا فِيهَا الْفُسَادَ﴾ وهو العمل بالكفر وشعبه .

(١٣) ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أرسل الله عليهم عذاباً من السماء لا يرد عن القوم المجرمين .

(١٤) ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَلِصَادٍ﴾ لمن عصاه يمهله قليلاً ، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر .

(١٥) ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان

(١) ﴿وَالْفَجْرِ﴾ أقسم تعالى بالفجر ، الذي هو آخر الليل ؛ ومقدمة النهار ؛ لما في إدبار الليل وإقبال النهار من الآيات الدالة على كمال قدرة الله - تعالى

(٢) ﴿وَلَيْلٍ عَشْرٍ﴾ وهي الصحيح ليالي عشر رمضان ، أو عشر ذي الحجة ؛ فإنها ليال مشتملة على أيام فاضلة ، ويقع فيها من العبادات والقربات ما لا يقع في غيرها .

(٣) ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ لم يعين نوعاً من الشفع ولا من الوتر بخبر ولا عقل ؛ فكل شفع ووتر داخل فيما أقسم الله به ؛ لعموم قسمه بذلك .

(٤) ﴿وَالْأَيْلِ إِذَا بَسَرٍ﴾ وقت سريانه وإرخائه ظلامه على العباد .

(٥) ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿فَسَمُّ لَيْزَى جَحْرِ﴾ لذي عقل ؟ .

(٦) ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بقلبك وبصيرتك ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾

سورة الفجر

(٢) أخرج البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ : «ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام» يعني : عشر ذي الحجة - قالوا : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : «ولا الجهاد في سبيل الله ، إلا رجلاً خرج بنفسه وماله ، ثم لم يرجع من ذلك بشيء» .

من حيث هو، وأنه جاهل ظالم لا علم له بالعواقب. يظن أن إكرام الله في الدنيا وإنعامه عليه يدل على كرامته عنده وقربه منه.

(١٦) ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ﴾؛ أي: وكذلك في الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتنحه وضيق عليه في الرزق، يعتقد أن ذلك من الله إهانة له.

(١٧) ﴿كَلَّا﴾ ليس كل من نعمته في الدنيا فهو كريم علي، ولا كل من قدرت عليه رزقه فهو مهان لدي، وإنما الغنى والفقر، والسعة والضيق، ابتلاء من الله ﴿بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ الذي فقد أباه وكاسبه، واحتاج إلى جبر خاطره والإحسان إليه.

(١٨) ﴿وَلَا تَحْضُوتُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ لا يحض بعضكم بعضاً على إطعام المحاويع من المساكين والفقراء.

(١٩) ﴿وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ﴾ المال المخلف ﴿أَكْثَرًا لَّمَّا﴾ ذريعاً، لا تقون على شيء منه.

(٢٠) ﴿وَتَحْجُوتُ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ جُمًّا﴾ كثيراً شديداً.

(٢١) ﴿كَلَّا﴾ بل أمامكم يوم عظيم، وهول جسيم ﴿إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ تدك فيه الأرض والجبال وما عليها، حتى تجعل قاعاً صفصفاً لا عوج فيه ولا أمت.

(٢٢) ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ ويجيء الله تعالى لفصل القضاء بين عباده في ظلل من الغمام ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَقُولُ يٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي خَلَقْتُكُمْ مِنْ نَارٍ وَنَارٌ مِنْكُمْ فَاعْبُدُونِي ۚ إِنَّكُمْ لَعَالَمُونَ ۝١
وَلَا تُؤْتُوا عَصَاكَ الْيَتِيمَ أَنْ يَمْدُدَ بِهَا يَدَهُ إِلَىٰ خِزْيَانِكَ لِتَأْكُلَ مِنْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ يَتَذَكَّرُ أَلْفًا عَشْرًا ۝٢
إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُطِيعَةً ۚ وَأَنْتَ الْكَافِرُ ۝٣
يٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي خَلَقْتُكُمْ مِنْ نَارٍ وَنَارٌ مِنْكُمْ فَاعْبُدُونِي ۚ إِنَّكُمْ لَعَالَمُونَ ۝٤
لَا أَقْسِمُ بِبَدْءِ الْبَرِّ ۚ إِنَّتُمْ لَعَالَمُونَ ۝٥
لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۚ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٦
إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۚ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ الْمَمْلُوكِينَ ۝٧
الَّذِينَ لَا أَقْصِمُ الْعَقَبَةَ ۚ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۚ فَكَّرْ وَقُلْ ۖ أَوَّلُ عَلَمٍ ۖ نَوْمًا ۚ مِمَّا دَاقْتُمْ ۝٨
أَوَّمَسْكِتُمْ أَصْوَابَكُمْ ۚ إِنَّكُمْ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝٩
بِالنَّارِ ۚ وَنُفُوسُ الْكَافِرِينَ ۚ إِنَّهُمْ أَصْحَابُ السَّعِيرِ ۝١٠
كُفِّرُوا بَارِئًا ۚ إِنَّهُمْ أَصْحَابُ السَّعِيرِ ۝١١
عَلَيْهِمْ نَارُ مُؤَصَّدَةٍ ۚ أَلَمْ تَكُنْ مِنْ الْغَاثِ ۝١٢
وَالْغَاثِ ۚ وَنُفُوسُ الْكَافِرِينَ ۚ إِنَّهُمْ أَصْحَابُ السَّعِيرِ ۝١٣
كُفِّرُوا بَارِئًا ۚ إِنَّهُمْ أَصْحَابُ السَّعِيرِ ۝١٤
عَلَيْهِمْ نَارُ مُؤَصَّدَةٍ ۚ أَلَمْ تَكُنْ مِنْ الْغَاثِ ۝١٥

وتجيء الملائكة الكرام، أهل السماوات كلهم ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ صفّاً بعد صف، كل سماء يجيء ملائكتها صفّاً، يحيطون بمن دونهم من الخلق، وهذه الصفوف صفوف خضوع وذلل للملك الجبار.

(٢٣) ﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ تقودها الملائكة بالسلاسل، فإذا وقعت هذه الأمور ف ﴿يَوْمَئِذٍ يَنْذِكُرُ الْإِنْسَانَ﴾ ما قدمه من خير وشر.

﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ فقد فات أوانها، وذهب زمانها

(١٧) أخرج البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة» وقرن بين أصعبه: الوسطى والتي تلي الإبهام.

(٢٣) أخرج مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها».

أوليائه وأحبابه ﴿رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾؛ أي: راضية عن الله، وعن ما أكرمها به من الثواب، والله قد رضي عنها.

(٢٩)، (٣٠) ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ وهذا تخاطب به الروح حال الموت، وفي يوم القيامة.

سورة لا أقسم (البلد) وهي مكية

- (١) ﴿لَا أَقْسِمُ﴾ يقسم تعالى ﴿بِهَذَا أَلْبَدِ﴾ الأمين، الذي هو مكة المكرمة.
- (٢) ﴿وَأَنْتَ حَلٌّ﴾ حلال ﴿بِهَذَا أَلْبَدِ﴾ تصنع فيه ما تريد من القتل والأسر ليس عليك ما على الناس فيه من الإثم.

(٢٤) ﴿يَقُولُ﴾ متحسراً على ما فرط في جنب الله: ﴿يَلَيْتَنِي قَدِمْتُ لِحَاكِي﴾ الدائمة الباقية، عملاً صالحاً.

(٢٥) ﴿فَيَوْمِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا﴾ لمن أهمل ذلك اليوم، ونسي العمل له.

(٢٦) ﴿وَلَا يُؤْتِي وَفَاقَهُ أَحَدًا﴾ فإنهم يقرنون بسلاسل من نار، ويسحبون على وجوههم في الحميم، ثم في النار يسجرون، فهذا جزاء المجرمين.

(٢٧) وأما من اطمأن إلى الله وآمن به وصدق رسله فيقال له: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ إلى ذكر الله، الساكنة إلى حبه، التي قرت عينها بالله.

(٢٨) ﴿أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ الذي رباك بنعمته، وأسدى عليك من إحسانه ما صرت به من

(٢٤) أخرج أحمد والبخاري في «التاريخ الكبير» وأبو نعيم في «الحلية» وابن عبد البر في «الاستيعاب» بإسناد صحيح عن محمد ابن أبي عميرة - وكان من أصحاب رسول الله ﷺ - قال: «لو أن عبداً خرَّ على وجهه من يوم ولد وإلى أن يموت هروماً في طاعة الله؛ لحقره يوم القيامة، ولو أنه يرد إلى الدنيا كيما يزداد في الأجر والثواب».

قال أبو أسامة الهاللي - عفا الله عنه، وبالخير ختم له-: هو موقوف، وقد روي مرفوعاً عند أحمد بإسناد حسن من حديث عتبة بن عبد عن رسول الله ﷺ.

(٢٧) أخرج ابن أبي حاتم والضياء المقدسي في «المختارة» بإسناد حسن عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (٢٧) ﴿أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ قال: نزلت وأبو بكر جالس، فقال: يا رسول الله ما أحسن هذا، فقال: «أما إنه سيقال لك هذا».

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني بإسناد حسن عن سعيد بن جبيرة؛ قال: مات ابن عباس بالطائف؛ فجاء طير لم ير على خلقه، فدخل نعشه، ثم لم يرَ خارجاً منه، فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر، ما يدري من تلاها: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (٢٧) ﴿أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ (٢٨) ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾.

سورة البلد

(٢) أخرج البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ: «إن هذه البلد حرمة الله يوم خلق السماوات والأرض؛ فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شجره، ولا يختلى خلاه، وإنما أحلت لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، ألا فليبلغ الشاهد الغائب».

وفي لفظ: «فإن أحد ترخص بقتال رسول الله؛ فقولوا: إن الله أذن لرسوله، ولم يأذن لكم».

(١١) ﴿فَلَا أَقْنَمَ الْعَقَبَةُ﴾ لم يقتحمها ويعبر عليها؛ لأنه متبع لشهوته.
 (١٢) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ هذا تفخيم لشأنها وتعظيم له.
 (١٣) ﴿فَكُ رَقَبَةً﴾ فكها من الرِّقِّ بعثتها، أو مساعدتها على أداء كتابتها، ومن باب أولى فكك الأسير المسلم عند الكفار.
 (١٤) ﴿أَوْ إِطْعَمَ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ مجاعة شديدة.
 (١٥) ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ جامعًا بين كونه يتيمًا فقيرًا ذا قرابة.
 (١٦) ﴿أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ قد لزق بالتراب من الحاجة والضرورة.
 (١٧) ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ آمنوا بقلوبهم بما يجب الإيمان به، وعملوا الصالحات بجوارحهم: من كل قول وفعل واجب أو مستحب ﴿وَتَوَّاصَوْا بِالصَّيْرِ﴾ على طاعة الله وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة ﴿وَتَوَّاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ للخلق.

(٣) ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدٌ﴾ آدم وذريته.
 (٤) ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ يحتمل أن المراد بذلك ما يكابده ويقاسيه من الشدائد في الدنيا، وفي البرزخ، ويوم يقوم الأشهاد.
 (٥) ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ يظن أن لن يقدر عليه الله تعالى.
 (٦) ويطنغي ويفتخر بما أنفق من الأموال على شهوات نفسه. ف ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بُدَّ﴾ كثيرًا، بعضه فوق بعض.
 (٧) ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ أيحسب في فعله هذا، أن الله لا يراه، ويحاسبه على الصغير والكبير؟
 (٨) ثم قرره بنعمه فقال: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُ عَيْنَيْنِ﴾ ييصر بهما.
 (٩) ﴿وَلِسَانًا﴾ ينطق به، فيعبر عما في ضميره، ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ يستعين بهما على الكلام وأكل الطعام وجمالاً لوجهه وفمه.
 (١٠) ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ طريقي الخير والشر، بيننا له الهدى من الضلال، والرشد من الغي.

(١٣) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله لكل إرب منها إرباً منه من النار، حتى إنه ليعتق باليد اليد، وبالرجل الرجل، وبالفرج الفرج».
 وأخرج البخاري في «الأدب المفرد» وأحمد والطبرسي وابن حبان والحاكم والدارقطني بإسناد صحيح: عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، علمني عملاً يدخلني الجنة. فقال: «لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة، أعتق النسمة، وفك الرقبة». فقال: يا رسول الله، أو ليستا بواحدة؟ قال: «لا، إن عتق النسمة: أن تنفرد بعثتها، وفك الرقبة: أن تعين في عتقها، والمنحة الوكوف، والفيء على ذي الرحم الظالم، فإن لم تطلق ذلك؛ فأطعم الجائع، واسق الظمآن، وأمر بالمعروف، وانه عن المنكر، فإن لم تطلق ذلك؛ فكف لسانك إلا في الخير».
 (١٥) أخرج الترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد بإسناد صحيح عن سلمان بن عامر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان: صدقة وصلة».
 (١٧) أخرج أحمد وأبو داود والترمذي بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء».

(٢٠) ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ﴾ مطبقة عليهم مغلقة، لا يدخل فيها روح، ولا يخرج منها غم.

سورة الشمس وضحاها وهي مكية

(١) ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَافَىٰ﴾ نورها، ونفعها الصادر منها

(٢) ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ تبعها في المنازل والنور.

(٣) ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَافَىٰ﴾ أجلي ما على وجه الأرض وأوضحه.

(٤) ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ يغشى وجه الأرض؛ فيكون ما عليها مظلمًا.

(٥) ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ يحتمل أن الإقسام بالسماء وبانيها وهو الله، أو: والسماء وبنيانها، الذي هو غاية ما يقدر من الأحكام والانتقان والإحسان وكلاهما متلازم.

(٦) ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ مدها ووسعها.

(٧) ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ المراد بالإقسام بنفس الإنسان المكلف، وتسويتها على هذا الوجه آية من آيات الله العظيمة.

(٨) ﴿فَالْمُهَيَّاءِ فَجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ بيّن لها الخير



(١٨) ﴿أَوَلَيْكَ أَصْحَابُ الْأَيْمَنِ﴾ عنوان السعادة وعلامتها.

(١٩) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ بأن نبذوا هذه الأمور وراء ظهورهم، فلم يصدقوا بالله، ولا آمنوا به، ولا عملوا صالحًا، ولا رحموا عباد الله، ﴿هُم أَصْحَابُ الْمَشْأَمِ﴾ أصحاب الشمال، وهم الكفار الفجار.

سورة الشمس

(٧) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة؛ فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟».

وفي «صحيح مسلم» عن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: يقول الله ﻻ: «إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين، فاجتالهم عن دينهم».

(٨) أخرج مسلم وأحمد والطبراني -واللفظ له- عن أبي الأسود الدليلي عن عمران بن حصين: أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: أرأيت ما يعمل في الناس ويكدحون فيه؟ شيء قضى عليهم؟ ومضى عليهم من قدر قد سبق؟ أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم ﷺ وأتخذت عليهم الحجة؟ قال: بل شيء قضى عليهم، ومضى عليهم. قال: فلم يعملوا إذا؟ فقال رسول الله ﷺ: -

جائمين على ركبهم، لا تجد منهم داعياً ولا مجيباً ﴿فَسَوَّيْنَاهَا﴾ عليهم؛ أي: سوى بينهم بالعقوبة. (١٥) ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ تبعتها.

سورة الليل وهي مكية

- (١) ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَشَتْ﴾؛ أي: يعم الخلق بظلامه؛ فيسكن كل إلى مأواه ومسكنه.
- (٢) ﴿وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى﴾ للخلق، فاستضاءوا بنوره، وانتشروا في مصالحهم.
- (٣) ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ قد يكون إقساماً بنفسه الكريمة الموصوفة، بأنه خالق الذكور والإناث، أو قسماً بخلقه للذكر والأنثى.
- (٤) ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ هذا هو المقسم عليه؛ أي: إن سعيكم أيها المكلفون لمتفاوت متفاوتاً كثيراً،

والشر. (٩) ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ طهر نفسه من الذنوب، ونقاها من العيوب، ورقاها بطاعة الله، وعلاها بالعلم النافع والعمل الصالح. (١٠) ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ بالتدنس بالردائل، والدنو من العيوب، والافتراق للذنوب. (١١) ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ بسبب طغيانها وترفعها عن الحق، وعتوها على رسل الله. (١٢) ﴿إِذْ أُنْبِئَتْ أَشَقُّهَا﴾ أشقى القبيلة، وهو: أحيمر ثمود قدار بن سالف؛ لعقره الناقة حين اتفقوا على ذلك، وأمروه؛ فأتهم لهم. (١٣) ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ صالح عليه السلام ﴿مَحْذَرًا﴾ ناقة الله وسقياها؛ أي: احذروا عقر ناقة الله، التي جعلها لكم آية عظيمة. (١٤) ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾؛ أي فيما أخبرهم به بشأن الناقة ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ يعني: الناقة ﴿فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ دمر عليهم وعمهم بعقابه، وأرسل عليهم الصيحة من فوقهم، والرجفة من تحتهم، فأصبحوا

«من خلقه الله لواحدة من المنزلتين وفقه لعملها» قال: وتصديق ذلك في كتاب الله: ﴿وَقَسِيرٌ وَمَا سَوَّاهَا﴾ ٧ ﴿فَالْمُهْمُ يُجْزَاهَا وَنَقَّاهَا﴾.

(١٢) أخرج الشيخان عن عبد الله بن زمعة رضي الله عنه قال: خطب رسول الله ﷺ، فذكر الناقة، وذكر الذي عقرها، فقال: ﴿إِذْ أُنْبِئَتْ أَشَقُّهَا﴾ انبعث لها رجل عازم عزيز منيع في رهطه، مثل أبي زمعة. وأخرج الطحاوي في المشكل والنسائي في الخصائص والحاكم - والسياق له - وأحمد بإسناد صحيح لغيره: عن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال: «كنت أنا وعليّ رفيقين في غزوة ذي العشرة، فلما نزلها رسول الله ﷺ وأقام بها، رأينا ناساً من بني مدلج يعملون في عين لهم في نخل، فقال لي علي: يا أبا اليقظان، هل لك أن تأتي هؤلاء ننظر كيف يعملون؟ فجنناهم فنظرنا إلى عملهم ساعة، ثم غشنا النوم، فانطلقت أنا وعلي فاضطجعنا في صور من النخل، في دقعاء من التراب فتمنا، فوالله ما أيقظنا إلا رسول الله ﷺ يحركنا برجله، وقد تربنا من تلك الدقعاء، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا تراب». لما يرى عليه من التراب، فقال رسول الله ﷺ: «ألا أحدثكما بأشقى الناس، رجلين؟» قلنا: بلى يا رسول الله! قال: «أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك على هذه - يعني قرن علي - حتى تبتل هذه من الدم -- يعني لحيته».

أتى بأسباب التيسير، فيسر الله له ذلك.

(٨) ﴿وَأَمَّا مَنْ يَخْلُ﴾ بما أمر به فترك الإنفاق الواجب والمستحب، ولم تسمح نفسه بأداء ما وجب لله، ﴿وَأَسْتَعَى﴾ عن الله، فترك عبوديته جانباً، ولم ير نفسه مفتقرة غاية الافتقار إلى ربها، الذي لا نجاة لها ولا فوز ولا فلاح، إلا بأن يكون هو محبوبها ومعبودها، الذي تقصده وتتوجه إليه.

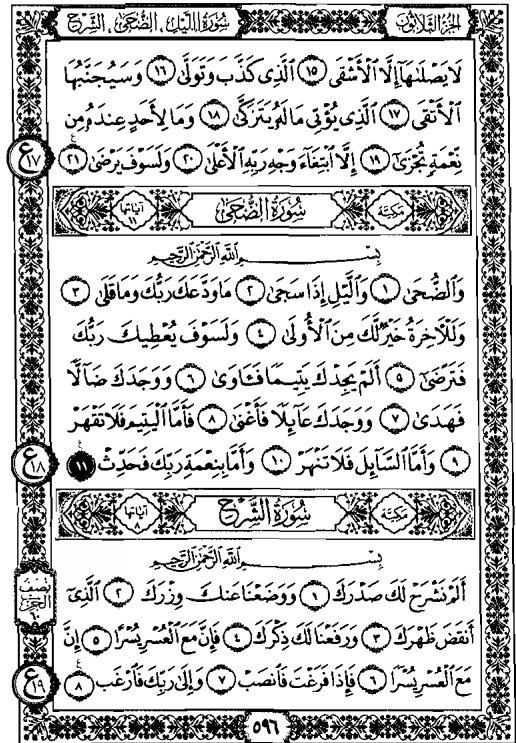
(٩) ﴿وَكَذَّبَ بِالْحَسَنِ﴾ أي: بما أوجب الله على العباد التصديق به من العقائد الحسنة.

(١٠) ﴿فَسَيَبْرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ للحالة العسرة، والخصال الذميمة، بأن يكون ميسراً للشر أينما كان، ومقيضاً له أفعال المعاصي، نسأل الله العافية.

(١١) ﴿وَمَا يُعْنِي عَنْهُ مَالُهُ﴾ الذي أطغاه واستغنى به، وبخل به، ﴿إِذَا تَرَدَّى﴾ إذا هلك ومات؛ فإنه لا يصحبه إلا عمله الصالح، وأما ماله الذي لم يخرج منه الواجب فإنه يكون وبالاً عليه؛ إذ لم يقدم منه لآخرته شيئاً.

(١٢) ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ إن الهدى المستقيم طريقه يوصل إلى الله، ويدين من رضاه، وأما الضلال فطرقه مسدودة عن الله، لا توصل صاحبها إلا للعذاب الشديد.

(١٣) ﴿وَلَا نَآ لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ ملكاً وتصرفاً، ليس له فيهما مشارك، فليرغب الراغبون إليه في



وذلك بحسب تفاوت نفس الأعمال ومقدارها والنشاط فيها، وبحسب الغاية المقصودة بتلك الأعمال.

(٥) ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى﴾ ما أمر به من العبادات المالية، ﴿وَأَتَقَى﴾ ما نهى عنه من المحرمات والمعاصي على اختلاف أجناسها.

(٦) ﴿وَصَدَّقَ بِالْحَسَنِ﴾ صدق بـ(لا إله إلا الله) وما دلت عليه.

(٧) ﴿فَسَيَبْرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ نسهل عليه أمره، ونجعله ميسراً له كل خير، وميسراً له ترك كل شر؛ لأنه

سورة الليل

(١٠-٥) أخرج البخاري عن علي رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في بقيع الغرقد في جنازة، فقال: «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار» فقالوا: يا رسول الله أفلا نتكل؟ فقال: «اعملوا؛ فكل ميسر لما خلق له» قال: ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحَسَنِ (٦) فَسَيَبْرُهُ لِلْعُسْرَى (٧) إلى قوله: ﴿لِلْعُسْرَى﴾.

للناس، ويفعل لهم ما ينقص إخلاصه.
(٢٠) ﴿إِلَّا آيِفَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ أي: لا يفعل ذلك مجازاة لأحد له بيد عنده، ولكنه يفعله ابتغاء وجه ربه الأعلى وطلب رضاه.
(٢١) ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ هذا الآتق بما يعطيه الله من أنواع الكرامات والمثوبات، والحمد لله رب العالمين.

سورة الضحى وهي مكية

(١) أقسم الله تعالى على اعتنائه برسوله ﷺ فقال: ﴿وَالضُّحَى﴾ أقسم تعالى بالنهار إذا انتشر ضياؤه
(٢) ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا سَجَى﴾ ادلهمت ظلمته.
(٣) ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ أي: ما تركك منذ اعتنى بك، ولا أهملك منذ رباك ورعاك ﴿وَمَا قَلَى﴾ أي: ما أبغضك منذ أحبك، فهذه حال الرسول ﷺ الماضية والحاضرة، أكمل حال وأتمها، محبة الله له واستمرارها، وترقيته في درج الكمال، ودوام اعتناء الله به.

الطلب، ولينقطع رجاؤهم عن المخلوقين.
(١٤) ﴿فَأَنْذَرْتُكَ﴾ يا أهل مكة ﴿نَارًا تَلْقَى﴾ تستعر وتتوقد.
(١٥) ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ الشقي.
(١٦) ﴿الَّذِي كَذَّبَ﴾ بالخبر والرسول ﴿وَتَوَلَّى﴾ عن الأمر والإيمان.
(١٧) ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتَقَى﴾ التقي.
(١٨) ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ﴾ يعطى ماله ﴿يَتَزَكَّى﴾ بأن يكون قصده به تزكية نفسه، وتطهيرها من الذنوب والعيوب، قاصداً به وجه الله تعالى فدل هذا على أنه إذا تضمن الإنفاق المستحب ترك واجب؛ كدين ونفقة ونحوهما، فإنه غير مشروع، بل تكون عطيته مردودة عند كثير من العلماء؛ لأنه لا يتزكى بفعل مستحب يفوت عليه الواجب.
(١٩) ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾ ليس لأحد من الخلق على هذا الآتق نعمة تجزى إلا وقد كافأه بها، وربما بقي له الفضل والمنة على الناس، فتمحض عبداً لله؛ لأنه رقيق إحسانه وحده، وأما من بقي عليه نعمة للناس لم يجزها ويكافئها، فإنه لا بد أن يترك

(١٤) أخرج أحمد بإسناد حسن عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب يقول: أنذرتكم النار، أنذرتكم النار، أنذرتكم النار. حتى لو أن رجلاً كان بالسوق لسمعته من مقامي هذا. قال: حتى وقعت خميسة كانت على عاتقه عند رجله.
(١٧ - ٢٢) أخرج البزار والآجري في «الشرعية» والطبري والطبراني في «الكبير» بإسناد حسن: عن عبد الله بن الزبير رضى الله عنه قال: نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق رضى الله عنه.
(٢١) في «الصحيحين» عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أنفق زوجين في سبيل الله دعه خزانة الجنة: يا عبد الله، هذا خير». فقال أبو بكر: يا رسول الله، ما على من يدعى منها ضرورة فهل يدعى كلها أحد؟ قال: «نعم وأرجو أن تكون منهم».

سورة الضحى.

(٣-١) أخرج الشيخان عن جندب البجلي رضى الله عنه قال: احتبس جبريل عليه السلام على النبي ﷺ، فقالت امرأة من قريش: أبطأ عليه شيطان. فنزلت: ﴿وَالضُّحَى﴾ (١) ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا سَجَى﴾ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى.

(٨) ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا﴾ فقيرًا ﴿فَأَغْنَى﴾ بما فتح الله عليك من البلدان، التي جبيت لك أموالها وخراجها.

(٩) ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ أي: لا تُسيء معاملة اليتيم.

(١٠) ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ لا يصدر منك إلى السائل كلام يقتضي رده عن مطلوبه، بنهر وشراسة خلق.

(١١) ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ وهذا يشمل النعم الدينية والدنيوية ﴿فَحَدِّثْ﴾ أثن على الله بها، وخصصها بالذكر إن كان هناك مصلحة.

وإلا فحدث بنعم الله على الإطلاق؛ فإن التحدث بنعمة الله داع لشكرها، وموجب تحبيب القلوب إلى من أنعم بها، فإن القلوب مجبولة على محبة المحسن.

(٤) ﴿وَلِآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾؛ أي: كل حالة متأخرة من أحوالك، فإن لها الفضل على الحالة السابقة أو الدار الآخرة خير لك من هذه الدار.

(٥) ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ وهذا هو حاله في الآخرة، من تفاصيل الإكرام، وأنواع الأنعام، وهذا أمر لا يمكن التعبير عنه بغير هذه العبارة الجامعة الشاملة.

(٦) ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾؛ أي: وجدك لا أم لك، ولا أب ﴿فَتَأْوَى﴾؛ أي: فآواه الله، وكفله جده عبد المطلب، ثم لما مات جده كفله الله عمه أبا طالب، حتى أيده بنصره وبالمؤمنين.

(٧) ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴿فَهَدَى﴾ فعلمك ما لم تكن تعلم، ووفقك لأحسن الأعمال والأخلاق.

(٤) أخرج أحمد والترمذي وابن ماجه بإسناد صحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : اضطلع رسول الله ﷺ على حصير فائر في جنبه ، فلما استيقظ جعلت أمسح جنيبه فقلت: يا رسول الله ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئاً؟ فقال رسول الله ﷺ : «ما لي وللدنيا؟ ما أنا والدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظل تحت شجرة، ثم راح وتركها».

(٥) أخرج الطبري وابن أبي حاتم والطبراني في «الكبير» و«الأوسط» والحاكم والبيهقي في «الدلائل» بإسناد صحيح عن عبد الله ابن عباس رضي الله عنه قال: عرض على رسول الله ﷺ ما هو مفتوح على أمته من بعده كُفراً كُفراً؛ فُسِّرَ بذلك، فأنزل الله ﷻ : ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ . فأعطاه الله في الجنة ألف قصر في كل قصر ما ينبغي له من الولدان والخدم.

(٨) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس».

وعند مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «قد أفلح من أسلم ورزق كافاً، وقته الله بما آتاه».

(١٠) أخرج أحمد وابن سعد والطبراني في «الكبير» بإسناد حسن عن عمرو بن معاذ الأنصاري قال: إن سائلاً وقف على بابهم فقالت له جدته حواء: أطعموه تمرًا، قالوا: ليس عندنا، قالت: فاسقوه سويقًا، قالوا: العجب لك، نستطيع أن نطعمه ما ليس عندنا، قالت إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تردوا السائل ولو بظلف محرق».

(١١) أخرج أحمد وابنه في «زوائد المسند» وابن أبي عاصم في «السنة» والقضاعي في «مسند الشهاب» بإسناد حسن عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ : «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، والتحدث بنعمة الله شكر، وتركها كفر، والجماعة رحمة، والفرقة عذاب».

سورة الشرح
وهي مكية

(١) يقول تعالى ممتنا على رسوله ﷺ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾؛ أي: نوسعه لشرائع الدين والدعوة إلى الله، والاتصاف بمكارم الأخلاق، والإقبال على الآخرة، وتسهيل الخيرات.

(٢) ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾؛ أي: ذنبك

(٣) ﴿الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾. أثقل

(٤) ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾؛ أي: أعلىنا قدرك،

وجعلنا لك الثناء الحسن العالي.

(٥) ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ بشارة عظيمة، أنه كلما

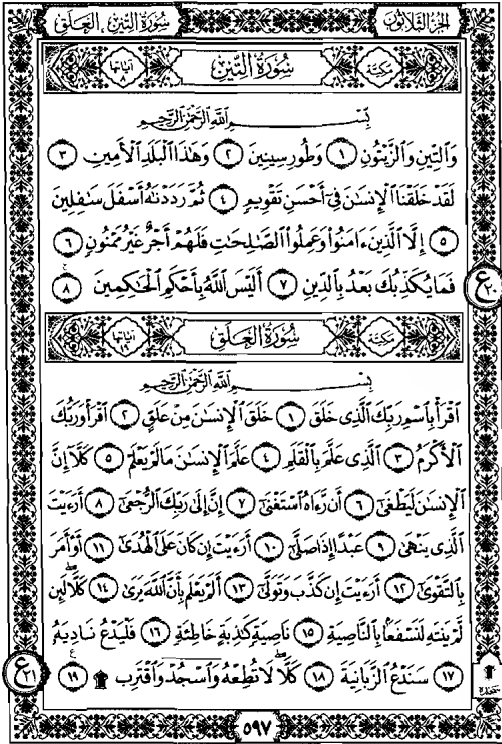
وجد عسر وصعوبة؛ فإن اليسر يقارنه ويصاحبه، حتى لو دخل العسر جحر ضب لدخل عليه اليسر، فأخرجه.

(٦) ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ وهذا تأكيد للخبر، وتعريف ﴿الْعُسْرِ﴾ في الآيتين، يدل على أنه واحد، وتنكير

سورة الشرح

(٤-١) أخرج ابن أبي حاتم والحاكم بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «سألت ربي مسألة وددت أني لم أكن سألته، قلت: قد كان قبلي أنبياء ومنهم من سخرت له الريح، ومنهم من يحيي الموتى. قال: يا محمد ألم أجذك بيتما فأوتيتك؟ قلت: بلى يا رب قال: ألم أجذك ضالاً فهديتك؟ قلت: بلى يا رب قال: ألم أجذك عائلاً فأغنيتك؟ قال: قلت: بلى يا رب. قال: ألم أشرح لك صدرك؟ ألم أرفع لك ذكرك؟ قلت: بلى يا رب».

(٦-٥) أخرج البزار وابن عدي في «الكامل» والقضاعي في «مسند الشهاب» بإسناد صحيح لغيره عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «نزلت المعونة من السماء على قدر المؤونة، ونزل الصبر على قدر المصيبة».



سورة التين والزيتون وهي مكية

(١) ﴿وَالَّتَيْنِ﴾ هو التين المعروف، ﴿و﴾ كذلك ﴿الزيتون﴾ أقسم بهاتين الشجرتين؛ لكثرة منافع شجرهما وثمرهما، ولأن سلطانهما في أرض الشام، محل نبوة عيسى ابن مريم عليه السلام.
(٢) ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ طور سيناء، محل نبوة موسى عليه السلام.

(٣) ﴿وَهَذَا أَلْبَدُ الْأَمِينِ﴾ وهي مكة المكرمة، محل نبوة محمد عليه السلام فأقسم تعالى بهذه المواضع المقدسة، التي اختارها وابتعث منها أفضل النبوات وأشرفها.

(٤) والمقسم عليه قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ تام الخلق، متناسب الأعضاء، منتصب القامة، لم يفقد مما يحتاج إليه ظاهراً أو باطناً شيئاً، ومع هذه النعم العظيمة.

(٥) ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ فردّهم الله في أسفل سافلين؛ أي: أسفل النار، موضع العصاة المتمردين على ربهم.

(٦) ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلا من آمن بالله عليه

بالإيمان والعمل الصالح، والأخلاق الفاضلة العالية ﴿فَلَهُمْ﴾ بذلك المنازل العالية، و ﴿أَجْرٌ غَيْرٌ مَمْنُونٌ﴾ غير مقطوع، بل لذات متوافرة.

(٧) ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ بِالَّذِينَ﴾ أي: شيء يكذبك أيها الإنسان بيوم الجزاء على الأعمال.

(٨) ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعَزَّ الْخَكِيمِينَ﴾ فهل تقتضي حكمته أن يترك الخلق سدى لا يؤمرون ولا ينهون، ولا يثابون ولا يعاقبون؟

لا بد أن يعيدهم إلى دار هي مستقرهم وغايتهم، التي إليها يقصدون، ونحوها يؤمون.

سورة العلق وهي مكية

هذه السورة أول السور القرآنية نزولاً على رسول الله عليه السلام.

(١) ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ عموم الخلق.

(٢) ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ خص الإنسان، وذكر ابتداء خلقه ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ فالذي خلق الإنسان واعتنى بتدبيره لا بد أن يدبره بالأمر والنهي.

(٣) ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ كثير الصفات واسعها، كثير الكرم والإحسان، واسع الجود.

سورة التين

(١) في «الصحيحين» عن البراء بن عازب رضي الله عنه كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في سفر إحدى الركعتين بـ ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزيتون﴾ فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه.

سورة اقرأ

(١-٥) أخرج الشيخان عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حجب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه -وهو التعبد- الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فيه فقال: «اقرأ». قال: «ما أنا بقارئ»، قال: «فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ. قلت: ما أنا

(٤) ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ الخط والكتابة.

(٥) ﴿الْإِنْسَنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فإنه تعالى أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئاً، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، ويسر له أسباب العلم.

(٦) ﴿كَلَّا﴾ حقاً ﴿إِنَّ الْإِنْسَنَ لَطَغِيٍّ﴾ ليتجاوز حده ويستكبر على ربه.

(٧) ﴿أَنْ رَّاهُ اسْتَعَى﴾ إذا رأى نفسه غنياً، طغى وبغى وتجبر عن الهدى.

(٨) ﴿إِنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ ونسي أن إلى ربه الرجعى

(٩) ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ﴾ أيها الناهي.

(١٠) ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾ للعبد إذا صلى.

(١١) ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ﴾ العبد المصلي ﴿عَلَىٰ الْهَدَىٰ﴾

العلم بالحق والعمل به.

(١٢) ﴿أَوْ أَمَرَ﴾ غيره ﴿بِالْقَوَىٰ﴾ بالإخلاص والتوحيد.

(١٣) ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ﴾ الناهي بالحق، ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الأمر.

(١٤) ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ ما يعمل ويفعل؟.

(١٥) ﴿كَلَّا لَئِنْ لَّمْ يَنْهَ﴾ عما يقول ويفعل ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ لناخذن بناصيته، أخذاً عنيفاً، وهي حقيقة بذلك.

(١٦) فإنها ﴿نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ﴾ في قولها ﴿خَاطِئَةٍ﴾ في فعلها.

(١٧) ﴿فَلْيَعْبُدْ﴾ هذا الذي حق عليه العقاب

﴿نَادِيَةٍ﴾ أهل مجلسه وأصحابه ومن حوله؛

بقارئ . فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ . فقلت: ما أنا بقارئ . فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمَاءِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها فقال: «زملوني زملوني». فزملوه حتى ذهب عنه الروح، فقال لخديجة: «ما لي؟». وأخبرها الخبر، وقال: «لقد خشيت على نفسي». فقالت له خديجة: كلا، والله ما يخزيك الله أبداً، فوالله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وهو ابن عم خديجة، أخي أبيها، وكان امرأً قد تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي! ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى. فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حيّاً إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ «أو مخرجي هم؟» قال نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي - وفي رواية: أودي - وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزراً. ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي.

(٦-١٨) أخرج مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقبل: نعم، فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطئن على رقبته، أو لأعفرن وجهه في التراب، قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي زعم ليطأ على رقبته، قال: فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه، قال: فقبل له: ما لك؟ قال: إن بيني وبينه لخدقاً من نار، وهولاً، وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً» قال: فأنزل الله ﷻ لا ندرى في حديث أبي هريرة أم شيء بلغه: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَنَ لَطَغِيٍّ ۝١ أَنْ رَّاهُ اسْتَعَى ۝٢ إِنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ۝٣ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ۝٤ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٥ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ۝٦ كَلَّا لَئِنْ لَّمْ يَنْهَ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۝٧ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝٨ فَلْيَعْبُدْ رَبَّاهُ ۝٩ قُلُوبُهُ لَرْيَاةٍ ۝١٠ كَلَّا لَا تَطَّعُ ۝١١﴾

(١٧-١٨) أخرج الترمذي والنسائي في «التفسير» وأحمد وابنه في «الزوائد» والطبري بإسناد صحيح: عن عبد الله بن عباس رضى الله عنه -

(١٨) ﴿سَنَدُّ الرِّبَايَةَ﴾ خزنة جهنم؛ لأخذه وعقوبته .

(١٩) ﴿كَلَّا لَا تُطِغُهُ﴾ فإنه لا يأمر إلا بما فيه خسارة السدارين ﴿وَأَسْجُدْ﴾ لربك ﴿وَأَقْرَبْ﴾ منه في السجود .

سورة القدر وهي مكية

(١) ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ ؛ أي: القرآن الكريم ﴿فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ ابتداءً بإنزاله في رمضان في ليلة القدر، ورحم الله بها العباد رحمة عامة، لا يقدر العباد لها شكرًا .

(٢) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ فإن شأنها جليل، وخطرها عظيم .

(٣) ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ تعادل من فضلها ألف شهر .



ليعينوه على ما نزل به .

قال: كان النبي ﷺ يصلي؛ فجاء أبو جهل فقال: ألم أنهك عن هذا؟ ألم أنهك عن هذا؟ ألم أنهك عن هذا؟ فانصرف النبي ﷺ فزبره . فقال أبو جهل: إنك لتعلم ما بها ناد أكثر مني، فأنزل الله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّهُمْ﴾ (١٧) ﴿سَنَدُّ الرِّبَايَةَ﴾ . فقال ابن عباس: فوالله لو دعا ناديه؛ لأخذته زبانية الله .

(١٩) أخرج الطبري وعبد الرزاق في «تفسيرهما» بإسناد صحيح عن قتادة ﴿كَلَّا لَا تُطِغُهُ وَأَسْجُدْ وَأَقْرَبْ﴾ ذكر لنا أنها نزلت على أبي جهل، قال: لئن رأيت محمداً يصلي، لأطأن عنقه، فأنزل الله: ﴿كَلَّا لَا تُطِغُهُ وَأَسْجُدْ وَأَقْرَبْ﴾ قال نبي الله ﷺ حين بلغه الذي قال أبو جهل، قال: «لو فعل؛ لاحتطفت الزبانية»

قال أبو أسامة الهلالي -عفا الله عنه-: وهو مرسل، لكنه صحيح بشواهده .

وأخرج مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ؛ فَأَكْثَرُوا الدَّعَاءَ» .

سورة القدر

(١) أخرج الطبري وابن الضريس في «فضائل القرآن» بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنْزَلَ اللَّهُ الْقُرْآنَ جُمْلَةً وَاحِدَةً مِنَ الْوَلُوحِ الْمَحْفُوظِ إِلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ مِنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ نَزَلَ مُفَصَّلًا بِحَسَبِ الْوَقَائِعِ فِي ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ» .

(٣) أخرج أحمد والنسائي بإسناد صحيح عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «قَدْ جَاءَكُمْ شَهْرُ رَمَضَانَ، شَهْرُ مَبَارَكٍ، افترض الله عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب الجنة، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتغل فيه الشياطين، فيه ليلة خير من ألف شهر، من حرم خيرها؛ فقد حرم» .

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا؛ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ» .

تهدي إلى الحق، وإلى صراط مستقيم.
(٤) ﴿وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ فإنهم ما تفرقوا واختلّفوا وصاروا أحزاباً ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ التي توجب لأهلها الاجتماع والاتفاق.

(٥) ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ قاصدين بجميع عباداتهم الظاهرة والباطنة وجه الله، وطلب الزلفى لديه ﴿خُفَّاءَ﴾ معرضين مائلين عن سائر الأديان المخالفة لدين التوحيد ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ وخص الصلاة والزكاة بالذكر؛ لفضلهما وشرفهما، وكونهما العبادتين اللتين من قام بهما قام بجميع شرائع الدين.

﴿وَذَلِكَ﴾ التوحيد والإخلاص في الدين، هو ﴿دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ الدين المستقيم.

(٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ قد أحاط بهم عذابها، واشتد عليهم عقابها ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يفتر عنهم العذاب، وهم فيها مبلسون ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ لأنهم عرفوا الحق وتركوه، وخسروا الدنيا والآخرة.

(٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمُ

(٤) ﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ﴾ جبريل عليه السلام ﴿فِيهَا﴾ يكثر نزولهم فيها ﴿يَاذُنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ بكل أمر من الخير والبركة.

(٥) ﴿سَلَّمَ هِيَ﴾ سالمة من كل آفة وشر، وذلك لكثرة خيرها ﴿حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ مبتدأها من غروب الشمس ومنتهاها طلوع الفجر.

سورة البينة وهي مدنية

(١) ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ من اليهود والنصارى ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ من سائر أصناف الأمم ﴿مُنْفِكِينَ﴾ عن كفرهم وضلالهم الذي هم عليه؛ أي: لا يزالون في غيهم وضلالهم، لا يزيدهم مرور السنين إلا كفرًا ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ الواضحة، والبرهان الساطع.

(٢) ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أرسله الله، يدعو الناس إلى الحق ﴿يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ محفوظة عن قربان الشياطين، لا يمسها إلا المطهرون؛ لأنها في أعلى ما يكون من الكلام.

(٣) ولهذا قال عنها: ﴿فِيهَا﴾ في تلك الصحف ﴿كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ أخبار صادقة، وأوامر عادلة:

(٤) أخرج أحمد والطبرسي وابن خزيمة بإسناد حسن: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليلة القدر ليلة سابعة أو تاسعة وعشرين، إن الملائكة تلك الليلة في الأرض أكثر من عدد الحصى».

(٥) أخرج الطبرسي وابن خزيمة والبيهقي في «الشعب» بإسناد حسن: عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر: «ليلة سمحة طلقة، لا حالة ولا باردة، وتصبح شمس صبيحتها ضعيفة حمراء».

سورة البينة

(١) أخرج الشيخان عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لأبي بن كعب: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾». قال: «وسماني لك؟ قال: «نعم». فيكى.

(٧) أخرج الإمام أحمد بإسناد صحيح لغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بخير البرية؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «رجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله، كلما كانت هيعة استوى عليه. ألا أخبركم بخير البرية؟» قالوا: بلى =

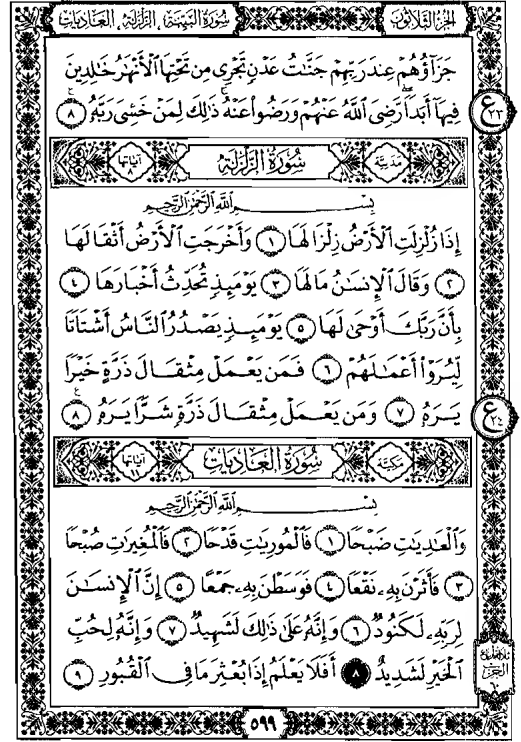
لا ظعن فيها ولا رحيل، ولا طلب لغاية فوقها ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ فرضي عنهم بما قاموا به من مرضيه، ورضوا عنه بما أعد لهم من أنواع الكرامات وجزيل المثوبات ﴿ذَلِكَ﴾ الجزاء الحسن ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ لمن خاف الله، فأحجم عن معاصيه، وقام بواجباته.

سورة إذا زلزلت وهي مدنية

(١) ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ أن الأرض تنزلزل وترجف وترتج، حتى يسقط ما عليها من بناء ومعلم.

(٢) ﴿وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ ما في بطنها، من الأموات والكنوز.

(٣) ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ﴾ إذا رأى ما عراها من الأمر



خَيْرِ الْبَرِيَّةِ ﴿لأنهم عبدوا الله وعرفوه، وفازوا بنعيم الدنيا والآخرة.

(٨) ﴿جَزَاءُهمْ عِنْدَ رَبِّهمْ جَنَّاتٌ إِقامه،

يا رسول الله. قال: «رجل في ثلة من غنمه، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة. ألا أخبركم بشر البرية؟» قالوا: بلى، قال: «الذي يسأل بالله، ولا يعطى به».

سورة الزلزلة

(١) أخرج الطبري والواحدي في «أسباب النزول» وابن أبي الدنيا في «الرقعة والبكاء» والطبراني في «الكبير» والبيهقي في «الشعب» بإسناد حسن عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه : أنه قال: أنزلت ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ وأبو بكر الصديق قاعد، فبكى حين أنزلت، فقال له رسوله الله ﷺ: «ما يبكيك يا أبا بكر؟» قال: يبكي هذه السورة، فقال له رسول الله ﷺ: «لولا أنكم تخطئون وتذنبون؛ فيغفر الله لكم لخلق الله أمة يخطئون ويذنبون؛ فيغفر لهم».

(٢) أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه : قال: قال رسول الله ﷺ: «تقي الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوانة من الذهب والفضة؛ فيجىء القتاتل، فيقول: في هذا قتلت. ويجىء القاطع؛ فيقول: في هذا قطعت رحمي. ويجىء السارق؛ فيقول: في هذا قطعت يدي. ثم يدعونه؛ فلا يأخذون منه شيئاً».

(٣) أخرج الترمذي وأحمد بإسناد حسن لشواهد عن أبي هريرة رضي الله عنه : قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُخْبِتُ أَخْبَارَهَا﴾ قال: «أتدرون ما أخبارها؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإن أخبارها: أن تشهد على كل عبد بما عمل على ظهرها، تقول: عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا».

سورة العاديات
وهي مكية

- (١) أقسم الله تبارك وتعالى بالخيول؛ فقال: ﴿وَالْعَادِيَاتِ﴾ العاديات عدواً بليغاً قوياً ﴿ضَبِحًا﴾ يصدر عنه الضبح؛ وهو: صوت نفسها في صدرها، عند اشتداد العدو.
- (٢) ﴿فَالْمُورِيَّتِ﴾ بحوافرهن ما يطأن عليه من الأحجار ﴿فَدَحًا﴾ تقدح النار من صلابة حوافرهن وقوتهن إذا عدون.
- (٣) ﴿فَالْمُغِيرَاتِ﴾ على الأعداء ﴿صَبْحًا﴾ وهذا أمر أغلبي: أن الغارة تكون صباحاً
- (٤) ﴿فَأَتَرْنَ بِهِ﴾ بعدوهن وغارتهن ﴿نَفْعًا﴾ غباراً
- (٥) ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ﴾ براكبهن ﴿جَمْعًا﴾ توسطن به جموع الأعداء، الذين أغار عليهم.
- (٦) والمقسم عليه قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ لمنوع للخير الذي عليه لربه.
- (٧) ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ فيه الوعيد والتهديد الشديد، لمن هو لربه كنود، بأن الله عليه شهيد.
- (٨) ﴿وَإِنَّهُ﴾ الإنسان ﴿لِيَحْبِيَ الْخَيْرَ﴾ المال ﴿لَشَدِيدٌ﴾ كثير الحب للمال.

العظيم مستعظماً لذلك: ﴿مَا لَهَا﴾ أي: أي شيء عرض لها؟.

(٤) ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ﴾ الأرض ﴿أَخْبَارَهَا﴾ تشهد على العاملين بما عملوا على ظهرها من خير وشر؛

(٥) ﴿يَا أَيُّهَا رَبِّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أي: أمرها أن تخبر بما عمل عليها؛ فلا تعصى لأمره.

(٦) ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ﴾ من موقف القيامة، حين يقضي الله بينهم ﴿أَشْتَاتًا﴾ فرقاً متفاوتين ﴿لِيُرَوْا أَعْمَلُهُمْ﴾ ليربهم الله ما عملوا من الحسنات والسيئات، ويربهم جزاءه موفراً.

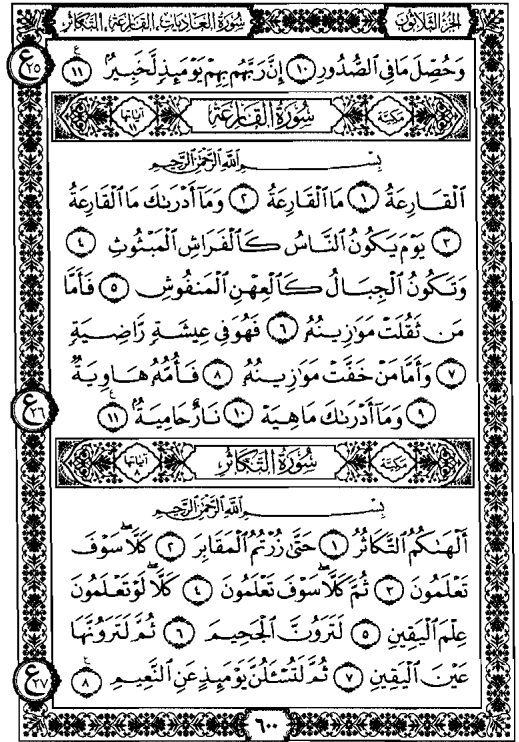
(٧) ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ثوابها وجزاءها عند الله.

(٨) ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ عقوبتها.

وهذا شامل عام للخير والشر كله؛ لأنه إذا رأى مثقال الذرة، التي هي أحقر الأشياء، وجوزي عليها؛ فما فوق ذلك من باب أولى وأحرى. وهذه الآية فيها غاية الترغيب في فعل الخير، ولو قليلاً، والترهيب من فعل الشر ولو حقيراً.

- (٧، ٨) أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الخيول لثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر؛ فأما الذي له أجر، فرجل ربطها في سبيل الله، فأطال طيلها في مرج أو روضة، فما أصابت في طيلها ذلك في المرج والروضة كان له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستتت شرقاً أو شرفين، كانت آثارها وأرواثها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقي به كان ذلك حسنات له، وهي لذلك الرجل أجر، ورجل ربطها تغنياً وتعففاً، ولم ينس حق الله في رقابها وظهورها؛ فهي له ستر، ورجل ربطها فخراً ورياء ونواء؛ فهي على ذلك وزر» فسئل رسول الله ﷺ عن الحمُر؛ فقال: «ما أنزل الله فيها شيئاً إلا هذه الآية الفاذة الجامعة: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ».

سورة القارعة
وهي مكية



- (١) ﴿الْقَارِعَةُ﴾ من أسماء يوم القيامة.
- (٢)، (٣) ﴿مَا الْقَارِعَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ زيادة في تهويل أمرها وتعظيمه.
- (٤) ثم فسر ذلك بقوله: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ﴾ من شدة الفزع والهول ﴿كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ كالجراد المنتشر، تهافتت إليها؛ لضعف إدراكها فهذه حال الناس أهل العقول ﴿وَيَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ كالصوف المنفوش.
- (٦) ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ رجحت حسناته على سيئاته.
- (٧) ﴿نَهْوٍ فِي عَيْشِهِ رَاضٍ﴾ في جنات النعيم.
- (٨) ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ بأن لم تكن له حسنات تقاوم سيئاته.
- (٩) ﴿فَأَمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ فأم دماغه هاوية في النار، يلقي في النار على رأسه.
- (١٠) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ﴾ وهذا تعظيم لأمرها.
- (١١) ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ شديدة الحرارة.

- (٩) ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ هلا يعلم هذا المغتر ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ أخرج الله الأموات من قبورهم؛ لحشرهم ونشورهم.
- (١٠) ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ ظهر وبان ما فيها وما استتر في الصدور من كمائن الخير والشر؛ فصار السر علانية، والباطن ظاهراً.
- (١١) ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ مطلع على أعمالهم الظاهرة والباطنة، الخفية والجلية، ومجازيهم عليها.

سورة القارعة

- (١) أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « اشتكت النار إلى ربيها ؛ فقالت : يا رب ، أكل بعضي بعضاً . فأذن لها بنفسين : نفس في الشتاء ، ونفس في الصيف ؛ فأشد ما تجدون في الشتاء بردها ، وأشد ما تجدون في الصيف حرها . »

سورة التكاثر
وهي مكية

(٣) ﴿كَلَّا﴾ ليس الأمر بالتكاثر ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وعيد لهم .

(٤) ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ كرهه تأكيداً، والمعنى: سوف تعلمون عاقبة تكاثركم وتفاخركم إذا نزل بكم الموت .

(٥) ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ أي: لو تعلمون ما أمامكم علماً يصل إلى القلوب، لما ألهاكم التكاثر، ولبادرتهم إلى الأعمال الصالحة .

(٦) ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ لتردن القيامة، فلترون الجحيم التي أعدها الله للكافرين .

(٧) ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ رؤية بصرية .

(٨) ﴿ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ الذي تنعمتم به في دار الدنيا .

(١) ﴿أَلْهَكُمُ﴾ عن ذلك المذكور ﴿التَّكَاثُرُ﴾ ولم يذكر المتكاثر به؛ ليشمل ذلك كل ما يتكاثر به المتكاثرون، ويفتخر به المفتخرون؛ من التكاثر في الأموال، والأولاد، والأنصار، والجنود، والخدم، والجاه، وغير ذلك .

(٢) ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ فأنكشف لكم حينئذ الغطاء، ولكن بعد ما تعذر عليكم استنفاه . ودل قوله: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾: أن البرزخ دار مقصود منها النفوذ إلى الدار الباقية، ومنها استدل العلماء على عذاب القبر ونعيمه .

سورة ألهاكم التكاثر

(١) في «صحيح البخاري» عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: كنا نرى هذا في القرآن، حتى نزلت: ﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ . قال الحافظ ابن حجر رحمته الله «قوله: «هذا» لم يبين ما أشار إليه بقوله: «هذا»، وقد بينه الإسماعيلي من طريق موسى بن إسماعيل عن حماد بن سلمة، ولفظه: «كنا نرى هذا في القرآن (لو أن لابن آدم واديين لمتنى وادياً ثالثاً)» .

وأخرج مسلم وأحمد -واللفظ له- عن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: «﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ يقول ابن آدم: ما لي ما لي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنت؛ أو لبست فأبليت؛ أو تصدقت؛ فأمضيت»

(٨) أخرج أحمد بإسناد صحيح عن أبي عسيب -يعني مولى رسول الله ﷺ قال: خرج رسول الله ﷺ فمر بي، فدعاني فخرجت إليه، ثم مر بأبي بكر فدعاه فخرج إليه، ثم مر بعمر فدعاه فخرج إليه، فانطلق حتى أتى حائطاً لبعض الأنصار، فقال لصاحب الحائط: «أطعمنا». فجاء بعدق فوضعه، فأكل رسول الله ﷺ وأصحابه، ثم دعا بماء بارد فشرب، وقال: «لستلن عن هذا يوم القيامة». قال: فأخذ عمر العدق فضرب به الأرض، حتى تناثر البسر قبل رسول الله ﷺ ثم قال: يا رسول الله، إنا لمستولون عن هذا يوم القيامة؟ قال: «نعم، إلا من ثلاثة: خرقه لف بها الرجل عورته، أو كسرة سد بها جوعته، أو جحر تدخل فيه من الحر والقر» .

وأخرج أحمد بإسناد صحيح لغيره عن محمود بن لبيد رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ فقرأ حتى بلغ: ﴿لَتَسْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ قالوا: يا رسول الله، أي نعيم نسأل؟ وإنما هما الأسودان: الماء والتمر، وسيوفنا على رقابنا، والعدو حاضر، فعن أي نعيم نسأل؟ قال: «أما إن ذلك سيكون» .

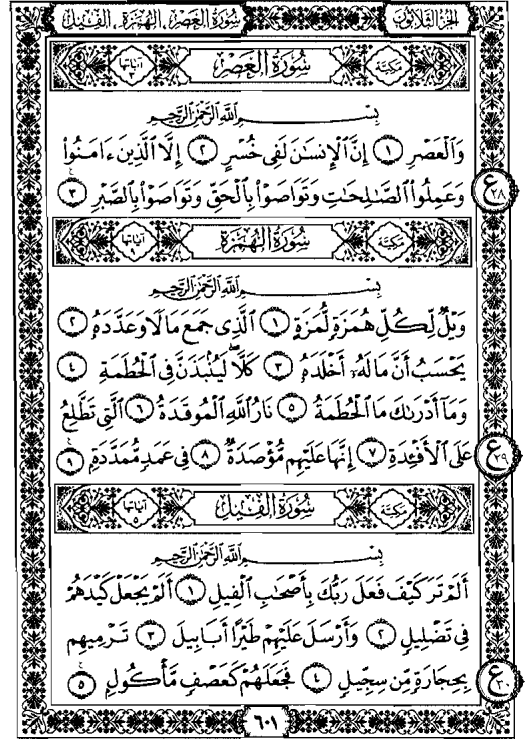
وأخرج مسلم عن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟ قالوا: الجوع يا رسول الله. قال: «وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما قوموا» فقاموا معه، فأتى رجلاً من الأنصار. فإذا هو ليس في بيته. فلما رآته المرأة قالت: مرحباً وأهلاً، فقال لها رسول الله ﷺ: «أين فلان؟» =

سورة العصر وهي مكية

(١) ﴿وَالْعَصْرِ﴾ أقسم تعالى بالعصر، الذي هو: الليل والنهار، محل أفعال العباد وأعمالهم.

(٢) ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾ أي: كل إنسان خاسر، والخاسر ضد الرابح، والخسار مراتب متعددة متفاوتة: فقد يكون خساراً مطلقاً، كحال من خسر الدنيا والآخرة، وقد يكون خساراً من بعض الوجوه دون بعض، إلا من اتصف بأربع صفات: ولهذا عمم الله الخسار لكل إنسان.

(٣) ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ الإيمان بما أمر الله بالإيمان به، ولا يكون الإيمان بدون العلم، فهو فرع عنه لا يتم إلا به، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ والعمل الصالح، وهذا شامل لأفعال الخير كلها، الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله وحق عباده،



قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء. إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبه، ثم قال: الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيقاً مني. قال: فانطلق فجاهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب، فقال: كلوا من هذه، وأخذ المدينة. فقال له رسول الله ﷺ: «إياك والحلوب» فذبح لهم؛ فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق، وشربوا فلما أن شبعوا ورووا، قال رسول الله ﷺ: لأبي بكر وعمر: «والذي نفسي بيده، لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم».

وأخرج الترمذي بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إن أول ما يسأل عنه - يعني يوم القيامة - العبد من النعيم: أن يقال له: ألم نصح لك جسمك، ونروك من الماء البارد؟!».

وأخرج البخاري في «الأدب المفرد» وأحمد وابن ماجه بإسناد صحيح: عن يسار بن عبد الله الجهني قال: كنا في مجلس؛ فطلع علينا النبي ﷺ وعلى رأسه أثر ماء، فقلنا: يا رسول الله، نراك طيب النفس. قال: «أجل»، قال: ثم خاض الناس في ذكر الغنى، فقال رسول الله ﷺ: «لا بأس بالغنى لمن اتقى الله، والصحة لمن اتقى الله خير من الغنى، وطيب النفس من النعيم».

سورة العصر

(١) أخرج الطبراني في «الأوسط» والبيهقي في «الشعب» بإسناد صحيح: عن أبي مدينة رضى الله عنه قال: كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يتفرقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها، ثم يسلم أحدهما على الآخر.

- (٤) ﴿لَا لِيُبَدِّلَ﴾ ليطرحن ﴿فِي الْخَطْمَةِ﴾ اسم من أسماء النار؛ لأنها تحطم من فيها.
- (٥) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخَطْمَةُ﴾ تعظيم لها، وتهويل لشأنها.
- (٦) ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ التي وقودها الناس والحجارة.
- (٧) ﴿الَّتِي﴾ من شدتها ﴿تَطْلُعُ عَلَى الْأَقْدَمَةِ﴾ تنفذ من الأجسام إلى القلوب.
- (٨) ﴿إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ﴾ مغلقة.
- (٩) ﴿فِي عَمْرٍ﴾ من خلف الأبواب ﴿مُمدَّدة﴾ لئلا يخرجوا منها.

سورة الفيل وهي مكية

- (١) ﴿أَلَمْ تَرَ﴾؛ أي: أما رأيت من قدرة الله وعظيم شأنه، ورحمته بعباده، وأدلة توحيده، وصدق رسوله محمد ﷺ ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ ما فعله الله ﴿بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ وهم الأحباش النصارى بقيادة أبرهة الأشرم الذين أرادوا هدم البيت الحرام وإخراجه، واستصحبوا من الفيلة لهدمه.
- (٢) ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمُ﴾ الذين كادوا بيته الحرام وأرادوا إخراجه ﴿فِي تَضَلُّلٍ﴾ عما أرادوا، وأضل كيدهم حتى لم يصلوا إلى الكعبة.
- (٣) ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾؛ أي: أرسل الله عليهم طيرًا متفرقة؛ تحمل حجارة محماة من

الواجبة والمستحبة، ﴿وَتَوَّاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ والتواصي بالحق، الذي هو الإيمان والعمل الصالح؛ أي: يوصي بعضهم بعضًا بذلك، ويحثه عليه، ويرغبه فيه ﴿وَتَوَّاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ والتواصي بالصبر على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقدار الله المؤلمة.

فبالأميرين الأوليين يكمل الإنسان نفسه، وبالأميرين الآخرين يكمل غيره، وبتكميل الأمور الأربعة يكون الإنسان قد سلم من الخسار، وفاز بالربح العظيم؛ ولذلك قال الشافعي رحمه الله: لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم.

سورة الهزرة وهي مكية

- (١) ﴿وَيْلٌ﴾ وعيد ووبال وشدة عذاب ﴿لِكُلِّ هُمْزَةٍ﴾ الهماز: الذي يعيب الناس، ويطعن عليهم بالإشارة والفعل ﴿لَمْزَةٍ﴾ اللمز: الذي يعيبهم بقوله.
- (٢) ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ أي: أنه لا هم له سوى جمع المال وتعليده والغبطة به، وليس له رغبة في إنفاقه في طرق الخيرات وصلة الأرحام، ونحو ذلك.
- (٣) ﴿يَحْسَبُ﴾ بجهله ﴿أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ في الدنيا.

سورة الفيل

- (١) أخرج البزار والحاكم والبيهقي في «الدلائل» وابن حبان في «الثقات» وابن سعد في «الطبقات» وابن عساكر بإسناد صحيح لغيره: عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما: ولد النبي ﷺ عام الفيل.
- (٢) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة: «إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين، وإنه قد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، ألا فليبلغ الشاهد الغائب».

بالسورة التي قبلها؛ أي: فعلنا ما فعلنا بأصحاب
الفيل لأجل قريش وأمنهم، واستقامة مصالحهم.

(٢) ﴿رَحَلَهُ الشِّتَاءُ﴾ وانتظام رحلتهم في الشتاء
لليمن ﴿وَالصَّيْفُ﴾ للشم؛ لأجل التجارة
والمكاسب، فأهلك الله من أرادهم بسوء،
وعظم أمر الحرم وأهله في قلوب العرب.

(٣) ولهذا أمرهم الله بالشكر فقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا
رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾؛ أي: ليوحده ويخلصوا له
العبادة.

(٤) ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّن
خَوْفٍ﴾ فرغد الرزق والأمن من المخاوف:
من أكبر النعم الدنيوية، الموجبة لشكر الله
تعالى.

سورة الماعون وهي مكية

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْبَيْتِ﴾ بالبعث
والجزاء؛ فلا يؤمن بما جاءت به الرسل.
(٢) ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾؛ أي:
يدفعه بعنف وشدة ولا يرحمه؛ لقساوة قلبه،
ولأنه لا يرجو ثواباً، ولا يخشى عقاباً.
(٣) ﴿وَلَا يَحْضُ﴾ غيره ﴿عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ ومن
باب أولى أنه بنفسه لا يطعم المسكين.



سجّل.

(٤) ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ فرمتهم بها،
وتتبع قاصيهم ودانيهم.
(٥) ﴿فَجَعَلَهُم كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ فخدموا وهمدوا
وصاروا كزرع وتبن أكلته الدواب وكفى الله
شُرهم.

سورة قريش وهي مكية

(١) ﴿لَا يَلْفُ قَرِيشٍ﴾ الجار والمجرور متعلق

سورة قريش

(١) أخرج البخاري في «التاريخ الكبير» والآجري في «الشرعة» والطبراني وابن عدي والحاكم والبيهقي في «الخلافيات» بإسناد
حسن لغيره عن أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «فضل الله قريشاً لسبع خلال: أئني منهم، وأن
النبوة فيهم، والحجابه والسقاية فيهم، وأن الله نصرهم على الفيل، وأنهم عبدوا الله عشر سنين لا يعبد غيره، وأن
الله أنزل فيهم سورة في القرآن» ثم تلا رسول الله: ﴿لَا يَلْفُ قَرِيشٍ﴾ السورة.

الماعون، فكيف بما هو أكثر منه.

سورة الكوثر
وهي مكية

(٤) ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ الملتزمون لإقامة الصلاة.

(٥) ولكنهم ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ مضيعون لها، تاركون لوقتها، مفوتون لأركانها، والسهو عن الصلاة هو الذي يستحق صاحبه الذم واللوم، وأما السهو في الصلاة؛ فهذا يقع من كل أحد حتى من النبي ﷺ.

(٦) ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ يعملون الأعمال لأجل رثاء الناس.

(٧) ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ يمنعون إعطاء الشيء، الذي لا يضر إعطاؤه على وجه العارية، أو الهبة؛ كالإناء، والدلو، والفأس، ونحو ذلك، مما جرت العادة ببذلها والسماحة به، فهؤلاء -لشدة حرصهم- يمنعون

سورة الماعون

(٥) أخرج مسلم عن العلاء بن عبد الرحمن: أنه دخل على أنس بن مالك رضي الله عنه في داره بالبصرة حين انصرف من الظهر، وداره بجنب المسجد، فلما دخلنا عليه قال: أصليتم العصر؟ فقلنا له: إنما انصرفنا ساعة من الظهر، قال: فصلوا العصر، فقمنا فصلينا، فلما انصرفنا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: تلك صلاة المنافق؛ يجلس يرقب الشمس، حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقرها أربعا، لا يذكر الله فيها إلا قليلا.

(٦) أخرج أحمد بإسناد صحيح: عن عمرو بن مرة قال: كنا جلوسا عند أبي عبيدة، فذكروا الرياء، فقال: رجل يكتن بأبي يزيد: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: قال رسول الله ﷺ: «من سمع الناس بعمله، سمع الله به سامع خلقه، وحفره وصغره».

(٧) أخرج أبو داود والنسائي بإسناد حسن: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كل معروف صدقة، وكنا نعد الماعون على عهد رسول الله ﷺ عارية الدلو والقدر.

سورة الكوثر

(١) أخرج مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا في المسجد إذا أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه مبتسما، قلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «أنزلت عليّ آفا سورة». فقرأ: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾.

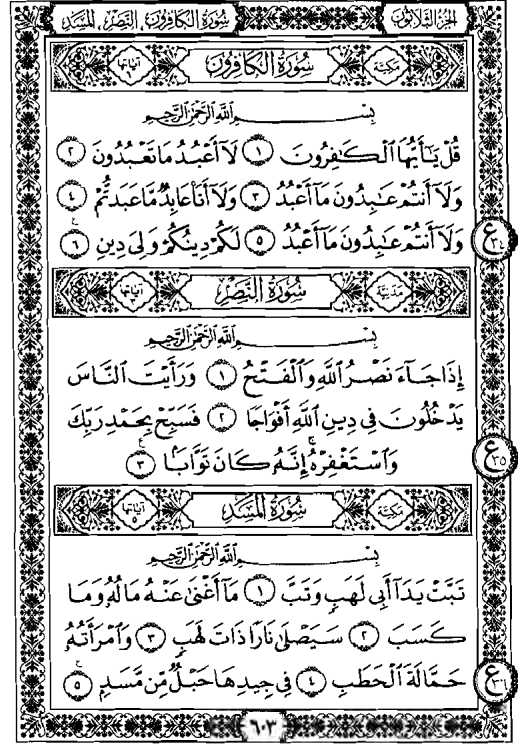
ثم قال: «أتدرون ما الكوثر؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنه نهر وعدنيه ربي ﷻ عليه خير كثير، هو حوضي، ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم؛ فيختلج العبد منهم، فأقول: رب إنه من أمتي، فيقول: إنك لا تدري ما أحدث بعدك».

واجعل ذبح المناسك له دون الأوثان. خص هاتين العبادتين بالذكر؛ لأنهما من أفضل العبادات وأجل القربات.

(٣) ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ مبغضك وذامك ومنتقصك ﴿هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ المقطوع من كل خير، مقطوع العمل، مقطوع الذكر.

سورة الكافرون

- (١) ﴿قُلْ يَتَّيْبُهَا الْكَافِرُونَ﴾؛ أي: قل للكافرين معلناً ومصرحاً.
- (٢) ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ يعني: من الأصنام والأنداد.
- (٣) ﴿وَلَا أُنْشِدُ عِبِيدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ وهو الله وحده لا شريك له؛ (ما) هاهنا بمعنى (من).
- (٤) ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾؛ أي: ولا أعبد عبادتكم، أي: لا أسلكها ولا أقتدي بها، وإنما



- (٢) ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ اجعل صلاتك كلها لربك خالصاً دون ما سواه من الأنوار ﴿وَأَنْحَرْ﴾

(٢) أخرج الشيخان عن البراء بن عازب رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «من صلى صلاتنا ونسك نسكتنا، فقد أصاب النسك، ومن نسك قبل الصلاة، فلا نسك له». فقام أبو بردة بن نيار، فقال: يا رسول الله، إن نسكت شاتي قبل الصلاة، وعرفت أن اليوم يوم يشتهي فيه اللحم. قال: «شانتك شاة لحم». قال: فإن عندي عناقاً هي أحب إلي من شاتين، أفتجزئ عني؟ قال: «تجزئك، ولا تجزئ أحداً بعدك».

(٣) أخرج النسائي في «تفسيره» وابن حبان والبخاري والطبري بإسناد صحيح: عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: لما قدم كعب بن الأشرف مكة، قالت له قريش: أنت خير أهل المدينة وسيدهم؟ قال: نعم. قالوا: ألا ترى إلى هذا المنبر من قومه يزعم أنه خير منا؟ ونحن؛ يعني: أهل الحجيج وأهل السدانة، قال: أنتم خير منه. فتزلت: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾.

سورة الكافرون

- (١) في صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قرأ بـ ﴿قُلْ يَتَّيْبُهَا الْكَافِرُونَ﴾ وبـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ في ركعتي الطواف. وعنده أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر.
- وأخرج أحمد وابن حبان بإسناد صحيح: عن فروة بن نوفل بن معاوية عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال له: «هل لك في ربيبة تكفلها؟». قال: أراها زينب - قال: ثم جاء فسأله النبي ﷺ قال: «ما فعلت الجارية؟» قال: تركتها عند أمها. قال: «ما جاء بك؟» قال: جئت لتعلمني شيئاً أقوله عند منامي، قال: «اقرأ قُلْ يَتَّيْبُهَا الْكَافِرُونَ» ثم نم على خاتمتها، فإنها براءة من الشرك».

سورة النصر
وهي مدنية

(١) ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ في هذه السورة الكريمة بشارة، وأمر لرسوله عند حصولها، وإشارة وتنبية على ما يترتب على ذلك: فالبشارة هي البشارة بنصر الله لرسوله، وفتحه مكة ودخول الناس في دين الله أفواجا.

(٢) ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ بحيث يكون كثير منهم من أهله وأنصاره ودخول

عبد الله على الوجه الذي يحبه ويرضاه؛ ولهذا قال:

(٥) ﴿وَلَا أَنْتُمْ عِبْدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾؛ أي: لا تقتدون بأوامر الله وشرعه في عبادته؛ بل قد اخترعتم شيئا من تلقاء أنفسكم.

(٦) ولهذا ميز بين الفريقين، وفصل بين الطائفتين، فقال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ الشرك ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ الإسلام.

سورة النصر

(١) في صحيح مسلم عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال: قال لي ابن عباس: يا ابن عتبة أتعلم آخر سورة من القرآن نزلت؟ قلت: نعم ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، قال: صدقت.

وأخرج البخاري عن عبد الله بن عباس؛ قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر؛ فكان بعضهم وجد في نفسه، فقال: لم يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه ممن علمتم، فدعاهم ذات يوم، فأدخله معهم، فما رؤيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليربهم، فقال: ما تقولون في قول الله ﷻ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئا، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له، قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فذلك علامة أجل ﴿فَسَيَحْمَدُ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرُكَ إِنَّكَ كَانَ نَوَّابًا﴾ فقال عمر بن الخطاب: لا أعلم منها إلا ما تقول.

وأخرج الطبراني بإسناد صحيح لغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لما نزلت ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ حتى ختم السورة، قال: نُعيت لرسول الله ﷺ نفسه حين نزلت، قال: فأخذ بأشد ما كان اجتهدا في أمر الآخرة، وقال رسول الله ﷺ بعد ذلك: «جاء الفتح وجاء نصر الله، وجاء أهل اليمن» فقال رجل يا رسول الله، وما أهل اليمن؟ قال: «قوم رقيقة قلوبهم، لينة قلوبهم، الإيمان يمان، والفقه يمان».

وأخرج أحمد والطبراني والحاكم بإسناد صحيح لغيره: عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال لما نزلت هذه السورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قرأها رسول الله ﷺ حتى ختمها قال: «الناس حيز، وأنا وأصحابي حيز». وقال: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية» فقال له مروان: كذبت. وعنده رافع بن خديج وزيد بن ثابت قاعدان معه على السرير، فقال أبو سعيد: لو شاء هذان لحذاك، ولكن هذا يخاف أن تنزعه عن عرافة قومه، وهذا يخشى أن تنزعه عن الصدقة. فهرع مروان عليه الدرة؛ ليضربه فلما رآها ذلك قال: صدق.

(٢) أخرج الشيخان عن عائشة رضى الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي» يتأول القرآن.

وأخرج مسلم عن مسروق قال: قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يكثر في آخر أمره من قول: «سبحان الله وبحمده أستغفر

سورة المسد وهي مكية

(١) ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ أبو لهب واسمه عبد العزى، وكان شديد العداوة والأذية له، فلا فيه دين ولا حمية للقرابة، قبحه الله، فذمه الله بهذا الذم العظيم، الذي هو خزي عليه يوم القيامة؛ فقال: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾؛ أي: خسرت يده، وشقى ﴿وَتَبَّ﴾ فلم يريح.

(٢) ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ﴾ الذي كان عنده وأطغاه ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ ولا ما كسبه فلم يرد عنه شيئاً من عذاب الله إذ نزل به.

(٣) ﴿سَجَّيْلًا نَّارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ ستحيط به النار من كل جانب.

الناس في دين الله أفواجاً.

(٣) وأما الأمر بعد حصول النصر والفتح: ﴿فَسَيَحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرُهُ إِنَّهُمْ كَانَ تَوَّابًا﴾ فأمر رسوله أن يشكر ربه على ذلك، ويسبح بحمده ويستغفره.

وأما الإشارة، فإن في ذلك إشارتين: إشارة لأن يستمر النصر لهذا الدين ويزداد عند حصول التسبيح بحمد الله واستغفاره من رسوله، وأن الإشارة الثانية فهي الإشارة إلى أن أجل رسول الله ﷺ قد قرب ودنا، وقد عهد أن الأمور الفاضلة تختم بالاستغفار، كالصلاة والحج، وغير ذلك فأمر الله لرسوله بالحمد والاستغفار في هذه الحال، فليستعد ويتهيأ للقاء ربه، ويختم عمره بأفضل ما يجده صلوات الله وسلامه عليه.

الله وأتوب إليه»، وقال: «إن ربي كان أخبرني أنني سأرى علامة في أمتي، وأمرني إذا رأيته أن أسبح بحمده وأستغفره، وأنه كان تواباً، فقد رأيته: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَيَحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرُهُ إِنَّهُمْ كَانَ تَوَّابًا﴾.

وأخرج ابن جرير بإسناد صحيح عن أم سلمة قالت: كان رسول الله ﷺ في آخر أمره لا يقوم ولا يقعد، ولا يذهب لا يجيء إلا قال: «سبحان الله وبحمده» فقلت: يا رسول الله، إنك تكثر من «سبحان الله وبحمده» لا تذهب ولا تجيء، ولا تقوم ولا تقعد، إلا قلت: «سبحان الله وبحمده»؟ قال: «إني أمرت بها». فقال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إلى آخر السورة.

سورة المسد

(١) أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن عباس ؓ: أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء، فصعد الجبل، فنادى: «يا صباحاه!» فاجتمعت إليه فريش، فقال: «أرايتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم وممسيكم أكنتم تصدقوني؟» قالوا: نعم. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب عليه لعنة الله للنبي ﷺ: تباً لك سائر اليوم؛ ألهذا جمعنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾.

أخرج أحمد بإسناد جيد عن ربيعة بنت عباد من بني الدليل، وكان جاهلياً؛ فأسلم، قال: رأيت النبي في الجاهلية في سوق ذي المجاز، وهو يقول: «يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» والناس مجتمعون عليه، وراءه رجل وضياء الوجه، أحول ذو غديرتين، يقول: إنه صابئ كاذب، يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه فقالوا: هذا عمه أبو لهب.

(٤) هو ﴿وَأَمَّا تُمْ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ وكانت أيضاً شديدة الأذية لرسول الله ﷺ، وتعاون هي وزوجها على الإثم والعدوان وتسعى غاية ما تقدر على أذية رسول الله ﷺ وتجمع على ظهرها من الأوزار بمنزلة من يجمع حطباً

(٥) ﴿فِي جِيدِهَا﴾ قد أعدت لها في عنقها حبلاً ﴿مِّن مَّسَدٍ﴾ من ليف، أو أنها تحمل في النار والحطب على زوجها، متقلدة في عنقها حبلاً من مسد.

سورة الإخلاص
وهي مكية

(١) ﴿قُلْ﴾ قولاً جازماً به، معتقداً له، عارفاً بمعناه ﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ قد انحصرت فيه الأحدية، فهو الأحد المنفرد بالكمال.

سُورَةُ الْاِنْفَالِ ٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① اللَّهُ الصَّمَدُ ② لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ③ وَلَمْ يَكُنْ لَهٗ كُفُوًا أَحَدٌ ④

سُورَةُ الْبَقَرَةِ ٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ① مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ② وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ④ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ⑤

سُورَةُ النَّاسِ ١٠٠


بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ① مَلِكِ النَّاسِ ② إِلَهِ النَّاسِ ③ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَفِيِّ ④ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ⑤ مِنَ الْغِيَةِ وَالنَّاسِ ⑥

٦٠٤

(٤) أخرج البزار وأبو يعلى وابن حبان بإسناد حسن لغيره عن ابن عباس قال لما نزلت ﴿بَشِّرْ بِمَا فِي لَهَبٍ﴾ جاءت امرأة أبي لهب ورسول الله ﷺ جالس، ومعه أبو بكر فقال له أبو بكر: لو تنحيت لا تؤذيك بشيء. فقال رسول الله ﷺ: «إنه سيحال بيني وبينها» فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر فقالت: يا أبا بكر هجانا صاحبك، فقال أبو بكر: لا ورب هذه البنية ما ينطق بالشعر ولا يتفوه به. فقالت: إنك لمصدق، فلما قال أبو بكر ﷺ: ما رأيتك؟ قال: «لا ما زال ملك يسترني حتى ولت».

سورة الإخلاص

(١) أخرج أحمد والترمذي بإسناد حسن عن أبي بن كعب رضي الله عنه: أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: انصب لنا ربك. فأنزل الله ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾  أَنَّهُ الْوَاحِدُ فالصمد: الذي لم يلد ولم يولد؛ لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، ولا شيء يموت إلا سيورث، وإن الله ﷻ لا يموت ولا يرث ﴿لَمْ يَكُنِ لَهُ يَمِينٌ وَلَا يُعَادِلُ﴾ قال: لم يكن له شبيهه ولا عدل وليس كمثله شيء.

وأخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : «احشدوا؛ فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن» فحشد من حشد ثم خرج نبي الله ﷺ فقرأ : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثم دخل ، فقال بعضا لبعض : قال رسول الله ﷺ : «فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن» إني لأرى هذا خبراً من السماء ، ثم خرج نبي الله ﷺ فقال : «إني سأقرأ عليكم ثلث القرآن ، ألا وإنها تعدل ثلث القرآن» .

وأخرج مالك والترمذي والنسائي بإسناد صحيح عن عبيد بن حنين؛ قال: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول: أقبلت مع النبي ﷺ فسمع رجلاً يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «وجب» قلت: وما وجبت؟ قال: «الجنة».

أخرج البخاري عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ يث رجلاً على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ =

(٢) ﴿اللَّهُ أَكْبَرُ﴾ المقصود في جميع الحوائج، فأهل العالم العلوي والسفلي

أَكْبَرُ﴾ فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: «سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟» فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها. فقال النبي ﷺ: «أخبروه؛ أن الله تعالى يحبه».

وأخرج البخاري عن أنس رضي الله عنه؛ قال: كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء، فكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به، افتتح بـ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَكْبَرُ﴾ حتى يفرغ منها، ثم كان يقرأ سورة أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعة، فكلّمه أصحابه فقالوا: إنك تفتتح بهذه السورة، ثم لا ترى أنها تجزئك حتى تقرأ بالأخرى؟ فإما أن تقرأ بها وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى، فقال: ما أنا بباركها، إن أحببت أن أؤمكم بذلك فعلت، وإن كرهتم تركتكم. وكانوا يرون أنه من أفضلهم، وكرهوا أن يؤمهم غيره. فلما أتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر، فقال: «يا فلان، ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك، وما حملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة؟» قال: إني أحبها. قال: «حبك إياها أدخلك الجنة».

وأخرج البخاري عن أبي سعيد: أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَكْبَرُ﴾ يرددها، فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ فذكر ذلك له، وكان الرجل يتقالتها، فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنها لتعدل ثلث القرآن».

أخرج أبو داود والترمذي والنسائي بإسناد جيد عن معاذ بن عبد الله بن خبيب، عن أبيه؛ قال: أصابنا طش وظلمة، فانتظرنا رسول الله ﷺ يصلي بنا، فخرج فأخذ بيدي، فقال: «قل» قلت: ما أقول؟ قال: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَكْبَرُ﴾ والمعوذتين حين تسمى وحين تصبح ثلاثاً تكفك كل يوم مرتين».

أخرج أحمد بإسناد حسن لغيره عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه عن رسول الله ﷺ؛ قال: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَكْبَرُ﴾ حتى يخطمها عشر مرات بنى الله له قصرًا في الجنة» فقال عمر: إذا نستكثر يا رسول الله فقال ﷺ: «الله أكثر وأطيب».

أخرج النسائي في «الكبرى» وأبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد بإسناد صحيح عن عبد الله بن بريدة عن أبيه: أنه دخل مع رسول الله ﷺ المسجد فإذا رجل يصلي يدعو يقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أن لا إله إلا أنت، الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. قال: «والذي نفسي بيده: لقد سأله بأسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب».

وأخرج الترمذي وأحمد بإسناد صحيح لغيره عن عقبة بن عامر رضي الله عنه؛ قال: لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته فأخذت بيده؛ فقلت: يا رسول الله، بم نجاة المؤمن؟ قال: «يا عقبة، أحرص لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك» قال: ثم لقيني رسول الله ﷺ فابتدأني، فأخذ بيدي فقال: «يا عقبة بن عامر، ألا أعلمك خير ثلاث سور أنزلت في التوراة والإنجيل والزبور والقرآن العظيم؟» قال: قلت: بلى جعلني الله فداك. قال: فأقراؤني: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَكْبَرُ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ثم قال يا : عقبة لا تسهن ولا تبث ليلة حتى تقرأهن قال: فما نسيتها منذ قال: لا تسهن، وما بت ليلة قط حتى أقرأهن، قال: عقبة ثم لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته فأخذت بيده فقلت: يا رسول الله! أخبرني بفواضل الأعمال. فقال: «يا عقبة صل من قطعك، واعط من حرمك، وأعرض عن ظلمك».

وأخرج البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه، ثم نفث فيهما: وقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَكْبَرُ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده؛ يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات.

سورة الفلق
وهي مكية

- (١) ﴿قُلْ﴾ متعوذاً ﴿أَعُوذُ﴾ ألجأ وألوذ واعتصم
﴿بِرَبِّ أَلْفَلَقِ﴾ فالق الحب والنوى، وفالق
الإصباح
(٢) ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ وهذا يشمل جميع ما
خلق الله من إنس، وجن، وحيوانات؛ فيستعاذ
بخالقها من الشر الذي فيها.

مفتقرون إليه غاية الافتقار.

- (٣) ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُؤَلِّدْ﴾ لكمال غناه.
(٤) ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ لا في
أسمائه، ولا في أوصافه، ولا في أفعاله،
تبارك وتعالى.

وأخرج البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ؛ قال: «قال الله ﷻ: كذبتني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، أما تكذبيه إياي؛ فقلوه: لن يعيدني كما بدأتي. وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي؛ فقلوه: اتخذ الله ولداً. وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد».

المعوذتان

أخرج مسلم عن عقبة بن عامر رضى الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط؟» ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ أَلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾. وفي رواية: «أنزل أو أنزلت علي آيات لم ير مثلهن قط المعوذتين». وأخرج الشيخان عن عائشة رضى الله عنها، قالت: سحر رسول الله ﷺ يهودي من يهود بني زريق، يقال له: لبيد بن الأعصم، قالت: حتى كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله، حتى إذا كان ذات يوم - أو ذات ليلة - وهو عندي، دعا رسول الله ﷺ ثم دعا ثم دعا، ثم قال: «يا عائشة! أشعرت أن الله قد أفانني فيما استفتيته فيه؟ أتاني رجلان، ففعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للذي عند رجلي أو الذي عند رجلي للذي عند رأسي - ما وجع الرجل؟ فقال: مطبوب، قال: من طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم، قال: في أي شيء؟ قال: في مشط ومشاطة، وجف طلع نخلة ذكر، قال: وأين هو؟ قال: في بئر ذي أروان (وفي رواية: ذروان)؛ قالت: فأثاه رسول الله ﷺ في أناس من أصحابه، فجاء فقال: «يا عائشة والله لكان ماءها نقاعة الحناء، وكان رءوس نخلها الشياطين»، قالت: فقلت: يا رسول الله! أفلا استخرجته؟ (وفي رواية: أفلا أحرقتة) قال: لا، أما أنا فقد عافاني الله، وكرهت أن أثير على الناس فيه شراً؛ فأمرت بها فدفنت».

أخرج أحمد والنسائي بإسناد صحيح عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: بينا أنا أقود برسول الله ﷺ في نقب من تلك النقاب؛ إذ قال لي: «يا عقبة، ألا تركب؟» قال: فأجللت رسول الله ﷺ أن أركب مركبه، ثم قال: «يا عقيب، ألا تركب؟» قال: فأشفقت أن تكون معصية. قال: فنزل رسول الله ﷺ وركبت هنيهة، ثم ركب، ثم قال: «يا عقيب، ألا أعلمك سورتين من خير سورتين قرأ بهما الناس؟» قلت: بلى يا رسول الله. فأقرأني: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ أَلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ثم أقيمت الصلاة، فتقدم رسول الله ﷺ فقرأ بهما، ثم مر بي، فقال: «كيف رأيت يا عقيب أقرأ بهما كلما نمت وكلما قممت».

- (٢) ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ ومالكهم .
 (٣) ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ وإلههم .
 (٤) ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾ من الشيطان الذي هو أصل الشرور كلها ومادتها، فإذا غفل العبد وسوس إليه ﴿الْخَنَّاسِ﴾ الذي إذا ذكر الله خنس .
 (٥) ﴿الَّذِي يُوسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ ؛ أي : أنه يوسوس في صدور الناس ؛ فيحسن لهم الشر، ويريههم إياه في صورة حسنة، وينشط إرادتهم لفعله، ويقبح لهم الخير ويثبطهم عنه، ويريههم إياه في صورة غير صورته .
 (٦) والوسواس الخناس كما يكون من الجن يكون من الإنس ؛ ولهذا قال : ﴿مِنْ أَلْحَنَ﴾ شياطين الجن ﴿وَالنَّاسِ﴾ شياطين الإنس .

* * *

- (٣) ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ من شر ما يكون في الليل، حين يغشى الناس، وتنتشر فيه كثير من الأرواح الشريرة، والحيوانات المؤذية .
 (٤) ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ ومن شر السواحر: اللاتي يستعان على سحرهن بالنفث في العقد، التي يعقدنها على السحر .
 (٥) ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ والحاسد هو الذي يحب زوال النعمة عن المحسود؛ فيسعى في زوالها بما يقدر عليه من الأسباب، فاحتيج إلى الاستعاذة بالله من شره، وإبطال كيده، ويدخل في الحاسد العاين، فهذه السورة تضمنت الاستعاذة من جميع أنواع الشرور، عموماً وخصوصاً .

سورة الناس وهي مدنية

- (١) ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ هذه السورة مشتملة على الاستعاذة برب الناس

سورة الفلق

- (٣) أخرج أحمد والترمذي والنسائي في «الكبرى» بإسناد صحيح عن عائشة ؓ ؛ قالت : أخذ رسول الله ﷺ بيدي ؛ فأراني القمر حين طلع، وقال : «تعوذني بالله من شر هذا الغاسق إذا وقب» .

سورة الناس

- (٤) أخرج الإمام أحمد بإسناد صحيح عن أبي تيممة يحدث عن رديف رسول الله ﷺ قال : عثر بالنبي ﷺ حماره فقلت : تعس الشيطان، فقال النبي ﷺ : « لا تقل : تعس الشيطان ؛ فإنك إذا قلت : تعس الشيطان، تعظم، وقال : بقوتي صرعه . وإذا قلت : باسم الله، تصاغر حتى يصير مثل الذباب» .
 (٥) أخرج أبو داود والنسائي في «الكبرى» وأحمد بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس ؓ ؛ قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله، إني أحدث نفسي بالشيء لأن آخر من السماء أحب إلي من أن أتكلم به . قال : فقال النبي ﷺ : «الله أكبر الله أكبر، الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة» .

فهرس أسماء السور

٧١٠ سورة القصص	٥ مقدمة
٧٢٧ سورة العنكبوت	١٠ سورة الفاتحة
٧٤٠ سورة الروم	١١ سورة البقرة
٧٥٠ سورة لقمان	١١٦ سورة آل عمران
٧٥٨ سورة السجدة	١٦٣ سورة النساء
٧٦٤ سورة الأحزاب	٢٢٦ سورة المائدة
٧٨٣ سورة سبأ	٢٧٠ سورة الأنعام
٧٩٣ سورة فاطر	٣١٤ سورة الأعراف
٨٠٤ سورة يس	٣٥٣ سورة الأنفال
٨١٤ سورة الصافات	٣٦٨ سورة براءة
٨٢٧ سورة ص	٣٩٩ سورة يونس
٨٣٨ سورة الزمر	٤٢٠ سورة هود
٨٥٤ سورة المؤمن (غافر)	٤٤٠ سورة يوسف
٨٧٠ سورة فصلت	٤٦١ سورة الرعد
٨٨١ سورة الشورى	٤٧٢ سورة إبراهيم
٨٩٣ سورة الزخرف	٤٨٢ سورة الحجر
٩٠٥ سورة الدخان	٤٩٣ سورة النحل
٩١١ سورة الجاثية	٥١٦ سورة الإسراء
٩١٦ سورة الأحقاف	٥٣٩ سورة الكهف
٩٢٤ سورة محمد	٥٦١ سورة مريم
٩٣٣ سورة الفتح	٥٧٧ سورة طه
٩٤١ سورة الحجرات	٦٠٢ سورة الأنبياء
٩٤٨ سورة ق	٦٢٢ سورة الحج
٩٥٤ سورة الذاريات	٦٣٨ سورة المؤمنون
٩٦٠ سورة الطور	٦٥١ سورة النور
٩٦٦ سورة النجم	٦٦٨ سورة الفرقان
٩٧٤ سورة القمر	٦٧٩ سورة الشعراء
٩٨١ سورة الرحمن	٦٩٦ سورة النمل

سورة الطارق	١١٠٤	سورة الواقعة	٩٨٨
سورة الأعلى	١١٠٥	سورة الحديد	٩٩٨
سورة الغاشية	١١٠٦	سورة المجادلة	١٠٠٩
سورة الفجر	١١٠٩	سورة الحشر	١٠١٥
سورة لا أقسم (البلد)	١١١١	سورة الممتحنة	١٠٢٣
سورة والشمس وضحاها	١١١٣	سورة الصف	١٠٢٨
سورة والليل	١١١٤	سورة الجمعة	١٠٣٢
سورة والضحي	١١١٦	سورة المنافقين	١٠٣٥
سورة الشرح	١١١٨	سورة التغابن	١٠٣٧
سورة والتين	١١١٩	الطلاق	١٠٤١
سورة العلق	١١١٩	سورة التحريم	١٠٤٥
سورة القدر	١١٢١	سورة الملك	١٠٤٩
سورة البينة	١١٢٢	سورة ن	١٠٥٣
سورة إذا زلزلت	١١٢٣	سورة الحاقة	١٠٥٧
سورة العاديات	١١٢٤	سورة المعارج	١٠٦١
سورة القارعة	١١٢٥	سورة نوح	١٠٦٤
سورة التكاثر	١١٢٦	سورة الجن	١٠٦٧
سورة العصر	١١٢٧	سورة المزمل	١٠٧٠
سورة الهمة	١١٢٨	سورة المدثر	١٠٧٣
سورة الفيل	١١٢٨	سورة القيامة	١٠٧٧
سورة قريش	١١٢٩	سورة الإنسان	١٠٧٩
سورة الماعون	١١٢٩	سورة المرسلات	١٠٨٢
سورة الكوثر	١١٣٠	سورة النبأ	١٠٨٦
سورة الكافرون	١١٣١	سورة النازعات	١٠٨٨
سورة النصر	١١٣٢	سورة عبس	١٠٩١
سورة المسد	١١٣٣	سورة التكويز	١٠٩٣
سورة الإخلاص	١١٣٤	سورة الانفطار	١٠٩٦
سورة الفلق	١١٣٦	سورة المطففين	١٠٩٧
سورة الناس	١١٣٧	سورة الانشقاق	١١٠٠
		سورة البروج	١١٠١

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

www.moswarat.com

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com